

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مُحْتَصِرًا

تَفْسِيرُ ابْنِ كَثِيرٍ

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: "إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّذِينَ هُمْ أَقْوَمُ"

وَنُزِّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ..
"البصائر"

وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ:

"أَشْرَافُ أُمَّتِي حَمَلَةُ الْقُرْآنِ" "التمذجية"

"مَنْ قَرَأَ حَرْفًا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ فَلَهُ حَسَنَةٌ وَحَسَنَةٌ وَحَسَنَةٌ بَعْشَرٌ
أَمْثَالُهَا، لَا أَقُولُ الْم حَرْفٌ، وَلَكِنْ أَلِفٌ حَرْفٌ وَوَاوٌ حَرْفٌ
وَمِيمٌ حَرْفٌ." "البصائر"

اقْرَأُوا الْقُرْآنَ فَإِنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَفِيعًا لِأَصْحَابِهِ
"البصائر"

إِلَى كُلِّ مُؤْمِنٍ وَمُؤْمِنَةٍ..

يُرِيدُ الْعَادَةَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فِي الْآخِرَةِ..

أَهْدِي كِتَابَ اللَّهِ وَتَفْسِيرَهُ..

لِيَكُونَ عَوْنًا عَلَى فَرْضِ الْقُرْآنِ وَالْعَمَلِ بِهِ..

وَقَدْ قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ:

"تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا إِنْ تَمَسَّكُمْ بِهِ لَنْ تَصَلُّوا بَعْدِي أَبَدًا
كِتَابَ اللَّهِ وَسُنَّتِي." "تنوع عليه"

السَّيِّدُ حَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ شَرِيفِي

الطبعة السابعة
(منقحة)

جميع الحقوق محفوظة

١٤٠٢ هـ = ١٩٨١ م

طُبِعَ عَلَى نَفَقَتِهِ
المحسِن الكبير
معالي السيد حسن عباس الشربتلي
ويجعله وقفاً لله تعالى
فجزاه الله كل خير
يوزع مجاناً ولا يُباع

مختصر

تفسير ابن كثير

مختصر لتفسير الإمام الجليل الحافظ عماد الدين
أبي الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي المتوفى ٧٧٤هـ

المجلد الأول

اختصار وتحقيق

محمد علي الصابوني

أستاذ التفسير بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية
مكتبة الكرامة جامعة الملك عبد العزيز

دار القرآن الكريم

بيروت

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ
يَتَفَكَّرُونَ﴾

الآية ٤٤ سورة النحل

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنَهُ
لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾

الآية ١٨٧ سورة آل عمران

« صَدَقَ اللَّهُ الْعَظِيمُ »

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

كلمة الناس

إنَّ الحمد لله نحمده ونستعين به ونستغفره ، ونعوذ به من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، ونسأله تبارك وتعالى الثبات على الحقِّ والعون على كل خير ، وصلى الله وسلَّم على سيِّدنا محمد وعلى آله وأصحابه ومن دعا بدعوته وقام بخدمة الكتاب الكريم الذي أنزل عليه وسنته الشريفة إلى يوم الدين .

أما بعد : فقد عشتُ مع تفسير القرآن العظيم للعلامة الجليل الإمام ابن كثير رحمه الله تعالى سنين طويلة منذ كنت طالباً في المرحلة الثانوية وما زلت أعود إليه وأعيش في رحابه الطيبة أتزوّد منه بخير الزاد حتى ألفتته وأحببته وبالرغم من ذلك فقد كان يعتريني بعض الملل والتعب مما فيه من الاطالة في ذكر الأسانيد والشواهد اللغوية والتكرار في الروايات وتفصيل أمور لا يستفيد منها إلا فئة مخصوصة من العلماء والباحثين ، والذي كان وما يزال يعينني من صحبة هذا التفسير العظيم الذي وصفه الإمام السيوطي بقوله : « لم يؤلف على نمطه مثله » ، إنما هو فهم كلام الله تعالى فهماً صحيحاً سليماً وهذا المطلب الذي يقصده عامّة المثقفين والقراء لا يحتاج لذلك التطويل والتكرار والتفصيل . فتمنيت منذ ذلك الوقت لو يقوم أحد العلماء المختصين باختصار هذا التفسير الذي لا تنهم بالمبالغة لو وصفناه بأنه أفضل التفاسير وأوثقها أو على الأقل من أوثقها وأفضلها صحةً وأسلوباً وأستيعاباً .

وقد حملني ذلك على البدء بالقيام باختصاره لنفسي وحالت المشاغل دون المضي فيه حتى وفقنا الله تعالى لتأسيس دار القرآن الكريم وهي دار متخصصة تقف جهودها وتقتصره على خدمة القرآن الكريم وعلومه ونشر هدايته بتبسيط علوم القرآن وثقافته وتيسيرها بأسلوب شيق جذاب لتعم الفائدة بها أكبر عدد من الناس .. فكان العمل على إخراج هذا التفسير العظيم لابن كثير مختصراً ميسراً محققاً بالأسلوب الذي أشار إليه فضيلة الأستاذ الشيخ الصابوني في مقدمته هو أول عمل أحببت دار القرآن الكريم أن تستهل به أعمالها في خدمة القرآن الكريم وتقريبه إلى أفهام الناس جميعاً .

ولهذا تم الاتفاق للقيام بهذا العمل مع فضيلة الأستاذ الشيخ محمد علي الصابوني أستاذ مادة التفسير بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية بمكة المكرمة ، وهو عالم متخصص غني عن التعريف أمضى زمناً طويلاً في صحبة كتاب الله المجيد حفظاً ودرساً وتديساً ، تفسيراً وبحثاً وتأليفاً ، وقد كان فضيلته يشعر بضرورة هذا العمل وحاجة الناس إليه فقام به خير قيام واستغرق فيه وقتاً طويلاً حتى بلغ به غاية المطلوب اختصاراً وتحقيقاً وربطاً للكلام بعد حذف ما لا ضرورة له لغير المتخصصين ، وشرح الضروري من الكلمات الغريبة على القارئ اليوم .

وقامت دار القرآن الكريم بإعداده وترتيبه للطبع بأسلوب يتمشى مع التقدم العصري لفن الطباعة والاخراج فقسمت مواضعه إلى فقرات بحسب الحاجة ، وبذلت جهداً كبيراً في التصحيح وغير ذلك من الأمور الفنية فكانت حصيداً ذلك هذه الطبعة الأولى لهذا المختصر المفيد آملين أن يعم الانتفاع به ، والله تعالى نسأل أن يجعل عملنا هذا موصولاً به ، مقبولاً عنده ، وأن يسدّد خطانا ويوفقنا للاستمرار في شرف خدمة كتابه المجيد ونشر هدايته وعلومه في كل مكان والله من وراء القصد .

والحمد لله رب العالمين

محمد بسام الاسطواني
المديرة العام

غرة رجب ١٣٩٣ هـ

الموافق ٣٠ تموز ١٩٧٣ م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

إن الحمد لله نحمده، ونستعين به ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، وسيئات أعمالنا، من يهد الله فلا مضل له، ومن يضل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، أنزل كتابه الكريم بالحجة الدامغة، والبرهان الناصع، موعظة وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله المنزل عليه: ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه، نجوم الهدى، وشموس العلم والعرفان، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين، وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد: فقد قبض الله - جل ثناؤه - لكتابه العزيز علماء أتقياء، ومخلصين أوفياء، من أعلام الهدى، وأئمة الصلاح والدين، سهروا على خدمة القرآن العظيم، وبذلوا قصارى جهدهم لتوضيح معانيه، وبيان أسراره، وكشف دقائقه، واستخراج ما فيه من حكم وأسرار، وما احتوى عليه من روائع وعجائب، فكان منهم من سلك طريق الإيجاز، ومنهم من سلك طريق الإسهاب والإطناب، ومنهم من اقتصر على التفسير بالمأثور، ومنهم من جمع بين (الرواية والدراية)، إلى غير ما هنالك من طرائق المفسرين وأساليبهم في القديم والحديث.

ولقد كان الإمام العلامة، الحافظ الثبت الثقة أبو الفداء (إسماعيل بن كثير^(١)) المتوفى سنة /٧٧٤/ هجرية في مقدمة هؤلاء الأئمة الأعلام من جهابذة المفسرين، وقد وضع تفسيراً للكتاب الكريم سماه (تفسير القرآن العظيم) وتفسيره هذا من خير كتب التفسير بالمأثور ومن أوثقها، وهو تفسير جامع بين (الرواية) و (الدراية) .. يفسر القرآن بالقرآن، ثم بالأحاديث المشهورة في دواوين السنة المطهرة بأسانيدھا، ويتكلم على الأسانيد جرحاً وتعديلاً، فيبين ما فيها من صحيح وضعيف، وغريب أو شاذ، ثم يذكر آثار الصحابة والتابعين، قال السيوطي فيه: « لم يؤلف على نمطه مثله ». وقد وضَّح ابن كثير رحمه الله في مقدمة تفسيره هذا المنهج الذي سلكه في تفسيره فقال: « فإن قال قائل: فما أحسن طرق التفسير؟ فالجواب: أن أصح الطرق في ذلك أن يفسر القرآن بالقرآن. فما أجمل في مكان، فإنه قد بسط في موضع آخر، فإن أعياك ذلك فعليك بالسنة، فإنها شارحة للقرآن وموضحة له، بل قد قال الإمام الشافعي رحمه الله تعالى: كل ما حكم به رسول الله ﷺ فهو مما فهمه من القرآن.

(١) تنظر ترجمة المؤلف في كتاب (المنهل الصافي) للمؤرخ الشهير جمال الدين المعروف بابن تغري، وكتاب (الدرر الكامنة) للحافظ ابن حجر العسقلاني، و (ذيل التذكرة) للحافظ أبي المحاسن الحسيني، و (شذرات الذهب في أخبار من ذهب) لعبد الحي بن العماد الحنبلي، و (كشف الظنون) لحاجي خليفة، و (الرد الوافر) لابن ناصر الدين دمشقي.

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ ﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿ وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذي اختلفوا فيه وهدى ورحمة لقوم يؤمنون ﴾ وقال تعالى: ﴿ وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون ﴾ .

ولهذا قال رسول الله ﷺ: « ألا أني أوتيت القرآن ومثله معه » يعني السنة، والسنة أيضاً تنزل عليه بالوحي، كما ينزل القرآن، إلا أنها لا تتلى كما يتلى القرآن، والغرض أنك تطلب تفسير القرآن منه، فإن لم تجده فن السنة، فإذا لم نجد التفسير في القرآن ولا في السنة، رجعنا في ذلك إلى أقوال الصحابة، فإنهم أدري بذلك لما شاهدوا من القرائن والأحوال التي اقتصوا بها، ولما لم من الفهم التام، والعلم الصحيح، والعمل الصالح، لا سيما علماؤهم وكبرائهم، كالأئمة الأربعة الخلفاء الراشدين، والأئمة المهتدين المهديين، وعبدالله بن مسعود، وعبدالله بن عباس ابن عم رسول الله ﷺ رضي الله عنهم أجمعين^(١) .

وإننا لنجد في عصرنا الحاضر ميل الناس إلى التزود من الثقافة الدينية، ولا سيما تفسير الكتاب الكريم، والسنة النبوية المطهرة، وكثيراً ما يسأل الإنسان: أي التفاسير أسهل منالاً، وأجدي فائدة للقارئ في الزمن القليل؟ فيقف المرء واجماً حائراً لا يجد جواباً عن سؤال السائل، علماً بأن كتب التفسير - والله الحمد - كثيرة، وفيها فوائد جمّة، ودرر متناثرة، وأسرار دينية عظيمة، ولكنها قد حشيت بالكثير من مصطلحات الفنون: من بلاغة، ونحو، وصرف، وفقه، وأصول، وغير ذلك مما كان عقبة كأداء، أمام العامة من القراء، لذلك دعت الحاجة الماسة إلى تذليل هذه الصعاب، وتيسير فهم القرآن العظيم على عامة الناس، بسلوك منهج السهولة والسلاسة، وقد أشار علينا بعض الاخوة الفضلاء ومنهم الأخ الكريم المدير العام لدار القرآن الكريم باختصار تفسير العلامة (ابن كثير) نظراً لفائدته الجمّة، وما امتاز به عن بقية التفاسير، من تفسير القرآن بالقرآن، ثم بالسنة المطهرة، ثم بأقوال الصحابة والتابعين، مع وضوح العبارة وسهولتها، وجمعه بين التفسير بالمأثور، والتفسير بالمعقول، وقد سبقت معنا كلمة الإمام السيوطي رحمه الله: « لم يؤلف على نمطه مثله » وهي كلمة جديرة بالتدبر والاعتبار .

ولما كان تفسير العلامة ابن كثير رحمه الله - على ما فيه من مزايا كريمة - لا ينتفع منه إلا الخاصة من العلماء، وذلك بسبب ما فيه من تطويل وتفصيل لأمر لا حاجة لذكرها، وبخاصة عند ذكر الآثار المروية، والأسانيد للأحاديث الشريفة، مع أن معظمها في كتب الصحاح، وكذلك الكلام على هذه الأسانيد بالجرح والتعديل، وما فيه من خلافات فقهية لا ضرورة لذكرها، مما يجعل الفائدة منه قاصرة على فئة مخصوصة من طلبة العلم الشرعي .

لذلك فقد عزمنا النية على اختصاره، وتنقيته من الشوائب، استجابة للرغبة الملحة من إخواننا الأفاضل وبتكليف من « دار القرآن الكريم » ليعمّ به النفع، وتحقق منه الفائدة المرجوة، علماً بأن اختصاره لا يعني أننا أغفلنا شطره، وحذفنا كثيراً منه، بل إن ما فعلناه لا يعدو أن يكون حذفاً لا ضرورة له، من الروايات المكررة، والأسانيد المطولة، والآثار الضعيفة، والأحكام التي لا حاجة لها، وبقي روح التفسير كما هو، بثوبه القشيب، وجماله الناصع،

وأسلوبه السهل الميسر، مع تمام الترابط والانسجام .

طريقة الاختصار :

وقد سلكت في منهج الاختصار لهذا التفسير الطريقة التالية أذكرها بإيجاز وهي :

أولاً : حذف الأسانيد المطولة والاختصار على ذكر راوي الحديث من الصحابة، والإشارة في هامش الصفحة إلى من خرّج الحديث مثل البخاري ومسلم وغيرهما .

ثانياً : الآيات الكريمة التي استشهد بها المؤلف رحمه الله، على طريقته في تفسير القرآن بالقرآن، أثبتناها مع الاختصار على مكان الشاهد منها، لأنه هو الغرض الأصلي من ذكرها، ولم نذكرها كاملة إذ يكفي الإشارة إليها لفهم المقصود .

ثالثاً : الاختصار على الأحاديث الصحيحة، وحذف الضعيف منها، وحذف ما لم يثبت سنده من الروايات المأثورة، مما نبّه عليه الشيخ ابن كثير رحمه الله .

رابعاً : ذكر أشهر الصحابة عند التفسير بالمأثور، كذكر ابن عباس وابن مسعود وغيرهما من الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين، مع تثبيت أصح الروايات المنقولة عنهم .

خامساً : الاعتماد على أقوال مشاهير التابعين، المنقولة آراؤهم نقلاً صحيحاً وعدم ذكر جميع أقوال التابعين، لأن في بعضها ضعفاً - كما في سائر الروايات - وفيها الغث والسمين، لذلك فقد اعتمدنا على أصحابها وأجمعها وأرجحها، وضرّبنا صفحاً عن ذكر سائرها للأسباب التي ذكرناها .

سادساً : حذف الروايات الإسرائيلية، سواء كان غرض المؤلف الرد عليها، أو الاستشهاد بها على سبيل الاستثناس لا على سبيل القطع واليقين، إذ في الآثار الصحيحة ما يغني عن الاستشهاد بالروايات الإسرائيلية .

سابعاً : حذف ما لا ضرورة له من الأحكام والخلافات الفقهية، والاختصار على الضروري منها دون حشو أو تطويل .

ولا يفوتني - وأنا أكتب هذه المقدمة الموجزة على تفسير العلامة ابن كثير - أن أتقدم بالشثناء العاطر ، والشكر الجزيل، لدار القرآن الكريم على جهودها المشكورة في نشر وطبع هذا التفسير القيم، والإشراف على تصحيحه، وترتيبه، وتبويبه، وإخراجه بهذا الشكل الجميل، الذي أرجو أن ينال إعجاب السادة القراء .

والله أسأل أن ينفع به المسلمين، وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم، ويبقيه ذخراً لي يوم الدين ﴿ يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم ﴾ وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

محمد علي الصّابوني

أستاذ التفسير بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية
مكة المكرمة - جامعة الملك عبد العزيز

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة تفسير ابن كثير

قال الشيخ الحافظ (عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن كثير) رحمه الله تعالى ورضي عنه :

الحمد لله الذي افتتح كتابه بالحمد فقال: ﴿الحمد لله رب العالمين﴾ وافتتح خلقه بالحمد فقال: ﴿الحمد لله الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور﴾ واختتمه بالحمد فقال بعد ذكر مآل أهل الجنة وأهل النار: ﴿وقضي بينهم بالحق﴾ وقيل الحمد لله رب العالمين ﴿فله الحمد في الأولى والآخرة، أي في جميع ما خلق وما هو خالق، هو المحمود في ذلك كله، ولهذا يلهم أهل الجنة تسيحه وتحميده كما يلهمون النفس ﴿دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام﴾، وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين .

والحمد لله الذي أرسل رسوله ﴿مبشرين ومُنذرينَ لئلا يكونَ للنَّاسِ على اللَّهِ حجةٌ بعد الرِّسْلِ﴾ وختمهم بالنبى الأُمى، العربي المكي، الهادي لأوضح السبل، أرسله لجميع خلقه من الإنس والجن، من لدن بعثته إلى قيام الساعة كما قال تعالى: ﴿قل يا أيها الناس إني رسولُ اللَّهِ إليكم جميعاً﴾ وقال تعالى: ﴿لأنذركم به ومن بلغ﴾ وقال رسول الله ﷺ: «بعثتُ إلى الأحمر والأسود» فهو صلوات الله وسلامه عليه رسول الله إلى جميع الثقلين: الإنس، والجن، مبلغاً لهم عن الله عز وجل ما أوحاه إليه من الكتاب العزيز ﴿الذي لا يأتيه الباطلُ من بين يديه ولا من خلفه تنزيلٌ من حكيمٍ حميد﴾ .

فالواجب على العلماء الكشف عن معاني كلام الله، وتفسير ذلك، وطلبه من مظانه، وتعلم ذلك وتعليمه كما قال تعالى: ﴿وإذ أخذَ اللَّهُ ميثاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الكتابَ لَتُبَيِّنَنَّ لِلنَّاسِ ولا تَكتمونه، فنبذوه وراء ظهورهم، واشتروا به ثمناً قليلاً، فبئس ما يشترُونَ﴾ فذمَّ الله أهل الكتاب بإعراضهم عن كتاب الله، وإقبالهم على الدنيا وجمعها .

فعلينا أن ننهي عمّا ذمهم الله تعالى به، وأن نأتمر بما أمرنا به، من تعلم كتاب الله المنزل إلينا وتعليمه، وتفهمه وتفهمه قال تعالى: ﴿ألم يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أن تَخْشَعَ قلوبهم لِذِكْرِ اللَّهِ وما نزلَ من الحقِّ﴾ ؟ الآية .

ففي ذكره تعالى لهذه الآية تنبيه على أنه تعالى كما يحيي الأرض بعد موتها كذلك يحيي القلوب بالإيمان، ويلينها بعد قسوتها من الذنوب والمعاصي، والله المؤمل المستول أن يفعل بنا هذا، إنه جواد كريم .

فإن قال قائل : فما أحسنُ طرق التفسير ؟

فالجواب : إنَّ أصح الطرق في ذلك أن يفسَّر القرآنُ بالقرآن ، فأجمل في مكانٍ فإنه قد فُسِّر في موضعٍ آخر . فإن أعياك ذلك فعليك بالسنة ، فإنها شارحة للقرآن وموضحة له قال تعالى : ﴿ وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبينَ لهم الذي اختلفوا فيه ، وهدى ورحمة لقوم يؤمنون ﴾ .

ولهذا قال رسول الله ﷺ « ألا إني أوتيتُ القرآنَ ومثلُه معه »^(١) يعني السنة المطهرة .

والغرض أنك تطلب تفسير القرآن من القرآن ، فإن لم تجده فن السنة ، وإذا لم نجد التفسير في القرآن ولا في السنة ، رجعنا في ذلك إلى أقوال الصحابة ، فإنهم أدري بذلك ، لما شاهدوا من القرائن والأحوال التي اقتصوا بها ، ولما لم من الفهم التام ، والعلم الصحيح ، والعمل الصالح ، لا سيما علماءهم وكبرائهم كالخلفاء الراشدين ، والأئمة المهتدين المهديين ، وعبدالله بن مسعود ، فقد قال ابن مسعود : « والذي لا إله غيره ، ما نزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيمن نزلت ، وأين نزلت ، ولو أعلمُ أحداً أعلمُ بكتاب الله مني تناله المطايا لأتيته »^(٢) .

وقال أبو عبد الرحمن السلمي : « حدَّثنا الذين كانوا يقرئونا أنهم كانوا يستقرئون من النبي ﷺ وكانوا إذا تعلّموا عشر آيات لم يخلّفوها حتى يعملوا بما فيها من العمل ، فتعلمنا القرآن والعمل جميعاً » .

وممن (عبدالله بن عباس) الحبرُ البحرُ ، ابن عم رسول الله ﷺ وترجمانُ القرآن ببركة دعاء رسول الله ﷺ له حيث قال : « اللهم فقّهه في الدين ، وعلمه التأويل » .

وقد قال عبدالله بن مسعود : « نعم ترجمان القرآن ابنُ عباس » .

وقد مات ابن مسعود رضي الله عنه في سنة اثنتين وثلاثين على الصحيح ، وعمّر بعده ابن عباس ستاً وثلاثين سنة ، فما ظنك بما كسبه من العلوم بعد ابن مسعود ؟

ولهذا غالب ما يرويه (السدي) الكبير في تفسيره عن هذين الرجلين (ابن مسعود) و (ابن عباس) ولكن في بعض الأحيان ينقل عنهم ما يحكونه من أقاويل أهل الكتاب ، التي أباها رسول الله ﷺ حيث قال : « بلغوا عني ولو آية ، وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج ، ومن كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار »^(٣) .

ولكن هذه الأحاديث الإسرائيلية تذكر للاستشهاد لا للاعتضاد ، وهي على ثلاثة أقسام :

أحدها : ما علمنا صحته مما بأيدينا مما يشهد له بالصدق فذاك صحيح .

والثاني : ما علمنا كذبه مما عندنا مما يخالفه فذاك مردود .

والثالث : ما هو مسكوت عنه ، لا من هذا القبيل ، ولا من هذا القبيل ، فلا تؤمن به ولا تكذبه ، وتجاوز حكايته لما تقدم ، وغالب ذلك مما لا فائدة فيه تعود إلى أمرٍ ديني .

(١) هذا جزء من حديث أخرجه أبو داود عن المقدم بن معدي كرب .

(٢) رواه ابن جرير الطبري عن مسروق عن عبدالله بن مسعود . (٣) رواه البخاري عن عبدالله بن عمرو بن العاص .

(فصل) : إذا لم نجد التفسير في القرآن، ولا في السنة، ولا وجدته عن الصحابة، فقد رجعت كثير من الأئمة إلى أقوال التابعين كـ (مجاهد بن جبر) فإنه كان آية في التفسير فقد قال: « عرضتُ المصحف على ابن عباس ثلاث عرضات، من فاتحته إلى خاتمته، أوقفه عند كل آية منه وأسأله عنها » .

ولهذا قال (سفيان الثوري) : إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به ... وكـ (سعيد بن جبيرة) و (عكرمة مولى ابن عباس) و (عطاء بن أبي رباح) و (الحسن البصري) و (مسروق بن الأجدع) و (سعيد بن المسيب) و (قتادة) و (الضحاك) وغيرهم من التابعين ومن بعدهم، فتذكر أقوالهم في الآية فيقع في عبارتهم تباينٌ في الألفاظ، يحسبها من لا علم عنده اختلافاً فيحكيها أقوالاً، وليس كذلك فليتفطن اللبيب لذلك والله الهادي .

فأما تفسير القرآن بمجرد الرأي فحرام لما روي عن النبي ﷺ أنه قال : « من قال في القرآن برأيه، أو بما لا يعلم، فليتبوأ مقعده من النار »^(١) ولقوله ﷺ : « من قال في كتاب الله برأيه فأصاب فقد أخطأ »^(٢) أي لأنه قد تكلف ما لا علم له به، وسلك غير ما أمر به، لأنه لم يأت الأمر من بابه، كمن حكم بين الناس على جهل فهو في النار، ولهذا تخرج جماعة من السلف عن تفسير ما لا علم لهم به، فقد روي عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه قال : « أي سماء تظلني، وأي أرضٍ تقلني، إذا أنا قلت في كتاب الله ما لا أعلم » .

وروي أنس عن عمر بن الخطاب أنه قرأ على المنبر ﴿ وفاكهةً وأباً ﴾ فقال : هذه الفاكهة قد عرفناها، فما الأب؟ ثم رجع إلى نفسه فقال : إن هذا هو التكلف يا عمر .

وروي ابن جرير بسنده عن عبيد الله بن عمر قال : لقد أدركت فقهاء المدينة وإنهم ليعظمون القول في التفسير، وعن هشام بن عروة قال : ما سمعتُ أبي يؤول آية من كتاب الله قطُّ، وسأل محمد بن سيرين (عبدة السلماني) عن آية من القرآن فقال : ذهب الذين كانوا يعلمون فيم أنزل القرآن، فاتق الله وعليك بالسداد .

فهذه الآثار الصحيحة وما شاكلها عن أئمة السلف محمولة على تخرجهم عن الكلام في التفسير بما لا علم لهم فيه، فأما من تكلم بما يعلم من ذلك لغة وشرعاً فلا حرج عليه، ولهذا روي عن هؤلاء وغيرهم أقوال في التفسير، ولا منافاة لأنهم تكلموا فيما علموه، وسكتوا عما جهلوه، وهذا هو الواجب على كل أحد، فإنه كما يجب السكوت عما لا علم له به، فكذلك يجب القول فيما سئل عنه مما يعلمه لقوله تعالى: ﴿ لتبيننَّ للنَّاس ولا تكتُمونه ﴾ ولما جاء في الحديث الشريف « من سئل عن علم فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار »^(٣) .

(١) رواه ابن جرير بسنده عن ابن عباس وأخرجه الترمذي والنسائي .

(٢) رواه أبو داود والترمذي والنسائي .

(٣) أخرجه أبو داود والترمذي عن أبي هريرة .

(مقدمة مفيدة تتركز في (أول التفسير قبل الفاتحة)

قال أبو بكر بن الأنباري: نزل في المدينة من القرآن (البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، وبراءة، والرعد، والنحل، والحج، والنور، والأحزاب، ومحمد، والفتح، والحجرات، والرحمن، والحديد، والمجادلة، والحشر، والممتحنة، والصف، والجمعة، والمنافقون، والتغابن، والطلاق، وعشر من التحريم، وإذا زلزلت، وإذا جاء نصر الله) هؤلاء السور نزلت في المدينة وسائر السور بمكة.

فأما عدد آيات القرآن العظيم فسته آلاف آية، ثم اختلف فيما زاد على ذلك .
وأما التحزيب والتجزئة فقد اشتهرت الأجزاء من ثلاثين كما في الربعات بالمدارس وغيرها .

فصل

واختلف في معنى السورة مما هي مشتقة؟ فقيل: من الارتفاع^(١)، فكان القارئ ينتقل بها من منزلة إلى منزلة، وقيل: لشرفها وارتفاعها كسور البلد لإحاطته بمنزله ودوره، وقيل: سميت سورة لكونها قطعة من القرآن وجزءاً منه .

وأما الآية: فأصل معناها العلامة، سميت بذلك لانقطاع الكلام الذي قبلها عن الذي بعدها وانفصالها، أي هي بائنة عن أختها ومنفردة قال تعالى: ﴿إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت﴾ .
وقيل: سميت آية لأنها عجب يعجز البشر عن التكلم بمثلها .

وأما الكلمة: فهي اللفظة الواحدة، وقد تكون على حرفين مثل «ما» و«لا» ونحو ذلك وقد تكون أكثر، وأكثر ما تكون عشرة أحرف مثل ﴿أنلزمكموها﴾ و﴿فأسقيناكموه﴾ وقد تكون الكلمة الواحدة آية مثل ﴿والضحى﴾ و﴿والفجر﴾ .

فصل

قال القرطبي: أجمعوا على أنه ليس في القرآن شيء من التراكيب الأعجمية، وأجمعوا أن فيه أعلاماً من الأعجمية كـ (إبراهيم) و (نوح) و (لوط) واختلفوا: هل فيه شيء من غير ذلك بالأعجمية؟ فأنكر ذلك الباقلاني والطبري وقالوا: ما وقع فيه مما يوافق الأعجمية فهو من باب ما توافقت فيه اللغات فتكلمت بها العرب والفُرس والحبشة وغيرهم^(٢) .

(١) قال النابغة: ألم تر أن الله أعطاك سورة ترى كل ملك دونها يتذبذب

(٢) انظر التحقيق الذي ذكرناه في كتابنا «التيبان في علوم القرآن» صفحة ٢٢٥/ تحت عنوان (هل في القرآن الكريم ألفاظ غير عربية)؟

(١) سُورَةُ الْفَاتِحَةِ
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تسمى « الفاتحة » لأنه تفتتح بها القراءة في الصلوات، ويقال لها أيضاً « أم الكتاب »، ولها أسماء منها « الحمد » و « الشفاء » و « الواقية » و « الكافية » و « أساس القرآن » .

قال البخاري : « وسميت - أم الكتاب - لأنه يبدأ بكتابها في المصاحف، ويبدأ بقراءتها في الصلاة » .
وقال الطبري : والعرب تسمي كل جامع أمراً أو مقدم لأمر « أمأ » فتقول للجلدة التي تجمع الدماغ « أم الرأس » ويسمون لواء الجيش ورايتهم التي يجتمعون تحتها « أمأ » قال ذو الرمة :

على رأسه أمُّ لنا نفتدي بها جماع أمور ليس نعصي لها أمراً

روى الإمام أحمد عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال في أم القرآن : « هي أم القرآن، وهي السبع المثاني، وهي القرآن العظيم » ورواه ابن جرير أيضاً بنحوه .

« ما ورد في فضل سورة الفاتحة »

أولاً : عن أبي سعيد بن المعلّى رضي الله عنه قال : « كنت أصلي فدعاني رسول الله ﷺ فلم أجبه حتى صليت، قال : فأنتيه، فقال : ما منعك أن تأتيني ؟ قال : قلت يا رسول الله إني كنت أصلي، قال : ألم يقل الله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذ دعاكم لما يحييكم ﴾ ؟ ثم قال : لأعلمنك أعظم سورة في القرآن قبل أن تخرج من المسجد ، قال : فأخذ بيدي فلما أراد أن يخرج من المسجد قلت : يا رسول الله إنك قلت لأعلمنك أعظم سورة في القرآن، قال : نعم ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته »^(١) .

ثانياً : وعن أبي بن كعب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « ما أنزل الله في التوراة ولا في الإنجيل مثل « أم القرآن » وهي السبع المثاني، وهي مقسومة بيني وبين عبدي نصفين »^(٢) . هذا لفظ النسائي .

(١) أخرجه أحمد ورواه البخاري وأبو داود والنسائي وابن ماجه .

(٢) رواه الترمذي والنسائي عن أبي هريرة عن أبي بن كعب .

ثالثاً : وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : « كنا في مسير لنا فترلنا، فجاءت جارية فقالت : إن سيّد الحي سليم (أي لديغ)، وإن نفرنا غيَّب فهل منكم راق؟ فقام معها رجل ما كنا نأبئه^(١) برقية، فرقاه فبرأ، فأمر له بثلاثين شاة، وسقانا لبناً، فلما رجع قلنا له : أكنت تحسن؟ أو كنت ترقى؟ قال : لا، ما رقيتُ إلا بأم الكتاب، قلنا : لا تحدثوا شيئاً حتى نأتي أو نسأل رسول الله ﷺ فلما قدمنا المدينة ذكرناه للنبي ﷺ فقال : « وما كان يدرية أنها رُقِيّة؟ إقسموا واضربوا لي بسهم^(٢) » .

رابعاً : وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : « بينا رسول الله ﷺ وعنده جبريل، إذ سمع نقيضاً فوقه، فرجع جبريل بصره إلى السماء فقال : هذا باب قد فتح من السماء ما فتح قط، قال : فترل منه ملك، فأتى النبي ﷺ فقال : أبشر بنورين قد أوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك : فاتحة الكتاب، وخواتيم سورة البقرة، لم تقرأ حرفاً منها إلا أوتيته^(٣) » .

خامساً : وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « من صلى صلاة لم يقرأ فيها بأم القرآن فهي خِداجٌ - ثلاثاً - غير تمام » فقيل لأبي هريرة : إنا نكون وراء الإمام؟ فقال : اقرأ بها في نفسك، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : قال الله عز وجل « قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، ولعبي ما سأل، فإذا قال العبد : ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ قال الله : حمدني عبدي، وإذا قال : ﴿ الرحمن الرحيم ﴾ قال الله : أثنى عليّ عبدي، فإذا قال : ﴿ مالك يوم الدين ﴾ قال : مجّدي عبدي، وقال مرة : فوّض إليّ عبدي، فإذا قال : ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ قال : هذا بيني وبين عبدي ولعبي ما سأل، فإذا قال : ﴿ إهدنا الصراط المستقيم . صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين ﴾ قال : هذا لعبدي ولعبي ما سأل^(٤) » .

« الكلام على ما يختص بهذا الحديث مما يختص بالفاتحة »

أولاً : أطلق فيه لفظ « الصلاة » والمراد القراءة كقوله تعالى : ﴿ ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها ﴾ أي بقراءتك، فدل على عظم القراءة في الصلاة، وأنها من أكبر أركانها، كما أطلق لفظ القراءة والمراد به الصلاة في قوله ﴿ وقرآن الفجر ﴾ والمراد صلاة الفجر .

ثانياً : واختلفوا في مسألة وهي : هل تتعين للقراءة في الصلاة فاتحة الكتاب أم يجزئ غيرها؟ على قولين مشهورين :

١ - فعند أبي حنيفة ومن وافقه من أصحابه أنها لا تتعين، بل مهما قرأ به من القرآن أجزاءه، واستدلوا بعموم قوله تعالى : ﴿ فاقرءوا ما تيسر من القرآن ﴾ وبما ثبت في الصحيحين من حديث النبي ﷺ وفيه أن النبي ﷺ

(١) ما كنا نأبئه : أي نعيبه أو تهمة .

(٢) رواه البخاري ومسلم وأبو داود، وفي بعض روايات مسلم أن (أبا سعيد الخدري) هو الذي رقى ذلك اللديغ .

(٣) رواه مسلم والنسائي عن ابن عباس . ومعنى قوله (نقيضاً) أي صوتاً .

(٤) رواه مسلم عن أبي هريرة .

قال له : « ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن » فأمره بقراءة ما تيسر ، ولم يعين له الفاتحة .

ب - والقول الثاني أنه يتعين قراءة الفاتحة ، ولا تجزئ الصلاة بدونها ، وهو قول بقية الأئمة (مالك والشافعي وأحمد) واحتجوا بهذا الحديث « فهي خداج » والخداج هو الناقص كما فسّر به في الحديث « غير تمام » واحتجوا بحديث « لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب »^(١) ، وبحديث « لا تجزئ صلاة لا يُقرأ فيها بأم القرآن »^(٢) . والأحاديث في هذا الباب كثيرة .

ثالثاً : (مسألة) : هل تجب قراءة الفاتحة على المأموم ؟ فيه ثلاثة أقوال للعلماء :

أحدها : أنه تجب عليه قراءتها كما تجب على الإمام لعموم الأحاديث المتقدمة .

والثاني : لا تجب على المأموم قراءة بالكلية ، لا في الجهرية ولا في السرية لقوله عليه السلام : « من كان له إمام فقراءة الإمام له قراءة »^(٣) .

والثالث : تجب القراءة على المأموم في (السرية) لا في (الجهرية) لما ثبت عن النبي ﷺ أنه قال : « إنما جعل الإمام ليؤتم به ، فإذا كبر فكبروا ، وإذا قرأ فأنصتوا »^(٤) .

تفسير الاستعاذة

- ١ - قال الله تعالى : ﴿ وَإِنَّمَا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ .
- ٢ - وقال تعالى : ﴿ وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ . وَأَعُوذُ بِكَ رَبَّ أَنْ يَحْضُرُونِ ﴾ .
- ٣ - وقال تعالى : ﴿ وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ . وَإِنَّمَا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ .

فهذه ثلاث آيات ليس لهنّ رابعة في معناها

فأله تعالى يأمر بمصانعة (العدو الإنسي) والإحسان إليه ، ليرده عنه طبعه إلى الموالاة والمصافاة .

ويأمر بالاستعاذة من (العدو الشيطاني) لا محالة ، إذ لا يقبل مصانعة ولا إحساناً ، ولا يبتغي غير هلاك ابن آدم ، لشدة العداوة بينه وبين أبيه آدم كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ﴾ وقال تعالى : ﴿ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ ﴾ ؟

وقد أقسم لآدم وكذب عليه ، فكيف معاملته لنا وقد قال : ﴿ فبِعزتك لأغوينهم أجمعين ﴾ ؟ وقالت طائفة

(١) رواه الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) رواه ابن خزيمة وابن حبان عن أبي هريرة أيضاً .

(٣) رواه الإمام أحمد عن جابر بن عبد الله وفي إسناده ضعف .

(٤) رواه مسلم عن أبي موسى الأشعري .

من القراء : يتعوذ بعد القراءة، واعتمدوا على ظاهر سياق الآية . والمشهور الذي عليه الجمهور : أن الاستعاذة إنما تكون قبل التلاوة لدفع الموسوس عنها، ومعنى الآية ﴿ فإذا قرأت القرآن ﴾ أي إذا أردت القراءة، كقوله تعالى : ﴿ إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا ﴾ أي إذا أردتم القيام، ويدل عليه ما روي أن النبي ﷺ كان إذا قام من الليل استفتح صلاته بالتكبير والثناء ثم يقول : « أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ، من همزه ونفخه ونفثه »^(١) .

ومعنى : « أعوذ بالله من الشيطان الرجيم » أي أستجير بجناب الله من الشيطان الرجيم أن يضرني في ديني أو دنياي، أو يصدني عن فعل ما أمرت به، فإن الشيطان لا يكفه عن الإنسان إلا الله، والاستعاذة : هي الالتجاء إلى الله تعالى من شر كل ذي شر، والعيادة تكون لدفع الشر، واللباؤ يكون لطلب الخير كما قال المنبي :

يا من ألوذُ به فيما أومله ومن أعوذ به مما أحاذره
لا يجبرُ الناسُ عظماً أنت كاسره ولا يهيضون عظماً أنت جابره

و (الشيطان) في لغة العرب مشتق من شطن إذا بعد، فهو بعيد بفسقه عن كل خير، وقيل : من شاط لأنه مخلوق من نار والأول أصح، قال سيبويه : العرب تقول : تشيطان فلان إذا فعل فعل الشياطين، ولو كان من شاط لقالوا : تشيط، فالشيطان مشتق من البعد على الصحيح ولهذا يسمون كل متمرّد من جني وإنسي وحيوانٍ « شيطاناً » قال تعالى : ﴿ شياطين الإنس والجن ﴾ وركب عمر برذوناً فجعل يتبختر به، فضربه فلم يزد إلا تبختراً، فنزل عنه وقال : ما حملتموني إلا على شيطان لقد أنكرت نفسي^(٢) .

و (الرجيم) فعيل بمعنى مفعول، أي أنه مرجوم مطروّد عن الخير كما قال تعالى : ﴿ وجعلناها رجوماً للشياطين ﴾ وقال تعالى : ﴿ وحفظناها من كل شيطانٍ رجيم . إلا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين ﴾ .

تفسير سورة الفاتحة

تفسير البسملة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾

روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ كان لا يعرف فصل السورة حتى ينزل عليه ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾^(٣) .

وقد افتتح بها الصحابة كتاب الله، ولهذا تُستحب في أول كل قولٍ وعملٍ لقوله عليه السلام : « كل أمر لا يبدأ فيه بيسم الله الرحمن الرحيم فهو أجذم » فتستحب في أول الوضوء لقوله عليه السلام : « لا وضوء لمن لم يذكر

(١) رواه أحمد عن أبي سعيد الخدري وأخرجه أصحاب السنن الأربعة .

(٢) رواه ابن وهب عن زيد بن أسلم عن أبيه وإسناده صحيح .

(٣) رواه أبو داود بإسناد صحيح، وأخرجه الحاكم في مستدركه .

اسم الله عليه»^(١) وتستحب عند الذبيحة في مذهب الشافعي وأوجبها آخرون، وتستحب عند الأكل لقوله عليه السلام: «قل: بسم الله، وكلّ يمينك، وكلّ يمينك»^(٢)، وتستحب عند الجماع لقوله عليه السلام: «لو أنّ أحدكم إذا أراد أن يأتي أهله قال: بسم الله، اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا، فإنه إن يقدر بينهما ولدٌ لم يضره الشيطان أبداً»^(٣).

والمتعلق بالباء في قوله (بسم الله) منهم من قدره باسم تقديره: باسم الله ابتدائي، ومنهم من قدره بفعل تقديره: أبداً باسم الله، أو ابتدأت باسم الله، وكلاهما صحيح فإن الفعل لا بدّ له من مصدر، فلك أن تقدّر الفعل ومصدره، فالمشروع ذكر اسم الله في الشروع في ذلك كله تبركاً وتيمناً واستعانة على الإتمام والتقبل، ويدل للأول قوله تعالى: ﴿بسم الله مجربها ومرساها﴾ ويدل للثاني في قوله تعالى: ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق﴾.

و (الله) علمٌ على الربّ تبارك وتعالى يقال إنه (الاسم الأعظم) لأنه يوصف بجميع الصفات كما قال تعالى: ﴿هو الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم﴾ الآيات، فأجرى الأسماء الباقية كلها صفات كما قال تعالى: ﴿ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها﴾، وقال تعالى: ﴿قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيّاً ما تدعوا فله الأسماء الحسنى﴾. وفي الصحيحين: «إن لله تسعة وتسعين اسماً، مائة إلا واحداً، من أحصاها دخل الجنة»^(٤).

وهو اسم لم يسم به غيره تبارك وتعالى ولهذا لا يعرف له - في كلام العرب - اشتقاق، فهو اسم جامد وقد نقله القرطبي عن جماعة من العلماء منهم (الشافعي) و (الغزالي) و (إمام الحرمين) وقيل: إنه مشتق من أله يأله إلهة، وقد قرأ ابن عباس ﴿ويدرك وإلهتك﴾ أي عبادتك، وقيل: مشتق من وله إذا تحير، لأنه تعالى يحير في الفكر في حقائق صفاته، وقيل: مشتق من ألّهت إلى فلان: أي سكنت إليه، فالعقول لا تسكن إلا إلى ذكره، والأرواح لا تفرح إلا بمعرفته، لأنه الكامل على الإطلاق دون غيره، قال تعالى: ﴿ألا بذكر الله تطمئنّ القلوب﴾، وقد اختار الرازي أنه اسم غير مشتق البتة، وهو قول الخليل وسيبويه وأكثر الأصوليين والفقهاء.

﴿الرحمن الرحيم﴾ اسمان مشتقان من الرحمة على وجه المبالغة، و ﴿رحمن﴾ أشد مبالغة من ﴿رحيم﴾ وزعم بعضهم أنه غير مشتق، قال القرطبي: والدليل على أنه مشتق ما روي في الحديث القدسي: «أنا الرحمن خلقت الرحم وشققت لها اسماً من اسمي، فمن وصلها وصلته، ومن قطعها قطعته»^(٥). قال القرطبي: وهذا نص في الاشتقاق فلا معنى للمخالفة والشقاق، وإنكار العرب لاسم ﴿الرحمن﴾ لجهلهم بالله وبما وجب له، وبناء فعلان ليس كفعيل، فإن (فعالان) لا يقع إلا على مبالغة الفعل نحو قولك (رجل غضبان) للمتلئ غضباً، و (فعيل) قد يكون بمعنى الفاعل والمفعول. قال ابن جرير: ﴿الرحمن﴾ لجميع الخلق، ﴿الرحيم﴾ بالمؤمنين، ولهذا قال

(١) رواه أحمد وأصحاب السنن من رواية أبي هريرة مرفوعاً.

(٢) رواه مسلم في قصة (عمر بن أبي سلمة) ربيب النبي ﷺ.

(٣) رواه الشيخان عن ابن عباس عن النبي ﷺ.

(٤) رواه الشيخان عن أبي هريرة عن النبي ﷺ.

(٥) أخرجه الترمذي وصححه عن عبد الرحمن بن عوف عن النبي ﷺ.

تعالى: ﴿الرحمن على العرش استوى﴾ فذكر الاستواء باسمه الرحمن ليعم جميع خلقه برحمته، وقال: ﴿وكان بالمؤمنين رحيماً﴾ فخصهم باسمه الرحيم. فدل على أن ﴿الرحمن﴾ أشد مبالغة في الرحمة لعمومها في الدارين لجميع خلقه، و﴿الرحيم﴾ خاصة بالمؤمنين، واسمه تعالى ﴿الرحمن﴾ خاص لم يسم به غيره، قال تعالى: ﴿قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن﴾، وقال تعالى: ﴿أجعلنا من دون الرحمن آلهة يُعبدون﴾؟ ولما تجرأ مسيلمة الكذاب وتسمى برحمن اليمامة كساه الله جلباب الكذب وشهر به، فلا يقال إلا (مسيلمة الكذاب) فصار يضرب به المثل في الكذب بين أهل الحضرة والمدر.

وقد زعم بعضهم أن الرحيم أشد مبالغة من الرحمن لأنه أكد به، والمؤكد لا يكون إلا أقوى من المؤكد، والجواب أن هذا ليس من باب التأكيد وإنما هو من باب النعت ولا يلزم ما ذكره، فإن قيل: فإذا كان الرحمن أشد مبالغة فهلاً اكتفى به عن الرحيم؟ فقد قيل: إنه لما تسمى غيره بالرحمن جيء بلفظ الرحيم ليقطع الوهم بذلك، فإنه لا يوصف ب﴿الرحمن الرحيم﴾ إلا الله تعالى، كذا رواه ابن جرير عن عطاء ووجهه بذلك والله أعلم.

والحاصل أن من أسمائه تعالى ما يسمى به غيره، ومنها ما لا يسمى به غيره كاسم (الله) و(الرحمن) و(الخالق) و(الرازق) ونحو ذلك، وأما (الرحيم) فإن الله وصف به غيره حيث قال في حق النبي: ﴿بالمؤمنين رءوفٌ رحيمٌ﴾، كما وصف غيره ببعض أسمائه فقال في حق الإنسان: ﴿فجعلناه سميعاً بصيراً﴾.

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

قال ابن جرير: معنى ﴿الحمد لله﴾ الشكر لله خالصاً دون سائر ما يعبد من دونه، ودون كل ما برأ من خلقه، بما أنعم على عباده من النعم التي لا يحصيها العدد، ولا يحيط بعددها غيره أحد، في تصحيح الآلات لطاعته، وتمكين جوارح المكلفين لأداء فرائضه، مع ما بسط لهم في دنياهم من الرزق، وغذاهم به من نعيم العيش، فلربنا الحمد على ذلك كله أولاً وآخراً، و﴿الحمد لله﴾ ثناء أثنى به على نفسه، وفي ضمنه أمر عباده أن يشنوا عليه فكأنه قال: قولوا الحمد لله، ثم قال: وأهل المعرفة بلسان العرب يوقعون كلاً من الحمد والشكر مكان الآخر.

قال ابن كثير: وهذا الذي ادعاه ابن جرير فيه نظر، لأنه اشتهر عند كثير من المتأخرين أن الحمد هو الثناء بالقول على المحمود بصفاته اللازمة والمتعدية، والشكر لا يكون إلا على المتعدية، ويكون بالجنان، واللسان، والأركان كما قال الشاعر:

أفادتكم النعماء مني ثلاثة يدي ولساني والضمير المحجّب

وقال الجوهري: الحمد نقيض النعم تقول: حمدت الرجل أحمده حمداً فهو حميد ومحمود، والتحميد أبلغ من الحمد، والحمد أعم من الشكر، والشكر هو الثناء على المحسن بما أولاه من المعروف، يقال: شكرته وشكرت

له وباللام أفصح، وأما المدح فهو أعم من الحمد لأنه يكون للحي، وللमित، وللجماد، كما يمدح الطعام والمكان ونحو ذلك، ويكون قبل الإحسان وبعده على الصفات المتعدية واللازمة أيضاً فهو أعم .

وفي الحديث الشريف عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أفضل الذكر لا إله إلا الله، وأفضل الدعاء الحمد لله»^(١)، وعنه ﷺ أنه قال: «ما أنعم الله على عبدٍ نعمة فقال: الحمد لله، إلا كان الذي أعطى أفضل مما أخذ»^(٢). وعن ابن عمر أن رسول الله ﷺ حدثهم «أن عبداً من عباد الله قال: يا رب لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك، وعظيم سلطانك، فعضلت بالملكين فلم يدريا كيف يكتبانها فصعدا إلى الله فقالا: يا ربنا إن عبداً قد قال مقالة لا ندري كيف نكتبها، قال الله - وهو أعلم بما قال عبده - ماذا قال عبدي؟ قال: يا رب إنه قال: لك الحمد يا رب كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك، فقال الله لهما: أكتبها كما قال عبدي حتى يلقاني فأجزيه بها»^(٣).

والألف واللام في (الحمد) لاستغراق جميع أجناس الحمد وصنوفه لله تعالى كما جاء في الحديث: «اللهم لك الحمد كله، ولك الملك كله، وبيدك الخير كله، وإليك يرجع الأمر كله» الحديث .

﴿رب العالمين﴾ الرب هو المالك المتصرف، ويطلق في اللغة على السيد، وعلى المتصرف للإصلاح، وكل ذلك صحيح في حق الله تعالى، ولا يستعمل الرب لغير الله إلا بالإضافة، تقول: ربُّ الدار، وأما الرب فلا يقال إلا لله عز وجل. و﴿العالمين﴾ جمع عالم وهو كل موجود سوى الله عز وجل، وهو جمع لا واحد له من لفظه، والعالم أصناف المخلوقات في السماوات، وفي البر، والبحر .

وقال الفراء وأبو عبيد: العالم عبارة عما يعقل وهم الإنس والجن والملائكة والشياطين، ولا يقال للبهائم عالم . وقال الزجاج: العالم كل ما خلق الله في الدنيا والآخرة. قال القرطبي: وهذا هو الصحيح أنه شامل لكل العالمين قال تعالى: ﴿قال فرعون وما رب العالمين؟ قال ربُّ السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين﴾ . والعالم مشتق من العلامة، لأنه دال على وجود خالقه وصانعه وعلى وحدانيته جلّ وعلا كما قال ابن المعتز:

فيا عجباً كيف يعصى الآله أم كيف يحجده الجاحد
وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ

وقوله تعالى: ﴿الرحمن الرحيم﴾ قال القرطبي: إنما وصف نفسه بالرحمن الرحيم بعد قوله ﴿رب العالمين﴾ ليكون من باب قرن (الترغيب بالترهيب)، كما قال تعالى: ﴿نبيّ عبادي أني أنا الغفور الرحيم . وأنّ عذابي هو

(١) رواه الترمذي عن جابر بن عبد الله وقال: حسن غريب .

(٢) رواه ابن ماجة عن أنس بن مالك .

(٣) رواه ابن ماجة عن ابن عمر .

العذاب الأليم ﴿﴾، وقوله: ﴿﴾ إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم ﴿﴾ فالرب فيه ترهيب، والرحمن الرحيم ترغيب، وفي الحديث: «لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع في جنته أحد، ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط من رحمته أحد»^(١).

مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿١﴾

قرأ بعض القراء (مَلِك) وقرأ آخرون (مالك) وكلاهما صحيح متواتر، و (مالك) مأخوذ من المَلِك كما قال تعالى: ﴿﴾ إنا نحن نرثُ الأرض ومن عليها وإلينا يُرجعون ﴿﴾، و (ملك) مأخوذ من المَلِك كما قال تعالى: ﴿﴾ لمن المَلِكُ اليوم ﴿﴾؟ وقال: ﴿﴾ المَلِكُ يومئذٍ الحقُّ للرحمن ﴿﴾، وتخصيصُ الملك بيوم الدين لا ينفيه عما عداه، لأنه قد تقدم الإخبار بأنه رب العالمين وذلك عام في الدنيا والآخرة، وإنما أضيف إلى يوم الدين لأنه لا يدعي أحد هنالك شيئاً، ولا يتكلم أحد إلا بإذنه كما قال تعالى: ﴿﴾ لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً ﴿﴾، وقال تعالى: ﴿﴾ يوم يأت لا تكلم نفسٌ إلا بإذنه ﴿﴾، وعن ابن عباس قال: يوم الدين يوم الحساب للخلائق، يدينهم بأعمالهم إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، إلا من عفا عنه.

والمَلِكُ في الحقيقة هو الله عز وجل، فأما تسمية غيره في الدنيا بملك فعلى سبيل المجاز، وفي الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: «يقبض الله الأرض ويطوي السماء يمينه، ثم يقول: أنا الملك أين ملوك الأرض؟ أين الجبارون؟ أين المتكبرون»^(٢).

و (الدين): الجزاء والحساب كما قال تعالى: ﴿﴾ أئنا لمدينون ﴿﴾ أي مجزيون محاسبون، وفي الحديث: «الكيسُ من دان نفسه وعمل لما بعد الموت»^(٣) أي حاسب نفسه، وعن عمر رضي الله عنه: «حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا».

إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٢﴾

العبادة في اللغة: مأخوذة من الذلة، يقال: طريقٌ معبدٌ، وبعيرٌ معبدٌ أي مذللٌ.

وفي الشرع: هي ما يجمع كمال المحبة والخضوع والخوف، وقدم المفعول وكرر للإهتمام والحرص، أي لا نعبد إلا إياك ولا نتوكل إلا عليك، وهذا هو كمال الطاعة، والدين يرجع كله إلى هذين المعنيين، فالأول تبرؤ من الشرك، والثاني تبرؤ من الحول والقوة والتفويض إلى الله عز وجل، وهذا المعنى في غير آية من القرآن: ﴿﴾ فاعبده وتوكل عليه ﴿﴾، ﴿﴾ قل هو الرحمن آمنا به وعليه توكلنا ﴿﴾. وتحول الكلام من الغيبة إلى المواجهة، لأنه لما أثنى

(١) رواه مسلم عن أبي هريرة مرفوعاً.

(٢) رواه الشيخان عن أبي هريرة مرفوعاً.

(٣) رواه أحمد والترمذي وابن ماجه من حديث شداد بن أوس مرفوعاً.

على الله فكانه اقترب وحضر بين يدي الله تعالى فلهذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ، وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ بكاف الخطاب، وفي هذا دليل على أن أول السورة خبرٌ من الله تعالى بالثناء على نفسه بجميل صفاته الحسنى، وإرشادٌ لعباده بأن يشنوا عليه بذلك.

وإنما قدّم ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ على ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ لأن العبادة له هي المقصودة، والاستعانة وسيلة إليها، والأصل أن يقدم ما هو الأهم فالأهم، فإن قيل: فما معنى النون في (نعبد) و (نستعين) فإن كانت للجمع فالداعي واحد، وإن كانت للتعظيم فلا يناسب هذا المقام؟ وقد أجيب: بأن المراد من ذلك الإخبار عن جنس العباد، والمصلي فردٌ منهم ولا سيما إن كان في جماعة أو إمامهم، فأخبر عن نفسه وعن إخوانه المؤمنين بالعبادة التي خلّقوا لأجلها وتوسّط لهم بخير، و (إِيَّاكَ نَعْبُدُ) أطفُ في التواضع من (إِيَّاكَ عِبَدْنَا)، لما في الثاني من تعظيم نفسه من جعل نفسه وحده أهلاً لعبادة الله تعالى الذي لا يستطيع أحد أن يعبده حق عبادته، ولا يشني عليه كما يليق به، والعبادة مقام عظيم يشرف به العبد لانتسابه إلى جناب الله تعالى كما قال بعضهم:

لا تدعني إلا بيا عبدها فإنه أشرف أسمائي

وقد سَمِيَ رسوله ﷺ بعبده في أشرف مقاماته فقال: ﴿الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب﴾، وقال: ﴿وأنه لما قام عبد الله يدعوه﴾، وقال: ﴿سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً﴾ فسماه عبداً عند إنزاله عليه، وعند قيامه للدعوة، وإسرائه به.

أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾

لما تقدم الثناء على المسؤول تبارك وتعالى ناسب أن يعقب بالسؤال، وهذا أكمل أحوال السائل أن يمدح مسؤوله ثم يسأل حاجته، لأنه أنجح للحاجة، وأنجح للإجابة ولهذا أرشد الله إليه لأنه الأكمل.

والهداية ههنا: الإرشاد والتوفيق وقد تُعدى بنفسها ﴿إهدنا الصراط﴾ وقد تعدى يالي ﴿فاهدوهم إلى صراط الجحيم﴾ وقد تُعدى باللام ﴿الحمد لله الذي هدانا لهذا﴾ أي وفقنا وجعلنا له أهلاً، وأما ﴿الصراط المستقيم﴾ فهو في لغة العرب: الطريق الواضح الذي لا اعوجاج فيه، ثم تستعير العرب الصراط في كل قول وعمل وصف باستقامة أو اعوجاج، واختلفت عبارات المفسرين من السلف والخلف في تفسير ﴿الصراط﴾، وإن كان يرجع حاصلها إلى شيء واحد وهو (المتابعة لله وللرسول)، فروي أنه كتاب الله، وقيل: إنه الإسلام، قال ابن عباس: هو دين الله الذي لا اعوجاج فيه، وقال ابن الحنفية: هو دين الله الذي لا يقبل من العباد غيره، وقد فسّر الصراط بالإسلام في حديث (النواس بن سمعان) عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ضرب الله مثلاً صراطاً مستقيماً، وعلى جنبتي الصراط سوران فيهما أبواب مفتحة، وعلى الأبواب ستور مرخاة، وعلى باب الصراط داع يقول: يا أيها الناس ادخلوا الصراط جميعاً ولا تعوجوا، وداع يدعو من فوق الصراط، فإذا أراد الإنسان أن يفتح شيئاً من تلك الأبواب قال: ويحك لا تفتح، فإنك إن تفتحته تلجّه، فالصراط الإسلام، والسوران حدود الله، والأبواب المفتحة محارم

الله، وذلك الداعي على رأس الصراط كتاب الله، والداعي من فوق الصراط واعظ الله في قلب كل مسلم^(١) . وقال مجاهد: الصراط المستقيم: الحق، وهذا أشمل ولا منافاة بينه وبين ما تقدم، قال ابن جرير رحمه الله: والذي هو أولى بتأويل هذه الآية عندي أن يكون معنياً به وفقنا للثبات على ما ارتضيته ووفقت له من أنعمت عليه من عبادك من قول وعمل، وذلك هو الصراط المستقيم لأن من وُفِّقَ لما وُفِّقَ له من أنعم عليهم من النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين فقد وُفِّقَ للإسلام .

(فإن قيل): فكيف يسأل المؤمن الهداية في كل وقت من صلاة وهو متصف بذلك؟

فالجواب: أن العبد مفتقر في كل ساعة وحالة إلى الله تعالى في تثبيته على الهداية ورسوخه فيها واستمراره عليها، فأرشده تعالى إلى أن يسأله في كل وقت أن يمدّه بالمعونة والثبات والتوفيق، فقد أمر تعالى الذين آمنوا بالإيمان: ﴿يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله﴾، والمراد الثبات والمداومة على الأعمال المعينة على ذلك والله أعلم .

صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿٧﴾

قوله تعالى: ﴿صراط الذين أنعمت عليهم﴾ مفسّر للصراط المستقيم، والذين أنعم الله عليهم هم المذكورون في سورة النساء: ﴿ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقاً﴾، وعن ابن عباس: صراط الذين أنعمت عليهم بطاعتك وعبادتك من ملائكتك وأنبيائك والصدّيقين والشهداء والصالحين، وذلك نظير الآية السابقة، وقال الربيع بن أنس: هم النبيون، وقال ابن جريج ومجاهد: هم المؤمنون، والتفسير المتقدم عن ابن عباس أعم وأشمل .

وقوله تعالى: ﴿غير المغضوب عليهم ولا الضالين﴾ بالجر على النعت، والمعنى: اهدنا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعمت عليهم ممن تقدم وصفهم ونعتهم، وهم أهل الهداية والاستقامة، غير صراط المغضوب عليهم وهم الذين علموا الحق وعدلوا عنه، ولا صراط الضالين وهم الذين فقدوا العلم، فهم هائمون في الضلالة لا يهتدون إلى الحق، وأكد الكلام بـ (لا) ليدل على أن ثمّ مسلكين فاسدين وهما: طريقة اليهود، وطريقة النصارى، فجاء بـ (لا) لتأكيد النفي والفرق بين الطريقتين ليجتنب كل واحدٍ منهما، فإن طريقة أهل الإيمان مشتملة على العلم بالحق والعمل به، واليهود فقدوا العمل، والنصارى فقدوا العلم، ولهذا كان الغضب لليهود، والضلال للنصارى، لكن أخصّ أوصاف اليهود الغضب كما قال تعالى عنهم: ﴿من لعنه الله وغضب عليه﴾، وأخصّ أوصاف النصارى الضلال كما قال تعالى عنهم: ﴿قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل﴾، وبهذا وردت الأحاديث والآثار، فقد روي عن عدي بن حاتم أنه قال: سألت رسول الله ﷺ عن قوله تعالى: ﴿غير المغضوب عليهم﴾ قال: هم اليهود ﴿ولا الضالين﴾ قال: النصارى^(٢) . ويستحب لمن يقرأ الفاتحة أن يقول بعدها: (آمين) ومعناه:

(١) رواه أحمد في مسنده عن النواس بن سمان وأخرجه الترمذي والنسائي .

(٢) رواه أحمد والترمذي من طرق وله ألفاظ كثيرة .

اللهم استجب، لما روي عن أبي هريرة أنه قال: « كان رسول الله ﷺ إذا تلا ﴿ غير المغضوب عليهم ولا الضالين ﴾ قال: آمين حتى يسمع من يليه من الصف الأول »^(١).

(فصل فيما اشتملت عليه سورة الفاتحة)

اشتملت هذه السورة الكريمة - وهي سبع آيات - على حمد الله وتمجيده، والثناء عليه بذكر أسمائه الحسنی المستلزمة لصفاته العلیا، وعلى ذكر المعاد وهو (يوم الدين) وعلى إرشاده عبده إلى سؤاله، والتضرع إليه، والتبرئ من حولهم وقوتهم، وإلى إخلاص العبادة له وتوحيده بالألوهية تبارك وتعالى، وتنزيهه أن يكون له شريك أو نظير أو مماثل، وإلى سؤالهم إياه الهداية إلى الصراط المستقيم وهو (الدين القويم) وتثبيتهم عليه حتى يقضى لهم بذلك إلى جواز الصراط يوم القيامة، المفضي بهم إلى جنات النعم، في جوار النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين .

واشتملت على الترغيب في الأعمال الصالحة ليكونوا مع أهلها يوم القيامة، والتحذير من مسالك الباطل لئلا يحشروا مع سالكيها يوم القيامة وهم المغضوب عليهم والضالون .

وما أحسن ما جاء إسناد الإنعام إليه في قوله: ﴿ أنعمتَ عليهم ﴾ وحذف الفاعل في الغضب في قوله: ﴿ غير المغضوب عليهم ﴾ وإن كان هو الفاعل لذلك في الحقيقة، وكذلك إسناد الضلال إلى من قام به وإن كان هو الذي أضلهم بقدره كما قال تعالى: ﴿ من يضل الله فلا هادي له ﴾ إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أنه سبحانه هو المنفرد بالهداية والإضلال .

لا كما تقول القدرية من أن العباد هم الذين يختارون ذلك ويفعلونه، ويحتجون على بدعتهم بمتشابه من القرآن ويتركون ما يكون فيه صريحاً في الرد عليهم وهذا حال أهل الضلال والغي .

وقد ورد في الحديث الصحيح: « إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمي الله « فاحذروهم » فليس - بحمد الله - لمبتدع في القرآن حجةً صحيحة . لأن القرآن جاء ليفصل الحق من الباطل، مفرقاً بين الهدى والضلال، وليس فيه تناقض ولا اختلاف، لأنه من عند الله: ﴿ تنزيلٌ من حكيم حميد ﴾ .

* * *



البقرة جميعها مدنية بلا خلاف، وهي من أوائل ما نزل، وآياتها مائتان وثمانون وسبع آيات .

(ذكر ما ورد في فضلها)

أولاً : عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « لا تجعلوا بيوتكم قبوراً فإن البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة لا يدخله الشيطان ^(١) » .

ثانياً : وعن سهل بن سعد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إن لكل شيء سناماً، وإن سنام القرآن البقرة، وإن من قرأها في بيته ليلة لم يدخله الشيطان ثلاث ليال ^(٢) » .

ثالثاً : وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال : « بعث رسول الله ﷺ بعثاً - وهم ذوو عدد - فاستقرأهم، فاستقرأ كل واحد منهم ما معه من القرآن، فأتى على رجل من أحدثهم سناً فقال : ما معك يا فلان ؟ فقال : معي كذا وكذا وسورة البقرة، فقال : أمعك سورة البقرة ؟ قال : نعم، قال : اذهب فأنت أميرهم ^(٣) » .

رابعاً : وعن أبي أمامة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « اقرأوا القرآن فإنه شافع لأهله يوم القيامة، اقرأوا الزهراوين (البقرة وآل عمران) فإنهما يأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان أو غيايتان، أو كأنهما فرقان من طير صواف يحاجان عن أهلهما يوم القيامة، ثم قال : اقرأوا البقرة، فإن أخذها بركة، وتركها حسرة، ولا تستطيعها البطلة ^(٤) » . الزهراوان : المنيرتان، والغياية : ما أظلك من فوقك، والفرق : القطعة من الشيء، والبطلة : السحرة .

خامساً : وعن النواس بن سمعان رضي الله عنه قال : سمعت النبي ﷺ يقول : « يؤتى بالقرآن يوم القيامة وأهله الذين كانوا يعملون به، تقدّمهم سورة البقرة وآل عمران » .

(١) رواه مسلم وأحمد والترمذي والنسائي وقال الترمذي : حسن صحيح .

(٢) رواه الطبراني وابن حبان وابن مردويه عن سهل بن سعد .

(٣) رواه الترمذي والنسائي وابن ماجه عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(٤) رواه أحمد ومسلم عن أبي أمامة الباهلي .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

آلَمْ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾

﴿ آلم ﴾ اختلف المفسرون في الحروف المقطعة التي في أوائل السور، فمنهم من قال: هي مما استأثر الله بعلمه فردوا علمها إلى الله ولم يفسروها حكاة القرطبي في تفسيره، ومنهم من فسرها واختلف هؤلاء في معناها فقال بعضهم: هي أسماء السور، قال الزمخشري: وعليه إطباق الأكثر، وقيل: هي اسم من أسماء الله تعالى يفتح بها السور، فكل حرف منها دل على اسم من أسمائه وصفة من صفاته، فالألف مفتاح اسم (الله) واللام مفتاح اسمه (لطيف) والميم مفتاح اسمه (مجيد)، وقال آخرون: إنما ذكرت هذه الحروف في أوائل السور التي ذكرت فيها بياناً لـ (إعجاز القرآن) وأن الخلق عاجزون عن معارضته بمثله، مع أنه مركب من هذه الحروف المقطعة التي يتخاطبون بها، حكاة الرازي عن المبرد وجمع من المحققين، وحكاة القرطبي عن الفراء، وقرره الزمخشري ونصره أتم نصر، وإليه ذهب الإمام (ابن تيمية) وشيخنا الحافظ (أبو الحجاج المزي).

قال الزمخشري: ولم ترد كلها مجموعة في أول القرآن، وإنما كررت ليكون أبلغ في التحدي والتبكيث، كما كررت قصص كثيرة، وكرر التحدي الصريح في أماكن، وجاء منها على حرف واحد مثل ﴿ص﴾ و﴿حرفين مثل ﴿حم﴾ وثلاثة مثل ﴿آلم﴾ وأربعة مثل ﴿آلمص﴾ وخمسة مثل ﴿كهيعص﴾ لأن أساليب كلامهم منها ما هو على حرف وعلى حرفين وعلى ثلاثة وعلى أربعة وعلى خمسة لا أكثر من ذلك.

قال ابن كثير: ولهذا كل سورة افتتحت بالحروف فلا بد أن يذكر فيها الانتصار للقرآن، وبيان إعجازه وعظمته، وهذا معلوم بالاستقراء في تسع وعشرين سورة مثل: ﴿آلم﴾ ذلك الكتاب لا ريب فيه ﴿آلم﴾ الله لا إله إلا هو الحي القيوم. نزل عليك الكتاب بالحق ﴿آلمص﴾ كتاب أنزل إليك ﴿آلم﴾ كتاب أنزلناه إليك ﴿آلم﴾ تنزيل الكتاب لا ريب فيه ﴿حم﴾ تنزيل من الرحمن الرحيم ﴿وغير ذلك من الآيات الدالة على صحة ما ذهب إليه هؤلاء لمن أمعن النظر.

﴿ ذلك الكتاب ﴾ قال ابن عباس: أي هذا الكتاب. والعرب تعارض بين اسمي الإشارة فيستعملون كلاً منهما مكان الآخر وهذا معروف في كلامهم. والكتاب: القرآن، ومن قال: إن المراد بذلك الإشارة إلى التوراة والإنجيل فقد أبعده النجعة، وأغرق في التزع، وتكلف ما لا علم له به. والريب: الشك، أي لا شك فيه، روي ذلك عن أناس من أصحاب رسول الله ﷺ وقال ابن أبي حاتم: لا أعلم في هذا خلافاً.

وقد يستعمل الريب في التهمة، قال جميل :

بشيئة قالت : يا جميلُ أربني فقلتُ : كلانا يا بئينُ مريب

واستعمل أيضاً في الحاجة كما قال بعضهم :

قضينا من تهامة كل ريبٍ وخير ثم أجمنا السيوفاً

✓ والمعنى : إن هذا الكتاب (القرآن) لا شك فيه أنه نزل من عند الله كما قال تعالى : ﴿ تنزِيلُ الْكِتَابِ لِرَبِّ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ . وقال بعضهم : هذا خبرٌ ومعناه النهي ، أي لا ترتابوا فيه . وخصت الهداية للمتقين كما قال تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشَفَاءً ﴾ ، وقال : ﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شَفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ إلى غير ذلك من الآيات الدالة على اختصاص المؤمنين بالنفع بالقرآن، لأنه هو في نفسه هدى، ولكن لا يتأله إلا الأبرار كما قال تعالى : ﴿ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ . قال السدي : ﴿ هدى للمتقين ﴾ يعني نوراً للمتقين، وعن ابن عباس : المتقون هم المؤمنون الذين يتقون الشرك ويعملون بطاعة الله، وقال الحسن البصري : اتقوا ما حرم عليهم، وأدوا ما افترض عليهم . وقال قتادة : هم الذين نعتهم الله بقوله : ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ ﴾ ، واختيار ابن جرير أن الآية تعم ذلك كله، وهو كما قال . وفي الحديث الشريف : « لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يدع ما لا بأس به حذراً مما به بأس ^(١) » .

ويطلق الهدى ويراد به ما يقر في القلب من الإيمان، وهذا لا يقدر على خلقه في قلوب العباد إلا الله عز وجل . قال تعالى : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ ، وقال : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ ﴾ ، وقال : ﴿ مَنْ يَضَللِ اللَّهُ فَلَآ هَادِيَ لَهُ ﴾ . ويطلق ويراد به بيان الحق والدلالة عليه، قال تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ ، وقال : ﴿ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ ، وقال : ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى ﴾ .

وأصل التقوى التوقي مما يكره لأن أصلها (وَقَوَى) من الوقاية، قال الشاعر :

فَأَلْقَتْ قِنَاعاً دُونَهُ الشَّمْسُ وَأَنْقَتْ بِأَحْسَنِ مَوْصُولِينَ كَفٍ وَمَعْصَمِ

وسأل عمر (أبي بن كعب) عن التقوى فقال له : أما سلكت طريقاً ذا شوك؟ قال : بلى، قال : فما عملت؟

قال : شمّرتُ واجتهدتُ، قال : فذلك التقوى، وأخذ هذا المعنى ابن المعتز فقال :

خَلَّ الذُّنُوبَ صَغِيرَهَا وَكَبِيرَهَا ذَلِكَ التَّقَى
وَاصْنَعْ كَمَا شِئْتَ فَوْقَ أَرْضِ الشُّوكِ يَحْذَرُ مَا يَرَى
لَا تَحْقِرَنَّ صَغِيرَةً إِنَّ الْجِبَالَ مِنَ الْحَصَى

وفي سنن ابن ماجة عن رسول الله ﷺ أنه قال : « ما استفاد المرء بعد تقوى الله خيراً من زوجة سالحة، إن

نظر إليها سرته، وإن أمرها أطاعته، وإن أقسم عليها أبرته، وإن غاب عنها نصحتة في نفسها وماله ^(٢) » .

(١) رواه الترمذي وابن ماجة وقال الترمذي : حسن غريب .

(٢) رواه ابن ماجة عن أبي أمامة رضي الله عنه .

الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٣﴾

الإيمان في اللغة يُطلق على التصديق المحض كما قال تعالى: ﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾، وكما قال إخوة يوسف لأبيهم: ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾، وكذلك إذا استعمل مقروناً مع الأعمال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾. فأما إذا استعمل مطلقاً فالإيمان المطلوب لا يكون إلا اعتقاداً وقولاً وعملاً، هكذا ذهب أكثر الأئمة وحكاه الشافعي وأحمد إجماعاً: أن الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص. وقد ورد فيه آثار كثيرة أفردنا الكلام فيها في أول شرح البخاري والله الحمد والمنة، ومنهم من فسره بالخشية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ﴾، والخشية خلاصة الإيمان والعلم: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾.

وأما الغيب المراد ههنا فقد اختلفت عبارات السلف فيه، فقال أبو العالية: يؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله، وجنته ولقائه، وبالحياة بعد الموت فهذا غيبٌ كله. وقال السدي عن ابن عباس وابن مسعود: الغيب ما غاب عن العباد من أمر الجنة وأمر النار وما ذكر في القرآن. وقال عطاء: من آمن بالله فقد آمن بالغيب. فكل هذه متقاربة في معنى واحد والجميع مراد.

روى ابن كثير بسنده عن عبد الرحمن بن يزيد أنه قال: «كنا عند عبد الله بن مسعود جالوساً فذكرنا أصحاب النبي ﷺ وما سبقونا به، فقال عبد الله: إن أمر محمد ﷺ كان بيناً لمن رآه، والذي لا إله غيره ما آمن أحد قط إيماناً أفضل من إيمانٍ بغيب، ثم قرأ: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ - إِلَى قَوْلِهِ - الْمَفْلُحُونَ﴾^(١). وفي معنى هذا الحديث ما رواه أحمد عن (ابن محيريز) قال: قلت لأبي جمعة حدثنا حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ قال نعم أحدثك حديثاً جيداً: «تغدينا مع رسول الله ﷺ ومعنا أبو عبيدة بن الجراح فقال يا رسول الله: هل أحد خير منا؟ أسلمنا معك، وجاهدنا معك، قال: نعم، قومٌ من بعدكم يؤمنون بي ولم يروني^(٢)». وفي رواية أخرى عن صالح بن جبير قال: قدم علينا أبو جمعة الأنصاري، صاحب رسول الله ﷺ بيت المقدس يصلي فيه ومعنا يومئذ (رجاء بن حيوة) رضي الله عنه، فلما انصرف خرجنا نشيعه فلما أراد الانصراف قال: إن لكم جائزة وحقاً، أحدثكم بحديث سمعته من رسول الله ﷺ قلنا: هات رحمك الله، قال: كنا مع رسول الله ﷺ - ومعنا معاذ ابن جبل عشره - فقلنا يا رسول الله: هل من قومٍ أعظم منا أجراً؟ أمنا بك واتبعناك، قال: «ما يمنعكم من ذلك ورسول الله بين أظهركم يأتيكم بالوحي من السماء؟ بل قوم بعدكم يأتيهم كتاب من بين لوحين، يؤمنون به ويعملون بما فيه، أولئك أعظم منكم أجراً، أولئك أعظم منكم أجراً»^(٣).

وقوله تعالى: ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ قال ابن عباس إقامة الصلاة: إتمام الركوع والسجود، والتلاوة والخشوع، والإقبال عليها فيها. وقال قتادة: إقامة الصلاة: المحافظة على مواقيتها ووضوئها، وركوعها وسجودها.

(١) رواه ابن أبي حاتم وابن مردويه والحاكم: وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

(٢) رواه أحمد عن أبي جمعة الأنصاري وله طرق أخرى.

(٣) رواه أبو بكر بن مردويه في تفسيره عن صالح بن جبير عن أبي جمعة.

وأصل الصلاة في كلام العرب الدعاء ، قال الأعشى :

لها حارسٌ لا يبرح الدهرَ بيَّتها وإن ذبحت صلّى عليها وزمزا

وقال الأعشى أيضاً :

عليك مثل الذي صليتِ فاغتمضي نوماً فإن لجنب المرء مضطجعا

يقول : عليك من الدعاء مثل الذي دعيت له لي. وهذا ظاهر؛ ثم استعملت الصلاة في الشرع في ذات الركوع والسجود بشروطها المعروفة وصفاتها المشهورة .

﴿ وممّا رزقناهم ينفقون ﴾ قال ابن عباس: زكاة أموالهم. وقال ناس من أصحاب رسول الله ﷺ: نفقة الرجل على أهله، وهذا قبل أن تنزل الزكاة. وقال قتادة: فأنفقوا مما أعطاكم الله، هذه الأموال عوارٍ وودائع عندك يا ابن آدم يوشك أن تفارقها. واختار ابن جرير أن الآية عامة في الزكاة والنفقات. قال ابن كثير: كثيراً ما يقرن الله تعالى بين الصلاة والإنفاق من الأموال، فإن الصلاة حق الله وعبادته وهي مشتملة على توحيدهِ والثناء عليه، وتمجيدهِ والابتهاج إليه، ودعائه والتوكل عليه، والإنفاق هو الإحسان إلى المخلوقين بالنفع المتعدي إليهم، وأولى الناس بذلك القربات والأهلون والماليك ثم الأجانب، فكل من النفقات الواجبة والزكاة المفروضة داخلٌ في قوله تعالى: ﴿ وممّا رزقناهم ينفقون ﴾ .

وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾

قال ابن عباس: أي يصدّقون بما جئت به من الله وما جاء به من قبلك من المرسلين، لا يفرّقون بينهم ولا يحقدون ما جاءهم به من ربهم ﴿ وبالآخرة هم يوقنون ﴾ أي بالبعث والقيامة، والجنة والنار، والحساب والميزان، وإنما سميت (الآخرة) لأنها بعد الدنيا. وقد اختلف المفسرون في الموصوفين هنا على ثلاثة أقوال حكاها ابن جرير :

أحدها : أن الموصوفين أولاً هم الموصوفون ثانياً، وهم كل مؤمنٍ، مؤمنو العرب ومؤمنو أهل الكتاب .

والثاني : هم مؤمنو أهل الكتاب، وعلى هذين تكون الواو عاطفة صفاتٍ على صفات كما قال تعالى :

﴿ سبح اسم ربك الأعلى . الذي خلق فسوّى . والذي قدرّ فهدى ﴾ فعطف الصفات بعضها على بعض .

والثالث : أن الموصوفين أولاً مؤمنو العرب، والموصوفون ثانياً بقوله: ﴿ يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك ﴾ هم مؤمنو أهل الكتاب، واختاره ابن جرير ويستشهد بقوله تعالى: ﴿ وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله

وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم ﴾ ، وبقوله تعالى: ﴿ الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون . وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين ﴾ ، وبما روي عن رسول الله ﷺ أنه قال : « ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين: رجل من أهل الكتاب آمن بنية وآمن بي، ورجل مملوك أدّى حق الله وحق مواليه، ورجل أدب جاريتته

فأحسن تأديبها ثم أعتقها وتزوجها^(١) .

قلت : والظاهر قول مجاهد: أربع آيات من سورة البقرة في نعت المؤمنين، وآيتان في نعت الكافرين، وثلاث عشرة في المناقين، فهذه الآيات الأربع عامة في كل مؤمن اتصف بها من عربي وعجمي وكتابي، من إنسي وجني، وليس تصح واحدة من هذه الصفات بدون الأخرى، بل كل واحدة مستلزمة للأخرى وشرط معها، فلا يصح الإيمان بالغيب إلا مع الإيمان بما جاء به الرسول، وما جاء به من قبله من الرسل، والإيقان بالآخرة، كما أن هذا لا يصح إلا بذلك، وقد أمر الله المؤمنين بذلك كما قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا . آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِنْ قَبْلُ ﴾ وقال تعالى: ﴿ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أَنزَلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَيْنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ ﴾ . وأخبر تعالى عن المؤمنين كلهم بذلك فقال: ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ ، كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ ، لَا نَفَرَقَ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ ﴾ الآية .

أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٦﴾

يقول تعالى: ﴿ أولئك ﴾ أي المتصفون بما تقدم من الإيمان بالغيب، وإقام الصلاة، والانفاق من الذي رزقهم الله، والإيمان بما أنزل إلى الرسول، والإيقان بالآخرة ﴿ على هدى ﴾ أي على نور وبيان وبصيرة من الله تعالى، ﴿ وأولئك هم المفلحون ﴾ أي في الدنيا والآخرة، وقال ابن عباس ﴿ على هدى من ربهم ﴾ أي على نور من ربهم واستقامة على ما جاءهم به ﴿ وأولئك هم المفلحون ﴾ أي الذين أدركوا ما طلبوا، ونجوا من شر ما هربوا .

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾

يقول تعالى: ﴿ إن الذين كفروا ﴾ أي غطوا الحق وستروه، سواء عليهم إنذارك وعدمه، فإنهم لا يؤمنون بما جئتهم به كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ أي إن من كتب الله عليه الشقاوة فلا مسعد له، ومن أضله فلا هادي له، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات، وبلغهم الرسالة، فمن استجاب لك فله الحظ الأوفر، ومن تولى فلا يهمنك ذلك ﴿ فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب ﴾ .

وعن ابن عباس في قوله ﴿ إن الذين كفروا .. ﴾ الآية قال: كان رسول الله ﷺ يحرص أن يؤمن جميع الناس ويتابعوه على الهدى، فأخبره الله تعالى أنه لا يؤمن إلا من سبق له من الله السعادة في الذكر الأول، ولا يضل إلا من سبق له من الله الشقاء في الذكر الأول .

وقوله تعالى: ﴿ لا يؤمنون ﴾ جملة مؤكدة للتي قبلها أي هم كفار في كلا الحالين .

(١) رواه الشيخان عن أبي موسى الأشعري .

خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةً وَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾

﴿ختم الله﴾ أي طبع على قلوبهم وعلى سمعهم ﴿وعلى أبصارهم غشاوة﴾ فلا يبصرون هدى، ولا يسمعون ولا يفقهون ولا يعقلون. قال مجاهد: الختم: الطبع، ثبتت الذنوب على القلب فحقت به من كل نواحيه حتى تلتقي عليه، فالتقاؤها عليه الطبع، والطبع الختم، وقد وصف تعالى نفسه بالختم والطبع على قلوب الكافرين مجازة لكفرهم كما قال: ﴿بل طبع الله عليها بكفرهم﴾، وفي الحديث: «يا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك».

قال ابن جرير: وقال بعضهم: إن معنى قوله تعالى: ﴿ختم الله على قلوبهم﴾ إخبار من الله عن تكبرهم وإعراضهم عن الاستماع لما دُعوا إليه من الحق، كما يقال: فلان أصم عن هذا الكلام، إذا امتنع من سماعه ورفع نفسه عن تفهمه تكبراً، قال: وهذا لا يصح لأن الله قد أخبر أنه هو الذي ختم على قلوبهم وأسماعهم. قلت: وقد أطنب الزمخشري في تقرير ما رده ابن جرير ههنا، وتناول الآية من خمسة أوجه وكلها ضعيفة جداً، وما جرأه على ذلك إلا اعتزاله، لأن الختم على قلوبهم ومنعها من وصول الحق إليها قبيح عنده يتعالى الله عنه في اعتقاده. ولو فهم قوله تعالى: ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾، وقوله: ﴿ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة﴾ وما أشبه ذلك من الآيات الدالة على أنه تعالى إنما ختم على قلوبهم وحال بينهم وبين الهدى جزاء وفاقاً على تماديهم في الباطل وتركهم الحق - وهذا عدل منه تعالى حسن وليس بقبيح - فلو أحاط علماً بهذا لما قال ما قال.

قال ابن جرير: والحق عندي في ذلك ما صح بنظيره الخبر عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن المؤمن إذا أذنب ذنباً كانت نكتة سوداء في قلبه، فإن تاب ونزع واستعجب صقل قلبه، وإن زاد زادت حتى تعلق قلبه، فذلك الران الذي قال الله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾^(١). فأخبر ﷺ أن الذنوب إذا تتابعت على القلوب أغلقتها، وإذا أغلقتها أتاها حيثئذ الختم من قبل الله تعالى والطبع، فلا يكون للإيمان إليها مسلك، ولا للكفر عنها مخلص، فذلك هو الختم والطبع الذي ذكره الله في قوله: ﴿ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم﴾ نظير الطبع والختم على ما تدرکه الأبصار من الأوعية والظروف.

وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَدِّعُونَ اللَّهَ وَالدِّينَ ءَامِنُونَ وَمَا يُخَدِّعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾

لما تقدم وصف المؤمنين في صدر السورة بأربع آيات، ثم عرف حال الكافرين بآيتين، شرع تعالى في بيان حال المنافقين، الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر، ولما كان أمرهم يشبهه على كثير من الناس، أطنب في ذكرهم بصفات متعددة، كل منها نفاق، كما أنزل سورة «براءة» وسورة «المنافقين» فيهم، وذكرهم في سورة «النور»

(١) رواه الترمذي والنسائي وابن ماجه عن أبي هريرة وقال الترمذي: حسن صحيح. ومعنى استعجب: رجع عن الاساءة، وطلب الرضى. كذا في النهاية لابن الأثير.

وغيرها من السور، تعريفاً لأحوالهم لتجتنب ويُجتنب من تلبس بها أيضاً، فقال تعالى: ﴿ومن الناس من يقول آمنا بالله ..﴾ الآيات .

والنفاق: هو إظهار الخير وإسرار الشر، وهو أنواع: اعتقادي وهو الذي يخلد صاحبه في النار، وعملي: وهو من أكبر الذنوب، لأن المنافق يخالف قوله فعله، وسره علانيته، وإنما نزلت صفات المنافقين في السور المدنية، لأن مكة لم يكن فيها نفاق بل كان خلافه، ولهذا نبه الله سبحانه على صفات المنافقين لثلاث يغتر بظاهر أمرهم المؤمنون، فيقع لذلك فساد عريض من عدم الاحتراز منهم، ومن اعتقاد إيمانهم وهم كفار في نفس الأمر، وهذا من المحذورات الكبار أن يظن بأهل الفجور خيراً، فقال تعالى: ﴿ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر﴾ أي يقولون ذلك قولاً كما قال تعالى: ﴿إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله﴾، أي إنما يقولون ذلك إذا جاعوك فقط لا في نفس الأمر، وليس الأمر كذلك، كما كذبهم الله في شهادتهم بقوله: ﴿والله يشهد إن المنافقين لكاذبون﴾ وفي اعتقادهم بقوله: ﴿وما هم بمؤمنين﴾ .

وقوله تعالى: ﴿يخادعون الله والذين آمنوا﴾ أي بإظهار ما أظهروه من الإيمان مع إسرارهم الكفر، يعتقدون - بجهلهم - أنهم يخدعون الله بذلك وأن ذلك نافعهم عنده، وأنه يروج عليه كما قد يروج على بعض المؤمنين، ولهذا قابلهم على اعتقادهم ذلك بقوله: ﴿وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون﴾ أي ما يغترون بصنيعهم هذا إلا أنفسهم، وما يشعرون بذلك من أنفسهم كما قال تعالى: ﴿إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم﴾، ومن القراء من قرأ: (وما يخادعون) وكلا القراءتين يرجع إلى معنى واحد .

فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾

﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ أي شك ﴿فزادهم الله مرضاً﴾ شكاً، وعن ابن عباس ﴿مرضٌ﴾ نفاق ﴿فزادهم الله مرضاً﴾ نفاقاً، وهذا كالأول. وقال عبدالرحمن بن أسلم: هذا مرضٌ في الدين وليس مرضاً في الأجساد، والمرض الشك الذي دخلهم في الإسلام ﴿فزادهم الله مرضاً﴾ أي زادهم رجساً. وقرأ: ﴿فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون . وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم﴾ يعني شراً إلى شرهم، وضلالة إلى ضلالتهم وهذا الذي قاله هو الجزء من جنس العمل. ﴿ولهم عذابٌ أليمٌ بما كانوا يكذبون﴾ وقرئ (يَكْذِبُونَ) و (يُكْذِبُونَ) وقد كانوا متصفين بهذا وهذا، فإنهم كانوا كاذبة ويكذبون بالغيب، يجمعون بين هذا وهذا، وحكمة كفه عليه الصلاة والسلام عن قتل المنافقين، مع علمه بأعيان بعضهم ما ثبت في الصحيحين أنه ﷺ قال لعمر رضي الله عنه: «أكره أن يتحدث العرب أن محمداً يقتل أصحابه»^(١)، ومعنى هذا خشية عليه السلام أن يقع بسبب ذلك تغير لكثير من الأعراب عن الدخول في الإسلام، ولا يعلمون حكمة قتله لهم، وأن قتله إياهم إنما هو على الكفر، فإنهم إنما يأخذونه بمجرد ما يظهر لهم فيقولون: إن محمداً يقتل أصحابه. وقال الشافعي: إنما منع رسول الله ﷺ من قتل المنافقين ما كانوا يظهرونه من الإسلام مع العلم بنفاقهم، لأن ما يظهرونه يجب ما قبله، وفي الحديث المجمع على صحته: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله عز وجل»^(٢).

(١) هو جزء من حديث شريف أخرجه الشيخان . (٢) أخرجه الشيخان وهو حديث متواتر .

ومعنى هذا أن من قالها جرت عليه أحكام الإسلام ظاهراً، فإن كان يعتقد أنها وجد ثواب ذلك في الآخرة، وإن لم يعتقد أنها لم ينفعه جريان الحكم عليه في الدنيا: ﴿ينادونهم ألم نكن معكم قالوا بلى ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغررتكم الأماني حتى جاء أمر الله﴾ الآية فهم يخالطونهم في المحشر فإذا حقت المحقوقة تميزوا منهم وتخلفوا بعدهم ﴿وحيل بينهم وبين ما يشتهون﴾ .

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لَّا يَسْعُرُونَ ﴿١٢﴾

قال السدي عن ابن مسعود وعن أناس من أصحاب النبي ﷺ : هم المنافقون، والفساد في الأرض هو الكفر والعمل بالمعصية، وقال أبو العالية: ﴿لا تفسدوا في الأرض﴾ يعني لا تعصوا في الأرض، وكان فسادهم ذلك معصية الله، لأنه من عصى الله في الأرض، أو أمر بمعصيته فقد أفسد في الأرض، لأن صلاح الأرض والساء بالطاعة، وقال مجاهد: إذا ركبوا معصية الله فليل لهم: لا تفعلوا كذا وكذا قالوا: إنما نحن على الهدى مصلحون .

قال ابن جرير: فأهل النفاق مفسدون في الأرض بمعصيتهم ربهم، وركوبهم ما نهاهم عن ركوبه، وتضييعهم فرائضه، وشكهم في دينه، وكذبهم المؤمنين بدعواهم غير ما هم مقيمون عليه من الشك والريب، ومظاهرتهم أهل التكذيب بالله وكتبه ورسله على أولياء الله إذا وجدوا إلى ذلك سبيلاً، فذلك إفساد المنافقين في الأرض، وهم يحسبون أنهم يفعلهم ذلك مصلحون فيها. فللنفاق لما كان ظاهره الإيمان اشتبه أمره على المؤمنين، وغرهم بقوله الذي لا حقيقة له، ووالى الكافرين على المؤمنين، ولو أنه استمر على حاله الأول لكان شره أخف، ولهذا قال تعالى: ﴿وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون﴾ أي نريد أن نداري الفريقين من المؤمنين والكافرين، ونصطليح مع هؤلاء وهؤلاء، قال ابن عباس: ﴿إنما نحن مصلحون﴾ أي إنما نريد الإصلاح بين الفريقين من المؤمنين وأهل الكتاب. يقول الله تعالى: ﴿ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون﴾ يقول: ألا إن هذا الذي يزعمون أنه إصلاح هو عين الفساد، ولكن من جهلهم لا يشعرون بكونه فساداً .

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾

يقول تعالى: ﴿وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس﴾ أي كإيمان الناس بالله وملائكته وكتبه ورسله، والبعث بعد الموت، والجنة والنار، وغير ذلك مما أخبر المؤمنين به، وأطيعوا الله ورسوله في امثال الأوامر، وترك الزواجر ﴿قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء﴾؟ يعنون - لعنهم الله - أصحاب رسول الله ﷺ، يقولون: أنصير نحن وهؤلاء بمنزلة واحدة، وعلى طريقة واحدة، وهم سفهاء؟

والسفيه: هو الجاهل الضعيف الرأي، القليل المعرفة بالمصالح والمضار، ولهذا سمي الله النساء والصبيان سفهاء

في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَتُوتُوا السَّفَهَاءَ أَمْوَالِكُمْ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا ﴾ وقد تولى سبحانه جوابهم في هذه المواطن كلها فقال: ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السَّفَهَاءُ ﴾ فأكد وحصر السفاهة فيهم ﴿ ولكن لا يعلمون ﴾ يعني ومن تمام جهلهم أنهم لا يعلمون بحالهم في الضلالة والجهل، وذلك أبلغ في العمى والبعد عن الهدى .

وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾

أي، وإذا لقي هؤلاء المنافقون المؤمنين قالوا آمنا ، وأظهروا لهم الإيمان والموالة، غروراً منهم للمؤمنين ونفاقاً ومصانعة وتقية، وليشركوهم فيما أصابوا من خير ومغم. ﴿ وإذا خلوا إلى شياطينهم ﴾ يعني إذا انصرفوا وخلصوا إلى شياطينهم، فضمن « خلوا » معنى انصرفوا لتعديته بإلى ليدل على الفعل المضمر ، وشياطينهم سادتهم وكبرائوهم، ورؤسأوهم من أبحار اليهود، ورؤوس المشركين والمنافقين، قال السدي عن ابن مسعود ﴿ وإذا خلوا إلى شياطينهم ﴾ يعني رؤسأهم في الكفر، وقال ابن عباس: هم أصحابهم من اليهود الذين يأمرونهم بالتكذيب وخلاف ما جاء به الرسول ﷺ ، وقال مجاهد: أصحابهم من المنافقين والمشركين، وقال قتادة: رؤوسهم وقادتهم في الشرك والشرك، قال ابن جرير: وشياطين كل شيء مردته، ويكون الشيطان من الإنس والجن كما قال تعالى: ﴿ شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً ﴾ ، وقوله تعالى: ﴿ قالوا إنا معكم ﴾ أي إنا على مثل ما أتم عليه ﴿ إنما نحن مستهزون ﴾ أي إنما نستهزئ بالقوم ونلعب بهم، وقال ابن عباس: ﴿ مستهزون ﴾ ساخرون بأصحاب محمد ﷺ ، وقوله تعالى جواباً لهم ومقابلة على صنيعهم: ﴿ الله يستهزئ بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون ﴾ ، قال ابن عباس: يسخر بهم للنعمة منهم ﴿ ويمدهم ﴾ يملئ لهم، وقال مجاهد: يزيدهم كقوله تعالى: ﴿ أياحسبون أنما نمدهم به من مال وبينن نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون ﴾ ، قال ابن جرير: أخبر تعالى أنه فاعل بهم ذلك يوم القيامة في قوله تعالى: ﴿ يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم ﴾ الآية، وفي قوله: ﴿ ولا يحسن الذين كفروا أنما نملي لهم خير لأنفسهم إنما نملي لهم ليزدادوا إثماً ﴾ الآية، قال: فهذا وما أشبهه من استهزاء الله تعالى ومكره وخديعته بالمنافقين وأهل الشرك، وقال آخرون: استهزأه بهم توييخه إياهم، ولومه لهم على ما ارتكبوا من معاصيه، وقال آخرون: قوله: ﴿ الله يستهزئ بهم ﴾ ، وقوله: ﴿ يخادعون الله وهو خادعهم ﴾ ، وقوله: ﴿ نسوا الله فنسيهم ﴾ وما أشبه ذلك إخبار من الله أنه مجازيهم جزاء الاستهزاء، ومعاقبهم عقوبة الخداع، فأخرج الخبر عن الجزء مخرج الخبر عن الفعل الذي استحقوا العقاب عليه، فاللفظ متفق والمعنى مختلف^(١) كما قال تعالى: ﴿ وجزاء سيئة سيئة مثلها ﴾ ، وقوله: ﴿ فن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه ﴾ فالأول ظلم والثاني عدل، فهما وإن اتفق لفظهما فقد اختلف معناهما، وإلى هذا المعنى وجهوا كل ما في القرآن من نظائر

(١) وهو قول أبي العالية والسدي والربيع بن أنس وغيرهم .

(٢) يسمى هذا النوع عند علماء البيان (المشاكلة) وهو أن تتفق الجملتان في اللفظ وتختلفا في المعنى كقول القائل :

قالوا اقترح شيئاً نجد لك طبخه قلت : اطبخوا لي جبة وقميصا

ذلك. والعمه: الضلال، يقال: عمه عمهاً إذا ضل، وقوله: ﴿فِي طغيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ أي في ضلالتهُم وكفرهم يترددون حيارى، لا يجدون إلى المخرج منه سبيلاً لأن الله قد طبع على قلوبهم، وختم عليها، وأعمى أبصارهم عن الهدى فلا يبصرون رشداً ولا يهتدون سبيلاً، وقال بعضهم: العمه في القلب، والعمى في العين، وقد يستعمل العمى في القلب أيضاً كما قال تعالى: ﴿فَإِنهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارَ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبَ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ .

أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالََةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾

قال السدي عن ابن مسعود وعن ناس من الصحابة ﴿أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى﴾ أخذوا الضلالة وتركوا الهدى، وعن ابن عباس ﴿أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى﴾ أي الكفر بالإيمان، وقال مجاهد: آمنوا ثم كفروا، وقال قتادة: استحبوا الضلالة على الهدى. وهذا الذي قاله قتادة يشبهه في المعنى قوله تعالى في ثمود: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾ .

وحاصل قول المفسرين فيما تقدم: أن المنافقين عدلوا عن الهدى إلى الضلال، واعتاضوا عن الهدى بالضلالة، وهو معنى قوله تعالى: ﴿أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى﴾ أي بذلوا الهدى ثمناً للضلالة، ولهذا قال تعالى: ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ أي ما ربحت صفقتهم في هذه البيعة، وما كانوا مهتدين أي راشدين في صنيعهم ذلك. وقال ابن جرير عن قتادة: ﴿فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين﴾ قد والله رأيتوهم خرجوا من الهدى إلى الضلالة، ومن الجماعة إلى الفرقة، ومن الأمن إلى الخوف، ومن السنة إلى البدعة.

مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾

صم بكر عمى فهم لا يرجعون ﴿١٨﴾

يقال: مثل، والجمع أمثال، قال الله تعالى: ﴿وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون﴾، وتقدير هذا المثل أن الله سبحانه شبههم في اشتراهم الضلالة بالهدى، وصيرورتهم بعد البصيرة إلى العمى، بمن استوقد ناراً، فلما أضاءت ما حوله، وانتفع بها وأبصر بها ما عن يمينه وشماله، وتأنس بها... فيينا هو كذلك إذ طفت ناره وصار في ظلام شديد، لا يبصر ولا يهتدي وهو مع هذا (أصم) لا يسمع، (أبكم) لا ينطق، (أعمى) لو كان ضياءً لما أبصر، فلماذا لا يرجع إلى ما كان عليه قبل ذلك، فكذلك هؤلاء المنافقون في استبدالهم الضلالة عوضاً عن الهدى، واستحبابهم الغي على الرشد، وفي هذا المثل دلالة على أنهم آمنوا ثم كفروا، كما أخبر تعالى عنهم في غير هذا الموضع والله أعلم.

وقال الرازي: والتشبيه ههنا في غاية الصحة لأنهم بإيمانهم اكتسبوا أولاً نوراً، ثم بنفاقهم ثانياً أبطلوا ذلك، فوقعوا في حيرة عظيمة، فإنه لا حيرة أعظم من حيرة الدين.

وصح ضرب مثل الجماعة بالواحد كما قال تعالى: ﴿مثل الذين حُمِلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كمثل الحمار

يحمل أسفاراً ﴿١٩﴾. وقال بعضهم: تقدير الكلام مثل قصتهم كقصّة الذين استوقدوا ناراً، وقد التفت في أثناء المثل من الواحد إلى الجمع في قوله تعالى: ﴿فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون. صم بكم عمي فهم لا يرجعون﴾، وهذا أفصح في الكلام وأبلغ في النظام.

وقوله تعالى: ﴿ذهب الله بنورهم﴾ أي ذهب عنهم بما ينفعهم وهو النور وأبقى لهم ما يضرهم وهو الإحراق والدخان، ﴿وتركهم في ظلمات﴾ وهو ما هم فيه من الشك والكفر والنفاق. ﴿لا يبصرون﴾ لا يهتدون إلى سبيل خير ولا يعرفونها، وهم مع ذلك ﴿صم﴾ لا يسمعون خيراً، ﴿بكم﴾ لا يتكلمون بما ينفعهم، ﴿عمي﴾ في ضلالة وعماية البصيرة، كما قال تعالى: ﴿فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور﴾، فلهذا لا يرجعون إلى ما كانوا عليه من الهداية التي باعوها بالضلالة.

وقال عبدالرحمن بن زيد بن أسلم في قوله تعالى: ﴿مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً﴾ إلى آخر الآية... قال: هذه صفة المنافقين، كانوا قد آمنوا حتى أضاء الإيمان في قلوبهم كما أضاءت النار لهؤلاء الذين استوقدوا ناراً، ثم كفروا فذهب الله بنورهم فانتزع كما ذهب بضوء هذه النار فتركهم في ظلمات لا يبصرون.

أَوْ كَصَيْبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٢٠﴾ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢١﴾

هذا مثل آخر ضربه الله تعالى لضرب آخر من المنافقين، وهم قوم يظهر لهم الحق تارة ويشكون تارة أخرى، فقلوبهم في حال شكهم وكفرهم وترددهم (كصيب) والصيب: المطر نزل من السماء في حال ظلمات وهي الشكوك والكفر والنفاق، و (رعد): وهو ما يزعج القلوب من الخوف، فإن من شأن المنافقين الخوف الشديد والفرع كما قال تعالى: ﴿يحسبون كل صيحة عليهم﴾، وقال: ﴿ويحلفون بالله إنهم لمنكم وما هم منكم ولكنهم قوم يفرقون، لو يجلدون ملجأً أو مغاراتٍ أو مدخلاً لولوا إليه وهم يجمعون﴾. (والبرق): هو ما يلمع في قلوب هؤلاء الضرب من المنافقين في بعض الأحيان من نور الإيمان، ولهذا قال: ﴿يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين﴾ أي ولا يجدي عنهم حذرهم شيئاً لأن الله محيط بهم بقدرته، وهم تحت مشيئته وإرادته، كما قال: ﴿هل أتاك حديث الجنود. فرعون وثمود. بل الذين كفروا في تكذيب. والله من ورائهم محيط﴾ أي بهم، ثم قال: ﴿يكاد البرق يخطف أبصارهم﴾ أي لشدة وقوته في نفسه وضعف بصائرهم وعدم ثباتها للإيمان.

قال ابن عباس: ﴿يكاد البرق يخطف أبصارهم﴾ أي لشدة ضوء الحق ﴿كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا﴾ أي كلما ظهر لهم من الإيمان شيء استأنسوا به واتبعوه، وتارة تعرض لهم الشكوك أظلمت قلوبهم فوقفوا حائرين. وعن ابن عباس: يعرفون الحق ويتكلمون به، فهم من قولهم به على استقامة فإذا ارتكسوا منه إلى الكفر قاموا: أي متحيرين. وهكذا يكونون يوم القيامة عندما يعطى الناس النور بحسب إيمانهم، فمنهم من يعطى من النور

ما يضيء له مسيرة فراسخ وأكثر من ذلك وأقل من ذلك، ومنهم من يطفأ نوره تارة ويضيء أخرى، ومنهم من يمشي على الصراط تارة ويقف أخرى، ومنهم من يطفأ نوره بالكلية وهم الخُلص من المنافقين الذين قال تعالى فيهم: ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا﴾ . وقال في حق المؤمنين: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بِشْرَاكُمَ الْيَوْمَ جَنَاتُ تُجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ الآية . وقال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ . نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ . يَقُولُونَ رَبَّنَا أَنْتُمْ لَنَا نُورٌ . وَاغْفِرْ لَنَا نُورَنَا . وَانكُفِّرْ بِنُورِكُمْ﴾ .

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ . عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ﴾ ، قال: لما تركوا من الحق بعد معرفته، ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ : أي إن الله على كل ما أراد بعباده من نعمة أو عفو قدير . وقال ابن جرير: إنما وصف الله تعالى نفسه بالقدرة على كل شيء في هذا الموضع لأنه حذر المنافقين بأسه وسطوته وأخبرهم أنه بهم محيط، وعلى إذهاب أسماعهم وأبصارهم قدير . ومعنى (قدير) قادر كما معنى (عليم) عالم . وذهب ابن جرير ومن تبعه من كثير من المفسرين إلى أن هذين المثليين مضروبان لصنف واحد من المنافقين . وتكون (أو) في قوله تعالى: ﴿أَوْ كَصَيْبٍ مِنَ السَّمَاءِ﴾ بمعنى الواو، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْعَمُ مِنْهُمُ آثْمًا أَوْ كَفُورًا﴾ ، أو تكون للتخيير . أي اضرب لهم مثلاً بهذا وإن شئت بهذا . قال القرطبي: أو للتساوي مثل جالس الحسن أو ابن سيرين ، ووجهه الزمخشري بأن كلاهما مساو للآخر في إباحة الجلوس إليه ويكون معناه على قوله: سواء ضربت لهم مثلاً بهذا أو بهذا فهو مطابق لحالهم .

(قلت): وهذا يكون باعتبار جنس المنافقين فإنهم أصناف ولهم أحوال وصفات، كما ذكرها الله تعالى في سورة (براءة) - ومنهم - ومنهم - ومنهم - يذكر أحوالهم وصفاتهم وما يعتمدونه من الأفعال والأقوال، فجعل هذين المثليين لصنفين منهم أشد مطابقة لأحوالهم وصفاتهم والله أعلم، كما ضرب المثليين في سورة (النور) لصنفي الكفار الدعاة والمقلدين، في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بَقِيعةٍ﴾ ، إلى أن قال: ﴿أَوْ كظلمات في بحر لجي﴾ الآية . فالأول للدعاة الذين هم في جهل مركب، والثاني لذوي الجهل البسيط من الأتباع المقلدين، والله أعلم بالصواب .

يَأْتِيهَا النَّاسُ عِبْدُوا رَبَّكَ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فَرَشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْجَحَ بِهِ مِنْ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾

شرح تعالى في بيان وحدانية ألوهيته بأنه هو المنعم على عبده بإخراجهم من العدم إلى الوجود، وإسباغه عليهم النعم الظاهرة والباطنة، بأن جعل لهم الأرض فراشاً: أي مهداً كالفرش، مقررة موطأة مثبتة كالرواسي الشامخات. ﴿والسمااء ببناء﴾ وهو السقف، كما قال تعالى: ﴿وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً وهم عن آياتها معرضون﴾ ، ﴿وأَنْزَلَ

من السماء ماء ﴿﴾ والمرادُ به السحاب ههنا في وقته عند احتياجهم إليه، فأخرج لهم به من أنواع الزروع والثمار رزقاً لهم ولأنعامهم. ومضمونه: أنه الخالق الرازق مالك الدار وساكنيها ورازقهم، فهذا يستحق أن يعبد وحده ولا يشرك به غيره، ولهذا قال: ﴿﴾ فلا تجعلوا لله أنداداً وأتم تعلمون ﴿﴾. وفي الصحيحين عن ابن مسعود قال، قلت: يا رسول الله أيُّ الذنب أعظم عند الله؟ قال: « أن تجعل لله نداً وهو خلقك » الحديث. وكذا حديث معاذ: أتدري ما حق الله على عباده؟ « أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً »^(١) الحديث، وفي الحديث الآخر: « لا يقولن أحدكم ما شاء الله وشاء فلان ولكن ليقبل ما شاء الله ثم شاء فلان ». وعن ابن عباس قال: قال رجل للنبي ﷺ: ما شاء الله وشئت، فقال: « أجعلتني لله نداً؟ قل ما شاء الله وحده »^(٢)، وهذا كله صيانة وحماية لجناب التوحيد والله أعلم.

قال ابن عباس، قال الله تعالى: ﴿﴾ يا أيها الناس اعبدوا ربكم ﴿﴾ للفريقين جميعاً من الكفار والمنافقين، أي وحدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم. وعنه أيضاً ﴿﴾ فلا تجعلوا لله أنداداً وأتم تعلمون ﴿﴾: أي لا تشركوا بالله غيره من الأنداد التي لا تنفع ولا تضر ﴿﴾ وأتم تعلمون ﴿﴾ أنه لا رب لكم يرزقكم غيره. وقد علمتم أن الذي يدعوكم إليه الرسول ﷺ من التوحيد هو الحق الذي لا شك فيه. قال أبو العالية: ﴿﴾ فلا تجعلوا لله أنداداً ﴿﴾ أي عدلاء شركاء، وقال مجاهد ﴿﴾ فلا تجعلوا لله أنداداً وأتم تعلمون ﴿﴾ قال: تعلمون أنه إله واحد في التوراة والإنجيل.

(ذكر حديث في معنى هذه الآية الكريمة)

روى الإمام أحمد بسنده عن الحارث الأشعري أن نبي الله ﷺ قال: « إن الله عز وجل أمر يحيى بن زكريا عليه السلام بخمس كلمات أن يعمل بهن وأن يأمر بني إسرائيل أن يعملوا بهن، وأنه كاد أن يبطئ بها فقال له عيسى عليه السلام إنك قد أمرت بخمس كلمات أن تعمل بهن وتأمر بني إسرائيل أن يعملوا بهن، فإما أن تبلغهن وإما أن أبلغهن؟ فقال: يا أخي إني أخشى إن سبقتني أن أعذب أو يُخسف بي. قال: فجمع يحيى بن زكريا بني إسرائيل في بيت المقدس حتى امتلأ المسجد، فقع على الشرف فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: إن الله أمرني بخمس كلمات أن أعمل بهن وأمركم أن تعملوا بهن. أولهن أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً فإن مثل ذلك كمثل رجل اشترى عبداً من خالص ماله بورقٍ أو ذهب فجعل يعمل ويؤدي غلته إلى غير سيده، فأيكم يسره أن يكون عبده كذلك؟ وإن الله خلقكم ورزقكم فاعبدوه ولا تشركوا به شيئاً. وأمركم بالصلاة فإن الله ينصب وجهه لوجه عبده ما لم يلتفت فإذا صلّيتم فلا تلتفتوا. وأمركم بالصيام فإن مثل ذلك كمثل رجل معه صرة من مسك في عصابة كلهم يجدر ريح المسك وإن خلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك. وأمركم بالصدقة فإن مثل ذلك كمثل رجل أسره العدو فشدها يديه إلى عنقه وقدموه ليضربوا عنقه فقال لهم هل لكم أن أفتدي نفسي منكم؟ فجعل يفتدي نفسه منهم بالقليل والكثير حتى فك نفسه. وأمركم بذكر الله كثيراً وإن مثل ذلك كمثل رجل طلبه العدو سراعاً في أثره فأتى حصناً حصيناً فتحصن فيه، وإن العبد أحصن ما يكون من الشيطان إذا كان في ذكر الله ».

(٢) أخرجه النسائي وابن ماجه من حديث عيسى بن يونس .

(١) هو جزء من حديث أخرجه الشيخان .

قال، وقال رسول الله ﷺ: «وأنا أمركم بخمس؛ الله أمرني بهن: الجماعة، والسمع، والطاعة، والهجرة، والجهاد في سبيل الله. فإنه من خرج من الجماعة قيد شبر فقد خلع ربة الإسلام من عنقه إلا أن يراجع، ومن دعا بدعوى جاهلية فهو من جثي جهنم»، قالوا: يا رسول الله وإن صام وصلى، فقال: «وإن صلى وصام وزعم أنه مسلم فادعوا المسلمين بأسمائهم على ما سَمَّاهم الله عز وجل المسلمين المؤمنين عباد الله» هذا حديث حسن.

وهذه الآية دالة على توحيدة تعالى بالعبادة وحده، فإن من تأمل هذه الموجودات علم قدرة خالقها وحكمته، وعلمه وإتقانه، وعظيم سلطانه، كما قال بعض الأعراب وقد سئل: ما الدليل على وجود الرب تعالى؟ فقال: يا سبحان الله إن البعر ليدل على البعير، وإن أثر الأقدام لتدل على المسير، فسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، وبحار ذات أمواج! ألا يدل ذلك على وجود اللطيف الخبير؟

وحكى الرازي عن الإمام مالك أن الرشيد سأله عن ذلك فاستدل له باختلاف اللغات، والأصوات، والنغمات. وعن أبي حنيفة أن (بعض الزنادقة) سألوه عن وجود الباري تعالى فقال لهم: دعوني فأني مفكر في أمر قد أخبرت عنه، ذكروا لي أن سفينة في البحر موقرة فيها أنواع من المتاجر وليس بها أحد يحرسها ولا يسوقها، وهي مع ذلك تذهب وتجيء وتسير بنفسها وتحترق الأمواج العظام حتى تتخلص منها وتسير حيث شاءت بنفسها من غير أن يسوقها أحد. فقالوا: هذا شيء لا يقوله عاقل! فقال: ويحكم هذه الموجودات بما فيها من العالم العلوي والسفلي وما اشتملت عليه من الأشياء المحكمة ليس لها صانع؟! فهبت القوم ورجعوا إلى الحق وأسلموا على يديه. وعن الشافعي أنه سئل عن وجود الصانع فقال: هذا ورق التوت طعمه واحدٌ تأكله الدود فيخرج منه الإبريسم^(١). وتأكله النحل فيخرج منه العسل، وتأكله الشاة والبقرة والأنعام فتلقيه بعرًا وروثًا، وتأكله الطباء فيخرج منها المسك وهو شيء واحد، وعن الإمام أحمد بن حنبل أنه سئل عن ذلك فقال: ههنا حصنٌ حصينٌ أملكس ليس له باب ولا منفذ، ظاهره كالفضة البيضاء وباطنه كالذهب الإبريز، فبينا هو كذلك إذ انصدع جداره فخرج منه حيوان سميع بصير ذو شكل حسن وصوت ملبح. يعني بذلك البيضة إذا خرج منها الدجاجة. وسئل أبو نواس عن ذلك فأنشد:

تأمل في نبات الأرض وانظر إلى آثار ما صنع المليك
عيونٌ من لجين شاخصاتٌ بأحداق هي الذهب السبيك
على قضب الزبرجد شاهدات بأن الله ليس له شريك

وقال ابن المعتز: فيا عجباً كيف يعصى الإله أم كيف يحجده الجاحد

وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

وقال آخرون: من تأمل هذه السماوات في ارتفاعها واتساعها وما فيها من الكواكب الكبار والصغار النيرة من السيارة ومن الثوابت، وشاهدها كيف تدور مع الفلك العظيم في كل يوم وليلة دويرة ولها في أنفسها سير يخصصها، ونظر إلى البحار المكتنفة للأرض من كل جانب، والجبال الموضوعة في الأرض لتقر ويسكن ساكنوها مع اختلاف أشكالها وألوانها، كما قال تعالى: ﴿ومن الجبال جُدَدٌ بَيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾، وكذلك هذه

(١) الإبريسم: الحرير.

الأنهار السارحة من قطر إلى قطر للمنافع، وما ذراً في الأرض من الحيوانات المتنوعة والنبات المختلف الطعوم والأشكال والألوان، مع اتحاد طبيعة التربة والماء، استدلال على وجود الصانع وقدرته العظيمة، وحكمته ورحمته بخلقه، ولطفه بهم وإحسانه إليهم، لا إله غيره ولا رب سواه، عليه توكلت وإليه أنيب، والآيات في القرآن الدالة على هذا المقام كثيرة جداً.

وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ ۚ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ۗ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾

ثم شرع تعالى في تقرير النبوة بعد أن قرر أنه لا إله إلا هو فقال مخاطباً للكافرين: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ يعني محمداً ﷺ، فأتوا بسورة من مثل ما جاء به؛ إن زعمتم أنه من عند غير الله، فعارضوه بمثل ما جاء به، واستعينوا على ذلك بمن شئتم من دون الله فإنكم لا تستطيعون ذلك.

قال ابن عباس ﴿شهداءكم﴾: أعوانكم، أي استعينوا بأهنتكم في ذلك يمدونكم وينصرونكم، وقد تحداهم الله تعالى بهذا في غير موضع من القرآن فقال في سورة القصص: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبَعُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾. وقال في سورة سبحان: ﴿قُلْ لَنْ أَجْتَمَعْتَ الْإِنْسَ وَالْجِنَّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾، وقال في سورة هود: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتِطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾. وقال في سورة يونس: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتِطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾، وكل هذه الآيات مكية. ثم تحداهم بذلك أيضاً في المدينة فقال في هذه الآية: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ يعني محمداً ﷺ ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ﴾ يعني من مثل القرآن قاله مجاهد وقتادة^(١). ورجح ذلك بوجه من أحسنها: أنه تحداهم كلهم متفرقين ومجتمعين سواء في ذلك أميهم وكتابيهم، وذلك أكمل في التحدي وأشمل من أن يتحدى أحادهم الأميين ممن لا يكتب ولا يعاني شيئاً من العلوم وبدليل قوله تعالى: ﴿فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ﴾. وقوله: ﴿لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ﴾، وقال بعضهم: من مثل محمد ﷺ يعني من رجل أمي مثله، والصحيح الأول لأن التحدي عام لهم كلهم مع أنهم أفصح الأمم، وقد تحداهم بهذا في مكة والمدينة مرات عديدة مع شدة عداوتهم له وبغضهم لدينه، ومع هذا عجزوا عن ذلك ولهذا قال تعالى: ﴿فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾ و (لن) لفظي التأييد في المستقبل، أي ولن تفعلوا ذلك أبداً وهذه أيضاً معجزة أخرى، وهو أنه أخبر خبراً جازماً قاطعاً غير خائف ولا مشفق أن هذا القرآن لا يعارض بمثله أبد الآبدين ودهر الدهرين، وكذلك وقع الأمر لم يعارض من لدنه إلى زماننا هذا، ولا يمكن، وأني يتأتى ذلك لأحد والقرآن كلام الله خالق كل شيء؟ وكيف يشبهه كلام المخلوقين؟

(١) واختاره ابن جرير الطبري والزمخشري والرازي وأكثر المحققين.

ومن تدبر القرآن وجد فيه من وجوه الإعجاز فنوناً ظاهرة وخفية، من حيث اللفظ ومن جهة المعنى قال تعالى: ﴿ كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ﴾ فأحكمت ألفاظه، وفصلت معانيه، أو بالعكس على الخلاف، فكلٌّ من لفظه ومعناه فصيح لا يُحاذى ولا يُداني. فقد أخبر عن مغيبات ماضية كانت ووقعت طبق ما أخبر سواء بسواء، وأمر بكل خير ونهى عن كل شر كما قال تعالى: ﴿ وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً ﴾ أي صدقاً في الأخبار، وعدلاً في الأحكام، فكلُّه حق وصدق، وعدل وهدى، ليس فيه مجازفة ولا كذب ولا افتراء، كما يوجد في أشعار العرب وغيرهم من الأكاذيب والمجازفات التي لا يحسن شعرهم إلا بها، كما قيل في الشعر (إن أعذبه أكذبه) وتجد في القصيدة الطويلة المديدة قد استعمل غالبها في وصف النساء أو الخيل أو الخمر، أو في مدح شخص معين أو فرس أو ناقة أو حرب، أو شيء من المشاهدات المتعينة التي لا تفيد شيئاً، إلا قدرة المتكلم المعين على الشيء الخفي أو الدقيق أو إبرازه إلى الشيء الواضح، ثم تجدل له فيه بيتاً أو بيتين أو أكثر هي بيوت القصيد، وسائرها هذر لا طائل تحته.

وأما القرآن فجميعه فصيح في غاية نهايات البلاغة عند من يعرف ذلك تفصيلاً وإجمالاً، ممن فهم كلام العرب وتصاريف التعبير، فإنه إن تأملت أخباره وجدتها في غاية الحلاوة سواء كانت مبسطة أو وجيزة، وسواء تكررت أم لا، وكلما تكرّر حلا وعلا، لا يخلق عن كثرة الرد، ولا يملُّ منه العلماء. وإن أخذ في الوعيد والتهديد جاء منه ما تقشع منه الجبال الصم الراسيات، فما ظنك بالقلوب الفاهمات؟ وإن وعدتني بما يفتح القلوب والآذان، ويشوق إلى دار السلام ومجاورة عرش الرحمن كما قال في الترغيب: ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاءً بما كانوا يعملون ﴾، وقال: ﴿ وفيها ما تشتهي الأنفس وتلذذ الأعين وأنتم فيها خالدون ﴾، وقال في الترهيب: ﴿ أفأمنتم أن يخسف بكم جانب البر ﴾، ﴿ أفأمنتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هي تمور ﴾ أم أمنتم من في السماء أن يرسل عليكم حاصباً فستعلمون كيف نذير ﴾، وقال في الزجر: ﴿ فكللاً أخذنا بذنبه ﴾، وقال في الوعظ: ﴿ أفأريت إن متعناهم سنين ثم جاءهم ما كانوا يوعدون ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون ﴾ إلى غير ذلك من أنواع الفصاحة والبلاغة والحلاوة.

وإن جاءت الآيات في الأحكام والأوامر والنواهي اشتملت على الأمر بكل معروف حسن نافع طيب محبوب، والنهي عن كل قبيح رذيل ذنيء؛ كما قال ابن مسعود وغيره من السلف: إذا سمعت الله تعالى يقول في القرآن: يا أيها الذين آمنوا فأرعوها سمعك فإنها خيرٌ يأمر به أو شر ينهى عنه، ولهذا قال تعالى: ﴿ يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم ﴾ الآية، وإن جاءت الآيات في وصف المعاد وما فيه من الأحوال وفي وصف الجنة والنار وما أعد الله فيهما لأوليائه وأعدائه من النعيم والجحيم، والملاذ والعذاب الأليم، بشرت به وحذرت وأنذرت؛ ودعت إلى فعل الخيرات واجتناب المنكرات، وزهدت في الدنيا ورغبت في الآخرة، وثبتت على الطريقة المثلى، وهدت إلى صراط الله المستقيم، وشرعه القويم، ونفت عن القلوب رجس الشيطان الرجيم. ولهذا قال رسول الله ﷺ: « ما من نبي من الأنبياء إلا وقد أعطي من الآيات ما آمن على مثله البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليّ، فأرجو أن أكون أكثرهم

تابعاً يوم القيامة^(١)»، وقوله ﷺ: « وإنما كان الذي أوتيته وحياً » أي الذي اختصت به من بينهم هذا القرآن المعجز للبشر أن يعارضوه، بخلاف غيره من الكتب الإلهية فإنها ليست معجزة عند كثير من العلماء والله أعلم، وله عليه الصلاة والسلام من الآيات الدالة على نبوته وصدقه فيما جاء به ما لا يدخل تحت حصر، والله الحمد والمنة .

وقوله تعالى: ﴿ فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين ﴾ أمّا الوقود فهو ما يلقى في النار لإضرامها كالحطب ونحوه كما قال تعالى: ﴿ وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطباً ﴾، وقال تعالى: ﴿ إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أتم لها واردون ﴾ والمراد بالحجارة ههنا هي حجارة الكبريت، العظيمة السوداء الصلبة المنتنة، وهي أشد الأحجار حرّاً إذا حميت أجارنا الله منها، وقال السدي في تفسيره عن ابن مسعود ﴿ اتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة ﴾: أما الحجارة فهي حجارة في النار من كبريت أسود يعذبون به مع النار، وقال مجاهد: حجارة من كبريت أتت من الجيفة. وقيل: المراد بها حجارة الأصنام والأنداد التي كانت تعبد من دون الله كما قال تعالى: ﴿ إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم ﴾^(٢) الآية .

وإنما سبق هذا في حر هذه النار التي وعدوا بها وشدة ضرامها وقوة لهبها كما قال تعالى: ﴿ كلما خبت زدناهم سعيراً ﴾ وهكذا رجح القرطبي أن المراد بها الحجارة التي تسعر بها النار لتحمر ويشند لهبها، قال: ليكون ذلك أشد عذاباً لأهلها .

وقوله تعالى: ﴿ أعدت للكافرين ﴾ الأظهر أن الضمير عائد إلى النار ويحتمل عوده إلى الحجارة كما قال ابن مسعود، ولا منافاة بين القولين في المعنى لأنهما متلازمان. و﴿ أعدت ﴾ أي أرصدت وحصلت للكافرين بالله ورسوله، وقد استدلل كثير من أئمة السنّة بهذه الآية على أن النار موجودة الآن لقوله تعالى ﴿ أعدت ﴾ أي أرصدت وهيئت، وقد وردت أحاديث كثيرة في ذلك منها: « تحاجت الجنة والنار »، ومنها: « استأذنت النار ربّها فقالت ربّ أكل بعضي بعضاً فأذن لها بنفسين: نفس في الشتاء، ونفس في الصيف »، وحديث ابن مسعود: سمعنا وجبة فقلنا ما هذه؟ فقال رسول الله ﷺ: « هذا حجر ألقى به من شفير جهنم منذ سبعين سنة الآن وصل إلى قعرها » وهو مسند عند مسلم، وحديث صلاة الكسوف وليلة الإسراء وغير ذلك من الأحاديث المتواترة في هذا المعنى وقد خالفت المعتزلة بجهلهم في هذا، ووافقهم القاضي منذر بن سعيد البلوطي قاضي الأندلس .

(تنبيه ينبغي الوقوف عليه)

قوله تعالى: ﴿ فأتوا بسورة من مثله ﴾ وقوله في سورة يونس: ﴿ بسورة مثله ﴾ يعم كل سورة في القرآن، طويلة كانت أو قصيرة، لأنها نكرة في سياق الشرط فتعم كما هي في سياق النفي عند المحققين من الأصوليين كما هو مقرر في موضعه، فالإعجاز حاصل في طوال السور وقصارها، وهذا ما لا أعلم فيه نزاعاً بين الناس سلفاً وخلفاً. وقد قال الرازي في تفسيره: فإن قيل قوله تعالى: ﴿ فأتوا بسورة من مثله ﴾ يتناول سورة الكوثر، وسورة العصر، وقل

(١) رواه الشيخان عن أبي هريرة واللفظ لمسلم .

(٢) حكاه القرطبي والرازي ورجحه على الأول وقال ابن كثير: وهذا الذي قاله ليس بقوي .

يا أيها الكافرون، ونحن نعلم بالضرورة أن الإتيان بمثله أو بما يقرب منه ممكن، فإن قلتم إن الإتيان بمثل هذه السور خارج عن مقدور البشر كان مكابرة، والإقدام على هذه المكابرات مما يطرق بالتهمة إلى الدين (قلنا): فلهذا السبب اخترنا الطريق الثاني، وقلنا: إن بلغت هذه السورة في الفصاحة حد الإعجاز فقد حصل المقصود، وإن لم يكن كذلك كان امتناعهم من المعارضة مع شدة دواعيهم إلى تهوين أمره معجزاً، فعلى التقديرين يحصل المعجز. هذا لفظه بحروفه، والصواب أن كل سورة من القرآن معجزة لا يستطيع البشر معارضتها طويلاً كانت أو قصيرة، قال الشافعي رحمه الله: لو تدبر الناس هذه السورة لكففتهم: ﴿والعصر إن الإنسان لفي خسر * إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر﴾.

وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رَزَقُوا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأَتُوا بِهِ مُمْتَسِبِينَ وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٥﴾

لما ذكر تعالى ما أعده لأعدائه من الأشقياء الكافرين به وبرسله من العذاب والنكال، عطف بذكر حال أوليائه من السعداء المؤمنين به وبرسله الذين صدقوا إيمانهم بأعمالهم الصالحة، وهذا معنى تسمية القرآن مثالي على أصح أقوال العلماء كما سنسبته في موضعه، وهو أن يذكر الإيمان ويتبع بذكر الكفر أو عكسه، أو حال السعداء ثم الأشقياء أو عكسه، وحاصله ذكر الشيء ومقابله. وأما ذكر الشيء ونظيره فذاك التشابه كما سنوضحه إن شاء الله. فلهذا قال تعالى: ﴿وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار﴾، فوصفها بأنها تجري من تحتها الأنهار أي من تحت أشجارها وغرفها وقد جاء في الحديث أن أنهارها تجري في غير أخدود. وقوله تعالى: ﴿كلما رزقوا منها من ثمرة رزقاً قالوا هذا الذي رزقنا من قبل﴾.

قال السدي في تفسيره: إنهم أتوا بالثمرة في الجنة فلما نظروا إليها قالوا: هذا الذي رزقنا من قبل في الدنيا. وقال عكرمة: ﴿قالوا هذا الذي رزقنا من قبل﴾ معناه مثل الذي كان بالأمس، وقال آخرون: ﴿هذا الذي رزقنا من قبل﴾ من ثمار الجنة لشدة مشابهة بعضه لبعضاً لقوله تعالى: ﴿وأتوا به متشابهاً﴾، وعن يحيى بن أبي كثير قال: يؤتى أحدهم بالصحفة من الشيء فيأكل منها، ثم يؤتى بأخرى فيقول هذا الذي أتينا به من قبل، فتقول الملائكة: كلُّ فاللون واحد، والطعم مختلف.

وقال ابن جرير بإسناده في قوله تعالى: ﴿وأتوا به متشابهاً﴾ يعني في اللون والمرأى وليس يشبه في الطعم. وهذا اختيار ابن جرير، وقال عكرمة: ﴿وأتوا به متشابهاً﴾ قال: يشبه ثمر الدنيا غير أن ثمر الجنة أطيب، وعن ابن عباس «لا يشبه شيء مما في الجنة ما في الدنيا إلا في الأسماء»، وفي رواية «ليس في الدنيا مما في الجنة إلا الأسماء».

وقوله تعالى: ﴿ولهم فيها أزواج مطهرة﴾ قال ابن عباس: مطهرة من القذر والأذى. وقال مجاهد: من الحيض والغائط والبول والنخام والبراق والمني والولد. وقال قتادة: مطهرة من الأذى والمأثم، وعن أبي سعيد عن النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿ولهم فيها أزواج مطهرة﴾ قال: من الحيض والغائط والنخاعة والبراق^(١).

(١) رواه ابن مردويه والحاكم في المستدرک. قال ابن كثير: والأظهر أن هذا من كلام قتادة كما تقدم.

وقوله تعالى: ﴿وهم فيها خالدون﴾ هذا هو تمام السعادة، فإنهم مع هذا النعيم في مقام أمين، من الموت والانقطاع فلا آخر له، ولا انقضاء بل في نعيم سرمدي أبدي على الدوام... والله المسئول أن يحشرنا في زمرة من إنه جواد كريم، برُّ رحيم.

* إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةٌ فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ﴿٢٦﴾ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٢٧﴾

قال السدي: لما ضرب الله هذين المثلين للمنافقين يعني قوله تعالى: ﴿مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً﴾، وقوله: ﴿أو كصيب من السماء﴾ الآيات الثلاث قال المنافقون: الله أعلى وأجل من أن يضرب هذه الأمثال، فأنزل الله هذه الآية إلى قوله تعالى: ﴿هم الخاسرون﴾^(١)، وقال قتادة: لما ذكر الله تعالى العنكبوت والذباب قال المشركون: ما بال العنكبوت والذباب يذكران؟ فأنزل الله: ﴿إن الله لا يستحي أن يضرب مثلاً ما بعوضة فما فوقها﴾ أي إن الله لا يستحي من الحق أن يذكر شيئاً مما قلَّ أو كثر، وإن الله حين ذكر في كتابه الذباب والعنكبوت قال أهل الضلالة: ما أراد الله من ذكر هذا؟ فأنزل الله: ﴿إن الله لا يستحي أن يضرب مثلاً ما بعوضة فما فوقها﴾. ومعنى الآية أنه تعالى أخبر أنه لا يستحي أي لا يستكف، وقيل: لا يخشى أن يضرب مثلاً ما، أي مثل كان بأي شيء كان صغيراً كان أو كبيراً و (ما) ههنا للتقليل، وتكون بعوضة منصوبة على البدل، كما تقول: لأضربن ضرباً ما، فيصدق بأدنى شيء أو تكون (ما) نكرة موصوفة ببعوضة، ويجوز أن تكون بعوضة منصوبة بحذف الجار، وتقدير الكلام: «إن الله لا يستحي أن يضرب مثلاً ما بين بعوضة إلى ما فوقها» وهذا الذي اختاره الكسائي والقراء.

وقوله تعالى: ﴿فما فوقها﴾ فيه قولان: أحدهما: فما دونها في الصغر والحقارة، كما إذا وصف رجل باللؤم والشح فيقول السامع نعم وهو فوق ذلك - يعني فيما وصفت - وهذا قول أكثر المحققين، وفي الحديث: «لو أن الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة لما سقى كافراً منها شربة ماء»، والثاني: فما فوقها لما هو أكبر منها لأنه ليس شيء أحقر ولا أصغر من البعوضة وهذا قول قتادة بن دعامة واختيار ابن جرير فإنه يؤيده ما رواه مسلم عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «ما من مسلم يشاك شوكة فما فوقها إلا كتب له بها درجة ومحيت عنه بها خطيئة» فأخبر أنه لا يستصغر شيئاً يضرب به مثلاً ولو كان في الحقارة والصغر كالبعوضة، فكما لا يستكف عن خلقها كذلك لا يستكف من ضرب المثل بها، كما ضرب المثل بالذباب والعنكبوت في قوله: ﴿إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب﴾،

(١) ذكره السدي في تفسيره عن ابن عباس وابن مسعود.

وقال: ﴿ مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً، وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون ﴾، وقال تعالى: ﴿ ضرب الله مثلاً عبداً مملوكاً لا يقدر على شيء ﴾ الآية، ثم قال: ﴿ وضرب الله مثلاً رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شيء وهو كلٌّ على مولاه، أبنا يوجِّهه لا يأت بخير هل يستوي هو ومن يأمر بالعدل ﴾؟ الآية. وقال: ﴿ وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون ﴾ وفي القرآن أمثال كثيرة .

قال بعض السلف: إذا سمعت المثل في القرآن فلم أفهمه بكيت على نفسي لأن الله قال: ﴿ وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون ﴾، قال قتادة: ﴿ فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم ﴾ أي يعلمون أنه كلام الرحمن وأنه من عند الله. وقال أبو العالية: ﴿ فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم ﴾ يعني هذا المثل، ﴿ وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلاً ﴾ كما قال تعالى: ﴿ ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون وليقول الذين في قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلاً * كذلك يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء وما يعلم جنود ربك إلا هو ﴾، وكذلك قال ههنا: ﴿ يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً وما يضل به إلا الفاسقين ﴾ .

قال ابن عباس: يضل به كثيراً يعني به (المنافقين)، ويهدي به كثيراً يعني به (المؤمنين) فيزيد هؤلاء ضلالة إلى ضلاتهم، لتكذيبهم بما قد علموه حقاً يقيناً من المثل الذي ضربه الله، ويهدي به يعني المثل كثيراً من أهل الإيمان والتصديق فيزيدهم هدى إلى هداهم وإيماناً إلى إيمانهم، ﴿ وما يضل به إلا الفاسقين ﴾، قال أبو العالية: هم أهل النفاق، وقال مجاهد عن ابن عباس ﴿ وما يضل به إلا الفاسقين ﴾ قال: يعرفه الكافرون فيكفرون به. وقال قتادة ﴿ وما يضل به إلا الفاسقين ﴾ فسقوا فأضلهم الله على فسقهم .

والفاسقُ في اللغة: هو الخارج عن الطاعة. تقول العرب: فسقت الرطبة إذا خرجت من قشرتها، ولهذا يقال للفأرة (فويسقة) لخروجها عن جحرها للفساد. وثبت في الصحيحين عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: « خمس فواسق يقتلن في الحل والحرم: الغرابُ والحدأةُ والعقربُ والفأرةُ والكلبُ العقور ». فالفاسق يشمل الكافر والعاصي، ولكن فسق الكافر أشد وأفحش، والمراد به من الآية الفاسقُ الكافر والله أعلم، بدليل أنه وصفهم بقوله تعالى: ﴿ الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك هم الخاسرون ﴾، وهذه الصفات صفات الكفار المبينة لصفات المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿ أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى؟ إنما يتذكر أولو الألباب * الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق ﴾ الآيات، إلى أن قال: ﴿ والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك هم اللعنة ولهم سوء الدار ﴾، وقد اختلف أهل التفسير في معنى العهد الذي وصف هؤلاء الفاسقين بنقضه، فقال بعضهم: هو وصية الله إلى خلقه وأمره إياهم بما أمرهم به من طاعته، ونهيه إياهم عما نهاهم عنه من معصيته في كتبه وعلى لسان رسله، ونقضهم ذلك هو تركهم العمل به .

وقال آخرون: بل هي في كفار أهل الكتاب والمنافقين منهم، وعهد الله الذي نقضوه هو ما أخذه الله عليهم في التوراة من العمل بما فيها واتباع محمد ﷺ إذا بعث، والتصديق به وبما جاء به من عند ربهم، ونقضهم ذلك هو جحودهم به بعد معرفتهم بحقيقته وإنكارهم ذلك، وكتبتهم علم ذلك عن الناس، وهذا اختيار ابن جرير رحمه الله وهو قول مقاتل بن حيان .

وقال آخرون: بل عنى بهذه الآية جميع أهل الكفر والشرك والنفاق، وعهده إلى جميعهم في توحيد ما وضع لهم من الأدلة على ربوبيته، وعهده إليهم في أمره ونهيه ما احتج به لرسله من المعجزات التي لا يقدر أحد من الناس غيرهم أن يأتي بمثله، الشاهد لهم على صدقهم. قالوا: ونقضهم ذلك تركهم الإقرار بما قد تبينت لهم صحته بالأدلة وتكذيبهم الرسل والكتب مع علمهم أن ما أتوا به حق. وروي عن مقاتل بن حيان أيضاً نحو هذا وهو حسن وإليه مال الزمخشري. فإنه قال: (فان قلت) فما المراد بعهد الله؟ قلت ما ركز في عقولهم من الحجة على التوحيد كأنه أمر وصّاهم به ووثّقه عليهم، وهو معنى قوله تعالى: ﴿وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى﴾، إذ أخذ الميثاق عليهم من الكتب المنزلة عليهم كقوله: ﴿وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم﴾. وقال آخرون: العهد الذي ذكره تعالى هو العهد الذي أخذه عليهم حين أخرجهم من صلب آدم الذي وصف في قوله: ﴿وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا﴾ الآيتين. ونقضهم ذلك تركهم الوفاء به وهكذا روي عن مقاتل بن حيان أيضاً. حكى هذه الأقوال ابن جرير في تفسيره. وقال السدي في تفسيره بإسناده قوله تعالى ﴿الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه﴾ قال: ما عهد إليهم في القرآن فأقروا به ثم كفروا فنقضوه.

وقوله: ﴿ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل﴾ قيل: المراد به صلة الأرحام والقربات كما فسره قتادة، كقوله تعالى: ﴿فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم﴾، ورجحه ابن جرير. وقيل: المراد أعم من ذلك، فكل ما أمر الله بوصله وفعله فقطعه وتركه. وقال مقاتل: ﴿أولئك هم الخاسرون﴾ قال في الآخرة، وهذا كما قال تعالى: ﴿أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار﴾. وقال ابن عباس: كل شيء نسبه الله إلى غير أهل الإسلام من اسم، مثل خاسر، فإنما يعني به الكفر. وما نسبه إلى أهل الإسلام فإنما يعني به الذنب. وقال ابن جرير في قوله تعالى ﴿أولئك هم الخاسرون﴾: الخاسرون جمع خاسر وهم الناقصون أنفسهم حظوظهم بمعصيتهم الله من رحمته كما يخسر الرجل في تجارته، بأن يوضع من رأس ماله في بيعه، وكذلك المناق والكافر خسر بحرمان الله إياه رحمته التي خلقها لعباده في القيامة أحوج ما كانوا إلى رحمته.

كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمَيِّتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾

يقول تعالى محتجاً على وجوده وقدرته وأنه الخالق المتصرف في عباده: ﴿كيف تكفرون بالله﴾ أي كيف تجحدون وجوده أو تعبدون معه غيره، ﴿وكنتم أمواتاً فأحياكم﴾ أي وقد كنتم عدماً فأخرجكم إلى الوجود. كما قال تعالى: ﴿أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون﴾ أم خلقوا السموات والأرض بل لا يوقنون، وقال ابن عباس: ﴿كنتم أمواتاً فأحياكم﴾: أمواتاً في أصلاب آبائكم لم تكونوا شيئاً حتى خلقكم، ثم يميتكم موتة الحق ثم يحييكم حين يبعثكم^(١)، قال: وهي مثل قوله تعالى: ﴿أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين﴾. وقال الضحاك عن ابن عباس في قوله تعالى ﴿ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين﴾ قال: كنتم تراباً قبل أن يخلقكم فهذه ميتة، ثم أحياكم فخلقكم فهذه حياة، ثم يميتكم فترجعون إلى القبور فهذه ميتة أخرى، ثم يبعثكم يوم القيامة فهذه حياة أخرى: فهذه ميتتان وحياتان، فهو كقوله: ﴿كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم﴾.

(١) هذه رواية ابن جريج عن ابن عباس، والرواية الثانية رواية الضحاك عنه.

هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾

لما ذكر تعالى دلالة من خلقهم وما يشاهدونه من أنفسهم، ذكر دليلاً آخر مما يشاهدونه من خلق السماوات والأرض، فقال: ﴿هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ثم استوى إلى السماء فسوّاهن سبع سماوات﴾ أي قصد إلى السماء. والاستواء ههنا متضمن معنى القصد والإقبال لأنه عدي يالي (فسواهن) أي فخلق السماء سبعاً. والسماء ههنا اسم جنس، فلهذا قال: ﴿فسواهن سبع سموات وهو بكل شيء عليم﴾ أي وعلمه محيط بجميع ما خلق، كما قال: ﴿ألا يعلم من خلق﴾ وتفصيل هذه الآية في سورة حم السجدة وهو قوله تعالى: ﴿قل أنتم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أنداداً ذلك رب العالمين﴾ الآيات.

ففي هذا دلالة على أنه تعالى ابتداءً بخلق الأرض أولاً ثم خلق السماوات سبعاً، وهذا شأن البناء أن يبدأ بعمارة أسافله ثم أعاليه بعد ذلك وقد صرح المفسرون بذلك كما سنذكره. فأما قوله تعالى: ﴿أنتم أشد خلقاً أم السماء بناها﴾ رفع سَمَكهَا فسَوَّاهَا * وأغطش ليلها وأخرج ضحاها * والأرض بعد ذلك دحَّاهَا * فقد قيل: إن (ثم) ههنا إنما هي لعطف الخبر على الخبر لا لعطف الفعل على الفعل كما قال الشاعر:

قل لمن ساد ثم ساد أبوه ثم قد ساد قبل ذلك جده

وقيل: إن الدحي كان بعد خلق السماوات والأرض رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس .

وقال مجاهد في قوله تعالى: ﴿هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً﴾ قال: خلق الله الأرض قبل السماء، فلما خلق الأرض ثار منها دخان، فذلك حين يقول: ﴿ثم استوى إلى السماء وهي دخان فسوّاهن سبع سموات﴾ قال: بعضهن فوق بعض وسبع أرضين يعني بعضها تحت بعض. وهذه الآية دالة على أن الأرض خلقت قبل السماء، كما قال في آية السجدة: ﴿قل أنتم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين﴾ فهذه وهذه دالتان على أن الأرض خلقت قبل السماء، وهذا ما لا أعلم فيه نزاعاً بين العلماء إلا ما نقله ابن جرير عن قتادة أنه زعم أن السماء خلقت قبل الأرض، وقد توقف في ذلك القرطبي في تفسيره لقوله تعالى: ﴿والأرض بعد ذلك دحَّاهَا * أخرج منها ماءها ومرعاها * والجبال أرساها﴾ قالوا فذكر خلق السماء قبل الأرض .

وفي صحيح البخاري أن ابن عباس سئل عن هذا بعينه فأجاب بأن الأرض خلقت قبل السماء، وأن الأرض إنما دحيت بعد خلق السماء، وكذلك أجاب غير واحد من علماء التفسير قديماً وحديثاً وقد حررنا ذلك في سورة النزاعات، وحاصل ذلك أن الدحي مفسر بقوله تعالى: ﴿أخرج منها ماءها ومرعاها * والجبال أرساها﴾ ففسر الدحي بإخراج ما كان مودعاً فيها بالقوة إلى الفعل لما أكملت صورة المخلوقات الأرضية ثم السواوية، دحى بعد ذلك الأرض فأخرجت ما كان مودعاً فيها من المياه، فنبتت النباتات على اختلاف أصنافها وصفاتها وألوانها وأشكالها، وكذلك جرت هذه الأفلاك فدارت بما فيها من الكواكب الثوابت والسيارة والله سبحانه وتعالى أعلم .

وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۗ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَآءَ

وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾

يخبر تعالى بامتثانه على بني آدم بتنويهه بذكرهم في الملائكة الأعلى قبل إيجادهم بقوله: ﴿وإذ قال ربك للملائكة﴾ أي واذكر يا محمد إذ قال ربك للملائكة واقصص على قومك ذلك، ﴿إني جاعل في الأرض خليفة﴾ أي قوماً يخلف بعضهم بعضاً قرناً بعد قرن، وجيلاً بعد جيل، كما قال تعالى: ﴿هو الذي جعلكم خلائف في الأرض﴾، وقال: ﴿ويجعلكم خلفاء الأرض﴾، وقال: ﴿ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة في الأرض يخلفون﴾ وليس المراد ههنا بالخليفة آدم عليه السلام فقط كما يقوله طائفة من المفسرين، إذ لو كان ذلك لما حسن قول الملائكة: ﴿أنجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء﴾، فإنهم أرادوا أن من هذا الجنس من يفعل ذلك، وكانهم علموا ذلك بعلم خاص، أو بما فهموه من الطبيعة البشرية، فإنه أخبرهم أنه يخلق هذا الصنف من ﴿صلصال من حمإ مسنون﴾ أو فهموا من الخليفة أنه الذي يفصل بين الناس ما يقع بينهم من المظالم ويردعهم عن المحارم والمآثم (قاله القرطبي). أو أنهم قاسوه على من سبق كما سنذكر أقوال المفسرين في ذلك.

وقول الملائكة هذا ليس على وجه الاعتراض على الله، ولا على وجه الحسد لبني آدم كما قد يتوهمه بعض المفسرين، وقد وصفهم الله تعالى بأنهم لا يسبقونه بالقول أي لا يسألونه شيئاً لم يأذن لهم فيه، وههنا لما أعلمهم بأنه سيخلق في الأرض خلقاً وقد تقدم إليهم أنهم يفسدون فيها فقالوا: ﴿أنجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء﴾؟ الآية. وإنما هو سؤال استعلام واستكشاف عن الحكمة في ذلك، يقولون: يا ربنا ما الحكمة في خلق هؤلاء، مع أن منهم من يفسد في الأرض ويسفك الدماء؟ فإن كان المراد عبادتك فنحن نسبح بحمدك ونقدس لك أي نصلي لك ولا يصدر منا شيء من ذلك، وهلا وقع الاقتصار علينا؟ قال الله تعالى مجيباً لهم عن هذا السؤال: ﴿إني أعلم ما لا تعلمون﴾، أي إني أعلم من المصلحة الراجحة في خلق هذا الصنف على المفسد التي ذكرتوها ما لا تعلمون أتم، فإني سأجعل فيهم الأنبياء، وأرسل فيهم الرسل، ويوجد منهم الصديقون والشهداء والصالحون، والعباد والزهاد، والأولياء والأبرار، والمقربون، والعلماء العاملين، والخاصعون والمحبون له تبارك وتعالى، المتبعون رسله صلوات الله وسلامه عليهم.

وقيل: معنى قوله تعالى: ﴿إني أعلم ما لا تعلمون﴾ إني لي حكمة مفصلة في خلق هؤلاء والحالة ما ذكرت لا تعلمونها، وقيل: إنه جواب ﴿ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك﴾، فقال: ﴿إني أعلم ما لا تعلمون﴾ أي من وجود إبليس بينكم وليس هو كما وصفتم أنفسكم به. وقيل: بل تضمن قولهم: ﴿أنجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك﴾، طلباً منهم أن يسكنوا الأرض بدل بني آدم، فقال الله تعالى لهم: ﴿إني أعلم ما لا تعلمون﴾ من أن بقاءكم في السماء أصلح لكم وأليق بكم. ذكرها الرازي مع غيرها من الأجوبة والله أعلم.

(ذكر أقوال المفسرين)

قال السدي في تفسيره: إن الله تعالى قال للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة، قالوا: ربنا وما يكون ذاك

الخليفة؟ قال: يكون له ذرية يفسدون في الأرض، ويتحاسدون، ويقتل بعضهم بعضاً. قال ابن جرير: وإنما معنى الخلافة التي ذكرها الله إنما هي خلافة قرن منهم قرناً. قال: والخليفة الفعلية من قولك: خلف فلان فلاناً في هذا الأمر، إذا قام مقامه فيه بعده، كما قال تعالى: ﴿ثم جعلناكم خلائف في الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون﴾. ومن ذلك قيل للسلطان الأعظم خليفة، لأنه خلف الذي كان قبله فقام بالأمر فكان منه خلفاً.

قال ابن جرير عن ابن عباس: إن أول من سكن الأرض الجن، فأفسدوا فيها، وسفكوا فيها الدماء، وقتل بعضهم بعضاً. قال: فبعث الله إليهم إبليس، فقتلهم إبليس ومن معه حتى ألحقهم بجزائر البحور وأطراف الجبال ثم خلق آدم فأسكنه إياها، فلذلك قال: ﴿إني جاعل في الأرض خليفة﴾. وقال الحسن: إن الجن كانوا في الأرض يفسدون ويسفكون الدماء، ولكن جعل الله في قلوبهم^(١) أن ذلك سيكون، فقالوا بالقول الذي علمهم. وقال قتادة في قوله ﴿أتجعل فيها من يفسد فيها﴾: كان الله أعلمهم أنه إذا كان في الأرض خلق افسدوا فيها وسفكوا الدماء، فلذلك حين قالوا: ﴿أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء﴾؟

قال ابن جرير: وقال بعضهم إنما قالت الملائكة ما قالت ﴿أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء﴾ لأن الله أذن لهم في السؤال عن ذلك بعد ما أخبرهم أن ذلك كائن من بني آدم، فسألته الملائكة فقالت على التعجب منها: وكيف يعصونك يا رب وأنت خالقهم؟ فأجابهم ربهم ﴿إني أعلم ما لا تعلمون﴾، يعني أن ذلك كائن منهم، وإن لم تعلموه أتم ومن بعض ما ترونه لي طائغاً، قال، وقال بعضهم ذلك من الملائكة على وجه الاسترشاد عما لم يعلموا من ذلك، فكانهم قالوا: يا رب خبرنا - مسألة استخبار منهم لا على وجه الإنكار - واختاره ابن جرير.

وقوله تعالى: ﴿ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك﴾، قال قتادة: التسبيح والتقديس الصلاة، وقال السدي عن ابن عباس ﴿ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك﴾: نصلي لك. وقال مجاهد ﴿ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك﴾، قال: نعظمك ونكبرك. وقال ابن جرير: التقديس هو التعظيم والتطهير. ومنه قولهم: سبح قدوس، يعني بقولهم سبح تنزيه له، وبقولهم قدوس طهارة وتعظيم له، وكذلك قيل للأرض: أرض مقدسة، يعني بذلك المطهرة. فعنى قول الملائكة إذن ﴿ونحن نسبح بحمدك﴾: نترتك ونبرئك مما يضيفه إليك أهل الشرك بك، ﴿ونقدس لك﴾ ننسبك إلى ما هو من صفاتك من الطهارة من الأدناس وما أضاف إليك أهل الكفر بك.

عن أبي ذر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ سئل أي الكلام أفضل؟ قال: «ما اصطفى الله للملائكته: سبحان الله وبحمده»^(٢). وروي أن رسول الله ﷺ ليلة أسري به سمع تسبيحاً في السماوات العلاء «سبحان العلي الأعلى سبحانه وتعالى»^(٣) ﴿قال إني أعلم ما لا تعلمون﴾. قال قتادة: فكان في علم الله انه سيكون في تلك الخليقة أنبياء ورسول وقوم صالحون وساكنو الجنة.

(١) الضمير في (قلوبهم) يعود على الملائكة لا على الجن فتنبه .

(٢) رواه البيهقي عن عبد الرحمن بن قرط .

(٣) رواه مسلم عن أبي ذر الغفاري .

وقد استدلل القرطبي وغيره بهذه الآية على وجوب نصب الخليفة، ليفصل بين الناس فيما اختلفوا فيه، ويقطع تنازعهم ويتنصر لمظلومهم من ظالمهم، ويقيم الحدود، ويزجر عن تعاطي الفواحش إلى غير ذلك من الأمور المهمة التي لا تمكن إقامتها إلا بالإمام، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب. والإمامة تنال بالنص كما يقوله طائفة من أهل السنة في أبي بكر. أو بالإيماء إليه كما يقول آخرون منهم، أو باستخلاف الخليفة آخر بعده كما فعل الصديق بعمر بن الخطاب، أو بتركة شورى في جماعة صالحين كذلك كما فعله عمر، أو باجتماع أهل الحل والعقد على مبايعته أو بمبايعة واحد منهم له، فيجب التزامها عند الجمهور، وحكى على ذلك إمام الحرمين الإجماع، والله أعلم.

ويجب أن يكون ذكراً، حراً، بالغاً، عاقلاً، مسلماً، عدلاً، مجتهداً، بصيراً، سليم الأعضاء، خبيراً بالحروب والآراء، قرشياً على الصحيح؛ ولا يشترط الهاشمي ولا المعصوم من الخطأ خلافاً للغلاة والروافض. ولو فسق الإمام هل ينزل أم لا؟ فيه خلاف، والصحيح أنه لا ينزل لقوله عليه الصلاة والسلام: «إلا أن تروا كفرةً بواحا»^(١) عندكم من الله فيه برهان»، فأما نصب إمامين في الأرض أو أكثر فلا يجوز لقوله عليه الصلاة والسلام: «من جاءكم وأمركم جميعاً يريد أن يفرق بينكم فاقتلوه كائناً من كان» وهذا قول الجمهور.

وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣١﴾
قَالُوا سُبْحٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَرَأَيْتُمْ إِيَّايَ أَقْبَلُ لَكُمْ إِيَّايَ أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾

هذا مقام ذكر الله تعالى فيه شرف آدم على الملائكة، بما اختصه من علم أسماء كل شيء دونهم، وهذا كان بعد سجودهم له، وإنما قدم هذا الفصل على ذلك لمناسبة ما بين هذا المقام وعدم علمهم بحكمة خلق الخليفة، حين سألوا عن ذلك فأخبرهم تعالى بأنه يعلم ما لا يعلمون، ولهذا ذكر الله هذا المقام عقيب هذا ليبين لهم شرف آدم بما فضل به عليهم في العلم، فقال تعالى: ﴿وعلم آدم الأسماء كلها﴾ قال السدي عن ابن عباس: ﴿وعلم آدم الأسماء كلها﴾ علمه أسماء ولده إنساناً إنساناً، والدواب فقيل هذا الحمار، هذا الجمل، هذا الفرس^(٢). وقال الضحاك عن ابن عباس: ﴿وعلم آدم الأسماء كلها﴾ قال: هي هذه الأسماء التي يتعارف بها الناس: إنسان، ودواب، وسما، وأرض، وسهل، وبحر، وخيل، وحمار، وأشباه ذلك من الأمم وغيرها. وقال مجاهد: ﴿وعلم آدم الأسماء كلها﴾: علمه اسم كل دابة، وكل طير، وكل شيء، وكذلك روي عن سعيد بن جبير وقتادة وغيرهم من السلف أنه علمه أسماء كل شيء. والصحيح أنه علمه أسماء الأشياء كلها ذواتها وصفاتها وأفعالها، ولهذا قال البخاري في تفسير هذه الآية عن أنس عن النبي ﷺ قال: «يجتمع المؤمنون يوم القيامة فيقولون لو استشفعنا إلى ربنا فيأتون آدم فيقولون أنت أبو الناس خلقتك الله بيده، وأسجد لك ملائكته، وعلمك أسماء كل شيء، فاشفع لنا إلى ربك حتى يريحنا

(١) كفرةً بواحا: قال ابن الأثير: أي جهاراً من باح بالشيء ييوح به إذا أعلنه. النهاية في غريب الحديث.

(٢) هذه رواية السدي عن ابن عباس، والثانية رواية الضحاك عنه.

من مكاننا هذا^(١) الحديث . فدل هذا على أنه علمه أسماء جميع المخلوقات ولهذا قال : ﴿ ثم عرضهم على الملائكة ﴾ يعني المسميات ﴿ فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين ﴾ ، قال مجاهد : ثم عرض أصحاب الأسماء على الملائكة .

وقال ابن جرير عن الحسن وقتادة قالوا : علمه اسم كل شيء ، وجعل يسمي كل شيء باسمه وعرضت عليه أمة أمة ، وبهذا الإسناد عن الحسن وقتادة في قوله تعالى ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ إني لم أخلق خلقاً إلا كنتم أعلم منه فأخبروني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين . وقال السدي ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ أن بني آدم يفسدون في الأرض ويسفكون الدماء ، ﴿ قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم ﴾ هذا تقديس وتزيه من الملائكة لله تعالى أن يحيط أحد بشيء من علمه إلا بما شاء ، وأن يعلموا شيئاً إلا ما علمهم الله تعالى ولهذا قالوا : ﴿ سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم ﴾ أي العليم بكل شيء ، الحكيم في خلقك وأمرك ، وفي تعليمك ما تشاء ومنعك ما تشاء ، لك الحكمة في ذلك والعدل التام . عن ابن عباس ﴿ سبحان الله ﴾ قال : تزيه الله نفسه عن السوء .

قوله تعالى ﴿ قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون ﴾ : لما ظهر فضل آدم عليه السلام على الملائكة عليهم السلام في سرده ما علمه الله تعالى من أسماء الأشياء ، قال الله تعالى للملائكة : ﴿ ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون ﴾ أي ألم أتقدم إليكم أني أعلم الغيب الظاهر والخفي ، كما قال تعالى : ﴿ وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى ﴾ ، وكما قال إخباراً عن الهدهد أنه قال لسليمان : ﴿ ألا يسجدوا لله الذي يخرج الخبء في السموات والأرض ويعلم ما تخفون وما تعلنون ﴾ ، وعن ابن عباس ﴿ وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون ﴾ : أعلم السر كما أعلم العلانية ، يعني ما كتم إبليس في نفسه من الكبر والاعتزاز . وقال أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس ﴿ وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون ﴾ فكان الذي أبدوا هو قولهم : ﴿ أنجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ﴾ وكان الذي كتموا بينهم هو قولهم : لن يخلق ربنا خلقاً إلا كنا أعلم منه وأكرم . فعرفوا أن الله فضل عليهم آدم في العلم والكرم . وقال ابن جرير : وأولى الأقوال في ذلك قول ابن عباس ، وهو أن معنى قوله تعالى ﴿ وأعلم ما تبدون ﴾ : وأعلم مع علمي غيب السموات والأرض ما تظهرونه بألسنتكم وما كنتم تخفون في أنفسكم فلا يخفى علي شيء سواء عندي سرائركم وعلانيتكم . والذي أظهوره بألسنتهم قولهم أنجعل فيها من يفسد فيها ، والذي كانوا يكتُمون ما كان عليه منطوياً إبليس من الخلاف على الله في أوامره والتكبر عن طاعته ، قال : وصح ذلك كما تقول العرب : قتل الجيش وهزموا ، وإنما قتل الواحد أو البعض وهزم الواحد أو البعض ، فيخرج الخبر عن المهزوم منه والمقتول مخرج الخبر عن جميعهم ، كما قال تعالى : ﴿ إن الذين ينادونك من وراء الحجرات ﴾ ذكر أن الذي نادى إنما كان واحداً من بني تميم ، قال وكذلك قوله : ﴿ وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون ﴾ .

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٤﴾

(١) أخرجه البخاري عن أنس بن مالك ورواه مسلم والنسائي وابن ماجه .

وهذه كرامة عظيمة من الله تعالى لآدم امتنَّ بها على ذريته، حيث أخبر أنه تعالى أمر الملائكة بالسجود لآدم، وقد دل على ذلك أحاديث أيضاً كثيرة منها حديث الشفاعة المتقدم، وحديث موسى عليه السلام: «رب أرني آدم الذي أخرجنا ونفسه من الجنة، فلما اجتمع به قال: أنت آدم الذي خلقه الله بيده ونفخ فيه من روحه وأسجد له ملائكته؟» قال وذكر الحديث كما سيأتي إن شاء الله.

والغرض أن الله تعالى لما أمر الملائكة بالسجود لآدم دخل إبليس في خطابهم، لأنه وإن لم يكن من عنصرهم إلا أنه كان قد تشبه بهم وتوسم بأفعالهم، فلهذا دخل في الخطاب لهم وذم في مخالفة الأمر.

قال طاووس عن ابن عباس: كان إبليس قبل أن يركب المعصية من الملائكة اسمه (عزازيل) وكان من سكان الأرض، وكان من أشد الملائكة اجتهاداً، وأكثرهم علماً، فذلك دعاه إلى الكبر، وكان من حيي يسمون جنساً. وقال سعيد بن المسيب: كان إبليس رئيس ملائكة سماء الدنيا. وقال ابن جرير عن الحسن: ما كان إبليس من الملائكة طرفه عين قط وإنه لأصل الجن، كما أن آدم أصل الإنس، وهذا إسناد صحيح عن الحسن. وقال شهر ابن حوشب: كان إبليس من الجن الذين طردتهم الملائكة فأسره بعض الملائكة فذهب به إلى السماء، رواه ابن جرير، وعن سعد بن مسعود قال: كانت الملائكة تقاتل الجن فسبي إبليس وكان صغيراً فكان مع الملائكة يتعبد معها فلما أمروا بالسجود لآدم سجدوا فأبى إبليس فلذلك قال تعالى: ﴿إلا إبليس كان من الجن﴾. وقال أبو جعفر: ﴿وكان من الكافرين﴾ يعني من العاصين. قال قتادة في قوله تعالى ﴿وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم﴾: فكانت الطاعة لله والسجدة لآدم، أكرم الله آدم أن اسجد له ملائكته، وقال بعض الناس: كان هذا سجود تحية وسلام وإكرام كما قال تعالى: ﴿ورفع أبويه على العرش وخروا له سجداً﴾، وقد كان هذا مشروعاً في الأمم الماضية ولكنه نسخ في ملتنا.

قال معاذ: «قدمت الشام فرأيتهم يسجدون لأساقفتهم وعلماهم فأنت يا رسول الله أحق أن يسجد لك، فقال: لا، لو كنت أمراً بشراً أن يسجد لبشر لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها من عظم حقه عليها» ورجحه الرازي. وقال بعضهم: بل كانت السجدة لله وآدم قبله فيها، والأظهر أن القول الأول أولى والسجدة لآدم كانت إكراماً وإعظماً واحتراماً وسلاماً، وهي طاعة لله عز وجل لأنها امتثال لأمره تعالى، وقد قواه الرازي في تفسيره وضعف ما عدها من القولين الآخرين، وهما: كونه جعل قبله إذ لا يظهر فيه شرف، والآخر أن المراد بالسجود الخضوع لا الانحناء ووضع الجبهة على الأرض، وهو ضعيف كما قال.

وقال قتادة في قوله تعالى ﴿فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين﴾: حسد عدو الله إبليس آدم عليه السلام على ما أعطاه الله من الكرامة وقال: أنا نارِي وهذا طيني، وكان بدء الذنوب الكبير، استكبر عدو الله أن يسجد لآدم عليه السلام. قلت: وقد ثبت في الصحيح: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر»، وقد كان في قلب إبليس من الكبر، والكفر، والعدا ما اقتضى طرده وإبعاده عن جناب الرحمة وحضرة القدس، قال بعض المعربين ﴿وكان من الكافرين﴾: أي وصار من الكافرين بسبب امتناعه، كما قال: ﴿فكان من المغرقين﴾، وقال: ﴿فتكونا من الظالمين﴾، وقال الشاعر:

بتيهاء قفر والمطي كأنها قطا الحزن قد كانت فراخاً بيوضها

أي قد صارت، وقال ابن فورك تقديره: وقد كان في علم الله من الكافرين، ورجَّحه القرطبي، وذكر ههنا مسألة فقال، قال علماؤنا: من أظهر الله على يديه ممن ليس بنبي كرامات وخوارق للعادات فليس ذلك دالاً على ولايته خلافاً لبعض الصوفية والرافضة .

قلت: وقد استدل بعضهم على ان الخارق قد يكون على يدي غير الولي، بل قد يكون على يد الفاجر والكافر أيضاً بما ثبت عن ابن صياد أنه قال: هو الدخ، حين خبأ له رسول الله ﷺ: ﴿فارتقب يوم تأت السماء بدخان مبين﴾، وبما كان يصدر عنه، أنه كان يملأ الطريق إذا غضب حتى ضربه عبد الله بن عمر، وبما ثبتت به الأحاديث عن الدجال بما يكون على يديه من الخوارق الكثيرة، من أنه يأمر السماء أن تمطر فتمطر. والأرض أن تنبت فتنتب، وتتبعه كنوز الأرض مثل اليعاسيب وأنه يقتل ذلك الشاب ثم يحييه إلى غير ذلك من الأمور المهولة. وكان الليث بن سعد يقول: إذا رأيت الرجل يمشي على الماء ويطير في الهواء فلا تغتروا به حتى تعرضوا أمره على الكتاب والسنة .

وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَازْلَمَهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾

يبين الله تعالى إخباراً عما أكرم به آدم، بعد أن أمر الملائكة بالسجود له فسجدوا إلا إبليس انه أباحه الجنة يسكن منها حيث يشاء ويأكل منها ما شاء (رغداً) أي هنيئاً واسعاً، طيباً. وقد اختلف في الجنة التي أسكنها آدم هي في السماء أم في الأرض؟ فالأكثر على الأول، وحكى القرطبي عن المعتزلة والقدرية القول بأنها في الأرض، وسيأتي تقرير ذلك في سورة الأعراف إن شاء الله تعالى، وسياق الآية يقتضي أن حواء خلقت قبل دخول آدم الجنة، ويقال: إن خلق حواء كان بعد دخول الجنة كما قال السدي في خبر ذكره عن ابن عباس وعن ناس من الصحابة «أخرج إبليس من الجنة وأسكن آدم الجنة، فكان يمشي فيها وحيداً ليس له زوج يسكن إليه، فنام نومة فاستيقظ وعند رأسه امرأة قاعدة خلقها الله من ضلعه، فسألها: ما أنت؟ قالت: امرأة، قال: ولم خلقت؟ قالت: لتسكن إليّ، قالت له الملائكة ينظرون ما بلغ من علمه: ما اسمها يا آدم؟ قال: حواء، قالوا: ولم حواء؟ قال: إنها خلقت من شيء حي .»

وأما قوله: ﴿ولا تقربا هذه الشجرة﴾ فهو اختبار من الله تعالى وامتحان لآدم. وقد اختلف في هذه الشجرة ما هي؟ فقال السدي عن ابن عباس: الشجرة التي نهى عنها آدم عليه السلام هي الكرم، وترجم يهود أنها الحنطة. وقال ابن جرير عن ابن عباس: الشجرة التي نهى عنها آدم عليه السلام هي السنبلة، وقال ابن جرير بسنده: حدثني رجل من بني تميم أن ابن عباس كتب إلى أبي الجلود يسأله عن الشجرة التي أكل منها آدم، والشجرة التي تاب عندها آدم، فكتب إليه أبو الجلود: سألتني عن الشجرة التي نهى عنها آدم وهي السنبلة، وسألتني عن الشجرة التي تاب

عندها آدم وهي الزيتون. وقال سفیان الثوري عن أبي مالك ﴿ولا تقربا هذه الشجرة﴾: النخلة، وقال ابن جرير عن مجاهد ﴿ولا تقربا هذه الشجرة﴾: التينة .

قال الإمام العلامة أبو جعفر بن جرير رحمه الله: والصواب في ذلك أن يقال: إن الله عز وجل ثناؤه نهي آدم وزوجته عن أكل شجرة بعينها من أشجار الجنة دون سائر أشجارها فأكلا منها، ولا علم عندنا بأي شجرة كانت على التعيين، لأن الله لم يضع لعباده دليلاً على ذلك في القرآن ولا من السنة الصحيحة. وقد قيل: كانت شجرة البر، وقيل: كانت شجرة العنب، وقيل: كانت شجرة التين. وجائز أن تكون واحدة منها وذلك علم إذا علم لم ينفع العالم به علمه، وإن جهله جاهل لم يضره جهله به والله أعلم .

وقوله تعالى: ﴿فأزلهما الشيطان عنها﴾ يصح أن يكون الضمير في قوله (عنها) عائداً إلى الجنة، فيكون معنى الكلام فأزلهما أي فنتحاهما، ويصح أن يكون عائداً على أقرب المذكورين وهو الشجرة فيكون معنى الكلام فأزلهما أي من قبل الزلل، فعلى هذا يكون تقدير الكلام ﴿فأزلهما الشيطان عنها﴾ أي بسببها، كما قال تعالى: ﴿يؤفك عنه من أفك﴾ أي يصرف بسببه من هو مأفوك، ولهذا قال تعالى: ﴿فأخرجهما مما كانا فيه﴾ أي من اللباس والتمزل الرحب والرزق الهنيء والراحة. ﴿وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين﴾ أي قرار وأرزاق وآجال (إلى حين) أي إلى وقت مؤقت ومقدار معين ثم تقوم القيامة، وقد ذكر المفسرون من السلف كالسدي بأسانيد، وأبي العالية، وهب بن منبه وغيرهم، ههنا أخباراً إسرائيلية عن قصة الحية وإبليس، وكيف جرى من دخول إبليس إلى الجنة ووسوسته، وسنسط ذلك إن شاء الله في سورة الأعراف فهناك القصة أبسط منها ههنا والله الموفق .

فإن قيل: فإذا كانت جنة آدم التي أخرج منها في السماء كما يقوله الجمهور من العلماء فكيف تمكن إبليس من دخول الجنة وقد طرد من هنالك؟ وأجاب الجمهور بأجوبة، أحدها أنه منع من دخول الجنة مكرماً، فأما على وجه السرقة والإهانة فلا يمنع. ولهذا قال بعضهم - كما في التوراة - إنه دخل في فم الحية إلى الجنة. وقد قال بعضهم: يحتمل أنه وسوس لهما وهو خارج باب الجنة. وقال بعضهم: يحتمل أنه وسوس لهما وهو في الأرض وهما في السماء. ذكرها الزمخشري وغيره. وقد أورد القرطبي ههنا أحاديث في الحيات وقتلهن، وبيان حكم ذلك فأجاد وأفاد .

فَتَلَقَىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ ءَكَلِمَةً فَتَابَ عَلَيْهِ ۗ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾

قيل: إن هذه الكلمات مفسرة بقوله تعالى: ﴿قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين﴾. وقال أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس عن أبي العالية في قوله تعالى: ﴿فتلقى آدم من ربه كلمات﴾ فتاب عليه، قال: إن آدم لما أصاب الخطيئة قال: أرأيت يا رب إن تبت وأصلحت؟ قال الله: «إذن أدخلك الجنة» فهي الكلمات، ومن الكلمات أيضاً: ﴿ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين﴾. وعن مجاهد أنه كان يقول في قول الله تعالى: ﴿فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه﴾ الكلمات: «اللهم لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك، رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي إنك خير الغافرين»، «اللهم لا إله إلا أنت سبحانك

وبحمدك، رب إني ظلمت نفسي فارحمني إنك خير الرحمين » ، « اللهم لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك ، رب إني ظلمت نفسي فنب عليّ إنك أنت التواب الرحيم » ، وقوله تعالى : ﴿ إنه هو التواب الرحيم ﴾ أي إنه يتوب على من تاب إليه وأتاب كقوله : ﴿ ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ﴾ ، وقوله : ﴿ ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ﴾ الآية ، وقوله : ﴿ ومن تاب وعمل صالحاً ﴾ وغير ذلك من الآيات الدالة على أنه تعالى يغفر الذنوب ، ويتوب على من يتوب ، وهذا من لطفه بخلقه ورحمته بعبده ، لا إله إلا هو التواب الرحيم .

قُلْنَا أَهْبَطُوا مِنهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٩﴾

يخبر تعالى بما أنذر به آدم وزوجته وإبليس حين أهبطهم من الجنة ، والمراد الذرية : إنه سينزل الكتب ، ويبعث الأنبياء والرسل ، كما قال أبو العالية : الهدى الأنبياء والرسل والبينات والبيان . وقال مقاتل بن حيان : الهدى محمد ﷺ ، وقال الحسن : الهدى القرآن ، وهذان القولان صحيحان . وقول أبي العالية أعم . ﴿ فمن تبع هداي ﴾ أي من أقبل على ما أنزلت به الكتب وأرسلت به الرسل ﴿ فلا خوف عليهم ﴾ أي فيما يستقبلونه من أمر الآخرة ﴿ ولا هم يحزنون ﴾ على ما فاتهم من أمور الدنيا كما قال في سورة طه : ﴿ فإمّا يأتينكم مني هدى فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى ﴾ . قال ابن عباس : فلا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة : ﴿ ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى ﴾ كما قال ههنا . ﴿ والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ أي مخلدون فيها لا محيد لهم عنها ولا محيص . قال رسول الله ﷺ : « أما أهل النار الذين هم أهلها فلا يموتون فيها ولا يحيون ، ولكن أقوام أصابهم النار بخطاياهم فأماتهم إماتة حتى إذا صاروا فحمًا أذن في الشفاعة ^(١) » .

وذكر هذا الإهباط الثاني لما تعلق به ما بعده من المعنى المغاير للأول ، وزعم بعضهم أنه تأكيد وتكرير كما يقال قم قم ، وقال آخرون : بل الإهباط الأول من الجنة إلى السماء الدنيا ، والثاني من سماء الدنيا إلى الأرض والصحيح الأول ، والله أعلم .

يٰۤاِسْرَائِيْلَ اذْكُرُوْا نِعْمَتِيْ الَّتِيْ اَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَاَوْفُوا بِعَهْدِيْ اُوْفٍ بِعَهْدِكُمْ وَاِيْنِيْ فَاَرْهَبُوْا ﴿٤٠﴾ وَاٰمِنُوْا بِمَا اَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُوْنُوْا اَوَّلَ كٰفِرِيْنَ بِهٖ وَلَا تَسْتُرُوْا بِعٰيَتِيْ ثُمَّ قَلِيْلًا وَاِيْنِيْ فَاَتَّقُوْنَ ﴿٤١﴾

يأمر تعالى بني إسرائيل بالدخول في الإسلام ، ومتابعة محمد عليه من الله أفضل الصلاة والسلام ، ومهيجاً لهم بذكر أبيهم (إسرائيل) وهو نبي الله يعقوب عليه السلام ، وتقديره : يا بني العبد الصالح المطيع لله ،

(١) رواه مسلم من حديث شعبة عن أبي سلمة وأورده ابن جرير من طريقين .

كونوا مثل أيكم في متابعة الحق، كما تقول: يا ابن الكريم اعمل كذا؛ يا ابن الشجاع بارز الأبطال؛ يا ابن العالم اطلب العلم، ونحو ذلك. ومن ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿ ذرية من حملنا مع نوح إنه كان عبداً شكوراً ﴾. فإسرائيل هو يعقوب بدليل ما رواه ابن عباس قال: حضرت عصابة من اليهود نبي الله ﷺ فقال لهم: هل تعلمون أن إسرائيل يعقوب؟ قالوا: اللهم نعم، فقال النبي ﷺ: « اللهم اشهد ». وعن ابن عباس: أن إسرائيل كقولك عبدالله.

وقوله تعالى: ﴿ اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم ﴾ قال مجاهد: نعمة الله التي أنعم بها عليهم فيما سمي وفيما سوى ذلك أن فجر لهم الحجر، وأنزل عليهم المن والسلوى، ونجّاهم من عبودية آل فرعون. وقال أبو العالية: نعمته أن جعل منهم الأنبياء والرسل، وأنزل عليهم الكتب. قلت: وهذا كقول موسى عليه السلام لهم: ﴿ يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكاً وآتاكم ما لم يؤت أحداً من العالمين ﴾ يعني في زمانهم. وقال محمد ابن إسحاق عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم ﴾ أي بلائي عندكم وعند آبائكم لما كان نجّاهم من فرعون وقومه، ﴿ وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم ﴾، قال: بعهدي الذي أخذت في أعناقكم للنبي ﷺ إذا جاءكم، أنجز لكم ما وعدتكم عليه من تصديقه واتباعه، بوضع ما كان عليكم من الآصار والأغلال التي كانت في أعناقكم بذنوبكم التي كانت من أحداثكم. وقال الحسن البصري: هو قوله تعالى: ﴿ ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل وبعثنا منهم اثني عشر نبياً. وقال الله إني معكم لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة، وآمنتم برسلي وعزتموه، وأقرضتم الله قرضاً حسناً، لأكفرن عنكم سيئاتكم ولأدخلنكم جنات تجري من تحتها الأنهار ﴾ الآية. وقال آخرون: هو الذي أخذ الله عليهم في التوراة أنه سيبعث من بني إسماعيل نبياً عظيماً يطيعه جميع الشعوب والمراد به محمد ﷺ، فن اتبعه غفر الله له ذنبه وأدخله الجنة وجعل له أجرين. وقد أورد الرازي بشارات كثيرة عن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بمحمد ﷺ.

وقال أبو العالية ﴿ وأوفوا بعهدي ﴾، قال: عهده إلى عباده دين الإسلام وأن يتبعوه. وقال الضحّاك ﴿ أوف بعهدكم ﴾: أرض عنكم وأدخلكم الجنة، وقوله تعالى: ﴿ وإياي فارهبون ﴾ أي فاحشون، وقال ابن عباس: في قوله تعالى: ﴿ وإياي فارهبون ﴾ أي أن انزل بكم ما أنزلت بمن كان قبلكم من آباءكم من النعمات التي قد عرقت من المسخ وغيره، وهذا انتقال من الترهيب إلى الترهيب، فدعاهم إليه بالرغبة والرغبة، لعلهم يرجعون إلى الحق واتباع الرسول ﷺ والاتعاظ بالقرآن وزواجه، وامثال أوامره وتصديق أخباره، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم، ولهذا قال: ﴿ وآمنوا بما أنزلت مصداقاً لما معكم ﴾ يعني به القرآن الذي أنزل على محمد ﷺ النبي الأمي العربي بشيراً ونذيراً، وسراجاً منيراً، مشتملاً على الحق من الله تعالى، مصداقاً لما بين يديه من التوراة والإنجيل. قال أبو العالية: ﴿ وآمنوا بما أنزلت مصداقاً لما معكم ﴾، يقول: يا معشر أهل الكتاب آمنوا بما أنزلت مصداقاً لما معكم، يقول: لأنهم يجدون محمداً ﷺ مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل.

وقوله: ﴿ ولا تكونوا أول كافر به ﴾ قال ابن عباس: ولا تكونوا أول كافر به وعندكم فيه من العلم ما ليس عند غيركم، قال أبو العالية: ولا تكونوا أول من كفر بمحمد ﷺ بعد سماعكم ببعثته، واختار ابن جرير أن الضمير في قوله (به) عائد على القرآن الذي تقدّم ذكره في قوله: ﴿ بما أنزلت ﴾، وكلا القولين صحيح لأنهما متلازمان، لأن من كفر بالقرآن فقد كفر بمحمد ﷺ، ومن كفر بمحمد ﷺ فقد كفر بالقرآن، وأما قوله:

﴿ أول كافر به ﴾ فيعني به أول من كفر به من بني إسرائيل، لأنه قد تقدمهم من كفار قريش وغيرهم من العرب بشر كثير، وإنما المراد أول من كفر به من بني إسرائيل مباشرة، فإن يهود المدينة أول بني إسرائيل خوطبوا بالقرآن فكفرهم به يستلزم أنهم أول من كفر به من جنسهم .

وقوله تعالى: ﴿ ولا تشتروا آياتي ثمناً قليلاً ﴾ يقول: لا تتعاضوا عن الإيمان بآياتي وتصديق رسولي بالدنيا وشهواتها فإنها قليلة فانية، سئل الحسن البصري عن قوله تعالى: ﴿ ثمناً قليلاً ﴾ قال: الثمن القليل الدنيا بحذافيرها. وعن سعيد بن جبير: إن آياته: كتابه الذي أنزله إليهم، وإن الثمن القليل: الدنيا وشهواتها؛ وقيل: معناه لا تتعاضوا عن البيان والايضاح ونشر العلم النافع في الناس بالكتمان واللبس، لتستمروا على رياستكم في الدنيا القليلة الحقيرة الزائلة عن قريب، وفي سنن أبي داود عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « من تعلم علماً مما يتبغى به وجه الله لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضاً من الدنيا لم يرح رائحة الجنة يوم القيامة »^(١). فأما تعليم العلم بأجرة فإن كان قد تعين عليه فلا يجوز أن يأخذ عليه أجرة، ويجوز أن يتناول من بيت المال ما يقوم به حاله وعياله، فإن لم يحصل له منه شيء وقطعه التعليم عن التكسب فهو كما لم يتعين عليه، وإذا لم يتعين عليه فإنه يجوز أن يأخذ عليه أجرة عند (مالك والشافعي وأحمد) وجمهور العلماء كما في قصة اللديغ: « إن أحق ما أخذتم عليه أجرأ كتاب الله^(٢) »، وقوله في قصة المخطوبة: « زوجتكها بما معك من القرآن ».

وقوله: ﴿ وإياي فاتقون ﴾ عن طلق بن حبيب قال: التقوى أن تعمل بطاعة الله، رجاء رحمة الله، على نور من الله، وأن تترك معصية الله، على نور من الله، تخاف عقاب الله، ومعنى قوله: ﴿ وإياي فاتقون ﴾ انه تعالى يتوعدهم فيما يتعمدونه من كتمان الحق وإظهار خلافه ومخالفتهم الرسول صلوات الله وسلامه عليه .

وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكعُوا مَعَ

الرَّاكِعِينَ ﴿٤٣﴾

يقول تعالى ناهياً لليهود عما كانوا يتعمدونه من تلبيس الحق بالباطل وتمويه به، وكتمانهم الحق وإظهارهم الباطل ﴿ ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون ﴾ ففهام عن الشيثين معاً، وأمرهم بإظهار الحق والتصريح به. ولهذا قال ابن عباس ﴿ ولا تلبسوا الحق بالباطل ﴾: لا تخلطوا الحق بالباطل والصدق بالكذب، وقال أبو العالية: ولا تخلطوا الحق بالباطل، وأدوا النصيحة لعباد الله من أمة محمد ﷺ، وقال قتادة: ﴿ ولا تلبسوا الحق بالباطل ﴾: ولا تلبسوا اليهودية والنصرانية بالإسلام وأنتم تعلمون أن دين الله الإسلام، وأن اليهودية والنصرانية بدعة ليست من الله. عن ابن عباس: ﴿ وتكتموا الحق وأنتم تعلمون ﴾ أي لا تكتموا ما عندكم من المعرفة برسولي وبما جاء به وأنتم تجلدونه مكتوباً عندكم فيما تعلمون من الكتب التي بأيديكم. وقال مجاهد والسدي: ﴿ وتكتموا الحق ﴾ يعني محمداً ﷺ. (قلت): وتكتموا يحتمل أن يكون مجزوماً ويحتمل أن يكون منصوباً أي لا تجمعوا بين هذا وهذا، كما يقال: لا تأكل السمك وتشرب اللبن. قال الزمخشري: وفي مصحف ابن مسعود

(٢) رواه البخاري عن أبي سعيد الخدري .

(١) أخرجه أبو داود في السنن عن أبي هريرة .

﴿وتكتموا الحق﴾ أي في حال كتمانكم الحق، ﴿وأنتم تعلمون﴾ حال أيضاً، ومعناه وأنتم تعلمون الحق ويجوز أن يكون المعنى وأنتم تعلمون ما في ذلك من الضرر العظيم على الناس، من إيضالهم عن الهدى المفضي بهم إلى النار، إن سلكوا ما تبدونه لهم من الباطل المشوب بنوع من الحق لترؤجوه عليهم، والبيان: الايضاح، وعكسه الكتمان وخلط الحق بالباطل. ﴿وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين﴾ قال مقاتل: أمرهم أن يصلوا مع النبي ﷺ. ﴿ وآتوا الزكاة﴾ أمرهم أن يؤتوا الزكاة أي يدفعونها إلى النبي ﷺ. ﴿واركعوا مع الراكعين﴾ أمرهم أن يركعوا مع الراكعين من أمة محمد ﷺ. يقول: كونوا معهم ومنهم.

﴿اتأمروا النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ نَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾

معناه : كيف يليق بكم يا معشر أهل الكتاب وأنتم تأمرون الناس بالبر - وهو جماع الخير - أن تنسوا أنفسكم فلا تأمرون بما تأمرون الناس به، وأنتم مع ذلك تتلون الكتاب وتعلمون ما فيه على من قصر في أوامر الله؟ ﴿أفلا تعقلون﴾ ما أنتم صانعون بأنفسكم، فتنهبوا من رقدتكم، وتبصروا من عمايتكم؟ وهذا كما قال قتادة في قوله تعالى: ﴿اتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم﴾. قال: كان بنو إسرائيل يأمرون الناس بطاعة الله، وبتقواه ويخالفون، فغيرهم الله عز وجل. وقال ابن عباس: ﴿وتنسون أنفسكم﴾ أي تتركون أنفسكم ﴿وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون﴾ أي تهون الناس عن الكفر بما عندكم من النبوة والعهد من التوراة وتتركون أنفسكم، أي وأنتم تكفرون بما فيها من عهدي إليكم في تصديق رسولي، وتتقصون ميثاقي ومجحدون ما تعلمون من كتابي. وقال الضحاك عن ابن عباس في هذه الآية: يقول تأمرون الناس بالدخول في دين محمد ﷺ وغير ذلك مما أمرتم به من إقام الصلاة وتنسون أنفسكم.

قال أبو الدرداء رضي الله عنه: لا يفقه الرجل كل الفقه حتى يمقت الناس في ذات الله ثم يرجع إلى نفسه فيكون لها أشد مقتاً، وقال عبد الرحمن بن أسلم في هذه الآية: هؤلاء اليهود إذا جاء الرجل سألهم عن الشيء ليس فيه حق ولا رشوة أمروه بالحق، فقال الله تعالى: ﴿اتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون﴾؟ والغرض أن الله تعالى ذمهم على هذا الصنيع، ونبهم على خطئهم في حق أنفسهم حيث كانوا يأمرون بالخير ولا يفعلونه، وليس المراد ذمهم على أمرهم بالبر مع تركهم له، بل على تركهم له، فإن الأمر بالمعروف معروف وهو واجب على العالم، ولكن الواجب والأولى بالعالم أن يفعله مع من أمرهم به، ولا يتخلف عنهم كما قال شعيب عليه السلام: ﴿وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه. إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت﴾.

فكل من الأمر بالمعروف وفعله واجب، لا يسقط أحدهما بترك الآخر، على أصح قولي العلماء من السلف والخلف. وذهب بعضهم إلى أن مرتكب المعاصي لا ينهى غيره عنها، وهذا ضعيف. والصحيح أن العالم يأمر بالمعروف وإن لم يفعله، وينهى عن المنكر وإن ارتكبه، قال سعيد بن جبير: لو كان المرء لا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر حتى لا يكون فيه شيء ما أمر أحد بمعروف ولا نهى عن منكر.

(قلت): لكنه والحالة هذه مذموم على ترك الطاعة وفعله المعصية، لعلمه بها ومخالفته على بصيرة، فإنه ليس

من يعلم كمن لا يعلم، ولهذا جاءت الأحاديث في الوعيد على ذلك كما قال رسول الله ﷺ: «مَثَلُ الْعَالَمِ الَّذِي يَعْلَمُ النَّاسَ الْخَيْرَ وَلَا يَعْمَلُ بِهِ كَمَثَلِ السَّرَاجِ يَضِيءُ لِلنَّاسِ وَيُحْرَقُ نَفْسَهُ»^(١) وقال رسول الله ﷺ: «مَرَرْتُ لَيْلَةَ أُسْرِي بِي عَلَى قَوْمٍ تُقْرَضُ شِفَاهُهُمْ بِمَقَارِيضٍ مِنْ نَارٍ، قُلْتُ: مَنْ هَؤُلَاءِ؟ قَالُوا: خُطَبَاءُ أُمَّتِكَ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا، مِمَّنْ كَانُوا يَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَيَنْسَوْنَ أَنْفُسَهُمْ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا يَعْقِلُونَ»^(٢)، وقال ﷺ: «يَجَاءُ بِالرَّجُلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ فَتَنْدَلِقُ بِهِ أَقْتَابُهُ فَيَدُورُ بِهَا فِي النَّارِ كَمَا يَدُورُ الْحِمَارُ بِرِحَاهُ فَيَطِيفُ بِهِ أَهْلُ النَّارِ فَيَقُولُونَ يَا فُلَانُ مَا أَصَابَكَ؟ أَلَمْ تَكُنْ تَأْمُرُنَا بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَانَا عَنِ الْمُنْكَرِ؟ فَيَقُولُ كُنْتُ أَمْرُكُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَلَا آتِيَهُ، وَأَنْهَأَكُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَآتَيْتُهُ»^(٣)، وقد ورد في بعض الآثار أنه يغفر للجاهل سبعين مرة، حتى يغفر للعالم مرة واحدة، ليس من يعلم كمن لا يعلم. وقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾، وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «إِنْ أَنَا سَأَسْأَلُ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ يَطَّلَعُونَ عَلَى أَنَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ، فَيَقُولُونَ بِمِ دَخَلْتُمُ النَّارَ؟ فَوَاللَّهِ مَا دَخَلْنَا الْجَنَّةَ إِلَّا بِمَا تَعَلَّمْنَا مِنْكُمْ، فَيَقُولُونَ: إِنَّا كُنَّا نَقُولُ وَلَا نَفْعَلُ»^(٤).

وجاء رجل إلى ابن عباس فقال يا ابن عباس: إني أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر، قال: أبلغت ذلك؟ قال: أرجو، قال: إن لم تخش أن تفتضح بثلاث آيات من كتاب الله فافعل، قال: وما هن؟ قال: قوله تعالى: ﴿تَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾ أحكمت هذه؟ قال: لا، قال: فالحرف الثاني، قال: قوله تعالى: ﴿لَمْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ؟ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ أحكمت هذه؟ قال: لا، قال: فالحرف الثالث، قال: قول العبد الصالح شعيب عليه السلام: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ﴾ أحكمت هذه الآية؟ قال: لا، قال: فابدأ بنفسك^(٥). وقال إبراهيم النخعي: إني لأكره القصص لثلاث آيات قوله تعالى: ﴿تَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾، وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَمْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾، وقوله إخباراً عن شعيب: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ﴾.

وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴿٤٥﴾ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلْقُوا رَبَّهُمْ وَإِنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿٤٦﴾

يأمر تعالى عبده فيما يؤملون من خير الدنيا والآخرة بالاستعانة بالصبر والصلاة كما قال مقاتل في تفسير هذه الآية: استعينوا على طلب الآخرة بالصبر على الفرائض والصلاة. فأما الصبر فقيل: إنه الصيام.

قال القرطبي: ولهذا يسمى رمضان شهر الصبر كما نطق به الحديث: «الصوم نصف الصبر»، وقيل: المراد

(١) رواه الطبراني في الكبير، قال ابن كثير؛ وهو غريب من هذا الوجه.

(٢) رواه الإمام أحمد في مسنده عن أنس بن مالك.

(٣) رواه الإمام أحمد ورواه البخاري ومسلم بنحوه.

(٤) رواه ابن عساکر في ترجمة الوليد بن عتبة.

(٥) رواه الضحاك عن ابن عباس.

بالصبر الكف عن المعاصي ولهذا قرنه بأداء العبادات، وأعلهاها فعل الصلاة. قال عمر بن الخطاب: الصبر صبران: صبر عند المصيبة حسن، وأحسن منه الصبر عن محارم الله. وقال أبو العالية: ﴿واستعينوا بالصبر والصلاة﴾ على مرضاة الله، واعلموا أنها من طاعة الله. وأما قوله: ﴿والصلاة﴾ فإن الصلاة من أكبر العون على الثبات في الأمر كما قال تعالى: ﴿واقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر﴾ الآية.

وكان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة^(١)، وعن علي رضي الله عنه قال: لقد رأيتنا ليلة بدر وما فينا إلا نائم غير رسول الله ﷺ يصلي ويدعو حتى أصبح. وروي أن ابن عباس نعي إليه أخوه قثم وهو في سفر، فاسترجع ثم تنحى عن الطريق، فأناخ فصلى ركعتين أطال فيهما الجلوس، ثم قام يمشي إلى راحلته وهو يقول: ﴿واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين﴾، والضمير في قوله: ﴿وإنها لكبيرة﴾ عائد إلى الصلاة، ويحتمل أن يكون عائداً على ما يدل عليه الكلام وهو الوصية بذلك كقوله تعالى في قصة قارون: ﴿ولا يلقاها إلا الصابرون﴾، وقال تعالى: ﴿وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم﴾ أي وما يلقى هذه الوصية إلا الذين صبروا، وما يلقاها أي يؤتاها ويلهمها إلا ذو حظ عظيم. وعلى كل تقدير فقوله تعالى: ﴿وإنها لكبيرة﴾ أي مشقة ثقيلة إلا على الخاشعين، قال ابن عباس: يعني المصدقين بما أنزل الله، وقال مجاهد: المؤمنين حقاً، وقال أبو العالية: الخائفين، وقال مقاتل: المتواضعين، وقال الضحّاك: ﴿وإنها لكبيرة﴾ قال: إنها لثقيلة إلا على الخاضعين لطاعته، الخائفين سطوته، المصدقين بوعده ووعيده. وقال ابن جرير معنى الآية: واستعينوا أيها الأخبار من أهل الكتاب بحبس أنفسكم على طاعة الله وبإقامة الصلاة المانعة من الفحشاء والمنكر، المقربة من رضا الله، العظيمة إقامتها ﴿إلا على الخاشعين﴾ أي المتواضعين المستكينين لطاعته المتذللين من مخافته. هكذا قال، والظاهر أن الآية وإن كانت خطاباً في سياق إنذار بني إسرائيل فإنهم لم يقصدوا بها على سبيل التخصيص، وإنما هي عامة لهم ولغيرهم، والله أعلم.

وقوله تعالى ﴿الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم وأنهم إليه راجعون﴾ هذا من تمام الكلام الذي قبله، أي أن الصلاة لثقيلة إلا على الخاشعين الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم، أي يعلمون أنهم محشورون إليه يوم القيامة، معروضون عليه وأنهم إليه راجعون أي أمورهم راجعة إلى مشيئته، يحكم فيها ما يشاء بعدله، فلهذا لما أيقنوا بالمعاد والجزاء، سهل عليهم فعل الطاعات وترك المنكرات. فأما قوله ﴿يظنون أنهم ملاقوا ربهم﴾ فالمراد يعتقدون، والعرب قد تسمي اليقين ظناً والشك ظناً، نظير تسميتهم الظلمة سدفة، والضياء سدفة. ومنه قول الله تعالى: ﴿ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها﴾، قال مجاهد: كل ظن في القرآن يقين. وعن أبي العالية في قوله تعالى: ﴿الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم﴾ قال: الظن ههنا يقين، وعن ابن جريج: علموا أنهم ملاقوا ربهم كقوله: ﴿إني ظننت أني ملاق حسابيه﴾ يقول علمت. (قلت) وفي الصحيح: إن الله تعالى يقول للعبد يوم القيامة: «ألم أزوجك ألم أكرمك ألم أسخر لك الخيل والإبل وأدرك ترأس وتربع؟»، فيقول: بلى، فيقول الله تعالى: «أظننت أنك ملاقي؟»، فيقول: لا، فيقول الله: «اليوم أنساك كما نسيتني». وسيأتي مبسوطاً عند قوله تعالى: ﴿نسوا الله فنسيهم﴾، إن شاء الله تعالى.

(١) رواه أحمد وأبو داود.

يَذُنِّي إِسْرَائِيلَ أَذْكَرُوا نِعْمَتِي الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾

يذكرهم تعالى بسالف نعمه على آبائهم وأسلافهم، وما كان فضلهم به من إرسال الرسل منهم وأنزل الكتب عليهم وعلى سائر الأمم من أهل زمانهم كما قال تعالى: ﴿ولقد اخترناهم على علم على العالمين﴾، وقال تعالى: ﴿وآتاكم ما لم يؤت أحداً من العالمين﴾. قال أبو العالية في قوله تعالى ﴿وأي فضلتم على العالمين﴾ على عالم من كان في ذلك الزمان فإن لكل زمان عالماً، ويجب الحمل على هذا، لأن هذه الأمة أفضل منهم لقوله تعالى: ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس﴾، وقال رسول الله ﷺ: «أنتم توفون سبعين أمة أتم خيرها وأكرمها على الله^(١)»، والأحاديث في هذا كثيرة، وقيل: المراد تفضيل بنوع ما من الفضل على سائر الناس، ولا يلزم تفضيلهم مطلقاً، حكاة الرازي وفيه نظر. وقيل: فضلوا على سائر الأمم لاشتغال أممهم على الأنبياء منهم وفيه نظر، لأن العالمين عام يشمل من قبلهم، ومن بعدهم من الأنبياء، فإبراهيم الخليل قبلهم وهو أفضل من سائر أنبيائهم، ومحمد بعدهم وهو أفضل من جميع الخلق، وسيد ولد آدم في الدنيا والآخرة صلوات الله وسلامه عليه.

وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾

لما ذكرهم تعالى بنعمه أولاً، عطف على ذلك التحذير من طول نعمه بهم يوم القيامة فقال: ﴿واتقوا يوماً﴾ يعني يوم القيامة ﴿لا تجزي نفس عن نفس شيئاً﴾ أي لا يغني أحد عن أحد، كما قال: ﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾، وقال: ﴿لكل امرئٍ منهم يومئذٍ شأنٌ يغنيه﴾، وقال: ﴿واخشوا يوماً لا يجرى والدٌ عن ولده، ولا مولودٌ هو جاز عن والده شيئاً﴾ فهذا أبلغ المقامات أن كلاً من الوالد وولده لا يغني أحدهما عن الآخر شيئاً. وقوله تعالى: ﴿ولا يقبل منها شفاعة﴾ يعني من الكافرين كما قال: ﴿فا تنفعهم شفاعة الشافعين﴾، وكما قال عن أهل النار: ﴿فأنا لنا من شافعين ولا صديق حميم﴾؛

وقوله تعالى: ﴿ولا يؤخذ منها عدل﴾ أي لا يقبل منها فداء، كما قال تعالى: ﴿فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً ولو افتدى به﴾، وقال: ﴿إن الذين كفروا لو أن لهم ما في الأرض جميعاً ومثله معه ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة ما تقبل منهم﴾، وقال تعالى: ﴿وإن تعدل كل عدل لا يؤخذ منها﴾، وقال: ﴿فالיום لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا﴾ الآية. فأخبر تعالى أنهم إن لم يؤمنوا برسوله ويتابعوه على ما بعثه به ووافوا الله يوم القيامة على ما هم عليه فإنه لا ينفعهم قرابة قريب، ولا شفاعة ذي جاه، ولا يقبل منهم فداء ولو بملء الأرض ذهباً، كما قال تعالى: ﴿لا بيع فيه ولا خلاق﴾. قال ابن عباس: ﴿ولا يؤخذ منها عدل﴾ قال: بدلٌ والبدل الفدية.

وقوله تعالى: ﴿ولا هم ينصرون﴾ أي ولا أحد يغضب لهم فينصرهم وينقذهم من عذاب الله، كما تقدم من أنه لا يعطف عليهم ذو قرابة ولا ذو جاه، ولا يقبل منهم فداء، هذا كله من جانب التلطف، ولا لهم ناصر من

(١) رواه أصحاب السنن عن معاوية بن حيدة القشيري مرفوعاً.

أنفسهم ولا من غيرهم كما قال: ﴿فأله من قوة ولا ناصر﴾ أي أنه تعالى لا يقبل فيمن كفر به فدية ولا شفاعة ولا ينقذ أحداً من عذابه منقذ، ولا يخلص منه أحد كما قال تعالى: ﴿فيومئذ لا يعذب عذابه أحد ولا يوثق وثاقه أحد﴾، وقال: ﴿ما لكم لا تنصرون بل هم اليوم مستسلمون﴾، وقال: ﴿فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قربانا آلهة بل ضلوا عنهم﴾ الآية. وقال الضحاك عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ما لكم لا تنصرون﴾ ما لكم اليوم لا تمانعون منا، هيات ليس ذلك لكم اليوم، قال ابن جرير: وتأويل قوله: ﴿ولا هم ينصرون﴾ يعني أنهم يومئذ لا ينصرهم ناصر، كما لا يشفع لهم شافع، ولا يقبل منهم عدل ولا فدية. بطلت هنالك المحاباة واضمحلت الرشا والشفاعات، وارتفع من القوم التناصر والتعاون، وصار الحكم إلى الجبار العدل، الذي لا ينفع لديه الشفعاء والنصراء فيجزى بالسيئة مثلها وبالחסنة أضعافها. وذلك نظير قوله تعالى: ﴿وقفوهم إنهم مسئولون﴾ ما لكم لا تنصرون؟ بل هم اليوم مستسلمون.

وَإِذْ نَجَّيْنَاكَ مِنَ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكَ سُوءَ الْعَذَابِ يَذْبَحُونَ أَبْنَاءَكَ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكَ وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكَ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴿٥٠﴾

يقول تعالى اذكروا يا بني إسرائيل نعمتي عليكم، إذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب، أي خلصتكم منهم وأنقذتكم من أيديهم صحبة موسى عليه السلام، وقد كانوا يسومونكم أي يوردونكم ويذيقونكم ويولونكم سوء العذاب وذلك أن فرعون لعنه الله كان قد رأى رؤيا هالته، رأى ناراً خرجت من بيت المقدس فدخلت بيوت القبط إلا بيوت بني إسرائيل، مضمونها أن زوال ملكه يكون على يدي رجل من بني إسرائيل، فعند ذلك أمر فرعون لعنه الله بقتل كل ذكر يولد بعد ذلك من بني إسرائيل، وأن تترك البنات، وأمر باستعمال بني إسرائيل في مشاق الأعمال وأرذلها، وههنا فسر العذاب بذبح الأبناء، وفي سورة إبراهيم عطف عليه كما قال: ﴿يسومونكم سوء العذاب ويذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم﴾، وسيأتي تفسير ذلك في أول سورة القصص، إن شاء الله تعالى وبه الثقة والمعونة والتأييد. ومعنى (يسومونكم) يولونكم كما يقال: سامه خطة خسف إذا أولاه إياها، قال عمرو ابن كلثوم:

إذ ما الملك سام الناس خسفاً أينا أن نُقرَّ الخسف فينا

وقيل معناه: يذبحون عذابكم، وإنما قال ههنا: ﴿يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم﴾ ليكون ذلك تفسيراً للنعمة عليهم في قوله: ﴿يسومونكم سوء العذاب﴾، ثم فسره بهذا لقوله ههنا ﴿اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم﴾. وأما في سورة إبراهيم فلما قال: ﴿وذكروهم بأيام الله﴾ أي بأباده ونعمه عليهم فناسب أن يقول هناك: ﴿يسومونكم سوء العذاب ويذبحون أبناءكم﴾، فعطف عليه الذبح ليدل على تعدد النعم والأباده على بني إسرائيل. (وفرعون) علمٌ على كل من ملك مصر كافراً من العماليق وغيرهم، كما أن (قيصر) علمٌ على كل من ملك الروم مع الشام كافراً، و (كسرى) لمن ملك الفرس. ويقال: كان اسم فرعون الذي كان في زمن موسى عليه السلام (الوليد

ابن مصعب بن الريان) فكان من سلالة عمليق، وكنيته أبو مرة، وأصله فارسي من اصطخر. وأياً ما كان فعليه لعنة الله. وقوله تعالى: ﴿وَفِي ذَلِكَ بَلَاءٌ﴾ قال ابن جرير: وفي الذي فعلنا بكم من إيجائنا آباءكم مما كنتم فيه من عذاب آل فرعون، بلاء لكم من ربكم عظيم، أي نعمة عظيمة عليكم في ذلك، وأصل البلاء الاختبار، وقد يكون بالخير والشر كما قال تعالى: ﴿وَنَبَلُوكُم بِالْشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾، وقال: ﴿وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ﴾ .
وقيل المراد بقوله: ﴿وَفِي ذَلِكَ بَلَاءٌ﴾ إشارة إلى ما كانوا فيه من العذاب المهين من ذبح الأبناء واستحياء النساء، قال القرطبي: وهذا قول الجمهور والبلاء ههنا في الشر، والمعنى: وفي الذبح مكروه وامتحان .

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ معناه: وبعد أن أنقذناكم من آل فرعون وخرجتم مع موسى عليه السلام، خرج فرعون في طلبكم ففرقنا بكم البحر، ﴿فَأَنْجَيْنَاكُمْ﴾ أي خلصناكم منهم وحجزنا بينكم وبينهم وأغرقناهم وأتم تنظرون، ليكون ذلك أشقى لصدوركم وأبلغ في إهانة عدوكم. وقد ورد أن هذا اليوم كان يوم عاشوراء، لما روي عن ابن عباس قال: قدم رسول الله ﷺ المدينة فرأى اليهود يصومون يوم عاشوراء، فقال: «ما هذا اليوم الذي تصومون؟»، قالوا: هذا يوم صالح، هذا يوم نجى الله عز وجل فيه بني إسرائيل من عدوهم فصامه موسى عليه السلام، فقال رسول الله ﷺ: «أنا أحق بموسى منكم» فصامه رسول الله ﷺ وأمر بصومه^(١).

وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾

يقول تعالى: ﴿واذكروا نعمتي عليكم﴾ في عفوي عنكم، لما عبدتم العجل بعد ذهاب موسى لميقات ربه عند انقضاء أمد المواعدة، وكانت أربعين يوماً وهي المذكورة في الأعراف في قوله تعالى: ﴿وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر﴾، وكان ذلك بعد خلاصهم من فرعون وإيجائهم من البحر .

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ﴾ يعني التوراة، ﴿والفرقان﴾ وهو ما يفرق بين الحق والباطل والهدى والضلالة ﴿لعلكم تهتلون﴾، وكان ذلك أيضاً بعد خروجهم من البحر كما دل عليه سياق الكلام في سورة الأعراف، ولقوله تعالى: ﴿ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى﴾ .

وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ۖ يَا قَوْمِ ۖ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾

(١) أخرجه أحمد ورواه البخاري ومسلم والنسائي وابن ماجه من طرق نحو ما تقدم .

هذه صفة توبته تعالى على بني إسرائيل من عبادة العجل، حين وقع في قلوبهم من شأن عبادتهم العجل ما وقع ﴿فتوبوا إلى بارئكم﴾ أي إلى خالقكم. وفي قوله ههنا ﴿إلى بارئكم﴾ تنبيه على عظم جرمهم، أي فتوبوا إلى الذي خلقكم وقد عبدتم معه غيره، قال ابن جرير بسنده عن ابن عباس: أمر موسى قومه عن أمر ربه عز وجل أن يقتلوا أنفسهم قال: وأخبر الذين عبدوا العجل فجلسوا، وقام الذين لم يعكفوا على العجل فأخذوا الخناجر بأيديهم، وأصابتهم ظلمة شديدة فجعل يقتل بعضهم بعضاً، فأنجلت الظلمة عنهم وقد جلوا عن سبعين ألف قتيل، كل من قتل منهم كانت له توبة، وكل من بقي كانت له توبة. وقال السدي: في قوله ﴿فاقتلوا أنفسكم﴾ قال: فاجتلد الذين عبدوه والذين لم يعبدوه بالسيوف، فكان من قتل من الفريقين شهيداً حتى كثر القتل حتى كادوا أن يهلكوا، حتى قتل منهم سبعون ألفاً وحتى دعا موسى وهارون ربنا أهلكت بني إسرائيل ربنا البقية الباقية، فأمرهم أن يلقوا السلاح وتاب عليهم، فكان من قتل منهم من الفريقين شهيداً، ومن بقي مكفراً عنه فذلك قوله: ﴿فتاب عليكم إنه هو التواب الرحيم﴾. وقال ابن إسحاق: لما رجع موسى إلى قومه وأحرق العجل وذراه في الميم خرج إلى ربه بمن اختار من قومه فأخذتهم الصاعقة ثم بعثوا، فسأل موسى ربه التوبة لبني إسرائيل من عبادة العجل فقال: لا إلا أن يقتلوا أنفسهم، قال: فبلغني أنهم قالوا لموسى نصبر لأمر الله، فأمر موسى من لم يكن عبد العجل أن يقتل من عبده، فجعلوا يقتلونهم، فهش موسى، فبكى إليه النساء والصبيان يطلبون العفو عنهم فتاب الله عليهم وعفا عنهم، وأمر موسى أن ترفع عنهم السيوف، وقال عبد الرحمن بن زيد: لما رجع موسى إلى قومه، وكانوا سبعين رجلاً قد اعترلوا مع هارون العجل لم يعبدوه، فقال لهم موسى: انطلقوا إلى موعد ربكم، فقالوا: يا موسى ما من توبة؟ قال: بلى ﴿اقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم فتاب عليكم﴾ الآية، فاخترطوا السيوف والخناجر والسكاكين، قال: وبعث عليهم ضيابة فجعلوا يتلامسون بالأيدي ويقتل بعضهم بعضاً، ويلقى الرجل أباه وأخاه فيقتله وهو لا يدري. قال: ويتنادون فيها رحم الله عبداً صبر نفسه حتى يبلغ الله رضاه، قال فقتلهم شهداء وتيب على أحيائهم ثم قرأ: ﴿فتاب عليكم إنه هو التواب الرحيم﴾.

وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ نَنْظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاكَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾

يقول تعالى: واذكروا نعمتي عليكم في بعثي لكم بعد الصعق، إذ سألتم رؤيتي جهرةً عياناً مما لا يستطيع لكم ولا أمثالكم. قال ابن عباس: (جهرةً) علانية، وقال الربيع بن أنس: هم السبعون الذين اختارهم موسى فساروا معه، قال فسمعوا كلاماً فقالوا: ﴿لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة﴾، قال: فسمعوا صوتاً فصعقوا، يقول ماتوا. قال السدي في قوله ﴿فأخذتكم الصاعقة﴾ الصاعقة: نار فاتوا، فقام موسى يبكي ويدعو الله ويقول: رب ماذا أقول لبني إسرائيل إذا أتيتهم وقد أهلكت خيارهم ﴿لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي أهلكنا بما فعل السفهاء منا﴾، فأوحى الله إلى موسى أن هؤلاء السبعين ممن اتخذوا العجل، ثم إن الله أحياهم فقاموا وعاشوا ينظر بعضهم إلى بعض كيف يحيون؟ قال: فذلك قوله تعالى: ﴿ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون﴾. وقال الربيع

ابن أنس: كان موتهم عقوبة لهم فبعثوا من بعد الموت ليستوفوا آجالهم، وقال ابن جرير: لما رجع موسى إلى قومه فرأى ما هم عليه من عبادة العجل، وقال لأخيه وللسامري ما قال، وحرَّق العجل وذراه في اليم، اختار موسى منهم سبعين رجلاً، الخير فالخير، وقال: انطلقوا إلى الله وتوبوا إلى الله مما صنعتم، واسألوه التوبة على من تركتم وراءكم من قومكم. صوموا وتطهروا وطهروا ثيابكم، فخرج بهم إلى طور سيناء لميقاتٍ وقته له ربه، وكان لا يأتيه إلا ياذن منه وعلم، فقال له السبعون- فيما ذكر لي- حين صنعوا ما أمروا به وخرجوا للقاء الله: يا موسى اطلب لنا إلى ربك نسمع كلام ربنا. فقال: أفعل. فلما دنا موسى من الجبل وقع عليه الغمام حتى تغشى الجبل كله، ودنا موسى فدخل فيه، وقال للقوم: ادنوا. وكان موسى إذا كلمه الله وقع على جبهته نور ساطع لا يستطيع أحد من بني آدم أن ينظر إليه فضرب دونه بالحجاب، ودنا القوم حتى إذا دخلوا في الغمام وقعوا سجوداً فسمعوه وهو يكلم موسى، يأمره وينهاه: افعل ولا تفعل، فلما فرغ إليه من أمره انكشف عن موسى الغمام فأقبل إليهم، فقالوا لموسى: ﴿لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة﴾، فأخذتهم الرجفة وهي الصاعقة، فاتوا جميعاً، وقام موسى يناشد ربه ويدعوه ويرغب إليه ويقول: ﴿رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي﴾ قد سفهوا، أفتهلك من ورأي من بني إسرائيل بما يفعل السفهاء منا؟ أي إن هذا لم يهلك، واخترت منهم سبعين رجلاً الخير فالخير أرجع إليهم وليس معي منهم رجل واحد، فما الذي يصدقوني به ويأمنوني عليه بعد هذا؟ ﴿إنا هدنا إليك﴾، فلم يزل موسى يناشد ربه عز وجل ويطلب إليه حتى ردَّ إليهم أرواحهم، وطلب إليه التوبة لبني إسرائيل من عبادة العجل، فقال: لا إلا أن يقتلوا أنفسهم. وقال السدي: لما تابت بنو إسرائيل من عبادة العجل وتاب الله عليهم بقتل بعضهم لبعض كما أمرهم الله به، أمر الله موسى أن يأتيه في أناس من بني إسرائيل يعتذرون إليه من عبادة العجل، ووعدهم موسى فاختر موسى سبعين رجلاً على عينه، ثم ذهب بهم ليعتذروا وساق البقية. والمراد السبعون المختارون منهم، ولم يحك كثير من المفسرين سواه، وقد غلط أهل الكتاب في دعواهم أن هؤلاء رأوا الله عز وجل، فإن موسى الكليم عليه السلام قد سأل ذلك فمُنِع منه، فكيف يناله هؤلاء السبعون؟!

وَوَضَّلْنَا عَلَيْكَ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾

لما ذكر تعالى ما دفعه عنهم من النقم، شرع يذكرهم أيضاً بما أسبغ عليهم من النعم فقال: ﴿ووظلنا عليكم الغمام﴾ جمع غمامة، سمي بذلك لأنه يغم السماء أي يوارئها ويسترها، وهو السحاب الأبيض ظللوا به في التيه ليقبهم حر الشمس. وقال الحسن وقتادة ﴿وظلنا عليكم الغمام﴾: كان هذا في البرية ظلل عليهم الغمام من الشمس، وعن مجاهد ﴿وظلنا عليكم الغمام﴾ قال: ليس بالسحاب هو الغمام الذي يأتي الله فيه في قوله: ﴿هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام والملائكة﴾ وهو الذي جاءت فيه الملائكة يوم بدر، قال ابن عباس: وكان معهم في التيه.

﴿وأزلنا عليكم المن﴾ اختلفت عبارات المفسرين في المن ما هو؟ فقال ابن عباس: كان المن ينزل عليهم على الأشجار فيغدون إليه فيأكلون منه ما شاعوا، وقال السدي: قالوا: يا موسى كيف لنا بما ههنا، أين الطعام؟

فأنزل عليهم المنّ فكان يسقط على شجرة الزنجبيل. وقال قتادة: كان المنّ ينزل عليهم في محلّهم سقوط الثلج، أشدّ بياضاً من اللبن، وأحلى من العسل، يسقط عليهم من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس يأخذ الرجل منهم قدر ما يكفيه يومه ذلك. وقال عبدالرحمن بن أسلم: إنه العسل.

والغرض أن عبارات المفسرين متقاربة في شرح المنّ. فمنهم من فسّره بالطعام، ومنهم من فسّره بالشراب، والظاهر - والله أعلم - أنه كل ما امتنّ الله به عليهم من طعام وشراب وغير ذلك مما ليس لهم فيه عمل ولا كد. فالمنّ المشهور إن أكل وحده كان طعاماً وحلاوة، وإن مُزج مع الماء صار شراباً طيباً، وإن ركب مع غيره صار نوعاً آخر، ولكن ليس هو المراد من الآية وحده، والدليل على ذلك قول النبي ﷺ: «الكأمة من المنّ وماؤها شفاء للعين^(١)». وقال رسول الله ﷺ: «العجوة من الجنة وفيها شفاء من السم، والكأمة من المنّ وماؤها شفاء للعين^(٢)».

وأما السلوى فقال ابن عباس: السلوى طائر يشبه السمانى كانوا يأكلون منه. وقال قتادة: السلوى كان من طير إلى الحمرة تحشرها عليهم الريح الجنوب، وكان الرجل يذبح منها قدر ما يكفيه يومه ذلك، فإذا تعدى فسد ولم يبق عنده، حتى إذا كان يوم سادسه ليوم جمعته أخذ ما يكفيه ليوم سادسه ويوم سابعه لأنه كان يوم عبادة لا يشخص فيه شيء ولا يطلبه. وقال السدي: لما دخل بنو إسرائيل التيه قالوا لموسى عليه السلام: كيف لنا بما ههنا، أين الطعام؟ فأنزل الله عليهم المنّ. فكان ينزل على شجر الزنجبيل، والسلوى وهو طائر يشبه السمانى أكبر منه فكان يأتي أحدهم فينظر إلى الطير، فإن كان سميناً ذبحه وإلا أرسله فإذا سمن أتاه، فقالوا: هذا الطعام فأين الشراب؟ فأمر موسى فضرب بعصاه الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً فشرّب كل سبط من عين، فقالوا: هذا الشراب فأين الظل؟ فظلّ عليهم الغمام، فقالوا: هذا الظل فأين اللباس؟ فكانت ثيابهم تطول معهم كما تطول الصبيان ولا يتخرق لهم ثوب فذلك قوله تعالى: ﴿وظللنا عليهم الغمام وأنزلنا عليهم المنّ والسلوى﴾. قال ابن عباس: خلق لهم في التيه ثياب لا تخرق ولا تدرن^(٣)، قال ابن جريج: فكان الرجل إذا أخذ من المنّ والسلوى فوق يوم فسد إلا أنهم كانوا يأخذون في يوم الجمعة طعام يوم السبت فلا يصبح فاسداً.

وقوله تعالى: ﴿كلوا من طيبات ما رزقناكم﴾ أمر بإباحة وإرشاد وامتنان، وقوله تعالى: ﴿وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾ أي أمرناهم بالأكل مما رزقناهم وأن يعبدوا، كما قال: ﴿كلوا من رزق ربكم واشكروا له﴾ فخالفوا وكفروا فظلموا أنفسهم. هذا مع ما شاهدوه من الآيات البينات، والمعجزات القاطعات، وخوارق العادات، ومن ههنا تتبين فضيلة أصحاب محمد ﷺ ورضي عنهم على سائر أصحاب الأنبياء، في صبرهم وثباتهم، وعدم تعنتهم مع ما كانوا معه في أسفاره وغزواته، منها عام تبوك في ذلك القيظ والحرّ الشديد والجهد، لم يسألوا خرق عادة ولا إيجاد أمر مع أن ذلك كان سهلاً على النبي ﷺ، ولكن لما أجهدهم الجوع سألوه في تكثير طعامهم فجمعوا ما معهم فجاء قدر مبرك الشاة فدعا الله فيه وأمرهم ففلاؤا كل وعاء معهم، وكذا لما احتاجوا إلى الماء سأل الله تعالى فجاءتهم سحابة فأمطرتهم فشرّبوا وسقوا الإبل وملأوا أسقيتهم ثم نظروا فإذا هي لم تجاوز العسكر.

(١) رواه البخاري وأخرجه الجماعة إلا أبا داود.

(٢) تفرد بإخراجه الترمذي وقال: حديث حسن غريب. (٣) لا تدرن: أي لا يصيبها وساخة ولا قذارة، والدرن: الوسخ.

وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَاَدْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ
وَسَتَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ
بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾

يقول تعالى لائماً لهم على نكولهم عن الجهاد، ودخولهم الأرض المقدسة، لما قدموا من بلاد مصر صحبة موسى عليه السلام فأمروا بدخول الأرض المقدسة، التي هي ميراث لهم عن أبيهم إسرائيل، وقاتل من فيها من العماليق الكفرة، فنكولوا عن قتالهم وضعفوا واستحسروا، فرامهم الله في التيه عقوبة لهم، كما ذكره تعالى في سورة المائدة، ولهذا كان أصح القولين أن هذه البلدة هي (بيت المقدس) كما نص على ذلك غير واحد، وقد قال الله تعالى حاكياً عن موسى: ﴿يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ولا ترتدوا﴾ الآيات. وقال آخرون: هي (أريحاء) وهذا بعيد لأنها ليست على طريقهم وهم قاصدون بيت المقدس لا أريحاء، وأبعد من ذلك قول من ذهب إلى أنها (مصر) حكاه الرازي في تفسيره، والصحيح الأول أنها بيت المقدس، وهذا كان لما خرجوا من التيه بعد أربعين سنة مع يوشع بن نون عليه السلام، ولما فتحوها أمروا أن يدخلوا الباب - باب البلد - (سجداً) أي شكراً لله تعالى على ما أنعم به عليهم من الفتح والنصر، ورد بلدهم عليهم وإنقاذهم من التيه والضلال. قال العوفي في تفسيره عن ابن عباس: ﴿وادخلوا الباب سجداً﴾ أي ركعاً، وقال الحسن البصري: أمروا أن يسجدوا على وجوههم حال دخولهم واستبعده الرازي، وحكي عن بعضهم أن المراد ههنا بالسجود الخضوع لتعذر حمله على حقيقته، وقال السدي: عن عبدالله بن مسعود: قيل لهم ادخلوا الباب سجداً فدخلوا مقنعي رؤوسهم أي رافعي رؤوسهم خلاف ما أمروا.

وقوله تعالى: ﴿وقولوا حطة﴾ قال ابن عباس: مغفرة استغفروا، وقال الضحاك عن ابن عباس: ﴿وقولوا حطة﴾ قال: قولوا هذا الأمر حق كما قيل لكم، وقال الحسن وقتادة: أي احطط عنا خطايانا ﴿نغفر لكم خطاياكم وستزيد المحسنين﴾. وقال: هذا جواب الأمر، أي إذا فعلتم ما أمرناكم، غفرنا لكم الخطيئات، وضاعفنا لكم الحسنات. وحاصل الأمر أنهم أمروا أن يخضعوا لله تعالى عند الفتح بالفعل والقول، وأن يعترفوا بذنوبهم ويستغفروا منها، ولهذا كان عليه الصلاة والسلام يظهر عليه الخضوع جداً عند النصر، كما روي أنه كان يوم الفتح (فتح مكة) داخلاً إليها من الثنية العليا وإنه لخاضع لربه حتى ان عشونته ليمس مورك رحله شكراً لله على ذلك.

وقوله تعالى: ﴿فبدل الذين ظلموا قولاً غير الذي قيل لهم﴾ روى البخاري عن النبي ﷺ: «قيل لبني إسرائيل ادخلوا الباب سجداً وقولوا حطة، فدخلوا يزحفون على أستاههم، فبدلوا وقالوا حبة في شجرة^(١)». وقال الثوري عن ابن عباس في قوله تعالى ﴿ادخلوا الباب سجداً﴾ قال: ركعاً من باب صغير، فدخلوا من قبل أستاههم، وقالوا حطة فذلك قوله تعالى: ﴿فبدل الذين ظلموا قولاً غير الذي قيل لهم﴾.

(١) رواه البخاري عن أبي هريرة مرفوعاً.

وحاصل ما ذكره المفسرون وما دلّ عليه السياق أنهم بدّلوا أمر الله لهم من الخضوع بالقول والفعل، فأمروا أن يدخلوا سجداً فدخلوا يزحفون على أستاههم رافعي رؤوسهم، وأمروا أن يقولوا حطة أي أخطط عنا ذنوبنا وخطايانا فاستهزأوا فقالوا حنطة في شعيرة، وهذا في غاية ما يكون من المخالفة والمعاندة، ولهذا أنزل الله بهم بأسه وعذابه بفسقهم وهو خروجهم عن طاعته، ولهذا قال: ﴿فأنزلنا على الذين ظلموا رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون﴾. وقال الضحاك عن ابن عباس: كل شيء في كتاب الله من الرجز يعني به العذاب، وقال أبو العالية: الرجز الغضب، وقال سعيد بن جبير: هو الطاعون، لحديث: «الطاعون رجز عذاب عذب به من كان قبلكم^(١)».

* وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرِبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعَثُّوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾

يقول تعالى: واذكروا نعمتي عليكم في إجابتي لنبيكم موسى عليه السلام، حين استسقاني لكم وتيسيري لكم الماء، وإخراجه لكم من حجر يحمل معكم، وتفجيري الماء لكم منه من اثني عشرة عيناً، لكل سبط من أسباطكم عينٌ قد عرفوها، فكلوا من المن والسلوى واشربوا من هذا الماء الذي أنبعته لكم، بلا سعي منكم ولا كد، وابدعوا الذي سخر لكم ذلك، ﴿ولا تعثوا في الأرض مفسدين﴾ ولا تقابلوا النعم بالعصيان فتسلّبوها. وقد بسطه المفسرون في كلامهم كما قال ابن عباس رضي الله عنه: وجعل بين ظهرانيهم حجر مربع، وأمر موسى عليه السلام فضربه بعصاه فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً في كل ناحية منه ثلاث عيون، وأعلم كل سبط عينهم يشربون منها، وقال قتادة: كان حجراً طورياً - من الطور - يحملونه معهم حتى إذا نزلوا ضربه موسى بعصاه، وقيل: هو الحجر الذي وضع عليه موسى ثوبه حين اغتسل فقال له جبريل ارفع هذا الحجر فإن فيه قدرة، ولك فيه معجزة، فحمله في مخلاته. قال الزمخشري: ويحتمل أن تكون (اللام) للجنس لا للعهد، أي اضرب الشيء الذي يقال له الحجر، وعن الحسن: لم يأمره أن يضرب حجراً بعينه، قال: وهذا أظهر في المعجزة وأبين في القدرة، فكان يضرب الحجر بعصاه فينفجر ثم يضربه فيبيس، وقال الضحاك، قال ابن عباس: لما كان بنو إسرائيل في التيه شق لهم من الحجر أنهاراً، وقال الثوري عن ابن عباس: قال ذلك في التيه ضرب لهم موسى الحجر فصار منه اثنتا عشرة عيناً من ماء لكل سبط منهم عين يشربون منها.

وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصِلِهَا قَالَ أَتَسْتَبِدُّونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ أَهْبُطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ

يقول تعالى: واذكروا نعمتي عليكم في إنزالي عليكم المن والسلوى طعاماً طيباً نافعاً هينئاً سهلاً، واذكروا ضجركم

(١) الحديث رواه النسائي وأصله في الصحيحين .

مما رزقناكم وسؤالكم موسى الأطعمة الدنيئة من البقول ونحوها مما سألتهم، قال الحسن البصري: فبطروا وذكروا عيشهم الذي كانوا فيه، وكانوا قوماً أهل أعداس وبصل وبقل وفوم، فقالوا: ﴿يا موسى لن نصبر على طعام واحد، فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها﴾ وإنما قالوا على طعام واحد وهم يأكلون المن والسلوى لأنه لا يتبدل ولا يتغير كل يوم فهو مأكل واحد، وأما الفوم فقال ابن عباس: الثوم، وقال آخرون: الفوم: الحنطة وهو البرُّ الذي يعمل منه الخبز، روي أن ابن عباس سئل عن قول الله: ﴿وفومها﴾ ما فومها؟ قال: الحنطة. قال ابن عباس: أما سمعت قول أحيحة بن الجلاح وهو يقول:

قد كنت أغنى الناس شخصاً واحداً ورد المدينة عن زراعة فوم

وقال ابن جرير، عن ابن عباس في قول الله تعالى ﴿وفومها﴾ قال: الفوم الحنطة بلسان بني هاشم، وقال الجوهري: الفوم الحنطة، وحكى القرطبي عن عطاء وقتاده: أن الفوم كل حب يختبز، قال، وقال بعضهم: هو الحمص لغة شامية، قال البخاري: وقال بعضهم الحبوب التي تؤكل كلها فوم، وقوله: ﴿قال أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير﴾؟ فيه تفرغ لهم وتوبيخ على ما سألوا من هذه الأطعمة الدنيئة مع ما هم فيه من العيش الرغيد والطعام الهنيء الطيب النافع. وقوله تعالى: ﴿اهبطوا مصر﴾ هكذا هو منون مصروف، وقال ابن عباس: مصراً من الأمصار. والمعنى أن هذا الذي سألتهم ليس بأمر عزيز بل هو كثير في أي بلد دخلتموها وجدتموه، فليس يساوي مع دناءته وكثرته في الأمصار أن أسأل الله فيه. ولهذا قال: ﴿أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير اهبطوا مصر﴾ فان لكم ما سألتكم أي ما طلبتم، ولما كان سؤالهم هذا من باب البطر والأشر ولا ضرورة فيه لم يجابوا إليه، والله أعلم.

وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ
النَّبِيَّيْنَ بَغِيرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾

يقول تعالى: ﴿وضربت عليهم الذلة والمسكنة﴾ أي وضعت عليهم وألزموا بها شرعاً وقدرًا، أي لا يزالون مستدلين من وجدهم استذلهم وأهانهم وضرب عليهم الصغار، وهم مع ذلك في أنفسهم أذلاء مستكينون. يعطون الجزية عن يدهم صاغرون، قال الضحاك: ﴿وضربت عليهم الذلة﴾ قال: الذل، وقال الحسن: أذلهم الله فلا منعة لهم وجعلهم تحت أقدام المسلمين، ولقد أدرکتهم هذه الأمة وإن المجوس لتجيبهم الجزية، وقال أبو العالية والسدي: المسكنة الفاقة، وقوله تعالى: ﴿وباؤا بغضب من الله﴾ استحقوا الغضب من الله، وقال ابن جرير: يعني بقوله ﴿وباؤا بغضب من الله﴾: انصرفوا ورجعوا، ولا يقال باء إلا موصولاً إما بخير وإما بشر، يقال منه: باء فلان بذنبه يبوء به، ومنه قوله تعالى: ﴿إني أريد أن تبوء بإثمي وإثمك﴾ يعني تنصرف متحملهما وترجع بهما قد صارا عليك دوني، فعنى الكلام رجعوا منصرفين متحملين غضب الله قد صار عليهم من الله غضب ووجب عليهم من الله سخط.

وقوله تعالى: ﴿ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق﴾، يقول الله تعالى هذا الذي

جازيناهم من الذلة والمسكنة وإحلال الغضب بهم من الذلة، بسبب استكبارهم عن اتباع الحق، وكفرهم بآيات الله، وإهانتهم حَمَلَةَ الشرع وهم (الأنبياء) وأتباعهم، فانقصوهم إلى أن أفضى بهم الحال إلى أن قتلوهم فلا كفر أعظم من هذا، إنهم كفروا بآيات الله وقتلوا أنبياء الله بغير الحق، ولهذا جاء في الحديث المتفق على صحته أن رسول الله ﷺ قال: «الكبر بطرُ الحق وغمطُ الناس»^(١) يعني رد الحق وانتقاص الناس والازدراء بهم والتعاطم عليهم. ولهذا لما ارتكب بنو إسرائيل ما ارتكبه من الكفر بآيات الله، وقتلهم أنبياءه، أحل الله بهم بأسه الذي لا يرد، وكساهم ذلاً في الدنيا موصولاً بذل الآخرة جزاءً وفاقاً. عن عبدالله بن مسعود قال: «كانت بنو إسرائيل في اليوم تقتل ثلثمائة نبي ثم يقيمون سوق بقلهم من آخر النهار»^(٢). وعن عبدالله بن مسعود: أن رسول الله ﷺ قال: «أشدُّ الناس عذاباً يوم القيامة رجلٌ قتل نبياً أو قتل نبياً، وإمام ضلالة وممثل من الممثلين»^(٣)، وقوله تعالى: ﴿ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون﴾ وهذه علة أخرى في مجازاتهم بما جوزوا به أنهم كانوا يعصون ويعتدون، فالعصيان فعل المناهي، والاعتداء المجاوزة في حد المأذون فيه والمأمور به، والله أعلم.

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصْرَى وَالصَّعِيبِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾

لما بين تعالى حال من خالف أوامره، وارتكب زواجره، وتعدى في فعل ما لا إذن فيه واتهك المحارم، وما أحلَّ بهم من النكال، نبه تعالى على أن من أحسن من الأمم السالفة وأطاع فإن له جزاء الحسنی، وكذلك الأمر إلى قيام الساعة، كلُّ من اتبع الرسول النبي الأميِّ فله السعادة الأبدية، ولا خوف عليهم فيما يستقبلونه ولا هم يحزنون على ما يتركونه ويخلفونه كما قال تعالى: ﴿ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾. عن مجاهد قال: قال سلمان رضي الله عنه: سألت النبي ﷺ عن أهل دين كنت معهم فذكرت من صلواتهم وعبادتهم، فتزلت: ﴿إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصائبين من آمن بالله واليوم الآخر﴾ إلى آخر الآية. وقال السدي: نزلت في أصحاب (سلمان الفارسي) بينا هو يحدث النبي ﷺ إذ ذكر أصحابه فأخبروه خبرهم فقال: كانوا يصلون، ويصومون، ويؤمنون بك، ويشهدون أنك ستبعث نبياً، فلما فرغ سلمان من ثنائه عليهم قال له النبي ﷺ: يا سلمان هم من أهل النار، فاشتد ذلك على سلمان فأنزل الله هذه الآية فكان إيمان اليهود أنه من تمسك بالتوراة وسنة موسى عليه السلام حتى جاء عيسى، فلما جاء عيسى كان من تمسك بالتوراة وأخذ بسنة موسى فلم يدعها ولم يتبع عيسى كان هالكاً، وإيمان النصارى أن من تمسك بالإنجيل منهم وشرائع عيسى كان مؤمناً مقبولاً منه حتى جاء محمد ﷺ، فمن لم يتبع محمداً ﷺ منهم ويدع ما كان عليه من سنة عيسى والإنجيل كان هالكاً.

(قلت) وهذا لا يتنافى ما روي عن ابن عباس ﴿إن الذين آمنوا والذين هادوا﴾ الآية قال: فأنزل الله بعد ذلك: ﴿ومن يتبع غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين﴾ فإن هذا الذي قاله ابن عباس إخبار

(١) هذا جزء من حديث شريف وأوله «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر ..» الحديث .

(٢) رواه أبو داود الطيالسي . عبارة (في اليوم) لا تعني كل يوم ولكن بعض الايام . (٣) رواه الإمام أحمد في مسنده .

عن أنه لا يقبل من أحد طريقة ولا عملاً إلا ما كان موافقاً لشريعة محمد ﷺ بعد أن بعثه بما بعثه به، فأما قبل ذلك فكل من اتبع الرسول في زمانه فهو على هدى وسبيل ونجاة، فاليهود أتباع موسى عليه السلام الذين كانوا يتحاكمون إلى التوراة في زمانهم، واليهود من الهوادة وهي المودة أو اليهود وهي التوبة كقول موسى عليه السلام: ﴿إنا هدنا إليك﴾ أي تبنا فكأنهم سمو بذلك في الأصل لتوبتهم ومودتهم في بعضهم لبعض، وقيل: لنسبتهم إلى (يهودا) أكبر أولاد يعقوب، فلما بعث عيسى ﷺ وجب على بني إسرائيل اتباعه والانقياد له، فأصحابه وأهل دينه هم النصاري وسموا بذلك لتناصرهم فيما بينهم، وقد يقال لهم أنصار أيضاً كما قال عيسى عليه السلام: ﴿من أنصاري إلى الله؟ قال الحواريون نحن أنصار الله﴾، وقيل إنهم سمو بذلك من أجل أنهم نزلوا أرضاً يقال لها ناصرة، قاله قتادة وروي عن ابن عباس أيضاً، والله أعلم.

فلما بعث الله محمداً ﷺ خاتماً للنبيين، ورسولاً إلى بني آدم على الإطلاق، وجب عليهم تصديقه فيما أخبر، وطاعته فيما أمر، والانكفاف عما عنه زجر، وهؤلاء هم المؤمنون حقاً. وسميت أمة محمد ﷺ مؤمنين لكثرة إيمانهم، وشدة إيمانهم، ولأنهم يؤمنون بجميع الأنبياء الماضية والغيوب الآتية.

وأما الصابئون فقد اختلف فيهم فقال مجاهد: الصابئون قوم بين المجوس واليهود والنصارى ليس لهم دين، وقال أبو العالية والضحاك: الصابئون فرقة من أهل الكتاب يقرأون الزبور، ولهذا قال أبو حنيفة وإسحاق: لا بأس بذبائحهم ومناكحتهم، وقال أبو جعفر الرازي: بلغني أن الصابئين قوم يعبدون الملائكة ويقرأون الزبور ويصلون للقبلة، وسئل وهب بن منبه عن الصابئين فقال: الذي يعرف الله وحده، وليست له شريعة يعمل بها، ولم يحدث كفراً، وقال عبدالرحمن بن زيد: الصابئون أهل دين من الأديان، كانوا بجزيرة الموصل يقولون: «لا إله إلا الله» وليس لهم عمل ولا كتاب ولا نبي إلا قول: لا إله إلا الله، قال: ولم يؤمنوا برسول. فمن أجل ذلك كان المشركون يقولون للنبي ﷺ وأصحابه: هؤلاء الصابئون يشبهونهم بهم يعني في قول: «لا إله إلا الله». وقال الخليل: هم قوم يشبه دينهم دين النصارى إلا أن قبلتهم نحو مهب الجنوب يزعمون أنهم على دين نوح عليه السلام، قال القرطبي: والذي تحصل من مذهبهم فيما ذكره بعض العلماء أنهم موحدون ويعتقدون تأثير النجوم وأنها فاعلة، ولهذا أفتى أبو سعيد الاصطخري بكفرهم للقادر بالله حين سأله عنهم، واختار الرازي أن الصابئين قوم يعبدون الكواكب بمعنى أن الله جعلها قبلة للعباد والدعاء أو بمعنى أن الله قوض تديير أمر هذا العالم إليها. وأظهر الأقوال - والله أعلم - قول مجاهد ومتابعيه ووهب بن منبه: أنهم قوم ليسوا على دين اليهود ولا النصارى ولا المجوس ولا المشركين، وإنما هم قوم باقون على فطرتهم ولا دين مقرر لهم يتبعونه ويقترفونه، ولهذا كان المشركون يبنون من أسلم بالصابئ، أي أنه قد خرج عن سائر أديان أهل الأرض إذ ذاك، وقال بعض العلماء: الصابئون الذين لم تبلغهم دعوة نبي، والله أعلم.

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَاءَ تَابِنِكُمْ بَقْوَةً وَادْكُرُوا مَافِيهِ لَعَلَّكُمْ تُتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ
مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٤﴾

يقول تعالى مذكراً بني إسرائيل ما أخذ عليهم من العهود والمواثيق، بالإيمان به وحده لا شريك له، واتباع رسله، وأخبر تعالى أنه لما أخذ عليهم الميثاق رفع الجبل فوق رؤوسهم، ليقرأوا بما عاهدوا عليه ويأخذوه بقوة وحزم وامتثال كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ نَقَّنا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظِلَّةٌ وَظَنُوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُنُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ فالظُّور هو الجبل كما فسَّره به في الأعراف، وقال السدي: فلما أبوا أن يسجدوا أمر الله الجبل أن يقع عليهم، فنظروا إليه وقد غشيهم، فسقطوا سجداً فسجدوا على شق ونظروا بالشق الآخر، فرحمهم الله فكشفه عنهم فقالوا: والله ما سجدة أحب إلى الله من سجدة كشف بها العذاب عنهم فهم يسجدون كذلك، وذلك قول الله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾، ﴿خُنُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾، يعني التوراة، قال أبو العالية: (بقوة) أي بطاعة، وقال مجاهد: (بقوة) بعمل بما فيه، وقال قتادة: القوة: الجِدُّ وإلا قذفته عليكم، قال: فأقروا أنهم يأخذون ما أوتوا بقوة، ومعنى قوله وإلا قذفته عليكم أي أسقطته عليكم، يعني الجبل، ﴿واذكروا ما فيه﴾ يقول: اقرأوا ما في التوراة واعمَلوا به. وقوله تعالى: ﴿ثم توليتم من بعد ذلك فلولا فضل الله﴾ يقول تعالى ثم بعد هذا الميثاق المؤكد العظيم، توليتم عنه وانثبتم ونقضتموه ﴿فلولا فضل الله عليكم ورحمته﴾ أي بتوبته عليكم وإرساله النبيين والمرسلين إليكم ﴿لكنتم من الخاسرين﴾ بنقضكم ذلك الميثاق في الدنيا والآخرة.

وَلَقَدْ عَلَّمْتُمُ الَّذِينَ آتَدُوا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَلَّانَهَا نَكَالاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا

وَمَا خَلَفَهَا وَوَعظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾

يقول تعالى: ﴿ولقد علمتم﴾ يا معشر اليهود ما أحل من البأس بأهل القرية، التي عصت أمر الله وخالفوا عهده وميثاقه، فيما أخذهم من تعظيم السبت والقيام بأمره، إذ كان مشروعاً لهم فتحيلوا على اصطيد الحيتان في يوم السبت بما وضعوا لها من الحبال والبرك قبل يوم السبت، فلما جاءت يوم السبت على عادتها في الكثرة نشبت بتلك الحبال والحيل فلم تخلص منها يوماً ذلك، فلما كان الليل أخذوها بعد انقضاء السبت، فلما فعلوا ذلك مسخهم الله إلى صورة القردة وهي أشبه شيء بالأناسي في الشكل الظاهر وليست بإنسان حقيقة، فكذلك أعمال هؤلاء وحيلتهم لما كانت مشابهة للحق في الظاهر ومخالفة له في الباطن، كان جزاؤهم من جنس عملهم.

وهذه القصة مبسطة في سورة الأعراف حيث يقول تعالى: ﴿واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر إذ يعدون في السبت إذ تأتيتهم حيتانهم يوم سبتهم شراً ويوم لا يستنون لآتيتهم كذلك نبأهم بما كانوا يفسقون﴾ القصة بكاملها. وقال السدي: أهل هذه القرية هم أهل أيلة، وقوله تعالى: ﴿فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين﴾ قال مجاهد: مسخت قلوبهم ولم يسخوا قردة، وإنما هو مثل ضربه الله ﴿كمثل الحمار يحمل أسفاراً﴾ وهذا سند جيد عن مجاهد، وقول غريب خلاف الظاهر من السياق في هذا المقام، وفي غيره قال الله تعالى: ﴿قل هل أنبئكم

بشرٍ من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت ﴿ الآية، وقال ابن عباس ﴿ فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين ﴾: فجعل الله منهم القردة والخنازير، فزعم أن شباب القوم صاروا قردة وأن الشيخة صاروا خنازير. وقال شيبان عن قتادة: ﴿ فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين ﴾ فصار القوم قردة تعاوى، لها أذنان بعدما كانوا رجالاً ونساء، وقال عطاء الخراساني: نودوا يا أهل القرية ﴿ كونوا قردة خاسئين ﴾ فجعل الذين نههم يدخلون عليهم فيقولون يا فلان، يا فلان ألم نهكم؟ فيقولون برؤوسهم أي بلى، وقال الضحّاك عن ابن عباس: فسخهم الله قردة بمعصيتهم، يقول: إذ لا يحيون في الأرض إلا ثلاثة أيام، قال: ولم يعيش مسخ قط فوق ثلاثة أيام ولم يأكل ولم يشرب ولم ينسل، وقد خلق الله القردة والخنازير وسائر الخلق في الستة الأيام التي ذكرها الله في كتابه، فسخ هؤلاء القوم في صورة القردة وكذلك يفعل بمن يشاء كما يشاء، ويحوّله كما يشاء ﴿ خاسئين ﴾ يعني أذلة صاغرين .

وقال السُّدي في قوله تعالى: ﴿ ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم في السبت فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين ﴾ قال: هم أهل أيلة؛ وهي القرية التي كانت حاضرة البحر، فكانت الحيتان إذا كان يوم السبت، وقد حرم الله على اليهود أن يعملوا في السبت شيئاً، لم يبق في البحر حوت إلا خرج حتى يخرج خراطيمهن من الماء، فإذا كان يوم الأحد كزمن سفل البحر فلم ير منهن شيء حتى يكون يوم السبت فذلك قوله تعالى: ﴿ واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر إذ يعدون في السبت إذ تأتيمهم حيتانهم يوم سبتهم شرعاً ويوم لا يسبتون لا تأتيمهم ﴾ فاشتبه بعضهم السمك فجعل الرجل يحفر الحفيرة ويجعل لها نهراً إلى البحر، فإذا كان يوم السبت فتح النهر، فأقبل الموج بالحيتان يضربها حتى يلقيها في الحفيرة، فيريد الحوت أن يخرج فلا يطيق من أجل قلة ماء النهر فيمكث فيها، فإذا كان يوم الأحد جاء فأخذه فجعل الرجل يشوي السمك فيجد جاره روائحه فيسأله فيخبره فيصنع مثل ما صنع جاره حتى فشا فيهم أكل السمك، فقال لهم علماءهم: ويحكم إنما تصطادون يوم السبت وهو لا يحلّ لكم، فقالوا: إنما صدناه يوم الأحد حين أخذناه، فقال الفقهاء: لا، ولكنكم صدتموه يوم فتحتم له الماء فدخل، قال: وغلبوا أن ينتهوا، فقال بعض الذين نههم لبعض: ﴿ لم تعظون قوماً الله مهلكهم أو معذبهم عذاباً شديداً ﴾ يقول: لم تعظوهم وقد وعظتموهم فلم يطيعوكم، فقال بعضهم: ﴿ معذرة إلى ربكم ولعلهم يتقون ﴾، فلما أبوا قال المسلمون والله لا نساكنكم في قرية واحدة، فقسموا القرية بجدار ففتح المسلمون باباً والمعتدون في السبت باباً ولعنهم داود عليه السلام، فجعل المسلمون يخرجون من بابهم، والكفار من بابهم، فخرج المسلمون ذات يوم ولم يفتح الكفار بابهم، فلما أبطأوا عليهم تسور المسلمون عليهم الحائط، فإذا هم قردة يثب بعضهم على بعض ففتحوا عنهم فذهبوا في الأرض، فذلك قول الله تعالى: ﴿ فلما عتوا عمّا نهوا عنه قلنا لهم كونوا قردة خاسئين ﴾، وذلك حين يقول: ﴿ لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ﴾ الآية فهم القردة، (قلت) والغرض من هذا السياق عن هؤلاء الأئمة بيان خلاف ما ذهب إليه مجاهد رحمه الله من أن مسخهم إنما كان (معنوياً) لا (صورياً)، بل الصحيح أنه معنوي صوري والله تعالى أعلم .

وقوله تعالى: ﴿ فجعلناها نكالاً ﴾ قال بعضهم: الضمير في (فجعلناها) عائد إلى القردة، وقيل على (الحيتان)، وقيل على (العقوبة)، وقيل على (القرية) حكاه ابن جرير. والصحيح أن الضمير عائد على

القرية، أي فجعل الله هذه القرية والمراد أهلها بسبب اعتدائهم في سبتهم (نكالاً) أي عاقبتهم عقوبة فجعلناها عبرة كما قال الله عن فرعون: ﴿فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى﴾ ، وقوله تعالى: ﴿لَمَّا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا﴾ أي من القرى، قال ابن عباس: يعني جعلناها بما أحللتنا بها من العقوبة عبرة لما حولها من القرى كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهَلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ ، فالمراد لما بين يديها وما خلفها في المكان، كما قال عكرمة عن ابن عباس: (لما بين يديها) من القرى (وما خلفها) من القرى، وقال أبو العالية: (وما خلفها) لما بقي بعدهم من الناس من بني إسرائيل أن يعملوا مثل عملهم، وكان هؤلاء يقولون المراد ﴿لَمَّا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا﴾ في الزمان، وهذا مستقيم بالنسبة إلى من يأتي بعدهم من الناس أن تكون أهل تلك القرية عبرة لهم، وأما بالنسبة إلى من سلف قبلهم من الناس، فكيف يصح هذا الكلام أن تفسر الآية به وهو أن يكون عبرة لمن سبقهم؟ فتعيّن أن المراد في المكان وهو ما حولها من القرى كما قال ابن عباس وسعيد بن جبير والله أعلم.

وقال أبو جعفر الرازي عن أبي العالية: ﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لَمَّا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا﴾ أي عقوبة لما خلا من ذنوبهم، وقال ابن أبي حاتم: وروي عن عكرمة ومجاهد: ﴿لَمَّا بَيْنَ يَدَيْهَا﴾ من ذنوب القوم ﴿وَمَا خَلْفَهَا﴾ لمن يعمل بعدها مثل تلك الذنوب، وحكى الرازي ثلاثة أقوال أحدها: أن المراد بما بين يديها وما خلفها من تقدمها من القرى بما عندهم من العلم بخبرها بالكتب المتقدمة ومن بعدها. والثاني: المراد بذلك من بحضرتها من القرى والأمم. والثالث: أنه تعالى جعلها عقوبة لجميع ما ارتكبه من قبل هذا الفعل وما بعده وهو قول الحسن. (قلت) وأرجح الأقوال المراد بما بين يديها وما خلفها من بحضرتها من القرى يبلغهم خبرها وما حل بها كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهَلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَىٰ﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تَصِيْبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةً﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَرُونَ أَنَا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ فجعلهم عبرة ونكالاً لمن في زمانهم وموعظة لمن يأتي بعدهم بالخبر المتواتر عنهم، ولهذا قال: ﴿وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ الذين من بعدهم إلى يوم القيامة، قال الحسن: فيتقون نعمة الله ويحذرونها، وقال السدي: ﴿وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ أمة محمد ﷺ. (قلت) المراد بالموعظة هنا الزاجر، أي جعلنا ما أحللتنا بهؤلاء من البأس والنكال في مقابلة ما ارتكبه من محارم الله وما تحيلوا به من الحيل، فليحذر المتقون صنيعهم لئلا يصيبهم ما أصابهم كما روي عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لا ترتكبوا ما ارتكبت اليهود فتستحلوا محارم الله بأدنى الحيل»^(١) وهذا إسناد جيد، والله أعلم.

وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبُحُوا بَقْرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ

الْجَاهِلِينَ ﴿٦٧﴾

يقول تعالى: واذكروا يا بني إسرائيل نعمتي عليكم في خرق العادة لكم في شأن البقرة، وبيان القاتل من هو بسببها، وإحياء الله المقتول ونصه على من قتله منهم.

(١) أخرجه الإمام أبو عبد الله بن بطة وفي سنده (أحمد بن محمد بن مسلم) وثقة الحفاظ البغدادي وباقي رجاله مشهورون على شرط الصحيح.

(ذكر بسط القصة)

عن عبدة السلماني، قال: كان رجل من بني إسرائيل عقيماً لا يولد له، وكان له مال كثير، وكان ابن أخيه وارثه، فقتله ثم احتمله ليلاً فوضعه على باب رجل منهم، ثم أصبح يدعيه عليهم حتى تسلحوا وركب بعضهم على بعض، فقال ذوو الرأي منهم والنهي: علام يقتل بعضكم بعضاً وهذا رسول الله فيكم؟ فأتوا موسى عليه السلام فذكروا ذلك له، فقال: ﴿إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة قالوا أتتخذنا هزواً قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين﴾. قال: فلو لم يعترضوا لأجزأت عنهم أدنى بقرة ولكنهم شددوا فشدد عليهم حتى انتهوا إلى البقرة التي أمروا بذبحها فوجدوها عند رجل ليس له بقرة غيرها، فقال: والله لا أنقصها من ملء جلدتها ذهباً، فأخذوها بملء جلدتها ذهباً فذبحوها فضر به ببعضها فقام، فقالوا: من قتلك؟ فقال: هذا - لابن أخيه - ثم مال ميتاً، فلم يعط من ماله شيئاً فلم يورث قاتل بعد^(١).

وقوله تعالى: ﴿إنها بقرة لا فارض﴾ يعني لا هرمة، ﴿ولا بكر﴾ يعني ولا صغيرة، ﴿عوان بين ذلك﴾ أي نصف بين البكر والهرمة. ﴿قالوا ادع لنا ربك بين لنا ما لونها؟ قال إنه يقول إنها بقرة صفراء فاقع لونها﴾ أي صاف لونها، ﴿تسر الناظرين﴾ أي تعجب الناظرين، ﴿قالوا ادع لنا ربك بين لنا ما هي؟ إن البقر تشابه علينا وإنا إن شاء الله لمهتدون﴾ قال إنه يقول إنها بقرة لا ذلول، أي لم يذلها العمل، ﴿تثير الأرض ولا تسقي الحرث﴾ يعني وليست بذلول تثير الأرض ولا تسقي الحرث يعني ولا تعمل في الحرث ﴿مسلمة﴾ يعني مسلمة من العيوب ﴿لا شية فيها﴾ يقول لا بياض فيها ﴿قالوا الآن جئت بالحق فذبحوها وما كادوا يفعلون﴾. ولو أن القوم حين أمروا بذبح بقرة، استعرضوا بقرة من البقر فذبحوها لكانت إياها، ولكن شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم، ولولا أن القوم استثنوا فقالوا: ﴿وإنا إن شاء الله لمهتدون﴾ لما هُذوا إليها أبداً.

وقال السدي: ﴿وإذ قال موسى لقومه إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة﴾ قال: كان رجل من بني إسرائيل مكثرأ من المال فكانت له ابنة وكان له ابن أخ محتاج فخطب إليه ابن أخيه ابنته فأبى أن يزوجه، فغضب الفتى وقال والله لأقتلن عمي ولأخذن ماله، ولأنكحن ابنته ولأكلن ديتته، فأتاه الفتى - وقد قدم تجار في بعض أسباط بني إسرائيل - فقال: يا عم انطلق معي فخذ لي من تجارة هؤلاء القوم لعلني أن أصيب منها فإنهم إذا رأوك معي أعطوني، فخرج العم مع الفتى ليلاً، فلما بلغ الشيخ ذلك السبط قتله الفتى ثم رجع إلى أهله، فلما أصبح جاء كأنه يطلب عمه كأنه لا يدري أين هو فلم يجده، فانطلق نحوه، فإذا هو بذلك السبط مجتمعين عليه فأخذهم، وقال: قتلت عمي فأدوا إلي ديتته، فجعل يبكي ويحثو التراب على رأسه وينادي: واعماءه، فرفعهم إلى موسى فقصى عليهم بالدية. فقالوا له: يا رسول الله ادع لنا ربك حتى يبين لنا من صاحبه فيؤخذ صاحب القضية، فوالله إن ديتته علينا لهيئة، ولكن نستحيي أن نعير به فذلك حين يقول تعالى: ﴿وإذ قتلتهم نفساً فاداراتم فيها والله مخرج ما كنتم تكتمون﴾، فقال لهم موسى: ﴿إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة﴾، قالوا: نسألك عن القتل وعن قتله وتقول اذبحوا بقرة أتهزأ بنا؟ ﴿قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين﴾. قال ابن عباس: فلو اعترضوا بقرة فذبحوها

(١) رواه ابن أبي حاتم وابن جرير عن عبدة السلماني .

لأجزاء عنهم، ولكن شددوا وتعنتوا على موسى فشدد الله عليهم. والفارض الهرمة التي لا تولد، والبكر التي لم تلد إلا ولداً واحداً، والعوان النصف التي بين ذلك التي قد ولدت وولد ولدها ﴿ فافعلوا ما تؤمرون ﴾ قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها قال إنه يقول إنها بقرة صفراء فاقع لونها ﴿ قال نقي لونها ﴾ ﴿ تسر الناظرين ﴾ قال تعجب الناظرين ﴿ قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي إن البقر تشابه علينا وإنا إن شاء الله لمهتدون ﴾ قال إنه يقول إنها بقرة لا ذلول تثير الأرض ولا تسقي الحرث مسلمة لا شية فيها ﴿ من بياض ولا سواد ولا حمرة ﴾ قالوا الآن جئت بالحق ﴿ فطلبوها - من صاحبها - وأعطوا وزنها ذهباً فأبى فأضعفوه له حتى أعطوه وزنها عشر مرات ذهباً فباعهم إياها وأخذ ثمنها فذبحوها، قال: اضربوه ببعضها فضربوه بالبضعة التي بين الكتفين فعاش فسألوه من قتلك فقال لهم ابن أخي قال: أقتله فأخذ ماله وأنكح ابنته، فأخذوا الغلام فقتلوه^(١)

قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقْرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بَكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقْرَةٌ صَفْرَاءٌ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّظِيرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقْرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلِّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْاَعْنُ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبْحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾

أخبر تعالى عن تعنت بني إسرائيل وكثرة سؤلهم لرسولهم ولهذا لما ضيقوا على أنفسهم ضيق الله عليهم ولو أنهم ذبحوا أي بقرة كانت لوقعت الموقع عنهم ولكنهم شددوا فشدد عليهم فقالوا: ﴿ ادع لنا ربك يبين لنا ما هي ﴾ أي ما هذه البقرة؟ وأي شيء صفتها؟ قال ابن جرير عن ابن عباس: (لو اخذوا أدنى بقرة لا كتفوا بها ولكنهم شددوا فشدد عليهم) قال: ﴿ إنه يقول إنها بقرة لا فارض ولا بكر ﴾ أي لا كبيرة هرمة ولا صغيرة لم يلحقها الفحل. وقال الضحاك عن ابن عباس: ﴿ عوان بين ذلك ﴾ يقول نصف بين الكبيرة والصغيرة، وهي أقوى ما يكون من الدواب والبقر وأحسن ما تكون. وقال سعيد بن جبيرة: ﴿ فاقع لونها ﴾ صافية اللون. وقال العوفي عن ابن عباس: ﴿ فاقع لونها ﴾ شديدة الصفرة تكاد من صفرتها تبيض، وقال السدي: ﴿ تسر الناظرين ﴾ أي تعجب الناظرين. وقوله تعالى: ﴿ إن البقر تشابه علينا ﴾ أي لكثرتها فميز لنا هذه البقرة وصفها وحلها لنا ﴿ وإنا إن شاء الله ﴾ إذا بينتها لنا ﴿ لمهتدون ﴾ إليها. عن أبي هريرة قال، قال رسول الله ﷺ: «لولا أن بني إسرائيل قالوا ﴿ وإنا إن شاء الله لمهتدون ﴾ لما أعطوا ولكن استثنوا»^(٢). قال إنه يقول إنها بقرة لا ذلول تثير الأرض ولا تسقي الحرث ﴿ أي إنها ليست مذلة بالحرارة، ولا معدة للسقي في السانية، بل هي مكرمة حسنة صبيحة مسلمة صحيحة

(١) قال ابن كثير: وهذه الروايات عن (عبدة) و (السدي) مأخوذة من كتب بني إسرائيل وهي مما يجوز نقلها ولكن لا تصدق ولا تكذب. (٢) أخرجه ابن أبي حاتم ورواه الحافظ ابن مردويه بنحوه.

لا عيب فيها ﴿ لا شية فيها ﴾ أي ليس فيها لون غير لونها وقال قتادة ﴿ مسلمة ﴾ يقول: لا عيب فيها ﴿ لا شية فيها ﴾ لونها واحد بهم قاله عطاء. ﴿ قالوا الآن جئت بالحق ﴾ قال قتادة: الآن بينت لنا، ﴿ فذبحوها وما كادوا يفعلون ﴾ قال الضحاك عن ابن عباس: كادوا أن لا يفعلوا - ولم يكن ذلك الذي أرادوا - لأنهم أرادوا أن لا يذبحوها، يعني أنهم مع هذا البيان وهذه الأسئلة والأجوبة والايضاح ما ذبحوها إلا بعد الجهد، وفي هذا ذم لهم وذلك أنه لم يكن غرضهم إلا التعنت فهذا ما كادوا يذبحونها. قال ابن جرير: لم يكادوا أن يفعلوا ذلك خوف الفضيحة إن اطلع الله على قاتل القتل الذي اختصموا فيه ثم اختار أن الصواب في ذلك أنهم لم يكادوا يفعلوا ذلك لغلاء ثمنها وللفضيحة .

وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَءُكُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾

قال البخاري: ﴿ فادارأتم فيها ﴾ اختلفتم وهكذا قال مجاهد، ﴿ والله مخرج ما كنتم تكتمون ﴾ قال مجاهد: ما تغيبون. عن المسيب بن رافع: « ما عمل رجل حسنة في سبعة آيات إلا أظهرها الله وما عمل رجل سيئة في سبعة آيات إلا أظهرها الله »، وتصديق ذلك في كلام الله: ﴿ والله مخرج ما كنتم تكتمون ﴾^(١) ﴿ فقلنا اضربوه ببعضها ﴾ هذا البعض أي شيء كان من أعضاء هذه البقرة، فالمعجزة حاصلة به وخرق العادة به كائن، فلو كان في تعيينه لنا فائدة تعود علينا في أمر الدين أو الدنيا لبيّنه الله تعالى لنا، ولكنه أبهمه ولم يحيي من طريق صحيح عن معصوم بيانه فنحن نبهمه كما أبهمه الله .

وقوله تعالى: ﴿ كذلك يحيي الله الموتى ﴾ أي فضره فحيي، ونبه تعالى على قدرته وإحيائه الموتى بما شاهده من أمر القتل، جعل تبارك وتعالى ذلك الصنيع حجة لهم على المعاد، وفاصلاً ما كان بينهم من الخصومة والعناد، والله تعالى قد ذكر في هذه السورة مما خلقه من إحياء الموتى في خمسة مواضع: ﴿ ثم بعثناكم من بعد موتكم ﴾ وهذه القصة، وقصة الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت، وقصة الذي مرّ على قرية وهي خاوية على عروشها، وقصة إبراهيم عليه السلام والطيور الأربعة، ونبه تعالى بإحياء الأرض بعد موتها على إعادة الأجسام بعد صيرورتها رمياً، كما قال أبو رزين العقيلي رضي الله عنه، قال: قلت يا رسول الله: كيف يحيي الله الموتى؟ قال: « أما مررت بوادٍ محل ثم مررت به خضراً؟ » قال: بلى، قال: « كذلك النشور »، أو قال: « كذلك يحيي الله الموتى »^(٢) وشاهد هذا قوله تعالى: ﴿ وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبا فمنه يأكلون ﴾ .

ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ

(١) أخرجه ابن أبي حاتم عن المسيب بن رافع .

(٢) رواه الطيالسي عن أبي رزين العقيلي رضي الله عنه .

وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشْقُقُ فَيُخْرِجُ مِنْهُ الْمَاءَ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾

يقول تعالى توبيخاً لبني إسرائيل وتقريعاً لهم على ما شاهدوه من آيات الله تعالى وإحيائه الموتى: ﴿ثم قست قلوبكم من بعد ذلك﴾ كفه في كالحجارة التي لا تلين أبداً، ولهذا نهى الله المؤمنين عن مثل حالهم، فقال: ﴿ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون﴾. فصارت قلوب بني إسرائيل مع طول الأمد قاسية بعيدة عن الموعظة، بعد ما شاهدوه من الآيات والمعجزات، فهي في قسوتها كالحجارة التي لا علاج للينها، أو أشد قسوة من الحجارة، فإن من الحجارة ما يتفجر منها العيون بالأنهار الجارية، ومنها ما يشقق فيخرج منه الماء وإن لم يكن جارياً، ومنها ما يهبط من رأس الجبل من خشية الله وفيه إدراك لذلك بحسبه، كما قال تعالى: ﴿وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليماً غفوراً﴾. والمعنى: وإن من الحجارة لألين من قلوبكم عما تدعون إليه من الحق.

وقد زعم بعضهم أن هذا من باب المجاز، وهو إسناد الخشوع إلى الحجارة كما أسندت الإرادة إلى الجدار في قوله: ﴿يريد أن ينقض﴾. قال الرازي والقرطبي: ولا حاجة إلى هذا، فإن الله تعالى يخلق فيها هذه الصفة كما في قوله تعالى: ﴿فأبين أن يحملنها وأشفقن منها﴾، وقال: ﴿تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن﴾ الآية، وقال: ﴿والنجم والشجر يسجدان﴾، وقال: ﴿قالنا أتينا طائعين﴾. وفي الصحيح: «هذا جبل يحبنا ونحبه»، وكحنين الجذع المتواتر خبره، وفي صحيح مسلم: «إني لأعرف حجراً بمكة كان يسلم عليّ قبل أن أبعث إني لأعرفه الآن»، وفي صفة الحجر الأسود أنه يشهد لمن استلمه بحق يوم القيامة وغير ذلك مما في معناه.

(تبييه) اختلف علماء العربية في معنى قوله تعالى: ﴿فهي كالحجارة أو أشد قسوة﴾ بعد الإجماع على استحالة كونها للشك، فقال بعضهم (أو) ههنا بمعنى الواو تقديره: فهي كالحجارة وأشد قسوة، كقوله تعالى: ﴿ولا تطع منهم آثماً أو كفوراً﴾، وقوله: ﴿عذراً أو نذراً﴾، وكما قال جرير بن عطية:

نال الخلافة أو كانت له قدراً كما أتى ربه موسى على قدر

قال ابن جرير: يعني نال الخلافة وكانت له قدراً، وقال آخرون: (أو) ههنا بمعنى بل فتقديره: فهي كالحجارة بل أشد قسوة، وكقوله: ﴿إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية﴾ وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون، ﴿فكان قاب قوسين أو أدنى﴾، وقال آخرون: معنى ذلك: ﴿فهي كالحجارة أو أشد قسوة﴾ عندكم حكاه ابن جرير. وقال بعضهم: معنى ذلك فقلوبكم لا تخرج عن أحد هذين المثليين: إما أن تكون مثل الحجارة في القسوة، وإما أن تكون أشد منها في القسوة، قال ابن جرير ومعنى ذلك على هذا التأويل فبعضها كالحجارة قسوة، وبعضها أشد قسوة من الحجارة، وقد رجحه ابن جرير مع توجيه غيره، (قلت) وهذا القول الأخير يبقى شبيهاً بقوله تعالى: ﴿مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً﴾ مع قوله: ﴿أو كصيب من السماء﴾، وكقوله: ﴿والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة﴾، مع قوله: ﴿أو كظلمات في بحر لجي﴾ الآية أي: إن منهم من هو هكذا ومنهم من هو هكذا، والله أعلم. عن ابن عمر: أن رسول الله ﷺ قال: «لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله،

فإن كثرة الكلام بغير ذكر الله قسوة القلب ، وإن أبعد الناس من الله القلب القاسي ^(١) . وروي مرفوعاً : « أربع من الشقاء : جمود العين ، وقساوة القلب ، وطول الأمل ، والحرص على الدنيا » ^(٢) .

* أَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يَحْرِفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بِبَعْضِهِمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوْ لَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾

يقول تعالى : ﴿ أَتَطْمَعُونَ ﴾ أيها المؤمنون ﴿ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ ﴾ أي يتقاد لكم بالطاعة هؤلاء الفرقة الضالة من اليهود ، الذين شاهد آباؤهم من الآيات البينات ما شاهدوه ، ثم قست قلوبهم من بعد ذلك ﴿ وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه ﴾ أي يتأولونه على غير تأويله ﴿ من بعد ما عقلوه ﴾ أي فهموه على الجليّة ، ومع هذا يحرفونه على بصيرة ﴿ وهم يعلمون ﴾ أنهم مخطئون فيما ذهبوا إليه من تحريفه وتأويله . وهذا المقام شبيه بقوله تعالى : ﴿ فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه ﴾ وليس كلهم قد سمعها ، ولكن هم الذين سألوا موسى رؤية ربهم فأخذتهم الصاعقة فيها ، قال السدي : هي التوراة حروفها . وقال قتادة في قوله : ﴿ ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون ﴾ هم اليهود كانوا يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه ووعوه ، وقال أبو العالية : عمدوا إلى ما أنزل الله في كتابهم من نعت محمد ﷺ فحرفوه عن مواضعه ، وقال السدي : ﴿ وهم يعلمون ﴾ أي أنهم أذنبوا ، وقال ابن وهب في قوله ﴿ يسمعون كلام الله ثم يحرفونه ﴾ قال : التوراة التي أنزلها الله عليهم ، يحرفونها يجعلون الحلال فيها حراماً ، والحرام فيها حلالاً ، والحق فيها باطلاً والباطل فيها حقاً .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا ﴾ ، قال ابن عباس ﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا ﴾ : أي قالوا : إن صاحبكم رسول الله ولكنه إليكم خاصة . ﴿ وَإِذَا خَلَا بِبَعْضِهِمْ إِلَى بَعْضٍ ﴾ قالوا : لا تحدثوا العرب بهذا فإنكم قد كنتم تستفتحون به عليهم فكان منهم ، ﴿ وَإِذَا خَلَا بِبَعْضِهِمْ إِلَى بَعْضٍ ﴾ قالوا أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم ﴿ أي تقرون بأنه نبي وقد علمتم أنه قد أخذ له الميثاق عليكم باتباعه ، وهو يخبرهم أنه النبي الذي كنا نتظر ونجد في كتابنا ، اجحدوه ولا تقروا به . يقول الله تعالى : ﴿ أَوْ لَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ ؟ وقال الضحاك : يعني المنافقين من اليهود كانوا إذا لقوا أصحاب محمد ﷺ قالوا آمنا ، وقال السدي : هؤلاء ناس من اليهود آمنوا ثم نافقوا . وكانوا يقولون إذا دخلوا المدينة نحن مسلمون ، ليعلموا خبر رسول الله ﷺ وأمره ، فإذا رجعوا رجعوا إلى الكفر ، فلما أخبر الله نبيه ﷺ قطع ذلك عنهم فلم يكونوا يدخلون ،

(١) رواه ابن مردويه والترمذي في كتاب الزهد ، وقال الترمذي : غريب لا نعرفه إلا من حديث إبراهيم .

(٢) رواه البزار عن أنس بن مالك مرفوعاً .

وكان المؤمنون يظنون أنهم مؤمنون فيقولون: أليس قد قال الله لكم كذا وكذا، فيقولون: بلى، قال أبو العالية: ﴿أتحدثونهم بما فتح الله عليكم﴾ يعني بما أنزل عليكم في كتابكم من نعت محمد ﷺ، وقال قتادة: ﴿أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم﴾ كانوا يقولون سيكون نبي فخلاً بعضهم ببعض فقالوا: ﴿أتحدثونهم بما فتح الله عليكم﴾. وعن مجاهد في قوله تعالى: ﴿أتحدثونهم بما فتح الله عليكم﴾ قال: قام النبي ﷺ يوم قريظة تحت حصونهم، فقال: يا إخوان القردة والخنازير، ويا عبدة الطاغوت فقالوا من أخبر بهذا الأمر محمدًا؟ ما خرج هذا القول إلا منكم ﴿أتحدثونهم بما فتح الله عليكم﴾ بما حكم الله للفتح ليكون لهم حجة عليكم. وقال الحسن البصري: هؤلاء اليهود كانوا إذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا، وإذا خلا بعضهم إلى بعض قال بعضهم: لا تحدثوا أصحاب محمد بما فتح الله عليكم، مما في كتابكم ليحاجوكم به عند ربكم فيخصموكم. وقوله تعالى: ﴿أولا يعلمون أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون﴾ يعني ما أسروا من كفرهم بمحمد ﷺ وتكذيبهم به وهم يجدونه مكتوباً عندهم. وقال الحسن: ﴿إن الله يعلم ما يسرون﴾ كان ما أسروا أنهم كانوا إذا تولوا عن أصحاب محمد ﷺ وخلا بعضهم إلى بعض، تناهوا أن يخبر أحد منهم أصحاب محمد ﷺ بما فتح الله عليهم مما في كتابهم، خشية أن يحاجهم أصحاب محمد ﷺ بما في كتابهم عند ربهم ﴿وما يعلنون﴾ يعني حين قالوا لأصحاب محمد ﷺ آمنا.

وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ

الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِءً نَمْنًا قَلِيلًا ﴿٧٩﴾ فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٨٠﴾

يقول تعالى: ﴿ومنهم أميون﴾ أي ومن أهل الكتاب، والأميون جمع أمي وهو الرجل الذي لا يحسن الكتابة، وهو ظاهر في قوله تعالى: ﴿لا يعلمون الكتاب﴾ أي لا يدرون ما فيه، ولهذا في صفات النبي ﷺ: أنه الأمي لأنه لم يكن يحسن الكتابة كما قال تعالى: ﴿وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تحطه يمينك إذا لارتاب المبتلون﴾، وقال عليه الصلاة والسلام: «إننا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب، الشهر هكذا وهكذا وهكذا» الحديث. وقال تبارك وتعالى: ﴿هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم﴾ قال ابن جرير: نسبت العرب من لا يكتب ولا يخط من الرجال إلى أمه في جهله بالكتاب دون أبيه. وقوله تعالى: ﴿إلا أماني﴾ عن ابن عباس: ﴿إلا أماني﴾ يقول إلا قولاً يقولونه بأفواههم كذباً، وقال مجاهد إلا كذباً، وعن مجاهد: ﴿ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أماني﴾ قال: أناس من اليهود لم يكونوا يعلمون من الكتاب شيئاً، وكانوا يتكلمون بالظن بغير ما في كتاب الله ويقولون هو من الكتاب (أماني) يتمنونها، والتمني في هذا الموضع هو تخلق الكذب وتخرصه، ومنه الخبر المروي عن عثمان رضي الله عنه «ما تغنيت ولا تمنيت» يعني ما تخرصت الباطل ولا اختلقت الكذب، وقيل: المراد بقوله ﴿إلا أماني﴾ بالتشديد والتخفيف أيضاً أي إلا تلاوة. واستشهدوا على ذلك بقوله تعالى: ﴿إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته﴾ الآية، وقال كعب بن مالك الشاعر:

تَمَنَّى كِتَابَ اللَّهِ أَوَّلَ لَيْلِهِ وَأَخْرَهُ لِأَقْبَى حِمَامِ الْمَقَادِرِ

﴿ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾ يكذبون، وقوله تعالى: ﴿ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ الآية. هؤلاء صنف آخر من اليهود وهم الدعاة إلى الضلال بالزور والكذب على الله، وأكل أموال الناس بالباطل، والويل: الهلاك والدمار، وهي كلمة مشهورة في اللغة. وعن ابن عباس الويل: المشقة من العذاب، وقال الخليل الويل: شدة الشر، وقال سيبويه: ويل لمن وقع في الهلكة، وويح لمن أشرف عليها، وقال الأصمعي: الويل تفجع، والويح ترحم، وقال غيره: الويل الحزن. وعن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ﴾ قال: هم أبحار اليهود، وقال السدي: كان ناس من اليهود كتبوا كتاباً من عندهم يبيعونه من العرب ويحدثونهم أنه من عند الله ليأخذوا به ثمناً قليلاً، وقال الزهري عن ابن عباس: « يا معشر المسلمين كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء وكتاب الله الذي أنزله على نبيه أحدث أخبار الله تقرأونه غضاً لم يشب، وقد حدثكم الله تعالى أن أهل الكتاب قد بدلوا كتاب الله وغيروه، وكتبوا بأيديهم الكتاب وقالوا هو من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً، أفلا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مساءلتهم، ولا والله ما رأينا منهم أحداً قط سألكم عن الذي أنزل عليكم ». وقوله تعالى: ﴿ فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ ﴾ أي فويل لهم مما كتبوا بأيديهم من الكذب والبهتان والافتراء، وويل لهم مما أكلوا به من السحت، كما قال الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ فَوَيْلٌ لَهُمْ ﴾ يقول: فالعذاب عليهم من الذي كتبوا بأيديهم من ذلك الكذب ﴿ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ ﴾ يقول: مما يأكلون به أولئك الناس السفلة وغيرهم.

وَقَالُوا لَنْ نَمَسَّنَا النَّارَ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا

تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾

يقول تعالى إخباراً عن اليهود فيما نقلوه وادعوه لأنفسهم، من أنهم لن تمسهم النار إلا أياماً معدودة، ثم ينجون منها، فردَّ الله عليهم ذلك بقوله تعالى: ﴿ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا ﴾ أي بذلك، فإن كان قد وقع عهد فهو لا يخلف عهده، ولكن هذا ما جرى ولا كان، ولهذا أتى بأم التي بمعنى (بل) أي بل تقولون على الله ما لا تعلمون من الكذب والافتراء عليه. قال مجاهد عن ابن عباس: إن اليهود كانوا يقولون: إن هذه الدنيا سبعة آلاف سنة، وإنما نعذب بكل ألف سنة يوماً في النار، وإنما هي سبعة أيام معدودة، فأنزل الله تعالى: ﴿ وَقَالُوا لَنْ نَمَسَّنَا النَّارَ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُودَةً ﴾ إلى قوله: ﴿ خَالِدُونَ ﴾. وقال العوفي عن ابن عباس: قالوا لن تمسنا النار إلا أربعين ليلة وهي مدة عبادتهم العجل، وقال قتادة: ﴿ وَقَالُوا لَنْ نَمَسَّنَا النَّارَ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُودَةً ﴾ يعني الأيام التي عبدنا فيها العجل، وقال عكرمة: خاصمت اليهود رسول الله ﷺ فقالوا: لن ندخل النار إلا أربعين ليلة، وسيخلفنا فيها قوم آخرون، يعنون محمداً ﷺ وأصحابه، فقال رسول الله ﷺ بيده على رؤوسهم: « بل أنتم خالدون ومخلدون لا يخلفكم فيها أحد »، فأنزل الله عز وجل: ﴿ وَقَالُوا لَنْ نَمَسَّنَا النَّارَ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُودَةً ﴾ الآية. وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: لما فتحت خيبر أهديت لرسول الله ﷺ شاة فيها سم، فقال رسول الله ﷺ: « اجمعوا لي من كان من

اليهود هنا»، فقال لهم رسول الله ﷺ: «من أبوكم؟»، قالوا: فلان، قال: «كذبتم بل أبوكم فلان»، فقالوا: صدقت وبررت، ثم قال لهم: «هل أتم صادقي عن شيء إن سألتكم عنه؟»، قالوا: نعم يا أبا القاسم، وإن كذبناك عرفت كذبنا كما عرفته في أيينا، فقال لهم رسول الله ﷺ: «من أهل النار؟»، فقالوا: نكون فيها يسيراً ثم نخلفونا فيها، فقال لهم رسول الله ﷺ: «احسثوا والله لا تخلفكم فيها أبداً». ثم قال لهم رسول الله ﷺ: «هل أتم صادقي عن شيء إن سألتكم عنه؟»، قالوا: نعم يا أبا القاسم، قال: «هل جعلتم في هذه الشاة سمّاً؟»، فقالوا: نعم، قال: «فا حملكم على ذلك؟»، فقالوا: أردنا إن كنت كاذباً أن نستريح منك، وإن كنت نبياً لم يضرك^(١).

بَلَىٰ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَاطِئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨٢﴾

يقول تعالى: ليس الأمر كما تمنيتم ولا كما تشتهون، بل الأمر أنه من عمل سيئة ﴿﴿ وأحاطت به خطيئته ﴾﴾ وهو من وافى يوم القيامة وليست له حسنة، بل جميع أعماله سيئات، فهذا من أهل النار. ﴿﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾﴾ أي آمنوا بالله ورسوله، وعملوا الصالحات من العمل الموافق للشريعة، فهم من أهل الجنة، وهذا المقام شبيه بقوله تعالى: ﴿﴿ ليس بآمانيتكم ولا أمانى أهل الكتاب من يعمل سوءاً يُجز به ولا يجذ له من دون الله ولياً ولا نصيراً ﴾﴾ ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون شيئاً﴾. قال ابن عباس: ﴿﴿ بلى من كسب سيئة ﴾﴾ أي عمل مثل أعمالكم، وكفر بمثل ما كفرتم به، حتى يحيط به كفره فما له من حسنة، وفي رواية عن ابن عباس قال: الشرك. وقال الحسن: السيئة الكبيرة من الكبائر، وقال عطاء والحسن: ﴿﴿ وأحاطت به خطيئته ﴾﴾ أحاط به شركه، وقال الأعمش: ﴿﴿ وأحاطت به خطيئته ﴾﴾ الذي يموت على خطايا من قبل أن يتوب. وعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إياكم ومحقرات الذنوب، فإنهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه» وإن رسول الله ﷺ ضرب لهم مثلاً قوم نزلوا بأرض فلاة فأنضجوا ما قذفوا فيها^(٢). وقوله تعالى: ﴿﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون ﴾﴾ أي من آمن بما كفرتم وعمل بما تركتم من دينه فلهم الجنة خالدين فيها، يخبرهم أن الثواب بالخير والشر مقيم على أهله أبداً لا انقطاع له.

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ

(١) رواه الإمام أحمد والبخاري والنسائي وابن مردويه واللفظ له عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) رواه الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه مرفوعاً.

وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنتُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾

بذكر تبارك وتعالى بني إسرائيل بما أمرهم به من الأوامر، وأخذ ميثاقهم على ذلك، وأنهم تولوا عن ذلك كله وأعرضوا قصداً وعمداً، وهم يعرفونه ويذكرونه، فأمرهم تعالى أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، وبهذا أمر جميع خلقه ولذلك خلقهم كما قال تعالى: ﴿ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت﴾، وهذا هو أعلى الحقوق وأعظمها، وهو حق الله تبارك وتعالى أن يعبد وحده لا شريك له ثم بعده حق المخلوقين. وآ كدهم وأولاهم بذلك حق الوالدين، ولهذا يقرن تبارك وتعالى بين حقه وحق الوالدين كما قال تعالى: ﴿أن اشكر لي ولوالديك إليّ المصير﴾. وقال تبارك وتعالى: ﴿وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً﴾، إلى أن قال: ﴿وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل﴾. وفي الصحيحين عن ابن مسعود قلت: يا رسول الله أيّ العمل أفضل؟ قال: « الصلاة على وقتها »، قلت: ثم أي؟ قال: « بر الوالدين »، قلت: ثم أي؟ قال: « الجهاد في سبيل الله ». ولهذا جاء في الحديث الصحيح أن رجلاً قال: يا رسول الله من أبر؟ قال: « أمك »، قال: ثم من؟ قال: « أمك »، قال: ثم من؟ قال: « أباك؟ ثم أدناك ثم أدناك ». وقوله تعالى: ﴿لا تعبدون إلا الله﴾ قال الزمخشري: خبر بمعنى الطلب وهو آكد. وقيل: كان أصله ﴿أن لا تعبدوا إلا الله﴾ فحذفت (أن) فارتفع. واليتامى وهم الصغار الذين لا كاسب لهم من الآباء، والمسكين الذين لا يجدون ما ينفقون على أنفسهم وأهلهم. وقوله تعالى: ﴿وقولوا للناس حسناً﴾ أي كلموهم طيباً ولينوا لهم جانباً، ويدخل في ذلك الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر بالمعروف، كما قال الحسن البصري أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويحلم ويعفو ويصفح، ويقول للناس حسناً كما قال الله، وهو كل خلق حسن رضيه الله.

كما روي عن أبي ذر رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: « لا تحقرن من المعروف شيئاً وإن لم تجد فالق أذاك بوجه منطلق^(١) » يأمرهم بأن يقولوا للناس حسناً، بعد ما أمرهم بالإحسان إليهم بالفعل، فجمع بين طرفي الإحسان (الفعلي) و (القولی) ثم أكد الأمر بعبادته والإحسان إلى الناس بالمعتين من ذلك وهو الصلاة والزكاة، فقال: ﴿وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة﴾، وأخبر أنهم تولوا عن ذلك كله، أي تركوه وراء ظهورهم وأعرضوا عنه على عمد، بعد العلم به إلا القليل منهم، وقد أمر الله هذه الأمة بنظير ذلك في سورة النساء بقوله: ﴿واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً وبذي القربى واليتامى والمسكين﴾ الآية.

وَإِذَا أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَ تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِينِكُمْ ثُمَّ أَقَرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنْتُمْ هُنَّ لِأَنْ تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنْكُمْ مِنْ دِينِهِمْ تَظَاهِرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسْرَىٰ

(١) أخرجه أحمد عن أبي ذر رضي الله عنه ورواه مسلم والترمذي.

تَفْدُوهُمْ وَهُمْ مَحْرَمٌ عَلَيْكُمْ ۖ أَخْرَجُهُمْ أَفْتُونُونَ بَعْضُ الْكِنَانِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَيْنَا أَشَدَّ الْعَذَابِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ ۗ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ ۗ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾

يقول تبارك وتعالى منكرأ على اليهود، الذين كانوا في زمان رسول الله ﷺ بالمدينة، وما كانوا يعانونه من القتال مع الأوس والخزرج، وذلك أن الأوس والخزرج - وهم الأنصار - كانوا في الجاهلية عبداً أصنام، وكانت بينهم حروب كثيرة، وكانت يهود المدينة ثلاث قبائل (بنو قينقاع) و (بنو النضير) حلفاء الخزرج و (بنو قريظة) حلفاء الأوس، فكانت الحرب إذا نشبت بينهم قاتل كل فريق مع حلفائه فيقتل اليهودي أعداءه، وقد يقتل اليهودي الآخر من الفريق الآخر، وذلك حرام عليهم في دينهم ونص كتابهم، ويخرجونهم من بيوتهم، وينتهون ما فيها من الأثاث والأمتعة والأموال، ثم إذا وضعت الحرب أوزارها افتكوا الأسارى من الفريق المغلوب عملاً بحكم التوراة، ولهذا قال تعالى: ﴿ أفْتُونُونَ بَعْضُ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ﴾، ولهذا قال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تَخْرُجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ﴾ أي لا يقتل بعضهم بعضاً، ولا يخرجونه من منزله، ولا يظاهر عليه، وذلك أن أهل الملة الواحدة بمنزلة النفس الواحدة، كما قال عليه الصلاة والسلام: « مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتواصلهم بمنزلة الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر »، وقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تُشْهِدُونَ ﴾ أي ثم أقررتكم بمعرفة هذا الميثاق وصحته وأنتم تشهدون به، ﴿ ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتَخْرُجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ ﴾ الآية. عن ابن عباس: ﴿ ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ ﴾ قال: أنبأهم الله بذلك من فعلهم، وقد حرم عليهم في التوراة سفك دمائهم، وافترض عليهم فيها فداء أسراهم، فكانوا إذا كانت بين الأوس والخزرج حرب خرجت بنو قينقاع مع الخزرج، وخرجت النضير وقريظة مع الأوس، يظاهر كل واحد من الفريقين حلفاءه على إخوانه، حتى تسافكوا دماءهم بينهم، وبأيديهم التوراة يعرفون فيها ما عليهم وما لهم، والأوس والخزرج أهل شرك يعبدون الأوثان، ولا يعرفون جنة ولا ناراً ولا بعثاً ولا قيامة، ولا كتاباً ولا حلالاً ولا حراماً، فإذا وضعت الحرب أوزارها افتدوا أسراهم تصديقاً لما في التوراة وأخذاً به بعضهم من بعض، يفتدي (بنو قينقاع) ما كان من أسراهم في أيدي (الأوس) ويفتدي (النضير وقريظة) ما كان في أيدي الخزرج منهم، ويطلبون ما أصابوا من دمائهم، وقتلوا من قتلوا منهم فيما بينهم، مظهرة لأهل الشرك عليهم، يقول الله تعالى ذكره: ﴿ أفْتُونُونَ بَعْضُ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ﴾؟ أي تفادونهم بحكم التوراة وتقتلونهم، وفي حكم التوراة أن لا يقتل ولا يخرج من داره ولا يظاهر عليه من يشرك بالله ويعبد الأوثان من دونه ابتغاء عرض الدنيا؟ ففي ذلك من فعلهم مع الأوس والخزرج - فيما بلغني - نزلت هذه القصة. وقال السدي: نزلت هذه الآية في قيس بن الحظيم ﴿ ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتَخْرُجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ ﴾ والذي أرشدت إليه الآية الكريمة وهذا السياق، ذم اليهود في قيامهم بأمر التوراة التي يعتقدون صحتها، ومخالفة شرعها مع معرفتهم بذلك وشهادتهم له بالصحة، فلماذا لا يؤتمنون على ما فيها ولا على نقلها، ولا يصدقون فيما كتّموه من صفة رسول الله ﷺ،

ونعته ومبعثه ومخرجه ومهاجره وغير ذلك من شؤونه، التي أخبرت بها الأنبياء قبله عليهم الصلاة والسلام، واليهود - عليهم لعائن الله - يتكاثرون بينهم، ولهذا قال تعالى: ﴿فأجزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا﴾ أي بسبب مخالفتهم شرع الله وأمره ﴿ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب﴾ جزء على مخالفتهم كتاب الله الذي بأيديهم ﴿وما الله بغافل عما تعملون﴾ أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة ﴿أي استحبوها على الآخرة واختاروها﴾ فلا يخفف عنهم العذاب ﴿أي لا يفتقر عنهم ساعة واحدة﴾ ولا هم ينصرون ﴿أي وليس لهم ناصر ينقدهم مما هم فيه من العذاب الدائم السرمدى ولا يجيرهم عليه .

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيْنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ
أَفَكَلَّمَا جَاءَ كَرُّ رَسُولٍ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾

ينعت تبارك وتعالى بني إسرائيل بالعتو والعناد، والمخالفة والاستكبار على الأنبياء، وأنهم إنما يتبعون أهواءهم، فذكر تعالى أنه أتى موسى الكتاب وهو (التوراة) فحرّفوها وبدّلوها، وخالفوا أوامرها وأولوها، وأرسل الرسل والنبیین من بعده الذين يحكمون بشريعته كما قال تعالى: ﴿إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء﴾ الآية، ولهذا قال تعالى: ﴿وقفينا من بعده بالرسول﴾. قال السدي: أتبعنا. وقال غيره: أردفنا، والكل قريب كما قال تعالى: ﴿ثم أرسلنا رسلنا تترى﴾ حتى ختم أنبياء بني إسرائيل بعيسى بن مريم، فجاء بمخالفة التوراة في بعض الأحكام ولهذا أعطاه الله من البيّنات وهي المعجزات، قال ابن عباس: من إحياء الموتى، وخلقه من الطين كهيئة الطير فينفخ فيها فتكون طيراً بإذن الله، وبراء الأسقام، وإخباره بالغيوب، وتأيدده بروح القدس - وهو جبريل عليه السلام - ما يدلهم على صدقه فيما جاءهم به، فاشتد تكذيب بني إسرائيل له وحسداهم وعنادهم لمخالفة التوراة في البعض كما قال تعالى إخباراً عن عيسى: ﴿ولأحل لكم بعض الذي حرّم عليكم وجئتكم بآية من ربكم﴾ الآية، فكانت بنو إسرائيل تعامل الأنبياء أسوأ المعاملة ففريقاً يكذبونه، وفريقاً يقتلون، وما ذاك إلا لأنهم يأتونهم بالأموال المخالفة لأهوائهم وآرائهم، وبالإلزام بأحكام التوراة التي قد تصرفوا في مخالفتها، فلهذا كان ذلك يشق عليهم فكذبوهم وربما قتلوا بعضهم، ولهذا قال تعالى: ﴿أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون﴾ ؟

والدليل على أن روح القدس هو جبريل كما نص عليه ابن مسعود في تفسير هذه الآية ما قال البخاري: عن أبي هريرة عن عائشة أن رسول الله ﷺ وضع لحيان بن ثابت منبراً في المسجد فكان ينافح عن رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «اللهم أيد حسان بروح القدس كما نافح عن نبيك». وفي بعض الروايات أن رسول الله ﷺ قال لحسان: «اهجهم - أو هاجهم - وجبريل معك»، وفي شعر حسان قوله:

وجبريلُ رسولُ الله فينا وروح القدس ليس به خفاء

وعن ابن مسعود: أن رسول الله ﷺ قال: «إن روح القدس نفث في روعي أنه لن تموت نفس حتى تستكمل

رزقها وأجلها فاتقوا الله وأجملوا في الطلب^(١) . وحكى القرطبي عن مجاهد القدس: هو الله تعالى، وروحه جبريل . وقال السدي: القدس البركة، وقال العوفي عن ابن عباس: القدس الطهر . وقال الزمخشري: ﴿ بروح القدس ﴾ بالروح المقدسة، كما تقول: حاتم الجود، ورجل صدق، ووصفها بالقدس كما قال ﴿ وروح منه ﴾ فوصفه بالاختصاص والتقريب تكرامة، وقيل: لأنه لم تضمه الأصلاب والأرحام الطوامث، وقيل: بجبريل، وقيل: بالإنجيل كما قال في القرآن ﴿ روحاً من أمرنا ﴾، وقيل: باسم الله الأعظم الذي كان يحيى الموتى بذكره . وقال أيضاً في قوله تعالى: ﴿ ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون ﴾ إنما لم يقل وفريقاً قتلتم لأنه أراد بذلك وصفهم في المستقبل أيضاً لأنهم حاولوا قتل النبي ﷺ بالسم والسحر، وقد قال عليه السلام في مرض موته: « ما زالت أكلة خيبر تعادني فهذا أوان انقطاع أبهري^(٢) » .

وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾

﴿ وقالوا قلوبنا غلف ﴾ أي في أكنة: وقال ابن عباس: أي لا تفقه، وهي القلوب المطبوع عليها، وقال مجاهد: عليها غشاوة، وقال السدي: عليها غلاف وهو الغطاء فلا تعي ولا تفقه. ﴿ بل لعنهم الله بكفرهم ﴾ أي طردهم الله وأبعدهم من كل خير ﴿ فقليلاً ما يؤمنون ﴾ معناه: لا يؤمن منهم إلا القليل، وقال عبدالرحمن بن زيد في قوله: ﴿ غلف ﴾ تقول قلبي في غلاف فلا يخلص إليه مما تقول شيء، وقرأ: ﴿ وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه ﴾ وهذا الذي رجحه ابن جرير واستشهد بما روي عن حذيفة قال: « القلوب أربعة » فذكر منها: « قلب أغلف مغضوب عليه وذاك قلب الكافر^(٣) » . ولهذا قال تعالى: ﴿ بل لعنهم الله بكفرهم فقليلاً ما يؤمنون ﴾ أي ليس الأمر كما ادعوا بل قلوبهم ملعونة مطبوع عليها كما قال تعالى: ﴿ وقولهم قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلاً ﴾ وقد اختلفوا في معنى قوله ﴿ فقليلاً ما يؤمنون ﴾، وقوله: ﴿ فلا يؤمنون إلا قليلاً ﴾ فقال بعضهم: قليل من يؤمن منهم، وقيل: قليل إيمانهم بمعنى أنهم يؤمنون بما جاءهم به موسى من أمر المعاد والثواب والعقاب ولكنه إيمان لا ينفعهم لأنه مغمور بما كفروا به من الذي جاءهم به محمد ﷺ . وقال بعضهم: إنما كانوا غير مؤمنين بشيء وإنما قال: ﴿ فقليلاً ما يؤمنون ﴾ وهم بالجميع كافرون كما تقول العرب: قلماً رأيت مثل هذا قط . تريد ما رأيت مثل هذا قط ، والله أعلم .

وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ^٤ فَلَعَنَ اللَّهُ عَلَى الْكٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾

يقول تعالى: ﴿ ولما جاءهم ﴾ يعني اليهود ﴿ كتاب من عند الله ﴾ وهو القرآن الذي أنزل على محمد ﷺ

(١) رواه ابن حبان في صحيحه عن ابن مسعود .

(٢) أخرجه ابن جرير عن أبي البخترى عن حذيفة بن اليان .

(٣) الحديث في صحيح البخاري وغيره .

﴿ مصدقٌ لما معهم ﴾ يعني من التوراة، وقوله: ﴿ وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا ﴾ أي وقد كانوا من قبل مجيء هذا الرسول بهذا الكتاب يستنصرون بمجيئه على أعدائهم من المشركين إذا قاتلوهم، يقولون إنه سيبعث نبي في آخر الزمان نقتلكم معه قتل عاد وإرم، فلما بعث الله رسوله من قريش كفروا به. قال الضحاك عن ابن عباس في قوله: ﴿ وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا ﴾ قال يستنصرون: يقولون نحن نعين محمداً عليهم وليسوا كذلك بل يكذبون. وقال محمد بن إسحاق عن ابن عباس: إن يهود كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله ﷺ قبل مبعثه، فلما بعثه الله من العرب كفروا به وجحدوا ما كانوا يقولون فيه. فقال لهم معاذ بن جبل: يا معشر يهود اتقوا الله وأسلموا فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد ﷺ ونحن أهل شرك وتخبروننا بأنه مبعوث وتصفونه بصفته، فقال (سلام بن مشكم) أخو بني النضير: ما جاءنا بشيء نعرفه وما هو بالذي كنا نذكر لكم، فأنزل الله في ذلك من قولهم: ﴿ ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم ﴾ الآية. وقال العوفي عن ابن عباس: ﴿ وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا ﴾ يقول: يستنصرون بخروج محمد ﷺ على مشركي العرب، يعني بذلك أهل الكتاب، فلما بُعث محمد ﷺ - ورأوه من غيرهم - كفروا به وحسدوه. قال مجاهد: ﴿ فلعنة الله على الكافرين ﴾ هم اليهود.

بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيَانًا يَنْزِلُ ۗ أَلَمْ يَنْزِلْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ۗ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۗ فَبَاءُوهٖ بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿٩٠﴾

قال السدي: ﴿ بشما اشتروا به أنفسهم ﴾ باعوا به أنفسهم، يقول: بشما اعتاضوا لأنفسهم فرضوا به وعدلوا إليه من الكفر بما أنزل الله على محمد ﷺ عن تصديقه وموازته ونصرته، وإنما حملهم على ذلك البغي والحسد والكراهية لـ ﴿ أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده ﴾ ولا حسد أعظم من هذا. ومعنى (باؤا) استوجبوا واستحقوا واستقروا بغضب على غضب. قال أبو العالية: غضب الله عليهم بكفرهم بالإنجيل وعيسى، ثم غضب الله عليهم بكفرهم بمحمد ﷺ وبالقرآن. قال السدي: أما الغضب الأول فهو حين غضب عليهم في العجل، وأما الغضب الثاني فغضب عليهم حين كفروا بمحمد ﷺ، وعن ابن عباس مثله.

وقوله تعالى: ﴿ وللكافرين عذاب مهين ﴾ لما كان كفرهم سببه البغي والحسد ومنشأ ذلك التكبر قوبلوا بالإهانة والصغار في الدنيا والآخرة كما قال تعالى: ﴿ إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين ﴾ أي صاغرين حقيرين ذليلين. وعن النبي ﷺ قال: « يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الدر في صور الناس يعلوهم كل شيء من الصغار حتى يدخلوا سجناً في جهنم يقال له (بولس) تعلوهم نار الأنبار يسقون من طينة الخبال عصاره أهل النار »^(١).

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُوْمِنُ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ ۗ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ

(١) رواه الإمام أحمد عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده مرفوعاً.

قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾ * وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٩٢﴾

يقول تعالى: ﴿وإذا قيل لهم﴾ أي لليهود وأمثالهم من أهل الكتاب ﴿آمنوا بما أنزل الله﴾ على محمد ﷺ وصدقوه واتبعوه، ﴿قالوا تؤمن بما أنزل علينا﴾ أي يكفينا الإيمان بما أنزل علينا من التوراة والإنجيل ولا نقر إلا بذلك ﴿ويكفرون بما وراءه﴾ يعني بما بعده، ﴿وهو الحق مصداقاً لما معهم﴾ أي وهم يعلمون أن ما أنزل على محمد ﷺ ﴿الحق مصداقاً لما معهم﴾ من التوراة والإنجيل، فالحجة قائمة عليهم بذلك كما قال تعالى: ﴿الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم﴾، ثم قال تعالى: ﴿فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين﴾؟ أي إن كنتم صادقين في دعواكم الإيمان بما أنزل اليكم، فلم تقتلتم الأنبياء الذين جاءوكم بتصديق التوراة التي بأيديكم، والحكم بها وعدم نسخها وأنتم تعلمون صدقهم؟ قتلتموهم بغياً وعناداً واستكباراً على رسل الله فليستم تتبعون إلا مجرد الأهواء والآراء والشهوي، كما قال تعالى: ﴿أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون﴾. وقال ابن جرير: قل يا محمد لليهود بني إسرائيل إذا قلت لهم: آمنوا بما أنزل الله قالوا تؤمن بما أنزل علينا، لم تقتلون - إن كنتم مؤمنين بما أنزل الله - أنبياء الله يا معشر اليهود، وقد حرم الله في الكتاب الذي أنزل عليكم قتلهم، بل أمركم باتباعهم وطاعتهم وتصديقهم، وذلك من الله تكذيب لهم في قولهم ﴿تؤمن بما أنزل علينا﴾ وتعبير لهم. ﴿ولقد جاءكم موسى بالبينات﴾ أي بالآيات الواضحات والدلائل القاطعات على أنه رسول الله وأنه لا إله إلا الله، والآيات البينات هي: (الطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، والعصا، واليد، وفرق البحر، وتظليلهم بالغمام، والمن، والسلوى، والحجر) وغير ذلك من الآيات التي شاهدها ﴿ثم اتخذتم العجل﴾ أي معبوداً من دون الله في زمان موسى وأيامه. وقوله: ﴿من بعده﴾ أي من بعد ما ذهب عنكم إلى الطور لمناجاة الله عز وجل كما قال تعالى: ﴿واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلاً جسداً له خوار﴾، ﴿وأنتم ظالمون﴾ أي وأنتم ظالمون في هذا الصنيع الذي صنعتموه من عبادتكم العجل، وأنتم تعلمون أنه لا إله إلا الله كما قال تعالى: ﴿ولما سقط في أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا قالوا لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين﴾.

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَاءَ آتَيْنَكُم بِقُوَّةٍ وَأَسْمِعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بَلَسَا يَا مَعْزُمُ كَيْفَ إِعْمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾

يعدّد سبحانه وتعالى عليهم خطأهم ومخالفتهم للميثاق، وعتوهم وإعراضهم عنه حتى رفع الطور عليهم حتى قبلوه ثم خالفوه: ﴿ولهذا قالوا سمعنا وعصينا﴾ وقد تقدم تفسير ذلك ﴿وأشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم﴾. عن قتادة قال: أشربوا حبه حتى خلص ذلك إلى قلوبهم. وعن النبي ﷺ: «حبك الشيء يعمي ويصم»^(١).

(٢) رواه الإمام أحمد وأبو داود عن أبي الدرداء رضي الله عنه .

(١) انظر ص ٧٣ .

وعن علي رضي الله عنه قال : عمد موسى إلى العجل فوضع عليه المبارد فبرده بها وهو على شاطئ نهر ، فما شرب أحد من ذلك الماء ممن كان يعبد العجل إلا اصفرَّ وجهه مثل الذهب ^(١) .

وقوله : ﴿ قل بشما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين ﴾ أي بشما تعملونه في قديم الدهر وحديثه من كفركم بآيات الله ، ومخالفتكم الأنبياء ، ثم كفركم بمحمد ﷺ وهذا أكبر ذنوبكم وأشد الأمور عليكم ، إذ كفرتم بخاتم الرسل وسيد الأنبياء والمرسلين المبعوث إلى الناس أجمعين ، فكيف تدعون لأنفسكم الإيمان وقد فعلتم هذه الأفعال القبيحة من نقضكم المواثيق ، وكفركم بآيات الله ، وعبادتكم العجل من دون الله ؟

قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَنْ يَتَمَنَّوْا أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاتِهِ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يُوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحَّزِحٍ مِنْهُ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾

يقول الله تعالى لنيبه محمد ﷺ : ﴿ قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين ﴾ الموت إن كنتم صادقين ﴿ أي ادعوا بالموت على أي الفريقين أكذب ، فأبوا ذلك على رسول الله ﷺ ﴾ ولن يتمنوه أبداً بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين ﴿ أي يعلمهم بما عندهم من العلم بل والكفر بذلك ولو تمنوه يوم قال لهم ذلك ما بقي على الأرض يهودي إلا مات . وقال الضحاك عن ابن عباس : ﴿ فتمنوا الموت ﴾ فسلوا الموت . قال ابن عباس : « لو تمنى يهود الموت لماتوا ولو تمنوا الموت لشرق أحدهم بريقه » ^(٢) . وقال ابن جرير : وبلغنا أن النبي ﷺ قال : « لو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا ولرأوا مقاعدهم من النار ، ولو خرج الذين يباهلون رسول الله ﷺ لرجعوا لا يجدون أهلاً ولا مالاً » . ونظير هذه الآية قوله تعالى في سورة الجمعة : ﴿ قل يا أيها الذين هادوا إن زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين * ولا يتمنونه أبداً بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين ﴾ فهم - عليهم لعائن الله تعالى - لما زعموا أنهم أبناء الله وأحباؤه وقالوا : ﴿ لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى ﴾ دعوا إلى المبالغة والدعاء على أكذب الطائفتين منهم أو من المسلمين ، فلما نكلوا عن ذلك علم كل أحد أنهم ظالمون ، لأنهم لو كانوا جازمين بما هم فيه لكانوا أقدموا على ذلك ، فلما تأخروا علم كذبهم . وهذا كما دعا رسول الله ﷺ وقد نجران من النصارى بعد قيام الحججة عليهم في المناظرة ، وعتوهم وعنادهم إلى المبالغة ، فقال تعالى : ﴿ فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبنائكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين ﴾ . فلما رأوا ذلك قال بعض القوم لبعض : والله لئن باهلتهم هذا النبي لا يبقى منكم عين تطرف ، فعند ذلك جنحوا للسلم وبدلوا الجزية عن يد وهم صاغرون .

والمعنى إن كنتم تعتقدون أنكم أولياء الله من دون الناس ، وأنكم أبناء الله وأحباؤه ، وأنكم من أهل الجنة ومن عداكم من أهل النار ، فباهلوا على ذلك وادعوا على الكاذبين منكم أو من غيركم ، واعلموا أن المبالغة تستأصل

(١) رواه ابن أبي حاتم عن عليّ كرم الله وجهه . (٢) أخرجه ابن أبي حاتم وعبد الرزاق عن عكرمة عن ابن عباس .

الكاذب لا محالة، فلما يتقنوا ذلك وعرفوا صدقه نكلوا عن المباهلة، لما يعلمون من كذبهم واقترائهم، وكتائبهم الحق من صفة الرسول ﷺ ونعته، وهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ويتحققونه، فعلم كل أحد باطلهم وخزيهم وضلالهم وعنادهم، عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة. وسميت هذه المباهلة تمنياً لأن كل محق يود لو أهلك الله المبطل المناظر له، ولا سيما إذا كان في ذلك حجة له في بيان حقه وظهوره، وكانت المباهلة بالموت لأن الحياة عندهم عزيزة عظيمة لما يعلمون من سوء مآلهم بعد الموت، ولهذا قال تعالى: ﴿ولن يتمنوه أبداً بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين﴾ ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ﴿أي على طول العمر لما يعلمون من مآلهم السيء وعاقبتهم عند الله الخاسرة، لأن الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر، فهم يودون لو تأخروا عن مقام الآخرة بكل ما أمكنهم وما يحاذرون منه واقع بهم لا محالة، حتى وهم أحرص من المشركين الذين لا كتاب لهم، وهذا من باب عطف الخاص على العام، وقال الحسن البصري: ﴿ولتجدنهم أحرص الناس على حياة﴾ المناق أحرص الناس، وأحرص من المشرك على حياة ﴿يود أحدهم﴾ أي يود أحد اليهود لو يعمر ألف سنة ﴿وما هو بمزحزحه من العذاب أن يُعمر﴾ أي وما هو بمنجيهِ من العذاب، وذلك أن المشرك لا يرجو بعثاً بعد الموت، فهو يحب طول الحياة، وأن اليهودي قد عرف ماله في الآخرة من الخزي بما ضيع ما عنده من العلم فما ذاك بمغيثه من العذاب ولا منجيهِ منه. ﴿والله بصير بما يعملون﴾ أي خبير بصير بما يعمل عباده من خير وشر، وسيجازي كل عامل بعمله.

قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾
مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ ﴿٩٨﴾

قال أبو جعفر الطبري رحمه الله: أجمع أهل العلم بالتأويل جميعاً أن هذه الآية نزلت جواباً لليهود من بني إسرائيل إذ زعموا أن جبريل عدو لهم، وأن ميكائيل ولي لهم، ثم اختلفوا في السبب الذي من أجله قالوا ذلك، فقال بعضهم: إنما كان سبب قيلهم ذلك من أجل مناظرة جرت بينهم وبين رسول الله ﷺ في أمر نبوته. عن ابن عباس قال: أقبلت يهود على رسول الله ﷺ فقالوا: يا أبا القاسم أخبرنا عن خمسة أشياء فإن أنبأنا بهن عرفنا أنك نبي واتبعناك، فأخذ عليهم ما أخذ إسرائيل على بنيه إذ قال: ﴿والله على ما نقول وكيل﴾ قال: «هاتوا»، قالوا: فأخبرنا عن علامة النبي؟ قال: «تنام عيناه ولا ينام قلبه». قالوا: أخبرنا كيف تؤنث المرأة وكيف تدكر؟ قال: «يلتقي الماءان فإذا علا ماء الرجل ماء المرأة أذكرت، وإذا علا ماء المرأة ماء الرجل أنثت»، قالوا: أخبرنا ما حرم إسرائيل على نفسه؟ قال: «كان يشتكي عرق النساء فلم يجد شيئاً يلائمه إلا ألبان كذا»، قال أحمد، قال بعضهم: يعني الإبل فحرم لحومها. قالوا: صدقت. قالوا: أخبرنا ما هذا الرعد؟ قال: «ملك من ملائكة الله عز وجل موكل بالسحاب بيديه أو في يديه مخراق من نار يزجر به السحاب يسوقه حيث أمره الله تعالى». قالوا: فما هذا الصوت الذي نسمع؟ قال: «صوته»، قالوا: صدقت. قالوا: إنما بقيت واحدة وهي التي نتابعك إن أخبرتنا بها، إنه ليس من نبي إلا وله ملك يأتيه بالخبر فأخبرنا من صاحبك؟ قال: «جبريل عليه السلام»، قالوا: جبريل ذلك الذي ينزل بالحرب والقتال والعذاب عدونا، لو قلت ميكائيل الذي ينزل بالرحمة والقطر والنبات لكان، فأنزل

الله تعالى: ﴿ قل من كان عدواً لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله ﴾^(١) إلى آخر الآية. وفي رواية: إن يهود سألوا النبي ﷺ عن صاحبه الذي ينزل عليه بالوحي قال: « جبريل »، قالوا: فإنه عدو لنا ولا يأتي إلا بالحرب والشدة والقتال فترلت: ﴿ قل من كان عدواً لجبريل ﴾ الآية .

وأخرج البخاري عن أنس بن مالك قال: سمع (عبدالله بن سلام) بمقدم رسول الله ﷺ وهو في أرض يخترق فأتى النبي ﷺ فقال: إني سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبي: ما أول أشرط الساعة، وما أول طعام أهل الجنة، وما ينزع الولد إلى أبيه أو إلى أمه؟ قال: « أخبرني بهذه جبرائيل أنفاً ». قال: جبريل؟ قال: « نعم ». قال: ذاك عدو اليهود من الملائكة فقرأ هذه الآية: ﴿ من كان عدواً لجبريل فإنه نزله على قلبك ﴾. « وأما أول أشرط الساعة فنار تحشر الناس من المشرق إلى المغرب، وأما أول طعام يأكله أهل الجنة فزيادة كبد الحوت؛ وإذا سبق ماء الرجل ماء المرأة نزع الولد وإذا سبق ماء المرأة نزع »، قال: أشهد أن لا إله إلا الله وأنت رسول الله، يا رسول الله إن اليهود قوم بُهتٌ وإنهم إن يعلموا بإسلامي قبل أن تسألهم يبهتوني، فجاءت اليهود فقال لهم رسول الله ﷺ: « أي رجل عبد الله ابن سلام فيكم؟ » قالوا: خيرنا وابن خيرنا وسيدنا وابن سيدنا، قال: « رأيتم إن أسلم »، قالوا: أعاده الله من ذلك فخرج عبد الله فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله، فقالوا: هو شرنا وابن شرنا وانتقصوه، فقال: هذا الذي كنت أخاف يا رسول الله^(٢) .

وقال آخرون: بل كان سبب ذلك من أجل مناظرة جرت بينهم وبين عمر بن الخطاب في أمر النبي ﷺ، قال عمر: كنت أشهد اليهود يوم مدراسهم، فأعجب من التوراة كيف تصدق القرآن ومن القرآن كيف يصدق التوراة فبينما أنا عندهم ذات يوم قالوا: يا ابن الخطاب ما من أصحابك أحد أحب إلينا منك، (قلت): ولم ذلك؟ قالوا: لأنك تغشانا وتأتينا، فقلت: إني آتيكم فأعجب من القرآن كيف يصدق التوراة، ومن التوراة كيف تصدق القرآن، قالوا: ومّر رسول الله ﷺ فقالوا: يا ابن الخطاب ذاك صاحبكم فالحق به، قال: فقلت لهم عند ذلك: نشدتكم بالله الذي لا إله إلا هو وما استرعاكم من حقه وما استودعكم من كتابه، هل تعلمون أنه رسول الله؟ قال: فسكتوا، فقال لهم عالمهم وكبيرهم: إنه قد غلظ عليكم فأجيبوه، قالوا: فأنت عالمنا وكبيرنا فأجبه أنت، قال: أما إذا نشدتنا بما نشدتنا فإنا نعلم أنه رسول الله، قلت: ويحكم إذا هلكتم، قالوا: إنا لم نهلك، قلت: كيف ذلك وأنتم تعلمون أنه رسول الله ولا تتبعونه ولا تصدقونه!! قالوا: إن لنا عدواً من الملائكة، وسلماً من الملائكة، وإنه قرن بنبوته عدونا من الملائكة، قلت: ومن عدوكم ومن سلمكم؟ قالوا: عدونا جبريل، وسلمنا ميكائيل، قالوا: إن جبريل ملك الفظاظة والغلظة والإعسار والتشديد والعذاب ونحو هذا، وإن ميكائيل ملك الرحمة والرأفة، والتخفيف ونحو هذا، قال، قلت: وما منزلتهما من ربهما عز وجل؟ قالوا: أحدهما عن يمينه والآخر عن يساره، قال، فقلت: فوالذي لا إله إلا هو إنهما - والذي بينهما - لعدو لمن عاداهما وسلم لمن سالمهما، وما ينبغي لجبريل أن يسلم عدو ميكائيل، وما ينبغي لميكائيل أن يسلم عدو جبريل، قال: ثم قمت فاتبعت

(١) رواه أحمد والترمذي والنسائي، وقال الترمذي: حسن غريب .

(٢) رواه البخاري وأخرجه مسلم قريباً من هذا السياق .

النبي ﷺ فلحقته وهو خارج من خوذة لبي فلان، فقال: « يا ابن الخطاب ألا أقرئك آيات نزلن قبيل » فقرأ علي: ﴿ من كان عدواً لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله ﴾ حتى قرأ الآيات. قال، قلت: بأبي أنت وأمي يا رسول الله والذي بعثك بالحق لقد جئت أنا أريد أن أخبرك وأنا أسمع اللطيف الخبير قد سبقني إليك بالخبر^(١) .

وقال ابن جرير: انطلق عمر بن الخطاب ذات يوم إلى اليهود فلما انصرف رحبوا به، فقال لهم عمر: أما والله ما جئتكم لحبكم ولا لرغبة فيكم ولكن جئت لأسمع منكم، فسألهم وسألوه، فقالوا: من صاحب صاحبكم؟ فقال لهم: جبرائيل، فقالوا: ذاك عدونا من أهل السماء، يُطلع محمداً على سرنا، وإذا جاء جاء بالحرب والسنة^(٢)، ولكن صاحب صاحبنا ميكائيل إذا جاء جاء بالخصب والسلم، فقال لهم عمر: هل تعرفون جبرائيل وتنكرون محمداً ﷺ، ففارقهم عمر عند ذلك وتوجه نحو النبي ﷺ ليحدثه حديثهم فوجده قد أنزلت عليه هذه الآية: ﴿ قل من كان عدواً لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله ﴾ الآيات .

وقال ابن جرير عن ابن أبي ليلي في قوله تعالى: ﴿ من كان عدواً لجبريل ﴾ قال: قالت اليهود للمسلمين: لو أن (ميكائيل) كان هو الذي ينزل عليكم اتبعناكم فإنه ينزل بالرحمة والغيث، وإن (جبرائيل) ينزل بالعذاب والنقمة فإنه عدو لنا، قال: فترلت هذه الآية .

وأما تفسير الآية فقوله تعالى: ﴿ قل من كان عدواً لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله ﴾ أي من عادى جبرائيل فليعلم أنه الروح الأمين، الذي نزل بالذكر الحكيم على قلبك من الله بإذنه له في ذلك، فهو رسول من رسل الله ملكي، ومن عادى رسولاً فقد عادى جميع الرسل، كما أن من آمن برسول فإنه يلزمه الإيمان بجميع الرسل، وكذلك من عادى جبرائيل فإنه عدو لله لأن جبرائيل لا ينزل بالأمر من تلقاء نفسه وإنما ينزل بأمر ربه كما قال: ﴿ وما ننزل إلا بأمر ربك ﴾، وقال تعالى: ﴿ وإنه لتنزيل رب العالمين * نزل به الروح الأمين * على قلبك لتكون من المنذرين ﴾ .

وقد روى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: « من عادى لي ولياً فقد بارزني بالحرب » ولهذا غضب الله لجبرائيل على من عاداه، فقال تعالى: ﴿ من كان عدواً لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله مصداقاً لما بين يديه ﴾ أي من الكتب المتقدمة ﴿ وهدى وبشرى للمؤمنين ﴾ أي هدى لقلوبهم، وبشرى لهم بالجنة، وليس ذلك إلا للمؤمنين كما قال تعالى: ﴿ قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء ﴾، وقال تعالى: ﴿ وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ﴾، ثم قال تعالى: ﴿ من كان عدواً لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فإن الله عدو للكافرين ﴾. يقول تعالى: من عاداني وملائكتي ورسلي - ورسله تشمل رسله من الملائكة والبشر - كما قال تعالى: ﴿ الله يصطفي من الملائكة رسلاً ومن الناس ﴾، ﴿ وجبريل وميكال ﴾ وهذا من باب عطف الخاص على العام فإنهما دخلا في الملائكة في عموم الرسل، ثم خصصا بالذكر لأن السياق في الانتصار لجبرائيل، وهو السفير بين الله وأنبيائه، وقرن معه ميكائيل في اللفظ لأن اليهود زعموا أن جبرائيل عدوهم، وميكائيل وليهم، فأعلمهم الله تعالى أن من عادى واحداً منهما فقد عادى الآخر، وعادى الله أيضاً، ولأنه أيضاً ينزل على أنبياء

(١) ذكره ابن جرير في تفسيره بسنده إلى الشعبي . (٢) المراد بالسنة: القحط والجذب .

الله بعض الأحيان كما قرن برسول الله ﷺ في ابتداء الأمر، ولكن جبرائيل أكثر وهي وظيفته، وميكائيل موكل بالنبات والقطر. هذا بالهدى وهذا بالرزق، كما أن إسرافيل موكل بالنفخ في الصور للبعث يوم القيامة، ولهذا جاء في الصحيح أن رسول الله ﷺ كان إذا قام من الليل يقول: « اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم ». عن ابن عباس قال: إنما كان قوله جبرائيل كقوله عبد الله وعبد الرحمن، وقيل جبر: عبد، وإيل: الله. وقوله تعالى: ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ ﴾ فيه إيقاع المظهر مكان المضمحل حيث لم يقل (فإنه عدو) بل قال: ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ ﴾ كما قال الشاعر:

لا أرى الموت يسبق الموتَ شيءٌ سبق الموتُ ذا الغنى والفقير

وإنما أظهر الله هذا الاسم ههنا لتقرير هذا المعنى وإظهاره، وإعلامهم أن من عادى ولياً لله فقد عادى الله، ومن عادى الله فإن الله عدو له، ومن كان الله عدوه فقد خسر الدنيا والآخرة، كما تقدم الحديث: « من عادى لي ولياً فقد آذنته بالمحاربة^(١) »، وفي الحديث الصحيح: « من كنت خصمه خصمته ».

وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ ﴿٩٩﴾ أَوْ كَلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾ وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَانَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ ؕ وَمَا كَفَرُ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هِرُوتَ وَمَرْيُوتَ ؕ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ؕ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ ؕ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ وَلَبَسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّو كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾

قوله تعالى: ﴿ ولقد أنزلنا إليك آيات بينات ﴾ الآية. أي أنزلنا إليك يا محمد علامات واضحات، دالات على نبوتك، وتلك الآيات هي ما حواه كتاب الله من خفايا علوم اليهود، ومكنونات سرائر أخبارهم، وأخبار أوائلهم من بني إسرائيل، والنبأ عما تضمنته كتبهم التي لم يكن يعلمها إلا أخبارهم وعلمائهم، وما حرفه أوائلهم

(١) الرواية تقدمت بلفظ (فقد بارزني بالحرب) وذكر ابن كثير أنها رواية البخاري رضي الله عنه .

وأواخراهم وبدلوه من أحكامهم التي كانت في التوراة، فأطلع الله في كتابه الذي أنزله على نبيه محمد ﷺ، فكان في ذلك من أمره الآيات البيّنات لمن أنصف من نفسه، ولم يدعها إلى هلاكها الحسد والبغي. عن ابن عباس قال: قال ابن صوريا القطوني لرسول الله ﷺ: يا محمد ما جئتنا بشيء نعرفه، وما أنزل الله عليك من آية بينة فتتبعك، فأنزل الله في ذلك: ﴿ولقد أنزلنا إليك آيات بيّنات وما يكفر بها إلا الفاسقون﴾. وقال مالك بن الصيف حين بعث رسول الله ﷺ وذكّرهم ما أخذ عليهم من الميثاق، وما عهد إليهم في محمد ﷺ: والله ما عهد إلينا في محمد، وما أخذ علينا ميثاقاً، فأنزل الله تعالى: ﴿أو كلما عاهدوا عهداً نبذه فريق منهم﴾، وقال الحسن البصري في قوله: ﴿بل أكثرهم لا يؤمنون﴾ قال: نعم ليس في الأرض عهد يعاهدون عليه إلا نقضوه ونبذوه، يعاهدون اليوم وينقضون غداً، وقال السدي: لا يؤمنون بما جاء به محمد ﷺ، وقال قتادة: ﴿نبذه فريق منهم﴾ أي نقضه فريق منهم. وقال ابن جرير: أصل النبد الطرح والإلقاء، ومنه سمي اللقيط منبذاً، ومنه سمي النبيذ - وهو التمر والزبيب - إذا طرحا في الماء، قال أبو الأسود اللؤلؤي:

نظرتَ إلى عنوانه فنبذته كنبذك نعلًا أخلقتَ من نعالكا

قلت: فالقوم ذمهم الله بنبذهم العهود التي تقدم الله إليهم في التمسك بها والقيام بحقها، ولهذا أعقبهم ذلك التكذيب بالرسول المبعوث إليهم وإلى الناس كافة، الذي في كتبهم نعتة وصفته وأخباره، وقد أمروا فيها باتباعه ومؤازرته ونصرته كما قال تعالى: ﴿الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجلوونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل﴾، وقال ههنا: ﴿ولما جاءهم رسولٌ من عند الله مصدقٌ لما معهم﴾ الآية، أي طرح طائفة منهم كتاب الله الذي بأيديهم مما فيه البشارة بمحمد ﷺ وراء ظهورهم، أي تركوها كأنهم لا يعلمون ما فيها وأقبلوا على تعلم السحر واتباعه، ولهذا أرادوا كيداً برسول الله ﷺ وسحروه في مُشط ومُشاقة وجُفّ طلعة ذَكَرَ تحت راعوفة بيثر أروان، وكان الذي تولى ذلك منهم رجل يقال له (لييد بن الأعصم) لعنه الله وقبحه، فأطلع الله على ذلك رسوله ﷺ وشفاه منه وأنقذه، كما ثبت ذلك مبسوطاً في الصحيحين كما سيأتي بيانه.

قال السدي: ﴿ولما جاءهم رسولٌ من عند الله مصدقٌ لما معهم﴾ قال: لما جاءهم محمد ﷺ عارضوه بالتوراة فخاصموه بها، فاتفقت التوراة والقرآن فنبذوا التوراة، وأخلوا بكتاب آصف وسحر هاروت وماروت فلم يوافق القرآن، فذلك قوله: ﴿كأنهم لا يعلمون﴾. وقال قتادة في قوله: ﴿كأنهم لا يعلمون﴾ قال: إن القوم كانوا يعلمون ولكنهم نبذوا علمهم وكنموه وجحدوا به. عن ابن عباس قال: كان آصف كاتب سليمان وكان يعلم الاسم الأعظم، وكان يكتب كل شيء بأمر سليمان ويدفنه تحت كرسيه، فلما مات سليمان أخرجته الشياطين فكتبوا بين كل سطرين سحراً وكفراً، وقالوا هذا الذي كان سليمان يعمل بها. قال: فأكفره جهال الناس وسبوه، ووقف علماء الناس، فلم يزل جهال الناس يسبونه حتى أنزل الله على محمد ﷺ: ﴿واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا﴾. وقال السدي في قوله تعالى: ﴿واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان﴾ أي على عهد سليمان، قال: كانت الشياطين تصعد إلى السماء فتقع منها مقاعد للسمع، فيستمعون من كلام الملائكة ما يكون في الأرض من موت أو غيب أو أمر، فيأتون الكهنة فيخبرونهم فتحدث الكهنة الناس فيجلونه كما قالوا، فلما أمنتهم الكهنة كذبوا لهم وأدخلوا فيه غيره، فزادوا مع كل كلمة سبعين كلمة فاكتب الناس

ذلك الحديث في الكتب، وفشا ذلك في بني إسرائيل أن الجن تعلم الغيب، فبعث سليمان في الناس فجمع تلك الكتب فجعلها في صندوق ثم دفنها تحت كرسيه، ولم يكن أحد من الشياطين يستطيع أن يدنو من الكرسي إلا احترق، وقال: لا أسمع أحداً يذكر أن الشياطين يعلمون الغيب إلا ضربت عنقه، فلما مات سليمان وذهبت العلماء الذين كانوا يعرفون أمر سليمان، وخلف من بعد ذلك خلف، تمثل الشيطان في صورة إنسان، ثم أتى نفرًا من بني إسرائيل فقال لهم: هل أدلكم على كنز لا تأكلونه أبداً^(١)، قالوا: نعم، قال: فاحفروا تحت الكرسي، فذهب معهم وأراهم المكان وقام ناحيته، فحفروا فوجدوا تلك الكتب، فلما أخرجوها قال الشيطان: إن سليمان إنما كان يضبط الإنس والشياطين والطير بهذا السحر ثم ذهب، وفشا في الناس أن سليمان كان ساحراً، واتخذت بنو إسرائيل تلك الكتب، فلما جاء محمد ﷺ خاصموه بها فذلك حين يقول الله تعالى: ﴿وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا﴾. وقال سعيد بن جبير: كان سليمان يتتبع ما في أيدي الشياطين من السحر فيأخذهم منهم، فيدفنه تحت كرسيه في بيت خزائنه، فلم تقدر الشياطين أن يصلوا إليه فدنت إلى الإنس فقالوا لهم: أتدرون ما العلم الذي كان سليمان يسخر به الشياطين والرياح وغير ذلك؟ قالوا: نعم، قالوا: فإنه في بيت خزائنه وتحت كرسيه، فاستخرجوه وعملوا به، فأنزله الله تعالى على نبيه محمد ﷺ براءة سليمان عليه السلام، فقال تعالى: ﴿واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا﴾. لما ذكر رسول الله ﷺ فيما نزل عليه من الله (سليمان بن داود) وعده فيمن عد من المرسلين، قال من كان بالمدينة من اليهود: ألا تعجبون من محمد؟ يزعم أن ابن داود كان نبياً والله ما كان إلا ساحراً، وأنزل الله: ﴿وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا﴾ الآية.

وروي أنه لما مات سليمان عليه السلام قام إبليس - لعنه الله - خطيباً فقال: يا أيها الناس إن سليمان لم يكن نبياً إنما كان ساحراً فالتمسوا سحره في متاعه وبيوته، ثم دلم على المكان الذي دفن فيه، فقالوا: والله لقد كان سليمان ساحراً، هذا سحره بهذا تعبدنا وبهذا قهرنا، فقال المؤمنون: بل كان نبياً مؤمناً. فلما بعث الله النبي محمداً ﷺ وذكر داود وسليمان، فقالت اليهود: انظروا إلى محمد يخلط الحق بالباطل، يذكر سليمان مع الأنبياء إنما كان ساحراً يركب الريح، فأنزله الله تعالى: ﴿واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان﴾ الآية. فهذه نبذة من أقوال أئمة السلف في هذا المقام.

وقوله تعالى: ﴿واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان﴾ أي واتبع اليهود الذين أوتوا الكتاب من بعد إعراضهم عن كتاب الله الذي بأيديهم ومخالفتهم لرسول الله محمد ﷺ ما تتلوه الشياطين أي ما ترويه وتخبر به وتحده الشياطين على ملك سليمان، وعدها بعلى لأنه تضمن ﴿تتلوا﴾ تكذب، وقال ابن جرير: ﴿على﴾ ههنا بمعنى في، أي تتلو في ملك سليمان، ونقله عن ابن جريج وابن إسحاق (قلت) والتضمن أحسن وأولى، والله أعلم. وقول الحسن البصري رحمه الله: - وكان السحر قبل زمن سليمان - صحيح لا شك فيه، لأن السحرة كانوا في زمان موسى عليه السلام وسليمان بن داود بعده كما قال تعالى: ﴿لم تر إلى الملائكة من بني إسرائيل من بعد موسى﴾

(١) أي لا ينفد بالأكل منه.

(٢) رواه ابن جرير عن شهر بن حوشب.

الآية ثم ذكر القصة بعدها، وفيها: ﴿وقتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة﴾. وقال قوم صالح - وهم قبل إبراهيم الخليل عليه السلام - لنبيهم صالح إنما ﴿أنت من المسحّرين﴾ أي المسحورين على المشهور، وقوله تعالى: ﴿وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلمان من أحد حتى يقولوا إنما نحن فتنة فلا تكفر فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه﴾ اختلف الناس في هذا المقام، فذهب بعضهم إلى أن «ما» نافية أعني التي في قوله: ﴿وما أنزل على الملكين﴾. قال القرطبي: «ما» نافية ومعطوف على قوله ﴿وما كفر سليمان﴾، ثم قال ﴿ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين﴾، وذلك أن اليهود كانوا يزعمون أنه نزل به جبريل وميكائيل فأكذبهم الله وجعل قوله ﴿هاروت وماروت﴾ بدلاً من الشياطين، قال: وصح ذلك إما لأن الجمع يطلق على الاثنين كما في قوله تعالى: ﴿فإن كان له إخوة﴾ أو لكونهما لهما أتباع، أو ذكرا من بينهما لتمردهما. تقدير الكلام عنده: يعلمون الناس السحر ببابل هاروت وماروت، ثم قال: وهذا أولى ما حملت عليه الآية وأصح ولا يلتفت إلى ما سواه، وروى ابن جرير بإسناده من طريق العوفي عن ابن عباس في قوله: ﴿وما أنزل على الملكين ببابل﴾ الآية. يقول: لم ينزل الله السحر، وإسناده عن الربيع بن أنس في قوله ﴿وما أنزل على الملكين﴾ قال: ما أنزل الله عليهما السحر. قال ابن جرير: فتأويل الآية على هذا «اتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان» من السحر وما كفر سليمان ولا أنزل الله السحر على الملكين ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر ببابل هاروت وماروت. فيكون قوله ﴿ببابل هاروت وماروت﴾ من المؤخر الذي معناه المقدم. قال: فإن قال لنا قائل: كيف وجه تقديم ذلك؟ قيل: وجه تقديمه أن يقال: «اتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان من السحر وما كفر سليمان وما أنزل الله السحر على الملكين ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر ببابل هاروت وماروت» فيكون معنياً بالملكين جبريل وميكائيل عليهما السلام، لأن سحرة اليهود فيما ذكرت كانت تزعم أن الله أنزل السحر على لسان جبريل وميكائيل إلى سليمان بن داود، فأكذبهم الله بذلك وأخبر نبيه محمداً ﷺ أن جبريل وميكائيل لم ينزلا بسحر، وبرأ سليمان عليه السلام مما نحلوه من السحر، وأخبرهم أن السحر من عمل الشياطين، وأنها تعلم الناس ذلك ببابل، وأن الذين يعلمونهم ذلك رجلان اسم أحدهما (هاروت) واسم الآخر (ماروت) فيكون هاروت وماروت على هذا التأويل ترجمة عن الناس ورداً عليهم. ثم شرع ابن جرير في رد هذا القول وان (ما) بمعنى الذي، وأطال القول في ذلك، وادعى أن هاروت وماروت ملكان أنزلهما الله إلى الأرض وأذن لهما في تعليم السحر اختصاراً لعباده وامتحاناً بعد أن بين لعباده أن ذلك مما ينهى عنه على السنة الرسل، وادعى أن هاروت وماروت مطيعان في تعليم ذلك لأنهما امتثلا ما أمرا به، وهذا الذي سلكه غريب جداً، وأغرب منه قول من زعم أن ﴿هاروت وماروت﴾ قبيلان من الجن كما زعمه ابن حزم.

وقد روي في قصة (هاروت) و (ماروت) عن جماعة من التابعين كمجاهد، والسدي، والحسن البصري، وقتادة، وأبي العالية، والزهرى، والربيع بن أنس، ومقاتل بن حيان، وغيرهم وقصّها خلق من المفسرين من المتقدمين والمتأخرين، وحاصلها راجع في تفصيلها إلى أخبار بني إسرائيل إذ ليس فيها حديث مرفوع صحيح متصل الإسناد إلى الصادق المصنوع المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى، وظاهر سياق القرآن إجمال القصة من غير بسط ولا إطّباب، فنحن نؤمن بما ورد في القرآن على ما أراده الله تعالى، والله أعلم بحقيقة الحال

وقوله تعالى: ﴿وما يعلمان من أحد حتى يقولاً إنما نحن فتنة فلا تكفر﴾، عن الحسن البصري أنه قال في تفسير هذه الآية: نعم أنزل الملك بالسكر ليعلم الناس البلاء الذي أراد الله أن يبتي به الناس، فأخذ عليهم الميثاق أن لا يعلموا أحداً حتى يقولوا إنما نحن فتنة فلا تكفر. وقال قتادة: كان أخذ عليهما أن لا يعلموا أحداً حتى يقولوا إنما نحن فتنة: أي بلاء ابتلينا به فلا تكفر. وقال ابن جريج في هذه الآية: لا يجترئ على السحر إلا كافر. وأما الفتنة فهي المحنة والاختبار، ومنه قول الشاعر:

وقد فتن الناس في دينهم وخلى ابن عفان شراً طويلاً

وكذلك قوله تعالى إخباراً عن موسى عليه السلام حيث قال: ﴿إن هي إلا فتنتك﴾ أي ابتلاؤك واختبارك وامتحانك، وقد استدل بعضهم بهذه الآية على تكفير من تعلم السحر واستشهد له بالحديث الصحيح: «من أتى كاهناً أو ساحراً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ^(١)»، وقوله تعالى: ﴿فيتعلمون منها ما يفرقون به بين المرء وزوجه﴾ أي فيتعلم الناس من هاروت وماروت من علم السحر، ما يتصرفون به فيما يتصرفون من الأفاعيل المذمومة، ما إنهم ليفرقون به بين الزوجين مع ما بينهما من الخلطة والائتلاف، وهذا من صنيع الشياطين كما رواه مسلم في صحيحه عن النبي ﷺ قال: «إن الشيطان ليضع عرشه على الماء ثم يبعث سراياه في الناس فأقربهم عنده منزلة أعظمهم عنده فتنة، يجيء أحدهم فيقول: ما زلت بفلان حتى تركته وهو يقول كذا وكذا، فيقول إبليس: لا والله ما صنعت شيئاً! ويجيء أحدهم فيقول: ما تركته حتى فرقت بينه وبين أهله، قال: فيقربه ويدنيه ويلتزمه ويقول: نعم أنت^(٢)». وسبب التفريق بين الزوجين بالسكر ما ينجل إلى الرجل أو المرأة من الآخر من سوء منظر أو خلق أو نحو ذلك من الأسباب المقتضية للفرقة.

وقوله تعالى: ﴿وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله﴾ قال سفيان الثوري: إلا بقضاء الله، وقال الحسن البصري: من شاء الله سلطهم عليه ومن لم يشأ الله لم يسلط، ولا يستطيعون من أحد إلا بإذن الله. وقوله تعالى: ﴿ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم﴾ أي يضرهم في دينهم وليس له نفع يوازي ضرره ﴿ولقد علموا لمن اشتراه ماله في الآخرة من خلاق﴾ أي ولقد علم اليهود الذين استبدلوا بالسكر عن متابعة الرسول ﷺ لمن فعل فعلهم ذلك، أنه ماله في الآخرة من خلاق، قال ابن عباس: من نصيب، ﴿ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون﴾ يقول تعالى ﴿ولبئس﴾ البديل ما استبدلوا به من السحر عوضاً عن الإيمان ومتابعة الرسول، لو كان لهم علم بما وعظوا به ﴿ولو أنهم آمنوا واتقوا لمثوبة من عند الله خير﴾ أي ولو أنهم آمنوا بالله ورسله واتقوا المحارم، لكان مثوبة الله على ذلك خيراً لهم مما استخاروا لأنفسهم ورضوا به كما قال تعالى: ﴿وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً ولا يلقاها إلا الصابرون﴾.

وقد استدل بقوله: ﴿ولو أنهم آمنوا واتقوا﴾ من ذهب إلى تكفير الساحر، كما هو رواية عن الإمام أحمد ابن حنبل وطائفة من السلف، وقيل: بل لا يكفر ولكن حده ضرب عنقه، لما رواه الشافعي وأحمد بن حنبل عن

(١) رواه البزار بسند صحيح.

(٢) رواه مسلم عن جابر بن عبد الله.

عمرو بن دينار أنه سمع بحالة بن عبدة يقول: كتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن اقتلوا كل ساحر وساحرة، قال: فقتلنا ثلاث سواحر^(١). وصح أن حفصة أم المؤمنين سحرتها جارية لها فأمرت بها فقتلت، قال الإمام أحمد ابن حنبل: صح عن ثلاثة من أصحاب النبي ﷺ في قتل الساحر، وروى الترمذي عن جندب الأزدي أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «حد الساحر ضربه بالسيف»^(٢). وقد روي من طرق متعددة أن الوليد بن عُقبه كان عنده ساحر يلعب بين يديه، فكان يضرب رأس الرجل ثم يصيح به فيرد إليه رأسه، فقال الناس: سبحان الله يحيي الموتى!! ورآه رجل من صالحى المهاجرين، فلما كان الغد جاء مشتملاً على سيفه، وذهب يلعب لعه ذلك فاخترط الرجل سيفه فضرب عنق الساحر، وقال: إن كان صادقاً فليحي نفسه، وتلا قوله تعالى: ﴿أتأتون السحر وأنتم تبصرون﴾ فغضب الوليد إذ لم يستأذنه في ذلك فسجنه ثم أطلقه، والله أعلم. وحمل الشافعي رحمه الله قصة عمر وحفصة على سحر يكون شركاً، والله أعلم.

فصل

حكى الرازي في تفسيره عن المعتزلة أنهم أنكروا وجود السحر، قال: وربما كفروا من اعتقد وجوده، وأما أهل السنة فقد جوزوا أن يقدر الساحر أن يطير في الهواء، ويقلب الإنسان حماراً والحمار إنساناً، إلا أنهم قالوا: إن الله يخلق الأشياء عندما يقول الساحر تلك الرقى والكلمات المعينة، فأما أن يكون المؤثر في ذلك هو الفلك والنجوم فلا، خلافاً للفلاسفة والمنجمين والصابئة، ثم استدل على وقوع السحر، وأنه يخلق الله تعالى بقوله تعالى: ﴿وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله﴾. ومن الأخبار بأن رسول الله ﷺ سحر وأن السحر عمل فيه، وبقصه المرأة مع عائشة رضي الله عنها، وما ذكرت من إتيانها بابل وتعلمها السحر.

ثم قد ذكر أبو عبدالله الرازي أن أنواع السحر ثمانية (الأول): سحر الكذابين والكشدين الذين كانوا يعبدون الكواكب السبعة المتحيرة وهي السيارة وكانوا يعتقدون أنها مدبرة العالم وأنها تأتي بالخير والشر وهم الذين بعث الله إليهم إبراهيم الخليل ﷺ مبطلاً لمقاتلهم وراداً لمذهبهم.

(والنوع الثاني): سحر أصحاب الأوهام والنفوس القوية، ثم استدل على أن الوهم له تأثير بأن الإنسان يمكنه أن يمشي على الجسر الموضوع على وجه الأرض، ولا يمكنه المشي عليه إذا كان ممدوداً على نهر أو نحوه، وما ذلك إلا لأن النفوس خلقت مطيعة للأوهام، وقد اتفق العقلاء على أن الإصابة بالعين حق لما ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «العين حق ولو كان شيء سابق القدر لسبقته العين».

(والنوع الثالث) من السحر: الاستعانة بالأرواح الأرضية وهم الجن خلافاً للفلاسفة والمعتزلة وهم على قسمين: مؤمنون، وكفار وهم الشياطين، قال: واتصال النفوس الناطقة بها أسهل من اتصالها بالأرواح السماوية لما بينهما من المناسبة والقرب، ثم إن أصحاب الصنعة وأرباب التجربة شاهدوا أن الاتصال بهذه الأرواح الأرضية يحصل بأعمال سهلة قليلة من الرقى والدخن والتجريد، وهذا النوع هو المسمى بالغازم وعمل التسخير.

(١) رواه البخاري من صحيحه. (٢) رواه الترمذي عن جندب الأزدي مرفوعاً وقال: لا نعرفه مرفوعاً إلا من هذا الوجه.

(النوع الرابع) من السحر : التخيلات ، والأخذ بالعيون ، والشعبذة ، ومبناه على أن البصر قد يخطئ ويشغل بالشيء المعين دون غيره ، ألا ترى ذا الشعبذة الحاذق يظهر عمل شيء يذهل أذهان الناظرين به ويأخذ عيونهم إليه ، حتى إذا استفرغهم الشغل بذلك الشيء بالتحديق ونحوه ، عمل شيئاً آخر عملاً بسرعة شديدة ، وحينئذ يظهر لهم شيء آخر غير ما انتظروه ، فيتعجبون منه جداً ، ولو أنه سكت ولم يتكلم بما يصرف الخواطر إلى ضد ما يريد أن يعمل ، ولم تتحرك النفوس والأوهام إلى غير ما يريد إخراجها ، لفظن الناظرون لكل ما يفعله .

(قلت) وقد قال بعض المفسرين : إن سحر السحرة بين يدي فرعون إنما كان من باب الشعبذة ولهذا قال تعالى : ﴿ فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاؤا بسحر عظيم ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ يُحِيلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنْهَا تَسْعَى ﴾ قالوا : ولم تكن تسعى في نفس الأمر ، والله أعلم .

(النوع الخامس) من السحر : الأعمال العجيبة التي تظهر من تركيب آلات مركبة على النسب الهندسية ، كفارسٍ على فرس في يده بوق ، كلما مضت ساعة من النهار ضرب بالبوق من غير أن يمسه أحد ، ومنها الصور التي تصورها الروم والهند حتى لا يفرق الناظر بينها وبين الإنسان حتى يصورونها ضاحكة وباكية إلى أن قال : فهذه الوجوه من لطيف أمور التخاييل ، قال : وكان سحر سحرة فرعون من هذا القبيل ، (قلت) يعني ما قاله بعض المفسرين : إنهم عمدوا إلى تلك الحبال والعصي فحشوها زئبقاً فصارت تتلوى بسبب ما فيها من ذلك الزئبق فيحيل إلى الرائي أنها تسعى باختيارها ، ومن هذا القبيل حيل النصارى على عامتهم بما يرونهم إياه من الأنوار ، كقضية قمامة الكنيسة التي لم يبلد المقدس ، وما يحتالون به من إدخال النار خفية إلى الكنيسة ، وإشعال ذلك القنديل بصنعة لطيفة تروج على الطغام منهم ، وأما الخواص فهم معترفون بذلك ولكن يتأولون أنهم يجمعون شمل أصحابهم على دينهم فيرون ذلك سائغاً لهم .

(النوع السادس) من السحر : الاستعانة بخواص الأدوية في الأطعمة والدهانات ، قال : واعلم أنه لا سبيل إلى إنكار الخواص ، فإن تأثير المغناطيس مشاهد . (قلت) يدخل في هذا القبيل كثير ممن يدعي الفقر ويتحيل على جهلة الناس بهذه الخواص ، مدعياً أنها أحوال له من مخالطة النيران ومسك الحيات إلى غير ذلك من المحالات .

(النوع السابع) من السحر : التعليق للقلب ، وهو أن يدعي الساحر أنه عرف الاسم الأعظم ، وأن الجن يطيعونه وينقادون له في أكثر الأمور ، فإذا اتفق أن يكون السامع لذلك ضعيف العقل قليل التمييز اعتقد أنه حق وتعلق قلبه بذلك ، وحصل في نفسه نوع من الرعب والمخالفة ، فإذا حصل الخوف ضعفت القوى الحساسة ، فحينئذ يتمكن الساحر أن يفعل ما يشاء . (قلت) : هذا النمط يقال له التنبؤة وإنما يروج على ضعفاء العقول من بني آدم ، وفي علم الفراسة ما يرشد إلى معرفة كامل العقل من ناقصه ، فإذا كان النبيل حاذقاً في علم الفراسة عرف من ينقاد له من الناس من غيره .

(النوع الثامن) من السحر : السعي بالنميمة من وجوه خفيفة لطيفة وذلك شائع في الناس . (قلت) :

النميمة على قسمين: تارة تكون على وجه التحريش بين الناس وتفريق قلوب المؤمنين فهذا حرام متفق عليه، فأما إن كانت على وجه الإصلاح بين الناس واثتلاف كلمة المسلمين، أو على وجه التخذيل والتفريق بين جموع الكفرة؛ فهذا أمر مطلوب كما جاء في الحديث: «الحرب خدعة»، وإنما يحذو على مثل هذا الذكاء ذو البصيرة النافذة والله المستعان.

ثم قال الرازي فهذه جملة الكلام في أقسام السحر وشرح أنواعه وأصنافه، (قلت): وإنما أدخل كثيراً من هذه الأنواع المذكورة في فن السحر للطاقة مداركها لأن السحر في اللغة عبارة عما لطف وخفي سببه، ولهذا جاء في الحديث: «إن من البيان لسحراً»، وسمي السحور لكونه يقع خفياً آخر الليل، والسحر: الرثة، وسميت بذلك لخفائها ولطف مجاريها إلى أجزاء البدن كما قال أبو جهل يوم بدر لعتبة: انتفخ سحره، أي انتفخت رثته من الخوف، وقالت عائشة رضي الله عنها: توفي رسول الله ﷺ بين سحري ونحري.

وقال القرطبي: وعندنا أن السحر حق، وله حقيقة، يخلق الله عنده ما يشاء، خلافاً للمعتزلة وأبي إسحاق الاسفرائيني من الشافعية حيث قالوا: إنه تمويه وتخيل، قال: ومن السحر ما يكون بخفة اليد كالشعوذة، ومنه ما يكون كلاماً يحفظ ورقى من أسماء الله تعالى، وقد يكون من عهود الشياطين، ويكون أدوية وأدخنة وغير ذلك، قال: وقوله عليه السلام: «إن من البيان لسحراً» يحتمل أن يكون مدحاً كما تقوله طائفة، ويحتمل أن يكون ذمماً للبلاغة، قال: وهذا أصح، قال: لأنها تصوب الباطل حتى توهم السامع أنه حق، كما قال عليه الصلاة والسلام: «فلعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضي له» الحديث.

فصل

واختلفوا فيمن يتعلم السحر ويستعمله، فقال أبو حنيفة ومالك وأحمد: يكفر بذلك، ومن أصحاب أبي حنيفة من قال إن تعلمه ليتقيه أو ليجتنبه فلا يكفر، ومن تعلمه معتقداً جوازه أو أنه ينفعه كفر، وكذا من اعتقد أن الشياطين تفعل له ما يشاء فهو كافر، وقال الشافعي رحمه الله: إذا تعلم السحر قلنا له: صف لنا سحرك، فإن وصف ما يوجب الكفر مثل ما اعتقده أهل بابل من التقرب إلى الكواكب السبعة وأنها تفعل ما يلتمس منها فهو كافر، وإن كان لا يوجب الكفر فإن اعتقد إباحته فهو كافر. فأما إن قتل بسحره إنساناً فإنه يقتل عند مالك والشافعي وأحمد) وقال أبو حنيفة: لا يقتل حتى يتكرر منه ذلك أو يقر بذلك في حق شخص معين، وإذا قتل فإنه يقتل حداً عندهم إلا الشافعي فإنه قال: يقتل والحالة هذه قصاصاً، قال: وهل إذا تاب الساحر تقبل توبته؟ فقال مالك وأبو حنيفة وأحمد في المشهور عنهم: لا تقبل، وقال الشافعي وأحمد في الرواية الأخرى تقبل، وأما ساحر أهل الكتاب فعند أبي حنيفة أنه يقتل كما يقتل الساحر المسلم، وقال مالك وأحمد والشافعي: لا يقتل لقصة (ليبد بن الأعصم)، واختلفوا في المسلمة الساحرة، فعند أبي حنيفة أنها لا تقتل ولكن تجلس، وقال الثلاثة حكمها حكم الرجل والله أعلم.

مسألة

وهل يسأل الساحر حلاً لسحره؟ فأجازه سعيد بن المسيب فيما نقله عنه البخاري، وقال الشعبي: لا بأس بالنشرة، وكره ذلك الحسن البصري، وفي الصحيح عن عائشة أنها قالت: يا رسول الله هلا تنشرت، فقال: «أما الله فقد شفاني وخشيت أن أفتح على الناس شراً». وحكى القرطبي عن وهب: أنه قال يؤخذ سبع ورقات من سدر، فتدق بين حجرين ثم تضرب بالماء، ويقرأ عليها آية الكرسي ويشرب منها المسحور ثلاث حسوات، ثم يغتسل بياقيه فإنه يذهب ما به، وهو جيد للرجل الذي يؤخذ عن امرأته. (قلت): أنفع ما يستعمل لإذهاب السحر ما أنزل الله على رسوله في إذهاب ذلك وهما المعوذتان، وفي الحديث: «لم يتعوذ المتعوذ بمثلهما» وكذلك قراءة آية الكرسي فإنها مطردة للشيطان:

يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ مَا يُوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾

نهى الله تعالى عباده المؤمنين أن يتشبهوا بالكافرين في مقالهم وفعالهم، وذلك أن اليهود كانوا يعانون من الكلام ما فيه تورية لما يقصدونه من التنقيص - عليهم لعائن الله - فإذا أرادوا أن يقولوا: اسمع لنا، يقولوا (راعنا) ويورون بالرعونة، كما قال تعالى: ﴿من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه ويقولون سمعنا وعصينا وسمع غير مسمع وراعنا. لياً بألسنتهم وطعناً في الدين﴾. وكذلك جاءت الأحاديث بالإخبار عنهم بأنهم كانوا إذا سلموا إنما يقولون (السام عليكم)، والسام هو الموت، ولهذا أمرنا أن نرد عليهم بـ (وعليكم)، والغرض أن الله تعالى نهى المؤمنين عن مشابهة الكافرين قولاً وفعلاً، فقال: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا وقولوا انظُرنا واسمعوا وللكافرين عذاب أليم﴾. وقال ﷺ: «من تشبه بقوم فهو منهم^(١)»، ففيه دلالة على النهي الشديد والتهديد والوعيد على التشبه بالكفار، في أقوالهم وأفعالهم ولباسهم وأعيادهم وعباداتهم وغير ذلك من أمورهم التي لم تشرع لنا ولا نقر عليها. وروي أن رجلاً أتى عبد الله بن مسعود فقال: اعهد إلي، فقال: إذا سمعت الله يقول: ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ فأرעה سمعك فإنه خيرٌ يأمر به، أو شر ينهى عنه، وقال الأعمش عن خيشمة ما تقرأون في القرآن: ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ فإنه في التوراة: (يا أيها المساكين). قال ابن عباس: (راعنا) أي أرعنا سمعك، وقال الضحاك: كانوا يقولون للنبي ﷺ: أرعنا سمعك، قال عطاء: كانت لغة تقولها الأنصار فهي الله عنها، وقال أبو صخر: كان رسول الله ﷺ، إذا أدير ناداه من كانت له حاجة من المؤمنين فيقول: أرعنا سمعك، فأعظم الله رسوله ﷺ أن يقال ذلك له. وقال السدي: كان رجل من اليهود من بني قينقاع يدعى (رفاعة بن زيد) يأتي النبي ﷺ فإذا لقيه فكلمه

(١) أخرجه أحمد وأبو داود عن ابن عمر رضي الله عنهما.

قال: أرعني سمعك، واسمع غير مسمع، وكان المسلمون يحسبون أن الأنبياء كانت تُفَعَّم بهذا، فكان ناس منهم يقولون: اسمع غير مسمع، فبهوا أن يقولوا راعنا، قال ابن جرير: والصواب من القول في ذلك عندنا: أن الله نهى المؤمنين أن يقولوا لنبية ﷺ راعنا، لأنها كلمة كرهها الله تعالى أن يقولها لنبية ﷺ. وقوله تعالى: ﴿ ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم ﴾ يبين بذلك تعالى شدة عداوة الكافرين من أهل الكتاب والمشركين، الذين حذّر الله تعالى من مشابهتهم للمؤمنين ليقطع المودة بينهم وبينهم، ونبه تعالى على ما أنعم به على المؤمنين، من الشرع التام الكامل، الذي شرعه لئيبهم محمد ﷺ حيث يقول تعالى: ﴿ والله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم ﴾ .

* مَا نَسَخَ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِمَّا أَوْمِئَتْهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾

قال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿ ما ننسخ من آية ﴾ ما نبدل من آية، وقال مجاهد: ﴿ ما ننسخ من آية ﴾ أي ما نحمو من آية، مثل قوله: « الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة »، وقوله: « لو كان لابن آدم واديان من ذهب لابتغى لهما ثالثاً »، وقال ابن جرير: ﴿ ما ننسخ من آية ﴾ ما ننقل من حكم آية إلى غيره فنبدله ونغيره، وذلك أن نحول الحلال حراماً، والحرام حلالاً، والمباح محظوراً، والمحظور مباحاً، ولا يكون ذلك إلا في (الأمر والنهي والحظر والاطلاق والمنع والاباحة) فأما الأخبار فلا يكون فيها ناسخ ولا منسوخ. وأصل النسخ: من نسخ الكتاب وهو نقله من نسخة أخرى إلى غيرها، فكذلك معنى نسخ الحكم إلى غيره، إنما هو تحويله ونقل عبارة إلى غيرها، وسواء نسخ حكمها أو خطها إذ هي في كلتا حالتها منسوخة، وأما علماء الأصول فاختلقت عباراتهم في حد النسخ، والأمر في ذلك قريب. لأن معنى النسخ الشرعي معلوم عند العلماء، ولحظ بعضهم أنه: رفع الحكم بدليل شرعي متأخر، فاندرج في ذلك نسخ الأخف بالأثقل وعكسه والنسخ لا إلى بدل. وأما تفاصيل أحكام النسخ وذكر أنواعه وشروطه فبسوطة في أصول الفقه. وقال الطبراني: قرأ رجلان سورة أقرأهما رسول الله ﷺ فكانا يقرآن بها، فقاما ذات ليلة يصليان فلم يقدرأ منها على حرف، فأصبحا غاديين على رسول الله ﷺ، فذكرا ذلك له، فقال رسول الله ﷺ: « إنها مما نسخ وأنسي فاهلوا عنها^(١) »، فكان الزهري يقرؤها: ﴿ ما ننسخ من آية أو ننسها ﴾ بضم النون الخفيفة. وقوله تعالى ﴿ أو ننسها ﴾ فقرأ على وجهين: ﴿ ننسأها ﴾، ﴿ وننسها ﴾، فأما من قرأها بفتح النون والهمزة بعد السين فعنناه تؤخرها. قال مجاهد عن أصحاب ابن مسعود ﴿ أو ننسأها ﴾ ثبت خطها ونبدل حكمها، وقال مجاهد وعطاء: ﴿ أو ننسأها ﴾ تؤخرها ونرجئها. عن ابن عباس قال: خطبنا عمر رضي الله عنه فقال: يقول الله عز وجل: ﴿ ما ننسخ من آية أو ننسأها ﴾ أي تؤخرها^(٢)، وأما على قراءة ﴿ أو ننسها ﴾ فقال قتادة: كان الله عز وجل ينسي نبيه ﷺ ما يشاء، وينسخ ما يشاء .

(١) رواه الطبراني وفي سنده سليمان بن الأرقم ضعيف .

(٢) ذكره ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبيرة عن ابن عباس .

وقال ابن جرير عن الحسن في قوله: ﴿أو نسها﴾ قال: إن نبيكم ﷺ قرأ قرآناً ثم نسيه، وعن ابن عباس: قال: «كان مما ينزل على النبي ﷺ الوحي بالليل وينساه بالنهار»^(١) وقال عمر: أقرؤنا أبي، وأقضانا علي، وإنا لندع من قول أبي، وذلك أن أياً يقول: لا أدع شيئاً سمعته من رسول الله ﷺ. وقد قال الله: ﴿ما ننسخ من آية أو نسها﴾^(٢). وقوله: ﴿نأت بغير منها أو مثلها﴾ أي في الحكم بالنسبة إلى مصلحة المكلفين، كما قال ابن عباس: خير لكم في المنفعة وأرفق بكم. وقال السدي: ﴿نأت بغير منها أو مثلها﴾ نأت بغير من الذي نسخناه أو مثل الذي تركناه.

وقوله: ﴿ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير﴾ ألم تعلم أن الله له ملك السماوات والأرض وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير ﴿يرشد عباده تعالى بهذا إلى أنه المتصرف في خلقه بما يشاء، فله الخلق والأمر، وهو المتصرف فكما خلقهم كما يشاء، ويسعد من يشاء ويشقى من يشاء، ويوفق من يشاء ويخذل من يشاء، كذلك يحكم في عباده بما يشاء فيحل ما يشاء ويحرم ما يشاء، ويبيح ما يشاء ويحظر ما يشاء، وهو الذي يحكم ما يريد لا معقب لحكمه، ﴿لا يسأل عما يفعل وهم يسألون﴾ ويختير عباده بالنسخ فيأمر بالشيء لما فيه من المصلحة التي يعلمها تعالى، ثم ينهى عنه لما يعلمه تعالى، فالطاعة كل الطاعة في امتثال أمره واتباع رسله في تصديق ما أخبروا، وامثال ما أمروا، وترك ما عنه زجروا، وفي هذا المقام رد عظيم وبيان بليغ لكفر اليهود وتزييف شبهتهم لعنهم الله في دعوى إستحالة النسخ إما عقلاً كما زعمه بعضهم جهلاً وكفراً، وإما نقلاً كما منحصره آخرون منهم افتراء وإفكاً، قال الإمام أبو جعفر بن جرير رحمه الله: فتأويل الآية: ألم تعلم يا محمد أن لي ملك السماوات والأرض وسلطانهما دون غيري أحكم فيهما وفيما فيهما بما أشاء، وأمر فيهما وفيما فيهما بما أشاء، وأنهى عما أشاء وأنسخ وأبدل وأغير من أحكامي التي أحكم بها في عبادي بما أشاء إذ أشاء، وأقر فيهما ما أشاء، ثم قال: وهذا الخبر وإن كان خطاباً من الله تعالى لنبيه ﷺ على وجه الخبر عن عظمته، فإنه منه جل ثناؤه تكذيب لليهود، الذين أنكروا نسخ أحكام التوراة، وجحدوا نبوة عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام، لمحيتهما بما جاء به من عند الله بتغيير ما غير الله من حكم التوراة، فأخبرهم الله أن له ملك السماوات وسلطانهما، وأن الخلق أهل مملكته وطاقته، وعليهم السمع والطاعة لأمره ونهيه، وأن له أمرهم بما يشاء ونهيمهم عما يشاء، ونسخ ما يشاء وإقرار ما يشاء، وإنشاء ما يشاء من إقراره وأمره ونهيه.

(قلت): الذي يحمل اليهود على البحث في مسألة النسخ إنما هو الكفر والعناد، فإنه ليس في العقل ما يدل على امتناع النسخ في أحكام الله تعالى، لأنه يحكم ما يشاء كما أنه يفعل ما يريد، مع أنه قد وقع ذلك في كتبه المتقدمة وشرائعه الماضية، كما أحل لآدم تزويج بناته من بنيه ثم حرم ذلك، وكما أباح لنوح بعد خروجه من السفينة أكل جميع الحيوانات ثم نسخ حل بعضها، وكان نكاح الأختين مباحاً لإسرائيل وبنيه وقد حرم ذلك في شريعة التوراة وما بعدها، وأمر إبراهيم عليه السلام بذبح ولده ثم نسخه قبل الفعل، وأشياء كثيرة يطول ذكرها وهم يعترفون بذلك ويصدفون عنه. ففي هذا المقام بين تعالى جواز النسخ رداً على اليهود لعنة الله حيث قال تعالى: ﴿ألم

(١) أخرجه ابن أبي حاتم عن عكرمة عن ابن عباس . (٢) أخرجه البخاري بسنده إلى عمر رضي الله عنه .

تعلم أن الله على كل شيء قدير * ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض ﴿ الآية . فكما أن له الملك بلا منازع فكذلك له الحكم بما يشاء ﴿ ألا له الخلق والأمر ﴿ .

والمسلمون كلهم متفقون على جواز النسخ في أحكام الله تعالى، لما له في ذلك من الحكمة البالغة وكلهم قال بوقوعه، وقال أبو مسلم الأصبهاني المفسر: لم يقع شيء من ذلك في القرآن، وقوله ضعيف مردود مردول، وقد تعسف في الأجوبة عما وقع من النسخ، فن ذلك قضية العدة بأربعة أشهر وعشر بعد الحول، لم يجب عن ذلك بكلام مقبول، وقضية تحويل القبلة إلى الكعبة عن بيت المقدس لم يجب بشيء، ومن ذلك نسخ مصابرة المسلم لعشرة من الكفرة إلى مصابرة الاثنين، ومن ذلك نسخ وجوب الصدقة قبل مناجاة الرسول ﷺ وغير ذلك^(١)، والله أعلم .

أَمْ تَرِيدُونَ أَنْ نَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلٍ وَمَنْ يَتَّبِعِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾

نهى الله تعالى المؤمنين في هذه الآية الكريمة عن كثرة سؤال النبي ﷺ عن الأشياء قبل كونها كما قال تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسوءكم وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم أي وإن تسألوا عن تفصيلها بعد نزولها تبين لكم، ولا تسألوا عن الشيء قبل كونه فلهذا أن يحرم من أجل تلك المسألة، ولهذا جاء في الصحيح: « إن أعظم المسلمين جرماً من سأل عن شيء لم يحرم فحرم من أجل مسألته » . وثبت في الصحيحين من حديث المغيرة ابن شعبة أن رسول الله ﷺ: كان ينهى عن قيل وقال، وإضاعة المال، وكثرة السؤال. وفي صحيح مسلم: « ذروني ما تركتكم فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم. فإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم، وإن نهيتكم عن شيء فاجتنبوه » . وهذا إنما قاله بعد ما أخبرهم أن الله كتب عليهم الحج فقال رجل: أكل عام يا رسول الله؟ فسكت عنه رسول الله ﷺ ثلاثاً، ثم قال عليه السلام: « لا، ولو قلت نعم لوجبت، ولو وجبت لما استطعتم »، ثم قال: « ذروني ما تركتكم » الحديث. ولهذا قال أنس بن مالك: نهينا أن نسأل رسول الله ﷺ عن شيء، فكان يعجبنا أن يأتي الرجل من أهل البادية فيسأله ونحن نسمع. وعن ابن عباس قال: ما رأيت قوماً خيراً من أصحاب محمد ﷺ، ما سألوه إلا عن اثني عشرة مسألة كلها في القرآن ﴿ يسألونك عن الخمر والميسر - و - يسألونك عن الشهر الحرام - ويسألونك عن اليتامى ﴾^(٢) يعني هذا وأشباهه .

وقوله تعالى: ﴿ أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل ﴾ أي بل تريدون أو هي على بابها في الاستفهام وهو (إنكارى) وهو يعم المؤمنين والكافرين، كما قال تعالى: ﴿ يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء ﴾ . عن ابن عباس قال: قال رافع بن حرملة ووهب بن زيد: يا محمد اثنتا بكتاب تنزله علينا من السماء نقرؤه، وفجر لنا أنهاراً تنبعك ونصدقك، فأنزل الله من قولهم: ﴿ أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل؟ ومن يتبدل الكفر بالإيمان فقد ضل سواء السبيل ﴾^(٣) .

(١) انظر بحث النسخ وحكمته في تفسيرنا (روائع البيان) ، الجزء الأول ، ص ١٠٩ .

(٢) رواه البزار عن سعيد بن جبير عن ابن عباس .

(٣) أخرجه محمد بن إسحاق عن عكرمة عن ابن عباس .

وقال مجاهد: سألت قريش محمداً ﷺ أن يجعل لهم الصفا ذهباً، قال: «نعم وهو لكم كالمائدة لبني إسرائيل» فأبوا ورجعوا، والمراد أن الله ذم من سأل الرسول ﷺ عن شيء على وجه التعنت والاقتراح كما سألت بنو إسرائيل موسى عليه السلام تعنتاً وتكديباً وعناداً. قال الله تعالى: ﴿ومن يتبدل الكفر بالإيمان﴾ أي ومن يشتر الكفر بالإيمان ﴿فقد ضل سواء السبيل﴾ أي فقد خرج عن الطريق المستقيم إلى الجهل والضلال، وهكذا حال الذين عدلوا عن تصديق الأنبياء واتباعهم والانقياد لهم، إلى مخالفتهم وتكذيبهم والاقتراح عليهم بالأسئلة التي لا يحتاجون إليها على وجه التعنت والكفر كما قال تعالى: ﴿لم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار * جهنم يصلونها وبئس القرار﴾ .

وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كَفَارًا حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ أَنفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تَقَدَّمُوا لَأَنفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾

يُحذِّرُ تعالى عباده المؤمنين عن سلوك طريق الكفار من أهل الكتاب، ويعلمهم بعداوتهم لهم في الباطن والظاهر، وما هم مشتملون عليه من الحسد للمؤمنين، مع علمهم بفضلهم وفضل نبيهم، ويأمر عباده المؤمنين بالصفح والعفو أو الاحتمال حتى يأتي أمر الله من النصر والفتح، ويأمرهم بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، ويحثهم على ذلك ويرغبهم فيه كما قال ابن عباس: كان حبي بن أخطب وأبو ياسر بن أخطب من أشد يهود العرب حسداً، إذ خصهم الله برسوله ﷺ، وكانا جاهدين في رد الناس عن الإسلام ما استطاعا، فأنزل الله فيهما: ﴿ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم﴾ الآية. روي أن كعب بن الأشرف اليهودي كان شاعراً وكان يهجو النبي ﷺ وفيه أنزل الله: ﴿ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم﴾ إلى قوله: ﴿فاعفوا واصفحوا﴾. قال تعالى: ﴿كفاراً حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق﴾ يقول من بعد ما أضاء لهم الحق لم يجهلوا منه شيئاً، ولكن الحسد حملهم على الجحود فعيرهم ووبخهم ولا مهم أشد الملامة وشرع لنبيه ﷺ وللمؤمنين ما هم عليه من التصديق والإيمان والاقرار بما أنزل الله عليهم وما أنزل من قبلهم بكرامته وثوابه الجزيل ومعونته لهم. وقال الربيع بن أنس ﴿من عند أنفسهم﴾ من قبل أنفسهم، وقال أبو العالية: ﴿من بعد ما تبين لهم الحق﴾ من بعد ما تبين أن محمداً رسول الله يجعلونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل فكفروا به حسداً وبغياً.

قال ابن عباس في قوله ﴿فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره﴾: نسخ ذلك قوله: ﴿فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم﴾، وقوله: ﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر﴾، وكذا قال أبو العالية وقاتدة والسدي: إنها منسوخة بآية السيف، ويرشد إلى ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿حتى يأتي الله بأمره﴾.

وقوله تعالى: ﴿وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله﴾ يحثهم تعالى على الاشتغال بما ينفعهم، وتعود عليهم عاقبته يوم القيامة من إقام الصلاة وإيتاء الزكاة، حتى يمكن لهم الله النصر في

الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد. ولهذا قال تعالى: ﴿إِن اللّٰهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ يعني أنه تعالى لا يغفل عن عمل عامل، ولا يضيع لديه سواء كان خيراً أو شراً، فإنه سيجازي كل عامل بعمله. وقال ابن جرير في قوله تعالى: ﴿إِن اللّٰهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ هذا الخبر من الله للذين خاطبهم بهذه الآيات من المؤمنين أنهم مهما فعلوا من خير أو شر، سرّاً وعلانية فهو به بصير، لا يخفى عليه منه شيء فيجزئهم بالإحسان خيراً وبالإساءة مثلها، وهذا الكلام وإن كان قد خرج مخرج الخبر فإن فيه وعداً ووعداً، وأمرأً وزجراً وذلك أنه أعلم القوم أنه بصير بجميع أعمالهم ليجدوا في طاعته إذ كان ذلك مذخوراً لهم عنده حتى يثيبهم عليه كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَقْدُمُوا لَأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللّٰهِ﴾ وليحذروا معصيته. قال وأما قوله ﴿بَصِيرٌ﴾ فإنه (مبصر) صرف إلى بصير كما صرف (مبدع) إلى بديع و (مؤلم) إلى ألم، والله أعلم.

وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرِيًّا تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾ وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصْرِيَّةُ عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصْرِيَّةُ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾

بيّن تعالى اغترار اليهود والنصارى بما هم فيه، حيث ادعت كل طائفة من اليهود والنصارى أنه لن يدخل الجنة إلا من كان على ملتها فأكذبهم الله تعالى كما تقدم من دعواهم أنه لن تمسهم النار إلا أياماً معدودة ثم ينتقلون إلى الجنة، ورد عليهم تعالى في ذلك، وهكذا قال لهم في هذه الدعوى التي ادعوا بها بلا دليل ولا حجة ولا بينة ﴿تلك أمانيتهم﴾ قال ابو العالية: أمانتي تمنوها على الله بغير حق، ثم قال تعالى: ﴿قل﴾ أي يا محمد ﴿هاتوا برهانكم﴾ أي حجبتكم ﴿إن كنتم صادقين﴾ أي فيما تدعونه.

ثم قال تعالى: ﴿بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن﴾ أي من أخلص العمل لله وحده لا شريك له، كما قال تعالى: ﴿فإن حاجوك فقل أسلمت وجهي لله ومن اتبعن﴾ الآية. وقال سعيد بن جبير: ﴿بلى من أسلم﴾ أخلص ﴿وجهه﴾ قال: دينه ﴿وهو محسن﴾ أي اتبع فيه الرسول ﷺ، فإن للعمل المتقبل شرطين: أحدهما: أن يكون خالصاً لله وحده، والآخر أن يكون صواباً موافقاً للشريعة، فتنى كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يتقبل، ولهذا قال رسول الله ﷺ: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد»^(١)، فعمل الرهبان ومن شابههم - وإن فرض أنهم مخلصون فيه لله - فإنه لا يتقبل منهم حتى يكون ذلك متابعاً للرسول ﷺ المبعوث إليهم وإلى الناس كافة، وفيهم وأمثالهم قال الله تعالى: ﴿وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءً منثوراً﴾، وقال تعالى: ﴿والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً﴾، وقال تعالى: ﴿وجوه يومئذ خاشعة * عاملة

(١) رواه مسلم من حديث عائشة مرفوعاً.

ناصبة * تصلى ناراً حامية * تسقى من عين آنية ﴿١١١﴾ . وروي عن أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه أنه تأولها في الرهبان كما سيأتي، وأما إن كان العمل موافقاً للشريعة في الصورة الظاهرة ولكن لم يخلص عامله القصد لله فهو أيضاً مردود على فاعله وهذا حال المرأين والمنافقين، كما قال تعالى: ﴿١١٢﴾ إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلاً ﴿١١٣﴾، وقال تعالى: ﴿١١٤﴾ فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون الذين هم يراءون ويمنعون الماعون ﴿١١٥﴾، ولهذا قال تعالى: ﴿١١٦﴾ فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً ﴿١١٧﴾ وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿١١٨﴾ بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن ﴿١١٩﴾، وقوله: ﴿١٢٠﴾ فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴿١٢١﴾ ضمن لهم تعالى على ذلك تحصيل الأجور وآمنهم مما يخافونه من المحذور ﴿١٢٢﴾ لا خوف عليهم ﴿١٢٣﴾ فيما يستقبلونه، ﴿١٢٤﴾ ولا هم يحزنون ﴿١٢٥﴾ على ما مضى مما يتركونه .

وقوله تعالى: ﴿١٢٦﴾ وقالت اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء وهم يتلون الكتاب ﴿١٢٧﴾ بين به تعالى تناقضهم وتباغضهم وتعاديهم وتعاندتهم، كما قال محمد بن إسحاق عن ابن عباس: لما قدم أهل نجران من النصارى على رسول الله ﷺ، أتتهم أحبار يهود فتنازعا عند رسول الله ﷺ، فقال رافع بن حرملة: ما أنتم على شيء وكفر بعيسى وبالإنجيل، وقال رجل من أهل نجران من النصارى لليهود: ما أنتم على شيء وجحد نبوة موسى وكفر بالتوراة، فأنزل الله في ذلك من قولهما: ﴿١٢٨﴾ وقالت اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء وهم يتلون الكتاب ﴿١٢٩﴾ قال: إن كلاً يتلو في كتابه تصديق من كفر به، أن يكفر اليهود بعيسى وعندهم التوراة فيها ما أخذ الله عليهم على لسان موسى بالتصديق بعيسى، وفي الإنجيل ما جاء به عيسى بتصديق موسى وما جاء من التوراة من عند الله وكل يكفر بما في يد صاحبه . وهذا القول يقتضي أن كلاً من الطائفتين صدقت فيما رمت به الطائفة الأخرى، ولكن ظاهر سياق الآية يقتضي ذمهم فيما قالوه مع علمهم بخلاف ذلك، ولهذا قال تعالى: ﴿١٣٠﴾ وهم يتلون الكتاب ﴿١٣١﴾ أي وهم يعلمون شريعة التوراة والإنجيل، كل منهما قد كانت مشروعة في وقت، ولكنهم تجاحدوا فيما بينهم عناداً وكفراً ومقابلة للفاسد بالفاسد. وقوله: ﴿١٣٢﴾ كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم ﴿١٣٣﴾ بين بهذا جهل اليهود والنصارى فيما تقابلوا به من القول وهذا من باب الإيماء والإشارة، وقد اختلف فيمن عنى بقوله تعالى: ﴿١٣٤﴾ الذين لا يعلمون ﴿١٣٥﴾ قال ابن جريج: قلت لعطاء: من هؤلاء الذين لا يعلمون؟ قال: أمم كانت قبل اليهود والنصارى وقبل التوراة والإنجيل، وقال السدي: ﴿١٣٦﴾ كذلك قال الذين لا يعلمون ﴿١٣٧﴾ هم العرب قالوا ليس محمد على شيء، واختار أبو جعفر بن جرير أنها عامة تصلح للجميع وليس ثم دليل قاطع يعين واحداً من هذه الأقوال والحمل على الجميع أولى، والله أعلم .

وقوله تعالى: ﴿١٣٨﴾ فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون ﴿١٣٩﴾ أي أنه تعالى يجمع بينهم يوم المعاد ويفصل بينهم بقضائه العدل الذي لا يجور فيه ولا يظلم مثقال ذرة، وهذه الآية كقوله تعالى في سورة الحج: ﴿١٤٠﴾ إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا إن الله يفصل بينهم يوم القيامة إن الله على كل شيء شهيد ﴿١٤١﴾، وكما قال تعالى: ﴿١٤٢﴾ قل يجمع بيننا ربنا ثم يفتح بيننا بالحق وهو الفتاح العليم ﴿١٤٣﴾ .

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسْجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ
لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾

اختلف المفسرون في المراد من الذين منعوا مساجد الله وسعوا في خرابها على قولين: أحدهما: هم النصارى كانوا يطرحون في بيت المقدس الأذى ويمنعون الناس أن يصلوا فيه. قال قتادة: أولئك أعداء الله النصارى حملهم بغض اليهود على أن أعانوا بختنصر البابلي المجوسي على تخريب بيت المقدس. وقال السدي: كانوا ظاهروا بختنصر على خراب بيت المقدس حتى خربه وأمر أن يطرح فيه الجيف، وإنما أعاناه الروم على خرابه من أجل أن بني إسرائيل قتلوا يحيى بن زكريا. (القول الثاني): ما رواه ابن جرير عن ابن زيد قال: هؤلاء المشركون الذين حالوا بين رسول الله ﷺ يوم الحديبية وبين أن يدخلوا مكة حتى نحر هديه بذي طوى وهادنهم وقال لهم: «ما كان أحد يصد عن هذا البيت، وقد كان الرجل يلقي قاتل أبيه وأخيه فلا يصد» فقالوا: لا يدخل علينا من قتل آباءنا يوم بدر وفينا باق.

وفي قوله: ﴿وسعى في خرابها﴾ عن ابن عباس أن قريشاً منعوا النبي ﷺ الصلاة عند الكعبة في المسجد الحرام فأنزل الله: ﴿ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه﴾، ثم اختار ابن جرير القول الأول واحتج بأن قريشاً لم تسع في خراب الكعبة، وأما الروم فسعوا في تخريب بيت المقدس. (قلت): والذي يظهر - والله أعلم - القول الثاني كما قاله ابن زيد فإنه تعالى لما وجه الدم في حق اليهود والنصارى، شرع في ذم المشركين الذين أخرجوا الرسول ﷺ وأصحابه من مكة ومنعوه من الصلاة في المسجد الحرام، وأما اعتداه على أن قريشاً لم تسع في خراب الكعبة، فأى خراب أعظم مما فعلوا؟ أخرجوا عنها رسول الله ﷺ وأصحابه واستحذوا عليها بأصنامهم وأندادهم وشركهم كما قال تعالى: ﴿وما لهم ألا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام﴾.

وقال تعالى: ﴿هم الذين كفروا وصدوكم عن المسجد الحرام والهدى معكوفاً أن يبلغ محله﴾ وليس المراد من عمارتها زخرفتها وإقامة صورتها فقط، وإنما عمارتها بذكر الله فيها وإقامة شرعه فيها، ورفعها عن الدنس والشرك. وقوله تعالى: ﴿أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين﴾ هذا خبر معناه الطلب أي لا تمكنوا هؤلاء إذا قدرتم عليهم من دخولها إلا تحت الهدنة والجزية، ولهذا لما فتح رسول الله ﷺ مكة أمر من العام القابل في سنة تسع أن ينادي برحاب منى: «ألا لا يحجَّن بعد العام مشرك، ولا يطوفن بالبيت عريان، ومن كان له أجل فأجله إلى مدته»، وقال بعضهم: ما كان ينبغي لهم أن يدخلوا مساجد الله إلا خائفين على حال التهب وارتعاد الفرائص من المؤمنين أن يبطشوا بهم، فضلاً أن يستولوا عليها ويمنعوا المؤمنين منها. والمعنى: ما كان الحق والواجب إلا ذلك لولا ظلم الكفرة وغيرهم، وقيل: إن هذا بشارة من الله للمسلمين أنه سيظهرهم على المسجد الحرام وعلى سائر المساجد، وأنه يذل المشركين لهم حتى لا يدخل المسجد الحرام أحد منهم إلا خائفاً يخاف أن يؤخذ فيعاقب أو يقتل إن لم يسلم، وقد أنجز الله هذا الوعد كما تقدم من منع المشركين من دخول المسجد الحرام، وأوصى رسول الله ﷺ أن لا يبقى بجزيرة العرب دينان، وأن يجلى اليهود والنصارى منها والله الحمد والمنة، وما دك إلا تشریف أكناف

المسجد الحرام، وتطهير البقعة التي بعث الله فيها رسوله إلى الناس كافة بشيراً ونذيراً صلوات الله وسلامه عليه، وهذا هو الخزي لهم في الدنيا لأن الجزاء من جنس العمل، فكما صدّوا المؤمنين عن المسجد الحرام صدّوا عنه، وكما أجلوهم من مكة أجلوا عنها ﴿ ولهم في الآخرة عذاب عظيم ﴾ على ما انتهكوا من حرمة البيت، وامتنهوه من نصب الأصنام حوله، ودعاء غير الله عنده، والطواف به عربياً وغير ذلك من أفاعيلهم التي يكرها الله ورسوله، وأما من فسر بيت المقدس فقال (كعب الأحرار) إن النصارى لما ظهروا على بيت المقدس خربوه، فلما بعث الله محمداً ﷺ أنزل عليه : ﴿ ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى في خرابها أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين ﴾ الآية فليس في الأرض نصراني يدخل بيت المقدس إلا خائفاً، وقال قتادة : لا يدخلون المساجد إلا مسارقة .

وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولُوا فَجْهَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَسِعُ عِلْمَهُ ﴿١١٥﴾

وهذا والله أعلم فيه تسليّة للرسول ﷺ وأصحابه الذين أخرجوا من مكة وفارقوا مسجدهم ومصلاهم وقد كان رسول الله ﷺ يصلي بمكة إلى بيت المقدس والكعبة بين يديه، فلما قدم المدينة وجهه إلى بيت المقدس ستة عشر شهراً أو سبعة عشر شهراً ثم صرفه الله إلى الكعبة بعد، ولهذا يقول تعالى : ﴿ ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله ﴾ . قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال : كان أول ما نسخ من القرآن القبلة . وذلك أن رسول الله ﷺ لما هاجر إلى المدينة وكان أهلها اليهود أمره الله أن يستقبل بيت المقدس ففرحت اليهود، فاستقبلها رسول الله ﷺ بضعة عشر شهراً، وكان رسول الله ﷺ يحب قبلة إبراهيم، وكان يدعو وينظر إلى السماء فأنزل الله : ﴿ قد نرى قلبك وجهك في السماء ﴾ إلى قوله : ﴿ فولوا وجوهكم شطره ﴾ . فارتاب من ذلك اليهود وقالوا : ﴿ ما ولأهم عن قبلتهم التي كانوا عليها ؟ ﴾ فأنزل الله ﴿ قل لله المشرق والمغرب ﴾ ، وقال : ﴿ فأينما تولوا فثم وجه الله ﴾ وقال عكرمة : عن ابن عباس ﴿ فأينما تولوا فثم وجه الله ﴾ قال : قبله الله أينما توجهت شرقاً أو غرباً، وقال مجاهد ﴿ فأينما تولوا فثم وجه الله ﴾ : حيثما كنتم فلكم قبلة تستقبلونها الكعبة . وقال ابن جرير : وقال آخرون : بل أنزل الله هذه الآية قبل أن يفرض التوجه إلى الكعبة، وإنما أنزلها ليعلم نبيّه ﷺ وأصحابه أن لهم التوجه بوجوههم للصلاة حيث شاءوا من نواحي المشرق والمغرب، لأنهم لا يوجهون وجوههم وجهاً من ذلك وناحية إلا كان جل ثناؤه في ذلك الوجه وتلك الناحية، لأن له تعالى المشرق والمغرب وأنه لا يخلو منه مكان كما قال تعالى : ﴿ ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ﴾ قالوا : ثم نسخ ذلك بالفرض الذي فرض عليهم التوجه إلى المسجد الحرام هكذا قال ، وفي قوله : وأنه تعالى لا يخلو منه مكان ؛ إن أراد علمه تعالى فصحيح، فإن علمه تعالى محيط بجميع المعلومات، وأما ذاته تعالى فلا تكون محصورة في شيء من خلقه، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

وقال آخرون : بل نزلت هذه الآية على رسول الله ﷺ إذناً من الله أن يصلي (المتطوع) حيث توجه من شرق أو غرب في سفره لما روي عن ابن عمر أنه كان يصلي حيث توجهت به راحلته، ويذكر أن رسول الله ﷺ كان

يفعل ذلك ويتأول هذه الآية: ﴿فَأَيْنَا تَوَلَّوْا فَمَّ وَجْهَ اللَّهِ﴾ (١).

وقال آخرون: بل نزلت هذه الآية في قوم عميت عليهم القبلة فلم يعرفوا شطرها، فصلُّوا على أنحاء مختلفة، فقال الله تعالى: لي المشارق والمغرب، فأين وليتم وجوهكم فهناك وجهي وهو قبلتكم فيعلمكم بذلك أن صلاتكم ماضية، لما روي عن عامر بن ربيعة عن أبيه قال: كنا مع رسول الله ﷺ في ليلة سوداء مظلمة فترلنا منزلاً فجعل الرجل يأخذ الأحجار فيعمل مسجداً يصلي فيه، فلما أن أصبحنا إذا نحن قد صلينا إلى غير القبلة، فقلنا: يا رسول الله لقد صلينا ليلتنا هذه لغير القبلة فأنزل الله تعالى: ﴿وَلِلْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ فَأَيْنَا تَوَلَّوْا فَمَّ وَجْهَ اللَّهِ﴾ (٢).

عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ بعث سرية فأخذتهم ضيابة فلم يهتدوا إلى القبلة فصلوا لغير القبلة ثم استبان لهم بعد ما طلعت الشمس أنهم صلوا لغير القبلة، فلما جاءوا إلى رسول الله ﷺ حدثوه فأنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿وَلِلْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ فَأَيْنَا تَوَلَّوْا فَمَّ وَجْهَ اللَّهِ﴾ (٣).

قال ابن جرير: ويحتمل فأينا تولوا وجوهكم في دعائكم لي فهناك وجهي أستجيب لكم دعاءكم. قال مجاهد: لما نزلت ﴿ادعوني أستجب لكم﴾ قالوا: إلى أين؟ فنزلت ﴿فَأَيْنَا تَوَلَّوْا فَمَّ وَجْهَ اللَّهِ﴾. ومعنى قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ يسع خلقه كلهم بالكفاية والجود والإفضال، وأما قوله: ﴿عَلِيمٌ﴾ فإنه يعني علم بأعمالهم ما يغيب عنه منها شيء، ولا يعزب عن علمه بل هو بجميعها عليم.

وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَّهُ قَنِينٌ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾

اشتملت هذه الآية الكريمة والتي تليها على الرد على النصارى عليهم لعائن الله وكذا من أشبههم من اليهود ومن مشركي العرب ممن جعل الملائكة بنات الله، فأكذب الله جميعهم في دعواهم وقولهم إن الله ولدًا فقال تعالى ﴿سُبْحَانَهُ﴾ أي تعالى وتقدس وتنزه عن ذلك علواً كبيراً: ﴿بَلْ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي ليس الأمر كما افترؤا، وإنما له ملك السماوات والأرض ومن فيهن، وهو المتصرف فيهم وهو خالقهم ورازقهم، ومقدرهم ومسخرهم ومسيرهم ومصرفهم كما يشاء، والجميع عبيد له وملك له، فكيف يكون له ولد منهم، والولد إنما يكون متولداً من شيئين متناسبين، وهو تبارك وتعالى ليس له نظير ولا مشارك في عظمته وكبريائه ولا صاحبة له فكيف يكون له ولد؟ كما قال تعالى: ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا﴾، وقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ . اللَّهُ الصَّمَدُ . لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ . لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾، فقرر تعالى في هذه الآيات الكريمة أنه السيد العظيم الذي

(١) رواه مسلم والترمذي والنسائي .

(٢) رواه الترمذي وابن ماجه وقال الترمذي: هذا حديث حسن وليس إسناده بذلك .

(٣) رواه ابن مردويه من حديث الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس وفيه ضعف .

لا نظير له ولا شبيه له ، وأن جميع الأشياء غيره مخلوقة له مربوبة ، فكيف يكون له منها ولد ؟ ولهذا قال البخاري عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال : « قال الله تعالى كذبي ابن آدم ولم يكن له ذلك ، وشتمني ولم يكن له ذلك ، فأما تكذيبه إياي فيزعم أنني لا أقدر أن أعيده كما كان ، وأما شتمه إياي فقله إن لي ولداً ، فسبحاني أن أنخذ صاحبة أو ولداً » . وفي الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال : « لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله ، إنهم يجعلون له ولداً وهو يرزقهم ويعافهم » .

وقوله : ﴿ كل له قانتون ﴾ مقرون له بالعبودية . وقال السدي : أي مطيعون يوم القيامة ، وقال مجاهد : ﴿ كل له قانتون ﴾ مطيعون . قال : طاعة الكافر في سجود ظله وهو كاره ، وهذا القول - وهو اختيار ابن جرير - يجمع الأقوال كلها ، وهو أن القنوت الطاعة والاستكانة إلى الله وهو شرعي وقدري كما قال تعالى : ﴿ والله يسجد من في السموات ومن في الأرض طوعاً وكرهاً وظلالهم بالغدو والآصال ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ بديع السموات والأرض ﴾ أي خالقهما على غير مثال سبق وهو مقتضى اللغة ، ومنه يقال للشئ المحدث بدعة كما جاء في صحيح مسلم « فإن كل محدثة بدعة » والبدعة على قسمين : تارة تكون بدعة شرعية ، كقوله : « فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة » ، وتارة تكون بدعة لغوية كقول أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب عن جمعه إياهم على صلاة التراويح واستمرارهم : « نعمت البدعة هذه » . وقال ابن جرير : ﴿ بديع السموات والأرض ﴾ مبدعهما وإنما هو (مُفْعِل) فصرف إلى فعيل كما صرف المؤلم إلى الأليم ، ومعنى المبدع المنشئ والمحدث ما لا يسبقه إلى إنشاء مثله وإحداثه أحد . قال : ولذلك سمي المبتدع في الدين مبتدعاً لإحداثه فيه ما لم يسبق إليه غيره .

قال ابن جرير : فمعنى الكلام : سبحان الله أن يكون له ولد وهو مالك ما في السموات والأرض ، تشهد له جميعها بدالاتها عليه بالوحدانية ، وتقر له بالطاعة ، وهو بارئها وخالقها وموجدتها من غير أصل ولا مثال احتذاها عليه ، وهذا إعلام من الله لعباده أن ممن يشهد له بذلك (المسيح) الذي أضافوا إلى الله بنوته ، وإخبار منه لهم أن الذي ابتدع السموات والأرض من غير أصل وعلى غير مثال ، هو الذي ابتدع المسيح عيسى من غير والد بقدرته ، وهذا من ابن جرير رحمه الله كلام جيد وعبارة صحيحة .

وقوله تعالى : ﴿ وإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون ﴾ يبين بذلك كمال قدرته وعظم سلطانه ، وأنه إذا قدر أمراً وأراد كونه فإنما يقول له ﴿ كن ﴾ أي مرة واحدة ﴿ فيكون ﴾ أي فيوجد على وفق ما أراد ، كما قال تعالى : ﴿ إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر ﴾ ، وقال الشاعر :

إذا ما أراد الله أمراً فإنما يقول له كن قوله فيكون

وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَنْزِيلًا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَبَهتْ قُلُوبُهُمْ

قال ابن عباس : قال رافع بن حرمة لرسول ﷺ : يا محمد إن كنت رسولاً من الله كما تقول، فقل لله فيكلمنا حتى نسمع كلامه. فأنزل الله في ذلك من قوله: ﴿وقال الذين لا يعلمون لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية﴾ (١) وقال مجاهد: النصرى تقوله، وقال قتادة والسدي: هذا قول كفار العرب، ﴿كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم﴾ قال: هم اليهود والنصارى، ويؤيد هذا القول وأن القائلين ذلك هم مشركو العرب قوله تعالى: ﴿وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتي رسل الله﴾ الآية، وقوله تعالى: ﴿وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً﴾ إلى قوله: ﴿قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولاً﴾، وقوله تعالى: ﴿وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا﴾ الآية إلى غير ذلك من الآيات الدالة على كفر مشركي العرب وعتوهم وعنادهم وسؤالهم ما لا حاجة لهم به إنما هو الكفر والمعاندة كما قال من قبلهم من الأمم الخالية من أهل الكتابين وغيرهم .

وقوله تعالى: ﴿تشابهت قلوبهم﴾ أي أشبهت قلوب مشركي العرب قلوب من تقدمهم في الكفر والعناد والعتو كما قال تعالى: ﴿كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون أتواصوا به﴾ ؟ الآية. وقوله تعالى: ﴿قد بينا الآيات لقوم يوقنون﴾ أي قد أوضحنا الدلالات على صدق الرسل بما لا يحتاج معها إلى سؤال آخر، وزيادة أخرى لمن أيقن وصدق واتبع الرسل وفهم ما جاءوا به عن الله تبارك وتعالى، وأما من ختم الله على قلبه وسمعه وجعل على بصره غشاوة فأولئك قال الله فيهم: ﴿إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم﴾ .

إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْئَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾

عن ابن عباس قال: «بشيراً بالجنة ونذيراً من النار»، وقوله: ﴿ولا تُسْئَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾ قراءة أكثرهم ﴿ولا تُسْئَلُ﴾ بضم التاء على الخبر، وفي قراءة ابن مسعود ﴿ولن تسئل﴾ عن أصحاب الجحيم أي لا نسألك عن كفر من كفر بك، كقوله: ﴿فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب﴾ .

عن عطاء بن يسار قال: لقيت عبدالله بن عمرو بن العاص فقلت: أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة فقال: أجل والله إنه لموصوف في التوراة بصفته في القرآن (يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وحرزاً للأمينين؛ أنت عبيدي ورسولي سميتك المتوكل، لا فظ ولا غليظ، ولا سخاب في الأسواق، ولا يدفع بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويغفر ولن يقبضه حتى يقيم به الملة العوجاء، بأن يقولوا لا إله إلا الله، فيفتح به أعينا عمياً وآذاناً صماً وقلوباً غلفاً) (٢) .

وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنْ هُدَىٰ اللَّهُ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ

(١) أخرجه محمد بن إسحاق عن ابن عباس .

(٢) رواه البخاري وأحمد .

الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ الَّذِينَ آتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ۗ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ ۗ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٢١﴾

قال ابن جرير: يعني بقوله جل ثناؤه: ﴿ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم﴾ وليست اليهود يا محمد ولا النصارى براضية عنك أبداً، فدع طلب ما يرضيهم ويوافقهم وأقبل على طلب رضا الله في دعائهم إلى ما بعثك الله به من الحق. وقوله تعالى: ﴿قل إن هدى الله هو الهدى﴾ أي قل يا محمد إن هدى الله الذي بعثني به هو الهدى، يعني هو الدين المستقيم الصحيح الكامل الشامل. ﴿ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم ما لك من الله من ولي ولا نصير﴾ فيه تهديد ووعيد شديد للأمة في اتباع طرائق اليهود والنصارى، بعدما علموا من القرآن والسنة - عياداً بالله من ذلك - فإن الخطاب مع الرسول والأمر لأمرته، وقد استدك كثير من الفقهاء بقوله: ﴿حتى تتبع ملتهم﴾ حيث أفرد الملة على أن الكفر كله ملة واحدة كقوله تعالى: ﴿لكم دينكم ولي دين﴾، فعلى هذا لا يتوارث المسلمون والكفار، وكل منهم يرث قرينه سواء كان من أهل دينه أم لا لأنهم كلهم ملة واحدة.

وقوله: ﴿الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته﴾، قال قتادة: هم اليهود والنصارى واختاره ابن جرير، وقال سعيد عن قتادة: هم أصحاب رسول الله ﷺ، قال ابن مسعود: والذي نفسي بيده إن حق تلاوته أن يحل حلاله، ويحرم حرامه، ويقرأه كما أنزله الله ولا يحرف الكلم عن مواضعه، ولا يتأول منه شيئاً على غير تأويله، وقال الحسن البصري: يعملون بمحكمه ويؤمنون بمتشابهه ويكونون ما أشكل عليهم إلى عالمه. وقال سفيان الثوري عن عبد الله بن مسعود في قوله: ﴿يتلونه حق تلاوته﴾ يتبعونه حق اتباعه. وقال أبو موسى الأشعري: من يتبع القرآن يهبط به على رياض الجنة، وعن عمر بن الخطاب: هم الذين إذا مروا بآية رحمة سألوها من الله، وإذا مروا بآية عذاب استعاذوا منها. قال: وقد روي هذا المعنى عن النبي ﷺ أنه كان إذا مر بآية رحمة سأل، وإذا مر بآية عذاب تعوذ.

وقوله: ﴿أولئك يؤمنون به﴾ خبر، أي من أقام كتابه من أهل الكتب المنزلة على الأنبياء المتقدمين حق إقامته آمن بما أرسلتك به يا محمد كما قال تعالى: ﴿ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم﴾ الآية. وقال: ﴿قل يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليكم من ربكم﴾، أي إذا أقمتموها حق الإقامة، وآمنتم بها حق الإيمان، وصدقتم ما فيها من الأخبار بمبعث محمد ﷺ ونعته وصفته، والأمر باتباعه ونصره ومؤازرته، قادكم ذلك إلى الحق واتباع الخير في الدنيا والآخرة كما قال تعالى: ﴿الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدهم مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل﴾ الآية. وقال تعالى: ﴿الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون﴾ وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين. أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ويدرؤن بالحسنة السيئة ومما رزقناهم ينفقون﴾، وقال تعالى: ﴿وقل للذين أتوا الكتاب والأمين أسلمتم؟ فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما عليك البلاغ والله بصير

بالعباد ﴿﴾، ولهذا قال تعالى: ﴿ومن يكفر به فأولئك هم الخاسرون﴾، كما قال تعالى: ﴿ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده﴾. وفي الصحيح: «والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم لا يؤمن بي إلا دخل النار»^(١).

يَبْنِي إِسْرَائِيلَ أَذْكَرُوا نِعْمَتِي الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٢٣﴾ وَأَتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٢٤﴾

قد تقدم نظير هذه الآية في صدر السورة، وكررت ههنا للتأكيد والحث على اتباع الرسول النبي الأمي الذي يجدون صفته في كتبهم ونعته واسمه وأمره وأمته فحذرهم من كتابان هذا، وكتابان ما أنعم به عليهم، وأمرهم أن يذكروا نعمة الله عليهم من النعم الدنيوية والدينية، ولا يحسدوا بني عمهم من العرب على ما رزقهم الله من إرسال الرسول الخاتم منهم، ولا يحملهم ذلك الحسد على مخالفته وتكذيبه والحيد عن موافقته، صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين.

* وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ﴿١٢٥﴾ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴿١٢٦﴾ قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴿١٢٧﴾

يقول تعالى منبهاً على شرف إبراهيم خليله عليه السلام، وأن الله تعالى جعله إماماً للناس يقتدى به في التوحيد، حين قام بما كلفه الله تعالى به من الأوامر والنواهي، ولهذا قال: ﴿وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات﴾ أي واذكر يا محمد هؤلاء المشركين وأهل الكتابين الذين يتحلون ملة إبراهيم وليسوا عليها.. اذكر هؤلاء ابتلاء الله إبراهيم أي اختباره له بما كلفه به من الأوامر والنواهي ﴿فأتمهن﴾ أي قام بهن كلهن كما قال تعالى ﴿وإبراهيم الذي وفى﴾ أي وفى جميع ما شرع له فعمل به صلوات الله عليه. وقال تعالى: ﴿إن إبراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفاً ولم يك من المشركين * شاكراً لأنعمه اجتنابه وهداه إلى صراط مستقيم﴾ وقال تعالى: ﴿ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين * إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله ولي المؤمنين﴾. وقوله تعالى ﴿بكلمات﴾ أي بشرائع وأوامر ونواه، ﴿فأتمهن﴾ أي قام بهن، قال: ﴿إني جاعلك للناس إماماً﴾ أي جزاء على ما فعل كما قام بالأوامر وترك الزواجر جعله الله للناس قدوة وإماماً يقتدى به ويحتذى حذوه.

وقد اختلف في تعيين الكلمات التي اختبر الله بها إبراهيم الخليل عليه السلام، فروي عن ابن عباس قال: ابتلاه الله بالمناسك، وروي عنه قال: ابتلاه بالطهارة خمس في الرأس، وخمس في الجسد، في الرأس: قص الشارب والمضمضة والاستنشاق والسواك وفرق الرأس، وفي الجسد: تقليم الأظفار وحلق العانة والختان وتنف الإبط وغسل أثر الغائط والبول بالماء. وفي الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «الفطرة خمس: الختان

(١) أخرجه مسلم عن أبي هريرة مرفوعاً.

والاستحداد وقص الشارب وتقليم الأظفار وشف الإبط .

وقال عكرمة عن ابن عباس أنه قال: ما ابتلي بهذا الدين أحد فقام به كله إلا إبراهيم، قال الله تعالى: ﴿ وَإِذْ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ﴾، قلت له: وما الكلمات التي ابتلي الله إبراهيم بن فأتَمَّهُنَّ؟ قال: الإسلام ثلاثون سهماً منها عشر آيات في براءة: ﴿ التائبون العابدون ﴾ إلى آخر الآية، وعشر آيات في أول سورة ﴿ قد أفلح المؤمنون ﴾ وعشر آيات في الأحزاب: ﴿ إن المسلمين والمسلمات ﴾ إلى آخر الآية فأتَمَّهُنَّ كلهن فكتبت له براءة. قال الله تعالى: ﴿ وإبراهيم الذي وفى ﴾ . وقال محمد بن إسحاق عن ابن عباس قال: الكلمات التي ابتلي الله بها إبراهيم فأتَمَّهُنَّ: فراق قومه في الله حين أمر بمفارقتهم، ومحاботه نموذ في الله حين وقفه على ما وقفه عليه من خطر الأمر الذي فيه خلافه، وصبره على قذفه إياه في النار ليحرقوه في الله على هول ذلك من أمرهم، والهجرة بعد ذلك من وطنه وبلاده في الله حين أمره بالخروج عنهم، وما أمر به من الضيافة والصبر عليها بنفسه وماله، وما ابتلي به من ذبح ابنه حين أمره بذبحه، فلما مضى على ذلك من الله كله وأخلصه للبلاء قال الله له: ﴿ أسلم قال أسلمت لرب العالمين ﴾ على ما كان من خلاف الناس وفراقهم. وقال ابن جرير: كان الحسن يقول: إي والله، لقد ابتلاه بأمر فصبر عليه، ابتلاه بالكوكب والشمس والقمر فأحسن في ذلك، وعرف أن ربه دائم لا يزول، فوجه وجهه للذي فطر السماوات والأرض حنيفاً وما كان من المشركين، ثم ابتلاه بالهجرة فخرج من بلاده وقومه حتى لحق بالشام مهاجراً إلى الله، ثم ابتلاه بالنار قبل الهجرة فصبر على ذلك، وابتلاه بذبح ابنه، والختان، فصبر على ذلك . وعن الربيع بن أنس قال: الكلمات ﴿ إني جاعلك للناس إماماً ﴾، وقوله: ﴿ وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمناً ﴾، وقوله: ﴿ واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى ﴾، وقوله: ﴿ وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل ﴾ الآية، وقوله: ﴿ وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ﴾ الآية. قال: فذلك كله من الكلمات التي ابتلي بها إبراهيم. وفي الموطأ وغيره عن يحيى بن سعيد أنه سمع سعيد بن المسيب يقول: إبراهيم عليه السلام أول من اختتن، وأول من ضاف الضيف، وأول من قلم أظفاره، وأول من قص الشارب، وأول من شاب. فلما رأى الشيب قال: ما هذا؟ قال: وقار، قال: يارب زدني وقاراً .

قال أبو جعفر بن جرير ما حاصله: إنه يجوز أن يكون المراد بالكلمات جميع ما ذكر، وجائز أن يكون بعض ذلك، ولا يجوز الجزم بشيء منها أنه المراد على التعيين إلا بحديث أو إجماع. قال: ولم يصح في ذلك خبر بنقل الواحد ولا بنقل الجماعة الذي يجب التسليم له .

ولما جعل الله إبراهيم إماماً سأل الله أن تكون الأمة من بعده من ذريته فأجيب إلى ذلك، وأخبر أنه سيكون من ذريته ظالمون وأنه لا ينالهم عهد الله، ولا يكونون أئمةً فلا يقتدى بهم ﴿ قال ومن ذريتي ﴾، قال لا ينال عهدي الظالمين ﴿، والدليل على أنه أجيب إلى طلبته قوله تعالى في سورة العنكبوت: ﴿ وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب ﴾ فكل نبي أرسله الله، وكل كتاب أنزله الله بعد إبراهيم، ففي ذريته صلوات الله وسلامه عليه، وأما قوله تعالى ﴿ قال لا ينال عهدي الظالمين ﴾ فقد اختلفوا في ذلك، فقال مجاهد: لا يكون إمام ظالم يقتدى به. وعنه قال: أما من كان منهم صالحاً فأجعله إماماً يقتدى به، وأما من كان ظالماً فلا ولا نعمة عين. وعن ابن عباس قال، قال الله لإبراهيم: إني جاعلك للناس إماماً، قال: ومن ذريتي، فأبى أن يفعل، ثم قال ﴿ لا ينال عهدي الظالمين ﴾. وروي عن قتادة في قوله ﴿ لا ينال عهدي

الظالمين ﴿ قال : لا ينال عهدُ الله في الآخرة الظالمين ، فأما في الدنيا فقد ناله الظالم فأمّن به وأكل وعاش . وقال الربيع ابن أنس : عهدُ الله الذي عهد إلى عباده دينه ، يقول : لا ينال دينه الظالمين ألا ترى أنه قال : ﴿ وباركنا عليه وعلى إسحق ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين ﴾ يقول ليس كل ذريتك يا إبراهيم على الحق . وعن النبي ﷺ قال : ﴿ لا ينال عهدي الظالمين ﴾ قال : « لا طاعة إلا في المعروف »^(١) . وقال السدي ﴿ لا ينال عهدي الظالمين ﴾ : يقول عهدي نبوتي . فهذه أقوال مفسري السلف في هذه الآية على ما نقله ابن جرير . وقال ابن خويز منداد : الظالم لا يصلح أن يكون خليفة ولا حاكماً ولا مفتياً ولا شاهداً ولا راوياً .

وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى

عن ابن عباس ﴿ وإذ جعلنا البيت مثابة للناس ﴾ قال : يثوبون إليه ثم يرجعون . وحدث عبدة بن أبي لبابة قال : لا ينصرف عنه منصرف وهو يرى أنه قد قضى منه وطراً . قال الشاعر :

جعل البيت مثاباً لهم ليس منه الدهر يقضون الوطر

وقال سعيد بن جبير في الرواية الأخرى وعكرمة وقتادة ﴿ مثابة للناس ﴾ : أي مجمعا ﴿ وأمناً ﴾ أي أمناً للناس ، وقد كانوا في الجاهلية يتخطف الناس من حولهم وهم آمنون لا يُسبون .

ومضمون هذه الآية أن الله تعالى يذكر شرف البيت ، وما جعله موصوفاً به شرعاً وقدرأً من كونه مثابة للناس ، أي جعله محلاً تشتاق إليه الأرواح وتحن إليه ، ولا تقضي منه وطراً ولو ترددت إليه كل عام ، استجابة من الله تعالى لدعاء خليله إبراهيم عليه السلام ، في قوله : ﴿ فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم ﴾ إلى أن قال : ﴿ ربنا وتقبل دعائي ﴾ ، ويصفه تعالى بأنه جعله أمناً من دخله آمن ، ولو كان قد فعل ما فعل ثم دخله كان آمناً . فقد كان الرجل يلقي قاتل أبيه أو أخيه فيه فلا يعرض له . وما هذا الشرف إلا لشرف بانيه أولاً وهو خليل الرحمن كما قال تعالى : ﴿ وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت أن لا تشرك بي شيئاً ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدياً للعالمين ﴾ فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمناً ﴿ . وفي هذه الآية الكريمة تبه على مقام إبراهيم مع الأمر بالصلاة عنده ، فقال : ﴿ واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى ﴾ . وقد اختلف المفسرون في المراد بالمقام ما هو ؟ فقال مجاهد عن ابن عباس : مقام إبراهيم الحرم كله ، وقيل : مقام إبراهيم الحج كله (منى ورمي الجمار والطواف بين الصفا والمروة^(٢)) ، وقال سفيان الثوري عن سعيد بن جبير : ﴿ واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى ﴾ قال : الحجر مقام إبراهيم نبي الله قد جعله الله رحمة فكان يقوم عليه ويناوله إسماعيل الحجارة ، وقال السدي : المقام الحجر الذي وضعت زوجته إسماعيل تحت قدم إبراهيم حتى غسلت رأسه . عن جعفر بن محمد عن أبيه : سمع جابراً يحدث عن حجة النبي ﷺ قال : لما طاف النبي ﷺ قال له عمر : هذا مقام أيننا ؟ قال : « نعم » ، قال : أفلا نتخذة مصلى ؟ فأنزل الله عز وجل : ﴿ واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى ﴾ . وقال البخاري : باب قوله ﴿ واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى ﴾ مثابة يثوبون : يرجعون . قال عمر بن الخطاب : وافقت ربي في ثلاث أو وافقت ربي في

(١) أخرجه ابن مردويه عن علي بن أبي طالب مرفوعاً . (٢) ذكره عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما .

ثلاث: قلت: يا رسول الله لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى، فترلت ﴿ واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى ﴾، وقلت: يا رسول الله يدخل عليك البر والفاجر فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب، فأنزل الله آية الحجاب. قال: وبلغني معاتبه النبي ﷺ بعض نساءه فدخلت عليهن فقلت: إن اتيهن أو لبيدن الله رسوله خيراً منكن، حتى أتيت إحدى نساءه قالت: يا عمر أما في رسول الله ما يعظ نساءه حتى تعظهن أنت، فأنزل الله ﴿ عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن مسلمات ﴾ الآية .

وقال أنس: قال عمر رضي الله عنه: وافقت ربي عز وجل في ثلاث، قلت: يا رسول الله لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى فترلت: ﴿ واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى ﴾، وقلت: يا رسول الله إن نساءك يدخل عليهن البر والفاجر فلو أمرتهن أن يحتجبن فترلت آية الحجاب. واجتمع على رسول الله ﷺ نساؤه في الغيرة فقلت لهن: عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن فترلت كذلك^(١). ورواه الإمام مسلم بن حجاج في صحيحه بسند آخر ولفظ آخر عن نافع عن ابن عمر عن عمر قال: وافقت ربي في ثلاث: في الحجاب، وفي أسارى بدر، وفي مقام إبراهيم.

وروى ابن جريج عن جابر: أن رسول الله ﷺ رمل ثلاثة أشواط ومشى أربعاً حتى إذا فرغ عمد إلى مقام إبراهيم فصلى خلفه ركعتين، ثم قرأ: ﴿ واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى ﴾. وقال ابن جرير عن جابر قال: استلم رسول الله ﷺ الركن فرمل ثلاثاً ومشى أربعاً ثم نفذ إلى مقام إبراهيم فقرأ: ﴿ واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى ﴾ فجعل المقام بينه وبين البيت فصلى ركعتين، وهذا قطعة من الحديث الطويل الذي رواه مسلم في صحيحه. فهذا كله مما يدل على أن المراد بالمقام إنما هو الحجر، الذي كان إبراهيم عليه السلام يقوم عليه لبناء الكعبة، لما ارتفع الجدار أتاه إسماعيل عليه السلام به ليقوم فوقه، ويتاوله الحجارة فيضعها بيده لرفع الجدار، وكلما كمل ناحية انتقل إلى الناحية الأخرى يطوف حول الكعبة وهو واقف عليه كلما فرغ من جدار نقله إلى الناحية التي تليها وهكذا حتى تم جدران الكعبة كما سيأتي بيانه في قصة إبراهيم وإسماعيل وكانت آثار قدميه ظاهرة فيه، ولم يزل هذا معروفاً تعرفه العرب في جاهليتها، ولهذا قال أبو طالب في قصيدته المعروفة اللامية:

وموطئ إبراهيم في الصخر رطبة على قدميه حافياً غير ناعل

وقد كان هذا المقام ملصقاً بجدار الكعبة قديماً ومكانه معروف اليوم إلى جانب الباب، مما يلي الحجر يمنة الداخل من الباب، في البقعة المستقلة هناك، وكان الخليل عليه السلام لما فرغ من بناء البيت وضعه إلى جدار الكعبة، أو أنه انتهى عنده البناء فتركه هناك، ولهذا - والله أعلم - أمر بالصلاة هناك عند الفراغ من الطواف، وناسب أن يكون عند مقام إبراهيم حيث انتهى بناء الكعبة فيه وإنما أخره عن جدار الكعبة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، أحد الأئمة المهديين والخلفاء الراشدين، الذين أمرنا باتباعهم، وهو أحد الرجلين اللذين قال فيهما رسول الله ﷺ: « اقتدوا باللذين من بعدي أبي بكر وعمر »^(٢)، وهو الذي نزل القرآن بوفاقه في الصلاة عنده ولهذا لم ينكر ذلك أحد من الصحابة رضي الله عنهم أجمعين.

(١) رواه أحمد عن أنس رضي الله عنه . (٢) أخرجه الترمذي عن حذيفة بن اليمان .

عن عائشة رضي الله عنها أن المقام كان زمان رسول الله ﷺ وزمان أبي بكر رضي الله عنه ملتصقاً بالبيت ثم أخره عمر بن الخطاب رضي الله عنه^(١). وعن مجاهد قال: قال عمر بن الخطاب: يا رسول الله لو صلينا خلف المقام، فأنزل ﴿واخذوا من مقام إبراهيم مصلى﴾ فكأن المقام عند البيت فحوّله رسول الله ﷺ إلى موضعه هذا^(٢). وهو مخالف لما تقدم أن أول من أخر المقام إلى موضعه الآن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وهذا أصح من طريق ابن مردويه مع اعتضاد هذا بما تقدم، والله أعلم.

وَعَهْدَنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهْرًا بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾

قال الحسن البصري: قوله تعالى ﴿وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل﴾: أمرهما الله أن يطهرا من الأذى والنجس، ولا يصبه من ذلك شيء. وقال ابن جريج قلت لعطاء ما عهده؟ قال أمره. والظاهر أن هذا الحرف إنما عدّي بإلى لأنه في معنى أوحينا، قوله: ﴿أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين﴾ أي من الأوثان والرفث وقول الزور والرجس. قال مجاهد وعطاء وقتادة: ﴿أن طهرا بيتي﴾ أي بلا إله إلا الله من الشرك، وأما قوله تعالى: ﴿للطائفين﴾ فالطواف بالبيت معروف، وعن سعيد بن جبیر أنه قال: ﴿للطائفين﴾ يعني من أتاه من غربة ﴿والعاكفين﴾ المقيمين فيه. وهكذا روي عن قتادة والربيع بن أنس أنهما فسرا العاكفين بأهله المقيمين فيه. وعن ابن عباس قال: إذا كان جالسا فهو من العاكفين، وعن ثابت قال: قلنا لعبدالله بن عبيد بن عمير ما أراني إلا مكلم الأمير أن يمنع الذين ينامون في المسجد الحرام فإنهم يجنبون ويحدثون، قال: لا تفعل فإن ابن عمر سئل عنهم فقال: هم العاكفون^(٣). (قلت): وقد ثبت في الصحيح أن ابن عمر كان ينام في مسجد الرسول ﷺ وهو عذب، وأما قوله تعالى: ﴿والركع السجود﴾ فقال عطاء عن ابن عباس إذا كان مصليا فهو من الركع السجود.

قال ابن جرير رحمه الله: فمعنى الآية: وأمرنا إبراهيم وإسماعيل بتطهير بيتي للطائفين، والتطهير الذي أمرهما به في البيت هو تطهيره من الأصنام وعبادة الأوثان فيه ومن الشرك، فإن قيل: فهل كان قبل بناء إبراهيم عند البيت

(١) رواه البيهقي قال ابن كثير: وهذا إسناد صحيح.

(٢) رواه ابن مردويه عن مجاهد. قال ابن كثير: وهذا مرسل عن مجاهد وهو مخالف لرواية عبد الرزاق عنه.

(٣) رواه ابن أبي حاتم عن حماد بن سلمة عن ثابت.

شيء من ذلك الذي أمر بتطهيره منه؟ فالجواب من وجهين: (أحدهما): أنه أمرها بتطهيره مما كان يعبد عنده زمان قوم نوح من الأصنام والأوثان، ليكون ذلك سنة لمن بعدهما إذ كان الله تعالى قد جعل إبراهيم إماماً يقتدى به. (قلت): وهذا الجواب مفرغ على أنه كان يعبد عنده أصنام قبل إبراهيم عليه السلام، ويحتاج إثبات هذا إلى دليل عن المعصوم محمد ﷺ. (الثاني): أنه أمرها أن يخلصا في بنائه لله وحده لا شريك له فيبنيه مطهراً من الشرك والريب، كما قال جل ثناؤه: ﴿أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار﴾؟ قال فكذلك قوله: ﴿وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتي﴾ أي ابنيه على طهر من الشرك بي والريب، وملخص هذا الجواب أن الله تعالى أمر إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام أن يبينا الكعبة على اسمه وحده لا شريك له، للطائفين به والعاكفين عنده والمصلين إليه من الركع السجود كما قال تعالى: ﴿وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت أن لا تشرك بي شيئاً وطهراً بيتي للطائفين والقائمين والركع السجود﴾ الآيات .

وقد اختلف الفقهاء أيماً أفضل الصلاة عند البيت أو الطواف به؟ فقال مالك رحمه الله: الطواف به لأهل الأمصار أفضل، وقال الجمهور: الصلاة أفضل مطلقاً، وتوجيه كل منهما يذكر في كتاب الأحكام، والمراد من ذلك الرد على المشركين، الذين كانوا يشركون بالله عند بيته، المؤسس على عبادته وحده لا شريك له، ثم مع ذلك يصدون أهله المؤمنين عنه كما قال تعالى: ﴿إن الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام الذي جعلناه للناس سواء العاكف به والباد ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم﴾، ثم ذكر أن البيت إنما أسس لمن يعبد الله وحده لا شريك له، إما بطواف أو صلاة، فذكر في سورة الحج أجزاءها الثلاثة (قيامها وركوعها وسجودها) ولم يذكر العاكفين لأنه تقدم ﴿سواء العاكف فيه والباد﴾، وفي هذه الآية الكريمة ذكر الطائفين والعاكفين، واكتفى بذكر الركوع والسجود عن القيام، لأنه قد علم أنه لا يكون ركوع ولا سجود إلا بعد قيام، وفي ذلك أيضاً رد على من لا يحججه من أهل الكتابين (اليهود والنصارى) لأنهم يعتقدون فضيلة إبراهيم الخليل وإسماعيل ويعلمون أنه بنى هذا البيت للطواف في الحج والعمرة وهم لا يفعلون شيئاً من ذلك، فكيف يكونون مقتدين بالخليل وهم لا يفعلون ما شرع الله له؟ وقد حج البيت موسى بن عمران وغيره من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام كما أخبر بذلك المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى ﴿إن هو إلا وحي يوحى﴾ .

وتقدير الكلام إذن: ﴿وعهدنا إلى إبراهيم﴾ أي تقدمنا بوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل ﴿أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود﴾ أي طهراه من الشرك والريب وابنيه خالصاً لله معقلاً للطائفين والعاكفين والركع السجود. وتطهير المساجد مأخوذ من هذه الآية الكريمة ومن قوله تعالى: ﴿في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال﴾، ومن السنة من أحاديث كثيرة من الأمر بتطهيرها وتطيبها وغير ذلك من صياتها من الأذى والنجاسات وما أشبه ذلك. ولهذا قال عليه السلام: «إنما بنيت المساجد لما بنيت له»، وقد جمعت في ذلك جزءاً على حدة والله الحمد والمنة. وقد اختلف الناس في أول من بنى الكعبة؟ فقيل: الملائكة قبل آدم ذكره القرطبي وحكى لفظه وفيه غرابة، وقيل آدم عليه السلام رواه عطاء وسعيد بن المسيب وهذا غريب أيضاً. وروي عن ابن عباس وكعب الأحبار أن أول من بناه شيث عليه السلام، وغالب من يذكر هذا إنما يأخذه من كتب أهل الكتاب وهي مما لا يصدق ولا يكذب ولا يعتمد عليها بمجردا. وأما إذا صح حديث في ذلك فعلى الرأس والعين.

وقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مِنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ ﴾ قال ابن جرير عن جابر بن عبد الله: قال رسول الله ﷺ: « إن إبراهيم حرم بيت الله وأمنه، وإني
حرمت المدينة ما بين لابتيها، فلا يصاد صيدها ولا يقطع عضاهاها^(١) ». عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان
الناس إذا رأوا أول الثمر جاءوا به إلى رسول الله ﷺ، فإذا أخذه رسول الله ﷺ قال: « اللهم بارك لنا في
ثمرنا، وبارك لنا في مدينتنا، وبارك لنا في صاعنا، وبارك لنا في مُدَّننا، اللهم إن إبراهيم عبدك وخليلك
ونبيك، وإني عبدك ونبيك وإنه دعاك لمكة، وإني أدعوك للمدينة بمثل ما دعاك لمكة ومثله معه » ثم يدعو أصغر
وليد له فيعطيه ذلك الثمر^(٢). وفي الصحيحين عن أنس بن مالك قال، قال رسول الله ﷺ لأبي طلحة: « التمس لي
غلاماً من غلمانكم يخدمني »، فخرج بي أبو طلحة يردفي وراءه، فكنت أخدم رسول الله ﷺ كلما نزل. وقال
في الحديث: ثم أقبل حتى إذا بدا له أحد قال: « هذا جبل يحبنا ونحبه »، فلما أشرف على المدينة قال: « اللهم
إني أحرم ما بين جبلها مثل ما حرم به إبراهيم مكة، اللهم بارك لهم في مدهم وصاعهم »، وفي لفظ لهما: « اللهم
بارك لهم في مكياهم وبارك لهم في مدهم » زاد البخاري يعني: أهل المدينة. وعن أنس أن رسول الله ﷺ قال: « اللهم
اجعل بالمدينة ضعفي ما جعلته بمكة من البركة »^(٣). وعن أبي سعيد رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: « اللهم إن
إبراهيم حرم مكة فجعلها حراماً، وإني حرمت المدينة حراماً ما بين أزميها، أن لا يهراق فيها دم، ولا يحمل فيها
سلاح لقتال، ولا يخطب فيها شجرة إلا لعلف، اللهم بارك لنا في مدينتنا، اللهم بارك لنا في صاعنا، اللهم بارك لنا
في مُدَّننا، اللهم اجعل مع البركة بركتين^(٤) »، والأحاديث في تحريم المدينة كثيرة وإنما أوردنا منها ما هو متعلق
بتحريم إبراهيم عليه السلام لمكة لما في ذلك من مطابقة الآية الكريمة، وتمسك بها من ذهب إلى أن تحريم مكة
إنما كان على لسان إبراهيم الخليل، وقيل: إنها محرمة منذ خلقت مع الأرض، وهذا أظهر وأقوى والله أعلم.

وقد وردت أحاديث أخر تدل على أن الله تعالى حرم مكة قبل خلق السماوات والأرض كما جاء في الصحيحين
عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ يوم فتح مكة: « إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق
السماوات والأرض، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، وإنه لم يحل القتال فيه لأحد قبلي، ولم يحل لي إلا ساعة
من نهار، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، لا يعضد شوكه، ولا ينفر صيده، ولا يلتقط لقطته إلا من عرفها
ولا يخنل خلاها »، فقال العباس: يا رسول الله إلا الإذخر فإنه لقيتهم وليبوتهم، فقال: « إلا الإذخر ». وعن
أبي شريح العلوي أنه قال لعمر بن سعيد - وهو يبعث البعوث إلى مكة - ائذن لي أيها الأمير أن أحدثك قولاً
قام به رسول الله ﷺ الغد من يوم الفتح، سمعته أذناي، ووعاه قلبي، وأبصرته عيناي حين تكلم به، إنه حمد الله
وأثنى عليه ثم قال: « إن مكة حرمها الله ولم يحرمها الناس، فلا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها
دماً، ولا يعضد بها شجرة، فإن أحد ترخص بقتال رسول الله ﷺ فقولوا: إن الله أذن لرسوله ولم يأذن لكم،

(١) رواه النسائي وأخرجه مسلم بطريق آخر .

(٢) رواه مسلم ، وفي لفظ له « بركة مع بركة » ثم يعطيه أصغر من حضر من الولدان .

(٣) رواه البخاري ومسلم .

(٤) رواه مسلم .

وإنما أذن لي فيها ساعة من نهار وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس، ليلبغ الشاهد الغائب^(١)»، فقيل لأبي شريح ما قال لك عمرو؟ قال: أنا أعلم بذلك منك يا أبا شريح، إن الحرم لا يعيد عاصياً ولا فاراً بدم ولا فاراً بخربة .

فإذا علم هذا فلا منافاة بين هذه الأحاديث، الدالة على أن الله حرم مكة يوم خلق السماوات والأرض، وبين الأحاديث الدالة على أن إبراهيم عليه السلام حرمها، لأن إبراهيم بلغ عن الله حكمه فيها، وتحريمه إياها وأنها لم تزل بلداً حراماً عند الله قبل بناء إبراهيم عليه السلام لها، كما أنه قد كان رسول الله ﷺ مكتوباً عند الله خاتم النبيين وإن آدم لمنجدل في طينته، ومع هذا قال إبراهيم عليه السلام: ﴿ربنا وابعث فيهم رسولا منهم﴾ وقد أجاب الله دعاءه بما سبق في علمه وقدره .

وأما مسألة تفضيل مكة على المدينة كما هو قول الجمهور، أو المدينة على مكة كما هو مذهب مالك وأتباعه، فتذكر في موضع آخر بأدلتها إن شاء الله وبه الثقة. وقوله تعالى إخباراً عن الخليل: ﴿رب اجعل هذا بلداً آمناً﴾ أي من الخوف أي لا يرعب أهله، وقد فعل الله ذلك شرعاً وقدرأً، كقوله تعالى: ﴿ومن دخله كان آمناً﴾، وقوله: ﴿أو لم يروا أننا جعلنا حراماً آمناً ويُتخطف الناس من حولهم﴾ إلى غير ذلك من الآيات وقد تقدمت الأحاديث في تحريم القتال فيه، وفي صحيح مسلم عن جابر سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يحل لأحد أن يحمل بمكة السلاح»، وقال في هذه السورة: ﴿رب اجعل هذا بلداً آمناً﴾ أي اجعل هذه البقعة بلداً آمناً وناسب هذا لأنه قبل بناء الكعبة، وقال تعالى في سورة إبراهيم: ﴿وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمناً﴾ وناسب هذا هناك لأنه - والله أعلم - كأنه وقع دعاء مرة ثانية بعد بناء البيت واستقرار أهله به، وبعد مولد إسحاق الذي هو أصغر سنّاً من إسماعيل بثلاث عشرة سنة، ولهذا قال في آخر الدعاء: ﴿الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحق إن ربي لسميع الدعاء﴾ .

وقوله تعالى: ﴿وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر﴾، قال: ومن كفر فأمته قليلاً ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير. قال أبو جعفر الرازي عن أبي بن كعب: ﴿قال ومن كفر﴾ الآية هو قول الله تعالى. وهذا قول مجاهد وعكرمة وهو الذي صوبه ابن جرير رحمه الله، قال: وقرأ آخرون: ﴿قال ومن كفر فأمته قليلاً ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير﴾ فجعلوا ذلك من تمام دعاء إبراهيم. قال ابن عباس: «كان إبراهيم يحجرها على المؤمنين دون الناس، فأنزل الله ومن كفر أيضاً أرزقهم كما أرزق المؤمنين، أخلق خلقاً لا أرزقهم؟ أمتهم قليلاً ثم أضطرهم إلى عذاب النار وبئس المصير» ثم قرأ ابن عباس: ﴿كلاً نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظوراً﴾^(٢)، وهذا كقوله تعالى: ﴿إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون * متاع في الدنيا ثم إلينا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون﴾، وكقوله تعالى: ﴿نمتهم قليلاً ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ﴾، وقوله: ﴿ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير﴾ أي ثم ألجئه بعد متاعه في الدنيا، وبسطنا عليه من ظلها ﴿إلى عذاب النار وبئس المصير﴾ ومعناه أن الله تعالى يُنظرهم ويمهلهم ثم يأخذهم أخذ

(١) رواه البخاري ومسلم عن أبي شريح العدوي . (٢) أخرجه ابن مردويه وروى نحوه عن مجاهد وعكرمة .

عزيز مقتدر كقوله تعالى: ﴿وَكأين من قرية أملت لها وهي ظالمة ثم أخذتها وإلي المصير﴾. وفي الصحيح: «إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته»، ثم قرأ قوله تعالى: ﴿وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد﴾.

وأما قوله تعالى: ﴿وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم﴾ فالقواعد جمع قاعدة، وهي السارية والأساس، يقول تعالى: واذكر يا محمد لقومك بناء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام البيت، ورفعهما القواعد منه وهما يقولان: ﴿ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم﴾ فهما في عمل صالح وهما يسألان الله تعالى أن يتقبل منهما، وقال بعض المفسرين: الذي كان يرفع القواعد هو إبراهيم، والداعي إسماعيل، والصحيح أنهما كانا يرفعان ويقولان كما سيأتي بيانه. وقد روى البخاري عن سعيد بن جبيرة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: أول ما اتخذ النساء المنطق من قبل أم إسماعيل، اتخذت منطقاً لتعفي أثرها على سارة، ثم جاء بها إبراهيم وياؤها إسماعيل وهي ترضعه حتى وضعهما عند البيت، عند دوحه فوق زمزم في أعلى المسجد وليس بمكة يومئذ أحد، وليس بها ماء، فوضعهما هنالك ووضع عندهما جراباً فيه تمر، وسقاء فيه ماء، ثم قفى إبراهيم منطقاً فتبعته أم إسماعيل فقالت: يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه أنيس ولا شيء؟ فقالت له ذلك مراراً وجعل لا يلتفت إليها، فقالت: آله أمرك بهذا؟ قال: نعم، قالت: إذاً لا يضيعنا، ثم رجعت. فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه استقبل بوجهه البيت، ثم دعا بهذه الدعوات ورفع يديه فقال: ﴿ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم حتى بلغ﴾ يشكرون. .

وجعلت أم إسماعيل ترضع إسماعيل وتشرب من ذلك الماء، حتى إذا نفذ ما في السقاء عطشت وعطش ابنها، وجعلت تنظر إليه يتلوى - أو قال يتلبط - فانطلقت كراهية أن تنظر إليه، فوجدت الصفا أقرب جبل في الأرض يليها، فقامت عليه ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى أحداً فلم تر أحداً، فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت الوادي رفعت طرف درعها، ثم سعت سعي الإنسان المجهود حتى جاوزت الوادي، ثم أتت المروة فقامت عليها فنظرت هل ترى أحداً، فلم تر أحداً ففعلت ذلك سبع مرات، قال ابن عباس: قال النبي ﷺ: «فلذلك سعى الناس بينهما»، فلما أشرفت على المروة سمعت صوتاً فقالت: «صه» - تريد نفسها - ثم تسمعت فسمعت أيضاً، فقالت: قد أسمعت إن كان عندك غواث فإذا هي بالملك عند موضع زمزم، فبحث بعقبه - أو قال بجناحه - حتى ظهر الماء، فجعلت تحوضه وتقول بيدها هكذا وجعلت تغرف من الماء في سقائها وهو يفور بعد ما تغرف، قال ابن عباس: قال النبي ﷺ: «يرحم الله أم إسماعيل لو تركت زمزم - أو قال لو لم تغرف من الماء - لكانت زمزم عيناً معيناً» .

قال: فشربت وأرضعت ولدها، فقال لها الملك: لا تخافي الضيعة فإن ههنا بيتاً لله بينه هذا الغلام وأبوه، وإن الله لا يضيع أهله، وكان البيت مرتفعاً من الأرض كالراية، تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وشماله، فكانت كذلك حتى مرت بهم رفقة من جرهم، أو أهل بيت من جرهم مقبلين من طريق كداء، فترلوا في أسفل مكة فرأوا طائراً عاقفاً، فقالوا: إن هذا الطائر ليدور على ماء، لعهدنا بهذا الوادي وما فيه ماء، فأرسلوا جرياً أو جريين فإذا هم بالماء فرجعوا فأخبروهم بالماء، فأقبلوا، قال: وأم إسماعيل عند الماء، فقالوا: أتأذنين لنا أن ننزل عندك؟ قالت: نعم

ولكن لا حقَّ لكم في الماء عندنا، قالوا: نعم، قال ابن عباس: قال النبي ﷺ: « فألقى ذلك أم إسماعيل وهي تحب الأُنس »، فترزوا وأرسلوا إلى أهلهم فترزوا معهم حتى إذا كان بها أهل أبيات منهم، وشب الغلام وتعلم العربية منهم وأنفسهم وأعجبهم حين شب، فلما أدرك زوجه امرأة منهم .

وماتت (أم إسماعيل) فجاء إبراهيم بعد ما تزوج إسماعيل يطالع تركته فلم يجد إسماعيل، فسأل امرأته عنه فقالت: خرج يبتغي لنا، ثم سألتها عن عيشهم وهيتهم فقالت: نحن بشر، نحن في ضيق وشدة فشكت إليه، قال: إذا جاء زوجك فاقرني عليه السلام وقولي له يغير عتبةً بابه، فلما جاء إسماعيل كأنه أنس شيئاً فقال: هل جاءكم من أحد؟ قالت: نعم جاءنا شيخ كذا وكذا فسألنا عنك فأخبرته وسألني كيف عشنا؟ فأخبرته أننا في جهد وشدة، قال: فهل أوصاك بشيء؟ قالت: نعم أمرني أن أقرأ عليك السلام ويقول غير عتبة بابك، قال: ذلك أبي وقد أمرني أن أفارقك فالحقي بأهلك، وطلّقها وتزوج منهم بأخرى. فلبث عنهم إبراهيم ما شاء الله ثم أتاهم بعد فلم يجده فدخل على امرأته فسألها عنه فقالت: خرج يبتغي لنا، قال: كيف أتم؟ وسألها عن عيشهم وهيتهم، فقالت: نحن بخير وسعة، وأنت على الله عز وجل، قال: ما طعامكم؟ قالت: اللحم، قال: فما شربكم؟ قالت: الماء، قال: اللهم بارك لهم في اللحم والماء، قال النبي ﷺ: « ولم يكن لهم يومئذ حَبٌّ ولو كان لهم لدعاهم فيه »، قال: فهما لا يخلو عليهما أحد بغير مكة الا لم يوافقاه، قال: فإذا جاء زوجك فاقرني عليه السلام ومريه يثب عتبة بابه، فلما جاء إسماعيل قال: هل أتاكم من أحد؟ قالت: نعم أتانا شيخ حسن الهيئة وأنت عليه، فسألني عنك فأخبرته فسألني كيف عشنا؟ فأخبرته أننا بخير، قال: فأوصاك بشيء؟ قالت: نعم هو يقرأ عليك السلام ويأمرك أن تثب عتبة بابك، قال: ذلك أبي وأنت العتبة أمرني أن أمسكك. ثم لبث عنهم ما شاء الله ثم جاء بعد ذلك وإسماعيل ييري نبلاً له تحت دوحة، قريباً من زمزم، فلما رآه قسام إليه وصنعا كما يصنع الوالد بالولد والولد بالوالد، ثم قال: يا إسماعيل إن الله أمرني بأمر قال: فاصنع ما أمرك ربك، قال: وتعيني؟ قال: وأعينك، قال: فإن الله أمرني أن أبني ههنا بيتاً، وأشار إلى أكمة مرتفعة على ما حولها قال: فعند ذلك رفعوا القواعد من البيت، فجعل إسماعيل يأتي بالحجارة وإبراهيم يبني حتى إذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر فوضعه له فقام عليه، وهو يبني وإسماعيل يناوله الحجارة وهما يقولان: ﴿ ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ﴾. قال: فجعلوا بينان حتى يدورا حول البيت وهما يقولان: ﴿ ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ﴾.

ثم قال البخاري: حدثنا عبد الله بن محمد أخبرنا أبو عامر عبد الملك بن عمرو، أخبرنا إبراهيم بن نافع عن كثير بن كثير عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: « لما كان بين إبراهيم وبين أهله ما كان خرج بإسماعيل وأم إسماعيل ومعهم شنة فيها ماء فجعلت أم إسماعيل تشرب من الشنة فيدر لبنها على صبيها حتى قدم مكة فوضعها تحت دوحة ثم رجع إبراهيم إلى أهله، فاتبعته أم إسماعيل حتى بلغوا كداء نادته من ورائه: يا إبراهيم إلى من تتركنا؟ قال: إلى الله، قالت: رضيت بالله. قال: فرجعت تشرب من الشنة ويدر لبنها على صبيها حتى لما في الماء. قالت: لو ذهبت فنظرت لعلني أحس أحداً، فذهبت فصعدت الصفا، فنظرت هل تحس أحداً؟ فلم تحس أحداً، فلما بلغت الوادي سعت حتى أتت المروة وفعلت ذلك أشواطاً حتى أتمت سبعاً، ثم قالت: لو ذهبت فنظرت ما فعل الصبي، فذهبت فنظرت فإذا هو على حاله كأنه ينشغ للموت فلم تقرها نفسها، فقالت: لو ذهبت

فَنظَرْتُ لِعَلِي أَحْسَ أَحَدًا، فَذَهَبْتُ فَصَعِدْتُ الصَّفَا، فَنظَرْتُ وَنظَرْتُ فَلَمْ تَحْسُ أَحَدًا حَتَّى أَتَمْتُ سَبْعًا، ثُمَّ قَالَتْ: لَوْ ذَهَبْتُ فَنظَرْتُ مَا فَعَلْتُ، فَإِذَا هِيَ بِصَوْتِ فَقَالَتْ: أَغَثُ إِنْ كَانَ عِنْدَكَ خَيْرٌ، فَإِذَا جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: فَقَالَ بَعْقِبُهُ هَكَذَا وَغَمَزَ عَقْبَهُ عَلَى الْأَرْضِ، قَالَ: فَانْبَقَ الْمَاءُ. فَذَهَشَتْ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ فَجَعَلَتْ تَحْفَرُ قَالَ: فَقَالَ أَبُو الْقَاسِمِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَوْ تَرَكْتَهُ لَكَانَ الْمَاءُ ظَاهِرًا»، قَالَ: فَجَعَلَتْ تَشْرَبُ مِنَ الْمَاءِ وَيَدْرُ لِبَنَاهِ عَلَى صَبِيهَا. قَالَ: فَرَّ نَاسٌ مِنْ جَرَاهِمُ بِيْطْنِ الْوَادِي فَإِذَا هُمْ بِطَيْرٍ كَأَنَّهُمْ أَنْكَرُوا ذَلِكَ، وَقَالُوا: مَا يَكُونُ الطَّيْرُ إِلَّا عَلَى مَاءٍ، فَبِعَثُوا رَسُولَهُمْ فَنَظَرَ فَإِذَا هُوَ بِالْمَاءِ فَاتَاهُمْ فَأَخْبَرَهُمْ، فَاتُوا إِلَيْهَا فَقَالُوا: يَا أُمَّ إِسْمَاعِيلَ أَتَأْذِنِينَ لَنَا أَنْ نَكُونَ مَعَكَ وَنَسْكُنَ مَعَكَ؟

فَبَلَغَ ابْنَهَا وَنَكَحَ مِنْهُمْ امْرَأَةً. قَالَ: ثُمَّ إِنَّهُ بَدَأَ لِإِبْرَاهِيمَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ لِأَهْلِهِ: إِنِّي مُطَّلِعٌ تَرَكْتِي، قَالَ: فَجَاءَهُمْ فَسَلَّمَ فَقَالَ: يَا بِنْتُ إِسْمَاعِيلَ؟ قَالَتْ امْرَأَتُهُ: ذَهَبَ يَصِيدُ، قَالَ: قَوْلِي لَهُ إِذَا جَاءَ غَيْرُ عْتَبَةٍ بَابِكَ، فَلَمَّا أَخْبَرْتَهُ قَالَ: أَنْتِ ذَاكَ فَادْهَبِي إِلَى أَهْلِكَ، قَالَ: ثُمَّ إِنَّهُ بَدَأَ لِإِبْرَاهِيمَ فَقَالَ: إِنِّي مُطَّلِعٌ تَرَكْتِي، قَالَ: فَجَاءَ فَقَالَ: يَا بِنْتُ إِسْمَاعِيلَ؟ فَقَالَتْ امْرَأَتُهُ: ذَهَبَ يَصِيدُ، فَقَالَتْ: أَلَا تَنْزِلُ فَتَطْعَمُ وَتَشْرَبُ؟ فَقَالَ: مَا طَعَامُكُمْ وَمَا شَرَابُكُمْ؟ قَالَتْ: طَعَامُنَا اللَّحْمُ وَشَرَابُنَا الْمَاءُ. قَالَ: اللَّهُمَّ بَارِكْ لَهُمْ فِي طَعَامِهِمْ وَشَرَابِهِمْ. قَالَ: فَقَالَ أَبُو الْقَاسِمِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «بِرُكَّةٍ بِدَعْوَةِ إِبْرَاهِيمَ». قَالَ: ثُمَّ إِنَّهُ بَدَأَ لِإِبْرَاهِيمَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ لِأَهْلِهِ: إِنِّي مُطَّلِعٌ فَجَاءَ فَوَافَقَ إِسْمَاعِيلَ مِنْ وَرَاءِ زَمْرَمٍ يَصْلُحُ نَبْلًا لَهُ، فَقَالَ: يَا إِسْمَاعِيلُ إِنْ رَبِّكَ عَزَّ وَجَلَّ أَمَرَنِي أَنْ أَبْنِيَ لَهُ بَيْتًا، فَقَالَ: أَطْعِمْ رَبِّكَ عَزَّ وَجَلَّ، قَالَ: إِنَّهُ أَمَرَنِي أَنْ تَعِينَنِي عَلَيْهِ، فَقَالَ: إِذْنِ افْعَلْ - أَوْ كَمَا قَالَ - قَالَ: فَفَقَامَ فَجَعَلَ إِبْرَاهِيمُ بَيْنِي وَإِسْمَاعِيلَ يَنَالُوهُ الْحِجَارَةَ، وَيَقُولَانِ: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ قَالَ: حَتَّى ارْتَفَعَ الْبِنَاءُ، وَضَعَفَ الشَّيْخُ عَنْ نَقْلِ الْحِجَارَةِ، فَفَقَامَ عَلَى حَجَرِ الْمَقَامِ، فَجَعَلَ يَنَالُوهُ الْحِجَارَةَ وَيَقُولَانِ: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

قال محمد بن إسحاق عن مجاهد وغيره من أهل العلم: إن الله لما بوأ إبراهيم مكان البيت، خرج إليه من الشام وخرج معه إسماعيل وأمه هاجر، وإسماعيل طفل صغير يرضع، ومعه جبريل يدلّه على موضع البيت ومعالم الحرم، فكان لا يمر بقرية إلا قال: أبهذه أمرت يا جبريل؟ فيقول جبريل: امضه، حتى قدم به مكة وهي إذ ذاك عضاه (سلم وسمر) وبها أناس يقال لهم العماليق خارج مكة وما حولها، والبيت يومئذ ربوة حمراء مدرة، فقال إبراهيم لجبريل: أههنا أمرت أن أضعهما؟ قال: نعم، فعمد بهما إلى موضع الحجر فأنزلهما فيه، وأمر (هاجر) أم إسماعيل أن تتخذ فيه عريشاً فقال: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾ إلى قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾. وقال عبد الرزاق عن مجاهد: خلق الله موضع هذا البيت قبل أن يخلق شيئاً بألفي سنة وأركانها في الأرض السابعة.

وقال البخاري رحمه الله قوله تعالى ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ﴾ الآية: القواعد أساسه، واحدها قاعدة، والقواعد من النساء واحدها قاعدة، عن عائشة زوج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «ألم تري أن قومك حين بنوا البيت اقتصروا عن قواعد إبراهيم؟» فقلت: يا رسول الله ألا تردها على قواعد إبراهيم؟ قال: «لولا حدثان قومك بالكفر»، فقال عبد الله بن عمر: لئن كانت عائشة سمعت هذا من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما أرى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ترك استلام الركبتين اللذين يليان الحجر، إلا أن البيت لم يتمم على قواعد إبراهيم عليه السلام. ورواه مسلم أيضاً من حديث نافع عن عائشة عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «لولا أن قومك حديثو عهد بجاهلية - أو قال

بكفر - لأنفقت كنز الكعبة في سبيل الله ولجعلت بابها بالأرض، ولأدخلت فيها الحجر .»

(ذكر بناء قريش الكعبة بعد إبراهيم الخليل عليه السلام وقبل مبعث رسول الله ﷺ بخمس سنين)

وقد نقل معهم الحجارة وله من العمر خمس وثلاثون سنة صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين .

قال محمد بن إسحاق في السيرة: ولما بلغ رسول الله ﷺ خمساً وثلاثين سنة، اجتمعت قريش لبنين الكعبة وكانوا يهابون هدمها، وإنما كانت رضماً فوق القامة، فأرادوا رفعها وتسقيفها، وذلك أن نفرأ سرقوا كنز الكعبة. وكان البحر قد رمى بسفينة إلى جدة لرجل من تجار الروم فتحطمت، فأخذوا خشبها فأعدوه لتسقيفها، وكان بمكة رجل قبطي نجار فهبأ لهم في أنفسهم بعض ما يصلحها، وكانت حية تخرج من بئر الكعبة فتشرف على جدار الكعبة وكانت مما يهابون. ذلك أنه كان لا يدنو منها أحد إلا احزألت^(١) وكشت وفتحت فاها فكانوا يهابونها، فبينما هي يوماً تشرف على جدار الكعبة كما كانت تصنع، بعث الله إليها طائراً فاخطفها فذهب بها، فقالت قريش: إنا لنرجو أن يكون الله قد رضي ما أردنا، عندنا عامل رفيق وعندنا خشب وقد كفانا الله الحية، فلما أجمعوا أمرهم في هدمها وبنائها قام ابن وهب^(٢) بن عمرو بن عائذ فتناول من الكعبة حجراً فوثب من يده حتى رجع إلى موضعه، فقال: يا معشر قريش لا تدخلوا في بنائها من كسبكم إلا طيباً، لا يدخل فيها مهر بغي، ولا بيع ربا، ولا مظلمة أحد من الناس .

ثم إن قريشاً تجزأت الكعبة فكان شق الباب لبني عبدمناف وزهرة، وكان ما بين الركن الأسود والركن اليماني لبني مخزوم وقبائل من قريش انضموا إليهم، وكان ظهر الكعبة لبني جمح وسهم، وكان شق الحجر لبني عبد الدار ابن قصي ولبني أسد بن عبد العزى بن قصي ولبني عدي بن كعب بن لؤي وهو الحطيم، ثم إن الناس هابوا هدمها وفرقوا منه، فقال الوليد بن المغيرة: أنا أبدوكم في هدمها، فأخذ المعول ثم قام عليها وهو يقول: اللهم لم ترع، اللهم إنا لا نريد إلا الخير، ثم هدم من ناحية الركنين، فتربص الناس تلك الليلة وقالوا: نلظن فإن أصيب لم نهدم منها شيئاً، ورددناها كما كانت، وإن لم يصبه شيء فقد رضي الله ما صنعنا، فأصبح الوليد من ليلته غادياً على عمله. فهدم، وهدم الناس معه حتى إذا انتهى الهدم بهم إلى الأساس - أساس إبراهيم عليه السلام - أفضوا إلى حجارة خضر كالأسنة أخذ بعضها بعضاً. قال: فحدثني بعض من يروي الحديث: أن رجلاً من قريش ممن كان يهدمها أدخل عتلة بين حجرين منها ليقلع بها أيضاً أحدهما فلما تحرك الحجر انتفضت مكة بأسرها فانتها عن ذلك الأساس .

قال ابن إسحاق: ثم إن القبائل من قريش جمعت الحجارة لبنائها، كل قبيلة تجمع على حدة، ثم بنوها حتى بلغ البنين موضع الركن يعني (الحجر الأسود) فاختموا فيه، كل قبيلة تريد أن ترفعه إلى موضعه دون الأخرى، حتى تحاوروا وتخالفوا وأعدوا للقتال، فقربت بنو عبد الدار جفنة مملوءة دماً، ثم تعاقدوا هم وبنو عدي

(١) إْحْزَأَلَتْ : ارتفعت واستعدت للوثوب .

(٢) خال والد النبي، وكان شريفاً مملوحاً .

ابن كعب بن لؤي على الموت وأدخلوا أيديهم في ذلك الدم في تلك الجفنة فسموا «لَعَقَةَ الدَّمِ»، فكثرت قريش على ذلك أربع ليالٍ أو خمساً، ثم إنهم اجتمعوا في المسجد فتشاوروا وتناصفوا، فزعم بعض أهل الرواية أن أبا أمية بن المغيرة - وكان عامئذ أسنَّ قريش كلهم - قال: يا معشر قريش اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أول من يدخل من باب هذا المسجد، يقضي بينكم فيه ففعلوا، فكان أول داخل رسول الله ﷺ فلما رأوه قالوا: هذا الأمين رضينا... هذا محمد، فلما انتهى إليهم وأخبروه الخبر قال ﷺ: «هلمَّ إليَّ بثوب، فأني به، فأخذ الركن - يعني الحجر الأسود - فوضعه فيه بيده ثم قال: «لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ثم ارفعه جميعاً، ففعلوا حتى إذا بلغوا به موضعه، وضعه هو بيده ﷺ، ثم بنى عليه، وكانت قريش تسمي رسول الله ﷺ قبل أن يتزل عليه الوحي (الأمين)».

قال ابن إسحاق: وكانت الكعبة على عهد النبي ﷺ ثماني عشر ذراعاً، وكانت تكسى القباطي، ثم كسيت بعد البرود، وأول من كساها الديباج الحجاج بن يوسف. (قلت): ولم تزل على بناء قريش حتى احترقت في أول إمارة عبد الله بن الزبير بعد سنة ستين وفي آخر ولاية يزيد بن معاوية لما حاصروا ابن الزبير، فحينئذ نقضها (ابن الزبير) إلى الأرض وبنائها على قواعد إبراهيم عليه السلام، وأدخل فيها الحجر وجعل لها باباً شرقياً وباباً غربياً ملصقين بالأرض كما سمع ذلك من خالته عائشة أم المؤمنين عن رسول الله ﷺ. ولم تزل كذلك مدة إمارته حتى قتله الحجاج، فردّها إلى ما كانت عليه بأمر عبد الملك بن مروان له بذلك، كما قال مسلم عن عطاء: «لما احترق البيت زمن (يزيد بن معاوية) حين غزاها أهل الشام فكان من أمره ما كان تركه ابن الزبير، حتى قدم الناس الموسم يريد أن يحزبهم أو يجيروهم على أهل الشام، فلما صدر الناس قال: يا أيها الناس أشيروا عليّ في الكعبة أنقضها ثم أبنى بناءها أو أصلح ما وهى منها؟ قال ابن عباس: إنه قد خرق لي رأي فيها أرى أن تصلح ما وهى منها وتدع بيتاً أسلم الناس عليه، وأحجاراً أسلم الناس عليها وبعث عليها النبي ﷺ، فقال ابن الزبير: لو كان أحدهم احترق بيته ما رضي حتى يجدده فكيف بيت ربكم عز وجل؟ إني مستخير ربي ثلاثاً ثم عازم على أمري. فلما مضت ثلاث أجمع رأيي على أن ينقضها، فتحامها الناس أن يتزل بأول الناس يصعد فيه أمر من السماء حتى صعده رجل فألقى منه حجارة. فلما لم يره الناس أصابه شيء تتابعوا فنقضوه حتى بلغوا به الأرض. فجعل ابن الزبير أعمدة يستر عليها الستور حتى ارتفع بناؤه. وقال ابن الزبير: إني سمعت عائشة رضي الله عنها تقول: إن النبي ﷺ قال: «لولا أن الناس حديث عهدهم بكفر وليس عندي من النفقة ما يقويني على بنائه لكنت أدخلت فيه من الحجر خمسة أذرع ولجعلت له باباً يدخل الناس منه، وباباً يخرجون منه»، قال: فأنأ أجد ما أنفق ولست أخاف الناس. قال: فزاد فيه خمسة أذرع من الحجر حتى أبدى له أساً فنظر الناس إليه فبنى عليه البناء، وكان طول الكعبة ثمانية عشر ذراعاً، فلما زاد فيه استقصره فزاد في طوله عشرة أذرع وجعل له بايين أحدهما يدخل منه، والآخر يخرج منه. فلما قُتل ابن الزبير كتب الحجاج إلى عبد الملك يستجيزه بذلك، ويخبره أن ابن الزبير قد وضع البناء على أسٍ نظر إليه العدول من أهل مكة. فكتب إليه عبد الملك: إنا لسنأ من تلطّيح ابن الزبير في شيء، أما ما زاده في طوله فأقره، وأما ما زاد فيه من الحجر فردّه إلى بنائه وسد الباب الذي فتحه، فنقضه وأعادته إلى بنائه»^(١).

(١) رواه مسلم والنسائي عن عطاء، واللفظ لمسلم.

وقد كانت السنة إقرار ما فعله عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما لأنه هو الذي ودّه رسول الله ﷺ ، ولكن خشي أن تنكره قلوب بعض الناس لحدائثة عهدهم بالإسلام وقرب عهدهم من الكفر ، ولكن خفيت هذه السنة على (عبد الملك بن مروان) ولهذا لما تحقق ذلك عن عائشة أنها روت ذلك عن رسول الله ﷺ قال : وددنا أنا تركناه وما تولى. فدل هذا على صواب ما فعله ابن الزبير ، فلو ترك لكان جيداً .

ولكن بعدما رجع الأمر إلى هذا الحال فقد كره بعض العلماء أن يغيّر عن حاله ، كما ذكر عن أمير المؤمنين هارون الرشيد أو أبيه المهدي ، أنه سأل الإمام مالكا عن هدم الكعبة وردها إلى ما فعله ابن الزبير ، فقال له مالك : يا أمير المؤمنين لا تجعل كعبة الله ملعباً للملوك لا يشاء أحد أن يهدمها إلا هدمها !! فترك ذلك الرشيد ، نقله عياض والنووي. ولا تزال - والله أعلم - هكذا إلى آخر الزمان إلى أن يخرّبها (ذو السويقتين) من الحبشة كما ثبت ذلك في الصحيحين عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « يخرّب الكعبة ذو السويقتين من الحبشة ». وعن ابن عباس عن النبي ﷺ قال : « كأني به أسود أفحج يقلعها حجراً حجراً^(١) ». وعن مجاهد عن عبد الله بن عمرو ابن العاص رضي الله عنهما قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يخرّب الكعبة ذو السويقتين من الحبشة ويسلبها حليتها ويجردها من كسوتها ، ولكأني أنظر إليه أصيلع ، أقيّدع ، يضرب عليها بمسحاته ومعوله »^(٢) .

وهذا - والله أعلم - إنما يكون بعد خروج يأجوج ومأجوج لما جاء في صحيح البخاري عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال ، قال رسول الله ﷺ : « لِيُحْجَنَ الْبَيْتُ وَلِيُعْتَمَرَ بَعْدَ خُرُوجِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ » .

وقوله تعالى حكاية لدعاء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام : ﴿ ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك ﴾ قال ابن جرير : يعينان بذلك واجعلنا مستسلمين لأمرك ، خاضعين لطاعتك ، لا نشرك معك في الطاعة أحداً سواك ، ولا في العبادة غيرك . وقال عكرمة : ﴿ ربنا واجعلنا مسلمين لك ﴾ قال الله : قد فعلت ﴿ ومن ذريتنا أمة مسلمة لك ﴾ قال الله : قد فعلت . وقال السدي : ﴿ ومن ذريتنا أمة مسلمة لك ﴾ يعينان العرب . قال ابن جرير : والصواب أنه يعم العرب وغيرهم ، لأن من ذرية إبراهيم بني إسرائيل ، وقد قال الله تعالى : ﴿ ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون ﴾ .

(قلت) : وهذا الذي قاله ابن جرير لا ينفيه السدي فإن تخصيصهم بذلك لا ينفي من عداهم ، والسياق إنما هو في العرب ، ولهذا قال بعده : ﴿ ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم ﴾ الآية . والمراد بذلك محمد ﷺ ، وقد بعث فيهم كما قال تعالى : ﴿ هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم ﴾ ، ومع هذا لا ينفي رسالته إلى الأحمر والأسود لقوله تعالى : ﴿ قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً ﴾ وغير ذلك من الأدلة القاطعة ، وهذا الدعاء من إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام كما أخبرنا الله تعالى عن عباده المتقين المؤمنين في قوله : ﴿ والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماماً ﴾ .

(١) رواه البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما .

(٢) رواه أحمد . والفدع : زيغ بين القدم وعظم الساق .

وهذا القدر مرغوب فيه شرعاً فإنَّ من تمام محبة عبادة الله تعالى أن يحب أن يكون من صلبه من يعبد الله وحده لا شريك له. ولهذا لما قال الله تعالى لإبراهيم عليه السلام: ﴿إني جاعلك للناس إماماً﴾ قال: ﴿ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين﴾، وهو قوله: ﴿واجنبي وبنياً أن نعبد الأصنام﴾. وقد ثبت عن النبي ﷺ، أنه قال: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له»^(١).

﴿وأرنا مناسكنا﴾ قال عطاء: أخرجها لنا، علمناها، وقال مجاهد: ﴿أرنا مناسكنا﴾ مذابحنا. وقال أبو داود الطيالسي عن أبي الطفيل عن ابن عباس قال: «إن إبراهيم لما أرى أوامر المناسك عرض له الشيطان عند المسعى، فسابقه إبراهيم، ثم انطلق به جبريل حتى أتى به (منى) فقال: هذا مناخ الناس، فلما انتهى إلى (جمرة العقبة) تعرض له الشيطان، فرماه بسبع حصيات حتى ذهب، ثم أتى به إلى (الجمرة الوسطى) فعرض له الشيطان فرماه بسبع حصيات حتى ذهب، ثم أتى به إلى (الجمرة القصوى) فعرض له الشيطان فرماه بسبع حصيات حتى ذهب، فأتى به جمعاً فقال: هذا المشعر، ثم أتى به عرفة فقال: هذه عرفة، فقال له جبريل: أعرفت؟»^(٢).

رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾

يقول تعالى إخباراً عن تمام دعوة إبراهيم لأهل الحرم أن يبعث الله فيهم رسولاً منهم، أي من ذرية إبراهيم، وقد وافقت هذه الدعوة المستجابة قدر الله السابق في تعيين محمد صلوات الله وسلامه عليه رسولاً في الأميين إليهم، وإلى سائر الأعجميين من الإنس والجن، كما قال الإمام أحمد عن العرابض بن سارية: قال، قال رسول الله ﷺ: «إني عند الله لخاتم النبيين وإن آدم لمنجدل في طينته، وسأنبئكم بأول ذلك، دعوة أبي إبراهيم، وبشارة عيسى بي، ورؤيا أمي التي رأت، وكذلك أمهات النبيين يرين»^(٣).

وقال أبو أمامة قلت: يا رسول الله ما كان أول بدء أمرك؟ قال: «دعوة أبي إبراهيم، وبشرى عيسى بي، ورأت أمي أنه خرج منها نورٌ أضاءت له قصور الشام»^(٤). والمراد أن أول من نوه بذكره وشهره في الناس إبراهيم عليه السلام، ولم يزل ذكره في الناس مذكوراً مشهوراً سائراً، حتى أفصح باسمه خاتم أنبياء بني إسرائيل نسباً وهو (عيسى بن مريم) عليه السلام حيث قام في بني إسرائيل خطيباً، وقال: ﴿إني رسول الله إليكم مصداقاً لما بين يدي من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد﴾، ولهذا قال في هذا الحديث: دعوة أبي إبراهيم وبشرى عيسى بن مريم. وقوله: «ورأت أمي أنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام» قيل: كان مناماً رآته حين حملت به وقصته على قومها، فشاع فيهم واشتهر بينهم، وكان ذلك توطئة! وتخصيص الشام بظهور نوره إشارة

(٢) أخرجه الطيالسي عن ابن عباس .

(١) رواه مسلم عن أبي هريرة .

(٣) و (٤) رواهما الإمام أحمد في مسنده .

إلى استقرار دينه ونبوته ببلاد الشام ، ولهذا تكون الشام في آخر الزمان معقلاً للإسلام وأهله ، وبها ينزل (عيسى ابن مريم) إذا نزل بدمشق بالمنارة الشرقية البيضاء منها ، ولهذا جاء في الصحيحين : « لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك » . وفي صحيح البخاري : « وهم بالشام » .

قوله : ﴿ ربنا وابعث فيهم رسولا منهم ﴾ يعني أمة محمد ﷺ ، فقيل له : قد استجيب لك وهو كائن في آخر الزمان ، وقوله تعالى : ﴿ ويعلمهم الكتاب ﴾ يعني القرآن ، ﴿ والحكمة ﴾ يعني السنة ، قاله الحسن وقتادة ، وقيل : الفهم في الدين ، ولا منافاة . ﴿ ويزكهم ﴾ قال ابن عباس : يعني طاعة الله والإخلاص ، وقال محمد بن إسحاق : ﴿ ويعلمهم الكتاب والحكمة ﴾ : يعلمهم الخير فيفعلوه والشر فيتقوه ، ويخبرهم برضا الله عنهم إذا أطاعوه ليستكثروا من طاعته ويجتنبوا ما يسخطه من معصيته ، وقوله : ﴿ إنك أنت العزيز الحكيم ﴾ أي العزيز الذي لا يعجزه شيء وهو قادر على كل شيء ، الحكيم في أفعاله وأقواله فيضع الأشياء في محالها لعلمه وحكمته وعدله .

وَمَنْ يَرْغُبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يٰبَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾

يقول تبارك وتعالى رداً على الكفار فيما ابتدعوه وأحدثوه من الشرك بالله ، المخالف لملة إبراهيم الخليل إمام الحنفاء ، فإنه جرد توحيد ربه تبارك وتعالى فلم يدع معه غيره ، ولا أشرك به طرفة عين ، وتبرأ من كل معبود سواه ، وخالف في ذلك سائر قومه ، حتى تبرأ من أبيه ، فقال : ﴿ يا قوم إني بريء مما تشركون * إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إني براء مما تعبدون * إلا الذي فطرني فإنه سيهدين ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه ، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه . إن إبراهيم لأواه حليم ﴾ . وقال تعالى : ﴿ إن إبراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفاً ولم يك من المشركين * شاكراً لأنعمه اجتباؤه وهداه إلى صراط مستقيم ﴾ ، ولهذا وأمثاله قال تعالى : ﴿ ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ﴾ ؟ أي ظلم نفسه بسفهه وسوء تدبيره ، بتركه الحق إلى الضلال ، حيث خالف طريق من اصطفي في الدنيا للهداية والرشاد من حدائته سنة إلى ان اتخذ الله خليلاً ، وهو في الآخرة من الصالحين السعداء ، فمن ترك طريقه هذا ومسلكه وملته ، واتبع طرق الضلالة والغي فأى سفه أعظم من هذا ؟ أم أي ظلم أكبر من هذا ؟ كما قال تعالى : ﴿ إن الشرك لظلم عظيم ﴾ . قال أبو العالية وقتادة : نزلت في اليهود أحدثوا طريقاً ليست من عند الله ، وخالفوا ملة إبراهيم فيما أحدثوه ، ويشهد لصحة هذا القول قول الله تعالى : ﴿ ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين * إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله ولي المؤمنين ﴾ .

وقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلَمَ قَالَ أَسْلَمْتُ لربِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي أمره الله بالاخلاص له والاستسلام والانقياد فأجاب إلى ذلك شرعاً وقدرأ. وقوله: ﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمَ بَنِيهِ وَيَعْقُوبَ﴾ أي وصى بهذه الملة وهي الإسلام لله، أو يعود الضمير على الكلمة وهي قوله: ﴿أَسْلَمْتُ لربِّ الْعَالَمِينَ﴾ لحرصهم عليها ومحبتهم لها حافظوا عليها إلى حين الوفاة ووصوا أبناءهم من بعدهم، كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقْبِهِ﴾ . والظاهر - والله أعلم - أن إسحاق ولد له (يعقوب) في حياة الخليل وسارة، لأن البشارة وقعت بهما في قوله: ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَقَ يَعْقُوبَ﴾، وأيضاً فقد قال الله تعالى في سورة العنكبوت: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ الآية. وقال في الآية الأخرى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾، وهذا يقتضي أنه وجد في حياته، وأيضاً فإنه باني بيت المقدس كما نطقت بذلك الكتب المتقدمة، وثبت في الصحيحين من حديث أبي ذر قلت: يا رسول الله أي مسجد وضع أول؟ قال: «المسجد الحرام»، قلت: ثم أي؟ قال: «بيت المقدس»، قلت: كم بينهما؟ قال: «أربعون سنة» الحديث. فزعم ابن حبان أن بين سليمان الذي اعتقد أنه باني بيت المقدس - وإنما كان جدده بعد خرابه وزخرفه - وبين إبراهيم أربعين سنة، وهذا مما أنكر على (ابن حبان) فإن المدة بينهما تزيد على ألوف السنين والله أعلم، وأيضاً فإن وصية يعقوب لبنيه سيأتي ذكرها قريباً، وهذا يدل على أنه ههنا من جملة الموصين .

وقوله: ﴿يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ أي أحسنوا في حال الحياة، والزموا هذا ليرزقكم الله الوفاة عليه، فإن المرء يموت غالباً على ما كان عليه، ويبعث على ما مات عليه، وقد أجرى الله الكريم عادته بأن من قصد الخير ووفق له ويسر عليه، ومن نوى صالحاً ثبت عليه، وهذا لا يعارض ما جاء في الحديث الصحيح: «إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا باع أو ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها»، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا باع أو ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها»، لأنه قد جاء في بعض روايات هذا الحديث: ليعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس، ويعمل أهل النار فيما يبدو للناس، وقد قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُعْطِيَ وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى فَسَنِيْرَهُ لِلْسِرِّي * وَأَمَّا مَنْ يَجْلُ وَاسْتَعْنَى وَكَذَبَ بِالْحُسْنَى فَسَنِيْرَهُ لِلْعُسْرَى﴾ .

أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾

يقول تعالى محتجاً على المشركين من العرب أبناء إسماعيل، وعلى الكفار من بني إسرائيل بأن يعقوب لما حضرته الوفاة، وصى بنيه بعبادة الله وحده لا شريك له فقال لهم: ﴿ما تعبدون من بعدي؟ قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحق﴾، وهذا من باب التغليب لأن إسماعيل عمه، قال النحاس: والعرب تسمي

العم أبا نقله القرطبي، وقد استدلل بهذه الآية الكريمة من جعل الجد أبا وحجب به الإخوة - كما هو قول الصديق - حكاة البخاري عنه. وقوله: ﴿إِلَهُاً وَاحِداً﴾ أي نوحده بالألوهية ولا نشرك به شيئاً غيره، ﴿ونحن له مسلمون﴾ أي مطيعون خاضعون؛ كما قال تعالى: ﴿وله أسلم من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً وإليه يرجعون﴾. والإسلام هو ملة الأنبياء قاطبة وإن تنوعت شرائعهم واختلفت مناهجهم، كما قال تعالى: ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسولٍ إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون﴾ وقال ﷺ: ﴿نحن معشر الأنبياء أولاد علات ديننا واحد﴾. وقوله تعالى: ﴿تلك أمة قد خلت﴾ أي مضت، ﴿لها ما كسبت ولكم ما كسبتم﴾ أي أن السلف الماضين من آباءكم من الأنبياء والصالحين لا ينفعكم انتسابكم إليهم إذا لم تفعلوا خيراً يعود نفعه عليكم، فإن لهم أعمالهم التي عملوها ولكم أعمالكم ﴿ولا تسئلون عما كانوا يعملون﴾، ولهذا جاء في الأثر: «من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه»^(١).

وَقَالُوا كُونُوا هُوداً أَوْ نَصْرَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾

عن ابن عباس قال: قال عبد الله بن سوريا الأعور لرسول الله ﷺ: ما الهدى إلا ما نحن عليه فاتبعنا يا محمد تهتد، وقالت النصارى مثل ذلك، فأنزل الله عز وجل: ﴿وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا﴾^(٢)، وقوله: ﴿قل بل ملة إبراهيم حنيفاً﴾ أي لا نريد ما دعوتونا إليه من اليهودية والنصرانية بل تتبع ﴿ملة إبراهيم حنيفاً﴾ أي مستقيماً، وقال مجاهد: مخلصاً، وقال أبو قلابة: الحنيف الذي يؤمن بالرسول كلهم من أولهم إلى آخرهم.

قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا مِن قَبْلُ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُنْفِرُ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَخَلْفَهُمْ وَمَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَخَلْفَهُمْ مَحْجُوبٌ وَالْأَسْبَاطُ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾

أرشد الله تعالى عباده المؤمنين إلى الإيمان بما أنزل إليهم بواسطة رسوله محمد ﷺ مفصلاً وما أنزل على الأنبياء المتقدمين مجملاً، ونص على أعيان من الرسل، وأجمل ذكر بقية الأنبياء وأن لا يفرقوا بين أحد منهم بل يؤمنوا بهم كلهم، ولا يكونوا كمن قال الله فيهم: ﴿ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون تؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخلوا بين ذلك سبيلاً﴾ أولئك هم الكافرون حقاً ﴿الآية﴾. عن أبي هريرة قال: كان أهل الكتاب يقرأون التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا آمنا بالله وما أنزل الله»^(٣).

(١) قد يطلق الأثر على ما يشمل الحديث المرفوع لأنه رواه مسلم مرفوعاً من حديث طويل عن أبي هريرة .

(٢) رواه ابن اسحق عن عكرمة عن ابن عباس .

(٣) رواه البخاري عن أبي هريرة .

وقال أبو العالية وقتادة: (الأسباط) بنو يعقوب اثنا عشر رجلاً، ولد كل رجل منهم أمة من الناس فسموا الأسباط. وقال الخليل بن أحمد: الأسباط في بني إسرائيل كالقبايل في بني إسماعيل، وقال الزمخشري: الأسباط حفدة يعقوب ذراري أبنائه الاثني عشر، وقد نقله الرازي عنه وقرره ولم يعارضه، وقال البخاري: الأسباط قبائل بني إسرائيل، وهذا يقتضي أن المراد بالأسباط ههنا شعوب بني إسرائيل، وما أنزل الله من الوحي على الأنبياء الموجودين منهم، كما قال موسى لهم: ﴿اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكاً﴾ الآية. وقال تعالى: ﴿وقطعناهم اثنتي عشرة أسباطاً﴾، قال القرطبي: وسموا الأسباط من السبط وهو التابع فهم جماعة، وقيل: أصله من السَّبَط بالتحريك وهو الشجر أي في الكثرة بمنزلة الشجر، الواحدة سبطة. قال الزجاج: ويبين لك هذا ما روي عن ابن عباس قال: كل الأنبياء من بني إسرائيل إلا عشرة: (نوح، وهود، وصالح، وشعيب، وإبراهيم، وإسحاق، ويعقوب، وإسماعيل، ومحمد) عليهم الصلاة والسلام. قال القرطبي: والسبط الجماعة والقبيلة الراجعون إلى أصل واحد، وقال قتادة: أمر الله المؤمنين أن يؤمنوا به ويصدقوا بكتبه كلها وبرسوله.

فَإِنَّ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ ﴿١٣٨﴾

يقول تعالى: ﴿فإن آمنوا﴾ يعني الكفار من أهل الكتاب وغيرهم ﴿بمثل ما آمنتم به﴾ يا أيها المؤمنون من الإيمان بجميع كتب الله ورسوله ولم يفرقوا بين أحد منهم ﴿فقد اهتدوا﴾ أي فقد أصابوا الحق وأرشدوا إليه. ﴿وإن تولوا﴾ أي عن الحق إلى الباطل بعد قيسام الحجة عليهم ﴿فإنما هم في شقاقٍ فسيكفيكم الله﴾ أي فسينصرك عليهم ويظفرك بهم ﴿وهو السميع العليم﴾.

﴿صبغة الله﴾ قال الضحاك عن ابن عباس: دين الله. وقد ورد عن ابن عباس أن نبي الله ﷺ قال: «إن بني إسرائيل قالوا يا رسول الله هل يصبغ ربك؟ فقال اتقوا الله، فناداه ربه يا موسى سألك هل يصبغ ربك؟ فقل نعم: أنا أصبغ الألوان الأحمر والأبيض والأسود والألوان كلها من صبغي»، كذا وقع في رواية ابن مردويه مرفوعاً وهو في رواية ابن أبي حاتم موقوف وهو أشبه إن صح إسناده، والله أعلم.

قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلِنَا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلَكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٨﴾ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ ءَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمْ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾

يقول الله تعالى مرشداً نبيه صلوات الله وسلامه عليه إلى درء مجادلة المشركين: ﴿قل أتحتاجوننا في الله﴾

أي تناظروننا في توحيد الله والإخلاص له، والانقياد، واتباع أوامره، وترك زواجه ﴿وهو ربنا وربكم﴾ المتصرف فينا وفيكم، المستحق لإخلاص الإلهية له وحده لا شريك له ﴿ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم﴾ أي نحن برآء منكم ومما تعملون وأنتم برآء منا كما قال في الآية الأخرى: ﴿فإن كذبوك فقل لي عملي ولكم عملكم، أنتم بريئون مما أعمل وأنا بريء مما تعملون﴾، وقال تعالى: ﴿فإن حاجوك فقل أسلمت وجهي لله ومن اتبعني﴾ الآية. وقال تعالى إخباراً عن إبراهيم: ﴿وحاجه قومه قال أتحاجوني في الله﴾ الآية. وقال تعالى: ﴿لم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه﴾ الآية. وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم ونحن له مخلصون﴾: أي نحن برآء منكم كما أنتم برآء منا، ونحن له مخلصون أي في العبادة والتوجه. ثم أنكروا تعالى عليهم في دعواهم أن إبراهيم ومن ذكر بعده من الأنبياء والأسباط كانوا على ملتهم، إما اليهودية وإما النصرانية فقال: ﴿قل أنتم أعلم أم الله﴾؟ يعني بل الله أعلم، وقد أخبر أنهم لم يكونوا هوداً ولا نصارى كما قال تعالى: ﴿ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين﴾.

وقوله: ﴿ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله﴾ قال الحسن البصري: كانوا يقرأون في كتاب الله الذي أتاهم إن الدين الإسلام، وإن محمداً رسول الله، وإن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا براء من اليهودية والنصرانية، فشهدوا لله بذلك وأقروا على أنفسهم لله، فكنتموا شهادة الله عندهم من ذلك. وقوله: ﴿وما الله بغافل عما تعملون﴾ تهديد ووعيد شديد: أي أن علمه محيط بعلمكم وسيجزئكم عليه، ثم قال تعالى: ﴿تلك أمة قد خلت﴾ أي قد مضت ﴿لها ما كسبت ولكم ما كسبتم﴾ أي لهم أعمالهم ولكم أعمالكم ﴿ولا تستلون﴾ عما كانوا يعملون ﴿وليس يغني عنكم انتسابكم إليهم من غير متابعة منكم لهم، ولا تغفروا بمجرد النسبة إليهم حتى تكونوا منقادين مثلهم لأوامر الله، واتباع رسله الذين بعثوا مبشرين ومنذرين، فإنه من كفر بنبي واحد فقد كفر بسائر الرسل، ولا سيما بسيد الأنبياء وخاتم المرسلين، ورسول رب العالمين إلى جميع الإنس والجن من المكلفين صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر أنبياء الله أجمعين.

* سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّيْتُمْ عَنْ قِبَلَتِهِمُ الَّذِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعِ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٤٣﴾

قيل: المراد بالسفهاء هنا مشركو العرب قاله الزجاج، وقيل: أحبار يهود قاله مجاهد، وقيل: المنافقون قاله السدي، والآية عامة في هؤلاء كلهم، والله أعلم. عن البراء رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ صلى إلى بيت المقدس ستة عشر شهراً أو سبعة عشر شهراً، وكان يعجبه أن تكون قبلته قبل البيت، وأنه صلى أول صلاة صلاها صلاة العصر وصلى معه قوم فخرج رجل ممن كان صلى معه فر على أهل المسجد وهم راكعون، فقال: أشهد بالله

لقد صليت مع النبي ﷺ قبل مكة، فداروا كما هم قبل البيت وكان الذي قد مات على القبلة قبل أن تحول قبل البيت رجالاً قتلوا لم ندر ما نقول فيهم فأنزل الله: ﴿وما كان الله ليضيع إيمانكم إن الله بالناس لرءوف رحيم﴾^(١).

وعن البراء قال: كان رسول الله ﷺ يصلي نحو بيت المقدس، ويكثر النظر إلى السماء ينتظر أمر الله، فأنزل الله: ﴿قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام﴾. فقال رجال من المسلمين: وددنا لو علمنا علم من مات منا قبل أن نُصرف إلى القبلة، وكيف بصلاتنا نحو بيت المقدس؟ فأنزل الله: ﴿وما كان الله ليضيع إيمانكم﴾. وقال السفهاء من الناس - وهم أهل الكتاب - ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها؟ فأنزل الله: ﴿سيقول السفهاء من الناس﴾^(٢) إلى آخر الآية. وعن ابن عباس أن رسول الله ﷺ لما هاجر إلى المدينة أمره الله أن يستقبل بيت المقدس، ففرحت اليهود فاستقبلها رسول الله ﷺ بضعة عشر شهراً. وكان رسول الله ﷺ يحب قبلة إبراهيم، فكان يدعو الله وينظر إلى السماء فأنزل الله عز وجل: ﴿فولوا وجوهكم شطره﴾ أي نحوه، فارتاب من ذلك اليهود وقالوا: ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها؟ فأنزل الله: ﴿قل لله المشرق والمغرب يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم﴾^(٣)، وقد جاء في هذا الباب أحاديث كثيرة. وحاصل الأمر: أنه قد كان رسول الله ﷺ أمر باستقبال الصخرة من بيت المقدس، فكان بمكة يصلي بين الركنين فتكون بين يديه الكعبة وهو مستقبل صخرة بيت المقدس، فلما هاجر إلى المدينة تعذر الجمع بينهما فأمره الله بالتوجه إلى بيت المقدس قاله ابن عباس والجمهور.

والمقصود أن التوجه إلى بيت المقدس بعد مقدمه ﷺ المدينة واستمر الأمر على ذلك بضعة عشر شهراً، وكان يكثر الدعاء والابتهال أن يُوجَّه إلى الكعبة التي هي قبلة إبراهيم عليه السلام، فأجيب إلى ذلك وأمر بالتوجه إلى البيت العتيق، فخطب رسول الله ﷺ الناس فأعلمهم بذلك، وكان أول صلاة صلاها إليها صلاة العصر كما تقدّم في الصحيحين. وذكر غير واحد من المفسرين أن تحويل القبلة نزل على رسول الله ﷺ وقد صلى ركعتين من الظهر وذلك في مسجد بني سلمة: فسمي (مسجد القبلتين) وأما أهل قباء فلم يبلغهم الخبر إلى صلاة الفجر من اليوم الثاني كما جاء في الصحيحين عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه قال: «بينما الناس بقباء في صلاة الصبح إذ جاءهم آت فقال: إن رسول الله ﷺ قد أنزل عليه الليلة قرآن وقد أمر أن يستقبل الكعبة فاستقبلوها، وكانت وجوههم إلى الشام فاستداروا إلى الكعبة»^(٤)، ولما وقع هذا حصل لبعض الناس من أهل النفاق والريب والكفرة من اليهود ارتيابٌ وزيف عن الهدى وتخبيط وشك، وقالوا: ﴿ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها﴾ أي قالوا: ما هؤلاء تارة يستقبلون كذا وتارة يستقبلون كذا؟ فأنزل الله جوابهم في قوله: ﴿قل لله المشرق والمغرب﴾ أي الحكم والتصرف والأمر كله لله، ﴿فأينما تولوا فثم وجه الله﴾ أي الشأن كله في امتثال أوامر الله، فحيثما وجهنا وتوجهنا، فالطاعة في امتثال أمره ولو وجهنا في كل يوم مراتٍ إلى جهات متعددة فنحن عبيده، وهو تعالى له بعده ورسوله محمد صلوات

(٢) أخرجه محمد بن إسحاق عن البراء.

(٤) أخرجه الشيخان عن ابن عمر.

(١) رواه البخاري وأخرجه مسلم من وجه آخر.

(٣) رواه ابن أبي حاتم.

الله وسلامه عليه وأمته عناية عظيمة، إذ هداهم إلى قبلة إبراهيم خليل الرحمن، وجعل توجيههم إلى الكعبة أشرف بيوت الله في الأرض، إذ هي بناء إبراهيم الخليل عليه السلام، ولهذا قال: ﴿ قل لله المشرق والمغرب يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ﴾ .

عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ، يعني في أهل الكتاب: «إنهم لا يحسدوننا على شيء كما يحسدوننا على يوم الجمعة التي هداها الله لها وضلوا عنها، وعلى القبلة التي هداها الله لها، وضلوا عنها، وعلى قولنا خلف الإمام أمين^(١)» .

وقوله تعالى: ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً ﴾، يقول تعالى إنما حولناكم إلى قبلة إبراهيم عليه السلام، واخترناها لكم لنجعلكم خيار الأمم لتكونوا يوم القيامة شهداء على الأمم، لأن الجميع معترفون لكم بالفضل، والوسط ههنا: الخيار والأجود، كما يقال: قريش أوسط العرب نسباً وداراً أي خيرها، وكان رسول الله ﷺ وسطاً في قومه، أي أشرفهم نسباً، ومنه (الصلاة الوسطى) وهي العصر، ولما جعل الله هذه الأمة وسطاً خصّها بأكمل الشرائع، وأقوم المناهج وأوضح المذاهب كما قال تعالى: ﴿ هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس ﴾ .

عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: « يدعى نوح يوم القيامة فيقال له هل بلغت؟ فيقول نعم، فيدعى قومه فيقال لهم هل بلغكم؟ فيقولون ما أتانا من نذير وما أتانا من أحد، فيقال لنوح من يشهد لك؟ فيقول محمد وأمته، قال فذلك قوله: ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطاً ﴾ قال: والوسط العدل فتدعون فتشهدون له بالبلاغ ثم أشهد عليكم^(٢) ». وعن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: « يجيء النبي يوم القيامة ومعه الرجلان وأكثر من ذلك فيدعى قومه فيقال: هل بلغكم هذا؟ فيقولون لا فيقال له هل بلغت قومك؟ فيقول نعم: فيقال من يشهد لك، فيقول محمد وأمته فيدعى محمد وأمته: فيقال لهم هل بلغ هذا قومه؟ فيقولون نعم. فيقال وما علمكم؟ فيقولون جاءنا نبينا فأخبرنا أن الرسل قد بلغوا فذلك قوله عز وجل: ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطاً ﴾ قال عدلاً ﴿ لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً ﴾^(٣) . عن النبي ﷺ قال: « أنا وأمّي يوم القيامة على كوم مشرفين على الخلائق ما من الناس أحد إلا ودّ أنه منا، وما من نبي كذبه قومه إلا ونحن نشهد أنه قد بلغ رسالة ربه عز وجل^(٤) » .

وقوله تعالى: ﴿ وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله ﴾، يقول تعالى إنما شرعنا لك يا محمد التوجه أولاً إلى بيت المقدس، ثم صرفناك

(١) رواه الإمام أحمد عن عائشة مرفوعاً .

(٢) رواه البخاري والترمذي والنسائي .

(٣) رواه أحمد عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً .

(٤) رواه ابن مردويه عن جابر بن عبد الله .

عنها إلى الكعبة، ليظهر حال من يتبعك ويطيعك ويستقبل معك حيثما توجهت ممن ينقلب على عقبيه، أي مرتداً عن دينه ﴿وإن كانت لكبيرة﴾ أي هذه الفعلة وهي صرف التوجه عن بيت المقدس إلى الكعبة، أي وإن كان هذا الأمر عظيماً في النفوس، إلا على الذين هدى الله قلوبهم وأيقنوا بتصديق الرسول، وأن كل ما جاء به فهو الحق الذي لا مرية فيه، وأن الله يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، فله أن يكلف عباده بما شاء وينسخ ما يشاء، وله الحكمة التامة والحجة البالغة في جميع ذلك، بخلاف الذين في قلوبهم مرض، فإنه كلما حدث أمر أحدث لهم شكا، كما يحصل للذين آمنوا إيقاناً وتصديقاً، كما قال الله تعالى: ﴿وإذا ما أنزلت سورة فنهم من يقول: أيكم زادته هذه إيماناً؟ فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون* وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم﴾. وقال تعالى: ﴿قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى﴾. وقال تعالى: ﴿ونزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خساراً﴾، ولهذا كان - من ثبت على تصديق الرسول ﷺ واتباعه في ذلك، وتوجه حيث أمره الله من غير شك ولا ريب - من سادات الصحابة، وقد ذهب بعضهم إلى أن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار هم الذين صلوا إلى القبلتين. عن ابن عمر قال: «بينما الناس يصلون الصبح في مسجد قباء إذ جاء رجل فقال: قد أنزل على النبي ﷺ قرآن، وقد أمر أن يستقبل الكعبة فاستقبلوها، فتوجهوا إلى الكعبة»^(١)، وفي رواية أنهم كانوا ركوعاً فاستداروا كما هم إلى الكعبة وهم ركوع، وهذا يدل على كمال طاعتهم لله ولرسوله وانقيادهم لأوامر الله عز وجل رضي الله عنهم أجمعين.

وقوله: ﴿وما كان الله ليضيع إيمانكم﴾ أي صلاتكم إلى بيت المقدس قبل ذلك، ما كان يضيع ثوابها عند الله، وفي الصحيح عن البراء قال: مات قوم كانوا يصلون نحو بيت المقدس، فقال الناس: ما حالهم في ذلك؟ فأنزل الله تعالى: ﴿وما كان الله ليضيع إيمانكم﴾^(٢)، وقال ابن إسحاق عن ابن عباس: ﴿وما كان الله ليضيع إيمانكم﴾ أي بالقبلة الأولى وتصديقكم نبيكم واتباعه إلى القبلة الأخرى، أي ليعطيكم أجرهما جميعاً ﴿إن الله بالناس لرؤوف رحيم﴾. وقال الحسن البصري: وما كان ليضيع إيمانكم: أي ما كان الله ليضيع محمداً ﷺ وانصرافكم معه حيث انصرف ﴿إن الله بالناس لرؤوف رحيم﴾. وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ رأى امرأة من السبي قد فرق بينها وبين ولدها، فجعلت كلما وجدت صبياً من السبي أخذته فألصقته بصدرها وهي تدور على ولدها، فلما وجدته ضمته إليها وألصقته ثديها، فقال رسول الله ﷺ: «أترون هذه طارحة ولدها في النار وهي تقدر على أن لا تطرحه؟ قالوا: لا يا رسول الله. قال: «فوالله، الله أرحم بعباده من هذه بولدها».

قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾

قال ابن عباس: كان أول ما نسخ من القرآن القبلة، وذلك أن رسول الله ﷺ، لما هاجر إلى المدينة وكان

(٢) رواه الترمذي عن ابن عباس وصححه .

(١) رواه البخاري ومسلم عن ابن عمر .

أكثر أهلها اليهود فأمره الله أن يستقبل بيت المقدس، ففرحت اليهود، فاستقبلها رسول الله ﷺ بضعة عشر شهراً، وكان يجب قبله إبراهيم، فكان يدعو الله وينظر إلى السماء، فأنزل الله: ﴿قد نرى تقلب وجهك في السماء﴾ إلى قوله: ﴿فولوا وجوهكم شطره﴾. فارتابت من ذلك اليهود، وقالوا: ﴿ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها؟ قل لله المشرق والمغرب﴾. وقال: ﴿فأبنا تولوا فثم وجه الله﴾، وقال الله تعالى: ﴿وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه﴾. وروى ابن مردويه عن ابن عباس قال: كان النبي ﷺ إذا سلم من صلاته إلى بيت المقدس رفع رأسه إلى السماء، فأنزل الله: ﴿فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام﴾ إلى الكعبة، إلى الميزاب يؤم به جبريل عليه السلام^(١). وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه: ﴿فول وجهك شطر المسجد الحرام﴾ قال: شطره قبله^(٢)، ثم قال الحاكم صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: إن رسول الله ﷺ قال: «البيت قبله لأهل المسجد، والمسجد قبله لأهل الحرم، والحرم قبله لأهل الأرض في مشارقها ومغاربها من أمتي». وعن البراء: أن النبي ﷺ صلى قبل بيت المقدس ستة عشر شهراً أو سبعة عشر شهراً، وكان يعجبه قبلته قبل البيت، وأنه صلى صلاة العصر وصلى معه قوم، فخرج رجل ممن كان يصلي معه فر على أهل المسجد وهم راكعون فقال: أشهد بالله لقد صليت مع رسول الله ﷺ قبل مكة فداروا كما هم قبل البيت^(٣).

وقال عبد الرزاق عن البراء قال: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة صلى نحو بيت المقدس ستة عشر شهراً أو سبعة عشر شهراً وكان رسول الله ﷺ يحب أن يحول نحو الكعبة فتزلت: ﴿قد نرى تقلب وجهك في السماء﴾ فصرف إلى الكعبة. وعن أبي سعيد بن المعلى قال: «كنا نغزو إلى المسجد على عهد رسول الله ﷺ فنصلي فيه، فمرنا يوماً ورسول الله ﷺ قاعد على المنبر، فقلت لقد حدث أمر فجلست، فقرأ رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها﴾ حتى فرغ من الآية، فقلت لصاحبي تعال نركع ركعتين قبل أن يتزل رسول الله ﷺ، فنكون أول من صلى فتواربنا فصليناها، ثم نزل النبي ﷺ وصلى للناس الظهر يومئذ^(٤)». وكذا روى ابن مردويه عن ابن عمر: أن أول صلاة صلاها رسول الله ﷺ إلى الكعبة صلاة الظهر. وأنها الصلاة الوسطى، والمشهور أن أول صلاة صلاها إلى الكعبة صلاة العصر، ولهذا تأخر الخبر عن أهل قباء إلى صلاة الفجر، وقال الحافظ ابن مردويه عن نويلة بنت مسلم قالت: صلينا الظهر أو العصر في مسجد بني حارثة، فاستقبلنا مسجد (إيلياء) فصلينا ركعتين، ثم جاء من يحدثنا أن رسول الله ﷺ قد استقبل البيت الحرام فتحول النساء مكان الرجال والرجال مكان النساء فصلينا السجدين الباقيتين ونحن مستقبلون البيت الحرام، فحدثني رجل من بني حارثة أن النبي ﷺ قال: «أولئك رجال يؤمنون بالغيب»، وقوله: ﴿وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره﴾ أمر تعالى باستقبال الكعبة من جميع جهات الأرض، شرقاً وغرباً، وشمالاً وجنوباً، ولا يستثنى من هذا شيء سوى النافلة في حال السفر، فإنه يصليها حيثما توجه قلبه وقلبه نحو الكعبة، وكذا في حال المسابقة في القتال يصلي على كل حال، وكذا من جهل جهة القبلة يصلي باجتهاده وإن كان مخطئاً في نفس الأمر لأن الله تعالى لا يكلف نفساً إلا وسعها.

(١) أخرجه الحافظ ابن مردويه عن ابن عباس .

(٢) أخرجه الحاكم عن علي بن أبي طالب وقال: صحيح الإسناد .

(٣) أخرجه أبو نعيم عن البراء بن عازب .

(٤) رواه النسائي عن أبي سعيد بن المعلى .

مسألة

وقد استدل المالكية بهذه الآية على أن المصلي ينظر أمامه لا إلى موضع سجوده كما ذهب إليه الشافعي وأحمد وأبو حنيفة، قال المالكية بقوله: ﴿فول وجهك شطر المسجد الحرام﴾ فلو نظر إلى موضع سجوده لاحتاج أن يتكلف ذلك بنوع من الانحناء وهو ينافي كمال القيام، وقال بعضهم: ينظر المصلي في قيامه إلى صدره، وقال شريك القاضي: ينظر في حال قيامه إلى موضع سجوده كما قال جمهور الجماعة، لأنه أبلغ في الخضوع وأكثر في الخشوع، وقد ورد به الحديث، وأما في حال ركوعه فإلى موضع قدميه، وفي حال سجوده إلى موضع أنفه، وفي حال قعوده إلى حجره .

وقوله تعالى: ﴿وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم﴾ أي واليهود الذين أنكروا استقبالكم الكعبة وانصرفكم عن بيت المقدس، يعلمون ان الله تعالى سيوجهك إليها بما في كتبهم عن أنبيائهم من النعت والصفة لرسول الله ﷺ وأمته، وما خصه الله تعالى به وشرفه من الشريعة الكاملة العظيمة، ولكن أهل الكتاب يتكاثرون ذلك بينهم حسداً وكفراً وعناداً، ولهذا تهددهم تعالى بقوله: ﴿وما الله بغافل عما يعملون﴾ .

وَلَيْنَ آتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتِهِمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ
وَلَيْنَ آتَبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٥﴾

يخبر تعالى عن كفر اليهود وعنادهم، ومخالفتهم ما يعرفونه من شأن رسول الله ﷺ، وأنه لو أقام عليهم كل دليل على صحة ما جاءهم به لما اتبعوه وتركوا أهواءهم كما قال تعالى: ﴿إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون * ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم﴾، ولهذا قال ههنا: ﴿ولئن آتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك﴾، وقوله: ﴿وما أنت بتابع قبلتهم﴾ إخبار عن شدة متابعة الرسول ﷺ لما أمره الله تعالى به، وأنه كما هم مستمسكون بأرائهم وأهوائهم، فهو أيضاً مستمسك بأمر الله وطاعته واتباع مرضاته، وأنه لا يتبع أهواءهم في جميع أحواله، ولا كونه متوجهاً إلى بيت المقدس لكونها قبلة اليهود، وإنما ذلك عن أمر الله تعالى، ثم حذر تعالى عن مخالفة الحق الذي يعلمه العالم إلى الهوى، فإن العالم الحجة عليه أقوم من غيره . ولهذا قال مخاطباً للرسول والمراد به الأمة: ﴿ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنك إذا لمن الظالمين﴾ .

الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾
الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُتَمَرِّينَ ﴿١٤٧﴾

يخبر تعالى أن علماء أهل الكتاب يعرفون صحة ما جاءهم به الرسول ﷺ كما يعرف أحدهم ولده، والعرب

كانت تضرب المثل في صحة الشيء بهذا كما جاء في الحديث أن رسول الله ﷺ قال لرجل معه صغير : « ابنك هذا » ؟ قال : نعم يا رسول الله أشهد به ، قال : « أما إنه لا يخفى عليك ولا تخفى عليه » . ويروى عن عمر أنه قال لعبد الله بن سلام : أتعرف محمداً كما تعرف ولدك ؟ قال : نعم وأكثر ، نزل الأمين من السماء على الأمين في الأرض بنعته فعرفته ، وابني لا أدري ما كان من أمه . (قلت) : وقد يكون المراد : ﴿ يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ﴾ من بين أبناء الناس كلهم ، لا يشك أحد ولا يمتري في معرفة ابنه إذا رآه من أبناء الناس كلهم ، ثم أخبر تعالى أنهم مع هذا التحقق والإنقان العلمي ، ﴿ ليكنتمون الحق ﴾ أي ليكنتمون الناس ما في كتبهم من صفة النبي ﷺ ﴿ وهم يعلمون ﴾ ، ثم ثبت تعالى نبيه ﷺ والمؤمنين وأخبرهم بأن ما جاء به الرسول ﷺ هو الحق الذي لا مرية فيه ولا شك فقال : ﴿ الحق من ربك فلا تكونن من الممترين ﴾ .

وَلِكُلِّ وِجْهَةٍ هُوَ مُوَلِّيْهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ۗ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾

عن ابن عباس : ﴿ ولكل وجهة هو موليها ﴾ يعني بذلك أهل الأديان ، يقول لكل قبيلة قبلة يرضونها ، ووجهه الله حيث توجه المؤمنون ، وقال أبو العالية : لليهود وجهة هو موليها ، وللنصارى وجهة هو موليها ، وهذاكم - أتم أيتها الأمة - إلى القبلة التي هي القبلة . وقال الحسن : أمر كل قوم أن يصلوا إلى الكعبة ، وهذه الآية شبيهة بقوله تعالى : ﴿ لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليلوكم فيما آتاكم فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعاً ﴾ ، وقال ههنا : ﴿ أينما تكونوا يأت بكم الله جميعاً إن الله على كل شيء قدير ﴾ أي هو قادر على جمعكم من الأرض وإن تفرقت أجسادكم وأبدانكم .

وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾
وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَحْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي ۗ وَلا تَمَنَّوْا نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾

هذا أمر ثالث من الله تعالى باستقبال المسجد الحرام من جميع أقطار الأرض ، وقد اختلفوا في حكمة هذا التكرار ثلاث مرات ، فقيل : تأكيد لأنه أول ناسخ وقع في الإسلام على ما نص عليه ابن عباس وغيره ، وقيل : بل هو منزل على أحوال ، فالأمر الأول لمن هو مشاهد الكعبة ، والثاني لمن هو في مكة غائباً عنها ، والثالث لمن هو في بقية البلدان هكذا وجهه فخر الدين الرازي . وقال القرطبي : الأول لمن هو بمكة ، والثاني لمن هو في بقية الأمصار ، والثالث لمن خرج في الأسفار ، وقيل : إنما ذكر ذلك لتعلقه بما قبله أو بعده من السياق ، فقال أولاً : ﴿ قد نرى قلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها ﴾ ، فذكر في هذا المقام إجابته إلى طلبته وأمره بالقبلة

التي كان يود التوجه إليها ويرضاها، وقال في الأمر الثاني: ﴿ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام وإنه للحق من ربك وما الله بغافل عما تعملون﴾، فذكر أنه الحق من الله وارتقاه المقام الأول حيث كان موافقاً لرضا الرسول ﷺ، فبين أنه الحق أيضاً من الله يحبه ويرتضيه، وذكر في الأمر الثالث حكمة قطع حجة المخالف من اليهود الذين كانوا يتحججون باستقبال الرسول إلى قبلتهم وقد كانوا يعلمون بما في كتبهم أنه سيصرف إلى قبلة إبراهيم عليه السلام إلى الكعبة، وكذلك مشركو العرب انقطعت حجتهم لما صرف الرسول ﷺ عن قبلة اليهود إلى قبلة إبراهيم التي هي أشرف، وقد كانوا يعظمون الكعبة وأعجبهم استقبال الرسول إليها، وقيل غير ذلك من الأجوبة عن حكمة التكرار، وقد بسطها الرازي وغيره، والله أعلم.

وقوله: ﴿لئلا يكون للناس عليكم حجة﴾ أي أهل الكتاب فإنهم يعلمون من صفة هذه الأمة التوجه إلى الكعبة، فإذا فقدوا ذلك من صفتها ربما احتجوا بها على المسلمين، ولئلا يحتجوا بموافقة المسلمين إياهم في التوجه إلى بيت المقدس وهذا أظهر، قال أبو العالية: ﴿لئلا يكون للناس عليكم حجة﴾ يعني به أهل الكتاب حين قالوا: صرف محمد إلى الكعبة، وقالوا: اشتاق الرجل إلى بيت أبيه ودين قومه. وكان حجتهم على النبي ﷺ انصرافه إلى البيت الحرام أن قالوا: سيرجع إلى ديننا كما رجع إلى قبلتنا. قوله: ﴿إلا الذين ظلموا منهم﴾ يعني مشركي قريش، ووجه بعضهم حجة الظلمة وهي داحضة أن قالوا: إن هذا الرجل يزعم أنه على دين إبراهيم، فإن كان توجهه إلى بيت المقدس على ملة إبراهيم فلم يرجع عنه؟ والجواب أن الله تعالى اختار له التوجه إلى بيت المقدس أولاً، لما له تعالى في ذلك من الحكمة، فأطاع ربه تعالى في ذلك، ثم صرفه إلى قبلة إبراهيم وهي الكعبة، فامتثل أمر الله في ذلك أيضاً. فهو صلوات الله وسلامه عليه مطيع لله في جميع أحواله، لا يخرج عن أمر الله طرفة عين وأمته تبع له.

وقوله: ﴿فلا تخشوم واخشوني﴾ أي لا تخشوا شبه الظلمة المعتنين وأفردوا الخشية لي، فإنه تعالى هو أهل أن يخشى منه، وقوله: ﴿ولأنتم نعمتي عليكم﴾ عطف على ﴿لئلا يكون للناس عليكم حجة﴾، أي لأنتم نعمتي عليكم فيما شرعت لكم من استقبال الكعبة لتكمل لكم الشريعة من جميع وجوهها، ﴿ولعلمكم تهتدون﴾ أي إلى ما ضلت عنه الأمم هديناكم إليه وخصصناكم به، ولهذا كانت هذه الأمة أشرف الأمم وأفضلها.

كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا

تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾

يذكر تعالى عباده المؤمنين، ما أنعم به عليهم من بعثة الرسول محمد ﷺ إليهم، يتلو عليهم آيات الله مبيّنة ﴿ويزكّيهم﴾ أي يطهرهم من رذائل الأخلاق، ودنس النفوس وأفعال الجاهلية، ويخرجهم من الظلمات إلى النور، ويعلمهم الكتاب وهو القرآن، والحكمة وهي السنّة، ويعلمهم ما لم يكونوا يعلمون، فكانوا في الجاهلية الجهلاء يُسفّهون بالقول القراء، فانتقلوا ببركة رسالته، وبمن سفارته، إلى حال الأولياء، وسجايا العلماء، فصاروا أعمق الناس علماً، وأبرهم قلوباً، وأقلهم تكلفاً، وأصدقهم لهجة. وقال تعالى: ﴿لقد منّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً

منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ﴿ الآية. وذم من لم يعرف قدر هذه النعمة فقال تعالى: ﴿ ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار ﴾، قال ابن عباس: يعني بنعمة الله محمداً ﷺ ولهذا ندب الله المؤمنين إلى الاعتراف بهذه النعمة ومقابلتها بذكره وشكره. وقال: ﴿ فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون ﴾، قال مجاهد في قوله: ﴿ كما أرسلنا فيكم رسولا منكم ﴾ يقول: كما فعلت فاذكروني .

قال زيد بن أسلم: إن موسى عليه السلام قال: يا رب كيف أشكرك؟ قال له ربه: « تذكرني ولا تنساني فإذا ذكرتني فقد شكرتني، وإذا نسيتني فقد كفرتني » قال الحسن البصري: إن الله يذكر من ذكره، ويزيد من شكره، ويعذب من كفره، وقال بعض السلف في قوله تعالى: ﴿ اتقوا الله حق تقاته ﴾ هو « أن يطاع فلا يعصى، ويذكر فلا ينسى، ويُشكر فلا يُكفر » وقال الحسن البصري في قوله: ﴿ فاذكروني أذكركم ﴾ اذكروني فيما افترضت عليكم اذكركم فيما أوجبت لكم على نفسي، وعن سعيد بن جبير: اذكروني بطاعتي أذكركم بمغفرتي، وفي رواية برحمتي. وفي الحديث الصحيح: « يقول الله تعالى من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه ». وعن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: « قال الله عز وجل يا ابن آدم إن ذكرتني في نفسك ذكرك في نفسي، وإن ذكرتني في ملأ من الملائكة - أو قال في ملأ خير منه - وإن دنوت مني شبراً دنوت منك ذراعاً، وإن دنوت مني ذراعاً دنوت منك باعاً، وإن أتيتني تمشي أتيتك هرولة^(١) ». قال قتادة: الله أقرب بالرحمة وقوله: ﴿ واشكروا لي ولا تكفرون ﴾ أمر الله تعالى بشكره، ووعد على شكره بمزيد الخير، فقال: ﴿ وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد ﴾. روى أبو رجاء العطاردي قال: خرج علينا (عمران بن حصين) وعليه مطرف من خز لم نره عليه قبل ذلك ولا بعده، فقال: إن رسول الله ﷺ قال: « من أنعم الله عليه نعمة فإن الله يحب أن يرى أثر نعمته على خلقه^(٢) » وروي: على عبده .

يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٦﴾ وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ءَمُوتٌ بَلْ ءَحْيَاءٌ وَلَكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٧﴾

لما فرغ تعالى من بيان الأمر بالشكر، شرع في بيان الصبر والإرشاد والاستعانة بالصبر والصلاة، فإن العبد إما أن يكون في نعمة فيشكر عليها، أو في نقمة فيصبر عليها، كما جاء في الحديث: « عجا للؤمن لا يقضي الله له قضاء إلا كان خيراً له: إن أصابته سراء فشكر كان خيراً له، وإن أصابته ضراء فصبر كان خيراً له ». وبين تعالى أن أجود ما يستعان به على تحمل المصائب الصبر والصلاة كما تقدم في قوله: ﴿ واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين ﴾. وفي الحديث: « إن رسول الله ﷺ كان إذا حزبه أمر صلى ». والصبر صبران: فصبرك على ترك المحارم والمآثم، وصبر على فعل الطاعات والقربات، والثاني أكثر ثواباً لأنه المقصود.

(١) أخرجه البخاري من حديث قتادة، ورواه الإمام أحمد عن أنس بن مالك .

(٢) أخرجه الإمام أحمد عن أبي رجاء العطاردي .

وأما الصبر الثالث وهو الصبر على المصائب والنوائب فذاك أيضاً واجب كالاستغفار من المعاييب. قال زين العابدين: إذا جمع الله الأولين والآخرين ينادي مناد أين الصابرون ليدخلوا الجنة قبل الحساب؟ قال: فيقوم عنق^(١) من الناس فتلقاهم الملائكة فيقولون: إلى أين يا بني آدم؟ فيقولون: إلى الجنة، فيقولون: قبل الحساب؟ قالوا: نعم، قالوا: من أنتم؟ قالوا: نحن الصابرون، قالوا: وما كان صبركم؟ قالوا: صبرنا على طاعة الله وصبرنا عن معصية الله حتى توفانا الله، قالوا: أنتم كما قلمت ادخلوا الجنة فنعلم أجر العاملين. (قلت): ويشهد لهذا قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب﴾، وقال سعيد بن جبیر: الصبر اعتراف العبد لله بما أصاب منه، واحتسابه عند الله رجاء ثوابه، وقد يجزع الرجل وهو متجلد لا يرى منه إلا الصبر.

وقوله تعالى: ﴿ولا تقولوا لمن يُقتل في سبيل الله أموات بل أحياء﴾ يخبر تعالى أن الشهداء في برزخهم أحياء يرزقون كما جاء في صحيح مسلم: «أن أرواح الشهداء في حواصل طيور خضر تسرح في الجنة حيث شاءت، ثم تأوي إلى قناديل معلقة تحت العرش، فاطلع عليهم ربك اطلاعة فقال: ماذا تبغون؟ قالوا: يا ربنا وأي شيء نبغي وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك؟ ثم عاد عليهم بمثل هذا فلما رأوا أنهم لا يتركون من أن يسألوا، قالوا: نريد أن تردنا إلى الدار الدنيا فنقاتل في سبيلك حتى نقتل فيك مرة أخرى - لما يرون من ثواب الشهادة - فيقول الرب جلّ جلاله: إني كتبت أنهم إليها لا يرجعون». وقال رسول الله ﷺ: «نسمة المؤمن طائر تعلق في شجر الجنة حتى يرجعه الله إلى جسده يوم يبعثه» ففيه دلالة لعموم المؤمنين أيضاً وإن كان الشهداء قد خصصوا بالذكر في القرآن تشریفاً لهم وتكريماً وتعظيماً.

وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾
الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ
وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾

أخبرنا تعالى أنه يتلى عباده أي يختبرهم ويمتحنهم، كما قال تعالى: ﴿ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم﴾ فتارة بالسراء، وتارة بالضراء من خوف وجوع، كما قال تعالى: ﴿فأذاقها الله لباس الجوع والخوف﴾، فإن الجائع والخائف كل منهما يظهر ذلك عليه، ولهذا قال: ﴿لباس الجوع والخوف﴾، وقال ههنا: ﴿بشيء من الخوف والجوع﴾ أي بقليل من ذلك، ﴿ونقص من الأموال﴾ أي ذهاب بعضها ﴿والأنفس﴾ كموت الأصحاب والأقارب والأحباب، ﴿والثمرات﴾ أي لا تغل الحقائق والمزارع كعادتها، قال بعض السلف: فكانت بعض النخيل لا تثمر غير واحدة، وكل هذا وأمثاله مما يختبر الله به عباده، فن صبر أتابه ومن قنط أحل به عقابه، ولهذا قال تعالى: ﴿وبشّر الصابرين﴾.

ثم بين تعالى من الصابرون الذين شكرهم فقال: ﴿الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون﴾

(١) جماعة متقدمة، وزين العابدين هو (علي بن الحسين) رضي الله عنه.

أي تسلوا بقولهم هذا عما أصابهم، وعلموا أنهم ملك لله يتصرف في عبده بما يشاء، وعلموا أنه لا يضيع لديه مثقال ذرة يوم القيامة، فأحدث لهم ذلك اعترافهم بأنهم عبده وأنهم إليه راجعون في الدار الآخرة، ولهذا أخبر تعالى عما أعطاهم على ذلك فقال: ﴿أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة﴾ أي ثناء من الله عليهم ﴿وأولئك هم المهتدون﴾. قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب: نعم العبدان ونعمت العِلاوة ﴿أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة﴾ فهذان العبدان ﴿وأولئك هم المهتدون﴾ فهذه العلاوة، وهي ما توضع بين العديلين، وهي زيادة في الحمل فكذلك هؤلاء أعطوا ثوابهم وزيدوا أيضاً.

وقد ورد في ثواب الاسترجاع عند المصائب أحاديث كثيرة، فن ذلك ما رواه الإمام أحمد عن أم سلمة قالت: أتاني أبو سلمة يوماً من عند رسول الله ﷺ فقال: لقد سمعت من رسول الله ﷺ قولاً سررت به، قال: «لا يصيب أحداً من المسلمين مصيبة فيسترجع عند مصيبته ثم يقول: اللهم أجرني في مصيبي وأخلف لي خيراً منها، إلا فعل ذلك به»، قالت أم سلمة: فحفظت ذلك منه، فلما توفي أبو سلمة استرجعت وقلت: اللهم أجرني في مصيبي وأخلف لي خيراً منها، ثم رجعت إلى نفسي، فقلت: من أين لي خير من أبي سلمة؟ فلما انقضت عدتي استأذن علي رسول الله ﷺ وأنا أدبغ إهاباً لي، فغسلت يدي من القرظ وأذنت له، فوضعت له وسادة آدم حشوها ليف فقعدها عليها فخطبني إلى نفسي، فلما فرغ من مقالته قلت: يا رسول الله ما بي أن لا يكون بك الرغبة، ولكني امرأة في غير شديدة، فأخاف أن ترى مني شيئاً يعذبني الله به، وأنا امرأة قد دخلت في السن وأنا ذات عيال، فقال: «أما ما ذكرت من الغيرة فسوف يذهبها الله عز وجل عنك، وأما ما ذكرت من السن فقد أصابني مثل الذي أصابك، وأما ما ذكرت من العيال فإنما عيالك عيالي»، قالت: فقد سلمت لرسول الله ﷺ، فتزوجها رسول الله ﷺ، فقالت أم سلمة بعد: أبدلني الله بأبي سلمة خيراً منه: رسول الله ﷺ. وعن أم سلمة قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من عبد تصيبه مصيبة فيقول ﴿إنا لله وإنا إليه راجعون﴾ اللهم أجرني في مصيبي وأخلف لي خيراً منها إلا آجره الله في مصيبته وأخلف له خيراً منها»، قالت: فلما توفي أبو سلمة قلت كما أمرني رسول الله ﷺ فأخلف الله لي خيراً منه: رسول الله ﷺ»^(١).

وعن النبي ﷺ قال: «ما من مسلم ولا مسلمة يُصاب بمصيبة فيذكرها وإن طال عهدها فيحدث لذلك استرجاعاً إلا جدد الله له عند ذلك فأعطاه مثل أجرها يوم أصيب»^(٢). وعن أبي سنان قال: دفنت ابناً لي فإني لفي القبر إذ أخذ بيدي أبو طلحة (يعني الخولاني) فأخرجني وقال لي: ألا أبشرك؟ قلت: بلى، قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله: يا ملك الموت قبضت ولد عبدي؟ قبضت قرة عينه وثمره فؤاده؟ قال: نعم، قال: فما قال؟ قال: حمدك واسترجع، قال: ابنا له بيتاً في الجنة وسموه بيت الحمد»^(٣).

* **إِنَّ الصَّافَاَ وَالْمَرَوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ** ﴿١٥٨﴾

(٢) رواه أحمد وابن ماجه .

(١) راه مسلم عن أم سلمة .

(٣) رواه أحمد والترمذي .

روى الإمام أحمد عن عروة عن عائشة قال، قلت: أ رأيت قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما﴾؟ فوالله ما على أحد جناح أن لا يطوف بهما، فقالت عائشة: بش ما قلت يا ابن أخي إنها لو كانت على ما أولتها عليه كانت فلا جناح عليه أن لا يطوف بهما، ولكنها إنما أنزلت أن الأنصار كانوا قبل أن يسلموا كانوا يهلون لمناة الطاغية التي كانوا يعبدونها عند المشلل، وكان من أهل لها يتحرج أن يطوف بالصفا والمروة، فسألوا عن ذلك رسول الله ﷺ، فقالوا: يا رسول الله إنا كنا نتحرج أن نطوف بالصفا والمروة في الجاهلية، فأنزل الله عز وجل: ﴿إِنَّ الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما﴾. قالت عائشة: ثم قد سن رسول الله ﷺ الطواف بهما فليس لأحد أن يدع الطواف بهما^(١). وقال أنس: كنا نرى أنهما من أمر الجاهلية، فلما جاء الإسلام أمسكنا عنهما فأنزل الله عز وجل: ﴿إِنَّ الصفا والمروة من شعائر الله﴾. وقال الشعبي: كان إساف على الصفا وكانت نائلة على المروة، وكانوا يستلمونها فتخرجوا بعد الإسلام من الطواف بينهما فتزلت هذه الآية.

وفي صحيح مسلم: أن رسول الله ﷺ لما فرغ من طوافه بالبيت عاد إلى الركن فاستلمه ثم خرج من باب الصفا وهو يقول: ﴿إِنَّ الصفا والمروة من شعائر الله﴾، ثم قال: «أبدأ بما بدأ الله به»^(٢). وعن حبيبة بنت أبي نجرة قالت: رأيت رسول الله ﷺ يطوف بين الصفا والمروة والناس بين يديه وهو وراءهم وهو يسعى، حتى أرى ركبته من شدة السعي يلور به إزاره وهو يقول: «اسعوا فإن الله كتب عليكم السعي»^(٣)، وقد استدلل بهذا الحديث من يرى أن السعي بين الصفا والمروة ركن في الحج، كما هو مذهب الشافعي ورواية عن أحمد وهو المشهور عن مالك، وقيل: إنه واجب وليس بركن فإن تركه عمداً أو سهواً جبره بدم وهو رواية عن أحمد. وقيل: بل مستحب. واحتجوا بقوله تعالى: ﴿فمن تطوع خيراً﴾، والقول الأول أرجح لأنه عليه السلام طاف بينهما وقال: «خذوا عني مناسككم». بين تعالى أن الطواف بين الصفا والمروة ﴿من شعائر الله﴾ أي مما شرع الله تعالى لإبراهيم في مناسك الحج، وقد تقدم في حديث ابن عباس أن أصل ذلك مأخوذ من طواف هاجر، وتردادها بين الصفا والمروة في طلب الماء لولدها لما نفذ ماؤها وزادها، فلم تزل تتردد في هذه البقعة المشرفة بين (الصفا والمروة) متذلة خائفة وجللة حتى كشف الله كربتها، وأنس غربتها، وفرج شدتها وأنبع لها زمزم التي ماؤها «طعام طعم، وشفاء سقم»، فالساعي بينهما ينبغي له أن يستحضر فقره وذله وحاجته إلى الله في هداية قلبه، وصلاح حاله، وغفران ذنبه، وأن يلتجئ إلى الله عز وجل لتفريج ما هو به.

وقوله: ﴿فمن تطوع خيراً﴾ قيل: زاد في طوافه بينهما على قدر الواجب ثامنة وتاسعة ونحو ذلك، وقيل: يطوف بينهما في حجة تطوع أو عمرة تطوع، وقيل: المراد تطوع خيراً في سائر العبادات. وقوله: ﴿فإن الله شاكر عليم﴾ أي يثيب على القليل بالكثير ﴿عليم﴾ بقدر الجزاء فلا يبخس أحداً ثوابه و﴿لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً﴾.

(٢) رواه مسلم من حديث جابر الطويل.

(١) رواه الشيخان وأحمد.

(٣) أخرجه الإمام أحمد.

إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعِينُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنَّاهُمْ فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿١٦٢﴾

هذا وعيد شديد لمن كتم ما جاءت به الرسل، من الدلالات البينة على المقاصد الصحيحة، والهدى النافع للقلوب، من بعد ما بينه الله تعالى لعباده، في كتبه التي أنزلها على رسله، وقد نزلت في أهل الكتاب كتموا صفة محمد ﷺ. وفي الحديث: « من سئل عن علم فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار »^(١). وروي عن أبي هريرة أنه قال: لولا آية في كتاب الله ما حدثت أحداً شيئاً ﴿ إن الذين يكتُمون ما أنزلنا من البينات والهدى ﴾ الآية. قال أبو العالية: ﴿ ويلعنهم اللاعنون ﴾ يعني تلعنهم الملائكة والمؤمنون، وقد جاء في الحديث: « إن العالم يستغفر له كل شيء حتى الحيتان في البحر »، وجاء في هذه الآية أن كاتم العلم يلعنه الله والملائكة والناس أجمعون. ثم استثنى الله تعالى من هؤلاء من تاب إليه فقال: ﴿ إلا الذين تابوا وأصلحوا وبينوا ﴾ أي رجعوا عما كانوا فيه، وأصلحوا أعمالهم، وبينوا للناس ما كانوا يكتُمونه ﴿ فأولئك أتوب عليهم وأنا التواب الرحيم ﴾، وفي هذا دلالة على أن الداعية إلى كفر أو بدعة إذا تاب إلى الله تاب الله عليه، ثم أخبر تعالى عن كفره واستمر به الحال إلى مماته بأن ﴿ عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين خالدين فيها ﴾ أي في اللعنة التابعة لهم إلى يوم القيامة، ثم المصاحبة لهم في نار جهنم ﴿ لا يخفف عنهم العذاب ﴾ فيها أي لا ينقص عما هم فيه ﴿ ولا هم ينظرون ﴾ أي لا يغير عنهم ساعة واحدة ولا يفتر، بل هو متواصل دائم فتعوذ بالله من ذلك. قال أبو العالية وقتادة: إن الكافر يوقف يوم القيامة فيلعنه الله، ثم تلعنه الملائكة، ثم يلعنه الناس أجمعون.

فصل

لا خلاف في جواز لعن الكفار، فأما الكافر المعين فقد ذهب جماعة من العلماء إلى أنه لا يلعن لأننا لا ندري بما يخطم الله له. وقالت طائفة أخرى: بل يجوز لعن الكافر المعين، واختاره ابن العربي ولكنه احتج بحديث فيه ضعف، واستدل غيره بقوله عليه السلام: « لا تلعنه فإنه يحب الله ورسوله »^(٢) فدل على أن من لا يحب الله ورسوله يلعن، وقد كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه ومن بعده من الأئمة يلعون الكفرة في القنوت وغيره، واستدل بعضهم بالآية ﴿ أولئك عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ﴾ والله أعلم.

(١) أخرجه أبو داود والترمذي عن أبي هريرة .

(٢) قاله عليه السلام في قصة الذي كان يؤتى به سكران فيحده فسال رجل : لعنه الله ما أكثر ما يؤتى به .. الحديث .

وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾

يخبر تعالى عن تفرده بالإلهية، وأنه لا شريك له ولا عديل له، بل هو الله الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لا إله إلا هو وأنه الرحمن الرحيم، وقد تقدم تفسير هذين الاسمين في أول الفاتحة. وفي الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: « اسم الله الأعظم في هاتين الآيتين ﴿ وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم ﴾ و ﴿ ألم الله لا إله إلا هو الحي القيوم ﴾ »^(١)، ثم ذكر الدليل على تفرده بالإلهية، بخلق السماوات والأرض وما فيهما وما بين ذلك، مما ذرأ وبرأ من المخلوقات الدالة على وحدانيته فقال:

إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾

يقول تعالى: ﴿ إن في خلق السموات والأرض ﴾ تلك في ارتفاعها ولطاقها واتساعها، وكواكبها السيارة والثوابت ودوران فللكها، وهذه الأرض في كثافتها وانخفاضها، وجبالها وبحارها، وقفارها وعمرانها، وما فيها من المنافع، واختلاف الليل والنهار، هذا يجيء ثم يذهب، ويخلفه الآخر ويعقبه، لا يتأخر عنه لحظة كما قال تعالى: ﴿ لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر، ولا الليل سابق النهار، وكل في فلك يسبحون ﴾. وتارة يطول هذا ويقصر هذا، وتارة يأخذ هذا من هذا، ثم يتعاوضان كما قال تعالى: ﴿ يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل ﴾ أي يزيد من هذا في هذا، ومن هذا في هذا، ﴿ والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس ﴾ أي في تسخير البحر بحمل السفن من جانب إلى جانب، لمعايش الناس والانتفاع بما عند أهل ذلك الاقليم، ونقل هذا إلى هؤلاء وما عند أولئك إلى هؤلاء: ﴿ وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها ﴾ كما قال تعالى: ﴿ وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبا فمنه يأكلون ﴾، ﴿ وبث فيها من كل دابة ﴾ أي على اختلاف أشكالها وألوانها، ومنافعها وصغرها وكبرها، وهو يعلم ذلك كله ويرزقه، لا يخفى عليه شيء من ذلك كما قال تعالى: ﴿ وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل في كتاب مبين ﴾. ﴿ وتصريف الرياح ﴾ أي فتارة تأتي بالرحمة، وتارة تأتي بالعذاب، وتارة تأتي مبشرة بين يدي السحاب، وتارة تسوقه وتارة تجمعه، وتارة تفرقه، وتارة تصرفه، ثم تارة تأتي من الجنوب وتارة تأتي من ناحية اليمن ﴿ والسحاب المسخر بين السماء والأرض ﴾ أي سائر بين السماء والأرض، مسخر إلى ما يشاء الله من الأراضي والأماكن كما يصرفه تعالى: ﴿ لآيات لقوم يعقلون ﴾ أي في هذه الأشياء دلالات بيينة على وحدانية الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿ إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب ﴾

عن عطاء قال: نزلت على النبي ﷺ بالمدينة: ﴿ وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم ﴾ فقال كفار قريش بمكة: كيف يسع الناس إله واحد؟ فأنزل الله تعالى: ﴿ إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل

(١) أخرجه الإمام أحمد عن أسماء بنت يزيد بن السكن مرفوعاً.

والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس ﴿ إلى قوله: ﴿لآيات لقوم يعقلون﴾^(١) فهذا يعلمون أنه إله واحد، وأنه إله كل شيء وخالق كل شيء. وقال أبو الضحى: لما نزلت ﴿ وإلهكم إله واحد﴾ قال المشركون: إن كان هكذا فليأتنا بآية فأنزل الله عز وجل: ﴿ إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار﴾ إلى قوله: ﴿ يعقلون﴾.

وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يُرُونَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنْ الَّذِينَ اتَّبَعُوا رَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّا كُنَّا نَدْرِكُهُمْ لَتَرْجَاهُنَّ وَنَقِصُّنَّهُمْ أَيُّ نَقِصٍّ وَأَنَّا كَانُوا هُمْ تَارِكِينَ ﴿١٦٧﴾

يذكر تعالى حال المشركين به في الدنيا وما لهم في الدار الآخرة، حيث جعلوا له أندادا أي أمثالا ونظراء، يعبدونهم معه ويحبونهم كحبه، وهو الله لا إله إلا هو ولا ضد له ولا ند له ولا شريك معه، وفي الصحيحين عن عبد الله بن مسعود قال، قلت: يا رسول الله أي الذنب أعظم؟ قال: « أن تجعل لله نداً وهو خلقك ». وقوله: ﴿ والذين آمنوا أشد حبا لله﴾ ولحبهم لله وتعام معرفتهم به وتوقيرهم وتوحيدهم له لا يشركون به شيئا، بل يعبدونه وحده ويتوكلون عليه، ويلجأون في جميع أمورهم إليه.

ثم توعد تعالى المشركين به الظالمين لأنفسهم بذلك فقال: ﴿ ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب أن القوة لله جميعاً﴾. قال بعضهم: تقدير الكلام لو عاينوا العذاب لعلموا حينئذ أن القوة لله جميعاً، أي أن الحكم له وحده لا شريك له وأن جميع الأشياء تحت قهره وغلبته وسلطانه، ﴿ وأن الله شديد العذاب﴾، كما قال: ﴿ فيومئذ لا يعذب عذابه أحد ولا يوثق وثاقه أحد﴾. يقول: لو يعلمون ما يعاينونه هنالك، وما يحل بهم من الأمر الفظيع، المنكر الهائل على شركهم وكفرهم، لانتها عما هم فيه من الضلال. ثم أخبر عن كفرهم بأوثانهم، وتبري المتبعين من التابعين فقال: ﴿ إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا﴾، تبرأت منهم الملائكة الذين كانوا يزعمون أنهم يعبدونهم في الدار الدنيا، فنقول الملائكة: ﴿ تبرأنا إليك ما كانوا إيانا يعبدون﴾، ويقولون: ﴿ سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون﴾. والجن أيضاً تبرأ منهم ويتصلون من عبادتهم لهم، كما قال تعالى: ﴿ وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين﴾. وقال تعالى: ﴿ كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضداً﴾.

وقوله: ﴿ ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب﴾ أي عاينوا عذاب الله وتقطعت بهم الحيل وأسباب الخلاص ولم يجدوا عن النار معدلاً ولا مصرفاً، قال ابن عباس: ﴿ وتقطعت بهم الأسباب﴾ المودة، وقوله: ﴿ وقال الذين

(١) رواه ابن أبي حاتم عن عطاء.

اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منها كما تبرؤا منا ﴿١٦٨﴾ أي لو أن لنا عودة إلى الدار الدنيا، حتى نتبرأ من هؤلاء ومن عبادتهم، فلا نلتفت إليهم بل نوحّد الله وحده بالعبادة، وهم كاذبون في هذا بل لو ردّوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون، كما أخبر الله تعالى عنهم بذلك، ولهذا قال: ﴿كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم﴾ أي تذهب وتضمحل، كما قال تعالى: ﴿وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءً منثوراً﴾، وقال تعالى: ﴿مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف﴾ الآية. وقال تعالى: ﴿والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء﴾ الآية. ولهذا قال تعالى: ﴿وما هم بخارجين من النار﴾.

يَأْتِيهَا النَّاسُ كُلُّوَمَا فِي الْأَرْضِ حَلَلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمُ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿١٦٩﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ
بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾

لما بيّن تعالى أنه لا إله إلا هو، وأنه المستقل بالخلق، شرع يبين أنه الرزاق لجميع خلقه، فذكر في مقام الامتنان أنه أباح لهم أن يأكلوا مما في الأرض، في حال كونه حلالاً من الله طيباً أي مستطاباً في نفسه، غير ضار للأبدان ولا للعقول، ونهاهم عن اتباع خطوات الشيطان، وهي طرائقه ومسالكه فيما أضل أتباعه فيه، من تحريم البحائر والسوائب والوصائل ونحوها، مما كان زينه لهم في جاهليتهم، كما في حديث عياض بن حماد عن رسول الله ﷺ أنه قال: «يقول الله تعالى إن كل مال منحتة عبادي فهو لهم حلال - وفيه - وإني خلقت عبادي حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم»^(١). وعن ابن عباس قال: تليت هذه الآية عند النبي ﷺ يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالاً طيباً ﴿١٦٩﴾ فقام سعد بن أبي وقاص فقال: يا رسول الله! أذع الله أن يجعلني مستجاب الدعوة، فقال: «يا سعد أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة، والذي نفس محمد بيده إن الرجل ليقذف اللقمة الحرام في جوفه ما يتقبل منه أربعين يوماً، وأيما عبد نبت لحمه من السحت والربا فالنار أولى به»^(٢).

وقوله تعالى: ﴿إنه لكم عدو مبين﴾ تنفير عنه وتحذير منه، كما قال: ﴿إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا﴾. وقال تعالى: ﴿أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلاً﴾. قال قتادة والسدي: كل معصية لله فهي من خطوات الشيطان. وقال مسروق: أتى عبد الله بن مسعود بضرع وملح فجعل يأكل، فاعتزل رجل من القوم، فقال ابن مسعود: ناولوا صاحبكم، فقال: لا أريده، فقال: أصائم أنت؟ قال: لا، قال: فما شأنك؟ قال: حرمت أن آكل ضرعاً أبداً، فقال ابن مسعود: هذا من خطوات الشيطان، فاطعم وكفر عن يمينك^(٣). وعن ابن عباس قال: ما كان من يمين أو نذر في غضب، فهو من خطوات الشيطان، وكفارته كفارة يمين. وقوله: ﴿إنما يأمركم بالسوء والفحشاء وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون﴾ أي إنما يأمركم الشيطان بالأفعال

(١) رواه مسلم. ومعنى (اجتالتهم): صرفتهم عن الهدى إلى الضلالة.

(٢) رواه الحافظ ابن مردويه عن عطاء عن ابن عباس. (٣) رواه ابن أبي حاتم عن أبي الضحى عن مسروق.

السيئة، وأغلظ منها الفاحشة كالزنا ونحوه، وأغلظ من ذلك وهو القول على الله بلا علم، فيدخل في هذا كل كافر وكل مبتدع أيضاً^(١).

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءِآبَاءَنَا أَوْ لَوْ كَانَ ءِآبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ وَمِثْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِينَ يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمُّ بُكْرٌ عُمَىٰ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾

يقول تعالى: ﴿ وإذا قيل لهم ﴾ للكفرة المشركين: ﴿ اتبعوا ما أنزل الله ﴾ على رسوله، واتركوا ما أتم عليه من الضلال والجهل، قالوا في جواب ذلك: ﴿ بل نتبع ما ألفينا ﴾ أي ما وجدنا عليه آباءنا، أي من عبادة الأصنام والأنداد. قال الله تعالى منكرًا عليهم: ﴿ أو لو كان آباؤهم ﴾ أي الذين يقتدون بهم ويقتفون أثرهم ﴿ لا يعقلون شيئًا ولا يهتدون ﴾ أي ليس لهم فهم ولا هداية، عن ابن عباس أنها نزلت في طائفة من اليهود، دعاهم رسول الله ﷺ إلى الإسلام، فقالوا: بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا، فأنزل الله هذه الآية^(٢). ثم ضرب لهم تعالى مثلاً، كما قال تعالى: ﴿ للذين لا يؤمنون بالآخرة مثل السوء ﴾، فقال: ﴿ ومثل الذين كفروا ﴾ أي فيما هم فيه من الغي والضلال والجهل، كالذباب السارحة التي لا تفقه ما يقال لها، بل إذا نعت بها راعيها، أي دعاها إلى ما يرشدها لا تفقه ما يقول ولا تفهمه بل إنما تسمع صوته فقط، هكذا روي عن ابن عباس. وقيل: إنما هذا مثل ضرب لهم في دعائم الأصنام التي لا تسمع ولا تبصر ولا تعقل شيئاً، واختاره ابن جرير، والأول أولى لأن الأصنام لا تسمع شيئاً ولا تعقله ولا تبصره ولا بطش لها ولا حياة فيها، وقوله: ﴿ صم بكم عمي ﴾ أي صم عن سماع الحق، بكم لا يتفوهون به، عمي عن رؤية طريقه ومسلكه ﴿ فهم لا يعقلون ﴾ أي لا يعقلون شيئاً ولا يفهمونه، كما قال تعالى: ﴿ والذين كذبوا بآياتنا صم وبكم في الظلمات من يشأ الله يُضِلِّه ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم ﴾.

يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُّوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهْلَ بِهِ ءِ لغيرِ اللَّهِ فَمِنْ أَضْطَرَّ غَيْرِ بَآغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنْ أَنَّهُ غُفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾

يأمر تعالى عباده المؤمنين بالأكل من طيبات ما رزقهم تعالى، وأن يشكروه تعالى على ذلك إن كانوا عباده، والأكل من الحلال سبب لتقبل الدعاء والعبادة، كما أن الأكل من الحرام يمنع قبول الدعاء والعبادة، كما جاء في الحديث قال رسول الله ﷺ: « أيها الناس إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً، وإن الله أمر المؤمنين بما

(٢) رواه ابن إسحاق عن ابن عباس .

(١) رواه ابن أبي حاتم .

أمر به المرسلين فقال: ﴿يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً إني بما تعملون عليم﴾، وقال: ﴿يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم﴾. ثم ذكر الرجل يطيل السفر، أشعث أغبر، يمد يديه إلى السماء يا رب يا رب، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغذي بالحرام، فأني يستجاب لذلك؟^(١) ولما امتن تعالى عليهم برزقه وأرشدهم إلى الأكل من طيبه، ذكر أنه لم يحرم عليهم من ذلك إلا الميتة، وهي التي تموت حتف أنفها من غير تذكية، وسواء كانت منخقة أو موقوذة أو متردية أو نطيحة أو عدا عليها السبع، وقد خصص الجمهور من ذلك ميتة البحر لقوله تعالى: ﴿أحل لكم صيد البحر وطعامه﴾، وقوله عليه السلام في البحر: «هو الطهور ماؤه الحل ميتته»^(٢)، وسيأتي تقرير ذلك إن شاء الله في سورة المائدة.

ثم أباح تعالى تناول ذلك عند الضرورة والاحتياج إليها عند فقد غيرها من الأطعمة فقال: ﴿فمن اضطر غير باغ ولا عاد﴾ أي في غير بغي ولا عدوان وهو مجاوزة الحد ﴿فلا إثم عليه﴾ أي في أكل ذلك. ﴿إن الله غفور رحيم﴾. قال مجاهد: ﴿غير باغ ولا عاد﴾ من خرج باغياً أو عادياً أو في معصية الله فلا رخصة له وإن اضطر إليه، وقال مقاتل بن حيان: ﴿غير باغ﴾ يعني غير مستحله، وقال السدي: ﴿غير باغ﴾ يتبغي فيه شهواته، وعن ابن عباس: لا يشبع منها وعنه: ﴿غير باغ ولا عاد﴾ قال: ﴿غير باغ﴾ في الميتة، ولا عادٍ في أكله، وقال قتادة: ﴿فمن اضطر غير باغ ولا عاد﴾ قال: غير باغ في الميتة أي في أكله أن يتعدى حلالاً إلى حرام وهو يجد عنه مندوحة، وحكى القرطبي عن مجاهد في قوله: ﴿فمن اضطر﴾ أي أكره على ذلك بغير اختياره.

مسألة

إذا وجد المضطر ميتة وطعام الغير، بحيث لا قطع فيه ولا أذى، فإنه لا يحل له أكل الميتة، بل يأكل طعام الغير بغير خلاف لحديث عباد بن شرحبيل العتري قال: أصابتنا عاماً مخمصةً فأتيت المدينة، فأتيت حائطاً، فأخذت سنبلاً ففركته وأكلته وجعلت منه في كسائي، فجاء صاحب الحائط فضربني وأخذ ثوبي، فأتيت رسول الله ﷺ فأخبرته، فقال للرجل: «ما أطعمته إذ كان جائعاً ولا ساعياً، ولا علمته إذ كان جاهلاً» فأمره فرد إليه ثوبه، وأمر له بوسق طعام أو نصف وسق^(٣). وقال مقاتل بن حيان: في قوله ﴿فلا إثم عليه﴾ إن الله غفور رحيم ﴿فما أكل من اضطرار، وبلغنا - والله أعلم - أنه لا يزداد على ثلاث لقم، وقال سعيد بن جبير: ﴿غفور﴾ لما أكل من الحرام ﴿رحيم﴾ إذ أحل له الحرام في اضطرار، وقال مسروق: من اضطر فلم يأكل ولم يشرب ثم مات دخل النار، وهذا يقتضي أن أكل الميتة للمضطر عزيمة لا رخصة، وهذا هو الصحيح كالإفطار للمريض.

(١) رواه أحمد ومسلم والترمذي.

(٢) رواه مالك وأصحاب السنن.

(٣) رواه ابن ماجه وإسناده قوي جداً.

إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتُرُونَ بِهِ ءِثْمًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يَكْلِمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالََةَ بِالْهُدَىٰ وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ ۖ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ ﴿١٧٥﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾

يقول تعالى: ﴿إن الذين يكتُمون ما أنزل الله من الكتاب﴾ يعني اليهود الذين كتموا صفة محمد ﷺ، في كتبهم التي بأيديهم مما تشهد له بالرسالة والنبوة، فكتموا ذلك لثلاث تذهب رياستهم، وما كانوا يأخذونه من العرب من الهدايا والتحف على تعظيمهم آباءهم، فخشوا - لعنهم الله - إن أظهروا ذلك أن يتبعه الناس ويتركوهم، فكتموا ذلك إبقاء على ما كان يحصل لهم من ذلك وهو نزر يسير، فباعوا أنفسهم بذلك، واعتاضوا عن الهدى بذلك النزر اليسير، فخابوا وخسروا في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا فإن الله أظهر لعباده صدق رسوله، بما نصبه وجعله معه من الآيات الظاهرات والدلائل القاطعات، فصدقه الذين كانوا يخافون أن يتبعوه، وصاروا عوناً له على قتالهم، وباعوا بغضب على غضب، وذمهم الله في كتابه في غير موضع، فن ذلك هذه الآية الكريمة: ﴿إن الذين يكتُمون ما أنزل الله من الكتاب ويشترُونَ به ثمناً قليلاً﴾ وهو عرض الحياة الدنيا ﴿أولئك ما يأكلون في بطونهم إلا النار﴾، أي إنما يأكلون ما يأكلونه في مقابلة كتمان الحق ناراً تأجج في بطونهم يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً﴾. وفي الحديث الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الذي يأكل أو يشرب في آنية الذهب والفضة إنما يجر جراً في بطنه نار جهنم».

وقوله تعالى: ﴿ولا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكِّيهم ولم يذهب عنهم ألبابهم﴾، وذلك لأنه تعالى غضبان عليهم، لأنهم كتموا وقد علموا فاستحقوا الغضب، فلا ينظر إليهم ﴿ولا يزكِّيهم﴾ أي يثني عليهم ويمدحهم بل يعذبهم عذاباً أليماً، عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ثلاثة لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم ولا يزكِّيهم ولم يذهب عنهم ألبابهم»: شيخ زان، وملك كذاب، وعائل مستكبر»^(١). ثم قال تعالى مخبراً عنهم: ﴿أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى﴾، أي اعتاضوا عن الهدى - وهو نشر ما في كتبهم من صفة الرسول وذكر مبعثه والبشارة به من كتب الأنبياء واتباعه وتصديقه - استبدلوا عن ذلك واعتاضوا عنه الضلالة، وهو تكذيبه والكفر به وكتمان صفاته في كتبهم ﴿والعذاب بالمغفرة﴾ أي اعتاضوا عن المغفرة بالعذاب وهو ما تعاطوه من أسبابه المذكورة.

وقوله تعالى: ﴿فما أصبرهم على النار﴾ يخبر تعالى أنهم في عذاب شديد عظيم هائل، يتعجب من رآهم فيها من صبرهم على ذلك مع شدة ما هم فيه من العذاب والنكال والأغلال عياداً بالله من ذلك، وقيل: معنى قوله:

(١) رواه ابن أبي حاتم وابن مردويه.

﴿ فَاصْبِرْهُمْ عَلَى النَّارِ ﴾ أَي فَمَا أَدُوهُمْ لِعَمَلِ الْمَعَاصِي الَّتِي تَقْضِي بِهِمْ إِلَى النَّارِ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ ﴾ أَي إِنَّمَا اسْتَحَقُّوا هَذَا الْعَذَابَ الشَّدِيدَ ، لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَنْزَلَ عَلَى رَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ ، وَعَلَى الْأَنْبِيَاءِ قَبْلَهُ كِتَابَهُ بِتَحْقِيقِ الْحَقِّ وَإِبْطَالِ الْبَاطِلِ ، وَهَؤُلَاءِ اتَّخَذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُؤًا ، فَكُتِبَ لَهُمْ بِإِظْهَارِ الْعِلْمِ وَنَشْرِهِ فَخَالَفُوهُ وَكَذَّبُوهُ ، وَهَذَا الرَّسُولُ الْخَاتِمُ يَدْعُوهُمْ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى ، وَيَأْمُرُهُمُ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَهُمْ يَكْذِبُونَهُ وَيُخَالِفُونَهُ ، وَيُحَدِّثُونَهُ وَيَكْتُمُونَ صَفَتَهُ ، فَاسْتَهْزَأُوا بِآيَاتِ اللَّهِ الْمُنْتَزِلَةِ عَلَى رَسَلِهِ ، فَلِهَذَا اسْتَحَقُّوا الْعَذَابَ وَالنَّكَالَ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴾ .

* لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قَبْلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ
وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ
وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَآمَنُوفِينَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ
وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾

اشتملت هذه الآية الكريمة على جمل عظيمة ، وقواعد عميقة ، وعقيدة مستقيمة ، فإن الله تعالى لما أمر المؤمنين أولاً بالتوجه إلى بيت المقدس ، ثم حوّلهم إلى الكعبة ، شقّ ذلك على نفوس طائفة من أهل الكتاب وبعض المسلمين ، فأنزل الله تعالى بيان حكمته في ذلك ، وهو أن المراد إنما هو طاعة الله عزّ وجلّ ، وامتنال أوامره ، والتوجه حيثما وجهه ، واتباع ما شرع ، فهذا هو البر والتقوى والإيمان الكامل ، وليس في لزوم التوجه إلى جهة من المشرق أو المغرب بر ولا طاعة ، إن لم يكن عن أمر الله وشرعه ، ولهذا قال : ﴿ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ ، كما قال في الأضاحي والهدايا : ﴿ لَنْ يَبَالَ اللَّهُ لِحَوْمِهَا وَلَا دِمَاؤِهَا وَلَكِنْ يَبَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ ﴾ . وقال ابن عباس في هذه الآية : ليس البر أن تصلوا ولا تعلموا ، فأمر الله بالفرائض والعمل بها ، وقال أبو العالية : كانت اليهود تُقبل قبل المغرب ، وكانت النصراني تُقبل قبل المشرق ، فقال الله تعالى : ﴿ لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قَبْلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ ﴾ يقول : هذا كلام الإيمان وحقيقته العمل ، وقال مجاهد : ولكن البر ما ثبت في القلوب من طاعة الله عزّ وجلّ ، ﴿ وَالْكِتَابِ ﴾ وهو اسم جنس يشمل الكتب المنزلة من السماء على الأنبياء ، حتى ختمت بأشرفها وهو القرآن المهيم على ما قبله من الكتب ، الذي انتهى إليه كل خير ، واشتمل على كل سعادة في الدنيا والآخرة ، ونسخ به كل ما سواه من الكتب قبله وآمن بأنبياء الله كلهم من أولهم إلى خاتمهم محمد صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين ، وقوله تعالى : ﴿ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ﴾ أي أخرجه وهو محب له راغب فيه ، كما ثبت في الصحيحين من حديث أبي هريرة مرفوعاً : « أَفْضَلُ الصَّدَقَةِ أَنْ تَصَدَّقَ وَأَنْتَ صَاحِبُهَا تَأْمَلُ الْغِنَى وَتَخْشَى الْفَقْرَ » ، وقال رسول الله ﷺ : « وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ﴾ أن تعطيه وأنت صحيح صحيح تأمل العيش وتخشى الفقر » (١) ،

(١) رواه الحاكم عن ابن مسعود مرفوعاً وقال : صحيح على شرط الشيخين .

وقال تعالى: ﴿ وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۗ إِنَّمَا نَطْعَمُكُمْ لَوْجِهَ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا ۗ ﴾، وقال تعالى: ﴿ لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ۗ ﴾، وقوله: ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۗ ﴾ نط آخر أرفع من هذا وهو أنهم آثروا بما هم مضطرون إليه، وهؤلاء أعطوا وأطعموا ما هم محبوبون له .

وقوله تعالى: ﴿ ذَوِي الْقُرْبَىٰ ﴾ وهم قرابات الرجل، وهم أولى من أعطى من الصدقة كما ثبت في الحديث: « الصدقة على المساكين صدقة وعلى ذوي الرحم ثنتان: صدقة وصلة، فهم أولى الناس بك وبيرك وإعطائك » وقد أمر الله تعالى بالإحسان إليهم في غير موضع من كتابه العزيز ﴿ واليتامى ﴾ هم الذين لا كاسب لهم وقد مات آباؤهم وهم ضعفاء صغار دون البلوغ، والقدرة على التكسب، وقد قال رسول الله ﷺ: « لا يتم بعد حلم »، ﴿ والمساكين ﴾ وهم الذين لا يجدون ما يكفيهم في قوتهم وكسوتهم وسكناتهم، فيعطون ما تسد به حاجتهم وختلهم، وفي الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: « ليس المسكين بهذا الطواف الذي ترده التمرة والتمرتان واللقمة واللقمتان، ولكن المسكين الذي لا يجد غنى يغنيه ولا يفطن له فيتصدق عليه »، ﴿ وابن السبيل ﴾ وهو المسافر المجتاز الذي قد فرغت نفقته فيعطى ما يوصله إلى بلده، وكذا الذي يريد سفراً في طاعة فيعطى ما يكفيه في ذهابه وإيابه، ويدخل في ذلك الضيف كما قال ابن عباس ﴿ ابن السبيل ﴾: هو الضيف الذي ينزل، ﴿ والسائلين ﴾ وهم الذين يتعرضون للطلب فيعطون من الزكوات والصدقات، قال رسول الله ﷺ: « للسائل حق وإن جاء على فرس »^(١)، ﴿ وفي الرقاب ﴾ وهم المكاتبون الذين لا يجدون ما يؤدونه في كتابتهم، عن فاطمة بنت قيس قالت: قال رسول الله ﷺ: « في المال حق سوى الزكاة »، ثم قرأ: ﴿ ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب - إلى قوله - وفي الرقاب ﴾^(٢).

وقوله تعالى: ﴿ وَأَقَامِ الصَّلَاةَ ﴾ أي وأتم أفعال الصلاة في أوقاتها بركوعها وسجودها وطمأنينتها وخشوعها، على الوجه الشرعي المرضي، وقوله: ﴿ وَأَتَىٰ الزَّكَاةَ ﴾ كقوله: ﴿ وويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة ﴾ والمراد زكاة المال كما قاله سعيد بن جبير ومقاتل بن حيان، ويكون المذكور من إعطاء هذه الجهات والأصناف المذكورين، إنما هو التطوع والبر والصلة، ولهذا تقدم في الحديث عن فاطمة بنت قيس أن في المال حقاً سوى الزكاة، والله أعلم .

وقوله تعالى: ﴿ والموفون بعهدهم إذا عاهدوا ﴾ كقوله: ﴿ الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق ﴾ وعكس هذه الصفة النفاق كما صح في الحديث: « آية المنافق ثلاث إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان »^(٣)، وفي الحديث الآخر: « وإذا حدث كذب وإذا عاهد غدر وإذا خاصم فجر »، وقوله تعالى: ﴿ والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس ﴾ أي في حال الفقر وهو البأساء، وفي حال المرض والأسقام وهو

(١) رواه أحمد وأبو داود .

(٢) رواه ابن ماجه والترمذي .

(٣) رواه الشيخان .

الضراء، ﴿وحين البأس﴾ أي في حال القتال والتقاء الأعداء قاله ابن مسعود وابن عباس. وإنما نصب ﴿الصابرين﴾ على المدح والحث على الصبر في هذه الأحوال لشدة وصعوبته، والله أعلم. وقوله: ﴿أولئك الذين صدقوا﴾ أي هؤلاء الذين اتصفوا بهذه الصفات هم الذين صدقوا في إيمانهم، لأنهم حققوا الإيمان القلبي بالأقوال والأفعال، فهؤلاء هم الذين صدقوا ﴿وأولئك هم المتقون﴾ لأنهم اتقوا المحارم وفعّلوا الطاعات.

يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ ^ط الْحَرْبُ بِالْحَرْبِ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَىٰ بِالْأُنْثَىٰ فَمَنْ عَفِيَ لَهُ ^ع مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبِعْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ^ق ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ^ق مِّنْ أَعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَهَلْ عَذَابُ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾

يقول تعالى: كتب عليكم العدل في القصاص - أيها المؤمنون - حرّم بحرّم، وعبدكم بعبدكم، وأنثاكم بأنثاكم، ولا تتجاوزوا وتعتدوا كما اعتدى من قبلكم وغيروا حكم الله فيهم، وسبب ذلك (قريظة والنضير) فكان إذا قتل النضري القرظي لا يقتل به بل يُفَادَى بمائة وسق من التمر، وإذا قتل القرظي النضري قتل، وإن فادوه فدوه بمائتي وسق من التمر، ضعف دية القرظي، فأمر الله تعالى بالعدل في القصاص، ولا يتبع سبيل المفسدين المحرفين، المخالفين لأحكام الله فيهم كفراً وبعياً فقال تعالى: ﴿الحر بالحر، والعبد بالعبد، والأنثى بالأنثى﴾ وذكر عن سعيد ابن جبير في قول الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتل﴾ يعني إذا كان عمداً الحر بالحر، وذلك أن حيين من العرب اقتتلوا في الجاهلية قبل الإسلام بقليل، فكان بينهم قتل وجراحات، حتى قتلوا العبيد والنساء، فلم يأخذ بعضهم من بعض حتى أسلموا، فكان أحد الحيين يتناول على الآخر في العدة والأموال، فحلفوا أن لا يرضوا حتى يقتل بالعبد منا الحر منهم، والمرأة منا الرجل منهم، فترل فيهم: ﴿الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى﴾^(١). وعن ابن عباس في قوله: ﴿والأنثى بالأنثى﴾ أنهم كانوا لا يقتلون الرجل بالمرأة، ولكن يقتلون الرجل بالرجل، والمرأة بالمرأة، فأنزل الله النفس بالنفس والعين بالعين، فجعل الأحرار في القصاص سواء فيما بينهم من العمد رجالهم ونساؤهم في النفس وفيما دون النفس، وجعل العبيد مستويين فيما بينهم من العمد في النفس وفيما دون النفس رجالهم ونساؤهم وكذلك روي عن أبي مالك أنها منسوخة بقوله: ﴿النفس بالنفس﴾.

مسألة

ذهب أبو حنيفة إلى أن الحر يقتل بالعبد لعموم آية المائدة وهو مروى عن (علي) و (ابن مسعود). قال البخاري: يقتل السيد بعبد لعموم حديث: «من قتل عبده قتلناه ومن جدد عبده جددناه ومن خصاه خصيناه»، وخالفهم الجمهور فقالوا: لا يقتل الحر بالعبد، لأن العبد سلعة لو قتل خطأ لم يجب فيه دية وإنما تجب فيه قيمته،

(١) رواه ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير.

ولأنه لا يقاد بطرفه ففي النفس بطريق الأولى، وذهب الجمهور إلى أن المسلم لا يقتل بالكافر لما ثبت في البخاري عن علي قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يقتل مسلم بكافر » ، ولا يصح حديث ولا تأويل يخالف هذا، وأما أبو حنيفة فذهب إلى أنه يقتل به لعموم آية المائدة^(١) .

مسألة

قال الحسن وعطاء : لا يقتل الرجل بالمرأة لهذه الآية، وخالفهم الجمهور لآية المائدة ولقوله عليه السلام : « المسلمون تتكافأ دماؤهم » ، وقال الليث : إذا قتل الرجل امرأته لا يقتل بها خاصة .

مسألة

ومذهب الأئمة الأربعة والجمهور أن الجماعة يقتلون بالواحد، قال عمر في غلام قتله سبعة فقتلهم وقال : (لو تمألاً عليه أهل صنعاء لقتلهم) ، ولا يعرف له في زمانه مخالف من الصحابة وذلك كالإجماع، وحكي عن الإمام أحمد رواية أن الجماعة لا يقتلون بالواحد، ولا يقتل بالنفس إلا نفس واحدة. وقوله تعالى : ﴿ فن عفي له من أخيه شيء فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان ﴾ قال مجاهد : العفو : أن يقبل الدية في العمد. وعن ابن عباس : ﴿ فن عفي له من أخيه شيء ﴾ يعني فن ترك له من أخيه شيء يعني أخذ الدية بعد استحقاق الدم وذلك العفو ﴿ فاتباع بالمعروف ﴾ ، يقول : فعلى الطالب اتباع بالمعروف إذا قبل الدية ﴿ وأداء إليه بإحسان ﴾ يعني من القاتل من غير ضرر يؤدي المطلوب إليه بإحسان، ﴿ ذلك تخفيف من ربكم ورحمة ﴾ يقول تعالى إنما شرع لكم أخذ الدية في العمد، تخفيفاً من الله عليكم ورحمة بكم، مما كان محتوماً على الأمم قبلكم من القتل أو العفو، كما قال مجاهد عن ابن عباس : كتب على بني إسرائيل القصاص في القتلى ولم يكن فيهم العفو، فقال الله لهذه الأمة : ﴿ كتب عليكم القصاص في القتلى الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى فن عفي له من أخيه شيء ﴾ فالعفو أن يقبل الدية في العمد، ذلك تخفيف مما كتب على بني إسرائيل ومن كان قبلكم ﴿ فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان ﴾ وقال قتادة : ﴿ ذلك تخفيف من ربكم ﴾ رحم الله هذه الأمة وأطعمهم الدية، ولم تحل لأحد قبلهم، فكان أهل التوراة إنما هو القصاص. وعفو ليس بينهم أرش، وكان أهل الإنجيل إنما هو عفو أمروا به، وجعل لهذه الأمة القصاص والعفو والأرش .

قوله تعالى : ﴿ فن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم ﴾ يقول تعالى فن قتل بعد أخذ الدية أو قبولها فله عذاب من الله، أليم : موجع شديد، لحديث : « من أصيب بقتل أو خبل فإنه يختار إحدى ثلاث : إما أن يقتصر، وإما أن يعفو، وإما أن يأخذ الدية، فإن أراد الرابعة فخذوا على يديه، ومن اعتدى بعد ذلك فله نار جهنم خالداً فيها »^(٢) .

(١) أقول : ما ذهب إليه أبو حنيفة ضعيف وفي النفس منه شيء ، وما ذهب إليه الجمهور هو الأرجح والله أعلم ، وانظر تفصيل المسألة في كتابنا (تفسير آيات الأحكام) الجزء الأول ، ص ١٧٧ .

(٢) رواه أحمد عن أبي شريح الخزاعي مرفوعاً .

وقوله تعالى: ﴿ولكم في القصاص حياة﴾، يقول تعالى: وفي شرع القصاص لكم وهو قتل القاتل، حكمة عظيمة وهي بقاء المهج وصونها، لأنه إذا علم القاتل أنه يقتل، انكف عن صنيعه فكان في ذلك حياة للنفوس، واشتهر قولهم: «القتل أنفى للقتل» فجاءت هذه العبارة في القرآن أفصح وأبلغ وأوجز ﴿ولكم في القصاص حياة﴾ قال أبو العالية: جعل الله القصاص حياة، فكم من رجل يريد أن يقتل فتمنعه مخافة أن يقتل، ﴿يا أولي الألباب لعلمكم تتقون﴾ يقول يا أولي العقول والأفهام والنهى، لعلمكم تتزجرون وتتركون محارم الله ومآثمه. والتقوى: اسم جامع لفعل الطاعات وترك المنكرات.

كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمْ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةَ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾ فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨١﴾ فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوسِرٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٨٢﴾

اشتملت هذه الآية الكريمة على الأمر بالوصية للوالدين والأقربين، وقد كان ذلك واجباً قبل نزول آية الموارث، فلما نزلت آية الفرائض نسخت هذه، وصارت الموارث المقدرة فريضة من الله، يأخذها أهلها حتماً من غير وصية ولا تحمل مئة الموصي، ولهذا جاء في الحديث: «إن الله قد أعطى كل ذي حق حقه فلا وصية لوارث»^(١). وعن ابن عباس في قوله: ﴿الوصية للوالدين والأقربين﴾ نسختها هذه الآية: ﴿للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون مما قلَّ منه أو أكثر نصيباً مفروضاً»^(٢). والعجب من الرازي كيف حكى عن أبي مسلم الأصفهاني أن هذه الآية غير منسوخة، وإنما هي مفسرة بآية الموارث، ومعناه: كتب عليكم ما أوصى الله به من توريث الوالدين والأقربين من قوله: ﴿يوصيكم الله في أولادكم﴾، قال: وهو قول أكثر المفسرين والمعتبرين من الفقهاء، قال: ومنهم من قال إنها منسوخة فيمن يرث، ثابتة فيمن لا يرث، ولكن على قول هؤلاء لا يسمى هذا نسخاً في اصطلاحنا المتأخر، لأن آية الموارث إنما رفعت حكم بعض أفراد ما دل عليه عموم آية الوصاية، لأن الأقربين أعم من يرث ومن لا يرث، فرفع حكم من يرث بما عين له وبقي الآخر على ما دلت عليه الآية الأولى، وهذا إنما يتأتى على قول بعضهم: إن الوصاية في ابتداء الإسلام إنما كانت ندباً حتى نسخت، فأما من يقول: إنها كانت واجبة، وهو الظاهر من سياق الآية، فيتعين أن تكون منسوخة بآية الميراث، كما قاله أكثر المفسرين. فإن وجوب الوصية للوالدين والأقربين الوارثين منسوخ بالإجماع، بل منهي عنه للحديث المتقدم: «إن الله قد أعطى كل ذي حق حقه فلا وصية لوارث». بقي الأقارب الذين لا ميراث لهم، يستحب له أن يوصي لهم من الثلث، استثناساً بآية الوصية وشمولها، ولما ثبت أن رسول الله ﷺ قال: «ما حق امرئ مسلم له شيء يوصي فيه يبيت ليلتين إلا ووصيته مكتوبة عنده»^(٣). قال ابن عمر: ما مرت علي ليلة منذ

(١) رواه أصحاب السنن عن عمرو بن خارجه . (٢) رواه الشيخان عن ابن عمر رضي الله عنهما .

(٣) رواه ابن أبي حاتم .

سمعت رسول الله ﷺ يقول ذلك إلا وعندي وصيتي. ﴿إن ترك خيراً﴾ أي مالا، قاله ابن عباس ومجاهد. ثم منهم من قال: الوصية مشروعة سواء قل المال أو أكثر، ومنهم من قال: إنما يوصي إذا ترك مالا كثيراً. قيل لعلي رضي الله عنه: إن رجلاً من قريش قد مات وترك ثلثمائة دينار أو أربعمائة ولم يوص، قال: ليس بشيء، إنما قال الله ﴿إن ترك خيراً﴾ إذا تركت شيئاً يسيراً فاتركه لولدك. وقال ابن عباس: من لم يترك ستين ديناراً لم يترك خيراً. وقال قتادة: كان يقال ألفاً فما فوقها، وقوله: ﴿بالمعروف﴾ أي بالرفق والإحسان، والمراد بالمعروف أن يوصي لأقاربه وصية لا تحجف بورثته كما ثبت في الصحيحين أن سعداً قال: يا رسول الله: إن لي مالا ولا يرثني إلا ابنة لي أفأوصي بثلثي مالي؟ قال: «لا»، قال: فبالشطر؟ قال: «لا»، قال: فالثلث؟ قال: «الثلث، والثلث كثير، إنك أن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يتكفون الناس». وفي صحيح البخاري أن ابن عباس قال: لو أن الناس غضوا من الثلث إلى الربع فإن رسول الله ﷺ قال: «الثلث، والثلث كثير».

وقوله تعالى: ﴿فمن بدله بعد ما سمعه فإنما إثمه على الذين يبدلونه إن الله سميع عليم﴾، يقول تعالى: فمن بدل الوصية وحرّفها فغير حكمها وزاد فيها أو نقص، ويدخل في ذلك الكتمان لها بطريق الأولى ﴿فإنما إثمه على الذين يبدلونه﴾، قال ابن عباس: وقع أجر الميت على الله، وتعلّق الإثم بالذين بدلوا ذلك. ﴿إن الله سميع عليم﴾ أي قد اطلع على ما أوصى به الميت وهو عليم بذلك وبما بدله الموصى إليهم. وقوله تعالى: ﴿فمن خاف من موصٍ جنفاً أو إثماً﴾ قال ابن عباس: الجنف: الخطأ، وهذا يشمل أنواع الخطأ كلها، بأن زادوا وارثاً بواسطة أو وسيلة، كما إذا أوصى لابن ابنته ليزيدها أو نحو ذلك من الوسائل، إما مخطئاً غير عامد بل بطبعه وقوة شفقتة من غير تبصر، أو متعمداً آثماً في ذلك، فللوصي والحالة هذه أن يصلح القضية ويعدل في الوصية على الوجه الشرعي، ويعدل عن الذي أوصى به الميت، إلى ما هو أقرب الأشياء إليه وأشبه الأمور به، جمعاً بين مقصود الموصي والطريق الشرعي، وهذا الإصلاح والتوفيق ليس من التبديل في شيء، ولهذا عطف هذا فنبه على النهي عن ذلك، ليعلم أن هذا ليس من ذلك بسبيل، والله أعلم. وفي الحديث: «الجنف في الوصية من الكبائر»^(١). وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الرجل ليعمل بعمل أهل الخير سبعين سنة فإذا أوصى حاف في وصيته فيختم له بشر عمله فيدخل النار، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل الشر سبعين سنة فيعدل في وصيته فيختم له بنجر عمله فيدخل الجنة». قال أبو هريرة: اقرأوا إن شئتم ﴿تلك حدود الله فلا تعتدوها﴾^(٢) الآية.

يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ ۖ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَىٰ الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مَسْكِينٍ ۖ فَمَنْ تَطَوَّعَ

(١) رواه ابن مردويه مرفوعاً، قال ابن كثير: وفي رفعه نظر.

(٢) أخرجه عبد الرزاق عن أبي هريرة مرفوعاً.

خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾

يخاطب تعالى المؤمنين من هذه الأمة ، أمراً إياهم بالصيام ، وهو الإمساك عن الطعام والشراب والوقاع ، بنية خالصة لله عز وجل ، لما فيه من زكاة النفوس وطهارتها ، وتنقيتها من الأخلاط الرديئة والأخلاق الرذيلة ، وذكر أنه كما أوجبه عليهم فقد أوجبه على من كان قبلهم ، فلهم فيه أسوة ، وليجتهد هؤلاء في أداء هذا الفرض أكمل مما فعله أولئك كما قال تعالى : ﴿ فاستبقوا الخيرات ﴾ ، ولهذا قال ههنا : ﴿ كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون ﴾ لأن الصوم فيه تزكية للبدن ، وتضييق لمسالك الشيطان ، ولهذا ثبت في الصحيحين : « يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج .. ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء » ، ثم بين مقدار الصوم وأنه ليس في كل يوم ، لثلاثين على النفوس ، فتضعف عن حملة وأدائه ، بل في أيام معدودات ، وقد كان هذا في ابتداء الإسلام ، يصومون من كل شهر ثلاثة أيام ، ثم نسخ ذلك بصوم شهر رمضان كما سيأتي بيانه . وقد روي أن الصيام كان أولاً كما كان عليه الأمم قبلنا ، من كل شهر ثلاثة أيام ولم يزل هذا مشروعاً من زمان نوح ، إلى أن نسخ الله ذلك بصيام شهر رمضان ، وقال الحسن البصري : لقد كتب الصيام على كل أمة قد خلت كما كتب علينا ، شهراً كاملاً وأياماً معدودات عدداً معلوماً . وعن عبد الله بن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « صيام رمضان كتبه الله على الأمم قبلكم »^(١) .

وقال عطاء عن ابن عباس : ﴿ كما كتب على الذين من قبلكم ﴾ يعني بذلك أهل الكتاب ، ثم بين حكم الصيام على ما كان عليه الأمر في ابتداء الإسلام فقال : ﴿ فمن كان منكم مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر ﴾ أي المريض والمسافر لا يصومان في حال المرض والسفر ، لما في ذلك من المشقة عليهما ، بل يفطران ويقضيان بعدة ذلك من أيام أخر ، وأما الصحيح المقيم الذي يطيق الصيام ، فقد كان مخيراً بين الصيام وبين الإطعام ، إن شاء صام وإن شاء أفطر وأطعم عن كل يوم مسكيناً ، فإن أطعم أكثر من مسكين عن كل يوم فهو خير ، وإن صام فهو أفضل من الإطعام ، قاله ابن مسعود وابن عباس ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين فمن تطوع خيراً فهو خير له وأن تصوموا خير لكم إن كنتم تعلمون ﴾ .

روي أن رسول الله ﷺ قدم المدينة فجعل يصوم من كل شهر ثلاثة أيام وصام عاشوراء ، ثم إن الله فرض عليه الصيام وأنزل الله تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم ﴾ إلى قوله : ﴿ وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين ﴾ فكان من شاء صام ومن شاء أطعم مسكيناً فأجزأ ذلك عنه ، ثم إن الله عز وجل أنزل الآية الأخرى : ﴿ شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن ﴾ إلى قوله : ﴿ فمن شهد منكم الشهر فليصمه ﴾ فأثبت الله صيامه على المقيم الصحيح ، ورخص فيه للمريض والمسافر ، وثبت الإطعام للكبير الذي لا يستطيع الصيام ، وكانوا يأكلون ويشربون ويأتون النساء ما لم يناموا فإذا ناموا امتنعوا ، ثم إن رجلاً من الأنصار يقال له (صرمة) كان يعمل صائماً ، حتى أمسى فجاء إلى أهله فصلّى العشاء ثم نام ، فلم يأكل ولم يشرب حتى أصبح ،

(١) رواه ابن أبي حاتم عن عبد الله بن عمر مرفوعاً .

فأصبح صائماً فرآه رسول الله ﷺ وقد جهد جهداً شديداً، فقال: « مالي أراك قد جهدت جهداً شديداً؟ » قال: يا رسول الله إني عملت أمس، فجئت حين جئت فألقيت نفسي فتمت، فأصبحت حين أصبحت صائماً، قال: وكان عمر قد أصاب من النساء بعد ما نام، فأتى النبي ﷺ فذكر له ذلك فأنزل الله عز وجل: ﴿ أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم - إلى قوله - ثم أتموا الصيام إلى الليل ﴾^(١).

وروى البخاري عن سلمة بن الأكوع أنه قال: لما نزلت ﴿ وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين ﴾ كان من أراد أن يفطر يفتدي حتى نزلت الآية التي بعدها فنسختها، وروي عن ابن عمر قال: هي منسوخة، وقال السدي: لما نزلت هذه الآية: ﴿ وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين ﴾ كان من شاء صام ومن شاء أفطر وأطعم مسكيناً فكانوا كذلك حتى نسختها: ﴿ فن شهد منكم الشهر فليصمه ﴾. وقال ابن عباس: ليست منسوخة، هو الشيخ الكبير والمرأة الكبيرة لا يستطيعان أن يصوما فيطعمان مكان كل يوم مسكيناً^(٢). وعن ابن عباس قال: نزلت هذه الآية ﴿ وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين ﴾ في الشيخ الكبير الذي لا يطيق الصوم ثم ضعف، فرخص له أن يطعم مكان كل يوم مسكيناً، وعن ابن أبي ليلى قال: دخلت على (عطاء) في رمضان وهو يأكل فقال: قال ابن عباس: نزلت هذه الآية فنسخت الأولى، إلا الكبير الفاني إن شاء أطعم عن كل يوم مسكيناً وأفطر^(٣).

فحاصل الأمر أن النسخ ثابت في حق الصحيح المقيم، بإيجاب الصيام عليه بقوله: ﴿ فن شهد منكم الشهر فليصمه ﴾ وأما الشيخ الفاني الهرم الذي لا يستطيع الصيام، فله أن يفطر ولا قضاء عليه، لأنه ليست له حال يصير إليها يتمكن فيها من القضاء، ولكن هل يجب عليه إذا أفطر أن يطعم عن كل يوم مسكيناً إذا كان ذا جدة؟ فيه قولان، أحدهما: لا يجب عليه إطعام لأنه ضعيف عنه لسنه، فلم يجب عليه فدية كالصبي، لأن الله لا يكلف نفساً إلا وسعها وهو أحد قولي الشافعي. والثاني: وهو الصحيح وعليه أكثر العلماء أنه يجب عليه فدية عن كل يوم، وهو اختيار البخاري، فإنه قال: وأما الشيخ الكبير إذا لم يطق الصيام، فقد أطعم أنسٌ بعد ما كبر عاماً أو عامين، عن كل يوم مسكيناً خبزاً ولحماً وأفطر، ومما يلتحق بهذا المعنى (الحامل) و (المرضع) إذا خافتا على أنفسهما أو ولديهما، ففيهما خلاف كثير بين العلماء فمنهم من قال: يفطران ويفديان ويقضيان، وقيل: يفديان فقط ولا قضاء، وقيل: يجب القضاء بلا فدية، وقيل: يفطران ولا فدية ولا قضاء.

شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَيْتُمْ ۗ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾

(١) أخرجه أحمد وأبو داود والحاكم.

(٢) أخرجه البخاري عن عطاء عن ابن عباس.

(٣) أخرجه ابن مردويه عن ابن أبي ليلى.

يمدح تعالى شهر الصيام من بين سائر الشهور، بأن اختاره من بينهن لإنزال القرآن العظيم، بأنه الشهر الذي كانت الكتب الإلهية تنزل فيه على الأنبياء، قال الإمام أحمد عن واثلة بن الأسقع: أن رسول الله ﷺ قال: «أنزلت صحف إبراهيم في أول ليلة من رمضان، وأنزلت التوراة لست مضين من رمضان، والإنجيل لثلاث عشر خلت من رمضان، وأنزل الله القرآن لأربع وعشرين خلت من رمضان»، وأما الصحف والتوراة والزبور والإنجيل، فنزل كل منها على النبي الذي أنزل عليه جملة واحدة، وأما القرآن فإنما نزل جملة واحدة إلى بيت العزة من السماء الدنيا، وكان ذلك في شهر رمضان في ليلة القدر منه كما قال تعالى: ﴿إنا أنزلناه في ليلة القدر﴾، وقال: ﴿إنا أنزلناه في ليلة مباركة﴾، ثم نزل بعد مفرقاً بحسب الوقائع على رسول الله ﷺ، هكذا روي من غير وجه عن ابن عباس أنه سأله عطية بن الأسود فقال: وقع في قلبي الشك قول الله تعالى: ﴿شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن﴾، وقوله: ﴿إنا أنزلناه في ليلة مباركة﴾، وقوله: ﴿إنا أنزلناه في ليلة القدر﴾ وقد أنزل في شوال، وفي ذي القعدة، وفي ذي الحجة، وفي المحرم وصفر وشهر ربيع!! فقال ابن عباس: إنه أنزل في رمضان في ليلة القدر، وفي ليلة مباركة جملة واحدة، ثم أنزل على مواقع النجوم ترتيباً في الشهور والأيام.

وقوله تعالى: ﴿هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان﴾ هذا مدح للقرآن الذي أنزله الله هدى لقلوب العباد ممن آمن به وصدقته واتبعه، ﴿وبينات﴾ أي دلائل وحجج بينة واضحة جلية لمن فهمها وتدبرها، دالة على صحة ما جاء به من الهدى المنافي للضلال، والرشد المخالف للغي، ومفرقاً بين الحق والباطل، والحلال والحرام، وقد روي عن بعض السلف أنه كره أن يقال: (رمضان) ورخص فيه ابن عباس وزيد بن ثابت، وقد انتصر البخاري لهذا فقال: باب - يقال رمضان - وساق أحاديث في ذلك، منها: «من صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه»، ونحو ذلك.

وقوله تعالى: ﴿فن شهد منكم الشهر فليصمه﴾ هذا إيجاب حتم على من شهد استهلال الشهر، أي كان مقيماً في البلد حين دخل شهر رمضان وهو صحيح في بدنه أن يصوم لا محالة، ونسخت هذه الآية الإباحة المتقدمة لمن كان صحيحاً مقيماً أن يفطر ويفدي بإطعام مسكين عن كل يوم كما تقدم بيانه. ولما ختم الصيام أعاد ذكر الرخصة للمريض والمسافر في الإفطار بشرط القضاء فقال: ﴿ومن كان مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر﴾ معناه: ومن كان به مرض في بدنه يشق عليه الصيام معه أو يؤذيه، أو كان على سفر أي في حالة السفر فله أن يفطر، فإذا أفطر فعليه عدة ما أفطره في السفر من الأيام، ولهذا قال: ﴿يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر﴾ أي إنما رخص لكم في الفطر في حال المرض والسفر، مع تحتمه في حق المقيم الصحيح السليم تيسيراً عليكم ورحمة بكم.

وههنا مسائل تتعلق بهذه الآية، (إحداها): أنه قد ذهب طائفة من السلف إلى أن من كان مقيماً في أول الشهر ثم سافر في أثناءه فليس له الإفطار بعذر السفر والحالة هذه لقوله: ﴿فن شهد منكم الشهر فليصمه﴾، وإنما يباح الإفطار لمسافر استهلال الشهر وهو مسافر، وهذا قول غريب نقله ابن حزم في كتابه (المحلى) عن جماعة من

الصحابة والتابعين وفيما حكاه عنهم نظر ، فإنه قد ثبتت السنة عن رسول الله ﷺ أنه خرج في شهر رمضان لغزوة الفتح فسار حتى بلغ الكديد ثم أفطر وأمر الناس بالفطر^(١) ، (الثانية) : ذهب آخرون من الصحابة والتابعين إلى وجوب الإفطار في السفر لقوله تعالى : ﴿ فعدة من أيام أخر ﴾ والصحيح قول الجمهور أن الأمر في ذلك على التخيير ، وليس بحتم ، لأنهم كانوا يخرجون مع رسول الله ﷺ في شهر رمضان قال : فإنا الصائم ومنا المفطر ، فلم يعب الصائم على المفطر ، ولا المفطر على الصائم ، فلو كان الإفطار هو الواجب لأنكر عليهم الصيام ، بل الذي ثبت من فعل رسول الله ﷺ أنه كان في مثل هذه الحالة صائماً ، لما ثبت في الصحيحين عن أبي الدرداء قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ في شهر رمضان في حر شديد حتى إن كان أحدنا يضع يده على رأسه من شدة الحر وما فينا صائم إلا رسول الله ﷺ وعبدالله بن رواحة . (الثالثة) : قالت طائفة ، منهم الشافعي : الصيام في السفر أفضل من الإفطار لفعل النبي ﷺ كما تقدم ، وقالت طائفة بل الإفطار أفضل أخذاً بالرخصة ، وقالت طائفة : هما سواء لحديث عائشة أن حمزة بن عمرو الأسلمي قال : يا رسول الله إني كثير الصيام أفصوم في السفر ؟ فقال : « إن شئت فصم وإن شئت فأفطر »^(٢) ، وقيل : إن شقَّ الصيام فالإفطار أفضل لحديث جابر : أن رسول الله ﷺ رأى رجلاً قد ظلَّ عليه فقال : « ما هذا ؟ » قالوا : صائم ، فقال : « ليس من البر الصيام في السفر » أخرجاه . (الرابعة) : القضاء هل يجب متتابعاً أو يجوز فيه التفريق فيه قولان : (أحدهما) : أنه يجب المتتابع لأن القضاء يحكي الأداء ، (والثاني) : لا يجب المتتابع بل إن شاء فرق وإن شاء تابع ، وهذا قول جمهور السلف والخلف وعليه ثبتت الدلائل ، لأن المتتابع إنما وجب في الشهر لضرورة أدائه في الشهر ، فأما بعد انقضاء رمضان فالمراد صيام أيام عدة ما أفطر ، ولهذا قال تعالى : ﴿ فعدة من أيام أخر ﴾ ، ثم قال تعالى : ﴿ يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ﴾ .

وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال لمعاذ وأبي موسى حين بعثهما إلى اليمن : « بشرًا ولا تنفرا ويسرا ولا تعسرا وتطوعا ولا تختلفا » . وفي السنن والمسانيد أن رسول الله ﷺ قال : « بعثت بالحنيفية السمحة » ومعنى قوله : ﴿ يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ولتكملوا العدة ﴾ أي إنما أرخص لكم في الإفطار للمرض والسفر ونحوهما من الأعذار ، لإرادته بكم اليسر ، وإنما أمركم بالقضاء لتكملوا عدة شهركم ، وقوله : ﴿ ولتكبروا الله على ما هداكم ﴾ أي ولتذكروا الله عند انقضاء عبادتكم ، كما قال : ﴿ فإذا قضيت مناسككم فاذكروا الله كذا كركم آباءكم أو أشد ذكراً ﴾ ، وقال : ﴿ فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون ﴾ . ولهذا جاءت السنة باستحباب التسيب والتحميد والتكبير بعد الصلوات المكتوبات ، وقال ابن عباس : ما كنا نعرف انقضاء صلاة رسول الله ﷺ إلا بالتكبير ، ولهذا أخذ كثير من العلماء مشروعية التكبير في عيد الفطر من هذه الآية : ﴿ ولتكملوا العدة ولتكبروا الله على ما هداكم ﴾ ، وقوله : ﴿ ولعلكم تشكرون ﴾ أي إذا قمتم بما أمركم الله من طاعته ، بأداء فرائضه ، وترك محارمه ، وحفظ حدوده ، فلهلكم أن تكونوا من الشاكرين بذلك .

(١) الحديث في الصحيحين .

(٢) رواه البخاري ومسلم .

وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾

روي أن أعرابياً قال: يا رسول الله: أقرب ربنا فنناجيه أم بعيد فنناديه؟ فسكت النبي ﷺ فأنزل الله: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي﴾^(١). وعن الحسن قال: سأل أصحاب رسول الله ﷺ: أين ربنا؟ فأنزل الله عز وجل: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ الآية. وقال عطاء إنه بلغه لما نزلت ﴿وقال ربكم ادعوني أستجب لكم﴾ قال الناس: لو نعلم أي ساعة ندعو؟ فنزلت: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾. وعن أبي موسى الأشعري قال: كنا مع رسول الله ﷺ في غزوة فجعلنا لا نصعد شرفاً، ولا نعلو شرفاً، ولا نهبط وادياً، إلا رفعنا أصواتنا بالتكبير. قال: فدنا منا فقال: «يا أيها الناس أربعوا على أنفسكم فإنكم لا تدعون أصم ولا غابياً إنما تدعون سميعاً بصيراً، إن الذين تدعون أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته، يا عبدالله بن قيس ألا أعلمك كلمة من كنوز الجنة؟ لا حول ولا قوة إلا بالله»^(٢).

وعن أبي هريرة أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «قال الله تعالى أنا مع عبدي ما ذكرني وتحركت بي شفتاه»^(٣). (قلت): وهذا كقوله تعالى: ﴿إِن اللّٰهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾، وقوله لموسى وهارون عليهما السلام: ﴿إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ والمراد من هذا أنه تعالى لا يجيب دعاء داع، ولا يشغله عنه شيء، بل هو سميع الدعاء، ففيه ترغيب في الدعاء وأنه لا يضيع لديه تعالى، كما قال ﷺ: «إن الله تعالى ليستحي أن يبسط العبد إليه يديه يسأله فيهما خيراً فيردهما خائبتين»^(٤). وعن أبي سعيد أن النبي ﷺ قال: «ما من مسلم يدعو الله عز وجل بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث خصال: إما أن يعجل له دعوته، وإما أن يدخرها له في الأخرى، وإما أن يصرف عنه من السوء مثلاً»، قالوا: إذن نكثر، قال: «الله أكثر»^(٥). وعن النبي ﷺ قال: «ما على ظهر الأرض من رجل مسلم يدعو الله عز وجل بدعوة إلا آتاه الله إياها أو كف عنه من السوء مثلاً ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم»^(٦). وروى مسلم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «لا يزال يستجاب للعبد ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم ما لم يستعجل». قيل: يا رسول الله! وما الاستعجال؟ قال: «يقول قد دعوت وقد دعوت فلم أر يستجاب لي فيستحسر عند ذلك ويدع الدعاء».

وقال ﷺ: «القلوب أوعية وبعضها أوعى من بعض، فإذا سألت الله أيها الناس فاسألوه وأتم موقنون بالإجابة،

(١) أخرجه ابن أبي حاتم .

(٢) رواه أحمد والشيخان .

(٣) رواه أحمد عن أبي هريرة .

(٤) رواه أحمد عن سلمان الفارسي .

(٥) رواه أحمد عن أبي سعيد .

(٦) رواه الترمذي .

فإنه لا يستجيب لعبد دعاه عن ظهر قلب غافل»^(١). وفي ذكره تعالى هذه الآية الباعثة على الدعاء، متخللة بين أحكام الصيام، إرشاد إلى الاجتهاد في الدعاء عند إكمال العدة، بل وعند كل فطر، كما روي عن عبدالله بن عمرو قال، قال النبي ﷺ: «إن للصائم عند فطره دعوة ما ترد»، قال عبيدالله بن أبي مليكة: سمعت عبدالله بن عمرو يقول إذا أفطر: اللهم إني أسألك برحمتك التي وسعت كل شيء أن تغفر لي^(٢). وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة لا ترد دعوتهم: الإمام العادل، والصائم حتى يفطر، ودعوة المظلوم يرفعها الله دون الغمام يوم القيامة وتفتح لها أبواب السماء ويقول بعزتي لأنصرنك ولو بعد حين»^(٣).

أَحَلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصَّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالْكَفَنُ بِشُرُوهنَّ وَأَبْغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمْ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتُمُوا الصَّيَامَ إِلَى الْآيِلِ وَلَا تَبْشُرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسْجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾

هذه رخصة من الله تعالى للمسلمين، ورفع لما كان عليه الأمر في ابتداء الإسلام، فإنه كان إذا أفطر أحدهم إنما يحل له الأكل والشرب والجماع إلى صلاة العشاء أو ينام قبل ذلك، فتى نام أو صلى العشاء حرم عليه الطعام والشراب والجماع إلى الليلة القابلة، فوجدوا من ذلك مشقة كبيرة، والرفث هنا هو الجماع قاله ابن عباس وعطاء ومجاهد. وقوله: ﴿هن لباس لكم وأنتم لباس لهن﴾ قال ابن عباس: يعني هن سكن لكم وأنتم سكن لهن، وقال الربيع: هن لحاف لكم وأنتم لحاف لهن، وحاصله أن الرجل والمرأة كل منهما يخالط الآخر ويماسه ويضاجعه، فناسب أن يرخص لهم في المجامعة في ليل رمضان لثلاثين يوماً عليهم ويخرجوا.

وكان السبب في نزول هذه الآية ما روي أن أصحاب النبي ﷺ إذا كان الرجل صائماً فنام قبل أن يفطر لم يأكل إلى مثلها، وإن (قيس بن صرمة) الأنصاري كان صائماً وكان يومه ذلك يعمل في أرضه، فلما حضر الإفطار أتى امرأته فقال: هل عندك طعام؟ قالت: لا ولكن أنطلق فأطلب لك، فغلبته عينه فنام، وجاءت امرأته فلما رآته نائماً قالت: خيبة لك أمت؟ فلما انتصف النهار غشي عليه، فذكر ذلك للنبي ﷺ فنزلت هذه الآية: ﴿أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم - إلى قوله - وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر﴾ ففرحوا بها فرحاً شديداً، ولفظ البخاري عن البراء قال: لما نزل صوم رمضان كانوا لا يقربون النساء رمضان كله، وكان رجال يخونون أنفسهم فأنزل الله: ﴿علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم فتاب عليكم

(١) رواه أحمد عن عبد الله بن عمرو .

(٢) رواه ابن ماجه وأخرجه الطيالسي بنحوه .

(٣) رواه أحمد والترمذي والنسائي وابن ماجه .

وعفا عنكم ﴿١﴾. وعن ابن عباس قال: كان المسلمون في شهر رمضان إذا صلوا العشاء حرم عليهم النساء والطعام إلى مثلها من القسابة، ثم إن أناساً من المسلمين أصابوا من النساء والطعام في شهر رمضان بعد العشاء منهم عمر بن الخطاب فشكوا ذلك إلى رسول الله ﷺ فأنزل الله تعالى: ﴿٢﴾ علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم فتاب عليكم وعفا عنكم فالآن باشروهن ﴿٣﴾ الآية .

وعن أبي هريرة في قول الله تعالى: ﴿٤﴾ أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم ﴿٥﴾ قال: كان المسلمون قبل أن تنزل هذه الآية إذا صلوا العشاء الآخرة حرم عليهم الطعام والشراب والنساء حتى يفتروا، وإن عمر بن الخطاب أصاب أهله بعد صلاة العشاء، وإن (صرمة بن قيس) الأنصاري غلبته عيناه بعد صلاة المغرب فنام، ولم يشبع من الطعام ولم يستيقظ حتى صلى رسول الله ﷺ العشاء فقام فأكل وشرب، فلما أصبح أتى رسول الله ﷺ فأخبره بذلك فأنزل الله عند ذلك: ﴿٦﴾ أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم ﴿٧﴾ يعني بالرفث مجامعة النساء، ﴿٨﴾ هن لباس لكم وأنتم لباس لهن علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم ﴿٩﴾ يعني تجامعون النساء وتأكلون وتشربون بعد العشاء، ﴿١٠﴾ فتاب عليكم وعفا عنكم فالآن باشروهن ﴿١١﴾ يعني جامعوهن ﴿١٢﴾ وابتغوا ما كتب الله لكم ﴿١٣﴾ يعني الولد، ﴿١٤﴾ وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ثم أتموا الصيام إلى الليل ﴿١٥﴾ فكان ذلك عفواً من الله ورحمة، وقال ابن جرير: كان الناس في رمضان إذا صام الرجل فأمسى فنام حرم عليه الطعام والشراب والنساء حتى يفطر من الغد، فرجع عمر بن الخطاب من عند النبي ﷺ ذات ليلة وقد سمر عنده، فوجد امرأته قد نامت فأرادها فقالت: إني قد نمت، فقال: ما نمت، ثم وقع بها. وصنع (كعب بن مالك) مثل ذلك، فغدا عمر بن الخطاب إلى النبي ﷺ فأخبره، فأنزل الله: ﴿١٦﴾ علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم فتاب عليكم وعفا عنكم فالآن باشروهن ﴿١٧﴾ الآية . فأباح الجماع والطعام والشراب في جميع الليل رحمة ورفقاً .

وقوله تعالى: ﴿١٨﴾ وابتغوا ما كتب الله لكم ﴿١٩﴾، قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة: يعني الولد، وقال عبد الرحمن ابن زيد بن أسلم: ﴿٢٠﴾ وابتغوا ما كتب الله لكم ﴿٢١﴾ يعني الجماع، وقال قتادة: ابتغوا الرخصة التي كتب الله لكم، يقول ما أحل الله لكم. واختار ابن جرير أن الآية أعم من هذا كله .

قوله تعالى: ﴿٢٢﴾ وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ثم أتموا الصيام إلى الليل ﴿٢٣﴾، أباح تعالى الأكل والشرب مع ما تقدم من إباحة الجماع، في أي الليل شاء الصائم إلى أن يتبين ضياء الصباح من سواد الليل، وعبر عن ذلك بالخيط الأبيض من الخيط الأسود ورفع اللبس بقوله: ﴿٢٤﴾ من الفجر ﴿٢٥﴾، كان رجال إذا أرادوا الصوم ربط أحدهم في رجله الخيط الأبيض والخيط الأسود فلا يزال يأكل حتى يتبين له رؤيتهما، فأنزل الله بعد ﴿٢٦﴾ من الفجر ﴿٢٧﴾ فاعلموا أنما يعني الليل والنهار ﴿٢٨﴾ . وعن عدي بن حاتم قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿٢٩﴾ وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود ﴿٣٠﴾ عمدت إلى عقالين أحدهما أسود والآخر أبيض، قال: فجعلتهما تحت وسادتي، قال: فجعلت أنظر إليهما فلما تبين لي الأبيض من الأسود أمسكت فلما أصبحت غلوت إلى رسول الله ﷺ فأخبرته بالذي صنعت فقال: « إن وسادك إذن لعريض إنما ذلك بياض

(٢) أخرجه البخاري عن سهل بن سعد .

(١) أخرجه ابن جرير عن كعب بن مالك .

النهار من سواد الليل»^(١). وجاء في بعض الألفاظ: «إنك لعريض القفا» ففسره بعضهم بالبلادة، ويفسره رواية البخاري أيضاً قال: «إنك لعريض القفا إن أبصرت الخيطين، ثم قال: لا، بل هو سواد الليل وبياض النهار» .

فصل

وفي إباحته تعالى جواز الأكل إلى طلوع الفجر، دليل على استحباب السحور، لأنه من باب الرخصة والأخذ بها محبوب ولهذا وردت السنة الثابتة عن رسول الله ﷺ بالحث على السحور. ففي الصحيحين عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «تسحروا فإن في السحور بركة»، وفي صحيح مسلم عن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن فصل ما بين صيامنا وصيام أهل الكتاب أكلة السحور»، وقال رسول الله ﷺ: «السحور أكلة بركة فلا تدعوه ولو أن أحدكم تجرّع جرعة ماء، فإن الله وملائكته يصلون على المتسحرين»^(٢). ويستحب تأخيره كما جاء في الصحيحين عن أنس بن مالك عن زيد بن ثابت قال: تسحرنا مع رسول الله ﷺ ثم قمنا إلى الصلاة، قال أنس قلت لزيد: كم كان بين الأذان والسحور؟ قال: قدر خمسين آية. وقال رسول الله ﷺ: «لا تزال أمتي بخير ما عجلوا الإفطار وأخروا السحور»^(٣).

وحكى ابن جرير في تفسيره عن بعضهم أنه إنما يجب الإمساك من طلوع الشمس كما يجوز الإفطار بغروبها. (قلت): وهذا القول ما أظن أحداً من أهل العلم يستقر له قدم عليه لمخالفته نص القرآن في قوله: ﴿وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ثم أتموا الصيام إلى الليل﴾، وقد ورد في الصحيحين عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: «لا يمنعكم أذان بلال عن سحوركم فإنه ينادي بليل، فكلوا واشربوا حتى تسمعوا أذان ابن أم مكتوم فإنه لا يؤذّن حتى يطلع الفجر». وقال رسول الله ﷺ: «لا يغرنكم أذان بلال ولا هذا البياض - لعمود الصبح - حتى يستطير»^(٤). وعن عطاء: سمعت ابن عباس يقول: هما فجران فأما الذي يسطع في السماء فليس يحل ولا يحرم شيئاً، ولكن الفجر الذي يستنير على رؤوس الجبال هو الذي يحرم الشراب، وقال عطاء: فأما إذا سطع سطوعاً في السماء وسطوعه أن يذهب في السماء طولاً فإنه لا يحرم به شراب للصائم ولا صلاة ولا يفوت به الحج، ولكن إذا انتشر على رؤوس الجبال حرم الشراب للصيام وفات الحج، وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس وعطاء، وهكذا روي عن غير واحد من السلف رحمهم الله .

مسألة

ومن جعله تعالى الفجر غاية لإباحة الجماع والطعام والشراب لمن أراد الصيام، يستدل على أنه من أصبح جنباً فليغتسل وليتم صومه ولا حرج عليه، وهذا مذهب الأئمة الأربعة وجمهور العلماء سلفاً وخلفاً، لما رواه البخاري

(١) أخرجه في الصحيحين .
 (٢) رواه أحمد عن أبي ذر الغفاري .
 (٣) رواه الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري .
 (٤) رواه مسلم عن سمرة بن جندب .

ومسلم من حديث عائشة وأم سلمة رضي الله عنهما أنهما قالتا: كان رسول الله ﷺ يصبح جنباً من جماع غير احتلام ثم يغتسل ويصوم، وفي حديث (أم سلمة) عندهما ثم لا يفطر ولا يقضي .

وقوله تعالى: ﴿ثم أتوا الصيام إلى الليل﴾ يقتضي الإفطار عند غروب الشمس كما جاء في الصحيحين: «إذا أقبل الليل من ههنا وأدبر النهار من ههنا فقد أفطر الصائم». وقال رسول الله ﷺ: «لا يزال الناس بخير ما عجلوا الفطر»^(١). وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ: «يقول الله عز وجل: أحب عبادي إليّ أعجلهم فطراً»^(٢) ولهذا ورد في الأحاديث الصحيحة النهي عن الوصال، وهو أن يصل يوماً بيوم آخر ولا يأكل بينهما شيئاً، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تواصلوا»، قالوا: يا رسول الله! إنك تواصل، قال: «فإني لست مثلكم إني أبيت يطعمني ربي ويسقيني». قال فلم ينتهوا عن الوصال فواصل بهم النبي ﷺ يومين وليلتين، ثم رأوا الهلال فقال: «لو تأخر الهلال لزدتكم» كالنكحل لهم^(٣). وعن عائشة رضي الله عنها قالت: نهى رسول الله ﷺ عن الوصال رحمة لهم، فقالوا: إنك تواصل، قال: «إني لست كهيتكم إني يطعمني ربي ويسقيني»، فقد ثبت النهي عنه من غير وجه، وثبت أنه من خصائص النبي ﷺ وأنه كان يقوى على ذلك ويعان، والأظهر أن ذلك الطعام والشراب في حقه إنما كان (معنوياً) لا (حسياً) وإلا فلا يكون مواصلاً مع الحسي ولكن كما قال الشاعر:

لها أحاديث من ذكراك تشغلها عن الشراب وتلهيها عن الزاد

وأما من أحب أن يمسك بعد غروب الشمس إلى وقت السحر فله ذلك، كما في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تواصلوا فأبيكم أراد أن يواصل فليواصل إلى السحر». قالوا: فإنك تواصل يا رسول الله، قال: «إني لست كهيتكم، إني أبيت لي مطعم يطعمني وساق يسقيني»^(٤).

وقوله تعالى: ﴿ولا تبشروهن وأتم عاكفون في المساجد﴾، قال ابن عباس: هذا في الرجل يعتكف في المسجد في رمضان أو في غير رمضان، فحرم الله عليه أن ينكح النساء ليلاً أو نهاراً حتى يقضي اعتكافه، وقال الضحاك: كان الرجل إذا اعتكف فخرج من المسجد جامع إن شاء، فقال الله تعالى: ﴿ولا تبشروهن وأتم عاكفون في المساجد﴾ أي لا تقر بهن ما دمتم عاكفين في المسجد ولا في غيره. وهذا الذي حكاه هو الأمر المتفق عليه عند العلماء، أن المعتكف يحرم عليه النساء ما دام معتكفاً في مسجده، ولو ذهب إلى منزله لحاجة لا بد له منها، فلا يحل له أن يثبت فيه إلا بمقدار ما يفرغ من حاجته تلك، من قضاء الغائط أو الأكل، وليس له أن يقبل امرأته، ولا أن يضمها إليه، ولا يشتغل بشيء سوى اعتكافه، ولا يعود المريض لكن يسأل عنه وهو ماز في طريقه، وللاعتكاف أحكام مفصلة في بابها، منها ما هو مجمع عليه بين العلماء ومنها ما هو مختلف فيه .

(١) أخرجه الشيخان عن سهل بن سعد الساعدي .

(٢) أخرجه أحمد والترمذي .

(٣) أخرجه أحمد والشيخان .

(٤) أخرجاه في الصحيحين .

وفي ذكره تعالى الاعتكاف بعد الصيام، إرشاد وتنبية على الاعتكاف في الصيام أو في آخر شهر الصيام، كما ثبت في السنة عن رسول الله ﷺ أنه كان يعتكف العشر الأواخر من شهر رمضان حتى توفاه الله عز وجل، ثم اعتكف أزواجه من بعده. وفي الصحيحين: أن صفية بنت حيي كانت تزور النبي ﷺ وهو معتكف في المسجد، فتحدثت عنده ساعة ثم قامت لترجع إلى منزلها، وكان ذلك ليلاً، فقام النبي ﷺ ليمشي معها حتى تبلغ دارها، وكان منزلها في دار أسامة بن زيد في جانب المدينة، فلما كان ببعض الطريق لقيه رجلان من الأنصار، فلما رآها النبي ﷺ أسرعاً (وفي رواية) تواريا - أي حياءً من النبي ﷺ لكون أهله معه - فقال لهما ﷺ: «على رسلكما إنها صفية بنت حيي» (أي لا تسرعوا واعلموا أنها صفية بنت حيي أي زوجتي) فقالا: سبحان الله يا رسول الله! فقال ﷺ: «إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما شيئاً أو قال شيئاً»^(١)، قال الشافعي رحمه الله: أراد عليه السلام أن يعلم أمته التبري من التهمة في محلها، لئلا يقع في محذور، وهما كانا أتقى لله من أن يظن بالنبي ﷺ شيئاً والله أعلم. ثم المراد (بالمباشرة) إنما هو الجماع ودواعيه من تقبيل ومعانقة ونحو ذلك، فأما معاطاة الشيء ونحوه فلا بأس به، فقد ثبت في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: كان رسول الله ﷺ يديني إلى رأسه فأرجله وأنا حائض، وكان لا يدخل البيت إلا لحاجة الإنسان. قالت عائشة: ولقد كان المريض يكون في البيت فما أسأل عنه إلا وأنا مارة.

وقوله تعالى: ﴿تلك حلود الله﴾ أي هذا الذي بيناه وفرضناه وحددناه من الصيام وأحكامه، وما أبخنا فيه وما حررنا وذكرنا غاياته ورخصه وعزائمهم ﴿حلود الله﴾ أي شرعها الله وبيّنها بنفسه ﴿فلا تقربوها﴾ أي لا تجاوزوها وتتعدوها. وقيل في قوله: ﴿تلك حلود الله﴾ أي المباشرة في الاعتكاف، ﴿كذلك بين الله آياته للناس﴾ أي كما بين الصيام وأحكامه وشرائعه وتفصيله، كذلك بين سائر الأحكام على لسان عبده ورسوله محمد ﷺ، ﴿للتناس لعلهم يتقون﴾ أي يعرفون كيف يهتدون وكيف يطيعون كما قال تعالى: ﴿هو الذي ينزل على عبده آيات بينات ليخرجكم من الظلمات إلى النور وإن الله بكم لرؤوف رحيم﴾.

وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾

قال ابن عباس: هذا في الرجل يكون عليه مال، وليس عليه فيه بينة فيجحد المال ويخاصم إلى الحكام، وهو يعرف أن الحق عليه وهو يعلم أنه آثم آكل الحرام، وكذا روي عن مجاهد وعكرمة وقتادة أنهم قالوا: لا يخاصم وأنت تعلم أنك ظالم، وقد ورد في الصحيحين عن أم سلمة أن رسول الله ﷺ قال: «ألا إنما أنا بشر وإنما يأتيني الخصم، ففعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض، فأقضي له. فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هي قطعة من نار فليحملها أو لينرها»، فدللت هذه الآية الكريمة وهذا الحديث على أن حكم الحاكم لا يغير الشيء في نفس الأمر، فلا يُجزل في نفس الأمر حراماً هو حرام، ولا يحرم حلالاً هو حلال وإنما هو ملزم في الظاهر. فإن طابق

في نفس الأمر فذاك، وإلا فللحاكم أجره وعلى المحتال وزره، ولهذا قال تعالى: ﴿وتدُلُّوا بها إلى المحاكم لتأكلوا فريقاً من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون﴾ أي تعلمون بطلان ما تدعون وتروجونه في كلامكم .

* يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجَّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مِنْ آتَقَى وَاتَّقُوا الْبُيُوتَ مِنْ أُبُوبِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾

سأل الناس رسول الله ﷺ عن الأهلة، فنزلت هذه الآية: ﴿يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس﴾ يعلمون بها حل دينهم، وعدة نساءهم، ووقت حجهم، وقال الربيع، وبلغنا أنهم قالوا: يا رسول الله لم خلقت الأهلة؟ فأنزل الله: ﴿يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس﴾ يقول جعلها الله مواقيت لصوم المسلمين وإفطارهم، وعدة نساءهم، ومحل دينهم. وعن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «جعل الله الأهلة مواقيت للناس، فصوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته، فإن غم عليكم فعدوا ثلاثين يوماً» (١).

وقوله تعالى: ﴿وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البر من اتقى وأتوا البيوت من أبوابها﴾، قال البخاري عن البراء: كانوا إذا أحرموا في الجاهلية أتوا البيت من ظهره فأنزل الله: ﴿وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البر من اتقى وأتوا البيوت من أبوابها﴾. وقال الحسن البصري: كان أقوام من أهل الجاهلية إذا أراد أحدهم سفراً، وخرج من بيته يريد سفره الذي خرج له، ثم بدا له بعد خروجه أن يقيم ويدع سفره لم يدخل البيت من بابه، ولكن يتسوره من قبل ظهره، فقال الله تعالى: ﴿وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها﴾ الآية. وقوله: ﴿واتقوا الله لعلكم تفلحون﴾ أي اتقوا الله فافعلوا ما أمركم به واتركوا ما نهاكم عنه ﴿لعلكم تفلحون﴾ غداً إذا وقفت بين يديه فيجازيكم على التمام والكمال .

وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقْتَلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقْتَلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنْ أَنْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٩٢﴾ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ أَنْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٩٣﴾

هذه أول آية نزلت في القتال بالمدينة، فلما نزلت كان رسول الله ﷺ يقاتل من قاتله ويكف عمن كف عنه، حتى نزلت سورة براءة كذا قال ابن أسلم حتى قال: هذه منسوخة بقوله: ﴿فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم﴾ وفي هذا نظر، لأن قوله: ﴿الذين يقاتلونكم﴾ إنما هو تهبيح وإغراء بالأعداء الذين همتهم قتال الإسلام وأهله،

أي كما يقاتلونكم فاقتلوهم أنتم، كما قال: ﴿ وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة ﴾، ولهذا قال في هذه الآية: ﴿ واقتلوهم حيث ثقتهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم ﴾ أي لتكون همتكم منبعثة على قتالهم كما همتهم منبعثة على قتالكم وعلى إخراجهم من بلادهم التي أخرجوكم منها قصاصاً .

وقوله تعالى: ﴿ ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ﴾ أي قاتلوا في سبيل الله ولا تعتدوا في ذلك، ويدخل في ذلك ارتكاب المناهي من المثلة والغلول وقتل النساء والصبيان والشيوخ وأصحاب الصوامع وتحريق الأشجار وقتل الحيوان لغير مصلحة. ولهذا جاء في صحيح مسلم عن بريدة أن رسول الله ﷺ كان يقول: « اغزوا في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا، ولا تقتلوا الوليد، ولا أصحاب الصوامع ». وعن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ إذا بعث جيوشه قال: « اخرجوا باسم الله قاتلوا في سبيل الله من كفر بالله، لا تعتدوا ولا تغلوا ولا تمثلوا ولا تقتلوا الولدان ولا أصحاب الصوامع »^(١). وفي الصحيحين عن ابن عمر قال: وجدت امرأة في بعض مغازي النبي ﷺ مقتولة فأنكر رسول الله ﷺ قتل النساء والصبيان .

ولما كان الجهاد فيه إزهاق النفوس وقتل الرجال، نبه تعالى على أن ما هم مشتملون عليه من الكفر بالله والشرك به والصد عن سبيله أبلغ وأشد وأعظم وأطم من القتل، ولهذا قال: ﴿ والفتنة أشد من القتل ﴾. قال أبو العالية ومجاهد وعكرمة: الشرك أشد من القتل، وقوله: ﴿ ولا تقاتلوه عند المسجد الحرام ﴾ كما جاء في الصحيحين: « إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السماوات والأرض، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، ولم يحل إلا ساعة من نهار - وإنها ساعتي هذه - فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، لا يعضد شجره ولا يختلى خلاه، فإن أحد ترخص بقتال رسول الله ﷺ فقولوا: إن الله أذن لرسوله ولم يأذن لكم »^(٢) يعني بذلك صلوات الله وسلامه عليه قتاله أهله يوم فتح مكة، فإنه فتحها عنوة وقتل رجال منهم عند الخندمة وقيل صلحاً لقوله: « من أغلق بابيه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن، ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن ». وقوله: ﴿ حتى يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين ﴾ يقول تعالى: ولا تقاتلوه عند المسجد الحرام إلا أن يبدأوكم بالقتال فيه فلکم حينئذ قتالهم وقتلهم دفعاً للصلوات، كما بايع النبي ﷺ أصحابه يوم الحديبية تحت الشجرة على القتال لما تألبت عليه بطون قريش ومن والاهم من أحياء ثقيف والأحباش عامئذ ثم كف الله القتال بينهم فقال: ﴿ وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم ﴾ .

وقوله تعالى: ﴿ فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم ﴾ أي فإن تركوا القتال في الحرم وأنا بوا إلى الإسلام والتوبة فإن الله يغفر ذنوبهم، ولو كانوا قد قتلوا المسلمين في حرم الله فإنه تعالى لا يتعاطمه ذنب أن يغفره لمن تاب منه إليه، ثم أمر الله بقتال الكفار ﴿ حتى لا تكون فتنة ﴾ أي شرك قاله ابن عباس والسدي ﴿ ويكون الدين لله ﴾ أي يكون دين الله هو الظاهر العالي على سائر الأديان، كما ثبت في الصحيحين عن أبي موسى الأشعري قال: سئل النبي ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعة، ويقاتل حمية، ويقاتل رياء، أي ذلك في سبيل الله؟ فقال: « من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله » .

(٢) أخرجه الشيخان .

(١) رواه أحمد وأبو داود .

وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ اتَّهَمُوا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾، يقول تعالى: فإن اتهموا عما هم فيه من الشرك وقتال المؤمنين فكفوا عنهم، فإن من قاتلهم بعد ذلك فهو ظالم ولا عدوان إلا على الظالمين، وهذا معنى قول (مجاهد) أن لا يقاتل إلا من قاتل، أو يكون تقديره ﴿فَإِنْ اتَّهَمُوا﴾ فقد تخلصوا من الظلم والشرك فلا عدوان عليهم بعد ذلك، والمراد بالعدوان ههنا المعاقبة والمقاتلة كقوله: ﴿فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾، وقوله: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾، ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عَاقَبْتُمْ بِهِ﴾. قال عكرمة وقتادة: الظالم الذي أبى أن يقول لا إله إلا الله، وقال البخاري قوله: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾. عن ابن عمر قال: أتاه رجلان في فتنه ابن الزبير فقالا: إن الناس ضيعوا وأنت ابن عمر وصاحب النبي ﷺ فما يمنعك أن تخرج؟ فقال: يمنعني أن الله حرم دم أخي. قالوا: ألم يقل الله: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾؟ فقال: قاتلنا حتى لم تكن فتنه وكان الدين لله، وأتم تريدون أن تقاتلوا حتى تكون فتنه وحتى يكون الدين لغير الله. وعن نافع أن رجلاً أتى ابن عمر فقال: يا أبا عبد الرحمن ما حملك على أن تحج عاماً وتقيم عاماً وترك الجهاد في سبيل الله عز وجل وقد علمت ما رغب الله فيه؟ فقال: يا ابن أخي بني الإسلام على خمس: الإيمان بالله ورسوله، والصلاة الخمس، وصيام رمضان، وأداء الزكاة، وحج البيت. قالوا: يا أبا عبد الرحمن ألا تسمع ما ذكر الله في كتابه: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَت إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ﴾، ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾، قال: فعلنا على عهد رسوله ﷺ وكان الإسلام قليلاً، فكان الرجل يفتن في دينه إما قتلوه أو عذبوه حتى كثر الإسلام فلم تكن فتنه، قال: فما قولك في علي وعثمان؟ قال: أما (عثمان) فكان الله عفا عنه وأما أتم فكرهم أن يعفو عنه، وأما (علي) فابن عم رسول الله ﷺ وخنته، فأشار بيده فقال: هذا بيته حيث ترون^(١).

الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرْمَتُ قِصَاصٌ فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ

وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾

قال ابن عباس: لما سار رسول الله ﷺ معتمراً في سنة ست من الهجرة، وحبس المشركون عن الدخول والوصول إلى البيت، وصدّوه بمن معه من المسلمين في ذي القعدة وهو شهر حرام حتى قاضاهم على الدخول من قابل، فدخلها في السنة الآتية هو ومن كان من المسلمين، وأقصه الله منهم فترلت في ذلك هذه الآية: ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرْمَتُ قِصَاصٌ﴾. وعن جابر بن عبد الله قال: لم يكن رسول الله ﷺ يغزو في الشهر الحرام إلا أن يغزى وتغزوا فإذا حضره أقام حتى ينسلخ^(٢). ولهذا لما بلغ النبي ﷺ وهو مخيم بالحديبية أن عثمان قتل، وكان قد بعثه في رسالة إلى المشركين، بايع أصحابه وكانوا ألفاً وأربعمائة تحت الشجرة على قتال المشركين فلما بلغه أن عثمان لم يقتل كف عن ذلك وجنح إلى المسالمة والمصالحة، فكان ما كان، وكذلك لما فرغ من قتال (هوازن) يوم حنين وتحصن فلهم بالطائف عدل إليها فحاصرها ودخل ذو القعدة وهو محاصر لها بالمنجنيق

(٢) رواه أحمد، قال ابن كثير: إسناده صحيح.

(١) الحديث من رواية البخاري.

واستمر عليها إلى كمال أربعين يوماً، كما ثبت في الصحيحين عن أنس، فلما كثر القتل في أصحابه انصرف عنها ولم تفتح، ثم كر راجعاً إلى مكة واعتمر من الجعرانة حيث قسم غنائم حنين، وكانت عمرته هذه في ذي القعدة أيضاً عام ثمان صلوات الله وسلامه عليه. وقوله: ﴿فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم﴾ أمر بالعدل حتى في المشركين، كما قال: ﴿وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به﴾، وقال: ﴿وجزاء سيئة سيئة مثلها﴾. وقوله: ﴿واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين﴾ أمر لهم بطاعة الله وتقواه، وإخباراً بأنه تعالى مع الذين اتقوا بالنصر والتأييد في الدنيا والآخرة.

وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾

قال البخاري عن حذيفة: ﴿وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة﴾ نزلت في النفقة. وعن أسلم أبي عمران قال: كنا بالقسطنطينية وعلى أهل مصر (عقبة بن عامر) وعلى أهل الشام رجل (يزيد بن فضالة ابن عبيد) فخرج من المدينة صف عظيم من الروم فصففنا لهم، فحمل رجل من المسلمين على الروم حتى دخل فيهم، ثم خرج إلينا فصاح الناس إليه فقالوا: سبحان الله ألقى بيده إلى التهلكة، فقال أبو أيوب: يا أيها الناس إنكم لتأولون هذه الآية على غير التأويل، وإنما نزلت فينا معشر الأنصار، إنا لما أعز الله دينه وكثر ناصروه قلنا فيما بيننا: لو أقبلنا على أموالنا فأصلحناها، فأنزل الله هذه الآية^(١).

وعن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة﴾، قال: ليس ذلك في القتال، إنما هو في النفقة أن تمسك بيدك عن النفقة في سبيل الله، ولا تلق بيدك إلى التهلكة. وقال الحسن البصري: ﴿ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة﴾، قال: هو البخل، وقال سماك بن حرب عن النعمان بن بشير في قوله: ﴿ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة﴾ أن يذنب الرجل الذنب فيقول لا يُغفر لي فأنزل الله: ﴿ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة وأحسنوا إن الله يحب المحسنين﴾. وقيل: إنها في الرجل يذنب الذنب فيعتقد أنه لا يغفر له فيلقي بيده إلى التهلكة، أي يستكثر من الذنوب فيهلك. وقيل: إن رجالاً كانوا يخرجون في بعوث يبعثها رسول الله ﷺ بغير نفقة، فإما أن يقطع بهم وإما كانوا عيالاً، فأمرهم الله أن يستنفقوا مما رزقهم الله ولا يلقوا بأيديهم إلى التهلكة، وأن يهلك رجال من الجوع والعطش أو من المشي، وقال لمن بيده فضل ﴿وأحسنوا إن الله يحب المحسنين﴾ ومضمون الآية الأمر بالإنفاق في سبيل الله في سائر وجوه القربات ووجوه الطاعات، وخاصة صرف الأموال في قتال الأعداء، وبذلها فيما يقوى به المسلمون على عدوهم، والإخبار عن ترك فعل ذلك بأنه هلاك ودمار لمن لزمه واعتاده، ثم عطف بالأمر بالإحسان وهو أعلى مقامات الطاعة فقال: ﴿وأحسنوا إن الله يحب المحسنين﴾.

وَأَمْثَلُوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ ۚ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ ۖ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ۚ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ

(١) أخرجه أبو داود والترمذي والنسائي، واللفظ لأبي داود.

بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾

لما ذكر تعالى أحكام الصيام وعطف بذكر الجهاد، شرع في بيان المناسك فأمر بإتمام الحج والعمرة، وظاهر السياق إكمال أفعالهما بعد الشروع فيهما، ولهذا قال بعده: ﴿فَإِنْ أَحْصَرْتُمْ﴾ أي صددتم عن الوصول إلى البيت ومنعتم من إتمامهما، ولهذا اتفق العلماء على أن الشروع في الحج والعمرة ملزم، سواء قبل بوجوب العمرة أو باستحبابها. عن عبد الله بن سلمة عن علي أنه قال في هذه الآية: ﴿وَأَتَمُوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ قال: أن تحرم من دويرة أهلك. وعن سفيان الثوري أنه قال: إتمامهما أن تحرم من أهلك لا تريد إلا الحج والعمرة، وتهل من الميقات، ليس أن تخرج لتجارة ولا لحاجة، حتى إذا كنت قريباً من مكة قلت: لو حججت أو اعتمرت وذلك يجزئ ولكن التمام أن تخرج له ولا تخرج لغيره، وقال مكحول: إتمامهما إنشاؤهما جميعاً من الميقات، عن الزهري قال: بلغنا أن عمر قال: من تمامهما أن تُفرد كل واحد منهما من الآخر، وأن تعتمر في غير أشهر الحج، إن الله تعالى يقول: ﴿الْحَجَّ أَشْهُرَ مَعْلُومَاتٍ﴾. وقد ثبت أن رسول الله ﷺ اعتمر أربع عمر كلها في ذي القعدة (عمرة الحديبية) في ذي القعدة سنة ست و (عمرة القضاء) في ذي القعدة سنة سبع و (عمرة الجعرانة) في ذي القعدة سنة ثمان و (عمرته التي مع حجته) أحرم بهما معاً في ذي القعدة سنة عشر، وما اعتمر في غير ذلك بعد هجرته، ولكن قال لأم هانئ: «عمرة في رمضان تعدل حجة معي»، وما ذاك إلا لأنها قد عزمت على الحج معه عليه السلام فاعتاقت عن ذلك بسبب الطهر، كما هو مبسوط في الحديث عند البخاري، ونص سعيد بن جبير على أنه من خصائصها. والله أعلم.

وقال ابن عباس: من أحرم بحج أو بعمرة فليس له أن يحل حتى يتمهما، تمام الحج يوم النحر إذا رمى جمرة العقبة وطاف بالبيت وبالصفا والمروة فقد حل، وقد وردت أحاديث كثيرة من طرق متعددة عن أنس وجماعة من الصحابة أن رسول الله ﷺ جمع في إحرامه بحج وعمرة، وثبت عنه في الصحيح أنه قال لأصحابه: «من كان معه هدي فليهل بحج وعمرة»، وقال في الصحيح أيضاً: «دخلت العمرة في الحج إلى يوم القيامة».

وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَحْصَرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ ذكروا أن هذه الآية نزلت في سنة ست أي عام الحديبية حين حال المشركون بين رسول الله ﷺ وبين الوصول إلى البيت، وأنزل الله في ذلك سورة الفتح بكاملها، وأنزل لهم رخصة أن يذبحوا ما معهم من الهدي وكان سبعين بدنة، وأن يحلقوا رؤوسهم وأن يتحللوا من إحرامهم، فعند ذلك أمرهم عليه السلام بأن يحلقوا رؤوسهم وأن يتحللوا فلم يفعلوا انتظاراً للنسخ حتى خرج فحلق رأسه ففعل الناس وكان منهم من قصّر رأسه ولم يحلقه فلذلك قال ﷺ: «رحم الله المحلقين»، قالوا: والمقصرين يا رسول الله، فقال في الثالثة: «والمقصرين»، وقد كانوا اشتركوا في هديهم ذلك كل سبعة في بدنة وكانوا ألفاً وأربعمائة، وكان منزلهم بالحديبية خارج الحرم وقيل: بل كانوا على طرف الحرم. فالله أعلم.

وقد اختلف العلماء - هل يختص الحصر بالعدو؟ فلا يتحلل إلا من حصره عدو، لا مرض ولا غيره - على قولين: عن ابن عباس أنه قال: لا حصر إلا حصر العدو فأما من أصابه مرض أو وجع أو ضلال فليس عليه شيء إنما قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا أَمِنْتُمْ﴾ فليس الأمن حصرًا. والقول الثاني: أن الحصر أعم من أن يكون بعدو أو مرض أو ضلال وهو التوهان عن الطريق لحديث: «من كسر أو وجع أو عرج فقد حلَّ وعليه حجة أخرى»^(١). وروي عن ابن مسعود وسعيد بن المسيب وعروة بن الزبير أنهم قالوا: الإحصار من عدو أو مرض أو كسر. وثبت في الصحيحين عن عائشة أن رسول الله ﷺ دخل على ضباعة بنت الزبير بن عبد المطلب فقالت: يا رسول الله إني أريد الحج وأنا شاكية، فقال: «حجي واشترطي أن محلي حيث حبستني».

وقوله تعالى: ﴿فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾، عن علي بن أبي طالب أنه كان يقول: ﴿فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ شاة، والهدي من الأزواج الثمانية من (الإبل، والبقر، والمعز، والضأن) وهو مذهب الأئمة الأربعة. وروي عن عائشة وابن عمر أنهما كانا لا يريان ما استيسر من الهدي إلا من الإبل والبقر، وروي مثله عن سعيد بن جبيرة.

(قلت): والظاهر أن مستند هؤلاء فيما ذهبوا إليه قصة الحديدية، فإنه لم ينقل عن أحد منهم أنه ذبح في تحلله ذلك شاة وإنما ذبحوا الإبل والبقر، ففي الصحيحين عن جابر قال: أمرنا رسول الله ﷺ أن نشترك في الإبل والبقر كل سبعة منا في بقرة، وعن ابن عباس في قوله: ﴿فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ قال: بقدر يسارته، وقال العوفي عن ابن عباس: إن كان موسراً فمن الإبل، وإلا فمن البقر، وإلا فمن الغنم، والدليل على صحة قول الجمهور فيما ذهبوا إليه من أجزاء ذبح الشاة في الإحصار أن الله أوجب ذبح ما استيسر من الهدي أي مهما تيسر مما يسمى هدياً، والهدي من بهيمة الأنعام وهي (الإبل والبقر والغنم) كما قاله الحبر البحر ترجمان القرآن وابن عم رسول الله ﷺ، وقد ثبت في الصحيحين عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت: أهدى النبي ﷺ مرة غنماً.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ﴾ معطوف على قوله: ﴿وَأَتَمُوا الْحَجَّ وَالْعَمْرَةَ لِلَّهِ﴾، وليس معطوفاً على قوله: ﴿فَإِنْ أَحْصَرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ كما زعمه ابن جرير رحمه الله، لأن النبي ﷺ وأصحابه عام الحديدية لما حصرهم كفار قريش عن الدخول إلى الحرم، حلقتوا وذبحوا هديهم خارج الحرم، فأما في حالة الأمن والوصول إلى الحرم فلا يجوز الحلق حتى يبلغ الهدي محله ويفرغ الناسك من أفعال الحج والعمرة إن كان قارناً، أو من فعل أحدهما إن كان مفرداً أو متمتعاً كما ثبت في الصحيحين عن حفصة أنها قالت: يا رسول الله ما شأن الناس حلوا من العمرة ولم تحل أنت من عمرتك؟ فقال: «إني لبدت رأسي وقلدت هديي فلا أحل حتى أنحر»^(٢).

وقوله تعالى: ﴿فَن كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفَدِيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نَسْكَ﴾. روى البخاري عن عبد الله بن معقل قال: قعدت إلى كعب بن عجرة في هذا المسجد، يعني مسجد الكوفة، فسألته عن فدية من صيام فقال: حُمِلْتُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَالْقَمْلُ يَتَنَاقَرُ عَلَيَّ وَجْهِي فَقَالَ: «مَا كُنْتُ أَرَى أَنْ الْجَهْدُ بَلَغَ بِكَ هَذَا أَمَا تَجِدُ شَاةً؟» قلت: لا، قال: «صم ثلاثة أيام، أو أطعم ستة مساكين، لكل مسكين نصف صاع من

(١) رواه أحمد.

(٢) أخرجه الشيخان.

طعام واحلق رأسك»، فنزلت في خاصة وهي لكم عامة، وعن كعب بن عجرة قال: أتى عليّ النبي ﷺ وأنا أوقد تحت قدر، والقمل يتناثر على وجهي أو قال حاجبي فقال: «يؤذيك هوام رأسك؟» قلت: نعم، قال: «فاحلقه وشم ثلاثة أيام، أو أطعم ستة مساكين، أو انسك نسيسة»، قال أيوب: لا أدري بأيتهن بدأ^(١).

وروي مجاهد عن ابن عباس في قوله: ﴿ففدية من صيام أو صدقة أو نسك﴾، قال: إذا كان (أو) فآية أخذت أجزاءً عنك. وروي عن مجاهد وعكرمة وعطاء وطاووس نحو ذلك. (قلت): وهو مذهب الأئمة الأربعة وعامة العلماء، أنه يغير في هذا المقام، إن شاء صام، وإن شاء تصدق بفرق، وهو ثلاثة أصع لكل مسكين نصف صاع وهو مدان، وإن شاء ذبح شاة وتصدق بها على الفقراء، أي ذلك فعل أجزاءه، ولما كان لفظ القرآن في بيان الرخصة جاء بالأسهل فالأسهل ﴿ففدية من صيام أو صدقة أو نسك﴾. ولما أمر النبي ﷺ (كعب بن عجرة) بذلك أرشده إلى الأفضل فالأفضل فقال: «انسك شاة، أو أطعم ستة مساكين، أو صم ثلاثة أيام». وقال ابن جرير عن الحسن في قوله: ﴿ففدية من صيام أو صدقة أو نسك﴾ قال: إذا كان بالحرّم أذى من رأسه حلق وافتدى بأي هذه الثلاثة شاء، والصيام عشرة أيام، والصدقة على عشرة مساكين كل مسكين مكوّين مكوّياً من تمر ومكوّياً من بر، والانسك شاة، وقال الحسن وعكرمة في قوله: ﴿ففدية من صيام أو صدقة أو نسك﴾ قال: إطعام عشرة مساكين، وهذان القولان من سعيد بن جبير والحسن وعكرمة قولان غريبان فيهما نظر، لأنه قد ثبتت السنة في حديث (كعب بن عجرة) الصيام ثلاثة أيام لا ستة أو إطعام ستة مساكين أو نسك شاة، وأن ذلك على التخيير كما دل عليه سياق القرآن، وأما هذا الترتيب فإنما هو معروف في قتل الصيد كما هو نص القرآن وعليه أجمع الفقهاء هناك بخلاف هذا، والله أعلم. وقال طاووس: ما كان من دم أو طعام فبمكة، وما كان من صيام فحيث شاء، وقال عطاء: ما كان من دم فبمكة، وما كان من طعام وصيام فحيث شاء.

وقوله تعالى: ﴿فإذا أمنتم فمن تمتع بالعمرة إلى الحج فما استيسر من الهدى﴾: أي فإذا تمكنتم من أداء المناسك، فمن كان منكم متمتعاً بالعمرة إلى الحج، وهو يشمل من أحرم بهما، أو أحرم بالعمرة أولاً فلما فرغ منها أحرم بالحج، وهذا هو التمتع الخاص وهو المعروف في كلام الفقهاء، والتمتع العام يشمل القسمين كما دلت عليه الأحاديث الصحاح. ﴿فما استيسر من الهدى﴾ أي فليذبح ما قدر عليه من الهدى، وأقله شاة وله أن يذبح البقر، لأن رسول الله ﷺ ذبح عن نسائه البقر، وفي هذا دليل على مشروعية التمتع كما جاء في الصحيحين عن عمران ابن حصين قال: نزلت آية التمتع في كتاب الله وفعلناها مع رسول الله ﷺ، ثم لم ينزل قرآن يحرمها ولم ينه عنها حتى مات. قال رجل برأيه ما شاء، قال البخاري: يقال إنه عمر، وهذا الذي قاله البخاري قد جاء مصرحاً به أن عمر كان ينهى الناس عن التمتع ويقول: إن تأخذ بكتاب الله فإن الله يأمر بالتمام يعني قوله: ﴿وأتموا الحج والعمرة لله﴾، وفي نفس الأمر لم يكن عمر رضي الله عنه ينهى عنها محرماً لها إنما كان ينهى عنها ليكثر قصد الناس للبيت حاجين ومعتمرين كما قد صرح به رضي الله عنه.

وقوله تعالى: ﴿فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجعتم تلك عشرة كاملة﴾، يقول تعالى:

فمن لم يجد هدياً فليصم ثلاثة أيام في الحج أي في أيام المناسك. قال العلماء: والأولى أن يصومها قبل يوم عرفة في العشر، أو حين يحرم، ومنهم من يجوز صيامها من أول شوال، وجوز الشعبي صيام يوم عرفة وقبلة يومين. وقال العوفي عن ابن عباس: إذا لم يجد هدياً فعليه صيام ثلاثة أيام في الحج قبل يوم عرفة، فإذا كان يوم عرفة الثالث فقد تم صومه وسبعة إذا رجع إلى أهله، وعن ابن عمر قال: يصوم يوماً قبل يوم التروية ويوم التروية ويوم عرفة. فلو لم يصمها أو بعضها قبل العيد فهل يجوز أن يصومها في أيام التشريق؟ فيه قولان للعلماء، الأول: أنه يجوز له صيامها لقول عائشة وابن عمر: لم يرخص في أيام التشريق أن يصمن إلا لمن لا يجد الهدي^(١). وعن علي أنه كان يقول: من فاته صيام ثلاثة أيام في الحج صامهن أيام التشريق لعموم قوله: ﴿فصيام ثلاثة أيام في الحج﴾، والثاني: أنه لا يجوز صيامها أيام التشريق لما رواه مسلم، قال رسول الله ﷺ: «أيام التشريق أيام أكل وشرب وذكر الله عز وجل».

وقوله تعالى: ﴿وسبعة إذا رجعت﴾ فيه قولان: (أحدهما): إذا رجعت إلى رحالكم، و (الثاني): إذا رجعت إلى أوطانكم. وقد روى البخاري عن سالم بن عبدالله أن ابن عمر قال: تمتع رسول الله ﷺ في حجة الوداع بالعمرة إلى الحج وأهدى فساق معه الهدي من ذي الحليفة، فأهلَّ بعمرة ثم أهل بالحج فتمتع الناس مع رسول الله ﷺ، وبدأ رسول الله ﷺ بالعمرة إلى الحج، فكان من الناس من أهدى فساق الهدي، ومنهم من لم يهد فلما قدم النبي ﷺ مكة قال للناس: «من كان منكم أهدى فإنه لا يحل لشيء حرم منه حتى يقضي حجه، ومن لم يكن منكم أهدى فليطف بالبيت وبالصفا والمروة وليقصر وليحلل ثم ليهل بالحج، فمن لم يجد هدياً فليصم ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجع إلى أهله». وقوله: ﴿تلك عشرة كاملة﴾ قيل: تأكيد، كما تقول العرب: رأيت بعيني، وسمعت بأذني، وكتبت بيدي. وقال الله تعالى: ﴿ولا طائر يطير بجناحيه﴾، وقال: ﴿ولا تحطه يمينك﴾، وقال: ﴿وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتمناها بعشر فتم ميقات ربه أربعين ليلة﴾. وقيل: معنى ﴿كاملة﴾ الأمر بإكمالها وإتمامها واختاره ابن جرير، وقيل: معنى ﴿كاملة﴾ أي مجزئة عن الهدي.

وقوله تعالى: ﴿ذلك لمن لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام﴾، قال ابن جرير: واختلف أهل التأويل فيمن عنى بقوله: ﴿لمن لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام﴾ بعد إجماع جميعهم على أن أهل الحرم معنيون به وأنه لا متعة لهم، فقال بعضهم: عنى بذلك أهل الحرم خاصة دون غيرهم. قال ابن عباس: هم أهل الحرم. وقال قتادة: ذكر لنا أن ابن عباس كان يقول: يا أهل مكة لا متعة لكم، أحلت لأهل الآفاق وحرمت عليكم، إنما يقطع أحدكم وادياً أو قال: يجعل بينه وبين الحرم وادياً ثم يهل بعمرة. وقال آخرون: هم أهل الحرم ومن بينه وبين المواقيت - كما قال عطاء - من كان أهله دون المواقيت فهو كأهل مكة لا يتمتع، وقال عبدالله بن المبارك: من كان دون الميقات، وقال عبدالرزاق: من كان أهله على يوم أو نحوه تمتع، وفي رواية عنه: اليوم واليومين، واختار ابن جرير في ذلك مذهب الشافعي أنهم أهل الحرم ومن كان منه على مسافة لا يقصر فيها الصلاة، لأن من كان كذلك يعد حاضراً لا مسافراً، والله أعلم. وقوله: ﴿واتقوا الله﴾ أي فيما أمركم ونهاكم ﴿واعلموا أن الله شديد العقاب﴾ أي لمن خالف أمره وارتكب ما عنه زجره.

الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَةٌ ۖ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ ۗ وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمُهُ اللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ ۗ وَاتَّقُوا يَأْتُوا فِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٧﴾

اختلف أهل العربية في قوله تعالى: ﴿الحج أشهر معلومات﴾ فقال بعضهم: تقديره الحج حج أشهر معلومات، فعلى هذا التقدير يكون الإحرام بالحج فيها أكمل من الإحرام فيما عداها، وإن كان ذلك صحيحاً، والقول بصحة الإحرام بالحج في جميع السنة مذهب مالك وأبي حنيفة وأحمد واحتج لهم بقوله تعالى: ﴿يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس والحج﴾ وبأنه أحد النسكين فصحَّ الإحرام به في جميع السنة كالعمرة، وذهب الشافعي إلى أنه لا يصح الإحرام بالحج إلا في أشهره، فلو أحرم به قبلها لم ينقذ إحرامه به، وهل ينقذ عمرة؟ فيه قولان عنه، والقول بأنه لا يصح الإحرام بالحج إلا في أشهره مروى عن ابن عباس وجابر ومجاهد رحمهم الله، والدليل عليه قوله: ﴿الحج أشهر معلومات﴾ وظاهره التقدير الآخر الذي ذهب إليه النحاة، وهو أن وقت الحج أشهر معلومات، فخصصه بها من بين سائر شهور السنة، فدل على أنه لا يصح قبلها كميقات الصلاة.

عن ابن عباس أنه قال: لا ينبغي لأحد أن يحرم بالحج إلا في شهور الحج، من أجل قول الله تعالى: ﴿الحج أشهر معلومات﴾، وعنه أنه قال: من السنة أن لا يحرم بالحج إلا في أشهر الحج، وقول الصحابي من السنة كذا في حكم المرفوع عند الأكثرين، ولا سيما قول ابن عباس تفسيراً للقرآن وهو ترجمانه.

وقوله تعالى: ﴿أشهر معلومات﴾، قال البخاري: قال ابن عمر: هي (شؤال وذو القعدة وعشر من ذي الحجة) وهو مذهب الشافعي وأبي حنيفة وأحمد، واختار هذا القول ابن جرير، قال: وصح إطلاق الجمع على شهرين وبعض الثالث للتغليب، كما تقول العرب: رأيت العام ورأيت اليوم وإنما وقع ذلك في بعض العام واليوم، وقال الإمام مالك والشافعي في القديم: هي شؤال وذو القعدة وذو الحجة بكامله، وهو رواية عن ابن عمر أيضاً. وفائدة مذهب مالك أنه إلى آخر ذي الحجة بمعنى أنه مختص بالحج، فيكره الاعتار في بقية ذي الحجة، لا أنه يصح الحج بعد ليلة النحر، وقد ثبت عن عمر وعثمان رضي الله عنهما أنهما كانا يحبان الاعتار في غير أشهر الحج وينهيان عن ذلك في أشهر الحج، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿فمن فرض فيهن الحج﴾ أي أوجب بإحرامه حجاً، قال ابن جرير: أجمعوا على أن المراد من الفرض ههنا الإيجاب والإلزام، وقال ابن عباس: ﴿فمن فرض فيهن الحج﴾ من أحرم بحج أو عمرة، وقال عطاء: الفرض الإحرام، وقوله: ﴿فلا رفت﴾ أي من أحرم بالحج أو العمرة، فليجتنب الرفت وهو الجماع كما قال تعالى: ﴿أحل لكم ليلة الصيام الرفت إلى نسائكم﴾ وكذلك يحرم تعاطي دواعيه من المباشرة والتقبيل ونحو ذلك، وكذلك التكلم به بحضرة النساء. قال عبدالله بن عمر: الرفت إتيان النساء والتكلم بذلك للرجال والنساء إذا ذكروا ذلك بأفواههم.

وقال ابن عباس: إنما الرفث ما قيل عند النساء، وقال طاووس: سألت ابن عباس عن قول الله عز وجل: ﴿فلا رث ولا فسوق﴾ قال: الرفث التعريض بذكر الجماع وهي العرابة في كلام العرب وهو أدنى الرفث، وقال عطاء: الرفث الجماع وما دونه من قول الفحش، وقال أبو العالية عن ابن عباس: الرفث غشيان النساء والقبلة والغمز، وأن تعرض لها بالفحش من الكلام ونحو ذلك .

وقوله تعالى: ﴿ولا فسوق﴾، عن ابن عباس: هي المعاصي، وعن ابن عمر قال: الفسوق ما أصيب من معاصي الله صيداً أو غيره، وقال آخرون: الفسوق ههنا السباب قاله ابن عباس ومجاهد والحسن، وقد يتمسك لهؤلاء بما ثبت في الصحيح: «سباب المسلم فسوق وقتاله كفر»، وقال الضحاك: الفسوق التنازب بالألقاب . والذين قالوا: هو جميع المعاصي الصواب معهم، كما نهى تعالى عن الظلم في الأشهر الحرم، وإن كان في جميع السنة منهيّاً عنه، إلا أنه في الأشهر الحرم أكد - ولهذا قال: ﴿منها أربعة حرم ذلك الدين القيم فلا تظلموا فيهن أنفسكم﴾ - وقال في الحرم: ﴿ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم﴾، واختار ابن جرير أن الفسوق ههنا هو ارتكاب ما نهى عنه في الإحرام من قتل الصيد، وحلق الشعر، وقلم الأظفار، ونحو ذلك كما تقدم عن ابن عمر، وما ذكرناه أولى، وقد ثبت عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من حج هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه»^(١) .

وقوله تعالى: ﴿ولا جدال في الحج﴾ فيه قولان: (أحدهما) : ولا مجادلة في وقت الحج في مناسكه، وقد بيّنه الله أتم بيان ووضحه أكمل إيضاح (والقول الثاني) : أن المراد بالجدال ههنا المخاصمة. قال ابن جرير عن عبد الله بن مسعود في قوله: ﴿ولا جدال في الحج﴾ قال: أن تماري صاحبك حتى تغضبه. وقال ابن عباس: ﴿ولا جدال في الحج﴾ المرء والملاحاة حتى تُغضب أخاك وصاحبك. وعن نافع أن ابن عمر كان يقول: الجدال في الحج: السباب والمرء والخصومات. قال رسول الله ﷺ: «من قضى نسكه وسلم المسلمون من لسانه ويده غفر له ما تقدم من ذنبه»^(٢) .

وقوله تعالى: ﴿وما تفعلوا من خير يعلمه الله﴾: لما نهاهم عن إتيان القبيح قولاً وفعلاً، حثهم على فعل الجميل وأخبرهم أنه عالم به وسيجزئهم عليه أوفر الجزاء يوم القيامة. وقوله: ﴿وتزودوا فإن خير الزاد التقوى﴾، عن عكرمة أن أناساً كانوا يحجون بغير زاد فأنزل الله: ﴿وتزودوا فإن خير الزاد التقوى﴾، وعن ابن عباس قال: كان أهل اليمن يحجون ولا يتزودون ويقولون نحن المتوكلون فأنزل الله: ﴿وتزودوا فإن خير الزاد التقوى﴾^(٣) .

وقوله تعالى: ﴿فإن خير الزاد التقوى﴾ لما أمرهم بالزاد للسفر في الدنيا، فأرشدهم إلى زاد الآخرة وهو

(١) رواية الصحيحين «رجع كيوم ولدته أمه» وليس فيها خرج من ذنوبه . ولفظ مسلم في أوله «من أتى هذا البيت»، وفي رواية للبخاري «من حج لله» .

(٢) أخرجه عبد بن حميد في مسنده عن جابر .

(٣) رواه البخاري وأبو داود .

استصحاب التقوى إليها، كما قال: ﴿وريشاً ولباس التقوى ذلك خير﴾، لما ذكر اللباس الحسي، نبه مرشداً إلى اللباس المعنوي، وهو الخشوع والطاعة والتقوى، وذكر أنه خير من هذا وأنفع. قال عطاء: يعني زاد الآخرة، وقال مقاتل بن حيان: لما نزلت هذه الآية ﴿وتزودوا﴾ قام رجل من فقراء المسلمين فقال: يا رسول الله ما نجد ما نتزوده، فقال رسول الله ﷺ: «تزوّد ما تكفّ به وجهك عن الناس وخير ما تزودتم التقوى»^(١). وقوله: ﴿واتقون يا أولي الألباب﴾، يقول: واتقوا عقابي ونكالي وعذابي، لمن خالفني ولم يأتمر بأمرى، يا ذوي العقول والأفهام.

لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفْضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ
وَأَذْكُرُوهُ كَمَا هَدَيْتُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الضَّالِّينَ ﴿١٩٨﴾

روى البخاري عن ابن عباس قال: كانت عكاظ ومجنة وذو المجاز أسواقاً في الجاهلية، فتأثموا أن يتجروا في الموسم، فنزلت: ﴿ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم﴾^(٢) في مواسم الحج، ولبعضهم: فلما جاء الإسلام تأثموا أن يتجروا فسألوا رسول الله ﷺ عن ذلك فأنزل الله هذه الآية. وروى أبو داود عن ابن عباس قال: كانوا يتقون البيوع والتجارة في الموسم والحج يقولون أيام ذكر فأنزل الله: ﴿ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم﴾. وقال ابن جرير: سمعت ابن عمر سئل عن الرجل يحج ومعه تجارة فقرأ ابن عمر: ﴿ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم﴾ وهذا موقوف وهو قوي جيد، وقد روي مرفوعاً. عن أبي أمامة التيمي قال، قلت لابن عمر: إنا نكري فهل لنا من حج؟ قال: أليس تطوفون بالبيت، وتأتون المعرف، وترمون الجمار، وتحلقون رؤوسكم؟ قال، قلنا: بلى، فقال ابن عمر: جاء رجل إلى النبي ﷺ فسأله عن الذي سألتني فلم يجبه حتى نزل عليه جبريل بهذه الآية: ﴿ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم﴾ فدعاه النبي ﷺ فقال: «أتم حجاجاً»^(٣). وعن أبي صالح مولى عمر قال، قلت: يا أمير المؤمنين كنتم تتجرون في الحج؟ قال: وهل كانت معاشهم إلا في الحج؟..

وقوله تعالى: ﴿فإذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام﴾ إنما صرف عرفات - وإن كان علماً على مؤنث - لأنه في الأصل جمع كمسلمات ومؤمنات، سُمِّيَ به بقعة معينة فروعياً فيه الأصل فصرف، اختاره ابن جرير، وعرفة موضع الوقوف في الحج، وهي عمدة أفعال الحج، ولهذا روي عن عبد الرحمن بن يعمر الدبلي قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الحج عرفات - ثلاثاً - فمن أدرك عرفة قبل أن يطلع الفجر فقد أدرك، وأيام منى ثلاثة فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه، ومن تأخر فلا إثم عليه»^(٤) ووقت الوقوف من الزوال يوم

(١) رواه ابن أبي حاتم .

(٢) رواه البخاري عن ابن عباس .

(٣) رواه أحمد عن أبي أمامة التيمي .

(٤) رواه أحمد وأصحاب السنن بإسناد صحيح .

عرفة إلى طلوع الفجر الثاني من يوم النحر ، لأن النبي ﷺ وقف في حجة الوداع بعد أن صلى الظهر إلى أن غربت الشمس وقال : « لتأخذوا عني مناسككم » ، وقال في هذا الحديث : « فن أدرك عرفة قبل أن يطلع الفجر فقد أدرك » ، وهذا مذهب مالك وأبي حنيفة والشافعي رحمهم الله ، وذهب الإمام أحمد إلى أن وقت الوقوف من أول يوم عرفة واحتج بحديث الشعبي عن عروة بن مضرس الطائي قال : أتيت رسول الله ﷺ بالمزدلفة حين خرج إلى الصلاة ، فقلت : يا رسول الله : إني جئت من جبل طيء أكلت راحلتي وأتعبت نفسي ، والله ما تركت من جبل إلا وقفت عليه فهل لي من حج ؟ فقال رسول الله ﷺ : « من شهد صلاتنا هذه فوقف معنا حتى ندفع ، وقد وقف بعرفة قبل ذلك ليلاً أو نهاراً فقد تم حجه وقضى تفثه »^(١) .

وتسمى عرفات (المشعر الحرام) والمشعر الأقصى و (إلال) على وزن هلال ويقال للجبل في وسطها جبل الرحمة ، قال أبو طالب في قصيدته المشهورة :

وبالمشعر الأقصى إذا قصدوا له إلال إلى تلك الشراج القوابل

عن ابن عباس قال : كان أهل الجاهلية يقفون بعرفة حتى إذا كانت الشمس على رؤوس الجبال كأنها العمائم على رؤوس الرجال دفعوا ، فأخر رسول الله ﷺ الدفعة من عرفة حتى غربت الشمس . وفي حديث (جابر بن عبد الله) الطويل الذي في صحيح مسلم قال فيه : (فلم يزل واقفاً يعني بعرفة ، حتى غربت الشمس وبدت الصفرة قليلاً حتى غاب القرص وأردف أسامة خلفه ودفع رسول الله ﷺ وقد شتق للقصواء الزمام حتى إن رأسها ليصيب مورك رحله ، ويقول بيده اليمنى : « أيها الناس السكينة السكينة » كلما أتى جبلاً من الجبال أرخى لها قليلاً حتى تصعد ، حتى أتى المزدلفة فصلى بها المغرب والعشاء بأذان واحد وإقامتين ، ولم يسبح بينهما^(٢) شيئاً ثم اضطجع ، حتى طلع الفجر فصلى الفجر حين تبين له الصبح بأذان وإقامة ، ثم ركب القصواء حتى أتى المشعر الحرام فاستقبل القبلة فدعا الله وكبره وهللّه ووحدّه ، فلم يزل واقفاً حتى أسفر جداً فدفع قبل أن تطلع الشمس . وفي الصحيحين عن أسامة ابن زيد أنه سئل كيف كان يسير رسول الله ﷺ حين دفع ؟ قال : كان يسير العنق فإذا وجد فجوة نص ، والعنق هو انبساط السير ، والنص فوقه . قال ابن عمر : المشعر الحرام المزدلفة كلها ، وعنه أنه سئل عن قوله : ﴿ فاذكروا الله عند المشعر الحرام ﴾ فقال : هذا الجبل وما حوله . وروي عن ابن عباس وسعيد بن جبير والحسن وقتادة أنهم قالوا : هو ما بين الجبلين ، وقال ابن جريج : قلت لعطاء : أين المزدلفة ؟ قال : إذا أفضت من مأزمي عرفة فذلك إلى محسر ، قال : وليس المأزمان مأزما عرفة من المزدلفة ولكن مفضاهما ، قال : فقفت بينهما إن شئت ، قال : وأحب أن تقف دون قرح هلم إلينا من أجل طريق الناس . (قلت) : والمشاعر هي المعالم الظاهرة ، وإنما سميت المزدلفة المشعر الحرام لأنها داخل الحرم ، وعن زيد بن أسلم : أن رسول الله ﷺ قال : « عرفة كلها موقف وارفعوا عن عرفة ، وجمع كلها موقف إلا محسراً » هذا حديث مرسل ، وقد قال الإمام أحمد عن جبير بن مطعم عن النبي ﷺ قال : « كل عرفات موقف وارفعوا عن عرفات ، وكل مزدلفة موقف وارفعوا عن محسر ، وكل فجاج مكة منحرج ، وكل أيام التشريق ذبح »^(٣) .

(١) رواه أحمد وأصحاب السنن وصححه الترمذي . (٢) الحديث رواه أحمد وإسناده منقطع .

(٣) ولم يسبح بينهما : المراد به لم ينتقل أثناء الجمع بين الفريقين .

وقوله تعالى: ﴿واذكروه كما هداكم﴾ تنبيه لهم على ما أنعم الله به عليهم من الهداية والبيان، والإرشاد إلى مشاعر الحج، على ما كان عليه من الهداية لإبراهيم الخليل عليه السلام ولهذا قال: ﴿وإن كنتم من قبله لمن الضالين﴾ قيل: من قبل هذا الهدى، وقيل: القرآن، وقيل: الرسول، والكل متقارب ومتلازم وصحيح.

ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٩٩﴾

قال البخاري: عن عائشة قالت: كانت قريش ومن دان دينها يقفون بالمزدلفة، وكانوا يسمون (الحُمس) وسائر العرب يقفون بعرفات، فلما جاء الإسلام أمر الله نبيه ﷺ أن يأتي عرفات ثم يقف بها ثم يفيض منها فذلك قوله: ﴿من حيث أفاض الناس﴾، والمراد بالإفاضة ههنا هي الإفاضة من المزدلفة إلى منى لرمي الجمار.

وقوله تعالى: ﴿واستغفروا الله إن الله غفور رحيم﴾ كثيراً ما يأمر الله بذكره بعد قضاء العبادات ولهذا ثبت في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ كان إذا فرغ من الصلاة يستغفر الله ثلاثاً، وفي الصحيحين أنه ندب إلى التسبيح والتحميد والتكبير ثلاثاً وثلاثين، وقد روى ابن جرير استغفاره ﷺ لأُمته عشية عرفة. وعن شداد بن أوس قال: قال رسول الله ﷺ: «سيد الاستغفار أن يقول العبد: اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك عليّ وأبوء بذنبي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، من قالها في ليلة فمات في ليلته دخل الجنة، ومن قالها في يومه فمات دخل الجنة»^(١). وفي الصحيحين عن عبد الله بن عمر أن أبا بكر قال: يا رسول الله علمني دعاء أدعوه به في صلاتي فقال: «قل اللهم إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً، ولا يغفر الذنوب إلا أنت، فاغفر لي مغفرة من عندك، وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم»، والأحاديث في الاستغفار كثيرة.

فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَسَكَكُمْ فَادْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن خَلْقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾

يأمر تعالى بذكره والإكثار منه بعد قضاء المناسك وفراغها. وقوله: ﴿كذكركم آباءكم﴾ اختلفوا في معناه فقال عطاء: هو كما يلهج الصبي بذكر أبيه وأمه، فكذلك أنتم فاهجوا بذكر الله بعد قضاء النسك. وقال ابن عباس: كان أهل الجاهلية يقفون في الموسم، فيقول الرجل منهم: كان أبي يطعم، ويحمل الحملات، ويحمل الديات، ليس لهم ذكر غير فعال آبائهم، فأنزل الله على محمد ﷺ: ﴿فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد

(١) أخرجه البخاري وابن مردويه.

ذَكَرًا ﴿٢٠٣﴾، والمقصود منه الحث على كثرة الذكر لله عز وجل، و (أو) ههنا لتحقيق المماثلة في الخبر كقوله: ﴿فهي كالحجارة أو أشد قسوة﴾، فليست ههنا للشك قطعاً وإنما هي لتحقيق المخبر عنه كذلك أو أزيد منه .

ثم إنه تعالى أرشد إلى دعائه بعد كثرة ذكره فإنه مظنة الإجابة، وذم من لا يسأله إلا في أمر دنياه وهو معرض عن أخره فقال: ﴿فن الناس من يقول ربنا آتنا في الدنيا وما له في الآخرة من خلاق﴾ أي من نصيب ولا حظ، وتضمن هذا الذم التنفير عن التشبه بمن هو كذلك، قال ابن عباس: كان قوم من الأعراب يجيئون إلى الموقف فيقولون: اللهم اجعله عام غيث، وعام خصب، وعام ولاد حسن، لا يذكرون من أمر الآخرة شيئاً، فأنزل الله فيهم: ﴿فن الناس من يقول ربنا آتنا في الدنيا وما له في الآخرة من خلاق﴾ ولهذا مدح من يسأله الدنيا والأخرى، فقال: ﴿ومنهم من يقول ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار﴾، فجمعت هذه الدعوة كل خير في الدنيا وصرفت كل شر، فإن الحسنة في الدنيا تشمل كل مطلوب دنيوي من عافية، ودار رحبة، وزوجة حسنة، ورزق واسع، وعلم نافع، وعمل صالح، ومركب هين، وثناء جميل، إلى غير ذلك مما اشتملت عليه عبارات المفسرين ولا منافاة بينها، فإنها كلها مندرجة في الحسنة في الدنيا .

وأما الحسنة في الآخرة فأعلى ذلك دخول الجنة، وتوابعه من الأمن من الفزع الأكبر في العرصات، وتيسير الحساب وغير ذلك من أمور الآخرة الصالحة، وأما النجاة من النار فهو يقتضي تيسير أسبابه في الدنيا من اجتناب المحرم والآثام، وترك الشبهات والحرام. وقال القاسم أبو عبدالرحمن: من أعطي قلباً شاكراً، ولساناً ذاكراً، وجسداً صابراً فقد أوتي في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة، ووقى عذاب النار. ولهذا وردت السنة بالترغيب في هذا الدعاء. فقال البخاري عن أنس بن مالك: كان النبي ﷺ يقول: «اللهم ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار»، وكان أنس إذا أراد أن يدعو بدعوة دعا بها، وإذا أراد أن يدعو بدعاء دعا بها فيه. وعن أنس أن رسول الله ﷺ عاد رجلاً من المسلمين قد صار مثل الفرخ فقال له رسول الله ﷺ: «هل تدعو الله بشيء أو تسأله إياه؟ قال: نعم، كنت أقول اللهم ما كنت معاقبي به في الآخرة فعجله لي في الدنيا، فقال رسول الله ﷺ سبحان الله لا تطيقه أو لا تستطيعه، فهلا قلت ﴿ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار﴾، قال: فدعا الله فشفاه^(١) .

* وَأَذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ ۖ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ لِمَنِ آتَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ وَأَعْلَمُوا أَنكُم إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٠٣﴾

قال ابن عباس: الأيام المعدودات (أيام التشريق) والأيام المعلومات (أيام العشر) . قال عكرمة: يعني التكبير في

(١) قال ابن كثير: انفرد بإخراجه مسلم .

أيام التشريق بعد الصلوات المكتوبات (الله أكبر، الله أكبر)، لحديث: «أيام التشريق أيام أكل وشرب وذكر الله»^(١). وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ بعث عبد الله بن حذافة يظوف في منى: «لا تصوموا هذه الأيام فإنها أيام أكل وشرب وذكر الله عز وجل». وعن عائشة قالت: نهى رسول الله ﷺ عن صوم أيام التشريق وقال: «هي أيام أكل وشرب وذكر الله». قال ابن عباس: الأيام الملعودات أيام التشريق أربعة أيام، يوم النحر وثلاثة بعده. وقال علي بن أبي طالب: هي ثلاثة: يوم النحر ويومان بعده، إذبح في أيهن شئت، وأفضلها أولها، والقول الأول هو المشهور، وعليه دل ظاهر الآية الكريمة حيث قال: ﴿فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه ومن تأخر فلا إثم عليه﴾ فدل على ثلاثة بعد النحر، ويتعلق بقوله: ﴿واذكروا الله في أيام معدودات﴾ ذكر الله على الأضحى وقد تقدم أن الراجح في ذلك مذهب الشافعي رحمه الله، وهو أن وقت الأضحى من يوم النحر إلى آخر أيام التشريق، ويتعلق به أيضاً الذكر المؤقت خلف الصلوات والمطلق في سائر الأحوال، وفي وقته أقوال للعلماء أشهرها الذي عليه العمل أنه من صلاة الصبح يوم عرفة إلى صلاة العصر من آخر أيام التشريق وهو آخر النفر الآخر. وقد ثبت أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يكبر في قبه، فيكبر أهل السوق بتكبيره حتى ترتج منى تكبيراً. وقد جاء في الحديث: «إنما جعل الطواف بالبيت، والسعي بين الصفا والمروة، ورمي الجمار لإقامة ذكر الله عز وجل»^(٢). ولما ذكر الله تعالى النفر الأول والثاني - وهو تفرق الناس من موسم الحج إلى سائر الأقاليم والآفاق بعد اجتماعهم في المشاعر والمواقف - قال: ﴿واتقوا الله واعلموا أنكم إليه تحشرون﴾، كما قال: ﴿وهو الذي ذرأكم في الأرض وإليه تحشرون﴾.

وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ ۖ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾
وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ
آتَىٰ اللَّهُ أَخْذَهُ الْعِزَّةَ بِالْإِثْمِ ۗ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ ۗ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ
مَرْضَاتِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾

قال السدي: نزلت في الأخنس بن شريق الثقفي، جاء إلى رسول الله ﷺ وأظهر الإسلام، وفي باطنه خلاف ذلك، وعن ابن عباس أنها نزلت في نفر من المنافقين تكلموا في (خبيب) وأصحابه الذين قتلوا بالرجيع وعابوهم، وقيل: بل ذلك عام في المنافقين كلهم وفي المؤمنين كلهم وهو الصحيح، وروى ابن جرير قال: حدثني محمد بن أبي معشر، أخبرني أبو معشر نجيح، قال: سمعت سعيداً المقبري يذاكر محمد بن كعب القرظي، فقال سعيد: إن في بعض الكتب: (إن عبداً ألسنتهم أحلى من العسل، وقلوبهم أمر من الصبر، لبسوا للناس مسوك الضأن من اللين،

(١) رواه مسلم وأحمد.

(٢) رواه أبو داود.

يحترون الدنيا بالدنيا، قال الله تعالى: عليّ تجترئون وبي تغترون؟ وعزتي لأبعثن عليهم فنته تترك الحليم منهم حيران)، فقال محمد بن كعب: هذا في كتاب الله، فقال سعيد: وأين هو من كتاب الله؟ قال، قول الله: ﴿ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا﴾ الآية. فقال سعيد: قد عرفت فيمن أنزلت هذه الآية، فقال محمد بن كعب: إن الآية تنزل في الرجل ثم تكون عامة بعد^(١)، وهذا الذي قاله القرطبي حسن صحيح.

وأما قوله تعالى: ﴿وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ﴾ فمعناه أنه يظهر للناس الإسلام، ويبارز الله بما في قلبه من الكفر والنفاق، كقوله تعالى: ﴿يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله﴾ الآية. وقيل معناه: أنه إذا أظهر للناس الإسلام حلف وأشهد الله لهم أن الذي في قلبه موافق للسان وهذا المعنى صحيح واختاره ابن جرير وعزاه إلى ابن عباس، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وهو ألدُّ الخصام﴾، الألد في اللغة: الأعوج، ﴿وتنذر به قوماً لداً﴾ أي عوجاً، وهكذا المناق في حال خصومته، يكذب ويزور عن الحق ولا يستقيم معه، بل يفترى ويفجر، كما ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر». وفي الحديث: «إن أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم»^(٢).

وقوله تعالى: ﴿وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد﴾ أي هو أعوج المقال سيء الفعال، فذلك قوله وهذا فعله. كلامه كذب، واعتقاده فاسد، وأفعاله قبيحة. والسعي ههنا هو القصد كما قال إخباراً عن فرعون: ﴿ثم أدبر يسعى * فحشر فنادى * فقال أنا ربكم الأعلى﴾، وقال تعالى: ﴿فأسعوا إلى ذكر الله﴾ أي أقصدوا واعمدوا ناوين بذلك صلاة الجمعة، فإن السعي الحسي إلى الصلاة منهي عنه بالسنة النبوية: «إذا أتمت الصلاة فلا تأتوها وأنتم تسعون وأتوها وعليكم السكينة والوقار». فهذا المناق ليس له همة إلا الفساد في الأرض، وإهلاك الحرث: وهو محل نماء الزروع والثمار، والنسل: وهو نتاج الحيوانات الذين لا قوام للناس إلا بهما. وقال مجاهد: إذا سعى في الأرض إفساداً منع الله القطر فهلك الحرث والنسل. ﴿والله لا يحب الفساد﴾ أي لا يحب من هذه صفته، ولا من يصدر منه ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم﴾ أي إذا وعظ هذا الفاجر في مقاله وفعاله، وقيل له: اتق الله واتزع عن قولك وفعلك، وارجع إلى الحق، امتنع وأبى، وأخذته الحمية والغضب بالإثم، أي بسبب ما اشتمل عليه من الآثام، وهذه الآية شبيهة بقوله تعالى: ﴿وإذا تتلى عليهم آياتنا تعرف في وجوه الذين كفروا المنكر. يكادون يسطون بالذين يتلون عليهم آياتنا. قل أفأنبئكم بشر من ذلك. النار وعددها الله الذين كفروا وبئس المصير﴾ ولهذا قال في هذه الآية: ﴿فحسبه جهنم ولبئس المهاد﴾ أي هي كافيته عقوبة في ذلك.

وقوله تعالى: ﴿ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضات الله﴾ لما أخبر عن المنافقين بصفاتهم الذميمة، ذكر صفات المؤمنين الحميدة فقال: ﴿ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضات الله﴾، قال ابن عباس وجماعة: نزلت في (صهيب الرومي) وذلك أنه لما أسلم بمكة، وأراد الهجرة منعه الناس أن يهاجر بماله، وإن أحب أن يتجرد منه

(١) أخرجه ابن جرير عن سعيد المقبري موقوفاً. (٢) رواه البخاري عن عائشة مرفوعاً.

ويهاجر فعل، فتخلص منهم وأعطاهم ماله، فأنزل الله فيه هذه الآية، فتلقيه عمر بن الخطاب وجماعة إلى طرف الحرة، فقالوا: ربح البيع، فقال: وأنتم فلا أخسر الله تجارتكم، وما ذاك؟ فأخبروه أن الله أنزل فيه هذه الآية، ويروى أن رسول الله ﷺ قال له: «ربح البيع صهيب». وروي عن أبي عثمان النهدي عن صهيب قال: لما أردت الهجرة من مكة إلى النبي ﷺ قالت لي قريش: يا صهيب قدمت إلينا ولا مال لك، وتخرج أنت ومالك؟ والله لا يكون ذلك أبداً، فقلت لهم: أرأيتم إن دفعت إليكم مالي تحلون عني؟ قالوا: نعم، فدفعت إليهم مالي فخلوا عني، فخرجت حتى قدمت المدينة، فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: «ربح صهيب، ربح صهيب»^(١) مرتين. وأما الأكثرون فحملوا ذلك على أنها نزلت في كل مجاهد في سبيل الله كما قال الله تعالى: ﴿إِن اللّٰه اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل اللّٰه فيقتلون ويقتلون﴾، ولما حمل هشام بن عامر بين الصنفين أنكر عليه بعض الناس، فرد عليهم عمر بن الخطاب وأبو هريرة وغيرهما وتلوا هذه الآية: ﴿ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضات اللّٰه واللّٰه رؤوف بالعباد﴾.

يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٠٨﴾ فَإِن زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللّٰهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾

يأمر الله تعالى عباده المؤمنين به، المصدقين برسوله، أن يأخذوا بجميع عرى الإسلام وشرائعه، والعمل بجميع أوامره، وترك جميع زواجره ما استطاعوا من ذلك. قال العوفي عن ابن عباس: ﴿ادخلوا في السلم﴾ يعني الإسلام، وقال الضحاك وأبو العالية: يعني الطاعة، وقوله ﴿كافة﴾ قال ابن عباس وأبو العالية وعكرمة: جميعاً، وقال مجاهد: أي اعملوا بجميع الأعمال ووجه البر.

ومن المفسرين من يجعل قوله تعالى: ﴿كافة﴾ حالاً من الداخلين، أي ادخلوا الإسلام كلكم، والصحيح الأول وهو أنهم أمروا كلهم أن يعملوا بجميع شعب الإيمان وشرائع الإسلام، وهي كثيرة جداً ما استطاعوا منها، كما قال عكرمة عن ابن عباس: ﴿يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة﴾ يعني مؤمني أهل الكتاب، فإنهم كانوا مع الإيمان بالله مستمسكين ببعض أمور التوراة والشرايع التي أنزلت فيهم، فقال الله: ﴿ادخلوا في السلم كافة﴾ يقول: ادخلوا في شرائع دين محمد ﷺ ولا تدعوا منها شيئاً، وحسبكم الإيمان بالتوراة وما فيها.

وقوله تعالى: ﴿ولا تتبعوا خطوات الشيطان﴾ أي اعملوا بالطاعات، واجتنبوا ما يأمركم به الشيطان ف﴿إنما﴾ يأمركم بالسوء والفحشاء وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون﴾، و﴿إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير﴾، ولهذا قال: ﴿إنه لكم عدو مبين﴾. وقوله: ﴿فإن زللتم من بعد ما جاءتكم البينات﴾ أي عدلتم عن الحق بعد ما قامت عليكم الحجج، فاعلموا أن الله ﴿عزیز﴾ أي في انتقامه لا يفوته هارب ولا يغلبه غالب، ﴿حكيم﴾ في أحكامه ونقضه وإبرامه، ولهذا قال أبو العالية وقناة: عزيز في نعمته، حكيم في أمره. وقال محمد بن إسحاق: العزيز في نصره ممن كفر به إذا شاء، الحكيم في عذره وحجته إلى عباده.

(١) رواه ابن مردويه عن صهيب الرومي.

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٢١١﴾

يقول تعالى مهتداً للكافرين بمحمد صلوات الله وسلامه عليه: ﴿هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام والملائكة﴾ يعني يوم القيامة لفصل القضاء بين الأولين والآخرين، فيجزى كل عامل بعمله إن خيراً فخير، وإن شراً فشر. ولهذا قال تعالى: ﴿وقضى الأمر وإلى الله ترجع الأمور﴾، وقال: ﴿هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي ربك أو يأتي بعض آيات ربك﴾ الآية .

وقد ذكر الإمام أبو جعفر بن جرير ههنا حديث الصور بطوله من أوله عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ وهو حديث مشهور ساقه غير واحد من أصحاب المسانيد وغيرهم، وفيه: إن الناس إذا اهتموا لموقفهم في العرصات، تشفعوا إلى ربهم بالأنبياء واحداً واحداً من آدم فن بعده، فكلهم يحيد عنها حتى ينتهوا إلى محمد ﷺ فإذا جاءوا إليه قال: «أنا لها، أنا لها»، فيذهب فيسجد لله تحت العرش، ويشفع عند الله في أن يأتي لفصل القضاء بين العباد، فيشفعه الله ويأتي في ظلل من الغمام بعد ما تنشق السماء الدنيا وينزل من فيها من الملائكة، ثم الثانية ثم الثالثة إلى السابعة، وينزل حملة العرش والكروبيون. قال: وينزل الجبار عز وجل في ظلل من الغمام والملائكة، ولهم زجل من تسيحهم يقولون: سبحان ذي الملك والملكوت، سبحان ذي العزة والجبروت، سبحان الحي الذي لا يموت، سبحان الذي يميت الخلائق ولا يموت، سبح قُدوس رب الملائكة والروح، سبح قُدوس سبحان ربنا الأعلى، سبحان ذي السلطان والعظمة، سبحانه سبحانه، أبداً أبداً .

سَلِّ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢١٢﴾ زَيْنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١٣﴾

يخبر تعالى عن بني إسرائيل كم شاهدوا مع موسى من آية بيّنة، أي حجة قاطعة بصدقه فيما جاءهم به، كيده وعصاه وقلقه البحر وضربه الحجر، وما كان من تظليل الغمام عليهم في شدة الحر، ومن إنزال المن والسلوى وغير ذلك من الآيات الدالات على وجود الفاعل المختار، وصدق من جرت هذه الخوارق على يديه، ومع هذا أعرض كثير منهم عنها، وبدلوا نعمة الله كفرةً، أي استبدلوا بالإيمان بها الكفر بها والإعراض عنها: ﴿ومن يبديل نعمة الله من بعد ما جاءته فإن الله شديد العقاب﴾، كما قال تعالى إخباراً عن كفار قريش: ﴿ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفرةً وأحلوا قومهم دار البوار * جهنم يصلونها وبئس القرار﴾ .

ثم أخبر تعالى عن تربيته الحياة الدنيا للكافرين، الذين رضوا بها واطمأنوا إليها، وجمعوا الأموال ومنعوها عن مصارفها التي أمروا بها، مما يرضي الله عنهم، وسخروا من الذين آمنوا الذين أعرضوا عنها، وأنفقوا ما حصل لهم منها في طاعة ربهم، وبدلوه ابتغاء وجه الله، فلهذا فازوا بالمقام الأسعد والحظ الأوفر يوم معادهم، فكانوا فوق

أولئك في محشرهم ومنشرهم ومأواهم، فاستقروا في الدرجات في أعلى عليين، وخلد أولئك في الدركات في أسفل سافلين؛ ولهذا قال تعالى: ﴿والله يرزق من يشاء بغير حساب﴾ أي يرزق من يشاء من خلقه، ويعطيه عطاء كثيراً جزيلاً، بلا حصر ولا تعداد في الدنيا والآخرة، كما جاء في الحديث: «ابن آدم أنفق أنفق عليك»، وقال النبي ﷺ: «أنفق بلائاً ولا تحش من ذي العرش إقللاً»، وقال تعالى: ﴿وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه﴾. وفي الصحيح: «أن ملكين ينزلان من السماء صبيحة كل يوم فيقول أحدهما: اللهم اعط منفقاً خلفاً، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكاً تلفاً»، وفي الصحيح: «يقول ابن آدم: مالي مالي، وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنت، وما لبست فألبيت، وما تصدقت فأمضيت، وما سوى ذلك فذهاب وتاركه للناس»، وفي مسند الإمام أحمد: عن النبي ﷺ أنه قال: «الدنيا دار من لا دار له، ومال من لا مال له، ولها يجمع من لا عقل له».

كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ ۗ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١١٣﴾

قال ابن جرير: عن ابن عباس قال: كان بين نوح وآدم عشرة قرون، كلهم على شريعة من الحق، فاختلَفوا فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين، قال: وكذلك هي في قراءة عبدالله ﴿كان الناس أمة واحدة فاختلَفوا﴾، وقال قتادة في قوله: ﴿كان الناس أمة واحدة﴾ قال: كانوا على الهدى جميعاً ﴿فاختلَفوا فبعث الله النبيين﴾ فكان أول من بعث نوحاً. وقال العوفي عن ابن عباس: ﴿كان الناس أمة واحدة﴾ يقول: كانوا كفاراً ﴿فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين﴾ والقول الأول عن ابن عباس أصح سنداً ومعنى، لأن الناس كانوا على ملة آدم حتى عبدوا الأصنام، فبعث الله إليهم نوحاً عليه السلام، فكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض، ولهذا قال تعالى: ﴿وأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ أي من بعد ما قامت الحجج عليهم، وما حملهم على ذلك إلا البغي من بعضهم على بعض ﴿فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم﴾. وعن أبي هريرة قال: قال النبي ﷺ: «نحن الآخرون الأولون يوم القيامة، نحن أول الناس دخولاً الجنة، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا وأوتيناها من بعدهم، فهدانا الله لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه، فهذا اليوم الذي اختلفوا فيه فهدانا الله له، فالناس لنا فيه تبع فغداً لليهود، وبعد غدٍ للنصارى».

وعن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه في قوله: ﴿فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه﴾ فاختلَفوا في يوم الجمعة فاتخذ اليهود يوم السبت، والنصارى يوم الأحد، فهدى الله أمة محمد ﷺ ليوم الجمعة. واختلَفوا في القبلة، فاستقبلت النصارى المشرق، واليهود بيت المقدس، فهدى الله أمة محمد للقبلة. واختلَفوا في

الصلاة ففهم من يركع ولا يسجد، ومنهم من يسجد ولا يركع، ومنهم من يصلي وهو يتكلم ومنهم من يصلي وهو يمشي، فهدى الله أمة محمد للحق من ذلك، واختلفوا في الصيام ففهم من يصوم بعض النهار، ومنهم من يصوم عن بعض الطعام، فهدى الله أمة محمد للحق من ذلك، واختلفوا في إبراهيم عليه السلام فقالت اليهود: كان يهودياً، وقالت النصارى: كان نصرانياً، وجعله الله حنيفاً مسلماً فهدى الله أمة محمد للحق من ذلك، واختلفوا في عيسى عليه السلام، فكذبت به اليهود وقالوا لأمه بهتاناً عظيماً، وجعلته النصارى إلهاً وولداً، وجعله الله روحه وكلمته، فهدى الله أمة محمد ﷺ للحق من ذلك. وكان أبو العالية يقول: في هذه الآية المخرج من الشبهات والضلالات والفتن.

وقوله تعالى: ﴿بِإِذْنِهِ﴾ أي بعلمه بهم وبما هداهم له قاله ابن جرير. ﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ أي من خلقه ﴿إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أي وله الحكمة والحجة البالغة، وفي صحيح البخاري ومسلم عن عائشة أن رسول الله ﷺ كان إذا قام من الليل يصلي يقول: «اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السماوات والأرض، عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم». وفي الدعاء المأثور: «اللهم أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه، ولا تجعله ملتبساً علينا فنفضل، واجعلنا للمتقين إماماً».

أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَهْمِبِينَ وَالضَّرَاءَ وَزُلْزَلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلاَ إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾

يقول تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾ قبل أن تبتلوا وتختبروا وتمتحنوا، كما فعل بالذين من قبلكم من الأمم ولهذا قال: ﴿وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَهْمِبِينَ وَالضَّرَاءَ﴾ وهي الأمراض والأسقام والآلام، والمصائب والنوائب. قال ابن مسعود: ﴿الْبَأْسَاءُ﴾ الفقر، ﴿الضَّرَاءُ﴾ السقم، ﴿وَزُلْزَلُوا﴾ خوفوا من الأعداء زلزلاً شديداً وامتحنوا امتحاناً عظيماً، كما جاء في الحديث عن خباب بن الأرت قال: قلنا يا رسول الله ألا تستنصر لنا، ألا تدعو الله لنا فقال: «إن من كان قبلكم كان أحدهم يوضع الميشار على مفرق رأسه فيخلص إلى قدميه، لا يصرفه ذلك عن دينه، ويمشط بأمشاط الحديد ما بين لحمه وعظمه، لا يصرفه ذلك عن دينه»، ثم قال: «والله ليطمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت، لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ولكنكم قوم تستعجلون»^(١).

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ أَحْسِبِ النَّاسَ أَنْ يَتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ، وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ وقد حصل من هذا جانب عظيم للصحابه رضي الله تعالى عنهم في يوم الأحزاب، كما قال الله تعالى: ﴿إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ

بالله الظنوننا * هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزلاً شديداً ﴿٢١٥﴾. ولما سأل هرقل أباسفيان هل قاتلتموه قال: نعم، قال: فكيف كانت الحرب بينكم؟ قال: سجلاً يداً علينا وندال عليه، قال: كذلك الرسل تبلى ثم تكون لها العاقبة .

وقوله تعالى: ﴿مثل الذين خلوا من قبلكم﴾ أي سنتهم كما قال تعالى: ﴿فأهلكنا أشد منهم بطشاً ومضى مثل الأولين﴾، وقوله: ﴿وزلزلوا حتى يقول الرسل والذين آمنوا معه متى نصر الله﴾ أي يستفتحون على أعدائهم ويدعون بقرب الفرج والمخرج عند ضيق الحال والشدة. قال الله تعالى: ﴿ألا إن نصر الله قريب﴾، كما قال: ﴿فان مع العسر يسراً إن مع العسر يسراً﴾، وكما تكون الشدة ينزل من النصر مثلها ولهذا قال: ﴿ألا إن نصر الله قريب﴾ .

يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُ مِنْ خَيْرٍ فَلِلَّوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾

قال مقاتل: هذه الآية في نفقة التطوع، ومعنى الآية: يسألونك كيف ينفقون؟ قاله ابن عباس ومجاهد، فبين لهم تعالى ذلك، فقال: ﴿قل ما أنفقتم من خير فلولوالدين والأقربين واليتامى والمسكين وابن السبيل﴾ أي اصرفوها في هذه الوجوه، كما جاء في الحديث: «أملك وأباك وأختك وأخاك ثم أدناك أدناك»، ثم قال تعالى: ﴿وما تفعلوا من خير فإن الله به عليم﴾ أي مهما صدر منكم من فعل معروف، فإن الله يعلمه وسيجزىكم على ذلك أوفر الجزاء، فإنه لا يظلم أحداً مثقال ذرة .

كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾

هذا إيجاب من الله تعالى للجهاد على المسلمين أن يكفوا شر الأعداء عن حوزة الإسلام، وقال الزهري: الجهاد واجب على كل أحد غزاً أو قعداً، فالقاعد عليه إذا استعين أن يعين، وإذا استغيث أن يغيث، وإذا استنفر أن ينفر، وإن لم يحتج إليه قعداً. (قلت): ولهذا ثبت في الصحيح: «من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بالغزو مات ميتة جاهلية». وقال عليه السلام يوم الفتح: «لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية وإذا استنفرتم فانفروا»، وقوله: ﴿وهو كره لكم﴾ أي شديد عليكم ومشقة، وهو كذلك فإنه إما أن يقتل أو يجرح، مع مشقة السفر ومجالد الأعداء، ثم قال تعالى: ﴿وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم﴾ أي لأن القتال يعقبه النصر والظفر على الأعداء والاستيلاء على بلادهم وأموالهم وذراريهم وأولادهم. ﴿وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم﴾ وهذا عام في الأمور كلها. قد يجب المرء شيئاً وليس له فيه خيرة ولا مصلحة، ومن ذلك القعود عن القتال قد يعقبه استيلاء العدو على البلاد والحكم، ثم قال تعالى: ﴿والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾ أي هو أعلم بعواقب الأمور منكم،

وأخبر بما فيه صلاحكم في دنياكم وأخراكم، فاستجيبوا له وانقادوا لأمره لعلكم ترشدون .

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يَقْتُلُونَكَ حَتَّى يَرُدُّوكُم عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَعُوا وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيُمَتِّعْهُ اللَّهُ فَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢١٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾

عن جندب بن عبد الله أن رسول الله ﷺ بعث رهطاً وبعث عليهم (أبا عبيدة بن الجراح) فلما ذهب ينطلق بكى صبابةً إلى رسول الله ﷺ، فحبسه، فبعث عليهم مكانه (عبدالله بن جحش) وكتب له كتاباً وأمره أن لا يقرأ الكتاب حتى يبلغ مكان كذا وكذا، وقال: « لا تكرهن أحداً على السير معك من أصحابك »، فلما قرأ الكتاب استرجع وقال: سمعاً وطاعة لله ولرسوله، فخيرهم الخبر وقرأ عليهم الكتاب فرجع رجلان وبقي بقيتهم، فلقوا ابن الحضرمي فقتلوه ولم يدروا أن ذلك اليوم من رجب أو من جمادى، فقال المشركون للمسلمين: قتلتم في الشهر الحرام! فأنزل الله: ﴿ يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير ﴾ الآية. أي لا يحل، وما صنعتم أتم يا معشر المشركين أكبر من القتل في الشهر الحرام، حين كفرتم بالله وصددتم عن محمد ﷺ وأصحابه، وإخراج أهل المسجد الحرام منه حين أخرجوا محمداً ﷺ وأصحابه أكبر من القتل عند الله .

وقال العوفي عن ابن عباس: ﴿ يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير ﴾، وذلك أن المشركين صدوا رسول الله ﷺ وردوه عن المسجد في شهر حرام، قال: ففتح الله على نبيه في شهر حرام من العام المقبل، فعاب المشركون على رسول الله ﷺ القتال في شهر حرام، فقال الله تعالى: ﴿ وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله ﴾ من القتال فيه، وأن محمداً ﷺ بعث سرية، فلقوا (عمرو بن الحضرمي) وهو مقبل من الطائف في آخر ليلة من جمادى، وأول ليلة من رجب، وأن أصحاب محمد ﷺ كانوا يظنون أن تلك الليلة من جمادى، وكانت أول رجب ولم يشعروا، فقتله رجل منهم وأخذوا ما كان معه، وأن المشركين أرسلوا يعبرونه بذلك، فقال الله تعالى: ﴿ يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه ﴾ إخراج أهل المسجد الحرام أكبر من الذي أصاب أصحاب محمد ﷺ، والشرك أشد منه .

وقال ابن هشام في كتاب (السيرة): وبعث رسول الله ﷺ عبدالله بن جحش في رجب مقفله من بدر الأولى وبعث معه ثمانية رهط من المهاجرين ليس فيهم من الأنصار أحد، وكتب له كتاباً وأمره أن لا ينظر فيه

حتى يسير يومين ثم ينظر فيه فيمضي كما أمره به، ولا يستكره من أصحابه أحداً، فلما سار عبدالله بن جحش يومين فتح الكتاب فنظر فإذا فيه: إذا نظرت في كتابي في هذا فامض حتى تنزل (نخلة) بين مكة والطائف ترصد بها قريشاً وتعلم لنا من أخبارهم. فلما نظر عبدالله بن جحش الكتاب قال: سمعاً وطاعة، ثم قال لأصحابه: قد أمرني رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن أمضي إلى نخلة أرصد بها قريشاً حتى آتية منهم بخبر، وقد نهاني أن أستكره أحداً منكم، فمن كان منكم يريد الشهادة ويرغب فيها فليطلق، ومن كره ذلك فليرجع، فأما أنا فامض لأمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فمضى ومضى معه أصحابه لم يتخلف عنه منهم أحد، فسلك على الحجاز حتى إذا كان بمعدن فوق الفرع يقال له نجران أضلَّ (سعد بن أبي وقاص) و (عتبة بن غزوان) بغيراً لهما كانا يعتقبانه فتحلفا عليه في طلبه، ومضى عبدالله بن جحش وبقيّة أصحابه حتى نزل نخلة فمرت به عير لقريش تحمل زيتاً وأدماً وتجارة من تجارة قريش فيها عمرو بن الحضرمي، فلما رآهم القوم هابوهم وقد نزلوا قريباً منهم فأشرف لهم (عكاشة ابن محصن) وكان قد حلق رأسه، فلما رأوه آمنوا وقالوا: عُمَار لا بأس عليكم منهم، وتشاور القوم فيهم، وذلك في آخر يوم من رجب، فقال القوم: والله لئن تركتم القوم هذه الليلة ليدخلن الحرم فليمتنعن منكم، ولئن قتلتموهن لتقتلنهم في الشهر الحرام، فتردد القوم وهابوا الإقدام عليهم، ثم شجعوا أنفسهم عليهم وأجمعوا قتل من قدروا عليه منهم وأخذ ما معهم، فرمى واقد بن عبدالله التميمي عمرو بن الحضرمي بسهم فقتله، واستأسر (عثمان بن عبدالله) و (الحكم بن كيسان) وأفلت القوم نوفل بن عبدالله فأعجزهم، وأقبل عبدالله بن جحش وأصحابه بالعبير والأسيرين حتى قدموا على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم المدينة. قال ابن إسحاق: وقد ذكر بعض آل عبدالله بن جحش أن عبدالله قال لأصحابه: إن لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مما غنمنا الخمس، وذلك قبل أن يفرض الله الخمس من المغنم فغزل لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خمس العير وقسم ساثرها بين أصحابه.

قال ابن إسحاق: فلما قدموا على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: « ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام » فوقف العير والأسيرين وأبى أن يأخذ من ذلك شيئاً. فلما قال ذلك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أسقط في أيدي القوم وظنوا أنهم قد هلكوا، وعنفهم إخوانهم من المسلمين فيما صنعوا، وقالت قريش: قد استحل محمد وأصحابه الشهر الحرام، وسفكوا فيه الدم وأخذوا فيه الأموال وأسروا فيه الرجال، فلما أكثر الناس في ذلك أنزل الله على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿ يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل ﴾ أي إن كنتم قتلتهم في الشهر الحرام، فقد صدوكم عن سبيل الله مع الكفر به، وعن المسجد الحرام، وإخراجكم منه وأنتم أهله ﴿ أكبر عند الله ﴾ من قتل من قتلتم منهم ﴿ والفتنة أكبر من القتل ﴾ أي قد كانوا يفتنون المسلم في دينه حتى يردوه إلى الكفر بعد إيمانه فذلك أكبر عند الله من القتل: ﴿ ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا ﴾ أي ثم هم مقيمون على أئحبت ذلك وأعظمه غير تائبين ولا نازعين.

قال ابن إسحاق: فلما نزل القرآن بهذا من الأمر وفرج الله عن المسلمين ما كانوا فيه من الشدة قبض رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم العير والأسيرين وبعث إليه قريش في فداء عثمان بن عبدالله والحكم بن كيسان فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: « لا نفذيكموها حتى يقدم صاحبانا » يعني (سعد بن أبي وقاص) و (عتبة بن غزوان) فإننا

نخشاكم عليهما، فإن تقتلوهما تقتل صاحبيكم، فقدم سعد وعتبة ففداهما رسول الله ﷺ منهم، فأما الحكم بن كيسان فأسلم وحسن إسلامه، وأقام عند رسول الله ﷺ حتى قتل يوم بئر معونة شهيداً، وأما عثمان بن عبد الله فلحق بمكة فمات بها كافراً، قال ابن إسحاق: فلما تجلى عن عبد الله بن جحش وأصحابه ما كان حين نزل القرآن طمعوا في الأجر فقالوا: يا رسول الله أنطمع أن تكون لنا غزوة نعطي فيها أجر المجاهدين؟ فأنزل الله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ فوضع الله من ذلك على أعظم الرجاء. قال ابن إسحاق: فقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه في غزوة عبد الله بن جحش، ويقال: بل عبد الله بن جحش قالها حين قالت قريش قد أحل محمد وأصحابه الشهر الحرام:

تعدون قتلاً في الحرام عظيمة وأعظم منه لو يرى الرشد راشد
صدودكم عما يقول محمد وكفر به والله راء وشاهد
وإخراجكم من مسجد الله أهله لثلا يرى لله في البيت ساجد^(١)

* يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكَ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْتَبَكُمْ إِنْ أَنَّى اللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٠﴾

روى الإمام أحمد عن أبي مسيرة عن عمر أنه قال: لما نزل تحريم الخمر قال: اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً فترلت هذه الآية التي في سورة البقرة: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ فدعي عمر فقرئت عليه، فقال: اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً، فترلت الآية التي في النساء: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى﴾، فكان منادي رسول الله ﷺ إذا أقم الصلاة نادى: أن لا يقربن الصلاة سكران، فدعي عمر فقرئت عليه، فقال: اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً. فترلت الآية التي في المائدة، فدعي عمر فقرئت عليه فلما بلغ ﴿فهل أتم منتهون؟﴾ قال عمر: اتبيننا اتبيننا^(٢). أما الخمر فكما قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه: إنه كل ما خامر العقل، والميسر: وهو القمار.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ﴾، أما إثمهما فهو في الدين، وأما المنافع فدينيوية، من حيث إن فيها نفع البدن، وتهضم الطعام، وإخراج الفضلات، وتشحيد بعض الأذهان، ولذة الشدة المطربة، التي فيها كما قال (حسن بن ثابت) في جاهليته:

ونشرها فتركنا ملوكاً وأُسدأً لا يُبهنها اللقاء

(٢) أخرجه الإمام أحمد عن أبي مسيرة.

(١) قال ابن هشام: هي لعبد الله بن جحش.

وكذا بيعها والانتفاع بشمها، وما يربحه بعضهم من الميسر فينفعه على نفسه أو عياله، ولكن هذه المصالح لا توازي مضرتة ومفسدته الراجعة لتعلقها بالعقل والدين، ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾، ولهذا كانت هذه الآية ممهدة لتحريم الخمر على البتات، ولم تكن مصرحة بل معرضة، ولهذا قال عمر رضي الله عنه لما قرئت عليه: اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً حتى نزل التصريح بتحريمها في سورة المائدة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رَجَسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ﴾، وسيأتي الكلام على ذلك في سورة المائدة إن شاء الله تعالى وبه الثقة. قال ابن عمر والشعبي ومجاهد: إن هذه أول آية نزلت في الخمر ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾، ثم نزلت الآية التي في سورة النساء، ثم نزلت الآية التي في المائدة فحرمت الخمر.

وقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يَنْفِقُونَ قُلْ الْعَفْوُ﴾، روي أن معاذ بن جبل وثعلبة أتيا رسول الله ﷺ فقالا: يا رسول الله: إن لنا أرقاء وأهلين من أموالنا فأنزل الله: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يَنْفِقُونَ﴾، وعن ابن عباس: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يَنْفِقُونَ قُلْ الْعَفْوُ﴾ قال: ما يفضل عن أهلك، ﴿قُلْ الْعَفْوُ﴾ يعني الفضل، وعن طاووس: اليسير من كل شيء، وعن الربيع: أفضل مالك وأطيبه، والكل يرجع إلى الفضل، ويدل على ذلك ما رواه ابن جرير عن أبي هريرة قال، قال رجل: يا رسول الله عندي دينار، قال: «أنفقه على نفسك»، قال: عندي آخر، قال: «أنفقه على أهلك»، قال: عندي آخر، قال: «فأنت أبصر»^(١). وعن جابر أن رسول الله ﷺ قال لرجل: «ابدأ بنفسك فتصدق عليها فإن فضل شيء فلاهلك فإن فضل شيء عن أهلك فلذي قرابتك فإن فضل عن ذي قرابتك شيء فهكذا وهكذا»^(٢).

وقال رسول الله ﷺ: «خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى، واليد العليا خير من اليد السفلى، وابدأ بمن تعول»^(٣)، وفي الحديث أيضاً: «ابن آدم إنك أن تبذل الفضل خير لك وإن تمسكه شر لك ولا تلام على كفاف»، ثم قيل: إنها منسوخة بآية الزكاة، وقيل: مبينة بآية الزكاة وهو أوجه.

وقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون في الدنيا والآخرة﴾ أي كما فصل لكم هذه الأحكام وبينها وأوضحها، كذلك يبين لكم سائر الآيات في أحكامه، ووعده ووعيده لعلكم تتفكرون في الدنيا والآخرة، قال ابن عباس: يعني في زوال الدنيا وفنائها وإقبال الآخرة وبقائها. وقال الحسن: هي والله لمن تفكر فيها، ليعلم أن الدنيا دار بلاء ثم دار فناء، وليعلم أن الآخرة دار جزاء ثم دار بقاء.

وقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمَصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْتَمْتُمْ﴾ الآية. قال ابن عباس: لما نزلت ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾، و﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلُونَ سَعِيرًا﴾ انطلق من كان عنده

(١) رواه ابن جرير وأخرجه مسلم بنحوه .

(٢) رواه مسلم أيضاً .

(٣) أخرجه مسلم عن أبي هريرة .

يتيم فعزل طعامه من طعامه، وشرابه من شرابه، فجعل يفضل له الشيء من طعامه فيحبس له حتى يأكله أو يفسد، فاشتد ذلك عليهم فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فأنزل الله: ﴿ويسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير وإن تخالطوهم فإخوانكم﴾ فخلطوا طعامهم بطعامهم وشرابهم بشرابهم^(١). وقالت عائشة رضي الله عنها: إني لأكره أن يكون مال اليتيم عندي على حدة، حتى أخلط طعامه بطعامي وشرابه بشرابي فقله: ﴿قل إصلاح لهم خير﴾ أي على حدة، ﴿وإن تخالطوهم فإخوانكم﴾ أي وأن خلطتم طعامكم بطعامهم وشرابكم بشرابهم فلا بأس عليكم لأنهم إخوانكم في الدين ولهذا قال: ﴿والله يعلم المفسد من المصلح﴾ أي يعلم من قصده ونيته الإفساد أو الإصلاح، وقوله: ﴿ولو شاء الله لأعتكم إن الله عزيز حكيم﴾ أي ولو شاء الله لضيق عليكم وأخرجكم، ولكنه وسع عليكم وخفف عنكم وأباح لكم مخالطتهم بالتي هي أحسن قال تعالى: ﴿ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن﴾ بل جوز الأكل منه للفقير المعروف، إما بشرط ضمان البدل لمن أيسر، أو مجاناً كما سيأتي بيانه في سورة النساء إن شاء الله وبه الثقة.

وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَةَ حَتَّىٰ يُؤْمِنَ ۖ وَلَا أُمَّةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَىٰ الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ ۗ وَيُبَيِّنُ ءَايَاتِهِ لِّلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾

هذا تحريم من الله عز وجل على المؤمنين أن يتزوجوا المشركات من عبدة الأوثان، ثم إن كان عمومها مراداً وأنه يدخل فيها كل مشركة من كتابية ووثنية، فقد خص من ذلك نساء أهل الكتاب بقوله: ﴿والحصنات من الذين أوتوا الكتاب﴾. عن ابن عباس في قوله: ﴿ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن﴾ استثنى الله من ذلك نساء أهل الكتاب، وقيل: بل المراد بذلك المشركون من عبدة الأوثان، ولم يرد أهل الكتاب بالكلية، والمعنى قريب من الأول، والله أعلم. وإنما كره عمر نكاح الكتابيات لثلاث زهد الناس في المسلمات، أو لغير ذلك من المعاني، كما روي عن شقيق، قال: تزوج حذيفة يهودية فكتب إليه عمر: خل سبيلها، فكتب إليه: أترعم أنها حرام فأخلي. فقال: لا أترعم أنها حرام، ولكني أخاف أن تعاطوا المؤمنات منهن^(٢).

وعن ابن عمر أنه كره نكاح أهل الكتاب وتأول: ﴿ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن﴾ وقال البخاري: وقال ابن عمر: لا أعلم شركاً أعظم من أن تقول: ربه عيسى. وقوله: ﴿ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم﴾ قال السدي: نزلت في عبدالله بن رواحة كانت له أمة سوداء فغضب عليها فلطمها، ثم فرغ فأتى رسول الله ﷺ فأخبره خبرها، فقال له: «ما هي؟» قال: تصوم وتصلي وتحسن الوضوء وتشهد أن لا إله إلا الله وأنت رسول

(١) رواه أبو داود والنسائي والحاكم.

(٢) قال ابن كثير: وهذا إسناد صحيح.

الله، فقال: « يا أبا عبد الله هذه مؤمنة »، فقال: والذي بعثك بالحق لأعتقها ولأتزوجها، ففعل فظعن عليه ناس من المسلمين وقالوا: نكح أمته، وكانوا يريدون أن ينكحوا إلى المشركين ويُنكحوهم رغبة في أحسابهم فأنزل الله: ﴿وَلَأَمَّةٌ مِّمَّنْ خَلِقْنَا لَكَ مِنْ تَحْتِ الْعَرْشِ نِكَاحُ الْمُشْرِكِ حَرَامٌ لِيُتَمِّمَ الَّذِينَ يَكْفُرُوا وَلِيُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ۝٢٢٢﴾. وعن النبي ﷺ قال: « لا تنكحوا النساء لحسنهن فعسى حسنهن أن يرديهن، ولا تنكحوهن على أموالهن فعسى أموالهن أن تطغيهن، وانكحوهن على الدين، فلأمة سوداء جرداء ذات دين أفضل»^(١). وقد ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: « تنكح المرأة لأربع: لملها ولحسبها ولجمالها ولدينها، فاظفر بذات الدين تربت يداك ». وعن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: « الدنيا متاع وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة »^(٢).

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا﴾ أي لا تزوجوا الرجال المشركين النساء المؤمنات كما قال تعالى: ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَكُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَكُمْ﴾، ثم قال تعالى: ﴿وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِمَّنْ يَنْكِحُكُمْ﴾ أي لرجل مؤمن ولو كان عبداً حبشياً خيراً من مشرك، وإن كان رئيساً سرياً، ﴿أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾ أي معاشرتهم ومخالطتهم تبعث على حب الدنيا واقتنائها وإيثارها على الدار الآخرة وعاقبة ذلك وخيمة، ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ﴾ أي بشره وما أمر به وما نهى عنه ﴿وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أذى فَأَعْتَرِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٣﴾ نِسَاءٌ كَرِهْتُمْ لَكُمْ فَاْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ وَقَدِمُوا لِأَنْفُسِكُمْ وَأَتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلْقَوَةٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٤﴾

عن أنس أن اليهود كانت إذا حاضت المرأة منهم لم يواكلوها ولم يجامعوها في البيوت^(٣)، فسأل أصحاب النبي ﷺ فأنزل الله عز وجل: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أذى فَأَعْتَرِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ﴾ حتى فرغ من الآية. فقال رسول الله ﷺ: « اصنعوا كل شيء إلا النكاح »، فبلغ ذلك اليهود فقالوا: ما يريد هذا الرجل أن يدع من أمرنا شيئاً إلا خالفنا فيه، فجاء (أسيد بن حضير) و (عباد بن بشر) فقالا: يا رسول الله إن اليهود قالت كذا وكذا أفلا نجتمعن؟ فتغير وجه رسول الله ﷺ حتى ظننا أن قد وجد عليهما، فخرجا فاستقبلهما هدية من لبن إلى رسول الله ﷺ فأرسل في آثارهما فسقاها فعرفا أن لم يجد عليهما^(٤). فقوله: ﴿فَاعْتَرِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ﴾ يعني الفرج لقوله: « اصنعوا كل شيء إلا النكاح »، ولهذا ذهب كثير من العلماء

(١) رواه عبد بن حميد وفي إسناده ضعف.

(٢) رواه مسلم عن عبد الله بن عمر.

(٣) المراد بالمجتمعة هنا الاجتماع بين لا الوقاع وهو المعنى الحقيقي واستعماله بالمعنى الآخر كناية اهـ.

(٤) رواه مسلم والإمام أحمد.

أو أكثرهم إلى أنه يجوز مباشرة الحائض فيما عدا الفرج، قال أبو داود عن بعض أزواج النبي ﷺ كان إذا أراد من الحائض شيئاً ألقى على فرجها ثوباً .

وعن مسروق قال، قلت لعائشة: ما يحل للرجل من امرأته إذا كانت حائضاً؟ قالت: كل شيء إلا الجماع، وهذا قول ابن عباس ومجاهد والحسن. وروى ابن جرير عن عائشة قالت: له ما فوق الإزار، (قلت): ويحل مضاجعتها ومواكلتها بلا خلاف. قالت عائشة: كان رسول الله ﷺ يأمرني فأغسل رأسه وأنا حائض، وكان يتكئ في حجري وأنا حائض فيقرأ القرآن، وفي الصحيح عنها قالت: كنت أتعرق العرق^(١) وأنا حائض فأعطيه النبي ﷺ فيضع فيه في الموضع الذي وضعت فيه، وأشرب الشراب فأناوله فيضع فيه في الموضع الذي كنت أشرب منه. وقال آخرون: إنما تحل له مباشرتها فيما عدا ما تحت الإزار كما ثبت في الصحيحين عن ميمونة قالت: كان النبي ﷺ إذا أراد أن يباشر امرأة من نسائه أمرها فاتزرت وهي حائض. وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن سعد الأنصاري أنه سأل رسول الله ﷺ: ما يحل لي من امرأتي وهي حائض؟ قال: « ما فوق الإزار ولا يداؤد عن معاذ بن جبل قال: سألت رسول الله ﷺ عما يحل لي من امرأتي وهي حائض قال: « ما فوق الإزار والتعفف عن ذلك أفضل » .

فهذه الأحاديث وما شابهها حجة من ذهب إلى أنه يحل ما فوق الإزار منها، وهو أحد القولين في مذهب الشافعي رحمه الله، الذي رجحه كثير من العراقيين وغيرهم، ومأخذهم أنه حريم الفرج فهو حرام، لثلا يتوصل إلى تعاطي ما حرم الله عز وجل، الذي أجمع العلماء على تحريمه، وهو المباشرة في الفرج، ثم من فعل ذلك فقد أثم فيستغفر الله ويتوب إليه، وهل يلزمه مع ذلك كفارة أم لا؟ فيه قولان، (أحدهما): نعم، لما رواه الإمام أحمد وأهل السنن عن ابن عباس عن النبي ﷺ في الذي يأتي امرأته وهي حائض، يتصدق بدينار أو نصف دينار. وللإمام أحمد أيضاً عنه أن رسول الله ﷺ جعل في الحائض تصاب ديناراً فإن أصابها وقد أدبر الدم عنها ولم تغتسل فنصف دينار، (والقول الثاني): وهو الصحيح الجديد من مذهب الشافعي وقول الجمهور أنه لا شيء في ذلك، بل يستغفر الله عز وجل، لأنه لم يصح عندهم رفع هذا الحديث، فإنه قد روي مرفوعاً كما تقدم وموقوفاً، وهو الصحيح عند كثير من أئمة الحديث. فقوله تعالى: ﴿ ولا تقربوهن حتى يطهرن ﴾ تفسير لقوله: ﴿ فاعتزلوا النساء في المحيض ﴾ ونهى عن قربانهن بالجماع ما دام الحيض موجوداً ومفهومه حله إذا انقطع.

وقوله تعالى: ﴿ فإذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله ﴾ فيه نذب وإرشاد إلى غشيانهن بعد الاغتسال، وذهب ابن حزم إلى وجوب الجماع بعد كل حيضة لقوله: ﴿ فإذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله ﴾، وليس له في ذلك مستند لأن هذا أمر بعد الحظر، وقد اتفق العلماء على أن المرأة إذا انقطع حيضها لا تحل حتى تغتسل بالماء أو تميم. إن تعذر ذلك عليها بشرطه، إلا أن أبا حنيفة رحمه الله يقول فيما إذا انقطع دمها لأكثر الحيض وهو عشرة أيام عنده إنها تحل بمجرد الانقطاع، ولا تفتقر إلى غسل والله أعلم. وقال ابن عباس: ﴿ حتى يطهرن ﴾ أي من الدم ﴿ فإذا تطهرن ﴾ أي بالماء، وكذا قال مجاهد وعكرمة .

(١) عرق اللحم وتعرقه واعتراقه تناوله بفمه من العظم .

وقوله تعالى: ﴿ من حيث أمركم الله ﴾ قال ابن عباس: في الفرج ولا تعدّوه إلى غيره، فمن فعل شيئاً من ذلك فقد اعتدى، وقال ابن عباس ومجاهد وعكرمة: ﴿ من حيث أمركم الله ﴾ أي أن تعتزلوهن، وفيه دلالة حينئذ على تحريم الوطء في الدبر كما سيأتي قريباً إن شاء الله، وقال الضحاك: ﴿ فاتوهن من حيث أمركم الله ﴾ يعني طاهرات غير حيض، ولهذا قال: ﴿ إن الله يحب التوابين ﴾ أي من الذنب وإن تكرر غشيانه، ﴿ ويحب المتطهرين ﴾ أي المتزهرين عن الأقدار والأذى، وهو ما نهوا عنه من إتيان الحائض أو في غير المأثى .

وقوله تعالى: ﴿ نساؤكم حرث لكم ﴾ قال ابن عباس: الحرث موضع الولد، ﴿ فاتوا حرثكم أنى شئتم ﴾ أي كيف شئتم مقبلة ومدبرة في صمام واحد، كما ثبتت بذلك الأحاديث. قال البخاري: عن جابر قال: كانت اليهود تقول: إذا جامعها من ورائها جاء الولد أحول، فنزلت: ﴿ نساؤكم حرث لكم فاتوا حرثكم أنى شئتم ﴾. وعن جابر بن عبد الله أن اليهود قالوا للمسلمين من أتى امرأة وهي مدبرة جاء الولد أحول فأنزل الله: ﴿ نساؤكم حرث لكم فاتوا حرثكم أنى شئتم ﴾، فقال رسول الله ﷺ: « مقبلة ومدبرة إذا كان ذلك في الفرج »^(١). وعن ابن عباس قال: أنزلت هذه الآية ﴿ نساؤكم حرث لكم ﴾ في أناس من الأنصار، أتوا النبي ﷺ فسألوه، فقال النبي ﷺ: « اثنها على كل حال إذا كان في الفرج »^(٢).

قال الإمام أحمد: عن عبد الله بن سابط قال: دخلتُ على (حفصة بنت عبد الرحمن بن أبي بكر) فقلت: إني لسائلك عن أمر وأنا أستحي أن أسألك قالت: فلا تستحي يا ابن أخي، قال: عن إتيان النساء في أدبارهن، قالت: حدثني أم سلمة أن الأنصار كانوا يُحِبُّون النساء وكانت اليهود تقول: إنه من أحبى امرأته كان ولده أحول، فلما قدم المهاجرون المدينة نكحوا في نساء الأنصار، فأحبَّوهن فأبَت امرأة أن تطيع زوجها وقالت: لن تفعل ذلك حتى آتي رسول الله ﷺ، فدخلت على أم سلمة فذكرت لها ذلك فقالت: اجلسي حتى يأتي رسول الله ﷺ، فلما جاء رسول الله ﷺ استحت الأنصارية أن تسأل رسول الله ﷺ فخرجت فسألته أم سلمة فقال: ادعي « الأنصارية » فدعتها، فتلا عليها هذه الآية: ﴿ نساؤكم حرث لكم فاتوا حرثكم أنى شئتم ﴾ « صاماً واحداً »^(٣). وعن ابن عباس قال: جاء عمر بن الخطاب إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله هلكت! قال: « ما الذي أهلكك؟ » قال: حولت رحلي البارحة، قال فلم يرد عليه شيئاً، قال: فأوحى الله إلى رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿ نساؤكم حرث لكم فاتوا حرثكم أنى شئتم ﴾: « أقبل وأدبر واتق الدبر والحیضة »^(٤).

وعن نافع قال: قرأت ذات يوم ﴿ نساؤكم حرث لكم فاتوا حرثكم أنى شئتم ﴾ فقال ابن عمر: أتدري فيم نزلت؟ قلت: لا، قال: نزلت في إتيان النساء في أدبارهن. وهذا الحديث محمول - على ما تقدم - وهو أنه يأتيها في قبلها من دبرها لما روى كعب بن علقمة عن أبي النضر أنه أخبره أنه قال لنافع مولى ابن عمر: إنه قد أكثر

(١) رواه مسلم وأبو داود .

(٢) رواه أحمد .

(٣) رواه أحمد والترمذي .

(٤) رواه أحمد .

عليك القول أنك تقول عن ابن عمر إنه أفنى أن تؤتى النساء في أدبارهن قال: كذبوا عليّ ولكن سأحدثك كيف كان الأمر؛ إن ابن عمر عرض المصحف يوماً وأنا عنده حتى بلغ ﴿نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم﴾ فقال: يا نافع، هل تعلم من أمر هذه الآية؟ قلت: لا، قال: إنا كنا معشر قريش نحبي النساء، فلما دخلنا المدينة ونكحنا نساء الأنصار أردنا منهن مثل ما كنا نريد، فأذاهن فكرهن ذلك وأعظمه، وكانت نساء الأنصار قد أخذن بحال اليهود إنما يؤتى على جنوبهن، فأنزل الله: ﴿نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم﴾^(١)، وهذا إسناد صحيح وإن كان قد نسب هذا القول إلى طائفة من فقهاء المدينة وغيرهم، وعزاه بعضهم إلى الإمام مالك في كتاب السر، وأكثر الناس ينكر أن يصح ذلك عن الإمام مالك رحمه الله، وقد وردت الأحاديث المروية من طرق متعددة، بالزجر عن فعله وتعاطيه، فقال رسول الله ﷺ: «استحيوا إن الله لا يستحي من الحق، لا يحل أن تأتوا النساء في حشوشهن». وعن خزيمه بن ثابت أن رسول الله ﷺ نهى أن يأتي الرجل امرأته في دبرها^(٢). وفي رواية قال: «استحيوا إن الله لا يستحي من الحق لا تأتوا النساء في أعجازهن». وقال رسول الله ﷺ: «لا ينظر الله إلى رجل أتى رجلاً أو امرأة في الدبر»^(٣). وعن عكرمة قال: جاء رجل إلى ابن عباس وقال: كنت آتي أهلي في دبرها وسمعت قول الله ﴿نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم﴾ فظننت أن ذلك لي حلال، فقال: يا لكع إنما قوله ﴿فأتوا حرثكم أنى شئتم﴾ قائمة وقاعدة ومقبلة ومدبرة في أقباهن لا تعدوا ذلك إلى غيره. وقال عمر رضي الله عنه: استحيوا من الله فإن الله لا يستحي من الحق لا تأتوا النساء في أدبارهن. وعن أبي جويرة قال: سأل رجل علياً عن إتيان المرأة في دبرها فقال: سفلت سفل الله بك ألم تسمع قول الله عز وجل: ﴿أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين﴾؟ وقد تقدم قول ابن مسعود وأبي الدرداء وأبي هريرة وابن عباس وعبدالله بن عمر في **تحريم ذلك**، وهو الثابت بلا شك عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنه يحرمه. عن سعيد بن يسار أبي الحجاب قال: قلت لابن عمر: ما تقول في الجوارى أبيضهن؟ قال: وما التحميص؟ فذكر الدبر فقال: وهل يفعل ذلك أحد من المسلمين؟^(٤) وهذا إسناد صحيح ونص صريح منه بتحريم ذلك، فكل ما ورد عنه مما يحتمل ويحتمل فهو مردود إلى هذا المحكم، وروى معمر بن عيسى عن مالك أن ذلك حرام.

وقال أبو بكر النيسابوري بسنده عن إسرائيل بن روح سألت مالك بن أنس: ما تقول في إتيان النساء في أدبارهن؟ قال: ما أتم إلا قوم عرب، هل يكون الحرث إلا موضع الزرع؟ لا تعدوا الفرج، قلت: يا أبا عبدالله إنهم يقولون إنك تقول ذلك، قال: يكذبون عليّ يكذبون عليّ. فهذا هو الثابت عنه، وهو قول أبي حنيفة والشافعي وأحمد بن حنبل وأصحابهم قاطبة وهو قول سعيد بن المسيب، وأبي سلمة، وعكرمة، وطاووس، وعطاء، وسعيد ابن جبير، وعروة بن الزبير، ومجاهد بن جبر، والحسن، وغيرهم من السلف أنهم أنكروا ذلك أشد الإنكار، ومنهم من يطلق على فعله الكفر وهو مذهب جمهور العلماء.

(١) رواه النسائي .

(٢) رواه الإمام أحمد .

(٣) رواه الترمذي والنسائي .

(٤) رواه الدارمي في مسنده .

وقوله تعالى: ﴿وقدموا لأنفسكم﴾ أي من فعل الطاعات مع امتثال ما أنهاكم عنه من ترك المحرمات ولهذا قال: ﴿واتقوا الله واعلموا أنكم ملاقوه﴾ أي فيحاسبكم على أعمالكم جميعها ﴿وبشر المؤمنين﴾ أي المطيعين لله فيما أمرهم، التاركين ما عنه زجرهم، وقال ابن جرير عن ابن عباس ﴿وقدموا لأنفسكم﴾ قال: تقول باسم الله التسمية عند الجماع، وقد ثبت في صحيح البخاري عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «لو أن أحدكم إذا أراد أن يأتي أهله قال: باسم الله، اللهم جنبنا الشيطان، وجنب الشيطان ما رزقتنا، فإنه إن يقدر بينهما ولد في ذلك لم يضره الشيطان أبداً» .

وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾ لَا يُوَاطِّئُكُمْ اللَّهُ بِاللُّغُوِّ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾

ومعناه: لا تجعلوا أيمانكم بالله تعالى مانعة لكم من البر وصلة الرحم إذا حلفتم على تركها كقوله تعالى: ﴿ولا يأتل أولوا الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله﴾، فالاستمرار على اليمين آثم لصاحبها من الخروج منها بالتكفير كما قال رسول الله ﷺ: «والله لأن يلعج أحدكم بيمينه في أهله آثم له عند الله من أن يعطي كفارته التي افترض الله عليه». وقال علي بن طلحة عن ابن عباس في قوله: ﴿ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم﴾ قال: لا تجعل عرضة ليمينك أن لا تصنع الخير، ولكن كفر عن يمينك واصنع الخير، ويؤيده ما ثبت في الصحيحين عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إني والله إن شاء الله لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيراً منها إلا أتيت الذي هو خير وتحللتها»، وثبت فيهما أيضاً أن رسول الله ﷺ قال لعبدالرحمن بن سمرة: «يا عبدالرحمن بن سمرة لا تسأل الإمارة فإنك إن أعطيتها من غير مسألة أعنت عليها، وإن أعطيتها عن مسألة وكلفت إليها، وإذا حلفت على يمين فرأيت غيرها خيراً منها فأت الذي هو خير وكفر عن يمينك». وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «من حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها فليكفر عن يمينه وليفعل الذي هو خير»^(١).

وقوله تعالى: ﴿لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم﴾ أي لا يعاقبكم ولا يلزمكم بما صدر منكم من الأيمان اللاغية، وهي التي لا يقصدها الحالف، بل تجري على لسانه عادة من غير تعقيد ولا تأكيد، كما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «من حلف فقال في حلفه باللغات والعزى فليقل لا إله إلا الله» فهذا قاله لقوم حديثي عهد بجاهلية، قد أسلموا وألستهم قد ألفت ما كانت عليه من الحلف باللغات من غير قصد، فأمروا أن يتلفظوا بكلمة الإخلاص، كما تلفظوا بتلك الكلمة من غير قصد لتكون هذه بهذه ولهذا قال تعالى: ﴿ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم﴾ الآية، وفي الآية الأخرى: ﴿بما عقدتم الأيمان﴾. عن عروة عن عائشة في قوله: ﴿لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم﴾ قالت: هم القوم يتدارأون في الأمر فيقولون هذا: لا والله، وبلى والله، وكلاً

والله، يتدارأون في الأمر لا تعقد عليه قلوبهم. عن عروة قال: كانت عائشة تقول: إنما اللغو في المزاحة والهزل، وهو قول الرجل: لا والله، وبلى والله، فذلك لا كفارة فيه، إنما الكفارة فيما عقد عليه قلبه أن يفعله ثم لا يفعله. (الوجه الثاني): عن عروة عن عائشة أنها كانت تتأول هذه الآية يعني قوله: ﴿ لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ﴾ وتقول: هو الشيء يحلف عليه أحدكم لا يريد منه إلا الصدق، فيكون على غير ما حلف عليه. وعن عطاء عن عائشة قالت: هو قوله: لا والله، وبلى والله، وهو يرى أنه صادق ولا يكون كذلك. (أقوال آخر): قال عبد الرزاق عن إبراهيم: هو الرجل يحلف على الشيء ثم ينساه، وقال زيد بن أسلم: هو قول الرجل: أعمى الله بصري إن لم أفعل كذا وكذا، أخرجني الله من مالي إن لم آتك غداً فهو هذا، قال طاووس عن (ابن عباس): لغو اليمين أن تحلف وأنت غضبان. وعن ابن عباس قال: لغو اليمين أن تحرم ما أحل الله لك فذلك ما ليس عليك فيه كفارة وكذا روي عن سعيد بن جبير.

وقال أبو داود (باب اليمين في الغضب): عن سعيد بن المسيب أن أخوين من الأنصار كان بينهما ميراث فسأل أحدهما صاحبه القسمة فقال: إن عدت تسألني عن القسمة فكل مالي في رتاج الكعبة، فقال له عمر: إن الكعبة غنية عن مالك، كفر عن يمينك وكلم أخاك، سمعت رسول الله ﷺ يقول: « لا يمين عليك ولا نذر في معصية الرب عز وجل ولا في قطعة الرحم ولا فيما لا تملك ». وقوله: ﴿ ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم ﴾، قال ابن عباس مجاهد وغير واحد: هو أن يحلف على الشيء وهو يعلم أنه كاذب. قال مجاهد وغيره: وهي كقولها تعالى: ﴿ ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان ﴾ الآية، ﴿ والله غفور حلیم ﴾ أي غفور لعباده ﴿ حلیم ﴾ عليهم.

لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَبْصُ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُ وَإِنْ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ عَزَمُوا
الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾

الإيلاء: الحلف، فإذا حلف الرجل أن لا يجامع زوجته مدة، فلا يخلو إما أن يكون أقل من أربعة أشهر أو أكثر منها، فإن كانت أقل فله أن ينتظر انقضاء المدة ثم يجامع امرأته، وعليها أن تصبر وليس لها مطالبته بالفيئة في هذه المدة، وهذا كما ثبت في الصحيحين عن عائشة أن رسول الله ﷺ آلى من نساءه شهراً فتزل تسع وعشرين، وقال: « الشهر تسع وعشرون »، فأما إن زادت المدة على أربعة أشهر فللزوجة مطالبة الزوج عند انقضاء أربعة أشهر. إما أن يفي: أي يجامع، وإما أن يطلق، فيجبره الحاكم على هذا أو هذا لئلا يضر بها، ولهذا قال تعالى: ﴿ للذين يؤلون من نسائهم ﴾ أي يحلفون على ترك الجماع من نسائهم، فيه دلالة على أن الإيلاء يختص بالزوجات دون الإماء كما هو مذهب الجمهور.

﴿ تبص أربعة أشهر ﴾ أي ينتظر الزوج أربعة أشهر من حين الحلف، ثم يوقف ويطالب بالفيئة أو الطلاق، ولهذا قال: ﴿ فإن فاءوا ﴾ أي رجعوا إلى ما كانوا عليه - وهو كناية عن الجماع - قاله ابن عباس ﴿ فإن الله غفور رحيم ﴾ لما سلف من التقصير في حقهن بسبب اليمين. وقوله: ﴿ فإن فاءوا فإن الله غفور رحيم ﴾ فيه دلالة لأحد قولي العلماء وهو القديم عن الشافعي، أن المولي إذا فاء بعد الأربعة الأشهر أنه لا كفارة عليه

ويعتضد بما تقدم في الحديث: « من حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها فتركها كفرانها » ، كما رواه أحمد وأبو داود والترمذي ، والذي عليه الجمهور وهو الجديد من مذهب الشافعي : أن عليه التكفير لعموم وجوب التكفير على كل حالف كما تقدم أيضاً في الأحاديث الصحاح ، والله أعلم .

وقوله تعالى: ﴿ وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ ﴾ فيه دلالة على أن الطلاق لا يقع بمجرد مضي الأربعة أشهر كقول الجمهور من المتأخرين ، وذهب آخرون إلى أنه يقع بمضي أربعة أشهر تطبيقاً وهو مروى بأسانيد صحيحة عن عمر وعثمان وابن عباس ، ثم قيل : إنها تطلق بمضي الأربعة أشهر طلقة رجعية قاله سعيد بن المسيب ، وقيل : إنها تطلق طلقة بائنة روي عن علي وابن مسعود وإليه ذهب أبو حنيفة .

فكل من قال إنها تطلق بمضي الأربعة أشهر أوجب عليها العدة ، إلا ما روي عن ابن عباس وأبي الشعثاء إنها إن كانت حاضت ثلاث حيض فلا عدة عليها وهو قول الشافعي ، والذي عليه الجمهور من المتأخرين أن يوقف فيطالب : إما بهذا ، وإما بهذا ، ولا يقع عليها بمجرد مضيها طلاق . وروي عن عبدالله بن عمر أنه قال : إذا آلى الرجل من امرأته لم يقع عليه طلاق وإن مضت أربعة أشهر حتى يوقف فيما أن يطلق ، وإما أن يفي^(١) ، وقال الشافعي رحمه الله بسنده إلى سليمان بن يسار قال : أدركت بضعة عشر من أصحاب النبي ﷺ كلهم يوقف المولي .

وعن سهيل ابن أبي صالح عن أبيه قال : سألت اثني عشر رجلاً من الصحابة عن الرجل يولي من امرأته فكلهم يقول : ليس عليه شيء حتى تمضي الأربعة الأشهر فيوقف فإن فاء وإلا طلق^(٢) ، وهو مذهب مالك والشافعي وأحمد بن حنبل وأصحابهم رحمهم الله وهو اختيار ابن جرير أيضاً وكل هؤلاء قالوا : إن لم يفي^(٣) بالطلاق ، فإن لم يطلق طلق عليه الحاكم ، والطلقة تكون رجعية له رجعتها في العدة ، وانفرد مالك بأن قال : لا يجوز له رجعتها حتى يجامعها في العدة وهذا غريب جداً .

وقد ذكر الفقهاء وغيرهم في مناسبة تأجيل المولي بأربعة أشهر الأثر الذي رواه الإمام مالك رحمه الله في الموطأ عن عبدالله بن دينار قال : خرج عمر بن الخطاب من الليل فسمع امرأة تقول :

تطاول هذا الليل واسود جانبه وأرقتي أن لا خليل لأعبه

فوالله لولا الله أني أراقبه لحرك من هذا السرير جوانبه

فسأل عمر ابنته حفصة رضي الله عنها : كم أكثر ما تصبر المرأة عن زوجها ؟ فقالت : ستة أشهر ، أو أربعة أشهر ، فقال عمر : لا أحبس أحداً من الجيوش أكثر من ذلك^(٤) .

وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَنَّ بِاللَّهِ
وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبَعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ

(١) رواه مالك عن عبدالله بن عمر .

(٢) رواه مالك عن عبدالله بن دينار .

(٣) أخرجه الدارقطني ورواه ابن جرير .

وَالرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾

هذا أمر من الله سبحانه وتعالى للمطلقات المدخول بهن من ذوات الأقرء، بأن يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء، أي بأن تمكث إحداهن بعد طلاق زوجها لها ثلاثة قروء ثم تتزوج إن شاءت، وقد أخرج الأئمة الأربعة من هذا العموم الأمة إذا طلقت فإنها تعتد عندهم بقرأين لأنها على النصف من الحرة، والقرء لا يتبعص فكل لها قرآن لحديث: « طلاق الأمة تطليقتان وعدتها حيضتان »^(١).

وقال بعض السلف: بل عدتها كعدة الحرة لعموم الآية ولأن هذا أمر جلي فكان الحرائر والإماء في هذا سواء، حكى هذا القول عن بعض أهل الظاهر. وروي عن أسماء بنت يزيد بن السكن الأنصارية قالت: طلقت على عهد رسول الله ﷺ ولم يكن للمطلقة عدة فأنزل الله عز وجل حين طلقت (أسماء) العدة للطلاق فكانت أول من نزلت فيها العدة للطلاق يعني: ﴿المطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء﴾^(٢). وقد اختلف السلف والخلف والأئمة في المراد بالأقرء ما هو على قولين، (أحدهما): أن المراد بها (الأطهار) وقال مالك في الموطأ عن عروة عن عائشة أنها انتقلت حفصة بنت عبد الرحمن بن أبي بكر حين دخلت في الدم من الحيضة الثالثة، فذكرت ذلك لعمره بنت عبد الرحمن، فقالت: صدق عروة، وقد جادلها في ذلك ناس فقالوا: إن الله تعالى يقول في كتابه: ﴿ثلاثة قروء﴾، فقالت عائشة: صدقتم وتدرسون ما الأقرء؟ إنما الأقرء الأطهار. وعن عبد الله بن عمر أنه كان يقول: إذا طلق الرجل امرأته فدخلت في الدم من الحيضة الثالثة فقد برئت منه وبرئ منها، وهو مذهب مالك والشافعي ورواية عن أحمد، واستدلوا عليه بقوله تعالى: ﴿فطلقوهن لعدتهن﴾ أي في الأطهار، ولما كان الطهر الذي يطلق فيه محتسباً، دل على أنه أحد الأقرء الثلاثة المأمور بها، ولهذا قال هؤلاء: إن المعتدة تنقضي عدتها وتبين من زوجها بالطنن في الحيضة الثالثة، واستشهد أبو عبيدة وغيره على ذلك بقول الأعشى:

مورثة مالاً وفي الأصل رفعة لما ضاع فيها من قروء نساكنا

يمدح أميراً من أمراء العرب آثر الغزو على المقام حتى ضاعت أيام الطهر من نساكنا لم يواقعهن فيها. (والقول الثاني): أن المراد بالأقرء (الحيض) فلا تنقضي العدة حتى تطهر من الحيضة الثالثة، زاد آخرون وتغتسل منها، وهذا مذهب أبي حنيفة وأصحابه وأصح الروايتين عن الإمام أحمد بن حنبل، وحكى عنه الأثرم أنه قال: الأكابر من أصحاب رسول الله ﷺ يقولون الأقرء: الحيض، وهو مذهب الثوري والأوزاعي وابن أبي ليلى، ويؤيد هذا ما جاء في الحديث عن فاطمة بنت أبي حبيش أن رسول الله ﷺ قال لها: «دعي الصلاة أيام أقرائك» فهذا لو صح لكان صريحاً في أن القرء هو الحيض.

وقال ابن جرير: أصل القرء في كلام العرب الوقت، لمجيء الشيء المعتاد مجيئه في وقت معلوم، ولإدبار الشيء

(١) رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه عن ابن عمر مرفوعاً والصحيح أنه موقوف من قول ابن عمر .

(٢) قال ابن كثير: هذا حديث غريب من هذا الوجه .

المعتاد إداره لوقت معلوم، وهذه العبارة تقتضي أن يكون مشتركاً بين هذا وهذا، وقد ذهب إليه بعض الأصوليين والله أعلم، وهذا قول الأصمعي: ان القراء هو الوقت، وقال أبو عمرو بن العلاء: العرب تسمي الحيض قرءاً، وتسمي الطهر قرءاً، وتسمي الطهر والحيض جميعاً قرءاً. وقال ابن عبد البر: لا يختلف أهل العلم بلسان العرب والفقهاء أن القراء يراد به الحيض، ويراد به الطهر، وإنما اختلفوا في المراد من الآية ما هو على قولين.

وقوله تعالى: ﴿ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله في أرحامهن﴾ أي من حبل أو حيض، قاله ابن عباس وابن عمر ومجاهد، وقوله: ﴿إن كن يؤمن بالله واليوم الآخر﴾ تهديد لهن على خلاف الحق، ودل هذا على أن المرجع في هذا إليهن، لأنه أمر لا يعلم إلا من جهتهن، ويتعذر إقامة البينة غالباً على ذلك فرد الأمر إليهن، وتوعدن فيه لثلاثيخبرن بغير الحق، إما استعجالاً منها لانقضاء العدة، أو رغبة منها في تطويلها لما لها في ذلك من المقاصد، فأمرت أن تخبر بالحق في ذلك من غير زيادة ولا نقصان.

وقوله تعالى: ﴿وبعولتهن أحق بردهن في ذلك إن أرادوا إصلاحاً﴾ أي وزوجها الذي طلقها أحق بردها ما دامت في عدتها، إذا كان مراده بردها الاصلاح والخير، وهذا في الرجعيات، فأما المطلقات البوائن فلم يكن حال نزول هذه الآية مطلقة بائن، وإنما كان ذلك لما حصروا في الطلاق الثلاث، فأما حال نزول هذه الآية، فكان الرجل أحق برجعة امرأته وإن طلقها مائة مرة، فلما قصروا في الآية التي بعدها على ثلاث تطليقات، صار للناس مطلقة بائن وغير بائن.

وقوله تعالى: ﴿ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف﴾ أي ولهن على الرجال من الحق مثل ما للرجال عليهن، فليؤد كل واحد منهما إلى الآخر ما يجب عليه بالمعروف، كما ثبت عن جابر أن رسول الله ﷺ قال في خطبته في حجة الوداع: «فاتقوا الله في النساء، فإنكم أخذتموهن بأمانة الله، واستحلتم فروجهن بكلمة الله، ولكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه، فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضرباً غير مبرح، ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف»^(١)، وفي حديث عن معاوية بن حيدة القشيري عن أبيه عن جده أنه قال: يا رسول الله ما حق زوجة أحدنا؟ قال: «أن تطعمها إذا طعمت، وتكسوها إذا اكتسبت، ولا تضرب الوجه، ولا تقبح ولا تهجر إلا في البيت». وقال ابن عباس: إني لأحب أن أتزين للمرأة كما أحب أن تتزين لي المرأة لأن الله يقول: ﴿ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف﴾^(٢)، وقوله: ﴿وللرجال عليهن درجة﴾ أي في الفضيلة في الخلق والخلق، والمنزلة وطاعة الأمر، والانفاق والقيام بالمصالح، والفضل في الدنيا والآخرة كما قال تعالى: ﴿الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم﴾.

وقوله تعالى: ﴿والله عزيز حكيم﴾ أي عزيز في انتقامه ممن عصاه وخالف أمره، حكيم في أمره وشرعه وقدره.

(١) رواه مسلم عن جابر مرفوعاً.

(٢) رواه ابن أبي حاتم وابن جرير.

أَطْلَقُ مَرَّتَانٍ فإِمْسَاكَ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٍ بِإِحْسَانٍ وَلَا يَحِلُّ لَكَرَّ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٢٩﴾ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا يَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدِ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يَبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾

هذه الآية الكريمة رافعة لما كان عليه الأمر في ابتداء الإسلام، من أن الرجل كان أحق برجعة امرأته وإن طلقها مائة مرة ما دامت في العدة، فلما كان هذا فيه ضرر على الزوجات قصرهم الله إلى ثلاث طلاقات، وأباح الرجعة في المرة والثنتين، وأبانها بالكلية في الثالثة، فقال: ﴿الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان﴾ قال أبو داود عن ابن عباس: ﴿والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله في أرحامهن﴾ الآية وذلك أن الرجل كان إذا طلق امرأته فهو أحق برجعته وإن طلقها ثلاثاً، فنسخ ذلك فقال: ﴿الطلاق مرتان﴾ الآية .

وعن (هشام بن عروة) عن أبيه أن رجلاً قال لامرأته: لا أطلقك أبداً ولا آويك أبداً، قالت: وكيف ذلك؟ قال: أطلق حتى إذا دنا أجلك راجعتك، فأتت رسول الله ﷺ فذكرت ذلك له فأنزل الله عز وجل: ﴿الطلاق مرتان﴾^(١) .

وعن عائشة قالت: لم يكن للطلاق وقت، يطلق الرجل امرأته ثم يراجعها ما لم تنقض العدة، وكان بين رجل من الأنصار وبين أهله بعض ما يكون بين الناس قال: والله لأتركك لا أيمماً ولا ذات زوج، فجعل يطلقها حتى إذا كادت العدة أن تنقضي راجعها، ففعل ذلك مراراً فأنزل الله عز وجل: ﴿الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان﴾ فوقت الطلاق ثلاثاً لا رجعة فيه بعد الثالثة حتى تنكح زوجاً غيره^(٢)، وقوله: ﴿فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان﴾ أي إذا طلقها واحدة أو اثنتين، فأتت مخير فيها ما دامت عدتها باقية، بين أن تردّها إليك ناوياً للإصلاح بها والإحسان إليها، وبين أن تركها حتى تنقضي عدتها فتبين منك، وتطلق سراحها محسناً إليها لا تظلمها من حقها شيئاً ولا تُضارَّ بها. وعن ابن عباس قال: إذا طلق الرجل امرأته تطليقتين فليتق الله في ذلك، أي في الثالثة فإما أن يمسكها بمعروف فيحسن صحابته، أو يسرحها بإحسان فلا يظلمها من حقها شيئاً، وعن أنس ابن مالك قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله: ذكر الله الطلاق مرتين فأين الثالثة؟ قال: ﴿إمساك﴾

(١) رواه النسائي .

(٢) رواه ابن مردويه والحاكم .

بمعروف أو تسريح بإحسان ﴿١﴾ .

وقوله تعالى: ﴿ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً﴾ أي لا يحل لكم أن تضاجروهن وتضيّقوا عليهن، ليفتدين منكم بما أعطيتموهن من الأصدقة أو ببعضه كما قال تعالى: ﴿ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة﴾ فأما إن وهبته المرأة شيئاً عن طيب نفسٍ منها فقد قال تعالى: ﴿فإن طبن لكم عن شيءٍ منه نفساً فكلوه هنيئاً مريئاً﴾ وأما إذا تشاقت الزوجان ولم تقم المرأة بحقوق الرجل وأبغضته ولم تقدر على معاشرته، فلها أن تفتدي منه بما أعطاها ولا حرج عليها في بذلها له ولا حرج عليه في قبول ذلك منها، ولهذا قال تعالى: ﴿ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً إلا أن يخافا ألا يقيما حدود الله فإن ختم ألا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به﴾ الآية، فأما إذا لم يكن لها عذر وسألت الافتداء منه فقد قال رسول الله ﷺ: «أيا امرأة سألت زوجها طلاقها في غير ما بأس فحرام عليها راحة الجنة»^(٢)، وقال رسول الله ﷺ: «المختلعات هن المنافقات»^(٣). (حديث آخر) وقال الإمام أحمد: عن النبي ﷺ: «المختلعات والمتترعات هن المنافقات». وعن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «لا تسأل امرأة زوجها الطلاق في غير كنهه فتجد ربح الجنة، وإن ربحها ليجد من مسيرة أربعين عاماً». ثم قد قال طائفة كثيرة من السلف وأئمة الخلف إنه لا يجوز الخلع إلا أن يكون الشقاق والنشوز من جانب المرأة، فيجوز للرجل حينئذ قبول الفدية، واحتجوا بقوله تعالى: ﴿ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً إلا أن يخافا ألا يقيما حدود الله﴾، قالوا: فلم يشرع الخلع إلا في هذه الحالة، فلا يجوز في غيرها إلا بدليل، والأصل عدمه، ومن ذهب إلى هذا ابن عباس وعطاء والحسن والجمهور حتى قال مالك والأوزاعي: لو أخذ منها شيئاً وهو مضار لها وجب رده إليها وكان الطلاق رجعيّاً، قال مالك: وهو الأمر الذي أدركت الناس عليه، وذهب الشافعي رحمه الله إلى أنه يجوز الخلع في حال الشقاق وعند الاتفاق بطريق الأولى والأخرى، وهذا قول جميع أصحابه قاطبة، وقد ذكر ابن جرير رحمه الله أن هذه الآية نزلت في شأن (ثابت ابن قيس بن شماس) وامراته (حبيبة بنت عبد الله بن أبي ابن سلول).

قال البخاري: عن ابن عباس أن امرأة ثابت بن قيس بن شماس أتت النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله: ما أعيب عليه في خلق ولا دين ولكن أكره الكفر في الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «أتردين عليه حديثه؟» قالت: نعم، قال رسول الله ﷺ: «أقبل الحديثة وطلقها تطليقة»، وهكذا رواه البخاري أيضاً من طرق عن عكرمة عن ابن عباس وفي بعضها أنها قالت: لا أطيقه يعني بغضاً. وفي رواية عن ابن عباس أن جميلة بنت سلول أتت النبي ﷺ فقالت: والله ما أعتب علي (ثابت بن قيس) في دين ولا خلق، ولكنني أكره الكفر في الإسلام لا أطيقه بغضاً، فقال لها النبي ﷺ: «تردين عليه حديثه؟» قالت: نعم، فأمره النبي ﷺ أن يأخذ ما ساق ولا يزداد. وقال ابن جرير: عن عبد الله بن رباح عن جميلة بنت عبد الله بن أبي ابن سلول أنها كانت تحت ثابت بن قيس

(١) رواه ابن مردويه وأحمد وعبد بن حميد .

(٢) رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه .

(٣) رواه الترمذي وقال: غريب من هذا الوجه .

فنشرت عليه فأرسل إليها النبي ﷺ فقال: «يا جميلة ما كرهت من ثابت؟» قالت: والله ما كرهت منه ديناً ولا خلقاً إلا أنني كرهت دمامته، فقال لها: «أتردين عليه الحديقة؟» قالت: نعم، فردت الحديقة وفرق بينهما. وأول خلع كان في الإسلام في أخت (عبدالله بن أبي) أنها أتت رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله، لا يجمع رأسي ورأسه شيء أبداً، إني رفعت جانب الخباء فرأيت أنه قد أقبل في عدة فإذا هو أشدهم سواداً وأقصرهم قامته وأقبحهم وجهاً، فقال زوجها: يا رسول الله، إني قد أعطيتها أفضل مالي حديقة لي فإن ردت عليّ حديقتي، قال: «ماذا تقولين؟» قالت: نعم وإن شاء زدته، قال: ففرق بينهما.

وقد اختلف الأئمة رحمهم الله في أنه هل يجوز للرجل أن يفاديهما بأكثر مما أعطاهما؟ فذهب الجمهور إلى جواز ذلك لعموم قوله تعالى: ﴿فلا جناح عليهما فيما افتدت به﴾. وعن كثير مولى ابن سمرة أن عمر أتى بامرأة ناشز فأمر بها إلى بيت كثير الزبل، ثم دعا بها فقال: كيف وجدت؟ فقالت: ما وجدت راحة منذ كنت عنده إلا هذه الليلة التي كنت حبسني، فقال لزوجها: اخلعها ولو من قرطها^(١). وقال البخاري: وأجاز عثمان الخلع دون عقاص رأسها لحديث الربيع بنت معوذ قالت: كان لي زوج يُقِلُّ عليّ الخير إذا حضرنى، ويحرمني إذا غاب عني، قالت: فكانت مني زلة يوماً فقلت: أختلع منك بكل شيء أملكه، قال: نعم، قالت: ففعلت فخاصم عمي (معاذ بن عفراء) إلى عثمان بن عفان فأجاز الخلع، وأمره أن يأخذ عقاص رأسي فما دونه، أو قالت: ما دون عقاص الرأس. ومعنى هذا أنه يجوز أن يأخذ منها كل ما بيدها من قليل وكثير، ولا يترك لها سوى عقاص شعرها، وبه يقول ابن عمر وابن عباس ومجاهد، وهذا مذهب مالك والشافعي واختاره ابن جرير.

وقال أصحاب أبي حنيفة: إن كان الإضرار من قبلها جاز أن يأخذ منها ما أعطاهما، ولا يجوز الزيادة عليه، فإن ازداد جاز في القضاء، وإن كان الإضرار من جهته لم يجز أن يأخذ منها شيئاً فإن أخذ جاز في القضاء، وقال الإمام أحمد: لا يجوز أن يأخذ أكثر مما أعطاهما وهذا قول سعيد بن المسيب وعطاء، وقال معمر: كان علي يقول: لا يأخذ من المختلعة فوق ما أعطاهما. (قلت): ويستدل لهذا القول بما تقدم من رواية ابن عباس في قصة (ثابت بن قيس) فأمره رسول الله ﷺ أن يأخذ منها الحديقة ولا يزداد، وبما روي عن عطاء عن النبي ﷺ كره أن يأخذ منها أكثر مما أعطاهما يعني المختلعة، وحملوا معنى الآية على معنى ﴿فلا جناح عليهما فيما افتدت به﴾ أي من الذي أعطاهما لتقدم قوله: ﴿ولا تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً﴾ ولهذا قال بعده: ﴿تلك حدود الله فلا تعتدوها ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون﴾.

فصل

قال الشافعي: اختلف أصحابنا في الخلع، فعن عكرمة قال: كل شيء أجازته المال فليس بطلاق، وروي عن ابن عباس أن إبراهيم بن سعد بن أبي وقاص سأله فقال: رجل طلق امرأته تطليقتين ثم اختلعت منه أيتزوجها؟

قال: نعم ليس الخلع بطلاق، ذكر الله الطلاق في أول الآية وآخرها، والخلع فيما بين ذلك فليس الخلع بشيء، ثم قرأ: ﴿الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان﴾ ، وهذا الذي ذهب إليه ابن عباس رواية عن عثمان وابن عمر وبه يقول أحمد وهو مذهب الشافعي في القديم، وهو ظاهر الآية الكريمة، والقول الثاني في الخلع إنه (طلاق بائن) إلا أن ينوي أكثر من ذلك وإليه ذهب مالك وأبو حنيفة والشافعي في الجديد، غير أن الحنفية عندهم أنه متى نوى المخالغ بخلعه تطليقة أو اثنتين أو أطلق فهو واحدة بائنة، وإن نوى ثلاثاً فثلاث، وللشافعي قول آخر في الخلع وهو أنه متى لم يكن بلفظ الطلاق وعري عن البينة فليس بشيء بالكلية .

مسألة

وليس للمخالغ أن يراجع المختلعة في العدة بغير رضاها عند الأئمة الأربعة وجمهور العلماء، لأنها قد ملكت نفسها بما بذلت له من العطاء، وقال سفيان الثوري: إن كان الخلع بغير لفظ الطلاق فهو فرقة ولا سبيل له عليها؟ وإن كان يسمى طلاقاً فهو أملك لرجعتها ما دامت في العدة وبه يقول داود الظاهري، واتفق الجميع على أن للمختلغ أن يتزوجها في العدة، وحكى ابن عبد البر عن فرقة أنه لا يجوز له ذلك كما لا يجوز لغيره، وهو قول شاذ مردود .

مسألة

وهل له أن يقع عليها طلاقاً آخر في العدة؟ فيه ثلاثة أقوال للعلماء . (أحدها): ليس له ذلك لأنها قد ملكت نفسها وبانت منه، وبه يقول الشافعي وأحمد بن حنبل . (والثاني): قال مالك: إن أتبع الخلع طلاقاً من غير سكوت بينهما وقع، وإن سكت بينهما لم يقع قال ابن عبد البر: وهذا يشبه ما روي عن عثمان رضي الله عنه . (والثالث) أنه يقع عليها الطلاق بكل حال ما دامت في العدة، وهو قول أبي حنيفة وأصحابه والثوري والأوزاعي .

وقوله تعالى: ﴿تلك حدود الله فلا تعتدوها ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون﴾ أي هذه الشرائع التي شرعها لكم هي حدوده فلا تتجاوزوها كما ثبت في الحديث الصحيح: «إن الله حد حدوداً فلا تعتدوها، وفرض فرائض فلا تضيعوها، وحرم محارم فلا تنتهكوها، وسكت عن أشياء رحمة لكم غير نسيان فلا تسألوا عنها»، وقد يستدل بهذه الآية من ذهب إلى أن جمع الطلقات الثلاث بكلمة واحدة حرام كما هو مذهب المالكية ومن وافقهم، وإنما السنة عندهم أن يطلق واحدة لقوله: ﴿الطلاق مرتان﴾، ثم قال: ﴿تلك حدود الله فلا تعتدوها﴾ الآية. أخبر رسول الله ﷺ عن رجل طلق امرأته ثلاث تطليقات جميعاً فقام غضبان ثم قال: «أيلعب بكتاب الله وأنا بين أظهركم» حتى قام رجل فقال: يا رسول الله ألا أقتله؟^(١) .

وقوله تعالى: ﴿فإن طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجاً غيره﴾ أي أنه إذا طلق الرجل امرأته طلقته ثلاثة بعد ما أرسل عليها الطلاق مرتين، فإنها تحرم عليه حتى تنكح زوجاً غيره، أي حتى يطأها زوج آخر، في نكاح

(١) رواه النسائي، قال ابن كثير: وفيه انقطاع .

صحيح، فلو وطئها واطئ في غير نكاح ولو في ملك اليمين لم تحل للأول، لأنه ليس بزواج، وهكذا لو تزوجت ولكن لم يدخل بها الزوج لم تحل للأول، لحديث ابن عمر عن النبي ﷺ في الرجل يتزوج المرأة فيطلقها قبل أن يدخل بها البتة، فيتزوجها زوج آخر فيطلقها قبل أن يدخل بها أترجع إلى الأول؟ قال: « لا حتى تذوق عسيلته ويذوق عسيلتها ». عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ سئل عن رجل كانت تحته امرأة فطلقها ثلاثاً، فتزوجت بعده رجلاً فطلقها قبل أن يدخل بها أتحل لزوجها الأول؟ فقال رسول الله ﷺ: « لا حتى يكون الآخر قد ذاق من عسيلتها وذقت من عسيلته ». قال مسلم في صحيحه: عن عائشة أن رسول الله ﷺ سئل عن المرأة يتزوجها الرجل فيطلقها فتتزوج رجلاً آخر فيطلقها قبل أن يدخل بها أتحل لزوجها الأول قال: « لا، حتى يذوق عسيلتها ». وعن عائشة أن رفاة القرظي تزوج امرأة ثم طلقها، فأنت النبي ﷺ فذكرت له أنه لا يأتيها، وأنه ليس معه إلا مثل هدبة الثوب، فقال: « لا، حتى تذوق عسيلته ويذوق عسيلتك »^(١).

وقال الإمام أحمد عن عائشة قالت: دخلت امرأة رفاة القرظي وأنا وأبو بكر عند النبي ﷺ فقالت: إن رفاة طلقني البتة، وإن عبد الرحمن بن الزبير تزوجني، وإنما عنده مثل الهدبة، وأخذت هدبة من جلبابها - وخالد ابن سعيد بن العاص بالباب لم يؤذن له - فقال: يا أبا بكر ألا تنهى هذه عما تجهر به بين يدي رسول الله ﷺ؟ فما زاد رسول الله ﷺ عن التسم فقال رسول الله ﷺ: « كأنك تريد أن ترجعي إلى رفاة، لا، حتى تذوق عسيلته ويذوق عسيلتك ».

فصل

والمقصود من الزوج الثاني أن يكون راغباً في المرأة، قاصداً لدوام عشرتها كما هو المشروع من التزويج، واشترط الإمام مالك مع ذلك أن يطأها الثاني وطاً مباحاً، فلو وطئها وهي مُحْرمة أو صائمة أو معتكفة أو حائض أو نفساء، أو الزوج صائم أو محرم أو معتكف، لم تحل للأول بهذا الوطاء، وكذا لو كان الزوج الثاني ذمياً لم تحل للمسلم بنكاحه، لأن أنكحة الكفار باطلة عنده، فأما إذا كان الثاني إنمًا قصده أن يحلها للأول، فهذا هو (المحلل) الذي وردت الأحاديث بدمه ولعنه، ومتى صرح بمقصوده في العقد بطل النكاح عند جمهور الأئمة .

(ذكر الأحاديث الواردة في ذلك)

(الحديث الأول) : عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: لعن رسول الله ﷺ: الواشمة والمستوشمة والواصلة والمستوصلة والمحلل والمحلل له، وآكل الربا وموكله^(١).

(الحديث الثاني) : عن علي رضي الله عنه قال: لعن رسول الله ﷺ آكل الربا وموكله وشاهديه وكتابه

(١) تفرد به البخاري من هذا الوجه .

(٢) رواه أحمد والترمذي والنسائي .

والواشمة والمستوشمة للحسن ومانع الصدقة والمحلل والمحلل له، وكان ينهى عن النوح^(١).

(الحديث الثالث) : عن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: « لعن الله المحلل والمحلل له »^(٢).

(الحديث الرابع) : عن عقبه بن عامر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « ألا أخبركم بالتيس المستعار »، قالوا: بلى يا رسول الله، قال: « هو المحلل، لعن الله المحلل والمحلل له »^(٣).

(الحديث الخامس) : عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: سئل رسول الله ﷺ عن نكاح المحلل قال: « لا، إلا نكاح رغبة، لا نكاح دلسة، ولا استهزاء بكتاب الله، ثم يذوق عسيتها »^(٤).

(الحديث السادس) : عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: لعن رسول الله ﷺ المحلل والمحلل له^(٥).

(الحديث السابع) : عن عمر بن نافع عن أبيه أنه قال: جاء رجل إلى ابن عمر فسأله عن رجل طلق امرأته ثلاثاً فتزوجها أخ له من غير مؤامرة منه ليحلها لأخيه هل تحل للأول؟ فقال: لا إلا نكاح رغبة، كنا نعد هذا سفاحاً على عهد رسول الله ﷺ^(٦).

وقوله تعالى: ﴿ فَإِنْ طَلَّقَهَا ﴾ أي الزوج الثاني بعد الدخول بها ﴿ فَلَإِنْ طَلَّقَهَا ﴾ أي المرأة والزوج الأول ﴿ إِنْ طَلَّقَهَا ﴾ أي يتعاشرا بالمعروف، قال مجاهد: إن طلقنا أن نكاحها على غير دلسة ﴿ وتلك حدود الله ﴾ أي شرائعه وأحكامه ﴿ بينها ﴾ أي يوضحها ﴿ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾.

وقد اختلف الأئمة رحمهم الله فيما إذا طلق الرجل امرأته طليقة أو طليقتين وتركها حتى انقضت عدتها ثم تزوجت بآخر فدخل بها ثم طلقها فانقضت عدتها ثم تزوجها الأول هل تعود إليه بما بقي من الثلاث كما هو مذهب مالك والشافعي وأحمد بن حنبل، وهو قول طائفة من الصحابة رضي الله عنهم، أو يكون الزوج الثاني قد هدم ما قبله من الطلاق فإذا عادت إلى الأول تعود بمجموع الثلاث كما هو مذهب أبي حنيفة وأصحابه رحمهم الله، وحيثهم أن الزوج الثاني إذا هدم الثلاث فلأن يهدم ما دونها بطريق الأولى والأخرى، والله أعلم.

وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضَرَارًا لِيَتَّعْتِدُوا
وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَأَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ

(١) رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه .

(٢) رواه الترمذي .

(٣) تفرد به ابن ماجه .

(٤) رواه الجوزجاني السعدي .

(٥) رواه أحمد .

(٦) رواه الحاكم في المستدرک .

مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣١﴾

هذا أمر من الله عز وجل للرجال، إذا طلق أحدهم المرأة طلاقاً له عليها فيه رجعة، أن يحسن في أمرها إذا انقضت عدتها، ولم يبق منها إلا مقدار ما يمكنه فيه رجعتها، فإما أن يمسكها أي يجمعها إلى عصمة نكاحه بمعروف وهو أن يشهد على رجعتها وينوي عشرتها بالمعروف، أو يسرحها أي يتركها حتى تنقضي عدتها ويخرجها من منزله بالتي هي أحسن من غير شقاق ولا مخاصمة ولا تقابح، قال الله تعالى: ﴿ولا تمسكوهن ضراً لتتعدوا﴾، قال ابن عباس ومجاهد: كان الرجل يطلق المرأة فإذا قاربت انقضاء العدة راجعها ضراً لثلاث تذهب إلى غيره، ثم يطلقها فتعد فإذا شارفت على انقضاء العدة طلق لتطول عليها العدة، ففهم الله عن ذلك وتوعدهم عليه فقال: ﴿ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه﴾ أي بمخالفته أمر الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿ولا تتخذوا آيات الله هزواً﴾، قال مسروق: هو الذي يطلق في غير كنهه ويضار امرأته بطلاقها وارتجاعها لتطول عليها العدة، وقال الحسن وقتادة: هو الرجل يطلق ويقول: كنت لاعباً، أو يعتق أو ينكح ويقول: كنت لاعباً، فأنزل الله: ﴿ولا تتخذوا آيات الله هزواً﴾، وعن ابن عباس قال: طلق رجل امرأته وهو يلعب لا يريد الطلاق، فأنزل الله: ﴿ولا تتخذوا آيات الله هزواً﴾، فالزمه رسول الله ﷺ الطلاق. وقال رسول الله ﷺ: «ثلاث جدهن جد، وهزلن جد: النكاح، والطلاق، والرجعة»^(١).

وقوله تعالى: ﴿واذكروا نعمة الله عليكم﴾ أي في إرساله الرسول بالهدى والبيئات إليكم ﴿وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة﴾ أي السنة ﴿يعظكم به﴾ أي يأمركم وينهاكم ويتوعدكم على ارتكاب المحارم ﴿واتقوا الله﴾ أي فيما تأتون وفيما تدرؤن ﴿واعلموا أن الله بكل شيء عليم﴾ أي فلا يخفى عليه شيء من أموركم السرية والجهريسة وسيجازيكم على ذلك.

وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَضُوا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ۚ ذَٰلِكَ يُوعِظُ بِهِ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾

قال ابن عباس: نزلت هذه الآية في الرجل يطلق امرأته طليقة أو طليقتين فنقض عدتها ثم يبدو له أن يتزوجها وأن يراجعها وتريد المرأة ذلك فيمنعها أولياؤها من ذلك فنهى الله أن يمنعوها، والذي قاله ظاهر من الآية، وفيها دلالة على أن المرأة لا تملك أن تزوج نفسها، وأنه لا بد في النكاح من ولي، وفي هذه المسألة نزاع بين العلماء محرز في موضعه من كتب الفروع، وقد قررنا ذلك في كتاب الأحكام والله الحمد والمنة.

(١) رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه، وقال الترمذي: حسن غريب.

وقد روي أن هذه الآية نزلت في (معقل بن يسار المزني) وأخته. روى الترمذي عن معقل بن يسار أنه زوج أخته رجلاً من المسلمين على عهد رسول الله ﷺ، فكانت عنده ما كانت، ثم طلقها تطليقة لم يراجعها حتى انقضت عدتها، فهويها وهويته ثم خطبها مع الخطاب، فقال له: يا لكع ابن لكع أكرمتك بها وزوجتكها فطلقتها، والله لا ترجع إليك أبداً آخر ما عليك، قال: فعلم الله حاجته إليها وحاجتها إلى بعلمها فأنزل الله: ﴿وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن﴾، إلى قوله: ﴿وأنتم لا تعلمون﴾، فلما سمعها معقل قال: سمع لربي وطاعة ثم دعاه فقال: أزوجك وأكرمك^(١).

وقوله تعالى: ﴿ذلك يوعظ به من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر﴾ أي هذا الذي نهيناكم عنه من منع الولايا أن يتزوجن أزواجهن إذا تراضوا بينهم بالمعروف، يأتمر به ويتعظ به وينفعل له ﴿من كان منكم﴾ أيها الناس ﴿يؤمن بالله واليوم الآخر﴾ أي يؤمن بشرع الله ويخاف وعيد الله وعذابه في الدار الآخرة وما فيها من الجزاء ﴿ذلكم أذكى لكم وأطهر﴾ أي اتباعكم شرع الله في رد المولىات إلى أزواجهن، وترك الحمية في ذلك ﴿أزكى لكم وأطهر﴾ لقلوبكم ﴿والله يعلم﴾ أي من المصالح فيما يأمر به وينهى عنه ﴿وأنتم لا تعلمون﴾ أي الخيرة فيما تأتون ولا فيما تدرن.

* وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلِينَ كَامِلِينَ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنَمِّئَ الرِّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَالِدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَاءً تَبَيْمُ بِالْمَعْرُوفِ وَأَتَقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٣﴾

هذا إرشاد من الله تعالى للوالدات أن يرضعن أولادهن كمال الرضاعة وهي (ستان) فلا اعتبار بالرضاعة بعد ذلك، ولهذا قال: ﴿لمن أراد أن يتم الرضاعة﴾ وذهب أكثر الأئمة، إلى أنه لا يحرم من الرضاعة إلا ما كان دون الحولين، فلو ارتضع المولود وعمره فوقهما لم يحرم، قال رسول الله ﷺ: «لا يحرم من الرضاع إلا ما فتق الأمعاء في الثدي وكان قبل الفطام»^(٢). ومعنى قوله: «إلا ما كان في الثدي» أي في محال الرضاعة قبل الحولين لحديث: «إن ابني مات في الثدي وإن له مرضعاً في الجنة»^(٣) وإنما قال عليه السلام ذلك لأن ابنه إبراهيم عليه السلام مات وله سنة وعشرة أشهر، فقال: إن له مرضعاً يعني تكمل رضاعه ويؤيده ما رواه الدارقطني عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يحرم من الرضاع إلا ما كان في الحولين»^(٤).

(١) رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه واللفظ للترمذي . (٤) رواه مالك في الموطأ وأخرجه الدارقطني واللفظ له .

(٢) رواه الترمذي عن أم سلمة وقال : حديث حسن صحيح .

(٣) رواه أحمد عن البراء بن عازب وقد قاله عليه السلام عند موت ولده إبراهيم .

وقال الطيالسي عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: « لا رضاع بعد فصال، ولا يتم بعد احتلام »، وتمايم الدلالة من هذا الحديث في قوله تعالى: ﴿ وفصاله في عامين أن اشكر لي ﴾، وقال: ﴿ وحمله وفصاله ثلاثون شهراً ﴾ والقول بأن الرضاعة لا تحرم بعد الحولين يروي عن عليّ وابن عباس وابن مسعود وهو مذهب الشافعي وأحمد، وقال أبو حنيفة: سنتان وستة أشهر. وقد روي عن عمر وعليّ أنهما قالا: لا رضاع بعد فصال، فيحتمل أنهما أرادا الحولين كقول الجمهور سواء فطم أو لم يفظم، ويحتمل أنهما أرادا الفعل كقول مالك، والله أعلم.

وقد روي في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أنها كانت ترى رضاع الكبير يؤثر في التحريم، وهو قول عطاء والليث بن سعد، وكانت عائشة تأمر بمن تختار أن يدخل عليها من الرجال لبعض نساءها فترضعه، وتحتج في ذلك بحديث (سالم مولى أبي حذيفة) حيث أمر النبي ﷺ امرأة أبي حذيفة أن ترضعه وكان كبيراً، فكان يدخل عليها بتلك الرضاعة، وأبى ذلك سائر أزواج النبي ﷺ ورأين ذلك من الخصائص، وهو قول الجمهور، وحجة الجمهور ما ثبت في الصحيحين عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: « انظرون من إخوانكن! فإنما الرضاعة من المجاعة ».

وقوله تعالى: ﴿ وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف ﴾ أي وعلى والد الطفل، نفقة الوالدات وكسوتهن بالمعروف، أي بما جرت به عادة أمثالهن في بلدن، من غير إسراف ولا إقتار، بحسب قدرته في يساره وتوسطه وإقتاره كما قال تعالى: ﴿ لينفق ذو سعة من سعته ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاه سيجعل الله بعد عسر يسراً ﴾، قال الضحاك: إذا طلق زوجته وله منها ولد، فأرضعت له ولده وجب على الوالد نفقتها وكسوتها بالمعروف.

وقوله تعالى: ﴿ لا تضار والدة بولدها ﴾ أي بأن تدفعه عنها لتضر أباه بتربيته، ولكن ليس لها دفعه إذا ولدته حتى تسقيه اللبن الذي لا يعيش بدون تناوله غالباً، ثم بعد هذا لها دفعه عنها إذا شاءت، ولكن إن كانت مضارة لأبيه فلا يحل لها ذلك، كما لا يحل له انتزاعه منها لمجرد الضرر لها ولهذا قال: ﴿ ولا مولود له بولده ﴾ أي بأن يريد أن ينتزع الولد منها إضراراً بها قاله مجاهد وقتادة.

وقوله تعالى: ﴿ وعلى الوارث مثل ذلك ﴾ قيل: في عدم الضرر لقريبه، قاله مجاهد والضحاك، وقيل: عليه مثل ما على والد الطفل من الانفاق على والدة الطفل، والقيام بحقوقها وعدم الإضرار بها وهو قول الجمهور، وقد استقصى ذلك ابن جرير في تفسيره، وقد استدلل بذلك من ذهب من الحنفية والحنبلية إلى وجوب نفقة الأقارب بعضهم على بعض، وهو مروى عن عمر بن الخطاب وجمهور السلف، ويُرجَّح ذلك بحديث الحسن عن سمرة مرفوعاً: « من ملك ذا رحم محرم عتق عليه » وقد ذكر أن الرضاعة بعد الحولين ربما ضرت الولد إما في بدنه أو في عقله.

وقوله تعالى: ﴿ فإن أرادوا فصلاً عن تراض منهما وتشاور فلا جناح عليهما ﴾ أي فإن اتفق والدا الطفل على فطامه قبل الحولين، ورأيا في ذلك مصلحة له، وتشاورا في ذلك وأجمعا عليه، فلا جناح عليهما في ذلك، فيؤخذ منه أن انفراد أحدهما بذلك دون الآخر لا يكفي، ولا يجوز لواحد منهما أن يستبد بذلك من غير مشاورة الآخر،

وهذا فيه احتياط للطفل، وإلزام للنظر في أمره، وهو من رحمة الله بعباده، حيث حجر على الوالدين في تربية طفلهما، وأرشدهما إلى ما يصلحهما ويصلحه كما قال في سورة الطلاق: ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأَمْرًا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ وَإِنْ تَعَاَسَرْتُمْ فِستَرْضَعْنِ لَه أُخْرَى﴾ .

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي إذا اتفقت الوالدة والوالد على أن يستلم منها الولد، إما لعذر منها أو لعذر منه، فلا جناح عليهما في بذله ولا عليه في قبوله منها إذا سلمها أجرتها الماضية بالتي هي أحسن، واسترضع لولده غيرها بالأجرة بالمعروف، وقوله: ﴿وَاقْتُوا اللَّهَ﴾ أي في جميع أحوالكم ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي فلا يخفى عليه شيء من أحوالكم وأقوالكم .

وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٣٤﴾

هذا أمر من الله للنساء اللاتي يتوفى عنهن أزواجهن أن يعتددن أربعة أشهر وعشر ليال، وهذا الحكم يشمل الزوجات المدخول بهن وغير المدخول بهن بالإجماع، ومستنده في غير المدخول بها عموم الآية الكريمة وهذا الحديث الذي رواه الإمام أحمد وأهل السنن أن ابن مسعود سئل عن رجل تزوج امرأة فمات عنها ولم يدخل بها ولم يفرض لها، فترددوا إليه مراراً في ذلك، فقال: أقول فيها برأبي، فإن يك صواباً فمن الله، وإن يك خطأ فني ومن الشيطان، والله ورسوله بريئان منه: لها الصداق كاملاً - وفي لفظ لها صداق مثلها لا وكس ولا شطط - وعليها العدة، ولها الميراث، فقام (معقل بن يسار الأشجعي) فقال: سمعت رسول الله ﷺ قضى به في (بروع بنت واشق)، ففرح عبد الله بذلك فرحاً شديداً^(١).

ولا يخرج من ذلك إلا المتوفى عنها زوجها وهي حامل، فإن عدتها بوضع الحمل، ولو لم تمكث بعده سوى لحظة لعموم قوله: ﴿وَأُولَاتِ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾، وكان ابن عباس يرى أن عليها أن تتربص بأبعد الأجلين: من الوضع، أو أربعة أشهر وعشر، للجمع بين الآيتين، وهذا مأخذ جيد ومسلك قوي، لولا ما ثبتت به السنة في حديث (سبيعة الأسلمية) المخرج في الصحيحين من غير وجه، أنها توفي عنها زوجها (سعد بن خولة) وهي حامل، فلم تنشب أن وضعت حملها بعد وفاته، فلما تعلت من نفاسها تجملت للخطاب، فدخل عليها (أبو السنابل بن بعكك) فقال لها: مالي أراك متجملة لعلك ترجين النكاح؟ والله ما أنت بناكح حتى يمر عليك أربعة أشهر وعشر، قالت سبيعة: فلما قال لي ذلك جمعت علي ثيابي حين أمسيت، فأتيت رسول الله ﷺ فسألته عن ذلك فأفتاني بإني قد حللت حين وضعت حملي، وأمرني بالتزويج إن بدا لي. قال أبو عمر بن عبد البر: وقد روي أن ابن عباس رجع إلى حديث سبيعة، يعني لما احتج عليه به، قال: ويصحح ذلك عنه أن أصحابه أفتوا بحديث سبيعة كما هو قول أهل العلم قاطبة، وكذلك يستثنى من ذلك الزوجة إذا كانت أمة، فإن عدتها على النصف من عدة الحرة على قول الجمهور، لأنها لما كانت على النصف من الحرة في الحد فكذلك في العدة، ومن

(١) أخرجه أحمد وأصحاب السنن وصححه الترمذي .

العلماء من يسوي بين الزوجات الحرائر والإماء في هذا المقام لعموم الآية، ولأن العدة من باب الأمور الجليلية، التي تستوي فيها الخليفة. وقد ذكر أن الحكمة في جعل عدة الوفاة أربعة أشهر وعشراً، احتمال اشتغال الرحم على حمل، فإذا انتظر به هذه المدة ظهر إن كان موجوداً كما جاء في حديث ابن مسعود الذي في الصحيحين: «إن خلق أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين يوماً نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث إليه الملك فينفخ فيه الروح» فهذه ثلاث أربعينات بأربعة أشهر، والاحتياط بعشر بعدها لما قد ينقص بعض الشهور، ثم لظهور الحركة بعد نفخ الروح فيه، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿فإذا بلغن أجلهن فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن بالمعروف﴾ يستفاد من هذا وجوب الإحداد على المتوفى عنها زوجها مدة عدتها، لما ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تحد على ميت فوق ثلاث إلا على زوج أربعة أشهر وعشراً»، وفي الصحيحين أيضاً عن أم سلمة أن امرأة قالت: يا رسول الله إن ابنتي توفي عنها زوجها وقد اشتكت عينها أفنكحلها؟ فقال: «لا» كل ذلك يقول - لا - مرتين أو ثلاثاً، ثم قال: «إنما هي أربعة أشهر وعشر وقد كانت إحداكن في الجاهلية تمكث سنة» قالت زينب بنت أم سلمة: كانت المرأة إذا توفي عنها زوجها دخلت حفشاً ولبست شر ثيابها، ولم تمس طيباً ولا شيئاً، حتى تمر بها سنة، ثم تخرج فتعطي بعرة فترمي بها ثم تؤتى بدابة حمار أو شاة أو طير فتفتض به فقلما تفتض بشيء إلا مات^(١)، ومن ههنا ذهب كثيرون من العلماء إلى أن هذه الآية ناسخة للآية التي بعدها وهي قوله: ﴿والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً وصية لأزواجهن متاعاً إلى الحول غير إخراج﴾ الآية كما قاله ابن عباس وغيره، وفي هذا نظر كما سيأتي تقريره، والغرض من الإحداد هو عبارة عن ترك الزينة من الطيب، ولبس ما يدعوها إلى الأزواج من ثياب وحلي وغير ذلك، وهو واجب في عدة الوفاة قولاً واحداً، ولا يجب في عدة الرجعية قولاً واحداً، وهل يجب في عدة البائن فيه قولان: ويجب الإحداد على جميع الزوجات المتوفى عنهن أزواجهن، سواء في ذلك الصغيرة، والآيسة، والحرّة، والأمة، والمسلمة، والكافرة، لعموم الآية، وقال أبو حنيفة وأصحابه: لا حداد على الكافرة، وبه يقول أشهب وابن نافع من أصحاب مالك، وحجة قائل هذه المقالة قوله ﷺ: «لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تحد على ميت فوق ثلاث إلا على زوج أربعة أشهر وعشراً»، قالوا: فجعله تعبداً، وألحق أبو حنيفة وأصحابه الصغيرة بها لعدم التكليف، وألحق أبو حنيفة الأمة المسلمة لنقصها، ومحل تقرير ذلك كله في كتب الأحكام والفروع والله الموفق للصواب.

وقوله تعالى: ﴿فإذا بلغن أجلهن﴾ أي انقضت عدتهن ﴿فلا جناح عليكم﴾، قال الزهري: أي على أوليائها ﴿فيما فعلن﴾ يعني النساء اللاتي انقضت عدتهن قال ابن عباس: إذا طلقت المرأة أو مات عنها زوجها فإذا انقضت عدتها، فلا جناح عليها أن تتزين وتتصنع وتعرض للترويج فذلك المعروف. وقد روي عن مقاتل، وقال مجاهد: ﴿بالمعروف﴾ النكاح الحلال الطيب، وهو قول الحسن والزهري، والله أعلم.

(١) أي من تنها والافتضاض مسح الفرج به.

وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ، مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا وَلَا تَزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجْلَهُ، وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ، وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٣٥﴾

يقول تعالى: ﴿ولا جناح عليكم﴾ أن تعرضوا بخطبة النساء في عدتهن، من وفاة أزواجهن من غير تصريح، قال ابن عباس: التعريض أن يقول إني أريد الترويج، وإني أحب امرأة من أمرها ومن أمرها - يُعرض لها بالقول بالمعروف - وفي رواية ووددت أن الله رزقي امرأة. وعن مجاهد عن ابن عباس هو أن يقول: إني أريد الترويج وإن النساء لمن حاجتي، ولوددت أن يسر لي امرأة سالحة^(١). من غير تصريح لها بالخطبة، وهكذا حكم المطلقة المبتوتة يجوز التعريض لها، كما قال النبي ﷺ لفاطمة بنت قيس، حين طلقها زوجها أبو عمرو بن حفص، آخر ثلاث تطليقات، فأمرها أن تعتد في بيت (ابن أم مكتوم) وقال لها: فإذا حلت فأذيني، فلما حلت خطب عليها أسامة بن زيد مولاه فزوجها إياه، فأما المطلقة فلا خلاف في أنه لا يجوز لغير زوجها التصريح بخطبتها ولا التعريض لها، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿أو أكنتم في أنفسكم﴾ أي أضمرتم في أنفسكم من خطبتن، وهذا كقوله تعالى: ﴿وربك يعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون﴾، وكقوله: ﴿وأنا أعلم بما أخفيتن وما أعلنتن﴾، ولهذا قال: ﴿علم الله أنكم ستذكرونهن﴾ أي في أنفسكم فرفع الحرج عنكم في ذلك، ثم قال: ﴿ولكن لا تواعدوهن سرًّا﴾، واختاره ابن جرير، وقال ابن عباس: ﴿ولكن لا تواعدوهن سرًّا﴾ لا تقل لها: إني عاشق، وعاهديني أن لا تتزوجي غيري، ونحو هذا. وكذا روي عن سعيد بن جبير والضحاك، وعن مجاهد هو قول الرجل للمرأة: لا تفوتيني بنفسك فإني ناكحك، فهى الله عن ذلك وشدد فيه وأحل الخطبة والقول بالمعروف، وقال ابن زيد: ﴿ولكن لا تواعدوهن سرًّا﴾ هو أن يتزوجها في العدة سرًّا فإذا حلت أظهر ذلك، وقد يحتمل أن تكون الآية عامة في جميع ذلك ولهذا قال: ﴿إلا أن تقولوا قولاً معروفاً﴾، قال ابن عباس: يعني به ما تقدم من إباحة التعريض كقوله: إني فيك لراغب ونحو ذلك.

وقوله تعالى: ﴿ولا تزموا عقدة النكاح حتى يبلغ الكتاب أجله﴾ يعني ولا تعقدوا العقدة بالنكاح حتى تنقضي العدة. قال ابن عباس: ﴿حتى يبلغ الكتاب أجله﴾ يعني ولا تعقدوا العقد بالنكاح حتى تنقضي العدة، وقد أجمع العلماء على أنه لا يصح العقد في مدة العدة، واختلفوا فيمن تزوج امرأة في عدتها فدخل بها فإنه يفرق بينهما وهل تحرم عليه أبدأ؟ على قولين: الجمهور على أنها لا تحرم عليه بل له أن يخطبها إذا انقضت عدتها، وذهب الإمام مالك إلى أنها تحرم عليه على التأبيد، ومأخذ هذا أن الزوج لما استعجل ما أجل الله، عوقب بنقيض قصده فحرم عليه على التأبيد كالمقاتل يحرم الميراث.

(١) رواه البخاري تعليقاً.

وقوله تعالى: ﴿واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه﴾ توعدهم على ما يقع في ضمايرهم من أمور النساء، وأرشدهم إلى إضمار الخير دون الشر، ثم لم يُؤيِّسهم من رحمته ولم يقنطهم من عائدته فقال: ﴿واعلموا أن الله غفور رحيم﴾.

لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لهنَّ فَرِيضَةٌ وَمَتَّعُوهُنَّ عَلَى الْمَوْسِعِ قَدْرَهُ وَعَلَى الْمُقْتَرِ قَدْرَهُ مَتَّعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾

أباح تبارك وتعالى طلاق المرأة بعد العقد عليها وقبل الدخول بها، قال ابن عباس: المس النكاح، ويجوز أن يطلقها قبل الدخول بها والفرض لها إن كانت مفوضة، وإن كان في هذا انكسار لقلبها، ولهذا أمر تعالى بإمتاعها وهو تعويضها عما فاتها بشيء تعطاه من زوجها، بحسب حاله على الموسع قدره وعلى المقتر قدره، وقال ابن عباس: متعة الطلاق أعلاه الخادم، ودون ذلك الورق، ودون ذلك الكسوة، وقال الشعبي: أوسط ذلك درع وخمار وملحفة وجلباب، ومتع الحسن بن علي بعشرة آلاف، ويروى أن المرأة قالت: (متاع قليل من حبيب مفارق) (١)، وذهب أبو حنيفة إلى أنه متى تنازع الزوجان في مقدار المتعة وجب لها عليه نصف مهر مثلها، وقال الشافعي: لا يجبر الزوج على قدر معلوم إلا على أقل ما يقع عليه اسم المتعة، وأحب ذلك إليّ أن يكون أقله ما تجزئ فيه الصلاة، وقال في القديم: لا أعرف في المتعة قدراً إلا أني أستحسن ثلاثين درهماً كما روي عن ابن عمر رضي الله عنهما، وقد اختلف العلماء أيضاً هل تجب المتعة لكل مطلقة، أو إنما تجب المتعة لغير المدخول بها التي لم يفرض لها؟ على أقوال: (أحدها): أنها تجب المتعة لكل مطلقة لعموم قوله تعالى: ﴿وللمطلقات متاع بالمعروف حقاً على المتقين﴾، ولقوله تعالى: ﴿فتعالين أمتعن وأسرحن سراحاً جميلاً﴾ وقد كن مفروضاً لهن ومدخولاً لهن، وهذا قول سعيد ابن جبير وهو أحد قولي الشافعي.

(والقول الثاني): أنها تجب للمطلقة إذا طلقت قبل المسيس وإن كانت مفروضاً لها لقوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن فما لكم عليهن من عدة تعتدونها فتعوهن وسرحوهن سراحاً جميلاً﴾، قال سعيد بن المسيب: نسخت الآية التي في الأحزاب، الآية التي في البقرة، وقد روى البخاري في صحيحه عن سهل بن سعد وأبي أسيد أنهما قالوا: تزوج رسول الله ﷺ (أميمة بنت شرحبيل)، فلما أدخلت عليه بسط يده إليها فكأنها كرهت ذلك، فأمر أبا أسيد أن يجهزها ويكسوها ثوبين أزرقين.

(والقول الثالث): أن المتعة إنما تجب للمطلقة إذا لم يدخل بها ولم يفرض لها، فإن كان قد دخل بها وجب لها مهر مثلها إذا كانت مفوضة، وإن كان قد فرض لها وطلقها قبل الدخول وجب لها عليه شطره، فإن دخل بها استقر الجميع وكان ذلك عوضاً لها عن المتعة، وإنما المصابة التي لم يفرض لها ولم يدخل بها فهذه التي

(١) سبب فراقه لها أنه لما أصيب عليّ وبويح الحسن بالخلافة قالت له زوجته: لئنك الخلافة، فقال: يقتل عليّ وتظهرين الشمامة؟ إذ هي فأنت طالق ثلاثاً، ثم بعث إليها بالمتعة عشرة آلاف درهم فقالت ذلك. وانظر الجزء الأول من كتابنا (تفسير آيات الأحكام) ص ٣٧٦.

دلت هذه الآية الكريمة على وجوب تمتعها وهذا قول ابن عمر ومجاهد، ومن العلماء من استحباها لكل مطلقة، ممن عدا المفوضة المفارقة قبل الدخول وهذا ليس بمنكور وعليه تحمل آية التخيير في الأحزاب، ولهذا قال تعالى: ﴿على الموسع قدره وعلى المقتر قدره متاعاً بالمعروف حقاً على المحسنين﴾ . وقال تعالى: ﴿وللمطلقات متاع بالمعروف حقاً على المتقين﴾ ومن العلماء من يقول إنها مستحبة مطلقاً .

وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوا الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾

هذه الآية الكريمة تدل على اختصاص المتعة بما دلت عليه الآية الأولى، حيث أوجب في هذه الآية نصف المهر المفروض إذا طلق الزوج قبل الدخول، فإنه لو كان ثم واجب آخر من متعة لبيها، لا سيما وقد قرنها بما قبلها من اختصاص المتعة بتلك الآية، وتشطير الصداق- والحالة هذه- أمر مجمع عليه بين العلماء، لاختلاف بينهم في ذلك فإنه متى كان قد سمي لها صداقاً ثم فارقتها قبل دخوله بها، فإنه يجب لها نصف ما سمي من الصداق، إلا أن عند الثلاثة أنه يجب جميع الصداق إذا خلا بها الزوج وإن لم يدخل بها، وهو مذهب الشافعي في القديم وبه حكم الخلفاء الراشدون، لكن قال ابن عباس: في الرجل يتزوج المرأة فيخلو بها ولا يمسه ثم يطلقها، ليس لها إلا نصف الصداق، لأن الله يقول: ﴿وإن طلقتموهن من قبل تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة فنصف ما فرضتم﴾ قال الشافعي: بهذا أقول وهو ظاهر الكتاب

وقوله تعالى: ﴿إلا أن يعفون﴾ أي النساء عما وجب لها على زوجها فلا يجب لها عليه شيء، قال ابن عباس في قوله ﴿إلا أن يعفون﴾: إلا أن تعفو الثيب فتدع حقها .

وقوله تعالى: ﴿أو يعفو الذي بيده عقدة النكاح﴾ المراد به (الزوج) . عن عيسى بن عاصم قال: سمعت شريحاً يقول: سألتني علي بن أبي طالب عن ﴿الذي بيده عقدة النكاح﴾ فقلت له: هو ولي المرأة، فقال علي: لا، بل هو الزوج، وهذا هو الجديد من قول الشافعي، ومذهب أبي حنيفة وأصحابه واختاره ابن جرير، ومأخذ هذا القول أن الذي بيده عقدة النكاح حقيقة الزوج فإن بيده عقدها وإبرامها، ونقضها وانهدامها، وكما أنه لا يجوز للولي أن يهب شيئاً من مال المولية للغير، فكذلك في الصداق. الوجه الثاني أنه أبوها أو أخوها أو من لا تنكح إلا باذنه . وروي عن الحسن وعطاء وطاووس: أنه (الولي) وهذا مذهب مالك وقول الشافعي في القديم، ومأخذه أن الولي هو الذي أكسبها إياه، فله التصرف فيه بخلاف سائر مالها، وقال عكرمة: أذن الله في العفو وأمر به، فأبي امرأة عفت جاز عفوها .

وقوله تعالى: ﴿وأن تعفوا أقرب للتقوى﴾ خوطب به الرجال والنساء، قال ابن عباس: أقربهما للتقوى الذي يعفو، ﴿ولا تنسوا الفضل بينكم﴾ المعروف يعني لا تهملوه بل استعملوه بينكم، عن علي بن أبي طالب أن رسول الله ﷺ قال: «ليأتين على الناس زمان عضوض بعض المؤمن على ما في يديه وينسى الفضل وقد قال الله تعالى:

﴿ولا تنسوا الفضل بينكم﴾ « شرار يبايعون كل مضطر »^(١) ، وقد نهى رسول الله ﷺ عن بيع المضطر وعن بيع الغرر فان كان عندك خير فعد به على أخيك ولا ترده هلاكاً إلى هلاكه ، فإن المسلم أخو المسلم لا يحزنه ولا يحرمه ، ﴿إن الله بما تعملون بصير﴾ أي لا يخفى عليه شيء من أموركم وأحوالكم وسيجزى كل عامل بعمله .

حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوَسْطَىٰ وَقَوْمُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَأَدْكُوا لِلَّهِ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾

يأمر تعالى بالمحافظة على الصلوات في أوقاتها، وحفظ حدودها وأدائها في أوقاتها، كما ثبت في الصحيحين عن ابن مسعود قال : سألت رسول الله ﷺ : أي العمل أفضل ؟ قال : « الصلاة في وقتها » ، قلت : ثم أي ؟ قال : « الجهاد في سبيل الله » ، قلت : ثم أي ؟ قال : « بر الوالدين » ، وفي الحديث : « إن أحب الأعمال إلى الله تعجيل الصلاة لأول وقتها »^(٢) . وخص تعالى من بينها بمزيد التأكيد (الصلاة الوسطى) وقد اختلف السلف والخلف فيها أي صلاة هي ؟ فقيل : (الصبح) حكاه مالك لما روي عن ابن عباس أنه صلى الغداة في مسجد البصرة فقنت قبل الركوع وقال : هذه الصلاة الوسطى التي ذكرها الله في كتابه فقال : ﴿ حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين ﴾ ، وهو الذي نص عليه الشافعي رحمه الله محتجاً بقوله تعالى : ﴿ وقوموا لله قانتين ﴾ والقنوت عنده في صلاة الصبح ، ومنهم من قال : هي وسطى باعتبار أنها لا تقصر وهي بين صلاتين رباعيتين مقصورتين وقيل : إنها (صلاة الظهر) . روي عن زيد بن ثابت قال : كان رسول الله ﷺ يصلي الظهر بالهجرة ولم يكن يصلي صلاة أشد على أصحاب رسول الله ﷺ منها فتزلت : ﴿ حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين ﴾ ، وقيل : إنها (صلاة العصر) وهو قول أكثر علماء الصحابة وجمهور التابعين .

قال الإمام أحمد بسنده عن علي قال : قال رسول الله ﷺ يوم الأحزاب : « شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر ملأ الله قلوبهم وبيوتهم ناراً » ثم صلاها بين العشاءين المغرب والعشاء^(٣) . ويؤكد ذلك الأمر بالمحافظة عليها قوله ﷺ في الحديث الصحيح : « من فاتته صلاة العصر فكأنما وتر أهلها وماله » ، وفي الصحيح أيضاً عن النبي ﷺ قال : « بكروا بالصلاة في يوم الغيم فإنه من ترك صلاة العصر فقد حبط عمله » . وعن أبي يونس مولى عائشة قال : أمرتني عائشة أن أكتب لها مصحفاً قالت : إذا بلغت هذه الآية ﴿ حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى ﴾ فأذني ، فلما بلغت أذنتها ، فأملت علي : ﴿ حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وصلاة العصر وقوموا لله قانتين ﴾ قالت : سمعتها من رسول الله ﷺ^(٤) . وقيل : إن الصلاة الوسطى هي صلاة المغرب .

وقيل : بل الصلاة الوسطى مجموع الصلوات الخمس . وكل هذه الأقوال فيها ضعف بالنسبة إلى التي قبلها ، وقد ثبتت السنة بأنها العصر فتعين المصير إليها .

(١) رواه أحمد وأبو داود والترمذي . (٢) رواه أحمد وأبو داود والترمذي . (٣) رواه أحمد واللفظ له وأخرجه مسلم في صحيحه .

(٤) رواه أحمد وأخرجه الشيخان وأبو داود والترمذي .

وقوله تعالى: ﴿وقوموا لله قانتين﴾ أي خاشعين ذليلين مستكينين بين يديه، وهذا الأمر مستلزم ترك الكلام في الصلاة لمنافاته إياها، ولهذا لما امتنع النبي ﷺ من الرد على (ابن مسعود) حين سلم عليه وهو في الصلاة قال: «إن في الصلاة لشغلاً»، وفي صحيح مسلم: «إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس إنما هي التسبيح والتكبير وذكر الله». وقال الإمام أحمد بن حنبل عن زيد بن أرقم قال: كان الرجل يكلم صاحبه في عهد النبي ﷺ في الحاجة في الصلاة حتى نزلت هذه الآية: ﴿وقوموا لله قانتين﴾ فأمرنا بالسكوت^(١).

وقوله تعالى: ﴿فإن خفتم فرجالاً أو ركبناً فإذا أمتم فاذكروا الله كما علمكم ما لم تكونوا تعلمون﴾ لما أمر تعالى عباده بالمحافظة على الصلوات والقيام بحدودها، وشدد الأمر بتأكيدا ذكر الحال الذي يشتغل الشخص فيها عن أدائها على الوجه الأكمل، وهي حال القتال والتحام الحرب فقال: ﴿فإن خفتم فرجالاً أو ركبناً﴾ أي فصلوا على أي حال كان رجالاً أو ركبناً يعني مستقبلي القبلة وغير مستقبليها، كما قال مالك عن ابن عمر كان إذا سئل عن صلاة الخوف وصفها ثم قال: فإن كان خوف أشد من ذلك صلوا رجالاً على أقدامهم أو ركبناً مستقبلي القبلة أو غير مستقبليها. قال نافع: لا أرى ابن عمر ذكر ذلك إلا عن النبي ﷺ، وهذا من رخص الله التي رخص لعباده ووضع الآصار والأغلال عنهم، وقد روي عن ابن عباس قال: في هذه الآية يصلي الراكب على دابته والراجل على رجليه. وقد ذهب الإمام أحمد فيما نص عليه إلى أن صلاة الخوف تفعل في بعض الأحيان ركعة واحدة إذا تلاحم الجيشان، وعلى ذلك ينزل الحديث الذي رواه مسلم عن ابن عباس قال: فرض الله الصلاة على لسان نبيكم ﷺ في الحضر أربعاً، وفي السفر ركعتين، وفي الخوف ركعة، واختار هذا القول ابن جرير، وقال البخاري: (باب الصلاة عند مناهضة الحصون ولقاء العدو)، وقال الأوزاعي: إن كان تهباً الفتح ولم يقدروا على الصلاة صلوا أيماء كل امرئ لنفسه فإن لم يقدروا على الإيماء أخوا الصلاة حتى ينكشف القتال ويأمنوا فيصلوا ركعتين، فإن لم يقدروا صلوا ركعة وسجدتين، فإن لم يقدروا لا يجزيهم التكبير ويؤخرونها حتى يأمنوا، وقال أنس ابن مالك: حضرت مناهضة (حصن تستر) عند إضاءة الفجر. واشتد اشتعال القتال فلم يقدروا على الصلاة، فلم نصل إلا بعد ارتفاع النهار فصليناها ونحن مع أبي موسى ففتح لنا، قال أنس: وما يسرني بتلك الصلاة الدنيا وما فيها. وهذا يدل على اختيار البخاري لهذا القول، والجمهور على خلافه ويعولون على أن صلاة الخوف على الصفة التي ورد بها القرآن في سورة النساء. والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿فإذا أمتم فاذكروا الله﴾ أي أقيموا صلاتكم كما أمرتم فأتوا ركوعها وسجودها، وقيامها وعودها وخشوعها وهجودها ﴿كما علمكم ما لم تكونوا تعلمون﴾ أي مثل ما أنعم عليكم وهداكم للإيمان، وعلمكم ما ينفعكم في الدنيا والآخرة، فقابلوه بالشكر والذكر، كقوله بعد ذكر صلاة الخوف: ﴿فإذا اطأنتم فأقيموا الصلاة إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً﴾، وستأتي الأحاديث الواردة في صلاة الخوف وصفاتها في سورة النساء عند قوله تعالى: ﴿وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة﴾ الآية إن شاء الله تعالى.

(١) رواه الجماعة سوى ابن ماجه.

وَالَّذِينَ يَتُوفُونَ مِنْكُمْ وَيَذُرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَّعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرِ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٤٠﴾ وَالْمُطَلَّقَاتُ مَتَّعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾

قال الأَكثَرُونَ: هذه الآية منسوخة بالتي قبلها، وهي قوله: ﴿يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾. قال البخاري، قال ابن الزبير: قلت لعثمان بن عفان: ﴿والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً﴾ قد نسختها الآية الأخرى فلم تكتبها أو تدعها؟ قال: يا ابن أخي لا أُغَيِّرُ شيئاً منه من مكانه، ومعنى هذا الإشكال الذي قاله ابن الزبير لعثمان إذا كان حكمها قد نسخ بالأربعة الأشهر فما الحكمة في إبقاء رسمها مع زوال حكمها، وبقاء رسمها بعد التي نسختها يوم بقاء حكمها؟ فأجابه أمير المؤمنين بأن هذا أمر توقيفي وأنا وجدتها مثبتة في المصحف كذلك بعدها فأثبتها حيث وجدتها.

وروي عن ابن عباس قال: كان الرجل إذا مات وترك امرأته اعتدت سنة في بيته ينفق عليها من ماله ثم أنزل الله بعد: ﴿والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشراً﴾، فهذه عدة المتوفى عنها زوجها إلا أن تكون حاملاً فعدتها أن تضع ما في بطنها، وقال: ﴿ولهن الربع مما تركتم إن لم يكن لكم ولد، فإن كان لكم ولد فلهن الثمن مما تركتم﴾، فبين ميراث المرأة وترك الوصية والنفقة.

وقال عطاء، قال ابن عباس: نسخت هذه الآية عدتها عند أهلها فتعدت حيث شاءت وهو قول الله تعالى: ﴿غير إخراج﴾، قال عطاء: إن شاءت اعتدت عند أهلها وسكنت في وصيتها وإن شاءت خرجت لقول الله: ﴿فلا جناح عليكم فيما فعلن﴾، قال عطاء: ثم جاء الميراث فنسخ السكنى فتعدت حيث شاءت ولا سكنى لها، ثم أسند البخاري عن ابن عباس مثل ما تقدم عنه بهذا القول الذي عول عليه مجاهد وعطاء من أن هذه الآية لم تدل على وجوب الاعتداد سنة كما زعمه الجمهور حتى يكون ذلك منسوخاً بالأربعة الأشهر وعشر وإنما دلت على أن ذلك كان من باب الوصاية بالزوجات أن يُمكنَّ من السكنى في بيوت أزواجهن بعد وفاتهم حولاً كاملاً إن اخترن ذلك ولهذا قال تعالى: ﴿وصية لأزواجهم﴾ أي يوصيكم الله بهن وصية كقوله: ﴿يوصيكم الله في أولادكم﴾ الآية. ﴿غير إخراج﴾ فأما إذا انقضت عدتهن بالأربعة أشهر والعشر أو بوضع الحمل واخترن الخروج والانتقال من ذلك المنزل فإنهن لا يمتنعن من ذلك لقوله: ﴿فإن خرجن فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن من معروف﴾، وهذا القول له اتجاه وفي اللفظ مساعدة له وقد اختاره جماعة منهم الإمام ابن تيمية، ورده آخرون منهم الشيخ ابن عبد البر، وقول عطاء ومن تابعه على أن ذلك منسوخ بآية الميراث إن أرادوا ما زاد على الأربعة أشهر والعشر فسلم، وإن أرادوا أن سكنى الأربعة أشهر وعشر لا يجب في تركة الميت، فهذا محل خلاف بين الأئمة وهما قولان للشافعي رحمه الله.

وقد استدلوا على وجوب السكنى في منزل الزوج بما رواه مالك في موطنه أن (الفريضة بنت مالك بن سنان)

وهي أخت أبي سعيد الخدري رضي الله عنهما أخبرتها أنها جاءت إلى رسول الله ﷺ تسأله أن ترجع إلى أهلها في بني خديرة فإن زوجها خرج في طلب أعبد له أبقوا حتى إذا كان بطرف القلوم لحقهم فقتلوه قالت: فسألت رسول الله ﷺ أن أرجع إلى أهلي في بني خديرة فإن زوجي لم يتركني في مسكن يملكه ولا نفقة، قالت: فقال رسول الله ﷺ: «نعم»، قالت: فانصرفت حتى إذا كنت في الحجرة ناداني رسول الله ﷺ أو أمر بي فنوديت له، فقال: «كيف قلت؟» فرددت عليه القصة التي ذكرت له من شأن زوجي، فقال: «امكثي في بيتك حتى يبلغ الكتاب أجله»، قالت: فاعتددت فيه أربعة أشهر وعشراً، قالت: فلما كان (عثمان بن عفان) أرسل إليّ فسألني عن ذلك فأخبرته فاتبعه وقضى به^(١).

وقوله تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّقاتُ مَتاعٌ بِالْمَعروفِ حَقاً عَلَى الْمُتقين﴾، لما نزل قوله تعالى: ﴿مَتاعاً بِالْمَعروفِ حَقاً عَلَى الْمُحْسِنين﴾ قال رجل: إن شئت أحسنت ففعلت وإن شئت لم أفعل فأنزل الله هذه الآية: ﴿وَالْمُطَلَّقاتُ مَتاعٌ بِالْمَعروفِ حَقاً عَلَى الْمُتقين﴾ وقد استدل بهذه الآية من ذهب من العلماء إلى وجوب المتعة لكل مطلقة، سواء كانت مفوضة أو مفروضاً لها، أو مطلقة قبل المسيس، أو مدخولاً بها، وهو قول عن الشافعي رحمه الله، واختاره ابن جرير ومن لم يوجبها مطلقاً يخصص من هذا العموم مفهوم قوله تعالى: ﴿لا جناح عليكم إن طلقتم النساء ما لم تمسوهن أو تفرضوا لهن فريضة ومتوهن على الموسع قدره وعلى المقتر قدره متاعاً بِالْمَعروفِ حَقاً عَلَى الْمُحْسِنين﴾.

وقوله تعالى: ﴿كذلك يبين الله لكم آياته﴾ أي في إحلاله وتحريمه وفروضه وحدوده فيما أمركم به ونهاكم عنه، بيّنه ووضحه وفسّره، ولم يتركه مجملاً في وقت احتياجكم إليه، ﴿لعلكم تعقلون﴾ أي تفهمون وتتدبرون.

* أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾ وَقَتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾ مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضْعِفُهُ لَهُ أِضعافاً كَثيرةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصِطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾

روي عن ابن عباس أنهم كانوا أربعة آلاف وعنه كانوا ثمانية آلاف، وقال وهب بن منبه: كانوا بضعة وثلاثين ألفاً، قال ابن عباس: كانوا أربعة آلاف خرجوا فراراً من الطاعون، قالوا: نأتي أرضاً ليس بها موت، حتى إذا كانوا بموضع كذا وكذا قال الله لهم: ﴿موتوا﴾ فماتوا، فرّ عليهم نبي من الأنبياء فدعا ربه أن يحييهم فأحياهم فذلك قوله عز وجل: ﴿ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ﴾ الآية، وذكر غير واحد من السلف أن هؤلاء القوم كانوا أهل بلدة في زمان بني إسرائيل استوخموا أرضهم، وأصابهم بها وباء شديد فخرجوا فراراً من الموت هاربين إلى البرية، فزلوا وادياً أفيح ففلأوا ما بين عدوتيه، فأرسل الله إليهم ملكين أحدهما

(١) رواه مالك وأبو داود والترمذي والنسائي، وقال الترمذي: حسن صحيح.

من أسفل الوادي، والآخر من أعلاه، فصاحا بهم صبيحة واحدة فاتوا عن آخرهم موة رجل واحد فحيزوا إلى حظائر وبني عليهم جدران، وفنوا وتمزقوا وتفرقوا، فلما كان بعد دهر مرّ بهم نبي من أنبياء بني إسرائيل يقال له (حزقيل) فسأل الله أن يحييهم على يديه فأجابه إلى ذلك وأمره أن يقول: أيتها العظام البالية إن الله يأمرك أن تجتمعي، فاجتمع عظام كل جسد بعضها إلى بعض، ثم أمره فنأدى: أيتها العظام إن الله يأمرك أن تكتسي لحمًا وعصبًا وجلدًا، فكان ذلك وهو يشاهد، ثم أمره فنأدى: أيتها الأرواح إن الله يأمرك أن ترجع كل روح إلى الجسد الذي كانت تعمه، فقاموا أحياء ينظرون، قد أحياهم الله بعد رقدتهم الطويلة وهم يقولون: سبحانك لا إله إلا أنت. وكان في إحيائهم **عبرة** ودليل قاطع على وقوع المعاد الجسماني يوم القيامة ولهذا قال: ﴿إن الله لذو فضل على الناس﴾ أي فيما يريهم من الآيات الباهرة والحجج القاطعة والدلالات الدامغة ﴿ولكن أكثر الناس لا يشكرون﴾ أي لا يقومون بشكر ما أنعم الله به عليهم في دينهم ودنياهم.

وفي هذه القصة عبرة ودليل على أنه لن يغني حذر من قدر، وأنه لا ملجأ من الله إلا إليه، فإن هؤلاء خرجوا فراراً من الوباء طلباً لطول الحياة، فعملوا بنقيض قصدهم وجاءهم الموت سريعاً في آن واحد، وقوله: ﴿وقاتلوا في سبيل الله واعلموا أن الله سميع عليم﴾ أي كما أن الحذر لا يغني من القدر، كذلك الفرار من الجهاد ومحبه لا يقرب أجلاً ولا يبعده، بل الأجل المحتوم والرزق المقسوم مقدر لا يزداد فيه ولا ينقص منه كما قال تعالى: ﴿قل فادروا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين﴾، وقال تعالى: ﴿أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة﴾، وروينا عن أمير الجيوش وسيف الله المسلول على أعدائه خالد بن الوليد رضي الله عنه أنه قال وهو في سياق الموت: (لقد شهدت كذا وكذا موقفاً وما من عضو من أعضائي إلا وفيه رمية أو طعنة أو ضربة) وها أنا ذا أموت على فراشي كما يموت العير فلا نامت أعين الجبناء) يعني أنه يتألم لكونه ما مات قتيلًا في الحرب، ويتأسف على ذلك ويتألم أن يموت على فراشه.

وقوله تعالى: ﴿من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة﴾ يحث تعالى عباده على الانفاق في سبيل الله، وقد كرر تعالى هذه الآية في كتابه العزيز في غير موضع، وفي حديث التزول أنه يقول تعالى: «من يقرض غير عديم ولا ظلم»، وعن عبد الله بن مسعود قال: لما نزلت ﴿من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له﴾ قال أبو الدحداح الأنصاري: يا رسول الله وإن الله عز وجل يريد منا القرض؟ قال: «نعم يا أبا الدحداح» قال: أرني يدك يا رسول الله! قال، فناوله يده قال: فإني قد أقرضت ربي عز وجل حائطي - قال: وحائطي له فيه ستمائة نخلة وأم الدحداح فيه وعيالها - قال: فجاء أبو الدحداح فناداها: يا أم الدحداح، قالت: لبيك، قال: اخرجي فقد أقرضته ربي عز وجل^(١). وقوله: ﴿قرضاً حسناً﴾ روي عن عمر وغيره من السلف هو **النفقة في سبيل** الله، وقيل: هو **النفقة على العيال**، وقيل: هو **التسبيح والتقديس** وقوله: ﴿فيضاعفه له أضعافاً كثيرة﴾ كما قال تعالى: ﴿مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبئت سبع سنابل في كل سنبله مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء﴾ الآية، وسيأتي الكلام عليها. وعن ابن عمر قال لما نزلت: ﴿مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله

(١) رواه ابن أبي حاتم وأخرجه ابن مردويه عن عمر مرفوعاً بنحوه.

كمثل حبة أنبت سبع سنابل ﴿ إلى آخرها فقال رسول الله ﷺ : « رب زد أمي » ، فتزلت : ﴿ من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة ﴾ ، قال : « رب زد أمي » ، فتزلت : ﴿ إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب ﴾ (١) ، فالكثير من الله لا يحصى ، وقوله : ﴿ والله يقبض ويبسط ﴾ أي أنفقوا ولا تبالوا فالله هو الرزاق يضيّق على من يشاء من عباده في الرزق ويوسع على آخرين ، له الحكمة البالغة في ذلك ﴿ وإليه ترجعون ﴾ أي يوم القيامة .

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ جَاءَهُمْ رَسُولٌ فَقَالُوا إِنَّا نَسِيبُكَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُنْتُمْ عَلَيَّ كَالْقِتَالِ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلاً مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٢٤٦﴾

قال وهب بن منبه وغيره : كان بنو إسرائيل بعد موسى عليه السلام على طريق الاستقامة مدة من الزمان ، ثم أحدثوا الأحداث وعبد بعضهم الأصنام ، ولم يزل بين أظهرهم من الأنبياء من يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، ويقيمهم على منهج التوراة إلى أن فعلوا ما فعلوا فسلط الله عليهم أعداءهم ، فقتلوا منهم مقتلة عظيمة وأسروا خلقاً كثيراً وأخذوا منهم بلاداً كثيرة ، ولم يكن أحد يقاتلهم إلا غلبوه ، وذلك أنهم كان عندهم التوراة والتسابوت الذي كان في قديم الزمان ، وكان ذلك موروثاً لخلفهم عن سلفهم إلى موسى الكليم عليه الصلاة والسلام ، فلم يزل بهم تماديهم على الضلال حتى استلبه منهم بعض الملوك في بعض الحروب ، وأخذ التوراة من أيديهم ولم يبق من يحفظها فيهم إلا القليل ، وانقطعت النبوة من أسباطهم ولم يبق من سبط (لاوي) الذي يكون فيه الأنبياء إلا امرأة حامل من بعلها ، وقد قتل فأخذوها فحسبوها في بيت واحتفظوا بها لعل الله يرزقها غلاماً يكون نبياً لهم ، ولم تزل المرأة تدعو الله عز وجل أن يرزقها غلاماً فسمع الله لها ووهبها غلاماً فسمته (شمويل) أي سمع الله دعائي ومنهم من يقول (شمعون) (٢) وهو بمعناه فشب ذلك الغلام ونشأ فيهم وأنبته الله نبياً حسناً ، فلما بلغ سن الأنبياء أوحى الله إليه وأمره بالدعوة إليه وتوحيده ، فدعا بني إسرائيل فطلبوا منه أن يقيم لهم ملكاً يقاتلون معه أعداءهم ، وكان الملك أيضاً قد باد فيهم فقال لهم النبي : فهل عسيتم إن أقام الله لكم ملكاً ألا تقاتلوا وتفروا بما التزمت من القتال معه ؟ ﴿ قالوا وما لنا ألا نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا ﴾ أي وقد أخذت منا البلاد وسبيت الأولاد ! قال الله تعالى : ﴿ فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلاً منهم والله عليم بالظالمين ﴾ أي ما وفوا بما وعدوا بل نكل عن الجهاد أكثرهم والله عليم بهم .

(١) رواه ابن حاتم عن نافع عن ابن عمر .

(٢) روي عن قتادة أن النبي هو (يوشع بن نون) قال ابن كثير : هو بعيد لأن هذا كان بعد موسى بزمان طويل ، وكان ذلك في زمن (داود) عليه السلام ، وقد كان بين (داود) و (موسى) ما يزيد على ألف سنة ، وروي عن السدي أنه (شمويل) ، وقال مجاهد : هو (شمعون) والله أعلم .

وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَرَّ يُوتُ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾

أي لما طلبوا من نبيهم أن يعين لهم ملكاً منهم فعين لهم (طالوت) وكان رجلاً من أجنادهم ولم يكن من بيت الملك فيهم لأن الملك كان في سبط (يهوذا) ولم يكن هذا من ذلك السبط فلماذا قالوا: ﴿أنى يكون له الملك علينا؟﴾ أي كيف يكون ملكاً علينا ﴿ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال﴾ أي هو مع هذا فقير لا مال له يقوم بالملك، وقد ذكر بعضهم أنه كان سقاء، وقيل: دباغاً وهذا اعتراض منهم على نبيهم وتعنت، وكان الأولى بهم طاعة وقول معروف، ثم قد أجابهم النبي قائلاً: ﴿إن الله اصطفاه عليكم﴾ أي اختاره لكم من بينكم والله أعلم به منكم، يقول: لست أنا الذي عينته من تلقاء نفسي بل الله أمرني به لما طلبتم مني ذلك ﴿وزاده بسطة في العلم والجسم﴾ أي وهو مع هذا أعلم منكم وأنبى وأشكل منكم، وأشد قوة وصبراً في الحرب ومعرفة بها، أي أتم علماً وقامة منكم، ﴿ومن ههنا ينبغي أن يكون الملك ذا علم وشكل حسن وقوة شديدة في بدنه ونفسه ثم قال:﴾ والله يؤتي ملكه من يشاء ﴿أي هو الحاكم الذي ما شاء فعل ولا يسأل عما فعل وهم يسألون، لعلمه وحكمته ورأفته بخلقه ولهذا قال:﴾ والله واسع عليم ﴿أي هو واسع الفضل يختص برحمته من يشاء، علم بمن يستحق الملك ممن لا يستحقه .

وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُمُ إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾

يقول لهم نبيهم: إن علامة بركة ملك طالوت عليكم أن يرد الله عليكم التابوت الذي كان أخذ منكم ﴿فيه سكينة من ربكم﴾، قيل: معناه فيه وقار وجلالة، وقال الربيع: رحمة، وقال ابن جريج: سألت عطاء عن قوله: ﴿فيه سكينة من ربكم﴾ قال: ما تعرفون من آيات الله فتسكنون إليه وكذا قال الحسن البصري .

وقوله تعالى: ﴿وبقية مما ترك آل موسى وآل هرون﴾، عن ابن عباس قال: عصاه ورضاض الألواح، وكذا قال قتادة والسدي، وقال عطية بن سعد: عصا موسى وعصا هارون وثياب موسى وثياب هارون ورضاض الألواح، وقال عبد الرزاق: سألت الثوري عن قوله: ﴿وبقية مما ترك آل موسى وآل هرون﴾ فقال: منهم من يقول قفيز من من ورضاض الألواح، ومنهم من يقول العصا والنعلان .

وقوله تعالى: ﴿تحمله الملائكة﴾، قال ابن عباس: جاءت الملائكة تحمل التابوت بين السماء والأرض حتى وضعته بين يدي طالوت والناس ينظرون، وقال السدي: أصبح التابوت في دار طالوت فأمنوا بنبوة شمعون وأطاعوا طالوت .

وقوله تعالى: ﴿إِن فِي ذَلِكَ لآيَةٌ لِّكُمْ﴾ أي على صدقي فيما جتتكم به من النبوة، وفيما أمرتكم به من طاعة طالوت ﴿إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي بالله واليوم الآخر .

فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ ۗ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ ۗ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلْقُوا اللَّهَ كَمِ مِّنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٢٤٩﴾

يخبر الله تعالى عن (طالوت) ملك بني إسرائيل ، حين خرج في جنوده ومن أطاعه من ملأ بني إسرائيل ، وكان جيشه يومئذ - فيما ذكره السدي - ثمانين ألفاً فالله أعلم أنه قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ﴾ أي مختبركم بنهر ، وهو نهر بين الأردن وفلسطين ، يعني نهر الشريعة المشهور ﴿فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي﴾ أي فلا يصحني اليوم في هذا الوجه ، ﴿وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ﴾ أي فلا بأس عليه ، قال الله تعالى: ﴿فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ﴾ ، قال ابن عباس: من اغترف منه بيده روي ، ومن شرب منه لم يرو ، فشرب منه ستة وسبعون ألفاً وتبقى معه أربعة آلاف^(١) . وروي البراء بن عازب قال: كنا نتحدث أن أصحاب محمد ﷺ الذين كانوا يوم بدر ثلاثمائة وبضعة عشر على عدة أصحاب طالوت الذين جازوا معه النهر وما جازه معه إلا مؤمن ، ورواه البخاري عن عبدالله بن رجاء عن إسرائيل بن يونس عن أبي إسحاق عن جده عن البراء بنحوه ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾ أي استقلوا أنفسهم عن لقاء عدوهم لكثرتهم ، فشجعهم علماءهم العالمون بأن وعد الله حق ، فإن النصر من عند الله ليس عن كثرة عدد ولا عدد ، ولهذا قالوا: ﴿كَمِ مِّنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ .

وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٥٠﴾
فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَءَاتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٢٥١﴾ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ ۗ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾

أي لما واجه حزب الإيمان - وهم قليل من أصحاب طالوت - لعدوهم أصحاب جالوت وهم عدد كثير ﴿قالوا

ربنا أفرغ علينا صبراً ﴿٢٥٣﴾ أي أنزل علينا صبراً من عندك، ﴿وثبت أقدامنا﴾ أي في لقاء الاعداء وجنبنا الفرار والعجز ﴿وانصرنا على القوم الكافرين﴾ .

قال الله تعالى: ﴿فهزموهم بإذن الله﴾ أي غلبوهم وقهروهم بنصر الله لهم ﴿وقتل داود جالوت﴾ وكان طالوت قد وعده إن قتل جالوت أن يزوجه ابنته، ويشاطره نعمته، ويشركه في أمره، فوفى له ثم آل الملك إلى داود عليه السلام مع ما منحه الله به من النبوة العظيمة، ولهذا قال تعالى: ﴿وأتاه الله الملك﴾ الذي كان بيد طالوت، ﴿والحكمة﴾ أي النبوة بعد شمويل، ﴿وعلمه مما يشاء﴾ أي مما يشاء الله من العلم الذي اختصه به ﷺ، ثم قال تعالى: ﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض﴾، أي لولا أن الله يدفع عن قوم بآخرين، كما دفع عن بني إسرائيل بمقاتلة طالوت وشجاعة داود لهلكوا، كما قال تعالى: ﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً﴾ الآية. وعن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله ليدفع بالمسلم الصالح عن مائة أهل بيت من جيرانه البلاء»، ثم قرأ ابن عمر: ﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض﴾^(١). وعن عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله ﷺ: «الأبدال في أمتي ثلاثون: بهم ترزقون وبهم تمطرون وبهم تنصرون»^(٢)، قال قتادة: إني لأرجو أن يكون الحسن منهم. وقوله تعالى: ﴿ولكن الله ذو فضل على العالمين﴾ أي ذو من عليهم ورحمة بهم، يدفع عنهم ببعضهم بعضاً، وله الحكم والحكمة والحجة على خلقه في جميع أفعاله وأقواله.

ثم قال تعالى: ﴿تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وإنك لمن المرسلين﴾ أي هذه آيات الله التي قصصناها عليك من أمر الذين ذكرناهم بالحق، أي بالواقع الذي كان عليه الأمر المطابق لما بأيدي أهل الكتاب من الحق، الذي يعلمه علماء بني إسرائيل ﴿وإنك﴾ يا محمد ﴿لمن المرسلين﴾، وهذا تأكيد وتوطئة للقسم.

* تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَعَآئِنَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ الْبَيْنَتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلْنَا الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ أَخْتَلَفُوا فَهُمْ مِّنْ ءَامِنٍ وَمِنْهُمْ مَّنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلْتُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٤﴾

يخبر تعالى أنه فضل بعض الرسل على بعض كما قال تعالى: ﴿ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض وآتينا داود زبوراً﴾، وقال ههنا: ﴿تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله﴾ يعني موسى ومحمداً صلى الله عليهما وكذلك آدم كما ورد به حديث الإسراء حين رأى النبي ﷺ الأنبياء في السماوات بحسب تفاوت منازلهم عند الله عز وجل (فإن قيل) فما الجمع بين هذه الآية وبين الحديث الثابت في الصحيحين: «لا تفضلوني على

(١) أخرجه ابن جرير وقال ابن كثير: إسناده ضعيف.

(٢) أخرجه ابن مردويه عن عبادة بن الصامت مرفوعاً.

الأنبياء فإن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق فأجد موسى باطشاً بقائمة العرش فلا أدري أفأق قبل أم جوزي بصعقة الطور؟ فلا تفضلوني على الأنبياء^(١)، وفي رواية: «لا تفضلوا بين الأنبياء»، فالجواب من وجوه، (أحدها) : أن هذا كان قبل أن يعلم بالفضل وفي هذا نظر، (الثاني) : أن هذا قاله من باب الهضم والتواضع، (الثالث) : أن هذا نهي عن التفضيل في مثل هذه الحال التي تحاكموا فيها عند الخصام والتشاجر، (الرابع) : لا تفضلوا بمجرد الآراء والعصبية، (الخامس) : ليس مقام التفضيل إليكم وإنما هو إلى الله عز وجل وعليكم الانقياد والتسليم له والإيمان به .

وقوله تعالى: ﴿وآتينا عيسى ابن مريم البينات﴾ أي الحجج والدلائل القاطعات على صحة ما جاء بني إسرائيل به من أنه عبدالله ورسوله إليهم ﴿وأيدناه بروح القدس﴾ يعني أن الله أيده بجبريل عليه السلام، ثم قال تعالى: ﴿ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم من بعد ما جاءتهم البينات ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر ولو شاء الله ما اقتتلوا﴾ أي كل ذلك عن قضاء الله وقدره، ولهذا قال: ﴿ولكن الله يفعل ما يريد﴾ .

يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خُلَّةَ وَلَا شَفْعَةً ۗ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٥٤﴾

يأمر تعالى عباده بالإنفاق مما رزقهم في سبيله سبيل الخير، ليدخروا ثواب ذلك عند ربهم ومليكمهم، وليبادروا إلى ذلك في هذه الحياة الدنيا ﴿من قبل أن يأتي يوم﴾ يعني يوم القيامة ﴿لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة﴾ أي لا يباع أحد من نفسه ولا يفادى بمال ولو بذله، ولو جاء بملء الأرض ذهباً، ولا تنفعه خلة أحد يعني صداقته بل ولا نسابته كما قال: ﴿فاذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون﴾ ولا شفاعة: أي ولا تنفعهم شفاعة الشافعين .

وقوله تعالى: ﴿والكافرون هم الظالمون﴾ مبتدأ محصور في خبره، أي ولا ظالم أظلم ممن وافى الله يومئذ كافراً. وقد روي عن عطاء بن دينار أنه قال: الحمد لله الذي قال: ﴿والكافرون هم الظالمون﴾ ولم يقل والظالمون هم الكافرون .

اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِنْدِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾

(١) الحديث رواه الشيخان عن أبي هريرة بلفظ: استب رجل من المسلمين ورجل من اليهود فقال اليهودي: لا والذي اصطفى موسى على العالمين، فرفع المسلم يده فطمم بها وجه اليهودي... الخ .

هذه آية الكرسي ولها شأن عظيم، وقد صح الحديث عن رسول الله ﷺ بأنها أفضل آية في كتاب الله. قال الإمام أحمد: عن أبي بن كعب أن النبي ﷺ سأله: «أي آية في كتاب الله أعظم؟» قال: الله ورسوله أعلم، فرددها مراراً، ثم قال: آية الكرسي، قال: «ليهنك العلم أبا المنذر! والذي نفسي بيده إن لها لساناً وشفعتين، تقدس الملك عند ساق العرش.»

(حديث آخر) : عن أنس أن رسول الله ﷺ سأل رجلاً من صحابته فقال: «أي فلان هل تزوجت؟» قال: لا، وليس عندي ما أتزوج به، قال: «أوليس معك: قل هو الله أحد؟» قال: بلى، قال: «ربع القرآن» قال: «أليس معك: قل أيها الكافرون؟» قال: بلى، قال: «ربع القرآن» قال: «أليس معك: إذا زلزلت؟» قال: بلى، قال: «ربع القرآن»، قال: «أليس معك: إذا جاء نصر الله؟» قال: بلى، قال: «ربع القرآن» قال: «أليس معك آية الكرسي: الله لا إله إلا هو؟» قال: بلى، قال: «ربع القرآن».

(حديث آخر) : عن أبي ذر رضي الله عنه قال: أتيت النبي ﷺ وهو في المسجد فجلست فقال: «يا أبا ذر هل صليت؟» قلت: لا، قال: «قم فصل»، قال: فقمت فصليت ثم جلست فقال: «يا أبا ذر تعوذ بالله من شر شياطين الإنس والجن» قال، قلت: يا رسول الله أو للإنس شياطين؟ قال: «نعم»، قال، قلت: يا رسول الله الصلاة! قال: «خير موضوع من شاء أقل ومن شاء أكثر» قال، قلت: يا رسول الله فالصوم؟ قال: «فرض مجزي وعند الله مزيد»، قلت: يا رسول الله فالصدقة، قال: «أضعاف مضاعفة»، قلت: يا رسول الله فأيتها أفضل، قال: «جهد من مقل، أو سر إلى فقير»، قلت: يا رسول الله أي الأنبياء كان أول، قال: «آدم»، قلت: يا رسول الله ونبي كان، قال: «نعم نبي مكلم»، قلت: يا رسول الله كم المرسلون، قال: «ثلثائة وبضعة عشر جمعاً غفيراً» وقال مرة: «وخمسة عشر»، قلت: يا رسول الله أي ما أنزل عليك أعظم؟ قال: «آية الكرسي: ﴿الله لا إله إلا هو الحي القيوم﴾».

(حديث آخر): وقد ذكر البخاري في فضل آية الكرسي بسنده عن أبي هريرة، قال: وكلني رسول الله ﷺ بحفظ زكاة رمضان، فأتاني آت فجعل يحثو من الطعام، فأخذته وقلت: لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ، قال: دعني فأني محتاج وعلي عيال ولي حاجة شديدة، قال: فخليت عنه، فأصبحت، فقال النبي ﷺ: «يا أبا هريرة ما فعل أسيرك البارحة؟» قال، قلت: يا رسول الله شكنا حاجة شديدة وعيالاً فرحمته وخليت سبيله، قال: «أما إنه قد كذبتك وسيعود»، فعرفت أنه سيعود لقول رسول الله ﷺ «إنه سيعود» فرصدته، فجاء يحثو من الطعام فأخذته، فقلت: لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ، قال: دعني فأني محتاج وعلي عيال، لا أعود، فرحمته وخليت سبيله، فأصبحت، فقال لي رسول الله ﷺ: «يا أبا هريرة ما فعل أسيرك البارحة؟» قلت: يا رسول الله شكنا حاجة وعيالاً فرحمته فخليت سبيله، قال: «أما إنه قد كذبتك وسيعود»، فرصدته الثالثة فجاء يحثو من الطعام، فأخذته فقلت: لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ، وهذا آخر ثلاث مرات أنك تزعم أنك لا تعود ثم تعود.

(١) رواه أحمد عن أنس بن مالك .

(٢) رواه أحمد والنسائي عن أبي ذر الغفاري .

فقال: دعني أعلمك كلمات ينفعك الله بها، قلت: وما هي؟ قال: إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي: ﴿الله لا إله إلا هو الحي القيوم﴾ حتى تحتم الآية، فإنك لن يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح، فخليت سبيله، فأصبحت فقال لي رسول الله ﷺ: «ما فعل أسيرك البارحة؟» قلت: يا رسول الله زعم أنه يعلمني كلمات ينفعني الله بها فخليت سبيله، قال: «ما هي؟» قال قال لي: إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي من أولها حتى تحتم الآية: ﴿الله لا إله إلا هو الحي القيوم﴾، وقال لي: لن يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح - وكانوا أحرص شيء على الخير - فقال النبي ﷺ: «أما إنه صدقك وهو كذوب. تعلم من تخاطب من ثلاث ليال يا أبا هريرة؟» قلت: لا، قال: «ذاك شيطان».

(حديث آخر): عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «سورة البقرة فيها آية سيدة آي القرآن لا تقرأ في بيت فيه شيطان إلا خرج منه: آية الكرسي»^(١). وقد رواه الترمذي ولفظه: «لكل شيء سنام وسنام القرآن سورة البقرة وفيها آية هي سيدة آي القرآن: آية الكرسي».

(حديث آخر): عن عمر بن الخطاب أنه خرج ذات يوم إلى الناس وهم سماطات فقال: أيكم يخبرني بأعظم آية في القرآن؟ فقال ابن مسعود: على الخير سقطت سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أعظم آية في القرآن ﴿الله لا إله إلا هو الحي القيوم﴾»^(٢).

(حديث آخر): في اشتماله على اسم الله الأعظم، عن أسماء بنت يزيد بن السكن قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول في هاتين الآيتين: ﴿الله لا إله إلا هو الحي القيوم﴾ و﴿الم الله لا إله إلا هو الحي القيوم﴾: «إن فيهما اسم الله الأعظم»^(٣).

(حديث آخر): عن أبي أمامة يرفعه قال: «اسم الله الأعظم الذي إذا دعي به أجاب في ثلاث: سورة البقرة وآل عمران وطه»، وقال هشام: أما البقرة ف﴿الله لا إله إلا هو الحي القيوم﴾ وفي آل عمران ﴿الم * الله لا إله إلا هو الحي القيوم﴾ وفي طه ﴿وعنت الوجوه للحي القيوم﴾.

(حديث آخر): عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ دبر كل صلاة مكتوبة آية الكرسي لم يمنعه من دخول الجنة إلا أن يموت»^(٤).

(حديث آخر): عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ حم المؤمن إلى ﴿إليه المصير﴾ وآية الكرسي حين يصبح حُفِظَ بهما حتى يمسي، ومن قرأهما حين يمسي حُفِظَ بهما حتى يصبح»^(٥). وقد ورد في فضلها أحاديث أخر تركناها اختصاراً لعدم صحتها وضعف أسانيدها.

(١) رواه الحاكم .

(٢) رواه ابن مردويه .

(٣) رواه أحمد .

(٤) رواه ابن مردويه والنسائي .

(٥) رواه الترمذي وقال: حديث غريب .

« وهذه الآية مشتملة على عشر جمل مستقلة »

فقوله تعالى: ﴿الله لا إله إلا هو﴾ إخبار بأنه المتفرد بالإلهية لجميع الخلائق، ﴿الحي القيوم﴾ أي الحي في نفسه الذي لا يموت أبداً، القيم لغيره. وكان عمر يقرأ (القيَام) فجميع الموجودات مفتقرة إليه وهو غني عنها، ولا قوام لها بدون أمره، كقوله: ﴿ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره﴾، وقوله: ﴿لا تأخذه سنة ولا نوم﴾ أي لا يعتريه نقص ولا غفلة ولا ذهول عن خلقه، بل هو قائم على كل نفس بما كسبت، شهيد على كل شيء لا يغيب عنه شيء ولا يخفى عليه خافية، ومن تمام القيومية أنه لا يعتريه سنة ولا نوم. فقوله: ﴿لا تأخذه﴾ أي لا تغلبه ﴿سنة﴾ وهي الوسن والنعاس، ولهذا قال ﴿ولا نوم﴾ لأنه أقوى من السنة. وفي الصحيح عن أبي موسى قال: قام فينا رسول الله ﷺ بأربع كلمات فقال: «إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يُرفع إليه عمل النهار قبل عمل الليل، وعمل الليل قبل عمل النهار، حجابه النور أو النار، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه». وعن ابن عباس أن بني إسرائيل قالوا: يا موسى هل ينام ربك؟ قال: اتقوا الله، فناداه ربه عز وجل: يا موسى سألوكم هل ينام ربك؟ خذ زجاجتين في يديك فقم الليلة، ففعل موسى، فلما ذهب من الليل ثلث نعس فوق لركبتيه، ثم انتعش فضبطهما حتى إذا كان آخر الليل نعس فسقطت الزجاجتان فانكسرتا، فقال: يا موسى لو كنت أنام لسقطت السماوات والأرض فهلكت، كما هلكت الزجاجتان في يديك، فأنزل الله عز وجل على نبيه ﷺ آية الكرسي^(١).

وقوله تعالى: ﴿له ما في السموات وما في الأرض﴾ إخبار بأن الجميع عبيده وفي ملكه وتحت قهره وسلطانة كقوله: ﴿إن كل من في السموات والأرض إلا آتي الرحمن عبداً﴾.

وقوله تعالى: ﴿من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه﴾، كقوله: ﴿وكم من ملك في السموات لا تغني شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى﴾، وكقوله: ﴿ولا يشفعون إلا لمن ارتضى﴾، وهذا من عظمته وجلاله وكبريائه عز وجل، أنه لا يتجاسر أحد على أن يشفع لأحد عنده إلا بإذنه له في الشفاعة كما في حديث الشفاعة: «آتي تحت العرش فأخر ساجداً فيدعني ما شاء الله أن يدعني، ثم يقال: إرفع رأسك وقل تسمع، واشفع تشفع - قال - فيحدي حداً فأدخلهم الجنة».

وقوله تعالى: ﴿يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم﴾ دليل على إحاطة علمه بجميع الكائنات ماضيها وحاضرها ومستقبلها، كقوله إخباراً عن الملائكة: ﴿وما ننزل إلا بأمر ربك له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك وما كان ربك نسياً﴾.

وقوله تعالى: ﴿ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء﴾ أي لا يطلع أحد من علم الله على شيء إلا بما أعلمه الله عز وجل وأطلع عليه، ويحتمل أن يكون المراد لا يطلعون على شيء من علم ذاته وصفاته إلا بما أطلعهم الله عليه كقوله: ﴿ولا يحيطون به علماً﴾.

(١) رواه ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس.

وقوله تعالى: ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾، عن ابن عباس قال: علمه، وقال آخرون: الكرسي موضع القدمين. عن ابن عباس قال: سئل النبي ﷺ عن قول الله عز وجل: ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ قال: « كرسية موضع قدميه، والعرش لا يقدر قدره إلا الله عز وجل ». وقال السدي: الكرسي تحت العرش. وقال الضحاک عن ابن عباس: لو أن السموات السبع والأرضين السبع بسطن ثم وصلن بعضهن إلى بعض ما كن في سعة الكرسي إلا بمنزلة الحلقة في المفازة. قال رسول الله ﷺ: « ما السموات السبع في الكرسي إلا كدراهم سبعة ألقيت في ترس » قال، قال أبو ذر: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « ما الكرسي في العرش إلا كحلقة من حديد ألقيت بين ظهراني فلاة من الأرض » (١).

وعن أبي ذر الغفاري أنه سأل النبي ﷺ عن الكرسي، فقال رسول الله ﷺ: « والذي نفسي بيده ما السموات السبع والأرضون السبع عند الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة، وإن فضل العرش على الكرسي كفضل الفلاة على تلك الحلقة »، وعن عمر رضي الله عنه قال: أتت امرأة إلى رسول الله ﷺ فقالت: ادع الله أن يدخلني الجنة. قال: فعظم الرب تبارك وتعالى، وقال: « إن كرسية وسع السموات والأرض وإن له أطيافاً كأطياف الرجل الجديد من ثقله »، وعن الحسن البصري، أنه كان يقول: الكرسي هو العرش، والصحيح أن الكرسي غير العرش والعرش أكبر منه كما دلت على ذلك الآثار والأخبار.

وقوله تعالى: ﴿ وَلَا يُؤُودُهُ حِفْظُهُمَا ﴾ أي لا يثقله ولا يُعجزه حفظ السماوات والأرض ومن فيهما ومن بينهما، بل ذلك سهل عليه يسير لديه، وهو القائم على كل نفس بما كسبت، الرقيب على جميع الأشياء فلا يعزب عنه شيء، ولا يغيب عنه شيء، والأشياء كلها حقيرة بين يديه متواضعة ذليلة صغيرة بالنسبة إليه، محتاجة فقيرة، وهو الغني الحميد، الفعال لما يريد الذي لا يسأل عما يفعل وهم يسألون، وهو القاهر لكل شيء، الحسيب على كل شيء، الرقيب العلي العظيم، لا إله غيره ولا رب سواه. فقلوه: ﴿ وهو العلي العظيم ﴾، كقلوه: ﴿ وهو الكبير المتعال ﴾ وهذه الآيات وما في معناها من الأحاديث الصحاح الأجود فيها طريقة السلف الصالح أمارها كما جاءت من غير تكيف ولا تشبيه.

لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ
الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾

يقول تعالى: ﴿ لا إكراه في الدين ﴾ أي لا تكرهوا أحداً على الدخول في دين الإسلام، فإنه بين واضح، جلي دلائله وبراهينه، لا يحتاج إلى أن يكره أحد على الدخول فيه، بل من هداه الله للإسلام وشرح صدره ونور بصيرته دخل فيه على بينة، ومن أعمى الله قلبه وختم على سمعه وبصره فإنه لا يفيد الدخول في الدين مكرهاً مقسوراً، وقد ذكروا أن سبب نزول هذه الآية في قوم من الأنصار وإن كان حكمها عاماً. وقال ابن جرير عن

(١) روى هذه الآثار ابن جرير رحمه الله تعالى.

ابن عباس، قال: كانت المرأة تكون مقلاة فتجعل على نفسها إن عاش لها ولد أن تهوده، فلما أجليت بنو النضير كان فيهم من أبناء الأنصار فقالوا: لا ندع أبناءنا، فأنزل الله عز وجل: ﴿ لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي ﴾^(١). وعن ابن عباس قوله: ﴿ لا إكراه في الدين ﴾ قال: نزلت في رجل من الأنصار من بني سالم بن عوف يقال له الحصيني، كان له ابنان نصرانيان، وكان هو رجلاً مسلماً فقال للنبي ﷺ: ألا أستكرههما، فإنهما قد أيا إلا النصرانية، فأنزل الله فيه ذلك^(٢). وقال ابن أبي حاتم عن أبي هلال عن أسبق، قال: كنت في دينهم مملوكاً نصرانياً لعمر بن الخطاب، فكان يعرض عليّ الإسلام فأبى، فيقول ﴿ لا إكراه في الدين ﴾، ويقول: يا أسبق لو أسلمت لاستعنا بك على بعض أمور المسلمين.

وقد ذهب طائفة كثيرة من العلماء أن هذه محمولة على أهل الكتاب ومن دخل في دينهم قبل النسخ والتبديل إذا بذلوا الجزية. وقال آخرون: بل هي منسوخة بآية القتال، وأنه يجب أن يدعى جميع الأمم إلى الدخول في الدين الحنيف (دين الإسلام)، فإن أبى أحد منهم الدخول فيه ولم ينقله، أو يبذل الجزية، قوتل حتى يقتل، وهذا معنى الإكراه. قال الله تعالى: ﴿ ستدعون إلى قوم أولي بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون ﴾، وقال تعالى: ﴿ يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلب عليهم ﴾، وقال تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجلبوا فيكم غلظة راعلموا أن الله مع المتقين ﴾. وفي الصحيح: « عجب ربك من قوم يقادون إلى الجنة في السلاسل »، يعني الأسارى الذين يقدم بهم بلاد الإسلام في الوثاق والأغلال والقيود والأكبال، ثم بعد ذلك يسلمون وتصلح أعمالهم وسرايرهم فيكونون من أهل الجنة، فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن أنس أن رسول الله ﷺ قال لرجل: « أسلم »، قال: إني أجدي كارهاً، قال: « وإن كنت كارهاً »، فإنه ثلاثي صحيح، ولكن ليس من هذا القبيل، فإنه لم يكرهه النبي ﷺ على الإسلام بل دعاه إليه، فأخبره أن نفسه ليست قابلة له بل هي كارهة، فقال له أسلم وإن كنت كارهاً، فإن الله سيرزقك حسن النية والإخلاص.

وقوله تعالى: ﴿ فن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم ﴾ أي من خلع الأنداد والأوثان وما يدعو إليه الشيطان من عبادة كل ما يعبد من دون الله، ووحد الله فعبده وحده، وشهد أن لا إله إلا هو ﴿ فقد استمسك بالعروة الوثقى ﴾، أي فقد ثبت في أمره واستقام على الطريقة المثلى والصراف المستقيم. قال عمر رضي الله عنه: إن الجبت السحر، والطاغوت الشيطان، وإن كرم الرجل دينه، وحسبه خلقه وإن كان فارسياً أو نبطياً، ومعنى قوله في الطاغوت إنه الشيطان، قوي جداً فإنه يشمل كل شر كان عليه أهل الجاهلية: من عبادة الأوثان، والتحاكم إليها، والاستنصار بها.

وقوله تعالى: ﴿ فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها ﴾، أي فقد استمسك من الدين بأقوى سبب، وشبه ذلك بالعروة القوية التي لا تنفصم هي في نفسها محكمة مبرمة قوية، وربطها قوي شديد، ولهذا قال: ﴿ فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها ﴾ الآية، قال مجاهد: العروة الوثقى يعني الإيمان، وقال السدي: هو الإسلام، وقال سعيد بن جبير والضحاك: يعني ﴿ لا إله إلا الله ﴾. وعن أنس بن مالك: العروة الوثقى القرآن، وعن سالم

(١) أخرجه أبو داود والنسائي. (٢) رواه ابن جرير والسدي.

ابن أبي الجعد قال: هو الحب في الله والبغض في الله، وكل هذه الأقوال صحيحة ولا تنافي بينها .

وقال الإمام أحمد عن محمد بن قيس بن عباد قال: كنت في المسجد، فجاء رجل في وجهه أثر من خشوع، فصلى ركعتين أوجز فيهما، فقال القوم: هذا رجل من أهل الجنة، فلما خرج اتبعته حتى دخل منزله فدخلت معه فحدثته، فلما استأنس قلت له: إن القوم لما دخلت المسجد قالوا كذا وكذا، قال: سبحان الله ما ينبغي لأحد أن يقول ما لا يعلم، وسأحدثك لم؟ إني رأيت رؤيا على عهد رسول الله ﷺ فقصصتها عليه: رأيت كأني في روضة خضراء - قال ابن عون فذكر من خضرتها وسعتها - وفي وسطها عمود حديد أسفله في الأرض وأعلاه في السماء، في أعلاه عروة، فقيل لي: اصعد عليه، فقلت لا استطيع، فجاءني منصف - قال ابن عون هو الوصيف - فرفع ثيابي من خلفي، فقال: اصعد، فصعدت حتى أخذت بالعروة، فقال: استمسك بالعروة، فاستيقظت وإنما لي يدي فأتيت رسول الله ﷺ فقصصتها عليه فقال: «أما الروضة فروضة الإسلام، وأما العمود فعمود الإسلام، وأما العروة فهي (العروة الوثقى) أنت على الإسلام حتى تموت»^(١)، قال: وهو عبد الله ابن سلام .

اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ
إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٥٧﴾

يخبر تعالى أنه يهدي من اتبع رضوانه سبيل السلام، فيخرج عباده المؤمنين من ظلمات الكفر والشك والريب إلى نور الحق الواضح الجلي المبين السهل المنير، وأن الكافرين إنما وليهم الشيطان يزين لهم ما هم فيه من الجهالات والضلالات ويخرجونهم، ويحيدون بهم عن طريق الحق إلى الكفر والإفك ﴿أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾، ولهذا وحد تعالى لفظ (النور) وجمع (الظلمات) لأن الحق واحد، والكفر أجناس كثيرة وكلها باطلة كما قال: ﴿وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون﴾، وقال تعالى: ﴿وجعل الظلمات والنور﴾، وقال تعالى: ﴿عن اليمين وعن الشمال﴾ إلى غير ذلك من الآيات التي في لفظها إشعار بتفرد الحق، وانتشار الباطل وتفرده وتشعبه .

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ حَاجَّ إِبرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ ءَاتَهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ لِإِبْرَاهِيمَ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أَحْيَا وَأُمِيتُ قَالَ لِإِبْرَاهِيمَ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥٨﴾

هذا الذي حاج إبراهيم في ربه هو ملك بابل (نمرود بن كنعان)، قال مجاهد: ملك الدنيا مشارقها ومغاربها

(١) رواه أحمد وأخرجاه في الصحيحين، وأخرجه البخاري من وجه آخر .

أربعة : مؤمنان وكافران، فالمؤمنان (سليمان بن داود) و (ذو القرنين) والكافران (نمرود) و (بختنصر) ، والله أعلم .

ومعنى قوله: ﴿ ألم تر أني أتاه الله الملك ﴾ ، كما قال بعده فرعون للملك: ﴿ ما علمت لكم من إله غيري ﴾ ، وما حمله على هذا الطغيان والكفر الغليظ والمعاندة الشديدة إلا تجبره وطول مدته في الملك، وذلك انه يقال إنه مكث أربعمئة سنة في ملكه، قال: ﴿ أن آتاه الله الملك ﴾ ، وكان طلب من إبراهيم دليلاً على وجود الرب الذي يدعو إليه، فقال إبراهيم: ﴿ ربي الذي يحيي ويميت ﴾ أي إنما الدليل على وجوده حدوث هذه الأشياء المشاهدة بعد عدمها وعدمها بعد وجودها، وهذا دليل على وجود الفاعل المختار، ضرورة لأنها لم تحدث بنفسها فلا بد لها من موجد أوجدها، وهو الرب الذي أدعو إلى عبادته وحده لا شريك له .

فبعد ذلك قال المحاج - وهو النمرود - : ﴿ أنا أحيي وأميت ﴾ ، قال قتادة: وذلك أني أوتى بالرجلين استحقا القتل فأمر بقتل أحدهما فيقتل، وأمر بالعضو عن الآخر فلا يقتل، فذلك معنى الإحياء والإماتة، والظاهر - والله أعلم - أنه ما أراد هذا لأنه ليس جواباً لما قال إبراهيم ولا في معناه لأنه غير مانع لوجود الصانع، وإنما أراد أن يدعي لنفسه هذا المقام عناداً ومكابرة ويوهم أنه الفاعل لذلك، وأنه هو الذي يحيي ويميت كما اقتدى به فرعون في قوله: ﴿ ما علمت لكم من إله غيري ﴾ ، ولهذا قال له إبراهيم لما ادعى هذه المكابرة: ﴿ فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب ﴾ أي إذا كنت كما تدعي من أنك تحيي وتميت فالذي يحيي ويميت هو الذي يتصرف في الوجود، في خلق ذواته وتسخير كواكبه وحركاته، فهذه الشمس تبدو كل يوم من المشرق فإن كنت إلهاً كما ادعيت تحيي وتميت فأت بها من المغرب؟ فلما علم عجزه وانقطاعه وأنه لا يقدر على المكابرة في هذا المقام بهت، أي أخرس فلا يتكلم وقامت عليه الحجة ، قال الله تعالى: ﴿ والله لا يهدي القوم الظالمين ﴾ أي لا يلهمهم حجة ولا يرهاناً بل حجتهم داحضة عند ربهم، وعليهم غضب ولهم عذاب شديد .

وقد ذكر السدي أن هذه المناظرة كانت بين إبراهيم ونمرود بعد خروج إبراهيم من النار، ولم يكن اجتمع بالملك إلا في ذلك اليوم فجرت بينهما هذه المناظرة، وروى زيد بن أسلم أن النمرود كان عنده طعام وكان الناس يغدون إليه للميرة، فوفد إبراهيم في جملة من وفد للميرة فكان بينهما هذه المناظرة، ولم يعط إبراهيم من الطعام كما أعطى الناس، بل خرج وليس معه شيء من الطعام، فلما قرب من أهله عمد إلى كتيب من التراب فلأمنه عدليه، وقال: أشغل أهلي عني إذا قدمت عليهم، فلما قدم وضع رحاله وجاء فاتكأ فنام، فقامت امرأته سارة إلى العدلين فوجدتهما ملائنين طعاماً طيباً، فعملت طعاماً، فلما استيقظ إبراهيم وجد الذي قد أصلحوه فقال: أنى لكم هذا؟ قالت: من الذي جئت به، فعلم أنه رزق رزقهم الله عز وجل . قال زيد بن أسلم: وبعث الله إلى ذلك الملك الجبار ملكاً يأمره بالإيمان بالله فأبى عليه، ثم دعاه الثانية فأبى، ثم الثالثة فأبى وقال: اجمع جموعك وأجمع جموعي، فجمع النمرود جيشه وجنوده وقت طلوع الشمس وأرسل الله عليهم باباً من البعوض بحيث لم يروا عين الشمس، وسلطها الله عليهم فأكلت لحومهم ودماهم، وتركهم عظاماً بادية، ودخلت واحدة منها في منخري الملك، فكنت في منخري الملك أربعمئة سنة عذبه الله بها، فكان يضرب رأسه بالمرازب في المدة حتى أهلكه الله بها .

أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْبَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ
 قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ
 وَانظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ
 أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾

تقدم قوله تعالى: ﴿لم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه﴾ وهو في قوة قوله هل رأيت مثل الذي حاج إبراهيم في ربه ولهذا عطف عليه بقوله: ﴿أو كالذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها﴾ اختلفوا في هذا المار من هو؟ فروي عن علي بن أبي طالب أنه قال: هو عزيز، ورواه ابن جرير عن ابن عباس والحسن وقتادة وهذا القول هو المشهور، وقيل: اسمه (حزقيل بن بوار) وقال مجاهد: هو رجل من بني إسرائيل، وأما القرية فالمشهور أنها (بيت المقدس) مر عليها بعد تخريب بختنصر لها وقتل أهلها ﴿وهي خاوية﴾ أي ليس فيها أحد من قولهم خوت الدار تخوي خويًا .

وقوله تعالى: ﴿على عروشها﴾ أي ساقطة سقوفها وجدرانها على عرصاتها ، فوقف متفكرًا فيما آل أمرها إليه بعد العمارة العظيمة ، وقال: ﴿أنى يحيى هذه الله بعد موتها﴾ ؟ ، وذلك لما رأى من دثورها وشدة خرابها ، وبعدها عن العود إلى ما كانت عليه . قال الله تعالى: ﴿فأماته الله مائة عام ثم بعثه﴾ . قال: وعمرت البلدة بعد مضي سبعين سنة من موته ، وتكامل ساكنوها ، وتراجع بنو إسرائيل إليها . فلما بعثه الله عز وجل بعد موته ، كان أول شيء أحيا الله فيه عينيه لينظر بهما إلى صنع الله فيه ، كيف يحيي بدنه . فلما استقل سويًا ﴿قال﴾ الله له ، أي بواسطة الملك: ﴿كم لبثت؟ قال لبثت يومًا أو بعض يوم﴾ . قال: وذلك أنه مات أول النهار ، ثم بعثه الله في آخر النهار ، فلما رأى الشمس باقية ظن أنها شمس ذلك اليوم ، فقال: ﴿أو بعض يوم﴾ . قال بل لبثت مائة عام فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه ، وذلك أنه كان معه فيما ذكر عنب وتين وعصير فوجده كما تقدم لم يتغير منه شيء ، لا العصير استحال ، ولا التين حمض ولا أنتن ، ولا العنب نقص: ﴿وانظر إلى حمارك﴾ أي كيف يحييه الله عز وجل وأنت تنظر ، ﴿ولنجعلك آية للناس﴾ أي دليلاً على المعاد ﴿وانظر إلى العظام كيف ننشزها﴾ أي نرفعها فيركب بعضها على بعض ، وقرئ ﴿نشزها﴾ أي نحياها قاله مجاهد ، ﴿ثم نكسوها لحماً﴾ .

قال السدي: تفرقت عظام حماره حوله يميناً ويساراً ، فنظر إليها وهي تلوح من بياضها ، فبعث الله ريحاً فجمعتها من كل موضع من تلك المحلة ، ثم ركب كل عظم في موضعه حتى صار حماراً قائماً من عظام لا لحم عليها ، ثم كساها الله لحماً وعصباً وعروقاً وجلداً ، وبعث الله ملكاً فنفخ في منخري الحمار فنهق بإذن الله عز وجل ، وذلك كله بمرأى من العزيز . فعند ذلك لما تبين له هذا كله: ﴿قال أعلم أن الله على كل شيء قدير﴾ أي أنا عالم بهذا ، وقد رأيت عياناً فأنا أعلم أهل زماني بذلك ، وقرأ آخرون: «قال أعلم» على أنه أمر له بالعلم .

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ ارْنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أُولَٰئِكَ تُؤْمِنُونَ ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَبْطِئَنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ أَجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَأَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾

ذكروا لسؤال إبراهيم عليه السلام أسباباً، منها أنه لما قال لنمرود: ﴿ربي الذي يحيي ويميت﴾ أحب أن يترقى من (علم اليقين) بذلك إلى (عين اليقين)، وأن يرى ذلك مشاهدة، فقال: ﴿رب أرني كيف تحيي الموتى! قال أو لم تؤمن! قال بلى ولكن ليطمئن قلبي﴾. فأما الحديث الذي رواه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «نحن أحق بالشك من إبراهيم، إذ قال: رب أرني كيف تحيي الموتى، قال: أو لم تؤمن؟ قال: بلى، ولكن ليطمئن قلبي»^(١)، فليس المراد ههنا بالشك ما قد يفهمه من لا علم عنده، بلا خلاف.

وقوله تعالى: ﴿قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك﴾، اختلف المفسرون في هذه الأربعة ما هي؟ وإن كان لا طائل تحت تعيينها، إذ لو كان في ذلك مهم لنص عليه القرآن، فروي عن ابن عباس أنه قال: أخذ وزاً ورأياً وهو (فرخ النعام) وديكاً وطاووساً، وقال مجاهد: كانت حمامة وديكاً وطاووساً وغراباً، وقوله: ﴿فصرهن إليك﴾ أي وقطعهن. وعن ابن عباس: ﴿فصرهن إليك﴾ أوثقهن، فلما أوثقهن ذبحهن ثم جعل على كل جبل منهن جزءاً، فذكروا أنه عمد إلى أربعة من الطير فذبحهن ثم قطعهن ورتف ريشهن ومزقهن وخلط بعضهن ببعض، ثم جزأهن أجزاءً وجعل على كل جبل منهن جزءاً ثم أمره الله عز وجل أن يدعوهم فدعاهن كما أمره الله عز وجل، فجعل ينظر إلى الريش يطير إلى الريش، والدم إلى الدم، واللحم إلى اللحم، والأجزاء من كل طائر يتصل بعضها إلى بعض حتى قام كل طائر على حدته وأتينه يمشين، سعياً ليكون أبلغ له في الرؤية التي سألتها.

ولهذا قال: ﴿واعلم أن الله عزيز حكيم﴾ أي عزيز لا يغلبه شيء ولا يمتنع من شيء، وما شاء كان بلا ممانع لأنه القاهر لكل شيء، حكيم في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره.

مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سَنَابِلٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضَعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾

هذا مثل ضربه الله تعالى لتضعيف الثواب لمن أنفق في سبيله وابتغاء مرضاته، وأن الحسنه تضاعف بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، فقال: ﴿مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله﴾ يعني في طاعة الله، وقال مكحول يعني به الإنفاق في الجهاد من رباط الخيل، وإعداد السلاح وغير ذلك، وقال ابن عباس: الجهاد والحج يضعف الدرهم فيما إلى سبعمائة ضعف ولهذا قال تعالى: ﴿كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبله مائة حبة﴾، وهذا المثل أبلغ في النفوس من ذكر عدد السبعمائة، فإن هذا فيه إشارة إلى أن الأعمال الصالحة ينميها الله عز وجل

(١) أخرجه الشيخان واللفظ للبخاري.

لأصحابها ، كما ينمي الزرع لمن بذره في الأرض الطيبة ، وقد وردت السنة بتضعيف الحسنة إلى سبعمائة ضعف .

كما روى الإمام أحمد عن عياض بن غطيف قال : دخلنا على أبي عبيدة نعوذ من شكوى أصابه بجنبه ، وامرأته قاعدة عند رأسه قلنا : كيف بات أبو عبيدة ؟ قالت : والله لقد بات بأجر ، قال أبو عبيدة : ما بت بأجر ، وكان مقبلاً بوجهه على الحائط فأقبل على القوم بوجهه ، وقال ألا تسألوني عما قلت ! قالوا : ما أعجبنا ما قلت فنسألك عنه ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من أنفق نفقة فاضلة في سبيل الله فسبعمائة ، ومن أنفق على نفسه وأهله أو عاد مريضاً أو أماً أذى فالحسنة بعشر أمثالها ، والصوم جنة ما لم يخرقها ، ومن ابتلاه الله عز وجل ببلاء في جسده فهو له حطة » أي كفارة لذنوبه .

(حديث آخر) : عن ابن مسعود أن رجلاً تصدق بناقة مخطومة في سبيل الله فقال رسول الله ﷺ : « لتأتين يوم القيامة بسبعمائة ناقة مخطومة »^(١) .

(حديث آخر) : وعن ابن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله جعل حسنة ابن آدم إلى عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلا الصوم ، والصوم لي وأنا أجزي به ، وللصائم فرحتان : فرحة عند إبطاره ، وفرحة يوم القيامة ، ولخلاف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك »^(٢) .

(حديث آخر) : عن ابن عمر لما نزلت هذه الآية ﴿ مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ﴾ قال النبي ﷺ : « رب زد أمتي » ، قال : فأنزل الله : ﴿ من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً ﴾ ، قال : « رب زد أمتي » ، قال ، فأنزل الله : ﴿ إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب ﴾^(٣) . وقوله : ﴿ والله يضاعف لمن يشاء ﴾ أي بحسب إخلاصه في عمله ﴿ والله واسع عليم ﴾ أي فضله واسع كثير أكثر من خلقه ، عليم بمن يستحق ومن لا يستحق سبحانه وبحمده .

الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ
وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ * قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتَّبِعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ يَتَّيِبُهَا لِلَّذِينَ آمَنُوا
لَا يُبْطَلُوا صَدَقَتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ
صَفْوَانَ عَلَيْهِ تَرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ
الْكَافِرِينَ ﴿٢٦٤﴾

(١) رواه أحمد وأخرجه مسلم بلفظ : جاء رجل بناقة مخطومة فقال : يا رسول الله هذه في سبيل الله ، فقال : « لك بها يوم

القيامة سبعمائة ناقة » . (٢) رواه الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود .

(٣) أخرجه ابن مردويه ورواه أبو حاتم وابن حبان .

يُمدح تبارك وتعالى الذين ينفقون في سبيله ، ثم لا يتبعون ما أنفقوا من الخيرات والصدقات منّا على من أعطوه فلا يمتنون به على أحد ، ولا يمتنون به لا بقول ولا فعل .

وقوله تعالى : ﴿ ولا أذى ﴾ أي لا يفعلون مع من أحسنوا إليه مكروهاً يجبطون به ما سلف من الإحسان ثم وعدهم الله تعالى الجزاء الجزيل على ذلك ، فقال : ﴿ لهم أجرهم عند ربهم ﴾ أي ثوابهم على الله لا على أحد سواه ، ﴿ ولا خوف عليهم ﴾ أي فيما يستقبلونه من أهوال يوم القيامة ، ﴿ ولا هم يحزنون ﴾ أي على ما خلفوه من الأولاد ، ولا ما فاتهم من الحياة الدنيا وزهرتها ، لا يأسفون عليها لأنهم قد صاروا إلى ما هو خير لهم من ذلك .

ثم قال تعالى : ﴿ قول معروف ﴾ أي من كلمة طيبة ودعاء لمسلم ، ﴿ ومغفرة ﴾ أي عفو وغفر عن ظلم قولي أو فعلي ، ﴿ خير من صدقة يتبعها أذى ﴾ ، ﴿ والله غني ﴾ عن خلقه ، ﴿ حلیم ﴾ أي يحلم ويغفر ويصفح ويتجاوز عنهم ، وقد وردت الأحاديث بالنهي عن المن في الصدقة ، ففي صحيح مسلم عن أبي ذر قال : قال رسول الله ﷺ : « ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكهم ولهم عذاب أليم : المتأن بما أعطى ، والمسبل إزاره ، والمنفق سلعته بالحلف الكاذب » . وعن أبي الدرداء ، عن النبي ﷺ قال : « لا يدخل الجنة عاق ، ولا منان ، ولا مدمن خمر ، ولا مكذب بقدر »^(١) . ولهذا قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى ﴾ ، فأخبر أن الصدقة تبطل بما يتبعها من المن والأذى ، فما يفي ثواب الصدقة بخطيئة المن والأذى ، ثم قال تعالى : ﴿ كالذي ينفق ماله رياء الناس ﴾ ، أي لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى ، كما تبطل صدقة من رآى بها الناس ، فأظهر لهم أنه يريد وجه الله وإنما قصده مدح الناس له ، أو شهرته بالصفات الجميلة ليشكر بين الناس ، أو يقال إنه كريم ، ونحو ذلك من المقاصد الدنيوية ، مع قطع نظره عن معاملة الله تعالى وابتغاء مرضاته وجزيل ثوابه ، ولهذا قال : ﴿ ولا يؤمن بالله واليوم الآخر ﴾ .

ثم ضرب تعالى مثل ذلك المرآئي بإنفاقه ، فقال : ﴿ فثله كمثل صفوان ﴾ وهو الصخر الأملس ﴿ عليه تراب فأصابه وابل ﴾ وهو المطر الشديد ، ﴿ فتركه صلداً ﴾ أي فترك الوابل ذلك الصفوان صلداً : أي أملس يابساً ، أي لا شيء عليه من ذلك التراب ، بل قد ذهب كله ، أي وكذلك أعمال المرآئين تذهب وتضمحل عند الله ، وإن ظهر لهم أعمال فيما يرى الناس كالتراب ولهذا قال : ﴿ لا يقدر على شيء مما كسبوا والله لا يهدي القوم الكافرين ﴾ .

وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَدْبِيرًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ رِبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَكَاتَتْ أَكْطَلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَرَّ يُصْبِحُ وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾

(١) رواه ابن مردويه وأخرجه أحمد وابن ماجه .

وهذا مثل المؤمنين المنفقين أموالهم ابتغاء مرضات الله عنهم في ذلك ﴿ وتثبيتاً من أنفسهم ﴾ ، أي وهم متحققون ومثبتون أن الله سيجزيهم على ذلك أوفر الجزاء . ونظير هذا في معنى قوله عليه السلام في الحديث الصحيح المتفق على صحته : « من صام رمضان إيماناً واحتساباً » الحديث أي يؤمن أن الله شرعه ويحتسب عند الله ثوابه ، قال الشعبي : ﴿ وتثبيتاً من أنفسهم ﴾ أي تصديقاً و يقيناً .

وقوله تعالى : ﴿ كمثل جنة برية ﴾ أي كمثل بستان برية ، وهو عند الجمهور المكان المرتفع من الأرض وزاد ابن عباس والضحاك : وتجري فيه الأنهار .

وقوله تعالى : ﴿ أصابها وابل ﴾ وهو المطر الشديد كما تقدم ، فآتت ﴿ أكلها ﴾ أي ثمرتها ، ﴿ ضعفين ﴾ أي بالنسبة إلى غيرها من الجنان ، ﴿ فإن لم يصبها وابل فطل ﴾ ، قال الضحاك : هو الرذاذ وهو اللين من المطر ، أي هذه الجنة بهذه البرية لا تمحل أبداً لأنها إن لم يصبها وابل فطل ، وأياً ما كان فهو كفايتها ، وكذلك عمل المؤمن لا يبور أبداً بل يتقبله الله ويكثره وينميه ، كل عامل بحسبه ، ولهذا قال : ﴿ والله بما تعملون بصير ﴾ أي لا يخفى عليه من أعمال عباده شيء .

أَيُّدٌ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَّجِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَةٌ ضِعْفَاءُ فَاَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾

قال البخاري عند تفسير هذه الآية : قال عمر بن الخطاب يوماً لأصحاب النبي ﷺ فيمن ترون هذه الآية نزلت ﴿ أيود أحدكم أن تكون له جنة من نجيل وأعنان تجرى من تحتها الأنهار له فيها من كل الثمرات وأصابه الكبر أو لا نعلم ، فقال ابن عباس : في نفسي منها شيء يا أمير المؤمنين ، فقال عمر : يا ابن أخي قل ولا تحقر نفسك ، فقال ابن عباس رضي الله عنهما : ضربت مثلاً بعمل ، قال عمر : أي عمل ؟ قال ابن عباس : لرجل غني يعمل بطاعة الله ، ثم بعث الله له الشيطان فعمل بالمعاصي حتى أغرق أعماله . وفي هذا الحديث كفاية في تفسير هذه الآية ، وتبين ما فيها من المثل بعمل من أحسن العمل أولاً ، بعد ذلك انعكس سيره فبدل الحسنات بالسيئات ، عياداً بالله من ذلك ، فأبطل بعمله الثاني ما أسلفه فيما تقدم من الصالح ، واحتاج إلى شيء من الأول في أضيقت الأحوال فلم يحصل منه شيء ، وخانه أحوج ما كان إليه . ولهذا قال تعالى : ﴿ وأصابه الكبر وله ذرية ضعفاء فأصابها إعصار ﴾ وهو الريح الشديد ﴿ فيه نار فاحترقت ﴾ أي أحرق ثمارها وأباد أشجارها فأني حال يكون حاله ؟

وقد روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : ضرب الله مثلاً حسناً - وكل أمثاله حسن - قال : ﴿ أيود أحدكم أن تكون له جنة من نجيل وأعنان تجري من تحتها الأنهار له فيها من كل الثمرات ﴾ ، يقول : صنعه في شببته ، ﴿ وأصابه الكبر ﴾ وولده وذريته ضعاف عند آخر عمره ، فجاءه إعصار فيه نار فاحترق بستانه فلم يكن عنده قوة أن يغرس مثله ، ولم يكن عند نسله خير يعودون به عليه ، وكذلك الكافر يكون يوم القيامة إذا رُدَّ إلى الله عز وجل ليس له خير فيستعجب ، كما ليس لهذا قوة فيغرس مثل بستانه ، ولا يجده قدم لنفسه خيراً يعود عليه ، كما لم يغن عن هذا

ولده وحرّم أجره عند أفقر ما كان إليه، كما حرّم هذا جنته عندما كان أفقر ما كان إليها عند كبره وضعف ذريته. وكان رسول الله ﷺ يقول في دعائه: « اللهم اجعل أوسع رزقك عليّ عند كبر سني وانقضاء عمري »، ولهذا قال تعالى: ﴿ كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون ﴾ أي تعتبرون وتفهمون الأمثال والمعاني وتترلوها على المراد منها، كما قال تعالى: ﴿ وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون ﴾ .

يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنفَقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا ءَأُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٢٦٩﴾

يأمر تعالى عباده المؤمنين بالإنفاق والمراد به الصدقة ههنا من طيبات ما رزقهم من الأموال التي اكتسبوها، يعني التجارة بتسييره إياها لهم، وقال علي والسدي: ﴿ من طيبات ما كسبتم ﴾ يعني الذهب والفضة، ومن الثمار والزرع التي أنبتا لهم من الأرض، قال ابن عباس: أمرهم بالإنفاق من أطيب المال وأجوده وأنفسه ونهاهم عن التصدق برذالة المال ودينه وهو خبيثه فإن الله طيب لا يقبل إلا طيباً، ولهذا قال: ﴿ ولا تيمموا الخبيث ﴾ أي تقصدوا الخبيث، ﴿ منه تنفقون ولستم بأخذيته ﴾: أي لو أعطيتموه ما أخذتموه إلا أن تتغاضوا فيه، فالله أغنى منكم فلا تجعلوا لله ما تكرهون، وقيل معناه: لا تعدلوا عن المال الحلال وتقصدوا إلى الحرام فتجعلوا نفقتكم منه. وعن عبد الله بن مسعود قال، قال رسول الله ﷺ: « إن الله قسم بينكم أخلاقكم كما قسم بينكم أرزاقكم، وإن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الدين إلا لمن أحب، فمن أعطاه الله الدين فقد أحبه، والذي نفسي بيده لا يُسلم عبد حتى يسلم قلبه ولسانه، ولا يؤمن حتى يأمن جاره بوائقه - قالوا: وما بوائقه يا نبي الله؟ قال: غشه وظلمه - ولا يكسب عبد مالا من حرام فينفق منه فيبارك له فيه ولا يتصدق به فيقبل منه ولا يتركه خلف ظهره إلا كان زاده إلى النار، إن الله لا يمحو السيء بالسيء ولكن يمحو السيء بالحسن، إن الخبيث لا يمحو الخبيث »^(١) قال ابن كثير: والصحيح القول الأول.

قال ابن جرير رحمه الله: عن البراء بن عازب رضي الله عنه في قول الله: ﴿ يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ﴾ الآية، قال: نزلت في الأنصار؛ كانت الأنصار إذا كانت أيام جذاذ النخل أخرجت من حيطانها البسر فعلقوه على جبل بين الاسطواتين في مسجد رسول الله ﷺ فيأكل فقراء المهاجرين منه، فيعمد الرجل منهم إلى الحشف فيدخله مع أقناء البسر يظن أن ذلك جائز، فأنزل الله فيمن فعل ذلك: ﴿ ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ﴾^(٢)، وقال ابن أبي حاتم: عن البراء رضي الله عنه ﴿ ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ولستم بأخذيته إلا أن

(١) رواه الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود مرفوعاً . (٢) أخرجه ابن ماجة والحاكم وقال: صحيح على شرط الشيخين .

تغمضوا فيه ﴿ قال: نزلت فينا؛ كنا أصحاب نخل فكان الرجل يأتي من نخله بقدر كثيره وقتله، فيأتي الرجل بالقنو فيعلقه في المسجد، وكان أهل الصفة ليس لهم طعام، فكان أحدهم إذا جاع جاء فضربه بعصاه فسقط منه البسر والتمر، فيأكل وكان أناس ممن لا يرغبون في الخير يأتي بالقنو الحشف والشيص، فيأتي بالقنو قد انكسر فيعلقه فنزلت: ﴿ ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ولستم بأخذيه إلا أن تغمضوا فيه ﴾ قال: لو أن أحدكم أهدي له مثل ما أعطى ما أخذ إلا على إغماض وحياء، فكنا بعد ذلك يجيء الرجل منا بصالح ما عنده^(١).

وعن عبد الله بن مغفل في هذه الآية ﴿ ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ﴾ قال: (كسب المسلم لا يكون خبيثاً، ولكن لا يصدق بالحشف والدرهم الزيف وما لا خير فيه)^(٢)، وقال الإمام أحمد عن عائشة قالت: أتني رسول الله ﷺ بضب فلم يأكله ولم ينه عنه قلت: يا رسول الله نطعمه المساكين؟ قال: « لا تطعموهم مما لا تأكلون ». وعن البراء ﴿ ولستم بأخذيه إلا أن تغمضوا فيه ﴾ يقول: لو كان لرجل على رجل فأعطاه ذلك لم يأخذه إلا أن يرى أنه قد نقصه من حقه؟^(٣)، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: ﴿ ولستم بأخذيه إلا أن تغمضوا فيه ﴾ يقول: لو كان لكم على أحد حق فجاءكم بحق دون حقكم لم تأخذوه بحساب الجيد حتى تنقصوه فكيف ترضون لي ما لا ترضون لأنفسكم، وحقي عليكم من أطيب أموالكم وأنفسه؟

وقوله تعالى: ﴿ واعلموا أن الله غني حميد ﴾ أي وإن أمركم بالصدقات وبالطيب منها فهو غني عنها، وما ذاك إلا أن يساوي الغني الفقير، كقوله: ﴿ لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم ﴾ وهو غني عن جميع خلقه، وجميع خلقه فقراء إليه. وهو واسع الفضل لا ينفد ما لديه، فمن تصدق بصدقة من كسب طيب فليعلم أن الله غني واسع العطاء كريم؛ جواد، وسيجزيه بها ويضاعفها له أضعافاً كثيرة، من يقرض غير عديم ولا ظلم، وهو الحميد: أي المحمود في جميع أفعاله وأقواله وشرعه وقدره، لا إله إلا هو ولا رب سواه.

وقوله تعالى: ﴿ الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً والله واسع عليم ﴾، قال ابن أبي حاتم عن عبد الله بن مسعود قال، قال رسول الله ﷺ: « إن للشيطان لمة بآدم وللملك لمة، فأما لمة الشيطان فإبعاد بالشر وتكذيب بالحق، وأما لمة الملك فإبعاد بالخير وتصديق بالحق، فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله فليحمد الله، ومن وجد الأخرى فليتعوذ من الشيطان » ثم قرأ: ﴿ الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً ﴾^(٤) الآية. ومعنى قوله تعالى: ﴿ الشيطان يعدكم الفقر ﴾ أي يخوفكم الفقر لتمسكوا ما بأيديكم فلا تنفقوه في مرضاة الله، ﴿ ويأمركم بالفحشاء ﴾: أي مع نهيه إياكم عن الإنفاق خشية الإملاق، يأمركم بالمعاصي والمآثم والمحارم ومخالفة الخلاق، قال تعالى: ﴿ والله يعدكم مغفرة منه ﴾ أي في مقابلة ما أمركم الشيطان بالفحشاء، ﴿ وفضلاً ﴾ أي في مقابلة ما خوفكم الشيطان من الفقر ﴿ والله واسع عليم ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ يوئيء الحكمة من يشاء ﴾، قال ابن عباس: يعني المعرفة بالقرآن ناسخه ومنسوخه ومحكمه

(١) رواه ابن أبي حاتم والترمذي، وقال الترمذي: حسن غريب. (٢) رواه ابن أبي حاتم عن عبد الله بن مغفل.

(٣) رواه ابن جرير عن البراء بن عازب. (٤) رواه ابن أبي حاتم والترمذي والنسائي وابن حبان.

ومتشابهه ومقدمه ومؤخره وحلاله وحرامه وأمثاله . وقال مجاهد: ﴿الحكمة﴾ ليست بالنبوة ولكنه العلم والفقه والقرآن، وقال أبو العالية: الحكمة خشية الله، فإن خشية الله رأس كل حكمة، وقد روى ابن مردويه عن ابن مسعود مرفوعاً: «رأس الحكمة مخافة الله»، وقال أبو مالك: الحكمة السنة . وقال زيد بن أسلم: الحكمة العقل . قال مالك: وإنه ليقع في قلبي أن الحكمة هو الفقه في دين الله، وأمر يدخله في القلوب من رحمته وفضله، ومما بين ذلك أنك تجد الرجل عاقلاً في أمر الدنيا إذا نظر فيها، وتجد آخر ضعيفاً في أمر دنياه عالماً بأمر دينه بصيراً به، يؤتيه الله إياه ويحرمه هذا، فالحكمة: الفقه في دين الله . وقال السدي: الحكمة النبوة . والصحيح أن الحكمة لا تختص بالنبوة بل هي أعم منها وأعلاها النبوة، والرسالة أخص، ولكن لأتباع الأنبياء حظ من الخير على سبيل التبع، كما جاء في بعض الأحاديث: «من حفظ القرآن فقد أدرجت النبوة بين كتفيه غير أنه لا يوحى إليه»^(١) . وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «لا حسد إلا في اثنتين رجل آتاه الله مالاً فسلطه علىهلكته في الحق ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها»^(٢) .

وقوله تعالى: ﴿وما يذكر إلا أولو الأبواب﴾ أي وما ينتفع بالموعظة والتذكير إلا من له لب وعقل، يعي به الخطاب ومعنى الكلام .

وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهَا وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿٢٧٠﴾ إِنْ تَبَدُّوا أَلْصَدَقَاتِ فَنِعْمًا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُوتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾

يخبر تعالى بأنه عالم بجميع ما يفعله العاملون من الخيرات من النفقات والمنذورات، وتضمن ذلك مجازاته على ذلك أوفر الجزاء للعاملين لذلك ابتغاء وجهه ورجاء موعوده . وتوعد من لا يعمل بطاعته بل خالف أمره وكذب خبره وعبد معه غيره، فقال: ﴿وما للظالمين من أنصار﴾ أي يوم القيامة يتقنونهم من عذاب الله ونقمته .

وقوله تعالى: ﴿إن تبدوا الصدقات فنعما هي﴾ أي إن أظهرتموها فنعمة شيء هي، وقوله تعالى: ﴿وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم﴾ فيه دلالة على أن إسرار الصدقة أفضل من إظهارها، لأنه أبعد عن الرياء، إلا أن يترتب على الإظهار مصلحة راجحة من اقتداء الناس به، فيكون أفضل من هذه الحيثية . وقال رسول الله ﷺ: «الجاهر بالقرآن كالجاهر بالصدقة والمسر بالقرآن كالمسر بالصدقة» . والأصل: أن الإسرار أفضل لهذه الآية، ولما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة قال، قال رسول الله ﷺ: «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل، وشاب نشأ في عبادة الله، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجل قلبه معلق بالمسجد إذا خرج منه حتى يرجع إليه، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه، ورجل دعت امرأة ذات منصب وجمال

(١) رواه وكيع بن الجراح في تفسيره عن عبدالله بن عمر .

(٢) رواه البخاري ومسلم والنسائي .

فقال : إني أخاف الله رب العالمين ، ورجل تصدَّق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه .

وفي الحديث المروي : « صدقة السر تطفئ غضب الرب عز وجل » ، وقال ابن أبي حاتم في قوله : ﴿ إن تبذروا الصدقات فنعما هي وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم ﴾ قال : أنزلت في أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ، أما عمر فجاء بنصف ماله حتى دفعه إلى النبي ﷺ ، فقال له النبي ﷺ : « ما خلَّفت وراءك لأهلك يا عمر ؟ » قال : خلَّفتُ لهم نصف مالي ، وأما أبو بكر فجاء بماله كله يكاد أن يخفيه من نفسه حتى دفعه إلى النبي ﷺ ، فقال له النبي ﷺ : « ما خلَّفت وراءك لأهلك يا أبا بكر ؟ » فقال : عدة الله وعدة رسوله ، فبكى عمر رضي الله عنه وقال : (بأبي أنت وأمي يا أبا بكر والله ما استبقنا إلى باب خير قط إلا كنت سابقاً) . ثم إن الآية عامة في أن إخفاء الصدقة أفضل سواء كانت مفروضة أو مندوبة . لكن روى ابن جرير عن ابن عباس في تفسير هذه الآية قال : جعل الله صدقة السر في التطوع تفضل علانيتها بسبعين ضعفاً ، وجعل صدقة الفريضة علانيتها أفضل من سرها يقال بخمسة وعشرين ضعفاً .

وقوله تعالى : ﴿ ويكفر عنكم من سيئاتكم ﴾ أي بدل الصدقات ولا سيما إذا كانت سرّاً يحصل لكم الخير في رفع الدرجات ويكفر عنكم السيئات ، وقوله : ﴿ والله بما تعملون خبير ﴾ أي لا يخفى عليه من ذلك شيء وسيجزىكم عليه .

* لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَأَنْفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾ لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أَحْصَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾

عن ابن عباس قال : كانوا يكرهون أن يرضخوا لأنسابهم من المشركين فرخص لهم فتزلت هذه الآية : ﴿ ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء ﴾ (١) الآية . وعن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن النبي ﷺ أنه كان يأمر بأن لا يتصدق إلا على أهل الإسلام حتى نزلت هذه الآية ﴿ ليس عليك هداهم ﴾ إلى آخرها ، فأمر بالصدقة بعدها على كل من سألك من كل دين (٢) .

وقوله تعالى : ﴿ وما تنفقوا من خير فلا أنفسكم ﴾ ، كقوله : ﴿ من عمل صالحاً فلنفسه ﴾ ونظائرها في القرآن

(١) رواه النسائي .

(٢) رواه ابن أبي حاتم .

كثيرة، وقوله: ﴿وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله﴾، قال الحسن البصري: نفقة المؤمن لنفسه، ولا ينفق المؤمن إذا أنفق إلا ابتغاء وجه الله. وقال عطاء الخراساني: يعني إذا أعطيت لوجه الله فلا عليك ما كان عمله، وهذا معنى حسن، وحاصله: أن المتصدق إذا تصدق ابتغاء وجه الله فقد وقع أجره على الله، ولا عليه في نفس الأمر لمن أصاب: ألبير أو فاجر، أو مستحق أو غيره، وهو ماثب على قصده، ومستند هذا تمام الآية: ﴿وما تنفقوا من خير يوف إليكم وأنتم لا تظلمون﴾، والحديث المخرج في الصحيحين عن أبي هريرة قال، قال رسول الله ﷺ: «قال رجل لأتصدقن الليلة بصدقة، فخرج بصدقته فوضعها في يد زانية، فأصبح الناس يتحدثون: تُصدق على زانية، فقال: اللهم لك الحمد على زانية! لأتصدقن الليلة بصدقة، فوضعها في يد غني، فأصبحوا يتحدثون: تُصدق على غني، قال: اللهم لك الحمد على غني! لأتصدقن الليلة بصدقة، فخرج فوضعها في يد سارق، فأصبحوا يتحدثون: تصدق الليلة على سارق فقال: اللهم لك الحمد على زانية وعلى غني وعلى سارق، فأني فقيل له: أما صدقتك فقد قبلت، وأما الزانية فلعلها أن تستعفف بها عن زنا، ولعل الغني يعتبر فينفق مما أعطاه الله، ولعل السارق أن يستعفف بها عن سرقة»^(١).

وقوله تعالى: ﴿للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله﴾ يعني المهاجرين الذين قد انقطعوا إلى الله وإلى رسوله وسكنوا المدينة، وليس لهم سبب يردون به على أنفسهم ما يغنيهم، و﴿لا يستطيعون ضرباً في الأرض﴾ يعني سفيراً للتسبب في طلب المعاش. والضرب في الأرض: هو السفر. قال الله تعالى: ﴿وإذا ضربتم في الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة﴾، وقال تعالى: ﴿وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله﴾ الآية. وقوله تعالى: ﴿يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف﴾ أي الجاهل بأمرهم وحالمهم، يحسبهم أغنياء من تعففهم في لباسهم وحالمهم ومقالمهم، وفي هذا المعنى الحديث المتفق على صحته عن أبي هريرة قال، قال رسول الله ﷺ: «ليس المسكين بهذا الطواف التي ترده التمرة والتمران، واللقمة واللقمتان، والأكلة والأكلتان، ولكن المسكين الذي لا يجد غنى يغنيه، ولا يظن له فيتصدق عليه، ولا يسأل الناس شيئاً».

وقوله تعالى: ﴿تعرفهم بسيماهم﴾: أي بما يظهر لذوي الأبواب من صفاتهم، كما قال تعالى: ﴿سماهم في وجوههم﴾، وقال: ﴿ولتعرفهم في لحن القول﴾. وفي الحديث: «اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله»، ثم قرأ: ﴿إن في ذلك لآيات للمتوسمين﴾^(٢).

وقوله تعالى: ﴿لا يسألون الناس إلحافاً﴾ أي لا يلحون في المسألة، ويكلفون الناس ما لا يحتاجون إليه، فإن من سأل وله ما يغنيه عن المسألة فقد ألحف في المسألة. قال رسول الله ﷺ: «ليس المسكين الذي ترده التمرة والتمران، ولا اللقمة واللقمتان، إنما المسكين الذي يتعفف». اقرأوا إن شئتم: يعني قوله: ﴿لا يسألون الناس إلحافاً﴾^(٣). وقال الإمام أحمد عن رجل من مزينة، أنه قالت له أمه: ألا تنطلق فتسأل رسول الله ﷺ كما يسأله الناس، فانطلقت أسأله فوجدته قائماً يخطب، وهو يقول: «ومن استعفف أعفه الله، ومن استغنى أغناه الله،

(١) أخرجه الشيخان عن أبي هريرة .

(٢) رواه أصحاب السنن .

(٣) رواه البخاري ومسلم ، واللفظ للبخاري .

ومن يسأل الناس وله عدل خمس أواق فقد سأل الناس إلحافاً»، فقلت بيني وبين نفسي لنا ناقة لهي خير من خمس أواق، ولغلامه ناقة أخرى فهي خير من خمس أواق، فرجعت ولم أسأل. وعن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «من سأل وله ما يغنيه جاءت مسألته يوم القيامة خلوياً أو كدوحاً في وجهه». قالوا: يا رسول الله وما غناه؟ قال: «خمسون درهماً أو حسابها من الذهب»^(١). وقوله: ﴿وما تنفقوا من خير فإن الله به عليم﴾ أي لا يخفى عليه شيء منه، وسيجزى عليه أوفر الجزاء وأتمه يوم القيامة أحوج ما يكون إليه.

وقوله تعالى: ﴿الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرّاً وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾، هذا مدح منه تعالى للمنفقين في سبيله وابتغاء مرضاته، في جميع الأوقات من ليل أو نهار، والأحوال من سر وجهر، حتى إن النفقة على الأهل تدخل في ذلك أيضاً كما ثبت في الصحيحين، أن رسول الله ﷺ قال لسعد بن أبي وقاص حين عاده مريضاً عام الفتح، وفي رواية عام حجة الوداع: «إنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا ازددت بها درجة ورفعة حتى ما تجعل في في امرأتك». وعن النبي ﷺ أنه قال: «إن المسلم إذا أنفق على أهله نفقة يحسبها كانت له صدقة»^(٢). وقال ابن جبير عن أبيه: كان لعلي أربعة دراهم فأنفق درهماً ليلاً ودرهماً نهاراً، ودرهماً سرّاً ودرهماً علانية، فترلت: ﴿الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرّاً وعلانية﴾^(٣). وقوله: ﴿فلهم أجرهم عند ربهم﴾ أي يوم القيامة على ما فعلوا من الإنفاق في الطاعات، ﴿ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ تقدم تفسيره.

الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧٥﴾

لما ذكر تعالى الأبرار المؤدين النفقات، المخرجين الزكوات، المتفضلين بالبر والصدقات لذوي الحاجات والقربات، في جميع الأحوال والأوقات، شرع في ذكر أكلة الربا وأموال الناس بالباطل وأنواع الشبهات، وأخبر عنهم يوم خروجهم من قبورهم وقيامهم منها إلى بعثهم ونشورهم، فقال: ﴿الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس﴾، أي لا يقومون من قبورهم يوم القيامة إلا كما يقوم المصروع حال صرعه وتخبط الشيطان له، وذلك أنه يقوم قياماً منكراً. وقال ابن عباس: آكل الربا يبعث يوم القيامة مجنوناً يخفق، وحكي عن عبد الله بن عباس وعكرمة والحسن وقتادة أنهم قالوا في قوله تعالى: ﴿الذين يأكلون الربا

(١) رواه أحمد وأصحاب السنن.

(٢) رواه أحمد والشيخان.

(٣) رواه ابن أبي وابن مردويه.

لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس ﴿ يعني لا يقومون يوم القيامة، وقال ابن جرير عن ابن عباس قال: يقال يوم القيامة لآكل الربا خذ سلاحك للحرب، وقرأ: ﴿ الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس ﴾ وذلك حين يقوم من قبره . وقال رسول الله ﷺ: « أتيت ليلة أسري بي على قوم بطونهم كالبيوت فيها الحيات تجري من خارج بطونهم، فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء آكلة الربا»^(١). وعن سمرة بن جندب في حديث المنام الطويل: (فأتينا على نهر - حسبنا أنه كان يقول أحمر مثل الدم - وإذا في النهر رجل سابح يسبح، وإذا على شط النهر رجل قد جمع عنده حجارة كثيرة، وإذا ذلك السابح يسبح ثم يأتي ذلك الذي قد جمع الحجارة عنده فيفغر له فاه فيلقمه حجراً - وذكر في تفسيره - أنه آكل الربا) ^(٢).

وقوله تعالى: ﴿ ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا، وأحل الله البيع وحرم الربا ﴾، أي إنما جوزوا بذلك لاعتراضهم على أحكام الله في شرعه، وليس هذا قياساً منهم للربا على البيع، لأن المشركين لا يعترفون بمشروعية أصل البيع الذي شرعه الله في القرآن، ولو كان هذا من باب القياس لقالوا: إنما الربا مثل البيع، وإنما قالوا: ﴿ إنما البيع مثل الربا ﴾ أي هو نظيره، فلم حرم هذا وأبيح هذا؟ وهذا اعتراض منهم على الشرع، أي هذا مثل هذا، وقد أحل هذا وحرم هذا. وقوله تعالى: ﴿ وأحل الله البيع وحرم الربا ﴾ يحتمل أن يكون من تمام الكلام رداً عليهم، أي على ما قالوه من الاعتراض مع علمهم بتفريق الله بين هذا وهذا حكماً، وهو العلم الحكيم الذي لا معقب لحكمه ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون، وهو العالم بحقائق الأمور ومصالحها وما ينفع عباده فيبيحه لهم، وما يضرهم فينهاهم عنه، وهو أرحم بهم من الوالدة بولدها الطفل. ولهذا قال: ﴿ فن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف وأمره إلى الله ﴾ أي من بلغه نهي الله عن الربا فانتهى حال وصول الشرع إليه فله ما سلف من المعاملة، لقوله: ﴿ عفا الله عما سلف ﴾. وكما قال النبي ﷺ يوم فتح مكة: « وكل ربا في الجاهلية موضوع تحت قدمي هاتين وأول ربا أضع ربا العباس »، ولم يأمرهم برد الزيادات المأخوذة في حال الجاهلية بل عفا عما سلف كما قال تعالى: ﴿ فله ما سلف وأمره إلى الله ﴾. قال سعيد بن جبير والسدي: ﴿ فله ما سلف ﴾ ما كان أكل من الربا قبل التحريم، وقال ابن أبي حاتم عن أم يونس العالية بنت أبقع، أن عائشة زوج النبي ﷺ قالت لها (أم بحنة) أم ولد زيد بن أرقم: يا أم المؤمنين أتعرفين زيد بن أرقم؟ قالت: نعم، قالت: فإني بعته عبداً إلى العطاء بثمانمائة، فاحتاج إلى ثمنه فاشتريته قبل محل الأجل بستائة، فقالت: بشس ما شريت، وبشس ما اشتريت أبلغني يداً أنه قد أبطل جهاده مع رسول الله ﷺ، قد بطل إن لم يتب. قالت، فقلت: رأيت إن تركت المائتين أخذت الستائة؟ قالت: نعم ﴿ فن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف ﴾، وهذا الأثر مشهور. وهو دليل لن حرم (مسألة العينة)^(٣) مع ما جاء فيها من الأحاديث المذكورة المقررة في كتاب الأحكام والله الحمد والمنة .

ثم قال تعالى: ﴿ ومن عاد ﴾ أي إلى الربا ففعله بعد بلوغه نهي الله عنه فقد استوجب العقوبة وقامت عليه

(١) رواه ابن أبي حاتم وأحمد . (٢) رواه البخاري .

(٣) العينة: أن يبيعه شيئاً إلى أجل، ثم يشتريه منه تقدماً بأقل مما باعه، وفي هذا شبهة التحايل على أكل الربا نسألها تعالى السلامة

الحجة، ولهذا قال: ﴿ فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾، وقد قال أبو داود، عن جابر قال: لما نزلت: ﴿ الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس ﴾ قال رسول الله ﷺ: « من لم يذر المخابرة فليؤذن بحرب من الله ورسوله »، وإنما حرمت (المخابرة) وهي المزارعة ببعض ما يخرج من الأرض، و (المزابنة) وهي اشتراء الرطب في رؤوس النخل بالتمر على وجه الأرض، و (المحاقلة) وهي اشتراء الحب في سنبه في الحقل بالحب على وجه الأرض، إنما حرمت هذه الأشياء وما شاكلها حسماً لمادة الربا، لأنه لا يعلم التساوي بين الشئين قبل الجفاف، ولهذا قال الفقهاء: الجهل بالمماثلة كحقيقة المفاضلة، ومن هذا حرموا أشياء بما فهموا من تضيق المسالك المفضية إلى الربا والوسائل الموصلة إليه، وتفاوت نظرهم بحسب ما وهب الله لكل منهم من العلم، وقد قال تعالى: ﴿ وفوق كل ذي علم علم ﴾.

وباب الربا من أشكال الأبواب على كثير من أهل العلم، وقد قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه: (ثلاث وددت أن رسول الله ﷺ عهد إلينا فيهن عهداً تنتهي إليه: الجدد، والكلالة، وأبواب من أبواب الربا)، يعني بذلك بعض المسائل التي فيها شائبة الربا، والشريعة شاهدة بأن كل حرام فالوسيلة إليه مثله، لأن ما أفضى إلى الحرام حرام، كما أن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، وقد ثبت في الصحيحين عن النعمان ابن بشير قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « إن الحلال بين والحرام بين، وبين ذلك أمور مشتبهات. فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام، كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه ». وفي السنن عن الحسن بن علي رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « دع ما يريبك إلى ما لا يريبك »، وفي الحديث الآخر: « الإثم ما حاك في القلب، وترددت فيه النفس، وكرهت أن يطلع عليه الناس ». وفي رواية: « استفت قلبك وإن أفنك الناس وأفنوك ». وقال ابن عباس: آخر ما نزل على رسول الله ﷺ آية الربا. وعن أبي سعيد الخدري قال: خطبنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: (إني لعلي أنهاكم عن أشياء تصلح لكم، وأمركم بأشياء لا تصلح لكم، وإن من آخر القرآن نزولاً آية الربا، وإنه قد مات رسول الله ﷺ ولم يبينه لنا، فدعوا ما يريبكم إلى ما لا يريبكم)^(١). وعن النبي ﷺ قال: « الربا ثلاثة وسبعون باباً ». وعن أبي هريرة قال، قال رسول الله ﷺ: « الربا سبعون جزءاً أيسرها أن ينكح الرجل أمه »^(٢)، وقال الإمام أحمد عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: « يأتي على الناس زمان يأكلون فيه الربا ». قال، قيل له: الناس كلهم؟ قال: « من لم يأكله منهم ناله من غباره ».

ومن هذا القبيل تحريم الوسائل المفضية إلى المحرمات الحديث الذي روي عن عائشة، قالت: (لما نزلت الآيات من آخر سورة البقرة في الربا قرأها رسول الله ﷺ على الناس ثم حرم التجارة في الخمر) قال بعض من تكلم على هذا الحديث من الأئمة: لما حرم الربا ووسائله حرم الخمر وما يفضي إليه من تجارة ونحو ذلك، كما قال عليه السلام في الحديث المتفق عليه: « لعن الله اليهود حرمت عليهم الشحوم فجمعوها فباعوها وأكلوا

(١) رواه ابن ماجه وابن مردويه. (٢) رواه ابن ماجه والحاكم عن ابن مسعود وزاد الحاكم: وإن أربى الربا عرض الرجل المسلم.

(٣) أجملوه وجملوه أي أذابوه.

أثمانها . وقوله ﷺ : « لعن الله آكل الربا وموكله وشاهديه وكتابه » ، قالوا : وما يُشهد عليه ويُكتب ، إلا إذا أظهر في صورة عقد شرعي ويكون داخله فاسداً ، فالاعتبار بمعناه لا بصورته ، لأن الأعمال بالنيات . وفي الصحيح : « إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أموالكم وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم » ، وقد صنف الإمام العلامة أبو العباس (ابن تيمية) كتاباً في إبطال التحليل ، تضمن النهي عن تعاطي الوسائل المفضية إلى كل باطل ، وقد كفى في ذلك وشفى ، فرحمه الله ورضي عنه .

يَمْحَقُ اللَّهُ الرَّبْوَ وَيُرِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَءَاتَوْا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾

يخبر تعالى أنه يمحق الربا أي يذهب ، إما بأن يذهبه بالكلية من يد صاحبه ، أو يحرمه بركة ماله ، فلا ينتفع به بل يعدمه به في الدنيا ، ويعاقبه عليه يوم القيامة ، كما قال تعالى : ﴿ قل لا يستوي الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث ﴾ . وقال تعالى : ﴿ ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعاً فيجعله في جهنم ﴾ ، وقال : ﴿ وما آتيتم من ربا ليربو في أموال الناس فلا يربو عند الله ﴾ الآية . وقال ابن جرير : في قوله : ﴿ يمحق الله الربا ﴾ وهذا نظير الخبر الذي روي عن عبد الله بن مسعود أنه قال : (الربا وإن كثر فإن عاقبته تصير إلى قل) وهذا الحديث قد رواه الإمام أحمد في مسنده عن ابن مسعود عن النبي ﷺ قال : « إن الربا وإن كثر فإن عاقبته تصير إلى قل » ، وهذا من باب المعاملة بنقيض المقصود كما قال ﷺ : « من احتكر على المسلمين طعامهم ضربه الله بالإفلاس والجذام » .

وقوله تعالى : ﴿ ويربي الصدقات ﴾ قرئ بضم الياء والتخفيف من ربا الشيء يربو أي كثره ونمّاه ، وقرئ (يربي) بالضم والتشديد من التربية . قال البخاري عن أبي هريرة قال ، قال رسول الله ﷺ : « من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب ، ولا يقبل الله إلا الطيب ، فإن الله يتقبلها بيمينه ثم يربّيها لصاحبها كما يربّي أحدكم فلوه حتى يكون مثل الجبل »^(١) . وقال رسول الله ﷺ : « إن الله عزّ وجلّ يقبل الصدقة ويأخذها بيمينه فيربّيها لأحدكم كما يربّي أحدكم مهره أو فلوه حتى إن اللقمة لتصير مثل أحد » وتصديق ذلك في كتاب الله : ﴿ يمحق الله الربا ويربي الصدقات ﴾^(٢) .

وعن أبي هريرة قال ، قال رسول الله ﷺ : « إن العبد إذا تصدق من طيب يقبلها الله منه ، فيأخذها بيمينه ويربّيها كما يربّي أحدكم مهره أو فصيله ، وإن الرجل ليتصدق باللقمة فتربو في يد الله ، أو قال : في كف الله ، حتى تكون مثل أحد فتصدقوا »^(٣) ، وعن عائشة ، أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله ليربّي لأحدكم التمرة واللقمة كما يربّي أحدكم فلوه أو فصيله حتى يكون مثل أحد »^(٤) ، وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « إن الرجل

(١) رواه البخاري في كتاب الزكاة وأخرجه مسلم بنحوه . (٢) رواه أحمد والترمذي وقال : حسن صحيح .

(٣) رواه أحمد ، قال ابن كثير : صحيح الإسناد ولكن لفظه عجيب . (٤) رواه أحمد وقد تفرد به من هذا الوجه .

ليصدق بالصدقة من الكسب الطيب، ولا يقبل الله إلا الطيب، فيتلقاها الرحمن بيده فيريها كما يري أحدكم فلوه أو وصيفه ﴿٢٧٨﴾ .

وقوله تعالى: ﴿والله لا يحب كل كفار أثيم﴾ أي لا يحب كفور القلب، أثيم القول والفعل، ولا بد من مناسبة في ختم هذه الآية بهذه الصفة، وهي أن المرابي لا يرضى بما قسم الله له من الحلال، ولا يكتفي بما شرع له من الكسب المباح، فهو يسعى في أكل أموال الناس بالباطل بأنواع المكاسب الخبيثة، فهو جحود لما عليه من النعمة، ظلم آثم بأكل أموال الناس بالباطل. ثم قال تعالى مادحاً للمؤمنين بربهم، المطيعين أمره، المؤدين شكره، المحسنين إلى خلقه في إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، مخبراً عما أعد لهم من الكرامة وأنهم يوم القيامة من التبعات آمنون، فقال: ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ .

يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾

يقول تعالى أمراً عباده المؤمنين بتقواه، ناهياً لهم عما يقربهم إلى سخطه ويبعدهم عن رضاه، ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله﴾ أي خافوه وراقبوه فيما تفعلون، ﴿وذروا ما بقي من الربا﴾ أي اتركوا ما لكم على الناس من الزيادة على رؤوس الأموال بعد هذا الإنذار، ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ أي بما شرع الله لكم من تحليل البيع وتحريم الربا وغير ذلك. وقد ذكروا أن هذا السياق نزل في (بني عمرو بن عمير) من ثقيف و (بني المغيرة) من بني مخزوم، كان بينهم ربا في الجاهلية، فلما جاء الإسلام ودخلوا فيه طلبت ثقيف أن تأخذ منهم، فتشاوروا وقالت بنو المغيرة: لا تؤدي الربا في الإسلام بكسب الإسلام، فكتب في ذلك (عتاب بن أسيد) نائب مكة إلى رسول الله ﷺ فتزلت هذه الآية، فكتب بها رسول الله ﷺ إليه: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين﴾ فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله ﴿فقالوا: تنوب إلى الله، ونذر ما بقي من الربا فتركوه كلهم﴾. وهذا تهديد شديد ووعد أكيد، لمن استمر على تعاطي الربا بعد الإنذار، قال ابن عباس: ﴿فأذنوا بحرب﴾ أي استيقنوا بحرب من الله ورسوله، وتقدم عن ابن عباس قال: يقال يوم القيامة لآكل الربا: خذ سلاحك للحرب، ثم قرأ: ﴿فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله﴾^(١)، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: ﴿فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله﴾ فمن كان مقيماً على الربا لا يتزع عنه كان حقاً على

(٢) ذكره ابن جرير ومقاتل والسدي .

(١) رواه البزار عن أبي هريرة مرفوعاً .

(٣) أخرجه ابن جرير عن ابن عباس .

إمام المسلمين أن يستتبه، فإن نزع وإلا ضرب عنقه. وقال قتادة: أوعدهم الله بالقتل كما يسمعون وجعلهم بهرجاء^(١) أين ما أتوا، فإياكم ومخالطة هذه البيوع من الربا، فإن الله قد أوسع الحلال وأطابه، فلا يلجئنكم إلى معصيته فاقه^(٢).

ثم قال تعالى: ﴿وإن تبتم فلکم رؤوس أموالکم لا تظلمون﴾ أي بأخذ الزيادة ﴿ولا تظلمون﴾ أي بوضع رؤوس الأموال أيضاً بل لكم ما بذلتكم من غير زيادة عليه ولا نقص منه، خطب رسول الله ﷺ في حجة الوداع فقال: «ألا إن كل ربا كان في الجاهلية موضوع عنكم كله، لكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون، وأول ربا موضوع ربا العباس بن عبد المطلب موضوع كله»^(٣).

وقوله تعالى: ﴿وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة وأن تصدقوا خير لكم إن كنتم تعلمون﴾، يأمر تعالى بالصبر على المعسر الذي لا يجد وفاء، فقال: ﴿وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة﴾ لا كما كان أهل الجاهلية يقول أحدهم لمدينه إذا حل عليه الدين: إما أن تقضي وإما أن تربي، ثم يندب إلى الوضع عنه ويعد على ذلك الخير والثواب الجزيل، فقال: ﴿وأن تصدقوا خير لكم إن كنتم تعلمون﴾ أي وأن تركوا رأس المال بالكلية وتضعوه عن المدين. وقد وردت الأحاديث من طرق متعددة عن النبي ﷺ بذلك.

(فالحديث الأول) : عن أبي أمامة أسعد بن زرارَةَ قال، قال رسول الله ﷺ: «من سرّه أن يظله الله يوم لا ظل إلا ظله فليسر على معسر أو ليضع عنه»^(٤). (حديث آخر) : عن محمد بن كعب القرظي أن أبا قتادة كان له دين على رجل، وكان يأتيه يتقاضاه فيختبئ منه، فجاء ذات يوم فخرج صبي فسأله عنه، فقال: نعم هو في البيت يأكل خزيرة، فناده فقال: يا فلان اخرج فقد أخبرت أنك هاهنا، فخرج إليه فقال: ما يُغيبك عني؟ فقال: إني معسر وليس عندي، قال: آله إنك معسر؟ قال: نعم. فبكى أبو قتادة، ثم قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من نفس عن غريمه أو محا عنه كان في ظل العرش يوم القيامة»^(٥). (حديث آخر) : عن حذيفة بن اليمان قال، قال رسول الله ﷺ: «أتى الله بعد من عبده يوم القيامة قال: ماذا عملت لي في الدنيا؟ فقال: ما عملت لك يا رب مثقال ذرة في الدنيا أرجوك بها - قالها ثلاث مرات - قال العبد عند آخرها: يا رب إنك كنت أعطيتني فضل مال، وكنت رجلاً أبايع الناس، وكان من خلقي الجواز، فكنت أيسر على الموسر وأنظر المعسر، قال، فيقول الله عز وجل: أنا أحق من يسر، أدخل الجنة»^(٦). ولفظ البخاري عن النبي ﷺ قال: «كان تاجر يداين الناس، فإذا رأى معسراً قال لفتيانه: تجاوزوا عنه لعل الله يتجاوز عنا، فتجاوز الله عنه» (حديث آخر) : عن عبد الله بن سهل بن حنيف أن سهلاً حدثه أن رسول الله ﷺ قال: «من

(١) أي دماؤهم مهدورة .

(٢) رواه ابن أبي حاتم .

(٣) رواه ابن أبي حاتم .

(٤) رواه الطبراني .

(٥) أخرجه البخاري ومسلم وابن ماجه .

(٦) رواه أحمد والإمام مسلم .

أعان مجاهداً في سبيل الله أو غازياً أو غارماً في عسرتة أو مكاتباً في رقبته أظله الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله»^(١).

(حديث آخر) : أخرج مسلم في صحيحه من حديث عبادة بن الصامت قال : خرجت أنا وأبي نطلب العلم في هذا الحي من الأنصار قبل أن يهلكوا، فكان أول من لقينا (أبا اليسر) صاحب رسول الله ﷺ ومعه غلام له، معه ضمامة^(٢) من صحف، وعلى أبي اليسر بردة ومعافري^(٣)، وعلى غلامه بردة ومعافري، فقال له أبي : يا عم، إني أرى في وجهك سَعْفَةٌ^(٤) من غضب، قال : أجل كان لي على فلان بن فلان الرامي مال، فأتيت أهله فسلمت فقلت : أتم هو ؟ قالوا : لا، فخرج علي ابن له جَفْرٌ^(٥) فقلت : أين أبوك ؟ فقال : سمع صوتك فدخل أريكة^(٦) أمي، فقلت : اخرج إلي فقد علمت أين أنت، فخرج فقلت : ما حملك على أن اختبأت مني ؟ قال : أنا والله أحدثك ثم لا أكذبك، خشيت والله أن أحدثك فأكذبك أو أعدك فأخلفك، وكنت صاحب رسول الله ﷺ وكنت والله معسراً. قال، قلت : آله. قال : آله ؟ ثم قال : فأتى بصحيفته فحأها بيده ثم قال : فإن وجدت قضاء فاقضني، وإلا فأنت في حل، فأشهد : أبصرَ عينايا هاتان - ووضع أصبعيه على عينيه - وسمعَ أذنايا هاتان ووعاه قلبي - وأشار إلى نياط قلبه - رسول الله ﷺ وهو يقول : « من أنظر معسراً أو وضع عنه أظله الله في ظله » .

(حديث آخر) : عن ابن عباس قال : خرج رسول الله ﷺ إلى المسجد وهو يقول بيده هكذا - وأوماً أبو عبد الرحمن بيده إلى الأرض - : « من أنظر معسراً أو وضع عنه وقاه الله من فيح جهنم، ألا إن عمل الجنة حَزْنٌ^(٧) بربوة - ثلاثاً - ألا إن عمل النار سهل بسهولة^(٨)، والسعيد من وقى الفتن وما من جرعة أحب إلى الله من جرعة غيظ يكظمها عبد، ما كظمها عبد لله إلا ملأ الله جوفه إيماناً^(٩) » .

ثم قال تعالى يعظ عباده ويذكرهم زوال الدنيا وفناء ما فيها من الأموال وغيرها، وإتيان الآخرة والرجوع إليه تعالى، ومحاسبته تعالى خلقه على ما عملوا ومجازاته إياهم بما كسبوا من خير وشر ويحذرهم عقوبته فقال : ﴿ واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ثم توفي كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون ﴾ . وقد روي أن هذه الآية آخر آية نزلت من القرآن العظيم، فقال سعيد بن جبیر : آخر ما نزل من القرآن كله : ﴿ واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ثم توفي كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون ﴾ ، وعاش النبي ﷺ بعد نزول هذه الآية تسع ليال، ثم مات

(١) رواه الحاكم في المستدرک وقال : صحيح الإسناد .

(٢) مجموعة .

(٣) ثوب ينسب إلى حي في همدان .

(٤) طبيعة من غضب .

(٥) كرش واسع .

(٦) سرير فاخر .

(٧) ما غلظ من الأرض .

(٨) أرضة لينة ملائمة .

(٩) تفرد به أحمد .

يوم الاثنين لليلتين خلتا من ربيع الأول. وعن عبد الله بن عباس قال: آخر شيء نزل من القرآن: ﴿وَ اتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾. وقال ابن جريج، قال ابن عباس: آخر آية نزلت: ﴿وَ اتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ الآية. قال ابن جريج: يقولون إن النبي ﷺ عاش بعدها تسع ليالٍ وبدئ يوم السبت ومات يوم الاثنين.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بِيَدِكُمْ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا بِيخْسٍ مِنْهُ شَيْعًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكَّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْمَعُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بِيَدِكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفَعَّلُوا فَإِنَّهُ فَسُقُوكُمْ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾

هذه الآية الكريمة أطول آية في القرآن العظيم، وقد قال الإمام أبو جعفر بن جرير عن سعيد بن المسيب أنه بلغه: أن أحدث القرآن بالعرش آية الدين.

فقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ﴾، هذا إرشاد منه تعالى لعباده المؤمنين، إذا تعاملوا بمعاملات مؤجلة أن يكتبوها، ليكون ذلك أحفظ لمقارها وميقاتها وأضبط للشاهد فيها، وقد نبه على هذا في آخر الآية حيث قال: ﴿ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَنْ لَا تَرْتَابُوا﴾، وقال مجاهد عن ابن عباس في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ﴾. قال: أنزلت في السلم إلى أجل معلوم، وقال قتادة عن ابن عباس: أشهد أن السلف المضمون إلى أجل مسمى أن الله أحله وأذن فيه، ثم قرأ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ رواه البخاري. وثبت في الصحيحين عن ابن عباس قال: قدم النبي ﷺ المدينة وهم يسلفون في الثمار السنة والستين والثلاث، فقال رسول الله ﷺ: «من أسلف فليسلف في كيل معلوم ووزن معلوم إلى أجل معلوم»، وقوله: ﴿فَاكْتُبُوهُ﴾ أمر منه تعالى بالكتابة للتوثق والحفظ، فإن قيل: فقد ثبت في الصحيحين عن عبد الله بن عمر قال، قال رسول الله ﷺ: «إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب» فما الجمع بينه وبين الأمر بالكتابة؟ فالجواب أن الدين من حيث هو غير مفتقر إلى كتابة

أصلاً، لأن كتاب الله قد سهل الله ويسر حفظه على الناس، والسنن أيضاً محفوظة عن رسول الله ﷺ، والذي أمر الله بكتابته إنما هو أشياء جزئية تقع بين الناس، فأمروا أمر إرشاد لا أمر إيجاب، كما ذهب إليه بعضهم. قال ابن جريج: من أذآن فليكتب ومن ابتاع فليشهد، وقال قتادة: ذكر لنا أن (أبا سليمان المرعشي) كان رجلاً صاحب كعباً فقال ذات يوم لأصحابه: هل تعلمون مظلوماً دعا ربه فلم يستجب له؟ فقالوا: وكيف يكون ذلك؟ قال: رجل باع بيعاً إلى أجل فلم يُشهد ولم يكتب، فلما حل ماله جحده صاحبه فدعا ربه فلم يستجب له لأنه قد عصى ربه، وقال الحسن وابن جريج: كان ذلك واجباً ثم نسخ بقوله: ﴿فإن أمن بعضكم بعضاً فليؤد الذي ائتمن أمانته﴾. والدليل على ذلك أيضاً الحديث الذي حكى عن شرع من قبلنا مقررأ في شرعنا ولم ينكر عدم الكتابة والإشهاد.

قال الإمام أحمد عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ: أنه ذكر أن رجلاً من بني إسرائيل سأل بعض بني إسرائيل أن يسلفه ألف دينار، فقال: اثني بشهداء أشهدهم؟ قال: كفى بالله شهيداً. قال: اثني بكفيل، قال: كفى بالله كفيلاً، قال: صدقت، فدفعها إليه إلى أجل مسمى، فخرج في البحر ففضى حاجته، ثم التمس مركباً يقدم عليه للأجل الذي أجله فلم يجد مركباً، فأخذ خشبة فنقرها فأدخل فيها ألف دينار وصحيفة معها إلى صاحبها، ثم زجج^(١) موضعها ثم أتى بها البحر، ثم قال: اللهم إنك قد علمت أني استسلفت فلاناً ألف دينار فسألني كفيلاً فقلت: كفى بالله كفيلاً فرضي بذلك، وسألني شهيداً فقلت: كفى بالله شهيداً فرضي بذلك، وإني قد جهدت أن أجد مركباً أبعث بها إليه بالذي أعطاني فلم أجد مركباً وإني استودعتكها فرمى بها في البحر حتى ولجت فيه ثم انصرف، وهو في ذلك يطلب مركباً إلى بلده فخرج الرجل الذي كان أسلفه ينظر لعل مركباً يجيئه بماله، فإذا بالخشبة التي فيها المال فأخذها لأهله حطباً، فلما كسرها وجد المال والصحيفة، ثم قدم الرجل الذي كان تسلف منه فاتاه بألف دينار وقال: والله ما زلت جاهداً في طلب مركب لآتيك بمالك فما وجدت مركباً قبل الذي أتيت فيه. قال: هل كنت بعثت إليّ بشيء؟ قال: ألم أخبرك أني لم أجد مركباً قبل هذا الذي جئت فيه؟ قال: فإن الله قد أدى عنك الذي بعثت به في الخشبة فانصرف بألفك راشداً^(٢).

وقوله تعالى: ﴿فليكتب بينكم كاتب بالعدل﴾ أي بالقسط والحق ولا يجر في كتابته على أحد، ولا يكتب إلا ما اتفقوا عليه من غير زيادة ولا نقصان. وقوله: ﴿ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله فليكتب﴾ أي ولا يمتنع من يعرف الكتابة إذا سئل أن يكتب للناس ولا ضرورة عليه في ذلك، فكما علمه الله ما لم يكن يعلم فليصدق على غيره ممن لا يحسن الكتابة، وليكتب كما جاء في الحديث: «إن من الصدقة أن تعين صانعاً أو تصنع لأخرق»، وفي الحديث الآخر: «من كتم علماً يعلمه أجم يوم القيامة بلجام من نار»، وقال مجاهد وعطاء: واجب على الكاتب أن يكتب، وقوله: ﴿وليملل الذي عليه الحق وليتق الله ربه﴾، أي وليملل المدين على الكاتب ما في ذمته من الدين وليتق الله في ذلك، ﴿ولا يبخص منه شيئاً﴾ أي لا يكتم منه شيئاً،

(١) أصلح موضع ما نقره.

(٢) قال ابن كثير: وهذا إسناد صحيح وقد رواه البخاري في سبعة مواضع من طرق صحيحة معلقاً بصيغة الجزم.

﴿ فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا ﴿٢٨٢﴾ مَحْجُورًا عَلَيْهِ بِتَبْذِيرِهِ وَنَحْوِهِ ﴿٢٨٣﴾ أَوْ ضَعِيفًا ﴿٢٨٤﴾ أَوْ صَغِيرًا أَوْ مَجْنُونًا ﴿٢٨٥﴾ أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَمْلِكَ هُوَ ﴿٢٨٦﴾ إِمَّا لِعِيٍّ أَوْ جَهْلٍ بِمَوْضِعِ صَوَابِ ذَلِكَ مِنْ خَطئِهِ ﴿٢٨٧﴾ فَيَمْلِكُ لِيهِ بِالْعَدْلِ ﴾ .

وقوله تعالى: ﴿ واستشهدوا شهيدين من رجالكم ﴾ أمر بالاستشهاد مع الكتابة لزيادة التوثيق، ﴿ فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ﴾، وهذا إنما يكون في الأموال وما يقصد به المال، وإنما أقيمت المرأتان مقام الرجل لنقصان عقل المرأة كما قال مسلم في صحيحه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: « يا معشر النساء تصدقن وأكثرن الاستغفار فإني رأيتكن أكثر أهل النار »، فقالت امرأة منهن جزلة: وما لنا يا رسول الله أكثر أهل النار؟ قال: « تكثرن اللعن وتكفرن العشير، ما رأيت من ناقصات عقل ودين أغلب لدي لب منكن »، قالت: يا رسول الله ما نقصان العقل والدين؟ قال: « أما نقصان عقلها فشهادة امرأتين تعدل شهادة رجل فهذا نقصان العقل، وتمكث الليالي لا تصلي وتفطر في رمضان فهذا نقصان الدين » .

وقوله تعالى: ﴿ ممن ترضون من الشهداء ﴾ فيه دلالة على اشتراط العدالة في الشهود، وهذا مقيد بحكم به الشافعي على كل مطلق في القرآن من الأمر بالإشهاد من غير اشتراط، وقد استدل من رد المستور بهذه الآية الدالة على أن يكون الشاهد عدلاً مرضياً. وقوله: ﴿ أن تضل إحداهما ﴾ يعني المرأتين إذا نسيت الشهادة ﴿ فتذكر إحداهما الأخرى ﴾ أي يحصل لها ذكر بما وقع به من الإشهاد .

وقوله تعالى: ﴿ ولا يَأْبُ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا ﴾، قيل: معناه إذا دعوا للتحمل فعليهم الإجابة، وهو قول قتادة والربيع، وهذا كقول: ﴿ ولا يَأْبُ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فليكتب ﴾، ومن ههنا استفيد أن تحمل الشهادة فرض كفاية، قيل: وهو مذهب الجمهور والمراد بقوله: ﴿ ولا يَأْبُ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا ﴾ للأداء لحقيقة قوله: ﴿ الشهداء ﴾ والشاهد حقيقة فيمن تحمل إذا دعى لأدائها فعليه الإجابة إذا تعينت، وإلا فهو فرض كفاية والله أعلم، وقال مجاهد: إذا دعيت لتشهد فأنت بالخيار، وإذا شهدت فدعيت فأجب، وقد ثبت في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال: « ألا أخبركم بخير الشهداء؟ الذي يأتي بشهادته قبل أن يُسألها »، فأما الحديث الآخر في الصحيحين: « ألا أخبركم بشر الشهداء؟ الذين يشهدون قبل أن يستشهدوا »، وكذا قوله: « ثم يأتي قوم تسبق أيمانهم شهادتهم وتسبق شهادتهم أيمانهم »، وفي رواية: « ثم يأتي قوم يشهدون ولا يستشهدون » فهؤلاء شهود الزور .

وقوله تعالى: ﴿ ولا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ ﴾ هذا من تمام الإرشاد، وهو الأمر بكتابة الحق صغيراً كان أو كبيراً، فقال: ﴿ ولا تَسْأَمُوا ﴾ أي لا تملوا أن تكتبوا الحق على أي حال كان من القسلة والكثرة إلى أجله. وقوله: ﴿ ذلكم أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى أن لا ترتابوا ﴾ أي هذا الذي أمرناكم به من الكتابة للحق إذا كان مؤجلاً، هو ﴿ أقسط عند الله ﴾ أي أعدل، ﴿ وأقوم للشهادة ﴾ أي أثبت للشاهد إذا وضع خطه ثم رآه تذكر به الشهادة لاحتمال أنه لو لم يكتبه أن ينساه كما هو الواقع غالباً، ﴿ وأدنى أن لا ترتابوا ﴾ وأقرب إلى عدم الريبة بل ترجعون عند التنازع إلى الكتاب الذي كتبتموه فيفصل بينكم بلا ريبة .

وقوله تعالى: ﴿إلا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم فليس عليكم جناح أن لا تكتبوها﴾ أي إذا كان البيع بالحاضر يبدأ فلا بأس بعدم الكتابة لانتفاء المحذور في تركها .

فأما الإشهاد على البيع فقد قال تعالى: ﴿وأشهدوا إذا تباعتم﴾ يعني أشهدوا على حكمكم إذا كان فيه أجل أو لم يكن فيه أجل، فأشهدوا على حكمكم على كل حال، وقال الشعبي والحسن: هذا الأمر منسوخ بقوله: ﴿فإن أمن بعضكم بعضاً فليؤد الذي ائتمن أمانته﴾ ، وهذا الأمر محمول عند الجمهور على الإرشاد والندب لا على الوجوب والدليل على ذلك حديث خزيمة بن ثابت الأنصاري أن النبي ﷺ ابتاع فرساً من أعرابي فاستتبعه النبي ﷺ ليقتضيه ثمن فرسه، فأسرع النبي ﷺ وأبطأ الأعرابي فطلق رجال يعترضون الأعرابي فيساومونه بالفرس ولا يشعرون أن النبي ﷺ ابتاعه، حتى زاد بعضهم الأعرابي في السوم على ثمن الفرس الذي ابتاعه النبي ﷺ، فنادى الأعرابي النبي ﷺ فقال: إن كنت مبتاعاً هذا الفرس فابتعه، وإلا بعته، فقام النبي ﷺ حين سمع نداء الأعرابي قال: أوليس قد ابتعته منك؟ قال الأعرابي: لا والله ما بعته، فقال النبي ﷺ: «بل قد ابتعته منك»، فطلق الناس يلوذون بالنبي ﷺ والأعرابي وهما يتراجعان، فطلق الأعرابي يقول: هلم شهيداً يشهد أنني بايعتك. فن جاء من المسلمين قال للأعرابي: ويلك إن النبي ﷺ لم يكن يقول إلا حقاً، حتى جاء خزيمة فاستمع لمراجعة النبي ﷺ ومراجعة الأعرابي يقول هلم شهيداً يشهد أنني بايعتك، قال خزيمة: أنا أشهد أنك قد بايعته، فأقبل النبي ﷺ على خزيمة فقال: «بم تشهد؟» فقال: بتصديقك يا رسول الله، فجعل رسول الله ﷺ شهادة خزيمة بشهادة رجلين^(١). ولكن الاحتياط هو الإرشاد لما رواه الإمامان الحافظ ابن مردويه والحاكم في مستدرکه عن النبي ﷺ قال: «ثلاثة يدعون الله فلا يستجاب لهم: رجل له امرأة سيئة الخلق فلم يطلقها، ورجل دفع مال يثم قبل أن يبلغ، ورجل أقرض رجلاً مالاً فلم يشهد»^(٢).

وقوله تعالى: ﴿ولا يضار كاتب ولا شهيد﴾ قيل: معناه لا يضار الكاتب ولا الشاهد فيكتب هذا خلاف ما يُملى، ويشهد هذا بخلاف ما سمع، أو يكتمها بالكلية، وهو قول الحسن وقتادة، وقيل: معناه لا يُضِرُّ بهما .

وقوله تعالى: ﴿وإن تفعلوا فإنه فسوق بكم﴾ أي إن خالفتم ما أمرتم به، أو فعلتم ما نهيتم عنه فإنه فسق كائن بكم، أي لازم لكم لا تحيلون عنه ولا تنفكون عنه، وقوله: ﴿واتقوا الله﴾ أي خافوه وراقبوه واتبعوا أمره واتركوا زجره، ﴿ويعلمكم الله﴾ كقوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا إن تقوا الله يجعل لكم فرقاناً﴾، وكقوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نوراً تمشون به﴾، وقوله: ﴿والله بكل شيء عليم﴾ أي هو عالم بحقائق الأمور ومصالحها وعواقبها فلا يخفى عليه شيء من الأشياء، بل علمه محيط بجميع الكائنات .

* وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهْنَّ مَقْبُوضَةً فَإِنْ مِنْ بَعْضِكُمْ بَعْضًا فليؤدِّ الَّذِي أَوْثِنَ أَمْنَتَهُ

(١) رواه الإمام أحمد .

(٢) قال الحاكم: صحيح الإسناد على شرط الشيخين ولم يخرجاه .

وَلِيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾

يقول تعالى: ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ ﴾ أي مسافرين وتداينتم إلى أجل مسمى، ﴿ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا ﴾ يكتب لكم، قال ابن عباس: أو وجدوه ولم يجدوا قرطاساً أو دواة أو قلماً ﴿ فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ ﴾ أي فليكن بدل الكتابة رهان مقبوضة أي في يد صاحب الحق وقد استدل بقوله: ﴿ فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ ﴾، على أن الرهن لا يلزم إلا بالقبض كما هو مذهب الشافعي والجمهور، واستدل بها آخرون على أنه لا بد أن يكون الرهن مقبوضاً في يد المرتهن وهو رواية عن الإمام أحمد، وذهب إليه طائفة، واستدل آخرون من السلف بهذه الآية على أنه لا يكون الرهن مشروعاً إلا في السفر، قاله مجاهد وغيره. وقد ثبت في الصحيحين عن أنس أن رسول الله ﷺ توفي ودرعه مرهونة عند يهودي على ثلاثين وسقاً من شعير رهنها قوتاً لأهله .

وقوله تعالى: ﴿ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي ائْتَمَنَ بِأَمَانَتِهِ ﴾، روي عن أبي سعيد الخدري أنه قال: هذه نسخت ما قبلها، وقال الشعبي: إذا ائتمن بعضكم بعضاً فلا بأس أن لا تكتبوا أو لا تشهدوا، وقوله: ﴿ وَلِيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ ﴾ يعني المؤمن كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد وأهل السنن عن سمرة أن رسول الله ﷺ قال: « على اليد ما أخذت حتى تؤديه » .

وقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ ﴾ أي لا تخفوها وتغلوها ولا تظهروها. قال ابن عباس وغيره: شهادة الزور من أكبر الكبائر وكتبتها كذلك، ولهذا قال: ﴿ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ ﴾ قال السدي: يعني فاجر قلبه، وهذه كقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَكْتُمُوا شَهَادَةَ اللَّهِ إِنْ آذَنَّاكُمْ إِيَّاهُ إِذَا لَمِنَ الْأَثِمِينَ ﴾، وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلَوُّوا أَوْ تَعْرَضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾، وهكذا قال ههنا: ﴿ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ .

لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفَوُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾

يخبر تعالى أن له ملك السموات والأرض وما فيهن وما بينهن، وأنه المطلع على ما فيهن لا تخفى عليه الظواهر ولا السرائر والضمائر وإن دقت وخفيت، وأخبر أنه سيحاسب عباده على ما فعلوه وما أخفوه في صدورهم، كما قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنْ تَخْفَوُا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تَبْلُوهُ يَعْلَمُهَا اللَّهُ ﴾، وقال: ﴿ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴾، والآيات في ذلك كثيرة جداً، وقد أخبر في هذه بمزيد على العلم وهو (الحاسبة) على ذلك، ولهذا لما نزلت هذه الآية اشتد ذلك على الصحابة رضي الله عنهم وخافوا منها ومن محاسبة الله لهم على جليل الأعمال وحقيرتها، وهذا من شدة إيمانهم وإيقانهم .

روى الإمام أحمد عن أبي هريرة قال: لما نزلت على رسول الله ﷺ: ﴿لله ما في السموات وما في الأرض وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله على كل شيء قدير﴾ اشتد ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ فأتوا رسول الله ﷺ ثم جثوا على الركب وقالوا: يا رسول الله، كلفنا من الأعمال ما نطبق الصلاة والصيام والجهاد والصدقة، وقد أنزلت عليك هذه الآية ولا نطبقها، فقال رسول الله ﷺ: «أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم: سمعنا وعصينا؟ بل قولوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير»، فلما أقر بها القوم وذلت بها ألسنتهم أنزل الله في أثرها: ﴿آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا تفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير﴾، فلما فعلوا ذلك نسخها الله فأنزل قوله: ﴿لا يكلف الله نفساً إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا﴾ إلى آخره، ورواه مسلم عن أبي هريرة ولفظه: فلما فعلوا ذلك نسخها الله فأنزل الله: ﴿لا يكلف الله نفساً إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت، ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا﴾ قال: نعم، ﴿ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا﴾، قال: نعم ﴿ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به﴾، قال: نعم ﴿واعف عنا واطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير﴾ قال: نعم.

(طريق أخرى): قال ابن جرير عن سعيد بن مرجانة سمعه يحدث أنه بينا هو جالس مع عبد الله بن عمر تلا هذه الآية: ﴿لله ما في السموات وما في الأرض وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء﴾ الآية، فقال: والله لئن واخذنا الله بهذا لنهلكن، ثم بكى ابن عمر حتى سمع نسيجه، قال ابن مرجانة: فقامت حتى أتيت ابن عباس، فذكرت له ما قال ابن عمر وما فعل حين تلاها فقال ابن عباس: يغفر الله لأبي عبد الرحمن، لعمرى لقد وجد المسلمون منها حين أنزلت مثل ما وجد عبد الله بن عمر فأنزل الله بعدها: ﴿لا يكلف الله نفساً إلا وسعها﴾ إلى آخر السورة، قال ابن عباس: فكانت هذه الوسوسة مما لا طاقة للمسلمين بها، وصار الأمر إلى أن قضى الله عز وجل أن للنفس ما كسبت وعليها ما اكتسبت في القول والفعل.

(طريق أخرى): عن سالم أن أباه قرأ: ﴿وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله﴾ فدمعت عيناه، فبلغ صنيعة ابن عباس فقال: يرحم الله أبا عبد الرحمن لقد صنع كما صنع أصحاب رسول الله ﷺ حين أنزلت فنسخها الآية التي بعدها: ﴿لا يكلف الله نفساً إلا وسعها﴾، وقد ثبت بما رواه الجماعة في كتبهم الستة عن أبي هريرة قال، قال رسول الله ﷺ: «إن الله تجاوز لي عن أمتي ما حدثت به أنفسها ما لم تكلم أو تعمل».

وفي الصحيحين عن أبي هريرة قال، قال رسول الله ﷺ: «قال الله إذا همَّ عبدي بسيئة فلا تكتبها عليه، فإن عملها فكتبها سيئة، وإذا همَّ بحسنة فلم يعملها فكتبها حسنة فإن عملها فكتبها عشرراً». وقال رسول الله ﷺ: «إذا أحسن أحد إسلامه فإن له بكل حسنة يعملها تكتب له بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، وكل

سيئة تكتب بمثلها حتى يلقي الله عز وجل^(١). وقال مسلم عن ابن عباس عن رسول الله ﷺ فيما يروي عن ربه تعالى قال: «إن الله كتب الحسنات والسيئات - ثم بيّن ذلك - فمن همّ بحسنة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة، وإن همّ بها فعلها كتبها الله عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، وإن همّ بسيئة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة وإن همّ بها فعلها كتبها الله عنده سيئة واحدة»^(٢). وروي عن أبي هريرة قال: جاء ناس من أصحاب رسول الله ﷺ فسألوه فقالوا: إنا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به، قال: «وقد وجدتموه؟» قالوا: نعم، قال: «ذاك صريح الإيمان». وسئل رسول الله ﷺ عن الوسوسة، قال: «تلك صريح الإيمان»^(٣).

وروى ابن جرير عن مجاهد والضحاك أنه قال: هي محكمة لم تنسخ، واختار ابن جرير ذلك واحتج على أنه لا يلزم من المحاسبة المعاقبة، وأنه تعالى قد يحاسب ويغفر، وقد يحاسب ويعاقب، بالحديث الذي رواه قتادة عن صفوان بن محرز قال: بينما نحن نطوف بالبيت مع عبد الله بن عمر وهو يطوف إذ عرض له رجل فقال: يا ابن عمر، ما سمعت رسول الله ﷺ يقول في النجوى؟ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يدنو المؤمن من ربه عز وجل حتى يضع عليه كنفه فيقرره بذنوبه فيقول له: هل تعرف كذا؟ فيقول: رب أعرف مرتين، حتى إذا بلغ به ما شاء الله أن يبلغ، قال: فإني قد سترتها عليك في الدنيا وإني أغفرها لك اليوم، قال: فيعطى صحيفة حسنته أو كتابه يمينه، وأما الكفار والمنافقون فينادى بهم على رؤوس الأشهاد ﴿هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين﴾^(٤).

ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ ۚ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ ۚ وَكُتُبِهِ ۚ وَرُسُلِهِ ۚ
لَا يَفْرَقُونَ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ ۚ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ
نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ۚ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ
عَلَيْنَا إِصْرًا ۚ كَمَا حَمَلْتَهُ ۚ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ۚ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا
وَارْحَمْنَا ۚ أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٨٦﴾

(ذكر الأحاديث الواردة في فضل هاتين الآيتين الكريمتين نفعنا الله بهما)

(الحديث الأول) : قال البخاري عن ابن مسعود، قال قال رسول الله: « من قرأ بالآيتين - من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه » .

(١) رواه مسلم . (٢) و (٣) أخرجهما مسلم .

(٤) الحديث مخرج في الصحيحين من طرق متعددة .

(الحديث الثاني) ؛ قال الإمام أحمد عن أبي ذر قال ، قال رسول الله ﷺ : « أعطيت خواتيم سورة البقرة من كثر تحت العرش لم يعطهن نبي قبلي » .

(الحديث الثالث) : قال مسلم عن الزبير بن عدي عن طلحة عن مرة عن عبد الله قال : لما أسري برسول الله ﷺ انتهى به إلى سدرة المنتهى وهي في السماء السابعة، إليها ينتهي ما يعرج من الأرض فيقبض منها، وإليها ينتهي ما يهبط من فوقها فيقبض منها قال : ﴿ إذ يغشى السدرة ما يغشى ﴾ قال : فراش من ذهب، قال : وأعطي رسول الله ﷺ ثلاثاً : أعطي الصلوات الخمس، وأعطي خواتيم سورة البقرة، وغفر لمن لم يشرك بالله من أمته شيئاً المقحّمات .

(الحديث الرابع) : قال أحمد عن عقبه بن عامر الجهني قال، قال رسول الله ﷺ : « اقرأ الآيتين من آخر سورة البقرة فإني أعطيتهما من كثر تحت العرش » .

(الحديث الخامس) : قال ابن مردويه عن حذيفة قال، قال رسول الله ﷺ : « فضلنا على الناس بثلاث : أوتيت هذه الآيات من آخر سورة البقرة من بيت كثر تحت العرش لم يعطها أحد قبلي ولا يعطاها أحد بعدي » ، الحديث .

(الحديث السادس) : قال ابن مردويه عن الحارث عن علي قال : لا أرى أحداً عقل الإسلام ينام حتى يقرأ آية الكرسي وخواتيم سورة البقرة فإنها من كثر أعطيه نبيكم ﷺ من تحت العرش .

(الحديث السابع) : قال الترمذي عن النعمان بن بشير عن النبي ﷺ قال : « إن الله كتب كتاباً قبل أن يخلق السموات والأرض بألفي عام أنزل منه آيتين ختم بهما سورة البقرة ولا يقرأ بهن في دار ثلاث ليال فيقربها شيطان » ، ثم قال هذا حديث غريب .

(الحديث الثامن) : قال ابن مردويه عن ابن عباس قال : كان رسول الله ﷺ إذا قرأ آخر سورة البقرة وآية الكرسي ضحك وقال : « إنهما من كثر الرحمن تحت العرش » وإذا قرأ : ﴿ من يعمل سوءاً يجز به ﴾ ، ﴿ وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ، وأن سعيه سوف يرى ثم يجزاه الجزاء الأوفى ﴾ استرجع واستكان .

(الحديث التاسع) : قال ابن مردويه عن معقل بن يسار قال : قال رسول الله ﷺ « أعطيت فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة من تحت العرش والمفصل نافلة » .

(الحديث العاشر) : قد تقدم في فضائل الفاتحة عن ابن عباس قال : (بينا رسول الله ﷺ وعنده جبريل إذ سمع نقيضاً فوقه فرفع جبريل بصره إلى السماء فقال : هذا باب قد فتح من السماء ما فتح قط ، قال فتزل منه ملك فأتى النبي ﷺ فقال له : أبشر بنورين قد أوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك ، فاتحة الكتاب ، وخواتيم سورة البقرة ، لن تقرأ حرفاً منهما إلا أوتيته) رواه مسلم والنسائي .

فقوله تعالى : ﴿ آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه ﴾ إخبار عن النبي ﷺ بذلك . روى الحاكم في مستدركه عن أنس بن مالك قال : لما نزلت هذه الآية على النبي ﷺ : ﴿ آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه ﴾ قال النبي ﷺ : « حق له أن يؤمن » ثم قال الحاكم صحيح الإسناد ولم يخرجاه .

وقوله تعالى: ﴿والمؤمنون﴾ عطف على الرسول، ثم أخبر عن الجميع، فقال: ﴿كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله﴾ فالؤمنون يؤمنون بأن الله واحد أحد، فرد صمد، لا إله غيره ولا رب سواه، ويصدقون بجميع الأنبياء والرسل والكتب المنزل من السماء على عباد الله المرسلين والأنبياء، لا يفرقون بين أحد منهم فيؤمنون ببعض ويكفرون ببعض، بل الجميع عندهم صادقون بأرون راشدون مهديون هادون إلى سبيل الخير، وإن كان بعضهم ينسخ شريعة بعض بإذن الله حتى نسخ الجميع بشرع محمد ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين الذي تقوم الساعة على شريعته ولا تزال طائفة من أمة على الحق ظاهرين، وقوله: ﴿وقالوا سمعنا وأطعنا﴾ أي سمعنا قولك يا ربنا وفهمناه وقمنا به وامثلنا العمل بمقتضاه، ﴿غفرانك ربنا﴾ سؤال للمغفرة والرحمة واللفظ.

قال ابن جرير: لما نزلت على رسول الله ﷺ: ﴿آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير﴾ قال جبريل: إن الله قد أحسن الثناء عليك وعلى أمتك فسل تعطه، فسأل: ﴿لا يكلف الله نفساً إلا وسعها﴾ إلى آخر الآية، وقوله: ﴿لا يكلف الله نفساً إلا وسعها﴾ أي لا يكلف أحداً فوق طاقته، وهذا من لطفه تعالى بخلقه ورأفته بهم وإحسانه إليهم، وهذه هي النسخة الرافعة لما كان أشفق منه الصحابة في قوله: ﴿وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله﴾، أي هو وإن حاسب وسأل لكن لا يعذب إلا بما يملك الشخص دفعه، فأما ما لا يملك دفعه من وسوسة النفس وحديثها فهذا لا يكلف به الإنسان، وكراهية الوسوسة السيئة من الإيمان، وقوله: ﴿لها ما كسبت﴾ أي من خير، ﴿وعليها ما اكتسبت﴾ أي من شر، وذلك في الأعمال التي تدخل تحت التكليف. ثم قال تعالى مرشداً عباده إلى سؤاله وقد تكفل لهم بالإجابة كما أرشدهم وعلمهم أن يقولوا: ﴿ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا﴾ أي إن تركنا فرضنا على جهة النسيان، أو فعلنا حراماً كذلك، أو أخطأنا أي الصواب في العمل جهلاً منا بوجهه الشرعي. وعن ابن عباس قال، قال رسول الله ﷺ: «إن الله وضع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه»^(١). وعن أم الدرداء عن النبي ﷺ قال: «إن الله تجاوز لأمتي عن ثلاث: عن الخطأ، والنسيان والاستكراه». قال أبو بكر فذكرت ذلك للحسن، فقال: أجل أما تقرأ بذلك قرآناً: ﴿ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا﴾^(٢).

وقوله تعالى: ﴿ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا﴾ أي لا تكلفنا من الأعمال الشاقة وإن أطقناها، كما شرعته للأمم الماضية قبلنا من الأغلال والآصار، التي كانت عليهم التي بعثت نبيك محمداً ﷺ نبي الرحمة بوضعه، في شرعه الذي أرسلته به من الدين الحنيفي السهل السمح. وجاء في الحديث من طرق عن رسول الله ﷺ أنه قال: «بعثت بالحنيفية السمحة».

(١) رواه ابن ماجه وابن حبان.

(٢) رواه ابن أبي حاتم.

وقوله تعالى: ﴿ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به﴾ أي من التكليف والمصائب والبلاء لا تبتلنا بما لا قبل لنا به ، وقد قال مكحول في قوله: ﴿ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به﴾ قال: العزبة والغلظة .

وقوله تعالى: ﴿واعف عنا﴾ أي فيما بيننا وبينك مما تعلمه من تقصيرنا وزللنا، ﴿واغفر لنا﴾ أي فيما بيننا وبين عبادك فلا تظهرهم على مساوينا وأعمالنا القبيحة، ﴿وارحمنا﴾ أي فيما يستقبل فلا توقعنا بتوفيقك في ذنب آخر ، ولهذا قالوا: إن المذنب محتاج إلى ثلاثة أشياء: أن يعفو الله عنه فيما بينه وبينه، وأن يستره عن عباده فلا يفضحه به بينهم، وأن يعصمه فلا يوقعه في نظيره .

وقوله تعالى: ﴿أنت مولانا﴾ أي أنت ولينا وناصرنا وعلينا توكلنا ، وأنت المستعان وعلينا التكلان ، ولا حول لنا ولا قوة إلا بك، ﴿فانصرنا على القوم الكافرين﴾ أي الذين جحدوا دينك وأنكروا وحدانيتك ورسالة نبيك ، وعبدوا غيرك وأشركوا معك من عبادك ، فانصرنا عليهم .

قال ابن جرير عن أبي إسحاق : إن معاذاً رضي الله عنه كان إذا فرغ من هذه السورة ﴿وانصرنا على القوم الكافرين﴾ قال : آمين .



(٣) سُوْرَةُ الْعَمَلَاتِ مَلَانِيْرًا
وَآيَاتُهَا مَانَانَاتٌ

صدرها إلى ثلاث وثمانين آية منها نزل في (وفد نجران) ، وكان قدومهم في سنة تسع من الهجرة كما سيأتي بيان ذلك عند تفسير آية المباهلة منها إن شاء الله تعالى . وقد ذكرنا ما ورد في فضلها مع سورة البقرة (أول سورة البقرة) فارجع إليه هناك .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْمَ ﴿١﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴿٣﴾ مِنْ قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ ﴿٤﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٥﴾ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴿٦﴾

قد ذكرنا الحديث الوارد في أن اسم الله الأعظم في هاتين الآيتين ﴿ الله لا إله إلا هو الحي القيوم ﴾ ، و ﴿ الم . الله لا إله إلا هو الحي القيوم ﴾ عند تفسير آية الكرسي ، وقد تقدم الكلام على قوله : ﴿ الم ﴾ في أول سورة البقرة بما أغنى عن إعادته ، وتقدم الكلام على قوله : ﴿ الله لا إله إلا هو الحي القيوم ﴾ في تفسير آية الكرسي .

وقوله تعالى : ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ ﴾ يعني نزل عليك القرآن يا محمد بالحق ، أي لا شك فيه ولا ريب بل هو منزل من عند الله ، أنزله بعلمه والملائكة يشهدون ، وكفى بالله شهيداً . وقوله : ﴿ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ أي من الكتب المنزلة قبله من السماء على عباد الله والأنبياء ، فهي تصدقه بما أخبرت به وبشرت في قديم الزمان ، وهو يصدقها لأنه طابق ما أخبرت به وبشرت من الوعد من الله بإرسال محمد ﷺ وإنزال القرآن العظيم عليه ، وقوله : ﴿ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ ﴾ أي على موسى بن عمران ، ﴿ وَالْإِنْجِيلَ ﴾ أي على عيسى بن مريم عليهما

السلام ، ﴿ من قبل ﴾ أي من قبل هذا القرآن ، ﴿ هدى للناس ﴾ : أي في زمانهما ، ﴿ وأنزل الفرقان ﴾ : وهو الفارق بين الهدى والضلال ، والحق والباطل ، والغني والرشاد ، بما يذكره الله تعالى من الحجج والبيانات والدلائل الواضحات ، والبراهين القاطعات ، وبيئته ويوضحه ويفسره ويقرره ويرشد إليه وينبه عليه من ذلك . وقال قتادة والربيع : الفرقان ههنا القرآن ، واختار ابن جرير أنه مصدر ههنا لتقدم ذكر القرآن في قوله : ﴿ نزل عليك الكتاب بالحق ﴾ وهو القرآن . وأما ما روي عن أبي صالح : أن المراد بالفرقان ههنا التوراة ، فضعيف أيضاً ، لتقدم ذكر التوراة ، والله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ إن الذين كفروا بآيات الله ﴾ أي جحدوا بها وأنكروها وردوها بالباطل ، ﴿ لهم عذاب شديد ﴾ : أي يوم القيامة ، ﴿ والله عزيز ﴾ أي منيع الجناح عظيم السلطان ، ﴿ ذو انتقام ﴾ : أي من كذب بآياته وخالف رسله الكرام وأنبياءه العظام .

إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴿٥﴾ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦﴾

يخبر تعالى أنه يعلم غيب السماء والأرض لا يخفى عليه شيء من ذلك ، ﴿ هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء ﴾ أي يخلقكم في الأرحام كما يشاء من ذكر وأنثى ، وحسن وقبيح ، وشقي وسعيد ، ﴿ لا إله إلا هو العزيز الحكيم ﴾ أي هو الذي خلق وهو المستحق للإلهية ، وحده لا شريك له وله العزة التي لا ترام ، والحكمة والأحكام ، وهذه الآية فيها تعريض بل تصريح بأن عيسى بن مريم عبد مخلوق كما خلق الله سائر البشر ، لأن الله صورته في الرحم وخلقته كما يشاء ، فكيف يكون إلهاً كما زعمته النصارى عليهم لعائن الله ! ! وقد قلب في الأحشاء وتنقل من حال إلى حال !؟ كما قال تعالى : ﴿ يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق في ظلمات ثلاث ﴾ .

هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَأَمَّنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا لَا تَزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِعَادَ ﴿٩﴾

يخبر تعالى أن في القرآن آيات محكمات ﴿ هن أم الكتاب ﴾ أي بينات واضحات الدلالة لا التباس فيها على أحد ، ومنه آيات أخر فيها اشتباه في الدلالة على كثير من الناس أو بعضهم ، فن رد ما اشتبه إلى الواضح منه وحكم محكمه على متشابهه عنده فقد اهتدى ، ومن عكس انعكس ، ولهذا قال تعالى : ﴿ هن أم الكتاب ﴾ أي أصله

الذي يرجع إليه عند الاشتباه ﴿ وأخر متشابهات ﴾ أي تختمل دلالتها موافقة المحكم، وقد تختمل شيئاً آخر من حيث اللفظ والتركيب لا من حيث المراد، وقد اختلفوا في المحكم والمتشابه، فقال ابن عباس: المحكمات ناسخة وحلاله وحرامه وحلوده وأحكامه وما يؤمر به ويعمل به. وقال يحيى بن يعمر: الفرائض والأمر والنهي والحلال والحرام، وقال سعيد بن جبير: ﴿ هن أم الكتاب ﴾ لأنهن مكتوبات في جميع الكتب، وقال مقاتل: لأنه ليس من أهل دين إلا يرضى بهن. وقيل في المتشابهات: المنسوخة والمقدم والمؤخر والأمثال فيه والأقسام، وما يؤمن به ولا يعمل به، روي عن ابن عباس، وقيل: هي الحروف المقطعة في أوائل السور قاله مقاتل بن حيان، وعن مجاهد: المتشابهات يصدق بعضها بعضاً وهذا إنما هو في تفسير قوله: ﴿ كتاباً متشابهاً مثاني ﴾ هناك ذكروا أن المتشابه هو الكلام الذي يكون في سياق واحد، والمثاني هو الكلام في شيئين متقابلين كصفة الجنة وصفة النار، وذكر حال الأبرار وحال الفجار ونحو ذلك، وأما هاهنا فالمتشابه هو الذي يقابل المحكم، وأحسن ما قيل فيه هو الذي قدمنا، وهو الذي نص عليه ابن يسار رحمه الله حيث قال: ﴿ منه آيات محكمات ﴾ فهن حجة الرب وعصمة العباد ودفع الخصوم الباطل، ليس هن تصريح ولا تحريف عما وضعن عليه، قال: والمتشابهات في الصدق ليس هن تصريح وتحريف وتأويل، ابتلى الله فيهن العباد كما ابتلاهم في الحلال والحرام ألا يصرفن إلى الباطل ولا يحرفن عن الحق.

ولهذا قال الله تعالى: ﴿ فأما الذين في قلوبهم زيغ ﴾ أي ضلال وخروج عن الحق إلى الباطل ﴿ فيتبعون ما تشابه منه ﴾ أي إنما يأخذون منه بالمتشابه الذي يمكنهم أن يحرفوه إلى مقاصدهم الفاسدة وينزلوه عليها لاحتمال لفظه لما يصرفونه. فأما المحكم فلا نصيب لهم فيه لأنه دافع لهم وحجة عليهم، ولهذا قال الله تعالى: ﴿ ابتغاء الفتنة ﴾ أي الإضلال لأتباعهم، إيهاماً لهم أنهم يحتجون على بدعتهم بالقرآن، وهو حجة عليهم لا لهم، كما لو احتج النصارى بأن القرآن قد نطق بأن عيسى روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، وتركوا الاحتجاج بقوله: ﴿ إن هو إلا عبد أنعمنا عليه ﴾، وبقوله: ﴿ إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون ﴾، وغير ذلك من الآيات المحكمة المصرحة بأنه خلق من مخلوقات الله، وعبد ورسول من رسل الله.

وقوله تعالى: ﴿ وابتغاء تأويله ﴾ أي تحريفه على ما يريدون، وقال مقاتل والسدي: يبتغون أن يعلموا ما يكون وما عواقب الأشياء من القرآن، وقد قال الإمام أحمد عن عائشة رضي الله عنها قالت: قرأ رسول الله ﷺ: ﴿ هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات ﴾ إلى قوله: ﴿ أولو الألباب ﴾ فقال: « إذا رأيتم الذين يجادلون فيه فهم الذين عنى الله فاحذروهم ». وقد روى هذا الحديث البخاري عند تفسير هذه الآية ومسلم في كتاب القدر من صحيحه وأبو داود في السنة من سننه ثلاثتهم عن القاسم بن محمد عن عائشة رضي الله عنها قالت: تلا رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿ هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات ﴾ إلى قوله: ﴿ وما يذكر إلا أولو الألباب ﴾ قالت: قال رسول الله ﷺ: « فإذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سئى الله فاحذروهم ».

وروى أحمد عن أبي أمامة عن النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿ فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ﴾ قال: « هم الخوارج »، وفي قوله تعالى: ﴿ يوم تبيض وجوه وتسود وجوه ﴾ قال: « هم الخوارج »، وهذا الحديث

أقل أقسامه أن يكون موقوفاً من كلام الصحابي، ومعناه صحيح فإن أول بدعة وقعت في الإسلام فتنه الخوارج، وكان مبلوهم بسبب الدنيا حين قسم النبي ﷺ (غنائم حنين) فكانهم رأوا - في عقولهم الفاسدة - أنه لم يعدل في القسمة ففاجأوه بهذه المقالة، فقال قائلهم وهو (ذو الخويصرة) - بقر الله خاصرته - إعدل فإنك لم تعدل، فقال رسول الله ﷺ: «لقد خبت وخسرت. إن لم أكن أعدل، أيا مني على أهل الأرض ولا تأمنوني!» فلما قفا الرجل استأذن عمر بن الخطاب في قتله، فقال: «دعه فإنه يخرج من ضئضئ هذا - أي من جنسه - قوم يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم، وقراءته مع قراءتهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، فأينا لقيتموهم فاقتلوهم فإن في قتلهم أجراً لمن قتلهم». ثم كان ظهورهم أيام (علي بن أبي طالب) رضي الله عنه وقتلهم بالنهروان، ثم تشعبت منهم شعوب وقبائل وآراء وأهواء ومقالات ونحل كثيرة منتشرة، ثم انبعثت القدرية، ثم المعتزلة، ثم الجهمية، وغير ذلك من البدع التي أخبر عنها الصادق المصدوق ﷺ في قوله: «وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة»، قالوا: ومن يا رسول الله؟ قال: «من كان على ما أنا عليه وأصحابي». أخرجه الحاكم في مستدرکه بهذه الزيادة.

وروى الحافظ أبو يعلى، عن حذيفة عن رسول الله ﷺ أنه ذكر: «إن في أمتي قوماً يقرؤون القرآن ينثرونه نثر الدقل^(١) يتأولونه على غير تأويله».

وقوله تعالى: ﴿وما يعلم تأويله إلا الله﴾ اختلف القراء في الوقف ههنا، فقيل على الجلالة كما تقدم عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: التفسير على أربعة أنحاء، فتفسير لا يعذر أحد في فهمه، وتفسير تعرفه العرب من لغاتها، وتفسير يعلمه الراسخون في العلم، وتفسير لا يعلمه إلا الله. وقال رسول الله ﷺ: «إن القرآن لم ينزل ليكذب بعضه بعضاً، فما عرقت منه فاعملوا به، وما تشابه منه فآمنوا به»، وقال عبد الرزاق: كان ابن عباس يقرأ: (وما يعلم تأويله إلا الله ويقول الراسخون آمنا به)، وكذا رواه ابن جرير عن عمر بن عبد العزيز ومالك ابن أنس أنهم يؤمنون به ولا يعلمون تأويله، وحكى ابن جرير أن في قراءة عبد الله بن مسعود: (إن تأويله إلا عند الله، والراسخون في العلم يقولون آمنا به) واختار ابن جرير هذا القول.

ومنهم من يقف على قوله تعالى: ﴿والراسخون في العلم﴾ وتبعهم كثير من المفسرين وأهل الأصول، وقالوا الخطاب بما لا يفهم بعيد، وقد روى مجاهد عن ابن عباس أنه قال: أنا من الراسخين الذين يعلمون تأويله، وقال مجاهد: والراسخون في العلم يعلمون تأويله ويقولون آمنا به، وكذا قال الربيع بن أنس، وقال محمد ابن جعفر بن الزبير: وما يعلم تأويله الذي أراد ما أراد إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به، ثم ردوا تأويل المتشابهات على ما عرفوا من تأويل المحكمة التي لا تأويل لأحد فيها إلا تأويل واحد، فأتسق بقولهم الكتاب وصدق بعضه بعضاً فنفذت الحجة، وظهر به العذر وزاح به الباطل ودفع به الكفر، وفي الحديث أن رسول الله ﷺ دعا لابن عباس فقال: «اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل». ومن العلماء من فصل في هذا المقام وقال: التأويل يطلق ويراد به في القرآن معنيان، أحدهما: التأويل بمعنى حقيقة الشيء وما يؤول أمره إليه؛ ومنه قوله تعالى:

﴿ وقال يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل ﴾ ، وقوله: ﴿ هل ينظرون إلا تأويله يوم يأتي تأويله ﴾ أي حقيقة ما أخبروا به من أمر المعاد. فإن أريد بالتأويل هذا فالوقف على الجلالة؛ لأن حقائق الأمور وكنهها لا يعلمه على الجلية إلا الله عز وجل؛ ويكون قوله: ﴿ والراسخون في العلم ﴾ مبتدأ و﴿ يقولون آمنا به ﴾ خبره. وأما إن أريد بالتأويل المعنى الآخر: وهو التفسير والبيان والتعبير عن الشيء كقوله: ﴿ نبئنا بتأويله ﴾ أي بتفسيره، فإن أريد به هذا المعنى فالوقف على ﴿ والراسخون في العلم ﴾ لأنهم يعلمون ويفهمون ما خوطبوا به بهذا الاعتبار، وإن لم يحيطوا علماً بحقائق الأشياء على كنه ما هي عليه، وعلى هذا فيكون قوله: ﴿ يقولون آمنا به ﴾ حالاً منهم، وساغ هذا وإن يكون من المعطوف دون المعطوف عليه كقوله: ﴿ للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم - إلى قوله - يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا ﴾ الآية، وقوله تعالى: ﴿ وجاء ربك والملك صفاً صفاً ﴾ أي وجاء الملائكة صفواً صفواً .

وقوله تعالى - إخباراً عنهم - أنهم يقولون آمنا به أي المتشابه ﴿ كلٌ من عند ربنا ﴾ أي الجميع من المحكم والمتشابه حق وصدق، وكل واحد منهما يصدق الآخر ويشهد له، لأن الجميع من عند الله وليس شيء من عند الله بمختلف ولا متضاد، كقوله: ﴿ أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كبيراً ﴾، ولهذا قال تعالى: ﴿ وما يذكر إلا أولو الأبواب ﴾ أي إنما يفهم ويعقل ويتدبر المعاني على وجهها أولو العقول السليمة والفهوم المستقيمة، وقد قال ابن أبي حاتم بسنده: حدثنا عبيد الله بن يزيد - وكان قد أدرك أصحاب النبي ﷺ أنساً وأبا أمامة وأبا الدرداء - أن رسول الله ﷺ سئل عن الراسخين في العلم فقال: « من برت يمينه، وصدق لسانه، واستقام قلبه، ومن عف بطنه وفرجه، فذلك من الراسخين في العلم »، وقال الإمام أحمد بسنده: سمع رسول الله ﷺ قوماً يتدارون، فقال: « إنما هلك من كان قبلكم بهذا؛ ضربوا كتاب الله بعضه ببعض، وإنما أنزل كتاب الله ليصدق بعضه بعضاً فلا تكذبوا بعضه ببعض. فاعلمتم منه فقولوا به، وما جهلتم فكلوه إلى عالمه ».

وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: « نزل القرآن على سبعة أحرف، والمرء في القرآن كفر - قالها ثلاثاً - ما عرفتم منه فاعملوا به وما جهلتم منه فردوه إلى عالمه جل جلاله »^(١). وقال ابن المنذر في تفسيره عن نافع بن يزيد قال: الراسخون في العلم المتواضعون لله المتذللون لله في مرضاته، لا يتعاضمون على من فوقهم ولا يحقرون من دونهم. ثم قال تعالى عنهم مخبراً أنهم دعوا ربهم قائلين: ﴿ ربنا لا ترغ قلوبنا بعد إذ هديتنا ﴾ أي لا تملها عن الهدى بعد إذ أقمتها عليه، ولا تجعلنا كالذين في قلوبهم زيغ، الذين يتبعون ما تشابه من القرآن، ولكن ثبتنا على صراطك المستقيم، ودينك القويم. ﴿ وهب لنا من لدنك رحمة ﴾ ثبتت بها قلوبنا، وتجمع بها شملنا، وتزيدنا بها إيماناً وإيقاناً ﴿ إنك أنت الوهاب ﴾. عن أم سلمة أن النبي ﷺ كان يقول: « يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك »، ثم قرأ: ﴿ ربنا لا ترغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب ﴾^(٢). وعن أم سلمة، عن أسماء بنت يزيد بن السكن، سمعتها تحدث أن رسول الله ﷺ كان يكثر من دعائه: « اللهم

(١) رواه أبو يعلى الموصلي في مسنده .

(٢) رواه ابن أبي حاتم عن أم سلمة .

مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك» ، قالت ، قلت : يا رسول الله وإن القلب ليتقلب ؟ قال : « نعم ، ما خلق الله من بني آدم من بشر إلا أن قلبه بين أصبعين من أصابع الله عز وجل ، فإن شاء أقامه وإن شاء أزاغه »^(١) . قلت : يا رسول الله ألا تعلمني دعوة أدعو بها لنفسي ، قال : « بلى ، قولي : اللهم رب محمد النبي اغفر لي ذنبي وأذهب غيظ قلبي وأجرني من مضلات الفتن » .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : كان رسول الله ﷺ كثيراً ما يدعو : « يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك » . قلت : يا رسول الله ما أكثر ما تدعو بهذا الدعاء ، فقال : « ليس من قلب إلا وهو بين أصبعين من أصابع الرحمن إذا شاء أن يقيمه أقامه ، وإذا شاء أن يزيغه أزاغه . أما تسمعي قوله : ﴿ ربنا لا ترغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب ﴾ »^(٢) . وعن سعيد بن المسيب عن عائشة رضي الله عنها : أن رسول الله ﷺ كان إذا استيقظ من الليل قال : « لا إله إلا أنت سبحانك أستغفرك لذنبي ، وأسألك رحمتك ، اللهم زدني علماً ، ولا ترغ قلبي بعد إذ هديتني ، وهب لي من لدنك رحمة . إنك أنت الوهاب »^(٣) .

وقوله تعالى : ﴿ ربنا إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه ﴾ أي يقولون في دعائهم إنك يا ربنا ستجمع بين خلقك يوم معادهم ، وتفصل بينهم وتحكم فيهم فيما اختلفوا فيه ، وتجزئ كلاً بعمله ، وما كان عليه في الدنيا من خير وشر .

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ ﴿١٠﴾
كَذَّابٍ ءَالٍ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١١﴾

يخبر تعالى عن الكفار بأنهم وقود النار : ﴿ يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولم اللعنة ولم سوء الدار ﴾ ، وليس ما أوتوه في الدنيا من الأموال والأولاد بنافع لهم عند الله ، ولا بمنجيتهم من عذابه وأليم عقابه ، كما قال تعالى : ﴿ ولا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا وترهق أنفسهم وهم كفرون ﴾ . وقال تعالى : ﴿ لا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد ، متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد ﴾ ، وقال ههنا : ﴿ إن الذين كفروا ﴾ أي بآيات الله ، وكذبوا رسله ، وخالفوا كتابه ، ولم ينتفعوا بوحيه إلى أنبيائه : ﴿ لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً وأولئك هم وقود النار ﴾ أي حطبها الذي تسجر به وتوقد به كقوله : ﴿ إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم ﴾ الآية . وعن أم الفضل : أن رسول الله ﷺ قام ليلة بمكة ، فقال : « هل بلغت » ؟ يقولها ثلاثاً ، فقام عمر بن الخطاب - وكان أوهاً - فقال : اللهم نعم ، وحرصت وجهدت ، ونصحت فاصبر ؛ فقال النبي ﷺ : « ليظهرن الإيمان حتى يرد الكفر إلى مواطنه ، وليخوضن رجال البحار بالإسلام ، وليأتين

(١) رواه ابن مردويه وابن جرير .

(٢) رواه ابن مردويه ، قال ابن كثير : وأصله في الصحيحين .

(٣) رواه أبو داود والنسائي .

على الناس زمان يقرؤون القرآن فيقرؤونه ويعلمونه، فيقولون قد قرأنا وقد علمنا فمن هذا الذي هو خير منا؟ فما في أولئك من خير». قالوا: يا رسول الله فمن أولئك؟ قال: «أولئك منكم، أولئك هم وقود النار»^(١).

وقوله تعالى: ﴿كذاب آل فرعون﴾، قال ابن عباس: كصنيع آل فرعون، وكذا روي عن عكرمة ومجاهد والضحاك وغير واحد، ومنهم من يقول: كسنة آل فرعون، وكفعل آل فرعون وكشبه آل فرعون، والألفاظ متقاربة والدُّاب - بالتسكين والتحريك أيضاً كَهْرٌ وَنَهْرٌ - هو الصنيع والحال والشأن والأمر والعادة، كما يقال: لا يزال هذا دأبي ودأبك، وقال امرؤ القيس:

كذابك من أم الحويرث قبلها وجارتها أم الرباب بمأسل

والمعنى: كعادتك في أم الحويرث حين أهلكت نفسك في حبا وبكيت دارها ورسمها! والمعنى في الآية: إن الكافرين لا تغني عنهم الأموال ولا الأولاد، بل يهلكون ويعذبون، كما جرى لآل فرعون ومن قبلهم من المكذبين للرسول فيما جاؤوا به من آيات الله وحججه: ﴿والله شديد العقاب﴾ أي شديد الأخذ، ألم العذاب، لا يمتنع منه أحد، ولا يفوته شيء، بل هو الفعال لما يريد الذي قد غلب كل شيء، لا إله غيره ولا رب سواه.

قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِتْنَةِ الْقُرْآنِ فَتَنَّا قَوْمًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا فَآتَيْنَاهُم مِّن بَيْنِ يَدَيْهِمْ سَبِيلًا وَأَخْرَجْنَا قَوْمًا مِّن بَيْنِهِمْ يَرْوُونَهُمْ مِثْلِهِم بِأَعْيُنِنَا ذُرِّيَّتَهُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبَدَّلُوا آيَاتِنَا مِثْلًا بِمِثْلِهَا وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٣﴾ لَعِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿١٤﴾

يقول تعالى: قل يا محمد للكافرين ﴿ستغلبون﴾ أي في الدنيا، ﴿وتحشرون﴾ أي يوم القيامة إلى جهنم وبئس المهاد. وقد ذكر محمد بن إسحاق أن رسول الله ﷺ لما أصاب من أهل بدر ما أصاب، ورجع إلى المدينة جمع اليهود في سوق (بني قينقاع) وقال: «يا معشر اليهود أسلموا قبل أن يصيبكم الله بما أصاب قريشاً». فقالوا: يا محمد لا يغرنك من نفسك أن قتلت نفرًا من قريش كانوا أعماراً لا يعرفون القتال، إنك والله لو قاتلتنا لعرفت أننا نحن الناس وأنك لم تلق مثلنا، فأنزل الله في ذلك من قولهم: ﴿قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد﴾، إلى قوله: ﴿لعبرة لأولي الأبصار﴾^(٢). ولهذا قال تعالى: ﴿قد كان لكم آية﴾ أي قد كان لكم أيها اليهود القاتلون ما قتلتم آية، أي دلالة على أن الله معز دينه، وناصر رسوله، ومظهر كلمته، ومعل أمره ﴿في فتنين﴾ أي طائفتين ﴿التقتا﴾ أي للقتال، ﴿فتنة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة﴾ وهم مشركو قريش يوم بدر. وقوله: ﴿يروونهم مثليهم رأي العين﴾، قال بعض العلماء: يرى المشركون يوم بدر المسلمين مثليهم في العدد

(١) رواه ابن أبي حاتم وابن مردويه.

(٢) أخرجه محمد بن إسحاق عن عكرمة عن ابن عباس.

رأى أعينهم، أي جعل الله ذلك فيما رآوه سبباً لنصرة الإسلام عليهم، وهذا لا إشكال عليه إلا من جهة واحدة، وهي أن المشركين بعثوا (عمر بن سعد) يومئذ قبل القتال يحزر لهم المسلمين، فأخبرهم بأنهم ثلثمائة يزيدون قليلاً أو ينقصون قليلاً، وهكذا كان الأمر، كانوا ثلثمائة وبضعة عشر رجلاً، ثم لما وقع القتال أمدهم الله بألف من خواص الملائكة وساداتهم.

والقول الثاني أن المعنى في قوله تعالى: ﴿يرونهم مثلهم رأي العين﴾ أي يرى الفئة المسلمة الفئة الكافرة ﴿مثلهم﴾ أي ضعفهم في العدد ومع هذا نصرهم الله عليهم، والمشهور أنهم كانوا ما بين التسعمائة إلى الألف، وعلى كل تقدير، فقد كانوا ثلاثة أمثال المسلمين، وعلى هذا فيشكل هذا القول والله أعلم، لكن وجه ابن جرير هذا وجعله صحيحاً. كما تقول: عندي ألف وأنا محتاج إلى مثلها، وتكون محتاجاً إلى ثلاثة آلاف كذا قال. وعلى هذا فلا إشكال، لكن بقي سؤال آخر وهو وارد على القولين، وهو أن يقال: ما الجمع بين هذه الآية وبين قوله تعالى في قصة بدر: ﴿وإذ يريكومهم إذ التقيتم في أعينكم قليلاً ويقتلكم في أعينهم ليقضي الله أمراً كان مفعولاً﴾ فالجواب: أن هذا كان في حالة، والآخر كان في حالة أخرى، كما قال ابن مسعود في قوله تعالى: ﴿قد كان لكم آية في فتنين التقتا﴾ الآية. قال: هذا يوم بدر، وقد نظرنا إلى المشركين فرأيناهم يضعفون علينا. ثم نظرنا إليهم فرأيناهم يزيدون علينا رجلاً واحداً. وذلك قوله تعالى: ﴿وإذ يريكومهم إذ التقيتم في أعينكم قليلاً ويقتلكم في أعينهم﴾ الآية. وقال أبو إسحاق عن عبد الله بن مسعود: لقد قللوا في أعيننا حتى قلت لرجل إلى جانبي: تراهم سبعين! قال: أراهم مائة، قال: فأسرنا رجلاً منهم فقلنا: كم كنتم؟ قال: ألفاً، فعندما عاين كل من الفريقين الآخر رأى المسلمون المشركين مثلهم، أي أكثر منهم بالضعف ليتوكلوا ويتوجهوا، ويطلبوا الإعانة من ربهم عز وجل، ورأى المشركون المؤمنين كذلك ليحصل لهم الرعب والخوف والجزع والهلع. ثم لما حصل التصاف والتقى الفريقان قلل الله هؤلاء في أعين هؤلاء، وهؤلاء في أعين هؤلاء ليقدم كل منهما على الآخر: ﴿ليقضي الله أمراً كان مفعولاً﴾ أي ليفرق بين الحق والباطل فيظهر كلمة الإيمان على الكفر والطغيان، ويعز المؤمنين ويذل الكافرين، كما قال تعالى: ﴿ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة﴾، وقال ههنا: ﴿والله يؤيد بنصره من يشاء إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار﴾ أي: إن في ذلك لعبرة لمن له بصيرة وفهم ليهتدي به إلى حكم الله وأفعاله، وقدره الجاري بنصر عباده المؤمنين في هذه الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد.

زَيْنَ النَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ
وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَقَابِلِ ﴿١٤﴾ * قُلْ أُوْنِبْتُكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ
ذَلِكَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ
وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿١٥﴾

يخبر تعالى عما زين للناس في هذه الحياة الدنيا من أنواع الملاذ من النساء والبنين، فبدأ بالنساء لأن الفتنة

بهن أشد، كما ثبت في الصحيح أنه ﷺ قال: « ما تركت بعدي فتنة أضرب على الرجال من النساء ». فأما إذا كان القصد بهن الإعفاف وكثرة الأولاد، فهذا مطلوب مرغوب فيه مندوب إليه، كما وردت الأحاديث بالترغيب في التزويج والاستكثار منه، وأن خير هذه الأمة من كان أكثرها نساء، وقوله ﷺ: « الدنيا متاع وخير متاعها المرأة الصالحة، إن نظر إليها سرته، وإن أمرها أطاعته، وإن غاب عنها حفظته في نفسها وماله »^(١). وقوله في الحديث الآخر: « حَبَّبَ إِلَيَّ النِّسَاءَ وَالطَّيِّبَ، وَجَعَلَتْ قِرَّةَ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ ».

وحبُّ البنين تارة يكون للتفاخر والزينة فهو داخل في هذا، وتارة يكون لتكثير النسل وتكثير أمة محمد ﷺ ممن يعبد الله وحده لا شريك له، فهذا محمود ممدوح كما ثبت في الحديث: « تزوجوا الودود الولود فإنني مكاثر بكم الأمم يوم القيامة ». وحب المال كذلك، تارة يكون للفخر والخيلاء والتكبر على الضعفاء والتجبر على الفقراء فهذا مذموم، وتارة يكون للنفقة في القربات وصلة الأرحام والقربات ووجوه البر والطاعات فهذا ممدوح محمود شرعاً، وقد اختلف المفسرون في مقدار القنطار على أقوال، وحاصلها: أنه المال الجزيل كما قاله الضحاك وغيره، وقيل: ألف دينار، وقيل: ألف ومائتا دينار، وقيل: اثنا عشر ألفاً، وقيل: أربعون ألفاً، وقيل: ستون ألفاً، وقيل غير ذلك.

و**حب الخيل على ثلاثة أقسام**: تارة يكون ربطها أصحابها معدة لسبيل الله متى احتاجوا إليها غزوا عليها، فهؤلاء يثابون. وتارة تربط فخرًا ونواء^(٢) لأهل الإسلام فهذه على صاحبها وزر. وتارة للتعفف واقتناء نسلها ولم ينس حق الله في رقابها فهذه لصاحبها ستر، كما سيأتي الحديث بذلك إن شاء الله تعالى عند قوله تعالى: ﴿ وَأَعْدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ ﴾ الآية، وأما المسومة: فعن ابن عباس رضي الله عنهما المسومة الراعية، والمطهمة الحسان، وقال مكحول: المسومة الغرة والتحجيل، وقيل غير ذلك. وقوله تعالى: ﴿ وَالْأَنْعَامِ ﴾ يعني الإبل والبقر والغنم، ﴿ وَالْحَرْثِ ﴾ يعني الأرض المتخذة للغراس والزراعة: وقال الإمام أحمد عن سويد بن هبيرة عن النبي ﷺ قال: « خير مال امرئ له مهرة مأمورة، أو سكة مأبورة » المأمورة الكثيرة النسل، والسكة النخل المصطف، والمأبورة الملقحة.

ثم قال تعالى: ﴿ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ أي إنما هذا زهرة الحياة الدنيا وزينتها الفانية الزائلة، ﴿ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حَسَنُ الْمَآبِ ﴾ أي حسن المرجع والثواب، قال عمر بن الخطاب: لما نزلت ﴿ زِينِ لِلنَّاسِ حُبَّ الشَّهَوَاتِ ﴾ قلت: الآن يارب حين زينتها لنا، فنزلت: ﴿ قُلْ أُوذِبْتُكُمْ بِنَجْمٍ مِنْ ذَلِكَ ﴾ أي قل يا محمد للناس أؤخبركم بنجم مما زين للناس في هذه الحياة الدنيا، من زهرتها ونعيمها الذي هو زائل لا محالة؟ ثم أخبر عن ذلك فقال: ﴿ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ أي تتخرق بين جوانبها وأرجائها الأنهار من أنواع الأشربة من العسل واللبن والخمر والماء وغير ذلك، مما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ أي ما كثر فيها أبد الآباد لا ييغون عنها حولاً، ﴿ وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ ﴾ أي من الدنس والخبث والأذى والحیض والنفاس وغير ذلك مما يعترى نساء

(١) أخرجه النسائي وروى بعضه مسلم في صحيحه.

(٢) مفاخرة ومعارضة.

الدنيا، ﴿ورضوان من الله﴾ أي يحل عليهم رضوانه فلا يسخط عليهم بعده أبداً، ولهذا قال تعالى في الآية الأخرى التي في براءة: ﴿ورضوان من الله أكبر﴾ أي أعظم مما أعطاهم من النعم المقيم، ثم قال تعالى: ﴿والله بصير بالعباد﴾ أي يعطي كلا بحسب ما يستحقه من العطاء.

الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا فَاغِرٌ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٦﴾ الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ
وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾

يصف تبارك وتعالى عباده المتقين الذين وعدهم الثواب الجزيل فقال تعالى: ﴿الذين يقولون ربنا إننا آمننا﴾ أي بك وبكتابك وبرسولك، ﴿فاغفر لنا ذنوبنا﴾ أي بإيماننا بك وبما شرعته لنا فاغفر لنا ذنوبنا بفضلك ورحمتك ﴿وقنا عذاب النار﴾، ثم قال تعالى: ﴿الصابرين﴾ أي في قيامهم بالطاعات وتركهم المحرمات، ﴿والصادقين﴾ فيما أخبروا به من إيمانهم بما يلتمونه من الأعمال الشاقة، ﴿والقانتين﴾ والقنوت: الطاعة والخضوع، ﴿والمنفقين﴾ أي من أموالهم في جميع ما أمروا به من الطاعات، وصلة الأرحام والقربات، وسد الخلات، ومواساة ذوي الحاجات، ﴿والمستغفرين بالأسحار﴾ دل على فضيلة الاستغفار وقت الأسحار، وقد قيل: إن يعقوب عليه السلام لما قال لبيته: ﴿سوف أستغفر لكم ربي﴾ إنه أخرهم إلى وقت السحر، وثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «يتزل الله تبارك وتعالى في كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير، فيقول: هل من سائل فأعطيه؟ هل من داع فأستجيب له؟ هل من مستغفر فأغفر له؟».

وفي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها قالت: من كل الليل قد أوتر رسول الله ﷺ، من أوله وأوسطه وآخره، فاتمى وتره إلى السحر. وكان عبد الله بن عمر يصلي من الليل ثم يقول: يا نافع هل جاء السحر؟ فإذا قال: نعم، أقبل على الدعاء والاستغفار حتى يصبح^(١). وقال ابن جرير، عن إبراهيم بن حاطب، عن أبيه قال: سمعت رجلاً في السحر في ناحية المسجد وهو يقول: يارب أمرتي فأطعتك، وهذا السحر فاغفر لي، فنظرت فإذا هو ابن مسعود رضي الله عنه، وعن أنس بن مالك قال: كنا نؤمر إذا صلينا من الليل أن نستغفر في آخر السحر سبعين مرة^(٢).

شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ
الَّذِينَ عِنْدَ اللَّهِ لَاسْلِمُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ
بِعَايَةِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٩﴾ فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا
الْكِتَابَ وَالْأُمِّيَّةَ اسْلَمُوا فَإِنْ اسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِالْعِبَادِ ﴿٢٠﴾

(١) رواه ابن أبي حاتم.

(٢) رواه ابن مردويه.

شهد تعالى وكفى به شهيداً وهو أصدق الشاهدين وأصدق القائلين ﴿أنه لا إله إلا هو﴾ أي المنفرد بالالهية لجميع الخلائق، وأن الجميع عبيده وخلقه وفقراء إليه، وهو الغني عما سواه كما قال تعالى: ﴿لكن الله يشهد بما أنزل إليك﴾ الآية، ثم قرن شهادة ملائكته وأولي العلم بشهادته فقال: ﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم﴾، وهذه خصوصية عظيمة للعلماء في هذا المقام. ﴿قائماً بالقسط﴾ منصوب على الحال وهو في جميع الأحوال كذلك. ﴿لا إله إلا هو﴾ تأكيد لما سبق، ﴿العزیز الحكيم﴾ العزیز الذي لا يرام جنباه عظمة وكبرياء ﴿الحكيم﴾ في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره. عن الزبير بن العوام قال: سمعت النبي ﷺ وهو بعرفة يقرأ هذه الآية: ﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزیز الحكيم﴾، ثم قال: وأنا على ذلك من الشاهدين يا رب^(١).

وعن غالب القطان قال: أتيت الكوفة في تجارة فترلت قريباً من الأعمش، فلما كانت ليلة أردت أن أنحدر، قام فتجدد من الليل فر بهذه الآية: ﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزیز الحكيم﴾، إن الدين عند الله الإسلام. ثم قال الأعمش: وأنا أشهد بما شهد الله به وأستودع الله هذه الشهادة وهي لي عند الله وديعة ﴿إن الدين عند الله الإسلام﴾ قالها مراراً. قلت: لقد سمع فيها شيئاً، فغدوت إليه فودعته ثم قلت: يا أبا محمد إني سمعتك تردد هذه الآية، قال: أو ما بلغك ما فيها؟ قلت: أنا عندك منذ شهر لم تحدثني! قال: والله لا أحدثك بها إلى سنة؛ فأقمت سنة فكنت على بابه، فلما مضت السنة، قلت: يا أبا محمد قد مضت السنة. قال، حدثني أبو وائل عن عبد الله قال، قال رسول الله ﷺ: «يجاء بصاحبها يوم القيامة، فيقول الله عز وجل: عبيد عهد إلي، وأنا أحق من وفي بالعهد أدخلوا عبيد الجنة»^(٢).

وقوله تعالى: ﴿إن الدين عند الله الإسلام﴾ إخبار منه تعالى بأنه لا دين عنده يقبله من أحد سوى الإسلام، وهو اتباع الرسل فيما بعثهم الله به في كل حين، حتى ختموا بمحمد ﷺ الذي سد جميع الطرق إليه إلا من جهة محمد ﷺ، فن لقي الله بعد بعثة محمد ﷺ بدين على غير شريعته فليس بمتقبل كما قال تعالى: ﴿ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه﴾ الآية، وقال في هذه الآية مخبراً بانحصار الدين المتقبل منه عنده في الإسلام: ﴿إن الدين عند الله الإسلام﴾. ثم أخبر تعالى بأن الذين أوتوا الكتاب الأول إنما اختلفوا بعد ما قامت عليهم الحجة بإرسال الرسل إليهم، وإنزال الكتب عليهم، فقال: ﴿وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم﴾ أي بغى بعضهم على بعض، فاختلفوا في الحق بتحاسدهم وتباغضهم وتدابرههم، فحمل بعضهم بغض البعض الآخر على مخالفته في جميع أقواله وأفعاله وإن كانت حقاً، ثم قال تعالى: ﴿ومن يكفر بآيات الله﴾ أي من جحد ما أنزل الله في كتابه ﴿فإن الله سريع الحساب﴾ أي فإن الله سيجازيه على ذلك ويحاسبه على تكذيبه ويعاقبه على مخالفته كتابه.

(١) رواه أحمد وابن أبي حاتم.

(٢) رواه الطبراني في الكبير.

ثم قال تعالى: ﴿فَإِنْ حَاجُوكَ﴾ أي جادلوك في التوحيد، ﴿فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعْنَ﴾ أي فقل أخلصت عبادتي لله وحده لا شريك له، ولا ندَّ له، ولا ولد له ولا صاحبة له. ﴿وَمَنِ اتَّبَعْنَ﴾ أي على ديني، يقول كمقاتلي كما قال تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِيَ﴾ الآية، ثم قال تعالى أمراً لعبده ورسوله محمد ﷺ أن يدعو إلى طريقته ودينه والدخول في شرعه وما بعثه الله به إلى الكتابيين من الملمين والأمينين من المشركين، فقال تعالى: ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا، وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ﴾ أي والله عليه حسابهم وإليه مرجعهم ومآبهم، وهو الذي يهدي من يشاء ويضل من يشاء، وله الحكمة البالغة والحجة الدامغة. ولهذا قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِالْعِبَادِ﴾ أي هو عليم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الضلالة وهو الذي ﴿لَا يَسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ وما ذلك إلا لحكمته ورحمته.

وهذه الآية وأمثالها من أصرح الدلالات على عموم بعثته صلوات الله وسلامه عليه إلى جميع الخلق كما هو معلوم من دينه ضرورة، وكما دل عليه الكتاب والسنة في غير ما آية وحديث فن ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً﴾، وقال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾، وفي الصحيحين وغيرهما مما ثبت تواتره بالوقائع المتعددة أنه ﷺ بعث كنه يدعو إلى الله ملوك الآفاق وطوائف بني آدم من عربهم وعجمهم، كتابيهم وأميين امتثالاً لأمر الله له بذلك، وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة، يهودي ولا نصراني، ومات ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أهل النار»^(١)، وقال ﷺ: «بعثت إلى الأحمر والأسود»، وقال: «كان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة»^(٢).

وروى الإمام أحمد، عن أنس رضي الله عنه: أن غلاماً يهودياً كان يضع للنبي ﷺ وضوءه ويناوله نعليه، فرض فاتاه النبي ﷺ فدخل عليه وأبوه قاعد عند رأسه، فقال له النبي ﷺ: «يا فلان قل لا إله إلا الله»، فنظر إلى أبيه فسكت أبوه. فأعاد عليه النبي ﷺ، فنظر إلى أبيه، فقال أبوه: أطمع أبا القاسم، فقال الغلام: أشهد أن لا إله إلا الله وأنت رسول الله، فخرج النبي ﷺ وهو يقول: «الحمد لله الذي أخرجني من النار»^(٣).

إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِعَايَتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّ عِنْدَ بَغْيٍ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتِ أَعْمَلُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٢٢﴾

هذا ذم من الله تعالى لأهل الكتاب، بما ارتكبه من المآثم والمحارم في تكذيبهم بآيات الله قديماً وحديثاً، التي بلغتهم إياها الرسل استكباراً عليهم، وعناداً لهم وتعاضماً على الحق واستنكافاً عن اتباعه، ومع هذا قتلوا من قتلوا

(١) رواه مسلم عن أبي هريرة. (٢) أخرجه في الصحيحين. (٣) أخرجه البخاري وأحمد.

من النبيين حين بلغوهم عن الله شرعه، بغير سبب ولا جريمة منهم إليهم إلا لكونهم دعوهم إلى الحق ﴿ ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس ﴾ وهذا هو غاية الكبر . عن أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه قال : قلت : يا رسول الله أي الناس أشد عذاباً يوم القيامة ؟ قال : « رجل قتل نبياً ، أو من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر » ، ثم قرأ رسول الله ﷺ : ﴿ إن الذين يكفرون بآيات الله ، ويقتلون النبيين بغير حق ، ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس ، فبشرهم بعذاب أليم ﴾ الآية . ثم قال رسول الله ﷺ : « يا أبا عبيدة قتلت بنو إسرائيل ثلاثة وأربعين نبياً من أول النهار في ساعة واحدة ، فقام مائة وسبعون رجلاً من بني إسرائيل فأمروا من قتلهم بالمعروف ونهواهم عن المنكر فقتلوا جميعاً من آخر النهار من ذلك اليوم ، فهم الذين ذكر الله عز وجل ﴿ ١٩ ﴾ . وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : قتلت بنو إسرائيل ثلاثمائة نبي من أول النهار وأقاموا سوق بقلهم من آخره ، ولهذا لما أن تكبروا عن الحق واستكبروا على الخلق قابلهم الله على ذلك بالذلة والصغار في الدنيا ، والعذاب المهين في الآخرة ، فقال تعالى : ﴿ فبشرهم بعذاب أليم ﴾ أي موجه مهين ﴿ أولئك الذين حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وما لهم من ناصرين ﴾ .

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّوْا فَرِيقًا مِّنْهُمْ وَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن نَّمَسَّنَا النَّارَ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمُ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴿٢٤﴾ فَكَيْفَ إِذَا جُمِعْتَهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾

ينكر الله تعالى على اليهود والنصارى، المتمسكن فيما يزعمون بكتايبهم اللذين بأيديهم، وهما (التوراة والإنجيل) إذا دعوا إلى التحاكم إلى ما فيهما من طاعة الله، فيما أمرهم به فيهما من اتباع محمد ﷺ، تولوا وهم معرضون عنهما، وهذا في غاية ما يكون من ذمهم والتنويه بذكرهم بالمخالفة والعناد، ثم قال تعالى : ﴿ ذلك بأنهم قالوا لن تمسنا النار إلا أياماً معدودات ﴾ أي إنما حملهم وجراهم على مخالفة الحق اقتراؤهم على الله فيما ادعوه لأنفسهم، أنهم إنما يعذبون في النار سبعة أيام عن كل ألف سنة في الدنيا يوماً، وقد تقدم تفسير ذلك في سورة البقرة، ثم قال تعالى : ﴿ وغرهم في دينهم ما كانوا يفترون ﴾ أي ثبتهم على دينهم الباطل ما خدعوا به أنفسهم، من زعمهم أن النار لا تمسهم بذنوبهم إلا أياماً معدودات، وهم الذين اقتروا هذا من تلقاء أنفسهم، واختلقوه ولم ينزل الله به سلطاناً، قال الله تعالى متهددا لهم ومتوعداً : ﴿ فكيف إذا جمعناهم ليوم لا ريب فيه ﴾، أي كيف يكون حالهم وقد اقتروا على الله وكذبوا رسله وقتلوا أنبياءه والعلماء من قومهم، الأمرين بالمعروف والناهين عن المنكر !! والله تعالى سائلهم عن ذلك كله وحاكم عليهم ومجازيهم به، ولهذا قال تعالى : ﴿ فكيف إذا جمعناهم ليوم لا ريب فيه ﴾ ؟ أي : لا شك في وقوعه وكونه، ﴿ ووفيت كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون ﴾ .

(١) رواه ابن أبي حاتم وابن جرير .

قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ تُؤْتِي الْمَلِكَ مِنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمَلِكَ مِنْ تَشَاءُ وَتُعْزِزُ مَنْ تَشَاءُ وَتُذَلِّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ
الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ
وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾

يقول تبارك وتعالى: ﴿قل﴾ يا محمد معظماً لربك وشاكراً له ومفوضاً إليه ومتوكلاً عليه ﴿اللهم مالك الملك﴾ أي لك الملك كله، ﴿تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء﴾: أي أنت المعطي وأنت المانع، وأنت الذي ما شئت كان وما لم تشأ لم يكن، وفي هذه الآية تنبيه وإرشاد إلى شكر نعمة الله تعالى، على رسوله ﷺ وهذه الأمة، لأن الله تعالى حول النبوة من بني إسرائيل إلى النبي العربي القرشي خاتم الأنبياء على الإطلاق، ورسول الله إلى جميع الثقيلين الإنس والجن، الذي جمع الله فيه محاسن من كان قبله، وخصه بخصائص لم يعطها نبياً من الأنبياء، ولا رسولاً من الرسل، في العلم بالله وشريعته واطلاعه على الغيوب الماضية والآتية، وكشفه له عن حقائق الآخرة، ونشر أمته في الآفاق في مشارق الأرض ومغاربها، وإظهار دينه وشرعه على سائر الأديان والشرائع، فصلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين ما تعاقب الليل والنهار، ولهذا قال تعالى: ﴿قل اللهم مالك الملك﴾ الآية، أي: أنت المتصرف في خلقك الفعال لما تريد، كما رد تعالى على من يحكم عليه في أمره حيث قال: ﴿وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم﴾، قال الله رداً عليهم: ﴿أهم يقسمون رحمة ربك﴾؟ الآية، أي: نحن نتصرف فيما خلقنا كما نريد، بلا ممانع ولا مدافع، ولنا الحكمة البالغة والحجة التامة في ذلك، وهكذا يعطي النبوة لمن يريد، كما قال تعالى: ﴿الله أعلم حيث يجعل رسالته﴾. وقال تعالى: ﴿انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض﴾ الآية.

وقوله تعالى: ﴿تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل﴾ أي تأخذ من طول هذا فتزيد في قصر هذا فيعتدلان، ثم تأخذ من هذا في هذا فيتفاوتان ثم يعتدلان، وهكذا في فصول السنة ربيعاً وصيفاً وخريفاً وشتاء. وقوله تعالى: ﴿وتخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي﴾ أي تخرج الزرع من الحب، والحب من الزرع، والنخلة من النواة والنواة من النخلة، والمؤمن من الكافر والكافر من المؤمن، والدجاجة من البيضة والبيضة من الدجاجة، وما جرى هذا المجرى من جميع الأشياء: ﴿وترزق من تشاء بغير حساب﴾ أي تعطي من شئت من المال ما لا يعده ولا يقدر على إحصائه، وتقدر على آخريين لما لك في ذلك من الحكمة والارادة والمشئبة. عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «اسم الله الأعظم الذي إذا دعي به أجاب في هذه الآية من آل عمران ﴿قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير﴾» (١).

لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ

(١) أخرجه الطبراني عن ابن عباس مرفوعاً.

تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاتُوا وَيَحْذَرِكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾

نهى تبارك وتعالى عباده المؤمنين أن يوالوا الكافرين، وأن يتخذوهم أولياء يسرون إليهم بالموودة من دون المؤمنين، ثم توعدهم على ذلك فقال تعالى: ﴿ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء﴾ أي ومن يرتكب نهى الله من هذا فقد برئ من الله، كما قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالموودة - إلى أن قال - ومن يفعله منكم فقد ضل سواء سبيل﴾، وقال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين، أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطاناً مبيناً﴾، وقال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض، ومن يتولم منكم فإنه منهم﴾ الآية. وقوله تعالى: ﴿إلا أن تتقوا منهم تقاة﴾، أي إلا من خاف في بعض البلدان والأوقات من شرهم، فله أن يتقيهم بظاهره لا بباطنه ونيته، كما قال البخاري عن أبي الدرداء إنه قال: «إنا لنكشر في وجوه أقوام وقلوبنا تلغهم». وقال الثوري، قال ابن عباس: ليس التقية بالعمل إنما التقية باللسان، ويؤيده قول الله تعالى: ﴿من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان﴾ الآية. ثم قال تعالى: ﴿ويحذركم الله نفسه﴾ أي يحذركم نعمته في مخالفته وسطوته، وعذابه لمن والى أعداءه وعادى أولياءه، ثم قال تعالى: ﴿وإلى الله المصير﴾ أي إليه المرجع والمنقلب ليجازي كل عامل بعمله.

قُلْ إِنْ تُحْضِرُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يُعَلِّمُهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيَحْذَرِكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴿٣٠﴾

يخبر تبارك وتعالى عباده أنه يعلم السرائر والضمائر والظواهر، وأنه لا يخفى عليه منهم خافية، بل علمه محيط بهم في سائر الأحوال والأزمان، والأيام واللحظات وجميع الأوقات، وجميع ما في الأرض والسماوات، لا يغيب عنه مثقال ذرة ولا أصغر من ذلك في جميع أقطار الأرض والبحار والجبال، ﴿والله على كل شيء قدير﴾ أي وقدرته نافذة في جميع ذلك. وهذا تنبيه منه لعباده على خوفه وخشيته، لئلا يرتكبوا ما نهى عنه وما يبغضه منهم، فإنه عالم بجميع أمورهم، وهو قادر على معاجلتهم بالعقوبة، وإن أنظر من أنظر منهم، فإنه يمهّل ثم يأخذ أخذ عزيز مقتدر، ولهذا قال بعد هذا: ﴿يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً﴾ الآية، يعني يوم القيامة يحضر للعبد جميع أعماله من خير وشر كما قال تعالى: ﴿ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر﴾ فإرأى من أعماله حسناً سره ذلك وأفرحه، وما رأى من قبيح ساءه وغصّه، وودّ لو أنه تبرأ منه وأن يكون بينهما أمد بعيد، كما يقول لشیطانه الذي كان مقروناً به في الدنيا، وهو الذي جرّاه على فعل السوء: ﴿يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين﴾، ثم قال تعالى مؤكداً ومهدداً ومتوعداً: ﴿ويحذركم الله نفسه﴾ أي يخوفكم عقابه، ثم قال جلّ

جلاله مرجياً لعباده لثلا يأسوا من رحمته ويقنطوا من لطفه: ﴿وَاللَّهُ رُؤُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ قال الحسن البصري: من رأفته بهم حذرهم نفسه وقال غيره: أي رحيم بخلقه يحب لهم أن يستقيموا على صراطه المستقيم ودينه القويم، وأن يتبعوا رسوله الكريم .

قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ
وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾

هذه الآية الكريمة حاكمة على كل من ادعى محبة الله، وليس هو على الطريقة المحمدية، فإنه كاذب في دعواه في نفس الأمر، حتى يتبع الشرع المحمدي، والدين النبوي في جميع أقواله وأفعاله، كما ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد»، ولهذا قال: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ أي يحصل لكم فوق ما طلبتم من محبتكم إياه، وهو محبته إياكم وهو أعظم من الأول، كما قال بعض العلماء الحكماء: ليس الشأن أن تحب إنما الشأن أن تُحَبَّ، وقال الحسن البصري: زعم قوم أنهم يحبون الله فابتلاهم الله بهذه الآية فقال: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾. عن عروة عن عائشة رضي الله عنها قالت، قال رسول الله ﷺ «هل الدين إلا الحب في الله والبغض في الله؟ قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي﴾» (١).

ثم قال تعالى: ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾، والله غفور رحيم ﴿أَي بَاتِبَاعِكُمُ الرَّسُولَ ﷺ﴾، يحصل لكم هذا من بركة سفارته، ثم قال تعالى آمراً لكل أحد من خاص وعام: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ أي تخالفوا عن أمره، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكٰفِرِينَ﴾ فدل على أن مخالفته في الطريقة كفر، والله لا يحب من اتصف بذلك، وإن ادعى وزعم في نفسه أنه محب لله ويتقرب إليه، حتى يتابع الرسول النبي الأمي خاتم الرسل، ورسول الله إلى جميع الثقلين الجن والإنس، الذي لو كان الأنبياء بل المرسلون بل أولو العزم منهم في زمانه ما وسعهم إلا اتباعه، والدخول في طاعته واتباع شريعته، كما سيأتي تقريره عند قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ﴾ الآية، إن شاء الله تعالى .

* إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرٰهِيمَ وَآلَ عِمْرٰنَ عَلَى الْعٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذَرِيَّةً بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾

يخبر تعالى أنه اختار هذه البيوت على سائر أهل الأرض، فاصطفى ﴿آدم﴾ عليه السلام خلقه بيده ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته، وعلمه أسماء كل شيء، وأسكنه الجنة، ثم أهبطه منها لما له في ذلك من

(١) رواه ابن أبي حاتم عن عائشة مرفوعاً وفي سنده ضعف .

الحكمة؛ واصطفى ﴿نوحاً﴾ عليه السلام، وجعله أول رسول بعثه إلى أهل الأرض، لما عبد الناس الأوثان وأشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً، وانتقم له لما طالت مدته بين ظهرائي قومه يدعوهم إلى الله ليلاً ونهاراً، سرّاً وجهاراً، فلم يزداهم ذلك إلا فراراً، فدعا عليهم فأغرقهم الله عن آخرهم، لم ينج منهم إلا من اتبعه على دينه الذي بعثه الله به، واصطفى ﴿آل إبراهيم﴾ ومنهم سيد البشر خاتم الأنبياء على الإطلاق محمد ﷺ، و﴿آل عمران﴾ والمراد بعمران هذا هو والد مريم بنت عمران أم عيسى بن مريم عليه السلام، فعيسى عليه السلام من ذرية إبراهيم كما سيأتي بيانه في سورة الأنعام إن شاء الله تعالى .

إِذْ قَالَتْ أُمَّرَأْتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾
 فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ
 وَإِنِّي أَعِيدُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾

امرأة عمران هذه هي أم مريم عليها السلام وهي (حنة بنت فاقوذ)، قال محمد بن إسحاق: وكانت امرأة لا تحمل فرأت يوماً طائراً يزق فرخه، فاشتته الولد فدعت الله تعالى أن يهبها ولداً، فاستجاب الله دعائها فواقعها زوجها فحملت منه، فلما تحققت الحمل نذرت أن يكون محرراً، أي خالصاً مفرغاً للعبادة لخدمة بيت المقدس، فقالت: يا رب ﴿إني نذرت لك ما في بطني محرراً فتقبل مني إنك أنت السميع العليم﴾ أي السميع لدعائي العليم بنيتي، ولم تكن تعلم ما في بطنها أذكراً أم أنثى، ﴿فلما وضعتها قالت رب إني وضعتها أنثى والله أعلم بما وضعت، وليس الذكر كالأنثى﴾ أي في القوة، والجلد في العبادة، وخدمة المسجد الأقصى. ﴿وإني سميتها مريم﴾ فيه دليل على جواز التسمية يوم الولادة كما هو الظاهر من السياق لأنه شرع من قبلنا، وقد حكي مقررأً وبذلك ثبتت السنة عن رسول الله ﷺ حيث قال: «ولدي الليلة ولد سميت به باسم أبي إبراهيم» أخرجاه، وكذلك ثبت فيهما أن أنس بن مالك ذهب بأخيه حين ولدته أمه إلى رسول الله ﷺ فحنكه وسماه (عبد الله). وفي صحيح البخاري: أن رجلاً قال: يا رسول الله ولد لي الليلة ولد فما أسميه؟ قال: «سم ابنك عبد الرحمن». فأما حديث قتادة عن الحسن البصري، عن سمرة بن جندب: أن رسول الله ﷺ قال: «كل غلام مرتين بعقيقته يذبح عنه يوم السابع ويسمى ويحلق رأسه» فقد رواه أحمد وأهل السنن وصححه الترمذي .

وقوله تعالى إخباراً عن أم مريم أنها قالت: ﴿وإني أعيدُها بك وذريتها من الشيطان الرجيم﴾ أي عودتها بالله عز وجل من شر الشيطان، وعودت ذريتها وهو ولدها عيسى عليه السلام، فاستجاب الله لها ذلك . عن أبي هريرة قال، قال رسول الله ﷺ: «ما من مولود يولد إلا مسه الشيطان حين يولد فيستهل صارخاً من مسه إياه إلا مريم وابنها»، ثم يقول أبو هريرة: اقرأوا إن شئتم: ﴿وإني أعيدُها بك وذريتها من الشيطان الرجيم﴾^(١) .

(١) أخرجه البخاري ومسلم .

وعن أبي هريرة قال ، قال رسول الله ﷺ : « ما من مولود إلا وقد عصره الشيطان عصرة أو عصرتين إلا عيسى ابن مريم ومريم » ، ثم قرأ رسول الله ﷺ : « وإني أعيدها بك وذريتها من الشيطان الرجيم » ﴿٣٧﴾ .

فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَنْمَرِمُ أَيُّ لِكَ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾

يخبر ربنا تعالى أنه تقبلها من أمها نذيرة، وأنه أنبتنا نباتاً حسناً أي جعلها شكلاً مليحاً ومنظراً بهيجاً، ويسر لها أسباب القبول، وقرنها بالصالحين من عباده، تتعلم منهم العلم والخير والدين، فهذا قال: ﴿ وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ﴾ بتشديد الفاء ونصب زكريا على المفعولية أي جعله كافلاً لها، قال ابن إسحاق: وما ذلك إلا أنها كانت يتيمة، وذكر غيره أن بني إسرائيل أصابهم سنة جذب فكفل زكريا مريم لذلك ولا منافاة بين القولين والله أعلم، وإنما قدر الله كون زكريا كفلها لسعادتها، لتقتبس منه علماً جماً وعملاً صالحاً، ولأنه كان زوج خالتها على ما ذكره ابن إسحاق وابن جرير وغيرهما، وقيل: زوج أختها كما ورد في الصحيح: « فإذا يبحي وعيسى وهما ابنا الخالة » وقد يطلق على ما ذكره ابن إسحاق ذلك أيضاً توسعاً، فعلى هذا كانت في حضانة خالتها، وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قضى في (عمارة بنت حمزة) أن تكون في حضانة خالتها امرأة (جعفر بن أبي طالب) وقال: « الخالة بمنزلة الأم ». ثم أخبر تعالى عن سيادتها وجلادتها في محل عبادتها فقال: ﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا ﴾ ، قال مجاهد وعكرمة والسدي: يعني وجد عندها فاكهة الصيف في الشتاء، وفاكهة الشتاء في الصيف، وعن مجاهد: ﴿ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا ﴾ أي علماً، والأول أصح وفيه دلالة على كرامات الأولياء، وفي السنة لهذا نظائر كثيرة، فإذا رأى زكريا هذا عندها ﴿ قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَى لِكَ هَذَا ﴾ أي يقول من أين لك هذا؟ ﴿ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ .

عن جابر أن رسول الله ﷺ أقام أياماً لم يطعم طعاماً، حتى شق ذلك عليه، فطاف في منازل أزواجه فلم يجد عند واحدة منهن شيئاً، فأتى فاطمة فقال: « يا بنية هل عندك شيء آكله فإني جائع؟ » قالت: لا والله - بأبي أنت وأمي - فلما خرج من عندها بعثت إليها جارة لها برغيفين وقطعة لحم، فأخذته منها فوضعت في جفنة لها وقالت: والله لأوثرن بهذا رسول الله ﷺ على نفسي ومن عندي، وكانوا جمعاً محتاجين إلى شبعة طعام، فبعثت حسناً - أوحسيناً - إلى رسول الله ﷺ، فرجع إليها، فقالت: بأبي أنت وأمي قد أتى الله بشيء فخبأته لك، قال: « هلمي يا بنية »، قالت: فأتيته بالجفنة فكشفت عنها فإذا هي مملوءة خبزاً ولحماً، فلما نظرت إليها بهت وعرفت أنها بركة من الله، فحمدت الله وصليت على نبيه، وقدمته إلى رسول الله ﷺ فلما رآه حمد الله، وقال: « من أين لك هذا يا بنية؟ » قالت: يا أبت: ﴿ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ فحمد الله، وقال: « الحمد لله الذي جعلك يا بنية شبيهة بسيدة نساء بني إسرائيل فإنها كانت إذا رزقها الله شيئاً وسئلت عنه

(١) أخرجه مسلم عن أبي هريرة مرفوعاً .

قالت: هو من عند الله، إن الله يرزق من يشاء بغير حساب»، فبعث رسول الله ﷺ إلى علي ثم أكل رسول الله ﷺ، وأكل علي وفاطمة وحسن وحسين، وجميع أزواج النبي ﷺ، وأهل بيته حتى شعوا جميعاً. قالت: وبقيت الجفنة كما هي. قالت: فأوسعت ببقيتها على جميع الجيران، وجعل الله فيها بركة وخيراً كثيراً^(١).

هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ، قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِي الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْرَمًا وَاذْكُرَّ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَرِ ﴿٤١﴾

لما رأى زكريا عليه السلام أن الله يرزق مريم عليها السلام فاكهة الشتاء في الصيف، وفاكهة الصيف في الشتاء، طمع حينئذ في الولد، وإن كان شيخاً كبيراً قد وهن منه العظم، واشتعل الرأس شيباً، وكانت امرأته مع ذلك كبيرة وعاقراً، لكنه مع هذا كله سأل ربه وناداه نداء خفياً، وقال: ﴿رب هب لي من لدنك﴾ أي من عندك ﴿ذرية طيبة﴾ أي ولداً صالحاً ﴿إنك سميع الدعاء﴾. قال تعالى: ﴿فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب﴾ أي خاطبته الملائكة شفاهاً خطاباً أسمعتة، وهو قائم يصلي في محراب عبادته، ومحل خلوته ومجلس مناجاته وصلاته، ثم أخبر تعالى عما بشرته به الملائكة: ﴿أن الله يبشرك بيحيى﴾ أي بولد يوجد لك من صلبك اسمه يحيى. قال قتادة: إنما سمي يحيى لأن الله أحياه بالإيمان، وقوله: ﴿مصدقاً بكلمة من الله﴾. روى العوفي عن ابن عباس في هذه الآية: ﴿مصدقاً بكلمة من الله﴾ أي بعيسى بن مريم، وقال الربيع بن أنس: هو أول من صدق بعيسى بن مريم، وقال ابن جريج: قال ابن عباس: كان يحيى وعيسى ابني خالة، وكانت أم يحيى تقول لمريم: إني أجد الذي في بطني يسجد للذي في بطنك فذلك تصديقه له في بطن أمه، وهو أول من صدق عيسى وكلمة الله عيسى، وهو أكبر من عيسى عليه السلام وهكذا قال السدي أيضاً.

وقوله تعالى: ﴿وسيداً﴾ قال أبو العالية: حليماً، وقال قتادة: سيداً في العلم والعبادة، وقال ابن عباس: السيد الحليم التقى، وقال ابن المسيب: هو الفقيه العالم، وقال عطية: السيد في خلقه ودينه، وقال ابن زيد: هو الشريف، وقال مجاهد: هو الكريم على الله عز وجل.

وقوله تعالى: ﴿وحصوراً﴾ روي عن ابن مسعود وابن عباس ومجاهد أنهم قالوا: الذي لا يأتي النساء، وعن أبي العالية والربيع بن أنس: هو الذي لا يولد له ولا ماء له، وعن عبد الله بن عمرو بن العاص يقول: ليس

(١) رواه الحافظ أبو يعلى عن جابر بن عبد الله.

أحد من خلق الله لا يلقاه بذنوب غير يحيى بن زكريا، ثم قرأ سعيد ﴿وسيداً وحصوراً﴾، ثم أخذ شيئاً من الأرض فقال: الحصور من كان ذكره مثل ذا .

وقد قال «القاضي عياض» في كتابه «الشفاء»: اعلم أن ثناء الله تعالى على يحيى أنه كان ﴿حضوراً﴾ ليس كما قاله بعضهم إنه كان هيوماً، أو لا ذكر له، بل قد أنكر هذا حدّاق المفسرين، ونقاد العلماء، وقالوا: هذه نقيصة وعيب ولا يليق بالأنبياء عليهم السلام، وإنما معناه أنه معصوم من الذنوب أي لا يأتيها كأنه حضور عنها، وقيل: مانعاً نفسه من الشهوات، وقيل: ليست له شهوة في النساء، وقد بان لك من هذا أن عدم القدرة على النكاح نقص، وإنما الفضل في كونها موجودة ثم يمنعها، إما بمجاهدة كعيسى، أو بكفاية من الله عز وجل كيحيى عليه السلام، ثم هي في حق من قدر عليها - وقام بالواجب فيها، ولم تشغله عن ربه - درجة عليا، وهي درجة نبينا ﷺ الذي لم يشغله كثرتين عن عبادة ربه، بل زاده ذلك عبادة بتحسينهن، وقيامه عليهن وإكسابه لهن وهديته إياهن، بل قد صرح أنها ليست من حظوظ دنياه هو وإن كانت من حظوظ دنيا غيره فقال: «حب إلي من دنياكم»^(١) هذا لفظه، والمقصود أنه مدح ليحيى بأنه حضور ليس أنه لا يأتي النساء، بل معناه كما قاله هو وغيره: أنه معصوم من الفواحش والقاذورات، ولا يمنع ذلك من تزويجه بالنساء الحلال وغشيانهن وإيلادهن، بل قد يفهم وجود النسل له من دعاء زكريا المتقدم حيث قال: ﴿هب لي من لدنك ذرية طيبة﴾ كأنه قال ولداً له ذرية ونسل وعقب، والله سبحانه وتعالى أعلم .

قوله تعالى: ﴿ونبياً من الصالحين﴾ ، هذه بشارة ثانية نبوة يحيى بعد البشارة بولادته، وهي أعلى من الأولى، كقوله لأم موسى: ﴿إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين﴾. فلما تحقق زكريا عليه السلام هذه البشارة، أخذ يتعجب من وجود الولد منه بعد الكبر، ﴿قال رب أنى يكون لي غلام وقد بلغني الكبر وامرأتي عاقر قال﴾: أي الملك، ﴿كذلك الله يفعل ما يشاء﴾ أي هكذا أمر الله عظيم لا يعجزه شيء ولا يتعاضمه أمر، ﴿قال رب اجعل لي آية﴾ أي علامة استدلل بها على وجود الولد مني، ﴿قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمياً﴾: أي إشارة لا تستطيع النطق مع أنك سوي صحيح، كما في قوله: ﴿ثلاث ليال سويّاً﴾، ثم أمره بكثرة الذكر والتكبير والتسييح في هذه الحال، فقال تعالى: ﴿واذكر ربك كثيراً وسبح بالعشي والإبكار﴾ .

وَإِذْ قَالَتِ الْمَلِكَةُ يَمْرِيمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴿٤٦﴾ يَمْرِيمُ أَقْنِي لِرَبِّكِ وَأَسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٤٧﴾ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُونَ أَقْلَمُهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٨﴾

هذا إخبار من الله تعالى بما خاطبت به الملائكة مريم عليها السلام، عن أمر الله لهم بذلك أن الله قد اصطفاها، أي اختارها لكثرة عبادتها وزهادتها، وشرفها وطهارتها من الأكدار والوساوس، واصطفاها ثانياً

(١) انظر الشفاء للقاضي عياض فهو كتاب جليل ونفيس .

مرة بعد مرة لجلالتها على نساء العالمين، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «خير نساء ركب الإبل نساء قريش أحناه على ولد في صغره، وأرعاه على زوج في ذات يده، ولم تترك مريم بنت عمران بعيداً قط»^(١). وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «خير نساءها مريم بنت عمران وخير نساءها خديجة بنت خويلد»^(٢). وعن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «خير نساء العالمين أربع، مريم بنت عمران، وآسية امرأة فرعون، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت رسول الله ﷺ»^(٣).

وفي البخاري: «كامل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون، ومريم بنت عمران، وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام». ثم أخبر تعالى عن الملائكة أنهم أمروها بكثرة العبادة والخشوع والركوع والسجود، والدأب في العمل لما يريد الله بها من الأمر الذي قدره الله وقضاه، مما فيه محنة لها ورفعته في الدارين، بما أظهر الله فيها من قدرته العظيمة، حيث خلق منها ولداً من غير أب، فقال تعالى: ﴿يا مريم اقنتي لربك واسجدي واركعي مع الراكعين﴾. أما القنوت فهو الطاعة في خشوع، كما قال تعالى: ﴿وله من في السموات والأرض كل له قانتون﴾. وقال مجاهد: كانت مريم عليها السلام تقوم حتى تتورم كعباها، والقنوت هو طول الركوع في الصلاة، يعني امثالاً لقول الله تعالى: ﴿يا مريم اقنتي لربك﴾ قال الحسن: يعني اعسدي لربك ﴿واسجدي واركعي مع الراكعين﴾ أي كوني منهم. ثم قال لرسوله بعدما أطلعه على جلية الأمر: ﴿ذلك من أبناء الغيب نوحيه إليك﴾ أي نقصه عليك، ﴿وما كنت لديهم﴾ أي ما كنت عندهم يا محمد، فتخبرهم عن معاينة عما جرى، بل أطلعك الله على ذلك كأنك حاضر وشاهد لما كان من أمرهم، حين اقترعوا في شأن مريم أيهم يكلفها وذلك لرغبتهم في الأجر.

قال ابن جرير عن عكرمة: ثم خرجت أم مريم بها، يعني بمريم في خرقها إلى بني الكاهن بن هارون أخي موسى عليهما السلام - وهم يومئذ يلون من بيت المقدس ما يلي الحجة من الكعبة - فقالت لهم: دونكم هذه النذيرة فإني حررتها، وهي أنثى ولا يدخل الكنيسة حائض، وأنا لا أردّها إلى بيتي، فقالوا: هذه ابنة إمامنا - وكان عمران يؤمهم في الصلاة - وصاحب قرباننا فقال زكريا: ادفعوها لي فإن خالتها تحتي، فقالوا: لا تطيب أنفسنا، هي ابنة إمامنا، فذلك حين اقترعوا عليها بأقلامهم التي يكتبون بها التوراة، فقرعهم زكريا فكفلها. وقد ذكر عكرمة والسدي وقاتدة أنهم ذهبوا إلى نهر الأردن واقترعوا هنالك على أن يلقوا أقلامهم فأبهم يثبت في جرية الماء فهو كافلها، فألقوا أقلامهم فاحتملها الماء إلا قلم زكريا فإنه ثبت، ويقال: إنه ذهب صاعداً يشق جرية الماء، وكان مع ذلك كبيرهم وسيدهم وعالمهم وإمامهم ونبئهم صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر النبيين.

إِذْ قَالَتِ الْمَلَكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنْ

(١) رواه عبد الرزاق عن أبي هريرة وأخرجه مسلم بنحوه.

(٢) رواه الشيخان عن علي بن أبي طالب.

(٣) رواه ابن مردويه عن أنس بن مالك.

الْمُقْرَبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيَكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾

هذه بشارة من الملائكة لمريم عليها السلام، بأنه سيوجد منها ولد عظيم له شأن كبير ، قال الله تعالى : ﴿ إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يشرك بكلمة منه ﴾ أي بولد يكون وجوده بكلمة من الله، أي يقول له كن فيكون، وهذا تفسير قوله: ﴿ مصداقاً بكلمة من الله ﴾ كما ذكره الجمهور على ما سبق بيانه، ﴿ اسمه المسيح عيسى ابن مريم ﴾ أي يكون هذا مشهوراً في الدنيا يعرفه المؤمنون بذلك، وسمي المسيح - قال بعض السلف - : لكثرة سياحته، وقيل : لأنه كان مسيح القدمين لا أخمص لهما ، وقيل : لأنه كان إذا مسح أحداً من ذوي العاهات برئ بإذن الله تعالى .

وقوله تعالى : ﴿ عيسى ابن مريم ﴾ نسبة إلى أمه حيث لا أب له، ﴿ وجيهاً في الدنيا والآخرة ومن المقربين ﴾ أي له وجاهة ومكانة عند الله في الدنيا بما يوحيه الله إليه من الشريعة، وينزله عليه من الكتاب وغير ذلك مما منحه الله به، وفي الدار الآخرة يشفع عند الله فيمن يأذن له فيه، فيقبل منه أسوة بإخوانه من أولي العزم صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين، وقوله: ﴿ ويكلم الناس في المهد وكهلاً ﴾ أي يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له في حال صغره، معجزة وآية، وفي حال كهولته حين يوحى الله إليه: ﴿ ومن الصالحين ﴾ أي في قوله وعمله له علم صحيح وعمل صالح . وقال ابن أبي حاتم: عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: « لم يتكلم في المهد إلا ثلاث، عيسى، وصبي كان في زمن جريج، وصبي آخر ». فلما سمعت بشارة الملائكة لها بذلك عن الله عز وجل، قالت في مناجاتها: ﴿ رب أنى يكون لي ولد ولم يمسسني بشر ﴾ ؟ تقول: كيف يوجد هذا الولد مني وأنا لست بذات زوج، ولا من عزمي أن أتزوج، ولست بغياً حاشا لله !! فقال لها الملك عن الله عز وجل في جواب ذلك السؤال ﴿ كذلك الله يخلق ما يشاء ﴾ أي هكذا أمر الله عظيم، لا يعجزه شيء، وصرح ههنا بقوله: ﴿ يخلق ما يشاء ﴾، ولم يقل يفعل كما في قصة زكريا، بل نص ههنا على أنه يخلق لئلا يبقى لمبطل شبهة، وأكد ذلك بقوله: ﴿ إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون ﴾ أي فلا يتأخر شيئاً، بل يوجد عقيب الأمر بلا مهلة كقوله: ﴿ وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر ﴾ أي إنما نأمر مرة واحدة لا مثوية فيها، فيكون ذلك الشيء سريعاً كلمح البصر .

وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَاتٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلَقُ لَكُمْ مِنَ الطَّيْرِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُم ۖ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْ مِنَ التَّوْرَةِ وَلَا حِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُمْ بِبَيِّنَاتٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ

وَأَطِيعُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾

يقول تعالى مخبراً عن تمام بشارة الملائكة لمريم بابنها عيسى عليه السلام: إن الله يعلمه الكتاب والحكمة، الظاهر أن المراد بالكتاب هنا الكتابة، والحكمة تقدم تفسيرها في سورة البقرة، والتوراة والإنجيل. فالتوراة هو الكتاب الذي أنزل على موسى بن عمران، والإنجيل الذي أنزل على عيسى بن مريم عليهما السلام؛ وقد كان عيسى عليه السلام يحفظ هذا. وقوله: ﴿ورسولاً إلى بني إسرائيل﴾ قائلًا لهم: ﴿إني قد جئتكم بآية من ربكم، أني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله﴾ وكذلك كان يفعل: يصور من الطين شكل طير، ثم ينفخ فيه فيطير عياناً بإذن الله عز وجل الذي جعل هذا معجزة له تدل على أنه أرسله، ﴿وأبرئ الأكمه﴾، قيل: الأعمى، وقيل: الأعمش، وقيل: هو الذي يولد أعمى، وهو أشبه لأنه أبلغ في المعجزة وأقوى في التحدي ﴿والأبرص﴾ معروف، ﴿وأحيى الموتى بإذن الله﴾. قال كثير من العلماء: بعث الله كل نبي من الأنبياء بما يناسب أهل زمانه، فكان الغالب على زمان موسى عليه السلام السحر وتعظيم السحرة، فبعثه الله بمعجزة بهرت الأبصار وحيرت كل سحار، فلما استيقنوا أنها من عند العظيم الجبار، انقادوا للإسلام وصاروا من عباد الله الأبرار، وأما عيسى عليه السلام فبعث في زمن الأطباء وأصحاب علم الطبيعة، فجاءهم من الآيات بما لا سبيل لأحد إليه إلا أن يكون مؤيداً من الذي شرع الشريعة، فن أبن للطبيب قدرة على إحياء الجماد، أو على مداواة الأكمه والأبرص، وبعث من هو في قبره رهيناً إلى يوم التناد؟ وكذلك محمد ﷺ بعث في زمان الفصحاء والبلغاء وتجويد الشعراء، فأتاهم بكتاب من الله عز وجل، فلو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثله، أو بعشر سور من مثله، أو بسورة من مثله لم يستطيعوا أبداً ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً، وما ذلك إلا أن كلام الرب عز وجل لا يشبه كلام الخلق أبداً.

وقوله تعالى: ﴿وأنبئكم بما تآكلون وما تدخرون في بيوتكم﴾ أي أخبركم بما أكل أحدكم الآن، وما هو مدخر له في بيته لغد، ﴿إن في ذلك﴾ أي في ذلك كله، ﴿لآية لكم﴾ أي على صدقي فيما جئتكم به، ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ ومصداقاً لما بين يدي من التوراة أي مقررأ لها ومثبتاً، ﴿ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم﴾ فيه دلالة على أن عيسى عليه السلام نسخ بعض شريعة التوراة وهو الصحيح من القولين، ومن العلماء من قال: لم ينسخ منها شيئاً، وإنما أحل لهم بعض ما كانوا يتنازعون فيه، كما قال في الآية الأخرى: ﴿ولأبين لكم بعض الذي تختلفون فيه﴾ والله أعلم. ثم قال: ﴿وجئتكم بآية من ربكم﴾ أي بحجة ودلالة على صدقي فيما أقوله لكم، ﴿فاتقوا الله وأطيعوا، إن الله ربي وربكم فاعبدوه﴾ أي أنا وأتم سواء في العبودية له والخضوع والاستكانة إليه ﴿هذا صراط مستقيم﴾.

* فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَا ءَامَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتَبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَكْرُؤًا مِمَّا مَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرٌ

الْمَكْرِينِ ﴿٥٤﴾

يقول تعالى: ﴿ فلما أحسَّ عيسى ﴾ أي استشعر منهم التصميم على الكفر والاستمرار على الضلال، قال: ﴿ من أنصاري إلى الله ﴾؟ قال مجاهد: أي من يتبعني إلى الله، وقال سفيان الثوري: أي من أنصاري مع الله، وقول مجاهد أقرب، والظاهر أنه أراد من أنصاري في الدعوة إلى الله، كما كان النبي ﷺ يقول في مواسم الحج قبل أن يهاجر: « من رجل يؤويني حتى أبلغ كلام ربي، فإن قريشاً قد منعوني أن أبلغ كلام ربي » حتى وجد الأنصار فأووه ونصروه، وهاجر إليهم فواسوه ومنعوه من الأسود والأحمر، رضي الله عنهم وأرضاهم. وهكذا عيسى بن مريم عليه السلام انتدب له طائفة من بني إسرائيل فآمنوا به ووازره ونصروه، واتبعوا النور الذي أنزل معه، ولهذا قال الله تعالى مخبراً عنهم: ﴿ قال الحواريون: نحن أنصار الله، آمنا بالله، واشهد بأنا مسلمون ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين ﴾، الحواريون قيل: كانوا قصارين، وقيل سموا بذلك لبياض ثيابهم، وقيل: صيادين، والصحيح أن الحواري: الناصر كما ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ لما ندب الناس يوم الأحزاب فانتدب الزبير، ثم ندبهم فانتدب الزبير رضي الله عنه، فقال النبي ﷺ: « لكل نبي حواري، وحواري الزبير ».

عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ فاكتبنا مع الشاهدين ﴾ قال: مع أمة محمد ﷺ، وهذا إسناد جيد. ثم قال تعالى مخبراً عن ملائكة بني إسرائيل، فيما هموا به من الفتك بعيسى عليه السلام وإرادته بالسوء والصلب، حين تماثلوا عليه ووشوا به إلى ملك ذلك الزمان - وكان كافراً - أن هنا رجلاً يضل الناس، ويصددهم عن طاعة الملك، ويفسد الرعايا، ويفرق بين الأب وابنه، إلى غير ذلك، مما تقلدوه في رقابهم، ورموه به من الكذب، وأنه ولد زنية، حتى استثاروا غضب الملك فبعث في طلبه من يأخذه ويصلبه وينكل به، فلما أحاطوا بمنزله وظنوا أنهم قد ظفروا به نجاه الله تعالى من بينهم، ورفع من روزنة ذلك البيت إلى السماء، وألقى الله شبهه على رجل ممن كان عنده في المنزل، فلما دخل أولئك اعتقدوه في ظلمة الليل ﴿ عيسى ﴾ فأخذوه وأهانوه وصلبوه ووضعوا على رأسه الشوك، وكان هذا من مكر الله بهم، فإنه نجى نبيه ورفع من بين أظهرهم، وتركهم في ضلالهم يعمهون، يعتقدون أنهم قد ظفروا بطلبهم، وأسكن الله في قلوبهم قسوة وعناداً للحق ملازماً لهم، وأورثهم ذلة لا تفارقهم إلى يوم التناد، ولهذا قال تعالى: ﴿ ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين ﴾.

إِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى ابْنُ مَرْيَمَ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتُكَ إِذْ رَأَيْتُكَ إِلَىٰ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلِ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَىٰ مَرَجِعِكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأَعْدَبْنَاهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِّنْ نَّاصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٥٧﴾ ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾

اختلف المفسرون في قوله تعالى: ﴿إني متوفيك ورافعك إني﴾، فقال قتادة: هذا من المقدم والمؤخر تقديره إني رافعك إني ومتوفيك، يعني بعد ذلك. وقال ابن عباس: إني متوفيك أي يميتك، وقال وهب بن منبه: توفاه الله ثلاث ساعات من أول النهار حين رفعه إليه، قال مطر الوراق: إني متوفيك من الدنيا وليس بوفاة موت، وكذا قال ابن جرير: توفيه هو رفعه. وقال الأكترون: المراد بالوفاة ههنا النوم، كما قال تعالى: ﴿وهو الذي يتوفاكم بالليل﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها﴾ الآية، وكان رسول الله ﷺ يقول إذا قام من النوم: «الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا» الحديث. وعن الحسن أنه قال في قوله تعالى: ﴿إني متوفيك﴾ يعني وفاة المنام رفعه الله في منامه. وقوله تعالى: ﴿ومطهرك من الذين كفروا﴾ أي برفعي إياك إلى السماء، ﴿وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة﴾، وهكذا وقع فإن المسيح عليه السلام لما رفعه الله إلى السماء، تفرقت أصحابه شيعاً بعده، فمنهم من آمن بما بعثه الله به على أنه عبد الله ورسوله وابن أمته، ومنهم من غلا فيه فجعله ابن الله، وآخرون قالوا: هو الله، وآخرون قالوا: هو ثالث ثلاثة، وقد حكى الله مقاتلهم في القرآن وردّ على كل فريق، فاستمروا على ذلك قريباً من ثلثمائة سنة.

ثم نبغ لهم ملك من ملوك اليونان يقال له (قسطنطين) فدخل في دين النصرانية قيل: حيلة ليفسده، فإنه كان فيلسوفاً، وقيل: جهلاً منه، إلا أنه بدلّ لم دين المسيح وحرّفه وزاد فيه ونقص منه، ووضعت له القوانين والأمانة الكبرى التي هي الخيانة الحقيرة، وأحل في زمانه لحم الخنزير، وصلوا له إلى المشرق، وصوروا له الكنائس والمعابد والصوامع، وزاد في صيامهم عشرة أيام من أجل ذنب ارتكبه فيما يزعمون، وصار دين المسيح (دين قسطنطين). إلا أنه بنى لهم من الكنائس والمعابد والصوامع والديارات ما يزيد على اثني عشر ألف معبد، وبنى المدينة المنسوبة إليه، واتبعه طائفة الملكية منهم، وهم في هذا كله قاهرون لليهود، أيده الله عليهم لأنه أقرب إلى الحق منهم، وإن كان الجميع كفاراً عليهم لعائن الله، فلما بعث الله محمداً ﷺ فكان من آمن به يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله على الوجه الحق، فكانوا هم أتباع كل نبي على وجه الأرض، إذ قد صدقوا النبي الأمي العربي خاتم الرسل وسيد ولد آدم على الإطلاق، الذي دعاهم إلى التصديق بجميع الحق فكانوا أولى بكل نبي من أمته الذين يزعمون أنهم على ملته وطريقته مما قد حرفوا وبدلوا، ثم لو لم يكن شيء من ذلك لكان قد نسخ الله شريعة جميع الرسل بما بعث الله به محمداً ﷺ من الدين الحق الذي لا يغير ولا يبديل إلى قيام الساعة، ولا يزال قائماً منصوراً ظاهراً على كل دين، فلهذا فتح الله لأصحابه مشارق الأرض ومغاربها، واحتازوا جميع الممالك، ودانت لهم جميع الدول، وكسروا كسرى وقصروا قيصر، وسلبوها كنوزها وأنفقت في سبيل الله، كما أخبرهم بذلك نبيهم عن ربهم عز وجل في قوله: ﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً، يعبدونني لا يشركون بي شيئاً﴾ الآية. فلهذا لما كانوا هم المؤمنون بالمسيح حقاً سلبوا النصراني بلاد الشام والجزء إلى الروم فلبجأوا إلى مدينتهم القسطنطينية، ولا يزال الإسلام وأهله فوقهم إلى يوم القيامة.

وقد أخبر الصادق المصدوق ﷺ أمته بأن آخرهم سيفتحون القسطنطينية ويستفيثون ما فيها من الأموال، ويقتلون الروم مقتلة عظيمة جداً لم ير الناس مثلها ولا يرون بعدها نظيرها، وقد جمعت في هذا جزءاً مفرداً،

ولهذا قال تعالى: ﴿وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة ثم إلي مرجعكم فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون﴾. فأما الذين كفروا فأعذبهم عذاباً شديداً في الدنيا والآخرة وما لهم من ناصرين ﴿، وكذلك فعل بمن كفر بالمسيح من اليهود أو غلا فيه أو أطراه من النصارى، عذبهم في الدنيا بالقتل والسبي وأخذ الأموال وإزالة الأيدي عن الممالك وفي الدار الآخرة عذابهم أشد وأشق ﴿ وما لهم من الله من واق ﴿، ﴿وأما الذين آمنوا و عملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم ﴿ أي في الدنيا والآخرة، في الدنيا بالنصر والظفر، وفي الآخرة بالجنات العاليات ﴿ والله لا يحب الظالمين ﴿.

ثم قال تعالى: ﴿ذلك نتلوه عليك من الآيات والذكر الحكيم﴾ أي هذا الذي قصصنا عليك يا محمد في أمر عيسى ومبدأ ميلاده وكيفية أمره، هو مما قاله تعالى وأوحاه إليك، ونزله عليك من اللوح المحفوظ، فلا مرية فيه ولا شك، كما قال تعالى في سورة مريم: ﴿ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذي فيه يمترون﴾ ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون ﴿، وههنا قال تعالى:

إِنَّ مِثْلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمِثْلِ آدَمَ ۖ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ۗ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴿٦١﴾ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ ۗ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ ۗ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾

يقول جلّ وعلا: ﴿إن مثل عيسى عند الله ﴿ في قدرة الله حيث خلقه من غير أب ﴿ كمثل آدم ﴿ حيث خلقه من غير أب ولا أم، بل ﴿ خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون ﴿. فالذي خلق آدم من غير أب قادر على أن يخلق عيسى بطريق الأولى والأخرى، وإن جاز ادعاء البتة في عيسى لكونه مخلوقاً من غير أب فجاوز ذلك في آدم بالطريق الأولى، ومعلوم بالاتفاق أن ذلك باطل، فدعواهم في عيسى أشد بطلاناً وأظهر فساداً، ولكن الرب جلّ جلاله أراد أن يظهر قدرته لخلق حين خلق آدم لا من ذكر ولا من أنثى، وخلق حواء من ذكر بلا أنثى، وخلق عيسى من أنثى بلا ذكر، كما خلق بقية البرية من ذكر وأنثى، ولهذا قال تعالى في سورة مريم: ﴿ولنجعله آية للناس﴾، وقال ههنا: ﴿الحق من ربك فلا تكن من الممترين﴾ أي هذا هو القول الحق في عيسى الذي لا محيد عنه ولا صحيح سواه، وماذا بعد الحق إلا الضلال! ثم قال تعالى أمراً رسوله ﷺ أن يباهل من عاند الحق في أمر عيسى بعد ظهور البيان: ﴿فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم﴾ أي نحضرم في حال المباهلة ﴿ ثم نبتهل ﴿ أي نلتعن ﴿ فنجعل لعنة الله على الكاذبين ﴿ أي منا ومنكم.

* وكان سبب نزول هذه المباهلة وما قبلها من أول السورة إلى هنا في وفد نجران: أن النصارى لما قدموا فجعلوا

يحتاجون في عيسى ويزعمون فيه ما يزعمون من النبوة والإلهية، فأنزل الله صدر هذه السورة رداً عليهم . قال ابن إسحاق في سيرته : وقدم على رسول الله ﷺ وفد نصارى من نجران ستون ركباً، فيهم أربعة عشر رجلاً من أشرفهم يؤول أمرهم إليهم فدخلوا عليه مسجده حين صلى العصر، عليهم ثياب الحبرات جيب وأردية في جمال رجال بني الحارث بن كعب قال - يقول من رآهم من أصحاب النبي ﷺ ما رأينا بعدهم وفداً مثلهم - وقد حانت صلاتهم فقاموا في مسجد رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ : « دعوهم »، فصلوا إلى المشرق . قال : فكلم رسول الله ﷺ منهم أبو حارثة بن علقمة، والعاقب عبد المسيح، والأيمم - وهم من النصرانية على دين الملك مع اختلاف أمرهم - يقولون : هو الله، ويقولون : هو ولد الله، ويقولون : هو ثالث ثلاثة، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً، وكذلك النصرانية فهم يحتجون في قولهم هو الله بأنه كان يحيى الموتى ويبرئ الأكمه والأبرص والأسقام ويخبر بالغيوب، ويخلق من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فيكون طيراً، وذلك كله بأمر الله ﷻ وليجعله الله آية للناس، ويحتجون في قولهم بأنه ابن الله يقولون : لم يكن له أب يعلم، وقد تكلم في المهد بشيء لم يصنعه أحد من بني آدم قبله، ويحتجون على قولهم بأنه ثالث ثلاثة بقول الله تعالى : فعلنا، وأمرنا، وخلقنا، وقضينا، فيقولون لو كان واحداً ما قال إلا فعلت وأمرت وقضيت وخلقنت، ولكنه هو عيسى ومريم - تعالى الله وتقدس وتزه عما يقول الظالمون والجاحلون علواً كبيراً - وفي كل ذلك من قولهم : قد نزل القرآن .

فلما كلمه الحبران قال لهما رسول الله ﷺ : « أسلما »، قالوا : قد أسلما . قال : « إنكما لم تسلما فأسلما » . قالوا : بلى، قد أسلما قبلك، قال : « كذبتما بمنعكما من الإسلام ادعاؤكما لله ولداً وعبادتكما الصليب وأكلكما الخنزير »، قالوا : فن أبوه يا محمد؟ فصمت رسول الله ﷺ عنهما فلم يجبهما، فأنزل الله في ذلك من قولهم واختلاف أمرهم صدر سورة (آل عمران) إلى بضع وثمانين آية منها . ثم تكلم ابن إسحاق على تفسيرها إلى أن قال : فلما أتى رسول الله ﷺ الخبر من الله والفصل من القضاء بينه وبينهم، وأمر بما أمر به من ملاحظتهم إن ردوا ذلك عليه دعاهم إلى ذلك، فقالوا : يا أبا القاسم، دعنا ننظر في أمرنا، ثم نأتيك بما نريد أن نفعل فيما دعوتنا إليه، ثم انصرفوا عنه، ثم خلوا بالعاقب، وكان ذا رأيهم، فقالوا : يا عبد المسيح ماذا ترى؟ فقال : والله يا معشر النصارى لقد عرفتم أن محمداً نبي مرسل، ولقد جاءكم بالفصل من خير صاحبكم، ولقد علمتم أنه ما لا عن قوم نبياً قط فبقي كبيرهم ولا نبت صغيرهم، وإنه للاستئصال منكم إن فعلتم، فإن كنتم أيتيم إلا إلف دينكم والإقامة على ما أتم عليه من القول في صاحبكم فوادعوا الرجل وانصرفوا إلى بلادكم . فأتوا النبي ﷺ، فقالوا : يا أبا القاسم قد رأينا أن لا نلاعنك، وتركك على دينك ونرجع على ديننا، ولكن ابعث معنا رجلاً من أصحابك ترضاه لنا يحكم بيننا في أشياء اختلفنا فيها في أموالنا فإنكم عندنا رضا، فقال رسول الله ﷺ : « اتنوني العشية أبعث معكم القوي الأمين »، فكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول : ما أحببت الإمارة قط حبي إياها يومئذ، رجاء أن أكون صاحبها، فرحت إلى الظهر مهجراً، فلما صلى رسول الله ﷺ الظهر سلم، ثم نظر عن يمينه وشماله فجعلت أطاول له ليراني، فلم يزل يلتمس بصره حتى رأى أبا عبيدة بن الجراح فدعاه، فقال : « اخرج معهم فاقض بينهم بالحق فيما اختلفوا فيه »، قال عمر : فذهب بها أبو عبيدة رضي الله عنه .

وقال البخاري ، عن حذيفة رضي الله عنه قال : جاء العاقب والسيد صاحبنا نجران إلى رسول الله ﷺ يريدان أن يلاعنا ، قال : فقال أحدهما لصاحبه : لا تفعل فوالله لئن كان نبياً فلاعنا لا نفلح نحن ولا عقبنا من بعدنا ، قالوا : إنا نعطيك ما سألتنا وابعث معنا رجلاً أميناً ولا تبعث معنا إلا أميناً ، فقال : « لأبعثن معكم رجلاً أميناً ، حق أمين » ، فاستشرف لها أصحاب رسول الله ﷺ ، فقال : « قم يا أبا عبيدة بن الجراح » ، فلما قام قال رسول الله ﷺ : « هذا أمين هذه الأمة » . وفي الحديث عن ابن عباس قال ، قال أبو جهل قبحه الله : إن رأيت محمداً يصلي عند الكعبة لآتينه حتى أطأ على رقبته . قال ، فقال : « لو فعل لأخذته الملائكة عياناً ، ولو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا ولرأوا مقاعدهم من النار ، ولو خرج الذين يباهلون رسول الله ﷺ لرجعوا لا يجدون مالا ولا أهلاً »^(١) .

والغرض أن وفودهم كان في سنة تسع لأن الزهري قال : كان أهل نجران أول من أدى الجزية إلى رسول الله ﷺ ، وآية الجزية إنما أنزلت بعد الفتح ، وهي قوله تعالى : ﴿ قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ﴾ الآية . وقال أبو بكر بن مردويه ، عن جابر : قدم على النبي ﷺ العاقب والطيب فدعاهما إلى الملاعنة ، فواعدها على أن يلاعنا الغداة ، قال : فغدا رسول الله ﷺ فأخذ بيد علي وفاطمة والحسن والحسين ثم أرسل إليهما فأبيا أن يجيبا وأقراله بالخراج ، قال ، فقال رسول الله ﷺ : « والذي بعثني بالحق لو قالوا : لا لأمطر عليهم الوادي ناراً » . قال جابر : وفيهم نزلت : ﴿ ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ﴾^(٢) .

ثم قال تعالى : ﴿ إن هذا هو القصص الحق ﴾ أي هذا الذي قصصناه عليك يا محمد في شأن عيسى هو الحق الذي لا معدل عنه ولا محيد ، ﴿ وما من إله إلا الله ، وإن الله هو العزيز الحكيم ﴾ فإن تولوا ﴿ أي عن هذا إلى غيره ، ﴿ فإن الله عليم بالمفسدين ﴾ أي من عدل عن الحق إلى الباطل فهو المفسد ، والله عليم به وسيجزيه على ذلك شر الجزاء ، وهو القادر الذي لا يفوته شيء سبحانه وبحمده ، ونعوذ به من حلول نعمته .

قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾

هذا الخطاب يعم أهل الكتاب من اليهود والنصارى ومن جرى مجراهم ، ﴿ قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة ﴾ ، والكلمة تطلق على الجملة المفيدة كما قال ههنا ، ثم وصفها بقوله : ﴿ سواء بيننا وبينكم ﴾ أي عدل ونصف نستوي نحن وأتم فيها ، ثم فسرها بقوله : ﴿ أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ﴾ لا وثناً ولا صليلاً ولا صنماً ولا طاغوتاً ولا ناراً ولا شيئاً ، بل نفرد العبادة لله وحده لا شريك له ، وهذه دعوة جميع الرسل . قال الله تعالى : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ ولقد

(١) رواه أحمد والترمذي والنسائي ، وقال الترمذي : حسن صحيح .

(٢) رواه ابن مردويه والحاكم في المستدرک ورواه الطيالسي عن الشعبي مرسلأ ، قال ابن كثير : وهذا أصح .

بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ﴿٦٥﴾، ثم قال تعالى: ﴿ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله﴾ قال ابن جريج: يعني يطبع بعضنا بعضاً في معصية الله، وقال عكرمة: يسجد بعضنا لبعض، ﴿فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون﴾ أي فإن تولوا عن هذا النصف وهذه الدعوة فاشهدوا أتم على استمراركم على الإسلام الذي شرعه الله لكم. وقد ذكرنا في شرح البخاري عن أبي سفيان في قصته حين دخل على قيصر، فسأله عن نسب رسول الله ﷺ وعن صفته ونعته وما يدعو إليه، فأخبره بجميع ذلك على الجلية، ثم جيء بكتاب رسول الله ﷺ فقرأه فإذا فيه:

« بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد فأسلم تسلم، وأسلم يوثق الله أجرك مرتين، فإن توليت فإنما عليك إثم الأريسيين، و﴿يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون﴾ . »

يَأْهَلِ الْكِتَابِ لِمُحَاجِّجُونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَتَأْتُمْ هَتُؤَلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾

ينكر تبارك وتعالى على اليهود والنصارى في محاجتهم في إبراهيم الخليل عليه السلام ودعوى كل طائفة منهم، أنه كان منهم، كما قال ابن عباس رضي الله عنه: اجتمعت نصارى نجران وأخبار يهود عند رسول الله ﷺ فتنازعوا عنده، فقالت الأخبار: ما كان إبراهيم إلا يهودياً، وقالت النصارى: ما كان إبراهيم إلا نصرانياً، فأنزل الله تعالى ﴿يا أهل الكتاب لم تحاجون في إبراهيم﴾ الآية. أي: كيف تدعون أيها اليهود أنه كان يهودياً، وقد كان زمنه قبل أن ينزل الله التوراة على موسى؟ وكيف تدعون أيها النصارى أنه كان نصرانياً، وإنما حدثت النصرانية بعد زمنه بدهر؟ ولهذا قال تعالى: ﴿أفلا تعقلون﴾؟ ثم قال تعالى: ﴿ها أتم هؤلاء حاججتكم فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم﴾؟ هذا إنكار على من يحاج فيما لا علم له به، فإن اليهود والنصارى تحاجوا في إبراهيم بلا علم، ولو تحاجوا فيما بأيديهم منه علم مما يتعلق بأديانهم التي شرعت لهم إلى حين بعثه محمد ﷺ لكان أولى بهم، وإنما تكلموا فيما لا يعلمون، فأنكر الله عليهم ذلك وأمرهم برد ما لا علم لهم به إلى عالم الغيب والشهادة الذي يعلم الأمور على حقائقها وجلياتها، ولهذا قال تعالى: ﴿والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾ .

ثم قال تعالى: ﴿ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً، ولكن كان حنيفاً مسلماً﴾ أي متحنفاً عن الشرك

قاصداً إلى الإيمان، ﴿وما كان من المشركين﴾، وهذه الآية كالتي تقدمت في سورة البقرة: ﴿وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتلوا﴾ الآية، ثم قال تعالى: ﴿إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله ولي المؤمنين﴾، يقول تعالى: أحق الناس بمتابعة إبراهيم الخليل الذين اتبعوه على دينه ﴿وهذا النبي﴾ يعني محمداً ﷺ والذين آمنوا من أصحابه المهاجرين والأنصار ومن تبعهم بعدهم. عن عبد الله بن مسعود قال، قال رسول الله ﷺ: «إن لكل نبي ولاية من النبيين وإن وليي منهم - أبي و خليل ربي عز وجل - إبراهيم عليه السلام»، ثم قرأ: ﴿إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا﴾^(١) الآية، وقوله: ﴿والله ولي المؤمنين﴾ أي ولي جميع المؤمنين برسله.

وَدَّتْ طَآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّوكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾
يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبَسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ
وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾ وَقَالَتْ طَآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ءَأَمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَجْهَ
النَّهَارِ وَآكْفُرُوا ءَاخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنْ أَلْهَدَى اللَّهُ هَدَىٰ اللَّهُ أَن يُؤْتِيَ
أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنْ أَلْفَظِلْ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾
يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾

يخبر تعالى عن حسد اليهود للمؤمنين وبغيهم إياهم الإضلال، وأخبر أن وبال ذلك إنما يعود على أنفسهم، وهم لا يشعرون أنهم مكمور بهم، ثم قال تعالى منكرأ عليهم: ﴿يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون﴾ أي تعلمون صدقها وتحققون حقها، ﴿يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون﴾ أي تكتمون ما في كتبكم من صفة محمد ﷺ وأنتم تعرفون ذلك وتحققونه، ﴿وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره﴾ الآية. هذه مكيدة أرادوها ليلبسوا على الضعفاء من الناس أمر دينهم، وهو أنهم اشتروا بينهم أن يظهروا الإيمان أول النهار، ويصلوا مع المسلمين صلاة الصبح، فإذا جاء آخر النهار ارتدوا إلى دينهم، ليقول الجهلة من الناس إنما ردهم إلى دينهم اطلاعهم على نقيصة وعيب في دين المسلمين، ولهذا قالوا: ﴿لعلهم يرجعون﴾. قال مجاهد: يعني يهوداً صلت مع النبي ﷺ صلاة الصبح، وكفروا آخر النهار مكرأ منهم، ليروا الناس أن قد بدت لهم الضلالة منه بعد أن كانوا اتبعوه، وقال ابن عباس: قالت طائفة من أهل الكتاب إذا لقيتم أصحاب محمد أول النهار فآمنوا، وإذا كان آخره فصلوا صلاتكم، لعلهم يقولون هؤلاء أهل الكتاب وهم أعلم منا.

(١) أخرجه وكعب في تفسيره.

وقوله تعالى: ﴿ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم﴾ أي لا تطمئنوا أو تظهروا سركم وما عندكم إلا لمن تبع دينكم، ولا تظهروا ما بأيديكم إلى المسلمين فيؤمنوا به ويحتجوا به عليكم، قال الله تعالى: ﴿قل إن الهدى هدى الله﴾ أي هو الذي يهدي قلوب المؤمنين إلى أتم الإيمان، بما ينزله على عبده ورسوله ﷺ من الآيات البينات، والدلائل القاطعات والحجج الواضحات، وإن كنتم أيها اليهود ما بأيديكم من صفة محمد النبي الأمي، في كتبكم التي نقلتموها عن الأنبياء الأقدمين. وقوله: ﴿أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم أو يحاجوكم عند ربكم﴾ يقولون لا تظهروا ما عندكم من العلم للمسلمين فيتعلموه منكم، ويساوونكم فيه، ويمتازون به عليكم لشدة الإيمان به، أو يحاجوكم به عند ربكم، أي يتخذونه حجة عليكم بما في أيديكم فتقوم به عليكم الدلالة وترتكب الحجة في الدنيا والآخرة، قال الله تعالى: ﴿قل إن الفضل بيد الله يؤتية من يشاء﴾ أي الأمور كلها تحت تصرفه وهو المعطي المانع، يمن على من يشاء بالإيمان والعلم والتصرف التام، ويضل من يشاء فيعمي بصره وبصيرته، ويحتم على قلبه وسمعه ويجعل على بصره غشاوة، وله الحجة والحكمة البالغة ﷻ والله واسع عليم * يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم ﷻ، أي اختصكم أيها المؤمنون من الفضل بما لا يُحد ولا يُوصف، بما شرف به نبيكم محمداً ﷺ على سائر الأنبياء، وهذاكم به إلى أكمل الشرائع.

* وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بدينارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمَّتْ

عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأَمِينِ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾

بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾

يخبر تعالى عن اليهود بأن منهم الخونة، ويحذر المؤمنين من الاغترار بهم، فإن منهم ﷻ من إن تأمنه بقنطار ﷻ أي من المال ﷻ يؤده إليك ﷻ أي وما دونه بطريق الأولى أن يؤديه إليك، ﷻ ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا ما دمت عليه قائماً ﷻ أي بالمطالبة والملازمة والإلحاح في استخلاص حقه، وإذا كان هذا صنيعه في الدينار، فما فوقه أولى أن لا يؤديه إليك. وقوله: ﴿ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأميين سبيل﴾ أي إنما حملهم على جحود الحق أنهم يقولون: ليس علينا في ديننا حرج في أكل أموال الأميين (وهم العرب) فإن الله قد أحلها لنا، قال الله تعالى: ﴿ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون﴾ أي وقد اختلقوا هذه المقالة، واثقفوها بهذه الضلالة، فإن الله حرم عليهم أكل الأموال إلا بحقها وإنما هم قوم بهت. عن أبي صعصعة بن يزيد أن رجلاً سأل ابن عباس، فقال: إنا نصيب في الغزو من أموال أهل الذمة الدجاجة والشاة، قال ابن عباس: فتقولون ماذا؟ قال، نقول: ليس علينا بذلك بأس، قال: هذا كما قال أهل الكتاب: ﴿ليس علينا في الأميين سبيل﴾، إنهم إذا أدوا الجزية لم تحل لكم أموالهم إلا بطيب أنفسهم^(١). وعن سعيد بن جبير قال: لما قال أهل الكتاب ليس علينا في الأميين سبيل، قال نبي الله ﷺ: «كذب أعداء الله، ما من شيء كان في الجاهلية إلا وهو تحت

(١) أخرجه عبد الرزاق عن أبي صعصعة بن يزيد.

قدميَّ هاتين إلا الأمانة فإنها مؤداة إلى البر والفاجر»^(١)، ثم قال تعالى: ﴿بلى من أوفى بعهده واتقى﴾ أي لكن من أوفى بعهده واتقى منكم يا أهل الكتاب.. اتقى محارم الله واتبع طاعته وشريعته التي بعث بها خاتم رسله وسيدهم ﴿فإن الله يحب المتقين﴾ .

إِنَّ الَّذِينَ يَسْتُرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ تُمَنَّا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلْقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾

يقول تعالى : إن الذين يعتاضون عما عاهدوا الله عليه، من اتباع محمد ﷺ وذكر صفته للناس وبيان أمره، وعن أيمانهم الكاذبة الفاجرة الآتمة، بالأثمان القليلة الزهيدة، وهي عروض هذه الحياة الدنيا الفانية الزائلة، ﴿أولئك لا خلاق لهم في الآخرة﴾ أي لا نصيب لهم فيها ولا حظ لهم منها، ﴿ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة﴾ أي برحمة منه لهم، يعني لا يكلمهم الله كلام لطف بهم ولا ينظر إليهم بعين الرحمة، ﴿ولا يزكِّيهم﴾ أي من الذنوب والأدناس، بل يأمر بهم إلى النار، ﴿ولهم عذاب أليم﴾ ، وقد وردت أحاديث تتعلق بهذه الآية الكريمة فلنذكر منها ما تيسر .

(الحديث الأول) : عن أبي ذر قال، قال رسول الله ﷺ : « ثلاثة لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكِّيهم ولهم عذاب أليم »، قلت : يا رسول الله من هم ؟ خسروا وخابوا، قال : وأعادهم رسول الله ﷺ ثلاث مرات قال : « المسبل، والمنفق سلعته بالحلف الكاذب، والمنان »^(٢) .

(الحديث الثاني) : عن عدي بن عميرة الكندي قال : خاصم رجل من كندة يُقال له امرؤ القيس بن عامر رجلاً من حضرموت إلى رسول الله ﷺ في أرض، فقضى على الحضرمي بالبينة فلم يكن له بينة، فقضى على امرئ القيس باليمين، فقال الحضرمي : أمكنته من اليمين يا رسول الله ؟ ذهب ورب الكعبة أرضي، فقال النبي ﷺ : « من حلف على يمين كاذبة ليقطع بها مال أحد لقي الله عز وجل وهو عليه غضبان »، وتلا رسول الله ﷺ : ﴿إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً﴾ ، فقال امرؤ القيس : ماذا لمن تركها يا رسول الله ؟ فقال : « الجنة »، قال : فاشهد أنني قد تركتها له كلها^(٣) .

(الحديث الثالث) : عن عبد الله بن مسعود قال، قال رسول الله ﷺ : « من اقتطع مال امرئ مسلم بغير حق لقي الله وهو عليه غضبان »، قال : فجاء الأشعث بن قيس فقال : ما يحدثكم أبو عبد الرحمن ؟ فحدثناه فقال : كان في هذا الحديث ، خاصمت ابن عم لي إلى رسول الله ﷺ في بئر كانت لي في يده فجحذني، فقال رسول الله ﷺ : « بينتك أنها بئرك وإلا فيمينه »، قال : قلت : يا رسول الله ما لي بيته، وإن يجعلها يمينه

(١) أخرجه ابن أبي حاتم .

(٢) رواه أحمد ومسلم وأصحاب السنن .

(٣) رواه أحمد والنسائي .

تذهب بشري، إن خصمي امرؤ فاجر، فقال رسول الله ﷺ: «من اقتطع مال امرئ مسلم بغير حق لقي الله وهو عليه غضبان»، قال: وقرأ رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾^(١) الآية .

(الحديث الرابع) : قال أحمد، عن سهل بن معاذ بن أنس عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله تعالى عبادة لا يكلمهم يوم القيامة ولا يذكهم ولا ينظر إليهم»، قيل: «ومن أولئك يا رسول الله؟ قال: «متبرئ من والديه راغب عنهما، ومتبرئ من ولده، ورجل أنعم عليه قوم فكفر نعمتهم وتبرأ منهم» .

(الحديث الخامس) : عن عبد الله بن أبي أوفى، أن رجلاً أقام سلعة له في السوق فحلف بالله لقد أعطني بها ما لم يعطه ليقع فيها رجلاً من المسلمين، فتزلت هذه الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾^(٢) الآية .

(الحديث السادس) : عن أبي هريرة قال، قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يذكهم وهم عذاب أليم، رجل منع ابن السبيل فضل ماء عنده، ورجل حلف على سلعة - بعد العصر - يعني كاذباً، ورجل بايع إماماً فإن أعطاه وفي له وإن لم يعطه لم يف له»^(٣) .

وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾

يخبر تعالى عن اليهود عليهم لعائن الله، أن منهم فريقاً يحرفون الكلم عن مواضعه، ويبدلون كلام الله ويلوون عن المراد به، ليوهوا الجهلة أنه في كتاب الله كذلك، وينسبونه إلى الله وهو كذب على الله، وهم يعلمون من أنفسهم أنهم قد كذبوا وافتروا في ذلك كله، ولهذا قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾، قال مجاهد والحسن: ﴿يلوون ألسنتهم بالكتاب﴾ يحرفونه، وهكذا روى البخاري عن ابن عباس أنهم يحرفون ويلوون، وليس أحد من خلق الله يزيل لفظ كتاب من كتب الله، لكنهم يحرفونه يتأولونه على غير تأويله .

مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّيْنَ عَنْ يَمَانِكُمْ تَعْلَمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكَفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾

(١) رواه أحمد .

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم ورواه البخاري من غير وجه عن العوام .

(٣) رواه أحمد وأبو داود والترمذي ، وقال الترمذي : حسن صحيح .

عن ابن عباس قال، قال أبو رافع القرظي: حين اجتمعت الأخبار من (اليهود والنصارى) من أهل نجران عند رسول الله ﷺ ودعاهم إلى الإسلام: أتريد يا محمد أن نعبدك كما تعبد النصارى عيسى بن مريم؟ فقال رجل من أهل نجران نصراني يقال له الرئيس: أو ذلك تريد منا يا محمد وإليه تدعوننا؟ فقال رسول الله ﷺ: «معاذ الله أن نعبد غير الله، أو أن نأمر بعبادة غير الله، ما بذلك بعثني ولا بذلك أمرني»، أو كما قال ﷺ، فأنزل الله في ذلك من قولهما: ﴿ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة - إلى قوله - بعد إذ أتم مسلمون﴾^(١) أي ما ينبغي لبشر آتاه الله الكتاب والحكمة والنبوة، أن يقول للناس اعبدوني من دون الله، أي مع الله، فإذا كان هذا لا يصلح لنبي ولا مرسل، فلأن لا يصلح لأحد من الناس غيرهم بطريق الأولى والأخرى. ولهذا قال الحسن البصري: لا ينبغي هذا لمؤمن أن يامر الناس بعبادته، قال: وذلك أن القوم كان يعبد بعضهم بعضاً، يعني أهل الكتاب كانوا يعبدون أبحارهم ورهبانهم، كما قال الله تعالى: ﴿اتخذوا أبحارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله﴾ الآية. وفي المسند أن عدي بن حاتم قال: يا رسول الله، ما عبدوهم، قال: «بلى، إنهم أحلوا لهم الحرام وحرّموا عليهم الحلال فاتبعوهم فذلك عبادتهم إياهم»، فالجهلة من الأبحار والرهبان ومشايخ الضلال، يدخلون في هذا الذم والتوبيخ، بخلاف الرسل واتباعهم من العلماء العاملين.

فالرسل، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، هم السفراء بين الله وبين خلقه، في أداء ما حملوه من الرسالة، وإبلاغ الأمانة فقاموا بذلك أتم القيام ونصحوا الخلق، وبلغوه الحق، وقوله تعالى: ﴿ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون﴾ أي ولكن يقول الرسول للناس: كونوا ربانيين، قال ابن عباس: أي حكماء علماء حلماء، وقال الحسن: فقهاء، وعن الحسن أيضاً: يعني أهل عبادة وأهل تقوى، وقال الضحاك في قوله: ﴿بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون﴾ حق على من تعلم القرآن أن يكون قبيهاً، تعلمون: أي تفهمون معناه، وقرئ تعلمون بالتشديد من التعليم، ﴿وبما كنتم تدرسون﴾ تحفظون ألفاظه، ثم قال الله تعالى: ﴿ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً﴾ أي ولا يأمركم بعبادة أحد غير الله، لاني مرسل ولا ملك مقرب، ﴿أيامركم بالكفر بعد إذ أتم مسلمون﴾؟ أي لا يفعل ذلك إلا من دعا إلى عبادة غير الله، ومن دعا إلى عبادة غير الله فقد دعا إلى الكفر، والأنبياء إنما يأمرون بالإيمان وهو عبادة الله وحده لا شريك له كما قال تعالى: ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون﴾، وقال: ﴿واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الله آلهة يعبدون﴾؟ وقال إخباراً عن الملائكة: ﴿ومن يقل منهم إني إله من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزي الظالمين﴾.

وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَّا آتَيْنَكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ
وَلتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨١﴾

فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٨٢﴾

يخبر تعالى أنه أخذ ميثاق كل نبي بعثه من لدن آدم عليه السلام إلى عيسى عليه السلام، مهما أتى الله أحدهم من كتاب وحكمة وبلغ أي مبلغ، ثم جاء رسول من بعده ليؤمن به ولينصره، ولا يمنعه ما هو فيه من العلم والنبوة من اتباع من بعث بعده ونصرته، ولهذا قال تعالى وتقدس: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ أَوْ مِيثَاقٍ شَدِيدِ الْمُؤَكَّدِ، ﴿٨٢﴾ قَالُوا أَقْرَبْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٢﴾ فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ ﴿٨٢﴾ أَي عَنْ هَذَا الْعَهْدِ وَالْمِيثَاقِ ﴿٨٢﴾ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٨٢﴾، قَالَ عَلِيٌّ وَابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: مَا بَعَثَ اللَّهُ نَبِيًّا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ إِلَّا أَخَذَ عَلَيْهِ الْمِيثَاقَ، لِثَن بَعَثَ اللَّهُ مُحَمَّدًا وَهُوَ حَيٌّ لِيُؤْمِنَ بِهِ وَلِيَنْصُرَهُ، وَأَمْرُهُ أَنْ يَأْخُذَ الْمِيثَاقَ عَلَى أُمَّتِهِ لِثَن بَعَثَ مُحَمَّدًا وَهُمْ أَحْيَاءٌ لِيُؤْمِنَ بِهِ وَلِيَنْصُرَهُ، وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ وَقَتَادَةَ: أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ أَنْ يَصْلُقَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَهَذَا لَا يَضَادُ مَا قَالَهُ عَلِيٌّ وَابْنُ عَبَّاسٍ وَلَا يَنْفِيهِ بَلْ يَسْتَلْزِمُهُ وَيَقْتَضِيهِ، وَقَدْ قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: جَاءَ عُمَرُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي أَمَرْتُ بِأَخٍ لِي يَهُودِيٍّ مِنْ قَرِيظَةَ فَكَتَبَ لِي جَوَامِعَ مِنَ التَّوْرَةِ أَلَا أَعْرَضُهَا عَلَيْكَ؟ قَالَ: فَتَغَيَّرَ وَجْهُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ ثَابِتٍ قُلْتُ لَهُ: أَلَا تَرَى مَا بُوِجِهَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ! فَقَالَ عُمَرُ: رَضِيَتْ بِاللَّهِ رَبًّا وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولًا، قَالَ: فَسَرَّيَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، وَقَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَصْبَحَ فِيكُمْ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، ثُمَّ اتَّبَعْتُمُوهُ وَتَرَكْتُمُونِي لَضَلَلْتُمْ، إِنَّكُمْ حَظِي مِنَ الْأُمَّمِ، وَأَنَا حَظُّكُمْ مِنَ النَّبِيِّينَ»^(١).

(حديث آخر) : وعن جابر ، قال رسول الله ﷺ : « لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء فإنهم لن يهدوكم وقد ضلوا، وإنكم إما أن تصدقوا بباطل، وإما أن تكذبوا بحق، وإنه والله لو كان موسى حياً بين أظهركم ما حل له إلا أن يتبعني »^(٢). وفي بعض الأحاديث: « لو كان موسى وعيسى حين لما وسعهما إلا اتباعي ». فالرسول محمد خاتم الأنبياء صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين، هو الإمام الأعظم الذي لو وجد في أي عصر وجد، لكان هو الواجب الطاعة المقدم على الأنبياء كلهم، ولهذا كان إمامهم ليلة الإسراء لما اجتمعوا ببيت المقدس، وكذلك هو الشفيق في المحشر في إتيان الرب جل جلاله لفصل القضاء بين عباده، وهو المقام المحمود الذي لا يليق إلا له، والذي يحيد عنه أولو العزم من الأنبياء والمرسلين، حتى تنتهي التوبة إليه فيكون هو المخصوص به، صلوات الله وسلامه عليه.

أَفْغِيرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ قُلْ ءَأَمِنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ

(١) رواه الإمام أحمد .

(٢) رواه الحافظ أبو يعلى .

مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٨٥﴾

يقول تعالى منكرًا على من أراد دينًا سوى دين الله، الذي أنزل به كتبه وأرسل به رسله، وهو عبادة الله وحده لا شريك له، الذي له أسلم من في السموات والأرض، أي استسلم له من فيهما طوعاً وكرهاً، كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾. وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةِ وَهُمْ لَا يُسْتَكْبِرُونَ﴾ يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون ﴿فَالْمُؤْمِنُ مُسْتَسَلِمٌ بَقَلْبِهِ وَقَالِبِهِ لِلَّهِ، وَالْكَافِرُ مُسْتَسَلِمٌ لِلَّهِ كَرْهًا، فَإِنَّهُ تَحْتَ التَّسْخِيرِ وَالْقَهْرِ وَالسُّلْطَانِ الْعَظِيمِ الَّذِي لَا يَخَافُ وَلَا يَمَانَعُ، وَقَدْ قَالَ وَكَيْعٌ فِي تَفْسِيرِهِ عَنْ مُجَاهِدٍ: ﴿وَلَهُ أُسْلِمَ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾، قال: هو كقوله: ﴿وَلْتَن سَأَلْتَهُمْ مِنْ خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لِيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾، ﴿وَإِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ أي يوم المعاد فيجازي كلاً بعمله.

ثم قال تعالى: ﴿قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ يعني القرآن، ﴿وَمَا أُنزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ أي من الصحف والوحي، ﴿وَالْأَسْبَاطَ﴾ وهم بطون بني إسرائيل المتشعبة من أولاد إسرائيل - وهو يعقوب - الاثني عشر، ﴿وَمَا أَوْتِيَ مُوسَى وَعِيسَى﴾ يعني بذلك التوراة والإنجيل، ﴿وَالنَّبِيِّينَ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ وهذا يعم جميع الأنبياء جملة، ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ﴾ يعني بل تؤمن بجميعهم، ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ فالْمُؤْمِنُونَ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يُؤْمِنُونَ بِكُلِّ نَبِيٍّ أُرْسِلَ، وَبِكُلِّ كِتَابٍ أُنزِلَ، لَا يَكْفُرُونَ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، بَلْ هُمْ يَصْدُقُونَ بِمَا أُنزِلَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، وَبِكُلِّ نَبِيٍّ بَعَثَهُ اللَّهُ.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ الآية. أي من سلك طريقاً سوى ما شرعه الله فلن يقبل منه، ﴿وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾، كما قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد».

كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُولَئِكَ جَزَاءُؤُهُمْ أَنْ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٨٩﴾

قال ابن جرير عن ابن عباس قال: كان رجل من الأنصار أسلم ثم ارتد ولحق بالشرك، ثم ندم فأرسل إلى قومه أن سلوا رسول الله ﷺ هل لي من توبة؟ فتزلت: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ﴾ - إلى قوله - فإن الله غفور رحيم، فأرسل إليه قومه فأسلم^(١). ﴿وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ أي قامت عليهم الحجج والبراهين على صدق

ما جاءهم به الرسول، ووضح لهم الأمر ثم ارتدوا إلى ظلمة الشرك، فكيف يستحق هؤلاء الهداية بعد ما تلبسوا به من العماية؟ ولهذا قال تعالى: ﴿والله لا يهدي القوم الظالمين﴾. ثم قال تعالى: ﴿أولئك جزاؤهم أن عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين﴾ أي يلعنهم الله ويلعنهم خلقه، ﴿خالدين فيها﴾ أي في اللعنة، ﴿لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون﴾ أي لا يفتر عنهم العذاب ولا يخفف عنهم ساعة واحدة، ثم قال تعالى: ﴿إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم﴾، وهذا من لطفه وبره ورأفته ورحمته وعائذته على خلقه، أن من تاب إليه تاب عليه.

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفْرًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَىٰ بِهِ ۗ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩١﴾ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٩٢﴾

بين تعالى متوعداً ومهدداً لمن كفر بعد إيمانه ثم ازداد كفراً أي استمر عليه إلى الممات، ومخبراً بأنهم لن تقبل لهم توبة عند الممات، كما قال تعالى: ﴿وليس التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت﴾ الآية. ولهذا قال ههنا: ﴿لن تقبل توبتهم وأولئك هم الضالون﴾ أي الخارجون عن المنهج الحق إلى طريق الغي، قال الحافظ أبو بكر البزار عن عكرمة عن ابن عباس: أن قوماً أسلموا ثم ارتدوا، ثم أسلموا، ثم ارتدوا، فأرسلوا إلى قومهم يسألون لهم، فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فترلت هذه الآية: ﴿إن الذين كفروا بعد إيمانهم ثم ازدادوا كفراً لن تقبل توبتهم﴾ (١).

ثم قال تعالى: ﴿إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً ولو افتدى به﴾، أي من مات على الكفر فلن يقبل منه خير أبداً، ولو كان قد أنفق ملء الأرض ذهباً فيما يراه قربة، كما سئل النبي ﷺ عن عبد الله بن جدعان - وكان يقري الضيف ويفك العاني ويطعم الطعام - هل ينفعه ذلك؟ فقال: «لا! إنه لم يقل يوماً من الدهر: رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين»، وكذلك لو افتدى بملء الأرض أيضاً ذهباً ما قبل منه كما قال تعالى: ﴿ولا يقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعت﴾، وقال: ﴿لا يبيع فيه ولا خلال﴾، وقال: ﴿إن الذين كفروا لو أن لهم ما في الأرض جميعاً ومثله معه ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة ما تقبل منهم ولهم عذاب أليم﴾، ولو افتدى نفسه من الله بملء الأرض ذهباً، بوزن جبالها وتلالها وترابها ورمالها وسهلها ووعرها وبرها وبحرها. عن أنس بن مالك، أن النبي ﷺ قال: «يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة أرايت لو كان لك ما على الأرض من شيء أكنت مفتدياً به؟ قال، فيقول: نعم، فيقول الله: قد أردت منك أهون من ذلك، قد أخذت عليك في ظهر أبيك آدم أن لا تشرك بي شيئاً فأبيت إلا أن تشرك» (٢).

(١) أخرجه البزار، قال ابن كثير: إسناده جيد. (٢) رواه البخاري ومسلم.

(طريق آخر) : وقال الإمام أحمد، عن أنس قال، قال رسول الله ﷺ: «يؤتى بالرجل من أهل الجنة فيقول له: يا ابن آدم كيف وجدت منزلك؟ فيقول: أي رب خير منزل، فيقول: سل وتمن، فيقول: ما أسأل ولا أتمنى إلا أن تردني إلى الدنيا فأقتل في سبيلك عشر مرار، لما يرى من فضل الشهادة، ويؤتى بالرجل من أهل النار فيقول له: يا ابن آدم كيف وجدت منزلك؟ فيقول: يا رب شر منزل، فيقول له: أنفتدي مني بطلاع الأرض ذهباً؟ فيقول: أي رب نعم، فيقول: كذبت قد سألتك أقل من ذلك وأيسر فلم تفعل فيرد إلى النار»^(١)، ولهذا قال: ﴿أولئك لهم عذاب أليم وما لهم من ناصرين﴾ أي وما لهم من أحد يتقدمهم من عذاب الله ولا يجيرهم من أليم عقابه.

لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾

روى وكيع في تفسيره عن عمرو بن ميمون ﴿لن تنالوا البر﴾ قال: الجنة، وقال الإمام أحمد عن أنس بن مالك: كان أبو طلحة أكثر الأنصار بالمدينة مالاً، وكان أحب أمواله إليه (بيرحاء) وكانت مستقبلة المسجد، وكان النبي ﷺ يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب. قال أنس: فلما نزلت: ﴿لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون﴾، قال أبو طلحة: يا رسول الله إن الله يقول: ﴿لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون﴾ وإن أحب أموالي إلي (بيرحاء)، وإنها صدقة لله أرجو بها برها وذخراها عند الله تعالى، فضعها يا رسول الله حيث أراك الله، فقال النبي ﷺ: «بخ بخ، ذاك مال رابع، ذاك مال رابع، وقد سمعت، وأنا أرى أن يجعلها في الأقربين»، فقال أبو طلحة: أفعل يا رسول الله. فقسمها أبو طلحة في أقاربه وبني عمه^(٢). وفي الصحيحين أن عمر قال: يا رسول الله لم أصب مالاً قط هو أنفس عندي من سهمي الذي هو بخير، فما تأمرني به؟ قال: «أحبس الأصل، وأسبل الثمرة».

* كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ قُلْ فَاتُوا بِالْتَّوْرَةِ فَاتُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٣﴾ فَمَنْ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٩٤﴾ قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾

قال ابن عباس: حضرت عصابة من اليهود نبي الله ﷺ فقالوا: حدثنا عن خلال نسألك عنهن لا يعلمهن إلا نبي، قال: «سلوني عما شئتم ولكن اجعلوا لي ذمة الله وما أخذ يعقوب على بنيه، لئن أنا حدثتكم شيئاً ففرتموه لتتابعني على الإسلام»، قالوا: فذلك لك، قالوا: أخبرنا عن أربع خلال، أخبرنا أي الطعام حرم إسرائيل على

(١) رواه الإمام أحمد.

(٢) رواه البخاري ومسلم.

نفسه؟ وكيف ماء المرأة وماء الرجل؟ وكيف يكون الذكر منه والأنثى، وأخبرنا بهذا النبي الأمي في النوم ومن وليه من الملائكة؟ فأخذ عليهم العهد لئن أخبرهم ليتابعنه. فقال: «أنشدكم بالذي أنزل التوراة على موسى، هل تعلمون أن إسرائيل مرض مرضاً شديداً وطال سقمه فنذر الله نذراً لئن شفاه الله من سقمه ليحرم من أحب الطعام والشراب إليه، وكان أحب الطعام إليه لحم الإبل وأحب الشراب إليه ألبانها؟ فقالوا: اللهم نعم. فقال: «اللهم اشهد عليهم»، وقال: «أنشدكم بالله الذي لا إله إلا هو الذي أنزل التوراة على موسى هل تعلمون أن ماء الرجل أبيض غليظ، وماء المرأة أصفر رقيق، فأيهما علا كان له الولد والشبه بإذن الله، إن علا ماء الرجل ماء المرأة كان ذكراً بإذن الله، وإن علا ماء المرأة ماء الرجل كان أنثى بإذن الله» قالوا: نعم. قال: «اللهم اشهد عليهم»، قال: «وأنشدكم بالذي أنزل التوراة على موسى، هل تعلمون أن هذا النبي الأمي تنام عيناه ولا ينام قلبه؟» قالوا: اللهم نعم، قال: «اللهم اشهد». قال: «وإن وليي جبريل ولم يبعث الله نبياً قط إلا وهو وليه»، قالوا: فعند ذلك نفارقك ولو كان وليك غيره لتابعناك، فعند ذلك قال الله تعالى: ﴿قل من كان عدواً لجبريل﴾ (١) الآية .

وقال ابن جريج، عن ابن عباس: كان إسرائيل عليه السلام - وهو يعقوب - يعتريه عرق النسا بالليل، وكان يقلقه ويزعجه عن النوم ويقلع الوجع عنه بالنهار، فنذر الله لئن عافاه الله لا يأكل عرقاً، ولا يأكل ولد ما له عرق، فاتبعه بنوه في تحريم ذلك استئناً به واقتداءً بطريقه، وقوله: ﴿من قبل أن تنزل التوراة﴾ أي حرم ذلك على نفسه من قبل أن تنزل التوراة، ﴿قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين﴾ فإنها ناطقة بما قلناه، ﴿فمن افترى على الله الكذب من بعد ذلك فأولئك هم الظالمون﴾ أي فمن كذب على الله وادعى أنه شرع لهم السبت والتمسك بالتوراة دائماً، وأنه لم يبعث نبياً آخر يدعو إلى الله تعالى بالبراهين والحجج، بعد هذا الذي بيناه من وقوع النسخ وظهور ما ذكرنا ﴿فأولئك هم الظالمون﴾، ثم قال تعالى: ﴿قل صدق الله﴾ أي قل يا محمد صدق الله فيما أخبر به وفيما شرعه في القرآن، ﴿فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين﴾ أي اتبعوا ملة إبراهيم التي شرعها الله في القرآن على لسان محمد ﷺ فإنه الحق الذي لا شك فيه ولا مرية، وهي الطريقة التي لم يأت نبي بأكمل منها ولا أبين ولا أوضح ولا أتم، كما قال تعالى: ﴿قل إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم﴾ ديناً قبيحاً ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين، وقال تعالى: ﴿ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين﴾ .

إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مِّمَّا وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٧﴾

دَخَلَهُ كَانَ ءَامِنًا وَوَضِعَ عَلَى الْبَيْتِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٩٧﴾

يخبر تعالى أن أول بيت وضع للناس أي لعموم الناس، لعبادتهم ونسكهم يطوفون به ويصلون إليه ويعتكفون عنده ﴿لذي بيكة﴾ يعني الكعبة التي بناها إبراهيم الخليل عليه السلام، الذي يزعم كل من طائفتي

النصارى واليهود أنهم على دينه، ومنهجه، ويحجون إلى البيت الذي بناه عن أمر الله، ولهذا قال تعالى: ﴿مباركاً﴾ أي وضع مباركاً ﴿وهدى للعالمين﴾. عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله أي مسجد وضع أول؟ قال: «المسجد الحرام»، قلت: ثم أي؟ قال: «المسجد الأقصى»، قلت: كم بينهما؟ قال: «أربعون سنة»، قلت: ثم أي؟ قال: «ثم حيث أدركتك الصلاة فصل فكلها مسجد»^(١). وعن علي رضي عنه في قوله تعالى: ﴿إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً﴾، قال: كانت البيوت قبله ولكنه أول بيت وضع لعبادة الله. وزعم السلي أنه أول بيت وضع على وجه الأرض، مطلقاً، والصحيح قول علي رضي الله عنه.

وقوله تعالى: ﴿للذي ببكة﴾ بكة من أسماء مكة على المشهور، قيل: سميت بذلك لأنها تبتك أعناق الظلمة والجباية، بمعنى أنهم يذلون بها ويخضعون عندها، وقيل: لأن الناس يتباكون فيها أي يزدحمون، قال قتادة: إن الله بكَّ به الناس جميعاً، فيصلي النساء أمام الرجال ولا يفعل ذلك ببلد غيرها، وقال شعبة عن إبراهيم: بكة البيت والمسجد، وقال عكرمة: البيت وما حوله بكة، وما وراء ذلك مكة، وقال مقاتل بن حيان: بكة موضع البيت وما سوى ذلك مكة، وقد ذكروا لمكة أسماء كثيرة (مكة، وبكة، والبيت العتيق، والبيت الحرام، والبلد الأمين، وأم القرى، والقادس لأنها تطهر من الذنوب، والمقدسة، والحاطمة، والرأس، والبلدة، والبنية، والكعبة).

وقوله تعالى: ﴿فيه آيات بينات﴾ أي دلالات ظاهرة أنه من بناء إبراهيم، وأن الله عظمه وشرفه، ثم قال تعالى: ﴿مقام إبراهيم﴾ يعني الذي لما ارتفع البناء استعان به على رفع القواعد منه والجلدان، حيث كان يقف عليه ويتناوله ولده إسماعيل، وقد كان ملتصقاً بجدار البيت حتى أخره عمر بن الخطاب رضي الله عنه، في إمارته إلى ناحية الشرق بحيث يتمكن الطواف منه، ولا يشوشون على المصلين عنده بعد الطواف، لأن الله تعالى قد أمرنا بالصلاة عنده حيث قال: ﴿واخذوا من مقام إبراهيم مصلى﴾، وقد قدمنا الأحاديث في ذلك فأغنى عن إعادته ههنا والله الحمد والمنة، وقال ابن عباس في قوله: ﴿فيه آيات بينات مقام إبراهيم﴾ أي فمنهم مقام إبراهيم والمشاعر، وقال مجاهد: أثر قدميه في المقام آية بينة، وقال أبو طالب في قصيدته اللامية المشهورة:

وموطئ إبراهيم في الصخر رطبة على قدميه حافياً غير ناعل

وقال ابن أبي حاتم عن عطاء عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿مقام إبراهيم﴾ قال: الحرم كله مقام إبراهيم. وقوله تعالى: ﴿ومن دخله كان آمناً﴾ يعني حرم مكة إذا دخله الخائف يأمن من كل سوء، وكذلك كان الأمر في حال الجاهلية، كما قال الحسن البصري وغيره: كان الرجل يقتل فيضع في عنقه صوفة ويدخل الحرم، فيلقاه ابن المقتول فلا يهيجه حتى يخرج، وعن ابن عباس قال: من عاذ بالبيت أعاده البيت، ولكن لا يؤوى ولا يطعم ولا يسقى، فإذا خرج أخذ بذنبه، وقال الله تعالى: ﴿أو لم يروا أنا جعلنا حرمًا آمناً ويتخطف الناس من حولهم﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف﴾ وحتى إنه من جملة تحريمها حرمة اصطيد صيدها وتفكيره عن أوكاره، وحرمة قطع شجرها وقلع حشيشها، كما ثبتت الأحاديث والآثار في ذلك.

ففي الصحيحين - واللفظ لمسلم - عن ابن عباس رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ يوم فتح مكة: « لا هجرة ولكن جهاد ونية وإذا استنفرتم فانفروا »، وقال يوم فتح مكة: « إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، وإنه لم يحل القتال فيه لأحد قبلي، ولم يحل لي إلا في ساعة من نهار، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة: لا يعضد شوكة، ولا ينفر صيده، ولا يلتقط لقطته إلا من عرفها، ولا يختلى خلاها »، فقال العباس: يا رسول الله إلا الإذخر فإنه لقينهم وليبوتهم، فقال: « إلا الإذخر ». وعن أبي شريح العلوي أنه قال: لعمر بن سعيد وهو يبعث البعوث إلى مكة ائذن لي أيها الأمير أن أحدثك قولاً قام به رسول الله ﷺ الغد من يوم الفتح، سمعته أذناي ووعاه قلبي وأبصرته عيناي حين تكلم به: إنه حمد الله وأثنى عليه ثم قال: « إن مكة حرمها الله ولم يحرمها الناس فلا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دمًا، أو يعضد بها شجرة، فإن أحد ترخص بقتال رسول الله ﷺ فيها، فقولوا له: إن الله أذن لنبهه ولم يأذن لكم، وإنما أذن لي فيها ساعة من نهار، وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس فليبلغ الشاهد الغائب »، فقيل لأبي شريح: ما قال لك عمرو؟ قال: أنا أعلم بذلك منك يا أبا شريح، إن الحرم لا يعيد عاصياً ولا فاراً بدم ولا فاراً بخربة^(١). وعن جابر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « لا يحل لأحد أن يحمل السلاح بمكة »^(٢)، وعن عبد الله بن الحمراء الزهري، أنه سمع رسول الله ﷺ وهو واقف بالحزرة بسوق مكة يقول: « والله إنك لخير أرض الله، وأحب أرض الله إلى الله، ولولا أني أخرجت منك ما خرجت »^(٣). وقال بعضهم في قوله تعالى: ﴿ ومن دخله كان آمناً ﴾ قال: آمناً من النار.

وقوله تعالى: ﴿ والله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً ﴾ هذه أول آية وجوب الحج عند الجمهور، وقيل: بل هي قوله: ﴿ وأتموا الحج والعمرة لله ﴾ والأول أظهر، وقد وردت الأحاديث المتعددة بأنه أحد أركان الإسلام ودعاؤه وقواعده، وأجمع المسلمون على ذلك إجماعاً ضرورياً، وإنما يجب على المكلف في العمر مرة واحدة بالنص والإجماع، لحديث أبي هريرة قال: خطبنا رسول الله ﷺ فقال: « أيها الناس قد فرض عليكم الحج فحجوا »، فقال رجل: أكل عام يا رسول الله؟ فسكت حتى قالها ثلاثاً، فقال رسول الله ﷺ: « لو قلت نعم لوجبت ولما استطعتم »، ثم قال: « ذروني ما تركتكم فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، وإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه »^(٤). وعن ابن عباس رضي الله عنه قال: خطبنا رسول الله ﷺ فقال: « يا أيها الناس إن الله كتب عليكم الحج »، فقام الأقرع بن حابس فقال: يا رسول الله أفي كل عام؟ فقال: « لو قلتها لوجبت ولو وجبت لم تعملوا بها ولن تستطيعوا أن تعملوا بها، الحج مرة فمن زاد فهو تطوع »^(٥).

(١) رواه الشيخان واللفظ لمسلم، والخبرة: أصلها سرقة الإبل، وتطلق على كل خيانة وقيل هي الفساد في الدين. من الخارب وهو اللص المفسد في الأرض.

(٢) رواه مسلم.

(٣) رواه أحمد والترمذي والنسائي وابن ماجه.

(٤) رواه أحمد ومسلم.

(٥) رواه أحمد وأبو داود والنسائي وابن ماجه.

وأما الاستطاعة فأقسام: تارة يكون الشخص مستطيعاً بنفسه ، وتارة بغيره كما هو مقرر في كتب الأحكام .
عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قام رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: من الحاج يا رسول الله؟ قال: « الشعث
التفل»^(١) ، فقام آخر فقال: أي الحج أفضل يا رسول الله؟ قال: « العج والثج»^(٢) ، فقام آخر فقال: ما السبيل
يا رسول الله، قال: « الزاد والراحلة»^(٣) . وعن أنس أن رسول الله ﷺ سئل عن قول الله عز وجل: ﴿ من استطاع
إليه سبيلاً ﴾ فقيل: ما السبيل؟ قال: « الزاد والراحلة»^(٤) . وعن ابن عباس قال، قال رسول الله ﷺ: « تعجلوا
إلى الحج - يعني الفريضة - فإن أحدكم لا يدري ما يعرض له»^(٥) وقال رسول الله ﷺ: « من أراد الحج
فليتعجل»^(٦) . وروى وكيع بن الجراح عن ابن عباس قال: ﴿ من استطاع إليه سبيلاً ﴾ ، قال: « الزاد والبعر » .

وقوله تعالى: ﴿ ومن كفر فإن الله غني عن العالمين ﴾ ، قال ابن عباس: أي ومن جحد فريضة الحج فقد
كفر والله غني عنه، وقال سعيد بن منصور عن عكرمة: لما نزلت: ﴿ ومن يتبع غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه ﴾
قالت اليهود: فنحن مسلمون، قال الله عز وجل فأخصمهم فحجهم يعني، فقال لهم النبي ﷺ: « إن الله فرض
على المسلمين حج البيت من استطاع إليه سبيلاً » ، فقالوا: لم يكتب علينا، وأبوا أن يحجوا، قال الله تعالى: ﴿ ومن
كفر فإن الله غني عن العالمين ﴾ . عن علي رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: « من ملك زاداً وراحلة ولم
يحج بيت الله فلا يضره مات يهودياً أو نصرانياً، وذلك بأن الله قال: ﴿ والله على الناس حج البيت من استطاع
إليه سبيلاً ﴾ ومن كفر فإن الله غني عن العالمين ﴾»^(٧) . وروى الحسن البصري قال، قال عمر بن الخطاب رضي
الله عنه: (لقد هممت أن أبعث رجالاً إلى هذه الأمصار فينظروا إلى كل من كان عنده جدّة (أي سعة) فلم يحج ،
فيضربوا عليهم الجزية ، ما هم بمسلمين ، ما هم بمسلمين) .

قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ
عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مِمَّا آمَنَ تَبَغُّونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾

هذا تعنيف من الله تعالى للكفرة أهل الكتاب على عنادهم للحق، وكفرهم بآيات الله وصددهم عن سبيل الله مع
علمهم بأن ما جاء به الرسول حق من الله، وقد توعددهم الله على ذلك، وأخبر بأنه شهيد على صنيعهم بما خالفوا
ما بأيديهم عن الأنبياء، ومعاملتهم الرسول المبشر بالتكذيب والجحود والعناد، فأخبر تعالى أنه ليس بغافل عما
يعملون، أي وسيجزئهم على ذلك: ﴿ يوم لا ينفع مال ولا بنون ﴾ .

(١) الشعث: مغبر الشعر متلبده . (التَّفِيل) : متنن الراحلة .

(٢) العج: رفع الصوت بالتلبية ، والثج : إراقة دم الهندي .

(٣) رواه الترمذي وابن ماجة .

(٤) رواه الحاكم وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه .

(٥) رواه الإمام أحمد .

(٦) رواه ابن مردويه وابن جرير .

(٧) رواه أحمد وأبو داود .

يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ تَطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدِ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾

يحذر تبارك وتعالى عباده المؤمنين عن أن يطيعوا طائفة من أهل الكتاب، الذين يحسدون المؤمنين على ما آتاهم الله من فضله، وما منحهم من إرسال رسوله، كما قال تعالى: ﴿ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم﴾ الآية. وهكذا قال ههنا: ﴿إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين﴾، ثم قال تعالى: ﴿وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله﴾، يعني أن الكفر بعيد منكم - وحاشاكم منه - فإن آيات الله تنزل على رسوله ليلاً ونهاراً، وهو يتلوها عليكم ويبلغها إليكم. وهذا كقوله تعالى: ﴿وما لكم لا تؤمنون بالله والرسول يدعوكم لتؤمنوا برسوم وقد أخذ ميثاقكم إن كنتم مؤمنين﴾. وكما جاء في الحديث أن النبي ﷺ قال لأصحابه يوماً «أي المؤمنين أعجب إليكم إيماناً؟» قالوا: الملائكة، قال: «وكيف لا يؤمنون والوحي ينزل عليهم»، قالوا: فنحن، قال: «وكيف لا تؤمنون وأنا بين أظهركم»، قالوا: فأبي الناس أعجب إيماناً؟ قال: «قوم يجيئون من بعدكم يجعلون صحفاً يؤمنون بما فيها». ثم قال تعالى: ﴿ومن يعتصم بالله فقد هدي إلى صراط مستقيم﴾، أي ومع هذا فالاعتصام بالله والتوكل عليه هو العمدة في الهداية، والعدة في مباحة الغواية، والوسيلة إلى الرشاد، وطريق السداد وحصول المراد.

يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾

عن عبد الله بن مسعود: ﴿اتقوا الله حق تقاته﴾ قال: أن يطاع فلا يعصى، وأن يذكر فلا ينسى، وأن يشكر فلا يكفر. وروي مرفوعاً عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «اتقوا الله حق تقاته أن يطاع فلا يعصى، ويشكر فلا يكفر، ويذكر فلا ينسى» (١). وروي عن أنس أنه قال: لا يتقي الله العبد حق تقاته حتى يخزن لسانه، وقد ذهب سعيد بن جبير وأبو العالية إلى أن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى: ﴿فاتقوا الله ما استطعتم﴾. وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿اتقوا الله حق تقاته﴾ قال: لم تنسخ ولكن حق تقاته أن يجاهلوا في سبيله حق جهاده، ولا تأخذهم في الله لومة لائم، ويقوموا بالقسط ولو على أنفسهم وآبائهم وأبنائهم. وقوله تعالى: ﴿ولا تموتنَّ إلا وأنتم مسلمون﴾، أي حافظوا على الإسلام في حال صحتكم وسلامتكم، لتموتوا عليه، فإن الكريم قد أجرى عادته بكرمه، أنه من عاش على شيء مات عليه، ومن مات على شيء بعث عليه، فعياداً بالله من خلاف ذلك.

(١) رواه الحاكم في المستدرک وقال: صحيح على شرط الشيخين، قال ابن كثير: والأظهر أنه موقوف.

روى الإمام أحمد عن مجاهد: أن الناس كانوا يطوفون بالبيت وإبن عباس جالس معه محجن^(١)، فقال، قال رسول الله ﷺ: « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون ، ولو أن قطرة من الزقوم قطرت في دار الدنيا لأفسدت على أهل الدنيا معاشهم ، فكيف بمن ليس له طعام إلا الزقوم »؟! ^(٢).

وقال الإمام أحمد، عن عبد الله بن عمرو قال، قال رسول الله ﷺ: « من أحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة فلتدركه منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر ويأتي إلى الناس ما يحب أن يؤتى إليه ». وفي الحديث الصحيح عن جابر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله عز وجل ». وعن أنس قال: كان رجل من الأنصار مريضاً فجاءه النبي ﷺ يعوده فوافقه في السوق فسلم عليه، فقال له: « كيف أنت يا فلان »؟ قال: بخير يا رسول الله أرجو الله وأخاف ذنوبي، فقال رسول الله ﷺ: « لا يجتمعان في قلب عبد في هذا الموطن إلا أعطاه الله ما يرجو وآمنه مما يخاف » ^(٣).

وقوله تعالى: ﴿ واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ﴾، قيل: ﴿ بحبل الله ﴾ أي بعهد الله كما قال في الآية بعدها: ﴿ ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا الا بحبل من الله وحبل من الناس ﴾ أي بعهد وذمة ، وقيل: ﴿ بحبل الله ﴾ يعني القرآن كما في حديث الحارث الأعور عن علي مرفوعاً في صفة القرآن: « هو حبل الله المتين وصراطه المستقيم » .

وروى ابن مردويه عن عبد الله رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: « إن هذا القرآن هو حبل الله المتين، وهو النور المبين، وهو الشفاء النافع، عصمة لمن تمسك به، ونجاة لمن اتبعه » .

وقوله تعالى: ﴿ ولا تفرقوا ﴾ أمرهم بالجماعة ونهاهم عن التفرقة، وقد وردت الأحاديث المتعددة بالنهي عن التفرق، والأمر بالاجتماع والائتلاف، كما في صحيح مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: « إن الله يرضى لكم ثلاثاً، ويسخط لكم ثلاثاً: يرضى لكم أن تعبوه ولا تشركوا به شيئاً، وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا، وأن تناصحوا من ولّاه الله أمركم، ويسخط لكم ثلاثاً: قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال » .

وقوله تعالى: ﴿ واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً ﴾ إلى آخر الآية، وهذا السياق في شأن الأوس والخزرج، فإنه قد كان بينهم حروب كثيرة في الجاهلية، وعداوة شديدة وضغائن وإحن، طال بسببها قتالهم والوقائع بينهم، فلما جاء الله بالإسلام فدخل فيه من دخل منهم صاروا إخواناً متحابين بجلال الله، متواصلين في ذات الله، متعاونين على البر والتقوى. قال الله تعالى: ﴿ هو الذي أيلك بنصره وبالمؤمنين وألف بين قلوبهم لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم ﴾ إلى آخر الآية. وكانوا على شفا حفرة من النار بسبب كفرهم فأنقذهم الله منها أن هداهم للإيمان. وقد امتن عليهم

(١) عصا منعطفة الرأس .

(٢) رواه الترمذي والنسائي وابن ماجه .

(٣) رواه الحافظ البزار والترمذي والنسائي .

بذلك رسول الله ﷺ يوم قسم غنائم حنين، فعتب من عتب منهم، بما فضل عليهم في القسمة بما أَرَادَهُ اللهُ، فخطبهم فقال: «يا معشر الأنصار ألم أجدكم ضلالاً فهداكم الله بي!! وكنتم متفرقين فألفكم الله بي!! وعالة فأغناكم الله بي!!» فكلما قال شيئاً قالوا: الله ورسوله أمنٌ.

وقد ذكر محمد بن إسحاق بن يسار وغيره: أن هذه الآية نزلت في شأن (الأوس والخزرج)، وذلك أن رجلاً من اليهود، مر بملأ من الأوس والخزرج، فسأه ما هم عليه من الاتفاق والألفة، فبعث رجلاً معه وأمره أن يجلس بينهم، ويذكرهم ما كان من حروبهم يوم بعث وتلك الحروب ففعل، فلم يزل ذلك دأبه حتى حميت نفوس القوم، وغضب بعضهم على بعض، وتناوروا ونادوا بشعارهم، وطلبوا أسلحتهم وتواعدوا إلى الحرة، فبلغ ذلك النبي ﷺ، فأتاهم فجعل يسكنهم ويقول: «أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم؟» وتلا عليهم هذه الآية فندموا على ما كان منهم واصطلحوا وتعانقوا، وألقوا السلاح رضي الله عنهم.

وَلَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ أَبْيَضَتْ وُجُوهُهُمْ فَمِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٠٧﴾ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿١٠٩﴾

يقول تعالى: ولتكن منكم أمة منتصبة للقيام بأمر الله في الدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ﴿وأولئك هم المفلحون﴾ قال الضحاك: هم خاصة الصحابة، وخاصة الرواة يعني المجاهدين والعلماء، وقال أبو جعفر الباقر، قرأ رسول الله ﷺ: ﴿ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير﴾. ثم قال: «الخير اتباع القرآن وسنتي» (١). والمقصود من هذه الآية أن تكون فرقة من هذه الأمة متصدية لهذا الشأن، وإن كان ذلك واجباً على كل فرد من الأمة بحسبه، كما ثبت في صحيح مسلم عن أبي هريرة قال، قال رسول الله ﷺ: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان»، وفي رواية: «وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل».

وروى الإمام أحمد عن حذيفة بن اليمان أن النبي ﷺ قال: «والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف، ولتنهون عن

(١) أخرجه ابن مردويه.

المنكر، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً من عنده، ثم لتدعنه فلا يستجيب لكم^(١)، ﴿ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات﴾ الآية . ينهى تبارك وتعالى هذه الأمة أن يكونوا كالأمم الماضين، في افتراقهم واختلافهم وتركهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، مع قيام الحجة عليهم .

روى الإمام أحمد عن أبي عامر (عبد الله بن يحيى) قال : حججنا مع (معاوية بن أبي سفيان) ، فلما قدمنا مكة قام حين صلى صلاة الظهر فقال : إن رسول الله ﷺ قال : « إن أهل الكنايين افرقوا في دينهم على ثنتين وسبعين ملة ، وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين ملة - يعني الأهواء - كلها في النار إلا واحدة - وهي الجماعة - وإنه سيخرج في أمي أقوام تتجارى بهم الأهواء كما يتجارى الكلب بصاحبه لا يبقى منه عرق ولا مفصل إلا دخله » ، والله يا معشر العرب لئن لم تقوموا بما جاء به نبيكم ﷺ لغيركم من الناس أخرى أن لا يقوم به^(٢) .

وقوله تعالى : ﴿يوم تبيض وجوه وتسود وجوه﴾ يعني يوم القيامة حين تبيض وجوه أهل السنة والجماعة ، وتسود وجوه أهل البدعة والفرقة ، قاله ابن عباس رضي الله عنهما . ﴿فأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم﴾ ؟ قال الحسن البصري : وهم المنافقون ، ﴿فلنوقوا العذاب بما كتمت كفرون﴾ ، وهذا الوصف يعم كل كافر ، ﴿وأما الذين ابيضت وجوههم ففي رحمة الله هم فيها خاللون﴾ يعني الجنة ما كثون فيها أبداً لا ييغون عنها حولاً .

ثم قال تعالى : ﴿تلك آيات الله نتلوها عليك﴾ أي هذه آيات الله وحججه وبياناته نتلوها عليك يا محمد ﴿بالحق﴾ أي نكشف ما الأمر عليه في الدنيا والآخرة ، ﴿وما الله يريد ظلماً للعالمين﴾ أي ليس بظالم لهم ، بل هو الحكم العدل الذي لا يجر، لأنه القادر على كل شيء ، العالم بكل شيء ، فلا يحتاج مع ذلك إلى أن يظلم أحداً من خلقه ، ولهذا قال تعالى : ﴿ولله ما في السموات وما في الأرض﴾ أي الجميع ملك له وعبيد له ، ﴿وإلى الله ترجع الأمور﴾ أي هو الحاكم المتصرف في الدنيا والآخرة .

كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١٠﴾ لَنْ يَضُرُّكُمْ إِلَّا أذىٌ وَإِنْ يَقْتُلُوكُمْ يُولُوكُمُ الْأُدْبَارَ ثُمَّ لَا يَنْصُرُونَ ﴿١١١﴾ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلِيلَةُ أَيْنَ مَا تُقِفُوا إِلَّا بِجِئِلٍ مِّنَ اللَّهِ وَجِئِلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَاءٌ وَبَغْضِبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِعَايَتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾

يخبر تعالى عن هذه الأمة المحمدية بأنهم خير الأمم، قال البخاري: عن أبي هريرة رضي الله عنه: ﴿كتم

(١) أخرجه أحمد والترمذي وابن ماجه . (٢) رواه أحمد وأبو داود .

خير أمة أخرجت للناس»، قال: خير الناس، تأتون بهم في السلاسل في أعناقهم حتى يدخلوا في الإسلام، والمعنى: أنهم خير الأمم وأنفع الناس للناس، ولهذا قال: ﴿تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله﴾، قال الإمام أحمد: قام رجل إلى النبي ﷺ وهو على المنبر فقال: يا رسول الله أي الناس خير؟ قال: «خير الناس أقرامهم وأتقاهم لله وأمرهم بالمعروف وأنهم عن المنكر وأوصلهم للرحم». وعن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس﴾ قال: هم الذين هاجروا مع رسول الله ﷺ من مكة إلى المدينة. والصحيح أن هذه الآية عامة في جميع الأمة كل قرن بحسبه، وخير قرونها الذين بعث فيهم رسول الله ﷺ، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطاً﴾ أي خياراً ﴿لتكونوا شهداء على الناس﴾ الآية.

وفي مسند أحمد وجامع الترمذي من رواية حكيم بن معاوية بن حيدة عن أبيه قال، قال رسول الله ﷺ: «أتمت توفون سبعين أمة أنتم خيرها وأكرمها على الله عز وجل» وهو حديث مشهور، وقد حسنه الترمذي، وإنما حازت هذه الأمة قصب السبق إلى الخيرات، بنبيها محمد صلوات الله وسلامه عليه، فإنه أشرف خلق الله وأكرم الرسل على الله، وبعثه الله بشرح كامل عظيم، لم يعطه نبي قبله ولا رسول من الرسل، فالعمل على مناجهه وسبيله، يقوم القليل منه ما لا يقوم العمل الكثير من أعمال غيرهم مقامه، وفي الحديث: «وجعلت أمتي خير الأمم»^(١).

وقد وردت أحاديث يناسب ذكرها ههنا: عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «أعطيت سبعين ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب وجوههم كالقمر ليلة البدر، قلوبهم على قلب رجل واحد، فاستزدت ربي فزادني مع كل واحد سبعين ألفاً»، فقال أبو بكر رضي الله عنه: فرأيت أن ذلك آت على أهل القرى ومصيب من حافات البوادي^(٢).

(حديث آخر): قال الإمام أحمد، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال، قال النبي ﷺ: «عرضت عليّ الأمم بالموسم فرائث^(٣) عليّ أمتي، ثم رأيتهم فأعجبني كثرتهم وهيبتهم، قد ملؤا السهل والجبل، فقال: أرضيت يا محمد؟ فقلت: نعم! قال: فان مع هؤلاء سبعين ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب وهم الذين لا يسترقون ولا يتطيرون، وعلى ربهم يتوكلون»، فقام عكاشة بن محصن فقال: يا رسول الله ادع الله أن يجعلني منهم، فقال: «أنت منهم»، فقام رجل آخر فقال: ادع الله أن يجعلني منهم، فقال: «سبقك بها عكاشة».

(حديث آخر): قال الطبراني، عن عمران بن حصين قال، قال رسول الله ﷺ: «يدخل الجنة من أمتي سبعون ألفاً بغير حساب ولا عقاب»، قيل: من هم؟ قال: «هم الذين لا يسترقون، ولا يكتبون، ولا يتطيرون، وعلى ربهم يتوكلون».

(١) رواه الإمام أحمد عن علي بن أبي طالب.

(٢) رواه الإمام أحمد.

(٣) فرائث: تأخرت.

(حديث آخر) : ثبت في الصحيحين من رواية الزهري عن سعيد بن المسيب، أن أبا هريرة حدثه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول: « يدخل الجنة من أمتي زمرة وهم سبعون ألفاً تضيء وجوههم إضاءة القمر ليلة البدر »، قال أبو هريرة: فقام عكاشة بن محصن الأسدي يرفع نمرة^(١) عليه، فقال: يا رسول الله: ادع الله أن يجعلني منهم، فقال رسول الله ﷺ: « اللهم اجعله منهم »، ثم قام رجل من الأنصار فقال مثله، فقال: « سبقك بها عكاشة » .

(حديث آخر) : عن ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال: « عرضت عليّ الأمم فرأيت النبي ومعه الرهيط، والنبي ومعه الرجل والرجلان، والنبي وليس معه أحد، إذ رفع لي سواد عظيم فظننت أنهم أمتي؛ فقبل لي هذا موسى وقومه، ولكن انظر إلى الأفق، فنظرت فإذا سواد عظيم، فقبل لي : انظر إلى الأفق الآخر فإذا سواد عظيم، فقبل لي : هذه أمتك ومعهم سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب »، ثم نهض فدخل منزله فخاض الناس في أولئك الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب، فقال بعضهم: فلعلهم الذين صحبوا رسول الله ﷺ، وقال بعضهم: فلعلهم الذين ولدوا في الإسلام ولم يشركوا بالله شيئاً وذكروا أشياء، فخرج عليهم رسول الله ﷺ فقال: « ما الذي تخوضون فيه ؟ » فأخبروه، فقال: « هم الذين لا يرقون ولا يسترقون ولا يكتوون ولا يتطيرون، وعلى ربهم يتوكلون »، فقام عكاشة بن محصن فقال: ادع الله أن يجعلني منهم، قال: « أنت منهم »، ثم قام رجل آخر فقال: ادع الله أن يجعلني منهم، قال: « سبقك بها عكاشة »^(٢)

(حديث آخر) : قال الحافظ أبو بكر بن عاصم في كتاب السنن، عن محمد بن زياد: سمعت أبا أمامة الباهلي يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « وعدني ربي أن يدخل الجنة من أمتي سبعين ألفاً، مع كل ألف سبعون ألفاً لا حساب عليهم ولا عذاب، وثلاث حثيات من حثيات^(٣) ربي عز وجل » .

(حديث آخر): قال أبو القاسم الطبراني: عن عامر بن زيد البكالي أنه سمع عتبة بن عبد السلمي رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: « إن ربي عز وجل وعدني أن يدخل الجنة من أمتي سبعين ألفاً بغير حساب، ثم يشفع كل ألف لسبعين ألفاً، ثم يحثي ربي عز وجل بكفيه ثلاث حثيات ». فكبر عمر وقال: إن السبعين الأول يشفعهم الله في آبائهم وأبنائهم وعشيرتهم، وأرجو أن يجعلني الله في إحدى الحثيات الأواخر. قال الحافظ المقدسي في كتابه صفة الجنة: لا أعلم لهذا الإسناد علة، والله أعلم .

(حديث آخر): قال الإمام أحمد: عن عطاء بن يسار أن رفاعة الجهني حدثه قال: أقبلنا مع رسول الله ﷺ حتى إذا كنا بالكديد - أو قال بقديد - فذكر حديثاً وفيه ثم قال: « وعدني ربي عز وجل أن يدخل

(١) نمرة : ثوب من صوف .

(٢) رواه مسلم .

(٣) حثيات : مفردا حثي وهو ما غرف باليد .

الجنة من أمتي سبعين ألفاً بغير حساب، وإني لأرجو أن لا يدخلوها حتى تبوءوا أتم من صلح من أزواجكم وذرياتكم مساكن في الجنة»، قال الضياء: وهذا عندي على شرط مسلم.

(حديث آخر): قال عبد الرزاق، أنبأنا معمر عن قتادة عن النضر بن أنس عن أنس قال، قال رسول الله: «إن الله وعدني أن يدخل الجنة من أمتي أربعمئة ألف»، قال أبو بكر رضي الله عنه. زدنا يا رسول الله، قال: «والله هكذا»، قال عمر: حسبك يا أبا بكر، فقال أبو بكر: دعني وما عليك أن يدخلنا الله الجنة كلنا. قال عمر: إن الله إن شاء أدخل خلقه الجنة بكف واحد، فقال النبي ﷺ: «صلق عمر». هذا الحديث بهذا الإسناد تفرد به عبد الرزاق. قال الضياء: وقد رواه الحافظ أبو نعيم الأصبهاني عن قتادة عن أنس عن النبي ﷺ قال: «وعندي ربي أن يدخل الجنة من أمتي مائة ألف»، فقال له أبو بكر: يا رسول الله زدنا، قال: «وهكذا»، وأشار سليمان بن حرب بيده كذلك، قلت: يا رسول الله زدنا، فقال عمر: إن الله قادر على أن يدخل الناس الجنة بحفنة واحدة، فقال رسول الله ﷺ: «صلق عمر». هذا حديث غريب من هذا الوجه.

(حديث آخر): عن أنس، عن النبي ﷺ قال: «يدخل الجنة من أمتي سبعون ألفاً»، قالوا: زدنا يا رسول الله، قال: «لكل رجل سبعون ألفاً»، قالوا: زدنا، وكان على كتيب، فقالوا: فقال: «هكذا» وحثا بيديه، قالوا: يا رسول الله: أبعد الله من دخل النار بعد هذا^(١).

ومن الأحاديث الدالة على فضيلة هذه الأمة وشرفها وكرامتها على الله عز وجل، وأنها خير الأمم في الدنيا والآخرة ما ثبت في الصحيحين عن عبد الله بن مسعود قال، قال لنا رسول الله ﷺ: «أما ترضون أن تكونوا ربع أهل الجنة» فكبرنا، ثم قال: «أما ترضون أن تكونوا ثلث أهل الجنة» فكبرنا، ثم قال: «إني لأرجو أن تكونوا شطر أهل الجنة».

(حديث آخر): قال الإمام أحمد بسنده عن ابن بريدة عن أبيه، أن النبي ﷺ قال: «أهل الجنة عشرون ومائة صف. هذه الأمة من ذلك ثمانون صفاً».

(حديث آخر): قال الطبراني عن أبي هريرة: لما نزلت: ﴿ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأُولَى وَثَلَاثَةٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾ قال رسول الله ﷺ: «أتم ربع أهل الجنة، أتم ثلث أهل الجنة، أتم نصف أهل الجنة، أتم ثلث أهل الجنة».

(حديث آخر): عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «نحن الآخرون الأولون يوم القيامة، نحن أول الناس دخولاً الجنة، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا، وأوتيتنا من بعدهم، فهدانا الله لما اختلفوا فيه من الحق، فهذا اليوم الذي اختلفوا فيه، الناس لنا فيه تبع، غداً لليهود، وللنصارى بعد غد»^(٢).

(١) رواه الحافظ أبو يعلى، قال ابن كثير: وإسناده جيد.

(٢) رواه البخاري ومسلم.

فهذه الأحاديث في معنى قوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾، فمن اتصف من هذه الأمة بهذه الصفات دخل معهم في هذا المدح، كما قال قتادة: بلغنا أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه في حجة حجها رأى من الناس دعة، فقرأ هذه الآية: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾، ثم قال: (من سره أن يكون من هذه الأمة فليؤد شرط الله فيها)، رواه ابن جرير، ومن لم يتصف بذلك أشبه أهل الكتاب الذين ذمهم الله بقوله تعالى: ﴿كَانُوا لَا يَتَّهِنُونَكَ إِلَّا هُتُوفًا فَكُلٌّ مِنْهَا لَمَّا جَاءَ مَكَّةَ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِهِمْ هُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ والآية، ولهذا لما مدح تعالى هذه الأمة على هذه الصفات، شرع في ذم أهل الكتاب وتأنيبهم، فقال تعالى: ﴿وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ بِمَا آتَاهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأَذَانُ الْمُرْسَلِينَ كَأَذَانِ أُولَئِكَ لَا يَتَّخِذُونَ الْآيَاتِ وَالْحُكْمَ إِلَّا هُزُوًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ أي قليل منهم من يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم، وأكثرهم على الضلالة والكفر والفسق والعصيان.

ثم قال تعالى مخبراً عباده المؤمنين، ومبشراً لهم: أن النصر والظفر لهم على أهل الكتاب الكفرة الملحدتين فقال تعالى: ﴿لَنْ يَضُرَّكُمْ إِلَّا أَذَىٰ وَإِنْ يَقَاتِلْكُمْ يَوْكُمِ الْأُدْبَارُ ثُمَّ لَا يَنْصُرُونَ﴾، هكذا وقع فإنهم يوم خيبر أذمهم الله وأرغم أنوفهم، وكذلك من قبلهم من يهود المدينة (بني قينقاع) وبني النضير وبني قريظة كلهم أذمهم الله، وكذلك النصارى بالشام كسرهم الصحابة في غير ما موطن، وسلبوهم ملك الشام أبد الآبدين ودهر الدهارين، ولا تزال عصابة الإسلام قائمة بالشام حتى يتزل عيسى بن مريم وهم كذلك، ويحكم بحملة الإسلام وشرع محمد عليه أفضل الصلاة والسلام، فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية، ولا يقبل إلا الإسلام. ثم قال تعالى: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ أَيْنَا نَقَفُوا إِلَّا بِحِجْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحِجْلٍ مِنَ النَّاسِ﴾، أي أُلْزِمَهُمُ اللَّهُ الذَّلَّةَ وَالصَّغَارَ أَيْنَا كَانُوا فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا بِحِجْلٍ مِنَ اللَّهِ أي بدمية من الله وهو عقد الذمة لهم، وضرب الجزية عليهم وإلزامهم أحكام الملة، ﴿وَحِجْلٍ مِنَ النَّاسِ﴾ أي أمان منهم لهم كما في المهادن والمعاهد والأسير إذا أمنه واحد من المسلمين ولو امرأة، قال ابن عباس: ﴿إِلَّا بِحِجْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحِجْلٍ مِنَ النَّاسِ﴾ أي بعهد من الله وعهد من الناس، وقوله: ﴿وَبَاعُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ﴾ أي ألزموها، فالتموا بغضب من الله وهم يستحقونه، ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ﴾ أي ألزموها قدرأ وشرعاً، ولهذا قال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقِّ﴾ أي إنما حملهم على ذلك الكبر والبغي والحسد، فأعقبهم ذلك الذلة والصغار والمسكنة أبداً متصلاً بذل الآخرة. ثم قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ أي إنما حملهم على الكفر بآيات الله وقتل رسل الله - وقبضوا لذلك - أنهم كانوا يكثرون العصيان لأوامر الله والغشيان لمعاصي الله والاعتداء في شرع الله، فعياداً بالله من ذلك، والله عز وجل المستعان.

* لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتَّبِعُونَ آيَاتِ اللَّهِ إِنَّآ إِلَيْهِمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِي عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا

أَوْلَدُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأَوْلَيْكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١٦﴾ مَثَلٌ مَا يَنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتَهَا وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾

المشهور عند كثير من المفسرين أن هذه الآيات نزلت فيمن آمن من أحبار أهل الكتاب كعبد الله بن سلام، و (أسد بن عبيد) و (ثعلبة بن شعبة) وغيرهم، أي لا يستوي من تقدم ذكرهم بالدم من أهل الكتاب، وهؤلاء الذين أسلموا، ولهذا قال تعالى: ﴿ليسوا سواء﴾ أي ليسوا كلهم على حد سواء، بل منهم المؤمن ومنهم المجرم، ولهذا قال تعالى: ﴿من أهل الكتاب أمة قائمة﴾ أي قائمة بأمر الله مطيعة لشرعه، متبعة نبي الله فهي (قائمة) يعني مستقيمة، ﴿يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجلون﴾ أي يقيمون الليل، ويكثرون التهجد، ويتلون القرآن في صلواتهم، ﴿يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات وأولئك من الصالحين﴾، وهؤلاء هم المذكورون في آخر السورة ﴿وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم خاشعين لله﴾ الآية، ولهذا قال تعالى هنا: ﴿وما يفعلوا من خير فلن يكفروه﴾ أي لا يضع عند الله بل يجزيهم به أوفر الجزاء، ﴿والله علم بالمتقين﴾ أي لا يخفى عليه عمل عامل ولا يضع لديه أجر من أحسن عملاً .

ثم قال تعالى مخبراً عن الكفرة المشركين بأنه ﴿لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً﴾ أي لا ترد عنهم بأس الله ولا عذابه إذا أَرَادَهُ بِهِمْ، ﴿وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾، ثم ضرب مثلاً لما ينفقه الكفار في هذه الدار فقال: ﴿مثل ما ينفقون في هذه الحياة الدنيا كمثل ريحٍ فيه صرٌّ﴾ أي برد شديد قاله ابن عباس، وقال عطاء: برد وجليد، ﴿فيها صرٌّ﴾ أي نار وهو يرجع إلى الأول، فإن البرد الشديد ولا سيما الجليد يحرق الزروع والثمار كما يحرق الشيء بالنار، ﴿أصابت حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتَهَا﴾ أي فأحرقته يعني بذلك الصعقة إذا نزلت على حَرْثٍ قَدِ آنَ جِذَاهُ أَوْ حِصَادَهُ فدمرته، وأعدمت ما فيه من ثمر أو زرع، فذهبت به وأفسدته فعدمه صاحبه أخرج ما كان إليه، فكذلك الكفار يمحق الله ثواب أعمالهم في هذه الدنيا كما يذهب ثمرة هنا الحَرْثِ بذنوب صاحبه، وكذلك هؤلاء بنوها على غير أصل وعلى غير أساس ﴿وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون﴾ .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةَ مَن دُونِكُمْ لَا يَأُولُونَكُمْ خَبَالًا وَدُوًا مَا عَنِتُّمْ قَد بَدَتْ الْبَغْضَاءُ مِن أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَاتَمُ أَوْلَاءُ مُجِبُونَهُمْ وَلَا يُجِيبُونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا الْقُورُكُ قَالُوا ءَأَمْنَا وَإِذَا خَلَوْا عَضُوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١١٩﴾

كَيْدُهُمْ شَيْعًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾

يقول تبارك وتعالى ناهياً عباده المؤمنين عن اتخاذ المناقين بطانة، أي يطلعونهم على سرائرهم وما يضمرونه لأعدائهم، والمناقون يجهدهم وطاقهم لا يألون المؤمنين خبالاً، أي يسعون في مخالفتهم وما يضرهم بكل ممكن، وبما يستطيعون من المكر والخديعة؛ ويودون ما يعنت المؤمنين ويخرجهم ويشق عليهم، وقوله تعالى: ﴿لا تتخلوا بطانة من دونكم﴾ أي من غيركم من أهل الأديان، وبطانة الرجل هم خاصة أهله الذين يطلعون على داخل أمره، وقد روى البخاري والنسائي عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: « ما بعث الله من نبي ولا استخلف من خليفة إلا كانت له بطانتان : بطانة تأمره بالخير وتحضه عليه، وبطانة تأمره بالسوء وتحضه عليه، والمعصوم من عصمه الله . »

وقال ابن أبي حاتم: قيل لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: إن ههنا غلاماً من أهل الحيرة حافظ كاتب، فلو اتخذته كاتباً! فقال: قد اتخذت إذاً بطانة من دون المؤمنين. ففي هذا الأثر مع هذه الآية دليل على أن أهل الذمة لا يجوز استعمالهم في الكتابة التي فيها استطالة على المسلمين، وإطلاع على دواخل أمورهم التي يخشى أن يفشوها إلى الأعداء من أهل الحرب، ولهذا قال تعالى: ﴿لا يألونكم خبالاً ودوا ما عنتم﴾ أي تمنوا وقوعكم في المشقة .

ثم قال تعالى: ﴿قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر﴾ أي قد لاح على صفحات وجوههم، وفلتت ألسنتهم من العداوة، مع ما هم مشتملون عليه في صلورهم من البغضاء للإسلام وأهله، ما لا يخفى مثله على لبيب عاقل، ولهذا قال تعالى: ﴿قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون﴾، وقوله تعالى: ﴿ها أتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم﴾ أي أتم أيها المؤمنون تحبون المناقين بما يظهرون لكم من الإيمان فتحبونهم على ذلك، وهم لا يحبونكم لا باطناً ولا ظاهراً، ﴿وتؤمنون بالكتاب كله﴾ أي ليس عندكم في شيء منه شك ولا ريب، وهم عندكم الشك والريب والحيرة، عن ابن عباس: ﴿وتؤمنون بالكتاب كله﴾ أي بكتابكم وكتابهم وبما مضى من الكتب قبل ذلك، وهم يكفرون بكتابكم فاتم أحق بالبغضاء لهم منهم لكم، ﴿وإذا لقوكم قالوا آمنا وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ﴾ والأنامل أطراف الأصابع، قاله قتادة .

وقال الشاعر :
« وما حملت كفائي أنملي العشرا »

وقال ابن مسعود والسدي: الأنامل الأصابع، وهذا شأن المناقين يظهرون للمؤمنين الإيمان والمودة، وهم في الباطن بخلاف ذلك من كل وجه كما قال تعالى: ﴿وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ﴾ وذلك أشد الغيظ والحق، قال الله تعالى: ﴿قل موتوا بغيظكم إن الله عليم بذات الصدور﴾ أي مهما كنتم تحسدون عليه المؤمنين ويغيظكم ذلك منهم، فاعلموا أن الله ممت نعمته على عباده المؤمنين ومكمل دينه، ومعل كلمته ومظهر دينه، فموتوا بغيظكم، ﴿إن الله عليم بذات الصدور﴾ أي هو عليم بما تنطوي عليه ضمائرهم، وتكنه سرائرهم من البغضاء والحسد والغل للمؤمنين، وهو مجازيكم عليه في الدنيا بأن يريكم خلاف ما تأملون، وفي الآخرة بالعذاب الشديد في النار التي أتم خالدون فيها، لا محيد لكم عنها، ولا خروج لكم منها .

ثم قال تعالى: ﴿إِنْ تَمَسَّكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِيبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا﴾ وهذه الحال دالة على شدة العداوة منهم للمؤمنين، وهو أنه إذا أصاب المؤمنين خصب ونصر وتأييد وكثروا وعز أنصارهم ساء ذلك المنافقين، وإن أصاب المسلمين سنة أي جذب أو أدبيل عليهم الأعداء - لما لله تعالى في ذلك من الحكمة كما جرى يوم أُحُد - فرح المنافقون بذلك. قال الله تعالى مخاطباً للمؤمنين: ﴿وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرَّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً﴾ الآية، يرشدكم تعالى إلى السلامة من شر الأشرار وكيد الفجار، باستعمال الصبر والتقوى والتوكل على الله، الذي هو محيط بأعدائهم فلا حول ولا قوة لهم إلا به، وهو الذي ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، ولا يقع في الوجود شيء إلا بتقديره ومشئته ومن توكل عليه كفاه .

ثم شرع تعالى في ذكر قصة أُحُد وما كان فيها من الإختبار لعباده المؤمنين، والتمييز بين المؤمنين والمنافقين، وبيان الصابرين فقال تعالى :

وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقْعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾ إِذْ هَمَّتْ طَّائِفَتَانِ مِنْكَ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيَهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾

المراد بهذه الواقعة يوم أُحُد عند الجمهور، وعن الحسن البصري: المراد بذلك يوم الأحزاب. وكانت وقعة أُحُد يوم السبت من شوال سنة ثلاث من الهجرة، قال قتادة: لإحدى عشرة ليلة خلت من شوال، وقال عكرمة: يوم السبت للنصف من شوال فالله أعلم، وكان سببها أن المشركين حين قتل من قتل من أشرفهم يوم بدر، وسلمت العير بما فيها من التجارة التي كانت مع أبي سفيان قال أبناء من قتل ورؤساء من بقي لأبي سفيان: ارصده هذه الأموال لقتال محمد فأنفقوها في ذلك، فجمعوا الجموع والأحاييش وأقبلوا في نحو ثلاثة آلاف حتى نزلوا قريباً من أُحُد تلقاء المدينة، فصلى رسول الله ﷺ يوم الجمعة فلما فرغ منها استشار الناس: «أخرج إليهم أم يمكث بالمدينة؟» فأشار (عبدالله بن أبي) بالمقام بالمدينة، فإن أقاموا أقاموا بشر محبس، وإن دخلوها قاتلهم الرجال في وجوههم، ورامهم النساء والصبيان بالحجارة من فوقهم، وإن رجعوا رجعوا خائبين، وأشار آخرون من الصحابة ممن لم يشهد بدرًا بالخروج إليهم. فدخل رسول الله ﷺ فلبس لامته وخرج عليهم، وقد ندم بعضهم، وقالوا: لعننا استكرهنا رسول الله ﷺ، فقالوا: يا رسول الله إن شئت أن نمكث، فقال رسول الله ﷺ: «ما ينبغي لني إذا لبس لامته أن يرجع حتى يحكم الله له»، فسار ﷺ في ألف من أصحابه، فلما كانوا بالشوط رجع (عبدالله بن أبي) بثلاث الجيش مغضباً لكونه لم يرجع إلى قوله، وقال هو وأصحابه: لو نعلم اليوم قتالاً لاتبعناكم ولكننا لا نراكم تقاتلون، واستمر رسول الله ﷺ سائراً حتى نزل الشعب من أحد في عدوة الوادي، وجعل ظهره وعسكره إلى أحد، وقال: «لا يقاتل أحد حتى تأمره بالقتال» .

وتها رسول الله ﷺ للقتال وهو في سبعمائه من أصحابه، وأمر على الرماة (عبدالله بن جبير) أخا بني عمرو ابن عوف، والرماة يومئذ خمسون رجلاً فقال لهم: «انفضحوا الخيل عنا ولا تؤتينا من قبلكم، والزموا مكانكم إن كانت النوبة لنا أو علينا، وإن رأيتمونا نخطفنا الطير فلا تبرحوا مكانكم»، وظاهر رسول الله ﷺ بين درعين،

وأعطى اللواء (مصعب بن عمير) أخا بني عبد الدار. وأجاز رسول الله ﷺ بعض الغلمان يومئذ وآخر آخرين حتى أمضاهم يوم الخندق بعد هذا اليوم بقريب من ستين. وتبياً قريش وهم ثلاثة آلاف، ومعهم مائة فرس قد جنبوها فجعلوا على ميمنة الخيل (خالد بن الوليد) وعلى الميسرة (عكرمة بن أبي جهل)، ودفعوا اللواء إلى بني عبد الدار، ثم كان بين الفريقين ما سيأتي تفصيله في موضعه إن شاء الله تعالى. ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ﴾ أي تزلمهم وتجعلهم ميمنة وميسرة وحيث أمرتهم ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي سميع لما تقولون عليم بضمائرهم.

وقوله تعالى: ﴿إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا﴾ الآية. قال البخاري، قال عمر: سمعت جابر بن عبد الله يقول: فينا نزلت: ﴿إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا﴾ الآية. قال: نحن الطائفتان (بنو حارثة) و (بنو سلمة)، وما يسرني أنها لم تنزل لقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ وَلِيهِمَا﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ﴾ أي يوم بدر، وكان يوم الجمعة وافق السابع عشر من شهر رمضان من سنة اثنتين من الهجرة، وهو يوم الفرقان الذي أعز الله فيه الإسلام وأهله، ودمغ فيه الشرك وخرّب محله وحزبه، هذا مع قلة عدد المسلمين يومئذ، فإنهم كانوا ثلثمائة وثلاثة عشر رجلاً، فيهم فارسان وسبعون بعيراً والباقيون مشاة ليس معهم من العدد جميع ما يحتاجون إليه، وكان العدو يومئذ ما بين التسعمائة إلى الألف في سوابغ الحديد والبيض والعدة الكاملة، والخيول المسومة والحلي الزائد. فأعز الله رسوله وأظهر وحيه وتنزله، ويّض وجه النبي وقبيله وأخزى الشيطان وجيله، ولهذا قال تعالى ممتناً على عباده المؤمنين وحزبه المتقين، ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ أي قليل عددكم لتعلموا أن النصر إنما هو من عند الله لا بكثرة العدد والعدد، ولهذا قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبْتَكُمْ كُفِّرَتْكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً﴾. وقال الإمام أحمد، عن سماك قال: سمعت عياضاً الأشعري قال: شهدت اليرموك وعلينا خمسة أمراء. وقال عمر: إذا كان قتالاً فعليكم أبو عبيدة، قال: فكتبنا إليه أنه قد جأش إلينا الموت واستمددناه، فكتب إلينا إنه قد جاءني كتابكم تستملوني وإني أدلكم على من هو أعز نصراً، وأحصن جنداً، الله عز وجل فاستنصروه، فإن محمداً ﷺ قد نصر في يوم بدر في أقل من عدتكم، فإذا جاءكم كتابي هذا فقاتلوهم ولا تراجعوني. قال: فقاتلناهم فهزمناهم أربع فواسخ، قال: وأصبنا أموالاً فقتلناهم، فأشار علينا عياض أن نعطي عن كل ذي رأس عشرة. و (بدر) محلة بين مكة والمدينة تعرف ببئرها منسوبة إلى رجل حفرها يقال له (بدر بن النارين) قال الشعبي: بدر بئر لرجل يسمى بدرأ، وقوله: ﴿فَانقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي تقومون بطاعته.

إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُدْعَرَ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ أَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰ إِنْ تَصَبَّرُوا
وَتَقَوُّوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُدْعَرَ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ أَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ
إِلَّا بُشْرًا لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ ۗ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ لِيَقْطَعَ طَرَفًا

مَنْ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْتَبُهُمْ فَيَقْلِبُوا حَاسِبِينَ ﴿١٢٧﴾ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٢٨﴾ وَاللَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٢٩﴾

اختلف المفسرون في هذا الوعد: هل كان يوم بدر أو يوم أحد؟ على قولين، (أحدهما) : ان قوله : ﴿إذ تقول للمؤمنين﴾ متعلق بقوله: ﴿ولقد نصركم الله ببدر﴾ واختاره ابن جرير. قال عباد بن منصور عن الحسن في قوله: ﴿إذ تقول للمؤمنين أن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة﴾، قال: هذا يوم بدر. وقال الربيع بن أنس: أمد الله المسلمين بألف، ثم صاروا ثلاثة آلاف ثم صاروا خمسة آلاف، فإن قيل: فما الجمع بين هذه الآية على هذا القول وبين قوله في قصة بدر: ﴿إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين - إلى قوله - إن الله عزيز حكيم﴾؟ فالجواب أن التنصيص على الألف هنا لا ينافي الثلاثة الآلاف فما فوقها لقوله: ﴿مردفين﴾ بمعنى يردفهم غيرهم ويتبعهم أوف آخر مثلهم، وهذا السياق شبيه بهذا السياق في سورة آل عمران، فالظاهر أن ذلك كان يوم بدر كما هو المعروف من أن قتال الملائكة إنما كان يوم بدر، والله أعلم.

(القول الثاني) : إن هذا الوعد متعلق بقوله: ﴿وإذ غلوت من أهلك تبوء المؤمنون مقاعد للقتال﴾ وذلك يوم أحد، وهو قول مجاهد وعكرمة والضحاك، لكن قالوا: لم يحصل الإمداد بالخمس الآلاف لأن المسلمين فروا يومئذ. وقوله تعالى: ﴿بلى إن تصبروا وتتقوا﴾ يعني تصبروا على مصابرة عدوكم، وتتقوني وتطيعوا أمري، وقوله تعالى: ﴿ويأتوكم من فورهم هذا﴾، قال الحسن وقتادة: أي من وجههم هذا، وقال مجاهد وعكرمة: أي من غضبهم هذا. وقال ابن عباس: من سفرهم هذا، ويقال: من غضبهم هذا، وقوله تعالى: ﴿يمددكم ربكم بخمس آلاف من الملائكة مسومين﴾ أي معلمين بالسما. عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: كان سما الملائكة يوم بدر الصوف الأبيض، وكان سياهم أيضاً في نواصي خيولهم.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه في هذه الآية ﴿مسومين﴾ قال: بالعهن الأحمر، وقال ابن عباس رضي الله عنه: أتت الملائكة محمداً ﷺ مسومين بالصوف فسوم محمد وأصحابه أنفسهم وخیلهم على سياهم بالصوف، وقال قتادة وعكرمة: ﴿مسومين﴾ أي بسما القتال. وعن ابن عباس قال: كان سما الملائكة يوم بدر عمائم بيض قد أرسلوها في ظهورهم، ويوم حنين عمائم حمر، ولم تضرب الملائكة في يوم سوى يوم بدر، وكانوا يكونون عدداً ومدداً لا يضربون. وقوله تعالى: ﴿وما جعله الله إلا بشري لكم ولتطمئن قلوبكم به﴾ أي وما أنزل الله الملائكة وأعلمكم بإنزالهم إلا بشارة لكم وتطيباً لقلوبكم وتطميناً، وإلا فإنما النصر من عند الله الذي لو شاء لانتصر من أعدائه بدونكم، ومن غير احتياج إلى قتالكم لهم، كما قال تعالى بعد أمره المؤمنين بالقتال: ﴿ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض﴾، ولهذا قال ههنا: ﴿وما جعله الله إلا بشري لكم ولتطمئن قلوبكم به وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم﴾ أي هو ذو العزة التي لا ترام، والحكمة في قلده والأحكام.

ثم قال تعالى: ﴿ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أي أمرهم بالجهاد والجلاد لما له في ذلك من الحكمة في كل تقدير، ولهذا ذكر جميع الأقسام الممكنة في الكفار المجاهدين، فقال: ﴿ لِيَقْطَعَ طَرَفًا ﴾ أي ليهلك أمة ﴿ من الذين كفروا أو يكذبهم فينقلبوا ﴾ أي يرجعوا ﴿ خائبين ﴾، أي لم يحصلوا على ما أملوا، ثم اعترض بجملة دلت على أن الحكم في الدنيا والآخرة له وحده لا شريك له فقال تعالى: ﴿ ليس لك من الأمر شيء ﴾، أي بل الأمر كله إليّ، كما قال تعالى: ﴿ فإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴾، وقال: ﴿ ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء ﴾، وقال: ﴿ إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء ﴾، وقال محمد بن إسحاق في قوله: ﴿ ليس لك من الأمر شيء ﴾ أي ليس لك من الحكم شيء في عبادي إلا ما أمرتك به فيهم. ثم ذكر بقية الأقسام فقال: ﴿ أو يتوب عليهم ﴾ أي مما هم فيه من الكفر فبهديهم بعد الضلالة ﴿ أو يعذبهم ﴾ أي في الدنيا والآخرة على كفرهم وذنوبهم، ولهذا قال: ﴿ فإنهم ظالمون ﴾ أي يستحقون ذلك، قال البخاري: عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: كان رسول الله ﷺ يدعو على رجال من المشركين يسميهم بأسمائهم حتى أنزل الله تعالى: ﴿ ليس لك من الأمر شيء ﴾ الآية. وقال البخاري أيضاً، عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ كان إذا أراد أن يدعو على أحد أو يدعو لأحد قنت بعد الركوع وربما قال، إذا قال: « سمع الله لمن حمده، ربنا ولك الحمد: اللهم أنج الوليد بن الوليد، وسلمة بن هشام، وعياش بن أبي ربيعة والمستضعفين من المؤمنين. اللهم اشدد وطأتك على مضر واجعلها عليهم سنين كسني يوسف » يجهر بذلك، وكان يقول في بعض صلاته في صلاة الفجر: « اللهم العن فلاناً وفلاناً » لأحياء من أحياء العرب حتى أنزل الله: ﴿ ليس لك من الأمر شيء ﴾ الآية.

وقال الإمام أحمد: عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ كسرت ربايعته يوم أحد وشج في وجهه حتى سال الدم على وجهه فقال: « كيف يفلح قوم فعلوا هذا بنبيهم وهو يدعوهم إلى ربهم عز وجل » فأنزل الله: ﴿ ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون ﴾ (١).

وقال ابن جرير: عن قتادة قال: أصيب النبي ﷺ يوم أحد وكسرت ربايعته، وفرق حاجبه، فوقع وعليه درعان والدم يسيل، فمر به سالم مولى أبي حذيفة فأجلسه ومسح عن وجهه، فأفاق وهو يقول: « كيف بقوم فعلوا هذا بنبيهم وهو يدعوهم إلى الله عز وجل؟ » فأنزل الله: ﴿ ليس لك من الأمر شيء ﴾ الآية.

ثم قال تعالى: ﴿ والله ما في السموات وما في الأرض ﴾ الآية، أي الجميع ملك له، وأهلها عبيد بين يديه، ﴿ يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ﴾ أي هو المتصرف فلا معقب لحكمه، ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون ﴿ والله غفور رحيم ﴾.

يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣١﴾ وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ
لِلْكَافِرِينَ ﴿١٣٢﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٣﴾ * وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا

(١) أخرجه مسلم والإمام أحمد في المسند.

السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٦﴾ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَنُظُمِ الْغَيْظِ
وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٥﴾ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ
فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا أَنْ يَرْجِعَ اللَّهُ إِلَيْهِ يَخْتَرِكُ أَصْفَاءُ
مَغْفِرَةً مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّتْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿١٣٤﴾

يقول تعالى ناهياً عباده المؤمنين عن تعاطي الربا وأكله أضعافاً مضاعفة، كما كانوا في الجاهلية يقولون إذا حل أجل الدين : إما أن تقضي وإما أن تربي، فإن قضاؤه وإلا زاده في المدة وزاده في القدر، وهكذا كل عام فرما تضاعف القليل حتى يصير كثيراً مضاعفاً، وأمر تعالى عباده بالتقوى لعلهم يفلحون في الأولى وفي الآخرة، ثم توعدهم بالنار وحذرهم منها، فقال تعالى : ﴿ واتقوا النار التي أعدت للكافرين وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحموا ﴾، ثم نذبتهم إلى المبادرة إلى فعل الخيرات والمسارعة إلى نيل القربات، فقال تعالى : ﴿ وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين ﴾ أي كما أعدت النار للكافرين . وقد قيل : إن في معنى قوله : ﴿ عرضها السموات والأرض ﴾ تنبيهاً على اتساع طولها، كما قال في صفة فرش الجنة : ﴿ بطائنها من إستبرق ﴾ أي فاظنك بالظواهر ، وقيل : بل عرضها كطولها لأنها قبة تحت العرش ، والشيء المقبب والمستدير عرضه كطوله، وقد دل على ذلك ما ثبت في الصحيح : « إذا سألت الله الجنة فاسألوه الفردوس فإنه أعلى الجنة وأوسط الجنة، ومنه تفجر أنهار الجنة، وسقفها عرش الرحمن » . وهذه الآية كقوله في (سورة الحديد) : ﴿ سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض ﴾ الآية . وقد روينا في مسند الإمام أحمد أن (هرقل) كتب إلى النبي ﷺ إنك دعوتني إلى جنة عرضها السموات والأرض فأين النار ؟ فقال النبي ﷺ : « سبحان الله فأين الليل إذا جاء النهار » .

وهذا يحتمل معنيين، (أحدهما) : أن يكون المعنى في ذلك أنه لا يلزم من عدم مشاهدتنا الليل إذا جاء النهار أن لا يكون في مكان، وإن كنا لا نعلمه، وكذلك النار تكون حيث شاء الله عز وجل، وهذا أظهر، (الثاني) : أن يكون المعنى أن النهار إذا تغشى وجه العالم من هذا الجانب، فإن الليل يكون من الجانب الآخر، فكذلك الجنة في أعلى عليين فوق السموات تحت العرش وعرضها، كما قال الله عز وجل : ﴿ كعرض السموات والأرض ﴾ والنار في أسفل سافلين، فلا تنافي بين كونها كعرض السموات والأرض وبين وجود النار، والله أعلم .

ثم ذكر تعالى صفة أهل الجنة فقال : ﴿ الذين ينفقون في السراء والضراء ﴾ أي في الشدة والرخاء، والمنشط والمكره، والصحة والمرض، وفي جميع الأحوال، كما قال : ﴿ الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سراً وعلانية ﴾، والمعنى : أنهم لا يشغلهم أمر عن طاعة الله تعالى والإنفاق في مرضيه، والإحسان إلى خلقه من قرباتهم وغيرهم بأنواع البر، وقوله تعالى : ﴿ والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس ﴾، أي إذا ثار بهم

الغيظ كظموه بمعنى كتموه فلم يعملوه، وعفوا مع ذلك عن أساء إليهم، وقد ورد في بعض الآثار: «يقول تعالى يا ابن آدم اذكرني إذا غضبت، اذكرك إذا غضبت فلا أهلكك فيمن أهلك»^(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «ليس الشديد بالصرعة ولكن الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب»^(٢). وقال الإمام أحمد، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «أيكم مال وارثه أحب إليه من ماله»، قالوا: يا رسول الله ما منا أحد إلا ماله أحب إليه من مال وارثه، قال: «اعلموا أنه ليس منكم أحد إلا مال وارثه أحب إليه من ماله، مالك من مالك إلا ما قدمت، وما لوارثك إلا ما أخرت» قال، وقال رسول الله ﷺ: «ما تعلمون الصرعة فيكم! قلنا الذي لا تصرعه الرجال، قال: «لا، ولكن الذي يملك نفسه عند الغضب». قال، وقال رسول الله ﷺ: «أتدرون ما الرقوب» قلنا: الذي لا ولد له، قال: «لا، ولكن الرقوب الذي لا يقدم من ولده شيئاً»^(٣).

(حديث آخر): قال الإمام أحمد، عن سهل بن معاذ بن أنس عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال: «من كظم غيظاً وهو قادر على أن ينفذه دعاه الله على رؤوس الخلائق حتى يخيره من أي الحور شاء». (حديث آخر): عن أبي هريرة رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿والكاظمين الغيظ﴾ أن النبي ﷺ قال: «من كظم غيظاً وهو يقدر على إنفاذه ملأ الله جوفه أمناً وإيماناً».

فقوله تعالى: ﴿والكاظمين الغيظ﴾ أي لا يعملون غضبهم في الناس بل يكفون عنهم شرهم ويحتسبون ذلك عند الله عز وجل، ثم قال تعالى: ﴿والعافين عن الناس﴾ أي مع كف الشريفة عن ظلمهم في أنفسهم، فلا يبقى في أنفسهم موجلة على أحد، وهذا أكمل الأحوال ولهذا قال: ﴿والله يحب المحسنين﴾ فهذا من مقامات الإحسان. وفي الحديث: «ثلاث أقسم عليهن، ما نقص مال من صدقة، وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً، ومن تواضع لله رفعه الله». وروى الحاكم في مستدركه، عن أبي بن كعب، أن رسول الله ﷺ قال: «ومن سره أن يشرف له البنيان وترفع له الدرجات، فليعف عن ظلمه، ويعط من حرمه، ويصل من قطعه». وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال، قال رسول الله ﷺ: «إذا كان يوم القيامة نادى منادٍ يقول: أين العافون عن الناس، هلموا إلى ربكم، وخنوا أجوركم، وحق على كل امرئ مسلم إذا عفا أن يدخل الجنة»^(٤).

وقوله تعالى: ﴿والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم﴾ أي إذا صدر منهم ذنب أتبعوه بالتوبة والاستغفار. قال الإمام أحمد، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «إن رجلاً أذنب ذنباً فقال: رب إني أذنبت ذنباً فاغفره لي، فقال الله عز وجل: عبدي عمل ذنباً فعلم أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به قد غفرت لعبدي، ثم عمل ذنباً آخر فقال: رب إني عملت ذنباً فاغفره، فقال تبارك وتعالى: علم عبدي أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به قد غفرت لعبدي، ثم عمل ذنباً آخر فقال: رب إني عملت ذنباً

(١) رواه ابن أبي حاتم.

(٢) أخرجه الإمام أحمد.

(٣) رواه أحمد وأخرج البخاري النص الأول منه.

(٤) أخرجه ابن مردويه.

فاغفر لي، فقال عز وجل: علم عبدي أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به قد غفرت لعبدي، ثم عمل ذنباً آخر فقال: رب إني عملت ذنباً فاغفره فقال الله عز وجل عبدي علم أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به أشهدكم أنني قد غفرت لعبدي فليعمل ما شاء». وعن علي رضي الله عنه قال: كنت إذا سمعت من رسول الله ﷺ حديثاً نفعني الله بما شاء منه. وإذا حدثني عنه غيره استحلفته، فإذا حلف لي صدقته؛ وإن أبا بكر رضي الله عنه حدثني، وصلح أبو بكر، أنه سمع رسول الله ﷺ قال: «ما من رجل يذنب ذنباً فيتوضأ ويحسن الوضوء ثم يصلي ركعتين فيستغفر الله عز وجل، إلا غفر له»^(١). ومما يشهد لصحة هذا الحديث ما رواه مسلم في صحيحه عن أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «ما منكم من أحد يتوضأ فيبلغ - أو فيسبغ - الوضوء، ثم يقول: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء». عن أنس رضي الله عنه قال: بلغني أن إبليس حين نزلت هذه الآية: ﴿والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم﴾ بكى.

وعن أبي بكر رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «عليكم بلا إله إلا الله والاستغفار، فأكثروا منها فإن إبليس قال: أهلكت الناس بالذنوب، وأهلكوني بلا إله إلا الله والاستغفار، فلما رأيت ذلك أهلكتهم بالأهواء، فهم يحسبون أنهم مهتلون»^(٢). وروى الإمام أحمد في مسنده عن أبي سعيد عن النبي ﷺ قال: «قال إبليس: يا رب وعزتك لا أزال أغوي بني آدم ما دامت أرواحهم في أجسادهم، فقال الله تعالى: وعزتي وجلالي لا أزال أغفر لهم ما استغفروني». وقوله تعالى: ﴿ومن يغفر الذنوب إلا الله﴾ أي لا يغفرها أحد سواه، وقوله: ﴿ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون﴾ أي تابوا من ذنوبهم ورجعوا إلى الله عز وجل عن قريب، ولم يستمروا على المعصية ويصروا عليها غير مقلعين عنها، ولو تكرر منهم الذنب تابوا منه، كما قال رسول الله ﷺ: «ما أصر من استغفر وإن عاد في اليوم سبعين مرة»^(٣)، ﴿وهم يعلمون﴾ أن من تاب تاب الله عليه وهذا كقوله تعالى ﴿ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده﴾، وكقوله: ﴿ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً﴾ ونظائر هذا كثيرة جداً. ثم قال تعالى بعد وصفهم بما وصفهم به: ﴿أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم﴾ أي جزاؤهم على هذه الصفات ﴿مغفرة من ربهم وجنات تجري من تحتها الأنهار﴾ أي من أنواع المشروبات، ﴿خالدين فيها﴾ أي ما كثر فيها، ﴿ونعم أجر العاملين﴾ يمدح تعالى الجنة.

قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلَهُ ۚ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نَدَاوُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ

(١) رواه أحمد وأهل السنن وابن حبان.

(٢) رواه الحافظ أبو يعلى.

(٣) أخرجه أبو داود والترمذي والبخاري.

الظَّالِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَمْحَقَ الْكٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴿١٤٣﴾

يقول تعالى مخاطباً عباده المؤمنين لما أصيبوا يوم أحد وقتل منهم سبعون: ﴿قد خلت من قبلكم سنن﴾، أي قد جرى نحو هذا على الأمم الذين كانوا من قبلكم من أتباع الأنبياء، ثم كانت العاقبة لهم والداثرة على الكافرين، ولهذا قال تعالى: ﴿فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين﴾، ثم قال تعالى: ﴿هذا بيان للناس﴾ يعني القرآن فيه بيان الأمور على جليتها وكيف كان الأمم الأقدمون مع أعدائهم، ﴿وهدى وموعظة﴾ يعني القرآن فيه خبر ما قبلكم وهدى لقلوبكم وموعظة أي زاجر عن المحارم والمآثم. ثم قال تعالى مسلماً للمؤمنين: ﴿ولا تنهوا﴾ أي لا تضعفوا بسبب ما جرى، ﴿ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين﴾ أي العاقبة والنصرة لكم أيها المؤمنون، ﴿إن يمسخكم قرح فقد مس القوم قرح مثله﴾ أي إن كنتم قد أصابتم جراح وقتل منكم طائفة فقد أصاب أعداءكم قريب من ذلك من قتل وجراح، ﴿وتلك الأيام نداؤها بين الناس﴾ أي ندبل عليكم الأعداء تارة، وإن كانت لكم العاقبة لما لنا في ذلك من الحكمة، ولهذا قال تعالى: ﴿وليعلم الله الذين آمنوا﴾ قال ابن عباس: في مثل هذا لئرى من يصبر على مناجزة الأعداء ﴿ويتخذ منكم شهداء﴾ يعني يقتلون في سبيله ويبدلون مهجهم في مرضاته، ﴿والله لا يحب الظالمين﴾ وليمحص الله الذين آمنوا ﴿أي يكفر عنهم من ذنوبهم إن كانت لهم ذنوب، وإلا رفع لهم في درجاتهم بحسب ما أصيبوا به.

وقوله تعالى: ﴿ويمحق الكافرين﴾ أي فإنهم إذا ظفروا بغوا وبطروا، فيكون ذلك سبب دمارهم وهلاكهم ومحققهم وفنائهم، ثم قال تعالى: ﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهلوا منكم ويعلم الصابرين﴾، أي حسبتم أن تدخلوا الجنة ولم تبتلوا بالقتال والشدائد، كما قال تعالى في سورة البقرة: ﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا﴾. وقال تعالى: ﴿لم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون﴾ الآية، ولهذا قال ههنا: ﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهلوا منكم ويعلم الصابرين﴾ أي لا يحصل لكم دخول الجنة حتى تبتلوا، ويرى الله منكم المجاهدين في سبيله، والصابرين على مقاومة الأعداء.

وقوله تعالى: ﴿ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه فقد رأيتموه وأنتم تنظرون﴾ أي قد كنتم أيها المؤمنون قبل هذا اليوم تتمنون لقاء العدو، وتحترقون عليه وتودون مناجزتهم ومصابرتهم، فها قد حصل لكم الذي تمنيتموه وطلبتموه فدونكم فقاتلوا وصابروا، وقد ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «لا تمنوا لقاء العدو، وسلوا الله العاقبة، فإذا لقيتموهم فاصبروا واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف»، ولهذا قال تعالى: ﴿فقد رأيتموه﴾ يعني الموت شاهدتموه وقت حد الأسته واشتباك الرماح، وصفوف الرجال للقتال، والمتكلمون يعبرون عن هذا بالتخييل، وهو مشاهدة ما ليس بحسوس كالحسوس، كما تتخيل الشاة صداقة الكبش، وعداوة الذئب.

وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَلَنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ ۚ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا ۗ وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٥﴾ وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيِّ قَتَلْنَا مَعَهُ رَبِّيُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحَسَنَّ ثَوَابَ الْآخِرَةِ ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾

لما انهزم من انهزم من المسلمين يوم أحد وقتل من قتل منهم، نادى الشيطان: ألا إن محمداً قد قتل، ورجع (ابن قميته) إلى المشركين فقال لهم: قتلت محمداً، وإنما كان قد ضرب رسول الله فشجه في رأسه، فوقع ذلك في قلوب كثير من الناس، واعتقدوا أن رسول الله ﷺ قد قتل وجوزوا عليه ذلك - كما قد قص الله عن كثير من الأنبياء عليهم السلام - فحصل ضعف ووهن وتأخر عن القتال، ففي ذلك أنزل الله تعالى: ﴿وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل﴾ أي له أسوة بهم في الرسالة وفي جواز القتل عليه. قال ابن أبي نجیح عن أبيه: إن رجلاً من المهاجرين مر على رجل من الأنصار وهو يتشطح في دمه فقال له: يا فلان أشعرت أن محمداً ﷺ قد قتل، فقال الأنصاري: إن كان محمداً قد قتل فقد بلغ، فقاتلوا عن دينكم، فترل: ﴿وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل﴾^(١). ثم قال تعالى منكرأ على من حصل له ضعف: ﴿أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم﴾ أي رجعتم القهقري، ﴿ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزى الله الشاكرين﴾ أي الذين قاموا بطاعته وقاتلوا عن دينه، واتبعوا رسوله حياً وميتاً، وكذلك ثبت في الصحاح والمسانيد والسنن أن الصديق رضي الله عنه تلا هذه الآية لما مات رسول الله ﷺ.

عن عائشة رضي الله عنها أن أبا بكر رضي الله عنه أقبل على فرس من مسكنه بالسنع حتى نزل فدخل المسجد، فلم يكلم الناس حتى دخل على عائشة فتيمن رسول الله ﷺ وهو مغطى بثوب حبرة: فكشف عن وجهه ثم أكب عليه وقبّله وبكى، ثم قال: بأبي أنت وأمي والله لا يجمع الله عليك موتتين: أما الموتة التي كتبت عليك فقد متها^(٢)، وروى الزهري: عن ابن عباس أن أبا بكر خرج وعمر يكلم الناس فقال: اجلس يا عمر، قال أبو بكر: أما بعد من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت، قال الله تعالى: ﴿وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل﴾ - إلى قوله - وسيجزى الله الشاكرين^(٣)، قال: فوالله لكان الناس لم يعلموا أن

(١) رواه الحافظ البيهقي في دلائل النبوة.

(٢) رواه البخاري.

الله أنزل هذه الآية حتى تلاها عليهم أبو بكر، فتلاها منه الناس كلهم فما أسمع بشراً من الناس إلا يتلوها. وأخبرني سعيد بن المسيب أن عمر قال: والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها ففرقت حتى ما تقلني رجلاي، وحتى هويت إلى الأرض.

وقال ابو القاسم الطبراني، عن عكرمة عن ابن عباس: أن علياً كان يقول في حياة رسول الله ﷺ: ﴿أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم﴾ والله لا نقلب على أعقابنا بعد إذ هدانا الله، والله لئن مات أو قتل لأقاتلن على ما قاتل عليه حتى أموت، والله إني لأخوه ووليه وابن عمه ووارثه فمن أحق به مني؟ وقوله تعالى: ﴿وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتاباً مؤجلاً﴾ أي لا يموت أحد إلا بقدر الله وحتى يستوفي المدة التي ضربها الله له، ولهذا قال: ﴿كتاباً مؤجلاً﴾ كقوله: ﴿وما يُعَمَّر من مُعَمَّر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب﴾، وكقوله: ﴿هو الذي خلقكم من طين ثم قضى أجلاً وأجل مسمى عنده﴾ وهذه الآية فيها تشجيع للجبناء وترغيب لهم في القتال، فإن الإقدام والإحجام لا ينقص من العمر ولا يزيد فيه، كما قال ابن أبي حاتم عن حبيب بن ظبيان: قال رجل من المسلمين وهو (حجر بن عدي): ما يمنعكم أن تعبروا إلى هؤلاء العدو هذه النطفة - يعني دجلة - ما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتاباً مؤجلاً﴾ ثم أقحم فرسه دجلة، فلما أقحم أقحم الناس، فلما رآهم العدو قالوا: ديوان... فهربوا.

وقوله تعالى: ﴿ومن يرد ثواب الدنيا تؤته منها، ومن يرد ثواب الآخرة تؤته منها﴾ أي من كان عمله للدنيا فقط ناله منها ما قدره الله له، ولم يكن له في الآخرة من نصيب، ومن قصد بعمله الدار الآخرة أعطاه الله منها وما قسم له في الدنيا كما قال تعالى: ﴿من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه، ومن كان يريد حرث الدنيا تؤته منها وما له في الآخرة من نصيب﴾، وقال تعالى: ﴿من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموماً مدحوراً﴾ ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً﴾، ولهذا قال ههنا: ﴿وسنجزي الشاكرين﴾ أي سنعطيه من فضلنا ورحمتنا في الدنيا والآخرة بحسب شكرهم وعملهم. ثم قال تعالى مسلماً للمؤمنين عما كان وقع في نفوسهم يوم أحد، ﴿وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير﴾ قيل معناه: كم من نبي قتل وقتل معه ربيون من أصحابه كثير، وهذا القول هو اختيار ابن جرير. وقد عاتب الله بهن الآيات والتي قبلها من انهزم يوم أحد وتركوا القتال لما سمعوا الصائح يصيح بأن محمداً قد قتل، فعذمهم الله على فرارهم وتركهم القتال فقال لهم: ﴿أفإن مات أو قتل﴾، أيها المؤمنون ارتددتم عن دينكم ﴿وانقلبتم على أعقابكم﴾ وقيل: وكم من نبي قتل بين يديه من أصحابه ربيون كثير.

وكلام ابن إسحاق في السيرة يقتضي قولاً آخر، فإنه قال: وكأين من نبي أصابه القتل ومعه ربيون أي جماعات فما وهنوا بعد نبيهم، وما ضعفوا عن عدوهم، وما استكانوا لما أصابهم في الجهاد عن الله وعن دينهم، وذلك الصبر ﴿والله يحب الصابرين﴾. فجعل قوله: ﴿معه ربيون كثير﴾ حالاً، وقد نصر هذا القول السهلي وبالغ فيه، وله اتجاه لقوله: ﴿فما وهنوا لما أصابهم﴾ الآية. وقرأ بعضهم: ﴿قاتل معه ربيون كثير﴾ أي ألوف، وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة: الربيون الجموع الكثيرة، وقال الحسن: ﴿ربيون كثير﴾، أي علماء كثير، وعنه أيضاً: علماء صبر أي أبرار أتقياء، وحكى ابن جرير عن بعض نحاة البصرة أن الربين هم الذين يعبدون الرب

عز وجل، قال: ورد بعضهم عليه فقال: لو كان كذلك لقليل الربيون بفتح الراء، وقال ابن زيد: الربيون الأتباع والرية والربانيون الولاة، ﴿فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا﴾، قال قتادة: ﴿وما ضعفوا﴾ بقتل نبهم، ﴿وما استكانوا﴾ يقول: فما ارتدوا عن نصرتهم ولا عن دينهم أن قاتلوا على ما قاتل عليه نبي الله حتى لحقوا بالله، وقال ابن عباس: ﴿وما استكانوا﴾ تخشعوا، وقال ابن زيد: وما ذلوا لعدوهم، ﴿والله يحب الصابرين﴾ وما كان قولهم إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين ﴿أي لم يكن لهم هجير﴾ إلا ذلك، ﴿فآتاهم الله ثواب الدنيا﴾ أي النصر والظفر والعاقبة ﴿وحسن ثواب الآخرة﴾ أي جمع لهم ذلك مع هذا ﴿والله يحب المحسنين﴾

يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يُرَدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ ﴿١٥٠﴾ سَنَلْقَىٰ فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَىٰ الظَّالِمِينَ ﴿١٥١﴾ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ أَخَذْتُم مِّنْهُم مَّيثَاقَهُ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِّنْ بَعْدِ مَا أَرْنَكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِمَّنْ مِّنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِمَّنْ مِّنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾ * إِذْ تَصْعَدُونَ وَلَا تُلَدُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَتَابَكُمْ عَمَّا بَغِمْتِكُمْ لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾

يحذر تعالى عباده المؤمنين عن طاعة الكافرين والمنافقين، فإن طاعتهم تورث الردى في الدنيا والآخرة، ولهذا قال تعالى: ﴿إن تطيعوا الذين كفروا يردوكم على أعقابكم فتقلبوا خاسرين﴾، ثم أمرهم بطاعته وموالاته والاستعانة به والتوكل عليه فقال تعالى: ﴿بل الله مولاكم وهو خير الناصرين﴾، ثم بشرهم بأنه سيلقي في قلوب أعدائهم الخوف منهم والذلة لهم بسبب كفرهم وشركهم، مع ما ادخره لهم في الدار الآخرة من العذاب والنكال، فقال: ﴿سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب بما أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً ومأواهم النار وبئس مَثْوَى الظالمين﴾ وقد ثبت في الصحيحين عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال: «أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، وأحلت لي الغنائم، وأعطيت الشفاعة، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة». وقال الإمام أحمد: عن أبي موسى قال، قال رسول الله ﷺ: «أعطيت خمساً: بعثت إلى الأحمر والأسود، وجعلت لي الأرض طهوراً ومسجداً، وأحلت لي الغنائم ولم تحل لمن كان قبلي، ونصرت بالرعب مسيرة شهر، وأعطيت الشفاعة، وليس من نبي إلا وقد سأل الشفاعة وإني قد اختبأت شفاعة لمن مات لا يشرك بالله شيئاً». قال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب﴾ قذف الله في قلب أبي سفيان الرعب فرجع إلى مكة، فقال النبي ﷺ: «إن أبا سفيان قد

(١) أي دأب وعادة وما يكثر على اللسان جريانه .

أصاب منكم طرفاً، وقد رجح وقدف الله في قلبه الرعب»^(١). وقوله تعالى: ﴿ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه﴾ قال ابن عباس: وعدهم الله النصر، ﴿إذ تحسونهم﴾ أي تقتلونهم ﴿بإذنه﴾ أي بتسليطه إياكم عليهم ﴿حتى إذا فشلتم﴾ الفشل: الجبن ﴿وتنازعتم في الأمر وعصيتهم﴾ كما وقع للرماة ﴿من بعد ما أراكم ما تحبون﴾ وهو الظفر بهم ﴿منكم من يريد الدنيا﴾ وهم الذين رغبوا في المغنم حين رأوا الهزيمة ﴿ومنكم من يريد الآخرة ثم صرفكم عنهم ليبتليكم﴾ ثم أداهم عليكم ليختبركم ويمتحنكم ﴿ولقد عفا عنكم﴾ أي غفر لكم ذلك الصنيع. قال ابن جريج: قوله: ﴿ولقد عفا عنكم﴾ قال: لم يستأصلكم ﴿والله ذو فضل على المؤمنين﴾.

عن ابن مسعود قال: إن النساء كن يوم أحد، خلف المسلمين يجهزن على جرحى المشركين، فلو حلفت يومئذ رجوت أن أبر، أنه ليس منا أحد يريد الدنيا حتى أنزل الله: ﴿منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ثم صرفكم عنهم ليبتليكم﴾، فلما خالف أصحاب رسول الله ﷺ وعصوا ما أمروا به أفرد النبي ﷺ في تسعة، سبعة من الأنصار ورجلين من قريش وهو عاشرهم ﷺ، فلما أزهقوه قال: «رحم الله رجلاً ردهم عنا»، قال: فقام رجل من الأنصار فقاتل ساعة حتى قتل، فلما أزهقوه أيضاً قال: «رحم الله رجلاً ردهم عنا»، فلم يزل يقول ذلك حتى قتل السبعة، فقال رسول الله ﷺ لصاحبيه: «ما أنصفتنا أصحابنا»، فجاء أبو سفيان فقال: اعل هبل، فقال رسول الله ﷺ: «قولوا لله أعلى وأجل»، فقالوا: الله أعلى وأجل، فقال أبو سفيان: لنا العزى ولا عزى لكم، فقال رسول الله ﷺ: «قولوا: الله مولانا والكافرون لا مولى لهم»، فقال أبو سفيان: يوم بيوم بدر (فيوم علينا ويوم لنا : ويوم نساء ويوم نسر) حنظلة بحنظلة وفلان بفلان: فقال رسول الله ﷺ: «لا سواء: أما قتلانا فأحياء يرزقون؛ وأما قتلاكم في النار يعذبون»، فقال أبو سفيان: لقد كان في القوم مثله - وإن كانت لعن غير ملكي منا^(٢) - ما أمرت ولا نهيت، ولا أحببت ولا كرهت، ولا ساءني ولا سرتني، قال: فنظروا فإذا حمزة قد بقر بطنه، وأخذت هند كبده فلاكتها فلم تستطع أن تأكلها، فقال رسول الله ﷺ: «أكلت شيئاً؟ قالوا: لا، قال: «ما كان الله ليدخل شيئاً من حمزة في النار»، قال: فوضع رسول الله ﷺ حمزة فصلى عليه، وجيء برجل من الأنصار فوضع إلى جنبه فصلى عليه فرفع الأنصاري وترك حمزة، حتى جيء بآخر فوضع إلى جنب حمزة فصلى عليه، ثم رفع وترك حمزة، حتى صلى عليه يومئذ سبعين صلاة^(٣).

وقال البخاري عن البراء قال: لقينا المشركين يومئذ وأجلس النبي ﷺ جيشاً من الرماة وأمر عليهم (عبد الله ابن جبير)، وقال: «لا تبرحوا، إن رأيتمونا ظهرنا عليهم فلا تبرحوا»، وإن رأيتموهم ظهرنا علينا فلا تعينونا». فلما لقيناهم هربوا حتى رأيت النساء يشتددن في الجبل رفعن عن سوقهن. قد بدت خلاخلهن فأخنوا يقولون: الغنيمة الغنيمة، فقال عبد الله بن جبير: عهد إلي النبي ﷺ أن لا تبرحوا فأبوا، فلما أبوا صرف وجوههم فأصيب سبعون قتيلاً، فأشرف أبو سفيان فقال: أي القوم محمد، فقال: «لا تجيبوه»، فقال: أي القوم ابن أبي قحافة؟ قال: «لا تجيبوه»، فقال: أي القوم ابن الخطاب، فقال: إن هؤلاء قتلوا فلو كانوا أحياء لأجابوا، فلم يملك عمر

(٢) المكي يفتح الميم: الهوى.

(١) رواه ابن أبي حاتم.

(٣) رواه الإمام أحمد في المسند.

نفسه فقال له: كذبت يا عدو الله، أبقى الله لك ما يحزنك؛ قال أبو سفيان: اعل هبل، فقال النبي ﷺ: «أجيبوه»، قالوا: ما نقول؟ قال: «قولوا: الله أعلى وأجل»، قال أبو سفيان: لنا العزى ولا عزى لكم، فقال النبي ﷺ: «أجيبوه»، قالوا: ما نقول؟ قال: «قولوا: الله مولانا ولا مولى لكم»، قال أبو سفيان: يوم بيوم بدر، والحرب سجال؛ وستجدون مثلة لم آمر بها ولم تسؤني. وعن الزبير بن العوام قال: والله لقد رأيتني أنظر إلى خلم هند وصواحبها مشمرات هوارب ما دون أخذهن كثير ولا قليل، ومالت الرماة إلى العسكر حين كشفنا القوم عنه يريدون النهب، وخلوا ظهورنا للخيل فأوتينا من أذارنا، وصرخ صارخ ألا إن محمداً قد قتل، فانكفأنا وانكفأ علينا القوم بعد أن أصبنا أصحاب اللواء حتى ما يدنو منه أحد من القوم، قال محمد بن إسحاق: فلم يزل لواء المشركين صريعاً حتى أخذته (عمرة بنت علقمة الحارثية) فدفعته لقريش فلاثوا بها^(١) وقال السدي عن عبد الله بن مسعود قال: ما كنت أرى أن أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ يريد الدنيا حتى نزل فينا ما نزل يوم أحد ﴿منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة﴾.

وقوله تعالى: ﴿ثم صرفكم عنهم ليبتليكم﴾، قال ابن إسحاق: انتهى أنس بن النضر عم أنس بن مالك إلى (عمر بن الخطاب) و (طلحة بن عبد الله) في رجال من المهاجرين والأنصار قد ألقوا ما بأيديهم، فقال: ما يخليكم؟ فقالوا: قتل رسول الله ﷺ، قال: فما تصنعون بالحياة بعده؟ قوموا فموتوا على ما مات عليه؛ ثم استقبل القوم فقاتل حتى قتل رضي الله عنه - وقال البخاري عن أنس بن مالك أن عمه يعني (أنس بن النضر) غاب عن بدر فقال: غبت عن أول قتال النبي ﷺ لئن أشهدني الله مع رسول الله ﷺ ليرين الله ما أجد، فلقي يوم أحد فهزم الناس، فقال: اللهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء - يعني المسلمين - وأبرأ إليك مما جاء به المشركون؛ فنقلهم بسيفه فلقي سعد بن معاذ فقال: أين يا سعد إني أجد ريح الجنة دون أحد، فضى فقتل فما عرف حتى عرفته أخته بشامة أو بينانه وبه بضع وثمانون من طعنة وضربة ورمية بسهم^(٢).

وقوله تعالى: ﴿إذ تصعدون ولا تلون على أحد﴾ أي صرفكم عنهم إذ تصعدون أي في الجبال هاربين من أعدائكم، ﴿ولا تلون على أحد﴾ أي وأنتم لا تلون على أحد من الدهش والخوف والرعب، ﴿والرسول يدعوكم في أخراكم﴾ أي وهو قد خلفتموه وراء ظهوركم يدعوكم إلى ترك الفرار من الأعداء، وإلى الرجعة والعودة والكرة، قال السدي: لما اشتد المشركون على المسلمين بأحد فهزمهم دخل بعضهم المدينة، وانطلق بعضهم إلى الجبل فوق الصخرة فقاموا عليها، فجعل الرسول ﷺ يدعو الناس: «إني عباد الله، إني عباد الله»، فذكر الله صعودهم إلى الجبل، ثم ذكر دعاء النبي ﷺ إياهم فقال: ﴿إذ تصعدون ولا تلون على أحد والرسول يدعوكم في أخراكم﴾. وعن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: جعل رسول الله ﷺ على الرماة يوم أحد - وكانوا خمسين رجلاً - (عبد الله بن جبير)، قال: ووضعهم موضعاً، وقال: «إن رأيتمونا تحطفتنا الطير فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم»، قال، فهزمهم، قال: فلقد والله رأيت النساء يشددن على الجبل وقد بدت أسواقهن وخلخلهن رافعات ثيابهن

(١) رواه ابن أبي إسحاق.

(٢) هذه رواية البخاري.

فقال أصحاب عبد الله: الغنيمة أي قوم الغنيمة! ظهر أصحابكم فما تنظرون؟ قال عبد الله بن جبير: أنسيتم ما قال لكم رسول الله ﷺ؟ فقالوا: إنا لسأئين الناس فلنصيبين من الغنيمة. فلما أتوهم صرفت وجوههم فأقبلوا منهزمين فذلك الذي يدعوه الرسول في أخراهم، فلم يبق مع رسول الله ﷺ إلا اثنا عشر رجلاً فأصابوا منا سبعين. وكان رسول الله ﷺ وأصحابه أصابوا من المشركين يوم بدر مائة وأربعين، سبعين أسيراً وسبعين قتيلاً. قال أبو سفيان: أي القوم محمد، أي القوم محمد، أي القوم محمد؟ ثلاثاً - قال. فنهاهم رسول الله ﷺ أن يجيبوه، ثم قال: أي القوم ابن أبي قحافة، أي القوم ابن أبي قحافة؟ أي القوم ابن الخطاب، أي القوم ابن الخطاب؟ ثم أقبل على أصحابه، فقال: أما هؤلاء فقد قتلوا وكفيتموهم، فما ملك عمر نفسه أن قال: كذبت والله يا عدو الله إن الذين عددت لأحياء كلهم، وقد أبقى الله لك ما يسوؤك، فقال: يوم بيوم بدر، والحرب سجال. إنكم ستجلبون في القوم مثله لم أمر بها ولم تسؤني. ثم أخذ يرتجز يقول: اعل هبل، اعل هبل، فقال رسول الله ﷺ: «ألا تجيبوه؟» قالوا: يا رسول الله ما نقول؟ قال: «قولوا الله أعلى وأجل»، قال: لنا العزى ولا عزى لكم، قال رسول الله ﷺ: «ألا تجيبوه؟» قالوا: يا رسول الله وما نقول؟ قال: «قولوا الله مولانا ولا مولى لكم»^(١).

وقد روى البخاري عن قيس بن أبي حازم قال: رأيت يد طلحة شلاء وقي بها النبي ﷺ يعني يوم أحد، وفي الصحيحين، عن أبي عثمان النهدي قال: لم يبق مع رسول الله ﷺ في بعض تلك الأيام التي قاتل فيهن رسول الله ﷺ إلا طلحة بن عبيد الله وسعد عن حديثهما. وعن سعيد بن المسيب يقول: سمعت سعد بن أبي وقاص يقول: نثل لي رسول الله ﷺ كنانته يوم أحد، وقال: «ارم فداك أبي وأمي»، وعن سعد بن أبي وقاص أنه رمى يوم أحد دون رسول الله ﷺ قال سعد: فلقد رأيت رسول الله ﷺ يناولني النبل، ويقول: «ارم فداك أبي وأمي» حتى إنه لناولني السهم ليس له نصل فأرمي به.

وثبت في الصحيحين من حديث إبراهيم بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه قال: رأيت يوم أحد عن يمين النبي ﷺ وعن يساره رجلين عليهما ثياب بيض يقاتلان عنه أشد القتال ما رأيتهما قبل ذلك اليوم ولا بعده، يعني جبريل وميكائيل عليهما السلام، وعن أنس بن مالك: أن رسول الله ﷺ أفرد يوم أحد في سبعة من الأنصار واثنين من قريش، فلما أرهقوه قال: «من يردهم عنا وله الجنة - أو هو رفيقي في الجنة -»، فتقدم رجل من الأنصار فقاتل حتى قتل، ثم أرهقوه أيضاً فقال: «من يردهم عنا وله الجنة»، فتقدم رجل من الأنصار فقاتل حتى قتل، فلم يزل كذلك حتى قتل السبعة: فقال رسول الله ﷺ لصاحبيه: «ما أنصفنا أصحابنا»^(٢). وقال أبو الأسود عن عروة ابن الزبير قال: كان (أبي بن خلف) أخو بني جمح قد حلف وهو بمكة ليقتلن رسول الله ﷺ، فلما بلغت رسول الله ﷺ حلفته قال: «بل أنا أقتله إن شاء الله»، فلما كان يوم أحد أقبل (أبي) في الحديد مقنعاً وهو يقول: لا نجوت إن نجا محمد، فحمل على رسول الله ﷺ يريد قتله، فاستقبله (مصعب بن عمير) أخو بني عبد الدار بقي رسول الله ﷺ بنفسه فقتل مصعب بن عمير، وأبصر رسول الله ﷺ ترقوة أبي بن خلف من فرجة بين سابعة الدرع

(١) رواه الإمام أحمد.

(٢) رواه مسلم.

والبيضة وطعنه فيها بحرته فوق إلى الأرض عن فرسه، ولم يخرج من طعنته دم، فأتاه أصحابه فاحتملوه وهو يخور حوار الثور، فقالوا له: ما أجزعك إنما هو خدش؟ فذكر لهم قول رسول الله ﷺ: «بل أنا أقتل أياً»، ثم قال: والذي نفسي بيده لو كان هذا الذي بي بأهل ذي المجاز لما اتوا أجمعون، فمات إلى النار ﴿ فسحقاً لأصحاب السعير ﴾ .

وذكر محمد بن إسحاق قال: لما أسند رسول الله ﷺ في الشعب أدركه (أبي بن خلف) وهو يقول: لا نجوتُ إن نجوت، فقال القوم: يا رسول الله يعطف عليه رجل منا، فقال رسول الله ﷺ: «دعوه»، فلما دنا منه تناول رسول الله ﷺ الحرث بن الصمة، فقال بعض القوم كما ذكر لي: فلما أخذها رسول الله ﷺ منه انتفض بها انتفاضة تطايرنا عنه تطاير الشعر عن ظهر البعير إذا انفض، ثم استقبله رسول الله ﷺ فطعنه في عنقه طعنة تدأداً منها عن فرسه مراراً^(١).

وثبت في الصحيحين عن أبي هريرة قال، قال رسول الله ﷺ: «اشتد غضب الله على قوم فعلوا برسول الله ﷺ - وهو حينئذ يشير إلى رباعيته - واشتد غضب الله على رجل يقتله رسول الله ﷺ في سبيل الله». وعن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت: كان أبو بكر إذا ذكر يوم أحد قال: ذاك يوم كله لطلحة، ثم أنشأ يحدث، قال: كنت أول من فاء يوم أحد فرأيت رجلاً يقاتل مع رسول الله ﷺ دونه - وأراه قال حمية - فقلت: كن طلحة حيث فاتني ما فاتني، فقلت: يكون رجلاً من قومي أحب إلي، وبين المشركين رجل لا أعرفه وأنا أقرب إلى رسول الله ﷺ منه، وهو يخطف المشي خطفاً لا أعرفه فإذا هو (أبو عبيدة بن الجراح) فاتته إلى رسول الله ﷺ وقد كسرت رباعيته وشج في وجهه، وقد دخل في وجنته حلقتان من حلق المغفر، فقال رسول الله ﷺ: «عليكما صاحبكما يريد طلحة» وقد نزع فم نلتفت إلى قوله قال: وذهبت لأنزع ذلك من وجهه، فقال (أبو عبيدة): أقسمت عليك بحقي لما تركني فتركته، فكره أن يتناولها بيده فيؤذي رسول الله ﷺ، فأزمت عليها بفيه فاستخرج إحدى الحلقتين، ووقعت ثنيته مع الحلقة، وذهبت لأصنع ما صنع فقال: أقسمت عليك بحقي لما تركني، قال، ففعل مثل ما فعل في المرة الأولى، ووقعت ثنيته الأخرى مع الحلقة، فكان أبو عبيدة من أحسن الناس هماً، فأصلحنا من شأن رسول الله ﷺ ثم أتينا (طلحة) في بعض تلك الجفار، فإذا به بضع وسبعون أو أقل أو أكثر من طعنة ورمية وضربة، وإذا قد قطعت أصبعه، فأصلحنا من شأنه^(٢). وقال ابن وهب: إن (مالكاً) أبا أبي سعيد الخدري لما جرح النبي ﷺ يوم أحد مصراً الجرح حتى أنقاه ولاح أبيض فقيل له: مجه، فقال: لا والله لا أجه أبداً، ثم أدبر يقاتل، فقال النبي ﷺ: «من أراد أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى هذا فاستشهد». وقد ثبت في الصحيحين عن سهل بن سعد أنه سئل عن جرح رسول الله ﷺ فقال: جرح وجه رسول الله ﷺ وكسرت رباعيته وهشمت البيضة على رأسه ﷺ، فكانت فاطمة تغسل الدم وكان علي يسكب عليه الماء بالمجن، فلما رأته فاطمة أن الماء لا يزيد الدم إلا كثرة أخذت قطعة من حصير فأحرقتها، حتى إذا صارت رماداً ألصقته بالجرح فاستمسك الدم.

(١) تدأداً: سقط . (٢) أخرجه أبو داود الطيالسي والطبراني .

وقوله تعالى: ﴿فَأَنَابِكُمْ غَمًّا بَغْمًا﴾ أي فجزاكم غمًّا على غم، كما تقول العرب: نزلت بيني وفلان، ونزلت على بني فلان، وقال ابن جرير: وكذا قوله: ﴿وَأَصْلَبْنَكُمْ فِي جَذُوعِ النَّخْلِ﴾ أي على جذوع النخل. قال ابن عباس: الغم الأول بسبب الهزيمة وحين قيل قتل محمد ﷺ، والثاني حين علاهم المشركون فوق الجبل، وقال النبي ﷺ: «اللهم ليس لهم أن يعلونا»، وعن عبد الرحمن بن عوف: الغم الأول بسبب الهزيمة، والثاني حين قيل: قُتل محمد ﷺ كان ذلك عندهم أشد وأعظم من الهزيمة. وقال السدي: الغم الأول بسبب ما فاتهم من الغنيمة والفتح، والثاني بإشراف العدو عليهم. وقال محمد بن إسحاق: ﴿فَأَنَابِكُمْ غَمًّا بَغْمًا﴾ أي كرباً بعد كرب من قتل من قتل من إخوانكم، وعلو عدوكم عليكم، وما وقع في أنفسكم من قتل نبيكم، فكان ذلك متتابعاً عليكم غمًّا بغم. وقال مجاهد وقتادة: الغم الأول سماعهم قتل محمد، والثاني ما أصابهم من القتل والجراح. وقوله تعالى: ﴿لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ﴾ أي على ما فاتكم من الغنيمة والظفر بعدوكم ﴿وَلَا مَا أَصَابَكُمْ﴾ من الجراح والقتل قاله ابن عباس والسدي ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ سبحانه وبحمده، لا إله إلا هو جل وعلا.

ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمْنَةً نُعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾

يَعْنِي اللَّهُ تَعَالَى عَلَى عِبَادِهِ فِيمَا أَنْزَلَ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّكِينَةِ وَالْأَمْنَةِ وَهُوَ النُّعَاسُ الَّذِي غَشِيَهُمْ وَهُمْ مُشْتَمِلُونَ السَّلَاحَ فِي حَالِ هَمِّهِمْ وَغَمِّهِمْ، وَالنُّعَاسُ فِي مِثْلِ تِلْكَ الْحَالِ دَلِيلٌ عَلَى الْأَمَانِ. كَمَا قَالَ فِي سُورَةِ الْأَنْفَالِ فِي قِصَّةِ بَدْرٍ: ﴿إِذْ يَغْشَىكُمُ النَّعَاسُ أَمْنَةً مِنْهُ﴾ الآية، وَقَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: (النُّعَاسُ فِي الْقِتَالِ مِنَ اللَّهِ، وَفِي الصَّلَاةِ مِنَ الشَّيْطَانِ). وَقَالَ الْبُخَارِيُّ، عَنْ أَبِي طَلْحَةَ قَالَ: كُنْتُ فِيمَنْ تَغَشَاهُ النَّعَاسُ يَوْمَ أُحُدٍ، حَتَّى سَقَطَ سَيْفِي مِنْ يَدِي مَرَارًا يَسْقُطُ وَآخِذَهُ وَيَسْقُطُ وَآخِذَهُ. وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، أَنَّ أَبَا طَلْحَةَ قَالَ: غَشَيْنَا النَّعَاسَ وَنَحْنُ فِي مِصَافِنَا يَوْمَ أُحُدٍ فَجَعَلَ سَيْفِي يَسْقُطُ مِنْ يَدِي وَآخِذَهُ، وَيَسْقُطُ وَآخِذَهُ، قَالَ: وَطَائِفَةٌ الْأُخْرَى الْمُنَافِقُونَ لَيْسَ لَهُمْ هَمٌّ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ، أَجْبَنَ قَوْمٌ وَأَرَعِبَهُ وَأَخَذْلَهُ لِلْحَقِّ (١)، ﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ أَيِ إِنَّمَا هُمْ أَهْلُ شَكٍّ وَرَيْبٍ فِي اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمْنَةً نُعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ﴾ يَعْنِي أَهْلَ الْإِيمَانِ وَالْبِقِينَ وَالثَّبَاتِ وَالتَّوَكُّلِ الصَّادِقِ، وَهُمْ الْجَازِمُونَ بِأَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ سَيَنْصُرُ رَسُولَهُ وَيَنْجِزُ لَهُ مَأْمُولَهُ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ﴾ يَعْنِي لَا يَغْشَاهُمُ النَّعَاسُ مِنَ الْقَلْقِ وَالْجَزَعِ وَالْخَوْفِ ﴿يَظُنُّونَ

(١) أخرجه البيهقي.

بالله غير الحق ظن الجاهلية ﴿ كما قال في الآية الأخرى: ﴿ بل ظنتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهلهم أبداً ﴾ وهكذا هؤلاء اعتقدوا أن المشركين لما ظهوروا تلك الساعة أنها الفيصلة، وأن الإسلام قد باد وأهله، وهذا شأن أهل الرب والشك، إذا حصل أمر من الأمور الفظيعة تحصل لهم هذه الظنون الشنيعة، ثم أخبر تعالى عنهم أنهم ﴿ يقولون ﴾ في تلك الحال ﴿ هل لنا من الأمر من شيء ﴾ فقال تعالى: ﴿ قل إن الأمر كله لله يخفون في أنفسهم ما لا يبدون لك ﴾، ثم فسر ما أخفوه في أنفسهم بقوله: ﴿ يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ههنا ﴾، أي يسرون هذه المقالة عن رسول الله ﷺ. قال ابن إسحاق، عن عبد الله بن الزبير قال: قال الزبير: لقد رأيتني مع رسول الله ﷺ حين اشتد الخوف علينا أرسل الله علينا النوم، فما منا من رجل إلا ذقته في صدره، قال: فوالله إني لأسمع قول (متعب بن قشير) ما أسمع إلا كالحلم يقول: ﴿ لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ههنا ﴾، فحفظتها منه، وفي ذلك أنزل الله: ﴿ يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ههنا ﴾ لقول معتب^(١). قال الله تعالى: ﴿ قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتلى إلى مضاجعهم ﴾ أي هذا قدر قدره الله عز وجل وحكم حتم لا محيد عنه ولا مناص منه.

وقوله تعالى: ﴿ وليبتي الله ما في صدوركم وليمحص ما في قلوبكم ﴾ أي يختبركم بما جرى عليكم ليميز الخبيث من الطيب، ويظهر أمر المؤمن من المناق للناس في الأقوال والأفعال، ﴿ والله عليم بذات الصدور ﴾ أي بما يختلج في الصدور من السرائر والضمائر. ثم قال تعالى: ﴿ إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استترهم الشيطان ببعض ما كسبوا ﴾ أي ببعض ذنوبهم السالفة، كما قال بعض السلف: إن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها، وإن من جزاء السيئة السيئة بعدها. ثم قال تعالى: ﴿ ولقد عفا الله عنهم ﴾ أي عما كان منهم من الفرار، ﴿ إن الله غفور حلیم ﴾ أي يغفر الذنب ويعلم عن خلقه ويتجاوز عنهم.

يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مِتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ وَلَئِن مَّتَّمَّ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾

ينهى تعالى عباده المؤمنين عن مشابهة الكفار في اعتقادهم الفاسد الدال عليه قولهم عن إخوانهم الذين ماتوا في الأسفار والحروب: لو كانوا تركوا ذلك لما أصابهم ما أصابهم، فقال تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لإخوانهم ﴾ أي عن إخوانهم، ﴿ إذا ضربوا في الأرض ﴾ أي سافروا للتجارة ونحوها، ﴿ أو كانوا غزى ﴾ أي كانوا في الغزو، ﴿ لو كانوا عندنا ﴾ أي في البلد، ﴿ ما ماتوا وما قتلوا ﴾ أي ما ماتوا في السفر وما قتلوا في الغزو. وقوله تعالى: ﴿ ليجعل الله ذلك حسرة في قلوبهم ﴾ أي خلق هذا الاعتقاد في نفوسهم ليزدادوا حسرة على موتهم، ثم قال تعالى رداً عليهم: ﴿ والله يحيي ويميت ﴾ أي بيده الخلق وإليه يرجع الأمر،

ولا يحيا أحد ولا يموت أحد إلا بمشيئته وقدره، ولا يزداد في عمر أحد ولا ينقص منه شيء إلا بقضائه وقدره، ﴿والله بما تعملون بصير﴾ أي علمه وبصره نافذ في جميع خلقه، لا يخفى عليه من أمورهم شيء، وقوله تعالى: ﴿ولئن قتلتهم في سبيل الله أو متم لمغفرة من الله ورحمة خير مما يجمعون﴾ تضمن هذا أن القتل في سبيل الله والموت أيضاً وسيلة إلى نيل رحمة الله وعفوه ورضوانه، وذلك خير من البقاء في الدنيا وجمع حطامها الفاني، ثم أخبر تعالى بأن كل من مات أو قتل فصيره ومرجهه إلى الله عز وجل فيجزيه بعمله، إن خيراً فخير وإن شراً فشر فقال تعالى: ﴿ولئن متم أو قتلتهم لإلى الله تحشرون﴾.

فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِن لَّمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ
 وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾
 لَكَرَّ وَإِنْ يُحَذِّكُكَ فَزَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكَ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾ وَمَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ
 يُغَلِّبَ وَمَنْ يَغْلِبْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تَوَفَّى كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾ أَفَمَنْ أَتَّبَعَ
 رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَمَا وَنَهُ جَهَنَّمَ وَيَسَّ الْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ هُمْ دَرَجَتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا
 يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ
 الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لِنِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿١٦٤﴾

يقول تعالى مخاطباً رسوله ممتناً عليه وعلى المؤمنين فيما ألان به قلبه على أمته المتبعين لأمره التاركين لجزره وأطاب لهم لفظه ﴿فما رحمة من الله لنت لهم﴾ أي بأي شيء جعلك الله لهم ليناً لولا رحمة الله بك وبهم، وقال قتادة: ﴿فما رحمة من الله لنت لهم﴾ يقول: فبرحمة من الله لنت لهم و (ما) صلة، والعرب تصلها بالمعرفة كقوله ﴿فما نقضهم ميثاقهم﴾، وبالنكرة كقوله: ﴿عما قليل﴾ وهكذا ههنا. قال: ﴿فما رحمة من الله لنت لهم﴾ أي برحمة من الله، وقال الحسن البصري: هذا خلق محمد ﷺ بعثه الله به، وهذه الآية الكريمة شبيهة بقوله تعالى: ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم﴾. ثم قال تعالى: ﴿ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك﴾، والفظ: الغليظ والمراد به ههنا غليظ الكلام لقوله بعد ذلك: ﴿غليظ القلب﴾ أي لو كنت سيء الكلام قاسي القلب عليهم لانفضوا عنك وتركوك، ولكن الله جمعهم عليك، والآن جانبك لهم تأليفاً لقلوبهم، كما قال عبدالله بن عمرو: إني أرى صفة رسول الله ﷺ في الكتب المتقدمة «أنه ليس بفظ، ولا غليظ، ولا صحاب في الأسواق، ولا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح». ولهذا قال تعالى: ﴿فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر﴾. ولذلك كان رسول الله ﷺ يشاور أصحابه في الأمر إذا حدث، تطييباً لقلوبهم، ليكون أنشط لهم فيما يفعلونه، كما شاورهم يوم بدر في الذهاب إلى العير، فقالوا:

يا رسول الله لو استعرضت بنا عرض البحر لقطعناه معك، ولو سرت بنا إلى برك الغماد لسرنا معك، ولا نقول لك كما قال قوم موسى لموسى: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون، ولكن نقول: اذهب فنحن معك وبين يديك وعن يمينك وعن شمالك مقاتلون. وشاورهم أيضاً أين يكون المنزل، حتى أشار جمهورهم بالخروج إليهم، فخرج أمام القوم، وشاورهم في أحد في أن يقعد في المدينة أو يخرج إلى العدو، فأشار جمهورهم بالخروج إليهم، فخرج إليهم، وشاورهم يوم الخندق في مصالحة الأحزاب بثلث ثمار المدينة عامئذ فأبى ذلك عليه السعدان، سعد ابن معاذ وسعد بن عباد، فترك ذلك، وشاورهم يوم الحديبية في أن يميل على ذراري المشركين، فقال له الصديق: إنا لم نجئ لقتال أحد وإنما جئنا معتمرين، فأجابه إلى ما قال، فكان ﷺ يشاورهم في الحروب ونحوها.

وروينا عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وشاورهم في الأمر﴾ قال: نزلت في أبي بكر وعمر، وكانا حوارياً رسول الله ﷺ ووزيريه وأبوي المسلمين، وقد روى الإمام أحمد عن عبدالرحمن بن غنم أن رسول الله ﷺ قال لأبي بكر وعمر: «لو اجتمعنا في مشورة ما خالفنا»، وروى ابن مردويه، عن علي بن أبي طالب قال: سئل رسول الله ﷺ عن العزم؟ فقال: «مشاورة أهل الرأي ثم اتباعهم»، وقد قال ابن ماجه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «المستشار مؤتمن».

وقوله تعالى: ﴿فإذا عزم فتوكل على الله﴾، أي إذا شاورتهم في الأمر وعزمت عليه فتوكل على الله فيه ﴿إن الله يحب المتوكلين﴾، وقوله تعالى: ﴿إن ينصركم الله فلا غالب لكم وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾ وهذه الآية كما تقدم من قوله: ﴿وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم﴾، ثم أمرهم بالتوكل عليه فقال: ﴿وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾، وقوله تعالى: ﴿وما كان لنبي أن يغفل﴾، قال ابن عباس ومجاهد: ما ينبغي لنبي أن يخون، وقال ابن أبي حاتم، عن ابن عباس: فقلوا قطيفة يوم بدر فقالوا: لعل رسول الله ﷺ أخذها فأنزل الله: ﴿وما كان لنبي أن يغفل﴾ أي يخون. وقال ابن جرير، عن ابن عباس، أن هذه الآية: ﴿وما كان لنبي أن يغفل﴾ نزلت في قطيفة حمراء فقدت يوم بدر، فقال بعض الناس: لعل رسول الله ﷺ أخذها، فأكثرها في ذلك، فأنزل الله: ﴿وما كان لنبي أن يغفل ومن يغفل يأت بما غل يوم القيامة﴾، وعنه قال: اتهم المنافقون رسول الله ﷺ بشيء فقد، فأنزل الله تعالى: ﴿وما كان لنبي أن يغفل﴾، وهذا تنزيه له صلوات الله وسلامه عليه من جميع وجوه الخيانة في أداء الأمانة وقسم الغنيمة وغير ذلك. ﴿ومن يغفل يأت بما غل يوم القيامة﴾ ثم توفي كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون﴾ وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد، وقد وردت السنة بالنهي عن ذلك أيضاً في أحاديث متعددة. قال الإمام أحمد عن أبي مالك الأشجعي، عن النبي ﷺ قال: «أعظم الغلول عند الله ذراع في الأرض، تجدون الرجلين جارين في الأرض - أو في الدار - فيقطع أحدهما من حظ صاحبه ذراعاً فإذا قطعه طوقه من سبع أرضين يوم القيامة».

(حديث آخر): قال الإمام أحمد، عن عبدالرحمن بن جبير قال: سمعت المستورد بن شداد يقول، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من ولي لنا عملاً وليس له منزل فليخذ متزلاً، أو ليست له زوجة فليترج، أو ليس له خادم فليخذ خادماً، أو ليس له دابة فليخذ دابة، ومن أصاب شيئاً سوى ذلك فهو غال».

(حديث آخر) : قال ابن جرير، عن عكرمة، عن ابن عباس قال، قال رسول الله ﷺ : « لأعرفن أحدكم يأتي يوم القيامة يحمل شاة لها ثغاء ينادي: يا محمد يا محمد! فأقول: لا أملك لك من الله شيئاً قد بلغتك، ولأعرفن أحدكم يأتي يوم القيامة يحمل جملأ له رغاء يقول: يا محمد يا محمد! فأقول: لا أملك لك من الله شيئاً قد بلغتك، ولأعرفن أحدكم يأتي يوم القيامة يحمل فرساً له حمحمة ينادي: يا محمد يا محمد! فأقول: لا أملك لك من الله شيئاً قد بلغتك، ولأعرفن أحدكم يأتي يوم القيامة يحمل قسماً من آدم ينادي: يا محمد يا محمد! فأقول: لا أملك لك من الله شيئاً قد بلغتك »^(١).

(حديث آخر) : قال الإمام أحمد: استعمل رسول الله ﷺ رجلاً من الأزدي يقال له ابن اللثبية على الصدقة، فجاء فقال: هذا لكم وهذا أهدي لي، فقام رسول الله ﷺ على المنبر، فقال: « ما بال العامل نبعثه على عمل فيقول: هذا لكم وهذا أهدي لي، أفلا جلس في بيت أبيه وأمه فينظر أيهدى إليه أم لا؟ والذي نفس محمد بيده لا يأتي أحدكم منها بشيء إلا جاء به يوم القيامة على رقبته، إن كان بعيراً له رغاء، أو بقرة لها خوار، أو شاة تيعر »، ثم رفع يديه حتى رأينا عفرة إبطيه، ثم قال: « اللهم هل بلغت؟ ثلاثاً ».

(حديث آخر) : قال أبو عيسى الترمذي، عن معاذ بن جبل قال: بعثني رسول الله ﷺ إلى اليمن، فلما سرت أرسل في أثري فرددت، فقال: « أتدري لم بعثت إليك؟ لا تصيبين شيئاً بغير إذني فإنه غلول: ﴿ ومن يغلول يأت بما غل يوم القيامة ﴾ لهذا دعوتك فامض لعملك »^(٢).

(حديث آخر) : قال الإمام أحمد عن أبي هريرة قال: قام فينا رسول الله ﷺ يوماً فذكر الغلول فعظمه وعظم أمره، ثم قال: « لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته بغير له رغاء فيقول: يا رسول الله أغثنى، فأقول: لا أملك لك من الله شيئاً قد بلغتك، لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته فرس لها حمحمة فيقول: يا رسول الله أغثنى، فأقول: لا أملك لك من الله شيئاً قد بلغتك، لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته صامت، فيقول: يا رسول الله أغثنى، فأقول: لا أملك لك من الله شيئاً قد بلغتك ». أخرجه الشيخان.

وقوله تعالى: ﴿ أفمن اتبع رضوان الله كمن باء بسخط من الله ومأواه جهنم وبئس المصير ﴾ أي لا يستوي من اتبع رضوان الله فيما شرعه فاستحق رضوان الله وجزيل ثوابه، ومن استحق غضب الله وألزمه به فلا محيد له عنه ومأواه يوم القيامة جهنم وبئس المصير، وهذه الآية لها نظائر كثيرة في القرآن كقوله تعالى: ﴿ أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى ﴾، كقوله: ﴿ أفمن وعدناه وعداً حسناً فهو لآقيه كمن متعناه متاع الحياة الدنيا ﴾ الآية. ثم قال تعالى: ﴿ هم درجات عند الله ﴾ قال الحسن البصري: يعني أهل الخير وأهل الشر درجات، وقال أبو عبيدة والكسائي: منازل، يعني متفاوتون في منازلهم، درجاتهم في الجنة ودرجاتهم في النار، كقوله تعالى: ﴿ ولكل درجات مما عملوا ﴾ الآية، ولهذا قال تعالى: ﴿ والله بصير بما يعملون ﴾، أي وسوف يفهم إياها، لا يظلمهم خيراً ولا يزيدهم شراً، بل يجازي كل عامل بعمله. وقوله تعالى: ﴿ لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم ﴾ أي من جنسهم ليمكنوا من مخاطبته وسؤاله ومجالسته والانتفاع به، كما قال تعالى: ﴿ قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي أنما إليكم إله واحد ﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿ وما أرسلنا قبلك

(١) أخرجه ابن جرير، قال ابن كثير: لم يروه أحد من أهل الكتب الستة. (٢) قال الترمذي: حديث حسن غريب.

من المرسلين إلا إنهم لياكلون الطعام ويمشون في الأسواق ﴿١٦٥﴾ ، وقال تعالى: ﴿ وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم من أهل القرى ﴾ ، وقال تعالى: ﴿ يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم ﴾ ؟ فهذا أبلغ في الامتنان أن يكون الرسول إليهم منهم ، بحيث يمكنهم مخاطبته ومراجعته في فهم الكلام عنه ، ولهذا قال تعالى: ﴿ يتلو عليهم آياته ﴾ يعني القرآن ﴿ ويزكيهم ﴾ أي يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر لتزكو نفوسهم ، وتطهر من الدنس والخبث الذي كانوا متلبسين به في حال شركهم وجاهليتهم ، ﴿ ويعلمهم الكتاب والحكمة ﴾ يعني القرآن والسنة ، ﴿ وإن كانوا من قبل ﴾ أي من قبل هذا الرسول ، ﴿ لفي ضلال مبين ﴾ أي لفي غي وجهل ظاهر جلي بين لكل أحد .

أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلِهَا قُلْتُمْ أَنِّي هَذَا قُلٌ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾
 وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ التَّنُوعِ الْجَمْعَانِ فَيَاذَنَ اللَّهُ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكَفْرِ يَوْمِيذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أِطَاعُونَا مَا قَاتَلُوا قُلٌ فَادْرَأُوهُ عَنَّا أَنْفُسِكُمْ أَلَمْ تَكُنْ مِّنْ صَادِقِينَ ﴿١٦٨﴾

يقول تعالى: ﴿ أو لما أصابتكم مصيبة ﴾ وهي ما أصيب منهم يوم أحد من قتلى السبعين منهم ، ﴿ مثلها ﴾ يعني يوم بدر فإنهم قتلوا من المشركين سبعين قتيلاً ، وأسروا سبعين أسيراً ﴿ قلمت أنى هذا ﴾ أي من أين جرى علينا هذا ؟ ﴿ قل هو من عند أنفسكم ﴾ . عن عمر بن الخطاب قال: لما كان يوم أحد من العام المقبل عوقبوا بما صنعوا يوم بدر من أخذهم الفداء ، فقتل منهم سبعون ، وفر أصحاب رسول الله ﷺ عنه وكسرت ربايعته ، وهشمت البيضة على رأسه ، وسال الدم على وجهه ، فأنزل الله: ﴿ أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلمت أنى هذا قل هو من عند أنفسكم ﴾ بأخذكم الفداء^(١) ، وهكذا قال الحسن البصري وقوله ﴿ قل هو من عند أنفسكم ﴾ أي بسبب عصيانكم لرسول الله ﷺ حين أمركم أن لا تبرحوا من مكانكم فعصيتهم ، يعني بذلك الرماة ، ﴿ إن الله على كل شيء قدير ﴾ أي يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد لا معقب لحكمه . ثم قال تعالى: ﴿ وما أصابكم يوم التقى الجمعان فياذن الله ﴾ أي فراركم بين يدي عدوكم ، وقتلهم لجماعة منكم وجراحهم لآخرين ، كان بقضاء الله وقدره ، وله الحكمة في ذلك ، ﴿ وليعلم المؤمنين ﴾ أي الذين صبروا وثبتوا ولم يتزلزلوا ، ﴿ وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا قاتلوا لو نعلم قتالاً لاتبعناكم ﴾ يعني بذلك أصحاب (عبد الله بن أبي ابن سلول) الذين رجعوا معه في أثناء الطريق فاتبعهم رجال من المؤمنين يحرضونهم على الإتيان والقتال والمساعدة ، ولهذا قال: ﴿ أو ادفعوا ﴾ ، قال ابن عباس وعكرمة : يعني كثروا سواد المسلمين ، وقال الحسن : ادفعوا بالدعاء ،

وقال غيره: رابطوا، فتعللوا قائلين: ﴿لو نعلم قتالاً لاتبعناكم﴾، قال مجاهد: يعنون لو نعلم أنكم تلقون حرباً لجنناكم، ولكن لا تلقون قتالاً. وقد روي أن رسول الله ﷺ خرج إلى أحد في ألف رجل من أصحابه؛ حتى إذا كان بالشوط بين أحد والمدينة انحاز عنه عبد الله بن أبي ابن سلول بثلاث الناس فقال: أطاعهم فخرج وعصاني، ووالله ما ندري علام نقتل أنفسنا ههنا أيها الناس، فرجع بمن اتبعه من الناس من قومه أهل النفاق وأهل الريب، واتبعهم عبد الله بن عمرو بن حرام أخو بني سلمة يقول: يا قوم أذكركم الله أن تخذلوا نبيكم وقومكم عندما حضر من عدوكم، قالوا: لو نعلم أنكم تقاتلون ما أسلمناكم، ولكن لا نرى أن يكون قتال، فلما استعصوا عليه وأبوا إلا الانصراف عنهم قال: أبعدكم الله أعداء الله فسيغني الله عنكم، ومضى رسول الله ﷺ^(١)، قال الله عز وجل: ﴿هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان﴾، استدلوا به على أن الشخص قد تتقلب به الأحوال فيكون في حال أقرب إلى الكفر، وفي حال أقرب إلى الإيمان لقوله: ﴿هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان﴾.

قال تعالى: ﴿يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم﴾ يعني أنهم يقولون القول ولا يعتقدون صحته، ومنه قولهم هذا: ﴿لو نعلم قتالاً لاتبعناكم﴾ فإنهم يتحققون أن جنداً من المشركين قد جاءوا من بلاد بعيدة يتحرقون على المسلمين بسبب ما أصيب من أشرفهم يوم بدر، وهم أضعاف المسلمين، وأنه كائن بينهم قتال لا محالة، ولهذا قال تعالى: ﴿والله أعلم بما يكتمون﴾، ثم قال تعالى: ﴿الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا﴾ أي لو سمعوا من مشورتنا عليهم في القعود وعدم الخروج ما قتلوا مع من قتل، قال الله تعالى: ﴿قل فادعوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين﴾ أي إن كان القعود يسلم به الشخص من القتل والموت فينبغي أنكم لا تموتون، والموت لا بد آت إليكم ولو كنتم في بروج مشيدة، فادفعوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين، قال مجاهد: نزلت هذه الآية في عبد الله بن أبي ابن سلول وأصحابه.

وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أحيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ * يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةِ اللَّهِ وَفَضْلِهِ وَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾ الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ الَّذِينَ قَالَهُمْ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ اللَّهِ وَفَضْلِهِ لَمْ يَمَسَّهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾

(١) ذكره ابن إسحاق عن الزهري.

يعبر تعالى عن الشهداء بأنهم، وإن قتلوا في هذه الدار، فإن أرواحهم حية مرزوقة في دار القرار، روى ابن جرير بسنده عن أنس بن مالك في قصة أصحاب رسول الله ﷺ الذين أرسلهم نبي الله إلى أهل (بئر معونة) قال: لا أدري أربعين أو سبعين، وعلى ذلك الماء عامر بن الطفيل الجعفري، فخرج أولئك نفر من أصحاب رسول الله ﷺ حتى أتوا غاراً مشرفاً على الماء فقعدوا فيه، ثم قال بعضهم لبعض: أيكم يبلغ رسالة رسول الله ﷺ أهل هذا الماء؟ فقال - أراه أبو ملحان الأنصاري - أنا أبلغ رسالة رسول الله ﷺ، فخرج حتى أتى حول بيتهم فاجتثى أمام البيوت ثم قال: يا أهل بئر معونة إني رسول رسول الله إليكم، إني أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، فأمنوا بالله ورسوله. فخرج إليه رجل من كسر البيت برمح فضربه في جنبه حتى خرج من الشق الآخر، فقال: الله أكبر فزت ورب الكعبة، فاتبعوا أثره حتى أتوا أصحابه في الغار فقتلهم أجمعين (عامر بن الطفيل).

وقال ابن إسحاق: حدثني أنس بن مالك أن الله أنزل فيهم قرآناً، بلغوا عنا قومنا أنا قد لقينا ربنا فرضي عنا ورضينا عنه، ثم نسخت فرفعت بعدما قرأناها زماناً، وأنزل الله تعالى: ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون﴾، وقد قال مسلم في صحيحه، عن مسروق قال: سألتنا عبد الله عن هذه الآية: ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون﴾ فقال: أما إنا قد سألنا عن ذلك رسول الله ﷺ فقال: «أرواحهم في جوف طير خضر لها قناديل معلقة بالعرش، تسرح من الجنة حيث شاءت ثم تأوي إلى تلك القناديل، فاطلع عليهم ربهم اطلاعة فقال: هل تشتهون شيئاً؟ فقالوا: أي شيء نشتهي ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا؟ ففعل ذلك بهم ثلاث مرات، فلما رأوا أنهم لن يتركوا من أن يسألوا قالوا: يا رب نريد أن ترد أرواحنا في أجسادنا حتى نقتل في سبيلك مرة أخرى، فلما رأى أن ليس لهم حاجة تركوا».

(حديث آخر): عن أنس، أن رسول الله ﷺ قال: «ما من نفس تموت لها عند الله خير، يسرها أن ترجع إلى الدنيا إلا الشهيد، فإنه يسره أن يرجع إلى الدنيا فيقتل مرة أخرى مما يرى من فضل الشهادة»^(١). (حديث آخر): عن جابر قال، قال لي رسول الله ﷺ: «أعلمت أن الله أحيأ أباك فقال له: تمن، فقال له: أردت إلى الدنيا فأقتل فيك مرة أخرى، قال: إني قضيت أنهم إليها لا يرجعون»^(٢). وقال البخاري، عن ابن المنكدر، سمعت جابراً قال: لما قتل أبي جعلت أبكي وأكشف الثوب عن وجهه، فجعل أصحاب رسول الله ﷺ ينهوني والنبي ﷺ لم ينه، فقال النبي ﷺ: «لا تبكيه - أو ما تبكيه - ما زالت الملائكة تظله بأجنحتها حتى رفع»^(٣).

(حديث آخر): عن ابن عباس قال، قال رسول الله ﷺ: «لما أصيب إخوانكم يوم أحد جعل الله أرواحهم في أجواف طير خضر ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها، وتأوي إلى قناديل من ذهب في ظل العرش، فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم، وحسن مقيلهم، قالوا: يا ليت إخواننا يعلمون ما صنع الله بنا لئلا يزهلوا في

(٢) رواه أحمد عن جابر بن عبد الله.

(١) رواه أحمد وأخرجه مسلم.

(٣) أخرجه البخاري ومسلم والنسائي.

الجهاد، ولا يتركوا عن الحرب، فقال الله عز وجل: «أنا أبلغهم عنكم، فأنزل الله هذه الآيات: ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون﴾ وما بعدها» .

(حديث آخر) : عن طلحة بن خراش الأنصاري قال: سمعت جابر بن عبد الله قال: نظر إلي رسول الله ﷺ ذات يوم فقال: «يا جابر مالي أراك مهتماً؟» قلت: يا رسول الله استشهد أبي وترك ديناً عليه، قال، فقال: «ألا أخبرك ما كلم الله أحداً قط إلا من وراء حجاب، وإنه كلم أباك كفاحاً»، قال علي: والكفاح المواجهة. «قال سلمي أعطك قال: أسألك أن أرد إلى الدنيا فأقتل فيك ثانية فقال الرب عز وجل إنه قد سبق مني القول أنهم إليها لا يرجعون، قال: أي رب فأبلغ من ورأي فأنزل الله: ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً﴾^(١) الآية» .

وقد روينا في مسند الإمام أحمد حديثاً فيه البشارة لكل مؤمن بأن روحه تكون في الجنة تسرح أيضاً فيها وتأكل من ثمارها وترى ما فيها من النضرة والسرور، وتشاهد ما أعد الله لها من الكرامة، وهو بإسناد صحيح عزيز عظيم اجتمع فيه ثلاثة من الأئمة الأربعة (أصحاب المذاهب المتبعة) فإن الإمام أحمد رحمه الله رواه عن محمد بن إدريس الشافعي رحمه الله، عن مالك بن أنس الأصبحي رحمه الله، عن الزهري عبد الرحمن بن كعب بن مالك عن أبيه رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «نسمة المؤمن طائر يعلق في شجر الجنة حتى يرجعه الله إلى جسده يوم يبعثه»^(٢). قوله: «يلق» أي يأكل. وفي الحديث: «إن روح المؤمن تكون على شكل طائر في الجنة» وأما أرواح الشهداء فكما تقدم في حواصل طير خضر فهي كالكواكب بالنسبة إلى أرواح عموم المؤمنين فإنها تطير بأنفسها، فنسأل الله الكريم المنان أن يميتنا على الإيمان .

وقوله تعالى: ﴿فرحين بما آتاهم الله﴾ إلى آخر الآية: أي الشهداء الذين قتلوا في سبيل الله أحياء عند ربهم، وهم فرحون بما هم فيه من النعمة والغبطة، ومستبشرون بإخوانهم الذين يقتلون بعدهم في سبيل الله أنهم يقدمون عليهم، وأنهم لا يخافون مما أمامهم ولا يحزنون على ما تركوه وراءهم، نسأل الله الجنة. وقال محمد بن إسحاق: ﴿ويستبشرون﴾ أي ويسرون بلحوق من لحقهم من إخوانهم على ما مضوا عليه من جهادهم، ليشركوهم فيما هم فيه من ثواب الله الذي أعطاهم. قال السدي: يؤتى الشهيد بكتاب فيه يقدم عليك فلان يوم كذا وكذا، ويقدم عليك فلان يوم كذا وكذا، فيسر بذلك كما يسر أهل الدنيا بغائبهم إذا قدم. قال سعيد بن جبير: لما دخلوا الجنة ورأوا ما فيها من الكرامة للشهداء قالوا: يا ليت إخواننا الذين في الدنيا يعلمون ما عرفناه من الكرامة، فإذا شهدوا القتال باسروها بأنفسهم حتى يستشهدوا فيصيبوا ما أصبنا من الخير، فأخبر رسول الله ﷺ بأمرهم وما هم فيه من الكرامة، وأخبرهم - أي ربهم - أنني قد أنزلت على نبيكم وأخبرته بأمركم وما أتم فيه فاستبشروا بذلك، فذلك قوله: ﴿ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم﴾ الآية .

وقد ثبت في الصحيحين عن أنس في قصة أصحاب بئر معونة السبعين من الأنصار الذين قتلوا في غداة واحدة، وقنت رسول الله ﷺ يدعو على الذين قتلوهم ويلعنهم. قال أنس: ونزل فيهم قرآن قرأناه حتى رفع: «أن بلغوا

(١) أخرجه ابن مردويه ورواه البيهقي في دلائل النبوة . (٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند .

عنا قومنا أنا قد لقينا ربنا فرضي عنا وأرضانا .

ثم قال تعالى : ﴿ يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين ﴾ ، قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : هذه الآية جمعت المؤمنين كلهم سواء الشهداء وغيرهم ، وقلما ذكر الله فضلاً ذكر به الأنبياء وثواباً أعطاهم الله إياه إلا ذكر الله ما أعطى المؤمنين من بعدهم .

وقوله تعالى : ﴿ الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح ﴾ هذا كان يوم (حمراء الأسد) وذلك أن المشركين لما أصابوا ما أصابوا من المسلمين كروا راجعين إلى بلادهم ، فلما استمروا في سيرهم ندموا لم لا تمموا على أهل المدينة وجعلوها الفيضلة ، فلما بلغ ذلك رسول الله ﷺ ندب المسلمين إلى الذهاب وراءهم ليرعبهم ويرهبهم أن بهم قوة وجلداً ، ولم يأذن لأحد سوى من حضر الواقعة يوم أحد سوى جابر بن عبد الله رضي الله عنه لما سذكروه ، فانتدب المسلمون على ما بهم من الجراح والإثخان طاعة لله عز وجل ولرسوله ﷺ . وعن عكرمة أنه : لما رجع المشركون عن أحد قالوا : لا محمداً قتلتم ، ولا الكواعب أردقم ، بشما صنعتم ، ارجعوا فسمع رسول الله ﷺ بذلك ، فندب المسلمين فانتدبوا حتى بلغوا (حمراء الأسد) فقال المشركون : نرجع من قابل ، فرجع رسول الله ﷺ ، فكانت تعد غزوة فأنزل الله تعالى : ﴿ الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم ﴾ .

قال محمد بن إسحاق ، عن أبي السائب مولى عائشة بنت عثمان : أن رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ كان قد شهد أحداً ، قال : شهدنا أحداً مع رسول الله ﷺ أنا وأخي ورجعنا جريحين ، فلما أذن مؤذن رسول الله ﷺ بالخروج في طلب العدو قلت لأخي : أتقوتنا غزوة مع رسول الله ﷺ ؟ والله ما لنا من دابة نركبها ، وما منا إلا جريح ثقيل ، فخرجنا مع رسول الله ﷺ ، وكنت أيسر جراحاً منه ؛ فكان إذا غلب حملته عقبه ؛ حتى انتهينا إلى ما انتهى إليه المسلمون . وقال البخاري عن عائشة رضي الله عنها : ﴿ الذين استجابوا لله والرسول ﴾ الآية ، قلت لعروة : يا ابن أختي كان أبوك منهم (الزبير) و (أبو بكر) رضي الله عنهما لما أصاب نبي الله ﷺ ما أصابه يوم أحد وانصرف عنه المشركون خاف أن يرجعوا فقال : « من يرجع في أثرهم » ، فانتدب منهم سبعون رجلاً فيهم أبو بكر والزبير . وروي عن عروة قال ، قالت لي عائشة إن أباك من الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح . وكانت وقعة أحد في شوال ، وكان التجار يقدمون المدينة في ذي القعدة فينزلون ببدر الصغرى في كل سنة مرة ، وإنهم قدموا بعد وقعة أحد ، وكان أصاب المؤمنين القرح واشتكوا ذلك إلى النبي ﷺ واشتد عليهم الذي أصابهم ، وإن رسول الله ﷺ ندب الناس لينطلقوا معه ويتبعوا ما كانوا متبعين ، وقال : « إنما يرتحلون الآن فيأتون الحج ولا يقدر على مثلها حتى عام مقبل » ، فجاء الشيطان يخوف أوليائه فقال : ﴿ إن الناس قد جمعوا لكم ﴾ وقال الحسن البصري في قوله : ﴿ الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح ﴾ إن أبا سفيان وأصحابه أصابوا من المسلمين ما أصابوا ورجعوا ، فقال رسول الله ﷺ : « إن أبا سفيان قد رجع وقد قذف الله في قلبه الرعب ، فمن ينتدب في طلبه » ، فقام النبي ﷺ وأبو بكر وعمر وعثمان وعلي وناس من أصحاب رسول الله ﷺ فتبعوهم ، فبلغ أبا سفيان أن النبي ﷺ يطلبه فلقي عيراً من التجار فقال : ردوا محمداً ولكم من الجعل كذا وكذا ، وأخبروهم أنني قد جمعت جموعاً وأني راجع إليهم ، فجاء التجار فأخبروا رسول الله ﷺ بذلك ، فقال النبي ﷺ :

« حسبنا الله ونعم الوكيل » فأنزل الله هذه الآية .

وقوله تعالى: ﴿الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً﴾ الآية، أي الذين توعدهم الناس بالجموع وخوفهم بكثرة الأعداء فما أكثرثوا لذلك، بل توكلوا على الله واستعانوا به، ﴿وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل﴾، وقال البخاري، عن ابن عباس: ﴿حسبنا الله ونعم الوكيل﴾ قالها إبراهيم عليه السلام حين ألقى في النار، وقالها محمد ﷺ حين قال لهم الناس ﴿إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً، وقالوا: حسبنا الله ونعم الوكيل﴾ وفي رواية له: كان آخر قول إبراهيم عليه السلام حين ألقى في النار: ﴿حسبنا الله ونعم الوكيل﴾. وعن أبي رافع أن النبي ﷺ وجه علياً في نفر معه في طلب أبي سفيان فلقبهم أعرابي من خزاعة فقال: إن القوم قد جمعوا لكم فقالوا: حسبنا الله ونعم الوكيل فترلت فيهم هذه الآية .

وفي الحديث: « إذا وقعت في الأمر العظيم فقولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل »^(١). وقد قال الإمام أحمد، عن عوف ابن مالك أنه حدثهم، أن النبي ﷺ قضى بين رجلين، فقال المقضي عليه لما أدبر: حسبي الله ونعم الوكيل، فقال النبي ﷺ: «ردوا عليّ الرجل»، فقال: «ما قلت؟»، قال: «قلت حسبي الله ونعم الوكيل»، فقال النبي ﷺ: «إن الله يلوم على العجز ولكن عليك بالكيس، فإذا غلبك أمر فقل: حسبي الله ونعم الوكيل» .

قال تعالى: ﴿فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء﴾ أي لما توكلوا على الله كفاهم ما أهمهم، ورد عنهم بأس من أراد كيدهم فرجعوا إلى بلدتهم: ﴿بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء﴾ مما أضمر لهم عدوهم، ﴿واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم﴾ . عن ابن عباس في قول الله: ﴿فانقلبوا بنعمة من الله وفضل﴾، قال (النعمة) أنهم سلموا، و(الفضل) أن غيراً مرت في أيام الموسم فاشتراها رسول الله ﷺ فربح فيها مالاً فقسمه بين أصحابه^(٢)، وقال مجاهد في قول الله تعالى: ﴿الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم﴾ قال هذا أبو سفيان قال لمحمد ﷺ موعدكم بدر حيث قتلت أصحابنا، فقال محمد ﷺ: «عسى»، فانطلق رسول الله ﷺ لموعده حتى نزل بدرأ فوافقوا السوق فيها فابتاعوا، فذلك قول الله عز وجل: ﴿فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء﴾ الآية، قال: وهي غزوة بدر الصغرى^(٣) .

ثم قال تعالى: ﴿إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه﴾ أي يخوفكم أولياءه ويوهمكم أنهم ذوو بأس وذوو شدة قال الله تعالى: ﴿فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين﴾ إذا سؤل لكم وأوهمكم فتوكلوا عليّ و الجأوا إليّ، فإني كافيكم وناصركم عليهم، كما قال تعالى: ﴿أليس الله بكاف عبده ويخوفونك بالذين من دونه﴾، وقال تعالى: ﴿فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفاً﴾، وقال تعالى: ﴿أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون﴾، وقال: ﴿كتب الله لأغلبن أنا ورسلي إن الله قوي عزيز﴾، وقال: ﴿ولينصرن الله من ينصره﴾، وقال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد﴾ والآيات في ذلك كثيرة .

(١) رواه ابن مردويه وقال: حديث غريب من هذا الوجه . (٢) رواه البيهقي عن عكرمة عن ابن عباس .

(٣) أخرجه ابن جرير عن مجاهد .

وَلَا يَحْزَنكَ الَّذِينَ يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُوا اللَّهَ شَيْئاً يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حِزَاباً فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَن يَضُرُوا اللَّهَ شَيْئاً وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمَلِّ لَهُمْ خَيْرًا لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمَلِّ لَهُمْ لِيَزَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ فَعَامِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ۚ وَإِن تَوَمَّنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَاءِ أَنفُسِهِمْ أَنَّ اللَّهَ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرٌ لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخُلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾

يقول تعالى لنبينا ﷺ: ﴿ولا يحزنك الذين يسارعون في الكفر﴾ وذلك من شدة حرصه على الناس، كان يحزنه مبادرة الكفار إلى المخالفة والعناد والشقاق، فقال تعالى: ﴿ولا يحزنك ذلك﴾ إنهم لن يضرُوا الله شيئاً يريد الله أن لا يجعل لهم حظاً في الآخرة ﴿أي حكمته فيهم أنه يريد بمشيئته وقدرته أن لا يجعل لهم نصيباً في الآخرة﴾ ولهم عذاب عظيم. ثم قال تعالى مخبراً عن ذلك إخباراً مقررأ: ﴿إن الذين اشتروا الكفر بالإيمان﴾ أي استبدلوا هذا بهذا، ﴿لن يضرُوا الله شيئاً﴾ أي ولكن يضرُونَ أنفسهم ﴿ولهم عذاب أليم﴾. ثم قال تعالى: ﴿ولا يحسبنَّ الذين كفروا أنما نملي لهم خير لِّأنفسهم إنما نملي لهم ليزدادوا إثماً﴾ ولهم عذاب مهين، كقوله: ﴿أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون﴾، وكقوله: ﴿فذرني ومن يكذب بهذا الحديث سنستدرجهم من حيث لا يعلمون﴾، وكقوله: ﴿ولا تعجبك أموالهم وأولادهم إنما يريد الله أن يعذبهم بها في الدنيا وترهق أنفسهم وهم كافرون﴾.

ثم قال تعالى: ﴿ما كان الله ليدر المؤمنين على ما أتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب﴾ أي لا بد أن يعقد شيئاً من المحنة، يظهر فيه وليه ويفضح به علوه، يعرف به المؤمن الصابر، والمنافق الفاجر، يعني بذلك (يوم أحد) الذي امتحن الله به المؤمنين، فظهر به إيمانهم وصبرهم وجلدهم وثباتهم وطاعتهم لله ولرسوله ﷺ، وهتك به ستار المنافقين، فظهر مخالفتهم ونكولهم عن الجهاد، وخيانتهم لله ولرسوله ﷺ، ولهذا قال تعالى: ﴿حتى يميز الخبيث من الطيب﴾، قال مجاهد: ميز بينهم يوم أحد، وقال قتادة: ميز بينهم بالجهاد والهجرة، وقال السدي: قالوا: إن كان محمد صادقاً فليخبرنا عن من يؤمن به منا ومن يكفر به فأنزل الله تعالى: ﴿ما كان الله ليدر المؤمنين على ما أتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب﴾ أي حتى يخرج المؤمن من الكافر روى ذلك ابن جرير. ثم قال تعالى: ﴿وما كان الله ليطلِعكم على الغيب﴾ أي أتم لا تعلمون غيب الله في خلقه حتى يميز لكم المؤمن من المنافق، لولا ما يعقده من الأسباب الكاشفة عن ذلك، ثم قال تعالى: ﴿ولكن الله يجتبي من رسله من يشاء﴾،

كقوله تعالى: ﴿عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً * إلا من ارتضى من رسول﴾ الآية. ثم قال تعالى: ﴿فآمنوا بالله ورسوله﴾ أي أطيعوا الله ورسوله واتبعوه فيما شرع لكم ، ﴿وإن تؤمنوا وتتقوا فلکم أجر عظیم﴾ .
 وقوله تعالى: ﴿ولا يحسن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم ، بل هو شر لهم﴾ أي لا يحسن البخل أن جمعه المال ينفعه بل هو مضرة عليه في دينه، وربما كان في دنياه، ثم أخبر بمآل أمر ماله يوم القيامة فقال: ﴿سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة﴾ ، قال رسول الله ﷺ: «من آتاه الله مالاً فلم يؤد زكاته مثل له شجاعاً»^(١) أقرع له زبيتان يطوقه يوم القيامة، يأخذ بلهزمتيه - يعني بشدقيه - ثم يقول أنا مالك، أنا كترك» ، ثم تلا هذه الآية: ﴿ولا يحسن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم بل هو شر لهم﴾^(٢) إلى آخر الآية.
 (حديث آخر) : عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: «إن الذي لا يؤدي زكاة ماله يمثل له ماله يوم القيامة شجاعاً أقرع له زبيتان ثم يلزمه يطوقه يقول: أنا مالك، أنا كترك»^(٣) .

(حديث آخر) : عن عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ قال: «ما من عبد لا يؤدي زكاة ماله إلا جعل له شجاع أقرع يتبعه يفر منه فيتبعه فيقول: أنا كترك» ، ثم قرأ عبد الله مصداقه من كتاب الله: ﴿سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة﴾^(٤) .

وقال العوفي، عن ابن عباس: نزلت في أهل الكتاب الذين بخلوا بما في أيديهم من الكتب المترلة أن يبينوها، رواه ابن جرير، والصحيح الأول وإن دخل هذا في معناه، وقد يقال: إن هذا أولى بالدخول والله سبحانه وتعالى أعلم. وقوله تعالى: ﴿ولله ميراث السموات والأرض﴾ أي ﴿فأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه﴾ ، فإن الأمور كلها مرجعها إلى الله عز وجل. فقدموا من أموالكم ما ينفعكم يوم معادكم ﴿والله بما تعملون خبير﴾ أي بنياتكم وضمائرهم .

لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلُهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَاهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِينَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٨٣﴾ فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾

(١) شجاعاً وشجاعاً : نوع من الحيات .

(٢) أخرجه البخاري عن أبي هريرة .

(٣) رواه أحمد والنسائي .

(٤) رواه أحمد والترمذي والنسائي وابن ماجه .

قال ابن عباس: لما نزل قوله تعالى: ﴿من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة﴾، قالت اليهود: يا محمد! افتقر ربك فسأل عباده القرض؟ فأنزل الله: ﴿لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء﴾ الآية؟ وقال محمد بن إسحاق، عن عكرمة أنه حدثه عن ابن عباس قال: دخل أبو بكر الصديق بيت المدراس^(١) فوجد من يهود ناساً كثيرة قد اجتمعوا على رجل منهم يقال له (فنحاص) وكان من علماءهم وأخبارهم، ومعه حبر يقال له أشيع، فقال له أبو بكر: ويحك يا فنحاص اتق الله وأسلم فوالله إنك لتعلم أن محمداً رسول من عند الله قد جاءكم بالحق من عنده، تجملونه مكتوباً عندكم في التوراة والإنجيل. فقال فنحاص: والله يا أبا بكر ما بنا إلى الله من حاجة من فقر، وإنه إلينا لفقير، ما نتضرع إليه كما يتضرع إلينا، وأنا عنه لأغنياء، ولو كان عنا غنياً ما استقرض منا كما يزعم صاحبكم، يناكم عن الربا ويعطينا، ولو كان غنياً ما أعطانا الربا، فغضب أبو بكر رضي الله عنه فضرب وجه فنحاص ضرباً شديداً، وقال: والذي نفسي بيده لولا الذي بيننا وبينك من العهد لضربت عنقك يا عدو الله فأكذبونا ما استطعتم إن كنتم صادقين، فذهب (فنحاص) إلى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد أبصر ما صنع بي صاحبك، فقال رسول الله ﷺ: ﴿ما حملك على ما صنعت يا أبا بكر؟﴾ فقال: يا رسول الله إن عدو الله قال قولاً عظيماً، يزعم أن الله فقير وأنهم عنه أغنياء، فلما قال ذلك غضبت لله مما قال فضربت وجهه، فجحد فنحاص ذلك وقال: ما قلت ذلك، فأنزل الله: ﴿لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء﴾ الآية^(٢). وقوله ﴿سنكتب ما قالوا﴾ تهديد ووعد، ولهذا قرنه تعالى بقوله: ﴿وقتلهم الأنبياء بغير حق﴾ أي هذا قولهم في الله، وهذه معاملتهم رسل الله، وسيجزيه الله على ذلك شر الجزاء، ولهذا قال تعالى: ﴿وتقول ذوقوا عذاب الحريق﴾ ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد﴾ أي يقال لهم ذلك تقيحاً وتوبيخاً وتحقيراً وتصغيراً.

وقوله تعالى: ﴿الذين قالوا إن الله عهد إلينا أن لا تؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار﴾، يقول تعالى تكديهاً لهؤلاء الذين زعموا أن الله عهد إليهم في كتبهم، أن لا يؤمنوا لرسول حتى يكون من معجزاته أن من تصدق بصدقة من أمته فتقبلت منه أن تنزل نار من السماء تأكلها، قاله ابن عباس والحسن وغيرهما، قال الله عز وجل: ﴿قل قد جاءكم رسل من قبلي بالبينات﴾ أي بالحجج والبراهين، ﴿وبالذي قلم﴾ أي وبنار تأكل القرابين المتقبلة، ﴿فلم قتلتموهم﴾؟ أي فلم قابلتموهم بالتكذيب والمخالفة والمعاندة وقتلتموهم، ﴿إن كنتم صادقين﴾ أنكم تتبعون الحق وتناقدون للرسل، ثم قال تعالى مسلماً لنيته محمد ﷺ: ﴿إن كذبوك فقد كذب رسل من قبلك جاءوا بالبينات والزبر والكتاب المنير﴾ أي لا يوهنك تكذيب هؤلاء لك، فلك أسوة بمن قبلك من الرسل، الذين كذبوا مع ما جاءوا به من البينات، وهي الحجج والبراهين القاطعة ﴿والزبر﴾ وهي الكتب المتلقاة من السماء كالصحف المنزلة على المرسلين ﴿والكتاب المنير﴾ أي الواضح الجلي.

(١) المدراس : المعلم المدرس .

(٢) رواه ابن أبي حاتم عن ابن عباس .

كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾ * لَتُبْلَوْنَ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعَنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصَبَرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِن عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾

يخبر تعالى إخباراً عاماً يعم جميع الخليقة بأن كل نفس ذائقة الموت كقوله تعالى: ﴿ كل من عليها فان . ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام ﴾ ، فهو تعالى وحده الحي الذي لا يموت ، والجن والإنس يموتون ، وكذلك الملائكة وحملة العرش ويفرد الواحد الأحد القهار بالديمومة والبقاء فيكون آخراً كما كان أولاً ، وهذه الآية فيها تعزية لجميع الناس فإنه لا يبقى أحد على وجه الأرض حتى يموت ، فإذا انقضت المدة وفرغت النطفة التي قدر الله وجودها من صلب آدم وانتهت البرية ، أقام الله القيامة وجازى الخلائق بأعمالها جليلها وحقيرها ، كثيرها وقليلها ، كبيرها وصغيرها ، فلا يظلم أحداً مثقال ذرة ، ولهذا قال تعالى: ﴿ وإنما توفون أجوركم يوم القيامة ﴾ . روى ابن أبي حاتم عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: لما توفي النبي ﷺ وجاءت التعزية ، جاءهم آت يسمعون حسه ولا يرون شخصه ، فقال: السلام عليكم أهل البيت ورحمة الله وبركاته ﴿ كل نفس ذائقة الموت ، وإنما توفون أجوركم يوم القيامة ﴾ إن في الله عزاء من كل مصيبة ، وخلفاً من كل هالك ، ودركاً من كل فائت ، فبالله ثقوا وإياه فارجو ، فإن المصاب من حرم الثواب والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، قال جعفر بن محمد: فأخبرني أبي أن علي بن أبي طالب قال: أتدرون من هذا؟ هذا الخضر عليه السلام ، وقوله: ﴿ فن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز ﴾ أي من جنب النار ونجا منها وأدخل الجنة فقد فاز كل الفوز . وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: « موضع سوط في الجنة خير من الدنيا وما فيها اقرعوا إن شئتم: ﴿ فن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز ﴾ » .

وقوله تعالى: ﴿ وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور ﴾ تصغير لشأن الدنيا ، وتحقير لأمرها ، وأنها دنيئة فانية قليلة زائلة كما قال تعالى: ﴿ بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى ﴾ ، وقال: ﴿ وما أوتيتم من شيء فتناج الحياة الدنيا وزينتها ، وما عند الله خير وأبقى ﴾ ، وفي الحديث: « والله ما الدنيا في الآخرة إلا كما يغمس أحدكم أصبعه في اليم فلينظر بم ترجع إليه » . وقال قتادة: هي متاع متروكة أوشكت - والله الذي لا إله إلا هو - أن تضمحل عن أهلها ، فخذوا من هذا المتاع طاعة الله إن استطعتم ولا قوة إلا الله .

وقوله تعالى: ﴿ لتبلون في أموالكم وأنفسكم ﴾ ، كقوله تعالى: ﴿ ولتبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات ﴾ إلى آخر الآيتين ، أي لا بد أن يتلى المؤمن في شيء من ماله أو نفسه أو ولده أو أهله ، ويتلى المؤمن على قدر دينه ، فإن كان في دينه صلابة زيد في البلاء ﴿ ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيراً ﴾ ، يقول تعالى للمؤمنين عند مقدمهم المدينة قبل وقعة بدر ، مسلماً لهم عما ينالهم

من الأذى من أهل الكتاب والمشركين، وأمرهم بالصبر والصفح والعفو حتى يفرج الله، فقال تعالى: ﴿ وَإِنْ تَصَبَرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾، قال ابن أبي حاتم، عن أسامة بن زيد: كان النبي ﷺ وأصحابه يعفون عن المشركين وأهل الكتاب كما أمرهم الله، ويصبرون على الأذى، قال تعالى: ﴿ وَلِتَسْمَعَنَّ مِنَ الَّذِينَ آتَوْا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا ﴾، قال: وكان رسول الله ﷺ يتأول في العفو ما أمره الله به حتى أذن الله فيهم .

وعن عروة بن الزبير أن أسامة بن زيد حدثه أن رسول الله ﷺ ركب على حمار عليه قطيفة فدكية^(١)، وأردف أسامة بن زيد وراءه يعود (سعد بن عباد) بيني الحارث بن الخزرج قبل وقعة بدر، حتى مر على مجلس فيه (عبد الله بن أبي ابن سلول) وذلك قبل أن يسلم ابن أبي، وإذا في المجلس أخلاط من المسلمين والمشركين عبدة الأوثان، وأهل الكتاب اليهود والمسلمين، وفي المجلس عبدالله بن رواحة، فلما غشيت المجلس عجاجة الدابة خمر عبدالله بن أبي أنفه بردائه وقال: لا تغبروا علينا، فسلم رسول الله ﷺ ثم وقف، فترل ودعاهم إلى الله عز وجل وقرأ عليهم القرآن، فقال عبدالله بن أبي: أيها المرء إنه لا أحسن مما تقول إن كان حقاً فلا تؤذنا به في مجالسنا، ارجع إلى رحلك فمن جاءك فاقصص عليه، فقال عبدالله بن رواحة رضي الله عنه: بلى يا رسول الله فاعشنا به في مجالسنا فإننا نحب ذلك، فاستب المسلمون والمشركون واليهود حتى كادوا يتناورون، فلم يزل النبي ﷺ يخفضهم حتى سكتوا، ثم ركب النبي ﷺ دابته فسار حتى دخل على (سعد بن عباد) فقال له النبي ﷺ: « يا سعد ألم تسمع إلى ما قال أبو حباب؟ » يريد عبدالله بن أبي، قال كذا وكذا، فقال سعد: يا رسول الله اعف عنه واصفح، فوالذي أنزل عليك الكتاب لقد جاءك الله بالحق الذي نزل عليك، ولقد اصططح أهل هذه البحيرة على أن يتوجوه فيعصبوه بالعصاة، فلما أبى الله ذلك بالحق الذي أعطاك الله شرف بذلك، فذلك الذي فعل به ما رأيت، فعفا عنه رسول الله ﷺ^(٢).

وكان رسول الله ﷺ، وأصحابه يعفون عن المشركين وأهل الكتاب كما أمرهم الله ويصبرون على الأذى. قال الله تعالى: ﴿ وَلِتَسْمَعَنَّ مِنَ الَّذِينَ آتَوْا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا ﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿ وَكَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّوكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفْرًا، حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ﴾ الآية. وكان النبي ﷺ يتأول في العفو ما أمره الله به حتى أذن الله له فيهم، فلما غزا رسول الله ﷺ بدرًا فقتل الله به صناديد كفار قريش، قال عبدالله بن أبي ابن سلول ومن معه من المشركين وعبدة الأوثان: هذا أمر قد توجه فبايعوا الرسول ﷺ على الإسلام، فبايعوا وأسلموا، فكل من قام بحق أو أمر بمعروف، أو نهى عن منكر فلا بد أن يؤدي فما له دواء إلا الصبر في الله، والاستعانة بالله، والرجوع إلى الله .

وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ آتَوْا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَأَشْرَتُوا

(٢) رواه البخاري .

(١) قطيفة فدكية: كساء غليظ منسوب إلى فدك بلد على مرحلتين من المدينة .

بِهِ تَمَنَّأَ قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾

هذا توبيخ من الله وتهديد لأهل الكتاب الذين أخذ الله عليهم العهد على أسنة الأنبياء أن يؤمنوا بمحمد ﷺ وأن ينوهوا بذكره في الناس فيكونوا على أهبة من أمره، فإذا أرسله الله تابعوه، فكنتموا ذلك وتعوضوا عما وعدوا عليه من الخير في الدنيا والآخرة باللون الطفيف، والحظ الدنيوي السخيف، فبئست الصفقة صفتهم، وبئست البيعة بيعتهم، وفي هذا تحذير للعلماء أن يسلكوا مسلكهم فيصيبهم ما أصابهم، ويسلك بهم مسلكهم، فعلى العلماء أن يبدلوا ما بأيديهم من العلم النافع، الدال على العمل الصالح، ولا يكتنوا منه شيئاً، فقد ورد في الحديث المروي من طرق متعددة عن النبي ﷺ أنه قال: « من سئل عن علم فكتمه أجزأه يوم القيامة بلجام من نار ». وقوله تعالى: ﴿ لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحملوا بما لم يفعلوا ﴾ الآية، يعني بذلك المرائين المتكثرين بما لم يعطوا، كما جاء في الصحيحين عن النبي ﷺ: « من ادعى دعوى كاذبة ليتكثر بها لم يزد الله إلا قلة ». وفي الصحيحين أيضاً: « المتشع بما لم يعط كلابس ثوبي زور ».

وقد روي أن مروان قال لبوابه: اذهب يارافع إلى ابن عباس فقل له: لئن كان كل امرئ منا فرح بما أوتي وأحب أن يحمد بما لم يفعل معذباً لنعذب أجمعين!! فقال ابن عباس: ما لكم وهذه، إنما نزلت هذه في أهل الكتاب، ثم تلا ابن عباس: ﴿ وإذ أخذ الله ميثاق الذين أتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمناً قليلاً فبئس ما يشترون ﴾ لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحملوا بما لم يفعلوا الآية، وقال ابن عباس: سألم النبي ﷺ عن شيء فكتموه وأخبروه بغيره فخرجوا قد أروه أن قد أخبروه بما سألم عنه، واستحملوا بذلك إليه وفرحوا بما أتوا من كتمانهم ما سألم عنه^(١). وفي رواية عن أبي سعيد الخدري: أن رجلاً من المنافقين في عهد رسول الله ﷺ كانوا إذا خرج رسول الله ﷺ إلى الغزو تخلفوا عنه، وفرحوا بمقعدهم خلاف رسول الله ﷺ، فإذا قدم رسول الله ﷺ من الغزو اعتذروا إليه وحلفوا، وأحبوا أن يحملوا بما لم يفعلوا، فنزلت: ﴿ لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحملوا بما لم يفعلوا ﴾ الآية^(٢).

وقد روى ابن مردويه عن محمد بن ثابت الأنصاري أن (ثابت بن قيس الأنصاري) قال: يا رسول الله والله لقد خشيت أن أكون هلكت، قال: لم؟ قال: نهى الله المرء أن يحب أن يحمد بما لم يفعل وأجدني أحب الحمد، ونهى الله عن الخيلاء وأجدني أحب الجمال، ونهى الله أن نرفع أصواتنا فوق صوتك وأنا امرؤ جهير الصوت، فقال رسول الله ﷺ: « أما ترضى أن تعيش حميداً وتقتل شهيداً وتدخل الجنة » فقال: بلى، يا رسول الله، فعاش حميداً وقتل شهيداً يوم مسيمة الكذاب. وقوله تعالى: ﴿ فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب ﴾ أي لا تحسب

(١) رواه أحمد وأخرجه البخاري ومسلم والترمذي . (٢) أخرجه الشيخان واللفظ للبخاري .

أنهم ناجون من العذاب، بل لا بد لهم منه، ولهذا قال تعالى: ﴿ولهم عذاب أليم﴾، ثم قال تعالى: ﴿ولله ملك السموات والأرض، والله على كل شيء قدير﴾ أي هو مالك كل شيء، والقادر على كل شيء، فلا يعجزه شيء، فهابوه ولا تحالفوه، واحذروا غضبه ونقمته، فإنه العظيم الذي لا أعظم منه، القدير الذي لا أقدر منه.

إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطُلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَجْتَهُ، وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَءَامَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾

معنى الآية ان الله تعالى يقول: ﴿إن في خلق السموات والأرض﴾ أي هذه في ارتفاعها واتساعها، وهذه في انخفاضها وكثافتها واتساعها، وما فيهما من الآيات المشاهدة العظيمة من كواكب سيارات، وثوابت وبحار وجبال وقفار وأشجار ونبات وزروع وثمار وحيوان ومعادن، ومنافع مختلفة الألوان والطعوم والروائح والخواص، واختلاف الليل والنهار ﴿أي تعاقبهما وتقارضهما الطول والقصر، فتارة يطول هذا ويقصر هذا، ثم يعتدلان ثم يأخذ هذا من هذا فيطول الذي كان قصيراً، ويقصر الذي كان طويلاً وكل ذلك تقدير العزيز العليم، ولهذا قال تعالى: ﴿لآيات لأولي الألباب﴾ أي العقول النامة الزكية التي تدرك الأشياء بحقائقها على جلياتها، وليسوا كالصم البكم الذين لا يعقلون، الذين قال الله فيهم: ﴿وكأين من آية في السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون﴾. ثم وصف تعالى أولي الألباب فقال: ﴿الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم﴾. كما ثبت في الصحيحين عن عمران بن حصين: أن رسول الله ﷺ قال: «صل قائماً، فإن لم تستطع فقاعداً، فإن لم تستطع فعلى جنبك» أي لا يقطعون ذكره في جميع أحوالهم بسرائرهم وضمايرهم وألسنتهم، ﴿ويتفكرون في خلق السموات والأرض﴾ أي يفهمون ما فيهما من الحكم الدالة على عظمة الخالق وقدرته وعلمه وحكمته واختياره ورحمته. وقال الداراني: إني لأخرج من منزلي فما يقع بصري على شيء إلا رأيت لله علي فيه نعمة ولي فيه عبرة، وعن الحسن البصري أنه قال: تفكر ساعة خير من قيام ليلة، وقال: الحسن: الفكرة مرآة تريك حسناتك وسيئاتك.

وعن عيسى عليه السلام أنه قال: طوبى لمن كان قلبه تذكراً، وصمته تفكيراً، ونظره عبثاً. وقال مغيث الأسود: زوروا القبور كل يوم تفكركم، وشاهدوا الموقف بقلوبكم، وانظروا إلى المنصرف بالفريقين إلى الجنة أو النار، وأشعروا قلوبكم وأبدانكم ذكر النار ومقامها وأطباقها، وكان يبكي عند ذلك حتى يرفع صريعاً من بين

أصحابه . وقال ابن المبارك: مرّ رجل براهب عند مقبرة ومزيلة فناده فقال: يا راهب إن عندك كثرين من كنوز الدنيا لك فيهما معتبر: كثر الرجال، وكثر الأموال. وعن ابن عمر: أنه كان إذا أراد أن يتعاهد قلبه يأتي الخبرة فيقف على بابها فينادي بصوت حزين فيقول: أين أهلك؟ ثم يرجع إلى نفسه فيقول: ﴿كل شيء هالك إلا وجهه﴾. وقال بعض الحكماء: من نظر إلى الدنيا بغير العبرة انطمس من بصر قلبه بقدر تلك الغفلة. وقال بشر الحافي: لو تفكر الناس في عظمة الله تعالى لما عصوه، وعن عيسى عليه السلام أنه قال: يا ابن آدم الضعيف اتق الله حيث ما كنت، وكن في الدنيا ضعيفاً، واتخذ المساجد بيتاً، وعلم عينيك البكاء، وجسدك الصبر وقلبك الفكر، ولا تهتم برزق غد. وعن أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه أنه بكى يوماً بين أصحابه فسئل عن ذلك، فقال: فكرت في الدنيا ولذاتها وشهواتها فاعتبرت منها بها، ما تكاد شهواتها تنقضي حتى تكدرها مرارتها. ولئن لم يكن فيها عبرة لمن اعتبر، إن فيها مواعظ لمن اذكر.

وقد ذم الله تعالى من لا يعتبر بمخلوقاته الدالة على ذاته وصفاته وشرعه وقدره وآياته فقال: ﴿وكأين من آية في السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون﴾ وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون ﴿، ومدح عبادة المؤمنين: ﴿الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض﴾، قائلين: ﴿ربنا ما خلقت هذا باطلاً﴾ أي ما خلقت هذا الخلق عبثاً، بل بالحق لتجزئ الذين أساءوا بما عملوا، وتجزئ الذين أحسنوا بالحسنى، ثم نزهوه عن العبث وخلق الباطل، فقالوا: ﴿سبحانك﴾ أي عن أن تخلق شيئاً باطلاً، ﴿فقنا عذاب النار﴾ أي يا من خلق الخلق بالحق والعدل؛ يا من هو متره عن النقائص والعيب والعبث، قنا من عذاب النار بحولك وقوتك، ووقفنا لعمل صالح تهدينا به إلى جنات النعيم، وتجبرنا به من عذابك الأليم، ثم قالوا: ﴿ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيت﴾ أي أهنته وأظهرت خزيه لأهل الجمع، ﴿وما للظالمين من أنصار﴾ أي يوم القيامة لا مجير لهم منك، ولا محيد لهم عما أردت بهم، ﴿ربنا إننا سمعنا منادياً ينادي للإيمان﴾ أي داعياً يدعو إلى الإيمان، وهو الرسول ﷺ، ﴿أن آمنوا بربكم فآمنوا﴾ أي يقول آمنوا بربكم فآمنوا أي فاستجبنا له واتبعناه أي بإيماننا واتباعنا نبيك، ﴿ربنا فاغفر لنا ذنوبنا﴾ أي استرها، ﴿وكفر عنا سيئاتنا﴾ فيما بيننا وبينك، ﴿وتوفنا مع الأبرار﴾ أي الأحقنا بالصالحين، ﴿ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك﴾ قيل: معناه على الإيمان برسلك، وقيل: معناه على السنة رسلك، وهذا أظهر. ﴿ولا تخزنا يوم القيامة﴾ أي على رؤوس الخلائق، ﴿إنك لا تحلف الميعاد﴾ أي لا بد من الميعاد الذي أخبرت عنه رسلك وهو القيام يوم القيامة بين يديك.

وقد ثبت أن رسول الله ﷺ كان يقرأ هذه الآيات العشر من آخر آل عمران إذا قام من الليل لتهدجه فقال البخاري رحمه الله، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: بت عند خالتي ميمونة فتحدث رسول الله ﷺ مع أهله ساعة ثم رقد، فلما كان ثلث الليل الآخر قعد فنظر إلى السماء فقال: ﴿إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الأبصار﴾ الآيات، ثم قام فتوضأ واستن، ثم صلى إحدى عشرة ركعة، ثم أذن بلال فصلى ركعتين ثم خرج فصلى بالناس الصبح. وعن ابن عباس أن رسول الله ﷺ خرج ذات ليلة بعدما مضى ليل فنظر إلى السماء، وتلا هذه الآية: ﴿إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الأبصار﴾ إلى آخر السورة، ثم قال: «اللهم اجعل في قلبي نوراً، وفي سمعي نوراً، وفي بصري نوراً، وعن يميني

نوراً، وعن شمالي نوراً، ومن بين يدي نوراً، ومن خلفي نوراً، ومن فوقي نوراً، ومن تحتي نوراً وأعظم لي نوراً يوم القيامة»^(١).

وعن عطاء قال: انطلقت أنا وابن عمر وعبيد بن عمير إلى عائشة رضي الله عنها، فدخلنا عليها وبيننا وبينها حجاب، فقالت: يا عبيد ما يمنعك من زيارتنا، قال: قول الشاعر (زر غباً تردد حباً)، فقال ابن عمر: ذرينا أخبرينا بأعجب ما رأيته من رسول الله ﷺ؟! فبكت وقالت: كل أمره كان عجباً، أتاني في ليلتي حتى مس جلده جلدي ثم قال «ذريني أتعبد لربي عز وجل»، قالت، فقلت: والله إني لأحب قربك، وإني أحب أن تعبد ربك، فقام إلى القربة فوضأ ولم يكثر صب الماء، ثم قام يصلي فبكى حتى بلّ لحيته، ثم سجد فبكى حتى بلّ الأرض، ثم اضطجع على جنبه فبكى حتى إذا أتى بلال يؤذنه بصلاة الصبح، قالت، فقال: يا رسول الله ما يبكيك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: «ويحك يا بلال وما يمنعني أن أبكي وقد أنزل الله عليّ في هذه الليلة: ﴿إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب﴾»، ثم قال: «ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها»^(٢).

فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنْكُمْ مِّمَّنْ ذَكَرَ أَوْ أَنْتِي بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضِ الْفَالِدِينَ هَاجِرُوا
وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَوْذُوا فِي سَبِيلِي وَقَتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَا أُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّتِ تَجْرِي
مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾

يقول الله تعالى: ﴿فاستجاب لهم ربهم﴾ أي فاجابهم ربهم كما قال الشاعر:

وداعٍ دعا يا من يجيب إلى النداء فلم يستجبه عند ذلك مجيب

عن أم سلمة قالت: يا رسول الله، لا نسمع الله ذكر النساء في الهجرة بشيء، فأنزل الله تعالى: ﴿فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى﴾ إلى آخر الآية، وقالت الأنصار: هي أول طعينة قدمت علينا، ومعنى الآية أن المؤمنين ذوي الألباب لما سألوا ما سألوا مما تقدم ذكره فاستجاب لهم ربهم، عقب ذلك بفاء التعقيب، كما قال تعالى: ﴿وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان﴾. وقوله تعالى: ﴿أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى﴾ هذا تفسير للاجابة أي قال لهم مخبراً أنه لا يضيع عمل عامل لديه، بل يوفي كل عامل بقسط عمله من ذكر أو أنثى، وقوله: ﴿بعضكم من بعض﴾ أي جميعكم في ثوابي سواء، ﴿فالذين هاجروا﴾ أي تركوا دار الشرك وأتوا إلى دار الإيمان، وفارقوا الأحباب والإخوان والخلان والجيران، ﴿وأخرجوا من ديارهم﴾ أي ضايقتهم المشركون بالأذى حتى ألبأهم إلى الخروج من بين أظهرهم، ولهذا قال: ﴿وأوذوا في سبيلي﴾ أي إنما كان ذنبهم إلى الناس أنهم آمنوا بالله وحده كما قال تعالى: ﴿يخرجون

(١) رواه ابن مردويه عن ابن عباس.

(٢) رواه ابن مردويه وعبد بن حميد.

الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم ﴿١٩٦﴾ ، وقال تعالى: ﴿وما تقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد﴾ ، وقوله تعالى: ﴿وقاتلوا وقتلوا﴾ وهذا أعلى المقامات أن يقاتل في سبيل الله فيعقر جواده ويعفر وجهه بدمه وترابه، وقد ثبت في الصحيحين أن رجلاً قال: يا رسول الله! أرأيت إن قتلت في سبيل الله صابراً محتسباً مقبلاً غير مدبر، أبكفر الله عني خطاياي؟ قال: «نعم»، ثم قال: «كيف قلت؟ فأعاد عليه ما قال، فقال: «نعم، إلا الدين قاله لي جبريل آنفاً»، ولهذا قال تعالى: ﴿لأكفرن عنهم سيئاتهم ولأدخلنهم جنات تجري من تحتها الأنهار﴾ أي تجري في خلالها الأنهار من أنواع المشارب من لبن وعسل وخمر وماء غير آسن، وغير ذلك مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. وقوله: ﴿ثواباً من عند الله﴾ أضافه إليه ونسبه إليه ليدل على أنه عظيم، لأن العظيم الكريم لا يعطي إلا جزيلاً كثيراً كما قال الشاعر:

إن يعذب يكن غراماً وإن يعط جزيلاً فإنه لا يبالي

وقوله تعالى: ﴿والله عنده حسن الثواب﴾ أي عنده حسن الجزاء لمن عمل صالحاً .

لَا يَغْرَنَكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبَلَدِ ﴿١٩٧﴾ مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٩٨﴾ لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نَزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ ﴿١٩٩﴾

ومعناه : لا تنظر إلى ما هؤلاء الكفار مترفون فيه من النعمة والغبطة والسرور، فعما قليل يزول هذا كله عنهم، ويصبحون مرتنين بأعمالهم السيئة، فإنما نمد لهم فيما هم فيه استدراجاً، وجميع ما هم فيه ﴿متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد﴾ ، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿ما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا فلا يغرك تقلبهم في البلاد﴾ ، وقال تعالى: ﴿متاع في الدنيا ثم إلينا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون﴾ ، وقال تعالى: ﴿نمتعهم قليلاً ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ﴾ ، وقال تعالى: ﴿فهل الكافرين أمهلهم رويداً﴾ أي قليلاً، وقال تعالى: ﴿أفمن وعدناه وعداً حسناً فهو لاقيه كمن متعناه متاع الحياة الدنيا ثم هو يوم القيامة من المحضرين﴾ ؟ وهكذا لما ذكر حال الكفار في الدنيا وذكر أن مآلهم إلى النار قال بعده: ﴿لكن الذين اتقوا ربهم لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدون فيها نزلًا من عند الله وما عند الله خير للأبرار﴾ . عن عبد الله بن عمرو قال: إنما سماهم الله الأبرار لأنهم بروا الآباء والأبناء، كما أن لوالديك عليك حقاً، كذلك لولدك عليك حق . وعن أبي الدرداء أنه كان يقول: ما من مؤمن إلا والموت خير له، وما من كافر إلا والموت خير له، ومن لم يصدقني فإن الله يقول: ﴿وما عند الله خير للأبرار﴾ ، ويقول: ﴿ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملي لهم خير لأنفسهم، إنما نملي لهم ليزدادوا إثماً ولهم عذاب مهين﴾ (١) .

وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتُرُونَ

بِعَايَتِ اللَّهِ ثَمناً قَلِيلاً أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا
أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾

يخبر تعالى عن طائفة من أهل الكتاب أنهم يؤمنون بالله حق الإيمان، ويؤمنون بما أنزل على محمد مع ما هم مؤمنون به من الكتب المتقدمة، وأنهم خاشعون لله أي مطيعون له خاضعون متذللون بين يديه، لا يشترطون بآيات الله ثمناً قليلاً أي لا يكتبون ما بأيديهم من البشارة بمحمد ﷺ، وذكر صفته ونعته ومبعثه وصفة أمته، وهؤلاء هم خيرة أهل الكتاب وصفوتهم سواء كانوا هوداً أو نصارى، وقد قال تعالى: ﴿الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون﴾ الآية. وقال تعالى: ﴿الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته أولئك يؤمنون به﴾ الآية. وقد قال تعالى: ﴿ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون﴾، وقال تعالى: ﴿ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون﴾، وقال تعالى: ﴿إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجداً ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولاً﴾. وهذه الصفات توجد في اليهود ولكن قليلاً، كما وجد في (عبد الله بن سلام) وأمثاله ممن آمن من أحبار اليهود ولم يبلغوا عشرة أنفس، وأما النصارى فكثير منهم يهتدون وينقادون للحق، كما قال تعالى: ﴿لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى﴾، إلى قوله تعالى: ﴿فأتابهم الله بما قالوا جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها﴾ الآية. وهكذا قال ههنا: ﴿أولئك لهم أجرهم عند ربهم﴾ الآية.

وقد ثبت في الحديث أن جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه لما قرأ سورة ﴿كهيعص﴾ بحضرة النجاشي ملك الحبشة وعنده البطارقة والقساوسة بكى وبكوا معه حتى أخضبوا لحامه، وثبت في الصحيحين أن النجاشي لما مات نعاه النبي ﷺ إلى أصحابه، وقال: ﴿إن أخصاً لكم بالحبشة قد مات فصلوا عليه﴾ فخرج إلى الصحراء فصفهم وصلى عليه، وروى ابن أبي حاتم، عن أنس بن مالك قال: لما توفي النجاشي، قال رسول الله ﷺ: «استغفروا لأخيكم»، فقال بعض الناس: يأمرنا أن نستغفر لعلج مات بأرض الحبشة، فترلت: ﴿وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم خاشعين لله﴾ الآية. وقال ابن أبي نجیح عن مجاهد: ﴿وإن من أهل الكتاب﴾ يعني مسلمة أهل الكتاب، وقال عباد بن منصور: سألت الحسن البصري عن قول الله: ﴿وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله﴾ الآية، قال: هم أهل الكتاب الذين كانوا قبل محمد ﷺ فاتبعوه وعرفوا الإسلام فأعطاهم الله تعالى أجر اثنين، للذي كانوا عليه من الإيمان قبل محمد ﷺ، واتباعهم محمداً ﷺ.

وقد ثبت في الصحيحين عن أبي موسى قال، قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين» فذكر منهم رجلاً من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بي، وقوله تعالى: ﴿لا يشترطون بآيات الله ثمناً قليلاً﴾ أي لا يكتبون ما بأيديهم من العلم كما فعلته الطائفة المردولة منهم بل يبذلون ذلك مجاناً، ولهذا قال تعالى: ﴿أولئك لهم أجرهم عند ربهم إن الله سريع الحساب﴾ قال مجاهد: سريع الحساب يعني سريع الإحصاء.

وقوله تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا ﴾ قال الحسن البصري: أمروا أن يصبروا على دينهم الذي ارتضاه الله لهم وهو الإسلام، فلا يدعوه لسراء ولا لضرء ولا لشدة ولا لرخاء، حتى يموتوا مسلمين، وأن يصابروا الأعداء الذين يكتمون دينهم، وكذلك قال غير واحد من علماء السلف، وأما المرابطة فهي المداومة في مكان العبادة والثبات وقيل: انتظار الصلاة بعد الصلاة قاله ابن عباس ويشهد له حديث: « ألا أخبركم بما يحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات !! إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطا إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرباط، فذلكم الرباط، فذلكم الرباط »^(١). وعن أبي سلمة بن عبد الرحمن قال: أقبل عليّ أبو هريرة يوماً فقال: أتدري يا ابن أخي فيم نزلت هذه الآية؟ ﴿ يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا ﴾ قلت: لا، قال: أما إنه لم يكن في زمان النبي ﷺ غزو يرابطون فيه، ولكنها نزلت في قوم يعمرن المساجد ويصلون الصلاة في مواقيتها، ثم يذكرون الله فيها فعليهم أنزلت: ﴿ اصبروا ﴾ أي على الصلوات الخمس، ﴿ وصابروا ﴾ أنفسكم وهواكم، ﴿ ورابطوا ﴾ في مساجدكم، ﴿ واتقوا الله ﴾ فيما عليكم ﴿ لعلمكم تفلحون ﴾.

وعن جابر بن عبد الله قال، قال رسول الله ﷺ: « ألا أدلكم على ما يحو الله به الخطايا ويكفر به الذنوب؟ » قلنا: بلى، يا رسول الله، قال: « إسباغ الوضوء في أماكنها وكثرة الخطا إلى المساجد وانتظار الصلاة بعد الصلاة فذلكم الرباط »^(٢). وقيل: المراد بالمرابطة ههنا (مرابطة الغزو) في نحور العدو، وحفظ ثغور الإسلام، وصيانتها عن دخول الأعداء إلى حوزة بلاد المسلمين وقد وردت الأخبار بالترغيب في ذلك وذكر كثرة الثواب فيه، فروى البخاري في صحيحه عن سهل بن سعد الساعدي أن رسول الله ﷺ قال: « رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها ».

(حديث آخر) : روى مسلم عن سلمان الفارسي عن رسول الله ﷺ أنه قال: « رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه، وإن مات جرى عليه عمله الذي كان يعمله وأجرى عليه رزقه وأمن الفتان ».

(حديث آخر) : قال ﷺ: « كل ميت يتختم له على عمله إلا المرابط في سبيل الله يجري عليه عمله حتى يبعث ويأمن الفتان »^(٣).

(حديث آخر) : عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ قال: « من مات مرابطاً في سبيل الله أجرى عليه عمله الصالح الذي كان يعمله، وأجرى عليه رزقه، وأمن من الفتان وبعثه الله يوم القيامة آمناً من الفزع الأكبر »^(٤).

(طريق أخرى) : قال الإمام أحمد، عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: « من مات مرابطاً وفي فتنة القبر وأمن من الفزع الأكبر وغدا عليه ربح برزقه من الجنة وكتب له أجر المرابط إلى يوم القيامة ».

(طريق أخرى) : قال الترمذي، عن أبي صالح مولى عثمان بن عفان، قال: سمعت عثمان وهو على المنبر يقول

(١) رواه مسلم والنسائي .

(٢) أخرجه ابن مردويه والحاكم .

(٣) رواه الإمام أحمد عن عقبة بن عامر .

(٤) رواه ابن ماجه في سننه .

إني كتمتكم حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ كراهية تفرقكم عني ثم بدا لي أن أحدثكموه ليختار امرؤ لنفسه ما بدا له، سمعت رسول الله ﷺ يقول: « رباط يوم في سبيل الله خير من ألف يوم فيما سواه من المنازل » .

(حديث آخر) : قال الترمذي: مرّ سلمان الفارسي بشرجيل بن السمط وهو في مرابطة له وقد شق عليه وعلى أصحابه فقال: ألا أحدثك يا ابن السمط بحديث سمعته من رسول الله ﷺ؟ قال: بلى، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « رباط يوم في سبيل الله أفضل - أو قال خير - من صيام شهر وقيامه، ومن مات فيه وفي فنة القبر ونمي له عمله إلى يوم القيامة » .

(حديث آخر) : قال أبو داود: عن سهل بن الحنظلة أنهم ساروا مع رسول الله ﷺ يوم حنين حتى كانت عشية، فحضرت الصلاة مع رسول الله ﷺ، فجاء رجل فارس فقال: يا رسول الله إني انطلقت بين أيديكم حتى طلعت جبل كذا وكذا، فإذا أنا بهوازن على بكرة أبيهم بظعنهم ونعمهم وشياهم، فتبسم النبي ﷺ وقال: « تلك غنيمة المسلمين غداً إن شاء الله »، ثم قال: « من يحرسنا الليلة؟ » قال أنس بن أبي مرثد: أنا يا رسول الله، قال: « فاركب »، فركب فرساً، فجاء إلى رسول الله ﷺ، فقال له رسول الله ﷺ: « استقبل هذا الشعب حتى تكون في أعلاه ولا تغز من قبلك الليلة »، فلما أصبحنا خرج رسول الله ﷺ إلى مصلاه فركع ركعتين، فقال: « هل أحسستم فارسكم؟ »، فقال رجل: يا رسول الله ما أحسنناه، فتؤب بالصلاة، فجعل النبي ﷺ وهو يصلي يلتفت إلى الشعب، حتى إذا قضى صلاته، قال: « أبشروا فقد جاءكم فارسكم »، فجعلنا نلظ في خلال الشجر في الشعب فإذا هو قد جاء، حتى وقف على النبي ﷺ فقال: إني انطلقت حتى كنت في أعلى هذا الشعب حيث أمرتني، فلما أصبحنا طلعت الشعبين كليهما، فنظرت فلم أر أحداً، فقال له رسول الله ﷺ: « هل نزلت الليلة؟ » قال: لا، إلا مصلياً أو قاضي حاجة، فقال له: « أوجبت فلا عليك أن لا تعمل بعدها »^(١).

(حديث آخر) : قال الإمام أحمد بسنده عن أبي ريحانة، قال: كنا مع رسول الله ﷺ في غزوة فأتينا ذات ليلة إلى شرف فبتنا عليه، فأصابنا برد شديد حتى رأيت من يحفر في الأرض يدخل فيها ويلقي عليه الحجفة (يعني الترس) فلما رأى ذلك رسول الله ﷺ من الناس نادى: « من يحرسنا هذه الليلة فأدعوه بدعاء يكون له فيه فضل؟ » فقال رجل من الأنصار: أنا يا رسول الله، قال: « ادن »، فدنا منه، فقال: « من أنت؟ » فتسمى له الأنصاري، ففتح رسول الله ﷺ بالدعاء فأكثر منه. قال أبو ريحانة: فلما سمعت ما دعا به قلت: أنا رجل آخر، فقال: « ادن »، فدنوت، فقال: « من أنت؟ » قال، فقلت: أبو ريحانة، فدعا بدعاء دون ما دعا به للأنصاري، ثم قال: « حرمت النار على عين دمعت - أو بكت - من خشية الله، وحرمت النار على عين سهرت في سبيل الله »، وروى النسائي منه: « حرمت النار » إلى آخره .

(حديث آخر) : قال الترمذي، عن ابن عباس قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « عينان لا تمسهما النار، عين بكت من خشية الله، وعين باتت تحرس في سبيل الله » .

(حديث آخر) : روى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة قال، قال رسول الله ﷺ: « تعس عبد الدينار

(١) أخرجه أبو داود والنسائي في السنن .

وعبد الدرهم وعبد الخميصة^(١)، إن أعطي رضي، وإن لم يعط سخط، تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش^(٢)، طوبى لعبد أخذ بعنان فرسه في سبيل الله، أشعث رأسه، مغبرة قدماه، إن كان في الحراسة كان في الحراسة^(٣)، وإن كان في الساقية كان في الساقية، إن استأذن لم يؤذن له، وإن شفع لم يشفع». فهذا آخر ما تيسر إيراده من الأحاديث المتعلقة بهذا المقام، والله الحمد على جزيل الأنعام، على تعاقب الأعوام والأيام.

تنبيه: قال ابن جرير: كتب أبو عبيدة إلى عمر بن الخطاب يذكر له جموعاً من الروم وما يتخوف منهم، فكتب إليه عمر: أما بعد، فإنه مهما يتزل بعد مؤمن من منزلة شدة يجعل الله له بعدها فرجاً، وإنه لن يغلب عسر يسرين، وإن الله تعالى يقول: ﴿يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون﴾. وروى الحافظ ابن عساكر عن محمد بن إبراهيم بن أبي سكينه قال: أملى عليّ عبد الله بن المبارك هذه الآيات بطرسوس وأنشدها إلى (الفضيل بن عياض) في سنة سبعين ومائة:

يا عابد الحرمين لو أبصرتنا لعلمت أنك في العبادة تلعب
من كان يخضب خده بدموعه فنحورنا بدمائنا تتخضب
أو كان يتعب خيله في باطل فخيولنا يوم الصبيحة تتعب
ريح العبير لكم ونحن عبرنا رهج السناكب والغبار الأطيب
ولقد أتانا من مقال نبينا قول صحيح صادق لا يكذب
لا يستوي غبار خيل الله في أنف امرئ ودخان نار تلهب
هذا كتاب الله ينطق بيننا ليس الشهيد بميت لا يكذب

قال: فلقيت الفضيل بن عياض بكتابه في المسجد الحرام، فلما قرأه ذرفت عيناه وقال: صدق أبو عبد الرحمن ونصحني، ثم قال: أنت ممن يكتب الحديث؟ قال، قلت: نعم، قال: فاكتب هذا الحديث كراء حملك كتاب أبي عبد الرحمن إلينا، وأملى عليّ الفضيل بن عياض: حدثنا منصور بن المعتمر عن أبي صالح عن أبي هريرة أن رجلاً قال: يا رسول الله علمني عملاً أنال به ثواب المجاهدين في سبيل الله، فقال: «هل تستطيع أن تصلي فلا تفتّر، وتصوم فلا تفطر؟» فقال: يا رسول الله أنا أضعف من أن أستطيع ذلك، ثم قال النبي ﷺ: «فوالذي نفسي بيده لو طوّقت ذلك ما بلغت المجاهدين في سبيل الله، أو ما علمت أن الفرس المجاهد ليستن في طوله فيكتب له بذلك الحسنات؟! وقوله تعالى: ﴿واتقوا الله﴾ أي في جميع أموركم وأحوالكم، كما قال النبي ﷺ لمعاذ حين بعثه إلى اليمن: «اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن»، ﴿لعلكم تفلحون﴾ أي في الدنيا والآخرة.

انتهى تفسير سورة آل عمران، والله الحمد والمنة، ونسأله الموت على الكتاب والسنة آمين.

(١) الخميصة: الثوب المخطّط. (٢) قوله (فلا انتقش) قال الحافظ في الفتح: أي إذا أصابته الشوكة فلا وجد من يخرجها منه بالناقش. (٣) قال ابن الجوزي: المعنى أنه خامل الذكر لا يقصد السمو والرفعة.

(٤) سُورَةُ النِّسَاءِ مَدَنِيَّةٌ
وَأَيُّهَا سِتُّ وَسَبْعُونَ وَمِائَةٌ

قال العوفي عن ابن عباس: نزلت سورة النساء بالمدينة، وقال عبد الله بن مسعود: إن في سورة النساء لخمس آيات ما يسرني أن لي بها الدنيا وما فيها: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ الآية، ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ الآية، و﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾، و﴿لَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاؤُكَ﴾ الآية، وقوله ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ رواه ابن جرير .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَأْتِيهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً
وَآتَقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ ۚ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾

يأمر الله تعالى خلقه بتقواه، وهي عبادته وحده لا شريك له، ومنها لهم على قدرته التي خلقهم بها من نفس واحدة ﴿وهي آدم عليه السلام﴾ وخلق منها زوجها ﴿وهي حواء عليها السلام﴾ خلقت من ضلعه الأيسر من خلفه وهو نائم فاستيقظ فأراها فأعجبه، فأنس إليها وأنست إليه. وقال ابن أبي حاتم عن ابن عباس: خلقت المرأة من الرجل فجعلت نبتها في الرجل، وخلق الرجل من الأرض فجعلت نهمته في الأرض فاحبسوا نساءكم^(١)، وفي الحديث الصحيح: «إن المرأة خلقت من ضلع، وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه، فإن ذهبت تقيمه كسرته، وإن استمعت بها استمعت بها وفيها عوج». وقوله: ﴿وبث منهما رجالا كثيرا ونساء﴾ أي وذرا منهما: أي من آدم وحواء رجالا كثيرا ونساء، ونشرهم في أقطار العالم على اختلاف أصنافهم وصفاتهم وألوانهم ولغاتهم، ثم إليه بعد ذلك المعاد والمحشر، ثم قال تعالى: ﴿واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام﴾ أي واتقوا الله بطاعتكم إياه، قال مجاهد والحسن: ﴿الذي تساءلون به﴾ أي كما يقال أسألك بالله وبالرحم، وقال الضحاك: واتقوا الله الذي تعاقدون وتعاهدون به واتقوا الأرحام أن تقطعوها ولكن بروها وصلوها قاله ابن عباس وعكرمة. وقرأ بعضهم: ﴿والأرحام﴾ بالخفض عطفاً على الضمير في (به) أي تساءلون بالله وبالأرحام كما قال مجاهد وغيره. وقوله: ﴿إن الله كان عليكم رقيباً﴾ أي هو مراقب لجميع أحوالكم وأعمالكم، كما قال: ﴿والله على

(١) رواه ابن أبي حاتم عن قتادة عن ابن عباس .

كل شيء شهيد ﴿١﴾؛ وفي الحديث الصحيح: «عبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»، وهذا إرشاد وأمر بمراقبة الرقيب، ولهذا ذكر تعالى أن أصل الخلق من أب واحد وأم واحدة، ليعطف بعضهم على بعض ويحثهم على ضعفاتهم، وقد ثبت في صحيح مسلم من حديث (جرير بن عبد الله البجلي): أن رسول الله ﷺ حين قدم عليه أولئك النفر من مضر - وهم مجتابو النمار أي من عربهم وفقدهم - قام فخطب الناس بعد صلاة الظهر، فقال في خطبته: ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة﴾ حتى ختم الآية، ثم قال: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد﴾ ثم حضهم على الصدقة، فقال: «تصدق رجل من ديناره، من درهمه، من صاع بره، من صاع تمره»^(١) وذكر تمام الحديث .

وَأَتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٢﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مِثْنِي وَثُلُث وَرُبْعٍ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةٌ أَوْ مَمْلُوكَةٌ أَيْمَنُكُمْ ذَلِكَ أَذَىٰٓ إِلَّا تَعْوَلُوا ﴿٣﴾ وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدُقَتَيْنِ نَحْلَةً فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا ﴿٤﴾

يأمر تعالى بدفع أموال اليتامى إليهم إذا بلغوا الحلم كاملة موفرة، وينهى عن أكلها وضمها إلى أموالهم، ولهذا قال: ﴿ولا تبدلوا الخبيث بالطيب﴾. قال سفيان الثوري: لا تعجل بالرزق الحرام قبل أن يأتيك الرزق الحلال الذي قدر لك، وقال سعيد بن جبير: لا تبدلوا الحرام من أموال الناس بالحلال من أموالكم، يقول: لا تبدلوا أموالكم الحلال وتأكلوا أموالهم الحرام، وقال سعيد بن المسيب: لا تعط مهزولا وتأخذ سمينا، وقال الضحاك: لا تعط زيفا وتأخذ جيدا، وقال السدي: كان أحدهم يأخذ الشاة السمينة من غم اليتيم، ويجعل مكانها الشاة المهزولة، ويقول: شاة بشاة، ويأخذ الدرهم الجيد وي طرح مكانه الزيف ويقول درهم بدرهم. وقوله: ﴿ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم﴾، قال مجاهد وسعيد بن جبير: أي لا تملطوها فتأكلوها جميعا، وقوله: ﴿إنه كان حوبا كبيرا﴾ قال ابن عباس: أي إثما عظيما. وفي الحديث المروي في سنن أبي داود: «اغفر لنا حوبنا وخطايانا» وروى ابن مردويه بإسناده عن ابن عباس: أن أبا أيوب طلق امرأته، فقال له النبي ﷺ: «يا أبا أيوب إن طلاق أم أيوب كان حوبا» قال ابن سيرين: الحوب الاثم، وعن أنس: أن أبا أيوب أراد طلاق أم أيوب، فاستأذن النبي ﷺ فقال: «إن طلاق أم أيوب لحوب» فأمسكها. والمعنى: إن أكلكم أموالهم مع أموالكم اثم عظيم وخطأ كبير فاجتنبوه .

وقوله: ﴿وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى﴾ أي إذا كان تحت حجر أحدكم يتيمة، وخاف أن لا يعطيها مهر مثلها فليعدل إلى ما سواها، فإنهن كثير ولم يضيق الله عليه، وقال البخاري عن عائشة: أن رجلا كانت له يتيمة فنكحها وكان لها عذق، وكان يمسكها عليه، ولم يكن لها من نفسه شيء فترلت

(١) هو جزء من حديث أخرجه مسلم وأصحاب السنن عن ابن مسعود في خطبة الحاجة .

فيه، ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَقْسُطُوا ﴾ أحسبه قال: كانت شريكته في ذلك العذق وفي ماله، ثم قال البخاري: عن ابن شهاب قال: أخبرني عروة بن الزبير أنه سأل عائشة عن قول الله تعالى ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَقْسُطُوا فِي الْيَتَامَى ﴾ قالت: يا ابن أخي هذه اليتيمة تكون في حجر وليها تشركه في ماله ويعجبه مالها وجمالها، فيريد وليها أن يتزوجها بغير أن يُقْسَطَ في صداقها فيعطيها مثل ما يعطيها غيره، فنهوا أن ينكحوهن إلا أن يقسطوا إليهن، وبلغوا بهن أعلى سنتهن في الصداق، وأمروا أن ينكحوا ما طاب لهم من النساء سواهن، قال عروة: قالت عائشة: وإن الناس استفتوا رسول الله ﷺ بعد هذه الآية فأنزل الله: ﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ ﴾ قالت عائشة: وقول الله في الآية الأخرى: ﴿ وَتُرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ ﴾ رغبة أحدكم عن يتيمته إذا كانت قليلة المال والجمال، فنهوا أن ينكحوا من رغبوا في مالها وجمالها من النساء إلا بالقسط من أجل رغبتهم عنهن إذا كن قليلات المال والجمال .

وقوله: ﴿ مَثْنَى وَثِلَاتٍ وَرِبَاعٍ ﴾ أي انكحوا ما شئتم من النساء سواهن إن شاء أحدكم ثنتين، وإن شاء ثلاثاً، وإن شاء أربعاً، كما قال الله تعالى: ﴿ جَاعِلُ الْمَلَائِكَةِ رِسَالًا أُولَىٰ أَجْنَحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثِلَاتٍ وَرِبَاعٍ ﴾ أي منهم من له جناحان، ومنهم من له ثلاثة، ومنهم من له أربعة، ولا ينفي ما عدا ذلك في الملائكة لدلالة الدليل عليه، بخلاف قصر الرجال على أربع فن هذه الآية كما قال ابن عباس وجمهور العلماء، لأن المقام مقام امتنان وإباحة، فلو كان يجوز الجمع بين أكثر من أربع لذكره، قال الشافعي: وقد دلت سنة رسول الله ﷺ المبينة عن الله أنه لا يجوز لأحد غير رسول الله ﷺ أن يجمع بين أكثر من أربع نسوة، وهذا الذي قاله الشافعي مجمع عليه بين العلماء، إلا ما حكي عن طائفة من الشيعة أنه يجوز الجمع بين أكثر من أربع إلى تسع، وقال بعضهم: بلا حصر. وقد يتمسك بعضهم بفعل رسول الله ﷺ في جمعه بين أكثر من أربع إلى تسع كما ثبت في الصحيح، وهذا عند العلماء من خصائصه دون غيره من الأمة لما سنذكره من الأحاديث الدالة على الحصر في أربع، ولندكر الأحاديث في ذلك. قال الإمام أحمد عن سالم عن أبيه: أن (غيلان بن سلمة الثقفي) أسلم وتحتة عشر نسوة، فقال له النبي ﷺ: « اختر منهن أربعاً »، فلما كان في عهد عمر طلق نساءه، وقسم ماله بين بنيه، فبلغ ذلك عمر فقال: إني لأظن الشيطان فيما يسترق من السمع سمع بموتك فقفذه في نفسك، ولعلك لا تلبث إلا قليلاً، وإيم الله لتراجعن نساءك ولترجعن مالك أو لأورثن منك ولأمرن بقبرك فيرجم كما رجم قبر أبي رغال^(١) . وعن ابن عمر: أن (غيلان بن سلمة) كان عنده عشر نسوة، فأسلم وأسلمن معه فأمره النبي ﷺ أن يختار منهن أربعاً، هكذا أخرجه النسائي في سننه. فوجه الدلالة أنه لو كان يجوز الجمع بين أكثر من أربع لسوغ له رسول الله ﷺ سائرهن في بقاء العشرة وقد أسلمن، فلما أمره بإسناك أربع وفراق سائرهن، دل على أنه لا يجوز الجمع بين أكثر من أربع بحال، فإذا كان هذا في الدوام، ففي الاستثناف بطريق الأولى والأخرى، والله سبحانه أعلم بالصواب .

(حديث آخر) قال الشافعي في مسنده عن نوفل بن معاوية الديلي قال: أسلمت وعندني خمس نسوة، فقال لي رسول الله ﷺ « اختر أربعاً أبتهن شئت وفارق الأخرى »، فعمدت إلى أقدمهن صحبة، عجوز عاقر

(١) رواه الترمذي وابن ماجه والدارقطني إلى قوله: ﴿ اختر منهن أربعاً ﴾ والباقي من رواية أحمد .

معي منذ ستين سنة فطلقتها، فهذه كلها شواهد لحديث غيلان كما قاله البيهقي، وقوله: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ أي إن خفتم من تعداد النساء أن لا تعدلوا بينهن كما قال تعالى: ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ فمن خاف من ذلك فليقتصر على واحدة أو على الجوارى السراري، فإنه لا يجب قسم بينهن، ولكن يستحب، فمن فعل فحسن ومن لا فلا حرج. وقوله: ﴿ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا﴾ قال بعضهم: ذلك أدنى أن لا تكثر عيالكم قاله زيد بن أسلم والشافعي وهو مأخوذ من قوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً﴾ أي فقراً ﴿فَسَوْفَ يَغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ﴾ وقال الشاعر:

فما يدري الفقير متى غناه وما يدري الغني متى يعيل؟

وتقول العرب: عال الرجل يعيل عيلة إذا افتقر، ولكن في هذا التفسير ههنا نظر، فإنه كما يخشى كثرة العائلة من تعداد الحرائر كذلك يخشى من تعداد السراري أيضاً، والصحيح قول الجمهور: ﴿ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا﴾ أي لا تجوروا يقال: عال في الحكم إذا قسط وظلم وجار، وقال أبو طالب في قصيدته المشهورة:

بميزان قسط لا يخيس شعيرةً له شاهد من نفسه غير عائل

عن عائشة عن النبي ﷺ ﴿ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا﴾ قال: «لا تجوروا»، روي مرفوعاً والصحيح عن عائشة أنه موقوف، وروي عن ابن عباس وعائشة ومجاهد أنهم قالوا: لا تميلوا.

وقوله تعالى: ﴿وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدَقَاتِهِنَّ نِحْلَةً﴾ قال ابن عباس: النحلة: المهر وعن عائشة نحلة: فريضة، وقال ابن زيد: النحلة في كلام العرب الواجب، يقول: لا تنكحها إلا بشيء واجب لها، وليس ينبغي لأحد بعد النبي ﷺ أن ينكح امرأة إلا بصداق واجب، ومضمون كلامهم أن الرجل يجب عليه دفع الصداق إلى المرأة حتماً، وأن يكون طيب النفس بذلك، كما يمنح المنيحة ويعطي النحلة طيباً، كذلك يجب أن يعطي المرأة صداقها طيباً بذلك، فإن طابت هي له به بعد تسميته أو عن شيء منه فليأكله حلالاً طيباً، ولهذا قال: ﴿فَإِنْ طَبِنَ لَكُمْ مِنْ شَيْءٍ مِنْهُ فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا﴾. وقال هشيم: كان الرجل إذا زوج بنته أخذ صداقها دونها فنهاهم الله عن ذلك ونزل: ﴿وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدَقَاتِهِنَّ نِحْلَةً﴾^(١).

وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَمًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴿٥٠﴾ وَأَبْتَلُوا أَلْيَنَّمَا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ ﴿٥١﴾ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿٥٢﴾

ينهى سبحانه وتعالى عن تمكين السفهاء من التصرف في الأموال، التي جعلها الله للناس قياماً، أي تقوم بها

(١) رواه ابن أبي حاتم وابن جرير.

معاشهم من التجارات وغيرها، ومن ههنا يؤخذ [الحجر على السفهاء] وهم أقسام: فتارة يكون الحجر للصغير، فإن الصغير مسلوب العبارة، وتارة يكون الحجر للجنون، وتارة لسوء التصرف لنقص العقل أو الدين، وتارة للفلس وهو ما إذا أحاطت الديون برجل وضاق ماله عن وفائها، فإذا سأل الغرماء الحاكم الحجر عليه حجر عليه، وقال ابن عباس في قوله: ﴿وَلَا تَوْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ﴾ قال: هم بنوك والنساء، وقال الضحاك: هم النساء والصبيان، وقال سعيد بن جبیر: هم اليتامى، وقال مجاهد وعكرمة: هم النساء، وقال ابن أبي حاتم عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ النِّسَاءَ سَفَهَاءٌ إِلَّا الَّتِي أَطَاعَتْ قِيَمَهَا»^(١). وقوله: ﴿وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ قال ابن عباس: لا تعتمد إلى مالك وما خولك الله وجعله لك معيشة، فتعطيها امرأتك أو بنتك، ثم تنظر إلى ما في أيديهم، ولكن أمسك مالك وأصلحه، وكن أنت الذي تنفق عليهم من كسوتهم ومؤنتهم ورزقهم. وقال ابن جرير عن أبي موسى قال: ثلاثة يدعون الله فلا يستجيب لهم، رجل له امرأة سيئة الخلق فلم يطلقها، ورجل أعطى ماله سفيهاً. وقد قال الله: ﴿وَلَا تَوْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ﴾، ورجل كان له على رجل دين فلم يشهد عليه. وقال مجاهد: ﴿وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ يعني في البر والصلة، وهذه الآية الكريمة تضمنت الإحسان إلى العائلة في الكساوى والأرزاق، بالكلام الطيب وتحسين الأخلاق.

وقوله تعالى: ﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَى﴾ أي اختبروهم ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ﴾ قال مجاهد: يعني الحلم، قال الجمهور من العلماء: البلوغ في الغلام تارة يكون بالحلم، وهو أن يرى في منامه ما ينزل به الماء الدافق الذي يكون منه الولد، وعن علي: قال حفظت من رسول الله ﷺ «لَا يَتِمُّ بَعْدَ احْتِلَامٍ وَلَا صِمَاتٍ يَوْمَ إِلَى اللَّيْلِ». وفي الحديث الآخر عن عائشة وغيرها من الصحابة عن النبي ﷺ قال: «رَفَعَ الْقَلَمَ عَنِ الثَّلَاثَةِ عَنِ الصَّبِيِّ حَتَّىٰ يَحْلُمَ - أَوْ يَسْتَكْمِلَ خَمْسَ عَشْرَةَ سَنَةً - وَعَنِ النَّائِمِ حَتَّىٰ يَسْتَيْقِظَ، وَعَنِ الْمَجْنُونِ حَتَّىٰ يَفِيْقَ»، وأخذوا ذلك من الحديث الثابت في الصحيحين عن ابن عمر قال: عُرِضَتْ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ يَوْمَ أُحُدٍ وَأَنَا ابْنُ أَرْبَعِ عَشْرَةَ فَلَمْ يَجْزِنِي، وَعَرَضَتْ عَلَيْهِ يَوْمَ الْخَنْدَقِ وَأَنَا ابْنُ خَمْسِ عَشْرَةَ سَنَةً فَأَجَازَنِي، فَقَالَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ لَمَّا بَلَغَهُ هَذَا الْحَدِيثُ: إِنَّ هَذَا الْفَرْقَ بَيْنَ الصَّغِيرِ وَالْكَبِيرِ، وَقَالَ أَبُو عُبَيْدٍ فِي الْغَرِيبِ عَنِ عُمَرَ: أَنَّ غُلَامًا ابْتَهَرَ جَارِيَةً فِي شَعْرِهِ، فَقَالَ عُمَرُ: انظروا إليه فلم يوجد أنبت فدرأ عنه الحد، قال أبو عبيدة: ابتهرها أي قذفها، والابتهار: أن يقول فعلت بها وهو كاذب، فإن كان صادقاً فهو الابتيار قال الكمي في شعره:

قبیح بمثلي نعت الفتاة إما ابتهاراً وإما ابتياراً

وقوله عز وجل: ﴿فَإِنْ آتَمْتُمْ مِنْهُمْ رِشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾ يعني صلاحاً في دينهم وحفظاً لأموالهم كذا روي عن ابن عباس والحسن البصري وغير واحد من الأئمة، وهكذا قال الفقهاء: إذا بلغ الغلام مصلحاً لدينه وماله انفك الحجر عنه، فيسلم إليه ماله الذي تحت يد وليه، وقوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوها إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبُرُوا﴾، ينهى تعالى عن أكل أموال اليتامى من غير حاجة ضرورية ﴿إِسْرَافًا وَبِدَارًا﴾ أي مبادرة قبل بلوغهم، ثم قال تعالى: ﴿وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ﴾ عنه ولا يأكل منه شيئاً، وقال الشعبي: هو عليه كالميتة والدم،

(١) أخرجه ابن أبي حاتم ورواه ابن مردويه مطولاً.

﴿ومن كان فقيراً فليأكل بالمعروف﴾ نزلت في والي اليتيم الذي يقوم عليه ويصلحه إذا كان محتاجاً أن يأكل منه. عن عائشة قالت: أنزلت هذه الآية في والي اليتيم ﴿ومن كان غنياً فليستعفف ومن كان فقيراً فليأكل بالمعروف﴾ بقدر قيامه عليه. قال الفقهاء: له أن يأكل من أقل الأمرين أجره مثله أو قدر حاجته، واختلفوا هل يرد إذا أيسر؟ على قولين: (أحدهما) لا، لأنه أكل بأجرة عمله وكان فقيراً، وهذا هو الصحيح عند أصحاب الشافعي، لأن الآية أباحت الأكل من غير بدل.

روي أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ فقال: إن عندي يتماً عنده مال وليس لي مال، آكل من ماله؟ قال: «كل بالمعروف غير مسرف»^(١). وقال ابن جرير: جاء أعرابي إلى ابن عباس فقال: إن في حجري أيتاماً، وإن لهم إبلاً ولي إبيل، وأنا أمنح من إبلي فقراء، فماذا يحل من ألبانها؟ فقال: إن كنت تبغي ضالتها وتنها جرباها وتلوط حوضها وتسعى عليها فاشرب غير مضر بنسل، ولا ناهك في الحلب^(٢). (والثاني): نعم، لأن مال اليتيم على الحظر، وإنما أبيع للحاجة، فيرد بدله كأكل مال الغير للمضطر عند الحاجة، وقد قال ابن أبي الدنيا: قال عمر رضي الله عنه: إني أنزلت نفسي من هذا المال منزلة والي اليتيم، إن استغنيت استعفت، وإن احتجت استقرضت، فإذا أيسرت قضيت. وعن ابن عباس: ﴿ومن كان فقيراً فليأكل بالمعروف﴾، قال: يأكل من ماله يقوت على نفسه حتى لا يحتاج إلى مال اليتيم، وقال عامر الشعبي: لا يأكل منه إلا أن يضطر إليه كما يضطر إلى الميتة فإن أكل منه قضاؤه. ﴿ومن كان غنياً فليستعفف﴾ يعني من الأولياء ﴿ومن كان فقيراً﴾ أي منهم ﴿فليأكل بالمعروف﴾ أي بالتّي هي أحسن كما قال في الآية الأخرى: ﴿ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتّي هي أحسن حتى يبلغ أشده﴾ أي لا تقربوه إلا مصلحين له فإن احتجتم إليه أكلتم منه بالمعروف.

وقوله تعالى: ﴿فإذا دفعتم إليهم أموالهم﴾ يعني بعد بلوغهم الحلم وإيناسكم الرشد منهم فحينئذ سلموا إليهم أموالهم، فإذا دفعتم إليهم أموالهم ﴿فأشهدوا عليهم﴾ وهذا أمر من الله تعالى للأولياء أن يشهدوا على الأيتام إذا بلغوا الحلم وسلموا إليهم أموالهم لئلا يقع من بعضهم جحود وإنكار لما قبضه وتسلمه. ثم قال: ﴿وكفى بالله حسيباً﴾ أي وكفى بالله محاسباً وشاهداً ورقياً على الأولياء، في حال نظرهم للأيتام وحال تسليمهم لأموالهم، هل هي كاملة موفرة أو منقوصة مبخوسة؟ ولهذا ثبت في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال: «يا أبا ذر إني أراك ضعيفاً، وإني أحب لك ما أحب لنفسي: لا تأمرن على اثنين، ولا تلين مال يتيم».

لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرًا نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿٧﴾ وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَانِ وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينُ فَأَرزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴿٨﴾ وَليَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَةً ضِعَفًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا

(١) رواه ابن أبي حاتم وأبو داود والنسائي.

(٢) أخرجه ابن جرير ورواه مالك في الموطأ.

سَدِيدًا ﴿٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾

قال سعيد بن جبير وقتادة: كان المشركون يجعلون المال للرجال الكبار، ولا يورثون النساء ولا الأطفال شيئاً فأنزل الله: ﴿للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون﴾ الآية. أي الجميع فيه سواء في حكم الله تعالى، يستون في أصل الوراثة، وإن تفاوتوا بحسب ما فرض الله لكل منهم، بما يدل به إلى الميت من قرابة، أو زوجية، أو ولاء، فإنه لحمة كلحمة النسب. وروى ابن مردويه عن جابر قال: أتت أم كحة إلى رسول الله ﷺ، فقالت: يا رسول الله إن لي ابنتين قد مات أبوهما وليس لهما شيء. فأنزل الله تعالى ﴿للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون﴾ الآية. وقوله: ﴿وإذا حضر القسمة﴾ الآية. قيل: المراد: وإذا حضر قسمة الميراث ذوو القربى ممن ليس بوارث، ﴿واليتامى والمساكين﴾ فليرضخ لهم من التركة نصيب، وإن ذلك كان واجباً في ابتداء الإسلام، وقيل: يستحب، واختلفوا هل هو منسوخ أم لا؟ على قولين، فقال البخاري عن ابن عباس: هي محكمة وليست بمنسوخة، وقال عكرمة عن ابن عباس في هذه الآية: ﴿وإذا حضر القسمة أولو القربى﴾ نسختها الآية التي بعدها ﴿يوصيكم الله في أولادكم﴾. وروى العوفي عن ابن عباس: كان ذلك قبل أن تنزل الفرائض، فأنزل الله بعد ذلك الفرائض فأعطى كل ذي حق حقه، فجعلت الصدقة فيما سُمي المتوفى، وقال ابن أبي حاتم عن عطاء عن ابن عباس في قوله: ﴿وإذا حضر القسمة أولو القربى واليتامى والمساكين﴾ نسختها آية الميراث، فجعل لكل إنسان نصيبه مما ترك الوالدان والأقربون مما قل منه أو كثر. وهذا مذهب جمهور الفقهاء والأئمة الأربعة وأصحابهم، والمعنى: أنه إذا حضر هؤلاء الفقراء من القرابة الذين لا يرثون واليتامى والمساكين قسمة مال جزيل، فإن أنفسهم تنوق إلى شيء منه، إذا رأوا هذا يأخذ وهذا يأخذ وهم يائسون لا شيء يعطونه، فأمر الله تعالى وهو الرؤوف الرحيم أن يرضخ لهم شيء من الوسط يكون براً بهم وصدقة عليهم، وإحساناً إليهم وجبراً لكسرهم، كما قال الله تعالى: ﴿كلوا من ثمره إذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده﴾ ودم الذين ينقلون المال خفية خشية أن يطلع عليهم المحاويع وذوو الفاقة كما أخبر به عن أصحاب الجنة: ﴿إذ أقسموا ليصرمنها مصبحين﴾ أي بليل، وقال: ﴿فانطلقوا وهم يتخافتون﴾ أن لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين﴾ ف﴿دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها﴾ فن جحد حق الله عليه عاقبه في أعز ما يملكه .

وقوله تعالى: ﴿وليخش الذين لو تركوا من خلفهم﴾ الآية، قال ابن عباس: هذا في الرجل يحضره الموت، فيسمعه رجل يوصي بوصية تضر بورثته، فأمر الله تعالى الذي يسمعه أن يتقي الله ويوفقه ويسدده للصواب، فينظر لورثته كما كان يجب أن يصنع بورثته إذا خشي عليهم الضيعة؛ وهكذا قال مجاهد وغير واحد، وثبت في الصحيحين: أن رسول الله ﷺ لما دخل على سعد بن أبي وقاص يعوده، قال: يا رسول الله إني ذو مال ولا يرثني إلا ابنة، أفأتصدق بثلثي مالي، قال: لا، قال: فالشطر؟ قال: لا، قال: فالثلث قال: «الثلث، والثلث كثير». ثم قال رسول الله ﷺ: «إنك أن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكفون الناس». وفي الصحيح عن ابن عباس قال: لو أن الناس غضوا من الثلث إلى الربع، فإن رسول الله ﷺ قال: «الثلث، والثلث كثير» .

قال الفقهاء: إن كان ورثة الميت أغنياء استحب للميت أن يستوفي في وصيته الثلث، وإن كانوا فقراء استحب

أن ينقص الثلث؛ وقيل: المراد بالآية فليتقوا الله في مباشرة أموال اليتامى ﴿ولا يأكلوها إسرافاً وبداراً﴾ حكاية ابن جرير عن ابن عباس، وهو قول حسن يتأيد بما بعده من التهديد في أكل أموال اليتامى ظلماً، أي كما تحب أن تعامل ذريتك من بعدك، فعامل الناس في ذرايرهم إذا وليتهم، ثم أعلمهم أن من أكل أموال اليتامى ظلماً فإنما يأكل في بطنه ناراً ولهذا قال: ﴿إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً﴾ أي إذا أكلوا أموال اليتامى بلا سبب فإنما يأكلون ناراً تتأجج في بطونهم ناراً وسيصلون عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «اجتنبوا السبع الموبقات: قيل: يا رسول الله وما هن؟ قال: الشرك بالله، والسحر؛ وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق؛ وأكل الربا، وأكل مال اليتيم؛ والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات». وقال السدي: يبعث آكل مال اليتيم يوم القيامة ولهب النار يخرج من فيه ومن مسامعه وأنفه وعينه، يعرفه كل من رآه بأكل مال اليتيم، وقال ابن مردويه عن أبي برزة أن رسول الله ﷺ قال: «يبعث يوم القيامة القوم من قبورهم تأجج أفواههم ناراً» قيل يا رسول الله من هم؟ قال: ألم تر أن الله قال: ﴿إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً﴾ الآية. وعن أبي هريرة قال، قال رسول الله ﷺ: «أحرج مال الضعيفين: المرأة، واليتيم»^(١) أي أوصيكم باجتنب ما لهما.

يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلَّذِ كَرِ مِثْلُ حِظِّ الْأُنثَيَيْنِ فَإِن كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثُ مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَتُهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دِينَءِ آبَاؤُهُمْ وَأَبْنَاؤُهُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةٌ مِنَ اللَّهِ إِنْ اللَّهُ كَانَ عَلِيماً حَكِيمًا ﴿١١﴾

هذه الآية الكريمة والتي بعدها، والآية التي هي خاتمة هذه السورة هن آيات علم الفرائض، وهو مستنبط من هذه الآيات الثلاث، ومن الأحاديث الواردة في ذلك مما هو كالتفسير لذلك، ولنذكر منها ما هو متعلق بتفسير ذلك، وأما تقرير المسائل ونصب الخلاف والأدلة، والحجاج بين الأئمة، فوضعه كتب الأحكام والله المستعان.

وقد ورد الترغيب في تعلم الفرائض، وهذه الفرائض الخاصة من أهم ذلك؛ روى أبو داود وابن ماجه عن عبد الله بن عمرو مرفوعاً: «العلم ثلاثة وما سوى ذلك فهو فضل: آية محكمة، أو سنة قائمة، أو فريضة عادلة»، وعن أبي هريرة قال، قال رسول الله ﷺ: «تعلموا الفرائض وعلموه الناس فإنه نصف العلم، وهو ينسى، وهو أول شيء يتزع من أمي»^(٢). قال ابن عيينة: إنما سمي الفرائض نصف العلم لأنه يبتلى به الناس كلهم، وقال البخاري عند تفسير هذه الآية: عن جابر بن عبد الله قال: عادني رسول الله ﷺ وأبو بكر في بني سلمة ماشيين، فوجدني

(١) رواه ابن مردويه من حديث أبي هريرة.

(٢) رواه ابن ماجه وفي إسناده ضعف.

النبي ﷺ لا أعقل شيئاً، فدعا بماء فتوضأ منه ثم رش عليّ فأفقت فقلت: ما تأمرني أن أصنع في مالي يا رسول الله، فنزلت: ﴿يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين﴾^(١). (حديث آخر) عن جابر قال: جاءت امرأة سعد بن الربيع إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله هاتان ابنتا سعد بن الربيع قتل أبوهما معك في يوم أحد شهيداً، وإن عمهما أخذ مالهما فلم يدع لهما مالاً ولا ينكحان إلا ولهما مال، فقال: « يقضي الله في ذلك » فنزلت آية الميراث، فأرسل رسول الله ﷺ إلى عمهما فقال: « أعط ابنتي سعد الثلثين، وأمهما الثمن، وما بقي فهو لك »^(٢).

فقوله تعالى: ﴿يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين﴾ أي يأمركم بالعدل فيهم، فإن أهل الجاهلية كانوا يجعلون جميع الميراث للذكر دون الإناث، فأمر الله تعالى بالتسوية بينهم في أصل الميراث، وفاوت بين الصنفين، فجعل للذكر مثل حظ الأنثيين، وذلك لاحتياج الرجل إلى مؤنة النفقة والكلفة، ومعاناة التجارة والتكسب، وتحمل المشاق فناسب أن يعطى ضعفي ما تأخذه الأنثى، وقد استنبط بعض الأذكياء من قوله تعالى: ﴿يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين﴾ أنه تعالى أرحم بخلقه من الوالدة بولدها، حيث أوصى الوالدين بأولادهم، فعلم أنه أرحم بهم منهم. وقال البخاري عن ابن عباس: كان المال للولد، وكانت الوصية للوالدين؛ فنسخ الله من ذلك ما أحب فجعل للذكر مثل حظ الأنثيين، وجعل للأبوين لكل واحد منهما السدس والثلث، وجعل للزوجة الثمن والربع، وللزوج الشطر والربع. وقال العوفي عن ابن عباس: لما نزلت الفرائض التي فرض الله فيها ما فرض للولد الذكر والأنثى والأبوين كرهها الناس أو بعضهم وقالوا: تعطى المرأة الربع أو الثمن، وتعطى الابنة النصف، ويعطى الغلام الصغير، وليس من هؤلاء أحد يقاتل القوم؛ ولا يحوز الغنيمة؛ اسكتوا عن هذا الحديث لعل رسول الله ﷺ ينسأه؛ أو نقول له فيغير! فقالوا: يا رسول الله تعطى الجارية نصف ما ترك أبوها؛ وليست تترك الفرس؛ ولا تقاتل القوم، ويعطى الصبي الميراث وليس يغني شيئاً؛ وكانوا يفعلون ذلك في الجاهلية؛ لا يعطون الميراث إلا لمن قاتل القوم؛ ويعطونه الأكبر فالأكبر، فنزلت الآية.

وقوله: ﴿فإن كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك﴾ قال بعض الناس: قوله « فوق » زائدة، وتقديره فإن كن نساء اثنتين كما في قوله: ﴿فاضربوا فوق الأعناق﴾ وهذا غير مسلم لا هنا ولا هناك، فإنه ليس في القرآن شيء زائد لا فائدة فيه. وهذا ممتنع، ثم قوله: ﴿فلهن ثلثا ما ترك﴾ لو كان المراد ما قالوه لقال فلهما ثلثا ما ترك؛ وإنما استفيد كون الثلثين للبتين من حكم الأخنتين في الآية الأخيرة، فإنه تعالى حكم فيها للأختين بالثلثين. وإذا ورث الأختان الثلثين فلأن يرث البنتان الثلثين بالطريق الأولى، وقد تقدم في حديث جابر أن النبي ﷺ حكم لابنتي سعد بن الربيع بالثلثين فدل الكتاب والسنة على ذلك، وأيضاً فإنه قال: ﴿وإن كانت واحدة فلها النصف﴾، فلو كان للبتين النصف لنص عليه أيضاً فلما حكم به للواحدة على انفرادها؛ دل على أن البتتين في حكم الثلاث والله أعلم. وقوله تعالى: ﴿ولأبويه لكل واحد منهما السدس﴾ إلى آخره، الأبوان لهما في الإرث أحوال: (أحدها) أن يجتمعا مع الأولاد فيفرض لكل واحد منهما السدس فإن لم يكن للبيت إلا بنت واحدة، فرض

(١) رواه البخاري ومسلم والنسائي من حديث جابر . (٢) رواه أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه .

لها النصف، وللأبوين لكل واحد منها السدس؛ وأخذ الأب السدس الآخر بالتعصيب فيجمع له والحالة هذه بين الفرض والتعصيب (الحال الثاني): أن ينفرد الأبوان بالميراث، فيفرض للأم الثلث والحالة هذه أخذ الأب الباقي بالتعصيب المحض؛ فيكون قد أخذ ضعفي ما حصل للأم وهو الثلثان، فلو كان معهما زوج أو زوجة ويأخذ الزوج النصف والزوجة الربع. ثم اختلف العلماء: ماذا تأخذ الأم بعد ذلك، على ثلاثة أقوال: (أحدها): أنها تأخذ ثلث الباقي في المسألتين؛ لأن الباقي كأنه جميع الميراث بالنسبة إليهما، وقد جعل الله لها نصف ما جعل للأب، فتأخذ ثلث الباقي ويأخذ الأب الباقي ثلثيه؛ هذا قول عمر وعثمان؛ وبه يقول ابن مسعود وزيد بن ثابت، وهو قول الفقهاء السبعة والأئمة الأربعة وجمهور العلماء (والثاني): أنها تأخذ ثلث جميع المال لعموم قوله: ﴿فإن لم يكن له ولد وورثه أبواه فلأمه الثلث﴾، فإن الآية أعم من أن يكون معها زوج أو زوجة أو لا؛ وهو قول ابن عباس، وهو ضعيف.

(والقول الثالث): أنها تأخذ ثلث جميع المال في (مسألة الزوجة) خاصة، فإنها تأخذ الربع وهو ثلاثة من اثني عشر، وتأخذ الأم الثلث وهو أربعة، فيبقى خمسة للأب، وأما في (مسألة الزوج) فتأخذ ثلث الباقي لثلاثاً تأخذ أكثر من الأب لو أخذت ثلث المال، فتكون المسألة من ستة: للزوج النصف ثلاثة وللأم ثلث الباقي بعد ذلك وهو سهم، وللأب الباقي بعد ذلك وهو سهمان. ويحكى هذا عن ابن سيرين، وهو مركب من القولين الأولين، وهو ضعيف أيضاً، والصحيح الأول والله أعلم (والحال الثالث) من أحوال الأبوين وهو اجتماعهما مع الأخوة، سواء كانوا من الأبوين أو من الأب أو من الأم، فإنهم لا يرثون مع الأب شيئاً، ولكنهم مع ذلك يحجبون الأم عن الثلث إلى السدس، فيفرض لها مع وجودهم السدس، فإن لم يكن وارث سواها وسوى الأب أخذ الأب الباقي، وحكم الأخوين فيما ذكرناه كحكم الإخوة عند الجمهور.

وقوله: ﴿فإن كان له إخوة فلأمه السدس﴾ أضروا بالأم ولا يرثون، ولا يحجبها الأخ الواحد عن الثلث ويحجبها ما فوق ذلك، وكان أهل العلم يرون أنهم إنما حججوا أمهم عن الثلث أن أباهم يلي إنكاحهم ونفقتهم عليه دون أمهم، وهذا كلام حسن.

وقوله: ﴿من بعد وصية يوصى بها أو دين﴾ أجمع العلماء من السلف والخلف على أن الدين مقدم على الوصية، وذلك عند إمعان النظر يفهم من فحوى الآية الكريمة، وروى أحمد والترمذي عن علي بن أبي طالب قال: إنكم تقرأون ﴿من بعد وصية يوصى بها أو دين﴾ وإن رسول الله ﷺ قضى بالدين قبل الوصية، وإن أعيان بني الأم يتوارثون دون بني العلات^(١)، يرث الرجل أخاه لآبيه وأمه دون أخيه لآبيه.

وقوله: ﴿آبائكم وأبناؤكم لا تدرن أيهم أقرب لكم نفعا﴾ أي إنما فرضنا للآباء والأبناء، وساويتنا بين الكل في أصل الميراث، على خلاف ما كان عليه الأمر في الجاهلية، لأن الإنسان قد يأتيه النفع الدنيوي أو الأخروي أو هما من أبيه ما لا يأتيه من ابنه، وقد يكون بالعكس، ولذا قال: ﴿آبائكم وأبناؤكم لا تدرن أيهم أقرب لكم نفعا﴾ أي أن النفع متوقع ومرجو من هذا كما هو متوقع ومرجو من الآخر، فلهدنا فرضنا لهذا وهذا، وساويتنا بين القسمين في أصل الميراث، والله أعلم.

(١) الأعيان: الإخوة من الأب والأم و (العلات): الذين أبوهم واحد وأمها شتى.

وقوله: ﴿فريضة من الله﴾ أي هذا الذي ذكرناه من تفصيل الميراث وإعطاء بعض الورثة أكثر من بعض هو فرض من الله حكم به وقضاه، والله عليم حكيم، الحكيم: الذي يضع الأشياء في محالها ويعطي كلاً ما يستحقه بحسبه، ولهذا قال: ﴿إن الله كان عليماً حكيماً﴾.

* وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لهنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمْ الرَّبِيعُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلهنَّ الرَّبِيعُ مِمَّا تَرَكَتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلهنَّ الثُّمْنُ مِمَّا تَرَكَتُمْ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورِثُ كَلَلَةً أَوْ امْرَأَةٌ وَلهٗ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مَنهُمَا السُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهَمَّ شُرَكَاءُ فِي الثُّلْثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرِ مُضَارٍ وَصِيَّةٍ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿١٢﴾

يقول تعالى: ولكم أيها الرجال نصف ما ترك أزواجكم إذا متن عن غير ولد، فإن كان لهن ولد فلکم الربع مما تركن من بعد الوصية أو الدين، وقد تقدم أن الدين مقدم على الوصية، وبعده الوصية ثم الميراث، وهذا أمر مجمع عليه بين العلماء وحكم أولاد البنين وإن سفلوا حكم أولاد الصلب، ثم قال: ﴿ولهن الربع مما تركتم﴾ إلى آخره، وسواء في الربع أو الثمن الزوجة والزوجتان الائنتان، والثلاث والأربع يشتركن فيه. وقوله: ﴿من بعد وصية﴾ الخ. الكلام عليه كما تقدم. وقوله تعالى: ﴿وإن كان رجل يورث كلالاً﴾ الكلاله: مشتقة من الإكليل، وهو الذي يحيط بالرأس من جوانبه، والمراد هنا من يرثه من حواشيه لا أصوله ولا فروعه، كما روى الشعبي عن أبي بكر الصديق أنه سئل عن الكلاله فقال: أقول فيها برأبي فإن يكن صواباً فمن الله، وإن يكن خطأ فني ومن الشيطان، والله ورسوله بريتان منه: الكلاله من لا ولد له ولا والد. فلما ولي عمر قال: إني لأستحي أن أخالف أبا بكر في رأي رآه، كذا رواه ابن جرير وغيره، وهو قول الأئمة الأربعة وجمهور السلف والخلف وقد حكى الإجماع عليه غير واحد.

وقوله تعالى: ﴿وله أخ أو أخت﴾ أي من أم كما هو في قراءة (سعد بن أبي وقاص). وكذا فسرها أبو بكر الصديق: ﴿فلكل واحد منهما السدس فإن كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء في الثلث﴾ وإخوة الأم يخالفون بقية الورثة من وجوه: (أحدها) أنهم يرثون مع من أدلوا به وهي الأم، (والثاني) أن ذكورهم وإناتهم في الميراث سواء، (والثالث) لا يرثون إلا إن كان ميتهم يورث كلاله فلا يرثون مع أب ولا جد ولا ولد ولا ولد ابن، (الرابع) أنهم لا يزدون على الثلث وإن كثر ذكورهم وإناتهم، قضى عمر أن ميراث الأخوة من الأم بينهم للذكر مثل حظ الأنثى، قال الزهري: ولا أرى عمر قضى بذلك حتى علم ذلك من رسول الله ﷺ وهذه الآية هي التي قال الله تعالى فيها: ﴿فإن كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء في الثلث﴾.

واختلف العلماء في المسألة المشتركة وهي (زوج وأم أو جدة واثنان من ولد الأم وواحد أو أكثر من ولد الأبوين)، فعلى قول الجمهور للزوج النصف، وللأم أو الجدة السدس، ولولد الأم الثلث ويشاركهم فيه ولد الأب والأم بما بينهم من القدر المشترك وهو اخوة الأم، وقد وقعت هذه المسألة في زمان أمير المؤمنين عمر فأعطى الزوج النصف والأم السدس، وجعل الثلث لأولاد الأم فقال له أولاد الأبوين: يا أمير المؤمنين هب أن أبانا كان حماراً ألسنا من أم واحدة؟ فشرک بينهم وهو مذهب مالك والشافعي. وكان علي بن أبي طالب لا يشرک بينهم، بل يجعل الثلث لأولاد الأم، ولا شيء لأولاد الأبوين، والحالة هذه لأنهم عصبه، وقال وكيع بن الجراح: لم يختلف عنه في ذلك، وهذا قول أبي بن كعب، وأبي موسى الأشعري وهو مذهب أبي حنيفة والإمام أحمد، واختاره أبو الحسين بن اللبان الفرضي رحمه الله في كتابه الإيجاز.

وقوله: ﴿من بعد وصية يوصى به أو دين غير مضار﴾ أي لتكن وصيته على العدل لا على الإضرار والجور والحييف، بأن يحرم بعض الورثة أو ينقصه، أو يزيده على ما فرض الله له من الفريضة، فمن سعى في ذلك كان كمن ضاد الله في حكمه وشرعه، ولهذا قال ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «الإضرار في الوصية من الكبائر»^(١) ورواه ابن جرير عن ابن عباس موقوفاً، قال: والصحيح الموقوف، ولهذا اختلف الأئمة في الاقرار للوارث هل هو صحيح أم لا؟ على قولين (أحدهما): لا يصح لأنه مظنة التهمة، وقد ثبت في الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله قد أعطى كل ذي حق حقه فلا وصية لوارث»، وهذا مذهب مالك وأحمد بن حنبل وأبي حنيفة والقول القديم للشافعي رحمهم الله، وذهب في الجديد إلى أنه يصح الاقرار، وهو مذهب طاوس وعطاء وهو اختيار البخاري في صحيحه، واحتج بأن رافع بن خديج أوصى أن لا تكشف الفزارية عما أغلق عليه بابها قال: وقال بعض الناس: لا يجوز إقراره لسوء الظن بالورثة، وقد قال النبي ﷺ: «إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث»، وقال الله تعالى: ﴿إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها﴾ فلم يخص وارثاً ولا غيره، انتهى ما ذكره. فتى كان الإقرار صحيحاً مطابقاً لما في نفس الأمر، جرى فيه هذا الخلاف، ومتى كان حيلة ووسيلة إلى زيادة بعض الورثة ونقصان بعضهم فهو حرام بالإجماع وبنص هذه الآية الكريمة: ﴿غير مضار وصية من الله، والله عليم حلیم﴾.

تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿١٤﴾

أي هذه الفرائض والمقادير التي جعلها الله للورثة، بحسب قربهم من الميت واحتياجهم إليه وفقدهم له عند عدمه، هي حدود الله فلا تعتدوها ولا تتجاوزوها، ولهذا قال: ﴿ومن يطع الله ورسوله﴾ أي فيها فلم يزد بعض الورثة، ولم ينقص بعضهم بحيلة ووسيلة بل تركهم على حكم الله وفريضته وقسمته: ﴿يدخله جنات تجري من

(١) رواه ابن أبي حاتم عن ابن عباس.

تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك الفوز العظيم. ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله ناراً خالداً فيها وله عذاب مهين ﴿ أي لكونه غير ما حكم الله به، وضاد الله في حكمه، وهذا إنما يصدر عن عدم الرضا بما قسم الله وحكم به، ولهذا يجازيه بالإهانة في العذاب الأليم المقيم. عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: « إن الرجل ليعمل بعمل أهل الخير سبعين سنة، فإذا أوصى وحاف في وصيته فيختم له بشر عمله فيدخل النار، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل الشر سبعين سنة فيعدل في وصيته فيختم له بخير عمله فيدخل الجنة »، قال، ثم يقول أبو هريرة: اقرأوا إن شئتم: ﴿ تلك حدود الله - إلى قوله - عذاب مهين ﴾ وقال أبو داود في باب الإضرار في الوصية عن شهر بن حوشب أن أبا هريرة حدثه أن رسول الله ﷺ قال: « إن الرجل ليعمل أو المرأة بطاعة الله ستين سنة ثم يحضرهما الموت فيضران في الوصية فتجب لهما النار » وقال: قرأ عليّ أبو هريرة من ههنا: ﴿ من بعد وصية يوصى بها أو دين غير مضار - حتى بلغ - ذلك الفوز العظيم ﴾ .

وَالَّتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نَسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّيَهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلاً ﴿١٥﴾ وَالَّذَانِ يَأْتِيَانِيَا مِنْكُمْ فَأَذَوْهُمَا فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّاباً رَحِيماً ﴿١٦﴾

كان الحكم في ابتداء الإسلام أن المرأة إذا ثبت زناها بالبينة العادلة، حبست في بيت فلا تمكن من الخروج منه إلى أن تموت، ولهذا قال: ﴿ واللاتي يأتين الفاحشة ﴾ يعني الزنا ﴿ من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم ﴾؛ فإن شهدوا فأمسكوهن في البيوت حتى يتوفاهن الموت أو يجعل الله لهن سبيلاً ﴿ فالسبيل الذي جعله الله هو الناسخ لذلك، قال ابن عباس رضي الله عنه: كان الحكم كذلك حتى أنزل الله سورة النور فنسخها بالجلد أو الرجم؛ وهو أمر متفق عليه، روى مسلم وأصحاب السنن عن عبادة بن الصامت عن النبي ﷺ قال: « خذوا عني خذوا عني؛ قد جعل الله لهن سبيلاً؛ البكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام؛ والثيب بالثيب جلد مائة والرجم ». وقد روى الإمام أحمد عن رسول الله ﷺ أنه قال: « خذوا عني خذوا عني؛ قد جعل الله لهن سبيلاً؛ البكر بالبكر جلد مائة ونفي سنة؛ والثيب بالثيب جلد مائة والرجم ». وقد ذهب الإمام أحمد بن حنبل إلى القول بمقتضى هذا الحديث، وهو الجمع بين الجلد والرجم في حق الثيب الزاني، وذهب الجمهور إلى أن الثيب الزاني إنما يرمم فقط من غير جلد، قالوا: لأن النبي ﷺ رجم ماعزاً والغامدية واليهوديين، ولم يجلدهم قبل ذلك فدل على أن الجلد ليس يحتم، بل هو منسوخ على قولهم، والله أعلم .

وقوله تعالى: ﴿ وَالَّذَانِ يَأْتِيَانِيَا مِنْكُمْ فَأَذَوْهُمَا ﴾ أي واللذان يفعلان الفاحشة فأذوهما، قال ابن عباس: أي بالشم والتعير والضرب بالنعال، وكان الحكم كذلك حتى نسخه الله بالجلد أو الرجم، وقال مجاهد: نزلت في الرجلين إذا فعلا اللواط، وقد روى أهل السنن عن ابن عباس مرفوعاً قال: قال رسول الله ﷺ: « من رأيتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به ». وقوله: ﴿ فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا ﴾ أي أقلعا ونزعا عما كانا عليه

وصلحت أعمالهما وحسنت: ﴿فأعرضوا عنهما﴾ أي لا تعنفوهما بكلام قبيح بعد ذلك، لأن التائب من الذنب كمن لا ذنب له: ﴿إن الله كان تواباً رحيماً﴾، وقد ثبت في الصحيحين «إذا زنت أمة أحدكم فليجلدها الحد ولا يثرب عليها» أي لا يعيرها بما صنعت بعد الحد الذي هو كفارة لما صنعت .

إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْعَنَانَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾

ومعناه: إنما يقبل الله التوبة ممن عمل السوء بجهالة ثم يتوب قبل الغرغرة، قال مجاهد: كل من عصى الله خطأ أو عمداً فهو جاهل حتى ينزع عن الذنب، وقال قتادة، كان أصحاب رسول الله ﷺ يقولون: كل ذنب أصابه عبد فهو جهالة، وقال ابن عباس: ﴿ثم يتوبون من قريب﴾ قال: ما بينه وبين أن ينظر إلى ملك الموت. وقال الضحاك: ما كان دون الموت فهو قريب، وقال قتادة والسدي: ما دام في صحته، وقال الحسن البصري: ﴿ثم يتوبون من قريب﴾، ما لم يغرغر، (ذكر الأحاديث في ذلك): قال الإمام أحمد عن ابن عمر عن النبي ﷺ، قال: «إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر» (حديث آخر): قال ابن مردويه عن عبد الله بن عمر، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من عبد مؤمن يتوب قبل الموت بشهر إلا قبل الله منه أدنى من ذلك؛ وقبل موته بيوم وساعة يعلم الله منه التوبة والإخلاص إليه إلا قبل منه». (حديث آخر): قال أبو داود الطيالسي عن عبد الله بن عمر، يقول: من تاب قبل موته بعام تيب عليه، ومن تاب قبل موته بشهر تيب عليه، ومن تاب قبل موته بجمعة تيب عليه، ومن تاب قبل موته بيوم تيب عليه، ومن تاب قبل موته بساعة تيب عليه، فقلت له: إنما قال الله: ﴿إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب﴾ فقال إنما أحدثك ما سمعته من رسول الله ﷺ. (حديث آخر): قال أبو بكر بن مردويه: عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله يقبل توبة عبده ما لم يغرغر» .

يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَجِلُّ لَهُمْ أَنْ تَرْتُوا النِّسَاءَ كَرَاهًا وَلَا تَعْضَلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُّبِينَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾ وَإِنْ أُرِدْتُمْ أَسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَثَهُنَّ قِنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا ءَاتَاخُذُوهُنَّ بِهِنْتِنَا وَإِنَّمَا مِثْلُنَا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾ وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ ءَابَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ؕ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾

روى البخاري عن ابن عباس: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرهاً﴾، قال: كانوا إذا مات الرجل كان أولياؤه أحق بامرأته إن شاء بعضهم تزوجها وإن شاءوا زوجوها، وإن شاءوا لم يزوجوها فهم أحق بها من أهلها، فنزلت هذه الآية: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرهاً﴾ هكذا ذكره البخاري وأبو داود والنسائي. وروي عن ابن عباس: كانت المرأة في الجاهلية إذا توفي عنها زوجها فجاء رجل فألقى عليها ثوباً كان أحق بها، فنزلت: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرهاً﴾ وقال زيد بن أسلم في الآية: كان أهل يثرب إذا مات الرجل منهم في الجاهلية ورث امرأته من يرث ماله وكان بعضها حتى يرثها، أو يزوجها من أراد، وكان أهل تهامة يسيء الرجل صحبة المرأة حتى يطلقها، ويشترط عليها أن لا تنكح إلا من أراد حتى تفتدي منه ببعض ما أعطاها فهي الله المؤمنين عن ذلك. وقال أبو بكر بن مردويه عن محمد بن أبي أمامة بن سهل بن حنيف عن أبيه قال: لما توفي أبو قيس بن الأسلت أراد ابنه أن يتزوج امرأته وكان لهم ذلك في الجاهلية فأنزل الله: ﴿لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرهاً﴾، وقال ابن جريج: نزلت في (كبيشة بنت معن بن عاصم بن الأوس) توفي عنها أبو قيس بن الأسلت فجنح عليها ابنه فجاءت رسول الله ﷺ، فقالت يا رسول الله: لا أنا ورثت زوجي ولا أنا تركت فأنكح، فأنزل الله هذه الآية. فالآية تعم ما كان يفعله أهل الجاهلية وكل ما كان فيه نوع من ذلك والله أعلم.

وقوله: ﴿ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن﴾ أي لا تضاروهن في العشرة لتترك لك ما أصدقتها أو بعضه أو حقاً من حقوقها عليك، أو شيئاً من ذلك على وجه القهر لها والإضرار، وقال ابن عباس في قوله: ﴿ولا تعضلوهن﴾، يقول: ولا تقهروهن ﴿لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن﴾ يعني الرجل تكون له المرأة وهو كاره لصحبتها ولها عليه مهر فيضرها لتفتدي به، وكذا قال الضحاك وقتادة وغير واحد. واختاره ابن جرير، وقال ابن المبارك عن ابن السلمي قال: نزلت هاتان الآيتان إحداهما في أمر الجاهلية، والأخرى في أمر الإسلام يعني قوله تعالى: ﴿لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرهاً﴾ في الجاهلية، ﴿ولا تعضلوهن﴾ في الإسلام، وقوله: ﴿إلا أن يأتين بفاحشة مبينة﴾ قال ابن مسعود، وابن عباس: يعني بذلك الزنا، يعني إذا زنت فلك أن تسترجع منها الصداق الذي أعطيتها، وتضاجرها حتى تتركه لك وتخالعها كما قال تعالى: ﴿ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً إلا أن يخافا أن لا يقبها حدود الله﴾ الآية، وقال ابن عباس وعكرمة والضحاك: الفاحشة المبينة النشوز والعصيان، واختار ابن جرير أنه يعم ذلك كله الزنا والعصيان، والنشوز وبذاء اللسان، وغير ذلك، يعني أن هذا كله يبيح مضاجرتها حتى تبرئه من حقها أو بعضه ويفارقها، وهذا جيد والله أعلم.

وهذا يقتضي أن يكون السياق كله كان في أمر الجاهلية ولكن نبي المسلمون عن فعله في الإسلام: وقال عبد الرحمن بن زيد: كان العضل في قريش بمكة: ينكح الرجل المرأة الشريفة، فلعلها لا توافقه فيفارقها على أن لا تتزوج إلا بإذنه، فيأتي بالشهود فيكتب ذلك عليها ويشهد، فإذا جاء الخاطب، فإن أعطته وأرضته أذن لها وإلا عضلها، قال فهذا قوله: ﴿ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن﴾ الآية. وقال مجاهد في قوله: ﴿ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن﴾ هو كالعضل في سورة البقرة، وقوله تعالى: ﴿وعاشروهن بالمعروف﴾ أي طيبوا أقوالكم لهن وحسنوا أفعالكم وهيئاتكم بحسب قدرتكم، كما تحب ذلك منها فافعل أنت بها مثله،

كما قال تعالى: ﴿ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف﴾؛ وقال رسول الله ﷺ: «خيركم خيركم لأهله؛ وأنا خيركم لأهلي». وكان من أخلاقه ﷺ أنه جميل العشرة، دائم البشر؛ يداعب أهله؛ ويتلطف بهم ويوسعهم نفقته، ويضاحك نساءه حتى إنه كان يسابق عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها يتودد إليها بذلك، قالت: سابقني رسول الله ﷺ فسبقته وذلك قبل أن أحمل اللحم، ثم سابقته بعد ما حملت اللحم فسبقني، فقال: «هذه بتلك. ويجمع نساءه كل ليلة في بيت التي يبيت عندها رسول الله ﷺ فيأكل معهن العشاء في بعض الأحيان، ثم تنصرف كل واحدة إلى منزلها، وكان ينام مع المرأة من نسائه في شعار واحد، يضع عن كتفيه الرداء وينام بالإزار، وكان إذا صلى العشاء يدخل منزله يسمر مع أهله قليلاً قبل أن ينام، يؤانسهم بذلك ﷺ، وقد قال الله تعالى: ﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة﴾، وأحكام عشرة النساء وما يتعلق بتفصيل ذلك موضعه كتب الأحكام، والله الحمد.

وقوله تعالى: ﴿فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً﴾، أي فعسى أن يكون صبركم في إمساكنهن مع الكراهة، فيه خير كثير لكم في الدنيا والآخرة، كما قال ابن عباس: هو أن يعطف عليها فيرزق منها ولداً، ويكون في ذلك الولد خير كثير، وفي الحديث الصحيح: «لا يفرك مؤمن مؤمنة إن سخط منها خلقاً رضي منها آخر».

وقوله تعالى: ﴿وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتهم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً. أتأخذونه بهتاناً وإثماً مبيناً﴾ أي إذا أراد أحدكم أن يفارق امرأة ويستبدل مكانها غيرها، فلا يأخذ مما كان أصدق الأولى شيئاً ولو كان قنطاراً من المال، وفي هذه الآية دلالة على جواز الإصداق بالمال الجزيل، وقد كان عمر بن الخطاب نهي عن كثرة الإصداق ثم رجع عن ذلك كما قال الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب يقول: ألا لا تغالوا في صداق النساء، فإنها لو كانت مكرمة في الدنيا أو تقوى عند الله كان أولاكم بها النبي ﷺ، ما أصدق رسول الله ﷺ امرأة من نسائه ولا أصدقت امرأة من بناته أكثر من اثنتي عشرة أوقية.

(طريق أخرى عن عمر): قال الحافظ أبو يعلى عن الشعبي عن مسروق قال: ركب عمر بن الخطاب منبر رسول الله ﷺ ثم قال: أيها الناس ما إكثاركم في صداق النساء! وقد كان رسول الله ﷺ وأصحابه والصدقات فيما بينهم أربعمائة درهم، فما دون ذلك. ولو كان الاكثار في ذلك تقوى عند الله أو كرامة لم تسبقوهم إليها. فلأعرفن ما زاد رجل في صداق امرأة على أربعمائة درهم. قال: ثم نزل. فاعترضته امرأة من قريش فقالت: يا أمير المؤمنين نهيت الناس أن يزيدوا في مهر النساء على أربعمائة درهم؟ قال: نعم، فقالت أما سمعت ما أنزل الله في القرآن؟ قال: وأي ذلك؟ فقالت: أما سمعت الله يقول: ﴿وآتيتهم إحداهن قنطاراً﴾ الآية. قال: اللهم غفراً، كل الناس أفقه من عمر. ثم رجع فركب المنبر فقال: أيها الناس إني كنت نهيتكم أن تزيدوا النساء في صدقاتهن على أربعمائة درهم، فمن شاء أن يعطي من ماله ما أحب. قال أبو يعلى: وأظنه قال: فمن طابت نفسه فليفعل. إسناده جيد قوي. وفي رواية: امرأة أصابت ورجل أخطأ، ولهذا قال منكرًا: ﴿وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض﴾ أي وكيف تأخذون الصداق من المرأة وقد أفضيت إليها وأفضت إليك قال ابن عباس: يعني بذلك الجماع. وقد ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال للمتلاعنين بعد فراغهما من تلاعنهما: «الله

يعلم أن أحدكما كاذب، فهل منكما تائب» قالها ثلاثاً فقال الرجل: يا رسول الله مالي - يعني ما أصدقها - قال: «لا مال لك، إن كنت صدقت فهو بما استحللت من فرجها، وإن كنت كذبت عليها فهو أبعد لك منها» .

وقوله تعالى: ﴿ وَأَخَذْنَا مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴾ المراد بذلك العقد، وقال سفيان الثوري في قوله: ﴿ وَأَخَذْنَا مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴾ قال: إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان، وقال الربيع بن أنس في الآية: هو قوله: «أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله»، وفي صحيح مسلم عن جابر في خطبة حجة الوداع: أن النبي ﷺ قال فيها: «واستوصوا بالنساء خيراً فإنكم أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله» .

وقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ ﴾ الآية، يحرم الله تعالى زوجات الآباء تكريماً لهم، وإعظماً واحتراماً أن توطأ من بعده، حتى إنها لتحرم على الابن بمجرد العقد عليها، وهذا أمر مجمع عليه. قال ابن أبي حاتم عن عدي بن ثابت عن رجل من الأنصار قال: لما توفي أبو قيس - يعني ابن الأسلت - وكان من صالحى الأنصار، فخطب ابنه قيس امرأته فقالت: إنما أعدك ولداً وأنت من صالحى قومك، ولكنى آتى رسول الله ﷺ، فقالت: إن أبا قيس توفي فقال: «خيراً»، ثم قالت: إن ابنه قيساً خطبني وهو من صالحى قومه، وإنما كنت أعدّه ولداً فما ترى؟ فقال لها: «ارجعي إلى بيتك» قال فتزلت: ﴿ وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ ﴾ الآية. وقد زعم السهيلي أن نكاح نساء الآباء كان معمولاً به في الجاهلية، ولهذا قال: ﴿ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ﴾، كما قال: ﴿ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ﴾ قال: وقد فعل ذلك كنانة بن خزيمه، تزوج بامرأة أبيه فأولدها ابنه النضر بن كنانة، قال: وقد قال ﷺ: «ولدت من نكاح لا من من سفاح» قال: فدل على أنه كان سائغاً لهم ذلك، فأراد أنهم كانوا يعدونه نكاحاً؛ وعن ابن عباس قال: كان أهل الجاهلية يحرمون ما حرم الله إلا امرأة الأب والجمع بين الأختين، فأنزل الله تعالى: ﴿ وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ ﴾، ﴿ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ ﴾، وهكذا قال عطاء وقتادة، ولكن فيما نقله السهيلي من قصة كنانة نظر والله أعلم، وعلى كل تقدير فهو حرام في هذه الأمة، مبشع غاية التبشع، ولهذا قال تعالى: ﴿ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا ﴾، وقال: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾، وقال: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزَّوْجَةَ إِذَا كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴾ فزاد ههنا: ﴿ وَمَقْتًا ﴾ أي بغضاً أي هو أمر كبير في نفسه، ويؤدي إلى مقت الابن أباه بعد أن يتزوج بامرأته، فإن الغالب أن من تزوج بامرأة يبغض من كان زوجها قبله، ولهذا حرمت أمهات المؤمنين على الأمة لأنهن أمهات لكونهن زوجات النبي ﷺ وهو كالأب، بل حقه أعظم من حق الآباء بالإجماع، بل حبه مقدم على حب النفوس صلوات الله وسلامه عليه .

وقال عطاء في قوله تعالى: ﴿ وَمَقْتًا ﴾ أي بمقت الله عليه، ﴿ وَسَاءَ سَبِيلًا ﴾ أي وبئس طريقاً لمن سلكه من الناس، فمن تعاطاه بعد هذا فقد ارتد عن دينه، فيقتل ويصير ماله فيئاً لبيت المال، كما رواه الإمام أحمد وأهل السنن عن البراء بن عازب عن خاله أبي بردة: أنه بعثه رسول الله ﷺ إلى رجل تزوج امرأة أبيه من بعده أن يقتله ويأخذ ماله، وقال الإمام أحمد عن البراء بن عازب قال: مر بي عمي (الحارث بن عمير) ومعه لواء قد عقده له النبي ﷺ فقلت له: أي عم أين بعثك النبي؟ قال: بعثني إلى رجل تزوج امرأة أبيه فأمرني أن أضرب عنقه .

حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمْ
الَّتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبِّبَاتُكُمْ الَّتِي فِي حُجُورِكُمْ مِّنْ نِّسَائِكُمْ
الَّتِي دَخَلْتُمْ بَيْنَهُنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بَيْنَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِّنْ أُصْلَابِكُمْ وَأَن
تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾ * وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا
مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَإِحْلَآءَ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ أَن تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسْفِحِينَ فَمَا
أَسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَغَاوُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَضَّيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ ۗ إِنَّ
اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٢٤﴾

هذه الآية الكريمة هي آية تحريم المحارم من النسب، وما يتبعه من الرضاع والمحارم بالصهر، كما قال ابن عباس: حرمت عليكم سبع نسباً وسبع صهراً، وقرأ: ﴿حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم﴾ الآية. وقد استدلل جمهور العلماء على تحريم المخلوقة من ماء الزاني عليه، بعموم قوله تعالى: ﴿وبناتكم﴾ فإنها بنت فتدخل في العموم كما هو مذهب أبي حنيفة ومالك وأحمد بن حنبل، وقد حكي عن الشافعي شيء في إباحتها لأنها ليست بنتاً شرعية، فكما لم تدخل في قوله تعالى: ﴿يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين﴾ فإنها لا تراث بالإجماع، فكذلك لا تدخل في هذه الآية والله أعلم. وقوله تعالى: ﴿وأمهاتكم اللاتي أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة﴾ أي كما يحرم عليك أمك التي ولدتك، كذلك يحرم عليك أمك التي أرضعتك، ولهذا ثبت في الصحيحين عن عائشة أم المؤمنين أن رسول الله ﷺ قال: «إن الرضاعة تحرم ما تحرم الولادة» وفي لفظ لمسلم: «يحرم من الرضاعة ما يحرم من النسب». ثم اختلف الأئمة في عدد الرضعات المحرمة، فذهب ذاهبون إلى أنه يحرم مجرد الرضاع لعموم هذه الآية، وهذا قول مالك، ويروى عن ابن عمر، وقال آخرون: لا يحرم أقل من ثلاث رضعات لما ثبت في صحيح مسلم عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: «لا تحرم المصاة ولا المصتان»، وفي لفظ آخر: «لا تحرم الإملاجة ولا الإملاجتان». ومن ذهب إلى هذا القول الإمام أحمد بن حنبل، وقال آخرون: لا يحرم أقل من خمس رضعات لما ثبت في صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: (كان فيما أنزل من القرآن «عشر رضعات معلومات يحرمن» ثم نسخن بخمس معلومات، فتوفي النبي ﷺ وهن فيما يقرأ من القرآن) وكانت عائشة تأمر من يريد أن يدخل عليها أن يرضع خمس رضعات، وبهذا قال الشافعي وأصحابه، ثم ليعلم أنه لا بد أن تكون الرضاعة في سن الصغر دون الحولين على قول الجمهور، وقد قدمنا الكلام على هذه المسألة في سورة البقرة عند قوله: ﴿والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة﴾.

وقوله: ﴿وأمهات نسايتكم وربائبكم اللاتي في حجوركم﴾ (أما أم المرأة) فإنها تحرم بمجرد العقد على بنتها،

سواء دخل بها أو لم يدخل بها، وأما (الريبة) وهي بنت المرأة فلا تحرم حتى يدخل بأمرها، فإن طلق الأم قبل الدخول بها جاز أن يتزوج بنتها، ولهذا قال: ﴿وربائبكم اللاتي في حجوركم من نسائكم اللاتي دخلتم بهن﴾، فإن لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم ﴿في تزويجهن﴾، فهذا خاص بالربائب وحدهن، وقد فهم بعضهم عود الضمير إلى الأمهات والربائب فقال: لا تحرم واحدة من الأم ولا البنت بمجرد العقد على الأخرى حتى يدخل بها لقوله: ﴿فإن لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم﴾. وجمهور العلماء على أن الريبة لا تحرم بالعقد على الأم بخلاف الأم فإنها تحرم بمجرد العقد، قال ابن أبي حاتم: عن ابن عباس: أنه كان يقول: إذا طلق الرجل المرأة قبل أن يدخل بها أو ماتت لم تحل له أمها، وهذا مذهب الأئمة الأربعة والفقهاء السبعة، وجمهور الفقهاء قديماً وحديثاً، والله الحمد والمنة .

وأما قوله تعالى: ﴿وربائبكم اللاتي في حجوركم﴾ فالجمهور على أن الريبة حرام سواء كانت في حجر الرجل أو لم تكن في حجره، قالوا: وهذا الخطاب خرج مخرج الغالب فلا مفهوم له كقوله تعالى: ﴿ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء أن أردن تحصناً﴾، وفي الصحيحين أن أم حبيبة قالت: يا رسول الله انكح أختي بنت أبي سفيان، وفي لفظ لمسلم (عزة بنت أبي سفيان) قال: «أو تحبين ذلك»؟ قالت: نعم لست بك بمخلسة، وأحب من شاركني في خير أختي، قال: «فإن ذلك لا يحل لي» قالت: فإننا نحدث أنك تريد أن تنكح بنت أبي سلمة قال: «بنت أم سلمة» قالت: نعم قال: «إنها لو لم تكن ربيبة في حجري ما حلت لي، إنها لبنت أخي من الرضاعة، أرضعتني وأبا سلمة ثوية، فلا تعرضن عليّ بناتكن ولا أخواتكن». وفي رواية للبخاري: «إني لو لم أتزوج أم سلمة ما حلت لي» فجعل المناط في التحريم مجرد تزوجه أم سلمة وحكم بالتحريم بذلك، وهذا هو مذهب الأئمة الأربعة والفقهاء السبعة وجمهور الخلف والسلف، وقد قيل بأنه لا تحرم الريبة إلا إذا كانت في حجر الرجل فإذا لم تكن كذلك فلا تحرم وهو قول غريب جداً، وإلى هذا ذهب داود الظاهري وأصحابه، واختاره ابن حزم، وحكى لي شيخنا الحافظ الذهبي أنه عرض هذا على الشيخ الإمام تقي الدين ابن تيمية رحمه الله فاستشكله وتوقف في ذلك والله أعلم؛ وأما الريبة في ملك اليمين فقد قال الإمام مالك بن أنس: أن عمر ابن الخطاب سئل عن المرأة وبناتها من ملك اليمين توطأ إحداهما بعد الأخرى فقال عمر: ما أحب أن أجزئهما جميعاً: يريد أن أطأهما جميعاً بملك يميني، وعن طارق بن عبد الرحمن عن قيس قال: قلت لابن عباس: أيقع الرجل على امرأة وابنتها مملوكين له؟ فقال أحلتها آية وحرمتها آية، ولم أكن لأفعله، وقال الشيخ ابن عبد البر رحمه الله: لا خلاف بين العلماء أنه لا يحل لأحد أن يطأ امرأة وبناتها من ملك اليمين لأن الله حرم ذلك في النكاح، قال: ﴿وأمهات نسائكم وربائبكم اللاتي في حجوركم من نسائكم﴾، وملك اليمين عندهم تبع للنكاح إلا ما روي عن عمر وابن عباس، وليس على ذلك أحد من أئمة الفتوى ولا من تبعهم، وروى هشام عن قتادة: بنت الريبة وبنت ابنتها لا تصلح وإن كانت أسفل بيطون كثيرة، ومعنى قوله: ﴿اللاتي دخلتم بهن﴾ أي نكحتموهن قاله ابن عباس وغير واحد، وقال ابن جرير: وفي إجماع الجميع على أن خلوة الرجل بامرأة لا تحرم ابنتها عليه إذا طلقها قبل مسيسها ومباشرتها، وقبل النظر إلى فرجها بشهوة ما يدل على أن معنى ذلك هو الوصول إليها بالجماع .

وقوله تعالى: ﴿وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم﴾ أي وحرمت عليكم زوجات أبنائكم الذين ولدتموهم

من أصلابكم، يحترز بذلك عن الأدعياء الذين كانوا يتبنونهم في الجاهلية. قال ابن جريج: سألت عطاء عن قوله: ﴿وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم﴾ قال: كنا نحدث - والله أعلم - أن النبي ﷺ لما نكح امرأة زيد قال المشركون بمكة في ذلك فأنزل الله عز وجل: ﴿وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم﴾، ونزلت: ﴿وما جعل أدعياءكم أبناءكم﴾، ونزلت: ﴿ما كان محمد أباً أحد من رجالكم﴾.

وقوله تعالى: ﴿وأن تجمعوا بين الأختين إلا ما قد سلف﴾ الآية، أي وحرم عليكم الجمع بين الأختين معاً في التزويج وكذا في ملك اليمين، إلا ما كان منكم في جاهليتكم فقد عفونا عنه وغفرناه، فدل على أنه لا مثوية فيما يستقبل لأنه استثنى مما سلف، كما قال: ﴿لا يذوقون فيه الموت إلا الموتة الأولى﴾ فدل على أنهم لا يذوقون فيها الموت أبداً، وقد أجمع العلماء من الصحابة والتابعين والأئمة قديماً وحديثاً، على أنه يحرم الجمع بين الأختين في النكاح، ومن أسلم وتحتة أختان خير فيمسك إحداها ويطلق الأخرى لا محالة، قال الإمام أحمد: عن الضحاك بن فيروز عن أبيه قال: أسلمت وعندني امرأتان أختان فأمرني النبي ﷺ أن أطلق إحداها، وفي لفظ للترمذي: فقال النبي ﷺ: «اختر أيتها شئت»^(١) وعن أبي خراش الرعيني قال: قدمت على رسول الله ﷺ وعندني أختان تزوجتهما في الجاهلية فقال: «إذا رجعت فطلق إحداها». وأما الجمع بين الأختين في ملك اليمين فحرام أيضاً لعموم الآية، وروى ابن أبي حاتم عن ابن مسعود أنه سئل عن الرجل يجمع بين الأختين فكرهه، فقال له - يعني السائل - يقول الله تعالى: ﴿إلا ما ملكت أيمانكم﴾، فقال له ابن مسعود رضي الله تعالى عنه: وبعبرك مما ملكت يمينك، وهذا هو المشهور عن الجمهور والأئمة الأربعة وغيرهم، وإن كان بعض السلف قد توقف في ذلك، وقال الإمام مالك: سألت رجل (عثمان بن عفان) عن الأختين في ملك اليمين هل يجمع بينهما؟ فقال عثمان: أحلتها آية وحرمتها آية، وما كنت لأمنع ذلك، فخرج من عنده فلقني رجلاً من أصحاب النبي ﷺ فسأله عن ذلك، فقال: لو كان لي من الأمر شيء ثم وجدت أحداً فعل ذلك لجعلته نكالا، وقال مالك قال ابن شهاب: أراه علي بن أبي طالب .

وعن إياس بن عامر قال: سألت علي بن أبي طالب فقلت: إن لي أختين مما ملكت يميني اتخذت إحداها سرية فولدت لي أولاداً ثم رغبت في الأخرى فما أصنع؟ فقال علي رضي الله عنه: تعتق التي كنت تطأ ثم تطأ الأخرى، قلت: فإن ناساً يقولون بل تزوّجها ثم تطأ الأخرى، فقال علي: أرايت إن طلقها زوجها أو مات عنها ليس ترجع إليك؟ لأن تعتقها أسلم لك، ثم أخذ علي بيدي فقال لي: إنه يحرم عليك مما ملكت يمينك ما يحرم عليك في كتاب الله عز وجل من الحرائر إلا العدد، أو قال إلا الأربع، ويحرم عليك من الرضاع ما يحرم عليك في كتاب الله من النسب^(٢). ثم قال أبو عمر: هذا الحديث لو رحل رجل ولم يصب من أقصى المغرب والمشرق إلى مكة غيره لما خابت رحلته. وروى الإمام أحمد عن ابن مسعود قال: يحرم من الإماء ما يحرم من الحرائر إلا العدد، وجماعة الفقهاء متفقون على أنه لا يحل الجمع بين الأختين بملك اليمين في الوطاء كما لا يحل ذلك في النكاح، وقد أجمع المسلمون على أن معنى قوله: ﴿حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم﴾ إلى آخر

(١) أخرجه أحمد والترمذي، وقال الترمذي: حديث حسن. (٢) رواه ابن عبد البر في الاستذكار.

الآية أن النكاح وملك اليمين في هؤلاء كلهن سواء، وكذلك يجب أن يكون نظراً وقياساً الجمع بين الأختين، وأمهات النساء والربائب، وكذلك هو عند جمهورهم وهم الحجة المحجوج بها من خالفها وشذ عنها .

وقوله تعالى: ﴿والمحصنات من النساء إلا ما ملكت أيمنكم﴾ أي وحرم عليكم من الأجنبية المحصنات وهن الزوجات ﴿إلا ما ملكت أيمنكم﴾ يعني إلا ما ملكتموهن بالسبي، فإنه يحل لكم وطؤهن إذا استبرأتموهن فإن الآية نزلت في ذلك، وقال الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري قال: أصبنا سبياً من سبي أوطاس، وهن أزواج فكرهنا أن نقع عليهن وهن أزواج، فسألنا النبي ﷺ فنزلت هذه الآية: ﴿والمحصنات من النساء إلا ما ملكت أيمنكم﴾ فاستحللنا فروجهن. وفي رواية مسلم أن أصحاب رسول الله ﷺ أصابوا سبياً يوم أوطاس هن أزواج من أهل الشرك، فكان أناس من أصحاب رسول الله ﷺ كفوا وتأتموا من غشيانهن قال: فنزلت هذه الآية في ذلك: ﴿والمحصنات من النساء إلا ما ملكت أيمنكم﴾. وقد ذهب جماعة من السلف إلى أن بيع الأمة يكون طلاقاً لها من زوجها أخذاً بعموم هذه الآية، وقال ابن جرير: كان عبد الله يقول: بيعها طلاقها ويتلو هذه الآية: ﴿والمحصنات من النساء إلا ما ملكت أيمنكم﴾ وعن ابن مسعود قال: إذا بيعت الأمة ولها زوج فسيدها أحق ببيعها. وعن ابن المسيب قوله: ﴿والمحصنات من النساء﴾، قال: هذه ذوات الأزواج حرم الله نكاحهن إلا ما ملكت يمينك فبيعها طلاقاً .

فهذا قول هؤلاء من السلف وقد خالفهم الجمهور قديماً وحديثاً، فأروا أن بيع الأمة ليس طلاقاً لها، لأن المشتري نائب عن البائع، والبائع كان قد أخرج عن ملكه هذه المنفعة وباعها مسلوقة عنها، واعتمدوا في ذلك على حديث بريرة المخرج في الصحيحين وغيرهما، فإن عائشة أم المؤمنين اشترتها وأعتقتها، ولم يفسخ نكاحها من زوجها مغيث، بل خيرها رسول الله ﷺ بين الفسخ والبقاء، فاختارت الفسخ وقصتها مشهورة فلو كان بيع الأمة طلاقاً كما قال هؤلاء ما خيرها النبي ﷺ، فلما خيرها دل على بقاء النكاح، وأن المراد من الآية المسيبات فقط والله أعلم، وقد قيل المراد بقوله: ﴿والمحصنات من النساء﴾ يعني العفائف حرام عليكم حتى تملكوا عصمتهم بنكاح وشهود ومهور وولي واحدة أو اثنتين أو ثلاثاً أو أربعاً، حكاه ابن جرير عن أبي العالية وطاوس وغيرهما، وقال عمر وعبيدة: ﴿والمحصنات من النساء﴾ ما عدا الأربع حرام عليكم إلا ما ملكت أيمنكم .

وقوله تعالى: ﴿كتاب الله عليكم﴾ أي هذا التحريم كتاب كتبه الله عليكم، يعني الأربع فالزموا كتابه، ولا تخرجوا عن حدوده، والزموا شرعه وما فرضه. وقال عطاء والسدي في قوله: ﴿كتاب الله عليكم﴾ يعني الأربع، وقال إبراهيم: ﴿كتاب الله عليكم﴾: يعني ما حرم عليكم، وقوله تعالى: ﴿وأحل لكم ما وراء ذلكم﴾ أي ما عدا من ذكركم من المحارم هن لكم حلال، قاله عطاء وغيره، وقال قتادة: ﴿وأحل لكم ما وراء ذلكم﴾: يعني ما ملكت أيمنكم، وهذه الآية هي التي احتج بها من احتج على تحليل الجمع بين الأختين، وقول من قال: أحلتها آية وحرمتها آية، وقوله تعالى: ﴿أن تبغوا بأموالكم محصنين غير مسافحين﴾ أي تحصلوا بأموالكم من الزوجات إلى أربع، أو السراري ما شتم بالطريق الشرعي، ولهذا قال: ﴿محصنين غير مسافحين﴾ .

وقوله تعالى: ﴿فاستمتعتم بهن فآتوهن أجورهن فريضة﴾ أي كما تستمتعون بهن فآتوهن مهورهن

في مقابلة ذلك، كما قال تعالى: ﴿وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض﴾، وكقوله تعالى: ﴿وأتوا النساء صدقاتهن نحلة﴾، وكقوله: ﴿ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتوهن شيئاً﴾. وقد استدل بعموم هذه الآية على نكاح المتعة، ولا شك أنه كان مشروعاً في ابتداء الإسلام ثم نسخ بعد ذلك، وقد ذهب الشافعي وطائفة من العلماء إلى أنه أبيع، ثم نسخ ثم أبيع ثم نسخ مرتين. وقال آخرون: إنما أبيع مرة ثم نسخ ولم يبيح بعد ذلك، وقد قيل بإباحتها للضرورة وهي رواية عن الإمام أحمد، وقال مجاهد: نزلت في نكاح المتعة، ولكن الجمهور على خلاف ذلك، والعمدة ما ثبت في الصحيحين عن أمير المؤمنين (علي بن أبي طالب) قال: نهي رسول الله ﷺ عن نكاح المتعة، وعن لحوم الحمر الأهلية يوم خيبر، ولهذا الحديث ألفاظ مقررّة هي في كتاب الأحكام، وفي صحيح مسلم عن الربيع بن سبرة بن معبد الجهني عن أبيه أنه غزا مع رسول الله ﷺ يوم فتح مكة فقال: «يا أيها الناس إني كنت أذنت لكم في الاستمتاع من النساء وإن الله قد حرم ذلك إلى يوم القيامة، فمن كان عنده منهن شيء فليخل سبيله ولا تأخذوا مما آتيتوهن شيئاً»، وفي رواية لمسلم في حجة الوداع وله ألفاظ موضعها كتاب الأحكام.

وقوله تعالى: ﴿ولا جناح عليكم فيما تراضيتُم به من بعد الفريضة﴾ أي إذا فرضت لها صداقاً فأبرأتك منه أو عن شيء منه فلا جناح عليك ولا عليها في ذلك، وقال ابن جرير: إن رجلاً كانوا يفرضون المهر، ثم عسى أن يدرك أحدهم العسرة فقال: ولا جناح عليكم أيها الناس فيما تراضيتُم به من بعد الفريضة، يعني إن وضعت لك منه شيئاً فهو لك سائغ، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: ﴿ولا جناح عليكم فيما تراضيتُم به من بعد الفريضة﴾ والتراضي أن يوفيهما صداقها، ثم يخبرها يعني في المقام أو الفراق، وقوله تعالى: ﴿إن الله كان عليماً حكماً﴾ مناسب ذكر هذين الوصفين بعد شرح هذه المحرمات.

وَمَنْ لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمَنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فِتْيَانِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرٍ مُسَفَّحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ فَإِذَا أَحْصَنْتُمْ فَلْيَنْكِحْنَهُنَّ بِفَحْشَةٍ قَلِيلٍ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٥﴾

يقول تعالى: ﴿ومن لم يجد منكم طَوْلاً﴾ أي سعة وقدرة ﴿أن ينكح المحصنات المؤمنات﴾ أي الحرائر العفائف المؤمنات، ﴿فما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات﴾ أي فتروجوا من الإماء المؤمنات اللاتي يملكنهن المؤمنون، ولهذا قال: ﴿من فتياتكم المؤمنات﴾ قال ابن عباس: فلينكح من إماء المؤمنين، ثم اعترض بقوله: ﴿والله أعلم بإيمانكم بعضكم من بعض﴾ أي هو العالم بحقائق الأمور وسرائرها، وإنما لكم أيها الناس الظاهر من الأمور، ثم قال: ﴿فانكحوهن بإذن أهلن﴾ فدل على أن السيد هو ولي أمته لا تزوج إلا بإذنه، وكذلك هو ولي عبده

ليس له أن يتزوج بغير إذنه، كما جاء في الحديث: «أبما عبد تزوج بغير إذن مواليه فهو عاهر» أي زان، فإن كان مالك الأمة امرأة زوجها من يزوج المرأة بإذنها لما جاء في الحديث: «لا تزوج المرأة المرأة، ولا المرأة نفسها، فإن الزانية هي التي تزوج نفسها» .

وقوله تعالى: ﴿وآتوهن أجورهن بالمعروف﴾ أي وادفعوا مهورهن بالمعروف، أي عن طيب نفس منكم، ولا تبخسوا منه شيئاً استهانة بهن لكونهن إماء مملوكات، وقوله تعالى: ﴿محصنات﴾ أي عفاف عن الزنا لا يتعاطينه، ولهذا قال: ﴿غير مسافحات﴾ وهن الزواني اللاتي لا يمنعن من أرادهن بالفاحشة، وقوله تعالى: ﴿ولا متخذات أخدان﴾ قال ابن عباس: ﴿المسافحات﴾ هن الزواني المعلنات، يعني الزواني اللاتي لا يمنعن أحداً أرادهن بالفاحشة، ومتخذات أخدان يعني أخلاء، وقال الحسن البصري: يعني الصديق، وقال الضحاك: ذات الخليل الواحد المقررة به، نهي الله عن ذلك يعني تزويجها ما دامت كذلك .

وقوله تعالى: ﴿فإذا أحصن فإن أتبن بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب﴾ اختلف القراء في ﴿أحصن﴾ فقرأه بعضهم بضم الهمزة وكسر الصاد مبني لما لم يسم فاعله، وقرىء بفتح الهمزة والصاد فعل لازم، ثم قيل: معنى القراءتين واحد، واختلفوا فيه على قولين :

(أحدها): أن المراد بالإحصان ههنا الإسلام روي ذلك عن ابن مسعود وابن عمر وقيل: المراد به ههنا التزويج، وهو قول ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير والحسن وغيرهم، وقد روي عن مجاهد أنه قال: إحصان الأمة أن ينكحها الحر، وإحصان العبد أن ينكح الحرة، وكذا روي عن ابن عباس رواهما ابن جرير في تفسيره، وقيل: معنى القراءتين متباين، فنقرأ ﴿أحصن﴾ بضم الهمزة فراهه التزويج، ومن قرأ بفتحها فراهه الإسلام، اختاره أبو جعفر بن جرير في تفسيره وقرره ونصره؛ والأظهر والله أعلم: أن المراد بالإحصان ههنا التزويج، لأن سياق الآية يدل عليه حيث يقول سبحانه: ﴿ومن لم يستطع منكم طولاً أن ينكح المحصنات المؤمنات فما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات﴾، والآية الكريمة سياقها في الفتيات المؤمنات، فتعين أن المراد بقوله: ﴿فإذا أحصن﴾ أي تزوجن كما فسره ابن عباس وغيره. وعلى كل من القولين إشكال على مذهب الجمهور، وذلك أنهم يقولون: إن الأمة إذا زنت فعليها خمسون جلدة، سواء كانت مسلمة أو كافرة، مزوجة أو بكرًا، مع أن مفهوم الآية يقتضي أنه لا حد على غير المحصنة من الإماء، وقد اختلفت أجوبتهم عن ذلك، فأما الجمهور فقالوا: المنطوق مقدم على المفهوم، وقد وردت أحاديث عامة في إقامة الحد على الإماء فقدمناها على مفهوم الآية، فن ذلك ما رواه مسلم في صحيحه عن علي رضي الله عنه أنه خطب فقال: يا أيها الناس أقيموا الحد على إيمانكم من أحسن منهن ومن لم يحصن، فإن أمة لرسول الله ﷺ زنت فأمرني أن أجلدها، فإذا هي حديثة عهد بنفاس فخشيت إن جلدها أن أقتلها، فذكرت ذلك للنبي ﷺ فقال: «أحسنت أتركها حتى تماثل» وفي رواية: «فإذا تعافت من نفاسها فاجلدها خمسين» وعن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا زنت أمة أحدكم فبتين زناها فليجلدها الحد ولا يثرب عليها، ثم إن زنت الثانية فليجلدها الحد ولا يثرب عليها، ثم إن زنت الثالثة فبتين زناها فليبيعها ولو بحبل من شعر» .

(الجواب الثاني): جواب من ذهب إلى أن الأمة إذا زنت ولم تحصن فلا حد عليها، وإنما تضرب تأديباً

وهو المحكي عن ابن عباس رضي الله عنه، وإليه ذهب طاووس وسعيد بن جبير وغيرهما. وعمدتهم مفهوم الآية، وهو من مفاهيم الشرط، وهو حجة عند أكثرهم فقدم على العموم عندهم وحديث أبي هريرة وزيد بن خالد أن رسول الله ﷺ سئل عن الأمة إذا زنت ولم تحصن؟ قال: «إن زنت فحدوها، ثم إن زنت فاجلدوها. ثم بيعوها ولو بصفير. قال ابن شهاب: لا أدري بعد الثالثة أو الرابعة. أخرجاه في الصحيحين. وعند مسلم قال ابن شهاب: الصفير: الحبل»، قالوا: فلم يؤقت فيه عدد كما أقت في المحصنة، وكما وقت في القرآن بنصف ما على المحصنات، فوجب الجمع بين الآية والحديث بذلك والله أعلم. قال أبو عبد الله الشافعي رحمه الله: ولم يختلف المسلمون في أن لا رجم على مملوك في الزنا؛ وذلك لأن الآية دلت على أن عليهن نصف ما على المحصنات من العذاب، والألف واللام في المحصنات للعهد، وهن المحصنات المذكورات في أول الآية: ﴿ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات المؤمنات﴾ والمراد بهن الحرائر فقط من غير تعرض للتزويج بحرة. وقوله: ﴿نصف ما على المحصنات من العذاب﴾ يدل على أن المراد من العذاب الذي يمكن تبعضه وهو الجلد لا الرجم، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿ذلك لمن خشي العنت منكم﴾ أي إنما يباح نكاح الإماء بالشروط المتقدمة لمن خاف على نفسه الوقوع في الزنا، وشق عليه الصبر عن الجماع، فله حينئذ أن يتزوج بالأمة، وإن ترك تزوجها وجاهد نفسه في الكف عن الزنا فهو خير له، لأنه إذا تزوجها جاء أولاده أرقاء لسيدها، إلا أن يكون الزوج غريباً فلا تكون أولاده منها أرقاء في قول قديم للشافعي، ولهذا قال: ﴿وأن تصبروا خير لكم والله غفور رحيم﴾. ومن هذه الآية الكريمة استدل جمهور العلماء في جواز نكاح الإماء على أنه لا بد من عدم الطول لنكاح الحرائر، ومن خوف العنت، لما في نكاحهن من مفسدة رق الأولاد، ولما فيهن من الدناءة في العدول عن الحرائر إليهن، وخالف الجمهور أبو حنيفة وأصحابه في اشتراط الأمرين فقالوا: متى لم يكن الرجل مزوجاً بحرة جاز له نكاح الأمة المؤمنة والكتانية أيضاً، سواء كان واجداً لطول حرة أم لا، وسواء خاف العنت أم لا، وعمدتهم فيما ذهبوا إليه قوله تعالى: ﴿والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم﴾ أي العفاف وهو يعم الحرائر والإماء، وهذه الآية عامة وهذه أيضاً ظاهرة في الدلالة على ما قاله الجمهور، والله أعلم.

يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾

يخبر تعالى أنه يريد أن يبين لكم أيها المؤمنون ما أحل لكم وحرّم عليكم، مما تقدم ذكره في هذه السورة وغيرها، ﴿ويهديكم سنن الذين من قبلكم﴾ يعني طرائقهم الحميدة واتباع شرائع التي يحبها ويرضاها، ﴿ويتوب عليكم﴾ أي من الإثم والمحارم، ﴿والله عليم حكيم﴾ أي في شرعه وقدره وأفعاله وأقواله، ﴿ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلا عظيماً﴾ أي يريد أتباع الشياطين من اليهود والنصارى والزناة أن تميلوا عن الحق إلى الباطل

مياً عظيماً. ﴿ يريد الله أن يخفف عنكم ﴾ أي في شرائعه وأوامره ونواهيه وما يقدره لكم، ولهذا أباح الاماء بشروط كما قال مجاهد وغيره، ﴿ وخلق الإنسان ضعيفاً ﴾ فناسبه التخفيف لضعفه في نفسه وضعف عزمه وهمته. وقال طاووس: ﴿ وخلق الإنسان ضعيفاً ﴾: أي في أمر النساء، وقال وكيع: يذهب عقله عندهن، وقال موسى عليه السلام لنبينا محمد ﷺ ليلة الإسراء: ماذا فرض عليكم؟ فقال: أمرني بخمسين صلاة في كل يوم وليلة، فقال له: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف فإن أمتك لا تطيق ذلك، فإني قد بلوت الناس قبلك على ما هو أقل من ذلك فعجزوا، وإن أمتك أضعف أسماعاً وأبصاراً وقلوباً؛ فرجع فوضع عشراً، ثم رجع إلى موسى فلم يزل كذلك حتى بقيت خمساً.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٣١﴾ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصَلِّيه نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٢﴾ إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نَكَفَّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مَدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣٣﴾

ينهى تبارك وتعالى عباده المؤمنين عن أن يأكلوا أموال بعضهم بعضاً بالباطل، أي بأنواع المكاسب التي هي غير شرعية، كأنواع الربا والقمار وما جرى مجرى ذلك من سائر صنوف الحيل، وإن ظهرت في قالب الحكم الشرعي مما يعلم الله أن متعاطيها إنما يريد الحيلة على الربا، حتى قال ابن جرير، عن ابن عباس في الرجل يشتري من الرجل الثوب فيقول: إن رضيته أخذته وإلا رددت معه درهماً، قال: هو الذي قال الله عز وجل فيه: ﴿ ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل ﴾. وعن علقمة عن عبد الله في الآية قال: إنها محكمة ما نسخت ولا تنسخ إلى يوم القيامة، وقال ابن عباس: لما أنزل الله: ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل ﴾ قال المسلمون: إن الله قد نهانا أن نأكل أموالنا بيننا بالباطل والطعام هو أفضل أموالنا، فلا يحل لأحد منا أن يأكل عند أحد فكيف للناس؟! فأنزل الله بعد ذلك: ﴿ ليس على الأعمى حرج ﴾^(١) الآية.

وقوله تعالى: ﴿ إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم ﴾ الاستثناء منقطع كأنه يقول: لا تتعاطوا الأسباب المحرمة في اكتساب الأموال، لكن المتاجر المشروعة التي تكون عن تراض من البائع والمشتري فافعلوها، وتسبوا بها في تحصيل الأموال، كما قال تعالى: ﴿ ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ﴾، وكقوله: ﴿ لا يدنوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى ﴾، ومن هذه الآية الكريمة احتج الشافعي على أنه لا يصح البيع إلا بالقبول لأنه يدل على التراضي نصاً بخلاف المعاطاة فإنها قد لا تدل على الرضا، وخالف الجمهور في ذلك (مالك وأبو حنيفة وأحمد) فرأوا أن الأقوال كما تدل على التراضي، فكذلك الأفعال تدل في بعض المحال قطعاً، فصححوا بيع المعاطاة مطلقاً، ومنهم من قال: يصح في المحقرات وفيما يعده الناس بيعاً، وهو احتياط نظر من محققي المذهب والله أعلم. وقال مجاهد: ﴿ إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم ﴾ بيعاً أو عطاء يعطيه أحد أحداً، قال رسول الله ﷺ: « البيع عن تراض، والخيار بعد الصفقة، ولا يحل لمسلم أن يغش مسلماً »^(٢) هذا حديث مرسل، ومن تمام التراضي

(١) أخرجه ابن أبي حاتم . (٢) أخرجه ابن جرير وهو حديث مرسل .

إثبات خيار المجلس كما ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «البيعان بالخيار ما لم يتفرقا»، وفي لفظ البخاري: «إذا تباع الرجلان فكل واحد منهما بالخيار ما لم يتفرقا»، وذهب إلى القول بمقتضى هذا الحديث أحمد والشافعي وأصحابهما وجمهور السلف والخلف، ومن ذلك مشروعية خيار الشرط بعد العقد إلى ثلاثة أيام، بحسب ما يتبين فيه حال البيع ولو إلى سنة في القرية ونحوها كما هو المشهور عن مالك رحمه الله، وصحوا بيع المعاطة مطلقاً وهو قول في مذهب الشافعي، ومنهم من قال: يصح بيع المعاطة في المحقرات فيما يعده الناس بيعاً، وهو اختيار طائفة من الأصحاب كما هو متفق عليه.

وقوله: ﴿ولا تقتلوا أنفسكم﴾ أي بارتكاب محارم الله وتعاطي معاصيه وأكل أموالكم بينكم بالباطل ﴿إن الله كان بكم رحيماً﴾ أي فيما أمركم به ونهاكم عنه. عن عمرو بن العاص رضي الله عنه أنه قال: لما بعته النبي ﷺ عام (ذات السلاسل) قال: احتلمت في ليلة باردة شديدة البرد، فأشفقت إن اغتسلت أن أهلك، فتيمنت ثم صليت بأصحابي صلاة الصبح، قال: فلما قدمنا على رسول الله ﷺ ذكرت ذلك له، فقال: «يا عمرو صليت بأصحابك وأنت جنب»؟ قال: قلت يا رسول الله إني احتلمت في ليلة باردة شديدة البرد، فأشفقت إن اغتسلت أن أهلك فذكرت قول الله عز وجل: ﴿ولا تقتلوا أنفسكم﴾ إن الله كان بكم رحيماً ﴿فتيمنت ثم صليت، فضحك رسول الله ﷺ ولم يقل شيئاً﴾. وأورد ابن مردويه عند هذه الآية الكريمة عن أبي هريرة قال، قال رسول الله ﷺ: «من قتل نفسه بحديدة فحديده في يده يحا بها بطنه يوم القيامة في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً، ومن قتل نفسه بسم فسمه في يده يتحساه في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً»، وفي الصحيحين: «من قتل نفسه بشيء عذب به يوم القيامة». وفي الصحيحين أيضاً عن جندب بن عبد الله البجلي قال، قال رسول الله ﷺ: «كان رجل ممن كان قبلكم وكان به جرح فأخذ سكيناً نحر بها يده فما رقا الدم حتى مات، قال الله عز وجل: عبدي بادرنى بنفسه حرمت عليه الجنة» ولهذا قال تعالى: ﴿ومن يفعل ذلك عدواناً وظلماً﴾ أي ومن يتعاطى ما نهاه الله عنه معتدياً فيه، ظالماً في تعاطيه، أي عالماً بتحريمه متجاسراً على انتهاكه ﴿فسوف نصليه ناراً﴾ وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد، فليحذر منه كل عاقل لبيب ممن ألقى السمع وهو شهيد.

وقوله تعالى: ﴿إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم﴾ الآية. أي إذا اجتنبتكم كبائر الآثام التي نهيت عنها، كفرنا عنكم صغائر الذنوب وأدخلناكم الجنة، ولهذا قال: ﴿وندخلكم مدخلاً كريماً﴾، وقد وردت أحاديث متعلقة بهذه الآية الكريمة فلنذكر منها ما تيسر. قال أبو جعفر بن جرير عن صهيب مولى الصواري، أنه سمع أبا هريرة وأبا سعيد يقولان: خطبنا رسول الله ﷺ يوماً فقال: «والذي نفسي بيده» ثلاث مرات ثم أكب فأكب كل رجل منا يبكي لا ندري ماذا حلف عليه، ثم رفع رأسه وفي وجهه البشري فكان أحب إلينا من حمر النعم فقال: «ما من عبد يصلي الصلوات الخمس، ويصوم رمضان، ويخرج الزكاة، ويجتنب الكبائر السبع إلا فتحت له أبواب الجنة ثم قيل له ادخل بسلام»^(١).

(١) رواه أحمد وأبو داود .

(٢) رواه النسائي والحاكم وابن حبان .

(تفسير هذه السبع) : وذلك بما ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : « اجتنبوا السبع الموبقات » . قيل : يا رسول الله وما هن ؟ قال : « الشرك بالله، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، والسحر، وأكل الربا وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات » . فالنص على هذه السبع بأنهن كبائر، لا يبنى ما عداهن إلا عند من يقول بمفهوم اللقب، وهو ضعيف عند عدم القرينة، ولا سيما عند قيام الدليل بالمنطوق على عدم المفهوم كما سنورده من الأحاديث المتضمنة من الكبائر غير هذه السبع . (حديث آخر) : قال الإمام أحمد عن أبي أيوب قال : قال رسول الله ﷺ : « من عبد الله لا يشرك به شيئاً، وأقام الصلاة وآتى الزكاة، وصام رمضان، واجتنب الكبائر فله الجنة - أو دخل الجنة - » فسأله رجل ما الكبائر ؟ فقال : « الشرك بالله، وقتل نفس مسلمة، والفرار من الزحف » . وكتب رسول الله ﷺ إلى أهل اليمن كتاباً فيه الفرائض والسنن والدييات، وبعث به مع (عمرو بن حزم) وكان في الكتاب : « إن أكبر الكبائر عند الله يوم القيامة : إشرارك بالله، وقتل النفس المؤمنة بغير حق، والفرار في سبيل الله يوم الزحف، وعقوق الوالدين، ورمي المحصنة، وتعلم السحر، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم »^(١) . (حديث آخر فيه ذكر شهادة الزور) : عن أنس بن مالك قال : ذكر رسول الله ﷺ الكبائر أو سئل عن الكبائر فقال : « الشرك بالله، وقتل النفس، وعقوق الوالدين » ، وقال : ألا أنبئكم بأ أكبر الكبائر ؟ قلنا : بلى، قال : « الإشرار بالله، وقول الزور - أو شهادة الزور - » وأخرجه الشيخان من حديث عبد الرحمن بن أبي بكر عن أبيه قال، قال النبي ﷺ : « ألا أنبئكم بأ أكبر الكبائر » ؟ قلنا : بلى، يا رسول الله، قال : « الإشرار بالله، وعقوق الوالدين - » - وكان متكئاً فجلس، فقال : « ألا وشهادة الزور، ألا وقول الزور » ، فما زال يكررها حتى قلنا : ليته سكت .

(حديث آخر فيه ذكر قتل الولد) : عن عبد الله بن مسعود قال، قلت : يا رسول الله أي الذنب أعظم ؟ وفي رواية أكبر ؟ قال : « أن يجعل لله نداً وهو خلقك » ، قلت : ثم أي ؟ قال : « أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك » قلت : ثم أي ؟ قال : « أن تزاني حليلة جارك » ، ثم قرأ : ﴿ والذين لا يدعون مع الله الهاً آخر - إلى قوله - إلا من تاب ﴾^(٢) .

(حديث آخر في اليمين الغموس) : قال ابن أبي حاتم، عن عبد الله بن أنيس الجهني عن رسول الله ﷺ قال : « أكبر الكبائر الإشرار بالله، وعقوق الوالدين، واليمين الغموس، وما حلف حالف بالله يمين صبر فأدخل فيها مثل جناح البعوضة إلا كانت وكتة في قلبه إلى يوم القيامة » . (حديث آخر) : في التسبب إلى شتم الوالدين : عن عبد الله بن عمرو قال، قال رسول الله ﷺ : « من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه » . قالوا : وكيف يلعن الرجل والديه ؟ قال : « يسب الرجل أبا الرجل فيسب أباه، ويسب أمه فيسب أمه »^(٣) . وثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : « سباب المسلم فسوق، وقتاله كفر » .

(١) أخرجه ابن مردويه .

(٢) الحديث في الصحيحين .

(٣) رواه البخاري ومسلم .

(حديث آخر): عن ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال: «الإضرار في الوصية من الكبائر»، قال ابن أبي حاتم: هو صحيح عن ابن عباس من قوله. (حديث آخر في ذلك): قال ابن جرير عن أبي أمامة: أن أناساً من أصحاب النبي ﷺ ذكروا الكبائر وهو متكىء فقالوا: الشرك بالله، وأكل مال اليتيم، والفرار من الزحف وقذف المحصنة، وعقوق الوالدين، وقول الزور، والغلول، والسحر، وأكل الربا، فقال رسول الله ﷺ: «فأين يجعلون الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً؟» إلى آخر الآية^(١).

(ذكر أقوال السلف في ذلك)

قال ابن جرير عن الحسن: أن ناساً سألوا عبد الله بن عمرو بمصر، فقالوا: نرى أشياء من كتاب الله عز وجل أمر أن يعمل بها لا يعمل بها، فأردنا أن نلتقي أمير المؤمنين في ذلك فقدم وقدموا معه، فلتى عمر رضي الله عنه، فقال: متى قدمت؟ فقال: منذ كذا وكذا، قال: أياذن قدمت؟ قال: فلا أدري كيف رد عليه. فقال: يا أمير المؤمنين إن ناساً لقوني بمصر، فقالوا: إنا نرى أشياء في كتاب الله أمر أن يعمل بها فلا يعمل بها، فأحبوا أن يلقوك في ذلك. قال: فاجمعهم لي، قال: فجمعتهم له. قال ابن عون - أظنه قال في بهو - فأخذ أذانهم رجلاً فقال: أنشدك بالله وبحق الإسلام عليك، أقرأت القرآن كله؟ قال: نعم. قال: فهل أحصيته في نفسك؟ فقال: اللهم لا، قال: ولو قال نعم لخصمه. قال: فهل أحصيته في بصرك؟ فهل أحصيته في لفظك؟ هل أحصيته في أترك؟ ثم تتبعهم حتى أتى على آخرهم، فقال: ثكلت عمر أمه أتكلفونه أن يقيم الناس على كتاب الله؟ قد علم ربنا أن ستكون لنا سيئات، قال: وتلا ﴿إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم﴾ الآية. ثم قال: هل علم أهل المدينة؟ أو قال: هل علم أحد بما قدمتم؟ قالوا: لا، قال: لو علموا لو عظمت بكم^(٢).

(أقول ابن عباس في ذلك)

روى ابن جرير عن طاوس، قال: جاء رجل إلى ابن عباس، فقال: رأيت الكبائر السبع التي ذكرهن الله ما هن؟ قال: هن إلى السبعين أدنى منهن إلى سبع، وقال عبد الرزاق قيل: لابن عباس الكبائر سبع؟ قال: هن إلى السبعين أقرب؛ وقال ابن جرير عن سعيد بن جبير: أن رجلاً قال لابن عباس: كم الكبائر، سبع؟ قال: هن إلى سبعمائة أقرب منها إلى سبع، غير أنه لا كبيرة مع استغفار: ولا صغيرة مع إصرار. وعن ابن عباس في قوله ﴿إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه﴾ قال: الكبائر كل ذنب ختمه الله بنار، أو غضب، أو لعنة، أو عذاب. وسئل ابن عباس عن الكبائر فقال: كل شيء عصي الله به فهو كبيرة.

وقد اختلف علماء الأصول والفروع في حد الكبيرة، فمن قائل: هي ما عليه حد في الشرع، ومنهم من قال: هي ما عليه وعيد مخصوص من الكتاب والسنة، وقيل غير ذلك. قال أبو القاسم عبد الكريم الرافعي في كتابه

(١) قال ابن كثير: في إسناده ضعف وهو حسن.

(٢) أخرجه ابن جرير وقال ابن كثير: إسناده صحيح ومتن حسن.

(الشرح الكبير): ثم اختلف الصحابة رضي الله عنهم فمن بعدهم في الكبائر، وفي الفرق بينها وبين الصغائر، ولبعض الأصحاب في تفسير الكبيرة وجوه أحدها: أنها المعصية الموجبة للحد، (والثاني): أنها المعصية التي يلحق صاحبها الوعيد الشديد بنص كتاب أو سنة، وهذا أكثر ما يوجد لهم وإلى الأول أميل، لكن الثاني أوفق لما ذكره عند تفسير الكبائر، (والثالث): قال إمام الحرمين: كل جريمة تنبئ بقله اكتراث مرتكبها بالدين ورقة الديانة فهي مبطللة للعدالة، (والرابع): ذكر القاضي أبو سعيد الهروي: أن الكبيرة كل فعل نص الكتاب على تحريمه، وكل معصية توجب في جنسها حداً من قتل أو غيره.

ثم قال: وفصل (القاضي الروياني) فقال: الكبائر سبع: قتل النفس بغير الحق، والزنا، واللواط، وشرب الخمر، والسرقه، وأخذ المال غصباً، والقذف، وزاد في (الشامل) على السبع المذكورة: شهادة الزور، أضاف إليها صاحب (العدة): أكل الربا، والإفطار في رمضان بلا عذر، واليمين الفاجرة، وقطع الرحم، وعقوق الوالدين، والفرار من الزحف، وأكل مال اليتيم، والخيانة في الكيل والوزن، وتقديم الصلاة على وقتها، وتأخيرها عن وقتها بلا عذر، وضرب المسلم بلا حق، والكذب على رسول الله ﷺ عمدًا؛ وسب أصحابه، وكتان الشهادة بلا عذر، وأخذ الرشوة، والقيادة بين الرجال والنساء، والسعاية عند السلطان، ومنع الزكاة، وترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع القدرة، ونسيان القرآن بعد تعلمه، وإحراق الحيوان بالنار، وامتناع المرأة من زوجها بلا سبب، والياس من رحمة الله، والأمن من مكر الله، ويقال الوقعة في أهل العلم، وحملة القرآن. ومما يعد من الكبائر: الظهار، وأكل لحم الخنزير، والميتة إلا عن ضرورة. قلت: وقد صنف الناس في الكبائر مصنفات منها ما جمعه شيخنا الحافظ (أبو عبد الله الذهبي) الذي بلغ نحواً من سبعين كبيرة، وإذا قيل: إن الكبيرة ما توعده عليها الشارع بالنار بخصوصها كما قال ابن عباس وغيره وما يتبع ذلك، اجتمع منه شيء كبير، وإذا قيل: كل ما نهى الله عنه فكثير جداً. والله أعلم.

وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا كَتَبْنَا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا كَتَبْنَا
وَسَأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٢﴾

عن مجاهد قال، قالت أم سلمة: يا رسول الله يغزو الرجال ولا تغزو، ولنا نصف الميراث؟ فأنزل الله: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ (١)، وقال عبد الرزاق عن معمر قال: نزلت هذه الآية في قول النساء ليتنا الرجال فنجاهد كما يجاهدون، ونغزو في سبيل الله عز وجل. وقال ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس في الآية، قال: أتت امرأة إلى النبي ﷺ، فقالت: يا رسول الله للذكر مثل حظ الأنثيين، وشهادة امرأتين برجل، ونحن في العمل هكذا، إن فعلت امرأة حسنة كتب لها نصف حسنة، فأنزل الله هذه الآية: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا﴾ الآية (٢). قال ابن عباس: لا يتمنى الرجل فيقول: ليت لو أن لي مال فلان وأهله، فنهى الله عن ذلك، ولكن يسأل الله من فضله. وهو الظاهر من الآية، ولا يرد على هذا ما ثبت في الصحيح: «لا حسد إلا

(١) رواه أحمد والترمذي . (٢) أخرجه ابن أبي حاتم .

في اثنتين رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته في الحق، فيقول رجل: لو أن لي مثل ما لفلان لعملت مثله فهما في الأجر سواء» الحديث فإن هذا شيء غير ما نهت عنه الآية، وذلك أن الحديث حض على تمنّي مثل نعمة هذا، والآية نهت عن تمنّي عين نعمة هذا، يقول: ﴿ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض﴾ أي في الأمور الدنيوية وكذا الدينية، لحديث أم سلمة وابن عباس، وهكذا قال عطاء بن أبي رباح: نزلت في النهي عن تمنّي ما لفلان، وفي تمنّي النساء أن يكنّ رجالاً فيغزون^(١).

ثم قال تعالى: ﴿للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن﴾ أي كل له جزء على عمله بحسبه إن خيراً فخير، وإن شراً فشر. هذا قول ابن جرير، وقيل: المراد بذلك في الميراث أي كل يرث بحسبه، رواه الوابي عن ابن عباس، ثم أرشدهم إلى ما يصلحهم، فقال: ﴿واسألوا الله من فضله﴾ لا تتمنوا ما فضلنا به بعضكم على بعض، فإن هذا أمر محتوم، أي أن التمني لا يجدي شيئاً، ولكن سلوني من فضلي أعطكم، فإني كريم وهاب، وقد روى الترمذي عن عبد الله بن مسعود قال، قال رسول الله ﷺ: «سلوا الله من فضله فإن الله يحب أن يسأل، وإن أفضل العبادة انتظار الفرج»^(٢). ثم قال: ﴿إن الله كان بكل شيء عليماً﴾ أي هو عليم بمن يستحق الدنيا فيعطيه منها، ومن يستحق الفقر فيفقره، وعليم بمن يستحق الآخرة فيقيضه لأعمالها، ومن يستحق الخذلان فيخذله عن تعاطي الخير وأسبابه، ولهذا قال: ﴿إن الله كان بكل شيء عليماً﴾.

وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوْلَىٰ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ^٤ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتَوْهُمْ نَصِيبَهُمْ^٥ إِنْ أَلَّ اللَّهُ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٣٣﴾

وقوله تعالى: ﴿ولكل جعلنا مولى﴾ أي ورثة، وعن ابن عباس في رواية: أي عصبه، قال ابن جرير: والعرب تسمي ابن العم مولى كما قال الفضل بن عباس:

مهلاً بني عمنا، مهلاً موالينا لا يظهرن بيننا ما كان مدفونا

قال: ويعني بقوله ﴿مما ترك الوالدان والأقربون﴾ من تركه والديه وأقربيه من الميراث، فتأويل الكلام: ولكلكم أيها الناس جعلنا عصبه يرثونه مما ترك والداه وأقربوه من ميراثهم له. وقوله تعالى: ﴿والذين عقدت أيمانكم فآتوهم نصيبهم﴾ أي والذين تحالفتم بالإيمان المؤكدة أتم وهم، فآتوهم نصيبهم من الميراث كما وعدتموهم في الأيمان المغلظة، إن الله شاهد بينكم في تلك العهود والمعاقبات، وقد كان هذا في ابتداء الإسلام، ثم نسخ بعد ذلك، وأمروا أن يوفوا من عاقدوا ولا ينسوا بعد نزول هذه الآية معاقدة، قال البخاري عن ابن عباس: ﴿ولكل جعلنا مولى﴾: قال ورثة، ﴿والذين عقدت أيمانكم﴾ كان المهاجرون لما قدموا المدينة يرث المهاجري الأنصاري دون ذوي رحمه للأخوة التي آخى النبي ﷺ بينهم، فلما نزلت: ﴿ولكل جعلنا مولى﴾ نسخت، ثم قال: ﴿والذين عقدت أيمانكم فآتوهم نصيبهم﴾ من النصر والرفادة والنصيحة، وقد ذهب الميراث ويوصى له^(٣).

(١) رواه ابن جرير . (٢) أخرجه الترمذي من حديث ابن مسعود . (٣) أخرجه البخاري عن ابن عباس .

وروى ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قوله: ﴿والذين عقدت أيمانكم﴾ الآية، قال: كان المهاجرون حين قدموا المدينة يرث المهاجري الأنصاري دون ذوي رحمه بالأخوة التي آخى رسول الله ﷺ بينهم، فلما نزلت: ﴿ولكل جعلنا موالى مما ترك الوالدان والأقربون﴾ نسخت، ثم قال: والذين عقدت أيمانكم فآتوهم نصيبهم. وعن ابن عباس قال، قال رسول الله ﷺ: «لا حلف في الإسلام، وكل حلف كان في الجاهلية فلم يزد الإسلام إلا شدة وما يسرنى أن لي حمر النعم، وأني نقضت الحلف الذي كان في دار الندوة»^(١).

وقال محمد بن إسحاق عن (داود بن الحصين) قال: كنت أقرأ على أم سعد بنت الربيع مع ابن ابنها (موسى بن سعد) وكان يتيماً في حجر أبي بكر، فقرأت عليها: ﴿والذين عاقدت أيمانكم﴾ فقالت: لا، ولكن ﴿والذين عقدت أيمانكم﴾ قالت: إنما نزلت في أبي بكر وابنه عبد الرحمن حين أبى أن يسلم فحلف أبو بكر أن لا يورثه، فلما أسلم حين حمل على الإسلام بالسيف، أمر الله أن يورثه نصيبه^(٢)، والصحيح الأول، وأن هذا كان في ابتداء الإسلام، يتوارثون بالحلف ثم نسخ وبقي تأثير الحلف بعد ذلك، وإن كانوا قد أمروا أن يوفوا بالعهود والعقود، والحلف الذي كانوا قد تعاقده قبل ذلك. وهذا نص في الرد على من ذهب إلى التوارث بالحلف اليوم، كما هو مذهب أبي حنيفة وأصحابه، ورواية عن أحمد بن حنبل، والصحيح قول الجمهور (مالك والشافعي وأحمد) في المشهور عنه، ولهذا قال تعالى: ﴿ولكل جعلنا موالى مما ترك الوالدان والأقربون﴾، أي ورثة من قراباته من أبويه وأقربيه، وهم يرثونه دون سائر الناس كما ثبت في الصحيحين عن ابن عباس، أن رسول الله ﷺ قال: «ألحقوا الفرائض بأهلها فما بقي فلأولى رجل ذكر» أي اقسمو الميراث على أصحاب الفرائض الذين ذكروهم الله في آيتي الفرائض، فما بقي بعد ذلك فأعطوه للعصبة، وقوله: ﴿والذين عقدت أيمانكم﴾ أي قبل نزول هذه الآية فآتوهم نصيبهم أي من الميراث، فأما حلف عقد بعد ذلك فلا تأثير له، وقد قيل: إن هذه الآية نسخت الحلف في المستقبل وحكم الحلف الماضي أيضاً فلا توارث به، كما قال ابن عباس ﴿فآتوهم نصيبهم﴾ قال: من النصرة والنصيحة والرفادة، وقال سعيد بن جبير: ﴿فآتوهم نصيبهم﴾ أي من الميراث، وقد اختار ابن جرير أن المراد بقوله ﴿فآتوهم نصيبهم﴾ أي من النصرة والنصيحة والمعونة، لا أن المراد فآتوهم نصيبهم من الميراث حتى تكون الآية منسوخة، ولا أن ذلك كان حكماً ثم نسخ، بل إنما دلت الآية على الوفاء بالحلف المعقود على النصرة والنصيحة فقط، فهي (محكمة) لا (منسوخة) وهذا الذي قال فيه نظر، فإن من الحلف ما كان على المناصرة والمعونة، ومنه ما كان على الإرث كما حكاه غير واحد من السلف، وكما قال ابن عباس كان المهاجري يرث الأنصاري دون قراباته وذوي رحمه، حتى نسخ ذلك فكيف يقولون إن هذه الآية محكمة غير منسوخة؟ والله أعلم.

* الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَنَاطُتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَالَّتِي تَحَافُونَ نُسُوزَهُنَّ فِعْظُهُنَّ وَأَهْجُرُهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَأَضْرِبُوهُنَّ

(١) رواه ابن جرير .

(٢) رواه ابن أبي حاتم .

فَإِنْ أَطَعَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾

يقول تعالى: ﴿الرجال قوامون على النساء﴾ أي الرجل قيم على المرأة، أي هو رئيسها وكبيرها والحاكم عليها ومؤدبها إذا اعوجت ﴿بما فضل الله بعضهم على بعض﴾ أي لأن الرجال أفضل من النساء، والرجل خير من المرأة ولهذا كانت النبوة مختصة بالرجال، وكذلك الملك الأعظم لقوله ﷺ: «لن يفلح قوم ولّوا أمرهم امرأة» رواه البخاري، وكذا منصب القضاء وغير ذلك ﴿وبما أنفقوا من أموالهم﴾ أي من المهور والنفقات والكلف التي أوجبها الله عليهم لمن في كتابه وسنة نبيه ﷺ، فالرجل أفضل من المرأة في نفسه، وله الفضل عليها والإفضال، فناسب أن يكون قيماً عليها كما قال الله تعالى: ﴿وللرجال عليهن درجة﴾ الآية، وقال ابن عباس: ﴿الرجال قوامون على النساء﴾ يعني أمراء عليهن، أي تطيعه فيما أمرها الله به من طاعته، وطاعته أن تكون محسنة لأهله حافظة لماله. وقال الحسن البصري: جاءت امرأة إلى النبي ﷺ تشكو أن زوجها لطمها، فقال رسول الله ﷺ: «القصاص» فأنزل الله عز وجل: ﴿الرجال قوامون على النساء﴾ الآية. فرجعت بغير قصاص، وقد أسنده ابن مردويه عن علي قال: أتى رسول الله ﷺ رجلاً من الأنصار بامرأة له، فقالت: يا رسول الله إن زوجها فلان بن فلان الأنصاري وإنه ضربها فأثر في وجهها، فقال رسول الله ﷺ: ليس له ذلك، فأنزل الله تعالى: ﴿الرجال قوامون على النساء﴾ أي في الأدب، فقال رسول الله ﷺ: «أردت أمراً وأراد الله غيره» أورد ذلك كله ابن جرير .

وقوله تعالى: ﴿فالصالحات﴾ أي من النساء ﴿قانتات﴾، قال ابن عباس: يعني مطيعات لأزواجهن ﴿حافظات للغيب﴾ وقال السدي وغيره: أي تحفظ زوجها في غيبته في نفسها وماله، وقوله: ﴿بما حفظ الله﴾ أي المحفوظ من حفظه الله. عن أبي هريرة قال، قال رسول الله ﷺ: «خير النساء امرأة إذا نظرت إليها سرتك، وإذا أمرتها أطاعتك، وإذا غبت عنها حفظتك في نفسها ومالك»، قال: ثم قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿الرجال قوامون على النساء﴾ إلى آخرها^(١)، وقال الإمام أحمد عن عبد الرحمن بن عوف قال، قال رسول الله ﷺ: «إذا صلت المرأة خمسها، وصامت شهرها، وحفظت فرجها، وأطاعت زوجها قيل لها ادخلي الجنة من أي الأبواب شئت». وقوله تعالى: ﴿واللاتي يخافون نشوزهن﴾ أي النساء اللاتي يتخوفون أن ينشزن على أزواجهن، والنشوز هو الارتفاع، فالمرأة الناشز هي المرتفعة على زوجها، التاركة لأمره، المعرضة عنه، المبغضة له، فمتى ظهر له منها أمارات النشوز فليعظها، وليخوفها عقاب الله في عصيانه، فإن الله قد أوجب حق الزوج عليها وطاعته، وحرم عليها معصيته لما له عليها من الفضل والإفضال، وقد قال رسول الله ﷺ: «لو كنت آمراً أحداً أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها من عظم حقه عليها»^(٢)، وروى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال، قال رسول الله ﷺ: «إذا دعا الرجل امرأته إلى فراشه فأبت عليه لعنتها الملائكة حتى تصبح». ورواه مسلم ولفظه: «إذا باتت المرأة هاجرة فراش زوجها لعنتها الملائكة حتى تصبح»، ولهذا قال تعالى: ﴿واللاتي يخافون نشوزهن فعظموهن﴾ .

(١) رواه ابن جرير وابن أبي حاتم . (٢) أخرجه الترمذي من حديث أبي هريرة .

وقوله تعالى: ﴿واهجروهن في المضاجع﴾، قال ابن عباس: الهجر هو أن لا يجامعها، ويضاجعها على فراشها ويوليها ظهره، وكذا قال غير واحد وزاد آخرون في رواية: ولا يكلمها مع ذلك ولا يحدثها، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: يعظها فإن هي قبلت، وإلا هجرها في المضجع ولا يكلمها من غير أن يرد نكاحها وذلك عليها شديد. وقال مجاهد والشعبي: الهجر هو أن لا يضاجعها. وفي السنن والمسند عن (معاوية بن حيدة القشيري) أنه قال: يا رسول الله ما حق امرأة أهدنا عليه؟ قال: «أن تطعمها إذا طعمت، وتكسوها إذا اكتسيت، ولا تضرب الوجه، ولا تقبح، ولا تهجر إلا في البيت». وقوله: ﴿واضربوهن﴾ أي إذا لم يرتدعن بالموعظة ولا بالهجران، فلکم أن تضربوهن ضرباً غير مبرح، كما ثبت في صحيح مسلم عن جابر عن النبي ﷺ أنه قال في حجة الوداع: «واتقوا الله في النساء فإنهن عندكم عوان^(١)، ولکم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه، فإن فعلن فاضربوهن ضرباً غير مبرح، ولهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف». وكذا قال ابن عباس وغير واحد: ضرباً غير مبرح. قال الحسن البصري: يعني غير مؤثر، قال الفقهاء: هو أن لا يكسر فيها عضواً ولا يؤثر فيها شيئاً، وقال ابن عباس: يهجرها في المضجع فإن أقبلت وإلا فقد أذن الله لك أن تضربها ضرباً غير مبرح، ولا تكسر لها عظماً فإن أقبلت، وإلا فقد أحل الله لك منها القدية. وقال النبي ﷺ: «لا تضربوا إماء الله»، فجاء عمر رضي الله عنه إلى رسول الله ﷺ فقال: ذثرت النساء على أزواجهن، فرخص رسول الله ﷺ في ضربهن، فأطاف بآل رسول الله ﷺ نساء كثير يشتكين أزواجهن، فقال رسول الله ﷺ: «لقد أطاف بآل محمد نساء كثير يشتكين من أزواجهن ليس أولئك بخياركم»^(٢).

وقوله تعالى: ﴿فإن أظعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً﴾ أي إذا أطاعت المرأة زوجها في جميع ما يريد منها، مما أباحه الله له منها فلا سبيل له عليها بعد ذلك، وليس له ضربها ولا هجرانها. وقوله: ﴿إن الله كان علياً كبيراً﴾ تهديد للرجال إذا بغوا على النساء من غير سبب، فإن الله العلي الكبير وليهن، وهو عنتقم ممن ظلمهن وبغى عليهن.

وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقُ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنْ اللَّهُ كَانَ عَلِيماً خَبِيراً ﴿٣٥﴾

ذكر الحال الأول، وهو: إذا كان النفور والنشوز من الزوجة، ثم ذكر الحال الثاني: وهو إذا كان النفور من الزوجين فقال تعالى: ﴿وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها﴾، وقال الفقهاء: إذا وقع الشقاق بين الزوجين اسكنهما الحاكم إلى جنب ثقة، ينظر في أمرهما ويمنع الظالم منهما من الظلم، فإن تفاقم أمرهما وطالت خصومتها، بعث الحاكم ثقة من أهل المرأة وثقة من قوم الرجل، ليجتمعا فينظرا في أمرهما ويفعلا ما فيه المصلحة، مما يريانه من التفريق أو التوفيق، وتشوف الشارع إلى التوفيق، ولهذا قال تعالى: ﴿إن يريدوا إصلاً يوفق الله بينهما﴾، وقال ابن عباس: أمر الله عز وجل أن يبعثوا رجلاً صالحاً من أهل الرجل، ورجلاً من أهل

(١) عوان: أي أسيرات، شبهن عليه السلام بالأسيرات شفقة ورحمة. (٢) رواه أبو داود والنسائي وابن ماجه.

المرأة، فينظران أيهما المسيء فإن كان الرجل هو المسيء حججوا عنه امرأته وقصروه على النفقة، وإن كانت المرأة هي المسيئة قصروها على زوجها ومنعوا النفقة، فإن اجتمع رأيهما على أن يفرقا أو يجمعا فأمرهما جائر، فإن رأيا أن يجمعا فرضي أحد الزوجين وكره الآخر ثم مات أحدهما فإن الذي يرث الذي لم يرث ولا يرث الكاره الراضي. عن ابن عباس قال: بعثت أنا ومعاوية حكيمين، قال معمر: بلغني أن عثمان بعثهما وقال لهما: إن رأيتما أن يجمعا جمعتهما، وإن رأيتما أن تفرقا ففرقا. وقال أنبأنا ابن جريج حدثني ابن أبي مليكة أن (عقيل بن أبي طالب) تزوج (فاطمة بنت عتبة بن ربيعة) فقالت: تصبر إلي وأنفق عليك، فكان إذا دخل عليها قالت: أين عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة، فقال: على يسارك في النار إذا دخلت؛ فشدت عليها ثيابها، فجاءت عثمان فذكرت له ذلك، فضحك، فأرسل ابن عباس ومعاوية، فقال ابن عباس: لأفرقن بينهما فقال معاوية: ما كنت لأفرق بين شخصين من بني عبد مناف، فأتياهما فوجداهما قد أغلقا عليهما أبوابهما فرجعا^(١). وعن محمد بن سيرين عن عبيدة قال: شهدت علياً وجاءته امرأة وزوجها مع كل واحد منهما فنام^(٢) من الناس، فأخرج هؤلاء حكماً وهؤلاء حكماً، فقال علي للحكيم: أتدريان ما عليكما؟ إن عليكما إن رأيتما أن يجمعا جمعتهما. فقالت المرأة: رضيت بكتاب الله لي وعلي، وقال الزوج أما الفرقة فلا، فقال: علي كذبت، والله لا تبرح حتى ترضى بكتاب الله عز وجل لك وعليك، رواه ابن أبي حاتم.

وقد أجمع العلماء على أن الحكيمين لهما الجمع والتفرقة، حتى قال إبراهيم النخعي إن شاء الحكمان أن يفرقا بينهما بطلقة أو بطلقتين أو ثلاث فعلا، وهو رواية عن مالك، وقال الحسن البصري: الحكمان يحكمان في الجمع لا في التفرقة، وكذا قال قتادة وزيد بن أسلم، وبه قال أحمد بن حنبل وأبو ثور وداود، ومأخذهم قوله تعالى: ﴿إِنْ يَرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا﴾، ولم يذكر التفريق، وأما إذا كانا وكيلين من جهة الزوجين فإنه ينفذ حكمهما في الجمع والتفرقة بلا خوف. وقد اختلف الأئمة في الحكيمين: هل هما منصوبان من جهة الحاكم فيحكمان وإن لم يرث الزوجان؟ أو هما وكيلان من جهة الزوجين؟ على قولين، والجمهور على الأول لقوله تعالى: ﴿فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا﴾ فساهما حكيمين، ومن شأن الحكم أن يحكم بغير رضا المحكوم عليه، وهذا ظاهر الآية. والجديد من مذهب الشافعي وهو قول أبي حنيفة وأصحابه، الثاني منهما لقول علي رضي الله عنه للزوج حين قال أما الفرقة قال: كذبت حتى تقر بما أقرت به، قالوا: فلو كانا حكيمين لما افتقر إلى إقرار الزوج، والله أعلم.

* وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَأَلِيمٌ بِمَا كَانُمْتُمْ لَا فُحُورًا ﴿٣٦﴾

يأمر تبارك وتعالى بعبادته وحده لا شريك له، فإنه هو الخالق الرازق المنعم المتفضل على خلقه في جميع

(٢) الفقام: الجماعة لا واحده.

(١) أخرجه عبد الرزاق من حديث ابن عباس.

الحالات، فهو المستحق منهم أن يوحلوه ولا يشركوا به شيئاً من مخلوقاته، كما قال النبي ﷺ لمعاذ بن جبل: «أتدري ما حق الله على العباد؟» قال الله ورسوله أعلم، قال: «أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً»، ثم قال: «أتدري ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك؟ أن لا يعذبهم» ثم أوصى بالإحسان إلى الوالدين، فإن الله سبحانه جعلهما سبباً لخروجك من العدم إلى الوجود، وكثيراً ما يقرن الله سبحانه بين عبادته والإحسان إلى الوالدين، كقوله: ﴿أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلَوْلَا ذَلِكَ لَكُنَّ عَالِيَةً﴾، وكقوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾، ثم عطف على الإحسان إليهما بالإحسان إلى القرابات من الرجال والنساء كما جاء في الحديث: «الصدقة على المسكين صدقة، وعلى ذي الرحم صدقة وصلة»^(١).

ثم قال تعالى: ﴿وَالْيَتَامَىٰ﴾ وذلك لأنهم فقدوا من يقوم بمصالحهم ومن ينفق عليهم، فأمر الله بالإحسان إليهم والحنو عليهم، ثم قال: ﴿وَالْمَسَاكِينَ﴾ وهم المحاويج من ذوي الحاجات الذين لا يجدون من يقوم بكفائتهم، فأمر الله سبحانه بمساعدتهم بما تم به كفائتهم وتزول به ضرورتهم، وسيأتي الكلام على الفقير والمسكين في سورة براءة، وقوله: ﴿وَالْجَارَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارَ الْجَنْبِ﴾ قال ابن عباس: ﴿وَالْجَارَ ذِي الْقُرْبَىٰ﴾ يعني الذي بينك وبينه قرابة، ﴿وَالْجَارَ الْجَنْبِ﴾ الذي ليس بينك وبينه قرابة، وكذا روي عن عكرمة ومجاهد، وقال نوف البكالي في قوله: ﴿وَالْجَارَ ذِي الْقُرْبَىٰ﴾ يعني الجار المسلم، ﴿وَالْجَارَ الْجَنْبِ﴾ يعني اليهودي والنصراني رواه ابن جرير وابن أبي حاتم. وقال مجاهد أيضاً في قوله ﴿وَالْجَارَ الْجَنْبِ﴾ يعني: الرفيق في السفر، وقد وردت الأحاديث بالوصايا بالجار فلنذكر منها ما تيسر وبالله المستعان.

(الحديث الأول): قال الإمام أحمد عن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه» أخرجاه في الصحيحين.

(الحديث الثاني): عن عبد الله بن عمرو بن العاص عن النبي ﷺ أنه قال: «خير الأصحاب عند الله خيرهم لصاحبه وخير الجيران عند الله خيرهم لجاره»^(٢).

(الحديث الثالث): قال الإمام أحمد عن المقداد بن الأسود قال، قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «ما تقولون في الزنا؟» قالوا: حرام حرمه الله ورسوله وهو حرام إلى يوم القيامة، فقال رسول الله ﷺ: «لأن يزني الرجل بعشر نساء أيسر عليه من أن يزني بحليلة جاره»، قال: «ما تقولون في السرقة؟» قالوا: حرمها الله ورسوله فهي حرام إلى يوم القيامة، قال: «لأن يسرق الرجل من عشرة آيات أيسر عليه من أن يسرق من جاره»^(٣).

(الحديث الرابع): قال أبو بكر البزار عن جابر بن عبد الله قال، قال رسول الله ﷺ: «الجيران ثلاثة، جار له حق واحد، وهو أدنى الجيران حقاً. وجار له حقان، وجار له ثلاثة حقوق وهو أفضل الجيران حقاً، فأما الجار الذي له حق واحد فجار مشرك لا رحم له، له حق الجوار، وأما الجار الذي له حقان فجار مسلم له حق الإسلام، وحق الجوار، وأما الذي له ثلاثة حقوق فجار مسلم ذو رحم له حق الجوار، وحق الإسلام، وحق الرحم».

(١) أخرجه النسائي حديث سلمان بن عامر . (٢) رواه أحمد والترمذي . (٣) تفرد به أحمد وله شاهد في الصحيحين .

(الحديث الخامس): روى الإمام أحمد عن عائشة: أنها سألت رسول الله ﷺ فقالت: إن لي جارين فأبى أيهما أهدي؟ قال: «إلى أقربهما منك بابا» ورواه البخاري من حديث شعبة به.

وقوله تعالى: ﴿والصاحب بالجنب﴾ عن علي وابن مسعود قالوا: هي المرأة، وقال ابن عباس ومجاهد: هو الرفيق في السفر، وقال سعيد بن جبير: هو الرفيق الصالح، وقال زيد بن أسلم: هو جلسك في الحضر ورفيقك في السفر، وأما ابن السبيل فعن ابن عباس وجماعة هو الضيف، وقال مجاهد والضحاك ومقاتل: هو الذي يمر عليك مجتازاً في السفر، وهذا أظهر وإن كان مراد القائل بالضيف المار في الطريق فهما سواء وسيأتي الكلام على أبناء السبيل في سورة براءة وبالله الثقة وعليه التكلان.

وقوله تعالى: ﴿وما ملكت أيمانكم﴾ وصية بالأرقاء لأن الرقيق ضعيف الحيلة، أسير في أيدي الناس، فلهذا ثبت أن رسول الله ﷺ جعل يوصي أمته في مرض الموت يقول: «الصلوة الصلاة وما ملكت أيمانكم» فجعل يرددها حتى ما يفيض بها لسانه، وقال الإمام أحمد عن المقدم بن معد يكرب قال، قال رسول الله ﷺ: «ما أطعمت نفسك فهو لك صدقة، وما أطعمت ولدك فهو لك صدقة، وما أطعمت زوجتك فهو لك صدقة، وما أطعمت خادمك فهو لك صدقة» ورواه النسائي وإسناده صحيح.

وعن عبد الله بن عمرو أنه قال لقهرمان له: هل أعطيت الرقيق قوتهم؟ قال: لا. قال: فانطلق فأعطهم فإن رسول الله ﷺ قال: «كفى بالمرء إثماً أن يحبس عمن يملك قوتهم»^(١)، وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «للمملوك طعامه وكسوته ولا يكلف من العمل إلا ما يطيق»^(٢) وعنه أيضاً عن النبي ﷺ قال: «إذا أتى أحدكم خادمه بطعامه فإن لم يجلسه معه فليناوله لقمة أو لقمتين أو أكلة أو أكلتين فإنه ولي حره وعلاجه» أخرجاه، ولفظه للبخاري ولمسلم: «فليقعده معه فليأكل، فإن كان الطعام مشفوها قليلاً، فليضع في يده أكلة أو أكلتين» وعن أبي ذر رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «هم إخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل، وليلبسه مما يلبس، ولا تكلفوهم ما يغلبهم، فإن كلفتموهم فأعينوهم» أخرجاه.

وقوله تعالى: ﴿إن الله لا يحب من كان مختالاً فخوراً﴾ أي مختالاً في نفسه، معجباً متكبراً فخوراً على الناس يرى أنه خير منهم، فهو في نفسه كبير، وهو عند الله حقير، وعند الناس بغيض، قال مجاهد في قوله: ﴿إن الله لا يحب من كان مختالاً﴾ يعني متكبراً، ﴿فخوراً﴾ يعني: بعدما أعطى وهو لا يشكر الله تعالى، يعني: يفخر على الناس بما أعطاه الله من نعمه، وهو قليل الشكر لله على ذلك، وقال ابن جرير عن أبي رجاء الهروي: لا تجد سيء الملكة إلا وجدته مختالاً فخوراً، وتلا: ﴿وما ملكت أيمانكم﴾ الآية، ولا عاقاً إلا وجدته جباراً شقيماً، وتلا: ﴿وبراً بالذي لم يجعلني جباراً شقيماً﴾. وقال مطرف: كان يبلغني عن أبي ذر حديث كنت أشتهي لقاءه، فلقيته، فقلت: يا أبا ذر بلغني أنك تزعم أن رسول الله ﷺ، قال: «إن الله يحب ثلاثة ويبغض ثلاثة، قال: أجل، قلت: من الثلاثة الذين يبغض الله؟ قال: المختال الفخور أو ليس تجدونهم عندكم في كتاب الله

المنزل، ثم قرأ الآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَحِبُّ مَنْ كَانَ مَخْتَالًا فُخُورًا﴾. قلت: يا رسول الله أوصني قال: «إياك وإسبال الإزار. فإن إسبال الإزار من المخيلة، وإن الله لا يحب المخيلة».

الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ۗ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴿٣٧﴾
وَالَّذِينَ يَنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِيعَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ ۗ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا ﴿٣٨﴾ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۖ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ ۗ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾

يقول تعالى ذاماً للذين يبخلون بأموالهم أن ينفقوها فيما أمرهم الله به من بر الوالدين، والإحسان إلى الأقارب واليتامى والمساكين، والجار ذي القربى، والجار الجنب، والصاحب الجنب، وابن السبيل، وما ملكت أيمانكم من الأرقاء، ولا يدفعون حق الله فيها ويأمرون الناس بالبخل أيضاً، وقد قال رسول الله ﷺ: «إياكم والشح فإنه أهلك من كان قبلكم، أمرهم بالقطيعة فقطعوا، وأمرهم بالفجور ففجروا».

وقوله تعالى: ﴿ويكتمون ما آتاهم الله من فضله﴾، فالبخيل جحودٌ لنعمة الله ولا تظهر عليه، ولا تبين لا في مأكله ولا في ملبسه ولا في إعطائه وبذله، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾. وإنه على ذلك لشهيدٌ أي بحاله وشماله، ﴿وإنه لحب الخير لشديد﴾، وقال ههنا: ﴿ويكتمون ما آتاهم الله من فضله﴾، ولهذا توعدهم بقوله: ﴿وأعدنا للكافرين عذاباً مهيناً﴾، والكفر هو الستر والتغطية، فالبخيل يستر نعمة الله عليه، ويكتمها ويحدها فهو كافر لنعمة الله عليه، وفي الحديث: «إن الله إذا أنعم نعمة على عبد أحب أن يظهر أثرها عليه»، وفي الدعاء النبوي: «واجعلنا شاكرين لنعمتك، مثنين بها عليك قابليها، وأتممها علينا». وقد حمل بعض السلف هذه الآية على بخل اليهود بإظهار العلم الذي عندهم من صفة محمد ﷺ وكتائبهم ذلك، ولهذا قال تعالى: ﴿وأعدنا للكافرين عذاباً مهيناً﴾، ولا شك أن الآية محتملة لذلك، والظاهر أن السياق في البخل بالمال، وإن كان البخل بالعلم داخلاً في ذلك بطريق الأولى، فإن السياق في الإنفاق على الأقارب والضعفاء وكذلك الآية التي بعدها، وهي قوله: ﴿الذين ينفقون أموالهم رياء الناس﴾، فإنه ذكر المسكين المذمومين وهم البخلاء، ثم ذكر الباذلين المرائين الذين يقصدون بإعطائهم السمعة وأن يمدحوا بالكرم، ولا يريدون بذلك وجه الله. وفي حديث: «الثلاثة الذين هم أول من تسجر بهم النار، وهم: (العالم والغازي والمنفق والمراؤون بأعمالهم) يقول صاحب المال ما تركت من شيء تحب أن ينفق فيه إلا أنفقت في سبيلك، فيقول الله: كذبت إنما أردت أن يقال جواد فقد قيل»، أي أخذت جزاءك في الدنيا وهو الذي أردت بفعلك، وفي الحديث أن رسول الله ﷺ قال لعدي بن حاتم: «إن أباك أراد أمراً فبلغه». وفي حديث آخر أن رسول الله ﷺ سئل عن (عبد الله بن جدعان)، هل ينفعه إنفاقه وإعطاؤه؟ فقال: «لا، إنه لم يقل يوماً من الدهر رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين»، ولهذا قال تعالى: ﴿ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر﴾ الآية. أي إنما حملهم على صنيعهم هذا القبيح، وعدوهم عن فعل الطاعة على وجهها الشيطان، فإنه سؤل لهم وأملى لهم، وقارنهم فحسن لهم القباح، ولهذا قال تعالى:

﴿ومن يكن الشيطان له قريناً فساء قريناً﴾، ولهذا قال الشاعر :

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه فكل قرين بالمقارن يقتدي

ثم قال تعالى: ﴿وماذا عليهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر وأنفقوا مما رزقهم الله﴾ الآية، أي وأي شيء يضرهم لو آمنوا بالله وسلكوا الطريق الحميدة، وعدلوا عن الرياء إلى الإخلاص والإيمان بالله، رجاء موعوده في الدار الآخرة لمن يحسن عمله، وأنفقوا مما رزقهم الله في الوجوه التي يحبها الله ويرضاها؟! وقوله: ﴿وكان الله بهم عليماً﴾ أي وهو علم بنياتهم الصالحة والفسادة، وعلم بمن يستحق التوفيق منهم فيوفقه ويلهمه رشده، ويقضيه لعمل صالح يرضى به عنه، وبمن يستحق الخذلان والطرده عن جنبه الأعظم الإلهي، الذي من طرد عن بابه فقد خاب، وخسر في الدنيا والآخرة عياداً بالله من ذلك.

إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يَضْعَفْهَا وَيَوْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ يَوْمَئِذٍ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصُوا الرَّسُولَ لَوْ نَسَوْنَ بِهِمُ الْأَرْضَ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾

يخبر جل ثناؤه عباده بأنه سيوفهم أجورهم، ولا يظلم خلقه يوم القيامة مثقال حبة خردل، ولا مثقال ذرة بل يوفيهما له ويضاعفها له إن كانت حسنة، كما قال تعالى: ﴿ونضع الموازين القسط﴾ الآية، وقال تعالى مخبراً عن لقمان: انه قال: ﴿يا بني إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة أو في السموات أو في الأرض يأت بها الله﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره﴾، وفي الصحيحين عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ في حديث الشفاعة الطويل، وفيه: «يقول الله عز وجل ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان فأخرجوه من النار»؛ وفي لفظ: أدنى أدنى مثقال ذرة من إيمان فأخرجوه من النار، «فيخرجون خلقاً كثيراً»، ثم يقول أبو سعيد: اقرأوا إن شئتم ﴿إن الله لا يظلم مثقال ذرة﴾ الآية. وقال ابن أبي حاتم، قال عبد الله بن مسعود: يؤتى بالعبد أو الأمة يوم القيامة فينادي مناد على رؤوس الأولين والآخرين: هذا فلان بن فلان، من كان له حق فليأت إلى حقه، فتفرح المرأة أن يكون لها الحق على أبيها أو أمها أو أخيها أو زوجها، ثم قرأ: ﴿فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون﴾، فيغفر الله من حقه ما يشاء ولا يغفر من حقوق الناس شيئاً، فينصب للناس، فيقول: اثتوا إلى الناس حقوقهم، فيقول: يا رب فنيت الدنيا من أين أوتيتهم حقوقهم؟ فيقول: خذوا من أعماله الصالحة فأعطوا كل ذي حق حقه بقدر مظلمته، فإن كان ولياً لله ففضل له مثقال ذرة ضاعفها الله له حتى يدخله بها الجنة، ثم قرأ علينا: ﴿إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها﴾، وإن كان عبداً شقيماً. قال الملك: رب فنيت حسناته وبتى طالبون كثير، فيقول: خذوا من سيئاتهم فأضيفوها إلى سيئاته، ثم صكوا له صكاً إلى النار ورواه ابن جرير. ولبعض هذا الأثر شاهد في الحديث الصحيح .

وروي عن سعيد بن جبير في قوله: ﴿وإن تك حسنة يضاعفها﴾، فأما المشرك فيخفف عنه العذاب يوم القيامة ولا يخرج من النار أبداً، وقد يستدل له بالحديث الصحيح: أن العباس قال يا رسول الله: إن عمك أبا طالب كان يحوطك وينصرك فهل نفعته بشيء؟ قال: نعم هو في ضحضاح من نار، ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار، وقد يكون هذا خاصاً بأبي طالب من دون الكفار، بدليل ما رواه أنس أن رسول الله ﷺ قال: ﴿إن الله لا يظلم المؤمن حسنة يثاب عليها الرزق في الدنيا، ويجزي بها في الآخرة، وأما الكافر فيقطع بها في الدنيا، فإذا كان يوم القيامة لم يكن له حسنة﴾^(١). وقال الحسن وقتادة: ﴿ويؤت من لدنه أجراً عظيماً﴾ يعني الجنة، نسأل الله رضاه والجنة. وروى ابن أبي حاتم عن أبي عثمان قال، قلت: يا أبا هريرة سمعت إخواني بالبصرة يزعمون أنك تقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله يجزي بالحسنة ألف ألف حسنة»، فقال أبو هريرة: والله بل سمعت نبي الله ﷺ يقول: «إن الله يجزي بالحسنة ألفي ألف حسنة»، ثم تلا هذه الآية: ﴿وما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل﴾، وقوله تعالى: ﴿فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً﴾. يقول تعالى مخبراً عن هول يوم القيامة وشدة أمره وشأنه فكيف يكون الأمر والحال يوم القيامة، حين يجيء من كل أمة بشهيد يعني الأنبياء عليهم السلام، كما قال تعالى: ﴿وأشرق الأرض بنور ربها ووضع الكتاب وجيء بالنبيين والشهداء﴾ الآية. وقال تعالى: ﴿ويوم نبعث في كل أمة شهيداً عليهم من أنفسهم﴾ الآية. روى البخاري عن عبد الله بن مسعود قال: قال لي رسول الله ﷺ: «اقرأ علي»، فقلت: يا رسول الله اقرأ عليك عليك وأنتل؟ قال: نعم، إني أحب أن أسمعه من غيري». فقرأت سورة النساء حتى أتيت إلى هذه الآية: ﴿فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً﴾؟ فقال: «حسبك الآن» فإذا عيناه تدرفان.

وقوله تعالى: ﴿يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول لوتسوى بهم الأرض ولا يكتبون الله حديثاً﴾ أي لو انشقت وبلعتهم مما يرون من أهوال الموقف وما يحل بهم من الخزي والفضيحة والتوبيخ، كقوله: ﴿يوم ينظر المرء ما قدمت يداه﴾ الآية. وقوله: ﴿ولا يكتبون الله حديثاً﴾ إخبار عنهم بأنهم يعترفون بجميع ما فعلوه ولا يكتبون منه شيئاً، عن سعيد بن جبير قال: جاء رجل إلى ابن عباس، فقال له: سمعت الله عز وجل يقول - يعني إخباراً عن المشركين يوم القيامة - إنهم قالوا: ﴿والله ربنا ما كنا مشركين﴾، وقال في الآية الأخرى: ﴿ولا يكتبون الله حديثاً﴾، فقال ابن عباس: أما قوله ﴿والله ربنا ما كنا مشركين﴾ فإنهم لما رأوا أنه لا يدخل الجنة إلا أهل الإسلام، قالوا: تعالوا فلنجدد، فقالوا: ﴿والله ربنا ما كنا مشركين﴾ فحتم الله على أفواههم وتكلمت أيديهم وأرجلهم ﴿ولا يكتبون الله حديثاً﴾^(٢). وقال عبد الرزاق عن سعيد بن جبير قال: جاء رجل إلى ابن عباس فقال: أشياء تختلف علي في القرآن، قال ما هو، أشك في القرآن؟ قال: ليس هو بالشك، ولكن اختلاف. قال: فهات ما اختلف عليك من ذلك، قال أسمع الله يقول: ﴿ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين﴾، وقال: ﴿ولا يكتبون الله حديثاً﴾ فقد كتموا، فقال ابن عباس: أما قوله ﴿ثم لم تكن فتنتهم إلا

(١) أخرجه مسلم من حديث أنس . (٢) أخرجه ابن جرير .

أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين ﴿﴾، فإنهم لما روا يوم القيامة أن الله لا يغفر إلا لأهل الإسلام ويغفر الذنوب ولا يتعاطمه ذنب أن يغفره، ولا يغفر شركاً، جحد المشركون فقالوا: ﴿والله ربنا ما كنا مشركين﴾ رجاء أن يغفر لهم، فحتم الله على أفواههم، وتكلمت أيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون، فعند ذلك ﴿يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض ولا يكتمون الله حديثاً﴾ .

وقال الضحاك: إن نافع بن الأزرق أتى ابن عباس فقال: يا ابن عباس قول الله تعالى ﴿يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض ولا يكتمون الله حديثاً﴾، وقوله: ﴿والله ربنا ما كنا مشركين﴾، فقال له ابن عباس: إني أحسبك قمت من عند أصحابك، فقلت ألتى على ابن عباس متشابه القرآن فإذا رجعت إليهم فأخبرهم: أن الله تعالى يجمع الناس يوم القيامة في بقيع واحد، فيقول المشركون: إن الله لا يقبل من أحد شيئاً إلا بمن وحده، فيقولون تعالوا نجحد، فيسألهم فيقولون: ﴿والله ربنا ما كنا مشركين﴾، قال: فيحتم الله على أفواههم ويستنطق جوارحهم، وتشهد عليهم جوارحهم أنهم كانوا مشركين، فعند ذلك يتمنون لو أن الأرض سويت لهم ﴿ولا يكتمون الله حديثاً﴾^(١) .

* يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرُبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنْبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾

ينهى تبارك وتعالى عباده المؤمنين عن فعل الصلاة في حال السكر، الذي لا يدري معه المصلي ما يقول، وعن قربان محالها - التي هي المساجد - للجنب إلا أن يكون مجتازاً من باب إلى باب من غير مكث؛ وقد كان هذا قبل تحريم الخمر كما دل عليه الحديث الذي ذكرناه في سورة البقرة عند قوله تعالى: ﴿يسألونك عن الخمر والميسر﴾ الآية، فإن رسول الله ﷺ تلاها على عمر فقال: «اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً﴾، فلما نزلت هذه الآية تلاها عليه، فقال: «اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً»، فكانوا لا يشربون الخمر في أوقات الصلوات، حتى نزلت: ﴿يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون﴾، إلى قوله تعالى: ﴿فهل أنتم منتهون﴾؟ فقال عمر: انتهينا انتهينا. وفي رواية عن عمر بن الخطاب في قصة تحريم الخمر، فذكر الحديث وفيه: فنزلت الآية التي في النساء ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون﴾، فكان منادي رسول الله ﷺ إذا قامت الصلاة ينادي: أن لا يقربن الصلاة سكران .

(سبب آخر): عن علي بن أبي طالب قال: صنع لنا عبد الرحمن بن عوف طعاماً، فدعانا وسقانا من الخمر

(١) أخرجه ابن جرير عن الضحاك .

فأخذت الخمر منا، وحضرت الصلاة فقدموا فلاناً قال فقراً: قل يا أيها الكافرون ما أعبد ما تعبدون ونحن نعبد ما تعبدون، فأنزل الله: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون﴾^(١). وقال العوفي عن ابن عباس في الآية: إن رجالاً كانوا يأتون وهم سكارى قبل أن يحرم الخمر، فقال الله: ﴿لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى﴾ الآية، رواه ابن جرير، وعن قتادة: كانوا يجتنبون السكر عند حضور الصلوات، ثم نسخ بتحريم الخمر، وقال الضحاك: لم يعن بها سكر الخمر، وإنما عنى بها سكر النوم. ثم قال ابن جرير: والصواب أن المراد سكر الشراب، قال: ولم يتوجه النهي إلى السكران الذي لا يفهم الخطاب لأن ذلك في حكم المجنون، وإنما حوطب بالنهي الثَّمَلُ الذي يفهم التكليف، وهذا حاصل ما قاله. وقد ذكره غير واحد من الأصوليين، وهو أن الخطاب يتوجه إلى من يفهم الكلام دون السكران الذي لا يدري ما يقال له، فإن الفهم شرط التكليف، وقد يحتمل أن يكون المراد التعريض بالنهي عن السكر بالكلية لكونهم مأمورين بالصلاة في الخمسة الأوقات من الليل والنهار، فلا يتمكن شارب الخمر من أداء الصلاة في أوقاتها دائماً والله أعلم. وعلى هذا فيكون كقوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون﴾، وهو الأمر لهم بالتأهب للموت على الإسلام والمداومة على الطاعة لأجل ذلك، وقوله: ﴿حتى تعلموا ما تقولون﴾ هذا أحسن ما يقال في حد السكران أنه الذي لا يدري ما يقول، فإن المخمور فيه تخليط في القراءة وعدم تدبره وخشوعه فيها، وقد قال الإمام أحمد عن أنس قال، قال رسول الله ﷺ: «إذا نعت أحدكم وهو يصلي فليصرف ولينم حتى يعلم ما يقول»^(٢). وفي بعض ألفاظ الحديث: «فلعله يذهب يستغفر فيسب نفسه».

وقوله تعالى: ﴿ولا جنباً إلا عابري سبيل حتى تغتسلوا﴾ عن ابن عباس قال: لا تدخلوا المسجد وأنتم جنب إلا عابري سبيل، قال تمر به مرأً ولا تجلس، يروى أن رجالاً من الأنصار كانت أبوابهم في المسجد فكانت تصيهم الجنابة ولا ماء عندهم، فيردون الماء ولا يجدون مرأً إلا في المسجد، فأنزل الله: ﴿ولا جنباً إلا عابري سبيل﴾، ويشهد لصحته ما ثبت في صحيح البخاري أن رسول الله ﷺ قال: «سدوا كل خوخة في المسجد إلا خوخة أبي بكر»، وهذا قاله في آخر حياته ﷺ علماً منه أن أبا بكر رضي الله عنه سبيل الأمر بعده، ويحتاج إلى الدخول في المسجد كثيراً للأمر المهمة فيما يصلح للمسلمين، فأمر بسد الأبواب الشارعة إلى المسجد إلا بابه رضي الله عنه، ومن روى (إلا باب علي) كما وقع في بعض السنن فهو خطأ، والصواب ما ثبت في الصحيح. ومن هذه الآية احتج كثير من الأئمة على أنه يحرم على الجنب المكث في المسجد، ويجوز له المرور، وكذا الحائض والنفساء أيضاً في معناه، إلا أن بعضهم قال: يحرم مرورهما لاحتمال التلوين، ومنهم من قال: إن أمنت كل واحدة منهما التلوين في حال المرور جاز لها المرور وإلا فلا، وقد ثبت في صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت، قال لي رسول الله ﷺ: «ناوليني الخُمرة من المسجد»، فقلت: إني حائض، فقال: «إن حيضتك ليست في يدك»، وفيه دلالة على جواز مرور الحائض في المسجد، والنفساء في معناها والله أعلم. وروى أبو داود عن عائشة قالت، قال رسول الله ﷺ: «إني لا أحل المسجد لحائض ولا جنب»، قال أبو مسلم الخطابي: ضعف هذا

(٢) انفرد بإخراجه البخاري.

(١) رواه ابن أبي حاتم والترمذي.

الحديث جماعة، لكن رواه ابن ماجه عن أم سلمة عن النبي ﷺ. فأما ما رواه أبو عيسى الترمذي من حديث سالم بن أبي حفصة عن عطية عن أبي سعيد الخدري قال، قال رسول الله ﷺ: «يا علي لا يحل لأحد يجنب في هذا المسجد غيري وغيرك» فإنه حديث ضعيف لا يثبت، فإن سالماً هذا متروك وشيخه عطية ضعيف والله أعلم.

وعن علي: ﴿ولا جنباً إلا عابري سبيل﴾ قال: لا يقرب الصلاة إلا أن يكون مسافراً تصيبه الجنابة فلا يجد الماء فيصلي حتى يجد الماء، ويستشهد لهذا القول بالحديث الذي رواه أحمد وأهل السنن عن أبي ذر قال، قال رسول الله ﷺ: «الصعيد الطيب طهور المسلم، وإن لم تجد الماء عشر حجج فإذا وجدت الماء فأمسه بشرتك فإن ذلك خير لك»^(١). ثم قال ابن جرير بعد حكايته القولين: والأولى قول من قال ﴿ولا جنباً إلا عابري سبيل﴾ أي إلا عابري طريق فيه، وذلك أنه قد بين حكم المسافر إذا عدم الماء وهو جنب في قوله: ﴿وإن كنتم مرضى أو على سفر﴾ إلى آخره، فكان معلوماً بذلك أن قوله: ﴿ولا جنباً إلا عابري سبيل حتى تغسلوا﴾، لو كان معنياً به المسافر لم يكن لإعادة ذكره في قوله: ﴿وإن كنتم مرضى أو على سفر﴾ معنى مفهوم، وقد مضى حكم ذكره قبل ذلك، فإذا كان ذلك كذلك، فتأويل الآية: يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا المساجد للصلاة مصلين فيها وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون، ولا تقربوها أيضاً جنباً حتى تغسلوا إلا عابري سبيل. قال: والعابر السبيل المجتاز مرأً وقطعاً، يقال منه: عبرت بهذا الطريق فأنا أعبره عبراً وعبوراً، ومنه يقال: عبر فلان النهر إذا قطعه وجاوزه، ومنه قيل للناقة القوية على الأسفار: هي عبر الأسفار لقوتها على قطع الأسفار، وهذا الذي نصره هو قول الجمهور، وهو الظاهر من الآية، وكأنه تعالى نهي عن تعاطي الصلاة على هيئة ناقصة تناقض مقصودها، وعن الدخول إلى محلها على هيئة ناقصة، وهي الجنابة المباحة للصلاة ولحلها أيضاً. والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿حتى تغسلوا﴾ دليل لما ذهب إليه الأئمة الثلاثة (أبو حنيفة ومالك والشافعي) أنه يحرم على الجنب المكث في المسجد حتى يغتسل أو يتيمم إن عدم الماء، أو لم يقدر على استعماله بطريقة، وذهب (الإمام أحمد) إلى أنه متى توضأ الجنب جاز له المكث في المسجد، لما روي بسند صحيح أن الصحابة كانوا يفعلون ذلك. قال سعيد بن منصور في سننه عن عطاء بن يسار قال: رأيت رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ يجلسون في المسجد وهم مجنبون إذا توضأوا وضوء الصلاة، وهذا إسناد صحيح على شرط مسلم، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيداً طيباً﴾ أما المرض المبيح للتيمم فهو الذي يخاف معه من استعمال الماء فوات عضو أو شينة أو تطويل البرء، ومن العلماء من جوز التيمم بمجرد المرض لعموم الآية، قال مجاهد: نزلت في رجل من الأنصار كان مريضاً، فلم يستطع أن يقوم فيتوضأ، ولم يكن له خادم فينأوله، فأتى النبي ﷺ فذكر ذلك له، فأنزل الله هذه الآية. والسفر معروف ولا فرق فيه بين الطويل والقصير، وقوله: ﴿أو جاء أحد منكم من الغائط﴾ الغائط هو المكان المظلم من الأرض، كني بذلك عن التغوط وهو الحدث الأصغر.

وأما قوله تعالى: ﴿أو لامستم النساء﴾ فقرأء لستم ولاستم، واختلف المفسرون والأئمة في معنى ذلك على

(١) رواه أحمد وأهل السنن من حديث أبي ذر.

قولين: (أحدهما) أن ذلك كناية عن الجماع لقوله: ﴿وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن﴾ وقال تعالى: ﴿إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن﴾ قال ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿أو لمستم النساء﴾ قال: الجماع. وقال ابن جرير عن سعيد بن جبير قال: ذكروا للمس، فقال ناس من الموالي: ليس بالجماع، وقال ناس من العرب للمس: الجماع، قال: فلقيت ابن عباس فقلت له: إن ناساً من الموالي والعرب اختلفوا في للمس، فقالت الموالي: ليس بالجماع، وقالت العرب: الجماع قال: فن أي الفريقيين كنت؟ قلت: كنت من الموالي، قال: غلب فريق الموالي، إن للمس والمس والمباشرة: الجماع ولكن الله يكتفي بما شاء وقد صح من غير وجه عن عبد الله بن عباس أنه قال ذلك، وقال آخرون: عنى الله تعالى بذلك كل من لمس بيد أو بغيرها من أعضاء الإنسان وأوجب الوضوء على كل من مس بشيء من جسده شيئاً من جسدها مفضياً إليه. عن عبد الله بن مسعود قال: القبلة من المس وفيها الوضوء، وروى الطبراني عن عبد الله بن مسعود قال: يتوضأ الرجل من المباشرة، ومن للمس بيده، ومن القبلة، وكان يقول في هذه الآية: ﴿أو لامستم النساء﴾ هو الغمز، وروى مالك عن عبد الله بن عمر عن أبيه أنه كان يقول: قبلة الرجل امرأته وجسه بيده من الملامسة، فن قبل امرأته أو جسها بيده فعليه الوضوء، وروى الحافظ أبو الحسن الدارقطني في سننه عن عمر بن الخطاب نحو ذلك، ولكن رويناه عنه من وجه آخر أنه كان يقبل امرأته ثم يصلي ولا يتوضأ، فالرواية عنه مختلفة، فيحمل ما قاله في الوضوء إن صح عنه على الاستحباب والله أعلم. والقول بوجود الوضوء من المس هو قول (الشافعي ومالك) والمشهور عن أحمد بن حنبل، قال ناصروه: قد قرئ في هذه الآية لامستم ولمستم، والمس يطلق في الشرع على الجنس باليد قال تعالى: ﴿ولو نزلنا عليك كتاباً في قرطاس فلمسوه بأيديهم﴾ أي جسوه، وقال عليه السلام لما عز حين أقر بالزنا يعرض له بالرجوع عن الاقرار: «لعلك قبلت أو لمست» وفي الحديث الصحيح: «واليد زناها للمس». وقالت عائشة رضي الله عنها: قل يوم إلا ورسول الله صلى الله عليه وسلم يطوف علينا فيقبل ويلمس، ومنه ما ثبت في الصحيحين: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهي عن بيع الملامسة وهو يرجع إلى الجنس باليد على كلا التفسيرين، قالوا: ويطلق في اللغة على الجنس باليد، كما يطلق على الجماع، قال الشاعر:

«ولمست كفي كفه أطلب الغنى»

وقال ابن جرير وأولى القولين في ذلك بالصواب قول من قال: عنى الله بقوله ﴿أو لامستم النساء﴾ الجماع دون غيره من معاني للمس لصحة الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قبل بعض نسائه ثم صلى ولم يتوضأ. وقالت عائشة: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتوضأ ثم يقبل، ثم يصلي ولا يتوضأ، وحدث عروة عن عائشة: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل بعض نسائه ثم خرج إلى الصلاة ولم يتوضأ، قلت: من هي إلا أنت؟ فضحكت^(١). وعن أم سلمة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقبلها وهو صائم ثم لا يفطر ولا يحدث وضوءاً.

وقوله تعالى: ﴿فإن لم تجدوا ماء فتميموا صعيداً طيباً﴾ استنبط كثير من الفقهاء من هذه الآية أنه لا يجوز التيمم لعادم الماء إلا بعد طلب الماء، فتمى طلبه فلم يجده جاز له حينئذ التيمم لحديث (عمران بن حصين) أن رسول

(١) رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه .

الله ﷺ رأى رجلاً معتزلاً لم يصل مع القوم، فقال: «يا فلان ما منعك أن تصلي مع القوم، ألسنت برجل مسلم؟» قال: بلى يا رسول الله ولكن أصابتنى جنابة ولا ماء، قال: «عليك بالصعيد فإنه يكفيك»^(١) ولهذا قال تعالى: ﴿فَإِنْ لَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ فالتيمم في اللغة: هو القصد. تقول العرب: تيممك الله بحفظه أي قصدك، ومنه قول امرئ القيس شعراً:

ولما رأت أن المنية وردها وأن الحصى من تحت أقدامها دامي
تيممت العين التي عند ضارج بنيء عليها النيء عرمضها طامي

والصعيد قيل: هو كل ما صعد على وجه الأرض، فيدخل فيه التراب والرمل والشجر والنبات وهو قول مالك، وقيل: ما كان من جنس التراب كالرمل والزرنيخ والنورة وهذا مذهب أبي حنيفة، وقيل: هو التراب فقط، وهو قول الشافعي وأحمد بن حنبل وأصحابهما واحتجوا بقوله تعالى: ﴿فَتَصَبَّحْ صَعِيدًا زَلَقًا﴾ أي تراباً أملس طيباً، وبما ثبت في صحيح مسلم عن حذيفة بن اليمان قال، قال رسول الله ﷺ: «فضلنا على الناس بثلاث: جعلت صفوفنا كصفوف الملائكة، وجعلت لنا الأرض كلها مسجداً، وجعلت تربتها لنا طهوراً إذا لم نجد الماء». وفي لفظ: «وجعل ترابها لنا طهوراً إذا لم نجد الماء» قالوا فخصص الطهورية بالتراب في مقام الامتنان، فلو كان غيره يقوم مقامه لذكره معه، والطيب ههنا: قيل الحلال، وقيل الذي ليس بنجس.

وقوله تعالى: ﴿فَامْسَحُوا بِوُجُوْهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ﴾ التيمم بدل عن الوضوء في التطهير به، لا أنه بدل منه في جميع أعضائه، بل يكفي مسح الوجه واليدين فقط بالإجماع، ولكن اختلف الأئمة في كيفية التيمم على أقوال: أحدها - وهو مذهب الشافعي في الجديد - أنه يجب أن يمسح الوجه واليدين إلى المرفقين بضربتين، لأن لفظ اليدين يصدق إطلاقها على ما يبلغ المنكبين وعلى ما يبلغ المرفقين كما في آية الوضوء، ويطلق ويراد بهما ما يبلغ الكفين كما في آية السرقة: ﴿فَاقْطِعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾، قالوا: وحمل ما أطلق ههنا على ما قيد في آية الوضوء أولى لجامع الطهورية، وذكر بعضهم ما رواه الدارقطني عن ابن عمر قال، قال رسول الله ﷺ: «التيمم ضربتان، ضربة للوجه، وضربة لليدين إلى المرفقين»^(٢). والقول الثاني: أنه يجب مسح الوجه واليدين إلى الكفين بضربتين، وهو قول الشافعي في القديم، والثالث: أنه يكفي مسح الوجه والكفين بضربة واحدة لما روي أن رجلاً أتى عمر فقال: إني أجنب فلم أجد ماء؛ فقال عمر: لا تصل. قال عمار: أما تذكر يا أمير المؤمنين إذ أنا وأنت في سرية فأجنبنا فلم نجد ماء، فأما أنت فلم تصل، وأما أنا فتمعكت في التراب فصليت، فلما أتينا النبي ﷺ ذكرت ذلك له، فقال: «إنما كان يكفيك وضرب النبي ﷺ بيده الأرض ثم نفخ فيها ومسح بها وجهه وكفيه»^(٣). (طريق أخرى): قال أحمد عن سليمان الأعمش، حدثنا شقيق قال: كنت قاعداً مع (عبدالله) و(أبي موسى) فقال أبو يعلى لعبد الله: لو أن رجلاً لم يجد الماء، لم يصل؟ فقال عبد الله ألا تذكر ما قال عمار لعمر؟ ألا تذكر إذ بعثني

(١) رواه الإمام أحمد من حديث عمران بن حصين.

(٢) أخرجه الإمام أحمد والدارقطني عن ابن عمر.

(٣) رواه النسائي وأحمد.

رسول الله ﷺ وإياك في إبل فأصابني جنابة فتمرغت في التراب، فلما رجعت إلى رسول الله ﷺ أخبرته، فضحك رسول الله ﷺ وقال: «إنما كان يكفيك أن تقول هكذا، وضرب بكفيه إلى الأرض، ثم مسح بكفيه جميعاً، ومسح وجهه مسحة واحدة بضربة واحدة»؟ فقال عبد الله: لا جرم ما رأيت عمر قنع بذلك، قال، فقال له أبو موسى: فكيف بهذه الآية في سورة النساء: ﴿فلم تجلوا ماء فتيمموا صعيداً طيباً﴾؟ قال: فما دري عبد الله ما يقول. وقال: لو رخصنا لهم في التيمم لأوشك أحدهم إذا برد الماء على جلده أن يتيمم. وقال في المائدة: ﴿فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه﴾، فقد استدل بذلك الشافعي على أنه لا بد في التيمم أن يكون بتراب طاهر له غبار يعلق بالوجه واليدين منه شيء.

وقوله تعالى: ﴿ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج﴾ أي في الدين الذي شرعه لكم ﴿ولكن يريد ليطهركم﴾ فلهذا أباح التيمم. إذا لم تجدوا الماء أن تعدلوا إلى التيمم بالصعيد، والتيمم نعمة عليكم لعلكم تشكرون، ولهذا كانت هذه الأمة مخصوصة بمشروعية التيمم دون سائر الأمم، كما ثبت في الصحيحين عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال، قال رسول الله ﷺ: «أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلي، نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، فأبى رجل من أمي أدركته الصلاة فليصل»، وفي لفظ: «فعنده مسجده وطهوره، وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي، وأعطيت الشفاعة وكان يبعث النبي إلى قومه وبعثت إلى الناس كافة». وقال تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿فامسحوا بوجوهكم وأيديكم إن الله كان عفواً غفوراً﴾ أي ومن عفوه عنكم وغفرانه لكم أن شرع لكم التيمم، وأباح لكم فعل الصلاة به إذا فقدتم الماء، توسعة عليكم ورخصة لكم، وذلك أن هذه الآية الكريمة فيها تنزيه الصلاة أن تفعل على هيئة ناقصة من سكر حتى يصحو المكلف ويعقل ما يقول، أو جنابة حتى يغتسل، أو حدث حتى يتوضأ إلا أن يكون مريضاً أو عادماً للماء، فإن الله عز وجل قد أرخص في التيمم - والحالة هذه - رحمة بعباده ورأفة بهم، وتوسعة عليهم، والله الحمد والمنة.

(ذكر سبب نزول مشروعية التيمم)

وإنما ذكرنا ذلك ههنا لأن هذه الآية التي في النساء متقدمة النزول على آية المائدة، وبيانه أن هذه نزلت قبل تحريم الخمر، والخمر إنما حرم بعد أحد بيسير، في محاصرة النبي ﷺ لبني النضير، وأما المائدة فإنها من آخر ما نزل ولا سيما صدرها، فناسب أن يذكر السبب هنا وبالله الثقة. قال البخاري عن عائشة قالت: خرجنا مع رسول الله ﷺ في بعض أسفاره، حتى إذا كنا بالبيداء أو بذات الجيش انقطع عقدي، فأقام رسول الله ﷺ على التماسه، وأقام الناس معه وليسوا على ماء وليس معهم ماء، فأتى الناس إلى أبي بكر فقالوا: ألا ترى ما صنعت عائشة؟ أقامت برسول الله ﷺ وبالناس وليسوا على ماء وليس معهم ماء، فجاء أبو بكر ورسول الله ﷺ واضع رأسه على فخذي قد نام، فقال: حبست رسول الله ﷺ والناس وليسوا على ماء وليس معهم ماء!! قالت عائشة: فعاتبني أبو بكر وقال ما شاء الله أن يقول وجعل يطعن بيده في خاصرتي، ولا يمنعي من التحرك إلا مكان رأس رسول الله ﷺ على فخذي، فقام رسول الله ﷺ على غير ماء حين أصبح، فأنزل الله آية التيمم فتيمموا، فقال أسيد بن الحضير: ما هي بأول بركتكم يا آل أبي بكر، قالت: فبعثنا البعير الذي كنت عليه فوجدنا العقد تحته.

(حديث آخر): قال الإمام أحمد عن ابن عباس عن عمار بن ياسر: أن رسول الله ﷺ عرس بذات الجيش ومعه زوجته عائشة، فانقطع عقدها من جزع ظفار، فحبس الناس ابتغاء عقدها ذلك حتى أضاء الفجر وليس مع الناس ماء، فأنزل الله على رسوله رخصة التطهير بالصعيد الطيب، فقام المسلمون مع رسول الله ﷺ فضربوا بأيديهم إلى الأرض ثم رفعوا أيديهم ولم ينفذوا من التراب شيئاً فسحوا بها وجوههم وأيديهم إلى المناكب، ومن بطون أيديهم إلى الآباط .

(حديث آخر): قال الحافظ بن مردويه عن الأسلع بن شريك، قال: كنت أرجل ناقة رسول الله ﷺ فأصابني جنابة في ليلة باردة، وأراد رسول الله ﷺ الرحلة، فكرهت أن أرحل ناقة رسول الله ﷺ وأنا جنب، وخشيت أن اغتسل بالماء البارد فأموت أو أمرض، فأمرت رجلاً من الأنصار فرحلها، ثم رضفت أحجاراً فأسخت بها ماء واغتسلت، ثم لحقت رسول الله ﷺ وأصحابه، فقال: « يا أسلع مالي أرى رحلتك قد تغيرت »، قلت يا رسول الله: لم أرحلها، رحلها رجل من الأنصار، قال: « ولم ؟ » قلت: إني أصابني جنابة فخشيت القر على نفسي، فأمرته أن يرحلها ورضفت أحجاراً فأسخت بها ماء فاغتسلت به، فأنزل الله تعالى: ﴿ لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون ﴾ إلى قوله ﴿ إن الله كان عفواً غفوراً ﴾ وقد روي من وجه آخر عنه .

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتُرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ ﴿٤٤﴾ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَسْمَعُ غَيْرَ مَسْمُوعٍ وَرَعْنَا لِيَأْ بِالسِّتِّهِمْ وَطَعْنَا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَسْمَعُ وَأَنْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾

يخبر تعالى عن اليهود عليهم لعائن الله المتابعة إلى يوم القيامة، أنهم يشترون الضلالة بالهدى، ويعرضون عما أنزل الله على رسوله، ويتركون ما بأيديهم من العلم عن الأنبياء الأولين في صفة محمد ﷺ ليشتروا به ثمناً قليلاً من حطام الدنيا ﴿ ويريدون أن تضلوا السبيل ﴾ أي يودون لو تكفرون بما أنزل عليكم أيها المؤمنون، وتركون ما أنتم عليه من الهدى والعلم النافع، ﴿ والله أعلم بأعدائكم ﴾ أي: هو أعلم بهم ويحذركم منهم، ﴿ وكفى بالله ولياً وكفى بالله نصيراً ﴾ أي: كفى به ولياً لمن لجأ إليه ونصيراً لمن استنصره، ثم قال تعالى: ﴿ من الذين هادوا ﴾ « من » في هذا لبيان الجنس كقوله: ﴿ فاجتنبوا الرجس من الأوثان ﴾، وقوله: ﴿ يحرفون الكلم عن مواضعه ﴾ أي: يتأولونه على غير تأويله، ويفسرونه بغير مراد الله عز وجل قصداً منهم واقتراء، ﴿ ويقولون سمعنا ﴾ أي: سمعنا ما قلته يا محمد، ولا نطيعك فيه... هكذا فسره مجاهد وهو المراد، وهذا أبلغ في كفرهم وعنادهم، وأنهم يتولون عن كتاب الله بعدما عقلوه وهم يعلمون ما عليهم في ذلك من الإثم والعقوبة .

وقولهم: ﴿ واسمع غير مسمع ﴾ أي: اسمع ما نقول لا سمعت، رواه ابن عباس، وقال مجاهد والحسن: واسمع

غير مقبول منك، قال ابن جرير: والأول أصح وهو كما قال، وهذا استهزاء منهم واستهتار، عليهم لعنة الله ﴿وراعنا لياً بألستهم وطعناً في الدين﴾ أي: يوهمون أنهم يقولون راعنا سمعك بقولهم راعنا، وإنما يريدون الرعونة بسبهم النبي، وقد تقدم الكلام على هذا عند قوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا وقولوا انظرونا﴾، ولهذا قال تعالى عن هؤلاء اليهود الذين يريدون بكلامهم خلاف ما يظهرونه: ﴿لياً بألستهم وطعناً في الدين﴾ يعني: بسبهم النبي ﷺ، ثم قال تعالى: ﴿ولو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا واسمع وانظرونا لكان خيراً لهم وأقوم ولكن لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلاً﴾ أي: قلوبهم مطرودة عن الخير مبعدة منه فلا يدخلها من الإيمان شيء نافع لهم، وقد تقدم الكلام على قوله تعالى: ﴿فقليلاً ما يؤمنون﴾، والمقصود أنهم لا يؤمنون إيماناً نافعاً.

يَأْتِيهِمُ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ ءَامِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهَ فَرَدِّهَا عَلَيَّ ادْبَارَهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعْنَا أَصْحَابَ آلِ سَبْتٍ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾

يأمر الله تعالى أهل الكتاب بالإيمان بما نزل على رسوله محمد ﷺ من الكتاب العظيم، الذي فيه تصديق الأخبار التي بأيديهم من البشارات، ومتهدداً لهم إن لم يفعلوا بقوله: ﴿من قبل أن نطمس وجوهاً فردها على ادبارها﴾. قال بعضهم: معناه من قبل أن نطمس وجوهاً، فطمسها هو ردها إلى الأدبار وجعل أبصارهم من ورائهم، ويحتمل أن يكون المراد من قبل أن نطمس وجوهاً فلا نبق لها سمعاً ولا بصرأ ولا أنفاً، ومع ذلك نردها إلى ناحية الأدبار، وقال ابن عباس: طمسها أن تعمي ﴿فردها على ادبارها﴾ يقول: نجعل وجوههم من قبل أفتيتهم فيمشون القهقري، ونجعل لأحدهم عينين من قفاه، وهذا أبلغ في العقوبة والنكال، وهذا مثل ضربه الله لهم في صرفهم عن الحق وردهم إلى الباطل، ورجوعهم عن المحجة البيضاء إلى سبيل الضلالة يهرعون ويمشون القهقري على أدبارهم، وهذا كما قال بعضهم في قوله: ﴿إنا جعلنا في أعناقهم أغلالاً فهي إلى الأذقان فهم مقمحون وجعلنا من أيديهم سداً﴾ الآية: أي هذا مثل سوء ضربه الله لهم في ضلالهم ومنعهم عن الهدى، قال مجاهد: ﴿من قبل أن نطمس وجوهاً﴾ يقول عن صراط الحق ﴿فردها على ادبارها﴾ أي في الضلال، قال السدي: ﴿فردها على ادبارها﴾ فمنعها عن الحق، قال: نرجعها كفاراً ونردهم قرده. وقد ذكر أن كعب الأبحار أسلم حين سمع هذه الآية. قال ابن جرير عن عيسى بن المغيرة، قال: تذاكرنا عند إبراهيم إسلام كعب، فقال: أسلم كعب زمان عمر، أقبل وهو يريد بيت المقدس، فر على المدينة فخرج إليه عمر، فقال: يا كعب أسلم. فقال: أستم تقولون في كتابكم: ﴿مثل الذين حملوا التوراة - إلى أسفاراً﴾، وأنا قد حملت التوراة، قال: فتركه عمر، ثم خرج حتى انتهى إلى حمص فسمع رجلاً من أهلها حزياً، وهو يقول: ﴿يا أيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا مصدقاً لما معكم من قبل أن نطمس وجوهاً فردها على ادبارها﴾ الآية. قال كعب: يا رب أسلمت مخافة أن تصيبه هذه الآية، ثم رجع فأتى أهله في اليمن، ثم جاء بهم مسلمين.

وقوله تعالى: ﴿أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت﴾ يعني: الذين اعتدوا في سبتهم بالحيلة على الاصطياد وقد مسخوا قردة وخنازير، وقوله: ﴿وكان أمر الله مفعولاً﴾ أي: إذا أمر بأمر فإنه لا يخالف ولا يمانع، ثم أخبر تعالى أنه لا يغفر أن يشرك به أي لا يغفر لعبد لقيه وهو مشرك به ويغفر ما دون ذلك، أي من الذنوب، لمن يشاء: أي من عباده، وقد وردت أحاديث متعلقة بهذه الآية الكريمة فلنذكر منها ما تيسر .

(الحديث الأول): عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال: «الظلم ثلاثة، فظلم لا يغفره الله، وظلم يغفره الله، وظلم لا يترك الله منه شيئاً. فأما الظلم الذي لا يغفره الله فالشرك، وقال: ﴿إن الشرك لظلم عظيم﴾، وأما الظلم الذي يغفره الله فظلم العباد لأنفسهم فيما بينهم وبين ربهم، وأما الظلم الذي لا يتركه العباد بعضهم بعضاً حتى يدين لبعضهم من بعض»^(١).

(الحديث الثاني): عن أبي إدريس قال، سمعت معاوية يقول، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كل ذنب عسى الله أن يغفره إلا الرجل يموت كافراً أو الرجل يقتل مؤمناً متعمداً» .

(الحديث الثالث): عن أبي ذر أن رسول الله ﷺ قال: «ما من عبد قال لا إله إلا الله ثم مات على ذلك إلا دخل الجنة. قلت: وإن زنى وإن سرق؟ قال: وإن زنى وإن سرق. قلت: وإن زنى وإن سرق؟ قال: وإن زنى وإن سرق - ثلاثاً، ثم قال في الرابعة: على رغم أنف أبي ذر»، قال فخرج أبو ذر وهو يجر إزاره وهو يقول: وإن رغم أنف أبي ذر، وكان أبو ذر يحدث بهذا بعد ويقول: وإن رغم أنف أبي ذر^(٢). وعن أبي ذر قال: كنت أمشي مع النبي ﷺ في حرة المدينة عشاء ونحن ننظر إلى أحد، فقال: «يا أبا ذر ! قلت: لبيك يا رسول الله، قال: «ما أحب أن لي أحداً ذاك عندي ذهباً أمسي ثالثة وعندي منه دينار إلا ديناراً أرصده، يعني لدين، إلا أن أقول به في عباد الله هكذا وهكذا» فحثا عن يمينه وعن يساره وبين يديه، قال ثم مشينا فقال: «يا أبا ذر إن الأكثرين هم الأقلون يوم القيامة إلا من قال هكذا وهكذا»، فحثا عن يمينه ومن بين يديه وعن يساره، قال: ثم مشينا فقال: «يا أبا ذر كما أنت حتى آتيك»، قال: فانطلق حتى تواري عني، قال: فسمعت لغطاً، فقلت: لعل رسول الله ﷺ عرض له، قال: فهمت أن أتبعه، قال: فذكرت قوله لا تبرح حتى آتيك، فانتظرت حتى جاء، فذكرت له الذي سمعت، فقال: «ذاك جبريل أتاني، فقال: من مات من أمتك لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة». قلت: وإن زنى وإن سرق؟ قال: «وإن زنى وإن سرق»^(٣).

(الحديث الرابع): عن جابر، قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله ما الموجبتان؟ قال: «من مات لا يشرك بالله شيئاً وجبت له الجنة ومن مات يشرك بالله شيئاً وجبت له النار» .

(الحديث الخامس): قال الإمام أحمد، عن ضمضم بن جوش اليمامي قال، قال لي أبو هريرة: يا يمامي ! لا تقولن لرجل لا يغفر الله لك، أو لا يدخلك الجنة أبداً، فقلت: يا أبا هريرة إن هذه كلمة يقولها أحدنا لأخيه

(١) رواه الشيخان .

(٢) رواه أحمد والشيخان .

وصاحبه إذا غضب، قال: لا تقلها فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: « كان في بني إسرائيل رجلان أحدهما مجتهد في العبادة، وكان الآخر مسرفاً على نفسه، وكانا متآخيين، وكان المجتهد لا يزال يرى الآخر على الذنب فيقول: يا هذا أقصر، فيقول: خلني وربي أبعث علي رقيباً؟ إلى أن رآه يوماً على ذنب استعظمه، فقال له: ويحك أقصر، قال: خلني وربي، أبعث علي رقيباً؟ فقال: والله لا يغفر الله لك أو لا يدخلك الجنة أبداً، قال: فبعث الله إليهما ملكاً فقبض أرواحهما واجتمعا عنده، فقال للمذنب: اذهب فادخل الجنة برحمتي، وقال للآخر: أكنت عالماً، أكنت على ما في يدي قادراً؟ اذهبوا به إلى النار. قال: والذي نفس أبي القاسم بيده إنه لتكلم بكلمة أوبقت ديناه وآخرته » .

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزُكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾ أَنْظِرْ كَيْفَ يَقْتُرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٠﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْحُبِّ وَالْطُّغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن مَّجِدَّ لَهُ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾

قال الحسن وقتادة نزلت هذه الآية - وهي قوله: ﴿ ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم ﴾ - في اليهود والنصارى حين قالوا: نحن أبناء الله وأحباؤه، وفي قولهم ﴿ لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى ﴾، وقال مجاهد: كانوا يقدمون الصبيان أمامهم في الدعاء والصلاة يؤمنهم ويزعمون أنهم لا ذنوب لهم، وقال ابن عباس في قوله: ﴿ ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم ﴾ وذلك أن اليهود قالوا: إن أبناءنا توفوا وهم لنا قربة ويشفعون لنا ويزكوتنا، فأنزل الله على محمد: ﴿ ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم ﴾ الآية. وقال الضحاك: قالوا ليس لنا ذنوب كما ليس لأبنائنا ذنوب، فأنزل الله: ﴿ ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم ﴾ فيهم، وقيل: نزلت في ذم التماح والتزكية؛ وفي صحيح مسلم عن المقداد بن الأسود قال: أمرنا رسول الله ﷺ أن نحثو في وجوه المداحين التراب، وفي الصحيحين عن عبد الله بن أبي بكر عن أبيه أن رسول الله ﷺ سمع رجلاً يثني على رجل فقال: « ويحك قطعت عنق صاحبك » ثم قال: « إن كان أحدكم مادحاً صاحبه لا محالة فليقل أحسبه كذا ولا يزكي على الله أحداً »، وروى ابن مردويه عن عمر أنه قال: إن أخوف ما أخاف عليكم إعجاب المرء برأيه، فمن قال إنه مؤمن فهو كافر، ومن قال هو عالم فهو جاهل، ومن قال هو في الجنة فهو في النار، وقال الإمام أحمد عن معبد الجهني قال: كان معاوية قلما كان يحدث عن النبي ﷺ قال: وكان قلما يكاد يدع يوم الجمعة هؤلاء الكلمات أن يحدث بهن عن النبي ﷺ يقول: « من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين، وإن هذا المال حلو خضر، فمن يأخذه بحقه يبارك فيه، وإياكم والتماح فإنه الذبح ». وقال ابن جرير قال عبد الله بن مسعود: إن الرجل ليغدو بدينه ثم يرجع وما معه منه شيء يلقي الرجل ليس يملك له ضرراً ولا نفعاً فيقول له: إنك والله كيت وكيت، فلعله أن يرجع ولم يحظ من حاجته بشيء وقد أسخط الله، ثم قرأ: ﴿ ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم ﴾ الآية ولهذا قال

تعالى: ﴿بل الله يزكي من يشاء﴾ أي المرجع في ذلك إلى الله عز وجل لأنه أعلم بحقائق الأمور وغوامضها، ثم قال تعالى: ﴿ولا يظلمون شيئاً﴾ أي ولا يترك لأحد من الأجر ما يوازن مقدار القتل، قال ابن عباس: هو ما يكون في شق النواة .

وقوله تعالى: ﴿انظر كيف يفترون على الله الكذب﴾ أي في تركيبتهم أنفسهم ودعواهم أنهم أبناء الله وأحباؤه، وقولهم: ﴿لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى﴾، وقولهم: ﴿لن تمسنا النار إلا أياماً معدودات﴾، واتكلمهم على أعمال آبائهم الصالحة، وقد حكم الله أن أعمال الآباء لا تجزي عن الأبناء شيئاً في قوله: ﴿تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم﴾ الآية، ثم قال: ﴿وكفى به إثماً مبيناً﴾ أي وكفى بصنيعهم هذا كذباً وافتراءً ظاهراً. وقوله: ﴿ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت﴾، أما الجبت فقال عمر بن الخطاب: (الجبت) السحر؛ و(الطاغوت) الشيطان، وهكذا روي عن ابن عباس ومجاهد، وعن ابن عباس وأبي العالية: (الجبت) الشيطان، وعنه: الجبت الأصنام. وعن مجاهد: الجبت كعب بن الأشرف. وقال الجوهري في كتابه الصحاح: الجبت كلمة تقع على الصنم والكاهن والساحر ونحو ذلك، وفي الحديث: «الطيرة والعيافة والطرق من الجبت». وقد تقدم الكلام على الطاغوت في سورة البقرة بما أغنى عن إعادته هنا .

وقوله تعالى: ﴿ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً﴾ أي يفضلون الكفار على المسلمين بجهلهم، وقلة دينهم، وكفرهم بكتاب الله الذي بأيديهم، وقد روى ابن أبي حاتم عن عكرمة، قال: جاء حيي بن أخطب وكعب بن الأشرف إلى أهل مكة، فقالوا لهم: أتم أهل الكتاب وأهل العلم فأخبرونا عنا، وعن محمد، فقالوا: ما أتم وما محمد؟ فقالوا نحن نصل الأرحام، وننحر الكوماء، ونسقي الماء على اللبن، ونفك العاني، ونسقي الحجيج، ومحمد صنوبر قطع أرحامنا واتبعه سراق الحجيج من غفار فنحن خير أم هو؟ فقالوا: أتم خير وأهدى سبيلاً، فأنزل الله ﴿ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً﴾ الآية. وقال الإمام أحمد عن ابن عباس لما قدم كعب بن الأشرف مكة قالت قريش: ألا ترى هذا الصنوبر المنبر من قومه يزعم أنه خير منا، ونحن أهل الحجيج وأهل السدانة، وأهل السقاية، قال: أتم خير، قال: فنزلت: ﴿إن شانئك هو الأبتر﴾، ونزل: ﴿ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب﴾ إلى قوله عز وجل ﴿وآتيناهم ملكاً عظيماً﴾، وهذا لعن لهم وإخبار بأنهم لا ناصر لهم في الدنيا ولا في الآخرة لأنهم إنما ذهبوا يستنصرون بالمشركين، وإنما قالوا لهم ذلك ليستميلوهم إلى نصرتهم، وقد أجابوهم وجاعوا معهم يوم الأحزاب حتى حفر النبي ﷺ وأصحابه حول المدينة الخندق فكفى الله شرهم، ﴿ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قوياً عزيزاً﴾ .

أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ
فَقَدْ آتَيْنَاهُمُ آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مَّلَكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ فَنِهِمْ مِّنَ عَمَلٍ بِهِ وَمِنْهُمْ مَّنْ صَدَّ
عَنْهُ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾

يقول تعالى: ﴿أَمْ لَمْ نُنصِبْ مِنَ الْمَلِكِ﴾ وهذا استفهام إنكاري أي ليس لهم نصيب من الملك، ثم وصفهم بالبخل فقال: ﴿فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا﴾ أي لأنهم لو كان لهم نصيب في الملك والتصرف لما أعطوا أحداً من الناس ولا سيما محمداً ﷺ شيئاً، ولا ما يملأ النقيير وهو النقطة التي في النواة في قول ابن عباس والأكثرين، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ أَنَّمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ﴾ أي خوف أن يذهب ما بأيديكم، مع أنه لا يتصور نفاذه، وإنما هو من بخلكم وشحكم، ولهذا قال تعالى: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا﴾ أي بخيلاً. ثم قال: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ يعني بذلك حسدهم النبي ﷺ على ما رزقه الله من النبوة العظيمة، ومنعهم من تصديقهم إياه حسدهم له لكونه من العرب وليس من بني إسرائيل، ﴿فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مَلَكًا عَظِيمًا﴾ أي فقد جعلنا في أسباط بني إسرائيل الذين هم من ذرية إبراهيم النبوة وأنزلنا عليهم الكتب، وحكموا فيهم بالسنن وهي الحكمة وجعلنا منهم الملوك، ومع هذا ﴿فَنَهَمُ مِنْ آمَنَ بِهِ﴾ أي بهذا الإيتاء وهذا الإنعام ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ﴾ أي كفر به وأعرض عنه وسعى في صد الناس عنه، وهو منهم ومن جنسهم أي من بني إسرائيل فقد اختلفوا عليهم فكيف بك يا محمد ولست من بني إسرائيل؟ وقال مجاهد: ﴿فَنَهَمُ مِنْ آمَنَ بِهِ﴾ أي بمحمد ﷺ ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ﴾ فالكفرة منهم أشد تكذيباً لك، وأبعد عما جنتهم به من الهدى، والحق المين ولهذا قال متوعداً لهم: ﴿وَكُفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾ أي وكفى بالنار عقوبة لهم على كفرهم وعنادهم ومخالفتهم كتب الله ورسوله .

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصَلِّيهِمْ نَارًا كُفَمَا نَضَجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ
 إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ
 خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَمْ يَفُتْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَدُخِلَتْ فِيهَا ظِلِيلًا ﴿٥٧﴾

يخبر تعالى عما يعاقب به في نار جهنم من كفر بآياته وصد عن رسوله، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا﴾ الآية، أي ندخلهم ناراً دخولا يحيط بجميع أجزائهم، ثم أخبر عن دوام عقوبتهم ونكالهم فقال: ﴿كُلَّمَا نَضَجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾. قال الأعمش عن ابن عمر: إذا احترقت جلودهم بدلوا جلوداً غيرها بيضاً أمثال القراطيس، وعن الحسن قوله: ﴿كُلَّمَا نَضَجَتْ جُلُودُهُمْ﴾ الآية قال: تنضجهم في اليوم سبعين ألف مرة، ثم قيل لهم: عودوا فعادوا، عن ابن عمر قال: قرأ رجل عند عمر هذه الآية: ﴿كُلَّمَا نَضَجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ فقال عمر: أعداها علي، فأعادها، فقال معاذ بن جبل: عندي تفسيرها، تبدل في ساعة مائة مرة، فقال عمر: هكذا سمعت رسول الله ﷺ (١). وقال الربيع بن أنس: مكتوب في الكتاب الأول أن جلد أحدهم أربعون ذراعاً، وسنه سبعون ذراعاً، وبطنه لو وضع فيه جبل لوسعه،

فإذا أكلت النار جلودهم بدلوا جلوداً غيرها، وقد ورد في الحديث ما هو أبلغ من هذا، قال الإمام أحمد عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: « يعظم أهل النار في النار حتى إن بين شحمة أذن أحدهم إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام، وإن غلظ جلده سبعون ذراعاً، وإن ضرسه مثل أحد » .

وقوله تعالى: ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً﴾، هذا إخبار عن مآل السعداء في جنات عدن التي تجري فيها الأنهار في جميع فجاجها، ومحالها وأرجائها حيث شاعوا، وأين أرادوا، وهم خالدون فيها أبداً لا يحولون ولا يزولون ولا يبغون عنها حولاً. وقوله: ﴿لهم فيها أزواج مطهرة﴾ أي من الحيض، والنفاس، والأذى، والأخلاق الرذيلة، والصفات الناقصة كما قال ابن عباس: مطهرة من الأقدار والأذى. وقال مجاهد: مطهرة من البول والحيض والنخام والبزاق والمني والولد، وقال قتادة: مطهرة من الأذى والمآثم، ولا حيض ولا كلف. وقوله: ﴿وندخلهم ظللاً ظليلاً﴾ أي ظللاً عميقاً كثيراً غزيراً طيباً أنيقاً، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: « إن في الجنة لشجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها - شجرة الخلد »^(١) .

* إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾

يخبر الله تعالى أنه يأمر بأداء الأمانات إلى أهلها، وفي الحديث: « أد الأمانة إلى من ائتمنتك ، ولا تخن من خانك »^(٢) وهو يعم جميع الأمانات الواجبة على الإنسان، من حقوق الله عز وجل على عباده من الصلاة والزكاة والصيام والكفارات والنذور وغير ذلك، مما هو مؤتمن عليه لا يطلع عليه العباد، ومن حقوق العباد بعضهم على بعض، كالودائع وغير ذلك مما يأتمنون به من غير اطلاع بينة على ذلك فأمر الله عز وجل بأدائها، فمن لم يفعل ذلك في الدنيا أخذ منه ذلك يوم القيامة كما ثبت في الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: « لتؤدن الحقوق إلى أهلها حتى يقتص للشاة الجماء من القرناء »، وقال ابن أبي حاتم عن عبد الله بن مسعود قال: إن الشهادة تكفر كل ذنب إلا الأمانة، يؤتى بالرجل يوم القيامة وإن كان قد قتل في سبيل الله فيقال: أد أمانتك، فيقول: فأتى أوديها وقد ذهبت الدنيا؟ فتمثل له الأمانة في قعر جهنم فيهوي إليها فيحملها على عاتقه فتنزله عن عاتقه فيهوي على أثرها أبد الآبدين^(٣) . قال أبو العالية: الأمانة ما أمروا به ونهوا عنه. وروى ابن أبي حاتم عن مسروق قال، قال (أبي ابن كعب): من الأمانات أن المرأة ائتمنت على فرجها، وقال الربيع بن أنس: هي من الأمانات فيما بينك وبين الناس. وقد ذكر كثير من المفسرين أن هذه الآية نزلت في شأن (عثمان بن طلحة) حاجب الكعبة المعظمة، وهو ابن عم شيبه بن عثمان بن أبي طلحة الذي صارت الحجابة في نسله إلى اليوم، أسلم عثمان هذا في الهدنة بين

(١) رواه ابن جرير وأخرجه الشيخان بنحوه .

(٢) رواه أحمد وأصحاب السنن .

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم عن ابن مسعود موقوفاً .

صلح الحديدية وفتح مكة هو وخالد بن الوليد وعمرو بن العاص .

وسبب نزولها فيه لما أخذ منه رسول الله ﷺ مفتاح الكعبة يوم الفتح ثم رده عليه، وقال محمد بن إسحاق: إن رسول الله ﷺ لما نزل بمكة واطمأن الناس خرج حتى جاء إلى البيت فطاف به سبعا على راحلته يستلم الركن بمحجن في يده، فلما قضى طوافه دعا (عثمان بن طلحة) فأخذ منه مفتاح الكعبة ففتحت له فدخلها، فوجد فيها حمامة من عيدان فكسرهما بيده ثم طرحها، ثم وقف على باب الكعبة وقد استكن له الناس في المسجد فقال: « لا إله إلا الله وحده لا شريك له، صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده، ألا كل مأثرة أو دم أو مال يدعى فهو تحت قدمي هاتين، إلا سدانة البيت وسقاية الحاج » وذكر بقية الحديث في خطبة النبي ﷺ يومئذ إلى أن قال: ثم جلس رسول الله ﷺ في المسجد، فقام إليه (علي بن أبي طالب) ومفتاح الكعبة في يده فقال: يا رسول الله اجمع لنا الحجابة مع السقاية صلى الله عليك، فقال رسول الله ﷺ: « أين عثمان بن طلحة؟ » فدعي له، فقال له: « هاك مفتاحك يا عثمان، اليوم يوم وفاء وبر ». قال ابن جرير: نزلت في عثمان بن طلحة، قبض منه رسول الله ﷺ مفتاح الكعبة فدخل في البيت يوم الفتح، فخرج وهو يتلو هذه الآية ﴿ إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها ﴾ الآية، فدعا عثمان إليه فدفع إليه المفتاح، وقال عمر بن الخطاب لما خرج رسول الله ﷺ من الكعبة وهو يتلو هذه الآية ﴿ إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها ﴾ فداه أبي وأمي ما سمعته يتلوها قبل ذلك .

وهذا من المشهورات أن هذه الآية نزلت في ذلك، وسواء كانت نزلت في ذلك أو لا فحكمها عام، ولهذا قال ابن عباس ومحمد بن الحنفية: هي للبر والفاجر، أي هي أمر لكل أحد، وقوله: ﴿ وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ﴾ أمر منه تعالى بالحكم بالعدل بين الناس، ولهذا قال زيد بن أسلم: إن هذه الآية: إنما نزلت في الأمراء يعني الحكام بين الناس، وفي الحديث: « إن الله مع الحاكم ما لم يجر، فإذا جار وكله إلى نفسه »، وفي الأثر: « عدل يوم كعبادة أربعين سنة »، وقوله: ﴿ إن الله نعمًا يعظكم به ﴾ أي يأمركم به من أداء الأمانات، والحكم بالعدل بين الناس وغير ذلك من أوامره وشرائعه الكاملة العظيمة الشاملة، وقوله تعالى: ﴿ إن الله كان سمعاً بصيراً ﴾ سمعاً لأقوالكم، بصيراً بأفعالكم .

* يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِن تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾

قال البخاري عن ابن عباس: ﴿ أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم ﴾، قال نزلت: في عبد الله بن حذافة بن قيس بن عدي إذ بعثه رسول الله ﷺ في سرية، وقال الإمام أحمد عن علي قال: بعث رسول الله ﷺ سرية واستعمل عليهم رجلاً من الأنصار، فلما خرجوا وجد عليهم في شيء قال، فقال لهم: أليس قد أمركم رسول الله ﷺ أن تطيعوني؟ قالوا: بلى، قال: فاجمعوا لي خطباً، ثم دعا بنار فأضرمها فيه، ثم قال: عزمت عليكم لتدخلنها، قال، فقال لهم شاب منهم: إنما فررتم إلى رسول الله ﷺ من النار، فلا تعجلوا حتى تلقوا

رسول الله ﷺ، فإن أمركم أن تدخلوها فادخلوها، قال: فرجعوا إلى رسول الله ﷺ فأخبروه، فقال لهم: «لو دخلتموها ما خرجتم منها أبداً، إنما الطاعة في المعروف». وعن عبد الله بن عمر عن رسول الله ﷺ قال: «السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحب وكره، ما لم يؤمر بمعصية، فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة»^(١) وعن عبادة ابن الصامت قال: بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة، في منشطنا ومكرهنا وعسرنا ويسرنا، وأثرة علينا، وأن لا ننازع الأمر أهله، قال: «إلا أن تروا كفراً بواحاً عندكم فيه من الله برهان»^(٢). وفي الحديث الآخر عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «اسمعوا وأطيعوا، وإن أمر عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة» رواه البخاري، وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: «أوصاني خليلي أن أسمع وأطيع وإن كان عبداً حبشياً مجذوع الأطراف». رواه مسلم. وروى ابن جرير عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «سليكم ولاية بعدي فيليكم البر بيره، والفاجر بفجوره، فاسمعوا لهم وأطيعوا في كل ما وافق الحق، وصلوا وراءهم، فإن أحسنوا فلكم ولهم، وإن أساءوا فلكم وعليهم».

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء، كلما هلك نبي خلفه نبي، وإنه لا نبي بعدي، وسيكون خلفاء فيكثرون». قالوا، يا رسول الله: فما تأمرنا؟ قال: «أوفوا ببيعة الأول فالأول، وأعطوهم حقهم، فإن الله سائلهم عما استرعاهم» أخرجاه، وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال، قال رسول الله ﷺ: «من رأى من أميره شيئاً فكرهه فليصبر فإنه ليس أحد يفارق الجماعة شبراً فيموت إلا مات ميتة جاهلية» أخرجاه، وعن ابن عمر أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «من خلع يداً من طاعة لقي الله يوم القيامة لا حجة له، ومن مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية» رواه مسلم. وروى مسلم أيضاً عن عبد الرحمن بن عبد رب الكعبة قال: دخلت المسجد فإذا عبد الله بن عمرو بن العاص جالس في ظل الكعبة والناس حوله مجتمعون عليه، فأتيتهم فجلست إليه فقال: كنا مع رسول الله ﷺ في سفر فترلنا منزلاً فننا من يصلح خبائه، ومنا من ينتضل، ومنا من هو في جشره^(٣) إذ نادى منادي رسول الله ﷺ: الصلاة جامعة! فاجتمعنا إلى رسول الله ﷺ فقال: إنه لم يكن نبي من قبلي إلا كان حقاً عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه لهم، وينذرهم شر ما يعلمه لهم، وإن هذه الأمة جعلت عافيتها في أولها، وسيصيب آخرها بلاء، وأمور ينكرونها، وتجيء فتن يرقق بعضها بعضاً، وتجيء الفتنة فيقول المؤمن: هذه مهلكتي، ثم تنكشف وتجيء الفتنة فيقول المؤمن: هذه هذه، فن أحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة فلتأته منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر، وليأت إلى الناس الذي يحب أن يؤتى إليه، ومن بايع إماماً فأعطاه صفقة يده وثمرة فؤاده فليطعه إن استطاع، فإن جاء آخر ينازعه فاضربوا عنق الآخر، قال فدنوت منه فقلت: أنشدك بالله أنت سمعت هذا من رسول الله ﷺ؟ فأهوى إلى أذنيه وقلبه بيده وقال: سمعته أذناي، ووعاه قلبي، فقلت له: هذا ابن عمك معاوية يأمرنا أن نأكل أموالنا بيننا بالباطل،

(١) رواه أبو داود .

(٢) رواه البخاري ومسلم .

(٣) أصل الجشع: اللوالب ترعى في مكان وتبيت فيه اه .

ويقتل بعضاً بعضاً، والله تعالى يقول: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالِكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾ قال فسكت ساعة ثم قال: أطعه في طاعة الله، واعصه في معصية الله، والأحاديث في هذا كثيرة .

وقال ابن عباس ﴿ وأولي الأمر منكم ﴾ يعني أهل الفقه والدين، وكذا قال مجاهد وعطاء ﴿ وأولي الأمر منكم ﴾ يعني العلماء، والظاهر - والله أعلم - أنها عامة في كل أولي الأمر من الأمراء والعلماء كما تقدم، وقال تعالى: ﴿ لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السَّحْتَ ﴾، وقال تعالى: ﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾، وفي الحديث الصحيح المتفق على صحته عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: « من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصا الله، ومن أطاع أميرى فقد أطاعني ومن عصا أميرى فقد عصاني »، فهذه أوامر بطاعة العلماء والأمراء، ولهذا قال تعالى: ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ ﴾ أي اتبعوا كتابه، ﴿ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴾ أي خلوا بسنته، ﴿ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾ أي فيما امروكم به من طاعة الله لا في معصية الله، فإنه لا طاعة لمخلوق في معصية الله كما تقدم في الحديث الصحيح: « إنما الطاعة في المعروف » .

وقال الإمام أحمد عن عمران بن حصين عن النبي ﷺ، قال: « لا طاعة في معصية الله ». وقوله: ﴿ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾ قال مجاهد: أي إلى كتاب الله وسنة رسوله، وهذا أمر من الله عز وجل بأن كل شيء تنازع الناس فيه من أصول الدين وفروعه أن يرد التنازع في ذلك إلى الكتاب والسنة كما قال تعالى: ﴿ وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ﴾، فاحكمم به الكتاب والسنة وشهدا له بالصحة فهو الحق، وماذا بعد الحق إلا الضلال؟ ولهذا قال تعالى: ﴿ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ أي ردوا الخصومات والجهالات إلى كتاب الله وسنة رسوله، فتحاكموا إليهما فيما شجر بينكم ﴿ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾، فدل على أن من لم يتحاكم في محل النزاع إلى الكتاب والسنة ولا يرجع إليهما في ذلك فليس مؤمناً بالله ولا باليوم الآخر، وقوله: ﴿ ذَلِكَ خَيْرٌ ﴾ أي التحاكم إلى كتاب الله وسنة رسوله، والرجوع إليهما في فصل النزاع خير ﴿ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾، أي وأحسن عاقبة ومآلاً كما قاله السدي وقال مجاهد: وأحسن جزاء، وهو قريب .

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ وَمَا أَنْزَلَ مِنْ قَبْلِكَ يَرِيدُونَ أَنْ يُخَاجُّوكُمْ إِلَى الطَّغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ ۗ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَىٰ الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا مِنَ الْمُنَافِقِينَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴿٦٢﴾

هذا إنكار من الله عز وجل على من يدعي الإيمان بما أنزل الله على رسوله وعلى الأنبياء الأقدمين، وهو مع

ذلك يريد أن يتحاكم في فصل الخصومات إلى غير كتاب الله وسنة رسوله، كما ذكر في سبب نزول هذه الآية أنها في رجل من الأنصار، ورجل من اليهود نخاصما، فجعل اليهودي يقول: بيني وبينك محمد، وذاك يقول بيني وبينك (كعب بن الأشرف) وقيل: في جماعة من المنافقين ممن أظهر الإسلام، أرادوا أن يتحاكموا إلى حكام الجاهلية، وقيل غير ذلك، والآية أعم من ذلك كله، فإنها دامة لمن عدل عن الكتاب والسنة، وتحاكموا إلى ما سواهما من الباطل وهو المراد بالطاغوت هنا، ولهذا قال: ﴿يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت﴾ إلى آخرها، وقوله: ﴿ويصدون عنك صدوداً﴾ أي يعرضون عنك إعراضاً كالمستكبرين عن ذلك كما قال تعالى عن المشركين: ﴿وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا﴾ .

ثم قال تعالى في ذم المنافقين: ﴿فكيف إذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم﴾ أي فكيف بهم إذا ساقتهم المقادير إليك في مصائب تطرقهم بسبب ذنوبهم، واحتاجوا إليك في ذلك؟ ﴿ثم جاؤك يحلفون بالله إن أردنا إلا إحساناً وتوفيقاً﴾ أي يعتذرون إليك ويحلفون ما أردنا بذهابنا إلى غيرك، وتحاكمنا إلى أعدائك إلا الإحسان والتوفيق أي المداراة والمصانعة لا اعتقاداً منا صحة تلك الحكومة، كما في قوله تعالى: ﴿فترى الذين في قلوبهم مرض يشارعون فيهم﴾، عن ابن عباس قال: كان (أبو برزة الأسلمي) كاهناً يقضي بين اليهود فيما يتنافرون فيه، فتنافر إليه ناس من المشركين فأنزل الله عز وجل ﴿ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك - إلى قوله - إن أردنا إلا إحساناً وتوفيقاً﴾^(١) .

ثم قال تعالى: ﴿أولئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم﴾ هذا الضرب من الناس هم المنافقون والله يعلم ما في قلوبهم وسيجزئهم على ذلك، فإنه لا تخفى عليه خافية، فاكتف به يا محمد فيهم فإنه عالم بظواهرهم وبواطنهم، ولهذا قال له: ﴿فأعرض عنهم﴾ أي لا تعنفهم على ما في قلوبهم، ﴿وعظهم﴾ أي وانهم عما في قلوبهم من النفاق وسرائر الشر، ﴿وقل لهم في أنفسهم قولاً بليغاً﴾ أي وانصحهم فيما بينك وبينهم بكلام بليغ رادع لهم .

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَأَسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا ﴿٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ ﴾

يقول تعالى: ﴿وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع﴾ أي فرضت طاعته على من أرسله إليهم، وقوله: ﴿بإذن الله﴾ قال مجاهد: أي لا يطيع أحد إلا بإذني، يعني لا يطيعه إلا من وفقته لذلك، كقوله: ﴿ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه﴾ أي عن أمره وقدره ومشيتته وتسليطه إياكم عليهم، وقوله: ﴿ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم﴾ الآية، يرشد تعالى العصاة والمذنبين إذا وقع منهم الخطأ والعصيان أن يأتوا إلى الرسول ﷺ فيستغفروا الله عنده ويسألوه أن يستغفر لهم، فإنهم إذا فعلوا ذلك تاب الله عليهم ورحمهم وغفر لهم، ولهذا قال: ﴿لوجدوا الله تواباً﴾

رحمياً ﴿٦٦﴾ وقد ذكر جماعة منهم الشيخ أبو منصور الصباغ في كتابه «الشامل» الحكاية المشهورة عن العتيبي قال: كنت جالساً عند قبر النبي ﷺ فجاء أعرابي فقال: السلام عليك يا رسول الله، سمعت الله يقول: ﴿ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحماً﴾، وقد جئتك مستغفراً لذنبي مستشفعاً بك إلى ربي، ثم أنشأ يقول:

يا خير من دفنت بالقاع أعظمه فطاب من طيبهن القاع والأكم
نفسى الفداء لقبرٍ أنت ساكنه فيه العفاف وفيه الجود والكرم

ثم انصرف الأعرابي، فغلقتني عيني فرأيت النبي ﷺ في النوم فقال: «يا عتيبي إحق الأعرابي فبشره أن الله قد غفر له».

وقوله تعالى: ﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم﴾، يقسم تعالى بنفسه الكريمة المقدسة، أنه لا يؤمن أحد حتى يحكم الرسول ﷺ في جميع الأمور، فما حكم به فهو الحق الذي يجب الانقياد له باطناً وظاهراً، ولهذا قال: ﴿ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً﴾ أي إذا حكموك يطيعونك في بواطنهم، فلا يجدون في أنفسهم حرجاً مما حكمت به، ويتقادون له في الظاهر والباطن فيسلمون لذلك تسليماً كلياً، من غير ممانعة ولا مدافعة ولا منازعة، كما ورد في الحديث: «والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به»، وقال البخاري عن عروة، قال: خاصم الزبير رجلاً في شراج الحرة، فقال النبي ﷺ «اسق يا زبير ثم أرسل الماء إلى جارك» فقال الأنصاري: يا رسول الله أن كان ابن عمك؟ فتلون وجه رسول الله ﷺ، ثم قال: «اسق يا زبير ثم احبس الماء حتى يرجع إلى الجدر ثم أرسل الماء إلى جارك» فاستوعى النبي ﷺ للزبير حقه في صريح الحكم حين أحفظه الأنصاري، وكان أشار عليهما ﷺ بأمر لهما فيه سعة، قال الزبير: فما أحسب هذه الآية إلا نزلت في ذلك ﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم﴾ الآية. وقال الحافظ أبو بكر بن مردويه: خاصم الزبير رجلاً إلى النبي ﷺ فقاضى للزبير، فقال الرجل: إنما قضى له لأنه ابن عمته، فنزلت: ﴿فلا وربك لا يؤمنون﴾ الآية.

* وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَنبِيئًا ﴿٦٧﴾ وَإِذَا لَا تَأْتِنَهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٨﴾ وَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿٦٩﴾ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ﴿٧٠﴾ ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧١﴾

يخبر تعالى عن أكثر الناس أنهم لو أمروا بما هم مرتكبونه من المناهي لما فعلوه، لأن طباعهم الرديئة مجبولة على مخالفة الأمر، وهذا من علمه تبارك وتعالى بما لم يكن أو كان فكيف كان يكون، ولهذا قال تعالى: ﴿ولو

أنا كتبنا عليهم أن يقتلوا أنفسهم ﴿ الآية، قال ابن جرير: ﴿ ولو أنا كتبنا عليهم أن يقتلوا أنفسهم ﴾ الآية، قال رجل: لو أمرنا لفضلنا والحمد لله الذي عافانا، فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: « إن من أمي لرجالاً الإيمان أثبت في قلوبهم من الجبال الرواسي »، وقال السدي: افتخر (ثابت بن قيس) بن شماس ورجل من اليهود ، فقال اليهودي: والله لقد كتب الله علينا القتل فقتلنا أنفسنا، فقال ثابت: والله لو كتب علينا ﴿ أن يقتلوا أنفسهم ﴾ لفضلنا، فأنزل الله هذه الآية. قال تعالى: ﴿ ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به ﴾ أي: ولو أنهم فعلوا ما يؤمرون به وتركوا ما ينهون عنه، ﴿ لكان خيراً لهم ﴾ أي من مخالفة الأمر وارتكاب النهي ﴿ وأشدّ تبيئاً ﴾ قال السدي: أي وأشدّ تصديقاً، ﴿ وإذا لا يتيناهم من لدنا ﴾ أي من عندنا ﴿ أجراً عظيماً ﴾ يعني الجنة، ﴿ ولهديناهم صراطاً مستقيماً ﴾ أي في الدنيا والآخرة ، ثم قال تعالى: ﴿ ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً ﴾ أي من عمل بما أمره الله به ورسوله وترك ما نهاه الله عنه ورسوله، فإن الله عزّ وجلّ يسكنه دار كرامته، ويجعله مرافقاً للأنبياء ثم لمن بعدهم في الرتبة، وهم الصديقون، ثم الشهداء، ثم عموم المؤمنين، وهم الصالحون الذين صلحت سرائرهم وعلانيتهم، ثم أثنى عليهم تعالى، فقال: ﴿ وحسن أولئك رفيقاً ﴾. وقال البخاري عن عائشة قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « ما من نبي يمرض إلا خير بين الدنيا والآخرة »، وكان في شكواه التي قبض فيها أخذته بحة شديدة، فسمعتة يقول: ﴿ مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين ﴾ فعلمت أنه خير. وهذا معنى قوله ﷺ في الحديث الآخر: « اللهم الرفيق الأعلى » ثلاثاً ثم قضى، عليه أفضل الصلاة والتسليم .

(ذكر سبب نزول هذه الآية الكريمة)

روى ابن جرير عن سعيد بن جبيرة قال: جاء رجل من الأنصار إلى رسول الله ﷺ وهو محزون، فقال له النبي ﷺ: « يا فلان مالي أراك محزوناً »؟ فقال: يا نبي الله شيء فكرت فيه، فقال ما هو؟ قال: نحن نغدو ونروح ننظر إلى وجهك ونجالسك ، وغداً ترفع مع النبيين، فلا نصل إليك، فلم يرد عليه النبي ﷺ شيئاً، فاتاه جبريل بهذه الآية: ﴿ ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين ﴾ الآية، فبعث النبي ﷺ فيشره. وعن عائشة، قالت: جاء رجل إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله ! إنك لأحب إليّ من نفسي، وأحب إليّ من أهلي، وأحب إليّ من ولدي، وإني لأكون في البيت فأذكرك فما أصبر حتى آتيك فأنظر إليك، وإذا ذكرت موتي وموتك عرفت أنك إذا دخلت الجنة رفعت مع النبيين، وإن دخلت الجنة خشيت أن لا أراك، فلم يرد عليه النبي ﷺ حتى نزلت عليه: ﴿ ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً ﴾ .

وثبت في صحيح مسلم عن ربيعة بن كعب الأسلمي أنه قال: كنت أبيت عند النبي ﷺ فأتيته بوضوئه وحاجته، فقال لي: سل. فقلت: يا رسول الله أسألك مرافقتك في الجنة، فقال: « أو غير ذلك؟ » قلت: هو ذلك، قال: « فأعني على نفسك بكثرة السجود ». وقال الإمام أحمد عن عمرو بن مرة الجهني، قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله شهدت أن لا إله إلا الله، وأنتك رسول الله؛ وصليت الخمس، وأديت زكاة

مالي، وصمت شهر رمضان، فقال رسول الله ﷺ: « من مات على ذلك كان مع النبيين والصدّيقين والشهداء يوم القيامة هكذا - ونصب أصبعيه - ما لم يعقّ والديه » تفرد به أحمد. وروى الترمذي عن أبي سعيد قال، قال رسول الله ﷺ: « التاجر الصدوق الأمين مع النبيين والصدّيقين والشهداء ». وقد ثبت في الصحيح والمسانيد وغيرهما من طرق متواترة عن جماعة من الصحابة أن رسول الله ﷺ سئل عن الرجل يحب القوم ولما يلحق بهم، فقال: « المرء مع من أحب ». قال أنس: فافرح المسلمون فرحهم بهذا الحديث، وفي رواية عن أنس أنه قال: إني لأحب رسول الله ﷺ وأحب أبا بكر وعمر رضي الله عنهما، وأرجو أن الله يعثني معهم، وإن لم أعمل كعملهم. قال الإمام مالك بن أنس عن أبي سعيد الخدري قال، قال رسول الله ﷺ: « إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف من فوقهم كما تراءون الكوكب الدري الغابر في الأفق من المشرق أو المغرب لتفاضل ما بينهم »، قالوا: يا رسول الله تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم، قال: « بلى، والذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين »^(١). قال تعالى: ﴿ ذلك الفضل من الله ﴾ أي من عند الله برحمته، وهو الذي أهلهم لذلك لا بأعمالهم، ﴿ وكفى بالله علماً ﴾ أي هو عليم بمن يستحق الهداية والتوفيق .

يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ انفِرُوا جَمِيعًا ﴿٧١﴾ وَإِنْ مِّنكُمْ لَمَن لَّيْبَطُنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُّصِيبَةٌ قَالُوا قَدْ أَنعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ وَلَئِن أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَلْبِئْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾ * فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ ۗ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾

يأمر الله تعالى عباده المؤمنين بأخذ الحذر من عدوهم، وهذا يستلزم التأهب لهم بإعداد الأسلحة والعُدَد وتكثير العدد بالنفير في سبيل الله، ﴿ ثبات ﴾ أي جماعة بعد جماعة، وفرقة بعد فرقة، وسرية بعد سرية، والثبات: جمع ثبة وقد تجمع الثبة على ثبين، قال ابن عباس: يعني سرايا متفرقين ﴿ أو انفروا جميعاً ﴾ يعني كلكم. وقوله تعالى: ﴿ وإن منكم لمن ليبطئن ﴾ قال مجاهد: نزلت في المنافقين، ﴿ ليبطئن ﴾ أي ليتخلفن عن الجهاد، ويحتمل أن يكون المراد أنه يتباطأ هو في نفسه، ويبطئ غيره عن الجهاد، كما كان (عبد الله بن أبي بن سلول) قبحه الله يفعل، يتأخر عن الجهاد ويبطئ الناس عن الخروج فيه، وهذا قول ابن جريج وابن جرير. ولهذا قال تعالى إخباراً عن المنافق أنه يقول إذا تأخر عن الجهاد ﴿ فإن أصابتكم مصيبة ﴾ أي قتل وشهادة وغلب العدو لكم لما لله في ذلك من الحكمة ﴿ قال قد أنعم الله عليّ إذ لم أكن معهم شهيداً ﴾ أي إذ لم أحضر معهم وقعة القتال، يعد ذلك من نعم الله عليه، ولم يدر ما فاتته من الأجر في الصبر أو الشهادة إن قتل، ﴿ ولئن أصابكم فضل من الله ﴾ أي نصر وظفر وغنيمة ﴿ ليقولن كأن لم تكن بينكم وبينه مودة ﴾، أي كأنه ليس من أهل دينكم ﴿ يا ليتني

(١) أخرجه البخاري ومسلم واللفظ لمسلم .

كنت معهم فأفوز فوزاً عظيماً ﴿٧٥﴾ أي بأن يضرب لي بسهم معهم فأحصل عليه، وهو أكبر قصده وغاية مراده، ثم قال تعالى: ﴿فليقاتل﴾ أي المؤمن النافر ﴿في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة﴾ أي يبيعون دينهم بعرض قليل من الدنيا، وما ذلك إلا لكفرهم وعدم إيمانهم .

ثم قال تعالى: ﴿ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجراً عظيماً﴾ أي كل من قاتل في سبيل الله سواء قتل أو غلب فله عند الله مثوبة عظيمة وأجر عظيم، كما ثبت في الصحيحين وتكفل الله للمجاهد في سبيله إن توفاه أن يدخله الجنة أو يرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه بما نال من أجر أو غنيمة .

وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا ﴿٧٦﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٧﴾

يحرّض تعالى عباده المؤمنين على الجهاد في سبيله وعلى السعي في استنقاذ المستضعفين بمكة من الرجال والنساء والصبيان المتبرمين من المقام بها، ولهذا قال تعالى: ﴿الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية﴾ يعني مكة، كقوله تعالى: ﴿وكأين من قرية هي أشد قوة من قريتك التي أخرجتك﴾ ثم وصفها بقوله: ﴿الظالم أهلها واجعل لنا من لَدُنْكَ وَلِيًّا واجعل لنا من لَدُنْكَ نَصِيرًا﴾ أي سخر لنا من عندك ولياً وناصرأ. قال البخاري عن عبيد الله، قال، سمعت ابن عباس قال: كنت أنا وأمّي من المستضعفين، ثم قال تعالى: ﴿الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفاً﴾ .

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُنْتُمْ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يُجَاهِدُونَ النَّاسَ تَخْشِيَةَ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظَلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٨﴾ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشِيدَةٍ وَإِنْ تُصَبِّهْمْ حَسَنَةً يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصَبِّهْمْ سَيِّئَةً يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ قَالِ هَاتُوا الْقَوْمَ لَا يَكَادُونَ بِفَقْهِنَا حَدِيثًا ﴿٧٩﴾ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٨٠﴾

كان المؤمنون في ابتداء الإسلام وهم بمكة مأمورين بالصلاة والزكاة، وكانوا مأمورين بمواساة الفقراء منهم،

وكانوا مأمورين بالصفح والعتو عن المشركين والصبر إلى حين، وكانوا يتحرقون ويودون لو أمروا بالقتال ليشتفوا من أعدائهم، ولم يكن الحال إذ ذاك مناسباً لأسباب كثيرة: منها قلة عددهم بالنسبة إلى كثرة عدد عدوهم، ومنها كونهم كانوا في بلدهم وهو بلد حرام وأشرف بقاع الأرض فلم يكن الأمر بالقتال فيه ابتداء كما يقال، فلهذا لم يؤمر بالجهاد إلا بالمدينة لما صارت لهم دار ومنعة وأنصار، ومع هذا لما أمروا بما كانوا يودونه، جزع بعضهم منه وخافوا من مواجهة الناس خوفاً شديداً: ﴿وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب﴾ أي لولا أخرت فرضه إلى مدة أخرى فإن فيه سفك الدماء، ويتم الأولاد، وتأييم النساء، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿ويقول الذين آمنوا لولا نزلت سورة فاذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال﴾ الآيات. عن عكرمة عن ابن عباس أن عبد الرحمن بن عوف وأصحابا له أتوا النبي ﷺ بمكة فقالوا يا نبي الله: كنا في عزة ونحن مشركون، فلما آمننا صرنا أذلة قال: «إني أمرت بالعتو فلا تقاتلوا القوم» فلما حوله الله إلى المدينة أمره بالقتال فكفوا فأنزل الله: ﴿لم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم﴾ (١) الآية. وقال السدي: لم يكن عليهم إلا الصلاة والزكاة، فسألوا الله أن يفرض عليهم القتال، فلما فرض عليهم القتال ﴿إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب﴾ وهو الموت، قال الله تعالى: ﴿قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى﴾ أي آخرة المتقي خير من دنياه ﴿ولا تظلمون فتيلاً﴾ أي من أعمالكم، بل توفونها أتم الجزاء، وهذه تسلية لهم عن الدنيا وترغيب لهم في الآخرة وتحريض لهم على الجهاد، وقال ابن أبي حاتم عن هشام قال: قرأ الحسن ﴿قل متاع الدنيا قليل﴾ قال: رحم الله عبداً صحبها على حسب ذلك وما الدنيا كلها أولها وآخرها إلا كرجل نام نومة فرأى في منامه بعض ما يحب، ثم انتبه. وقال ابن معين: كان أبو مصهر ينشد:

ولا خير في الدنيا لمن لم يكن له من الله في دار المقام نصيب
فإن تعجب الدنيا رجالاً فإنها متاع قليل والزوال قريب

وقوله تعالى: ﴿أبنا تكونوا يدر ككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة﴾ أي أنتم صائرون إلى الموت لا محالة ولا ينجو منه أحد منكم كما قال تعالى: ﴿كل من عليها فان﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿كل نفس ذائقة الموت﴾، وقال تعالى: ﴿وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد﴾، والمقصود أن كل أحد صائر إلى الموت لا محالة، ولا ينجيه من ذلك شيء سواء جاهد أو لم يجاهد فإن له أجلاً محتوماً، ومقاماً مقسوماً، كما قال (خالدين الوليد) حين جاء الموت على فراشه: لقد شهدت كذا وكذا موقفاً، وما من عضو من أعضائي إلا وفيه جرح من طعنة أو رمية، وها أنا أموت على فراشي، فلا نامت أعين الجبناء. وقوله: ﴿ولو كنتم في بروج مشيدة﴾ أي حصينة منيعة عالية رفيعة، أي لا يغني حذر وتحصن من الموت كما قال زهير بن أبي سلمى:

ومن هاب أسباب المنايا ينلنه ولو رام أسباب السماء بسلم

ثم قيل: المشيدة هي المشيدة كما قال (وقصر مشيد)، وقيل: بل بينهما فرق وهو أن المشيدة بالتحديد هي المطولة، وبالتخفيف هي المزينة بالشيء وهو الجص.

وقوله تعالى: ﴿ وَإِنْ تَصْبِهِمْ حَسَنَةً ﴾ أي خصب ورزق من ثمار وزروع وأولاد ونحو ذلك، هذا معنى قول ابن عباس وأبي العالية والسدي ﴿ يقولوا هذه من عند الله وإن تصبهم سيئة ﴾ أي قحط وجذب ونقص في الثمار والزروع أو موت أولاد أو نتاج أو غير ذلك ﴿ يقولوا هذه من عندك ﴾ أي من قبلك وبسبب اتباعنا لك واقتدائنا بدينك، كما قال تعالى عن قوم فرعون: ﴿ فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ، وَإِنْ تَصْبِهِمْ سَيِّئَةٌ يَطْرُقُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ ﴾ وكما قال تعالى: ﴿ وَمَنْ يَعْبدِ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ﴾ الآية. وهكذا قال هؤلاء المنافقون، الذين دخلوا في الإسلام ظاهراً وهم كارهون له في نفس الأمر، ولهذا إذا أصابهم شر إنما يسندونه إلى اتباعهم للنبي ﷺ، وقال السدي ﴿ وَإِنْ تَصْبِهِمْ حَسَنَةً ﴾ قال، والحسنة: الخصب تنتج مواشيهم وحيولهم ويحسن حالهم وتلد نسأؤهم الغلمان، قالوا: ﴿ هذه من عند الله وإن تصبهم سيئة ﴾ والسيئة: الجذب والضرر في أموالهم تشاءموا بمحمد ﷺ، وقالوا: ﴿ هذه من عندك ﴾ يقولون بتركنا ديننا واتباعنا محمداً أصابنا هذا البلاء، فأنزل الله عزَّ وجلَّ، ﴿ قل كل من عند الله ﴾ فقوله: قل كل من عند الله أي الجميع بقضاء الله وقدره، وهو نافذ في البر والفاجر والمؤمن والكافر، قال ابن عباس: ﴿ قل كل من عند الله ﴾ أي الحسنة والسيئة وكذا قال الحسن البصري. ثم قال تعالى منكرأ على هؤلاء القائلين هذه المقالة الصادرة عن شك وريب، وقلة فهم وعلم وكثرة جهل وظلم ﴿ فما هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً ﴾ ؟

ثم قال تعالى مخاطباً لرسوله ﷺ والمراد جنس الإنسان ليحصل الجواب: ﴿ ما أصابك من حسنة فمن الله ﴾ أي من فضل الله ومنه ولطفه ورحمته، ﴿ وما أصابك من سيئة فمن نفسك ﴾ أي فن قبلك، ومن عملك أنت، كما قال تعالى: ﴿ وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير ﴾. قال السدي: ﴿ فن نفسك ﴾ أي بذنبك، وقال قتادة في الآية: ﴿ فن نفسك ﴾ عقوبة لك يا ابن آدم بذنبك، قال: وذكر لنا أن النبي ﷺ قال: « لا يصيب رجلاً خدش عود ولا عثرة قدم، ولا اختلاج عرق إلا بذنب وما يعفو الله أكثر »، وهذا الذي أرسله قتادة قد روي متصلاً في الصحيح، « والذي نفسي بيده لا يصيب المؤمن هم ولا حزن، ولا نصب حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله عنه بها من خطاياها »، وقال أبو صالح ﴿ وما أصابك من سيئة فمن نفسك ﴾ أي بذنبك وأنا الذي قدرتها عليك رواه ابن جرير. وقوله تعالى: ﴿ وأرسلناك للناس رسولا ﴾ أي تبلغهم شرائع الله وما يحبه الله ويرضاه، وما يكرهه ويأباه ﴿ وكفى بالله شهيداً ﴾ أي على أنه أرسلك وهو شهيد أيضاً بينك وبينهم، وعالم بما تبلغهم إياه وبما يردون عليك من الحق كفوراً وعناداً .

مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَّوْا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّنُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكُنْ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾

يخبر تعالى عن عبده ورسوله محمد ﷺ بأن من أطاعه فقد أطاع الله، ومن عصاه فقد عصى الله، وما ذاك إلا لأنه ﴿ ما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى ﴾. قال ابن أبي حاتم عن أبي هريرة قال، قال رسول الله ﷺ: « من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصى الله؛ ومن أطاع الأمير فقد أطاعني، ومن عصى الأمير فقد

عصاني»^(١). وقوله: ﴿ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظاً﴾ أي ما عليك منه، إن عليك إلا البلاغ فمن اتبعك سعد ونجا، وكان لك من الأجر نظير ما حصل له، ومن تولى عنك خاب وخسر، وليس عليك من أمره شيء كما جاء في الحديث: «من يطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعص الله ورسوله فإنه لا يضر إلا نفسه».

وقوله تعالى: ﴿ويقولون طاعة﴾ يخبر تعالى عن المنافقين بأنهم يظهرون الموافقة والطاعة ﴿فإذا برزوا من عندك﴾ أي خرجوا وتواروا عنك ﴿بيت طائفة منهم غير الذي تقول﴾ أي استسروا ليلاً فيما بينهم بغير ما أظهره لك، فقال تعالى: ﴿والله يكتب ما يبيتون﴾ أي يعلمه ويكتبه عليهم بما يأمر به حفظته الكاتيبين الذين هم موكلون بالعباد، والمعنى في هذا التهديد أنه تعالى يخبر بأنه عالم بما يضمرونه ويسرونه فيما بينهم، وما يتفقون عليه ليلاً من مخالفة الرسول ﷺ وعصيانه، وإن كانوا قد أظهروا له الطاعة والموافقة، وسيجزئهم على ذلك، كما قال تعالى: ﴿ويقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا﴾ الآية، وقوله: ﴿فأعرض عنهم﴾ أي اصفح عنهم واحلم عليهم ولا تؤاخذهم، ولا تكشف أمورهم للناس، ولا تخف منهم أيضاً، ﴿وتوكل على الله وكفى بالله وكيلاً﴾ أي كفى به ولياً وناصراً ومعيناً لمن توكل عليه وأتاب إليه.

أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ ۗ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾

يقول تعالى آمراً لهم بتدبر القرآن وناهياً لهم عن الإعراض عنه، وعن تفهم معانيه المحكمة والفاظه البليغة، ومخبراً لهم أنه لا اختلاف فيه ولا اضطراب، ولا تعارض لأنه تنزيل من حكيم حميد فهو حق من حق، ولهذا قال تعالى: ﴿أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها﴾، ثم قال: ﴿ولو كان من عند غير الله﴾ أي لو كان مفتعلاً مختلفاً، كما يقوله من يقول من جهلة المشركين والمنافقين في بواطنهم لوجدوا فيه اختلافاً، أي اضطراباً وتضاداً كثيراً، أي وهذا سالم من الاختلاف فهو من عند الله، كما قال تعالى مخبراً عن الراسخين في العلم حيث قالوا: ﴿آمنا به كل من عند ربنا﴾ أي محكمه ومتشابهه حق، فلماذا ردوا المتشابه إلى المحكم فاهتدوا، والذين في قلوبهم زيغ ردوا المحكم إلى المتشابه فغوا، ولهذا مدح تعالى الراسخين وذم الزائغين. قال الإمام أحمد عن عمرو ابن شعيب عن أبيه عن جده قال: خرج رسول الله ﷺ ذات يوم والناس يتكلمون في القدر فكأنما يفتق في وجهه حب الرمان من الغضب، فقال لهم: «ما لكم تضربون كتاب الله بعضه ببعض، بهذا هلك من كان قبلكم»، وعن عبدالله بن عمرو قال: هجرت إلى رسول الله ﷺ يوماً، فإنا جلوس إذ اختلف اثنان في آية فارتفعت أصواتهما فقال: «إنما هلكت الأمم قبلكم باختلافهم في الكتاب»^(٢).

وقوله تعالى: ﴿وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به﴾ إنكار على من يبادر إلى الأمور قبل تحققها

(١) الحديث ثابت في الصحيحين . (٢) رواه مسلم والنسائي .

فيخبر بها ويفشيها وينشرها، وقد لا يكون لها صحة، وقد قال مسلم في مقدمة صحيحه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «كفى بالمرء كذباً أن يحدث بكل ما سمع» وفي الصحيح: «من حدث بحديث وهو يرى أنه كذب فهو أحد الكاذبين». ولذكر ههنا حديث عمر بن الخطاب المتفق على صحته حين بلغه أن رسول الله ﷺ طلق نساءه فجاء من منزله حتى دخل المسجد فوجد الناس يقولون ذلك فلم يصبر حتى استأذن على النبي ﷺ فاستفهمه، أطلقت نساءك؟ فقال: «لا» فقلت: الله أكبر وذكر الحديث بطوله. وعند مسلم فقلت: أطلقتهن فقال: «لا»، فقامت على باب المسجد فنادت بأعلى صوتي: لم يطلق رسول الله ﷺ نساءه، ونزلت هذه الآية: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولَى الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾، فكنت أنا استنبطت ذلك الأمر، ومعنى يستنبطونه أي يستخرجونه من معادنه، يقال: استنبط الرجل العين إذا حفرها واستخرجها من قعرها، وقوله: ﴿لَاتَبِعْمِ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ قال ابن عباس: يعني المؤمنين، وقال قتادة ﴿لَاتَبِعْمِ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ يعني: كلكم واستشهد من نصر هذا القول بقول الطرماح في مدح يزيد بن المهلب: أشم، ندي، كثير النوادي قليل المثالب، والقاذحة يعني لا مثالب له ولا قاذحة فيه.

فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنَجِيلًا ﴿٨٤﴾ مَنْ يَسْفَعْ شَفْعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَسْفَعْ شَفْعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيمًا ﴿٨٥﴾ وَإِذَا حِينْتُمْ بِبِحَيْةٍ حَيُوا بِأَحْسَنِ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾

يأمر تعالى عبده ورسوله محمداً ﷺ بأن يباشر القتال بنفسه، ومن نكل عنه فلا عليه منه، ولهذا قال: ﴿لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾. عن أبي إسحاق قال، قلت للبراء: الرجل يحمل على المشركين أهو ممن ألقى بيده إلى التهلكة؟ قال: لا، إن الله بعث برسوله ﷺ وقال: ﴿فقاتل في سبيل الله لا تكلف إلا نفسك﴾ إنما ذلك في النفقة^(١). وقوله: ﴿وحرض المؤمنين﴾ أي على القتال ورجبهم فيه وشجعهم عليه، كما قال لهم ﷺ يوم بدر وهو يسوي الصفوف: «قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض» وقد وردت أحاديث كثيرة في الترغيب في ذلك، فمن ذلك ما رواه البخاري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من آمن بالله ورسوله، وأقام الصلاة وآتى الزكاة، وصام رمضان، كان حقاً على الله أن يدخله الجنة، هاجر في سبيل الله أو جلس في أرضه التي ولد فيها». قالوا: يا رسول الله أفلا نبشر الناس بذلك؟ فقال: «إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيل

الله، بين كل درجتين كما بين السماء والأرض؛ فإذا سألت الله فاسأله الفردوس فانه وسط الجنة، وأعلى الجنة؛ وفوقه عرش الرحمن، ومنه تفجر أنهار الجنة .

وقوله تعالى: ﴿ عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا ﴾ أي بتحريضك إياهم على القتال تنبعت همهم على مناجزة الأعداء، ومدافعتهم عن حوزة الإسلام وأهله، ومقاومتهم ومصابرتهم، وقوله تعالى: ﴿ والله أشد بأساً وأشد تنكيلاً ﴾ أي هو قادر عليهم في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿ ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليلو بعضهم ببعض ﴾ الآية، وقوله: ﴿ من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها ﴾ أي من يسعى في أمر فيرتب عليه خير كان له نصيب من ذلك، ﴿ ومن يشفع شفاعة سيئة يكن له كفل منها ﴾ أي يكون عليه وزر من ذلك الأمر الذي ترتب على سعيه ونيته كما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: « اشفعوا توجروا؛ ويقضي الله على لسان نبيه ما شاء » وقال مجاهد بن جبر: نزلت هذه الآية في شفاعات الناس بعضهم لبعض. وقوله: ﴿ وكان الله على كل شيء مقبلاً ﴾ قال ابن عباس: أي حفيظاً، وقال مجاهد: شهيداً، وفي رواية عنه حسيباً. وقال الضحاك: المقيت الرزاق، وعن عبد الله بن رواحة: وسأله رجل عن قول الله تعالى: ﴿ وكان الله على كل شيء مقبلاً ﴾ قال: مقيت لكل إنسان بقدر عمله .

وقوله تعالى: ﴿ وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها ﴾ أي إذا سلم عليكم المسلم فردوا عليه أفضل مما سلم، أو ردوا عليه بمثل ما سلم فالزيادة مندوبة، والمماثلة مفروضة، قال ابن جرير عن سلمان الفارسي، قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: السلام عليك يا رسول الله، فقال: « عليك السلام ورحمة الله » ثم جاء آخر فقال: السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله؛ فقال له رسول الله ﷺ: « عليك السلام ورحمة الله وبركاته »، ثم جاء آخر فقال: السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته، فقال له: « عليك » فقال له الرجل: يا نبي الله بأبي أنت وأمي: أتاك فلان وفلان فسلمنا عليك فرددت عليهما أكثر مما رددت علي؟ فقال: « إنك لم تدع لنا شيئاً، قال الله تعالى: ﴿ وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها ﴾ فرددناها عليك » .

وفي هذا الحديث دلالة على أنه لا زيادة في السلام على هذه الصفة [السلام عليكم ورحمة الله وبركاته]، إذ لو شرع أكثر من ذلك لزاده رسول الله ﷺ، وقال الإمام أحمد عن عمران بن حصين أن رجلاً جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: السلام عليكم يا رسول الله فرد عليه ثم جلس، فقال: « عشر » ثم جاء آخر فقال: السلام عليكم ورحمة الله يا رسول الله فرد عليه ثم جلس فقال « عشرون » ثم جاء آخر فقال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته فرد عليه، ثم جلس فقال: « ثلاثون ». وقال ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: من سلم عليك من خلق الله فاردد عليه، وإن كان مجوسياً ذلك بأن الله يقول: ﴿ فحيوا بأحسن منها أو ردوها ﴾ وقال فأما أهل الذمة فلا يُبدؤون بالسلام ولا يزدون بل يرد عليهم بما ثبت في الصحيحين عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: « إذا سلم عليكم اليهود فإنما يقول أحدهم السام عليكم فقل وعليك ». وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: « لا تبدأوا اليهود والنصارى بالسلام، وإذا لقيتموهم في طريق فاضطروهم إلى أضيقه »، وقال الحسن البصري: السلام تطوع والرد فريضة، وهذا الذي قاله هو قول العلماء قاطبة أن الرد واجب على من سلم

عليه فيأثم إن لم يفعل، لأنه خالف أمر الله في قوله: ﴿فحيوا بأحسن منها أو ردوها﴾ وقد جاء في الحديث الذي رواه أبو داود بسنده إلى أبي هريرة قال، قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أفلا أدلكم على أمر إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم».

وقوله تعالى: ﴿الله لا إله إلا هو﴾ إخبار بتوحيده وتفردة بالإلهية لجميع المخلوقات وتضمن قسماً لقوله: ﴿ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه﴾ وهذه اللام موطئة للقسم فقوله الله لا إله إلا هو خبر وقسم أنه سيجمع الأولين والآخرين في صعيد واحد، فيجازي كل عامل بعمله وقوله تعالى: ﴿ومن أصدق من الله حديثاً﴾ أي لا أحد أصدق منه في حديثه وخبره ووعدته ووعيده، فلا إله إلا هو ولا رب سواه.

* فَالْكُفْرَ فِي الْمُنَافِقِينَ فَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتْرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَمَا تُبَدِّلُ سَبِيلًا ﴿٨٨﴾ وَدَوَّالُوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يَهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَاٰلِيَّآءَ وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾ إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يَقْتُلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتِلُوكُمْ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمَّ يَفْتِنُوكُمْ وَأَلْفَوْا إِلَيْكُمْ أَلْسَمًا فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٩٠﴾ سَتَجِدُونَ ءَاخِرِينَ يَرِيدُونَ أَنْ يُأْمِنُوكُمْ وَيَأْمِنُوا قَوْمَهُمْ كُلٌّ مَارَدُوا إِلَىٰ الْفِتْنَةِ أَرْكَسُوا فِيهَا فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيَلْقُوا إِلَيْكُمْ أَلْسَمًا وَيَكْفُرُوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَٰئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطٰنًا مُّبِينًا ﴿٩١﴾

يقول تعالى منكرًا على المؤمنين في اختلافهم في المنافقين على قولين، واختلف في سبب ذلك، فقال الإمام أحمد عن زيد بن ثابت: أن رسول الله ﷺ خرج إلى أحد فرجع ناس خرجوا معه، فكان أصحاب رسول الله ﷺ فيهم فرقتين، فرقة تقول: تقتلهم، وفرقة تقول: لا، هم المؤمنون فأنزل الله: ﴿فما لكم في المنافقين فئتين﴾، فقال رسول الله ﷺ: «إنها طيبة وإنها تنني الخبيث كما ينني الكير خبث الحديد»^(١). وقد ذكر محمد بن إسحاق في وقعة أحد: أن عبد الله بن أبي بن سلول رجع يومئذ بثلاث الجيش، رجع بثلاثمائة وبقى النبي ﷺ في سبعمائة، وقوله تعالى: ﴿والله أركسهم بما كسبوا﴾ أي ردهم وأوقعهم في الخطأ، قال ابن عباس: ﴿أركسهم﴾ أي أوقعهم، وقال قتادة: أهلكهم، وقال السدي: أضلهم، وقوله: ﴿بما كسبوا﴾ أي بسبب عصيانهم ومخالفتهم الرسول واتباعهم الباطل ﴿أتريدون أن تهتدوا من أضل الله ومن يضل الله فلن يبدل له سبيلاً﴾ أي لا طريق له

إلى الهدى ولا مخلص له إليه، وقوله: ﴿ودوا لو تكفروا كما كفروا فتكونون سواء﴾ أي هم يودون لكم الضلالة لتستوا أتم وإياهم فيها، وما ذلك إلا لشدة عداوتهم وبغضهم لكم، ولهذا قال: ﴿فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا في سبيل الله فإن تولوا﴾ أي تركوا الهجرة قاله ابن عباس، وقال السدي: أظهروا كفرهم ﴿فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم ولا تتخذوا منهم ولياً ولا نصيراً﴾، أي لا توالوهم ولا تستنصروا بهم على أعداء الله ما داموا كذلك، ثم استثنى الله من هؤلاء فقال: ﴿إلا الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق﴾ أي إلا الذين لجأوا وتحيزوا إلى قوم بينكم وبينهم مهادنة أو عقد ذمة فاجعلوا حكمهم كحكمهم، وهذا قول السدي وابن جرير .

وقد روى ابن أبي حاتم عن الحسن أن (سراقة بن مالك المدلجي) قال: لما ظهر النبي ﷺ على أهل بدر وأحد وأسلم من حولهم، قال سراقة: بلغني أنه يريد أن يبعث (خالد بن الوليد) إلى قومي بني مدلج فأتيته، فقلت: أنشدك النعمة، فقالوا صه، فقال النبي ﷺ: «دعوه، ما تريد؟»، قال: بلغني أنك تريد أن تبعث إلى قومي وأنا أريد أن توادعهم، فإن أسلم قومك أسلموا ودخلوا في الإسلام، وإن لم يسلموا لم تخش قلوب قومك عليهم، فأخذ رسول الله ﷺ بيد خالد بن الوليد فقال: «اذهب معه فافعل ما يريد»، فصالحهم خالد على أن لا يعينوا على رسول الله ﷺ، وإن أسلمت قريش أسلموا معهم، فأنزل الله: ﴿ودوا لو تكفروا كما كفروا فتكونون سواء فلا تتخذوا منهم أولياء﴾. وقد روي عن ابن عباس أنه قال نسخها قوله: ﴿فاذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم﴾ الآية، وقوله: ﴿أو جاؤكم حصرت صدورهم﴾ هؤلاء قوم آخرون من المستثنين من الأمر بقتالهم وهم الذين يجيئون إلى المصاف وهم حصرة صدورهم أي ضيقة صدورهم، مبغضين أن يقاتلوكم، ولا يهون عليهم أيضاً أن يقاتلوا قومهم معكم بل هم لا لكم ولا عليكم ﴿ولو شاء الله لسلطهم عليكم فلقاتلوكم﴾ أي من لطفه بكم أن كفهم عنكم ﴿فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم﴾ أي المسألة ﴿فما جعل الله لكم عليهم سبيلاً﴾ أي فليس لكم أن تقاتلوهم ما دامت حالهم كذلك، وهؤلاء كالجماعة الذين خرجوا يوم بدر من بني هاشم مع المشركين فحضروا القتال وهم كارهون كالعباس ونحوه ولهذا نهى النبي ﷺ يومئذ عن قتل العباس وأمر بأسره .

وقوله تعالى: ﴿ستجدون آخرين يريدون أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم﴾ الآية، هؤلاء في الصورة الظاهرة كمن تقدمهم، ولكن نية هؤلاء غير نية أولئك، فإن هؤلاء قوم منافقون، يظهرون للنبي ﷺ ولأصحابه الإسلام ليأمنوا بذلك عندهم على دمايتهم وأموالهم وذراريهم، ويصانعون الكفار في الباطن فيعبدون معهم ما يعبدون ليأمنوا بذلك عندهم وهم في الباطن مع أولئك، كما قال تعالى: ﴿وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم﴾ الآية، وقال ههنا: ﴿كلما ردوا إلى الفتنة أركسوا فيها﴾ أي انهمكوا فيها، وقال السدي: الفتنة ههنا الشرك، وحكى ابن جرير عن مجاهد: أنها نزلت في قوم من أهل مكة كانوا يأتون النبي ﷺ فيسلمون رياء، ثم يرجعون إلى قريش فيرتكسون في الأوثان، يبتغون بذلك أن يأمنوا ههنا وههنا، فأمر بقتلهم إن لم يعتزلوا ويصلحوا، ولهذا قال تعالى: ﴿فإن لم يعتزلوكم ويلقوا إليكم السلم﴾ المهادنة والصلح ﴿ويكفوا أيديهم﴾ أي عن القتال ﴿فخذوهم﴾ أسراء ﴿واقتلوهم حيث تقفتموهم﴾ أي أين لقيتموهم ﴿وأولئك جعلنا لكم عليهم سلطاناً مبيناً﴾ أي بيناً واضحاً .

وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَاً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَاً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾

يقول تعالى: ليس لمؤمن أن يقتل أخاه المؤمن بوجه من الوجوه، كما ثبت في الصحيحين عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: « لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله، إلا بإحدى ثلاث: النفس بالنفس، والثيب الزاني، والتارك لدينه المفارق للجماعة »، ثم إذا وقع شيء من هذه الثلاث فليس لأحد من آحاد الرعية أن يقتله، وإنما ذلك إلى الإمام أو نائبه، وقوله: ﴿إلا خطأ﴾ قالوا: هو استثناء منقطع كقول الشاعر:

من البيض لم تظعن بعيداً ولم تطأ
على الأرض إلا ريبط بردي مرحل

واختلف في سبب نزول هذه، فقال مجاهد: نزلت في (عياش بن أبي ربيعة) وذلك أنه قتل رجلاً يعذبه مع أخيه على الإسلام، وهو (الحارث بن يزيد الغامدي) فأسلم ذلك الرجل وهاجر، وعياش لا يشعر، فلما كان يوم الفتح رآه فظن أنه على دينه فحمل عليه فقتله فأنزله الله هذه الآية. قال ابن أسلم: نزلت في أبي الدرداء لأنه قتل رجلاً وقد قال كلمة الإيمان حين رفع عليه السيف فأهوى به إليه، فقال كلمته، فلما ذكر ذلك للنبي ﷺ، قال: إنما قالها متعوذاً، فقال له: هل شققت عن قلبه؟ وهذه القصة في الصحيح لغير أبي الدرداء.

وقوله تعالى: ﴿ومن قتل مؤمناً خطأ فتحرير رقة مؤمنة. ودية مسلمة إلى أهله﴾، هذان واجبان في قتل الخطأ، أحدهما: الكفارة لما ارتكبه من الذنب العظيم وإن كان خطأ، ومن شروطها أن تكون عتق ﴿رقة مؤمنة﴾ فلا تجزئ الكافرة، وفي موطأ مالك ومسنده الشافعي وأحمد عن عطاء بن يسار عن معاوية بن الحكم: أنه لما جاء بتلك الجارية السوداء، قال لها رسول الله ﷺ: «أين الله»، قالت: في السماء، قال: «من أنا» قالت: رسول الله ﷺ، قال: «أعتقها فإنها مؤمنة». وقوله: ﴿ودية مسلمة إلى أهله﴾ هو الواجب الثاني فيما بين القاتل وأهل القتل عوضاً لهم عما فاتهم من قتلهم، وهذه الدية إنما تجب أخصاً كما رواه أحمد وأهل السنن عن ابن مسعود، قال: قضى رسول الله ﷺ في دية الخطأ (عشرين بنت مخاض، وعشرين بني مخاض ذكوراً، وعشرين بنت لبون، وعشرين جذعة، وعشرين حقة) وإنما تجب على عاقلة القاتل لا في ماله، قال الشافعي رحمه الله: لم أعلم مخالفاً أن رسول الله ﷺ قضى بالدية على العاقلة، وهو أكثر من حديث الخاصة، وهذا الذي أشار إليه رحمه الله قد ثبت في غير ما حديث، فمن ذلك ما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة قال: «اقتلت امرأتان من هذيل، فرمت إحداهما الأخرى بحجر فقتلتها وما في بطنها، فاختموا إلى رسول الله ﷺ فقضى أن دية جنيها غرة عبد أو

أمة، وقضى بدية المرأة على عاقلتها» وهذا يقتضي أن حكم عمد الخطأ حكم الخطأ المحض في وجوب الدية، لكن هذا يجب فيه الدية أثلاثاً لشبهة العمد .

وفي صحيح البخاري عن عبد الله بن عمر، قال: بعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد إلى بني جذيمة، فدعاهم إلى الإسلام، فلم يحسنوا أن يقولوا أسلمنا، فجعلوا يقولون: صبأنا صبأنا، فجعل خالد يقتلهم، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فرفع يديه، وقال: « اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد»، وبعث علياً فودى قتلاهم، وما أتلف من أموالهم حتى ميلغة الكلب، وهذا الحديث يؤخذ منه أن خطأ الإمام أو نائبه يكون في بيت المال، وقوله: ﴿إلا أن يصدقوا﴾ أي فتجب فيه الدية مسلمة إلى أهله إلا أن يتصدقوا بها فلا تجب، وقوله: ﴿فإن كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن فتحريه رقبة مؤمنة﴾ أي إذا كان القاتل مؤمناً، ولكن أولياؤه من الكفار أهل حرب فلا دية لهم وعلى القاتل تحرير رقبة مؤمنة لا غير .

وقوله تعالى: ﴿وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق﴾ الآية أي فإن كان القاتل أولياؤه أهل ذمة أو هدنة فلهم دية قتلهم، فإن كان مؤمناً فدية كاملة وكذا إن كان كافراً أيضاً عند طائفة من العلماء، وقيل: يجب في الكافر نصف دية المسلم، وقيل: ثلثها كما هو مفصل في كتاب الأحكام، ويجب أيضاً على القاتل تحرير رقبة مؤمنة، ﴿فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين﴾ أي لا إفطار بينهما، بل يسرد صومهما إلى آخرهما، فإن أظفر من غير عذر من مرض أو حيض أو نفاس استأنف، واختلفوا في السفر هل يقطع أم لا على قولين، وقوله: ﴿توبة من الله وكان الله عليماً حكيماً﴾ أي هذه توبة القاتل خطأ إذا لم يجد العتق صام شهرين متتابعين. واختلفوا فيمن لا يستطيع الصيام، هل يجب عليه إطعام ستين مسكيناً كما في كفارة الظهار؟ على قولين: أحدهما: نعم، كما هو منصوص عليه في كفارة الظهار، وإنما لم يذكر ههنا لأن هذا مقام تهديد وتخويف وتحذير، فلا يناسب أن يذكر فيه الإطعام لما فيه من التسهيل والترخيص، والقول الثاني: لا يعدل إلى الطعام لأنه لو كان واجباً لما أخر بيانه عن وقت الحاجة، ﴿وكان الله عليماً حكيماً﴾ قد تقدم تفسيره غير مرة، ثم لما بين تعالى حكم القتل الخطأ شرع في بيان حكم القتل العمد، فقال: ﴿ومن يقتل مؤمناً متعمداً﴾ الآية، وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد لمن تعاطى هذا الذنب العظيم الذي هو مقرون بالشرك بالله في غير ما آية في كتاب الله، حيث يقول سبحانه في سورة الفرقان: ﴿والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم أن لا تشركوا به شيئاً﴾ الآية .

والآيات والأحاديث في تحريم القتل كثيرة جداً، فمن ذلك ما ثبت في الصحيحين عن ابن مسعود قال، قال رسول الله ﷺ: «أول ما يقضى بين الناس يوم القيامة في الدماء»، وفي حديث آخر: «لزوال الدنيا أهون عند الله من قتل رجل مسلم»، وفي الحديث الآخر: «لو اجتمع أهل السموات والأرض على قتل رجل مسلم لأكبهم الله في النار»، وفي الحديث الآخر: «من أعان على قتل المسلم ولو بشرط كلمة جاء يوم القيامة مكتوب بين عينيه آيس من رحمة الله»، وقد كان ابن عباس يرى أنه لا توبة لقاتل المؤمن عمداً، وقال البخاري عن المغيرة بن النعمان قال: سمعت ابن جبير قال: اختلف فيها أهل الكوفة فرحلت إلى ابن عباس فسألته عنها فقال: نزلت هذه الآية ﴿ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم﴾ هي آخر ما نزل وما نسخها شيء. وقال في هذه الآية:

﴿والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر﴾ إلى آخرها قال: نزلت في أهل الشرك. وقال ابن جرير عن سعيد بن جبير قال: سألت ابن عباس عن قوله: ﴿ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم﴾ قال: إن الرجل إذا عرف الإسلام وشرائع الإسلام ثم قتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم ولا توبة له فذكرت ذلك لمجاهد فقال: إلا من ندم، وروى سالم بن أبي الجعد قال: كنا عند ابن عباس بعدما كُفَّ بصره فأتاه رجل فناده: يا عبد الله بن عباس ما ترى في رجل قتل مؤمناً متعمداً؟ فقال: جزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذاباً عظيماً، قال: أفرأيت إن تاب وعمل صالحاً ثم اهتدى؟ قال ابن عباس: ثكلته أمه وأنى له التوبة والهدى؟ والذي نفسي بيده لقد سمعت نبيكم ﷺ يقول: «ثكلته أمه قاتل مؤمن متعمداً، جاء يوم القيامة أخذه يمينه أو بشماله تشخب أوداجه من قبل عرش الرحمن، يلزم قاتله بشماله وييده الأخرى رأسه يقول: يا رب سل هذا فيم قتلني»، وAIM الذي نفس عبد الله بيده لقد أنزلت هذه الآية فما نسختها من آية حتى قبض نبيكم ﷺ وما نزل بعدها من برهان^(١). وعن عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ قال: «يجيء المقتول متعلقاً بقاتله يوم القيامة آخذاً رأسه بيده الأخرى، فيقول: يا رب سل هذا فيم قتلني؟ قال، فيقول: قتلته لتكون العزة لك، فيقول: فإنها لي، قال: ويجيء آخر متعلقاً بقاتله، فيقول: رب سل هذا فيم قتلني؟ قال، فيقول: قتلته لتكون العزة لفلان قال: فإنها ليست له بؤ بائمه، قال: فيهوي في النار سبعين خريفاً»^(٢).

(حديث آخر): قال الإمام أحمد عن أبي إدريس، قال: سمعت معاوية رضي الله عنه يقول، سمعت النبي ﷺ يقول: «كل ذنب عسى الله أن يغفره إلا الرجل يموت كافراً، أو الرجل يقتل مؤمناً متعمداً». والذي عليه الجمهور من سلف الأمة وخلفها: أن القاتل له توبة فيما بينه وبين الله عز وجل، فإن تاب وأناب، وخشع وخضع وعمل عملاً صالحاً بدل الله سيئاته حسنات، وعوض المقتول من ظلامته وأرضاه عن ظلامته. قال الله تعالى: ﴿والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر - إلى قوله إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً﴾ الآية، وهذا خبر لا يجوز نسخه وحمله على المشركين وحمل هذه الآية على المؤمنين خلاف الظاهر، ويحتاج حمله إلى دليل، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله﴾ الآية، وهذا عام في جميع الذنوب من كفر وشرك وشك ونفاق وقتل وفسق وغير ذلك، كل من تاب تاب الله عليه، قال الله تعالى: ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾ فهذه الآية عامة في جميع الذنوب ما عدا الشرك وهي مذكورة في هذه السورة الكريمة بعد هذه الآية وقبلها، لتقوية الرجاء والله أعلم. وثبت في الصحيحين خبر الإسرائيلي الذي قتل مائة نفس، ثم سأل عالماً هل لي من توبة فقال: ومن يحول بينك وبين التوبة؟ ثم أرشده إلى بلد يعبد الله فيه، فهاجر إليه فمات في الطريق، فقبضته ملائكة الرحمة كما ذكرناه غير مرة. وإذا كان هذا في بني إسرائيل فلأن يكون في هذه الأمة التوبة مقبولة بطريق الأولى والأخرى، لأن الله وضع عنا الآصار والأغلال التي كانت عليهم، وبعث نبينا بالحنيفية السمحة، فأما الآية الكريمة وهي قوله تعالى: ﴿ومن يقتل مؤمناً متعمداً﴾ الآية، فقد قال أبو هريرة وجماعة من السلف، هذا جزاؤه إن جازاه، وكذا كل وعيد على ذنب لكن قد يكون كذلك

(١) أخرجه ابن جرير عن سالم بن أبي الجعد. (٢) رواه أحمد والنسائي. ومعنى (بؤ) أي ارجع بائمه.

معارض من أعمال صالحة تمنع وصول ذلك الجزاء إليه على قولي أصحاب الموازنة والاحباط، وهذا أحسن ما يسلك في باب الوعيد، والله أعلم بالصواب. وبتقدير دخول القاتل في النار، أما على قول ابن عباس ومن وافقه أنه لا توبة له، أو على قول الجمهور حيث لا عمل له صالحاً ينجو به فليس بمخلد فيها أبداً، بل الخلود هو المكث الطويل، وقد تواترت الأحاديث عن رسول الله ﷺ: « أنه يخرج من النار من كان في قلبه أدنى مثقال ذرة من إيمان »، وأما حديث معاوية: « كل ذنب عسى الله أن يغفره إلا الرجل يموت كافراً، أو الرجل يقتل مؤمناً متعمداً » فعسى للترجي، فإذا انتفى الترجي في هاتين الصورتين لانتفى وقوع ذلك في أحدهما وهو القتل، لما ذكرنا من الأدلة .

وأما من مات كافراً فالنص أن الله لا يغفر له البتة، وأما مطالبة المقتول القاتل يوم القيامة فإنه حق من حقوق الآدميين وهي لا تسقط بالتوبة، ولكن لا بد من ردها إليهم ولا فرق بين المقتول والمسروق منه، والمغضوب منه والمقدوف وسائر حقوق الآدميين، فإن الإجماع منعقد على أنها لا تسقط بالتوبة، ولكنه لا بد من ردها إليهم في صحة التوبة فإن تعذر ذلك فلا بد من المطالبة يوم القيامة، لكن لا يلزم من وقوع المطالبة وقوع المجازاة، إذ قد يكون للقاتل أعمال صالحة تصرف إلى المقتول أو بعضها، ثم يفضل له أجر يدخل به الجنة أو يعرض الله المقتول بما يشاء من فضله من قصور الجنة ونعيمها، ورفع درجته فيها ونحو ذلك والله أعلم .

ثم لقاتل العمد أحكام في الدنيا وأحكام في الآخرة، فأما في الدنيا فتسلط أولياء المقتول عليه، قال الله تعالى: ﴿ ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً ﴾ الآية، ثم هم مخيرون بين أن يقتلوا، أو يعفوا، أو يأخذوا دية مغلظة - أثلاثاً - ثلاثون حقة وثلاثون جذعة وأربعون خلفة، كما هو مقرر في كتاب الأحكام، واختلف الأئمة هل تجب عليه كفارة عتق رقبة، أو صيام شهرين متتابعين أو إطعام على أحد القولين كما تقدم في كفارة الخطأ على قولين، فالشافعي وأصحابه وطائفة من العلماء يقولون: نعم يجب عليه، لأنه إذا وجبت عليه الكفارة في الخطأ فلأن تجب عليه في العمد أولى فطردوا هذا في كفارة اليمين الغموس، وقال أصحاب الإمام أحمد وآخرون: قتل العمد أعظم من أن يكفر فلا كفارة فيه وكذا اليمين الغموس، وقد احتج من ذهب إلى وجوب الكفارة في قتل العمد بما رواه الإمام أحمد عن واثلة بن الأسقع قال: أتى النبي ﷺ نفر من بني سليم فقالوا: إن صاحباً لنا قد أوجب، قال: « فليعتق رقبة يفدي الله بكل عضو منها عضواً منه من النار » .

* يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْفَيْتُمْ إِلَيْكُمْ أَسْلَمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمٌ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنْ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩٤﴾

روى أحمد عن ابن عباس قال: مر رجل من بني سليم بنفر من أصحاب النبي ﷺ يرعى غنماً له فسلم عليهم، فقالوا: لا يسلم علينا إلا ليتعوذ منا، فعمدوا إليه فقتلوه، وأتوا بغنمه النبي ﷺ، فنزلت هذه الآية: ﴿ يا أيها الذين

آمنوا ﴿ إلى آخرها ﴾^(١). وقال البخاري عن عطاء عن ابن عباس ﴿ ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً ﴾ قال: قال ابن عباس: كان رجل في غنيمة له فلحقه المسلمون فقال السلام عليكم فقتلوه وأخذوا غنيمته، فأنزل الله في ذلك: ﴿ ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً ﴾ قال ابن عباس: عرض الدنيا تلك الغنيمة وقرأ ابن عباس ﴿ السلام ﴾، وقال الحافظ أبو بكر البزار عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: بعث رسول الله ﷺ سرية فيها (المقداد بن الأسود) فلما أتوا القوم وجدوهم قد تفرقوا وبقي رجل له مال كثير لم يبرح فقال أشهد أن لا إله إلا الله وأهوى إليه المقداد فقتله فقال له رجل من أصحابه: أقتلت رجلاً شهد أن لا إله إلا الله؟ والله لأذكرن ذلك للنبي ﷺ، فلما قدموا على رسول الله ﷺ قالوا يا رسول الله: إن رجلاً شهد أن لا إله إلا الله فقتله المقداد فقال: « ادعوا لي المقداد، يا مقداد أقتلت رجلاً يقول لا إله إلا الله؟ فكيف لك بلا إله إلا الله غداً؟ » قال: فأنزل الله: ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله فتبينوا ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً تبتغون عرض الحياة الدنيا فعند الله مغانم كثيرة كذلك كنتم من قبل فن الله عليكم فتبينوا ﴾، فقال رسول الله ﷺ للمقداد: « كان رجل مؤمن يخفي إيمانه مع قوم كفار فأظهر إيمانه فقتلته، وكذلك كنت تخفي إيمانك بمكة قبل^(٢) »، وقوله: ﴿ فعند الله مغانم كثيرة ﴾ أي خير مما رغبت فيه من عرض الحياة الدنيا الذي حملكم على قتل مثل هذا الذي ألقى إليكم السلام، وأظهر لكم الإيمان فتغافلتم عنه واتهمته بالمصانعة والتقية لتبتغوا عرض الحياة الدنيا فما عند الله من الرزق الحلال خير لكم من مال هذا.

وقوله تعالى: ﴿ كذلك كنتم من قبل فن الله عليكم ﴾ أي قد كنتم من قبل هذه الحال كهذا الذي يسر إيمانه ويخفيه من قومه كما قال تعالى: ﴿ واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض ﴾ الآية. عن سعيد بن جبير في قوله: ﴿ كذلك كنتم من قبل ﴾ تستخفون بإيمانكم كما استخفى هذا الراعي بإيمانه، وهذا اختيار ابن جرير، وقال ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير قوله: ﴿ كذلك كنتم من قبل ﴾ لم تكونوا مؤمنين، ﴿ فن الله عليكم ﴾ أي تاب عليكم فحلف أسامة لا يقتل رجلاً يقول لا إله إلا الله بعد ذلك الرجل، وما لقي من رسول الله ﷺ فيه، وقوله: ﴿ فتبينوا ﴾ تأكيد لما تقدم، وقوله: ﴿ إن الله كان بما تعملون خبيراً ﴾ قال سعيد بن جبير: هذا تهديد ووعد.

لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَّ اللَّهُ الْحَسَنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٩٦﴾

قال البخاري عن البراء قال: لما نزلت ﴿ لا يستوي القاعدون من المؤمنين ﴾ دعا رسول الله ﷺ زيداً فكتبها، فجاء ابن أم مكتوم فشكا ضرارته، فأنزل الله ﴿ غير أولي الضرر ﴾ وقال البخاري أيضاً عن سهل بن سعد الساعدي: أنه رأى مروان بن الحكم في المسجد قال: فأقبلت حتى جلست إلى جنبه، فأخبرنا أن زيد بن ثابت أخبره أن

(١) رواه أحمد والترمذي والحاكم. (٢) أخرجه الحافظ البزار من حديث ابن عباس.

رسول الله ﷺ أملى عليّ: ﴿ لا يستوي القاعدون من المؤمنين والمجاهدون في سبيل الله ﴾، فجاءه ابن أم مكتوم وهو يملئها عليّ، قال يا رسول الله: والله لو أستطيع الجهاد لجاهدت وكان أعمى، فأنزل الله على رسوله ﷺ وكان فخذته على فخذتي فقلت عليّ حتى خفت أن تُرضَّ فخذتي ثم سري عنه فأنزل الله: ﴿ غير أولي الضرر ﴾. وعن ابن عباس قال: ﴿ لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر ﴾، عن بدر والخارجون إلى بدر، ولما نزلت غزوة بدر قال عبد الله بن جحش وابن أم مكتوم: إنا أعميان يا رسول الله فهل لنا رخصة؟ فنزلت: ﴿ لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر ﴾ وفضل الله المجاهدين على القاعدين درجة فهؤلاء القاعدون غير أولي الضرر ﴿ وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً درجات منه ﴾ على القاعدين من المؤمنين غير أولي الضرر. فقوله: ﴿ لا يستوي القاعدون من المؤمنين ﴾ كان مطلقاً فلما نزل بوحى سريع ﴿ غير أولي الضرر ﴾ صار ذلك مخرجاً لذوي الأعذار المبيحة لترك الجهاد من العمى والعرج والمرض عن مساواتهم للمجاهدين في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم.

ثم أخبر تعالى بفضيلة المجاهدين على القاعدين قال ابن عباس: ﴿ غير أولي الضرر ﴾ وكذا ينبغي أن يكون كما ثبت في صحيح البخاري عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: « إن بالمدينة أقواماً ما سرتهم من مسير ولا قطعتم من واد إلا وهم معكم فيه قالوا: وهم بالمدينة يا رسول الله؟ قال: نعم حبسهم العذر » وفي رواية عن النبي ﷺ قال: « لقد تركتم بالمدينة أقواماً ما سرتهم من مسير ولا أنفقتم من نفقة ولا قطعتم من واد إلا وهم معكم فيه » قالوا: وكيف يكونون معنا فيه يا رسول الله؟ قال: « نعم حبسهم العذر » قال الشاعر في هذا المعنى:

يا راحلين إلى البيت العتيق لقد سرتهم جسوماً وسرنا نحن أرواحاً
إنا أقمنا على عذر وعن قدر ومن أقام على عذر فقد راحاً

وقوله تعالى: ﴿ وكلاً وعد الله الحسنى ﴾ أي الجنة والجزاء الجزيل، وفيه دلالة على أن الجهاد ليس بفرض عين بل هو فرض على الكفاية، قال تعالى: ﴿ وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً ﴾ ثم أخبر سبحانه بما فضلهم به من الدرجات، في غرف الجنات العاليات، ومغفرة الذنوب والزلات، وأحوال الرحمة والبركات، إحساناً منه وتكريماً ولهذا قال: ﴿ درجات منه ومغفرة ورحمة وكان الله غفوراً رحيماً ﴾.

وقد ثبت في الصحيحين عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: « إن في الجنة مائة درجة أعدتها الله للمجاهدين في سبيله، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض ».

إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانَ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَغْفِرَ لَهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا غَفُورًا ﴿٩٩﴾ * وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاعًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى

اللَّهُ وَرَسُولَهُ ثُمَّ يَدْرِكُهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٠٠﴾

عن ابن عباس أن ناساً من المسلمين كانوا مع المشركين، يكثرون سوادهم على عهد رسول الله ﷺ يأتي السهم يرمى به فيصيب أحدهم فيقتله أو يضرب عنقه فيقتل، فأنزل الله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾^(١) وقال ابن أبي حاتم عن عكرمة عن ابن عباس قال: كان قوم من أهل مكة أسلموا وكانوا يستخفون بالإسلام، فأخرجهم المشركون يوم بدر معهم فأصيب بعضهم، قال المسلمون: كان أصحابنا هؤلاء مسلمين وأكرهوا فاستغفروا لهم فترلت ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾ الآية، قال: فكتب إلى من بقي من المسلمين بهذه الآية لا عذر لهم. قال: فخرجوا فلقبهم المشركون فأعطوهم التقية فترلت هذه الآية: ﴿وَمَنْ النَّاسُ مِنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ﴾^(٢) الآية، قال الضحاك: نزلت في ناس من المنافقين تخلفوا عن رسول الله ﷺ بمكة وخرجوا مع المشركين يوم بدر فأصيبوا فيمن أصيب، فترلت هذه الآية الكريمة عامة في كل من أقام بين ظهرائي المشركين وهو قادر على الهجرة وليس متمكناً من إقامة الدين فهو ظالم لنفسه مرتكب حراماً بالإجماع، وبنص هذه الآية حيث يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾ أي بترك الهجرة ﴿قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ﴾ أي لم مكثتم ها هنا وتركتم الهجرة؟ ﴿قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي لا نقدر على الخروج من البلد، ولا الذهاب في الأرض ﴿قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَاسِعَةً﴾ الآية، وقال رسول الله ﷺ: «من جامع المشرك وسكن معه فإنه مثله»^(٣).

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ﴾ إلى آخر الآية، هذا عذر من الله لهؤلاء في ترك الهجرة وذلك أنهم لا يقدرون على التخلص من أيدي المشركين ولو قدروا ما عرفوا يسلكون الطريق، ولهذا قال: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾ قال مجاهد: يعني طريقاً، وقوله تعالى: ﴿فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَغْفِرَ عَنْهُمْ﴾ أي يتجاوز الله عنهم بترك الهجرة، و (عسى) من الله موجبة ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا غَفُورًا﴾ قال البخاري عن أبي هريرة قال: بينا رسول الله ﷺ يصلي العشاء إذ قال: سمع الله لمن حمده؛ ثم قال قبل أن يسجد: «اللهم أنج عياش بن أبي ربيعة، اللهم أنج سلمة بن هشام، اللهم أنج الوليد بن الوليد اللهم أنج المستضعفين من المؤمنين، اللهم اشدد وطأتك على مضر، اللهم اجعلها سنين كسني يوسف»، وقال البخاري عن ابن عباس: ﴿إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ﴾ قال: كنت أنا وأمي ممن عذر الله عز وجل.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مِرَاغِمًا كَثِيرًا وَسِعَةً﴾ وهذا تحريض على الهجرة، وترغيب في مفارقة المشركين وأن المؤمن حينما ذهب وجد عنهم مندوحة وملجأ يتحصن فيه، والمرامم مصدر تقول العرب: راغم فلان قومه مراغماً ومراغمة، قال النابغة ابن جعدة:

كطود يلاذ بأركانها عزيز المراغم والمهرب

وقال ابن عباس: المراغم التحول من أرض إلى أرض، وقال مجاهد: ﴿مِرَاغِمًا كَثِيرًا﴾ يعني: مترحلاً عما يكره، والظاهر والله أعلم أنه المنع الذي يتخلص به ويراعم به الأعداء، قوله: ﴿وَسِعَةً﴾ يعني الرزق قاله غير

(١) رواه البخاري . (٢) أخرجه ابن أبي حاتم . (٣) أخرجه أبو داود في السنن .

واحد منهم قتادة حيث قال في قوله ﴿يجد في الأرض مراغماً كثيراً وسعة﴾: أي من الضلالة إلى الهدى، ومن القلة إلى الغنى .

وقوله تعالى: ﴿ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله﴾ أي ومن يخرج من منزله بنية الهجرة فمات في أثناء الطريق فقد حصل له عند الله ثواب من هاجر كما ثبت في الصحيحين عن عمر بن الخطاب قال، قال رسول الله ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها، أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه»، وهذا عام في الهجرة وفي جميع الأعمال، ومنه الحديث الثابت في الصحيحين في الرجل الذي قتل تسعة وتسعين نفساً، ثم أكمل بذلك العابد المائة ثم سأل عالماً هل له من توبة، فقال له: ومن يحول بينك وبين التوبة؟ ثم أرشده إلى أن يتحول من بلده إلى بلد أخرى يعبد الله فيه، فلما ارتحل من بلده مهاجراً إلى البلد الأخرى أدركه الموت في أثناء الطريق فاخصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فقال هؤلاء: إنه جاء تائباً، وقال هؤلاء: إنه لم يصل بعد، فأمروا أن يقيسوا ما بين الأرضين فإلى أيهما كان أقرب فهو منها، فأمر الله هذه أن تقترب من هذه، وهذه أن تبعد فوجدوه أقرب إلى الأرض التي هاجر إليها بشر، فقبضته ملائكة الرحمة .

قال الإمام أحمد عن عبد الله بن عتيك قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من خرج من بيته مجاهداً في سبيل الله، فخر عن دابته فمات فقد وقع أجره على الله، أو لدغته دابة فمات فقد وقع أجره على الله، أو مات حتف أنفه فقد وقع أجره على الله». وقال ابن أبي حاتم عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: خرج (ضمرة بن جندب) إلى رسول الله ﷺ فمات في الطريق قبل أن يصل إلى رسول الله ﷺ فترت الآية، وقال الحافظ أبو يعلى عن أبي هريرة قال، قال رسول الله ﷺ: «من خرج حاجاً فمات كتب له أجر الحاج إلى يوم القيامة، ومن خرج معتمراً فمات كتب له أجر المعتمر إلى يوم القيامة، ومن خرج غازياً في سبيل الله فمات كتب له أجر الغازي إلى يوم القيامة» .

وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ
الْكَافِرِينَ كَانُوا أَعْدَاؤُكُمْ مُبِينًا ﴿١٠١﴾

يقول تعالى: ﴿وإذا ضربتم في الأرض﴾ أي سافرتم في البلاد كما قال تعالى: ﴿وآخرن يضربون في الأرض﴾. وقوله: ﴿فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة﴾ أي تخففوا فيها إما من كميتها بأن تجعل الرابعة ثنائية كما فهمه الجمهور من هذه الآية، واستدلوا بها على قصر الصلاة في السفر على اختلافهم في ذلك فن قائل لا بد أن يكون سفر طاعة: من جهاد، أو حج، أو عمرة، أو طلب علم، أو زيارة، أو غير ذلك .

ومن قائل لا يشترط سفر القربة، بل لا بد أن يكون مباحاً لقوله: ﴿فن اضطر في مخصصة غير متجانف لإثم﴾ الآية، كما أباح له تناول الميتة مع الاضطرار بشرط أن لا يكون عاصياً بسفره، وهذا قول الشافعي وأحمد

وغيرهما من الأئمة، ومن قائل: يكفي مطلق السفر سواء كان مباحاً أو محظوراً حتى لو خرج لقطع الطريق وإخافة السبيل ترخص لوجود مطلق السفر وهذا قول أبي حنيفة والثوري وداود لعموم الآية وخالفهم الجمهور، وأما قوله تعالى: ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فقد يكون هذا خرج مخرج الغالب حال نزول هذه الآية، فإن في مبدأ الإسلام بعد الهجرة كان غالب أسفارهم مخوفة، بل ما كانوا ينهضون إلا إلى غزو عام، أو في سرية خاصة، وسائر الأحيان حرب للإسلام وأهله، والمنطوق إذا خرج مخرج الغالب أو على حادثة فلا مفهوم له كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكْرَهُوا فِتْيَانَكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أُرِدْنَ تَحَصُّنًا﴾ وكقوله تعالى: ﴿وَرِبَائِبِكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمْ﴾.

وقال الإمام أحمد عن يعلى بن أمية قال: سألت عمر بن الخطاب قلت له قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وقد أمن الناس، فقال لي عمر رضي الله عنه: عجبتم مما عجبتم منه، فسألت رسول الله ﷺ عن ذلك فقال: «صدقة تصدق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته». وعن أبي حنظلة الحذاء قال: سألت ابن عمر عن صلاة السفر فقال: ركعتان، فقلت أين قوله: ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ونحن آمنون، فقال: سنة رسول الله ﷺ^(١). وقال ابن مردويه عن أبي الوداك قال: سألت ابن عمر عن ركعتين في السفر فقال: هي رخصة نزلت من السماء فإن شئتم فردوها. وقال أبو بكر بن أبي شيبة عن ابن عباس قال: صلينا مع رسول الله ﷺ بين مكة والمدينة ونحن آمنون لا نخاف بينهما ركعتين ركعتين. وقال البخاري عن أنس يقول خرجنا مع رسول الله ﷺ من المدينة إلى مكة فكان يصلي ركعتين ركعتين حتى رجعنا إلى المدينة، قلت: أقمتم بمكة شيئاً قال: أقمنا بها عشراً. وقال البخاري عن عبد الله بن عمر قال: صليت مع رسول الله ﷺ ركعتين وأبي بكر وعمر وعثمان صدرأ من إمارته ثم أممها، وحدثنا إبراهيم قال: سمعت عبد الله بن يزيد يقول: صلى بنا عثمان بن عفان رضي الله عنه بمبنى أربع ركعات فقليل في ذلك لعبد الله بن مسعود رضي الله عنه فاسترجع، ثم قال: صليت مع رسول الله ﷺ بمبنى ركعتين وصليت مع أبي بكر بمبنى ركعتين وصليت مع عمر ابن الخطاب بمبنى ركعتين، فليت حظي من أربع ركعات ركعتان متقبلتان^(٢).

فهذه الأحاديث دالة صريحاً على أن القصر ليس من شرطه وجود الخوف ولهذا قال من قال من العلماء إن المراد من القصر ههنا إنما هو قصر الكيفية لا الكمية وهو قول مجاهد والضحاك والسدي كما سيأتي بيانه، واعتضدوا أيضاً بما رواه الإمام مالك عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: فرضت الصلاة ركعتين ركعتين في السفر والحضر فأقرت صلاة السفر؛ وزيد في صلاة الحضر، قالوا: فإذا كان أصل الصلاة في السفر التنتين فكيف يكون المراد بالقصر ههنا قصر الكمية لأن ما هو الأصل لا يقال فيه: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ﴾ وأصرح من ذلك دلالة على هذا ما رواه الإمام أحمد عن عمر رضي الله عنه قال: صلاة السفر ركعتان، وصلاة الأضحى ركعتان، وصلاة الفطر ركعتان، وصلاة الجمعة ركعتان تمام غير قصر على لسان محمد ﷺ، زاد مسلم والنسائي عن عبد الله بن عباس قال: فرض الله الصلاة على لسان نبيكم محمد ﷺ في الحضر أربعاً وفي السفر ركعتين، وفي الخوف ركعة، فكما يصلي في الحضر قبلها وبعدها فكذلك يصلي في السفر. فهذا ثابت عن ابن عباس رضي

(١) أخرجه ابن أبي شيبة . (٢) أخرجه البخاري ومسلم ، واللفظ للبخاري .

الله عنهما، ولا ينافي ما تقدم عن عائشة رضي الله عنها لأنها أخبرت أن أصل الصلاة ركعتان ولكن زيد في صلاة الحضر، فلما استقر ذلك صح أن يقال: إن فرض صلاة الحضر أربع كما قاله ابن عباس والله أعلم لكن اتفق حديث ابن عباس وعائشة على أن صلاة السفر ركعتان وأنها تامة غير مقصورة كما هو مصرح به في حديث عمر رضي الله عنه، وإذا كان كذلك فيكون المراد بقوله تعالى: ﴿فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة﴾ قصر الكيفية كما في صلاة الخوف، ولهذا قال: ﴿إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا﴾ الآية، ولهذا قال بعدها: ﴿وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة﴾ الآية، فبين المقصود من القصر ههنا وذكر صفته وكيفيته ولهذا لما عقد البخاري كتاب صلاة الخوف صدره بقوله تعالى: ﴿وإذا ضربتم في الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة﴾، وقال مجاهد: ﴿فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة﴾ يوم كان النبي ﷺ وأصحابه بعسفان والمشركون بضجنان فتوافقوا فصلى النبي ﷺ بأصحابه صلاة الظهر أربع ركعات بركوعهم، وسجودهم، وقيامهم معاً جميعاً، فهم بهم المشركون أن يغيروا على أمتعتهم وأنقلهم ..

وقال ابن جرير عن أمية بن عبد الله بن خالد بن أسيد أنه قال لعبد الله بن عمر: إنا نجد في كتاب الله قصر (صلاة الخوف) ولا نجد قصر (صلاة المسافر) فقال عبد الله: إنا وجدنا نبينا ﷺ يعمل عملاً عملنا به، فقد سمى صلاة الخوف مقصورة وحمل الآية عليها لا على قصر صلاة المسافر، وأقره ابن عمر على ذلك واحتج على قصر الصلاة بفعل الشارع لا بنص القرآن، وأصرح من هذا ما رواه ابن جرير أيضاً عن سماك الحنفي قال: سألت ابن عمر عن صلاة السفر فقال: ركعتان تمام غير قصر إنما القصر في صلاة المخافة فقلت: وما صلاة المخافة؟ فقال: يصلي الإمام بطائفة ركعة ثم يجيء هؤلاء إلى مكان هؤلاء ويجيء هؤلاء إلى مكان هؤلاء فيصلي بهم ركعة فيكون للإمام ركعتان ولكل طائفة ركعة .

* وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلِيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَذَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِنَتَكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أذىٌ مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرَضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴿١٠٧﴾

صلاة الخوف أنواع كثيرة فإن العدو تارة يكون تجاه القبلة، وتارة يكون في غير صوبها، والصلاة تارة تكون رباعية، وتارة تكون ثلاثية كالغرب، وتارة تكون ثنائية كالصبح وصلاة السفر، ثم تارة يصلون جماعة وتارة يلتحم الحرب فلا يقدر على الجماعة، بل يصلون فرادى مستقبلي القبلة وغير مستقبلها ورجالاً وركباناً، ولهم أن يمشوا والحالة هذه ويضربوا الضرب المتتابع في متن الصلاة. ومن العلماء من قال: يصلون والحالة هذه ركعة واحدة لحديث ابن عباس المتقدم وبه قال أحمد بن حنبل، وقال إسحاق بن راهويه: أما عند المسابقة فيجزيك ركعة واحدة توميء بها إيماء. فإن لم تقدر فسجدة واحدة لأنها ذكر الله. ومن العلماء من أباح تأخير الصلاة لعذر

القتال والمناجزة كما أخرج النبي ﷺ يوم الأحزاب الظهر والعصر فصلهما بعد الغروب، ثم صلى بعدها المغرب ثم العشاء، وكما قال بعدها يوم بني قريظة حين جهز إليهم الجيش لا يصلين أحد منكم العصر إلا في بني قريظة فأدركتهم الصلاة في أثناء الطريق، فقال منهم قائلون: لم يرد منا رسول الله ﷺ إلا تعجيل المسير ولم يرد منا تأخير الصلاة عن وقتها فصلوا الصلاة لوقتها في الطريق، وأخر آخرون منهم صلاة العصر فصلوها في بني قريظة بعد الغروب ولم يعنف رسول الله ﷺ أحداً من الفريقين. وأما الجمهور فقالوا: هذا كله منسوخ بصلاة الخوف فإنها لم تكن نزلت بعد، فلما نزلت نسخ تأخير الصلاة لذلك .

فقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ ﴾ أي إذا صليت بهم إماماً في صلاة الخوف وهذه حالة غير الأولى، فإن تلك قصرها إلى ركعة - كما دل عليه الحديث - فرادى ورجالا وركباناً مستقبلي القبلة وغير مستقبلها، ثم ذكر حال الاجتماع والالتزام بإمام واحد وما أحسن ما استدل به من ذهب إلى وجوب الجماعة من هذه الآية الكريمة حيث اغتفرت أفعال كثيرة لأجل الجماعة فلولا أنها واجبة ما ساغ ذلك وأما من استدل بهذه الآية على أن صلاة الخوف منسوخة بعد النبي ﷺ لقوله: ﴿ وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ ﴾ فبعده تفوت هذه الصفة، فإنه استدلال ضعيف، ويرد عليه مثل قول مانعي الزكاة الذين احتجوا بقوله: ﴿ خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم ﴾ قالوا: فنحن لا ندفع زكاتها بعده ﷺ إلى أحد، بل نخرجها نحن بأيدينا على من نراه، ولا ندفعها إلا إلى من صلاته أي دعاؤه سكن لنا، ومع هذا رد عليهم الصحابة وأبوا عليهم هذا الاستدلال وأجبروهم على أداء الزكاة وقاتلوا من منعها منهم .

ولنذكر سبب نزول هذه الآية الكريمة أولاً قبل ذكر صفتها. قال ابن جرير عن علي رضي الله عنه قال: سألت قوم من بني النجار رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله إنا نضرب في الأرض فكيف نصلي؟ فأنزل الله عز وجل: ﴿ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ ﴾ ثم انقطع الوحي، فلما كان بعد ذلك بحول غزا النبي ﷺ فصلى الظهر، فقال المشركون لقد أمكنكم محمد وأصحابه من ظهورهم هلاً شددتم عليهم؟ فقال قائل منهم: إن لهم أخرى مثلها في أثرها قال: فأنزل الله عز وجل بين الصلاتين ﴿ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ الآيتين فنزلت صلاة الخوف .

وعن أبي عياش الزرقى قال: كنا مع رسول الله ﷺ بعسفان فاستقبلنا المشركون عليهم خالد بن الوليد وهم بيننا وبين القبلة فصلى بنا رسول الله ﷺ الظهر فقالوا: لقد كانوا على حال لو أصبنا غرتهم، ثم قالوا: يأتي عليهم الآن صلاة هي أحب إليهم من أبنائهم وأنفسهم، قال: فنزل جبريل بهذه الآيات بين الظهر والعصر ﴿ وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ ﴾، قال: فحضرت فأمرهم رسول الله ﷺ فأخذوا السلاح قال: فصفنا خلفه صفين قال: ثم ركع فركعنا جميعاً، ثم رفع فرفعنا جميعاً، ثم سجد النبي ﷺ بالصف الذي يليه والآخرون قيام يحرسونهم، فلما سجدوا وقاموا جلس الآخرون فسجدوا في مكانهم، ثم تقدم هؤلاء إلى مصاف هؤلاء ثم هؤلاء إلى مصاف هؤلاء ثم ركع فركعوا جميعاً ثم رفع فرفعوا جميعاً، ثم سجد النبي ﷺ والصف الذي يليه والآخرون قيام يحرسونهم، فلما جلسوا جلس الآخرون فسجدوا، ثم سلم عليهم، ثم انصرف قال: فصلّاها رسول الله ﷺ مرتين مرة

بعسفان، ومرة بأرض بني سليم^(١).

وروى الإمام أحمد عن جابر بن عبد الله قال: قاتل رسول الله ﷺ محارب خصفة، فجاء رجل منهم يقال له (غورث بن الحارث) حتى قام على رسول الله ﷺ بالسيف فقال: من يمنعك مني؟ قال: «الله» فسقط السيف من يده فأخذه رسول الله ﷺ فقال: «ومن يمنعك مني» قال: كن خير آخذ قال: «أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله»؟ قال: لا، ولكن أعاهدك أن لا أقاتلك ولا أكون مع قوم يقاتلونك فخلي سبيله، فقال: جئتكم من عند خير الناس، فلما حضرت الصلاة صلى رسول الله ﷺ صلاة الخوف فكان الناس طائفتين، طائفة بإزاء العدو. وطائفة صلوا مع رسول الله ﷺ فصلى بالطائفة الذين معه ركعتين وانصرفوا فكانوا مكان الطائفة الذين كانوا بإزاء العدو ثم انصرف الذين كانوا بإزاء العدو فصلوا مع رسول الله ﷺ ركعتين فكان لرسول الله ﷺ أربع ركعات وللقوم ركعتين ركعتين^(٢). وأما الأمر بحمل السلاح في صلاة الخوف فمحمول عند طائفة من العلماء على الوجوب لظاهر الآية وهو أحد قولي الشافعي ويدل عليه قول الله تعالى: ﴿ولا جناح عليكم إن كان بكم أذى من مطر أو كنتم مرضى أن تضعوا أسلحتكم وخذوا حذرکم﴾ أي بحيث تكونون على أهبة إذا اجتمعتم إليها لبستموها بلا كلفة ﴿إن الله أعد للكافرين عذاباً مهيناً﴾.

فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَمًا وَقُوعِدًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾ وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْمُونًا فَإِنَّهُمْ يَأْمُونُ كَمَا تَأْمُونُ وَتَرْجُونَ مِنْ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾

يأمر الله تعالى بكثرة الذكر عقب صلاة الخوف وإن كان مشروعاً مرغباً فيه أيضاً بعد غيرها ولكن ها هنا أكد، لما وقع فيها من التخفيف في أركانها، ومن الرخصة في الذهاب فيها والإياب، وغير ذلك مما ليس يوجد في غيرها كما قال تعالى في الأشهر الحرام: ﴿فلا تظلموا فيهن أنفسكم﴾ وإن كان هذا منهياً عنه في غيرها، ولكن فيها أكد لشدة حرمتها وعظمتها، ولهذا قال تعالى: ﴿فإذا قضيت الصلاة فادكروا الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبكم﴾ أي في سائر أحوالكم، ثم قال تعالى: ﴿فإذا اطمانتم فأقيموا الصلاة﴾ أي فإذا أمنتهم وذهب الخوف، وحصلت الطمأنينة ﴿فأقيموا الصلاة﴾ أي فأتومها وأقيموها كما أمرتم بحلودها، وخشوعها، وركوعها، وسجودها، وجميع شئونها. وقوله تعالى: ﴿إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً﴾ قال ابن عباس: أي مفروضاً، وقال ابن مسعود: إن الصلاة وقتاً كوقت الحج، وقال زيد بن أسلم: منجماً كلما مضى نجم جاء نجم، يعني كلما مضى وقت جاء وقت.

وقوله تعالى: ﴿ولا تهنوا في ابتغاء القوم﴾ أي لا تضعفوا في طلب عدوكم، بل جدوا فيهم، وقاتلوهم، واقعدوا لهم كل مرصد ﴿إن تكونوا تألمون فإنهم يألون كما تألمون﴾ أي كما يصيبكم الجراح والقتل كذلك

(١) رواه أحمد وأصحاب السنن. (٢) تفرد به الإمام أحمد.

يحصل لهم كما قال تعالى: ﴿إِنْ يَمْسِكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلَهُ﴾ ثم قال تعالى: ﴿وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ أي أتم وإياهم سواء فيما يصيبكم من الجراح والآلام، ولكن أتم ترجون من الله المثوبة والنصر والتأييد، كما وعدكم إياه في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ وهو وعد حق، وخبر صدق، وهم لا يرجون شيئاً من ذلك، فأنتم أولى بالجهاد منهم وأشد رغبة فيه، وفي إقامة كلمة الله وإعلانها ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً﴾ أي هو أعلم وأحكم فيما يقدره ويقضيه وينفذه ويمضيه من أحكامه الكونية والشرعية وهو المحمود على كل حال .

إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَادَ اللَّهُ وَلَا تَكُنَ لِلْخَائِنِينَ خَصِيماً ﴿١٠٥﴾ وَأَسْتَغْفِرِ اللَّهَ
 إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً ﴿١٠٦﴾ وَلَا تَجِدِ لِعَنِ الَّذِينَ يَحْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّاناً أَثِيماً ﴿١٠٧﴾
 يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا
 يَعْمَلُونَ مُحِيطاً ﴿١٠٨﴾ هَتَأْتُمْ هَتُؤَلَاءَ جَدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجِدِ اللَّهُ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أُمَّةً مِّنْ
 يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿١٠٩﴾

يقول تعالى مخاطباً لرسوله محمد ﷺ: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ أي هو حق من الله وهو يتضمن الحق في خبره وطلبه، وقوله: ﴿لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَادَ اللَّهُ﴾ احتج به من ذهب من علماء الأصول إلى أنه كان ﷺ له أن يحكم بالاجتهاد بهذه الآية وبما ثبت في الصحيحين عن أم سلمة أن رسول الله ﷺ سمع جلبة خصم بباب حجرته فخرج إليهم فقال: «ألا إنما أنا بشر وإنما أقضي بنحو مما أسمع ولعل أحدكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضي له، فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هي قطعة من النار فليحملها أو لينرها». وقال الإمام أحمد عن أم سلمة قالت: جاء رجلان من الأنصار يختصمان إلى رسول الله ﷺ في مواريث بينهما قد درست ليس عندهما بيعة، فقال رسول الله ﷺ: «إنكم تختصمون إليّ وإنما أنا بشر، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض، وإنما أقضي بينكم على نحو مما أسمع، فمن قضيت له من حق أخيه شيئاً فلا يأخذه فإنما أقطع له قطعة من النار يأتي بها انتظاماً في عنقه يوم القيامة» فبكى الرجلان وقال كل منهما: حتى لأخي، فقال رسول الله ﷺ: «أما إذا قلتما فاذهبا فاقتما، ثم توخيا الحق بينكما ثم استهما، ثم ليحلل كل منكما صاحبه» .

وقد روى ابن مردويه عن ابن عباس: أن نفرأ من الأنصار غزوا مع رسول الله ﷺ في بعض غزواته فسرقت درع لأحدهم فأظن بها رجل من الأنصار فأتى صاحب الدرع رسول الله ﷺ فقال: إن (طعمة بن أبيرق) سرق درعي، فلما رأى السارق ذلك عمد إليها فألقاها في بيت رجل برىء، وقال لنفر من عشيرته: إني غيّت الدرع وألقيتها في بيت فلان وستوجد عنده، فانطلقوا إلى نبي الله ﷺ ليلاً فقالوا: يا نبي الله إن صاحبنا برىء وإن صاحب الدرع فلان وقد أحطنا بذلك علماً فاعذر صاحبنا على رؤوس الناس وجادل عنه، فإنه إن لم يعصمه الله بك يهلك، فقام رسول الله ﷺ فبرأه وعذره على رؤوس الناس فأنزل الله: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ

بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيماً ﴿١٠٥﴾، ثم قال تعالى للذين أتوا رسول الله ﷺ مستخفين بالكذب: ﴿١٠٦﴾ يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله ﴿١٠٧﴾ يعني الذين أتوا رسول الله ﷺ مستخفين يجادلون عن الخائنين ثم قال عز وجل: ﴿١٠٨﴾ ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ﴿١٠٩﴾ الآية يعني الذين أتوا رسول الله ﷺ مستخفين بالكذب، ثم قال: ﴿١١٠﴾ ومن يكسب خطيئة أو إثماً ثم يرم به بريئاً فقد احتمل بهتاناً وإثماً مبيناً ﴿١١١﴾ يعني السارق والذين جادلوا عن السارق.

وقد روى هذه القصة الترمذي وابن جرير عن (قتادة بن النعمان) رضي الله عنه قال: كان أهل بيت منا يقال لهم (بنو أبيرق) بشر وبشير ومبشر، وكان بشير رجلاً منافقاً يقول الشعر يهجو به أصحاب رسول الله ﷺ، ثم ينحله لبعض العرب، ثم يقول: قال فلان كذا وكذا، وقال فلان كذا وكذا، فإذا سمع أصحاب رسول الله ﷺ ذلك الشعر قالوا: والله ما يقول هذا الشعر إلا هذا الرجل الخبيث - أو كما قال الرجل - وقالوا: ابن الأبيرق قالها، قالوا: وكانوا أهل بيت حاجة وفاقه في الجاهلية والإسلام، وكان الناس إنما طعامهم بالمدينة التمر والشعير، وكان الرجل إذا كان له يسار فقدمت ضافطة^(١) من الشام من الدرملك^(٢) ابتاع الرجل منها فخص بها نفسه، وأما العيال فإنما طعامهم التمر والشعير فقدمت ضافطة من الشام فابتاع عمي (رفاعة بن زيد) حملاً من الدرملك فجعله في مشربة له، وفي المشربة سلاح ودرع وسيف، فعدي عليه من تحت البيت فنقبت المشربة وأخذ الطعام والسلاح. فلما أصبح أتاني عمي (رفاعة) فقال: يا ابن أخي إنه قد عدي علينا في ليلتنا هذه فنقبت مشربتنا فذهب بطعامنا وسلاحنا، قال فتحسنا في الدار وسألنا فقيل لنا: قد رأينا بني أبيرق استوقدوا في هذه الليلة ولا نرى فيما نرى إلا على بعض طعامكم. قال: وكان بنو أبيرق قالوا - ونحن نسأل في الدار - والله ما نرى صاحبكم إلا (ليبد بن سهل) رجلاً منا له صلاح وإسلام، فلما سمع ليبد اخترط سيفه، وقال: أنا أسرق؟! والله ليخالطنكم هذا السيف، أو لتبين هذه السرقة، قالوا: إليك عنا أيها الرجل فما أنت بصاحبها، فسألنا في الدار حتى لم نشك أنهم أصحابها، فقال لي عمي: يا ابن أخي لو أتيت رسول الله ﷺ فذكرت ذلك له. قال قتادة: فأتيت رسول الله ﷺ فقلت: إن أهل بيت منا أهل جفاء عمدوا إلى عمي رفاعة بن زيد فنقبوا مشربة له، واخذوا سلاحه وطعامه، فليردوا علينا سلاحنا، فأما الطعام فلا حاجة لنا فيه، فقال النبي ﷺ: «سأمر في ذلك»، فلما سمع بذلك (بنو أبيرق) أتوا رجلاً منهم يقال له (أسيد بن عروة) فكلموه في ذلك، فاجتمع في ذلك أناس من أهل الدار، فقالوا: يا رسول الله إن قتادة بن النعمان وعمه عمدوا إلى أهل بيت منا أهل إسلام وصلاح يرمونهم بالسرقة من غير بينة ولا ثبت، قال قتادة: فأتيت النبي ﷺ فكلمته فقال: «عمدت إلى أهل بيت ذكر منهم إسلام وصلاح ترميهم بالسرقة على غير ثبت ولا بينة»، قال: فرجعت ولوددت أني خرجت من بعض مالي ولم أكلم رسول الله ﷺ في ذلك، فأتاني عمي رفاعة فقال: يا ابن أخي ما صنعت؟ فأخبرته بما قال لي رسول الله ﷺ، فقال: الله المستعان، فلم نلبث أن نزل القرآن: ﴿١١٢﴾ إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيماً ﴿١١٣﴾ يعني بني أبيرق ﴿١١٤﴾ واستغفر الله ﴿١١٥﴾ أي مما قلت لقتادة ﴿١١٦﴾ إن الله كان غفوراً رحيماً، ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم - إلى قوله - رحيماً ﴿١١٧﴾ أي لو استغفروا الله لغفر لهم ﴿١١٨﴾ ومن يكسب إثماً فإنما يكسبه على نفسه

(١) المكارون الذين يتقلون التجارة من بلد إلى بلد.

(٢) الدقيق الأبيض.

- إلى قوله - إنما مبيناً ﴿ قوله للبيد: ﴿ ولولا فضل الله عليك ورحمته - إلى قوله - فسوف تؤتبه أجراً عظيماً ﴾ .
فلما نزل القرآن أتى رسول الله ﷺ بالسلاح فرده إلى رفاعه، فقال قتادة: لما أتيت عمي بالسلاح وكان شيخاً قد عمي أو عشي في الجاهلية وكنت أرى إسلامه مدخولاً فلما أتيت به بالسلاح قال: يا ابن أخي هي في سبيل الله فعرفت أن إسلامه كان صحيحاً، فلما نزل القرآن لحق بشير بالمشركين فنزل على (سلافة بنت سعد بن سمية) فأنزل الله تعالى: ﴿ ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيراً، إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالاً بعيداً ﴾ فلما نزل على سلافة بنت سعد هجاها (حسان بن ثابت) بأبيات من شعر فأخذت رحله فوضعت على رأسها ثم خرجت به فرمته في الأبطح، ثم قالت: أهديت لي شعر حسان ما كنت تأتيني بخير^(١) .

وقوله تعالى: ﴿ يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله ﴾ الآية، هذا إنكار على المنافقين في كونهم يستخفون بقبايحهم من الناس لثلاث ينكرون عليهم، ويجاهرون الله بها مع أنه مطلع على سرائرهم وعالم بما في ضمائرهم ولهذا قال: ﴿ وهو معهم إذ يبيتون ما لا يرضى من القول وكان الله بما يعملون محيطاً ﴾ تهديد لهم ووعيد، ثم قال تعالى: ﴿ ها أنتم هؤلاء جادلتم عنهم في الحياة الدنيا ﴾ الآية، أي هب أن هؤلاء انتصروا في الدنيا بما أبلوه أو أبدى لهم عند الحكام الذين يحكمون بالظاهر وهم متعبدون بذلك، فإذا يكون صنيعهم يوم القيامة بين يدي الله تعالى الذي يعلم السر وأخفى؟ ومن ذا الذي يتوكل لهم يومئذ يوم القيامة في ترويج دعواهم؟ أي لا أحد يومئذ يكون لهم وكيلاً، ولهذا قال: ﴿ أم من يكون عليهم وكيلاً ﴾ ..؟

وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١١٠﴾ وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾ وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرِمْ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا ﴿١١٢﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّت طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾

يخبر تعالى عن كرمه وجوده أن كل من تاب إليه تاب عليه من أي ذنب كان ﴿ ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً ﴾ قال ابن عباس: أخبر الله عباده بعفوه وحلمه وكرمه، وسعة رحمته، ومغفرته، فمن أذنب ذنباً صغيراً كان أو كبيراً ﴿ ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً ﴾ ولو كانت ذنوبه أعظم من السموات والأرض والجبال^(٢) . وقال ابن جرير قال عبد الله: كان بنو إسرائيل إذا أصاب أحدهم ذنباً أصبح

(٢) أخرجه ابن جرير عن ابن عباس .

(١) رواه الترمذي وابن جرير من حديث قتادة بن النعمان .

قد كتب كفارة ذلك الذنب على بابه، وإذا أصاب البول منه شيئاً قرضه بالمقراض، فقال رجل: لقد أتى الله بني إسرائيل خيراً، فقال عبد الله رضي الله عنه: ما آتاكم الله خيراً مما آتاهم جعل الماء لكم طهوراً، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾ وقال: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُوراً رَحِيماً﴾ . وقال علي رضي الله عنه: كنت إذا سمعت من رسول الله ﷺ شيئاً نفعتني الله فيه بما شاء أن ينفعني منه، وحدثني أبو بكر وصدق أبو بكر قال: قال رسول الله ﷺ: « ما من مسلم يذنب ذنباً ثم يتوضأ ثم يصلي ركعتين ثم يستغفر الله لذلك الذنب إلا غفر له » وقرأ هاتين الآيتين: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ﴾ الآية، ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾^(١) الآية .

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْماً فَإِنَّمَا يَكْسِبْهُ عَلَى نَفْسِهِ﴾ الآية، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ الآية، يعني أنه لا يعني أحد عن أحد، وإنما على كل نفس ما عملت لا يحمل عنها غيرها، ولهذا قال تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً﴾ أي من علمه وحكمته، وعدله ورحمته كان ذلك، ثم قال: ﴿وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْماً ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيثاً﴾ الآية يعني كما اتهم بنو أبيرق: بصنيعهم القبيح ذلك الرجل الصالح وهو لبيد بن سهل كما تقدم في الحديث، أو زيد بن السمين اليهودي على ما قاله الآخرون وقد كان بريئاً وهم الظلمة الخونة كما أطلع الله على ذلك رسوله ﷺ؛ ثم هذا التفرع وهذا التوبيخ عام فيهم وفي غيرهم ممن اتصف بصفتهم فارتكب مثل خطيئتهم فعليه مثل عقوبتهم. وقوله: ﴿وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضْلَوْكَ وَما يُضْلَوْنَ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ وَما يَضْرُونَكَ مِنْ شَيْءٍ﴾ وقال الإمام ابن أبي حاتم عن قتادة بن النعمان وذكر قصة بني أبيرق فأنزل الله: ﴿لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضْلَوْكَ وَما يَضْلَوْنَ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ وَما يَضْرُونَكَ مِنْ شَيْءٍ﴾ يعني أسيد بن عروة وأصحابه يعني بذلك لما أثنوا على بني أبيرق ولأموا قتادة بن النعمان في كونه اتهمهم وهم صلحاء برآء ولم يكن الأمر كما أنهو إلى رسول الله ﷺ، ولهذا أنزل الله فصل القضية وجلاءها لرسول الله ﷺ ثم امتن عليه بتأييده إياه في جميع الأحوال؛ وعصمته له؛ وما أنزل عليه من الكتاب وهو القرآن والحكمة؛ وهي السنة ﴿وعلمك ما لم تكن تعلم﴾ أي قبل نزول ذلك عليك كقوله: ﴿وَكذلك أَوْحينا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرنا ما كُنْتَ تَدْرِي ما الْكتابُ﴾ إلى آخر السورة؛ وقال تعالى: ﴿وَما كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يَلْقَى إِلَيْكَ الْكتابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ ولهذا قال: ﴿وَكانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً﴾ .

* لَأَخَيْرِ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً ﴿١١٤﴾ وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصَلِّهِ ۗ جَهَنَّمَ سَاءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾

يقول تعالى: ﴿ لا خير في كثير من نجواهم ﴾ يعني كلام الناس ﴿ إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس ﴾ أي إلا نجوى من قال ذلك كما جاء في الحديث الذي رواه ابن مردويه عن أم حبيبة قالت: قال رسول الله ﷺ: « كلام ابن آدم كله عليه لا له إلا ذكر الله عز وجل؛ أو أمر بمعروف؛ أو نهي عن منكر »، وفي الحديث: « ليس الكذاب الذي يصلح بين الناس فيمني خيراً؛ أو يقول خيراً »، وقال الإمام أحمد عن أبي الدرداء قال، قال رسول الله ﷺ: « ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام، والصلاة، والصدقة » قالوا بلى يا رسول الله قال: « إصلاح ذات البين » قال: « وفساد ذات البين هي الحالقة » ورواه أبو داود والترمذي، ﴿ ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضات الله ﴾ أي مخلصاً في ذلك محتسباً ثواب ذلك عند الله عز وجل ﴿ فسوف نؤتيه أجراً عظيماً ﴾ أي ثواباً جزيلاً كثيراً واسعاً .

وقوله تعالى: ﴿ ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ﴾ أي ومن سلك غير طريق الشريعة التي جاء بها الرسول ﷺ فصار في شق، والشرع في شق وذلك عن عمد منه، بعدما ظهر له الحق وتبين له واتضح له، وقوله: ﴿ ويتبع غير سبيل المؤمنين ﴾ هذا ملازم للصفة الأولى، ولكن قد تكون المخالفة لنص الشارع وقد تكون لما اجتمعت عليه الأمة المحمدية، فيما علم اتفاهم عليه تحقيقاً، فإنه قد ضمنت لهم العصمة في اجتماعهم من الخطأ، تشريفاً لهم وتعظيماً لنبيهم، وقد وردت أحاديث صحيحة كثيرة في ذلك. ومن العلماء من ادعى تواتر معناها، والذي عول عليه الشافعي رحمه الله في الاحتجاج على كون الإجماع حجة تحرم مخالفته هذه الآية الكريمة بعد التروي والفكر الطويل، وهو من أحسن الاستنباطات وأقواها وإن كان بعضهم قد استشكل ذلك فاستبعد الدلالة منها على ذلك ولهذا توعده تعالى على ذلك بقوله: ﴿ نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيراً ﴾ أي إذا سلك هذه الطريق جازيناه على ذلك بأن نحسنها في صدره ونزينها له استدراجاً له كما قال تعالى: ﴿ فذرني ومن يكذب بهذا الحديث سنستدرجهم من حيث لا يعلمون ﴾. وقال تعالى: ﴿ فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم ﴾ وقوله: ﴿ ونذرهم في غيظانهم يعمهون ﴾ وجعل النار مصيره في الآخرة لأن من خرج عن الهدى لم يكن له طريق إلا إلى النار يوم القيامة كما قال تعالى: ﴿ احشروا الذين ظلموا وأزواجهم ﴾ الآية وقال تعالى: ﴿ ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها ولم يحولوا عنها مصرفاً ﴾ .

إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ ۖ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ۗ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلًّا عَظِيمًا ۚ

﴿ ١١٦ ﴾ إِنَّ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ ۖ إِلَّا إِنْتَنَا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا الشَّيْطَانَ مَرِيدًا ﴿ ١١٧ ﴾ لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا ﴿ ١١٨ ﴾ وَلَا ضِلَّتْهُمْ وَلَا مَنِينَهُمْ وَلَا مَرْنَهُمْ فَلْيُبْتِئَنَّ ۖ إِذْ أَنْ الْأَنْعَامِ وَلَا مَرْنَهُمْ فَلْيَغْيِرَنَّ خَلْقَ اللَّهِ ۚ وَمَنْ يَخْتِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا ﴿ ١١٩ ﴾ يَعِدُّهُمْ وَيُمْنِيهِمْ ۗ وَمَا يَعِدُّهُمْ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿ ١٢٠ ﴾ أُولَٰئِكَ مَاؤُهُمْ جَهَنَّمَ لَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿ ١٢١ ﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ

جَنَّتْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾

قد تقدم الكلام على هذه الآية الكريمة وهي قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ﴾ الآية، وذكرنا ما يتعلق بها من الأحاديث في صدر هذه السورة وقد روى الترمذي عن علي رضي الله عنه أنه قال: ما في القرآن آية أحب إلي من هذه الآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ الآية. وقوله: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ أي فقد سلك غير الطريق الحق وضل عن الهدى وبعد عن الصواب وأهلك نفسه، وخسرها في الدنيا والآخرة، وفاتته سعادة الدنيا والآخرة وقوله: ﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَانًا﴾، عن عائشة قالت: أوثاناً، وقال ابن جرير عن الضحاك في الآية قال المشركون للملائكة: بنات الله، وإنما نعبدهم ليقربونا إلى الله زلفى، قال: فاتخذوهن أرباباً وصوروهن جوارى فحكوا وقلدوا، وقالوا: هؤلاء يشبهن بنات الله الذي نعبده يعنون الملائكة وهذا التفسير شبيه بقول الله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ﴾ وقال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَانًا﴾، وقال: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نِجَابًا﴾ وقال ابن عباس: ﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَانًا﴾ قال: يعني موتى، وقال الحسن: الإناث كل شيء ميت ليس فيه روح، إما خشبة يابسة، وإما حجر يابس، وقوله: ﴿وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا﴾ أي هو الذي أمرهم بذلك وحسنه وزينه لهم وهم إنما يعبدون إبليس في نفس الأمر كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾ الآية، وقال تعالى إخباراً عن الملائكة أنهم يقولون يوم القيامة عن المشركين الذين ادعوا عبادتهم في الدنيا ﴿بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرَهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ﴾ وقوله: ﴿لَعْنَةُ اللَّهِ﴾ أي طرده وأبعده من رحمته، وأخرجه من جواره وقال: ﴿لَا تَتَّخِذْ مِنْ عَبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا﴾ أي معيناً مقدراً معلوماً، قال قتادة من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار، وواحد إلى الجنة ﴿وَلَأَضْلِلَنَّهُمْ﴾ أي عن الحق ﴿وَلَأَمْنِيَنَّهُمْ﴾ أي أزين لهم ترك التوبة، وأعدهم الأمانى، وأمرهم بالتسوية والتأخير، وأغرهم من أنفسهم. قوله: ﴿وَلَأَمْرَنَهُمْ فَلْيَتَّكِنَنَّ أَذَانَ الْأَنْعَامِ﴾ قال قتادة: يعني تشويقها وجعلها سمة، وعلامة للبحيرة والسائبة والوصيلة ﴿وَلَأَمْرَنَهُمْ فَلْيَغْيِرْنَ خَلْقَ اللَّهِ﴾ قال ابن عباس: يعني بذلك حصي الدواب، وقال الحسن البصري: يعني بذلك الوشم، وفي صحيح مسلم النهي عن الوشم في الوجه، وفي لفظ، لعن الله من فعل ذلك. وفي الصحيح عن ابن مسعود أنه قال: لعن الله الواشمات والمستوشمات، والنامصات والمتنصات^(١)، والمتفلجات^(٢) للحسن المغيرات خلق الله عز وجل، ثم قال: ألا لعن من لعن رسول الله ﷺ وهو في كتاب الله عز وجل يعني قوله: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾.

وقال ابن عباس في رواية عنه ومجاهد والضحاك في قوله: ﴿وَلَأَمْرَنَهُمْ فَلْيَغْيِرْنَ خَلْقَ اللَّهِ﴾ يعني دين الله عز وجل وهذا كقوله: ﴿فَأَقْمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ على قول من جعل ذلك أمراً أي لا تبدلوا فطرة الله ودعوا الناس على فطرتهم كما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة

(١) النامصات: ناتفات الزغب والشعر من الوجه، والمتنصات: اللواتي ينتف الشعر من وجوههن.

(٢) المتفلجات: اللواتي يبردن أطراف أسنانهن للتجميل.

قال، قال رسول الله ﷺ: « كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجسانه كما تولد البهيمة بهيمة جمعاء هل تجدون بها من جدعاء؟ وفي صحيح مسلم عن عياض بن حماد قال، قال رسول الله ﷺ: « قال الله عز وجل: إني خلقت عبادي حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالهم^(٣) عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحلت لهم » ثم قال تعالى: ﴿ ومن يتخذ الشيطان ولياً من دون الله فقد خسر خسراناً مبيناً ﴾ أي فقد خسر الدنيا والآخرة وتلك خسارة لا جبر لها ولا استدراك لفائتها .

وقوله تعالى: ﴿ يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً ﴾ وهذا إخبار عن الواقع فإن الشيطان يعد أولياءه ويمنيهم بأنهم هم الفائزون في الدنيا والآخرة، وقد كذب واقتربى في ذلك، ولهذا قال الله تعالى: ﴿ وما يعدهم الشيطان إلا غروراً ﴾، كما قال تعالى مخبراً عن إبليس يوم المعاد: ﴿ وقال الشيطان لما قضي الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لي عليكم من سلطان - إلى قوله - وإن الظالمين لهم عذاب أليم ﴾. وقوله: ﴿ أولئك ﴾ أي المستحسنون له فيما وعدهم ومناهم ﴿ مأواهم جهنم ﴾ أي مصيرهم ومآلهم يوم القيامة ﴿ ولا يجدون عنها محيصاً ﴾ أي ليس لهم عنها مندوحة ولا مصرف، ولا خلاص، ولا مناص، ثم ذكر تعالى حال السعداء والأتقياء وما لهم من الكرامة التامة فقال تعالى: ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ أي صدقت قلوبهم وعملت جوارحهم بما أمروا به من الخيرات، وتركوا ما نهوا عنه من المنكرات ﴿ سندخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار ﴾ أي بصرفونها حيث شاءوا وأين شاءوا ﴿ خالدين فيها أبداً ﴾ أي بلا زوال ولا انتقال ﴿ وعد الله حقاً ﴾ أي هذا وعد من الله ووعد الله معلوم حقيقة أنه واقع لا محالة، ولهذا أكده بالمصدر الدال على تحقيق الخبر وهو قوله ﴿ حقاً ﴾ ثم قال تعالى: ﴿ ومن أصدق من الله قيلاً ﴾؟ أي لا أحد أصدق منه قولاً أي خبراً لا إله إلا هو ولا رب سواه وكان رسول الله ﷺ يقول في خطبته: « إن أصدق الحديث كلام الله، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار » .

لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا
 (١٢٣) وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظَلُّونَ نَقِيرًا (١٢٤)
 وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا (١٢٥) وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا (١٢٦)

قال قتادة: ذكر لنا أن المسلمين وأهل الكتاب افتخروا، فقال أهل الكتاب: نبينا قبل نبيكم وكتابنا قبل كتابكم فنحن أولى بالله منكم، وقال المسلمون: نحن أولى بالله منكم ونبينا خاتم النبيين، وكتابنا يقضي على الكتب التي كانت قبله فأنزل الله: ﴿ ليس بأمانيتكم ولا أمانى أهل الكتاب من يعمل سوءاً يُجْزَ بِهِ ﴾ ﴿ ومن أحسن ديناً

من أسلم وجهه لله وهو محسن ﴿ الآية، ثم أفلح الله حجة المسلمين على من ناوأهم من أهل الأديان. وكذا روي عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: في هذه الآية تخاصم أهل الأديان، فقال أهل التوراة: كتابنا خير الكتب، ونبينا خير الأنبياء، وقال أهل الإنجيل: مثل ذلك، وقال أهل الإسلام: لا دين إلا الإسلام، وكتابنا نسخ كل كتاب؛ ونبينا خاتم النبيين، وأمرتم وأمرنا أن تؤمن بكتابكم ونعمل بكتابنا ففرض الله بينهم وقال: ﴿ ليس بأمانيتكم ولا أماني أهل الكتاب من يعمل سوءاً يجز به ﴾ الآية؛ وخير بين الأديان فقال: ﴿ ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن ﴾ إلى قوله: ﴿ واتخذ الله إبراهيم خليلاً ﴾ وقال مجاهد: قالت العرب لن نبعث ولن نعذب؛ وقالت اليهود والنصارى: ﴿ لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى ﴾ وقالوا: ﴿ لن تمسنا النار إلا أياماً معدودات ﴾ والمعنى في هذه الآية أن الدين ليس بالتحلي ولا بالتمني؛ ولكن ما وقر في القلوب وصدقته الأعمال، وليس كل من ادعى شيئاً حصل له بمجرد دعواه، ولا كل من قال إنه هو على الحق سمع قوله بمجرد ذلك حتى يكون له من الله برهان؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ ليس بأمانيتكم ولا أماني أهل الكتاب من يعمل سوءاً يجز به ﴾ أي ليس لكم ولا لهم النجاة بمجرد التمني؟ بل العبرة بطاعة الله سبحانه واتباع ما شرعه على السنة الرسل الكرام؛ ولهذا قال بعده: ﴿ من يعمل سوءاً يجز به ﴾، كقوله: ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره؛ ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴾.

وقد روي أن هذه الآية لما نزلت شق ذلك على كثير من الصحابة، قال الإمام أحمد بسنده أخبرت أن أبا بكر رضي الله عنه قال: يا رسول الله كيف الفلاح بعد هذه الآية: ﴿ ليس بأمانيتكم ولا أماني أهل الكتاب من يعمل سوءاً يجز به ﴾ فكل سوء عملناه جزينا به! فقال النبي ﷺ: « غفر الله لك يا أبا بكر أأنت تمرض؟ أأنت تنصب؟ أأنت تصيبك اللأواء؟ قال: بلى، قال: « فهو مما تجزون به ». وروى أبو بكر بن مردويه عن أبي بكر الصديق قال: كنت عند النبي ﷺ فنزلت هذه الآية: ﴿ من يعمل سوءاً يجز به ولا يجد له من دون الله ولياً ولا نصيراً ﴾ فقال رسول الله ﷺ: « يا أبا بكر ألا أقرئك آية أنزلت عليّ » قلت: بلى يا رسول الله قال: فأقرئها فلا أعلم أي قد وجدت انفضاماً في ظهري حتى تمطيت لها، فقال رسول الله ﷺ: « ما لك يا أبا بكر؟ » قلت: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، وأبنا لم يعمل السوء، وإنا لمجزيون بكل سوء عملناه؟ فقال رسول الله ﷺ: « أما أنت يا أبا بكر وأصحابك المؤمنون فإنكم تجزون بذلك في الدنيا حتى تلقوا الله ليس لكم ذنوب، وأما الآخرون فيجمع ذلك لهم حتى يجزوا به يوم القيامة ». وقال ابن جرير: لما نزلت هذه الآية قال أبو بكر: جاءت قاصمة الظهر فقال رسول الله ﷺ: « إنما هي المصيبات في الدنيا ». (حديث آخر): قال سعيد بن منصور عن عائشة: أن رجلاً تلا هذه الآية: ﴿ من يعمل سوءاً يجز به ﴾ فقال: إنا لنجزى بكل ما عملناه هلكتنا إذاً فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: « نعم يجزى به المؤمن في الدنيا في نفسه في جسده فيما يؤذيه ».

(طريق أخرى): قال ابن أبي حاتم عن عائشة قالت، قلت يا رسول الله إني لأعلم أشد آية في القرآن فقال: « ما هي يا عائشة؟ قلت: ﴿ من يعمل سوءاً يجز به ﴾ فقال: « هو ما يصيب العبد المؤمن حتى النكبة ينكبها ». وعن علي بن زيد عن ابنته سألت عائشة عن هذه الآية: ﴿ من يعمل سوءاً يجز به ﴾ فقالت: ما سألتني أحد عن هذه الآية منذ سألت عنها رسول الله ﷺ سألت رسول الله ﷺ فقال: « يا عائشة هذه مبايعة الله للعبد مما يصيبه من الحمى والنكبة والشوكة حتى البضاعة فيضعها في كفه فيفزع لها فيجدها في جيبه حتى إن المؤمن ليخرج

من ذنوبه كما أن الذهب يخرج من الكير» (١).

(حديث آخر): قال سعيد بن منصور عن محمد بن قيس بن مخزوم: أن أبا هريرة رضي الله عنه قال لما نزلت ﴿من يعمل سوءاً يجز به﴾ شق ذلك على المسلمين فقال لهم رسول الله ﷺ: ﴿سددوا وقاربوا فإن في كل ما يصاب به المسلم كفارة حتى الشوكة يشاكها والنكبة ينكبها﴾ وهكذا رواه أحمد ورواه ابن جرير عن عبد الله بن إبراهيم سمعت أبا هريرة يقول: لما نزلت هذه الآية: ﴿ليس بأمانيتكم ولا أمانى أهل الكتاب من يعمل سوءاً يجز به﴾ بكينا وحزنا وقلنا يا رسول الله: ما أبقت هذه الأمة من شيء قال: «أما والذي نفسي بيده إنها لكما أنزلت ولكن ابشروا وقاربوا وسددوا فإنه لا يصيب أحداً منكم مصيبة في الدنيا إلا كفر الله بها من خطيئته حتى الشوكة يشاكها أحدكم في قدمه». (حديث آخر): روى ابن مردويه عن ابن عباس قال: قيل يا رسول الله ﴿من يعمل سوءاً يجز به﴾ قال: «نعم ومن يعمل حسنة يجز بها عشرها» فهلك من غلب واحدته عشراته. وقال ابن جرير عن الحسن ﴿من يعمل سوءاً يجز به﴾ قال: الكافر ثم قرأ: ﴿وهل نجازي إلا الكفور﴾، وقوله: ﴿ولا يجد له من دون الله ولياً ولا نصيراً﴾ قال ابن عباس: إلا أن يتوب فيتوب الله عليه رواه ابن أبي حاتم. والصحيح أن ذلك عام في جميع الأعمال لما تقدم من الأحاديث وهذا اختيار ابن جرير والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن﴾ الآية. لما ذكر الجزاء على السيئات وأنه لا بد أن يأخذ مستحقها من العبد إما في الدنيا وهو الأجود له، وإما في الآخرة والعياذ بالله من ذلك؛ ونسأله العافية في الدنيا والآخرة، والصفح والعتو والمسامحة، شرع في بيان إحسانه وكرمه ورحمته في قبول الأعمال الصالحة من عباده، ذكرانهم وإنائهم بشرط الإيمان، وأنه سيدخلهم الجنة ولا يظلمهم من حسناتهم ولا مقدار النقيير، وهو النقرة التي في ظهر نواة التمرة، وقد تقدم الكلام على الفيتيل، وهو الخيط الذي في شق النواة، وهذا النقيير وهما في نواة التمرة والقطمير وهو اللفافة التي على نواة التمرة، والثلاثة في القرآن. ثم قال تعالى: ﴿ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله﴾؟ أي أخلص العمل لربه عز وجل فعلم إيماناً واحتساباً ﴿وهو محسن﴾ أي اتبع في عمله ما شرعه الله له وما أرسل به رسوله من الهدى ودين الحق، وهذان الشرطان لا يصح عمل عامل بدونهما أي يكون (خالصاً صواباً) والخالص أن يكون لله، والصواب أن يكون متابعاً للشرعة فيصح ظاهره بالمطابقة، وباطنه بالإخلاص فمتى فقد العمل أحد هذين الشرطين فسد، فمن فقد الإخلاص كان منافقاً وهم الذين يراؤون الناس، ومن فقد المطابقة كان ضالاً جاهلاً، ومتى جمعتهما كان عمل المؤمنين ﴿الذين يتقبل عنهم أحسن ما عملوا ويتجاوز عن سيئاتهم﴾، ولهذا قال تعالى: ﴿واتبع ملة إبراهيم حنيفاً﴾ وهم محمد وأتباعه إلى يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي﴾ الآية. وقال تعالى: ﴿ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين﴾ والحنيف هو المائل عن الشرك قصداً أي تاركاً له عن بصيرة ومقبل على الحق بكليته لا يصد عنه صاد، ولا يرد عنه راد.

وقوله تعالى: ﴿واتخذ الله إبراهيم خليلاً﴾ وهذا من باب الترغيب في اتباعه، لأنه إمام يقتدى به حيث وصل

(١) رواه أبو داود الطيالسي.

إلى غاية ما يتقرب به العباد له فإنه انتهى إلى درجة الخلة التي هي أرفع مقامات المحبة، وما ذاك إلا لكثرة طاعته لربه كما وصفه به في قوله: ﴿ وإبراهيم الذي وفى ﴾ قال كثير من علماء السلف: أي قام بجميع ما أمر به، وفى كل مقام من مقامات العبادة، فكان لا يشغله أمر جليل عن حقير، ولا كبير عن صغير، وقال تعالى: ﴿ وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فاتمهن ﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿ إن إبراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفاً ولم يك من المشركين ﴾ الآية، وقال البخاري عن عمرو بن ميمون قال: إن معاذاً لما قدم اليمن صلى بهم الصبح فقراً: ﴿ واتخذ الله إبراهيم خليلاً ﴾ فقال رجل من القوم: لقد قرئت عين أم إبراهيم. وإنما سمي خليل الله لشدة محبته لربه عز وجل لما قام له به من الطاعة التي يحبها ويرضاها، ولهذا ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ لما خطبهم في آخر خطبة خطبها قال: « أما بعد أيها الناس فلو كنت متخذاً من أهل الأرض خليلاً لاتخذت أبا بكر بن أبي قحافة خليلاً ولكن صاحبكم خليل الله » .

وروى أبو بكر بن مردويه عن عكرمة عن ابن عباس قال: جلس ناس من أصحاب رسول الله ﷺ ينتظرونه فخرج حتى إذا دنا منهم سمعهم يتذاكرون فسمع حديثهم وإذا بعضهم يقول: عجب إن الله اتخذ من خلقه خليلاً فأبراهيم خليله، وقال آخر: ماذا بأعجب من أن الله كلم موسى تكليماً، وقال آخر: فعيسى روح الله وكلمته، وقال آخر: آدم اصطفاه الله، فخرج عليهم فسلم وقال: « قد سمعت كلامكم وتعجبكم إن إبراهيم خليل الله وهو كذلك، وموسى كلمه، وعيسى روحه وكلمته، وآدم اصطفاه الله، وهو كذلك، وكذلك محمد ﷺ قال: ألا وإني حبيب الله ولا فخر، وأنا أول شافع وأول مشفع ولا فخر، وأنا أول من يحرك حلقة الجنة فيفتح الله ويدخلنيها، ومعني فقراء المؤمنين ولا فخر، وأنا أكرم الأولين والآخرين يوم القيامة ولا فخر ». وهذا حديث غريب ولبعضه شواهد في الصحاح وغيرها .

وعن إسحاق بن يسار قال: لما اتخذ الله إبراهيم خليلاً ألقى في قلبه الوجع حتى ان خفقان قلبه ليسمع من بعيد كما يسمع خفقان الطير في الهواء، وهكذا جاء في صفة رسول الله ﷺ أنه كان يسمع لصدره أزيز كأزيز المرجل إذا اشتد غليانها من البكاء وقوله: ﴿ ولله ما في السموات وما في الأرض ﴾ أي الجميع ملكه وعبيده وخلقته، وهو المتصرف في جميع ذلك، لا راد لما قضى، ولا معقب لما حكم، ولا يسأل عما يفعل لعظمته وقدرته وعدله وحكمته ولطفه ورحمته وقوله: ﴿ وكان الله بكل شيء محيطاً ﴾ أي علمه نافذ في جميع ذلك لا تخفى عليه خافية من عباده، ولا يعزب عن علمه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، ولا تخفى عليه ذرة لما تراءى للناظرين وما توارى .

وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتِمَّىٰ النِّسَاءِ الَّتِي لَا تُوْتُوهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَىٰ بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ

خَيْرٌ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيماً ﴿١٢٧﴾

روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها: ﴿ويستفتونك في النساء قل الله يفتيكم فيهن - إلى قوله - وترغبون أن تنكحوهن﴾ قالت عائشة: هو الرجل تكون عنده اليتيمة هو وليها ووارثها فأشركته في ماله حتى في العدق، فيرغب أن ينكحها ويكره أن يزوجه رجلاً فيشركه في ماله بما شركته فيعضلها، فنزلت هذه الآية، وقال ابن أبي حاتم عن ابن شهاب أخبرني عروة بن الزبير قالت عائشة: ثم إن الناس استفتوا رسول الله ﷺ بعد هذه الآية فيهن، فأنزل الله: ﴿ويستفتونك في النساء قل الله يفتيكم فيهن وما يتلى عليكم في الكتاب﴾ الآية، قالت: والذي ذكر الله أنه يتلى عليه في الكتاب، الآية الأولى التي قال الله: ﴿وإن خفتن أن لا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء﴾ وبهذا الإسناد عن عائشة قالت: وقول الله عز وجل: ﴿وترغبون أن تنكحوهن﴾ رغبة أحدكم عن يتيمته التي تكون في حجره، حين تكون قليلة المال والجمال، فنها أن ينكحوا من رغبوا في مالها وجمالها من يتامى النساء إلا بالقسط، من أجل رغبتهن عنهن. والمقصود أن الرجل إذا كان في حجره يتيمة يحل له تزويجها فتارة يرغب في أن يتزوجها فأمره الله أن يمهرها أسوة أمثالها من النساء، فإن لم يفعل فليعدل إلى غيرها من النساء فقد وسع الله عز وجل، وهذا المعنى في الآية الأولى التي في أول السورة، وتارة لا يكون له فيها رغبة لدمامتها عنده أو في نفس الأمر فنهاه الله عز وجل أن يعضلها عن الأزواج، خشية أن يشركه في ماله الذي بينه وبينها، كما قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في الآية، وهي قوله: ﴿في يتامى النساء﴾، كان الرجل في الجاهلية تكون عنده اليتيمة فيلتي عليها ثوبه، فإذا فعل ذلك لم يقدر أحد أن يتزوجها أبداً، فإن كانت جميلة وهويها تزوجها وأكل مالها، وإن كانت دميمة منعها الرجال أبداً حتى تموت، فإذا ماتت ورثها، فحرم الله ذلك ونهى عنه.

وقال ابن عباس: ﴿والمستضعفين من الولدان﴾ كانوا في الجاهلية لا يرثون الصغار ولا البنات، وذلك قوله: ﴿لا تتوذهن ما كتب لهن﴾ فهي الله عن ذلك وبين لكل ذي سهم سهمه فقال: ﴿للكر مثل حظ الأنثيين﴾ صغيراً أو كبيراً، وقال سعيد بن جبير: ﴿وأن تقوموا لليتامى بالقسط﴾ كما إذا كانت ذات جمال ومال نكحتها واستأثرت بها، كذلك إذا لم تكن ذات مال ولا جمال فأنكحها واستأثرت بها. وقوله: ﴿وما تفعلوا من خير فإن الله كان به عليماً﴾ تهيئاً على فعل الخيرات وامثالاً للأوامر، وأن الله عز وجل عالم بجميع ذلك، وسيجزي عليه أوفر الجزاء وأتمه.

* وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنِ مُحْسِنُونَ وَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾ وَلَنْ نَسْتَبِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ فَتَدْرُواهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِنِ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٢٩﴾ وَإِنِ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلاًَّ مِنْ سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَسِيعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾

يقول تعالى مخبراً ومشرعاً من حال الزوجين تارة في حال نفور الرجل عن المرأة، وتارة في حال اتفاقه معها، وتارة في حال فراقه لها، **فالحالة الأولى:** ما إذا خافت المرأة من زوجها أن ينفر عنها أو يعرض عنها، فلها أن تسقط عنه حقها أو بعضه من نفقة أو كسوة أو مبيت أو غير ذلك من حقوقها عليه، وله أن يقبل ذلك منها فلا حرج عليها في بذلها ذلك له، ولا عليه في قبوله منها، ولهذا قال تعالى: ﴿فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحاً﴾. ثم قال: ﴿والصلح خير﴾ أي من الفراق، وقوله: ﴿وأحضرت الأنفس الشح﴾: أي الصلح عند المشاحة خير من الفراق، ولهذا لما كبرت (سودة بنت زمعة) عزم رسول الله ﷺ على فراقها، فصالحته على أن يمسكها وترك يومها لعائشة، فقبل ذلك منها وأبقاها على ذلك. (ذكر الرواية بذلك): عن عكرمة عن ابن عباس قال: خشيت سودة أن يطلقها رسول الله ﷺ فقالت يا رسول الله: لا تطلقني واجعل يومي لعائشة، ففعل ونزلت هذه الآية: ﴿وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضاً فلا جناح عليهما﴾ الآية. قال ابن عباس: فما اصطالحا عليه من شيء فهو جائز^(١). وفي الصحيحين عن عائشة قالت: لما كبرت سودة بنت زمعة وهبت يومها لعائشة فكان النبي ﷺ يقسم لها بيوم سودة. وعن عروة عن عائشة، أنها قالت له يا ابن أخي: كان رسول الله ﷺ لا يفضل بعضاً على بعض في مكثه عندنا، وكان قلَّ يوم إلا وهو يطوف علينا فيدنو من كل امرأة من غير ميسس، حتى يبلغ إلى من هو يومها فيبيت عندها، ولقد قالت سودة بنت زمعة حين أسنت، وفرقت أن يفارقها رسول الله ﷺ يا رسول الله يومي هذا لعائشة، فقبل ذلك رسول الله ﷺ. قالت عائشة، ففي ذلك أنزل الله: ﴿وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضاً﴾^(٢).

وروى ابن جريز عن عائشة: ﴿وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضاً فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحاً والصلح خير﴾ قالت: هذا في المرأة تكون عند الرجل، فلعله لا يكون بمستكثر منها، ولا يكون لها ولد، ويكون لها صحبة فتقول: لا تطلقني وأنت في حل من شأني، وفي رواية أخرى عن عائشة: هو الرجل له المرأتان إحداهما قد كبرت والأخرى دميمة وهو لا يستكثر منها فتقول: لا تطلقني وأنت في حل من شأني. وعن ابن سيرين قال: جاء رجل إلى عمر بن الخطاب فسأله عن آية فكرهه فضره بالدره، فسأله آخر عن هذه الآية: ﴿وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضاً﴾ ثم قال مثل هذا فاسألوا، ثم قال: هذه المرأة تكون عند الرجل قد خلا من سنهافيتزوج المرأة الشابة يلتمس ولدها، فما اصطالحا عليه من شيء فهو جائز. وقال ابن أبي حاتم عن خالد بن عرعة قال: جاء رجل إلى علي بن أبي طالب فسأله عن قول الله عز وجل: ﴿وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضاً فلا جناح عليهما﴾ قال علي: يكون الرجل عنده المرأة فتنبو عيناه عنها من دمامتها، أو كبرها، أو سوء خلقها، أو قذذها فتكره فراقه، فإن وضعت له من مهرها شيئاً حل له، وإن جعلت له من أيامها فلا حرج.

وقال الحافظ أبو بكر البيهقي عن الزهري أخبرني سعيد بن المسيب وسليمان بن يسار: أن السنة في هاتين الآيتين اللتين ذكر الله فيهما نشوز الرجل وإعراضه عن امرأته في قوله: ﴿وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضاً﴾

(١) أخرجه الطيالسي والترمذي وقال: حسن غريب. (٢) رواه الحاكم وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

إلى تمام الآيتين، أن المرء إذا نشز عن امرأته وآثر عليها، فإن من الحق أن يعرض عليها أن يطلقها أو تستقر عنده على ما كانت من أثره في القسم من ماله ونفسه، صلح له ذلك وكان صلحها عليه، كذلك ذكر (سعيد بن المسيب) و(سليمان) الصلح الذي قال الله عز وجل: ﴿فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحاً والصلح خير﴾ وقد ذكر لي أن رافع بن خديج الأنصاري - وكان من أصحاب النبي ﷺ - كانت عنده امرأة حتى إذا كبرت تزوج عليها فتاة شابة وآثر عليها الشابة، فناشدته الطلاق فطلقها تطليقة، ثم أمهلها حتى إذا كادت تحل راجعها، ثم عاد فأثر عليها الشابة فناشدته الطلاق، فقال لها: ما شئت إنما بقيت لك تطليقة واحدة، فإن شئت استقرت على ما ترين من الأثرة وإن شئت فارقتك، فقالت: لا بل أستقر على الأثرة، فأمسكها على ذلك فكان ذلك صلحهما، ولم ير رافع عليه إثمًا حين رضيت أن تستقر عنده على الأثرة فيما آثر به عليها^(١).

وقوله تعالى: ﴿والصلح خير﴾ قال ابن عباس: يعني التخيير، وهذه هي الحالة الثانية: أن يخبر الزوج لها بين الإقامة والفراق خير من تمادي الزوج على أثره غيرها عليها، والظاهر من الآية أن صلحهما على ترك بعض حقها للزوج وقبول الزوج ذلك خير من المفارقة بالكلية، كما أمسك النبي ﷺ (سودة بنت زمعة) على أن تركت يومها لعائشة رضي الله عنها، ولم يفارقها بل تركها من جملة نسائه، وفعله ذلك لتأسى به أمته في مشروعية ذلك وجوازه، فهو أفضل في حقه عليه الصلاة والسلام، ولما كان الوفاق أحب إلى الله من الفراق قال: ﴿والصلح خير﴾، بل الطلاق بغيبض إليه سبحانه وتعالى، ولهذا جاء في الحديث الذي رواه أبو داود وابن ماجه عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «أبغض الحلال إلى الله الطلاق».

وقوله تعالى: ﴿وإن تحسنوا وتتقوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً﴾، وإن تتجشموا مشقة الصبر على ما تكرهون منهن، وتقسما لهن أسوة أمثالهن فإن الله عالم بذلك وسيجزىكم على ذلك أوفر الجزاء، وقوله تعالى: ﴿ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم﴾ أي لن تستطيعوا أيها الناس أن تساووا بين النساء من جميع الوجوه، فإنه وإن وقع القسم الصوري ليلة وليلة فلا بد من التفاوت في المحبة والشهوة والجماع كما قاله ابن عباس ومجاهد والضحاك. وجاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد وأهل السنن عن عبد الله بن يزيد عن عائشة، قالت: كان رسول الله ﷺ يقسم بين نسائه فيعدل، ثم يقول: «اللهم هذا قسمي فيما أملك فلا تلمني فيما تملك ولا أملك»، يعني القلب. وقوله: ﴿فلا تميلوا كل الميل﴾ أي فإذا ملتم إلى واحدة منهن فلا تبالغوا في الميل بالكلية ﴿فتدروها كالمعلقة﴾ أي فتبقى هذه الأخرى معلقة، قال ابن عباس وآخرون: معناه لا ذات زوج ولا مطلقة؛ وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من كانت له امرأتان فال إلى إحداها جاء يوم القيامة وأحد شقيه ساقط»^(٢).

وقوله تعالى: ﴿وإن تصلحوا وتتقوا فإن الله كان غفوراً رحيماً﴾ أي وإن أصلحتم في أموركم، وقسمتم بالعدل فيما تملكون، واتيتم الله في جميع الأحوال غفر الله لكم ما كان من ميل إلى بعض النساء دون بعض، ثم قال تعالى: ﴿وإن يتفرقا يغن الله كلاً من سعته وكان الله واسعاً حكيماً﴾ وهذه هي الحالة الثالثة: وهي حالة الفراق: وقد أخبر الله تعالى أنهما إذا تفرقا فإن الله يغنيها عنها ويغنيها عنه، بأن يعوضه الله من هو خير له منها ويعوضها

(٢) رواه أحمد وأصحاب السنن.

(١) أخرجه البيهقي وابن أبي حاتم.

عنه بمن هو خير لها منه، ﴿وكان الله واسعاً حكيماً﴾ أي واسع الفضل عظيم المن حكماً في جميع أفعاله وأقداره وشرعه.

وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾ مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾

يخبر تعالى أنه مالك السموات والأرض وأنه الحاكم فيهما ولهذا قال: ﴿ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم﴾ أي وصيناكم بما وصيناهم به من تقوى الله عز وجل بعبادته وحده لا شريك له، ثم قال: ﴿وإن تكفروا فإن لله ما في السموات وما في الأرض﴾ الآية، كما قال تعالى إخباراً عن موسى أنه قال لقومه: ﴿إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعاً فإن الله لغني حميد﴾، وقال: ﴿فكفروا وتولوا واستغنى الله والله غني حميد﴾ أي غني عن عباده، ﴿حميد﴾ أي محمود في جميع ما يقدره ويشعره، وقوله: ﴿ولله ما في السموات وما في الأرض وكفى بالله وكيلاً﴾ أي هو القائم على كل نفس بما كسبت، الرقيب الشهيد على كل شيء، وقوله: ﴿إن يشأ يذهبكم أيها الناس ويأت بآخرين وكان الله على ذلك قديراً﴾ أي هو قادر على إذهابكم وتبديلكم بغيركم إذا عصيتموه، كما قال: ﴿وإن تولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم﴾ قال بعض السلف: ما أهون العباد على الله إذا أضاعوا أمره!! وقال تعالى: ﴿إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد﴾ وما ذلك على الله بعزيز ﴿أي وما هو عليه بمتنع﴾.

وقوله تعالى: ﴿من كان يريد ثواب الدنيا فعند الله ثواب الدنيا والآخرة﴾ أي يا من ليس له همة إلا الدنيا اعلم أن عند الله ثواب الدنيا والآخرة، وإذا سأله من هذه وهذه أعطاك وأغناك وأقناك، كما قال تعالى: ﴿فمن الناس من يقول ربنا آتنا في الدنيا وما له في الآخرة من خلاق﴾. وقال تعالى: ﴿من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد﴾ الآية. وقوله: ﴿فعند الله ثواب الدنيا والآخرة﴾ ظاهر في حصول الخير في الدنيا والآخرة، أي بيده هذا وهذا، فلا يقتصرن قاصر الهمة على السعي للدنيا فقط، بل لتكن همته سامية إلى نيل المطالب العالية في الدنيا والآخرة، فإن مرجع ذلك كله إلى الذي بيده الضر والنفع، وهو الله الذي لا إله إلا هو، الذي قد قسم السعادة والشقاوة بين الناس في الدنيا والآخرة، وعدل بينهم فيما علمه فيهم ممن يستحق هذا، ومن يستحق هذا، ولهذا قال: ﴿وكان الله سميعاً بصيراً﴾.

* يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوْمِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلَوُّوا أَوْ تَعَرَّضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾

يأمر تعالى عباده المؤمنين أن يكونوا قوامين بالقسط أي بالعدل فلا يعدلوا عنه يمينا ولا شمالاً، ولا تأخذهم في الله لومة لائم، ولا يصرفهم عنه صارف، وأن يكونوا متعاونين متساعدين متعاضدين متناصرين فيه. وقوله: ﴿شهداء لله﴾ كما قال: ﴿وأقيموا الشهادة لله﴾ أي أدوها ابتغاء وجه الله، فحينئذ تكون صحيحة عادلة حقاً، خالية من التحريف والتبديل والكتبان، ولهذا قال: ﴿ولو على أنفسكم﴾ أي اشهد الحق ولو عاد ضررها عليك، وإذا سئلت عن الأمر فقل الحق فيه ولو عادت مضرتك عليك، فإن الله سيجعل لمن أطاعه فرجاً ومخرجاً من كل أمر يضيق عليه، وقوله: ﴿أو الوالدين والأقربين﴾ أي وإن كانت الشهادة على والديك وقرابتك فلا تراعهم فيها، بل اشهد الحق وإن عاد ضررها عليهم فإن الحق حاكم على كل أحد، وقوله: ﴿إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما﴾ أي لا ترعاه لغنا ولا تشفق عليه لفقره، الله يتولاهما، بل هو أولى بهما منك وأعلم بما فيه صلاحهما. وقوله: ﴿فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا﴾ أي فلا يحملنكم الهوى والعصية وبغض الناس إليكم على ترك العدل في أموركم وشئونكم، بل الزموا العدل على أي حال كان، كما قال تعالى: ﴿ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى﴾، ومن هذا قول (عبد الله بن رواحة) لما بعثه النبي ﷺ يحرص على أهل خير ثمارهم وزروعهم، فأرادوا أن يرشوه ليرفق بهم فقال: والله لقد جئتكم من عند أحب الخلق إليّ ولأتم أبغض إلي من أعدادكم من القردة والخنازير وما يحملني حيي إياه، وبغضي لكم على أن لا أعدل فيكم، فقالوا: بهذا قامت السموات والأرض .

وقوله تعالى: ﴿وإن تلوا أو تعرضوا﴾، قال مجاهد: تلوا أي تحرفوا الشهادة وتغيروها، والي: هو التحريف وتعمد الكذب. قال تعالى: ﴿وإن منهم لفريقاً يلوون ألسنتهم بالكتاب﴾ الآية، والإعراض: هو كتمان الشهادة وتركها. قال تعالى: ﴿ومن يكتنها فإنه آثم قلبه﴾، وقال النبي ﷺ: «خير الشهداء الذي يأتي بالشهادة قبل أن يسألها»، ولهذا توعدهم الله بقوله: ﴿فإن الله كان بما تعملون خبيراً﴾ أي وسيجازيكم بذلك .

يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ءَ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ ءَ وَالَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ ءَ وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ ءَ وَكُتُبِهِ ءَ وَرُسُلِهِ ءَ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾

يأمر تعالى عباده المؤمنين بالدخول في جميع شرائع الإيمان وشعبه وأركانه ودعائمه، وليس هذا من باب تحصيل الحاصل، بل من باب تكميل الكامل وتقريره وتثبيتته والاستمرار عليه، كما يقول المؤمن في كل صلاة ﴿إهدنا الصراط المستقيم﴾ أي بصّرنا وزدنا هدى، وثبتنا عليه، فأمرهم بالإيمان به وبرسوله، كما قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله﴾، وقوله: ﴿والكتاب الذي نزل على رسوله﴾ يعني القرآن ﴿والكتاب الذي أنزل من قبل﴾ وهذا جنس يشمل جميع الكتب المتقدمة، وقال في القرآن ﴿نزل﴾ لأنه نزل مفرقاً منجماً على الوقائع بحسب ما يحتاج إليه العباد في معاشهم ومعادهم، وأما الكتب المتقدمة فكانت تنزل جملة واحدة، لهذا قال تعالى: ﴿والكتاب الذي أنزل من قبل﴾، ثم قال تعالى: ﴿ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالاً بعيداً﴾، أي فقد خرج عن طريق الهدى، وبعد عن القصد كل البعد .

* إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ءَزَادُوا كُفْرًا لَّيْكُنَ اللَّهُ لِيُغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيُهْدِيَهُمْ سَبِيلًا ﴿١٣٧﴾ بَشَرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ؕ أَيَتَّبِعُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكَ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ؕ إِنَّكُمْ إِذَا مَثَلْتُمْ أَنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾

يخبر تعالى عن دخل في الإيمان ثم رجع عنه، ثم عاد فيه، ثم رجع واستمر على ضلاله وازداد حتى مات، فإنه لا توبة بعد موته، ولا يغفر الله له، ولا يجعل له مما هو فيه فرجاً ولا مخرجاً ولا طريقاً إلى الهدى، ولهذا قال: ﴿لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلاً﴾ قال ابن أبي حاتم عن ابن عباس، في قوله تعالى: ﴿ثم ازدادوا كفراً﴾ قال: تمادوا على كفرهم حتى ماتوا. وعن علي رضي الله عنه أنه قال: يستتاب المرتد ثلاثاً، ثم تلا هذه الآية: ﴿إن الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفراً لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلاً﴾، ثم قال: ﴿بشر المنافقين بأن لهم عذاباً أليماً﴾، يعني أن المنافقين من هذه الصفة فإنهم آمنوا ثم كفروا، فطبع على قلوبهم، ثم وصفهم بأنهم يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين، بمعنى أنهم معهم في الحقيقة يوالونهم ويسرون إليهم بالمودة، ويقولون لهم إذا خلوا بهم ﴿إنما نحن معكم إنما نحن مستهزون﴾ أي بالمؤمنين في إظهارنا لهم الموافقة. قال الله تعالى منكرأ عليهم فيما سلكوه من موالات الكافرين ﴿أيتبعون عندهم العزة﴾؟ ثم أخبر الله تعالى بأن العزة كلها له وحده لا شريك له ولن جعلها له كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿من كان يريد العزة فلله العزة جميعاً﴾ وقال تعالى: ﴿ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون﴾، والمقصود من هذا التهيج على طلب العزة من جناب الله، والإقبال على عبوديته والانتظام في جملة عباده المؤمنين، الذين لهم النصرة في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد.

وقوله تعالى: ﴿وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذا مثلهم﴾، أي إنكم إذا ارتكبتم النهي بعد وصوله إليكم، ورضيتم بالجلوس معهم في المكان الذي يكفر فيه بآيات الله ويستهزأ وينتقص بها، وأقررتموهم على ذلك فقد شاركتموهم في الذي هم فيه. فلماذا قال تعالى: ﴿إنكم إذا مثلهم﴾ في المآثم كما جاء في الحديث: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يجلس على مائدة يدار عليها الخمر»، والذي أحيل عليه في هذه الآية من النهي في ذلك، هو قوله تعالى في سورة الأنعام وهي مكية: ﴿وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم﴾ الآية. قال مقاتل بن حيان: نسخت هذه الآية التي في سورة الأنعام، يعني نسخ قوله: ﴿إنكم إذا مثلهم﴾، لقوله: ﴿وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء ولكن ذكري لهم ليتقون﴾، وقوله: ﴿إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعاً﴾، أي كما أشركوهم في الكفر، كذلك يشارك الله بينهم في الخلود في نار جهنم أبداً، ويجمع بينهم في دار العقوبة والنكال والقيود والأغلال وشراب الحميم والغسلين.

الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ بُكْرًا فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعُكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾

يخبر تعالى عن المنافقين أنهم يتربصون بالمؤمنين دوائر السوء، بمعنى ينتظرون زوال دولتهم وظهور الكفرة عليهم وذهاب ملتهم، ﴿فإن كان لكم فتح من الله﴾ أي نصر وتأييد وظفر وغنيمة: ﴿قالوا ألم نكن معكم﴾؟ أي يتوددون إلى المؤمنين بهذه المقالة، ﴿وإن كان للكافرين نصيب﴾: أي إدالة على المؤمنين في بعض الأحيان كما وقع يوم أحد، فإن الرسل تبتلى ثم يكون لها العاقبة، ﴿قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين﴾؟ أي ساعدناكم في الباطن وما ألوناهم خيالاً وتخديلاً حتى انتصرتهم عليهم، وقال السدي: نستحوذ عليكم: نغلب عليكم، كقوله: ﴿استحوذ عليهم الشيطان﴾، وهذا أيضاً تودد منهم إليهم، فإنهم كانوا يصانعون هؤلاء وهؤلاء ليحظوا عندهم ويأمنوا كيدهم، وما ذاك إلا لضعف إيمانهم وقلة إيقانهم. قال تعالى: ﴿فإن الله يحكم بينكم يوم القيامة﴾ أي بما يعلمه منكم أيها المنافقون من البواطن الرديئة، فلا تغتروا بجريان الأحكام الشرعية عليكم ظاهراً في الحياة الدنيا، لما له في ذلك من الحكمة، فيوم القيامة لا تنفعكم ظواهركم، بل هو يوم تبلى فيه السرائر ويحصل ما في الصدور.

وقوله تعالى: ﴿ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً﴾. جاء رجل إلى علي بن أبي طالب فقال: كيف هذه الآية ﴿ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً﴾؟ فقال علي رضي الله عنه: ادنه ادنه ﴿فإن الله يحكم بينكم يوم القيامة ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً﴾ قال ذلك يوم القيامة، وكذا روى السدي: يعني يوم القيامة، وقال السدي ﴿سبيلاً﴾ أي حجة، ويحتمل أن يكون المعنى: ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً أي في الدنيا، بأن يسلطوا عليهم استيلاء استتصال بالكلية، وإن حصل لهم ظفر في بعض الأحيان على بعض الناس، فإن العاقبة للمتقين في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا﴾ الآية، وعلى هذا يكون رداً على المنافقين فيما أملوه ورجوه وانتظروه من زوال دولة المؤمنين، وفيما سلكوه من مصانعتهم الكافرين خوفاً على أنفسهم منهم، إذا هم ظهروا على المؤمنين فاستأصلوهم، كما قال تعالى: ﴿فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم - إلى قوله - نادمين﴾، وقد استدل كثير من العلماء بهذه الآية الكريمة على أصح قول العلماء وهو المنع من بيع (العبد المسلم) للكافرين لما في صحة ابتياعه من التسليط له عليه والإذلال، ومن قال منهم بالصحة يأمره بإزالة ملكه عنه في الحال، لقوله تعالى: ﴿ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً﴾.

إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِيعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ مُذَبِّبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَن يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾

قد تقدم في أول سورة البقرة قوله تعالى: ﴿يخادعون الله والذين آمنوا﴾، وقال ههنا: ﴿إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم﴾ ولا شك أن الله لا يخادع، فإنه العالم بالسرائر والضمائر، ولكن المنافقين لجهلهم وقلة علمهم وعقلهم، يعتقدون أن أمرهم - كما راج عند الناس وجرت عليهم أحكام الشريعة ظاهراً - فكذلك يكون حكمهم عند الله يوم القيامة، وأن أمرهم يروج عنده، كما أخبر تعالى عنهم أنهم يوم القيامة يحلفون له أنهم كانوا على الاستقامة والسداد، ويعتقدون أن ذلك نافع لهم عنده، كما قال تعالى: ﴿يوم يبعثهم الله جميعاً فيحلفون له كما يحلفون لكم﴾ الآية، وقوله: ﴿وهو خادعهم﴾ أي هو الذي يستدرجهم في طغيانهم وضلالهم ويخدلهم عن الحق والوصول إليه في الدنيا، وكذلك يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم - إلى قوله - وبئس المصير﴾، وقد ورد في الحديث: «من سَمِعَ سمع الله به، ومن راي راي الله به»، وفي الحديث الآخر: «إن الله يأمر بالعبء إلى الجنة فيما يبدو للناس ويعدل به إلى النار» عياداً بالله من ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى﴾ الآية، هذه صفة المنافقين في أشرف الأعمال وأفضلها وخيرها، وهي (الصلاة) إذا قاموا إليها قاموا وهم كسالى عنها، لأنهم لا نية لهم فيها ولا إيمان لهم بها ولا خشية، ولا يعقلون معناها كما روى ابن مردويه عن ابن عباس قال: يكره أن يقوم الرجل إلى الصلاة وهو كسلان ولكن يقوم إليها طلق الوجه، عظم الرغبة شديد الفرح، فإنه يناجي الله، وإن الله تجاهه يغفر له ويحييه إذا دعاه، ثم يتلو هذه الآية: ﴿وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى﴾، فقوله تعالى: ﴿وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى﴾ هذه صفة ظواهرهم كما قال: ﴿ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى﴾، ثم ذكر تعالى صفة بواطنهم الفاسدة، فقال: ﴿يراءون الناس﴾ أي لا إخلاص لهم ولا معاملة مع الله، بل إنما يشهدون الناس تقية لهم ومصانعة، ولهذا يتخلفون كثيراً عن الصلاة التي لا يرون فيها غالباً ك (صلاة العشاء) في وقت العتمة، و (صلاة الصبح) في وقت الغلس، كما ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «أثقل الصلاة على المنافقين صلاة العشاء وصلاة الفجر، ولو يعلمون ما فيهما لأتوهما ولو حبواً، ولقد هممت أن أمر بالصلاة فتقام ثم أمر رجلاً فيصلي بالناس، ثم انطلق معي برجال ومعهم حزم من حطب إلى قوم لا يشهدون الصلاة فأحرق عليهم بيوتهم بالنار». وفي رواية: «والذي نفسي بيده لو علم أحدهم أنه يجد عِرْقاً سمياً أو مرمتين حسنتين لشهد الصلاة، ولولا ما في البيوت من النساء والذرية لحرقت عليهم بيوتهم بالنار». وقال الحافظ أبو يعلى عن عبد الله قال، قال رسول الله ﷺ: «من أحسن الصلاة حيث يراه الناس، وأساءها حيث يخلو، فتلك استهانة استهان بها ربه عز وجل»؛ وقوله: ﴿ولا يذكرون الله إلا قليلاً﴾ أي في صلاتهم لا يخشعون ولا يدرون ما يقولون، بل هم في صلاتهم ساهون لاهون، وعماد يراد بهم من الخير معرضون. وقد روى الإمام مالك عن أنس بن مالك قال، قال رسول الله ﷺ: «تلك صلاة المنافق، تلك صلاة المنافق، تلك صلاة المنافق: يجلس يرقب الشمس حتى إذا كانت بين قرني الشيطان قام فنقر أربعاً لا يذكر الله فيها إلا قليلاً».

وقوله تعالى: ﴿مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء﴾ يعني المنافقين محيرين بين الإيمان والكفر فلا هم مع المؤمنين ظاهراً وباطناً ولا مع الكافرين ظاهراً وباطناً، بل ظواهرهم مع المؤمنين وبواطنهم مع الكافرين، ومنهم من يعتره الشك فتارة يميل إلى هؤلاء وتارة يميل إلى أولئك، ﴿كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم

قاموا ﴿﴾، وقال مجاهد ﴿﴾ مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ﴿﴾ يعني أصحاب محمد ﷺ، ﴿﴾ ولا إلى هؤلاء ﴿﴾ يعني اليهود، وقال رسول الله ﷺ: «مثل المنافق كمثل الشاة العائرة بين الغنمين»^(١).

وقال ابن جرير عن قتادة ﴿﴾ مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ﴿﴾ يقول: ليسوا بمؤمنين مخلصين، ولا مشركين مصرحين بالشرك، قال: وذكر لنا أن نبي الله ﷺ كان يضرب مثلاً للمؤمن وللمنافق وللكافر كمثل رهط ثلاثة دفعوا إلى نهر فوقع المؤمن فقطع، ثم وقع المنافق حتى إذا كاد يصل إلى المؤمن ناداه الكافر: أن هلم إلي فإني أخشى عليك، وناداه المؤمن: أن هلم إلي فإن عندي وعندني يحصي له ما عنده، فما زال المنافق يتردد بينهما حتى أتى عليه الماء ففرقه، وإن المنافق لم يزل في شك وشبهة حتى أتى عليه الموت وهو كذلك، قال: وذكر لنا أن نبي الله ﷺ كان يقول: «مثل المنافق كمثل ثاغية بين غنمين رأت غنماً على نشر فأتتها وشامتها فلم تعرف، ثم رأت غنماً على نشر فأتتها فشامتها فلم تعرف»، ولهذا قال تعالى: ﴿﴾ ومن يضل الله فلن تجد له سبيلاً ﴿﴾ أي ومن صرفه عن طريق الهدى ﴿﴾ فلن تجد له ولياً مرشداً ﴿﴾، فانه ﴿﴾ من يضل الله فلا هادي له ﴿﴾، والمنافقون الذين أضلهم عن سبيل النجاة فلا هادي لهم، ولا متقد لهم مما هم فيه، فإنه تعالى لا معقب لحكمه ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون.

يَتَأَيُّبَ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَتَّخِذُوا الْكٰفِرِيْنَ اَوْلِيَآءَ مِنْ دُوْنِ الْمُؤْمِنِيْنَ اَتْرِيْدُوْنَ اَنْ تَجْعَلُوْا لِلّٰهِ عَلَيْكُمْ سُلْطٰنًا مُّبِيْنًا ﴿١٤٤﴾ اِنَّ الْمُنٰفِقِيْنَ فِي الدَّرِكِ الْاَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ يَّجِدَ لَهُمْ نَصِيْرًا ﴿١٤٥﴾ اِلَّا الَّذِيْنَ تَابُوْا وَاَصْلَحُوْا وَاَعْتَصَمُوْا بِاللّٰهِ وَاَخْلَصُوْا دِيْنَهُمْ لِلّٰهِ فَاُولٰٓئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِيْنَ وَسَوْفَ يُؤْتِي اللّٰهُ الْمُؤْمِنِيْنَ اَجْرًا عَظِيْمًا ﴿١٤٦﴾ مَا يَفْعَلُ اللّٰهُ بِعَدٰبِكُمْ اِنْ شَكَرْتُمْ وَاٰمَنْتُمْ وَاَنَّ اللّٰهَ شَاكِرٌ عَلِيْمٌ ﴿١٤٧﴾

ينهى الله تعالى عباده المؤمنين عن اتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين، يعني مصاحبتهم ومصادقتهم، ومناصحتهم وإسرار المودة إليهم، وإفشاء أحوال المؤمنين الباطنة إليهم، كما قال تعالى: ﴿﴾ لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ﴿﴾. ولهذا قال ههنا: ﴿﴾ أتريدون أن يجعلوا لله عليكم سلطاناً مبيناً ﴿﴾؟ أي حجة عليكم في عقوبته إياكم، قال ابن أبي حاتم عن ابن عباس قوله: ﴿﴾ سلطاناً مبيناً ﴿﴾ قال: كل سلطان في القرآن حجة، وهذا إسناد صحيح، ثم أخبر تعالى: ﴿﴾ إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ﴿﴾ أي يوم القيامة جزاء على كفرهم الغليظ، قال ابن عباس: أي في أسفل النار، وقال غيره النار (درجات) كما أن الجنة (درجات) وقال سفيان الثوري ﴿﴾ إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ﴿﴾ قال: في توابيت تُرتج عليهم.

وعن أبي هريرة قال ﴿﴾ الدرك الأسفل ﴿﴾: بيوت لها أبواب تطبق عليهم فتوقد من تحتهم ومن فوقهم، قال ابن جرير عن عبد الله بن مسعود ﴿﴾ إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ﴿﴾ قال: في توابيت من نار تطبق عليهم

(١) رواه أحمد عن ابن عمر مرفوعاً.

أي مغلقة مقفلة، ﴿ولن نجد لهم نصيراً﴾ أي ينقذهم مما هم فيه ويخرجهم من ألم العذاب، ثم أخبر تعالى أن من تاب منهم في الدنيا تاب عليه وقبل ندمه إذا أخلص في توبته وأصلح عمله، واعتصم بربه في جميع أمره، فقال تعالى: ﴿إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله﴾ أي بدلوا الرياء بالإخلاص، فينفعهم العمل الصالح وإن قل. قال ابن أبي حاتم عن معاذ بن جبل: أن رسول الله ﷺ قال: «أخلص دينك يكفك القليل من العمل». ﴿فأولئك مع المؤمنين﴾ أي في زمرة يوم القيامة ﴿وسوف يؤت الله المؤمنين أجراً عظيماً﴾، ثم قال تعالى مخبراً عن غناه عما سواه وأنه إنما يعذب العباد بذنوبهم ﴿ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم﴾؟ أي أصلحتم العمل وآمنتم بالله ورسوله، ﴿وكان الله شاكراً عليماً﴾ أي من شكر شكر له، ومن آمن قلبه به علمه وجزاه على ذلك أوفر الجزاء.

* لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلِمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾ إِنْ تَبَدُّوا خَيْرًا أَوْ مَخْفَوًى
أَوْ تَعَفُّوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾

قال ابن عباس في الآية يقول: لا يحب الله أن يدعو أحد على أحد إلا أن يكون مظلوماً، فإنه قد أرخص له يدعو على من ظلمه، وذلك قوله: ﴿إلا من ظلم﴾، وإن صبر فهو خير له، وقال الحسن البصري: لا يدع عليه، وليقل: اللهم أعني عليه واستخرج حتى منه، وفي رواية عنه قال: قد أرخص له أن يدعو على من ظلمه من غير أن يعتدي عليه، وقال عبد الكريم الجزري في هذه الآية: هو الرجل يشتمك فتشتمه، ولكن إن افتري عليك فلا تفتري عليه لقوله: ﴿ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل﴾، وقال أبو داود عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «المستبان ما قالاً فعلى البادىء منهما ما لم يعتد المظلوم». وعن مجاهد ﴿لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم﴾ قال، قال: هو الرجل ينزل بالرجل فلا يحسن ضيافته فيخرج فيقول: أساء ضيافتي ولم يحسن. وقد روى الجماعة سوى النسائي والترمذي عن عقبه بن عامر قال، قلنا: يا رسول الله إنك تبعثنا فنتزل بقوم فلا يقروننا، فما ترى في ذلك؟ «فقال: إذا نزلتم بقوم فأمرؤا لكم بما ينبغي للضيف فاقبلوا منهم، وإن لم يفعلوا فخذوا منهم حق الضيف الذي ينبغي لهم»، وعن النبي ﷺ أنه قال: «أبما مسلم ضاف قوماً فأصبح الضيف محروماً فإن حقاً على كل مسلم نصره حتى يأخذ بقري ليلته من زرعه وماله» تفرد به أحمد.

ومن هذه الأحاديث وأمثالها ذهب أحمد وغيره إلى وجوب الضيافة، ومن هذا القبيل الحديث الذي رواه الحافظ أبو بكر البزار عن أبي هريرة، أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال: إن لي جاراً يؤذيني، فقال له: «أخرج متاعك فضعه على الطريق»، فأخذ الرجل متاعه فطرحه على الطريق، فكل من مر به قال: مالك؟ قال جاري يؤذيني، فيقول: اللهم العنه، اللهم أخزه قال، فقال الرجل: ارجع إلى متلك والله لا أؤذيك أبداً. وقوله: ﴿إن تبدوا خيراً أو مخفوه أو تعفوا عن سوء فإن الله كان عفواً قديراً﴾، أي إن أظهرتم أيها الناس خيراً أو أخفيتموه أو عفوتم عن أساء إليكم، فإن ذلك مما يقربكم عند الله ويجزل ثوابكم لديه، فإن من صفاته تعالى أن يعفو عن عباده مع قدرته على عقابهم، ولهذا قال: ﴿فإن الله كان عفواً قديراً﴾، ولهذا ورد في الأثر أن حملة العرش يسبحون

الله فيقول بعضهم: سبحانك على حلمك بعد علمك، ويقول بعضهم: سبحانك على عفوك بعد قدرتك، وفي الحديث الصحيح: « ما نقص مال من صدقة، ولا زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً، ومن تواضع لله رفعه »^(١).

* إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ۖ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ ۖ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا ۖ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴿١٥١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ۖ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُولَٰئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٥٢﴾

يتوعد تبارك وتعالى الكافرين به ويرسله من اليهود والنصارى، حيث فرقوا بين الله ورسله في الإيمان فأمنوا ببعض الأنبياء وكفروا ببعض، بمجرد التشهي والعادة وما ألفوا عليه آباءهم، لا عن دليل قادهم إلى ذلك، فإنه لا سبيل لهم إلى ذلك، بل بمجرد الهوى والعصبية، فاليهود عليهم لعائن الله آمنوا بالأنبياء إلا عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام، والنصارى آمنوا بالأنبياء وكفروا بنجاتهم وأشرفهم محمد ﷺ، والمقصود أن من كفر بنبي من الأنبياء فقد كفر بسائر الأنبياء، فإن الإيمان واجب بكل نبي بعثه الله إلى أهل الأرض، فمن رد نبوته للحسد أو العصبية أو التشهي تبين أن إيمانه بمن آمن به من الأنبياء ليس إيماناً شرعياً، إنما هو عن غرض وهوى وعصبية، ولهذا قال تعالى: ﴿ إن الذين يكفرون بالله ورسله ﴾ فوسمهم بأنهم كفار بالله ورسله ﴿ ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ﴾ أي في الإيمان، ﴿ ويقولون تؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلاً ﴾ أي طريقاً ومسلماً، ثم أخبر تعالى عنهم فقال: ﴿ أولئك هم الكافرون حقاً ﴾ أي كفرهم محقق لا محالة بمن ادعوا الإيمان به لأنه ليس شرعياً، إذ لو كانوا مؤمنين به لكونه رسول الله لآمنوا بنظيره، وبمن هو أوضح دليلاً وأقوى برهاناً منه، أو نظروا حق النظر في نبوته.

وقوله تعالى: ﴿ وأعدنا للكافرين عذاباً مهيناً ﴾ أي كما استهانوا بمن كفروا به إما لعدم نظرهم فيما جاءهم به من الله وإعراضهم عنه وإقبالهم على جمع حطام الدنيا مما لا ضرورة إليه، وإما بكفرهم به بعد علمهم بنبوته كما كان يفعله كثير من أحبار اليهود في زمان رسول الله ﷺ، حيث حسدوه على ما آتاه الله من النبوة العظيمة، وخالفوه وكذبوه وعادوه وقاتلوه، فسلط الله عليهم الذل الدنيوي الموصول بالذل الأخروي، ﴿ وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباعوا بغضب من الله ﴾ في الدنيا والآخرة، وقوله: ﴿ والذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم ﴾ يعني بذلك أمة محمد ﷺ، فإنهم يؤمنون بكل كتاب أنزله الله وبكل نبي بعثه الله، كما قال تعالى: ﴿ آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله ﴾ الآية، ثم أخبر تعالى بأنه قد أعد لهم الجزاء الجزيل والثواب الجليل والعطاء الجميل، فقال: ﴿ أولئك سوف يؤتيهم أجورهم ﴾ على ما آمنوا بالله ورسله، ﴿ وكان الله غفوراً رحيماً ﴾ أي لذنوبهم، أي إن كان لبعضهم ذنوب.

(١) الحديث رواه مسلم ومالك والترمذي، وقد رواه الحافظ ابن كثير بلفظ (ومن تواضع لله رفعه) ولفظه عندهم (ولا تواضع عبداً لله إلا رفعه الله).

يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنزِلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمْ ثُمَّ الْبَيْنَتْ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَعَآئِدِنَا مُوسَىٰ سُلْطٰنًا مِّبْيَأًا ﴿١٥٣﴾ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴿١٥٤﴾

قال السدي وقناة: سأل اليهود رسول الله ﷺ أن ينزل عليهم كتاباً من السماء كما نزلت التوراة على موسى مكتوبة وقال ابن جريج: سألوه أن ينزل عليهم صحفاً من الله مكتوبة إلى فلان وفلان وفلان بتصديقه فيما جاءهم به، وهذا إنما قالوه على سبيل التعنت والعناد والكفر والإلحاد، كما سأل كفار قريش قبلهم نظير ذلك كما هو مذكور في سورة الإسراء: ﴿وقالوا لن تؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً﴾ الآيات، ولهذا قال تعالى: ﴿فقد سألو موسى أكبر من ذلك، فقالوا: أرنا الله جهرة فأخذتهم الصاعقة بظلمهم﴾، أي بطغيانهم وبغيهم، وعتوهم وعنادهم وهذا مفسر في سورة البقرة حيث يقول تعالى: ﴿وإذ قلتم يا موسى لن تؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون﴾، وقوله تعالى: ﴿ثم اتخذوا العجل من بعد ما جاءتهم البينات﴾ أي من بعد ما رأوا من الآيات الباهرة والأدلة القاهرة على يد موسى عليه السلام في بلاد مصر، وما كان من إهلاك عدوهم فرعون وجميع جنوده في اليم، فما جاوزوه إلا يسيراً حتى أتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم، فقالوا لموسى: ﴿اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة﴾.

ثم ذكر تعالى قصة اتخاذهم العجل مبسوط في سورة (الأعراف) وفي سورة (طه) بعد ذهاب موسى إلى مناجاة الله عز وجل، ثم لما رجع وكان ما كان، جعل الله توبتهم من الذي صنعوه وابتدعوه أن يقتل من لم يعبد العجل منهم من عبده فجعل يقتل بعضهم بعضاً، ثم أحياهم الله عز وجل، وقال الله تعالى: ﴿فغفونا عن ذلك وآتينا موسى سلطاناً مبيناً﴾، ثم قال: ﴿ورفعنا فوقهم الطور بميثاقهم﴾، وذلك حين امتنعوا من الالتزام بأحكام التوراة وظهر منهم إباء عما جاءهم به موسى عليه السلام رفع الله على رؤوسهم جبلاً، ثم ألزموا فالتزموا وسجدوا وجعلوا ينظرون إلى فوق رؤوسهم خشية أن يسقط عليهم، كما قال تعالى: ﴿وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة وظنوا أنه واقع بهم خلوا ما آتيناكم بقوة﴾ الآية، ﴿وقلنا لهم ادخلوا الباب سجداً﴾ أي فخالقوا ما أمروا به من القول والفعل، فإنهم أمروا أن يدخلوا باب (بيت المقدس) سجداً وهم يقولون حطة، أي «اللهم حط عنا ذنوبنا» في تركنا الجهاد ونكولنا عنه حتى تنها في التيه أربعين سنة، فدخلوا يزحفون على أستاههم، وهم يقولون حنطة في شجرة ﴿وقلنا لهم لا تعدوا في السبت﴾ أي وصيانتهم بحفظ السبت والترام ما حرم الله عليهم ما دام مشروعاً لهم، ﴿وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً﴾ أي شديداً فخالقوا وعصوا وتحيلوا على ارتكاب ما حرم الله عز وجل، كما هو مبسوط في سورة الأعراف عند قوله: ﴿واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر﴾ الآيات، وسياقي حديث صفوان بن عسال في سورة سبحان عند قوله: ﴿ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات﴾، وفيه «وعليكم خاصة يهود أن لا تعدوا في السبت».

فِيمَا نَقَضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكَفَرِهِمْ بِعَايَتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بَهْتِنَا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِدًا ﴿١٥٩﴾

وهذا من الذنوب التي ارتكبوها مما أوجب لعنتهم وطردهم وإبعادهم عن الهدى، وهو نقضهم الميثاق والعهود التي أخذت عليهم ﴿وكفرهم بآيات الله﴾ أي حججه وبراهينه، والمعجزات التي شاهدوها على يد الأنبياء عليهم السلام، قوله: ﴿وقتلهم الأنبياء بغير حق﴾ وذلك لكثرة إجرامهم واجترائهم على أنبياء الله، فإنهم قتلوا جمًّا غفيراً من الأنبياء عليهم السلام ﴿وقولهم قلوبنا غلف﴾، قال ابن عباس: أي في غطاء، وهذا كقول المشركين: ﴿وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه﴾ الآية، وقيل: معناه أنهم ادعوا أن قلوبهم غلف للعلم أي أوعية للعلم قد حوته وحصلته، قال الله تعالى: ﴿بل طبع الله عليها بكفرهم﴾، فعلى القول الأول: كأنهم يعتذرون إليه بأن قلوبهم لا تعي ما يقول لأنها في غلف وفي أكنة، قال الله بل هي مطبوع عليها بكفرهم، وعلى القول الثاني: عكس عليهم ما ادعوه من كل وجه، وقد تقدم الكلام على مثل هذا في سورة البقرة. ﴿فلا يؤمنون إلا قليلاً﴾ أي تمرنت قلوبهم على الكفر والطغيان، وقلة الإيمان ﴿وبكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً﴾ قال ابن عباس: يعني أنهم رموها بالزنا. قال السدي: والظاهر من الآية أنهم رموها وابنها بالعظام، فجعلوها زانية وقد حملت بولدها من ذلك. زاد بعضهم وهي حائض، فعليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة، وقولهم: ﴿إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله﴾ أي هذا الذي يدعي لنفسه هذا المنصب قتلناه وهذا منهم من باب (التهمك والاستهزاء) كقول المشركين: ﴿يا أيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون﴾.

وكان من خبر اليهود عليهم لعائن الله وسخطه وغضبه وعقابه، أنه لما بعث الله عيسى بن مريم بالبينات والهدى، حسدوه على ما آتاه الله تعالى من النبوة والمعجزات الباهرات، التي كان يرى بها الأكمه والأبرص ويحيي الموتى بإذن الله ويصور من الطين طائراً ثم ينفخ فيه فيكون طائراً يشاهد طيرانه بإذن الله عز وجل، إلى غير ذلك من المعجزات التي أكرمها الله بها وأجراها على يديه ومع هذا كذبوه وخالفوه، وسعوا في أذاه بكل ما أمكنهم، حتى جعل نبي الله عيسى عليه السلام لا يساكنهم في بلدة، بل يكثر السياحة هو وأمه عليهما السلام، ثم لم يقنعهم ذلك حتى سعوا إلى ملك دمشق في ذلك الزمان وكان رجلاً مشركاً من عبدة الكواكب، وكان يقال لأهل ملته اليونان، وأنهموا إليه أن في بيت المقدس رجلاً يفتن الناس ويضلهم ويفسد على الملك رعاياه، فغضب الملك من هذا وكتب إلى نائبه بالمقدس أن يحتاط على هذا المذكور، وأن يصلبه ويضع الشوك على رأسه ويكف أذاه عن الناس، فلما وصل الكتاب امثلت والي بيت المقدس ذلك وذهب هو وطائفة من اليهود إلى المنزل الذي فيه عيسى

عليه السلام وهو في جماعة من أصحابه اثني عشر أو ثلاثة عشر وقيل سبعة عشر نقرأ - وكان ذلك يوم الجمعة بعد العصر ليلة السبت - فحصره هنالك، فلما أحس بهم وأنه لا محالة من دخولهم عليه أو خروجه إليهم، قال لأصحابه: أيكم يلقي عليه شبيهي وهو رفيتي في الجنة؟ فانتدب لذلك شاب منهم فكأنه استصغره عن ذلك، فأعادها ثانية وثالثة، وكل ذلك لا ينتدب إلا ذلك الشاب، فقال: أنت هو! وألقى الله عليه شبه عيسى حتى كأنه هو، وفتحت روزنة من سقف البيت وأخذت عيسى عليه السلام سنة من النوم فرفع إلى السماء وهو كذلك كما قال الله تعالى: ﴿إذ قال الله يا عيسى إني متوفيك ورافعك إلي﴾ الآية، فلما رفع خرج أولئك نفر، فلما رأى أولئك ذلك الشاب ظنوا أنه عيسى فأخذوه في الليل وصلبوه ووضعوا الشوك على رأسه، وأظهر اليهود أنهم سعوا في صلبه وتبجحوا بذلك، وسلم لهم طوائف من النصارى ذلك، لجهلهم وقلة عقولهم، ما عدا من كان في البيت مع المسيح فإنهم شاهدوا رفعه، وأما الباقيون فإنهم ظنوا - كما ظن اليهود - أن المصلوب هو المسيح بن مريم، حتى ذكروا أن مريم جلست تحت ذلك المصلوب وبكت، ويقال إنه خاطبها والله أعلم، وهذا كله من امتحان الله عباده لما له في ذلك من الحكمة البالغة، وقد أوضح الله الأمر وجلاه وبينه وأظهره في القرآن العظيم الذي أنزله على رسوله الكريم، المؤيد بالمعجزات والبيّنات والدلائل الواضحات، فقال تعالى وهو أصدق القائلين: ﴿وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم﴾ أي رأوا شبهه فظنوه إياه ولهذا قال: ﴿وإن الذين اختلفوا فيه لني شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن﴾ يعني بذلك من ادعى أنه قتله من اليهود ومن سلمه إليهم من جهال النصارى كلهم في شك من ذلك وحيرة وضلال. ولهذا قال: ﴿وما قتلوه يقيناً﴾ أي وما قتلوه متيقنين أنه هو، بل شاكين متوهمين ﴿بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزاً﴾ أي منيع الجناب لا يرام جنبه ولا يضام من لاذ ببابه، ﴿حكيماً﴾ أي في جميع ما يقدره ويقضيه من الأمور التي يخلقها، وله الحكمة البالغة والحجة الدامغة والسلطان العظيم.

روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: لما أراد الله أن يرفع عيسى إلى السماء خرج على أصحابه وفي البيت اثنا عشر رجلاً من الحواريين، فخرج عليهم ورأسه يقطر ماء، فقال: إن منكم من يكفر بي اثني عشرة مرة بعد أن آمن بي، قال، ثم قال: أيكم يلقي عليه شبيهي فيقتل مكاني ويكون معي في درجتي؟ فقام شاب من أحدهم سناً، فقال له: اجلس، ثم أعاد عليهم، فقام ذلك الشاب، فقال: اجلس، ثم أعاد عليهم، فقام الشاب، فقال: أنا، فقال: هو أنت ذاك، فألقي عليه شبه عيسى ورفع عيسى من روزنة في البيت إلى السماء، قال: وجاء الطلب من اليهود، فأخذوا الشبه فقتلوه، ثم صلبوه، فكفر به بعضهم اثني عشرة مرة بعد أن آمن به، واقتروا ثلاث فرق، فقالت فرقة: كان الله فينا ما شاء ثم صعد إلى السماء وهؤلاء (اليعقوبية) وقالت فرقة: كان فينا ابن الله ما شاء ثم رفعه الله إليه، وهؤلاء (النسطورية) وقالت فرقة: كان فينا عبد الله ورسوله ما شاء الله ثم رفعه الله إليه وهؤلاء (المسلمون) فتظاهرت الكافرتان على المسلمة فقتلوا، فلم يزل الإسلام طامساً حتى يبعث الله محمداً ﷺ^(١).

وروى ابن جرير عن ابن إسحاق، قال: كان اسم ملك بني إسرائيل الذي بعث إلى عيسى ليقتله رجلاً منهم يقال له (داود)، فلما أجمعوا لذلك منه لم يقطع عبد من عباد الله بالموت - فيما ذكر لي - قطعه، ولم يجزع منه جزعه ولم يدع في صرفه عنه دعاءه، حتى إنه ليقول فيما يزعمون: اللهم إن كنت صارفاً هذه الكأس عن أحد من خلقك

(١) قال الحافظ ابن كثير: هذا إسناد صحيح إلى ابن عباس.

فاصرفها عني، وحتى إن جلده من كرب ذلك ليتفصد دماً، فدخل المدخل الذي أجمعوا أن يدخلوا عليه فيه ليقتلوه هو وأصحابه وهم ثلاثة عشر ببعيسى عليه السلام، فلما أيقن أنهم داخلون عليه، قال لأصحابه من الحواريين - وكانوا اثني عشر رجلاً سوى عيسى عليه السلام جحدته النصارى، فجحدوه حين أقروا لليهود بصلب عيسى وكفروا بما جاء به محمد ﷺ من الخبر .

قال ابن إسحاق: وحدثني رجل كان نصرانياً فأسلم، أن عيسى حين جاءه من الله إني رافلك إلي، قال: يا معشر الحواريين أيكم يحب أن يكون رفيقي في الجنة حتى يشبه للقوم في صورتي فيقتلوه في مكاني؟ فقال (سرجس): أنا ياروح الله، قال: فاجلس في مجلسي فجلس فيه، ورفع عيسى عليه السلام، فدخلوا عليه فأخذوه فصلبوه، فكان هو الذي صلبوه وشبه لهم به، وكانت عدتهم حين دخلوا مع عيسى معلومة، قد رأوهم فأحصوا عدتهم، فلما دخلوا عليهم ليأخذوه وجلدوا عيسى وأصحابه فيما يرون وقلدوا رجلاً من العدة، فهو الذي اختلفوا فيه، وكانوا لا يعرفون عيسى جعلوا لـ (ليودس ركريا يوطا) ثلاثين درهماً على أن يدلهم عليه ويعرفهم إياه، فقال لهم: إذا دخلتم عليه فإني سأقبله، وهو الذي أقبل فخذوه، فلما دخلوا وقد رفع عيسى ورأى سرجس في صورة عيسى فلم يشك أنه هو، فأكب عليه فقبله، فأخذوه فصلبوه، ثم أن (ليودس ركريا يوطا) ندم على ما صنع، فاختنق بحبل حتى قتل نفسه وهو ملعون في النصارى، وقد كان أحد المعدودين من أصحابه، وبعض النصارى يزعم أنه (ليودس ركريا يوطا) وهو الذي شبه لهم فصلبوه، وهو يقول: إني لست بصاحبكم، أنا الذي دلتكم عليه والله أعلم أي ذلك كان. وقال ابن جرير عن مجاهد: صلبوا رجلاً شبه ببعيسى ورفع الله عز وجل عيسى إلى السماء حياً، واختار ابن جرير أن شبه عيسى ألتى على جميع أصحابه .

وقوله تعالى: ﴿وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً﴾ قال ابن جرير: اختلف أهل التأويل في معنى ذلك، فقال بعضهم معنى ذلك: ﴿وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته﴾ يعني قبل موت عيسى، يوجه ذلك إلى أن جميعهم يصدقون به إذا نزل لقتل الدجال، فتصير الملل كلها واحدة، وهي ملة (الإسلام الحنيفية) دين إبراهيم عليه السلام. عن ابن عباس ﴿وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته﴾ قال: قبل موت عيسى بن مريم عليه السلام، وقال أبو مالك في قوله: ﴿إلا ليؤمنن به قبل موته﴾ قال: ذلك عند نزول عيسى وقبل موت عيسى بن مريم عليه السلام لا يبقى أحد من أهل الكتاب إلا آمن به وقال: الحسن: قبل موت عيسى والله إنه لحي الآن عند الله ولكن إذا نزل آمنوا به أجمعون. قال ابن جرير وقال آخرون يعني بذلك ﴿وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به﴾ ببعيسى قبل موت صاحب الكتاب لأن كل من نزل به الموت لم تخرج نفسه حتى يتبين له الحق من الباطل في دينه. قال ابن عباس في الآية: لا يموت يهودي حتى يؤمن ببعيسى. وعن مجاهد: كل صاحب كتاب يؤمن ببعيسى قبل موته؛ قبل موت صاحب الكتاب .

وعن سعيد بن جبير عن ابن عباس ﴿وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته﴾ قال: هي في قراءة أي (قبل موتهم) ليس يهودي يموت أبداً حتى يؤمن ببعيسى، قيل لابن عباس: رأيت إن خر من فوق بيت؟ قال: يتكلم به في الهوي قيل: رأيت إن ضربت عنق أحدهم قال: يلجلج بها لسانه، فهذه كلها أسانيد صحيحة إلى ابن عباس، وكذا صح عن مجاهد وعكرمة وابن سيرين وبه يقول الضحاك وقال السدي وحكاه عن ابن عباس،

ونقل قراءة (أبي بن كعب) قبل موتهم. قال ابن جرير، وقال آخرون معنى ذلك: وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن بمحمد ﷺ قبل موت الكتاب. قال عكرمة: لا يموت النصراني ولا اليهودي حتى يؤمن بمحمد ﷺ. ثم قال ابن جرير: وأولى هذه الأقوال بالصحة القول الأول، وهو أنه لا يبقى أحد من أهل الكتاب بعد نزول عيسى عليه السلام إلا آمن به قبل موت عيسى عليه السلام. ولا شك أن هذا الذي قاله ابن جرير هو الصحيح، لأنه المقصود من سياق الآي في تقرير بطلان ما ادعته اليهود من قتل عيسى وصلبه، وتسليم من سلم لهم من النصارى الجهلة ذلك، فأخبر الله أنه لم يكن الأمر كذلك وإنما شبه لهم فقتلوا الشبه وهم لا يتبينون ذلك، ثم إنه رفعه إليه وإنه باق حي، وإنه سينزل قبل يوم القيامة، كما دلت عليه الأحاديث المتواترة التي سنورها إن شاء الله قريباً فيقتل مسيح الضلالة، ويكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية يعني لا يقبلها من أحد من أهل الأديان، بل لا يقبل إلا الإسلام أو السيف فأخبرت هذه الآية الكريمة أنه يؤمن به جميع أهل الكتاب حينئذ ولا يتخلف عن التصديق به واحد منهم، ولهذا قال: ﴿وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته﴾ أي قبل موت عيسى عليه السلام الذي زعم اليهود ومن وافقهم من النصارى أنه قتل وصلب. ﴿ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً﴾ أي بأعمالهم التي شاهدتها منهم قبل رفعه إلى السماء وبعد نزوله إلى الأرض، فأما من فسر هذه الآية بأن المعنى أن كل كتابي لا يموت حتى يؤمن بعيسى أو بمحمد عليهما الصلاة والسلام فهذا هو الواقع، وذلك أن كل أحد عند احتضاره ينجلي له ما كان جاهلاً به فيؤمن به، ولكن لا يكون ذلك إيماناً نافعاً له إذا كان قد شاهد الملك، كما قال تعالى في أول هذه السورة: ﴿ولست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين﴾ فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا﴾ الآية.

(ذكر الأحاديث الواردة في نزول (عيسى بن مريم) إلى الأرض من السماء في آخر الزمان

قال البخاري رحمه الله في (كتاب ذكر الأنبياء) عن أبي هريرة قال، قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً عدلاً، فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد، وحتى تكون السجدة خيراً له من الدنيا وما فيها»، ثم يقول أبو هريرة: أقرأوا إن شئتم: ﴿وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً﴾^(١). وقال أحمد عن أبي هريرة قال، قال رسول الله ﷺ: « ينزل عيسى بن مريم فيقتل الخنزير ويمحو الصليب وتجمع له الصلاة ويعطى المال حتى لا يقبل ويضع الخراج وينزل الروحاء فيحجج منها أو يعتمر أو يجمعهما » قال وتلا أبو هريرة: ﴿وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته﴾ الآية، فزعم حنظلة أن أبا هريرة قال: يؤمن به قبل موت عيسى، فلا أدري هذا كله حديث النبي ﷺ أو شيء قاله أبو هريرة .

(طريق أخرى): قال البخاري عن نافع مولى أبي قتادة الأنصاري أن أبا هريرة قال، قال رسول الله ﷺ:

« كيف بكم إذا نزل فيكم المسيح بن مريم وإمامكم منكم »^(٢) .

(٢) أخرجه البخاري ومسلم والإمام أحمد .

(١) أخرجه الشيخان واللفظ للبخاري .

(طريق أخرى): قال الإمام أحمد عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «الأنبياء إخوة لعلات أمهاتهم شتى ودينهم واحد وإني أولى الناس بعيسى بن مريم لأنه لم يكن نبي بيني وبينه وإنه نازل، فإذا رأيتموه فاعرفوه، رجل مربع إلى الحمرة والبياض عليه ثوبان ممصران»^(١) كأن رأسه يقطر وإن لم يصبه بلل، فيدق الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية، ويدعو الناس إلى الإسلام، ويهلك الله في زمانه الملل كلها إلا الإسلام، ويهلك الله في زمانه المسيح الدجال، ثم تقع الأمانة على الأرض حتى ترتع الأسود مع الإبل، والنهار مع البقر، والذئب مع الغنم، ويلعب الصبيان بالحيات لا تضرهم فيمكث أربعين سنة، ثم يتوفى ويصلي عليه المسلمون». وقد روى البخاري عن أبي هريرة، قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أنا أولى الناس بعيسى بن مريم والأنبياء أولاد علات ليس بيني وبينه نبي». وفي رواية: «أنا أولى الناس بعيسى بن مريم في الدنيا والآخرة الأنبياء إخوة لعلات أمهاتهم شتى ودينهم واحد».

(حديث آخر): وروى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى تنزل الروم بالأعماق أو بدابق، فيخرج إليهم جيش من المدينة من خيار أهل الأرض يومئذ، فإذا تصافوا قالت الروم: خلوا بيننا وبين الذين سبوا منا فقاتلهم، فيقول المسلمون: لا والله لا نخلي بينكم وبين إخواننا، فيقاتلهم فيهزم ثلث لا يتوب الله عليهم أبداً ويقتل ثلث هم أفضل الشهداء عند الله، ويفتح الثلث لا يفتنون أبداً فيفتحون (قسطنطينية) فيبناهم يقسمون الغنائم قد علقوا سيوفهم بالزيتون إذ صاح فيهم الشيطان: إن المسيح قد خلفكم^(٢) في أهليكم فيخرجون، وذلك باطل، فإذا جاءوا الشام خرج، فيبناهم يعدون للقتال يسوون الصفوف، إذ أقيمت الصلاة فينزل عيسى بن مريم فيؤمهم، فإذا رآه عدو الله ذاب كما يذوب الملح في الماء، فلو تركه لذاب حتى يهلك، ولكن يقتله الله بيده فيريهم دمه في حربته».

(حديث آخر): روى ابن ماجه في سننه عن أبي أمامة الباهلي قال: خطبنا رسول الله ﷺ فكان أكثر خطبته حديثاً حدثناه عن الدجال وحذرناه فكان من قوله أن قال: «لم تكن فتنة في الأرض منذ ذرأ الله ذرية آدم عليه السلام أعظم من فتنة الدجال وإن الله لم يبعث نبياً إلا حذر أمته الدجال وأنا آخر الأنبياء، وأتم آخر الأمم، وهو خارج فيكم لا محالة، فإن يخرج وأنا بين ظهرانيكم فأنا حجيج كل مسلم، وإن يخرج من بعدي فكل حجيج نفسه، وإن الله خليفتي على كل مسلم، وإنه يخرج من خلّة بين الشام والعراق، فيعيث يميناً ويعيث شمالاً، ألا يا عباد الله: أيها الناس فاثبتوا وإني سأصفه لكم صفة لم يصفها إياه بي قبلي: إنه يبدأ فيقول: أنا نبي فلا نبي بعدي، ثم يثني فيقول: أنا ربكم ولا ترون ربكم حتى تموتوا. وإنه أعور وإن ربكم عز وجل ليس بأعور، وإنه مكتوب بين عينيه كافر يقرؤه كل مؤمن كاتب وغير كاتب، وإن من فتنته أن معه جنة ونارا فأراه جنة وجنته نار فن ابتلي بناره فليستغث بالله، وليقرأ فواتح الكهف فتكون عليه برداً وسلاماً كما كانت النار برداً وسلاماً على إبراهيم. وإن من فتنته أن يقول للأعرابي: أرايت إن بعثت لك أمك وأباك أتشهد أني ربك؟ فيقول نعم، فيتمثل له شيطان في صورة أبيه وأمه، فيقولان: يا بئني اتبعه فإنه ربك، وإن من فتنته أن يسلط على نفس واحدة فينشرها

(١) مصبوغان بالمصر وهو تراب أحمر .
(٢) خلفكم في أهليكم : أي طرق أهلهم وهم غائبون عنهم .

بالمشار حتى تلقى شقتين، ثم يقول انظر إلى عبدي هذا فإني أبعثه الآن، ثم يزعم أن له رباً غيري، فيبعثه الله فيقول له الخبيث من ربك؟ فيقول: ربي الله، وأنت عدو الله الدجال، والله ما كنت بعد أشد بصيرة بك مني اليوم» .

وإن من فتنته: أن يأمر السماء أن تمطر فتمطر، ويأمر الأرض أن تنبت فتنبت، وإن من فتنته أن يمر بالحي فيكذبونه فلا تبقى لهم ساعة إلا هلكت، وإن من فتنته أن يمر بالحي فيصدقونه فيأمر السماء أن تمطر فتمطر ويأمر الأرض أن تنبت فتنبت، حتى تروح مواشيهم من يومهم ذلك أسمن ما كانت وأعظمه، وأمدته خواصر وأدره ضروعاً، وأنه لا يبقى شيء من الأرض إلا وطئه وظهر عليه إلا (مكة) و(المدينة) فإنه لا يأتيهما من نقب من نقابهما إلا لقيته الملائكة بالسيوف صلته حتى ينزل عند الظريب الأحمر عند منقطع السبخة فترجف المدينة بأهلها ثلاث رجفات فلا يبقى منافق ولا منافقة إلا خرج إليه، فينفى الخبيث منها كما ينفي الكير خبث الحديد، ويدعى ذلك اليوم (يوم الخلاص) فقالت أم شريك بنت أبي العكر: يا رسول الله فأين العرب يومئذ؟ قال: «هم قليل وجلهم يومئذ بيت المقدس، وإمامهم رجل صالح، فيينا إمامهم قد تقدم يصلي بهم الصبح إذ نزل عليهم عيسى بن مريم عليه السلام، فرجع ذلك الإمام يمشي القهقري ليتقدم عيسى عليه السلام فيضع عيسى يده بين كتفيه، ثم يقول: تقدم فصل فإنها لك أقيمت، فيصلي بهم إمامهم، فإذا انصرف قال عيسى: افتحوا الباب فيفتح ووراءه الدجال معه سبعون ألف يهودي كلهم ذو سيف محلي وتاج، فإذا نظر إليه الدجال ذاب كما يذوب الملح في الماء وينطلق هارباً، فيقول عيسى إن لي فيك ضربة لن تسقني بها فيدركه عند (باب لُد) الشرقي فيقتله، ويهزم الله اليهود فلا يبقى شيء مما خلق الله تعالى يتوارى به يهودي إلا أنطق الله ذلك الشيء - لا حجر ولا شجر ولا حائط ولا دابة، إلا الغرقة فانها من شجرهم لا تنطق - إلا قال يا عبد الله المسلم: هذا يهودي فتعال اقتله .

قال رسول الله ﷺ: «وإن أيامه أربعون سنة، السنة كنصف السنة، والسنة كالشهر، والشهر كالجمعة، وآخر أيامه كالشجرة يصبح أحدكم على باب المدينة فلا يبلغ بابها الآخر حتى يمسي»، فقيل له: كيف نصلي يا نبي الله في تلك الأيام القصار؟ قال: «تقدرون الصلاة كما تقدرون في هذه الأيام الطوال ثم صلوا»، قال رسول الله ﷺ: «فيكون عيسى بن مريم في أمي حكماً عادلاً وإماماً مقسطاً، يدق الصليب ويذبح الخنزير ويضع الجزية ويترك الصدقة، فلا يسعى على شاة ولا بعير، وترتفع الشحناء والتباغض، وتترج حمة كل ذات حمة حتى يدخل الوليد يده في الحية فلا تضره، ونفر الوليدة الأسد فلا يضرها، ويكون الذئب في الغنم كأنه كلبها، وتملأ الأرض من السلم كما يملأ الأناء من الماء، وتكون الكلمة واحدة فلا يعبد إلا الله، وتضع الحرب أوزارها، وتسلب قريش ملكها، وتكون الأرض لها نور الفضة، وتنبت نباتها كعهد آدم حتى يجتمع النفر على القطف من العنب فيشبعهم، ويجتمع النفر على الرمانه فتشبعهم، ويكون الثور بكذا وكذا من المال ويكون الفرس بالدرهيمات». قيل يا رسول الله وما يرخص الفرس؟ قال: «لا تترك لحرب أبداً»، قيل له فما يغلي الثور؟ قال: «يحرث الأرض كلها، وإن قبل خروج الدجال ثلاث سنوات شداد يصيب الناس فيها جوع شديد، ويأمر الله السماء في السنة الأولى أن تحبس ثلث مطرها، ويأمر الأرض فتحبس ثلث نباتها، ثم يأمر الله السماء في السنة الثانية فتحبس ثلثي مطرها، ويأمر الأرض فتحبس ثلثي نباتها، ثم يأمر الله عز وجل السماء في السنة الثالثة فتحبس مطرها كله فلا تقطر قطرة،

ويأمر الأرض أن تحبس نباتها كله فلا تنبت خضراء، فلا تبقى ذات ظلف إلا هلكت إلا ما شاء الله. قيل: فما يعيش الناس في ذلك الزمان؟ قال: « التهليل والتكبير والتسييح والتحميد ويجري ذلك عليهم مجرى الطعام »^(١).

(حديث آخر): وقال رسول الله ﷺ: « لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود، فيقتلهم المسلمون حتى يحتبئ اليهودي من وراء الحجر والشجر، فيقول الحجر والشجر: يا مسلم يا عبد الله هذا يهودي خلني فتعال فاقتله - إلا الغرقد فإنه من شجر اليهود »^(٢).

(حديث آخر): وقال مسلم في صحيحه عن النواس بن سمعان قال: ذكر رسول الله ﷺ الدجال ذات غداة فخفض فيه ورفع حتى ظنناه في طائفة النخل، فلما رحنا إليه عرف ذلك في وجوهنا، فقال: « ما شأنكم؟ » قلنا: يا رسول الله ذكرت الدجال غداة فخفضت فيه ورفعت حتى ظنناه في طائفة النخل، قال: « غير الدجال أخوفني عليكم، إن يخرج وأنا فيكم، فأنا حجيجه دونكم، وإن يخرج ولست فيكم فامرؤ حجيج نفسه، والله خليفتي على كل مسلم، إنه شاب قطط، عينه طافية كأنني أشبهه بعبد العزى بن قطن، من أدركه منكم فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف، إنه خارج من خلة بين الشام والعراق، فعاث يمينا وعاث شمالاً، يا عباد الله فاثبتوا ». قلنا: يا رسول الله فما لبثه في الأرض؟ قال: « أربعون يوماً، يوم كسنة، ويوم كشهر، ويوم كجمعة، وسائر أيامه كأيامكم ». قلنا يا رسول الله وذلك اليوم الذي كسنة أتكفينا فيه صلاة يوم؟ قال: « لا، اقدروا له قدره ». قلنا يا رسول الله وما إسرعه في الأرض؟ قال: « كالغيث استدبرته الريح، فيأتي على قوم فيدعوهم فيؤمنون به ويستجيبون له، فيأمر السماء فتمطر، والأرض فتنبت، فتروح عليهم سارحتهم أطول ما كانت ذرى وأسبغه ضروعاً وأمدته خواصر، ثم يأتي القوم فيدعوهم فيردون عليهم قوله، فينصرف عنهم، فيصبحون ممحلين ليس بأيديهم شيء من أموالهم، ويمر بالخربة فيقول لها: أخرجي كنوزك فتتبعه كنوزها كيغاسيب النحل^(٣)، ثم يدعور جلاً ممتلئاً شباباً فيضربه بالسيف فيقطعه جزلتين رمية الغرض، ثم يدعوهم فيقبل ويتهلل وجهه ويضحك. فبينما هو كذلك إذ بعث الله (المسيح بن مريم) عليه السلام، فينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق بين مهرودتين واضعاً كفيه على أجنحة ملكين، إذا طأ رأسه قطر، وإذا رفعه تحدر منه كجمان اللؤلؤ، ولا يحل لكافر يجدر ربح نفسه إلا مات، ونفسه ينتهي حيث ينتهي طرفه، فيطلبه حتى يدركه بباب لد، فيقتله، ثم يأتي عيسى عليه السلام قوماً قد عصمهم الله منه فيمسح عن وجوههم، ويحدثهم بدرجاتهم في الجنة، فبينما هو كذلك إذ أوحى الله عز وجل إلى عيسى: إني قد أخرجت عباداً لي لا يدان لأحد بقتالهم فحرز عبادي إلى الطور.

ويبعث الله (يأجوج ومأجوج) وهم من كل حدب ينسلون، فيمر أولهم على بحيرة طبرية فيشربون ما فيها، ويمر آخرهم فيقولون: لقد كان بهذه مرة ماء، ويحضر نبي الله عيسى وأصحابه حتى يكون رأس الثور لأحدهم خيراً من مائة دينار لأحدكم اليوم، فيرغب نبي الله عيسى وأصحابه فيرسل الله عليهم النخف في رقابهم فيصبحون فرسى^(٤) كموت نفس واحدة، ثم يهبط نبي الله عيسى وأصحابه إلى الأرض فلا يجدون في الأرض موضع شبر إلا

(١) أخرجه ابن ماجه، قال الحافظ ابن كثير: غريب جداً من هذا الوجه ولبعضه شواهد من أحاديث أخر.

(٢) رواه مسلم عن أبي هريرة مرفوعاً. (٣) أي: قتلى. (٤) بغاسيب النحل: ذكورها.

ملأه زهمهم^(١) وتتهم فيرغب نبي الله عيسى وأصحابه إلى الله فيرسل الله طيراً كأعناق البخت فتحملهم فتطرحهم حيث شاء الله، ثم يرسل الله مطراً لا يكُنُّ منه بيت مدر ولا وبر فيغسل الأرض حتى يتركها كالزَّلْفَةِ^(٢).

ثم يقال للأرض أخرجي ثمرك وردي بركتك، فيومئذ تأكل العصابة من الرمانة ويستظلون بقحفها، وبيارك الله في الرسل حتى ان اللقحة من الإبل لتكفي الفئام^(٣) من الناس فيبئنا هم كذلك إذ بعث الله ريحاً طيبة فتأخذهم تحت آباطهم، فيقبض الله روح كل مؤمن وكل مسلم، ويبقى شرار الناس يتهارجون فيها تهارج الحمر، فعليهم تقوم الساعة^(٤).

(حديث آخر): قال مسلم في صحيحه عن يعقوب بن عاصم بن عروة بن مسعود الثقفي يقول، سمعت عبد الله ابن عمرو - وجاءه رجل - فقال: ما هذا الحديث الذي تحدث به؟ تقول: ان الساعة تقوم إلى كذا وكذا، فقال: (سبحان الله) أو (لا إله إلا الله) أو كلمة نحوهما، لقد هممت أن لا أحدث أحداً شيئاً أبداً، إنما قلت: إنكم سترون بعد قليل أمراً عظيماً: يحرق البيت ويكون ويكون، ثم قال، قال رسول الله ﷺ: «يخرج الدجال في أمي فيمكث أربعين، لا أدري أربعين يوماً، أو أربعين شهراً، أو أربعين عاماً، فيبعث الله تعالى عيسى بن مريم كأنه عروة بن مسعود، فيطلبه فيهلكه، ثم يمكث الناس سبع سنين ليس بين اثنين عداوة، ثم يرسل الله ريحاً باردة من قبل الشام فلا يبقى على وجه الأرض أحد في قلبه مثقال ذرة من خير - أو إيمان - إلا قبضته، حتى لو أن أحدكم دخل في كبد جبل لدخلته عليه حتى تقبضه».

قال: سمعتها من رسول الله ﷺ: «يبقى شرار الناس في خفة الطير وأحلام السباع، لا يعرفون معروفاً ولا ينكرون منكراً، فيتمثل لهم الشيطان، فيقول: ألا تستجيبيون؟ فيقولون: فإنا تأمرنا؟ فيأمرهم بعبادة الأوثان، وهم في ذلك دار رزقهم، حسن عيشهم، ثم ينفخ في الصور فلا يسمعه أحد إلا أصغى ليتها ورفع ليتها، قال: وأول من يسمعه رجل يلوط حوض إبله، قال: فيصعق ويصعق الناس، ثم يرسل الله - أو قال ينزل الله - مطراً كأنه الظل - أو قال الظل - نعمان الشاك - فتنبت منه أجساد الناس، ثم ينفخ فيه أخرى إذا هم قيام ينظرون. ثم يقال: أيها الناس هلموا إلى ربكم ﴿وقفوهم إنهم مسؤولون﴾، ثم يقال: أخرجوا بعث النار، فيقال من كم؟ فيقال: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين، قال فذلك ﴿يوماً يجعل الولدان شيباً﴾ وذلك ﴿يوم يكشف عن ساق﴾^(٥).

(حديث آخر): قال الإمام أحمد، أخبرنا عبد الرزاق، أخبرنا معمر عن الزهري، عن عبد الله بن عبيد الله ابن ثعلبة الأنصاري، عن عبد الله بن زيد الأنصاري، عن مجمع بن جارية، قال، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يقتل ابن مريم المسيح الدجال بباب لد - أو إلى جانب لد -». ورواه أحمد أيضاً عن سفيان بن عيينة من

(١) رائحهم التنة المتغيرة .

(٢) الزلفة بالتحريك : المرأة .

(٣) الرسل بالتحريك : القطيع الجمع أرسال، واللقحة - بالكسر وبالفتح لغة - وهي ذات اللبن، والفئام الجماعة .

(٤) أخرجه مسلم ورواه أحمد وأهل السنن . (٥) أخرجه مسلم والنسائي .

حديث الليث والأوزاعي، ثلاثهم عن الزهري عن عبد الله بن عبيد الله بن ثعلبة، عن عبد الرحمن بن يزيد عن عمه مجمع بن جارية، عن رسول الله ﷺ قال: «يقتل ابن مريم الدجال بباب لد»، وكذا رواه الترمذي عن قتيبة عن الليث به، وقال: هذا حديث صحيح. قال: وفي الباب عن عمران بن حصين ونافع بن عيينة وأبي برزة وحذيفة بن أسيد وأبي هريرة، وكيسان، وعثمان بن أبي العاص، وجابر وأبي أمامة، وابن مسعود، وعبد الله بن عمرو، وسمرة بن جندب والنواس بن سمعان، وعمرو بن عرف، وحذيفة بن اليان رضي الله عنهم. ومراده برواية هؤلاء ما فيه ذكر الدجال، وقتل عيسى بن مريم عليه السلام له.

(حديث آخر) : وقال رسول الله ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى تروا عشر آيات: طلوع الشمس من مغربها، والدخان، والدابة، وخروج يأجوج ومأجوج، ونزول عيسى بن مريم، والدجال، وثلاثة خسوف: خسف بالشرق، وخسف بالمغرب، وخسف بجزيرة العرب، ونار تخرج من قعر عدن تسوق - أو تحشر - الناس، تبيت معهم حيث باتوا، وتقيل معهم حيث قالوا»^(١). وذكر الحافظ أبو القاسم بن عساكر في ترجمة عيسى بن مريم من تاريخه عن بعض السلف: أنه يدفن مع النبي ﷺ في حجرته، فإله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً﴾، قال قتادة: يشهد عليهم أنه قد بلغهم الرسالة من الله، وأقر بعبودية الله عز وجل، وهذا كقوله تعالى في آخر سورة المائدة: ﴿وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أنت قلت للناس - إلى قوله - العزيز الحكيم﴾.

فَبُظْلِمَ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا عَلَيْهِمْ طَبِئَتْ أُحْلَتْ لَهُمْ وَبِصَدِّمٍ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخَذَهُمُ الرِّبَا وَقَدَّ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾ لَكِنَّ الرَّاغِبِينَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ وَمَا أَنْزَلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾

يخبر تعالى أنه بسبب ظلم اليهود بما ارتكبه من الذنوب العظيمة حرم عليهم طيبات كان أحلها لهم، كما قال ابن أبي حاتم عن عمرو، قال قرأ ابن عباس: (طيبات كانت أحلت لهم) وهذا التحريم قد يكون (قدرياً) بمعنى أنه تعالى قيضهم لأن تأولوا في كتابهم، وحرّفوا وبادلوا أشياء كانت حلالاً لهم، فحرموها على أنفسهم تشديداً منهم على أنفسهم وتضييقاً وتنظاعاً، ويحتمل أن يكون (شريعياً) بمعنى أنه تعالى حرم عليهم في التوراة أشياء كانت حلالاً لهم قبل ذلك، كما قال تعالى: ﴿كل الطعام كان حلالاً لبني إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة﴾. وقد قدمنا الكلام على هذه الآية وأن المراد أن الجميع من الأطعمة كانت حلالاً لهم، من قبل أن تنزل التوراة ما عدا ما كان حرم إسرائيل على نفسه من لحوم الإبل والبانها. ثم إنه تعالى

(١) رواه أحمد ومسلم وأصحاب السنن.

حرم أشياء كثيرة في التوراة، كما قال في سورة الأنعام: ﴿وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما إلا ما حملت ظهورها أو الحوايا أو ما اختلط بعظم ذلك جزيناهم ببغيهم وإنا لصادقون﴾، أي إنما حرمنا عليهم ذلك لأنهم يستحقون ذلك بسبب بغيهم وطغيانهم، ومخالفتهم رسولهم واختلافهم عليه، ولهذا قال: ﴿فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيراً﴾، أي صدوا الناس وصدوا أنفسهم عن اتباع الحق، وهذه سجية لهم متصفون بها من قديم الدهر وحديثه، ولهذا كانوا أعداء الرسل، وقتلوا خلقاً من الأنبياء، وكذبوا عيسى ومحمداً صلوات الله وسلامه عليهما .

وقوله تعالى: ﴿وأخذهم الربا وقد نهوا عنه﴾، أي أن الله قد نهاهم عن الربا فتناولوه وأخذوه واحتالوا عليه بأنواع من الحيل وصنوف من الشبه، وأكلوا أموال الناس بالباطل، قال تعالى: ﴿وأعتدنا للكافرين منهم عذاباً أليماً﴾، ثم قال تعالى: ﴿لكن الراسخون في العلم منهم﴾ أي الثابتون في الدين، لهم قدم راسخة في العلم النافع، ﴿والمؤمنون﴾ عطف على الراسخين، وخبره ﴿يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك﴾، قال ابن عباس: أنزلت في عبد الله بن سلام وثعلبة بن سعية^(١) وأسد بن سعية وأسد بن عبيد الذين دخلوا في الإسلام وصدقوا بما أرسل الله به محمداً ﷺ .

وقوله تعالى: ﴿والمقيمین الصلاة﴾ هكذا، هو في جميع مصاحف الأئمة وكذا هو في مصحف (أبي بن كعب)، وذكر ابن جرير أنها في مصحف ابن مسعود ﴿والمقيمون الصلاة﴾، قال: والصحيح قراءة الجميع، رد على من زعم أن ذلك من غلط الكتاب، ثم ذكر اختلاف الناس، فقال بعضهم: هو منصوب على المدح، كما جاء في قوله: ﴿والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس﴾، قال وهذا سائغ في كلام العرب كما قال الشاعر:

لا يبعدن قومي الذين همو أسد العداة وآفة الجزر
النازلي بكل معترك والطيبون معاقد الأزر

وقال آخرون: هو مخفوض عطفاً على قوله: ﴿بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك﴾، يعني وبالمقيمین الصلاة، وكأنه يقول: وبإقامة الصلاة أي يعترفون بوجوبها وكتابتها عليهم. وقوله: ﴿والمؤتون الزكاة﴾ يحتمل أن يكون المراد زكاة الأموال، ويحتمل زكاة النفوس، ويحتمل الأمرين والله أعلم، ﴿والمؤمنون بالله واليوم الآخر﴾ أي يصدقون بأنه (لا إله إلا الله) ويؤمنون بالبعث بعد الموت، والجزاء على الأعمال خيراً وشرها، وقوله: ﴿أولئك﴾ هو الخبر عما تقدم، ﴿سنؤتيهم أجراً عظيماً﴾ يعني الجنة .

* إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ ۗ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ

(١) في نسخة الأميرية: تحريف في هذه الأسماء واعتمد في تصحيحها على ما في الاصابة وغيرها، وسعيه بفتح السين المهمة وسكون الياء التحتانية .

وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآدِينَ دَاوُدَ زُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ تَلِيكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾

قال ابن عباس، قال سكن وعدي بن زيد: يا محمد ما نعلم أن الله أنزل على بشر من شيء بعد موسى، فأنزل الله في ذلك من قولهما: ﴿إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده﴾ إلى آخر الآيات. ثم ذكر فضائهم ومعابهم وما كانوا عليه وما هم عليه الآن من الكذب والافتراء، ثم ذكر تعالى أنه أوحى إلى عبده ورسوله محمد ﷺ كما أوحى إلى غيره من الأنبياء المتقدمين، فقال: ﴿إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده﴾، إلى قوله: ﴿وآتيناه داود زبوراً﴾ والزبور اسم الكتاب الذي أوحاه الله إلى داود عليه السلام، وسنذكر ترجمة كل واحد من هؤلاء الأنبياء عليهم من الله أفضل الصلاة والسلام عند قصصهم من سورة الأنبياء إن شاء الله وبه الثقة وعليه التكلان .

وقوله تعالى: ﴿ورسلاً قد قصصناهم عليك من قبل ورسلاً لم نقصصهم عليك﴾، أي من قبل هذه الآية، يعني في السور المكية وغيرها وهذه تسمية الأنبياء الذين نص الله على أسمائهم في القرآن وهم: ﴿آدم، وإدريس، ونوح، وهود، وصالح، وإبراهيم، ولوط، وإسماعيل، وإسحق، ويعقوب، ويوسف، وأيوب، وشعيب، وموسى، وهرون، ويونس، وداود، وسليمان، وإلياس، واليسع، وزكريا، ويحيى، وعيسى، وكذا ذو الكفل، عند كثير من المفسرين، وسيدهم محمد ﷺ﴾ وقوله: ﴿ورسلاً لم نقصصهم عليك﴾ أي خلقاً آخرين لم يذكر في القرآن، وقد اختلف في عدة الأنبياء والمرسلين، والمشهور في ذلك حديث أبي ذر الطويل، وذلك فيما رواه ابن مردويه رحمه الله في تفسيره عن أبي ذر قال، قلت: يا رسول الله كم الأنبياء؟ قال: «مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً»، قلت: يا رسول الله كم الرسل منهم؟ قال: «ثلاثمائة وثلاثة عشر، جم غفير»، قلت: يا رسول الله من كان أولهم؟ قال: «آدم»، قلت: يا رسول الله نبي مرسل؟ قال: «نعم خلقه الله بيده ثم نفخ فيه من روحه ثم سواه قبلاً». وقد روي هذا الحديث من وجه آخر بن صحابي آخر، فقال ابن حاتم عن أبي أمامة، قال، قلت: يا نبي الله كم الأنبياء؟ قال: «مائة ألف، وأربعة وعشرون ألفاً، والرسل من ذلك ثلاثمائة وخمسة عشر، جم غفيراً» .

وقوله تعالى: ﴿وكلم الله موسى تكليماً﴾، وهذا تشریف لموسى عليه السلام بهذه الصفة، ولهذا يقال له الكلم، وقد قال الحافظ أبو بكر بن مردويه: جاء رجل إلى أبي بكر بن عياش، فقال: سمعت رجلاً يقرأ ﴿وكلم الله موسى﴾ تكليماً، فقال أبو بكر: ما قرأ هذا إلا كافر. قرأت على الأعمش، وقرأ الأعمش على يحيى بن وثاب، وقرأ يحيى بن وثاب على أبي عبد الرحمن السلمي، وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي على علي بن أبي طالب، وقرأ

(١) قرأ هذا الرجل لفظ الجلالة بالنصب وموسى بالرفع .

علي بن أبي طالب على رسول الله ﷺ : ﴿ وكلم الله موسى تكليماً ﴾ ، وإنما اشتد غضب أبي بكر بن عياش رحمه الله على من قرأ كذلك ، لأنه حَرَفَ لفظ القرآن ومعناه ، وكان هذا من المعتزلة الذين ينكرون أن يكون الله كلم موسى عليه السلام أو يكلم أحداً من خلقه كما روينا عن بعض المعتزلة أنه قرأ على بعض المشايخ ﴿ وكلم الله موسى تكليماً ﴾ ، فقال له : يا ابن اللخناء ! كيف تصنع بقوله تعالى : ﴿ ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه ﴾ ؟ يعني أن هذا لا يحتمل التحريف ولا التأويل . وقد روى الحاكم في مستدرکه وابن مردويه عن ابن مسعود قال ، قال رسول الله ﷺ : « كان على موسى يوم كلمه ربه جبة صوف ، وكساء صوف ، وسراويل صوف ، ونعلان من جلد حمار غير ذكي » .

وقوله تعالى : ﴿ رسلاً مبشرين ومنذرين ﴾ أي يبشرون من أطاع الله ، واتبع رضوانه بالخيرات ، وينذرون من خالف أمره وكذب رسله بالعقاب والعذاب ، وقوله : ﴿ لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيماً ﴾ ، أي أنه تعالى أنزل كتبه وأرسل رسله بالبشارة والندارة ، وبين ما يحبه ويرضاه مما يكرهه ويأباه ، لئلا يبقى لمعتذر عذر ، كما قال تعالى : ﴿ ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسلاً فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى ﴾ ، وكذا قوله : ﴿ ولولا أن تصيبهم مصيبة بما قدمت أيديهم ﴾ الآية ، وقد ثبت في الصحيحين عن ابن مسعود قال ، قال رسول الله ﷺ : « لا أحد أغير من الله ، من أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، ولا أحد أحب إليه المدح من الله عزَّ وجلَّ ، من أجل ذلك مدح نفسه ، ولا أحد أحب إليه العذر من الله ، من أجل ذلك بعث النبيين مبشرين ومنذرين » ، وفي لفظ آخر : « من أجل ذلك أرسل رسله وأنزل كتبه » .

* لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ ۗ وَالْمَلَكُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدَّوْا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلًّا بَعِيدًا ﴿١٦٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۚ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَ كُرُّ الرُّسُولِ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكَ فَطَامِنُوا خَيْرًا لَكُمْ ۗ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧٠﴾

لما تضمن قوله تعالى : ﴿ إنا أوحينا إليك ﴾ إلى آخر السياق إثبات نبوته ﷺ والرد على من أنكر نبوته من المشركين وأهل الكتاب قال الله تعالى : ﴿ لكن الله يشهد بما أنزل إليك ﴾ ، أي وإن كفر به من كفر به ممن كذبك وخالفك ، فالله يشهد لك بأنك رسوله الذي أنزل عليه الكتاب وهو القرآن العظيم الذي : ﴿ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ﴾ ، ولهذا قال : ﴿ أنزله بعلمه ﴾ ، أي فيه علمه الذي أراد أن يطلع العباد عليه من البينات والهدى والفرقان ، وما يحبه الله ويرضاه ، وما يكرهه ويأباه ، وما فيه من العلم بالغيوب من الماضي والمستقبل ، وما فيه من ذكر صفاته تعالى المقدسة التي لا يعلمها نبي مرسل ولا ملك مقرب إلا أن

يعلمه الله به، كما قال تعالى: ﴿ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء﴾ وقال: ﴿ولا يحيطون به علماً﴾ .
 وقال ابن أبي حاتم عن عطاء بن السائب قال: أقرأني أبو عبد الرحمن السلمي القرآن، وكان إذا قرأ عليه
 أحدنا القرآن قال: قد أخذت علم الله، فليس أحد اليوم أفضل منك إلا بعمل، ثم يقرأ قوله: ﴿أنزله يعلمه والملائكة
 يشهدون وكفى بالله شهيداً﴾. قوله: ﴿والملائكة يشهدون﴾ أي بصدق ما جاءك وأوحى إليك وأنزل عليك مع
 شهادة الله تعالى بذلك، ﴿وكفى بالله شهيداً﴾ قال محمد بن إسحاق عن ابن عباس قال: دخل على رسول الله ﷺ
 جماعة من اليهود، فقال لهم: «إني لأعلم والله إنكم لتعلمون أتي رسول الله»، فقالوا: ما نعلم ذلك، فأنزل الله
 عزَّ وجلَّ: ﴿لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه﴾ الآية .

وقوله تعالى: ﴿إن الذين كفروا وصلوا عن سبيل الله قد ضلوا ضللاً بعيداً﴾ أي كفروا في أنفسهم فلم
 يتبعوا الحق، وسعوا في صد الناس عن اتباعه والافتداء به، قد خرجوا عن الحق وضلوا عنه وبعُدوا منه بعداً عظيماً
 شاسعاً، ثم أخبر تعالى عن حكمه في الكافرين بآياته وكتابه ورسوله، الظالمين لأنفسهم بذلك وبالصد عن سبيله،
 وارتكاب مآثمه، وانتهاك محارمه بأنه لا يغفر لهم ﴿ولا يهديهم طريقاً﴾ أي سيلاً إلى الخير ﴿إلا طريق جهنم﴾،
 وهذا استثناء منقطع ﴿خالدين فيها أبداً﴾ الآية .

ثم قال تعالى: ﴿يا أيها الناس قد جاءكم الرسول بالحق، من ربكم فآمنوا خيراً لكم﴾، أي قد جاءكم محمد
 صلوات الله وسلامه عليه بالهدى ودين الحق والبيان الشافي من الله عزَّ وجلَّ، فآمنوا بما جاءكم به واتبعوه يكن
 خيراً لكم، ثم قال: ﴿وإن تكفروا فإن الله ما في السموات والأرض﴾ أي فهو غني عنكم وعن إيمانكم، ولا
 يتضرر بكفركم كما قال تعالى: ﴿وقال موسى إن تكفروا أتم ومن في الأرض جميعاً فإن الله لغني حميد﴾،
 وقال ههنا: ﴿وكان الله عليماً﴾ أي بمن يستحق منكم الهداية فيهديه، وبمن يستحق الغواية فيغويه ﴿حكياً﴾
 أي في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره .

يَتَأَهَّلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ ۗ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ
 وَكَلِمَةٌ أُلْقِيَهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَعَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ۗ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةً ۗ أَنْتَهُمَا خَيْرٌ مِنَ الْكُرْ ۗ إِنَّمَا اللَّهُ
 إِلَهٌُ وَاحِدٌ ۗ سُبْحٰنَهُ ۗ أَنْ يَكُونَ لَهُ ۗ وَلَدٌ ۗ لَهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾

ينهى تعالى أهل الكتاب عن الغلو والاطراء، وهذا كثير في النصارى فإنهم تجاوزوا الحد في عيسى حتى رفعوه
 فوق المترلة التي أعطاه الله إياها، فنقلوه من حيز النبوة إلى أن اتخذوه إلهاً من دون الله يعبدونه كما يعبدونه، بل
 قد غلوا في أتباعه وأشياعه ممن زعم أنه على دينه فادعوا فيهم العصمة، واتبعوهم في كل ما قالوه سواء كان
 حقاً أو باطلاً، أو ضلالاً أو رشاداً، أو صحيحاً أو كذباً، ولهذا قال الله تعالى: ﴿اتخذوا أجبازهم وربانهم أرباباً
 من دون الله﴾ الآية، وقال الإمام أحمد عن ابن عباس عن عمر، أن رسول الله ﷺ قال: «لا تطروني كما
 أطرت النصارى عيسى بن مريم، فإنما أنا عبد، فقولوا عبد الله ورسوله». وهكذا رواه البخاري عن الزهري به

ولفظه: « فإنا أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله »، وقال الإمام أحمد عن أنس بن مالك: أن رجلاً قال: يا محمد، يا سيدنا، وابن سيدنا، وخيرنا، وابن خيرنا، فقال رسول الله ﷺ: « أيها الناس عليكم بقولكم، ولا يستهوينكم الشيطان: أنا محمد بن عبد الله، عبد الله ورسوله، والله ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلني الله عزَّ وجلَّ » تفرد به من هذا الوجه .

وقوله تعالى: ﴿ ولا تقولوا على الله إلا الحق ﴾ أي لا تفتروا عليه وتجعلوا له صاحبة وولداً، تعالى الله عزَّ وجلَّ عن ذلك علواً كبيراً، وتنزه وتقدس وتوحد في سؤده وكبريائه وعظمته، فلا إله إلا هو ولا رب سواه، ولهذا قال: ﴿ إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ﴾ أي إنما هو عبد من عباد الله وخلق من خلقه، قال له كن فكان، ورسول من رسله وكلمته ألقاها إلى مريم أي خلقه بالكلمة التي أرسل بها جبريل عليه السلام إلى مريم فنفض فيها من روحه بإذن ربه عزَّ وجلَّ، فكان عيسى بإذنه عزَّ وجلَّ، وكانت تلك النفخة التي نفخها في جيب درعها، فتزلت - حتى ولجت فرجها - بمتزلة لقاح الأب والأم، والجميع مخلوق لله عزَّ وجلَّ، ولهذا قيل لعيسى: إنه كلمة الله وروح منه، لأنه لم يكن له أب تولد منه، وإنما هو ناشيء عن الكلمة التي قال له بها كن فكان، والروح التي أرسل بها جبريل .

قال الله تعالى: ﴿ ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل، وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام ﴾، وقال تعالى: ﴿ إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون ﴾، وقال تعالى: ﴿ ومريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها ﴾ إلى آخر السورة. وقال تعالى إخباراً عن المسيح: ﴿ إن هو إلا عبد أنعمنا عليه ﴾ الآية، وقال قتادة: ﴿ وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ﴾ هو كقوله: ﴿ كن فيكون ﴾. وقال ابن أبي حاتم، حدثنا أحمد بن سنان الواسطي قال: سمعت شاذ بن يحيى يقول في قول الله: ﴿ وكلمته، ألقاها إلى مريم وروح منه ﴾ قال: ليس الكلمة صارت عيسى، ولكن بالكلمة صار عيسى، وهذا أحسن مما ادعاه ابن جرير في قوله. ﴿ ألقاها إلى مريم ﴾ أي أعلمها بها كما زعمه في قوله: ﴿ إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه ﴾ أي يعلمك بكلمة منه، ويجعل ذلك كقوله تعالى: ﴿ وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب إلا رحمة من ربك ﴾، بل الصحيح أنها الكلمة التي جاء بها جبريل إلى مريم فنفض فيها بإذن الله فكان عيسى عليه السلام، وقال البخاري عن عبادة بن الصامت عن النبي ﷺ قال: « من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، وإن الجنة حق والنار حق، أدخله الله الجنة على ما كان من العمل ». وقوله في الآية والحديث: « وروح منه »، كقوله: ﴿ وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه ﴾ أي من خلقه ومن عنده. وليست (من) للتبغيض كما تقولوه النصارى. عليهم لعائن الله المتتابعة، بل هي لابتداء الغاية كما في الآية الأخرى، وقد قال مجاهد في قوله: ﴿ وروح منه ﴾ أي ورسول منه، وقال غيره: ومحبة منه، والأظهر الأول، وهو أنه مخلوق من روح مخلوقة، وأضيفت الروح إلى الله على وجه التشريف، كما أضيفت الناقة والبيت إلى الله في قوله: ﴿ هذه ناقة الله ﴾، وفي قوله: ﴿ وطهر بيتي للطائفين ﴾، وكما روي في الحديث الصحيح: « فأدخل على ربي في داره »، أضافها إليه إضافة تشريف وهذا كله من قبيل واحد ونمط واحد .

وقوله تعالى: ﴿فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي فصدقوا بأن الله واحد أحد لا ولد له ولا صاحبة، واعلموا وتيقنوا بأن عيسى عبد الله ورسوله، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لثَلَاثَةٍ﴾ أي لا تجعلوا عيسى وأمه مع الله شريكين، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، وهذه الآية والتي في سورة المائدة حيث يقول تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَلَاثٌ ثَلَاثَةٌ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾، وكما قال في آخر السورة المذكورة: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي﴾ الآية. وقال في أولها: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ الآية، والنصارى عليهم لعائن الله من جهلهم ليس لهم ضابط، ولا لكفرهم حد، بل أقوالهم وضلالهم منتشر، فمنهم من يعتقد إلهاً، ومنهم من يعتقد شريكاً، ومنهم من يعتقد ولدأ، وهم طوائف كثيرة لهم آراء مختلفة، وأقوال غير مؤتلفة، ولقد أحسن بعض المتكلمين حيث قال: لو اجتمع عشرة من النصارى لا فترقوا عن أحد عشر قولاً.

ولقد ذكر بعض علمائهم المشاهير عندهم وهو (بترك الاسكندرية) في حدود سنة أربع مائة من الهجرة النبوية، أنهم اجتمعوا المجمع الكبير الذي عقدوا فيه الأمانة الكبيرة التي لهم - وإنما هي الخيانة الحقيرة الصغيرة - وذلك في أيام قسطنطين باني المدينة المشهورة، وأنهم اختلفوا عليه اختلافاً لا ينضب ولا ينحصر، فكانوا أزيد من ألفين أسقفاً، فكانوا أحزاباً كثيرة كل خمسين منهم على مقالة، وعشرون على مقالة، ومائة على مقالة، وسبعون على مقالة وأزيد من ذلك وأنقص، فلما رأى منهم عصابة قد زادوا على الثلثمائة بثمانية عشر نفر وقد توافقوا على مقالة، فأخذها الملك ونصرها وأيدها، وكان فيلسوفاً داهية، ومحقق ما عداها من الأقوال وانتظم دست أولئك الثلثمائة والثانية عشر وبنيت لهم الكنائس، ووضعوا لهم كتباً وقوانين وأحدثوا فيها الأمانة التي يلقونها الولدان من الصغار ليعتقدوها ويعملونهم عليها، وأتباع هؤلاء هم (الملكانية)، ثم إنهم اجتمعوا مجعاً ثانياً فحدث فيهم (اليقونية)، ثم مجعاً ثالثاً فحدث فيهم (النيسطورية) وكل هذه الفرق تثبت الأقاليم الثلاثة في المسيح، ويختلفون في كيفية ذلك وفي اللاهوت والناسوت على زعمهم، هل اتحلوا أو ما اتحلوا، أو امتزجا أو حل فيه؟ على ثلاث مقالات، وكل منهم يكفر الفرقة الأخرى، ونحن نكفر الثلاثة، ولهذا قال تعالى: ﴿انتهوا خيراً لكم﴾ أي يكن خيراً لكم، ﴿إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد﴾ أي تعالى وتقدس عن ذلك علواً كبيراً. ﴿له ما في السموات وما في الأرض وكفى بالله وكيلاً﴾ أي الجميع ملكه وخلقه وجميع ما فيهما عبيده، وهم تحت تديره وتصريفه، وهو وكيل على كل شيء، فكيف يكون له منهم صاحبة. وولد كما قال في الآية الأخرى: ﴿بديع السموات والأرض أنى يكون له ولد﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿وقالوا اتخذ الرحمن ولداً لقد جئتم شيئاً إداً﴾ الآيات.

لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَآتَمَلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا فَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٣﴾

قال عطاء عن ابن عباس قوله: ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ﴾ لن، يستكبر، وقال قتادة: لن يحتشم ﴿المسيح أن يكون

عبداً لله ولا الملائكة المقربون ﴿﴾ ، وقد استدل بعض من ذهب إلى تفضيل الملائكة على البشر بهذه الآية حيث قال : ﴿﴾ ولا الملائكة المقربون ﴿﴾ وليس له في ذلك دلالة ، لأنه إنما عطف الملائكة على المسيح ، لأن الاستنكاف هو الامتناع ، والملائكة أقدر على ذلك من المسيح ، ولهذا قال : ﴿﴾ ولا الملائكة المقربون ﴿﴾ ، ولا يلزم من كونهم أقوى وأقدر على الامتناع أن يكونوا أفضل ، وقيل : إنما ذكروا لأنهم اتخذوا آلهة مع الله كما اتخذ المسيح ، فأخبر تعالى أنهم عبيد من عباده وخلق من خلقه ، كما قال تعالى : ﴿﴾ وقالوا اتخذ الرحمن ولداً سبحانه بل عباد مكرمون ﴿﴾ الآيات ، ولهذا قال : ﴿﴾ ومن يستكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعاً ﴿﴾ أي فيجمعهم إليه يوم القيامة ويفصل بينهم بحكمه العدل ، الذي لا يجوز فيه ولا يحيف ، ولهذا قال : ﴿﴾ فأما الذين آمنوا و عملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله ﴿﴾ ، أي فيعطيهم من الثواب على قدر أعمالهم الصالحة ويزيدهم على ذلك من فضله وإحسانه وسعة رحمته وامتنانه .

وقد روى ابن مردويه عن عبد الله مرفوعاً قال ، قال رسول الله ﷺ : ﴿﴾ فيوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله ﴿﴾ ، أجورهم ، قال : « أدخلهم الجنة » ﴿﴾ ويزيدهم من فضله ﴿﴾ قال : « الشفاعة فيمن وجبت له النار ممن صنع إليهم المعروف في دنياهم » ، وهذا إسناد لا يثبت ، وإذا روي عن ابن مسعود موقوفاً فهو جيد ، ﴿﴾ وأما الذين استنكفوا واستكبروا ﴿﴾ أي امتنعوا عن طاعة الله وعبادته واستكبروا عن ذلك ﴿﴾ فيعذبهم عذاباً أليماً ولا يجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيراً ﴿﴾ كقوله : ﴿﴾ إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين ﴿﴾ أي صاغرين حقيرين ذليلين ، كما كانوا ممتنعين مستكبرين .

يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَهُمْ بَرَهْنٌ مِّن رَّبِّكَ وَأُنزِلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ ۖ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾

يقول تعالى مخاطباً جميع الناس ومخبراً بأنه قد جاءهم منه برهان عظيم ، وهو الدليل القاطع للعدر والحجة المزيلة للشبه ، ولهذا قال : ﴿﴾ وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً ﴿﴾ أي ضياء واضحاً على الحق . قال ابن جريج وغيره : وهو القرآن ﴿﴾ فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به ﴿﴾ أي جمعوا بين مقامي العبادة والتوكل على الله في جميع أمورهم ، وقال ابن جريج : آمنوا بالله واعتصموا بالقرآن ﴿﴾ فسيدخلهم في رحمة منه وفضل ﴿﴾ أي يرحمهم فيدخلهم الجنة ، ويزيدهم ثواباً ومضاعفة ورفعاً في درجاتهم من فضله وإحسانه إليهم ، ﴿﴾ ويهديهم إليه صراطاً مستقيماً ﴿﴾ أي طريقاً واضحاً قصداً قواماً لا اعوجاج فيه ولا انحراف ، وهذه صفة المؤمنين في الدنيا والآخرة ، فهم في الدنيا على منهاج الاستقامة وطريق السلامة في جميع الاعتقادات والعمليات ، وفي الآخرة على صراط الله المستقيم المفضي إلى روضات الجنات ، وفي حديث الحارث الأعور عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : « القرآن صراط الله المستقيم ، وحبل الله المتين » ، وقد تقدم الحديث بتامه في أول التفسير ، ولله الحمد والمنة .

يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلِمَةِ ۚ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وُلْدٌ ۖ وَهُوَ يَتَرَكُ وَهُوَ يَرِثُهَا

إِنْ لَمْ يَكُنْ هَآءَا وَوَلَدٌ فَإِنْ كَانَتَا أَثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلَاثَانِ مِمَّا تَرَكَ^ع وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلَّذَكَرِ مِثْلُ حِظِّ^ع
الْأُنثَيْنِ^ع بَيْنَ اللَّهِ لَكُمْ أَنْ تَضَلُّوا^ع وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٧٦﴾

قال البخاري عن أبي إسحاق قال: سمعت البراء، قال: آخر سورة نزلت براءة، وآخر آية نزلت يستفتونك. وقال الإمام أحمد عن محمد بن المنكدر، قال، سمعت جابر بن عبد الله قال: دخل علي رسول الله ﷺ وأنا مريض لا أعقل، قال: فتوضأ ثم صب عليّ - أو قال صبوا عليه - فعقلت فقلت: إنه لا يرثني إلا كلاله فكيف الميراث؟ فأنزل الله آية الفرائض. وفي بعض الألفاظ فنزلت آية الميراث ﴿يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلاله﴾ الآية^(١). وكان معنى الكلام والله أعلم: يستفتونك عن الكلاله ﴿قل الله يفتيكم﴾ فيها، فدل المذكور على المتروك. وقد تقدم الكلام على الكلاله واشتقاقها، وأنها مأخوذة من الإكليل الذي يحيط بالرأس من جوانبه، ولهذا فسرها أكثر العلماء: بمن يموت وليس له ولد ولا والد. ومن الناس من يقول: الكلاله من لا ولد له كما دلت عليه هذه الآية: ﴿إن امرؤ هلك ليس له ولد﴾، وقد أشكل حكم الكلاله على أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه كما ثبت عنه في الصحيحين أنه قال: ثلاث وددت، أن رسول الله ﷺ كان عهد إلينا فيهن عهداً ننتهي إليه: الجدة، والكلاله، وباب من أبواب الربا^(٢). عن عمر قال سألت رسول الله ﷺ عن الكلاله فقال: «يكفيك آية الصيف» فقال: لأن أكون سألت رسول الله ﷺ عنها أحب إلي من أن يكون لي حمر النعم^(٣). وكان المراد بآية الصيف أنها نزلت في فصل الصيف والله أعلم، ولما أرشده النبي ﷺ إلى تفهمها فإن فيها كفاية، نسي أن يسأل النبي ﷺ عن معناها، ولهذا قال: فلأن أكون سألت رسول الله ﷺ عنها أحب إلي من أن يكون لي حمر النعم.

وقال ابن جرير عن سعيد بن المسيب قال: سأل عمر بن الخطاب النبي ﷺ عن الكلاله، فقال: «أليس قد بين الله ذلك؟» فنزلت: ﴿يستفتونك﴾ الآية. قال قتادة: وذكر لنا أن أبا بكر الصديق قال في خطبته: ألا إن الآية التي نزلت في أول سورة النساء في شأن الفرائض أنزلها الله في الولد والوالد، والآية الثانية أنزلها في الزوج والزوجة والأخوة من الأم، والآية التي ختم بها سورة النساء أنزلها في الإخوة والأخوات من الأب والأم، والآية التي ختم بها سورة الأنفال أنزلها في أولي الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله مما جرت الرحمة من العصبية. قوله تعالى: ﴿إن امرؤ هلك﴾ أي مات، قال الله تعالى: ﴿كل شيء هالك إلا وجهه﴾ كل شيء يفنى ولا يبقى إلا الله عز وجل، كما قال: ﴿كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام﴾، وقوله:

(١) أخرجه الشيخان .

(٢) يعني ما نزل آخر سورة البقرة من آيات الربا وقد نزلت بعد آية آل عمران ﴿لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة﴾ فهل الربا فيهما واحد على القاعدة، أم هو في الأخيرة أعم؟ استشكل عمر رضي الله عنه والجمهور على الثاني واستشكله في إرث الجدة والكلاله أشهر وأظهر .

(٣) قال ابن كثير: وهذا إسناد جيد إلا أن فيه انقطاعاً .

﴿ ليس له ولد ﴾ تمسك به من ذهب إلى أنه ليس من شرط الكلاله انتفاء الوالد، بل يكفي في وجود الكلاله انتفاء الولد، وهو رواية عن عمر بن الخطاب رواها ابن جرير عنه بإسناد صحيح إليه، ولكن الذي يرجع إليه هو قول الجمهور، وقضاء الصديق أنه الذي لا ولد له ولا والد. ويدل على ذلك قوله: ﴿ وله أخت فلها نصف ما ترك ﴾ ولو كان معها أب لم ترث شيئاً لأنه يحجبها بالإجماع، فدل على أنه من لا ولد له بنص القرآن، ولا والد بالنص عند التأمل أيضاً، لأن الأخت لا يفرض لها النصف مع الوالد بل ليس لها ميراث بالكلية .

وقال الإمام أحمد عن زيد بن ثابت أنه سئل عن (زوج وأخت لأب وأم) فأعطى الزوج النصف والأخت النصف، فكلم في ذلك، فقال: حضرت رسول الله ﷺ قضى بذلك. وقد روي عن ابن عباس وابن الزبير أنهما كانا يقولان في الميت ترك بنتاً وأختاً إنه لا شيء للأخت لقوله: ﴿ إن امرؤ هلك ليس له ولد وله أخت فلها نصف ما ترك ﴾ قال فإذا ترك بنتاً فقد ترك ولداً فلا شيء للأخت، وخالفهما الجمهور فقالوا في هذه المسألة للبنت النصف بالفرض، وللأخت النصف الآخر بالتعصيب، بدليل غير هذه الآية، وهذه الآية نصت أن يفرض لها في هذه الصورة، وأما وراثتها بالتعصيب، فلما رواه البخاري عن الأسود، قال: قضى فينا معاذ بن جبل على عهد رسول الله ﷺ النصف للبنت والنصف للأخت .

وفي صحيح البخاري أيضاً عن هزيل بن شرحبيل قال سئل أبو موسى الأشعري عن ابنة وابنة ابن وأخت فقال: للابنة النصف وللأخت النصف وأت ابن مسعود فاستأبني، فسأل ابن مسعود فأخبره بقول أبي موسى فقال: لقد ضللت إذ ما أنا من المهتدين، أقضي فيها بما قضى النبي ﷺ النصف للبنت ولبنت الابن السدس تكلمة الثلثين وما بقي فللأخت، فأتينا أبا موسى فأخبرناه بقول ابن مسعود، فقال: لا تسألوني ما دام هذا الحبر فيكم .

وقوله تعالى: ﴿ وهو يرثها إن لم يكن لها ولد ﴾ أي والأخ يرث جميع مالها إذا ماتت كلاله وليس لها ولد أي ولا والد، لأنها لو كان لها والد لم يرث الأخ شيئاً فإن فرض أن معه من له فرض صرف إليه فرضه كزوج أو أخ من أم، وصرف الباقي إلى الأخ لما ثبت في الصحيحين عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: « ألحقوا الفرائض بأهلها، فما أبقت الفرائض فلاولى رجل ذكر ». وقوله: ﴿ فإن كانتا اثنتين فلهما الثلثان مما ترك ﴾، أي فإن كان لمن يموت كلاله أختان فرض لهما الثلثان وكذا ما زاد على الأختين في حكمهما، ومن ههنا أخذ الجماعة حكم البنتين كما استفيد حكم الأخوات من البنات في قوله: ﴿ فإن كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك ﴾. وقوله: ﴿ وإن كانوا إخوة رجالاً ونساء فللذكر مثل حظ الأنثيين ﴾ هذا حكم العصبات من البنين وبني البنين والإخوة إذا اجتمع ذكورهم وإناثهم أعطى الذكر مثل حظ الأنثيين .

وقوله تعالى: ﴿ بين الله لكم ﴾ أي يفرض لكم فرائضه، ويحد لكم حلوده، ويوضح لكم شرائعه. وقوله: ﴿ أن تصلوا ﴾ أي لثلاث تصلوا عن الحق بعد البيان، ﴿ والله بكل شيء عليم ﴾ أي هو عالم بعواقب الأمور ومصالحها وما فيها من الخير لعباده وما يستحقه كل واحد من القرابات بحسب قربه من المتوفى. وقال ابن جرير عن سعيد ابن المسيب: أن عمر كتب في الجدة والكلالة كتاباً، فكث يستخير الله يقول: اللهم إن علمت فيه خيراً فأمضه، حتى إذا طعن دعا بكتاب فحى ولم يدر أحد ما كتب فيه، فقال: إني كنت كتبت كتاباً في الجدة والكلالة،

وكننت أستخير الله فيه، فرأيت أن أترككم على ما كنتم عليه. قال ابن جرير وقد روي عن عمر رضي الله عنه أنه قال: إني لأستحي أن أخالف فيه أبا بكر، وكان أبو بكر رضي الله عنه يقول: هو ما عدا الولد والوالد، وهذا الذي قاله الصديق عليه جمهور الصحابة والتابعين، وهو مذهب الأئمة الأربعة والفقهاء السبعة وقول علماء الأمصار قاطبة، وهو الذي يدل عليه القرآن كما أرشد الله أنه قد بين ذلك ووضحه في قوله: ﴿يبين الله لكم أن تضلوا والله بكل شيء عليم﴾ والله أعلم.

* * *

(٥) سُورَةُ الْمَائِدَةِ مَدَانِيَةً
وَأَيَّانَهَا عَشْرُونَ وَوَاتِنَا

قال الإمام أحمد عن أسماء بنت يزيد، قالت: إني لآخذة بزمام العضباء، ناقة رسول الله ﷺ، إذ نزلت عليه المائدة كلها، وكادت من ثقلها تدق عضد الناقة. وقال أحمد أيضاً، عن عبد الله بن عمرو، قال: أنزلت على رسول الله ﷺ سورة المائدة وهو راكب على راحلته فلم تستطع أن تحمله، فنزل عنها، وقد روى الترمذي عن عبد الله بن عمرو، قال: آخر سورة أنزلت سورة المائدة والفتح، وقد روي عن ابن عباس أنه قال: آخر سورة أنزلت ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾، وعن جبير بن نفير، قال: حججت، فدخلت على عائشة، فقالت لي: يا جبير تقرأ المائدة؟ فقلت: نعم، فقالت: أما إنها آخر سورة نزلت، فما وجدتم فيها من حلال فاستحلوه، وما وجدتم فيها من حرام فحرموه^(١). ورواه الإمام أحمد عن معاوية بن صالح، وزاد: وسألته عن خلق رسول الله ﷺ، فقالت: القرآن.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَيْمَةٌ ءَلَا مَأْتَلِي عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ
إِنَّ اللَّهَ بِحِكْمٍ مَا يَرِيدُ ﴿١﴾ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحِلُّوا شَعْتِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ
وَلَا ءَامِينَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَفَاؤُنْ
قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ
وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢﴾

قال ابن أبي حاتم عن معن وعوف، أو أحدهما: أن رجلاً أتى عبد الله بن مسعود، فقال: اعهد إلي، فقال:

(١) رواه الحاكم وقال: صحيح على شرط الشيخين.

إذا سمعت الله يقول: ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ فأرעהها سمعك، فإنه خير يأمر به، أو شر ينهى عنه. وعن خيشمة قال: كل شيء في القرآن ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ فهو في التوراة يا أيها المساكين. وكتب رسول الله ﷺ كتاباً لعمرو ابن حزم، حين بعثه إلى اليمن يفقه أهلها ويعلمهم السنة، ويأخذ صدقاتهم، فكتب له كتاباً وعهداً، وأمره فيه بأمره، فكتب: «بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب من الله ورسوله ﴿يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود﴾ عهد من محمد رسول الله ﷺ لعمرو بن حزم حين بعثه إلى اليمن، أمره بتقوى الله في أمره كله، فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون»^(١). وقوله تعالى: ﴿أوفوا بالعقود﴾، قال ابن عباس يعني بالعقود: العهود؛ قال: والعهود: ما كانوا يتعاقدون عليه من الحلف وغيره؛ وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس العهود: يعني ما أحل الله وما حرم، وما فرض وما حد في القرآن كله، ولا تغدروا ولا تنكثوا، ثم شدد في ذلك فقال تعالى: ﴿والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل﴾، إلى قوله: ﴿سوء الدار﴾. وقال الضحاك: ﴿أوفوا بالعقود﴾ قال: ما أحل الله وحرم، وما أخذ الله من الميثاق على من أقر بالإيمان بالنبي والكتاب أن يوفوا بما أخذ الله عليهم من الفرائض من الحلال والحرام، وقال زيد بن أسلم: ﴿أوفوا بالعقود﴾ قال: هي ستة، عهد الله، وعقد الحلف، وعقد الشركة، وعقد البيع، وعقد النكاح، وعقد اليمين. وقد استدل بعض من ذهب إلى أنه لا خيار في مجلس البيع بهذه الآية ﴿أوفوا بالعقود﴾، قال: فهذا يدل على لزوم العقد وثبوته، ويقتضي نفي خيار المجلس، وهذا مذهب أبي حنيفة ومالك، وخالفهما في ذلك الشافعي وأحمد والجمهور، والحجة في ذلك ما ثبت في الصحيحين عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «البيعان بالخيار ما لم يتفرقا»، وفي لفظ آخر للبخاري: «إذا تباع الرجلان فكل واحد منهما بالخيار ما لم يتفرقا»، وهذا صريح في إثبات خيار المجلس المتعقب لعقد البيع، وليس هذا منافياً للزوم العقد، بل هو من مقتضياته شرعاً، فالترامه من تمام الوفاء بالعقود.

وقوله تعالى: ﴿أحلت لكم بهيمة الأنعام﴾ هي الإبل والبقر والغنم، قاله قتادة وغير واحد، قال ابن جرير: وكذلك هو عند العرب، وقد استدل ابن عمر وابن عباس وغير واحد بهذه الآية على إباحة الجنين إذا وجد ميتاً في بطن أمه إذا ذبحت، وقد ورد في ذلك حديث في السنن. عن أبي سعيد قال: قلنا يا رسول الله نحر الناقة ونذبح البقرة أو الشاة، في بطنها الجنين، أنلقيه أم نأكله؟ فقال: «كلوه إن شئتم فإن ذكاته ذكاة أمه»، وقال أبو داود عن جابر بن عبد الله عن رسول الله ﷺ قال: «ذكاة الجنين ذكاة أمه» وقوله: ﴿إلا ما يتلى عليكم﴾ قال ابن عباس: يعني بذلك الميتة والدم ولحم الخنزير، وقال قتادة: يعني بذلك الميتة وما لم يذكر اسم الله عليه، والظاهر - والله أعلم - أن المراد بذلك قوله: ﴿حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به والمنخقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع﴾، فإن هذه وإن كانت من الأنعام، إلا أنها تحرم بهذه العوارض، ولهذا قال: ﴿إلا ما ذكيتم وما ذبح على النصب﴾ يعني منها، فإنه حرام لا يمكن استدراكه وتلاحقه، ولهذا قال تعالى: ﴿أحلت لكم بهيمة الأنعام إلا ما يتلى عليكم﴾ أي إلا ما سيتلى عليكم من تحريم بعضها في بعض الأحوال، والمراد بالأنعام ما تعم الإنسي من الإبل والبقر والغنم، وما يعم الوحشي كالظباء والبقر والحمر،

(١) رواه ابن أبي حاتم وأخرج مثله ابن جرير.

فاستثنى من الإنسي ما تقدم، واستثنى من الوحشي الصيد في حال الإحرام: وقيل المراد، أحللتنا لكم الأنعام إلا ما استثنى منها لمن التزم تحريم الصيد وهو حرام، لقوله: ﴿فمن اضطر غير باغ ولا عاد فإن الله غفور رحيم﴾، أي أبحتنا تناول الميتة للمضطر بشرط أن يكون غير باغ ولا متعد، وهكذا هنا، أي كما أحللتنا الأنعام في جميع الأحوال، فحرموا الصيد في حال الاحرام، فإن الله قد حكم بهذا، وهو الحكم في جميع ما يأمر به وينهى عنه، ولهذا قال الله تعالى: ﴿إن الله يحكم ما يريد﴾ .

ثم قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله﴾ قال ابن عباس: يعني بذلك مناسك الحج، وقال مجاهد: الصفا والمروة، والهدي والبدن من شعائر الله، وقيل: شعائر الله محارمه، أي لا تحلوا محارم الله التي حرمها الله تعالى، ولهذا قال تعالى: ﴿ولا الشهر الحرام﴾ يعني بذلك تحريمه والاعتراف بتعظيمه وترك ما نهى الله عن تعاطيه فيه من الابتداء بالقتال، وتأكيد اجتناب المحارم، كما قال تعالى: ﴿يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير﴾، وقال تعالى: ﴿إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً﴾ الآية، وفي صحيح البخاري: عن أبي بكر أن رسول الله ﷺ قال في حجة الوداع: «إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض. السنة اثنا عشر شهراً منها أربعة حرم، ثلاث متواليات: ذو القعدة وذو الحجة والمحرم، ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان»، وهذا يدل على استمرار تحريمها إلى آخر وقت كما هو مذهب طائفة من السلف. وقال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿ولا الشهر الحرام﴾ يعني لا تستحلوا القتال فيه، واختاره ابن جرير أيضاً، وذهب الجمهور إلى أن ذلك منسوخ وأنه يجوز ابتداء القتال في الأشهر الحرم، واحتجوا بقوله تعالى: ﴿فإذا انسلك الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم﴾ قالوا: فلم يستثن شهراً حراماً من غيره، وقد حكى الإمام أبو جعفر الإجماع على أن الله قد أحل قتال أهل الشرك في الأشهر الحرم وغيرها من شهور السنة .

وقوله تعالى: ﴿ولا الهدي ولا القلائد﴾ يعني لا تتركوا الإهداء إلى البيت الحرام، فإن فيه تعظيم شعائر الله، ولا تتركوا تقليدها في أعناقها لتمييز به عما عداها من الأنعام، وليعلم أنها هدي إلى الكعبة فيجتنبها من يريدها بسوء، وتبعث من يراها على الإتيان بمثلها، فإن من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ولهذا لما حج رسول الله ﷺ بات بذي الحليفة وهو وادي العقيق، فلما أصبح طاف على نسائه وكن تسعاً، ثم اغتسل وتطيب وصلى ركعتين، ثم أشعر هديه وقلده، وأهل للحج والعمرة، وكان هديه إبلاً كثيرة تنيف على الستين من أحسن الأشكال والألوان؛ كما قال تعالى: ﴿ذلك ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب﴾. وقال بعض السلف: إعظامها استحسانها واستسمانها، قال علي بن أبي طالب: أمرنا رسول الله ﷺ أن نستشرف العين والأذن. «رواه أهل السنن»، وقال مقاتل بن حيان قوله: ﴿ولا القلائد﴾ فلا تستحلوها، وكان أهل الجاهلية إذا خرجوا من أوطانهم في غير الأشهر الحرم قلدوا أنفسهم بالشعر والوبر، وتقلد مشركو الحرم من لحاء شجره فيأمنون به. وقوله تعالى: ﴿ولا آمين البيت الحرام يبتغون فضلاً من ربهم ورضواناً﴾ أي ولا تستحلوا قتال القاصدين إلى بيت الله الحرام الذي من دخله كان آمناً، وكذا من قصده طالباً فضل الله، وراغباً في رضوانه فلا تصلوه ولا تمنعوه ولا تهيجوه، قال مجاهد وعطاء في قوله: ﴿يبتغون فضلاً من ربهم﴾ يعني بذلك التجارة، وهذا كما تقدم في قوله: ﴿ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم﴾. وقوله:

﴿ورضواناً﴾ قال ابن عباس: يترضون الله بحجهم، وقد ذكر عكرمة والسدي وابن جرير أن هذه الآية نزلت في (الحطيم بن هند البكري)، كان قد أغار على سرح المدينة، فلما كان من العام المقبل اعتمر إلى البيت، فأراد بعض الصحابة أن يعترضوا في طريقه إلى البيت، فأنزل الله عز وجل: ﴿ولا آمين البيت الحرام يبتغون فضلاً من ربهم ورضواناً﴾^(١).

وقد حكى ابن جرير الإجماع على أن المشرك يجوز قتله إذا لم يكن له أمان، وإن أم البيت الحرام أو بيت المقدس، وأن هذا الحكم منسوخ في حقهم، والله أعلم. فأما من قصده بالإلحاد فيه والشرك عنده والكفر به فهذا يمنع، قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا﴾، ولهذا بعث رسول الله ﷺ عام تسع لما أمر الصديق على الحجج علياً، وأمره أن ينادي على سبيل النياحة عن رسول الله ﷺ ببراءة، وأن لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان. وقال ابن عباس قوله ﴿ولا آمين البيت الحرام﴾: يعني من توجه قبل البيت الحرام، فكان المؤمنون والمشركون يحجون، فهى الله المؤمنين أن يمنعوا أحداً من مؤمن أو كافر، ثم أنزل الله بعدها: ﴿إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله﴾ وقال: ﴿إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر﴾ فنفى المشركين من المسجد الحرام. وقال قتادة في قوله ﴿ولا القلائد ولا آمين البيت الحرام﴾ قال: منسوخ. كان الرجل في الجاهلية إذا خرج من بيته يريد الحج تقلد من الشجر، فلم يعرض له أحد، فإذا رجع تقلد قلادة من شعر، فلم يعرض له أحد^(٢)، وكان المشرك يومئذ لا يصد عن البيت، فأمروا أن لا يقاتلوا في الشهر الحرام ولا عند البيت، فنسخها قوله: ﴿فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم﴾.

وقوله تعالى: ﴿وإذا حللتم فاصطادوا﴾ أي إذا فرغتم من إحرامكم وأحللتم منه، فقد أبحنا لكم ما كان محرماً عليكم في حال الإحرام من الصيد، وهذا أمر بعد الحظر، وقوله: ﴿ولا يجرمنكم شأن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا﴾ أي لا يحملنكم بغض قوم قد كانوا صدوكم عن الوصول إلى المسجد الحرام، وذلك عام الحديدية على أن تعتدوا حكم الله فيهم فتقتصوا منهم ظلماً وعدواناً، بل احكموا بما أمركم الله به من العدل في حق كل أحد، وهذه الآية كما سيأتي من قوله: ﴿ولا يجرمنكم شأن قوم على أن لا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى﴾، وقال بعض السلف: ما عاملت من عصى الله فيك بمثل أن تطيع الله فيه، والعدل به قامت السموات والأرض. وقال ابن أبي حاتم، عن زيد بن أسلم قال: كان رسول الله ﷺ بالحديبية وأصحابه حين صددهم المشركون عن البيت، وقد اشتد ذلك عليهم، فر بهم أناس من المشركين من أهل المشرق يريدون العمرة، فقال

(١) أخرج ابن جرير: أن الحطيم قدم المدينة في عير له يحمل طعاماً فباعه ثم دخل على النبي ﷺ، فبايعه وأسلم، فلما قدم اليامة ارتد عن الإسلام، وخرج في عير له يريد مكة، فتهياً له نفر من المهاجرين والأنصار ليقطعوه في عيره، فأنزل الله هذه الآية.

(٢) ونقل: أن الآية نزلت في الحطيم البكري، وشريح بن ضبيعة القيسي وكانا معتمرين، والحطيم: هو الذي قال فيه الرسول: «دخل بوجه كافر، وخرج بقنا غادر».

أصحاب النبي ﷺ: نصد هؤلاء كما صدنا أصحابهم، فأنزل الله هذه الآية. والشنان: هو البغض، قاله ابن عباس وغيره، وهو مصدر من شنأه أشنؤه شنأاً بالتحريك، وقال ابن جرير: من العرب من يسقط التحريك في شنان فيقول: شنان، ولم أعلم أحداً قرأ بها. ومنه قول الشاعر:

وما العيش إلا ما تحب وتشتهي وإن لام فيه ذو الشنان وقد

وقوله تعالى: ﴿وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان﴾ يأمر تعالى عباده المؤمنين بالمعاونة على فعل الخيرات وهو البر، وترك المنكرات وهو التقوى، وينهاهم عن التناصر على الباطل والتعاون على المآثم والمحارم، قال ابن جرير الإثم: ترك ما أمر الله بفعله، والعدوان مجاوزة ما حد الله في دينكم ومجاوزة ما فرض الله عليكم في أنفسكم وفي غيركم. وقد قال رسول الله ﷺ: «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً»، قيل: يا رسول الله هذا نصرته مظلوماً، فكيف أنصره إذا كان ظالماً؟ قال: «تحجزه وتمنعه من الظلم فذاك نصره»^(١)، وقال أحمد عن يحيى بن وثاب - رجل من أصحاب النبي ﷺ - قال: «المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم أعظم أجراً من الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم». وقال رسول الله ﷺ: «الدال على الخير كفاعله»، وفي الصحيح: «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه إلى يوم القيامة لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من اتبعه إلى يوم القيامة لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً».

حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أَهَلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَفَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّدَةُ وَالنَّطِيجَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبْعُ إِلَّا مَا ذَكَيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَمِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَبْسُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَحْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنَ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَحْمَصَةٍ غَيْرِ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمِهِ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٤﴾

يخبر تعالى عباده خيراً متضمناً النبي عن تعاطي هذه المحرمات من الميتة، وهي مامات من الحيوانات حنفت أنفه من غير ذكاة ولا اصطياد، وما ذاك إلا لما فيها من المضرة، لما فيها من الدم المحتقن، فهي ضارة للدين وللبدن، فلهذا حرمها الله عز وجل، ويستثنى من الميتة السمك فإنه حلال سواء مات بتذكية أو غيرها، لما رواه مالك والترمذي والنسائي عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ سئل عن ماء البحر؟ فقال: «هو الطهور ماؤه، الحل ميتته». وقوله: ﴿والدم﴾ يعني به المسفوح كقوله: ﴿أو دماً مسفوحاً﴾، قال ابن أبي حاتم عن ابن عباس أنه سئل عن الطحال؟ فقال: كلوه. فقالوا: إنه دم، فقال: إنما حرم عليكم الدم المسفوح. وعن عائشة قالت: إنما نهي عن الدم السافح، وقد قال رسول الله ﷺ: «أحل لنا ميتتان ودمان، فأما الميتتان فالسمك والجراد، وأما الدمان فالكبد والطحال»^(٢). وقال ابن أبي حاتم عن أبي أمامة وهو (صدي بن عجلان) قال: بعثني رسول الله ﷺ

(٢) رواه أحمد وابن ماجه والبيهقي عن ابن عمر مرفوعاً.

(١) رواه البخاري وأحمد عن أنس بن مالك.

إلى قومي أدعوهم إلى الله ورسوله وأعرض عليهم شرائع الإسلام، فأتيتهم؛ فبينما نحن كذلك إذ جاءوا بقصعة من دم، فاجتمعوا عليها يأكلونها، فقالوا: هلم يا صدي، فكل، قال قلت: ويحكم إنما أتيتكم من عند من يحرم هذا عليكم، فأقبلوا عليه، قالوا: وما ذاك؟ فتلوت عليهم هذه الآية: ﴿حرمت عليكم الميتة والدم﴾ الآية، وما أحسن ما أنشد الأعشى في قصيدته التي ذكرها ابن إسحاق:

وإياك والميتات لا تقرّبها ولا تأخذن عظماً حديداً فتفصدا

أي لا تفعل فعل الجاهلية، وذلك أن أحدهم كان إذا جاع يأخذ شيئاً محدداً من عظم ونحوه، فيفصد به بغيره أو حيواناً من أي صنف كان، فيجمع ما يخرج منه من الدم فيشربه، ولهذا حرم الله الدم على هذه الأمة.

قوله تعالى: ﴿ولحم الخنزير﴾ يعني إنسيه ووحشيه، واللحم يعم جميع أجزائه حتى الشحم، ولا يحتاج إلى تحذلق «الظاهرية» في جمودهم ههنا، وتعسفهم في الاحتجاج بقوله: ﴿فإنه رجس أو فسقاً﴾ يعنون قوله تعالى: ﴿إلا أن يكون ميتة أو دماً مسفوحاً أو لحم خنزير فإنه رجس﴾ أعادوا الضمير فيما فهموه على الخنزير حتى يعم جميع أجزائه، وهذا بعيد من حيث اللغة، فإنه لا يعود الضمير إلا إلى المضاف دون المضاف إليه، والأظهر أن اللحم يعم جميع الأجزاء، كما هو المفهوم من لغة العرب ومن العرف المطرد. وفي صحيح مسلم عن بريدة بن الخصب الأسلمي رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «من لعب بالنردشير فكأنما صبغ يده في لحم الخنزير ودمه»، فإذا كان هذا التنفير لمجرد اللمس، فكيف يكون التهديد والوعيد الأكيد على أكله والتغذي به؟! وفيه دلالة على شمول اللحم لجميع الأجزاء من الشحم وغيره. وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله حرم بيع الخمر والميتة والخنزير والأصنام»، فقيل: يا رسول الله أرأيت شحوم الميتة فإنها تطلى بها السفن وتدهن بها الجلود ويستصبح بها الناس؟ فقال: «لا، هو حرام». وفي صحيح البخاري من حديث أبي سفيان أنه قال لهرقل ملك الروم: نهانا عن الميتة والدم. وقوله: ﴿وما أهل لغير الله به﴾ أي ما ذبح فذكر عليه اسم غير الله، فهو حرام، لأن الله تعالى أوجب أن تدبج مخلوقاته على اسمه العظيم، فمتى عدل بها عن ذلك، وذكر عليها اسم غيره من صنم أو طاغوت أو وثن أو غير ذلك من سائر المخلوقات، فإنها حرام بالإجماع.

وقوله تعالى: ﴿والمخنقة﴾ وهي التي تموت بالخنق، إما قصداً، وإما اتفاقاً، بأن تتخبل في وثاقتها وتموت به فهي حرام؛ وأما ﴿الموقودة﴾ فهي التي تضرب بشيء ثقيل غير محدد حتى تموت، كما قال ابن عباس وغير واحد: هي التي تضرب بالخشبة حتى يوقدها وتموت، قال قتادة: كان أهل الجاهلية يضربونها بالعصي حتى إذا ماتت أكلوها. وفي الصحيح أن عدي بن حاتم قال، قلت: يا رسول الله إني أرمي بالمعراض الصيد فأصيب، قال: «إذا رميت بالمعراض فخرق، فكله، وإن أصاب بعرضه فإنما هو وقيد فلا تأكله»، ففرق بين ما أصابه بالسهم أو بالزراق ونحوه بحده فأحله، وما أصاب بعرضه فجعله وقيداً لم يحله، وهذا مجمع عليه عند الفقهاء، واختلفوا فيما إذا صدم الجارحة الصيد فقتله بثقله ولم يجرحه على قولين، هما قولان للشافعي رحمه الله: (أحدهما) لا يحل كما في السهم والجامع أن كلا منهما ميت بغير جرح فهو وقيد، (والثاني): أنه يحل لأنه حكم بإباحة ما صاده الكلب ولم يستفصل، فدل على إباحة ما ذكرناه لأنه قد دخل في العموم. (فإن قيل): فلم لا فصل

في حكم الكلب، فقال ما ذكرتم: إن جرحه فهو حلال وإن لم يجرحه فهو حرام؟ (فالجواب): أن ذلك نادر لأن من شأن الكلب أن يقتل بظفره أو نابيه أو بهما معاً، وأما اصطدامه هو والصيد فنادر وكذا قتله إياه بثقله، فلم يحتج إلى الاحتراز من ذلك لندوره، أو لظهور حكمه عند من علم تحريم الميتة والمنخقة والموقوذة والمتردية والنطيحة. وأما السهم والمعراض فتارة يخطيء لسوء رمي راميه أو للهو أو لنحو ذلك، بل خطؤه أكثر من إصابته، فلهذا ذكر كلا من حكميه مفصلاً، والله أعلم. ولهذا لما كان الكلب من شأنه أنه قد يأكل من الصيد ذكر حكم ما إذا أكل من الصيد فقال: «إن أكل فلا تأكل، فإني أخاف أن يكون أمسك على نفسه»، وهذا صحيح ثابت في الصحيحين، وهو أيضاً مخصوص من عموم آية التحليل عند كثيرين، فقالوا: لا يحل ما أكل منه الكلب. حكى ذلك عن أبي هريرة وابن عباس، وإليه ذهب أبو حنيفة وصاحبه وأحمد بن حنبل والشافعي في المشهور عنه، وروى ابن جرير في تفسيره عن ابن عمر وابن عباس: أن الصيد يؤكل وإن أكل منه الكلب، حتى قال سعيد وسلمان وأبو هريرة وغيرهم: يؤكل ولو لم يبق منه إلا بضعة، وإلى ذلك ذهب مالك والشافعي في قوله القديم، وأوماً في الجديد إلى قولين، وقد روى أبو داود بإسناد جيد قوي عن أبي ثعلبة الخشني عن رسول الله ﷺ أنه قال في صيد الكلب: «إذا أرسلت كلبك وذكرت اسم الله فكل وإن أكل منه، وكل ما ردت عليك يدك».

فأما الجوارح من الطيور، فنص الشافعي على أنها كالكلب، فيحرم ما أكلت منه عند الجمهور، ولا يحرم عند الآخرين، واختار المزني من أصحابنا أنه لا يحرم أكل ما أكلت منه الطيور والجوارح، وهو مذهب أبي حنيفة وأحمد، قالوا: لأنه لا يمكن تعليمها كما يعلم الكلب بالضرب ونحوه، وأيضاً فإنها لا تعلم إلا بأكلها من الصيد، فيعفى عن ذلك، وأيضاً فالنص إنما ورد في الكلب لا في الطير، وأما ﴿المتردية﴾ فهي التي تقع من شاهق أو موضع عال فتموت بذلك فلا تحل، قال ابن عباس: المتردية التي تسقط من جبل، وقال قتادة: هي التي تتردى في بئر، وقال السدي: هي التي تقع من جبل أو تتردى في بئر، وأما ﴿النطيحة﴾ فهي التي ماتت بسبب نطح غيرها لها فهي حرام، وإن جرحها القرن وخرج منها الدم ولو من مذبحتها، والنطيحة فعيلة بمعنى مفعولة أي منطوحة، وأكثر ما ترد هذه البنية في كلام العرب بدون تاء التأنيث، فيقولون: عين كحيل، وكف خضيب، ولا يقولون: كف خضبية، ولا عين كحيلة، وأما هذه فقال بعض النحاة إنما استعمل فيها تاء التأنيث لأنها أجريت مجرى الأسماء، كما في قولهم طريقة طويلة، وقال بعضهم: إنما أتى بقاء التأنيث فيها لتدل على التأنيث من أول وهلة، بخلاف عين كحيل وكف خضيب، لأن التأنيث مستفاد من أول الكلام. وقوله تعالى: ﴿وما أكل السبع﴾ أي ما عدا عليها أسد أو فهد أو نمر أو ذئب أو كلب فأكل بعضها فانت بذلك فهي حرام، وإن كان قد سال منها الدم، ولو من مذبحتها، فلا تحل بالإجماع، وقد كان أهل الجاهلية يأكلون ما أفضل السبع من الشاة أو البعير أو البقرة أو نحو ذلك، فحرم الله ذلك على المؤمنين. وقوله: ﴿إلا ما ذكيتم﴾ عائذ على ما يمكن عوده عليه مما انعقد سبب موته، فأمكن تداركه بذكاة وفيه حياة مستقرة، وذلك إنما يعود على قوله: ﴿والمنخقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع﴾.

وقال ابن عباس في قوله ﴿إلا ما ذكيتم﴾ يقول: إلا ما ذبحتم من هؤلاء وفيه روح فكلوه فهو ذكي، وقال ابن أبي حاتم عن علي في الآية قال: إن مصعت بذنبها أو ركضت برجلها أو طرفت بعينها فكل، وقال ابن

جرير، عن علي قال: إذا أدركت ذكاة الموقوذة والمتردية والنطيحة وهي تحرك يداً أو رجلاً فكلها، وهكذا روي عن طاووس والحسن: أن المذكاة متى تحركت بحركة تدل على بقاء الحياة فيها بعد الذبح فهي حلال؛ وهذا مذهب جمهور الفقهاء، وبه قال أبو حنيفة، والشافعي، وأحمد بن حنبل. وقال ابن وهب: سئل مالك عن الشاة التي يخرق جوفها السبع حتى يخرج أمعاؤها؟ فقال مالك: لا أرى أن تذكي، أي شيء يذكي منها. وقال أشهب: سئل مالك عن الضبع يعدو على الكبش فيدق ظهره أترى أن يذكي قبل أن يموت فيؤكل؟ فقال: إن كان قد بلغ السحر فلا أرى أن يؤكل، وإن كان أصاب أطرافه فلا أرى بذلك بأساً، قيل له: وثب عليه فدق ظهره، فقال: لا يعجبني، هذا لا يعيش منه، قيل له: فالذئب يعدو على الشاة فيثقب بطنها ولا يثقب الأمعاء، فقال: إذا شق بطنها فلا أرى أن تؤكل، هذا مذهب مالك رحمه الله؛ وظاهر الآية عام فيما استثناه مالك رحمه الله من الصور التي بلغ الحيوان فيها إلى حالة لا يعيش بعدها، فيحتاج إلى دليل مخصص للآية والله أعلم. وفي الصحيحين عن رافع بن خديج أنه قال، قلت: يا رسول الله إنا لاقو العدو غداً وليس معنا مدي أفنديج بالقبص؟ فقال: « ما أنهر الدم وذكر اسم الله عليه فكلوه ليس السن والظفر. وسأحدثكم عن ذلك: أما السن فعظم، وأما الظفر فدى الحبشة»، وفي الحديث الذي رواه الدارقطني مرفوعاً، وروي عن عمر موقوفاً وهو أصح: « ألا إن الذكاة في الحلق واللبة ولا تعجلوا الأنفس أن تزهق. وفي الحديث الذي رواه أحمد وأهل السنن عن أبي العشاء الدارمي عن أبيه قال، قلت: يا رسول الله أما تكون الذكاة إلا من اللبة والحلق؟ فقال: « لو طعنت في فخذه لأجزأ عنك» وهو حديث صحيح، ولكنه محمول على ما لا يقدر على ذبحه في الحلق واللبة.

وقوله تعالى: ﴿ وما ذبح على النصب ﴾ كانت النصب حجارة حول الكعبة، قال ابن جريج: وهي ثلثائة وستون نصباً، كانت العرب في جاهليتها يذبحون عندها وينضحون ما أقبل منها إلى البيت بدماء تلك الذبائح، ويشرحون اللحم ويضعونه على النصب، فنهى الله المؤمنين عن هذا الصنيع، وحرم عليهم أكل هذه الذبائح التي فعلت عند النصب، حتى ولو كان يذكر عليها اسم الله. فالذبح عند النصب من الشرك الذي حرمه الله ورسوله، وينبغي أن يحمل هذا على هذا، لأنه قد تقدم تحريم ما أهل به لغير الله. وقوله تعالى: ﴿ وأن تستقسموا بالأزلام ﴾ أي حرم عليكم أيها المؤمنون الاستقسام بالأزلام، واحداً زلم، وقد تفتح الزاي فيقال: زلم، وقد كانت العرب في جاهليتها يتعاطون ذلك؛ وهي عبارة عن قدام ثلاثة على أحدها مكتوب إفعال، وعلى الآخر لا تفعل والثالث غفل ليس عليه شيء. ومن الناس من قال: مكتوب على الواحد أمرني ربي، وعلى الآخر نهاني ربي، والثالث غفل ليس عليه شيء، فإذا أجالها فطلع سهم الأمر فعله، أو النهي تركه، وإن طلع الفارغ أعاد، والاستقسام مأخوذ من طلب القسم من هذه الأزلام، هكذا قرر ابن جرير، وعن ابن عباس ﴿ وأن تستقسموا بالأزلام ﴾ قال: والأزلام قدام كانوا يستقسمون بها في الأمور، وذكر محمد بن إسحاق وغيره: أن أعظم أصنام قريش صنم كان يقال له هبل منصوب على بئر داخل الكعبة فيها توضع الهدايا وأموال الكعبة فيه، وكان عنده سبعة أزلام مكتوب فيها ما يتحاكمون فيه مما أشكل عليهم، فما خرج لهم منها رجعوا إليه ولم يعدلوا عنه، وثبت في الصحيحين أن النبي ﷺ لما دخل الكعبة وجد إبراهيم وإسماعيل مصورين فيها، وفي أيديهما الأزلام فقال: « قاتلهم الله، لقد علموا أنهما لم يستقسما بها أبداً»، وفي الصحيحين أن (سراقة بن مالك بن جعشم) لما خرج في طلب النبي ﷺ وأبي بكر وهما

ذاهبان إلى المدينة مهاجرين قال: فاستقسمت بالأزلام هل أضرمهم أم لا فخرج الذي أكره: لا تضرمهم، قال: فعصيت الأزلام، واتبعتم، ثم إنه استقسم بها ثانية، وثالثة، كل ذلك يخرج الذي يكره: لا تضرمهم، وكان كذلك، وكان سراقه لم يسلم إذ ذاك ثم أسلم بعد ذلك .

﴿ ذلكم فسق ﴾ أي تعاطيه فسق وغي وضلالة وجهالة وشرك؛ وقد أمر الله المؤمنين إذا ترددوا في أمورهم أن يستخبروه بأن يعبلوه ثم يسألوه الخيرة في الأمر الذي يريدونه، كما روى الإمام أحمد والبخاري عن جابر بن عبد الله قال: كان رسول الله ﷺ يعلمنا الاستخارة في الأمور كما يعلمنا السورة من القرآن، ويقول: « إذا همَّ أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة، ثم ليقل: اللهم إني أستخيرك بعلمك، وأستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم، فإنك تقدر ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم، وأنت علام الغيوب، اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر - ويسميه باسمه - خير لي في ديني ودنياي ومعاشي وعاقبة أمري - أو قال: عاجل أمري وآجله - فأقدره لي، ويسره لي، ثم بارك لي فيه، اللهم ! وإن كنت تعلم أنه شر لي في ديني ودنياي ومعاشي وعاقبة أمري فأصرفني عنه، واصرفه عني، واقدر لي الخير حيث كان، ثم رَضِّي به » .

وقوله تعالى: ﴿ اليوم يشس الذين كفروا من دينكم ﴾ قال ابن عباس: يعني يشسوا أن يراجعوا دينهم، وكذا روي عن عطاء ومقاتل وعلى هذا المعنى يرد الحديث الثابت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: « إن الشيطان قد يشس أن يعبد المصلون في جزيرة العرب، ولكن بالتحريش بينهم ». ويحتمل أن يكون المراد أنهم يشسوا من مشابهة المسلمين لما تميز به المسلمون من هذه الصفات المخالفة للشرك وأهله، ولهذا قال تعالى آمراً لعباده المؤمنين أن يصبروا ويثبتوا في مخالفة الكفار ولا يخافوا أحداً إلا الله، فقال: ﴿ فلا تخشوهم واخشون ﴾ أي لا تخافوهم في مخالفتكم إياهم واخشوني أنصرمكم عليهم وأؤيدكم وأظفركم بهم، وأشف صدوركم منهم، وأجعلكم فوقهم في الدنيا والآخرة. وقوله: ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً ﴾ هذه أكبر نعم الله تعالى على هذه الأمة حيث أكمل تعالى لهم دينهم، فلا يحتاجون إلى دين غيره، ولا إلى نبي غير نبيهم صلوات الله وسلامه عليه، ولهذا جعله الله تعالى خاتم الأنبياء، وبعثه إلى الإنس والجن، فلا حلال إلا ما أحله ولا حرام إلا ما حرمه، ولا دين إلا ما شرعه، وكل شيء أخبر به فهو حق وصدق لا كذب فيه ولا خلف، كما قال تعالى: ﴿ وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً ﴾ أي صدقاً في الأخبار، وعدلاً في الأوامر والنواهي. فلما أكمل لهم الدين تمت عليهم النعمة، ولهذا قال تعالى: ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً ﴾ أي فارضوه أنتم لانفسكم فإنه الدين الذي أحبه الله ورضيه وبعث به أفضل الرسل الكرام، وأنزل به أشرف كتبه، وقال ابن عباس قوله: ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم ﴾ وهو الإسلام أخبر الله نبيه ﷺ والمؤمنين أنه قد أكمل لهم الإيمان، فلا يحتاجون إلى زيادة أبداً، وقد أتمه الله فلا ينقصه أبداً، وقد رضيه الله فلا يسخطه أبداً. وقال السدي: نزلت هذه الآية يوم عرفة، ولم يتزل بعدها حلال ولا حرام. وقال ابن جرير: مات رسول الله ﷺ بعد يوم عرفة بأحد وثمانين يوماً .

لما نزلت ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم ﴾ وذلك يوم الحج الأكبر بكى عمر، فقال له النبي ﷺ: « ما يبكيك » ؟ قال أبكاني أنا كنا في زيادة من ديننا، فأما إذا أكمل فإنه لم يكمل شيء إلا نقص، فقال: « صدقت »، ويشهد

لهذا المعنى الحديث الثابت: « إن الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً فطوبى للغرباء »، وقال الإمام أحمد: جاء رجل من اليهود إلى عمر بن الخطاب، فقال: يا أمير المؤمنين إنكم تقرأون آية في كتابكم لو علينا معشر اليهود نزلت لاتخذنا ذلك اليوم عيداً. قال: وأي آية؟ قال قوله: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي﴾، فقال عمر: والله إني لأعلم اليوم الذي نزلت على رسول الله ﷺ، والساعة التي نزلت فيها على رسول الله ﷺ، عشية عرفة في يوم الجمعة. ولفظ البخاري قال، قالت اليهود لعمر: إنكم تقرأون آية لو نزلت فينا لاتخذناها عيداً، فقال عمر: إني لأعلم حين أنزلت، وأين أنزلت، وأين رسول الله ﷺ حيث أنزلت: يوم عرفة وأنا والله بعرفة، قال سفيان: وأشك كان يوم الجمعة أم لا ﴿اليوم أكملت لكم دينكم﴾ الآية، وقال كعب: لو أن غير هذه الأمة نزلت عليهم هذه الآية لنظروا اليوم الذي أنزلت فيه عليهم فاتخذوه عيداً يجتمعون فيه، فقال عمر: أي آية يا كعب؟ فقال: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم﴾ فقال عمر: قد علمت اليوم الذي أنزلت، والمكان الذي أنزلت فيه: في يوم الجمعة ويوم عرفة، وكلاهما بحمد الله لنا عيد. وعن علي قال: نزلت هذه الآية على رسول الله ﷺ وهو قائم عشية عرفة ﴿اليوم أكملت لكم دينكم﴾ (١).

وقوله تعالى: ﴿من اضطر في مخمصة غير متجانف لإثم فإن الله غفور رحيم﴾ أي فمن احتاج إلى تناول شيء من هذه المحرمات التي ذكرها الله تعالى لضرورة ألجأته إلى ذلك، فله تناوله، والله غفور رحيم له، لأنه تعالى يعلم حاجة عبده المضطر وافقاره إلى ذلك فيتجاوز عنه ويغفر له. وفي المسند عن ابن عمر مرفوعاً قال، قال رسول الله ﷺ: « إن الله يحب أن تؤتى رخصته كما يكره أن تؤتى معصيته » لفظ ابن حبان؛ وفي لفظ لأحمد: « من لم يقبل رخصة الله كان عليه من الإثم مثل جبال عرفة »، ولهذا قال الفقهاء: قد يكون تناول الميتة واجباً في بعض الأحوال، وهو ما إذا خاف على نفسه ولم يجد غيرها، وقد يكون مندوباً، وقد يكون مباحاً بحسب الأحوال، واختلفوا هل يتناول منها قدر ما يسد به الرمق، أو له أن يشبع أو يشبع ويتروذ؟ على أقوال؛ كما هو مقرر في كتاب الأحكام. وليس من شرط جواز تناول الميتة أن يمضي عليه ثلاثة أيام لا يجد طعاماً، كما قد يتوهمه كثير من العوام وغيرهم، بل متى اضطر إلى ذلك جاز له. وقد قال الإمام أحمد، عن أبي واقد الليثي، أنهم قالوا: يا رسول الله، إنا بأرض تصيينا بها المخمصة فتى تحل لنا بها الميتة؟ فقال: « إذا لم تصطبحوها، ولم تغتبقوا، ولم تحتفتوا بها بقلأ فشانكم بها »، وهو إسناد صحيح على شرط الصحيحين ومعنى قوله: « ما لم تصطبحوها » يعني به الغداء « وما لم تغتبقوا » يعني به العشاء « أو تحتفتوا بقلأ فشانكم بها » فكلوا منها. وقال ابن جرير: يروى هذا الحرف، يعني قوله « أو تحتفتوا » على أربعة أوجه: تحتفتوا بالهمزة، وتحتفتوا: بتخفيف الياء والحاء، وتحتفتوا بتشديد الفاء، وتحتفتوا بالحاء والتخفيف ويحتمل الهمز، كذا رواه في التفسير. (حديث آخر): قال أبو داود عن النجيع العامري أنه أتى رسول الله ﷺ فقال: ما يحل لنا من الميتة؟ قال: « ما طعامكم؟ » قلنا: نصطبح ونغتبق. قال أبو نعم: فسره لي عقبه، قدح غلوة وقدح عشية، قال: ذاك وأبي الجروع، وأحل لهم الميتة على هذه الحال. تفرد به أبو داود، وكأنهم كانوا يصطبحون ويغتبقون شيئاً لا يكفيهم، فأحل لهم الميتة لتمام كفايتهم، وقد يحتج به من

(١) رواه ابن مردويه .

يرى جواز الأكل منها حتى يبلغ حد الشبع ، ولا يتقيد ذلك بسد الرمق والله أعلم . (حديث آخر) : قال ابو داود عن جابر عن سمرة : أن رجلاً نزل الحرة ومعه أهله وولده ، فقال له رجل : إن ناقتي ضلت فإن وجدتها فأمسكها ، فوجدها ولم يجد صاحبها ، فرضت فقالت له امرأته : انحرها ، فأبى ، فنفتت ، فقالت له امرأته : اسلخها حتى تقدد شحمها ولحمها فنأكله ، قال : لا ، حتى أسأل رسول الله ﷺ ، فأثاه فسأله ، فقال : « هل عندك غنى يغنيك » قال : لا ، قال : « فكلوها » ، قال : فجاء صاحبها فأخبره الخبر فقال : هلا كنت نحرتها ؟ قال : استحييت منك . وقد يحتج به من يجوز الأكل والشبع والترود منها مدة يغلب على ظنه الاحتياج إليها ، والله أعلم . وقوله : ﴿ غير متجانف لإثم ﴾ أي متعاط لمعصية الله ، فإن الله قد أباح ذلك له ، وسكت عن الآخر ، كما قال في سورة البقرة : ﴿ فن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه إن الله غفور رحيم ﴾ ، وقد استدل بهذه الآية من يقول بأن العاصي بسفره لا يترخص بشيء من رخص السفر لأن الرخص لا تنال بالمعاصي ، والله أعلم .

يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أَحَلَّ لَهُمْ قُلْ أَحَلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا أَنَّمْ اللَّهُ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٤﴾

لما ذكر تعالى ما حرمه في الآية المتقدمة من الخبائث الضارة لمتناولها ، إما في بدنه أو في دينه أو فيهما ، واستثنى ما استثناه في حالة الضرورة كما قال تعالى : ﴿ وقد فصل لكم ما حرم عليكم إلا ما اضطررتم إليه ﴾ قال بعدها : ﴿ يسألونك ماذا أحل لهم قل أحل لكم الطيبات ﴾ كما في سورة الأعراف في صفة محمد ﷺ أنه يحل لهم الطيبات ، ويحرم عليهم الخبائث . قال ابن أبي حاتم عن عدي بن حاتم وزيد بن مهلهل الطائنين سألا رسول الله ﷺ فقالا : يا رسول الله قد حرم الله الميتة فإذا يحل لنا منها ؟ فتزلت : ﴿ يسألونك ماذا أحل لهم قل أحل لكم الطيبات ﴾ قال سعيد : يعني الذبائح الحلال الطيبة لهم . وقال مقاتل : الطيبات ما أحل لهم من كل شيء أن يصيبوه وهو الحلال من الرزق . وقوله تعالى : ﴿ وما علمتم من الجوارح مكليين ﴾ أي أحل لكم الذبائح التي ذكر اسم الله عليها والطيبات من الرزق وأحل لكم ما صدتموه بالجوارح وهي : (الكلاب والفهود والصقور وأشباهها) ، كما هو مذهب الجمهور من الصحابة والتابعين والأئمة ، ومن قال ذلك ابن عباس في قوله : ﴿ وما علمتم من الجوارح مكليين ﴾ ، وهن الكلاب المعلمة والبازي وكل طير يعلم للصيد ، والجوارح يعني الكلاب الضواري والفهود والصقور وأشباهها . رواه ابن أبي حاتم ، وروي عن الحسن أنه قال : البازي والصقر من الجوارح ، ثم روي عن مجاهد أنه كره صيد الطير كله ، وقرأ قوله : ﴿ وما علمتم من الجوارح مكليين ﴾ ، ثم قال : أخبرنا ابن جريج عن نافع عن ابن عمر قال : أما ما صاد من الطير البازات وغيرها من الطير فما أدركت فهو لك وإلا فلا تطعمه . قلت : والمحكي عن الجمهور أن الصيد بالطيور كالصيد بالكلاب لأنها تكلب الصيد بمخالبها كما تكلمه الكلاب فلا فرق ، وهو مذهب الأئمة الأربعة وغيرهم ، واختاره ابن جرير . واحتج في ذلك بما رواه عن عدي بن حاتم قال : سألت رسول الله ﷺ عن صيد البازي فقال : « ما أمسك عليك فكل » ، وسميت هذه الحيوانات التي يصطاد بهن جوارح : من الجرح وهو الكسب ، كما تقول العرب : فلان جرح أهله خيراً أي كسبهم خيراً ، ويقولون : فلان لا جرح له أي لا

كاسب له؛ وقال الله تعالى: ﴿ويعلم ما جرحتم بالنهار﴾ أي ما كسبتم من خير وشر، وقد ذكر في سبب نزول هذه الآية الشريفة الحديث الذي رواه ابن أبي حاتم عن أبي رافع مولى رسول الله ﷺ: أن رسول الله ﷺ أمر بقتل الكلاب، فقلت، فجاء الناس فقالوا: يا رسول الله ما يحل لنا من هذه الأمة التي أمرت بقتلها؟ فسكت، فأنزله الله: ﴿يسألونك ماذا أحل لهم قل أحل لكم الطيبات وما علمتم من الجوارح مكلبين﴾ الآية، فقال النبي ﷺ: إذا أرسل الرجل كلبه وسمى فأمسك عليه فليأكل ما لم يأكل .

وقوله تعالى: ﴿مكلبين﴾ يحتمل أن يكون حالاً من الضمير في ﴿علمتم﴾ فيكون حالاً من الفاعل، ويحتمل أن يكون حالاً من المفعول وهو ﴿الجوارح﴾ أي وما علمتم من الجوارح في حال كونهن مكلبات للصيد، وذلك أن تقتنصه بمخالبها أو أظفارها، فيستدل بذلك والحالة هذه على أن الجراح إذا قتل الصيد بصدمة وبمخالبه وظفره أنه لا يحل له كما هو أحد قولي الشافعي وطائفة من العلماء، ولهذا قال: ﴿تعلمونهن مما علمكم الله﴾ وهو أنه إذا أرسله استرسل، وإذا أشلاه استشلى، وإذا أخذ الصيد أمسكه على صاحبه حتى يجيء إليه ولا يمسه لنفسه، ولهذا قال تعالى: ﴿فكلوا مما أمسكن عليكم واذكروا اسم الله عليه﴾ فمتى كان الجراح معلماً وأمسك على صاحبه وكان قد ذكر اسم الله عليه وقت إرساله، حل الصيد وإن قتله بالإجماع. وقد وردت السنة بمثل ما دلت عليه هذه الآية الكريمة، كما ثبت في الصحيحين عن عدي بن حاتم قال: قلت يا رسول إني أرسل الكلاب المعلمة وأذكر اسم الله، فقال: «إذا أرسلت كلبك المعلم وذكرت اسم الله فكل ما أمسك عليك». قلت: وإن قتلن؟ قال: «وإن قتلن، ما لم يشركها كلب ليس منها، فإنك إنما سميت على كلبك ولم تسم على غيره». قلت له: فإني أرمي بالمعروض الصيد فأصيب؟ فقال: «إذا رميت بالمعروض فخرق فكله، وإن أصابه بعرض فإنه وقيد فلا تأكله»، وفي لفظ لهما «إذا أرسلت كلبك فاذكر اسم الله فإن أمسك عليك فأدرتته حياً فاذبحه، وإن أدركته قد قتل ولم يأكل منه فكله فإن أخذ الكلب ذكاته»، وفي رواية لهما: «فإن أكل فلا تأكل فإني أخاف أن يكون أمسك على نفسه»، فهذا دليل للجمهور وهو الصحيح من مذهب الشافعي، وهو أنه إذا أكل الكلب من الصيد يحرم مطلقاً ولم يستفصلوا، كما ورد بذلك الحديث، وحكي عن طائفة من السلف أنهم قالوا: لا يحرم مطلقاً.

وقوله تعالى: ﴿فكلوا مما أمسكن عليكم واذكروا اسم الله عليه﴾ أي عند إرساله، كما قال النبي ﷺ لعدي ابن حاتم: «إذا أرسلت كلبك المعلم وذكرت اسم الله فكل ما أمسك عليك»، وفي حديث أبي ثعلبة المخرج في الصحيحين أيضاً: «إذا أرسلت كلبك فاذكر اسم الله، وإذا رميت بسهمك فاذكر اسم الله»، ولهذا اشترط من اشترط من الأئمة، كالإمام أحمد رحمه الله في المشهور عنه التسمية عند إرسال الكلب والرمي بالسهم لهذه الآية، وهذا الحديث، وهذا القول هو المشهور عن الجمهور، أن المراد بهذه الآية الأمر بالتسمية عند الإرسال. كما قال السدي وغيره. وقال ابن عباس في قوله: ﴿واذكروا اسم الله عليه﴾ يقول: إذا أرسلت جارحك فقل باسم الله وإن نسيت فلا حرج، وقال بعض الناس: المراد بهذه الآية الأمر بالتسمية عند الأكل، كما ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ علم ربيبه عمر بن أبي سلمة فقال: «سم الله وكل بيمينك وكل مما يليك». وفي صحيح البخاري عن عائشة أنهم قالوا: يا رسول الله إن قوماً يأتوننا حديث عهدهم بكفر بلحمان لا ندرى أذكر اسم الله عليها أم لا؟ فقال: «سموا الله أتم وكلوا». (حديث آخر): وقال الإمام أحمد عن عائشة: أن رسول

الله ﷺ كان يأكل الطعام في ستة نفر من أصحابه، فجاء أعرابي فأكله بلقمتين، فقال النبي ﷺ: «أما إنه لو كان ذكر اسم الله لكفاكم، فإذا أكل أحدكم طعاماً فلْيذكر اسم الله، فإن نسي أن يذكر اسم الله في أوله فليقل باسم الله أوله وآخره». (حديث آخر): قال الإمام أحمد عن حذيفة، قال: كنا إذا حضرنا مع النبي على طعام لم نضع أيدينا حتى يبدأ رسول الله، فيضع يده، وإنا حضرنا معه طعاماً فجاءت جارية كأنما تدفع، فذهبت تضع يدها في الطعام، فأخذ رسول الله ﷺ بيدها، وجاء أعرابي كأنما يدفع فذهب يضع يده في الطعام فأخذ رسول الله بيده، فقال رسول الله ﷺ: «إن الشيطان يستحل الطعام إذا لم يذكر اسم الله عليه، وإنه جاء بهذه الجارية ليستحل بها فأخذت بيدها، وجاء بهذا الأعرابي ليستحل به فأخذت بيده، والذي نفسي بيده إن يده في يدي مع يديهما»، يعني الشيطان، وكذا رواه مسلم وأبو داود والنسائي. (حديث آخر): روى مسلم وأهل السنن إلا الترمذي عن جابر بن عبد الله عن النبي ﷺ قال: «إذا دخل الرجل بيته فذكر اسم الله عند دخوله وعند طعامه، قال الشيطان: لا مبيت لكم ولا عشاء، وإذا دخل ولم يذكر اسم الله عند دخوله قال الشيطان: أدركتم المبيت، فإذا لم يذكر اسم الله عند طعامه قال: أدركتم المبيت والعشاء» لفظ أبي داود. (حديث آخر): قال الإمام أحمد عن وحشي بن حرب عن أبيه عن جده أن رجلاً قال للنبي ﷺ: إنا نأكل وما نشبع، قال: «فلعلكم تأكلون متفرقين، اجتمعوا على طعامكم، واذكروا اسم الله ببارك لكم فيه»، ورواه أبو داود وابن ماجه.

الْيَوْمَ أَحَلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حَلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَفِّحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٥٥﴾

لما ذكر تعالى ما حرمه على عباده المؤمنين من الخبائث وما أحله لهم من الطيبات قال بعده: ﴿اليوم أحل لكم الطيبات﴾، ثم ذكر حكم ذبائح أهل الكتابين من اليهود والنصارى، فقال: ﴿وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم﴾، قال ابن عباس: يعني ذبائحهم، وهذا أمر مجمع عليه بين العلماء، إن ذبائحهم حلال للمسلمين لأنهم يعتقدون تحريم الذبح لغير الله، ولا يذكرون على ذبائحهم إلا اسم الله، وإن اعتقدوا فيه تعالى ما هو منزله عنه تعالى وتقدس. وقد ثبت في الصحيح عن عبد الله بن مغفل قال: أدلي بجراب من شحم يوم خيبر، فحضنته، وقلت: لا أعطي اليوم من هذا أحداً والتفت فإذا النبي ﷺ يتبسم، وفي الصحيح أن أهل خيبر أهدوا لرسول الله ﷺ شاة مصلية وقد سموا ذراعها، وكان يعجبه الذراع، فتناوله فنهش منه نهشة، فأخبره الذراع أنه مسموم فلفظه، وأثر ذلك في ثنايا رسول الله ﷺ وفي أبهره، وأكل معه منها بشر بن البراء بن معرور فمات، فقتل اليهودية التي سمتها، وكان اسمها زينب. وقال ابن أبي حاتم، عن مكحول قال: أنزل الله: ﴿ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه﴾، ثم نسخه الرب عز وجل ورحم المسلمين فقال: ﴿اليوم أحل لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم﴾ فنسخها بذلك وأحل طعام أهل الكتاب، وفي هذا الذي قاله مكحول رحمه الله نظر، فإنه لا يلزم من إباحته طعام أهل الكتاب إباحة أكل ما لم يذكر اسم الله عليه لأنهم يذكرون اسم الله على ذبائحهم وقرابينهم وهم

متعبدون بذلك، ولهذا لم يبيح ذبائح من عداهم من أهل الشرك ومن شابههم لأنهم لم يذكروا اسم الله على ذبائحهم، بل ولا يتوقفون فيما يأكلونه من اللحم على ذكاة، بل يأكلون الميتة بخلاف أهل الكتابين ومن شاكلهم من السامرة والصائبة ومن يتمسك بدين إبراهيم وشيث وغيرهما من الأنبياء على أحد قولي العلماء، ونصارى العرب كني تغلب وتنوخ وبهرا وجدام ولخم وعاملة ومن أشبههم، لا تؤكل ذبائحهم عند الجمهور .

وقال أبو جعفر بن جرير عن محمد بن عبيدة قال، قال علي: لا تأكلوا ذبائح بني تغلب لأنهم إنما يتمسكون من النصرانية بشرب الخمر، وكذا قال غير واحد من الخلف والسلف. وقوله تعالى: ﴿وطعامكم حل لهم﴾ أي ويحل لكم أن تطعموهم من ذبائحكم، وليس هذا إخباراً عن الحكم عندهم، اللهم إلا أن يكون خبراً عما أمروا به من الأكل من كل طعام ذكر اسم الله عليه، سواء كان من أهل ملتهم أو غيرها، والأول أظهر في المعنى أي ولكم أن تطعموهم من ذبائحكم كما أكلتم من ذبائحهم، وهذا من باب المكافأة والمقابلة والمجازاة، كما ألبس النبي ﷺ ثوبه لعبد الله بن أبي بن سلول حين مات ودفنه فيه، قالوا: لأنه كان قد كسا العباس حين قدم المدينة ثوبه، فجازاه النبي ﷺ بذلك، فأما الحديث الذي فيه: «لا تصحب إلا مؤمناً ولا يأكل طعامك إلا تقي»^(١) فحمول على الندب والاستحباب، والله أعلم .

وقوله تعالى: ﴿والمحصنات من المؤمنات﴾ أي وأحل لكم نكاح الحرائر العفائف من النساء المؤمنات، وذكر هذا توطئة لما بعده وهو قوله تعالى: ﴿والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم﴾ فقيل أراد بالمحصنات الحرائر دون الإماء، حكاه ابن جرير عن مجاهد، وإنما قال مجاهد: المحصنات الحرائر، فيحتمل أن يكون أراد ما حكاه عنه، ويحتمل أن يكون أراد بالحررة العفيفة، كما قال في الرواية الأخرى عنه، وهو قول الجمهور ههنا، وهو الأشبه لثلا يجتمع فيها أن تكون ذمية، وهي مع ذلك غير عفيفة، فيفسد حالها بالكلية ويتحصل زوجها على ما قيل في المثل: «حشفاً وسوء كيله». والظاهر من الآية أن المراد من المحصنات: العفيفات عن الزنا كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿محصنات غير مسافحات ولا متخذات أخدان﴾؛ وقد كان عبد الله بن عمر لا يرى الترويج بالنصرانية، ويقول: لا أعلم شركاً أعظم من أن تقول إن ربها عيسى، وقد قال الله تعالى: ﴿ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن﴾ الآية. وقال ابن أبي حاتم عن ابن عباس: نزلت هذه الآية ﴿ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن﴾ قال: فحجز الناس عنهن حتى نزلت الآية التي بعدها: ﴿والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم﴾ فنكح الناس نساء أهل الكتاب، وقد تزوج جماعة من الصحابة من نساء النصارى ولم يروا بذلك بأساً أخذاً بهذه الآية الكريمة ﴿والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم﴾، فجعلوا هذه مخصصة للتي في سورة البقرة ﴿ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن﴾ إن قيل بدخول الكتابيات في عمومها، وإلا فلا معارضة بينها وبينها لأن أهل الكتاب قد انفصلوا في ذكرهم عن المشركين في غير موضع، كقوله تعالى: ﴿لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البينة﴾، وقوله: ﴿إذا آتيتموهن أجورهن﴾ أي مهورهن، أي كما هن محصنات عفائف، فابدلوا هن المهور عن طيب نفس. وقد أفتى جابر بن عبد الله وإبراهيم النخعي والحسن البصري: بأن الرجل إذا

(١) أخرجه الترمذي وأبو داود عن أبي سعيد .

نكح امرأة فزنت قبل دخوله بها أنه يفرق بينهما، وترد عليه ما بذل لها من المهر، رواه ابن جرير عنهم .

وقوله تعالى: ﴿محصنين غير مسافحين ولا متخذي أخدان﴾. فكما شرط الإحصان في النساء، وهي العفة عن الزنا، كذلك شرطها في الرجال، وهو أن يكون الرجل أيضاً محصناً عفيفاً، ولهذا قال غير مسافحين، وهم الزناة الذين لا يرتدعون عن معصية ولا يردون أنفسهم عن مجرماتهم ﴿ولا متخذي أخدان﴾ أي ذوي العشيقات الذين لا يفعلون إلا معهن، ولهذا ذهب الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله إلى أنه لا يصح نكاح المرأة البغي حتى تتوب، وما دامت كذلك لا يصح تزويجها من رجل عفيف، وكذلك لا يصح عنده عقد الرجل الفاجر على عفيفة حتى يتوب ويقطع عما هو فيه من الزنا لهذه الآية، وللحديث: « لا ينكح الزاني المجلود إلا مثله »، وقال ابن جرير عن الحسن قال، قال عمر بن الخطاب: لقد هممت أن لا أدع أحداً أصاب فاحشة في الإسلام أن يتزوج محصنة، فقال له أبي بن كعب: يا أمير المؤمنين الشرك أعظم من ذلك، وقد يقبل منه إذا تاب، وسيأتي الكلام على هذه المسألة مستقصى عند قوله: ﴿الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة﴾ ولهذا قال تعالى ههنا: ﴿ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله وهو في الآخرة من الخاسرين﴾ .

يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنْكُمْ مِنَ الْغَايِبِ أَوْ لَمْ تُسَمِّمُوا الْمَاءَ فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَٰكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾

قال كثيرون من السلف في قوله تعالى: ﴿إذا قمتم إلى الصلاة﴾ يعني وأنتم محدثون، وقال آخرون إذا قمتم من النوم إلى الصلاة وكلاهما قريب. وقال آخرون: بل المعنى أعم من ذلك، فالآية أمرة بالوضوء عند القيام إلى الصلاة ولكن هو في حق المحدث واجب، وفي حق المتطهر ندب، وكان النبي ﷺ يتوضأ عند كل صلاة، فلما كان يوم الفتح توضأ ومسح على خفيه وصلى الصلوات بوضوء واحد، فقال له عمر: يا رسول الله إنك فعلت شيئاً لم تكن تفعله، قال: «إني عمدأ فعلته يا عمر» رواه مسلم وأهل السنن .

وقال ابن جرير عن الفضل بن المبرق قال: رأيت جابر بن عبد الله يصلي الصلوات بوضوء واحد، فإذا بال أو أحدث توضأ ومسح بفضله طهوره الخفين، فقلت: أبا عبد الله أشيء تصنعه برأيك؟ قال: بل رأيت النبي ﷺ يصنعه فأنا أصنعه كما رأيت رسول الله يصنعه، وفي فعل ابن عمر ومداومته على إسباغ الوضوء لكل صلاة دلالة على استحباب ذلك كما هو مذهب الجمهور .

وكان علي رضي الله عنه يتوضأ عند كل صلاة ويقراً هذه الآية: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة﴾ الآية. وقال ابن جرير عن أنس قال: توضأ عمر بن الخطاب وضوءاً فيه تجوز خفيفاً فقال: هذا وضوء من لم

يحدث، وهذا إسناد صحيح. وقال محمد بن سيرين: كان الخلفاء يتوضأون لكل صلاة، أما مشروعيته استحباباً فقد دلت السنة على ذلك، فعن أنس بن مالك قال: كان النبي ﷺ يتوضأ عند كل صلاة، قال: قلت: فأتتم كيف كنتم تصنعون؟ قال: كنا نصلي الصلوات كلها بوضوء واحد ما لم نحدث. وقد رواه البخاري وأهل السنن. وقال ابن جرير عن ابن عمر قال، قال رسول الله ﷺ: «من توضأ على طهر كتب له عشر حسنات».

وقال ابن جرير، وقد قال قوم: إن هذه الآية نزلت إعلماً من الله أن الوضوء لا يجب إلا عند القيام إلى الصلاة دون غيرها من الأعمال، وذلك لأنه عليه السلام كان إذا أحدث امتنع من الأعمال كلها حتى يتوضأ، وعن عبد الله بن علقمة بن وقاص عن أبيه قال: كان رسول الله ﷺ إذا أراق البول نكلمه فلا يكلمنا ونسلم عليه فلا يرد علينا، حتى نزلت آية الرخصة: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة﴾ الآية، وقال أبو داود عن عبد الله بن عباس: أن رسول الله ﷺ خرج من الخلاء فقدم إليه طعام فقالوا: ألا تأتيك بوضوء؟ فقال: «إنما أمرت بالوضوء إذا قمت إلى الصلاة». وقوله: ﴿فاغسلوا وجوهكم﴾ قد استدلت طائفة من العلماء بقوله تعالى: ﴿إذا قمتم إلى الصلاة فاعسلوا وجوهكم﴾ على وجوب النية في الوضوء، لأن تقدير الكلام: إذا قمتم إلى الصلاة فاعسلوا وجوهكم لها، كما تقول العرب إذا رأيت الأمير فقم، أي له. وقد ثبت في الصحيحين حديث: «الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى»، ويستحب قبل غسل الوجه أن يذكر اسم الله تعالى على وضوئه، لما ورد في الحديث من طرق جيدة عن جماعة من الصحابة، عن النبي ﷺ أنه قال: «لا وضوء لمن لم يذكر اسم الله عليه»، ويستحب أن يغسل كفيه قبل إدخالهما في الإناء، ويتأكد ذلك عند القيام من النوم، لما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إذا استيقظ أحدكم من نومه فلا يدخل يده في الإناء قبل أن يغسلها ثلاثاً، فإن أحدكم لا يدري أين باتت يده». وحد الوجه عند الفقهاء ما بين منابت شعر الرأس، ولا اعتبار بالصلع ولا بالغم إلى منتهى اللحيين والذقن طولاً، ومن الأذن إلى الأذن عرضاً، ويستحب للمتوضئ أن يخلل لحيته إذا كانت كثيفة.

قال أبو داود عن أنس بن مالك: أن رسول الله ﷺ كان إذا توضأ أخذ كفاً من ماء فأدخله تحت حنكه يخلل به لحيته، وقال: «هكذا أمرني به ربي عز وجل»، قال البيهقي: وروينا في تحليل اللحية عن عمار وعائشة وأم سلمة عن النبي ﷺ، وروينا في الرخصة في تركه عن ابن عمر والحسن بن علي، وقد ثبت عن النبي ﷺ من غير وجه في الصحاح وغيرها أنه كان إذا توضأ تمضمض واستنشق، فاختلف الأئمة في ذلك، هل هما واجبان في الوضوء والغسل كما هو مذهب أحمد بن حنبل رحمه الله، أو مستحبان فيما كما هو مذهب الشافعي ومالك، أو يجبان في الغسل دون الوضوء، كما هو مذهب أبي حنيفة، أو يجب الاستنشاق دون المضمضة كما هو رواية عن الإمام أحمد، لما ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «من توضأ فليستنشق»، وفي رواية: «إذا توضأ أحدكم فليجعل في منخريه من الماء ثم لينثر» والانتثار هو المبالغة في الاستنشاق.

وقال الإمام أحمد عن ابن عباس: أنه توضأ فغسل وجهه، أخذ غرفة من ماء فتمضمض بها واستنثر، ثم أخذ غرفة فجعل بها هكذا، يعني أضافها إلى يده الأخرى فغسل بها وجهه، ثم أخذ غرفة من ماء فغسل بها يده

اليمنى، ثم أخذ غرفة من ماء فغسل بها يده اليسرى، ثم مسح رأسه، ثم أخذ غرفة من ماء، ثم رش على رجله اليمنى حتى غسلها، ثم أخذ غرفة من ماء فغسل بها رجله اليسرى، ثم قال: هكذا رأيت رسول الله ﷺ، يعني يتوضأ. ورواه البخاري. وقوله: ﴿وأيديكم إلى المرافق﴾ أي مع المرافق كما قال تعالى: ﴿ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم إنه كان حوباً كبيراً﴾. ويستحب للمتوضئ أن يشرع في العضد فيغسله مع ذراعيه، لما روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال، قال رسول الله ﷺ: «إن أمتي يدعون يوم القيامة غراً محجلين من آثار الوضوء، فمن استطاع منكم أن يطيل غرته فليفعل». وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال، سمعت خليلي ﷺ يقول: «تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء».

وقوله تعالى: ﴿وامسحوا برؤوسكم﴾ اختلفوا في هذه الباء هل هي للإلصاق، وهو الأظهر، أو للتبعيض؟ وفيه نظر على قولين؛ ومن الأصوليين من قال: هذا مجمل فليرجع في بيانه إلى السنة. وقد ثبت في الصحيحين عن عمرو بن يحيى المازني عن أبيه أن رجلاً قال لعبد الله بن زيد بن عاصم - وهو جد عمرو بن يحيى، وكان من أصحاب النبي ﷺ - هل تستطيع أن تريني كيف كان رسول الله ﷺ يتوضأ؟ فقال عبد الله بن زيد: نعم، فدعا بوضوء فأفرغ على يديه فغسل يديه مرتين مرتين، ثم مضمض واستنشق ثلاثاً وغسل وجهه ثلاثاً، ثم غسل يديه مرتين إلى المرفقين، ثم مسح رأسه بيديه فأقبل بهما وأدبر، بدأ بمقدم رأسه ثم ذهب بهما إلى قفاه، ثم ردهما حتى رجع إلى المكان الذي بدأ منه، ثم غسل رجليه. وروى أبو داود عن معاوية والمقداد بن معد يكره في صفة وضوء رسول الله ﷺ مثله؛ ففي هذه الأحاديث دلالة لمن ذهب إلى وجوب تكميل مسح جميع الرأس كما هو مذهب الإمام مالك وأحمد بن حنبل، لا سيما على قول من زعم أنها خرجت مخرج البيان لما أجمل في القرآن. وقد ذهب الحنفية إلى وجوب مسح ربيع الرأس وهو مقدار الناصية، وذهب أصحابنا إلى أنه إنما يجب ما يطلق عليه اسم مسح، ولا يتقدر ذلك بحد، بل لو مسح بعض شعرة من رأسه أجزاء، لحديث المغيرة بن شعبة قال: تخلف النبي ﷺ فتخلفت معه، فلما قضى حاجته قال: هل معك ماء؟ فأتيته بمطهرة فغسل كفيه ووجهه ثم ذهب يحسر عن ذراعيه فضاقت كمامة الجبة، فأخرج يديه من تحت الجبة وألقى الجبة على منكبيه، فغسل ذراعيه ومسح بناصرته، وعلى العمامة وعلى خفيه. وذكر باقي الحديث وهو في صحيح مسلم وغيره، ثم اختلفوا في أنه هل يستحب تكرار مسح الرأس ثلاثاً كما هو المشهور من مذهب الشافعي، أو إنما يستحب مسحة واحدة كما هو مذهب أحمد بن حنبل ومن تابعه لحديث حمران بن أبان قال: رأيت عثمان بن عفان توضأ فأفرغ على يديه ثلاثاً فغسلهما، ثم تمضمض واستنشق ثم غسل وجهه ثلاثاً، ثم غسل يده اليمنى إلى المرفق ثلاثاً ثم غسل اليسرى مثل ذلك، ثم مسح برأسه ثم غسل قدمه اليمنى ثلاثاً، ثم اليسرى ثلاثاً مثل ذلك، ثم قال: رأيت رسول الله ﷺ توضأ نحو وضوئي هذا، ثم قال: «من توضأ نحو وضوئي هذا، ثم صلى ركعتين لا يحدث فيهما نفسه غفر له ما تقدم من ذنبه» أخرجه البخاري ومسلم في الصحيحين. وفي سنن أبي داود عن عثمان في صفة الوضوء، ومسح برأسه مرة واحدة، واحتج من استحبه تكرار مسح الرأس بعموم الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه عن عثمان رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ توضأ ثلاثاً ثلاثاً. وقال أبو داود عن حمران قال: رأيت عثمان بن عفان توضأ فذكر نحوه، ولم يذكر المضمضة والاستنشاق، قال فيه: ثم مسح رأسه ثلاثاً، ثم غسل رجليه ثلاثاً، ثم قال

رأيت رسول الله ﷺ توضأ هكذا، وقال: «من توضأ هكذا كفاه» تفرد به أبو داود، ثم قال: وأحاديث عثمان في الصحاح تدل على أنه مسح الرأس مرة واحدة .

وقوله تعالى: ﴿ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ ﴾ قرئ ﴿ وَأَرْجُلَكُمْ ﴾ بالنصب عطفًا على ﴿ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ ﴾ رجعت إلى الغسل وهذه قراءة ظاهرة في وجوب الغسل، كما قاله السلف. ومن ههنا ذهب من ذهب إلى وجوب الترتيب في الوضوء كما هو مذهب الجمهور، خلافاً لأبي حنيفة حيث لم يشترط الترتيب، بل لو غسل قدميه ثم مسح رأسه وغسل يديه ووجهه أجزاء ذلك؛ لأن الآية أمرت بغسل هذه الأعضاء، والواو لا تدل على الترتيب. قال بعضهم: لما ذكر الله تعالى هذه الصفة في هذه الآية على هذا الترتيب، فقطع النظر عن النظر، وأدخل الممسوح بين المغسولين دل ذلك على إرادة الترتيب، وأما القراءة الأخرى، وهي قراءة من قرأ ﴿ وَأَرْجُلَكُمْ ﴾ بالخفض، فقد احتج بها الشيعة في قولهم بوجوب مسح الرجلين لأنها عندهم معطوفة على مسح الرأس. وإنما جاءت هذه القراءة بالخفض إما على المجاورة وتناسب الكلام، كما في قول العرب: جحر ضب خرب، وكقوله تعالى: ﴿ عَلَيْهِمُ ثِيَابُ خَضِرٍ رَشَاتٍ ﴾ وهذا ذائع شائع في لغة العرب سائغ؛ ومنهم من قال: هي محمولة على مسح القدمين إذا كان عليهما الخفان، قال الشافعي رحمه الله، ومنهم من قال: هي دالة على مسح الرجلين. ولكن المراد بذلك الغسل الخفيف كما وردت به السنة. ועל كل تقدير فالواجب غسل الرجلين فرضاً لا بد منه للآية والأحاديث التي سنوردها، ومن أحسن ما يستدل به على أن المسح يطلق على الغسل الخفيف ما رواه الحافظ البيهقي عن علي ابن أبي طالب أنه صلى الظهر، ثم قعد في حوائج الناس في رحبة الكوفة حتى حضرت صلاة العصر، ثم أتى بكوز من ماء، فأخذ منه حفنة واحدة فمسح بها وجهه ويديه ورأسه ورجليه، ثم قام فشرب فضلته وهو قائم، ثم قال: إن ناساً يكرهون الشرب قائماً، وإن رسول الله ﷺ صنع كما صنعت، وقال: «هذا وضوء من لم يحدث»، رواه البخاري في الصحيح ببعض معناه. ومن أوجب من الشيعة مسحهما كما يمسح الخف فقد ضل وأضل، وكذا من جوز مسحهما وجوز غسلهما فقد أخطأ أيضاً، ومن نقل عن أبي جعفر بن جرير أنه أوجب غسلهما للأحاديث وأوجب مسحهما للآية فلم يحقق مذهبه في ذلك، فإن كلامه في تفسيره إنما يدل على أنه أراد أنه يجب ذلك الرجلين من دون سائر أعضاء الوضوء لأنهما يليان الأرض والطين وغير ذلك، فأوجب ذلكهما ليذهب ما عليهما، ولكنه عبر عن ذلك بالمسح، فاعتقد من لم يتأمل كلامه أنه أراد وجوب الجمع بين غسل الرجلين ومسحهما فحكاها من حكاها كذلك؛ ولهذا يستشكله كثير من الفقهاء وهو معذور، فإنه لا معنى للجمع بين المسح والغسل سواء تقدمه أو تأخر عليه لاندرجاه فيه، وإنما أراد الرجل ما ذكرته، والله أعلم. ثم تأملت كلامه أيضاً فإذا هو يحاول الجمع بين القراءتين في قوله: ﴿ وَأَرْجُلَكُمْ ﴾ خفضاً على المسح وهو كذلك، ونصباً على الغسل فأوجبهما أخذاً بالجمع بين هذه وهذه .

(ذكر الأحاديث الواردة في غسل الرجلين وأنه لا بد منه)

قد تقدم في حديث أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ غسل الرجلين في وضوئه إما مرة وإما مرتين أو ثلاثاً على اختلاف رواياتهم، وفي حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله ﷺ

توضأ فغسل قدميه ثم قال: « هذا وضوء لا يقبل الله الصلاة إلا به ». وفي الصحيحين عن عبد الله بن عمرو قال: تخلف عنا رسول الله ﷺ في سفرة سافرناها فأدركنا، وقد أرهقتنا الصلاة: صلاة العصر، ونحن نتوضأ، فجعلنا نمسح على أرجلنا، فنأدى بأعلى صوته: « أسبغوا الوضوء ويل للأعقاب من النار »، وفي رواية: « ويل للأعقاب وبطون الأقدام من النار »، رواه البيهقي والحاكم. وقال الإمام أحمد عن جابر بن عبد الله قال: رأى النبي ﷺ في رجل رجلٍ مثل الدرهم لم يغسله فقال: « ويل للأعقاب من النار ». وقال ابن جرير عن أبي أمامة: أن رسول الله ﷺ أبصر يوماً يصلون وفي عقب أحدهم أو كعب أحدهم مثل موضع الدرهم أو موضع الظفر لم يمسه الماء فقال: « ويل للأعقاب من النار »، قال: فجعل الرجل إذا رأى في عقبه شيئاً لم يصبه الماء أعاد وضوءه. ووجه الدلالة من هذه الأحاديث ظاهر، وذلك أنه لو كان فرض الرجلين مسحهما أو أنه يجوز ذلك فيهما لما تواعد على تركه، لأن المسح لا يستوعب جميع الرجل بل يجري فيه ما يجري في مسح الخف، وهكذا وجه هذه الدلالة على الشيعة الإمام أبو جعفر بن جرير رحمه الله تعالى، وقد روى مسلم في صحيحه عن عمر بن الخطاب: أن رجلاً توضأ فترك موضع ظفر على قدمه فأبصره النبي ﷺ وقال: « ارجع فأحسن وضوءك ». وقال الإمام أحمد عن خالد بن معدان عن بعض أزواج النبي ﷺ أنه رأى رجلاً يصلي وفي ظهر قدمه لمعة قدر الدرهم لم يصبها الماء فأمره رسول الله ﷺ أن يعيد الوضوء. ورواه أبو داود وزاد « والصلاة » وهذا إسناد جيد قوي صحيح، والله أعلم.

وقال الإمام أحمد، قال أبو أمامة: حدثنا عمرو بن عبسة، قال، قلت: يا رسول الله أخبرني عن الوضوء؟ قال: « ما منكم من أحد يقرب وضوءه ثم يتمضمض ويستنشق ويتنثر، إلا خرت خطايا من فمه وخياشيمه مع الماء حين يتنثر، ثم يغسل وجهه كما أمره الله إلا خرت خطايا وجهه من أطراف لحيته مع الماء، ثم يغسل يديه إلى المرفقين إلا خرت خطايا يديه من أطراف أنامله، ثم يمسخ رأسه إلا خرت خطايا رأسه من أطراف شعره مع الماء، ثم يغسل قدميه إلى الكعبين كما أمره الله إلا خرت خطايا قدميه من أطراف أصابعه مع الماء ثم يقوم فيحمد الله ويثني عليه بالذي هو له أهل، ثم يركع ركعتين إلا خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه ». قال أبو أمامة: يا عمرو انظر ما تقول، سمعت هذا من رسول الله ﷺ، أيعطى هذا الرجل كله في مقامه؟ فقال عمرو بن عبسة: يا أبا أمامة لقد كبرت سني، وروق عظمي، واقترب أجلي، وما بي حاجة أن أكذب على الله وعلى رسول الله ﷺ، لو لم أسمع من رسول الله ﷺ إلا مرة أو مرتين أو ثلاثاً، لقد سمعته سبع مرات أو أكثر من ذلك، وهذا إسناد صحيح، وهو في صحيح مسلم من وجه آخر، وفيه: ثم يغسل قدميه كما أمره الله فدل على أن القرآن يأمر بالغسل، وهكذا روي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: اغسلوا القدمين إلى الكعبين كما أمرتم، وقد روى أبو داود عن أوس بن أبي أوس، قال: رأيت رسول الله ﷺ أتى سباطة قوم فبال وتوضأ ومسح على نعليه وقدميه. وقد رواه ابن جرير من طريق شعبة ثم قال: وهذا محمول على أنه توضأ كذلك وهو غير محدث، إذ كان غير جائز أن تكون فرائض الله وسنن رسوله متنافية متعارضة، وقد صح عنه ﷺ الأمر بعموم غسل القدمين في الوضوء بالماء بالنقل المستفيض القاطع عذر من انتهى إليه وبلغه، ولما كان القرآن آمراً بغسل الرجلين كما في قراءة النصب، وكما هو الواجب في حمل قراءة الخفض عليها توهم بعض السلف أن هذه الآية ناسخة لرخصة المسح على الخفين، وقد روي ذلك عن علي بن أبي طالب، ولكن لم يصح إسناده، ثم الثابت عنه خلافه وليس كما

زعموه، فإنه قد ثبت أن النبي ﷺ مسح على الخفين بعد نزول هذه الآية الكريمة. وقال الإمام أحمد عن جرير ابن عبد الله البجلي قال: أنا أسلمت بعد نزول المائدة، وأنا رأيت رسول الله ﷺ يمسح بعدما أسلمت؛ وفي الصحيحين عن همام قال: بال جرير ثم توضأ ومسح على خفيه فقيل: تفعل هذا؟ فقال: نعم، رأيت رسول الله ﷺ بال ثم توضأ ومسح على خفيه. قال الأعمش، قال إبراهيم: فكان يعجبهم هذا الحديث لأن إسلام جرير كان بعد نزول المائدة، لفظ مسلم. وقد ثبت بالتواتر عن رسول الله ﷺ مشروعية المسح على الخفين قولاً منه وفعلاً، وقد خالفت الروافض في ذلك بلا مستند بل يجهل وضلال، مع أنه ثابت في صحيح مسلم من رواية أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب رضي الله عنه، كما ثبت في الصحيحين عنه عن النبي ﷺ عن نكاح المتعة وهم يستيحيونها، وكذلك هذه الآية الكريمة دالة على وجوب غسل الرجلين مع ما ثبت بالتواتر من فعل رسول الله ﷺ على وفق ما دلت عليه الآية الكريمة، وهم مخالفون لذلك كله وليس لهم دليل صحيح في نفس الأمر والله الحمد، وهكذا خالفوا الأئمة والسلف في الكعبين اللذين في القدمين، فعندهم أنهما في ظهر القدم فعندهم في كل رجل كعب، وعند الجمهور أن الكعبين هما العظمان الناتان عند مفصل الساق والقدم. قال الربيع، قال الشافعي: لم أعلم مخالفاً في أن الكعبين اللذين ذكرهما الله في كتابه في الوضوء هما الناتان، وهما مجمع مفصل الساق والقدم هذا لفظه.

قوله تعالى: ﴿وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيداً طيباً فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه﴾ كل ذلك قد تقدم الكلام عليه في تفسير آية النساء، فلا حاجة بنا إلى إعادته لثلا يطول الكلام. وقد ذكرنا سبب نزول آية التيمم هناك، ولكن البخاري روى ههنا حديثاً خاصاً بهذه الآية الكريمة، فقال عن عائشة قالت: سقطت قلادة لي بالبيداء ونحن داخلون المدينة فأنافخ رسول الله ﷺ ونزل فثنى رأسه في حجري راقداً، فأقبل أبو بكر فلكرني لكزة شديدة، وقال: حبست الناس في قلادة، فتمنيت الموت لمكان رسول الله ﷺ مني؛ وقد أوجعني، ثم إن النبي ﷺ استيقظ وحضرت الصبح، فالتمس الماء فلم يوجد، فترلت: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم﴾ إلى آخر الآية، فقال أسيد بن الحضير: لقد بارك الله للناس فيكم يا آل أبي بكر ما أتم إلا بركة لهم^(١). وقوله تعالى: ﴿ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج﴾ أي فهذا سهل عليكم ويسر ولم يعسر بل أباح التيمم عند المرض وعند فقد الماء توسعة عليكم ورحمة بكم، وجعله في حق من شرع له يقوم مقام الماء إلا من بعض الوجوه كما تقدم بيانه.

وقوله تعالى: ﴿ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون﴾ أي لعلكم تشكرون نعمه عليكم فيما شرعه لكم من التوسعة والرأفة والرحمة والتسهيل والسماحة، وقد وردت السنة بالحث على الدعاء عقب الوضوء بأن يجعل فاعله من المتطهرين الداخلين في امتثال هذه الآية الكريمة، كما رواه الإمام أحمد ومسلم وأهل السنن عن عقبة بن عامر قال: كانت علينا رعاية الإبل فجاءت نوبتي فروحتها بعشي، فأدرت رسول الله ﷺ قائماً يحدث

(١) قال السيوطي: دل الحديث على أن الوضوء كان واجباً عليهم قبل نزول الآية، ولهذا استعظموا نزولهم على غير ماء، وبعضهم يرى احتمال نزول أول الآية في فرضية الوضوء، ثم نزل بقيتها بعد ذلك في التيمم والأول أصوب؛ لأن فرض الوضوء كان مع فرض الصلاة بمكة، والآية مدنية.

الناس، فأدرکت من قوله: « ما من مسلم يتوضأ فيحسن وضوءه ثم يقوم فيصلّي ركعتين مقبلاً عليهما بقلبه ووجهه إلا وجبت له الجنة » قال، قلت: ما أجود هذه ! فإذا قاتل بين يدي يقول: التي قبلها أجود منها، فنظرت، فإذا عمر رضي الله عنه فقال: إني قد رأيتك جثت آنفاً، قال: « ما منكم من أحد يتوضأ فيبلغ أو فيسبغ الوضوء يقول أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء » لفظ مسلم. وروي عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: « إذا توضأ العبد المسلم أو المؤمن فغسل وجهه خرج من وجهه كل خطيئة نظر إليها بعينه مع الماء أو مع آخر قطر الماء، فإذا غسل يديه خرج من يديه كل خطيئة بطشتها يده مع الماء، أو مع آخر قطر الماء، فإذا غسل رجله خرجت كل خطيئة مشتها رجلاه مع الماء أو مع آخر قطر الماء حتى يخرج نقياً من الذنوب » رواه مسلم. وروى ابن جرير عن أبي أمامة قال، قال رسول الله ﷺ: « من توضأ فأحسن الوضوء، ثم قام إلى الصلاة خرجت ذنوبه من سمعه وبصره ويديه ورجليه » وروى مسلم في صحيحه عن أبي مالك الأشعري أن رسول الله ﷺ قال: « الطهور شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والله أكبر تملأ ما بين السماء والأرض، والصوم جنة، والصبر ضياء، والصدقة برهان، والقرآن حجة لك أو عليك، كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها ». وفي صحيح مسلم عن ابن عمر قال، قال رسول الله ﷺ: « لا يقبل الله صدقة من غلول، ولا صلاة بغير طهور » .

وَأذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَتَقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ عَلَىٰ ءَلَّا تَعْدِلُوا ءَاعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِءَايَاتِنَا ءَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١٠﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ ءَان يَسْطُوا إِلَيْكُمْ ءَأَيْدِيهِمْ فَكَفَّ ءَأَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾

يقول تعالى مذكراً عباده المؤمنين نعمته عليهم في شرعه لهم هذا الدين العظيم، وإرساله إليهم هذا الرسول الكريم، وما أخذ عليهم من العهد والميثاق في مبايعته على متابعتة ومناصرتة ومؤازرتة، والقيام بدينه، وإبلاغه عنه، وقبوله منه فقال تعالى: ﴿ واذكروا نعمة الله عليكم وميثاقه الذي واثقكم به إذ قلتم سمعنا وأطعنا ﴾ وهذه هي البيعة التي كانوا يبايعون عليها رسول الله ﷺ عند إسلامهم كما قالوا: بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في منشطنا ومكرهنا وأثرة علينا، وأن لا ننازع الأمر أهله. وقال الله تعالى: ﴿ وما لكم لا تؤمنون بالله والرسول يدعوكم لتؤمنوا بربكم وقد أخذ ميثاقكم إن كنتم مؤمنين ﴾ وقيل هذا تذكار لليهود بما أخذ عليهم من الموائيق والعهود في متابعة محمد ﷺ والانقياد لشرعه. وقيل: هو تذكار بما أخذ تعالى من العهد على ذرية آدم حين استخرجهم من صلبه

وأشهدهم على أنفسهم ﴿ألسنت بربكم قالوا بلى شهدنا﴾. قاله مجاهد والقول الأول أظهر، وهو المحكي عن ابن عباس والسدي، واختاره ابن جرير. ثم قال تعالى: ﴿واتقوا الله﴾ تأكيد وتحريض على مواظبة التقوى في كل حال ثم أعلمهم أنه يعلم ما يختلج في الضمائر من الأسرار والخواطر، فقال: ﴿إن الله علم بذات الصدور﴾ وقوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله﴾ أي كونوا قوامين بالحق لله عز وجل لا لأجل الناس والسمعة، وكونوا ﴿شهداء بالقسط﴾ أي بالعدل لا بالجور، وقد ثبت في الصحيحين عن النعمان بن بشير أنه قال: نحلني أبي نحلاً، فقالت أمي عمرة بنت رواحة: لا أرضى حتى تشهد عليه رسول الله ﷺ، فجاءه ليشهده على صدقتي فقال: «أكلٌ ولدك نحلّت مثله؟» قال: لا، فقال: «اتقوا الله واعدلوا في أولادكم»، وقال: «إني لا أشهد على جور» قال فرجع أبي فرد تلك الصدقة.

وقوله تعالى: ﴿ولا يجرمنكم شنآن قوم^(١) على أن لا تعدلوا﴾ أي لا يحملنكم بغض قوم على ترك العدل فيهم، بل استعملوا العدل في كل أحد صديقاً كان أو عدواً، ولهذا قال: ﴿اعدلوا هو أقرب للتقوى﴾ أي عدلكم أقرب إلى التقوى من تركه، ودلّ الفعل على المصدر الذي عاد الضمير عليه، كما في قوله: ﴿وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم﴾ وقوله: ﴿هو أقرب للتقوى﴾ من باب استعمال أفعال التفضيل في المحل الذي ليس في الجانب الآخر منه شيء، كما في قوله تعالى: ﴿أصحاب الجنة يومئذ خير مستقراً وأحسن مقيلاً﴾، وكقول بعض الصحابييات لعمر: أنت أفظ وأغلظ من رسول الله ﷺ، ثم قال تعالى: ﴿واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون﴾ أي وسيجزىكم على ما علم من أفعالكم التي عملتموها إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، ولهذا قال بعده: ﴿وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة﴾ أي لذنوبهم ﴿وأجر عظيم﴾ وهو الجنة التي هي من رحمته على عباده، لا ينالونها بأعمالهم بل برحمة منه وفضل، وإن كان سبب وصول الرحمة إليهم أعمالهم، وهو تعالى الذي جعلها أسباباً إلى نيل رحمته وفضله ورفوه ورضوانه، فالكل منه وله، فله الحمد والمنة، ثم قال: ﴿والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم﴾ وهذا من عدله تعالى وحكمته وحكمه الذي لا يبور فيه، بل هو الحكم العدل الحكيم القدير.

وقوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ هم قوم أن ييسطوا إليكم أيديهم فكف أيديهم عنكم﴾، روي أن النبي ﷺ نزل منزلاً وتفرق الناس في العشاء يستظلون تحتها، وعلق النبي ﷺ سلاحه بشجرة، فجاء أعرابي إلى سيف رسول الله ﷺ فأخذه فسله، ثم أقبل على النبي ﷺ فقال: من يمنعك مني؟ قال: «الله عز وجل» قال الأعرابي مرتين أو ثلاثاً: من يمنعك مني؟ والنبي ﷺ يقول: «الله»، قال فشام^(٢) الأعرابي السيف،

(١) المراد بالقوم: اليهود، وقد أرادوا قتل النبي ﷺ كما ذكره ابن جرير. وقال السهيلي: المراد غورث بن الحارث الغطفاني، وجد النبي ﷺ نائماً في بعض غزواته تحت شجرة، والسيف معلق فيها، فاخترط السيف، واستيقظ رسول الله ﷺ والسيف في يده، فقال له: يا محمد من يمنعك مني؟ قال: «الله تعالى»، فقبض الله يده، وقعد إلى الأرض، حتى جاء أصحاب رسول الله وهو عنده، وقيل: إنه عمرو بن جحاش اليهودي، كما ذكره ابن إسحاق، وحكاه عنه السهيلي.

(٢) فشام السيف: فأدخله في قرابه.

فدعا النبي ﷺ أصحابه، فأخبرهم خبير الأعرابي وهو جالس إلى جنبه ولم يعاقبه. وقصة هذا الأعرابي وهو (غورث ابن الحارث) ثابتة في الصحيح. وقال ابن عباس: إن قوماً من اليهود صنعوا لرسول الله ﷺ ولأصحابه طعاماً ليقتلوهم، فأوحى الله إليه بشأنهم، وقال أبو مالك: نزلت في كعب بن الأشرف وأصحابه حين أرادوا أن يغدروا بمحمد وأصحابه في دار كعب بن الأشرف، وذكر محمد بن إسحاق بن يسار: أنها نزلت في شأن بني النضير حين أرادوا أن يلقوا على رأس رسول الله ﷺ الرحي لما جاءهم يستعينهم في دية العامرين، ووكلوا (عمرو بن جحاش) بذلك، وأمروه إن جلس النبي ﷺ تحت الجدار أن يلقي تلك الرحي من فوقه، فأطلع الله النبي ﷺ على ما تمالأوا عليه، فرجع إلى المدينة وتبعه أصحابه، فأنزل الله في ذلك هذه الآية. وقوله تعالى: ﴿ وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ يعني من توكل على الله كفاه الله ما أمهه، وحفظه من شر الناس وعصمه .

* وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١٢﴾ فِيمَا نَقُضُوا مِنْهُمْ لَعْنَهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ ۚ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ۗ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾ وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرِيُّوهُمُ أَخَذْنَا مِنْهُمْ كَيْفًا فَكَرِهُوا بِرُسُلِي الْوَعْدَ الَّذِي لَعْنَهُمْ فَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ ۚ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ۗ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾

لما أمر تعالى عباده المؤمنين بالوفاء بعهده وميثاقه الذي أخذه عليهم على لسان عبده ورسوله محمد ﷺ وأمرهم بالقيام بالحق والشهادة بالعدل، وذكرهم نعمه عليهم الظاهرة والباطنة فيما هداهم له من الحق والهدى، شرع بين لهم كيف أخذ العهود والمواثيق على من كان قبلهم من أهل الكتابين (اليهود والنصارى) فلما نقضوا عهوده ومواثيقه أعقبهم ذلك لعناً منه لهم، وطرداً عن بابه وجنابه، وحجاباً لقلوبهم عن الوصول إلى الهدى ودين الحق وهو العلم النافع والعمل الصالح فقال تعالى: ﴿ ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل وبعثنا منهم اثني عشر نقيباً ﴾ يعني عرفاء على قبائلهم بالمبايعة والسمع والطاعة لله ولرسوله ولكتابه، وقد ذكر ابن عباس أن هذا كان لما توجه موسى عليه السلام لقتال الجبارة، فأمر بأن يقيم نقيباً من كل سبط نقيب، وهكذا لما بايع رسول الله ﷺ الأنصار ليلة العقبة كان فيهم اثنا عشر نقيباً، ثلاثة من الأوس وهم: أسيد بن الحضير وسعد بن خيثمة وأبو الهيثم بن التيهان رضي الله عنهم، وتسعة من الخزرج وهم: أبو أمامة أسعد بن زرارة، وسعد بن الربيع، وعبد الله بن رواحة، ورافع بن مالك بن العجلان، والبراء بن معرور، وعبادة بن الصامت، وسعد بن عباد، وعبد الله بن عمرو بن حرام،

والمندر بن عمر بن خنيس رضي الله عنهم، وقد ذكرهم كعب بن مالك في شعر له، كما أورده ابن إسحاق رحمه الله. والمقصود أن هؤلاء كانوا عرفاء على قومهم ليلتذ عن أمر النبي ﷺ لهم بذلك، وهم الذين ولوا المعاقدة والمبايعة عن قومهم للنبي ﷺ على السمع والطاعة .

قال الإمام أحمد عن مسروق قال: كنا جلوساً عند عبد الله بن مسعود، وهو يقرئنا القرآن، فقال له رجل: يا أبا عبد الرحمن هل سألت رسول الله ﷺ كم يملك هذه الأمة من خليفة؟ فقال عبد الله: ما سألتني منها أحد منذ قدمت العراق قبلك، ثم قال: نعم، ولقد سألنا رسول الله ﷺ فقال: « اثنا عشر كعدة نقيب بني إسرائيل ». وأصل هذا الحديث ثابت في الصحيحين من حديث جابر بن سمرة قال: سمعت النبي ﷺ يقول: « لا يزال أمر الناس ما ضيماً ما وليهم اثنا عشر رجلاً »، ثم تكلم النبي ﷺ بكلمة خفيت عليّ، فسألت، أي ماذا قال النبي ﷺ؟ قال: « كلهم من قريش ». ومعنى هذا الحديث البشارة بوجود اثني عشر خليفة صالحاً يقيم الحق ويعدل فيهم، ولا يلزم من هذا تواليهم وتتابع أيامهم، بل قد وجد أربعة على نسق، وهم الخلفاء الأربعة: أبو بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم، ومنهم (عمر بن عبد العزيز) بلا شك عند الأئمة، وبعض بني العباس، ولا تقوم الساعة حتى تكون ولايتهم لا محالة، والظاهر أن منهم (المهدي) المبشر به في الأحاديث الواردة بذكره، فذكر أنه يواطئ اسمه اسم النبي ﷺ واسم أبيه، فيملأ الأرض عدلاً وقسطاً كما ملئت جوراً وظلماً، وليس هذا بالمنتظر الذي تتوهم الرفضية وجوده ثم ظهوره من سرداب سامرا، فإن ذلك ليس له حقيقة ولا وجود بالكلية بل هو من هوس العقول السخيفة، وتوهم الخيالات الضعيفة، وليس المراد بهؤلاء الخلفاء الاثني عشر الأئمة الاثني عشر الذين يعتقد فيهم الروافض لجهلهم وقلة عقلهم. وفي التوراة البشارة بإسماعيل عليه السلام وأن الله يقيم من صلبه اثني عشر عظيماً وهم هؤلاء الخلفاء الاثنا عشر المذكورون في حديث ابن مسعود وجابر بن سمرة. وبعض الجهلة ممن أسلم من اليهود إذا اقترن بهم بعض الشيعة يوهونهم أنهم الأئمة الاثنا عشر، فيتشيع كثير منهم جهلاً وسفهاً لقلّة علمهم وعلم من لقنهم ذلك بالسنن الثابتة عن النبي ﷺ .

وقوله تعالى: ﴿ وقال الله إني معكم ﴾ أي بحفظي وكلائي ونصري ﴿ لئن أقمت الصلاة وآتيت الزكاة وآمنت برسلي ﴾ أي صدقتموهم فيما يجيئونكم به من الوحي ﴿ وعزتموهم ﴾ أي نصرتموهم ووازرتموهم على الحق ﴿ وأقرضتم الله قرضاً حسناً ﴾ وهو الإنفاق في سبيله وابتغاء مرضاته ﴿ لا كفرن عنكم سيئاتكم ﴾ أي ذنوبكم أمحوها وأسترها ولا أوأخذكم بها ﴿ ولأدخلنكم جنات تجري من تحتها الأنهار ﴾ أي أدفع عنكم المحنور وأحصل لكم المقصود. وقوله: ﴿ فن كفر بعد ذلك منكم فقد ضل سواء السبيل ﴾ أي فن خالف هذا الميثاق بعد عقده وتوكيده فقد أخطأ الطريق الواضح وعدل عن الهدى إلى الضلال. ثم أخبر تعالى عما حل بهم من العقوبة عند مخالفتهم ميثاقه ونقضهم عهده، فقال: ﴿ فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم ﴾ أي فبسبب نقضهم الميثاق الذي أخذ عليهم لعناهم أي أبعدها عن الحق وطردها عن الهدى ﴿ وجعلنا قلوبهم قاسية ﴾ أي فلا يتعظون بموعظة لغظها وقساوتها ، ﴿ يحرفون الكلم عن مواضعه ﴾ أي فسدت فهمهم وساء تصرفهم في آيات الله، وتأولوا كتابه على غير ما أنزله وحملوه على غير مراده، وقالوا عليه ما لم يقل، عياداً بالله من ذلك ﴿ ونسوا حظاً مما ذكروا به ﴾ أي وتركوا العمل به رغبة عنه. وقال الحسن: تركوا عرى دينهم ووظائف الله تعالى التي لا يقبل العمل إلا بها. وقال غيره: تركوا

العمل فصاروا إلى حالة رديئة فلا قلوب سليمة ولا فطر مستقيمة ولا أعمال قويمه ﴿ ولا تزال تطلع على خائنة منهم ﴾ يعني مكرمهم وغدرهم لك ولأصحابك. وقال مجاهد: يعني بذلك تماثلهم على الفتك برسول الله ﷺ ﴿ فاعف عنهم واصفح ﴾، وهذا هو عين النصر والظفر كما قال بعض السلف « ما عاملت من عصي الله فيك بمثل أن تطيع الله فيه » وبهذا يحصل لهم تأليف وجمع على الحق ولعل الله أن يهديهم، ولهذا قال تعالى: ﴿ إن الله يحب المحسنين ﴾ يعني به الصفح عن أساء إليك. وقال قتادة: هذه الآية: ﴿ فاعف عنهم واصفح ﴾ منسوخة بقوله: ﴿ قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ﴾ الآية .

وقوله تعالى: ﴿ ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم ﴾ أي ومن الذين ادعوا أنهم نصارى متابعون المسيح ابن مريم عليه السلام وليسوا كذلك، أخذنا عليهم العهود والمواثيق على متابعة الرسول ﷺ ومناصرته وموازرتة واقتفاء آثاره، وعلى الإيمان بكل نبي يرسله الله إلى أهل الأرض، ففعلوا كما فعل اليهود: خالفوا المواثيق ونقضوا العهود، ولهذا قال تعالى: ﴿ فنسوا حظاً مما ذكروا به فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة ﴾ أي فألقينا بينهم العداوة والبغضاء لبعضهم بعضاً ولا يزالون كذلك إلى قيام الساعة. وكذلك طوائف النصرارى على اختلاف أجناسهم لا يزالون متباغضين متعادين يكفر بعضهم بعضاً ويلعن بعضهم بعضاً، فكل فرقة تحرم الأخرى ولا تدعها تلج معبداها: فالملكية تكفر البيقوية، وكذلك الآخرون، وكذلك النسطورية والآريوسية، كل طائفة تكفر الأخرى في هذه الدنيا ويوم يقوم الأشهاد. ثم قال تعالى: ﴿ وسوف ينبتهم الله بما كانوا يصنعون ﴾ وهذا تهديد ووعد أكيد للنصارى على ما ارتكبه من الكذب على الله وعلى رسوله، وما نسبوه إلى الرب عز وجل وتقدس عن قولهم علواً كبيراً من جعلهم له صاحبة وولداً، تعالى الواحد الأحد الفرد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد .

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾

يقول تعالى مخبراً عن نفسه الكريمة أنه قد أرسل رسوله محمداً ﷺ بالهدى ودين الحق إلى جميع أهل الأرض، عربهم وعجمهم، أميمهم وكتابيمهم، وأنه بعثه بالبينات والفرق بين الحق والباطل، فقال تعالى: ﴿ يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا بين لكم كثيراً مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير ﴾ أي بين ما بدلوه وحرفوه وأولوه واقتروا على الله فيه، ويسكت عن كثير مما غيره ولا فائدة في بيانه. وقد روى الحاكم في مستدرکه عن ابن عباس رضي الله عنه قال: من كفر بالرجم فقد كفر بالقرآن من حيث لا يحتسب لقوله تعالى: ﴿ بين لكم كثيراً مما كنتم تخفون من الكتاب ﴾ فكان الرجم مما أخفوه^(١). ثم أخبر تعالى عن القرآن العظيم الذي أنزله على نبيه الكريم

(١) أخرج ابن جرير: أن اليهود أتوا النبي ﷺ يسألونه عن الرجم، فقال: « أيكم أعلم ؟ » فأشاروا إلى ابن صوريا، فناشده بالذي =

فقال: ﴿قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام﴾ أي طرق النجاة والسلامة ومناهج الاستقامة ﴿ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم﴾ أي ينجيهم من المهالك، ويوضح لهم أبين المسالك، فيصرف عنهم المحذور، ويحصل لهم أحب الأمور، وينبي عنهم الضلالة ويرشدهم إلى أقوم حالة .

لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصْرِيُّ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾

يقول تعالى مخبراً وحاكياً بكفر النصارى في ادعائهم في المسيح بن مريم وهو عبد من عباد الله، وخلق من خلقه أنه هو الله، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً، ثم قال مخبراً عن قدرته على الأشياء وكونها تحت قهره وسلطانه ﴿قل فمن يملك من الله شيئاً إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن في الأرض جميعاً﴾ أي لو أراد ذلك فمن ذا الذي كان يمنعه منه؟ أو من ذا الذي يقدر على صرفه عن ذلك؟ ثم قال: ﴿ولله ملك السموات والأرض وما بينهما يخلق ما يشاء﴾ أي جميع الموجودات ملكه وخلقها وهو القادر على ما يشاء لا يسأل عما يفعل بقدرته وسلطانه وعدله وعظمته، وهذا رد على النصارى عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة، ثم قال تعالى راداً على اليهود والنصارى في كذبهم وافتراءهم: ﴿وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه﴾ أي نحن منتسبون إلى أنبيائه وهم بنوه وله بهم عناية وهو يحبنا، ونقلوا عن كتابهم أن الله تعالى قال لعبده إسرائيل: أنت ابني بكري، فحملوا هذا على غير تأويله وحر فوه، وقدر عليهم غير واحد ممن أسلم من عقلائهم. وقالوا: هذا يطلق عندهم على التشريف والإكرام، كما نقل النصارى عن كتابهم أن عيسى قال لهم: إني ذاهب إلى أبي وأبيكم يعني ربي وربكم، ومعلوم أنهم لم يدعوا لأنفسهم من النبوة ما ادعوا في عيسى عليه السلام، وإنما أرادوا من ذلك معزتهم لديه وحظوتهم عنده، ولهذا قالوا: نحن أبناء الله وأحباؤه. قال الله تعالى راداً عليهم: ﴿قل فلم يعذبكم بذنوبكم﴾ أي لو كنتم كما تدعون أبناءه وأحباؤه فلم أعد لكم نار جهنم على كفركم وكذبكم وافتراءكم؟ وقد قال بعض شيوخ الصوفية لبعض الفقهاء: أين تجد في القرآن أن الحبيب لا يعذب حبيبه؟ فلم يرد عليه، فتلا عليه الصوفي هذه الآية: ﴿قل فلم يعذبكم بذنوبكم﴾؟ وهذا الذي قال حسن .

= أنزل التوراة على موسى، والذي رفع الطور والمواثيق، فقال: إنه لما كثر فينا، جلدنا مائة وحلقنا الرؤوس، فحكم عليهم بالرجم، فأنزل الله: ﴿يا أهل الكتاب - إلى قوله - صراط مستقيم﴾ .

﴿بل أنتم بشر ممن خلق﴾ أي لكم أسوة أمثالكم من بني آدم وهو سبحانه الحاكم في جميع عبادته ﴿يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء﴾ أي هو فعال لما يريد لا معقب لحكمه وهو سريع الحساب، ﴿ولله ملك السموات والأرض وما بينهما﴾ أي الجميع ملكه وتحت قهره وسلطانه ﴿وإليه المصير﴾ أي المرجع والمآب إليه فيحكم في عبادته بما يشاء وهو العادل الذي لا يجور. وروى محمد بن إسحاق عن ابن عباس قال: أتى رسول الله ﷺ نعمان بن آصم، وبحري بن عمرو، وشاس بن عدي فكلموه وكلمهم رسول الله ﷺ، ودعاهم إلى الله وحذرهم نعمته، فقالوا: ما نخوفنا يا محمد! نحن والله أبناء الله وأحباؤه؛ كقول النصارى، فأنزل الله فيهم: ﴿وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه﴾^(١) الآية .

يَأْهَلُ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فِتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٩﴾

يقول تعالى مخاطباً أهل الكتاب من اليهود والنصارى بأنه أرسل إليهم رسوله محمداً ﷺ خاتم النبيين الذي لا نبي بعده ولا رسول بل هو المعقب لجميعهم، ولهذا قال: على فترة من الرسل، أي بعد مدة متطاولة ما بين إرساله وعيسى بن مريم، وقد اختلفوا في مقدار هذه الفترة كم هي، فقال قتادة: كانت ستائة سنة، ورواه البخاري عن سلمان الفارسي وعن قتادة: خمسمائة وستون سنة، وقال الضحاك: أربعمائة وبضع وثلاثون سنة، وذكر ابن عساكر عن الشعبي أنه قال: ومن رفع المسيح إلى هجرة النبي ﷺ تسعمائة وثلاث وثلاثون سنة. والمشهور هو القول الأول وهو أنها ستائة سنة. وكانت الفترة بين عيسى بن مريم وآخر أنبياء بني إسرائيل، وبين محمد خاتم النبيين من بني آدم على الإطلاق، كما ثبت في صحيح البخاري عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «أنا أولى الناس بابن مريم لأنه ليس بيني وبينه نبي» وهذا فيه رد على من زعم أنه بعث بعد عيسى نبي يقال له خالد بن سنان، والمقصود أن الله بعث محمداً ﷺ على فترة من الرسل، وطموس من السبل، وتغير الأديان، وكثرة عبادة الأوثان والنيران والصلبان، فكانت النعمة به أتم النعم، والحاجة إليه أمر عم، فإن الفساد كان قد عم جميع البلاد، والطغيان والجهل قد ظهر في سائر العباد إلا قليلاً من المتمسكين ببقايا من دين الأنبياء الأقدمين، من بعض أحبار اليهود والنصارى والصابئين، كما قال الإمام أحمد: حدث يحيى بن سعيد عن عياض بن حماد المجاشعي أن النبي ﷺ خطب ذات يوم فقال في خطبته: «وإن ربي أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علمني في يومي هذا: كل مال نحلته عبادي حلال، وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإن الشياطين أتتهم فأضلّتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحلت لهم. وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً، ثم إن الله عزّ وجلّ نظر إلى أهل الأرض، ففقتهم عربهم وعجمهم، إلا بقايا من بني إسرائيل. وقال: إنما بعثتك لأبتليك وأبتلي بك، وأنزلت عليك كتاباً لا يغسله الماء تقرأه نائماً ويقظان. ثم إن الله أمرني أن أحرق قريشاً فقلت: يارب إذن يثلغوا^(٢) رأسي فيدعوه خبزة، فقال: استخرجهم كما استخرجوك،

(١) رواه ابن أبي حاتم وابن جرير .

(٢) أي : يشدحوا .

واغزهم نغزك، وأنفق عليهم فسنفق عليك، وابعث جيشاً نبعث خمسة أمثاله، وقاتل بمن أطاعك من عصاك. وأهل الجنة ثلاثة: ذو سلطان مقسط موفق متصدق، ورجل رحيم رقيق القلب بكل ذي قربى ومسلم، ورجل عفيف فقير ذو عيال. وأهل النار خمسة: الضعيف الذي لا دين له، والذين هم فيكم تبع أو تبعاً - شك يحيى - لا يبتغون أهلاً ولا مالاً، والخاذل الذي لا يخفى له طمع وإن دق إلا خانته، ورجل لا يصبح ولا يمسي إلا وهو يخادعك عن أهلك ومالك، وذكر البخل أو الكذب، والشنظير: الفاحش .

والمقصود من إيراد هذا الحديث قوله: « وإن الله نظر إلى أهل الأرض ففتحهم عجمهم وعربهم إلا بقايا من بني إسرائيل »، وفي لفظ مسلم - من أهل الكتاب ، وكان الدين قد التبس على أهل الأرض كلهم حتى بعث الله محمداً ﷺ، فهدى الخلائق وأخرجهم الله به من الظلمات إلى النور، وتركهم على المحجة البيضاء والشرعية الغراء، ولهذا قال تعالى: ﴿ أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير ﴾ أي لثلاثا تحتجوا وتقولوا: ما جاءنا من رسول يبشر بالخير وينذر من الشر، ﴿ فقد جاءكم بشير ونذير ﴾ يعني محمداً ﷺ، ﴿ والله على كل شيء قدير ﴾ قال ابن جرير: معناه إني قادر على عقاب من عصاني وثواب من أطاعني .

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ أذكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا رَزَقْتُمْ أُحَادًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنَنذُرُكَ نَدْخُلُهَا حَتَّىٰ يُخْرِجُوا مِنهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً يَا مُوسَىٰ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَنَنذُرُكَ نَدْخُلُهَا أَيْدِيًا مَّا دَامُوا فِيهَا فَادْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخي فَاغْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٦﴾

يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله وكليمه (موسى بن عمران) عليه السلام، فيما ذكر به قومه من نعم الله عليهم وآلائه لديهم في جمعه لهم خير الدنيا والآخرة لو استقاموا على طريقتهم المستقيمة، فقال تعالى: ﴿ وإذ قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء ﴾، أي كلما هلك نبي قام فيكم نبي من لدن أبيكم إبراهيم إلى من بعده، وكذلك كانوا لا يزال فيهم الأنبياء يدعون إلى الله، ويحذرون نعمته حتى ختموا بعيسى بن مريم عليه السلام، ثم أوحى الله إلى خاتم الأنبياء والرسل على الإطلاق محمد بن عبد الله المنسوب إلى إسماعيل ابن إبراهيم عليه السلام وهو أشرف من كل من تقدمه منهم ﷺ. وقوله: ﴿ وجعلكم ملوكاً ﴾ قال عبد الرزاق

عن ابن عباس في قوله ﴿وجعلكم ملوكاً﴾ قال: الخادم والمرأة والبيت وعنه قال: كان الرجل من بني إسرائيل إذا كان له الزوجة والخادم والدار سمي ملكاً. وقال ابن جرير عن عبد الله بن عمرو بن العاص وسأله رجل فقال: ألسنا من فقراء المهاجرين؟ فقال عبد الله: ألك امرأة تأوي إليها؟ قال: نعم، قال: ألك مسكن تسكنه؟ قال: نعم، قال: فأنت من الأغنياء. فقال: إن لي خادماً، قال: فأنت من الملوك. وقال الحسن البصري: هل الملك إلا مركب وخادم ودار، رواه ابن جرير. وقال السدي في قوله ﴿وجعلكم ملوكاً﴾ قال: يملك الرجل منكم نفسه وماله وأهله، وقد ورد في الحديث: «من أصبح منكم معافى في جسده، آمناً في سربه، عنده قوت يومه، فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها»^(١).

وقوله تعالى: ﴿وآتاكم ما لم يئوت أحداً من العالمين﴾ يعني عالمي زمانكم، فإنهم كانوا أشرف الناس في زمانهم من اليونان والقبط وسائر أصناف بني آدم كما قال: ﴿وفضلناهم على العالمين﴾. وقال تعالى إخباراً عن موسى: ﴿قال أغير الله أبغيتكم إلهاً وهو فضلكم على العالمين﴾ والمقصود أنهم كانوا أفضل أمم زمانهم، وإلا فهذه الأمة أشرف منهم، وأفضل عند الله، وأكمل شريعة، وأقوم منهاجاً، وأكرم نبياً، وأعظم ملوكاً، وأغزر أرزاقاً، وأكثر أموالاً وأولاداً، وأوسع مملكة، وأدوم عزاً. قال الله تعالى: ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس﴾. وقد ذكرنا الأحاديث المتواترة في فضل هذه الأمة وشرفها وكرمها عند الله عند قوله تعالى: ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس﴾، وقيل: المراد ﴿وآتاكم ما لم يئوت أحداً من العالمين﴾ يعني بذلك ما كان تعالى نزله عليهم من المن والسلوى، ويظلمهم به من الغمام، وغير ذلك مما كان تعالى يخصهم به من خوارق العادات، فالله أعلم. ثم قال تعالى مخبراً عن تحريض موسى عليه السلام لبني إسرائيل على الجهاد، والدخول إلى بيت المقدس الذي كان بأيديهم في زمان أبيهم يعقوب، لما ارتحل هو وبنوه وأهله إلى بلاد مصر أيام يوسف عليه السلام ثم لم يزلوا بها، حتى خرجوا مع موسى، فوجدوا فيها قوماً من العمالقة الجبارين قد استحوزوا عليها وتملكوها، فأمرهم رسول الله موسى عليه السلام بالدخول إليها، وبقتال أعدائهم، وبشرهم بالنصر والظفر عليهم، فنكروا بالذهاب وعصوا وخالفوا أمره، فعوقبوا في التيه، والتماذي في سيرهم حائرين لا يدرون كيف يتوجهون فيه إلى مقصد مدة أربعين سنة، عقوبة لهم على تفريطهم في أمر الله تعالى، فقال تعالى مخبراً عن موسى أنه قال: ﴿يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة﴾ أي المطهرة. عن ابن عباس قال: هي الطور وما حوله، وكذا قال مجاهد وغير واحد^(٢).

وقوله تعالى: ﴿التي كتب الله لكم﴾ أي التي وعدكموها الله على لسان أبيكم إسرائيل أنه وراثته من آمن منكم، ﴿ولا ترتلوا على أديباركم﴾ أي تنكروا عن الجهاد ﴿فتنقلبوا خاسرين﴾. قالوا يا موسى إن فيها قوماً جبارين وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإننا داخلون ﴿أي اعتذروا بأن في هذه البلدة التي أمرتنا بدخولها وقتال

(١) لفظ الحديث عند الترمذي وابن ماجه عن عبدالله بن محصن: «من أصبح منكم آمناً في سربه، معافى في جسده، عنده قوت يومه، فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها».

(٢) المراد بالأرض المقدسة: بيت المقدس وما حوله، ويقال لها: إيليا، وتفسيرها: بيت الله. ويعني بالجبارين: قوماً كانوا فيها من العماليق، وهم بنو عملاق بن لاوذ.

أهلها قوماً جبارين ذوي خلق هائلة وقوى شديدة، وإنا لا نقدر على مقاومتهم ولا مصاولتهم، ولا يمكننا الدخول إليها ما داموا فيها، فإن يخرجوا منها دخلناها، وإلا فلا طاقة لنا بهم .

وقوله تعالى: ﴿ قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما ﴾ أي فلما نكل بنو إسرائيل عن طاعة الله ومتابعة رسول الله موسى ﷺ حرصهم رجلان، لله عليهما نعمة عظيمة وهما ممن يخاف أمر الله ويخشى عقابه. وقرأ بعضهم: ﴿ قال رجلان من الذين يخافون ﴾ أي ممن لهم مهابة وموضع من الناس، ويقال إنهما (يوشع بن نون) و (كالب بن يوفنا) ^(١)؛ قاله ابن عباس ومجاهد وعكرمة وغير واحد من السلف والخلف رحمهم الله، فقالا: ﴿ ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون * وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين ﴾ أي إن توكلتم على الله واتبعتم أمره ووافقتم رسوله، نصركم الله على أعدائكم، وأيدكم وظفركم بهم، ودخلتم البلد التي كتبها الله لكم؛ فلم ينفع ذلك فيهم شيئاً ﴿ قالوا يا موسى إنا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون ﴾، وهذا نكول منهم عن الجهاد ومخالفة لرسولهم، وتحلف عن مقاتلة الأعداء، ويقال: إنهم لما نكلوا على الجهاد، وعزموا على الانصراف والرجوع إلى مصر، سجد موسى وهرون عليهما السلام قدام ملا من بني إسرائيل إعظاماً لما هموا به، وشق يوشع بن نون وكالب بن يوفنا ثيابهما، ولما قومهما على ذلك، فيقال: إنهم رجموهما، وجرى أمر عظيم وخطر جليل .

وما أحسن ما أجاب به الصحابة رضي الله عنهم يوم بدر رسول الله ﷺ، حين استشارهم في قتال النضير فتكلم أبو بكر رضي الله عنه فأحسن، ثم تكلم من تكلم من الصحابة من المهاجرين ورسول الله ﷺ يقول: « أشيروا علي أيها المسلمون » وما يقول ذلك إلا ليستعلم ما عند الأنصار لأنهم كانوا جمهور الناس يومئذ، فقال سعد بن معاذ: كأنك تعرض بنا يا رسول الله فولذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً، إنا لصبرٌ في الحرب، صدقٌ ^(٢) في اللقاء لعل الله أن يريك منا ما تقر به عينك، فسر بنا على بركة الله. فسّر رسولُ الله ﷺ بقول سعد ونشطه ذلك. ومن أجاب يومئذ (المقداد بن عمرو الكندي) رضي الله عنه، كما قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: لقد شهدت من المقداد مشهداً، لأن أكون أنا صاحبه أحب إليّ مما عدل به، أتى رسول الله ﷺ وهو يدعو على المشركين فقال: والله يا رسول الله لا نقول كما قالت بنو إسرائيل لموسى ﴿ اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون ﴾ ولكننا نقاتل عن يمينك وعن يسارك ومن بين يديك ومن خلفك، فرأيت وجه رسول الله ﷺ أشرق لذلك وسره ذلك، وهكذا رواه البخاري في المغازي، ولفظه في كتاب التفسير عن عبد الله قال، قال المقداد يوم بدر: يا رسول الله

(١) ضبط في سفر العدد: يفنه: بفتح الياء وضم الفاء، وتشديد النون، وقال السهيلي: إنهما يوشع بن نون بن إفرايم بن يوسف عليه السلام، والآخر: كوطت بن يوفنا. قال: وأحسبه من سبط يهوذا بن يعقوب. وقال: ويوشع هو الذي حارب الجبارين . واختلف: أكان موسى معه في تلك الغزاة أم لا؟ وفيها حبست عليه الشمس حتى دخل المدينة، وفيها أحرق الذي وجد الغلول عنده في مكان يقال له غور عاجر، عرف باسم الرجل الغال. كما ذكره الطبري .

(٢) صبر وصدق بضمين فيهما جمع صبور وصدق .

لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى ﴿إذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون﴾ ، ولكن امض ونحن معك . فكانه سري عن رسول الله ﷺ .

وقوله تعالى: ﴿قال رب إني لا أملك إلا نفسي وأخي فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين﴾ يعني لما نكل بنو إسرائيل عن القتال غضب عليهم موسى عليه السلام، وقال داعياً عليهم: ﴿رب إني لا أملك إلا نفسي وأخي﴾ أي ليس أحد يطيعني منهم فيمثل أمر الله ويوجب إلى ما دعوت إليه إلا أنا وأخي هرون ﴿فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين﴾ قال ابن عباس: يعني اقض بيني وبينهم، وكذا قال الضحاك: اقض بيننا وبينهم، وافتح بيننا وبينهم، وقال غيره: افرق افصل بيننا وبينهم، كما قال الشاعر:

يا رب فافرق بينه وبينني أشد ما فرقت بين اثنين

وقوله تعالى: ﴿قال فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض﴾ الآية، لما دعا عليهم موسى عليه السلام حين نكلوا عن الجهاد حكم الله بتحريم دخولها عليهم قدر مدة أربعين سنة، فوقعوا في التيه يسرون دائماً لا يهتدون للخروج منه. وفيه كانت أمور عجيبة وخوارق كثيرة: من تظليلهم بالغمام، وإنزال المن والسلوى عليهم، ومن إخراج الماء الجاري من صخرة صماء تحمل معهم على دابة، فإذا ضربها موسى بعصاه انفجرت من ذلك الحجر اثنتا عشرة عيناً: تجري لكل شعب عين، وغير ذلك من المعجزات التي أيد الله بها موسى بن عمران. وهناك نزلت التوراة، وشرعت لهم الأحكام. عن سعيد بن جبیر: سألت ابن عباس عن قوله: ﴿فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض﴾ الآية. قال: فتأهوا في الأرض أربعين سنة يصبحون كل يوم يسرون ليس لهم قرار، ثم ظلل عليهم الغمام في التيه، وأنزل عليهم المن والسلوى. وهذا قطعة من حديث الفتون. ثم كانت وفاة هرون عليه السلام، ثم بعده بمدة ثلاث سنين وفاة موسى الكليم عليه السلام، وأقام الله فيهم (يوشع بن نون) عليه السلام نبياً خليفة عن موسى بن عمران، ومات أكثر بني إسرائيل هناك في تلك المدة، ويقال: إنه لم يبق منهم أحد سوى يوشع وكالب، فلما انقضت المدة خرج بهم يوشع بن نون عليه السلام، أو بمن بقي منهم وبسائر بني إسرائيل من الجيل الثاني، فقصدهم بيت المقدس فحاصرها، فكان فتحها يوم الجمعة بعد العصر. فلما تضيفت الشمس للغروب وخشي دخول السبت عليهم قال: إنك مأمورة وأنا مأمور، اللهم احبسها علي؛ فحبسها الله تعالى حتى فتحها. وأمر الله (يوشع بن نون) أن يأمر بني إسرائيل حين يدخلون بيت المقدس أن يدخلوا بابها سجداً، وهم يقولون حطة: أي حط عنا ذنوبنا، فبدلوا ما أمروا به، ودخلوا يزحفون على أستاههم، وهم يقولون: حبة في شعرة، وقد تقدم هذا كله في سورة البقرة .

وقال ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنه قوله: ﴿فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض﴾ قال: فتأهوا أربعين سنة، قال: فهلك موسى وهرون في التيه وكل من جاوز الأربعين سنة، فلما مضت الأربعون سنة ناهضهم يوشع بن نون، وهو الذي قام بالأمر بعد موسى، وهو الذي افتتحها، فوجد فيها من الأموال ما لم ير مثله قط، فقربوه إلى النار، فلم تأته، فقال: فيكم الغلول، فدعا رؤوس الأسباط، وهم اثنا عشر رجلاً، فبايعهم، والتصقت يد رجل منهم بيده، فقال: الغلول عندك، فأخرجه، فأخرج رأس بقرة من ذهب فوضعه مع القربان

فَأَتَتْ النَّارَ فَأَكَلَتْهُ. وَهَذَا السِّيَاقُ لَهُ شَاهِدٌ فِي الصَّحِيحِ. وَقَدْ اخْتَارَ ابْنُ جَرِيرٍ أَنْ يَقُولَ: ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ﴾ هُوَ الْعَامِلُ فِي أَرْبَعِينَ سَنَةً، وَأَنْهُمْ مَكَّنُوا لَا يَدْخُلُونَهَا أَرْبَعِينَ سَنَةً، وَهُمْ تَأْتُونَ فِي الْبَرِيَّةِ لَا يَهْتَدُونَ لِمَقْصِدِهِ، قَالَ: خَرَجُوا مَعَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فَفَتَحَ بِهِمْ بَيْتَ الْمَقْدِسِ، ثُمَّ احْتَجَّ عَلَى ذَلِكَ بِإِجْمَاعِ عُلَمَاءِ أَهْلِ الْأَوَّلِينَ أَنْ (عُوجَ ابْنِ عَنُقٍ) قَتَلَهُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: فَلَوْ كَانَ قَتَلَهُ إِيَّاهُ قَبْلَ تَيْبِهِ لَمَا رَهَبَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَمَالِيقِ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُ كَانَ بَعْدَ تَيْبِهِ قَالَ: وَأَجْمَعُوا عَلَى أَنْ (بَلْعَامُ بْنُ بَاعُورًا) أَعَانَ الْجَبَارِينَ بِالْإِدْعَاءِ عَلَى مُوسَى، قَالَ: وَمَا ذَلِكَ إِلَّا بَعْدَ تَيْبِهِ، لِأَنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ تَيْبِهِ لَا يَخَافُونَ مِنْ مُوسَى وَقَوْمِهِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَأْسُ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ تَسْلِيَةٌ لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنْهُمْ، أَيُّ لَا تَأْسُفُ وَلَا تَحْزَنُ عَلَيْهِمْ فِيمَا حَكَمْتَ عَلَيْهِمْ بِهِ فَإِنَّهُمْ مُسْتَحَقُّونَ ذَلِكَ، وَهَذِهِ الْقِصَّةُ تَضَمَّتْ تَقْرِيعَ الْيَهُودِ وَبَيَانَ فُضَائِحِهِمْ وَمُخَالَفَتِهِمْ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ، وَنُكُولَهُمْ عَنْ طَاعَتِهِمَا فِيمَا أَمَرَهُمْ بِهِ مِنَ الْجِهَادِ فَضَعَفَتْ أَنْفُسُهُمْ عَنْ مُصَابِرَةِ الْأَعْدَاءِ وَمُجَادَلَتِهِمْ وَمُقَاتَلَتِهِمْ؛ مَعَ أَنْ بَيْنَ أَظْهَرِهِمْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَكَلِيمَهُ وَصَفِيَّهُ مِنْ خَلْقِهِ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ، وَهُوَ يَعِدُهُمُ بِالنَّصْرِ وَالظَّفَرِ بِأَعْدَائِهِمْ، هَذَا مَعَ مَا شَهِدُوا مِنْ فِعْلِ اللَّهِ بَعْدَهُمْ فِرْعَوْنَ مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ وَالغُرُقِ لَهُ وَالجُنُودِ فِي الْيَمِّ، وَهُمْ يَنْظُرُونَ لَتَقْرَ بِهِ أَعْيُنُهُمْ وَمَا بِالْعَهْدِ مِنْ قَدَمٍ، ثُمَّ يَنْكَلُونَ عَنِ مُقَاتَلَةِ أَهْلِ بَلَدِهِمُ بِالنِّسْبَةِ إِلَى دِيَارِ مِصْرَ لَا تَوَازِي عَشْرَ الْمَعَشَرِ فِي عِدَّةِ أَهْلِهَا وَعَدَدِهِمْ، فَظَهَرَتْ قَبَائِحُ صَنِيعِهِمْ لِلْخَاصِّ وَالْعَامِّ، وَافْتَضَحُوا فَضِيحَةً لَا يَغْطِيهَا اللَّيْلُ، وَلَا يَسْتَرُهَا الذِّبْلُ، هَذَا وَهُمْ فِي جَهْلِهِمْ يَعْجَهُونَ، وَفِي غَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ، وَهُمْ الْبَغْضَاءُ إِلَى اللَّهِ وَأَعْدَائِهِ، وَيَقُولُونَ مَعَ ذَلِكَ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ، فَجَبَحَ اللَّهُ وَجُوهَهُمُ الَّتِي مَسَخَ مِنْهَا الْخَنَازِيرَ وَالْقِرُودَ، وَالزَّمَهُمْ لَعْنَةَ تَصْحَبِهِمْ إِلَى النَّارِ ذَاتَ الْوَقُودِ، وَيَقْضَى لَهُمْ فِيهَا بِتَأْيِيدِ الْخُلُودِ، وَقَدْ فَعَلَ، وَلَهُ الْحَمْدُ مِنْ جَمِيعِ الْوُجُودِ.

* وَأَتَى عَلَيْهِمْ نَبَأُ ابْنِي آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِن بَسَطْتَ إِلَى يَدِكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَنَّكَ إِنَِّّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنَِّّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُورِي سَوْءَ أَخِيهِ قَالَ يُرِيَّتُنِي آئِحْزَتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُورِي سَوْءَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴿٣١﴾

يَقُولُ تَعَالَى مَبِينًا وَخِيمًا عَاقِبَةُ الْبَغْيِ وَالْحَسَدِ وَالظُّلْمِ فِي خَبَرِ ابْنِي آدَمَ وَهِيَ (قَابِيلُ وَهَابِيلُ)، كَيْفَ عَدَا أَحَدُهُمَا عَلَى الْآخَرِ، فَقَتَلَهُ بَغْيًا عَلَيْهِ وَحَسَدًا لَهُ، فِيمَا وَهَبَهُ اللَّهُ مِنَ النِّعْمَةِ وَتَقَبَّلَ الْقُرْبَانَ الَّذِي أَخْلَصَ فِيهِ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَفَازَ الْمَقْتُولُ بِوَضْعِ الْآثَامِ وَاللِّدْخُولِ إِلَى الْجَنَّةِ، وَخَابَ الْقَاتِلُ وَرَجَعَ بِالصَّفَقَةِ الْخَاسِرَةَ فِي الدَّارَيْنِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ أَيُّ الْقَائِلِ بِالْحَقِّ ﴿أَيُّ اقْصَصَ عَلَى هَؤُلَاءِ الْبَغَاةِ الْحَسَدَةَ إِخْوَانَ الْخَنَازِيرِ وَالْقِرُودِ مِنَ الْيَهُودِ وَأَمْثَلَهُمْ وَأَشْبَاهَهُمْ

خبر ابني آدم، وهما (هايل وقايل) فيما ذكره غير واحد من السلف والخلف. وقوله: ﴿بالحق﴾ أي على الجلية والأمر الذي لا لبس فيه ولا كذب، ولا وهم ولا تبديل، ولا زيادة ولا نقصان، كقوله تعالى: ﴿إن هذا هو القصص الحق﴾، وقوله تعالى: ﴿نحن نقص عليك نبأهم بالحق﴾، وكان من خبرهما فيما ذكره غير واحد من السلف والخلف، أن الله تعالى شرع لآدم عليه السلام أن يزوج بناته من بنيه لضرورة الحال، ولكن قالوا: كان يولد له في كل بطن ذكر وأنثى، فكان يزوج أنثى هذا البطن لذكر البطن الآخر، وكانت أخت (هايل) دميمة وأخت (قايل) وضيفة، فأراد أن يستأثر بها على أخيه، فأبى آدم ذلك إلا أن يقربا قرباناً، فمن تقبل منه فهي له، فتقبل من هايل، ولم يتقبل من قايل، فكان من أمرهما ما قصه الله في كتابه .

قال السدي عن ابن عباس وعن ابن مسعود: أنه كان لا يولد لآدم مولود إلا ومعه جارية، فكان يزوج غلام هذا البطن جارية هذا البطن الآخر، ويزوج جارية هذا البطن غلام هذا البطن الآخر، حتى ولد له ابنان يقال لهما هايل وقايل، وكان قايل صاحب زرع، وكان هايل صاحب ضرع، وكان قايل أكبرهما، وكان له أخت أحسن من أخت هايل، وأن هايل طلب أن ينكح أخت قايل، فأبى عليه، وقال هي أختي ولدت معي، وهي أحسن من أختك، وأنا أحق أن أتزوج بها، وأنهما قربا قرباناً إلى الله عزَّ وجلَّ أيهما أحق بالجارية، قرب هايل جذعة سمينة، وقرب قايل حزمة سنبل، فوجد فيها سنبله عظيمة ففركها وأكلها، فترلت النار فأكلت قربان هايل، وتركت قربان قايل، فغضب، وقال لأقتلنك حتى لا تنكح أختي، فقال هايل: ﴿إنما يتقبل الله من المتقين﴾^(١). وقال ابن جرير عن عبد الله بن عمرو قال: إن ابني آدم اللذين قربا قرباناً فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر، كان أحدهما صاحب حرث، والآخر صاحب غنم، وإنهما أمرا أن يقربا قرباناً، وإن صاحب الغنم قرب أكرم غنمه وأسمنها وأحسنها طيبة بها نفسه، وإن صاحب الحرث قرب أشر حرثه الكوزن والزوان، غير طيبة بها نفسه، وإن الله عزَّ وجلَّ تقبل قربان صاحب الغنم، ولم يتقبل قربان صاحب الحرث، وكان من قصتهما ما قص الله في كتابه، قال: وإيم الله إن كان المقتول لأشدَّ الرجلين، ولكن منعه التحرج أن ييسط يده إلى أخيه .

وروى محمد بن إسحاق عن بعض أهل العلم بالكتاب الأول: أن آدم أمر ابنه قايل أن ينكح أخته توامة هايل، وأمر هايل أن ينكح أخته توامة قايل، فسلم لذلك هايل ورضي، وأبى ذلك قايل وكره تكراً عن هايل، ورغب بأخته عن هايل، وقال: نحن من ولادة الجنه، وهما من ولادة الأرض، وأنا أحق بأختي. ويقول بعض أهل العلم بالكتاب الأول: كانت أخت قايل من أحسن الناس، فضن بها على أخيه وأرادها لنفسه فقال له أبوه: يا بني إنها لا تحل لك، فأبى قايل أن يقبل ذلك من قول أبيه، قال له أبوه: يا بني قرب قرباناً ويقرب أخوك هايل قرباناً فأيكما تقبل قربانه فهو أحق بها، وكان قايل على بذر الأرض، وكان هايل على رعاية الماشية، فقرب قايل قمحاً، وقرب هايل أبقاراً من أبقار غنمه، وبعضهم يقول: قرب بقرة؛ فأرسل الله ناراً بيضاء فأكلت قربان هايل، وتركت قربان قايل، وبذلك كان يقبل القربان إذا قبله. رواه ابن جرير، ثم المشهور عند الجمهور أن الذي قرب الشاة هو هايل، وأن الذي قرب الطعام هو قايل، وأنه تقبل من هايل شاته، حتى

قال ابن عباس وغيره: إنها الكبش الذي فدي به الذبيح وهو مناسب، والله أعلم. ولم يتقبل من قابيل، كذلك نص عليه غير واحد من السلف والخلف وهو المشهور عن مجاهد أيضاً.

ومعنى قوله: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ أي ممن اتقى الله في فعله ذلك. وفي الحديث عن معاذ بن جبل، قال: يحبس الناس في بقيع واحد ينادي مناد، أين المتقون؟ فيقومون في كنف من الرحمن لا يحتجب الله منهم ولا يستتر، قلت: من المتقون؟ قال: قوم اتقوا الشرك وعبادة الأوثان، وأخلصوا العبادة فيمرون إلى الجنة.

وقوله تعالى: ﴿لئن بسطت إلي يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك﴾ إني أخاف الله رب العالمين يقول له أخوه الرجل الصالح الذي تقبل الله قربانه لتقواه، حين توعد أخوه بالقتل عن غير ما ذنب منه إليه ﴿لئن بسطت إلي يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك﴾ أي لا أقابلك على صنيعك الفاسد بمثله، فأكون أنا وأنت سواء في الخطيئة ﴿إني أخاف الله رب العالمين﴾ أي من أن أصنع كما تريد أن تصنع بل أصبر وأحتسب، قال عبد الله بن عمرو: وإيم الله إن كان لأشد الرجلين ولكن منعه التحرج يعني الورع؛ ولهذا ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا تواجه المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار» قالوا: يا رسول الله هذا القاتل فما بال المقتول؟ قال: «إنه كان حريصاً على قتل صاحبه». وقال الإمام أحمد عن بشر بن سعيد أن سعد بن أبي وقاص قال، عند فتنة عثمان: أشهد أن رسول الله ﷺ قال: «إنها ستكون فتنة، القاعد فيها خير من القائم، والقائم خير من الماشي، والماشي خير من الساعي» قال: أفرأيت إن دخل على بيتي فبسط يده إلي ليقتلني؟ فقال: «كن كابن آدم»، قال أيوب السخيتاني: إن أول من أخذ بهذه الآية من هذه الأمة ﴿لئن بسطت إلي يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك﴾ إني أخاف الله رب العالمين ﴿لعثمان بن عفان رضي الله عنه، رواه ابن أبي حاتم.

وقوله تعالى: ﴿إني أريد أن تبوء بإثمي وإثمك فتكون من أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين﴾ قال ابن عباس ومجاهد: أي يائمه قتل وإثمك الذي عليك قبل ذلك، وقال آخرون: يعني بذلك إني أريد أن تبوء بخطيئتي فتتحمل وزرها وإثمك في قتلك إياي. عن مجاهد ﴿إني أريد أن تبوء بإثمي وإثمك﴾ يقول: إني أريد أن يكون عليك خطيئتي ودمي فتبوء بهما جميعاً. (قلت): وقد يتوهم كثير من الناس هذا القول ويذكرون في ذلك حديثاً لا أصل له «ما ترك القاتل على المقتول من ذنب». وقد روى الحافظ أبو بكر البزار حديثاً يشبه هذا ولكن ليس به فقال عن عائشة، قالت، قال رسول الله ﷺ: «قتل الصبر لا يمر بذنب إلا محاه»، وهذا بهذا لا يصح، ولو صح فعناه أن الله يكفر عن المقتول بألم القتل ذنوبه، فأما أن تحمل على القاتل فلا، ولكن قد يتفق هذا في بعض الأشخاص وهو الغالب، فإن المقتول يطالب القاتل في العرصات، فيؤخذ له من حسناته بقدر مظلمته، فإن نفدت ولم يستوف حقه أخذ من سيئات المقتول فطرحت على القاتل، فربما لا يبقى على المقتول خطيئة إلا وضعت على القاتل. وقد صح الحديث بذلك عن رسول الله ﷺ في المظالم كلها، والقتل من أعظمها وأشدّها والله أعلم. فإن قيل: كيف أراد هابيل أن يكون على أخيه قابيل إثم قتله؟ والجواب أن هابيل أخبر عن نفسه بأنه لا يقاتل أخاه إن قاتله بل يكف عنه يده طالباً إن وقع قتل أن يكون من أخيه لا منه. وهذا الكلام متضمن موعظة له لو اتعظ وزجرأ له لو اتزجر، ولهذا قال: ﴿إني أريد أن تبوء بإثمي وإثمك﴾ أي تتحمل إثمي وإثمك ﴿فتكون من أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين﴾ وقال ابن عباس: خوفاً بالنار فلم ينته ولم يترجر.

وقوله تعالى: ﴿ فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين ﴾ أي فحسنت وسولت له نفسه وشجعته على قتل أخيه فقتله أي بعد هذه الموعظة، وهذا الزجر. وقد تقدم أنه قتله بحديدة في يده؛ وقال السدي: ﴿ فطوعت له نفسه قتل أخيه ﴾ فطلبه ليقبله فراغ الغلام منه في رؤوس الجبال، فأتاه يوماً من الأيام، وهو يرعى غنماً له، وهو نائم، فرفع صخرة فشدخ بها رأسه فمات، فتركه بالعراء. رواه ابن جرير. وعن بعض أهل الكتاب أنه قتله خنقاً وعضاً كما تقتل السباع. وقال ابن جرير: لما أراد أن يقتله جعل يلوي عنقه، فأخذ إبليس دابة ووضع رأسها على حجر ثم أخذ حجراً آخر فضرب به رأسها حتى قتلها، وابن آدم ينظر، ففعل بأخيه مثل ذلك. وقال عبد الله ابن وهب: أخذ برأسه ليقبله فاضطجع له وجعل يغمز رأسه وعظامه ولا يدري كيف يقتله، فجاءه إبليس فقال: أتريد أن تقتله، قال: نعم، قال: فخذ هذه الصخرة فاطرحها على رأسه، قال: فأخذها فألقاها عليه فشدخ رأسه، ثم جاء إبليس إلى حواء مسرعاً، فقال: يا حواء إن قابيل قتل هاويل، فقالت له: ويحك وأي شيء يكون القتل؟ قال: لا يأكل ولا يشرب ولا يتحرك، قالت: ذلك الموت؟ قال: فهو الموت، فجعلت تصيح حتى دخل عليها آدم وهي تصيح، فقال: مالك؟ فلم تكلمه فرجع إليها مرتين فلم تكلمه، فقال: عليك الصيحة وعلى بناتك، وأنا وبني منها براء. رواه ابن أبي حاتم. وقوله: ﴿ فأصبح من الخاسرين ﴾ أي في الدنيا والآخرة، وأي خسارة أعظم من هذه. عن عبد الله بن مسعود قال، قال رسول الله ﷺ: « لا تقتل نفس ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها لأنه كان أول من سن القتل »، وقد أخرجه الجماعة سوى أبي داود.

وقوله تعالى: ﴿ فبعث الله غراباً يبحث في الأرض ليريه كيف يواري سوءة أخيه قال يا ويلتي أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأواري سوءة أخي فأصبح من النادمين ﴾ قال السدي: لما مات الغلام تركه بالعراء ولا يعلم كيف يدفن، فبعث الله غرابين أخوين، فاقتتلا فقتل أحدهما صاحبه، فحفر له، ثم حثى عليه، فلما رآه قال: ﴿ يا ويلتي أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأواري سوءة أخي ﴾؟ وقال ابن عباس: جاء غراب إلى غراب ميت فبحث عليه من التراب حتى واره، فقال الذي قتل أخاه ﴿ يا ويلتي أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأواري سوءة أخي ﴾، وقال الضحاك عن ابن عباس: مكث يحمل أخاه في جراب على عاتقه سنة حتى بعث الله الغرابين فرآهما يبحثان فقال: ﴿ أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب ﴾ فدفن أخاه. وزعم أهل التوراة أن قابيل لما قتل أخاه هاويل قال له الله عز وجل: يا قابيل أين أخوك هاويل؟ قال: ما أدري ما كنت عليه رقيباً، فقال الله: إن صوت دم أخيك ليناديني من الأرض الآن، أنت ملعون من الأرض التي فتحت فاهها، فتلقت دم أخيك من يدك، فإن أنت عملت في الأرض فإنها لا تعود تعطيك حرثها، حتى تكون فرعاً تائهاً في الأرض.

وقوله تعالى: ﴿ فأصبح من النادمين ﴾ قال الحسن البصري: علاه الله بندامة بعد خسران. فهذه أقوال المفسرين في هذه القصة، وكلهم متفقون على أن هذين ابنا آدم لصلبه كما هو ظاهر القرآن، وكما نطق به الحديث في قوله: « إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها لأنه أول من سن القتل »، وهذا ظاهر جلي. وقال رسول الله ﷺ: « إن الله ضرب لكم ابني آدم مثلاً فخذوا من خيرهم ودعوا شرهم »^(١)، والظاهر أن قابيل عوجل بالعقوبة،

(١) أخرجه ابن جرير عن الحسن البصري مرفوعاً.

كما ذكره مجاهد وابن جبير: أنه علقت ساقه بفخذه يوم قتله وجعل الله وجهه إلى الشمس حيث دارت عقوبة له وتنكيلاً به. وقد ورد في الحديث أن النبي ﷺ قال: « ما من ذنب أجدر أن يعجل الله عقوبته في الدنيا مع ما يدخر لصاحبه في الآخرة من البغي وقطيعة الرحم »، وقد اجتمع في فعل قابيل هذا وهذا، فإن الله وإنا إليه راجعون .

مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ
النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنْ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ
ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا
أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ حِزْبٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ
عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣٤﴾

يقول تعالى من أجل قتل ابن آدم أخاه ظلماً وعدواناً ﴿ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ أي شرعنا لهم وأعلمناهم ﴿ أنه من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً ﴾ أي من قتل نفساً بغير سبب من قصاص أو فساد في الأرض، واستحل قتلها بلا سبب ولا جناية، فكأنما قتل الناس جميعاً، لأنه لا فرق عنده بين نفس ونفس، ومن أحياها أي حرم قتلها واعتقد ذلك فقد سلم الناس كلهم منه بهذا الاعتبار، ولهذا قال: ﴿ فكأنما أحيا الناس جميعاً ﴾. وقال الأعمش عن أبي هريرة قال: دخلت على عثمان يوم الدار فقلت: جئت لأنصرك، وقد طاب الضرب يا أمير المؤمنين، فقال: يا أبا هريرة أيسرك أن تقتل الناس جميعاً وإياي معهم؟ قلت: لا، قال: فإنك إن قتلت رجلاً واحداً فكأنما قتلت الناس جميعاً، فانصرف مأذوناً لك، مأجوراً غير مأزور، قال: فانصرفت ولم أقاتل. وقال ابن عباس هو كما قال الله تعالى: ﴿ من قتل نفساً بغير نفس فكأنما قتل الناس جميعاً ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً ﴾ وإحياؤها ألا يقتل نفساً حرمها الله فذلك الذي أحيا الناس جميعاً، يعني أنه من حرم قتلها إلا بحق حيي الناس منه؛ وهكذا قال مجاهد، ومن أحياها أي كف عن قتلها. وقال العوفي عن ابن عباس في قوله ﴿ فكأنما قتل الناس جميعاً ﴾ يقول: من قتل نفساً واحدة حرمها الله فهو مثل من قتل الناس جميعاً. وقال سعيد بن جبير: من استحل دم مسلم فكأنما استحل دماء الناس جميعاً، ومن حرم دم مسلم فكأنما حرم دماء الناس جميعاً، هذا قول وهو الأظهر، وقال مجاهد في رواية أخرى عنه: من قتل نفساً بغير نفس فكأنما قتل الناس جميعاً وذلك لأن من قتل النفس فله النار فهو كما لو قتل الناس كلهم. وقال مجاهد في رواية ﴿ ومن أحياها ﴾ أي أنجأها من غرق أو حرق أو هلكة. وقال الحسن وقتادة في قوله: ﴿ أنه من قتل نفساً بغير نفس فكأنما قتل الناس جميعاً ﴾ هذا تعظيم لتعاطي القتل. قال قتادة: عظيم والله وزرها، وعظيم والله أجرها. وقال ابن المبارك عن سليمان الربيعي قال، قلت للحسن: هذه الآية لنا يا أبا سعيد

كما كانت لبني إسرائيل ؟ فقال : أي والذي لا إله غيره كما كانت لبني إسرائيل ، وما جعل دماء بني إسرائيل أكرم على الله من دماننا . وقال الإمام أحمد : جاء حمزة بن عبد المطلب إلى رسول الله ﷺ : فقال : يا رسول الله اجعلني على شيء أعيش به ، فقال رسول الله ﷺ : « يا حمزة نفس تحييها أحب إليك أم نفس تميتها » قال : بل نفس أحيتها ، قال : « عليك بنفسك » ، وقوله تعالى : ﴿ ولقد جاءتهم رسلنا بالبينات ﴾ أي بالحجج والبراهين والدلائل الواضحة ﴿ ثم إن كثيراً منهم بعد ذلك في الأرض لمسرفون ﴾ وهذا تقرير لهم وتوبيخ على ارتكابهم المحرم بعد علمهم بها ، كما كانت (بنو قريظة) و (النضير) يقاتلون مع الأوس والخزرج إذا وقعت بينهم الحروب في الجاهلية ، ثم إذا وضعت الحروب أوزارها فلدوا من أسروه وودوا من قتلوه ، وقد أنكر الله عليهم ذلك في سورة البقرة حيث يقول : ﴿ ثم أتم هؤلاء تقتلون أنفسكم وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ﴾ الآية . المحاربة هي المصادمة والمخالفة ، وهي صادقة على الكفر وعلى قطع الطريق وإخافة السبيل ، وكذا الإفساد في الأرض يطلق على أنواع من الشر ، حتى قال كثير من السلف منهم سعيد بن المسيب : إن قبض الدراهم والدنانير من الإفساد في الأرض ، وقد قال الله تعالى : ﴿ وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد ﴾ ، ثم قال بعضهم : نزلت هذه الآية الكريمة في المشركين ، كما قال ابن جرير عن عكرمة والحسن البصري قالا : ﴿ إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله - إلى - إن الله غفور رحيم ﴾ نزلت هذه الآية في المشركين ، فمن تاب منهم من قبل أن تقتلوا عليه لم يكن عليه سبيل ، وليست تحرز هذه الآية الرجل المسلم من الحد إن قتل أو أفسد في الأرض أو حارب الله ورسوله ثم لحق بالكفار قبل أن يقدر عليه لم يمنعه ذلك أن يقام عليه الحد الذي أصاب . ورواه أبو داود والنسائي من طريق عكرمة عن ابن عباس : إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً : نزلت في المشركين ، فمن تاب منهم قبل أن يقدر عليه لم يمنعه ذلك أن يقام عليه الحد الذي أصابه . وقال ابن عباس في قوله : ﴿ إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً ﴾ الآية . قال : كان قوم من أهل الكتاب بينهم وبين النبي ﷺ عهد وميثاق فنقضوا العهد وأفسدوا في الأرض ، فخير الله رسوله إن شاء أن يقتل وإن شاء أن تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف . رواه ابن جرير .

وروي عن مصعب بن سعد عن أبيه قال : نزلت في الحرورية ﴿ إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً ﴾ رواه ابن مردويه ، والصحيح أن هذه الآية عامة في المشركين وغيرهم من ارتكب هذه الصفات كما رواه البخاري ومسلم عن أنس بن مالك : أن نفرأ من عكل ثمانية قدموا على رسول الله ﷺ فبايعوه على الإسلام فاستوخموا المدينة ، وسقمت أجسامهم ، فشكوا إلى رسول الله ﷺ ذلك ، فقال : « ألا تخرجون مع راعينا في إبله فتصيّبوا من أبوالها وألبانها » فقالوا : بلى ، فخرجوا فشربوا من أبوالها وألبانها ، فصحوا ، فقتلوا الراعي وطرّدوا الإبل ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فبعث في آثارهم فأدركوا فجيء بهم ، فأمر بهم فقطعت أيديهم وأرجلهم ، وسمرت أعينهم ، ثم نبذوا في الشمس حتى ماتوا ، لفظ مسلم . وفي لفظ : وألقوا في الحرة فجعلوا يستسقون فلا يسقون ، وعند البخاري ، قال أبو قلابة : فهؤلاء سرقوا وقتلوا وكفروا بعد إيمانهم وحاربوا الله ورسوله .

وقال حماد بن سلمة عن أنس بن مالك: أن ناساً من عرينة قدموا المدينة فاجتوها، فبعثهم رسول الله ﷺ في إبل الصدقة، وأمرهم أن يشربوا من أبوالها وألبانها، ففعلوا، فصحوا، فارتدوا عن الإسلام، وقتلوا الراعي، وساقوا الإبل، فأرسل رسول الله ﷺ في آثارهم، فجيء بهم فقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف، وسمر أعينهم، وألقاهم في الحرة؛ قال أنس: فلقد رأيت أحدهم يكدم الأرض بفيه عطشاً حتى ماتوا، ونزلت: ﴿إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله﴾^(١) الآية. وقد رواه ابن مردويه عن أنس بن مالك قال: ما ندمت على حديث ما ندمت على حديث سألني عنه الحجاج، قال: أخبرني عن أشد عقوبة عاقب بها رسول الله ﷺ؟ قال: قلت: قدم على رسول الله ﷺ قوم من عرينة من البحرين، فشكوا إلى رسول الله ﷺ ما لقوا من بطونهم، وقد اصفرت ألوانهم، وضمرت بطونهم، فأمرهم رسول الله ﷺ أن يأتوا إبل الصدقة، فيشربوا من أبوالها وألبانها، حتى إذا رجعت إليهم ألوانهم وانخضت بطونهم، عمدوا إلى الراعي فقتلوه، واستاقوا الإبل، فأرسل رسول الله ﷺ في آثارهم، فقطع أيديهم وأرجلهم وسمر أعينهم، ثم ألقاهم في الرمضاء حتى ماتوا، فكان الحجاج إذا صعد المنبر يقول: إن رسول الله ﷺ قطع أيدي قوم وأرجلهم ثم ألقاهم في الرمضاء حتى ماتوا، بحال ذود من الإبل، فكان الحجاج يحتاج بهذا الحديث على الناس.

وقد اعتنى الحافظ الجليل أبو بكر بن مردويه بتطريق هذا الحديث من وجوه كثيرة جداً فرحمه الله وأثابه. وقال ابن جرير: كان أناس أتوا رسول الله ﷺ، فقالوا: نبايعك على الإسلام، فبايعوه وهم كذبة وليس الإسلام يريدون، ثم قالوا: إنا نجتوي المدينة، فقال النبي ﷺ: هذه اللقاح تغدو عليكم وتروح، فاشربوا من أبوالها وألبانها، قال: فبينما هم كذلك إذ جاءهم الصريخ، فصرخ إلى رسول الله ﷺ فقال: قتلوا الراعي، واستاقوا النعم، فأمر النبي ﷺ فنودي في الناس: «أن يا خيل الله اركبي»، قال: فركبوا، لا ينتظر فارس فارساً، قال: وركب رسول الله ﷺ على أثرهم، فلم يزالوا يطلبونهم، حتى أدخلوهم مأمئهم، فرجع صحابة رسول الله ﷺ وقد أسروا منهم، فأتوا بهم النبي ﷺ، فأنزل الله: ﴿إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله﴾ الآية، قال: فكان نفهم أن نفهم حتى أدخلوهم مأمئهم وأرضهم ونفهم من أرض المسلمين، وقتل نبي الله ﷺ منهم، وصلب، وقطع، وسمر الأعين، قال: فما مثل رسول الله ﷺ قبل ولا بعد، قال: ونهى عن المثلة، وقال: «ولا تمثلوا بشيء». وقد اختلف الأئمة في حكم هؤلاء العرنيين هل هو منسوخ أو محكم؟ فقال بعضهم: هو منسوخ بهذه الآية، وزعموا أن فيها عتاباً للنبي ﷺ، ومنهم من قال: هو منسوخ بنهي النبي ﷺ عن المثلة، وهذا القول فيه نظر. ثم قائله مطالب ببيان تأخر الناسخ الذي ادعاه عن المنسوخ، وقال بعضهم: كان هذا قبل أن تنزل الحدود، وفيه نظر، فإن قصته متأخرة. ومنهم من قال: لم يسلم النبي ﷺ أعينهم، وإنما عزم على ذلك حتى نزل القرآن فبين حكم المحاربين، وهذا القول أيضاً فيه نظر. فإنه قد تقدم في الحديث المتفق عليه أنه سمل، وفي رواية سمر أعينهم.

ثم قد احتج بعموم هذه الآية جمهور العلماء في ذهابهم إلى أن حكم المحاربة في الأمصار وفي السبلان على السواء لقوله: ﴿ويسعون في الأرض فساداً﴾، وهذا مذهب مالك والشافعي وأحمد بن حنبل، حتى قال مالك

(١) رواه أبو داود والترمذي والنسائي.

في الذي يقتال الرجل فيخذه حتى يدخله بيتاً فيقتله ويأخذ ما معه: إن هذه محاربة ودمه إلى السلطان لا إلى ولي المقتول، ولا اعتبار بعفوه عنه في إسقاط القتل. وقال أبو حنيفة وأصحابه: لا تكون المحاربة إلا في الطرقات، فأما في الأمصار فلا، لأنه يلحقه الغوث إذا استغاث، بخلاف الطريق لبعده ممن يغيثه ويعينه. وقوله تعالى: ﴿ أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ﴾ قال ابن عباس في الآية: من شهّر السلاح في فئة الإسلام، وأخاف السبيل، ثم ظفّر به وقدر عليه، فإمام المسلمين فيه بالخيار إن شاء قتله وإن شاء صلبه، وإن شاء قطع يده ورجله، وكذا قال سعيد بن المسيب ومجاهد والضحاك، ومستند هذا القول أن ظاهر (أو) للتخيير كما في نظائر ذلك في القرآن، كقوله في كفارة الفدية: ﴿ فدية من صيام أو صدقة أو نسك ﴾، وكقوله في كفارة اليمين: ﴿ إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون به أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة ﴾ وهذه كلها على التخيير، فكذلك فلتكن هذه الآية. وقال الجمهور: هذه الآية منزلة على أحوال، كما قال الشافعي عن ابن عباس في قطاع الطريق: إذا قتلوا وأخذوا المال قتلوا وصلبوا، وإذا قتلوا ولم يأخذوا المال قتلوا ولم يصلبوا، وإذا أخذوا المال ولم يقتلوا قطع أيديهم وأرجلهم من خلاف، وإذا أخافوا السبيل ولم يأخذوا المال نفوا من الأرض. وهكذا قال غير واحد من السلف والأئمة. واختلفوا، هل يصلب حياً ويترك حتى يموت بمنعه من الطعام والشراب، أو يقتله برمح أو نحوه، أو يقتل أولاً ثم يصلب، تنكيلاً وتشديداً لغيره من المفسدين؟ في ذلك كله خلاف محرر في موضعه، وبالله الثقة، وعليه التكلان. وأما قوله تعالى: ﴿ أو ينفوا من الأرض ﴾ قال بعضهم: هو أن يطلب حتى يقدر عليه فيقام عليه الحد أو يهرب من دار الإسلام، رواه ابن جرير عن ابن عباس، وقال آخرون: هو أن ينفي من بلده إلى بلد آخر، أو يخرج من بلده إلى بلد آخر، وكذا قال سعيد بن جبير ومقاتل بن حيان: أنه ينفي ولا يخرج من أرض الإسلام. وقال آخرون: المراد بالنفي ههنا السجن، وهو قول أبي حنيفة وأصحابه، واختار ابن جرير: أن المراد بالنفي ههنا أن يخرج من بلده إلى بلد آخر فيسجن فيه .

وقوله تعالى: ﴿ ذلك لم خزي في الدنيا ولم في الآخرة عذاب عظيم ﴾ أي هذا الذي ذكرته من قتلهم ومن صلبهم وقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف ونفيهم، خزي لهم بين الناس في هذه الحياة الدنيا، مع ما ادخر الله لهم من العذاب العظيم يوم القيامة، وهذا يؤيد قول من قال: إنها نزلت في المشركين، فأما أهل الإسلام ففي صحيح مسلم عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: أخذ علينا رسول الله ﷺ كما أخذ على النساء ألا نشرك بالله شيئاً ولا نسرق ولا نزني ولا نقتل أولادنا ولا يعصه^(١) بعضنا بعضاً، فمن وفى منكم فأجره على الله تعالى، ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب فهو كفارة له، ومن ستره الله فأمره إلى الله إن شاء عذبه وإن شاء عفا عنه. وعن علي قال: قال رسول الله ﷺ: « من أذنب ذنباً في الدنيا فعوقب به فالله أعدل من أن يثني عقوبته على عبده، ومن أذنب ذنباً في الدنيا فستره الله عليه وعفا عنه، فالله أكرم من أن يعود عليه في شيء قد عفا عنه »^(٢). وقال ابن جرير

(١) يعصه: يرمي غيره بالإفك والكذب والبهتان .

(٢) رواه أحمد والترمذي وابن ماجه .

﴿ ذلك لهم خزي في الدنيا ﴾: يعني شر وعار ونكال وذلة وعقوبة في عاجل الدنيا قبل الآخرة ﴿ ولهم في الآخرة عذاب عظيم ﴾ أي إذا لم يتوبوا من فعلهم ذلك حتى هلكوا فلهم في الآخرة مع الجزاء الذي جازيتهم به في الدنيا والعقوبة التي عاقبتهم بها في الدنيا عذاب عظيم يعني عذاب جهنم. وقوله تعالى: ﴿ إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم فاعلموا أن الله غفور رحيم ﴾ أما على قول من قال: إنها في أهل الشرك، فظاهر. وأما المحاربون المسلمون فإذا تابوا قبل القدرة عليهم فإنه يسقط عنهم انحنام القتل والصلب وقطع الرجل، وهل يسقط قطع اليد أم لا؟ فيه قولان للعلماء، وظاهر الآية يقتضي سقوط الجميع وعليه عمل الصحابة .

وروى ابن جرير عن عامر الشعبي قال: جاء رجل من مراد إلى أبي موسى، وهو على الكوفة في إمارة عثمان رضي الله عنه بعدما صلى المكتوبة، فقال: يا أبا موسى هذا مقام العائذ بك، أنا فلان بن فلان المرادي، وإني كنت حاربت الله ورسوله وسعيت في الأرض فساداً، وإني تبت من قبل أن تقدروا علي، فقال أبو موسى: إن هذا فلان بن فلان، وإنه كان حارب الله ورسوله وسعى في الأرض فساداً، وإنه تاب من قبل أن تقدر عليه، فن لقيه فلا يعرض له إلا بخير. فإن يك صادقاً فسيب من صدق، وإن يك كاذباً تدركه ذنوبه، فأقام الرجل ما شاء الله، ثم إنه خرج فأدركه الله تعالى بذنوبه فقتله. ثم روى ابن جرير أن علياً الأسدي حارب، وأخاف السبيل، وأصاب الدم والمال، فطلبه الأئمة والعامّة فامتنع، ولم يقدرُوا عليه حتى جاء تائباً، وذلك أنه سمع رجلاً يقرأ هذه الآية: ﴿ قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً ﴾ فإنه هو الغفور الرحيم ﴿ فوقف عليه، فقال: يا عبد الله أعد قراءتها فأعادها عليه، فغمد سيفه، ثم جاء تائباً، حتى قدم المدينة من السحر، فاغتسل، ثم أتى مسجد رسول الله ﷺ فصلّى الصبح، ثم قعد إلى أبي هريرة في أعمار أصحابه، فلما أسفروا عرفه الناس، فقاموا إليه، فقال: لا سبيل لكم علي، جئت تائباً من قبل أن تقدروا علي، فقال أبو هريرة: صدق، وأخذ بيده حتى أتى مروان بن الحكم، وهو أمير على المدينة في زمن معاوية فقال: هذا جاء تائباً ولا سبيل لكم عليه، ولا قتل، فترك من ذلك كله، قال: وخرج علي تائباً مجاهداً في سبيل الله في البحر، فلقوا الروم، ففربوا سفينته إلى سفينة من سفنهم، فاقتحم على الروم في سفينتهم، فهربوا منه إلى شقها الآخر، فالت به وبهم، ففرقوا جميعاً .

يَتَابِعُ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَ أَنَّ لَهُمْ مَاءَ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقْبَلُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾ يُرِيدُونَ أَنْ يُخْرِجُوكَ مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾

يقول تعالى أمراً عباده المؤمنين بتقواه، وهي إذا قرنت بطاعته كان المراد بها الانكفاف من المحارم وترك المنهيات، وقد قال بعدها ﴿ وابتغوا إليه الوسيلة ﴾ قال ابن عباس: أي القربة، وقال قتادة: أي تقربوا إليه بطاعته والعمل بما يرضيه، والوسيلة هي التي يتوصل بها إلى تحصيل المقصود، والوسيلة أيضاً علمٌ على أعلى منزلة في الجنة، وهي منزلة رسول الله ﷺ وداره في الجنة، وهي أقرب أمكنة الجنة إلى العرش، وقد ثبت في صحيح البخاري عن جابر

ابن عبد الله قال، قال رسول الله ﷺ: « من قال حين يسمع النداء: اللهم رب هذه الدعوة التامة، والصلاة القائمة، آت محمداً الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته، إلا حلت له الشفاعة يوم القيامة ». (حديث آخر): في صحيح مسلم قال ﷺ: « إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول، ثم صلوا عليّ فإنه من صلى عليّ صلاة صلى الله عليه عشراً، ثم سلوا لي الوسيلة فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل لي الوسيلة حلت عليه الشفاعة ». (حديث آخر): عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: « إذا صليتم عليّ فسلوا لي الوسيلة »، قيل: يا رسول الله وما الوسيلة؟ قال: « أعلى درجة في الجنة لا ينالها إلا رجل واحد، وأرجو أن أكون أنا هو »^(١). عن ابن عباس قال، قال رسول الله ﷺ: « سلوا الله لي الوسيلة فإنه لم يسألها لي عبد في الدنيا إلا كنت له شهيداً أو شفيعاً يوم القيامة ».

وقوله تعالى: ﴿ وجاهدوا في سبيله لعلكم تفلحون ﴾ لما أمرهم بترك المحارم وفعل الطاعات أمرهم بقتال الأعداء، من الكفار والمشركين الخارجين عن الطريق المستقيم. والتاركين للدين القويم، ورغبتهم في ذلك بالذي أعده للمجاهدين في سبيله يوم القيامة، من الفلاح والسعادة العظيمة الخالدة المستمرة، التي لا تبيد ولا تحول ولا تزول في الغرف العالية الرفيعة، الآمنة الحسنة مناظرها، الطيبة مساكنها، التي من سكنها ينعم لا يئس، ويحيى لا يموت لا تبلى ثيابه ولا يفنى شبابه، ثم أخبر تعالى بما أعد لأعدائه الكفار من العذاب والنكال يوم القيامة فقال: ﴿ إن الذين كفروا لو أن لهم ما في الأرض جميعاً ومثله معه ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة ما تقبل منهم ولهم عذاب أليم ﴾ أي لو أن أحدهم جاء يوم القيامة بملء الأرض ذهباً وبمثله ليفتدي بذلك من عذاب الله الذي قد أحاط به، وتيقن وصوله إليه ما تقبل ذلك منه بل لا مندوحة عنه ولا محيص له ومناص ولهذا قال: ﴿ ولهم عذاب أليم ﴾ أي موجه، ﴿ يريدون أن يخرجوا من النار وما هم بخارجين منها ولهم عذاب مقيم ﴾، كما قال تعالى: ﴿ كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها ﴾ الآية. فلا يزالون يريدون الخروج مما هم فيه من شدته وألم مسه ولا سبيل لهم إلى ذلك، كلما رفعهم اللهب فصاروا في أعلى جهنم ضربتهم الزبانية بالمقامع الحديد فيردوهم إلى أسفلها ﴿ ولهم عذاب مقيم ﴾ أي دائم مستمر لا خروج لهم منها، ولا محيد لهم عنها، وقد قال رسول الله ﷺ: « يؤتى بالرجل من أهل النار، فيقال له يا ابن آدم كيف وجدت مضجعتك؟ فيقول شر مضجع، فيقال هل تفتدي بقراب الأرض ذهباً؟ قال فيقول: نعم يا رب، فيقول الله تعالى: كذبت قد سألتك أقل من ذلك فلم تفعل فيؤمر به إلى النار »^(٢). وعن جابر ابن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال: « يخرج من النار قوم فيدخلون الجنة » قال: فقلت لجابر بن عبد الله يقول الله: ﴿ يريدون أن يخرجوا من النار وما هم بخارجين منها ﴾ قال: أتلى أول الآية ﴿ إن الذين كفروا لو أن لهم ما في الأرض جميعاً ومثله معه ليفتدوا به ﴾ الآية، ألا انهم الذين كفروا^(٣). وعن طلق بن حبيب قال: كنت من أشد الناس تكذيباً بالشفاعة، حتى لقيت جابر بن عبد الله، فقرأت عليه كل آية أقدر عليها يذكر الله فيها خلود أهل النار فقال: يا طلق أتراك أقرأ لكتاب الله وأعلم بسنة رسول الله مني؟ إن الذين قرأت هم أهلها هم المشركون،

(١) رواه أحمد والترمذي .

(٢) رواه مسلم والنسائي عن أنس بن مالك مرفوعاً .

(٣) رواه الحافظ ابن مردويه .

ولكن هؤلاء قوم أصابوا ذنوباً فعدبوا ثم أخرجوا منها ثم أهوى بيديه إلى أذنيه، فقال: صمّتا إن لم أكن سمعت رسول الله ﷺ يقول: « يخرجون من النار بعدما دخلوا » ونحن نقرأ كما قرأت. رواه ابن مردويه .

وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جِزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ
وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ
يَسَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٠﴾

يقول تعالى حاكماً وأمرأً بقطع يد السارق والسارقة، وقد كان القطع معمولاً به في الجاهلية، فقرر في الإسلام وزيدت شروط آخر، كما سنذكره إن شاء الله تعالى، كما كانت القسامة والدية والقراض وغير ذلك من الأشياء التي ورد الشرع بتقريرها على ما كانت عليه وزيادات هي من تمام المصالح، وقد ذهب بعض الفقهاء من أهل الظاهر إلى أنه متى سرق السارق شيئاً قطعت يده به، سواء كان قليلاً أو كثيراً لعموم هذه الآية ﴿ والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما ﴾ فلم يعتبروا نصاباً ولا حرزاً، بل أخذوا بمجرد السرقة، وتمسكوا بما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: « لعن الله السارق، يسرق البيضة فتقطع يده، ويسرق الحبل فتقطع يده »، وأما الجمهور فاعتبروا النصاب في السرقة، وإن كان قد وقع بينهم الخلاف في قدره، فذهب كل من الأئمة الأربعة إلى قول على حدة، فعند الإمام مالك رحمه الله النصاب ثلاثة دراهم مضروبة خالصة فتمت سرقتها أو ما يبلغ ثمنها فما فوقه وجب القطع واحتج في ذلك بما رواه عن نافع عن ابن عمر: أن رسول الله ﷺ قطع في مجن ثمنه ثلاثة دراهم. أخرجاه في الصحيحين، وذهب الشافعي رحمه الله إلى أن الاعتبار في قطع يد السارق بربع دينار أو ما يساويه من الأثمان أو العروض فصاعداً، والحجة في ذلك ما أخرجه البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: « تقطع يد السارق في ربع دينار فصاعداً »، ولمسلم أن رسول الله ﷺ قال: « لا تقطع يد السارق إلا في ربع دينار فصاعداً » قال أصحابنا: فهذا الحديث فاصل في المسألة، ونص في اعتبار ربع الدينار لا ما ساواه. قالوا: وحديث ثمن المجن، وأنه كان ثلاثة دراهم لا ينافي هذا، لأنه إذ ذاك كان الدينار باثني عشر درهماً فهي ثمن ربع دينار، فأمكن الجمع بهذا الطريق .

وذهب الإمام أحمد بن حنبل إلى أن كل واحد من ربع الدينار والثلاثة دراهم مرد شرعي، فمن سرق واحداً منهما أو ما يساويه قطع، عملاً بحديث ابن عمر وبحديث عائشة رضي الله عنها، ووقع في لفظ عند الإمام أحمد عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: « اقطعوا في ربع دينار ولا تقطعوا فيما هو أدنى من ذلك » وكان ربع الدينار يومئذ ثلاثة دراهم اثني عشر درهماً، وفي لفظ للنسائي: « لا تقطع يد السارق فيما دون ثمن المجن » قيل لعائشة: ما ثمن المجن؟ قالت: ربع دينار. فهذه كلها نصوص دالة على عدم اشتراط عشرة دراهم، والله أعلم .

وأما الإمام أبو حنيفة وزفر وسفيان الثوري رحمهم الله فإنهم ذهبوا إلى أن النصاب به عشرة دراهم مضروبة غير مغشوشة، واحتجوا بأن ثمن المجن الذي قطع فيه السارق على عهد رسول الله ﷺ كان ثمنه عشرة دراهم. وقد روى أبو بكر بن أبي شيبة عن ابن عباس قال: كان ثمن المجن على عهد النبي ﷺ عشرة دراهم. ثم قال:

حدثنا عبد الأعلى عن محمد بن إسحاق عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال، قال رسول الله ﷺ: « لا تقطع يد السارق في دون ثمن المجن » وكان ثمن المجن عشرة دراهم قالوا: فهذا ابن عباس وعبد الله بن عمرو قد خالفا ابن عمر في ثمن المجن، فالاحتياط الأخذ بالأكثر لأن الحدود تدرأ بالشبهات. وذهب بعض السلف إلى أنه تقطع يد السارق في عشرة دراهم أو دينار أو ما يبلغ قيمته واحداً منهما؛ يحكى هذا عن علي وابن مسعود وإبراهيم النخعي رحمهم الله تعالى .

وقال بعض السلف: لا تقطع الخمس إلا في خمس أي في خمسة دنانير أو خمسين درهماً، وينقل هذا عن سعيد بن جبير رحمه الله، وقد أجاب الجمهور عما تمسك به الظاهرية من حديث أبي هريرة: « يسرق البيضة فتقطع يده ويسرق الجبل فتقطع يده » بأجوبة (أحدها): أنه منسوخ بحديث عائشة، (والثاني): أنه مؤول ببيضة الحديد وحبل السفن قاله الأعمش فيما حكاه البخاري وغيره عنه، (والثالث): أن هذه وسيلة إلى التدرج في السرقة من القليل إلى الكثير الذي تقطع فيه يده، ويحتمل أن يكون هذا خرج مخرج الإخبار عما كان الأمر عليه في الجاهلية، حيث كانوا يقطعون في القليل والكثير، فلعن السارق الذي يبذل يده الثمينة في الأشياء المهمة، وقد ذكروا أن أبا العلاء المعري لما قدم بغداد اشتهر عنه أنه أورد إشكالاً على الفقهاء في جعلهم نصاب السرقة ربع دينار ونظم في ذلك شعراً دل على جهله، وقلة عقله فقال:

يد بخمس مئين عسجد وديت ما بالها قطعت في ربع دينار؟
تناقض مالنا إلا السكوت له وأن نعوذ بمولانا من النار

ولما قال ذلك واشتهر عنه تطلبه الفقهاء فهرب منهم، وقد أجابه الناس في ذلك، فكان جواب القاضي عبد الوهاب المالكي رحمه الله أن قال: لما كانت أمينة كانت ثمينة، ولما خانت هانت^(١)، ومنهم من قال: هذا من تمام الحكمة والمصلحة وأسرار الشريعة العظيمة، فإن في باب الجنایات ناسب أن تعظم قيمة اليد بخمسائة دينار لثلاث يميني عليها، وفي باب السرقة ناسب أن يكون القدر الذي تقطع فيه ربع دينار لثلاث يسارع الناس في سرقة الأموال، فهذا هو عين الحكمة عند ذوي الألباب، ولهذا قال: ﴿جزاء بما كسبا نكالا من الله والله عزيز حكيم﴾ أي مجازاة على صنيعها السيء في أخذها أموال الناس بأيديهم فناسب أن يقطع ما استعاننا به في ذلك ﴿نكالا من الله﴾ أي تنكيلاً من الله بهما على ارتكاب ذلك، ﴿والله عزيز﴾ أي في انتقامه، ﴿حكيم﴾ أي في أمره ونهيه وشرعه وقدره. ثم قال تعالى: ﴿فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح فإن الله يتوب عليه إن الله غفور رحيم﴾ أي من تاب بعد سرقة وأتاب إلى الله، فإن الله يتوب عليه فيما بينه وبينه، فأما أموال الناس فلا بد من ردها إليهم أو بدلها عند الجمهور، وقال أبو حنيفة: متى قطع، وقد تلفت في يده فإنه لا يرد بدلها .

وقد روى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو: أن امرأة سرت على عهد الرسول ﷺ، فجاء بها الذين سرقتهم، فقالوا: يا رسول الله إن هذه المرأة سرتنا، قال قومها: فنحن نفيديها، فقال رسول الله ﷺ: « اقطعوا

(١) ويروى أنه أجابه شعراً بقوله :

يدها»، فقالوا: نحن نفديها بخمسائة دينار، فقال: «اقطعوا يدها»، فقطعت يدها اليمنى، فقالت المرأة: هل لي من توبة يا رسول الله؟ قال: «نعم أنت اليوم من خطيئتك كيوم ولدتك أمك»، فأنزل الله في سورة المائدة: ﴿فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح فإن الله يتوب عليه إن الله غفور رحيم﴾، وهذه المرأة هي المخزومية التي سرقت، وحديثها ثابت في الصحيحين. وعن ابن عمر قال: كانت امرأة مخزومية تستعير متاعاً على السنة جارتها وتجدها فأمر النبي ﷺ بقطع يدها. رواه الإمام أحمد وأبو داود والنسائي. وقد ورد في أحكام السرقة أحاديث كثيرة مذكورة في كتاب الأحكام، والله الحمد والمنة. ثم قال تعالى: ﴿ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض﴾ أي هو المالك لجميع ذلك الحاكم فيه الذي لا معقب لحكمه وهو الفعال لما يريد، ﴿يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله على كل شيء قدير﴾.

* يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يَحْرِفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنْ اللَّهِ شَيْئاً أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا نَجْزِيٌّ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾ سَمَّعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَلُونَ لِلسُّخْتِ فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرَّكَ شَيْئاً وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾ وَكَيْفَ يُحْكُمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّورَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّورَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يُحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتَحْفَظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءً فَلَا تَخْشَوْنَ النَّاسَ وَآخَشَوْنِ وَلَا تَسْتُرُوا بِعَايَتِي ثَمناً قَلِيلاً وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٤٤﴾

نزلت هذه الآيات الكريمة في المسارعين في الكفر، الخارجين عن طاعة الله ورسوله، المقدمين آراءهم وأهواءهم على شرائع الله عز وجل ﴿من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم﴾، أي أظهروا بالاستتھام قلوبهم خراب خاوية منه وهؤلاء هم المنافقون، ﴿ومن الذين هادوا﴾ أعداء الإسلام وأهله وهؤلاء كلهم ﴿سمعون للكذب﴾ أي مستجيبون له منفعلون عنه، ﴿سمعون لقوم آخرين لم يأتوك﴾ أي يستجيبون لأقوام آخرين لا يأتون مجلسك يا محمد، وقيل: المراد أنهم يتسمعون الكلام وينهونه إلى قوم آخرين ممن لا يحضر عندك من أعدائك، ﴿يحرفون الكلم من بعد مواضعه﴾ أي يتأولونه على غير تأويله ويبدلونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون، ﴿يقولون إن أوتيتم هذا فخذوه وإن لم تأتوه فاحذروا﴾. قيل: نزلت في قوم من اليهود قتلوا قتيلاً، وقالوا: تعالوا حتى نتحاكم إلى محمد، فإن حكم بالدية فاقبلوه، وإن حكم بالقصاص فلا تسمعوا منه. والصحيح أنها نزلت في اليهوديين

للذين زنيا، وكانوا قد بدلوا كتاب الله الذي بأيديهم، من الأمر برجم من أحسن منهم، فحرفوه، واصطلحوا فيما بينهم على الجلد مائة جلدة، والتحميم^(١)، والإركاب على حمار مقلوبين، فلما وقعت تلك الكائنة بعد الهجرة قالوا فيما بينهم: تعالوا حتى نتحاكم إليه، فإن حكم بالجلد والتحميم، فخذوا عنه، واجعلوه حجة بينكم وبين الله، ويكون نبي من أنبياء الله قد حكم بينكم بذلك، وإن حكم بالرجم فلا تتبعوه في ذلك.

وقد وردت الأحاديث بذلك، فقال مالك عن نافع عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: إن اليهود جاءوا إلى رسول الله ﷺ فذكروا له أن رجلاً منهم وأمرأة زنيا، فقال لهم رسول الله ﷺ: «ما تجدون في التوراة في شأن الرجم؟» فقالوا: نفصحههم ويجلدون، قال عبد الله بن سلام: كذبت إن فيها الرجم، فأتوا بالتوراة فنشروها فوضع أحدهم يده على آية الرجم، فقرأ ما قبلها وما بعدها، فقال له عبد الله بن سلام: ارفع يدك، فرفع يده، فإذا آية الرجم، فقالوا: صدق يا محمد، فيها آية الرجم، فأمر بهما رسول الله ﷺ فرجما، فرأيت الرجل يحيي على المرأة يقبها الحجارة. أخرجاه، وهذا لفظ البخاري. وعند مسلم أن رسول الله ﷺ أتى يهودي ويهودية قد زنيا، فانطلق رسول الله ﷺ حتى جاء يهود فقال: «ما تجدون في التوراة على من زنى؟» قالوا: نسود وجوههما ونحممهما ونحملهما، ونخالف بين وجوههما ويطاف بهما قال: ﴿فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين﴾ قال فجاءوا بها فقرأوها، حتى إذا مر بآية الرجم وضع الفتى الذي يقرأ يده على آية الرجم، وقرأ ما بين يديها وما وراءها. فقال له عبد الله بن سلام وهو مع رسول الله ﷺ: مره فليرفع يده، فرفع يده فإذا تحته آية الرجم، فأمر بهما رسول الله ﷺ فرجما. قال عبد الله بن عمر: كنت فيمن رجمهما، فلقد رأيت يقيها من الحجارة بنفسه. عن البراء بن عازب قال: مر على رسول الله ﷺ يهودي محمم مجلود، فدعاهم، فقال: «أهكذا تجدون حد الزاني في كتابكم؟» فقالوا: نعم، فدعا رجلاً من علمائهم، فقال: «أشددك بالذي أنزل التوراة على موسى! أهكذا تجدون حد الزاني في كتابكم؟» فقال: لا والله، ولولا أنك نشدتنى بهذا لم أخبرك، نجد حد الزاني في كتابنا: الرجم، ولكنه كثير في أشرافنا فكننا إذا أخذنا الشريف تركناه وإذا أخذنا الضعيف أقمنا عليه الحد، فقلنا: تعالوا حتى نجعل شيئاً نقيم على الشريف والوضيع فاجتمعنا على التحميم والجلد، فقال النبي ﷺ: «اللهم إني أول من أحيا أمرك إذ أماتوه»، قال: فأمر به فرجم، قال: فأنزل الله عز وجل: ﴿يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر﴾ إلى قوله ﴿يقولون إن أوتيتم هذا فخذوه﴾ أي يقولون: اتوا محمداً فإن أفتاكم بالتحميم والجلد فخذوه، وإن أفتاكم بالرجم فاحذروا إلى قوله ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون﴾ قال في اليهود، إلى قوله ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون﴾ قال في اليهود، ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون﴾ قال: في الكفار كلها، انفرد بإخراجه مسلم دون البخاري.

فهذه الأحاديث دالة على أن رسول الله ﷺ حكم بموافقة حكم التوراة، وليس هذا من باب الإكرام لهم بما يعتقدون صحته، لأنهم مأمورون باتباع الشرع المحمدي لا محالة، ولكن هذا بوحى خاص من الله عز وجل إليه بذلك وسؤاله إياهم عن ذلك ليقرهم على ما بأيديهم مما تواطأوا على كتمانهم وجحدته، وعدم العمل به تلك

(١) التحميم: صبغ الوجه بالسواد.

الدهور الطويلة. فلما اعترفوا به مع عملهم على خلافه، بان زيغهم وعنادهم وتكذيبهم لما يعتقدون صحته من الكتاب الذي بأيديهم، وعدلواهم إلى تحكيم الرسول ﷺ، إنما كان عن هوى منهم وشهوة لموافقة آرائهم لا لاعتقادهم صحة ما يحكم به، ولهذا قالوا: ﴿إِنْ أوتِيتُمْ هذا﴾ أي الجلد والتحميم فخذوه أي اقبلوه ﴿وإن لم تؤتوه فاحذروا﴾ أي من قبوله واتباعه. قال الله تعالى: ﴿ومن يرد الله فتنته فلن نملك له من الله شيئاً أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم، لهم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب عظيم سماعون للكذب﴾ أي الباطل ﴿أكالون للسحت﴾ أي الحرام وهو الرشوة كما قاله ابن مسعود وغير واحد، أي ومن كانت هذه صفته كيف يطهر الله قلبه وأنى يستجيب له؟ ثم قال لنبية: ﴿فإن جاءوك﴾ أي يتحاكمون إليك ﴿فاحكم بينهم أو أعرض عنهم، وإن تعرض عنهم فلن يضروك شيئاً﴾ أي فلا عليك أن لا تحكم بينهم، لأنهم لا يقصدون بتحاكمهم إليك اتباع الحق بل ما يوافق أهواءهم. قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة وغير واحد هي منسوخة بقوله: ﴿وأن احكم بينهم بما أنزل الله﴾، ﴿وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط﴾ أي بالحق والعدل، وإن كانوا ظلمة خارجين عن طريق العدل ﴿إن الله يحب المقسطين﴾ .

ثم قال تعالى منكرًا عليهم في آرائهم الفاسدة ومقاصدهم الزائغة، في تركهم ما يعتقدون صحته من الكتاب الذي بأيديهم، الذي يزعمون أنهم مأمورون بالتمسك به أبدأ، ثم خرجوا عن حكمه وعدلوا إلى غيره مما يعتقدون في نفس الأمر بطلانه وعدم لزومه لهم، فقال: ﴿وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله ثم يتولون من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين﴾ ثم مدح التوراة التي أنزلها على عبده ورسوله موسى بن عمران فقال: ﴿إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا﴾ أي لا يخرجون عن حكمها ولا يبدلون ولا يحرفونها، ﴿والرabanيون والأخبار﴾ أي وكذلك الرabanيون منهم وهم العلماء العباد، والأخبار وهم العلماء ﴿بما استحفظوا من كتاب الله﴾ أي بما استودعوا من كتاب الله الذي أمروا أن يظهروه ويعملوا به ﴿وكانوا عليه شهداء فلا تخشوا الناس واخشوني﴾ أي لا تخافوا منهم وخافوا مني ﴿ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً. ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون﴾ فيه قولان سيأتي بيانها .

(سبب آخر في نزول هذه الآيات الكريمة)

قال أبو جعفر بن جرير، عن عكرمة عن ابن عباس: إن الآيات التي في المائدة قوله: ﴿فاحكم بينهم أو أعرض عنهم - إلى المقسطين﴾ إنما أنزلت في الدية في (بني النضير) و (بني قريظة)، وذلك أن قتلى بني النضير كان لهم شرف تؤدي الدية كاملة، وأن قريظة كانوا يؤدي لهم نصف الدية، فتحاكموا في ذلك إلى رسول الله ﷺ فأنزل الله ذلك فيهم، فحملهم رسول الله ﷺ على الحق في ذلك، فجعل الدية في ذلك سواء، والله أعلم أي ذلك كان، ورواه أحمد وأبو داود والنسائي، ثم قال ابن جرير، عن ابن عباس قال: كانت قريظة والنضير، وكانت النضير أشرف من قريظة، فكان إذا قتل القريظي رجلاً من النضير قتل به، وإذا قتل النضيري رجلاً من قريظة ودي بمائة وسق من تمر، فلما بعث رسول الله ﷺ قتل رجل من النضير رجلاً من قريظة فقالوا: ادفوه

إليه، فقالوا: بيننا وبينكم رسول الله ﷺ، فترلت: ﴿ وَإِنْ حَكَمْتَ فَأَحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ ﴾ ورواه أبو داود والنسائي، وابن حبان، والحاكم في المستدرک. وقد روى العوفي عن ابن عباس: أن هذه الآيات نزلت في اليهوديين اللذين زنيا، كما تقدمت الأحاديث بذلك. وقد يكون اجتمع هذان السببان في وقت واحد، فترلت هذه الآيات في ذلك كله، والله أعلم. ولهذا قال بعد ذلك: ﴿ وَكُنْتُمْ عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنْ نَفْسٌ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنُ بِالْعَيْنِ ﴾ إلى آخرها، وهذا يقوي أن سبب النزول قضية القصاص، والله سبحانه وتعالى أعلم.

وقوله تعالى: ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ قال البراء بن عازب، وابن عباس، والحسن البصري، وغيرهم: نزلت في أهل الكتاب. زاد الحسن البصري: وهي علينا واجبة، وقال عبد الرزاق عن إبراهيم، قال: نزلت هذه الآيات في بني إسرائيل ورضي الله لهذه الأمة بها، وقال السدي: ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ يقول: من لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون، أو جار وهو يعلم، فهو من الكافرين. وقال ابن عباس قوله: ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ قال: من جحد ما أنزل الله فقد كفر، ومن أقر به ولم يحكم به فهو ظالم فاسق. رواه ابن جرير، ثم اختار أن الآية المراد بها أهل الكتاب، أو من جحد حكم الله المتزل في الكتاب. وقال ابن جرير عن الشعبي: ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ قال: هذا في المسلمين، ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ قال: هذا في اليهود ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ قال: هذا في النصارى، وقال الثوري عن عطاء أنه قال: كفر دون كفر وظلم دون ظلم، وفسق دون فسق، وقال وكيع عن طاووس: ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ قال: ليس بكفر ينقل عن الملة.

وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ ۖ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ ۚ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٤٥﴾

وهذا أيضاً مما وبخت به اليهود وقرعوا عليه، فإن عندهم في نص التوراة أن النفس بالنفس، وهم يخالفون حكم ذلك عمداً وعناداً، ويقيدون النصري من القرطي، ولا يقيدون القرطي من النصري، بل يعدلون إلى الدية، كما خالفوا حكم التوراة المنصوص عندهم في رجم الزاني المحصن، وعدلوا إلى ما اصطلحوا عليه من الجلد والتحميم والإشهار، ولهذا قال هناك: ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ لأنهم جحدوا حكم الله قصداً منهم وعناداً وعمداً، وقال ههنا: ﴿ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ لأنهم لم ينصفوا المظلوم من الظالم في الأمر الذي أمر الله بالعدل والتسوية بين الجميع فيه، فخالفوا وظلموا وتعدوا بعضهم على بعض. وقد استدل كثير ممن ذهب من الأصوليين والفقهاء إلى أن شرع من قبلنا شرع لنا، إذا حكي مقررأ ولم ينسخ كما هو المشهور عن الجمهور، والحكم عندنا على وفقها في الجنايات عند جميع الأمم. وقال الحسن البصري: هي عليهم وعلى الناس عامة، وقد احتج الأمة كلهم على أن الرجل يقتل بالمرأة بعموم هذه الآية الكريمة، وكذا ورد في الحديث الذي رواه النسائي وغيره أن رسول الله ﷺ كتب في كتاب عمرو بن حزم: « أن الرجل يقتل بالمرأة »، وفي الحديث الآخر:

« المسلمون تتكافأ دماؤهم »^(١) ، وهذا قول جمهور العلماء ، وعن أمير المؤمنين (علي بن أبي طالب) أن الرجل إذا قتل المرأة لا يقتل بها إلا أن يدفع وليها إلى أوليائه نصف الدية ، لأن ديتها على النصف من دية الرجل ، وإليه ذهب أحمد في رواية ، واحتج أبو حنيفة رحمه الله تعالى بعموم هذه الآية على أنه يقتل المسلم بالكافر الذمي ، وعلى قتل الحر بالعبد ، وقد خالفه الجمهور فيهما . ففي الصحيحين قال رسول الله ﷺ : « لا يقتل مسلم بكافر » ، وأما العبد ففيه عن السلف آثار متعددة ، أنهم لم يكونوا يقيدون العبد من الحر ، ولا يقتلون حرّاً بعبد ، وجاء في ذلك أحاديث لا تصح ، وحكى الشافعي الإجماع على خلاف قول الحنفية في ذلك ، ولكن لا يلزم من ذلك بطلان قولهم إلا بدليل مخصص للآية الكريمة .

ويؤيد الاحتجاج بهذه الآية الكريمة الحديث الثابت عن أنس بن مالك ، أن الربيع عمه أنس كسرت ثنية جارية ، فطلبوا إلى القوم العفو ، فأبوا فأتوا رسول الله ﷺ فقال : « القصاص » ، فقال أخوها أنس بن النضر : يا رسول الله تكسر ثنية فلانة ؟ فقال رسول الله ﷺ : « يا أنس كتاب الله القصاص » قال ، فقال : لا والذي بعثك بالحق لا تكسر ثنية فلانة ، قال : فرضي القوم ، فعفوا ، وتركوا القصاص . فقال رسول الله ﷺ : « إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره » أخرجاه في الصحيحين . وروى أبو داود عن عمران بن حصين : أن غلاماً لأناس فقراء قطع أذن غلام لأناس أغنياء ، فأتى أهله النبي ﷺ فقالوا : يا رسول الله إنا أناس فقراء فلم يجعل عليه شيئاً . وهو حديث مشكل ، اللهم إلا أن يقال : إن الجاني كان قبل البلوغ فلا قصاص عليه ، ولعله تحمل أرش ما نقص من غلام الأغنياء عن الفقراء أو استغفاهم عنه .

وقوله تعالى : ﴿ والجروح قصاص ﴾ قال ابن عباس : تقتل النفس بالنفس ، وتفقد العين بالعين ، ويقطع الأنف بالأنف ، وتترع السن بالسن ، وتقتص الجراح بالجراح ، فهذا يستوي فيه أحرار المسلمين فيما بينهم ورجالهم ونساؤهم إذا كان عمداً في النفس وما دون النفس ، ويستوي فيه العبيد ورجالهم ونساؤهم فيما بينهم إذا كان عمداً في النفس وما دون النفس ، رواه ابن جرير .

(قاعدة مهمة)

الجراح تارة تكون في مفصل ، فيجب فيه القصاص بالإجماع كقطع اليد والرجل والكف والقدم ونحو ذلك ؛ وأما إذا لم تكن الجراح في مفصل بل في عظم ، فقال مالك رحمه الله : فيه القصاص إلا في الفخذ وشبهها لأنه مخوف خطر ، وقال أبو حنيفة وصاحباها : لا يجب القصاص في شيء من العظام إلا في السن ، وقال الشافعي : لا يجب القصاص في شيء من العظام مطلقاً ، وهو مروى عن عمر بن الخطاب وابن عباس ، وهو المشهور من مذهب أحمد . وقد احتج أبو حنيفة رحمه الله بحديث (الربيع بنت النضر) على مذهبه أنه لا قصاص في عظم إلا في السن . وحديث الربيع لا حجة فيه لأنه ورد بلفظ كسرت ثنية جارية ، وجائر أن تكون سقطت من غير كسر فيجب القصاص والحالة هذه بالإجماع ، وتمموا الدلالة بما رواه ابن ماجه عن (جارية بن ظفر الحنفي) أن رجلاً ضرب رجلاً على ساعده بالسيف من غير المفصل ، فقطعها ، فاستعدى النبي ﷺ ، فأمر له بالدية ، فقال :

(١) هذا بعض حديث رواه أبو داود وابن ماجه عن ابن عمرو .

يا رسول الله أريد القصاص فقال: خذ الدية بارك الله لك فيها. ولم يقض بالقصاص، ثم قالوا: لا يجوز أن يقتص من الجراحة حتى تندمل جراحة المجنى عليه، فإن اقتص منه قبل الاندمال ثم زاد جرحه فلا شيء له. والدليل على ذلك ما رواه الإمام أحمد عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده: أن رجلاً طعن رجلاً بقرن في ركبته فجاء إلى النبي ﷺ فقال: أقدني، فقال: «حتى تبرأ»، ثم جاء إليه، فقال: أقدني فأقاده، فقال: يا رسول الله عرجت، فقال: «قد نهيتك فعصيتني فأبعدك الله وبطل عرجك» ثم نسي رسول الله ﷺ أن يقتص من جرح حتى يبرأ صاحبه، تفرد به أحمد.

(مسألة): فلو اقتص المجنى عليه من الجاني فوات من القصاص فلا شيء عليه عند مالك والشافعي وأحمد ابن حنبل، وهو قول الجمهور من الصحابة والتابعين وغيرهم. وقال أبو حنيفة: تجب الدية في مال المقتص. وقال عطاء: تجب الدية على عاقلة المقتص له. وقال ابن مسعود والنخعي: يسقط عن المقتص له قدر تلك الجراحة، ويجب الباقي في ماله. وقوله تعالى: ﴿فمن تصدق به فهو كفارة له﴾. قال ابن عباس: أي فمن عفا عنه وتصدق عليه فهو كفارة للمطلوب وأجر للطالب. وقال سفيان الثوري: فمن تصدق به فهو كفارة للجرح، وأجر المجروح على الله عز وجل. (الوجه الثاني): قال ابن أبي حاتم عن جابر بن عبد الله في قول الله عز وجل: ﴿فمن تصدق به فهو كفارة له﴾ قال: للمجروح. وقال ابن مسعود: يهدم عنه من ذنوبه بقدر ما تصدق به. وروى الإمام أحمد عن أبي السفر قال: كسر رجل من قريش سن رجل من الأنصار فاستعدى عليه معاوية فقال معاوية: إنا سنرضيه فألح الأنصاري، فقال معاوية: شأنك بصاحبك، وأبو الدرداء جالس، فقال أبو الدرداء: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من مسلم يصاب بشيء من جسده فيتصدق به إلا رفعه الله به درجة وحط به عنه خطيئة»، فقال الأنصاري: فإني قد عفوت، وهكذا رواه الترمذي. وعن عبادة بن الصامت قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من رجل يجرح من جسده جراحة فيتصدق بها إلا كفر الله عنه مثل ما تصدق به»، رواه النسائي. وقوله: ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون﴾، قد تقدم عن طاووس وعطاء أنهما قالوا: كفر دون كفر، وظلم دون ظلم، وفسق دون فسق.

وَقَفَيْنَا عَلَىٰ آثَرِهِمْ بَعِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ ۖ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ ۖ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلِيَحْكُمَ أَهْلَ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ ۖ وَمَن لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤٧﴾

يقول تعالى: ﴿وقفينا﴾ أي اتبعنا على آثارهم يعني أنبياء بني إسرائيل ﴿بعيسى ابن مريم مصدقاً لما بين يديه من التوراة﴾ أي مؤمناً بها حاكماً بما فيها، ﴿وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور﴾ أي هدى إلى الحق ونور يستضاء به في إزالة الشبهات وحل المشكلات ﴿ومصدقاً لما بين يديه من التوراة﴾ أي متبعاً لها غير مخالف لما فيها إلا في القليل مما بين لبني إسرائيل بعض ما كانوا يختلفون فيه، كما قال تعالى إخباراً عن المسيح أنه قال لبني إسرائيل: ﴿ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم﴾، ولهذا كان المشهور من قولي العلماء أن الإنجيل نسخ بعض أحكام التوراة.

وقوله تعالى: ﴿وهدى وموعظة للمتقين﴾ أي وجعلنا الإنجيل هدى يهتدى به، وموعظة أي زاجراً عن ارتكاب المحارم والمآثم للمتقين، أي لمن اتقى الله وخاف وعيده وعقابه. وقوله تعالى: ﴿وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه﴾ قرىء ﴿وليحكم﴾ أهل الإنجيل بالنصب على أن اللام لام كي أي وآتينا الإنجيل ليحكم أهل ملته به في زمانهم، وقرىء ﴿وليحكم﴾ بالجزم على أن اللام لام الأمر، أي ليؤمنوا بجميع ما فيه وليقيموا ما أمروا به فيه وبما فيه البشارة ببعثة محمد والأمر باتباعه وتصديقه إذا وجد، كما قال تعالى: ﴿قل يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليكم من ربكم﴾ الآية. وقال تعالى: ﴿الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة﴾ إلى قوله: ﴿المفلحون﴾، ولهذا قال ههنا: ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون﴾ أي الخارجون عن طاعة ربهم، المائلون إلى الباطل، التاركون للحق، وقد تقدم أن هذه الآية نزلت في النصارى وهو ظاهر من السياق.

وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِنْ أَحْكَمْتُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَأَحْذَرْتُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ يُرِيدُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَكَمْ أَجْهَلِيَّةٍ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾

لما ذكر تعالى التوراة التي أنزلها على موسى كلمه، ومدحها وأثنى عليها وأمر باتباعها حيث كانت سائفة الاتباع، وذكر الإنجيل ومدحه وأمر أهله بإقامته واتباع ما فيه كما تقدم بيانه، شرع في ذكر القرآن العظيم الذي أنزله على عبده ورسوله الكريم، فقال تعالى: ﴿وأنزلنا إليك الكتاب بالحق﴾ أي بالصدق الذي لا ريب فيه أنه من عند الله ﴿مصدقاً لما بين يديه من الكتاب﴾ أي من الكتب المتقدمة المتضمنة ذكره ومدحه، وأنه سيتزل من عند الله على عبده ورسوله محمد ﷺ، فكان نزوله كما أخبرت به بما زادها صدقاً عند حاملها من ذوي البصائر، الذين انقادوا لأمر الله واتبعوا شرائع الله، وصدقوا رسل الله، كما قال تعالى: ﴿إن الذين أتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجداً ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولاً﴾ أي إن كان ما وعدنا الله على السنة رسله المتقدمة من مجيء محمد عليه السلام لمفعولاً أي لكائناً لا محالة ولا بد. وقوله تعالى: ﴿ومهيمناً عليه﴾ قال ابن عباس: أي مؤتمناً عليه، وعنه أيضاً المهيمن: الأمين، قال: القرآن أمين على كل كتاب قبله. وقال ابن جريج: القرآن أمين على الكتب المتقدمة قبله، فما وافقه منها فهو حق، وما خالفه منها فهو باطل. وعن الوالي عن ابن عباس ﴿ومهيمناً﴾ أي شهيداً، وكذا قال مجاهد وقتادة والسدي، وقال العوفي عن ابن عباس ﴿ومهيمناً﴾

أي حاكماً على ما قبله من الكتب. وهذه الأقوال كلها متقاربة المعنى فإن اسم المهيمن يتضمن هذا كله، فهو: أمين، وشاهد، وحاكم على كل كتاب قبله، جعل الله هذا الكتاب العظيم الذي أنزله آخر الكتب وخاتمها أشملها وأعظمها وأكملها، حيث جمع فيه محاسن ما قبله، وزاده من الكلمات ما ليس في غيره، فلهذا جعله شاهداً وأميناً وحاكماً عليها كلها، وتكفل تعالى بحفظه بنفسه الكريمة، فقال تعالى: ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾ .

وقوله تعالى: ﴿فاحكم بينهم بما أنزل الله﴾ أي فاحكم يا محمد بين الناس بما أنزل الله إليك في هذا الكتاب العظيم، وبما قرره لك من حكم من كان قبلك من الأنبياء ولم ينسخه في شرعك، ﴿وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم﴾ فأمر رسول الله ﷺ أن يحكم بينهم بما في كتابنا، وقوله: ﴿ولا تتبع أهواءهم﴾ أي آراءهم التي اصطلحوا عليها وتركوا بسببها ما أنزل الله على رسله، ولهذا قال تعالى: ﴿ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق﴾ أي لا تنصرف عن الحق الذي أمرك الله به إلى أهواء هؤلاء من الجهلة الأشقياء. وقوله تعالى: ﴿لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً﴾ عن ابن عباس: ﴿شرعة﴾ قال: سبيلاً، ﴿ومنهاجاً﴾ قال: وسنة، وعن ابن عباس أيضاً ومجاهد: ﴿شرعة ومنهاجاً﴾: أي سنة وسبيلاً والأول أنسب، فإن الشرعة وهي الشريعة أيضاً هي ما يتبدأ فيه إلى الشيء، ومنه يقال شرع في كذا: أي ابتداء فيه، وكذا الشريعة وهي ما يشرع فيها إلى الماء؛ أما المنهاج فهو الطريق الواضح السهل، والسنن الطرائق. فتفسير قوله: ﴿شرعة ومنهاجاً﴾ بالسبيل والسنة أظهر في المناسبة من العكس، والله أعلم. ثم هذا إخبار عن الأمم المختلفة الأديان باعتبار ما بعث الله به رسله الكرام من الشرائع المختلفة في الأحكام المتفقة في التوحيد، كما ثبت في صحيح البخاري أن رسول الله ﷺ قال: «نحن معاصر الأنبياء إخوة لعلات ديننا واحد»، يعني بذلك التوحيد الذي بعث الله به كل رسول أرسله وضمنه كل كتاب أنزله كما قال تعالى: ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون﴾ .

وقال تعالى: ﴿ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت﴾ الآية، وأما الشرائع فمختلفة في الأوامر والنواهي، فقد يكون الشيء في هذه الشريعة حراماً، ثم يحل في الشريعة الأخرى، وبالعكس، وخفيفاً فيزداد في الشدة في هذه دون هذه، وذلك لما له تعالى في ذلك من الحكمة البالغة، والحجة الدامغة، قال قتادة قوله: ﴿شرعة ومنهاجاً﴾ يقول: سبيلاً وسنة، والسنن مختلفة هي في التوراة شريعة، وفي الإنجيل شريعة وفي الفرقان شريعة، يحل الله فيها ما يشاء ويحرم ما يشاء ليعلم من يطيعه ممن يعصيه، والدين الذي لا يقبل الله غيره التوحيد والإخلاص لله الذي جاءت به جميع الرسل عليهم الصلاة والسلام، ﴿ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة﴾ هذا خطاب لجميع الأمم وإخبار عن قدرته تعالى العظيمة التي لو شاء لجمع الناس كلهم على دين واحد وشريعة واحدة لا ينسخ شيء منها، ولكنه تعالى شرع لكل رسول شريعة على حدة، ثم نسخها أو بعضها برسالة الآخر الذي بعده، حتى نسخ الجميع بما بعث به عبده ورسوله محمداً ﷺ الذي ابتعثه إلى أهل الأرض قاطبة وجعله خاتم الأنبياء كلهم، ولهذا قال تعالى: ﴿ولكن ليلوكم فيما آتاكم﴾ أي أنه تعالى شرع الشرائع المختلفة ليختبر عباده فيما شرع لهم ويثيبهم أو يعاقبهم على طاعته ومعصيته بما فعلوه أو عزموا عليه من ذلك كله ﴿فيما آتاكم﴾ يعني من الكتاب، ثم إنه تعالى ندبهم إلى المسارعة إلى الخيرات والمبادرة إليها فقال: ﴿فاستبقوا الخيرات﴾ وهي طاعة الله واتباع شرعه

الذي جعله ناسخاً لما قبله والتصديق بكتابه القرآن الذي هو آخر كتاب أنزله، ثم قال تعالى: ﴿إلى الله مرجعكم﴾ أي معادكم أيها الناس ومصيركم إليه يوم القيامة ﴿فينبئكم﴾ بما كنتم فيه تختلفون ﴿أي فيخبركم﴾ بما اختلفتم فيه من الحق فيجزى الصادقين بصدقهم، ويعذب الكافرين الجاحدين المكذبين بالحق العادلين عنه بلا دليل ولا برهان.

وقوله تعالى: ﴿وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم﴾ تأكيد لما تقدم من الأمر بذلك والنهي عن خلافه. ثم قال: ﴿واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك﴾ أي واحذر أعداءك اليهود أن يدلسوا عليك الحق فيما ينهونه إليك من الأمور، فلا تغتر بهم فإنهم كذبة كفره خونة، ﴿فإن تولوا﴾ أي عما تحكم به بينهم من الحق وخالفوا شرع الله ﴿فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم﴾، أي فاعلم أن ذلك كائن عن قدرة الله وحكمته فيهم أن يصرفهم عن الهدى لما لهم من الذنوب السالفة التي اقتضت إضلالهم ونكالهم، ﴿وإن كثيراً من الناس لفاسقون﴾ أي إن أكثر الناس لخارجون عن طاعة ربهم مخالفون للحق ناكبون عنه، كما قال تعالى: ﴿وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين﴾ وقال تعالى: ﴿وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله﴾ الآية. وقال محمد بن إسحاق عن ابن عباس قال: قال كعب بن أسد، وعبد الله بن صوريا، وشاس بن قيس، بعضهم لبعض: اذهبوا بنا إلى محمد لعلنا نفتنه عن دينه، فأتوه فقالوا: يا محمد إنك قد عرفت أننا أجبار يهود وأشرافهم وساداتهم، وإنا إن اتبعناك اتبعنا يهود ولم يخالفونا، وإن بيننا وبين قومنا خصومة، فنحاكمهم إليك فتقضي لنا عليهم، ونؤمن لك ونصدقك، فأبى ذلك رسول الله ﷺ فأنزل الله عز وجل فيهم: ﴿وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك﴾ إلى قوله ﴿لقوم يوقنون﴾. رواه ابن جرير.

وقوله تعالى: ﴿أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون﴾ ينكر تعالى على من خرج عن حكم الله المحكم المشتمل على كل خير الناهي عن كل شر، وعدل إلى ما سواه من الآراء والأهواء والاصطلاحات التي وضعها الرجال بلا مستند من شريعة الله، كما كان أهل الجاهلية يحكمون به من الضلالات والجهالات، مما يضعونها بأرائهم وأهوائهم، فمن فعل ذلك منهم فهو كافر يجب قتاله، حتى يرجع إلى حكم الله ورسوله، فلا يحكم سواه في قليل ولا كثير. قال تعالى: ﴿أفحكم الجاهلية يبغون﴾ أي يبتغون ويريدون، وعن حكم الله يعدلون ﴿ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون﴾ أي ومن أعدل من الله في حكمه، لمن عقل عن الله شرعه وآمن به وأيقن، وعلم أن الله أحكم الحاكمين وأرحم بخلقهم من الوالدة بولدها، فإنه تعالى هو العالم بكل شيء، القادر على كل شيء، عن الحسن قال: من حكم بغير حكم الله فحكم الجاهلية، وكان طاووس إذا سأله رجل: أفضل بين ولدي في النحل؟ قرأ: ﴿أفحكم الجاهلية يبغون﴾ الآية، وقال الحافظ الطبراني عن ابن عباس قال، قال رسول الله ﷺ: «أبغض الناس إلى الله عز وجل من يبتغي في الإسلام سنة الجاهلية، وطالب دم امرئ بغير حق ليريق دمه» وروى البخاري بإسناده نحوه بزيادة.

* يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَرَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنكُمْ فَإِنَّهُ مِنَّهُمْ

إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسْرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَحْشَىٰ أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَىٰ اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسْرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَهْؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتِ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ ﴿٥٣﴾

ينهى تبارك وتعالى عباده المؤمنين عن موالاته اليهود والنصارى الذين هم أعداء الإسلام وأهله قاتلهم الله، ثم أخبر أن بعضهم أولياء بعض، ثم تهدد وتوعد من يتعاطى ذلك، فقال: ﴿ومن يتولهم منكم فإنه منهم﴾ الآية. قال ابن أبي حاتم، عن سماك بن حرب عن عياض: أن عمر أمر أبا موسى الأشعري أن يرفع إليه ما أخذ وما أعطى في أديم واحد، وكان له كاتب نصراني، فرفع إليه ذلك، فعجب عمر، وقال: إن هذا لحفيظ، هل أنت قارىء لنا كتاباً في المسجد جاء من الشام؟ فقال: إنه لا يستطيع، فقال عمر: أجنب هو؟ قال: لا، بل نصراني، قال: فاتهرني وضرب فخذي، ثم قال: أخرجوه، ثم قرأ: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء﴾ الآية. وقوله تعالى: ﴿فترى الذين في قلوبهم مرض﴾ أي شك وريب ونفاق يسارعون فيهم أي يبادرون إلى موالاتهم ومودتهم في الباطن والظاهر^(١) ﴿يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة﴾ أي يتأولون في مودتهم، وموالاتهم أنهم يخشون أن يقع أمر من ظفر الكافرين بالمسلمين، فتكون لهم أياد عند اليهود والنصارى فينفعهم ذلك عند ذلك قال الله تعالى: ﴿فَعَسَىٰ اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ﴾ يعني فتح مكة، وقيل: يعني القضاء والفصل ﴿أو أمر من عنده﴾ قال السدي: يعني ضرب الجزية على اليهود والنصارى ﴿فيصبحوا﴾ يعني الذين والوا اليهود والنصارى من المنافقين ﴿على ما أسروا في أنفسهم﴾ من الموالاته ﴿نادمين﴾ أي على ما كان منهم مما لم يجد عنهم شيئاً، ولا دفع عنهم محذوراً، بل كان عين المفسدة فإنهم فضحوا وأظهر الله أمرهم في الدنيا لعباده المؤمنين، بعد أن كانوا مستورين لا يدري كيف حالهم، فلما انعقدت الأسباب الفاضحة لهم تبين أمرهم لعباد الله المؤمنين، فتعجبوا منهم كيف كانوا يظهرهم أنهم من المؤمنين ويحلفون على ذلك ويتأولون، فبان كذبهم واقترابهم، ولهذا قال تعالى: ﴿ويقول الذين آمنوا أهؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم إنهم لمعكم حبطت أعمالهم فأصبحوا خاسرين﴾ .

اختلف المفسرون في سبب نزول هذه الآيات الكريمات، فذكر السدي: أنها نزلت في رجلين قال أحدهما لصاحبه بعد وقعة أحد: أما أنا فأني ذاهب إلى ذلك اليهودي فأوي إليه وأتهود معه، لعله ينفعني إذا وقع أمر أو حدث حادث، وقال الآخر: أما أنا فأني ذاهب إلى فلان النصراني بالشام فأوي إليه وأتنصر معه، فأنزل الله: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء﴾ الآيات. وقال عكرمة: نزلت في (أبي لبابة بن عبد المنذر) حين بعثه رسول الله ﷺ إلى بني قريظة فسأله ماذا هو صانع بنا؟ فأشار بيده إلى حلقه، أي أنه الذبح. قيل: نزلت في عبد الله بن أبي ابن سلول كما قال ابن جرير: جاء عبادة بن الصامت من بني الحارث بن الخزرج

(١) المراد عبد الله بن أبي بن مالك، ونسب إلى أمه فقيل ابن سلول .

إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إن لي موالي من يهود كثير عددهم، وإني أبرأ إلى الله ورسوله من ولاية يهود، وأتولى الله ورسوله، فقال عبد الله بن أبي: إني رجل أخاف اللواتر لا أبرأ من ولاية موالي، فقال رسول الله ﷺ لعبد الله بن أبي: «يا أبا الحجاب ما بخلت به من ولاية يهود على عبادة بن الصامت فهو لك دونه»، قال: قد قبلت، فأنزل الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ﴾ الآيتين. وقال محمد ابن إسحاق: لما حاربت بنو قينقاع رسول الله ﷺ تشبث بأمرهم (عبد الله بن أبي) وقام دونهم ومشى (عبادة ابن الصامت) إلى رسول الله ﷺ، وكان أحد بني عوف بن الخرج له من حلفهم مثل الذي لعبد الله بن أبي، فجعلهم إلى رسول الله ﷺ وتبرأ إلى الله ورسوله من حلفهم، وقال: يا رسول الله أبرأ إلى الله وإلى رسوله من حلفهم، وأتولى الله ورسوله والمؤمنين، وأبرأ من حلف الكفار وولايتهم، ففيه وفي عبد الله بن أبي نزلت الآيات في المائدة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ إلى قوله: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾. وقال الإمام أحمد عن أسامة بن زيد قال: دخلت مع رسول الله ﷺ على عبد الله بن أبي نعوذه، فقال له النبي ﷺ: «قد كنت أنكأ عن حب يهود»، فقال عبد الله: فقد أبغضهم أسعد بن زرارة فات، وكذا رواه أبو داود.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٥٦﴾

يقول تعالى مخبراً عن قدرته العظيمة: إنه من تولى عن نصرة دينه وإقامة شريعته، فإن الله سيستبدل به من هو خير لها منه، وأشد منعة وأقوم سيلاً، كما قال تعالى: ﴿وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم﴾، وقال تعالى: ﴿إن يشأ يذهبكم أيها الناس ويأت بآخرين﴾، وقال تعالى: ﴿إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد وما ذلك على الله بعزيز﴾ أي بمنتع ولا صعب. وقال تعالى ههنا: ﴿يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه﴾ أي يرجع عن الحق إلى الباطل. قال محمد بن كعب: نزلت في الولاة من قريش، وقال الحسن البصري: نزلت في أهل الردة أيام أبي بكر. ﴿فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه﴾ قال الحسن: هو والله أبو بكر وأصحابه، وقال ابن أبي حاتم عن أبي موسى الأشعري قال: لما نزلت ﴿فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه﴾ قال رسول الله ﷺ: «هم قوم هذا»، ورواه ابن جرير بنحوه. وقوله تعالى: ﴿أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين﴾ هذه صفات المؤمنين الكمل، أن يكون أحدهم متواضعاً لأخيه ووليه متعزراً على خصمه وعدوه كما قال تعالى: ﴿محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم﴾، وفي صفة رسول الله ﷺ أنه الضحوك القتال، فهو ضحوك لأولياته، قتال لأعدائه. وقوله عز وجل: ﴿يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم﴾ أي لا يرددهم

عما هم فيه من طاعة الله، وإقامة الحدود، وقتال أعدائه، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لا يردهم عن ذلك راداً ولا يصددهم عنه صاد. قال الإمام أحمد عن عبد الله بن الصامت عن أبي ذر قال: أمرني خليلي ﷺ بسبع: أمرني بحب المساكين والدينو منهم، وأمرني أن أنظر إلى من هو دوني، ولا أنظر إلى من هو فوقي، وأمرني أن أصل الرحم وإن أدبرت، وأمرني أن لا أسأل أحداً شيئاً، وأمرني أن أقول الحق وإن كان مرأاً، وأمرني أن لا أخاف في الله لومة لائم، وأمرني أن أكثر من قول: لا حول ولا قوة إلا بالله، فإنهن من كتر تحت العرش. وقال الإمام أحمد أيضاً عن أبي سعيد الخدري قال، قال رسول الله ﷺ: «ألا لا يمنعن أحدكم رهبة الناس أن يقول بحق إذا رآه أو شهد، فإنه لا يقرب من أجل، ولا يبعد من رزق أن يقول بحق أو أن يذكر بعظيم». وقال أحمد عن أبي سعيد الخدري قال، قال رسول الله ﷺ: «لا يحقرن أحدكم نفسه أن يرى أمراً لله فيه مقال فلا يقول فيه، فيقال له يوم القيامة: ما منعك أن تكون قلت في كذا وكذا؟ فيقول: مخافة الناس: فيقول: إياي أحق أن تخاف»، وثبت في الصحيح: «ما ينبغي للمؤمن أن يذل نفسه» قالوا: وكيف يذل نفسه يا رسول الله؟ قال: «يتحمل من البلاء ما لا يطيق»، ﴿ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء﴾ أي من اتصف بهذه الصفات فإنما هو من فضل الله عليه وتوفيقه له، ﴿والله واسع عليم﴾ أي واسع الفضل عليم بمن يستحق ذلك ممن يحرمه إياه.

وقوله تعالى: ﴿إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا﴾ أي ليس اليهود بأوليائكم، بل ولايتكم راجعة إلى الله ورسوله والمؤمنين، وقوله: ﴿الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة﴾ أي المؤمنون المتصفون بهذه الصفات من إقام الصلاة التي هي أكبر أركان الإسلام، وهي له وحده لا شريك له، وإيتاء الزكاة التي هي حق المخلوقين ومساعدة للمحتاجين من الضعفاء والمساكين، وأما قوله: ﴿وهم راكعون﴾ فقد توهم بعض الناس أن هذه الجملة في موضع الحال من قوله: ﴿ويؤتون الزكاة﴾ أي في حال ركوعهم، ولو كان هذا كذلك لكان دفع الزكاة في حال الركوع أفضل من غيره لأنه مملوح، وليس الأمر كذلك عند أحد من العلماء. قال السدي: نزلت هذه الآية في جميع المؤمنين، ولكن علي بن أبي طالب مر به سائل وهو راكع في المسجد فأعطاه خاتمه، وقد تقدم في الأحاديث التي أوردناها أن هذه الآيات نزلت في عبادة بن الصامت رضي الله عنه حين تبرأ من حلف اليهود، ورضي بولاية الله ورسوله والمؤمنين، ولهذا قال تعالى بعد هذا كله: ﴿ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون﴾ كما قال تعالى: ﴿كتب الله لأغلبن أنا ورسلي إن الله قوي عزيز. لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم، أولئك كتب في قلوبهم الإيمان﴾ الآية. فكل من رضي بولاية الله ورسوله والمؤمنين فهو مفلح في الدنيا والآخرة ومنصور في الدنيا والآخرة، ولهذا قال تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون﴾.

يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوراً وَلِعِبَابٍ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكَافِرَ ءَأُولِيَآءَ
وَأَتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوراً وَلِعِبَابَ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾

هذا تنفير من موالاة أعداء الإسلام الذين يتخذون شرائع الإسلام المطهرة المحكمة، المشتعلة على كل خير

ديوي وأخروي، يتخذونها هزواً يستهزئون بها، ولعباً يعتقدون أنها نوع من اللعب في نظرهم الفاسد، وفكرهم البارد، وقوله تعالى: ﴿من الذين أتوا الكتاب من قبلكم والكفار﴾ «من» ههنا لبيان الجنس كقوله: ﴿فاجتنبوا الرجس من الأوثان﴾، والمراد بالكفار ههنا ﴿المشركون﴾، ﴿واتقوا الله إن كنتم مؤمنين﴾ أي اتقوا الله أن تتخذوا هؤلاء الأعداء لكم ولدينكم أولياء، إن كنتم مؤمنين بشرع الله الذي اتخذ هؤلاء هزواً ولعباً، كما قال تعالى: ﴿لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين﴾. وقوله: ﴿وإذا ناديتم إلى الصلاة اتخذوها هزواً ولعباً﴾ أي وكذلك إذا أذنتم داعين إلى الصلاة التي هي أفضل الأعمال لمن يعقل ويعلم من ذوي الألباب ﴿اتخذوها﴾ أيضاً ﴿هزواً ولعباً﴾ ذلك بأنهم قوم لا يعقلون ﴿معاني عبادة الله وشرائعه، وهذه صفات أتباع الشيطان الذي إذا سمع الأذان أدير، فإذا قضى التأذين أقبل، فإذا توب للصلاة أدير، فإذا قضى التوب أقبل، حتى يخطر بين المرء وقلبه، فيقول: اذكر كذا، اذكر كذا، لما لم يكن يذكر، حتى يظل الرجل لا يدري كم صلى، فإذا وجد أحدكم ذلك فليسجد سجدة قبل السلام. كما هو في الصحيحين، وقال الزهري: قد ذكر الله التأذين في كتابه فقال: ﴿وإذا ناديتم إلى الصلاة اتخذوها هزواً ولعباً﴾ ذلك بأنهم قوم لا يعقلون .

وقال السدي في قوله: ﴿وإذا ناديتم إلى الصلاة اتخذوها هزواً ولعباً﴾ قال: كان رجل من النصارى بالمدينة إذا سمع المنادي ينادي: أشهد أن محمداً رسول الله، قال: حرق الكذاب، فدخلت خادمه ليلة من الليالي بنار وهو نائم وأهله نيام فسقطت شرارة، فأحرقت البيت، فأحترق هو وأهله. رواه ابن جرير وابن أبي حاتم. وذكر محمد بن إسحاق في السيرة أن رسول الله ﷺ دخل الكعبة عام الفتح ومعه بلال، فأمره أن يؤذن وأبو سفيان بن حرب وعتاب بن أسيد والحارث بن هشام جلوس بفناء الكعبة، فقال عتاب بن أسيد: لقد أكرم الله أسيداً أن لا يكون سمع هذا فيسمع منه ما يغيظه، وقال الحارث بن هشام: أما والله لو أعلم أنه محق لاتبعت، فقال أبو سفيان لا أقول شيئاً لو تكلمت لأخبرت عني هذه الحصى، فخرج عليه النبي ﷺ فقال: «قد علمت الذي قلت»، ثم ذكر ذلك لهم فقال الحارث وعتاب: نشهد أنك رسول، ما اطلع على هذا أحد كان معنا فنقول أخبرك. وقال الإمام أحمد عن عبد الله بن محيريز وكان يتماً في حجر أبي محذورة قال: قلت لأبي محذورة يا عم إني خارج إلى الشام، وأخشى أن أسأل عن تأذيتك، فأخبرني أن أبا محذورة قال له: نعم، خرجت في نفر وكنا في بعض طريق حنين، مقفل رسول الله ﷺ من حنين، فلقينا رسول الله ﷺ ببعض الطريق، فأذن مؤذن رسول الله ﷺ عند رسول الله ﷺ فسمعنا صوت المؤذن ونحن متكبون، فصرخنا نحكيه ونستهزيء به، فسمع رسول الله ﷺ فأرسل إلينا إلى أن وقفنا بين يديه، فقال رسول الله ﷺ: «أيكم الذي سمعت صوته قد ارتفع؟ فأشار القوم كلهم إلي، وصدقوا، فأرسل كلهم وحسني، وقال: «قم فأذن». فقمت ولا شيء أكره إلي من رسول الله ﷺ، ولا مما يأمرني به، فقمت بين يدي رسول الله ﷺ، فألقى علي رسول الله ﷺ التأذين هو بنفسه، قال: «قل: الله أكبر، أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن محمداً رسول الله، أشهد أن محمداً رسول الله، حي على الصلاة، حي على الصلاة، حي على الفلاح، حي على الفلاح، الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله»، ثم دعاني حين قضيت التأذين، فأعطاني صرة فيها شيء من فضة، ثم وضع يده على ناصية أبي محذورة، ثم أمرها على وجهه، ثم بين ثدييه، ثم على كبده حتى بلغت يد رسول الله ﷺ سرة أبي محذورة ثم قال رسول الله ﷺ:

« بارك الله فيك وبارك عليك »، فقلت: يا رسول الله مرني بالتأذين بمكة، فقال: « قد أمرتك به »، وذهب كل شيء كان لرسول الله ﷺ من كراهة، وعاد ذلك كله محبة لرسول الله ﷺ، فقدمت على عتاب بن أسيد عامل رسول الله ﷺ فأذنت معه بالصلاة عن أمر رسول الله ﷺ، وأخبرني ذلك من أدركت من أهلي ممن أدرك أبا محذورة على نحو ما أخبرني عبد الله بن محيريز. هكذا رواه الإمام أحمد، وقد أخرجه مسلم في صحيحه وأهل السنن الأربعة .

قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا ۖ إِنَّا لَأَنۢ ءَامِنَآ بِٱللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنۢ أَكْثَرَكُمۡ فَٰسِقُونَ ﴿٥٩﴾ قُلْ هَلْ أُنبِئُكُمۡ بِشَرِّ مِمَّنۢ ذَٰلِكَ مُتَوَبِّعِينَ عِنۢدَ ٱللَّهِ مَنۢ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنۢهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّاغُوتِ ۖ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَآنًا وَأَضَلُّ عَنۢ سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٦٠﴾ وَإِذَا جَآءَهُمْ قَآلُوا ۖ ءَامِنَا وَقَدْ دَخَلُوا بِٱلْكَفْرِ وَهُمۡ قَدْ خَرَجُوا بِهِ ۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ ﴿٦١﴾ وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنۢهُمۡ يُسْرِعُونَ فِي ٱلْآثِمِ وَٱلْعُدُونِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسَّحْتِ لَيۢسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾ لَوۡلَا يَنهٰهُمُ ٱلرَّبَّانِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَنۢ قَوْلِهِمُ ٱلْآثِمِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسَّحْتِ لَيۢسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾

يقول تعالى: قل يا محمد هؤلاء الذين اتخذوا دينكم هزواً ولعباً من أهل الكتاب: ﴿هل تنقمون منا إلا أن آمننا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل من قبل﴾ أي هل لكم علينا مطعن أو عيب إلا هذا؟ وهذا ليس بعيب ولا مذمة، فيكون الاستثناء منقطعاً كما في قوله تعالى: ﴿وما تقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد﴾ وكقوله: ﴿وما تقموا إلا أن أعناهم الله ورسوله من فضله﴾. وقوله: ﴿وأن أكثركم فاسقون﴾ معطوف على ﴿أن آمننا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل من قبل﴾ أي وآمننا بأن أكثركم فاسقون أي خارجون عن الطريق المستقيم^(١).

ثم قال: ﴿قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله﴾ أي هل أخبركم بشر جزاء عند الله يوم القيامة مما تظنونونه بنا؟ وهم أتم المتصفون بهذه الصفات المفسرة بقوله: ﴿من لعنه الله﴾ أي أبعد من رحمته، ﴿وغضب عليه﴾ أي غضباً لا يرضى بعده أبداً، ﴿وجعل منهم القردة والخنازير﴾ كما تقدم بيانه في سورة البقرة، وقد قال سفيان الثوري عن ابن مسعود قال: سئل رسول الله ﷺ عن القردة والخنازير أهي مما مسح الله؟ فقال: «إن الله لم يهلك قوماً - أو قال لم يمسخ قوماً - فيجعل لهم نسلًا ولا عقباً، وإن القردة والخنازير كانت قبل ذلك»، رواه مسلم، وقال أبو داود الطيالسي عن ابن مسعود قال: سألتنا رسول الله ﷺ عن القردة والخنازير أهي من نسل اليهود؟ فقال: «لا، إن الله لم يلعن قوماً قط فيمسخهم فكان لهم نسل، ولكن هذا خلق كان، فلما غضب الله

(١) في اللباب: أتى النبي ﷺ نفر من اليهود فسألوه عن من يؤمن به من الرسل، قال: أومن بالله وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل ويعقوب والأسباط، وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم، فلما ذكر عيسى جحدوا نبوته وقالوا: لا تؤمن بعيسى ولا بمن آمن به، فنزلت الآية .

على اليهود فسخهم جعلهم مثلهم». وقوله تعالى: ﴿وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ قرىء ﴿وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ على أنه فعل ماضٍ، والطاغوت منصوب به، أي وجعل منهم من عبد الطاغوت، وقرىء ﴿وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ بالإضافة، على أن المعنى وجعل منهم خدام الطاغوت أي خدامه وعبيده، والمعنى يا أهل الكتاب الطاعين في ديننا الذي هو توحيد الله وإفراده بالعبادات دون ما سواه، كيف يصدر منكم هذا وأتم قد وجد منكم جميع ما ذكر؟ ولهذا قال ﴿أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا﴾ أي مما تظنون بنا ﴿وأضل عن سواء السبيل﴾ وهذا من باب استعمال أفعال التفضيل فيما ليس في الطرف الآخر مشاركة.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ جَاءُوكُم قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكَفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ﴾، وهذه صفة المنافقين منهم أنهم يصنعون المؤمنين في الظاهر وقلوبهم منطوية على الكفر، ولهذا قال: ﴿وَقَدْ دَخَلُوا﴾ أي عندك يا محمد ﴿بِالْكَفْرِ﴾ أي مستصحين الكفر في قلوبهم ثم خرجوا وهو كامن فيها لم ينتفعوا بما قد سمعوا منك من العلم، ولا نجعت فيهم المواعظ ولا الزواجر، ولهذا قال: ﴿وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ﴾ فخصهم به دون غيرهم، وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ﴾ أي عالم بسرائرهم وما تنطوي عليه ضمائرهم وإن أظهروا لخلقهم خلاف ذلك وتزينوا بما ليس فيهم، فإن الله عالم الغيب والشهادة أعلم بهم منهم، وسيجزئهم على ذلك أتم الجزاء. وقوله: ﴿وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السَّحْتِ﴾ أي يبادرون إلى ذلك من تعاطي المآثم والمحارم والاعتداء على الناس وأكلهم أموالهم بالباطل ﴿لبئس ما كانوا يعملون﴾ أي لبئس العمل كان عملهم وبئس الاعتداء اعتداؤهم.

وقوله تعالى: ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السَّحْتِ لَبئس ما كانوا يصنعون﴾ يعني: هلا كان ينهاهم الربانيون والأحبار منهم عن تعاطي ذلك؟ و﴿الربانيون﴾ هم العلماء العمال، أرباب الولايات عليهم. والأحبار هم العلماء فقط ﴿لبئس ما كانوا يصنعون﴾ يعني من تركهم ذلك، قاله ابن عباس. وقال ابن جرير عن ابن عباس قال: ما في القرآن آية أشد توبيخاً من هذه الآية: ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السَّحْتِ لَبئس ما كانوا يعملون﴾، قال: كذا قرأ، وكذا قال الضحاك: ما في القرآن آية أخوف عندي منها إنا لا ننهي. وقال ابن أبي حاتم عن يحيى بن يعمر قال: خطب (علي بن أبي طالب) فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «أيها الناس إنما هلك من كان قبلكم بركوبهم المعاصي، ولم ينههم الربانيون والأحبار، فلما تمادوا في المعاصي أخذتهم العقوبات، فروا بالمعروف وأنهوا عن المنكر، قبل أن ينزل بكم مثل الذي نزل بهم، واعلموا أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يقطع رزقاً ولا يقرب أجلاً». وروى أبو داود عن جرير قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من رجل يكون في قوم يعمل فيهم بالمعاصي يقدر أن يغيروا عليه فلا يغيروا إلا أصابهم الله بعقاب قبل أن يموتوا».

وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُوبَةٌ غَلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَالْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ

ءَامَنُوا وَاتَّقُوا الْكُفْرَانَ عَنْهُمْ سِعَاتِهِمْ وَلَا دُخْلَنَّهُمْ جَنَّتِ النَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أَنْزَلْنَا إِلَيْهِمْ مِنَ رَّبِّهِمْ لَا كَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءٌ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾

يخبر تعالى عن اليهود عليهم لعائن الله المتتابعة بأنهم وصفوه بأنه بخيل كما وصفوه بأنه فقير، وهم أغنياء وعبروا عن البخل بأن قالوا: ﴿يد الله مغلولة﴾، قال ابن عباس ﴿مغلولة﴾: أي بخيلة. لا يعنون بذلك أن يد الله موثقة، ولكن يقولون: بخيل، يعني أمسك ما عنده بخلاً، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً. وقد قال عكرمة إنها نزلت في (فنحاص اليهودي) عليه لعنة الله، وقد تقدم أنه الذي قال: ﴿إن الله فقير ونحن أغنياء﴾، فضربه أبو بكر الصديق رضي الله عنه. وقال محمد بن إسحاق عن ابن عباس قال، قال رجل من اليهود يقال له شاس بن قيس^(١): إن ربك بخيل لا ينفق، فأنزل الله: ﴿وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء﴾ وقد رد الله عز وجل عليهم ما قالوه وقابلهم فيما اختلقوه وافتروه واثفكوه فقال: ﴿غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا﴾، وهكذا وقع لهم، فإن عندهم من البخل والحسد والجبن والذلة أمر عظيم، كما قال تعالى: ﴿أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله﴾، وقال تعالى: ﴿ضربت عليهم الذلة﴾ الآية، ثم قال تعالى: ﴿بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء﴾ أي بل هو الواسع الجزيل العطاء الذي ما من شيء إلا عنده خزائنه الذي خلق لنا كل شيء مما نحتاج إليه، كما قال: ﴿وآتاكم من كل ما سألتموه وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار﴾ والآيات في هذا كثيرة. وقد قال أبو هريرة قال، قال رسول الله ﷺ: «إن يمين الله ملأى لا يغيضها نفقة سحاء الليل والنهار، أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض، فإنه لم يغيض ما في يمينه - قال - وعرشه على الماء وفي يده الأخرى الفيض - أو القبض - يرفع ويخفض، وقال: يقول الله تعالى: «أنفق أنفق عليك» أخرجاه في الصحيحين. وقوله تعالى: ﴿وليزيدن كثيراً منهم ما أنزل إليك من ربك طغياناً وكفراً﴾ أي يكون ما آتاك الله يا محمد من النعمة نعمة في حق أعدائك من اليهود وأشباههم، فكما يزداد به المؤمنون تصديقاً وعملاً صالحاً وعلماً نافعاً، يزداد به الكافرون الحاسدون لك ولأمتك طغياناً وهو المبالغة والمجازة للحد في الأشياء ﴿وكفراً﴾ أي تكديماً كما قال تعالى: ﴿قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى أولئك ينادون من مكان بعيد﴾، وقال تعالى: ﴿ونزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خساراً﴾، وقوله تعالى: ﴿وألقينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة﴾ يعني أنه لا تجتمع قلوبهم، بل العداوة واقعة بين فرقهم بعضهم في بعض دائماً، لأنهم لا يجتمعون على حق وقد خالفوك وكذبوك.

وقوله تعالى: ﴿كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفاها الله﴾ أي كلما عقدوا أسباباً يكيذبونك بها، وكلما أبرموا أموراً يحاربونك بها أبطلها الله ورد كيدهم عليهم وحق مكرهم السيء بهم، ﴿ويسعون في الأرض فساداً والله لا يحب المفسدين﴾ أي من سجتهم أنهم دائماً يسعون في الإفساد في الأرض فساداً، والله لا يحب من هذه صفته، ثم قال جلّ وعلا: ﴿ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا﴾ أي لو أنهم آمنوا بالله ورسوله، واتقوا ما كانوا

(١) أخرج الطبراني: عن ابن عباس، أن قائل ذلك: شاس بن قيس، وأخرج أبو الشيخ أنه فنحاص.

يتعاطونه من المآثم والمحارم ﴿ لكفرنا عنهم سيئاتهم ولأدخلناهم جنات النعيم ﴾، أي لأزلنا عنهم المحذور وألناهم المقصود، ﴿ ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم ﴾ قال ابن عباس: هو القرآن، ﴿ لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم ﴾، أي لو أنهم عملوا بما في الكتب التي بأيديهم عن الأنبياء، على ما هي عليه من غير تحريف ولا تبديل ولا تغيير، لقادهم ذلك إلى اتباع الحق والعمل بمقتضى ما بعث الله به محمداً ﷺ، فإن كتبهم ناطقة بتصديقه والأمر باتباعه حتماً لا محالة. وقوله تعالى: ﴿ لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم ﴾ يعني بذلك كثرة الرزق النازل عليهم من السماء، والنابت لهم من الأرض، وقال ابن عباس: ﴿ لأكلوا من فوقهم ﴾ يعني لأرسل السماء عليهم مدراراً، ﴿ ومن تحت أرجلهم ﴾ يعني يخرج من الأرض بركاتها، كما قال تعالى: ﴿ ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿ ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ﴾ الآية. وقال بعضهم: معناه ﴿ لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم ﴾ يعني من غير كد ولا تعب ولا شقاء ولا عناء .

وقد ذكر ابن أبي حاتم أن رسول الله ﷺ قال: « يوشك أن يرفع العلم »، فقال زياد بن ليبيد يا رسول الله وكيف يرفع العلم وقد قرأنا القرآن وعلمناه أبناءنا فقال: « ثكلتك أمك يا ابن ليبيد إن كنت لأراك من أفقه أهل المدينة، أو ليست التوراة والإنجيل بأيدي اليهود والنصارى فما أغنى عنهم حين تركوا أمر الله »، ثم قرأ: ﴿ ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل ﴾، وقوله تعالى: ﴿ منهم أمة مقتصدة وكثير منهم ساء ما يعملون ﴾ كقوله ﴿ ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون ﴾ فجعل أعلى مقاماتهم الاقتصاد وهو أوسط مقامات هذه الأمة، وفوق ذلك رتبة السابقين، كما في قوله عز وجل: ﴿ ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه، ومنهم مقتصد، ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ذلك هو الفضل الكبير جنات عدن يدخلونها ﴾ الآية، والصحيح أن الأقسام الثلاثة من هذه الأمة كلهم يدخلون الجنة .

* يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ
إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٦٧﴾

يقول تعالى مخاطباً عبده ورسوله محمداً ﷺ باسم الرسالة، وأمرأ له بإبلاغ جميع ما أرسله الله به، وقد امتثل عليه أفضل الصلاة والسلام ذلك وقام به أتم القيام؛ قال البخاري عند تفسير هذه الآية عن عائشة رضي الله عنها قالت: من حدثك أن محمداً كتم شيئاً مما أنزل الله عليه فقد كذب، وهو يقول: ﴿ يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك ﴾ الآية، وفي الصحيحين عنها أيضاً أنها قالت: لو كان محمد ﷺ كاتماً شيئاً من القرآن لكتم هذه الآية: ﴿ ونحني في نفسك ما الله مبديه ونخشي الناس والله أحق أن نخشاه ﴾. وقال ابن أبي حاتم عن هارون بن عنترة عن أبيه قال: كنت عند ابن عباس فجاء رجل فقال له: إن ناساً يأتونا فيخبرونا أن عندكم شيئاً لم يبدعه رسول الله ﷺ للناس، فقال ابن عباس: ألم تعلم أن الله تعالى قال: ﴿ يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك ﴾، والله ما ورثنا رسول الله ﷺ سوداء في بيضاء. وهذا إسناد جيد. وفي صحيح البخاري عن وهب بن عبد الله السوائي قال: قلت لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: هل عندكم شيء من الوحي مما ليس في القرآن؟ فقال: لا، والذي

فلق الحبة وبرأ النسمة إلا فهماً يعطيه الله رجلاً في القرآن، وما في هذه الصحيفة. قلت: وما في هذه الصحيفة؟ قال: العقل، وفكاك الأسير، وأن لا يقتل مسلم بكافر.

وقال البخاري، قال الزهري: من الله الرسالة، وعلى الرسول البلاغ، وعلىنا التسليم، وقد شهدت له أمته بابلاغ الرسالة وأداء الأمانة، واستنطقهم بذلك في أعظم المحافل في خطبته يوم حجة الوداع، وقد كان هناك من أصحابه نحو من أربعين ألفاً، كما ثبت في صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال في خطبته يومئذ: «أيها الناس إنكم مسؤولون عني، فما أنتم قائلون؟» قالوا: نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت، فجعل يرفع إصبعه إلى السماء وينكسها إليهم، ويقول: «اللهم هل بلغت؟!»

وقوله تعالى: ﴿وإن لم تفعل فما بلغت رسالته﴾ يعني وإن لم تؤد إلى الناس ما أرسلتك به فما بلغت رسالته، قال ابن عباس: ﴿وإن لم تفعل فما بلغت رسالته﴾: يعني إن كتمت آية مما أنزل إليك من ربك لم تبلغ رسالته، وعن مجاهد قال: لما نزلت ﴿يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك﴾ قال: يا رب كيف أصنع وأنا وحدي يجتمعون علي؟ فتزلت: ﴿وإن لم تفعل فما بلغت رسالته﴾. وقوله تعالى: ﴿والله يعصمك من الناس﴾ أي بلغ أنت رسالتي وأنا حافظك وناصرك ومؤيدك على أعدائك ومظفرك بهم، فلا تخف ولا تحزن، فلن يصل أحد منهم إليك بسوء يؤذيك. وقد كان النبي ﷺ قبل نزول هذه الآية يحرس. كما قال الإمام أحمد عن عائشة رضي الله عنها كانت تحدث أن رسول الله ﷺ سهر ذات ليلة وهي إلى جنبه قالت، فقلت: ما شأنك يا رسول الله؟ قال: «ليت رجلاً صالحاً من أصحابي يحرسني الليلة»، قالت: فبينما أنا على ذلك إذ سمعت صوت السلاح، فقال: «من هذا؟» فقال: أنا سعد بن مالك، فقال: «ما جاء بك؟» قال: جئت لأحرسك يا رسول الله، قالت: فسمعت غطيظ رسول الله ﷺ في نومه، أخرجاه في الصحيحين. وفي لفظ: سهر رسول الله ﷺ ذات ليلة مقدمه المدينة، يعني على أثر هجرته بعد دخوله بعائشة رضي الله عنها وكان ذلك في سنة ثنتين منها، وعنها قالت: كان النبي ﷺ يحرس حتى نزلت هذه الآية: ﴿والله يعصمك من الناس﴾ قالت فأخرج النبي ﷺ رأسه من القبة، وقال: «يا أيها الناس انصرفوا فقد عصمنا الله عز وجل».

ومن عصمة الله لرسوله حفظه له من أهل مكة وصناديدها وحسادها ومعانديها ومترفيها، مع شدة العداوة والبغضة، ونصب المحاربة له ليلاً ونهاراً، بما يخلق الله من الأسباب العظيمة بقدرته وحكمته العظيمة، فصانه في ابتداء الرسالة بعمه أبي طالب إذ كان رئيساً مطاعاً كبيراً في قريش، وخلق الله في قلبه محبة طبيعية لرسول الله ﷺ لا شرعية، ولو كان أسلم لاجترأ عليه كفارها وكبارها، ولكن لما كان بينه وبينهم قدر مشترك في الكفر هابوه واحترموه، فلما مات عمه (أبو طالب) نال منه المشركون أذى يسيراً، ثم قبض الله له الأنصار فبايعوه على الإسلام، وعلى أن يتحول إلى دارهم وهي المدينة، فلما صار إليها منعوها من الأحمر والأسود، وكلما هم أحد من المشركين وأهل الكتاب بسوء كاده الله ورد كيده عليه، كما كاده اليهود بالسحر، فحماه الله منهم، وأنزل عليه سورتي المعوذتين دواء لذلك الداء، ولما سمه اليهود في ذراع تلك الشاة بخير أعلمه الله به وحماه منه، ولهذا أشباه كثيرة جداً يطول ذكرها. وقوله: ﴿إن الله لا يهدي الكافرين﴾ أي بلغ أنت والله هو الذي يهدي من يشاء

ويضل من يشاء، كما قال تعالى: ﴿ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء﴾، وقال: ﴿فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب﴾.

قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِن رَّبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٦٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِغُونَ وَالنَّصَارَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾

يقول تعالى: قل يا محمد: ﴿يا أهل الكتاب لستم على شيء﴾ أي من الدين حتى تقيموا التوراة والإنجيل، أي حتى تؤمنوا بجميع ما بأيديكم من الكتب المنزلة من الله على الأنبياء، وتعملوا بما فيها، ومما فيها الإيمان بمحمد والأمر باتباعه ﷺ والإيمان ببعثته والاعتداء بشريعته، ولهذا قال ليث بن أبي سليم عن مجاهد في قوله ﴿وما أنزل إليكم من ربكم﴾: يعني القرآن العظيم، وقوله: ﴿وليزيدن كثيراً منهم ما أنزل إليك من ربك طغياناً وكفراً﴾ تقدم تفسيره، ﴿فلا تأس على القوم الكافرين﴾: أي فلا تحزن عليهم ولا يبينك ذلك^(١) منهم، ثم قال: ﴿إن الذين آمنوا﴾ وهم المسلمون، ﴿والذين هادوا﴾ وهم حملة التوراة، ﴿والصابغون﴾، لما طال الفصل حسن العطف بالرفع، والصابغون طائفة من النصارى والمجوس، قاله مجاهد، وعنه: من اليهود والمجوس. وقال قتادة: هم قوم يعبدون الملائكة ويصلون إلى غير القبلة ويقرأون الزبور. وقيل: غير ذلك. وأما النصارى فمعرفة وهم حملة الإنجيل، والمقصود أن كل فرقة آمنت بالله وباليوم الآخر، وهو الميعاد والجزاء يوم الدين، وعملت عملاً صالحاً، ولا يكون ذلك كذلك حتى يكون موافقاً للشريعة المحمدية بعد إرسال صاحبها المبعوث إلى جميع الثقلين، فمن اتصف بذلك فلا خوف عليهم فيما يستقبلونه، ولا على ما تركوا وراء ظهورهم ولا هم يحزنون. وقد تقدم الكلام على نظيرتها في سورة البقرة بما أغنى عن إعادته ها هنا.

لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَارْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رَسُولًا قُلِّمًا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾ وَحَسِبُوا أَنَّ تَكُونَ فِتْنَةً فَعَمَّوْا وَصَمَّوْا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمَّوْا وَصَمَّوْا كَثِيرٌ مِّنْهُمْ وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٧١﴾

يذكر تعالى أنه أخذ العهود والمواثيق على بني إسرائيل على السمع والطاعة لله ولرسوله فنقضوا تلك العهود والمواثيق واتبعوا آراءهم وأهواءهم وقدموها على الشرائع فما وافقهم منها قبلوه وما خالفهم ردوه ولهذا قال تعالى:

(١) روى ابن جرير: جاء رافع وسلام بن مشكم ومالك بن الصيف، فقالوا: يا محمد، ألسنت تزعم أنك على ملة إبراهيم ودينه وتؤمن بما عندنا؟ قال: بلى، ولكنكم جحدتم بما فيها، وكنتم ما أمرتم أن تبينوه للناس، قالوا: فإننا نأخذ بما في أيدينا، فإننا على الهدى والحق، فأنزل الله: ﴿قل يا أهل الكتاب﴾ الآية.

﴿ كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم فريقاً كذبوا وفريقاً يقتلون وحسبوا أن لا يكون فتنه ﴾ أي وحسبوا أن لا يترتب لهم شر على ما صنعوا، فترتب، وهو أنهم عموا عن الحق وصموا فلا يسمعون حقاً ولا يهتدون إليه، ثم تاب الله عليهم أي بما كانوا فيه، ﴿ ثم عموا وصموا ﴾ أي بعد ذلك، ﴿ كثير منهم والله بصير بما يعملون ﴾ أي مطلع عليهم وعليم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الغواية منهم .

لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَبْنِي إِسْرَائِيلَ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مِنْ يُشْرِكُ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَلَاثٌ ثَلَاثَةٌ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابُ أَلِيمٍ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٧٤﴾ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ أَنْظِرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ أَنْظِرْ أَنِّي يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾

يقول تعالى حاكماً بتكفير فرق النصارى ممن قال منهم بأن المسيح هو الله، - تعالى الله عن قولهم وتتره وتقدس علواً كبيراً - هذا وقد تقدم لهم أن المسيح عبد الله ورسوله، وكان أول كلمة نطق بها وهو صغير في المهد أن قال: ﴿ إني عبد الله ﴾، ولم يقل إني أنا الله ولا ابن الله، بل قال: ﴿ إني عبد الله أتاني الكتاب وجعلني نبياً ﴾، وكذلك قال لهم في حال كهولته ونبوته آمراً لهم بعبادة الله ربه وربهم وحده لا شريك له، ولهذا قال تعالى: ﴿ وقال المسيح يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم إنه من يشرك بالله ﴾ أي فيعبد معه غيره ﴿ فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار ﴾ أي فقد أوجب له النار وحرم عليه الجنة، كما قال تعالى: ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾. وفي الصحيح أن النبي ﷺ بعث منادياً ينادي في الناس: « إن الجنة لا يدخلها إلا نفس مسلمة » وفي لفظ « مؤمنة »، ولهذا قال تعالى: ﴿ وما للظالمين من أنصار ﴾ أي وماله عند الله ناصر ولا معين ولا منقذ مما هو فيه. وقوله: ﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة ﴾، الصحيح أنها أنزلت في النصارى خاصة، قاله مجاهد وغير واحد، ثم اختلفوا في ذلك، فقيل: المراد بذلك كفارهم في قولهم بالأقانيم الثلاثة، وهو أقنوم الأب، وأقنوم الابن، وأقنوم الكلمة المنبثقة من الأب إلى الابن، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً. قال ابن جرير وغيره: والطوائف الثلاثة من الملكية واليعقوبية والنسطورية تقول بهذه الأقانيم، وهم مختلفون فيها اختلافاً متبايناً، ليس هذا موضع بسطه، وكل فرقة منهم تكفر الأخرى، والحق أن الثلاثة كافرة. وقال السدي وغيره: نزلت في جعلهم المسيح وأمه إلهين مع الله، فجعلوا الله ثالث ثلاثة بهذا الاعتبار، وهي كقوله تعالى: ﴿ وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله قال سبحانك ﴾ الآية، وهذا القول هو الأظهر، والله أعلم .

قال الله تعالى: ﴿ وما من إله إلا إله واحد ﴾ أي ليس متعدداً بل هو وحده لا شريك له، إله جميع الكائنات وسائر الموجودات، ثم قال تعالى متوعداً لهم ومتهدداً: ﴿ وإن لم ينتهوا عما يقولون ﴾ أي من هذا الافتراء والكذب

﴿ ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم ﴾ أي في الآخرة من الأغلال والنكال، ثم قال: ﴿ أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم ﴾ ؟ وهذا من كرمه تعالى وجوده ولطفه ورحمته بخلقه مع هذا الذنب العظيم، وهذا الاقتراء والكذب والإفك يدعوهم إلى التوبة والمغفرة، فكل من تاب إليه تاب عليه. وقوله تعالى: ﴿ ما المسيح ابن مريم إلا رسول الله قد خلت من قبله الرسل ﴾ أي له أسوة أمثاله من سائر المرسلين المتقدمين عليه، وأنه عبد من عباد الله ورسول من رسله الكرام، كما قال: ﴿ إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلاً لبيي إسرائيل ﴾، وقوله: ﴿ وأمه صديقة ﴾ أي مؤمنة به مصدقة له، وهذا أعلى مقاماتها، فدل على أنها ليست بنبية كما زعمه ابن حزم وغيره ممن ذهب إلى نبوة سارة (أم إسحاق) ونبوة (أم موسى) ونبوة (أم عيسى) استدلالاً منهم بخطاب الملائكة لسارة ومريم، ويقولون: ﴿ وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه ﴾، وهذا معنى النبوة، والذي عليه الجمهور أن الله لم يبعث نبياً إلا من الرجال، قال الله تعالى: ﴿ وما أرسلنا قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم من أهل القرى ﴾، وقد حكى الشيخ أبو الحسن الأشعري رحمه الله الإجماع على ذلك، وقوله تعالى: ﴿ كانا يأكلان الطعام ﴾ أي يحتاجان إلى التغذية به وإلى خروجه منهما، فهما عبدان كسائر الناس، وليسا بالهين كما زعمت فرق النصارى الجهلة عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة، ثم قال تعالى: ﴿ انظر كيف نبين لهم الآيات ﴾ أي نوضحها ونظهرها، ثم انظر أتى يؤفكون ﴾ أي ثم انظر بعد هذا البيان والوضوح والجلاء أين يذهبون، وبأي قول يتمسكون، وإلى أي مذهب من الضلال يذهبون ؟

قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَآ يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾ قُلْ يَتَأَهَّلَ الْكِتَابِ لَا تَعْلَمُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٧٧﴾

يقول تعالى منكرأ على من عبد غيره من الأصنام والأنداد والأوثان، ومبيناً له أنها لا تستحق شيئاً من الإلهية، فقال تعالى: ﴿ قل ﴾ أي يا محمد لهؤلاء العابدين غير الله من سائر فرق بني آدم ودخل في ذلك النصارى وغيرهم ﴿ أتعبدون من دون الله ما لا يملك لكم ضرراً ولا نفعاً ﴾ أي لا يقدر على دفع ضرر عنكم ولا إيصال نفع إليكم، ﴿ والله هو السميع العليم ﴾ أي السميع لأقوال عباده العليم بكل شيء، فلم عدلتم عنه إلى عبادة جماد لا يسمع ولا يبصر ولا يعلم شيئاً ولا يملك ضرراً ولا نفعاً لغيره ولا لنفسه ؟ ثم قال: ﴿ قل يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غير الحق ﴾ أي لا تجاوزوا الحد في اتباع الحق، ولا تطروا من أمرتم بتعظيمه، فتبالغوا فيه حتى تخرجوه عن حيز النبوة إلى مقام الإلهية، كما صنعتم في المسيح وهو نبي من الأنبياء، فجعلتموه إلهاً من دون الله، وما ذلك إلا لاقتدائكم بشيوخكم شيوخ الضلال الذين هم سلفكم ممن ضل قديماً، ﴿ وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل ﴾، أي وخرجوا عن طريق الاستقامة والاعتدال إلى طريق الغواية والضلال .

لِعَنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾

كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّكْرِمَفْعُوهُ لِبَيْسٍ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَى كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِبَيْسٍ مَا

قَدَمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨١﴾

يخبر تعالى أنه لعن الكافرين من بني إسرائيل من دهر طويل فيما أنزله على داود نبيه عليه السلام، وعلى لسان عيسى ابن مريم بسبب عصيانهم لله واعتدائهم على خلقه. قال ابن عباس: لعنوا في التوراة والإنجيل وفي الزبور، وفي الفرقان، ثم بين حالهم فيما كانوا يعتمدون في زمانهم، فقال تعالى: ﴿كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يعملون﴾ أي كان لا ينهى أحد منهم أحداً عن ارتكاب المآثم والمحارم، ثم ذمهم على ذلك ليحذر أن يركب مثل الذي ارتكبه فقال: ﴿لبئس ما كانوا يفعلون﴾، وقال الإمام أحمد عن عبد الله قال، قال رسول الله ﷺ: «لما وقعت بنو إسرائيل في المعاصي نهتهم علماءهم فلم ينتهوا، فجالسوهم في مجالسهم، وواكلوهم وشاربوهم، فضرب الله قلوب بعضهم ببعض، ولعنهم على لسان داود وعيسى بن مريم، ﴿ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون﴾». وكان رسول الله ﷺ متكئاً فجلس فقال: «لا والذي نفسي بيده حتى تأطروهم على الحق أطراً». وقال أبو داود عن عبد الله بن مسعود قال، قال رسول الله ﷺ: «إن أول ما دخل النقص على بني إسرائيل كان الرجل يلقي الرجل فيقول: يا هذا اتق الله ودع ما تصنع، فإنه لا يحل لك، ثم يلقاه من الغد فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض، ثم قال: ﴿لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم﴾ إلى قوله: ﴿فاسقون﴾، ثم قال: كلا والله لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر، ولتأخذن على يد الظالم ولتأطرنه على الحق أطراً، أو تقصرنه على الحق قصراً».

والأحاديث في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كثيرة جداً، ولندكر منها ما يناسب هذا المقام. عن حذيفة ابن اليمان أن النبي ﷺ قال: «والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً من عنده ثم لتدعنه فلا يستجيب لكم»^(١). وعن عائشة قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مروا بالمعروف وانهاؤا عن المنكر قبل أن تدعوا فلا يستجاب لكم»^(٢)، وفي الصحيح عن أبي سعيد الخدري قال، قال رسول الله ﷺ: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان»، رواه مسلم، وقال ﷺ: «إن الله لا يعذب العامة بعمل الخاصة حتى يروا المنكر بين ظهرانيهم وهم قادرون على أن ينكروه، فلا ينكرونها، فإذا فعلوا ذلك عذب الله الخاصة والعامة»^(٣). وعن النبي ﷺ قال: «إذا عملت الخطيئة في الأرض كان من شهدها فكرهها، كان كمن غاب عنها، ومن غاب عنها فرضيها، كان كمن شهدها»^(٤). وعن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قام خطيباً فكان فيما قال: «ألا لا يمنعن رجلاً هيبة الناس أن يقول الحق إذا علمه»،

(١) رواه أحمد والترمذي .

(٢) رواه ابن ماجة .

(٣) رواه أحمد .

(٤) رواه أبو داود .

فبكى أبو سعيد، وقال: قد والله رأينا أشياء فهينا. وفي الحديث قال رسول الله ﷺ: «أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر»^(١). وعن أنس بن مالك قال: قيل: يا رسول الله متى يترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟ قال: «إذا ظهر فيكم ما ظهر في الأمم قبلكم»، قلنا يا رسول الله وما ظهر في الأمم قبلنا؟ قال: «الملك في صغاركم، والفاحشة في كباركم، والعلم في رذالكم» قال زيد: تفسير معنى قول النبي ﷺ والعلم في رذالكم: إذا كان العلم في الفساق^(٢). وقوله تعالى: ﴿ترى كثيراً منهم يتولون الذين كفروا﴾ قال مجاهد: يعني بذلك المنافقين. وقوله: ﴿لبئس ما قدمت لهم أنفسهم﴾ يعني بذلك موالاتهم للكافرين وتركهم موالات المؤمنين التي أعقبهم نفاقاً في قلوبهم وأسخطت الله عليهم سخطاً مستمراً إلى يوم معادهم، ولهذا قال: ﴿أن سخط الله عليهم﴾ وفسر بذلك ما ذمهم به ثم أخبر عنهم أنهم ﴿في العذاب خالدون﴾ يعني يوم القيامة. وقوله تعالى: ﴿ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي وما أنزل إليه ما اتخذوهم أولياء﴾ أي لو آمنوا حق الإيمان بالله والرسول والقرآن لما ارتكبوا من موالات الكافرين في الباطن ومعاداة المؤمنين بالله والنبي وما أنزل إليه، ولكن كثيراً منهم فاسقون ﴿أي خارجون عن طاعة الله ورسوله مخالفون لآيات وحيه وتزيله .

* لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرِيُّ ذَٰلِكَ بَٰنٍ مِنْهُمْ قَسِيصِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَأَمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبَّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَبَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّتِ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٨٦﴾

قال ابن عباس: نزلت هذه الآيات في النجاشي وأصحابه، الذين حين تلا عليهم (جعفر بن أبي طالب) بالحبشة القرآن بكوا، حتى أخضلوا لحاهم. وهذا القول فيه نظر، لأن هذه الآية مدنية، وقصة جعفر مع النجاشي قبل الهجرة، وقال سعيد بن جبير والسدي وغيرهما: نزلت في وفد بعثهم النجاشي إلى النبي ﷺ ليسمعوا كلامه ويروا صفاته، فلما رأوه قرأ عليهم القرآن أسلموا وبكوا وخشعوا. ثم رجعوا إلى النجاشي فأخبروه. وقال عطاء بن أبي رباح: هم قوم من أهل الحبشة أسلموا حين قدم عليهم مهاجرة الحبشة من المسلمين، وقال قتادة: هم قوم كانوا على دين عيسى بن مريم فلما رأوا المسلمين وسمعوا القرآن أسلموا ولم يتلعثموا، واختار ابن جرير أن هذه الآيات نزلت في صفة أقوام بهذه المثابة سواء كانوا من الحبشة أو غيرها. فقوله تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عداوة﴾

(١) رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه .

(٢) رواه ابن ماجه .

للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ﴿ ما ذاك إلا لأن كفر اليهود كفر عناد وجحود، ومباهنة للحق، وغمط للناس، وتنقص بحملة العلم، ولهذا قتلوا كثيراً من الأنبياء، حتى هموا بقتل رسول الله ﷺ غير مرة وسّموه وسحروه، وألبوا عليه أشباههم من المشركين عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة . قال رسول الله ﷺ: « ما خلا يهودي بمسلم قط إلا هم بقتله »^(١) .

وقوله تعالى: ﴿ ولتجدنَّ أقربهم مودةً للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ﴾ أي الذين زعموا أنهم نصارى من أتباع المسيح وعلى منهاج إنجيله فيهم مودة للإسلام وأهله في الجملة، وما ذاك إلا لما في قلوبهم إذ كانوا على دين المسيح من الرقة والرأفة، كما قال تعالى: ﴿ وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رأفةً ورحمةً ورهبانية ﴾، وفي كتابهم: من ضربك على خدك الايمن فأدر له خدك الأيسر، وليس القتال مشروعاً في ملتهم، ولهذا قال تعالى: ﴿ ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون ﴾ أي يوجد فيهم القسيسون، وهم خطباؤهم وعلماؤهم، واحدهم قسيس وقس أيضاً، وقد يجمع على قسوس، والرهبان جمع راهب وهو العابد، مشتق من الرهبة وهي الخوف كراكب وركبان وفارس وفرسان. قال ابن جرير: وقد يكون الرهبان واحداً وجملة، رهايين، مثل قربان وقرايين، وقد يجمع على رهابنة، ومن الدليل على أنه يكون عند العرب واحداً قول الشاعر:

لو عاينت رهبان دير في القلل لانحدر الرهبان يمشي ونزل

وقال ابن أبي حاتم عن جاثمة بن رثاب قال: سمعت سلمان، وسئل عن قوله: ﴿ ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً ﴾ فقال: هم الرهبان الذين هم في الصوامع والخرب، فدعوهم فيها، قال سلمان: وقرأت على النبي ﷺ: ﴿ ذلك بأن منهم قسيسين ﴾، فأقراي: ﴿ ذلك بأن منهم صديقين ورهباناً ﴾. فقوله: ﴿ ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون ﴾، تضمن وصفهم بأن فيهم العلم والعبادة والتواضع، ثم وصفهم بالانقياد للحق واتباعه والإنصاف، فقال: ﴿ وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق ﴾ أي مما عندهم من البشارة ببعثة محمد ﷺ، ﴿ يقولون ربنا آمنا فآكتبنا مع الشاهدين ﴾ أي مع من يشهد بصحة هذا ويؤمن به، وقد روى النسائي عن عبد الله بن الزبير قال: نزلت هذه الآية في النجاشي وفي أصحابه^(٢): ﴿ وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فآكتبنا مع الشاهدين ﴾. عن ابن عباس في قوله: ﴿ فآكتبنا مع الشاهدين ﴾ أي مع محمد ﷺ وأمته، هم الشاهدون يشهدون لنبيهم ﷺ أنه قد بلغ وللرسل أنهم قد بلغوا، وكانوا (كرايين) يعني فلاحين قدموا مع جعفر بن أبي طالب من الحبشة، فلما قرأ رسول الله ﷺ عليهم القرآن آمنوا وفاضت أعينهم. قال تعالى: ﴿ وما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق

(١) رواه الحافظ ابن مردويه .

(٢) قال السهيلي: هم وفد نجران، وكانوا نصارى، فلما سمعوا القرآن من النبي ﷺ بكوا مما عرفوا من الحق، وآمنوا، وكانوا عشرين رجلاً، وكان قدمهم عليه بمكة، وأما الذين قدموا عليه بالمدينة من النصارى من عند النجاشي فهم آخرون، وفيهم نزل صدر سورة آل عمران، منهم حارثة بن علقمة، وأخوه كرز وأسلم، ولم يسلم حارثة، ومنهم العاقب بن عبد المسيح، وفيهم نزلت: ﴿ فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ﴾ .

ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين ﴿٨٧﴾، وهذا الصنف من النصارى هم المذكورون في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ﴾ الآية، وهم الذين قال الله فيهم: ﴿وَإِذَا بَتَلُوا عَلَيْهَا قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ﴾، ولهذا قال تعالى ههنا: ﴿فَأَتَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي فجازاهم على إيمانهم وتصديقهم واعترافهم بالحق، ﴿جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي ما كثر فيها أبداً لا يحولون ولا يزولون، ﴿وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي في اتباعهم الحق وانقيادهم له حيث كان وأين كان ومع من كان، ثم أخبر عن حال الأشقياء فقال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ أي جحدوا بها وخالفوها، ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ أي هم أهلها والداخلون فيها .

يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَلًا طَيِّبًا ۗ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِءِ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾

قال ابن عباس: نزلت هذه الآية في رهط من أصحاب النبي ﷺ قالوا: نقطع مذاكيرنا، وترك شهوات الدنيا، ونسيح في الأرض كما يفعل الرهبان، فبلغ ذلك النبي ﷺ، فأرسل إليهم فذكر لهم ذلك، فقالوا: نعم، فقال النبي ﷺ: «لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأنام، وأنكح النساء، فمن أخذ بسنتي فهو مني ومن لم يأخذ بسنتي فليس مني»^(١)، وفي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أن ناساً من أصحاب رسول الله ﷺ سألوا أزواج النبي ﷺ عن عمله في السر، فقال بعضهم: لا آكل اللحم، وقال بعضهم: لا أتزوج النساء، وقال بعضهم: لا أنام على فراش، فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: «ما بال أقوام يقول أحدهم كذا وكذا، لكني أصوم وأفطر، وأنام وأقوم وأكل اللحم وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني». وعن ابن عباس: أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله إني إذا أكلت من هذا اللحم انتشرت للنساء، وإني حرمت علي اللحم، فترلت: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْرِمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ﴾، وقال سفيان الثوري عن عبد الله بن مسعود قال: كنا نغزو مع النبي ﷺ، وليس معنا نساء فقلنا: ألا نستحضي، فهانا رسول الله ﷺ عن ذلك، ورخص لنا أن ننكح المرأة بالثوب إلى أجل، ثم قرأ عبد الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْرِمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ﴾ الآية، وهذا كان قبل تحريم نكاح المتعة، والله أعلم. وعن مسروق قال: كنا عند عبد الله بن مسعود فجاء بضرع ففتح رجل، فقال له عبد الله: أدن. فقال: إني حرمت أن آكله، فقال عبد الله: ادن فأطعم وكفر عن يمينك، وتلا هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْرِمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ﴾ الآية.

وقد ذهب بعض العلماء كالشافعي وغيره إلى أن من حرم ما كلاً أو ملبساً أو شيئاً ما عدا النساء أنه لا يحرم عليه ولا كفارة عليه أيضاً لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْرِمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ﴾، ولأن الذي حرم اللحم على نفسه لم يأمره النبي ﷺ بكفارة؛ وذهب آخرون منهم الإمام (أحمد بن حنبل) إلى أن من حرم ما كلاً أو مشرباً أو ملبساً أو شيئاً من الأشياء فإنه يجب عليه بذلك كفارة يمين كما إذا التزم تركه باليمين، فكذلك

(١) رواه ابن أبي حاتم، وروى ابن مردويه نحوه .

يؤاخذ بمجرد تحريمه على نفسه إزاماً له بما التزمه كما أفتى بذلك ابن عباس، وكما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ثم قال: ﴿قد فرض الله لكم تحلة إيمانكم﴾ الآية. وكذلك ها هنا لما ذكر هذا الحكم عقبه بالآية الميئنة لتكفير اليمين، فدل على أن هذا منزل منزلة اليمين في اقتضاء التكفير، والله أعلم. وقال ابن جرير: أراد رجال منهم عثمان بن مظعون وعبد الله بن عمرو أن يتبتلوا ويخصوا أنفسهم ويلبسوا المسوح، فنزلت هذه الآية. وقال ابن جريج عن عكرمة: إن عثمان بن مظعون، وعلي بن أبي طالب، وابن مسعود، والمقداد بن الأسود، وسالمًا مولى أبي حذيفة في أصحابه تبتلوا، فجلسوا في البيوت، واعتزلوا النساء، ولبسوا المسوح، وحرموا طيبات الطعام واللباس إلا ما يأكل ويلبس أهل السياحة من بني إسرائيل، وهموا بالاختصاص، وأجمعوا لقيام الليل وصيام النهار، فنزلت هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْرَمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾، يقول: لا تسيروا بغير سنة المسلمين، يريد ما حرّموا من النساء والطعام واللباس وما أجمعوا له من قيام الليل وصيام النهار وما هو به من الاختصاص، فلما نزلت فيهم، بعث إليهم رسول الله ﷺ فقال: «إن لأنفسكم حقاً، وإن لأعينكم حقاً، صوموا وافطروا، وصلوا وناموا، فليس منا من ترك سنتنا» فقالوا: اللهم سلمنا واتبعنا ما أنزلت .

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْتَدُوا﴾ يحتمل أن يكون المراد منه: لا تبالغوا في التضيق على أنفسكم بتحريم المباحات عليكم كما قاله من قاله من السلف، ويحتمل أن يكون المراد كما لا تحرموا الحلال فلا تعتدوا في تناول الحلال، بل خذوا منه بقدر كفايتكم وحاجتكم ولا تجاوزوا الحد فيه، كما قال تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾ وقال: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ فشرع الله عدل بين الغالي فيه والجاهلي عنه، لا إفراط ولا تفريط. ولهذا قال: ﴿لَا تَحْرَمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ ثم قال: ﴿وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالًا طَيِّبًا﴾ أي في حال كونه حلالاً طيباً، ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي في جميع أموركم واتبعوا طاعته ورضوانه واتركوا مخالفته وعصيانه ﴿الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ .

لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّرْتُمْهُ وَإِطْعَامَ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ مِنْ أَوْسَطِ مَا تَطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتِهِمْ أَوْ تَحْرِيرِ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفْرَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَأَحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ بَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾

قد تقدم الكلام على اللغو في اليمين في سورة البقرة بما أغنى عن إعادته ههنا والله الحمد والمنة؛ وأنه قول الرجل في الكلام من غير قصد (لا والله، وبلى والله). وهذا مذهب الشافعي، وقيل: هو في الهزل، وقيل: في المعصية، وقيل: على غلبة الظن، وهو قول أبي حنيفة وأحمد، وقيل: في اليمين في الغضب، وقيل: في النسيان، وقيل: هو الحلف على ترك المأكل والمشرب والملبس ونحو ذلك، واستدلوا بقوله: ﴿لَا تَحْرَمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ﴾، والصحيح أنه اليمين من غير قصد، بدليل قوله: ﴿وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَدْتُمُ الْأَيْمَانَ﴾ أي بما صمتم عليه منها وقصدتموها ﴿كفارتها إطعام عشرة مساكين﴾ يعني محاولين من الفقراء ومن لا يجد ما يكفيه. وقوله:

﴿ من أوسط ما تطعمون أهليكم ﴾ قال ابن عباس: أي من أعدل ما تطعمون أهليكم^(١) ، وقال عطاء: من أمثل ما تطعمون أهليكم. وقد كان الرجل يقوت بعض أهله قوت دون، وبعضهم قوتاً فيه سعة، فقال الله تعالى: ﴿ من أوسط ما تطعمون أهليكم ﴾ أي من الخبز والزيت. عن ابن عمر في قوله: ﴿ من أوسط ما تطعمون أهليكم ﴾ قال: الخبز والسمن، والخبز واللبن، والخبز والزيت، والخبز والتمر. ومن أفضل ما تطعمون أهليكم: الخبز واللحم^(٢). واختار ابن جرير أن المراد بقوله: ﴿ من أوسط ما تطعمون أهليكم ﴾، أي في القلة والكثرة، ثم اختلف العلماء في مقدار ما يطعمهم، فقال علي: يغديهم ويعشيهم، وقال الحسن ومحمد بن سيرين: يكفيه أن يطعم عشرة مساكين أكلة واحدة خبزاً ولحماً فإن لم يجد، فخبزاً وسمناً ولبناً، فإن لم يجد فخبزاً وزيتاً وخللاً حتى يشبعوا. وقال آخرون: يطعم كل واحد من العشرة نصف صاع من بر أو تمر ونحوهما^(٣). وقال أبو حنيفة: نصف صاع بر وصاع مما عدها، لما روي عن ابن عباس قال: كَفَّرَ رسول الله ﷺ بصاع من تمر وأمر الناس به ومن لم يجد فنصف صاع من بر؛ وقال الشافعي: الواجب في كفارة اليمين مد بمد النبي ﷺ لكل مسكين ولم يتعرض للأدم، واحتج بأمر النبي ﷺ للذي جامع في رمضان بأن يطعم ستين مسكيناً من مكمل يسع خمسة عشر صاعاً لكل واحد منهم، وقال أحمد: مد من بر أو مدان من غيره والله أعلم^(٤).

وقوله تعالى: ﴿ أو كسوتهم ﴾ قال الشافعي رحمه الله: لو دفع إلى كل واحد من العشرة ما يصدق عليه اسم الكسوة من قميص أو سراويل أو إزار أو عمامة أو مقنعة أجزاء ذلك، وقال مالك وأحمد بن حنبل: لا بد أن يدفع إلى كل واحد منهم من الكسوة ما يصح أن يصلي فيه إن كان رجلاً أو امرأة كل بحسبه والله أعلم، وقال الحسن: ثوب ثوب، وقال الثوري: عمامة يلف بها رأسه وعباءة يلتحف بها. وقوله: ﴿ أو تحرير رقبة ﴾ أخذ أبو حنيفة بإطلاقها فقال: تجزىء الكافرة كما تجزىء المؤمنة، وقال الشافعي وآخرون: لا بد أن تكون مؤمنة، وأخذ تقيدها بالإيمان من كفارة القتل لاتحاد الموجب، وإن اختلف السبب، ومن حديث معاوية بن الحكم السلمي أنه ذكر أن عليه عتق رقبة وجاء معه بجمارية سوداء، فقال لها رسول الله ﷺ: « أين الله؟ » قالت: في السماء، قال: « من أنا؟ » قالت: رسول الله، قال: « أعتقها فإنها مؤمنة »^(٥) الحديث بطوله، فهذه خصال ثلاث في كفارة اليمين أيها فعل الحانث أجزأ عنه بالإجماع، وقد بدأ بالأسهل فالأسهل، فالإطعام أسهل، وأيسر من الكسوة، كما أن الكسوة أيسر من العتق، فيرقى فيها من الأدنى إلى الأعلى، فإن لم يقدر المكلف على واحدة من هذه الخصال الثلاث كَفَّرَ بصيام ثلاثة أيام، كما قال تعالى: ﴿ فن لم يجد فصيام ثلاثة أيام ﴾، وروى ابن جرير عن سعيد بن جبير والحسن البصري أنهما قالوا: من وجد ثلاثة دراهم لزمه الإطعام والإصام، واختلف العلماء هل يجب فيها التتابع أو يستحب ويجزىء التفريق؟ قولان: أحدهما لا يجب، وهذا منصوص الشافعي في كتاب الإيمان،

(١) وهو قول سعيد بن جبير وعكرمة.

(٢) وهذا قول ابن سيرين والحسن والضحاك.

(٣) هذا قول عمر وعلي وعائشة ومجاهد وسعيد بن جبير والنخعي والضحاك.

(٤) رواه ابن مردويه وأخرجه ابن ماجه وفي سنده ضعف.

(٥) رواه مسلم ومالك في الموطأ والشافعي في مسنده.

وهو قول مالك لإطلاق قوله: ﴿فصيام ثلاثة أيام﴾، وهو صادق على المجموعة والمفرقة كما في قضاء رمضان لقوله: ﴿فعدة من أيام أخر﴾، ونص الشافعي في موضع آخر في «الأم» على وجوب التتابع كما هو قول الحنفية والحنابلة، لأنه قد روي عن أبي بن كعب وغيره أنهم كانوا يقرأونها: ﴿فصيام ثلاثة أيام متتابعات﴾^(١). وهذه إذا لم يثبت كونها قرآناً متواتراً فلا أقل أن يكون خبر واحد، أو تفسيراً من الصحابة، وهو في حكم المرفوع. وقوله: ﴿ذلك كفارة أيمانكم إذا حلفتم﴾ أي هذه كفارة اليمين الشرعية ﴿واحفظوا أيمانكم﴾ قال ابن جرير: لا تركوها بغير تكفير، ﴿كذلك بين الله لكم آياته﴾ أي يوضحها ويفسرهما ﴿لعلكم تشكرون﴾.

يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِتْمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِتْمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ﴿٩١﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأَحْذَرُوا ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا إِنَّمَا عَلَن رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٩٢﴾ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَءَامَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾

يقول تعالى ناهياً عباده المؤمنين عن تعاطي الخمر والميسر وهو القمار، وقد ورد عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: الشطرنج من الميسر، رواه ابن أبي حاتم، قال مجاهد وعطاء: كل شيء من القمار فهو من الميسر، حتى لعب الصبيان بالجوز. وروي عن راشد بن سعد وضمرة بن حبيب مثله، وقالوا: حتى الكعاب والجوز والبيض التي تلعب بها الصبيان. وقال ابن عمر وابن عباس: الميسر هو القمار، كانوا يتقامرون في الجاهلية إلى مجيء الإسلام، فنهاهم الله عن هذه الأخلاق القبيحة. وقال مالك: كان ميسر أهل الجاهلية يبيع اللحم بالشاء والشاطين. وقال الزهري: الميسر الضرب بالقداح على الأموال والثمار. وقال القاسم بن محمد: كل ما ألهى عن ذكر الله وعن الصلاة فهو من الميسر، وكان المراد بهذا هو النرد الذي ورد الحديث به في صحيح مسلم. قال رسول الله ﷺ: «من لعب بالنردشير فكأنما صبغ يده في لحم خنزير ودمه»^(٢)، وفي موطأ مالك عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «من لعب النرد فقد عصى الله ورسوله»^(٣)، وأما الشطرنج فقد قال عبد الله بن عمر: إنه شر من النرد، وتقدم عن علي أنه قال: هو من الميسر، ونص على تحريمه مالك وأبو حنيفة وأحمد، وكرهه الشافعي رحمهم الله تعالى، وأما الأنصاب فقال ابن عباس ومجاهد: هي حجارة كانوا يذبحون قرابينهم عندها، وأما الأزلام فقالوا أيضاً: هي قداح كانوا يستقسمون بها، وقوله تعالى: ﴿رجس من عمل الشيطان﴾، قال ابن

(١) روى مجاهد والشعبي أنها قراءة عبد الله بن مسعود أيضاً.

(٢) رواه مسلم عن بريدة بن الخصيب الأسلمي.

(٣) ورواه أحمد وأبو داود وابن ماجه.

عباس: أي سخط من عمل الشيطان، وقال سعيد بن جبير: إثم، وقال زيد بن أسلم: أي شر من عمل الشيطان، ﴿فاجتنبوه﴾ الضمير عائذ على الرجس أي تركوه، ﴿لعلكم تفلحون﴾ وهذا ترغيب، ثم قال تعالى: ﴿إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم متبهون﴾ وهذا تهديد وترهيب .

(ذكر الأحاديث الواردة في بيان تحريم الخمر)

قال الإمام أحمد عن أبي هريرة قال: حرمت الخمر ثلاث مرات: قدم رسول الله ﷺ المدينة وهم يشربون الخمر ويأكلون الميسر، فسألوا رسول الله ﷺ عنهما فأنزل الله: ﴿يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس﴾ إلى آخر الآية، فقال الناس ما حرما علينا، إنما قال: ﴿فيهما إثم كبير ومنافع للناس﴾، وكانوا يشربون الخمر حتى كان يوماً من الأيام صلى رجل من المهاجرين، أم أصحابه في المغرب، فخلط في قراءته، فأنزل الله آية أغلظ منها: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون﴾، فكان الناس يشربون حتى يأتي أحدهم الصلاة وهو مغبق، ثم أنزلت آية أغلظ منها: ﴿يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون﴾ قالوا: انتبهنا ربنا، وقال الناس: يا رسول الله ناس قتلوا في سبيل الله وماتوا على سرفهم، كانوا يشربون الخمر ويأكلون الميسر، وقد جعله الله رجساً من عمل الشيطان فأنزل الله تعالى: ﴿ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا﴾ إلى آخر الآية، فقال النبي ﷺ: «لو حرم عليهم لتركوه كما تركتم»، وقال الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب أنه قال: لما نزل تحريم الخمر قال: اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً، فنزلت الآية في البقرة: ﴿يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير﴾، فدعي عمر فقرئت عليه، فقال: اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً، فنزلت الآية التي في سورة النساء: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأتم سكارى﴾، فكان منادي رسول الله ﷺ إذا قال: حي على الصلاة نادى: لا يقربن الصلاة سكران. فدعي عمر فقرئت عليه، فقال: اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً، فنزلت الآية التي في المائدة، فدعي عمر فقرئت عليه، فلما بلغ قول الله تعالى: ﴿فهل أنتم متبهون﴾، قال عمر: انتبهنا انتبهنا. وقد ثبت في الصحيحين عن عمر بن الخطاب أنه قال في خطبته على منبر رسول الله ﷺ: أيها الناس إنه نزل تحريم الخمر، وهي من خمسة: العنب، والتمر، والعسل، والحنطة، والشعير. والخمر ما خامر العقل. وقال البخاري عن ابن عمر قال: نزل تحريم الخمر وإن بالمدينة يومئذ لخمسة أشربة ما فيها شراب العنب.

(حديث آخر): عن عبد الرحمن بن وعله قال: سألت ابن عباس عن بيع الخمر؟ فقال: كان لرسول الله ﷺ صديق من ثقيف أو من دوس، فلقيه يوم الفتح براوية خمر يهديها إليه، فقال رسول الله ﷺ: «يا فلان أما علمت أن الله حرمها»، فأقبل الرجل على غلامه، فقال: اذهب فبعها، فقال رسول الله ﷺ: «يا فلان بماذا أمرته؟» فقال: أمرته أن يبيعهها، قال: «إن الذي حرم شربها حرم بيعها» فأمر بها فأفرغت في البطحاء^(١).

(١) رواه أحمد وأخرجه مسلم والنسائي .

(حديث آخر): قال الحافظ أبو يعلى الموصلي عن تميم الداري: أنه كان يهدى لرسول الله ﷺ كل عام راوية من خمر^(١) فلما أنزل الله تحريم الخمر جاء بها، فلما رآها رسول الله ﷺ ضحك وقال: «إنها قد حرمت بعدك» قال: يا رسول الله فأبيعها وأنتفع بثمرها؟ فقال رسول الله ﷺ: «لعن الله اليهود حرمت عليهم شحوم البقر والغنم فأذابوه وباعوه والله حرم الخمر وثمرها» .

(حديث آخر): قال الإمام أحمد عن نافع بن كيسان: أن أباه أخبره أنه كان يتجر في الخمر في زمن رسول الله ﷺ، وأنه أقبل من الشام ومعه خمر في الزقاق، يريد بها التجارة، فأتى بها رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إني جئتك بشراب طيب، فقال رسول الله ﷺ: «يا كيسان إنها قد حرمت بعدك»، قال: فأبيعها يا رسول الله؟ فقال رسول الله ﷺ: «إنها قد حرمت وحرم ثمنها» فانطلق كيسان إلى الزقاق فأخذ بأرجلها ثم أهرقها .

(حديث آخر): قال الإمام أحمد عن أنس قال: كنت أسقي أبا عبيدة بن الجراح وأبي بن كعب وسهيل ابن بيضاء ونفراً من أصحابه عند أبي طلحة، حتى كاد الشراب يأخذ منهم، فأتى آت من المسلمين فقال: أما شعرتم أن الخمر قد حرمت؟ فقالوا: حتى ننظر، ونسأل، فقالوا: يا أنس اسكب ما بقي في إنائك فوالله ما عادوا فيها، وما هي إلا التمر والبسر وهي خمرهم يومئذ^(٢). وفي رواية عن أنس قال: كنت ساقى القوم يوم حرمت الخمر في بيت أبي طلحة وما شرابهم إلا الفضيخ البسر والتمر، فإذا مناد ينادي قال: اخرج فانظر، فإذا مناد ينادي: ألا إن الخمر قد حرمت، فجريت في سكك المدينة، قال: فقال لي أبو طلحة: اخرج فأهرقها فهرقها، فقالوا: أو قال بعضهم قتل فلان وفلان وهي في بطونهم، قال: فأنزل الله: ﴿ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا﴾ الآية. وعنه قال: بينا أنا أدير الكأس على أبي طلحة وأبي عبيدة بن الجراح وأبي دجاجة ومعاذ ابن جبل وسهيل بن بيضاء حتى مالت رؤوسهم من خليط بسر وتمر، فسمعت منادياً ينادي: ألا إن الخمر قد حرمت، قال: فما دخل علينا داخل ولا خرج منا خارج حتى أهرقنا الشراب، وكسرنا القلال، وتوضأ بعضنا، واغتسل بعضنا، وأصبنا من طيب أم سليم، ثم خرجنا إلى المسجد، فإذا رسول الله ﷺ يقرأ: ﴿يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه﴾، إلى قوله: ﴿فهل أنتم متهون﴾ فقال رجل: يا رسول الله فما ترى فيمن مات وهو يشربها؟ فأنزل الله تعالى: ﴿ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا﴾ الآية، فقال رجل لقتادة: أنت سمعته من أنس بن مالك؟ قال: نعم، وقال رجل لأنس بن مالك أنت سمعته من رسول الله ﷺ؟ قال: نعم. ما كنا نكذب ولا ندري ما الكذب^(٣).

(حديث آخر): قال الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله حرم الخمر

(١) في هذا أن تيمماً أسلم سنة تسع من الهجرة وقد حرمت الخمر سنة ثمان كما استظهره الحافظ في الفتح .

(٢) رواه أحمد والشيخان عن أنس بن مالك .

(٣) أخرجه ابن جرير من حديث عباد بن راشد عن قتادة عن أنس بن مالك .

والميسر والكوبة والغبيراء وكل مسكر حرام»^(١)، وعن أبي طعمة سمعت ابن عمر يقول: خرج رسول الله ﷺ إلى المربد، فخرجت معه فكننت عن يمينه، وأقبل أبو بكر فتأخرت عنه فكان عن يمينه، وكننت عن يساره، ثم أقبل عمر فتنحيت له فكان عن يساره، فأتى رسول الله ﷺ المربد، فإذا بزقاق على المربد فيها خمر، قال ابن عمر: فدعاني رسول الله ﷺ بالمدينة، قال ابن عمر: وما عرفت المدينة إلا يومئذ، فأمر بالزقاق فشققت، ثم قال: «لعنت الخمر وشاربها وساقبها وبائعها ومبتاعها وحاملها والمحمولة إليه وعاصرها ومعتصرها وآكل ثمنها»^(٢).

(حديث آخر): عن مصعب بن سعد عن سعد قال: أنزلت في الخمر أربع آيات، فذكر الحديث، قال: وضع رجل من الأنصار طعاماً فدعانا فشربنا الخمر، قبل أن تحرم حتى انتشينا فتفاخرنا، فقالت الأنصار: نحن أفضل، وقالت قريش: نحن أفضل، فأخذ رجل من الأنصار لحى جزور، فضرب به أنف سعد ففزره، وكانت أنف سعد مفزورة، فنزلت: ﴿إنما الخمر والميسر﴾، إلى قوله تعالى: ﴿فهل أتم منتهون﴾^(٣). (حديث آخر): عن ابن عباس قال: إنما نزل تحريم الخمر في قبيلتين من قبائل الأنصار شربوا، فلما أن ثمل القوم عبث بعضهم ببعض، فلما أن صحوا جعل الرجل يرى الأثر بوجهه ورأسه ولحيته، فيقول: صنع بي هذا أخي فلان، وكانوا إخوة ليس في قلوبهم ضغائن، فيقول: والله لو كان بي رؤوفاً رحيماً ما صنع بي هذا، حتى وقعت الضغائن في قلوبهم، فأنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فهل أتم منتهون﴾ فقال أناس من المتكلمين: هي رجس وهي في بطن فلان، وقد قتل يوم أحد، فأنزل الله تعالى: ﴿ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا﴾^(٤) إلى آخر الآية. (حديث آخر): قال ابن جرير عن أبي بريدة عن أبيه قال: بينما نحن قعود على شراب لنا، ونحن على رملة، ونحن ثلاثة أو أربعة وعندنا باطية لنا ونحن نشرب الخمر حلاً، إذ قمت حتى أتى رسول الله ﷺ فأسلم عليه، إذ نزل تحريم الخمر: ﴿يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر﴾ إلى آخر الآيتين ﴿فهل أتم منتهون﴾، فجئت إلى أصحابي، فقرأتها عليهم، إلى قوله ﴿فهل أتم منتهون﴾ قال: وبعض القوم شربته في يده قد شرب بعضها، وتبي بعض في الإناء تحت شفته العليا كما يفعل الحجام ثم صبوا ما في باطيتهم، فقالوا: انتبهنا ربنا. (حديث آخر): قال البخاري عن جابر قال: صبح^(٥) أناس غداة أحد فقتلوا من يومهم جميعاً شهداء، وذلك قبل تحريمها. (حديث آخر): قال أبو داود الطيالسي عن البراء بن عازب قال: لما نزل تحريم الخمر قالوا: كيف بمن كان يشربها قبل أن تحرم؟ فنزلت: ﴿ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا﴾ الآية. (حديث آخر): قال الإمام أحمد عن أنس بن مالك: أن أبا طلحة سأل رسول الله ﷺ عن آيتام في حجره ورثوا خمرًا، فقال: «أهرقها» قال: أفلا نجعلها حلاً؟ قال: «لا».

(١) الكوبة: الترد أو الشطرنج، الغبيراء: شراب مسكر يصنع من الذرة.

(٢) رواه الإمام أحمد.

(٣) رواه البيهقي وأخرجه مسلم.

(٤) رواه البيهقي والنسائي.

(٥) صبح بالتشديد ولفظه في كتاب المغازي اصطبح الخمر يوم أحد ناس ثم قتلوا شهداء، والتصبح الشرب في الصباح.

(حديث آخر): عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: « من شرب الخمر في الدنيا ثم لم يتب منها حرمها في الآخرة »^(١). وعن نافع عن ابن عمر قال، قال رسول الله ﷺ: « كل مسكر حرام، ومن شرب الخمر فمات وهو يدمنها ولم يتب منها لم يشربها في الآخرة »^(٢). (حديث آخر): عن أبي سعيد عن النبي ﷺ قال: « لا يدخل الجنة منان، ولا عاق، ولا مدمن خمر »^(٣). وقال الزهري عن عثمان بن عفان قال: « اجتنبوا الخمر فإنها أم الخبائث، إنه كان رجل فيمن خلا قبلكم بتعبد ويعتزل الناس فعلقته امرأة غوية، فأرسلت إليه جارتها أن تدعوه لشهادة فدخل معها، فطفقت كلما دخل باباً أغلقته دونه، حتى أفضى إلى امرأة وضيئة عندها غلام وباطية خمر، فقالت: إني والله ما دعوتك لشهادة، ولكن دعوتك لتقع علي، أو تقتل هذا الغلام، أو تشرب هذا الخمر. فسقته كأساً فقال: زيدوني، فلم يرم حتى وقع عليها، وقتل النفس. فاجتنبوا الخمر، فإنها لا تجتمع هي والإيمان أبداً إلا أوشك أحدهما أن يخرج صاحبه ». وله شاهد في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: « لا يزي الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق سرقة حين يسرقها وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن ». قال الإمام أحمد عن أسماء بنت يزيد أنها سمعت النبي ﷺ يقول: « من شرب الخمر لم يرض الله عنه أربعين ليلة إن مات؛ مات كافراً، وإن تاب تاب الله عليه، وإن عاد كان حقاً على الله أن يسقيه من طينة الخبال »، قالت، قلت: يا رسول الله! وما طينة الخبال؟ قال: « صديد أهل النار ».

يَأْتِيَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِيَبْلُوكُمْ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالَهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ
فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٤﴾ يَأْتِيَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ وَمَن قَتَلَهُ مِنْكُمْ
مُتَعَمِّدًا جَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعْمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدِيًّا بَلِيغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَرَةً طَعَامَ مَسْكِينٍ
أَوْ عَدْلٌ ذَلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ ۗ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ ۗ وَمَن عَادَ فَيَنْتَقِمِ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو

اِنْتِقَامٍ ﴿٩٥﴾

قال ابن عباس في قوله: ﴿ لِيَبْلُوكُمْ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالَهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ ﴾ قال: هو الضعيف من الصيد وصغيره، يتلى الله به عباده في إحرامهم حتى لو شاءوا لتناولوه بأيديهم فنهاهم الله أن يقربوه، وقال مجاهد: ﴿ تناله أيديكم ﴾ يعني صغار الصيد وفراخه، ﴿ ورماحكم ﴾ يعني كباره، وقال مقاتل بن حيان: أنزلت هذه الآية في عمرة الحديبية، فكانت الوحش والطيور والصيد تغشاهم في رحاهم لم يروا مثله قط فيما خلا، فنهاهم الله عن قتله وهم محرمون، ﴿ ليعلم الله من يخافه بالغيب ﴾ يعني أنه تعالى يبتليهم بالصيد يغشاهم في رحاهم يتمكنون من أخذه بالأيدي والرماح سراً وجهراً، لتظهر طاعة من يطيع منهم في سره أو جهره، كما قال تعالى: ﴿ إن الذين يخشون

(١) أخرجه البخاري ومسلم من حديث مالك .

(٣) رواه النسائي وأحمد .

(٢) رواه الإمام مسلم .

ربهم بالغيب لهم مغفرة وأجر كبير ﴿٩٤﴾، وقوله ها هنا: ﴿فمن اعتدى بعد ذلك﴾، قال السدي وغيره: يعني بعد هذا الإعلام والإنذار والتقدم ﴿فله عذاب أليم﴾، أي لمخالفته أمر الله وشرعه، ثم قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأتم حرم﴾، وهذا تحريم منه تعالى لقتل الصيد في حال الإحرام ونهي عن تعاطيه فيه، وهذا إنما يتناول من حيث المعنى المأكول، ولو ما تولد منه ومن غيره، فأما غير المأكول من حيوانات البر، فعند الشافعي يجوز للمحرم قتلها، والجمهور على تحريم قتلها أيضاً، ولا يستثنى من ذلك إلا ما ثبت في الصحيحين عن عائشة أم المؤمنين أن رسول الله ﷺ قال: «خمس فواسق يقتلن في الحل والحرم: الغراب والحدأة والعقرب والفأرة والكلب العقور». وقال مالك عن نافع عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «خمس من الدواب ليس على المحرم في قتلهن جناح: الغراب والحدأة والعقرب والفأرة والكلب العقور». قال أيوب: فقلت لنا نافع فالحية؟ قال: الحية لا شك فيها ولا يختلف في قتلها؛ ومن العلماء كمالك وأحمد من ألحق بالكلب العقور «الذئب والسبع والفهد» لأنها أشد ضرراً منه، فإله أعلم. وقال زيد بن أسلم: الكلب العقور يشمل هذه السباع العادية كلها، واستأنس من قال بهذا بما روي أن رسول الله ﷺ لما دعا على عتبة بن أبي لهب قال: «اللهم سلط عليه كلبك بالشام، فأكله السبع بالزرقاء».

وقوله تعالى: ﴿ومن قتله منكم متعمداً فجزاء مثل ما قتل من النعم﴾. الذي عليه الجمهور أن العامد والناسي سواء في وجوب الجزاء عليه، وقال الزهري: دل الكتاب على العامد وجرت السنة على الناسي، ومعنى هذا أن القرآن دل على وجوب الجزاء على المتعمد وعلى تأثيمه بقوله: ﴿لينذوق وبال أمره عفا الله عما سلف ومن عاد فينتقم الله منه﴾ وجاءت السنة من أحكام النبي ﷺ وأحكام أصحابه بوجوب الجزاء في الخطأ كما دل الكتاب عليه في العمد، وأيضاً فإن قتل الصيد إتلاف وإتلاف مضمون في العمد وفي النسيان، لكن المتعمد مأثوم والمخطيء غير ملوم، وقوله تعالى: ﴿فجزاء مثل ما قتل من النعم﴾ قرأ بعضهم بالإضافة، وقرأ آخرون بعطفها، وحكى ابن جرير أن ابن مسعود قرأ: ﴿فجزاؤه مثل ما قتل من النعم﴾، وفي قوله: ﴿فجزاء مثل ما قتل من النعم﴾ على كل من القراءتين دليل لما ذهب إليه الجمهور من وجوب الجزاء من مثل ما قتله المحرم إذا كان له مثل من الحيوان الإنسي، خلافاً لأبي حنيفة رحمه الله حيث أوجب القيمة سواء كان الصيد المقتول مثلياً أو غير مثلي.

وقوله تعالى: ﴿يحكم به ذوا عدل منكم﴾ يعني أنه يحكم بالجزاء في المثل أو بالقيمة في غير المثل عدلان من المسلمين، واختلف العلماء في القاتل هل يجوز أن يكون أحد الحكمين على قولين (أحدهما): لا، لأنه قد يتهم في حكمه على نفسه وهذا مذهب مالك، (والثاني): نعم لعموم الآية وهو مذهب الشافعي وأحمد، قال ابن أبي حاتم عن ميمون بن مهران: أن أعرابياً أتى أبا بكر فقال: قتلت صيداً وأنا محرم، فما ترى علي من الجزاء؟ فقال أبو بكر رضي الله عنه لأبي بن كعب وهو جالس عنده: ما ترى فيها؟ قال، فقال الأعرابي: أنتيك وأنت خليفة رسول الله ﷺ أسألك، فإذا أنت تسأل غيرك؟ فقال أبو بكر: وما تنكر؟ يقول الله تعالى: ﴿فجزاء مثل ما قتل من النعم يحكم به ذوا عدل منكم﴾، فشاورت صاحبي، حتى إذا اتفقنا على أمر أمرناك به^(١). فبين

(١) قال ابن كثير: وهذا إسناد جيد لكنه منقطع بين ميمون والصدّيق.

له الصديق الحكم برفق وتؤدة لما رآه أعرابياً جاهلاً، وإنما دواء الجهل التعليم. وقال ابن جرير عن أبي وائل، أخبرني ابن جرير البجلي قال: أصبت ظيباً وأنا محرم، فذكرت ذلك لعمر، فقال: ائت رجلين من إخوانك فليحكما عليك، فأتيت عبدالرحمن وسعداً، فحكما علي بتيس أعفر.

واختلفوا: هل تستأنف الحكومة في كل ما يصيبه المحرم، فيجب أن يحكم فيه ذوا عدل، وإن كان قد حكم في مثله الصحابة، أو يكفي بأحكام الصحابة المتقدمة؟ على قولين: فقال الشافعي وأحمد: يتبع في ذلك ما حكمت به الصحابة وجعلاه شرعاً مقررأ لا يعدل عنه وما لم يحكم فيه الصحابة يرجع فيه إلى عدلين، وقال مالك وأبو حنيفة: بل يجب الحكم في كل فرد فرد سواء وجد للصحابة في مثله حكم أم لا لقوله تعالى: ﴿يحكم به ذوا عدل منكم﴾. وقوله تعالى: ﴿هدياً بالغ الكعبة﴾ أي واصلاً إلى الكعبة، والمراد وصوله إلى الحرم بأن يذبح هناك ويفرق لحمه على مساكين الحرم، وهذا أمر متفق عليه في هذه الصورة. وقوله: ﴿أو كفارة طعام مساكين أو عدل ذلك صياماً﴾ أي إذا لم يجد المحرم مثل ما قتل من النعم أو لم يكن الصيد المقتول من ذوات الأمثال، أو قلنا بالتخير في هذا المقام بين الجزاء والإطعام والصيام، كما هو قول مالك وأبي حنيفة وأحد قولي الشافعي والمشهور عن أحمد رحمهم الله، لظاهر «أو» بأنها للتخير. والقول الآخر على الترتيب: فصورة ذلك أن يعدل إلى القيمة، فيقوم الصيد المقتول عند مالك وأبي حنيفة وأصحابه، وقال الشافعي: يقوم مثله من النعم لو كان موجوداً، ثم يشتري به طعام فيتصدق به فيصرف لكل مسكين مد منه عند الشافعي ومالك وفقهاء الحجاز، واختاره ابن جرير. وقال أبو حنيفة وأصحابه: يطعم كل مسكين مُدَّين، وهو قول مجاهد. وقال أحمد: مد من حنطة أو مدان من غيره، فإن لم يجد أو قلنا بالتخير صام عن إطعام كل مسكين يوماً، واختلفوا في مكان هذا الإطعام، فقال الشافعي: مكانه الحرم وهو قول عطاء، وقال مالك: يطعم في المكان الذي أصاب فيه الصيد أو أقرب الأماكن إليه، وقال أبو حنيفة: إن شاء أطعم في الحرم وإن شاء أطعم في غيره.

وقوله تعالى: ﴿لينوق وبال أمره﴾ أي أوجبنا عليه الكفارة ليدوق عقوبة فعله الذي ارتكب فيه المخالفة، ﴿عفا الله عما سلف﴾ أي في زمان الجاهلية لمن أحسن في الإسلام واتبع شرع الله ولم يرتكب المعصية، ثم قال: ﴿ومن عاد فينتقم الله منه﴾ أي ومن فعل ذلك بعد تحريمه في الإسلام وبلوغ الحكم الشرعي إليه ﴿فينتقم الله منه والله عزيز ذو انتقام﴾. قال ابن جريج: قلت لعطاء: ما ﴿عفا الله عما سلف﴾؟ قال: عما كان في الجاهلية. قال: قلت: وما ﴿ومن عاد فينتقم الله منه﴾؟ قال: ومن عاد في الإسلام فينتقم الله منه، وعليه مع ذلك الكفارة، قال: قلت: فهل في العود من حد تعلمه! قال: لا، قال، قلت: فترى حقاً على الإمام أن يعاقبه؟ قال: لا، هو ذنب أذنبه فيما بينه وبين الله عز وجل، ولكن يفندي، رواه ابن جرير. وقيل: معناه: فينتقم الله منه بالكفارة؛ قاله سعيد بن جبير وعطاء، ثم الجمهور من السلف والخلف: على أنه متى قتل المحرم الصيد وجب الجزاء، ولا فرق بين الأولى والثانية والثالثة، وإن تكرر ما تكرر سواء الخطأ في ذلك والعمد. وقال ابن جرير عن ابن عباس فيمن أصاب صيداً يحكم عليه ثم عاد، قال: لا يحكم عليه، ينتقم الله منه^(١). قوله ﴿والله عزيز ذو انتقام﴾

(١) وبه قال شريح ومجاهد وسعيد بن جبير والحسن البصري واختار ابن جرير القول الأول.

أي: والله منيع في سلطانه لا يقهره قاهر، ولا يمنعه من الانتقام ممن انتقم منه، ولا من عقوبة من أراد عقوبته مانع لأن الخلق خلقه، والأمر أمره، له العزة والمنعة. وقوله: ﴿ذو انتقام﴾ يعني أنه ذو معاقبة لمن عصاه على معصيته إياه .

أَحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحَرَّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدَ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرْمًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩٦﴾ * جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَمًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾ أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٩٨﴾ مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٩٩﴾

قال ابن عباس وسعيد بن جبیر في قوله تعالى: ﴿أحل لكم صيد البحر﴾ يعني ما يصطاد منه طريا ﴿وطعامه﴾ ما يتروذ منه مليحاً يابساً، وقال ابن عباس في الرواية المشهورة عنه: صيده ما أخذ منه حياً ﴿وطعامه﴾ ما لفظه ميتاً^(١). قال سفيان بن عيينة عن أبي بكر الصديق أنه قال: ﴿طعامه﴾ كل ما فيه. وقال ابن جرير: خطب أبو بكر الناس فقال: ﴿أحل لكم صيد البحر وطعامه متاعاً لكم﴾ وطعامه ما قذف. وقال عكرمة عن ابن عباس قال: طعامه ما لفظ من ميتة. وقال ابن جرير إن عبد الرحمن بن أبي هريرة سأل ابن عمر فقال: إن البحر قد قذف حيثاناً كثيرة ميتة أفناً كلها كلها؟ فقال: لا تأكلوها، فلما رجع عبد الله إلى أهله أخذ المصحف فقرأ سورة المائدة، فأتى هذه الآية: ﴿وطعامه متاعاً لكم وللسيارة﴾ فقال: اذهب، فقل له فليأكله فإنه طعامه. وهكذا اختار ابن جرير أن المراد بطعامه ما مات فيه. وقوله: ﴿متاعاً لكم وللسيارة﴾ أي منفعة وقوتاً لكم أيها المخاطبون، ﴿واللسيارة﴾، وهم جمع سيار، قال عكرمة: لمن كان بحضرة البحر والسفر. وقال غيره. الطري منه لمن يصطاده من حضرة البحر، وطعامه ما مات فيه أو اصطيد منه وملح، وقد يكون زاداً للمسافرين والنائين عن البحر. وقد استدلل الجمهور على حل ميتته بهذه الآية الكريمة، وبما رواه الإمام مالك عن جابر بن عبد الله قال: بعث رسول الله ﷺ بعثاً قِبل الساحل، فأمر عليهم أبا عبيدة بن الجراح، وهم ثلثمائة، وأنا فيهم، قال: فخرجنا حتى إذا كنا ببعض الطريق فني الزاد، فأمر أبو عبيدة بأزواد ذلك الجيش، فجمع ذلك كله، فكان مزودي تمر، قال: فكان يقوتنا كل يوم قليلاً قليلاً حتى فني، فلم يكن يصيبنا إلا تمر تمر، فقال: فقد وجدنا فقدها حين فني، قال: ثم اتهبنا إلى البحر، فإذا حوت مثل الطَّرب^(٢)، فأكل منه ذلك الجيش ثمانى عشرة ليلة، ثم أمر أبو عبيدة بضلعين من أضلاعه فنصبا، ثم أمر براحلة، فرحلت ومرت تحتها فلم تصبها. وهذا الحديث مخرج في الصحيحين، وله طرق عن جابر .

(١) وهكذا روي عن أبي بكر وزيد بن ثابت وإبراهيم النخعي والحسن البصري .

(٢) الجبل الصغير .

وفي صحيح مسلم عن جابر : فإذا على ساحل البحر مثل الكثيب الضخم ، فأتيناه فإذا بدابة يقال لها العنبر ، قال ، قال أبو عبيدة : ميتة ، ثم قال : لا ، نحن رسل رسول الله ﷺ وقد اضطررتم فكلوا ، قال : فأقمنا عليه شهراً ونحن ثلاثمائة حتى سمننا ، ولقد رأيتنا نغترف من وقب عينيه بالقلال الدهن ، ويققطع منه القدر كالثور ، قال : ولقد أخذ منا أبو عبيدة ثلاثة عشر رجلاً ، فأقعدهم في وقب عينيه ، وأخذ ضلعاً من أضلاعه فأقامها ، ثم رحل أعظم يعبر معنا فر من تحته ، وتزودنا من لحمه وشائق^(١) ، فلما قدمنا المدينة أتينا رسول الله ﷺ فذكرنا ذلك له ، فقال : « هو رزق أخرجته الله لكم ، هل معكم من لحمه شيء فقطعتمونا ؟ » . قال : فأرسلنا إلى رسول الله ﷺ منه فأكله . وقال مالك سأل رجل رسول الله ﷺ ، فقال : يا رسول الله إنا نركب البحر ، ونحمل معنا القليل من الماء ، فإن توضعنا منه عطشنا ، أفنتوضأ بماء البحر ؟ فقال رسول الله ﷺ : « هو الطهور ماؤه الحل ميتته »^(٢) .

وقد احتج بهذه الآية الكريمة من ذهب من الفقهاء إلى أنه تؤكل دواب البحر ، ولم يستثن من ذلك شيئاً ، وقد تقدم عن الصديق أنه قال : طعامه كل ما فيه ، وقد استثنى بعضهم الضفادع وأباج ما سواها ، لما رواه الإمام الإمام أحمد وأبو داود والنسائي عن أبي عبد الرحمن بن عثمان التيمي أن رسول الله ﷺ نهي عن قتل الضفدع ، وللنسائي عن عبد الله بن عمرو قال : نهي رسول الله ﷺ عن قتل الضفدع ، وقال : نقيها تسبيح . وقال آخرون : يؤكل من صيد البحر السمك ، ولا يؤكل الضفدع ، واختلفوا فيما سواهما فقيل : يؤكل سائر ذلك ، وقيل : لا يؤكل ، وقيل : ما أكل شبهه من البر أكل مثله في البحر ، وما لا يؤكل شبهه لا يؤكل . وهذه كلها وجوه في مذهب الشافعي رحمه الله تعالى ، وقال أبو حنيفة رحمه الله تعالى : لا يؤكل ما مات في البحر كما لا يؤكل ما مات في البر ، لعوم قوله تعالى : ﴿ حرمت عليكم الميتة ﴾ ، وقد ورد حديث بنحو ذلك . فقال ابن مردويه عن جابر قال ، قال رسول الله ﷺ : « ما صدتموه وهو حي فمات فكلوه وما ألقى البحر ميتاً طافياً فلا تأكلوه » .

وقد احتج الجمهور من أصحاب مالك والشافعي وأحمد بن حنبل بحديث العنبر المتقدم ذكره ، وبحديث : « هو الطهور ماؤه الحل ميتته » ، وقد تقدم أيضاً . وروى الإمام الشافعي عن ابن عمر قال ، قال رسول الله ﷺ : « أحلت لنا ميتتان ودمان ، فأما الميتتان فالحوت والجراد ، وأما الدمان فالكبد والطحال »^(٣) ، وقوله : ﴿ وحرمت عليكم صيد البر ما دمتم حرماً ﴾ أي في حال إحرامكم يحرم عليكم الاضطهاد ، ففيه دلالة على تحريم ذلك ، فإذا اضطاد المحرم الصيد متممداً أثم وغرم ، أو مخطئاً غرم وحرمت عليه أكله لأنه في حقه كالميتة ، وكذا في حق غيره من المحرمين والمحلين عند مالك والشافعي في أحد قوليه . فإن أكله أو شيئاً منه فهل يلزمه جزاء ثان ؟ فيه قولان للعلماء (أحدهما) : نعم وإليه ذهب طائفة . (والثاني) : لا جزاء عليه في أكله ، نص عليه مالك بن أنس . قال أبو عمر بن عبد البر : وعلى هذا مذاهب فقهاء الأمصار وجمهور العلماء ، وقال أبو حنيفة : عليه قيمة ما أكل . وأما إذا صاد حلال صيداً فأهداه إلى محرم ، فقد ذهب ذاهبون إلى إباحته مطلقاً ، ولم يستفصلوا بين

(١) شرائح .

(٢) رواه مالك وأصحاب السنن وصححه البخاري والترمذي .

(٣) ورواه أحمد وابن ماجه والدارقطني والبيهقي وله شواهد .

أن يكون قد صاده من أجله أم لا، وبه قال الكوفيون، قال ابن جرير عن أبي هريرة: أنه سئل عن لحم صيد صاده حلال أيا كله المحرم؟ قال: فأفتاهم بأكله، ثم لقي عمر بن الخطاب فأخبره بما كان من أمره، فقال: لو أفتيتهم بغير هذا لأوجعت لك رأسك. وقال آخرون: لا يجوز أكل الصيد للمحرم بالكلية، ومنعوا من ذلك مطلقاً لعموم هذه الآية الكريمة .

روي عن ابن عباس: أنه كره أكل الصيد للمحرم، وقال: هي مبهمة، يعني قوله: ﴿وحرّم عليكم صيد البر ما دمتم حرماً﴾. وعن ابن عمر أنه كان يكره للمحرم أن يأكل من لحم الصيد على كل حال^(١). وقد روي أن علياً كره أكل لحم الصيد للمحرم على كل حال. وقال مالك والشافعي وأحمد بن حنبل والجمهور: إن كان الحلال قد قصد المحرم بذلك الصيد لم يجز للمحرم أكله، لحديث الصعب بن جثامة أنه أهدى للنبي ﷺ حماراً وحشياً، وهو بالأبواء أو بؤدان فرده عليه، فلما رأى ما في وجهه قال: «إنا لم نرده عليك إلا أنا حرّم»^(٢). قالوا: فوجهه أن النبي ﷺ ظن أن هذا إنما صاده من أجله فرده لذلك، فأما إذا لم يقصده بالاصطياد، فإنه يجوز له الأكل منه، لحديث أبي قتادة حين صاد حمار وحش وكان حلالاً لم يحرم وكان أصحابه محرمين، فتوقفوا في أكله، ثم سألوا رسول الله ﷺ فقال: «هل كان منكم أحد أشار إليها أو أعان في قتلها؟» قالوا: لا، قال: «فكلوا»، وأكل منها رسول الله ﷺ، وهذه القصة ثابتة أيضاً في الصحيحين بألفاظ كثيرة .

قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبَدَّلَ لَكُمْ تَسْوُكُمْ وَإِنْ سَأَلْتُمْ عَنْهَا حِينَ يُنزَّلُ الْقُرْءَانُ تُبَدَّلَ لَكُمْ عَفَا
اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ ﴿١٠٢﴾

يقول الله تعالى لرسوله ﷺ: ﴿قل﴾ يا محمد ﴿لا يستوي الخبيث والطيب ولو أعجبك﴾ أي يا أيها الإنسان ﴿كثرة الخبيث﴾^(٣) يعني أن القليل الحلال النافع خير من الكثير الحرام الضار كما جاء في الحديث: «ما قل وكفى خير مما كثر وألهى». وقال أبو القاسم البغوي عن أبي أمامة: إن ثعلبة بن حاطب الأنصاري قال: يا رسول الله ادع الله أن يرزقني مالاً، فقال النبي ﷺ: «قليل تؤدي شكره خير من كثير لا تطيقه»، ﴿فاتقوا الله يا أولي الألباب﴾ أي يا ذوي العقول الصحيحة المستقيمة وتجنبوا الحرام ودعوه واقنعوا بالحلال واكتفوا به ﴿لعلمكم تفلحون﴾ أي في الدنيا والآخرة. ثم قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم﴾ هذا تأديب

(١) وبهذا قال طاووس وجابر بن زيد وإليه ذهب الثوري .

(٢) الحديث مروى في الصحيحين وله ألفاظ كثيرة .

(٣) أخرج الواحدى: أن النبي ﷺ ذكر تحريم الخمر، فقال أعرابي: إني كنت رجلاً كانت هذه تجارتي فاعتقت منها مالاً،

فهل ينفع ذلك المال إن عملت بطاعة الله؟ فقال النبي ﷺ: «إن الله لا يقبل إلا الطيب»، فأنزل الله: ﴿قل لا يستوي﴾

الآية كما في «اللباب» .

من الله تعالى لعباده المؤمنين، ونهي لهم عن أن يسألوا عن أشياء مما لا فائدة لهم في السؤال والتنقيب عنها، لأنها إن أظهرت لهم تلك الأمور ربما ساءتهم وشت عليهم سماعها، كما جاء في الحديث أن رسول الله ﷺ قال: « لا يبلغني أحد عن أحد شيئاً، إني أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر »، وقال البخاري عن أنس بن مالك قال: خطب رسول الله ﷺ خطبة ما سمعت مثلها قط، وقال فيها: « لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً ». قال فغطى أصحاب رسول الله ﷺ وجوههم، لهم حنين، فقال رجل: من أي؟ قال: « فلان »، فترلت هذه الآية: ﴿ لا تسألوا عن أشياء ﴾، وعن أبي هريرة قال: خرج رسول الله ﷺ وهو غضبان محمار وجهه، حتى جلس على المنبر فقام إليه رجل، فقال: أين أبي؟ قال: « في النار »، فقام آخر فقال: من أبي؟ فقال: « أبوك حذافة »، فقام عمر بن الخطاب فقال: رضينا بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد ﷺ نبياً، وبالقرآن إماماً، إنا يا رسول الله حديثو عهد بجاهلية وشرك. والله أعلم من آباؤنا. قال: فسكن غضبه، ونزلت هذه الآية: ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم ﴾ الآية، إسناده جيد، وقد ذكر هذه القصة مرسله غير واحد من السلف، منهم السدي. قال البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: كان قوم يسألون رسول الله ﷺ استهزاء، فيقول الرجل: من أبي؟ ويقول الرجل تفضل ناقتة: أين ناقتي؟ فأنزل الله فيهم هذه الآية: ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم ﴾، حتى فرغ من الآية كلها. وظاهر الآية النهي عن السؤال عن الأشياء التي إذا علم بها الشخص ساءته، فالأولى الإعراض عنها وتركها، وما أحسن الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود قال، قال رسول الله ﷺ لأصحابه: « لا يبلغني أحد عن أحد شيئاً فإني أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر ». الحديث .

وقوله تعالى: ﴿ وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم ﴾ أي وإن تسألوا عن هذه الأشياء التي نهيتهم عن السؤال عنها حين ينزل الوحي على رسول الله ﷺ تبين لكم، وذلك على الله يسير، ثم قال: ﴿ عفا الله عنها ﴾ أي عما كان منكم قبل ذلك ﴿ والله غفور حلیم ﴾، وقيل المراد بقوله: ﴿ وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم ﴾ أي لا تسألوا عن أشياء تستأنفون السؤال عنها فلعلة قد ينزل بسبب سؤالكم تشديد أو تضييق، وقد ورد في الحديث: « أعظم المسلمين جرماً من سأل عن شيء لم يحرم فحرم من أجل مسألته »، ولكن إذا نزل القرآن بها مجملة فسألتم عن بيانها بينت لكم حينئذ لاحتياجكم إليها، ﴿ عفا الله عنها ﴾ أي ما لم يذكره في كتابه، فهو مما عفا عنه فاسكتوا أتم عنها كما سكت عنها. وفي الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: « ذروني ما تركتكم، فإنما أهلك من كان قبلكم كثرة سؤالهم، واختلافهم على أنبيائهم »، وفي الحديث الصحيح أيضاً: « إن الله تعالى فرض فرائض فلا تضيعوها، وحدّ حدوداً فلا تعتدوها، وحرم أشياء فلا تنتهكوها، وسكت عن أشياء رحمة بكم غير نسيان فلا تسألوا عنها »، ثم قال تعالى: ﴿ قد سأله قوم من قبلكم ثم أصبحوا بها كافرين ﴾ أي قد سأل هذه المسائل المنهى عنها قوم من قبلكم فأجيبوا عنها ثم لم يؤمنوا بها فأصبحوا بها كافرين، أي بسببها، أي بينت لهم فلم ينتفعوا بها، لأنهم لم يسألوا على وجه الاسترشاد بل على وجه الاستهزاء والعناد. وقال العوفي عن ابن عباس في الآية: إن رسول الله ﷺ أذن في الناس فقال: « يا قوم كتب عليكم الحج » فقام رجل من بني أسد فقال: يا رسول الله أي كل عام؟ فأغضب رسول الله ﷺ غضباً شديداً فقال: « والذي نفسي بيده لو قلت: نعم،

لوجبت، ولو وجبت ما استطعتم، وإذا لكفرتم فاتركوني ما تركتكم، وإذا أمرتكم بشيء فافعلوا، وإذا نهيتكم عن شيء فانتهاوا عنه»، فأنزل الله هذه الآية، نهاهم أن يسألوا عن مثل الذي سألت عنه النصارى من المائدة فأصبحوا بها كافرين، فنهى الله عن ذلك، وقال: لا تسألوا عن أشياء إن نزل القرآن فيها بتغليظ ساءكم ذلك، ولكن انظروا، فإذا نزل القرآن فإنكم لا تسألون عن شيء إلا وجدتم بيانه. ثم قال: ﴿قد سألتهم قوم من قبلكم ثم أصبحوا بها كافرين﴾. روي عن عكرمة رحمه الله: أن المراد بهذا النبي عن سؤال وقوع الآيات، كما سألت قريش أن يجري لهم أنهاراً وأن يجعل لهم الصفا ذهباً وغير ذلك، وكما سألت اليهود أن ينزل عليهم كتاباً من السماء، وقد قال الله تعالى: ﴿وما معنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون﴾ الآية. وقال تعالى: ﴿وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها قل إنما الآيات عند الله وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون﴾.

مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَىٰ الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا^١ أُولَٰئِكَ كَانُوا^٢ آبَاءَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾

قال البخاري عن ابن شهاب عن سعيد بن المسيب قال: البحيرة التي يمنع درها للطواغيت فلا يحلها أحد من الناس، والسائبة: كانوا يسيبونها لأهتهم لا يحمل عليها شيء. قال، وقال أبو هريرة، قال رسول الله ﷺ: «رأيت عمرو بن عامر الخزاعي يجر قصبه^(١) في النار كان أول من سب السوايب» والوصيلة: الناقة البكر تبرك في أول نتاج الإبل، ثم تنفي بعد بأنثى، وكانوا يسيبونها لطواغيتهم إن وصلت إحداها بالأخرى ليس بينهما ذكر؛ والحام: فحل الإبل يضرب الضراب الممدود، فإذا قضى ضرابه ودعوه للطواغيت، وأعفوه عن الحمل، فلم يحمل عليه شيء، وسموه الحامي. ثم قال البخاري عن الزهري عن عروة، أن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «رأيت جهنم يحطم بعضها بعضاً، ورأيت عمراً يجر قصبه وهو أول من سب السوايب». وقال الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ، قال: «إن أول من سب السوايب وعبد الأصنام أبو خزاعة عمرو ابن عامر، وإني رأيت يجر أمعاه في النار»^(٢)، وقال عبد الرزاق عن زيد بن أسلم قال، قال رسول الله ﷺ: «إني لأعرف أول من سب السوايب، وأول من غير دين إبراهيم عليه السلام» قالوا: ومن هو يا رسول الله؟ قال: «عمرو بن لحي أخو بني كعب، لقد رأيت يجر قصبه في النار تؤذي راحته أهل النار، وإني لأعرف أول من بحر البحائر»، قالوا: ومن هو يا رسول الله؟ قال: «رجل من بني مدلج، كانت له ناقتان، فجدع آذانهما، وحرّم ألبانها، ثم شرب ألبانها، بعد ذلك، فلقد رأيت في النار وهما يعضانه بأفواههما ويطأنه بأخفافهما»، فعمرو هذا هو ابن لحي بن قمعة أحد رؤساء خزاعة الذين ولوا البيت بعد جرهم، وكان أول من غير دين إبراهيم

(١) أمعاه .

(٢) تفرد به أحمد من هذا الوجه .

الخليل، فأدخل الأصنام إلى الحجاز، ودعا الرعاع من الناس إلى عبادتها والتقرب بها، وشرع لهم هذه الشرائع الجاهلية في الأنعام وغيرها، كما ذكره الله تعالى في سورة الأنعام عند قوله تعالى: ﴿وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً﴾ إلى آخر الآيات في ذلك.

فأما البهيرة فقال ابن عباس رضي الله عنهما: هي الناقة إذا نتجت خمسة أبطن نظروا إلى الخامس، فإن كان ذكراً ذبحوه فأكله الرجال دون النساء، وإن كان أنثى جدعوا آذانها، فقالوا: هذه بهيرة. وذكر السدي وغيره قريباً من هذا؛ وأما السائبة: فقال مجاهد: هي من الغنم نحو ما فسر من البهيرة، إلا أنها ما ولدت من ولد كان بينها وبينه ستة أولاد كانت على هيئتها، فإذا ولدت السابع ذكراً أو ذكرين ذبحوه فأكله رجالهم دون نسائهم، وقال محمد بن إسحاق: السائبة: هي الناقة إذا ولدت عشر إناث من الولد ليس بينهن ذكر سييت فلم تركب ولم يجر وبرها ولم يحلب لبنها إلا لضيف. وقال أبو روق: السائبة، كان الرجل إذا خرج فقضيت حاجته سيب من ماله ناقة أو غيرها فجعلها للطواغيت، فما ولدت من شيء كان لها. وقال السدي: كان الرجل منهم إذا قضيت حاجته أو عوفي من مرض أو كثر ماله سبب شيئاً من ماله للأوثان، فمن عرض له من الناس عوقب بعقوبة في الدنيا.

وأما الوصيلة، فقال ابن عباس: هي الشاة إذا نتجت سبعة أبطن نظروا إلى السابع، فإن كان ذكراً وهو ميت اشترك فيه الرجال دون النساء، وإن كان أنثى استحيوها، وإن كان ذكراً وأنثى في بطن واحد استحيوها وقالوا وصلته أخته فحرمته علينا. وقال محمد بن إسحاق: الوصيلة من الغنم إذا ولدت عشر إناث في خمسة أبطن توأمين توأمين في كل بطن سميت الوصيلة وتركت، فما ولدت بعد ذلك من ذكر أو أنثى جعلت للذكور دون الإناث، وإن كانت ميتة اشتركوا فيها. وأما الحامي، فقال ابن عباس: كان الرجل إذا لقيح فحله عشراً قيل حام فتركوه، وكذا قال قتادة، وروي عنه أن الحام: الفحل من الإبل إذا ولد لولده، قالوا حمى هذا ظهره فلا يحملون عليه شيئاً ولا يجزون له وبراً، ولا يمنعونه من حمى رعي ومن حوض يشرب منه، وإن كان الحوض لغير صاحبه. وقال ابن وهب، سمعت مالكا يقول: أما الحام فن الإبل كان يضرب في الإبل، فإذا انقضى ضرابه جعلوا عليه ريش الطواويس وسيوه. وقد قيل غير ذلك في تفسير هذه الآية. وقوله تعالى: ﴿ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب وأكثرهم لا يعقلون﴾ أي ما شرع الله هذه الأشياء ولا هي عنده قرينة، ولكن المشركون افتروا ذلك وجعلوه شرعاً لهم وقربة يتقربون بها إليه، وليس ذلك بحاصل بل هو وبال عليهم، ﴿وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا﴾ أي إذا دعوا إلى دين الله وشرعه وما أوجبه وترك ما حرمه قالوا: يكفيننا ما وجدنا عليه الآباء والأجداد من الطرائق والمسالك، قال الله تعالى: ﴿أولو كان آباؤهم لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون﴾ أي لا يفهمون حقاً ولا يعرفونه ولا يهتدون إليه، فكيف يتبعونها والحالة هذه لا يتبعهم إلا من هو أجهل منهم وأضل سبيلاً؟

يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مِنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ

يقول تعالى آمراً عباده المؤمنين أن يصلحوا أنفسهم ويفعلوا الخير بجهدهم وطاقتهم، ومخبراً لهم أنه من أصلح أمره لا يضره فساد من فسد من الناس، سواء كان قريباً منه أو بعيداً. قال ابن عباس في تفسير هذه الآية، يقول تعالى: إذا ما العبد أطاعني فيما أمرته به من الحلال، ونهيته عنه من الحرام، فلا يضره من ضل بعده إذا عمل بما أمرته به، وهكذا قال مقاتل بن حيان. فقوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم﴾ نصب على الإغراء ﴿لا يضركم من ضل إذا اهتديتم إلى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم تعملون﴾ أي فيجازي كل عامل بعمله إن خيراً فخير وإن شراً فشر. وليس فيها دليل على ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إذا كان فعل ذلك ممكناً، وقد قام أبو بكر الصديق رضي الله عنه فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أيها الناس إنكم تقرأون هذه الآية: ﴿يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم﴾، وإنكم تضعونها على غير موضعها، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الناس إذا رأوا المنكر ولا يغيرونه يوشك الله عز وجل أن يعمهم بعقابه»^(١). وقال الترمذي عن أبي أمية الشعباني قال: أتيت أبا ثعلبة الخشني، فقلت له: كيف تصنع في هذه الآية؟ قال: أية آية؟ قلت: قول الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم﴾ قال: أما والله لقد سألت عنها خبيراً، سألت عنها رسول الله ﷺ فقال: «بل ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر، حتى إذا رأيت شحاً مطاعاً وهوى متبعاً ودنيا مؤثرة وإعجاب كل ذي رأي برأيه، فعليك بخاصة نفسك، ودع العوام، فإن من ورائكم أياماً، الصابر فيهن مثل القابض على الجمر، للعامل فيهن أجر خمسين رجلاً يعملون كعملكم»، وفي رواية قيل: يا رسول الله أجر خمسين رجلاً منا أو منهم؟ قال: «بل أجر خمسين منكم».

وروى الرازي عن أبي العالية عن ابن مسعود في قوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل﴾ الآية، قال: كانوا عند عبد الله بن مسعود جلوساً فكان بين رجلين بعض ما يكون بين الناس، حتى قام كل واحد منهما إلى صاحبه فقال رجل من جلساء عبد الله: ألا أقوم فأمرهما بالمعروف وأنهاهما عن المنكر، فقال آخر إلى جنبه: عليك بنفسك، فإن الله يقول: ﴿عليكم أنفسكم﴾ الآية، قال: فسمعها ابن مسعود، قال: مه لم يجيء تأويل هذه بعد؛ إن القرآن أنزل حيث أنزل، ومنه آي قد مضى تأويلهن قبل أن ينزلن ومنه آي قد وقع تأويلهن على عهد رسول الله ﷺ، ومنه آي قد وقع تأويلهن بعد النبي ﷺ بيسير، ومنه آي يقع تأويلهن بعد اليوم، ومنه آي تأويلهن عند الساعة ما ذكر من الساعة، ومنه آي يقع تأويلهن يوم الحساب ما ذكر من الحساب والجنة والنار فما دامت قلوبكم واحدة واهواؤكم واحدة ولم تلبسوا شيعاً، ولم يذق بعضكم بأس بعض، فامروا وانهوا، وإذا اختلفت القلوب والاهواء وألبستم شيعاً، وذاق بعضكم بأس بعض فامرؤ ونفسه، وعند ذلك جاءنا تأويل هذه الآية رواه ابن جرير، وقال ابن جرير تلا الحسن هذه الآية: ﴿يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم﴾ فقال الحسن: الحمد لله بها، والحمد لله عليها، ما كان مؤمن فيما مضى ولا مؤمن فيما بقي إلا وإلى جنبه منافق يكره عمله. وقال سعيد بن المسيب: إذا أمرت بالمعروف ونهيت عن المنكر، فلا يضرك من ضل إذا اهتديت.

(١) رواه أحمد وأصحاب السنن وابن ماجه .

(٢) رواه الترمذي وأبو داود وابن ماجه .

يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهْدَةً بَيْنَكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِّنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْسِبُوهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنْ آرَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِءَ نَمْنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلَا نَكْتُمُ شَهْدَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذَا لَمِنَ الْأَمِينِ ﴿١٠٦﴾ فَإِنْ عُرِيَ عَلَىٰ أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلِيَانِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَدْنَا أَحَقَّ مِنْ شَهَدَتِيهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٧﴾ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَا أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ آيْمَانِهِمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٠٨﴾

اشتملت هذه الآية الكريمة على حكم عزيز، قيل إنه منسوخ، وقال آخرون وهم الأكثرون بل هو محكم، ومن ادعى نسخه فعليه البيان^(١)، فقوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم إذا حضر أحدكم الموت حين الوصية اثنان﴾. هذا هو الخبر لقوله شهادة بينكم. فقيل: تقديره شهادة اثنين حذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه. وقيل: دل الكلام على تقدير: أن يشهد اثنان، وقوله تعالى: ﴿ذوا عدل﴾ وصف الاثنين بأن يكونا عدلين، وقوله: ﴿منكم﴾ أي من المسلمين، قاله الجمهور. قال ابن عباس رضي الله عنه في قوله ﴿ذوا عدل منكم﴾، قال: من المسلمين. قال ابن جرير: وقال آخرون عن ذلك ﴿ذوا عدل منكم﴾ أي من أهل الموصي، وقوله: ﴿أو آخران من غيركم﴾ قال ابن أبي حاتم، قال ابن عباس في قوله ﴿أو آخران من غيركم﴾ أي من غير المسلمين، يعني أهل الكتاب^(٢)، وعلى ما حكاه ابن جرير عن عكرمة وعبيدة في قوله: ﴿منكم﴾ أن المراد من قبيلة الموصي، يكون المراد ههنا ﴿أو آخران من غيركم﴾ أي من غير قبيلة الموصي، وقوله تعالى: ﴿إن أنتم ضربتم في الأرض﴾ أي سافرتم ﴿فأصابتكم مصيبة الموت﴾ وهذان شرطان لجواز استشهاد الذميين عند فقد المؤمنين أن يكون ذلك في سفر، وأن يكون في وصية، كما قال ابن جرير عن شريح: لا تجوز شهادة اليهود والنصارى إلا في سفر، ولا تجوز في سفر إلا في الوصية، وروي نحوه عن الإمام أحمد بن حنبل وخالفه الثلاثة، فقالوا: لا تجوز شهادة أهل الذمة على المسلمين، وأجازها أبو حنيفة فيما بين بعضهم بعضاً.

وقال ابن جرير عن الزهري قال: مضت السنة أن لا تجوز شهادة الكافر في حضر ولا سفر، إنما هي في المسلمين. وقال ابن زيد: نزلت هذه الآية في رجل توفي وليس عنده أحد من أهل الإسلام، وذلك في أول الإسلام والأرض حرب، والناس كفار، وكان الناس يتوارثون بالوصية، ثم نسخت الوصية وفرضت الفرائض وعمل الناس بها، رواه ابن جرير. وفي هذا نظر والله أعلم. وقال ابن جرير: اختلف في قوله: ﴿شهادة بينكم إذا حضر أحدكم الموت حين الوصية اثنان ذوا عدل منكم أو آخران من غيركم﴾ هل المراد به أن يوصي إليهما أو يشهدهما؟ على

(١) قاله ابن جرير رحمه الله تعالى .

(٢) وروي عن شريح وعكرمة وقتادة والسدي ومقاتل نحو ذلك .

قولين (أحدهما): أن يوصي إليهما، سئل ابن مسعود رضي الله عنه عن هذه الآية قال: هذا رجل سافر ومعه مال فادركه قدره، فإن وجد رجلين من المسلمين دفع إليهما تركته وأشهد عليهما عدلين من المسلمين، (والقول الثاني): أنهما يكونا شاهدين، وهو ظاهر سياق الآية الكريمة، فإن لم يكن وصي ثالث معهما اجتمع فيهما الوصفان الوصاية والشهادة، كما في قصة تميم الداري وعدي بن بدء كما سيأتي ذكرها إن شاء الله وبه التوفيق. وقوله تعالى: ﴿تجسبونهما من بعد الصلاة﴾ قال ابن عباس: يعني صلاة العصر، وقال الزهري: يعني صلاة المسلمين، وقال السدي عن ابن عباس: يعني صلاة أهل دينهما، والمقصود أن يقام هذان الشاهدان بعد صلاة اجتمع الناس فيها بحضرتهم، ﴿فيقسمان بالله﴾ أي فيحلفان بالله ﴿إن ارتبتم﴾ أي إن ظهرت لكم منهما ريبة أنهما خانا أو غلا فيحلفان حينئذ بالله ﴿لا نشترى به﴾ أي بأيماننا ﴿ثمناً﴾ أي لا نعتاض عنه بعوض قليل من الدنيا الفانية الزائلة ﴿ولو كان ذا قرى﴾ أي ولو كان المشهود عليه قريباً لنا لا نحاييه، ﴿ولا نكنم شهادة الله﴾ أضافها إلى الله تشريفاً لها وتعظيماً لأمرها.

﴿إنا إذا لمن الآمين﴾ أي إن فعلنا شيئاً من ذلك من تحريف الشهادة أو تبديلها أو تغييرها أو كتمها بالكلية، ثم قال تعالى: ﴿فإن عثر على أنهما استحقا إثماً﴾ أي فإن اشتهر وظهر وتحقق من الشاهدين الوصيين أنهما خانا أو غلا شيئاً من المال الموصى به إليهما وظهر عليهما بذلك ﴿فآخرا إن يقومان مقامهما من الذين استحق عليهم الأوليان﴾ أي متى تحقق بالخبر الصحيح خيانتها، فليقم اثنان من الورثة المستحقين للتركة وليكونا من أولى من يرث ذلك المال ﴿فيقسمان بالله لشهادتنا أحق من شهادتهما﴾، أي لقولنا إنهما خانا أحق وأصح وأثبت من شهادتهما المتقدمة، ﴿وما اعتدينا﴾ أي فيما قلنا فيهما من الخيانة ﴿إنا إذا لمن الظالمين﴾، إي إن كنا قد كذبنا عليهما، وهذا التحليف للورثة والرجوع إلى قولهما والحالة هذه كما يحلف أولياء المقتول إذا ظهر لوث في جانب القاتل، فيقسم المستحقون على القاتل فيدفع برمته إليهم كما هو مقرر في باب القسامة من الأحكام.

وقد روي عن ابن عباس قال: خرج رجل من بني سهم مع تميم الداري، وعدي بن بدء، فأت السهمي بأرض ليس بها مسلم، فلما قدما بتركته، فقدوا جاما من فضة مخصوصاً بالذهب، فأحلفهما رسول الله ﷺ، ووجدوا الجام بمكة، فقيل: اشتريناه من تميم وعدي، فقام رجلان من أولياء السهمي، فحلفا بالله لشهادتنا أحق من شهادتهما، وإن الجام لصاحبهم، وفيهم نزلت: ﴿يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم﴾^(١) الآية، ومن الشواهد لصحة هذه القصة ما رواه أبو جعفر بن جرير عن الشعبي أن رجلاً من المسلمين حضرته الوفاة بدقوقاً هذه، قال فحضرته الوفاة ولم يجد أحداً من المسلمين يشهده على وصيته، فأشهد رجلين من أهل الكتاب، قال: فقدما الكوفة، فأتيا الأشعري يعني (أبا موسى الأشعري) رضي الله عنه، فأخبراه، وقدما الكوفة بتركته ووصيته، فقال الأشعري: هذا أمر لم يكن بعد الذي كان على عهد رسول الله ﷺ، وقال: فأحلفهما بعد العصر، بالله ما خانا ولا كذبا ولا بدلا ولا كتماً ولا غيراً، وإنها لوصية الرجل وتركته، قال: فأمضى شهادتهما، فقوله: هذا أمر لم يكن بعد الذي كان على عهد رسول الله ﷺ الظاهر - والله أعلم - أنه إنما أراد بذلك قصة تميم وعدي بن بدء، وقد

(١) أخرجه الترمذي وأبو داود، وقال الترمذي: حسن غريب.

ذكروا أن إسلام تميم بن أوس الداري رضي الله عنه كان سنة تسع من الهجرة، فعلى هذا يكون هذا الحكم متأخراً يحتاج مدعي نسخه إلى دليل فاصل في هذا المقام، والله أعلم .

وقال السدي في الآية ﴿ يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم إذا حضر أحدكم الموت حين الوصية اثنان ذوا عدل منكم ﴾ قال: هذا في الوصية عند الموت يوصي ويشهد رجلين من المسلمين على ماله وما عليه، قال: هذا في الحضر ﴿ أو آخران من غيركم ﴾ في السفر ﴿ إن أتم ضربتم في الأرض فأصابتكم مصيبة الموت ﴾ هذا الرجل يدركه الموت في سفره وليس بحضرته أحد من المسلمين، فيدعو رجلين من اليهود والنصارى والمجوس، فيوصي إليهما ويدفع إليهما ميراثه فيقبلان به، فإن رضي أهل الميت الوصية وعرفوا ما لصاحبهم تركوهما، وإن ارتابوا رفعوهما إلى السلطان، فذلك قوله تعالى: ﴿ تحبسونهما من بعد الصلاة فيقسمان بالله إن ارتبتم ﴾، قال ابن عباس رضي الله عنه: كأني أنظر إلى العلجين حين انتهى بهما إلى أبي موسى الأشعري في داره، ففتح الصحيفة، فأنكر أهل الميت وخوفوهما، فأراد أبو موسى أن يستحلفهما بعد العصر، فقلت: إنهما لا يباليان صلاة العصر ولكن استحلفهما بعد صلاتهما في دينهما فيحلفان بالله لا نشترى به ثمناً قليلاً ولو كان ذا قربي ولا نكتم شهادة الله إنا إذا لمن الآتئين: أن صاحبهم لهذا أوصى، وأن هذه لتركته، فيقول لهما الإمام قبل أن يحلفا: إنكما إن كنتم أو خنتما فضحتكما في قومكما ولم تجز لكما شهادة وعاقبتكما، فإذا قال لهما ذلك فإن ﴿ ذلك أدنى أن يأتوا بالشهادة على وجهها ﴾، رواه ابن جرير، وقال ابن عباس في تفسير هذه الآية: فإن ارتب في شهادتهما استحلفا - بعد العصر - بالله ما اشترينا بشهادتنا ثمناً قليلاً، فإن اطلع الأولياء على أن الكافرين كذبا في شهادتهما قام رجلان من الأولياء فحلفا بالله أن شهادة الكافرين باطلة، وإنا لم نعتد، فذلك قوله تعالى: ﴿ فإن عثر على أنهما استحقا إثماً ﴾ يقول: إن اطلع على أن الكافرين كذبا ﴿ فأخران يقومان مقامهما ﴾ يقول من الأولياء، فحلفا بالله أن شهادة الكافرين باطلة، وإنا لم نعتد، فترد شهادة الكافرين: وتجوز شهادة الأولياء^(١)، وهكذا قرر هذا الحكم على مقتضى هذه الآية غير واحد من أئمة التابعين والسلف رضي الله عنهم، وهو مذهب الإمام أحمد رحمه الله .

وقوله تعالى: ﴿ ذلك أدنى أن يأتوا بالشهادة على وجهها ﴾ أي شرعية هذا الحكم على هذا الوجه المرضي من تحليف الشاهدين اللذين إذا استرب بهما أقرب إلى إقامتهما الشهادة على الوجه المرضي. وقوله: ﴿ أو يخافوا أن ترد أيمان بعد أيمانهم ﴾ أي يكون الحامل لهم على الإتيان بها على وجهها هو تعظيم الحلف بالله ومراعاة جانبه وإجلاله، والخوف من الفضيحة بين الناس، إن ردت اليمين على الورثة، فيحلفون ويستحقون ما يدعون، ولهذا قال: ﴿ أو يخافوا أن ترد أيمان بعد أيمانهم ﴾ ثم قال: ﴿ واتقوا الله ﴾ أي في جميع أموركم، ﴿ واسمعوا ﴾ أي وأطيعوا، ﴿ والله لا يهدي القوم الفاسقين ﴾ أي الخارجين عن طاعته ومتابعة شريعته .

* يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمُ الْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾

هذا إخبار عما يخاطب الله به المرسلين يوم القيامة عما أجيبوا به من أممهم الذين أرسلهم إليهم، كما قال

(١) ذكره ابن جرير رحمه الله .

تعالى: ﴿فلنسالن الذين أرسل إليهم ولنسالن المرسلين﴾، وقال تعالى: ﴿فوربك لنسالنهم أجمعين عما كانوا يعملون﴾، وقول الرسل ﴿لا علم لنا﴾. قال مجاهد والحسن البصري والسدي: إنما قالوا ذلك من هول ذلك اليوم، وقال الأعمش عن مجاهد يفزعون فيقولون ﴿لا علم لنا﴾، وقال السدي: نزلوا منزلاً ذهلت فيه العقول فلما سئلوا قالوا: ﴿لا علم لنا﴾، ثم نزلوا منزلاً آخر، فشهدوا على قومهم، وقال ابن عباس ﴿يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم قالوا لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب﴾ يقولون للرب عز وجل: لا علم لنا إلا علم أنت أعلم به منا، رواه ابن جرير واختاره على هذه الأقوال ولا شك أنه قول حسن، وهو من باب التأدب مع الرب جل جلاله: أي لا علم لنا بالنسبة إلى علمك المحيط بكل شيء، فنحن وإن كنا أجبنا وعرفنا من أجبنا ولكن منهم من كنا إنما نطلع على ظاهره لا علم لنا بباطنه، وأنت العليم بكل شيء، المطلع على كل شيء، فعلمنا بالنسبة إلى علمك كلا علم، فإنك ﴿أنت علام الغيوب﴾.

إِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى ابْنُ مَرْيَمَ أَذْكَرَ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتْكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهَلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخَلَّقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفَخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا إِسْحَارٌ مِيبٌ ﴿١١٠﴾ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ ءَامِنُوا بِي وَبِرِسُولِي قَالُوا ءَامَنَّا وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾

يذكر تعالى ما من به على عبده ورسوله عيسى بن مريم عليه السلام مما أجراه على يديه من المعجزات وخوارق العادات، فقال: ﴿اذكر نعمتي عليك﴾ أي في خلقي إياك من أم بلا ذكر، وجعلي إياك آية ودلالة قاطعة على كمال قدرتي على الأشياء، ﴿وعلى والدتك﴾ حيث جعلتك لها برهاناً على براءتها مما نسبته الظالمون والجاهلون إليها من الفاحشة، ﴿إذ أيدتك بروح القدس﴾، وهو جبريل عليه السلام، وجعلتك نبياً داعياً إلى الله في صغرك وكبرك، فأنطقتك في المهد صغيراً فشهدت ببراءة أمك من كل عيب، واعترفت لي بالعبودية، وأخبرت عن رسالتي إياك، ودعوت إلى عبادتي. ولهذا قال: ﴿تكلم الناس في المهد وكهلاً﴾ أي تدعو إلى الله الناس في صغرك وكبرك، وضمن تكلم تدعو، لأن كلامه الناس في كهولته ليس بأمر عجيب، وقوله: ﴿إذ علمتك الكتاب والحكمة﴾ أي الخط والفهم، ﴿والتوراة﴾ وهي المنزلة على موسى الكليم، وقوله: ﴿إذ تخلق من الطين كهية الطير بإذني﴾ أي تصوره وتشكله على هيئة الطائر بإذني لك في ذلك، فتنفخ فيها فتكون طيراً بإذني، أي فتنفخ في تلك الصورة التي شكلتها بإذني لك في ذلك، فتكون طيراً ذا روح تطير بإذن الله وخلقه.

وقوله تعالى: ﴿وتبرئ الأكمه والأبرص بإذني﴾ قد تقدم الكلام عليه في سورة آل عمران بما أغنى عن إعادته. وقوله: ﴿إذ تخرج الموتى بإذني﴾ أي تدعوهم فيقومون من قبورهم بإذن الله وقدرته وإرادته ومشيتته، وقوله تعالى: ﴿إذ كففت بني إسرائيل عنك إذ جئتهم بالبينات فقال الذين كفروا منهم إن هذا إلا سحر مبين﴾

أي واذكر نعمتي عليك في كفي إياهم عنك حين جثتهم بالبراهين والحجج القاطعة على نبوتك ورسالتك من الله إليهم، فكذبوك، واتهموك بأنك ساحر، وسعوا في قتلك وصلبك، فنجيتك منهم، ورفعتك إليّ، وطهرتك من دنسهم، وكفيتك شرهم، وهذا يدل على أن هذا الامتحان كان من الله إليه بعد رفعه إلى السماء، أو يكون هذا الامتحان واقعاً يوم القيامة، وعبر عنه بصيغة الماضي دلالة على وقوعه لا محالة، وهذا من أسرار الغيوب التي أطلع الله عليها نبيه محمداً ﷺ. وقوله: ﴿وَإِذْ أُوحِيَ إِلَى الْخَوَارِيِّينَ أَنْ آمَنُوا بِي وَبِرَسُولِي﴾ وهذا أيضاً من الامتحان عليه، عليه السلام بأن جعل له أصحاباً وأنصاراً، ثم قيل: إن المراد بهذا الوحي وحي إلهام كما قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ الآية، وهو وحي إلهام بلا خلاف، وكما قال تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا﴾ الآية، وهكذا قال بعض السلف في هذه الآية ﴿وَإِذْ أُوحِيَ إِلَى الْخَوَارِيِّينَ أَنْ آمَنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾، أي أنهم ما آمنوا بذلك فامتثلوا ما ألهموا، قال الحسن البصري: ألهمهم الله عز وجل ذلك. وقال السدي: قذف في قلوبهم ذلك، ويحتمل أن يكون المراد: وإذ أوحيت إليهم بواسطتك فدعوتهم إلى الإيمان بالله وبرسوله، واستجابوا لك وانقادوا وتابعوك، فقالوا: ﴿آمَنَّا وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾.

إِذْ قَالَ الْخَوَارِيُّونَ يُعَيْسَىٰ ابْنُ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ ۗ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ ۖ إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَّقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَىٰ ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مَنَنْتُهَا عَلَيْكُمْ ۖ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١١٥﴾

هذه قصة المائدة، وإليها تنسب السورة، فيقال سورة المائدة، وهي مما امتن الله به على عبده ورسوله عيسى لما أجاب دعاءه بتزولها، فأنزل الله آية باهرة وحجة قاطعة، وقد ذكر بعض الأئمة أن قصتها ليست مذكورة في الإنجيل ولا يعرفها النصارى إلا من المسلمين، فالله أعلم، فقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ الْخَوَارِيُّونَ﴾ وهم أتباع عيسى عليه السلام ﴿يَا عِيسَىٰ ابْنُ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾: هذه قراءة كثيرين، ﴿أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ والمائدة هي الخوان عليه طعام، وذكر بعضهم أنهم إنما سألوا ذلك لحاجتهم وفقروا فسألوه أن ينزل عليهم مائدة كل يوم يقتاتون بها، ويتقون بها على العبادة، ﴿قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ ۖ إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي فأجابهم المسيح عليه السلام قائلاً لهم: اتقوا الله ولا تسألوا هذا ففساه أن يكون فتنة لكم، وتوكلوا على الله في طلب الرزق إن كنتم مؤمنين ﴿قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا﴾ أي نحن محتاجون إلى الأكل منها ﴿وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا﴾ إذا شاهدنا نزولها رزقاً لنا من السماء ﴿وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَّقْتَنَا﴾ أي وزداد إيماناً بك وعلماً برسالتك ﴿وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ أي ونشهد أنها آية من عند الله، ودلالة وحجة على نبوتك وصدق ما جئت به، ﴿قَالَ عِيسَىٰ ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً﴾

من السماء تكون لنا عيداً لأولنا وآخرنا ﴿﴾، قال السدي: أي تتخذ ذلك اليوم الذي نزلت فيه عيداً نعظمه نحن ومن بعدنا، وقال سفيان الثوري: يعني يوماً نصلي فيه، وقال قتادة، أرادوا أن يكون لعقبهم من بعدهم، وعن سلمان الفارسي: عظة لنا ولمن بعدنا، وقيل: كافية لأولنا وآخرنا ﴿﴾ وآية منك ﴿﴾ أي دليلاً تنصبه على قدرتك على الأشياء وعلى إجابتك لدعوتي فيصدقوني فيما أبلغه عنك، ﴿﴾ وارزقنا ﴿﴾ أي من عندك رزقاً هنيئاً بلا كلفة ولا تعب، ﴿﴾ وأنت خير الرازقين قال الله إني منزها عليكم فمن يكفر بعد منكم ﴿﴾، أي فمن كذب بها من أمتك يا عيسى وعاندها ﴿﴾ فإني أعذبه عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين ﴿﴾، أي من عالمي زمانكم كقوله تعالى: ﴿﴾ ويوم القيامة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب ﴿﴾، وكقوله: ﴿﴾ إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ﴿﴾. وقد روى ابن جرير عن عبد الله ابن عمرو قال: إن أشد الناس عذاباً يوم القيامة ثلاثة: المنافقون، ومن كفر من أصحاب المائدة، وآل فرعون.

(ذكر أخبار في نزول المائدة على الحواريين)

قال أبو جعفر بن جرير عن ابن عباس، أنه كان يحدث عن عيسى، أنه قال لبي إسرائيل: هل لكم أن تصوموا لله ثلاثين يوماً ثم تسأله فيعطيك ما سألت، فإن أجر العامل على من عمل له، ففعلوا، ثم قالوا: يا معلم الخير قلت لنا: إن أجر العامل على من عمل له، وأمرتنا أن نصوم ثلاثين يوماً ففعلنا، ولم نكن نعمل لأحد ثلاثين يوماً إلا أطعمنا حين نفرغ طعاماً، فهل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء؟ قال عيسى: ﴿﴾ اتقوا الله إن كنتم مؤمنين * قالوا نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا ونعلم أن قد صدقتنا ونكون عليها من الشاهدين * قال عيسى ابن مريم اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيداً لأولنا وآخرنا وآية منك وارزقنا وأنت خير الرازقين * قال الله إني منزها عليكم فمن يكفر بعد منكم فإني أعذبه عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين ﴿﴾، قال: فأقبلت الملائكة تطير بمائدة من السماء، عليها سبعة حيتان وسبعة أرغفة حتى وضعتها بين أيديهم، فأكل منها آخر الناس كما أكل منها أولهم. كذا رواه ابن جرير، ورواه ابن أبي حاتم فذكر نحوه. وقال ابن أبي حاتم عن ابن عباس: أن عيسى بن مريم قالوا له: ادع الله أن ينزل علينا مائدة من السماء، قال: فنزلت الملائكة بالمائدة يحملونها عليها سبعة حيتان وسبعة أرغفة، حتى وضعتها بين أيديهم فأكل منها آخر الناس، كما أكل منها أولهم. وقال ابن أبي حاتم عن عمار بن ياسر عن النبي ﷺ قال: نزلت المائدة من السماء عليها خبز ولحم، وأمرنا أن لا نخونوا، ولا يرفعوا لغد، فخانوا وادخروا ورفعوا فمسخوا قردة وخنازير. وكل الآثار دالة على أن المائدة نزلت على نبي إسرائيل أيام عيسى بن مريم إجابة من الله لدعوته كما دل على ذلك ظاهر هذا السياق من القرآن العظيم ﴿﴾ قال الله إني منزها عليكم ﴿﴾ الآية .

وقال قائلون: إنها لم تنزل، روي عن قتادة قال: كان الحسن يقول: لما قيل لهم ﴿﴾ فمن يكفر بعد منكم فإني أعذبه عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين ﴿﴾ قالوا: لا حاجة لنا فيها فلم تنزل، ولكن الذي عليه الجمهور أنها نزلت، وهو الذي اختاره ابن جرير، لأن الله تعالى أخبر بتزولها في قوله تعالى: ﴿﴾ إني منزها عليكم فمن يكفر بعد منكم فإني أعذبه عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين ﴿﴾، قال: ووعد الله ووعده حق وصدق، وهذا القول هو - والله أعلم - الصواب، كما دلت عليه الأخبار والآثار عن السلف وغيرهم. وقد قال الإمام أحمد عن ابن عباس قال: قالت

قريش للنبي ﷺ: ادع لنا ربك أن يجعل لنا الصفا ذهباً وتؤمن بك، قال: «وتفعلون» قالوا: نعم، قال: فدعا، فاتاه جبريل، فقال: إن ربك يقرأ عليك السلام ويقول لك: إن شئت أصبح لهم الصفا ذهباً، فمن كفر منهم بعد ذلك عذبه عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين، وإن شئت فتحت لهم باب التوبة والرحمة. قال: «بل باب التوبة والرحمة»^(١).

وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يُعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلهِينَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحِجِّي إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعَلَّمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَٰلِمُ الْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُمْ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُمْ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِنْ تَعَذَّبْتُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾

هذا أيضاً مما يخاطب الله به عبده ورسوله عيسى بن مريم عليه السلام قائلاً له يوم القيامة بحضرة من اتخذه وأمه إلهين من دون الله ﴿يا عيسى ابن مريم أنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله﴾ وهذا تهديد للنصارى وتوبيخ وتقرير على رؤوس الأشهاد، هكذا قاله قتادة وغيره، واستدل قتادة على ذلك بقوله تعالى: ﴿هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم﴾، وقال السدي: هذا الخطاب والجواب في الدنيا، وصوبه ابن جرير، قال: وكان ذلك حين رفعه إلى السماء. واحتج ابن جرير على ذلك بمعنيين (أحدهما): أن الكلام بلفظ الماضي، (والثاني) قوله: ﴿إن تعذبهم﴾ ﴿وإن تغفر لهم﴾. وهذان الدليلان فيما نظر، لأن كثيراً من أمور يوم القيامة ذكر بلفظ الماضي ليدل على الوقوع والثبوت. ومعنى قوله: ﴿إن تعذبهم فإنهم عبادك﴾ الآية. التبري منهم ورد المشيئة فيهم إلى الله، وتعليق ذلك على الشرط لا يقتضى وقوعه، كما في نظائر ذلك من الآيات، والذي قاله قتادة وغيره هو الأظهر - والله أعلم - أن ذلك كائن يوم القيامة ليدل على تهديد النصارى وتقريرهم وتوبيخهم على رؤوس الأشهاد يوم القيامة. وقد روي بذلك حديث مرفوع، رواه الحافظ ابن عساكر عن أبي موسى الأشعري قال، قال رسول الله ﷺ: «إذا كان يوم القيامة دعي بالأنبياء وأمهم، ثم يدعى بعيسى فيذكره الله نعمته عليه فيقر بها، فيقول ﴿يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك﴾ الآية، ثم يقول: ﴿أنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله﴾ فينكر أن يكون قال ذلك، فيؤتى بالنصارى فيسألون فيقولون: نعم، هو أمرنا بذلك، قال: فيطول شعر عيسى عليه السلام فيأخذ كل ملك من الملائكة بشعرة من شعر رأسه وجسده، فيجاثيم بين يدي الله عز وجل مقدار ألف عام حتى ترفع عليهم الحجة، ويرفع لهم الصليب، وينطلق بهم إلى النار»^(٢).

(١) رواه أحمد وابن مردويه والحاكم في مستدرکه .

(٢) رواه الحافظ ابن عساكر، وقال ابن كثير: هذا حديث غريب عزيز .

وقوله تعالى: ﴿سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق﴾ ، هذا توفيق للتأدب في الجواب الكامل، كما قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا ابن أبي عمر، حدثنا سفيان عن عمرو عن طاووس عن أبي هريرة قال: يلقي عيسى حجته، ولقاه الله تعالى في قوله: ﴿وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله﴾ ، قال أبو هريرة عن النبي ﷺ فلقيه الله ﴿سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق﴾ إلى آخر الآية، وقد رواه الثوري عن معمر عن ابن طاووس عن طاووس بنحوه. وقوله: ﴿إن كنت قلته فقد علمته﴾ أي إن كان صدر مني هذا فقد علمته يا رب فإنه لا يخفى عليك شيء، فما قلته ولا أردته في نفسي ولا أضمرته، ولهذا قال: ﴿تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك إنك أنت علام الغيوب﴾ ما قلت لهم إلا ما أمرتني به ﴿بإبلاغه﴾ أن اعبدوا الله ربي وربكم ﴿أي ما دعوتهم إلا إلى الذي أرسلتني به وأمرتني بإبلاغه﴾ أن اعبدوا الله ربي وربكم ﴿أي هذا هو الذي قلت لهم. وقوله: ﴿وكنتم عليهم شهداء ما دمت فيهم﴾ أي كنت أشهد على أعمالهم حين كنت بين أظهرهم، ﴿فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد﴾ .

قال أبو داود الطيالسي عن ابن عباس قال: قام فينا رسول الله ﷺ بموعظة فقال: «أيها الناس إنكم محشورون إلى الله عز وجل حفاة عراة غرلا﴾ كما بدأنا أول خلق نعيده﴾، وإن أول الخلائق يكسى يوم القيامة إبراهيم، ألا وإنه يجاء برجال من أمتي فيؤخذ بهم ذات الشمال فأقول: أصحابي، فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك، فأقول كما قال العبد الصالح ﴿وكنتم عليهم شهداء ما دمت فيهم فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد﴾ إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم﴾ فيقال: إن هؤلاء لم يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم» (١).

وقوله تعالى: ﴿إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم﴾ هذا الكلام يتضمن رد المشيئة إلى الله عز وجل، فإنه الفعال لما يشاء الذي لا يسأل عما يفعل وهم يسألون، ويتضمن التبري من النصارى الذين كذبوا على الله وعلى رسوله، وجعلوا الله نداً وصاحبة وولداً، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً، وهذه الآية لها شأن عظيم ونباً عجيب، وقد ورد في الحديث أن النبي ﷺ قام بها ليلة حتى الصباح يرددنها، قال الإمام أحمد عن أبي ذر رضي الله عنه قال: صلى النبي ﷺ ذات ليلة، فقرأ بآية حتى أصبح يركع بها ويسجد بها ﴿إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم﴾ فلما أصبح، قلت: يا رسول الله ما زلت تقرأ هذه الآية حتى أصبحت تركع بها وتسجد بها؟ قال: «إني سألت ربي عز وجل الشفاعة لأمتي فأعطانيها وهي نائلة إن شاء الله لمن لا يشرك بالله شيئاً». وقال ابن أبي حاتم عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن النبي ﷺ تلا قول عيسى ﴿إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم﴾ فرفع يديه فقال: «اللهم أمتي» وبكى، فقال الله: يا جبريل اذهب إلى محمد - وربك أعلم - فاسأله ما يبكيه! فأتاه جبريل فسأله فأخبره رسول الله ﷺ بما قال وهو أعلم، فقال الله: يا جبريل اذهب إلى محمد فقل: إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوءك. وقال الإمام

(١) رواه البخاري في التفسير عند هذه الآية: ﴿إن تعذبهم فإنهم عبادك﴾ .

أحمد عن حذيفة بن اليمان قال غاب عنا رسول الله ﷺ يوماً فلم يخرج، حتى ظننا أن لن يخرج، فلما خرج سجد سجدة، ظننا أن نفسه قد قبضت فيها، فلما رفع رأسه قال: «إن ربي عز وجل استشارني في أمي ماذا أفعل بهم؟ فقلت: ما شئت أي رب هم خلقك وعبادك، فاستشارني الثانية فقلت له: كذلك، فقال لي: لا أخزيك في أمتك يا محمد، وبشرني أن أول من يدخل الجنة من أمي معي سبعون ألفاً مع كل ألف سبعون ألفاً ليس عليهم حساب، ثم أرسل إلي فقال: ادع تجب وسل تعط، فقلت لرسوله: أو معطي ربي سؤلي؟ فقال: ما أرسلني إليك إلا ليعطيك، ولقد أعطاني ربي - ولا فخر - وغفر لي ما تقدم من ذنبي وما تأخر. وأنا أمشي حياً صحيحاً، وأعطاني أن لا تجوع أمي ولا تغلب، وأعطاني الكوثر وهو نهر في الجنة يسيل في حوضي، وأعطاني العز، والنصر، والرعب يسعى بين يدي أمي شهراً، وأعطاني أني أول الأنبياء يدخل الجنة، وطيب لي ولأمي الغنيمة، وأحل لنا كثيراً مما شدد على من قبلنا، ولم يجعل علينا في الدين من حرج^(١).

قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٢٠﴾

يقول تعالى مجيباً لعبده ورسوله عيسى بن مريم عليه السلام فيما أنبأه إليه من التبري من النصارى الملحدين الكاذبين على الله وعلى رسوله، ومن رد المشيئة فيهم إلى ربه عز وجل، فعند ذلك يقول تعالى: ﴿هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم﴾ قال ابن عباس: يوم ينفع الموحدون توحيدهم ﴿لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدون﴾ أي ما كتبت فيهم لا يحولون ولا يزولون رضي الله عنهم ورضوا عنه، كما قال تعالى: ﴿ورضوان من الله أكبر﴾. وسيأتي ما يتعلق بتلك الآية من الحديث، وروى ابن أبي حاتم عن أنس مرفوعاً قال: قال رسول الله ﷺ فيه: «ثم يتجلى لهم الرب جل جلاله فيقول: سلوني سلوني أعطكم - قال - فيسألونه الرضا فيقول: رضاي أحلكم داري، وأنا لكم كرامتي، فسلوني أعطكم فيسألونه الرضا - قال فيشهدهم أنه قد رضي عنهم. سبحانه وتعالى»، وقوله: ﴿ذلك الفوز العظيم﴾ أي هذا الفوز الكبير الذي لا أعظم منه، كما قال تعالى: ﴿لمثل هذا فليعمل العاملون﴾، وكما قال: ﴿وفي ذلك فليتنافس المتنافسون﴾.

وقوله تعالى: ﴿لله ملك السموات والأرض وما فيهن وهو على كل شيء قدير﴾ أي هو الخالق للأشياء المالك لها، المتصرف فيها، القادر عليها. فالجميع ملكه وتحت قهره وقدرته وفي مشيئته، فلا نظير له ولا وزير ولا عدل ولا والد ولا ولد ولا صاحبة، ولا إله غيره ولا رب سواه. قال ابن وهب: آخر سورة أنزلت سورة المائدة.

* * *

(١) الحديث وإن كان ضعيف السند ففي أحاديث الشفاعة ما يؤيده ويؤكد.

(٦) سُورَةُ الْأَنْعَامِ مَكِّيَّةٌ
وَأَيَّانَهَا خَمْسٌ وَسِتُّونَ وَفَاتَةٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ۚ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾
هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا ۚ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ ۚ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي
الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾

يقول الله تعالى مادحاً نفسه الكريمة، وحامداً لها على خلقه السموات والأرض قراراً لعباده، وجعل الظلمات والنور منفعة لعباده في ليالهم ونهارهم، فجمع لفظ الظلمات؛ ووجد لفظ النور لكونه أشرف، كقوله تعالى: ﴿عَنْ يَمِينِ وَالشَّمَالِ﴾، وكما قال في آخر هذه السورة: ﴿وَأَنْ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السَّبِيلَ فَتَفْرَقَ بَيْنَكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾، ثم قال تعالى: ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ أي ومع هذا كله كفر به بعض عباده، وجعلوا له شريكاً وعدلاً، واتخذوا له صاحبة وولداً، تعالى الله عز وجل عن ذلك علواً كبيراً، وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ﴾ يعني أباهم آدم الذي هو أصلهم، ومنه خرجوا فانتشروا في المشارق والمغارب، وقوله: ﴿ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ﴾ قال ابن عباس: ﴿ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا﴾ يعني الموت، ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ﴾ يعني الآخرة^(١). وقال الحسن في رواية عنه: ﴿ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا﴾ وهو ما بين أن يخلق إلى أن يموت ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ﴾ وهو ما بين أن يموت إلى أن يبعث وهو يرجع إلى ما تقدم، وهو تقدير الأجل الخاص، وهو عمر كل إنسان، وتقدير الأجل العام وهو عمر الدنيا بأكملها ثم انتهائها وانقضائها وزوالها وانتقالها والمصير إلى الدار الآخرة، وعن ابن عباس ومجاهد: ﴿ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا﴾ يعني مدة الدنيا ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ﴾ يعني عمر الإنسان إلى حين موته، وكأنه مأخوذ من قوله تعالى بعد هذا ﴿هُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ﴾ الآية. ومعنى قوله: ﴿عِنْدَهُ﴾ أي لا يعلمه إلا هو، كقوله: ﴿إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ﴾، وكقوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ

(١) وهو مروى عن مجاهد وعكرمة والحسن وقتادة والضحاك والسدي ومقاتل بن حيان وغيرهم.

عن الساعة أيان مرساها فيم أنت من ذكرها إلى ربك منهاها ﴿٤﴾، وقوله تعالى: ﴿٥﴾ ثم أنتم تمترون ﴿٦﴾، قال السدي وغيره: يعني تشكون في أمر الساعة .

وقوله تعالى: ﴿٤﴾ وهو الله في السموات وفي الأرض يعلم سركم وجهركم ويعلم ما تكسبون ﴿٥﴾ اختلف مفسرو هذه الآية على أقوال بعد اتفاقهم على إنكار قول الجهمية القائلين - تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً - بأنه في كل مكان حيث حملوا الآية على ذلك، فالأصح من الأقوال: أنه المدعو الله في السموات وفي الأرض: أي بعبده ويوحده ويقر له بالإلهية من في السموات ومن في الأرض، ويسمونه الله، ويدعونه رغباً ورهباً إلا من كفر من الجن والإنس، وهذه الآية على هذا القول كقوله تعالى: ﴿٥﴾ وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله ﴿٦﴾ أي هو إله من في السماء وإله من في الأرض، وعلى هذا فيكون قوله: ﴿٥﴾ يعلم سركم وجهركم ﴿٦﴾ خبراً أو حالاً (والقول الثاني): أن المراد أنه الله الذي يعلم ما في السموات وما في الأرض من سر وجهركم، فيكون قوله «يعلم» متعلقاً بقوله: ﴿٥﴾ في السموات وفي الأرض ﴿٦﴾ تقديره: وهو الله يعلم سركم وجهركم في السموات وفي الأرض ويعلم ما تكسبون، (والقول الثالث): أن قوله ﴿٥﴾ وهو الله في السموات ﴿٦﴾ وقف تام، ثم استأنف الخبر فقال: ﴿٥﴾ وفي الأرض يعلم سركم وجهركم ﴿٦﴾، وهذا اختيار ابن جرير، وقوله: ﴿٥﴾ ويعلم ما تكسبون ﴿٦﴾ أي جميع أعمالكم خيرها وشرها .

وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٦﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبُؤًا مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٧﴾ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّهِمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ يُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٨﴾

يقول تعالى مخبراً عن المشركين المكذبين المعاندين: أنهم كلما أتتهم من آية أي دلالة ومعجزة وحجة من الدلالات على وحدانية الله وصدق رسله الكرام، فإنهم يعرضون عنها فلا ينظرون إليها ولا يبالون بها، قال الله تعالى: ﴿٦﴾ فقد كذبوا بالحق لما جاءهم فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون ﴿٧﴾، وهذا تهديد لهم ووعيد شديد على تكذيبهم بالحق، بأنه لا بد أن يأتيهم خبر ما هم فيه من التكذيب، وليجدن غبه، وليذوقن وباله، ثم قال تعالى واعظاً لهم ومحذراً لهم أن يصيبهم من العذاب والنكال الدنيوي ما حل بأشباههم ونظراتهم من القرون السالفة، الذين كانوا أشد منهم قوة وأكثر جمعاً، وأكثر أموالاً وأولاداً واستعلاء في الأرض، وعمارة لها فقال: ﴿٧﴾ ألم يروا كم أهلكتنا من قبلهم من قرن مكنناهم في الأرض ما لم نمكن لكم ﴿٨﴾ أي من الأموال والأولاد والأعمار والجاه العريض والسعة والجنود، ولهذا قال: ﴿٧﴾ وأرسلنا السماء عليهم مدراراً ﴿٨﴾ أي شيئاً بعد شيء، ﴿٧﴾ وجعلنا الأنهار تجري من تحتهم ﴿٨﴾ أي أكثرنا عليهم أمطار السماء وينابيع الأرض أي استدراجاً وإملاء لهم، ﴿٧﴾ فأهلكناهم بذنوبهم ﴿٨﴾ أي بخطاياهم وسيئاتهم التي اجترحوها، ﴿٧﴾ وأنشأنا من بعدهم قرناً آخرين ﴿٨﴾ أي فذهب الأولون كأس الذهب وجعلناهم أحاديث ﴿٧﴾ وأنشأنا من بعدهم قرناً آخرين ﴿٨﴾ أي جيلاً آخر لنختبرهم، فعملوا مثل أعمالهم فأهلكوا كإهلاكهم،

فاحذروا أيها المخاطبون أن يصيبكم مثل ما أصابهم ، فما أنتم بأعز على الله منهم والرسول الذي كذبتموه أكرم على الله من رسولهم ، فأنتم أولى بالعذاب ومعالجة العقوبة منهم لولا لطفه وإحسانه .

وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ﴿٨﴾ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يَنْظُرُونَ ﴿٩﴾ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رُجُلًا وَلَلْبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبَسُونَ ﴿١٠﴾ وَلَقَدْ اسْتَهْزَى بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ أَنْظَرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٢﴾

يقول تعالى مخبراً عن المشركين وعنادهم ومكابرتهم للحق ومباهاتهم ومنازعتهم فيه ، ﴿ ولو نزلنا عليك كتاباً في قرطاس فلمسوه بأيديهم ﴾ أي عاينوه ورأوا نزوله وباشروا ذلك ، لقال ﴿ الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين ﴾ ، وهذا كما قال تعالى مخبراً عن مكابرتهم للمحسوسات ، ﴿ ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون ﴾ ، وكقوله تعالى : ﴿ وإن يروا كسفاً من السماء ساقطاً يقولوا سحاب مرحوم ﴾ ، ﴿ وقالوا لولا أنزل عليه ملك ﴾ أي ليكون معه نذيراً ، قال الله تعالى : ﴿ ولو أنزلنا ملكاً لقضى الأمر ثم لا ينظرون ﴾ أي لو نزلت الملائكة على ما هم عليه لجاءهم من الله العذاب ، كما قال الله تعالى : ﴿ ما ننزل الملائكة إلا بالحق وما كانوا إذا منظرين ﴾ ، وقوله : ﴿ يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين ﴾ الآية ، وقوله تعالى : ﴿ ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً وللبسنا عليهم ما يلبسون ﴾ أي ولو أنزلنا مع الرسول البشري ملكاً ، أي لو بعثنا إلى البشر رسولاً ملكياً ، لكان على هيئة الرجل ليتمكن مخاطبته والانتفاع بالأخذ عنه ، ولو كان كذلك لالتبس عليهم الأمر كما هم يلبسون على أنفسهم في قبول رسالة البشري ، كقوله تعالى : ﴿ قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئين لنزلنا عليهم من السماء ملكاً رسولاً ﴾ ، فن رحمته تعالى بخلقه أنه يرسل إلى كل صنف من الخلائق رسلاً منهم ليدعو بعضهم بعضاً ، وليمكن بعضهم أن ينتفع ببعض في المخاطبة والسؤال ، كما قال تعالى : ﴿ لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ﴾ الآية .

قال الضحاك عن ابن عباس في الآية يقول : لو أتاهم ملك ما أتاهم إلا في صورة رجل لأنهم لا يستطيعون النظر إلى الملائكة من النور ، ﴿ وللبسنا عليهم ما يلبسون ﴾ أي واخلطنا عليهم ما يخلطون ، وقيل : ولشبهنا عليهم . وقوله : ﴿ ولقد استهزى برسول من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون ﴾ هذه تسلية للنبي ﷺ في تكذيب من كذبه من قومه ، ووعد له وللمؤمنين به بالنصرة والعاقبة الحسنة في الدنيا والآخرة ، ثم قال تعالى : ﴿ قل سيروا في الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين ﴾ أي فكروا في أنفسكم ، وانظروا ما أحل الله بالقرون الماضية الذين كذبوا رسله وعاندوه من العذاب والنكال ، والعقوبة في الدنيا مع ما ادخر لهم من العذاب الأليم في الآخرة وكيف نجى رسله وعباده المؤمنين .

قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ * وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٣﴾ قُلْ أَغْيَرَ اللَّهُ وَليًا فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ مَنْ يُصِرْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴿١٦﴾

يخبر تعالى أنه مالك السموات والأرض ومن فيهما، وأنه قد كتب على نفسه المقدسة الرحمة، كما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال، قال النبي ﷺ: «إن الله لما خلق الخلق كتب كتاباً عنده فوق العرش: إن رحمتي تغلب غضبي»، وقوله: ﴿ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه﴾ هذه اللام هي الموطئة للقسم، فأقسم بنفسه الكريمة ليجمعن عباده ﴿إلى ميقات يوم معلوم﴾ وهو يوم القيامة الذي لا ريب فيه أي لا شك عند عباده المؤمنين، فأما الجاحدون المكذبون فهم في ريبهم يترددون. عن ابن عباس قال: سئل رسول الله ﷺ عن الوقوف بين يدي رب العالمين هل فيه ماء؟ قال: «والذي نفسي بيده إن فيه ماء، إن أولياء الله ليردون حياض الأنبياء، ويبعث الله تعالى سبعين ألف ملك في أيديهم عصي من نار يذودون الكفار عن حياض الأنبياء» هذا حديث غريب، وفي الترمذي: «إن لكل نبي حوضاً وأرجو أن أكون أكثرهم وارداً». وقوله: ﴿الذين خسروا أنفسهم﴾ أي يوم القيامة ﴿فهم لا يؤمنون﴾ أي لا يصدقون بالمعاد ولا يخافون شر ذلك اليوم، ثم قال تعالى: ﴿وله ما سكن في الليل والنهار﴾ أي كل دابة في السموات والأرض، الجميع عباده وخلقته وتحت قهره وتصرفه وتدييره، لا إله إلا هو ﴿وهو السميع العليم﴾ أي السميع لأقوال عباده، العليم بحركاتهم وضمائرهم وسرائرهم، ثم قال تعالى لعبده ورسوله محمد ﷺ الذي بعثه بالتوحيد العظيم وبالشرع القويم، وأمره أن يدعو الناس إلى صراط الله المستقيم: ﴿قل أغير الله أنخذ ولياً فاطر السموات والأرض﴾، كقوله: ﴿قل أغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون﴾ والمعنى: لا أنخذ ولياً إلا الله وحده لا شريك له فإنه فاطر السموات والأرض أي خالقهما ومبدعهما على غير مثال سبق، ﴿وهو يطعم ولا يطعم﴾ أي وهو الرزاق لخلقته من غير احتياج إليهم، كما قال تعالى: ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾ الآية، وقرأ بعضهم ﴿هو يُطْعَمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾: أي لا يأكل .

وفي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: دعا رجل من الأنصار من أهل قباء النبي ﷺ على طعام، فانطلقنا معه فلما طعم النبي ﷺ وغسل يديه قال: «الحمد لله الذي يطعم ولا يطعم، ومن علينا فهدانا وأطعمنا وسقانا من الشراب، وكسانا من العري، وكل بلاء حسن أبلانا، الحمد لله غير مودع ربي ولا مكفي ولا مكفور ولا مستغنى عنه، الحمد لله الذي أطعمنا من الطعام وسقانا من الشراب، وكسانا من العري، وهدانا من الضلال، وبصرنا من العمى، وفضلنا على كثير ممن خلق تفضيلاً، الحمد لله رب العالمين». ﴿قل إني أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾ أي من هذه الأمة، ﴿ولا تكونن من المشركين. قل إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم﴾ يعني

يوم القيامة ﴿ من يصرف عنه ﴾ أي العذاب ﴿ يومئذ فقد رحمه ﴾ يعني فقد رحمه الله ﴿ وذلك هو الفوز المبين ﴾ ، كقوله: ﴿ فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز ﴾ والفوز حصول الربح وتبي الخسارة .

وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بَصْرًا فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿١٨﴾ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ لَأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَنتُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢١﴾

يقول تعالى مخبراً: أنه مالك الضر والنفع، وأنه المتصرف في خلقه بما يشاء لا معقب لحكمه ولا راد لقضائه، ﴿ وإن يمسك الله بصر فلا كاشف له إلا هو وإن يمسك بخير فهو على كل شيء قدير ﴾ ، كقوله تعالى: ﴿ ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده ﴾ الآية. وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ كان يقول: « اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد »، ولهذا قال تعالى ﴿ وهو القاهر فوق عباده ﴾: أي هو الذي خضعت له الرقاب، وذلت له الجبابرة، وعنت له الوجوه، وقهر كل شيء، ودانت له الخلائق، وتواضعت لعظمة جلاله وكبريائه وعظمته وعلوه وقدرته على الأشياء، واستكانت وتضاءلت بين يديه وتحت قهره وحكمه، ﴿ وهو الحكيم ﴾: أي في جميع أفعاله، ﴿ الخبير ﴾ بمواضع الأشياء ومحالها فلا يعطي إلا من يستحق، ولا يمنع إلا من يستحق. ثم قال: ﴿ قل أي شيء أكبر شهادة ﴾ أي من أعظم الأشياء شهادة، ﴿ قل الله شهيد بيني وبينكم ﴾ أي هو العالم بما جثتكم به وما أنتم قائلون لي ﴿ وأوحى إلي هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ ﴾ أي وهو نذير لكل من بلغه، كقوله تعالى: ﴿ ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده ﴾. قال ابن أبي حاتم عن محمد بن كعب في قوله: ﴿ ومن بلغ ﴾ ومن بلغه القرآن، فكأنما رأى النبي ﷺ. وروى ابن جرير عن محمد بن كعب قال: من بلغه القرآن فقد أبلغه محمد ﷺ. وقال عبد الرزاق عن قتادة في قوله تعالى: ﴿ لأنذركم به ومن بلغ ﴾ إن رسول الله ﷺ قال: « بلغوا عن الله فمن بلغته آية من كتاب الله فقد بلغه أمر الله »، وقال الربيع بن أنس: حق على من اتبع رسول الله ﷺ أن يدعو كالذي دعا رسول الله ﷺ، وأن ينذر بالذي أنذر. وقوله: ﴿ أنتم لتشهدون ﴾ أيها المشركون ﴿ أن مع الله آلهة أخرى قل لا أشهد ﴾ كقوله: ﴿ فإن شهدوا فلا تشهد معهم ﴾، ﴿ قل إنما هو إله واحد وإنني بريء مما تشركون ﴾، ثم قال تعالى مخبراً عن أهل الكتاب أنهم يعرفون هذا الذي جثتكم به كما يعرفون أبناءهم بما عندهم من الأخبار والأنباء عن المرسلين المتقدمين والأنبياء، فإن الرسل كلهم بشروا بوجود محمد ﷺ ونعته وصفته وبلده ومهاجره وصفة أمته، ولهذا قال بعده: ﴿ الذين خسروا أنفسهم ﴾ أي خسروا كل الخسارة، ﴿ فهم لا يؤمنون ﴾ بهذا الأمر الجلي الظاهر الذي بشرت به الأنبياء ونوهت به في قديم الزمان وحديثه، ثم قال: ﴿ ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو

كذب بآياته ﴿: أي لا أظلم من تقول على الله فادعى أن الله أرسله ولم يكن أرسله، ثم لا أظلم من كذب بآيات الله وحججه وبراهينه ودلالاته ﴿ إنه لا يفلح الظالمون ﴿ أي لا يفلح هذا ولا هذا، لا المفتري ولا المكذب .

وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاءُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فَتْنُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ أَنْظِرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَيَّ أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كَلِمًا لَا يُؤْمِنُوهَا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءَهُكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْعُونَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾

يقول تعالى مخبراً عن المشركين ﴿ يوم نحشرهم جميعاً ﴾ يوم القيامة فيسألهم عن الأصنام والأنداد التي كانوا يعبدونها من دونه، قائلاً لهم: ﴿ أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون ﴾، كقوله تعالى في سورة القصص: ﴿ ويوم يناديهم فيقول أين شركائي الذين كنتم تزعمون ﴾، وقوله تعالى: ﴿ ثم لم تكن فتنتهم ﴾ أي حجبتهم إلا أن قالوا ﴿ والله ربنا ما كنا مشركين ﴾، قال ابن عباس: أي حجبتهم، وقال عطاء عنه: أي معذرتهم، وكذا قال قتادة، وقال عطاء الخراساني: ﴿ ثم لم تكن فتنتهم ﴾ بليتهم حين ابتلوا ﴿ إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين ﴾، وقال ابن جرير: **والصواب**: ثم لم يكن قلوبهم^(١) عند فتنتنا إياهم اعتذاراً عما سلف منهم من الشرك بالله ﴿ إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين ﴾، وقال ابن عباس: وقال ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبيرة عن ابن عباس قال: أتاه رجل، فقال: يا ابن عباس سمعت الله يقول: ﴿ والله ربنا ما كنا مشركين ﴾ قال: أما قوله: ﴿ والله ربنا ما كنا مشركين ﴾ فإنهم رأوا أنه لا يدخل الجنة إلا أهل الصلاة، فقالوا: تعالوا فلنجحد فيجحدون، فيختم الله على أفواههم، وتشهد أيديهم وأرجلهم، ولا يكتمون الله حديثاً، فهل في قلبك الآن شيء؟ إنه ليس من القرآن شيء إلا ونزل فيه شيء، ولكن لا تعلمون وجهه، ولهذا قال في حق هؤلاء: ﴿ انظر كيف كذبوا على أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون ﴾، كقوله: ﴿ ثم قيل لهم أين ما كنتم تشركون من دون الله قالوا ضلوا عنا ﴾ الآية، وقوله: ﴿ ومنهم من يستمع إليك وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها ﴾: أي يجيئون ليستمعوا قراءتك ولا تجزي عنهم شيئاً لأن الله ﴿ جعل على قلوبهم أكنة ﴾ أي أغطية لئلا يفقهوا القرآن، ﴿ وفي آذانهم وقراً ﴾ أي صمماً عن السماع النافع لهم، كما قال تعالى: ﴿ ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاءً ونداءً ﴾ الآية.

وقوله تعالى: ﴿ وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها ﴾ أي مهما رأوا من الآيات والدلالات والحجج البينات والبراهين لا يؤمنوا بها، فلا فهم عندهم ولا إنصاف، كقوله تعالى: ﴿ ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ﴾ الآية، وقوله تعالى: ﴿ حتى إذا جاءوك يجادلونك ﴾ أي يحاجونك ويناظرونك في الحق بالباطل، ﴿ يقول الذين كفروا إن هذا إلا

(١) هذا القول الذي اختاره ابن جرير هو رواية ابن جريج عن ابن عباس .

أساطير الأولين ﴿ أي ما هذا الذي جئت به إلا مأخوذ من كتب الأوائل ومنقول عنهم ^(١) . وقوله: ﴿ وهم يهون عنه وينأون عنه ﴾ في معنى يهون عنه قولان، (أحدهما): أن المراد أنهم يهون الناس عن اتباع الحق وتصديق الرسول والانقياد للقرآن ﴿ وينأون عنه ﴾ أي ويبعدون هم عنه فيجمعون بين الفعلين القبيحين لا ينتفعون ولا يدعون أحداً ينتفع. قال ابن عباس: ﴿ وهم يهون عنه ﴾ يردون الناس عن محمد ﷺ أن يؤمنوا به. وقال محمد بن الحنفية: كان كفار قريش لا يأتون النبي ﷺ ويهون عنه، وهذا القول أظهر وهو اختيار ابن جرير. (والقول الثاني): رواه سفيان الثوري عن ابن عباس قال: نزلت في أبي طالب، كان ينهى الناس عن النبي ﷺ أن يؤذى، وقال سعيد بن أبي هلال: نزلت في عمومة النبي ﷺ وكانوا عشرة، فكانوا أشد الناس معه في العلانية وأشد الناس عليه في السر ^(٢) . وقال محمد بن كعب القرظي: ﴿ وهم يهون عنه ﴾ أي يهون الناس عن قتله. وقوله: ﴿ وينأون عنه ﴾ أي يتباعدون منه، ﴿ وإن يهلكون إلا أنفسهم وما يشعرون ﴾ أي وما يهلكون بهذا الصنيع ولا يعود وباله إلا عليهم وهم لا يشعرون .

وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقُفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَأَ لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالُوا إِن هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقُفُوا عَلَى رَبِّهِمْ ؕ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُقُوا آلْعَذَابِ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾

يذكر تعالى حال الكفار إذا وقفوا يوم القيامة على النار وشاهدوا ما فيها من السلاسل والأغلال ورأوا بأعينهم تلك الأمور العظام والأهوال، فعند ذلك قالوا: ﴿ يا ليتنا نرد ولا نكذب آيات ربنا ونكون من المؤمنين ﴾ يتمنون أن يردوا إلى الدار الدنيا ليعملوا عملاً صالحاً ولا يكذبوا آيات ربهم ويكونوا من المؤمنين، قال الله تعالى: ﴿ بل بدأ لهم ما كانوا يخفون من قبل ﴾ أي بل ظهر لهم حينئذ ما كانوا يخفون في أنفسهم من الكفر والتكذيب والمعاندة وإن أنكروها في الدنيا أو في الآخرة، كما قال قبله بيسير: ﴿ ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين أنظر كيف كذبوا على أنفسهم ﴾، ويحتمل أنهم ظهر لهم ما كانوا يعلمونه من أنفسهم من صدق ما جاءتهم به الرسل في الدنيا، وإن كانوا يظهرون لأتباعهم خلافه كقوله مخبراً عن موسى أنه قال لفرعون: ﴿ لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر ﴾ الآية. وقوله تعالى مخبراً عن فرعون وقومه: ﴿ وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً ﴾، ويحتمل أن يكون المراد بهؤلاء المنافقين الذين كانوا يظهرون الإيمان للناس

(١) قال السهيلي: حيثما جاء في القرآن ذكر أساطير الأولين، فإن قائلها هو النضر بن الحارث بن كلدة، وكان قد دخل بلاد فارس وتعلم أخبار سبدياذ رستم الشيد، ونحوها، فكان يقول: أنا أحدثكم بأحسن مما يحدثكم به محمد، ويقول في القرآن: أساطير الأولين، ليزهد الناس فيها، وفيه نزل: ﴿ ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله ﴾، وقتله النبي صبراً يوم أُحُد .

(٢) رواه ابن أبي حاتم عن سعيد بن أبي هلال .

ويبطنون الكفر، ويكون هذا إخباراً عما يكون يوم القيامة من كلام طائفة من الكفار، ولا ينافي هذا كون هذه السور مكية، والنفاق إنما كان من بعض أهل المدينة ومن حولها من الأعراب، فقد ذكر الله وقوع النفاق في سورة مكية وهي العنكبوت فقال: ﴿وليعلمن الله الذين آمنوا وليعلمن المنافقين﴾، وعلى هذا فيكون إخباراً عن قول المنافقين في الدار الآخرة حين يعاينون العذاب، فظهر لهم حينئذ غيب ما كانوا يبطنون من الكفر والنفاق والشقاق، والله أعلم.

وأما معنى الإضراب في قوله: ﴿بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل﴾ فإنهم ما طلبوا العود إلى الدنيا رغبة ومحبة في الإيمان، بل خوفاً من العذاب الذي عاينوه جزاء على ما كانوا عليه من الكفر، فسألوا الرجعة إلى الدنيا ليتخلصوا مما شاهدوا من النار، ولهذا قال: ﴿ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون﴾ أي في طلبهم الرجعة رغبة ومحبة في الإيمان، ثم قال مخبراً عنهم: إنهم لو ردوا إلى الدار الدنيا لعادوا لما نهوا عنه من الكفر والمخالفة، ﴿وإنهم لكاذبون﴾ أي في قولهم: ﴿يا ليتنا نرد ولا نكذب آيات ربنا ونكون من المؤمنين، وقالوا إن هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين﴾ أي لعادوا لما نهوا عنه، وقالوا إن هي إلا حياتنا الدنيا، أي ما هي إلا هذه الحياة الدنيا ثم لا معاد بعدها، ولهذا قال: ﴿وما نحن بمبعوثين﴾، ثم قال: ﴿ولو ترى إذ وقفوا على ربهم﴾ أي أوقفوا بين يديه ﴿قال أليس هذا بالحق﴾؟ أي أليس هذا المعاد بحق وليس يبطل كما كنتم تظنون ﴿قالوا بلى وربنا قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون﴾ أي بما كنتم تكذبون به فذوقوا اليوم مسه ﴿أفسح هذا أم أتم لا تبصرون﴾؟

قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَحْسِرْتُنَا عَلَىٰ مَا فَرَطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزُرُونَ ﴿٣١﴾ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَبْءٌ وَهْوٌ وَلِلدَّارِ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾

يقول تعالى مخبراً عن خسارة من كذب بلفائه وعن خيبته إذا جاءته الساعة بغتة، وعن ندامته على ما فرط من العمل، وما أسلف من قبيح الفعل، ولهذا قال: ﴿حتى إذا جاءتهم الساعة بغتة قالوا يا حسرتنا على ما فرطنا فيها﴾ وهذا الضمير يحتمل عوده على الحياة وعلى الأعمال وعلى الدار الآخرة أي في أمرها، وقوله: ﴿وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم ألا ساء ما يزرعون﴾ أي يحملون. وقال قتادة: يعملون، وقال ابن أبي حاتم عن أبي مرزوق قال: يستقبل الكافر أو الفاجر عند خروجه من قبره كأقبح صورة رأيتها وأنته ريحاً، فيقول: من أنت؟ فيقول: أو ما تعرفني؟ فيقول: لا والله، إلا أن الله قبح وجهك وأنتن ريحك، فيقول: أنا عمك الخبيث، هكذا كنت في الدنيا خبيث العمل منتنه، فطلما ركبتني في الدنيا، هلم أركبك^(١)، فهو قوله: ﴿وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم﴾ الآية، وقال السدي: «ليس من رجل ظالم يدخل قبره إلا جاءه رجل قبيح الوجه أسود اللون منتن الريح، وعليه ثياب دنسة حتى يدخل معه قبره، فإذا رآه قال: ما أقبح وجهك! قال: كذلك كان عمك قبيحاً، قال: ما أنتن ريحك! قال: كذلك كان عمك منتناً، قال: ما أدنس ثيابك! قال، فيقول: إن عمك

(١) أخرجه ابن أبي حاتم من حديث عمرو بن قيس عن أبي مرزوق.

كان دنساً، قال له: من أنت؟ قال عملك، قال: فيكون معه في قبره، فإذا بعث يوم القيامة قال له: إني كنت أحملك في الدنيا باللذات والشهوات، وأنت اليوم تحملني، قال: فيركب على ظهره فيسوقه حتى يدخله النار، فذلك قوله: ﴿وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم ألا ساء ما يزرون﴾، وقوله: ﴿وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو﴾، أي إنما غالبها كذلك، ﴿وللدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون﴾؟

قَدْ نَعَلُمْ إِنَّهُ لِيَحْزُنَكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِعَايَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبِيِّ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِعَايَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٥﴾ * إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾

يقول تعالى مسلماً لنبيه ﷺ في تكذيب قومه له ومخالفتهم إياه: ﴿قد نعلم إنه ليحزنك الذي يقولون﴾ أي قد أحطنا علماً بتكذيبهم لك وحزنك وتأسفك عليهم، كقوله: ﴿فلا تذهب نفسك عليهم حسرات﴾، كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿لعلك باخع نفسك أن لا يكونوا مؤمنين﴾، ﴿فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً﴾ وقوله: ﴿فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون﴾ أي لا يتهمونك بالكذب في نفس الأمر، ﴿ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون﴾ أي ولكنهم يعاندون الحق ويدفعونه بصدورهم، كما قال أبو جهل للنبي ﷺ: إنا لا نكذبك، ولكن نكذب ما جئت به، فأنزل الله: ﴿فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون﴾^(١). وقال ابن أبي حاتم عن أبي يزيد المدني أن النبي ﷺ لقي أبا جهل فصافحه، فقال له رجل: ألا أراك تصافح هذا الصابي؟ فقال: والله إني لأعلم إنه لئني، ولكن متى كنا لبني عبد مناف تبعاً؟ وتلا أبو يزيد: ﴿فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون﴾.

وذكر محمد بن إسحاق عن الزهري في قصة أبي جهل حين جاء يستمع قراءة النبي ﷺ من الليل هو (وأبو سفيان) و(الأخنس بن شريق) ولا يشعر أحد منهم بالآخر، فاستمعوها إلى الصباح، فلما هجم الصبح، تفرقوا فجمعتهم الطريق فقال كل منهم للآخر: ما جاء بك؟ فذكر له ما جاء به، ثم تعاهدوا أن لا يعودوا لما يخافون من علم شباب قريش بهم، لئلا يفتنوا بجمعيتهم، فلما كانت الليلة الثانية جاء كل منهم ظناً أن صاحبه لا يجيئان لما سبق من العهود، فلما أصبحوا جمعهم الطريق، فتلاموا، ثم تعاهدوا أن لا يعودوا، فلما كانت الليلة الثالثة جاءوا أيضاً، فلما أصبحوا تعاهدوا أن لا يعودوا لمثلها، ثم تفرقوا، فلما أصبح الأخنس بن شريق أخذ عصاه، ثم خرج حتى أتى أبا سفيان بن حرب في بيته، فقال: أخبرني يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد؟ قال

(١) رواه الحاكم، وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

يا أبا ثعلبة: والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراد بها، وسمعت أشياء ما عرفت معناها وما يراد بها، قال الأحنس: وأنا والذي حلفت به، ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل فدخل عليه بيته، فقال: يا أبا الحكم ما رأيك فيما سمعت من محمد؟ قال: ماذا سمعت؟ قال: تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف: أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تجاثينا على الركب وكنا كفرسي رهان قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء فتى ندرك هذا؟ والله لا تؤمن به أبداً ولا نصدقه، قال: فقام عنه الأحنس وتركه. وروى ابن جرير عن السدي في قوله: ﴿قد نعلم إنه ليحزنك الذي يقولون فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون﴾، لما كان يوم بدر قال الأحنس بن شريق لبي زهرة: يا بني زهرة إن محمداً ابن أختكم، فأتم أحق من ذب عن ابن أخته، فإنه إن كان نبياً لم تقاتلوه اليوم، وإن كان كاذباً كنتم أحق من كف عن ابن أخته، قفوا حتى ألقى أبا الحكم فإن غلب محمد رجعتكم سالمين، وإن غلب محمداً فإن قومكم لم يصنعوا بكم شيئاً. فالتقى الأحنس وأبو جهل، فخلا الأحنس بأبي جهل، فقال: يا أبا الحكم أخبرني عن محمد أصادق هو أم كاذب؟ فإنه ليس ها هنا من قريش غيري وغيرك يستمع كلامنا؟ فقال أبو جهل: ويحك! والله إن محمداً لصادق وما كذب محمد قط، ولكن إذا ذهبت بنو قصي باللواء والسقاية والحجابه والنبوة فماذا يكون لسائر قريش؟ فذلك قوله: ﴿فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون﴾ آيات الله محمد ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا﴾، هذه تسليية للنبي ﷺ وتعزية له فيمن كذبه من قومه، وأمر له بالصبر كما صبر أولو العزم من الرسل، ووعد له بالنصر كما نصروا، وبالظفر حتى كانت لهم العاقبة بعدما نالهم من التكذيب من قومهم والأذى البليغ، ثم جاءهم النصر في الدنيا كما لهم النصر في الآخرة، ولهذا قال: ﴿ولا مبدل لكلمات الله﴾ أي التي كتبها بالنصر في الدنيا والآخرة لعباده المؤمنين، كما قال: ﴿ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين * إنهم لهم المنصورون * وإن جندنا لهم الغالبون﴾، وقال تعالى: ﴿كتب الله لأغلبن أنا ورسلي إن الله قوي عزيز﴾، وقوله: ﴿ولقد جاءك من نبأ المرسلين﴾ أي من خبرهم كيف نصروا وأبدوا على من كذبهم من قومهم فلك فيهم أسوة وبهم قدوة، ثم قال تعالى: ﴿وإن كان كبر عليك إعراضهم﴾ أي إن كان شق عليك إعراضهم عنك ﴿فإن استطعت أن تتبغى نفقاً في الأرض أو سلماً في السماء﴾، قال ابن عباس: النفق: السرب فتذهب فيه فتأتيهم بآية، أو تجعل لك سلماً في السماء، فتصعد فيه، فتأتيهم بآية أفضل مما أتيتهم به فافعل، وقوله: ﴿ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين﴾، كقوله تعالى: ﴿ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً﴾ الآية، قال ابن عباس: إن رسول الله ﷺ كان يحرص أن يؤمن جميع الناس ويتابعوه على الهدى، فأخبره الله أنه لا يؤمن إلا من قد سبق له من الله السعادة في الذكر الأول. وقوله تعالى: ﴿إنما يستجيب الذين يسمعون﴾ أي إنما يستجيب لدعائك يا محمد من يسمع الكلام ويعيه ويفهمه، كقوله: ﴿لينذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين﴾. وقوله: ﴿والموتى يعثمهم الله ثم إليه يرجعون﴾ يعني بذلك الكفار لأنهم موتى القلوب، فشبههم الله بأموات الأجساد، فقال: ﴿والموتى يعثمهم الله ثم إليه يرجعون﴾، وهذا من باب التهكم بهم والإزراء عليهم.

وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنْ أَلَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾
 وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحِهِ إِلَّا أُمٌّ مِثْلِكُمْ مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْرٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَاءِ اللَّهُ يُضِلِّهِ وَمَنْ يَشَاءِ يُجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾

يقول تعالى: مخبراً عن المشركين أنهم كانوا يقولون لولا نزل عليه آية من ربه أي خارق على مقتضى ما كانوا يريدون ومما يتعتنون، كقولهم: ﴿لن تؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً﴾ الآيات، ﴿قل إن الله قادر على أن ينزل آية ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ أي هو تعالى قادر على ذلك ولكن حكمته تعالى تقتضي تأخير ذلك، لأنه لو أنزلها وفق ما طلبوا ثم لم يؤمنوا لعاجلهم بالعقوبة كما فعل بالأُم السالفة، كما قال تعالى: ﴿وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها وما نرسل بالآيات إلا تخويفاً﴾، وقال تعالى: ﴿إن نشأ نزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين﴾، وقوله: ﴿وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أم أمثالكم﴾، قال مجاهد: أي أصناف مصنفة تعرف بأسمائها. وقال قتادة: الطير أمة، والإنس أمة، والجن أمة. وقال السدي: ﴿إلا أم أمثالكم﴾ أي خلق أمثالكم. وقوله: ﴿ما فرطنا في الكتاب من شيء﴾ أي الجميع علمهم عند الله ولا ينسى واحداً من جميعها من رزقه وتديره سواء كان برياً أو بحرياً، كقوله: ﴿وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل في كتاب مبين﴾ أي مفسح بأسمائها، وأعدادها، ومظانها، وحاصر لحركاتها وسكناتها، وقال تعالى: ﴿وكأين من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها وإياكم وهو السميع العليم﴾، وقوله: ﴿ثم إلى ربهم يحشرون﴾. عن ابن عباس قال: حشرها الموت، (والقول الثاني): إن حشرها هو بعثها يوم القيامة، لقوله: ﴿وإذا الوحوش حشرت﴾.

عن أبي ذر قال: بينما نحن عند رسول الله ﷺ إذا انتطحت عتران، فقال رسول الله ﷺ: «أتدرون فيم انتطحتا؟» قالوا: لا ندري، قال: «لكن الله يدري وسيقضي بينهما»، قال أبو ذر: ولقد تركنا رسول الله ﷺ وما يقرب طائر جناحيه في السماء إلا ذكر لنا منه علماً^(١). وفي الحديث: «إن الجمعاء لتقتص من القرآن يوم القيامة»^(٢). وقال عبد الرزاق عن أبي هريرة في قوله: ﴿إلا أم أمثالكم ما فرطنا في الكتاب من شيء ثم إلى ربهم يحشرون﴾ قال: يحشر الخلق كلهم يوم القيامة، البهائم والدواب والطيور وكل شيء، فيبلغ من عدل الله يومئذ أن يأخذ للجماء من القرآن، ثم يقول: كوني تراباً، فلذلك يقول الكافر: ﴿يا ليتني كنت تراباً﴾^(٣)، وقوله: ﴿والذين كذبوا بآياتنا صم وبكم في الظلمات﴾ أي مثلهم في جهلهم وقلة علمهم وعدم فهمهم كمثل أصم وهو الذي لا يسمع، أبكم: وهو الذي لا يتكلم، وهو مع هذا في ظلمات لا يبصر، فكيف يهتدي مثل هذا إلى الطريق أو يخرج مما

(٢) رواه الإمام أحمد في المسند.

(١) رواه ابن جرير وأحمد وعبد الرزاق، واللفظ لأحمد.

(٣) الحديث روي موقوفاً هنا ومرفوعاً في حديث الصور.

هو فيه؟ كقوله: ﴿وتركهم في ظلمات لا يبصرون﴾ صم بكم عمي فهم لا يرجعون ﴿﴾، وكما قال تعالى: ﴿أو كظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور﴾، ولهذا قال: ﴿من يشأ الله يضلله ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم﴾ أي هو المتصرف في خلقه بما يشاء .

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَاكُمْ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِم أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٥﴾

يخبر تعالى أنه الفعال لما يريد، المتصرف في خلقه بما يشاء، وأنه لا معقب لحكمه، ولا يقدر أحد على صرف حكمه عن خلقه بل هو وحده لا شريك له، الذي إذا سئل يجب لمن يشاء، ولهذا قال: ﴿قل أرأيتم إن أتاكم عذاب الله أو أتاكم الساعة﴾ أي أتاكم هذا أو هذا ﴿أغير الله تدعون إن كنتم صادقين﴾ أي لا تدعون غيره لعلمكم أنه لا يقدر أحد على رفع ذلك سواه، ولهذا قال: ﴿إن كنتم صادقين﴾ أي في اتخاذكم آلهة معه ﴿بل إياه تدعون فيكشف ما تدعون إليه إن شاء وتنسون ما تشركون﴾ أي في وقت الضرورة لا تدعون أحداً سواه وستذهب عنكم أصنامكم وأندادكم كقوله: ﴿وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه﴾ الآية. وقوله: ﴿ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فأخذناهم بالبأساء﴾ يعني الفقر والضيق في العيش، ﴿والضراء﴾ وهي الأمراض والأسقام والآلام، ﴿لعلهم يتضرعون﴾ أي يدعون الله ويتضرعون إليه ويخشعون. قال الله تعالى: ﴿فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا﴾ أي فهلا إذ ابتليناهم بذلك تضرعوا إلينا وتمسكوا لدينا، ﴿ولكن قست قلوبهم﴾ أي ما رقت ولا خشعت، ﴿وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون﴾ أي من الشرك والمعاندة والمعاصي، ﴿فلما نسوا ما ذكروا به﴾ أي أعرضوا عنه وتناسوه وجعلوه وراء ظهورهم، ﴿فتحنا عليهم أبواب كل شيء﴾ أي فتحنا عليهم أبواب الرزق من كل ما يختارون، وهذا استدراج منه تعالى وإملاء لهم، عياداً بالله من مكروه، ولهذا قال: ﴿حتى إذا فرحوا بما أوتوا﴾ أي من الأموال والأولاد والأرزاق ﴿أخذناهم بغتة﴾ أي على غفلة ﴿فإذا هم مبلسون﴾ أي آيسون من كل خير. قال ابن عباس المبلس: الآيس، وقال الحسن البصري: من وسع الله عليه فلم ير أنه يمكر به فلا رأي له، ومن قتر عليه فلم ير أنه ينظر له فلا رأي له، ثم قرأ: ﴿فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون﴾ قال: مكر بالقوم ورب الكعبة، أعطوا حاجتهم ثم أخذوا. وقال قتادة: بغت القوم أمر الله، وما أخذ الله قوماً قط إلا عند سكرتهم وغرتهم ونعمتهم، فلا تغفروا بالله، فإنه لا يغفر بالله إلا القوم الفاسقون .

وقال مالك عن الزهري ﴿فتحنا عليهم أبواب كل شيء﴾ قال: رخاء الدنيا ويسرها. وقد قال الإمام أحمد عن عقبة بن عامر، عن النبي ﷺ، قال: «إذا رأيت الله يعطي العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب فإنما هو استدراج»، ثم تلا رسول الله ﷺ: ﴿فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون﴾^(١). وعن عبادة بن الصامت أن رسول الله ﷺ كان يقول: إذا أراد الله بقوم بقاء أو نماء رزقهم القصد والعفاف وإذا أراد الله بقوم اقتطاعاً فتح لهم - أو فتح عليهم - باب خيانة ﴿حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون﴾، كما قال: ﴿فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين﴾^(٢).

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ أَنْظُرْ كَيْفَ نَصَرَفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنْتُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَعْتَهُ أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الظَّالِمُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مَبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَالَّذِينَ كَذَبُوا بِعَايَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾

يقول الله تعالى لرسوله ﷺ قل لهؤلاء المكذبين المعاندين ﴿أرأيتم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم﴾ أي سلبكم إياها كما أعطاكموها، كما قال تعالى: ﴿هو الذي أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار﴾ الآية، ويحتمل أن يكون هذا عبارة عن منع الانتفاع بهما الانتفاع الشرعي، ولهذا قال: ﴿وختم على قلوبكم﴾، كما قال: ﴿من يملك السمع والأبصار﴾ وقال: ﴿واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه﴾، وقوله: ﴿من إله غير الله يأتيكم به﴾ أي هل أحد غير الله يقدر على رد ذلك إليكم إذا سلبه الله منكم؟ لا يقدر على ذلك أحد سواه، ولهذا قال: ﴿انظر كيف نصرف الآيات﴾ أي نبينها ونوضحها ونفسرها دالة على أنه لا إله إلا الله، وأن ما يعبدون من دونه باطل وضلال، ﴿ثم هم يصدفون﴾ أي ثم هم مع البيان يصدفون، أي يعرضون عن الحق ويصدون الناس عن اتباعه. قال ابن عباس: يصدفون أي يعدلون. وقال مجاهد وقتادة: يعرضون، وقال السدي: يصدون. وقوله تعالى: ﴿قل أرأيتم إن أتاكم عذاب الله بغتة﴾ أي وأتم لا تشعرون به حتى بغتكم وفجأكم، ﴿أو جهرة﴾ أي ظاهراً عياناً، ﴿هل يهلك إلا القوم الظالمون﴾ أي إنما كان يحيط بالظالمين أنفسهم بالشرك بالله وينجو الذين كانوا يعبدون الله وحده لا شريك له فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون، وقوله: ﴿وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين﴾ أي مبشرين عباد الله المؤمنين بالخيرات، ومنذرين من كفر بالله النقمات والعقوبات، ولهذا قال: ﴿فمن آمن وأصلح﴾ أي فمن آمن قلبه بما جاءوا به وأصلح عمله باتباعه إياهم ﴿فلا خوف عليهم﴾ أي بالنسبة لما يستقبلونه، ﴿ولا هم يحزنون﴾ أي بالنسبة إلى ما فاتهم وتركوه وراء ظهورهم من أمر الدنيا وصنيعها، الله وليهم فيما خلفوه،

(١) رواه أحمد وابن جرير وابن أبي حاتم.

(٢) رواه ابن أبي حاتم وأحمد في مسنده.

وحافظهم فيما تركوه؛ ثم قال: ﴿والذين كذبوا بآياتنا يمسهم العذاب بما كانوا يفسقون﴾ أي ينالهم العذاب بما كفروا بما جاءت به الرسل، وخرجوا عن أوامر الله وطاعته، وارتكبوا من مناهيه ومحارمه وانتهاك حرمانه .

قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ ۚ إِنِ اتَّبَعُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَىٰ قُلُوبِ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾ وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَطَرَدُوهُمْ فَكُنُوا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴿٥٣﴾ وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَّمَ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ كِتَابَ رَبِّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهْلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥٤﴾

يقول الله تعالى لرسوله ﷺ: ﴿قل لا أقول لكم عندي خزائن الله﴾ أي لست أملكها ولا أتصرف فيها، ﴿ولا أعلم الغيب﴾ أي ولا أقول لكم إنني أعلم الغيب إنما ذلك من علم الله عز وجل، ولا أطلع منه إلا على ما أطلعني عليه، ﴿ولا أقول لكم إنني ملك﴾ أي ولا ادعي أنني ملك، إنما أنا بشر من البشر يوحي إلي من الله عز وجل، شرفني بذلك وأنعم علي به، ولهذا قال: ﴿إن أتبع إلا ما يوحى إلي﴾ أي لست أخرج عنه قيد شبر ولا أدنى منه، ﴿قل هل يستوي الأعمى والبصير﴾ أي هل يستوي من اتبع الحق وهدى إليه، ومن ضل عنه فلم يتقد له ﴿أفلا تتفكرون﴾؟ وهذه كقوله تعالى: ﴿أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى إنما يتذكر أولو الألباب﴾. وقوله: ﴿وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم ليس لهم من دونه ولي ولا شفيع﴾ أي وأنذر بهذا القرآن يا محمد، ﴿الذين هم من خشية ربهم مشفقون﴾، ﴿الذين يخشون ربهم ويخافون سوء الحساب﴾، ﴿الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم﴾ أي يوم القيامة ﴿ليس لهم﴾ أي يومئذ ﴿من دونه ولي ولا شفيع﴾ أي لا قريب لهم ولا شفيع فيهم من عذابه إن أرادهم بهم ﴿لعلهم يتقون﴾ أي أنذر هذا اليوم الذي لا حاكم فيه إلا الله عز وجل ﴿لعلهم يتقون﴾ فيعملون في هذه الدار عملاً ينجيهم الله به يوم القيامة من عذابه، ويضاعف لهم به الجزيل من ثوابه، وقوله تعالى: ﴿ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه﴾ أي لا تبعد هؤلاء المتصفين بهذه الصفات عنك بل اجعلهم جلساءك وأخصاءك، كقوله: ﴿واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطاً﴾، وقوله: ﴿يدعون ربهم﴾ أي يعبدونه ويسألونه ﴿بالغداة والعشي﴾، قال سعيد ابن المسيب: المراد به الصلاة المكتوبة^(١)، وهذا كقوله: ﴿وقال ربكم ادعوني أستجب لكم﴾ أي أتقبل منكم،

(١) وهو قول مجاهد والحسن وقتادة .

وقوله: ﴿يريدون وجهه﴾ أي يريدون بذلك العمل وجه الله الكريم وهم مخلصون فيما هم فيه من العبادات والطاعات، وقوله: ﴿ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء﴾، كقول نوح عليه السلام في جواب الذين قالوا: ﴿أتؤمن لك واتبعك الأزدلون﴾، ﴿وما علمي بما كانوا يعملون إن حسابهم إلا على ربي لو تشعرون﴾ أي إنما حسابهم على الله عز وجل، وليس علي من حسابهم من شيء، كما أنه ليس عليهم من حسابي من شيء، وقوله: ﴿فتطردهم فتكون من الظالمين﴾ أي إن فعلت هذا والحالة هذه .

روى ابن جرير عن ابن مسعود قال: مر الملائم من قريش برسول الله ﷺ وعنده صهيب وبلال وعمار وخباب وغيرهم من ضعفاء المسلمين فقالوا يا محمد: أرضيت بهؤلاء من قومك؟ أهؤلاء الذين من الله عليهم من بيننا؟ أنحن نصير تبعاً لهؤلاء؟ اطردهم فلعلك إن طردتهم نتبعك، فنزلت هذه الآية: ﴿ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه﴾، وكذلك فتنا بعضهم ببعض﴾ إلى آخر الآية، وقال ابن أبي حاتم عن خباب في قول الله عز وجل: ﴿ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي﴾ قال: جاء الأقرع بن حابس التميمي وعيينة بن حصن الفزاري فوجدوا رسول الله ﷺ مع صهيب وبلال وعمار وخباب قاعداً في ناس من الضعفاء من المؤمنين، فلما رأوهم حول النبي ﷺ حقرهم في نفر في أصحابه فأتوه فخلوا به، وقالوا: إنا نريد أن تجعل لنا منك مجلساً تعرف لنا به العرب فضلنا: فإن وفود العرب تأتيك فنستحي أن ترانا العرب مع هذه الأعبد، فإذا نحن جئناك فأقمهم عنا، فإذا نحن فرغنا فاقعد معهم إن شئت. قال: «نعم»، قالوا: فاكتب لنا عليك كتاباً، قال: فدعا بصحيفة ودعا علياً ليكتب ونحن قعود في ناحية، فنزل جبريل فقال: ﴿ولا تطرد الذين يدعون ربهم﴾ الآية، فرمى رسول الله ﷺ بالصحيفة من يده، ثم دعانا فأتيناه^(١). وقال سعد نزلت هذه الآية في ستة من أصحاب النبي ﷺ، منهم ابن مسعود قال: كنا نستبق إلى رسول الله ﷺ وندنو منه، فقالت قريش: تدني هؤلاء دوننا، فنزلت: ﴿ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي﴾^(٢).

وقوله تعالى: ﴿وكذلك فتنا بعضهم ببعض﴾ أي ابتلينا واختبرنا، وامتحنا بعضهم ببعض﴾ ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا﴾، وذلك أن رسول الله ﷺ كان غالب من اتبعه في أول بعثته ضعفاء الناس من الرجال والنساء والعبيد والإماء، ولم يتبعه من الأشراف إلا قليل، كما قال قوم نوح لنوح: ﴿وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي﴾ الآية، وكما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان حين سأله عن تلك المسائل فقال له فأشرف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم؟ فقال: بل ضعفاؤهم، فقال: هم أتباع الرسل، والغرض أن مشركي قريش كانوا يسخرون بمن آمن من ضعفائهم ويعذبون من يقتلون عليه منهم، وكانوا يقولون: أهؤلاء من الله عليهم من بيننا؟ أي ما كان الله ليهدي هؤلاء إلى الخير لو كان ما صاروا إليه خيراً ويدعنا كقولهم: ﴿لو كان خيراً ما سبقونا إليه﴾، وكقوله تعالى: ﴿وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين كفروا للذين آمنوا أي الفريقين خير مقاماً وأحسن ندياً﴾ قال الله تعالى في جواب ذلك: ﴿وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أحسن أثاثاً ورثياً﴾، وقال في جوابهم حين قالوا:

(١) أخرجه ابن أبي حاتم ورواه ابن جرير أيضاً من حديث أسباط بن نصر .

(٢) رواه الحاكم في المستدرک وقال: على شرط الشيخين وأخرجه ابن حبان في صحيحه .

﴿ أهؤلاء من الله عليهم من بيننا ﴾ ، ﴿ أليس الله بأعلم بالشاكرين ﴾ ؟ أي أليس هو أعلم بالشاكرين له بأقوالهم وأفعالهم وضمائرهم فيوقفهم ويهديهم سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم ، كما قال تعالى : ﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين ﴾ . وفي الحديث الصحيح : « إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى ألوانكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم »^(١) .

وقوله تعالى : ﴿ وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم ﴾ أي فأكرمهم برد السلام عليهم وبشرهم برحمة الله الواسعة الشاملة لهم ، ولهذا قال : ﴿ كتب ربكم على نفسه الرحمة ﴾ أي أوجبها على نفسه الكريمة تفضلاً منه وإحساناً وامتناناً ﴿ أنه من عمل منكم سوءاً بجهالة ﴾ ، قال بعض السلف : كل من عصى الله فهو جاهل وقال بعضهم : الدنيا كلها جهالة . ﴿ ثم تاب من بعده وأصلح ﴾ أي رجع عما كان عليه من المعاصي وأقنع ، وعزم على أن لا يعود وأصلح العمل في المستقبل ﴿ فانه غفور رحيم ﴾ . قال الإمام أحمد عن أبي هريرة قال ، قال رسول الله ﷺ : « لما قضى الله على الخلق كتب في كتاب فهو عنده فوق العرش إن رحمتي غلبت غضبي » . أخرجاه في الصحيحين .

وَكَذَلِكَ نَفِصَلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾ قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لَا آتِيَعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذَا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقْضُ الْحَقُّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ ﴿٥٨﴾ * وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يُعَلِّمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلْمَةٍ إِلَّا الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٥٩﴾

يقول تعالى : وكما بينا ما تقدم بيانه من الحجج والدلائل على طريق الهداية والرشاد وذم المجادلة والعناد ، كذلك نفصل الآيات ﴿ أي التي يحتاج المخاطبون إلى بيانها ، ﴿ ولتستبين سبيل المجرمين ﴾ أي ولتظهر طريق المجرمين المخالفين للرسول ، وقوله : ﴿ قل إني على بينة من ربي ﴾ أي على بصيرة من شريعة الله التي أوحاها الله إلي ، ﴿ وكذبتهم به ﴾ أي بالحق الذي جاءني من الله ، ﴿ ما عندي ما تستعجلون به ﴾ أي من العذاب ، ﴿ إن الحكم إلا لله ﴾ أي إنما يرجع أمر ذلك إلى الله إن شاء عجل لكم ما سألتموه من ذلك ، وإن شاء أنظركم وأجلكم لما له في ذلك من الحكمة العظيمة ، ولهذا قال : ﴿ يقص الحق وهو خير الفاصلين ﴾ أي وهو خير من فصل القضايا وخير الفاصلين في الحكم بين عباده ، وقوله : ﴿ قل لو أن عندي ما تستعجلون به لقضي الأمر بيني وبينكم ﴾ أي لو كان مرجع ذلك إلي لأوقعت لكم ما تستحقونه من ذلك ، والله أعلم بالظالمين . فإن قيل : فما الجمع بين هذه الآية وبين ما ثبت في الصحيحين عن عائشة أنها قالت لرسول الله ﷺ : يا رسول الله هل أتى عليك يوم كان

(١) أخرجه مسلم بلفظ : « إن الله لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى صوركم .. » الحديث .

أشد من يوم أحد؟ فقال: «لقد لقيت من قومك وكان أشد ما لقيت منه يوم العقبة، إذ عرضت نفسي على (ابن عبد ياليل بن عبد كلال) فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي، فلم أستفق إلا بقرن الثعالب، فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد ظللتني، فنظرت فإذا فيها جبريل عليه السلام، فناداني، فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم، قال: فناداني ملك الجبال وسلم عليّ، ثم قال: يا محمد إن الله قد سمع قول قومك لك، وقد بعثني ربك إليك لتأمرني بأمرك فيما شئت، إن شئت أطبقت عليهم الأخشبين، فقال رسول الله ﷺ: «بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله لا يشرك به شيئاً»، فقد عرض عليه عذابهم واستئصاهم فاستأني بهم، وسأل لهم التأخير لعل الله أن يخرج من أصلابهم من لا يشرك به شيئاً، فما الجمع بين هذا وبين قوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿قل لو أن عندي ما تستعجلون به لفضي الأمر بيني وبينكم والله أعلم بالظالمين﴾؟ فالجواب - والله أعلم - أن هذه الآية دلت على أنه لو كان إليه وقوع العذاب الذي يطلبونه حال طلبهم له لأوقعه بهم. وأما الحديث فليس فيه أنهم سألوه وقوع العذاب بهم بل عرض عليه ملك الجبال، أنه إن شاء أطبق عليهم الأخشبين وهما جبلا مكة اللذان يكتنفانها جنوباً وشمالاً، فلهذا استأني بهم وسأل الرفق لهم.

وقوله تعالى: ﴿وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو﴾ قال البخاري عن سالم بن عبد الله عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال: «مفاتيح الغيب خمس لا يعلمهن إلا الله» ثم قرأ: ﴿إن الله عنده علم الساعة، وينزل الغيث، ويعلم ما في الأرحام، وما تدري نفس ماذا تكسب غداً، وما تدري نفس بأي أرض تموت، إن الله عليم خبير﴾، وفي حديث عمر أن جبريل حين تبدى له في صورة أعرابي، فسأل عن الإيمان والإسلام والإحسان. فقال له النبي ﷺ فيما قال له: «خمس لا يعلمهن إلا الله» ثم قرأ: ﴿إن الله عنده علم الساعة﴾ الآية. وقوله: ﴿ويعلم ما في البر والبحر﴾ أي يحيط علمه الكريم بجميع الموجودات بريها وبحريها لا يخفى عليه من ذلك شيء ولا مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، وما أحسن ما قاله الصرصري:

فلا يخفى عليه الدر إما تراءى للنواظر أو تواري

وقوله تعالى: ﴿وما تسقط من ورقة إلا يعلمها﴾ أي ويعلم الحركات حتى من الجمادات، فما ظنك بالحيوانات ولا سياتي المكلفون منهم من جنهم وإنسهم، كما قال تعالى: ﴿يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور﴾. وقال ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿وما تسقط من ورقة إلا يعلمها﴾ قال: ما من شجرة في بر ولا بحر إلا وملك موكل بها يكتب ما يسقط منها، وقوله: ﴿ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين﴾ قال عبد الله بن الحارث: ما في الأرض من شجرة ولا مغرز إبرة إلا وعليها ملك موكل يأتي الله بعلمها رطوبتها إذا رطبت ويبوستها إذا يبست.

* وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ

أَحَدِكُمْ أَلَمَاتٌ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفِرُّونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ
الْحَلْسِينِ ﴿٦٢﴾

يقول تعالى: إنه يتوفى عباده في منامهم بالليل، وهذا هو التوفي الأصغر، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾، فذكر في هذه الآية الوفايتين الكبرى والصغرى، وهكذا ذكر في هذا المقام حكم الوفايتين الصغرى ثم الكبرى، فقال: ﴿وهو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار﴾ أي ويعلم ما كسبتم من الأعمال بالنهار، وهذه جملة معترضة دلت على إحاطة علمه تعالى بخلقهم في ليلهم ونهارهم في حال سكوتهم وحال حركتهم، كما قال: ﴿سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار﴾، وكما قال تعالى: ﴿ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه﴾ أي في الليل، ﴿ولتبتغوا من فضله﴾ أي في النهار، كما قال: ﴿وجعلنا الليل لباساً وجعلنا النهار معاشاً﴾، ولهذا قال تعالى ها هنا: ﴿وهو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار﴾ أي ما كسبتم من الأعمال فيه، ﴿ثم يبعثكم فيه﴾ أي في النهار، قاله مجاهد وقناة والسدي، وقال ابن جريج: أي في المنام والأول أظهر، وقد روى ابن مردويه بسنده عن الضحاك عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «مع كل إنسان ملك إذا نام أخذ نفسه ويرد إليه، فإن أذن الله في قبض روحه قبضه وإلا رد إليه» فذلك قوله: ﴿وهو الذي يتوفاكم بالليل﴾، وقوله: ﴿ليقضى أجل مسمى﴾ يعني به أجل كل واحد من الناس، ﴿ثم إليه مرجعكم﴾ أي يوم القيامة، ﴿ثم ينشركم﴾ أي يخبركم ﴿بما كنتم تعملون﴾ ويجزيكم على ذلك إن خيراً فخير وإن شراً فشر، وقوله: ﴿وهو القاهر فوق عباده﴾ أي وهو الذي قهر كل شيء وخضع لجلاله وعظمته وكبريائه كل شيء، ﴿ويرسل عليكم حفظة﴾ أي من الملائكة يحفظون بدن الإنسان كقوله: ﴿له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله﴾ وحفظة يحفظون عمله ويحفظونه كقوله: ﴿وإن عليكم لحافظين﴾ الآية، وكقوله: ﴿ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد﴾ وكقوله: ﴿إذ يتلقى المتلقيان﴾ الآية .
وقوله تعالى: ﴿حتى إذا جاء أحدكم الموت﴾ أي احتضر وحنان أجله ﴿توفته رسلنا﴾ أي ملائكة موكلون بذلك . قال ابن عباس وغير واحد: لملك الموت أعوان من الملائكة يخرجون الروح من الجسد فيقبضها ملك الموت إذا انتهت إلى الحلقوم، وسيأتي عند قوله تعالى: ﴿يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت﴾ الأحاديث المتعلقة بذلك الشاهدة لهذا بالصحة، وقوله: ﴿وهم لا يفرون﴾ أي في حفظ روح المتوفى بل يحفظونها وبتزولونها حيث شاء الله عز وجل، إن كان من الأبرار ففي عليين، وإن كان من الفجار ففي سجين عياداً بالله من ذلك، وقوله: ﴿ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق﴾ . قال ابن جريج: ﴿ثم ردوا﴾ يعني الملائكة، ونذكر ها هنا الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الميت تحضره الملائكة، فإذا كان الرجل الصالح قالوا: اخرجي أيتها النفس الطيبة كانت في الجسد الطيب، اخرجي حميدة وأبشري بروح وريحان ورب غير غضبان، فلا تزال يقال لها ذلك حتى تخرج ثم يعرج بها إلى السماء، فيستفتح لها فيقال: من هذا؟ فيقال: فلان، فيقال: مرحباً بالنفس الطيبة كانت في الجسد الطيب، ادخلي حميدة وأبشري بروح وريحان ورب غير غضبان، فلا تزال يقال لها ذلك حتى ينتهي بها إلى السماء التي فيها الله

عز وجل، وإذا كان الرجل سوء قالوا: اخرجي أيتها النفس الخبيثة كانت في الجسد الخبيث، اخرجي ذميمة، وأبشري بحميم وغساق وآخر من شكله أزواج، فلا تزال يقال لها ذلك حتى تخرج، ثم يعرج بها إلى السماء فيستفتح لها فيقال: من هذا؟ فيقال: فلان، فيقال: لا مرحباً بالنفس الخبيثة كانت في الجسد الخبيث ارجعي ذميمة فإنه لا يفتح لك أبواب السماء، فترسل من السماء، ثم تصير إلى القبر، فيجلس الرجل الصالح فيقال له: مثل ما قيل في الحديث الأول، ويجلس الرجل سوء فيقال له: مثل ما قيل في الحديث الثاني». ويحتمل أن يكون المراد بقوله: ﴿ثم ردوا﴾ يعني الخلائق كلهم إلى يوم القيامة فيحكم فيهم بعدله كما قال: ﴿قل إن الأولين والآخرين لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم﴾، وقال: ﴿وحشرناهم فلم نغادر منهم أحداً﴾، ولهذا قال: ﴿مولاهم الحق ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين﴾.

قُلْ مَنْ يُنْجِيكُمْ مِّنْ ظُلْمَتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِن أَنجَيْنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلْ اللَّهُ يُنْجِيكُمْ مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبَسَكُمْ شِيعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ ۗ أَنْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْأَيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾

يقول تعالى ممتناً على عباده في إنجائه المضطرين منهم من ظلمات البر والبحر أي الحائرين الواقعين في المهامة البرية، وفي اللجج البحرية إذا هاجت الرياح العاصفة، فحينئذ يفردون الدعاء له وحده لا شريك له، كقوله: ﴿وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه﴾ الآية، وقوله: ﴿هو الذي يسيركم في البر والبحر حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم يريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين﴾ الآية، وقوله: ﴿أمن يهديكم في ظلمات البر والبحر ومن يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته إليه مع الله تعالى عما يشركون﴾. وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعاً وخفية﴾ أي جهراً وسراً، ﴿لئن أنجانا﴾ أي من هذه الضائقة ﴿لنكونن من الشاكرين﴾ أي بعدها، قال الله: ﴿قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب ثم أنتم﴾ أي بعد ذلك، ﴿تشركون﴾ أي تدعون معه في حال الرفاهية آلهة أخرى، وقوله: ﴿قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم أو من تحت أرجلكم﴾ لما قال: ﴿ثم أنتم تشركون﴾ عقبه بقوله: ﴿قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً﴾ أي بعد إنجائه إياكم كقوله: ﴿وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه فلما نجاكم إلى البر أعرضتم وكان الإنسان كفوراً﴾. قال الحسن: هذه للمشركين، وقال مجاهد: لأمة محمد ﷺ وعفا عنهم؛ ونذكر هنا الأحاديث الواردة في ذلك.

قال البخاري رحمه الله تعالى: يلبسكم: يخلطكم من اللباس، يلبسوا: يخلطوا، شيعاً: فرقاً. ثم روى بسنده عن جابر بن عبد الله قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم﴾ قال

رسول الله ﷺ: «أعوذ بوجهك»، ﴿أو من تحت أرجلكم﴾ قال: «أعوذ بوجهك»، ﴿أو يلبسكم شيعاً وينديق بعضكم بأس بعض﴾ قال رسول الله ﷺ: «هذه أهون - أو - أيسر». (طريق آخر): قال الحافظ أبو بكر بن مردويه في تفسيره عن جابر قال: لما نزلت ﴿قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم﴾ قال رسول الله ﷺ: «أعوذ بالله من ذلك»، ﴿أو يلبسكم شيعاً﴾ قال: «هذا أيسر» ولو استعاذه لأعاده. (حديث آخر): قال الإمام أحمد عن سعد بن أبي وقاص قال: أقبلنا مع رسول الله ﷺ حتى مررنا على مسجد بني معاوية، فدخل فضلى ركعتين، فصلينا معه، فناجى ربه عز وجل طويلاً ثم قال: «سألت ربي ثلاثاً، سألته: أن لا يهلك أمتي بالغرق فأعطانيها، وسألته: أن لا يهلك أمتي بالسنة فأعطانيها، وسألته: أن لا يجعل بأسهم بينهم فنعنيها»^(١). (حديث آخر): قال الإمام أحمد عن عبد الله بن عبد الله بن جابر بن عتيك أنه قال: جاءنا عبد الله بن عمر في حرة بني معاوية - قرية من قرى الأنصار - فقال لي: هل تدري أين صلى رسول الله ﷺ في مسجدكم هذا؟ فقلت: نعم، فأشرت إلى ناحية منه، فقال: هل تدري ما الثلاث التي دعاهن فيه؟ فقلت: نعم، فقال: أخبرني بهن، فقلت: دعا أن لا يظهر عليهم عدواً من غيرهم ولا يهلكهم بالسنين فأعطيها، ودعا بأن لا يجعل بأسهم بينهم فنعنيها، قال: صدقت، فلا يزال المرح إلى يوم القيامة^(٢).

(حديث آخر): قال الإمام أحمد عن أنس بن مالك أنه قال: رأيت رسول الله ﷺ في سفر صلى سبحة الضحى ثماني ركعات فلما انصرف قال: «إني صليت صلاة رغبة ورهبة»، وسألت ربي ثلاثاً فأعطاني اثنتين ومنعني واحدة: سألته أن لا يبتلي أمتي بالسنين ففعل، وسألته أن لا يظهر عليهم عدوهم ففعل، وسألته أن لا يلبسهم شيعاً فأبى عليّ»، ورواه النسائي في الصلاة. (حديث آخر): قال الإمام أحمد عن خباب بن الارت مولى بني زهرة وكان قد شهد بدرأ مع رسول الله ﷺ أنه قال: وافيت رسول الله ﷺ في ليلة صلاها كلها حتى كان مع الفجر فسلم رسول الله ﷺ من صلاته، فقلت: يا رسول الله لقد صليت الليلة صلاة ما رأيتك صليت مثلها! فقال رسول الله ﷺ: «أجل إنها صلاة رغب ورهب، سألت ربي عز وجل فيها ثلاث خصال فأعطاني اثنتين ومنعني واحدة، سألت ربي عز وجل أن لا يهلكنا بما أهلك به الأمم قبلنا فأعطانيها، وسألت ربي عز وجل أن لا يظهر علينا عدواً من غيرنا فأعطانيها، وسألت ربي عز وجل أن لا يلبسنا شيعاً فنعنيها»^(٣). (حديث آخر): عن شداد بن أوس أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله زوى لي الأرض حتى رأيت مشارقها ومغاربها، وإن ملك أمتي سيبلغ ما زوى لي منها، وإني أعطيت الكثرين^(٤) الأبيض والأحمر، وإني سألت ربي عز وجل أن لا يهلك أمتي بسنة عامة، وأن لا يسلط عليهم عدواً فيهلكهم بعامة، وأن لا يلبسهم شيعاً، وأن لا يذيق بعضهم بأس بعض، فقال: يا محمد إني إذا قضيت قضاء فإنه لا يرد، وإني قد أعطيتك لأمتك أن لا أهلكهم بسنة عامة، وأن لا أسلط عليهم عدواً ممن سواهم فيهلكهم بعامة حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً وبعضاً يقتل بعضاً وبعضهم يسبي

(١) أخرجه مسلم في كتاب الفتن، ومعنى السنة: القحط والجذب.

(٢) قال ابن كثير: إسناده جيد قوي وليس هو في شيء من الكتب الستة.

(٣) رواه أحمد والنسائي وابن حبان والترمذي وقال: حسن صحيح.

(٤) المراد بالكثرين: الذهب والفضة.

بعضاً». قال: وقال رسول الله ﷺ: «إني لا أخاف على أمتي إلا الأئمة المضلين، فإذا وضع السيف في أمتي لم يرفع عنهم إلى يوم القيامة»^(١).

(حديث آخر): قال الطبراني عن سمرة السوائي عن علي أن رسول الله ﷺ قال: «سألت ربي ثلاث خصال فأعطاني اثنتين ومنعني واحدة، فقلت: يا رب لا تهلك أمتي جوعاً فقال: هذه لك. قلت: يا رب لا تسلط عليهم عدواً من غيرهم يعني أهل الشرك فيجتاحهم قال: ذلك لك، قلت: يا رب لا تجعل بأسهم بينهم - قال - فنعني هذه». (حديث آخر): قال الحافظ أبو بكر بن مردويه عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «دعوت ربي عز وجل أن يرفع عن أمتي أربعاً فرفع الله عنهم اثنتين، وأبي علي أن يرفع عنهم اثنتين: دعوت ربي أن يرفع الرجم من السماء والغرق من الأرض، وأن لا يلبسهم شيعاً، وأن لا يذيق بعضهم بأس بعض، ورفع الله عنهم الرجم من السماء والغرق من الأرض، وأبى الله أن يرفع اثنتين القتل والهرج». (طريق أخرى): عن ابن عباس قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعاً ويذيق بعضهم بأس بعض﴾ قال: فقام النبي ﷺ فتوضأ ثم قال: «اللهم لا ترسل على أمتي عذاباً من فوقهم ولا من تحت أرجلهم ولا تلبسهم شيعاً، ولا تذق بعضهم بأس بعض» قال: فاتاه جبريل فقال: يا محمد إن الله قد أجاز أمتك أن يرسل عليهم عذاباً من فوقهم أو من تحت أرجلهم. قال مجاهد وسعيد بن جبير والسدي وابن زيد وغير واحد في قوله: ﴿عذاباً من فوقكم﴾ يعني الرجم، ﴿أو من تحت أرجلكم﴾ يعني الخسف وهذا هو اختيار ابن جرير.

وكان عبد الله بن مسعود يصيح وهو في المسجد أو على المنبر يقول: ألا أيها الناس إنه قد نزل بكم، إن الله يقول: ﴿قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم﴾ لو جاءكم عذاب من السماء لم يبق منكم أحد ﴿أو من تحت أرجلكم﴾ لو خسف بكم الأرض أهلككم ولم يبق منكم أحداً، ﴿أو يلبسكم شيعاً ويذيق بعضهم بأس بعض﴾، ألا إنه نزل بكم أسوأ الثلاث. وقال ابن جرير عن ابن عباس ﴿عذاباً من فوقكم﴾ يعني أمراءكم، ﴿أو من تحت أرجلكم﴾ يعني عبيدكم وسفلكم، قال ابن جرير: وهذا القول وإن كان له وجه صحيح لكن الأول أظهر وأقوى، ويشهد له بالصحة قوله تعالى: ﴿أم أمتن من في السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هي تمور أم أمتن من في السماء أن يرسل عليكم حاصباً فستعلمون كيف نذير﴾، وفي الحديث: «ليكونن في هذه الأمة قذف وخسف ومسح»، وذلك مذکور مع نظائره في أمارات الساعة وأشراتها وظهور الآيات قبل يوم القيامة، وستأتي في موضعها إن شاء الله تعالى. وقوله: ﴿أو يلبسكم شيعاً﴾ يعني يجعلكم ملتبسين شيعاً فرقة متخالفين. قال ابن عباس: يعني الأهواء، وكذا قال مجاهد وقد ورد في الحديث عنه ﷺ أنه قال: «وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة». وقوله تعالى: ﴿ويذيق بعضهم بأس بعض﴾، قال ابن عباس وغير واحد: يعني يسلط بعضهم على بعض بالعذاب والقتل، وقوله تعالى: ﴿انظر كيف نصرف الآيات﴾ أي نبينا ونوضحها مرة ونفسرها ﴿لعلهم يفقهون﴾ أي يفهمون ويتدبرون عن الله آياته وحججه وبراهينه. قال زيد

(١) قال ابن كثير: الحديث ليس في شيء من الكتب الستة وإسناده جيد قوي.

ابن أسلم: لما نزلت ﴿ قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم ﴾ الآية، قال رسول الله ﷺ: « لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض بالسيف » قالوا: ونحن نشهد أن لا إله إلا الله وأنت رسول الله؟ قال: « نعم »، فقال بعضهم: لا يكون هذا أبداً أن يقتل بعضنا بعضاً ونحن مسلمون، فترلت: ﴿ انظر كيف نصرَف الآيات لعلهم يفقهون * وكذب به قومك وهو الحق قل لست عليكم بوكيل لكل نبأ مستقر وسوف تعلمون ﴾^(١).

وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾ لِكُلِّ نَبَأٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيءِ آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ؕ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَكِنْ ذِكْرِي لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾

يقول تعالى: ﴿ وكذب به ﴾ أي بالقرآن الذي جنتهم به والهدى والبيان ﴿ قومك ﴾ يعني قريشاً، ﴿ وهو الحق ﴾ أي الذي ليس وراءه حق، ﴿ قل لست عليكم بوكيل ﴾، أي لست عليكم بحفيظ، ولست بموكل بكم كقوله: ﴿ وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ﴾، أي إنما عليّ البلاغ وعليكم السمع والطاعة، فمن اتبعني سعد في الدنيا والآخرة، ومن خالفني فقد شقي في الدنيا والآخرة، ولهذا قال: ﴿ لكل نبأ مستقر ﴾ قال ابن عباس: أي لكل نبأ حقيقة، أي لكل خبر وقوع ولو بعد حين، كما قال: ﴿ ولتعلمن نبأه بعد حين ﴾، وقال: ﴿ لكل أجل كتاب ﴾، وهذا تهديد ووعد أكيد، ولهذا قال بعده: ﴿ وسوف تعلمون ﴾، وقوله: ﴿ وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا ﴾ أي بالكذب والاستهزاء فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره ﴿ أي حتى يأخذوا في كلام آخر غير ما كانوا فيه من التكذيب ﴾ وإما ينسيتك الشيطان ﴿، والمراد بذلك كل فرد فرد من آحاد الأمة، أن لا يجلس مع المكذبين الذين يحرفون آيات الله ويضعونها على غير مواضعها، فإن جلس أحد معهم ناسياً ﴿ فلا تقعد بعد الذكرى ﴾ بعد التذكير ﴿ مع القوم الظالمين ﴾، ولهذا ورد في الحديث: « رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه »^(٢). وقال السدي في قوله: ﴿ وإما ينسيتك الشيطان ﴾، قال: إن نسيته فذكرت ﴿ فلا تقعد ﴾ معهم، وكذا قال مقاتل بن حيان، وهذه الآية هي المشار إليها في قوله: ﴿ وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذا مثلهم ﴾ الآية، أي إنكم إذا جلستم معهم وأقررتهم على ذلك فقد ساويتهم فيما هم فيه، وقوله: ﴿ وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء ﴾ أي إذا تجنّبوا فلم يجلسوا معهم في ذلك فقد برئوا من عهدهم وتخلصوا من إثمهم، قال ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير، قوله: ﴿ وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء ﴾ قال: ما عليك أن يخوضوا في آيات الله إذا فعلت ذلك، أي إذا تجنّبتهم وأعرضت عنهم، وقال آخرون: بل معناه: وإن جلسوا معهم فليس عليهم من حسابهم من شيء، وزعموا أن هذا منسوخ بآية النساء المدنية وهي قوله: ﴿ إنكم إذا مثلهم ﴾، قاله مجاهد

(١) رواه ابن أبي حاتم وابن جرير . (٢) أخرجه ابن ماجه ولفظه « إن الله وضع عن أمتي الخطأ .. » الحديث .

والسدي وابن جريج وغيرهم. وعلى قولهم يكون قوله: ﴿ولكن ذكرى لعلهم يتقون﴾ أي ولكن أمرناكم بالإعراض عنهم حينئذ تذكيراً لهم عما هم فيه لعلهم يتقون ذلك ولا يعودون إليه .

وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لِبَاطِلٍ وَلَهُمْ غَرَّتُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكَرَ بِهِ أَنْ تَبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعَدَلَ كُلُّ قَدْلٍ لَأُيُخَذَ مِنْهَا أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾

يقول تعالى: ﴿وذري الذين اتخذوا دينهم لباطلٍ وهو غرَّتهم الحياة الدنيا﴾ أي دعهم وأعرض عنهم وأمهلهم قليلاً فإنهم صاثرون إلى عذاب عظيم، ولهذا قال: ﴿وذكر به﴾ أي ذكر الناس بهذا القرآن وحذرهم نعمة الله وعذابه الأليم يوم القيامة، وقوله تعالى: ﴿أن تبسل نفس بما كسبت﴾ أي لثلاث تبسل، قال ابن عباس والحسن والسدي: تبسل: تسلّم، وقال الوالي عن ابن عباس: تفتضح. وقال قتادة: تحبس، وقال ابن زيد: تؤاخذ، وقال الكلبي: تجزى، وكل هذه الأقوال والعبارات متقاربة في المعنى، وحاصلها الإسلام للهلاكه، والحبس عن الخير، والارتهان عن درك المطلوب، كقوله: ﴿كل نفس بما كسبت رهينة إلا أصحاب اليمين﴾، وقوله: ﴿ليس لها من دون الله ولي ولا شفيع﴾ أي لا قريب ولا أحد يشفع فيها، كقوله: ﴿من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة والكافرون هم الظالمون﴾، وقوله: ﴿وإن تعدل كل عدل لا يؤخذ منها﴾ أي ولو بذلت كل مبدول ما قبل منها كقوله: ﴿إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً﴾ الآية، وكذا قال ههنا: ﴿أولئك الذين أبسلوا بما كسبوا لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون﴾ .

قُلْ أَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُزِدْ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْنَا اللَّهَ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَىٰ أَتُنَبِّئُكَ قُلْ إِنْ هَدَىٰ اللَّهُ هُوَ الْهُدَىٰ وَأَمْرًا لِّسُلَيْمٍ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾ وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يَنْفُخُ فِي الصُّورِ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾

قال السدي: قال المشركون للمسلمين اتبعوا سبيلنا واتركوا دين محمد، فأنزل الله عز وجل: ﴿قل أَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُزِدْ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا﴾ أي في الكفر ﴿بعد إذ هدانا الله﴾ فيكون مثلنا مثل الذي استهوته الشياطين في الأرض، يقول: مثلكم إن كفرتم بعد إيمانكم كمثل رجل خرج مع قوم على الطريق، فضلَّ الطريق، فحيرته الشياطين واستهوته في الأرض وأصحابه على الطريق، فجعلوا يدعونه إليهم يقولون: اتنا فإنا على

الطريق، فأبى أن يأتهم، فذلك مثل من يتبعهم بعد المعرفة بمحمد ﷺ، ومحمد هو الذي يدعو إلى الطريق، والطريق هو الإسلام^(١). وقال قتادة ﴿استهوت الشياطين في الأرض﴾ أضلته في الأرض: يعني استهوت سيرته، كقوله: ﴿تهوي إليهم﴾، وقال ابن عباس: هذا مثل ضربه الله للآلهة ومن يدعو إليها، والدعاة الذين يدعون إلى هدى الله عز وجل، كمثّل رجل ضل عن طريق تائهاً، إذ ناداه مناد: يا فلان ابن فلان هلم إلى الطريق، وله أصحاب يدعون يا فلان هلم إلى الطريق، فإن اتبع الداعي الأول انطلق به حتى يلقيه إلى الهلكة، وإن أجاب من يدعو إلى الهدى اهتدى إلى الطريق، يقول: مثل من يعبد هذه الآلهة من دون الله فإنه يرى أنه في شيء حتى يأتيه الموت فيستقبل الندامة والهلكة .

وقوله تعالى: ﴿كالذي استهوت الشياطين في الأرض﴾ هم الغيلان يدعونه باسمه واسم أبيه وجده، فيتبعها، وهو يرى أنه في شيء، فيصبح وقد رمته في هلكة، وربما أكلته، أو تلقى في مضلة من الأرض يهلك فيها عطشاً، فهذا مثل من أجاب الآلهة التي تعبد من دون الله عز وجل رواه ابن جرير. وقال مجاهد: ﴿كالذي استهوت الشياطين في الأرض حيران﴾ قال: رجل حيران يدعو أصحابه إلى الطريق، وذلك مثل من يضل من بعد أن هدى. وقال العوفي عن ابن عباس: هو الذي لا يستجيب لهدى الله، وهو رجل أطاع الشيطان، وعمل في الأرض بالمعصية، وحاد من الحق، وضل عنه، وله أصحاب يدعون إلى الهدى ويزعمون أن الذي يأمرونه به هدى، يقول الله ذلك لأولياءهم من الإنس ﴿إن الهدى هدى الله﴾ والضلال ما يدعو إليه الجن، رواه ابن جرير، ثم قال: وهذا يقتضي أن أصحابه يدعون إلى الضلال ويزعمون أنه هدى، قال: وهذا خلاف ظاهر الآية، فإن الله أخبر أنهم يدعون إلى الهدى، فغير جائز أن يكون ضلالاً وقد أخبر الله أنه هدى، وهو كما قال ابن جرير، فإن السياق يقتضي أن هذا الذي استهوت الشياطين في الأرض حيران، وهو منصوب على الحال أي في حال حيرته وضلاله وجهله وجه المحجة، وله أصحاب على المحجة سائرون، فجعلوا يدعونهم إليهم وإلى الذهاب معهم على الطريقة المثلى وتقدير الكلام. فيأبى عليهم ولا يلتفت إليهم ولو شاء الله لهداه ولرد به إلى الطريق، ولهذا قال: ﴿قل إن هدى الله هو الهدى﴾ كما قال: ﴿ومن يهد الله فما له من مضل﴾، وقال: ﴿إن تحرص على هداهم فإن الله لا يهدي من يضل وما لهم من ناصرين﴾ وقوله: ﴿وأمرنا لنسلم لرب العالمين﴾ أي نخلص له العبادة وحده لا شريك له ﴿وأن أقموا الصلاة واتقوه﴾ أي وأمرنا بإقامة الصلاة وبتقواه في جميع الأحوال، ﴿وهو الذي إليه تحشرون﴾ أي يوم القيامة، ﴿وهو الذي خلق السموات والأرض بالحق﴾ أي بالعدل فهو خالقهما ومالكهما والمدبر لهما ولمن فيهما، وقوله: ﴿ويوم يقول كن فيكون﴾ يعني يوم القيامة الذي يقول الله كن فيكون عن أمره كلمح البصر أو هو أقرب، واختلف المفسرون في قوله: ﴿يوم ينفخ في الصور﴾، فقال بعضهم: المراد بالصور هنا جمع صورة أي يوم ينفخ فيها فتحيا. قال ابن جرير كما يقال: سور لسور البلد، وهو جمع سورة، والصحيح أن المراد بالصور القرن الذي ينفخ فيه إسرافيل عليه السلام، قال ابن جرير: والصواب عندنا ما تظاهرت به الأخبار عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن إسرافيل قد التقم الصور وحنى جبهته متى يؤمر فينفخ»^(٢). وقال الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو قال، قال أعرابي: يا رسول الله ما الصور؟ قال: «قرن ينفخ فيه» .

(٢) رواه مسلم في صحيحه .

(١) رواه ابن جرير .

* وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ أَزْرًا اتَّخَذُ أَصْنَامًا هِيَ إِلَهِي أَرَأَيْتَ إِذْ أُرْسِلْتُمْ فِي بِلَادِكُمْ فَتَبَوَّأْتُمْ حَتَّىٰ تَبْلُغُوا الْمَدَائِنَ وَالْعُقُوبَ وَقُلْتُمْ لِأَعْيُنِنَا سَبِّحُوا بِحَمْدِ رَبِّكُمْ جَاثِرِينَ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِقَوْمِهِ إِخْوَانِي إِنِّي كُنْتُ نَذِيرًا لَّكُمْ وَلَٰكِن لَّمْ يَهْتَدُوا فَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَ وَالنَّبِيَّاتِ تَتْلُو آيَاتِنَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٧٤﴾ وَكَذَلِكَ نَرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَلَيْكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أَحِبُّ الْآفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِعَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يُقَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجْهٌ وَجَّهْتُ لِلدِّينِ فَطَرَ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾

قال الضحاك عن ابن عباس: إن أبا إبراهيم لم يكن اسمه آزر، وإنما كان اسمه تارخ، وقال مجاهد والسدي: آزر اسم صنم، قلت: كأنه غلب عليه آزر لخدمته ذلك الصنم فالله أعلم، وقال ابن جرير: هو سب وعيب بكلامهم، ومعناه معوج، وهي أشد كلمة قالها إبراهيم عليه السلام، ثم قال ابن جرير: والصواب أن اسم أبيه آزر، وقد يكون له اسمان كما لكثير من الناس، أو يكون أحدهما لقباً، وهذا الذي قاله جيد قوي والله أعلم. وقرأ الجمهور بالفتح، إما على أنه علم أعجمي لا ينصرف، وهو بدل من قوله لأبيه، أو عطف بيان وهو أشبه، والمقصود أن إبراهيم وعظ أباه في عبادة الأصنام وزجره عنها فلم ينته كما قال: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ أَزْرًا اتَّخَذُ أَصْنَامًا آلِهَةً﴾ أي أتتاه لصنم تعبد من دون الله ﴿إِنِّي أُرَاكَ وَقَوْمَكَ﴾ أي السالكون مسلكك ﴿فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ أي تائهين، لا يهتدون أين يسلكون بل في حيرة وجهل، وأمرهم في الجهالة والضلال بين واضح لكل ذي عقل سليم، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ كَرِهَ اللَّهُ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يَدْعُوا بِهِمْ أَبْنَاءَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا لِيَفْجُرُوا فِيهَا سَبِيلًا﴾ واذكر في الكتاب إبراهيم إنه كان صديقاً نبياً * إذ قال لأبيه يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً * يا أبت إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك فاتبعني أهدك صراطاً سوياً، فكان إبراهيم عليه السلام يستغفر لأبيه مدة حياته، فلما مات على الشرك وتبين إبراهيم ذلك رجع عن الاستغفار له وتبرأ منه، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَّهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾، وثبت في الصحيح أن إبراهيم يلقي أباه آزر يوم القيامة، فيقول له آزر: يا بني اليوم لا أعصيك، فيقول إبراهيم أي رب ألم تعدني أنك لا تخزني يوم يبعثون، وأي خزي أخزي من أبي الأبعد؟ فيقال: يا إبراهيم انظر ما وراءك، فإذا هو بذبج متلطح فيؤخذ بقوامه فيلقى في النار، وقوله: ﴿وَكَذَلِكَ نَرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي نبين له وجه الدلالة في نظره إلى خلقهما على وحدانية الله عز وجل في ملكه وخلقه وأنه لا إله غيره ولا رب سواه، كقوله: ﴿قُلْ انظروا ماذا في السموات والأرض﴾ .

وقوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ يَنْظُرُونَ فِي مَلَكُوتِ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ﴾، وقال: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾. وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿وَكَذَلِكَ نَرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَلَيْكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، فإنه تعالى جلي له الأمر سره وعلايته، فلم يخف عليه شيء من أعمال الخلائق،

فيحتمل أن يكون كشف له عن « بصره » حتى رأى ذلك عياناً، ويحتمل أن يكون عن « بصيرته » حتى شاهده بفؤاده وتحققه وعرفه وعلم ما في ذلك من الحكم الباهرة والدلالات القاطعة، كما رواه الإمام أحمد والترمذي عن معاذ بن جبل في حديث المنام: « أتاني ربي في أحسن صورة فقال: يا محمد فيم يختصم الملائة الأعلى؟ فقلت: لا أدري يا رب، فوضع يده بين كتفي حتى وجدت برد أنامله بين ثديي فتجلى لي كل شيء وعرفت ذلك » وذكر الحديث. وقوله: ﴿ وليكون من الموقنين ﴾ قيل الواو زائدة تقديره: وكذلك نري إبراهيم ملكوت السموات والأرض ليكون من الموقنين، كقوله: ﴿ وكذلك نفصل الآيات ولتستبين سبيل المجرمين ﴾، وقيل: بل هي على بابها أي نريه ذلك ليكون عالماً وموقناً .

وقوله تعالى: ﴿ فلما جن عليه الليل ﴾ أي تغشاه وستره ﴿ رأى كوكباً ﴾ أي نجماً^(١)، ﴿ قال هذا ربي فلما أفل ﴾ أي غاب. قال محمد بن إسحاق الأفل: الذهاب، وقال ابن جرير: يقال أفل النجم يأفل ويأفل أفولاً وأفلاً: إذا غاب، ومنه قول ذي الرمة :

مصايح ليست باللواتي تقودها دياج ولا بالآفلات الزوائل

ويقال: أين أفلت عنا؟ بمعنى أين غبت عنا. ﴿ قال: لا أحب الآفلين ﴾، قال قتادة: علم أن ربه دائم لا يزول ﴿ فلما رأى القمر بازغاً ﴾ أي طالماً، ﴿ قال هذا ربي فلما أفل قال ﴾ لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين، ﴿ فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي ﴾ أي هذا المنير الطالع ربي ﴿ هذا أكبر ﴾ أي جرماً من النجم ومن القمر وأكثر إضاءة، ﴿ فلما أفلت ﴾ أي غابت ﴿ قال يا قوم إني بريء مما تشركون * إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض ﴾ أي خلقهما ﴿ حنيفاً وما أنا من المشركين ﴾ أي أخلصت ديني وأفردت عبادتي ﴿ للذي فطر السموات والأرض ﴾ أي خلقهما وابتدعهما على غير مثال سبق ﴿ حنيفاً ﴾ أي في حال كوني حنيفاً أي مائلاً عن الشرك إلى التوحيد، ولهذا قال: ﴿ وما أنا من المشركين ﴾. وقد اختلف المفسرون في هذا المقام: هل هو مقام نظر أو مناظرة؟ فروى ابن جرير عن ابن عباس ما يقتضي أنه مقام نظر، واختاره ابن جرير مستدلاً بقوله: ﴿ لئن لم يهدني ربي ﴾ الآية. وقال محمد بن إسحاق: قال ذلك حين خرج من السرب الذي ولدته فيه أمه حين تحوّفت عليه من نمرود بن كنعان، لما كان قد أخبر بوجود مولود يكون ذهاب ملكه على يديه، فأمر بقتل الغلمان عامثذ، فلما حملت أم إبراهيم به وحنان وضعها ذهبت به إلى سرب ظاهر البلد، فولدت فيه إبراهيم وتركته هناك، وذكر أشياء من خوارق العادات، كما ذكرها غيره من المفسرين من السلف والخلف .

والحق أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام كان في هذا المقام مناظراً لقومه مبيناً لهم بطلان ما كانوا عليه من عبادة الهياكل والأصنام، فبين في المقام الأول مع أبيه خطأهم في عبادة الأصنام الأرضية التي هي على صور الملائكة السماوية ليشفوا لهم إلى الخالق العظيم الذين هم عند أنفسهم أحقر من أن يعبدوه، وإنما يتوسلون إليه بعبادة ملائكته ليشفوا لهم عنده في الرزق والنصر وغير ذلك مما يحتاجون إليه، وبين في هذا المقام خطأهم وضلالهم في عبادة الهياكل وهي الكواكب السيارة السبعة المتحيرة، وهي (القمر وعطارد والزهرة والشمس والمريخ والمشتري وزحل)

(١) قيل: الزهرة، وقيل: المشتري، وهو قول الطبري، وكان قومه يعبدون الكواكب .

وأشدهن إضاءة وأشرفهن عندهم الشمس ثم القمر، ثم الزهرة، فبين أولاً صلوات الله وسلامه عليه أن هذه الزهرة لا تصلح للإلهية، فإنها مسخرة مقدره بسير معين لا تزيف عنه يمينا ولا شمالاً، ولا تملك لنفسها تصرفاً، بل هي جرم من الأجرام خلقها الله منيرة لما له في ذلك من الحكم العظيمة، وهي تطلع من الشرق ثم تسير فيما بينه وبين المغرب حتى تغيب عن الأبصار فيه، ثم تبدو في الليلة القابلة على هذا المنوال، ومثل هذه لا تصلح للإلهية، ثم انتقل إلى القمر، فبين فيه مثل ما بين في النجم، ثم انتقل إلى الشمس كذلك، فلما انتفت الإلهية عن هذه الأجرام الثلاثة التي هي أنور ما تقع عليه الأبصار وتحقق ذلك بالدليل القاطع ﴿ قال يا قوم إني برىء مما تشركون ﴾ أي أنا برىء من عبادتهم ومولاتهم، فإن كانت آلهة فكيدوني بها جميعاً ثم لا تنظرون ﴿ إني وجهي وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين ﴾ أي إنما أعبد خالق هذه الأشياء ومسخرها ومقدرها ومدبرها الذي بيده ملكوت كل شيء وخالق كل شيء وربّه ومليكه وإلهه، كما قال تعالى: ﴿ إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يغشي الليل النهار يطلبه حثيثاً والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره، ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين ﴾، وكيف يجوز أن يكون إبراهيم ناظراً في هذا المقام وهو الذي قال الله في حقه: ﴿ ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين ﴾ إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون ﴿ الآيات، وقال تعالى: ﴿ إن إبراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفاً ولم يك من المشركين ﴾ شاكراً لأنعمه اجتنابه وهداه إلى صراط مستقيم ﴿ .

وقوله تعالى: ﴿ قل إني هداني ربي إلى صراط مستقيم ديناً قديماً ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين ﴾، وقد ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: « كل مولود يولد على الفطرة »، وفي صحيح مسلم عن عياض بن حماد أن رسول الله ﷺ قال: « قال الله إني خلقت عبادي حنفاء »، وقال الله في كتابه العزيز: ﴿ فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ﴾، وقال تعالى: ﴿ وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم؟ قالوا بلى ﴾، ومعناه على أحد القولين كقوله: ﴿ فطرة الله التي فطر الناس عليها ﴾، كما سيأتي بيانه، فإذا كان هذا في حق سائر الخليفة، فكيف يكون إبراهيم الخليل الذي جعله الله أمة قانتاً لله حنيفاً ولم يك من المشركين ناظراً في هذا المقام، بل هو أولى الناس بالفطرة السليمة والسجية المستقيمة بعد رسول الله ﷺ بلا شك ولا ريب، ومما يؤيد أنه كان في هذا المقام مناظراً لقومه فيما كانوا فيه من الشرك لا ناظراً، قوله تعالى:

وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحْجُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِي وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا ءِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْآمَنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ جُبَّتَا ءَاتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ ۗ

نَزَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّسَاءٍ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾

يقول تعالى مخبراً عن خليله إبراهيم حين جادله قومه فيما ذهب إليه من التوحيد، وناظروه بشبهه من القول أنه قال: ﴿أتحاجوني في الله وقد هدان﴾ أي أتجادلونني في أمر الله وأنه لا إله إلا هو، وقد بصّرني وهداني إلى الحق وأنا على بينة منه، فكيف ألتفت إلى أقوالكم الفاسدة وشبهكم الباطلة؟ وقوله: ﴿ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربي شيئاً﴾ أي ومن الدليل على بطلان قولكم فيما ذهبتُم إليه أن هذه الآلهة التي تعبدونها لا تؤثر شيئاً وأنا لا أخافها ولا أباؤها، فإن كان لها كيد فكيدوني بها ولا تنظرون بل عاجلوني بذلك، وقوله تعالى: ﴿إلا أن يشاء ربي شيئاً﴾، استثناء منقطع أي لا يضر ولا ينفع إلا الله عز وجل ﴿وسع ربي كل شيء علماً﴾ أي أحاط علمه بجميع الأشياء فلا تخفى عليه خافية، ﴿أفلا تتذكرون﴾ أي فيما بينت لكم، أفلا تعتبرون أن هذه الآلهة باطلة فتترجروا عن عبادتها؟ وهذه الحجة نظير ما احتج بها نبي الله هود عليه السلام على قومه عاد فيما قص عنهم في كتابه حيث يقول: ﴿قالوا يا هود ما جئتنا ببينة وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين * إن نقول إلا اعتراك بعض آهتنا بسوء قال إني أشهد الله واشهدوا أني بريء مما تشركون من دونه فكيدوني جميعاً ثم لا تنظرون * إني توكلت على الله ربي وربكم ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها﴾ الآية، وقوله: ﴿وكيف أخاف ما أشركتم﴾ أي كيف أخاف من هذه الأصنام التي تعبدونها من دون الله ﴿ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطاناً﴾، قال ابن عباس وغير واحد من السلف: أي حجة، وهذا كقوله تعالى: ﴿أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله﴾ .

وقوله تعالى: ﴿إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان﴾، وقوله: ﴿فأي الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون﴾ أي فأي طائفتين أصوب، الذي عبد من بيده الضر والنفع، أو الذي عبد من لا يضر ولا ينفع بلا دليل؟ أيهما أحق بالأمن من عذاب الله يوم القيامة المؤمن أم المشرك؟ قال الله تعالى: ﴿الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون﴾ أي هؤلاء الذين أخلصوا العبادة لله وحده لا شريك له ولم يشركوا به شيئاً هم الآمنون يوم القيامة المهتدون في الدنيا والآخرة. عن عبد الله بن مسعود قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم﴾ شق ذلك على الناس، فقالوا: يا رسول الله أينما لا يظلم نفسه؟ قال: «إنه ليس الذي تعنون، ألم تسمعوا ما قال العبد الصالح: ﴿يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم﴾ إنما هو الشرك»^(١). وفي رواية لما نزلت: ﴿ولم يلبسوا إيمانهم بظلم﴾ شق ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ قالوا: وأينما لم يظلم نفسه؟ فقال رسول الله ﷺ: «ليس كما تظنون إنما هي كما قال العبد الصالح لابنه: ﴿يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم﴾»، وفي لفظ قالوا: أينما لم يظلم نفسه؟ فقال النبي ﷺ: «ليس بالذي تعنون، ألم تسمعوا ما قال العبد الصالح: ﴿إن الشرك لظلم عظيم﴾ إنما هو الشرك». ولابن أبي حاتم عن عبد الله مرفوعاً

(١) رواه أحمد وابن أبي حاتم، وأخرجه البخاري بلفظ: شق ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ .

قال: ﴿ ولم يلبسوا إيمانهم بظلم ﴾ قال: « بشرك »^(١). وعن عبد الله قال: لما نزلت ﴿ الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم ﴾ قال رسول الله ﷺ: « قيل لي أنت منهم ».

وقال الإمام أحمد، حدثنا إسحاق بن يوسف، حدثنا أبو جناب عن زاذان عن جرير بن عبد الله قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ، فلما برزنا من المدينة إذا راكب يوضع نحونا، فقال رسول الله ﷺ: « كأن هذا الراكب إياكم يريد » فاتسنى إلينا الرجل، فسلم فرددنا عليه، فقال له النبي ﷺ: « من أين أقبلت؟ » قال: من أهلي وولدي وعشيرتي قال: « فأين تريد؟ » قال: أريد رسول الله ﷺ قال: « فقد أصبته » قال: يا رسول الله علمني ما الإيمان؟ قال: « أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت » قال: قد أقررت، قال: ثم إن بعيره دخلت يده في جحر جردان فهوى بعيره، وهوى الرجل فوقه على هامته فمات. فقال رسول الله ﷺ: « عليّ بالرجل »، فوثب إليه عمار بن ياسر وحذيفة بن اليمان فأقعدها، فقالا: يا رسول الله قبض الرجل، قال: فأعرض عنهما رسول الله ﷺ، ثم قال لهما رسول الله ﷺ: « أما رأيتما إعراضي عن الرجل، فإني رأيت ملكين يداً في فيه من ثمار الجنة، فعلمت أنه مات جائعاً » ثم قال رسول الله ﷺ: « هذا من الذين قال الله عز وجل فيهم: ﴿ الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم ﴾ الآية، ثم قال: « دونكم أحاكم » فاحتملناه إلى الماء فغسلناه وحنظناه وكفناه وحملناه إلى القبر، فجاء رسول الله ﷺ حتى جلس على شفير القبر، فقال: « ألعنوا ولا تشقوا فإن اللحد لنا والشق لغيرنا »، وفي بعض الروايات هذا ممن عمل قليلاً وأجر كثيراً.

وروى ابن مردويه عن عبد الله بن سخرية قال، قال رسول الله ﷺ: « من أعطى فشكر ومنع فصبر وظلم فاستغفر وظلم فغفر » وسكت قال: فقالوا: يا رسول الله ما له؟ قال: ﴿ أولئك لهم الأمن وهم مهتدون ﴾^(٢). وقوله: ﴿ وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه ﴾ أي وجهنا حجته عليهم. قال مجاهد وغيره يعني بذلك قوله: ﴿ وكيف أخاف ما أشركتم ولا تحافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطاناً فأي الفريقين أحق بالأمن ﴾ الآية. وقد صدقه الله وحكم له بالأمن والهداية فقال: ﴿ الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون ﴾، ثم قال بعد ذلك كله: ﴿ وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء ﴾ قرئ بالإضافة وبلا إضافة، وكلاهما قريب في المعنى. وقوله: ﴿ إن ربك حكيم عليم ﴾ أي حكيم في أقواله وأفعاله، عليم: أي بمن يهديه ومن يضلّه وإن قامت عليه الحجج والبراهين، كما قال: ﴿ إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم ﴾، ولهذا قال ههنا: ﴿ إن ربك حكيم عليم ﴾.

(١) وروي عن أبي بكر وعمر وأبي بن كعب وحذيفة وابن عمر وعكرمة والضحاك وقتادة والسدي.

(٢) في اللباب: أخرج ابن أبي حاتم: حمل رجل من العدو على المسلمين، فقتل رجلاً ثم حمل فقتل آخر، ثم حمل فقتل آخر، ثم قال: أينفعني الإسلام بعد هذا؟ فقال رسول الله ﷺ: « نعم »، فضرب فرسه، فدخل فيهم، ثم حمل على أصحابه فقتل رجلاً ثم آخر ثم آخر، ثم قتل. فيرون أن هذه الآية ﴿ الذين آمنوا... ﴾ نزلت فيه.

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ ۚ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۗ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحِطَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هُنَّ لِآءٌ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَّتْهُمْ أَلْقَدَهُ ۚ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٩٠﴾

يذكر تعالى أنه وهب لإبراهيم (إسحق) بعد أن طعن في السن، وأيس هو وامرأته (سارة) من الولد، فجاءته الملائكة وهم ذاهبون إلى قوم لوط، فبشروها بإسحاق، فتعجبت المرأة من ذلك، وقالت: ﴿ يا بولتي أألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخاً إن هذا لشيء عجيب ﴾، فبشروها مع وجوده بنوته وبأن له نسلاً وعقباً، كما قال تعالى: ﴿ وبشرناه بإسحق نبياً من الصالحين ﴾، وهذا أكمل في البشارة وأعظم في النعمة، وقال: ﴿ فبشرناها بإسحق ومن وراء إسحق يعقوب ﴾ أي ويولد لهذا المولود ولد في حياتكما فتقر أعينكما به كما قرت بوالده، فإن الفرح بولد الولد شديد، لبقاء النسل والعقب، ولما كان ولد الشيخ والشيخة قد يتوهم أنه لا يعقب لضعفه وقعت البشارة به وبولده باسم يعقوب الذي فيه اشتقاق العقب والذرية، وكان هذا مجازاة لإبراهيم عليه السلام حين اعترل قومه وتركهم ونزح عنهم، وهاجر من بلادهم ذاهباً إلى عبادة الله في الأرض، فعوضه الله عز وجل عن قومه وعشيرته بأولاد صالحين من صلبه على دينه لتقر بهم عينه، كما قال تعالى: ﴿ فلما اعترلم وما يعبدون من دون الله وهبنا له إسحق ويعقوب وكلاً جعلنا نبياً ﴾، وقال ههنا: ﴿ ووهبنا له إسحق ويعقوب كلاً هدينا ﴾، وقوله: ﴿ ونوحاً هدينا من قبل ﴾ أي من قبله هديناه كما هديناه ووهبنا له ذرية صالحة، وكل منهما له خصوصية عظيمة، أما نوح عليه السلام فإن الله تعالى لما أغرق أهل الأرض إلا من آمن به - وهم الذين صحبوه في السفينة - جعل الله ذريته هم الباقين فالناس كلهم من ذريته، وأما الخليل إبراهيم عليه السلام فلم يبعث الله عز وجل بعده نبياً إلا من ذريته كما قال تعالى: ﴿ وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب ﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿ ولقد أرسلنا نوحاً وإبراهيم وجعلنا في ذريتهما النبوة والكتاب ﴾ .

وقال تعالى: ﴿ أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم ومن حملنا مع نوح ومن ذرية إبراهيم وإسرائيل ومن هدينا واجتبننا ﴾، وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿ ومن ذريته ﴾ أي وهدينا من ذريته ﴿ داود وسليمان ﴾ الآية، وعود الضمير إلى نوح لأنه أقرب المذكورين ظاهر لا إشكال فيه، وهو اختيار ابن جرير، وعوده إلى إبراهيم لأنه الذي سبق الكلام من أجله حسن، لكن يشكل عليه لوط، فإنه ليس من ذرية إبراهيم،

بل هو ابن أخيه هاران بن آزر، اللهم إلا أن يقال: إنه دخل في الذرية تغليياً، كما في قوله: ﴿أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي؟ قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحق إلهاً واحداً ونحن له مسلمون﴾، فإسماعيل عمه دخل في آبائه تغليياً، وكما قال في قوله: ﴿فسجد الملائكة كلهم أجمعون إلا إبليس﴾. فدخل إبليس في أمر الملائكة بالسجود وذم على المخالفة، لأنه كان في تشبه بهم فعومل معاملتهم ودخل معهم تغليياً، وإلا فهو كان من الجن وطبيعته من النار والملائكة من النور، وفي ذكر عيسى عليه السلام في ذرية إبراهيم أو نوح على القول الآخر دلالة على دخول ولد البنات في ذرية الرجل، لأن عيسى عليه السلام إنما ينسب إلى إبراهيم عليه السلام بأمه (مريم) عليها السلام فإنه لا أب له .

روي أن الحجاج أرسل إلى يحيى بن يعمر فقال: بلغني أنك تزعم أن الحسن والحسين من ذرية النبي ﷺ تجده في كتاب الله، وقد قرأته من أوله إلى آخره، فلم أجده؟ قال: أليس تقرأ سورة الأنعام: ﴿ومن ذريته داود وسليمان﴾ حتى بلغ ﴿ويحيى وعيسى﴾؟ قال: بلى، قال: أليس عيسى من ذرية إبراهيم وليس له أب؟ قال: صدقت^(١). فلهذا إذا أوصى الرجل لذريته أو وقف على ذريته، أو وهبهم دخل أولاد البنات فيهم، فأما إذا أعطى الرجل بنيه أو وقف عليهم فإنه يختص بذلك بنوه لصلبه وبنو بنيه، واحتجوا بقول الشاعر العربي:

بنونا بنو أبائنا ، وبناتنا بنوهن أبناء الرجال الأجانب

وقال آخرون: ويدخل بنو البنات فيهم أيضاً، لما ثبت في صحيح البخاري أن رسول الله ﷺ قال للحسن بن علي: «إن ابني هذا سيد، ولعل الله أن يصلح به بين فتيين عظيمتين من المسلمين» فسماه ابناً، فدل على دخوله في الأبناء، وقال آخرون: هذا تجوز. وقوله: ﴿ومن آبائهم وذرياتهم وإخوانهم﴾ ذكر أصولهم وفروعهم، وذوي طبقتهم وأن الهداية أو الاجتباء شملهم كلهم، ولهذا قال: ﴿واجتبيناهم وهديناهم إلى صراط مستقيم﴾، ثم قال تعالى: ﴿ذلك هدى الله يهدي به من يشاء من عباده﴾ أي إنما حصل لهم ذلك بتوفيق الله وهدايته إياهم ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون﴾ تشديد لأمر الشرك وتغليظ لشأنه وتعظيم لملاسته كقوله تعالى: ﴿ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك﴾ الآية، وهذا شرط، والشرط لا يقتضي جواز الوقوع كقوله: ﴿قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين﴾، وكقوله: ﴿لو أردنا أن نتخذ لهواً لاتخذناه من لدنا إن كنا فاعلين﴾، وكقوله: ﴿لو أراد الله أن يتخذ ولداً لأصطفى مما يخلق ما يشاء سبحانه هو الله الواحد القهار﴾ .

وقوله تعالى: ﴿أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة﴾ أي أنعمنا عليهم بذلك رحمة للعباد بهم ولطفاً منا بالخلقة، ﴿فإن يكفر بها﴾ أي بالنبوة، ويحتمل أن يكون الضمير عائداً على هذه الأشياء الثلاثة: الكتاب والحكم والنبوة، ﴿هؤلاء﴾ يعني أهل مكة^(٢)، ﴿فقد وكلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين﴾ أي إن يكفر بهذه النعم من كفر بها من قريش وغيرهم من سائر أهل الأرض من عرب وعجم وملين وكتائبين، فقد وكلنا بها قوماً آخرين، أي المهاجرين والأنصار وأتباعهم إلى يوم القيامة، ﴿ليسوا بها بكافرين﴾ أي لا يحفلون منها شيئاً ولا يردون

(٢) وهو قول ابن عباس والضحاك وقتادة والسدي وغيرهم .

(١) رواه ابن أبي حاتم .

منها حرفاً واحداً بل يؤمنون بجميعها محكمها ومتشابهها، جعلنا الله منهم بمنه وكرمه وإحسانه. ثم قال تعالى مخاطباً عبده ورسوله محمداً ﷺ: ﴿أولئك﴾ يعني الأنبياء المذكورين مع من أضيف إليهم من الآباء والذرية والإخوان وهم الأشباه ﴿الذين هدى الله﴾ أي هم أهل الهدى لا غيرهم ﴿فبهدهم اقتده﴾ أي اقتد واتبع، وإذا كان هذا للرسول ﷺ فأمته تبع له فيما يشرعه ويأمرهم به، قال البخاري عند هذه الآية عن سليمان الأحول أن مجاهداً أخبره أنه سأل ابن عباس: أفي (ص) سجدة؟ فقال: نعم، ثم تلا: ﴿ووهبنا له إسحق ويعقوب﴾ إلى قوله: ﴿فبهدهم اقتده﴾ ثم قال: هو منهم، زاد يزيد بن هارون ومحمد بن عبيد وسهيل بن يوسف عن العوام عن مجاهد قلت لابن عباس، فقال: نبيكم ﷺ من أمر أن يقتدى بهم، وقوله تعالى: ﴿قل لا أسألكم عليه أجرأ﴾ أي لا أطلب منكم على إبلاغي إياكم هذا القرآن أجرأ أي أجرة ولا أريد منكم شيئاً، ﴿إن هو إلا ذكرى للعالمين﴾ أي يتذكرون به فيرشدوا من العمى إلى الهدى، ومن الغي إلى الرشاد، ومن الكفر إلى الإيمان.

* وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَيَّ بَشَرًا مِّنْ شَيْءٍ قُلْ مَن أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ لِيَجْعَلُوهُ قُرْآنًا مَّجِيدًا لِّمَن لَّمْ يُعْلَمْ مَا تَدْعُونَ بِمُغْيِبَاتٍ وَكَثِيرًا مِّنْ ظُلُمَاتٍ لَّيْلٍ قَدِ انقَضَتْ وَكُلٌّ مِّنَ اللَّيْلِ يَبِطُونَ ﴿٩١﴾ وَهَذَا كِتَابٌ مُّبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾

يقول الله تعالى: وما عظموا الله حق تعظيمه إذ كذبوا رسله إليهم. قال ابن عباس ومجاهد: نزلت في قريش، واختاره ابن جرير، وقيل: نزلت في طائفة من اليهود. وقيل: في فنحاص رجل منهم. وقيل: في مالك بن الصيف^(١) ﴿إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء﴾، والأول أصح، لأن الآية مكية واليهود لا ينكرون إنزال الكتب من السماء، وقريش والعرب قاطبة كانوا ينكرون إرسال محمد ﷺ لأنه من البشر، كما قال: ﴿أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس﴾، وكقوله تعالى: ﴿وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشراً رسولاً﴾، وقال ها هنا: ﴿وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء﴾، قال الله تعالى: ﴿قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نوراً وهدى للناس﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المنكرين لإينزال شيء من الكتب من عند الله في جواب سلبهم العام بإثبات قضية جزئية موجبة ﴿من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى﴾ وهو التوراة التي قد علمتم وكل أحد أن الله قد أنزلها على موسى بن عمران ﴿نوراً وهدى للناس﴾ أي ليستضاء بها في كشف المشكلات ويهتدى بها من ظلم الشبهات، وقوله: ﴿ليجعلونه قرآناً مبدوناً﴾ أي يجعلون جملتها قرآناً، أي قطعاً تكتبونها من الكتاب الأصلي الذي بأيديكم، وتحرفون منها ما

(١) في الباب: أخرج ابن أبي حاتم: خاصم مالك بن الصيف اليهودي النبي ﷺ، فقال له النبي: «أنشدك بالذي أنزل التوراة على موسى، هل تجد في التوراة أن الله يبغض الحبر السمين؟ وكان حبراً سمياً، فغضب، وقال: ما أنزل الله على بشر من شيء، فأنزل الله: ﴿وما قدروا الله﴾ الآية.

تحرفون، وتبدلون وتتأولون وتقولون: هذا من عند الله أي في كتابه المنزل وما هو من عند الله، ولهذا قال: ﴿تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيراً﴾. وقوله تعالى: ﴿وعلمتم ما لم تعلموا أتم ولا آباؤكم﴾ أي ومن أنزل القرآن الذي علمكم الله فيه من خبر ما سبق، ونبأ ما يأتي ما لم تكونوا تعلمون ذلك لا أتم ولا آباؤكم، وقد قال قتادة: هؤلاء مشركو العرب، وقال مجاهد: هذه للمسلمين.

وقوله تعالى: ﴿قل الله﴾، قال ابن عباس: أي قل الله أنزله، وهذا الذي قاله ابن عباس هو المتعين في تفسير هذه الكلمة، لا ما قاله بعض المتأخرين من أن معنى ﴿قل الله﴾ أي لا يكون خطابك لهم إلا هذه الكلمة كلمة «الله»، وهذا الذي قاله هذا القائل يكون أمراً بكلمة مفردة من غير تركيب، والإتيان بكلمة مفردة لا يفيد في لغة العرب فائدة يحسن السكوت عليها. وقوله ﴿ثم ذرهم في حوضهم يلبعون﴾ أي ثم دعهم في جهلهم وضلالهم يلبعون حتى يأتيهم من الله اليقين، فسوف يعلمون ألم العاقبة أم لعباد الله المتقين؟ وقوله: ﴿وهذا كتاب﴾ يعني القرآن ﴿أنزلناه مبارك مصدق الذي بين يديه ولتنذر أم القرى﴾ يعني مكة ﴿ومن حولها﴾ من أحياء العرب ومن سائر طوائف بني آدم من عرب وعجم، كما قال في الآية الأخرى: ﴿قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً﴾، وقال: ﴿لأنذرکم به ومن بلغ﴾، وقال: ﴿ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده﴾، وقال: ﴿تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً﴾، وثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي» وذكر منهن: «وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعث إلى الناس عامة»، ولهذا قال: ﴿والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به﴾ أي كل من آمن بالله واليوم الآخر يؤمن بهذا الكتاب المبارك الذي أنزلناه إليك يا محمد وهو القرآن، ﴿وهم على صلاتهم يحافظون﴾ أي يقيمون بما فرض عليهم من أداء الصلوات في أوقاتها.

* وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُحْجَرُونَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِنَا تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾

يقول تعالى: ﴿ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً﴾ أي لا أحد أظلم من كذب على الله فجعل له شركاء أو ولداً، أو ادعى أن الله أرسله إلى الناس ولم يرسله، ولهذا قال تعالى: ﴿أو قال أوحى إلي ولم يوح إليه شيء﴾، قال عكرمة وقاتادة: نزلت في مسيلمة الكذاب^(١)، ﴿ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله﴾ أي ومن ادعى أنه يعارض

(١) مسيلمة: هو أبو ثمامة، ابن حبيب، من بني أنال وهو خنيفة، عرفوا بأهمهم وهي بنت كاهل بن أسد بن خزيمه، وكان يزعم =

ما جاء من عند الله من الوحي مما يفتره من القول^(١)، كقوله تعالى: ﴿وإذا تلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا﴾ الآية. قال الله تعالى: ﴿ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت﴾ أي في سكراته وغمراته وكرباته، ﴿والملائكة باسطوا أيديهم﴾ أي بالضرب، كقوله: ﴿لئن بسطت إلي يدك لتقتلني﴾ الآية، وقوله: ﴿بيسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء﴾ الآية، وقال الضحّاك: ﴿باسطوا أيديهم﴾ أي بالعذاب، كقوله: ﴿ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم﴾، ولهذا قال: ﴿والملائكة باسطوا أيديهم﴾ أي بالضرب لهم حتى تخرج أنفسهم من أجسادهم، ولهذا يقولون لهم: ﴿أخرجوا أنفسكم﴾، وذلك أن الكافر إذا احتضر بشرته الملائكة بالعذاب والنكال والأغلال والسلاسل والجحيم والحميم وغضب الرحمن الرحيم، فتنفرك روحه في جسده، وتعصى، وتأبى الخروج، فتضربهم الملائكة حتى تخرج أرواحهم من أجسادهم، قائلين لهم: ﴿أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق﴾ الآية، أي اليوم تهانون غاية الإهانة كما كنتم تكذبون على الله وتستكبرون اتباع آياته والانقياد لرسله، وقد وردت الأحاديث المتواترة في كيفية احتضار المؤمن والكافر، وهي مقررة عند قوله تعالى: ﴿يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة﴾.

وقوله تعالى: ﴿ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة﴾، أي يقال لهم يوم معادهم^(٢) هذا، كما قال: ﴿وعرضوا على ربك صفاً لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة﴾ أي كما بدأناكم أعدناكم، وقد كنتم تنكرون ذلك وتستبعدونه فهذا يوم البعث، وقوله: ﴿وتركتكم ما خولناكم وراء ظهوركم﴾ أي من النعم والأموال التي اقتنيتموها في الدار الدنيا وراء ظهوركم، وثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «يقول ابن آدم: مالي مالي ! وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفئيت، أو لبست فألبيت، أو تصدقت فأبقيت؟ وما سوى ذلك فذهب وتاركه للناس». وقال الحسن البصري: يؤتى باين آدم يوم القيامة كأنه بزج فيقول الله عز وجل: أين ما جمعت؟ فيقول: يا رب جمعته وتركته أوفر ما كان، فيقول له: يا ابن آدم أين ما قدمت لنفسك؟ فلا يراه قدم شيئاً، وتلا هذه الآية: ﴿ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتكم ما خولناكم وراء ظهوركم﴾ الآية، وقوله: ﴿وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء﴾ تقرير لهم وتوبيخ على ما كانوا اتخذوا في الدنيا من الأنداد والأصنام والأوثان، ظانين أنها تنفعهم في معاشهم ومعادهم إن كان ثم معاد، فإذا كان يوم القيامة تقطعت بهم الأسباب وانزاح الضلال، وضل عنهم ما كانوا يفترون، ويناديهم الرب جل جلاله على رؤوس الخلائق: ﴿أين شركائي الذين كنتم ترعون؟﴾ ويقال لهم: ﴿أين ما كنتم تعبدون من دون الله هل ينصرونكم أو ينتصرون؟﴾

= مسيلمه أن جبريل ينزل عليه، وكان يسمى بالرحمن. ومثله الأسود بن كعب الذي يعرف بعيلة، وبذي الخمار، وكان يدعي أن ملكين يكلمانه: اسم أحدهما: سحيق، والآخر شريق.

(١) في «اللباب»: أخرج ابن جرير نزلت: ﴿ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو قال أوحى إلي ولم يوح إليه شيء﴾ في مسيلمه، ونزلت: ﴿ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله﴾ في عبد الله بن سعد، كان يكتب للنبي ﷺ، فيغير فيما يمليه عليه الرسول، وعن السدي: أنه كان يقول: إن كان محمد يوحى إليه فقد أوحى إلي، وإن كان الله ينزله فقد أنزلت مثل ما أنزل. قال محمد: سمياً علياً، فقلت أنا: علياً حكياً.

(٢) في «اللباب»: أخرج ابن جرير وغيره: قال النضر بن الحارث: سوف تشفع لي اللات والعزى، فنزلت هذه الآية.

ولهذا قال ههنا: ﴿وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء﴾ أي في العبادة، لهم فيكم قسط في استحقاق العبادة لهم، ثم قال تعالى: ﴿لقد تقطع بينكم﴾ قرء بالرفع أي شملكم، وبالنصب أي لقد تقطع ما بينكم من الأسباب والوصلات والوسائل، ﴿وضل عنكم﴾ أي ذهب عنكم، ﴿ما كنتم تزعمون﴾ من رجاء الأصنام والأنداد، كقوله تعالى: ﴿إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب﴾، وقال تعالى: ﴿فاذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون﴾، وقال تعالى: ﴿ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضاً ومأواكم النار وما لكم من ناصرين﴾، وقال: ﴿وقيل ادعوا شركاءكم فدعوهم فلم يستجيبوا لهم﴾ الآية، والآيات في هذا كثيرة جداً.

* **إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكَ اللَّهُ فَالِقُ تُوْفُكُونَ ﴿٩٥﴾**
فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ الَّذِي
جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾

يخبر تعالى أنه فالق الحب والنوى، أي يشقه في الثرى فتنبت منه الزروع على اختلاف أصنافها من الحبوب والثمار على اختلاف ألوانها وأشكالها وطعمها من النوى، ولهذا فسر قوله: ﴿فالق الحب والنوى﴾، بقوله: ﴿يخرج الحي من الميت ومخرج الميت من الحي﴾ أي يخرج النبات الحي من الحب والنوى الذي هو كالجناد الميت كقوله: ﴿وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حباً منه يأكلون﴾، وقوله: ﴿ومخرج الميت من الحي﴾ معطوف على ﴿فالق الحب والنوى﴾، وقد عبروا عن هذا وهذا بعبارات كلها متقاربة مؤدية للمعنى، فمن قائل يخرج الدجاجة من البيضة وعكسه، ومن قائل يخرج الولد الصالح من الفاجر وعكسه، وغير ذلك من العبارات التي تنتظمها الآية وتشملها؛ ثم قال تعالى: ﴿ذلكم الله﴾ أي فاعل هذا هو الله وحده لا شريك له، ﴿فأنتي توفكون﴾ أي كيف تصرفون عن الحق وتعطلون عنه إلى الباطل فتعبدون معه غيره؟ وقوله: ﴿فالق الإصباح وجعل الليل سكناً﴾ أي خالق الضياء والظلام كما قال في أول السورة ﴿وجعل الظلمات والنور﴾ أي فهو سبحانه يفلق ظلام الليل عن غرة الصباح فيضيء الوجود، ويستتير الأفق، ويضمحل الظلام، ويذهب الليل بسواده وظلام رواقه، ويجيء النهار بضيائه وإشراقه، كقوله: ﴿يغشي الليل النهار يطلبه حثيثاً﴾، فبين تعالى قدرته على خلق الأشياء المتضادة المختلفة الدالة على كمال عظمتة وعظيم سلطانه، فذكر أنه فالق الإصباح، وقابل ذلك بقوله: ﴿وجعل الليل سكناً﴾ أي ساجياً مظلماً لتسكن فيه الأشياء كما قال: ﴿والضحى والليل إذا سجى﴾، وقال: ﴿والليل إذا يغشى والنهار إذا تجلى﴾، وقال: ﴿والنهار إذا جلاها والليل إذا يغشاها﴾، وقال صهيب الرومي رضي الله عنه لامرأته وقد عاتبته في كثرة سهره: إن الله جعل الليل سكناً، إلا لصهيب، إن صهيباً إذا ذكر الجنة طال شوقه، وإذا ذكر النار طار نومه^(١). وقوله: ﴿والشمس والقمر حسباناً﴾ أي يجريان بحساب مقتن مقدر لا يتغير

(١) رواه ابن أبي حاتم.

ولا يضطرب، بل لكل منهما منازل يسلكها في الصيف والشتاء، فيترتب على ذلك اختلاف الليل والنهار طولاً وقصراً كما قال: ﴿هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نوراً وقدره منازل﴾ الآية، وكما قال: ﴿لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون﴾، وقال: ﴿والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره﴾، وقوله: ﴿ذلك تقدير العزيز العليم﴾ أي الجميع جار بتقدير العزيز الذي لا يمانع ولا يخالف، العليم بكل شيء فلا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، وكثيراً ما إذا ذكر الله تعالى خلق الليل والنهار والشمس والقمر يختم الكلام بالعزة والعلم كما ذكر في هذه الآية، وكما في قوله: ﴿وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون﴾ والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم، ولما ذكر خلق السموات والأرض وما فيها في أول سورة حم السجدة قال: ﴿وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظاً﴾، ذلك تقدير العزيز العليم، وقوله تعالى: ﴿وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر﴾، قال بعض السلف: من اعتقد في هذه النجوم غير ثلاث فقد أخطأ وكذب على الله سبحانه: أن الله جعلها زينة للسماء، ورجوما للشياطين، ويهتدى بها في ظلمات البر والبحر. وقوله: ﴿قد فصلنا الآيات﴾ أي قد بيناها ووضحناها ﴿لقوم يعلمون﴾ أي يعقلون ويعرفون الحق ويتجنبون الباطل.

وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا مَخْرُجًا مِنْهُ حَبًّا مَاتِرًا كَبَابًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرَّمَانَ مِثْلَهَا وَغَيْرَ مُتَشَبِهٍ أَنْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾

يقول تعالى: ﴿وهو الذي أنشأكم من نفس واحدة﴾ يعني آدم عليه السلام، كما قال: ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء﴾، وقوله: ﴿فمستقر ومستودع﴾ اختلفوا في معنى ذلك: فعن ابن مسعود ﴿فمستقر﴾: أي في الأرحام ﴿ومستودع﴾ أي في الأصلاب^(١)، وعن ابن مسعود وطائفة: فمستقر في الدنيا ومستودع حيث يموت. وقال سعيد بن جبير: فمستقر في الأرحام وعلى ظهر الأرض وحيث يموت، وقال الحسن البصري: المستقر الذي قد مات فاستقر به عمله، وعن ابن مسعود: ومستودع في الدار الآخرة، والقول الأول أظهر، والله أعلم. وقوله تعالى: ﴿قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون﴾ أي يفهمون ويعون كلام الله ومعناه، وقوله تعالى: ﴿وهو الذي أنزل من السماء ماء﴾ أي بقدر مباركاً ورزقاً للعباد وإحياء وغيثاً للخلائق، رحمة من الله بخلقه ﴿فأخرجنا به نبات كل شيء﴾، كقوله: ﴿وجعلنا من الماء كل شيء حي﴾، ﴿فأخرجنا منه خضراً﴾ أي زرعاً وشجراً أخضر، ثم بعد ذلك نخلق فيه الحب والثمر. ولهذا قال تعالى: ﴿نخرج منه حباً متراكباً﴾ أي يركب بعضه بعضاً كالسنابل ونحوها ﴿ومن النخل من طلعها قنوان﴾ أي جمع

(١) وهو قول كثير من السلف منهم ابن عباس ومجاهد وعطاء والنخعي والضحاك وقتادة والسدي وغيرهم.

قنو وهي عدوق الرطب، ﴿دانية﴾ أي قريبة من المتناول، كما قال ابن عباس ﴿قنوان دانية﴾ يعني بالقنوان الدانية قصار النخل اللاصقة عدوقها بالأرض رواه ابن جرير .

وقوله تعالى: ﴿وجنات من أعناب﴾ أي ونخرج منه جنات من أعناب، وهذان النوعان هما أشرف الثمار عند أهل الحجاز، وربما كانا خيار الثمار في الدنيا، كما امتن الله بهما على عباده في قوله تعالى: ﴿ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكراً ورزقاً حسباً﴾، وكان ذلك قبل تحريم الخمر، وقال: ﴿وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب﴾، وقوله تعالى: ﴿والزيتون والرمان مشتبهاً وغير متشابه﴾، قال قتادة وغيره: متشابه في الورق والشكل قريب بعضه من بعض، ومتخالف في الثمار شكلاً وطعماً وطبعاً، ﴿انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه﴾ أي نضجه، قال البراء وابن عباس والضحاك وغيرهم، أي فكروا في قدرة خالقه من العدم إلى الوجود بعد أن كان حطباً صار عنباً ورطباً، وغير ذلك مما خلق سبحانه وتعالى من الألوان والأشكال والطعوم والروائح كقوله تعالى: ﴿يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل﴾ الآية، ولهذا قال ها هنا: ﴿إن في ذلكم﴾ أيها الناس ﴿لآيات﴾ أي دلالات على كمال قدرة خالق هذه الأشياء وحكمته ورحمته ﴿لقوم يؤمنون﴾ أي يصدقون به ويتبعون رسله .

وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحٰنَهُ وَتَعَالٰى عَمَّا يُصِفُونَ ﴿١٠٠﴾

هذا رد على المشركين الذين عبدوا مع الله غيره وأشركوا به في عبادته أن عبدوا الجن فجعلوهم شركاء له في العبادة، تعالى الله عن شركهم وكفرهم. فإن قيل: فكيف عبدت الجن مع أنهم إنما كانوا يعبدون الأصنام؟ فالجواب أنهم ما عبدوها إلا عن طاعة الجن وأمرهم إياهم بذلك، كقوله: ﴿إن يدعون من دونه إلا إناناً وإن يدعون إلا شيطاناً مريداً لعنه الله، وقال: لأتخذن من عبادك نصيباً مفروضاً * ولأضلنهم ولأمنينهم ولأمرنهم فليبتكن آذان الأنعام﴾ الآية، وكقوله تعالى: ﴿أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني﴾ الآية، وقال إبراهيم لأبيه: ﴿يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصياً﴾، وكقوله: ﴿ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين﴾ ولهذا قال تعالى: ﴿وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم﴾ أي وقد خلقهم فهو الخالق وحده لا شريك له فكيف يعبد معه غيره؟ كقول إبراهيم: ﴿أتعبدون ما تحتون والله خلقكم وما تعملون﴾ ومعنى الآية أنه سبحانه وتعالى هو المستقل بالخلق وحده، فلهذا يجب أن يفرد بالعبادة وحده لا شريك له. وقوله تعالى: ﴿وخرقوا له بنين وبنات بغير علم﴾ ينبه به تعالى على ضلال من ضل في وصفه تعالى بأن له ولداً، كما يزعم من قاله من اليهود في عزيز، ومن قال من النصارى في عيسى، ومن قال من مشركي العرب في الملائكة إنها بنات الله ﴿تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً﴾. ومعنى ﴿وخرقوا﴾ أي اختلقوا واثقفوا وتخرسوا وكذبوا، كما قاله علماء السلف، قال ابن عباس ﴿وخرقوا﴾ يعني تخرسوا، وقال العوفي عنه ﴿وخرقوا له بنين وبنات بغير علم﴾ قال: جعلوا له بنين وبنات، وقال مجاهد: كذبوا، وقال الضحاك: وضعوا، وقال السدي: قطعوا، قال ابن جرير: وتأويله إذاً: وجعلوا لله الجن شركاء في عبادتهم إياهم، وهو المفرد بخلقهم بغير شريك ولا معين ولا ظهير، ﴿وخرقوا له بنين وبنات بغير علم﴾ بحقيقة ما يقولون ولكن جهلاً بالله وبعظمته، فإنه لا ينبغي لمن كان إلهاً

أن يكون له بنون وبنات ولا صاحبة، ولا أن يشركه في خلقه شريك، ولهذا قال: ﴿سبحانه وتعالى عما يصفون﴾ أي تقدس وتزهر وتعظم عما يصفه هؤلاء الجهلة الضالون من الأولاد والأنداد والنظراء والشركاء .

بَدِيعُ السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضِ اَنِّيْ يَكُوْنُ لَهٗ وَلَدٌ وَّلَمْ تَكُنْ لَهٗ صٰحِبَةً وَّخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَّهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيْمٌ ﴿١٠١﴾

﴿بديع السموات والأرض﴾ أي مبدعهما وخالقهما ومنشئهما ومحدثهما على غير مثال سبق، ومنه سميت البدعة بدعة، لأنه لا نظير لها فيما سلف، ﴿أني يكون له ولد﴾ أي كيف يكون له ولد ﴿ولم تكن له صاحبة﴾ أي والولد إنما يكون متولداً بين شيئين متناسبين، والله تعالى لا يناسبه ولا يشابهه شيء من خلقه لأنه خالق كل شيء، فلا صاحبة له ولا ولد كما قال تعالى: ﴿وقالوا اتخذ الرحمن ولداً لقد جئتم شيئاً إنفاً﴾، ﴿وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم﴾، فبين تعالى أنه الذي خلق كل شيء وأنه بكل شيء عليم، فكيف يكون له صاحبة من خلقه تناسبه وهو الذي لا نظير له، فأنى يكون له ولد؟ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

ذٰلِكُمْ اَللّٰهُ رَبُّكُمْ لَا اِلٰهَ اِلَّا هُوَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَاَعْبُدُوْهُ وَّهُوَ عَلٰى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَا تُدْرِكُهُ

الْاَبْصٰرُ وَّهُوَ يَدْرِكُ الْاَبْصٰرَ وَّهُوَ الْلَطِيْفُ الْخَبِيْرُ ﴿١٠٣﴾

يقول تعالى: ﴿ذلكم الله ربكم﴾ أي الذي خلق كل شيء ولا ولد له ولا صاحبة، ﴿لا إله إلا هو خالق كل شيء فاعبدوه﴾ أي فاعبدوه وحده لا شريك له، وأقروا له بالوحدانية، وأنه لا إله إلا هو، وأنه لا ولد له ولا والد ولا صاحبة له، ولا نظير ولا عدل ﴿وهو على كل شيء وكيل﴾ أي حفيظ ورقيب يدبر كل ما سواه ويرزقهم ويكلامهم بالليل والنهار. وقوله: ﴿لا تدركه الأبصار﴾ فيه أقوال للأئمة من السلف (أحدها): لا تدركه في الدنيا وإن كانت تراه في الآخرة، كما تواترت به الأخبار عن رسول الله ﷺ من غير ما طريق ثابت في الصحاح والمسانيد والسنن، كما قال مسروق عن عائشة أنها قالت: من زعم أن محمداً أبصر ربه فقد كذب على الله، فإن الله تعالى قال: ﴿لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار﴾، وخالفها ابن عباس، فعنه: إطلاق الرؤية، وعنه: أنه رآه بفؤاده مرتين، والمسألة تذكر في أول سورة النجم إن شاء الله، وقال يحيى بن معين سمعت إسماعيل بن علية يقول في قول الله تعالى: ﴿لا تدركه الأبصار﴾ قال هذا في الدنيا، وقال آخرون: ﴿لا تدركه الأبصار﴾ أي جميعها، وهذا مخصص بما ثبت من رؤية المؤمنين له في الدار الآخرة، وقال آخرون من المعتزلة بمقتضى ما فهموه من هذه الآية أنه لا يرى في الدنيا ولا في الآخرة، فخالفوا أهل السنة والجماعة في ذلك، مع ما ارتكبه من الجهل بما دل عليه كتاب الله وسنة رسوله، أما الكتاب فقوله تعالى: ﴿وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة﴾، وقال تعالى عن الكافرين: ﴿كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون﴾، قال الإمام الشافعي: فدل هذا على أن المؤمنين لا يحجبون عنه تبارك وتعالى، أما السنة فقد تواترت الأخبار عن النبي ﷺ: أن المؤمنين يرون الله في الدار الآخرة في العرصات، وروضات الجنات، جعلنا الله تعالى منهم بمنه وكرمه آمين .

وقال آخرون: لا منافاة بين إثبات الرؤية ونفي الإدراك، فإن الإدراك أخص من الرؤية، ولا يلزم من نفي

الأخص انتفاء الأعم، ثم اختلف هؤلاء في الإدراك المنني ما هو؟ فقيل: معرفة الحقيقة، فإن هذا لا يعلمه إلا هو وإن رآه المؤمنون، كما أن من رأى القمر، فإنه لا يدرك حقيقته وكنهه وماهيته، فالعظيم أولى بذلك وله المثل الأعلى، وقال آخرون: الإدراك هو الإحاطة، قالوا: ولا يلزم من عدم الإحاطة عدم الرؤية، كما لا يلزم من عدم إحاطة العلم عدم العلم، قال تعالى: ﴿وَلَا يَحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾، وفي صحيح مسلم: «لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك»، ولا يلزم منه عدم الثناء، فكذلك هذا. قال ابن عباس ﴿لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار﴾ قال: لا يحيط بصر أحد بالملك، وعن عكرمة أنه قيل له: ﴿لا تدركه الأبصار﴾ قال: ألسنت ترى السماء؟ قال: بلى، قال: فكيف ترى؟ وقال قتادة: هو أعظم من أن تدركه الأبصار، وقال ابن جرير عن عطية العوفي في قوله تعالى: ﴿وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة﴾ قال: هم ينظرون إلى الله لا تحيط أبصارهم به من عظمتهم وبصره محيط بهم، فذلك قوله: ﴿لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار﴾.

وقال آخرون في الآية عن عكرمة قال، سمعت ابن عباس يقول: رأى محمد ربه تبارك وتعالى، فقلت: أليس الله يقول: ﴿لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار﴾ الآية؟ فقال لي: لا أم لك، ذلك نوره الذي هو نوره، إذا تجلى بنوره لا يدركه شيء. وفي رواية: لا يقوم له شيء^(١)، وفي معنى هذا الأثر ما ثبت في الصحيحين من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه مرفوعاً: «إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يرفع إليه عمل النهار قبل الليل، وعمل الليل قبل النهار، حجاب النور - أو النار - لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه»، وفي الكتب المتقدمة: إن الله تعالى قال لموسى لما سأل الرؤية: يا موسى إنه لا يراني حي إلا مات، ولا يابس إلا تدهده: أي تدعثر، وقال تعالى: ﴿فلما تجلى ربه للجبل جعله دكاً وخر موسى صعقاً فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين﴾، ونبي الإدراك الخاص لا ينبي الرؤية يوم القيامة، يتجلى لعباده المؤمنين كما يشاء، فأما جلاله وعظمته على ما هو عليه تعالى وتقدس وتزده، فلا تدركه الأبصار، ولهذا كانت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها تثبت الرؤية في الدار الآخرة، وتنفيها في الدنيا، وتحتج بهذه الآية: ﴿لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار﴾، فالذي نفته الإدراك الذي هو بمعنى رؤية العظمة والجلال على ما هو عليه، فإن ذلك غير ممكن للبشر ولا للملائكة ولا لشيء. وقوله: ﴿وهو يدرك الأبصار﴾ أي يحيط بها ويعلمها على ما هي عليه لأنه خلقها، كما قال تعالى: ﴿ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير﴾، وقد يكون عبر بالأبصار عن المبصرين كما قال السدي في قوله: ﴿لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار﴾ لا يراه شيء وهو يرى الخلائق، وقال أبو العالية ﴿وهو اللطيف الخبير﴾ اللطيف لاستخراجها، الخبير بمكانها، والله أعلم.

قَدْ جَاءَ كُمْ بَصَآءِرٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا ۚ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾ وَكَذَلِكَ نَصُرُفُ الْآيَاتِ وَلِيَقُولُوا أَدْرَسَتْ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾

البصائر: هي البينات والحجج التي اشتمل عليها القرآن وما جاء به الرسول ﷺ، ﴿فمن أبصر فلنفسه﴾ كقوله:

(١) رواه الترمذي وابن مردويه والحاكم في المستدرک وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

﴿ فن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها ﴾، ولهذا قال: ﴿ ومن عمي فعلها ﴾ لما ذكر البصائر قال: ﴿ ومن عمي فعلها ﴾ أي إنما يعود وباله عليه، كقوله: ﴿ فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور ﴾، ﴿ وما أنا عليكم بحفيظ ﴾ أي بحافظ ولا رقيب، بل إنما أنا مبلغ والله يهدي من يشاء ويضل من يشاء، وقوله: ﴿ وكذلك نصرّف الآيات ﴾ أي فصلنا الآيات في هذه السورة من بيان التوحيد وأنه لا إله إلا هو، هكذا نوضح الآيات ونفسرها ونبينها في كل موطن لجهالة الجاهلين، وليقول المشركون والكافرون المكذبون دارست يا محمد من قبلك من أهل الكتاب، وقاراتهم، وتعلمت منهم^(١). روي عن عمرو بن كيسان قال، سمعت ابن عباس يقول: دارست: تلوت خاصمت جادلت، وهذا كقوله تعالى إخباراً عن كذبهم وعنادهم: ﴿ وقالوا أساطير الأولين اكتتبها ﴾ الآية، وقال تعالى إخباراً عن زعيمهم وكاذبهم ﴿ إنه فكر وقدر، فقتل كيف قدر، ثم قتل كيف قدر ﴾، وقوله: ﴿ ولنبينه لقوم يعلمون ﴾ ولنوضحه لقوم يعلمون الحق فيتبعونه، والباطل فيجتنبونه، فله تعالى الحكمة البالغة في إضلال أولئك وبيان الحق لهؤلاء، كقوله تعالى: ﴿ يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً ﴾ الآية، وكقوله: ﴿ ليجعل ما يلقي الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم وإن الله لهادي الذين آمنوا إلى صراط مستقيم ﴾.

وقال تعالى: ﴿ كذلك يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء وما يعلم جنود ربك إلا هو ﴾، وقال: ﴿ ونزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خساراً ﴾، وقال تعالى: ﴿ قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى ﴾، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أنه تعالى أنزل القرآن هدى للمتقين وأنه يضل به من يشاء ويهدي به من يشاء، ولهذا قال ها هنا: ﴿ وكذلك نصرّف الآيات وليقولوا درست ولنبينه لقوم يعلمون ﴾، وقرأ بعضهم ﴿ درست ﴾ أي قرأت وتعلمت^(٢)، قال الحسن ﴿ وليقولوا درست ﴾ يقول: تقادمت وانمحت، وقال عبد الرزاق إن صبيانا يقرأون ﴿ دارست ﴾ وإنما هي: درست. وقال شعبة هي في قراءة ابن مسعود: درست، يعني بغير ألف بنصب السين ووقف على التاء، قال ابن جرير ومعناه: انمحت وتقادمت، أي أن هذا الذي تتلوه علينا قد مر بنا قديماً وتناولت مدته.

آتَّبِعْ مَا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا
وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيفًا ﴿١٠٧﴾ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾

يقول تعالى آمراً لرسوله ﷺ ولن اتبع طريقته: ﴿ اتبع ما أوحى إليك من ربك ﴾ أي اقتد به واقتف أثره واعمل به، فإن ما أوحى إليك من ربك هو الحق الذي لا مزية فيه، لأنه لا إله إلا هو ﴿ وأعرض عن المشركين ﴾ أي اعف عنهم واصفح واحتمل أذاهم حتى يفتح الله لك وينصرك ويظفرك عليهم، واعلم أن الله حكمة في إضلالهم، فإنه لو شاء لهدى الناس جميعاً، ولو شاء لجمعهم على الهدى ﴿ ولو شاء الله ما أشركوا ﴾، أي بل له المشيئة

(١) وهو قول ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير والضحاك وغيرهم.

(٢) وهو مروي عن ابن عباس ومجاهد والسدي والضحاك.

والحكمة فيما يشاؤه ويختاره لا يسأل عما يفعل وهم يسألون، وقوله تعالى: ﴿وما جعلناك عليهم حفيظاً﴾ أي حافظاً تحفظ أقوالهم وأعمالهم، ﴿وما أنت عليهم بوكيل﴾ أي موكل على أرزاقهم وأمورهم، ﴿إن عليك إلا البلاغ﴾، كما قال تعالى: ﴿فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمصيطر﴾، وقال: ﴿إنما عليك البلاغ وعلينا الحساب﴾.

وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيْنًا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾

يقول الله تعالى ناهياً لرسوله ﷺ والمؤمنين عن سب آلهة المشركين، وإن كان فيه مصلحة إلا أنه يترتب عليه مفسدة أعظم منها، وهي مقابلة المشركين بسب آلهم المؤمنين، وهو ﴿الله لا إله إلا هو﴾، كما قال ابن عباس في هذه الآية: قالوا: يا محمد لتنتهين عن سبك آلهتنا أو لنهجون ربك، فنهاهم الله أن يسبوا أوثانهم، ﴿فيسبوا الله عدواً بغير علم﴾، وقال قتادة: كان المسلمون يسبون أصنام الكفار، فیسب الكفار الله عدواً بغير علم، فأنزله الله: ﴿ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله﴾، وروى ابن جرير عن السدي أنه قال: لما حضر أبا طالب الموت قالت قریش: انطلقوا فلندخل على هذا الرجل، فلنأمره أن ينهى عنا ابن أخيه، فإننا نستحي أن نقتله بعد موته، فتقول العرب: كان يمنعهم، فلما مات قتلوه، فانطلق أبو سفيان، وأبو جهل، والنضر بن الحارث، وأميمة وأبي ابنا خلف، وعقبة بن أبي معيط، وعمرو بن العاص، والأسود بن البختري، وبعثوا رجلاً منهم يقال له المطلب، قالوا: استأذن لنا على أبي طالب، فأتى أبا طالب فقال: هؤلاء مشيخة قومك يريدون الدخول عليك، فأذن لهم عليه فدخلوا، فقالوا: يا أبا طالب أنت كبيرنا وسيدنا، وإن محمداً قد آذانا وآذى آلهتنا، فنحب أن تدعوه فتنهاه عن ذكر آلهتنا، ولدعاه وإلهه، فدعاه فجاء النبي ﷺ فقال له أبو طالب: هؤلاء قومك وبنو عمك، قال رسول الله ﷺ: «ما تريدون؟» قالوا: نريد أن تدعنا وآلهتنا ولدنعك وإلهك، فقال النبي ﷺ: «أرايتم إن أعطيتكم هذا هل أنتم معطي كلمة إن تكلمتم بها ملكتم بها العرب ودانت لكم بها العجم، وأدت لكم الخراج؟» قال أبو جهل: وأبيك لنعطينكها وعشرة أمثالها، قالوا: فما هي؟ قال: «قولوا لا إله إلا الله»، فأبوا واشمأزوا، قال أبو طالب: يا ابن أخي، قل غيرها فإن قومك قد فزعوا منها، قال: «يا عم ما أنا بالذي يقول غيرها، حتى يأتوا بالشمس فيضعوها في يدي، ولو أتوا بالشمس فوضعوها في يدي ما قلت غيرها» إرادة أن يؤسهم، فغضبوا، وقالوا: لتكفن عن شتم آلهتنا أو لنشتمنك ونشتم من يأمرك، فذلك قوله: ﴿فيسبوا الله عدواً بغير علم﴾ ومن هذا القبيل، وهو ترك المصلحة لمفسدة أرجح منها، ما جاء في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «ملعون من سب والديه»، قالوا: يا رسول الله وكيف يسب الرجل والديه؟ قال: «يسب أبا الرجل فيسب أباه ويسب أمه فيسب أمه»، أو كما قال ﷺ. وقوله: ﴿كذلك زيننا لكل أمة عملهم﴾ أي وكما زيننا لهؤلاء القوم حب أصنامهم والحماية لها والانتصار ﴿كذلك زيننا لكل أمة﴾ أي من الأمم الخالية على الضلال ﴿عملهم﴾ الذي كانوا فيه، والله الحجة البالغة والحكمة التامة فيما يشاؤه ويختاره ﴿ثم إلى ربهم مرجعهم﴾ أي معادهم ومصيرهم ﴿فينبئهم بما كانوا يعملون﴾ أي يجازيهم بأعمالهم إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لِّيُؤْمِنُوا بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقِلَبَ أَفْعِدْتَهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوْلَ مَرَّةٍ وَنَذَرَهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾

يقول تعالى إخباراً عن المشركين أنهم أقسموا بالله جهد أيمانهم أي حلفوا أيماناً مؤكدة ﴿لئن جاءتهم آية﴾ أي معجزة وخارق ﴿ليؤمنن بها﴾ أي ليصدقنها، ﴿قل إنما الآيات عند الله﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء الذين يسألونك الآيات تعنتاً وكفراً وعناداً لا على سبيل الهدى والاسترشاد، إنما مرجع هذه الآيات إلى الله إن شاء جاءكم بها وإن شاء ترككم، قال ابن جرير عن محمد بن كعب القرظي قال: كلم رسول الله ﷺ قريش فقالوا: يا محمد تخبرنا أن موسى كان معه عصا يضرب بها الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً، وتخبرنا أن عيسى كان يحيي الموتى، وتخبرنا أن ثمود كانت لهم ناقة، فأتنا من الآيات حتى نصدقك، فقال رسول الله ﷺ: «أي شيء تحبون أن آتيكم به؟» قالوا: تجعل لنا الصفا ذهباً، فقال لهم: «فإن فعلت تصدقوني؟» قالوا: نعم والله لئن فعلت لتتبعك أجمعون، فقام رسول الله ﷺ يدعو فجاءه جبريل عليه السلام، فقال له: ما شئت، إن شئت أصبح الصفا ذهباً، ولئن أرسل آية فلم يصدقوا عند ذلك ليعذبنهم، وإن شئت فتركهم حتى يتوب تائبهم. فقال رسول الله ﷺ: «بل يتوب تائبهم»، فأنزل الله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ولكن أكثرهم يجهلون﴾^(١)، وقال الله تعالى: ﴿وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون﴾ الآية، وقوله تعالى: ﴿وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون﴾، قيل المخاطب بما يشعركم، المشركون، وإليه ذهب مجاهد وقيل: المخاطب بقوله: ﴿وما يشعركم﴾ المؤمنون، ويقول: وما يدريك أيها المؤمنون أنها إذا جاءت لا يؤمنون. وقوله تعالى: ﴿ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة﴾، قال ابن عباس في هذه الآية: لما جحد المشركون ما أنزل الله لم تثبت قلوبهم على شيء وردت عن كل أمر. وقال مجاهد في قوله ﴿ونقلب أفئدتهم وأبصارهم﴾: ونحول بينهم وبين الإيمان ولو جاءتهم كل آية فلا يؤمنون كما حلنا بينهم وبين الإيمان أول مرة، وقال ابن أبي طلحة عن ابن عباس: أخبر الله ما العباد قائلون قبل أن يقولوه وعملهم قبل أن يعملوه، وقال: ﴿ولا ينبئك مثل خبير﴾ جل وعلا ﴿أن تقول نفس يا حسرتا على ما فرطت في جنب الله﴾ إلى قوله: ﴿لو أن لي كرة فأكون من المحسنين﴾ فأخبر الله سبحانه وتعالى أنهم لو ردوا لم يكونوا على الهدى، وقال: ﴿ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون﴾، وقال تعالى: ﴿ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة﴾، وقال: ولو ردوا إلى الدنيا لحيل بينهم وبين الهدى كما حلنا بينهم وبينه أول مرة وهم في الدنيا، وقوله: ﴿ونذرهم﴾ أي تركهم ﴿في طغيانهم﴾، قال ابن عباس والسدي: في كفرهم. وقال أبو العالية وقتادة: في ضلالهم ﴿يعمهُون﴾ قال الأعمش: يلعبون، وقال ابن عباس ومجاهد: في كفرهم يترددون.

* وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾

(١) قال ابن كثير: وهذا مرسل وله شواهد من وجوه أخر.

يقول تعالى ولو أننا أجبنا سؤال هؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها فنزلنا عليهم الملائكة نخبهم بالرسالة من الله بتصديق الرسل كما سألوا فقالوا: ﴿أو تأتي بالله والملائكة قبيلاً﴾ و﴿قالوا لن تؤمن لك حتى تأتي مثل ما أوتي رسل الله﴾، وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا نزل علينا الملائكة أو نرى ربنا لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتواً كبيراً﴾، و﴿كلمهم الموتى﴾ أي فأخبروهم بصدق ما جاءتهم به الرسل، و﴿وحشرنا عليهم كل شيء قبلاً﴾، قرأ بعضهم (قبلاً) بكسر القاف وفتح الباء من المقابلة والمعانية، وقرأ آخرون بضمهما قيل: معناه من المقابلة والمعانية أيضاً كما رواه العوفي عن ابن عباس، وقال مجاهد: قبلاً أي أفواجاً قبيلاً قبيلاً أي تعرض عليهم كل أمة بعد أمة فيخبرونهم بصدق الرسل فيما جاءوهم به ﴿ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله﴾ أي إن الهداية إليه لا إليهم بل يهدي ويضل من يشاء وهو الفعال لما يريد ﴿لا يسأل عما يفعل وهم يسألون﴾ لعلمه وحكمته وسلطانه وقهره وغلته. وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم﴾ .

وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرَّهُمْ وَمَا يُفْتَرُونَ ﴿١١١﴾ وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْعَدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٢﴾

يقول تعالى : وكما جعلنا لك يا محمد أعداء يخالفونك ويعادونك ويعاندونك، جعلنا لكل نبي من قبلك أيضاً أعداء فلا يحزنك ذلك، كما قال تعالى: ﴿ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك﴾، وقال تعالى: ﴿وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً من المجرمين﴾ الآية. وقال ورقة بن نوفل لرسول الله ﷺ: «إنه لم يأت أحد بمثل ما جئت به إلا عودي»^(١)، والشيطان كل من خرج عن نظيره بالشر، ولا يعادي الرسل إلا الشياطين من هؤلاء وهؤلاء قبحهم الله ولعنهم، قال عبد الرزاق عن قتادة في قوله ﴿شياطين الإنس والجن﴾ قال: من الجن شياطين، ومن الإنس شياطين، يوحى بعضهم إلى بعض. قال قتادة: وبلغني أن أبا ذر كان يوماً يصلي فقال النبي ﷺ: «تعوذ يا أبا ذر من شياطين الإنس والجن» فقال: أو إن من الإنس شياطين؟ فقال رسول الله ﷺ: «نعم»^(٢). وقال ابن جرير عن أبي ذر قال: أتيت رسول الله ﷺ في مجلس قد أطلت فيه الجلوس قال، فقال: «يا أبا ذر هل صليت؟ قلت: لا، يا رسول الله. قال: «قم فاركع ركعتين» قال: ثم جئت فجلست إليه، فقال: «يا أبا ذر هل تعوذت بالله من شياطين الجن والإنس؟ قال، قلت: لا يا رسول الله وهل للإنس من شياطين؟ قال: «نعم هم شر من شياطين الجن»^(٣).

(١) هذا جزء من حديث طويل أخرجه البخاري في صحيحه في باب بدء الوحي .

(٢) قال ابن كثير : هذا منقطع بين قتادة وأبي ذر .

(٣) وهذا أيضاً فيه انقطاع وروي متصلاً عن أحمد وابن مردويه بمثله .

(طريق أخرى للحديث) روى ابن أبي حاتم عن أبي أمامة قال، قال رسول الله ﷺ: «يا أبا ذر تعوذت من شياطين الجن والإنس؟» قال: يا رسول الله وهل للإنس شياطين؟ قال: «نعم: ﴿شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً﴾^(١)، فهذه طرق لهذا الحديث ومجموعها يفيد قوته وصحته، والله أعلم، وعن عكرمة في قوله: ﴿يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً﴾ قال: للإنس شياطين وللجن شياطين، فيلقى شيطان الإنس شيطان الجن، فيوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً، وقال السدي عن عكرمة: أما شياطين الإنس فالشياطين التي تضل الإنس، وشياطين الجن التي تضل الجن، يلتقيان فيقول كل واحد منهما لصاحبه: إني أضللت صاحبي بكذا وكذا فأضل أنت صاحبك بكذا وكذا، فيعلم بعضهم بعضاً^(٢)، وقد روي نحو هذا عن ابن عباس فقال: إن للجن شياطين يضلونهم مثل شياطين الإنس يضلونهم، قال: فيلتي شياطين الإنس وشياطين الجن، فيقول هذا لهذا: أضله بكذا، فهو قوله: ﴿يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً﴾. ولما أخبر عبد الله بن عمر أن المختار^(٣) يزعم أنه يوحى إليه، فقال: صدق، قال الله تعالى: ﴿وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم﴾.

وقوله تعالى: ﴿يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً﴾ أي يلقي بعضهم إلى بعض القول المزين المزخرف وهو المزوق الذي يغير سامعه من الجهلة بأمره، ﴿ولو شاء ربك ما فعلوه﴾ أي وذلك كله بقدر الله وقضائه وإرادته ومشيتته أن يكون لكل نبي عدو من هؤلاء، ﴿فذرهم﴾ أي فدعهم، ﴿وما يفترون﴾ أي يكذبون. أي دع أذاهم وتوكل على الله فإن الله كافيك وناصرك عليهم. وقوله تعالى: ﴿ولتصغى إليه﴾ أي ولتميل إليه قاله ابن عباس، ﴿أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة﴾ أي قلوبهم وعقولهم وأسماعهم، وقال السدي: قلوب الكافرين ﴿وليرضوه﴾ أي يحبوه ويريدوه، وإنما يستجيب لذلك من لا يؤمن بالآخرة، كما قال تعالى: ﴿فإنكم وما تعبدون * ما أتم عليه بفاتنين * إلا من هو صال الجحيم﴾، وقال تعالى: ﴿إنكم لفي قول مختلف يؤفك عنه من أفك﴾، وقوله: ﴿وليقتروا ما هم مقترفون﴾، قال ابن عباس: وليكتسبوا ما هم مكتسبون، وقال السدي وابن زيد: وليعملوا ما هم عاملون.

أَفْغِيرَ اللَّهِ أَبْتغِي حَكْمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكَ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ
مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ
وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾

يقول الله تعالى لنبيه ﷺ: قل لهؤلاء المشركين بالله الذين يعبدون غيره ﴿أفغير الله أبتغي حكماً﴾؟ أي بيني وبينكم، ﴿وهو الذي أنزل إليكم الكتاب مفصلاً﴾ أي مبيناً، ﴿والذين آتيناهم الكتاب﴾ أي من اليهود والنصارى

(١) أخرجه ابن أبي حاتم عن أبي أمامة مرفوعاً . (٢) رواه ابن جرير .

(٣) المراد بالمختار هنا (ابن عبید) فبجه الله الذي كان يزعم أنه يأتيه الوحي .

يعلمون أنه منزل من ربك بالحق أي بما عندهم من البشارات بك من الأنبياء المتقدمين، ﴿ فلا تكونن من الممترين ﴾، كقوله: ﴿ فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرأون الكتاب من قبلك لقد جاءك الحق من ربك فلا تكونن من الممترين ﴾ وهذا شرط، والشرط لا يقتضى وقوعه، ولهذا جاء عن رسول الله ﷺ أنه قال: « لا أشك ولا أسأل »، وقوله تعالى: ﴿ وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً ﴾، قال قتادة: صدقاً فيما قال، وعدلاً فيما حكم، يقول: صدقاً في الأخبار وعدلاً في الطلب، فكل ما أخبر به فحق لا مرية فيه، ولا شك، وكل ما أمر به فهو العدل الذي لا عدل سواه، وكل ما نهى عنه فباطل، فإنه لا ينهى إلا عن مفسدة، كما قال تعالى: ﴿ يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ﴾ إلى آخر الآية، ﴿ لا مبدل لكلماته ﴾ أي ليس أحد يعقب حكمه تعالى لا في الدنيا ولا في الآخرة ﴿ وهو السميع ﴾ لأقوال عباده ﴿ العليم ﴾ بحركاتهم وسكناتهم الذي يجازي كل عامل بعمله .

وَإِنْ تَطَّعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾
 إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ ۗ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾

يخبر تعالى عن حال أكثر أهل الأرض من بني آدم أنه الضلال كما قال تعالى: ﴿ ولقد ضل قبلهم أكثر الأولين ﴾، وقال تعالى: ﴿ وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين ﴾ وهم في ضلالهم ليسوا على يقين من أمرهم وإنما هم في ظنون كاذبة وحسبان باطل ﴿ إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون ﴾، فإن الخرص هو الحزر ومنه خرص النخل وهو حزر ما عليها من التمر، وذلك كله عن قدر الله ومشيتته ﴿ هو أعلم من يضل عن سبيله ﴾ فيسره لذلك، ﴿ وهو أعلم بالمهتدين ﴾ فييسرهم لذلك وكل ميسر لما خلق له .

فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِعَايَنَتِهِ ۖ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنْ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَاءِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾

هذا إباحة من الله لعباده المؤمنين أن يأكلوا من الذبائح ما ذكر عليه اسمه، ومفهومه أنه لا يباح ما لم يذكر اسم الله عليه، كما كان يستبيحه كفار قريش من أكل الميتات وأكل ما ذبح على النصب وغيرها، ثم ندب إلى الأكل مما ذكر اسم الله عليه فقال: ﴿ وما لكم أن لا تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه وقد فصل لكم ما حرم عليكم ﴾ أي قد بين لكم ما حرم عليكم ووضحه ﴿ إلا ما اضطررتم إليه ﴾ أي إلا في حال الاضطرار، فإنه يباح لكم ما وجدتم. ثم بين تعالى جهالة المشركين في آرائهم الفاسدة من استحلالهم الميتات وما ذكر عليه غير اسم الله تعالى، فقال: ﴿ وإن كثيراً ليضلون بأهوائهم بغير علم إن ربك هو أعلم بالمعتدين ﴾ أي هو أعلم باعتدائهم وكذبهم واقترائهم .

﴿ وَذُرُوا ظَهْرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ ۗ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ ﴾ (١٢٠)

قال مجاهد: ﴿ وذروا ظاهر الإثم وباطنه ﴾ المعصية في السر والعلانية، وقال قتادة: أي سره وعلانيته، قليلة وكثيرة، وقال السدي: ظاهره الزنا مع البغايا ذوات الريات، وباطنه الزنا مع الخيلة والصدائق والأخدان، وقال عكرمة: ظاهره نكاح ذوات المحارم. والصحيح أن الآية عامة في ذلك كله، وهي كقوله تعالى: ﴿ قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن ﴾ الآية، ولهذا قال تعالى: ﴿ إن الذين يكسبون الإثم سيجزون بما كانوا يقترفون ﴾ أي سواء كان ظاهراً أو خفياً، فإن الله سيجزيهم عليه، عن النواس بن سمعان قال: سألت رسول الله ﷺ عن الإثم فقال: « الإثم ما حاك في صدرك وكرهت أن يطلع الناس عليه » (١).

﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يَذْكُرْ أَسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ ۖ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَدِّلُوا كَمَا بَدَأُوا ۗ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ (١٢١)

استدل بهذه الآية الكريمة من ذهب إلى أن الذبيحة لا تحل إذا لم يذكر اسم الله عليها وإن كان الذابح مسلماً، وقد اختلف الأئمة رحمهم الله في هذه المسألة على ثلاثة أقوال: فمنهم من قال لا تحل هذه الذبيحة بهذه الصفة وسواء ترك التسمية عمداً أو سهواً (٢)، وهو رواية عن الإمام مالك وأحمد بن حنبل، وهو اختيار أبي ثور وداود الظاهري، واحتجوا لمذهبهم هذا بهذه الآية وبقوله في آية الصيد: ﴿ فكلوا مما أمسكن عليكم واذكروا اسم الله عليه ﴾، ثم قد أكد في هذه الآية بقوله: ﴿ وإنه لفسق ﴾، والضمير قيل: عائد على الأكل وقيل: عائد على الذبح لغير الله، وبالأحاديث الواردة في الأمر بالتسمية عند الذبيحة والصيد كحديثي عدي بن حاتم: « إذا أرسلت كلبك المعلم وذكرت اسم الله عليه فكل ما أمسك عليك » وهو في الصحيحين، وحديث رافع بن خديج: « ما أنهر الدم وذكر اسم الله عليه فكلوه » وهو في الصحيحين أيضاً، وحديث ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال للجن: « لكم كل عظم ذكر اسم الله عليه أم لا؟ قال: « سموا عليه أتم وكلوا » قالت: وكانوا حديثي عهد بالكفر (٣). ووجه الدلالة أنهم فهموا أن التسمية لا بد منها وخشوا أن لا تكون وجدت من أولئك لحداثة إسلامهم، فأمرهم بالاحتياط بالتسمية عند الأكل لتكون كالعوض عن المتروكة عند الذبح إن لم تكن وجدت، وأمرهم بإجراء أحكام المسلمين على السداد، والله أعلم.

والمذهب الثاني في المسألة: أنه لا يشترط التسمية، بل هي مستحبة، فإن تركت عمداً أو نسياناً لا يضر،

(١) رواه ابن أبي حاتم عن النواس بن سمعان.

(٢) وهو مروى عن ابن عمر ونافع والشعبي ومحمد بن سيرين.

(٣) رواه مسلم.

(٤) رواه البخاري.

وهذا مذهب الإمام الشافعي رحمه الله وجميع أصحابه، ورواية عن الإمام أحمد نقلها عنه حنبل، وهو رواية عن الإمام مالك، وحمل الشافعي الآية الكريمة: ﴿ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وإنه لفسق﴾ على ما ذبح لغير الله كقوله تعالى: ﴿أو فسقاً أهلاً لغير الله به﴾، وقال عطاء: ﴿ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه﴾ ينهى عن ذبائح كانت تذبحها قريش للأوثان وينهى عن ذبائح المحوس، وهذا المسلك الذي طرقه الإمام الشافعي قوي، وقال ابن أبي حاتم عن ابن عباس في الآية: ﴿ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه﴾ قال: هي الميتة. وقد استدلل لهذا المذهب بما رواه أبو داود قال، قال رسول الله ﷺ: «ذبيحة المسلم حلال ذكر اسم الله أو لم يذكر إنه إن ذكر، لم يذكر إلا اسم الله» وهذا مرسل يعضد بما رواه الدارقطني عن ابن عباس أنه قال: «إذا ذبح المسلم ولم يذكر اسم الله فليأكل فإن المسلم فيه اسم من أسماء الله»، واحتج البيهقي أيضاً بحديث عائشة رضي الله عنها المتقدم أن ناساً قالوا: يا رسول الله إن قوماً حديثي عهد بجاهلية يأتوننا بلحم لا ندرى أذكروا اسم الله عليه أم لا؟ فقال: «سموا أتم وكلوا» قال: فلو كان وجود التسمية شرطاً لم يرخص لهم إلا مع تحققها والله أعلم.

المذهب الثالث في المسألة: إن ترك البسملة على الذبيحة نسياناً لم يضر، وإن تركها عمداً لم تحل، هذا هو المشهور من مذهب الإمام مالك وأحمد وبه يقول أبو حنيفة وإسحاق بن راهويه^(١)، وقال ابن جرير رحمه الله: من حرم ذبيحة الناسي فقد خرج من قول جميع الحجة، وخالف الخبر الثابت عن رسول الله ﷺ في ذلك، يعني ما رواه الحافظ البيهقي عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «المسلم يكفيه اسمه إن نسي أن يسمي حين يذبح فليذكر اسم الله وليأكله»^(٢)، ثم نقل ابن جرير وغيره عن الشعبي ومحمد بن سيرين: أنهما كرها متروك التسمية نسياناً، والسلف يطلقون الكراهة على التحريم كثيراً، والله أعلم، إلا أن من قاعدة ابن جرير أنه لا يعتبر قول الواحد ولا الاثنین مخالفاً لقول الجمهور فيعده إجماعاً، فليعلم هذا، والله الموفق. واحتج لهذا المذهب بالحديث المروي من طرق عند ابن ماجه عن النبي ﷺ: «إن الله وضع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه»، وعن أبي هريرة قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال يا رسول الله: رأيت الرجل منا يذبح وينسى أن يسمي؟ فقال النبي ﷺ: «اسم الله على كل مسلم»^(٣).

وقوله تعالى: ﴿وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم﴾، قال ابن أبي حاتم عن أبي زميل قال: كنت قاعداً عند ابن عباس وحج (المختار بن أبي عبيد) فجاءه رجل، فقال: يا ابن عباس زعم أبو إسحاق أنه أوحى إليه الليلة، فقال ابن عباس: صدق، فنفرت، وقلت: يقول ابن عباس صدق؟ فقال ابن عباس: هما وحيان، وحي الله، ووحى الشيطان، فوحى الله إلى محمد ﷺ، ووحى الشيطان إلى أوليائه، ثم قرأ: ﴿وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم﴾^(٤)، وقد تقدم عن عكرمة في قوله: ﴿يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً﴾ نحو هذا. وقوله: ﴿ليجادلوكم﴾، عن سعيد بن جبیر قال: خاصمت اليهود النبي ﷺ فقالوا: نأكل مما قتلنا ولا نأكل

(١) وهو مروي عن علي وابن عباس وعطاء وطاووس والحسن البصري وغيرهم.

(٢) قال ابن كثير: هذا الحديث رفعه خطأ، أخطأ فيه معقل بن عبيد الله الجزري والأصح أنه من قول ابن عباس.

(٣) الحديث إسناده ضعيف كما نبه عليه ابن كثير رحمه الله. (٤) أخرجه ابن أبي حاتم.

مما قتل الله؟ فأنزل الله: ﴿ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وإنه لفسق﴾، وعن عكرمة عن ابن عباس قال: لما نزلت: ﴿ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه﴾ أرسلت فارس إلى قريش أن خاصموا محمداً وقولوا له: فما تذبح أنت بيدك بسكين فهو حلال وما ذبح الله عز وجل بشمشير من ذهب يعني الميتة فهو حرام؟ فترلت هذه الآية: ﴿وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم وإن أطمعتموهم إنكم لمشركون﴾^(١) أي وإن الشياطين من فارس ليوحون إلى أوليائهم من قريش، وقال أبو داود عن ابن عباس في قوله: ﴿وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم﴾ يقولون: ما ذبح الله فلا تأكلوه وما ذبحتم أنتم فكلوه، فأنزل الله: ﴿ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه﴾^(٢)، وقال السدي في تفسير هذه الآية: إن المشركين قالوا للمسلمين: كيف تزعمون أنكم تتبعون مرضاة الله فما قتل الله فلا تأكلونه وما ذبحتم أنتم تأكلونه؟ فقال الله تعالى: وإن أطمعتموهم - في أكل الميتة ﴿إنكم لمشركون﴾ وهكذا قاله مجاهد والضحاك وغير واحد من علماء السلف. وقوله تعالى: ﴿وإن أطمعتموهم إنكم لمشركون﴾ أي حيث عدلتم عن أمر الله لكم وشرعه إلى قول غيره فقدمتم عليه غيره، فهذا هو الشرك، كقوله تعالى: ﴿اتخذوا أجباهم ورهبانهم أرباباً من دون الله﴾ الآية، وقد روى الترمذي في تفسيرها عن عدي بن حاتم أنه قال: يا رسول الله ما عبدوهم، فقال: «بلى إنهم أحلوا لهم الحرام، وحرموا عليهم الحلال، فاتبعوهم فذلك عبادتهم إياهم».

أَوْ مِنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا
كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾

هذا مثل ضربه الله تعالى للمؤمن الذي كان ميتاً أي في الضلالة هالكاً حائراً، فأحياه الله، أي أحيا قلبه بالإيمان وهداه ووقفه لاتباع رسله، ﴿وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس﴾ أي يهتدي كيف يسلك وكيف يتصرف به، والنور هو القرآن، كما روي عن ابن عباس، وقال السدي: الإسلام، والكل صحيح، ﴿كمن مثله في الظلمات﴾ أي الجهالات والأهواء والضلالات المتفرقة ﴿ليس بخارج منها﴾ أي لا يهتدي إلى منفذ ولا مخلص مما هو فيه. وفي الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: ﴿إن الله خلق خلقه في ظلمة، ثم رش عليهم من نوره، فن أصابه ذلك النور اهتدى، ومن أخطأه ضل﴾^(٣)، كما قال تعالى: ﴿الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾، وقال تعالى: ﴿أفمن يمشي مكباً على وجهه أهدى أم من يمشي سويماً على صراط مستقيم﴾؟ وقال تعالى: ﴿مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع هل يستويان مثلاً أفلا تذكرون﴾، وقال تعالى: ﴿وما يستوي الأعمى والبصير ولا الظلمات ولا النور ولا الظل ولا الحرور وما يستوي الأحياء ولا الأموات إن الله يسمع من يشاء وما أنت بمسمع من في القبور * إن أنت إلا نذير﴾، والآيات في هذه كثيرة، ووجه المناسبة في ضرب المثالين ههنا بالنور والظلمات

(١) رواه الطبراني من حديث الحكم بن أبان .

(٢) رواه أبو داود وابن ماجه ، قال ابن كثير : وهذا إسناد صحيح .

(٣) رواه أحمد في المسند .

ما تقدم في أول السورة ﴿وجعل الظلمات والنور﴾؛ وزعم بعضهم: أن المراد بهذا المثل رجلان معينان، فقيل عمر بن الخطاب هو الذي كان ميتاً فأحياه الله وجعل له نوراً يمشي به في الناس، وقيل: عمار بن ياسر، وأما الذي في الظلمات ليس بخارج منها أبو جهل (عمرو بن هشام) لعنه الله. والصحيح أن الآية عامة يدخل فيها كل مؤمن وكافر، وقوله تعالى: ﴿كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون﴾ أي حسناً لهم ما كانوا فيه من الجهالة والضلالة قدراً من الله وحكمة بالغة، لا إله إلا هو وحده لا شريك له .

وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَرًا مَجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَسْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾

يقول تعالى: وكما جعلنا في قريتك يا محمد أكبر من المجرمين، ورؤساء ودعاة إلى الكفر والصد عن سبيل الله وإلى مخالفتك وعداوتك، كذلك كانت الرسل من قبلك يتلون بذلك، ثم تكون لهم العاقبة، كما قال تعالى: ﴿وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً من المجرمين﴾ الآية، وقوله تعالى: ﴿أكابر مجرميها ليمكروا فيها﴾، قال ابن عباس: سلطنا شرارهم فعصوا فيها، فإذا فعلوا ذلك أهلكتناهم بالعذاب. وقال مجاهد وقتادة: ﴿أكابر مجرميها﴾ عظماؤها، قلت: وهكذا قوله تعالى: ﴿وما أرسلنا في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون﴾، وقوله تعالى: ﴿وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون﴾ والمراد بالمكر ههنا دعاؤهم إلى الضلالة بزخرف من المقال والفعال، كقوله تعالى إخباراً عن قوم نوح: ﴿ومكروا مكراً كباراً﴾، وقوله تعالى: ﴿ولو ترى إذ الظالمون موقفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكننا مؤمنين﴾، قال سفيان: كل مكر في القرآن فهو عمل، وقوله تعالى: ﴿وما يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أي وما يعود وبال مكرهم وإضلالهم إلا على أنفسهم، كما قال تعالى: ﴿وليحملن أثقالهن وأثقالاً مع أثقالهن﴾، وقال: ﴿ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم ألا ساء ما يزرون﴾. وقوله تعالى: ﴿وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتي رسل الله﴾ أي إذا جاءتهم آية وبرهان وحجة قاطعة قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتي رسل الله أي حتى تأتينا الملائكة من الله بالرسالة كما تأتي إلى الرسل، كقوله جلّ وعلا: ﴿وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا﴾ الآية .

وقوله تعالى: ﴿الله أعلم حيث يجعل رسالته﴾ أي هو أعلم حيث يضع رسالته ومن يصلح لها من خلقه، كقوله تعالى: ﴿وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم﴾ أهم يقسمون رحمة ربك﴾ الآية، يعنون لو نزل هذا القرآن على رجل عظيم كبير جليل مبجل في أعينهم﴾ من القريتين﴾ أي من مكة والطائف، وذلك أنهم قبحهم الله كانوا يزدرون بالرسول صلوات الله وسلامه عليه بغياً وحسداً، وعناداً واستكباراً، كقوله تعالى مخبراً عنه: ﴿وإذا رآك الذين كفروا إن يتخذونك إلا هزواً، أهذا الذي يذكر آلهتكم وهم بذكر الرحمن هم كافرون﴾، وقال تعالى: ﴿وإذا رأوك إن يتخذونك إلا هزواً أهذا الذي بعث الله رسولا﴾، وقال تعالى: ﴿ولقد

استهزىء برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون ﴿١﴾، هذا وهم معترفون بفضله وشرفه ونسبه، وطهارة بيته ومرباه، ومنشئه صلى الله وملائكته والمؤمنون عليه، حتى إنهم كانوا يسمونه بينهم قبل أن يوحى إليه «الأمين»، وقد اعترف بذلك رئيس الكفار (أبو سفيان) حين سأله هرقل ملك الروم: وكيف نسبه فيكم؟ قال: هو فينا ذو نسب، قال: هل كنتم تهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قال: لا.. الحديث بطوله الذي استدل ملك الروم بطهارة صفاته عليه السلام على صدق نبوته وصحة ما جاء به، وقال الإمام أحمد عن واثلة بن الأسقع رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل، واصطفى من بني إسماعيل بني كنانة، واصطفى من بني كنانة قريشاً، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاي من بني هاشم»^(١)، وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «بعثت من خير قرون بني آدم قرناً فقرناً حتى بعثت من القرن الذي كنت فيه». وقال الإمام أحمد قال العباس: بلغه ﷺ بعض ما يقول الناس فصعد المنبر فقال: «من أنا؟» قالوا أنت رسول الله، فقال: «أنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، إن الله خلق الخلق فجعلني في خير خلقه، وجعلهم فريقين فجعلني في خير فرقة، وخلق القبائل فجعلني في خير قبيلة، وجعلهم بيوتاً فجعلني في خيرهم بيتاً، فأنا خيركم بيتاً وخيركم نفساً» صدق صلوات الله وسلامه عليه.

وفي الحديث أيضاً المروي عن عائشة رضي الله عنها قالت، قال رسول الله ﷺ: «قال لي جبريل قلبت الأرض مشارقها ومغاربها فلم أجد رجلاً أفضل من محمد، وقلبت الأرض مشارقها ومغاربها فلم أجد بني أب أفضل من بني هاشم»^(٢)، وقال الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود قال: إن الله نظر في قلوب العباد فوجد قلب محمد خير قلوب العباد فاصطفاه لنفسه، فبعثه برسالته، ثم نظر في قلوب العباد بعد قلب محمد فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد فجعلهم وزراء نبيه يقاتلون على دينه، فما رآه المسلمون حسناً فهو عند الله حسن، وما رآه المسلمون سيئاً فهو عند الله سيء^(٣). وأبصر رجل ابن عباس وهو داخل من باب المسجد، فلما نظر إليه راعه فقال: من هذا؟ قالوا: ابن عباس ابن عم رسول الله ﷺ. فقال: ﴿الله أعلم حيث يجعل رسالته﴾^(٤)، وقوله تعالى: ﴿سَيصيب الذين أجرموا صغار عند الله وعذاب شديد﴾ الآية، هذا وعيد شديد من الله وتهديد أكيد لمن تكبر عن اتباع رسله والانقياد لهم فيما جاءوا به، فإنه سيصيبه يوم القيامة بين يدي الله ﷻ صغاراً وهو الذلة الدائمة كما أنهم استكبروا فأعقبهم ذلك ذلاً يوم القيامة لما استكبروا في الدنيا، كقوله تعالى: ﴿إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين﴾ أي صاغرين ذليلين حقيرين. وقوله تعالى: ﴿وعذاب شديد بما كانوا يمكرون﴾ لما كان المكر غالباً إنما يكون خفياً وهو التلطف في التحيل والخديعة قبولوا بالعذاب الشديد من الله يوم القيامة جزاء وفاقاً ﴿ولا يظلم ربك أحداً﴾، كما قال تعالى: ﴿يوم تبلى السرائر﴾ أي تظهر المستترات والمكنونات والضمائر، وجاء في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ينصب لكل غادر لواء عند استه يوم القيامة فيقال هذه غدره فلان بن فلان»، والحكمة في هذا أنه لما كان الغدر خفياً لا يطلع عليه الناس فيوم القيامة يصير علماً منشوراً على صاحبه بما فعل.

(١) أخرجه الإمام أحمد عن ابن مسعود موقوفاً.

(٢) رواه مسلم وأحمد.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم.

(٤) رواه الحاكم والبيهقي.

فَن يرد الله أن يهديه، يشرح صدره للإسلام^ط ومن يرد أن يضلّه، يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء^ج كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون ﴿١٢٥﴾

يقول تعالى: ﴿فن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام﴾ أي يسره له وينشطه ويسهله لذلك، فهذه علامات على الخير، كقوله تعالى: ﴿أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم﴾، وقال ابن عباس معناه يوسع قلبه للتوحيد والإيمان به وهو ظاهر. سئل رسول الله ﷺ: أي المؤمنين أكيس؟ قال: «أكثرهم ذكراً للموت وأكثرهم لما بعده استعداداً»، وسئل عن هذه الآية: ﴿فن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام﴾ قالوا: كيف يشرح صدره يا رسول الله؟ قال: «نور يقذف فيه فينشرح له وينفسح»، قالوا: فهل لذلك من أمانة يعرف بها؟ قال: «الإجابة إلى دار الخلود، والتجافي عن دار الغرور، والاستعداد للموت قبل لقاء الموت»^(١). وعن عبد الله بن مسعود قال: تلا رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿فن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام﴾ قالوا: يا رسول الله ما هذا الشرح؟ قال: «نور يقذف به في القلب»، قالوا يا رسول الله فهل لذلك من أمانة تعرف؟ قال: «نعم»، قالوا: وما هي قال: «الإجابة إلى دار الخلود، والتجافي عن دار الغرور، والاستعداد للموت قبل الموت»^(٢).

وقوله تعالى: ﴿ومن يرد أن يضلّه يجعل صدره ضيقاً حرجاً﴾ حرجاً بفتح الحاء والراء، وهو الذي لا يتسع لشيء من الهدى، ولا يخلص إليه شيء من الإيمان ولا ينفذ فيه، وقد سأل عمر بن الخطاب رضي الله عنه رجلاً من الأعراب من أهل البادية من مدلج عن الحرجة؟ فقال: هي الشجرة تكون بين الأشجار لا تصل إليها راعية ولا وحشية ولا شيء، فقال عمر رضي الله عنه: كذلك قلب المنافقين لا يصل إليه شيء من الخير. وقال ابن عباس: يجعل الله عليه الإسلام ضيقاً والإسلام واسع، وذلك حين يقول: ﴿وما جعل عليكم في الدين من حرج﴾ يقول: ما جعل عليكم في الإسلام من ضيق. وقال مجاهد والسدي: ﴿ضيقاً حرجاً﴾ شاكاً، وقال عطاء الخراساني: ﴿ضيقاً حرجاً﴾ أي ليس للخير فيه منفذ، وقال ابن المبارك: ﴿ضيقاً حرجاً﴾ بلا إله إلا الله حتى لا تستطيع أن تدخل قلبه، ﴿كأنما يصعد في السماء﴾ من شدة ذلك عليه. وقال سعيد بن جبير: ﴿يجعل صدره ضيقاً حرجاً﴾ لا يجد فيه مسلماً إلا صعده. وقال عطاء الخراساني: ﴿كأنما يصعد في السماء﴾ يقول: مثله كمثل الذي لا يستطيع أن يصعد إلى السماء، وقال ابن عباس: ﴿كأنما يصعد في السماء﴾ يقول: فكما لا يستطيع ابن آدم أن يبلغ السماء فكذلك لا يستطيع أن يدخل التوحيد والإيمان قلبه حتى يدخله الله في قلبه، وقال الأوزاعي: كيف يستطيع من جعل الله صدره ضيقاً أن يكون مسلماً. وقال ابن جرير: وهذا مثل ضربه الله لقلب هذا الكافر في شدة ضيقه عن وصول الإيمان إليه يقول: فثله في امتناعه عن قبول الإيمان وضيقه عن وصوله إليه مثل امتناعه عن الصعود إلى السماء وعجزه عنه، لأنه ليس في وسعه وطاقته، وقال في قوله: ﴿كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون﴾

(١) رواه عبد الرزاق، وابن جرير بنحوه وأخرجه ابن أبي حاتم كما في الرواية الأخرى.

(٢) رواه ابن أبي حاتم، قال ابن كثير: ولهذا الحديث طرق مرسله ومتصلة يشد بعضها بعضاً

يقول: كما يجعل الله صدر من أراد إضلاله ضيقاً حرجاً، كذلك يسلط الله الشيطان عليه وعلى أمثاله ممن أبى الإيمان بالله ورسوله فيغويه ويصده عن سبيل الله، وقال ابن عباس: ﴿الرجس﴾ الشيطان، وقال مجاهد: ﴿الرجس﴾ كل ما لا خير فيه .

وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ * لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ
وَلِيَّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾

لما ذكر تعالى طريق الضالين عن سبيله الصادين عنها، تبه على شرف ما أرسل به رسوله من الهدى ودين الحق، فقال تعالى: ﴿وهذا صراط ربك مستقيماً﴾ أي هذا الدين الذي شرعناه لك يا محمد بما أوحينا إليك هذا القرآن هو صراط الله المستقيم، كما تقدم في الحديث في نعت القرآن: ﴿هو صراط الله المستقيم، وحبل الله المتين وهو الذكر الحكيم﴾^(١)، ﴿قد فصلنا الآيات﴾ أي وضحناها وبينناها وفسرناها ﴿لقوم يذكرون﴾ أي لمن له فهم ووعي يعقل عن الله ورسوله، ﴿لهم دار السلام﴾ وهي الجنة ﴿عند ربهم﴾ أي يوم القيامة، وإنما وصف الله الجنة ههنا بدار السلام لسلامتهم فيما سلكوه من الصراط المستقيم، المقتفي أثر الأنبياء وطرائقهم فكما سلموا من آفات الاعوجاج أفضوا إلى دار السلام، ﴿وهو وليهم﴾ أي حافظهم وناصرهم ومؤيدهم، ﴿بما كانوا يعملون﴾ أي جزاء على أعمالهم الصالحة تولاهم وأثابهم الجنة بمنه وكرمه .

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَنْمَعَشِرُ الْجِنَّةَ قَدْ اسْتَكْرَثْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمِعْ بَعْضَنَا
بِبَعْضٍ وَبَلَّغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَلْتَنَا لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوًى لَكُمْ فَخَلِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾

يقول تعالى: ﴿و﴾ اذكر يا محمد فيما تقصه عليهم وتذرهم به، ﴿يوم يحشرهم جميعاً﴾ يعني الجن وأولياءهم من الإنس الذين كانوا يعبدونهم في الدنيا ويعوذون بهم ويطعونهم، ويوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً ﴿يا معشر الجن قد استكرثتم من الإنس﴾ أي يقول يا معشر الجن، وسياق الكلام يدل على المحذوف، ومعنى قوله: ﴿قد استكرثتم من الإنس﴾ أي من إغوائهم وإضلالهم، كقوله تعالى: ﴿لم أعهد إليكم يا بني آدم ألا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم﴾، وقال ابن عباس: ﴿يا معشر الجن قد استكرثتم من الإنس﴾ يعني أضلتم منهم كثيراً، ﴿وقال أولياؤهم من الإنس ربنا استمع بعضنا ببعض﴾: يعني أولياء الجن من الإنس قالوا مجيبين لله تعالى عن ذلك بهذا، قال ابن أبي حاتم عن الحسن في هذه الآية قال: استكرثتم من أهل النار يوم القيامة، فقال أولياؤهم من الإنس: ربنا استمع بعضنا ببعض، قال الحسن: وما كان استمتاع بعضهم ببعض إلا أن الجن أمرت وعملت الإنس^(٢). وقال ابن جريج: كان الرجل في الجاهلية ينزل الأرض فيقول: أعوذ بكبير هذا الوادي، فذلك استمتاعهم فاعتذروا به يوم القيامة، وأما استمتاع الجن بالإنس

(١) رواه أحمد والترمذي عن علي كرم الله وجهه وهو حديث طويل . (٢) أخرجه ابن أبي حاتم عن الحسن البصري .

فإنه كان - فيما ذكر - ما ينال الجن من الإنس من تعظيمهم إياهم في استعانتهم بهم، فيقولون: قد سدنا الإنس والجن ﴿وبلغنا أجلنا الذي أجلت لنا﴾ قال السدي: يعني الموت، ﴿قال النار مثواكم﴾ أي مأواكم ومزلكم أتم وإياهم وأولياؤكم، ﴿خالدين فيها﴾ أي ما كثر فيها مكثاً مخلداً إلا ما شاء الله، قال بعضهم: يرجع معنى الاستثناء إلى البرزخ، وقال بعضهم: هذا رد إلى مدة الدنيا، وقيل: غير ذلك من الأقوال، وقد روى ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس: ﴿قال النار مثواكم خالدين فيها إلا ما شاء الله إن ربك حكيم عليم﴾ قال: إن هذه الآية آية لا ينبغي لأحد أن يحكم على الله في خلقه، ولا يترلم جنة ولا ناراً.

وَكَذَلِكَ نُؤَيِّنُ لِنُؤَيِّنُ بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾

قال قتادة في تفسيرها: إنما يولي الله الناس بأعمالهم، فالؤمن ولي المؤمن أين كان وحيث كان، والكافر ولي الكافر أينما كان وحيثما كان، ليس الإيمان بالتمني ولا بالتحلي، واختاره ابن جرير، وعنه في تفسير الآية: يولي الله بعض الظالمين بعضاً في النار يتبع بعضهم بعضاً. وقال مالك بن دينار: قرأت في الزبور: إني أنتقم من المنافقين بالمنافقين، ثم انتقم من المنافقين جميعاً، وذلك في كتاب الله قوله الله تعالى ﴿وكذلك نولي بعض الظالمين بعضاً﴾، وقال ابن أسلم: قال ظالمي الجن وظالمي الإنس، وقرأ: ﴿ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين﴾ أي ونسلط ظلمة الجن على ظلمة الإنس، وعن ابن مسعود مرفوعاً: «من أعان ظالماً سلطه الله عليه»^(١). وقال بعض الشعراء:

وما من يد إلا يد الله فوقها ولا ظالم إلا سبيل بظالم

ومعنى الآية الكريمة: كما ولينا هؤلاء الخاسرين من الإنس تلك الطائفة التي اغوتهم من الجن، كذلك نفعل بالظالمين نسلط بعضهم على بعض ونهلك بعضهم ببعض، وننتقم من بعضهم ببعض جزاء على ظلمهم وبغيهم.

يَمَعَشَرَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿١٣٠﴾

وهذا أيضاً مما يقرع الله به كافري الجن والإنس يوم القيامة حيث يسألهم وهو أعلم: هل بلغتهم الرسل رسالاته، وهذا استفهام تقرير، ﴿يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم﴾ أي من جملةكم والرسل من الإنس فقط وليس من الجن رسل، كما قد نص على ذلك مجاهد وابن جريج وغير واحد من الأئمة من السلف والخلف. وقال ابن عباس: الرسل من بني آدم ومن الجن نزر. وحكى ابن جرير عن الضحاك: أنه زعم أن في الجن رسلاً، واحتج بهذه الآية الكريمة، وفيه نظر، لأنها محتملة وليست بصريحة وهي، والله أعلم، كقوله: ﴿مرج البحرين يلتقيان﴾ بينهما برزخ لا يبغيان، إلى أن قال: ﴿يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان﴾ ومعلوم أن اللؤلؤ والمرجان إنما

(١) رواه الحافظ ابن عساكر، قال ابن كثير: وهو حديث غريب.

يستخرجان من الملح لا من الحلو، وهذا واضح والله الحمد. وقد ذكر هذا الجواب بعينه ابن جرير، والدليل على أن الرسل إنما هم من الإنس قوله تعالى: ﴿إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده﴾. وقوله تعالى عن إبراهيم: ﴿وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب﴾ فحصر النبوة والكتاب بعد إبراهيم في ذريته، ولم يقل أحد من الناس إن النبوة كانت في الجن قبل إبراهيم الخليل ثم انقطعت عنهم ببعثته. وقال تعالى: ﴿وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق﴾، وقال: ﴿وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم من أهل القرى﴾ ومعلوم أن الجن تبع للإنس في هذا الباب، ولهذا قال تعالى إخباراً عنهم: ﴿وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضي ولوا إلى قومهم منذرين﴾ قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى مصداقاً لما بين يديه يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم﴾، وقال تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا شهدنا على أنفسنا﴾ أي أقرنا أن الرسل قد بلغونا رسالاتك وأنذرونا لقاءك، وأن هذا اليوم كائن لا محالة. وقال تعالى: ﴿وغرهم الحياة الدنيا﴾ أي وقد فرطوا في حياتهم الدنيا وهلكوا بتكذيبهم الرسل ومخالفتهم للمعجزات، لما اغتروا به من زخرف الحياة الدنيا وزينتها وشهواتها، ﴿وشهدوا على أنفسهم﴾ أي يوم القيامة ﴿أنهم كانوا كافرين﴾ أي في الدنيا بما جاءهم به الرسل صلوات الله وسلامه عليهم.

ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ ﴿١٣١﴾ وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾

يقول تعالى: ﴿ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم وأهلها غافلون﴾ أي إنما أعذرنا إلى الثقلين بإرسال الرسل وإنزال الكتب لئلا يؤاخذ أحد بظلمه وهو لم تبلغه دعوة، ولكن أعذرنا إلى الأمم وما عذبنا أحد إلا بعد إرسال الرسل إليهم، كما قال تعالى: ﴿وإن من قرية إلا خلا فيها نذير﴾، وقوله: ﴿وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً﴾، وقال تعالى: ﴿كلما أتت فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير؟ قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا﴾ والآيات في هذا كثيرة. قال ابن جرير: ويحتمل قوله تعالى: ﴿بظلم﴾ وجهين (أحدهما): أي بظلم أهلها بالشرك ونحوه وهم غافلون، يقول: لم يكن يعاجلهم بالعقوبة حتى يبعث إليهم رسولاً ينبههم على حجج الله عليهم وينذرهم عذاب الله يوم معادهم، ولم يكن بالذي يؤاخذهم غفلة، فيقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير. (والوجه الثاني): لم يكن ربك ليهلكهم دون التنبيه والتذكير بالرسول والآيات والعبر فيظلمهم بذلك، والله غير ظلام لعبيده، ثم شرع يرجح الوجه الأول ولا شك أنه أقوى والله أعلم، قال: وقوله تعالى: ﴿ولكل درجات مما عملوا﴾ أي ولكل عامل من طاعة الله أو معصيته مراتب ومنازل من عمله يبلغه الله إياها ويثيبه بها إن خيراً فخير وإن شراً فشر. (قلت): ويحتمل أن يعود قوله: ﴿ولكل درجات مما عملوا﴾ أي من كافري الجن والإنس، أي لكل درجة في النار بحسبه، كقوله: ﴿قال لكل ضعف﴾، وقوله: ﴿الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذاباً فوق العذاب بما كانوا يفسدون﴾، ﴿وما ربك بغافل عما يعملون﴾، قال ابن جرير: أي وكل ذلك من عملهم يا محمد بعلم من ربك يحصيا ويثبتها لهم عنده ليجازيهم عليها عند لقاءهم إياه ومعادهم إليه.

وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ ۚ إِنَّ يَشَاءُ يَذْهَبِكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَةِ قَوْمٍ آخَرِينَ ﴿١٣٣﴾
 ﴿١٣٤﴾ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٥﴾ قُلْ يَتَقَوَّمُ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَقِيبَةُ الدَّارِ ۗ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿١٣٥﴾

يقول تعالى: ﴿ وربك ﴾ يا محمد ﴿ الغني ﴾ أي عن جميع خلقه من جميع الوجوه، وهم الفقراء إليه في جميع أحوالهم، ﴿ ذو الرحمة ﴾ أي وهو مع ذلك رحيم بهم كما قال تعالى: ﴿ إن الله بالناس لرؤوف رحيم ﴾ إن يشاء يذهبكم ﴿ أي إذا خالفتم أمره، ﴾ ويستخلف من بعدكم ما يشاء ﴿ أي قوماً آخرين أي يعملون بطاعته، ﴾ كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين ﴿ أي هو قادر على ذلك سهل عليه يسير لديه كما أذهب القرون الأولى وأتى بالذي بعدها، كذلك هو قادر على إذهاب هؤلاء والإتيان بآخرين كما قال تعالى: ﴿ إن يشاء يذهبكم أيها الناس ويأت بآخرين وكان الله على ذلك قديراً ﴾ ، وقال تعالى: ﴿ إن يشاء يذهبكم ويأت بخلق جديد وما ذلك على الله بعزيز ﴾ ، وقال تعالى: ﴿ وإن تولوا يبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم ﴾ ، وقوله تعالى: ﴿ إنما توعدون لآت وما أنتم بمعجزين ﴾ أي أخبرهم يا محمد أن الذي يوعدون به من أمر المعاد كائن لا محالة، ﴿ وما أنتم بمعجزين ﴾ أي ولا تعجزون الله، بل هو قادر على إعادتكم وإن صرتم تراباً رفاتاً وعظماً هو قادر لا يعجزه شيء، وقال ابن أبي حاتم في تفسيرها عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ أنه قال: « يا بني آدم إن كنتم تعقلون فعدوا أنفسكم من الموتى، والذي نفسي بيده إنما توعدون لآت وما أنتم بمعجزين » .

وقوله تعالى: ﴿ قل يا قوم اعملوا على مكانتكم إني عامل فسوف تعلمون ﴾ هذا تهديد شديد ووعد أكيد، أي استمروا على طريقتكم وناحيتكم إن كنتم تظنون أنكم على هدى فانا مستمر على طريقي ومنهجي، كقوله: ﴿ قل للذين لا يؤمنون اعملوا على مكانتكم إنا عاملون وانتظروا إنا منتظرون ﴾ ، قال ابن عباس: ﴿ على مكانتكم ﴾ ناحيتكم، ﴿ فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدار إنه لا يفلح الظالمون ﴾ أي أتكون لي أو لكم؟ وقد أنجز الله مواعده لرسوله صلوات الله عليه، فإنه تعالى مكث في البلاد، وحكمه في نواصي مخالفه من العباد، وفتح له مكة، وأظهره على من كذبه من قومه وعاداه وناوآه، واستقر أمره على سائر جزيرة العرب، وكل ذلك في حياته، ثم فتحت الأمصار والأقاليم بعد وفاته في أيام خلفائه رضي الله عنهم أجمعين كما قال الله تعالى: ﴿ كتب الله لأغلبن أنا ورسلي إن الله قوي عزيز ﴾ ، وقال: ﴿ إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم وهم اللعنة وهم سوء الدار ﴾ ، وقال تعالى: ﴿ ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون ﴾ ، وقال تعالى إخباراً عن رسله: ﴿ فأوحى إليهم ربه لنهلكن الظالمين ولنسكننكم الأرض من بعدهم ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد ﴾ ، وقال تعالى: ﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ﴾ الآية، وقد فعل الله ذلك بهذه الأمة المحمدية وله الحمد والمنة أولاً وآخراً وظاهراً وباطناً .

وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ
فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾

هذا ذم وتوبيخ من الله للمشركين الذين ابتدعوا بدعاً وكفراً وشركاً، وجعلوا لله شركاء، وهو خالق كل شيء سبحانه وتعالى، ولهذا قال تعالى: ﴿وجعلوا لله مما ذرأ ﴿﴾ أي مما خلق وبرأ ﴿﴾ من الحرث ﴿﴾ أي من الزرع والثمار، ﴿والأنعام نصيباً ﴿﴾ أي جزءاً وقسماً، ﴿فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا ﴿﴾، وقوله: ﴿فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم ﴿﴾. قال ابن عباس: إن أعداء الله كانوا إذا حرثوا حرثاً أو كانت لهم ثمرة جعلوا لله منه جزءاً وللوثن جزءاً، فما كان من حرث أو ثمرة أو شيء من نصيب الأوثان حفظوه وأحصوه، وإن سقط منه شيء فيما سمي للصدم رده إلى ما جعلوه للوثن، وإن سقط شيء من الحرث والثمرة الذي جعلوه لله فاختلف بالذي جعلوه للوثن قالوا: هذا فقير ولم يردوه إلى ما جعلوه لله، وكانوا يحرمون من أموالهم (البحيرة والسائبة والوصيلة والحام) فيجعلونه للأوثان، ويزعمون أنهم يحرمونه قربة لله، فقال الله تعالى: ﴿وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً ﴿﴾ الآية^(١)، وقال ابن أسلم في الآية: كل شيء يجعلونه لله من ذبح يذبحونه لا يأكلونه أبداً، حتى يذكروا معه أسماء الآلهة، وما كان للآلهة لم يذكروا اسم الله معه، وقرأ الآية حتى بلغ: ﴿ساء ما يحكمون ﴿﴾ أي ما يقسمون فإنهم أخطأوا أولاً في القسم، لأن الله تعالى هو رب كل شيء ومليكه وخالقه وله الملك، وكل شيء له وفي تصرفه وتحت قدرته ومشيتته لا إله غيره ولا رب سواه، ثم لما قسموا فيما زعموا القسمة الفاسدة لم يحفظوها، بل جاروا فيها كقوله جلّ وعلا: ﴿ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون ﴿﴾، وقال تعالى: ﴿وجعلوا له من عباده جزءاً إن الإنسان لكفور مبين ﴿﴾، وقال تعالى: ﴿الكم الذكر وله الأنثى، تلك إذا قسمة ضيزى ﴿﴾.

وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتَلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاءَهُمْ لِيَرُدُّوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرَّهُمْ وَمَا يَقْتُرُونَ ﴿١٣٧﴾

يقول تعالى: كما زينت الشياطين لهؤلاء أن يجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً، كذلك زينوا لهم قتل أولادهم خشية الإملاق ووأد البنات خشية العار، قال ابن عباس: وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم، زينوا لهم قتل أولادهم. وقال مجاهد: شركاؤهم شياطينهم، يأمرونهم أن يثلوا أولادهم خشية العيلة. وقال السدي: أمرتهم الشياطين أن يقتلوا البنات إما ليردوهم فيهلكوهم، وإما ليلبسوا عليهم دينهم، أي فيخلطوا

(١) كان لحي من خولان صنم يقال له: عم أنس، وكانوا يجعلون له نصيباً، ويجعلون لله تعالى نصيباً، فإذا وقع في النصيب الذي لله فيه شيء رده إلى الصنم، وقالوا: هو إله ضعيف، كما ذكره السهيلي عن ابن إسحاق. وخولان هؤلاء هم بنو عمرو ابن الحارث بن قضاة.

عليهم دينهم، ونحو ذلك، قال ابن أسلم وقتادة: وهذا كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَشَّرْنَا أَحَدَهُم بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهَهُ مَسْوُودًا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾، وكقوله: ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾، وقد كانوا أيضاً يقتلون الأولاد من الإملاق وهو الفقر أو خشية الإملاق أن يحصل لهم في تلف المال، وقد نهاهم عن قتل أولادهم لذلك، وإنما كان هذا كله من تزيين الشياطين وشرعهم ذلك، قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ﴾ أي كل هذا واقع بمشيئته تعالى وإرادته واختياره لذلك كونا وله الحكمة التامة في ذلك فلا يسأل عما يفعل وهم يسألون، ﴿فَذَرَهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ أي فدعهم واجتنبهم وما هم فيه فسيحكم الله بينك وبينهم.

وَقَالُوا هَذِهِ أُنْعَمٌ وَّحَرِّثُ جِحْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَأَ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَمٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾

قال ابن عباس الحِجْر: الحرام مما حرّموا من الوصيلة وتحريم ما حرّموا^(١)، وقال قتادة: تحريم كان عليهم من الشياطين في أموالهم وتغليظ وتشديد، ولم يكن من الله تعالى، وقال ابن أسلم: ﴿حجر﴾ إنما احتجروها لأنهم، وقال السدي: ﴿لا يطعمها إلا من نشأ بزعمهم﴾ يقولون: حرام أن يطعم إلا من شئنا، وهذه الآية الكريمة كقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ اللَّهُ أَدْنَىٰ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾، وكقوله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ﴾، وقال السدي: أما الأنعام التي حرمت ظهورها فهي البحيرة والسائبة والوصيلة والحام، وقال مجاهد: كان من إبلهم طائفة لا يذكرون اسم الله عليها ولا في شيء من شأنها لا إن ركبوا ولا إن حلبوا ولا إن حملوا ولا إن نتجوا ولا إن عملت شيئاً، ﴿افتراء عليه﴾ أي على الله وكذباً منهم في إسنادهم ذلك إلى دين الله وشرعه، فإنه لم يأذن لهم في ذلك ولا رضيه منهم، ﴿سيجزيهم بما كانوا يفترون﴾ أي عليه ويسندون إليه.

وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُن مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾

قال ابن عباس ﴿وقالوا ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا﴾ الآية، قال: اللبن كانوا يحرمونه على إناثهم ويشربه ذكرائهم، وكانت الشاة إذا ولدت ذكراً ذبحوه، وكان للرجال دون النساء، وإن كانت أنثى تركت فلم تذبح، وإن كانت ميته فهم فيه شركاء، فهي الله عن ذلك، وقال الشعبي: البحيرة لا يأكل من لبنها إلا الرجال، وإن مات منها شيء أكله الرجال والنساء، وقال مجاهد في قوله ﴿وقالوا ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا﴾ قال: هي السائبة والبحيرة، ﴿سيجزيهم وصفهم﴾ أي قولهم الكذب في ذلك، كقوله تعالى: ﴿ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب﴾

(١) وهو قول مجاهد والضحاك والسدي وقتادة وابن زيد وغيرهم.

الآية، ﴿إِنَّهُ حَكِيمٌ﴾ أي في أفعاله وأقواله وشرعه وقدره، ﴿عَلِيمٌ﴾ بأعمال عباده من خير وشر وسيجزئهم عليها أتم الجزاء .

قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا

مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾

يقول تعالى: قد خسر الذين فعلوا هذه الأفاعيل في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا فحسروا أولادهم بقتلهم وضيعوا عليهم في أموالهم فحرموا أشياء ابتدعوها من تلقاء أنفسهم، وأما في الآخرة فيصيرون إلى أسوأ المنازل بكذبهم على الله واقترانهم، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذْبَ لَا يَفْلَحُونَ﴾ متاع في الدنيا ثم إلينا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: إذا سرك أن تعلم جهل العرب فاقرأ ما فوق الثلاثين والمائة من سورة الأنعام: ﴿قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفهاً بغير علم وحرموا ما رزقهم الله افتراء على الله قد ضلوا وما كانوا مهتدين﴾ (١).

* وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أَكْلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَانَ مُمْتَلِئًا بِغَيْرِ مُنْتَشِبِهِ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾
وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةٌ وَفَرَشَاتٌ كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿١٤٢﴾

يقول تعالى مبيناً أنه الخالق لكل شيء من الزروع والثمار والأنعام التي تصرف فيها هؤلاء المشركون بآرائهم الفاسدة، وقسموها وجزؤوها فجعلوا منها حراماً وحلالاً، فقال: ﴿وهو الذي أنشأ جنات معروشات وغير معروشات﴾، قال ابن عباس: ﴿معروشات﴾ مسموكات. وفي رواية: فالمعروشات ما عرش الناس، وغير معروشات ما خرج في البر والجبال من الثمرات، وعنه: معروشات ما عرش من الكرم، وغير معروشات ما لم يعرش من الكرم. وقال ابن جريج: ﴿متشابهاً وغير متشابه﴾ قال: متشابهاً في المنظر، وغير متشابه في المطعم، ﴿كلوا من ثمره إذا أثمر﴾ من رطبه وعنبه، وقوله تعالى: ﴿وآتوا حقه يوم حصاده﴾ قال بعضهم: هي الزكاة المفروضة. قال ابن عباس: ﴿وآتوا حقه يوم حصاده﴾: يعني الزكاة المفروضة يوم يكال ويعلم كيله (٢)، وعنه قال: إن الرجل كان إذا زرع فكان يوم حصاده لم يخرج مما حصد شيئاً، فقال الله تعالى: ﴿وآتوا حقه يوم حصاده﴾ وذلك أن يعلم ما كيله وحقه من كل عشرة واحد وما يلقط الناس من سنبله، وقد روي عن جابر بن عبد الله أن النبي ﷺ أمر من كل جاذ عشرة أوسق من التمر بقتن يعلق في المسجد للمساكين (٣). وقال الحسن البصري: هي الصدقة من الحب

(١) رواه البخاري في المناقب، وأخرجه ابن مردويه في تفسير هذه الآية .

(٢) وروي عن أنس بن مالك وسعيد بن المسيب وهو قول طاووس وقتادة والحسن والضحاك .

(٣) رواه أحمد وأبو داود، وقال ابن كثير: وإسناده جيد قوي .

والثمار، وقال آخرون: هو حق آخر سوى الزكاة، روى نافع عن ابن عمر في قوله: ﴿وآتوا حقه يوم حصاده﴾ قال: كانوا يعطون شيئاً سوى الزكاة. وقال مجاهد: إذا حضرك المساكين طرحت لهم منه، وعنه قال: عند الزرع يعطى القبضة، وعند الصرام يعطى القبضة، ويتركهم فيتبعون آثار الصرام، وقال سعيد بن جبير: كان هذا قبل الزكاة للمساكين القبضة والضغث لعلف دابته، وقال آخرون: هذا شيء كان واجباً، ثم نسخه الله بالعشر أو نصف العشر^(١)، وقد ذم الله سبحانه الذين يصرمون ولا يتصدقون، كما ذكر عن أصحاب الجنة في سورة «ن»: ﴿إذ أقسموا ليصرمنها مصبحين ولا يستثنون * فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون * فأصبحت كالصريم﴾ أي كالليل المدلم سوداء محترقة .

وقوله تعالى: ﴿ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين﴾ قيل: معناه لا تسرفوا في الإعطاء فتعطوا فوق المعروف. قال ابن جريج: نزلت في ثابت بن قيس بن شماس جدّ نخللاً له فقال: لا يأتيني اليوم أحد إلا أطعمته فأطعم حتى أمسى وليست له ثمرة، فأنزل الله تعالى: ﴿ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين﴾^(٢)، وقال عطاء: نهوا عن السرف في كل شيء، وقال إياس بن معاوية: ما جاوزت به أمر الله فهو سرف، وقال السدي: لا تعطوا أموالكم فتقعوا فقراء. وقال سعيد بن المسيب في قوله: ﴿ولا تسرفوا﴾ قال: لا تمنعوا الصدقة فتعصوا ربكم، والمختار عند ابن جرير قول عطاء: أنه نهى عن الإسراف في كل شيء، ولا شك أنه صحيح، لكن الظاهر والله أعلم من سياق الآية حيث قال تعالى: ﴿كلوا من ثمره إذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده ولا تسرفوا﴾ أن يكون عائداً على الأكل أي لا تسرفوا في الأكل لما فيه من مضرة العقل والبدن، كقوله تعالى: ﴿كلوا واشربوا ولا تسرفوا﴾ الآية. وفي صحيح البخاري تعليقاً: «كلوا واشربوا والبسوا من غير إسراف ولا مخيلة»، وهذا من هذا، والله أعلم. وقوله عز وجل: ﴿ومن الأنعام حمولة وفرشاً﴾ أي وأنشأ لكم من الأنعام ما هو حمولة وما هو فرش، قيل: المراد بالحمولة ما يحمل عليه من الإبل، والفرش الصغار منها، روي عن ابن مسعود في قوله: ﴿حمولة﴾ ما حمل عليه من الإبل، ﴿وفرشاً﴾ الصغار من الإبل، قال ابن عباس: الحمولة هي الكبار، والفرش الصغار من الإبل، وكذا قال مجاهد .

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: ﴿ومن الأنعام حمولة وفرشاً﴾ أما الحمولة فالإبل والخيل والبغال والحمير وكل شيء يحمل عليه، وأما الفرش فالغنم، واختاره ابن جرير، قال: وأحسبه إنما سمي فرشاً لدنوه من الأرض، وقال الضحاک وقتادة: الحمولة الإبل والبقر، والفرش الغنم. وقال السدي: أما الحمولة فالإبل، وأما الفرش فالفصلان والعجاجيل والغنم، وما حمل عليه فهو حمولة. وقال ابن أسلم: الحمولة ما تركبون، والفرش ما تأكلون وتحلبون: شاة لا تحمل تأكلون لحمها وتتخذون من صوفها لحافاً وفرشاً، وهذا الذي قاله عبد الرحمن في تفسير هذه الآية الكريمة حسن يشهد له قوله تعالى: ﴿أو لم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاماً فهم لها مالكون * وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون﴾، وقال تعالى: ﴿وإن لكم في الأنعام لعبرة نسقيكم مما في بطونه من بين فرث ودم لبناً خالصاً سائغاً للشاربين﴾ إلى أن قال: ﴿ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاناً ومتاعاً إلى

(١) حكاه ابن جرير رحمه الله واختاره .

(٢) رواه ابن جرير من حديث ثابت بن قيس .

حين ﴿﴾ ، وقال تعالى: ﴿﴾ الله الذي جعل لكم الأنعام لتركبوا منها ومنها تأكلون ﴿﴾ ، وقوله تعالى: ﴿﴾ كلوا مما رزقكم الله ﴿﴾ أي من الثمار والزروع والأنعام فكلها خلقها الله وجعلها رزقاً لكم ، ﴿﴾ ولا تتبعوا خطوات الشيطان ﴿﴾ أي طريقه وأوامره كما اتبعها المشركون الذين حرموا ما رزقهم الله أي من الثمار والزروع افتراء على الله ، ﴿﴾ إنه لكم ﴿﴾ أي إن الشيطان أيها الناس لكم ﴿﴾ عدو مبين ﴿﴾ أي بين ظاهر العداوة كما قال تعالى: ﴿﴾ إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً ﴿﴾ ، وقال تعالى: ﴿﴾ يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ﴿﴾ الآية ، وقال تعالى: ﴿﴾ أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلاً ﴿﴾ والآيات في هذا كثيرة في القرآن .

تَمَنِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْرِ اثْنَيْنِ قُلْ ءَآلَ الذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أُمَّ الْاُنْثَيْنِ اَمَّا اَسْتَمَلَتْ عَلَيْهِ اَرْحَامُ الْاُنْثَيْنِ نَبْئُونِي بِعِلْمٍ اِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ الْاَيْلِ اَثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اَثْنَيْنِ قُلْ ءَآلَ الذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ اُمَّ الْاُنْثَيْنِ اَمَّا اَسْتَمَلَتْ عَلَيْهِ اَرْحَامُ الْاُنْثَيْنِ اَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ اِذْ وَصَّيْنَا اللّٰهَ بِهٰذَا فَمَنْ اَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلٰى اللّٰهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ اِنَّ اللّٰهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظّٰلِمِيْنَ ﴿١٤٤﴾

هذا بيان لجهل العرب قبل الإسلام فيما كانوا حرموا من الأنعام، وجعلوها أجزاء وأنواعاً بحيرة وسائبة ووصيلة وغير ذلك من الأنواع التي ابتدعوها في الأنعام والزروع والثمار، فبين تعالى أنه أنشأ جنات معروشات وغير معروشات، وأنه أنشأ من الأنعام حمولة وفرشاً، ثم بين أصناف الأنعام، وأنه تعالى لم يحرم شيئاً من ذلك ولا شيئاً من أولادها بل كلها مخلوقة لبني آدم أكلاً وركوباً وحمولة وحلباً وغير ذلك من وجوه المنافع، كما قال: ﴿﴾ وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج ﴿﴾ الآية، وقوله تعالى: ﴿﴾ أما استملت عليه أرحام الأنثيين ﴿﴾ رد عليهم في قولهم: ﴿﴾ ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا ﴿﴾ الآية، وقوله تعالى: ﴿﴾ نبئوني بعلم إن كنتم صادقين ﴿﴾ أي أخبروني عن يقين كيف حرم الله عليكم ما زعمتم تحريمه من البحيرة والسائبة والوصيلة والحام ونحو ذلك، قال ابن عباس: يقول لم أحرم شيئاً من ذلك، ﴿﴾ أما استملت عليه أرحام الأنثيين ﴿﴾ يعني هل يشتمل الرحم إلا على ذكر أو أنثى فلم تحرمون بعضاً وتحلون بعضاً؟ ﴿﴾ نبئوني بعلم إن كنتم صادقين ﴿﴾ يقول تعالى: كله حلال، وقوله تعالى: ﴿﴾ أم كنتم شهداء إذ وصاكم الله بهذا ﴿﴾ تهكم بهم فيما ابتدعوه وافتروه على الله من تحريم ما حرموه من ذلك، ﴿﴾ فمن أظلم ممن افتري على الله كذباً ليضل الناس بغير علم ﴿﴾ أي لا أحد أظلم منه، ﴿﴾ إن الله لا يهدي القوم الظالمين ﴿﴾ وأول من دخل في هذه الآية (عمرو بن لحي بن قمعة) لأنه أول من غير دين الأنبياء، وأول من سبب السوائب، ووصل الوصيلة، وحمى الحامي، كما ثبت ذلك في الصحيح .

قُلْ لَا اَجِدُ فِي مَا اُوْحِيَ اِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلٰى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ اِلَّا اَنْ يَكُونَ مَيْتَةً اَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا اَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَاِنَّهٗ رَجِسٌ اَوْ فِسْقًا اَهْلًا لِغَيْرِ اللّٰهِ بِهِ ؕ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَاِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾

يقول تعالى آمراً عبده ورسوله ﷺ: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء الذين حرموا ما رزقهم الله افتراء على الله، ﴿لا أجد فيما أوحى إليّ محرماً على طاعم يطعمه﴾ أي آكل يأكله، قيل: معناه لا أجد شيئاً مما حرمت محرماً سوى هذه، وقيل: معناه لا أجد من الحيوانات شيئاً حراماً سوى هذه، وقال ابن عباس: ﴿أو دماً مسفوحاً﴾ يعني المهراق، وقال عكرمة: لولا هذه الآية لتتبع الناس ما في العروق كما تتبعه اليهود، وقال حماد: إنما نهي الله عن الدم المسفوح، وقال قتادة: حرم من الدماء ما كان مسفوحاً، فأما اللحم خالطه الدم فلا بأس به، عن عائشة رضي الله عنها: أنها كانت لا ترى بلحوم السباع بأساً والحمرة والدم يكونان على القدر بأساً، وقرأت هذه الآية^(١). وقال الحميدي عن عمرو بن دينار قال، قلت لجابر بن عبد الله: إنهم يزعمون أن رسول الله ﷺ نهي عن لحوم الحمر الأهلية زمن خبير، فقال: قد كان يقول ذلك (الحكم بن عمرو) عن رسول الله ﷺ ولكن أبي ذلك البحر يعني (ابن عباس) وقرأ: ﴿قُلْ لا أجد فيما أوحى إليّ محرماً على طاعم يطعمه﴾^(٢) الآية، وعن ابن عباس قال: كان أهل الجاهلية يأكلون أشياء ويتركون أشياء تقدرأ، فبعث الله نبيه وأنزل كتابه وأحل حلاله وحرم حرامه، فما أحل فهو حلال، وما حرم فهو حرام، وما سكت عنه فهو عفو، وقرأ هذه الآية: ﴿قُلْ لا أجد فيما أوحى إليّ محرماً على طاعم يطعمه﴾ الآية^(٣)، روى الإمام أحمد عن ابن عباس قال: ماتت شاة لسودة بنت زمعة، فقالت يا رسول الله ماتت فلانة تعني الشاة، قال: «فلم لا أخذتم مسكها» قالت تأخذ مسك شاة قد ماتت؟ فقال لها رسول الله ﷺ: «إنما قال الله: ﴿قُلْ لا أجد فيما أوحى إليّ محرماً على طاعم يطعمه﴾ إلا أن يكون ميتة أو دماً مسفوحاً أو لحم خنزير﴾ وإنكم لا تطعمونه، أن تدبغوه فتتصفوا به»، فأرسلت فسلخت مسكها، فدبغته، فأتخذت منه قرية حتى تحرقت عندها^(٤). وقال سعيد بن منصور عن نائلة الفزاري قال: كنت عند ابن عمر، فسأله رجل عن أكل القنفذ فقراً عليه: ﴿قُلْ لا أجد فيما أوحى إليّ محرماً على طاعم يطعمه﴾ الآية، فقال شيخ عنده: سمعت أبا هريرة يقول: ذكر عند النبي ﷺ فقال: «خبث من الخبائث»، فقال ابن عمر: إن كان النبي ﷺ قاله فهو كما قال^(٥).

وقوله تعالى: ﴿فمن اضطر غير باغ ولا عاد﴾ أي فمن اضطر إلى أكل شيء مما حرم الله في هذه الآية الكريمة وهو غير متلبس ببغي ولا عدوان، ﴿فإن ربك غفور رحيم﴾ أي غفور له رحيم به، وقد تقدم تفسير هذه الآية في سورة البقرة بما فيه كفاية، والغرض من سياق هذه الآية الكريمة الرد على المشركين الذين ابتدعوا ما ابتدعوه من تحريم المحرمات على أنفسهم بآرائهم الفاسدة من البحيرة والسائبة والوصيلة والحام ونحو ذلك، فأمر رسوله أن يخبرهم أنه لا يجد فيما أوحاه الله إليه أن ذلك محرّم، وإنما حرم ما ذكر في هذه الآية من الميتة والدم المسفوح ولحم الخنزير، وما أهل لغير الله به، وما عدا ذلك فلم يحرم، وإنما هو عفو مسكوت عنه، فكيف ترزعمون أتم

(١) رواه ابن جرير عن عائشة، قال ابن كثير: صحيح غريب.

(٢) رواه البخاري وأبو داود والحاكم.

(٣) هذا لفظ ابن مردويه ورواه أبو داود، وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

(٤) أخرجه أحمد، ورواه البخاري والنسائي بنحوه.

(٥) ورواه أبو داود عن سعيد بن منصور.

أنه حرام ومن أين حرمتوه ولم يحرمه الله؟ وعلى هذا فلا يبقى تحريم أشياء أخرى فيما بعد هذا، كما جاء النهي عن لحوم الحمر الأهلية ولحوم السباع وكل ذي مخلب من الطير على المشهور من مذاهب العلماء .

﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوْ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿١٤٦﴾ ﴾

يقول تعالى: وحرمتنا على اليهود كل ذي ظفر، وهو البهائم والطيور ما لم يكن مشقوق الأصابع كالإبل والنعام والاوز والبط، قال ابن عباس: هو البعير والنعامة، وقال سعيد بن جبير: هو الذي ليس منفرج الأصابع، وفي رواية عنه: كل متفرق الأصابع، ومنه الديك، وقال مجاهد ﴿ كل ذي ظفر ﴾ قال: النعامة والبعير شقاً شقاً. قلت للقاسم بن أبي بزة وحدثته ما شقاً شقاً؟ قال: كل ما لا ينفرج من قوائم البهائم، قال: وما انفرج أكلته، قال: انفرجت قوائم البهائم والعصافير، قال: فيهود تأكله، قال: ولم تنفرج قائمة البعير - خفه - ولا خف النعامة ولا قائمة الوز، فلا تأكل اليهود الإبل ولا النعامة ولا الوز، ولا كل شيء لم تنفرج قائمته، ولا تأكل حمار الوحش، وقوله تعالى: ﴿ ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما ﴾ قال السدي: يعني الترب وشحم الكلوتين، وكانت اليهود تقول: إنه حرمه إسرائيل فنحن نحرمه، وكذا قال ابن زيد، وقال قتادة الترب^(١) وكل شحم كان كذلك ليس في عظم، وقال ابن عباس: ﴿ إلا ما حملت ظهورهما ﴾ يعني ما علق بالظهر من الشحوم، وقال السدي: الآية مما حملت ظهورهما، وقوله تعالى: ﴿ أو الحوايا ﴾ الحوايا جمع واحدها حاوية وحاوية وحاوية، وهو ما تحوي من البطن، وهي المباعر، وتسمى المرابض، وفيها الأمعاء، ومعنى الكلام: ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما إلا ما حملت ظهورهما وما حملت الحوايا. قال ابن عباس ومجاهد: الحوايا المبرص والمربض^(٢). وقوله تعالى: ﴿ أو ما اختلط بعظم ﴾ يعني إلا ما اختلط من الشحوم بعظم فقد أحلناه لهم، وقال ابن جريج: شحم الآية ما اختلط بالعصعص، فهو حلال، وكل شيء في القوائم والجنب والرأس والعين، وما اختلط بعظم فهو حلال ونحوه قاله السدي .

وقوله تعالى: ﴿ ذلك جزيناهم ببغيهم ﴾ أي هذا التضييق إنما فعلناه بهم وألزمناهم به مجازاة على بغيهم ومخالفتهم أوامرنا، كما قال تعالى: ﴿ فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم ﴾، وقوله: ﴿ وإنا لصادقون ﴾ أي وإنا لعادلون فيما جازيناهم به، وقال ابن جرير: وإنا لصادقون فيما أخبرناك به يا محمد من تحريمنا ذلك عليهم، لا كما زعموا من أن إسرائيل هو الذي حرمه على نفسه، والله أعلم. وقال عبد الله بن عباس: بلغ عمر ابن الخطاب رضي الله عنه أن سمرة باع خمراً، فقال: قاتل الله سمرة ألم يعلم أن رسول الله ﷺ قال: « لعن الله اليهود حرمت عليهم الشحوم فجمعوها فباعوها »؟ أخرجاه. وعن جابر بن عبد الله قال: سمعت رسول الله ﷺ

(١) الترب بالفتح: الشحم الذي على الكرش والأمعاء .

(٢) وهو قول سعيد بن جبير والضحك وقاتدة والسدي وعبد الرحمن بن أسلم وغيرهم .

يقول عام الفتح: «إن الله ورسوله حرم بيع الخمر والميتة والخنزير والأصنام»، فقيل: يا رسول أرايت شحوم الميتة فإنها يدهن بها الجلود وتطلى بها السفن ويستصبح بها الناس؟ فقال: «لا، هو حرام». ثم قال رسول الله ﷺ عند ذلك: «قاتل الله اليهود إن الله لما حرم عليهم شحومها جملوه ثم باعوه وأكلوا ثمنه»^(١)، وعن أبي هريرة قال، قال رسول الله ﷺ: «قاتل الله اليهود حرمت عليهم الشحوم فباعوها وأكلوا ثمنها»^(٢)، وقال ابن مردويه عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ كان قاعداً خلف المقام فرفع بصره إلى السماء فقال: «لعن الله اليهود - ثلاثاً - إن الله حرم عليهم الشحوم فباعوها وأكلوا ثمنها وإن الله لم يحرم على قوم أكل شيء إلا حرم عليهم ثمنه»^(٣). وقال الإمام أحمد عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ قاعداً في المسجد مستقبلاً الحجر، فنظر إلى السماء فضحك فقال: «لعن الله اليهود حرمت عليهم الشحوم فباعوها وأكلوا ثمنها، وإن الله إذا حرم على قوم أكل شيء حرم عليهم ثمنه»^(٤).

فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾

يقول تعالى: فإن كذبتك يا محمد مخالفوك من المشركين واليهود ومن شابههم فقل: ﴿ربكم ذو رحمة واسعة﴾ وهذا ترغيب لهم في ابتغاء رحمة الله الواسعة واتباع رسوله، ﴿ولا يرد بأسه عن القوم المجرمين﴾ ترهيب لهم من مخالفتهم الرسول خاتم النبيين، وكثيراً ما يقرن الله تعالى بين (الترغيب والترهيب) في القرآن كما قال تعالى في آخر هذه السورة: ﴿إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم﴾، وقال: ﴿وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم وإن ربك لشديد العقاب﴾، وقال تعالى: ﴿نبيء عبادي أنا الغفور الرحيم﴾ وأن عذابي هو العذاب الأليم، وقال تعالى: ﴿غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب﴾، وقال: ﴿إن بطش ربك لشديد﴾ إنه هو يبدى ويعيد * وهو الغفور الودود ﴿والآيات في هذا كثيرة جداً﴾.

سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَلِيغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدْنَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ قُلْ هَلَمْ شُهَدَاءُ كُرِّ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدُ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِعَايِنَتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾

هذه مناظرة ذكرها الله تعالى، وشبهة تشبث بها المشركون في شركهم وتحريم ما حرموا، فإن الله مطلع على ما هم فيه من الشرك والتحريم لما حرموه، وهو قادر على تغييره بأن يلهمنا الإيمان ويحول بيننا وبين الكفر، فلم

(١) أخرجه الجماعة من طرق عديدة .

(٢) أخرجه ابن مردويه عن ابن عباس مرفوعاً .

(٣) أخرجه الإمام أحمد في المسند .

(٤) رواه البخاري ومسلم .

يغيره فدل على أنه بمشيئته وإرادته ورضاه منا بذلك، ولهذا قالوا: ﴿لو شاء الله ما أشركنا﴾، كما في قوله تعالى: ﴿وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم﴾ الآية، قال الله تعالى: ﴿كذلك كذب الذين من قبلهم﴾ أي بهذه الشبهة ضل من ضل قبل هؤلاء وهي حجة داحضة باطلة، لأنها لو كانت صحيحة لما أذاقهم الله بأسه ودمر عليهم وأدال عليهم رسله الكرام، وأذاق المشركين من أليم الانتقام، ﴿قل هل عندكم من علم﴾ أي بأن الله راض عنكم فيما أنتم فيه، ﴿فتخرجوه لنا﴾ أي فتظهروه لنا وتبينوه وتبرزوه، ﴿إن تتبعون إلا الظن﴾ أي الوهم والخيال والمراد بالظن ها هنا الاعتقاد الفاسد، ﴿وإن أنتم إلا تخرصون﴾ تكذبون على الله فيما ادعيتموه، وقوله تعالى: ﴿قل فله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين﴾، يقول تعالى لنبيه ﷺ ﴿قل﴾ لهم يا محمد ﴿فله الحجة البالغة﴾ أي له الحكمة التامة والحجة البالغة في هداية من هدى وإضلال من ضل، ﴿فلو شاء لهداكم أجمعين﴾ فكل ذلك بقدرته ومشيئته واختياره، وهو مع ذلك يرضى عن المؤمنين ويبغض الكافرين، كما قال تعالى: ﴿ولو شاء الله لجمعهم على الهدى﴾، وقال تعالى: ﴿ولو شاء ربك لآمن من في الأرض﴾، وقال: ﴿ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة﴾، قال الضحاك: لا حجة لأحد عصى الله، ولكن لله الحجة البالغة على عباده، وقوله تعالى: ﴿قل هلم شهداءكم﴾ أي أحضروا شهداءكم ﴿الذين يشهدون أن الله حرم هذا﴾ أي هذا الذي حرمتموه وكذبتهم وافترتيم على الله فيه، ﴿فإن شهدوا فلا تشهد معهم﴾ أي لأنهم إنما يشهدون والحالة هذه كذباً وزوراً، ﴿ولا تتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا والذين لا يؤمنون بالآخرة وهم بربهم يعدلون﴾ أي يشركون به ويجعلون له عديلاً.

* قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِمَّنْ إِمْلَيْتُمْ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّيْتُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾

قال ابن مسعود رضي الله عنه: من أراد أن ينظر إلى وصية رسول الله ﷺ التي عليها خاتمه فليقرأ هؤلاء الآيات: ﴿قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئاً - إلى قوله - لعلمكم تتقون﴾. وقال الحاكم في مستدركه عن عبد الله بن خليفة قال: سمعت ابن عباس يقول: في الأنعام آيات محكمات هن أم الكتاب، ثم قرأ: ﴿قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم﴾ الآيات، وعن عبادة بن الصامت قال، قال رسول الله ﷺ: «أيكم يبايعني على ثلاث» ثم تلا رسول الله ﷺ: ﴿قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم﴾ حتى فرغ من الآيات.. «فن وفي فأجره على الله ومن انتقص منهن شيئاً فأدرکه الله به في الدنيا كانت عقوبته، ومن أخرج إلى الآخرة فأمره إلى الله إن شاء عذبه وإن شاء عفا عنه»^(١). يقول تعالى لنبيه ورسوله محمد ﷺ قل يا محمد هؤلاء المشركين الذين عبدوا غير الله وحرمو ما رزقهم الله وقتلوا أولادهم، وكل ذلك فعلوه بآرائهم وتسويل الشياطين لهم ﴿قل﴾ لهم ﴿تعالوا﴾ أي هلموا وأقبلوا ﴿أتل ما حرم ربكم عليكم﴾ أي أقص عليكم وأخبركم بما حرم ربكم عليكم حقاً

(١) رواه الحاكم وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

لا تخرصاً ولا ظناً، بل وحياً منه وأمرأً من عنده ﴿ألا تشرکوا به شيئاً﴾ وكأن في الكلام محذوفاً دل عليه السياق وتقديره: وأوصاكم ﴿ألا تشرکوا به شيئاً﴾ ولهذا قال في آخر الآية: ﴿ذلکم وصاکم به لعلکم تعقلون﴾ .

وفي الصحيحين من حديث أبي ذر رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «أتاني جبريل فبشرني أنه من مات لا يشرك بالله شيئاً من أمتك دخل الجنة، قلت: وإن زنى وإن سرق؟ قال: وإن زنى وإن سرق، قلت: وإن زنى وإن سرق؟ قال: وإن زنى وإن سرق، قلت: وإن زنى وإن سرق؟ قال: وإن زنى وإن سرق، وفي بعض الروايات أنه عليه الصلاة والسلام قال في الثالثة: «وإن رغم أنف أبي ذر»، فكان أبو ذر يقول بعد تمام الحديث: «وإن رغم أنف أبي ذر»، وفي بعض المسانيد والسنن عن أبي ذر قال، قال رسول الله ﷺ يقول تعالى: (يا ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني فأني أغفر لك على ما كان منك ولا أبالي، ولو أتيتني بقراب الأرض خطيئة أتيتك بقرابها مغفرة ما لم تشرک بي شيئاً، وإن أخطأت حتى تبلغ خطاياك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك)، ولهذا شاهد في القرآن قال الله تعالى: ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾، وفي صحيح مسلم عن ابن مسعود: «من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة». والآيات والأحاديث في هذا كثيرة جداً، وعن عبادة بن الصامت قال: أوصانا رسول الله ﷺ بسبع خصال: «ألا تشرکوا بالله شيئاً وإن حرقتم وقطعتم وصلبتم»^(١)، وقوله تعالى: ﴿وبالوالدين إحساناً﴾ أي أوصاكم وأمرکم بالوالدين إحساناً أي أن تحسنوا إليهم، كما قال تعالى: ﴿وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً﴾، والله تعالى كثيراً ما يقرن بين طاعته وبر الوالدين كما قال: ﴿أن اشکر لي ولوالديک إلى المصير﴾، فأمر بالإحسان إليهما وإن كانا مشرکين بحسبهما، وقال تعالى: ﴿وإذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل لا تعبدون إلا الله وبالوالدين إحساناً﴾ والآيات في هذا كثيرة .

وفي الصحيحين عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: سألت رسول الله ﷺ: أي العمل أفضل؟ قال: «الصلاة على وقتها» قلت: ثم أي؟ قال: «بر الوالدين» قلت: ثم أي؟ قال: «الجهاد في سبيل الله»، قال ابن مسعود: حدثني بهن رسول الله ﷺ ولو استردته لزادني. وقوله تعالى: ﴿ولا تقتلوا أولادکم من إملاق نحن نرزقکم وإياهم﴾ لما أوصى تعالى بالوالدين والأجداد، عطف على ذلك الإحسان إلى الأبناء والأحفاد فقال تعالى: ﴿ولا تقتلوا أولادکم من إملاق﴾، وذلك أنهم كانوا يقتلون أولادهم كما سولت لهم الشياطين ذلك، فكانوا يثدون البنات خشية العار، وربما قتلوا بعض الذكور خشية الافتقار، ولهذا ورد في الصحيحين من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه سأل رسول الله ﷺ: أي الذنب أعظم؟ قال: «أن تجعل لله نداً وهو خلقك» قلت: ثم أي؟ قال: «أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك»، قلت: ثم أي؟ قال: «أن تزاني حليلة جارك» ثم تلا رسول الله ﷺ: ﴿والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون﴾^(٢) الآية. وقوله تعالى: ﴿من إملاق﴾، قال ابن عباس: هو الفقر أي ولا تقتلوهم من فقرکم الحاصل، وقال في سورة الإسراء: ﴿ولا تقتلوا أولادکم خشية إملاق﴾ أي لا تقتلوهم خوفاً من الفقر في الآجل، ولهذا قال هناك:

(٢) أخرجه الشيخان عن عبد الله بن مسعود .

(١) رواه ابن مردويه وابن أبي حاتم .

﴿ نحن نرزقهم وإياكم ﴾ فبدأ برزقهم للاهتمام بهم أي لا تخافوا من فقركم بسبب رزقهم فهو على الله وأما هنا فلما كان الفقر حاصلًا قال: ﴿ نحن نرزقكم وإياهم ﴾ لأنه الأهم ههنا والله أعلم. وقوله تعالى: ﴿ ولا تقرّبوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ﴾، كقوله تعالى: ﴿ قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير الحق ﴾. قد تقدم تفسيرها في قوله تعالى: ﴿ وذروا ظاهر الإثم وباطنه ﴾ وفي الصحيحين عن ابن مسعود رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: « لا أحد أغير من الله من أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن ». .

وفي الصحيحين قال سعد بن عبادة لو رأيت مع أمراي رجلاً لضربته بالسيف غير مصفح، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: « أتعجبون من غيرة سعد؟ فوالله لأنا أغير من سعد، والله أغير مني، من أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن »، وقوله تعالى: ﴿ ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ﴾، وهذا مما نص تبارك وتعالى على النبي عنه تأكيداً وإلا فهو داخل في النبي عن الفواحش ما ظهر منها وما بطن، فقد جاء في الصحيحين عن ابن مسعود رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: « لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة »، وفي لفظ لمسلم: « والذي لا إله غيره لا يحل دم رجل مسلم » وذكره، وروى أبو داود والنسائي عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: « لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث خصال زان محصن يرحم، ورجل قتل متعمداً فيقتل، ورجل يخرج من الإسلام وحارب الله ورسوله فيقتل أو يصلب أو ينفى من الأرض ». وعن أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه أنه قال وهو محصور: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث: رجل كفر بعد إسلامه، أو زنى بعد إحصانه، أو قتل بغير نفس » فوالله ما زنت في جاهلية ولا إسلام، ولا تمنيت أن لي بديني بدلاً منه بعد إذ هداني الله، ولا قتلت نفساً، فم تفتلوني^(١)؟ وقد جاء النبي والزجر والوعيد في قتل المعاهد وهو المستأمن من أهل الحرب، فروى البخاري عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما عن النبي ﷺ مرفوعاً: « من قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة وإن ريحها ليوجد من مسيرة أربعين عاماً ». وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: « من قتل معاهداً له ذمة الله وذمة رسوله فقد أخضر بذمة الله فلا يرح رائحة الجنة وإن ريحها ليوجد من مسيرة سبعين خريفاً^(٢) ». وقوله: ﴿ ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون ﴾ أي هذا مما وصاكم به لعلكم تعقلون عن الله أمره ونهيه .

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ۗ وَأَوْفُوا بِالْكَيْلِ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ۗ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۗ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۗ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ۗ ذَٰلِكُمْ وَصَّكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾

(١) رواه أحمد والترمذي والنسائي وابن ماجه، وقال الترمذي: حديث حسن .

(٢) رواه ابن ماجه والترمذي وقال: حسن صحيح .

عن ابن عباس قال لما أنزل الله: ﴿ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن﴾ و ﴿إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً﴾ الآية، انطلق من كان عنده يتيم، فعزل طعامه من طعامه وشرابه من شرابه، فجعل يفضل الشيء فيحبس له حتى يأكله أو يفسد فاشتد ذلك عليهم، فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فأنزل الله: ﴿ويسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير وإن تخالطوهم فإخوانكم﴾ قال: فخلطوا طعامهم بطعامهم وشرابهم بشرابهم^(١). وقوله تعالى: ﴿حتى يبلغ أشده﴾، قال الشعبي ومالك: يعني حتى يحتلم، وقال السدي: حتى يبلغ ثلاثين سنة، وقيل: أربعون سنة. وقوله تعالى: ﴿وأوفوا الكيل والميزان بالقسط﴾ يأمر تعالى بإقامة العدل في الأخذ والإعطاء كما توعد على تركه في قوله تعالى: ﴿ويل للمطففين الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون﴾ وقد أهلك الله أمة من الأمم كانوا يخسون المكيال والميزان، وفي كتاب الجامع لأبي عيسى الترمذي عن ابن عباس قال، قال رسول الله ﷺ لأصحاب الكيل والميزان: «إنكم وليتم أمراً هلكت فيه الأمم السالفة قبلكم»^(٢)، وقد رواه ابن مردويه في تفسيره، عن ابن عباس قال، قال رسول الله ﷺ: «إنكم معشر الموالي قد بشركم الله بخصلتين بها هلكت القرون المتقدمة: المكيال، والميزان». وقوله تبارك وتعالى: ﴿لا تكلف نفساً إلا وسعها﴾ أي من اجتهد في أداء الحق وأخذه، فإن أخطأ بعد استفراغ وسعه وبذل جهده فلا حرج عليه. وقوله: ﴿وإذا قلمت فاعدلوا ولو كان ذا قربى﴾، كقوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط﴾ الآية، يأمر تعالى بالعدل في الفعال والمقال على القريب والبعيد، والله تعالى يأمر بالعدل لكل أحد في كل وقت وفي كل حال، وقوله: ﴿وبعهد الله أوفوا﴾، قال ابن جرير: يقول: وبوصية الله التي أوصاكم بها فأوفوا، وإيفاء ذلك أن تطيعوه فيما أمركم ونهاكم، وتعملوا بكتابه وستة رسوله، وذلك هو الوفاء بعهد الله ﷺ ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون﴾، يقول تعالى: هذا أوصاكم به وأمركم به وأكد عليكم فيه ﴿لعلكم تذكرون﴾ أي تعظون وتنتهون عما كنتم فيه.

وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السَّبِيلَ فَتَفْرَقَ بَكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّيْتُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾

قال ابن عباس في قوله: ﴿ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله﴾ أمر الله المؤمنين بالجماعة ونهاهم عن الاختلاف والتفرقة، وأخبرهم أنه إنما هلك من كان قبلهم بالمرء والخصومات في دين الله، وقال الإمام أحمد ابن حنبل عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: خط رسول الله ﷺ خطأ بيده ثم قال: «هذا سبيل الله مستقيماً»، وخط عن يمينه وشماله ثم قال: «هذه السبل ليس منها سبيل إلا عليه شيطان يدعو إليه»، ثم قرأ: ﴿وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله﴾^(٣). وعن جابر قال: كنا جلوساً عند النبي ﷺ فخط خطأ هكذا أمامه فقال: «هذا سبيل الله» وخطين عن يمينه وخطين عن شماله وقال: «هذه

(١) رواه أبو داود عن ابن عباس.

(٢) إسناده ضعيف. قال الترمذي: وقد روي بإسناد صحيح عن ابن عباس.

(٣) رواه أحمد والحاكم والنسائي، وقال الحاكم: صحيح ولم يخرجاه.

سبل الشيطان»، ثم وضع يده في الخط الأوسط، ثم تلا هذه الآية: ﴿وَأَنْ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السَّبِيلَ فَتَفْرُقَ بَكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ. ذَلِكَ وَمَا كُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾^(١). وعنه قال: خط رسول الله ﷺ خطأ، وخط عن يمينه خطأ، وخط عن يساره خطأ، ووضع يده على الخط الأوسط، وتلا هذه الآية: ﴿وَأَنْ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ﴾^(٢). قال ابن جرير عن أبان بن عثمان أن رجلاً قال لابن مسعود: ما الصراط المستقيم؟ قال تركنا محمد ﷺ في أدناه وطره في الجنة، وعن يمينه جواد، وعن يساره جواد، ثم رجال يدعون من مر بهم، فن أخذ في تلك الجواد انتهت به إلى النار، ومن أخذ على الصراط انتهى به إلى الجنة، ثم قرأ ابن مسعود: ﴿وَأَنْ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السَّبِيلَ فَتَفْرُقَ بَكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ الآية، وعن النواس بن سمعان عن رسول الله ﷺ قال: «ضرب الله مثلاً صراطاً مستقيماً، وعن جنبي الصراط سوران فيهما أبواب مفتحة، وعلى الأبواب ستور مرخاة، وعلى باب الصراط داع يقول: يا أيها الناس هلم أدخلوا الصراط المستقيم جميعاً، ولا تفرقوا وداع يدعو من فوق الصراط، فإذا أراد الإنسان أن يفتح شيئاً من تلك الأبواب قال: ويحك لا تفتحته، فإنك إن فتحتة تلجه، فالصراط الإسلام، والسوران حدود الله، والأبواب المفتحة محارم الله، وذلك الداعي على رأس الصراط كتاب الله، والداعي من فوق الصراط واعظ الله في قلب كل مسلم»^(٣). وقوله تعالى: ﴿فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السَّبِيلَ﴾ إنما وحد سبيله لأن الحق واحد، ولهذا جمع السبل لفرقتها وتشعبها كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾. وقال ابن أبي حاتم عن عبادة بن الصامت قال، قال رسول الله ﷺ: «أيكم يبايعني على هؤلاء الآيات الثلاث»، ثم تلا: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ عَلَيْكُمْ﴾ حتى فرغ من ثلاث آيات، ثم قال: «ومن وفي بهن فأجره على الله، ومن انتقص منهن شيئاً فأدركه الله في الدنيا كانت عقوبته، ومن أخره إلى الآخرة كان أمره إلى الله إن شاء أخذه وإن شاء عفا عنه»^(٤).

ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّعَلَّهُمْ يَلْقَآءُ رَبِّهِمْ

يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ وَهَذَا كِتَابٌ مُّبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾

لما أخبر الله سبحانه عن القرآن بقوله: ﴿وَأَنْ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ﴾ عطف بمدح التوراة ورسولها، فقال: ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ وكثيراً ما يقرب سبحانه بين ذكر القرآن والتوراة كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ قَبْلَهُ كِتَابٌ مُّوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا﴾، وقال تعالى مخبراً عن المشركين: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أَوْتِي مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى﴾، وقال تعالى مخبراً عن الجن: ﴿يَا قَوْمِنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ﴾ الآية، وقوله تعالى: ﴿تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا﴾ أي آتيناها

(١) رواه أحمد وابن ماجه والبخاري.

(٢) رواه ابن مردويه عن جابر بن عبد الله.

(٣) رواه أحمد والترمذي والنسائي.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم عن عبادة بن الصامت مرفوعاً.

الكتاب الذي أنزلناه إليه تماماً كاملاً جامعاً لما يحتاج إليه في شريعته، كقوله: ﴿وكتبنا له في الألواح من كل شيء﴾ الآية، وقوله تعالى: ﴿على الذي أحسن﴾ أي جزاء على إحسانه في العمل وقيامه بأوامرنا وطاقتنا، كقوله: ﴿هل جزاء الإحسان إلا الإحسان﴾، وكقوله: ﴿وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون﴾، وقال الربيع بن أنس ﴿تماماً على الذي أحسن﴾ يقول: أحسن فيما أعطاه الله، وقال قتادة: من أحسن في الدنيا تم له ذلك في الآخرة، واختار ابن جرير أن تقديره: ﴿ثم آتينا موسى الكتاب تماماً﴾ على إحسانه، فكانه جعل الذي مصدرية، كما قيل في قوله تعالى: ﴿وخضتم كالذي خاضوا﴾ أي كخوضهم، وقال ابن رواحة:

وثبت الله ما آتاك من حسن في المرسلين ونصراً كالذي نصرنا

وقال آخرون: الذي ههنا بمعنى الذين، وذكر عن عبد الله بن مسعود أنه كان يقرأها ﴿تماماً على الذين أحسنوا﴾، وقال مجاهد: تماماً على الذي أحسن: على المؤمنين والمحسين، وقال البغوي: المحسنون الأنبياء والمؤمنون، يعني أظهرنا فضله عليهم، قلت: كقوله تعالى: ﴿قال يا موسى إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي﴾ ولا يلزم اصطفاؤه على محمد ﷺ خاتم الأنبياء والخليل عليهما السلام لأدلة أخرى. وقوله تعالى: ﴿وتفصيلاً لكل شيء وهدى ورحمة﴾ فيه مدح لكتابه الذي أنزله الله عليه ﴿لعلهم بلقاء ربهم يؤمنون وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحمون﴾ فيه الدعوة إلى اتباع القرآن يرغب سبحانه عباده في كتابه ويأمرهم بتدبره والعمل به والدعوة إليه، ووصفه بالبركة لمن اتبعه وعمل به في الدنيا والآخرة لأنه جبل الله المتين.

أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَنْزَلَ الْكِتَابُ عَلَي طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْنَا الْكِتَابَ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بِعَايَةِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجِرِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾

قال ابن جرير: معناه وهذا كتاب أنزلناه لثلاث طائفتين من قبلنا ﴿يعني لينقطع عذركم كقوله تعالى: ﴿ولولا أن تصيبهم مصيبة بما قدمت أيديهم فيقولوا ربنا لولا أرسلنا إليك آياتنا﴾ الآية، وقوله تعالى: ﴿على طائفتين من قبلنا﴾ قال ابن عباس: هم اليهود والنصارى^(١)، وقوله: ﴿وإن كنا عن دراستهم لغافلين﴾ أي وما كنا نفهم ما يقولون لأنهم ليسوا بلساننا ونحن في غفلة وشغل مع ذلك عما هم فيه، وقوله: ﴿أو تقولوا لو أننا أنزل علينا الكتاب لكاننا أهدى منهم﴾ أي وقطعنا تعلقكم أن تقولوا لو أننا أنزل علينا ما أنزل عليهم لكاننا أهدى منهم فيما أوتوه، كقوله: ﴿وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم﴾ الآية، وهكذا قال ههنا: ﴿فقد جاءكم بينة من ربكم وهدى ورحمة﴾ يقول: فقد جاءكم من الله على لسان محمد ﷺ النبي العربي قرآن عظيم، فيه بيان للحلال والحرام، وهدى لما في القلوب ورحمة من الله لعباده الذين يتبعونه ويقتفون ما فيه، وقوله تعالى: ﴿فمن أظلم ممن كذب بآيات الله وصدف عنها﴾ أي

(١) وهو قول مجاهد والسدي وقاتادة وغير واحد من السلف.

لم ينتفع بما جاء به الرسول ولا اتبع ما أرسل به ولا ترك غيره، بل صدف عن اتباع آيات الله أي صرف الناس وصددهم عن ذلك، قاله السدي، وعن ابن عباس ومجاهد وقتادة: وصدف عنها أعرض عنها، وقول السدي ههنا فيه قوة، لأنه قال: ﴿فمن أظلم ممن كذب بآيات الله وصدف عنها﴾ كما تقدم في أول السورة، ﴿وهم ينهون عنه وينأون عنه وإن يهلكون إلا أنفسهم﴾، وقال تعالى: ﴿الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذاباً فوق العذاب﴾ وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿سنجزى الذين يصدفون عن آياتنا سوء العذاب بما كانوا يصدفون﴾، وقد يكون المراد فيما قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة ﴿فمن أظلم ممن كذب بآيات الله وصدف عنها﴾ أي لا آمن بها، ولا عمل بها كقوله تعالى: ﴿فلا صدق ولا صلى ولكن كذب وتولى﴾ وغير ذلك من الآيات الدالة على اشتغال الكافر على التكذيب بقلبه وترك العمل بجوارحه، ولكن كلام السدي أقوى وأظهر، والله أعلم.

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انْتَضَرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾

يقول تعالى متوعداً للكافرين والمخالفين لرسوله والمكذبين بآياته والصادقين عن سبيله: ﴿هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي ربك﴾، وذلك كائن يوم القيامة ﴿أو يأتي بعض آيات ربك﴾، يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفساً إيمانها ﴿وذلك قبل يوم القيامة كائن من أمارات الساعة وأشراطها، حين يرون شيئاً من أشراط الساعة، كما قال البخاري في تفسير هذه الآية. عن أبي هريرة رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها فإذا رآها الناس آمن من عليها»، فذلك حين ﴿لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل﴾. وفي رواية: «لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت ورآها الناس آمنوا أجمعون، وذلك حين لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل»، ثم قرأ هذه الآية^(١). وقد ورد هذا الحديث من طرق أخر عن أبي هريرة، وقال ابن جرير عن أبي هريرة قال، قال رسول الله ﷺ: «ثلاث إذا خرجن لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً: طلوع الشمس من مغربها والدجال ودابة الأرض»، وقال ابن جرير عن أبي هريرة قال، قال رسول الله ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها فإذا طلعت آمن الناس كلهم وذلك حين لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل»^(٢).

(حديث آخر): عن أبي ذر الغفاري قال، قال رسول الله ﷺ: «أتدري أين تذهب الشمس إذا غربت؟» قلت لا أدري، قال: «إنها تنهي دون العرش فتخر ساجدة ثم تقوم حتى يقال لها ارجعي فيوشك يا أبا ذر أن يقال لها ارجعي من حيث جئت، وذلك حين ﴿لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل﴾»^(٣). (حديث آخر): عن حذيفة بن أسيد الغفاري قال أشرف علينا رسول الله ﷺ من غرفة ونحن نتذاكر الساعة، فقال رسول الله ﷺ: لا تقوم الساعة حتى تروا عشر آيات: طلوع الشمس من مغربها، والدخان والدابة، وخروج يأجوج ومأجوج،

(١) أخرجه البخاري من طرق متعددة عن أبي هريرة . (٢) رواه أحمد عن أبي هريرة .

(٣) أخرجه الشيخان عن أبي ذر الغفاري .

وخروج عيسى بن مريم، وخروج الدجال، وثلاثة خسوف: خسف بالشرق، وخسف بالمغرب، وخسف بجزيرة العرب، ونار تخرج من قعر عدن تسوق، أو تحشر الناس، تبيت معهم حيث باتوا وتقيل معهم حيث قالوا^(١). (حديث آخر): عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ: ﴿يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفساً إيمانها﴾ - قال - طلوع الشمس من مغربها، وفي لفظ: «إن أول الآيات طلوع الشمس من مغربها»، وفي حديث صفوان بن عسال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله فتح باباً قبل المغرب عرضه سبعون عاماً للتوبة لا يغلق حتى تطلع الشمس منه^(٢).

(حديث آخر): عن عبد الله بن عمرو وعبد الرحمن بن عوف ومعاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهم أجمعين قال الإمام أحمد: حدثنا الحكم بن نافع، حدثنا إسماعيل بن عياش عن ضمضم بن زرعة عن شريح بن عبيد يرده إلى مالك بن يخامر عن ابن السعدي أن رسول الله ﷺ قال: «لا تنقطع الهجرة ما دام العدو يقاتل» فقال معاوية وعبد الرحمن بن عوف وعبد الله بن عمرو بن العاص، إن رسول الله ﷺ قال: «إن الهجرة خصلتان إحداهما تهجر السيئات، والأخرى تهاجر إلى الله ورسوله، ولا تنقطع ما تقبلت التوبة، ولا تزال التوبة تقبل حتى تطلع الشمس من مغربها فإذا طلعت طبع على كل قلب بما فيه، وكفي الناس العمل^(٣). فقوله تعالى: ﴿لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل﴾ أي إذا أنشأ الكافر إيماناً يومئذ لا يقبل منه، فأما من كان مؤمناً قبل ذلك، فإن كان مصلحاً في عمله فهو بخير عظيم، وإن لم يكن مصلحاً فأحدث توبة حينئذ لم تقبل منه توبته، كما دلت عليه الأحاديث المتقدمة، وعليه يحمل قوله تعالى: ﴿أو كسبت في إيمانها خيراً﴾ أي ولا يقبل منها كسب عمل صالح إذا لم يكن عاملاً به قبل ذلك، وقوله تعالى: ﴿قل انتظروا إنا منتظرون﴾ تهديد شديد للكافرين ووعيد أكيد لمن سؤف إيمانه وتوبته إلى وقت لا ينفعه ذلك، وإنما كان هذا الحكم عند طلوع الشمس من مغربها لا اقتراب الساعة وظهور أشراتها كما قال: ﴿فهل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة فقد جاء أشراتها فأنى لهم إذا جاءتهم ذكراهم﴾، وقوله تعالى: ﴿فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا﴾ الآية.

إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِعْبًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ۚ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾

نزلت هذه الآية في اليهود والنصارى^(٤)، وقال ابن عباس: إن اليهود والنصارى اختلفوا قبل مبعث محمد ﷺ ففرقوا، فلما بعث محمد ﷺ أنزل الله عليه: ﴿إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء﴾ الآية، قوله ﴿وكانوا شيعاً﴾ قال: هم الخوارج، وقيل: هم أصحاب البدع، والظاهر أن الآية عامة في كل من فارق

(١) أخرجه أحمد وأصحاب السنن الأربعة، وقال الترمذي: حسن صحيح.

(٢) رواه الترمذي وصححه النسائي وابن ماجه.

(٣) رواه أحمد، قال ابن كثير: هذا الحديث حسن الإسناد.

(٤) هذا قول مجاهد وقتادة والضحاك والسدي.

دين الله وكان مخالفاً له، فإن الله بعث رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وشرعه واحد لا اختلاف فيه ولا افتراق، فمن اختلف فيه ﴿وكانوا شيعاً﴾ أي فرقاً كأهل الملل والنحل والأهواء والضلالات، فإن الله تعالى قد برأ رسول الله ﷺ مما هم فيه، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك﴾ الآية. وفي الحديث: «نحن معاشر الأنبياء أولاد علات ديننا واحد»، فهذا هو الصراط المستقيم وهو ما جاءت به الرسل من عبادة الله وحده لا شريك له، والتمسك بشريعة الرسول المتأخر، وما خالف ذلك فضلالات وجهالات وآراء وأهواء والرسل برآء منها كما قال الله تعالى: ﴿لست منهم في شيء﴾، وقوله تعالى: ﴿إنما أمرهم إلى الله ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون﴾، كقوله تعالى: ﴿إن الله يفصل بينهم يوم القيامة﴾ الآية. ثم بين لطفه سبحانه في حكمه وعدله يوم القيامة فقال تعالى :

مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ مِثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾

وهذه الآية الكريمة مفصلة لما أجمل في الآية الأخرى، وهي قوله: ﴿من جاء بالحسنة فله خير منها﴾، وقد وردت الأحاديث مطابقة لهذه الآية، كما قال الإمام أحمد بن حنبل عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال فيما يروي عن ربه تبارك وتعالى: «إن ربكم عز وجل رحيم، من هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة، فإن عملها كتبت له عشرأ إلى سبعمائة إلى أضعاف كثيرة، ومن هم بسينة فلم يعملها كتبت له حسنة فإن عملها كتبت له واحدة أو يمحوها الله عز وجل، ولا يهلك على الله إلا هالك»^(١). وقال أحمد أيضاً عن أبي ذر رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «يقول الله عز وجل من عمل حسنة فله عشر أمثالها وأزيد، ومن عمل سيئة فجزاؤه مثلها أو أغفر، ومن عمل قراب الأرض خطيئة ثم لقيني لا يشرك بي شيئاً جعلت له مثلها مغفرة، ومن اقترب إلي شبراً اقتربت إليه ذراعاً، ومن اقترب إلي ذراعاً اقتربت إليه باعاً ومن أتاني يمشي أتيت به هرولة»^(٢). وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة فإن عملها كتبت له عشرأ، ومن هم بسينة فلم يعملها لم يكتب عليه شيء فإن عملها كتبت عليه سيئة واحدة»^(٣)، واعلم أن تارك السيئة الذي لا يعملها على ثلاثة أقسام: تارة يتركها لله، فهذا تكتب له حسنة على كفه عنها لله تعالى وهذا عمل ونية، ولهذا جاء أنه يكتب له حسنة كما جاء في بعض ألفاظ الصحيح، فإنما تركها من جرأتي أي من أجلي، وتارة يتركها نسياناً وذهولاً عنها فهذا لا له ولا عليه لأنه لم ينو خيراً ولا فعل شراً، وتارة يتركها عجزاً وكسلأ عنها بعد السعي في أسبابها والتلبس بما يقرب منها، فهذا بمتزلة فاعلها كما جاء في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار» قالوا: يا رسول الله هذا القاتل فما بال المقتول؟ قال: «إنه كان حريصاً على قتل صاحبه»^(٤).

(٤) رواه البخاري ومسلم .

(١) رواه البخاري ومسلم والنسائي .

(٢) رواه مسلم وابن ماجة .

(٣) رواه الحافظ أبو يعلى الموصلي .

وعن خريم بن فاتك الأسدي أن النبي ﷺ قال: « إن الناس أربعة والأعمال ستة. فالناس موسع له في الدنيا والآخرة، وموسع له في الدنيا مقتور عليه في الآخرة، ومقتور عليه في الدنيا موسع له في الآخرة، وشقي في الدنيا والآخرة، والأعمال موجبتان، ومثل بمثل، وعشرة أضعاف وسبعمائة ضعف، فالموجبتان من مات مسلماً مؤمناً لا يشرك بالله شيئاً وجبت له الجنة، ومن مات كافراً وجبت له النار، ومن هم بحسنة فلم يعملها فعلم الله أنه قد أشعرها قلبه وحرص عليها كتبت له حسنة، ومن هم بسيئة لم تكتب عليه ومن عملها كتبت واحدة ولم تضاعف عليه، ومن عمل حسنة كانت عليه بعشر أمثالها، ومن أنفق نفقة في سبيل الله عز وجل كانت بسبعمائة ضعف » (١)، وقال ابن أبي حاتم عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبي ﷺ قال: « يحضر الجمعة ثلاثة نفر: رجل حضرها بلغو فهو حظه منها، ورجل حضرها بدعاء فهو رجل دعا الله فإن شاء أعطاه وإن شاء منعه، ورجل حضرها بإنصات وسكوت ولم يتخط رقبة مسلم ولم يؤذ أحداً فهي كفارة له إلى الجمعة التي تليها وزيادة ثلاثة أيام، وذلك لأن الله عز وجل يقول: ﴿ من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ﴾ (٢). وقال الحافظ الطبراني عن أبي مالك الأشعري قال، قال رسول الله ﷺ: « الجمعة كفارة لما بينها وبين الجمعة التي تليها وزيادة ثلاثة أيام، وذلك لأن الله تعالى قال: ﴿ من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ﴾. والأحاديث والآثار في هذا كثيرة جداً وفيما ذكر كفاية إن شاء الله وبه الثقة .

قُلْ إِنِّي هَدَيْتِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٦٢﴾ قُلْ إِن صَلَاتِي وَنُفْسِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٣﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٤﴾

يقول تعالى آمراً نبيه ﷺ سيد المرسلين أن يخبر بما أنعم به عليه من الهداية إلى صراطه المستقيم الذي لا اعوجاج فيه ولا انحراف ﴿ دِينًا قِيمًا ﴾ أي قائماً ثابتاً ﴿ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ﴾ وما كان من المشركين ﴿، وقوله: ﴿ ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ﴾، وقوله: ﴿ وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم ﴾، وقوله: ﴿ إن إبراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفاً ولم يك من المشركين * شاكراً لأنعمه اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم ﴾، وليس يلزمه من كونه ﷺ أمر باتباع ملة إبراهيم الحنيفية أن يكون إبراهيم أكمل منه فيها لأنه عليه السلام قام بها قياماً عظيماً، وأكملت له إكمالاً تاماً لم يسبقه أحد إلى هذا الكمال، ولهذا كان خاتم الأنبياء وسيد ولد آدم على الإطلاق، وصاحب المقام المحمود الذي يرغب إليه الخلق حتى الخليل عليه السلام. وقد كان رسول الله ﷺ إذا أصبح قال: « أصبحنا على ملة الإسلام وكلمة الإخلاص ودين نبينا محمد وملة أبينا إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين »، وقال الإمام أحمد عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: قيل لرسول الله ﷺ أي الأديان أحب إلى الله تعالى؟ قال: « الحنيفية السمحة » (٣).

وقوله تعالى: ﴿ قل إن صلاتي ونفسي ومحياي ومماتي لله رب العالمين ﴾ يأمره تعالى أن يخبر المشركين الذين يعبدون غير الله ويذبحون لغير اسمه أنه مخالف لهم في ذلك، فإن صلاته لله ونسكه على اسمه وحده لا شريك

(١) رواه أحمد والترمذي والنسائي . (٢) أخرجه ابن أبي حاتم . (٣) أخرجه الإمام أحمد في المسند .

له، وهذا كقوله تعالى: ﴿فصل لربك وانحر﴾ أي أخلص له صلاتك وذبحك، فإن المشركين كانوا يعبدون الأصنام ويذبحون لها، فأمره الله تعالى بمخالفتهم والانحراف عما هم فيه، والإقبال بالقصد والنية والعزم على الإخلاص لله تعالى، قال مجاهد: النسك: الذبح في الحج والعمرة، وقال سعيد بن جبير ﴿ونسكي﴾ قال: ذبحي، وكذا قال السدي والضحاك، وعن جابر بن عبد الله قال: ضحى رسول الله ﷺ في يوم عيد النحر بكبشين، وقال حين ذبحهما: «وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين، إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين»^(١). وقوله عز وجل: ﴿وأنا أول المسلمين﴾ قال قتادة: أي من هذه الأمة، وهو كما قال، فإن جميع الأنبياء قبله كلهم كانت دعوتهم إلى الإسلام، وأصله عبادة الله وحده لا شريك له، وقد أخبرنا تعالى عن نوح أنه قال لقومه: ﴿فإن توليتم فما سألتكم من أجر إن أجرين إلا على الله وأمرت أن أكون من المسلمين﴾، وقال تعالى: ﴿يا بني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون﴾، وقال يوسف عليه السلام: ﴿رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث فاطر السموات والأرض أنت وليي في الدنيا والآخرة توفني مسلماً وأحقني بالصالحين﴾، وقال موسى: ﴿يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين﴾.

وقال تعالى: ﴿إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بي وبرسولي قالوا آمنا واشهد بأننا مسلمون﴾، فأخبر تعالى أنه بعث رسله بالإسلام ولكنهم متفاوتون فيه بحسب شرائعهم الخاصة، التي ينسخ بعضها بعضاً إلى أن نسخت بشريعة محمد ﷺ التي لا تنسخ أبد الآبدين، ولا تزال قائمة منصوره وأعلامها منشورة إلى قيام الساعة، ولهذا قال عليه السلام: «نحن معاشر الأنبياء أولاد علات ديننا واحد» فإن أولاد العلات هم الإخوة من أب واحد وأمها شتى، فالدين واحد وهو عبادة الله وحده لا شريك له، وإن تنوعت الشرائع التي هي بمنزلة الأمهات وقد قال الإمام أحمد عن علي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان إذا كبر استفتح ثم قال: «وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين، إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين» إلى آخر الآية: «اللهم أنت الملك لا إله إلا أنت، أنت ربي وأنا عبدك، ظلمت نفسي واعترفت بذنبي فاغفر لي ذنوبي جميعاً لا يغفر الذنوب إلا أنت، واهدني لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا أنت، واصرف عني سيئها لا يصرف عني سيئها إلا أنت، تباركت وتعاليت، أستغفرك وأتوب إليك»، ثم ذكر تمام الحديث فيما يقوله في الركوع والسجود والتشهد^(١).

قُلْ أَغْيَرَ اللَّهُ ابْنِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾

(١) رواه ابن أبي حاتم عن جابر بن عبد الله .

(٢) الحديث رواه مسلم في صحيحه .

يقول تعالى: ﴿ قل ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين بالله في إخلاص العبادة له والتوكل عليه ﴿ أغير الله أبغي رباً ﴾ أي أطلب رباً سواه، ﴿ وهو رب كل شيء ﴾ يريني ويحفظني ويكلوني ويدبر أمري، أي لا أتوكل إلا عليه ولا أنيب إلا إليه لأنه رب كل شيء ومليكه وله الخلق والأمر، ففي هذه الآية الأمر بإخلاص التوكل كما تضمنت التي قبلها إخلاص العبادة لله وحده لا شريك له، وهذا المعنى يقرب بالآخر كثيراً في القرآن كقوله تعالى مرشداً لعباده أن يقولوا له: ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾، وقوله: ﴿ فاعبده وتوكل عليه ﴾، وقوله: ﴿ قل هو الرحمن آمنا به وعليه توكلنا ﴾، وقوله: ﴿ رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلاً ﴾ وأشبه ذلك من الآيات. وقوله تعالى: ﴿ ولا تكسب كل نفس إلا عليها، ولا تزر وزيها وزر أخرى ﴾ إخبار عن الواقع يوم القيامة في جزاء الله تعالى وحكمه وعدله أن النفوس إنما تجازى بأعمالها إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، وأنه لا يحمل من خطيئة أحد على أحد، وهذا من عدله تعالى كما قال: ﴿ وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شيء ولو كان ذا قربى ﴾، وقوله تعالى: ﴿ فلا يخاف ظلماً ولا هضماً ﴾ قال علماء التفسير أي فلا يظلم بأن يحمل عليه سيئات غيره ولا يهضم بأن ينقص من حسناته، وقال تعالى: ﴿ كل نفس بما كسبت رهينة إلا أصحاب اليمين ﴾ معناه كل نفس مرتبه بعملها السيء إلا أصحاب اليمين فإنه قد يعود بركة أعمالهم الصالحة على ذرياتهم وقرباتهم كما قال في سورة الطور: ﴿ والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء ﴾ أي ألحقنا بهم ذريتهم في المترلة الرفيعة في الجنة وإن لم يكونوا قد شاركوهم في الأعمال، بل في أصل الإيمان، وما ألتناهم أي نقصنا أولئك السادة الرفعاء من أعمالهم شيئاً حتى ساويناهم، وهؤلاء الذين هم أنقص منهم مترلة، بل رفعهم تعالى إلى مترلة الآباء ببركة أعمالهم بفضله ومنتته، ثم قال: ﴿ كل امرئ بما كسب رهين ﴾ أي من شر، وقوله: ﴿ ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون ﴾ أي اعملوا على مكائتكم إنا عاملون على ما نحن عليه، فستعرضون ونعرض عليه، وينبئنا وإياكم بأعمالنا وأعمالكم، وما كنا نختلف فيه في الدار الدنيا كقوله: ﴿ قل لا تسألون عما أجرمنا ولا نسأل عما تعملون ﴾ قل يجمع بيننا ربنا ثم يفتح بيننا بالحق وهو الفتح العليم .

وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ خَلْقَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيُبْلُوَكُمْ فِي مَاءِ آتِنَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٦٥﴾

يقول تعالى: ﴿ وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ﴾ أي جعلكم تعمرونها جيلاً بعد جيل، وقرناً بعد قرن وخلفاً بعد سلف، كقوله تعالى: ﴿ ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة في الأرض يخلفون ﴾، وكقوله تعالى: ﴿ ويجعلكم خلفاء الأرض ﴾، وقوله: ﴿ إني جاعل في الأرض خليفة ﴾، وقوله: ﴿ عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون ﴾، وقوله: ﴿ ورفع بعضكم فوق بعض درجات ﴾، أي فاوت بينكم في الأرزاق والأخلاق والحاسن والمساوي، والمناظر والأشكال والألوان، وله الحكمة في ذلك، كقوله تعالى: ﴿ نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً ﴾، وقوله: ﴿ انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً ﴾، وقوله تعالى: ﴿ ليبلوكم فيما آتاكم ﴾ أي

ليختبركم في الذي أنعم به عليكم وامتنحنكم به ليختبر الغني في غناه، ويسأله عن شكره، والفقير في فقره ويسأله عن صبره. وفي صحيح مسلم قال رسول الله ﷺ: «إن الدنيا حلوة خضرة، وإن الله مستخلفكم فيها فناظر ماذا تعملون، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء، فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء»^(١). وقوله تعالى: ﴿إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم﴾ ترهيب وترغيب أن حسابه وعقابه سريع فيمن عصاه وخالف رسله، ﴿وإنه لغفور رحيم﴾ لمن والاه واتبع رسله فيما جاءوا به من خبر وطلب. وقال محمد بن إسحاق: ليرحم العباد على ما فيهم. وكثيراً ما يقرن الله تعالى في القرآن بين هاتين الصفتين، كقوله: ﴿نبيء عبادي أني أنا الغفور الرحيم وأن عذابي هو العذاب الأليم﴾ إلى غير ذلك من الآيات المشتملة على الترغيب والترهيب. فتارة يدعو عباده إليه بالرغبة وصفة الجنة والترغيب فيما لديه، وتارة يدعوهم إليه بالرهبة وذكر النار وأنكالها وعذابها والقيامة وأهوالها، وتارة بهما لينجع في كل بحسبه، جعلنا الله ممن أطاعه فيما أمر، وترك ما عنه نهى وزجر، وصدقه فيما أخبر، إنه قريب مجيب سميع الدعاء، جواد كريم وهاب. وقد روى الإمام أحمد عن أبي هريرة مرفوعاً أن رسول الله ﷺ قال: «لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع بجنته أحد، ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط أحد من الجنة. خلق الله مائة رحمة فوضع واحدة بين خلقه، يتراحمون بها وعند الله تسعة وتسعون»^(٢)، وعنه أيضاً قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «جعل الله الرحمة مائة جزء فأمسك عنده تسعة وتسعين جزءاً وأنزل في الأرض جزءاً واحداً، فمن ذلك تراحم الخلائق، حتى ترفع الدابة حافرهما عن ولدها خشية أن تصيبه»^(٣).



تم بعون الله المجلد الأول ويليهِ المجلد الثاني مبدوءاً بسورة الأعراف

(١) رواه مسلم عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً .

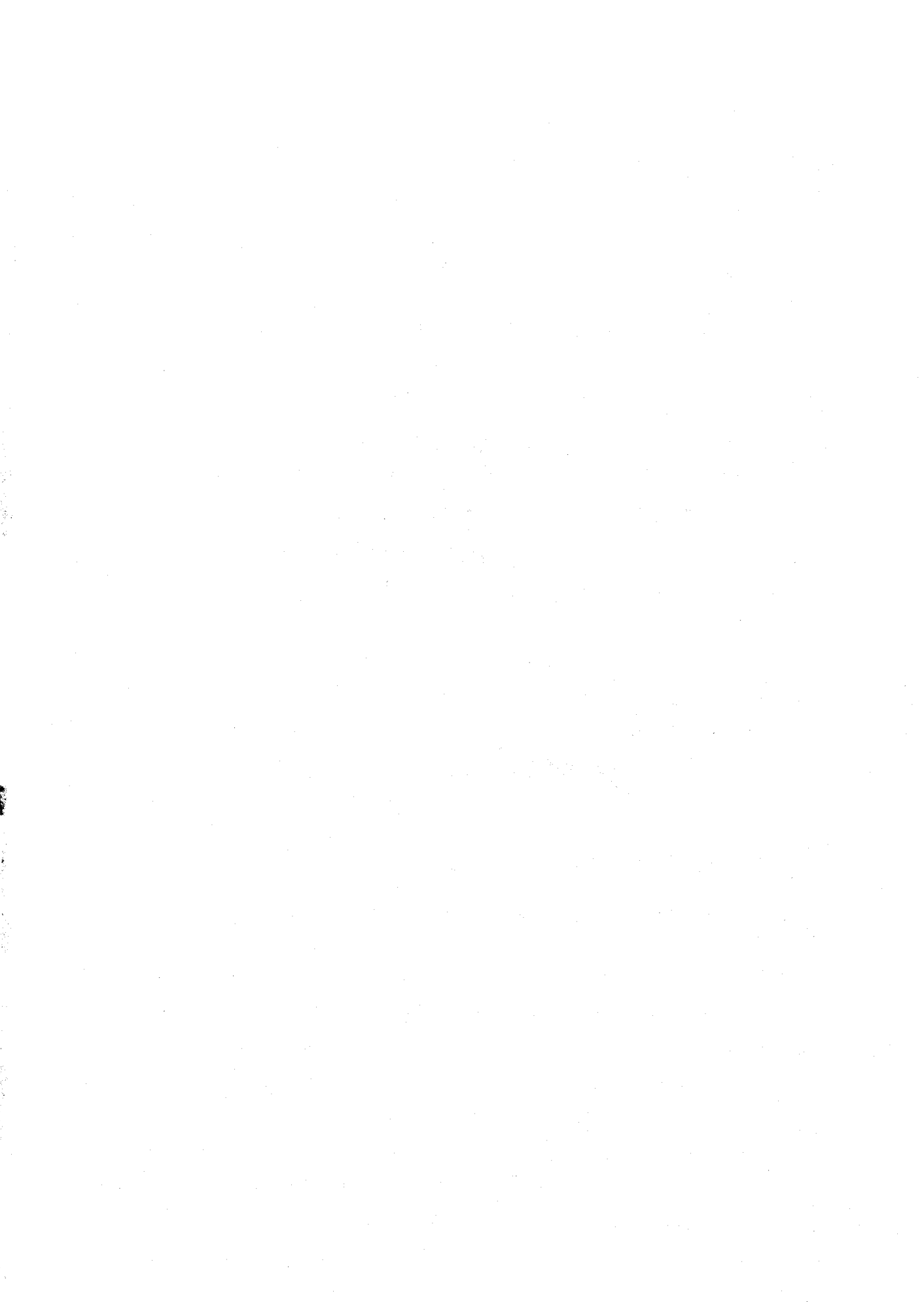
(٢) أخرجه الإمام أحمد عن أبي هريرة مرفوعاً .

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة مرفوعاً .

محتويات المجلد الأول

<u>الصفحة</u>	<u>الموضوع</u>
٥	كلمة الناشر : محمد بسّام الأسطواني (مدير دار القرآن الكريم)
٧	مقدمة الشيخ محمد علي الصابوني
١١	مقدمة تفسير ابن كثير
١٤	مقدمة مفيدة تذكر في أول التفسير قبل الفاتحة
١٥	تفسير سورة الفاتحة
٢٦	تفسير سورة البقرة
٢٦٢	تفسير سورة آل عمران
٣٥٤	تفسير سورة النساء
٤٧٤	تفسير سورة المائدة
٥٦٧	تفسير سورة الأنعام
٦٤٣	فهرس محتويات المجلد الأول

وَقَفَّ لِلَّهِ تَعَالَى
طَبَّعَ عَلَى نَفَقَتِهِ
الْمَحْسِنِ الْكَبِيرِ
مَعَالِي السَّيِّدِ حَسَنِ عِبَّاسٍ الشَّرِيفِيِّ
فَجَزَاهُ اللَّهُ كُلَّ خَيْرٍ
يُوزَعُ مَجَانًّا وَلَا يُبَاعُ





دار القرآن الكريم

للإتقان بطبعه ونشر علومه

بيروت

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مُخْتَصَرًا

تَفْسِيرُ ابْنِ كَثِيرٍ

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: "إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ"

"وَنُزِّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ.."
"البقرة"

وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ:

"أَشْرَافُ أُمَّةٍ تَحْمَلُ الْقُرْآنَ" "الترمذي"

"مَنْ قَرَأَ حَرْفًا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ فَلَهُ حَسَنَةٌ وَحَسَنَةٌ بَعْشَرٌ
أَمْثَالُهَا، لَا أَقُولُ الْم حَرْفٌ، وَلَكِنْ أَلِفٌ حَرْفٌ وَلامٌ حَرْفٌ
وَمِيمٌ حَرْفٌ." "البخاري"

"اقْرَأُوا الْقُرْآنَ فَإِنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَفِيعًا لِأَصْحَابِهِ"
"البخاري"

إِلَى كُلِّ مُؤْمِنٍ وَمُؤْمِنَةٍ..

يُرِيدُ الْعَمَلَةَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فِي الْأَخْرَةِ..

أَهْدِي كِتَابَ اللَّهِ وَتَفْسِيرَهُ..

لِيَكُونَ عَوْنًا عَلَى فَرْمِ الْقُرْآنِ وَالْعَمَلِ بِهِ..

وَقَدْ قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ:

"تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا إِنْ تَمَسَّكُمْ بِهِ لَنْ تَضَلُّوا بَعْدِي أَبَدًا
كِتَابَ اللَّهِ وَسُنَّتِي." "متفق عليه"

السيد حسن عباي شربتي

الطبعة السابعة
(منقحة)

جميع الحقوق محفوظة

١٩٨١ م = ١٤٠٢ هـ

طُبِعَ عَلَى نَفَقَتِهِ
المحسِن الكَبِيرِ
معالي السيد حسن عباس الشربتلي
وبجعله وقفاً لله تعالى
فجزاه الله كل خير
يوزع مجاناً ولا يُباع

مختصر

تفسير ابن كثير

مختصر لتفسير الإمام الجليل الحافظ عماد الدين
أبي الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي المتوفى سنة ٧٧٤ هـ

المجلد الثاني

اختصار وتحقيق

محمد علي الصابوني

أستاذ التفسير بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية
مكة المكرمة - جامعة الملك عبد العزيز

دار القرآن الكريم

بيروت

(٧) سُورَةُ الْاَعْرَافِ مَكِّيَّةٌ
وَآيَاتُهَا سِتُّ وَفَاتِنَانِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْمَصِّ ﴿١﴾ كِتَابٌ أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ أَتَّبِعُوا
مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾

تقدم الكلام في أول سورة البقرة على ما يتعلق بالحروف وبسطه واختلاف الناس فيه، قال ابن جرير عن ابن عباس ﴿المص﴾: أنا الله أفصل، ﴿كتاب أنزل إليك﴾ أي هذا كتاب أنزل إليك أي من ربك، ﴿فلا يكن في صدرك حرج منه﴾ شك منه، وقيل: لا تتحرج به في إبلاغه والإنذار به، ﴿فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل﴾، ولهذا قال: ﴿لتنذر به﴾ أي أنزلناه إليك لتنذر به الكافرين ﴿وذكرى للمؤمنين﴾، ثم قال تعالى مخاطباً للعالم: ﴿اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم﴾ أي اقتضوا آثار النبي الأمي الذي جاءكم بكتاب أنزل إليكم من رب كل شيء ومليكه، ﴿ولا تتبعوا من دونه أولياء﴾ أي لا تخرجوا عما جاءكم به الرسول إلى غيره فتكونوا قد عدلتم عن حكم الله إلى حكم غيره، ﴿قليلاً ما تذكرون﴾، كقوله: ﴿وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين﴾، وقوله: ﴿وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله﴾، وقوله: ﴿وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون﴾.

وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيِّنًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ﴿٤﴾ فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا
إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٥﴾ فَلَنَسْئَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْئَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾ فَلَنَقْضِيَنَّهُمْ بِمَا لَمْ يَكُنُوا
يَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ ﴿٨﴾

يقول الله تعالى: ﴿وكم من قرية أهلكناها﴾ أي بمخالفة رسلنا وتكذيبهم فأعقبهم ذلك خزي الدنيا موصولاً بذل الآخرة كما قال تعالى: ﴿ولقد استهزىء برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون﴾، وكقوله: ﴿فكأين من قرية أهلكناها وهي ظالمة فهي خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد﴾، وقال تعالى:

﴿وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلاً وكنا نحن الوارثين﴾، وقوله: ﴿فجاءها بأسنا بياتاً أو هم قائلون﴾ أي فكان منهم من جاءه أمر الله وبأسه ونقمته ﴿بياتاً﴾ أي ليلاً ﴿أو هم قائلون﴾ من القيلولة وهي الاستراحة وسط النهار، وكلا الوقتين وقت غفلة وهو، كما قال: ﴿أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتاً وهم نائمون * أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلبون﴾، وقال: ﴿أفأمن الذين مكروا السيئات أن يخسف الله بهم الأرض أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون أو يأخذهم في تقلبهم فما هم بمعجزين﴾، وقوله: ﴿فما كان دعواهم إذ جاءهم بأسنا إلا أن قالوا إنا كنا ظالمين﴾ أي فما كان قولهم عند مجيء العذاب إلا أن اعترفوا بذنوبهم وأنهم حقيقون بهذا، كقوله تعالى: ﴿وكم قصصنا من قرية كانت ظالمة - إلى قوله - خامدين﴾، قال ابن جرير: في هذه الآية الدلالة الواضحة على صحة ما جاءت به الرواية عن رسول الله ﷺ قال: « ما هلك قوم حتى يعذروا من أنفسهم »، وقوله: ﴿فلنسألن الذين أرسل إليهم﴾ الآية، كقوله: ﴿ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين﴾، وقوله: ﴿يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم؟ قالوا: لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب﴾ فيسأل الله الأمم يوم القيامة عما أجابوا رسله فيما أرسلهم به، ويسأل الرسل أيضاً عن إبلاغ رسالاته، ولهذا قال ابن عباس في تفسير هذه الآية ﴿فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين﴾ قال: عما بلغوا .

وعن ابن عمر قال، قال رسول الله ﷺ: « كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته فالإمام يسأل عن رعيته والرجل يسأل عن أهله والمرأة تسأل عن بيت زوجها والعبد يسأل عن مال سيده »، ثم قرأ: ﴿فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين﴾^(١)، وقال ابن عباس في قوله ﴿فلنقصن عليهم بعلم وما كنا غائبين﴾: يوضع الكتاب يوم القيامة فيتكلم بما كانوا يعملون، ﴿وما كنا غائبين﴾ يعني أنه تعالى يخبر عباده يوم القيامة بما قالوا وبما عملوا من قليل وكثير وجليل وحقير، لأنه تعالى الشهيد على كل شيء لا يغيب عنه شيء، ولا يغفل عن شيء بل هو العالم بخائفة الأعين وما تخفي الصدور ﴿وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين﴾ .

وَالْوِزْنَ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلُمُونَ ﴿٩﴾

يقول تعالى: ﴿والوزن﴾ أي للأعمال يوم القيامة ﴿الحق﴾ أي لا يظلم تعالى أحداً، كقوله: ﴿ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين﴾، وقال تعالى: ﴿إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً﴾، وقال تعالى: ﴿فأما من ثقلت موازينه فهو في عيشة راضية﴾، وقال تعالى: ﴿فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون * ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم في جهنم خالدون﴾ .

(١) رواه ابن مردويه، وهو مخرج في الصحيحين بدون زيادة قوله ثم قرأ الآية .

(فصل) والذي يوضع في الميزان يوم القيامة قيل: الأعمال وإن كانت أعراضاً، إلا أن الله تعالى يقبلها يوم القيامة أجساماً، يروى هذا عن ابن عباس، كما جاء في الصحيح من أن البقرة وآل عمران يأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان أو غيايتان أو فرقان من طير صواف، وقيل: يوزن كتاب الأعمال، كما جاء في حديث البطاقة، في الرجل الذي يؤتى به ويوضع له في كفة تسعة وتسعون سجلاً كل سجل مد البصر، ثم يؤتى بتلك البطاقة فيها: لا إله إلا الله، الحديث^(١)، وقيل: يوزن صاحب العمل كما في الحديث: «يؤتى يوم القيامة بالرجل السمين فلا يزن عند الله جناح بعوضة»، ثم قرأ: ﴿فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً﴾، وفي مناقب عبد الله بن مسعود أن النبي ﷺ قال: «أتعجبون من دقة ساقيه والذي نفسي بيده لهما في الميزان أثقل من أحد»، وقد يمكن الجمع بين هذه الآثار بأن يكون ذلك كله صحيحاً، فتارة توزن الأعمال، وتارة توزن محلها، وتارة يوزن فاعلها، والله أعلم.

وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعْيِشًا قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾

يقول تعالى: ممتناً على عبيده فيما مكَّن لهم من أنه جعل الأرض قراراً، وجعل فيها رواسي وأنهاراً وجعل لهم فيها منازل وبيوتاً، وأباح لهم منافعتها وسخر لهم السحاب لإخراج أرزاقهم منها، وجعل لهم فيها ﴿معيش﴾ أي مكاسب وأسباباً يكسبون بها ويتجرون فيها ويتسبون أنواع الأسباب، وأكثرهم مع هذا قليل الشكر على ذلك، كقوله: ﴿وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار﴾.

وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴿١١﴾

ينبه تعالى بني آدم في هذا المقام على شرف أبيهم آدم، وبين لهم عداوة عدوهم إبليس وما هو منظو عليه من الحسد لهم ولأبيهم آدم ليحذروه ولا يتبعوا طرائقه، فقال تعالى: ﴿ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا﴾، وهذا كقوله تعالى: ﴿وإذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من صلصال من حمأ مسنون * فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين﴾، وذلك أنه تعالى لما خلق آدم عليه السلام بيده من طين لازب وصوره بشراً سوياً ونفخ فيه من روحه، أمر الملائكة بالسجود له تعظيماً لشأن الله تعالى وجلاله، فسمعوا كلهم وأطاعوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين، والمراد بذلك كله آدم عليه السلام، وقال سفيان الثوري عن ابن عباس ﴿ولقد خلقناكم ثم صورناكم﴾ قال: خلقوا في أصلاب الرجال وصوروا في أرحام النساء^(٢)، ونقل ابن جرير عن بعض السلف أيضاً أن المراد ﴿بخلقناكم﴾ ثم ﴿صورناكم﴾ الذرية، وقال أي خلقنا آدم ثم صورنا الذرية، وهذا فيه نظر لأنه قال بعده: ﴿ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم﴾، فدل على أن المراد بذلك آدم، وإنما قيل ذلك بالجمع لأنه أبو البشر، كما يقول الله تعالى لبني إسرائيل الذين كانوا في زمن النبي ﷺ ﴿وظللنا عليكم الغمام وأنزلنا عليكم المن والسلوى﴾، والمراد أبائهم الذين كانوا في زمن موسى ولكن لما كان ذلك منة على الآباء الذين هم أصل، صار كأنه واقع على الأبناء، وهذا بخلاف قوله: ﴿ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين﴾

(٢) رواه الحاكم وقال: صحيح على شرطهما ولم يخرجاه .

(١) الحديث في سنن الترمذي وصححه .

الآية، فإن المراد منه آدم المخلوق من السلالة وذريته مخلوقون من نطفة، وصح هذا لأن المراد من خلقنا الإنسان الجنس لا معيناً، والله أعلم .

* قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۗ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾

قال بعض النحاة (لا) هنا زائدة، زيدت لتأكيد الجحد، كقول الشاعر: (ما إن رأيت ولا سمعت بمثله)، فأدخل (إن) وهي للنفي على (ما) النافية لتأكيد النفي، قالوا: وكذا هنا ﴿ ما منعك أن لا تسجد ﴾ مع تقدم قوله: ﴿ لم يكن من الساجدين ﴾، واختار ابن جرير أن ﴿ منعك ﴾ مضمن معنى فعل آخر تقديره: ما ألزمت واضطرك أن لا تسجد إذ أمرتك ونحو هذا، وهذا القول قوي حسن، والله أعلم. وقول إبليس لعنه الله: ﴿ أنا خير منه ﴾ من العذر الذي هو أكبر من الذنب، كأنه امتنع من الطاعة لأنه لا يؤمر الفاضل بالسجود للمفضول، يعني لعنه الله (وأنا خير منه فكيف تأمرني بالسجود له)؟ ثم بين أنه خير منه بأنه خلق من نار والنار أشرف مما خلقته منه وهو الطين، فنظر اللعين إلى أصل العنصر ولم ينظر إلى التشريف العظيم، وهو أن الله تعالى خلق آدم بيده ونفخ فيه من روحه، وقاس قياساً فاسداً في مقابلة نص قوله تعالى: ﴿ فقعوا له ساجدين ﴾ فشذ من بين الملائكة لترك السجود، فلهذا أبلس من الرحمة أي أوبس من الرحمة، فأخطأ قبحه الله في قياسه، ودعواه أن النار أشرف من الطين أيضاً، فإن الطين من شأنه الرزانة والحلم والأناة والثبوت، والطين محل النبات والنمو والزيادة والإصلاح، والنار من شأنها الإحراق والطيش والسرعة، ولهذا خان إبليس عنصره ونفع آدم عنصره بالرجوع إلى الإنابة والاستكانة والانقياد والاستسلام لأمر الله والاعتراف وطلب التوبة والمغفرة. وفي صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت، قال رسول الله ﷺ: « خلقت الملائكة من نور وخلق إبليس من مارج من نار وخلق آدم مما وصف لكم »^(١)، وعن عائشة قالت، قال رسول الله ﷺ: « خلق الله الملائكة من نور العرش، وخلق الجان من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم »^(٢)، وفي بعض ألفاظ هذا الحديث في غير الصحيح: « وخلق الحور العين من الزعفران ». وقال الحسن: قاس إبليس وهو أول من قاس، وعن ابن سيرين قال: أول من قاس إبليس، وما عبدت الشمس والقمر إلا بالمقاييس. إسناد صحيح أيضاً .

قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾

يقول تعالى مخاطباً لإبليس بأمرٍ قدرني كوني ﴿ فاهبط منها ﴾ أي بسبب عصيانك لأمرني وخروجك عن طاعتي فما يكون لك أن تتكبر فيها، قال كثير من المفسرين: الضمير عائد إلى الجنة، ويحتمل أن يكون عائداً إلى المتزلة التي هو فيها في الملكوت الأعلى ﴿ فاخرج إنك من الصاغرين ﴾ أي الدليلين الحقيرين، معاملة له بنقيض قصده

(١) رواه مسلم بهذا اللفظ .

(٢) رواه ابن مردويه .

ومكافأة لمراده بضده، فعند ذلك استدرك اللعين وسأل النظرة إلى يوم الدين، قال: ﴿أنظرنني إلى يوم يبعثون قال إنك من المنظرين﴾ أجابه تعالى إلى ما سأل لما له في ذلك من الحكمة والإرادة والمشئمة التي لا تخالف ولا تمنع ولا معقب لحكمه وهو سريع الحساب .

قَالَ فِيمَا أُغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٧﴾

يخبر تعالى أنه لما أنظر إبليس ﴿إلى يوم يبعثون﴾ واستوثق إبليس بذلك أخذ في المعاندة والتمرد، فقال: ﴿فبما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم﴾ أي كما أغويتني، قال ابن عباس: كما أضللتني، وقال غيره: كما أهلكني لأقعدن لعبادك الذين تخلقهم من ذرية هذا الذي أبعدتني بسببه على ﴿صراطك المستقيم﴾ أي طريق الحق وسبيل النجاة ولأضلنهم عنها لثلاثا يعبدوك ولا يوحدوك بسبب إضلالك إياي، وقال بعض النحاة: الباء هنا قسمية، كأنه يقول فبإغوائك إياي لأقعدن لهم صراطك المستقيم، قال مجاهد: ﴿صراطك المستقيم﴾ يعني الحق، والصحيح أن الصراط المستقيم أعم من ذلك، روى الإمام أحمد عن رسول الله ﷺ قال: «إن الشيطان قعد لابن آدم بطرقه، فقعد له بطريق الإسلام فقال: أتسلم وتذر دينك ودين آبائك قال فعصاه وأسلم» قال: «وقعد له بطريق الهجرة فقال: أتهاجر وتدع أرضك وسماعك وإنما مثل المهاجر كالفرس في الطول، فعصاه وهاجر، ثم قعد له بطريق الجهاد وهو جهاد النفس والمال، فقال تقاتل فتقتل فتتكح المرأة ويقسم المال، قال فعصاه وجاهد»، قال رسول الله ﷺ: «فمن فعل ذلك منهم فمات كان حقاً على الله أن يدخله الجنة، وإن قتل كان حقاً على الله أن يدخله الجنة، وإن غرق كان حقاً على الله أن يدخله الجنة، أو وقصته دابة كان حقاً على الله أن يدخله الجنة»^(١). وقوله: ﴿ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم﴾ الآية، قال ابن عباس: ﴿ثم لآتينهم من بين أيديهم﴾ أشككهم في آخرتهم ﴿ومن خلفهم﴾ أرغبهم في دنياهم ﴿وعن أيمنهم﴾ أشبه عليهم أمر دينهم ﴿وعن شمائلهم﴾ أشهي لهم المعاصي، وعنه: أما من بين أيديهم فمن قبل دنياهم، وأما من خلفهم فأمر آخرتهم، وأما عن أيمنهم فمن قبل حسناتهم، وأما عن شمائلهم فمن قبل سيئاتهم. وقال قتادة: أتاهم من بين أيديهم فأخبرهم أنه لا بعث ولا جنة ولا نار، ومن خلفهم من أمر الدنيا فزينها لهم ودعاهم إليها، وعن أيمنهم من قبل حسناتهم بطأهم عنها، وعن شمائلهم زين لهم السيئات والمعاصي ودعاهم إليها وأمرهم بها، أنك يا ابن آدم من كل وجه غير أنه لم يأتك من فوقك، لم يستطع أن يحول بينك وبين رحمة الله^(٢).

وقال مجاهد: ﴿من بين أيديهم وعن أيمنهم﴾ من حيث يبصرون، ﴿ومن خلفهم وعن شمائلهم﴾ حيث لا يبصرون، واختار ابن جرير أن المراد جميع طرق الخير والشر، فالخير يصددهم عنه، والشر يحسنه لهم، وقال ابن عباس: ﴿ولا تجد أكثرهم شاكرين﴾ قال: موحدين، وقول إبليس هذا إنما هو ظن منه وتوهم، وقد وافق

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند . (٢) وكذا روي عن إبراهيم النخعي والسدي وابن جريج .

في هذا الواقع كما قال تعالى: ﴿ ولقد صدق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه إلا فريقاً من المؤمنين ﴾، ولهذا ورد في الحديث: الاستعاذة من تسلط الشيطان على الإنسان كما قال الحافظ البزار. عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ يدعو: « اللهم إني أسألك العفو والعافية في ديني ودنياي وأهلي ومالي، اللهم استر عوراتي، وآمن روعاتي، واحفظني من بين يدي ومن خلفي، وعن يميني وعن شمالي، ومن فوقي، وأعوذ بك اللهم أن أغتال من تحتي »^(١). وعن عبدالله بن عمر قال: لم يكن رسول الله ﷺ يدع هؤلاء الدعوات حين يصبح وحين يمسي: اللهم إني أسألك العافية في الدنيا والآخرة، اللهم إني أسألك العفو والعافية في ديني ودنياي وأهلي ومالي، اللهم استر عوراتي وآمن روعاتي، اللهم احفظني من بين يدي ومن خلفي وعن يميني وعن شمالي ومن فوقي، وأعوذ بعظمتك أن أغتال من تحتي »^(٢).

* قَالَ أَخْرَجَ مِنْهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾

أكد تعالى على الشيطان اللعنة والطرده والإبعاد والنفي عن محل الملاء الأعلى بقوله: ﴿ أخرج منها مذموماً مدحوراً ﴾، قال ابن جرير: أما المذموم فهو المعيب، والذام: العيب، يقال ذأمه ذأماً فهو مذموم، والذام والذيم أبلغ في العيب من الذم، قال: والمدحور المقتضي وهو المبعد المطرود. وقال ابن أسلم: ما نعرف المذموم والمذموم إلا واحداً، وقال ابن عباس: صغيراً مقبياً، وقال السدي: مقبياً مطروداً، وقال قتادة: لعيناً مقبياً، وقال مجاهد: منقياً مطروداً، وقال الربيع بن أنس: مذموماً منقياً والمدحور المصغر. وقوله تعالى: ﴿ لمن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين ﴾، كقوله: ﴿ قال اذهب فن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفوراً ﴾.

وَيَعَادِمُ أَسْكُنُ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾
فَوَسَّسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءِ تَيْهَمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰ رَبُّكَ عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢١﴾

يذكر تعالى أنه أباح لآدم عليه السلام ولزوجته حواء الجنة أن يأكلا منها من جميع ثمارها إلا شجرة واحدة، وقد تقدم الكلام على ذلك في سورة البقرة، فعند ذلك حسدهما الشيطان، وسعى في المكر والوسوسة والخديعة ليلسبهما ما هما فيه من النعمة واللباس الحسن (وقال) كذباً واقتراء: ﴿ ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين ﴾ أي لثلا تكونا ملكين أو خالدين ها هنا، ولو أنكما أكلتما منها لحصل لكما ذلكما، كقوله: ﴿ قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى ﴾ أي لثلا تكونا ملكين، كقوله: ﴿ بين الله لكم أن تضلوا ﴾، أي لثلا تضلوا ﴿ وألقى في الأرض رواسي أن تمتد بكم ﴾ أي لثلا تتمد بكم، ﴿ وقاسمهما ﴾ أي حلف لهما بالله ﴿ إني لكما لمن الناصحين ﴾، أي حلف لهما بالله على ذلك حتى خدعهما وقد يخدع المؤمن بالله، وقال قتادة في

(١) أخرجه الحافظ البزار من حديث ابن عباس مرفوعاً .

(٢) ورواه أبو داود والنسائي وابن ماجه وابن حبان والحاكم، وقال الحاكم: صحيح الإسناد .

الآية: حلف بالله إني خلقت قبلكما وأنا أعلم منكما فاتبعاني أرشدكما، وكان بعض أهل العلم يقول: من خدعنا بالله المخدعنا له .

فَدَلَّهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْتُ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾

عن ابن عباس قال: كانت الشجرة التي نهى الله عنها آدم وزوجته السنبلة، فلما أكلا منها بدت لهما سواتهما، وكان الذي وارى عنهما من سواتهما أظفارهما، وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ورق التين، يلزقان بعضه إلى بعض، فانطلق آدم عليه السلام مولياً في الجنة، فعلمت برأسه شجرة من الجنة، فناداه الله: يا آدم أمني نفر؟ قال: لا، ولكني استحييك يا رب، قال: أما كان لك فيما منحتك من الجنة وأبحتك منها مندوحة عما حرمت عليك؟ قال: بلى يا رب، ولكن وعزتك ما حسبت أن أحداً يحلف بك كاذباً، قال: وهو قول الله عز وجل ﴿وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين﴾ قال: فبعزتي لأهبطنك إلى الأرض، ثم لا تنال العيش إلا كدأً قال: فاهبط من الجنة، وكانا يأكلان منها رغداً فأهبط إلى غير رغد من طعام وشراب، فعلم صنعة الحديد، وأمر بالحرث، فحرت وزرع ثم سقى، حتى إذا بلغ حصد، ثم داسه ثم ذراه، ثم طحنه، ثم عجنه، ثم خبزه، ثم أكله، فلم يبلغه حتى بلغ منه ما شاء الله أن يبلغ، وقال سعيد بن جبیر عن ابن عباس ﴿وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة﴾ قال: ورق التين، وقال مجاهد: جعلوا يخصفان عليهما من ورق الجنة قال كهيئة الثوب، وقال وهب بن منبه في قوله: ﴿ينزع عنهما لباسهما﴾ قال: كان لباس آدم وحواء نوراً على فروجهما، لا يرى هذا عورة هذه، ولا هذه عورة هذا، فلما أكلا من الشجرة بدت لهما سواتهما^(١). وقال قتادة: قال آدم: أي رب أرايت إن تبت واستغفرت، قال: إذا أدخلك الجنة، وأما إبليس فلم يسأله التوبة وسأله النظرة، فأعطى كل واحد منهما الذي سأله. وقال ابن جرير عن ابن عباس قال: لما أكل آدم من الشجرة قيل له: لم أكلت من الشجرة التي نهيتك عنها؟ قال: حواء أمرتني، قال: فإني قد أعقبتها أن لا تحمل إلا كرهاً، ولا تضع إلا كرهاً، قال: فرنت عند ذلك حواء، فقيل لها: الرنة عليك وعلى ولدك؛ وقال الضحاک بن مزاحم في قوله: ﴿ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين﴾ هي الكلمات التي تلقاها آدم من ربه .

قَالَ أَهْبَطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾

قيل المراد بالخطاب في ﴿اهبطوا﴾ آدم وحواء وإبليس، والعمدة في العداوة آدم وإبليس، ولهذا قال تعالى في سورة طه قال: ﴿اهبطا منها جميعاً﴾ الآية، وحواء تبع لآدم، وقد ذكر المفسرون الأماكن التي هبط فيها كل منهم، ويرجع حاصل تلك الأخبار إلى الإسرائيليات والله أعلم بصحتها، ولو كان في تعيين تلك البقاع فائدة تعود على المكلفين في أمر دينهم أو دنياهم لذكرها الله تعالى في كتابه أو رسوله ﷺ، وقوله: ﴿ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين﴾ أي قرار وأعمار مضروبة إلى آجال معلومة، قد جرى بها القلم وأحصاها القدر، وسطرت في الكتاب الأول، قال ابن عباس: ﴿مستقر﴾ القبور، وعنه قال ﴿مستقر﴾ فوق الأرض وتحتها رواها ابن أبي حاتم، وقوله: ﴿قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون﴾، كقوله تعالى: ﴿منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى﴾، يخبر تعالى أنه جعل الأرض داراً لبني آدم مدة الحياة الدنيا، فيها معيائهم وفيها مماتهم وقبورهم، ومنها نشورهم ليوم القيامة الذي يجمع الله فيه الأولين والآخرين ويجازي كلا بعمله .

يَذَرُونِ إِذْ أَتَىٰ آدَمَ قَدْ أَتَىٰنَا عَلَيْكَ لِبَاسًا يُوَازِي سَوَاءَ تِكْرٍ وَرِيْسًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِّنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾

يتمتع تعالى على عباده بما جعل لهم من اللباس والريش، فاللباس ستر العورات وهي السوات، والرياش والريش ما يتجمل به ظاهراً، فالأول من الضروريات، والريش من التكملات والزيادات. قال ابن جرير: الرياش في كلام العرب الأثاث وما ظهر من الثياب، وقال ابن عباس: الريش: اللباس، والعيش والنعيم، وقال ابن أسلم: الرياش الجمال؛ وليس أبو أمامة ثوباً جديداً، فلما بلغ ترقوته قال الحمد لله الذي كساني ما أوارني به عورتني، وأجمل به في حياتي، ثم قال: سمعت عمر بن الخطاب يقول: قال رسول الله ﷺ: «من استجد ثوباً فلبسه فقال حين يبلغ ترقوته: الحمد لله الذي كساني ما أوارني به عورتني وأجمل به في حياتي، ثم عمد إلى الثوب الخلق فتصدق به، كان في ذمة الله وفي جوار الله وفي كنف الله حياً وميتاً»^(١). وقوله تعالى: ﴿ولباس التقوى ذلك خير﴾، اختلف المفسرون في معناه، فقال عكرمة: يقال هو ما يلبسه المتقون يوم القيامة، وقال قتادة وابن جريج: ﴿ولباس التقوى﴾ الإيمان، وقال ابن عباس: العمل الصالح، وعنه: هو السميت الحسن في الوجه، وعن عروة بن الزبير ﴿لباس التقوى﴾ خشية الله، وقال ابن أسلم: ولباس التقوى يتقي الله فيوارى عورته، فذاك لباس التقوى، وكلها متقاربة، ويؤيد ذلك الحديث الذي رواه ابن جرير عن الحسن قال: رأيت عثمان بن عفان رضي الله عنه على منبر رسول الله ﷺ عليه قميص فوهي محلول الزر، وسمعته يأمر بقتل الكلاب، وينهى عن اللعب بالحمام، ثم قال: يا أيها الناس اتقوا الله في هذه السرائر، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «والذي نفس محمد بيده ما أسر أحد سريرة إلا ألبسه الله رداءها علانية إن خيراً فخير وإن شراً فشر»، ثم قرأ هذه الآية: ﴿وريشاً ولباس التقوى ذلك خير ذلك من آيات الله﴾ قال: السميت الحسن»^(٢).

(١) رواه أحمد والترمذي وابن ماجه .

(٢) رواه ابن جرير ، قال ابن كثير : وفيه ضعف، وقد روى الأئمة الشافعي وأحمد والبخاري في كتاب الأدب من طرق صحيحة عن الحسن البصري بعضه .

يَبْنِيءَ آدَمَ لَا يَفْتَنَنَّكَ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبُو يَكْمَ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَ مَا كَانَا فِيهَا وَإِنَّهُ يَرْتَكِرُ
هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوُهُمْ إِنَّآ جَعَلْنَا الشَّيْطَانَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾

يحذر تعالى بني آدم من إبليس وقبيله مبيناً لهم عداوته القديمة لأبي البشر آدم عليه السلام في سعيه في إخراجه من الجنة، التي هي دار النعيم إلى دار التعب والعناء، والتسبب في هتك عورته بعدما كانت مستورة عنه، وما هذا إلا عن عداوة أكيدة، وهذا كقوله تعالى: ﴿أفنتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلاً﴾ .

وَإِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنْ أَلَّاهُ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحِشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيْطَانَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾

كانت العرب ما عدا قريشاً لا يطوفون بالبيت في ثيابهم التي لبسوها، يتأولون في ذلك أنهم لا يطوفون في ثياب عصوا الله فيها، وكانت قريش - وهم الحمس - يطوفون في ثيابهم، ومن أعاره أحمسي ثوباً طاف فيه، ومن معه ثوب جديد طاف فيه، ثم يلقيه فلا يملكه أحد، ومن لم يجد ثوباً جديداً ولا أعاره أحمسي ثوباً طاف عرياناً، وربما كانت امرأة فتطوف عريانة فتجعل على فرجها شيئاً ليستره بعض الستر فتقول :

اليوم يبدو بعضه أو كله وما بدا منه فلا أحله

وأكثر ما كان النساء يظفن عراة بالليل، وكان هذا شيئاً قد ابتدعه من تلقاء أنفسهم، واتبعوا فيه آباءهم، ويعتقدون أن فعل آباءهم مستند إلى أمر من الله وشرع، فأنكر الله تعالى عليهم ذلك فقال: ﴿وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها﴾، فقال تعالى ردأ عليهم: ﴿قل﴾ أي يا محمد لمن ادعى ذلك ﴿إن الله لا يأمر بالفحشاء﴾ أي هذا الذي تصنعونه فاحشة منكرة والله لا يأمر بمثل ذلك، ﴿أتقولون على الله ما لا تعلمون﴾؟ أي أتسندون إلى الله من الأقوال ما لا تعلمون صحته، وقوله تعالى: ﴿قل أمر ربي بالقسط﴾ أي بالعدل والاستقامة، ﴿وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين﴾ أي أمركم بالاستقامة في عبادته في محالها، وهي متابعة المرسلين المؤيدين بالمعجزات فيما أخبروا به عن الله، وما جاءوا به من الشرائع وبالإخلاص له في عبادته، فإنه تعالى لا يتقبل العمل حتى يجمع هذين الركنين أن يكون صواباً موافقاً للشرعية، وأن يكون خالصاً من الشرك .

وختلف في معنى قوله: ﴿كما بدأكم تعودون﴾، فقال مجاهد: يحييكم بعد موتكم، وقال الحسن البصري: كما بدأكم في الدنيا كذلك تعودون يوم القيامة أحياء، وقال قتادة: بدأ فخلقهم ولم يكونوا شيئاً ثم ذهبوا ثم يعيدهم، وقال ابن أسلم: كما بدأكم أولاً كذلك يعيدكم آخرأ، واختار هذا القول أبو جعفر بن جرير، وأيده

بما رواه عن ابن عباس قال: قام فينا رسول الله ﷺ بموعظة فقال: «يا أيها الناس إنكم تحشرون إلى الله حفاة عراة غرلاً، كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا إنا كنا فاعلين»^(١). وعن مجاهد قال: يبعث المسلم مسلماً والكافر كافراً، وقال محمد بن كعب القرظي: ﴿كما بدأكم تعودون﴾ من ابتداء الله خلقه على الشقاوة صار إلى ما ابتدء عليه خلقه وإن عمل بأعمال أهل السعادة، ومن ابتداء خلقه على السعادة صار إلى ما ابتدء عليه خلقه، وإن عمل بأعمال أهل الشقاء كما أن السحرة عملوا بأعمال أهل الشقاء، ثم صاروا إلى ما ابتدأوا عليه، وقال السدي: ﴿كما بدأكم تعودون﴾ كما خلقناكم فريق مهتدون وفريق ضلال كذلك تعودون وتخرجون من بطون أمهاتكم؛ وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: إن الله تعالى بدأ خلق ابن آدم مؤمناً وكافراً، كما قال: ﴿هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن﴾ ثم يعيدهم يوم القيامة كما بدأ خلقهم مؤمناً وكافراً، قلت: ويتأيد هذا القول بحديث ابن مسعود في صحيح البخاري: «فوالذي لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا باع أو ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا باع أو ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل الجنة، فيدخل الجنة».

وعن سهل بن سعد قال، قال رسول الله ﷺ: «إن العبد ليعمل فيما يرى الناس يعمل أهل الجنة وإنه من أهل النار، وإنه ليعمل فيما يرى الناس يعمل أهل النار، وإنه من أهل الجنة، وإنما الأعمال بالخواتيم»^(٢). وفي الحديث: «يبعث كل عبد على ما مات عليه»^(٣). قلت: ولا بد من الجمع بين هذا القول إن كان هو المراد من الآية وبين قوله تعالى: ﴿فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرت الله التي فطر الناس عليها﴾، وما جاء في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه»، ووجه الجمع على هذا: أنه تعالى خلقهم ليكون منهم مؤمن وكافر في ثاني الحال، وإن كان قد فطر الخلق كلهم على معرفته وتوحيده والعلم بأنه لا إله غيره، كما أخذ عليهم الميثاق بذلك، وجعله في غرائهم وفطرتهم، ومع هذا قدر أن منهم شقياً ومنهم سعيداً، ﴿هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن﴾، وفي الحديث: «كل الناس يغدو فبائع نفسه فعتقها أو موبقها» وقدر الله نافذ في بريته، فإنه هو ﴿الذي قدر هدى﴾ و﴿الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى﴾، وفي الصحيحين: «فأما من كان منكم من أهل السعادة فسييسر لعمل أهل السعادة، وأما من كان من أهل الشقاوة فسييسر لعمل أهل الشقاوة»، ولهذا قال تعالى: ﴿فريقاً هدى وفريقاً حق عليهم الضلالة﴾، ثم علل ذلك فقال: ﴿إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله﴾ الآية.

* يَلْبَنِيَّ آدَمَ خَدُوا زَيْنَتَكَ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾

هذه الآية الكريمة رد على المشركين فيما كانوا يعتمدونه من الطواف بالبيت عراة، كما روي عن ابن عباس،

(١) الحديث من رواية الصحيحين، ومعنى قوله ﴿غرلاً﴾ أي غير مختونين.

(٢) هذا جزء من حديث رواه البخاري.

(٣) رواه مسلم وابن ماجه.

قال: كانوا يطوفون بالبيت عراة الرجال والنساء، الرجال بالنهار، والنساء بالليل، وكانت المرأة تقول:

اليوم يبدو بعضه أو كله وما بدا منه فلا أحله

فقال الله تعالى: ﴿ خذوا زينتكم عند كل مسجد ﴾^(١)، وقال العوفي عن ابن عباس: كان رجال يطوفون بالبيت عراة، فأمرهم الله بالزينة، والزينة اللباس، وهو ما يوارى السوءة، وما سوى ذلك من جيد البز والمتاع، فأمروا أن يأخذوا زينتهم عند كل مسجد^(٢). ولهذا الآية وما ورد في معناها من السنة يستحب التجمل عند الصلاة، ولا سيما يوم الجمعة، ويوم العيد، والطيب لأنه من الزينة، والسواك لأنه من تمام ذلك، ومن أفضل اللباس البياض، كما قال الإمام أحمد عن ابن عباس مرفوعاً قال، قال رسول الله ﷺ: «إلبسوا من ثيابكم البياض فإنها من خير ثيابكم، وكفنوا فيها موتاكم، وإن خير أكلكم الإثم فإنه يجلو البصر، وينبت الشعر»، وللإمام أحمد أيضاً وأهل السنن، عن سمرة بن جندب قال، قال رسول الله ﷺ: «عليكم بثياب البياض فالبسوها فإنها أطهر وأطيب وكفنوا فيها موتاكم». ويروى أن تيمماً الداري اشترى رداء بألف وكان يصلي فيه.

وقوله تعالى: ﴿ وكلوا واشربوا ﴾ الآية، قال بعض السلف: جمع الله الطب كله في نصف آية: ﴿ وكلوا واشربوا ولا تسرفوا ﴾، وقال البخاري، قال ابن عباس: كل ما شئت، والبس ما شئت، ما أخطأتك خصلتان: سرف ومخيلة. وقال ابن عباس: أحل الله الأكل والشرب، ما لم يكن سرفاً أو مخيلة، وفي الحديث: «كلوا واشربوا والبسوا وتصدقوا من غير مخيلة ولا سرف، فإن الله يحب أن يرى نعمته على عبده»^(٣)، وقال الإمام أحمد قال رسول الله ﷺ: «ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطنه، حسب ابن آدم أكالات يقمن صلبه، فإن كان فاعلاً لا محالة، فثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنفسه»^(٤)، وفي الحديث: «إن من السرف أن تأكل كل ما اشتيت»^(٥). وقال السدي: كان الذين يطوفون بالبيت عراة يحرمون عليهم الودك (الدمسم) ما أقاموا في الموسم، فقال الله تعالى لهم: ﴿ كلوا واشربوا ﴾ الآية، يقول: لا تسرفوا في التحريم، وقال مجاهد: أمرهم أن يأكلوا ويشربوا مما رزقهم الله، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ﴿ ولا تسرفوا ﴾ ولا تأكلوا حراماً ذلك الإسراف، وقال ابن جرير، وقوله: ﴿ إنه لا يحب المسرفين ﴾، يقول الله تعالى: ﴿ إن الله لا يحب المعتدين ﴾ حده في حلال أو حرام، الغالين فيما أحل بإحلال الحرام أو بتحريم الحلال، ولكنه يحب أن يحلل ما أحل ويحرم ما حرم، وذلك العدل الذي أمر به.

قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ ۖ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا

(١) رواه مسلم والنسائي وابن جرير واللفظ له.

(٢) وروى عن مجاهد وعطاء والنخعي وقتادة والسدي والضحاك وغيرهم.

(٣) رواه أحمد والنسائي وابن ماجه.

(٤) ورواه النسائي والترمذي، وقال الترمذي: حسن صحيح.

(٥) رواه الحافظ الموصلي والدارقطني وقال فيه: هذا حديث غريب.

خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نَفِصِلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾

يقول تعالى رداً على من حرم شيئاً من المآكل أو المشارب أو الملابس من تلقاء نفسه من غير شرع من الله ﴿قل﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين الذين يحرمون ما يحرمون بأرائهم الفاسدة وابتداعهم ﴿من حرم زينة الله التي أخرج لعباده﴾ الآية، أي هي مخلوقة لمن آمن بالله وعبده في الحياة الدنيا، وإن شركهم فيها الكفار حساً في الدنيا، فهي لهم خاصة يوم القيامة لا يشركهم فيها أحد من الكفار، فإن الجنة محرمة على الكافرين. عن ابن عباس قال: كانت قريش يطوفون بالبيت وهم عراة يصفرون ويصفقون، فأنزل الله: ﴿قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده﴾ فأمروا بالثياب (١).

قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾

عن عبد الله بن مسعود قال، قال رسول الله ﷺ: «لا أحد أغبر من الله، فلذلك حرم الفواحش ما ظهر وما بطن، ولا أحد أحب إليه المدح من الله» (٢)، وقد تقدم الكلام على ما يتعلق بالفواحش ما ظهر منها وما بطن في سورة الأنعام. وقوله: ﴿والإثم والبغي بغير الحق﴾، قال السدي: أما الإثم فالمعصية، والبغي أن تبغي على الناس بغير الحق، وقال مجاهد: الإثم المعاصي كلها، وأخبر أن الباغي بغيه على نفسه، وحاصل ما فسر به الإثم: أنه الخطايا المتعلقة بالفاعل نفسه، والبغي هو التعدي إلى الناس، فحرم الله هذا وهذا. وقوله تعالى: ﴿وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً﴾ أي تجعلوا له شركاء في عبادته، ﴿وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون﴾ عن الاقتراء والكذب من دعوى أن له ولداً، ونحو ذلك مما لا علم لكم به، كقوله: ﴿فاجتنبوا الرجس من الأوثان﴾ الآية.

وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾ يَلْبَسِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكَ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكَ آيَاتِي فَمَنْ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٦﴾

يقول تعالى: ﴿ولكل أمة﴾ أي قرن وجيل ﴿أجل فإذا جاء أجلهم﴾ أي ميقاتهم المقدر لهم ﴿لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون﴾، ثم أُنذِرَ تعالى بني آدم أنه سيبعث إليهم رسلاً يقصون عليهم آياته وبشر وحذر فقال: ﴿فمن اتقى وأصلح﴾ أي ترك المحرمات وفعل الطاعات ﴿فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ والذين كذبوا بآياتنا

(١) رواه الطبراني عن ابن عباس .

(٢) رواه أحمد والشيخان .

واستكبروا عنها ﴿ أي كذبت بها قلوبهم واستكبروا عن العمل بها، ﴿ أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾
أي ما كثون فيها مكثاً مخلداً .

فَنَ أظلمُ مِمَّنْ افترى على الله كذباً أو كذبَ بِآيَاتِهِ ۖ أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ حَتَّىٰ
إِذَا جَاءَهُمْ رُسُلُنَا يَتُوفُونَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ
أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿٣٧﴾

يقول تعالى: ﴿ فن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذب بآياته ﴾ أي لا أحد أظلم ممن افترى الكذب على
الله أو كذب بآياته المتزلة ﴿ أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب ﴾، اختلف المفسرون في معناه، فقال ابن عباس:
ينالهم ما كتب عليهم، وكتب لمن كذب على الله أن وجهه مسود، وعنه قال: نصيبهم من الأعمال، من عمل
خيراً جزى به، ومن عمل شراً جزى به. وقال مجاهد: ما وعدوا به من خير وشر، واختاره ابن جرير، وقال
محمد القرظي ﴿ أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب ﴾ قال: عمله ورزقه وعمره، وهذا القول قوي في المعنى، والسياق
يدل عليه، وهو قوله: ﴿ حتى إذا جاءتهم رسلنا يتوفونهم ﴾ ونظير المعنى في هذه الآية، كقوله: ﴿ إن الذين يفترون
على الله الكذب لا يفلحون متاع في الدنيا ثم إلينا مرجعهم، ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون ﴾، وقوله:
﴿ ومن كفر فلا يحزنك كفره إلينا مرجعهم فننبئهم بما عملوا ﴾ الآية، وقوله: ﴿ حتى إذا جاءتهم رسلنا يتوفونهم ﴾
الآية. يخبر تعالى أن الملائكة إذا توفت المشركين تفرعهم عند الموت وقبض أرواحهم إلى النار، يقولون لهم: أين
الذين كنتم تشركون بهم في الحياة الدنيا وتدعونهم وتعبدونهم من دون الله ادعوهم يخلصوكم مما أنتم فيه، قالوا:
﴿ ضلوا عنا ﴾ أي ذهبوا عنا فلا نرجو نفعهم ولا خيرهم ﴿ وشهدوا على أنفسهم ﴾ أي أقروا واعترفوا على أنفسهم
﴿ أنهم كانوا كافرين ﴾ .

* قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا
حَتَّىٰ إِذَا دَارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَهُمْ لِأَوْلِهِمْ رَبَّنَاهُتُولَاءَ أَضَلُّونَا فَعَاتَهُمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ
ضِعْفٍ وَلَكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أَوْلَهُمْ لِأَخْرَهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ
تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾

يقول تعالى مخبراً عما يقوله هؤلاء المشركين به المفسرين عليه المكذبين بآياته ﴿ ادخلوا في أمم ﴾ أي من أمثالكم
وعلى صفاتكم، ﴿ قد خلت من قبلكم ﴾ أي من الأمم السالفة الكافرة، ﴿ من الجن والإنس في النار ﴾ ويحتمل
أن يكون ﴿ في أمم ﴾ أي مع أمم. وقوله: ﴿ كلما دخلت أمة لعنت أختها ﴾ كما قال الخليل عليه السلام، ﴿ ثم
يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ﴾ الآية. وقوله تعالى: ﴿ إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت

بهم الأسباب ﴿٤٠﴾ ، وقوله: ﴿٤١﴾ حتى إذا أداركوا فيها جميعاً ﴿٤٢﴾ أي اجتمعوا فيها كلهم ﴿٤٣﴾ قالت أخراهم لأولاهم ﴿٤٤﴾ أي أخراهم دخولاً وهم (الأتباع) لأولاهم وهم (المتبعون) لأنهم أشد جرمًا من أتباعهم فدخلوا قبلهم فيشكوهم الأتباع إلى الله يوم القيامة لأنهم هم الذين أضلوهم عن سواء السبيل، فيقولون: ﴿٤٥﴾ ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذاباً ضعفاً من النار ﴿٤٦﴾ أي أضعف عليهم، كما قال تعالى: ﴿٤٧﴾ وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلاً * ربنا آتهم ضعفين من العذاب ﴿٤٨﴾ الآية. وقوله: ﴿٤٩﴾ قال لكل ضعف ﴿٥٠﴾ أي قد فعلنا ذلك وجازينا كلاً بحسبه، كقوله: ﴿٥١﴾ الذين كفروا وصلوا عن سبيل الله زدناهم عذاباً ﴿٥٢﴾ الآية، وقوله: ﴿٥٣﴾ وليحملن أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم ﴿٥٤﴾، وقوله: ﴿٥٥﴾ ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم ﴿٥٦﴾ الآية، ﴿٥٧﴾ وقالت أولاهم لأخراهم ﴿٥٨﴾ أي قال المتبعون للاتباع: ﴿٥٩﴾ فما كان لكم علينا من فضل ﴿٦٠﴾، قال السدي: لقد ضلتم كما ضللنا، ﴿٦١﴾ فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون ﴿٦٢﴾، وهذه الحال كما أخبر الله تعالى عنهم في حال محشرهم في قوله تعالى: ﴿٦٣﴾ ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول يقول للذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكننا مؤمنين ﴿٦٤﴾ الآيات .

* إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ﴿٦٥﴾ لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٦٦﴾

وقوله تعالى: ﴿٦٥﴾ لا تفتح لهم أبواب السماء ﴿٦٦﴾ قيل: المراد لا يرفع لهم منها عمل صالح ولا دعاء ﴿٦٧﴾، وقيل: المراد لا تفتح لأرواحهم أبواب السماء ﴿٦٨﴾، ويؤيده ما رواه الإمام أحمد عن البراء بن عازب قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ في جنازة رجل من الأنصار، فانتهينا إلى القبر ولما يلحد، فجلس رسول الله ﷺ، وجلسنا حوله كأن على رؤوسنا الطير، وفي يده عود ينكت به في الأرض، فرفع رأسه فقال: «استعينوا بالله من عذاب القبر - مرتين أو ثلاثاً - ثم قال: إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال إلى الآخرة نزل إليه ملائكة من السماء بيض الوجوه، كأن وجوههم الشمس معهم كفن من أكفان الجنة، وحنوط من حنوط الجنة، حتى يجلسوا منه مد البصر، ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه، فيقول: أيتها النفس المطمئنة اخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان - قال: فتخرج تسيل كما يسيل القطر في السماء، فأخذها فإذا أخذها لم يدعها في يده طرفة عين حتى يأخذوها، فيجعلوها في ذلك الكفن، وفي ذلك الحنوط، ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض، فيصعدون بها فلا يمرون بها على ملاء من الملائكة إلا قالوا: ما هذه الروح الطيبة؟ فيقولون: فلان بن فلان بأحسن أسمائه التي كانوا يسمونه بها في الدنيا، حتى ينتهوا به إلى السماء الدنيا، فيستفتحون له فيفتح له، فيشيعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التي تليها حتى ينتهي بها إلى السماء السابعة، فيقول الله عز وجل: اكتبوا

(١) قاله مجاهد وسعيد بن جبير ورواه العوفي عن ابن عباس .

(٢) رواه الضحاك عن ابن عباس وبه قال السدي .

كتاب عبدي في عليين، وأعيدوه إلى الأرض، فأني منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى، قال: فتعاد روحه، فيأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له: من ربك؟ فيقول: ربي الله، فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: ديني الإسلام، فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هو رسول الله ﷺ، فيقولان له: وما عملك؟ فيقول: قرأت كتاب الله فأمنت به وصدقت، فينادي مناد من السماء: أن صدق عبدي، فأفرشوه من الجنة وألبسوه من الجنة، وافتحوا له باباً إلى الجنة، فيأتيه من روحها وطيبها، ويفسح له قبره مد البصر - قال: ويأتيه رجل حسن الوجه حسن الثياب طيب الريح، فيقول: أبشر بالذي يسرك، هذا يومك الذي كنت توعده، فيقول له: من أنت فوجهك الوجه يجيء بالخير؟ فيقول: أنا عمك الصالح، فيقول: رب أقم الساعة، رب أقم الساعة حتى أرجع إلى أهلي ومالي .

قال: وإن العبد الكافر إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال إلى الآخرة، نزل إليه من السماء ملائكة سود الوجوه معهم المسوح، فيجلسون منه مد البصر ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول: أيتها النفس الخبيثة اخرجي إلى سخط من الله وغضب، قال: تنفرق في جسده، فينتزعها كما ينتزع السفود من الصوف المبلول، فيأخذها، فإذا أخذها لم يدعها في يده طرفة عين، حتى يجعلوها في تلك المسوح، ويخرج منها كأن تن ريح جيفة وجدت على وجه الأرض، فيصعدون بها، فلا يمرون بها على ملام من الملائكة إلا قالوا: ما هذه الروح الخبيثة؟ فيقولون: فلان بن فلان، بأقبح أسمائه التي كان يسمى بها في الدنيا، حتى ينتهي بها إلى السماء الدنيا، فيستفتح فلا يفتح له - ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿ لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط ﴾ فيقول الله عز وجل: اكتبوا كتابه في سجين في الأرض السفلى، فتطرح روحه طرْحاً - ثم قرأ: ﴿ ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق ﴾، فتعاد روحه في جسده، ويأتيه ملكان فيجلسانه، فيقولان له: من ربك؟ فيقول: هاه هاه لا أدري، فيقولان: ما دينك؟ فيقول: هاه هاه لا أدري، فيقولان: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم، فيقول هاه هاه لا أدري، فينادي مناد من السماء أن كذب عبدي، فأفرشوه من النار، وافتحوا له باباً إلى النار، فيأتيه من حرها وسمومها ويضيق عليه قبره حتى تختلف فيه أضلعه، ويأتيه رجل قبيح الوجه، قبيح الثياب، منتن الريح فيقول: أبشر بالذي يسوءك، هذا يومك الذي كنت توعده، فيقول: من أنت فوجهك الوجه يجيء بالشر؟ فيقول: أنا عمك الخبيث، فيقول: رب لا تقم الساعة .

وفي الحديث عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: « الميت تحضره الملائكة فإذا كان الرجل الصالح قالوا: اخرجي أيتها النفس المطمئنة كانت في الجسد الطيب، اخرجي حميدة، وأبشري بروح وريحان ورب غير غضبان، فيقولون ذلك حتى يعرج بها إلى السماء، فيستفتح لها فيقال: من هذا؟ فيقولون: فلان، فيقال: مرحباً بالنفس الطيبة التي كانت في الجسد الطيب، ادخلي حميدة وأبشري بروح وريحان ورب غير غضبان، فيقال لها ذلك، حتى ينتهي بها إلى السماء التي فيها الله عز وجل، وإذا كان الرجل السوء قالوا: اخرجي أيتها النفس الخبيثة كانت في الجسد الخبيث اخرجي ذميمة وأبشري بحميم وغساق وآخر من شكله أزواج، فيقولون ذلك حتى تخرج، ثم يعرج بها إلى السماء فيستفتح لها فيقال: من هذا؟ فيقولون: فلان، فيقولون: لا مرحباً بالنفس الخبيثة التي كانت

في الجسد الخبيث، ارجعي ذميمة، فإنه لم يفتح لك أبواب السماء، فترسل بين السماء والأرض، فتصير إلى القبر»^(١). وقد قال ابن جريج: لا تفتح لأعمالهم ولا لأرواحهم، وهذا فيه جمع بين القولين، والله أعلم. وقوله تعالى: ﴿ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط﴾ هكذا قرأه الجمهور، وفسروه بأنه البعير، قال الحسن البصري: حتى يدخل البعير في خرق الإبرة^(٢). وقرأ ابن عباس: بضم الجيم وتشديد الميم: يعني الحبل الغليظ في خرق الإبرة. وهذا اختيار سعيد بن جبير، وفي رواية أنه قرأ: حتى يلج الجمل، يعني قلوس السفن وهي الحبال الغلاظ. وقوله: ﴿لهم من جهنم مهاد﴾ المراد: الفرش، ﴿ومن فوقهم غواش﴾ اللحف، وكذا قال الضحاك بن مزاحم والسدي ﴿وكذلك نجزي الظالمين﴾.

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٤٢﴾
وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رَسُولُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَنْ تُلْكُوا الْجَنَّةَ أَوْرَثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾

لما ذكر تعالى حال الأشقياء عطف بذكر حال السعداء فقال: ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ أي آمنت قلوبهم وعملوا الصالحات بجوارحهم ضد ﴿أولئك الذين كفروا بآيات الله واستكبروا عنها﴾ نبه تعالى على أن الإيمان والعمل به سهل لأنه تعالى قال: ﴿لا نكلف نفساً إلا وسعها أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون﴾ ونزعنا ما في صدورهم من غل ﴿أي من حسد وبغض، كما جاء في صحيح البخاري عن أبي سعيد الخدري قال، قال رسول الله ﷺ: «إذا خلص المؤمنون من النار حسبوا على قنطرة بين الجنة والنار، فاقتص لهم مظالم كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا هذبوا ونقوا، أذن لهم في دخول الجنة فوالذي نفسي بيده إن أحدهم بمنزله في الجنة أدل منه بمسكنه كان في الدنيا». وقال السدي في الآية: إن أهل الجنة إذا سيقوا إلى الجنة وجدوا عند بابها شجرة، في أصل ساقها عينان، فشربوها من إحداهما، فيتزع ما في صدورهم من غل فهو الشراب الطهور، واغتسلوا من الأخرى فجرت عليهم نضرة النعيم، فلم يشعثوا ولم يشحبوا بعدها أبداً. وقال علي رضي الله عنه: إني لأرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير من الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿ونزعنا ما في صدورهم من غل﴾^(٣). وروى النسائي وابن مردويه عن أبي هريرة قال، قال رسول الله ﷺ: «كل أهل الجنة يرى مقعده من النار فيقول: لولا أن الله هداني فيكون له شكراً، وكل أهل النار يرى مقعده من الجنة فيقول: لو أن الله هداني فيكون له حسرة»^(٤)، ولهذا لما أورثوا مقاعد أهل النار من الجنة نودوا أن تلکم الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون، أي بسبب أعمالكم نالتكم الرحمة فدخلتم الجنة وتبوأتم منازلکم بحسب أعمالکم، وإنما وجب الحمل على هذا لما ثبت في الصحيحين عنه ﷺ:

(١) رواه أحمد والنسائي وابن ماجه وابن جرير واللفظ له .

(٢) هذا قول جمهور السلف منهم أبو العالية والضحاك وابن مسعود ورواه العوفي عن ابن عباس .

(٣) ررواه ابن جرير عن قتادة عن علي كرم الله وجهه . (٤) أخرجه ابن مردويه والنسائي عن أبي هريرة مرفوعاً .

«واعلموا أن أحدكم لن يدخله عمله الجنة»، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل»^(١).

وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ ﴿٤٥﴾

يخبر تعالى بما يخاطب به أهل النار على التفرغ والتوبيخ إذا استقروا في منازلهم ﴿٤٤﴾ أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً ﴿٤٥﴾ «أن» ههنا مفسرة للقول المحذوف، و «قد» للتحقيق، أي قالوا لهم: قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً فهل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً؟ قالوا: نعم كما أخبر تعالى في سورة الصافات عن الذي كان له قرين من الكفار، ﴿٤٤﴾ فاطلع فرآه في سواء الجحيم * قال تالله إن كدت لتردين * ولولا نعمة ربي لكنت من المخضرين ﴿٤٥﴾ أي ينكر عليه مقالته التي يقوها في الدنيا ويقرعه بما صار إليه من العذاب والنكال، وكذلك تفرعهم الملائكة يقولون لهم: ﴿٤٤﴾ هذه النار التي كنتم بها تكذبون * أفسح هذا أم أنتم لا تبصرون ﴿٤٥﴾، وكذلك قرع رسول الله ﷺ قتلى القلب يوم بدر فنادى: «يا أبا جهل بن هشام، ويا عتبة بن ربيعة، ويا شيبة بن ربيعة - وسمى رؤوسهم - هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً؟ فإني وجدت ما وعدني ربي حقاً. وقال عمر: يا رسول الله تخاطب قوماً قد جفوا؟ فقال: والذي نفسي بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، ولكن لا يستطيعون أن يجيبوا»^(٢)، وقوله تعالى: ﴿٤٤﴾ فأذن مؤذن بينهم ﴿٤٥﴾ أي أعلم معلم ونادى مناد ﴿٤٤﴾ أن لعنة الله على الظالمين ﴿٤٥﴾ أي مستقرة عليهم، ثم وصفهم بقوله: ﴿٤٤﴾ الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً ﴿٤٥﴾ أي يصدون الناس عن اتباع سبيل الله وشرعه وما جاءت به الأنبياء، ويبغونها أن تكون السبيل معوجة غير مستقيمة حتى لا يتبعها أحد، ﴿٤٥﴾ وهم بالآخرة كافرون ﴿٤٥﴾ أي وهم بقاء الله في الدار الآخرة كافرون أي جاحدون مكذبون بذلك لا يصدقونه ولا يؤمنون به، فلهذا لا يزالون بما يأتون من منكر من القول والعمل لأنهم لا يخافون حساباً عليه ولا عقاباً، فهم شر الناس أقوالاً وأعمالاً.

وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَتِهِمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلِّمُوا عَلَيْكُمْ لَمَّا دَخَلُوا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾ * وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾

لما ذكر تعالى مخاطبة أهل الجنة مع أهل النار، نبه أن بين الجنة والنار حجاباً، وهو الحاجز المانع من وصول أهل النار إلى الجنة، قال ابن جرير: وهو السور الذي قال الله تعالى فيه: ﴿٤٦﴾ فضرِبَ بينهم بسور له باب ﴿٤٧﴾ وهو الأعراف الذي قال الله تعالى فيه: ﴿٤٦﴾ وعلى الأعراف رجال ﴿٤٧﴾، ثم روى بإسناده عن السدي أنه قال في قوله تعالى:

(١) أخرجه البخاري ومسلم عن أبي هريرة مرفوعاً. (٢) الحديث مروى في الصحيحين.

﴿ وبينهما حجاب ﴾ هو السور وهو الأعراف، وقال مجاهد: الأعراف حجاب بين الجنة والنار سور له باب. قال ابن جرير: والأعراف جمع عرف، وكل مرتفع من الأرض عند العرب يسمى عرفاً، وإنما قيل لعرف الديك عرفاً لارتفاعه. وعن ابن عباس: هو سور بين الجنة والنار، وقال السدي: إنما سمي الأعراف أعرافاً لأن أصحابه يعرفون الناس، واختلفت عبارات المفسرين في أصحاب الأعراف من هم؟ وكلها قريبة ترجع إلى معنى واحد، وهو أنهم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم^(١). وقد جاء في حديث مرفوع رواه الحافظ ابن مردويه عن جابر بن عبد الله قال: سئل رسول الله ﷺ عن استوت حسناته وسيئاته، فقال: « أولئك أصحاب الأعراف لم يدخلوها وهم يطمعون ». وقال ابن جرير عن حذيفة أنه سئل عن أصحاب الأعراف، قال فقال: هم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم، ففعدت بهم سيئاتهم عن الجنة، وخلقت بهم حسناتهم عن النار. قال: فوقفوا هناك على السور حتى يقضي الله فيهم .

وعن ابن مسعود قال: يحاسب الناس يوم القيامة، فمن كانت حسناته أكثر من سيئاته بواحدة دخل الجنة، ومن كانت سيئاته أكثر من حسناته بواحدة دخل النار، ثم قرأ قول الله: ﴿ فمن ثقلت موازينه ﴾ الآيتين، ثم قال: الميزان يخف بمقال حبة، ويرجح، قال: ومن استوت حسناته وسيئاته كان من أصحاب الأعراف فوقفوا على الصراط ثم عرفوا أهل الجنة وأهل النار فإذا نظروا إلى أهل الجنة نادوا: سلام عليكم، وإذا صرفوا أبصارهم إلى يسارهم ونظروا أهل النار ﴿ قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين ﴾ تعوذوا بالله من منازلهم، قال: فأما أصحاب الحسنات فإنهم يعطون نوراً يمشون به بين أيديهم وبأيامهم، ويعطى كل عبد يومئذ نوراً، وكل أمة نوراً فإذا أتوا على الصراط سلب الله نور كل منافق ومنافقة، فلما رأى أهل الجنة ما لقي المنافقون قالوا: ﴿ ربنا أتمم لنا نورنا ﴾، وأما أصحاب الأعراف فإن النور كان بأيديهم فلم يترع، فهناك يقول الله تعالى: ﴿ لم يدخلوها وهم يطمعون ﴾ فكان الطمع دخولاً، قال: فقال ابن مسعود إن العبد إذا عمل حسنة كتب له بها عشر، وإذا عمل سيئة لم تكتب إلا واحدة، ثم يقول: هلك من غلبت آحاده عشراته^(٢)، وسئل رسول الله ﷺ عن أصحاب الأعراف؟ قال: « هم آخر من يفصل بينهم من العباد، فإذا فرغ رب العالمين من الفصل بين العباد، قال: أنتم قوم أخرجتكم حسناتكم من النار، ولم تدخلوها الجنة، فأتتم عتقائي، فارعوا من الجنة حيث شتم^(٣) .

وقد حكى القرطبي وغيره فيهم اثني عشر قولاً، وقوله تعالى: ﴿ يعرفون كلاً بسيماهم ﴾، قال ابن عباس: يعرفون أهل الجنة ببياض الوجوه، وأهل النار بسواد الوجوه، وقال العوفي عن ابن عباس: أنزلهم الله بتلك المترلة ليعرفوا من في الجنة والنار، وليعرفوا أهل النار بسواد الوجوه، ويتعوذوا بالله أن يجعلهم مع القوم الظالمين، وهم في ذلك يحيون أهل الجنة بالسلام لم يدخلوها وهم يطمعون أن يدخلوها، وهم داخلوها إن شاء الله، وقال الحسن: إنه تلا هذه الآية: ﴿ لم يدخلوها وهم يطمعون ﴾ قال: والله ما جعل ذلك الطمع في قلوبهم إلا لكرامة يريد بها

(١) قال بذلك حذيفة وابن عباس وابن مسعود وغير واحد من السلف .

(٢) رواه ابن جرير عن ابن مسعود موقوفاً .

(٣) قال ابن كثير: هذا مرسل حسن

بهم، وقال قتادة: قد أنبأكم الله بمكانهم من الطمع، وقوله: ﴿وَإِذَا صرَفْت أَبْصَارَهُمْ تَلْقَاءُ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا: رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾. قال الضحاك عن ابن عباس: إن أصحاب الأعراف إذا نظروا إلى أهل النار وعرفوهم قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين. وقال السدي: وإذا مروا بهم يعني أصحاب الأعراف بزمرة يذهب بها إلى النار قالوا: ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين. وقال عكرمة: تحدد وجوههم للنار، فإذا رأوا أصحاب الجنة ذهب ذلك عنهم، وقال ابن أسلم في قوله: ﴿وَإِذَا صرَفْت أَبْصَارَهُمْ تَلْقَاءُ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ فرأوا وجوههم مسودة وأعينهم مزرقه ﴿قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾.

وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا لَا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَتِهِمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾
أَهْوَاءَ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾

يقول الله تعالى إخباراً عن تفرغ أهل الأعراف لرجال من صنديد المشركين وقادتهم يعرفونهم في النار بسيماهم ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ﴾ أي كثرتكم، ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ أي لا ينفعكم كثرتكم ولا جموعكم من عذاب الله بل صرتم إلى ما أنتم فيه من العذاب والنكال، ﴿أَهْوَاءَ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ﴾، قال ابن عباس: يعني أصحاب الأعراف ﴿أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾، وقال ابن جرير عن ابن عباس ﴿قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ﴾ الآية، قال: فلما قالوا لهم الذي قضى الله أن يقولوا يعني أصحاب الأعراف لأهل الجنة وأهل النار، قال الله لأهل التكبر والأموال: ﴿أَهْوَاءَ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾.

وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ مَا عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥٠﴾ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ هَوًىٰ وَلِعِبَاءَ وَاغْرَثَتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسُوهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا بِعَايِنَتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾

يخبر تعالى عن ذلة أهل النار وسؤالهم أهل الجنة من شراهم وطعامهم وأنهم لا يجابون إلى ذلك، قال السدي: ﴿أَنْ أَفِضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ يعني الطعام، وقال ابن أسلم: يستطعمونهم ويستسقونهم، وقال سعيد ابن جبير: ينادي الرجل أباه أو أخاه فيقول له: قد احترقت، فأفرض علي من الماء، فيقال لهم أحييهم، فيقولون: ﴿إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾، قال ابن أسلم ﴿إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾: يعني طعام الجنة وشراها، وسئل ابن عباس أي الصدقة أفضل؟ فقال، قال رسول الله ﷺ: «أفضل الصدقة الماء، ألم تسمع إلى أهل النار لما استغاثوا بأهل الجنة، قالوا: أفوضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله»^(١) ثم وصف تعالى الكافرين بما كانوا

يعتمدونه في الدنيا باتخاذهم الدين هواً ولعباً، واغترارهم بالدنيا وزينتها وزخرفها عما أمروا به من العمل للآخرة، وقوله: ﴿فاليوم ننسأهم كما نسأ لقاء يومهم هذا﴾ أي يعاملهم معاملة من نسيم، لأنه تعالى لا يشذ عن علمه شيء ولا ينسأه كما قال تعالى: ﴿لا يضل ربي ولا ينسى﴾، وإنما قال تعالى هذا من باب المقابلة كقوله: ﴿نسأ الله فنسيم﴾، وقال: ﴿كذلك أتت آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى﴾، وقال تعالى: ﴿وقيل اليوم ننسأكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا﴾، وقال ابن عباس: نسيم الله من الخير ولم ينسهم من الشر، وعنه: تركهم كما تركوا لقاء يومهم هذا، وقال مجاهد: تركهم في النار، وقال السدي: تركهم من الرحمة كما تركوا أن يعملوا للقاء يومهم هذا، وفي الصحيح أن الله تعالى يقول للبعد يوم القيامة: ألم أزوجهك؟ ألم أكرمك؟ ألم أسخر لك الخيل والإبل وأدرك رأس وتربع؟ فيقول: بلى، فيقول: أظننت أنك ملاقي؟ فيقول: لا، فيقول الله تعالى: فاليوم أنسأك كما نسيتني .

وَلَقَدْ جِئْنَهُمْ بِكِتَابٍ فَصَلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾

يقول تعالى مخبراً عن إعداره إلى المشركين بإرسال الرسل إليهم بالكتاب الذي جاء به الرسول، وأنه كتاب مفصل مبين كقوله: ﴿كتاب أحكمت آياته ثم فصلت الآية﴾، وقوله: ﴿فصلناه على علم﴾ للعالمين، أي على علم منا بما فصلناه به كقوله: ﴿أنزله بعلمه﴾، ولما أخبر بما صاروا إليه من الخسارة في الآخرة، ذكر أنه قد أراح علمهم في الدنيا بإرسال الرسل وإتزال الكتب كقوله: ﴿وما كنا معذيين حتى نبعث رسولاً﴾، ولهذا قال: ﴿هل ينظرون إلا تأويله﴾ أي ما وعدوا به من العذاب والنكال والجنة والنار، قاله مجاهد وغير واحد، وقال مالك: ثوابه، وقال الربيع: لا يزال يجيء من تأويله أمر حتى يتم يوم الحساب، حتى يدخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، فيتم تأويله يومئذ، قوله: ﴿يوم يأتي تأويله﴾ أي يوم القيامة، ﴿يقول الذين نسوه من قبل﴾ أي تركوا العمل به وتناسوه في الدار الدنيا، ﴿قد جاءت رسل ربنا بالحق فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا﴾ أي في خلاصنا مما صرنا إليه مما نحن فيه ﴿أو نرد﴾ إلى الدار الدنيا ﴿فنعمل غير الذي كنا نعمل﴾، كقوله: ﴿ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين﴾ بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون﴾ كما قال ههنا: ﴿قد خسروا أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون﴾ أي خسروا أنفسهم بدخولهم النار وخلودهم فيها، ﴿وضل عنهم ما كانوا يفترون﴾ أي ذهب عنهم ما كانوا يعبدون من دون الله فلا يشفعون فيهم ولا ينصرونهم ولا يتقذونهم مما هم فيه .

إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ

حَيْثُهَا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ ۗ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٤﴾

يخبر تعالى أنه خالق العالم؛ سماواته وأرضه وما بين ذلك في ستة أيام، كما أخبر بذلك في غير ما آية من القرآن، واختلفوا في هذه الأيام هل كل يوم منها كهذه الأيام كما هو المتبادر إلى الأذهان؟ أو كل يوم كالف سنة كما نص على ذلك مجاهد والإمام أحمد بن حنبل؟ فأما يوم السبت فلم يقع فيه خلق لأنه اليوم السابع، ومنه سمي السبت، وهو القطع. وأما قوله تعالى: ﴿ثم استوى على العرش﴾ فللناس في هذا المقام مقالات كثيرة جداً، ليس هذا موضع بسطها، وإنما نسلك في هذا المقام مذهب السلف الصالح وهو إمرارها، كما جاءت من غير تكيف ولا تشبيه ولا تعطيل، والظاهر المتبادر إلى أذهان المشبهين مني عن الله، فإن الله لا يشبهه شيء من خلقه و﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾، بل الأمر كما قال (نعيم بن حماد الخزاعي) شيخ البخاري قال: من شبه الله بخلقه كفر، ومن جحد ما وصف الله به نفسه فقد كفر، وليس فيما وصف الله به نفسه ولا رسوله تشبيه فمن أثبت لله تعالى ما وردت به الآيات الصريحة والأخبار الصحيحة على الوجه الذي يليق بجلال الله، ونفى عن الله تعالى النقائص؛ فقد سلك سبيل الهدى. وقوله تعالى: ﴿يغشي الليل النهار يطلبه حثيثاً﴾ أي يذهب ظلام هذا بضياء هذا، وضياء هذا بظلام هذا، وكل منهما يطلب الآخر طلباً حثيثاً أي سريعاً لا يتأخر عنه، بل إذا ذهب هذا جاء هذا وعكسه، كقوله: ﴿وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون﴾، إلى قوله: ﴿لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون﴾، فقوله: ﴿ولا الليل سابق النهار﴾ أي لا يفوته بوقت يتأخر عنه بل هو في أثره بلا واسطة بينهما، ولهذا قال: ﴿يطلبه حثيثاً والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره﴾ أي الجميع تحت قهره وتسخيره ومشيتته، ولهذا قال منبهاً: ﴿ألا له الخلق والأمر﴾ أي له الملك والتصرف ﴿تبارك الله رب العالمين﴾، كقوله: ﴿تبارك الذي جعل في السماء بروحاً﴾ الآية، وفي الحديث: «من لم يحمد الله على ما عمل من عمل صالح وحمد نفسه، فقد كفر وحبط عمله، ومن زعم أن الله جعل للعباد من الأمر شيئاً فقد كفر بما أنزل الله على أنبيائه»، لقوله: ﴿ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين﴾^(١)، وفي الدعاء المأثور عن أبي الدرداء وروى مرفوعاً: «اللهم لك الملك كله، ولك الحمد كله، وإليك يرجع الأمر كله، أسألك من الخير كله، وأعوذ بك من الشر كله».

أَدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَأَدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾

أرشدك تبارك وتعالى عباده إلى دعائه الذي هو صلاحهم في دنياهم وأخراهم، فقال: ﴿ادعوا ربكم تضرعاً وخفية﴾، قيل معناه: تذلاً واستكانة وخيفة، كقوله: ﴿واذكر ربك في نفسك﴾ الآية، وفي الصحيحين عن أبي موسى الأشعري قال: رفع الناس أصواتهم بالدعاء، فقال رسول الله ﷺ: «أيها الناس أربعوا على أنفسكم

فإنكم لا تدعون أصم ولا غائباً، إن الذي تدعون سميع قريب « الحديث، وقال ابن عباس في قوله: ﴿ تضرعاً وخفية قال: السر، وقال ابن جرير: ﴿ تضرعاً ﴾ تذلاً واستكانة لطاعته ﴿ وخفية ﴾ يقول: بخشوع قلوبكم وصحة اليقين بوحدانيته وربوبيته فيما بينكم وبينه، لا جهاراً مراعاة. وقال الحسن البصري: إن كان الرجل لقد جمع القرآن وما يشعر به الناس، وإن كان الرجل لقد فقه الفقه الكثير وما يشعر به الناس، وإن كان الرجل ليصلي الصلاة الطويلة في بيته وعنده الزور وما يشعرون به، ولقد أدركنا أقواماً ما كان على الأرض من عمل يقدر أن يعملوه في السر، فيكون علانية أبداً، ولقد كان المسلمون يجتهدون في الدعاء وما يسمع لهم صوت، إن كان إلا همساً بينهم وبين ربهم، وذلك أن الله تعالى يقول: ﴿ ادعوا ربكم تضرعاً وخفية ﴾، وذلك أن الله ذكر عبداً صالحاً رضي فعله فقال: ﴿ إذ نادى ربه نداء خفياً ﴾، وقال ابن جرير: يكره رفع الصوت والنداء والصياح في الدعاء، ويأمر بالتضرع والاستكانة، ﴿ إنه لا يحب المعتدين ﴾ في الدعاء ولا في غيره .

وقال الإمام أحمد إن سعداً سمع ابناً له يدعو وهو يقول: اللهم إني أسألك الجنة ونعيمها واستبرقها، ونحواً من هذا، وأعوذ بك من النار وسلاسها وأغلاها، فقال: لقد سألت الله خيراً كثيراً، وتعوذت به من شر كثير، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: « إنه سيكون قوم يعتدون في الدعاء، وقرأ هذه الآية: ﴿ ادعوا ربكم تضرعاً ﴾ الآية - وإن بحسبك أن تقول: اللهم إني أسألك الجنة وما قرب إليها من قول أو عمل، وأعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول أو عمل »^(١)، وسمع عبد الله بن مغفل ابنه يقول: اللهم إني أسألك القصر الأبيض عن يمين الجنة إذا دخلتها، فقال: يا بني سل الله الجنة وعُدَّ به من النار، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: « يكون قوم يعتدون في الدعاء والطهور »^(٢)، وقوله تعالى: ﴿ ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها ﴾ ينهى تعالى عن الإفساد في الأرض، وما أضره بعد الإصلاح ! فإنه إذا كانت الأمور ماشية على السداد، ثم وقع الإفساد بعد ذلك كان أضر ما يكون على العباد، فهي تعالى عن ذلك وأمر بعبادته ودعائه والتضرع إليه والتذلل لديه، فقال: ﴿ وادعوه خوفاً وطمعاً ﴾ أي خوفاً مما عنده من وبيل العقاب وطمعاً فيما عنده من جزيل الثواب، ثم قال: ﴿ إن رحمة الله قريب من المحسنين ﴾ أي إن رحمته مرصدة للمحسنين الذين يتبعون أوامره ويتركون زواجره، كما قال تعالى: ﴿ ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ﴾ الآية، وقال: ﴿ قريب ﴾ ولم يقل: (قريبة) لأنه ضمن الرحمة معنى الثواب، أو لأنها مضافة إلى الله، فلهذا قال: قريب من المحسنين. وقال مطر الوراق: استنجزوا موعود الله بطاعته، فإنه قضى أن رحمته قريب من المحسنين .

﴿ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۗ حَتَّىٰ إِذَا أَقْلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ ۗ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ۗ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتَهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ ۗ وَالَّذِي خَبثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۗ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُسْكِرُونَ ﴿٥٨﴾

(١) رواه أحمد وأبو داود .

(٢) رواه أحمد وابن ماجه وأبو داود قال ابن كثير : وإسناده حسن .

لما ذكر تعالى أنه خالق السموات والأرض وأنه المتصرف الحاكم المدبر المسخر وأرشد إلى دعائه لأنه على ما يشاء قادر به تعالى على أنه الرزاق وأنه يعيد الموتى يوم القيامة فقال: ﴿وهو الذي يرسل الرياح بشراً﴾ أي مبشرة بين يدي السحاب الحامل للمطر، ومنهم من قرأ بشراً، كقوله: ﴿ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات﴾، وقوله: ﴿بين يدي رحمته﴾ أي بين يدي المطر، كما قال: ﴿وهو الذي ينزل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمته وهو الولي الحميد﴾، وقال: ﴿فانظر إلى آثار رحمت الله كيف يحيي الأرض بعد موتها إن ذلك لمحي الموتى وهو على كل شيء قدير﴾، وقوله: ﴿حتى إذا أقلت سحاباً ثقالاً﴾ أي حملت الرياح سحاباً ثقالاً أي من كثرة ما فيها من الماء تكون ثقيلة قريبة من الأرض مدلهمة، كما قال زيد بن عمرو بن نفيل رحمه الله: وأسلمت وجهي لمن أسلمت له المزن تحمل عذباً زلالا

وقوله تعالى: ﴿سقناه لبلد ميت﴾ أي إلى أرض ميتة مجدبة لا نبات فيها، كقوله: ﴿وآية لهم الأرض الميتة أحييناها﴾ الآية، ولهذا قال: ﴿فأخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخرج الموتى﴾ أي كما أحيينا هذه الأرض بعد موتها، كذلك نحى الأجساد بعد صيرورتها رمياً يوم القيامة، ينزل الله سبحانه وتعالى ماء من السماء فتمطر الأرض أربعين يوماً، فتنبت منه الأجساد في قبورها كما ينبت الحب في الأرض، وهذا المعنى كثير في القرآن، يضرب الله مثلاً ليوم القيامة باحياء الأرض بعد موتها، ولهذا قال: ﴿لعلكم تذكرون﴾، وقوله: ﴿والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه﴾ أي والأرض الطيبة يخرج نباتها سريعاً حسناً كقوله: ﴿وأنتها نباتاً حسناً﴾، والذي خبث لا يخرج إلا نكداً، قال مجاهد وغيره: كالسبخ ونحوها، وقال ابن عباس في الآية: هذا مثل ضربه الله للمؤمن والكافر، وقال البخاري عن أبي موسى الأشعري قال، قال رسول الله ﷺ: «مثل ما بعثني الله به من العلم والهدى كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً، فكانت منها نقية قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا، وأصاب منها طائفة أخرى، إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ، فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلم، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به».

لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَنْقُومِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهٍ غَيْرِهِ ۖ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ أَمَلًا مِّن قَوْمِهِ ۖ إِنَّا لَنَرُّكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَنْقُومِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦١﴾ أَبْلِغْكُمْ رَسُولَتِي رَبِّي وَأَنْصَحْ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾

لما ذكر تعالى قصة آدم في أول السورة وما يتعلق بذلك وما يتصل به وفرغ منه، شرع تعالى في ذكر قصص الأنبياء عليهم السلام: الأول، فالأول، فابتدأ بذكر نوح عليه السلام، فإنه أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض بعد آدم عليه السلام. قال محمد بن إسحاق: ولم يلق نبي من قومه من الأذى مثل نوح إلا نبي قتل، وقال يزيد الرقاشي: إنما سمي نوحاً لكثرة ما نوح على نفسه، وقد كان بين آدم إلى زمن نوح عليهما السلام عشرة قرون كلهم

على الإسلام. قال ابن عباس وغير واحد من علماء التفسير: وكان أول ما عبدت الأصنام أن قوماً صالحين ماتوا فبنى قومهم عليهم مساجد، وصوروا صور أولئك فيها، ليتذكروا حالهم وعبادتهم، فيتشبهوا بهم، فلما طال الزمان جعلوا أجساداً على تلك الصور، فلما تمدى الزمان عبدوا تلك الأصنام، وسموها بأسماء أولئك الصالحين (وداً وسواعاً ويغوث ويعوق ونسراً)، فلما تفاقم الأمر بعث الله سبحانه وتعالى - وله الحمد والمنة - رسوله نوحاً، فأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له فقال: ﴿يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم﴾ أي من عذاب يوم القيامة إذا لقيتم الله وأنتم مشركون به، ﴿قال الملائكة من قومه﴾ أي الجمهور والسادة والقادة والكبراء منهم: ﴿إنا لنراك في ضلال مبين﴾ أي في دعوتك إيانا إلى ترك عبادة هذه الأصنام التي وجدنا عليها آباءنا، وهكذا حال الفجار إنما يرون الأبرار في ضلالة كقولهم: ﴿وإذا رأوهم قالوا إن هؤلاء لضالون﴾، ﴿وإذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم﴾ إلى غير ذلك من الآيات، ﴿قال يا قوم ليس بي ضلالة ولكني رسول من رب العالمين﴾ أي ما أنا ضال ولكن أنا رسول من رب كل شيء ومليكه، ﴿أبلغكم رسالات ربي وأنصح لكم وأعلم من الله ما لا تعلمون﴾، وهذا شأن الرسول أن يكون مبلغاً فصيحاً ناصحاً عالماً بالله لا يدركهم أحد من خلق الله في هذه الصفات، كما جاء في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه يوم عرفة: «أيها الناس إنكم مسؤولون عني، فإتم قائلون؟» قالوا: نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت، فجعل يرفع أصبعه إلى السماء وينكسها عليهم ويقول: «اللهم اشهد، اللهم اشهد».

﴿أَوْعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾

يقول تعالى إخباراً عن نوح أنه قال لقومه: ﴿أوعجبتم﴾ الآية، أي لا تعجبوا من هذا، فإن هذا ليس بعجب أن يوحى الله إلى رجل منكم رحمة بكم ولطفاً وإحساناً إليكم لينذركم، ولتتقوا نعمة الله، ولا تشركوا به ﴿ولعلكم ترحمون﴾، قال الله تعالى: ﴿فكذبوه﴾ أي تبادوا على تكذيبه ومخالفته، وما آمن معه منهم إلا قليل كما نص عليه في موضع آخر، ﴿فأنجيناه والذين معه في الفلك﴾ أي السفينة، كما قال: ﴿فأنجيناه وأصحاب السفينة﴾، ﴿وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا﴾، كما قال: ﴿مما خطيئتهم أغرقوا فأدخلوا ناراً فلم يجدوا لهم من دون الله أنصاراً﴾، وقوله: ﴿إنهم كان قوماً عمين﴾ أي عن الحق لا يبصرونه ولا يهتدون له، فبين تعالى في هذه القصة أنه انتقم لأوليائه من أعدائه وأنجى رسوله والمؤمنين، وأهلك أعداءهم من الكافرين، كقوله: ﴿إنا لننصر رسلنا﴾ الآية، وهذه سنة الله في عباده في الدنيا والآخرة، أن العاقبة فيها للمتقين والظفر والغلب لهم، كما أهلك قوم نوح بالغرق ونجى نوحاً وأصحابه المؤمنين، وكان قوم نوح قد ضاق بهم السهل والجبل، وقال ابن أسلم: ما عذب الله قوم نوح إلا والأرض ملأى بهم، وليس بقعة من الأرض إلا ولها مالك وحائز. وقال ابن وهب: بلغني عن ابن عباس أنه نجى مع نوح في السفينة ثمانون رجلاً أحدهم جرهم، وكان لسانه عربياً^(١).

(١) رواه ابن أبي حاتم.

* وَإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَقَوْمِ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴿٦٥﴾ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٦﴾ قَالَ أَمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِي مِنَّا لَنَرَنَّكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَنْظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٦٧﴾ قَالَ يَقَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٨﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٩﴾ أَوْعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً ۖ فَاذْكُرُوا آيَةَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ ﴿٧٠﴾

يقول تعالى: وكما أرسلنا إلى قوم نوح نوحاً كذلك أرسلنا إلى عاد أخاهم هوداً، وهؤلاء هم عاد الأولى الذين ذكرهم الله، وهم أولاد عاد بن إرم الذين كانوا يأوون إلى العمدة في البر، كما قال تعالى: ﴿ ألم تر كيف فعل ربك بعاد * إرم ذات العماد * التي لم يخلق مثلها في البلاد ﴾ وذلك لشدة بأسهم وقوتهم، كما قال تعالى: ﴿ فأما عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة ﴾ ؟ وقد كانت مساكنهم باليمن بالأحقاف، فإن هوداً عليه السلام دفن هناك، وقد كان من أشرف قومه نسباً، لأن الرسل إنما يبعثهم الله من أفضل القبائل وأشرفهم، ولكن كان قومه كما شدد خلقهم شدد على قلوبهم، وكانوا من أشد الأمم تكذيباً للحق، ولهذا دعاهم هود عليه السلام إلى عبادة الله وحده لا شريك له وإلى طاعته وتقواه، ﴿ قال الملأ الذين كفروا من قومه ﴾ - والملاهم الجمهور والسادة والقادة منهم - ﴿ إنا لنراك في سفاهة وإنا لنظنك من الكاذبين ﴾ أي في ضلالة حيث تدعوننا إلى ترك عبادة الأصنام والإقبال على عبادة الله وحده، كما تعجب الملا من قريش من الدعوة إلى إله واحد فقالوا: ﴿ أجعل الآلهة إلهاً واحداً ﴾ ؟ الآية، ﴿ قال يا قوم ليس بي سفاهة ولكي رسولٌ من رب العالمين ﴾ أي لست كما تزعمون، بل جئتكم بالحق من الله الذي خلق كل شيء فهو رب كل شيء ومليكه، ﴿ أبلغكم رسالات ربي وأنا لكم ناصح أمين ﴾، وهذه الصفات التي يتصف بها الرسل البلاغ والنصح والأمانة، ﴿ أو عجبتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ﴾ أي لا تعجبوا أن بعث الله إليكم رسولاً من أنفسكم لينذركم أيام الله ولقاءه، بل احمداوا الله على ذاكم، ﴿ واذكروا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ ﴾، أي واذكروا نعمة الله عليكم في جعلكم من ذرية نوح الذي أهلك الله أهل الأرض بدعوته لما خالفوه وكذبوه، ﴿ وزادكم في الخلق بسطة ﴾ أي زاد طولكم على الناس بسطة أي جعلكم أطول من أبناء جنسكم، كقوله في قصة طالوت: ﴿ وزاده بسطة في العلم والجسم ﴾ ﴿ واذكروا آلاء الله ﴾ أي نعمه ومنته عليكم ﴿ لعلكم تفلحون ﴾ .

قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ، وَنَذْرًا مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَآتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧١﴾
قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءِ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ۖ فَانظُرُوا إِلَىٰ مَعَكُمْ مِنَ الْمُنتَظِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ

كذَّبُوا بِعَآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾

يخبر تعالى عن تمردهم وطغيانهم وعنادهم وإنكارهم على هود عليه السلام، ﴿ قالوا أجتنا لنعبد الله وحده ﴾ الآية، كقول الكفار من قريش: ﴿ اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ﴾. وقد ذكر محمد بن إسحاق وغيره: أنهم كانوا يعبدون أصناماً، فصنم يقال له: صمد، وآخر يقال له: صمود، وآخر يقال له: الهباء، ولهذا قال هود عليه السلام: ﴿ قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب ﴾ أي قد وجب عليكم بمفالتكم هذه من ربكم رجس، معناه سخط وغضب ﴿ أنجادلونني في أسماء سميتوها أنتم وآبؤكم ﴾ أي أتجاجوني في هذه الأصنام التي سميتوها أنتم وآبؤكم آلهة وهي لا تضر ولا تنفع، ولا جعل الله لكم على عبادتها حجة ولا دليلاً، ولهذا قال: ﴿ ما نزل الله بها من سلطان. فانتظروا إني معكم من المنتظرين ﴾ وهذا تهديد ووعد من الرسول لقومه، ولهذا عقبه بقوله: ﴿ فأنجيناها والذين معه برحمة منا وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا وما كانوا مؤمنين ﴾ وقد ذكر الله سبحانه صفة إهلاكهم في أماكن آخر من القرآن بأنه أرسل عليهم الريح العقيم ﴿ ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم ﴾، كما قال في الآية الأخرى: ﴿ وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية ﴾ لما تمردوا وعتوا أهلكتهم الله بريح عاتية فكانت تحمل الرجل منهم فترفعه في الهواء ثم تنكسه على أم رأسه، فثلغ رأسه حتى تبينه من جثته، ولهذا قال: ﴿ كأنهم أعجاز نخل خاوية ﴾. وقال محمد بن إسحاق: كانوا يسكنون باليمن بين عمان وحضرموت، وكانوا مع ذلك قد فشوا في الأرض وقهروا أهلها بفضل قوتهم التي آتاهم الله، وكانوا أصحاب أوثان يعبدونها من دون الله، فبعث الله إليهم هوداً عليه السلام، وهو من أوسطهم نسباً وأفضلهم موضعاً، فأمرهم أن يوحدوا الله ولا يجعلوا معه إلهاً غيره، وأن يكفوا عن ظلم الناس، فأبوا عليه وكذبوه، وقالوا: من أشد منا قوة؟ واتبعه منهم ناس - وهم يسير - يكتمون إيمانهم، فلما عنت عاد على الله وكذبوا نبيه، وأكثروا في الأرض الفساد وتجبروا، وبنوا بكل ريع آية عبثاً بغير نفع كلمهم هود فقال: ﴿ أتبنون بكل ريع آية تعبثون * وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون * وإذا بطشتم بطشتم جبارين ﴾ الآيات .

فلما أبوا إلا الكفر به أمسك الله عنهم القطر ثلاث سنين حتى جهدهم ذلك، وكان الناس إذا جهدهم أمر في ذلك الزمان، وطلبوا من الله الفرج فيه إنما يطلبونه بحرمة ومكان بيته، وكان معروفاً عند أهل ذلك الزمان، وبه العماليق مقيمون، فبعثت عاد وفداً قريباً من سبعين رجلاً إلى الحرم، ليستقوا لهم عند الحرم فنهضوا إلى الحرم، ودعوا لقومهم، فدعا داعيهم، فأنشأ الله سحبات ثلاثاً بيضاء وسوداء وحمرات، ثم ناداه من السماء: اختر لنفسك أو لقومك من هذا السحاب فقال: اخترت هذه السحابة السوداء، فإنها أكثر السحاب ماء، فناداه مناد: « اخترت رماداً رمداً، لا تبقي من عاد أحداً، لا والدأ ولا ولدأ، إلا جعلته همداً ». وساق الله السحابة السوداء بما فيها من النعمة إلى عاد حتى تخرج عليهم من واد، يقال لها المغيث، فلما رأوها استبشروا، وقالوا: هذا عارض ممطرنا، يقول: ﴿ بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم * تدمر كل شيء ﴾ أي تهلك كل شيء مرت به، فسخرها الله عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً، كما قال الله تعالى، والحسوم الدائمة، فلم تدع من عاد أحداً إلا هلك، وقد قال الله تعالى: ﴿ ولما جاء أمرنا نجينا هوداً والذين آمنوا معه برحمة منا ونجيناهم من عذاب غليظ ﴾،

وقد ورد في الحديث الذي رواه الإمام أحمد في مسنده قريب مما أورده محمد بن إسحاق عن الحارث البكري قال: إن عاداً قحطوا فبعثوا وافتدأ لهم يقال له قيل، فر بمعاوية بن بكر، فأقام عنده شهراً يسقيه الخمر، وتغنيه جاريتان يقال لهما الجرادتان، فلما مضى الشهر خرج إلى جبال مهرة، فقال: اللهم إنك تعلم أنني لم أجيء إلى مريض فأداويه، ولا إلى أسير فأفاديه، اللهم اسق عاداً ما كنت تسقيه، ففرت به سحابات سود، فنودي: منها اختر، فأومأ إلى سحابة منها سوداء، فنودي: منها خذها رماداً رمداً، لا تبقى من عاد أحداً، قال: فما بلغني أنه بعث الله عليهم من الريح إلا قدر ما يجري في خاتمي هذا حتى هلكوا. قال أبو وائل وصدق قال: وكانت المرأة والرجل إذا بعثوا وافتدأ لهم قالوا: لا تكن كوافد عاد^(١).

وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيْنَهُ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ أَلِيمٍ ﴿٧٦﴾ وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سَهولِهَا قُصُورًا وَتَحْتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَادْكُرُوا آيَةَ اللَّهِ وَلَا تَعْتَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتَضَعُّوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٨﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٧٩﴾ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يُصَلِحُ آمِنًا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيمِينَ ﴿٨١﴾

قال علماء التفسير والنسب: ثمود بن عاثر بن إرم بن سام بن نوح، أحياء من العرب العاربة قبل إبراهيم الخليل عليه السلام، وكانت ثمود بعد عاد، ومساكنهم مشهورة بين الحجاز والشام إلى وادي القرى وما حوله، وقد مر رسول الله ﷺ على ديارهم ومساكنهم وهو ذاهب إلى تبوك في سنة تسع، قال الإمام أحمد عن ابن عمر قال: لما نزل رسول الله ﷺ بالناس على تبوك، نزل بهم الحجر عند بيوت ثمود فاستقى الناس من الآبار التي كانت تشرب منها ثمود، فعجنوا منها، ونصبوا لها القدور، فأمرهم النبي ﷺ فأهراقوا القدور، وعلفوا العجين الإبل، ثم ارتحل بهم حتى نزل بهم على البئر التي كانت تشرب منها الناقة، ونهاهم أن يدخلوا على القوم الذين عذبوا، وقال: «إني أخشى أن يصيبكم مثل ما أصابهم فلا تدخلوا عليهم». وقال أحمد أيضاً عن عبد الله بن عمر قال، قال رسول الله ﷺ وهو بالحجر: «لا تدخلوا على هؤلاء المعذنين إلا أن تكونوا باكين، فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم أن يصيبكم مثل ما أصابهم»^(٢). قوله تعالى: ﴿وإلى ثمود﴾ أي ولقد أرسلنا إلى قبيلة ثمود أخاهم صالحاً ﴿قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره﴾، فجميع الرسل يدعون إلى عبادة الله وحده لا شريك

(١) رواه الترمذي والنسائي وابن ماجه وأخرجه ابن جرير . (٢) أصل هذا الحديث مخرج في الصحيحين .

له، كما قال تعالى: ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون﴾، وقوله: ﴿قد جاءكم بينة من ربكم هذه ناقة الله لكم آية﴾، أي قد جاءكم حجة من الله على صدق ما جئتمكم به، وكانوا هم الذين سألوها صالحاً أن يأتيهم بآية، واقترحوا عليه بأن يخرج لهم من صخرة صماء عينوها بأنفسهم، وهي صخرة منفردة في ناحية الحجر يقال لها الكاتبة، فطلبوا منه أن يخرج لهم منها ناقة عشراء تمخض، فأخذ عليهم صالح العهود والمواثيق، لئن أجابهم الله إلى طلبهم ليؤمنن به وليتبعنه، فلما أعطوه على ذلك عهودهم ومواثيقهم، قام صالح عليه السلام إلى صلاته ودعا الله عزَّ وجلَّ، فتحرَّكت تلك الصخرة، ثم انصدعت عن ناقة جوفاء وبراء، يتحرك جنينها بين جنينها، كما سألوها، فعند ذلك آمن رئيسهم (جندع بن عمرو) ومن كان معه على أمره، وأقامت الناقة وفصيلها بعدما وضعت بين أظهرهم مدة تشرب من بثرها يوماً، وتدعه لهم يوماً، وكانوا يشربون لبنها يوم شربها، يحتلبونها، فيملأون ما شاءوا من أوعيتهم وأوانيتهم، كما قال في الآية الأخرى: ﴿ونبئهم أن الماء قسمة بينهم كل شرب محتضر﴾، وقال تعالى: ﴿هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم﴾، وكانت تسرح في بعض تلك الأودية ترد من فج وتصدر من غيره ليسعها لأنها كانت تتضلع من الماء، وكانت على ما ذكر خلقاً هائلاً ومنظراً رائعاً، إذا مرت بأنعامهم نفرت منها، فلما طال عليهم ذلك واشتد تكذيبهم لصالح النبي عليه السلام عزموا على قتلها ليستأثروا بالماء كل يوم، فيقال: إنهم اتفقوا كلهم على قتلها، قال قتادة: بلغني أن الذي قتلها طاف عليهم كلهم أنهم راضون بقتلها، حتى على النساء في خدورهن وعلى الصبيان، قلت: وهذا هو الظاهر لقوله تعالى: ﴿فكذبوه فعقروها فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها﴾، وقال: ﴿وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها﴾، وقال: ﴿فعقروا الناقة﴾، فأسند ذلك على مجموع القبيلة، فدل على رضی جميعهم بذلك، والله أعلم.

وذكر ابن جرير وغيره من علماء التفسير: أن سبب قتلها أن امرأة منهم يقال لها (عنيزة) وتكنى أم عثمان، كانت عجوزاً كافرة، وكانت من أشد الناس عداوة لصالح عليه السلام، وكانت لها بنات حسان ومال جزيل، وكان زوجها (ذؤاب بن عمرو) أحد رؤساء ثمود، وامرأة أخرى يقال لها (صدقة) ذات حسب ومال وجمال، وكانت تحت رجل مسلم من ثمود فقارته، فكانتا تجمعلان جعلاً لمن التزم لهما بقتل الناقة فدعت صدقة رجلاً يقال له: الحباب، فعرضت عليه نفسها إن هو عقر الناقة، فأبى عليها، فدعت ابن عم لها يقال له: (مصدع بن الحيا) فأجابها إلى ذلك، ودعت عنيزة بنت غنم (قدار بن سالف) وكان رجلاً أحمر أزرق قصيراً يزعمون أنه كان ولد زانية، وقالت له: أعطيك أي بناتي شئت على أن تعقر الناقة، فعند ذلك انطلق (قدار بن سالف) و (مصدع بن الحيا) فاستغويا غواة من ثمود، فاتبعهما سبعة نفر، فصاروا تسعة رهط، وهم الذين قال فيهم الله تعالى: ﴿وكان في المدينة تسعة رهط يفسدون في الأرض ولا يصلحون﴾ وكانوا رؤساء في قومهم، فاستمالوا القبيلة الكافرة بكاملها، فظاوعتهم على ذلك، فانطلقوا فرصدوا الناقة حين صدرت عن الماء وقد كمن لها (قدار بن سالف) في أصل صخرة على طريقها، وكمن لها مصدع في أصل أخرى، فرت على مصدع فرماها بسهم فانتظم به عضلة ساقها، وخرجت بنت غنم عنيزة، وأمرت ابنتها - وكانت من أحسن الناس وجهاً - فسفرت عن وجهها لقدار وزمرته، وشد عليها قدار بالسيف فكشف عن عرقوبها، فخرت ساقطة إلى الأرض، ورغت رغاء واحدة تحذر سقبا، ثم طعن في لبتا فنحرها، وانطلق سقبا وهو فصيلها حتى أتى جبلاً منيعاً، فصعد أعلى صخرة فيه ورغا.

فلما فعلوا ذلك وفرغوا من عقر الناقة وبلغ الخبر صالحاً عليه السلام جاءهم وهم مجتمعون، فلما رأى الناقة بكى وقال: ﴿تمتعوا في داركم ثلاثة أيام﴾ الآية، وكان قتلهم الناقة يوم الأربعاء، فلما أمسى أولئك التسعة الرهط عزموا على قتل صالح، وقالوا: إن كان صادقاً عجلناه قبلنا، وإن كان كاذباً ألحقناه بناقته ﴿قالوا تقاسموا بالله لنبيته وأهله ثم لنقولن لوليه ما شهدنا مهلك أهله وإنا لصادقون﴾، فلما عزموا على ذلك وتواطأوا عليه وجاؤوا من الليل ليفتكوا بنبي الله، فأرسل الله سبحانه وتعالى - وله العزة ولرسوله - عليهم حجارة فرضختهم سلفاً وتعجيباً قبل قومهم، وأصبح ثمود يوم الخميس - وهو اليوم الأول من أيام النظرة - ووجوههم مصفرة، كما وعدهم صالح عليه السلام، وأصبحوا في اليوم الثاني من أيام التأجيل - وهو يوم الجمعة - ووجوههم محمرة، وأصبحوا في اليوم الثالث من أيام المتاع - وهو يوم السبت - ووجوههم مسودة، فلما أصبحوا من يوم الأحد، وقد تخنطوا وقعدوا ينتظرون نقمة الله وعذابه - عياداً بالله من ذلك - لا يدرون ماذا يفعل بهم، ولا كيف يأتيهم العذاب، وأشرقت الشمس، جاءتهم صيحة من السماء ورجفة شديدة من أسفل منهم، ففاضت الأرواح وزهقت النفوس في ساعة واحدة. ﴿فأصبحوا في دارهم جاثمين﴾ أي صرعى لا أرواح فيهم، ولم يفلت منهم أحد لا صغير ولا كبير، لا ذكر ولا أنثى، ولم يبق من ذرية ثمود أحد سوى صالح عليه السلام ومن تبعه رضي الله عنهم، إلا أن رجلاً يقال له (أبو رغال) كان لما وقعت النعمة بقومه مقبياً إذ ذاك في الحرم فلم يصبه شيء، فلما خرج في بعض الأيام إلى الحل جاءه حجر من السماء فقتله .

فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَاقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ ﴿٧٩﴾

هذا تقرير من صالح عليه السلام لقومه لما أهلكهم الله بمخالفتهم إياه وتمردهم على الله، وإبائهم عن قبول الحق، وإعراضهم عن الهدى إلى العمى، قال لهم صالح ذلك بعد هلاكهم تقريراً وتوبيخاً وهم يسمعون ذلك، كما ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ وقف على القلب - قلب بدر - فجعل يقول: «يا أبا جهل بن هشام، يا عتبة بن ربيعة، يا شيبه ابن ربيعة، ويا فلان بن فلان، هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً؟ فإني وجدت ما وعدني ربي حقاً» فقال له عمر: يا رسول الله ما تكلم من أقوام قد جيفوا! فقال: «والذي نفسي بيده ما أتم بأسمع لما أقول منهم، ولكن لا يجيبون»^(١). وهكذا قال صالح عليه السلام لقومه: ﴿لقد أبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم﴾ أي فلم تنتفعوا بذلك لأنكم لا تحبون الحق ولا تتبعون ناصحاً، ولهذا قال: ﴿ولكن لا تحبون الناصحين﴾، وقد ذكر بعض المفسرين أن كل نبي هلكت أمته كان يذهب فيقيم في الحرم - حرم مكة - والله أعلم. وقد قال الإمام أحمد عن ابن عباس قال: لما مر رسول الله ﷺ بوادي عسفان حين حج قال: «يا أبا بكر أي واد هذا؟» قال هذا وادي عسفان. قال: «لقد مر به هود وصالح عليهما السلام على بكرات خطمهن الليف، أزرهن العباء، وأرديتهن النار، يلبون يحجون البيت العتيق»^(٢).

(١) وفي السيرة أنه ﷺ قال لهم: «بئس عشيرة القوم كنتم لبيكم، كذبتموني وصدقني الناس، وأخرجتموني وآواني الناس، وقاتلتموني ونصرني الناس، فبئس عشيرة القوم كنتم لبيكم» .

(٢) أخرجه الإمام أحمد، قال ابن كثير: هذا حديث غريب من هذا الوجه .

وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾

يقول تعالى (و) لقد أرسلنا ﴿لوطاً﴾ أو تقديره (و) اذكر ﴿لوطاً إذ قال لقومه﴾، ولوط هو ابن هاران ابن آزر، وهو ابن أخي إبراهيم الخليل عليهما السلام، وكان قد آمن مع إبراهيم عليه السلام وهاجر معه إلى أرض الشام فبعثه الله إلى أهل سدوم، وما حولها من القرى، يدعوهم إلى الله عز وجل ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عما كانوا يرتكبونه من المآثم والمحارم والفواحش التي اخترعوها لم يسبقهم بها أحد من بني آدم ولا غيرهم، وهو إتيان الذكور دون الإناث، وهذا شيء لم يكن بنو آدم تعهده ولا تألفه، ولا يخطر ببالهم، حتى صنع ذلك أهل سدوم عليهم لعائن الله. قال عمرو بن دينار في قوله ﴿ما سبقكم بها من أحد من العالمين﴾ قال: ما نزا ذكر على ذكر حتى كان يوم لوط؛ وقال الوليد بن عبد الملك: لولا أن الله عز وجل قص علينا خبر قوم لوط، ما ظننت أن ذكراً يعلو ذكراً، ولهذا قال لهم لوط عليه السلام: ﴿أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين﴾ إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء ﴿أي عدلتم عن النساء وما خلق لكم ربكم منهن إلى الرجال، وهذا إسراف منكم وجهل، لأنه وضع الشيء في غير محله، ولهذا قال لهم في الآية الأخرى: ﴿هؤلاء بناتي إن كنتم فاعلين﴾ فأرشدهم إلى نسائهم فاعتذروا إليه بأنهم لا يشتهونهن، ﴿قالوا لقد علمت ما لنا في بناتك من حق وإنك لتعلم ما نريد﴾ أي لقد علمت أنه لا أرب لنا في النساء ولا إرادة وإنك لتعلم مرادنا من أضيافك، وذكر المفسرون أن الرجال كانوا قد استغنى بعضهم ببعض، وكذلك نساؤهم كن قد استغين بعضهن ببعض أيضاً.

* وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾

أي ما أجابوا لوطاً إلا أن هموا بإخراجه ونفيه ومن معه من بين أظهرهم، فأخرجه الله تعالى سالماً وأهلكهم في أرضهم صاغرين مهانين، وقوله تعالى: ﴿إنهم أناس يتطهرون﴾، قال قتادة: عابوهم بغير عيب. وقال مجاهد: إنهم أناس يتطهرون من أدبار الرجال وأدبار النساء، وروى مثله عن ابن عباس أيضاً.

* فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ

الْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾

يقول تعالى: فأنجينا لوطاً وأهله ولم يؤمن به أحد منهم سوى أهل بيته فقط، كما قال تعالى: ﴿فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين﴾ فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين ﴿إلا امرأته فإنها لم تؤمن به، بل كانت على دين قومها تماثلهم عليه، وتعلمهم بمن يقدم عليه من ضيفانه بإشارات بينها وبينهم، ولهذا لما أمر لوط عليه السلام ليسري بأهله أمر أن لا يعلمها ولا يخرجها من البلد، ومنهم من يقول بل اتبعتم، فلما جاء العذاب التفتت هي، فأصابها ما أصابهم، والأظهر أنها لم تخرج من البلد ولا أعلمها لوط بل بقيت معهم، ولهذا قال ههنا: ﴿إلا امرأته كانت

من الغابرين ﴿ أي الباقين، وقيل من الهالكين وهو تفسير باللازم، وقوله: ﴿ وأمطرنا عليهم مطراً ﴾ مفسر بقوله، ﴿ وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود مسومة عند ربك وما هي من الظالمين ببعيد ﴾، ولهذا قال: ﴿ فانظر كيف كان عاقبة المجرمين ﴾ أي انظر يا محمد كيف كان عاقبة من يجترىء على معاصي الله عز وجل ويكذب رسله، وقد ذهب الإمام أبو حنيفة رحمه الله إلى أن اللاتط يلقي من شاهق ويتبع بالحجارة كما فعل بقوم لوط، وذهب آخرون من العلماء إلى أنه يرجم سواء كان محصناً أو غير محصن، وهو أحد قولي الشافعي رحمه الله. والحجة ما رواه الإمام أحمد عن ابن عباس قال، قال رسول الله ﷺ: « من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به »^(١). وقال آخرون: هو كالزاني فإن كان محصناً رجم، وإن لم يكن محصناً جلد مائة جلدة، وهو القول الآخر للشافعي، وأما إتيان النساء في الأدبار فهو اللوطية الصغرى، وهو حرام بإجماع العلماء إلا قولاً شاذاً لبعض السلف .

وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۗ قَدْ جَاءَ تَكْمِيمًا مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخُسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾

مدین تطلق على القبيلة وعلى المدينة، وهي التي بقرب (معان) من طريق الحجاز^(٢)، قال الله تعالى: ﴿ ولما ورد ماء مدین وجد علیه أمة من الناس يسقون ﴾ وهم أصحاب الأيكة كما سنذكره إن شاء الله وبه الثقة، ﴿ قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره ﴾ هذه دعوة الرسل كلهم، ﴿ قد جاءكم بينة من ربكم ﴾، أي قد أقام الله الحجج والبيّنات على صدق ما جئتكم به، ثم وعظهم في معاملتهم الناس بأن يوفوا المكيال والميزان ولا يبخسوا الناس أشياءهم، أي لا يخونوا الناس في أموالهم ويأخذوها على وجه البخس، وهو نقص المكيال والميزان خفية وتدليساً، كما قال تعالى: ﴿ ويل للمطففين - إلى قوله - لرب العالمين ﴾ وهذا تهديد شديد ووعد أكيد، نسأل الله العافية منه، ثم قال تعالى إخباراً عن شعيب الذي يقال له (خطيب الأنبياء) لفصاحة عبارته وجزالة موعظته .

وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَن ءَامَنَ بِهِ ۗ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۗ وَأَذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكُنتُمْ كَثِيرًا ۗ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا بِأَلَدِي أُرْسِلْتُ بِهِ ۗ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا ۗ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٧﴾

ينهاهم شعيب عليه السلام عن قطع الطريق الحسي والمعنوي بقوله: ﴿ ولا تفعدوا بكل صراط توعدون ﴾ أي

(١) ورواه أبو داود والترمذي وابن ماجه .

(٢) معان هي الآن بلدة شهيرة في شرق الأردن .

تتوعدون الناس بالقتل إن لم يعطوكم أموالهم. قال السدي: كانوا عشارين، وعن ابن عباس ومجاهد ﴿ولا تقبلوا بكل صراط تتوعدون﴾: أي تتوعدون المؤمنين الآتين إلى شعيب ليتبعوه، والأول أظهر، لأنه قال: ﴿بكل صراط﴾ وهو الطريق، وهذا الثاني هو قوله: ﴿وتصدون عن سبيل الله من آمن به وتبغونها عوجاً﴾ أي وتودون أن تكون سبيل الله عوجاً مائلة، ﴿واذكروا إذ كنتم قليلاً فكثركم﴾ أي كنتم مستضعفين لقتلكم فصرتم أعزة لكثرة عددكم، فاذكروا نعمة الله عليكم في ذلك، ﴿وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين﴾ أي من الأمم الخالية والقرون الماضية وما حل بهم من العذاب والنكال باجترائهم على معاصي الله وتكذيب رسله، وقوله: ﴿وإن كان طائفة منكم آمنوا بالذي أرسلت به وطائفة لم يؤمنوا﴾ أي قد اختلفتم علي ﴿فاصبروا﴾ أي انتظروا ﴿حتى يحكم الله بيننا﴾ وبينكم أي يفصل ﴿وهو خير الحاكمين﴾، فإنه سيجعل العاقبة للمتقين، والدمار على الكافرين.

* قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعِيبُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُدُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدْ أَفْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّيْنَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴿٨٩﴾

هذا خبر من الله تعالى عما واجهت به الكفار نبيه شعيباً ومن معه من المؤمنين، وتوعدهم إياه ومن معه بالنفي عن القرية أو الإكراه على الرجوع في ملتهم والدخول معهم فيما هم فيه، وهذا خطاب مع الرسول؛ والمراد أتباعه الذين كانوا معه على الملة، وقوله: ﴿أولو كنا كارهين﴾؟ يقول: أو أتم فاعلون ذلك ولو كنا كارهين ما تدعونا إليه، فإننا إن رجعنا إلى ملتكم ودخلنا معكم فيما أتم فيه فقد أعظمنا القرية على الله، في جعل الشركاء معه أنداداً، وهذا تنفير منه على اتباعهم ﴿وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا﴾، وهذا رد إلى الله مستقيم فإنه يعلم كل شيء وقد أحاط بكل شيء علماً، ﴿على الله توكلنا﴾ أي في أمورنا ما نأتي منها وما نذر، ﴿ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق﴾، أي احكم بيننا وبين قومنا وانصرنا عليهم، ﴿وأنت خير الفاتحين﴾ أي خير الحاكمين، فإنك العادل الذي لا يجور أبداً.

وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذْتَهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جٰثِمِينَ ﴿٩١﴾ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا لَرَّ يَغْنَوْنَ فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾

يخبر تعالى عن شدة كفرهم وتمردهم وعتوهم وما هم فيه من الضلال، وما جبلت عليه قلوبهم من المخالفة للحق، ولهذا أقسموا وقالوا: ﴿لئن اتبعتم شعيباً إنكم إذا لخاسرون﴾، فلهذا عقبه بقوله: ﴿فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين﴾، أخبر تعالى هنا أنهم أخذتهم الرجفة، وذلك كما أرجفوا شعيباً وأصحابه وتوعدوهم بالجلاء

كما أخبر عنهم في سورة هود، فقال: ﴿ولما جاء أمرنا نجينا شعيباً والذين آمنوا معه برحمة منا وأخذت الذين ظلموا الصبحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين﴾، والمناسبة هناك - والله أعلم - أنهم لما تهكموا به في قولهم ﴿أصلاتك تأمرك﴾؟ الآية، فجاءت الصبحة فأسكتهم، وقال تعالى إخباراً عنهم في سورة الشعراء ﴿فكذبوه فأخذهم عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم﴾، وما ذاك إلا لأنهم قالوا له في سياق القصة: ﴿فأسقط علينا كسفاً من السماء﴾ الآية، فأخبر أنه أصابهم عذاب يوم الظلة، وقد اجتمع عليهم ذلك كله أصابهم عذاب يوم الظلة، وهي سحابة أظلمت، فيها شرر من نار ولهب ووهج عظيم، ثم جاءتهم صيحة من السماء ورجفة من الأرض شديدة من أسفل منهم، فزهقت الأرواح، وفاضت النفوس، وخمدت الأجسام ﴿فأصبحوا في ديارهم جاثمين﴾. ثم قال تعالى: ﴿كأن لم يغنوا فيها﴾ أي كأنهم لما أصابتهم النعمة لم يقيموا بديارهم التي أرادوا إجلاء الرسول وصحبه منها. ثم قال تعالى مقابلاً لقيلمهم: ﴿الذين كذبوا شعيباً كانوا هم الخاسرين﴾.

فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالِيتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَأْتُمْ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٩٤﴾

أي فتولى عنهم شعيب عليه السلام بعدما أصابهم ما أصابهم من العذاب والنعمة والنعكاس، وقال مفرعاً لهم وموبخاً: ﴿يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم﴾ أي قد أدبت إليكم ما أرسلت به، فلا آسف عليكم وقد كفرتم بما جئتكم به، فلماذا قال: ﴿فكيف آسى على قوم كافرين﴾...؟

وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ ﴿٩٥﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٦﴾

يقول تعالى مخبراً عما اختبر به الأمم الماضية الذين أرسل إليهم الأنبياء بالبأساء والضراء. يعني ﴿بالبأساء﴾ ما يصيبهم في أبدانهم من أمراض وأسقام، ﴿والضراء﴾ ما يصيبهم من فقر وحاجة ونحو ذلك ﴿لعلهم يضرعون﴾ أي يدعون ويخشعون ويبتهلون إلى الله تعالى في كشف ما نزل بهم، وتقدير الكلام: أنه ابتلاهم بالشدة ليتضرعوا فما فعلوا شيئاً من الذي أراد منهم، فقلب عليهم الحال إلى الرخاء ليختبرهم فيه، ولهذا قال: ﴿ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة﴾ أي حولنا الحال من شدة إلى رخاء، ومن مرض وسقم إلى صحة وعافية، ومن فقر إلى غنى، ليشكروا على ذلك فما فعلوا، وقوله: ﴿حتى عفوا﴾ أي كثروا وكثرت أموالهم وأولادهم، يقال: عفا الشيء إذا كثر. ﴿وقالوا قد مس آباءنا الضراء والسراء فأخذناهم بغتة وهم لا يشعرون﴾. يقول: تعالى ابتليناهم بهذا وهذا ليتضرعوا وينبئوا إلى الله فما نجح فيهم لا هذا ولا هذا، ولا انتهوا بهذا ولا بهذا، وقالوا: قد مسنا من البأساء والضراء ثم بعده من الرخاء مثل ما أصاب آباءنا في قديم الزمان والدهر، وإنما هو الدهر تارات وتارات، بل لم يتفطنوا لأمر الله فيهم ولا استشعروا ابتلاء الله لهم في الحالين، وهذا بخلاف حال المؤمنين الذين يشكرون الله على السراء ويصبرون على الضراء كما ثبت في الصحيحين: «عجباً للمؤمن لا يقضي الله له قضاء إلا كان خيراً له، إن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له، وإن أصابته سراء شكر فكان خيراً له» فالمؤمن من يتفطن لما ابتلاه الله به من الضراء والسراء،

ولهذا جاء في الحديث: « لا يزال البلاء بالمؤمن حتى يخرج نقياً من ذنوبه^(١)، والمنافق مثله كمثل الحمار لا يدري فم ربطه أهله ولا فيم أرسلوه»، أو كما قال، ولهذا عقب هذه الصفة بقوله: ﴿ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ أي أخذناهم بالعقوبة بغتة، أي على بغتة وعدم شعور منهم، أي أخذناهم فجأة كما في الحديث: « موت الفجأة رحمة للمؤمن وأخذة أسف للكافر ».

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٧﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيِّنًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿٩٨﴾ أَوْ آمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٩﴾ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٠٠﴾

يخبر تعالى عن قلة إيمان أهل القرى الذين أرسل فيهم الرسل، كقوله تعالى: ﴿ فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس ﴾ أي ما آمنت قرية بتامها إلا قوم يونس فإنهم آمنوا، وذلك بعدما عاينوا العذاب، كما قال تعالى: ﴿ فآمنوا فتعنناهم إلى حين ﴾. وقال تعالى: ﴿ وما أرسلنا في قرية من نذير ﴾ الآية، وقوله تعالى: ﴿ ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا ﴾ أي آمنت قلوبهم بما جاء به الرسل، وصدقت به واتبعوه، واتقوا بفعل الطاعات وترك المحرمات ﴿ لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ﴾، أي قطر السماء ونبات الأرض، وقال تعالى: ﴿ ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون ﴾ أي ولكن كذبوا رسلهم فعاقبناهم بالهلاك على ما كسبوا من المآثم والمحارم، ثم قال تعالى مخوفاً ومحذراً من مخالفة أوامره والتجرؤ على زواجه ﴿ أفأمن أهل القرى ﴾ أي الكافرة، ﴿ أن يأتيهم بأسنا ﴾ أي عذابنا ونكالنا، ﴿ بيئاتاً ﴾ أي ليلاً ﴿ وهم نائمون ﴾ أو آمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون ﴿ أي في حال شغلهم وغفلتهم ﴾، ﴿ أفأمنوا مكر الله ﴾ أي بأسه ونقمته وقدرته عليهم، وأخذهم إياهم في حال سهوهم وغفلتهم، ﴿ فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون ﴾، ولهذا قال الحسن البصري رحمه الله: المؤمن يعمل بالطاعات وهو مشفق وجل خائف، والفاجر يعمل بالمعاصي وهو آمن.

أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرْتُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّو نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠١﴾

قال ابن عباس المعنى: أولم يتبين لهم أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم، وقال ابن جرير في تفسيرها: أو لم يتبين للذين يستخلفون في الأرض من بعد إهلاك آخرين قبلهم كانوا أهلها فساروا سيرتهم، وعملوا أعمالهم، وعتوا على ربهم ﴿ أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم ﴾ يقول: أن لو نشاء فعلنا بهم كما فعلنا بمن قبلهم، ﴿ ونطبع على قلوبهم ﴾ يقول: ونختم على قلوبهم، ﴿ فهم لا يسمعون ﴾ موعظة ولا تذكيراً. وهكذا قال تعالى: ﴿ أفلم يهد لهم كم أهلكنا ﴾

(١) في رواية الترمذي: « حتى يلقى الله تعالى وما عليه خطيئة ».

قبلهم من القرون يمشون في مساكنهم ﴿١٠١﴾، وقال: ﴿أولم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال﴾، وقال تعالى: ﴿وكم أهلكتنا قبلهم من قرن هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزاً﴾ أي هل ترى لهم شخصاً أو تسمع لهم صوتاً؟ وقال تعالى: ﴿ولقد كذب الذين من قبلهم فكيف كان نكير﴾؟ وقال تعالى: ﴿فكأين من قرية أهلكتناها وهي ظالمة فهي خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد﴾ إلى غير ذلك من الآيات الدالة على حلول نقمه بأعدائه، وحصول نعمه لأولياته، ولهذا عقب ذلك بقوله وهو أصدق القائلين .

* تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِهَا ۗ وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ ۚ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ﴿١٠٢﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ ﴿١٠٣﴾

لما قص تعالى على نبيه ﷺ خبر قوم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب وما كان من إهلاكه الكافرين وإنجائه المؤمنين وأنه تعالى أعذر إليهم بأن بين لهم الحق بالحجج على السنة الرسل صلوات الله عليهم أجمعين، قال تعالى: ﴿تلك القرى نقص عليك﴾ أي يا محمد ﴿من أنبائها﴾ أي من أخبارها، ﴿ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات﴾ أي الحجج على صدقهم فيما أخبروهم به، كما قال تعالى: ﴿وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا﴾، وقال تعالى: ﴿ذلك من أنباء القرى نقصه عليك منها قائم وحصيد﴾، وقوله تعالى: ﴿فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل﴾ الباء سببية أي فما كانوا ليؤمنوا بما جاءتهم به الرسل بسبب تكذيبهم بالحق أول ما ورد عليهم، كقوله: ﴿وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون﴾، ولهذا قال هنا: ﴿كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين وما وجدنا لأكثرهم﴾ أي لأكثر الأمم الماضية ﴿من عهد وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين﴾ أي ولقد وجدنا أكثرهم فاسقين، خارجين عن الطاعة والامتثال. والعهد الذي أخذه هو ما جبلهم عليه وفطرم عليه، وأخذ عليهم في الأصلاب أنه ربه ومليكمهم، فخالفوه وتركوه وراء ظهورهم، وعبدوا مع الله غيره بلا دليل ولا حجة، لا من عقل ولا شرع .

قال تعالى: ﴿واسأل من أرسلنا قبلك من رسلنا أجمعنا من دون الرحمن آلهة يعبدون﴾؟ وقال تعالى: ﴿ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت﴾. إلى غير ذلك من الآيات، وقد قيل في تفسير قوله تعالى: ﴿فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل﴾، عن أبي بن كعب قال: كان في علمه تعالى يوم أقروا له بالميثاق، أي فما كانوا ليؤمنوا لعلم الله منهم ذلك، واختاره ابن جرير، وقال السدي ﴿فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل﴾ قال: ذلك يوم أخذ منهم الميثاق فآمنوا كرهاً. وقال مجاهد في قوله: ﴿فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل﴾، هذا كقوله: ﴿ولو ردوا لعادوا﴾ الآية .

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ۖ فَظَلَمُوا بِهَا ۗ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٤﴾

يقول تعالى: ﴿ثم بعثنا من بعدهم﴾ أي الرسل المتقدم ذكرهم كنوح وهود وصالح ولوط وشعيب صلوات

الله وسلامه عليهم وعلى سائر أنبياء الله أجمعين، ﴿موسى بآياتنا﴾ أي بحجتنا ودلائلنا البينة إلى فرعون - وهو ملك مصر في زمن موسى - ﴿وملئه﴾ أي قومه، ﴿فظلموا بها﴾ أي جحدوا وكفروا بها ظلماً منهم وعناداً، كقوله تعالى: ﴿وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً﴾، ﴿فانظر كيف كان عاقبة المفسدين﴾ أي الذين صلوا عن سبيل الله وكذبوا رسله، أي انظر يا محمد كيف فعلنا بهم وأغرقناهم عن آخرهم بمرأى من موسى وقومه، وهذا أبلغ في النكال بفرعون وقومه، وأشفى لقلوب أولياء الله موسى وقومه من المؤمنين به .

وَقَالَ مُوسَىٰ يٰفِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَيَّ أَن لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَآتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصّٰدِقِيْنَ ﴿١٠٦﴾

يخبر تعالى عن مناظرة موسى لفرعون وإجماعه إياه بالحجة، وإظهاره الآيات البينات بحضرة فرعون وقومه من قبط مصر، فقال تعالى: ﴿وقال موسى يا فرعون إني رسول من رب العالمين﴾ أي أرسلني الذي هو خالق كل شيء وربّه ومليكه ﴿حقيق على أن لا أقول على الله إلا الحق﴾، قال بعضهم: معناه حقيق بأن لا أقول على الله إلا الحق، أي جدير بذلك وحري به، قالوا: والباء وعلى يتعاقبان، يقال: رميت بالقوس وعلى القوس، وقال بعض المفسرين: معناه حريص على أن لا أقول على الله إلا الحق، وقرأ آخرون من أهل المدينة: حقيق عليّ، بمعنى واجب وحق عليّ ذلك، أن لا أخبر عنه إلا بما هو حق وصدق، لما أعلم من جلاله وعظيم شأنه، ﴿قد جئتكم ببينة من ربكم﴾ أي بحجة قاطعة من الله أعطانيها دليلاً على صدقي فيما جئتكم به، ﴿فأرسل معي بني إسرائيل﴾ أي أطلقهم من أسرك وقهرك ودعهم وعبادة ربهم، فإنهم من سلالة نبي كريم (إسرائيل) وهو يعقوب ابن إسحاق بن إبراهيم خليل الرحمن، ﴿قال إن كنت جئت بآية فأت بها إن كنت من الصادقين﴾ أي قال فرعون: لست بمصدقك فيما قلت، ولا بمعطيك فيما طلبت، فإن كانت معك حجة فأظهرها لراها إن كنت صادقاً فيما ادعيت .

فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴿١٠٨﴾

قال ابن عباس: ﴿فألقي عصاه﴾ فتحولت حية عظيمة فاغرة فاها، مسرعة إلى فرعون، فلما رآها فرعون أنها قاصدة إليه اقتحم عن سريره، واستغاث بموسى أن يكفها عنه ففعل، وقال قتادة: تحولت حية عظيمة مثل المدينة، وقال السدي في قوله ﴿فإذا هي ثعبان مبين﴾: الثعبان الذكر من الحيات، فاتحة فاها، ثم توجهت نحو فرعون لتأخذه، فلما رآها دعر منها ووئب وأحدث، وصاح: يا موسى خذها وأنا أؤمن بك، وأرسل معك بني إسرائيل، فأخذها موسى عليه السلام فعادت عصا، وقوله ﴿ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين﴾: أي أخرج يده من درعه بعدما أدخلها فيه، فإذا هي بيضاء تتلألاً من غير برص ولا مرض، كما قال تعالى: ﴿وأدخل

يدك في جيبيك تخرج بيضاء من غير سوء ﴿ الآية. وقال ابن عباس ﴿ من غير سوء ﴾ يعني من غير برص، ثم أعادها إلى كفه، فعادت إلى لونها الأول .

قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَأَإِذَا تَأَمَّرُونَ ﴿١١٦﴾

أي قال الملأ وهم الجمهور والسادة من قوم فرعون موافقين لقول فرعون فيه بعدما رجع إليه روعه واستقر على سرير مملكته، بعد ذلك قال للملأ حوله: ﴿ إن هذا لساحر عليم ﴾ فوافقوه، وقالوا كمثلته، وتشاوروا في أمره كيف يصنعون في أمره، وكيف تكون حيلتهم في إطفاء نوره، وإخماد كلمته وظهور كذبه واقترائه، وتخوفوا أن يستميل الناس بسحره فيما يعتقدون فيكون ذلك سبباً لظهوره عليهم، وإخراجه إياهم من أرضهم، والذي خافوا منه وقعوا فيه كما قال تعالى: ﴿ ونُرِيْ فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون ﴾ فلما تشاوروا في شأنه واثتمروا بما فيه اتفق رأيهم على ما حكاه الله تعالى عنهم في قوله تعالى :

قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿١١٦﴾ يَا تُوكَّ بِكُلِّ سِحْرِ عَلِيمٍ ﴿١١٧﴾

قال ابن عباس: ﴿ أرجه ﴾ أخره: وقال قتادة: احبسه ﴿ وأرسل ﴾ أي ابعث، ﴿ في المدائن ﴾ أي في الأقاليم ومدائن ملكك ﴿ حاشرين ﴾ أي من يحشر لك السحرة من سائر البلاد ويجمعهم، وقد كان السحر في زمانهم غالباً كثيراً ظاهراً، واعتقد من اعتقد منهم، وأوهم منهم أن ما جاء موسى به عليه السلام من قبيل ما تشعبه سحرتهم، فلهذا جمعوا له السحرة ليعارضوه بنظير ما أراهم من البيئات، كما أخبر تعالى عن فرعون حيث قال: ﴿ أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى، فلنأتينك بسحر مثله، فاجعل بيننا وبينك موعداً لا نخلفه نحن ولا أنت مكاناً سوى ﴾ .

وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿١١٧﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٨﴾

يخبر تعالى عما تشارط عليه فرعون والسحرة الذين استدعاهم لمعارضة موسى عليه السلام، إن غلبوا موسى ليثيبهم وليعطينهم عطاء جزيلاً، فوعدهم ومناهم أن يعطيهم ما أرادوا ويجعلهم من جلسائه والمقربين عنده، فلما توثقوا من فرعون لعنه الله .

قَالُوا يَمُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقَى وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ ﴿١١٨﴾ قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ

وَأَسْرَهُبُهُمْ وَجَاءَهُو بِسِحْرِ عَظِيمٍ ﴿١١٩﴾

هذه مبارزة من السحرة لموسى عليه السلام في قولهم: ﴿ إما أن تلقي وإما أن نكون نحن الملقيين ﴾ أي قبلك، كما قال في الآية الأخرى: ﴿ وإما أن نكون أول من ألقى ﴾، فقال لهم موسى عليه السلام: ألقوا أي أتم أولاً، قيل: الحكمة في هذا - والله أعلم - ليرى الناس صنيعهم ويتأملوه، فإذا فرغوا من بهرجهم، جاءهم الحق الواضح

الجلي بعد التطلّب له والانتظار منهم لمجيئه، فيكون أوقع في النفوس، وكذا كان، ولهذا قال تعالى: ﴿ فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم ﴾ أي خيلوا إلى الأبصار أن ما فعلوه له حقيقة في الخارج، ولم يكن إلا مجرد صنعة وخيال، كما قال تعالى: ﴿ فإذا جبالهم وعصيمهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى ﴾. قال ابن عباس: ألقوا حبلاً غلاظاً وخشياً طوالاً قال: فأقبلت يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى، وقال محمد بن إسحاق: ألقى كل رجل منهم ما في يده من الجبال والعصي: فإذا حيات كأمثال الجبال قد ملأت الوادي يركب بعضها بعضاً. وقال السدي: كانوا بضعة وثلاثين ألف رجل، ليس رجل منهم إلا ومعه جبل وعصا، ﴿ فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم ﴾ يقول: فرقوم أي من الفرق، حتى جعل يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى، ولهذا قال تعالى: ﴿ وجاءوا بسحر عظيم ﴾.

* وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ إِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فغلبوا هنالك ۖ وَانْقَلَبُوا صَغِيرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأَلْقَى السَّحْرَةَ سَاجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوا ءَأَمْنَا رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١٢٢﴾

يخبر تعالى أنه أوحى إلى عبده ورسوله موسى عليه السلام في ذلك الموقف العظيم الذي فرق الله تعالى فيه بين الحق والباطل، يأمره بأن يلقي ما في يمينه وهي عصاه ﴿ فإذا هي تلقف ﴾ أي تأكل ﴿ ما يأفكون ﴾ أي ما يلقونه ويوهمون أنه حق وهو باطل، قال ابن عباس: فجعلت لا تمر بشيء من جبالهم ولا من خشبهم إلا التقمته، ففرفت السحرة أن هذا شيء من السماء ليس هذا بسحر، فخرروا سجداً^(١)، وقالوا: ﴿ آمنا رب العالمين رب موسى وهرون ﴾ قال محمد بن إسحاق: جعلت تتبع تلك الجبال والعصي واحدة واحدة حتى ما يرى بالوادي قليل ولا كثير مما ألقوا، ثم أخذها موسى فإذا هي عصا في يده كما كانت، ووقع السحرة سجداً، قالوا: ﴿ آمنا رب العالمين رب موسى وهرون ﴾ لو كان هذا ساحراً ما غلبنا. وقال القاسم بن أبي برة: أوحى الله إليه أن ألق عصاك، فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين فاغر فاه، يبتلع جبالهم وعصيمهم، فألقى السحرة عند ذلك سجداً فما رفعوا رؤوسهم حتى رأوا الجنة والنار وثواب أهلها.

* قَالَ فِرْعَوْنُ ءَأَمِنْتُ بِهِ قَبْلَ أَنْ ءَأْذَنَ لَكَ ۖ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ ۖ ثُمَّ لَأَسْلِبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا نَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ ءَأَمَّنَّا بِرَبِّنَا لَمَّا جَاءَنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَقَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾

(١) قيل: كان رؤسؤهم أربعة، وهم أئمة السحرة، كما ذكره الطبري، والدارقطني، وكان السحرة: سبعين ألفاً، وقيل دون ذلك، ومهما يكن من أمر فقد كان عددهم كبيراً.

يخبر تعالى عما توعد به فرعون لعنه الله السحرة لما آمنوا بموسى عليه السلام، وما أظهره للناس من كيدته ومكره في قوله: ﴿إِن هَذَا لَمَكْرٌ مَّكْرَتُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لَتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا﴾ أي إن غلبته لكم في يومكم هذا إنما كان عن تشاور منكم ورضا منكم لذلك، كقوله في الآية الأخرى: ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرِكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾، وهو يعلم وكل من له لب أن هذا الذي قاله من أبطل الباطل، فإن موسى عليه السلام بمجرد ما جاء من مدين دعا فرعون إلى الله، وأظهر المعجزات الباهرة والحجج القاطعة على صدق ما جاء به، فعند ذلك أرسل فرعون في مدائن ملكه وسلطنته، فجمع سحرة متفرقين من سائر الأقاليم ممن اختار وأحضرهم عنده، ووعدهم بالعباء الجزيل، ولهذا قد كانوا من أحرص الناس على التقدم عند فرعون، وموسى عليه السلام لا يعرف أحداً منهم ولا رآه ولا اجتمع به وفرعون يعلم ذلك، وإنما قال هذا تسترأ وتدليساً على رعا ع دولته وجهلتهم، كما قال تعالى: ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَاطَاعُوهُ﴾ فإن قوماً صدقوه في قوله ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾ من أجهل خلق الله وأضلهم. وقوله: ﴿لَتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا﴾ أي مجتمعوا أتم وهو وتكون لكم دولة وصولاً وتخرجوا منها الأكابر والرؤساء، وتكون الدولة والتصرف لكم ﴿فسوف تعلمون﴾ أي ما أصنع بكم، ثم فسر هذا الوعيد بقوله: ﴿لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ﴾ يعني يقطع يده اليمنى ورجله اليسرى أو بالعكس ﴿ولأصلبكنم أجمعين﴾، وقال في الآية الأخرى: ﴿فِي جَنُوعِ النَّخْلِ﴾ أي على الجنوع، قال ابن عباس: وكان أول من صلب وأول من قطع الأيدي والأرجل من خلاف فرعون، وقول السحرة: ﴿إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مَمْلُوقُونَ﴾ أي قد تحققنا أننا إليه راجعون وعذابه أشد من عذابك، ونكاله على ما تدعوننا إليه اليوم، وما أكرهتنا عليه من السحر أعظم من نكالك، فلنصبرن اليوم على عذابك لنخلص من عذاب الله، ولهذا قالوا: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ أي عمنا بالصبر على دينك والثبات عليه، ﴿وتوفنا مسلمين﴾ أي متابعين لنبيك موسى عليه السلام، وقالوا لفرعون: ﴿فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾، فكانوا في أول النهار سحرة، فصاروا في آخره شهداء بررة، قال ابن عباس: كانوا في أول النهار سحرة وفي آخره شهداء .

وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَنْذَرُنَا مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذُرْكُمُ الْمَتَّكَ وَآهَاتِكُمْ قَالَ سَنُنَقِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَأَصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَلَقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوا أَوْذَيْنَا مِنْ قَبْلُ أَنْ تَأْتِنَا مِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عُدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾

يخبر تعالى عما تملأ عليه فرعون وملؤه وما أضمره لموسى عليه السلام وقومه من الأذى ﴿وقال الملأ من قوم فرعون﴾ أي لفرعون ﴿أتذرننا موسى وقومه﴾ أي أتدعهم ﴿ليفسدوا في الأرض﴾ أي يفسدوا أهل رعبتك ويدعوهم إلى عبادة ربهم دونك، ﴿ويذركم المتتك﴾ الواو هنا حالية أي أتذره وقومه يفسدون في الأرض وقد ترك عبادتك؟ وقيل: هي عاطفة أي أتدعهم يصنعون من الفساد ما قد أقررتهم عليه وعلى ترك آهاتك؟ وقرأ

بعضهم : إلهتك أي عبادتك^(١) . قال الحسن البصري : كان لفرعون إله يعبد في السر ، فأجابهم فرعون فيما سألوه بقوله : «سقتل أبناءهم ونستحيي نساءهم» وهذا أمر ثان بهذا الصنيع ، وقد كان نكل بهم قبل ولادة موسى عليه السلام حذراً من وجوده ، فكان خلاف ما رامه و ضد ما قصده فرعون ، وهكذا عومل في صنيعة أيضاً لما أراد إذلال بني إسرائيل وقهرهم ، فجاء الأمر على خلاف ما أراد ، أعزهم الله وأذله وأرغم أنفه وأغرقه وجنوده ، ولما صمم فرعون على ما ذكره من المساءة لبني إسرائيل ﴿ قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا ﴾ ، ووعدهم بالعاقبة وأن الدار ستصير لهم في قوله : ﴿ إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين ﴾ قالوا أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا ﴿ أي فعلوا بنا مثل ما رأيت من الهوان والإذلال من قبل ما جئت يا موسى ومن بعد ذلك ، فقال منبهاً لهم على حالهم الحاضر وما يصيرون إليه : ﴿ عسى ربكم أن يهلك عدوكم ﴾ الآية . وهذا تحضيض لهم على العزم على الشكر عند حلول النعم وزوال النقم .

* وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقَصْنَا مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِيبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ ۗ أَلَا إِنَّمَا طَّيَّرْتَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾

يقول تعالى : ﴿ ولقد أخذنا آل فرعون ﴾ أي اختبرناهم وامتحانهم وابتليناهم ﴿ بالسنين ﴾ وهي سنين الجوع بسبب قلة الزروع ، ﴿ ونقصنا من الثمرات ﴾ ، قال رجاء بن حيوة : كانت النخلة لا تحمل إلا ثمرة واحدة ، ﴿ لعلمهم يذكرون ﴾ فإذا جاءتهم الحسنة ﴿ أي من الخصب والرزق ﴾ قالوا لنا هذه ﴿ أي هذا لنا بما نستحقه ﴾ وإن تصيبهم سيئة ﴿ أي جذب وقحط ﴾ يطَّيَّروا بموسى ومن معه ﴿ أي هذا بسببهم وما جاؤوا به ﴾ ألا إنما طائرهم عند الله ، قال ابن عباس : مصائبهم عند الله ، ﴿ ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾ وعنه ﴿ ألا إنما طائرهم عند الله ﴾ أي من قبل الله .

* وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِنَسْحَرَنَّ بِهَا فَسَاحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْذَّمَءَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى آدَعْ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُتُونَ ﴿١٣٥﴾

هذا إخبار من الله عز وجل عن تمرد قوم فرعون وعتوهم ، وعنادهم للحق وإصرارهم على الباطل في قولهم :

(١) روي ذلك عن ابن عباس ومجاهد وغيرهما .

﴿ مهمما تأتتا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين ﴾، يقولون: أي آية جئتنا بها ودلالة وحجة أقمتها، رددناها فلا نقبلها منك ولا نؤمن بك ولا بما جئت به، قال الله تعالى: ﴿ فأرسلنا عليهم الطوفان ﴾ اختلفوا في معناه، فعن ابن عباس: كثرة الأمطار المغرقة المتلفة للزروع والثمار^(١)، وعنه: هو كثرة الموت، وقال مجاهد: ﴿ الطوفان ﴾ الماء والطاعون، وأما الجراد فعروف مشهور، وهو مأكول لما ثبت في الصحيحين عن عبد الله بن أبي أوفى: غزونا مع رسول الله ﷺ سبع غزوات نأكل الجراد، وروى الشافعي وأحمد وابن ماجه عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: « أحلت لنا ميتتان ودمان: الحوت والجراد والكبد والطحال ». وقال مجاهد في قوله تعالى: ﴿ فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد ﴾ قال: كانت تأكل مسامير أبوابهم وتدع الخشب. وروى الحافظ أبو الفرج الحريري قال: سئل شريح القاضي عن الجراد؟ فقال: قبح الله الجرادة فيها خلقة سبعة جبابرة رأسها رأس فرس، وعنقها عنق ثور، وصدرها صدر أسد، وجناحها جناح نسر، ورجلاها رجل جمل، وذنبها ذنب حية، وبطنها بطن عقرب. وروى ابن ماجه عن أنس وجابر عن رسول الله ﷺ أنه كان إذا دعا على الجراد قال: « اللهم أهلك كباره، واقتل صغاره، وأفسد بيضه، واقطع دابره، وخذ بأفواهه عن معاشنا وأرزقنا إنك سميع الدعاء » فقال له جابر: يا رسول الله أتدعو على جند من أجناد الله بقطع دابره؟ فقال: « إنما هو نثرة حوت في البحر »^(٢). قال هشام: أخبرني زياد أنه أخبره من رآه ينثره الحوت. قال من حقق ذلك: إن السمك إذا باض في ساحل البحر فنضب الماء عنه وبدا للشمس أنه يفقس كله جراداً طياراً. وأما القمل فعن ابن عباس: هو السوس الذي يخرج من الحنطة، وعن الحسن: القمل دواب سود صغار، وقال ابن أسلم: القمل البراغيث، وقال ابن جرير: القمل جمع واحدها قملة وهي دابة تشبه القمل تأكل الإبل فيما بلغني .

وعن سعيد بن جبيرة قال: لما أتى موسى عليه السلام فرعون قال له: أرسل معي بني إسرائيل، فأرسل الله عليهم الطوفان وهو المطر، فصب عليهم منه شيئاً خافوا أن يكون عذاباً، فقالوا لموسى: ادع لنا ربك يكشف عنا المطر فتؤمن لك ونرسل معك بني إسرائيل، فدعا ربه فلم يؤمنوا ولم يرسلوا معه بني إسرائيل، فأثبت لهم في تلك السنة شيئاً لم ينبته قبل ذلك من الزروع والثمار والكلأ، فقالوا: هذا ما كنا نتمنى، فأرسل الله عليهم الجراد فسلبه على الكلأ، فلما رأوا أثره في الكلأ عرفوا أنه لا يبيي الزرع، فقالوا: يا موسى ادع لنا ربك فيكشف عنا الجراد فتؤمن لك ونرسل معك بني إسرائيل، فدعا ربه فكشف عنهم الجراد، فلم يؤمنوا ولم يرسلوا معه بني إسرائيل، فداسوا وأحرزوا في البيوت فقالوا قد أحرزنا، فأرسل الله عليهم القمل وهو (السوس) الذي يخرج منه، فكان الرجل يخرج عشرة أجرية إلى الرحي فلا يرد منها إلا ثلاثة أقفزة، فقالوا: يا موسى ادع لنا ربك يكشف عنا القمل فتؤمن لك ونرسل معك بني إسرائيل، فدعا ربه فكشف عنهم فأبوا أن يرسلوا معه بني إسرائيل، فبينما هو جالس عند فرعون إذ سمع نقيق ضفدع، فقال لفرعون: ما تلقى أنت وقومك من هذا؟ فقال: وما عسى أن يكون كيد هذا؟ فما أمسوا حتى كان الرجل يجلس إلى ذقنه في الضفدع، ويهم أن يتكلم فينبش الضفدع في فيه، فقالوا لموسى: ادع لنا ربك يكشف عنا هذه الضفادع فتؤمن لك ونرسل معك بني إسرائيل، فدعا ربه فكشف عنهم فلم يؤمنوا،

(٢) أخرجه ابن ماجه في سننه .

(١) وبه قال الضحاك بن مزاحم وهو الأظهر .

وأرسل الله عليهم الدم فكانوا ما استقوا من الأنهار والآبار وما كان في أوعيتهم وجدوه دمًا عبيطًا، فشكوا إلى فرعون فقالوا: إنا قد ابتلينا بالدم وليس لنا شراب، فقال: إنه قد سحرتم، فقالوا: من أين سحرنا ونحن لا نجد في أوعيتنا شيئاً من الماء إلا وجدناه دمًا عبيطاً؟ فأتوه وقالوا: يا موسى ادع لنا ربك يكشف عنا هذا الدم فتؤمن لك ونرسل معك بني إسرائيل، فدعا ربه فكشف عنهم فلم يؤمنوا ولم يرسلوا معه بني إسرائيل^(١).

وقال محمد بن إسحاق بن يسار رحمه الله: فرجع عدو الله فرعون حين آمنت السحرة مغلوباً مغلولاً، ثم أبى إلا الإقامة على الكفر والتادي في الشر، فتابع الله عليه الآيات، فأخذة بالسنين وأرسل عليه الطوفان، ثم الجراد ثم القمل، ثم الضفادع، ثم الدم، آيات مفصلات، فأرسل الطوفان وهو الماء ففاض على وجه الأرض، ثم ركذ لا يقدر على أن يحرثوا ولا أن يعملوا شيئاً حتى جهدوا جوعاً، فلما بلغهم ذلك ﴿قالوا يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلن معك بني إسرائيل﴾ فدعا موسى ربه فكشف عنهم، فلم يفوا له بشيء مما قالوا، فأرسل الله عليهم الجراد فأكل الشجر فيما بلغني، حتى إن كان لياً كل مسامير الأبواب من الحديد حتى تقع دورهم ومساكنهم، فقالوا مثل ما قالوا، فدعا ربه فكشف عنهم فلم يفوا له بشيء مما قالوا، فأرسل الله عليهم القمل، فذكر لي أن موسى عليه السلام أمر أن يمشي إلى كتيب حتى يضربه بعصاه، فمشى إلى كتيب أهيل عظيم فضربه بها فانثال عليهم قملاً، حتى غلب على البيوت والأطعمة ومنعهم النوم والقرار، فلما جهدهم قالوا مثل ما قالوا له، فدعا ربه فكشف عنهم فلم يفوا له بشيء مما قالوا، فأرسل الله عليهم الضفادع فملأت البيوت والأطعمة والآنية، فلا يكشف أحد ثوباً ولا طعاماً إلا وجد فيه الضفادع قد غلبت عليه، فلما جهدهم ذلك قالوا له مثل ما قالوا فسأل ربه فكشف عنهم فلم يفوا له بشيء مما قالوا، فأرسل الله عليهم الدم فصارت مياه آل فرعون دمًا لا يستقون من بئر ولا نهر، ولا يغترفون من إناء إلا عاد دمًا عبيطاً.

فَأَنْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِآيَاتِنَا كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٣٦﴾ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمَغْرِبَهَا الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾

يخبر تعالى أنهم لما عتوا وتمردوا مع ابتلائه إياهم بالآيات المتواترة واحدة بعد واحدة انتقم منهم بإغراقه إياهم في اليم وهو البحر الذي فرقه لموسى فجاوزه وبنو إسرائيل معه، ثم ورد فرعون وجنوده على أثرهم، فلما استكملوا فيه ارتطم عليهم فغرقوا عن آخرهم، وذلك بسبب تكذيبهم بآيات الله وتغافلهم عنها، وأخبر تعالى أنه أورث القوم الذين كانوا يستضعفون - وهم بنو إسرائيل - مشارق الأرض ومغاربها كما قال تعالى: ﴿ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ويجعلهم أئمةً ويجعلهم الوارثين﴾، وقال تعالى: ﴿كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم * ونعمة كانوا فيها فاكهين * كذلك وأورثناها قوماً آخرين﴾. وعن الحسن البصري وقتادة في قوله:

(١) روي مثل هذا عن ابن عباس والسدي وقتادة وغير واحد من علماء السلف.

﴿ مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها ﴾ يعني الشام، وقوله: ﴿ وتمت كلمة ربك الحسنی علی بنی اسرائیل بما صبروا ﴾، قال مجاهد وهي قوله تعالى: ﴿ ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمةً ونجعلهم الوارثين * ونمكن لهم في الأرض ﴾^(١) الآية، وقوله: ﴿ ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه ﴾ أي وخربنا ما كان فرعون وقومه يصنعونه من العمارات والمزارع ﴿ وما كانوا يعرشون ﴾ بينون^(٢).

وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ مَتَّبِعُوا مَا هُمْ فِيهِ وَبَطِلُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾

يخبر تعالى عما قاله جهلة بني إسرائيل لموسى عليه السلام حين جاوزوا البحر وقد رأوا من آيات الله وعظيم سلطانه ما رأوا ﴿ فأتوا ﴾ أي فروا ﴿ على قوم يعكفون على أصنام لهم ﴾. قال بعض المفسرين: كانوا من الكنعانيين، قال ابن جرير: وكانوا يعبدون أصناماً على صور البقر، فلهذا أثار ذلك شبهة لهم في عبادتهم العجل بعد ذلك، فقالوا: ﴿ يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون ﴾ أي تجهلون عظمة الله وجلاله وما يجب أن يتزه عنه من الشريك والمثيل ﴿ إن هؤلاء متبر ما هم فيه ﴾ أي هالك ﴿ وباطل ما كانوا يعملون ﴾، عن أبي واقد الليثي قال: «خرجنا مع رسول الله ﷺ قبل حنين فررنا بسدره، فقلت: يا نبي الله، اجعل لنا هذه ذات أنواط كما للكفار ذات أنواط، وكان الكفار ينطون سلاحهم بسدره ويعكفون حولها، فقال النبي ﷺ: الله أكبر، هذا كما قالت بنو إسرائيل لموسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة. إنكم تركبون سنن من قبلكم»^(٣).

قَالَ أَغْيَرَ اللَّهُ أَبْغِيكَرَ إِلَهًا وَهُوَ فَضْلُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذْ أُنجَيْنَاكَ مِنَ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكَ سُوءَ الْعَذَابِ يَقْتُلُونَ أَبْنَاءَ كُرٍ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَ كُرٍ وَفِي ذَلِكَ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكَ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾

يذكرهم موسى عليه السلام نعم الله عليهم، من إنقاذهم من أسر فرعون وقهره، وما كانوا فيه من الهوان والذلة، وما صاروا إليه من العزة والاشفاء من عدوهم، والنظر إليه في حال هوانه وهلاكه وغرقه ودماره، وقد تقدم تفسيرها في البقرة.

* وَوَعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَا بِعِشْرِ فَمِ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ أَخْلِفْنِي

فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾

(١) وروي أيضاً عن ابن جرير وغيره وهو ظاهر.

(٢) قاله ابن عباس ومجاهد.

(٣) رواه أحمد وابن أبي حاتم وأورده ابن جرير.

يقول تعالى ممتناً على بني إسرائيل بما حصل لهم من الهداية بتكليمه موسى عليه السلام وإعطائه التوراة وفيها أحكامهم وتفصيل شرعهم، فذكر تعالى أنه واعد موسى ثلاثين ليلة، فصامها موسى عليه السلام وطواها، فلما تم الميقات استاك بلحاء شجرة، فأمره الله تعالى أن يكمل بعشر أربعين، وقد اختلف المفسرون في هذه العشر ما هي؟ فالأكثر على أن الثلاثين هي (ذو القعدة) وعشر من ذي الحجة، روي عن ابن عباس وغيره، فعلى هذا يكون قد كمل الميقات يوم النحر، وحصل فيه التكليم لموسى عليه السلام، وفيه أكمل الله الدين لمحمد ﷺ كما قال تعالى: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾، فلما تم الميقات وعزم موسى على الذهاب إلى الطور استخلف على بني إسرائيل أخاه (هارون) ووصاه بالإصلاح وعدم الإفساد، وهذا تنبيه وتذكير وإلا فهارون عليه السلام نبي شريف كريم على الله، له وجهة وجلالة صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر الأنبياء .

وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ نَرِنِّي وَلَكِنِ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرِنِّي فَلِمَا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾

يخبر تعالى عن موسى عليه السلام أنه لما جاء لميقات الله تعالى وحصل له التكليم من الله، سأل الله تعالى أن ينظر إليه فقال: ﴿رب أريني أنظر إليك قال لن تراني﴾ وقد أشكل حرف ﴿لن﴾ ههنا على كثير من العلماء، لأنها موضوعة لنفي التأييد، فاستدل به المعتزلة على نفي الرؤية في الدنيا والآخرة، وهذا أضعف الأقوال، لأنه قد تواترت الأحاديث عن رسول الله ﷺ بأن المؤمنين يرون الله في الدار الآخرة، كما سنورها عند قوله تعالى: ﴿وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة﴾، وقوله تعالى إخباراً عن الكفار ﴿كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون﴾، وقيل: إنها لنفي التأييد في الدنيا جمعاً بين هذه الآية وبين الدليل القاطع على صحة الرؤية في الدار الآخرة، وقيل: إن هذا الكلام في هذا المقام كالكلام في قوله تعالى: ﴿لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار﴾، وفي الكتب المتقدمة أن الله تعالى قال لموسى عليه السلام: «يا موسى إنه لا يراني حي إلا مات ولا يابس إلا تدهده» ولهذا قال تعالى: ﴿فلما تجلَّى ربه للجبل جعله دكاً وخر موسى صعباً﴾، قال ابن جرير الطبري: «لما تجلَّى ربه للجبل أشار بأصبعه فجعله دكاً وأرانا أبو إسماعيل بأصبعه السبابة»، وعن أنس أن النبي ﷺ قرأ هذه الآية: ﴿فلما تجلَّى ربه للجبل جعله دكاً﴾ قال: هكذا بأصبعه، ووضع النبي ﷺ إصبعه الإبهام على المفصل الأعلى من الخنصر، فساخ الجبل^(١). قال ابن عباس: ما تجلَّى منه إلا قدر الخنصر ﴿جعلته دكاً﴾ قال: تراباً ﴿وخر موسى صعباً﴾ قال: مغشياً عليه^(٢). وقال قتادة: ﴿وخر موسى صعباً﴾ قال: ميتاً، وقال الثوري: ساخ الجبل في الأرض حتى

(١) أخرجه ابن جرير وروى الترمذي وأحمد والحاكم قريباً منه .

(٢) أخرجه ابن جرير الطبري وهي رواية السدي عن ابن عباس .

وقع في البحر فهو يذهب معه. وعن عروة بن زويم قال: كانت الجبال قبل أن يتجلى الله لموسى على الطور صماء ملساء، فلما تجلى الله لموسى على الطور ذك وتفطرت الجبال فصارت الشقوق والكهوف^(١).

وقال مجاهد في قوله: ﴿ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني﴾، فإنه أكبر منك وأشد خلقاً ﴿فلما تجلى ربه للجبل جعله﴾ فنظر إلى الجبل لا يتالك وأقبل الجبل فدك على أوله، ورأى موسى ما يصنع الجبل فخر صعقاً. وقال عكرمة ﴿جعله دكاً﴾ قال: نظر الله إلى الجبل فصار صحراء تراباً، والمعروف أن الصعق هو الغشي ها هنا كما فسره ابن عباس وغيره، لا كما فسره قتادة بالموت، وإن كان ذلك صحيحاً في اللغة، كقوله تعالى: ﴿ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله﴾ فإن هناك قرينة تدل على الموت، كما أن هنا قرينة تدل على الغشي، وهي قوله: ﴿فلما أفاق﴾ والإفاقة لا تكون إلا عن غشي، ﴿قال سبحانك﴾ تنزيهاً وتعظيماً وإجلالاً أن يراه أحد في الدنيا إلا مات، وقوله: ﴿تبت إليك﴾، قال مجاهد: أن أسألك الرؤية ﴿وأنا أول المؤمنين﴾، قال ابن عباس ومجاهد: من بني إسرائيل، واختاره ابن جرير. وفي رواية أخرى عنه ﴿وأنا أول المؤمنين﴾: أنه لا يراك أحد، قال أبو العالية: أنا أول من آمن بك أنه لا يراك أحد من خلقك إلى يوم القيامة، وهذا قول حسن له اتجاه، وقوله: ﴿وخر موسى صعقاً﴾ روي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنه قال: جاء رجل من اليهود إلى النبي ﷺ قد لطم وجهه، وقال يا محمد إن رجلاً من أصحابك من الأنصار لطم وجهي قال: «ادعوه»، فدعوه، قال: «لم لطمت وجهه؟» قال: يا رسول الله إني مررت باليهودي فسمعتة يقول: والذي اصطفى موسى على البشر، قال: وعلى محمد؟ قال: فقلت: وعلى محمد؟ وأخذتني غصبة فلطمته فقال: «لا تخيروني من بين الأنبياء فإن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق، فإذا أنا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش فلا أدري أفاق قبلي أم جوزي بصعقة الطور»^(٢). وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: استب رجلان رجل من المسلمين ورجل من اليهود، فقال المسلم: والذي اصطفى محمداً على العالمين، فقال اليهودي: والذي اصطفى موسى على العالمين، فغضب المسلم على اليهودي فلطمه، فأتى اليهودي رسول الله ﷺ فسأله فأخبره، فدعاه رسول الله ﷺ فاعترف بذلك، فقال رسول الله ﷺ: «لا تخيروني على موسى فإن الناس يصعقون يوم القيامة، فأكون أول من يفيق فإذا بموسى ممسك بجانب العرش، فلا أدري أكان ممن صعق فأفاق قبلي أم كان ممن استثنى الله عز وجل»^(٣). والكلام في قوله عليه السلام: «لا تخيروني على موسى» كالكلام على قوله: «لا تفضلوني على الأنبياء ولا على يونس بن متى» قيل: من باب التواضع وقيل: قبل أن يعلم بذلك، وقيل: نهي أن يفضل بينهم على وجه الغضب والتعصب، وقيل: على وجه القول بمجرد الرأي والتشهي، والله أعلم. وقوله: «فإن الناس يصعقون يوم القيامة» الظاهر أن هذا الصعق يكون في عرصات القيامة يحصل أمر يصعقون منه، والله أعلم به، وقد يكون ذلك إذا جاء الرب تبارك وتعالى لفصل القضاء وتجلى للخلائق الملك الديان كما صعق موسى من تجلى الرب تبارك وتعالى، ولهذا قال عليه السلام: «فلا أدري أفاق قبلي أم جوزي بصعقة الطور».

(١) رواه ابن أبي حاتم .

(٢) رواه البخاري ومسلم وأبو داود .

(٣) رواه الشيخان وأحمد .

قَالَ يَمُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَلِمِي نَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ نَخُذَهَا بِقُوَّةٍ وَأَمْرٌ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُورِيكَ دَارَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٤٥﴾

يذكر تعالى أنه خاطب موسى بأنه اصطفاه على أهل زمانه برسالاته تعالى وبكلامه، ولا شك أن محمداً ﷺ سيد ولد آدم من الأولين والآخرين، ولهذا اختصه الله تعالى بأن جعله خاتم الأنبياء والمرسلين، وأتباعه أكثر من أتباع سائر المرسلين كلهم، وبعده في الشرف والفضل (إبراهيم) الخليل عليه السلام، ثم (موسى بن عمران) كليم الرحمن عليه السلام، ولهذا قال الله تعالى له ﴿فخذ ما آتيتك﴾ أي من الكلام والمناجاة ﴿وكن من الشاكرين﴾ أي على ذلك ولا تطلب ما لا طاقة لك به، ثم أخبر تعالى أنه كتب له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلاً لكل شيء، كتب له فيها مواعظ وأحكاماً مفصلة، مبينة للحلال والحرام، وكانت هذه الألواح مشتملة على التوراة، وقيل: الألواح أعطاها موسى قبل التوراة فالله أعلم، وقوله ﴿فخذها بقوة﴾ أي بعزم على الطاعة ﴿وأمر قومك يأخذوا بأحسنها﴾، قال ابن عباس: أمر موسى عليه السلام أن يأخذ بأشد ما أمر قومه، وقوله: ﴿سأوريكم دار الفاسقين﴾ أي سترون عاقبة من خالف أمري وخرج عن طاعتي كيف يصير إلى الهلاك والدمار والتباب، قال ابن جرير: وإنما قال: ﴿سأوريكم دار الفاسقين﴾ كما يقول القائل لمن يخاطبه: سأريك غداً إلى ما يصير إليه حال من خالف أمري على (وجه التهديد) والوعيد لمن عصاه وخالف أمره^(١)، وقيل: منازل قوم فرعون، والأول أولى لأن هذا كان بعد انفصال موسى وقومه عن بلاد مصر، وهو خطاب لبني إسرائيل قبل دخولهم التيه، والله أعلم.

سَأَصْرِفُ عَن آيَاتِي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءَ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾

يقول تعالى: ﴿سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق﴾ أي سأمنع فهم الحجج والأدلة الدالة على عظمتي وشريعتي، قلوب المتكبرين عن طاعتي، ويتكبرون على الناس بغير حق، أي كما استكبروا بغير حق أذلم بالجهل، كما قال تعالى: ﴿ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة﴾، وقال تعالى: ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾، وقال بعض السلف: لا ينال العلم حيي ولا مستكبر، وقال آخر: من لم يصبر على ذل التعلم ساعة بقي في ذل الجهل أبداً، وقال سفيان بن عيينة: أنزع عنهم فهم القرآن وأصرفهم عن آياتي، ﴿وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها﴾، كما قال تعالى: ﴿إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم

(١) نقل معنى ذلك عن مجاهد والحسن البصري .

كل آية حتى يروا العذاب الأليم ﴿١٤٨﴾، وقوله: ﴿وإن يروا سبيل الرشداً لا يتخذوه سبيلاً﴾ أي وإن ظهر لهم سبيل الرشداً أي طريق النجاة لا يسلكوها، وإن ظهر لهم طريق الهلاك والضلال يتخذوه سبيلاً، ثم علل مصيرهم إلى هذه الحال بقوله: ﴿ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا﴾ أي كذبت بها قلوبهم ﴿وكانوا عنها غافلين﴾ أي لا يعملون بما فيها، وقوله: ﴿والذين كذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة حبطت أعمالهم﴾ أي من فعل منهم ذلك واستمر عليه إلى الممات حبط عمله، وقوله: ﴿هل يجوزون إلا ما كانوا يعملون﴾؟ أي إنما نجازيهم بحسب أعمالهم التي أسلفوها، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، وكما تدين تدان .

وَأَتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَداً لَهُ خَوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يَكْلِمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾

يعبر تعالى عن ضلال من ضل من بني إسرائيل في عبادتهم العجل الذي اتخذه لهم السامري من حلي القبط الذي كانوا استعاروه منهم، فشكل لهم منه عجلاً ثم ألقى فيه القبضة من التراب التي أخذها من أثر فرس جبريل عليه السلام فصار عجلاً جسداً له خوار، والخوار صوت البقر، وكان هذا منهم بعد ذهاب موسى لميقات ربه تعالى، فأعلمه الله تعالى بذلك وهو على الطور حيث يقول تعالى إخباراً عن نفسه الكريمة: ﴿قال فإننا قد فتننا قومك من بعدك وأضلهم السامري﴾. وقد اختلف المفسرون في هذا العجل هل صار لحماً ودماً له خوار، أو استمر على كونه من ذهب إلا أنه يدخل فيه الهواء فيصوت كالبقرة؟ على قولين والله أعلم، ويقال: إنهم لما صوت لهم العجل رقصوا حوله وافتنوا به وقالوا: ﴿هذا إلهكم وإله موسى فنسي﴾، قال تعالى: ﴿أفلا يرون ألا يرجع إليهم قولاً ولا يملك لهم ضرراً ولا نفعاً﴾؟ وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿لم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلاً﴾؟ ينكر تعالى عليهم ضلالهم بالعجل، وذوهم عن خالق السموات والأرض، ورب كل شيء ومليكه، أن عبدوا معه عجلاً جسداً له خوار، لا يكلمهم ولا يرشدهم إلى خير، ولكن غطى على أعين بصائرهم عمى الجهل والضلال، كما تقدم عن أبي الدرداء قال، قال رسول الله ﷺ: «حبك الشيء يعمي ويصم»^(١). وقوله: ﴿ولما سقط في أيديهم﴾ أي ندموا على ما فعلوا ﴿ورأوا أنهم قد ضلوا قالوا لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين﴾ أي من الهالكين، وهذا اعتراف منهم بذنبهم والتجاء إلى الله عز وجل .

وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعْلِمْتُمْ أَمْرَ رَبِّي وَأَلْقَى الْأَلْوَابَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ

وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٥١﴾

يخبر تعالى أن موسى عليه السلام لما رجع إلى قومه من مناجاة ربه تعالى وهو غضبان أسفاً، والأسف أشد الغضب ﴿ قال بشما خلفتموني من بعدي ﴾ يقول: بشس ما صنعتم في عبادتكم العجل بعد أن ذهبت وتركتكم، وقوله: ﴿ أعجلتم أمر ربكم ﴾ يقول: استعجلتم مجيئي إليكم وهو مقدر من الله تعالى، وقوله: ﴿ وألقى الألواح وأخذ برأس أخيه يجره إليه ﴾ قيل: كانت الألواح من زمرد، وقيل: من ياقوت، وظاهر السياق أنه إنما ألقى الألواح غضباً على قومه، وهذا قول جمهور العلماء سلفاً وخلفاً، ﴿ وأخذ برأس أخيه يجره إليه ﴾ خوفاً أن يكون قد قصر في نبيهم كما قال في الآية الأخرى: ﴿ قال يا ابن أم لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي، إني خشيت أن تقول فرقت بين بني إسرائيل ولم ترقب قولي ﴾، وقال ها هنا: ﴿ ابن أم إن القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني فلا تشمت بي الأعداء ولا تجعلني مع القوم الظالمين ﴾ أي لا تسقني مساقهم ولا تخلطني معهم وإنما قال: ﴿ ابن أم ﴾ ليكون أرق وأججع عنده، وإلا فهو شقيقه لأبيه وأمه، فلما تحقق موسى عليه السلام براءة ساحة هارون عليه السلام، عند ذلك ﴿ قال ﴾ موسى ﴿ رب اغفر لي ولأخي وأدخلنا في رحمتك وأنت أرحم الراحمين ﴾، عن ابن عباس قال، قال رسول الله ﷺ: « يرحم الله موسى ليس المعاین كالمخبر، أخبره ربه عز وجل أن قومه فتنوا بعده فلم يلق الألواح، فلما رآهم وعانهم ألقى الألواح »^(١).

إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيِّئًا لَّهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذَلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾
وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾

أما (الغضب) الذي نال بني إسرائيل في عبادة العجل، فهو أن الله تعالى لم يقبل لهم توبة حتى قتل بعضهم بعضاً وأما (الذلة) فأعقبهم ذلك ذلاً وصغاراً في الحياة الدنيا، وقوله: ﴿ وكذلك نجزي المفتريين ﴾ نائلة لكل من افتري بدعة، كما قال الحسن البصري: إن ذل البدعة على أكتافهم وإن هملجت بهم البغلات وطقطقت بهم البراذين، وعن أبي قلابة أنه قرأ هذه الآية: ﴿ وكذلك نجزي المفتريين ﴾ فقال: هي والله لكل مفتر إلى يوم القيامة، وقال سفيان بن عيينة: كل صاحب بدعة ذليل. ثم نبه تعالى عباده وأرشدهم إلى أنه يقبل توبة عباده من أي ذنب كان حتى ولو كان من كفر أو شرك أو نفاق أو شقاق ولهذا عقب هذه القصة بقوله: ﴿ والذين عملوا السيئات ثم تابوا من بعدها وآمنوا إن ربك ﴾ أي يا محمد يا نبي الرحمة ﴿ من بعدها ﴾ أي من بعد تلك الفعلة ﴿ لغفور رحيم ﴾. عن عبد الله بن مسعود: أنه سئل عن ذلك يعني الرجل يزني بالمرأة ثم يتزوجها، فنلا هذه الآية: ﴿ والذين عملوا السيئات ثم تابوا من بعدها وآمنوا إن ربك من بعدها لغفور رحيم ﴾ فنلاها عبد الله عشر مرات، فلم يأمرهم بها ولم ينههم عنها^(٢).

(١) أخرجه ابن أبي حاتم عن ابن عباس مرفوعاً .

(٢) رواه ابن أبي حاتم أيضاً عنه .

وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَابَ^ط فِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةً^ط لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾

يقول تعالى: ﴿ولما سكت﴾ أي سكن ﴿عن موسى الغضب﴾ أي غضبه على قومه، ﴿أخذ الألواح﴾ أي التي كان ألقاها من شدة الغضب على عبادتهم العجل غيرة لله وغضباً له ﴿وفي نسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون﴾ يقول كثير من المفسرين: إنها لما ألقاها تكسرت، ثم جمعها بعد ذلك، ولهذا قال بعض السلف: فوجد فيها هدى ورحمة، وقال قتادة في قوله تعالى: ﴿أخذ الألواح﴾ قال: رب إني أجد في الألواح أمة خير أمة أخرجت للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر فاجعلهم أمتي! قال تلك أمة أحمد، قال رب إني أجد في الألواح أمة هم الآخرون السابقون، أي آخرون في الخلق سابقون في دخول الجنة، رب اجعلهم أمتي، قال: تلك أمة أحمد، قال: رب إني أجد في الألواح أمة أناجيلهم في صدورهم يقرؤونها رب اجعلهم أمتي! قال: تلك أمة أحمد. قال قتادة: فذكر لنا أن نبي الله موسى عليه السلام نبذ الألواح وقال: اللهم اجعلني من أمة أحمد^(١).

وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتَهْلِكُ بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيْنَا فَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴿١٥٥﴾ * وَأَكْتَبْنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدُنَا إِلَيْكَ^ط

قال السدي: إن الله أمر موسى أن يأتيه في سبعين من بني إسرائيل يعتذرون إليه من عبادة العجل ووعدهم موعداً، ﴿واختار موسى قومه سبعين رجلاً﴾ على عينيه ثم ذهب بهم ليعتذروا، فلما أتوا ذلك المكان قالوا: ﴿لن نؤمن لك﴾ يا موسى ﴿حتى نرى الله جهرة﴾ فإنك قد كلمته فأرنا، ﴿فأخذتهم الصاعقة﴾ فتأوا، فقام موسى يبكي ويدعو الله، ويقول: رب ماذا أقول لبني إسرائيل إذا أتيتهم وقد أهلكت خيارهم؟ ﴿رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي﴾^(٢)، وقال محمد بن إسحاق: اختار موسى من بني إسرائيل سبعين رجلاً: الخير فالخير، وقال انطلقوا إلى الله فتوبوا إليه مما صنعتم، وسلوه التوبة على من تركتم وراءكم من قومكم، صوموا وتطهروا وطهروا ثيابكم، فخرج بهم إلى (طور سيناء) لميقات وقته له ربه، وكان لا يأتيه إلا بإذن منه وعلم، فقال له السبعون - فيما ذكر لي حين صنعوا ما أمرهم به وخرجوا معه للقاء ربه - لموسى، اطلب لنا نسمع كلام ربنا، فقال: أفعل، فلما دنا موسى من الجبل وقع عليه عمود الغمام حتى تغشى الجبل كله، ودنا موسى فدخل فيه وقال للقوم: ادنوا، وكان موسى إذا كلمه الله وقع على جبهة موسى نور ساطع لا يستطيع أحد من بني آدم أن ينظر إليه فضرب دونه بالحجاب، ودنا القوم حتى إذا دخلوا في الغمام، وقعوا سجوداً فسمعوه وهو يكلم موسى بأمره وينهاه افعل ولا تفعل، فلما فرغ إليه من أمره وانكشف عن موسى الغمام، فأقبل إليهم فقالوا يا موسى: ﴿لن نؤمن لك حتى

(١) ذكر هذا الأثر مطولاً عن قتادة ولم يرمز إليه ابن كثير بضعف. (٢) روي مثل هذا عن ابن عباس وبعض السلف.

نرى الله جهرة فأخذتهم الرجفة ﴿ وهي الصاعقة فالتفت أرواحهم فاتوا جميعاً، فقام موسى يناشد ربه ويدعوه ويرغب إليه ويقول: ﴿ رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي ﴿ قد سفهوا، أقتلهم من ورأي من بني إسرائيل؟ وقال ابن عباس وقتادة: إنهم أخذتهم الرجفة لأنهم لم يزايلوا قومهم في عبادتهم العجل ولا نهوهم، ويتوجه هذا القول بقول موسى: ﴿ أهلكتنا بما فعل السفهاء منا ﴿، وقوله: ﴿ إن هي إلا فتنتك ﴿ أي ابتلاؤك واختبارك وامتحانك، يقول: إن الأمر إلا أمرك، وإن الحكم إلا لك فما شئت كان، تضل من تشاء وتهدي من تشاء ولا هادي لمن أضللت، ولا مضل لمن هديت، ولا معطي لمن منعت، ولا مانع لما أعطيت، فالملك كله لك والحكم كله لك، لك الخلق والأمر، وقوله: ﴿ أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين ﴿ الغفر هو الستر وترك المؤاخظة بالذنب، والرحمة إذا قرنت مع الغفر يراد بها أن لا يوقعه في مثله في المستقبل، ﴿ وأنت خير الغافرين ﴿ أي لا يغفر الذنب إلا أنت، ﴿ واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة ﴿ الفصل الأول من الدعاء للدفع المحذور، وهذا لتحصيل المقصود ﴿ واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة ﴿ أي أوجب لنا وأثبت لنا فيهما حسنة، وقد تقدم تفسير الحسنة في سورة البقرة ﴿ إنا هدنا إليك ﴿ أي تبنا ورجعنا وأبنا إليك ^(١). عن علي قال: إنما سميت اليهود لأنهم قالوا: ﴿ إنا هدنا إليك ﴿ ^(٢).

قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَلْتُنِي لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِعِبَائَتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾

يقول تعالى مجيباً لموسى في قوله: ﴿ إن هي إلا فتنتك ﴿ الآية، ﴿ قال عذابي أصيب به من أشاء ورحمتي وسعت كل شيء ﴿ أي أفعل ما أشاء وأحكم ما أريد، ولي الحكمة والعدل في كل ذلك سبحانه لا إله إلا هو، وقوله تعالى: ﴿ ورحمتي وسعت كل شيء ﴿ آية عظيمة الشمول والعموم، كقوله تعالى إخباراً عن حملة العرش ومن حوله إنهم يقولون: ﴿ ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً ﴿. عن جندب بن عبد الله البجلي قال: جاء أعرابي فأناخ راحلته، ثم عقلها ثم صلى خلف رسول الله ﷺ فلما صلى رسول الله ﷺ أتى راحلته، فأطلق عقالها، ثم ركبها، ثم نادى: اللهم ارحمني ومحمداً ولا تشرك في رحمتنا أحداً، فقال رسول الله ﷺ: « أتقولون هذا أضل أم بعيره، ألم تسمعوا ما قال؟ » قالوا: بلى، قال: « لقد حظرت رحمة واسعة، إن الله عز وجل خلق مائة رحمة، فأنزل رحمة يتعاطف بها الخلق جنها وإنسها وبهائمها، وأخر عنده تسعاً وتسعين رحمة، أتقولون هو أضل أم بعيره؟ » رواه أحمد وأبو داود، وقال الإمام أحمد أيضاً عن سلمان عن النبي ﷺ قال: « إن لله عز وجل مائة رحمة، فمنها رحمة يترحم بها الخلق، وبها تعطف الوحوش على أولادها، وأخر تسعة وتسعين إلى يوم القيامة ». عن أبي سعيد قال، قال رسول الله ﷺ: « لله مائة رحمة فقسم منها جزءاً واحداً بين الخلق، به يترحم الناس والوحش والطيور » ^(٣). وقوله:

(١) قاله ابن عباس وسعيد بن جبير ومجاهد وأبو العالية والضحاك والسدي وقتادة وغيرهم .

(٢) أخرجه ابن جرير قال ابن كثير: وفيه جابر الجعفي ضعيف .

(٣) رواه ابن ماجه والإمام أحمد .

﴿ فسأكتبها للذين يتقون ﴾ الآية، يعني فسأوجب حصول رحمتي منة مني وإحساناً إليهم، كما قال تعالى: ﴿ كتب ربكم على نفسه الرحمة ﴾، وقوله: ﴿ للذين يتقون ﴾ أي سأجعلها للمتصفين بهذه الصفات وهم أمة محمد ﷺ (الذين يتقون) أي الشرك والعظائم من الذنوب، قوله: ﴿ ويؤتون الزكاة ﴾ قيل: زكاة النفوس، وقيل: الأموال، ويحتمل أن تكون عامة لهما، فإن الآية مكية ﴿ والذين هم بآياتنا يؤمنون ﴾ أي يصدقون .

الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ
عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ
فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ ۗ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾

﴿ الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل ﴾ وهذه صفة محمد ﷺ في كتب الأنبياء، بشروا أمهم ببعثه وأمروهم بمتابعتة، ولم تزل صفاته موجودة في كتبهم يعرفها علماءهم وأخبارهم، كما روى الإمام أحمد عن رجل من الأعراب، قال: جلبت حلوبة إلى المدينة في حياة رسول الله ﷺ، فلما فرغت من بيعي قلت: لألقين هذا الرجل، فلا سمعن منه قال: فتلقاني بين أبي بكر وعمر يمضون، فتبعتهن حتى أتوا على رجل من اليهود، ناشر التوراة يقرؤها يعزي بها نفسه عن ابن له في الموت كأجمل الفتيان وأحسنها، فقال رسول الله ﷺ: « أنشدك بالذي أنزل التوراة هل تجد في كتابك هذا صفتي ومخرجي » فقال: برأسه هكذا أي لا؛ فقال ابنه: أي والذي أنزل التوراة إنا لنجد في كتابنا صفتك ومخرجك، وإني أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنك رسول الله، فقال: « أقيموا اليهودي عن أخيكم »، ثم تولى كفته والصلاة عليه^(١). وروى ابن جرير عن عطاء بن يسار قال: لقيت عبد الله بن عمرو فقلت: أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة قال: أجل، والله إنه لموصوف في التوراة كصفته في القرآن: ﴿ يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً ﴾ وحرزاً للأمين، أنت عبدي ورسولي، اسمك المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ، ولن يقبضه الله حتى يقم به الملة العوجاء، بأن يقولوا: لا إله إلا الله، ويفتح به قلباً غلفاً، وأذاناً صماً، وأعيناً عمياً. وقد رواه البخاري في صحيحه وزاد بعد قوله « ليس بفظ ولا غليظ » ولا صحاب في الأسواق ولا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح .

وقوله تعالى: ﴿ يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ﴾ هذه صفة الرسول ﷺ في الكتب المتقدمة، وهكذا كانت حاله عليه الصلاة والسلام لا يأمر إلا بخير ولا ينهى إلا عن شر، كما قال عبد الله بن مسعود إذا سمعت الله يقول: ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ فأرעה سمعك فإنه خير تؤمر به أو شر تنهى عنه، ومن أهم ذلك وأعظمه ما بعثه الله به من الأمر بعبادته وحده لا شريك له، والنهي عن عبادة من سواه. عن أبي حميد وأبي أسيد رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: « إذا سمعتم الحديث عني مما تعرفه قلوبكم وتلين له أشعاركم وأبشاركم وترون أنه

(١) أخرجه أحمد عن الجريري عن أبي صخر العقيلي قال ابن كثير: هذا حديث جيد قوي له شاهد في الصحيح .

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه بتمامه .

منكم قريب فأنا أولاكم به، وإذا سمعتم الحديث عني تنكره قلوبكم وتنفر منه أشعاركم وأبشاركم وترون أنه منكم بعيد فأنا أبعدهم منه»^(١). وعن علي رضي الله عنه قال: «إذا سمعتم عن رسول الله ﷺ حديثاً فظنوا به الذي هو أهدي، والذي هو أهنى، والذي هو أتقى»^(٢). وفي رواية قال: إذا حدثتم عن رسول الله ﷺ حديثاً فظنوا به الذي هو أهداه وأهناه وأتقاه. وقوله: ﴿ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث﴾ أي يحل لهم ما كانوا حرموه على أنفسهم من البحائر والسوائب والوصائل والحام، ونحو ذلك مما كانوا ضيقوا به على أنفسهم ويحرم عليهم الخبائث، قال ابن عباس: كلحم الخنزير والربا وما كانوا يستحلونه من المحرمات من المآكل التي حرمها الله تعالى، قال بعض العلماء: فكل ما أحل الله تعالى من المآكل فهو طيب نافع في البدن والدين، وكل ما حرمه فهو خبيث ضار في البدن والدين، وقوله: ﴿ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم﴾ أي أنه جاء بالتيسير والسراحة، كما ورد الحديث من طرق عن رسول الله ﷺ أنه قال: «بعثت بالحنيفية السمحة» وقال ﷺ لأمره (معاذ) و (أبي موسى الأشعري) لما بعثهما إلى اليمن: «بشرا ولا تنفرا ويسرا ولا تعسرا وتطوعا ولا تختلفا»، وقد كانت الأمم الذين قبلنا في شرائعهم ضيق عليهم، فوسع الله على هذه الأمة أمورها وسهلها لهم، ولهذا قال رسول الله ﷺ: «إن الله تجاوز لأمتي ما حدثت به أنفسها ما لم تقل أو تعمل» وقال: «رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكروهوا عليه»، ولهذا أرشد الله هذه الأمة أن يقولوا: ﴿ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا﴾، وقوله: ﴿فالذين آمنوا به وعزّروه ونصروه﴾ أي عظموه ووقروه، ﴿واتبعوا النور الذي أنزل معه﴾ أي القرآن والوحي الذي جاء به مبلغاً إلى الناس ﴿أولئك هم المفلحون﴾ أي في الدنيا والآخرة.

قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَعَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَتِهِ ۗ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾

يقول تعالى لنبيه ورسوله محمد ﷺ: ﴿قل﴾ يا محمد ﴿يا أيها الناس﴾ وهذا خطاب للأحمر والأسود والعربي والعجمي ﴿إني رسول الله إليكم جميعاً﴾ أي جميعكم، وهذا من شرفه وعظمته ﷺ أنه خاتم النبيين وأنه مبعوث إلى الناس كافة كما قال الله تعالى: ﴿وأوحى إليّ هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ﴾، وقال تعالى: ﴿ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده﴾، وقال تعالى: ﴿فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما عليك البلاغ﴾، والآيات في هذا كثيرة، كما أن الأحاديث في هذا أكثر من أن تحصر، وهو معلوم من دين الإسلام ضرورة أنه صلوات الله عليه رسول الله إلى الناس كلهم. قال البخاري في تفسير هذه الآية، عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: كانت بين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما محاوراة فأغضب أبو بكر عمر، فانصرف عنه عمر مغضباً فاتبعه أبو بكر يسأله أن يستغفر له، فلم يفعل حتى أغلق بابه في وجهه، فأقبل أبو بكر إلى رسول الله ﷺ،

(١) قال ابن كثير: رواه أحمد بإسناد جيد ولم يخرجه أحد من أصحاب الكتب الستة.

(٢) رواه الإمام أحمد.

فقال أبو الدرداء ونحن عنده، فقال رسول الله ﷺ: «أما صاحبكم هذا فقد غامر» أي غاضب وحاقد، قال: وندم عمر على ما كان منه، فأقبل حتى سلم وجلس إلى النبي ﷺ وقص على رسول الله ﷺ الخبر، قال أبو الدرداء: فغضب رسول الله ﷺ، وجعل أبو بكر يقول: والله يا رسول الله لأنا كنت أظلم، فقال رسول الله ﷺ: «هل أنتم تاركو لي صاحبي؟ إني قلت يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً، فقلتم: كذبت، وقال أبو بكر: صدقت». وقال الإمام أحمد عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «أعطيت خمساً لم يعطهن نبي قبلي ولا أقوله فخراً: بعثت إلى الناس كافة الأحمر والأسود، ونصرت بالرعب مسيرة شهر، وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، وأعطيت الشفاعة فأخرتها لأمتي يوم القيامة، فهي لمن لا يشرك بالله شيئاً». وقال الإمام أحمد عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي أو نصراني ثم يموت ولا يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار»^(١). وعن جابر ابن عبد الله قال، قال رسول الله ﷺ: «أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً فأبما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل، وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي، وأعطيت الشفاعة، وكان النبي يبعث إلى قومه وبعثت إلى الناس عامة»^(٢). وقوله: ﴿الذي له ملك السموات والأرض لا إله إلا هو يحيي ويميت﴾ صفة الله تعالى في قول رسول الله ﷺ أي الذي أرسلني هو خالق كل شيء وربّه ومليكه الذي بيده الملك والإحياء والإماتة وله الحكم، وقوله: ﴿فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي﴾ أخبرهم أنه رسول الله إليهم ثم أمرهم باتباعه والإيمان به ﴿النبي الأمي﴾ أي الذي وعدتم به وبشرتم به في الكتب المتقدمة، فإنه منعوت بذلك في كتبهم، ولهذا قال النبي الأمي، وقوله: ﴿الذي يؤمن بالله وكلماته﴾ أي يصدق قوله عمله وهو يؤمن بما أنزل إليه من ربه ﴿واتبعوه﴾ أي اسلكوا طريقه واقفوا أثره ﴿لعلكم تهتدون﴾ أي إلى الصراط المستقيم.

وَمِنْ قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٍ يَهُودُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾

يقول تعالى مخبراً عن بني إسرائيل أن منهم طائفة يتبعون الحق ويعدلون به، كما قال تعالى: ﴿من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون﴾، وقال تعالى: ﴿وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم خاشعين لله﴾، وقال تعالى: ﴿الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون﴾، وقال تعالى: ﴿الذين آتيناهم الكتاب يتلون حق تلاوته أولئك يؤمنون به﴾ الآية.

* وَقَطَعْنَاهُمْ مِنْ عَشْرَةِ أَسْبَاطٍ أُمَّةً وَوَحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنْ أَضْرِبَ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ أُمَّةٌ عَشْرَةٌ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرِبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَمَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّانَ

(١) رواه أحمد في المسند ومسلم في صحيحه واللفظ لأحمد.

(٢) رواه الشيخان عن جابر بن عبد الله مرفوعاً.

وَأَسْلَوِي كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾ وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾

تقدم تفسير هذا كله في سورة البقرة وهي مدنية وهذا السياق مكّي، ونبهنا على الفرق بين هذا السياق وذاك بما أغنى عن إعادته هنا والله الحمد والمنة .

وَسَأَلَهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾

هذا السياق هو بسط لقوله تعالى: ﴿ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم في السبت﴾ الآية، يقول تعالى لنبية صلوات الله وسلامه عليه، ﴿واسألهم﴾ أي وأسأل هؤلاء اليهود الذين بحضرتك عن قصة أصحابهم الذين خالفوا أمر الله ففاجأتهم نقمته على صنيعهم واعتدائهم واحتياهم في المخالفة، وحذر هؤلاء من كتمان صفتك التي يجذبونها في كتبهم لثلاثي محل بهم ما حل بإخوانهم وسلفهم، وهذه القرية هي (أيلة) وهي على شاطئ بحرم القلزم، وقال ابن عباس: هي قرية يقال لها أيلة بين مدين والطور^(١)، وقيل: هي مدين وهو رواية عن ابن عباس، وقوله: ﴿إذ يعدون في السبت﴾ أي يعتدون فيه ويخالفون أمر الله فيه لهم بالوصاية به إذ ذلك ﴿إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعاً﴾، قال ابن عباس: أي ظاهرة على الماء، ﴿ويوم لا يسبتون لا تأتيهم كذلك نبلوهم﴾ أي نختبرهم بإظهار السمك لهم على ظهر الماء في اليوم المحرم عليهم صيده، وإخفائها عنهم في اليوم الحلال لهم صيده، ﴿كذلك نبلوهم﴾ نختبرهم ﴿بما كانوا يفسقون﴾ يقول: بفسقهم عن طاعة الله وخروجهم عنها، وهؤلاء قوم احتالوا على انتهاك محارم الله بما تعاطوا من الأسباب الظاهرة التي معناها في الباطن تعاطي الحرام، وفي الحديث عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: ﴿لا تتركبوا ما ارتكبت اليهود فتستحلوا محارم الله بأدنى الحيل﴾^(٢).

وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعذِرَةٌ إِيَّا رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعِيسٍ بَمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿١٦٦﴾

(١) وهو قول عكرمة ومجاهد وقتادة والسدي .

(٢) قال ابن كثير: إسناده جيد ورجاله مشهورون ثقات .

يخبر تعالى عن أهل هذه القرية أنهم صاروا إلى ثلاث فرق: فرقة ارتكبت المحذور واحتالوا على اصطيد السمك يوم السبت، وفرقة نهت عن ذلك واعتزلتهم، وفرقة سكتت فلم تفعل ولم ته ولكنها قالت للمنكرة ﴿لم تعظون قوماً الله مهلكهم أو معذبهم عذاباً شديداً﴾ أي لم تنهون هؤلاء، وقد علمتم أنهم قد هلكوا، واستحقوا العقوبة من الله فلا فائدة في نهيكم إياهم، قالت لهم المنكرة: ﴿معذرة إلى ربكم﴾ أي فيما أخذ علينا من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ﴿ولعلمهم يتقون﴾ أي لعلمهم بهذا الإنكار يتقون ما هم فيه ويتركونه، ويرجعون إلى الله تائبين، فإذا تابوا تاب الله عليهم ورحمهم، قال تعالى: ﴿فلما نسوا ما ذكروا به﴾ أي فلما أبى الفاعلون قبول النصيحة ﴿أنجينا الذين ينهون عن سوء وأخذنا الذين ظلموا﴾، أي ارتكبوا المعصية ﴿بعذاب بئس﴾، فنص على نجاة الناهين وهلاك الظالمين، وسكت عن الساكتين، لأن الجزء من جنس العمل، فهم لا يستحقون مدحاً فيمدحوا ولا ارتكبوا عظيماً فيذموا، ومع هذا فقد اختلف الأئمة فيهم: هل كانوا من الهالكين أو من الناجين؟ على قولين، وقال ابن عباس في الآية: هي قرية على شاطئ البحر بين مصر والمدينة يقال لها أيلة، فحرم الله عليهم الحيتان يوم سبتهم، وكانت الحيتان تأتيهم يوم سبتهم شرعاً في ساحل البحر، فإذا مضى يوم السبت لم يقدرها عليها، فضى على ذلك ما شاء الله، ثم إن طائفة منهم أخذوا الحيتان يوم سبتهم فنتهم طائفة، وقالوا: تأخذونها وقد حرمها الله عليكم يوم سبتكم؟ فلم يزدادوا إلا غياً وعتواً، وجعلت طائفة أخرى تنهاهم، فلما طال ذلك عليهم قالت طائفة من النهاية تعلمون أن هؤلاء قوم قد حق عليهم العذاب ﴿لم تعظون قوماً الله مهلكهم﴾؟ وكانوا أشد غضباً لله من الطائفة الأخرى، فقالوا: ﴿معذرة إلى ربكم ولعلمهم يتقون﴾ وكل قد كانوا ينهون، فلما وقع عليهم غضب الله نجت الطائفتان اللتان قالوا: لم تعظون قوماً مهلكهم الله والذين قالوا معذرة إلى ربكم، وأهلك الله أهل معصيته الذين أخذوا الحيتان فجعلهم قردة .

عن عكرمة عن ابن عباس في الآية قال: ما أدري أنجا الذين قالوا: ﴿لم تعظون قوماً الله مهلكهم﴾ أم لا؟ قال: فلم أزل به حتى عرفته أنهم قد نجوا فكساني حلة. وقال عبد الرزاق عن عكرمة قال: جئت ابن عباس يوماً وهو يبكي، وإذا المصحف في حجره، فأعظمت أن أدنو منه، ثم لم أزل على ذلك حتى تقدمت فجلست، فقلت ما يبكيك يا ابن عباس جعلني الله فداك؟ قال: فقال هؤلاء الورقات قال: وإذا هو في سورة الأعراف، قال: تعرف أيلة؟ قلت: نعم، قال: فإنه كان بها حي من اليهود سيق الحيتان إليهم يوم السبت ثم غاصت لا يقدر عليها حتى يغوصوا بعد كد ومؤنة شديدة، كانت تأتيهم يوم سبتهم شرعاً بيضاء سماناً، فكانوا كذلك برهة من الدهر، ثم إن الشيطان أوحى إليهم فقال: إنما نهيتم عن أكلها يوم السبت فخذوها فيه وكلوها في غيره من الأيام، فقالت ذلك طائفة منهم، وقالت طائفة: بل نهيتم عن أكلها وأخذها وصيدها يوم السبت، فكانوا كذلك حتى جاءت الجمعة المقبلة فعدت طائفة بأنفسها وأبنائها ونسائها، واعتزلت طائفة ذات اليمين، وتنتحت، واعتزلت طائفة ذات اليسار وسكتت، وقال الأيمنون: ويلكم، نهاكم أن تتعرضوا لعقوبة الله، وقال الأيسرون: ﴿لم تعظون قوماً الله مهلكهم أو معذبهم عذاباً شديداً﴾؟ قال الأيمنون: ﴿معذرة إلى ربكم ولعلمهم يتقون﴾ أي ينهون، إن ينهوا فهو أحب إلينا أن لا يصابوا ولا يهلكوا، وإن لم ينهوا فعذرة إلى ربكم، فضوا على الخطيئة، وقال الأيمنون فقد فعلتم يا أعداء الله، والله لنايتنكم الليلة في مدينتكم، والله ما نراكم تصبحون حتى يصبحكم الله

بخسف أو قذف أو بعض ما عنده من العذاب، فلما أصبحوا ضربوا عليهم الباب، ونادوا فلم يجابوا، فوضعوا سلماً وأعلوا سور المدينة رجلاً، فالتفت إليهم، فقال: أي عباد الله قردة والله تعاوى تعاوى، لها أذنان، قال: ففتحوا فدخلوا عليهم، فعرفت القردة أنسابها من الإنس، ولا تعرف الإنس أنسابها من القردة فجعلت القردة يأتيا نسيها من الإنس، فتشم ثيابه، وتبكي، فيقول: ألم نهكم عن كذا؟ فتقول برأسها: أي نعم، ثم قرأ ابن عباس: ﴿ فلما نسوا ما ذكروا به أنجبنا الذين يهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس ﴾ قال: فأرى الذين نهوا قد نجوا، ولا أرى الآخرين ذكروا، ونحن نرى أشياء ننكرها ولا نقول فيها، قال: قلت جعلني الله فداك ألا ترى أنهم قد كرهوا ما هم عليه وخالفوه، وقالوا: ﴿ لم تعظون قوماً الله مهلكهم؟ ﴾ قال: فأمر لي فكسيت ثوبين غليظين^(١).

(القول الثاني): أن الساكتين كانوا من الهالكين، قال محمد بن إسحاق عن ابن عباس أنه قال: ابتدعوا السبت، فابتلوا فيه، فحرمت عليهم فيه الحيتان، فكانوا إذا كان يوم السبت شرعت لهم الحيتان ينظرون إليها في البحر، فإذا انقضى السبت ذهبت فلم تر حتى السبت المقبل، فإذا جاء السبت جاءت شرعاً فكثروا ما شاء الله أن يمكثوا كذلك، ثم إن رجلاً منهم أخذ حوتاً فحزم أنفه ثم ضرب له وتداً في الساحل وربطه وتركه في الماء، فلما كان الغد أخذه فشواه فأكله، ففعل ذلك وهم ينظرون ولا ينكرون ولا ينهوا منهم أحد إلا عصبة منهم نهوه، حتى ظهر ذلك في الأسواق ففعل علانية، قال، فقالت طائفة للذين يهونهم: ﴿ لم تعظون قوماً الله مهلكهم أو معذبهم عذاباً شديداً قالوا معذرة إلى ربكم ﴾ فقالوا: نسخط أعمالهم ﴿ ولعلمهم يتقون ﴾ فلما نسوا ما ذكروا به - إلى قوله - قردة خاسئين ﴿ قال ابن عباس: كانوا أثلاثاً، ثلث نهوا، وثلث قالوا: ﴿ لم تعظون قوماً الله مهلكهم ﴾، وثلث أصحاب الخطيئة، فاجبا إلا الذين نهوا وهلك سائرهم^(٢)، وقوله تعالى: ﴿ وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس ﴾ فيه دلالة بالمفهوم على أن الذين بقوا نجوا، و ﴿ بئيس ﴾ معناه في قول مجاهد الشديد، وفي رواية: أليم، وقال قتادة: موجع، والكل متقارب، والله أعلم، وقوله: ﴿ خاسئين ﴾ أي ذليلين حقيرين مهانين.

وَإِذ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لِيُبَعِّثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ
وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٦٧﴾

﴿ تَأَذَّنَ ﴾ تفعل من الأذان أي أعلم، قاله مجاهد، وفي قوة الكلام ما يفيد معنى القسم من هذه اللفظة، ولهذا أتبع باللام في قوله: ﴿ ليبعثن عليهم ﴾ أي على اليهود، ﴿ إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب ﴾ أي بسبب عصيانهم ومخالفتهم أوامر الله وشرعه واحتياهم على المحارم، ويقال: إن موسى عليه السلام ضرب عليهم الخراج سبع سنين، وقيل: ثلاث عشرة سنة، وكان أول من ضرب الخراج، ثم كانوا في قهر الملوك من اليونانيين والكشديانيين

(١) أخرجه عبد الرزاق عن ابن عباس.

(٢) قال ابن كثير: هذا إسناد جيد عن ابن عباس ولكن رجوعه إلى قول عكرمة في نجات الساكتين أولى القول بهذا.

والكلدانين، ثم صاروا إلى قهر النصارى وإذلالهم إياهم وأخذهم منهم الجزية والخراج، ثم جاء الإسلام ومحمد ﷺ، فكانوا تحت قهره وذمته يؤدون الخراج والجزية. قال ابن عباس في تفسير هذه الآية: هي المسكنة وأخذ الجزية منهم، وعنه: هي الجزية، والذي يسومهم سوء العذاب محمد ﷺ وأمته إلى يوم القيامة^(١). ثم آخر أمرهم أنهم يخرجون أنصاراً للدجال فيقتلهم المسلمون مع عيسى بن مريم عليه السلام، وذلك آخر الزمان. وقوله: ﴿إِنْ رِبْكَ لَسَرِيعَ الْعِقَابِ﴾ أي لمن عصاه وخالف شرعه، ﴿وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي لمن تاب إليه وأتاب، وهذا من باب قرن الرحمة مع العقوبة لئلا يحصل اليأس، فيقرن تعالى بين الترهيب والترغيب كثيراً لتبقى النفوس بين الرجاء والخوف.

﴿ وَقَطَعْنَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَّمًا مِّنْهُمْ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ (١٦٨) فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلَهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالْأَفْرَاسُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾ وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾

يذكر تعالى أنه فرقهم في الأرض أُمَّمًا أي طوائف وفرقاً، ﴿مِنْهُمْ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ﴾ أي فيهم الصالح وغير ذلك، كقول الجن: ﴿وَأَنَا مِنَ الصَّالِحِينَ وَمَنَا دُونَ ذَلِكَ﴾، ﴿وَبَلَوْنَاهُمْ﴾ أي اختبرناهم ﴿بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ﴾ أي بالرخاء والشدة، والرغبة والرغبة، والعافية والبلاء ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾، قال تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى﴾ الآية، يقول تعالى: فخلف من بعد ذلك الجيل الذين فيهم الصالح والطالح خلف آخر لا خير فيهم، وقد ورثوا دراسة الكتاب وهو التوراة، وقال مجاهد: هم النصارى، وقد يكون أعم من ذلك، ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى﴾ أي يعتاضون عن بذل الحق ونشره بعرض الحياة الدنيا، ويسوفون أنفسهم ويعدون بها بالتوبة، وكلما لاح لهم مثل الأول وقعوا فيه، ولهذا قال: ﴿وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلَهُ يَأْخُذُوهُ﴾. قال مجاهد: لا يشرف لهم شيء من الدنيا إلا أخذوه حلالاً كان أو حراماً ويتمنون المغفرة، ﴿وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلَهُ يَأْخُذُوهُ﴾. وقال السدي: كانت بنو إسرائيل لا يستقضون قاضياً إلا ارتشى في الحكم، وإن خيارهم اجتمعوا فأخذ بعضهم على بعض اليهود أن لا يفعلوا ولا يرتشوا، فجعل الرجل منهم إذا استقضى ارتشى فيقال له: ما شأنك ترتشى في الحكم؟ فيقول: سيغفر لي، فتطعن عليه البقية الآخرون من بني إسرائيل فيما صنع، فإذا مات أو نزع وجعل مكانه رجل ممن كان يطعن عليه فيرتشي، يقول: وإن يأت الآخري عرض الدنيا يأخذوه، قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ الآية،

(١) وكذا قال سعيد بن جبير وابن جريج والسدي وقتادة.

يقول تعالى منكرأ عليهم في صنيعهم هذا مع ما أخذ عليهم من الميثاق ليبين الحق للناس ولا يكتُمونه، كقوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنَنَّ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾ الآية، وقال ابن جريج قال ابن عباس: ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ قال: فيما يتمنون على الله من غفران ذنوبهم التي لا يزالون يعدون فيها ولا يتوبون منها. وقوله تعالى: ﴿وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ يرغبهم في جزيل ثوابه ويحذرهم من وبيل عقابه، أي وثوابي وما عندي خير لمن اتقى المحارم، وترك هوى نفسه، وأقبل على طاعة ربه، ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾؟ يقول أفليس لهؤلاء الذين اعتاضوا بعرض الدنيا عما عندي عقل يردعهم عما هم فيه من السفه والتبذير، ثم أثنى تعالى على من تمسك بكتابه الذي يقوده إلى اتباع رسوله محمد ﷺ كما هو مكتوب فيه، فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَمْسُكُونَ بِالْكِتَابِ﴾ أي اعتصموا به واقتدوا بأوامره، وتركوا زواجره ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾ .

* وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظِلَّةٌ وَظَنُوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾

قال ابن عباس ﴿نتقنا الجبل فوقهم﴾ يقول: رفعناه، وهو قوله: ﴿ورفعنا فوقهم الطور﴾ بميثاقهم، رفعتهم الملائكة فوق رؤوسهم، ثم سار بهم موسى عليه السلام إلى الأرض المقدسة، وأخذ الألواح بعدما سكت عنه الغضب، وأمرهم بالذي أمر الله أن يبلغهم من الوظائف، فنقلت عليهم وأبوا أن يقروا بها حتى نتق الله الجبل فوقهم ﴿كأنه ظلة﴾ قال: رفعتهم الملائكة فوق رؤوسهم^(١). وقال أبو بكر بن عبد الله قيل: هذا كتاب أتقبلونه بما فيه، فإن فيه بيان ما أحل لكم وما حرم عليكم قالوا: انشر علينا ما فيها، فإن كانت فرائضها وحدودها يسيرة قبلناها، قال: اقبلوها بما فيها، قالوا: لا، حتى نعلم ما فيها كيف حدودها وفرائضها، فأوحى الله إلى الجبل فانقلع فارتفع في السماء حتى إذا كان بين رؤوسهم وبين السماء، قال لهم موسى: ألا ترون ما يقول ربي عز وجل؟ لئن لم تقبلوا التوراة بما فيها لأرمينكم بهذا الجبل، قال: فحدثني الحسن البصري قال: لما نظروا إلى الجبل خر كل رجل ساجداً على حاجبه الأيسر، ونظر بعينه اليمنى إلى الجبل فرحاً من أن يسقط عليه، فكذلك ليس اليوم في الأرض يهودي يسجد إلا على حاجبه الأيسر، يقولون: هذه السجدة التي رفعت بها العقوبة، قال أبو بكر: فلما نشر الألواح فيها كتاب الله كتبه بيده لم يبق على وجه الأرض جبل ولا شجر ولا حجر إلا اهتز، فليس اليوم يهودي على وجه الأرض صغير ولا كبير تقرأ عليه التوراة إلا اهتز ونفض لها رأسه: أي حوّل، كما قال تعالى: ﴿فسينفضون إليك رؤوسهم﴾^(٢) والله أعلم .

وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتَ بِرَبِّكَ قَالُوا بَلَىٰ سَهِدْنَا

(١) رواه النسائي عن سعيد بن جبيرة عن ابن عباس .

(٢) أخرجه سنيد بن داود في تفسيره عن حجاج بن محمد عن أبي بكر بن عبد الله .

أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَلِكَ نَفْصِلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾

يخبر تعالى أنه استخرج ذرية بني آدم من أصلابهم، شاهدين على أنفسهم أن الله ربهم ومليكمهم، وأنه لا إله إلا هو، كما أنه تعالى فطرهم على ذلك وجبلهم عليه، قال تعالى: ﴿ فَأَقَمَّ وَجْهَكَ حَنِيفًا فطرت الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ﴾، وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: « كل مولود يولد على الفطرة ». وقال ابن جرير عن الأسود بن سريع من بني سعد قال: غزوت مع رسول الله ﷺ أربع غزوات، قال: فتناول القوم الذرية بعدما قتلوا المقاتلة فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فاشتد عليه، ثم قال: « ما بال أقوام يتناولون الذرية ؟ » فقال رجل: يا رسول الله أليسوا أبناء المشركين، فقال: « إن خياركم أبناء المشركين، ألا إنها ليست نسمة ولد تولد إلا ولدت على الفطرة فما تزال عليها حتى يبين عنها لسانها، فأبواها يهودانها وينصرانها »، قال الحسن: والله لقد قال الله في كتابه: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ (١) الآية. وقد وردت أحاديث في أخذ الذرية من صلب آدم عليه السلام وتمييزهم إلى أصحاب اليمين وأصحاب الشمال، وفي بعضها الاستشهاد عليهم بأن الله ربهم. قال الإمام أحمد عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال: « يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة: أرايت لو كان لك ما على الأرض من شيء أكنت مفتدياً به ؟ قال، فيقول: نعم، فيقول: قد أردت منك أهون من ذلك، قد أخذت عليك في ظهر آدم أن لا تشرك بي شيئاً فأبيت إلا أن تشرك بي » (٢).

(حديث آخر): قال الإمام أحمد عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: « إن الله أخذ الميثاق من ظهر آدم عليه السلام بنعمان يوم عرفة، فأخرج من صلبه كل ذرية ذراها فنثرها بين يديه ثم كلمهم قبلاً قال: ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ؟ قالوا: بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين أو تقولوا - إلى قوله - المبطلون ﴾ » (٣). عن أبي مسعود عن جرير قال: مات ابن للضحاك بن مزاحم ابن ستة أيام، قال فقال: يا جابر إذا أنت وضعت ابني في لحده فأبرز وجهه وحل عنه عقده، فإن ابني مجلس ومستول، ففعلت به الذي أمر، فلما فرغت قلت: يرحمك الله عم يسأل ... من يسأله إياه ؟ قال: يسأل عن الميثاق الذي أقر به في صلب آدم، قلت يا أبا القاسم: وما هذا الميثاق الذي أقر به في صلب آدم ؟ قال: حدثني ابن عباس: إن الله مسح صلب آدم فاستخرج منه كل نسمة هو خلقها إلى يوم القيامة، فأخذ منهم الميثاق أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، وتكفل لهم بالأرزاق، ثم أعادهم في صلبه، فلن تقوم الساعة حتى يولد من أعطى الميثاق يومئذ، فمن أدرك منهم الميثاق الآخر فوفى به نفعه الميثاق الأول، ومن أدرك الميثاق الآخر فلم يقر به لم ينفعه الميثاق الأول، ومن مات صغيراً قبل أن يدرك الميثاق الآخر مات على الميثاق الأول على الفطرة .

(١) رواه ابن جرير وأخرجه أحمد والنسائي .

(٢) رواه أحمد والشيخان .

(٣) رواه أحمد والنسائي وابن أبي حاتم والحاكم في المستدرک .

(حديث آخر): قال الإمام أحمد عن مسلم بن يسار الجهني أن عمر بن الخطاب سئل عن هذه الآية: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ الآية، فقال عمر بن الخطاب: سمعت رسول الله ﷺ سئل عنها، فقال: «إن الله خلق آدم عليه السلام ثم مسح ظهره بيمينه، فاستخرج منه ذرية، قال: خلقت هؤلاء للجنة ويعمل أهل الجنة يعملون، ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية، قال: خلقت هؤلاء للنار، ويعمل أهل النار يعملون، فقال رجل: يا رسول الله فقيم العمل؟ قال رسول الله ﷺ: إذا خلق الله العبد للجنة استعمله بأعمال أهل الجنة حتى يموت على عمل من أعمال الجنة فيدخله به الجنة، وإذا خلق العبد للنار استعمله بأعمال أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار فيدخله به النار» (١).

(حديث آخر): قال الترمذي عند تفسيره هذه الآية عن أبي هريرة قال، قال رسول الله ﷺ: «لما خلق الله آدم مسح ظهره، فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها من ذريته إلى يوم القيامة، وجعل بين عيني كل إنسان منهم وبيصاً من نور، ثم عرضهم على آدم، فقال أي رب من هؤلاء؟ قال: هؤلاء ذريتك، فرأى رجلاً منهم فأعجبه وبيص ما بين عينيه، قال أي رب من هذا؟ قال: هذا رجل من آخر الأمم من ذريتك يقال له داود، قال: رب وكم جعلت عمره؟ قال: ستين سنة، قال: أي رب قد وهبت له من عمري أربعين سنة، فلما انقضى عمر آدم جاءه ملك الموت قال: أو لم يبق من عمري أربعون سنة؟ قال: أو لم تعطها ابنك داود؟ قال: فجحد آدم، فجحدت ذريته، ونسي آدم فنسيت ذريته، وخطيء آدم فخطئت ذريته» (٢). (حديث آخر): عن هشام ابن حكيم رضي الله عنه أن رجلاً سأل النبي ﷺ فقال: يا رسول الله أبدأ بالأعمال أم قد قضى القضاء؟ قال، فقال رسول الله ﷺ: «إن الله قد أخذ ذرية آدم من ظهورهم ثم أشهدهم على أنفسهم، ثم أفاض بهم في كفيه، ثم قال هؤلاء في الجنة، وهؤلاء في النار، فأهل الجنة ليسروا لعمل أهل الجنة، وأهل النار ليسروا لعمل أهل النار» (٣).

فهذه الأحاديث دالة على أن الله عزَّ وجلَّ استخرج ذرية آدم من صلبه وميز بين أهل الجنة وأهل النار، وأما الإشهاد عليهم هناك بأنه ربهم، فإما هو إلا في حديث كلثوم بن جبير عن سعيد بن جبير عن ابن عباس، وفي حديث عبد الله بن عمرو، وقد بينا أنهما موقوفان لا مرفوعان كما تقدم، ومن ثم قال قائلون من السلف والخلف: إن المراد بهذا الإشهاد إنما هو فطرهم على التوحيد، كما تقدم في حديث أبي هريرة وعياض بن حمار المجاشعي، ومن رواية الحسن البصري عن الأسود بن سريع، وقد فسر الحسن الآية بذلك، قالوا، ولهذا قال: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ﴾، ولم يقل من آدم، ﴿مِنْ ظُهُورِهِمْ﴾ ولم يقل من ظهره، ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ أي جعل نسلهم جيلاً بعد جيل وقرناً بعد قرن، كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ﴾، وقال: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ﴾، وقال: ﴿كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَةِ قَوْمٍ آخَرِينَ﴾، ثم قال: ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾، أي أوجدتهم شاهدين بذلك قائلين له حالاً وقالاً، والشهادة تارة تكون بالقول، كقوله: ﴿قَالُوا شَهِدْنَا

(١) رواه أحمد وأبو داود والنسائي والترمذي وقال: حديث حسن.

(٢) رواه الترمذي وقال: هذا حديث حسن صحيح.

(٣) رواه ابن جرير وابن مردويه من طرق عن هشام بن حكيم.

على أنفسنا ﴿ الآية، وتارة تكون حالاً، كقوله تعالى: ﴿ ما كان للمشركين أن يعمرُوا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر ﴾، أي حالهم شاهد عليهم بذلك لا أنهم قائلون ذلك، وكذا قوله تعالى: ﴿ وإنه على ذلك لشهيد ﴾، كما أن السؤال تارة يكون بالقال وتارة يكون بالحال، كقوله: ﴿ وآتاكم من كل ما سألتموه ﴾. قالوا: ومما يدل على أن المراد بهذا هذا أن جعل هذا الإشهاد حجة عليهم في الإشراك، فلو كان قد وقع هذا كما قاله من قال لكان كل أحد يذكره ليكون حجة عليه، فإن قيل: إخبار الرسول ﷺ به كاف في وجوده؟ فالجواب أن المكذبين من المشركين يكذبون بجميع ما جاءتهم به الرسل من هذا وغيره، وهذا جعل حجة مستقلة عليهم فدل على أنه الفطرة التي فطروا عليها من الإقرار بالتوحيد، ولهذا قال: ﴿ أن تقولوا ﴾ أي لثلاثا تقولوا يوم القيامة ﴿ إنا كنا عن هذا ﴾ أي التوحيد ﴿ غافلين أو تقولوا إنما أشرك آبائنا ﴾ الآية .

وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءآيَاتِنَا فَاسْلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسُهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾

هو رجل من بني إسرائيل، يقال له بلعم بن باعوراء^(١)؛ وقال قتادة عن ابن عباس: هو (صيني بن الراهب)، وقال كعب: كان رجلاً من أهل البلقاء وكان يعلم الاسم الأكبر، وكان مقبلاً ببيت المقدس مع الجبارين، وعن ابن عباس رضي الله عنه: هو رجل من أهل اليمن، يقال له (بلعم) آتاه الله آياته فتركها، وقال مالك بن دينار: كان من علماء بني إسرائيل، وكان مجاب الدعوة يقدمونه في الشدائد، بعثه نبي الله موسى عليه السلام إلى ملك مدين يدعوه إلى الله فأقطعه وأعطاه، فتبع دينه وترك دين موسى عليه السلام. وقال سفيان بن عيينة عن ابن عباس: هو بلعم بن باعوراء، وقال ثقيف: هو أمية بن أبي الصلت، وقال عبد الله بن عمرو في قوله: ﴿ واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا ﴾ الآية، قال: هو صاحبكم أمية بن أبي الصلت؛ وقد روي من غير وجه عنه وهو صحيح إليه، وكأنه إنما أراد أن أمية بن أبي الصلت يشبهه، فإنه كان قد اتصل إليه علم كثير من علم الشرائع المتقدمة، ولكنه لم ينتفع بعلمه. فإنه أدرك زمان رسول الله ﷺ وبلغته أعلامه وآياته ومعجزاته وظهرت لكل من له بصيرة، ومع هذا اجتمع به ولم يتبعه، وصار إلى موالاته المشركين ومناصرتهم وامتداحهم، ورثى أهل بدر من المشركين بمرثاة بليغة قبحه الله. وقد جاء في بعض الأحاديث أنه ممن آمن لسانه ولم يؤمن قلبه، فإن له أشعراً ربانية وحكماً وفصاحة، ولكنه لم يشرح الله صدره للإسلام .

والمشهور في سبب نزول هذه الآية الكريمة: إنما هو رجل من المتقدمين في زمن بني إسرائيل، كما قال ابن

(١) ذكره عبد الرزاق عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .

مسعود وغيره من السلف، وكان يعلم اسم الله الأكبر، وكان مجاب الدعوة، ولا يسأل الله شيئاً إلا أعطاه إياه، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: لما نزل موسى بهم يعني بالجبارين ومن معه آتاه - يعني بلعم - بنو عمه وقومه فقالوا: إن موسى رجل حديد ومعه جنود كثيرة، وإنه إن يظهر علينا يهلكنا، فادع الله أن يرد عنا موسى ومن معه، قال: إني إن دعوت الله أن يرد موسى ومن معه ذهبت دنياي وآخرتي، فلم يزالوا به حتى دعا عليهم فسلخه الله ما كان عليه، فذلك قوله تعالى: ﴿فانسلخ منها فأتبعه الشيطان﴾ الآية. وقال السدي: لما انقضت الأربعون سنة التي قال الله: ﴿فإنها محرمة عليهم أربعين سنة﴾، بعث (يوشع بن نون) نبياً فدعا بني إسرائيل، فأخبرهم أنه نبي، وأن الله أمره أن يقاتل الجبارين، فبايعوه وصدقوه، وانطلق رجل من بني إسرائيل يقال له: (بلعام) فكان عالماً يعلم الاسم الأعظم المكتوم، فكفر - لعنه الله - وأتى الجبارين، وقال لهم: لا ترهبوا بني إسرائيل، فإني إذا خرجتم تقاتلونهم أدعو عليهم دعوة فيهلكون، وقوله تعالى: ﴿فأتبعه الشيطان﴾ أي استحوذ عليه وعلى أمره فهما أمره أمثل وأطاعه، ولهذا قال: ﴿فكان من الغاوين﴾ أي من المهالكين الحائرين البائسين، وقد ورد في معنى هذه الآية حديث (حذيفة بن اليمان) رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «إن مما أخوف عليكم رجل قرأ القرآن حتى إذا رؤيت بهجته عليه وكان رداؤه الإسلام، اعتراه إلى ما شاء الله، انسلخ منه ونبذه وراء ظهره، وسعى على جاره بالسيف، ورماه بالشرك» قال: قلت يا نبي الله أيها أولى بالشرك المرمي أو الرامي؟ قال: «بل الرامي»^(١). وقوله تعالى: ﴿ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه﴾، يقول تعالى: ﴿ولو شئنا لرفعناه بها﴾ أي لرفعناه من التدنس عن قاذورات الدنيا بالآيات التي آتيناها إياها، ﴿ولكنه أخلد إلى الأرض﴾ أي مال إلى زينة الحياة الدنيا وزهرتها، وأقبل على لذاتها ونعيمها، وغرته كما غرت غيره من غير أولي البصائر والنهي.

قال محمد بن إسحاق بن يسار عن سالم عن أبي النضر: أنه حدث أن موسى عليه السلام لما نزل في أرض بني كنعان من أرض الشام أتى قوم بلعام إليه، فقالوا له هذا (موسى بن عمران) في بني إسرائيل، قد جاء يخرجنا من بلادنا ويقتلنا ويحلها بني إسرائيل، وإنا قومك، وليس لنا منزل، وأنت رجل مجاب الدعوة، فأخرج فادع الله عليهم قال: ويلكم نبي الله معه الملائكة والمؤمنون، كيف أذهب أدعو عليه وأنا أعلم من الله ما أعلم؟ قالوا له: ما لنا من منزل، فلم يزالوا به يرفقونه ويتضرعون إليه حتى فتنوه، فافتتن؛ فركب حمارة له متوجهاً إلى الجبل الذي يطلعه على عسكر بني إسرائيل - وهو جبل حسيبان - فلما سار عليها غير كثير ربضت به فتزل عنها فضر بها، حتى إذا أزلقها قامت فركبها، فلم تسر به كثيراً حتى ربضت به فضر بها، حتى إذا أزلقها أذن لها فكلمته حجة عليه، فقالت: ويحك يا بلعم أين تذهب؟ أما ترى الملائكة أمامي تردني عن وجهي هذا؟ تذهب إلى نبي الله والمؤمنين لتدعو عليهم، فلم يتزع عنها، فضر بها، ففخلى الله سبيلها، حين فعل بها ذلك، فانطلقت به حتى إذا أشرفت به على رأس حسيبان على عسكر موسى وبني إسرائيل جعل يدعو عليهم ولا يدعو عليهم بشر إلا صرف الله لسانه إلى قومه، ولا يدعو لقومه بخير إلا صرف لسانه إلى بني إسرائيل، فقال له قومه: أنتدري يا بلعم ما تصنع؟ إنما تدعو لهم وتدعو علينا، قال: فهذا ما لا أملك. هذا شيء قد غلب الله عليه، قال: واندلع لسانه فوقع على

(١) أخرجه الحافظ أبو يعلى الموصلي قال ابن كثير: إسناده جيد.

صدره، فقال لهم: قد ذهبت مني الآن الدنيا والآخرة، ولم يبق إلا المكر والحيلة، فسأمر لكم وأحتال، جملوا النساء وأعطوهن السلع، ثم أرسلوهن إلى العسكر يبعثها فيه، ومروهن فلا تمنع امرأة نفسها من رجل أرادها، فإنهم إن زنى رجل منهم واحد كفيتموهم، ففعلوا، فلما دخل النساء العسكر مرت امرأة من الكنعانيين برجل من عظماء بني إسرائيل وهو (زمري بن شلوم) رأس سبط شمعون بن يعقوب، فلما رآها أعجبتة، فقام فأخذ بيدها، وأتى بها موسى وقال: إني أظنك ستقول: هذا حرام عليك لا تقربها، قال: أجل هي حرام عليك، قال: فوالله لا أطيعك في هذا، فدخل بها قبته، فوقع عليها، وأرسل الله عز وجل الطاعون في بني إسرائيل، وكان (فنحاص) صاحب أمر موسى غائباً حين صنع زمري بن شلوم ما صنع، فجاء الطاعون يجوس فيهم، فأخبر الخبر، فأخذ حربته ثم دخل القبة وهما متضاجعان فانتظهما بحرثته ثم خرج بهما رافعهما إلى السماء وجعل يقول: اللهم هكذا نفعل بمن يعصيك، ورفع الطاعون، فحسب من هلك من بني إسرائيل في الطاعون فيما بين أن أصاب زمري المرأة إلى أن قتله فنحاص، فوجدوه قد هلك منهم سبعون ألفاً، والمقلل لهم يقول عشرون ألفاً في ساعة من النهار، ففي بلعام بن باعوراء أنزل الله: ﴿واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها - إلى قوله - لعلهم يتفكرون﴾^(١).

وقوله تعالى: ﴿فثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث﴾ اختلف المفسرون في معناه، فعلى سياق ابن إسحاق عن سالم عن أبي النضر أن بلعاماً اندلع لسانه على صدره فتشبيهه بالكلب في لهثه في كلتا حالتيه إن زجر وإن ترك ظاهر، وقيل: معناه فصار مثله في ضلاله واستمراره فيه وعدم انتفاعه بالدعاء إلى الإيمان وعدم الدعاء، كالكلب في لهثه في حالتيه إن حملت عليه، وإن تركته هو يلهث في الحالين، فكذلك هذا لا ينتفع بالموعظة والدعوة إلى الإيمان ولا عدمه، كما قال تعالى: ﴿سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون﴾، ﴿استغفر لهم أو لا تستغفر لهم﴾. وقيل: معناه أن قلب الكافر والمنافق والضال ضعيف فارغ من الهدى فهو كثير الوجيب فعبر عن هذا بهذا^(٢)، وقوله تعالى: ﴿فاقصص القصص لعلهم يتفكرون﴾، يقول تعالى لنبية محمد ﷺ: ﴿فاقصص القصص لعلهم﴾ أي لعل بني إسرائيل العالمين بحال بلعام، وما جرى له في إضلال الله إياه وإبعاده من رحمته، بسبب أنه استعمل نعمة الله عليه في تعليمه الاسم الأعظم الذي إذا سئل به أعطى، وإذا دعي به أجاب، في غير طاعة ربه، بل دعا به على حزب الرحمن، وشعب الإيمان، أتباع عبده ورسوله في ذلك الزمان، كلم الله موسى بن عمران عليه السلام، ولهذا قال: ﴿لعلهم يتفكرون﴾ أي فيحذروا أن يكونوا مثله، فإن الله قد أعطاهم علماً وميزهم على من عداهم من الأعراب، وجعل بأيديهم صفة محمد ﷺ يعرفونها كما يعرفون أبناءهم، فهم أحق الناس وأولاهم باتباعه ومناصرتة وموازرتة كما أخبرتهم أنبياءهم بذلك وأمرتهم به، ولهذا من خالف منهم ما في كتابه وكتمه فلم يعلم به العباد، أحل الله به ذلاً في الدنيا موصولاً بذل الآخرة، وقوله: ﴿سواء مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا﴾ يقول تعالى: سواء مثلاً مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا أي سواء مثلهم أن شهبوا

(١) رواه محمد بن إسحاق عن سالم أبي النضر وأخرجه ابن جرير بمثله وفيه أن الزنى وقع من عدد من الجند الذين كانوا مع موسى عليه السلام فسلب الله عليهم الطاعون فمات منهم سبعون ألفاً.

(٢) نقل نحو هذا عن الحسن البصري وغيره.

بالكلاب التي لا همة لها إلا في تحصيل أكلة أو شهوة، فمن خرج عن حيز العلم والهدى وأقبل على شهوة نفسه، واتبع هواه صار شبيهاً بالكلب وبئس المثل مثله؛ ولهذا ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: « ليس منا مثل السوء، العائد في هبته كالكلب يعود في قيئه »^(١) وقوله: ﴿ وَأَنْفُسُهُمْ كَانُوا يَظْلَمُونَ ﴾ أي ما ظلمهم الله، ولكن هم ظلموا أنفسهم بإعراضهم عن اتباع الهدى وطاعة المولى، إلى الركون إلى دار البلى، والاقبال على تحصيل اللذات وموافقة الهوى .

مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدَىٰ وَمَنْ يُضِلِّ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٧٨﴾

يقول تعالى: من هداه الله فإنه لا مضل له، ومن أضله فقد خاب وخسر وضل لا محالة، فإنه تعالى ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، ولهذا جاء في حديث ابن مسعود: « إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغديه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل الله فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله »^(٢).

وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَانُوا لَنَا نَعِيمًا بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْعَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾

يقول تعالى: ﴿ ولقد ذرأنا لجهنم ﴾ أي خلقنا وجعلنا لجهنم ﴿ كثيراً من الجن والإنس ﴾ أي هيأناهم لها وبعمل أهلها يعملون، فإنه تعالى لما أراد أن يخلق الخلق علم ما هم عاملون قبل كونهم، فكتب ذلك عنده في كتاب قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، كما ورد في صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال: « إن الله قدر مقادير الخلق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء »، وفي صحيح مسلم أيضاً عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أنها قالت: دعي النبي ﷺ إلى جنازة صبي من الأنصار، فقلت: يا رسول الله طوبى له، عصفور من عصفائر الجنة لم يعمل السوء ولم يدركه، فقال رسول الله ﷺ: « أو غير ذلك يا عائشة، إن الله خلق الجنة وخلق لها أهلاً وهم في أصلاب آبائهم، وخلق النار وخلق لها أهلاً وهم في أصلاب آبائهم ». وفي الصحيحين من حديث ابن مسعود: « ثم بيعت الله إليه الملك، فيؤمر بأربع كلمات، فيكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أم سعيد »، وتقدم أن الله لما استخرج ذرية آدم من صلبه، وجعلهم فريقين أصحاب اليمين وأصحاب الشمال قال: « هؤلاء للجنة ولا أبالي، وهؤلاء للنار ولا أبالي »، والأحاديث في هذا كثيرة. وقوله تعالى: ﴿ لهم قلوب لا يفقهون بها وهم أعين لا يبصرون بها وهم آذان لا يسمعون بها ﴾ يعني ليس ينتفعون بشيء من هذه الجوارح التي جعلها الله سبباً للهداية، كما قال تعالى: ﴿ وجعلنا لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء إذ كانوا يجحدون بآيات الله ﴾ الآية، وقال تعالى:

(١) هو في الصحيحين من حديث ابن عباس . (٢) الحديث بتأمه رواه الإمام أحمد وأهل السنن .

﴿صم بكم عمي فهم لا يرجعون﴾ هذا في حق المنافقين، وقال في حق الكافرين: ﴿صم بكم عمي فهم لا يعقلون﴾ ولم يكونوا صماً ولا بكماً ولا عمياً إلا عن الهدى، كما قال تعالى: ﴿ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون﴾، وقال: ﴿فإنها لا تعمي الأبصار ولكن تعمي القلوب التي في الصدور﴾، وقال: ﴿ومن يعيش عن ذكر الرحمن نقیض له شيطاناً فهو له قرين﴾، وقوله تعالى: ﴿أولئك كالأنعام﴾ أي هؤلاء الذين لا يسمعون الحق ولا يعون ولا يبصرون الهدى، كالأنعام السارحة التي لا تنتفع بهذه الحواس منها إلا في الذي يقينها في ظاهر الحياة الدنيا، كقوله تعالى: ﴿ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء﴾ أي ومثلهم في حال دعائهم إلى الإيمان كمثل الأنعام إذا دعاها راعيها لا تسمع إلا صوته، ولا تفقه ما يقول، ولهذا قال في هؤلاء: ﴿بل هم أضل﴾ أي من الدواب، لأنها قد تستجيب مع ذلك لراعيها إذا أنس بها، وإن لم تفقه كلامه بخلاف هؤلاء؛ ولأنها تفعل ما خلقت له إما بطبعها وإما بتسخيرها بخلاف الكافر، فإنه إنما خلق ليعبد الله ويوحده فكفر بالله وأشرك به، ولهذا من أطاع الله من البشر كان أشرف من مثله من الملائكة في معاده، ومن كفر به من البشر كانت الدواب أتم منه، ولهذا قال تعالى: ﴿أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون﴾.

وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٨١﴾

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «إن لله تسعاً وتسعين اسماً مائة إلا واحداً من أحصاها دخل الجنة، وهو وتر يحب الوتر»^(١). ثم ليعلم أن الأسماء الحسنى غير منحصرة في تسعة وتسعين، بدليل ما رواه الإمام أحمد في مسنده عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ما أصاب أحداً قط هم ولا حزن فقال: اللهم إني عبدك ابن عبدك، ابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماضٍ في حركك، عدل في قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحداً من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني، وذهاب همي، إلا أذهب الله حزنه وهمه، وأبدل مكانه فرحاً». فقيل: يا رسول الله أفلا نتعلمها؟ فقال: «بلى ينبغي لكل من سمعها أن يتعلمها». وذكر ابن العربي أحد أئمة المالكية في كتابه (الأحوذى في شرح الترمذي) أن بعضهم جمع من الكتاب والسنة من أسماء الله ألف اسم، فالله أعلم. وقال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وذروا الذين يلحدون في أسمائهم﴾، قال: إلحاد الملحدين أن دعوا اللات في أسماء الله، وقال مجاهد: اشتقوا اللات من الله، والعزى من العزيز، وقال قتادة: يلحدون: يشركون في أسمائهم. وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: الإلحاد: التكذيب، وأصل الإلحاد في كلام العرب العدول عن القصد، والميل والجور والانحراف، ومنه اللحد في القبر لانحرافه إلى جهة القبلة عن سمت الحفر.

وَمِنْ خَلْقِنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾

(١) أخرجه الشيخان والترمذي وابن ماجه وزاد الترمذي (هو الله الذي لا إله إلا هو الرحمن الرحيم الملك القدوس السلام المؤمن ..) وذكر أسماء الله الحسنى.

يقول تعالى: ﴿وَمَنْ خَلَقْنَا﴾ أي بعض الأمم ﴿أمة﴾ قائمة بالحق قولاً وعملاً ﴿يهدون بالحق﴾ يقولونه ويدعون إليه، ﴿وبه يعدلون﴾ يعملون ويقضون، وقد جاء في الآثار أن المراد في الآية هذه الأمة المحمدية، قال قتادة: بلغني أن النبي ﷺ كان يقول إذا قرأ هذه الآية: « هذه لكم، وقد أعطي القوم بين أيديكم مثلها، ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون ». وقال رسول الله ﷺ: « إن من أمتي قوماً على الحق حتى ينزل عيسى ابن مريم متى ما نزل »، وفي الصحيحين عن معاوية بن أبي سفيان قال، قال رسول الله ﷺ: « لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى تقوم الساعة »، وفي رواية: « حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك » .

وَالَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمَلِي لَهُمْ إِن كِيدِي مِنِّي ﴿١٨٣﴾

يقول تعالى: ﴿والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لا يعلمون﴾ ومعناه أنه يفتح لهم أبواب الرزق ووجوه المعاش في الدنيا حتى يغتروا بما هم فيه ويعتقدوا أنهم على شيء، كما قال تعالى: ﴿فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون﴾، ولهذا قال تعالى: ﴿وأملي لهم﴾ أي وسأملي لهم أي أطول لهم ما هم فيه ﴿إن كيدي متين﴾ أي قوي سديد .

أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِّنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾

يقول تعالى: ﴿أولم يتفكروا﴾ هؤلاء المكذبون بآياتنا ﴿ما بصاحبهم﴾ يعني محمداً ﷺ ﴿من جنة﴾ أي ليس به جنون بل هو رسول الله حقاً، دعا إلى حق ﴿إن هو إلا نذير مبين﴾ أي ظاهر لمن كان له لب وقلب يعقل به ويعي به كما قال تعالى: ﴿وما صاحبكم بمجنون﴾، وقال تعالى: ﴿ثم تفكروا ما بصاحبكم من جنة إن هو إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد﴾، يقول ﴿ثم تفكروا﴾ في هذا الذي جاءكم بالرسالة من الله أبه جنون أم لا، فإنكم إذا فعلتم ذلك بان لكم وظهر أنه رسول الله حقاً وصدقاً، وقال قتادة: ذكر لنا أن نبي الله ﷺ كان على الصفا فدعا قريشاً، فجعل يفخذهم فخذاً فخذاً، يا بني فلان، يا بني فلان، فحذرهم بأس الله ووقائع الله، فقال قائلهم: إن صاحبكم هذا لمجنون، بات يصوت إلى الصباح أو حتى أصبح، فأنزل الله تعالى: ﴿أولم يتفكروا ما بصاحبهم من جنة إن هو إلا نذير مبين﴾ .

* أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ

أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾

يقول تعالى: أولم ينظر هؤلاء المكذبون بآياتنا في ملك الله وسلطانه في السموات والأرض، وفيما خلق من شيء فيهما، فيتدبروا ذلك ويعتبروا به، فيؤمنوا بالله ويصدقوا رسوله، وينيبوا إلى طاعته، ويخلعوا الأنداد والأوثان، ويحلحروا أن تكون آجالهم قد اقتربت فيهلكوا على كفرهم، ويصيروا إلى عذاب الله وألم عقابه، وقوله: ﴿فبأي

حديث بعده يؤمنون ﴿ يقول: فبأي تخويفٍ وتحذيرٍ وترهيبٍ بعد تحذير محمد ﷺ وترهيبه الذي أتاهم به من عند الله، يصدقون إن لم يصدقوا بهذا الحديث الذي جاءهم به محمد من عند الله عز وجل؟

مَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذُرُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾

يقول تعالى من كتب عليه الضلالة فإنه لا يهديه أحد، ولو نظر لنفسه فيما نظر فإنه لا يجزي عنه شيئاً ﴿ ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئاً ﴾، وكما قال تعالى: ﴿ قل انظروا ماذا في السموات والأرض وما تعني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون ﴾ .

يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مَرْسُهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾

يقول تعالى: ﴿ يسألونك عن الساعة ﴾ قيل: نزلت في قريش، وقيل في نفر من اليهود، والأول أشبه لأن الآية مكية، وكانوا يسألون عن وقت الساعة استبعاداً لوقوعها وتكذيباً بوجودها، كما قال تعالى: ﴿ ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ﴾، وقال تعالى: ﴿ يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق ﴾، وقوله: ﴿ أيان مرساها ﴾. قال ابن عباس: منتهاها أي متى محطها، وأيان آخر مدة الدنيا الذي هو أول وقت الساعة: ﴿ قل إنما علمها عند ربي لا يجليها لوقتها إلا هو ﴾، أمر تعالى رسوله ﷺ إذا سئل عن وقت الساعة أن يرد علمها إلى الله تعالى، فإنه هو الذي يظهر أمرها، ومتى يكون على التحديد، لا يعلم ذلك إلا هو تعالى، ولهذا قال: ﴿ ثقلت في السموات والأرض ﴾. قال قتادة: ثقل علمها على أهل السموات والأرض، قال الحسن: إذا جاءت ثقلت على أهل السموات والأرض، يقول كبرت عليهم، وقال الضحاك عن ابن عباس في قوله: ﴿ ثقلت في السموات والأرض ﴾ قال: ليس شيء من الخلق إلا يصيبه من ضرر يوم القيامة؛ وقال ابن جريج: إذا جاء انشقت السماء، وانتثرت النجوم وكورت الشمس، وسيرت الجبال، وكان ما قال الله عز وجل، فذلك ثقلها، واختار ابن جرير رحمه الله أن المراد: ثقل علم وقتها على أهل السموات والأرض كما قال قتادة، كقوله تعالى: ﴿ لا تأتیکم إلا بغتة ﴾، ولا يبنى ذلك ثقل مجيئها على أهل السموات والأرض والله أعلم، وقال السدي: خفيت في السموات والأرض، فلا يعلم قيامها حين تقوم ملك مقرب ولا نبي مرسل ﴿ لا تأتیکم إلا بغتة ﴾ يعثهم قيامها تأتهم على غفلة، وقال قتادة: قضى الله أنها ﴿ لا تأتیکم إلا بغتة ﴾ قال: وذكر لنا أن نبي الله ﷺ كان يقول: « إن الساعة تهيج بالناس، والرجل يصلح حوضه والرجل يسقي ماشيته، والرجل يقيم سلعته في السوق، ويخفض ميزانه ويرفعه ». وقال البخاري عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: « لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت ورآها الناس آمنوا أجمعون، فذلك حين لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من

قبل أو كسبت في إيمانها خيراً، ولتقوم الساعة، وقد نشر الرجلان ثوبهما فلا يتباعدانه ولا يطويانه، ولتقوم الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لقحته فلا يطعمه، ولتقوم الساعة وهو يليط حوضه فلا يسقي فيه، ولتقوم الساعة والرجل قد رفع أكلته إلى فيه فلا يطعمها .

وقوله تعالى: ﴿ يسألونك كأنك حني عنها ﴾ اختلف المفسرون في معناه، فقيل: معناه كأن بينك وبينهم مودة كأنك صديق لهم، قال ابن عباس: لما سأل الناس النبي ﷺ عن الساعة سأله سؤال قوم كأنهم يرون أن محمداً حني بهم، فأوحى الله إليه: إنما علمها عنده استأثر به فلم يطلع الله عليها ملكاً مقرباً ولا رسولاً، وقال قتادة: قالت قریش لمحمد ﷺ: إن بيننا وبينك قرابة فأسرر إلينا متى الساعة؟ فقال الله عز وجل: ﴿ يسألونك كأنك حني عنها ﴾، والصحيح عن مجاهد قال: استحضيت عنها السؤال حتى علمت وقتها، وكذا قال الضحاك عن ابن عباس: كأنك عالم بها لست تعلمها، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ﴿ كأنك حني عنها ﴾: كأنك بها عالم وقد أخفى الله علمها على خلقه، وقرأ: ﴿ إن الله عنده علم الساعة ﴾ الآية؛ وهذا القول أرجح في المقام من الأول، والله أعلم، ولهذا قال: ﴿ قل إنما علمها عند الله ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾، ولهذا لما جاء جبريل عليه السلام في صورة أعرابي ليعلم الناس أمر دينهم، فجلس من رسول الله ﷺ مجلس السائل المسترشد، وسأله ﷺ عن الإسلام، ثم عن الإيمان، ثم عن الإحسان، ثم قال: فمتى الساعة؟ قال له رسول الله ﷺ: « ما المسئول عنها بأعلم من السائل » أي لست أعلم بها منك ولا أحد أعلم بها من أحد، ثم قرأ النبي ﷺ: ﴿ إن الله عنده علم الساعة ﴾ الآية، وفي رواية: فسأله عن أشراط الساعة فبين له أشراط الساعة، ثم قال: « في خمس لا يعلمهن إلا الله »، وقرأ هذه الآية، ثم لما انصرف قال رسول الله ﷺ: « هذا جبريل أتاكم يعلمكم دينكم »^(١)، ولما سأله ذلك الأعرابي وناداه بصوت جهوري فقال: يا محمد، قال له رسول الله ﷺ: « هاؤم » على نحو من صوته، قال: يا محمد متى الساعة؟ فقال له رسول الله ﷺ: « ويحك إن الساعة آتية فما أعددت لها ؟ » قال: ما أعددت لها كبير صلاة ولا صيام، ولكي أحب الله ورسوله، فقال له رسول الله ﷺ: « المرء مع من أحب » فما فرح المسلمون بشيء فرحهم بهذا الحديث .

وقال الإمام أحمد عن حذيفة قال: سئل رسول الله ﷺ عن الساعة، فقال: « علمها عند ربي عز وجل لا يجليها لوقتها إلا هو، ولكن سأخبركم بمشارطها وما يكون بين يديها: إن بين يديها فتنة وهرجاً » قالوا: يا رسول الله الفتنة قد عرفناها، فما الهرج؟ قال: « بلسان الحبشة: القتل »، قال: « ويلقى بين الناس التناكر فلا يكاد أحد يعرف أحداً ». وقال وكيع عن طارق بن شهاب قال: كان رسول الله ﷺ لا يزال يذكر من شأن الساعة، حتى نزلت: ﴿ يسألونك عن الساعة أيان مرساها ﴾ الآية، وهذا إسناد جيد قوي، فهذا النبي الأمي سيد الرسل وخاتمهم محمد صلوات الله عليه وسلامه نبي الرحمة ونبي التوبة ونبي الملحمة، والعاقب والمقفي والحاشر، الذي تحشر الناس على قدميه مع قوله فيما ثبت عنه في الصحيح من حديث أنس وسهل بن سعد رضي الله عنهما:

(١) قال ابن كثير: قد ذكرت هذا الحديث بطرقه وألفاظه من الصحاح والحسان والمسائيد في أول شرح البخاري .

« بعثت أنا والساعة كهاتين » وقرن بين إصبعيه السبابة والتي تليها، ومع هذا كله قد أمره الله أن يرد علم وقت الساعة إليه إذا سئل عنها، فقال: ﴿ قل إن علمها عند الله ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ .

قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَأَسْتَكْثِرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾

أمره الله تعالى أن يفوض الأمور إليه وأن يخبر عن نفسه أنه لا يعلم الغيب المستقبل ولا اطلاع له على شيء من ذلك إلا بما أطلعه الله عليه، كما قال تعالى: ﴿ عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً ﴾ الآية، وقوله: ﴿ ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير ﴾، قال مجاهد: لو كنت أعلم متى أموت لعملت عملاً صالحاً. والأحسن في هذا ما رواه الضحاك عن ابن عباس ﴿ ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير ﴾: أي من المال، وفي رواية: لعلمت إذا اشتريت شيئاً ما أربح فيه، فلا أبيع شيئاً إلا ربحت فيه، ولا يصيبني الفقر. وقال ابن جرير: وقال آخرون: معنى ذلك لو كنت أعلم الغيب لأعددت للسنة المجذبة من المخصبة، ولوقت الغلاء من الرخص، فاستعددت له من الرخص، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ﴿ وما مسني السوء ﴾ قال: لاجتنبت ما يكون من الشر أن يكون واتقيته، ثم أخبر أنه هو نذير وبشير، أي نذير من العذاب وبشير للمؤمنين بالجنات، كما قال تعالى: ﴿ فإنما يسرناه بلسانك لتبشر به المتقين وتنذر به قوماً لداً ﴾ .

* هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمَلاً خَفِيًّا فَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْنَا صَلَاحًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّا أَتَتْهُمَا صَلَاحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَلَّى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾

ينبه تعالى على أنه خلق جميع الناس من آدم عليه السلام وأنه خلق منه زوجته حواء، ثم انتشر الناس منهما، كما قال تعالى: ﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها ﴾ الآية، وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿ وجعل منها زوجها ليسكن إليها ﴾ ليألفها ويسكن بها، كقوله تعالى: ﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة ﴾ فلا ألفة أعظم مما بين الزوجين، ولهذا ذكر تعالى أن الساحر ربما توصل بكيدته إلى التفرقة بين المرء وزوجه، ﴿ فلما تغشاها ﴾ أي وطئها ﴿ حملت حملاً خفياً ﴾ وذلك أول الحمل لا تجد المرأة له المأ إلا ما هي النطفة ثم العلقة ثم المضغة، وقوله: ﴿ فرت به ﴾، قال مجاهد: استمرت بحمله، وقال أيوب سألت الحسن عن قوله: ﴿ فرت به ﴾ قال: لو كنت رجلاً عربياً لعرفت ما هي، إنما هي: فاستمرت به، وقال قتادة ﴿ فرت به ﴾: استبان حملها، وقال العوفي عن ابن عباس: استمرت به فشكت أحملت أم لا، ﴿ فلما أثقلت ﴾ أي صارت ذات ثقل بحملها، وقال السدي: كبر الولد في بطنها، ﴿ دعوا الله ربهما لئن آتيتنا صالحاً ﴾ أي بشراً سويّاً،

كما قال الضحاك عن ابن عباس: أشفقاً أن يكون بهيمة. وقال الحسن البصري: لئن آتيتنا غلاماً لنكونن من الشاكرين ﴿ فلما آتاها صالحاً جعلاً له شركاء فيما آتاها فتعالى الله عما يشركون ﴾. ذكر المفسرون ههنا آثاراً وأحاديث سأوردها وأبين ما فيها .

قال الإمام أحمد في مسنده عن الحسن عن سمرة عن النبي ﷺ قال: « لما ولدت حواء طاف بها إبليس، وكان لا يعيش لها ولد، فقال: سميه (عبد الحارث) فإنه يعيش، فسمته عبد الحارث فعاش، وكان ذلك من وحي الشيطان وأمره »^(١). قال ابن جرير عن الحسن ﴿ جعلاً له شركاء فيما آتاها ﴾ قال: كان هذا في بعض أهل الملل ولم يكن بآدم، وعن قتادة قال كان الحسن يقول: هم اليهود والنصارى رزقهم الله أولاداً فهودوا ونصروا، وهذه أسانيد صحيحة عن الحسن رضي الله عنه أنه فسر الآية بذلك، وهو من أحسن التفاسير، وأولى ما حملت عليه الآية، ولو كان هذا الحديث عنده محفوظاً عن رسول الله ﷺ لما عدل عنه هو ولا غيره، فهذا يدل على أنه موقوف على الصحابي، وعن ابن عباس قال: كانت حواء تلد لآدم عليه السلام أولاداً فيعبدهم لله ويسميهم عبد الله وعبيد الله ونحو ذلك، فيصيبهم الموت، فآتاها إبليس فقال: إنكما لو سميتاه بغير الذي تسميانه به لعاش، قال فولدت له رجلاً فسماه عبد الحارث، ففيه أنزل الله يقول: ﴿ هو الذي خلقكم من نفس واحدة - إلى قوله - جعلاً له شركاء فيما آتاها ﴾ إلى آخر الآية، وعنه قال: آتاها الشيطان فقال: هل تدرين ما يولد لكما! أم هل تدرين ما يكون أبهيمه أم لا؟ وزين لهما الباطل، وقد كانت قبل ذلك ولدت ولدين فآتاها، فقال لهما الشيطان: إنكما إن لم تسمياه بي لم يخرج سوياً ومات، كما مات الأول، فسميا ولدهما عبد الحارث، فذلك قول الله تعالى: ﴿ فلما آتاها صالحاً جعلاً له شركاء فيما آتاها ﴾ الآية. وروى ابن أبي حاتم عن أبي بن كعب قال: لما حملت حواء آتاها الشيطان فقال لها: أتطيعيني ويسلم لك ولدك؟ سميه عبد الحارث، فلم تفعل، فولدت فآت، ثم حملت فقال لها مثل ذلك فلم تفعل، ثم حملت الثالثة فجاءها فقال: إن تطيعيني يسلم، وإلا فإنه يكون بهيمة فهيها فأطاعا، وهذه الآثار يظهر عليها والله أعلم أنها من آثار أهل الكتاب، وأما نحن فعلى مذهب الحسن البصري رحمه الله في هذا، وأنه ليس المراد من هذا السياق (آدم وحواء) وإنما المراد من ذلك المشركون من ذريته، ولهذا قال الله: ﴿ فتعالى الله عما يشركون ﴾ فذكر آدم وحواء أولاً كالتوطئة لما بعدهما من الوالدين، وهو كالأستطراد من ذكر الشخص إلى الجنس كقوله: ﴿ ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح ﴾ الآية، ومعلوم أن المصابيح وهي النجوم التي زينت بها السماء ليست هي التي يرمى بها، وإنما هذا استطراد من شخص المصابيح إلى جنسها، ولهذا نظائر في القرآن، والله أعلم .

* أَيْشِرُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلِقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ ﴿١٩٢﴾
وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ سِوَاءَ عَلَيْكُمْ أَدْعُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَالِمُونَ ﴿١٩٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ

(١) رواه أحمد والترمذي والحاكم في المستدرک قال ابن كثير: وهذا الحديث معلول وقد رجح رحمه الله كونه موقوفاً على الصحابي ويين أنه غير مرفوع وضعف ما ورد من آثار .

مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَلُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَمْ أَرْجُلْ يَمشُونَ بِهَا أَمْ لَمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَمْ أَأْذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾ إِنَّ إِلَهِي اللَّهُ الَّذِي نَزَلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴿١٩٦﴾ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾

هذا إنكار من الله على المشركين الذين عبدوا مع الله غيره من الأنداد والأصنام والأوثان، وهي مخلوقة لله مربوبة مصنوعة، لا تملك شيئاً من الأمر، ولا تضر ولا تنفع، ولا تبصر ولا تنتصر لعابديها، بل هي جماد لا تتحرك ولا تسمع ولا تبصر وعابدها أكمل منها بسمعهم وبصرهم وبطشهم، ولهذا قال: ﴿أيشركون ما لا يخلق شيئاً وهم يخلقون﴾ أي أشركون به من المعبودات ما لا يخلق شيئاً ولا يستطيع ذلك، كقوله تعالى: ﴿إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب﴾ أخبر تعالى أن آلهتهم لو اجتمعوا كلهم ما استطاعوا خلق ذبابة، بل لو سلبتهم الذبابة شيئاً من حقير المطاعم وطارت لما استطاعوا إنقاذه منها، فمن هذه صفته وحاله كيف يعبد ليرزق ويستنصر؟ ولهذا قال تعالى: ﴿لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون﴾ أي بل هم مخلوقون مصنوعون كما قال الخليل: ﴿أتعبدون ما تنحتون﴾ الآية، ثم قال تعالى: ﴿ولا يستطيعون لهم نصراً﴾ أي لعابديهم ﴿ولا أنفسهم ينصرون﴾ يعني ولا لأنفسهم ينصرون ممن أرادهم بسوء، كما كان الخليل عليه الصلاة والسلام يكسر أصنام قومه وبينها غاية الإهانة كما أخبر تعالى عنه في قوله: ﴿فراغ عليهم ضرباً باليمين﴾، وقال تعالى: ﴿فجعلهم جذاذاً إلا كبيراً لهم لعلهم إليه يرجعون﴾، وكما كان (معاذ بن عمرو بن الجموح) و (معاذ بن جبل) رضي الله عنهما، وكانا شابين قد أسلما لما قدم رسول الله ﷺ المدينة، فكانا يعدوان في الليل على أصنام المشركين يكسرانها ويتلفانها ويتخذانها حطباً للأرامل، ليعتبر قومهما بذلك، ليرتاوا لأنفسهم، فكان لعمر بن الجموح، وكان سيداً في قومه، صنم يعبده ويطيبه، فكانا يجيئان في الليل فينكسانه على رأسه، ويلطخان بالعدنة، فيجيء (عمر بن الجموح) فيرى ما صنع به، فيغسله ويطيبه ويضع عنده سيفاً ويقول له: انتصر، ثم يعودان لمثل ذلك ويعود إلى صنيعه أيضاً، حتى أخذه مرة فقرناه مع كلب ميت، ودلياه في جبل في بئر هناك، فلما جاء عمرو بن الجموح، ورأى ذلك نظر، فعلم أن ما كان عليه من الدين باطل وقال:

تالله لو كنت إلهاً مستدن لم تك والكلب جميعاً في قرن

ثم أسلم فحسن إسلامه، وقتل يوم أحد شهيداً رضي الله عنه وأرضاه وجعل جنة الفردوس مأواه. وقوله: ﴿وإن تدعوهم إلى الهدى لا يتبعوكم﴾ الآية، يعني أن هذه الأصنام لا تسمع دعاء من دعاها، وسواء لديها من دعاها ومن دعاها كما قال إبراهيم: ﴿يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً﴾، ثم ذكر

تعالى أنها عبيد مثل عابديها أي مخلوقات مثلهم، بل الأناس أكمل منها، لأنها تسمع وتبصر وتبتطش، وتلك لا تفعل شيئاً من ذلك .

وقوله تعالى: ﴿ قُل ادعوا شركاءكم ﴾ الآية، أي استنصروا بها عليّ فلا تؤخروني طرفة عين واجهدوا جهدكم، ﴿ إن وليي الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين ﴾ أي الله حسبي وكافيني وهو نصيري وعليه متكلي وإليه ألبأ، وهو وليي في الدنيا والآخرة وهو ولي كل صالح بعدي، وهذا كما قال هود عليه السلام: ﴿ إني توكلت على الله ربي وربكم ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم ﴾، وكقول الخليل: ﴿ أفرايتم ما كنتم تعبدون أنتم وآبائكم الأقدمون * فإنهم عدو لي إلا رب العالمين ﴾ الآيات، وكقوله لأبيه وقومه: ﴿ إني براء مما تعبدون إلا الذي فطرني فإنه سيهدين ﴾، وقوله: ﴿ والذين تدعون من دونه ﴾ إلى آخر الآية؛ مؤكداً لما تقدم إلا أنه بصيغة الخطاب وذاك بصيغة الغيبة، ولهذا قال: ﴿ لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون ﴾، وقوله: ﴿ وإن تدعوهم إلى الهدى لا يسمعون ولا يسمعون وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون ﴾، كقوله تعالى: ﴿ إن تدعوهم لا يسمعون دعاءكم ﴾ الآية، وقوله: ﴿ وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون ﴾، إنما قال: ﴿ ينظرون إليك ﴾ أي يقابلونك بعيون مصورة كأنها ناظرة وهي جماد، ولهذا عاملهم معاملة من يعقل لأنها على صور مصورة كالإنسان وتراهم ينظرون إليك، فعبر عنها بضمير من يعقل، وقال السدي: المراد بهذا المشركون، والأول أولى، وهو اختيار ابن جرير .

﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ ﴿١٩٩﴾ وَإِنَّمَا يَنْزَعَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾

قال ابن عباس ﴿ خذ العفو ﴾ يعني خذ ما عفا لك من أموالهم وما أتوك به من شيء فخذ، وكان هذا قبل أن تنزل براءة بفرائض الصدقات وتفصيلها وما انتهت إليه الصدقات، وقال الضحاك عن ابن عباس: أنفق الفضل، وقال عبد الرحمن بن أسلم: أمره الله بالعفو والصفح عن المشركين عشر سنين، ثم أمره بالغلظة عليهم، واختار هذا القول ابن جرير، وقال غير واحد عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿ خذ العفو ﴾ قال: من أخلاق الناس وأعمالهم من غير تجسس، وفي صحيح البخاري عن عبد الله بن الزبير قال: إنما أنزل ﴿ خذ العفو ﴾ من أخلاق الناس . وفي رواية عن أبي الزبير: ﴿ خذ العفو ﴾ قال: من أخلاق الناس والله لا يخذنه منهم ما صحبتهم، وهذا أشهر الأقوال، ويشهد له ما روي عن أبي قال: لما أنزل الله عز وجل على نبيه ﷺ ﴿ خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين ﴾ قال رسول الله ﷺ: « ما هذا يا جبريل ؟ » قال: إن الله أمرك أن تعفو عن ظلمك، وتعطي من حرمك، وتصل من قطعك^(١). وقال الإمام أحمد عن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: لقيت رسول الله ﷺ فابتدأته، فأخذت بيده، فقلت: يا رسول الله أخبرني بفواضل الأعمال، فقال: « يا عقبة صل من قطعك، وأعط من حرمك، وأعرض عن ظلمك » .

(١) رواه ابن جرير وابن أبي حاتم .

وقال البخاري قوله: ﴿خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين﴾ العرف: المعروف^(١). عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قدم (عبيدة بن حصن بن حذيفة) فتزل على ابن أخيه (الحر بن قيس) وكان من النفر الذين يدينهم عمر، وكان القراء أصحاب مجالس عمر ومشاوراته كهولاً كانوا أو شباناً، فقال عبيدة لابن أخيه: يا ابن أخي لك وجه عند هذا الأمير، فاستأذن لي عليه، قال: سأستأذن لك عليه، قال ابن عباس: فاستأذن الحر لعبيدة، فأذن له عمر، فلما دخل عليه قال: هي يا ابن الخطاب! فوالله ما تعطينا الجزل، ولا تحكم بيننا بالعدل، فغضب عمر حتى همَّ أن يوقع به، فقال له الحر: يا أمير المؤمنين إن الله تعالى قال لنبيه ﷺ: ﴿خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين﴾ وإن هذا من الجاهلين، والله ما جاوزها عمر حين تلاها عليه، وكان وقافاً عند كتاب الله عز وجل^(٢). وقال ابن أبي حاتم عن عبد الله بن نافع: أن (سالم بن عبد الله بن عمر) مر على غير لأهل الشام وفيها جرس فقال: إن هذا مني عنه، فقالوا: نحن أعلم بهذا منك، إنما يكره الجلجل الكبير، فأما مثل هذا فلا بأس به، فسكت سالم وقال: ﴿وأعرض عن الجاهلين﴾، وقال ابن جرير: أمر الله نبيه ﷺ أن يأمر عباده بالمعروف، ويدخل في ذلك جميع الطاعات، وبالإعراض عن الجاهلين، وذلك وإن كان أمراً لنبيه ﷺ فإنه تأديب لخلقه باحتمال من ظلمهم واعتدى عليهم، لا بالإعراض عن جهل الحق الواجب من حق الله ولا بالصفح عن كفر بالله وجهل وحدانيته، وهو للمسلمين حرب. وقال قتادة في الآية: هذه أخلاق أمر الله بها نبيه ﷺ ودله عليها. وقد أخذ بعض الحكماء هذا المعنى؛ فسبكه في بيتين فيهما جناس فقال:

خذ العفو وأمر بعرف كما أمرت وأعرض عن الجاهلين
ولن في الكلام لكل الأنام فستحسن من ذوي الجاه لين

وقال بعض العلماء: الناس رجلان: فرجل محسن فخذ ما عفا لك من إحسانه، ولا تكلفه فوق طاقته ولا ما يجرجه، وإما مسيء فره بالمعروف فإن تهادى على ضلاله واستعصى عليك واستمر في جهله فأعرض عنه فلعل ذلك أن يرد كيده، كما قال تعالى: ﴿ادفع بالتي هي أحسن السيئة نحن أعلم بما يصفون﴾، وقال تعالى: ﴿ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم﴾، وقال في هذه السورة الكريمة أيضاً: ﴿وإما يترغبنك من الشيطان نزع فاستعد بالله إنه سميع عليم﴾، فهذه الآيات الثلاث في الأعراف والمؤمنون وحم السجدة لا رابع لهن، فإنه تعالى يرشد فيهن إلى معاملة العاصي من الإنس بالمعروف بالتي هي أحسن، فإن ذلك يكفه عما هو فيه من التمرد بإذنه تعالى، ولهذا قال: ﴿فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم﴾، ثم يرشد تعالى إلى الاستعاذة به من شيطان الجان، فإنه لا يكفه عنك الإحسان، وإنما يريد هلاكك ودمارك بالكلية، فإنه عدو مبين لك ولأبيك من قبلك. قال ابن جرير في تفسير قوله: ﴿وإما يترغبنك من الشيطان نزع﴾ وإما يفضبنك من الشيطان غضب يصدك عن الإعراض عن الجاهل ويحملك على مجازاته ﴿فاستعد بالله﴾ يقول: فاستجر بالله من نزغته، ﴿إنه سميع عليم﴾ سميع لجهل الجاهل عليك والاستعاذة به من نزغته ولغير ذلك من كلام خلقه لا يخفى عليه منه شيء، عليم بما يذهب عنك نزع الشيطان وغير ذلك من أمور خلقه. وقد تقدم

(١) قول البخاري العرف: المعروف نص عليه عروة والسدي وقاتدة وابن جرير . (٢) أخرجه البخاري في صحيحه .

في أول الاستعاذة حديث الرجلين اللذين تسابا بحضرة النبي ﷺ، فغضب أحدهما فقال رسول الله ﷺ «إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» الحديث. وأصل الترع: الفساد إما بالغضب أو غيره، قال الله تعالى: ﴿وقل لعبادي يقولوا التي هي أحسن إن الشيطان يتزغ بينهم﴾، والعياذ: اللجوء والاستناد والاستجارة من الشر، وأما الملاذ في طلب الخير، كما قال الحسن بن هانئ:

يا من ألوذ به فيما أومله ومن أعوذ به مما أحاذره
لا يجبر الناس عظماً أنت كاسره ولا يهضون عظماً أنت جابره

وقد قدمنا أحاديث الاستعاذة في أول التفسير بما أغنى عن إعادته ها هنا .

* إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَئِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغِيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾

يخبر تعالى عن المتقين من عباده الذين أطاعوه فيما أمر، وتركوا ما عنه زجر، أنهم ﴿إذا مسهم﴾ أي أصابهم ﴿طائف﴾، منهم من فسره بالغضب، ومنهم من فسره بمس الشيطان بالصرع ونحوه، ومنهم من فسره بالهم بالذنب، ومنهم من فسره بإصابة الذنب، وقوله: ﴿تذكروا﴾ أي عقاب الله وجزيل ثوابه ووعدته ووعيده، فتابوا وأتابوا واستعاذوا بالله ورجعوا إليه من قريب، ﴿فإذا هم مبصرون﴾ أي قد استقاموا وصحوا مما كانوا فيه، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: جاءت امرأة إلى النبي ﷺ وبها طيف، فقالت: يا رسول الله إني أصرع، وأتكشف، فادع الله أن يشفيني، فقال: «إن شئت دعوت الله أن يشفيك، وإن شئت صبرت ولك الجنة»، فقالت: بل أصبر ولي الجنة، ولكن ادع الله أن لا أتكشف، فدعا لها فكانت لا تتكشف^(١). وروي أن شاباً كان يتعبد في المسجد فهويته امرأة فدعته إلى نفسها، فما زالت به حتى كاد يدخل معها المنزل، فذكر هذه الآية: ﴿إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون﴾ فخر مغشياً عليه، ثم أفاق، فأعادها، فمات، فجاء عمر فعزى فيه أباه، وكان قد دفن ليلاً فذهب فصلى على قبره بمن معه، ثم ناداه عمر فقال: يا فتى ﴿ولن خاف مقام ربه جنتان﴾، فأجابه الفتى من داخل القبر: يا عمر قد أعطانيهما^(٢) ربي عز وجل في الجنة مرتين. وقوله تعالى: ﴿وإخوانهم يمدونهم﴾ أي وإخوان الشياطين من الإنس، كقوله: ﴿إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين﴾ وهم أتباعهم والمستمعون لهم، القابلون لأوامرهم ﴿يمدونهم في الغي﴾ أي تساعدهم الشياطين على المعاصي وتسهلها عليهم وتحسنها لهم، المد: الزيادة، يعني يزيدهم في الغي يعني الجهل والسفه، ﴿ثم لا يقصرون﴾ قيل: معناه إن الشياطين تمد الإنس لا تقصر في أعمالهم بذلك، كما قال ابن عباس: لا الإنس يقصرون عما يعملون ولا الشياطين تمسك عنهم، وقيل: معناه كما رواه العوفي عن ابن عباس في قوله: ﴿يمدونهم في الغي ثم لا يقصرون﴾،

(١) رواه ابن مردويه وغير واحد من أهل السنن وأخرجه الحاكم وقال: صحيح على شرط مسلم .

(٢) أخرجه الحافظ ابن عساكر في ترجمة عمرو بن جامع من تاريخه .

قال: هم الجن يوحون إلى أوليائهم من الإنس ثم لا يقصرون، يقول لا يسأمون، وكذا قال السدي وغيره، يعني أن الشياطين يمدون أولياءهم من الإنس، ولا تسأم من إمدادهم في الشر، لأن ذلك طبيعة لهم وسجية، ﴿ لا يقصرون ﴾ لا تفتقر فيه ولا تبطل عنه، كما قال تعالى: ﴿ ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزا ﴾، قال ابن عباس وغيره: ترعجهم إلى المعاصي إزعاجاً .

﴿ وَإِذَا لَرَّتْ تَابِتِهِمْ بِعَايَةِ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَإٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾ ﴾

قال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ قالوا لولا اجتبيتها ﴾ يقول: لولا تلقيتها وقال مرة أخرى لولا أحدثها فأنشأتها، وقال: لولا اقتضيتها، قالوا: تخرجها عن نفسك^(١)، واختاره ابن جرير. وقال العوفي عن ابن عباس ﴿ لولا اجتبيتها ﴾ يقول: تلقيتها من الله تعالى: وقال الضحاك ﴿ لولا اجتبيتها ﴾ يقول: لولا أخذتها أنت فجئت بها من السماء، ومعنى قوله تعالى: ﴿ وإذا لم تأتهم بآية ﴾ أي معجزة وخارق، كقوله تعالى: ﴿ إن نشأ نزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين ﴾، يقولون للرسول ﷺ ألا تجهد نفسك في طلب الآيات من الله حتى نراها ونؤمن بها، قال الله تعالى له: ﴿ قل إنما أتبع ما يوحى إلي من ربي ﴾ أي أنا لا أتقدم إليه تعالى في شيء، وإنما أتبع ما أمرني به فأمثل ما يوحى إلي، فإن بعثت آية قبلتها، وإن منعها لم أسأله ابتداء إياها، إلا أن يأذن لي في ذلك فإنه حكيم عليم، ثم أرشدهم إلى أن هذا القرآن هو أعظم المعجزات وأبين الدلالات وأصدق الحجج والبيانات، فقال: ﴿ هذا بصائر من ربكم وهدى ورحمة لقوم يؤمنون ﴾ .

﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ ﴾

لما ذكر تعالى أن القرآن بصائر للناس وهدى ورحمة أمر تعالى بالإنصات عند تلاوته إعظاماً له واحتراماً، لا كما كان يعتمده كفار قريش المشركون في قلوبهم: ﴿ لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه ﴾ الآية، ولكن يتأكد ذلك في الصلاة المكتوبة إذا جهر الإمام بالقراءة، كما روي عن أبي موسى الأشعري قال، قال رسول الله ﷺ: « إنما جعل الإمام ليؤتم به فإذا كبر فكبروا وإذا قرأ فأنصتوا »^(٢). وعن أبي هريرة قال: كانوا يتكلمون في الصلاة فلما نزلت هذه الآية: ﴿ وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له ﴾ والآية الأخرى أمروا بالإنصات. قال ابن جرير وقال ابن مسعود: كنا يسلم بعضنا على بعض في الصلاة فجاء القرآن: ﴿ وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون ﴾، وقال أيضاً عن بشير بن جابر قال: صلى ابن مسعود فسمع ناساً يقرأون مع الإمام، فلما انصرف قال: أما آن لكم أن تفهموا أما آن لكم أن تعقلوا: ﴿ وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا ﴾ كما أمركم الله. وقد روى الإمام أحمد عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ انصرف من صلاة جهر فيها بالقراءة فقال: « هل

(١) وهو قول قتادة والسدي وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم .

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه ورواه أهل السنن .

قرأ أحد منكم معي آنفاً؟» قال رجل: نعم يا رسول الله، قال: «إني أقول ما لي أنزع القرآن»، قال: فاتى الناس عن القراءة مع رسول الله ﷺ فيما جهر فيه بالقراءة من الصلاة حين سمعوا ذلك من رسول الله ﷺ^(١). وقال عبد الله بن المبارك: لا يقرأ من وراء الإمام فيما يجهر به الإمام، تكفيهم قراءة الإمام وإن لم يسمعهم صوته، ولكنهم يقرأون فيما لا يجهر به سرّاً في أنفسهم، ولا يصلح لأحد خلفه أن يقرأ معه فيما يجهر به سرّاً ولا علانية، فإن الله تعالى قال: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾. وهذا مذهب طائفة من العلماء وهو أحد قولي الشافعية، لما ذكرناه من الأدلة المتقدمة، وقال الشافعي في الجديد: يقرأ الفاتحة فقط في سكتات الإمام، وهو قول طائفة من الصحابة والتابعين فمن بعدهم.

وقال أبو حنيفة وأحمد بن حنبل: لا يجب على المأموم قراءة أصلاً في السرية ولا الجهرية بما ورد في الحديث: «من كان له إمام فقراءته قراءة له»^(٢) وهذا أصح، وقد أفرد لها الإمام البخاري مصنفاً على حدة، واختار وجوب القراءة خلف الإمام في السرية والجهرية أيضاً، والله أعلم، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في الآية، يعني في الصلاة المفروضة، وعن مجاهد قال: لا بأس إذا قرأ الرجل في غير الصلاة أن يتكلم. وقال ابن المبارك عن ثابت بن عجلان قال: سمعت ابن جبير يقول في قوله ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا﴾ قال: الإنصات يوم الأضحى ويوم الفطر ويوم الجمعة، وفيما يجهر به الإمام من الصلاة، وهذا اختيار ابن جرير: أن المراد من ذلك الإنصات في الصلاة وفي الخطبة، كما جاء في الأحاديث بالإنصات خلف الإمام وحال الخطبة، وقال الحسن: إذا جلست إلى القرآن فأنصت له. وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من استمع إلى آية من كتاب الله كتبت له حسنة مضاعفة، ومن تلاها كانت له نوراً يوم القيامة»^(٣).

وَأَذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ ﴿٢٠٥﴾
 إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ﴿٢٠٦﴾

يأمر تعالى بذكره أول النهار وآخره كثيراً كما أمر بعبادته في هذين الوقتين في قوله: ﴿فسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب﴾، وقد كان هذا قبل أن تفرض الصلوات الخمس ليلة الإسراء وهذه الآية مكية، وقال ههنا بالغدو والآصال جمع أصيل، وأما قوله: ﴿تضرعاً وخيفة﴾ أي اذكر ربك في نفسك رغبة ورهبة وبالقول لا جهراً، ولهذا قال: ﴿ودون الجهر من القول﴾، وهكذا يستحب أن يكون الذكر خفياً لا يكون نداءً و جهراً بليغاً، ولهذا لما سألوا رسول الله ﷺ فقالوا: أقریب ربنا فنناجيه أم بعيد فنناديه؟ فأنزل الله عز وجل: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾، وفي الصحيحين عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: رفع الناس أصواتهم بالدعاء في بعض الأسفار فقال لهم النبي ﷺ: «يا أيها الناس اربعوا على

(١) رواه أحمد وأهل السنن.

(٢) هذا الحديث رواه أحمد عن جابر مرفوعاً وهو في الموطأ عن جابر موقوفاً قال ابن كثير: وهذا أصح.

(٣) رواه الإمام أحمد في المسند.

أنفسكم فإنكم لا تدعون أصم ولا غائباً، إن الذي تدعونه سميع قريب أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته»، وقد يكون المراد من هذه الآية كما في قوله تعالى: ﴿ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلاً﴾، فإن المشركين كانوا إذا سمعوا القرآن سبوه وسبوا من جاء به، فأمره الله تعالى أن لا يجهر به لئلا ينال منه المشركون، ولا يخافت به عن أصحابه فلا يسمعونهم، وليتخذ سبيلاً بين الجهر والإسرار، والمراد الحض على كثرة الذكر من العباد بالغدو والآصال، لئلا يكونوا من الغافلين، ولهذا مدح الملائكة الذين يسبحون الليل والنهار لا يفترون، فقال: ﴿إن الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته﴾ الآية، وإنما ذكرهم بهذا ليقتنى بهم في كثرة طاعتهم وعبادتهم، ولهذا شرع لنا السجود ههنا لما ذكر سجودهم لله عزَّ وجلَّ كما جاء في الحديث: «ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربها يتمون الصفوف، الأول فالأول، ويطراصون في الصف»، وهذه أول سجدة في القرآن مما يشرع لتاليها ومستمعها السجود بالإجماع .

[انتهى تفسير سورة الأعراف . والله الحمد والمنة] .

* * *

(٨) سُورَةُ الْأَنْفَالِ مَدَنِيَّةٌ
وَأَيَاتُهَا خَمْسٌ وَسَبْعُونَ

وهي مدنية. آياتها سبعون وخمس آيات، كلماتها ألف كلمة وستائة كلمة وإحدى وثلاثون كلمة، حروفها خمسة آلاف ومائتان وأربعة وتسعون حرفاً، والله أعلم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ ط فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۗ
إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١﴾

قال البخاري: الأنفال المغنم، عن سعيد بن جبير قال، قلت لابن عباس رضي الله عنهما سورة الأنفال، قال: نزلت في بدر، وروي عن ابن عباس أنه قال: الأنفال الغنائم، كانت لرسول الله ﷺ خالصة ليس لأحد منها شيء^(١)؛ قال فيها لبيد:

إِنْ تَقْوَى رَبَّنَا خَيْرٌ نَفَلٌ وَيَأْذَنُ اللَّهُ رَيْثِي وَالْعَجَلُ

وقال ابن جرير عن القاسم بن محمد قال: سمعت رجلاً يسأل ابن عباس عن الأنفال؟ فقال ابن عباس رضي الله عنهما: الفرس من النفل والسلب من النفل، ثم عاد لمسألته، فقال ابن عباس أيضاً، ثم قال الرجل: الأنفال التي قال الله في كتابه ما هي؟ قال القاسم: فلم يزل يسأله حتى كاد يخرجه، فقال ابن عباس: أتدرون ما مثل هذا؟.. مثل صبيغ الذي ضربه عمر بن الخطاب. وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس أنه فسر النفل بما ينزله الإمام لبعض الأشخاص من سلب أو نحوه بعد قسم أصل المغنم، وهو المتبادر إلى فهم كثير من الفقهاء من لفظ النفل، والله أعلم. وقال مجاهد: إنهم سألوا رسول الله ﷺ عن الخمس بعد الأربعة من الأحماس، فنزلت: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ﴾، وقال ابن مسعود: لا نفل يوم الزحف، إنما النفل قبل التقاء الصفوف، وقال ابن المبارك عن عطاء بن أبي رباح في الآية ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ﴾ قال: يسألونك فيما شذ من المشركين إلى المسلمين في

(١) وكذا قال مجاهد وعكرمة وعطاء والضحاك وقتادة ومقاتل بن حيان وغير واحد أنها المغنم.

غير قتال من دابة أو عبد أو أمة أو متاع، فهو نفل للنبي ﷺ يصنع به ما يشاء، قال ابن جرير وقال آخرون: هي أنفال السرايا، بلغني في قوله تعالى ﴿يسألونك عن الأنفال﴾ قال: السرايا، ومعنى هذا ما ينقله الإمام لبعض السرايا زيادة على قسمهم مع بقية الجيش، وقد صرح بذلك الشعبي، واختار ابن جرير أنها الزيادة على القسم، ويشهد بذلك ما ورد في سبب نزول الآية وهو ما روي عن سعد بن أبي وقاص قال: لما كان يوم بدر قتل أخي (عمير) وقتلت (سعيد بن العاص) وأخذت سيفه، وكان يسمى ذا الكتيفة، فأتيت به النبي ﷺ فقال: « اذهب فاطرحه في القبض »، قال: فرجعت وبني ما لا يعلمه الله من قتل أخي وأخذ سلمي، قال: فماجاوزت إلا يسيراً، حتى نزلت سورة الأنفال فقال لي رسول الله ﷺ: « اذهب فخذ سلبك ».

(سبب آخر في نزول الآية)

وقال الإمام أحمد عن أبي أمامة قال: سألت (عبادة) عن الأنفال، فقال: فينا أصحاب بدر نزلت، حين اختلفنا في النفل وساءت فيه أخلاقنا، فانتزعه الله من أيدينا، وجعله إلى رسول الله ﷺ فقسمه رسول الله ﷺ بين المسلمين عن بواء، يقول: عن سواء. وقال الإمام أحمد أيضاً عن عبادة بن الصامت قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ فشهدت معه بدرأ، فالتقى الناس فهزم الله تعالى العدو، فانطلقت طائفة في آثارهم يهزمون ويقتلون، وأقبلت طائفة على العسكر يحوزونه ويجمعونه، وأحدقت طائفة برسول الله ﷺ لا يصيب العدو منه غرة حتى إذا كان الليل، وفاء الناس بعضهم إلى بعض، قال الذين جمعوا الغنائم: نحن حويناها فليس لأحد فيها نصيب، وقال الذين خرجوا في طلب العدو: لستم بأحق به منا، نحن منعنا عنه العدو وهزمتناهم، وقال الذين أحدقوا برسول الله ﷺ: خفنا أن يصيب العدو منه غرة فاشتغلنا به، فنزلت: ﴿يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم﴾، فقسّمها رسول الله ﷺ بين المسلمين، وكان رسول الله ﷺ إذا أغار في أرض العدو نفل الربع، فإذا أقبل راجعاً نفل الثلث، وكان يكره الأنفال^(١). وروى أبو داود والنسائي وابن مردويه واللفظ له، عن عكرمة عن ابن عباس قال: لما كان يوم بدر قال رسول الله ﷺ: « من صنع كذا وكذا فله كذا وكذا » فسارع في ذلك شبان القوم وبني الشيوخ تحت الرايات، فلما كانت المغانم جاءوا يطلبون الذي جعل لهم، فقال الشيوخ لا تستأثروا علينا فإننا كنا رداءً لكم لو انكشفتم لفتحتم إينا؛ فتنازعوا، فأنزل الله تعالى: ﴿يسألونك عن الأنفال - إلى قوله - وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين﴾، وقال الإمام القاسم بن سلام رحمه الله في كتاب (الأموال الشرعية): أما الأنفال فهي المغانم، وكل نيل ناله المسلمون من أموال أهل الحرب، فكانت الأنفال الأولى لرسول الله ﷺ، يقول الله تعالى: ﴿يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول﴾ فقسّمها يوم بدر على ما أراه الله من غير أن يخمسها، ثم نزلت بعد ذلك آية الخمس فنسخت الأولى، قلت: هكذا روي عن ابن عباس، وبه قال مجاهد وعكرمة والسدي، وقال ابن زيد: ليست منسوخة بل هي محكمة، والأنفال أصلها جماع الغنائم إلا أن الخمس منها مخصوص لأهله على ما نزل به الكتاب وجرت به السنة. ومعنى الأنفال في كلام العرب: كل إحسان فعله فاعل تفضلاً من غير أن يجب ذلك عليه، فذلك النفل الذي أحله الله للمؤمنين من

(١) رواه أحمد والترمذي وابن ماجه وقال الترمذي: هذا حديث صحيح.

أموال عدوهم، وإنما هو شيء خصهم الله به تفضلاً منه عليهم، بعد أن كانت الغنائم محرمة على الأمم قبلهم، ففعلها الله تعالى هذه الأمة فهذا أصل النفل. وشاهد هذا ما في الصحيحين: «وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي» وذكر تمام الحديث .

وقوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ أي اتقوا الله في أموركم وأصلحوا فيما بينكم ولا تظالموا ولا تخاصموا ولا تشاجروا، فما آتاكم الله من الهدى والعلم خير مما تختصمون بسببه، ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي في قسمه بينكم على ما أَرَادَهُ اللهُ، فإنه إنما يقسمه كما أمره الله من العدل والإنصاف، وقال ابن عباس: هذا تحريج من الله ورسوله أن يتقوا ويصلحوا ذات بينهم، وقال السدي ﴿وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ أي لا تستبوا، ولنذكر ههنا حديثاً أورده الحافظ أبو يعلى الموصلي رحمه الله في مسنده عن أنس رضي الله عنه قال: بينا رسول الله ﷺ جالس إذ رأيناه ضحك حتى بدت ثناياه، فقال عمر: ما أضحكك يا رسول الله بأبي أنت وأمي؟ فقال: «رجلان من أمتي جثيا بين يدي رب العزة تبارك وتعالى، فقال أحدهما: يا رب خذ لي مظمتي من أخي، قال الله تعالى: أعط أخاك مظلمته، قال: يا رب لم يبق من حسناتي شيء، قال: رب فليحمل عني من أوزاري»، قال: ففاضت عينا رسول الله ﷺ بالبكاء، ثم قال: «إن ذلك ليوم عظيم، يوم يحتاج الناس إلى من يتحمل عنهم من أوزارهم، فقال الله تعالى للطالب: ارفع بصرك وانظر في الجنان فرفع رأسه فقال: يا رب أرى مدائن من فضة وقصوراً من ذهب مكللة باللؤلؤ، لأي نبي هذا؟ لأي صديق هذا؟ لأي شهيد هذا؟ قال: هذا لمن أعطى ثمنه؟ قال: رب ومن يملك ثمنه؟ قال: أنت تملكه، قال: ماذا يا رب؟ قال تعفو عن أخيك، قال: يا رب فإني قد عفوت عنه. قال الله تعالى: خذ بيد أخيك فادخلا الجنة». ثم قال رسول الله ﷺ: «فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم، فإن الله تعالى يصلح بين المؤمنين يوم القيامة»^(١).

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٣﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾

قال مجاهد: ﴿وجلت قلوبهم﴾ فرقت أي فزعت وخافت، وهذه صفة المؤمن حق المؤمن الذي إذا ذكر الله وجل قلبه أي خاف منه، ففعل أو أمره، وترك زواجه، كقوله تعالى: ﴿والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم﴾ الآية، وكقوله تعالى: ﴿وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى * فإن الجنة هي المأوى﴾ ولهذا قال سفيان الثوري، سمعت السدي يقول في قوله تعالى: ﴿إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم﴾ قال: هو الرجل يريد أن يظلم، أو قال بهم بمعصية، فيقال له: اتق الله فيجمل قلبه؛ وعن أم الدرداء في قوله: ﴿إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم﴾ قالت: الوجمل في القلب كاحتراق السعفة^(٢)، أما تجدل له شعريرة؟ قال: بلى، قالت: إذا وجدت ذلك فادع الله عند ذلك فإن الدعاء يذهب ذلك،

(١) أخرجه الحافظ أبو يعلى الموصلي . (٢) السعفة : جريدة النخل .

وقوله: ﴿ وَإِذَا تَلَّيْت عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا ﴾، كقوله: ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾، وقد استدلل البخاري وغيره من الأئمة بهذه الآية وأشباهاها على زيادة الإيمان وتفاضله في القلوب، كما هو مذهب جمهور الأمة، بل قد حكى الإجماع عليه غير واحد من الأئمة كالشافعي وأحمد بن حنبل وأبي عبيد كما بينا ذلك مستقصى في أول شرح البخاري والله الحمد والمنة. ﴿ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ أي لا يرجون سواه، ولا يقصدون إلا إياه، ولا يلوذون إلا بجنابه، ولا يطلبون الحوائج إلا منه، ولا يرغبون إلا إليه، ويعلمون أنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وأنه المتصرف في الملك وحده لا شريك له، ولا معقب لحكمه وهو سريع الحساب، ولهذا قال سعيد بن جبير: التوكل على الله جماع الإيمان، وقوله: ﴿ الَّذِينَ يقيمون الصلاة وما رزقناهم ينفقون ﴾، ينه تعالى بذلك على أعمالهم بعدما ذكر اعتقادهم، وهذه الأعمال تشمل أنواع الخير كلها، وهو إقامة الصلاة وهو حق الله تعالى، وقال قتادة: إقامة الصلاة المحافظة على مواقيتها ووضئها وركوعها وسجودها، وقال مقاتل: إقامتها المحافظة على مواقيتها، وإسباغ الطهور فيها، وتمام ركوعها وسجودها، وتلاوة القرآن فيها، والتشهد، والصلاة على النبي ﷺ، هذا إقامتها، والإففاق مما رزقهم الله يشمل إخراج الزكاة وسائر الحقوق للعباد من واجب ومستحب، والخلق كلهم عيال الله فأحبههم إلى الله أنفعهم لخلقه. قال قتادة في قوله: ﴿ وَمَا رزقناهم ينفقون ﴾ فأنفقوا مما رزقكم الله، فإنما هذه الأموال عواري وودائع عندك يا ابن آدم أوشكت أن تفارقها .

وقوله تعالى: ﴿ أولئك هم المؤمنون حقا ﴾ أي المتصفون بهذه الصفات هم المؤمنون حق الإيمان. عن الحارث ابن مالك الأنصاري: أنه مر برسول الله ﷺ فقال له: « كيف أصبحت يا حارث ؟ » قال: أصبحت مؤمناً حقاً، قال: « انظر ما تقول فإن لكل شيء حقيقة فإحقيقة إيمانك ؟ » فقال: عزفت نفسي عن الدنيا، فأسهرت ليلي، وأظمأت نهارى، وكأني أنظر إلى عرش ربي بارزاً، وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتراورون فيها، وكأني أنظر إلى أهل النار يتضاغون^(١) فيها، فقال: « يا حارث عرفت فالزم » ثلاثاً^(٢). وقال عمرو بن مرة في قوله تعالى: ﴿ أولئك هم المؤمنون حقا ﴾ إنما أنزل القرآن بلسان العرب كقولك: فلان سيد حقاً، وفي القوم سادة؛ وفلان تاجر حقاً وفي القوم تجار؛ وفلان شاعر حقاً وفي القوم شعراء. وقوله: ﴿ لهم درجات عند ربهم ﴾ أي منازل ومقامات ودرجات في الجنات، كما قال تعالى: ﴿ هم درجات عند الله والله بصير بما يعملون ﴾، ﴿ ومغفرة ﴾ أي يغفر لهم السيئات ويشكر لهم الحسنات، وقال الضحاك: أهل الجنة بعضهم فوق بعض، فيرى الذي هو فوق فضله على الذي هو أسفل منه، ولا يرى الذي هو أسفل منه أنه فضل عليه أحد، ولهذا جاء في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: « إن أهل عليين ليراهم من أسفل منهم كما ترون الكوكب الغائر في أفق من آفاق السماء » قالوا: يا رسول الله تلك منازل الأنبياء لا ينالها غيرهم ؟ فقال: « بلى، والذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين »، وفي الحديث الآخر: « إن أهل الجنة ليتراءون أهل الدرجات العلى كما تراءون الكوكب الغائر في أفق السماء، وإن أبا بكر وعمر منهم وأنعم »^(٣).

(١) يتضاغون : أي يرفعون أصواتهم بالصراخ والوعويل .

(٢) أخرجه الحافظ الطبراني عن الحارث بن مالك الأنصاري .

(٣) أخرجه الإمام أحمد وأهل السنن عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً .

كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَرِهُونَ ﴿٥﴾ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴿٦﴾ وَإِذْ يَعِدُّكُمْ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾

قال الطبري: اختلف المفسرون في السبب الجالب لهذه الكاف في قوله: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ﴾ فقال بعضهم: شبه به في الصلاح للمؤمنين، والمعنى: أن الله تعالى يقول: كما أنكم لما اختلفتم في المغانم وتشاحتم فيها، فانتزعها الله منكم، فكان هذا هو المصلحة التامة لكم، كذلك لما كرهتم الخروج إلى الأعداء وهم النفير الذين خرجوا لإحراز غيرهم، فكان عاقبة كراهتكم للقتال بأن قدره لكم على غير ميعاد رشداً وهدى، ونصراً وفتحاً، كما قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كَرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾، وقال آخرون: معنى ذلك ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ﴾ على كرهه من فريق من المؤمنين، كذلك هم كارهون للقتال، فهم يجادلونك فيه بعدما تبين لهم، قال مجاهد: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ﴾ كذلك يجادلونك في الحق. وقال بعضهم: يسألونك عن الأنفال مجادلة كما جادلوك يوم بدر، فقالوا: أخرجتنا للغير ولم تعلمنا قتالاً فنستعد له. قلت: رسول الله ﷺ إنما خرج من المدينة طالباً للغير أبي سفيان التي بلغه خبرها أنها صادرة من الشام فيها أموال جزيلة لقريش، فاستنهض رسول الله ﷺ المسلمين، فخرج في ثلثمائة وبضعة عشر رجلاً وجمع الله بين المسلمين والكافرين على غير ميعاد، لما يريد الله تعالى من إعلاء كلمة المسلمين ونصرهم على عدوهم والتفرقة بين الحق والباطل، والغرض أن رسول الله ﷺ لما بلغه خروج النفير أوحى الله إليه، يعده إحدى الطائفتين إما العير وإما النفير، ورغب كثير من المسلمين إلى العير، لأنه كسب بلا قتال، كما قال تعالى: ﴿وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم﴾.

روى ابن أبي حاتم قال: خرج رسول الله ﷺ إلى بدر، حتى إذا كان بالروحاء خطب الناس فقال: «كيف ترون؟» فقال أبو بكر: يا رسول الله بلغنا أنهم بمكان كذا وكذا، قال: ثم خطب الناس فقال: «كيف ترون؟» فقال عمر: مثل قول أبي بكر، ثم خطب الناس فقال: «كيف ترون؟» فقال سعد بن معاذ: يا رسول الله إيانا تريد؟ فوالذي أكرمك وأنزل عليك الكتاب ما سلكتها قط ولا لي بها علم، ولئن سرت حتى تأتي برك الغمام من ذي يمن لنسيرن معك، ولا نكون كالذين قالوا موسى: ﴿اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون﴾، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، ولعلك أن تكون خرجت لأمر، وأحدث الله إليك غيره، فانظر الذي أحدث الله إليك فامض له، فصل حبال من شئت، واقطع حبال من شئت، وعاد من شئت، وسالم من شئت، وخذ من أموالنا ما شئت، فتزل القرآن على قول سعد: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ﴾^(١) الآيات، وقال ابن عباس: لما شاور النبي ﷺ في لقاء العدو، وقال له سعد بن عبادة

(١) أخرجه ابن أبي حاتم من حديث محمد بن عمرو بن علقمة بن أبي وقاص الليثي عن أبيه عن جده.

ما قال، وذلك يوم بدر أمر الناس أن يتهبأوا للقتال وأمرهم بالشوكة، فكره ذلك أهل الإيمان، فأنزل الله: ﴿ كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون ﴾، وقال مجاهد: يجادلونك في الحق: في القتال للقاء المشركين. عن عكرمة عن ابن عباس قال، قيل لرسول الله ﷺ حين فرغ من بدر: عليك بالعرير ليس دونها شيء، فناداه العباس بن عبد المطلب وهو أسير في وثاقه: إنه لا يصلح لك، قال: ولم؟ قال: لأن الله عز وجل إنما وعدك إحدى الطائفتين وقد أعطاك الله ما وعدك^(١). ومعنى قوله تعالى: ﴿ وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ﴾ أي يحبون أن الطائفة التي لا منعة ولا قتال تكون لهم وهي العير، ﴿ ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ﴾ أي هو يريد أن يجمع بينكم وبين الطائفة التي لها الشوكة والقتال ليظفركم بهم وينصركم عليهم، ويظهر دينه، ويرفع كلمة الإسلام، ويجعله غالباً على الأديان، وهو أعلم بعواقب الأمور، وهو الذي يدبركم بحسن تدبيره، وإن كان العباد يحبون خلاف ذلك فيما يظهر لهم.

وقال محمد بن إسحاق رحمه الله: لما سمع رسول الله ﷺ بأبي سفيان مقبلاً من الشام ندب المسلمين إليهم، وقال: هذه عير قريش فيها أموالهم، فاخرجوا إليها لعل الله أن ينفلكوها، فانتدب الناس فخف بعضهم، وثقل بعضهم، وذلك أنهم لم يظنوا أن رسول الله ﷺ يلقى حرباً، وكان أبو سفيان قد استنفر حين دنا من الحجاز، يتجسس الأخبار، ويسأل من لقي من الركبان تخوفاً على أمر الناس حتى أصاب خبراً من بعض الركبان أن محمداً قد استنفر أصحابه لك ولعيرك فحذر عند ذلك، فاستأجر (ضمضم بن عمرو الغفاري) فبعثه إلى أهل مكة وأمره أن يأتي قريشاً، فيستنفرهم إلى أموالهم، ويخبرهم أن محمداً قد عرض لها في أصحابه، فخرج ضمضم بن عمرو سريعاً إلى مكة، وخرج رسول الله ﷺ في أصحابه حتى بلغ وادياً يقال له ذفران، فخرج منه، حتى إذا كان ببعضه نزل، وأتاه الخبر عن قريش بمسيرهم ليمنعوا عيرهم، فاستشار رسول الله ﷺ الناس، وأخبرهم عن قريش، فقام أبو بكر رضي الله عنه فقال فأحسن، ثم قام عمر رضي الله عنه، فقال فأحسن، ثم قام المقداد بن عمرو فقال: يا رسول الله امض لما أمرك الله به فنحن معك، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿ اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون ﴾، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد - يعني مدينة الحبشة - لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه، فقال له رسول الله ﷺ خيراً، ودعا له بخير، ثم قال رسول الله ﷺ: « أشيروا علي أيها الناس » وإنما يريد الأنصار، وذلك أنهم كانوا عدد الناس، وذلك أنهم حين بايعوه بالعقبة قالوا: يا رسول الله، إنا برآء من ذمامك حتى تصل إلى دارنا، فإذا وصلت إلينا فأنت في ذمامنا نمنعك مما نمنع منه أبناءنا، ونساءنا وكان رسول الله ﷺ يتخوف أن لا تكون الأنصار ترى عليها نصرته إلا من دهمه بالمدينة من عدوه، وأن ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدو من بلادهم، فلما قال رسول الله ﷺ ذلك، قال له سعد بن معاذ: والله لكأنك تريدنا يا رسول الله؟ قال: « أجل »، فقال: فقد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهدنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله لما أمرك الله، فوالذي بعثك بالحق إن استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما يتخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً، إنا لصبر عند الحرب، صدق عند اللقاء، ولعل الله يريك،

(١) أخرجه الإمام أحمد قال ابن كثير: إسناده جيد ولم يخرج أحد من أهل الكتب الستة.

ما تقر به عينك، فسر بنا على بركة الله، فسر رسول الله ﷺ بقول سعد، ونشطه ذلك، ثم قال: «سيروا على بركة الله وأبشروا فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأني الآن أنظر إلى مصارع القوم»، وروى العوفي عن ابن عباس نحو هذا، وكذلك قال السدي وقناة وعبد الرحمن بن أسلم وغير واحد من علماء السلف والخلف، اختصرنا أقوالهم اكتفاءً بسياق محمد بن إسحاق .

إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَبَ لَكُمْ أَلَمْ نَسْمَعْ يَوْمَئِذٍ إِذْ يَمُودُ الْيَوْمِ بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَدِّينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرًا وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾

لما كان يوم بدر نظر النبي ﷺ إلى أصحابه وهم ثلاثمائة ونيف، ونظر إلى المشركين، فإذا هم ألف وزيادة، فاستقبل النبي ﷺ القبلة وعليه رداؤه وإزاره، ثم قال: «اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام فلا تعبد في الأرض أبداً» قال: فما زال يستغيث ربه ويدعوه حتى سقط رداؤه عن منكبيه، فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه فرداه ثم التزمه من ورائه ثم قال: يا نبي الله كفاك مناشدتك ربك، فإنه سينجز لك ما وعدك، فأنزل الله عز وجل: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَبَ لَكُمْ أَلَمْ نَسْمَعْ يَوْمَئِذٍ إِذْ يَمُودُ الْيَوْمِ بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَدِّينَ﴾، فلما كان يومئذ التقوا فهزم الله المشركين، فقتل منهم سبعون رجلاً، وأسر منهم سبعون رجلاً، واستشار رسول الله ﷺ أبا بكر وعمر وعلياً فقال أبو بكر: يا رسول الله هؤلاء بنو العم والعشيرة والإخوان وإني أرى أن تأخذ منهم الفدية فيكون ما أخذناه منهم قوة لنا على الكفار، وعسى أن يهديهم الله فيكونوا لنا عضداً، فقال رسول الله ﷺ: «ما ترى يا ابن الخطاب؟» قلت: والله ما أرى ما رأى أبو بكر، ولكي أرى أن تمكيني من فلان - قريب لعمر - فأضرب عنقه، وتمكن علياً من عقيل فيضرب عنقه، وتمكن حمزة من فلان - أخيه - فيضرب عنقه، حتى يعلم الله أن ليس في قلوبنا هودة للمشركين، هؤلاء صنائدهم وأمتهم وقادتهم، فهوي رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر ولم يهو ما قلت، وأخذ منهم الفداء، فلما كان من الغد قال عمر: فغدوت إلى النبي ﷺ وأبي بكر وهما يبكيان، فقلت: يا رسول الله ما يبكيك أنت وصاحبك؟ فإن وجدت بكاء بكيت وإن لم أجد بكاء تابكيت لبكائك، كما قال النبي ﷺ: «للذي عرض علي أصحابك من أخذهم الفداء، لقد عرض علي عذابكم أدنى من هذه الشجرة» لشجرة قريبة من النبي ﷺ، وأنزل الله عز وجل: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يُكُونَ لَهُ أُسْرَى حَتَّى يَتَّخِذَ فِي الْأَرْضِ - إِلَى قَوْلِهِ - فَاذْ كَلِمَاتٍ حَلَالًا طَيِّبًا﴾، فأحل لهم الغنائم، فلما كان يوم أحد من العام المقبل عوقبوا بما صنعوا يوم بدر من أخذهم الفداء، فقتل منهم سبعون، وفر أصحاب النبي ﷺ عن النبي ﷺ، وكسرت رباعيته، وهشمت البيضة على رأسه، وسال الدم على وجهه، فأنزل الله: ﴿أَوْ لَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْتُمْ هَذَا قُلٌ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ بأخذكم الفداء^(١).

قال البخاري في كتاب المغازي باب قول الله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَبَ لَكُمْ﴾ الآية، عن طارق ابن شهاب قال، سمعت ابن مسعود يقول: شهدت من المقداد بن الأسود مشهداً لأن أكون صاحبه أحب إليّ

(١) رواه الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأخرجه مسلم وأبو داود والترمذي وابن جرير .

فما عدل به، أتى النبي ﷺ وهو يدعو على المشركين فقال: لا نقول كما قال قوم موسى ﴿ اذهب أنت وربك فقاتلا ﴾، ولكننا نقاتل عن يمينك وعن شمالك وبين يديك ومن خلفك، فرأيت النبي ﷺ أشرق وجهه وسره، يعني قوله، وعن ابن عباس قال، قال النبي ﷺ يوم بدر: « اللهم أنشدك عهدك ووعدك، اللهم إن شئت لم تعبد » فأخذ أبو بكر بيده فقال: حسبك، فخرج وهو يقول: « سيهزم الجمع ويولون الدبر ». وقوله تعالى: ﴿ بألف من الملائكة مردفين ﴾ أي يردف بعضهم بعضاً، كما قال ابن عباس ﴿ مردفين ﴾: متتابعين، ويحتمل أن المراد ﴿ مردفين ﴾ لكم أي نجدة لكم، كما قال العوفي عن ابن عباس ﴿ مردفين ﴾ يقول: المدد، كما تقول أنت للرجل زده كذا وكذا^(١). وفي رواية ﴿ مردفين ﴾ قال: بعضهم على أثر بعض، وقال ابن جرير: نزل جبريل في ألف من الملائكة عن ميمنة النبي ﷺ وفيها أبو بكر، ونزل ميكائيل في ألف من الملائكة عن ميسرة النبي ﷺ، وهذا يقتضي - إن صح إسناده - أن الألف مردفة بمثلها، ولهذا قرأ بعضهم: ﴿ مردفين ﴾ بفتح الدال والله أعلم، والمشهور ما روي عن ابن عباس قال: وأمد الله نبيه ﷺ والمؤمنين بألف من الملائكة، فكان جبريل في خمسمائة من الملائكة مجنبة، ومكائيل في خمسمائة مجنبة، وروي عن ابن عباس قال: بينا رجل من المسلمين يشدد في أثر رجل من المشركين أمامه إذ سمع ضربة بالسوط فوقه، وصوت الفارس يقول: أقدم حيزوم، إذ نظر إلى المشرك أمامه فخر مستلقياً، قال: فنظر إليه، فإذا هو قد حطم وشق وجهه كضربة السوط فاخضر ذلك أجمع، فجاء الأنصاري فحدث ذلك رسول الله ﷺ فقال: صدقت، ذلك من مدد السماء الثالثة، فقتلوا يومئذ سبعين وأسروا سبعين^(٢).

وفي البخاري قال: جاء جبريل إلى النبي ﷺ فقال: ما تعدون أهل بدر فيكم؟ قال: « من أفضل المسلمين » أو كلمة نحوها قال: وكذلك من شهد بدرًا من الملائكة، وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال لعمر لما شاوره في قتل (حاطب بن أبي بلتعة) « إنه قد شهد بدرًا وما يدريك لعل الله قد اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم؟ »، وقوله تعالى: ﴿ وما جعله الله إلا بشري ﴾ الآية، أي وما جعل الله بعث الملائكة إلا بشري ﴿ ولتطمئن به قلوبكم ﴾، وإلا فهو تعالى قادر على نصركم على أعدائكم ﴿ وما النصر إلا من عند الله ﴾ أي بدون ذلك، ولهذا قال: ﴿ وما النصر إلا من عند الله ﴾ كما قال تعالى: ﴿ ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليلو بعضهم ببعض ﴾، وقال تعالى: ﴿ وتلك الأيام نداؤها بين الناس ﴾ فهذه حكم شرع الله جهاد الكفار بأيدي المؤمنين لأجلها، وقد كان تعالى إنما يعاقب الأمم السالفة المكذبة للأنبياء بالقوارع التي تعم تلك الأمم المكذبة، كما أهلك قوم نوح بالطوفان، وعادا الأولى بالدبور، وثمود بالصيحة، وقوم لوط بالخسف والقلب وحجارة السجيل، وقوم شعيب بيوم الظلة، فلما بعث الله تعالى موسى وأهلك عدوه وأنزل على موسى التوراة شرع فيها قتال الكفار واستمر الحكم في بقية الشرائع بعده على ذلك، كما قال تعالى: ﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى بصائر ﴾، وقتل المؤمنين للكافرين أشد إهانة للكافرين، وأشفى لصدور المؤمنين، كما قال تعالى للمؤمنين: ﴿ قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم، ويخزهم وينصركم عليهم، ويشف صدور قوم مؤمنين ﴾، ولهذا كان قتل

(١) وبه قال مجاهد وابن كثير القاريء وابن زيد.

(٢) أخرجه مسلم وابن جرير.

صناديد قريش بأيدي أعدائهم، أنكى لهم وأشفى لصدور حزب الإيمان، وقتل أبي جهل في معركة القتال أشد إهانة له من موته على فراشه بقارعة أو صاعقة أو نحو ذلك، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ أي له العزة ولرسوله وللمؤمنين بهما في الدنيا والآخرة، ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما شرعه من قتال الكفار مع القدرة على دمارهم وإهلاكهم بحوله وقوته سبحانه وتعالى .

﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنزِلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَ كُمْ بِهِ ۖ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾ ﴿١١﴾ إِذْ يُوحَىٰ رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا سَأَلَتِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَرَعَبَ فَأَضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَأَضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۗ وَمَنْ يُسَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَلِكَ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ ﴿١٤﴾

يذكركم الله تعالى بما أنعم به عليهم من إلقائه النعاس عليهم أماناً، أمّتهم به من خوفهم الذي حصل لهم، من كثرة عدوهم وقلة عددهم، وكذلك فعل تعالى بهم يوم أحد، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا﴾ الآية. قال أبو طلحة: كنت ممن أصابه النعاس يوم أحد، ولقد سقط السيف من يدي مراراً؛ يسقط وآخذه، ويسقط وآخذه، ولقد نظرت إليهم يميلون وهم تحت الحَجَفِ^(١)، وقال الحافظ أبو يعلى عن علي رضي الله عنه قال: ما كان فينا فارس يوم بدر غير المقداد، ولقد رأيتنا وما فينا إلا نائم إلا رسول الله ﷺ يصلي تحت شجرة ويكي حتى أصبح، وقال عبد الله بن مسعود: النعاس في القتال أمانة من الله، وفي الصلاة من الشيطان. وقال قتادة: النعاس في الرأس، والنوم في القلب. وكان ذلك كان للمؤمنين عند شدة البأس لتكون قلوبهم آمنة مطمئنة بنصر الله، وهذا من فضل الله ورحمته بهم ونعمته عليهم، ولهذا جاء في الصحيح أن رسول الله ﷺ لما كان يوم بدر في العريش مع الصديق رضي الله عنه وهما يدعوان أخذت رسول الله ﷺ سنة من النوم ثم استيقظ متبسماً فقال: «أبشر يا أبا بكر هذا جبريل على ثناباه النقع»، ثم خرج من باب العريش وهو يتلو قوله تعالى: ﴿سَيَهْمُ الْجَمْعَ وَيُولُونَ الدَّبْرَ﴾ .

وقوله تعالى: ﴿وَيُنزِلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾، قال ابن عباس: إن المشركين من قريش لما خرجوا لينصروا العير وليقاتلوا عنها، نزلوا على الماء يوم بدر، فغلبوا المؤمنين عليه، فأصاب المؤمنين الظم فاجعلوا يصلون مجنين محدثين، حتى تعاطوا ذلك في صلورهم، فأنزل الله من السماء ماء حتى سال الوادي، فشرب المؤمنون، وملأوا الأسقية، وسقوا الركاب واغتسلوا من الجنابة، فجعل الله في ذلك طهوراً وثبت به الأقدام^(٢)، وذلك أنه كانت بينهم وبين القوم رملة فبعث الله المطر عليها، والمعروف أن رسول الله ﷺ لما سار إلى بدر نزل على أدنى ماء هناك

(٢) وروي نحوه عن قتادة والضحاك .

(١) الحجف : جمع حجة وهي الترس .

أي أول ماء وجده، فتقدم إليه الحباب بن المنذر فقال: يا رسول الله هذا المتزل الذي نزلته منزل أنزلك الله إياه فليس لنا أن نجاوزه أو منزل نزلته للحرب والمكيدة؟ فقال: «بل منزل نزلته للحرب والمكيدة» فقال: يا رسول الله إن هذا ليس بمنزل، ولكن سر بنا حتى نترز على أدنى ماء يلي القوم ونغور ما وراءه من القلب، ونستقي الحياض فيكون لنا ماء وليس لهم ماء، فسار رسول الله ﷺ ففعل ذلك. وقال مجاهد: أنزل الله عليهم المطر قبل النعاس فأطفأ بالمطر الغبار وتلبدت به الأرض وطابت نفوسهم وثبتت به أقدامهم، وقوله: ﴿ليطهركم به﴾ أي من حدث أصغر أو أكبر وهو تطهير الظاهر، ﴿ويذهب عنكم رجز الشيطان﴾ أي من وسوسة أو خاطر سيء وهو تطهير الباطن، كما قال تعالى في حق أهل الجنة ﴿عليهم ثياب سندس خضر﴾ فهذا زينة الظاهر، ﴿وسقاهم ربهم شراباً طهوراً﴾ أي مطهراً لما كان من غل أو حسد أو تباغض وهو زينة الباطن وطهارته، ﴿وليربط على قلوبكم﴾ أي بالصبر والإقدام على مجادلة الأعداء وهو شجاعة الباطن ﴿ويثبت به الأقدام﴾ وهو شجاعة الظاهر والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿إذ يوحى ربك إلى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا﴾ وهذه نعمة خفية أظهرها الله تعالى لهم ليشكروه عليها، وهو أنه تعالى وتقدس أوحى إلى الملائكة الذين أنزلهم لنصر نبيه ودينه أن يثبتوا الذين آمنوا، قال ابن جرير: أي ثبتوا المؤمنين وقووا أنفسهم على أعدائهم سألت الرعب والذلة والصغار على من خالف أمري وكذب رسولي، ﴿فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان﴾ أي اضربوا الهام فأفلقوها واحترقوا الرقاب فقطعوها، وقطعوا الأطراف منهم وهي أيديهم وأرجلهم. وقد اختلف المفسرون في معنى ﴿فوق الأعناق﴾ فقيل: معناه اضربوا الرؤوس، قاله عكرمة. وقيل معناه أي على الأعناق وهي الرقاب، قاله الضحاك. ويشهد لهذا المعنى قوله تعالى: ﴿فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب﴾ وقال القاسم، قال النبي ﷺ: «إني لم أبعث لأعذب بعذاب الله، إنما بعث لضرب الرقاب وشد الوثاق»، وقال الربيع بن أنس: كان الناس يوم بدر يعرفون قتلى الملائكة بضرب فوق الأعناق وعلى البنان مثل سمة النار قد أحرق به، وقوله: ﴿واضربوا منهم كل بنان﴾، قال ابن جرير: معناه واضربوا من عدوكم أيها المؤمنون كل طرف ومفصل من أطراف أيديهم وأرجلهم، والبنان جمع بنانة كما قال الشاعر:

ألا ليتني قطعت مني بنانسة ولاقيته في البيت يقضان حاذراً

وقال ابن عباس ﴿واضربوا منهم كل بنان﴾ يعني بالبنان الأطراف^(١)، وقال السدي: البنان الأطراف، ويقال كل مفصل، وقال الأوزاعي: اضرب منه الوجه والعين، وارمه بشهاب من نار فإذا أخذته حرم ذلك كله عليك، وقال العوفي عن ابن عباس فأوحى الله إلى الملائكة: ﴿أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا﴾ الآية، فقتل أبو جهل لعنه الله في تسعة وستين رجلاً، وأسر عقبة بن أبي معيط، فقتل صبراً فوفى ذلك سبعين يعني قتيلاً، ولهذا قال تعالى: ﴿ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله﴾ أي خالفوهما، فساروا في شق، وتركوا الشرع والإيمان به واتباعه في شق، ومأخوذ أيضاً من شق العصا وهو جعلها فرقتين ﴿ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب﴾ أي هو الطالب الغالب لمن خالفه وناوأه لا يفوته شيء، ولا يقوم لغضبه شيء تبارك وتعالى لا إله غيره ولا رب سواه، ﴿ذلكم فذوقوه

(١) وكذا قال الضحاك وابن جرير والسدي.

وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ ﴿١٥﴾ هَذَا خُطَابٌ لِلْكَافِرِ، أَي ذُوقُوا هَذَا الْعَذَابَ وَالنَّكَالَ فِي الدُّنْيَا وَعَلِمُوا أَيْضًا أَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ فِي الْآخِرَةِ .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمُ الْآدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَنْ يُؤَلِّمُ يَوْمَئِذٍ دُبْرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحِيزًا إِلَىٰ فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٦﴾

يقول تعالى متوعداً على الفرار من الزحف بالنار لمن فعل ذلك ﴿١٥﴾ يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً ﴿١٥﴾ أي تقاربتم منهم ودنوتهم إليهم ﴿١٥﴾ فلا تولوهم الأدبار ﴿١٥﴾ أي تفروا وتتركوا أصحابكم، ﴿١٥﴾ ومن يؤلم دبره إلا متحرفاً لقتال ﴿١٥﴾ أي يفر بين يدي قرنه مكيدة ليريه أنه خاف منه، فيتبعه، ثم يكر عليه فيقتله فلا بأس عليه في ذلك ﴿١٥﴾. وقال الضحاك: أن يتقدم عن أصحابه ليرى غرة من العدو فيصيبها، ﴿١٥﴾ أو متحيزاً إلى فئة ﴿١٥﴾ أي فر من ها هنا إلى فئة أخرى من المسلمين يعاونهم ويعاونوه، فيجوز له ذلك، حتى لو كان في سرية ففر إلى أميره أو إلى الإمام الأعظم دخل في هذه الرخصة. قال الإمام أحمد عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: كنت في سرية من سرايا رسول الله ﷺ، فخاص الناس حيصه، فكنت فيمن حاص، فقلنا: كيف نصنع وقد فررنا من الزحف وبؤنا بالغضب؟ ثم قلنا: لو دخلنا المدينة ثم بتنا، ثم قلنا: لو عرضنا أنفسنا على رسول الله ﷺ فإذا كانت لنا توبة وإلا ذهبنا، فأتيناه قبل صلاة الغداة، فخرج فقال: «مَنْ الْقَوْمُ؟» فقلنا: نحن الفرارون، فقال: «لا، بل أنتم العكَّارون أنا ففتكم وأنا فئة المسلمين» قال: فأتيناه حتى قبلنا يده. وقرأ رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿١٥﴾ أو متحيزاً إلى فئة ﴿١٥﴾. قال أهل العلم: معنى قوله «العكَّارون»: أي العرافون، وكذلك قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه في أبي عبيدة لما قُتل بأرض فارس لكثرة الجيش من المجوس فقال عمر: لو تحيز إليّ لكنت له فئة، ويروى عنه أنا فئة كل مسلم. وقال الضحاك في قوله ﴿١٥﴾ أو متحيزاً إلى فئة ﴿١٥﴾: المتحيز الفار إلى النبي وأصحابه، وكذلك من فر اليوم إلى أميره أو أصحابه، فأما إن كان الفرار لا عن سبب من هذه الأسباب فإنه حرام وكبيرة من الكبائر، لما رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «اجتنبوا السبع الموبقات» قيل يا رسول الله وما هن؟ قال: «الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات» ﴿١٦﴾. ولهذا قال تعالى: ﴿١٥﴾ فقد باء ﴿١٥﴾ أي رجع ﴿١٥﴾ بغضبٍ من الله ومأواه ﴿١٥﴾ أي مصيره ومنقلبه يوم مياعده ﴿١٥﴾ جهنم وبئس المصير ﴿١٥﴾. وقال الإمام أحمد عن بشير بن معبد قال: أتيت النبي ﷺ لأبأبعه فاشترط عليّ شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، وأن أقيم الصلاة، وأن أؤدي الزكاة، وأن أحج حجة الإسلام، وأن أصوم شهر رمضان، وأن أجاهد في سبيل الله؛ فقلت يا رسول الله أما اثنتان فوالله لا أطيقهما: الجهاد، فإنهم زعموا أنه من ولي الدبر فقد باء بغضبٍ من الله، فأخاف إن حضرت ذلك خشعت نفسي وكرهت الموت. والصدقة، فوالله مالي إلا غنيمة

(١) وهو قول سعيد بن جبير والسدي .

(٣) أخرجه الشيخان عن أبي هريرة .

(٢) رواه أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه .

وعشر ذود هن رسل أهلي وحمولهم، فقبض رسول الله ﷺ يده ثم حرك يده ثم قال: « فلا جهاد ولا صدقة فم تدخل الجنة إذا؟ » قلت: يا رسول الله أنا أبايعك، فبايعته عليين كلهن^(١). وقد ذهب ذاهبون إلى أن الفرار إنما كان حراماً على الصحابة، لأن الجهاد كان فرض عين عليهم، وقيل: على الأنصار خاصة لأنهم بايعوا على السمع والطاعة في المنشط والمكروه، وقيل: المراد بهذه الآية أهل بدر خاصة^(٢). وحجتهم في هذا أنه لم تكن عصابة لها شوكة يفتنون إليها إلا عصابتهم تلك كما قال النبي ﷺ: « اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد في الأرض »، ولهذا قال الحسن في قوله: ﴿ ومن يولهم يومئذ دبره ﴾ قال: ذلك يوم بدر، فأما اليوم فإن انحاز إلى فئة أو مصر فلا بأس عليه، وقال ابن المبارك عن يزيد بن أبي حبيب: أوجب الله تعالى لمن فر يوم بدر النار، قال: ﴿ ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله ﴾، فلما كان يوم أحد بعد ذلك قال: ﴿ إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان ﴾، إلى قوله: ﴿ ولقد عفا الله عنهم ﴾، ثم كان يوم حنين بعد ذلك بسبع سنين، قال: ﴿ ثم وليتم مدبرين * ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء ﴾. وعن أبي سعيد أنه قال في هذه الآية: ﴿ ومن يولهم يومئذ دبره ﴾ إنما أنزلت في أهل بدر، وهذا كله لا ينبغي أن يكون الفرار من الزحف حراماً على غير أهل بدر، وإن كان سبب نزول الآية فيهم، كما دل عليه حديث أبي هريرة المتقدم من أن الفرار من الزحف من الموبات كما هو مذهب الجماهير، والله أعلم.

فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنٌ كَكُفْرِيْنَ ﴿١٨﴾

يبين تعالى أنه خالق أفعال العباد، وأنه المحمود على جميع ما صدر منهم من خير، لأنه هو الذي وفقهم لذلك وأعانهم عليه، ولهذا قال: ﴿ فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم ﴾ أي ليس بحولكم وقوتكم قتلتم أعداءكم، مع كثرة عددهم وقلة عددكم، بل هو الذي أظفركم عليهم كما قال: ﴿ ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة ﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿ لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ويوم حنين إذا أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً ﴾ يعلم تبارك وتعالى أن النصر ليس بكثرة العدد والعدد، وإنما النصر من عنده تعالى، كما قال تعالى: ﴿ كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين ﴾، ثم قال تعالى لنبيه ﷺ أيضاً في شأن القبضة من التراب التي حصب بها وجوه الكافرين يوم بدر ﴿ وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى ﴾ أي هو الذي بلغ ذلك إليهم وكتبهم بها لا أنت، قال ابن عباس: رفع رسول الله ﷺ يديه يعني يوم بدر فقال: « يا رب إن تهلك هذه العصابة فلن تعبد في الأرض أبداً » فقال له جبريل: خذ قبضة من التراب فارم بها في وجوههم، فأخذ قبضة من التراب فرمى بها في وجوههم، فما من المشركين أحد إلا أصاب عينيه ومنخره وفه تراب من تلك القبضة فولوا مدبرين. وقال محمد بن قيس ومحمد بن كعب القرظي: لما دنا القوم بعضهم من بعض أخذ رسول الله ﷺ قبضة من تراب

(١) أخرجه الإمام أحمد، قال ابن كثير: حديث غريب من هذا الوجه لم يخرجوه في الكتب الستة.

(٢) يروى هذا عن عمرو بن عباس وأبي هريرة وأبي سعيد ونافع والحسن البصري وسعيد بن جبيرة وعكرمة وقتادة والضحاك وغيرهم.

فرمى بها في وجوه القوم وقال: «شاهت الوجوه»، فدخلت في أعينهم كلهم، وأقبل أصحاب رسول الله ﷺ يقتلونهم ويأسرونهم وكانت هزيمتهم في رمية رسول الله ﷺ، فأنزل الله: ﴿وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى﴾. وقال عروة بن الزبير في قوله: ﴿وليبلى المؤمنين منه بلاء حسناً﴾ أي ليعرف المؤمنين نعمته عليهم، من إظهارهم على عدوهم مع كثرة عدوهم وقلة عددهم، ليعرفوا بذلك حقه ويشكروا بذلك نعمته، ﴿إن الله سميع عليم﴾ أي سميع الدعاء ﴿عليم﴾ بمن يستحق النصر والغلب، وقوله: ﴿ذلكم وأن الله موهن كيد الكافرين﴾ هذه بشارة أخرى مع ما حصل من النصر أنه أعلمهم تعالى بأنه مضعف كيد الكافرين، فيما يستقبل مصغر أمرهم، وأنهم كل ما لهم في تبار ودمار.

إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِيَّ عَنْكُمْ فِتْنَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾

يقول تعالى للكفار: ﴿إن تستفتحوا﴾ أي تستنصروا وتستقضوا الله وتستحكموه أن يفصل بينكم وبين أعدائكم المؤمنين فقد جاءكم ما سألتكم؛ كما قال أبو جهل، قال حين التقى القوم: اللهم أقطعنا للرحم وآتانا بما لا نعرف فأحنه الغداة؛ فكان المستفتح^(١)؛ وقال السدي: كان المشركون حين خرجوا من مكة إلى بدر أخذوا بأستار الكعبة فاستنصروا الله وقالوا: اللهم انصر أعلى الجندين وأكرم الفئتين وخير القبيلتين، فقال الله: ﴿إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح﴾ يقول: قد نصرت ما قلتم، وهو محمد ﷺ. وقوله: ﴿وإن تنتهوا﴾ أي عما أنتم فيه من الكفر بالله والتكذيب لرسوله ﴿فهو خير لكم﴾ أي في الدنيا والآخرة، وقوله تعالى: ﴿وإن تعودوا نعد﴾، كقوله: ﴿وإن عدتم عدنا﴾، معناه وإن عدتم إلى ما كنتم فيه من الكفر والضلالة نعد لكم بمثل هذه الواقعة، وقال السدي: ﴿وإن تعودوا﴾ أي إلى الاستفتاح ﴿نعد﴾ أي إلى الفتح لحمد ﷺ والنصر له وتظفيره على أعدائه، والأول أقوى. ﴿ولن تغني عنكم فتنتكم شيئاً ولو كثرت﴾ أي ولو جمعتم من الجموع ما عسى أن تجمعوا، فإن كان الله معه فلا غالب له، ﴿وإن الله مع المؤمنين﴾ وهم الحزب النبوي والجناب المصطفوي.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ * إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْرُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾

يأمر تعالى عباده المؤمنين بطاعته وطاعة رسوله، ويزجرهم عن مخالفته والتشبه بالكافرين به المعاندين له، ولهذا قال: ﴿ولا تولوا عنه﴾ أي تركوا طاعته وامتنال أوامره وترك زواجره، ﴿وأنتم تسمعون﴾ أي بعدما علمتم ما

(١) رواه أحمد والنسائي والحاكم وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

دعاهم إليه، ﴿ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون﴾ قيل: المراد المشركون، واختاره ابن جرير، وقال ابن إسحاق: هم المنافقون فإنهم يظهرون أنهم قد سمعوا واستجابوا وليسوا كذلك، ثم أخبر تعالى أن هذا الضرب من بني آدم شر الخلق والخلقة فقال: ﴿إن شر الدواب عند الله الصم﴾ أي عن سماع الحق، ﴿البكم﴾ عن فهمه، ولهذا قال: ﴿الذين لا يعقلون﴾ فهؤلاء شر البرية لأن كل دابة مما سواهم مطيعة لله فيما خلقها له، وهؤلاء خلقوا للعبادة فكفروا، ولهذا شبههم بالأنعام في قوله: ﴿أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون﴾ وقيل: المراد بهؤلاء المذكورين نفر من بني عبد الدار من قريش؛ ثم أخبر تعالى بأنهم لا فهم لهم صحيح ولا قصد لهم صحيح - لو فرض أن لهم فهماً - فقال: ﴿ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم﴾ أي لأفهمهم وتقدير الكلام (و) لكن لا خير فيهم فلم يفهمهم لأنه يعلم أنه ﴿لو أسمعهم﴾ أي أفهمهم ﴿لتولوا﴾ عن ذلك قصداً وعناداً بعد فهمهم ذلك ﴿وهم معرضون﴾ عنه .

يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ؕ وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ ؕ وَأَنَّهُ يُثَبِّتُ لَهُمْ قُلُوبَهُمْ بِإِذْنِهِ ؕ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤﴾

إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾

قال البخاري: ﴿استجيبوا﴾ أجبوا ﴿لما يحييكم﴾ لما يصلحكم، عن أبي سعيد بن المعلى رضي الله عنه قال: كنت أصلي فر بي النبي ﷺ فدعاني، فلم آته حتى صليت، ثم أتته فقال: «ما منعك أن تأتيني؟ ألم يقل الله: ﴿يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم﴾، ثم قال: لأعلمنك أعظم سورة في القرآن قبل أن أخرج»، فذهب رسول الله ﷺ ليخرج فذكرت له. فقال: ﴿الحمد لله رب العالمين﴾ هي السبع المثاني. وقال مجاهد ﴿لما يحييكم﴾ قال: للحق، وقال قتادة ﴿لما يحييكم﴾ هو هذا القرآن فيه النجاة والبقاء والحياة؛ وقال السدي: ﴿لما يحييكم﴾ في الإسلام إحيائهم بعد موتهم بالكفر، وقوله تعالى: ﴿واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه﴾، قال ابن عباس: يحول بين المؤمن وبين الكفر، وبين الكافر وبين الإيمان^(١)؛ وقال السدي: لا يستطيع أن يؤمن ولا يكفر إلا بإذنه، وقد وردت الأحاديث عن رسول الله ﷺ بما يناسب هذه الآية؛ قال الإمام أحمد عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ يكثر أن يقول: «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك» قال: فقلنا يا رسول الله آمنا بك وبما جئت به فهل تخاف علينا؟ قال: «نعم إن القلوب بين إصبعين من أصابع الله تعالى يقبلها» .

(حديث آخر): قال الإمام أحمد عن النواس بن سميان رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «ما من قلب إلا وهو بين أصبعين من أصابع الرحمن رب العالمين إذا شاء أن يقيمه أقامه، وإذا شاء أن يزيغه أزاعه»، وكان يقول: «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك» قال: «والميزان بيد الرحمن يخفضه ويرفعه»^(٢). (حديث آخر): قال الإمام أحمد عن أم سلمة أن رسول الله ﷺ كان يكثر في دعائه يقول: «اللهم مقلب القلوب ثبت

(١) وهو قول مجاهد وعكرمة والضحاك وعطية ومقاتل وفي رواية عن مجاهد (يحول بين المرء وقلبه) أي حتى يتركه لا يعقل .

(٢) ورواه النسائي وابن ماجه .

قلبي على دينك» قالت، فقلت: يا رسول الله أو إن القلوب لتقلب؟ قال: «نعم ما خلق الله من بشر من بني آدم إلا أن قلبه بين أصبعين من أصابع الله عز وجل، فإن شاء أقامه، وإن شاء أزاغه. فسأل الله ربنا أن لا يزيغ قلوبنا بعد إذ هدانا، ونسأله أن يهب لنا من لدنه رحمة إنه هو الوهاب» قالت، فقلت: يا رسول الله ألا تعلمني دعوة أدعو بها لنفسي؟ قال: «بلى، قولي اللهم رب النبي محمد اغفر لي ذنبي، وأذهب غيظ قلبي، وأجرني من مضلات الفتن ما أحبيتي» .

وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٥﴾

يحذر تعالى عباده المؤمنين ﴿فتنة﴾ أي اختباراً ومحنة يعم بها المسيء وغيره، لا يخص بها أهل المعاصي، ولا من باشر الذنب، بل يعمهما حيث لم تدفع وترفع، كما قال الإمام أحمد عن مطرف، قال: قلنا للزبير يا أبا عبد الله ما جاء بكم؟ ضيقت الخليفة الذي قتل، ثم جئتم تطلبون بدمه؟ فقال الزبير رضي الله عنه: إنا قرأنا على عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم: ﴿واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة﴾، لم نكن نحسب أنها أهلها حتى وقعت منا حيث وقعت^(١). وروى ابن جرير عن الحسن قال، قال الزبير: لقد خوفنا - يعني قوله تعالى: ﴿واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة﴾ ونحن مع رسول الله ﷺ، وما ظننا أننا خصصنا بها خاصة؛ وقال الحسن في هذه الآية: نزلت في (علي، وعمار، وطلحة، والزبير) رضي الله عنهم، وقال الزبير: لقد قرأت هذه الآية زماناً وما أرانا من أهلها فإذا نحن المعنيون بها ﴿واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة﴾، وقال السدي: نزلت في أهل بدر خاصة فأصابتهم يوم الجمل فاقتلوا، وقال ابن عباس: ﴿لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة﴾ يعني أصحاب النبي ﷺ خاصة، وقال في رواية له عن ابن عباس في تفسير هذه الآية: أمر الله المؤمنين أن لا يقرؤا المنكر بين ظهرانيهم فيعصمهم الله بالعذاب، وهذا تفسير حسن جداً، ولهذا قال مجاهد: هي أيضاً لكم، والقول بأن هذا التحذير يعم الصحابة وغيرهم، وإن كان الخطاب معهم هو الصحيح، ويدل عليه الأحاديث الواردة في التحذير من الفتن، عن عدي بن عميرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله عز وجل لا يعذب العامة بعمل الخاصة حتى يروا المنكر بين ظهرانيهم وهم قادرون على أن ينكروه فلا ينكروه، فإذا فعلوا ذلك عذب الله الخاصة والعامة»^(٢).

(حديث آخر): قال الإمام أحمد عن حذيفة بن اليمان أن رسول الله ﷺ قال: «والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهن عن المنكر أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً من عنده، ثم لتدعنه فلا يستجيب لكم»، وقال حذيفة رضي الله عنه: إن كان الرجل ليتكلم بالكلمة على عهد رسول الله ﷺ فيصير منافقاً، وإني لأسمعها من أحدكم في المقعد الواحد أربع مرات، لتأمرن بالمعروف ولتنهن عن المنكر، ولتحاسنن على الخير، أو ليسحتكم الله جميعاً بعذاب، أو ليؤمرن عليكم شراركم ثم يدعوا خياركم فلا يستجاب لهم. (حديث آخر): قال الإمام

(١) رواه أحمد والبخاري.

(٢) رواه أحمد، قال ابن كثير: لم يخرج في الكتب الستة أحد وفيه رجل متهم.

أحمد أيضاً عن عامر رضي الله عنه قال: سمعت النعمان بن بشير يخطب يقول - وأوماً بأصبعيه إلى أذنيه - يقول: مثل القائم على حدود الله والواقع فيها والمدهن فيها كمثل قوم ركبوا سفينة فأصاب بعضهم أسفلها وأوعرها وشرها، وأصاب بعضهم أعلاها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا الماء مروا على من فوقهم فأذوهم، فقالوا: لو خرقتنا في نصبنا خرقتنا فاستقينا منه ولم تؤذ من فوقنا! فإن تركوهم وأمرهم هلكوا جميعاً، وإن أخذوا على أيديهم نجوا جميعاً^(١). (حديث آخر): عن أم سلمة زوج النبي ﷺ قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا ظهرت المعاصي في أمي عمهم الله بعذاب من عنده» فقلت؟ يا رسول الله أما فيهم أناس صالحون؟ قال: «بلى» قالت: فكيف يصنع أولئك؟ قال: «يصيهم ما أصاب الناس ثم يصيرون إلى مغفرة من الله ورضوان»^(٢). وفي رواية: «ما من قوم يعملون بالمعاصي وفيهم رجل أعز منهم وأمنع لا يغيره، إلا عمهم الله بعقاب أو أصابهم العقاب». وفي أخرى عن عائشة ترفعه: «إذا ظهر السوء في الأرض أنزل الله بأهل الأرض بأسه» فقلت: وفيهم أهل طاعة الله؟ قال: «نعم ثم يصيرون إلى رحمة الله»^(٣).

وَأَذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ يَخَافُونَ أَنْ يَخْطَفَكُمُ النَّاسُ فَعَاوَنَكُمُ وَيَدَّكُم بِنَصْرِهِ ۗ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾

ينبه تعالى عباده المؤمنين على نعمه عليهم وإحسانه إليهم، حيث كانوا قليلين فكثروهم، ومستضعفين خائفين فقواهم ونصرهم، وفقراء عالة فرزقهم من الطيبات، وهذا كان حال المؤمنين حال مقامهم بمكة، قليلين مستضعفين مضطهدين، يخافون أن يتخطفهم الناس من سائر بلاد الله، لقلتهم وعدم قوتهم، فلم يزل ذلك دأبهم حتى أذن الله لهم في الهجرة إلى المدينة فأواهم إليها، وقبض لهم أهلها آووا ونصروا وواسوا بأموالهم، وبدلوا مهجهم في طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ، قال قتادة: كان هذا الحي من العرب أذل الناس ذلاً، وأشقاء عيشاً، وأجوعه بطوناً، وأعره جلوداً، وأبينه ضللاً، من عاش منهم عاش شقياً، ومن مات منهم ردي في النار، يؤكلون ولا يأكلون، والله ما نعلم قبلاً من حاضر أهل الأرض يومئذ كانوا أشر متزلاً منهم، حتى جاء الله بالإسلام فكأن به في البلاد، ووسع به في الرزق، وجعلهم به ملوكاً على رقاب الناس، وبالإسلام أعطى الله ما رأيتم، فاشكروا الله على نعمه، فإن ربكم منعم يحب الشكر، وأهل الشكر في مزيد من الله.

يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحْزَنُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَحْزَنُوا أَمْسِنَتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَعَلِمُوا أَنَّ مَوْلَاكُمْ سَأْتِيهِمُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾

أنزلت في أبي لبابة بن عبد المنذر، حين بعثه رسول الله ﷺ إلى بني قريظة ليتزلوا على حكم رسول الله ﷺ،

(٣) أخرجهما الإمام أحمد .

(١) أخرجه البخاري والترمذي أيضاً .

(٢) رواه الإمام أحمد .

فاستشاروه في ذلك، فأشار عليهم بذلك، وأشار بيده إلى حلقة أي إنه الذبح، ثم فطن أبو لبابة، ورأى أنه قد خان الله ورسوله، فحلف لا ينوق ذواقاً حتى يموت أو يتوب الله عليه، وانطلق إلى مسجد المدينة، فربط نفسه في سارية منه، فكث كذلك تسعة أيام، حتى كان يخر مغشياً عليه من الجهد، حتى أنزل الله توبته على رسوله، فجاء الناس يبشرونه بتوبة الله عليه، وأرادوا أن يحلوه من السارية، فحلف لا يحلّه منها إلا رسول الله ﷺ بيده فحلّه، فقال: يا رسول الله إني كنت نذرت أن أنخلع من مالي صدقة، فقال: «يجزيك الثلث أن تصدق به»^(١). وقال ابن جرير: نزلت هذه الآية في قتل عثمان رضي الله عنه ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول﴾ الآية. وفي الصحيحين قصة (حاطب بن أبي بلتعة) أنه كتب إلى قريش يعلمهم بقصد رسول الله ﷺ إياهم عام الفتح، فأطلع الله رسوله على ذلك، فبعث في إثر الكتاب فاسترجعه، واستحضر حاطباً فأقر بما صنع، وفيها، فقام عمر ابن الخطاب فقال: يا رسول الله، ألا أضرب عنقه فإنه قد خان الله ورسوله والمؤمنين؟ فقال: «دعه فإنه قد شهد بدماء وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر فقال: «اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»، والصحيح أن الآية عامة، وإن صح أنها وردت على سبيل خاص، فالأخذ بعموم اللفظ لا بخصوص السبب عند الجماهير من العلماء. والخيانة تعم الذنوب الصغار والكبار اللازمة والمتعدية، وقال ابن عباس ﴿وتخونوا أماناتكم﴾: الأمانة الأعمال التي ائتمن الله عليها العباد يعني الفريضة، يقول: لا تخونوا لا تنقضوها، وقال في رواية: لا تخونوا الله والرسول يقول: بترك سنته وارتكاب معصيته.

وقال السدي: إذا خانوا الله والرسول فقد خانوا أماناتهم. وقال أيضاً: كانوا يسمعون من النبي ﷺ الحديث فيفشونه حتى يبلغ المشركين، وقال ابن زيد: نهاكم أن تخونوا الله والرسول كما صنع المنافقون، وقوله: ﴿واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة﴾ أي اختبار وامتحان منه لكم إذ أعطاكموها ليعلم أشكرونها عليها وتطيعونه فيها أو تشتغلون بها عنه وتمتاضون بها منه كما قال تعالى: ﴿إنما أموالكم وأولادكم فتنة والله عنده أجر عظيم﴾، وقال: ﴿ونبلوكم بالشر والخير فتنة﴾، وقال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله﴾، وقوله: ﴿وأن الله عنده أجر عظيم﴾ أي ثوابه وعطاؤه وجناته خير لكم من الأموال والأولاد، فإنه قد يوجد منهم عدو، وأكثرهم لا يغني عنك شيئاً، والله سبحانه هو المتصرف المالك للعالمين والآخرة، ولديه الثواب الجزيل يوم القيامة، وفي الأثر يقول الله تعالى: يا ابن آدم اطلبني تجدني، فإن وجدتني وجدت كل شيء، وإن فُتِكَ فاتك كل شيء، وأنا أحب إليك من كل شيء، وفي الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا الله، ومن كان أن يلقى في النار أحب إليه من أن يرجع إلى الكفر بعد إذ أنقذه الله منه»^(٢)، بل حب رسول الله ﷺ مقدم على الأولاد والأموال والنفوس كما ثبت في الصحيح أنه ﷺ قال: «والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وأهله وماله والناس أجمعين».

(٢) أخرجه الشيخان .

(١) رواه عبد الرزاق بن أبي قتادة الزهري .

يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾

قال ابن عباس وغير واحد ﴿فرقاناً﴾ مخرجاً^(١)، زاد مجاهد: في الدنيا والآخرة، وفي رواية عن ابن عباس ﴿فرقاناً﴾ نجاة، وفي رواية عنه: نصراء. وقال محمد بن إسحاق: ﴿فرقاناً﴾ أي فصلًا بين الحق والباطل؛ وهذا التفسير أعم مما تقدم، وهو يستلزم ذلك كله، فإن من اتقى الله بفعل أوامره وترك زواجره، وفق لمعرفة الحق من الباطل، فكان ذلك سبب نصره ونجاته ومخرجه من أمور الدنيا وسعادته يوم القيامة وتكفير ذنوبه وهو محوها، وغفرها: سترها عن الناس، وسبباً لنيل ثواب الله الجزيل كقوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نوراً تمشون به ويغفر لكم والله غفور رحيم﴾.

وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يَخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ ﴿٣٠﴾

قال ابن عباس ومجاهد وقتادة: ﴿ليثبتوك﴾ ليقيدوك؛ وقال عطاء وابن زيد: ليجبسوك، وقال السدي: الإثبات هو الحبس والوثاق، وهذا يشمل ما قاله هؤلاء وهؤلاء، وهو مجمع الأقوال، وهو الغالب من صنيع من أراد غيره بسوء، وقال عطاء: سمعت (عبيد بن عمير) يقول: لما ائتمروا بالنبي ﷺ ليثبته أو يقتلوه أو يخرجوه، قال له عمه أبو طالب: هل تدري ما ائتمروا بك؟ قال: «يريدون أن يسجنوني أو يقتلوني أو يخرجوني»، قال: من أخبرك بهذا؟ قال: «ربي»، قال: نعم الرب ربك استوص به خيراً، قال: «أنا أستوصي به؟ بل هو يستوصي بي»، قال فتزلت: ﴿وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك﴾^(٢) الآية. والدليل على صحة ما قلنا، ما روى محمد بن إسحاق صاحب المغازي عن مجاهد عن ابن عباس: أن نفرًا من قريش من أشرف كل قبيلة اجتمعوا ليدخلوا دار الندوة، فاعترضهم إبليس في صورة شيخ جليل، فلما رأوه قالوا له من أنت؟ قال شيخ من أهل نجد سمعت أنكم اجتمعتم فأردت أن أحضركم، ولن يعدمكم رأيي ونصحي قالوا: أجل ادخل فدخل معهم، فقال: انظروا في شأن هذا الرجل، والله ليوشكن أن يواثبكم في أمركم بأمره، فقال قائل منهم: احبسوه في وثاق ثم تربصوا به ريب المنون حتى يهلك كما هلك من كان قبله من الشعراء زهير والنابعة، قال: فصرخ عدو الله فقال: والله ما هذا برأي، والله ليخرجنه ربه من محبسه إلى أصحابه، فليوشكن أن يثبوا عليه حتى يأخذوه من أيديكم فيمنعوه منكم، فما آمن عليكم أن يخرجوكم من بلادكم، قالوا صدق الشيخ فانظروا في غير هذا؛ قال قائل منهم: أخرجوه من بين أظهركم فتستريحوا منه، فإنه إذا خرج لن يضركم ما صنع إذا غاب

(١) وهو قول السدي وعكرمة والضحاك وقتادة ومقاتل وغيرهم ويشهد له قول الله تعالى: ﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب﴾.

(٢) قال ابن كثير: ذكر أبي طالب في هذا غريب جداً بل منكر، لأن الآية مدنية واجتماع قريش وائتمامهم كان ليلة الهجرة، وكان ذلك بعد موت أبي طالب بنحو ثلاث سنين.

عنكم أذاه، فقال الشيخ النجدي: والله ما هذا لكم برأي ألم تروا حلوة قوله، وطلاقة لسانه، وأخذ القلوب ما تسمع من حديثه؟ والله لئن فعلتم ثم استعرض العرب ليجتمعن عليه، ثم ليأتين إليكم حتى يخرجكم من بلادكم ويقتل أشرافكم، قالوا صدق والله، فانظروا رأياً غير هذا؛ قال: فقال أبو جهل لعنه الله: والله لأشيرن عليكم برأي ما أراكم أبصرتموه بعد، لا أرى غيره، قالوا: وما هو؟ قال: تأخذون من كل قبيلة غلاماً شاباً وسيطاً نهدياً، ثم يعطى كل غلام منهم سيفاً صارماً، ثم يضربونه ضربة رجل واحد، فإذا قتله تفرق دمه في القبائل كلها، فما أظن هذا الحي من بني هاشم يقولون على حرب قريش كلها، فإنهم إذا رأوا ذلك قبلوا العقل (الدية) واسترحنا وقطعنا عنا أذاه، قال: فقال الشيخ النجدي: هذا والله الرأي، القول ما قال الفتى، ولا أرى غيره؛ قال: فتفرقوا على ذلك وهم مجمعون له، فأتى جبريل النبي ﷺ فأمره أن لا يبيت في مضجعه الذي كان يبيت فيه، وأخبره بمكر القوم، فلم يبيت رسول الله ﷺ في بيته تلك الليلة، وأذن الله له عند ذلك بالخروج، وأنزل الله عليه بعد قدومه المدينة الأنفال يذكر نعمه عليه وبلاءه عنده: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيَشْتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يَخْرُجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾، وأنزل في قولهم تربصوا به ريب المنون: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ تَرْبِصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ﴾ .

قال ابن إسحاق: أتاه جبريل عليه السلام فأمره أن لا يبيت في مكانه الذي كان يبيت فيه، فدعا رسول الله ﷺ (علي بن أبي طالب) فأمره أن يبيت على فراشه ويتسجى ببرد له أخضر، ففعل ثم خرج رسول الله ﷺ على القوم، وهم على بابه، وخرج معه بحفنة من تراب فجعل يذروها على رؤوسهم، وأخذ الله بأبصارهم عن نبيه ﷺ وهو يقرأ: ﴿يَس وَالْقُرْآنَ الْحَكِيمَ - إِنْ قَوْلُهُ - فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهَمْ لَا يَبْصُرُونَ﴾ . وقد روى ابن حبان في صحيحه والحاكم في مستدركه عن ابن عباس قال: دخلت فاطمة على رسول الله ﷺ وهي تبكي، فقال: «ما يبكيك يا بنية؟» قالت: «يا أبت ومالي لا أبكي وهؤلاء الملائم من قريش في الحجر يتعاهدون باللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى لو قد رأوك لقاموا إليك فيقتلونك، وليس منهم إلا من قد عرف نصيبه من دمك، فقال: «يا بنية اثني بوضوء»، فتوضأ رسول الله ﷺ، ثم خرج إلى المسجد، فلما رآه قالوا: ها هو ذا، فطأطأوا رؤوسهم، وسقطت رقابهم بين أيديهم، فلم يرفعوا أبصارهم، فتناول رسول الله ﷺ قبضة من تراب فحصبهم بها، وقال: «شاهت الوجوه»، فما أصاب رجلاً منهم حصاة من حصياته إلا قتل يوم بدر كافراً^(١). وعن ابن عباس في قوله: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ﴾ الآية. قال: تشاورت قريش ليلة بمكة فقال بعضهم: إذا أصبح فأثبتوه بالوثاق يريدون النبي ﷺ، وقال بعضهم: بل اقتلوه، وقال بعضهم: بل اخرجوه، فأطلع الله نبيه ﷺ على ذلك فبات علي رضي الله عنه على فراش رسول الله ﷺ، وخرج النبي ﷺ حتى لحق بالغار، وبات المشركون يحرسون علياً يحسبونه النبي ﷺ، فلما أصبحوا ثاروا إليه، فلما رأوا علياً رد الله تعالى مكرهم، فقالوا: أين صاحبك هذا؟ قال: لا أدري، فاقصصوا أثره، فلما بلغوا الجبل اختلط عليهم، فصعدوا في الجبل، ففروا بالغار، فرأوا على بابه نسج العنكبوت، فقالوا: لو دخل ههنا لم يكن نسج العنكبوت على بابه، فكث فيه ثلاث ليال^(٢). وقال عروة بن الزبير في قوله: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ﴾ أي فكرت بهم بكيدي المتين حتى خلصتك منهم .

(٢) رواه الإمام أحمد في المسند .

(١) قال الحاكم: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ولا أعرف له علة .

وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأُولِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذْ قَالُوا
 اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ آتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَا كَانَ اللَّهُ
 لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾

يخبر تعالى عن كفر قريش وعتوهم وتمردهم وعنادهم، ودعواهم الباطل عند سماع آياته، إذا تلى عليهم أنهم يقولون: ﴿قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا﴾ وهذا منهم قول بلا فعل، وإلا فقد تحدوا غير ما مرة أن يأتوا بسورة من مثله فلا يجدون إلى ذلك سبيلاً، وقد قيل: إن القائل لذلك هو (النضر بن الحارث)، فإنه لعنه الله كان قد ذهب إلى بلاد فارس، وتعلم من أخبار ملوكهم رسم وأسفنديار، ولما قدم وجد رسول الله ﷺ قد بعثه الله، وهو يتلو على الناس القرآن، فكان عليه الصلاة والسلام إذا قام من مجلس، جلس فيه النضر فحدثهم من أخبار أولئك، ثم يقول: بالله أينا أحسن قصصاً أنا أو محمد؟ ولهذا لما أمكن الله تعالى منه يوم بدر ووقع في الأسارى أمر رسول الله ﷺ أن تضرب رقبة صبراً بين يديه، ففعل ذلك والله الحمد، وكان الذي أسره (المقداد بن الأسود) رضي الله عنه كما قال ابن جرير. ومعنى ﴿أساطير الأولين﴾ جمع أسطورة: أي كتبهم، اقتبسها فهو يتعلم منها ويتلوها على الناس، وهذا هو الكذب البحت، كما أخبر الله عنهم في الآية الأخرى: ﴿وقالوا أساطير الأولين اكتبتها فهي تملى عليه بكرة وأصيلاً﴾ - إلى - إنه كان غفوراً رحماً ﴿أي لمن تاب إليه وأناب فإنه يتقبل منه ويصفح عنه.

وقوله تعالى: ﴿وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم﴾ هذا من كثرة جهلهم وشدة تكذيبهم وعنادهم وعتوهم، وهذا مما عيىوا به، وكان الأولى لهم أن يقولوا: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا له ووفقنا لاتباعه، ولكن استفتحوا على أنفسهم واستعجلوا العذاب وتقديم العقوبة، كقوله تعالى: ﴿ويستعجلونك بالعذاب ولولا أجل مسمى لجاءهم العذاب﴾، ﴿وقالوا ربنا عجل لنا قطناً قبل يوم الحساب﴾، وقوله: ﴿سأل سائل بعذاب واقع﴾، وكذلك قال الجهلة من الأمم السالفة كما قال قوم شعيب له: ﴿فأسقط علينا كسفاً من السماء إن كنت من الصادقين﴾. عن أنس بن مالك قال أبو جهل ابن هشام: ﴿اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم﴾، فنزلت: ﴿وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون﴾^(١). وقال الأعمش عن ابن عباس في قوله: ﴿وإذ قالوا اللهم﴾ الآية، قال: هو النضر بن الحارث بن كلدة قال: فأنزل الله: ﴿سأل سائل بعذاب واقع﴾ للكافرين ليس له دافع^(٢).

وقوله تعالى: ﴿وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون﴾، قال ابن عباس: كان المشركون يطوفون بالبيت ويقولون: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك، إلا شريك هو لك، تملكه

(١) أخرجه البخاري في صحيحه .

(٢) وهو قول مجاهد وعطاء وسعيد بن جبير والسدي .

وما ملك، ويقولون: غفرانك غفرانك، فأنزل الله: ﴿وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم﴾ الآية. قال ابن عباس: كان فيهم أمانان النبي ﷺ والاستغفار، فذهب النبي ﷺ وبقي الاستغفار^(١). وعن ابن عباس: ﴿وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم﴾ يقول ما كان الله ليعذب قوماً وأنبياءهم بين أظهرهم حتى يخرجهم، ثم قال: ﴿وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون﴾ يقول: وفيهم من قد سبق له من الله الدخول في الإيمان، وهو الاستغفار، يستغفرون يعني يصلون، يعني بهذا أهل مكة، وقال الضحاك: ﴿وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون﴾ يعني المؤمنين الذين كانوا بمكة. وقال رسول الله ﷺ: «أنزل الله عليّ أمانين لأمتي: ﴿وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم﴾، وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون»، فإذا مضيت تركت فيهم الاستغفار إلى يوم القيامة^(٢). ويشهد لهذا ما رواه الإمام أحمد عن أبي سعيد أن رسول الله ﷺ قال: «إن الشيطان قال: وعزتك يا رب لا أبرح أغوي عبادك ما دامت أرواحهم في أجسادهم، فقال الرب وعزتي وجلالي، لا أزال أغفر لهم ما استغفروني»^(٣).

وَمَا لَهُمْ آلَا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الّٰلْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصَدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾

يخبر تعالى أنهم أهل لأن يعذبهم، ولكن لم يوقع ذلك بهم لبركة مقام الرسول ﷺ بين أظهرهم، ولهذا لما خرج من بين أظهرهم أوقع الله بهم بأسه يوم بدر فقتل صناديدهم، وأسر سراتهم، وأرشدهم تعالى إلى الاستغفار من الذنوب التي هم متلبسون بها من الشرك والفساد، قال قتادة والسدي: لم يكن القوم يستغفرون ولو كانوا يستغفرون ما عذبوا. قال ابن جرير عن عكرمة والحسن البصري قالا، قال في الأنفال: ﴿وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم﴾ وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون﴾ فنسخها الآية التي تليها ﴿وما لهم ألا يعذبهم الله - إلى قوله - فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون﴾ فقاتلوا بمكة فأصابهم فيها الجوع والضر، وقال ابن أبي حاتم عن ابن عباس: ﴿وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون﴾، ثم استثنى أهل الشرك فقال: ﴿وما لهم ألا يعذبهم الله وهم يصلون عن المسجد الحرام﴾، وقوله: ﴿وما لهم ألا يعذبهم الله وهم يصلون عن المسجد الحرام وما كانوا أولياءه إن أولياؤه إلا المتقون ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ أي وكيف لا يعذبهم الله وهم يصلون عن المسجد الحرام أي الذي بمكة، يصلون المؤمنون الذين هم أهلهم عن الصلاة فيه والطواف به، ولهذا قال: ﴿وما كانوا أولياءه إن أولياؤه إلا المتقون﴾ أي هم ليسوا أهل المسجد الحرام وإنما أهل النبي ﷺ وأصحابه، كما قال تعالى: ﴿ما كان للمشركين أن يعمرُوا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر أولئك حبطت أعمالهم وفي النار هم خالدون﴾ إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين﴾، وقال تعالى:

(٣) أخرجه أحمد والحاكم، وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

(١) أخرجه ابن أبي حاتم.

(٢) رواه الترمذي في سننه.

﴿وَصَدَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكَفَرَ بِهِ وَالْمَسْجِدَ الْحَرَامَ وَإِخْرَاجَ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ الآية. وقال الحافظ ابن مردويه في تفسير هذه الآية عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: سئل رسول الله ﷺ من أولياؤك؟ قال: «كل تقي»، وتلا رسول الله ﷺ ﴿إِنْ أَوْلِيَائِهِ إِلَّا الْمُتَّقُونَ﴾. وقال الحاكم في مستدرکه: جمع رسول الله ﷺ قريشاً فقال: «هل فيكم من غيركم؟» فقالوا: «فينا ابن أختنا وفينا حليفنا وفينا مولانا، فقال: «حليفنا منا وابن أختنا منا ومولانا منا إن أولياي منكم المتقون».

وقال عروة والسدي في قوله تعالى: ﴿إِنْ أَوْلِيَائِهِ إِلَّا الْمُتَّقُونَ﴾ قال: هم محمد ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم، وقال مجاهد: هم المجاهدون من كانوا حيث كانوا، ثم ذكر تعالى ما كانوا يعتمدونه عند المسجد الحرام وما كانوا يعملونه به، فقال: ﴿وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاءً وتصدية﴾ المكاء هو الصفير^(١)، وزاد مجاهد: وكانوا يدخلون أصابعهم في أفواههم. وقال السدي: المكاء الصفير على نحو طير أبيض يقال له المكاء ويكون بأرض الحجاز. عن ابن عباس قال: كانت قريش تطوف بالبيت عراة تصفر وتصفق، والمكاء الصفير، والتصدية التصفيق. وقال ابن جرير عن ابن عمر في قوله: ﴿وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاءً وتصدية﴾ قال: المكاء الصفير، والتصدية التصفيق، وعن ابن عمر أيضاً أنه قال: إنهم كانوا يضعون خلودهم على الأرض ويصفقون ويصفرون، ويصنعون ذلك ليخلطوا بذلك على النبي ﷺ صلاته، وقال الزهري: يستهزئون بالمؤمنين. وعن سعيد ابن جبير ﴿وتصدية﴾ قال: صدهم الناس عن سبيل الله عز وجل، قوله: ﴿فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون﴾ قال الضحاک وابن جرير ومحمد بن إسحاق هو ما أصابهم يوم بدر من القتل والسبي، واختاره ابن جرير عن مجاهد قال: عذاب أهل الإقرار بالسيف، وعذاب أهل التكذيب بالصيحة والزلزلة.

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيَنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمُهُمْ جَمِيعًا فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٣٧﴾

قال محمد بن إسحاق: لما أصيب قريش يوم بدر ورجع فلهم إلى مكة، ورجع أبو سفيان بعيره، مشى (عبد الله بن أبي ربيعة) و (عكرمة بن أبي جهل) و (صفوان بن أمية) في رجال من قريش أصيب آباؤهم وأبناؤهم وإخوانهم ببدر، فكلموا أبا سفيان بن حرب ومن كانت له في تلك العير من قريش تجارة، فقالوا: يا معشر قريش إن محمداً قد وتركم وقتل خياركم، فأعينونا بهذا المال على حربه لعلنا أن ندرك منه ثاراً بمن أصيب منا، ففعلوا، قال: فقيمهم أنزل الله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ - إلى قوله - هم الخاسرون﴾^(٢). وقال الضحاک: نزلت في أهل بدر، وعلى كل تقدير فهي عامة، وإن كان سبب نزولها خاصاً، فقد أخبر تعالى

(١) وهو قول ابن عباس ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وقتادة.

(٢) في اللباب: أخرج ابن جرير أنها نزلت في أبي سفيان استأجر يوم أحد ألفين من الأحابيش ليقاتل بهم رسول الله ﷺ.

أن الكفار ينفقون أموالهم ليصلوا عن اتباع الحق، فسيفعلون ذلك، ثم تذهب أموالهم، ثم تكون عليهم حسرة أي ندامة، حيث لم يجد شيئاً لأنهم أرادوا إطفاء نور الله وظهور كلمتهم على كلمة الحق، والله متم نوره ولو كره الكافرون، فهذا الخزي لهم في الدنيا، ولهم في الآخرة عذاب النار، فمن عاش منهم رأى بعينه وسمع بأذنه ما يسوؤه، ومن قتل منهم أو مات فإلى الخزي الأبدي والعذاب السرمدي، ولهذا قال: ﴿فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون، والذين كفروا إلى جهنم يحشرون﴾، وقوله تعالى: ﴿ليميز الله الخبيث من الطيب﴾ قال ابن عباس: يميز أهل السعادة من أهل الشقاء، وقال السدي: يميز المؤمن من الكافر؛ وهذا يحتمل أن يكون هذا التمييز في الآخرة، كقوله: ﴿ثم نقول للذين أشركوا مكانكم أنتم وشركاؤكم فزيلنا بينهم﴾ الآية، وقوله: ﴿ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون﴾، وقال في الآية الأخرى: ﴿يومئذ يصدعون﴾، وقال تعالى: ﴿وامتازوا اليوم أيها المجرمون﴾، ويحتمل أن يكون هذا التمييز في الدنيا بما يظهر من أعمالهم للمؤمنين، أي: إنما أقدرناهم على ذلك ﴿ليميز الله الخبيث من الطيب﴾ أي من يطيعه بقتال أعدائه الكافرين، أو يعصيه بالنكول عن ذلك، كقوله: ﴿وما أصابكم يوم التقى الجمعان فياذن الله وليعلم المؤمنين، وليعلم الذين نافقوا﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿ما كان الله ليدرز المؤمنين على ما أتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب﴾ الآية، فعنى الآية على هذا إنما ابتليناكم بالكفار يقاتلونكم وأقدرناهم على إنفاق الأموال وبذلها في ذلك ﴿ليميز الله الخبيث من الطيب ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه﴾ أي يجمعه كله، وهو جمع الشيء بعضه على بعض كما قال تعالى في السحاب ﴿ثم يجعله ركاماً﴾ أي متراكماً متراكباً، ﴿فيجعله في جهنم أولئك هم الخاسرون﴾ أي هؤلاء هم الخاسرون في الدنيا والآخرة.

قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنَّ آنتَهُوا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعَمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعَمَ النَّصِيرِ ﴿٤٠﴾

يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿قل للذين كفروا إن ينتهوا﴾ أي عما هم فيه من الكفر والمشاقة والعناد ويدخلوا في الإسلام والطاعة والإنابة يغفر لهم ما قد سلف أي من كفرهم وذنوبهم وخطاياهم، كما جاء في الصحيح: «من أحسن في الإسلام لم يؤاخذ بما عمل في الجاهلية، ومن أساء في الإسلام أخذ بالأول والآخر». وفي الصحيح أيضاً، أن رسول الله ﷺ قال: «الإسلام يجب ما قبله والتوبة تجب ما كان قبلها». وقوله: ﴿وإن يعودوا﴾ أي يستمروا على ما هم فيه، ﴿فقد مضت سنة الأولين﴾: أي فقد مضت سنتنا في الأولين أنهم إذا كذبوا واستمروا على عنادهم أنا نعالجهم بالعذاب والعقوبة، قال مجاهد في قوله: ﴿فقد مضت سنة الأولين﴾ أي في قريش يوم بدر وغيرها من الأمم، وقوله تعالى: ﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله﴾، قال البخاري عن ابن عمر: أن رجلاً جاء فقال: يا أبا عبد الرحمن ألا تسمع ما ذكر الله في كتابه: ﴿وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا﴾ الآية، فما يمنعك أن لا تقاتل كما ذكر الله في كتابه؟ فقال: يا ابن أخي أعبر

بهذه الآية ولا أقاتل أحب إلي من أن أعير بالآية التي يقول الله، قال عز وجل: ﴿ومن يقتل مؤمناً متعمداً﴾ إلى آخر الآية. قال فإن الله تعالى يقول: ﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة﴾، قال ابن عمر: قد فعلنا على عهد رسول الله ﷺ إذ كان الإسلام قليلاً، وكان الرجل يفتن في دينه، إما أن يقتلوه وإما أن يوثقوه، حتى كثر الإسلام فلم تكن فتنة، فلما رأى أنه لا يوافقها فيما يريد، قال: فما قولكم في علي وعثمان؟ قال ابن عمر: أما عثمان فكان الله قد عفا عنه وكرهتم أن يعفو الله عنه، وأما علي فابن عم رسول الله ﷺ وخنته وأشار بيده، وهذه ابنته أو بنته حيث ترون. وأتى رجلان في فتنة ابن الزبير إلى ابن عمر فقالا: إن الناس قد صنعوا ما ترى وأنت ابن عمر ابن الخطاب وأنت صاحب رسول الله ﷺ فما يمنعك أن تخرج؟ قال: يمنعني الله أن حرم علي دم المسلم، قالوا: أولم يقل الله: ﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله﴾ قال: قد قاتلنا حتى لم تكن فتنة وكان الدين كله لله، وأتم تريدون أن تقاتلوا حتى تكون فتنة، ويكون الدين لغير الله.

وقال الضحاك عن ابن عباس: ﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة﴾ يعني لا يكون شرك^(١). وقال عروة بن الزبير: ﴿حتى لا تكون فتنة﴾ حتى لا يفتن مسلم عن دينه، وقوله: ﴿ويكون الدين كله لله﴾، قال الضحاك عن ابن عباس: يخلص التوحيد لله؛ وقال الحسن وقتادة: أن يقال لا إله إلا الله، أن يكون التوحيد خالصاً لله فليس فيه شرك ويخلع ما دونه من الأنداد، وقال عبد الرحمن بن أسلم: ﴿ويكون الدين كله لله﴾ لا يكون مع دينكم كفر، ويشهد لهذا ما ثبت في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله عز وجل». وقوله: ﴿فإن انتهوا﴾ عما هم فيه من الكفر فكفوا عنه، وإن لم تعلموا بواطنهم ﴿فإن الله بما يعملون بصير﴾، كقوله: ﴿فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم﴾ الآية. وفي الآية الأخرى: ﴿فإخوانكم في الدين﴾، وقال: ﴿فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين﴾. وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ قال لأسامة لما علا ذلك الرجل بالسيف، فقال لا إله إلا الله فضربه فقتله، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ، فقال لأسامة: «أقتلته بعدما قال لا إله إلا الله؟ وكيف تصنع بلا إله إلا الله يوم القيامة؟» فقال: يا رسول الله إنما قالها تعوداً، قال: «هلاً شققت عن قلبه»، وجعل يقول ويكرر عليه: «من لك بلا إله إلا الله يوم القيامة؟» قال أسامة: حتى تمنيت أني لم أكن أسلمت إلا يومئذ، وقوله: ﴿وإن تولوا فاعلموا أن الله مولاكم نعم المولى ونعم النصير﴾ أي وإن استمروا على خلافكم ومحاربتكم ﴿فاعلموا أن الله مولاكم﴾ سيدكم وناصركم على أعدائكم فنعم المولى ونعم النصير.

* وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ ءَامَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّقَىٰ أَجْمَعِينَ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾

يبين تعالى تفصيل ما شرعه مخصصاً لهذه الأمة الشريفة من بين سائر الأمم المتقدمة إحلال الغنائم، والغنيمة هي المال المأخوذ من الكفار بإيجاف الخيل والركاب، والتيء ما أخذ منهم بغير ذلك، كالأموال التي يصالحون

(١) وهو قول مجاهد والحسن وقتادة والسدي ومقاتل وزيد بن أسلم.

عليها أو يتوفون عنها ولا وارث لهم، والجزية والخراج ونحو ذلك؛ هذا مذهب الإمام الشافعي، ومن العلماء من يطلق النية على ما تطلق عليه الغنيمة والعكس أيضاً، ﴿واعلموا أنما غنمتم من شيء فإن لله خمسه﴾ توكيد لتخميس كل قليل وكثير حتى الخيط والمخيط، قال الله تعالى: ﴿ومن يغلل يأتي بما غل يوم القيامة﴾ الآية، وقوله: ﴿فإن لله خمسه وللرسول﴾ اختلف المفسرون ههنا، فقال بعضهم لله نصيب من الخمس يجعل في الكعبة. وقال آخرون: ذكر الله ههنا استفتاح كلام للتبرك، وسهم لرسوله ﷺ. قال ابن عباس: كان رسول الله ﷺ إذا بعث سرية فغنموا خمس الغنيمة، فضرب ذلك الخمس في خمسة، ثم قرأ: ﴿واعلموا أنما غنمتم من شيء فإن لله خمسه وللرسول﴾، فإن لله خمسه: مفتاح كلام ﴿الله ما في السموات وما في الأرض﴾، فجعل سهم الله وسهم الرسول ﷺ واحداً^(١)، ويؤيد هذا ما رواه الحافظ البيهقي بإسناد صحيح عن عبد الله بن شقيق عن رجل قال: أتيت النبي ﷺ وهو بوادي القرى، وهو يعرض فرساً، فقلت: يا رسول الله ما تقول في الغنيمة؟ فقال: «لله خمسها وأربعة أخماسها للجيش» قلت فما أحد أولى به من أحد؟ قال: «لا ولا سهم تستخرجه من جيبيك ليس أنت أحق به من أخيك المسلم».

وقال ابن جرير عن الحسن قال: أوصى الحسن بالخمس من ماله، وقال: ألا أرضى من مالي بما رضي الله لنفسه؛ وعن عطاء قال: خمس الله والرسول واحد يحمل منه ويصنع فيه ما شاء، يعني النبي ﷺ، وهذا أعم وأشمل، وهو أنه ﷺ يتصرف في الخمس الذي جعله الله له بما شاء ويرده في أمته كيف شاء. ويشهد لهذا ما رواه الإمام أحمد عن المقدام بن معد يكره الكندي: أنه جلس مع عبادة بن الصامت وأبي الدرداء والحارث ابن معاوية الكندي رضي الله عنهم، فتذكروا حديث رسول الله ﷺ، فقال أبو الدرداء لعبادة: يا عبادة كلمات رسول الله ﷺ في غزوة كذا وكذا في شأن الأحماس، فقال عبادة: إن رسول الله ﷺ صلى بهم في غزوة إلى بعير من المغنم، فلما سلم قام رسول الله ﷺ فتناول وبرة بين أظفاره فقال: «إن هذه من غنائمكم، وإنه ليس لي فيها إلا نصيبي معكم الخمس، والخمس مردود عليكم، فأدوا الخيط والمخيط، وأكبر من ذلك وأصغر، ولا تغلوا، فإن الغلول عار ونار على أصحابه في الدنيا والآخرة، وجاهدوا الناس في الله القريب والبعيد، ولا تبالوا في الله لومة لائم، وأقيموا حدود الله في السفر والحضر، وجاهدوا في الله، فإن الجهاد باب من أبواب الجنة عظيم ينجي الله به من الهم والغم»^(٢). وعن عمرو بن عبسة أن رسول الله ﷺ صلى بهم إلى بعير من المغنم، فلما سلم أخذ وبرة من هذا البعير ثم قال: «ولا يحل لي من غنائمكم مثل هذه إلا الخمس والخمس مردود عليكم»^(٣). وقد كان للنبي ﷺ من الغنائم شيء يصطفيه لنفسه عبد أو أمة أو فرس أو سيف أو نحو ذلك، كما نص عليه محمد بن سيرين وعامر الشعبي، وتبعهما على ذلك أكثر العلماء. وروى الإمام أحمد والترمذي عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ تنفل سيفه ذا الفقار يوم بدر، وهو الذي رأى فيه الرؤيا يوم أحد. وعن عائشة رضي الله عنها

(١) وهو قول النخعي والحسن البصري والشعبي وعطاء وقتادة وغيرهم.

(٢) قال ابن كثير: هذا حديث حسن عظيم ولم أره في شيء من الكتب الستة وله شواهد.

(٣) رواه أبو داود والنسائي.

قالت: كانت صفية من الصفي^(١)، وعن يزيد بن عبد الله قال: كنا بالمربد إذ دخل رجل معه قطعة أديم فقرأناها فإذا فيها: «من محمد رسول الله إلى بني زهير بن أقيش، إنكم إن شهدتم أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وأقمتم الصلاة، وآتيتم الزكاة، وأديتم الخمس من المغنم، وسهم النبي ﷺ، وسهم الصفي، أتم آمنون بأمان الله ورسوله»، فقلنا: من كتب لك هذا؟ فقال: رسول الله ﷺ^(٢). فهذه أحاديث جيدة تدل على تقرير هذا وثبوته؛ ولهذا جعل ذلك كثيرون من الخصائص له صلوات الله وسلامه عليه، وقال آخرون: إن الخمس يتصرف فيه الإمام بالمصلحة للمسلمين كما يتصرف في مال النبي.

وقال شيخنا الإمام العلامة ابن تيمية رحمه الله: وهذا قول مالك وأكثر السلف وهو أصح الأقوال، فإذا ثبت هذا وعلم فقد اختلف أيضاً في الذي كان يناله عليه السلام من الخمس ماذا يصنع به من بعده؟ فقال قائلون: يكون لمن يلي الأمر من بعده، وقال آخرون: يصرف في مصالح المسلمين؛ وقال آخرون: بل هو مردود على بقية الأصناف ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل، اختاره ابن جرير. وقال آخرون: بل سهم النبي ﷺ وسهم ذوي القربى مردودان على اليتامى والمساكين وابن السبيل، قال ابن جرير: وذلك قول جماعة من أهل العراق، وقيل: إن الخمس جميعه لذوي القربى، ثم اختلف الناس في هذين السهمين بعد وفاة رسول الله ﷺ فقال قائلون: سهم النبي ﷺ يُسلم للخليفة من بعده، وقال آخرون: لقراءة النبي ﷺ، وقال آخرون: سهم القراءة لقراءة الخليفة، واجتمع رأيهم أن يجعلوا هذين السهمين في الخيل والعدة في سبيل الله، فكانا على ذلك في خلافة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما. قال الأعمش عن إبراهيم: كان أبو بكر وعمر يجعلان سهم النبي ﷺ في الكراع والسلاح، فقلت لإبراهيم: ما كان عليُّ يقول فيه؟ قال: كان أشدهم فيه، وهذا قول طائفة كثيرة من العلماء رحمهم الله، وأما سهم ذوي القربى فإنه يصرف إلى (بني هاشم) و (بني المطلب) لأن بني المطلب وازروا بني هاشم في الجاهلية وفي أول الإسلام، ودخلوا معهم في الشعب غضباً لرسول الله ﷺ وحماية له، مسلمهم طاعة لله ولرسوله، وكافروهم حمية للعشيرة وأنفة وطاعة لأبي طالب عم رسول الله ﷺ؛ وأما بنو عبد شمس وبنو نوفل، وإن كانوا بني عمهم فلم يوافقوهم على ذلك، بل حاربوهم وناذروهم، ومالوا بطون قريش على حرب الرسول.

وقال جبير بن مطعم: مشيت أنا وعثمان بن عفان، إلى رسول الله ﷺ فقلنا: يا رسول الله ﷺ أعطيت بني المطلب من خمس خيبر وتركتنا، ونحن وهم منك بمنزلة واحدة؟ فقال: «إنما بنو هاشم وبنو المطلب شيء واحد»^(٣). وفي بعض روايات هذا الحديث: «إنهم لم يفارقونا في جاهلية ولا إسلام»؛ وهذا قول جمهور العلماء أنهم بنو هاشم وبنو المطلب. قال ابن جرير: وقال آخرون: هم بنو هاشم، ثم روى عن مجاهد قال: علم الله أن في بني هاشم فقراء، فجعل لهم الخمس مكان الصدقة، وفي رواية عنه قال: هم قرابة رسول الله ﷺ الذين لا تحل لهم الصدقة؛ عن ابن عباس قال، قال رسول الله ﷺ: «رغبت لكم عن غسالة الأيدي، لأن لكم من خمس

(١) رواه أبو داود في سننه.

(٢) رواه أبو داود والنسائي.

(٣) رواه البخاري في عدة أبواب.

الخمسة ما يغنيكم أو يكفيكم»^(١)، وقوله: ﴿وَالْيَتَامَى﴾ أي أيتام المسلمين، واختلف العلماء هل يختص بالآيتام الفقراء أو يعم الأغنياء والفقراء؟ على قولين، والمساكين هم المحاويج الذين لا يجدون ما يسد خلتهم ومسكنتهم ﴿وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ هو المسافر أو المرید للسفر إلى مسافة تقصر فيها الصلاة وليس له ما ينفقه في سفره ذلك، وسيأتي تفسير ذلك في آية الصدقات من سورة براءة إن شاء الله تعالى .

وقوله تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ أي امتثلوا ما شرعنا لكم من الخمسة في الغنائم إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وما أنزل على رسوله، ولهذا جاء في الصحيحين من حديث عبد الله بن عباس في وفد عبد القيس أن رسول الله ﷺ قال لهم: «وَأَمْرُكُمْ بِأَرْبَعٍ وَأَنْهَاكُمْ عَنْ أَرْبَعٍ: آمُرُكُمْ بِالْإِيمَانِ بِاللَّهِ، ثُمَّ قَالَ: هَلْ تَدْرُونَ مَا الْإِيمَانُ بِاللَّهِ؟ شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَإِقَامُ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ، وَأَنْ تُؤَدُّوا الْخُمْسَ مِنَ الْمَغْنَمِ» الحديث، فجعل أداء الخمسة من جملة الإيمان، وقوله: ﴿يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّقِيهِ الْجَمْعَانِ﴾ ينه تعالى على نعمته وإحسانه إلى خلقه بما فرق به بين الحق والباطل بيد، ويسمى الفرقان، لأن الله أعلى فيه كلمة الإيمان على كلمة الباطل، وأظهر دينه ونصر نبيه وحزبه، قال ابن عباس: يوم الفرقان يوم بدر، فرق الله فيه بين الحق والباطل^(٢). وقال عروة بن الزبير: ﴿يَوْمَ الْفُرْقَانِ﴾ يوم فرق الله بين الحق والباطل، وهو يوم بدر، وهو أول مشهد شهده رسول الله ﷺ، وكان رأس المشركين (عتبة بن ربيعة) فالتقوا يوم الجمعان لتسع عشرة أو سبع عشرة مضت من رمضان وأصحاب رسول الله ﷺ يومئذ ثلثمائة وبضعة عشر رجلاً، والمشركون ما بين الألف والتسعمائة، فهزم الله المشركين، وقتل منهم زيادة على السبعين وأسر منهم مثل ذلك. وكانت ليلة الفرقان يوم التقى الجمعان لسبع عشرة من رمضان، روى ابن مردويه عن علي قال: كانت ليلة الفرقان ليلة التقى الجمعان في صبيحتها ليلة الجمعة لسبع عشرة مضت من شهر رمضان، وهو الصحيح عند أهل المغازي والسير .

إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدُوِّ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدُوِّ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ لَوْ تَوَاعَدْتُمْ لِاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ
وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيْنَةٍ وَيَحْيِيَ مَنْ حَيَّ عَن بَيْنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾

يقول تعالى مخبراً عن يوم الفرقان: ﴿إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدُوِّ الدُّنْيَا﴾ أي إذ أنتم نزول بعلوة الوادي الدنيا القريبة إلى المدينة ﴿وَهُمْ﴾ أي المشركون نزول ﴿بِالْعُدُوِّ الْقُصْوَى﴾ أي البعيدة من المدينة إلى ناحية مكة ﴿وَالرَّكْبُ﴾ أي العير الذي فيه أبو سفيان بما معه من التجارة، ﴿أَسْفَلَ مِنْكُمْ﴾ أي مما يلي سيف البحر ﴿لَوْ تَوَاعَدْتُمْ﴾ أي أنتم والمشركون إلى مكان ﴿لِاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ﴾، قال محمد بن إسحاق في هذه الآية: ولو كان ذلك عن ميعاد منكم ومنهم، ثم بلغكم كثرة عددهم وقلة عددكم ما لقيتموهم ﴿وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ أي ليقضي

(١) رواه ابن أبي حاتم، قال ابن كثير: حديث حسن الإسناد .

(٢) أخرجه الحاكم .

الله ما أراد بقدرته من اعزاز الإسلام وأهله وإذلال الشرك وأهله من غير ملأ منكم، ففعل ما أراد من ذلك بلطفه^(١)، وإنما خرج رسول الله ﷺ والمسلمون يريدون غير قريش حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد، وقال ابن جرير: أقبل أبو سفيان في الركب من الشام، وخرج أبو جهل ليمنعه من رسول الله ﷺ وأصحابه، فالتقوا ببدر، ولا يشعر هؤلاء بهؤلاء ولا هؤلاء بهؤلاء، حتى التقى السقاة ونهد الناس بعضهم لبعض، وقال محمد بن إسحاق وبعث أبو سفيان إلى قريش فقال: إن الله قد نجى غيركم وأموالكم ورجالكم فارجعوا، فقال أبو جهل: والله لا نرجع حتى نأتي بدرأ - وكانت بدر سوقاً من أسواق العرب - فنقيم بها ثلاثاً، فننطمم بها الطعام وننحر بها الجزر، ونسقي بها الخمر، وتعزف علينا القيان، وتسمع بنا العرب وبمسيرنا، فلا يزالون يهابوننا بعدها أبداً. وأقبل رسول الله ﷺ على الناس فقال: « هذه مكة قد ألفت إليكم أفلاذ كبدها ». قال محمد بن إسحاق وحدثني عبد الله بن أبي بكر بن حزم، أن سعد بن معاذ قال لرسول الله ﷺ لما التقى الناس يوم بدر: يا رسول الله ألا نبني لك عريشاً تكون فيه ونبيخ إليك ركائبك، ونلقى عدونا؟ فإن أظفرنا الله عليهم وأعزنا فذاك ما نحب، وإن تكن الأخرى فتجلس على ركائبك وتلحق بمن وراءنا من قومنا، فقد والله تخلف عنك أقوام ما نحن بأشد لك حباً منهم، لو علموا أنك تلقى حرباً ما تخلفوا عنك ويوازرونك وينصرونك، فأثنى عليه رسول الله ﷺ خيراً، ودعا له، فبني له عريش فكان فيه رسول الله ﷺ وأبو بكر ما معهما غيرهما. قال ابن إسحاق: وارتحلت قريش حين أصبحت، فلما أقبلت وراها رسول الله ﷺ قال: « اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تحادك وتكذب رسولك، اللهم أحنهم الغداة ». وقوله: ﴿ ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة ﴾ أي ليكفر من كفر بعد الحججة لما رأى من الآية والعبرة، ويؤمن من آمن على مثل ذلك، يقول تعالى: إنما جمعكم مع عدوكم في مكان واحد على غير ميعاد لينصركم عليهم، ويرفع كلمة الحق على الباطل، ليصير الأمر ظاهراً، والحججة قاطعة والبراهين ساطعة، ولا يبقى لأحد حجة ولا شبهة، فحينئذ يهلك من هلك، أي يستمر في الكفر من استمر فيه على بصيرة من أمره أنه مبطل لقيام الحججة عليه ﴿ ويحيى من حي ﴾ أي يؤمن من آمن ﴿ عن بينة ﴾ أي حجة وبصيرة، والإيمان هو حياة القلوب، قال الله تعالى: ﴿ أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس ﴾، وقالت عائشة في قصة الإفك: فهلك في من هلك، أي قال فيها ما قال من البهتان والإفك، وقوله: ﴿ وإن الله لسميع ﴾ أي لدعائكم وتضرعكم واستغاثتكم به ﴿ عليم ﴾ أي بكم وأنكم تستحقون النصر على أعدائكم الكفرة المعاندين .

إِذْ يُرِيكُهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَأَيْتَهُمْ كَثِيرًا رَّغِبًا فَتَسَلَّمَ ۗ لَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَّيَّمُّ فِي آعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي آعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٤٤﴾

(١) أخرجه محمد بن إسحاق عن يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير عن أبيه .

قال مجاهد: أراهم الله إياه في منامه قليلاً، وأخبر النبي ﷺ أصحابه بذلك فكان تثبيتاً لهم، وقوله: ﴿ولو أراكم كثيراً لفشتم﴾ أي لجنتم عنهم واختلقتم فيما بينكم ﴿ولكن الله سلم﴾ أي من ذلك بأن أراكم قليلاً، ﴿إنه علم بذات الصدور﴾ أي بما تجنه الضمائر وتنطوي عليه الأحشاء، ﴿يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور﴾، وقوله: ﴿وإذ يريكمهم إذ التقيتم في أعينكم قليلاً﴾ وهذا أيضاً من لطفه تعالى بهم إذ أراهم إياهم قليلاً في رأي العين فيجرؤهم عليهم ويطمعهم فيهم. قال ابن مسعود رضي الله عنه: لقد قللوا في أعيننا يوم بدر حتى قلت لرجل إلى جنبي تراهم سبعين؟ قال: لا، بل هم مائة، حتى أخذنا رجلاً منهم، فسألناه فقال: كنا ألفاً^(١)، وقوله: ﴿ويقللكم في أعينهم﴾، قال عكرمة: حضض بعضهم على بعض، ﴿ليقضي الله أمراً كان مفعولاً﴾ أي ليلقي بينهم الحرب للنعمة ممن أراد الانتقام منه، والإنعام على من أراد تمام النعمة عليه من أهل ولايته، ومعنى هذا أنه تعالى أغرى كلاً من الفريقين بالآخر، وقلله في عينه ليطمع فيه، وذلك عند المواجهة، فلما التحم القتال وأيد الله المؤمنين بألف من الملائكة مردفين، بقي حزب الكفار يرى حزب الإيمان ضعفيه، كما قال تعالى: ﴿قد كان لكم آية في فتنين التقتا فئة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة يرونهم مثليهم رأى العين﴾ وهذا هو الجمع بين هاتين الآيتين، فإن كلاً منها حق وصدق والله الحمد والمنة .

* يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَتَزَعَرُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٤٦﴾

هذا تعليم من الله تعالى لعباده المؤمنين آداب اللقاء وطريق الشجاعة عند مواجهة الأعداء فقال: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا﴾. وفي الصحيحين: «يا أيها الناس لا تتمنوا لقاء العدو واسألوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا، واعلموا أن الجنة تحت ظلل السيوف»، ثم قام النبي ﷺ وقال: «اللهم منزل الكتاب، ومجري السحاب، وهازم الأحزاب، اهزمهم وانصرنا عليهم»^(٢). وفي الحديث: «إن الله يحب الصمت عند ثلاث: عند تلاوة القرآن، وعند الزحف، وعند الجنائز»^(٣). وفي الحديث الآخر المرفوع يقول الله تعالى: «إن عبدي كل عبدي الذي يذكرني وهو مناجز قرنه»: أي لا يشغله ذلك الحال عن ذكرني ودعائي واستعائتي. وقال قتادة: افترض الله ذكره عند أشغل ما يكون، عند الضرب بالسيوف. وعن كعب الأخبار قال: ما من شيء أحب إلى الله تعالى من قراءة القرآن والذكر، ولولا ذلك ما أمر الناس بالصلاة والقتال، ألا ترون أنه أمر الناس بالذكر عند القتال فقال: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون﴾. فأمر تعالى بالثبات عند قتال الأعداء والصبر على مبارزتهم، فلا يفروا ولا ينكلوا ولا يجبنوا، وأن يذكروا الله في تلك الحال ولا ينسوه، بل يستعينوا به، ويتوكلوا عليه، ويسألوه النصر على أعدائهم، ولا يتنازعوا فيما بينهم أيضاً فيختلفوا، فيكون

(١) رواه ابن أبي حاتم وابن جرير .

(٢) أخرجه الشيخان عن عبد الله بن أبي أوفى مرفوعاً .

(٣) أخرجه الطبراني عن زيد بن أرقم مرفوعاً .

سبباً لتخاذلهم وفشلهم، ﴿وتذهب ريحكم﴾ أي قوتكم وحدثكم وما كنتم فيه من الإقبال ﴿واصبروا إن الله مع الصابرين﴾ وقد كان للصحابة رضي الله عنهم في باب الشجاعة والاثتار بما أمرهم الله ورسوله به، وامتنال ما أرشدهم إليه ما لم يكن لأحد من الأمم والقرون قبلهم، ولا يكون لأحد ممن بعدهم، فإنهم ببركة الرسول ﷺ وطاعته فيما أمرهم فتحوا القلوب والأقاليم شرقاً وغرباً في المدة اليسيرة، مع قلة عددهم بالنسبة إلى جيوش سائر الأقاليم، وقهروا الجميع حتى علت كلمة الله وظهر دينه على سائر الأديان، وامتدت الممالك الإسلامية في مشارق الأرض ومغاربها في أقل من ثلاثين سنة، فرضي الله عنهم وأرضاهم .

* وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطْرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾ وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَأَتِ الْفِئْتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقَبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ إِذْ يَقُولُ الْمُنْفِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّهُتْهُمَا دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾

يقول تعالى بعد أمره المؤمنين بالإخلاص في القتال في سبيله وكثرة ذكره، ناهياً لهم عن التشبه بالمشركين في خروجهم من ديارهم بطلاً، أي دفعاً للحق، ﴿ورثاء الناس﴾ وهو المفاخرة والتكبر عليهم، كما قال أبو جهل: لا والله، لا نرجع حتى نرد ماء بدر وننحر الجزر، ونشرب الخمر وتعزف علينا القيان، فانعكس ذلك عليه أجمع، لأنهم وردوا به الحمام، وركموا في أطواء بدر مهانين أذلاء، في عذاب سرمدي أبدي، ولهذا قال: ﴿والله بما يعملون محيط﴾ أي عالم بما جاءوا به، ولهذا جازاهم عليه شر الجزاء لهم. قال ابن عباس ومجاهد: هم المشركون الذين قاتلوا رسول الله ﷺ يوم بدر^(١)، وقال محمد بن كعب، لما خرجت قريش من مكة إلى بدر خرجوا بالقيان والدخوف، فأنزل الله: ﴿ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطراً ورثاء الناس﴾، وقوله تعالى: ﴿وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم وقال لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم﴾ الآية؛ حسن لهم لعنه الله ما جاءوا به، وأطمعهم أنه لا غالب لهم اليوم من الناس، ونفى عنهم الخشية من أن يؤتوا في ديارهم، كما قال تعالى عنه: ﴿يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً﴾، قال ابن عباس في هذه الآية: لما كان يوم بدر سار إبليس برايته وجنوده مع المشركين، وألقى في قلوب المشركين أن أحداً لن يغلبكم، وإني جار لكم، فلما التقوا ونظر الشيطان إلى إمداد الملائكة ﴿نكص على عقبيه﴾ قال: رجع مدبراً، وقال: ﴿إني أرى ما لا ترون﴾ الآية. وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال: جاء إبليس يوم بدر في جنود الشياطين معه رايته، في صورة رجل من بني مدلج في صورة (سراقة بن مالك بن جعشم) فقال الشيطان للمشركين: لا غالب لكم اليوم

(١) وهو قول قتادة والضحاك والسدي وغيرهم .

من الناس وإني جار لكم، فلما اصطف الناس أخذ رسول الله ﷺ قبضة من التراب فرمى بها في وجوه المشركين، فولوا مدبرين، وأقبل جبريل عليه السلام إلى إبليس، فلما رآه وكانت يده في يد رجل من المشركين، انتزع يده ثم ولى مدبراً وشيعته، فقال الرجل يا سراقة أترعم أنك لنا جار؟ فقال: إني أرى ما لا ترون إني أخاف الله والله شديد العقاب؛ وذلك حين رأى الملائكة. وقال قتادة: وذكر لنا أنه رأى جبريل عليه السلام تنزل معه الملائكة، فعلم عدو الله أنه لا يدان له بالملائكة فقال: إني أرى ما لا ترون إني أخاف الله، وكذب عدو الله، والله ما به مخافة الله، ولكن علم أنه لا قوة له ولا منعة، وتلك عادة عدو الله لمن أطاعه واستقاد له، حتى إذا التقى الحق والباطل أسلمهم شر مسلم وتبرأ منهم عند ذلك. قال تعالى: ﴿كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إني بريء منك إني أخاف الله رب العالمين﴾، وقوله تعالى: ﴿وقال الشيطان لما قضي الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم﴾ الآية .

وقوله تعالى: ﴿إذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض غر هؤلاء دينهم﴾، قال ابن عباس: لما دنا القوم بعضهم من بعض قلل الله المسلمين في أعين المشركين، وقلل المشركين في أعين المسلمين، فقال المشركون: غر هؤلاء دينهم، وإنما قالوا ذلك من قلتهم في أعينهم، فظنوا أنهم سيزمونهم لا يشكون في ذلك، فقال الله: ﴿ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز حكيم﴾، قال قتادة: وذكر لنا أن أبا جهل عدو الله لما أشرف على محمد ﷺ وأصحابه قال: والله لا يعبد الله بعد اليوم قسوة وعتواً، وقال ابن جريج: هم قوم كانوا من المنافقين بمكة قالوه يوم بدر، وقال الشعبي: كان ناس من أهل مكة قد تكلموا بالإسلام فخرجوا مع المشركين يوم بدر، فلما رأوا قلة المسلمين قالوا: غر هؤلاء دينهم. وقال مجاهد: هم فئة من قريش خرجوا مع قريش من مكة وهم على الارتياب فحبسهم ارتيابهم، فلما رأوا قلة أصحاب رسول الله ﷺ قالوا: غر هؤلاء دينهم، حتى قدموا على ما قدموا عليه مع قلة عددهم وكثرة عدوهم. وهكذا قال محمد بن إسحاق بن يسار سواء. وقال ابن جرير عن الحسن في هذه الآية قال: هم قوم لم يشهدوا القتال يوم بدر فسموا منافقين، وقوله: ﴿ومن يتوكل على الله﴾ أي يعتمد على جنابه ﴿فإن الله عزيز﴾ أي لا يضام من التجأ إليه، فإن الله عزيز منيع الجناب عظيم السلطان ﴿حكيم﴾ في أفعاله لا يضعها إلا في مواضعها، فينصر من يستحق النصر، ويخذل من هو أهل لذلك .

وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبُرَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ أَيْدِيكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾

يقول تعالى: ولو عاينت يا محمد حال توفي الملائكة أرواح الكفار، لرأيت أمراً عظيماً هائلاً فظيماً منكرأ، إذ ﴿يضربون وجوههم وأدبارهم ويقولون ذوقوا عذاب الحريق﴾. قال ابن عباس: إذا أقبل المشركون بوجوههم إلى المسلمين ضربوا وجوههم بالسيوف، وإذا ولوا أدركتهم الملائكة يضربون أدبارهم، وقال مجاهد في قوله: ﴿يضربون وجوههم وأدبارهم﴾ يوم بدر، وقال سعيد بن جبیر ﴿يضربون وجوههم وأدبارهم﴾ قال: وأستاههم، ولكن الله يكتفي؛ والسياق وإن كان سببه وقعة بدر، ولكنه عام في حق كل كافر، ولهذا قال تعالى: ﴿ولو ترى

إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم ﴿٥٢﴾ وفي سورة القتال مثلها، وتقدم قوله تعالى: ﴿ولو ترى إذ المجرمون في غمرات الموت والملائكة باسطو أيديهم أخرجوا أنفسهم﴾ أي باسطو أيديهم بالضرب فيهم بأمر ربهم إذا استصعبت أنفسهم، وامتنعت من الخروج من الأجساد أن تخرج قهراً، وذلك إذا بشروهم بالعذاب والغضب من الله، كما في حديث البراء: «أن ملك الموت إذا جاء الكافر عند احتضاره في تلك الصورة المنكرة يقول: اخرجي أيتها النفس الخبيثة إلى سموم وحمم وظل من يحموم، فتنفرك في بدنه، فيستخرجونها من جسده كما يخرج السفود من الصفوف المبلول، فتخرج معها العروق والعصب»، ولهذا أخبر تعالى أن الملائكة تقول لهم: ذوقوا عذاب الحريق، وقوله تعالى: ﴿ذلك بما قدمت أيديكم﴾ أي هذا الجزاء بسبب ما عملتم من الأعمال السيئة في حياتكم الدنيا، جازاكم الله بها هذا الجزاء، ﴿وأن الله ليس بظلام للعبيد﴾: أي لا يظلم أحداً من خلقه، بل هو الحكم العدل الذي لا يجور، تبارك وتقدس الغني الحميد، ولهذا جاء في الحديث القدسي الصحيح: «يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا، يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه».

كذَّابٍ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٥٣﴾

يقول تعالى: فعل هؤلاء من المشركين المكذبين بما أرسلت به يا محمد، كما فعل الأمم المكذبة قبلهم، ففعلنا بهم ما هو دأبنا، أي عادتنا وستتنا في أمثالهم من المكذبين من آل فرعون، ومن قبلهم من الأمم المكذبة بالرسل، الكافرين بآيات الله ﴿فأخذهم الله بذنوبهم﴾ أي بسبب ذنوبهم أهلكتهم، وأخذهم أخذ عزيز مقتدر ﴿إن الله قوي شديد العقاب﴾ أي لا يغلبه غالب ولا يفوته هارب.

ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾
كذَّابٍ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا ءَالَ فِرْعَوْنَ وَكُلُّ كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٥٥﴾

يخبر تعالى عن تمام عدله وقسطه في حكمه بأنه تعالى لا يغير نعمة أنعمها على أحدٍ إلا بسبب ذنب ارتكبه، كقوله تعالى: ﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾، وقوله: ﴿كذَّابٍ آل فرعون﴾ أي كصنعه بآل فرعون وأمثالهم حين كذبوا بآياته، أهلكتهم بسبب ذنوبهم، وسلبهم تلك النعم التي أسداها إليهم من جنات وعيون، ونعمة كانوا فيها فاكهين، وما ظلمهم الله في ذلك بل كانوا هم الظالمين.

إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٦﴾ الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾ فِيمَا تَشَفَّعْتُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرَّدْتُمُوهُمْ مِنْ خَلْفِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَدَّكُرُونَ ﴿٥٨﴾

أخبر تعالى أن شر ما دب على وجه الأرض هم الذين كفروا فهم لا يؤمنون، الذين كلما عاهدوا عهداً نقضوه، وكلما أكدوه بالآيمان نكثوه، ﴿ وهم لا يتقون ﴾: أي لا يخافون من الله في شيء ارتكبه من الآثام، ﴿ فإما تثقفنهم في الحرب ﴾ أي تغلبهم وتظفر بهم في حرب ﴿ فشرّد بهم من خلفهم ﴾ أي نكل بهم^(١)، ومعناه: غلظ عقوبتهم وأثخنهم قتلاً ليخاف من سواهم من الأعداء من العرب وغيرهم، ويصيروا لهم عبرة ﴿ لعلمهم يذكرون ﴾ لعلمهم يحذرون أن ينكثوا فيصنع بهم مثل ذلك .

وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِبِينَ ﴿٥٨﴾

يقول تعالى لنبيه ﷺ: ﴿ وإما تخافن من قوم ﴾ قد عاهدتهم ﴿ خيانة ﴾ أي نقضاً لما بينك وبينهم من المواثيق والعهود ﴿ فانبد إليهم ﴾ أي عهدهم على سواء: أي أعلمهم بأنك قد نقضت عهدهم حتى يبقى علمك وعلمهم بأنك حرب لهم وهم حرب لك، وأنه لا عهد بينك وبينهم على السواء، أي تستوي أنت وهم في ذلك، قال الراجز: فاضرب وجوه الغدر للأعداء حتى يجيوك إلى السواء

﴿ إن الله لا يحب الخائنين ﴾ ولو في حق الكفار لا يحبها أيضاً، عن سليم بن عامر قال: كان معاوية يسير في أرض الروم، وكان بينه وبينهم أمد فأراد أن يدنو منهم، فإذا انقضى الأمد غزاهم، فإذا شيخ على دابة يقول: الله أكبر، الله أكبر، وفاء لا غدر، إن رسول الله ﷺ قال: « ومن كان بينه وبين قوم عهد فلا يحلن عقدة ولا يشدها، حتى ينقضي أمدها، أو ينبذ إليهم على سواء »، قال فبلغ ذلك معاوية، فرجع فإذا بالشيخ عمرو بن عبسة رضي الله عنه^(٢). وقال الإمام أحمد عن سلمان الفارسي رضي الله عنه أنه انتهى إلى حصن أو مدينة، فقال لأصحابه: دعوني أذعوهم كما رأيت رسول الله ﷺ يدعوهم، فقال إنما كنت رجلاً منكم فهداني الله عز وجل للإسلام، فإن أسلمتم فلکم ما لنا وعليكم ما علينا، وإن أبيت فادوا الجزية وأتم صاغرون، وإن أبيت نابذناكم على سواء، ﴿ إن الله لا يحب الخائنين ﴾ يفعل ذلك بهم ثلاثة أيام، فلما كان اليوم الرابع غدا الناس إليها ففتحوها بعون الله .

وَلَا يَحْسِبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا ۗ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ ۚ عَدُوُّ اللَّهِ وَعَدُوُّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تظَلُمُونَ ﴿٦٠﴾

يقول تعالى لنبيه ﷺ: ﴿ ولا تحسبن ﴾ يا محمد ﴿ الذين كفروا سبقوا ﴾ أي فاتونا فلا تقدر عليهم، بل هم تحت قهر قدرتنا وفي قبضة مشيئتنا فلا يعجزوننا، كقوله تعالى: ﴿ أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا

(١) قاله ابن عباس والحسن البصري والضحاك والسدي وعطاء الخراساني وابن عيينة .

(٢) رواه أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي وابن حبان وقال الترمذي: حسن صحيح .

ساء ما يحكمون ﴿٦١﴾ أي يظنون، وقوله تعالى: ﴿لا تحسبن الذين كفروا معجزين في الأرض وماوأهم النار ولبئس المصير﴾، وقوله تعالى: ﴿لا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد﴾. ثم أمر تعالى بإعداد آلات الحرب لمقاتلتهم حسب الطاقة والإمكان والاستطاعة فقال: ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم﴾ أي مهماً أمكنكم ﴿من قوة ومن رباط الخيل﴾. عن عقبة بن عامر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول وهو على المنبر: ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة﴾، ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي^(١). وروى الإمام أحمد وأهل السنن عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «ارموا واركبوا وأن ترموا خير من أن تركبوا». وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «الخيل لثلاثة: لرجل أجر، ولرجل ستر، وعلى رجل وزر. فأما الذي له أجر فرجل ربطها في سبيل الله فأطال لها في مرج أو روضة، فما أصابت في طيلها ذلك من المرج أو الروضة كانت له حسنة، ولو أنها قطعت طيلها فاستنتت شرفاً أو شرفين كانت آثراها وأرواثها حسنة له، ولو أنها مرت بنهر فشربت منه ولم يرد أن يسقى به كان ذلك حسنة له، فهي لذلك الرجل أجر، ورجل ربطها تغنياً وتعظفاً ولم ينس حق الله في رقابها ولا ظهورها فهي له ستر، ورجل ربطها فخراً ورياء ونواء فهي على ذلك وزر». وسئل رسول الله ﷺ عن الحمر؟ فقال: «ما أنزل الله عليّ فيها شيئاً إلا هذه الآية الجامعة الفادة: ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره﴾^(٢). وقد ذهب أكثر العلماء إلى أن الرمي أفضل من ركوب الخيل، وذهب الإمام مالك إلى أن الركوب أفضل من الرمي؛ وقول الجمهور أقوى للحديث والله أعلم.

وفي الحديث: «الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة، وأهلها معانون عليها، ومن ربط فرساً في سبيل الله كانت النفقة عليه كالماد يده بالصدقة لا يقبضها»^(٣). وفي صحيح البخاري قال رسول الله ﷺ: «الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة الأجر والمغنم»، وقوله: ﴿ترهبون﴾ أي تحوفون ﴿به عدو الله وعدوكم﴾ أي من الكفار ﴿وآخرين من دونهم﴾، قال مجاهد: يعني بني قريظة، وقال السدي: فارس، وقال سفيان الثوري: هم الشياطين التي في اللور، وقال مقاتل: هم المنافقون، وهذا أشبه الأقوال، ويشهد له قوله تعالى: ﴿ومن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم﴾، وقوله: ﴿وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون﴾ أي مهماً أنفقتم في الجهاد فإنه يوف إليكم على التمام والكمال، ولهذا جاء في الحديث الذي رواه أبو داود أن الدرهم يضاعف ثوابه في سبيل الله إلى سبعمئة ضعف كما تقدم في قوله تعالى: ﴿مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم﴾.

* وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦٢﴾ وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ

(١) أخرجه مسلم وأحمد وابن ماجه وأبو داود .

(٢) أخرجه البخاري واللفظ له ومسلم ومالك .

(٣) أخرجه الطبراني عن سهل بن الحنظلية .

حَسْبُكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيْدِكَ بِنَصْرِهِ، وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٦﴾ وَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾

يقول تعالى: إذا خفت من قوم خيانة فانبد إليهم عهدهم على سواء، فإن استمروا على حربك ومناذتك فقاتلهم ﴿ وإن جنحوا ﴾ أي مالوا ﴿ للسلم ﴾ أي المسالمة والمصالحة والمهادنة ﴿ فاجح لها ﴾ أي فل إليها، واقتل منهم ذلك، ولهذا لما طلب المشركون عام الحديبية الصلح ووضع الحرب بينهم وبين رسول الله ﷺ تسع سنين، أجابهم إلى ذلك مع ما اشترطوا من الشروط الأخر. قال ابن عباس ومجاهد: إن هذه الآية منسوخة بآية السيف في براءة ﴿ قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ﴾ الآية^(١)، وفيه نظر، لأن آية براءة فيها الأمر بقتالهم إذا أمكن ذلك، فأما إن كان العدو كثيفاً فإنه يجوز مهادنتهم، كما دلت عليه هذه الآية الكريمة، وكما فعل النبي ﷺ يوم الحديبية، فلا منافاة ولا نسخ ولا تخصيص والله أعلم. وقوله: ﴿ وتوكل على الله ﴾ أي صالحهم وتوكل على الله، فإن الله كافيك وناصرك ولو كانوا يريدون بالصلح خديعة ليتقوا ويستعدوا ﴿ فإن حسبك الله ﴾ أي كافيك وحده، ثم ذكر نعمته عليه بما أيدته من المؤمنين المهاجرين والأنصار، فقال: ﴿ هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين وألف بين قلوبهم ﴾ أي جمعها على الإيمان بك وعلى طاعتك ومناصرتك وموازرتك، ﴿ لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ﴾ أي لما كان بينهم من العداوة والبغضاء، فإن الأنصار كانت بينهم حروب كثيرة في الجاهلية بين الأوس والخزرج، حتى قطع الله ذلك بنور الإيمان، كما قال تعالى: ﴿ واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً ﴾ .

وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ لما خطب الأنصار في شأن غنائم حنين قال لهم: « يا معشر الأنصار ألم أجدكم ضللاً فهداكم الله بي، وعالة فأغناكم الله بي، وكنتم متفرقين فألفكم الله بي » كلما قال شيئاً قالوا: الله ورسوله أمن؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم ﴾ أي عزيز الجنب فلا يخيب رجاء من توكل عليه ﴿ حكيم ﴾ في أفعاله وأحكامه، عن ابن عباس قال: إن الرحم لتقطع، وإن النعمة لتكفر، وإن الله إذا قارب بين القلوب لم يزحزحها شيء، ثم قرأ: ﴿ لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ﴾، وعن مجاهد قال: إذا التقى المتحابان في الله فأخذ أحدهما بيد صاحبه وضحك إليه، تحانت خطاياهما كما تحانت ورق الشجر، قال عبدة، فقلت له: إن هذا ليسير فقال: لا تقل ذلك، فإن الله يقول: ﴿ لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ﴾ قال عبدة: ففرفت أنه أفقه مني. عن سلمان الفارسي أن رسول الله ﷺ قال: « إن المسلم إذا لقي أخاه المسلم فأخذ بيده تحانت عنهما ذنوبهما كما تحانت الورق عن الشجرة اليابسة في يوم ريح عاصف، وإلا غفر لهما ذنوبهما ولو كانت مثل زبد البحار » .

* يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ

(١) وهو قول عطاء وعكرمة والحسن وقتادة وزيد بن أسلم .

إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ^ج وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ أَلَكُنْ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ^ج وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفِينَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٦٦﴾

يحرص تعالى نبيه ﷺ والمؤمنين على القتال، ومناجزة الأعداء، ومبارزة الأقران، ويخبرهم أنه حسبهم: أي كافيهم ومؤيدهم على عدوهم، وإن كثرت أعدادهم وترادفت أمدادهم، ولو قل عدد المؤمنين. قال ابن أبي حاتم عن الشعبي في قوله: ﴿يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين﴾ قال: حسبك الله وحسب من شهد معك، ولهذا قال: ﴿يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال﴾ أي حثهم وذمهم عليه، ولهذا كان رسول الله ﷺ يحرص على القتال عند صفهم ومواجهة العدو، كما قال لأصحابه يوم بدر حين أقبل المشركون في عددهم وعددهم: «قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض» فقال (عمير بن الحمام) عرضها السموات والأرض؟ فقال رسول الله ﷺ «نعم»، فقال: بخ، بخ، فقال: «ما يحملك على قولك بخ بخ؟» قال: رجاء أن أكون من أهلها، قال: «فإنك من أهلها»، فتقدم الرجل فكسر جفن سيفه، وأخرج تمرات فجعل يأكل منهن، ثم ألقى بقيتتهن من يده، وقال: لئن أنا حييت حتى آكلهن إنها لحياة طويلة، ثم تقدم فقاتل حتى قتل رضي الله عنه. ثم قال تعالى مبشراً للمؤمنين وآمراً: ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ كل واحد بعشرة، ثم نسخ هذا الأمر وبقيت البشارة، قال عبد الله بن المبارك عن ابن عباس لما نزلت ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ﴾ شق ذلك على المسلمين حين فرض الله عليهم أن لا يفر واحد من عشرة، ثم جاء التخفيف، فقال: ﴿الآن خفف الله عنكم﴾ إلى قوله ﴿يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ﴾ قال: خفف الله عنهم من العدة ونقص من الصبر بقدر ما خفف عنهم. وروى البخاري نحوه، وعن ابن عباس قال: لما نزلت هذه الآية نقل على المسلمين وأعظموا أن يقاتل عشرون مائتين، ومائة ألفاً، فخفف الله عنهم فنسخها بالآية الأخرى فقال: ﴿الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً﴾ الآية، فكانوا إذا كانوا على الشطر من عدوهم لم يسغ لهم أن يفرؤا من عدوهم، وإذا كانوا دون ذلك لم يجب عليهم قتالهم وجاز لهم أن يتحرزوا عنهم^(١). وروى الحافظ ابن مردويه عن ابن عمر رضي الله عنهما في قوله: ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ﴾ قال: نزلت فينا أصحاب محمد ﷺ.

مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُخَنَّفَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٦٩﴾

(١) وروي عن مجاهد وعطاء وعكرمة والحسن وزيد بن أسلم والضحاك وغيرهم نحو ذلك.

لما كان يوم بدر قال رسول الله ﷺ: « ما تقولون في هؤلاء الأسارى؟ » فقال أبو بكر: يا رسول الله قومك وأهلك، استبقهم واستبتهم لعل الله أن يتوب عليهم، وقال عمر: يا رسول الله كذبوك وأخرجوك فقدمهم فاضرب أعناقهم، وقال عبد الله بن رواحة: يا رسول الله أنت في واد كثير الحطب فاضرم الوادي عليهم ناراً ثم ألقهم فيه، قال: فسكت رسول الله ﷺ فلم يرد عليهم شيئاً، ثم قام فدخل، فقال ناس: يأخذ بقول أبي بكر، وقال ناس: يأخذ بقول عمر، وقال ناس: يأخذ بقول عبد الله بن رواحة؛ ثم خرج عليهم رسول الله ﷺ فقال: « إن الله ليلين قلوب رجال حتى تكون ألين من اللبن، وإن الله ليشدد قلوب رجال فيه حتى تكون أشد من الحجارة، وإن مثلك يا أبا بكر كمثل إبراهيم عليه السلام قال: ﴿ فئن تبغني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم ﴾، وإن مثلك يا أبا بكر كمثل عيسى عليه السلام قال: ﴿ إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم ﴾، وإن مثلك يا عمر كمثل موسى عليه السلام قال: ﴿ ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم ﴾، وإن مثلك يا عبد الله كمثل نوح عليه السلام قال: ﴿ رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً ﴾ أتم عائلة فلا ينفكن أحد منهم إلا بفداء أو ضربة عنق، قال ابن مسعود: قلت يا رسول الله إلا (سهيل بن بيضاء) فإنه يذكر الإسلام، فسكت رسول الله ﷺ فما رأيتني في يوم أخوف من أن تقع عليّ حجارة من السماء مني في ذلك اليوم حتى قال رسول الله ﷺ: « إلا سهيل بن بيضاء، » فأنزل الله عز وجل: ﴿ ما كان لني أن يكون له أسرى ﴾ إلى آخر الآية^(١). عن ابن عمر قال: لما أسر الأسارى يوم بدر أسر العباس فيمن أسر، أسره رجل من الأنصار، قال: وقد أوعدته الأنصار أن يقتلوه، فبلغ ذلك النبي ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: « إني لم أتم الليلة من أجل عمي العباس، وقد زعمت الأنصار أنهم قاتلوه » فقال له عمر: أفأتمهم؟ فقال: « نعم، » فأتى عمر الأنصار، فقال لهم: أرسلوا العباس، فقالوا: لا والله لا نرسله، فقال لهم عمر: فإن كان لرسول الله ﷺ رضى، قالوا: فإن كان لرسول الله ﷺ رضى فخذ، فأخذه عمر، فلما صار في يده قال له: يا عباس أسلم، فوالله لأن تسلم أحب إليّ من أن يسلم الخطاب، وما ذلك إلا لما رأيت رسول الله ﷺ يعجبه إسلامك، قال: واستشار رسول الله ﷺ أبا بكر فيهم، فقال أبو بكر: عشيرتك فأرسلهم، فاستشار عمر فقال: اقتلهم، ففاداهم رسول الله ﷺ، فأنزل الله: ﴿ ما كان لني أن يكون له أسرى ﴾ الآية^(٢).

قال ابن عباس ﴿ ما كان لني أن يكون له أسرى ﴾ قال: غنائم بدر قبل أن يحلها لهم، يقول: لولا أني لا أعذب من عصاني حتى أتقدم إليه، لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم، وكذا روي عن مجاهد، وقال الأعمش: سبق منه أن لا يعذب أحداً شهد بديراً، وقال شعبة عن مجاهد ﴿ لولا كتاب من الله سبق ﴾ أي لهم بالمغفرة، وعن ابن عباس في قوله ﴿ لولا كتاب من الله سبق ﴾ يعني في أم الكتاب الأول أن المغانم والأسارى لكم ﴿ لمسكم فيما أخذتم ﴾ من الأسارى ﴿ عذاب عظيم ﴾، ويستشهد لهذا القول بما أخرجاه في الصحيحين: « أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر. وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي، وأعطيت الشفاعة، وكان النبي يبعث إلى قومه وبعثت إلى الناس عامة ». وقد روي

(١) رواه الإمام أحمد والترمذي والحاكم في المستدرک وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه .

(٢) أخرجه ابن مردويه والحاكم في المستدرک وقال الحاكم: صحيح الإسناد .

الإمام أبو داود في سننه عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ جعل فداء أهل الجاهلية يوم بدر أربعمائة، وقد استمر الحكم في الأسرى عند جمهور العلماء أن الإمام مخير فيهم، إن شاء قتل كما فعل بني قريظة، وإن شاء فادى بمال كما فعل بأسرى بدر، أو بمن أسر من المسلمين، كما فعل رسول الله ﷺ في تلك الجارية وابنتها اللتين كانتا في سبي سلمة بن الأكوع، حيث ردهما وأخذ في مقابلتهما من المسلمين الذين كانوا عند المشركين، وإن شاء استرق من أسر، هذا مذهب الإمام الشافعي وطائفة من العلماء، وفي المسألة خلاف آخر بين الأئمة مقرر في موضعه من كتب الفقه .

يَأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أَخَذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٧٠﴾ وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾

قال محمد بن إسحاق عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال يوم بدر: «إني قد عرفت أن أناساً من بني هاشم وغيرهم قد أخرجوا كرهاً لا حاجة لهم بقتالنا، فمن لقي منكم أحداً منهم - أي من بني هاشم - فلا يقتله، ومن لقي البختری بن هشام فلا يقتله، ومن لقي العباس بن عبد المطلب فلا يقتله، فإنه إنما أخرج مستكراً»، فقال أبو حذيفة بن عتبة: أنقتل آباءنا وأبناءنا وإخواننا وعشائرتنا وترك العباس؟ والله لئن لقيته لأجمنه بالسيف، فبلغت رسول الله ﷺ، فقال لعمر بن الخطاب: «يا أبا حفص - قال عمر: والله إنه لأول يوم كناني فيه رسول الله ﷺ أبا حفص - أيضاً وجه عم رسول الله ﷺ بالسيف؟»، فقال عمر: يا رسول الله ائذن لي فأضرب عنقه فوالله لقد نافق، فكان أبو حذيفة يقول بعد ذلك: والله ما آمن من تلك الكلمة التي قلت ولا أزال منها خائفاً إلا أن يكفرها الله تعالى عني بشهادة، فقتل يوم اليامة شهيداً رضي الله عنه، قال محمد بن إسحاق: وكان أكثر الأسارى يوم بدر فداء العباس بن عبد المطلب، وذلك أنه كان رجلاً موسراً فافتدى نفسه بمائة أوقية ذهباً. وفي صحيح البخاري عن أنس بن مالك: أن رجلاً من الأنصار قالوا: يا رسول الله ائذن لنا فلنترك لابن أختنا عباس فداءه. قال: «لا والله لا تنرون منه درهماً»، وبعثت قريش إلى رسول الله ﷺ في فداء أسراهم، ففدى كل قوم أسيرهم بما رضوا، وقال العباس: يا رسول الله قد كنت مسلماً، فقال رسول الله ﷺ: «الله أعلم بإسلامك، فإن يكن كما تقول فإن الله يجزيك، وأما ظاهره فقد كان علينا، فافتد نفسك وابني أخيك نوفل وعقيل، وحليفك عتبة بن عمرو» قال: ما ذاك عندي يا رسول الله، قال: «فأين المال الذي دفنته أنت وأم الفضل؟ فقلت لها إن أصبت في سفري هذا، فهذا المال الذي دفنته لبني الفضل وعبد الله وقثم»، قال: والله يا رسول الله إني لأعلم أنك رسول الله، إن هذا لشيء ما علمه أحد غيري وغير أم الفضل، فاحسب لي يا رسول الله ما أصبتم مني عشرين أوقية من مال كان معي، فقال رسول الله ﷺ: «لا، ذاك شيء أعطانا الله تعالى منك»، ففدى نفسه وابني أخويه وحليفه، فأنزل الله عز وجل فيه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أَخَذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. قال العباس: فأعطاني الله مكان العشرين الأوقية في الإسلام عشرين عبداً كلهم في يده مال يضرب به، مع ما أرجو من مغفرة الله عز وجل. وقال أبو جعفر بن جرير: قال

العباس في نزلت: ﴿ ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض ﴾ ، فأخبرت النبي ﷺ بإسلامي ، وسألته أن يحاسني بالعشرين الأوقية التي أخذت مني فأبى ، فأبدلني الله بها عشرين عبداً كلهم تاجرٌ مالي في يده .

وقال ابن عباس قالوا للنبي ﷺ : آمنا بما جئت به ونشهد أنك رسول الله لننصحن لك على قومنا ، فأنزل الله : ﴿ إن يعلم الله في قلوبكم خيراً يؤتكم خيراً مما أخذ منكم ﴾ يخلف لكم خيراً مما أخذ منكم ﴿ ويغفر لكم ﴾ الشرك الذي كنتم عليه ، قال فكان العباس يقول : ما أحب أن هذه الآية لم تنزل فينا وإن لي الدنيا ، لقد قال : ﴿ يؤتكم خيراً مما أخذ منكم ﴾ ، فقد أعطاني خيراً مما أخذ مني مائة ضعف ، وقال : ﴿ ويغفر لكم ﴾ وأرجو أن يكون قد غفر لي . وقال قتادة : ذكر لنا أن رسول الله ﷺ لما قدم عليه مال البحرين ثمانون ألفاً ، وقد توضأ لصلاة الظهر ، فما أعطى يومئذ شاكياً ، ولا حرم سائلاً ، وما صلى يومئذ حتى فرقه ، فأمر العباس أن يأخذ منه ويحتشي ، فكان العباس يقول : هذا خير مما أخذ منا وأرجو المغفرة . قال الحافظ أبو بكر البيهقي عن أنس بن مالك قال : أتى رسول الله ﷺ بمال من البحرين فقال : « انثروه في مسجدي » قال : وكان أكثر مال أتى به رسول الله ﷺ ، فخرج إلى الصلاة ولم يلتفت إليه ، فلما قضى الصلاة جاء فجلس إليه ، فما كان يرى أحداً إلا أعطاه ، إذ جاءه العباس ، فقال : يا رسول الله أعطني فإني فاديت نفسي ، وفاديت عقيلاً ، فقال له رسول الله ﷺ : « خذ » فحشا في ثوبه ، ثم ذهب يقله فلم يستطع ، فقال : مر بعضهم يرفعه إلي ، قال : « لا » ، قال : فارفعه أنت علي ، قال : « لا » ، فنثر منه ثم احتمله على كاهله ، ثم انطلق ، فما زال رسول الله ﷺ يتبعه بصره حتى خفي عنه عجباً من حرصه ، فما قام رسول الله ﷺ وثمَّ منها درهم^(١) . وقوله : ﴿ وإن يريدوا خيانتك فقد خانوا الله من قبل ﴾ أي وإن يريدوا خيانتك فيما أظهروا لك من الأقوال ﴿ فقد خانوا الله من قبل ﴾ أي من قبل بدر بالكفر به ﴿ فأمكن منهم ﴾ أي بالأسارى يوم بدر ﴿ والله عليم حكيم ﴾ أي عليم بفعله حكيم فيه ، قال قتادة : نزلت في (عبد الله بن أبي سرح) الكاتب حين ارتد ولحق بالمشركين ، وقال عطاء الخراساني : نزلت في عباس وأصحابه حين قالوا : لننصحن لك على قومنا ، وقال السدي بالعموم ، وهو أشمل وأظهر والله أعلم .

إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوَأُوا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَهَاجَرُوا مَا لَكُمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجَرُوا وَإِنْ أَسْتَنْصَرُوا كَرَفٍ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾

ذكر تعالى أصناف المؤمنين ، وقسمهم إلى (مهاجرين) خرجوا من ديارهم وأموالهم ، وجاءوا لنصر الله ورسوله وإقامة دينه ، وبذلوا أموالهم وأنفسهم في ذلك ، وإلى (أنصار) وهم المسلمون من أهل المدينة إذ ذاك آووا إخوانهم المهاجرين في منازلهم وواسوهم في أموالهم ، ونصروا الله ورسوله بالقتال معهم فهؤلاء ﴿ بعضهم أولياء بعض ﴾ ، أي كل منهم أحق بالآخر من كل أحد ، ولهذا آخى رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار ، كل اثنين أخوان ،

فكانوا يتوارثون بذلك إرثاً مقدماً على القرابة، حتى نسخ الله تعالى ذلك بالموارث، ثبت ذلك في صحيح البخاري عن ابن عباس، وقال رسول الله ﷺ: «المهاجرون والأنصار بعضهم أولياء بعض، والطلاقاء من قريش والعتقاء من ثقيف بعضهم أولياء بعض إلى يوم القيامة»^(١)، وقد أثنى الله ورسوله على المهاجرين والأنصار في غير ما آية في كتابه فقال: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَدَّمُونَ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِمَنَاسِكِ الْوَدَاعِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَانُوا مُسِيئِينَ فِي الْأَيَّامِ الْأُولَىٰ﴾ وقال: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعَسْرَةِ﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالُهُمْ يُنْفِقُونَ فَضَّلْنَا مَنْ اللَّهُ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهُ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم الآية، وأحسن ما قيل في قوله: ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا﴾ أي لا يحسدونهم على فضل ما أعطاهم الله على هجرتهم فإن ظاهر الآيات تقديم المهاجرين على الأنصار، وهذا أمر مجمع عليه بين العلماء لا يختلفون في ذلك؛ ولهذا قال الإمام الزيار عن سعيد بن المسيب عن حذيفة قال: خيرني رسول الله ﷺ بين الهجرة والنصرة فاخترت الهجرة، وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا﴾، هذا هو الصنف الثالث من المؤمنين وهم الذين آمنوا ولم يهاجروا بل أقاموا في بوادهم، فهؤلاء ليس لهم في المغانم نصيب، ولا في خمسها إلا ما حضروا فيه القتال، كما روي عن يزيد بن الخصيب الأسلمي رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا بعث أميراً على سرية أو جيش أوصاه في خاصة نفسه بتقوى الله وبمن معه من المسلمين خيراً، وقال: «اغزوا باسم الله في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، إذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى إحدى ثلاث خصال - أو خلال - فأيتهن ما أجابوك إليها فاقبل منهم، وكف عنهم، ادعهم إلى الإسلام فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم، ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين وأعلمهم إن فعلوا ذلك أن لهم ما للمهاجرين وأن عليهم ما على المهاجرين، فإن أبوا واختاروا دارهم فأعلمهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين يجري عليهم حكم الله الذي يجري على المؤمنين ولا يكون لهم في النية والغنيمة نصيب إلا أن يجاهدوا مع المسلمين، فإن هم أبوا فادعهم إلى إعطاء الجزية، فإن أجابوا فاقبل منهم وكف عنهم، فإن أبوا فاستعن بالله وقاتلهم»^(٢)، وقوله: ﴿وَإِنْ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ﴾، يقول تعالى: وإن استنصركم هؤلاء الأعراب الذين لم يهاجروا في قتال ديني على عدو لهم فانصروهم، فإنه واجب عليكم نصرهم لأنهم إخوانكم في الدين إلا أن يستنصروكم على قوم من الكفار بينكم وبينهم ميثاق أي مهادة إلى مدة، فلا تخفروا ذمتكم ولا تنقضوا أيمانكم مع الذين عاهدتم.

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾^(٣)

لما ذكر تعالى أن المؤمنين بعضهم أولياء بعض، قطع الموالاة بينهم وبين الكفار، كما قال الحاكم عن أسامة عن النبي ﷺ قال: «لا يتوارث أهل ملتين ولا يرث مسلم كافراً ولا كافر مسلماً، ثم قرأ: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾»، وفي الصحيحين: «لا يرث المسلم الكافر

(١) أخرجه أحمد عن جرير بن عبد الله البجلي ورواه الحافظ أبو يعلى عن ابن مسعود مرفوعاً.

(٢) أخرجه مسلم وعنده زيادات أخرى ورواه أحمد واللفظ له.

ولا الكافر المسلم « وفي المسند والسنن: « لا يتوارث أهل ملتين شتى »^(١) ، وقال رسول الله ﷺ: « أنا بريء من كل مسلم بين ظهري المشركين، لا يترأى نارهما »^(٢) ، وروى أبو داود عن سمرة بن جندب: أما بعد قال رسول الله ﷺ: « من جامع المشرك وسكن معه فإنه مثله ». ومعنى قوله: ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ أي إن لم تجانبوا المشركين وتوالوا المؤمنين وإلا وقعت فتنة في الناس، وهو التباس الأمر واختلاط المؤمنين بالكافرين فيقع بين الناس فساد منتشر عريض طويل .

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧٥﴾ ﴾

لما ذكر تعالى حكم المؤمنين في الدنيا، عطف بذكر ما لهم في الآخرة، فأخبر عنهم بحقيقة الإيمان، وأنه سبحانه سيجازيهم بالمغفرة والصفح عن الذنوب إن كانت، وبالرزق الكريم وهو الحسن الكثير الطيب الشريف الذي لا ينقطع ولا ينقضي، ولا يسأم ولا يمل لحسنه وتنوعه، ثم ذكر أن الأتباع لهم في الدنيا على ما كانوا عليه من الإيمان والعمل الصالح فهم معهم في الآخرة كما قال: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأُولُونَ﴾ الآية، وقال: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ الآية، وفي الحديث المتفق عليه: « المرء مع أحب »، وفي الحديث الآخر: « ومن أحب قوماً فهو منهم » وفي رواية: « حشر معهم »، وأما قوله تعالى: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ أي في حكم الله، وليس المراد بقوله: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ﴾^(٣) خصوصية ما يطلقه علماء الفرائض، على القرابة الذين لا فرض لهم ولا هم عصبة، بل يدلون بوارث كالحالة والخال والعمة ونحوهم، كما قد يزعمه بعضهم، بل الحق أن الآية عامة تشمل جميع القرابات، كما نص عليه ابن عباس ومجاهد وعكرمة وغير واحد، على أنها ناسخة للإرث بالحلف والإخاء للذين كانوا يتوارثون بهما أولاً، وعلى هذا فتشمل ذوي الأرحام بالاسم الخاص والله أعلم .

« آخر تفسير سورة الأنفال والله الحمد والمنة وعليه التكلان وهو حسبنا ونعم الوكيل »

(١) أخرجه أحمد وأصحاب السنن وقال الترمذي: حسن صحيح .

(٢) أخرجه ابن جرير مرسلًا ومتصلًا .

(٣) أخرج ابن جرير: كان الرجل يعاقد الرجل فيقول ترثني وأرثك، فنزلت: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ...﴾ الآية. وأخرج ابن سعد: آخى رسول الله ﷺ بين الزبير بن العوام وكعب بن مالك، قال الزبير: لقد رأيت كعباً أصابته الجراحة بأحد، فقلت: لو مات لورثته، فنزلت هذه الآية .

(٩) سُورَةُ التَّوْبَةِ مَدَنِيَّةٌ
وَأَيَّانَهَا تِسْعٌ وَعَشْرُونَ وَآيَةً

بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾ فَيَسْجُودُ فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَلِمُوا
أَنَّهُمْ غَيْرُ مَعْجُزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ ﴿٢﴾

هذه السورة الكريمة من أواخر ما نزل على رسول الله ﷺ، كما قال البراء بن عازب: آخر آية نزلت ﷺ يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلاله ﷺ، وآخر سورة نزلت: براءة^(١). وإنما لم يسمل في أولها لأن الصحابة لم يكتبوا البسملة في أولها في المصحف الإمام، بل اقتدوا في ذلك بأمر المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه وأرضاه. وأول هذه السورة الكريمة نزل على رسول الله ﷺ لما رجع من غزوة تبوك، وبعث أبا بكر الصديق رضي الله عنه أميراً على الحج تلك السنة ليقم للناس مناسكهم، ويعلم المشركين أن لا يحجوا بعد عامهم هذا، وأن ينادي في الناس: ﴿براءة من الله ورسوله ﷺ﴾، فلما قفل أتبعه بعلي بن أبي طالب ليكون مبلغاً عن رسول الله ﷺ، كما سيأتي بيانه. فقله تعالى ﴿براءة من الله ورسوله ﷺ﴾ أي هذه براءة أي تبرؤ من الله ورسوله ﷺ إلى الذين عاهدتم من المشركين، فسيحوا في الأرض أربعة أشهر ﷺ. اختلف المفسرون ههنا اختلافاً كثيراً، فقال قائلون: هذه الآية لذوي العهود المطلقة غير المؤقتة، أو من له عهد دون أربعة أشهر فيكمل له أربعة أشهر، فأما من كان له عهد مؤقت فأجله إلى مدته مهما كان، لقله تعالى: ﴿فأتوا إليهم عهدهم إلى مدتهم ﷺ الآية، ومن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد فعهدة إلى مدته؛ وهذا أحسن الأقوال وأقواها، وقد اختاره ابن جرير رحمه الله .

وقال ابن عباس: حدَّ الله للذين عاهدوا رسوله أربعة أشهر، يسيحون في الأرض حيث شاءوا، وأجل أجل من ليس له عهد انسلاخ الأشهر الحرم، فأمر الله نبيه إذا انسلخ الحرم أن يضع السيف فيمن لم يكن بينه وبينه عهد، بقتلهم حتى يدخلوا في الإسلام، وأمر بمن كان له عهد إذا انسلخ أربعة أشهر من يوم النحر إلى عشر خلون من ربيع الآخر أن يضع فيهم السيف أيضاً حتى يدخلوا في الإسلام. وقال مجاهد: ﴿براءة من الله ورسوله ﷺ﴾ إلى أهل العهد خزاعة ومدلج، ومن كان له عهد أو غيرهم، فقل رسول الله ﷺ من تبوك حين فرغ، فأراد رسول الله ﷺ الحج ثم قال: «إنما يحضر المشركون فيطوفون عراة فلا أحب أن أحج حتى لا يكون ذلك»،

(١) أخرجه البخاري عن البراء بن عازب .

فأرسل أبا بكر وعلياً رضي الله عنهما، فطافا بالناس في ذي المجاز وبأمكنهم التي كانوا يتبايعون بها وبالمواسم كلها، فأذنوا أصحاب العهد بأن يؤمنوا أربعة أشهر، ففي الأشهر المتواليات عشرون من ذي الحجة إلى عشر تخلو من ربيع الآخر، ثم لا عهد لهم، وأذن الناس كلهم بالقتال إلا أن يؤمنوا .

وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تَبَتُّمْ فَهُوَ
خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنْكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابِ أَلِيمٍ ﴿٣﴾

يقول تعالى: وإعلام ﴿ من الله ورسوله ﴾ وتقدم، وإنذار إلى الناس ﴿ يوم الحج الأكبر ﴾ وهو يوم النحر الذي هو أفضل أيام المناسك وأظهرها وأكبرها جميعاً ﴿ أن الله برىء من المشركين ورسوله ﴾ أي برىء منهم أيضاً. ثم دعاهم إلى التوبة إليه فقال: ﴿ فإن تبتم ﴾ أي مما أتم فيه من الشرك والضلال، ﴿ فهو خير لكم، وإن توليتم ﴾ أي استمررتم على ما أتم عليه ﴿ فاعلموا أنكم غير معجزى الله ﴾، بل هو قادر عليكم وأنتم في قبضته وتحت قهره ومشيتته ﴿ وبشر الذين كفروا بعذاب أليم ﴾ أي في الدنيا بالخزي والنكال، وفي الآخرة بالمقامع والأغلال. روى البخاري عن أبي هريرة قال: بعثني أبو بكر فيمن يؤذن يوم النحر بمنى ألا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، ويوم الحج الأكبر يوم النحر، وإنما قيل الأكبر، من أجل قول الناس الحج الأصغر، فنذ أبو بكر إلى الناس في ذلك العام، فلم يحج عام حجة الوداع الذي حج فيه رسول الله ﷺ مشركاً^(١). وقال الإمام أحمد عن أبي هريرة قال: كنت مع (علي بن أبي طالب) حين بعث رسول الله ﷺ إلى أهل مكة ببراءة فقال: ما كنتم تنادون؟ قال: كنا ننادي أنه لا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة، ولا يطوف بالبيت عريان، ومن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد فإن أجله أو مدته إلى أربعة أشهر، فإذا مضت الأربعة الأشهر فإن الله برىء من المشركين ورسوله، ولا يحج هذا البيت بعد عامنا هذا مشرك، قال: فكنت أنادي حتى صحل صوتي .

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ بعثه ببراءة مع أبي بكر، فلما بلغ ذا الحليفة قال: « لا يبلغها إلا أنا أو رجل من أهل بيتي »، فبعث بها مع علي بن أبي طالب رضي الله عنه^(٢). وعن علي رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ حين بعثه ببراءة قال: يا نبي الله إني لست باللسن ولا بالخطيب، قال: « لا بد لي أن أذهب بها أنا أو تذهب بها أنت » قال: فإن كان لا بد فسأذهب أنا، قال: « انطلق فإن الله يثبت لسانك ويهدي قلبك »، قال: ثم وضع يده على فيه. وقال محمد بن إسحاق: نزلت براءة على رسول الله ﷺ، وقد كان بعث أبا بكر ليقم الحج للناس فقبل يا رسول الله: لو بعثت إلى أبي بكر، فقال: « لا يؤدي عني إلا رجل من أهل بيتي »، ثم دعا علياً فقال: « اذهب بهذه القصة من سورة براءة وأذن في الناس يوم النحر إذا اجتمعوا بمنى أنه لا يدخل الجنة كافر، ولا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، ومن كان له عهد عند

(١) أخرجه البخاري في كتاب الجهاد .

(٢) رواه الإمام أحمد والترمذي وقال: حسن غريب .

رسول الله ﷺ فهو له إلى مدته فخرج علي رضي الله عنه على ناقه رسول الله ﷺ العضاء، حتى أدرك أبا بكر في الطريق، فلما رآه أبو بكر قال: أمير أو مأمور؟ فقال: بل مأمور، ثم مضيا، فأقام أبو بكر للناس الحج إذ ذاك في تلك السنة على منازلهم من الحج التي كانوا عليها في الجاهلية، حتى إذا كان يوم النحر قام علي بن أبي طالب فأذن بالناس بالذي أمره رسول الله ﷺ فقال: يا أيها الناس إنه لا يدخل الجنة كافر، ولا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، ومن كان له عهد عند رسول الله ﷺ فهو إلى مدته، فلم يحج بعد ذلك العام مشرك، ولم يطف بالبيت عريان ثم قدما على رسول الله ﷺ فكان هذا من براءة فيمن كان من أهل الشرك من أهل العهد العام وأهل المدة إلى الأجل المسمى .

عن عطاء قال: يوم الحج الأكبر يوم عرفة، وقال عمرو بن الوليد السهمي عن عباد البصري قال: سمعت عمر بن الخطاب يقول: هذا يوم عرفة هذا يوم الحج الأكبر فلا يصومنه أحد، قال: فحججت بعد أبي فأتيت المدينة، فسألت عن أفضل أهلها، فقالوا: (سعيد بن المسيب) فأتيته، فقلت: إني سألت عن أفضل أهل المدينة، فقالوا سعيد بن المسيب، فأخبرني عن صوم يوم عرفة، فقال: أخبرك عن من هو أفضل مني مائة ضعف (عمر) أو (ابن عمر) كان ينهى عن صومه، ويقول هو يوم الحج الأكبر^(١). والقول الثاني: أنه يوم النحر، قال الحارث الأعمور: سألت علياً رضي الله عنه عن يوم الحج الأكبر فقال: هو يوم النحر. وقال عبد الرزاق عن عبد الله ابن أبي أوفى أنه قال: يوم الحج الأكبر يوم النحر. وقال عبد الله بن سنان خطبنا المغيرة بن شعبة يوم الأضحى على بعير فقال: هذا يوم الأضحى، وهذا يوم النحر، وهذا يوم الحج الأكبر، واختاره ابن جرير، وروى عن محمد بن سيرين عن عبد الرحمن بن أبي بكرة عن أبيه قال: لما كان ذلك اليوم قعد رسول الله ﷺ على بعير له وأخذ الناس بنحطامه أو زمامه فقال: «أي يوم هذا؟» قال: فسكتنا حتى ظننا أنه سيسميه سوى اسمه، فقال: «أليس هذا يوم الحج الأكبر؟»^(٢)

إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوا شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾

هذا استثناء من ضرب مدة التأجيل بأربعة أشهر لمن له عهد مطلق ليس بمؤقت، فأجله أربعة أشهر يسبح في الأرض يذهب فيها لينجو بنفسه حيث شاء، إلا من له عهد مؤقت فأجله إلى مدته المضروبة التي عوهد عليها، وقد تقدمت الأحاديث (ومن كان له عهد مع رسول الله ﷺ فعاهده إلى مدته) وذلك بشرط أن لا يتقض المعاهد عهده ولم يظاهر على المسلمين أحداً، أي يماليء عليهم من سواهم، فهذا الذي يوفى له بدمته وعهده إلى مدته، ولهذا حرص تعالى على الوفاء بذلك فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ أي الموفين بعهدهم .

(١) رواه ابن جرير وابن أبي حاتم وهكذا روي عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة وطاووس وغيرهم .

(٢) رواه ابن جرير قال ابن كثير: إسناده صحيح وأصله مخرج في الصحيحين .

فَإِذَا أَنْسَلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرْمَ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخَذُوهُمْ وَأَحْصُرُوهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ ۖ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾

اختلف المفسرون في المراد بالأشهر الحرم ههنا ما هي؟ فذهب ابن جرير إلى أنها المذكورة في قوله تعالى: ﴿منها أربعة حرم ذلك الدين القيم﴾ الآية، ولكن قال ابن جرير: آخر الأشهر الحرم في حقهم المحرم، وفيه نظر، والذي يظهر من حيث السياق ما ذهب إليه ابن عباس^(١) في رواية العوفي عنه، أن المراد بها أشهر التسيير الأربعة المنصوص عليها بقوله: ﴿فسيحوا في الأرض أربعة أشهر﴾، ثم قال: ﴿فإذا أنسلخ الأشهر الحرم﴾ أي إذا انقضت الأشهر الأربعة التي حرمتنا عليكم فيها قتالهم وأجلناهم فيها فحيثما وجدتموهم فاقتلوهم، لأن عود العهد على مذكور أولى من مقدر، ثم إن الأشهر الأربعة المحرمة سيأتي بيان حكمها في آية أخرى بعد في هذه السورة الكريمة. وقوله: ﴿فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم﴾ أي من الأرض، وهذا عام، والمشهور تخصيصه بتحريم القتال في الحرم بقوله: ﴿ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهم﴾، وقوله: ﴿وخذوهم﴾ أي وأسروهم، إن شئتم قتلاً وإن شئتم أسراً، وقوله: ﴿واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد﴾ أي لا تكتفوا بمجرد وجدانكم لهم، بل اقصدوهم بالحصار في معاقلمهم وحصونهم، والرصد في طرفهم ومسالكهم، حتى تضيقوا عليهم الواسع وتضطروهم إلى القتل أو الإسلام، ولهذا قال: ﴿فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم إن الله غفور رحيم﴾، ولهذا اعتمد الصديق رضي الله عنه في قتال مانعي الزكاة على هذه الآية الكريمة، حيث حرمت قتالهم بشرط الدخول في الإسلام والقيام بأداء واجباته، وبنه بأعلاها على أدناها، فإن أشرف أركان الإسلام بعد الشهادتين الصلاة التي هي حق الله عز وجل، وبعدها أداء الزكاة التي هي نفع متعد إلى الفقراء والمحاويج، وهي أشرف الأفعال المتعلقة بالمخلوقين، ولهذا كثيراً ما يقرن الله بين الصلاة والزكاة، وقد جاء في الصحيحين: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة» الحديث، وقال عبد الله بن مسعود: أمرتم بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ومن لم يترك فلا صلاة له، وقال ابن أسلم: أبى الله أن يقبل الصلاة إلا بالزكاة وقال: يرحم الله أبا بكر ما كان أفقهه!

وروى الإمام أحمد عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فإذا شهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، واستقبلوا قبلتنا، وأكلوا ذبيحتنا، وصلوا صلاتنا فقد حرمت علينا دماؤهم وأموالهم إلا بحقها، لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم». قال أنس: توبتهم خلع الأوثان وعبادة ربهم وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، ثم قال في آية أخرى: ﴿فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم في الدين﴾. وهذه الآية الكريمة هي آية السيف التي قال فيها الضحاك: إنها نسخت كل عهد بين النبي ﷺ وبين أحد من المشركين وكل عقد وكل مدة. وقال ابن عباس في هذه الآية: أمره الله تعالى

(١) وهو قول مجاهد وقتادة والسدي وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وهو الأرجح.

أن يضع السيف فيمن عاهد إن لم يدخلوا في الإسلام، ونقض ما كان سمي لهم من العهد والميثاق، وأذهب الشرط الأول. ثم اختلف المفسرون في آية السيف هذه، فقال الضحاك والسدي: هي منسوخة بقوله تعالى: ﴿فإما مناً بعد وإما فداء﴾ وقال قتادة بالعكس.

وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجْرُهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ ابْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾

يقول تعالى لنبيه صلوات الله وسلامه عليه: ﴿وإن أحد من المشركين﴾ الذين أمرت بقتالهم، وأحلت لك استباحة نفوسهم وأموالهم ﴿استجارك﴾ أي استأمنك فأجبه إلى طلبته حتى يسمع كلام الله، أي القرآن تقرأه عليه، وتذكر له شيئاً من أمر الدين تقيم به عليه حجة الله ﴿ثم ابْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾ أي وهو آمن مستمر الأمان حتى يرجع إلى بلاده وداره ومأمنه ﴿ذلك بأنهم قوم لا يعلمون﴾ أي إنما شرعنا أمان مثل هؤلاء ليعلموا دين الله وتنتشر دعوة الله في عبادته، ولهذا كان رسول الله ﷺ يعطي الأمان لمن جاءه مسترشداً، كما جاءه يوم الحديبية جماعة من الرسل من قريش، فأوا من إعظام المسلمين رسول الله ﷺ ما بهرهم، وما لم يشاهدوه عند ملك ولا قيصر، فرجعوا إلى قومهم وأخبروهم بذلك، وكان ذلك وأمثاله من أكبر أسباب هداية أكثرهم. ولهذا أيضاً لما قدم رسول مسيلمة الكذاب على رسول الله ﷺ قال له: أتشهد أن مسيلمة رسول الله؟ قال: نعم، فقال رسول الله ﷺ: «لولا أن الرسل لا تقتل لضربت عنقك»، والغرض أن من قدم من دار الحرب إلى دار الإسلام في أداء رسالة أو تجارة أو طلب صلح أو نحو ذلك من الأسباب وطلب من الإمام أو نائبه أماناً، أعطي أماناً ما دام متردداً في دار الإسلام وحتى يرجع إلى مأمنه ووطنه، لكن قال العلماء: لا يجوز أن يمكن من الإقامة في دار الإسلام سنة، ويجوز أن يمكن من إقامة أربعة أشهر، وفيما بين ذلك فيما زاد على أربعة أشهر ونقص عن سنة قولان عن الإمام الشافعي وغيره من العلماء رحمهم الله.

كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقْتَمُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾

يبين تعالى حكمته في البراءة من المشركين ونظرته إياهم أربعة أشهر، ثم بعد ذلك السيف المرهف أين ثقفوا، فقال تعالى: ﴿كيف يكون للمشركين عهد﴾ أي أمان ويتركون فيما هم فيه وهم مشركون بالله كافرون به وبرسوله ﴿إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام﴾ يعني يوم الحديبية، ﴿فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم﴾ أي مهما تمسكوا بما عاهدتموه عليه وعاهدتموه من ترك الحرب بينكم وبينهم ﴿فاستقيموا لهم إن الله يحب المتقين﴾، وقد فعل رسول الله ﷺ ذلك والمسلمون، استمر العقد والهدنة مع أهل مكة من ذي القعدة في سنة ست إلى أن نقضت قريش العهد ومالأوا حلفاءهم، وهم (بنو بكر) على خزاعة أحلاف رسول الله ﷺ، فقتلوه معهم في الحرم أيضاً، فعند ذلك غزاهم رسول الله ﷺ في رمضان سنة ثمان ففتح الله عليه البلد الحرام ومكنه من نواصيهم ولله الحمد والمنة، فأطلق من أسلم منهم بعد القهر والغلبة عليهم فسموا الطلقاء، وكانوا قريباً من ألفين، ومن استمر

على كفره وفر من رسول الله ﷺ بعث إليه بالأمان والتسيير في الأرض أربعة أشهر يذهب حيث شاء، ومنهم (صفوان بن أمية) و (عكرمة بن أبي جهل) وغيرهما ثم هداهم الله بعد ذلك إلى الإسلام التام، والله المحمود على جميع ما يقدره ويفعله .

* كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةَ يُرْضُونَكُمْ بِأَقْوَاهِمَ تَتَابَعَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ

فَلَسُقُونَ ﴿٨﴾

يقول تعالى محرضاً للمؤمنين على معاداتهم والتبري منهم، ومبيناً أنهم لا يستحقون أن يكون لهم عهد لشركهم بالله تعالى وكفرهم برسول الله ﷺ، ولأنهم لو ظهروا على المسلمين وأدبلوا عليهم لم يبقوا ولم يذروا ولا راقبوا فيهم إلا ولا ذمة، قال ابن عباس: الإل القرابة، والذمة والعهد^(١)، وقال مجاهد: الإل: الله أي لا يرقبون الله ولا غيره، والقول الأول أظهر وأشهر وعليه الأكثر، وعن مجاهد أيضاً: الإل العهد، وقال قتادة: الإل الحلف .

أَشْتَرُوا بِعَايَتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا
وَلَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُقِصَلُ
الْأَيَّاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾

يقول تعالى ذمماً للمشركين وحثاً للمؤمنين على قتالهم: ﴿ اشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً ﴾ يعني أنهم اعتاضوا عن اتباع آيات الله بما التهوا به من أمور الدنيا الخسيسة ﴿ فصلوا عن سبيله ﴾ أي منعوا المؤمنين من اتباع الحق ﴿ إنهم ساء ما كانوا يعملون ﴾ لا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة ﴿ تقدم تفسيرها وكذا الآية التي بعدها .

وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أُمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ
يَنْتَهُونَ ﴿١٢﴾

يقول تعالى: وإن نكث هؤلاء المشركون الذين عاهدتموهم أي عهودهم ومواثيقهم ﴿ وطعنوا في دينكم ﴾ أي عابوه وانتقصوه، ومن ههنا أخذ قتل من سب الرسول صلوات الله وسلامه عليه، أو من طعن في دين الإسلام أو ذكره بنقص، ولهذا قال: ﴿ فقاتلوا أمة الكفر إنهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون ﴾ أي يرجعون عما هم فيه من الكفر والعناد والضلال، قال قتادة: أمة الكفر كأبي جهل وعتبة وشيبة وأمية بن خلف، قال ابن مردويه: مر (سعد بن أبي وقاص) برجل من الخوارج، فقال الخارجي: هذا من أمة الكفر، فقال سعد: كذبت بل أنا قاتلت أمة الكفر، والآية عامة وإن كان سبب نزولها في مشركي قريش والله أعلم .

(١) وهو قول الضحاك والسدي كما قال تميم بن مقبل: أفسد الناس خلوف خلفوا: قطعوا الإل وأعراق الرحم .

أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدءُكُمْ وَأَوَّلَ مَرَّةٍ أَخْشَوْهُمْ ۖ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبَ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۖ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾

وهذا أيضاً تهيج وتحضيض وإغراء على قتال المشركين الناكثين بأيمانهم الذين هموا بإخراج الرسول من مكة، كما قال تعالى: ﴿ وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ﴾، وقال تعالى: ﴿ يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم ﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿ وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها ﴾ الآية، وقوله: ﴿ وهم بدءوكم أول مرة ﴾ قيل: المراد بذلك يوم بدر حين خرجوا لنصر غيرهم، وقيل: المراد نقضهم العهد وقتالهم مع حلفائهم بني بكر لخزاعة أحلاف رسول الله ﷺ، حتى سار إليهم رسول الله ﷺ عام الفتح وكان ما كان، وقوله: ﴿ أخشونهم؟ فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين ﴾، يقول تعالى: لا تخشونهم واخشون فأننا أهل أن نخشى العباد من سطوتي وعقوبي، ثم قال تعالى بياناً لحكمته فيما شرع لهم من الجهاد، مع قدرته على إهلاك العدو ﴿ قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين ﴾ وهذا عام في المؤمنين كلهم، وقال مجاهد وعكرمة: ﴿ ويشف صدور قوم مؤمنين ﴾ يعني خزاعة، ﴿ ويتوب الله على من يشاء ﴾ أي من عباده ﴿ والله عليم ﴾ أي بما يصلح عباده، ﴿ حكيم ﴾ في أفعاله وأقواله الكونية والشرعية فيفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، وهو العادل الحاكم الذي لا يجور أبداً .

* أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾

يقول تعالى: ﴿ أم حسبتم ﴾ أي ظننتم أن تترككم مهملين، لا نخبركم بأمور يظهر فيها الصادق من الكاذب، ولهذا قال: ﴿ ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة ﴾ أي بطانة ودخيلة، بل هم في الظاهر والباطن على النصح لله ولرسوله، فاكفى بأحد القسمين عن الآخر، كما قال الشاعر:

وما أدري إذا يمت أرضاً أريد الخير أيهما يليني

وقال تعالى: ﴿ أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ﴾؟ وقال تعالى: ﴿ ما كان الله ليدر المؤمنين على ما أنتم عليه ﴾ الآية، والحاصل: أنه تعالى لما شرع لعباده الجهاد بين أن له فيه حكمة وهو اختبار عبيده من بطيئه ممن يعصيه، وهو تعالى العالم بما كان وما يكون، فيعلم الشيء قبل كونه ومع كونه على ما هو عليه، لا إله إلا هو ولا رب سواه .

مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِم بِالْكَفْرِ أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي النَّارِ

هُم خَالِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مِنْ ءَامِنٍ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾

يقول تعالى: ما ينبغي للمشركين بالله أن يعمروا مساجد الله التي بنيت على اسمه وحده لا شريك له، وهم شاهدون على أنفسهم بالكفر أي بحالهم وقالمهم: كما قال السدي: لو سألت النصراني ما دينك؟ لقال: نصراني، ولو سألت اليهودي ما دينك؟ لقال: يهودي، ﴿أولئك حبطت أعمالهم﴾ أي بشركهم ﴿وفي النار هم خالدون﴾، ولهذا قال تعالى: ﴿إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر﴾ فشهد تعالى بالإيمان لعمار المساجد. كما قال رسول الله ﷺ: «إذا رأيتم الرجل يعتاد المسجد فاشهدوا له بالإيمان، قال الله تعالى: ﴿إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر﴾^(١). وروى الحافظ أبو بكر البزار عن أنس قال، قال رسول الله ﷺ: «إنما عمار المساجد هم أهل الله»، وعن أنس مرفوعاً يقول الله: وعزتي وجلالي إني لأهم بأهل الأرض عذاباً، فإذا نظرت إلى عمار بيوتي، وإلى المتحابين في، وإلى المستغفرين بالإسحار، صرفت ذلك عنهم^(٢). وقال عبد الرزاق عن عمرو ابن ميمون الأودي قال: أدركت أصحاب محمد ﷺ وهم يقولون: إن المساجد بيوت الله في الأرض، وإنه حق على الله أن يكرم من زاره فيها، وقال المسعودي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: من سمع النداء بالصلاة ثم لم يجب ولم يأت المسجد ويصلي، فلا صلاة له وقد عصى الله ورسوله، قال الله تعالى: ﴿إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر﴾^(٣)، وقوله: ﴿وأقام الصلاة﴾ أي التي هي أكبر عبادات البدن ﴿وآتى الزكاة﴾ أي التي هي أفضل الأعمال المتعدية إلى بر الخلاق، وقوله: ﴿ولم يخش إلا الله﴾ أي ولم يخف إلا من الله تعالى ولم يخش سواه ﴿فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين﴾، قال ابن عباس: من وحّد الله وآمن باليوم الآخر ﴿وأقام الصلاة﴾ يعني الصلوات الخمس ﴿ولم يخش إلا الله﴾ يقول لم يعبد إلا الله ﴿فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين﴾، يقول تعالى إن أولئك هم المفلحون كقوله لنبية ﷺ: ﴿عسى أن يعثك ربك مقاماً محموداً﴾، وهي الشفاعة، وكل «عسى» في القرآن فهي واجبة، وقال محمد بن إسحاق: وعسى من الله حق.

* أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾ يَبْشِرُهُمُ رَّبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّتْ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾

(١) رواه أحمد والترمذي وابن مردويه والحاكم.

(٢) قال ابن عساکر: حديث غريب.

(٣) أخرجه ابن مردويه.

قال ابن أبي طلحة عن ابن عباس في تفسير هذه الآية: نزلت في العباس بن عبد المطلب حين أسر بيدر قال: لئن كنتم سبقتمونا بالإسلام والهجرة والجهاد، لقد كنا نعمر المسجد الحرام ونسقي الحاج ونفك العاني، قال الله عز وجل: ﴿أجعلتم سقاية الحاج - إلى قوله - والله لا يهدي القوم الظالمين﴾، يعني أن ذلك كله كان في الشرك ولا أقبل ما كان في الشرك، وقال الضحاك: أقبل المسلمون على العباس وأصحابه الذين أسروا يوم بدر ويعيرونهم بالشرك، فقال العباس: أما والله لقد كنا نعمر المسجد الحرام، ونفك العاني، ونحجب البيت، ونسقي الحاج، فأنزل الله: ﴿أجعلتم سقاية الحاج﴾ الآية. وعن النعمان بن بشير الأنصاري قال: كنت عند منبر رسول الله ﷺ في نفر من أصحابه، فقال رجل منهم: ما أبالي أن لا أعمل لله عملاً بعد الإسلام إلا أن أسقي الحاج، وقال آخر: بل عمارة المسجد الحرام، وقال آخر: بل الجهاد في سبيل الله خير مما قلتم، فزجرهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وقال: لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله ﷺ وذلك يوم الجمعة، ولكن إذا صليت الجمعة دخلت على رسول الله ﷺ فاستفتيته فيما اختلفتم فيه، قال: ففعل، فأنزل الله عز وجل: ﴿أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد - إلى قوله - والله لا يهدي القوم الظالمين﴾^(١).

يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَتَّخِذُوا ءِآبَاءَ كُرٍّ وَإِخْوَانَكُمْ ءُولِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَاُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِن كَانَ ءِآبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٤﴾

أمر تعالى بمباينة الكفار، وإن كانوا آباء أو أبناء، ونهى عن موالاتهم إن استحبوا أي اختاروا الكفر على الإيمان، وتوعد على ذلك، كقوله تعالى: ﴿لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم﴾، ثم أمر تعالى رسوله أن يتوعد من آثر أهله وقربته وعشيرته على الله ورسوله وجهاد في سبيله فقال: ﴿قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها﴾ أي اكتسبتموها وحصلتموها ﴿وتجارة تخشون كسادها ومسكن ترضونها﴾ أي تحبونها لطيبها وحسنها أي إن كانت هذه الأشياء ﴿أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا﴾ أي فانظروا ماذا يحل بكم من عقابه ونكاله بكم ولهذا قال: ﴿حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾. وروى الإمام أحمد عن زهرة بن معبد عن جده قال: كنا مع رسول الله ﷺ وهو أخذ بيد عمر بن الخطاب فقال: والله يا رسول الله لآنت أحب إلي من كل شيء إلا من نفسي، فقال رسول الله ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه»، فقال عمر: فأنت الآن والله أحب إلي من نفسي، فقال رسول الله ﷺ: «الآن يا عمر»^(٢). وقد ثبت

(١) أخرجه عبد الرزاق ورواه مسلم وأبو داود وابن مردويه وابن حبان وابن جرير وهذا لفظه .

(٢) انفرد بإخراجه البخاري .

في الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: «والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين». وعن ابن عمر قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إذا تبايعتم بالعينة وأخذتم بأذنان البقر ورضيتم بالزرع وتركتم الجهاد سلط الله عليكم ذلاً لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم»^(١).

لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مَّدْيَرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٧﴾

يذكر تعالى للمؤمنين فضله عليهم وإحسانه لديهم في نصره إياهم في مواطن كثيرة من غزواتهم مع رسوله، وأن ذلك من عنده تعالى وبتأييده وتقديره لا بعددهم ولا بعددهم، ونبيهم على أن النصر من عنده سواء قل الجمع أو كثر، فإن يوم حنين أعجبهم كثرتهم^(٢)، ومع هذا ما أجدى ذلك عنهم شيئاً، فولوا مديريين إلا القليل منهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم أنزل نصره وتأييده على رسوله وعلى المؤمنين الذين معه، ليعلمهم أن النصر من عنده تعالى وحده، وبإمداده، وإن قل الجمع، ﴿فكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين﴾، وقد كانت وقعة حنين^(٣) بعد فتح مكة في شوال سنة ثمان من الهجرة، وذلك لما فرغ صلى الله عليه وسلم من فتح مكة وتمهدت أمورها، وأسلم عامة أهلها، وأطلقهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فبلغه أن (هوازن) جمعوا له ليقاتلوه، وأن أميرهم (مالك بن عوف النضري) ومعه ثقيف بكاملها وناس من بني عمرو بن عامر وعون بن عامر، وقد أقبلوا معهم النساء والولدان والشاء والنعم، وجاءوا بقضيمهم وقضيضهم؛ فخرج إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم في جيشه الذي جاء معه للفتح وهو عشرة آلاف من المهاجرين والأنصار وقبائل العرب، ومعه الذين أسلموا من أهل مكة، وهم الطلقاء في ألفين، فسار بهم إلى العدو، فالتقوا بواد بين مكة والطائف يقال له حنين، فكانت فيه الوقعة في أول النهار في غلس الصبح، انحدروا في الوادي وقد كمنت فيه هوازن، فلما تواجهوا لم يشعر المسلمون إلا بهم قد بادروهم، ورشقوا بالنبال، وأصلتوا السيوف، وحملوا حملة رجل واحد، كما أمرهم ملكهم؛ فعند ذلك ولي المسلمون مديريين كما قال الله عز وجل، وثبت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو راكب يومئذ بغلته الشهباء، يسوقها إلى نحر العدو، والعباس عمه أخذ بركابها الأيمن، ويقول في تلك الحال: «أنا النبي لا كذب * أنا ابن عبد المطلب»، وثبت معه من أصحابه قريب من مائة، ثم أمر صلى الله عليه وسلم عمه العباس وكان جهير الصوت أن ينادي بأعلى صوته: يا أصحاب الشجرة، يعني شجرة بيعة

(١) رواه الإمام أحمد وأبو داود واللفظ له عن ابن عمر مرفوعاً.

(٢) أخرج البيهقي: أن رجلاً قال يوم حنين: لن تغلب من قلة؟ وكانوا اثني عشر ألفاً، فشق ذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأنزل الله: ﴿ويوم حنين...﴾ الآية.

(٣) حنين: اسم موضع بأوطاس، عرف باسم رجل اسمه: حنين بن قانية بن مهلائيل من العماليق، كما في معجم البكري.

الرضوان التي بايعه المسلمون من المهاجرين والأنصار تحتها، على أن لا يفروا عنه، فجعل ينادي بهم: يا أصحاب السمرة، ويقول تارة: يا أصحاب سورة البقرة، فجعلوا يقولون: لبيك لبيك، وانعطف الناس، فترجعوا إلى رسول الله ﷺ، حتى إن الرجل منهم إذا لم يطاوعه بعيره على الرجوع لبس درعه، ثم انحدر عنه وأرسله، ورجع بنفسه إلى رسول الله ﷺ، فلما اجتمعت شزيمة منهم عند رسول الله ﷺ أمرهم عليه السلام، أن يصدقوا الحملة، وأخذ قبضة من تراب بعدما دعا ربه واستنصره، وقال: «اللهم أنجز لي ما وعدتني، ثم رمى القوم بها، فما بقي إنسان منهم إلا أصابه منها في عينيه وفمه ما شغله عن القتال، ثم انهزموا، فاتبع المسلمون أبقاءهم يقتلون ويأسرون، وما تراجع بقية الناس إلا والأسرى مجندلة بين يدي رسول الله ﷺ .

وقال الإمام أحمد عن (يزيد بن أسيد) قال: كنت مع رسول الله ﷺ في غزوة حنين، فسرنا في يوم قائف شديد الحر، فترلنا تحت ظلال الشجر، فلما زالت الشمس لبست لأمتي، وركبت فرسي، فانطلقت إلى رسول الله ﷺ وهو في فسطاطه، فقلت: السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته، حان الرواح، فقال: «أجل» فقال: «يا بلال»، فثار من تحت سمرة كأن ظلها ظل طائر، فقال: لبيك وسعديك وأنا فداؤك، فقال: «أسرج لي فرسي»، فأخرج سرجاً دفناه من ليف ليس فيهما أشر ولا بطر، قال فأسرج فركب وركبنا، فصاففناهم عشيتنا وليلتنا، فتشامت الخيلان، فولى المسلمون مدبرين، كما قال الله تعالى: ﴿ثم وليتم مدبرين﴾، فقال رسول الله ﷺ: «يا عباد الله أنا عبد الله ورسوله»، ثم قال: «يا معشر المهاجرين أنا عبد الله ورسوله» قال: ثم اقتحم عن فرسه، فأخذ كفاً من تراب، فأخبرني الذي كان أدنى إليه مني أنه ضرب به وجوههم، وقال: «شاهت الوجوه» فهزمهم الله تعالى، قال يعلى بن عطاء: فحدثني أبناءهم عن آبائهم أنهم قالوا: لم يبق منا أحد إلا امتلأت عيناه وفه تراباً، وسمعنا صلصلة بين السماء والأرض، كما مرار الحديد على الطست الجديد^(١). وفي الصحيحين عن البراء بن عازب رضي الله عنهما أن رجلاً قال له: يا أبا عمار أفرتم عن رسول الله ﷺ يوم حنين؟ فقال: لكن رسول الله ﷺ لم يفر، إن هوازن كانوا قوماً رماة، فلما لقيناهم وحملنا عليهم انهزموا، فأقبل الناس على الغنائم، فاستقبلونا بالسهم، فانهزم الناس، فلقد رأيت رسول الله ﷺ وأبو سفيان بن الحارث أخذ بلجام بغلته البيضاء، وهو يقول: «أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب»^(٢). قال تعالى: ﴿ثم أنزل الله سكينته على رسوله﴾ أي طمأنينته وثباته على رسوله ﷺ وعلى المؤمنين ﷺ أي الذين معه ﷺ وأنزل جنوداً لم تروها ﷺ وهم الملائكة، كما قال الإمام أبو جعفر بن جرير عن عبد الرحمن مولى ابن برثن، حدثني رجل كان مع المشركين يوم حنين قال: لما التقينا نحن وأصحاب رسول الله ﷺ يوم حنين، لم يقوموا لنا حلب شاة، قال: لما كشفناهم جعلنا نسوقهم في آثارهم حتى انتهينا إلى صاحب البغلة البيضاء، فإذا هو رسول الله ﷺ، قال: فنلقانا عنده رجال بيض حسان الوجوه، فقالوا لنا: شاهت الوجوه ارجعوا، قال: فانهزمتنا وركبوا اكتافنا، فكانت إياها .

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: كنت مع رسول الله ﷺ يوم حنين، فولى عنه الناس وبقيت معه في ثمانين رجلاً من المهاجرين والأنصار قدمنا ولم نولهم الدبر، وهم الذين أنزل الله عليهم السكينة، قال: ورسول الله ﷺ

(٢) أخرجه الشيخان عن البراء بن عازب .

(١) رواه الإمام أحمد والحافظ البيهقي .

على بغلته البيضاء يمضي قدماً، فحادت بغلته، فقال عن السرج، فقلت ارتفع رفعك الله، قال: «ناولني كفاً من التراب» فناولته قال: فضرب به وجوههم، فامتلات أعينهم تراباً قال: «أين المهاجرون والأنصار؟» قلت: هم هناك، قال: «اهتف بهم» فهتفت بهم، فجاءوا وسيوفهم بأيمانهم كأنها الشهب، وولى المشركون أديبارهم^(١). وعن شيبه بن عثمان قال: رأيت رسول الله ﷺ يوم حنين قد عري، ذكرت أبي وعمي وقتل علي وحمزة إياهما، فقلت اليوم أدرك ثأري منه قال: فذهبت لأجيئه عن يمينه، فإذا أنا بالعباس بن عبد المطلب قائماً عليه درع بيضاء كأنها فضة يكشف عنها العجاج، فقلت: عمه ولن يخذله، قال: فجئته عن يساره، فإذا أنا بأبي سفيان، فقلت: ابن عمه ولن يخذله، فجئته من خلفه، فلم يبق إلا أن أسوره سورة بالسيف، إذ رفع لي شواظ من نار بيني وبينه كأنه برق فخفت أن يخنسني، فوضعت يدي على بصري ومشيت القهقري، فالتفت رسول الله ﷺ وقال: «يا شيبه يا شيبه ادن مني، اللهم أذهب عنه الشيطان» قال: فرفعت إليه بصري وهو أحب إلي من سمعي وبصري، فقال: «يا شيبه قاتل الكفار»^(٢). قال محمد بن إسحاق عن جبير بن مطعم رضي الله عنه قال: إنا لمع رسول الله ﷺ يوم حنين، والناس يقتتلون، إذ نظرت إلى مثل البجاد الأسود يهوي من السماء، حتى وقع بيننا وبين القوم، فإذا نمل منثور قد ملأ الوادي، فلم يكن إلا هزيمة القوم، فما كنا نشك أنها الملائكة، وفي صحيح مسلم قال رسول الله ﷺ: «نصرت بالربع وأوتيت جوامع الكلم»، ولهذا قال تعالى: ﴿ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنوداً لم تروها وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين﴾، وقوله: ﴿ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء والله غفور رحيم﴾ قد تاب الله على بقية هوازن فأسلموا وقدموا عليه مسلمين ولحقوه، وقد قارب مكة عند الجعرانة، وذلك بعد الوقعة بقرب من عشرين يوماً، فعند ذلك خيرهم بين سبيهم وبين أموالهم، فاختاروا سبيهم، وكانوا ستة آلاف أسير ما بين صبي وامرأة، فردّه عليهم، وقسم الأموال بين الغانمين، ونفل أناساً من الطلقاء، لكي يتألف قلوبهم على الإسلام، فأعطاهم مائة مائة من الإبل، وكان من جملة من أعطى مائة (مالك بن عوف النضري) واستعمله على قومه كما كان، فامتدحه بقصيدته التي يقول فيها:

ما إن رأيت ولا سمعت بمثله في الناس كلهم بمثل محمد
فكانه ليث على أشباله وسط المباءة خادر في مرصد

يَتَأَيُّبُ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾ قَتَلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٢٩﴾

(٢) أخرجه الحافظ البيهقي .

(١) رواه الحافظ البيهقي والإمام أحمد في مسنده بنحوه .

أمر تعالى عباده المؤمنين الطاهرين ديناً وذاتاً، بنبي المشركين الذين هم نجس عن المسجد الحرام، وأن لا يقربوه بعد نزول هذه الآية، وكان نزولها في سنة تسع، ولهذا بعث رسول الله ﷺ علياً صحبة أبي بكر وأمره أن ينادي في المشركين أن لا يحج بعد هذا العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، فأتم الله ذلك وحكم به شرعاً وقدرأً، وكتب عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه أن امنعوا اليهود والنصارى من دخول مساجد المسلمين، قال الله تعالى: ﴿إنما المشركون نجس﴾، وقال عطاء: الحرم كله مسجد لقوله تعالى: ﴿فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا﴾، ودلت هذه الآية الكريمة على نجاسة المشرك، كما ورد في الصحيح: «المؤمن لا ينجس»، وأما نجاسة بدنه فالجمهور على أنه ليس بنجس البدن والذات، لأن الله تعالى أحل طعام أهل الكتاب، وذهب بعض الظاهرية إلى نجاسة أبدانهم، وقال أشعث عن الحسن من صافحهم فليتوضأ. وقوله: ﴿وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله﴾، قال محمد بن إسحاق: قال الناس: لتقطعن عنا الأسواق، ولتهلكن التجارة، وليذهبن عنا ما كنا نصيب فيها من المرافق، فأنزل الله: ﴿وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله﴾^(١) من وجه غير ذلك ﴿إن شاء﴾، إلى قوله: ﴿وهم صاغرون﴾ أي هذا عوض ما تخوفتم من قطع تلك الأسواق، فعوضهم الله مما قطع أمر الشرك ما أعطاهم من أعناق أهل الكتاب من الجزية، ﴿إن الله عليم﴾ أي بما يصلحكم ﴿حكيم﴾ أي فيما يأمر به وينهى عنه لأنه الكامل في أفعاله وأقواله، العادل في خلقه وأمره تبارك وتعالى، ولهذا عوضهم عن تلك المكاسب بأموال الجزية التي يأخذونها من أهل الذمة، وقوله تعالى: ﴿قاتلوا الذين لا يؤمنوا بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون﴾ فهم في نفس الأمر لما كفروا بمحمد ﷺ لم يبق لهم إيمان صحيح بأحد من الرسل ولا بما جاؤا به، وإنما يتبعون آراءهم وأهواءهم وآباءهم فيما هم فيه، لا لأنه شرع الله ودينه، لأنهم لو كانوا مؤمنين بما بأيديهم إيماناً صحيحاً لقادهم ذلك إلى الإيمان بمحمد ﷺ، لأن جميع الأنبياء بشروا به وأمروا باتباعه، فلما جاءوا كفروا به وهو أشرف الرسل علم أنهم ليسوا متمسكين بشرع الأنبياء الأقدمين لأنه من عند الله، بل لحظوظهم وأهوائهم، فلهدا لا ينفعهم إيمانهم ببقية الأنبياء، وقد كفروا بسيدهم وأفضلهم وخاتمهم وأكملهم، ولهذا قال: ﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر﴾ الآية .

وهذه الآية الكريمة نزلت أول الأمر بقتال أهل الكتاب بعدما تمهدت أمور المشركين ودخل الناس في دين الله أفواجاً واستقامت جزيرة العرب، أمر الله ورسوله بقتال أهل الكتابين اليهود والنصارى، وكان ذلك في سنة تسع؛ ولهذا تجهز رسول الله ﷺ لقتال الروم ودعا الناس إلى ذلك وأظهره لهم، وبعث إلى أحياء العرب حول المدينة فندبهم، واجتمع من المقاتلة نحو من ثلاثين ألفاً، وتحلف بعض الناس من أهل المدينة ومن حولها من المنافقين وغيرهم؛ وكان ذلك في عام جدب، ووقت قيظ وحر، وخرج رسول الله ﷺ يريد الشام لقتال الروم فبلغ تبوك فنزل بها

(١) في اللباب: أخرج ابن أبي حاتم: كان المشركون يجيئون إلى البيت بالطعام يتجرون فيه، فلما نهوا عن إتيان البيت، قال المسلمون: أين لنا الطعام؟ فأنزل الله: ﴿وإن خفتم...﴾ الآية. وأخرج ابن جرير: لما نزلت ﴿إنما المشركون نجس﴾ فلا يقربوا المسجد الحرام... شق ذلك على المسلمين، وقالوا: من يأتينا بالطعام وبالمتاع؟ فأنزل الله الآية .

وأقام بها قريباً من عشرين يوماً، ثم استخار الله في الرجوع فرجع عامه ذلك لضيق الحال، وضعف الناس، كما سيأتي بيانه بعد إن شاء الله تعالى. وقوله: ﴿حتى يعطوا الجزية﴾ أي إن لم يسلموا ﴿عن يد﴾: أي عن قهر لهم وغلبة ﴿وهم صاغرون﴾ أي ذليلون حقيرون مهانئون، فلهذا لا يجوز إعزاز أهل الذمة ولا رفعهم على المسلمين بل هم أذلاء صغرة أشقياء، كما جاء في صحيح مسلم: «لا تبدأوا اليهود والنصارى بالسلام، وإذا لقيتم أحدهم في طريق فاضطروهم إلى أضيقه» ولهذا اشترط عليهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه تلك الشروط المعروفة في إذلالهم وتصغيرهم وتحقيرهم، وذلك مما رواه الأئمة الحفاظ من رواية (عبد الرحمن بن غنم الأشعري) قال: كتبت لعمر بن الخطاب رضي الله عنه حين صالح نصارى من أهل الشام: «بسم الله الرحمن الرحيم. هذا كتاب لعبد الله عمر أمير المؤمنين من نصارى مدينة كذا وكذا، إنكم لما قدمتم علينا سألناكم الأمان لأنفسنا وذرائعنا وأموالنا وأهل ملتنا، وشرطنا لكم على أنفسنا أن لا نحدث في مدينتنا ولا فيما حولها ديراً ولا كنيسة ولا قلاية ولا صومعة راهب، ولا نجد ما خرب منها، ولا نحبي منها ما كان خططاً للمسلمين، وأن لا نمنع كنائسنا أن ينزلها أحد من المسلمين في ليل ولا نهار، وأن نوسع أبوابها للمارة وابن السبيل، وأن ننزل من مر بنا من المسلمين ثلاثة أيام، نطمعهم، ولا نؤوي في كنائسنا ولا منازلنا جاسوساً، ولا نكتم غشاً للمسلمين، ولا نعلم أولادنا القرآن، ولا نظهر شركاً، ولا ندعو إليه أحداً، ولا نمنع أحداً من ذوي قرابتنا الدخول في الإسلام إن أرادوه، وأن نوقر المسلمين، وأن نقوم لهم من مجالسنا إن أرادوا الجلوس، ولا نتشبه بهم في شيء من ملابسهم في قلنسوة ولا عمامة ولا نعلين ولا فرق شعر، ولا نتكلم بكلامهم، ولا نكتني بكنائهم، ولا نركب السروج، ولا نتقلد السيوف، ولا نتخذ شيئاً من السلاح، ولا نحمله معنا، ولا نقش خواتمنا بالعربية، ولا نبيع الخمر، وأن نجزم زينا حيثما كنا، وأن نشد الزناير على أوساطنا، وأن لا نظهر الصليب على كنائسنا، وأن لا نظهر صلبنا ولا كتبنا في شيء من طريق المسلمين ولا أسواقهم، ولا نضرب نواقيسنا في كنائسنا إلا ضرباً خفيفاً، وأن لا نرفع أصواتنا بالقراءة في كنائسنا في شيء من حضرة المسلمين، ولا نخرج شعائين ولا بعوثاً، ولا نرفع أصواتنا مع موتانا، ولا نظهر النيران معهم في شيء من طرق المسلمين، ولا أسواقهم، ولا نجاورهم بموتانا، ولا نتخذ من الرقيق ما جرى عليه سهام المسلمين، وأن نرشد المسلمين ولا نطلع عليهم في منازلهم، قال: فلما أتيت عمر بالكتاب زاد فيه: «ولا نضرب أحداً من المسلمين» شرطنا لكم ذلك على أنفسنا وأهل ملتنا، وقبلنا عليه الأمان، فإن نحن خالفنا في شيء مما شرطناه لكم ووظفنا على أنفسنا، فلا ذمة لنا، وقد حل لكم منا ما يحل من أهل المعاندة والشقاق».

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِعُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَتَلْتَهُمْ اللَّهُ إِنْ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ ﴾

وهذا إغراء من الله تعالى للمؤمنين على قتال الكفار من (اليهود والنصارى) لمقاتلهم هذه المقالة الشنيعة والفرية على الله تعالى، فأما اليهود فقالوا في العزيز إنه ابن الله، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، وأما ضلال النصارى في

المسيح فظاهر، ولهذا كذب الله سبحانه الطائفتين، فقال: ﴿ذلك قولهم بأفواههم﴾ أي لا مستند لهم فيما ادعوه سوى افتراءهم واختلافهم، ﴿يضاهئون﴾ أي يشابهون ﴿قول الذين كفروا من قبل﴾ أي من قبلهم من الأمم ضلوا كما ضل هؤلاء ﴿قاتلهم الله﴾ قال ابن عباس: لعنهم الله ﴿أنى يؤفكون﴾؟ أي كيف يضلون عن الحق وهو ظاهر ويعدلون إلى الباطل؟ وقوله: ﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم﴾، روى الإمام أحمد والترمذي عن عدي بن حاتم رضي الله عنه: أنه لما بلغته دعوة رسول الله ﷺ فر إلى الشام، وكان قد تنصر في الجاهلية، فأسرت أخته وجماعة من قومه، ثم من رسول الله ﷺ على أخته وأعطاهما، فرجعت إلى أخيها فرغبته في الإسلام وفي القدوم على رسول الله ﷺ، فقدم عدي إلى المدينة، وكان رئيساً في قومه طيباً وأبوه حاتم الطائي المشهور بالكرم، فحدث الناس بقدمه، فدخل على رسول الله ﷺ وفي عنق عدي صليب من فضة، وهو يقرأ هذه الآية: ﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله﴾ قال فقلت: إنهم لم يعبدوهم فقال: «بلى إنهم حرموا عليهم الحلال وأحلوا لهم الحرام فاتبعوهم فذلك عبادتهم إياهم» وقال رسول الله ﷺ: «يا عدي ما تقول؟ أيعرك أن يقال الله أكبر؟ فهل تعلم شيئاً أكبر من الله؟ أيعرك أن يقال: لا إله إلا الله، فهل تعلم إلهاً غير الله؟» ثم دعاه إلى الإسلام، فأسلم وشهد شهادة الحق، قال: فلقد رأيت وجهه استبشر، ثم قال: «إن اليهود مغضوب عليهم والنصارى ضالون». وهكذا قال حذيفة بن اليمان وعبد الله بن عباس وغيرهما في تفسير: ﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله﴾ إنهم اتبعوهم فيما حللوا وحرموا، ولهذا قال تعالى: ﴿وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً﴾ أي الذي ما شرعه اتبع، وما حكم به نفذ ﴿لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون﴾ أي تعالى وتقدس وتنزه عن الشركاء والنظراء والأعوان والأضداد والأولاد لا إله إلا هو ولا رب سواه.

يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾

يقول تعالى: يريد هؤلاء الكفار من المشركين وأهل الكتاب ﴿أن يطفئوا نور الله﴾: أي ما بعث به رسول الله ﷺ من الهدى ودين الحق بمجرد جدالهم وافتراءهم، فثلثم في ذلك كمثل من يريد أن يطفى شعاع الشمس أو نور القمر بنفخه، وهذا لا سبيل إليه فكذلك ما أرسل به رسول الله ﷺ لا بد أن يتم ويظهر، ولهذا قال تعالى مقابلاً لهم فيما راموه وأرادوه: ﴿ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون﴾ والكافر هو الذي يستر الشيء ويغطيه، ثم قال تعالى: ﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق﴾ فالهدى هو ما جاء به من الإخبارات الصادقة والإيمان الصحيح والعلم النافع (ودين الحق) هو الأعمال الصحيحة النافعة في الدنيا والآخرة ﴿ليظهره على الدين كله﴾: أي على سائر الأديان، كما ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الله زوى لي الأرض مشارقها ومغاربها وسيلغ ملك أمتي ما زوى لي منها». وعن تميم الدارمي رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ليلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار، ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلا أدخله هذا الدين يعز عزيزاً ويذل ذليلاً، عزاً يعز الله به الإسلام، وذللاً يذل الله به الكفر»، فكان تميم الدارمي يقول: قد عرفت ذلك في أهل

بتي لقد أصاب من أسلم منهم الخير والشرف والعز، ولقد أصاب من كان كافراً منهم الذل والصغار والجزية^(١) وفي المسند أيضاً عن عدي بن حاتم قال: دخلت على رسول الله ﷺ فقال: «يا عدي أسلم تسلم» فقلت: إني من أهل دين، قال: «أنا أعلم بدينك منك»، فقلت أنت أعلم بديني مني؟ قال: «نعم ألت من الركوسية وأنت تأكل مربع قومك؟» قلت بلى! قال: «فإن هذا لا يحل لك في دينك» قال: فلم يعد أن قالها فتواضعت لها، قال: «أما إني أعلم ما الذي يمنعك من الإسلام، تقول إنما اتبعه ضعفة الناس ومن لا قوة له، وقد رمهم العرب، أتعرف الحيرة؟» قلت: لم أرها وقد سمعت بها. قال: «فوالذي نفسي بيده ليرتد الله هذا الأمر حتى تخرج الظعينة من الحيرة حتى تطوف بالبيت من غير جوار أحد، ولتفتحن كنوز كسرى بن هرمز» قلت كسرى بن هرمز؟ قال: «نعم كسرى بن هرمز، وليبذلن المال حتى لا يقبله أحد». قال عدي بن حاتم: فهذه الظعينة تخرج من الحيرة فتطوف بالبيت من غير جوار أحد، ولقد كنت فيمن فتح كنوز كسرى بن هرمز، والذي نفسي بيده لتكونن الثالثة، لأن رسول الله ﷺ قد قالها^(٢). وعن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يذهب الليل والنهار حتى تعبد اللات والعزى» فقلت: يا رسول الله إن كنت لأظن حين أنزل الله عز وجل: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ﴾ الآية، أن ذلك تام، قال: «إنه سيكون من ذلك ما شاء الله عز وجل، ثم يبعث الله ريحاً طيبة، فيتوفى كل من كان في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان، فيبقى من لا خير فيه فيرجعون إلى دين آبائهم»^(٣).

* يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن كَثِيرًا مِّنَ الْأَجْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لِيَآكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْتَنُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُجْمَعُ عَلَيْهِمْ فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَيُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٥﴾

قال السدي: الأجبار من اليهود، والرهبان من النصارى، وهو كما قال، فإن الأجبار هم علماء اليهود كما قال تعالى: ﴿لولا ينهاهم الرابانيون والأجبار عن قولهم الإثم وأكلهم السحت﴾ والرهبان: عباد النصارى، والقسيسون: علماءهم، كما قال تعالى: ﴿ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً﴾ والمقصود التحذير من علماء السوء وعباد الضلال، قال سفيان بن عيينة: من فسد من علمائنا كان فيه شبه من اليهود، ومن فسد من عبادنا كان فيه شبه من النصارى، وفي الحديث الصحيح: «لتركن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة» قالوا: اليهود والنصارى؟ قال: «فن؟»، وفي رواية فارس والروم؟ قال: «فن الناس إلا هؤلاء؟». والحاصل التحذير من التشبه بهم في أقوالهم وأحوالهم، ولهذا قال تعالى: ﴿ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصلون عن سبيل الله﴾، وذلك أنهم يأكلون الدنيا بالدين،

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند . (٢) أخرجه أحمد في المسند . (٣) رواه مسلم في صحيحه .

ومناصبهم ورياستهم في الناس يأكلون أموالهم بذلك، كما كان لأخبار اليهود على أهل الجاهلية خراج وهدايا وضرائب تحييهم، فلما بعث الله رسوله ﷺ استمروا على ضلالهم وكفرهم وعنادهم طمعاً منهم أن تبقى لهم تلك الرياسات، فأطفأها الله بنور النبوة وسلبهم إياها، وعوضهم الذل والصغار، وباؤوا بغضب من الله تعالى. وقوله تعالى: ﴿ويصدون عن سبيل الله﴾ أي وهم مع أكلهم الحرام، يصدون الناس عن اتباع الحق، ويلبسون الحق بالباطل، ويظهرون لمن اتبعهم من الجهلة أنهم يدعون إلى الخير وليسوا كما يزعمون، بل هم دعاة إلى النار ويوم القيامة لا ينصرون، وقوله: ﴿والذين يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله﴾ الآية، هؤلاء هم القسم الثالث من رؤوس الناس، فإن الناس عالة على العلماء وعلى العباد، وعلى أرباب الأموال، فإذا فسدت أحوال هؤلاء فسدت أحوال الناس كما قال ابن المبارك:

وهل أفسد الدين إلا الملوك وأجبار سوء ورهبانها

وأما الكنز، فقال ابن عمر: هو المال الذي لا تؤدى زكاته، وعنه قال: ما أدي زكاته فليس بكنز، وإن كان تحت سبع أرضين، وما كان ظاهراً لا تؤدى زكاته فهو كنز^(١)، وقال عمر بن الخطاب: أيما مال أديت زكاته فليس بكنز وإن كان مدفوناً في الأرض، وأيما مال لم تؤد زكاته فهو كنز يكوى به صاحبه وإن كان على وجه الأرض. وروى البخاري عن خالد بن أسلم قال خرجنا مع عبد الله بن عمر فقال: هذا قبل أن تنزل الزكاة، فلما نزلت جعلها الله طهرة للأموال، وكذا قال عمر بن عبد العزيز وعراك بن مالك نسخها قوله تعالى: ﴿خذ من أموالهم صدقة﴾ الآية.

قال الإمام أحمد عن ثوبان قال: لما نزل في الذهب والفضة ما نزل قالوا: فأبي المال نتخذ؟ قال عمر: فأننا أعلم لكم ذلك، فأوضع على بعير فأدركه وأنا في أثره، فقال: يا رسول الله أي المال نتخذ؟ قال: «قلباً شاكراً ولساناً ذاكراً وزوجة تعين أحدكم على أمر الآخرة». (حديث آخر): روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿والذين يكتزون الذهب والفضة﴾ الآية، كبر ذلك على المسلمين وقالوا: ما يستطيع أحد منا يدع لولده ما لا يبقى بعده، فقال عمر: أنا أفرج عنكم، فانطلق عمر واتبعه ثوبان فأتى النبي ﷺ فقال: يا نبي الله إنه قد كبر على أصحابك هذه الآية، فقال رسول الله ﷺ: «إن الله لم يفرض الزكاة إلا ليطيب بها ما بقي من أموالكم، وإنما فرض الموارث من أموال تبقى بعدكم»، قال فكبر عمر، ثم قال له النبي ﷺ: «ألا أخبرك بخير ما يكثر المرء؟ المرأة الصالحة التي إذا نظر إليها سرته، وإذا أمرها أطاعته، وإذا غاب عنها حفظته»^(٢)

وقوله تعالى: ﴿يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكتزون﴾ أي يقال لهم هذا الكلام تبيكياً وتقريعاً وتهكماً، كما في قوله تعالى: ﴿ذوق إنك أنت العزيز الكريم﴾ أي هذا بذاك وهذا الذي كنتم تكتزون لأنفسكم، ولهذا يقال من أحب شيئاً وقدمه على طاعة

(١) وروي هذا عن ابن عباس وجابر وأبي هريرة وغيرهم.

(٢) رواه أحمد وأبو داود والحاكم في المستدرک وقال: صحيح على شرطهما ولم يخرجاه.

الله عُدِّبَ به، وهؤلاء لما كان جمع هذه الأموال آثر عندهم من رضا الله عنهم عذبوا بها، وكانت أضر الأشياء عليهم في الدار الآخرة، فيحتمى عليها في نار جهنم، وناهيك بحرهما، فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم، قال عبد الله بن مسعود: والذي لا إله غيره لا يكوى عبد يكثر فيمس ديناراً ديناراً ولا درهم درهماً، ولكن يوسع جلده فيوضع كل دينار ودرهم على حذته؛ وقال طاووس: بلغني أن الكثر يتحول يوم القيامة شجاعاً يتبع صاحبه وهو يفر منه ويقول: أنا كترك لا يدرك منه شيئاً إلا أخذه. وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: « ما من رجل لا يؤدي زكاة ماله إلا جعل له يوم القيامة صفائح من نار، فيكوى بها جنبه وجبهته وظهره، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، حتى يقضى بين العباد ثم يرى سبيله، إما إلى الجنة وإما إلى النار » .

إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حَرَمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾

عن أبي بكر أن النبي ﷺ خطب في حجته فقال: « ألا إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، السنة اثنا عشر شهراً منها أربعة حرم، ثلاثة متواليات ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان »^(١) الحديث. وعن ابن عمر قال: خطب رسول الله ﷺ في حجة الوداع بمنى في أوسط أيام التشريق فقال: « أيها الناس إن الزمان قد استدار فهو اليوم كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً منها أربعة حرم أولهن رجب مضر بين جمادى وشعبان، وذو القعدة وذو الحجة والمحرم »^(٢). وقال سعيد بن منصور عن ابن عباس في قوله: ﴿ منها أربعة حرم ﴾ قال: محرم ورجب وذو القعدة وذو الحجة، وقوله ﷺ في الحديث: « إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض » تقرير منه صلوات الله وسلامه عليه، وتثبيت للأمر على ما جعله الله في أول الأمر من غير تقديم ولا تأخير ولا زيادة ولا نقص، ولا نسيء ولا تبديل، كما قال في تحريم مكة: « إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض فهو حرام بحرمه الله تعالى إلى يوم القيامة »، وهكذا قال ههنا: « إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض » أي الأمر اليوم شرعاً كما ابتدع الله ذلك في كتابه يوم خلق السموات والأرض، وقد قال بعض المفسرين والمتكلمين على هذا الحديث إن المراد بقوله: « قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض » أنه اتفق أن حج رسول الله ﷺ في تلك السنة في ذي الحجة، وأن العرب قد كانت نسأت النسيء يحجون في كثير من السنين بل أكثرها في غير ذي الحجة، وزعموا أن حجة الصديق في سنة تسع كانت في ذي القعدة، وفي هذا نظر، كما سنبينه إذا تكلمنا على النسيء .

(١) رواه الإمام أحمد وأخرجه البخاري في التفسير بتامه .

(٢) أخرجه ابن جرير وابن مردويه .

وقوله تعالى: ﴿منها أربعة حرم﴾ فهذا مما كانت العرب أيضاً في الجاهلية تحرمه، وهو الذي كان عليه جمهورهم وأما قوله ﷺ: «ثلاثة متواليات ذو القعدة وذو الحجة والحرم ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان» وإنما أضافه إلى مضر ليين صحة قولهم في رجب أنه الشهر الذي بين جمادى وشعبان، لا كما تظنه ربيعة من أن رجب الحرم هو الشهر الذي بين شعبان وشوال وهو رمضان اليوم، فبين ﷺ أنه رجب مضر لا رجب ربيعة؛ وإنما كانت الأشهر المحرمة أربعة: ثلاثة سرد، وواحد فرد، لأجل أداء مناسك الحج والعمرة، فحرم قبل أشهر الحج شهراً وهو ذو القعدة، لأنهم يفعلون فيه عن القتال، وحرم شهر ذي الحجة لأنهم يوقعون فيه الحج ويشغلون فيه بأداء المناسك، وحرم بعده شهر آخر وهو المحرم ليرجعوا فيه إلى أقصى بلادهم آمين، وحرم رجب في وسط الحول لأجل زيارة البيت والاعتماد به لمن يقدم إليه من أقصى جزيرة العرب فيزوره ثم يعود إلى وطنه فيه آمناً، وقوله: ﴿ذلك الدين القيم﴾ أي هذا هو الشرع المستقيم من امتثال أمر الله فيما جعل من الأشهر الحرم والحذو بها على ما سبق في كتاب الله الأول، قال تعالى: ﴿فلا تظلموا فيهن أنفسكم﴾ أي في هذه الأشهر المحرمة لأنها آكد وأبلغ في الإثم من غيرها، كما أن المعاصي في البلد الحرام تضاعف، لقوله تعالى: ﴿ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم﴾، وكذلك الشهر الحرام تغلظ فيه الآثام؛ ولهذا تغلظ فيه الدية في مذهب الشافعي وطائفة كثيرة من العلماء، وقال ابن عباس في قوله: ﴿فلا تظلموا فيهن أنفسكم﴾ قال في الشهور كلها، ثم اختص من ذلك أربعة أشهر، فجعلهن حراماً وعظم حرمتهن، وجعل الذنب فيهن أعظم والعمل الصالح والأجر أعظم، وقال قتادة: إن الظلم في الأشهر الحرم أعظم خطيئة ووزراً من الظلم فيما سواها، وإن كان الظلم على كل حال عظيماً، ولكن الله يعظم من أمره ما يشاء، وقال: إن الله اصطفى صفايا من خلقه، اصطفى من الملائكة رسلاً ومن الناس رسلاً واصطفى من الكلام ذكره، واصطفى من الأرض المساجد، واصطفى من الشهور رمضان والأشهر الحرم، واصطفى من الأيام يوم الجمعة، واصطفى من الليالي ليلة القدر فعظموا ما عظم الله، فإنما تعظيم الأمور بما عظمها الله به عند أهل الفهم وأهل العقل، وقال محمد بن إسحاق: ﴿فلا تظلموا فيهن أنفسكم﴾ أي لا تجعلوا حرامها حلالاً ولا حلالها حراماً كما فعل أهل الشرك، وهذا القول اختيار ابن جرير، وقوله: ﴿وقاتلوا المشركين كافة﴾ أي جميعكم ﴿كما يقاتلونكم كافة﴾ أي جميعاً ﴿واعلموا أن الله مع المتقين﴾.

وقد اختلف العلماء في تحريم ابتداء القتال في الشهر الحرام هل هو منسوخ أو محكم على قولين: (أحدهما) وهو الأشهر أنه منسوخ لأنه تعالى قال: ﴿فلا تظلموا فيهن أنفسكم﴾ وأمر بقتال المشركين، وظاهر السياق مشعر بأنه أمر بذلك أمراً عاماً، ولو كان محرماً في الشهر الحرام لأوشك أن يقيده بانسلاخها، ولأن رسول الله ﷺ حاصر أهل الطائف في شهر حرام وهو ذو القعدة، كما ثبت في الصحيحين أنه خرج إلى هوازن في شوال فلما كسروهم واستفأ أموالهم ورجع فلهم لجأوا إلى الطائف فعمد إلى الطائف، فحاصروهم أربعين يوماً وانصرف ولم يفتتحها، فثبت أنه حاصر في الشهر الحرام (القول الآخر): أن ابتداء القتال في الشهر الحرام حرام وأنه لم ينسخ تحريم الشهر الحرام، لقوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله ولا الشهر الحرام﴾، وقال: ﴿الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص﴾، وقال: ﴿فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين﴾ الآية، وأما في قوله: ﴿وقاتلوا المشركين كافة﴾ كما يقاتلونكم كافة ﴿فيحتمل أنه منقطع عما قبله وأنه حكم مستأنف ويكون من باب

التبييع والتخصيض، أي كما يجتمعون لحربكم إذا حاربوكم فاجتمعوا أتم أيضاً لهم إذا حاربتموهم وقتلوهم بنظير ما يفعلون، ويحتمل أنه أذن للمؤمنين بقتال المشركين في الشهر الحرام إذا كانت البداءة منهم، كما قال تعالى: ﴿الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص﴾، وقال تعالى: ﴿ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهم﴾ الآية، وهكذا الجواب عن حصار رسول الله ﷺ أهل الطائف واستصحابه الحصار إلى أن دخل الشهر الحرام، فإنه من تمة قتال هوازن وأحلافها من ثقيف فإنهم هم الذين ابتدأوا القتال وجمعوا الرجال ودعوا إلى الحرب والتزال، فعندها قصدهم رسول الله ﷺ كما تقدم، فلما تحصنوا بالطائف ذهب إليهم لينزلهم من حصونهم فنالوا من المسلمين وقتلوا جماعة، واستمر الحصار بالمجانيق وغيرها قريباً من أربعين يوماً وكان ابتداءه في شهر حلال، ودخل الشهر الحرام فاستمر فيه أياماً ثم قفل عنهم لأنه يغتفر في الدوام ما لا يغتفر في الابتداء، وهذا أمر مقرر وله نظائر كثيرة والله أعلم.

إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُؤَاطِعُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زَيْنٌ لَهُمْ سُوءٌ أَعْمَلِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٧﴾

هذا مما ذم الله تعالى به المشركين من تصرفهم في شرع الله بأرائهم الفاسدة، وتحليلهم ما حرم الله وتحريمهم ما أحل الله، فإنهم كان فيهم من القوة والعصية ما استطالوا به مدة الأشهر الثلاثة في التحريم، المانع لهم من قتال أعدائهم، فكانوا قد أحدثوا قبل الإسلام بمدة تحليل المحرم فأخروه إلى صفر، فيحلون الشهر الحرام، ويحرمون الشهر الحلال، ليؤاطعوا عدة ما حرم الله. قال ابن عباس: النسيء أن جنادة الكناني كان يوافي الموسم في كل عام، وكان يكنى أبا ثمامة، فينادي: ألا إن أبا ثمامة لا يجاب ولا يعاب، ألا وإن صفر العام الأول العام حلال فيحله للناس، فيحرم صفرًا عامًا، ويحرم المحرم عامًا، فذلك قول الله: ﴿إنما النسيء زيادة في الكفر﴾ يقول: يتركون عامًا وعامًا يحرمونه. وعن مجاهد: كان رجل من بني كنانة يأتي كل عام إلى الموسم على حمار له فيقول أيها الناس: إني لا أعاب ولا أجاب ولا مرد لما أقول، إنا قد حررنا المحرم وأخرنا صفر؛ ثم يجيء العام المقبل بعده، فيقول مثل مقالته، ويقول: إنا قد حررنا صفر وأخرنا المحرم، فهو قوله: ﴿ليؤاطعوا عدة ما حرم الله﴾ قال: يعني الأربعة فيحلوا ما حرم الله بتأخير هذا الشهر الحرام، فإنهم لما كانوا يحلون شهر المحرم عامًا يحرمون عوضه صفرًا وبعده ربيع وربيع إلى آخر السنة بحالها على نظامها وعدتها وأسماء شهورها، ثم في السنة الثانية يحرمون المحرم ويتركونه على تحريمه وبعده صفر وربيع وربيع إلى آخرها فيحلونه عامًا ويحرمونه عامًا ﴿ليؤاطعوا عدة ما حرم الله فيحلوا ما حرم الله﴾: أي في تحريم أربعة أشهر من السنة، إلا أنهم تارة يقدمون تحريم الشهر الثالث من الثلاثة المتوالية وهو المحرم، وتارة ينسئون إلى صفر أي يؤخرونه، وقد قدمنا الكلام على قوله ﷺ: «إن الزمان قد استدار» الحديث: أي إن الأمر في عدة الشهور، وتحريم ما هو محرم منها، على ما سبق في كتاب الله من العدد والتوالي، لا كما تعتمده جهلة العرب من فصلهم تحريم بعضها بالنسيء عن بعض والله أعلم. وقال محمد بن إسحاق: كان أول من نسأ الشهور على العرب فأحل منها ما حرم الله وحرم منها ما أحل الله عز وجل (القلمس)، ثم قام بعده على ذلك ابنه عباد، ثم من بعد عباد ابنه قلع بن عباد، ثم ابنه أمية بن قلع، ثم ابنه

عوف بن أمية، ثم ابنه أبو ثمامة جنادة بن عوف، وكان آخرهم، وعليه قام الإسلام، فكانت العرب إذا فرغت من حجها اجتمعت إليه، فقام فيهم خطيباً، فحرم رجباً وذا القعدة وذا الحجة، ويحل المحرم عاماً، ويجعل مكانه صفر، ويحرمه عاماً ليواطيء عدة ما حرم الله فيحل ما حرم الله ويحرم ما أحل الله، والله أعلم^(١).

يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنَا قُلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ ۖ فَمَا مَتَعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبَدِلَ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّهُ شَيْئًا ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾

هذا شروع في عتاب من تخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك حين طابت الثمار والظلال في شدة الحر وحمارة القيظ، فقال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا مالكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله﴾ أي إذا دعيتم إلى الجهاد في سبيل الله ﴿أنا قلتم إلى الأرض﴾: أي تكاسلتم وملتم إلى المقام في الدعة والخفض وطيب الثمار ﴿أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة﴾؟ أي مالكم فعلتم هكذا رضىً منكم بالدنيا بدلاً من الآخرة؛ ثم زهدٌ تبارك وتعالى في الدنيا، ورغبٌ في الآخرة فقال: ﴿فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل﴾، كما قال رسول الله ﷺ: «ما الدنيا في الآخرة إلا كما يجعل أحدهم أصبعه هذه في اليم فلينظر بما ترجع»، وأشار بالسبابة^(٢). وقال الأعمش ﴿فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل﴾ قال: كزاد الراكب، وقال عبد العزيز بن أبي حازم عن أبيه: لما حضرت عبد العزيز بن مروان الوفاة، قال: ائتوني بكفني الذي أكفن فيه أنظر إليه، فلما وضع بين يديه نظر إليه فقال: أما لي من كبير ما أحلف من الدنيا إلا هذا؟ ثم ولى ظهره فبكى، وهو يقول: أف لك من دار إن كان كثير لقليل، وإن كان قليلك لقصير، وإن كنا منك لني غرور. ثم تواعد تعالى من ترك الجهاد فقال: ﴿إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً﴾ قال ابن عباس: استنفر رسول الله ﷺ حياً من العرب فتناقلوا عنه فأمسك الله عنهم القطر فكان عذابهم ﴿ويستبدل قوماً غيركم﴾: أي لنصرة نبيه وإقامة دينه كما قال تعالى: ﴿وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم﴾ ثم لا يكونوا أمثالكم ﴿ولا تضروه شيئاً﴾: أي ولا تضروا الله شيئاً بتوليكم عن الجهاد، ونكولكم وتناقلكم عنه ﴿والله على كل شيء قدير﴾ أي قادر على الانتصار من الأعداء بولونكم.

إِلَّا تَنْفِرُوا فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ۗ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾

(١) أخرج ابن جرير: كانوا يجعلون السنة ثلاثة عشر شهراً، فيجعلون المحرم صفرأ، فيستحلون فيه المحرمات، فأنزل الله ﴿إنما النسيء...﴾ الآية.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه والإمام أحمد في المسند.

يقول تعالى: ﴿إِلا تَنْصُرُوهُ﴾ أي تنصروا رسوله فإن الله ناصره ومؤيده وكافيه وحافظه كما تولى نصره ﴿إِذ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِي اثْنَيْنِ﴾ أي عام الهجرة، لما هم المشركون بقتله، فخرج منهم هارياً صحبة صديقه وصاحبه أبي بكر، فلجأ إلى (غار ثور) ثلاثة أيام ليرجع الطلب الذين خرجوا في آثارهم ثم يسيروا نحو المدينة، فجعل أبو بكر رضي الله يجزع أن يطلع عليهم أحد، فيخلص إلى الرسول عليه الصلاة والسلام منهم أذى، فجعل النبي ﷺ يسكنه ويثبته ويقول: «يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما». كما قال الإمام أحمد عن أنس أن أبا بكر حدثه قال: قلت للنبي ﷺ ونحن في الغار: لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لأبصرنا تحت قدميه قال، فقال: «يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما»^(١)، ولهذا قال تعالى: ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ﴾ أي تأييده ونصره عليه، أي على الرسول ﷺ^(٢)، وقيل: على أبي بكر، لأن الرسول ﷺ لم تزل معه سكينته، ﴿وَأَيْدِيَهُمْ يُجَنِّدُ لَمْ تَرَوْهَا﴾: أي الملائكة ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةَ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا﴾ قال ابن عباس: يعني بكلمة الذين كفروا - الشرك، وكلمة الله هي ﴿لَا إِلَهَ إِلا اللَّهُ﴾. وفي الصحيحين: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله»، وقوله: ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾ أي في انتقامه وانتصاره، منيع الجانب لا يضام من لاذ بيبابه، واحتسى بالتمسك بخطابه، ﴿حَكِيمٌ﴾ في أقواله وأفعاله.

أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾

أمر الله تعالى بالنفير العام مع رسول الله ﷺ عام غزوة تبوك لقتال أعداء الله من الروم الكفرة من أهل الكتاب، وحتم على المؤمنين في الخروج معه على كل حال في المشط والمكره والعسر واليسر، فقال: ﴿انفروا خفافاً وثقالاً﴾ وقال أبو طلحة: كهولاً وشباناً^(٣) ما سمع الله عذر أحد، ثم خرج إلى الشام، فقاتل حتى قتل. وفي رواية: قرأ أبو طلحة سورة براءة فأتى على هذه الآية: ﴿انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله﴾ فقال: أرى ربنا استفتنا شيوخاً وشباناً، جهزوني يا نبي، فقال بنوه: يرحمك الله قد غزوت مع رسول الله ﷺ حتى مات، ومع أبي بكر حتى مات، ومع عمر حتى مات، فنحن نغزو عنك، فأبى، فركب البحر، فمات، فلم يجدوا له جزيرة يدفونه فيها إلا بعد تسعة أيام، فلم يتغير دفنونه فيها. وقال مجاهد: شباناً وشيوخاً وأغنياء ومساكين، وقال الحكم: مشاغيل وغير مشاغيل، وقال العوفي عن ابن عباس ﴿انفروا خفافاً وثقالاً﴾ يقول: انفروا نشاطاً وغير نشاط؛ وقال الحسن البصري: في العسر واليسر. وهذا كله من مقتضيات العموم في الآية، وهذا اختيار ابن جرير. وقال الإمام الأوزاعي: إذا كان النفير إلى دروب الروم نفر الناس إليها خفافاً وركباناً، وإذا كان النفير إلى هذه السواحل نفروا إليها خفافاً وثقالاً وركباناً ومشاة؛ وهذا تفصيل في المسألة؛ وقال السدي قوله ﴿انفروا خفافاً وثقالاً﴾ يقول: غنياً وفقيراً وقويماً وضعيفاً فجاءه رجل يومئذ زعموا أنه المقداد وكان عظيماً سميناً، فشكا إليه،

(١) أخرجه الشيخان عن أنس بن مالك رضي الله عنه .

(٢) في الأشهر وروي عن ابن عباس وغيره أن الضمير يعود على (أبي بكر) لأن الرسول ﷺ لم تزل معه سكينته قال ابن كثير: وهذا لا ينافي بتجدد سكينته خاصة .

(٣) قال ابن عباس والحسن البصري وعكرمة ومقاتل والضحاك وغير واحد ﴿انفروا خفافاً وثقالاً﴾ أي شباناً وكهولاً .

وسأله أن يأذن له فأبى، فزلت يومئذ: ﴿انفروا خفافاً وثقلاً﴾ فلما نزلت هذه الآية اشتد على الناس، فنسخها الله فقال: ﴿ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج إذا نصحوا الله ورسوله﴾ .

وقال ابن جرير عن أبي راشد الحرائي قال: وافيت (المقداد بن الأسود) فارس رسول الله ﷺ جالساً على تابوت من توابيت الصيارفة بحمص وقد فصل عنها من عظمه يريد الغزو، فقلت له: قد أعذر الله إليك، فقال: أتت علينا سورة البعوث: ﴿انفروا خفافاً وثقلاً﴾، وقال ابن جرير عن حبان بن زيد الشرعي قال: نفرنا مع (صفوان بن عمرو) وكان والياً على حمص، فرأيت شيخاً كبيراً قد سقط حاجباه على عينيه من أهل دمشق على راحلته فيمن أغار فأقبلت إليه فقلت: يا عم لقد أعذر الله إليك، قال: فرفع حاجبيه، فقال: يا ابن أخي استنفرنا الله خفافاً وثقلاً، إلا إنه من يحبه الله يبتليه ثم يعيده الله فيقبه، وإنما يبتلي الله من عباده من شكر وصبر وذكر، ولم يعبد إلا الله عز وجل. ثم رغب تعالى في النفقة في سبيله وبذل المهج في مرضاته ومرضاة رسوله، فقال: ﴿وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون﴾ أي هذا خير لكم في الدنيا والآخرة، لأنكم تفرمون في النفقة قليلاً، فيغنمكم الله أموال عدوكم في الدنيا مع ما يدخر لكم من الكرامة في الآخرة، كما قال النبي ﷺ: «تكفل الله للمجاهد في سبيله إن توفاه أن يدخله الجنة، أو يرده إلى منزله بما نال من أجر أو غنيمة»، ولهذا قال الله تعالى: ﴿كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم﴾ الآية، ومن هذا القبيل ما رواه الإمام أحمد عن أنس عن رسول الله ﷺ قال لرجل: «أسلم» قال أجدني كارهاً، قال: «أسلم وإن كنت كارهاً» .

لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعَدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا

خُرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٤٣﴾

يقول تعالى موجهاً للذين تخلفوا عن النبي ﷺ في غزوة تبوك وقعدوا بعدما أستاذنوه في ذلك، مظهرين أنهم ذوو أعدار ولم يكونوا كذلك، فقال: ﴿لو كان عرضاً قريباً﴾ قال ابن عباس: غنيمة قريبة ﴿وسفراً قاصداً﴾ أي قريباً أيضاً ﴿لاتبعوك﴾: أي لكانوا جاءوا معك لذلك ﴿ولكن بعدت عليهم الشقة﴾: أي المسافة إلى الشام ﴿وسيحلفون بالله﴾: أي لكم إذا رجعت إليهم ﴿لو استطعنا لخرجنا معكم﴾: أي لو لم يكن لنا أعدار لخرجنا معكم، قال الله تعالى: ﴿يهلكون أنفسهم والله يعلم إنهم لكاذبون﴾ .

عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ حَتَّى يَتَّبِعَنَّ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ﴿٤٤﴾ لَا يَسْتَعْدِنُكَ الَّذِينَ يُوْمِنُونَ

بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿٤٥﴾ إِنَّمَا يَسْتَعْدِنُكَ الَّذِينَ لَا

يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَآرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾

قال عون: هل سمعت بمعاتبه أحسن من هذا؟ ناداه بالعفو قبل المعاتبه، فقال: ﴿عفا الله عنك لم أذنت

لهم ﴿١﴾ ، وقال قتادة: عاتبه كما تسمعون، ثم أنزل التي في سورة النور، فرخص له في أن يأذن لهم إن شاء، فقال: ﴿فإذا استأذنتك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم﴾ الآية. وقال مجاهد: نزلت هذه الآية في أناس قالوا: استأذنوا رسول الله ﷺ فإن أذن لكم فاقعدوا، وإن لم يأذن لكم فاقعدوا، ولهذا قال تعالى: ﴿حتى يتبين لك الذين صدقوا﴾ أي في إبداء الأعدار ﴿وتعلم الكاذبين﴾ يقول تعالى: هلا تركتهم لما استأذنتك فلم تأذن لأحد منهم في القعود، لتعلم الصادق منهم في إظهار طاعتك من الكاذب، فإنهم قد كانوا مصرين على القعود عن الغزو وإن لم تأذن لهم فيه، ولهذا أخبر تعالى أنه لا يستأذنه في القعود عن الغزو أحد يؤمن بالله ورسوله فقال: ﴿لا يستأذنتك﴾ أي في القعود عن الغزو ﴿الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم﴾ لأنهم يرون الجهاد قرينة ولما ندبهم إليه بادرُوا وامتثلوا ﴿والله عليم بالمتقين﴾ إنما يستأذنتك: أي في القعود ممن لا عذر له ﴿الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر﴾ أي لا يرجون ثواب الله في الدار الآخرة على أعمالهم، ﴿وارتابت قلوبهم﴾ أي شكت في صحة ما جتتهم به، ﴿فهم في ريبهم يترددون﴾: أي يتحIRON، يقدمون رجلاً ويؤخرون أخرى وليست لهم قدم ثابتة في شيء، فهم قوم حيارى هلكى، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، ومن يضل الله فلن يجد له سبيلاً.

* **وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنَّ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٤٦﴾**
لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَا أُضْعِفُوا خَلْلًا لَكُمْ بِيغْوَانِكُمْ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمْعُونُ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾

يقول تعالى: ﴿ولو أرادوا الخروج﴾ أي معك إلى الغزو ﴿لأعدوا له عدة﴾ أي لكانوا تأهبوا له ﴿ولكن كره الله انبعاثهم﴾ أي أبغض أن يخرجوا معك قدراً ﴿فثبطهم﴾ أي أخرهم، ﴿وقيل اقعدوا مع القاعدین﴾ أي قدراً، ثم بين تعالى وجه كراهيته لخروجهم مع المؤمنين، فقال: ﴿لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالاً﴾ أي لأنهم جنباء مخذولون ﴿ولأضعفوا خلالكم ببيغوانكم الفتنة﴾ أي وأسرعوا السير والمشى بينكم بالنميمة والبغضاء والفتنة، ﴿وفيكم سماعون لهم﴾ أي مطيعون لهم ومستحسنون لحديثهم وكلامهم يستنصحنونهم وإن كانوا لا يعلمون حالهم، فيؤدي إلى وقوع شر بين المؤمنين وفساد كبير. وقال مجاهد ﴿وفيكم سماعون لهم﴾: أي عيون يسمعون لهم الأخبار وينقلونها إليهم، وهذا لا يبقى له اختصاص بخروجهم معهم، بل هذا عام في جميع الأحوال، والمعنى الأول أظهر في المناسبة بالسياق، وإليه ذهب قتادة وغيره من المفسرين. وقال محمد بن إسحاق: كان الذين استأذنوا فيما بلغني من ذوي الشرف منهم (عبدالله بن أبي بن سلول) و (الجد بن قيس) وكانوا أشرفاً في قومهم فثبطهم الله لعلمه بهم أن يخرجوا معه فيفسدوا عليه جنده، وكان في جنده قوم أهل محبة لهم وطاعة فيما يدعونهم إليه لشرفهم فيهم، فقال: ﴿وفيكم سماعون لهم﴾، ثم أخبر تعالى عن تمام علمه فقال: ﴿والله عليم بالظالمين﴾،

(١) أخرج ابن جرير: اثنتان قبلهما رسول الله ﷺ لم يؤمر فيهما بشيء: إذنه للمناقين وأخذه الفداء من الأسارى فأنزل الله: ﴿عفا الله عنك﴾ الباب.

فأخبر بأنه يعلم ما كان وما يكون، ولهذا قال تعالى: ﴿لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالاً﴾ فأخبر عن حالهم كيف يكون لو خرجوا ومع هذا ما خرجوا، كما قال تعالى: ﴿ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه إلا قليل منهم ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيراً لهم وأشدّ تثبيتاً﴾ .

﴿ لَقَدْ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ ﴾ (٤٨)

يقول تعالى محرضاً لنبيه عليه السلام على المنافقين: ﴿لقد ابتغوا الفتنة من قبل وقلبوا لك الأمور﴾ أي لقد أعملوا فكرهم وأجالوا آراءهم في كيدك وكيد أصحابك وخذلان دينك وإخماده مدة طويلة، وذلك أول مقدم النبي ﷺ المدينة رمته العرب عن قوس واحدة، وحاربتة يهود المدينة ومناققوها، فلما نصره الله يوم بدر وأعلى كلمته، قال عبد الله بن أبي وأصحابه: هذا أمر قد توجه، فدخلوا في الإسلام ظاهراً، ثم كلما أعز الله الإسلام وأهله غاظهم ذلك وساءهم، ولهذا قال تعالى: ﴿حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون﴾ .

﴿ وَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ أَئِذْنَ لِي وَلَا تَفْتِنِي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾ (٤٩)

يقول تعالى: ومن المنافقين من يقول لك يا محمد ﴿ائذن لي﴾ في القعود، ﴿ولا تفتني﴾ بالخروج معك بسبب الجواري من نساء الروم، قال تعالى: ﴿ألا في الفتنة سقطوا﴾ أي قد سقطوا في الفتنة بقولهم هذا، كما قال رسول الله ﷺ ذات يوم وهو في جهازه (للجد بن قيس): «هل لك يا جد العام في جلاد بني الأصفر؟» فقال: يا رسول الله أو تأذن لي ولا تفتني، فوالله لقد عرف قومي ما رجل أشدّ عجباً بالنساء مني، وإني أخشى إن رأيت نساء بني الأصفر أن لا أصبر عنهن، فأعرض عنه رسول الله ﷺ وقال: «قد أذنت لك»، في الجد ابن قيس نزلت هذه: ﴿ومنهم من يقول ائذن لي ولا تفتني﴾ (١) الآية: أي إن كان إنما يخشى من نساء بني الأصفر، وليس ذلك به، فما سقط فيه من الفتنة لتخلفه عن رسول الله ﷺ والرغبة بنفسه عن نفسه أعظم، ﴿وإن جهنم لمحيطة بالكافرين﴾ أي لا محيد لهم عنها ولا محيص ولا مهرب .

﴿ إِنْ تُصَبِّكَ حَسَنَةً تَسُوهُمْ وَإِنْ تُصَبِّكَ مُصِيبَةً يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ ﴾ (٥٠) قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ (٥١)

يعلم تبارك وتعالى نبيه ﷺ بعداوة هؤلاء له لأنه مهما أصابه من حسنة، أي فتح ونصر وظفر على الأعداء مما يسره ويسر أصحابه ساءهم ذلك، ﴿وإن تصبك مصيبة يقولوا قد أخذنا أمرنا من قبل﴾ (٢) أي قد احترزنا

(١) أخرجه محمد بن إسحاق عن الزهري وهو مروى عن ابن عباس ومجاهد وغير واحد، وكان الجد بن قيس من أشرف بني سلمة .

(٢) في اللباب: أخرج ابن أبي حاتم: جعل المنافقون المتخلفون بالمدينة يخبرون عن النبي ﷺ أخبار السوء، ويقولون: إنه هو =

من متابعتة من قبل هذا، ﴿ ويتولوا وهم فرحون ﴾ فأرشد الله تعالى رسول الله ﷺ إلى جوابهم في عداوتهم هذه التامة، فقال ﴿ قل ﴾ أي لهم، ﴿ لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا ﴾ أي نحن تحت مشيئته وقدره، ﴿ هو مولانا ﴾ أي سيدنا وملجؤنا، ﴿ وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ أي ونحن متوكلون عليه وهو حسبنا ونعم الوكيل .

قُلْ هَلْ تَرَبُّونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنِ وَنَحْنُ نَرَبُّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾ قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّنْ يَتَّخِذَ مِنْكُمْ إِنكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقَبَّلَ مِنْهُمْ نَفَقَتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كَسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ ﴿٥٤﴾

يقول تعالى : ﴿ قل ﴾ لهم يا محمد، ﴿ هل تربصون بنا ﴾ أي تنتظرون بنا ﴿ إلا إحدى الحسينين ﴾ شهادة أو ظفر بكم، ﴿ ونحن تربص بكم ﴾ أي ننتظر بكم ﴿ أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا ﴾ أي ننتظر بكم هذا بسبي أو بقتل، ﴿ فتربصوا إنا معكم متربصون ﴾، وقوله تعالى : ﴿ قل أنفقوا طوعاً أو كرهاً ﴾^(١) أي مهما أنفقتم من نفقة طائعين أو مكرهين ﴿ لن يتقبل منكم إنكم كنتم قوماً فاسقين ﴾ ثم أخبر تعالى عن سبب ذلك وهو أنهم لا يتقبل منهم ﴿ لأنهم كفروا بالله وبرسوله ﴾ أي والأعمال إنما تصح بالإيمان، ﴿ ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى ﴾ أي ليس لهم قدم صحيح ولا همة في العمل، ﴿ ولا ينفقون ﴾ نفقة ﴿ إلا وهم كارهون ﴾، وقد أخبر الصادق المصدوق ﷺ : « أن الله لا يمل حتى تملا » و « أن الله طيب لا يقبل إلا طيباً »، فلهذا لا يقبل الله من هؤلاء نفقة ولا عملاً، لأنه إنما يتقبل من المتقين .

فَلَا تَعْجَبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَرْهَقَ أَنفُسَهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٥٥﴾

يقول تعالى لرسوله ﷺ : ﴿ فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم ﴾، كقوله تعالى : ﴿ ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا ﴾، وقوله : ﴿ إنما يريد الله ليُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ قال الحسن البصري : بزكاتها والنفقة منها في سبيل الله، وقال قتادة : هذا من المقدم والمؤخر تقديره : فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم في الحياة الدنيا إنما يريد الله ليُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْآخِرَةِ، واختار ابن جرير قول الحسن، وهو القول القوي الحسن، وقوله : ﴿ وتزهق أنفسهم وهم كافرون ﴾ أي ويريد أن يميتهم - حين يميتهم - على الكفر ليكون ذلك أنكى لهم وأشد لعذابهم؛ عياداً بالله من ذلك، وهذا يكون من باب الاستدراج لهم فيما هم فيه .

= وأصحابه ، فساءهم ذلك ، فأنزل الله : ﴿ إن تصبك حسنة ... ﴾ الآية .

(١) في اللباب : أخرج ابن جرير : قال الجدد بن قيس : إني رأيت لم أصبر ولكن أعينك بمالي، فنزلت فيه : ﴿ أنفقوا طوعاً أو كرهاً ... ﴾ الآية .

* وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرُقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغْرَبَاتٍ أَوْ مَدْخَلًا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾

يخبر تعالى نبيه محمداً ﷺ عن جزعهم وفرعهم وفرقهم وهلعهم أنهم ﴿يحلِفون بالله إنهم لمنكم﴾ بينما مؤكدة ﴿وما هم منكم﴾ أي في نفس الأمر، ﴿ولكنهم قوم يفرقون﴾ أي فهو الذي حملهم على الحلف، ﴿لو يجدون ملجأ﴾ أي حصناً يتحصنون به وحرزاً يتحرزون به، ﴿أو مغارات﴾ وهي التي في الجبال ﴿أو مدخلا﴾ وهو السرب في الأرض والنفق، ﴿لولوا إليه وهم يجمحون﴾ أي يسرعون في ذهابهم عنكم، لأنهم إنما يخالطونكم كرهاً لا محبة، ولهذا لا يزالون في هم وحزن وغم، لأن الإسلام وأهله لا يزال في عز ونصر ورفعة.

وَمِنْهُمْ مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴿٥٩﴾

يقول تعالى: ﴿ومنهم﴾ أي ومن المنافقين ﴿من يلمزك﴾ أي يعيب عليك ﴿في﴾ قسم ﴿الصدقات﴾ إذا فرقها، وبتهمك في ذلك، وهم المتهمون المأبونون، وهم مع هذا لا ينكرون للدين، وإنما ينكرون لحظ أنفسهم، ولهذا ﴿فإن أعطوا منها رضوا وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون﴾ أي يغضبون لأنفسهم، قال قتادة: ومنهم من يطعن عليك في الصدقات، وذكر لنا أن رجلاً من أهل البادية أتى النبي ﷺ وهو يقسم ذهباً وفضة، فقال: يا محمد! والله لئن كان الله أمرك أن تعدل ما عدلت، فقال نبي الله ﷺ: «ويلك فمن ذا الذي يعدل عليك بعدي؟»، وهذا الذي ذكره قتادة يشبه ما رواه الشيخان عن أبي سعيد في قصة (ذي الخويصرة) لما اعترض على النبي ﷺ حين قسم غنائم حنين، فقال له: اعدل، فإنك لم تعدل، فقال: «لقد خبت وخسرت إن لم أكن أعدل»، ثم قال رسول الله ﷺ وقد رآه مقفياً: «إنه يخرج من ضئضيء^(١) هذا قوم يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم يمرقون من الدين مروق السهم من الرمية، فأينا لقيتموهم فاقتلوهم، فإنهم شر قتلى تحت أديم السماء»، وذكر بقية الحديث. ثم قال تعالى منبهاً لهم على ما هو خير لهم من ذلك ﴿ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله وقالوا حسبنا الله سيؤتينا الله من فضله ورسوله إنا إلى الله راغبون﴾ فتضمنت هذه الآية الكريمة أدباً عظيماً وسراً شريفاً، حيث جعل الرضا بما آتاه الله ورسوله، والتوكل على الله وحده، في قوله ﴿وقالوا حسبنا الله﴾، وكذلك الرغبة إلى الله وحده، في التوفيق لطاعة الرسول ﷺ وامتثال أوامره وترك زواجه، وتصديق أخباره والاقتفاء بآثاره.

* إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغُرْمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾

(١) أي من أصله ومعدنه أو من نسله.

لما ذكر تعالى اعتراض المنافقين الجهلة على النبي ﷺ، ولمزهم إياه في قسم الصدقات، بين تعالى أنه هو الذي قسمها وبين حكمها وتولى أمرها بنفسه، ولم يكل قسمها إلى أحد غيره، فجزأها هؤلاء المذكورين، وقد اختلف العلماء في هذه الأصناف الثمانية، هل يجب استيعاب الدفع لها أو إلى ما أمكن منها؟ على قولين: (أحدهما) أنه يجب ذلك، وهو قول الشافعي وجماعة، (والثاني): أنه لا يجب استيعابها بل يجوز الدفع إلى واحد منها، وهو قول مالك وجماعة من السلف والخلف^(١). وقال ابن جرير: وهو قول عامة أهل العلم؛ وإنما قدم الفقهاء ههنا على البقية لأنهم أخرج من غيرهم على المشهور، ولشدة فاقتهم وحاجتهم، وعند أبي حنيفة: أن المسكين أسوأ حالاً من الفقير، وهو كما قال أحمد، قال عمر رضي الله عنه: الفقير ليس بالذي لا مال له، ولكن الفقير الأخلق الكسب؛ قال ابن علية: الأخلق المحارف عندنا والجمهور على خلافه، وروي عن ابن عباس ومجاهد والحسن البصري وابن زيد. واختار ابن جرير وغير واحد أن الفقير هو المتعفف الذي لا يسأل الناس شيئاً، والمسكين هو الذي يسأل ويطوف ويتبع الناس، وقال قتادة: الفقير من به زمانة، والمسكين الصحيح الجسم.

ولنذكر أحاديث تتعلق بكل من الأصناف الثمانية. فأما الفقراء فعن ابن عمر قال، قال رسول الله ﷺ: «لا تحل الصدقة لغني ولا لذي مِرَّةٍ سويٍّ»^(٢). وعن عبيد الله بن عدي بن الخيار أن رجلين أخبراه أنهما أتيا النبي ﷺ يسألانه من الصدقة فقلب فيهما البصر، فرآهما جلدتين، فقال: «إن شئنا أعطيتكما ولا حظَّ فيها لغني ولا لقوي مكتسب»^(٣)، وأما المساكين فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ليس المسكين بهذا الطواف الذي يطوف على الناس فترده اللقمة واللقمتان، والتمررة والتمرتان» قالوا: فما المسكين يا رسول الله؟ قال: «الذي لا يجد غني يغنيه، ولا يفظن له فيتصدق عليه ولا يسأل الناس شيئاً»^(٤). وأما العاملون عليها فهم الجباة والسعاة يستحقون منها قسطاً على ذلك، ولا يجوز أن يكونوا من أقرباء رسول الله ﷺ الذين تحرم عليهم الصدقة لما ثبت عن عبد المطلب بن الحارث أنه انطلق هو والفضل بن العباس يسألان رسول الله ﷺ ليستعملهما على الصدقة، فقال: «إن الصدقة لا تحل لمحمد ولا لآل محمد إنما هي أوساخ الناس»^(٥). وأما المؤلفعة قلوبهم فأقسام: منهم من يعطى ليسلم، كما أعطى النبي ﷺ (صفوان بن أمية) من غنائم حنين، وقد كان شهدها مشركاً، كما قال الإمام أحمد عن صفوان بن أمية قال: أعطاني رسول الله ﷺ يوم حنين وإنه لأبغض الناس إليّ، فما زال يعطيني حتى إنه لأحب الناس إليّ^(٦). ومنهم من يعطى ليحسن إسلامه ويثبت قلبه، كما أعطى يوم حنين أيضاً جماعة من صناديد الطلقاء وأشرافهم مائة من الإبل، مائة من الإبل، وقال: «إني لأعطي الرجل وغيره أحب إليّ منه خشية أن يكبه الله على وجهه في نار جهنم». وفي الصحيحين عن أبي سعيد: أن علياً بعث إلى النبي ﷺ

(١) منهم عمر وابن عباس وحذيفة وأبو العالية وسعيد بن جبير وميمون بن مهران وغيرهم .

(٢) رواه أحمد وأبو داود والترمذي .

(٣) رواه أحمد وأبو داود والنسائي بإسناد جيد قوي .

(٤) رواه الشيخان .

(٥) رواه مسلم .

(٦) رواه أحمد ومسلم والترمذي .

بذهبية في تربتها من اليمن فقسمها بين أربعة نفر: الأقرع بن حابس، وعيينة بن بدر، وعلقمة بن علاثة، وزيد الخير، وقال: «أتألفهم»، ومنهم من يعطى لما يرجى من إسلام نظرائه. ومنهم من يعطى ليجبي الصدقات ممن يليه، أو ليدفع عن حوزة المسلمين الضرر من أطراف البلاد.

وهل تعطى المؤلف على الإسلام بعد النبي ﷺ؟ فيه خلاف، فروي عن عمر وعامر والشعبي وجماعة أنهم لا يعطون بعده، لأن الله قد أعز الإسلام وأهله ومكن لهم في البلاد وأذل لهم رقاب العباد، وقال آخرون: بل يعطون لأنه عليه الصلاة والسلام قد أعطاهم بعد فتح مكة وكسر هوازن، وهذا أمر قد يحتاج إليه فيصرف إليهم. وأما الرقاب فروي عن الحسن البصري ومقاتل وسعيد بن جبير أنهم المكاتبون؛ وهو قول الشافعي والليث رضي الله عنهما، وقال ابن عباس والحسن لا بأس أن تعتق الرقبة من الزكاة، وهو مذهب أحمد ومالك أي أن الرقاب أعم من أن يعطى المكاتب أو يشتري رقبة فيعتقها استقلالاً؛ وفي الحديث: «ثلاثة حق على الله عونهم: الغازي في سبيل الله، والمكاتب الذي يريد الأداء، والناكح الذي يريد العفاف»^(١). وفي المسند عن البراء بن عازب قال: جاء رجل فقال: يا رسول الله دلي على عمل يقربني من الجنة ويباعدني من النار، فقال: «أعتق النسمة وفك الرقبة»، فقال: يا رسول الله أو ليس واحداً؟ قال: «لا، عتق النسمة أن تفرد بعتقها، وفك الرقبة أن تعين في ثمنها»^(٢). وأما الغارمون فهم أقسام: فمنهم من تحمل حمالة أو ضمن ديناً فلزمه فأجحف بماله أو غرم في أداء دينه أو في معصية ثم تاب فهؤلاء يدفع إليهم، لما روي عن أبي سعيد قال: أصيب رجل في عهد رسول الله ﷺ في ثمار ابتاعها فكثر دينه، فقال النبي ﷺ: «تصدقوا عليه»، فتصدق الناس عليه فلم يبلغ ذلك وفاء دينه، فقال النبي ﷺ لغرمائه: «خذوا ما وجدتم وليس لكم إلا ذلك»^(٣). وأما ﴿ في سبيل الله ﴾ فمنهم الغزاة الذين لا حق لهم في الديوان. وعند الحسن: والحج من سبيل الله وكذلك ﴿ ابن السبيل ﴾ وهو المسافر المجتاز في بلد ليس معه شيء يستعين به على سفره، فيعطى من الصدقات ما يكفيه إلى بلده وإن كان له مال، لحديث أبي سعيد الخدري قال، قال رسول الله ﷺ: «لا تحل الصدقة لغني إلا في سبيل الله، وابن السبيل، أو جار فقير فيهدي لك أو يدعوك»^(٤). وقوله: ﴿ فريضة من الله ﴾ أي حكماً مقدراً بتقدير الله وفرضه وقسمه ﴿ والله عليم حكيم ﴾: أي عليم بظواهر الأمور وبواطنها وبمصالح عباده، ﴿ حكيم ﴾ فيما يقوله ويفعله ويشعره ويحكم به لا إله إلا هو ولا رب سواه.

وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنٌ خَيْرٌ لَكَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾

(٤) رواه أبو داود عن أبي سعيد الخدري .

(١) رواه أحمد وأصحاب السنن إلا أبا داود .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند .

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه .

يقول تعالى: ومن المنافقين قوم يؤذون رسول الله ﷺ بالكلام فيه^(١) ويقولون ﴿هو أذن﴾ أي من قال له شيئاً صدقه فينا، ومن حدّثه صدقه، فإذا جئناه وحلفنا له صدقنا، قال الله تعالى: ﴿قل أذن خير لكم﴾ أي هو أذن خير يعرف الصادق من الكاذب، ﴿يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين﴾ أي ويصدق المؤمنين، ﴿ورحمة للذين آمنوا منكم﴾ أي وهو حجة على الكافرين، ولهذا قال: ﴿والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب أليم﴾.

يُحْفُونَ بِاللَّهِ لَكُم لِيَرْضَوْكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مِنْ مُحَادِدِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ فَأَنْ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَلِكَ أَخْزَى الْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾

قال قتادة: ذكر لنا أن رجلاً من المنافقين قال: والله إن هؤلاء لخيارنا وأشرافنا، وإن كان ما يقول محمد حقاً، لهم شر من الحمير، قال: فسمعها رجل من المسلمين فقال: والله إن ما يقول محمد لحق، ولأنت أشر من الحمار، قال: فسعى بها الرجل إلى النبي ﷺ، فأخبره فأرسل إلى الرجل فدعاه فقال: «ما حملك على الذي قلت؟» فجعل يلتعن ويحلف بالله ما قال ذلك، وجعل الرجل المسلم يقول: اللهم صدق الصادق وكذب الكاذب، فأنزل الله الآية، وقوله تعالى: ﴿ألم يعلموا أنه من يحادد الله ورسوله﴾ أي ألم يتحققوا ويعلموا أنه من حادّ الله عزّ وجلّ أي شاقه وحاربه وخالفه ﴿فأن له نار جهنم خالداً فيها﴾ أي مهاناً معذباً، و﴿ذلك الخزي العظيم﴾ أي وهذا هو الذل العظيم والشقاء الكبير.

يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تَنْزَلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَزِرُّوْا إِنَّا اللَّهُ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾

قال مجاهد: يقولون القول بينهم، ثم يقولون عسى الله أن لا يفشي علينا سرنا هذا، وهذه الآية شبيهة بقوله تعالى: ﴿وإذا جاؤوك حيوك بما لم يحيك به الله ويقولون في أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول حسبهم جهنم يصلونها فبئس المصير﴾، وقال في هذه الآية: ﴿قل استزرتوا إن الله مخرج ما تحذرون﴾ أي إن الله سينزل على رسوله ما يفضحكم به ويبين له أمركم، كقوله تعالى: ﴿أم حسب الذين في قلوبهم مرض أن لن يخرج الله أضغانهم﴾، ولهذا قال قتادة: كانت تسمى هذه السورة الفاضحة فضحت المنافقين.

وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَدِرُوا قَدِّ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعَفُ عَنْ طَآئِفَةٍ مِّنْكُمْ نَعَذِّبُ طَآئِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾

قال رجل من المنافقين: ما أرى قراءنا هؤلاء إلا أرغبنا بطوناً، وأكذبنا ألسنة، وأجبننا عند اللقاء؛ فرفع ذلك إلى رسول الله ﷺ، فجاء إلى رسول الله ﷺ وقد ارتحل وركب ناقته، فقال: يا رسول الله إنما كنا نخوض ونلعب، فقال: ﴿أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون - إلى قوله - كانوا مجرمين﴾ وإن رجليه لتسفعان الحجارة

(١) قيل: هو عتاب بن قشير، وقيل هو نبتل بن الحارث.

وما يلتفت إليه رسول الله ﷺ وهو متعلق بسيف رسول الله ﷺ^(١). وقال ابن إسحاق: كان جماعة من المنافقين منهم (وديدة بن ثابت) ورجل من أشجع يقال له (مخشى بن حمير) يسيرون مع رسول الله ﷺ، وهو منطلق إلى تبوك، فقال بعضهم لبعض: أتحسبون جلاد بني الأصفر كقتال العرب بعضهم بعضاً، والله لكأنا بكم غداً مقرنين في الجبال، إرجافاً وترهيباً للمؤمنين، فقال رسول الله ﷺ لعمار بن ياسر: «أدرك القوم فإنهم قد احترقوا فاسألهم عما قالوا، فإن أنكروا فقل بل قلم كذا وكذا» فانطلق إليهم عمار فقال لهم ذلك، فأتوا رسول الله ﷺ يعتذرون إليه، فقال وديدة بن ثابت يا رسول الله: إنما كنا نخوض ونلعب، فقال مخشى بن حمير: يا رسول الله قعد بي اسمي واسم أبي، فكان الذي عُي عنه في هذه الآية (مخشى بن حمير) فتسمى عبد الرحمن، وسأل الله أن يقتل شهيداً لا يعلم بمكانه، فقتل يوم الهامة^(٢). وقال قتادة: بينما النبي ﷺ في غزوة تبوك وركب من المنافقين يسيرون بين يديه فقالوا: يظن هذا أن يفتح قصور الروم وحصونها؟ هيهات هيهات، فأطلع الله نبيه ﷺ على ما قالوا، فقال: «عليّ بهؤلاء النفر» فدعاهم فقال: «قلم كذا وكذا»، فحلفوا ما كنا إلا نخوض ونلعب. وقوله: ﴿لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم﴾ أي بهذا المقال الذي استهزأتم به، ﴿إن نعت عن طائفة منكم نعت طائفة﴾ أي لا يعفى عن جميعكم ولا بد من عذاب بعضكم ﴿بأنهم كانوا مجرمين﴾ أي مجرمين بهذه المقالة الفاجرة الخاطئة.

الْمُنْفِقُونَ وَالْمُنْفِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِّنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنْفِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَّ اللَّهُ الْمُنْفِقِينَ وَالْمُنْفِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعْنَةُ اللَّهِ لِهَؤُلَاءِ مُّهِمٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾

يقول تعالى منكرًا على المنافقين الذين هم على خلاف صفات المؤمنين، ولما كان المؤمنون يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر كان هؤلاء ﴿يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويقبضون أيديهم﴾ أي عن الإنفاق في سبيل الله، ﴿نسوا الله﴾ أي نسوا ذكر الله ﴿فنسيهم﴾ أي عاملهم معاملة من نسيهم، كقوله تعالى: ﴿فاليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا﴾، ﴿إن المنافقين هم الفاسقون﴾ أي الخارجون عن طريق الحق الداخلون في طريق الضلالة، وقوله: ﴿وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم﴾ أي على هذا الصنيع الذي ذكر عنهم، ﴿خالدين فيها﴾ أي ما كثر فيها مخلدين هم والكفار ﴿هي حسبهم﴾ أي كفايتهم في العذاب، ﴿ولعنتهم الله﴾ أي طردهم وأبعدهم ﴿ولهم عذاب مقيم﴾.

كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مُنْكَرَ قُوَّةٍ وَأَكْثَرَ آمُؤلاً وَأَوْلَادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلْقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلْقِكُمْ كَمَا أَسْتَمْتَعُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلْقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٦٩﴾

(٢) رواه ابن إسحاق.

(١) ذكره المدني عن محمد بن كعب القرظي وغيره.

يقول تعالى: أصاب هؤلاء من عذاب الله تعالى في الدنيا والآخرة كما أصاب من قبلهم، ﴿بجلاقتهم﴾ قال الحسن: بدینهم، ﴿وخضتم كالذي خاضوا﴾ أي في الكذب والباطل، ﴿وأولئك حبطت أعمالهم﴾ أي بطلت مساعيهم فلا ثواب لهم عليها لأنها فاسدة، ﴿في الدنيا والآخرة وأولئك هم الخاسرون﴾ لأنهم لم يحصل لهم عليها ثواب. عن ابن عباس قال: ما أشبه الليلة بالبارحة، ﴿كالذين من قبلكم﴾ هؤلاء بنو إسرائيل شبهنا بهم، والذي نفسي بيده لتبتغهم حتى لو دخل الرجل منهم جحر ضب لدخلتموه^(١). وفي الحديث: «الذي نفسي بيده لتبتعن سنن الذين من قبلكم شبراً بشبر، وذراعاً بذراع، وباعاً ببيع، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه»، قالوا: ومن هم يا رسول الله؟ أهل الكتاب؟ قال: «فن؟»، قال أبو هريرة: الخلاق الدين، ﴿وخضتم كالذي خاضوا﴾ قالوا: يا رسول الله كما صنعت فارس والروم؟ قال: «فهل الناس إلا هم؟»^(٢).

الرَّيَّا تَهُم نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمُ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾

يقول تعالى واعظاً لهؤلاء المنافقين المكذبين للرسول ﴿لم يأتيهم نبأ الذين من قبلهم﴾، أي لم تخبروا خبر من كان قبلكم من الأمم المكذبة للرسول، ﴿قوم نوح﴾ وما أصابهم من الغرق العام لجميع أهل الأرض إلا من آمن بعده ورسوله نوح عليه السلام، ﴿وعاد﴾ كيف أهلكوا بالريح العقيم لما كذبوا هوداً عليه السلام، ﴿وتمود﴾ كيف أخذتهم الصيحة لما كذبوا صالحاً عليه السلام وعقروا الناقة، ﴿وقوم إبراهيم﴾ كيف نصره الله عليهم وأيده بالمعجزات الظاهرة عليهم وأهلك ملكهم نمرود لعنه الله، ﴿وأصحاب مدين﴾ وهم قوم شعيب عليه السلام وكيف أصابتهم الرجفة وعذاب يوم الظلة، ﴿والمؤتفكات﴾ قوم لوط وقد كانوا يسكنون في مدائن، وقال ﴿والمؤتفكة أهوى﴾، والغرض أن الله تعالى أهلكهم عن آخرهم بتكذيبهم نبي الله لوطاً عليه السلام، وإتيانهم الفاحشة التي لم يسبقهم بها أحد من العالمين، ﴿أتتهم رسلهم بالبينات﴾ أي بالحجج والدلائل القاطعات ﴿فما كان الله ليظلمهم﴾ أي يهلكه إياهم لأنه أقام عليهم الحجة بإرسال الرسل وإزاحة العلل، ﴿ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾ أي بتكذيبهم الرسل ومخالفتهم الحق، فصاروا إلى ما صاروا إليه من العذاب والدمار.

﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيَطِيعُونَ اللَّهَ وَرُسُلَهُ ۗ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾﴾

لما ذكر تعالى صفات المنافقين الذميمة عطف بذكر صفات المؤمنين المحمودة، فقال: ﴿والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض﴾ أي يتناصرون ويتعاضدون، كما جاء في الصحيح: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه

(١) أخرجه ابن جرير عن عطاء عن عكرمة عن ابن عباس.

(٢) قال ابن كثير: وهذا الحديث له شاهد في الصحيح.

بعضاً « وشبك بين أصابعه. وفي الصحيح أيضاً: « مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر ». وقوله: ﴿ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾، كقوله تعالى: ﴿ وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ الآية، وقوله: ﴿ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ ﴾ أي يطيعون الله ويحسنون إلى خلقه، ﴿ وَيَطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ أي فيما أمر وترك ما عنه زجر، ﴿ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ ﴾ أي سيرحم الله من اتصف بهذه الصفات، ﴿ إِنْ اللَّهُ عَزِيزٌ ﴾ أي يعز من أطاعه، فإن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين، ﴿ حَكِيمٌ ﴾ في قسمته هذه الصفات لهؤلاء، وتخصيصه المتألفين بصفاتهم المتقدمة فإنه له الحكمة في جميع ما يفعله تبارك وتعالى .

وَعَدَّ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسْكَنٍ طَيِّبَةٍ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ
وَرِضْوَانٍ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾

يخبر تعالى بما أعدّه للمؤمنين به والمؤمنات من الخيرات والنعيم المقيم في ﴿ جنات تجري من تحتها الانهار خالدين فيها ﴾ أي ما كتبت فيها أبداً، ﴿ ومساكن طيبة ﴾ أي حسنة البناء طيبة القرار، كما جاء في الصحيحين: « جنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما، وجنتان من فضة آنيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن »، وقال ﷺ: « إن في الجنة مائة درجة أعدّها الله للمجاهدين في سبيله، بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، فإذا سألت الله فاسأله الفردوس، فإنه أعلى الجنة وأوسط الجنة، ومنه تفجر أنهار الجنة، وفوقه عرش الرحمن »^(١). وقال رسول الله ﷺ: « إن أهل الجنة ليتراوون الغرف في الجنة كما ترون الكواكب في السماء » أخرجه في الصحيحين. وفي مسند الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قلنا يا رسول الله حدثنا عن الجنة ما بناؤها؟ قال: « لبنة ذهب ولبنة فضة، وملاطها المسك، وحصباؤها اللؤلؤ والياقوت، وترابها الزعفران، من يدخلها ينعم لا يبأس، ويخلد لا يموت، لا تبلى ثيابه، ولا يفنى شبابه »، وعند الترمذي عن علي رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: « إن في الجنة لغرفاً يرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها » فقام أعرابي فقال: يا رسول الله لمن هي؟ فقال: « لمن طيب الكلام، وأطعم الطعام، وأدام الصيام، وصلى بالليل والناس نيام »، وعن أسامة بن زيد قال، قال رسول الله ﷺ: « ألا هل من مشمر إلى الجنة؟ فإن الجنة لا حظر لها، هي ورب الكعبة نور يتلألأ، وريحانة تهتر، وقصر مشيد، ونهر مطرد، وثمره نضيجة، وزوجة حسناء جميلة، وحلل كثيرة، ومقام في أبد في دار سليمة، وفاكهة وخضرة، وحبرة ونعمة، في محلة عالية بهية »، قالوا: نعم يا رسول الله نحن المشمرون لها، قال: « قولوا إن شاء الله »، فقال القوم: إن شاء الله^(٢)، وقوله تعالى: ﴿ وَرِضْوَانٍ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرَ ﴾ أي رضا الله عنهم أكبر وأجل وأعظم، مما هم فيه من النعيم، كما قال رسول الله ﷺ: « إن الله عز وجل يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة، فيقولون: لبيك ربنا وسعديك والخير في يدك، فيقول: هل

(١) أخرجه الشيخان عن أبي هريرة .

(٢) رواه ابن ماجه عن أسامة بن زيد .

رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى يا رب وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك؟ فيقول ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟ فيقولون: يا رب وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً^(١)

يَأْتِيَا النَّبِيَّ جَهْدَ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ وَأَغْلَظَ عَلَيْهِمْ وَمَا وَهُمْ بِهِمْ جَهَنَّمَ وَيَسَّ الْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهُمْ بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾

أمر تعالى رسوله ﷺ بجهاد الكفار والمنافقين والغلظة عليهم، كما أمره بأن يخفض جناحه لمن اتبعه من المؤمنين وأخبره أن مصير الكفار والمنافقين إلى النار في الدار الآخرة، وقد تقدم عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب أنه قال: (بعث رسول الله ﷺ بأربعة أسياف: سيف للمشركين ﴿﴾ فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين ﴿﴾، وسيف للكفار أهل الكتاب ﴿﴾ قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ﴿﴾، وسيف للمنافقين ﴿﴾ جاهد الكفار والمنافقين ﴿﴾، وسيف للبغاة ﴿﴾ فقاتلوا التي تبغي حتى تنفيء إلى أمر الله ﴿﴾، وهذا يقتضي أنهم يجاهدون بالسيوف إذا أظهروا النفاق). قال ابن مسعود ﴿﴾ جاهد الكفار والمنافقين ﴿﴾ قال: بيده فإن لم يستطع فليكفهر في وجهه، وقال ابن عباس: أمره الله تعالى بجهاد الكفار بالسيوف، والمنافقين باللسان، وأذهب الرفق عنهم، وقال الضحاك: جاهد الكفار بالسيوف، واغلظ على المنافقين بالكلام وهو مجاهدتهم. وقال الحسن وقتادة ومجاهد: مجاهدتهم إقامة الحدود عليهم؛ ولا منافاة بين هذه الأقوال، لأنه تارة يؤاخذهم بهذا وتارة بهذا بحسب الأحوال والله أعلم. وقوله: ﴿﴾ يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم ﴿﴾ قال قتادة: نزلت في (عبد الله بن أبي) وذلك أنه اقتتل رجلاً، جهني وأنصاري، فعلا الجهني على الأنصاري، فقال عبد الله للأنصار ألا تنصرون أحاكم؟ والله ما مثلنا ومثل محمد إلا كما قال القائل: سمن كلبك يأكلك، وقال: ﴿﴾ لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ﴿﴾، فسعى بها رجل من المسلمين إلى النبي ﷺ فأرسل إليه فسأله، فجعل يحلف بالله ما قاله، فأنزل الله فيه هذه الآية.

وقال الإمام أبو جعفر بن جرير عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ جالساً في ظل شجرة، فقال: «إنه سيأتيكم إنسان فينظر إليكم - بعيني الشيطان - فإذا جاء فلا تكلموه» فلم يلبثوا أن طلع رجل أزرق، فدعاه رسول الله ﷺ، فقال: «علام تشتمني أنت وأصحابك؟» فانطلق الرجل، فجاءه بأصحابه، فحلفوا بالله ما قالوا حتى تجاوز عنهم، فأنزل الله عز وجل: ﴿﴾ يحلفون بالله ما قالوا ﴿﴾^(٢) الآية، وقوله: ﴿﴾ وهووا بما لم ينالوا ﴿﴾ قيل أنزلت في الجلاس بن سويد، وذلك أنه هم بقتل ابن امرأته حين قال لأخبرن رسول الله ﷺ، وقيل: في (عبد الله

(١) رواه الشيخان ومالك عن أبي سعيد الخدري. (٢) أخرجه ابن جرير الطبري عن ابن عباس.

ابن أبي (هم بقتل رسول الله ﷺ، وقد ورد أن نفرًا من المنافقين هموا بالفتك بالنبي ﷺ وهو في غزوة تبوك في بعض تلك الليالي في حال السير، وكانوا بضعة عشر رجلاً، قال الضحاك: ففيهم نزلت هذه الآية، روى الحافظ البيهقي في كتاب «دلائل النبوة» عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال: كنت آخذاً بخطام ناقة رسول الله ﷺ أقود به، وعمار يسوق الناقة، حتى إذا كنا بالعقبة، فإذا أنا باثني عشر راكباً قد اعترضوه فيها، قال: فانتهرهم رسول الله ﷺ، وصرخ بهم، فولوا مدبرين، فقال لنا رسول الله ﷺ: «هل عرفتم القوم؟» قلنا: لا يا رسول الله قد كانوا مثلثمين، ولكننا قد عرفنا الركاب، قال: «هؤلاء المنافقون إلى يوم القيامة وهل تدرون ما أرادوا؟» قلنا: لا، قال: «أرادوا أن يزاحموا رسول الله ﷺ في العقبة فيلقوه منها»، قلنا يا رسول الله أفلا نبعث إلى عشائركم حتى يبعث إليك كل قوم برأس صاحبهم؟ قال: «لا، أكره أن تتحدث العرب بينها أن محمداً قاتل، حتى إذا أظهره الله بهم أقبل عليهم يقتلهم». وقوله تعالى: ﴿وما نقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله﴾ أي وما للرسول عندهم ذنب إلا أن الله أغناهم ببركته وبمن سعادته، ولو تمت عليهم السعادة لهداهم الله لما جاء به كما قال ﷺ: «ألم أجدكم ضلالاً فهداكم الله بي؟ وكنتم متفرقين فألفكم الله بي؟ وعالة فأغناكم الله بي؟» كلما قال شيئاً، قالوا: الله ورسوله آمن، وهذه الصيغة تقال حيث لا ذنب، كقوله: ﴿وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله﴾ الآية، ثم دعاهم الله تبارك وتعالى إلى التوبة فقال: ﴿فإن يتوبوا بك خيراً لهم وإن يتولوا يعذبهم الله عذاباً أليماً في الدنيا والآخرة﴾ أي وإن يستمروا على طريقهم يعذبهم الله عذاباً أليماً في الدنيا: أي بالقتل والهجم والغم، والآخرة: أي بالعذاب والنكال والهوان والصغار ﴿وما لهم في الأرض من ولي ولا نصير﴾ أي وليس لهم أحد يسعدهم ولا ينجدهم، لا يحصل لهم خيراً، ولا يدفع عنهم شراً.

* وَمِنْهُمْ مَّنْ عٰهَدَ اللّٰهَ لَئِنۡ ءَاتٰنَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُوْنُ مِنَ الصّٰلِحِيْنَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتٰهُمْ مِّنۡ فَضْلِهِۦ بَخِلُوْا بِهٖ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُوْنَ ﴿٧٦﴾ فَاَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِيۡ قُلُوْبِهِمْ اِلَیۡ يَوْمِۭ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَا اٰخَلَفُوْا اللّٰهَ مَا وَعَدُوْهُ وَبِمَا كَانُوْا يَكْذِبُوْنَ ﴿٧٧﴾ اَلَمْ يَعْلَمُوْۤا اَنَّ اللّٰهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَاَنَّ اللّٰهَ عَلَمُ الْغٰیْبِ ﴿٧٨﴾

يقول تعالى: ومن المنافقين من أعطى الله عهده وميثاقه لئن أغناه من فضله ليصدقن من ماله وليكونن من الصالحين، فما وفي بما قال، ولا صدق فيما ادعى، فأعقبهم هذا الصنيع نفاقاً سكن في قلوبهم إلى يوم يلقون الله عز وجل يوم القيامة عياداً بالله من ذلك، وقد ذكر كثير من المفسرين أن سبب نزول هذه الآية الكريمة في (ثعلبة بن حاطب) الأنصاري، وقد ورد فيه حديث رواه ابن جرير عن أبي أمامة الباهلي عن ثعلبة بن حاطب الأنصاري أنه قال لرسول الله ﷺ: ادع الله أن يرزقني مالاً، قال، فقال رسول الله ﷺ: «ويحك يا ثعلبة قليل تؤدي شكره خير من كثير لا تطيقه» قال، ثم قال مرة أخرى، فقال: «أما ترضى أن تكون مثل نبي الله؟ فالذي نفسي بيده لو شئت أن تسير الجبال معي ذهباً وفضة لسارت» قال: والذي بعثك بالحق لئن دعوت الله فرزقني مالاً لأعطين كل ذي حق حقه، فقال رسول الله ﷺ: «اللهم ارزق ثعلبة مالاً»، قال: فاتخذ غنماً، فتمت كما ينمي الدود، فضاقت عليه المدينة، ففتحى عنها، فترل وادياً من أوديتها، حتى جعل يصلي الظهر والعصر في

جماعة ويترك ما سواهما، ثم نمت وكثرت، ففتنحتي حتى ترك الصلوات إلا الجمعة، وهي تنمي كما ينمي الدود، حتى ترك الجمعة، فظنقت يتلقى الركبان يوم الجمعة ليسألهم عن الأخبار، فقال رسول الله ﷺ: «ما فعل ثعلبة؟» فقالوا يا رسول الله اتخذ غنماً فضاقت عليه المدينة فأخبروه بأمره، فقال: «يا ويح ثعلبة يا ويح ثعلبة يا ويح ثعلبة»، وأنزل الله عز وجل ثناؤه: ﴿خذ من أموالهم صدقة﴾ الآية، ونزلت فرائض الصدقة، فبعث رسول الله ﷺ رجلين على الصدقة من المسلمين، وكتب لهما كيف يأخذان الصدقة من المسلمين، وقال لهما: «مرا بثعلبة وبفلان - رجل من بني سليم - فخذنا صدقاتهما»، فخرجا حتى أتيا ثعلبة، فسألاه الصدقة، وأقرأه كتاب رسول الله ﷺ، فقال: ما هذه إلا جزية، ما هذه إلا أخت الجزية، ما أدري ما هذا! انطلقا حتى تفرغا ثم عودا إلي، فانطلقا، وسمع بهما السلمي، فنظر إلى خيار أسنان إبله، فعزها للصدقة، ثم استقبلهما بها، فلما رأوها، قالوا: ما يجب عليك هذا، وما نريد أن نأخذ هذا منك، فقال: بلى فخذوها فإن نفسي بذلك طيبة، فأخذها منه، ومرا على الناس، فأخذنا الصدقات، ثم رجعا إلى ثعلبة فقال: أروني كتابكما، فقرأه فقال: ما هذه إلا جزية ما هذه إلا أخت الجزية! انطلقا حتى أرى رأيي، فانطلقا حتى أتيا النبي ﷺ، فلما رأهما قال: «يا ويح ثعلبة»، قبل أن يكلمهما، ودعا للسلمي بالبركة، فأخبراه بالذي صنع ثعلبة والذي صنع السلمي، فأنزل الله عز وجل: ﴿ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن﴾ الآية. فهلك ثعلبة في خلافة عثمان^(١). وقوله تعالى: ﴿بما أخلفوا الله ما وعدوه﴾ الآية: أي أعقبهم النفاق في قلوبهم بسبب إخلافهم الوعد وكذبهم، وقوله: ﴿ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم﴾ الآية، يخبر تعالى أنه يعلم السر وأخفى وأنه أعلم بضمائرهم، وإن أظهروا أنه إن حصل لهم أموال تصدقوا منها وشكروا عليها، فإن الله أعلم بهم من أنفسهم، لأنه تعالى علام الغيوب، أي يعلم كل غيب وشهادة وكل سر ونجوى، ويعلم ما ظهر وما بطن.

الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾

وهذا أيضاً من صفات المنافقين لا يسلم أحد من عيبتهم ولزمتهم في جميع الأحوال، إن جاء أحد منهم بما لذييل قالوا؛ هذا مراء، وإن جاء بشيء يسير قالوا: إن الله لغني عن صدقة هذا، كما روى البخاري عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: لما نزلت آية الصدقة كنا نحامل^(٢) على ظهورنا، فجاء رجل فتصدق بشيء كثير، فقالوا: مراء، وجاء رجل فتصدق بصاع فقالوا: إن الله لغني عن صدقة هذا، فنزلت: ﴿الذين يلمزون المطوعين﴾ الآية. وقال ابن عباس: جاء عبد الرحمن بن عوف بأربعين أوقية من ذهب إلى رسول الله ﷺ، وجاءه رجل من الأنصار بصاع من طعام، فقال بعض المنافقين: والله ما جاء عبد الرحمن بما جاء به إلا رياء، وقالوا: إن

(١) أخرجه ابن جرير بتمامه وفيه أن رسول الله ﷺ لم يقبل صدقته في حياته فلما قبض ﷺ عرضها على أبي بكر فلم يقبلها ثم عرضها على عمر فلم يقبلها حتى هلك في زمن عثمان، ورواه أيضاً ابن أبي حاتم بنحوه.

(٢) أي تواجر أنفسنا في الحمل، وفي رواية عنده في التفسير: تتحامل، أي يحمل بعضنا لبعض بالأجرة.

الله ورسوله لغنيان عن هذا الصاع. وقال ابن إسحاق: كان من المطوعين من المؤمنين في الصدقات (عبد الرحمن ابن عوف) تصدق بأربعة آلاف درهم، و (عاصم بن عدي) أخو بني العجلان، وذلك أن رسول الله ﷺ رغب في الصدقة وحض عليها، فقام عبد الرحمن بن عوف فتصدق بأربعة آلاف، وقام عاصم بن عدي وتصدق بمائة وسق من تمر، فلمزوهما وقالوا: ما هذا إلا رياء، وكان الذي تصدق بجهده (أبو عقيل) حليف بني عمرو بن عوف، أتى بصاع من تمر فأفرغه في الصدقة، فتضحكوا به، وقالوا: إن الله لغني عن صاع أبي عقيل. وقال الحافظ أبو بكر البزار عن أبي هريرة قال، قال رسول الله ﷺ: «تصدقوا فإني أريد أن أبعث بعثاً»، قال: فجاء عبد الرحمن بن عوف فقال: يا رسول الله عندي أربعة آلاف، ألفين أقرضهما ربي وألفين لعيالي، فقال رسول الله ﷺ: «بارك الله لك فيما أعطيت وبارك لك فيما أمسكت» وبات رجل من الأنصار فأصاب صاعين من تمر، فقال يا رسول الله: أصبت صاعين من تمر، صاع أقرضه لربي وصاع لعيالي، قال: فلمزه المنافقون وقالوا: ما أعطى الذي أعطى ابن عوف إلا رياء، وقالوا: ألم يكن الله ورسوله غنيين عن صاع هذا؟ فأنزل الله: ﴿الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين في الصدقات والذين لا يجدون إلا جهدهم فيسخرون منهم﴾^(١) الآية، وقوله: ﴿فيسخرون منهم سخر الله منهم﴾ هذا من باب المقابلة على سوء صنيعهم واستهزائهم بالمؤمنين، لأن الجزاء من جنس العمل، فعاملهم معاملة من سخر منهم انتصاراً للمؤمنين في الدنيا، وأعد للنافقين في الآخرة عذاباً أليماً، لأن الجزاء من جنس العمل.

أَسْتَغْفِرُ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرُ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ
وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٨٠﴾

يخبر تعالى نبيه ﷺ بأن هؤلاء المنافقين ليسوا أهلاً للاستغفار، وأنه لو استغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم؛ وقد قيل: إن السبعين إنما ذكرت حسماً لمادة الاستغفار لهم، لأن العرب في أساليب كلامها تذكر السبعين في مبالغة كلامها، ولا تريد التحديد بها، ولا أن يكون ما زاد عليها بخلافها؛ وقيل: بل لها مفهوم كما روي، لما نزلت هذه الآية قال ﷺ: «إن ربي قد رخص لي فيهم، فوالله لأستغفرون لهم أكثر من سبعين مرة لعل الله أن يغفر لهم»، وقال الشعبي: لما ثقل (عبد الله بن أبي) انطلق ابنه إلى النبي ﷺ فقال: إن أبي يحتضر، فأحب أن تشهده وتصلي عليه، فانطلق معه حتى شهده، وألبسه قميصه، وصلى عليه، فقيل له: أتصلي عليه؟ فقال: «إن الله قال: ﴿إن تستغفر لهم سبعين مرة﴾، ولأستغفرون لهم سبعين وسبعين وسبعين»^(٢).

فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً

(١) أخرجه الحافظ البزار .

(٢) رواه ابن جرير بسنده .

بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾

يقول تعالى ذاماً للمنافقين المتخلفين عن صحابة رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، وفرحوا بعودهم بعد خروجه ﴿وكرهوا أن يجاهدوا﴾ معه ﴿بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله وقالوا﴾ - أي بعضهم لبعض - ﴿لا تنفروا في الحر﴾، وذلك أن الخروج في غزوة تبوك كان في شدة الحر، عند طيب الظلال والثمار، فلماذا قالوا: ﴿لا تنفروا في الحر﴾، قال الله تعالى لرسوله ﷺ: ﴿قل﴾ لهم ﴿نار جهنم﴾ التي تصيرون إليها بمخالفتكم ﴿أشد حراً﴾ مما فرتم منه من الحر بل أشد حراً من النار، كما قال رسول الله ﷺ: «نار بني آدم التي توقدونها جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم»، فقالوا: يا رسول الله إن كانت لكافية، فقال: «فضّلت عليها بتسعة وستين جزءاً»^(١)، وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إن ناركم هذه جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم وضربت في البحر مرتين، ولولا ذلك ما جعل الله فيها منفعة لأحد»^(٢). وروى الترمذي وابن ماجه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «أوقد الله على النار ألف سنة حتى احمرت، ثم أوقد عليها ألف سنة حتى ابيضت، ثم أوقد عليها ألف سنة حتى اسودت، فهي سوداء كالليل المظلم». وعن أنس قال: تلا رسول الله ﷺ ﴿ناراً وقودها الناس والحجارة﴾، قال: «أوقد عليها ألف عام حتى ابيضت، وألف عام حتى احمرت، وألف عام حتى اسودت، فهي سوداء كالليل لا يضيء لها»^(٣)، والأحاديث والآثار النبوية في هذا كثيرة. وقال الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿كلا إنها لظى نزاعة للشوى﴾، وقال تعالى: ﴿يصب من فوق رءوسهم الحميم يصهر به ما في بطونهم والجلود ولهم مقامع من حديد﴾، وقال تعالى: ﴿سوف نصليهم ناراً كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب﴾، وقال تعالى هنا: ﴿قل نار جهنم أشد حراً لو كانوا يفقهون﴾^(٤) أي لو أنهم يفقهون ويفهمون لنفروا مع الرسول في سبيل الله في الحر، ليتقوا به من حر جهنم الذي هو أضعاف أضعاف هذا، ولكنهم كما قال الشاعر:

كالمستجير من الرمضاء بالنار

ثم قال تعالى جل جلاله متوعداً هؤلاء المنافقين على صنيعهم هذا: ﴿فليضحكوا قليلاً﴾ الآية، قال ابن عباس: الدنيا قليل، فليضحكوا فيها ما شاءوا، فإذا انقطعت الدنيا وصاروا إلى الله عز وجل استأنفوا بكاء لا ينقطع أبداً، وقال الحافظ الموصلي عن أنس بن مالك قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يا أيها الناس ابكوا فإن لم تبكوا فتباكوا، فإن أهل النار يبكون حتى تسيل دموعهم في وجوههم، كأنها جداول حتى تنقطع الدموع فتسيل الدماء فتقرح العيون، فلو أن سفناً أزعجت فيها لجرت»^(٥).

(١) رواه البخاري ومسلم ومالك عن أبي هريرة .

(٢) أخرجه أحمد قال ابن كثير: إسناده صحيح .

(٣) أخرجه ابن مردويه عن أنس بن مالك .

(٤) في اللباب: أخرجه ابن جرير: خرج رسول الله ﷺ، في حر شديد، إلى تبوك، فقال رجل من بني مسلمة: لا تنفروا في الحر، فنزلت: ﴿قل نار جهنم...﴾ الآية .

(٥) رواه ابن ماجه والحافظ الموصلي .

فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَعِذْ نُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ ﴿٨٣﴾

يقول تعالى أمراً لرسوله عليه الصلاة والسلام: ﴿فإن رجعتك الله﴾ أي ردك الله من غزوتك هذه ﴿إلى طائفة منهم﴾، قال قتادة: ذكر لنا أنهم كانوا اثني عشر رجلاً ﴿فاستأذونك للخروج﴾: أي معك إلى غزوة أخرى ﴿فقل لن تخرجوا معي أبداً ولن تقاتلوا معي عدواً﴾، أي تعزيراً لهم وعقوبة، ثم علل ذلك بقوله: ﴿إنكم رضيتم بالقيود أول مرة﴾، وهذا كقوله تعالى: ﴿ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة﴾ الآية، فإن جزاء السيئة السيئة بعدها، كما أن ثواب الحسنة الحسنة بعدها، وقوله تعالى: ﴿فاقعدوا مع الخالفين﴾ قال ابن عباس: أي الرجال الذين تخلفوا عن الغزاة، وقال قتادة: ﴿فاقعدوا مع الخالفين﴾ أي مع النساء، قال ابن جرير: وهذا لا يستقيم، لأن جمع النساء لا يكون بالياء والنون، ولو أريد النساء لقال: فاقعدوا مع الخوالف أو الخالفات، ورجح قول ابن عباس رضي الله عنهما .

وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ ۗ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ۗ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨٤﴾

أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يبرأ من المنافقين، وأن لا يصلي على أحد منهم إذا مات، وأن لا يقوم على قبره ليستغفر له أو يدعوله لأنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا عليه؛ وهذا حكم عام في كل من عرف نفاقه، وإن كان سبب نزول الآية في (عبد الله بن أبي بن سلول) رأس المنافقين. كما قال البخاري عن نافع عن ابن عمر قال: لما توفي عبد الله بن أبي، جاء ابنه عبد الله بن عبد الله إلى رسول الله ﷺ، فسأله أن يعطيه قميصه يكفن فيه أباه، فأعطاه، ثم سأله أن يصلي عليه، فقام رسول الله ﷺ ليصلي عليه، فقام عمر، فأخذ بثوب رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله تصلي عليه، وقد نهاك ربك أن تصلي عليه؟ فقال رسول الله ﷺ: «إنما خيرني الله فقال: ﴿استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم﴾ وسأزيده على سبعين»، قال: إنه منافق، قال: فصلى عليه رسول الله ﷺ، فأنزل الله عز وجل آية: ﴿ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره﴾^(١). وعن عباس قال: سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: لما توفي (عبد الله بن أبي) دعي رسول الله ﷺ للصلاة عليه، فقام إليه، فلما وقف عليه يريد الصلاة عليه تحولت حتى قمت في صدره، فقلت: يا رسول الله أعلى عدو الله (عبد الله بن أبي) القاتل يوم كذا وكذا وكذا - يعدد أيامه -؟ قال: ورسول الله ﷺ يتبسم، حتى إذا أكثرت عليه قال: «أخر عني يا عمر، إني خيرت فاخترت، قد قيل لي: ﴿استغفر لهم﴾ الآية، لو أعلم أني لو زدت على السبعين غفر له لزدت»، قال: ثم صلى عليه، ومشى معه، وقام على قبره حتى فرغ منه، قال: فعجبت من جرأتي على رسول الله ﷺ، والله ورسوله أعلم، قال: فوالله ما كان إلا يسيراً حتى نزلت هاتان الآيتان: ﴿ولا تصل على أحد منهم مات أبداً﴾ الآية، فاصلى رسول الله ﷺ بعده على منافق، ولا قام على قبره حتى قبضه الله عز وجل^(٢)، وروى الإمام أحمد عن جابر قال: لما مات عبد الله بن أبي أتى ابنه النبي ﷺ

(١) أخرجه البخاري ومسلم . (٢) رواه أحمد والترمذي وقال : حسن صحيح .

فقال: يا رسول الله إنك إن لم تأتته لم نزل نعيّر بهذا، فأتاه النبي ﷺ فوجده قد أدخل في حفرة، فقال: «أفلا قبل أن تدخلوه»، فأخرج من حفرة، وتفل عليه من ريقه من قرنه إلى قدمه وألبسه قميصه. وقال البخاري: أتى النبي ﷺ عبد الله بن أبي بعدما أدخل في قبره، فأمر به فأخرج، ووضع على ركبتيه، ونفت عليه من ريقه، وألبسه قميصه، والله أعلم.

وقال قتادة: أرسل عبد الله بن أبي إلى رسول الله ﷺ وهو مريض، فلما دخل عليه قال له النبي ﷺ: «أهلكك حب يهود» قال: يا رسول الله إنما أرسلت إليك لتستغفر لي ولم أرسل إليك لتؤنّبني، ثم سأله عبد الله أن يعطيه قميصه يكفن فيه أباه، فأعطاه إياه وصلى عليه وقام على قبره، فأنزل الله عز وجل: ﴿ولا تصل على أحد منهم مات أبداً﴾^(١) الآية، ولهذا كان رسول الله ﷺ بعد نزول هذه الآية الكريمة عليه لا يصلي على أحد من المنافقين، ولا يقوم على قبره، كما قال قتادة: كان رسول الله ﷺ إذا دعِيَ إلى جنازة سأل عنها، فإن أُنّي عليها خيراً قام فصلى عليها، وإن كان غير ذلك قال لأهلها: «شأنكم بها»، ولم يصل عليها؛ وكان عمر بن الخطاب لا يصلي على جنازة من جهل حاله حتى يصلي عليها (حذيفة بن اليمان) لأنه كان يعلم أعيان المنافقين، قد أخبره بهم رسول الله ﷺ؛ ولهذا كان يقال له: (صاحب السر) الذي لا يعلمه غيره أي من الصحابة، ولما نهي الله عز وجل عن الصلاة على المنافقين والقيام على قبورهم للاستغفار لهم كان هذا الصنيع من أكبر القربات في حق المؤمنين فشرع ذلك، وفي فعله الأجر الجزيل، كما ثبت في الصحاح: «من شهد الجنازة حتى يصلي عليها فله قيراط، ومن شهدا حتى تدفن فله قيراطان» قيل: وما القيراطان؟ قال: «أصغرهما مثل أحد»؛ وأما القيام عند قبر المؤمن إذا مات فروى أبو داود عن عثمان رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا فرغ من دفن الميت وقف عليه وقال: «استغفروا لأخيكم واسألوا له التثبيت، فإنه الآن يسأل»^(٢).

وَلَا تُعْجِبُكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٨٥﴾

تقدم تفسير نظير هذه الآية الكريمة، والله الحمد والمنة .

* وَإِذَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمَنُوا بِهَا وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَعْذَنَكَ أُولُوا الطُّولِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ

الْقَاعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾

يقول تعالى منكرأ وذاماً للمتخلفين عن الجهاد، الناكِلين عنه مع القدرة عليه، ووجود السعة والطول، واستأذنوا الرسول في القعود وقالوا: ﴿ذرنا نكون مع القاعدین﴾ ورضوا لأنفسهم بالعار والقعود في البلد مع النساء، وهن الخوالف بعد خروج الجيش، فإذا وقع الحرب كانوا أجبن الناس، وإذا كان أمن كانوا أكثر الناس كلاماً كما قال تعالى عنهم: ﴿فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذي يغشى عليه من الموت، فإذا ذهب

(١) أخرجه ابن جرير الطبري .

(٢) أخرجه أبو داود في سننه .

الخوف سلقوكم بالسنة حداد ﴿﴾ أي علت ألسنتهم بالكلام الحاد القوي في الأمن، كما قال الشاعر :

أفي السلم أعياراً: جفاء وغلظة وفي الحرب أشباه النساء الفوارك؟

وقال تعالى: ﴿﴾ فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين في قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشي عليه من الموت فأولى لهم ﴿﴾، وقوله: ﴿﴾ وطبع على قلوبهم ﴿﴾ أي بسبب نكولهم عن الجهاد والخروج مع الرسول في سبيل الله، ﴿﴾ فهم لا يفقهون ﴿﴾ أي لا يفهمون ما فيه صلاح لهم في فعلوه، ولا ما فيه مضرة لهم في جنتبوه .

* لَكِنَّ الرُّسُولَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾

لما ذكر تعالى ذنب المنافقين، بين ثناءه على المؤمنين وما لهم في آخرتهم فقال: ﴿﴾ لكن الرسول والذين آمنوا معه جاهدوا ﴿﴾ لبيان حالهم ومآلهم، وقوله: ﴿﴾ وأولئك لهم الخيرات ﴿﴾ أي في الدار الآخرة في جنات الفردوس والدرجات العلى .

وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾

ثم بين تعالى حال ذوي الأعذار في ترك الجهاد الذين جاءوا إلى رسول الله ﷺ يعتذرون إليه، وهم من أحياء العرب ممن حول المدينة، قال ابن إسحاق: وبلغني أنهم نفر من بني غفار، وهذا القول هو الأظهر^(١)، لأنه قال بعد هذا: ﴿﴾ وقعد الذين كذبوا الله ورسوله ﴿﴾ أي لم يأتوا فيعتذروا، وقال مجاهد: ﴿﴾ وجاء المعذرون من الأعراب ﴿﴾ قال: نفر من بني غفار، جاءوا فاعتذروا فلم يعذرهم الله؛ وكذا قال الحسن وقتادة: ثم أوعدهم بالعذاب الأليم فقال: ﴿﴾ سيصيب الذين كفروا منهم عذاب أليم ﴿﴾ .

لَيْسَ عَلَى الضَّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يَنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَعَيْنُهُمْ تَفِيضٌ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يَنْفِقُونَ ﴿٩٢﴾ * إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَعِدُّونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءٌ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾

(١) روى الضحاك عن ابن عباس أنه كان يقرأ ﴿﴾ وجاء المعذرون ﴿﴾ بالتخفيف ويقول: هم أهل العذر وقراءة الجمهور بالتشديد .

ثم بين تعالى الأعذار التي لا حرج على من قعد معها عن القتال، فذكر منها ما هو لازم للشخص لا ينفك عنه، وهو الضعف في التركيب الذي لا يستطيع معه الجهاد في الجهاد، ومنه العمى والعرج ونحوهما؛ ولهذا بدأ به، ومنها ما هو عارض بسبب مرض في بدنه شغله عن الخروج في سبيل الله، أو بسبب فقر لا يقدر على التجهيز للحرب، فليس على هؤلاء حرج إذا قعدوا ونصحوا في حال قعودهم، ولم يرجفوا بالناس، ولم يثبطوهم، وهم محسنون في حالهم هذا؛ ولهذا قال: ﴿ ما على المحسنين من سبيل والله غفور رحيم ﴾. قال قتادة: نزلت هذه الآية في عائذ ابن عمرو المزني، وروي عن زيد بن ثابت قال: كنت أكتب لرسول الله ﷺ، فكنت أكتب براءة، فإني لو اضع القلم على أذني، إذ أمرنا بالقتال، فجعل رسول الله ﷺ ينظر ما ينزل عليه، إذ جاء أعمى فقال: كيف بي يا رسول الله وأنا أعمى؟ فنزلت: ﴿ ليس على الضعفاء ﴾ الآية. وقال ابن عباس في هذه الآية: وذلك أن رسول الله ﷺ أمر الناس أن ينبعثوا غازين معه، فجاءته عصابة من أصحابه فيهم عبد الله بن مغفل المزني، فقالوا: يا رسول الله احملنا، فقال لهم: « والله لا أجد ما أحملكم عليه»، فتولوا وهم يبكون، وعز عليهم أن يجلسوا عن الجهاد ولا يجدون نفقة ولا محملاً، فلما رأى الله حرصهم على محبته ومحبة رسوله أنزل عذرهم في كتابه فقال: ﴿ ليس على الضعفاء ﴾ إلى قوله: ﴿ فهم لا يعلمون ﴾، وقال مجاهد في قوله: ﴿ ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم ﴾ نزلت في بني مقرن من مزيته، كانوا سبعة نفر، فاستحملوا رسول الله ﷺ وكانوا أهل حاجة، فقال: ﴿ لا أجد ما أحملكم عليه تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً ألا يجدوا ما ينفقون ﴾. وفي حديث أنس أن رسول الله ﷺ قال: « إن بالمدينة أقواماً ما قطعتم وادياً ولا سيراً إلا وهم معكم » قالوا: وهم بالمدينة؟ قال: « نعم حبسهم العذر »^(١). وعن جابر قال، قال رسول الله ﷺ: « لقد خلفتم بالمدينة رجالاً ما قطعتم وادياً ولا سلكتم طريقاً إلا شركوكم في الأجر حبسهم المرض »^(٢)، ثم رد تعالى الملامة على الذين يستأذنون في القعود وهم أغنياء، وأنهم في رضاهم بأن يكونوا مع النساء الخوالف في الرجال: ﴿ وطبع الله على قلوبهم فهم لا يعلمون ﴾.

يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَأْنَا اللَّهُ مِنْ أَنْبَارِكُمْ وَسِيرَى اللَّهِ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تَرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لَتُعَرِّضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رَجِسٌ وَمَا وَوَلَهُمْ جَهَنَّمَ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لَتُرَضُّوا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٩٦﴾

أخبر تعالى عن المنافقين بأنهم إذا رجعوا إلى المدينة أنهم يعتذرون إليهم ﴿ قل لا تعتذروا لن تؤمن لكم ﴾ أي لن نصدقكم ﴿ قد نبأنا الله من أخباركم ﴾ أي قد أعلمنا الله أحوالكم، ﴿ وسيرى الله عملكم ورسوله ﴾ أي سيظهر أعمالكم للناس في الدنيا، ﴿ ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون ﴾ أي فيخبركم بأعمالكم

(١) أخرجه الشيخان عن أنس بن مالك .

(٢) رواه أحمد ومسلم وابن ماجه .

خيرها وشرها ويجزيكم عليها، ثم أخبر عنهم أنهم سيحلفون لكم معتذرين لتعرضوا عنهم، فلا توبوهم، فأعرضوا عنهم احتقاراً لهم ﴿إنهم رجس﴾ أي خبث نجس بواطنهم واعتقاداتهم، ومأواهم في آخرتهم جهنم، ﴿جزاء بما كانوا يكسبون﴾ أي من الآثام والخطايا، وأخبر أنهم إن رضوا عنهم بحلفهم لهم، ﴿فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين﴾ أي الخارجين عن طاعة الله وطاعة رسوله .

الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾
 وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبَاتٍ قُرْبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَّا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سِذِّخَلَهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٩﴾

أخبر تعالى أن في الأعراب كفاراً ومناققين ومؤمنين، وأن كفرهم ونفاقهم أعظم من غيرهم وأشد، ﴿وأجدر﴾ أي أحرى ﴿أن لا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله﴾، كما قال الأعمش: جلس أعرابي إلى زيد بن صوحان وهو يحدث أصحابه، وكانت يده قد أصيبت يوم (نهاوند) فقال الأعرابي: والله إن حديثك ليعجبني، وإن يدك لتريني، فقال زيد: ما يريك من يدي إنها الشمال؟ فقال الأعرابي: والله ما أدري اليمين يقطعون أو الشمال! فقال زيد صدق الله: ﴿الأعراب أشد كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ﴾، وفي الحديث: «من سكن البادية جفا، ومن اتبع الصيد غفل، ومن أتى السلطان افتن»^(١)، ورواه أبو داود والترمذي والنسائي من طرق عن سفيان الثوري به، وقال الترمذي: حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث الثوري. ولما كانت الغلظة والجفاء في أهل البوادي لم يبعث الله منهم رسولاً، وإنما كانت البعثة من أهل القرى، لأن هؤلاء كانوا يسكنون المدن، فهم أطفأ أخلاقاً من الأعراب لما في طباع الأعراب من الجفاء، وفي صحيح مسلم عن عائشة قالت: قدم ناس من الأعراب على رسول الله ﷺ فقالوا: أتقبلون صبيانكم؟ قالوا: نعم، قالوا: لكننا والله ما نقبل، فقال رسول الله ﷺ: «وأملك^(٢) إن كان الله نزع منكم الرحمة»؟، وقال ابن نميرة: «من قلبك الرحمة». وقوله: ﴿والله عليم حكيم﴾ أي عليم بمن يستحق أن يعلمه الإيمان والعلم، ﴿حكيم﴾ فيما قسم بين عباده، لا يسأل عما يفعل لعلمه وحكمته، وأخبر تعالى أن منهم: ﴿من يتخذ ما ينفق﴾ أي في سبيل الله ﴿مغرمًا﴾ أي غرامة وخسارة، ﴿ويتربص بكم الدوائر﴾ أي ينتظر بكم الحوادث والآفات، ﴿عليهم دائرة السوء﴾ أي هي منعكسة عليهم والسوء دائر عليهم، ﴿والله سميع عليم﴾ أي سميع لدعاء عباده، عليم بمن يستحق النصر ممن يستحق الخذلان، وقوله: ﴿ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ويتخذ ما ينفق قربات عند الله وصلوات الرسول﴾ هذا هو القسم الممدوح من الأعراب، وهم الذين يتخذون ما ينفقون في سبيل الله قربات يتقربون بها عند الله ويتبعون بذلك

(١) رواه أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي عن ابن عباس مرفوعاً .

(٢) وفي البخاري أو أملك لك إن نزع الله من قلبك الرحمة .

دعاء الرسول لهم، ﴿ألا إنها قرابة لهم﴾ أي ألا إن ذلك حاصل لهم، ﴿سيدخلهم الله في رحمته إن الله غفور رحيم﴾ .
 وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾

يخبر تعالى عن رضاه عن السابقين من المهاجرين والأنصار والتابعين لهم بإحسان، ورضاهم بما أعد لهم من جنات النعيم، قال الشعبي: السابقون الأولون من أدرك بيعة الرضوان عام الحديبية، وقال الحسن وقتادة: هم الذين صلوا إلى القبلتين مع رسول الله ﷺ، فقد أخبر الله العظيم أنه قد رضي عن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، والذين اتبعوهم بإحسان، فياويل من أبغضهم أو سبهم أو أبغض أو سب بعضهم، ولا سيما سيد الصحابة بعد الرسول وخيرهم وأفضلهم أعني الصديق الأكبر، والخليفة الأعظم (أبا بكر) رضي الله عنه، فإن الطائفة المخذولة من الرافضة يعادون أفضل الصحابة ويبغضونهم ويسبونهم، عياداً بالله من ذلك، وهذا يدل على أن عقولهم معكوسة، وقلوبهم منكوسة، فأين هؤلاء من الإيمان بالقرآن إذ يسبون من رضي الله عنهم، وأما أهل السنة فإنهم يترضون عن رضي الله عنه، ويسبون من سبه الله ورسوله، ويوالون من يوالي الله، ويعادون من يعادي الله، وهم متبعون لا مبتدعون، ويقتلون ولا يبتدون، وهؤلاء هم حزب الله المفلحون .

وَمِنْ حَوْلِكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنْفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾

يخبر تعالى رسوله صلوات الله وسلامه عليه أن في أحياء العرب ممن حول المدينة منافقون، وفي أهل المدينة أيضاً منافقون. ﴿مردوا على النفاق﴾ أي مروا واستمروا عليه، ومنه يقال: شيطان مرید ومارد، ويقال: تمرد فلان على الله أي عتا وتجر، وقوله: ﴿لا تعلمهم نحن نعلمهم﴾ لا ينافي قوله تعالى: ﴿ولو نشاء لأريناكمهم فلعرقهم بسيماهم﴾، لأن هذا من باب التوسم فيهم بصفات يعرفون بها، لا لأنه يعرف جميع من عنده من أهل النفاق والريب على التعيين؛ قال مجاهد في قوله: ﴿سنعذبهم مرتين﴾ يعني القتل والسبي، وقال في رواية: بالجوع وعذاب القبر، ﴿ثم يردون إلى عذاب عظيم﴾، وقال الحسن البصري: عذاب في الدنيا وعذاب في القبر، وقال ابن زيد: أما عذاب الدنيا فالأموال والأولاد، وقرأ قوله تعالى: ﴿فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا﴾ فهذه المصائب لهم عذاب وهي للمؤمنين أجر، وعذاب في الآخرة في النار، ﴿ثم يردون إلى عذاب عظيم﴾ قال: النار .

وَأَخْرُوجُوا عَمَّا صَلَّحُوا وَءَاخِرَ سَيِّئًا عَسَىٰ اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنْ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٠٢﴾

لما بين تعالى حال المنافقين المتخلفين عن الغزو تكديماً وشكاً، شرع في بيان حال المذنبين الذين تأخروا عن الجهاد

كسلاً مع إيمانهم وتصديقهم بالحق، فقال: ﴿وآخرون اعترفوا بذنوبهم﴾ أي أقروا بها واعترفوا فيما بينهم وبين ربهم، ولهم أعمال أخر صالحة خلطوا هذه بتلك، فهؤلاء تحت عفو الله وغفرانه، وهذه الآية وإن كانت نزلت في أناس معينين، إلا أنها عامة في كل المذنبين الخطائين، وقد قال ابن عباس: نزلت في أبي لبابة وجماعة من أصحابه تخلفوا عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، فلما رجع رسول الله ﷺ من غزوته، ربطوا أنفسهم بسواري المسجد، وحلفوا ألا يحلهم إلا رسول الله ﷺ، فلما أنزل الله هذه الآية: ﴿وآخرون اعترفوا بذنوبهم﴾ أطلقهم رسول الله ﷺ وعفا عنهم، وروى البخاري عن سمرة بن جندب قال، قال رسول الله ﷺ لنا: «أتاني الليلة آتيان فابتعثاني فاتهما بي إلى مدينة مبنية بلبن ذهب ولبن فضة، فتلقانا رجال شطر من خلقهم كأحسن ما أنت راء، وشر كأقبح ما أنت راء، قالوا لهم: اذهبوا فقعوا في ذلك النهر، فوقعوا فيه ثم رجعوا إلينا قد ذهب ذلك السوء عنهم، فصاروا في أحسن صورة، قالوا لي هذه جنة عدن وهذا منزلك، قالوا: وأما القوم الذين كانوا شطر منهم حسن وشر منهم قبيح فإنهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً تجاوز الله عنهم» .

خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾
الرَّيْبُ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾

أمر تعالى رسوله ﷺ بأن يأخذ من أموالهم صدقة يطهرهم ويزكهم بها، وهذا عام وإن أعاد بعضهم الضمير في ﴿أموالهم﴾ إلى الذين اعترفوا بذنوبهم^(١). ولهذا اعتقد بعض مانعي الزكاة أن دفع الزكاة إلى الإمام لا يكون، وإنما كان خاصاً بالرسول ﷺ، واحتجوا بقوله تعالى: ﴿خذ من أموالهم صدقة﴾ الآية، وقد رد عليهم أبو بكر الصديق وقتلهم حتى أدوا الزكاة كما كانوا يؤديونها إلى رسول الله ﷺ، حتى قال الصديق: والله لو منعوني عناقاً - وفي رواية عقلاً - كانوا يؤديونها إلى رسول الله ﷺ لأقاتلنهم على منعه. وقوله: ﴿وصل عليهم﴾ أي ادع لهم واستغفر لهم، كما رواه مسلم في صحيحه عن عبد الله بن أبي أوفى قال: كان النبي ﷺ إذا أتى بصدقة قوم صلى عليهم فاتاه أبي بصدقته، فقال: «اللهم صل على آل أبي أوفى»، وفي الحديث الآخر: أن امرأة قالت: يا رسول الله صل علي وعلى زوجي، فقال: «صلى الله عليك وعلى زوجك»، وقوله: ﴿إن صلاتك سكن لهم﴾، قال ابن عباس: رحمة لهم، وقال قتادة: وقار، وقوله: ﴿والله سميع﴾ أي لدعائك ﴿عليم﴾ أي بمن يستحق ذلك منك ومن هو أهل له، ﴿لم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات﴾، هذا تبيح إلى التوبة والصدقة اللتين كل منها يحط الذنوب ويمحصها ويمحقها، وأخبر تعالى أن كل من تاب إليه تاب عليه، ومن تصدق بصدقة من كسب حلال فإن الله يتقبلها بيمينه فيريها لصاحبها، حتى تصير التمرة مثل أحد، كما جاء في الحديث الصحيح: «إن الله يقبل الصدقة ويأخذها بيمينه، فيريها لأحدكم كما يري لأحدكم مهره، حتى

(١) في اللباب: أخرج ابن جرير: وجاء أبو لبابة وأصحابه بأموالهم حين أطلقوا، فقالوا: يا رسول الله، هذه أموالنا، فتصدق بها واستغفر لنا، فقال: «ما أمرت أن آخذ من أموالكم شيئاً»، فأنزل الله: ﴿خذ من أموالهم﴾ الآية. وعن قتادة: أن هذه الآيات نزلت في سبعة: أربعة منهم ربطوا أنفسهم، وهم أبو لبابة، ومرداس، وأوس بن خزيم، وثعلبة بن دبيعة.

أن اللقمة لتكون مثل أحد»، وتصديق ذلك في كتاب الله عز وجل: ﴿ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات﴾ .

وَقُلِ اعْمَلُوا فَسِيرَىٰ اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾

قال مجاهد: هذا وعيد من الله تعالى للمخالفين وأوامره، بأن أعمالهم ستعرض عليه تبارك وتعالى، وعلى الرسول عليه الصلاة والسلام وعلى المؤمنين، وهذا كائن لا محالة يوم القيامة، كما قال: ﴿يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية﴾، وقال تعالى: ﴿يوم تبلى السرائر﴾، وقال: ﴿وحصل ما في الصدور﴾، وقد يظهر الله تعالى ذلك للناس في الدنيا كما قال الإمام أحمد عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لو أن أحدكم يعمل في صخرة صماء ليس لها باب ولا كوة، لأخرج الله عمله للناس كائناً ما كان»، وقد ورد: أن أعمال الأحياء تعرض على الأموات من الأقرباء والعشائر في البرزخ، كما ورد عن النبي ﷺ أنه قال: «إن أعمالكم تعرض على أقاربكم وعشائركم من الأموات، فإن كان خيراً استبشروا به، وإن كان غير ذلك قالوا: اللهم لا تتمهم حتى تهديهم كما هديتنا»^(١). وقال البخاري: قالت عائشة رضي الله عنها: إذا أعجبك حسن عمل امرئ مسلم فقل: ﴿اعملوا فسيري الله عملكم ورسوله والمؤمنون﴾، وفي الحديث الصحيح: «إذا أراد الله بعبده خيراً استعمله قبل موته»، قالوا: يا رسول الله وكيف يستعمله؟ قال: «يوفقه لعمل صالح ثم يقبضه عليه»^(٢).

﴿وَأَخْرَجُوا مَرَجُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ ﴿١٠٦﴾

قال ابن عباس ومجاهد: هم الثلاثة الذين خلفوا، أي عن التوبة، وهم (مرارة بن الربيع) و (كعب بن مالك) و (هلال بن أمية)، قعدوا عن غزوة تبوك في جملة من قعد كسلاً وميلاً إلى الدعة والحفظ وطيب الثمار والظلال، لا شكاً ولا نفاقاً، فكانت منهم طائفة ربطوا أنفسهم بالسواري كما فعل أبو لبابة وأصحابه، وطائفة لم يفعلوا ذلك، وهم هؤلاء الثلاثة المذكورون، فتزلت توبة أولئك قبل هؤلاء، وأرجي هؤلاء عن التوبة، حتى نزلت الآية الآتية وهي قوله: ﴿لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار﴾ الآية، وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت ﴿الآية﴾، كما سيأتي بيانه في حديث كعب بن مالك، وقوله: ﴿إما يعذبهم وإما يتوب عليهم﴾ أي هم تحت عفو الله إن شاء فعل بهم هذا، وإن شاء فعل بهم ذاك، ولكن رحمته تغلب غضبه، ﴿والله عليم حكيم﴾ أي عليم بمن يستحق العقوبة ممن يستحق العفو، ﴿حكيم﴾ في أفعاله وأقواله لا إله إلا هو ولا رب سواه .

(١) أخرجه أحمد والطيالسي .

(٢) أخرجه أحمد عن أنس بن مالك .

وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يُشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدِ أُسَسِّ عَلَىٰ التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ ﴿١٠٨﴾

سبب نزول هذه الآيات الكريمات أنه كان بالمدينة قبل مقدم رسول الله ﷺ إليها رجل من الخزرج يقال له (أبو عامر الراهب) وكان قد تنصر في الجاهلية، وقرأ علم أهل الكتاب، وله شرف في الخزرج كبير، فلما قدم رسول الله ﷺ مهاجراً إلى المدينة واجتمع المسلمون عليه، وصارت للإسلام كلمة عالية، وأظهرهم الله يوم بدر، شرق اللعين (أبو عامر) بريقه، وبارز بالعداوة وظاهر بها، وخرج فاراً إلى كفار مكة من مشركي قريش، يمالئهم على حرب رسول الله ﷺ، فاجتمعوا بمن وافقهم من أحياء العرب، وقدموا عام أحد، فكان من أمر المسلمين ما كان وامتحنهم الله عز وجل، وكانت العاقبة للمتقين، وكان هذا الفاسق قد حفر حفائر فيما بين الصنفين، فوقع في إحداهن رسول الله ﷺ، وأصيب ذلك اليوم فجرح وجهه وكسرت ربايعيته اليمنى السفلى، وشج رأسه صلوات الله وسلامه عليه، وتقدم (أبو عامر) في أول المبارزة إلى قومه من الأنصار فخطبهم واستألمهم إلى نصره وموافقته، فلما عرفوا كلامه قالوا: لا أنعم الله بك عيناً يا فاسق يا عدو الله، ونالوا منه وسبوه، فرجع وهو يقول: والله قد أصاب قومي بعدي شر، وكان رسول الله ﷺ قد دعاه إلى الله قبل فراره وقرأ عليه من القرآن، فأبى أن يسلم وتمرد، فدعا عليه رسول الله ﷺ أن يموت بعيداً طريداً، فنالتة هذه الدعوة. وذلك لما فرغ الناس من أحد، ورأى أمر الرسول ﷺ في ارتفاع وظهور، ذهب إلى (هرقل) ملك الروم يستنصره على النبي ﷺ، فوعده ومناه وأقام عنده، وكتب إلى جماعة من قومه من الأنصار من أهل النفاق والريب يعدمهم ويمنيمهم أنه سيقدم بجيش يقاتل به رسول الله ﷺ ويغلبه ويرده عما هو فيه، وأمرهم أن يتخذوا له معقلاً يقدم عليهم فيه من يقدم من عنده لأداء كتبه، ويكون مرصداً له إذا قدم عليهم بعد ذلك، فشرعوا في بناء مسجد مجاور لمسجد قباء، فبنوه وأحكموه وفرغوا منه قبل خروج رسول الله ﷺ إلى تبوك، وجاءوا فسألوا رسول الله ﷺ أن يأتي إليهم فيصلي في مسجدهم ليحتجوا بصلاته فيه على تقريره وإثباته، وذكروا أنهم بنوه للضعفاء منهم وأهل العلة في الليلة الشاتية، فعصمه الله من الصلاة فيه فقال: «إنا على سفر، ولكن إذا رجعنا إن شاء الله»، فلما قفل عليه السلام راجعاً إلى المدينة من تبوك ولم يبق بينه وبينها إلا يوم أو بعض يوم، نزل عليه جبريل بنحبر مسجد الضرار، وما اعتمده بانوه من الكفر والتفريق بين جماعة المؤمنين في مسجدهم (مسجد قباء) الذي أسس من أول يوم على التقوى، فبعث رسول الله ﷺ إلى ذلك المسجد من هدمه قبل مقدمه المدينة، كما قال ابن عباس في الآية: هم أناس من الأنصار بنوا مسجداً، فقال لهم أبو عامر: ابنوا مسجداً واستعدوا بما استطعتم من قوة ومن سلاح، فإني ذاهب إلى قيصر ملك الروم فأتي بجنود من الروم وأخرج محمداً وأصحابه، فلما فرغوا من مسجدهم أتوا النبي ﷺ فقالوا: قد فرغنا من بناء مسجدنا، فنحِب أن تصلي فيه وتدعو لنا بالبركة، فأنزل الله عز وجل: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾ الآية.

وقوله تعالى: ﴿وليحلفن﴾: أي الذين بنوه، ﴿إن أردنا إلا الحسنى﴾ أي ما أردنا بينانه إلا خيراً ورفقاً

بالناس، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ أي فيما قصلوا وفيما نواوا، وإنما بنوه ضراراً لمسجد قباء، وكفراً بالله وتفريقاً بين المؤمنين، وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل، وهو أبو عامر الفاسق لعنه الله. وقوله: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾ نهي له ﷺ والأمة تبع له في ذلك عن أن تقوم فيه: أي يصلي أبداً، ثم حثه على الصلاة بمسجد قباء الذي أسس من يوم بنيانه على التقوى، وهي طاعة الله وطاعة رسوله وجمعاً لكلمة المؤمنين وموثلاً للإسلام وأهله، ولهذا قال تعالى: ﴿لِمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ﴾، والسياق إنما هو في معرض مسجد قباء، ولهذا جاء في الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «صلاة في مسجد قباء كعمرة»، وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ كان يزور مسجد قباء ركباً وماشياً، وفي الحديث: أن رسول الله ﷺ لما بناه وأسس أول قدمه ونزوله على بني عمرو بن عوف، كان جبريل هو الذي عين له جهة القبلة والله أعلم. قال الإمام أحمد، عن عويم ابن ساعدة الأنصاري أن النبي ﷺ أتاهم في مسجد قباء فقال: «إن الله تعالى قد أحسن عليكم الثناء في الظهور في قصة مسجدكم فما هذا الظهور الذي تطهرون به؟» فقالوا: والله يا رسول الله ما نعلم شيئاً إلا أنه كان لنا جيران من اليهود، فكانوا يغسلون أديبارهم من الغائط، فغسلنا كما غسلوا. وقد صرح بأنه مسجد قباء جماعة من السلف^(١)، وقد ورد في الحديث الصحيح أن مسجد رسول الله ﷺ الذي في جوف المدينة هو المسجد الذي أسس على التقوى؛ وهذا صحيح، ولا منافاة بين الآية وبين هذا لأنه إذا كان مسجد قباء قد أسس على التقوى من أول يوم، فمسجد رسول الله ﷺ بطريق الأولى والأخرى؛ ولهذا قال الإمام أحمد بن حنبل في مسنده، عن سهل بن سعد الساعدي قال: اختلف رجلان على عهد رسول الله ﷺ في المسجد الذي أسس على التقوى، أحدهما قال: هو مسجد رسول الله ﷺ، وقال الآخر: هو مسجد قباء، فأتيا النبي ﷺ فسألاه فقال: «هو مسجدي هذا». وفي رواية أخرى عن أبي سعيد الخدري قال: تمارى رجلان في المسجد الذي أسس على التقوى من أول يوم، فقال أحدهما: هو مسجد قباء، وقال الآخر: هو مسجد رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «هو مسجدي هذا»^(٢). وقال الإمام أحمد، عن أبي سعيد عن أبيه أنه قال: تمارى رجلان في المسجد الذي أسس على التقوى من أول يوم، فقال رجل: هو مسجد قباء، وقال الآخر: هو مسجد رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «هو مسجدي»^(٣).

(طريق آخر) : قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى عن أنيس بن يحيى، حدثني أبي، قال: سمعت أبا سعيد الخدري قال: اختلف رجلان، رجل من بني خلدرة، ورجل من بني عمرو بن عوف في المسجد الذي أسس على التقوى، فقال الخدري: هو مسجد رسول الله ﷺ، وقال العمري: هو مسجد قباء، فأتيا رسول الله ﷺ فسألاه عن ذلك، فقال: «هو هذا المسجد»، لمسجد رسول الله ﷺ، وقال في ذلك يعني مسجد قباء. وقد قال: بأنه مسجد النبي ﷺ جماعة من السلف والخلف، وهو مروى عن عمر بن الخطاب وابنه عبد الله، وزيد بن ثابت، وسعيد بن المسيب، واختاره ابن جرير، وقوله: ﴿لِمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ رِجَالٌ

(١) منهم ابن عباس وعروة بن الزبير وعبدالرحمن بن زيد بن أسلم والشعبي والحسن البصري وسعيد بن جبان وقتادة وغيرهم.

(٢) رواهما الإمام أحمد رضي الله عنه.

(٣) رواه أحمد والترمذي والنسائي.

يحبون أن يتطهروا والله يحب المتطهرين ﴿١٠٩﴾، دليل على استحباب الصلاة في المساجد القديمة المؤسسة من أول بنائها على عبادة الله وحده لا شريك له، وعلى استحباب الصلاة مع الجماعة الصالحين، والعباد العاملين المحافظين على إسباغ الوضوء، والتزهد عن ملابس القاذورات، وقال الإمام أحمد: عن رجل من أصحاب رسول الله ﷺ أن رسول الله ﷺ صلى بهم الصبح، فقرأ الروم فيها فأوهم، فلما انصرف قال: «إنه يلبس علينا القرآن، إن أقواماً منكم يصلون معنا لا يحسنون الوضوء، فمن شهد الصلاة معنا، فليحسن الوضوء»، فدل هذا على أن إكمال الطهارة يسهل القيام في العبادة ويعين على إتقانها وإكمالها والقيام بمشروعاتها، وقال أبو العالية في قوله تعالى: ﴿والله يحب المتطهرين﴾ إن الظهور بالماء لحسن ولكنهم المطهرون من الذنوب، وقال الأعمش: التوبة من الذنوب والتطهر من الشرك.

أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٍ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شِقَا جُرْفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١١٠﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١١﴾

يقول تعالى: لا يستوي من أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان، ومن بنى مسجداً ضراراً وكفراً وتفريقاً بين المؤمنين، فإنما يبني هؤلاء بنيانهم على شفا جرف هار، أي طرف حفيرة في نار جهنم، ﴿والله لا يهدي القوم الظالمين﴾ أي لا يصلح عمل المفسدين، قال جابر: رأيت المسجد الذي بنى ضراراً يخرج منه الدخان على عهد رسول الله ﷺ، وقال ابن جريج: ذكر لنا أن رجالاً حفرُوا فوجدوا الدخان الذي يخرج منه، وكذا قال قتادة. وقال خلف الكوفي: رأيت مسجد المنافقين الذي ذكره الله تعالى في القرآن، وفيه جحر يخرج منه الدخان وهو اليوم مزبلة، وقوله تعالى: ﴿لا يزال بنيانهم الذي بنوا ريبة في قلوبهم﴾ أي شكاً ونفاقاً بسبب إقدامهم على هذا الصنيع الشنيع، أورثهم نفاقاً في قلوبهم كما أشرب عابِدو العجل حبه، وقوله: ﴿إلا أن تقطع قلوبهم﴾ أي بموتهم، قاله ابن عباس ومجاهد وغير واحد من السلف، ﴿والله عليم﴾ أي بأعمال خلقه، ﴿حكيم﴾ في مجازاتهم عنها من خير وشر.

* إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًّا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْبَةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١١﴾

يخبر تعالى أنه عاوض من عباده المؤمنين عن أنفسهم وأموالهم - إذ بذلوها في سبيله - بالجنة، وهذا من فضله وكرمه وإحسانه، فإنه قبل العوض عما يملكه بما تفضل به على عبده المطيعين له. ولهذا قال الحسن البصري

وقتادة: بايعهم والله فأغلى ثمنهم، وقال شمر بن عطية: ما من مسلم إلا والله عز وجل في عنقه بيعة وفي بها أو مات عليها، ثم تلا هذه الآية، وقال (عبد الله بن رواحة) رضي الله عنه لرسول الله ﷺ يعني ليلة العقبة: اشترط لربك ولنفسك ما شئت فقال: «اشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، وأشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم»، قالوا: فما لنا إذا فعلنا ذلك؟ قال: «الجنة»، قالوا: ربح البيع لا نقبل ولا نستقبل، فترلت: ﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم﴾ الآية، وقوله: ﴿يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون﴾ أي سواء قتلوا أو قُتلوا، أو اجتمع لهم هذا وهذا، فقد وجبت لهم الجنة، ولهذا جاء في الصحيحين: «تكفل الله لمن خرج في سبيله لا يخرجه إلا جهاد في سبيلي وتصديق برسلي بأن توفاه أن يدخله الجنة، أو يرجعه إلى منزله الذي خرج منه نائلاً ما نال من أجر أو غنيمة»، وقوله: ﴿وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن﴾ تأكيد لهذا الوعد، وإخبار بأنه قد كتبه على نفسه الكريمة وأنزله على رسله في كتبه العظيمة وهي ﴿التوراة﴾ المنزلة على موسى، و﴿الإنجيل﴾ المنزل على عيسى، و﴿القرآن﴾ المنزل على محمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وقوله: ﴿ومن أوفى بعهده من الله﴾ فإنه لا يخلف الميعاد، وهذا كقوله: ﴿ومن أصدق من الله حديثاً﴾، ﴿ومن أصدق من الله قيلاً﴾، ولهذا قال: ﴿فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم﴾ أي فليستبشروا من قام بمقتضى هذا العقد، ووفى بهذا العهد، بالفوز العظيم والنعيم المقيم.

* التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّاجِدُونَ الرَّكِعُونَ السَّائِحُونَ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ أَمْرًا مَعْرُوفًا وَنَهْيًا

عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٦﴾

هذا نعت المؤمنين الذين اشترى الله منهم أنفسهم وأموالهم بهذه الصفات الجميلة والخلال الجليلة، ﴿التائبون﴾ من الذنوب كلها، التاركون للفواحش، ﴿العابدون﴾ أي القائمون بعبادة ربهم محافظين عليها، ومن أخصها الحمد لله، ولهذا قال: ﴿الحامدون﴾، ومن أفضل الأعمال الصيام، وهو ترك الملاذ من الطعام والشراب والجماع، وهو المراد بالسياحة ههنا، قال: ﴿السائحون﴾ كما وصف أزواج النبي ﷺ بذلك في قوله تعالى: ﴿سائحات﴾ أي صائمات، وكذا الركوع والسجود وهما عبارة عن الصلاة، ولهذا قال: ﴿الراكعون الساجدون﴾، وهم مع ذلك ينفعون خلق الله ويرشدونهم إلى طاعة الله بأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، مع العلم بما ينبغي فعله ويجب تركه، وهو حفظ حدود الله في تحليله وتحريمه علماً وعملاً، فقاموا بعبادة الحق ونصح الخلق، ولهذا قال: ﴿وبشر المؤمنين﴾ لأن الإيمان يشمل هذا كله، والسعادة كل السعادة لمن اتصف به، والسياحة يراد بها الصيام فقد سئل النبي ﷺ عن السائحين؟ فقال: «هم الصائمون»، وهذا أصح الأقوال وأشهرها. وجاء ما يدل على أن السياحة الجهاد، وهو ما رواه أبو داود في سننه من حديث أبي أمامة أن رجلاً قال: يارسول الله ائذن لي في السياحة، فقال النبي ﷺ: «سياحة أمتي الجهاد في سبيل الله». وعن عكرمة أنه قال: هم طلبة العلم، وقال ابن أسلم: هم المهاجرون، وليس المراد من السياحة ما قد يفهمه بعض من يتعبد بمجرد السياحة في الأرض، والتفرد في شواهد الجبال، والكهوف والبراري، فإن هذا ليس بمشروع إلا في أيام الفتن والزلازل في الدين، كما ثبت في

صحيح البخاري عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: «يوشك أن يكون خير مال الرجل غنم يتبع بها شعف الجبال^(١) ومواقع القطر يفر بدينه من الفتن»، وقال ابن عباس في قوله: ﴿وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ﴾ قال: القائمون بطاعة الله، وكذا قال الحسن البصري، وعنه قال: لفرائض الله، والقائمون على أمر الله.

مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أَوْلَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَّهَا أَيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾

لما حضرت أبا طالب الوفاة دخل عليه النبي ﷺ وعنده أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية فقال: «أي عم! قل: لا إله إلا الله، كلمة أحاج لك بها عند الله عز وجل»، فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية: يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فقال: أنا على ملة عبد المطلب! فقال النبي ﷺ: «لأستغفرن لك ما لم أنه عنك»، فزلت: ﴿ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم﴾، قال، ونزلت فيه: ﴿إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء﴾^(٢). وقال الإمام أحمد، عن ابن بريدة عن أبيه قال: كنا مع النبي ﷺ ونحن في سفر، فنزل بنا ونحن قريب من ألف راكب، فصلى ركعتين، ثم أقبل علينا بوجهه وعيناه تذرفان، فقام إليه عمر بن الخطاب وفداه بالأب والأم وقال: يا رسول الله ما لك؟ قال: «إني سألت ربي عز وجل في الاستغفار لأمي فلم يأذن لي، فدمعت عيني رحمة لها من النار، وإني كنت نهيتكم عن ثلاث: نهيتكم عن زيارة القبور، فزوروها لتذكركم زيارتها خيراً، ونهيتكم عن لحوم الأضاحي بعد ثلاث، فكلوا وامسكوا ما شئتم، ونهيتكم عن الأشربة في الأوعية فاشربوا في أي وعاء شئتم ولا تشربوا مسكراً».

وقال ابن أبي حاتم، عن عبد الله بن مسعود قال: خرج رسول الله ﷺ يوماً إلى المقابر، فاتبعناه فجاء حتى جلس إلى قبر منها، فناجاه طويلاً، ثم بكى فبكينا لبكائه، ثم قام إليه عمر بن الخطاب، فدعاه ثم دعانا فقال: «ما أبكاكم؟» فقلنا: بكينا لبكائك، قال: «إن القبر الذي جلست عنده قبر آمنة، وإني استأذنت ربي في زيارتها فأذن لي»، ثم أوردته من وجه آخر وفيه: «وإني استأذنت ربي في الدعاء لها فلم يأذن لي وأنزل عليّ: ﴿ما كان للنبي والذين آمنوا﴾ الآية، فأخذني ما يأخذ الولد للوالد، وكنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها فإنها تذكر الآخرة».

وقال ابن عباس في هذه الرواية: كانوا يستغفرون لهم، حتى نزلت هذه الآية فأمسكوا عن الاستغفار لمواتهم ولم ينهوا أن يستغفروا للأحياء حتى يموتوا، ثم أنزل الله تعالى: ﴿وما كان استغفار إبراهيم لأبيه﴾ الآية، وقال قتادة في الآية: ذكر لنا أن رجلاً من أصحاب النبي ﷺ قالوا: يا نبي الله إن من آباءنا من كان يحسن الجوار، ويصل الأرحام، ويفك العاني، ويوفي بالذم، أفلا نستغفر لهم؟ قال: فقال النبي ﷺ: «بلى، والله إني لأستغفر

(١) شعف الجبال: أي رؤوس الجبال. (٢) أخرجه الشيخان وأحمد عن ابن المسيب.

لأبي كما استغفر إبراهيم لأبيه»، فأنزل الله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾، ثم عذر الله تعالى إبراهيم عليه السلام فقال: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ﴾ الآية، وقال الثوري، عن ابن عباس: مات رجل يهودي وله ابن مسلم فلم يخرج معه، فذكر ذلك لابن عباس، فقال: فكان ينبغي له أن يمشي معه ويدفنه ويدعو له بالصلاح ما دام حياً، فإذا مات وكله إلى شأنه، ثم قال: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ - إِلَى قَوْلِهِ - تَبْرَأُ مِنْهُ﴾، ويشهد له بالصحة ما رواه أبو داود وغيره عن علي رضي الله عنه: لما مات أبو طالب قلت: يا رسول الله إن عمك الشيخ الضال قد مات، قال: «أذهب فواره ولا تحدثن شيئاً حتى تأتيني»، فذكر تمام الحديث. وقال ابن عباس: ما زال إبراهيم يستغفر لأبيه حتى مات، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه. وفي رواية: لما مات تبين له أنه عدو الله، وكذا قال مجاهد والضحاك، وقوله: ﴿إِنْ إِبْرَاهِيمَ لِأَوَاهِ حَلِيمٍ﴾، قال ابن مسعود: الأواه الدعاء؛ وقال ابن جرير: قال رجل: يا رسول الله ما الأواه؟ قال: «المتضرع»، وقال الثوري: سئل ابن مسعود عن الأواه، فقال: هو الرحيم أي بعباد الله، وقال ابن عباس: الأواه الموقن، بلسان الحبيشة. وعنه: الأواه المؤمن. وقال سعيد بن جبير والشعبي: الأواه المسبّح، وعن أبي اللرداء رضي الله عنه قال: لا يحافظ على سبحة الضحى إلا الأواه، وعن مجاهد: الأواه الحفيظ، الرجل يذنب الذنب سراً ثم يتوب منه سراً، ذكر ذلك كله ابن أبي حاتم رحمه الله. وقال ابن جرير: إن رجلاً كان يكثر ذكر الله ويسبح، فذكر ذلك للنبي ﷺ فقال: «إنه أواه»، وقال أيضاً عن ابن عباس أن النبي ﷺ دفن ميتاً فقال: «رحمك الله إن كنت لأواهاً» يعني تلاءم للقرآن، قال ابن جرير: وأولى الأقوال قول من قال إنه الدعاء وهو المناسب للسياق، وذلك أن الله تعالى لما ذكر أن إبراهيم إنما استغفر لأبيه مع شدة أذاه له في قوله: ﴿أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمَ لَئِنْ لَمْ تَنْتَه لِأَرْجَمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ قال سلام عليك سأستغفر لك ربي إنه كان بي حفيماً ﴿فحلم عنه مع أذاه له ودعا له واستغفر، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنْ إِبْرَاهِيمَ لِأَوَاهِ حَلِيمٍ﴾.

وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَهُمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۗ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾

يقول تعالى مخبراً عن نفسه الكريمة وحكمه العادل، إنه لا يضل قوماً إلا بعد إبلاغ الرسالة إليهم، حتى يكونوا قد قامت عليهم الحجة، كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ﴾ الآية، قال ابن جرير: يقول تعالى: وما كان الله ليقتضي عليكم في استغفاركم لموتاكم المشركين بالضلال بعد إذ رزقكم الهداية ووفقكم للإيمان به وبرسوله، حتى يتقدم إليكم بالنهي عنه فتركوا، فأما قبل أن يبين لكم كراهة ذلك فإنه لا يحكم عليكم بالضلال، فإن الطاعة والمعصية إنما يكونان من المأمور والمنهي، وأما من لم يؤمر ولم ينه فغير كائن مطيعاً أو عاصياً فيما لم يؤمر به ولم ينه عنه، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ قال ابن جرير: هذا تحريض من الله تعالى لعباده المؤمنين في قتال المشركين وملوك الكفر، وأنهم يثقوا بنصر الله مالك السموات والأرض، ولا يرهبوا من أعدائه، فإنه لا ولي لهم من دون الله، ولا نصير لهم سواه. وقال ابن أبي حاتم، عن حكيم ابن حزام قال: بينا رسول الله ﷺ بين أصحابه إذ قال لهم: «هل تسمعون ما أسمع؟»، قالوا:

ما نسمع من شيء، فقال رسول الله ﷺ: «إني لأسمع أطيط السماء، وما تلام أن تثط، وما فيها من موضع شبر إلا وعليه ملك ساجد أو قائم».

لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾

نزلت هذه الآية في غزوة تبوك، وذلك أنهم خرجوا إليها في سنة مجدبة وحر شديد، وعسر من الزاد والماء، عن عبد الله بن عباس قال: قيل لعمر بن الخطاب في شأن العسرة، فقال عمر خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى تبوك في قيظ شديد، فترلنا متراً فأصابنا فيه عطش، حتى ظننا أن رقابنا ستقطع، وحتى وإن كان الرجل ليذهب يلتمس الماء فلا يرجع حتى يظن أن رقبته ستقطع، وحتى أن الرجل لينحر بغيره فيعصر فرثه فيشربه ويجعل ما بقي على كبده، فقال أبو بكر: يا رسول الله! إن الله عز وجل قد عودك في الدعاء خيراً فادع لنا، فقال: «تحب ذلك؟» قال: نعم، فرفع يديه فلم يرجعهما حتى سألت السماء فأهطلت ثم سكنت، فلوأوا ما معهم، ثم ذهبنا ننظر فلم نجد لها جاوزت العسكر^(١)، قال ابن جرير في قوله: ﴿لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة﴾ أي من النفقة والظهر والزاد والماء، ﴿من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم﴾ أي عن الحق، ويشك في دين الرسول ﷺ، ويرتاب للذي نالهم من المشقة والشدة في سفرهم وغزوهم، ﴿ثم تاب عليهم﴾ يقول: ثم رزقهم الإنابة إلى ربهم والرجوع إلى الثبات على دينه ﴿إنه بهم رؤوف رحيم﴾.

وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا ۗ إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَتَأَيَّأُ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَتَقُوا اللَّهَ وَكَوْنُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴿١١٩﴾

قال الإمام أحمد، عن عبيد الله بن كعب بن مالك، وكان قائد كعب من بنيه حين عمي قال: سمعت كعب ابن مالك يحدث حديثه حين تخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، فقال كعب بن مالك: لم أتخلف عن رسول الله ﷺ في غزاة غزاها قط إلا في غزاة تبوك، غير أنني كنت تخلفت في غزاة بدر ولم يعاتب أحد تخلف عنها، وإنما خرج رسول الله ﷺ يريد غير قريش، حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير معاد، ولقد شهدت مع رسول الله ﷺ ليلة العقبة حين تواقنا على الإسلام، وما أحب أن لي بها مشهد بدر، وإن كانت بدر أذكر في الناس منها وأشهر. وكان من خبري حين تخلفت عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك أنني لم أكن قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنه في تلك الغزاة، والله ما جمعت قبلها راحلتين قط حتى جمعتهما في تلك الغزاة،

(١) أخرجه ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما .

وكان رسول الله ﷺ قلما يريد غزوة يغزوها إلا ورى بغيرها، حتى كانت تلك الغزوة فغزاها رسول الله ﷺ في حر شديد، واستقبل سفراً بعيداً ومفاوز، واستقبل عدواً كثيراً فجلى للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة عدوهم، فأخبرهم وجهه الذي يريد، والمسلمون مع رسول الله ﷺ كثير لا يجمعهم كتاب حافظ - يريد الديوان - قال كعب: فقل رجل يريد أن يتغيب إلا ظن أن ذلك سيخفى عليه ما لم ينزل فيه وحي من الله عز وجل؛ وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزاة حين طابت الثمار والظلال، وأنا إليها أصعر، فتجهز إليها رسول الله ﷺ والمؤمنون معه، فطفقت أعدو لكي أنجز معهم، فأرجع ولم أقض من جهازي شيئاً، فأقول لنفسي: أنا قادر على ذلك إذا أردت، فلم يزل ذلك يتمادى بي، حتى استمر بالناس الجدد، فأصبح رسول الله ﷺ غادياً والمسلمون معه، ولم أقض من جهازي شيئاً، وقلت: أتجهز بعد يوم أو يومين ثم ألحقه، فغدوت بعد ما فصلوا لأتجهز فرجعت ولم أقض من جهازي شيئاً، ثم غدوت فرجعت ولم أقض شيئاً، فلم يزل ذلك يتمادى بي حتى أسرعوا وتفارط الغزو، فهممت أن أرتحل فألحقهم وليت أي فعلت، ثم لم يقدر ذلك لي، فطفقت إذا خرجت في الناس بعد رسول الله ﷺ يحزني أني لا أرى إلا رجلاً مغموصاً عليه في النفاق، أو رجلاً ممن عذره الله عز وجل، ولم يذكرني رسول الله ﷺ حتى بلغ تبوك، فقال وهو جالس في القوم بتبوك: « ما فعل كعب بن مالك »؟ فقال رجل من بني سلمة: حبسه يارسول الله برداه والنظر في عطفه، فقال معاذ بن جبل: بشما قلت، والله يارسول الله ما علمنا عنه إلا خيراً. فسكت رسول الله ﷺ.

قال كعب بن مالك: فلما بلغني أن رسول الله ﷺ قد توجه قافلاً من تبوك حضرني بثي، وطفقت أتذكر الكذب، وأقول: بماذا أخرج من سخطه غداً، وأستعين على ذلك بكل ذي رأي من أهلي، فلما قيل: إن رسول الله ﷺ قد أظلم قادماً راح عني الباطل، وعرفت أني لم أنج منه بشيء أبداً، فأجمعت صدقه. فأصبح رسول الله ﷺ، وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فصلى ركعتين، ثم جلس للناس، فلما فعل ذلك جاءه المتخلفون فطفقوا يعتذرون إليه ويحلفون له، وكانوا بضعة وثمانين رجلاً، فيقبل منهم رسول الله ﷺ علانيتهم، ويستغفر لهم ويكل سرائرهم إلى الله تعالى، حتى جئت فلما سلمت عليه تبسم تبسم الغضب، ثم قال لي: « تعال »، فجئت أمشي حتى جلست بين يديه، فقال لي: « ما خلفك، ألم تكن قد اشتريت ظهراً؟ » فقلت: يارسول الله إني لو جلست عند غيرك من الدنيا لرأيت أن أخرج من سخطه بعذر، لقد أعطيت جدلاً، ولكني والله لقد علمت لئن حدثتك بحديث كذب ترضى به عني ليوشكن الله أن يسخطك عليّ، ولئن حدثتك بصدق تجد عليّ فيه إني لأرجو عقيب ذلك من الله عز وجل؛ والله ما كان لي عذر، والله ما كنت قط أفرغ ولا أيسر مني حين تخلفت عنك، قال، فقال رسول الله ﷺ: « أما هذا فقد صدق، فقم حتى يقضي الله فيك »، فقممت، وقام إلي رجال من بني سلمة واتبعوني، فقالوا: والله ما علمناك كنت أذنبت ذنباً قبل هذا، ولقد عجزت أن لا تكون اعتذرت إلى رسول الله ﷺ بما اعتذر به المتخلفون، فقد كان كافيك من ذنبك استغفار رسول الله ﷺ، قال: والله ما زالوا يؤنبوني حتى أردت أن أرجع فأكذب نفسي، قال: ثم قلت لهم: هل لقيت معي هذا أحد؟ قالوا: نعم لقيه معك رجلان، قالوا مثل ما قلت، وقيل لهما مثل ما قيل لك، فقلت: فمن هما؟ قالوا: مرارة بن الربيع العامري وهلال بن أمية الواقفي، فذكروا لي رجلين صالحين قد شهدا بدرًا فيهما أسوة، قال: فضيت حين ذكروهما لي؛

قال: ونهى رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلف عنه، فاجتنبنا الناس، وتغيروا لنا، حتى تنكرت لي في نفسي الأرض، فما هي بالأرض التي كنت أعرف، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة. ثم ذكر تمة الحديث^(١).

قال وأنزل الله تعالى: ﴿لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة من بعدما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ثم تاب عليهم إنه بهم رؤوف رحيم﴾ وعلى الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم* يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين ﴿. ولما ذكر تعالى ما فرج به عن هؤلاء الثلاثة من الضيق والكره من هجر المسلمين إياهم نحواً من خمسين ليلة بأيامها وضاقت عليهم أنفسهم وضاقت عليهم الأرض بما رحبت أي مع سعتها، فسدت عليهم المسالك والمذاهب، فلا يهتدون ما يصنعون، فصبروا لأمر الله واستكانوا لأمر الله، وثبتوا حتى فرج الله عنهم بسبب صدقهم رسول الله ﷺ في تخلفهم، وانه كان عن غير عذر، فعوقبوا على ذلك هذه المدة ثم تاب الله عليهم، فكان عاقبة صدقهم خيراً لهم وتوبة عليهم، ولهذا قال: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين﴾ أي اصدقوا والزموا الصدق تكونوا من أهله وتنجوا من المهالك، ويجعل لكم فرجاً من أموركم ومخرجاً، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال: الكذب لا يصلح منه جد ولا هزل، اقرأوا إن شتمت: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين﴾، وقال الحسن البصري: إن أردت أن تكون مع الصادقين فعليك بالزهد في الدنيا والكف عن أهل الملة.

ج
مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكِ بَأْنَهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمًا وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْعُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوِّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾

يعاتب تبارك وتعالى المتخلفين عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك من أهل المدينة ومن حولها من أحياء العرب، ورجبتهم بأنفسهم عن مواساته فيما حصل له من المشقة، فإنهم نقصوا أنفسهم من الأجر، لأنهم ﴿لا يصيبهم ظمًا﴾ وهو العطش ﴿ولا نصب﴾ وهو التعب ﴿ولا مخمصة﴾ وهي المجاعة ﴿ولا يطنون موطئاً يغيب الكفار﴾ أي يتزلوا منزلاً يرهب عدوهم، ﴿ولا ينالون﴾ منه ظفراً وغلبة عليه، ﴿إلا كتب لهم﴾ بهذه الأعمال التي ليست داخلة تحت قدرهم وإنما هي ناشئة عن أفعالهم أعمالاً صالحة وثواباً جزيلاً، ﴿إن الله لا يضيع أجر المحسنين﴾، كقوله: ﴿إننا لا نضيع أجر من أحسن عملاً﴾.

وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾

يقول تعالى ولا ينفق هؤلاء الغزاة في سبيل الله ﴿نفقة صغيرة ولا كبيرة﴾ أي قليلاً ولا كثيراً، ﴿ولا يقطعون

(١) أخرجه الشيخان وأحمد، وله تمة طويلة في توبة الله عز وجل عليه يرجع إليها في الصحيحين.

وإدياً ﴿ إلا كتب لهم ﴾، ولم يقل ههنا به لأن هذه أفعال صادرة عنهم، ولهذا قال: ﴿ ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون ﴾، وقد حصل لأmir المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه من هذه الآية الكريمة حظ وافر وصيب عظيم؛ وذلك أنه أنفق في هذه الغزوة النفقات الجليلة والأموال الجزيلة، كما روي أن رسول الله ﷺ خطب فحث على جيش العسرة، فقال عثمان بن عفان رضي الله عنه: عليّ مائة بغير بأحلاسها وأقتابها قال: ثم حث، فقال عثمان: عليّ مائة بغير أخرى بأحلاسها وأقتابها، قال: ثم نزل مرقاة من المنبر، ثم حث، فقال عثمان بن عفان: عليّ مائة أخرى بأحلاسها وأقتابها، قال: فرأيت رسول الله ﷺ قال بيده هكذا يحركها، « ما على عثمان ما عمل بعد هذا ». وعن عبدالرحمن بن سمرة قال: جاء عثمان رضي الله عنه إلى النبي ﷺ بألف دينار في ثوبه حين جهز النبي ﷺ جيش العسرة، قال: فصباها في حجر النبي ﷺ، فرأيت النبي ﷺ يقلبها بيده، ويقول: « ما ضر ابن عفان ما عمل بعد اليوم » يرددها مراراً، وقال قتادة في قوله تعالى: ﴿ ولا يقطعون وادياً إلا كتب لهم ﴾ الآية، ما ازداد قوم في سبيل الله بعداً من أهلهم إلا ازدادوا قرباً من الله .

* وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرْنَا مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لَيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾

هذا بيان من الله تعالى لما أراد من نفي الأحياء مع الرسول ﷺ في غزوة تبوك، عن ابن عباس في الآية: ﴿ وما كان المؤمنون لينفروا كافة ﴾، يقول: ما كان المؤمنون لينفروا جميعاً ويتركوا النبي ﷺ وحده: ﴿ فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ﴾ يعني عصابة، يعني السرايا ولا يسيروا إلا بإذنه، فإذا رجعت السرايا وقد أنزل بعدهم قرآن تعلمه القاعدون من النبي ﷺ، وقالوا: إن الله قد أنزل على نبيكم قرآناً، وقد تعلمناه فتمكث السرايا يتعلمون ما أنزل الله على نبيهم بعدهم، ويبعث سرايا أخرى، فذلك قوله: ﴿ ليتفقهوا في الدين ﴾ يقول: ليعلموا ما أنزل الله على نبيهم، وليعلموا السرايا إذا رجعت إليهم ﴿ لعلهم يحذرون ﴾ . وقال مجاهد: نزلت هذه الآية في أناس من أصحاب النبي ﷺ خرجوا في البوادي، فأصابوا من الناس معروفاً، ومن الخصب ما ينتفعون به، ودعوا من وجدوا من الناس إلى الهدى، فقال الناس لهم: ما نراكم إلا وقد تركتم أصحابكم وجئتمونا، فوجدوا من أنفسهم من ذلك تخرجاً، وأقبلوا من البادية كلهم حتى دخلوا على النبي ﷺ، فقال الله عز وجل: ﴿ فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ﴾ ييغون الخير ﴿ ليتفقهوا في الدين ﴾ وليستمعوا إلى ما أنزل الله، ﴿ ولينذروا قومهم ﴾ الناس كلهم ﴿ إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون ﴾، وقال الضحاك: كان رسول الله ﷺ إذا غزا بنفسه لم يحل لأحد من المسلمين أن يتخلف عنه إلا أهل الأعدار، وكان إذا أقام وأرسل السرايا لم يحل لهم أن ينطلقوا إلا بإذنه، وكان الرجل إذا غزا فتزل بعده قرآن وتلاه نبي الله ﷺ على أصحابه القاعدين معه، فإذا رجعت السرية قال لهم الذين أقاموا مع رسول الله ﷺ: إن الله أنزل بعدكم على نبيه قرآناً فيقرئونها ويفقهونها في الدين، وهو قوله: ﴿ وما كان المؤمنون لينفروا كافة ﴾، يقول: إذا أقام رسول الله ﷺ فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ﴿ يعني ذلك أنه لا ينبغي للمسلمين أن ينفروا جميعاً، ونبي الله ﷺ قاعد، ولكن إذا قعد نبي الله فسرت السرايا

وقعد معه معظم الناس . وقال عكرمة: لما نزلت هذه الآية: ﴿ الا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً ﴾ ، ﴿ وما كان لأهل المدينة ﴾ الآية ، قال المنافقون: هلك أصحاب البدو والذين تخلفوا عن محمد ولم ينفروا معه، وقد كان ناس من أصحاب النبي ﷺ خرجوا إلى البدو إلى قومهم يفقهونهم ، فأُنزل الله عزّ وجلّ: ﴿ وما كان المؤمنون لينفروا كافة ﴾ الآية .

يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً ۗ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾

أمر الله تعالى المؤمنين أن يقاتلوا الكفار الأقرب فالأقرب إلى حوزة الإسلام، ولهذا بدأ رسول الله ﷺ بقتال المشركين في جزيرة العرب، فلما فرغ منهم وفتح الله عليه مكة والمدينة والطائف وغير ذلك من أقاليم جزيرة العرب، ودخل الناس من سائر أحياء العرب في دين الله أفواجاً شرع في قتال أهل الكتاب، فتجهز لغزو الروم لأنهم أهل الكتاب، فبلغ تبوك، ثم رجع لأجل جهد الناس وجذب البلاد وضيق الحال، وذلك سنة تسع من هجرته عليه السلام. ثم اشتغل في السنة العاشرة بحجة الوداع، ثم عاجلته المنية صلوات الله وسلامه عليه بعد حجته بأحد وثمانين يوماً، فاختره الله لما عنده، وقام بالأمر بعده وزيره وخليفته أبو بكر الصديق رضي الله عنه، فأدى عن الرسول ما حملة، ثم شرع في تجهيز الجيوش الإسلامية إلى الروم عبدة الصليبان، وإلى الفرس عبدة النيران، ففتح الله ببركة سفارته البلاد، وأرغم أنف كسرى وقيصر ومن أطاعهما من العباد، وأنفق كنوزهما في سبيل الله، كما أخبر بذلك رسول الله، وكان تمام الأمر على يدي وصيه من بعده، وولي عهده الفاروق عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، فأرغم الله به أنوف الكفرة الملحدنين، واستولى على الممالك شرقاً وغرباً، ثم لما مات أجمع الصحابة من المهاجرين والأنصار على خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه شهيد الدار، فكسى الإسلام حلة سابعة، وأمدت في سائر الأقاليم على رقاب العباد حجة الله البالغة فظهر الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها. وعلت كلمة الله وظهر دينه، وبلغت الملة الحنيفية من أعداء الله غاية مآربها، وكلما علوا أمة انتقلوا إلى من بعدهم ثم الذين يلونهم من العتاة الفجار امتثالاً لقوله تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار ﴾ .

وقوله تعالى: ﴿ وليجدوا فيكم غلظة ﴾ أي وليجد الكفار منكم غلظة عليهم في قتالكم لهم، فإن المؤمن الكامل هو الذي يكون رفيقاً بأخيه المؤمن، غليظاً على عدوه الكافر، كقوله تعالى: ﴿ أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين ﴾ ، وقوله تعالى: ﴿ أشداء على الكفار رحماء بينهم ﴾ ، وقال تعالى: ﴿ يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين وأغلظ عليهم ﴾ ، وفي الحديث: ان رسول الله ﷺ قال: « أنا الضحوك القتال » يعني أنه ضحوك في وجه وليه، قتال لهامة عدوه. وقوله: ﴿ واعلموا أن الله مع المتقين ﴾ أي قاتلوا الكفار، وتوكلوا على الله، واعلموا أن الله معكم إذا اتقيتموه وأطعتموه، وهكذا الأمر لما كانت القرون الثلاثة الذين هم خير هذه الأمة في غاية الاستقامة والقيام بطاعة الله تعالى لم يزلوا ظاهرين على عدوهم، ولم تزل الفتوحات كثيرة، ثم لما وقعت الفتن والأهواء والاختلافات بين الملوك طمع الأعداء في البلاد، ثم لم يزلوا حتى استحذوا على كثير من بلاد الإسلام، ولله الأمر من قبل ومن بعد .

وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةً فَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ أَيْكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَنُفُورُونَ ﴿١٢٥﴾

يقول تعالى: ﴿ وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةً ﴾، فن المنافقين ﴿ من يقول أَيْكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا ﴾ أي يقول بعضهم لبعض، وفي الآية الدلائل على أن الإيمان يزيد وينقص كما هو مذهب أكثر السلف والخلف من أئمة العلماء، ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ ﴾ أي زادتهم شكاً إلى شكهم وريباً إلى ريبهم، كما قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ﴾، وهذه من جملة شقائهم أن ما يهدي القلوب يكون سبباً لضلالهم ودمارهم، كما أن سيء المزاج لو غذي بما غذي به لا يزيده إلا خبالاً ونقصاً.

أَوْ لَا يَرُونَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرِتْكُمْ مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾

يقول تعالى: أولاً يرى هؤلاء المنافقون، ﴿ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ ﴾ أي يختبرون، ﴿ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَكَّرُونَ ﴾ أي لا يتوبون عن ذنوبهم السالفة، ولا هم يذكرون فيما يستقبل من أحوالهم. قال مجاهد: يختبرون بالسنة والجوع، وقال قتادة: بالغزو في السنة مرة أو مرتين، وقوله: ﴿ وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ ﴾ هذا أيضاً إخبار عن المنافقين أنهم إذا أنزلت سورة على رسول الله ﷺ ﴿ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ ﴾ أي تلفتوا ﴿ هل يراكم من أحد ثم انصرفوا ﴾ أي تولوا عن الحق وانصرفوا عنه، وهذا حالهم في الدنيا لا يثبتون عند الحق ولا يقبلونه ولا يفهمونه كقوله تعالى: ﴿ فإلهم عن التذكرة معرضين * كأنهم حمر مستنفرة ﴾، وقوله: ﴿ ثُمَّ انصرفوا صرف الله قلوبهم ﴾، كقوله: ﴿ فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم ﴾، وقوله: ﴿ بأنهم قوم لا يفقهون ﴾ أي لا يفهمون عن الله خطابه، ولا يتصدون لفهمه ولا يريدونه، بل هم في شغل عنه ونفور منه، فلماذا صاروا إلى ما صاروا إليه.

لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾

يقول تعالى ممتناً على المؤمنين بما أرسل إليهم رسولاً من أنفسهم أي من جنسهم وعلى لغتهم، كما قال إبراهيم عليه السلام: ﴿ ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم ﴾، وقال تعالى: ﴿ لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم ﴾، وقال تعالى: ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم ﴾ أي منكم وبلغتكم، وقوله تعالى: ﴿ عزيز عليه ما عنتم ﴾ أي يعز عليه الشيء الذي يعنت أمته ويشق عليها، وشريعته كلها سهلة سمحة كاملة سيرة على من يسرها الله تعالى عليه، ﴿ حريص عليكم ﴾ أي على هدايتكم ووصول النفع الدنيوي والأخروي إليكم، عن عبد الله بن

مسعود قال، قال رسول الله ﷺ: «إن الله لم يحرم حرمة إلا وقد علم أنه سيطلعها منكم مطلع، ألا وإني آخذ بحجزكم أن تهافتوا في النار كهافت الفراش والذباب»^(١). وعن ابن عباس أن رسول الله ﷺ أتاه ملكان فيما يرى النائم، فقعد أحدهما عند رجله والآخر عند رأسه، فقال الذي عند رجله للذي عند رأسه: اضرب مثل هذا ومثل أمته، فقال: إن مثله ومثل أمته كمثل قوم سفر انتهوا إلى رأس مفازة ولم يكن معهم من الزاد ما يقطعون به المفازة ولا ما يرجعون به، فبينما هم كذلك إذ أتاهم رجل في حلة حبرة فقال: أرأيتم إن وردت بكم رياضاً معشبة وحياضاً رواء تتبعوني؟ فقالوا: نعم، قال: فانطلق بهم فأوردتهم رياضاً معشبة وحياضاً رواء، فأكلوا وشربوا وسمنوا، فقال لهم: ألم ألقمكم على تلك الحال فجعلتم لي إن وردت بكم رياضاً معشبة وحياضاً رواء أن تتبعوني؟ فقالوا: بلى، فقال: فإن بين أيديكم رياضاً هي أعشب من هذه وحياضاً هي أروى من هذه فاتبعوني، فقالت طائفة: صدق والله لتتبعنّه، وقالت طائفة: قد رضينا بهذا نقيم عليه^(٢). وقوله: ﴿بالمؤمنين رؤوف رحيم﴾ كقوله: ﴿واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين﴾ ﴿فإن تولوا﴾ أي تولوا عما جئتهم به من الشريعة العظيمة المطهرة الكاملة الشاملة، ﴿فقل حسبي الله لا إله إلا هو﴾ أي الله كافي، لا إله إلا هو عليه توكلت، كما قال تعالى: ﴿رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلاً﴾، ﴿وهو رب العرش العظيم﴾ أي هو مالك كل شيء وخالقه، لأنه رب العرش العظيم وجميع الخلائق من السماوات والأرضين وما فيهما وما بينهما تحت العرش، مقهورون بقدرة الله تعالى، وعلمه محيط بكل شيء، وقدره نافذ في كل شيء، وهو على كل شيء وكيل، وقد روى أبو داود عن أبي الدرداء قال: من قال إذا أصبح وإذا أمسى: حسبي الله، لا إله إلا هو، عليه توكلت، وهو رب العرش العظيم، سبع مرات إلا كفاه الله ما أهمه.

(١) أخرجه الإمام أحمد.

(٢) رواه أحمد.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّتِّ تَلْكَ ءَايَةُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴿١٠﴾ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴿١١﴾ قَالَ الْكٰفِرُونَ إِنَّ هٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾

أما الحروف المقطعة في أوائل السور فقد تقدم الكلام عليها في أوائل سورة البقرة .

وقال ابن عباس ﴿الر﴾ أي أنا الله أرى، وكذلك قال الضحاك وغيره، ﴿تلك آيات الكتاب الحكيم﴾ أي هذه آيات القرآن المحكم المبين، وقال الحسن: التوراة والزبور، وقال قتادة: ﴿تلك آيات الكتاب﴾ قال: الكتب التي كانت قبل القرآن، وهذا القول لا أعرف وجهه ومعناه، وقوله: ﴿أكان للناس عجباً﴾ يقول تعالى منكرًا على من تعجب من الكفار، ومن إرسال المرسلين من البشر، كما أخبر تعالى عن القرون الماضية من قولهم: ﴿أبشروا يهودنا﴾؟ وقال هود وصالح لقومهما: ﴿أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم﴾؟ وقال تعالى مخبراً عن كفار قريش: ﴿أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجائب﴾؟ وقال ابن عباس: لما بعث الله تعالى محمداً ﷺ رسولاً أنكرت العرب ذلك أو من أنكر منهم، فقالوا: الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً مثل محمد، قال: فأنزل الله عز وجل ﴿أكان للناس عجباً﴾ الآية، وقوله: ﴿أن لهم قدم صدق عند ربهم﴾ اختلفوا فيه؛ فقال ابن عباس: سبقت لهم السعادة في الذكر، وقال العوفي عنه: ﴿أن لهم قدم صدق عند ربهم﴾ يقول: أجزاً حسناً بما قدموا^(١)، وقال مجاهد: الأعمال الصالحة، صلاتهم وصومهم وصدقتهم وتسيحهم، قال: ومحمد ﷺ يشفع لهم؛ وقال قتادة: سلف صدق عند ربهم؛ واختار ابن جرير قول مجاهد: انها الأعمال الصالحة التي قدموها، كما يقال: له قدم في الإسلام، كقول حسان:

لنا القدم العليا إليك وخلفنا لأولنا في طاعة الله تابع

وقول ذي الرمة: لكم قدم لا ينكر الناس أنها مع الحسب العادي طمئت على البحر

(١) وهو قول الضحاك والربيع بن أنس وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم .

وقوله تعالى: ﴿ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لِسَاحِرٌ مُّبِينٌ ﴾ أي مع أنا بعثنا إليهم رسولا منهم رجلاً من جنسهم بشيراً ونذيراً، ﴿ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لِسَاحِرٌ مُّبِينٌ ﴾ أي ظاهر، وهم الكاذبون في ذلك .

إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ۗ ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾

يخبر تعالى أنه رب العالم جميعه، وأنه خلق السموات والأرض في ستة أيام ، قيل : كهذه الأيام ، وقيل : كل يوم كالف سنة مما تعلقون ، كما سيأتي بيانه ، ثم استوى على العرش ، والعرش أعظم المخلوقات وسقفها ، وهو يا قوتة حمراء ، وقوله : ﴿ يدبر الأمر ﴾ أي يدبر الخلائق ﴿ لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ﴾ ولا يشغله شأن عن شأن ، ولا يتبرم بالحاح الملحين ، ولا يلهيه تدبير الكبير عن الصغير ، في الجبال والبحار وال عمران والقفار ﴿ وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ﴾ الآية ، ﴿ وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين ﴾ . وقوله : ﴿ ما من شفيع إلا من بعد إذنه ﴾ ، كقوله تعالى : ﴿ من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه ﴾ ، وكقوله تعالى : ﴿ وكم من ملك في السموات لا تغني شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى ﴾ ، وقوله : ﴿ ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له ﴾ ، وقوله : ﴿ ذلکم الله ربکم فاعبدوه أفلا تذكرون ﴾ أي أفردوه بالعبادة وحده لا شريك له ، ﴿ أفلا تذكرون ﴾ أيها المشركون في أمرکم تعبدون مع الله إلهاً غيره ، وأنتم تعلمون أنه المتفرد بالخلق ، كقوله تعالى : ﴿ ولئن سألتهم من خلقهم ؟ ليقولن الله ﴾ .

إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ ۗ
وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾

يخبر تعالى أن إليه مرجع الخلائق يوم القيامة لا يترك منهم أحداً حتى يعيده كما بدأه ، ثم ذكر تعالى أنه كما بدأ الخلق كذلك يعيده ، ﴿ وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه ﴾ ، ﴿ ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط ﴾ أي بالعدل والجزاء الأوفى ، ﴿ والذين كفروا لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون ﴾ ، أي بسبب كفرهم يعذبون يوم القيامة بأنواع العذاب من سموم وحميم وظل من يحموم ، ﴿ هذا فليذوقوه حميم وغساق ﴾ .

هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ فِي آخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾

يخبر تعالى عما خلق من الآيات الدالة على كمال قدرته وعظيم سلطانه، وأنه جعل الشعاع الصادر عن جرم الشمس ضياءً، وجعل شعاع القمر نوراً، هذا فن وهذا فن آخر؛ ففاوت بينهما لثلاثيها، وجعل سلطان الشمس بالنهار، وسلطان القمر بالليل، وقدر القمر منازل، فأول ما يبدو صغيراً، ثم يتراد نوره وجرمه حتى يستوسق ويكمل إبداره، ثم يشرع في النقص حتى يرجع إلى حالته الأولى في تمام شهر، كقوله تعالى: ﴿والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم﴾. وقوله تعالى: ﴿والشمس والقمر حسباناً﴾، ﴿وقدره﴾ أي القمر، ﴿منازل لتعلموا عدد السنين والحساب﴾ فبالشمس تعرف الأيام، وبسیر القمر تعرف الشهور والأعوام، ﴿ما خلق الله ذلك إلا بالحق﴾ أي لم يخلقه عبثاً بل له حكمة عظيمة في ذلك وحجة بالغة، كقوله تعالى: ﴿وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما باطلاً﴾، وقال تعالى: ﴿أفحسبتم انما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون﴾، وقوله: ﴿نفصل الآيات﴾ أي نبين الحجج والأدلة، ﴿لقوم يعلمون﴾، وقوله: ﴿إن في اختلاف الليل والنهار﴾ أي تعاقبها إذا جاء هذا ذهب هذا، وإذا ذهب هذا جاء هذا، لا يتأخر عنه شيئاً كقوله تعالى: ﴿يغشي الليل النهار يطلبه حثيثاً﴾، وقال: ﴿لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر﴾ الآية، وقوله: ﴿وما خلق الله في السموات والأرض﴾ أي من الآيات الدالة على عظمته تعالى، كما قال: ﴿وكأين من آية في السموات والأرض﴾ الآية، وقوله: ﴿قل انظروا ماذا في السموات والأرض، وقال: ﴿إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الأبصار﴾ أي العقول، وقال ههنا ﴿لآيات لقوم يتقون﴾، أي عقاب الله وسخطه وعذابه.

إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ ﴿٧﴾ أُولَٰئِكَ مَاؤُهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾

يقول تعالى مخبراً عن حال الأشقياء الذين كفروا بلقاء الله يوم القيامة ولا يرجون في لقائه شيئاً، ورضوا بهذه الحياة الدنيا واطمأننوا إليها نفوسهم ﴿إن الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأننوا بها﴾ الآية، قال الحسن: والله ما زينوها ولا رفعوها حتى رضوا بها، وهم غافلون عن آيات الله الكونية، فلا يتفكرون فيها، والشرعية فلا يأتَمرون بها بأن ماؤهم يوم معادهم النار جزاء ما كانوا يكسبون في دنياهم من الآثام والخطايا والإجرام، مع ما هم فيه من الكفر بالله ورسوله واليوم الآخر.

إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ﴿١٠﴾ وَءَاخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١١﴾

هذا إخبار عن حال السعداء الذين آمنوا بالله وصدقوا المرسلين وامتثلوا ما أمروا به، فعملوا الصالحات، بأنه سيهديهم بإيمانهم، أي بسبب إيمانهم في الدنيا يهديهم الله يوم القيامة على الصراط المستقيم حتى يجوزوه ويخلصوا إلى الجنة، ويحتمل أن تكون للاستعانة، كما قال مجاهد في قوله: ﴿يهدىهم ربهم بإيمانهم﴾ قال: يكون لهم نوراً يمشون به، وقال ابن جريج: في الآية يمثل له عمله في صورة حسنة إذا قام من قبره يبشره بكل خير، فيقول

له: من أنت؟ فيقول: أنا عملك، فيجعل له نوره من بين يديه حتى يدخله الجنة، فذلك قوله تعالى: ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَانِهِمْ﴾ والكافر يمثل له عمله في صورة سيئة وريح منتنة، فيلزم صاحبه حتى يقذفه في النار.

وقوله تعالى: ﴿دَعَوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾، وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين ﴿أي هذا حال أهل الجنة، قال ابن جريج: أخبرت أنه إذا مر بهم الطير يشتهونه قالوا: سبحانك اللهم، وذلك دعواهم فيأتيهم الملك بما يشتهونه، فيسلم عليهم فيردون عليه، فذلك قوله: ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾، قال: فإذا أكلوا حمدوا الله ربهم، فذلك قوله: ﴿وَأَخْرَجَهُمُ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾، وقال مقاتل: إذا أراد أهل الجنة أن يدعوا بالطعام قال أحدهم: ﴿سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ﴾ قال: فيقوم على أحدهم عشرة آلاف خادم مع كل خادم صحيفة من ذهب فيها طعام ليس في الأخرى، قال: فيأكل منهن كلهن، وهذه الآية فيها شبه من قوله: ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ﴾، وقوله: ﴿إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا﴾، وقوله: ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ﴾، وقوله: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ الآية، وقوله: ﴿وَأَخْرَجَهُمُ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ فيه دلالة على أنه تعالى هو المحمود أبداً، المعبود على طول المدى، ولهذا حمد نفسه عند ابتداء خلقه، وفي ابتداء كتابه، وعند ابتداء تنزيله، حيث يقول تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾، ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ إلى غير ذلك من الأحوال التي يطول بسطها، وأنه المحمود في الأولى والآخرة في جميع الأحوال، ولهذا جاء في الحديث: «إن أهل الجنة يلهمون التسبيح والتحميد كما يلهمون النفس»، وإنما يكون ذلك كذلك لما يرون من تزايد نعم الله عليهم، فتكرر وتعاد وترداد، فليس لها انقضاء ولا أمد، فلا إله إلا هو ولا رب سواه.

* وَلَوْ يَعَجَّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتَعْجَلَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ فَنَدَّرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا

فِي طَغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾

يخبر تعالى عن حلمه ولطفه بعباده، أنه لا يستجيب لهم إذا دعوا على أنفسهم أو أولادهم بالشر، في حال ضجرهم وغضبهم، وأنه يعلم منهم عدم القصد إلى إرادة ذلك، فلماذا لا يستجيب لهم والحالة هذه لطفاً ورحمة، كما يستجيب لهم إذا دعوا لأنفسهم أو أولادهم بالخير والبركة، ولهذا قال: ﴿وَلَوْ يَعَجَّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتَعْجَلَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ﴾ الآية: أي لو استجاب لهم كل ما دعوه به في ذلك لأهلكهم، ولكن لا ينبغي الإكثار من ذلك؛ كما جاء في الحديث الذي رواه جابر قال، قال رسول الله ﷺ: «لا تدعوا على أنفسكم، لا تدعوا على أولادكم، لا تدعوا على أموالكم، لا توافقوا من الله ساعة فيها إجابة فيستجيب لكم»^(١)، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَيَدْعُ الْإِنْسَانَ بِالشَّرِّ دُعَاءَ الْبَخِيلِ﴾ الآية، وقال مجاهد في تفسير هذه الآية: هو قول الإنسان لولده أو ماله إذا غضب عليه: اللهم لا تبارك فيه والعنه، فلو يعجل لهم الاستجابة في ذلك كما يستجاب لهم في الخير لأهلكهم.

(١) أخرجه البزار وأبو داود عن جابر بن عبد الله.

وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زِينٌ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾

يخبر تعالى عن الإنسان وضجره وقلقه إذا مسه الضر، كقوله: ﴿وإذا مسه الشر فذو دعاء عريض﴾ أي كثير، وهما في معنى واحد، وذلك لأنه إذا أصابته شدة قلق لها وجزع منها، وأكثر الدعاء عند ذلك، فدعا الله في كشفها ورفعها عنه، في حال اضطجاعه وقعوده وقيامه وفي جميع أحواله، فإذا فرج الله شدته وكشف كربته أعرض ونأى بجانبه وذهب، كأنه ما كان به من ذلك شيء، ﴿مر كأن لم يدعنا إلى ضر مسه﴾، ثم ذم تعالى من هذه صفة وطريقته فقال: ﴿كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون﴾، فأما من رزقه الله الهداية والسداد، والتوفيق والرشاد فإنه مستثنى من ذلك، وفي الحديث: «عجباً للمؤمن لا يقضي الله له قضاء إلا كان خيراً له، إن أصابته ضراء فصبر كان خيراً له، وإن أصابته سراء فشكر كان خيراً له؛ وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن».

وَلَقَدْ أَهَلَكْنَا الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ لَمَا ظَلَمُوا وَجَاءَهُم رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ مِن بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾

أخبر تعالى عما أحل بالقرون الماضية، في تكذيبهم الرسل فيما جاءهم به من البينات، استخلف الله هؤلاء القوم من بعدهم، وأرسل إليهم رسولاً لينظر طاعتهم له، واتباعهم رسوله، وفي صحيح مسلم: «إن الدنيا حلوة خضرة، وإن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء، فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت من النساء».

وَإِذَا نُتِيَ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا آتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَائِي نَفْسِي إِنْ أَتَّبَعُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَّوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾

يخبر تعالى عن تعنت الكفار من مشركي قريش الجاحدين المعرضين عنه، أنهم إذا قرأ عليهم الرسول ﷺ كتاب الله وحججه الواضحة قالوا له: آت بقُرْآنٍ غير هذا، أي رد هذا وجثنا بغيره من نمط آخر أو بدله إلى وضع آخر، قال الله تعالى لنبية ﷺ: ﴿قل ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي﴾ أي ليس هذا إلي إنما أنا عبد مأمور، ورسول مبلّغ عن الله، ﴿إن أتبع إلا ما يوحى إليّ إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم﴾؛ ثم قال محتجاً عليهم في صحة ما جاءهم به؛ ﴿قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به﴾ أي هذا إنما جئتكم به عن إذن الله لي في ذلك ومشيتته وإرادته، والدليل على أنني لست أتقوله من عندي، ولا افتريته أنكم عاجزون عن معارضته، وأنكم تعلمون صدقي وأمانتي منذ نشأت بينكم إلى حين بعثني الله عز وجل، لا تتفقدون علي شيئاً نغمصوني به، ولهذا قال:

﴿ فقد لبثت فيكم عمراً من قبله أفلا تعقلون ﴾ أي أفليس لكم عقول تعرفون بها الحق من الباطل؟ ولهذا لما سأل هرقل ملك الروم (أبا سفيان) قال له: هل كنتم تتهمونونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قال أبو سفيان: فقلت: لا، وكان أبو سفيان إذ ذاك رأس الكفرة وزعيم المشركين، ومع هذا اعترف بالحق (والفضل ما شهدت به الأعداء) فقال له هرقل: فقد أعرف أنه لم يكن ليدع الكذب على الناس ثم يذهب ليكذب على الله. وقال جعفر بن أبي طالب للنجاشي ملك الحبشة: بعث الله فينا رسولاً نعرف صدقه ونسبه وأمانته، وقد كانت مدة مقامه عليه السلام بين أظهرنا قبل النبوة أربعين سنة.

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ۗ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ ﴾

يقول تعالى: لا أحد أظلم ولا أعتى ولا أشد إجراماً ﴿ من افتري على الله كذباً ﴾، وتقول على الله، وزعم أن الله أرسله ولم يكن كذلك، فليس أحد أكبر جرماً ولا أعظم ظلماً من هذا، ومثل هذا لا يخفى أمره على الأغبياء فكيف يشبه حال هذا بالأنبياء؟ فإن من قال هذه المقالة صادقاً أو كاذباً فلا بد أن الله ينصب عليه من الأدلة على بره أو فجوره ما هو أظهر من الشمس، فإن الفرق بين محمد ﷺ وبين مسيلمة الكذاب لمن شاهدهما أظهر من الفرق بين الضحى وبين حندس الظلماء، قال عبد الله بن سلام: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة انجفل الناس^(١) فكنت فيمن انجفل، فلما رأيته عرفت أن وجهه ليس بوجه رجل كذاب، قال: فكان أول ما سمعته يقول: « يا أيها الناس أفسحوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلوا الأرحام، وصلوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام»، ولما وفد (ضمام بن ثعلبة) على رسول الله ﷺ في قومه بني سعد بن بكر قال لرسول الله ﷺ فيما قاله: من رفع هذه السماء؟ قال: « الله»، قال: ومن نصب هذه الجبال؟ قال: « الله»، قال: ومن سطح هذه الأرض؟ قال: « الله»، قال: فبالذي رفع هذه السماء ونصب هذه الجبال وسطح هذه الأرض آله أرسلك إلى الناس كلهم؟ قال: « اللهم نعم»، ثم سأله عن الصلاة والزكاة والحج والصيام ويحلف عند كل واحدة هذه اليمين، ويحلف له رسول الله ﷺ، فقال له: صدقت، والذي بعثك بالحق لا أزيد على ذلك ولا أنقص، فقد أيقن بصدقه صلوات الله وسلامه عليه بما رأى وشاهد من الدلائل الدالة عليه، قال حسان بن ثابت:

لولا لم تكن فيه آيات مبينة كانت بديهته تأتيك بالخبر

وذكروا أن (عمرو بن العاص) وفد على مسيلمة، وكان صديقاً له في الجاهلية، وكان عمرو لم يسلم بعد، فقال له مسيلمة: ويحك يا عمرو، ماذا أنزل على صاحبكم، يعني رسول الله ﷺ، في هذه المدة؟ فقال: لقد سمعت أصحابه يقرأون سورة عظيمة قصيرة، فقال: وما هي؟ فقال: ﴿ والعصر إن الإنسان لفي خسر ﴾ إلى آخر السورة، ففكر مسيلمة ساعة، ثم قال: وأنا قد أنزل عليّ مثله، فقال: وما هو؟ فقال: (يا وبر، يا وبر، إنما أنت أذنان وصدر وسائر كحفر نقر)، كيف ترى يا عمرو، فقال له عمرو: والله إنك لتعلم أنني أعلم أنك تكذب. فإذا كان هذا من مشرك في حال شركه لم يشبهه عليه حال محمد ﷺ وصدقه، وحال مسيلمة لعنه

(١) يعني قومه اليهود. وأما العرب وهم الأنصار فكانوا في أشد الغبطة والسرور.

الله وكذبه، فكيف بأولي البصائر والنهي، وأصحاب العقول السليمة المستقيمة والحجى؟ ولهذا قال تعالى: ﴿فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذب بآياته إنه لا يفلح المجرمون﴾، وكذلك من كذب بالحق الذي جاءت به الرسل، وقامت عليه الحجج، لا أحد أظلم منه كما في الحديث: «أعتى الناس على الله رجل قتل نبياً أو قتله نبي» .

وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَتُولاَءُ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتَدْعُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾ وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾

ينكر تعالى على المشركين الذين عبدوا مع الله غيره ظانين أن تلك الآلهة تنفعهم شفاعتها عند الله، فأخبر تعالى أنها لا تضر ولا تنفع ولا تملك شيئاً، ولا يقع شيء مما يزعمون فيها ولا يكون هذا أبداً، ولهذا قال تعالى: ﴿قل أنتبنون الله بما لا يعلم في السماوات ولا في الأرض﴾ قال ابن جرير: معناه أنخبرون الله بما لا يكون في السماوات ولا في الأرض؟ ثم نزه نفسه الكريمة عن شركهم وكفرهم فقال: ﴿سبحانه وتعالى عما يشركون﴾، ثم أخبر تعالى أن هذا الشرك حادث في الناس كائن بعد أن لم يكن، وأن الناس كلهم كانوا على دين واحد وهو الإسلام، قال ابن عباس: كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام، ثم وقع الاختلاف بين الناس وعبدت الأصنام والأنداد والأوثان، فبعث الله الرسل بآياته وبيّناته وحججه البالغة وبراهينه الدامغة: ﴿ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة﴾، وقوله: ﴿ولو لا كلمة سبقت من ربك﴾ الآية، أي لولا ما تقدم من الله تعالى أنه لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه، وأنه أجل الخلق إلى أجل معدود، لقضى بينهم فيما اختلفوا فيه، فأسعد المؤمنين وأعت الكافرين .

وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾

أي ويقول هؤلاء الكفرة المكذوبون المعاندون: لولا أنزل على محمد آية من ربه، يعنون: كما أعطى الله ثمود الناقة، أو أن يحول لهم الصفا ذهباً، أو يزيح عنهم جبال مكة ويجعل مكانها بساتين وأنهاراً، أو نحو ذلك، مما الله عليه قادر، ولكنه حكيم في أفعاله وأقواله، كما قال تعالى: ﴿تبارك الذي إن شاء جعل لك خيراً من ذلك جنات تجري من تحتها الأنهار ويجعل لك قصوراً﴾، وكقوله: ﴿وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون﴾ الآية، يقول تعالى: إن سئتي في خلقي أني إذا آتيتهم ما سألوا، فإن آمنوا وإلا عاجلتهم بالعقوبة، ولهذا لما خير رسول الله ﷺ بين إعطائهم ما سألوا فإن آمنوا وإلا عذبوا، وبين إنظارهم، اختار إنظارهم، كما حلم عنهم غير مرة رسول الله ﷺ، ولهذا قال تعالى إرشاداً لنبية ﷺ إلى الجواب عما سألوا: ﴿قل إنما الغيب لله﴾ أي الأمر كله لله وهو يعلم العواقب في الأمور، ﴿فانتظروا إني معكم من المنتظرين﴾ أي إن كنتم لا تؤمنون حتى تشاهدوا ما سألتهم فانتظروا حكم الله في فيكم، ولو علم منهم أنهم سألوا ذلك استرشاداً وثبتاً لأجابهم، ولكن علم

أنهم إنما يسألون عناداً وتعنتاً فتركهم فيما رابهم، وعلم أنهم لا يؤمن منهم أحد لما فيهم من المكابرة كقوله تعالى: ﴿ولو فتحنا عليهم باباً من السماء﴾ الآية، وقوله تعالى: ﴿وإن يروا كسفاً من السماء ساقطاً﴾ الآية، وقوله تعالى: ﴿ولو نزلنا عليك كتاباً في قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين﴾ فمثل هؤلاء لا فائدة من جوابهم لأنه دائر على تعنتهم وعنادهم لكثرة فجورهم وفسادهم، ولهذا قال: ﴿فانتظروا إني معكم من المنتظرين﴾ .

وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسْتَهْمٍ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ الَّذِي يُسِيرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرِينَ بَيْنَ يَدَيْهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ مِنَ الدِّينِ لَئِن أُنجِيتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّا أَنْجَلَهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّمَا بِغَيْرِكُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾

يخبر تعالى أنه إذا أذاق الناس رحمة من بعد ضراء مستهم كالرخاء بعد الشدة، والخصب بعد الجذب، والمطر بعد القحط، ونحو ذلك ﴿إذ لهم مكر في آياتنا﴾، قال مجاهد استهزاء وتكذيب، ﴿قل الله أسرع مكرًا﴾ أي أشد استدراجاً وإمهالاً حتى يظن الظان من المجرمين أنه ليس بمعذب، وإنما هو في مهلة ثم يؤخذ على غرة منه، والكاثبون الكرام يكتبون عليه جميع ما يفعلوه ويحسونه عليه، ثم يعرضونه على عالم الغيب والشهادة فيجازيه على التقير والقطمير، ثم أخبر تعالى أنه: ﴿هو الذي يسيركم في البر والبحر﴾ أي يحفظكم ويكلؤكم بحراسته، ﴿حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها﴾ أي بسرعة سيرهم رافلين، فبينما هم كذلك إذ ﴿جاءتها﴾ أي تلك السفن ﴿ريح عاصف﴾ أي شديدة، ﴿وجاءهم الموج من كل مكان﴾ أي اغتم البحر عليهم، ﴿وظنوا أنهم أحيط بهم﴾ أي هلكوا، ﴿دعوا الله مخلصين له الدين﴾ أي لا يدعون معه صنماً ولا وثناً يفردونه بالدعاء والابتهال، كقوله تعالى: ﴿وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه﴾، ﴿لئن أنجيتنا من هذه﴾ أي هذه الحال ﴿لنكونن من الشاكرين﴾ أي لا نشرك بك أحداً ولنفردك بالعبادة كما أفردناك بالدعاء ههنا، قال الله تعالى: ﴿فلما أنجاهم﴾ أي من تلك الورطة، ﴿إذا هم يبغون في الأرض بغير الحق﴾ أي كأن لم يكن من ذلك شيء، ﴿كأن لم يدعنا إلى ضر مسه﴾، ثم قال تعالى: ﴿يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم﴾ أي إنما يذوق وبال هذا البغي أتم أنفسكم، ولا تضرون به أحداً غيركم، كما جاء في الحديث: «ما من ذنب أجدر أن يجعل الله عقوبته في الدنيا مع ما يدخر الله لصاحبه في الآخرة من البغي وقطيعة الرحم»، وقوله: ﴿متاع الحياة الدنيا﴾ أي إنما لكم متاع في الحياة الدنيا الدنيئة الحقيرة، ﴿ثم إلينا مرجعكم﴾ أي مصيركم ومآلكم، ﴿فننبئكم﴾ أي فنخبركم بجميع أعمالكم ونوفيكهم إياها، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه .

إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازْيَبَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَدِرُونَ عَلَيْهَا أَتْنَاهَا أَمْرًا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نَفِصَلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾

ضرب تبارك وتعالى مثلاً لزهرة الحياة الدنيا وزينتها، وسرعة انقضائها وزوالها، بالنبات الذي أخرجه الله من الأرض، مما يأكل الناس من زروع وثمار، على اختلاف أنواعها وأصنافها، وما تأكل الأنعام، ﴿ حتى إذا أخذت الأرض زخرفها ﴾ أي زينتها الفانية، ﴿ وازينت ﴾ أي حسنت بما خرج في رباهها من زهور نضرة مختلفة الأشكال والألوان ﴿ وظن أهلها ﴾ الذين زرعوها وغرسوها ﴿ أنهم قادرون عليها ﴾ أي على جذاذها وحصادها، فيبئس لهم كذلك إذ جاءت صاعقة أو ريح شديدة باردة، فأبيست أوراقها وأتلفت ثمارها، ولهذا قال تعالى: ﴿ أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً ﴾ أي يابساً بعد الخضرة والنضارة، ﴿ كأن لم تغن بالأمس ﴾ أي كأنها ما كانت حيناً قبل ذلك، وقال قتادة: ﴿ كأن لم تغن ﴾ كأن لم تنعم، وهكذا الأمور بعد زوالها كأنها لم تكن، قال تعالى إخباراً عن المهلكين: ﴿ فأصبحوا في دارهم جاثمين كأن لم يغنوا فيها ﴾، ثم قال تعالى: ﴿ كذلك نفصل الآيات ﴾ أي نبين الحجج والأدلة ﴿ لقوم يتفكرون ﴾ فيعتبرون بهذا المثل في زوال الدنيا عن أهلها سريعاً، مع اغترارهم بها وتفلتها عنهم، وقد ضرب الله تعالى مثل الدنيا بنبات الأرض في غير ما آية من كتابه العزيز فقال: ﴿ واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيماً تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدرًا ﴾، وكذا في سورة (الزمر) و (الحديد) يضرب الله بذلك مثل الحياة الدنيا، وقوله: ﴿ والله يدعو إلى دار السلام ﴾ لما ذكر تعالى الدنيا وسرعة زوالها، رغب في الجنة ودعا إليها وسماها دار السلام، أي من الآفات والنقائص والنكبات فقال: ﴿ والله يدعو إلى دار السلام، ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ﴾.

روي عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه، أنه قال: خرج علينا رسول الله ﷺ يوماً فقال: «إني رأيت في المنام كأن جبريل عند رأسي، وميكائيل عند رجلي، يقول أحدهما لصاحبه: اضرب له مثلاً، فقال: إنما مثلك ومثل أمتك كمثل ملك اتخذ داراً، ثم بنى فيها بيتاً ثم جعل فيها مائدة، ثم بعث رسولاً يدعو الناس إلى طعامه، فمنهم من أجاب الرسول، ومنهم من تركه؛ فالله الملك، والدار الإسلام، والبيت الجنة، وأنت يا محمد الرسول؛ فمن أجابك دخل الإسلام، ومن دخل الإسلام دخل الجنة، ومن دخل الجنة أكل منها» (١).

* لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٦﴾

يخبر تعالى أن لمن أحسن العمل في الدنيا بالإيمان والعمل الصالح، ﴿ الحسنى ﴾ في الدار الآخرة ﴿ هل جزاء

(١) أخرجه ابن جرير عن جابر بن عبد الله .

الإحسان إلا الإحسان؟ وقوله: ﴿وزيادة﴾ هي تضعيف ثواب الأعمال ويشمل ما يعطيهم الله في الجنة من القصور والحدود والرضا عنهم، وما أخفاه لهم من قرة أعين، وأفضل من ذلك وأعلاه، النظر إلى وجهه الكريم، فإنه زيادة أعظم من جميع ما أعطوه لا يستحقونها بعملهم بل بفضلهم ورحمته، وقد روى تفسير الزيادة بالنظر إلى وجهه الكريم الجمهور من السلف والخلف، روى الإمام أحمد عن صهيب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية: ﴿للذين أحسنوا الحسنى وزيادة﴾، وقال: «إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار، نادى مناد: يا أهل الجنة إن لكم عند الله موعداً يريد أن ينجزكموه، فيقولون: وما هو ألم يثقل موازيننا؟ ألم يبيض وجوهنا؟ ويدخلنا الجنة ويجرنا من النار؟ - قال: فيشكف لهم الحجاب فينظرون إليه، فوالله ما أعطاهم الله شيئاً أحب إليهم من النظر إليه ولا أقر لأعينهم»^(١). وعن أبي موسى الأشعري، عن رسول الله ﷺ: «إن الله يبعث يوم القيامة منادياً ينادي: يا أهل الجنة - بصوت يسمع أولهم وآخرهم - إن الله وعدكم الحسنى وزيادة، فالحسنى الجنة، والزيادة النظر إلى وجه الرحمن عز وجل»^(٢). وسئل رسول الله ﷺ عن قول الله عز وجل: ﴿للذين أحسنوا الحسنى وزيادة﴾ قال: «الحسنى: الجنة، والزيادة النظر إلى وجه الله عز وجل»، وقوله تعالى: ﴿ولا يرهق وجوههم قتر﴾ أي قتام وسواد في عرصات المحشر، كما يعترى وجوه الكفرة الفجرة من القتر والغبرة، ﴿ولا ذلة﴾ أي هوان وصغار، بل هم كما قال تعالى في حقهم: ﴿فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسروراً﴾ أي نضرة في وجوههم وسروراً في قلوبهم، جعلنا الله منهم بفضلهم ورحمته أمين.

وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بَمِثْلِهَا وَتَرَهَّقَهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ
قِطْعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧﴾

لما أخبر تعالى عن حال السعداء الذين يضاعف لهم الحسنات عطف بذكر حال الأشقياء، فذكر تعالى عدله فيهم وأنه يجازيهم على السيئة بمثلها لا يزيدهم على ذلك، ﴿وترهقهم﴾ أي تعترتهم وتعلوهم ذلة من معاصيهم وخوفهم منها، كما قال: ﴿وتراهم يعرضون عليها خاشعين من الذل﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿مهطعين مقنعي رؤوسهم﴾ الآية، وقوله: ﴿ما لهم من الله من عاصم﴾ أي مانع ولا واق يقيهم العذاب، كقوله تعالى: ﴿يقول الإنسان يومئذ أين المفر * كلا لا وزر﴾، وقوله: ﴿كأنما أغشيت وجوههم﴾ الآية إخبار عن سواد وجوههم في الدار الآخرة، كقوله تعالى: ﴿يوم تبيض وجوه وتسود وجوه﴾، وقوله تعالى: ﴿وجوه يومئذ مسفرة ضاحكة مستبشرة * ووجوه يومئذ عليها غبرة﴾ الآية.

وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَائِكُمْ فزِيلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَائُهُمْ مَا كُنْتُمْ

(١) أخرجه أحمد ورواه مسلم وجماعة من الأئمة.

(٢) أخرجه ابن جرير وابن أبي حاتم.

(٣) أخرجه ابن جرير عن أبي بن كعب.

إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكُنِيَ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾

يقول تعالى: ﴿ ويوم نحشرهم ﴾ أي أهل الأرض كلهم من جن وإنس وبر وفاجر، كقوله: ﴿ وحشرناهم فلم نغادر منهم أحداً ﴾، ﴿ ثم نقول للذين أشركوا ﴾ الآية، أي الزموا أتم وهم مكاناً معيناً، امتازوا فيه عن مقام المؤمنين، كقوله تعالى: ﴿ وامتازوا اليوم أيها المجرمون ﴾، وقوله: ﴿ ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون ﴾، وفي الآية الأخرى: ﴿ يومئذ يصدعون ﴾ أي يصيرون صدعين؛ وهذا يكون إذا جاء الرب تبارك وتعالى لفصل القضاء، ﴿ مكانكم أتم وشركاؤكم ﴾ فزيلنا بينهم ﴿ أي أنهم أنكروا عبادتهم وتبرؤوا منهم ﴾، كقوله: ﴿ كلا سيكفرون بعبادتهم ﴾ الآية، وقوله: ﴿ إذ تبرا الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ﴾، وقوله: ﴿ وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء ﴾ الآية، ﴿ فكفى بالله شهيداً بيننا وبينكم ﴾ الآية، أي ما كنا نشعر بها ولا نعلم بها، وإنما كنتم تعبدوننا من حيث لا ندري بكم والله شهيد بيننا وبينكم أنا ما دعوناكم إلى عبادتنا ولا أمرناكم بها ولا رضينا منكم بذلك، وفي هذا تبيكيت عظيم للمشركين الذين عبدوا مع الله غيره وقد تركوا عبادة الحي القيوم القادر على كل شيء، العليم بكل شيء، وقد أرسل رسله آمراً بعبادته وحده لا شريك له ناهياً عن عبادة ما سواه، كما قال تعالى: ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾، وقال: ﴿ وأسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون ؟ ﴾، وقوله تعالى: ﴿ هنالك تبلى كل نفس ما أسلفت ﴾ أي في موقف الحساب يوم القيامة تختبر كل نفس وتعلم ما سلف من عملها من خير وشر، كقوله تعالى: ﴿ يوم تبلى السرائر ﴾، وقال تعالى: ﴿ ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر ﴾، وقال تعالى: ﴿ ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً ﴾ اقرأ كتابك ﴿، وقوله: ﴿ وردوا إلى الله مولاهم الحق ﴾ أي ورجعت الأمور كلها إلى الله الحكم العدل، ففصلها وأدخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، ﴿ وضل عنهم ﴾ أي ذهب عن المشركين، ﴿ ما كانوا يفترون ﴾ أي ما كانوا يعبدون من دون الله افتراء عليه .

قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدْبِرُ الْأُمُورَ فَيَقُولُ اللَّهُ فَعَلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَآذًا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالَةَ فَإِنِّي تُصَرِّفُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾

يحتج تعالى على المشركين باعترافهم بوحدانيته وربوبيته على وحدانية إلهيته، فقال تعالى: ﴿ قل من يرزقكم من السماء والأرض ﴾ أي من ذا الذي ينزل من السماء ماء المطر، فيشق الأرض شقاً بقدرته ومشيتته، فيخرج منها ﴿ حباً وعنباً وقضباً وزيتوناً ونخلاً وحدائق غلباً وفاكهة وأباً ﴾ إله مع الله؟ فيقولون: الله ﴿ أمن هذا الذي يرزقكم إن أمسك رزقه ﴾؟ وقوله: ﴿ أمن يملك السمع والأبصار ﴾ أي الذي وهبكم هذه القوة السامعة، والقوة الباصرة، ولو شاء لذهب بها ولسلبكم إياها، كقوله تعالى: ﴿ قل هو الذي أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار ﴾

الآية . وقال: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَابْصَارَكُمْ ﴾ الآية، وقوله: ﴿ وَمَنْ يَخْرُجِ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيَخْرِجِ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ﴾ أي بقدرته العظيمة ومنته العميمة، وقوله: ﴿ وَمَنْ يَدْبِرِ الْأَمْرَ ﴾ أي من بيده ملكوت كل شيء، وهو المتصرف الحاكم الذي لا معقب لحكمه، ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون، فالملك كله العلوي والسفلي فقرون إليه خاضعون لديه، ﴿ فَيَقُولُونَ اللَّهُ ﴾ أي وهم يعلمون ذلك ويعترفون به، ﴿ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾؟ أي أفلا تحفون منه أن تعبدوا معه غيره بآرائكم وجهلكم؟ وقوله: ﴿ فَذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ ﴾ الآية، أي فهذا الذي اعترفتكم بأنه فاعل ذلك كله هو ربكم وإلهكم الحق الذي يستحق أن يفرد بالعبادة، ﴿ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ ﴾؟ أي فكل معبود سواه باطل لا إله إلا هو واحد، لا شريك له، ﴿ فَأَنْتُمْ تَصْرَفُونَ ﴾ أي فكيف تصرفون عن عبادته إلى عبادة ما سواه؟ وأتم تعلمون أنه الرب الذي خلق كل شيء والمتصرف في كل شيء، وقوله: ﴿ كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا ﴾ أي كما كفر هؤلاء المشركون واستمروا على شركهم وعبادتهم مع الله غيره مع أنهم يعترفون بأنه الخالق الرازق المتصرف في الملك وحده، الذي بعث رسله بتوحيده، فلماذا حقت عليهم كلمة الله أنهم أشقياء من ساكني النار، كقوله: ﴿ قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ .

قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَن يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنْتُمْ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾
 قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ
 لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يُهْدَىٰ فَالْكَرْهِي كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾ وَمَا يُتَّبَعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ
 شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾

وهذا إبطال لدعواهم فيما أشركوا بالله غيره، وعبدوا من الأصنام والأنداد، ﴿ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَن يَبْدُو الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ أي من بدأ خلق هذه السماوات والأرض، ثم ينشئ ما فيهما من الخلائق، ويفرق أجرام السماوات والأرض ويبدلها بفتاء ما فيهما ثم يعيد الخلق خلقاً جديداً ﴿ قُلِ اللَّهُ ﴾ هو الذي يفعل هذا ويستقل به وحده لا شريك له، ﴿ فَأَنْتُمْ تُؤْفَكُونَ ﴾ أي فكيف تصرفون عن طريق الرشد إلى الباطل، ﴿ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ؟ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ ﴾ أي أنتم تعلمون أن شركاءكم لا تقدر على هداية ضال، وإنما يهدي الحيارى والضلال، ويقلب القلوب من الغي إلى الرشد الله رب العالمين، ﴿ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يُهْدَىٰ ﴾ أي أفتتبع العبد الذي يهدي إلى الحق ويبصر بعد العمى، أم الذي لا يهدي إلى شيء إلا أن يهدي لعماه وبكمه، كما قال تعالى إخباراً عن إبراهيم أنه قال: ﴿ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ﴾ .

وقوله تعالى: ﴿ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ أي فما بالكم يذهب بعقولكم، كيف سويتم بين الله وبين خلقه، وعدلتم هذا بهذا وعبدتم هذا وهذا؟ وهلا أفردتم الرب جلّ جلاله بالعبادة وحده، وأخلصتم إليه الدعوة والإنابة؟ ثم بين تعالى أنهم لا يتبعون في دينهم هذا دليلاً ولا برهاناً، وإنما هو ظن منهم أي توهم وتخيل، وذلك لا يغني

عهم شيئاً، ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ تهديد لهم ووعد شديد لأنه تعالى أخبر أنه سيجازيهم على ذلك أتم الجزاء .

وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَىٰ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَارِيبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ ۖ وَادْعُوا مَنِ اسْتَضَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٨﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِطُوا بِعِلْمِهِ ۖ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٣٩﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ ۖ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ ۗ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾

هذا بيان لإعجاز القرآن، وأنه لا يستطيع البشر أن يأتوا بمثله، ولا بعشر سور، ولا بسورة من مثله، لأنه بفصاحته وبلاغته ووجازته وحلاوته، واشتماله على المعاني العزيرة الغزيرة النافعة في الدنيا والآخرة، لا يكون إلا من عند الله، الذي لا يشبهه شيء في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله وأقواله، فكلامه لا يشبه كلام المخلوقين، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَىٰ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي مثل هذا القرآن لا يكون إلا من عند الله ولا يشبه هذا كلام البشر، ﴿ولكن تصديق الذي بين يديه﴾ أي من الكتب المتقدمة ومهيماً عليه، ومبيناً لما وقع فيها من التحريف والتأويل والتبديل، وقوله: ﴿وتفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين﴾ أي وبيان الأحكام بياناً شافياً كافياً لا مرية فيه من الله رب العالمين، كما تقدم في الحديث « فيه خبر ما قبلكم ونبأ ما بعدكم وفصل ما بينكم » أي خبر عما سلف وعما سيأتي، وحكم فيما بين الناس بالشرع الذي يحبه الله ويرضاه. وقوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَضَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي إن ادعيتم وافترتيم وشككتم في أن هذا من عند الله، وقلتم كذباً إن هذا من عند محمد، فحمد بشر مثلكم وقد جاء فيما زعمتم بهذا القرآن فأتوا أتم بسورة مثله، أي من جنس هذا القرآن، واستعينوا على ذلك بكل من قدرتم عليه من إنس وجان، وهذا هو المقام الثالث في التحدي، فإنه تعالى تحداهم ودعاهم إن كانوا صادقين في دعواهم أنه من عند محمد، فليعارضوه بنظير ما جاء، وليستعينوا بمن شاءوا، وأخبر أنهم لا يقدرُونَ على ذلك ولا سبيل لهم إليه، فقال تعالى: ﴿قُلْ لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً﴾، ثم تقاصر معهم إلى عشر سور منه، فقال في أول سورة هود: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ مَفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَضَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾، ثم تنازل إلى سورة، فقال في هذه السورة: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَضَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾، وكذا في سورة البقرة، وهي مدنية تحداهم بسورة منه، وأخبر أنهم لا يستطيعون ذلك أبداً فقال: ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ﴾ الآية. هذا وقد كانت الفصاحة من سجايهم وأشعارهم ومعلقاتهم إليها المنتهى في هذا الباب، ولكن، جاءهم من الله ما لا قبل

لأحد به؛ ولهذا آمن من آمن منهم بما عرف من بلاغة هذا الكلام، وحلاوته وجزالته وطلاوته وإفادته وبراعته، فكانوا أعلم الناس به وأفهمهم له وأشدهم له انقياداً .

ولهذا جاء في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: « ما من نبي من الأنبياء إلا وقد أوتي من الآيات ما آمن على مثله البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليّ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً ». وقوله: ﴿ بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله ﴾ يقول: بل كذب هؤلاء بالقرآن، ولم يفهموه ولا عرفوه ﴿ ولما يأتهم تأويله ﴾ أي ولم يحصلوا ما فيه من الهدى ودين الحق إلى حين تكذيبهم به جهلاً وسفهاً، ﴿ كذلك كذب الذين من قبلهم ﴾ أي من الأمم السالفة، ﴿ فانظر كيف كان عاقبة الظالمين ﴾ أي فانظر كيف أهلكناهم بتكذيبهم رسلنا ظلماً وعلواً وكفراً وعناداً، فاحذروا أيها المكذبون أن يصيبكم ما أصابهم، وقوله: ﴿ ومنهم من يؤمن به ﴾ الآية، أي ومن هؤلاء الذين بعث إليهم يا محمد من يؤمن بهذا القرآن ويتبعك وينتفع بما أرسلت به، ﴿ ومنهم من لا يؤمن به ﴾ بل يموت على ذلك ويبعث عليه، ﴿ وربك أعلم بالمفسدين ﴾ أي وهو أعلم بمن يستحق الهداية فيهديه؟ ومن يستحق الضلالة فيضله، وهو العادل الذي لا يجور، بل يعطي كلا ما يستحقه تبارك وتعالى وتقدس .

وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيْعُونَ مِمَّا كَفَرْتُمْ وَأَنَا بَرِيْعٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾ وَمِنْهُمْ مَن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الْأَصْمَ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُمْ مَن يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْأَعْمَى وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾

يقول تعالى لنيي محمد ﷺ: وإن كذبك هؤلاء المشركون فتراهم منهم ومن عملهم ﴿ فقل لي عملي ولكم عملكم ﴾، كقوله تعالى عن إبراهيم الخليل وأبناعه لقومهم المشركين: ﴿ إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله ﴾، وقوله: ﴿ ومنهم من يستمعون إليك ﴾ أي يسمعون كلامك الحسن والقرآن العظيم النافع في القلوب والأبدان، ولكن ليس ذلك إليك ولا إليهم، فإنك كما لا تقدر على إسماع الأصم، فكذلك لا تقدر على هداية هؤلاء إلا أن يشاء الله، ﴿ ومنهم من ينظر إليك ﴾ أي ينظرون إليك وإلى ما أعطاك الله من الخلق العظيم، والدلالة الظاهرة على نبوتك، وهؤلاء ينظرون كما ينظر غيرهم، ولا يحصل لهم من الهداية شيء كما يحصل لغيرهم، بل المؤمنون ينظرون إليك بعين الوقار، وهؤلاء الكفار ينظرون إليك بعين الاحتقار، ﴿ وإذا رأوك إن يتخذونك إلا هزواً ﴾ الآية، ثم أخبر تعالى أنه لا يظلم أحداً شيئاً، وإن كان قد هدى به من هدى وبصر به من العمى، وفتح به أعيناً عمياء وآذاناً صماء، وقلوباً غلفاً، وأضل به عن الإيمان آخرين؛ فهو الحاكم المتصرف في ملكه بما يشاء، لعلمه وحكمته وعدله؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ إن الله لا يظلم الناس شيئاً ولكن الناس أنفسهم يظلمون ﴾ .

وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَسُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا

يقول تعالى مذكراً للناس قيام الساعة، وحشرهم من أجدانهم إلى عرصات القيامة: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمُ﴾ الآية. كقوله: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرُونَ مَا يوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ﴾، وكقوله: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرُونَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَةً أَوْ ضُحَاهَا﴾، وقال تعالى: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبَثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ﴾، وهذا كله دليل على استقصار الحياة الدنيا في الدار الآخرة كقوله: ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ؟ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِينَ﴾، وقوله: ﴿يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ أي يعرف الأبناء الآباء والقرابات بعضهم لبعض، كما كانوا في الدنيا ولكن كل مشغول بنفسه، ﴿فَإِذَا نَفَخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾، وقوله: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مَهْتَدِينَ﴾ خسروا أنفسهم وأهلهم يوم القيامة، ولا خسارة أعظم من خسارة من فرق بينه وبين أحبته يوم الحسرة والندامة.

وَإِمَّا نُرَبِّيكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾

يقول تعالى مخاطباً لرسوله ﷺ: ﴿وَإِمَّا نُرَبِّيكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ﴾ أي نتقم منهم في حياتك لتقر عينك منهم، ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾، أي مصيرهم ومنقلبهم، والله يشهد على أفعالهم بعدك، وقوله: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ﴾ قال مجاهد: يعني يوم القيامة ﴿قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ﴾ الآية، كقوله تعالى: ﴿وَأُشْرِقَتِ الْأَرْضُ بنور ربها﴾ الآية، فكل أمة تعرض على الله بحضرة رسوله، وكتاب أعمالها من خير وشر شاهد عليها وحفظتهم من الملائكة شهود أيضاً، وهذه الأمة الشريفة وإن كانت آخر الأمم في الخلق، إلا أنها أول الأمم يوم القيامة، يفصل بينهم ويقضى لهم، كما جاء في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: «نحن الآخرون السابقون يوم القيامة، المقضي لهم قبل الخلاق»، فأتمته إنما حازت قصب السبق بشرف رسوله صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين.

وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَعْجِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنْتُمْ عَذَابُهُ بَيِّنَاتٌ أَوْ نَهَارًا مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَمْ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنْتُمْ بِهِ ءَا الْكِنَ وَوَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾

يقول تعالى مخبراً عن كفر هؤلاء المشركين في استعجالهم العذاب، وسؤالهم عن وقته قبل التعيين، مما لا فائدة لهم فيه، كقوله: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق﴾ أي كائنة

لا محالة وواقعة وإن لم يعلموا وقتها عيناً، ولهذا أرشد تعالى رسوله ﷺ إلى جوابهم فقال: ﴿ قل لا أملك لنفسي ضراً ولا نفعاً ﴾ الآية، أي لا أقول إلا ما علمني، ولا أقدر على شيء مما استأثر به، إلا أن يطلعني الله عليه، فأنا عبده ورسوله إليكم، وقد أخبرتكم بمجيء الساعة وأنها كائنة، ولم يطلعني على وقتها، ولكن ﴿ لكل أمة أجل ﴾ أي لكل قرن مدة من العمر مقدرة فإذا انقضى أجلهم ﴿ فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ﴾، كقوله: ﴿ ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها ﴾ الآية، ثم أخبر أن عذاب الله سيأتيهم بغتة، فقال: ﴿ قل أرأيتم إن أتاكم عذابه بياتاً أو نهاراً ﴾؟ أي ليلاً أو نهاراً، ﴿ ماذا يستعجل منه المجرمون ﴾ أثم إذا ما وقع آمنتهم به الآن وقد كنتم به تستعجلون ﴿ يعني أنهم إذا جاءهم العذاب قالوا: ﴿ ربنا أبصرنا وسمعنا ﴾ الآية، ﴿ فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا ﴾، وقوله: ﴿ ثم قيل للذين ظلموا ذوقوا عذاب الخلد ﴾ أي يوم القيامة يقال لهم هذا تبيكيتاً وتقريعاً كقوله: ﴿ اصلوها فاصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم إنما تجزون ما كنتم تعملون ﴾ .

* وَيَسْتَخْبِرُونَكَ أَهْلَ قُلُوبٍ وَإِنِّي لَأَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْضِ لَآ فَنَدَتْ بِهِ وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٣﴾

يقول تعالى: ويستخبرونك ﴿ أهل قلوب ﴾ أي المعاد بعد صيرورة الأجسام تراباً ﴿ قل إي وربي إنه لحق وما أنتم بمعجزين ﴾ أي ليس صيرورتكم تراباً بمعجز الله عن إعادتكم كما بدأكم من العدم ﴿ فإنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ﴾، وهذه الآية ليس لها نظير في القرآن إلا آيتان أخريان، يأمر الله تعالى رسوله أن يقسم به على من أنكر المعاد في سورة سبأ، ﴿ وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة قل بلى وربي لتأتينكم ﴾، وفي التغابن: ﴿ زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربي لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم وذلك على الله يسير ﴾، ثم أخبر تعالى أنه إذا قامت القيامة يود الكافر لو افتدى من عذاب الله بملء الأرض ذهباً، ﴿ وأسروا الندامة لما رأوا العذاب وقضى بينهم بالقسط ﴾ أي بالحق ﴿ وهم لا يظلمون ﴾ .

أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْآلَاءِ وَإِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٤﴾ هُوَ يَحْيَىٰ وَوَيْمِيَّتُهَا وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٥﴾

يخبر تعالى أنه مالك السموات والأرض، وأن وعده حق كائن لا محالة، وأنه يحيى ويميت وإليه مرجعهم، وأنه القادر على ذلك العليم بما تفرق من الأجسام وتمزق في سائر أقطار الأرض والبحار والقفار .

يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءً لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾

يقول تعالى ممناً على خلقه بما أنزله من القرآن العظيم على رسوله الكريم: ﴿ يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة

من ربكم ﴿ أي زاجر عن الفواحش، ﴿ وشفاء لما في الصدور ﴾ أي من الشبه والشكوك وهو إزالة ما فيها من رجس وندس، ﴿ وهدى ورحمة ﴾ أي يحصل به الهداية والرحمة من الله تعالى، وإنما ذلك للمؤمنين به والمصدقين الموقنين بما فيه كقوله تعالى: ﴿ ونزل من القرآن ما فيه شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خساراً ﴾. وقوله: ﴿ قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء ﴾ الآية. وقوله تعالى: ﴿ قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا ﴾ أي بهذا الذي جاءهم من الله من الهدى ودين الحق فليفرحوا فإنه أولى ما يفرحون به، ﴿ هو خير مما يجمعون ﴾ أي من حطام الدنيا وما فيها من الزهرة الفانية الذاهبة لا محالة .

* قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ إِنَّ اللَّهَ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا ظُنُّوا الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾

قال ابن عباس ومجاهد: نزلت إنكاراً على المشركين فيما كانوا يحلون ويحرمون من البحائر والسواحب والوصايل، كقوله تعالى: ﴿ وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً ﴾ الآيات، وقد أنكر الله تعالى على من حرم ما أحل الله، أو أحل ما حرم بمجرد الآراء والأهواء التي لا مستند لها ولا دليل عليها، ثم توعدهم على ذلك يوم القيامة فقال: ﴿ وما ظن الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة ﴾ أي ما ظنهم أن يصنع بهم يوم مرجعهم إلينا يوم القيامة؟ وقوله: ﴿ إن الله لذو فضل على الناس ﴾ قال ابن جرير: في تركه معاجلتهم بالعقوبة في الدنيا، ويحتمل أن يكون المراد ﴿ لذو فضل على الناس ﴾ فيما أباح لهم مما خلقه من المنافع، ولم يحرم عليهم إلا ما هو ضار لهم في دنياهم أو دينهم، ﴿ ولكن أكثرهم لا يشكرون ﴾ بل يحرمون ما أنعم الله به عليهم، ويضيقون على أنفسهم فيجعلون بعضاً حلالاً وبعضاً حراماً .

وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ﴿٥٩﴾ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٦٠﴾

يخبر تعالى نبيه ﷺ أنه يعلم جميع أحواله وأحوال أمته، وجميع الخلائق في كل ساعة وأوان ولحظة، وأنه لا يعزب عن علمه وبصره مثقال ذرة في حقاتها وصغرها في السماوات ولا في الأرض، ولا أصغر منها ولا أكبر إلا في كتاب مبين، كقوله: ﴿ وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين ﴾، فأخبر تعالى أنه يعلم حركة الأشجار وغيرها من الجمادات وكذلك اللوالب السارحة، ﴿ وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ﴾ الآية،

وإذا كان هذا علمه بحركات هذه الأشياء فكيف علمه بحركات المكلفين المأمورين بالعبادة؟ كما قال تعالى: ﴿الذي يراك حين تقوم وتقلبك في الساجدين﴾، ولهذا قال تعالى: ﴿ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهوداً إذ تفيضون فيه﴾ أي إذ تأخون في ذلك الشيء نحن مشاهدون لكم راعون سامعون، ولهذا قال ﷺ لما سأله جبريل عن الإحسان: «أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك».

أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾

يخبر تعالى أن أولياءه ﴿الذين آمنوا وكانوا يتقون﴾ كما فسرهم بهم، فكل من كان تقياً، كان الله ولياً ف﴿لا خوف عليهم﴾ أي فيما يستقبلونه من أهوال الآخرة، ﴿ولا هم يحزنون﴾ على ما وراءهم في الدنيا. وقال عبد الله ابن مسعود: أولياء الله الذين إذا رأوا ذكر الله^(١)، وقال رسول الله ﷺ: «إن من عباد الله عبداً يغبطهم الأنبياء والشهداء»، قيل: من هم يارسول الله لعننا نجهم؟ قال: «هم قوم تحابوا في الله من غير أموال ولا أنساب، وجوههم نور على مناير من نور، لا يخافون إذا خاف الناس، ولا يحزنون إذا حزن الناس» ثم قرأ: ﴿ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾^(٢)، وقال الإمام أحمد، عن أبي الدرداء، عن النبي ﷺ في قوله: ﴿لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة﴾، قال: «الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو ترى له». وقال الإمام أحمد، عن عبادة ابن الصامت، أنه سأل رسول الله ﷺ فقال: يارسول الله أرأيت قول الله تعالى: ﴿لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة﴾ فقال: «لقد سألتني عن شيء ما سألتني عنه أحد من أمتي - أو قال أحد قبلك - تلك الرؤيا الصالحة يراها الرجل أو ترى له»؛ وعن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه أنه قال: يارسول الله: الرجل يعمل العمل ويحمده الناس عليه ويثنون عليه به، فقال رسول الله ﷺ: «تلك عاجل بشرى المؤمن»^(٣). وعن عبد الله بن عمرو عن رسول الله ﷺ أنه قال: ﴿لهم البشرى في الحياة الدنيا﴾ الرؤيا الصالحة يبشرها المؤمن جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة^(٤). وقال ابن جرير، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ: «لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة» - قال - في الدنيا الرؤيا الصالحة يراها العبد أو ترى له وهي في الآخرة الجنة^(٥)، وقال ابن جرير، عن أم كرز الكعبية: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ذهبت النبوة وبقيت المبشرات»؛ وقيل: المراد بذلك بشرى الملائكة للمؤمن عند احتضاره بالجنة والمغفرة، كقوله تعالى: ﴿إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون﴾، وفي حديث البراء رضي الله عنه: (إن المؤمن

(١) ورد هذا القول في حديث مرفوع رواه البزار عن ابن عباس قال، قال رجل: يارسول الله من أولياء الله؟ فذكره.

(٢) أخرجه ابن جرير عن أبي هريرة ورواه أبو داود في سننه.

(٣) رواه مسلم وأخرجه أحمد عن أبي ذر.

(٤) أخرجه ابن جرير، وقد روي عن جمع من الصحابة والتابعين تفسير (البشرى) بالرؤيا الصالحة.

(٥) وروي موقوفاً عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: الرؤيا الحسنة بشرى من الله وهي من المبشرات.

إذا حضره الموت جاءه ملائكة بيض الوجوه بيض الثياب، فقالوا: اخرجي أيتها الروح الطيبة إلى روح وريحان ورب غير غضبان، فتخرج من فيه كما تسيل القطرة من فم السقاء). وأما بشرهم في الآخرة فكما قال تعالى: ﴿لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَرْعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَاهُمْ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بِشْرَاكِمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾، وقوله: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾ أي هذا الوعد لا يبدل ولا يخلف ولا يغير بل هو مقرر مثبت كائن لا محالة، ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

وَلَا يَحْزَنُكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَدْعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾

يقول تعالى لرسوله ﷺ: ﴿ولا يحزنك﴾ قول هؤلاء المشركين واستعن بالله عليهم وتوكل عليه فإن العزة لله جميعاً أي جميعاً له ولرسوله وللمؤمنين، ﴿هو السميع العليم﴾ أي السميع لأقوال عباده العليم بأحوالهم؛ ثم أخبر تعالى أن له ملك السماوات والأرض وأن المشركين يعبدون الأصنام وهي لا تملك شيئاً، لا ضراً ولا نفعاً ولا دليل لهم على عبادتها، بل إنما يتبعون في ذلك ظنونهم وتخرفهم وكذبهم وإفكهم، ثم أخبر أنه الذي جعل لعباده الليل ليسكنوا فيه، أي يستريحون فيه من نصبهم وكلالهم وحركاتهم، ﴿والنهار مبصراً﴾ أي مضيئاً لمعاشهم وسعيهم وأسفارهم ومصالحهم، ﴿إن في ذلك لآيات لِقَوْمٍ يُسْمَعُونَ﴾ أي يسمعون هذه الحجج والأدلة فيعتبرون بها ويستدلون على عظمة خالقها ومقدرها ومسيرها.

قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحٰنَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطٰنٍ بِهٰذَا أٰتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلْ إِنْ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكٰذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَّعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نَذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾

يقول تعالى منكرأ على من ادعى أن له ﴿ولداً سبحانه هو الغني﴾ أي تقدس عن ذلك هو الغني عن كل ما سواه وكل شيء فقير إليه ﴿له ما في السموات وما في الأرض﴾، أي فكيف يكون له ولد مما خلق وكل شيء مملوك له عبد له ﴿إن عندكم من سلطان بهذا﴾ أي ليس عندكم دليل على ما تقولونه من الكذب والبهتان ﴿أتقولون على الله ما تعلمون﴾؟ إنكار ووعيد أكيد وتهديد شديد، كقوله تعالى: ﴿وقالوا اتخذ الرحمن ولداً لقد جئتم شيئاً إداً﴾ تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدأً أن دعوا للرحمن ولداً * وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولداً، ثم تواعد تعالى الكاذبين عليه المفترين ممن زعم أن له ولداً، بأنهم لا يفلحون في الدنيا ولا في الآخرة،

فأما في الدنيا فإنهم إذا استدرجهم وأمل لهم متعهم قليلاً ﴿ ثم يضطرهم إلى عذاب غليظ ﴾ ، كما قال تعالى ههنا: ﴿ متاع في الدنيا ﴾ أي يوم القيامة، ﴿ ثم نذيقهم العذاب الشديد ﴾ أي الموجع المؤلم ﴿ بما كانوا يكفرون ﴾ أي بسبب كفرهم واقترانهم وكذبهم على الله فيما ادعوه من الإفك والزور .

* وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ۖ يَتَّقُوا إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذَكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَأَسْأَلْتُم مِّنْ أَجْرٍ إِن أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأَمَرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَجَعَلْنَاهُ وَمَنْ مَّعَهُ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكذِبِينَ ﴿٧٣﴾

يقول تعالى لنبية صلوات الله وسلامه عليه: ﴿ واتل عليهم ﴾ أي أخبرهم واقصص عليهم، أي على كفار مكة الذين يكذبونك ويخالفونك، ﴿ نبأ نوح ﴾ أي خبره مع قومه الذين كذبوه كيف أهلكهم الله ودمرهم بالغرق أجمعين عن آخرهم ليحذر هؤلاء أن يصيبهم من الهلاك والدمار ما أصاب أولئك، ﴿ إذ قال لقومه يا قوم إن كان كبر عليكم ﴾ أي عظم عليكم ﴿ مقامي ﴾ أي فيكم بين أظهركم، ﴿ وتذكيري ﴾ إياكم ﴿ بآيات الله ﴾ أي بحججه وبراهينه، ﴿ فعلى الله توكلت ﴾ أي فإني لا أبالي ولا أكف عنكم سواء عظم عليكم أو لا، ﴿ فأجمعوا أمركم وشركاءكم ﴾ أي فاجتمعوا أنتم وشركاؤكم الذين تدعون من دون الله من صنم ووثن، ﴿ ثم لا يكن أمركم عليكم غمّة ﴾ أي ولا تجعلوا أمركم عليكم متلبساً، بل افصلوا حالكم معي، فإن كنتم تزعمون أنكم محقون فاقضوا إليّ ولا تنظرون، أي ولا تؤخروني ساعة واحدة، أي مهما قدرتم فافعلوا، فإني لا أباليكم ولا أخاف منكم لأنكم لستم على شيء، كما قال هود لقومه: ﴿ فكيدوني جميعاً ثم لا تنظرون إني توكلت على الله ربي وربكم ﴾ الآية . وقوله: ﴿ فإن توليتم ﴾ أي كذبتهم وأدبرتم عن الطاعة ﴿ فما سألتكم من أجر ﴾ أي لم أطلب منكم على نصيحتي إياكم شيئاً، ﴿ إن أجري إلا على الله وأمرت أن أكون من المسلمين ﴾ أي وأنا ممثل ما أمرت به من الإسلام لله عز وجل، والإسلام هو دين الأنبياء جميعاً من أولهم إلى آخرهم، وإن تنوعت شرائعهم وتعددت مناهلهم، وقوله تعالى: ﴿ فكذبوه فجيناها ومن معه ﴾ أي على دينه ﴿ في الفلك ﴾ وهي السفينة، ﴿ وجعلناهم خلائف ﴾ أي في الأرض، ﴿ وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا فانظر كيف كان عاقبة المنذرين ﴾ أي فانظر يا محمد كيف أنجينا المؤمنين وأهلكنا المكذبين .

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا إِلَى قَوْمِهِمْ بِحَاءِ وَهُمْ بِالْبَيْتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ ۖ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى

يقول تعالى: ﴿ثم بعثنا من بعد نوح رسلاً إلى قومهم فجاءوهم بالبينات ﴿٧٥﴾ أي بالحجج والأدلة والبراهين على صدق ما جاءوهم به، ﴿فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل ﴿٧٦﴾، أي فما كانت الأمم لتؤمن بما جاءتهم به رسلهم بسبب تكذيبهم إياهم أول ما أرسلوا إليهم، كقوله تعالى: ﴿ونقلب أفئدتهم وأبصارهم ﴿٧٧﴾ الآية، وقوله: ﴿كذلك نطبع على قلوب المعتدين ﴿٧٨﴾ أي كما طبع الله على قلوب هؤلاء، فما آمنوا بسبب تكذيبهم المتقدم، هكذا يطبع الله على قلوب من أشبههم ممن بعدهم، ويختتم على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم؛ والمراد أن الله تعالى أهلك الأمم المكذبة وأنجى من آمن بهم وذلك من بعد نوح عليه السلام، فإن الناس كانوا من قبله من زمان آدم عليه السلام على الإسلام، إلى أن أحدث الناس عبادة الأصنام، فبعث الله إليهم نوحاً عليه السلام، قال ابن عباس: كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام، وقال الله تعالى: ﴿وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح ﴿٧٩﴾ الآية، وفي هذا إنذار عظيم لمشركي العرب الذين كذبوا سيّد الرسل وخاتم الأنبياء والمرسلين، فإنه إذا كان قد أصاب من كذب بتك الرسل ما ذكره الله تعالى من العذاب والنكال، فإذا ظن هؤلاء وقد ارتكبوا أكبر من أولئك؟

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَلْفِتْنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمُ الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمُ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾

يقول تعالى: ﴿ثم بعثنا ﴿٧٥﴾ من بعد تلك الرسل ﴿٧٥﴾ موسى وهارون إلى فرعون وملئه ﴿٧٥﴾ أي قومه، ﴿بآياتنا ﴿٧٥﴾ أي حججنا وبراهيننا، ﴿فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين ﴿٧٥﴾ أي استكبروا عن اتباع الحق والانقياد له وكانوا قوماً مجرمين، ﴿فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا إن هذا لسحر مبين ﴿٧٦﴾، كأنهم قبحهم الله أقسموا على ذلك وهم يعلمون أن ما قالوه كذب وبهتان، كما قال تعالى: ﴿وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً ﴿٧٦﴾ الآية، ﴿قال ﴿٧٦﴾ لهم ﴿٧٦﴾ موسى ﴿٧٦﴾ منكرًا عليهم ﴿٧٦﴾ أتقولون للحق لما جاءكم أسحر هذا ولا يفلح الساحرون ﴿٧٧﴾ قالوا أجئتنا لتلفتنا ﴿٧٧﴾ أي تشيننا ﴿٧٧﴾ عما وجدنا عليه آباءنا ﴿٧٧﴾ أي الدين الذي كانوا عليه، ﴿وتكون لكما ﴿٧٧﴾ أي لك وهارون ﴿٧٧﴾ الكبرياء ﴿٧٧﴾ أي العظمة والرياسة ﴿٧٧﴾ في الأرض وما نحن لكما بمؤمنين ﴿٧٨﴾. وكثيراً ما يذكر الله تعالى قصة موسى عليه السلام مع فرعون في كتابه العزيز، لأنها من أعجب القصص، فإن فرعون حذر من موسى كل الحذر، فسخره القدر: أن ربي على فراشه بمنزلة الولد ثم ترعرع وعقد الله له سبباً أخرجه من بين أظهرهم، ورزقه النبوة والرسالة والتكليم، ولم تزل الآيات تقوم على يدي موسى شيئاً بعد شيء، ومرة بعد مرة، مما يبهر العقول، ويدهش الألباب، ﴿وما تأتيهم من آية إلا هي أكبر من أختها ﴿٧٨﴾ وصمم فرعون وملأه قبحهم الله على التكذيب بذلك كله والجحد والعناد والمكابرة، حتى أحل الله بهم بأسه الذي لا يرد، وأغرقتهم في صبيحة واحدة أجمعين، ﴿فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين ﴿٧٨﴾.

وَقَالَ فِرْعَوْنُ أَتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ ﴿٨٠﴾
 فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ
 اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾

ذكر تعالى قصة السحرة مع موسى عليه السلام، وما أراده فرعون من معارضة الحق المبين، ﴿ وقال فرعون ائتوني بكل ساحر عليم * فلما جاء السحرة قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون ﴾ ، وإنما قال لهم ذلك لأنهم لما اصطفوا وقد وعدوا من فرعون بالتقريب والعتاء الجزيل ﴿ قالوا يا موسى إما أن تلقي وإما أن نكون أول من ألقى ﴾ ، فأراد موسى أن تكون البداءة منهم ليرى الناس ما صنعوا، ثم يأتي بالحق بعده فيدمغ باطلهم، ولهذا لما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم، ﴿ فأوجس في نفسه خيفة موسى قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى ﴾ ، فعند ذلك قال موسى لما ألقوا: ﴿ ما جئتم به السحر إن الله سيبطله أن الله لا يصلح عمل المفسدين * ويحق الله الحق بكلماته ولو كره المجرمون ﴾ .

فَأَمَّا أَمْنٌ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾

يخبر تعالى أنه لم يؤمن بموسى عليه السلام مع ما جاء به من الآيات البيّنات، والحجج القاطعات والبراهين الساطعات، إلا قليل من قوم فرعون من الذرية، وهم الشباب على وجل وخوف منه ومن ملته أن يردوهم إلى ما كانوا عليه من الكفر، لأن فرعون لعنه الله كان جباراً عنيداً مسرفاً في التمرد والعتو، وكانت له سطوة ومهابة يخاف رعيته منه خوفاً شديداً. قال ابن عباس: الذرية التي آمنت لموسى من غير بني إسرائيل من قوم فرعون يسير « منهم امرأة فرعون، ومؤمن آل فرعون، وخازن فرعون، وامرأة خازنه »، وعنه: ﴿ فأمن موسى إلا ذرية من قومه ﴾ يقول: من بني إسرائيل، وقال مجاهد في قوله: ﴿ إلا ذرية من قومه ﴾ هم أولاد الذين أرسل إليهم موسى من طول الزمان ومات آباؤهم، واختار ابن جرير قول مجاهد في الذرية أنها من بني إسرائيل، لا من قوم فرعون لعود الضمير على أقرب المذكورين، وفي هذا نظر، لأنه أراد بالذرية الأحداث والشباب، وأنهم من بني إسرائيل، والمعروف أن بني إسرائيل كلهم آمنوا بموسى عليه السلام وقد كانوا يعرفون نعتة وصفته والبشارة به من كتبه المتقدمة، وأن الله تعالى سينقدهم به من أسر فرعون ويظهرهم عليه، ولما جاء موسى آذاهم فرعون أشد الأذى، ﴿ قالوا أؤذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا ﴾ ، وإذا تقرر هذا فكيف يكون المراد إلا ذرية من قوم موسى وهم بنو إسرائيل ﴿ على خوف من فرعون وملئهم ﴾ أي وأشراف قومهم أن يفتنهم، ولم يكن في بني إسرائيل من يخاف منه أن يفتن عن الإيمان، ومما يدل على أنه لم يكن في بني إسرائيل إلا مؤمن قوله تعالى :

وَقَالَ مُوسَىٰ يَنْقُومُ إِن كُنْتُمْ ءَامِنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا

لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٨٦﴾

يقول تعالى مخبراً عن موسى أنه قال لبني إسرائيل: ﴿يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين﴾ أي فإن الله كاف من توكل عليه، ﴿أليس الله بكاف عبده﴾، ﴿ومن يتوكل على الله فهو حسبه﴾، وكثيراً ما يقرن الله تعالى بين العبادة والتوكل، كقوله تعالى: ﴿فاعبده وتوكل عليه﴾، وقد امتثل بنو إسرائيل ذلك فقالوا: ﴿على الله توكلنا ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين﴾ أي لا تظفرهم وتسلطهم علينا فيظنوا أنهم إنما سلطوا لأنهم على الحق ونحن على الباطل فيفتنوا بذلك، هكذا روي عن أبي الضحى، وقال مجاهد: لا تعذبنا بأيدي آل فرعون ولا بعذاب من عندك فيقول قوم فرعون: لو كانوا على حق ما عذبوا ولا سلطنا عليهم فيفتنوا بنا. وعن مجاهد: لا تسلطهم علينا فيفتنونا، وقوله: ﴿ونجنا برحمتك﴾ أي خلصنا برحمة منك وإحسان ﴿من القوم الكافرين﴾ أي الذين كفروا الحق وستروه ونحن قد آمننا بك وتوكلنا عليك.

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بِيوتَا وَأَجْعَلُوا بُيوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ

الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾

يذكر تعالى سبب انجائه بني إسرائيل من فرعون وقومه وكيفية خلاصهم منهم، وذلك أن الله تعالى أمر موسى وأخاه هارون عليهما السلام أن يتبوءا، أي يتخذا لقومهما بمصر بيوتاً، واختلف المفسرون في معنى قوله تعالى: ﴿واجعلوا بيوتكم قبلة﴾، فقال ابن عباس: أمروا أن يتخذوها مساجد، وقال الثوري، عن إبراهيم: كانوا خائفين فأمروا أن يصلوا في بيوتهم، وأمروا بكثرة الصلاة كقوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة﴾، وفي الحديث: (كان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر صلى) (١)، ولهذا قال تعالى في هذه الآية: ﴿واجعلوا بيوتكم قبلة وأقيموا الصلاة وبشر المؤمنين﴾، أي بالثواب والنصر القريب، وقال العوفي عن ابن عباس في تفسير هذه الآية قال، قالت بنو إسرائيل عليه السلام: لا نستطيع أن نظهر صلاتنا مع الفراعنة، فأذن الله تعالى لهم أن يصلوا في بيوتهم، وأمروا أن يجعلوا بيوتهم قبل القبلة.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوَا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَأَشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرُوا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾ *

هذا إخبار من الله تعالى عما دعا به موسى عليه السلام على فرعون وملئه، لما أبوا قبول الحق واستمروا على ضلالهم وكفرهم معاندين جاحدين ظلماً وعلواً وتكبراً وعتواً، قال موسى: ﴿ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة﴾

أي من أثاث الدنيا ومتاعها، ﴿وأموالاً﴾ أي جزيلة كثيرة ﴿في﴾ هذه ﴿الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك﴾ أي ليفتنن بما أعطيتهم من شئت من خلقك، وليظن من أغويته أنك إنما أعطيتهم هذا لحبك إياهم واعتنائك بهم ﴿ربنا اطمس على أموالهم﴾، قال ابن عباس: أي أهلكتها، وقال الضحاك: اجعلها حجارة منقوشة كهيئة ما كانت، وقال قتادة: بلغنا أن زروعهم تحولت حجارة، وقوله: ﴿واشدد على قلوبهم﴾ قال ابن عباس: أي اطبع عليها ﴿فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم﴾ وهذه الدعوة كانت من موسى عليه السلام غضباً لله ولدينه على فرعون وملئه الذين تبين له أنهم لا خير فيهم ولا يجيء منهم شيء، كما دعا نوح عليه السلام فقال: ﴿رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً﴾، ولهذا استجاب الله تعالى لموسى عليه السلام فيهم هذه الدعوة التي آمن عليها أخوه هارون، فقال تعالى: ﴿قد أجيبت دعوتكما﴾، قال أبو العالية وعكرمة: دعا موسى وأمن هارون، أي قد أجبنا كما فيما سألنا من تدمير آل فرعون، ﴿فاستقيا﴾ أي كما أجيبت دعوتكما فاستقيا على أمري، قال ابن عباس: فاستقيا: فامضيا لأمرى وهي الاستقامة، قال ابن جريج: يقولون إن فرعون مكث بعد هذه الدعوة أربعين سنة، وقيل: أربعين يوماً.

وَجَوَّزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ ءَأَمِنْتُ أَنَّهُ لَآ إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَأَمِنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَالْقَنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَالْيَوْمَ نُجْجِكُ بِبَدْنِكَ لَنَسُوْنَا لِمَنْ خَلَقَكَ ءَايَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ ءَايَاتِنَا لَغَافِلُونَ ﴿٩٢﴾

يذكر تعالى كيفية إغراقه فرعون وجنوده، فإن بني إسرائيل لما خرجوا من مصر وهم فيما قيل ستائة ألف مقاتل سوى الذرية، اشتد حقد فرعون عليهم، فأرسل في المدائن حاشرين يجمعون له جنوده من أقاليمه، فركب وراءهم في أبهة عظيمة وجيوش هائلة لما يريد الله تعالى بهم، فلحقوهم وقت شروق الشمس، ﴿فلما تراءى الجمعان قال أصحاب موسى إنا لمدركون﴾، أي كيف المخلص مما نحن فيه؟ فقال: ﴿كلا إن معي ربي سيهدين﴾، فأمره الله تعالى أن يضرب البحر بعصاه، فضربه فانفلق البحر، فكان كل فرق كالطود العظيم، وجاوزت بنو إسرائيل البحر، فلما خرج آخرهم منه، انتهى فرعون وجنوده إلى حافته من الناحية الأخرى، وهو في مائة ألف، فلما رأى ذلك هاله، وأحجم وهاب وهم بالرجوع، وهيئات ولات حين مناص، فاقتحموا كلهم عن آخرهم، وميكائيل في ساقهم، لا يترك منهم أحداً إلا ألحقه بهم، فلما استوسقوا فيه وتكاملوا، وهم أولهم بالخروج منه أمر الله القدير البحر أن يرتطم عليهم، فارتطم عليهم، فلم ينج منهم أحد، وجعلت الأمواج ترفعهم وتخفضهم، وتراكت الأمواج فوق فرعون، وغشيتة سكرات الموت، فقال وهو كذلك: ﴿آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين﴾، فآمن حيث لا ينفعه الإيمان ﴿فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا﴾، ولهذا قال الله تعالى في جواب فرعون حين قال ما قال: ﴿آلآن وقد عصيت قبل﴾ أي أهذا الوقت تقول، وقد عصيت الله قبل هذا فيما بينك وبينه؟ ﴿وكننت من المفسدين﴾ أي في الأرض، ﴿وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ويوم القيامة لا ينصرون﴾، وهذا الذي حكى الله تعالى عن فرعون من قوله هذا في حاله، ذلك من أسرار الغيب التي أعلم

الله بها رسوله ﷺ، ولهذا قال الإمام أحمد بن حنبل، عن ابن عباس قال، قال رسول الله ﷺ: «لما قال فرعون آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل - قال، قال لي جبريل: لو رأيته وقد أخذت من حال^(١) البحر فدرسته في فيه مخافة أن تناله الرحمة^(٢)» .

وقوله تعالى: ﴿فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية﴾، قال ابن عباس وغيره من السلف: إن بعض بني إسرائيل شكوا في موت فرعون، فأمر الله البحر أن يلقيه بجسده سوياً بلا روح، ليتحققوا موته وهلاكه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فاليوم ننجيك﴾ أي نرفعك على نشز من الأرض ﴿ببدنك﴾، قال مجاهد: بجسدك، وقال الحسن: بجسم لا روح فيه، وقوله: ﴿لتكون لمن خلفك آية﴾ أي لتكون لبني إسرائيل دليلاً على موتك وهلاكك، وأن الله هو القادر الذي ناصية كل دابة بيده، وأنه لا يقوم لغضبه شيء، ﴿وإن كثيراً من الناس عن آياتنا لغافلون﴾ أي لا يتعظون بها ولا يعتبرون بها، وقد كان إهلاكهم يوم عاشوراء كما قال ابن عباس: قدم النبي ﷺ المدينة واليهود تصوم يوم عاشوراء فقال: «ما هذا اليوم الذي تصومونه؟» فقالوا: هذا يوم ظهر فيه موسى على فرعون، فقال النبي ﷺ لأصحابه: «وأنتم أحق بموسى منهم فصوموه»^(٣).

وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مَبُوءًا صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾

يخبر تعالى عما أنعم به على بني إسرائيل من النعم الدينية والدنيوية، وقوله: ﴿مبوءاً صدق﴾ قيل: هو بلاد مصر والشام مما يلي بيت المقدس ونواحيه، فإن الله تعالى لما أهلك فرعون وجنوده، استقرت يد الدولة الموسوية على بلاد مصر بكاملها، كما قال تعالى: ﴿وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها﴾، وقال في الآية الأخرى: ﴿كذلك وأورثناها بني إسرائيل﴾، وقال: ﴿كم تركوا من جنات وعيون﴾ الآيات، ولكن استمروا مع موسى عليه السلام طالبين إلى بلاد بيت المقدس، وهي بلاد الخليل عليه السلام فاستمر موسى بمن معه طالباً بيت المقدس، وكان فيه قوم من العمالقة، فنكل بنو إسرائيل عن قتالهم، فشردهم الله تعالى في التيه أربعين سنة، ومات فيه هارون، ثم موسى عليهما السلام، وخرجوا بعدهما مع (يوشع بن نون) ففتح الله عليهم بيت المقدس، واستقرت أيديهم عليها إلى أن أخذها منهم بختنصر حيناً من الدهر، ثم انترعها الصحابة رضي الله عنهم من يد النصارى، وكان فتح بيت المقدس على يد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وقوله: ﴿ورزقناهم من الطيبات﴾ أي الحلال من الرزق الطيب النافع المستطاب طبعاً وشرعاً، وقوله: ﴿فما اختلفوا حتى جاءهم العلم﴾ أي ما اختلفوا في شيء من المسائل إلا من بعد ما جاءهم العلم، أي ولم يكن لهم أن يختلفوا، وقد ورد في الحديث: أن اليهود اختلفوا على إحدى وسبعين فرقة، وأن النصارى اختلفوا على

(١) حال البحر: طينه الأسود.

(٢) ورواه الترمذي وابن أبي حاتم وقال الترمذي: حديث حسن.

(٣) رواه البخاري عن ابن عباس.

اثنتين وسبعين فرقة، وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة، منها واحدة في الجنة، واثنتان وسبعون في النار .
 قيل من هم يا رسول الله ؟ قال : « ما أنا عليه وأصحابي »^(٩٤) ، ولهذا قال تعالى : ﴿ إن ربك يقضي بينهم ﴾ أي يفصل بينهم ﴿ يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون ﴾ .

فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ
 فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونُوا مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ
 الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾

قال قتادة : بلغنا أن رسول الله ﷺ قال : « لا أشك ولا أسأل » ، وهذا فيه تثبيت للأمة وإعلام لهم أن صفة نبيهم ﷺ موجودة في الكتب المتقدمة التي بأيدي أهل الكتاب ، كما قال تعالى : ﴿ الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل ﴾ الآية ، ثم مع هذا العلم الذي يعرفونه من كتبهم كما يعرفون أبناءهم ، يلبسون ذلك ويحرفونه ويبدلونه ، ولا يؤمنون به مع قيام الحجة عليهم ، ولهذا قال تعالى : ﴿ إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ﴾ ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم ﴿ أي لا يؤمنون إيماناً ينفعهم ، بل حين لا ينفع نفساً إيمانها ، ولهذا لما دعا موسى على فرعون وملئه قال : ﴿ فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم ﴾ .

فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمٌ يُونُسَ لَمَّا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ ءَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ
 الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾

يقول تعالى : فهلا كانت قرية آمنت بكاملها من الأمم السالفة بل ما أرسلنا من قبلك يا محمد من رسول إلا كذبه قومه أو أكثرهم ، كقوله تعالى : ﴿ يا حسرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون ﴾ ، وقوله : ﴿ كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون ﴾ . وفي الحديث الصحيح : « عرض عليّ الأنبياء فجعل النبي يمر ومعه الفئام من الناس ، والنبي يمر معه الرجل ، والنبي معه الرجلان ، والنبي ليس معه أحد » ثم ذكر كثرة أتباع موسى عليه السلام ، ثم ذكر كثرة أمته صلوات الله وسلامه عليه كثرة سُدَّت الخافقين ، والغرض أنه لم توجد قرية آمنت بكاملها بنبيهم ممن سلف من القرى إلا قوم يونس ، وهم (أهل نينوى) وما كان إيمانهم إلا نخوفاً من وصول العذاب الذي أنذرهم به رسولهم ، بعد ما عاينوا أسبابه ، وخرج رسولهم من بين أظهرهم فعندما جأروا إلى الله واستغاثوا به وتضرعوا له ، واستكانوا ، وأحضروا أطفالهم ودوابهم ومواشيهم ، وسألوا الله تعالى أن يرفع عنهم العذاب الذي أنذرهم به نبيهم ؛ فعندها رحمهم الله ، وكشف عنهم العذاب وأخروا : كما قال تعالى : ﴿ إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين ﴾ . وقال قتادة في تفسير

هذه الآية: لم ينفع قرية كفرت ثم آمنت حين حضرها العذاب، إلا قوم يونس لما فقلوا نبيهم، وظنوا أن العذاب قد دنا منهم قذف الله في قلوبهم التوبة، ولبسوا المسوح، وفرقوا بين كل بهيمة وولدها، ثم عجزوا إلى الله أربعين ليلة، فلما عرف الله الصدق من قلوبهم، والتوبة والندامة على ما مضى منهم كشف عنهم العذاب.

وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرَهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرَّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾

يقول تعالى: ﴿ولو شاء ربك﴾ يا محمد لأذن لأهل الأرض كلهم في الإيمان، ولكن له حكمة فيما يفعله تعالى، كقوله تعالى: ﴿ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة﴾، وقال تعالى: ﴿أفلم ييأس الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً﴾، ولهذا قال تعالى: ﴿أفأنت تكره الناس﴾ أي تلزمهم وتلجئهم، ﴿حتى يكونوا مؤمنين﴾ أي ليس ذلك عليك ولا إليك ﴿ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء﴾، ﴿إنك لا تهدي من أحببت﴾، ﴿فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب﴾، ﴿لست عليهم بمصيطر﴾ إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أن الله تعالى هو الفعال لما يريد، الهادي من يشاء المضل لمن يشاء، لعلمه وحكمته وعدله، ولهذا قال تعالى: ﴿وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله ويجعل الرجس﴾ وهو الخبال والضلال ﴿على الذين لا يعقلون﴾ أي حجج الله وأدلتها، وهو العادل في كل ذلك في هداية من هدى وإضلال من ضل.

قُلْ أَنْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنَّذِيرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَجِّي الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾

يرشد تعالى عباده إلى التفكير في آياته، وما خلق الله في السماوات والأرض من الآيات الباهرة لذوي الأبصار، وما أنزل الله منها من مطر فأحيا به الأرض بعد موتها، وأخرج فيها من أفانين الثمار والزرع والأزاهير وصنوف النبات، وما ذرأ فيها من دواب مختلفة الأشكال والألوان والمنافع، وما فيها من جبال وسهول وقفار وعمران وخراب، وما في البحر من العجائب والأمواج، وهو مع هذا مسخرٌ مذل للسالكين، بتسخير القدير لا إله إلا هو رب العالمين، وقوله: ﴿وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون﴾ أي: وأي شيء تغني الآيات السماوية والأرضية، والرسل بآياتها وحججها وبراهينها الدالة على صدقها، عن قوم لا يؤمنون، كقوله: ﴿إن الذين حققت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون﴾ الآية، وقوله: ﴿فهل ينتظرون إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم﴾، أي فهل ينتظر هؤلاء المكذبون لك يا محمد من النعمة والعذاب إلا مثل أيام الله في الذين خلوا من قبلهم من الأمم الماضية المكذبة لرسولهم، ﴿قل فانظروا إني معكم من المنتظرين﴾ ثم ننجي رسلنا والذين آمنوا، أي ونهلك المكذبين بالرسول، ﴿كذلك حقاً علينا ننجي المؤمنين﴾ حقاً أوجبه الله تعالى على نفسه الكريمة، كقوله: ﴿كتب ربكم على نفسه

الرحمة ﴿١٠٤﴾ ، وكما جاء في الصحيحين : « إن الله كتب كتاباً فهو عنده فوق العرش ، إن رحمتي سبقت غضبي » .

قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِن أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّنَا وَأَمَرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٥﴾ وَأَنْ أَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِن الظَّالِمِينَ ﴿١٠٧﴾ وَإِن يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِن عِبَادِهِ وَهُوَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٨﴾

يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ : ﴿ قل يا أيها الناس إن كنتم في شك من صفة ما جئكم به من الدين الحنيف الذي أوحاه الله إليّ ، فأنا لا أعبد الذين تعبدون من دون الله ، ولكن أعبد الله وحده لا شريك له ، وهو الذي يتوفاكم كما أحياكم ، ثم إليه مرجعكم ، فإن كانت آهتكم التي تدعون من دون الله حقاً فأنا لا أعبدها ، فادعوا فلتنصرتي فإنها لا تنصر ولا تنفع ، وإنما الذي بيده الضر والنفع هو الله وحده لا شريك له ، وأمرت أن أكون من المؤمنين ، وقوله : ﴿ وأن أقم وجهك للدين حنيفاً ﴾ ، أي أخلص العبادة لله وحده حنيفاً أي منحرفاً عن الشرك ، ولهذا قال : ﴿ ولا تكونن من المشركين ﴾ ، وهو معطوف على قوله : ﴿ وأمرت أن أكون من المؤمنين ﴾ ، وقوله : ﴿ وإن يمسك الله بضر ﴾ الآية ، فيه بيان لأن الخير والشر والنفع والضر إنما هو راجع إلى الله تعالى وحده ، روى الحافظ بن عساكر ، عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال : « اطلبوا الخير دهركم كله ، وتعرضوا لنفحات ربكم ، فإن لله نفحات من رحمته يصيب بها من يشاء من عباده ، واسألوه أن يستر عوراتكم ويؤمن روعاتكم » وقوله : ﴿ وهو الغفور الرحيم ﴾ أي لمن تاب إليه ولو من أي ذنب كان حتى من الشرك به فإنه يتوب عليه .

قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴿١٠٩﴾ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿١١٠﴾

يقول تعالى آمراً لرسوله ﷺ أن يخبر الناس ، أن الذي جاءهم به من عند الله هو الحق الذي لا مرية فيه ، فمن اهتدى به واتبعه فإنما يعود نفعه على نفسه ، ومن ضل عنه فإنما يرجع وبال ذلك عليه ، ﴿ وما أنا عليكم بوكيل ﴾ ، أي وما أنا موكل بكم حتى تكونوا مؤمنين وإنما أنا نذير لكم ، والهداية على الله تعالى ، وقوله : ﴿ واتبع ما يوحى إليك واصبر ﴾ أي تمسك بما أنزل الله عليك وأوحاه إليك ، واصبر على مخالفة من خالفك من الناس ﴿ حتى يحكم الله ﴾ أي يفتح بينك وبينهم ، ﴿ وهو خير الحاكمين ﴾ أي خير الفاتحين بعدله وحكمته .

(١١) سُورَةُ هُوَ لَا مَكِّيَّةَ
وَآيَاتُهَا ثَلَاثٌ وَعِشْرُونَ وَمِائَةٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الر كَتَبْتُ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فَصَلْتَ مِنْ لَدُنِّ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾ وَإِنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤﴾

تقدم الكلام على حروف الهجاء في أول سورة البقرة بما أغنى عن إعادته هنا وبالله التوفيق، وأما قوله : ﴿ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فَصَلْتَ ﴾ أي هي محكمة في لفظها، مفصلة في معناها فالقرآن كامل صورة ومعنى، هذا معنى ما روي عن مجاهد وقتادة واختاره ابن جرير، وقوله : ﴿ مِنْ لَدُنِّ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ أي من عند الله الحكيم في أقواله وأحكامه، الخبير بعواقب الأمور ﴿ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ﴾ أي أنزل هذا القرآن المحكم المفصل لعبادة الله وحده لا شريك له، وقوله : ﴿ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴾ أي إني لكم نذير من العذاب إن خالفتموه، وبشير بالثواب إن أطعتموه؛ كما جاء في الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ صعد الصفا، فدعا بطون قريش الأقرب ثم الأقرب، فاجتمعوا، فقال: « يا معشر قريش أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً تصبّحكم ألستم مصدقي؟ » فقالوا: ما جربنا عليك كذباً، قال: « فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد »، وقوله : ﴿ وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ ﴾ أي وأمركم بالاستغفار من الذنوب السالفة والتوبة منها إلى الله عزّ وجلّ فيما تستقبلونه، وأن تستمروا على ذلك : ﴿ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا ﴾ أي في الدنيا، ﴿ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ ﴾ أي في الدار الآخرة، قاله قتادة، كقوله : ﴿ مِنْ عَمَلٍ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً ﴾ الآية، وقد جاء في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال لسعد : « وإنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا أجرت بها حتى ما تجعل في في امرأتك »، عن ابن مسعود في قوله : ﴿ وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ ﴾، قال: من عمل سيئة كتبت عليه سيئة، ومن عمل حسنة كتبت له عشر حسنات، فإن عوقب بالسيئة التي كان عملها في الدنيا، بقيت له عشر حسنات، وإن لم

يعاقب بها في الدنيا أخذ من الحسنات العشر واحدة وبقيت له تسع حسنات، ثم يقول: هلك من غلب آحاده على أعشاره^(١). وقوله: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾، هذا تهديد شديد لمن تولى عن أوامر الله تعالى، وكذب رسله فإن العذاب يناله يوم القيامة لا محالة ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ أي معادكم يوم القيامة، ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي وهو القادر على ما يشاء من إحسانه إلى أوليائه وانتقامه من أعدائه، وإعادة الخلائق يوم القيامة، وهذا مقام ترهيب كما أن الأول مقام ترغيب.

* أَلَا إِنَّهُمْ يَنْتُونُ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ

بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٥﴾

قال ابن عباس: كانوا يكرهون أن يستقبلوا السماء بفروجهم وحال وقاعهم، فأنزل الله هذه الآية، وفي لفظ آخر له: أناس كانوا يستحيون أن يتخلوا، فيفضوا إلى السماء، وأن يجامعوا نساءهم فيفضوا إلى السماء، فنزل ذلك فيهم،^(٢) قال البخاري: ﴿يَسْتَغْشُونَ﴾ يغطون رؤوسهم، وقال ابن عباس في رواية أخرى في تفسير هذه الآية: يعني به الشك في الله وعمل السيئات، أي أنهم كانوا يثنون صدورهم إذا قالوا شيئاً أو عملوه، فيظنون أنهم يستخفون من الله بذلك، فأخبرهم الله تعالى أنهم حين يستغشون ثيابهم عند منامهم في ظلمة الليل ﴿يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ﴾ من القول، ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أي يعلم ما تكن صدورهم من النيات والضامرات والسرائر، وما أحسن ما قال (زهير بن أبي سلمى) في معلقته المشهورة:

فلا تكتمن الله ما في قلوبكم ليخفي ومهما يكتم الله يعلم

وقال عبد الله بن شداد: كان أحدهم إذا مر برسول الله ﷺ ثنى عنه صدره وغطى رأسه فأنزل الله ذلك، وعود الضمير إلى الله أولى، لقوله: ﴿أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾.

* وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٦﴾

أخبر تعالى أنه متكفل بأرزاق المخلوقات من سائر دواب الأرض، صغيرها وكبيرها وأنه يعلم مستقرها، أي يعلم أين منتهى سيرها في الأرض وأين تأوي إليه من وكرها وهو مستودعها، عن ابن عباس: ﴿ويعلم مستقرها﴾ أي حيث تأوي ﴿ومستودعها﴾ حيث تموت، وعن مجاهد: ﴿مستقرها﴾ في الرحم ﴿ومستودعها﴾ في الصلب، فجميع ذلك مكتوب في كتاب عند الله كقوله: ﴿ما فرطنا في الكتاب من شيء ثم إلى ربهم يحشرون﴾، وقوله: ﴿ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين﴾.

(١) أخرجه ابن جرير الطبري.

(٢) أخرجه البخاري عن ابن عباس.

وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِنْ قُلْتُمْ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٧﴾ وَلَئِنْ أَخْرْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ ﴿٨﴾ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨﴾

يخبر تعالى عن قدرته على كل شيء وأنه خلق السماوات والأرض في ستة أيام، وأن عرشه كان على الماء قبل ذلك، كما روى الإمام أحمد، عن عمران بن حصين قال، قال رسول الله ﷺ: « اقبلوا بشرى يا بني تميم »، قالوا: قد بشرتنا فأعطينا، قال: « اقبلوا بشرى يا أهل اليمن »، قالوا: قد قبلنا، فأخبرنا عن أول هذا الأمر كيف كان؟ قال: « كان الله قبل كل شيء، وكان عرشه على الماء، وكتب في اللوح المحفوظ ذكر كل شيء »، قال، فأتاني آت فقال: يا عمران انحلت ناقتك من عقاها، قال: فخرجت في إثرها، فلا أدري ما كان بعدي^(١)، وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال، قال رسول الله ﷺ: « إن الله قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء »، قال مجاهد: ﴿ وكان عرشه على الماء ﴾ قبل أن يخلق شيئاً، وقال قتادة: ﴿ وكان عرشه على الماء ﴾ ينبئكم كيف كان بدء خلقه قبل أن يخلق السماوات والأرض، وقال ابن عباس: إنما سمي العرش عرشاً لارتفاعه، وعن سعيد بن جبير: سئل ابن عباس عن قول الله: ﴿ وكان عرشه على الماء ﴾ على أي شيء كان الماء؟ قال: على متن الريح .

وقوله تعالى: ﴿ ليلوكم أيكم أحسن عملاً ﴾ أي خلق السماوات والأرض لنفع عباده الذين خلقهم ليعبده ولا يشركوا به شيئاً ولم يخلق ذلك عبثاً، كقوله: ﴿ وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً ﴾، وقال تعالى: ﴿ أفحسبتم أننا خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون ﴾ فتعالى الله الملك الحق، وقوله: ﴿ ليلوكم ﴾ أي ليختبركم ﴿ أيكم أحسن عملاً ﴾ ولم يقل أكثر عملاً، بل ﴿ أحسن عملاً ﴾، ولا يكون العمل حسناً حتى يكون خالصاً لله عز وجل، على شريعة رسول الله ﷺ، فتنى فقد العمل واحداً من هذين الشرطين حبط وبطل، وقوله: ﴿ ولئن قلت إنكم مبعوثون من بعد الموت ﴾ الآية، يقول تعالى ولئن أخبرت يا محمد هؤلاء المشركين أن الله سيبعثهم بعد مماتهم كما بدأهم مع أنهم يعلمون أن الله تعالى هو الذي خلق السماوات والأرض، وهم مع هذا ينكرون البعث والمعاد يوم القيامة، الذي هو بالنسبة إلى القدرة أهون من البداء، كما قال تعالى: ﴿ وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه ﴾، وقولهم: ﴿ إن هذا إلا سحر مبين ﴾ أي يقولون كفراً وعناداً ما نصدقك على وقوع البعث، وما يذكر ذلك إلا من سحرته فهو يتبعك على ما تقول، وقوله: ﴿ ولئن أخرنا عنهم العذاب إلى أمة معدودة ﴾ الآية، يقول تعالى: ولئن أخرنا عنهم العذاب والمؤاخظة إلى أجل معدود وأمد محصور، وأوعدناهم إلى مدة مضروبة ليقولن

(١) قال ابن كثير: وهذا الحديث مخرج في صحيح البخاري ومسلم بألفاظ كثيرة، فمنها قالوا: جئناك نسألك عن أول هذا الأمر، فقال: كان الله ولم يكن شيء قبله، وفي رواية غيره، وفي رواية منه كان عرشه على الماء .

تكذيباً واستعجالاً ﴿ ما يحبسه ﴾ أي يؤخر هذا العذاب عنا، فإن سجاياهم قد ألفت التكذيب والشك، فلم يبق لهم محيص عنه ولا محيد؛ والأمة تستعمل القرآن في معان متعددة، فيراد بها الأمد كقوله في هذه الآية: ﴿ إلى أمة معدودة ﴾، وقوله في يوسف: ﴿ واذكر بعد أمة ﴾، وتستعمل في الإمام المقتدى به، كقوله: ﴿ إن إبراهيم كان أمة ﴾، وتستعمل في الملة والدين كقول: المشركين: ﴿ إنا وجدنا آباءنا على أمة ﴾، وتستعمل في الجماعة كقوله: ﴿ وجد عليه أمة من الناس يسقون ﴾، وتستعمل في الفرقة والطائفة كقوله تعالى: ﴿ ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون ﴾ .

وَلَيْنِ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ زَازَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَكْفُرُ كَفُورًا ﴿١٠﴾ وَلَيْنِ أَذَقْنَاهُ نِعْمَاءً بَعْدَ ضَرَاءٍ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحَ فَخُورًا ﴿١١﴾ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمَلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾

يخبر تعالى عن الإنسان وما فيه من الصفات الذميمة، إلا من رحم الله، أنه إذا أصابته شدة بعد نعمة حصل له بأس وقنوط بالنسبة إلى المستقبل، وكفر وجحود لماضي الحال، كأنه لم ير خيراً ولم يرج بعد ذلك فرجاً، وهكذا إن أصابته نعمة بعد نقمة ﴿ ليقولن ذهب السيئات عني ﴾ أي يقول ما ينالني بعد هذا ضيم ولا سوء، ﴿ إنه لفرح فخور ﴾ أي فرح بما في يده بطرف فخور على غيره، قال الله تعالى: ﴿ إلا الذين صبروا ﴾ أي على الشدائد والمكاره، ﴿ وعملوا الصالحات ﴾ أي في الرخاء والعافية، ﴿ أولئك لهم مغفرة ﴾ أي بما يصيبهم من الضراء ﴿ وأجر كبير ﴾ بما أسلفوه في زمن الرخاء، كما جاء في الحديث: « والذي نفسي بيده لا يصيب المؤمن هم ولا غم ولا نصب ولا وصب ولا حزن حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله عنه بها من خطاياها، وفي الصحيحين: « والذي نفسي بيده لا يقضي الله للمؤمن قضاء إلا كان خيراً له إن أصابته سراء فشكر كان خيراً له، وإن أصابته ضراء فصر كان خيراً له، وليس ذلك لأحد غير المؤمن » .

فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضُ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كِتَابٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ ﴿١٣﴾ أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٤﴾ أَمْ يَقُولُونَ أَفْتَرَّهُ قُلْ فَاتُوا بَعْشِرَ سُورٍ مِثْلِهِ مَفْتَرِينَ وَادْعُوا مِنِ اسْتَطَعْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّ مَا أُنزِلَ بِهِ عَلِيمٌ وَاللَّهُ أَنَّىٰ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُّسْلِمُونَ ﴿١٦﴾

يقول تعالى مسلماً لرسوله ﷺ عما كان يتعنت به المشركون فيما كانوا يقولونه عن الرسول كما أخبر تعالى عنهم في قوله: ﴿ وقال الظالمون إن تبعون إلا رجلاً مسحوراً ﴾، فأمر الله تعالى رسوله صلوات الله وسلامه عليه وأرشده إلى أن لا يضيق بذلك منهم صدره، ولا يصدنه ذلك ولا يشنيه عن دعائهم إلى الله عز وجل آناء الليل

وأطراف النهار، كما قال تعالى: ﴿ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون﴾ الآية، وقال ههنا: ﴿فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك وضائق به صدرك أن يقولوا﴾ أى لقولهم ذلك، فإنما أنت نذير ولك أسوة ياخوانك من الرسل قبلك فإنهم كذبوا وأوذوا فصبروا حتى أتاهم نصر الله عز وجل، ثم بين تعالى إعجاز القرآن، وأنه لا يستطيع أحد أن يأتي بمثله ولا بعشر سور مثله، ولا بسورة من مثله، لأن كلام الرب تعالى لا يشبه كلام المخلوقين كما أن صفاته لا تشبه صفات المحدثات، وذاته لا يشبهها شيء، تعالى وتقدس وتنزه، ثم قال تعالى: ﴿فإن لم يستجيبوا لكم﴾ أي فإن لم يأتوا بما دعوتهم إليه، فاعلموا أنهم عاجزون عن ذلك، وأن هذا الكلام منزل من عند الله متضمن علمه وأمره ونهيه ﴿وأن لا إله إلا هو فهل أنتم مسلمون﴾ .

مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحِطَّ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَطُلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾

قال ابن عباس: إن أهل الرياء يعطون بحسناتهم في الدنيا، وذلك أنهم لا يظلمون فقيراً، يقول: من عمل صالحاً التماس الدنيا صوماً أو صلاة لا يعملها إلا التماس الدنيا، أوقيه الذي التمس في الدنيا من المثابة وحبط عمله الذي كان يعملها وهو في الآخرة من الخاسرين، وقال أنس والحسن: نزلت في اليهود والنصارى، وقال مجاهد: نزلت في أهل الرياء، وقال قتادة: من كانت الدنيا همه ونيته وطلبته، جازاه الله بحسناته في الدنيا، ثم يفضي إلى الآخرة وليس له حسنة يعطى بها جزاء؛ وأما المؤمن فيجازى بحسناته في الدنيا ويثاب عليها في الآخرة، كما قال تعالى: ﴿من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموماً مدحوراً﴾ ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً ﴿، وقال تعالى: ﴿من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له في الآخرة من نصيب﴾ .

أَفَن كَانَ عَلَىٰ بَيْنِنَا مِن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِ كَتَبَتْ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ ۗ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ ۗ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۗ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَكِن أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾

يخبر تعالى عن حال المؤمنين الذين هم على فطرة الله تعالى، التي فطر عليها عباده، كما قال تعالى: ﴿فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها﴾ الآية. وفي الصحيحين: (كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه) الحديث. وفي صحيح مسلم: (يقول الله تعالى إني خلقت عبادي حنفاء، فجاءتهم الشياطين، فاجتالهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحلت لهم. وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً) . فالؤمن باق على هذه الفطرة، وقوله: ﴿ويتلوه شاهد منه﴾ أي وجاءه شاهد من الله، وهو ما أوحاه إلى الأنبياء من الشرائع المطهرة المكلمة المعظمة، المختتمة بشريعة محمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، ولهذا

قال ابن عباس ومجاهد: ﴿ويتلوه شاهد منه﴾ إنه جبريل عليه السلام، وعن علي والحسن وقتادة: هو محمد ﷺ، وكلاهما قريب في المعنى، لأن كلا من جبريل ومحمد صلوات الله عليهما بلغ رسالة الله تعالى، ولهذا قال تعالى: ﴿أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه﴾ وهو القرآن بلغه جبريل إلى النبي ﷺ وبلغه النبي إلى أمته، ثم قال تعالى: ﴿ومن قبله كتاب موسى﴾ أي ومن قبل القرآن كتاب موسى وهو التوراة ﴿إماماً ورحمة﴾ أي أنزله الله تعالى إلى تلك الأمة إماماً لهم، وقدة يقتلون بها ورحمة من الله بهم، فمن آمن به حق الإيمان قاده ذلك إلى الإيمان بالقرآن، ولهذا قال تعالى: ﴿أولئك يؤمنون به﴾، ثم قال تعالى متوعداً لمن كذب بالقرآن أو بشيء منه، ﴿ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده﴾ أي ومن كفر بالقرآن من سائر أهل الأرض، مشركهم وكافرهم وأهل الكتاب وغيرهم من سائر طوائف بني آدم ممن بلغه القرآن، كما قال تعالى: ﴿لأنذرکم به ومن بلغ﴾، ﴿فالنار موعده﴾ كما ورد في الصحيح (والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي أو نصراني ثم لا يؤمن بي إلا دخل النار) (١)، وقال سعيد بن جبیر: كنت لا أسمع بحديث عن النبي ﷺ على وجهه إلا وجدت تصديقه في القرآن، فبلغني أن النبي ﷺ قال: «لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني فلا يؤمن بي إلا دخل النار»، فجعلت أقول: أين مصداقه في كتاب الله؟ حتى وجدت هذه الآية: ﴿ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده﴾، قال: من الملل كلها، وقوله: ﴿فلا تك في مربة منه إنه الحق من ربك﴾ الآية، أي القرآن حق من الله لا مربة ولا شك فيه، كما قال تعالى: ﴿تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين﴾، وقال تعالى: ﴿ألم، ذلك الكتاب لا ريب فيه﴾، وقوله: ﴿ولكن أكثر الناس لا يؤمنون﴾، كقوله تعالى: ﴿وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين﴾، وقوله: ﴿وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله﴾.

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٨﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿١٩﴾ أُولَئِكَ لَا يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضْعِفُ لَهُمْ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَاجِرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾

يبين تعالى حال المفترين عليه وفضيحتهم في الدار الآخرة على رؤوس الخلائق، كما ورد عن رسول الله ﷺ قال: «إن الله عز وجل يديني المؤمن، فيضع عليه كفه ويستره من الناس، ويقرره بذنوبه، ويقول له: أتعرف ذنب كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟ حتى إذا قرره بذنوبه، ورأى في نفسه أنه قد هلك، قال: فإني قد سترتها عليك في الدنيا، وإني أغفرها لك اليوم، ثم يعطى كتاب حسناته، وأما الكفار والمنافقون فيقول:

(١) أخرجه مسلم عن أبي موسى الأشعري .

﴿ الأشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين ﴾^(١) الآية. وقوله: ﴿ الذين يصلون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً ﴾ أي يردون الناس عن اتباع الحق، وسلوك طريق الهدى الموصلة إلى الله عز وجل، ﴿ ويبغونها عوجاً ﴾ أي ويريدون أن يكون طريقهم ﴿ عوجاً ﴾ غير معتدلة، ﴿ وهم بالآخرة هم كافرون ﴾ أي جاحدون بها مكذبون بوقوعها، ﴿ أولئك لم يكونوا معجزين في الأرض وما كان لهم من دون الله من أولياء ﴾ أي بل كانوا تحت قهره وغلبته، وفي قبضته وسلطانه، وهو قادر على الانتقام منهم، ولكن ﴿ يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار ﴾، وفي الصحيحين: « إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته، »، ولهذا قال تعالى: ﴿ يضاعف لهم العذاب ﴾، الآية، أي يضاعف عليهم العذاب، وذلك أن الله تعالى جعل لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدة، فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم، بل كانوا صماً عن سماع الحق، عمياً عن اتباعه، كما أخبر تعالى عنهم حين دخولهم النار ﴿ وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ أولئك الذين خسروا أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون ﴾ أي خسروا أنفسهم لأنهم أدخلوا ناراً حامية، فهم معذبون فيها لا يفترون عنهم من عذابها، كما قال تعالى: ﴿ كلما خبت زنادهم سعيراً ﴾، ﴿ وضل عنهم ﴾ أي ذهب عنهم، ﴿ ما كانوا يفترون ﴾ من دون الله من الأنداد والأصنام فلم تجد عنهم شيئاً بل ضرتهم كل الضرر، كما قال تعالى: ﴿ وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين ﴾، وقال تعالى: ﴿ سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضداً ﴾، وقال الخليل لقومه: ﴿ ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضاً ومأواكم النار ومالكم من ناصرين ﴾ إلى غير ذلك من الآيات الدالة على خسرتهم ودمارهم، ولهذا قال: ﴿ لا جرم أنهم في الآخرة هم الأخسرون ﴾، يخبر تعالى عن مآلهم بأنهم أخسر الناس في الآخرة، لأنهم اعتاضوا عن نعيم الجنان بحميم آن، وعن الحور العين بطعام من غسلين، وعن القصور العالية بالهاوية، فلا جرم أنهم في الآخرة هم الأخسرون.

إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٣﴾ * مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصْمَىٰ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ ۗ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾

لما ذكر تعالى حال الأشقياء، ثنى بذكر السعداء، وهم الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وبهذا ورثوا الجنات، المشتملة على الغرف العاليات، والقطوف الدانيات، والحسان الخيرات، والفواكه المتنوعات، والنظر إلى خالق الأرض والسموات، وهم في ذلك خالدون لا يموتون ولا يهرمون ولا يمرضون ولا يبصقون ولا يتمخضون، إن هو إلا رشح مسك يعرقون؛ ثم ضرب تعالى مثل الكافرين والمؤمنين فقال: ﴿ مثل الفريقين ﴾ أي الذين وصفهم أولاً بالشقاء، والمؤمنين بالسعادة، فأولئك كالأعمى والأصم، وهؤلاء كالبصير والسميع، فالكافر أعمى لا يهتدي إلى خير ولا يعرفه، أصم عن سماع الحجج فلا يسمع ما ينتفع به، ﴿ ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ﴾، وأما المؤمن

(١) أخرجه البخاري ومسلم وأحمد عن ابن عمر رضي الله عنهما .

ففتن ذكي، بصير بالحق يميز بينه وبين الباطل، فيتبع الخير ويترك الشر، سميع للحجة فلا يروج عليه باطل، فهل يستوي هذا وهذا؟ ﴿أفلا تذكرون﴾ أفلا تعتبرون فتفرون بين هؤلاء وهؤلاء كما قال تعالى: ﴿لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون﴾، وكقوله: ﴿وما يستوي الأعمى والبصير ولا الظلمات ولا النور ولا الظل ولا الحرور وما يستوي الأحياء ولا الأموات﴾ .

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِذِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِّمَّنْ شَاءُوا فَيَسْأَلُهُمْ فِيهَا حَاقِقَاتُهُمْ فَيَقُودُهُمْ بِالنُّجُومِ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٢٥﴾ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ۖ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ الْبَاسِ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا أَنْ يَنْزِلُوا عَلَيْهِمْ ۗ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴿٢٧﴾

يخبر تعالى عن نوح عليه السلام، وكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض من المشركين عبدة الأصنام أنه قال لقومه: ﴿إني لكم نذير مبين﴾ أي ظاهر النذارة لكم من عذاب الله إن أتم عبدتم غير الله، ولهذا قال: ﴿أن لا تعبدوا إلا الله﴾، وقوله: ﴿إني أخاف عليكم عذاب يوم أليم﴾ أي إن استمررتم على ما أتم عليه عذبكم الله عذاباً أليماً، ﴿فقال الملأ الذين كفروا من قومه﴾، والملأ هم (السادة والكبراء) من الكافرين منهم ﴿ما نراك إلا بشراً مثلنا﴾، أي لست بملك ولكنك بشر، فكيف أوحى إليك من دوننا؟ ثم ما نراك اتبعك إلا الذين هم أرادنا كالباعة والحاكة وأشباههم ولم يتبعك الأشراف ولا الرؤساء منا، ثم هؤلاء الذين اتبعوك لم يكن عن فكر ولا نظر، بل بمجرد ما دعوتهم أجابوك، ولهذا قالوا: ﴿وما نراك اتبعك إلا الذين هم أرادنا بادي الرأي﴾ أي في أول بادئ ﴿وما نرى لكم علينا من فضل﴾، يقولون: ما رأينا لكم علينا فضيلة في خلق ولا خلق لما دخلتم في دينكم هذا، ﴿بل نظنكم كاذبين﴾ أي فيما تدعونه لكم من البر والصلاح والعبادة والسعادة. هذا اعتراض الكافرين على نوح عليه السلام وأتباعه، وهو دليل على جهلهم وقلة علمهم وعقلهم، فإنه ليس بعار على الحق رذالة من اتبعه، سواء اتبعه الأشراف أو الأراذل، بل الحق الذي لا شك فيه أن أتباع الحق هم الأشراف ولو كانوا فقراء، والذين يأبونه هم الأراذل ولو كانوا أغنياء. والغالب على الأشراف والكبراء مخالفة الحق، كما قال تعالى: ﴿قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون﴾، ولما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان: أشراف الناس اتبعوه أو ضعفاؤهم؟ قال: بل ضعفاؤهم، فقال هرقل: هم أتباع الرسل^(١)، وقولهم: بادي الرأي ليس بمذمة ولا عيب، لأن الحق إذا وضع لا يبقى للرأي ولا للفكر مجال، والرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين إنما جاءوا بأمر جلي واضح، وفي الحديث: «ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت له كبوة غير (أي بكر)، فإنه لم يتلثم»^(٢) أي ما تردد ولا تروى، لأنه رأى أمراً عظيماً واضحاً فبادر إليه وسارع، وقوله: ﴿وما نرى لكم علينا من فضل﴾، هم لا يرون ذلك لأنهم عمي عن الحق لا يسمعون ولا يبصرون، بل هم في ربهم يترددون، وفي الآخرة هم الأخسرون .

* قَالَ يَلْقَوْمَ آرَاءَ تَمَّ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِهِ فَعَمِيتَ عَلَيْكُمْ أَنْزَلِمَكُمْ مَوْهَا

(١) أخرجه البخاري وهو جزء من حديث طويل . (٢) أخرجه الشيخان في فضائل أبي بكر .

وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ ﴿٢٨﴾

يقول تعالى مخبراً عما رد به نوح على قومه في ذلك: ﴿أرأيتم إن كنت على بينة من ربي﴾ أي على يقين وأمر جلي ونبوة صادقة وهي الرحمة العظيمة من الله به وبهم، ﴿فعميت عليكم﴾ أي خفيت عليكم فلم تهتدوا إليها ولا عرفتم قدرها بل بادرتهم إلى تكذيبها وردّها ﴿أنزلكموها﴾ أي نغصبكم بقبولها وأنتم لها كارهون .

وَيَقَوْمٌ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدٍ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّهُمْ مُلْقُوا رَبَّهُمْ وَلَكِنِّي أَرَأَيْتُمْ قَوْمًا يَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَقَوْمٌ مِّنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾

يقول لقومه: ولا أسألكم على نصحي ﴿مالاً﴾ أجره أخذها منكم، إنما أبتغي الأجر من الله عز وجل ، ﴿وما أنا بطارد الذين آمنوا﴾ طلبوا منه أن يطرد المؤمنين عنه احتشاماً أن يجلسوا معهم، كما سأل أمثالهم خاتم الرسل ﷺ أن يطرد عنهم جماعة من الضعفاء ويجلس معهم مجلساً خاصاً، فأنزل الله تعالى: ﴿ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي﴾ .

وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣١﴾

يخبرهم أنه رسول من الله يدعو إلى عبادة الله وحده، ولا يسألهم على ذلك أجراً، ثم هو يدعو الشريف والوضيع، فمن استجاب له فقد نجا، ويخبرهم أنه لا قدرة له على التصرف في خزائن الله، ولا يعلم من الغيب إلا ما أطلعه الله عليه، وليس هو بملك من الملائكة، بل هو بشر مرسل مؤيد بالمعجزات، ولا أقول عن هؤلاء الذين تحتقروهم وتردوهم، إنهم ليس لهم عند الله ثواب على أعمالهم ﴿الله أعلم بما في أنفسهم﴾، فإن كانوا مؤمنين، فلهم جزاء الحسنی .

قَالُوا يَا نُوْحُ قَدْ جَدَلْنَاكَ فَأَكْثَرْتَ جِدْلَنَا فَاتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِيْنَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾

يقول تعالى مخبراً عن استعجال قوم نوح نعمة الله وعذابه - والبلاء موكل بالمنطق - قالوا: ﴿يا نوح قد جادلتنا فأكثر جدالنا﴾ أي حاججتنا فأكثر من ذلك ونحن لا نتبعك، ﴿فاتنا بما تعدنا﴾ أي من النعمة والعذاب ادع علينا بما شئت فليأتنا ما تدعو به، ﴿إن كنت من الصادقين قال إنما يأتيكم به الله إن شاء وما أنتم بمعجزين﴾ أي إنما الذي يعاقبكم ويعجلها لكم الله الذي لا يعجزه شيء، ﴿ولا ينفعكم نصحي إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله

يريد أن يغويكم ﴿ أي شيء يجدي عليكم إبلاغي لكم وإنذاري إياكم ونصحي ﴾ إن كان الله يريد أن يغويكم ﴿ أي اغواءكم ودماركم ﴾ هو ربكم وإليه ترجعون ﴿ أي هو مالك أزيمة الأمور، المتصرف الحاكم العادل الذي لا يجوز، له الخلق وله الأمر وهو المبدئ المعيد .

أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَىٰ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا يُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾

هذا كلام معترض في وسط هذه القصة، مؤكدا لها مقرر لها، يقول تعالى لمحمد ﷺ أم يقول هؤلاء الكافرون الجاحدون افترى هذا وافعله من عنده، ﴿ قل إن افتريته فعلي إجرامي ﴾ أي قائم ذلك علي، ﴿ وأنا بريء مما يجرمون ﴾ أي ليس ذلك مفتعلاً ولا مفترى، لأنني أعلم ما عند الله من العقوبة لمن كذب عليه .

وَأَوْحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَأَصْنَعِ الْفُلَكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحَيْنَا وَلَا تَخْطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَصْنَعِ الْفُلَكَ وَكَلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسَخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسَخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسَخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ ﴿٣٩﴾

يخبر تعالى أنه أوحى إلى نوح، لما استعجل قومه نعمة الله بهم وعذابه لهم، فدعا عليهم نوح دعوته: ﴿ رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً ﴾، ﴿ فدعا ربه أني مغلوب فانتصر ﴾ فعند ذلك أوحى الله إليه: ﴿ أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن ﴾ فلا تحزن عليهم ولا يهمنك أمرهم، ﴿ واصنع الفلك ﴾ يعني السفينة، ﴿ بأعيننا ﴾ أي برأى منا، ﴿ ووحينا ﴾ أي تعليمنا لك ما تصنعه، ﴿ ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون ﴾ . قال قتادة: كان طولها ثلثمائة ذراع في عرض خمسين، وعن الحسن: طولها ستائة ذراع وعرضها ثلثمائة، وقيل غير ذلك، قالوا: وكان ارتفاعها في السماء ثلاثين ذراعاً، ثلاث طبقات كل طبقة عشرة أذرع، فالسفل للذباب والوحوش، والوسطى للإنس، والعليا للطيور، وكان بابها في عرضها ولها غطاء من فوقها مطبق عليها .

وقوله تعالى: ﴿ ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه ﴾ أي يهزون به ويكذبون بما يتوعدهم به من الغرق، ﴿ قال إن تسخروا منا فإننا نسخر منكم ﴾ الآية. وعيد شديد وتهديد أكيد، ﴿ من يأتيه عذاب يخزيه ﴾ أي يهينه في الدنيا، ﴿ ويحل عليه عذاب مقيم ﴾ أي دائم مستمر أبداً .

حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾

هذه موعدة من الله تعالى لنوح عليه السلام، إذا جاء أمر الله من المطر الهتان، الذي لا يقلع ولا يفتر، كما

قال تعالى: ﴿ففتحننا أبواب السماء بماء منهمر * وفجرنا الأرض عيوناً فالتقى الماء على أمر قد قدر﴾، واما قوله: ﴿وفار التنور﴾، فعن ابن عباس: التنور وجه الأرض، أي صارت الأرض عيوناً تفور، حتى فار الماء من التناير التي هي مكان النار صارت تفور ماء، وهذا قول جمهور السلف وعلماء الخلف، فحينئذ أمر الله نوحاً عليه السلام أن يحمل معه في السفينة ﴿من كل زوجين اثنين﴾ من صنوف المخلوقات ذوات الأرواح، وغيرها من النباتات اثنين ذكراً وأنثى، وقوله: ﴿وأهلك إلا من سبق عليه القول﴾ أي واحمل فيها أهلك وهم أهل بيته وقربته، ﴿إلا من سبق عليه القول﴾ منهم ممن لم يؤمن بالله، فكان منهم ابنه (يام) الذي انزل وحده، وامرأة نوح وكانت كافرة بالله ورسوله، وقوله: ﴿ومن آمن﴾ أي من قومك، ﴿وما آمن معه إلا قليل﴾ أي نزر يسير مع طول المدة والمقام بين أظهرهم ألف سنة إلا خمسين عاماً، فعن ابن عباس: كانوا ثمانين نفساً منهم نساؤهم، وعن كعب الأحبار: كانوا اثنين وسبعين نفساً، وقيل كانوا عشرة، والله أعلم.

* وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرِبُهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٤١﴾ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَعَنَا وَلَا تَكُن مَعَ الْكَافِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَاعُوا إِلَى جِبَلٍ يَعْصُمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾

يقول تعالى إخباراً عن نوح عليه السلام للذين أمر بحسبهم معه في السفينة أنه قال: ﴿اركبوا فيها بسم الله مجريها ومرساها﴾ أي بسم الله يكون جريها على وجه الماء، وبسم الله يكون منتهى سيرها وهو رسوها. قال تعالى: ﴿فإذا استويت أنت ومن معك على الفلك فقل الحمد لله الذي نجانا من القوم الظالمين﴾، ولهذا تستحب التسمية في ابتداء الأمور، عند الركوب على السفينة وعلى الدابة، كما روى الطبراني، عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «أمان أمي من الغرق إذا ركبوا في السفن أن يقولوا: بسم الله الملك ﴿وما قدروا الله حق قدره﴾ - الآية - ﴿بسم الله مجريها ومرساها إن ربي لغفور رحيم﴾»، وقوله: ﴿إن ربي لغفور رحيم﴾ مناسب عند ذكر الانتقام من الكافرين بإغراقهم أجمعين فذكر أنه غفور رحيم كقوله: ﴿إن ربك لسريع العقاب * وإنه لغفور رحيم﴾، وقوله: ﴿وهي تجري بهم في موج كالجبال﴾ أي السفينة سائرة بهم على وجه الماء، الذي قد طبق جميع الأرض، حتى طغت على رؤوس الجبال، وارتفع عليها بخمسة عشر ذراعاً، وقيل بثمانين ميلاً، وهذه السفينة جارية على وجه الماء بإذن الله وكفنه وعنايته، كما قال تعالى: ﴿إنا لما طغى الماء حملناكم في الجارية * لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية﴾، وقال تعالى: ﴿تجري بأعيننا جزاء لمن كان كفر﴾، وقوله: ﴿ونادى نوح ابنه﴾ الآية، هذا هو الابن الرابع واسمه يام^(١) وكان كافراً، دعاه أبوه أن يؤمن ويركب معهم، ولا يغرق مثل ما يغرق الكافرون، ﴿قال سآوي إلى جبل يعصمني من الماء﴾ اعتقد بجهله أن الطوفان لا يبلغ إلى رؤوس الجبال، وأنه لو تعلق في رأس جبل لنجاه ذلك من الغرق، فقال له أبوه نوح عليه السلام ﴿لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم﴾ أي ليس شيء

(١) وقيل اسمه كتعان، وهو الهالك، وأما الناجي من ولد آدم فهو (سام، وحام، ويافث).

يعصم اليوم من أمر الله، وقيل إن ﴿عاصم﴾ بمعنى (معصوم) كما يقال طاعم وكاس، بمعنى مطعوم ومكسو ﴿وحال بينهما الموج فكان من المفرقين﴾ .

وَقِيلَ يَا رُضُّ أَبْلَعِي مَاءَكَ وَيَسْمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا
لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾

يخبر تعالى أنه لما أغرق أهل الأرض كلهم إلا أصحاب السفينة، أمر الأرض أن تبلع ماءها الذي نبع منها واجتمع عليها، وأمر السماء أن تقلع عن المطر ﴿وغيض الماء﴾، أي شرع في النقص، ﴿وقضي الأمر﴾ أي فرغ من أهل الأرض قاطبة ممن كفر بالله لم يبق منهم ديار، ﴿واستوت﴾ السفينة بمن فيها ﴿على الجودي﴾، قال مجاهد: وهو جبل بالجزيرة أرسى عليه سفينة نوح عليه السلام، وقال قتادة: استوت عليه شهراً حتى نزلوا منها وأبقى الله السفينة على الجودي عبرة وآية، حتى رآها أوائل هذه الأمة، وكم من سفينة قد كانت بعدها فهلكت وصارت رماداً، وقال الضحاك: الجودي جبل بالموصل، وقال بعضهم: هو الطور، وقال كعب الأحبار: إن السفينة طافت ما بين المشرق والمغرب قبل أن تستقر على الجودي، وقال قتادة وغيره: ركبوا في عاشر شهر رجب فساروا مائة وخمسين يوماً، واستقرت بهم على الجودي شهراً، وكان خروجهم من السفينة في يوم عاشوراء من الحرم، وقد ورد نحو هذا في حديث مرفوع رواه ابن جرير، وأنهم صاموا يومهم ذلك، والله أعلم، وقوله: ﴿وقيل بعداً للقوم الظالمين﴾ أي هلاكاً وخساراً لهم وبعداً من رحمة الله، فإنهم قد هلكوا عن آخرهم فلم يبق لهم بقية، وقد روى ابن جرير عن عائشة زوج النبي ﷺ، أن النبي ﷺ قال: «لو رحم الله من قوم نوح أحداً لرحم أم الصبي» .

وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَنْفُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْعَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٤٧﴾

هذا سؤال استعلام من نوح عليه السلام عن حال ولده الذي غرق: ﴿قال رب إن ابني من أهلي﴾ أي وقد وعدتني بنجاة أهلي ووعدك الحق الذي لا يخلف، فكيف غرق وأنت أحكم الحاكمين، ﴿قال يا نوح إنه ليس من أهلك﴾ أي الذين وعدت إنجاءهم لأنني إنما وعدتك بنجاة من آمن من أهلك، ولهذا قال: ﴿وأهلك إلا من سبق عليه القول منهم﴾ فكان هذا الولد ممن سبق عليه القول بالغرق، لكفره ومخالفته أباه نبي الله نوحاً عليه السلام، قال ابن عباس: هو ابنه غير أنه خالفه في العمل والنية، وقال عكرمة: إنه عمل عملاً غير صالح، ويروى أن رسول الله ﷺ قرأ بذلك .

قِيلَ يٰ نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّنْ مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾

قال محمد بن إسحاق: لما أراد الله أن يكف الطوفان أرسل ريحاً على وجه الأرض فسكن الماء، وانسدت بناييع الأرض وأبواب السماء، يقول الله تعالى: ﴿وقيل يا أرض ابلمي ماءك﴾ الآية، فجعل الماء ينقص ويغيض ويدبر، وكان استواء الفلك على الجودي فيما يزعم أهل التوراة في الشهر السابع لسبع عشرة ليلة مضت منه، وفي أول يوم من الشهر العاشر رأى رؤوس الجبال، وظهر البر، وكشف نوح غطاء الفلك ﴿قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركاتٍ عليك وعلى أمم ممن معك﴾ الآية.

تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَقِيبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾

يقول تعالى لنبيه ﷺ هذه القصة وأشباهها ﴿من أنباء الغيب﴾ يعني من أخبار الغيوب السالفة نوحياً إليك على وجهها كأنك شاهدتها ﴿نوحياً إليك﴾ أي نعلمك بها وحياً منا إليك، ﴿ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا﴾ أي لم يكن عندك ولا عند أحد من قومك علم بها حتى يقول من يكذبك إنك تعلمتها منه، بل أخبرك الله بها مطابقة لما كان عليه الأمر الصحيح، كما تشهد به كتب الأنبياء قبلك، فاصبر على تكذيب من كذبك من قومك وأذاهم لك فإننا سننصرك ونحوطك بعنايتنا، ونجعل العاقبة لك ولأتباعك في الدنيا والآخرة، كما فعلنا بالمرسلين حيث نصرناهم على أعدائهم ﴿إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا﴾ الآية، ﴿فاصبر إن العاقبة للمتقين﴾.

وَإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يٰ قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ - إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يٰ قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا - إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيٰ قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾

يقول تعالى: ﴿و﴾ لقد أرسلنا ﴿إلى عاد أخاهم هوداً﴾ أمراً لهم بعبادة الله وحده لا شريك له ناهياً لهم عن الأوثان التي افتروها واختلقوا لها أسماء الآلهة، وأخبرهم أنه لا يريد منهم أجره على هذا النصح والبلاغ من الله إنما يبغي ثوابه من الله الذي فطره، ﴿أفلا تعقلون﴾ من يدعوكم إلى ما يصلحكم في الدنيا والآخرة من غير أجره، ثم أمرهم بالاستغفار الذي فيه تكفير الذنوب السالفة وبالتوبة عما يستقبلون، ومن اتصف بهذه الصفة يسر الله عليه رزقه وسهل عليه أمره وحفظ شأنه، ولهذا قال: ﴿يرسل السماء عليكم مدراراً﴾، وفي الحديث: «من لزم الاستغفار جعل الله له من كل فرجاً ومن كل ضيق مخرجاً ورزقه من حيث لا يحتسب».

قَالُوا يَهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَآشْهَدُوكُمْ أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونَ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هِيَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا ﴿٥٦﴾ إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾

يخبر تعالى أنهم قالوا لنبيهم: ﴿ ما جئتنا ببينة ﴾ أي بحجة وبرهان على ما تدعيه، ﴿ وما نحن بتاركي آلِهتنا عن قولك ﴾ أي بمجرد قولك اتركوهم تتركهم ﴿ وما نحن لك بمؤمنين ﴾ بمصدقين، ﴿ إن نقول إلا اعتراك بعض آلِهتنا بسوء ﴾ يقولون ما نظن إلا أن بعض الآلهة أصابك بجنون وخبل في عقلك، بسبب نبيك عن عبادتها وعييك لها، ﴿ قال إني أشهد الله وأشهدوا أنني بريء مما تشركون من دونه ﴾، يقول: إني بريء من جميع الأنداد والأصنام، ﴿ فكيدوني جميعاً ﴾ أي أنتم وآلهتكم إن كانت حقاً ﴿ ثم لا تنظرون ﴾ أي طرفة عين. وقوله: ﴿ إني توكلت على الله ربي وربكم ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها ﴾ أي تحت قهره وسلطانه، وهو الحاكم العادل الذي لا يجور في حكمه، فإنه على صراط مستقيم، وقد تضمن هذا المقام حجة بالغة، ودلالة قاطعة على صدق ما جاءهم به، وبطلان ما هم عليه من عبادة الأصنام، التي لا تنفع ولا تضر، بل هي جماد لا تسمع ولا تبصر، ولا توالي ولا تعادي، وإنما يستحق إخلاص العبادة الله وحده، الذي ما من شيء إلا تحت ملكه وقهره وسلطانه، فلا إله إلا هو ولا رب سواه.

فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ ءَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَاتَّبَعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةَ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا إِنْ ءَادَا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدَ لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾

يقول لهم هود: فإن تولوا عما جئتكم به من عبادة الله ربكم وحده لا شريك له، فقد قامت عليكم الحجة بإبلاغي إياكم رسالة الله التي بعثني بها، ﴿ ويستخلف ربي قوماً غيركم ﴾ يعبدونه وحده ولا يشركون به ولا يسالي بكم فإنكم لا تضرونه بكفركم بل يعود وبال ذلك عليكم، ﴿ إن ربي على كل شيء حفيظ ﴾ أي شاهد وحافظ لأقوال عباده وأفعاله، ﴿ ولما جاء أمرنا ﴾ وهو الريح العقيم أهلكتهم الله عن آخرهم ونجى هوداً وأتباعه من عذاب غليظ برحمته تعالى ولطفه، ﴿ وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم ﴾ كفروا بها وعصوا رسل الله وذلك أن من كفر بنبي فقد كفر بجميع الأنبياء، فنزل كفرهم منزلة من كفر بجميع الرسل ﴿ واتبعوا أمر كل جبار عنيد ﴾ تركوا اتباع رسولهم الرشيد، واتبعوا أمر كل جبار عنيد، فلهذا اتبعوا في هذه الدنيا لعنة كلما ذكروا، وينادي عليهم يوم القيامة

على رؤوس الأشهاد ﴿الآن عاداً كفروا ربهم﴾ قال السدي : ما بعث نبي بعد عاد إلا لعنوا على لسانه .

* وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ
وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ ﴿٦١﴾

يقول تعالى : ﴿ و ﴾ لقد أرسلنا ﴿ إلى ثمود ﴾ وهم الذين كانوا يسكنون مدائن الحجر بين تبوك والمدينة وكانوا بعد عاد فبعث الله منهم ﴿ أخاهم صالحاً ﴾ فأمرهم بعبادة الله وحده، ولهذا قال : ﴿ هو أنشأكم من الأرض ﴾ أي ابتداء خلقكم منها خلق منها أبائكم آدم، ﴿ واستعمركم فيها ﴾ أي جعلكم عمارةً وعمرونها وتستغلونها، ﴿ فاستغفروه ﴾ لسالف ذنوبكم ﴿ ثم توبوا إليه ﴾ فيما تستقبلونه، ﴿ إن ربي قريب مجيب ﴾، كما قال تعالى : ﴿ وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان ﴾ الآية .

قَالُوا يَنْصَلِحُ قَد كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهِنَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّا لَنِي شَكِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ
مُرِيبٌ ﴿٦٢﴾ قَالَ يَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيْنَةٍ مِنْ رَبِّي وَعَآتَنِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ قَا
تَزِيدُونِي غَيْرَ تَحْسِيرٍ ﴿٦٣﴾

يذكر تعالى ما كان من الكلام بين صالح عليه السلام وبين قومه وما كان عليه قومه من الجهل والعناد في قولهم : ﴿ قد كنت فينا مرجوًّا قبل هذا ﴾ أي كنا نرجوك في عقلك قبل أن تقول ما قلت ﴿ أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا ﴾، وما كان عليه أسلافنا، ﴿ وإننا لفي شك مما تدعوننا إليه مريب ﴾ أي شك كثير، ﴿ قال يا قوم أرايتم إن كنت على بينة من ربي ﴾ فيما أرسلني به إليكم على يقين وبرهان، ﴿ وآتاني منه رحمة فمن ينصرني من الله إن عصيته ﴾، وتركت دعوتكم إلى الحق وعبادة الله وحده، فلو تركته لما نفعتموني ولما زدتموني ﴿ غير تحسير ﴾ أي خسارة .

وَيَقَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾
فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ﴿٦٥﴾ ذَلِكَ وَعَدٌ غَيْرُ مَكْدُوبٍ ﴿٦٦﴾ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ
ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿٦٧﴾ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ
فَأَصْبَحُوا فِي دِيَرِهِمْ جَنِّمِينَ ﴿٦٨﴾ كَان لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا إِلَّا إِنْ مُودَا كَفَرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا بَعْدَ الثَّمُودِ ﴿٦٩﴾

تقدم الكلام على هذه القصة مستوفى في سورة الأعراف بما أغنى عن إعادته هاهنا وبالله التوفيق .

وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلَنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَالُوا لَيْتَ أَنْ جَاءَ بِعَجَلٍ حَنِيدٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكَرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَحْفَ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَأَمْرًاؤُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَنْوِيْلَتِي ۚ أَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا ۚ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمْتُ اللَّهُ وَبَرَكْتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ﴿٧٣﴾

يقول تعالى: ﴿ولقد جاءت رسلنا﴾ وهم الملائكة إبراهيم بالبشرى، قيل تبشره بإسحاق، وقيل بهلاك قوم لوط، ويشهد للأول قوله تعالى: ﴿ولما ذهب عن إبراهيم الروح وجاءته البشرى يجادلنا في قوم لوط﴾، ﴿قالوا سلاماً قال سلام﴾ أي عليكم، قال علماء البيان: هذا أحسن مما حيوه به لأن الرفع يدل على الثبوت والدوام ﴿فما لبث أن جاء بعجل حنيد﴾ أي ذهب سريعاً، فأتاهم بالضيافة وهو عجل فتى البقر، ﴿حنيد﴾ مشوي على الرضف وهي الحجارة المحماة، هذا معنى ما روي عن ابن عباس وقتادة وغير واحد، كما قال في الآية الأخرى: ﴿فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين فقر به إليهم قال ألا تأكلون﴾ وقد تضمنت هذه الآية آداب الضيافة من وجوه كثيرة، وقوله: ﴿فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم﴾ ينكرهم، ﴿وأوجس منهم خيفة﴾ وذلك أن الملائكة لاهمة لهم إلى الطعام ولا يشتهونه ولا يأكلونه، فلماذا رأى حالهم معرضين عما جاء به فارغين عنه بالكلية، فعند ذلك نكرهم ﴿وأوجس منهم خيفة﴾ قال السدي: لما بعث الله الملائكة لقوم لوط أقبلت تمشي في صور رجال شبان حتى نزلوا على إبراهيم فتضيفوه، فلما رآهم أجلبهم ﴿فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين﴾ فذبحه ثم شواه في الرضف وأتاهم به فقعده معهم، وقامت سارة تخدمهم، فذلك حين يقول ﴿وامراته قائمة﴾^(١) وهو جالس، فلما قر به إليهم ﴿قال ألا تأكلون؟﴾ قالوا: يا إبراهيم إنا لا نأكل طعاماً إلا بئسنا، قال: فإن لهذا ثمناً، قالوا: وما ثمنه؟ قال: تذكرون اسم الله على أوله وتحملونه على آخره، فنظر جبريل إلى ميكائيل فقال: حق لهذا أن يتخذ ربه خليلاً ﴿فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم﴾، يقول فلما رآهم لا يأكلون فرع منهم وأوجس منهم خيفة، وقالت سارة: عجياً لأضيافنا نخدمهم بأنفسنا كرامة لهم وهم لا يأكلون طعامنا؟! ﴿قالوا لا تحف منا إنا ملائكة أرسلنا إلى قوم لوط لنهلكهم، فضحكت سارة استبشراً بهلاكهم لكثرة فسادهم، وغلظ كفرهم وعنادهم، قال ابن عباس: ﴿فضحكت﴾ أي حاضت، وقول وهب بن منبه: إنما ضحكت لما بشرت بإسحاق، فخالف لهذا السياق، فإن البشارة صريحة مرتبة على ضحكها ﴿فضحكت فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب﴾ أي بولد لها يكون له ولد وعقب ونسل، فإن يعقوب ولد إسحاق، ومن هنا استدل من استدل بهذه الآية على أن الذبيح إنما هو (إسماعيل) وأنه يمتنع أن يكون هو إسحاق لأنه وقعت البشارة به، وأنه سيولد له يعقوب، فكيف يؤمر إبراهيم

(١) امرأة إبراهيم: هي سارة، والغلام الذي بشرت به - كما ذكره السهيلي - هو إسحاق، قال: ولم تلد سارة لإبراهيم غيره، وأما إسماعيل فهو بكره من هاجر القبطية.

بذبحه وهو طفل صغير ولم يولد له بعد يعقوب الموعود بوجوده، ووعد الله حق لا خلف فيه، فيمتنع أن يؤمر بذبح هذا والحالة هذه، فتعين أن يكون هو إسماعيل، وهذا من أحسن الاستدلال وأصحه وأبينه والله الحمد، ﴿قالت يا ويلتى أألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخاً﴾ الآية، حكى قولها في هذه الآية كما حكى فعلها في الآية الأخرى، فإنها ﴿قالت يا ويلتى أألد وأنا عجوز﴾، وفي الذاريات ﴿فأقبلت امرأته في صرة فصكت وجهها وقالت عجوز عقيم﴾، كما جرت به عادة النساء في أقوالهن وأفعالهن عند التعجب، ﴿قالوا أتعجبين من أمر الله﴾ أي قالت الملائكة لها: لا تعجبي من أمر الله فإنه إذا أراد شيئاً فإنما يقول له كن فيكون، فلا تعجبي من هذا وإن كنت عجوزاً عقيماً وبعلك شيخاً كبيراً فإن الله على ما يشاء قدير، ﴿رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد﴾ أي هو الحميد في جميع أفعاله وأقواله، محمود ممدد في صفاته وذاته .

فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ يُجْلِدُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ ﴿٧٥﴾
يَتْلُو بِرَبِّهِمْ أُعْرَضٌ عَنْ هَذَا ۖ إِنَّهُمْ قَدْ جَاءَ أَمْرٌ رَبِّكَ ۖ وَإِنَّهُمْ لَاتَبِهُمُ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾

يخبر تعالى عن إبراهيم عليه السلام أنه لما ذهب عنه الروح، وهو ما أوجس من الملائكة خيفة حين لم يأكلوا وبشروه بعد ذلك بالولد وأخبروه بهلاك قوم لوط، أخذ يقول: أتهلكون قرية فيها ثلاثمائة مؤمن؟ قالوا: لا، قال: أتهلكون قرية فيها مائتا مؤمن؟ قالوا: لا، حتى بلغ خمسة، قالوا: لا، قال: رأيتمكم أن كان فيها رجل واحد مسلم أتهلكونها؟ قالوا: لا، فقال إبراهيم عليه السلام عند ذلك: ﴿إن فيها لوطاً قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله إلا امرأته﴾ الآية، فسكت عنهم واطمأنت نفسه،^(١) وقوله: ﴿إن إبراهيم لحليم أواه منيب﴾ مدح لإبراهيم بهذ الصفات الجميلة، وقد تقدم تفسيرها. وقوله تعالى: ﴿يا إبراهيم أعرض عن هذا إنه قد جاء أمر ربك﴾ الآية، أي أنه قد نفذ فيهم القضاء وحق عليهم الكلمة بالهلاك وحلول البأس الذي لا يرد عن القوم المجرمين .

وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَاءَهُمْ قَوْمُهُمْ يَهْرَعُونَ إِلَيْهِ
وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَنْقَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي
ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتْ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾

يخبر تعالى عن قدوم الملائكة بعدما أعلموا إبراهيم بهلاكهم وفارقوه، فانطلقوا من عنده فاتوا لوطاً عليه السلام، وهم في أجمل صورة تكون على هيئة شبان حسان الوجوه، ابتلاءً من الله - وله الحكمة والحجة البالغة - فسأه شأنهم وضاعت نفسه بسببهم، وخشي أن يضيفهم أحد من قومه فينالهم بسوء، ﴿وقال هذا يوم عصيب﴾، قال ابن عباس: شديد بلاؤه، وذلك أنه علم أنه سيدافع عنهم ويشق عليه ذلك. وذكر قتادة أنهم أتوه وهو في أرض

(١) قاله سعيد بن جبير رضي الله عنه .

له فتضيفوه فاستحيا منهم، فانطلق أمامهم وقال لهم في أثناء الطريق كالمعرض لهم بأن ينصرفوا عنه: ما أعلم على وجه الأرض أهل بلد أخبث من هؤلاء، ثم مشى قليلاً، ثم أعاد ذلك عليهم حتى كرره أربع مرات، قال قتادة: وقد كانوا أمروا أن لا يهلكوهم حتى يشهد عليهم نبينهم بذلك، قال السدي: خرجت الملائكة من عند إبراهيم نحو قرية لوط فبلغوا نهر سدوم نصف النهار، ولقوا بنت لوط تستقي، فقالوا: يا جارية هل من منزل؟ فقالت: مكانكم حتى آتيكم وفرت عليهم من قومها فأتت أباهما، فقالت: يا أبتاه أدرك فتيناً على باب المدينة ما رأيت وجوه قوم أحسن منهم لا يأخذهم قومك، وكان قومه نهوه أن يضيف رجلاً، فقالوا: خل عنا فلنضيف الرجال، فجاء بهم فلم يعلم بهم أحد إلا أهل بيته، فخرجت امرأته فأخبرت قومها فجاءوا يهرعون إليه، وقوله: ﴿يهرعون إليه﴾ أي يسرعون ويهرولون من فرحهم بذلك، وقوله: ﴿ومن قبل كانوا يعملون السيئات﴾ أي لم يزل هذا من سجيتهم حتى أخذوا وهم على ذلك الحال، وقوله: ﴿قال يا قوم هؤلاء بناتي هن أطهر لكم﴾ يرشدهم إلى نساءهم، فإن النبي للأمة بمنزلة الوالد، فأرشدهم إلى ما هو أنفع لهم في الدنيا والآخرة، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم بل أنتم قوم عادون﴾، ﴿قال هؤلاء بناتي إن كنتم فاعلين﴾، وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿هؤلاء بناتي هن أطهر لكم﴾ قال مجاهد: لم يكن بناته ولكن كن من أمته وكل نبي أبو أمته، وكذا روي عن قتادة وغير واحد. وقوله: ﴿فاتقوا الله ولا تخزون في ضيفي﴾ أي اقبلوا ما أمركم به من الاقتصار على نساءكم، ﴿أليس منكم رجل رشيد﴾ أي فيه خير، يقبل ما أمره به ويترك ما أنهاه عنه، ﴿قالوا لقد علمت ما لنا في بناتك من حق﴾ أي إنك لتعلم أن نساءنا لا أرب لنا فيهن ولا نستبهن، ﴿وإنك لتعلم ما نريد﴾ أي ليس لنا غرض إلا في الذكور وأنت تعلم ذلك، فأى حاجة في تكرار القول علينا في ذلك؟ قال السدي: ﴿وإنك لتعلم ما نريد﴾ إنما نريد الرجال.

قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ قَالُوا يَلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَاتُكَ ﴿٨١﴾ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابُهُمْ إِنَّا مَوْعِدُهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨٢﴾

يقول تعالى مخبراً عن نبيه لوط عليه السلام إن لوطاً توعدهم بقوله: ﴿لو أن لي بكم قوة﴾ الآية، أي لكنت نكلت بكم وفعلت بكم الأفاعيل بنفسي وعشيرتي، ولهذا ورد في الحديث: «رحمة الله على لوط لقد كان يأوي إلى ركن شديد - يعني الله عز وجل - فما بعث الله بعده من نبي إلا في ثروة من قومه»، فعند ذلك أخبرته الملائكة أنهم رسل الله إليه، وأنهم لا وصول لهم إليه، ﴿قالوا يا لوط إننا رسل ربك لن يصلوا إليك﴾ وأمره أن يسري بأهله من آخر الليل وأن يتبع أدبارهم، أي يكون ساقية لأهله، ﴿ولا يلتفت منكم أحد﴾ أي إذا سمعت ما نزل بهم ولا تهولنكم تلك الأصوات المزعجة، وقوله: ﴿ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك﴾، ذكروا أنها خرجت معهم وأنها لما سمعت الوجبة التفت وقالت: واقوماها، فجاءها حجر من السماء فقتلها، ثم قربوا له هلاك قومه تبشيراً له لأنه قال لهم أهلكوهم الساعة، فقالوا: ﴿إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب﴾؟ هذا وقوم لوط وقوف على

الباب وعكوف، قد جاءوا يهرعون إليه من كل جانب، ولوط واقف على الباب يدافعهم ويردعهم وينهاهم عما هم فيه، وهم لا يقبلون منه، بل يتوعدونه ويتهددونه، فعند ذلك خرج عليهم جبريل عليه السلام، فضرب وجوههم بجناحه فطمس أعينهم، فرجعوا وهم لا يهتدون الطريق؛ كما قال تعالى: ﴿ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم فذوقوا عذابي ونذر﴾ الآية .

فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾

يقول تعالى: ﴿فلما جاء أمرنا﴾ وكان ذلك عند طلوع الشمس ﴿جعلنا عاليها﴾ وهي سدوم ﴿سافِلَهَا﴾، كقوله: ﴿فغشاها ما غشى﴾، ﴿وأمطرنا عليها حجارة من سجيل﴾ أي حجارة من طين، قاله ابن عباس وغيره. وقد قاله في الآية الأخرى: ﴿حجارة من طين﴾ أي مستحجرة قوية شديدة، وقال بعضهم: مشوية، وقال البخاري: ﴿سجيل﴾: الشديد الكبير، سجيل وسجين اللام والنون اختان، وقوله: ﴿منضود﴾ قال بعضهم: منضودة في السماء أي معدة لذلك. وقال آخرون: ﴿منضود﴾ أي يتبع بعضهم بعضاً في نزولها عليهم، وقوله: ﴿مسومة﴾ أي معلمة كل حجر مكتوب عليه اسم الذي ينزل عليه، فبينما أحدهم يكون عند الناس يتحدث، إذ جاءه حجر من السماء فسقط عليه من بين الناس فدمره، فتنبعهم الحجارة من سائر البلاد حتى أهلكتهم عن آخرهم، فلم يبق منهم أحد، وقال مجاهد: أخذ جبريل قوم لوط من سرحهم ودورهم، حملهم بمواشيهم وأمتعتهم ورفعهم حتى سمع أهل السماء نباح كلابهم، ثم كفأها؛ وكان حملهم على خوافي جناحه الأيمن، ولما قلبها كان أول ما سقط منها شرفاتها. وقال قتادة وغيره: بلغنا أن جبريل عليه السلام لما أصبح نشر جناحه فانتسف بها أرضهم بما فيها من قصورها ودوابها وحجارتها وشجرها وجميع ما فيها، فضمها في جناحه، فحواها وطواها في جوف جناحه، ثم صعد بها إلى السماء الدنيا حتى سمع سكان السماء أصوات الناس والكلاب، وكانوا أربعة آلاف ألف، ثم قلبها، فأرسلها إلى الأرض منكوسة، ودمدم بعضها على بعض، فجعل عاليها سافلها، ثم أتبعها حجارة من سجيل، قال تعالى: ﴿جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل﴾ فأهلكها الله وما حولها من المؤتفكات. وقال السدي: لما أصبح قوم لوط نزل جبريل فاقتلع الأرض من سبع أرضين فحملها حتى بلغ بها السماء، حتى سمع أهل السماء الدنيا نباح كلابهم وأصوات ديوكهم ثم قلبها فقتلهم فذلك قوله: ﴿والمؤتفكة أهوى﴾، ومن لم يمت حتى سقط للأرض أمطر الله عليه وهو تحت الأرض الحجارة، ومن كان منهم شاذاً في الأرض يتبعهم في القرى، فكان الرجل يتحدث فيأتيه الحجر فيقتله؛ فذلك قوله عز وجل: ﴿وأمطرنا عليهم﴾ أي في القرى حجارة من سجيل، وقوله: ﴿وما هي من الظالمين ببعيد﴾ أي وما هذه النعمة ممن تشبه بهم في ظلمهم ببعيد عنه .

* وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا الْمِجَالَ وَالْمِيزَانَ ۖ إِنَّي آتِيكُمْ بِخَبِيرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾

يقول تعالى: ﴿ ولقد أرسلنا إلى مدين ﴾ وهم قبيلة من العرب كانوا يسكنون بين الحجاز والشام قريباً من معان، بلاداً تعرف بهم يقال لها (مدين) ، فأرسل الله إليهم شعبياً وكان من أشرفهم نسباً، ولهذا قال: ﴿ أخاهم شعبياً ﴾ يأمرهم بعبادة الله تعالى وحده لا شريك له وينهاهم عن التطفيف في المكيال والميزان، ﴿ إني أراكم بخير ﴾ أي في معيشتكم ورزقكم، وإني أخاف أن تسلبوا ما أنتم فيه باتهاكم محارم الله، ﴿ وإني أخاف عليكم عذاب يوم محيط ﴾ أي في الدار الآخرة .

وَيَقَوْمٌ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ۗ وَلَا تَبْخُسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْنُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾
بَقِيَتْ اللَّهُ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ۗ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾

نهاهم أولاً عن نقص المكيال والميزان إذا أعطوا الناس، ثم أمرهم بوفاء الكيل والوزن، ونهاهم عن العثو في الأرض بالفساد وقد كانوا يقطعون الطريق، وقوله: ﴿ بقية الله خير لكم ﴾، قال ابن عباس: رزق الله خير لكم، وقال الحسن: رزق الله خير لكم من بخسكم الناس، وقال الربيع: وصية الله خير لكم، وقال مجاهد: طاعة الله، وقال قتادة: حظكم من الله خير لكم. وقال ابن جرير: أي ما يفضل لكم من الربح بعد وفاء الكيل والميزان خير لكم من أخذ أموال الناس، قلت: ويشبه قوله قوله تعالى: ﴿ قل لا يستوي الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث ﴾ الآية، وقوله: ﴿ وما أنا عليكم بحفيظ ﴾ أي بريب ولا حفيظ، أي افعلوا ذلك لله عز وجل، لا تفعلوا ليراكم الناس بل لله عز وجل .

قَالُوا يَشْعِيبُ أَسْلَوْتَكُ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَسْتَوُا ۗ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾

يقولون له على سبيل التهم - قبهم الله - ﴿ أصلاتك ﴾ أي قراءتك^(١)، ﴿ تأمر أن نترك ما يعبد آباؤنا ﴾ أي الأوثان والأصنام، ﴿ أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء ﴾ فترك التطفيف عن قولك، وهي أموالنا نفعل فيها ما نريد، قال الحسن في الآية: أي والله إن صلاته لتأمرهم أن يتركوا ما كان يعبد آباؤهم، وقال الثوري في قوله: ﴿ أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء ﴾؟ يعنون الزكاة، ﴿ إنك لأنت الحليم الرشيد؟! ﴾ يقول ذلك أعداء الله على سبيل الاستهزاء قبهم الله ولعنهم وقد فعل .

قَالَ يَنْقَوْمِ أَرَأَيْتَ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۖ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكَ إِلَىٰ مَا أَنهَكَ عَنْهُ ۖ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾

(١) قاله الأعشى .

يقول لهم أرأيتم يا قوم ﴿ إن كنت على بينة من ربي ﴾ أي على بصيرة فيما أدعو إليه، ﴿ ورزقني منه رزقاً حسناً ﴾ قيل: أراد النبوة، وقيل: أراد الرزق الحلال ويحتمل الأمرين، قال الثوري: ﴿ وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه ﴾ أي لا أنهاكم عن الشيء وأخالف أنا في السر فأفعله خفية عنكم، وقال قتادة: لم أكن أنهاكم عن أمر وأرتكبه، ﴿ إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت ﴾ أي فيما أمركم وأنهاكم إنما أريد إصلاحكم جهدي وطاقتي، ﴿ وما توفيقي ﴾ في إصابة الحق فيما أريده ﴿ إلا بالله عليه توكلت ﴾ في جميع أموري ﴿ وإليه أنيب ﴾ أي أرجع، قاله مجاهد. روى الإمام أحمد عن ربيعة بن أبي عبد الرحمن الأنصاري قال: سمعت أبا حميد أو أبا أسيد يقول عنه ﷺ أنه قال: « إذا سمعتم الحديث عني تعرفه قلوبكم، وتلين له أشعاركم وأبشاركم، وترون أنه منكم قريب فأنا أولاكم به، وإذا سمعتم الحديث عني تنكره قلوبكم وتنفر منه أشعاركم وأبشاركم، وترون أنه منكم بعيد فأنا أبعدهم منه »^(١). ومعناه والله أعلم: مهما بلغكم عني من خير فأنا أولاكم به، ومهما يكن من مكروه فأنا أبعدهم منه ﴿ وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه ﴾، قال أبو سليمان الضبي: كانت نجيبنا كتب (عمر بن عبد العزيز) فيها الأمر والنهي، فيكتب في آخرها: وما كانت من ذلك إلا كما قال العبد الصالح ﴿ وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب ﴾.

وَيَقَوْمٌ لَا يَجْرَمَنَّكَ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمٌ لَوْ طُ
مِنْكُمْ بَعِيدٌ ﴿٩١﴾ وَأَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٢﴾

يقول لهم: ﴿ ويا قوم لا يجرمنكم شقائي ﴾ أي لا تحملنكم عداوتي وبغضي على الإصرار على ما أنتم عليه من الكفر والفساد، فيصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم لوط من النعمة والعذاب، وقال قتادة: ﴿ ويا قوم لا يجرمنكم شقائي ﴾ يقول: لا يحملنكم فراق، وقال السدي: عداوتي، على أن تبادوا في الضلال والكفر فيصيبكم من العذاب ما أصابهم، ولما أحاط الناس بعثمان بن عفان أشرف عليهم من داره فقال: ﴿ يا قوم لا يجرمنكم شقائي أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح ﴾، يا قوم لا تقتلوني، إنكم إن قتلتموني كنتم هكذا، وشبك بين أصابعه^(٢)، وقوله: ﴿ وما قوم لوط منكم بعيد ﴾ قيل: المراد في الزمان، قال قتادة: يعني إنما هلكوا بين أيديكم بالأمس، وقيل: في المكان، ويحتمل الأمرين، ﴿ واستغفروا ربكم ﴾ من سالف الذنوب، ﴿ ثم توبوا إليه ﴾ فيما تستقبلونه من الأعمال السيئة ﴿ إن ربي رحيم ودود ﴾ لمن تاب.

قَالُوا يَشْعِبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرُّكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعِزِيزٍ
﴿٩١﴾ قَالَ يَلْقَوْمِ اأَرَهْطَىٰ أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَ ظَهْرِي يَا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾

يقولون: ﴿يا شعيب ما نفقه﴾ ما نفهم ﴿كثيراً﴾ من قولك، ﴿وإنا لنراك فينا ضعيفاً﴾^(١)، قال السدي: أنت واحد، وقال أبو روق: يعنون ذليلاً، لأن عشيرتك ليسوا على دينك، ﴿ولولا رهطك لرجمناك﴾ أي قومك ﴿لرجمناك﴾ قيل: بالحجارة، وقيل: لسبينك، ﴿وما أنت علينا بعزيز﴾ أي ليس عندنا لك معزة، ﴿قال يا قوم أرهطي أعز عليكم من الله﴾، يقول: أتركوني لأجل قومي، ولا تتركوني إعظماً لجناب الرب تبارك وتعالى أن تنالوا نبيه بمساءة وقد اتخذتم جانب الله ﴿وراءكم ظهرياً﴾ أي نبذتموه خلفكم لا تطيعونه ولا تعظمونه، ﴿إن ربي بما تعملون محيط﴾ أي هو يعلم جميع أعمالكم وسيجزيكم عليها.

﴿وَيَلْقَوْمِ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَمِلْتُ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَن هُوَ كَذِبٌ ۖ وَأَرْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ۗ﴾ ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جِثْمِينَ ۚ﴾ ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ۗ أَلَا بُعْدًا لِّلْمَدِينِ كَمَا بَعَدَتْ ثَمُودُ ۗ﴾

لما ينس نبي الله شعيب من استجابتهم له قال: يا قوم ﴿اعملوا على مكانتكم﴾ أي طريقتكم، وهذا تهديد شديد ﴿إني عامل﴾ على طريقي، ﴿سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو كاذب﴾، أي مني ومنكم، ﴿وارتقبوا﴾ أي انتظروا، ﴿إني معكم رقيب﴾، قال الله تعالى: ﴿ولما جاء أمرنا نجينا شعيباً والذين آمنوا معه برحمة منا وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين﴾، وقوله: ﴿جاثمين﴾ أي هامدين لا حراك بهم. وذكر هنا أنه أتتهم صيحة، وفي الأعراف رجفة، وفي الشعراء ﴿عذاب يوم الظلة﴾، وهم أمة واحدة اجتمع عليهم يوم عذابهم هذه النقم كلها، وإنما ذكر في كل سياق ما يناسبه، وقوله: ﴿كأن لم يغنوا فيها﴾ أي يعيشوا في دارهم قبل ذلك ﴿ألا بعداً للمدين كما بعدت ثمود﴾ وكانوا جيرانهم قريباً منهم في الدار، وشيهاً بهم في الكفر وكانوا عرباً مثلهم.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ۗ﴾ ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ۗ﴾ ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوَارِدُ الْمَوْرُودُ ۗ﴾ ﴿وَاتَّبَعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرَّفْدُ الْمَرْفُودُ ۗ﴾

يقول تعالى مخبراً عن إرسال موسى بآياته ودلالاته الباهرة إلى فرعون ملك القبط وملئه ﴿فاتبعوا أمر فرعون﴾ أي منهجه ومسلكه وطريقته في الغي، ﴿وما أمر فرعون برشيد﴾ أي ليس فيه رشد ولا هدى، وإنما هو جهل وضلال وكفر وعناد؛ وكما أنهم اتبعوه في الدنيا وكان مقدمهم ورئيسهم، كذلك هو يقدمهم يوم القيامة إلى نار جهنم، ﴿يقدم قومه يوم القيامة فأوردتهم النار، وبئس الورد المورود﴾، وكذلك شأن المتبوعين يكونون موفرين في

(١) روي عن سعيد بن جبير والثوري أنهما قالوا: كان شعيب ضرير البصر.

العذاب يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿لِكُلِّ ضَعْفٍ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ﴾ الآية، وقوله: ﴿وَاتَّبَعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ الآية، أي أتبعناهم زيادة على عذاب النار لعنة في الدنيا، ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ﴾. قال مجاهد: زيدوا لعنة يوم القيامة فتلك لعنتان، وقال ابن عباس: لعنة الدنيا والآخرة^(١)، وهو كقوله: ﴿وَاتَّبَعْنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ﴾.

ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ ﴿١٠١﴾ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠٢﴾

لما ذكر تعالى خبر الأنبياء وما جرى لهم مع أمهم وكيف أهلك الكافرين ونجى المؤمنين، قال: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى﴾ أي أخبارهم، ﴿نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ﴾ أي عامر، ﴿وَحَصِيدٌ﴾ أي هالك، ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ﴾ أي إذ أهلكناهم ﴿وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ بتكذيبهم رسلنا وكفرهم بهم، ﴿فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمْ﴾ أوثانهم التي يعبدونها ويدعونها ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ ما نفعوهم ولا أتقوهم بإهلاكهم، ﴿وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾. قال مجاهد وقتادة: أي غير تخسير، وذلك أن سبب هلاكهم ودمارهم إنما كان باتباعهم تلك الآلهة، فهذا خسروا في الدنيا والآخرة.

وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ ۗ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٣﴾

يقول تعالى: وكما أهلكنا أولئك القرون الظالمة المكذبة لرسولنا كذلك نفعل بأشباههم، ﴿إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾. وفي الصحيحين عن أبي موسى رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته»، ثم قرأ ﷻ: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ الآية.

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ۗ ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ ﴿١٠٤﴾ وَمَا تُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ ﴿١٠٥﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ ۗ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٦﴾

يقول تعالى: إن في إهلاكنا الكافرين وإنجائنا المؤمنين ﴿لآية﴾ أي عظة واعتباراً على صدق موعودنا في الآخرة، كما قال تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبَّهُمْ لِنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ﴾ الآية. وقوله: ﴿ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ﴾ أي أولهم وآخرهم، كقوله: ﴿وَحَشَرْنَا هُمْ فَلَمْ نَغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾، ﴿وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ﴾ أي عظيم تحضره الملائكة، ويجتمع فيه الرسل وتحشر الخلائق بأسرهم، من الإنس والجن والطيور والحوش والدواب، ويحكم فيه العادل الذي لا يظلم مثقال ذرة، وقوله: ﴿وَمَا تُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ﴾ أي ما تؤخر إقامة القيامة إلا لأنه قد سبقت كلمة

(١) وكذا قال الضحاك وقتادة.

الله في وجود أناس معدودين من ذرية آدم، ضرب مدة معينة إذا انقطعت وتكامل وجود أولئك المقدر خروجهم قامت الساعة، ولهذا قال: ﴿وما نؤخره إلا لأجل معدود﴾ أي لمدة مؤقتة لا يزداد عليها ولا ينتقص منها، ﴿يوم يأت لا تكلم نفس إلا بإذنه﴾ أي يوم يأتي يوم القيامة لا يتكلم أحد إلا بإذن الله، كقوله: ﴿لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً﴾، وفي الصحيحين في حديث الشفاعة: «ولا يتكلم يومئذ إلا الرسل ودعوى الرسل يومئذ اللهم سلم سلم»، وقوله: ﴿فمنهم شقي وسعيد﴾ أي فمن أهل الجمع شقي ومنهم سعيد، كما قال: ﴿فريق في الجنة وفريق في السعير﴾، ثم بين تعالى حال الأشقياء وحال السعداء فقال:

فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ
إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾

يقول تعالى: ﴿لهم فيها زفير وشهيق﴾، قال ابن عباس: الزفير في الحلق، والشهيق في الصدر، أي تنفسهم زفير وأخذهم النفس شهيق، لما هم فيه من العذاب، ﴿خالدين فيها ما دامت السموات والأرض﴾ قال ابن جرير: من عادة العرب إذا أرادت أن تصف الشيء بالدوام أبداً قالت: هذا دائم، دوام السماوات والأرض، وكذلك يقولون: هو باق ما اختلف الليل والنهار، يعنون بذلك كله أبداً، فخاطبهم جل ثناؤه بما يتعارفونه بينهم، فقال: ﴿خالدين فيها ما دامت السموات والأرض﴾ قلت: ويحتمل أن المراد بما دامت السموات والأرض الجنس، لأنه لا بد في عالم الآخرة من سماوات وأرض، كما قال تعالى: ﴿يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات﴾، ولهذا قال الحسن البصري في قوله: ﴿ما دامت السموات والأرض﴾ قال: يقول سماء غير هذه السماء وأرض غير هذه، فما دامت تلك السماء وتلك الأرض، وعن ابن عباس قال: لكل جنة سماء وأرض، وقال ابن أسلم: ما دامت الأرض أرضاً والسماء سماء، وقوله: ﴿إلا ما شاء ربك إن ربك فعال لما يريد﴾، كقوله: ﴿النار مثواكم خالدين فيها إلا ما شاء الله إن ربك حكيم عليم﴾، وقد اختلف المفسرون في المراد من هذا الاستثناء على أقوال كثيرة نقل كثيراً منها ابن جرير رحمه الله، واختار أن الاستثناء عائد على (العصاة) من أهل التوحيد، ممن يخرجهم الله من النار بشفاعة الشافعين، ثم تأتي رحمة أرحم الراحمين، فتخرج من لم يعمل خيراً قط، وقال يوماً من الدهر ﴿لا إله إلا الله﴾، كما وردت بذلك الأخبار الصحيحة المستفيضة عن رسول الله ﷺ ولا يبقى بعد ذلك في النار إلا من وجب عليه الخلود فيها، وهذا الذي عليه كثير من العلماء قديماً وحديثاً، وقال السدي: هي منسوخة بقوله: ﴿خالدين فيها أبداً﴾.

* وَأَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا فِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرَ

مَجْدُودٍ ﴿١٠٨﴾

يقول تعالى: ﴿وأما الذين سعدوا﴾ وهم أتباع الرسل ﴿ففي الجنة﴾ أي فأواهم الجنة، ﴿خالدين فيها﴾ أي ما كثر فيها أبداً، ﴿ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك﴾ معنى الاستثناء ههنا أن دوامهم فيها هم فيه من

النعم ليس أمراً واجباً بذاته، بل هو موكول إلى مشيئة الله تعالى، فله المنة عليهم دائماً، وعقّب ذلك بقوله: ﴿عطاء غير مجذوذ﴾ أي غير مقطوع^(١)، لثلاث يتوهم متوهم بعد ذكره المشيئة أن ثم انقطاع أو لبس أو شيء، بل حتم له بالدوام وعدم الانقطاع، ﴿إن ربك فعال لما يريد﴾، كقوله: ﴿لا يسئل عما يفعل وهم يسألون﴾، وهنا طيب القلوب وثبت المقصود بقوله: ﴿عطاء غير مجذوذ﴾. وقد جاء في الصحيحين: «يوتى بالموت في صورة كبش أملح فيذبح بين الجنة والنار، ثم يقال يا أهل الجنة خلود فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت»، وفي الصحيح أيضاً: «يقال: يا أهل الجنة إن لكم أن تعيشوا فلا تموتوا أبداً، وإن لكم أن تشبوا فلا تموتوا أبداً، وإن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبداً، وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبداً».

فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوفُونَ نَصِيحِهِمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴿١٠٩﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَآخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقَضَىٰ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مِرْيِبٍ ﴿١١٠﴾ وَإِنْ كَلَّمَا لِيُوفِينَهِمْ رَبِّكَ أَعْمَلَهُمْ إِنَّهُمْ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾

يقول تعالى: ﴿فلا تك في مرية مما يعبد هؤلاء﴾ المشركون إنه باطل وجهل وضلال، فإنهم إنما يعبدون ما يعبد آباؤهم من قبل، أي ليس لهم مستند فيما هم فيه إلا اتباع الآباء في الجهالات وسيجزئهم الله على ذلك أتم الجزاء، قال سفيان الثوري، عن ابن عباس: ﴿وإننا لموفوهم نصيحتهم غير منقوص﴾، قال: ما وعدوا من خير أو شر، وقال ابن أسلم: لموفوهم من العذاب نصيحتهم غير منقوص، ثم ذكر تعالى أنه آتى موسى الكتاب فاختلف الناس فيه فمن مؤمن به ومن كافر به، فلك بمن سلف من الأنبياء قبلك يا محمد أسوة، فلا يغيظنك تكذيبهم لك، وقوله تعالى: ﴿ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم﴾. قال ابن جرير: لولا ما تقدم من تأجيله العذاب إلى أجل معلوم لقضى الله بينهم، ويحتمل أن يكون المراد بالكلمة أنه لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه وإرسال الرسول إليه كما قال: ﴿وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا﴾، ثم أخبر تعالى أنه سيجمع الأولين والآخرين من الأمم ويجزئهم بأعمالهم فقال: ﴿وإن كلاً لما ليوفينهم ربك أعمالهم إنه بما يعملون خبير﴾ أي عليم بأعمالهم جميعاً، جليلها وحقيرها صغيرها وكبيرها، وقوله: ﴿ولا تركنوا إلى الذين ظلموا﴾ قال ابن عباس: هو الركون إلى الشرك، وقال أبو العالية: لا ترضوا بأعمالهم؛ وقال ابن جرير عن ابن عباس: ولا تميلوا إلى الذين ظلموا، وهذا القول حسن، أي لا تستعينوا بالظلمة فتكونوا كأنكم قد رضيت بأعمالهم، ﴿فتمسك النار وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون﴾ أي ليس لكم من دونه من ولي ينقذكم، ولا ناصر يخلصكم من عذابه.

فَأَسْتَفِمْ كَمَا أُمِرْتُ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ وَلَا تَرَكَوْا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَمَسَكُوا النَّارَ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾

(١) قاله مجاهد وابن عباس وأبو العالية وغير واحد.

يأمر تعالى رسوله وعباده المؤمنين بالثبات والدوام على الاستقامة، وذلك من أكبر العون على النصر على الأعداء ومخالفة الأضداد، وينهى عن الطغيان وهو البغي، فإنه مصرعة حتى ولو كان على مشرك، وأعلم تعالى أنه بصير بأعمال العباد لا يغفل عن شيء ولا يخفى عليه شيء .

وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبُنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرِي لِلذَّاكِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَأَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾

قال ابن عباس: ﴿ وأقم الصلاة طرفي النهار ﴾ قال: يعني الصبح والمغرب، وقال الحسن: هي الصبح والعصر، وقال مجاهد: هي الصبح في أول النهار والظهر والعصر مرة أخرى، ﴿ وزلفاً من الليل ﴾ يعني صلاة العشاء^(١)، وقال مجاهد والضحاك: إنها صلاة المغرب والعشاء؛ وقد يحتمل أن تكون هذه الآية نزلت قبل فرض الصلوات الخمس ليلة الإسراء، فإنه إنما كان يجب من الصلاة صلاتان: صلاة قبل طلوع الشمس، وصلاة قبل غروبها، وفي أثناء الليل قيام عليه وعلى الأمة، ثم نسخ في حق الأمة، وثبت وجوبه عليه، ثم نسخ عنه أيضاً، والله اعلم. وقوله: ﴿ إن الحسنات يذهبن السيئات ﴾ يقول: إن فعل الخيرات يكفر الذنوب السالفة، كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد وأهل السنن عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب قال: كنت إذا سمعت من رسول الله ﷺ حديثاً فنعني الله بما شاء أن ينفعني منه، وإذا حدثني عنه أحد استحلفته فإذا حلف لي صدقته، وحدثني أبو بكر - وصدق أبو بكر - أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: « ما من مسلم يذنب ذنباً فيتوضأ ويصلي ركعتين إلا غفر له »، وفي الصحيحين عن أمير المؤمنين عثمان بن عفان: أنه توضأ لهم كوضوء رسول الله ﷺ ثم قال: هكذا رأيت رسول يتوضأ وقال: « من توضأ وضوئي هذا ثم صلى ركعتين لا يحدث فيها نفسه، غفر له ما تقدم من ذنبه ». وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: « الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن ما اجتنبت الكبائر. وقال البخاري، عن ابن مسعود، أن رجلاً أصاب من امرأة قبله، فأتى النبي ﷺ فأخبره، فأنزل الله: ﴿ وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفاً من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات ﴾، فقال الرجل: يا رسول الله ألي هذا؟ قال: « لجميع أمتي كلهم »^(٢).

وروى الإمام أحمد، عن عبد الله بن مسعود قال، قال رسول الله ﷺ: « إن الله قسم بينكم أخلاقكم كما قسم بينكم أرزاقكم، وإن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الدين إلا من أحب، فمن أعطاه الله الدين فقد أحبه، والذي نفسي بيده لا يسلم عبد حتى يسلم قلبه ولسانه، ولا يؤمن حتى يأمن جاره بوائقه » قال، قلنا: وما بوائقه يا نبي الله؟ قال: « غشه وظلمه، ولا يكسب عبد مالا حراماً فينفق منه فيبارك له فيه، ولا يتصدق فيقبل منه، ولا يتركه خلف ظهره إلا كان زاده إلى النار، إن الله لا يمحو السيء بالسيء، ولكن يمحو السيء بالحسن، إن الخبيث لا يمحو الخبيث »، وروى الإمام أبو جعفر بن جرير عن أبي اليسر (كعب بن عمرو

(١) وهو قول ابن عباس ومجاهد والحسن البصري وغيرهم .

(٢) أخرجه البخاري ورواه مسلم وأحمد وأصحاب السنن إلا أبا داود .

الأنصاري) قال: أتتني امرأة تبتاع مني بدرهم تمرًا، فقلت: إن في البيت تمرًا أجود من هذا، فدخلت فأهويت إليها فقبلتها، فأتيت عمر فسألته فقال: اتق الله واستر على نفسك، ولا تجبرن أحداً، فلم أصبر حتى أتيت النبي ﷺ فأخبرته فقال: «أخلفت رجلاً غازياً في سبيل الله في أهله بمثل هذا؟» حتى ظننت أني من أهل النار، حتى تمنيت أني أسلمت ساعتئذ»، فأطرق رسول الله ﷺ ساعة، فنزل جبريل، فقال: أبو اليسر: فجئت فقرأت علي رسول الله ﷺ: ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبُنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذَكَرَى لِلذَّاكِرِينَ ﴾ فقال إنسان: يا رسول الله أله خاصة أم للناس عامة؟ قال: «لناس عامة». وعن أبي ذر، أن رسول الله ﷺ قال: «اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن»^(١)، وفي رواية عنه قال، قلت: يا رسول الله أوصني، قال: «إذا عملت سيئة فأتبعها حسنة تمحها»، قال، قلت: يا رسول الله أمن الحسنات (لا إله إلا الله)؟ قال: «هي أفضل الحسنات» رواه أحمد.

فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾

يقول تعالى: فهلا وجد من القرون الماضية بقايا من أهل الخير، ينهون عما كان يقع بينهم من الشرور والمنكرات والفساد في الأرض، وقوله: ﴿إلا قليلاً﴾ أي قد وجد منهم من هذا الضرب قليل لم يكونوا كثيراً وهم الذين أنجاهم الله عند حلول غضبه وفجأة نقمته، ولهذا أمر الله تعالى هذه الأمة الشريفة أن يكون فيها من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، كما قال تعالى: ﴿ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون﴾، وفي الحديث: «إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه أوشك أن يعمهم الله بعقاب»، وقوله: ﴿واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه﴾ أي استمروا على ما هم عليه من المعاصي والمنكرات، ولم يلتفتوا إلى إنكار أولئك حتى فجأهم العذاب، ﴿وكانوا مجرمين﴾، ثم أخبر تعالى أنه لم يهلك قرية إلا وهي ظالمة لنفسها، ولم يأت قرية مصلحة نقمته وعذابه قط حتى يكونوا هم الظالمين، كما قال تعالى: ﴿وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم﴾ وقال: ﴿وما ربك بظلام للعبيد﴾.

وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾

يخبر تعالى أنه قادر على جعل الناس كلهم أمة واحدة من إيمان أو كفر، كما قال تعالى: ﴿ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً﴾، وقوله: ﴿ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك﴾ أي ولا يزال الخلف بين الناس في أديانهم واعتقادات مللهم ونحلهم ومذاهبهم وآرائهم، قال عكرمة: مختلفين في الهدى، وقوله: ﴿إلا من

رحم ربك ﴿﴾ أي إلا المرحومين من أتباع الرسل الذين تمسكوا بما أمروا به من الدين، أخبرتهم به رسل الله إليهم ولم يزل ذلك ذأبهم، حتى كان النبي وخاتم الرسل والأنبياء فاتبعوه وصدقوه ووازره، ففاز بسعادة الدنيا والآخرة، لأنهم الفرقة الناجية، وقال عطاء: ﴿﴾ ولا يزالون مختلفين ﴿﴾ يعني اليهود والنصارى والمجوس ﴿﴾ إلا من رحم ربك ﴿﴾ يعني الحنيفية، وقال قتادة: أهل رحمة الله: أهل الجماعة وإن تفرقت ديارهم وأبدانهم، وأهل معصيته أهل الفرقة، وإن اجتمعت ديارهم وأبدانهم. وقوله: ﴿﴾ ولذلك خلقهم ﴿﴾، قال الحسن البصري: وللاختلاف خلقهم. وقال ابن عباس: خلقهم فريقين كقوله: ﴿﴾ فمنهم شقي وسعيد ﴿﴾، وعن ابن عباس قال: للرحمة خلقهم ولم يخلقهم للعذاب. ويرجع معنى هذا القول إلى قوله تعالى: ﴿﴾ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴿﴾، وقيل: بل المراد وللرحمة وللإختلاف خلقهم، كما قال الحسن البصري في رواية عنه في قوله: ﴿﴾ ولا يزالون مختلفين ﴿﴾، قال: الناس مختلفون على أديان شتى ﴿﴾ إلا من رحم ربك ﴿﴾، فن رحم ربك غير مختلف، فليل له لذلك خلقهم، قال: خلق هؤلاء لجنته، وخلق هؤلاء لناره، وخلق هؤلاء لعذابه، وقال ابن وهب: سألت مالكاً عن قوله تعالى: ﴿﴾ ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم ﴿﴾ قال: فريق في الجنة وفريق في السعير، وقد اختار هذا القول ابن جرير، وقوله: ﴿﴾ وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين ﴿﴾ يخبر تعالى أنه قد سبق في قضائه وقدره لعلمه التام وحكمته النافذة أن ممن خلقه من يستحق الجنة، ومنهم من يستحق النار، وأنه لا بد أن يملأ جهنم من هذين الثقلين (الجن والإنس) وله الحجة البالغة والحكمة التامة، وفي الصحيحين عن أبي هريرة قال، قال رسول الله ﷺ: «اختصمت الجنة والنار، فقالت الجنة: مالي لا يدخلني إلا ضعفاء الناس وسقطهم، وقالت النار: أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين، فقال الله عز وجل للجنة: أنت رحمتي أرحم بك من أشياء، وقال للنار: أنت عذابي أنتقم بك من أشياء، ولكل واحدة منكما ملؤها، فأما الجنة فلا يزال فيها فضل حتى ينشئ الله لها خلقاً يسكن فضل الجنة، وأما النار فلا تزال تقول: ﴿﴾ هل من مزيد ﴿﴾ حتى يضع عليها رب العزة قدمه فتقول: قط قط وعزتك.»

﴿﴾ وَكَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ

لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾

يقول تعالى: وكل أخبار نقصها عليك من أنباء الرسل المتقدمين من قبلك مع أمهم، وكيف جرى لهم من المحاجات والخصومات، وما احتمله الأنبياء من التكذيب والأذى، وكيف نصر الله حربه المؤمنين وخذل أعداء الكافرين، كل هذا مما ﴿﴾ ثبت به فؤادك ﴿﴾ أي قلبك يا محمد ليكون لك بمن مضى من إخوانك من المرسلين أسوة، وقوله: ﴿﴾ وجاءك في هذه الحق ﴿﴾ أي في هذه السورة، قاله ابن عباس ومجاهد وجماعة من السلف، وعن الحسن وقتادة: في هذه الدنيا، والصحيح في هذه السورة المشتملة على قصص الأنبياء، وكيف أنجاهم الله المؤمنين بهم، وأهلك الكافرين، جاءك فيها قصص حق ونبأ صدق وموعظة يرتدع بها الكافرون، وذكرى يتذكر بها المؤمنون.

﴿١٢٢﴾ وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَانْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾

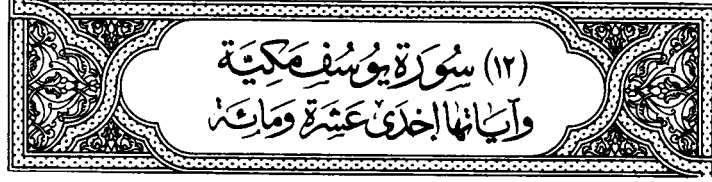
يقول تعالى أمرًا رسوله أن يقول للذين لا يؤمنون بما جاء به من ربه على وجه التهديد ﴿اعملوا على مكانتكم﴾ أي على طريقته ومنهجكم، ﴿إنا عاملون﴾ أي على طريقتنا ومنهجنا، ﴿وانتظروا إنا منتظرون﴾ أي ﴿فستعلمون من تكون له عاقبة الدار إنه لا يفلح الظالمون﴾، وقد أنجز الله لرسوله وعده ونصره وأيده، وجعل كلمته هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى والله عزيز حكيم .

﴿١٢٣﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأُمُورُ كُلُّهَا فاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا

تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾

يخبر تعالى أنه عالم غيب السماوات والأرض وأنه إليه المرجع والمآب، وسيؤتي كل عامل عمله يوم الحساب، فله الخلق والأمر، فأمر تعالى بعبادته والتوكل عليه. فإنه كاف من توكل عليه وأتاب إليه، وقوله: ﴿وما ربك بغافل عما تعملون﴾ أي ليس يخفى عليه ما عليه مكذبوك يا محمد بل هو علم بأحوالهم وأقوالهم، وسيجزئهم على ذلك أتم الجزاء في الدنيا والآخرة وسينصرك وحزبك عليهم في الدارين .

* * *



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّتِّكَ ءَايَتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿١٢﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٣﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْءَانَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْغَافِلِينَ ﴿١٤﴾

أما الكلام على الحروف المقطعة فقد تقدم في أول سورة البقرة، وقوله ﴿تلك آيات الكتاب﴾ أي هذه آيات الكتاب، وهو القرآن المبين أي الواضح الجلي الذي يفصح عن الأشياء المهمة ويفسرها ويبينها ﴿إنا أنزلناه قرآنًا عربيًّا لعلكم تعقلون﴾، وذلك لأن لغة العرب أفصح اللغات وأبينها وأوسعها، وأكثرها تأدية للمعاني التي تقوم بالنفوس، فلهذا أنزل أشرف الكتب، بأشرف اللغات، على أشرف الرسل، بسفارة أشرف الملائكة، وكان ذلك في أشرف بقاع الأرض، وابتدئ إنزاله في أشرف شهور السنة وهو (رمضان) فكمل من كل الوجوه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن﴾ بسبب إيحائها إليك هذا القرآن، وقد ورد في سبب نزول هذه الآية ما رواه ابن جرير عن ابن عباس قال: قالوا: يا رسول الله صلى الله عليه وسلم لو قصصت علينا؟ فنزلت: ﴿نحن نقص عليك أحسن القصص﴾، فأرادوا القصص فلم على أحسن القصص، ومما يناسب ذكره عند هذه الآية الكريمة المشتملة على مدح القرآن، وأنه كاف عن كل ما سواه من الكتب ما رواه الإمام أحمد عن جابر بن عبد الله أن عمر بن الخطاب أتى النبي ﷺ بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب، فقرأه على النبي ﷺ، قال: فغضب، وقال: «أمتوكون فيها يا ابن الخطاب؟» والذي نفسي بيده لقد جثتم بها بيضاء نقية، لا تسألوهم عن شيء فيخبروكم بحق فتكذبونه، أو يباطل فتصدقونه، والذي نفسي بيده لو أن موسى كان حيًّا ما وسعه إلا أن يتبعني». وعن عبد الله بن ثابت قال: جاء عمر إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إني مررت بأخ لي من قريظة، فكتب لي جوامع من التوراة ألا أعرضها عليك؟ قال، فتغير وجه رسول الله ﷺ، قال عبد الله ابن ثابت: فقلت له: ألا ترى ما بوجه رسول الله ﷺ؟ فقال عمر: رضينا بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد رسولًا. قال: فسري عن النبي ﷺ، وقال: «والذي نفس محمد بيده لو أصبح فيكم موسى ثم اتبعتموه وتركتموني لضلتم، إنكم حظي من الأمم وأنا حظكم من النبيين»^(١).

(١) أخرجه الإمام أحمد عن عبد الله بن ثابت.

إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴿٤﴾

يقول تعالى : اذكر لقومك يا محمد في قصصك عليهم من قصة يوسف، إذ قال لأبيه - وأبوه هو يعقوب ابن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام - كما قال رسول الله ﷺ : « الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم »^(١) ، وعن أبي هريرة قال : سئل رسول الله ﷺ : أي الناس أكرم ؟ قال : « أكرمهم عند الله أتقاهم » ، قالوا : ليس عن هذا نسألك ، قال : « فأكرم الناس يوسف نبي الله ابن نبي الله ابن نبي الله ابن خليل الله » ، قالوا : ليس عن هذا نسألك ، قال : « فعن معادن العرب تسألوني ؟ » قالوا : نعم ، قال : « فخيركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فقهوا »^(٢) . وقال ابن عباس : رؤيا الأنبياء وحي ، وقد تكلم المفسرون على تعبير هذا المنام أن الأحد عشر كوكباً عبارة عن إخوته ، وكانوا أحد عشر رجلاً سواه ، والشمس والقمر عبارة عن أمه وأبيه^(٣) ، ولما رآها يوسف قصها على أبيه يعقوب ، فقال له أبوه : وهذا أمر مشتت يجمعه الله من بعد .

* قَالَ يَبْنِي لَاتَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا ۗ إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾

يقول تعالى مخبراً عن قول يعقوب لابنه يوسف حين قص عليه ما رأى من هذه الرؤيا التي تعبيرها خضوع إخوته له وتعظيمهم إياه تعظيماً زائداً ، بحيث يخرون له ساجدين إجلالاً واحتراماً وإكراماً ، فخشي يعقوب عليه السلام أن يحدث بهذا المنام أحداً من إخوته ، فيحسدونه على ذلك ، فيغنون له الغوائل حسداً منهم له ، ولهذا قال له : ﴿ لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيداً ﴾ أي يحتالوا لك حيلة يردونك فيها ، ولهذا ثبتت السنة عن رسول الله ﷺ قال : « إذا رأى أحدكم ما يحب فليحدث به ، وإذا رأى ما يكره فليتحول إلى جنبه الآخر ، وليتفل عن يساره ثلاثاً وليستعذ بالله من شرها ، ولا يحدث بها أحداً فإنها لن تضره » ، وفي الحديث الآخر : « الرؤيا على رجل طائر ما لم تعبر ، فإذا عبرت وقعت »^(٤) ومن هذا يؤخذ الأمر بكماتان النعمة حتى توجد وتظهر ، كما ورد في حديث : « استعينوا على قضاء الحوائج بكماتان ، فإن كل ذي نعمة محسود » .

وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُمَتِّعُنِي نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلِ إِبْرَاهِيمَ ۗ وَإِخْتَقِ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾

يقول تعالى مخبراً عن قول يعقوب لولده يوسف : إنه كما اختارك ربك وأراك هذه الكواكب مع الشمس

(١) أخرجه البخاري وأحمد عن ابن عمر رضي الله عنهما .

(٢) أخرجه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(٣) روي هذا عن ابن عباس والضحاك وقتادة والثوري وعبد الرحمن بن أسلم وقد وقع تفسيرها بعد أربعين سنة على الأشهر .

(٤) رواه أحمد وبعض أصحاب السنن عن معاوية بن حيدة القشيري .

والقمر ساجدة لك ﴿ كذلك يجتبيك ربك ﴾ أي يختارك ويصطفيك لنبوته، ﴿ ويعلمك من تأويل الأحاديث ﴾ قال مجاهد: يعني تعبير الرؤيا، ﴿ ويتم نعمته عليك ﴾ أي بإرسالك والإيحاء إليك، ولهذا قال: ﴿ كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم ﴾ وهو الخليل، ﴿ وإسحق ﴾ ولده وهو الذبيح في قول، وليس بالرجيح ﴿ إن ربك عليم حكيم ﴾ أي هو أعلم حيث يجعل رسالته .

* لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ ﴿٧﴾ إِذْ قَالُوا لِيُوسُفَ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِمَّا نَحْنُ وَنَحْنُ عَصَبَةٌ إِنْ آبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ أَقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ﴿٩﴾ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَالْقَوْهَ فِي غَيْبَتِ الْجَبِّ يَلْتَقِطُهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴿١٠﴾

يقول تعالى: لقد كان في قصة يوسف وخبره مع إخوته ﴿ آيات ﴾ أي عبرة ومواعظ ﴿ للسائلين ﴾ عن ذلك، فإنه خبر عجيب يستحق أن يخبر عنه، ﴿ إذ قالوا ليوسف وأخوه أحب إلى أينا منا ﴾ أي حلفوا فيما يظنون والله ليوسف وأخوه، يعنون بنيامين وكان شقيقه لأمه ﴿ أحب إلى أينا منا ونحن عصبة ﴾ أي جماعة، فكيف أحب ذينك الاثنين أكثر من الجماعة؟ ﴿ إن أبانا لفي ضلال مبين ﴾ يعنون في تقديمهما علينا، ومحبة إياهما أكثر منا، واعلم أنه لم يقدّم دليل على نبوة إخوة يوسف، وظاهر هذا السياق يدل على خلاف ذلك؛ ومن الناس من يزعم أنهم أوحى إليهم بعد ذلك، وفي هذا نظر ويحتاج مدعي ذلك إلى دليل، ولم يذكروا سوى قوله تعالى: ﴿ قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط ﴾، وهذا فيه احتمال، لأن بطون بني إسرائيل يقال لهم الأسباط، كما يقال للعرب قبائل وللعجم شعوب، يذكر تعالى أنه أوحى إلى الأنبياء من أسباط بني إسرائيل، فذكرهم إجمالاً لأنهم كثيرون، ولكن كل سبط من نسل رجل من إخوة يوسف، ولم يقدّم دليل على أعيان هؤلاء أنهم أوحى إليهم والله أعلم، ﴿ اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً يخل لكم وجه أبيكم ﴾ يقولون: هذا الذي يزاكمكم في محبة أبيكم لكم، أعدموه من وجه أبيكم، ليخلو لكم وحدكم، إما بأن تقتلوه، أو أن تلقوه في أرض من الأراضي تستريحوا منه وتحلوا أتم بأبيكم، ﴿ وتكونوا من بعده قوماً صالحين ﴾، فأضمرنا التوبة قبل الذنب ﴿ قال قائل منهم ﴾، قال قتادة: وكان أكبرهم واسمه روييل، وقال السدي: الذي قال ذلك يهوذا، وقال مجاهد: هو شمعون ﴿ لا تقتلوا يوسف ﴾ أي لا تصلوا في عداوته وبغضه إلى قتله، ولم يكن لهم سبيل إلى قتله، لأن الله تعالى كان يريد منه أمراً لا بد من إتمامه، من الإيحاء إليه بالنبوة، ومن التمكين له ببلاد مصر والحكم بها، فصرّفهم الله عنه بمقالة روييل فيه، وإشارته عليهم بأن يلقوه ﴿ في غيابة الجب ﴾ وهو أسفله، قال قتادة: وهي بئر بيت المقدس، ﴿ يلتقطه بعض السيارة ﴾ أي المارة من المسافرين فتستريحوا منه بهذا ولا حاجة إلى قتله، ﴿ إن كنتم فاعلين ﴾ أي إن كنتم عازمين على ما تقولون، قال محمد بن إسحاق: لقد اجتمعوا على أمر عظيم من قطعة الرحم، وعقوق الوالد، وقلة الرأفة بالصغير الذي لا ذنب له، وليفرقوا بينه وبين أبيه وحببيه على كبر سنه

ورقة عظمه، مع مكانه من الله من أحبه طفلاً صغيراً، وبين ابنه على ضعف قوته وصغر سنه وحاجته إلى لطف والده وسكونه إليه، يغفر الله لهم وهو أرحم الراحمين، فقد احتملوا أمراً عظيماً .

قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَنصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسَلَهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعُ وَيَلْعَبُ وَإِنَّا لَهُ لَنَحْفَظُونَ ﴿١٢﴾

لما تواطوا على أخذه وطرحه في البئر كما أشار به عليهم أخوهم الكبير (روبيل) جاءوا أباهم يعقوب عليه السلام فقالوا: ما بالك ﴿ لا تأمنا على يوسف وإنا له لناصحون ﴾ ؟ وهذه توطئة ودعوى وهم يريدون خلاف ذلك لما له في قلوبهم من الحسد لحب أبيه له، ﴿ أرسله معنا ﴾ أي ابعته معنا ﴿ غداً نرتع ونلعب ﴾، وقرأ بعضهم بالياء، ﴿ يرتع ويلعب ﴾، قال ابن عباس: يسعى وينشط، ﴿ وإنا له لحافظون ﴾ يقولون: ونحن نحفظه ونحوطه من أجلك .

قَالَ إِنِّي لَيَحْزَنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَاسِرُونَ ﴿١٤﴾

يقول تعالى مخبراً عن نبيه يعقوب أنه قال لابنيه في جواب ما سألوا من إرسال يوسف معهم إلى الرعي في الصحراء: ﴿ إني ليحزني أن تذهبوا به ﴾ أي يشق عليّ مفارقتهم مدة ذهابكم به إلى أن يرجع، وذلك لفرط محبته له لما يتوسم فيه من الخير العظيم، وشمائل النبوة، والكمال في الخلق والخلق صلوات الله وسلامه عليه، وقوله: ﴿ وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون ﴾، يقول: وأخشى أن تشتغلوا عنه برميكم ورعيكم، فيأتيه ذئب فيأكله وأنتم لا تشعرون، فأخذوا من فم هذه الكلمة وجعلوها عذراً فيما فعلوه، وقالوا مجيبين له عنها في الساعة الراهنة ﴿ لئن أكله الذئب ونحن عصبة إنا إذا لخاسرون ﴾ يقولون: لئن عدا عليه الذئب فأكله من بيننا ونحن جماعة، إنا إذا لهالكون عاجزون .

فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَاجْتَمَعُوا أَن يُجْعَلُوهُ فِي غِيَابِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾

يقول تعالى : فلما ذهب به إخوته من عند أبيه بعد مراجعتهم له في ذلك، ﴿ واجتمعوا أن يجعلوه في غيابة الجب ﴾ هذا فيه تعظيم لما فعلوه، أنهم اتفقوا كلهم على إلقائه في أسفل ذلك الجب، وقد أخذوه من عند أبيه فيما يظهره له إكراماً له وبسطاً وشرحاً لصدوره وإدخالاً للسرور عليه، فيقال: إن يعقوب عليه السلام لما بعته معهم ضمه إليه وقبله ودعا له، فذكر السدي وغيره أنه لم يكن بين إكرامهم له وبين إظهار الأذى له إلا أن غابوا عن عين أبيه، وتواروا عنه، ثم شرعوا يؤذونه بالقول من شتم ونحوه، والفعل من ضرب ونحوه، ثم جاءوا به إلى ذلك الجب^(١) الذي اتفقوا على رميه فيه فربطوه بحبل ودلوه فيه، فسقط في الماء، فغمره، فصعد إلى صخرة تكون

(١) قال قتادة: هي بئر بيت المقدس، وقال أبو زيد: بحيرة طبرية، وروي أنه أقام في الجب ثلاثة أيام .

في وسطه فقام فوقها، وقوله: ﴿ وَأَوْحِينَا إِلَيْهِ لَتبْتَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾، يقول تعالى ذاكراً لطفه ورحمته، وإنزاله اليسر في حال العسر، إنه أوحى إلى يوسف في ذلك الحال الضيق تطيباً لقلبه، وتشبيهاً له: إنك لا تحزن مما أنت فيه، فإن لك من ذلك فرجاً ومخرجاً حسناً، وسينصرك الله عليهم ويعليك ويرفع درجتك، وستخبرهم بما فعلوا معك من هذا الصنيع، وقوله: ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ قال مجاهد وقتادة: بإيحاء الله إليه، وقال ابن عباس: ستنبتهم بصنيعهم هذا في حقد وهم لا يعرفونك ولا يشعرون بك .

وَجَاءَ وَآبَاهُمُ عِشَاءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا يَا بَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتْلَعِنَا فَآكَلَهُ الذِّبَابُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَاءَ وَعَلَى قَيْصِهِ بِدْمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾

يقول تعالى مخبراً عن الذي اعتمده إخوة يوسف بعد ما ألقوه في غيابة الجب أنهم رجعوا إلى أبيهم في ظلمة الليل ويكون ويظهرون الأسف والجزع على يوسف، ويتغمون لأبيهم، وقالوا معتذرين عما وقع فيما زعموا: ﴿ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ ﴾ أي تترامى، ﴿ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا ﴾ أي ثيابنا وأمتعتنا، ﴿ فَآكَلَهُ الذِّبَابُ ﴾ وهو الذي كان قد جزع منه وحذر عليه، وقوله: ﴿ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴾ تلطف عظيم في تقرير ما يحاولونه، يقولون: ونحن نعلم أنك لا تصدقنا والحالة هذه لو كنا عندك صادقين، فكيف وأنت تتهمنا في ذلك لأنك خشيت أن يأكله الذئب فأكله الذئب؟ فأنت معذور في تكذيبك لنا، لغرابة ما وقع، وعجيب ما اتفق لنا في أمرنا هذا، ﴿ وَجَاءُوا عَلَى قَيْصِهِ بِدْمٍ كَذِبٍ ﴾ أي مكنوب مفترى، وهذا من الأفعال التي يؤكدون بها ما تمالأوا عليه من المكيدة، وهو أنهم عملوا إلى سخلة^(١)، فذبحوها ولطخوا ثوب يوسف بدماها، موهمين أن هذا قميصه الذي أكله فيه الذئب، وقد أصابه من دمه، ولكنهم نسوا أن يخرقوه، فلهذا لم يرج هذا الصنيع على نبي الله يعقوب، بل قال لهم معرضاً عن كلامهم إلى ما وقع في نفسه من لبسهم عليه: ﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾، أي فسأصبر صبراً جميلاً على هذا الأمر الذي اتفقتم عليه حتى يفرجه الله بعونه ولطفه، ﴿ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴾ أي على ما تدكرون من الكذب والحال، قال ابن عباس: ﴿ وَجَاءُوا عَلَى قَيْصِهِ بِدْمٍ كَذِبٍ ﴾ قال: لو أكله السبع لخرق القميص، وقال مجاهد: الصبر الجميل الذي لا جزع فيه، وقد روي مرفوعاً عن (جبان بن أبي حبله) قال: سئل رسول الله ﷺ عن قوله: ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ فقال: صبر لا شكوى فيه. وقال الثوري: ثلاث من الصبر: أن لا تحدث بوجعك، ولا بمصيبتك، ولا تزكي نفسك، وذكر البخاري ههنا حديث عائشة في الإفك حتى ذكر قولها: والله لا أجد لي ولكم مثلاً إلا كما قال أبو يوسف: ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴾ .

* وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَبُشْرَى هَذَا غُلْمٌ وَأَسْرُوهُ بَضْعَةَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا

(١) ذكره مجاهد والسدي وغير واحد .

يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴿٢٠﴾

يقول تعالى مخبراً عما جرى ليوسف عليه السلام في الحب حين ألقاه إخوته، وتركوه في ذلك الحب وحيداً فريداً، فكث عليه السلام في البئر ثلاثة أيام، وقال محمد بن إسحاق: لما ألقاه إخوته في البئر جلسوا حول البئر يومهم ذلك ينظرون ماذا يصنع وما يصنع به، فساق الله له سيارة، فترلوا قريباً من تلك البئر وأرسلوا واردهم، وهو الذي يتطلب لهم الماء، فلما جاء ذلك البئر وأدلى دلوه فيها تشبث يوسف عليه السلام فيها، فأخرجه واستبشر به، وقال: ﴿يا بشرى هذا غلام﴾ أي يا بشراي، ﴿وأسروه بضاعة﴾ أي وأسره الواردون من بقية السيارة، وقالوا: اشتريناه من أصحاب الماء مخافة أن يشاركوهم فيه إذا علموا خبره^(١)، وقال ابن عباس: ﴿وأسروه بضاعة﴾: يعني إخوة يوسف أسروا شأنه، وكنتموا أن يكون أحاهم، وكنتم يوسف شأنه مخافة أن يقتله إخوته، واختار البيع، فذكره إخوته لوارد القوم، فنادى أصحابه: ﴿يا بشرى هذا غلام﴾ يباع، فباعه إخوته؛ وقوله: ﴿والله عليم بما يعملون﴾ أي عليم بما يفعله إخوة يوسف ومشتروه، وهو قادر على تغيير ذلك ودفعه، ولكن له حكمة وقدر سابق، فترك ذلك ليمضي ما قدره وقضاه ﴿ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين﴾، وقوله: ﴿وشروه بثمان بخرس دراهم معدودة﴾ يقول تعالى: وباعه إخوته بثمان قليل، قاله مجاهد وعكرمة، والبخرس: هو النقص، كما قال تعالى: ﴿فلا يخاف بخرساً ولا رهقاً﴾ أي اعتاض عنه إخوته بثمان قليل، ومع ذلك كانوا فيه من الزاهدين، أي ليس لهم رغبة فيه بل لو سئلوه بلا شيء لأجابوا، والضمير في قوله: ﴿وشروه﴾ عائد على إخوة يوسف^(٢)، وقال قتادة: بل هو عائد على السيارة؛ والأول أقوى، لأن قوله: ﴿وكانوا فيه من الزاهدين﴾ إنما أراد إخوته لا أولئك السيارة، لأن السيارة استبشروا به وأسروه بضاعة، ولو كانوا فيه زاهدين لما اشتروه، فترجح من هذا أن الضمير في ﴿شروه﴾ إنما هو لإخوته، وقوله: ﴿دراهم معدودة﴾ عن ابن مسعود رضي الله عنه: باعوه بعشرين درهماً، وقال عكرمة: أربعون درهماً، وقال الضحاك في قوله: ﴿وكانوا فيه من الزاهدين﴾ ذلك أنهم لم يعلموا نبوته ومترلته عند الله عز وجل.

وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَتْهُ مِنْ مِصْرَ لَأَمْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَانًا لِيُوسَفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ ۖ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ۖ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾

يخبر تعالى بالطفاه بيوسف عليه السلام، أنه قيص له الذي اشتراه من مصر، حتى اعتنى به وأكرمه، وأوصى أهله به وتوسم فيه الخير والصلاح، فقال لامرأته: ﴿أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً﴾، وكان الذي اشتراه من مصر عزيزها وهو الوزير بها، عن ابن عباس: وكان اسمه (قطفير) وكان على خزائن مصر، وكان

(١) قاله مجاهد والسدي وابن جرير وهذا أحد الأقوال في الآية .

(٢) وهو رأي ابن عباس ومجاهد والضحاك .

الملك يومئذ (الريان بن الوليد) رجل من العماليق، قال: واسم امرأته (راعىل)، وقال غيره: اسمها (زليخا)، وقال عبد الله بن مسعود: أفرس الناس ثلاثة: عزيز مصر حين قال لامرأته: ﴿أكرمي مثواه﴾، والمرأة التي قالت لأبيها: ﴿يا أبت استأجره﴾ الآية، وأبو بكر الصديق حين استخلف عمر بن الخطاب رضي الله عنهما. يقول تعالى: كما أنقذنا يوسف من إخوته ﴿كذلك مكنا ليوسف في الأرض﴾ يعني بلاد مصر ﴿ولنعلمه من تأويل الأحاديث﴾ قال مجاهد والسدي هو تعبير الرؤيا، ﴿والله غالب على أمره﴾ أي إذا أراد شيئاً فلا يرد، ولا يمانع، ولا يخالف بل هو الغالب لما سواه، قال سعيد بن جبير: أي فعال لما يشاء، وقوله: ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ يقول: لا يدرون حكمته في خلقه وتلفه وفعله لما يريد. وقوله: ﴿ولما بلغ﴾ أي يوسف عليه السلام ﴿أشده﴾ أي استكمل عقله وتم خلقه، ﴿آتيناه حكماً وعلماً﴾ يعني النبوة، حباه بها بين أولئك الأقسام، ﴿وكذلك نجزي المحسنين﴾ أي إنه كان محسناً في عمله عاملاً بطاعة الله تعالى، وقد اختلف في مقدار المدة التي بلغ فيها أشده، فقال ابن عباس ومجاهد وقتادة: ثلاث وثلاثون سنة، وعن ابن عباس: بضع وثلاثون، وقال الضحاك: عشرون، وقال الحسن: أربعون سنة، وقيل غير ذلك^(١)، والله أعلم.

وَرَوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ ۖ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿١٣﴾

يخبر تعالى عن امرأة العزيز التي كان يوسف في بيتها بمصر، وقد أوصاها زوجها بإكرامه، فراودته عن نفسه أي حاولته على نفسه ودعته إليها، وذلك أنها أحبته حباً شديداً لجماله وحسنه وبهائه، فحملها ذلك على أن تجملت له وغلقت عليه الأبواب ودعته إلى نفسها ﴿وقالت هيت لك﴾، فامتنع من ذلك أشد الامتناع و ﴿قال معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي﴾، وكانوا يطلقون الرب على السيد والكبير، أي إن بعلك ربي أحسن مثواي أي منزلي، وأحسن إليّ فلا أقبله بالفاحشة في أهله، ﴿إنه لا يفلح الظالمون﴾، وقد اختلف القراء في قوله: ﴿هيت لك﴾، فقراه كثيرون بفتح الهاء وإسكان الياء وفتح التاء، قال ابن عباس ومجاهد: معناه أنها تدعوه إلى نفسها، وقال البخاري، قال عكرمة: ﴿هيت لك﴾، أي هلم لك بالهورانية، هكذا ذكره معلقاً، وكان الكسائي يحكي هذه القراءة يعني ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ ويقول: هي لغة لأهل حوران، وقعت إلى أهل الحجاز، ومعناها: تعال، وقال أبو عبيدة: سألت شيخاً عالماً من أهل حوران، فذكر أنها لغتهم يعرفها، واستشهد الإمام ابن جرير على هذه القراءة بقول الشاعر^(٢):

أبلغ أمير المؤمن بين أذى العراق إذا أتيتا
إن العراق وأهله عنق إليك فهيت هيتا

(١) قال عكرمة: خمس وعشرون، وقال السدي: ثلاثون سنة، وقال سعيد بن جبير: ثمانين سنة، ولعل ما ذهب إليه الحسن البصري هو الأرجح.

(٢) قالها لأمر المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه.

يقول: فتعال واقرب، وقرأ آخرون: ﴿هتت لك﴾ بكسر الهاء والهمزة وضم التاء، بمعنى تهيأت لك، من قول القائل: هتت بالأمر بمعنى تهيأت لك. قال ابن جرير: وكان أبو عمرو والكسائي ينكران هذه القراءة، وقال آخرون: ﴿هيئت لك﴾ بكسر الهاء وإسكان الياء وضم التاء.

وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ^ط وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا^ع أَنْ رَأَى^ع بُرْهَانَ رَبِّهِ^ع كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ^ع عَنْهُ السُّوءَ^ع وَالْفَحْشَاءَ^ع إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا^ع الْمُخْلِصِينَ ﴿٢٤﴾

اختلفت أقوال الناس وعباراتهم في هذا المقام، فقيل: المراد بهم بهما بها خطرات حديث النفس، حكاة البغوي عن بعض أهل التحقيق؛ ثم أورد البغوي هنا حديث أبي هريرة رضي الله عنه، قال، قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى: إذا همَّ عبدي بحسنة فاكتبوها له حسنة، فإن عملها فاكتبوها له بعشر أمثالها، وإن همَّ بسية فلم يعملها فاكتبوها حسنة، فإنما تركها من جرأني، فإن عملها فاكتبوها بمثلها»^(١)، وقيل: همَّ بضرها، وقيل: تمنأها زوجة؛ وقيل: همَّ بها لولا أن رأى برهان ربه، أي فلم يهمَّ بها^(٢)، وأما البرهان الذي رآه ففيه أقوال أيضاً، قيل: رأى صورة أبيه يعقوب عاضاً على إصبعه بضمه؛ وقيل: رأى خيال الملك يعني سيده، وقال ابن جرير عن محمد ابن كعب القرظي قال: رفع يوسف رأسه إلى سقف البيت، فإذا كتاب في حائط البيت: ﴿لا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة ومقتاً وساء سبيلاً﴾؛ وقيل: ثلاث آيات من كتاب الله: ﴿إن عليكم لحافظين﴾ الآية، وقوله: ﴿وما تكون في شأن﴾ الآية، وقوله: ﴿أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت﴾، قال ابن جرير: والصواب أن يقال: إنه أي آية من آيات الله تترجمه عما كان همَّ به، وجائز أن يكون صورة يعقوب، وجائز أن يكون صورة الملك، وجائز أن يكون ما رآه مكتوباً من الزجر عن ذلك، ولا حجة قاطعة على تعيين شيء من ذلك، فالصواب أن يطلق، كما قال الله تعالى، وقوله: ﴿كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء﴾ أي كما أريناه برهاناً صرفه عما كان فيه كذلك نقيه السوء والفحشاء في جميع أموره، ﴿إنه من عبادنا المخلصين﴾ أي من المجتنبين المطهرين المختارين المصطفين الأخيار، صلوات الله وسلامه عليه.

وَأَسْتَبَقَا^ع الْبَابَ وَقَدَّتْ قَيْصَهُ^ع مِنْ دُبُرٍ^ع وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا^ع لَدَا^ع الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ^ع مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ^ع سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ^ع أَوْ يُعَذَّبَ^ع أَلَيْمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِيَ رَأودَتِي^ط عَنْ نَفْسِي^ط وَشَهِدَ شَاهِدٌ^ط مِنْ أَهْلِهَا^ط إِنْ كَانَ^ط قَيْصُهُ^ط قَدْ^ط مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ^ط وَهُوَ مِنْ الْكَذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِنْ كَانَ^ط قَيْصُهُ^ط قَدْ^ط مِنْ دُبُرٍ^ط فَكَذَبَتْ^ط وَهُوَ مِنْ الصَّادِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَأَى^ط

(١) هذا الحديث مخرج في الصحيحين وله ألفاظ كثيرة منها هذا، قاله ابن كثير.

(٢) حكاة ابن جرير وغيره فكأن في الآية تقديمًا وتأخيرًا: أي لولا أن رأى برهان ربه لمَّ بها، فلم يقع الهمُّ لوجود البرهان وهو عصمة الله عزَّ وجلَّ له. وانظر ما حققناه في كتابنا (النبوَّة والأنبياء) صفحة (٧٨) حول هذا البحث فإنه دقيق ونفيس فقد أوردنا عشرة وجوه على عصمته عليه السلام.

قَمِيصَهُ قَدْ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴿٢٩﴾

يخبر تعالى عن حالهما حين خرجا يستبقان إلى الباب، يوسف هارب، والمرأة تطلبه ليرجع إلى البيت، فلحقته في أثناء ذلك، فأمسكت بقميصه من ورائه، فقدته قدماً فظيعاً، يقال: إنه سقط عنه، واستمر يوسف هارباً ذاهباً، وهي في إثره، فألفيا سيدها وهو زوجها عند الباب، فعند ذلك خرجت مما هي فيه بمكرها وكيدها، وقالت لزوجها متصلة وقاذفة يوسف بدائها: ﴿ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً﴾ أي فاحشة، ﴿إلا أن يسجن﴾ أي يحبس، ﴿أو عذاب أليم﴾ أي يضرب ضرباً شديداً موجعاً، فعند ذلك انتصر يوسف عليه السلام بالحق، وتبرأ مما رمته به من الخيانة، و﴿قال﴾ بارأ صادقاً: ﴿هي راودتني عن نفسي﴾، وذكر أنها اتبعته تجذبه إليها حتى قادت قميصه، ﴿وشهد شاهد من أهلها إن كان قميصه قد من قبل﴾ أي من قدامه ﴿فصدقت﴾ أي في قولها إنه راودها على نفسها، لأنه يكون لما دعاها وأبت عليه دفعته في صدره فقدت قميصه فيصح ما قالت، ﴿وإن كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين﴾ وذلك يكون كما وقع لما هرب منها، وطلبت، أمسكت بقميصه من ورائه لترده إليها، فقدت قميصه من ورائه، وقد اختلفوا في هذا الشاهد: هل هو صغير أو كبير؟ على قولين لعلماء السلف، فقال ابن عباس: كان من خاصة الملك وكان رجلاً ذا لحية، وقال زيد بن أسلم والسدي: كان ابن عمها، وقال العوفي عن ابن عباس: كان صبياً في المهدي، وكذا روي عن الحسن وسعيد بن جبيرة والضحاك: أنه كان صبياً في الدار، واختاره ابن جرير. وقد ورد فيه حديث مرفوع، رواه ابن جرير، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: «تكلم أربعة وهم صغار». فذكر فيهم شاهد يوسف، ورواه سعيد بن جبيرة عن ابن عباس أنه قال: «تكلم أربعة وهم صغار: ابن ماشطة بنت فرعون، وشاهد يوسف، وصاحب جريج، وعيسى بن مريم». وقوله: ﴿فلما رأى قميصه قد من دبر﴾ أي لما تحقق زوجها صدق يوسف وكذبها فيما قذفته ورمته به ﴿قال إنه من كيدكن﴾ أي إن هذا البهت واللطخ الذي لطخت عرض هذا الشاب به من جملة كيدكن ﴿إن كيدكن عظيم﴾، ثم قال آمراً ليوسف عليه السلام بكتان ما وقع: ﴿يوسف أعرض عن هذا﴾ أي اضرب عن هذا صفحاً أي فلا تذكره لأحد، ﴿واستغفري لذنبك﴾ يقول: لامراته، وقد كان لين العريكة سهلاً، أو أنه علرها لأنها رأت ما لا صبر لها عنه، فقال لها: استغفري لذنبك أي الذي وقع منك من إرادة السوء بهذا الشاب ثم قذفه بما هو بريء منه ﴿إنك كنت من الخاطئين﴾.

* وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرْوَدُ فَتَنَّا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكِئًا وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾

قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنِنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاودْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ
 وَلَيَكُونًا مِنَ الصَّغِيرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ
 إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾

يخبر تعالى أن خبر يوسف وامرأة العزيز شاع في المدينة وهي مصر حتى تحدث به الناس، ﴿وقال نسوة في المدينة﴾ نساء الكبراء والأمراء ينكرون على ﴿امرأة العزيز﴾ وهو الوزير ويعين ذلك عليها، ﴿امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه﴾: أي تدعوه إلى نفسها، ﴿قد شغفها حباً﴾ أي قد وصل حبه إلى شغاف قلبها وهو غلافه، قال الضحاك عن ابن عباس: الشغف الحب القاتل، والشغف دون ذلك، والشغاف حجاب القلب، ﴿إنا لراها في ضلال مبين﴾ أي في صنيعها هذا من حبا فتاها ومرادتها إياه عن نفسه، ﴿فلما سمعت بمكرهن﴾، قال بعضهم: بقولهن ذهب الحب بها. وقال محمد بن إسحاق: بلغهن حسن يوسف فأحببن أن يرينه، فقلن ذلك ليتوصلن إلى رؤيته ومشاهدته، فعند ذلك ﴿أرسلت إليهن﴾ أي دعتهن إلى منزلها لتضيفهن ﴿وأعدت لهن متكأ﴾، قال ابن عباس: هو المجلس المعد فيه مفارش ومخاد وطعام فيه ما يقطع بالسكاكين من أترج ونحوه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وآتت كل واحدة منهن سكيناً﴾، وكان هذا مكيدة منها ومقابلة لهن في احتيا لهن على رؤيته، ﴿وقالت اخرج عليهن﴾ وذلك أنها كانت قد خبأته في مكان آخر، ﴿فلما﴾ خرج و ﴿رأينه أكبرنه﴾ أي أعظم شأنه وأجلن قدره، وجعلن يقطعن أيديهن دهشاً برؤيته، وهن يظنن أنهن يقطعن الأترج بالسكاكين، والمراد أنهن حزنن أيديهن بها، قاله غير واحد؛ وقد ذكر غير واحد أنها قالت لهن بعدما أكلن وطابت أنفسهن ثم وضعت بين أيديهن أترجاً وآتت كل واحدة منهن سكيناً: هل لكن في النظر إلى يوسف؟ قلن: نعم، فبعثت إليه تأمره أن اخرج إليهن، فلما رأينه جعلن يقطعن أيديهن، ثم أمرته أن يرجع ليرينه مقبلاً ومدبراً، فرجع وهن يحزنن في أيديهن، فلما أحسنن بالألم، جعلن يولولن، فقالت: أنتن من نظرة واحدة فعلتن هذا، فكيف ألام أنا؟ ﴿وقتلن حاش لله ما هذا بشراً إن هذا إلا ملك كريم﴾، ثم قلن لها: وما نرى عليك من لوم بعد هذا الذي رأينا، لأنهن لم يرين في البشر شبيهه ولا قريباً منه، فإنه عليه السلام كان قد أعطي شطر الحسن، كما ثبت ذلك في الحديث الصحيح في حديث الإسراء أن رسول الله ﷺ مر بيوسف عليه السلام في السماء الثالثة قال: «إذا هو قد أعطي شطر الحسن». . .

﴿قالت فذلكن الذي لمتني فيه﴾ تقول: هذا معذرة إليهن بأن هذا حقيق أن يجب لجماله وكماله ﴿ولقد راودته عن نفسه فاستعصم﴾ أي فامتنع، قال بعضهم: لما رأين جماله الظاهر أخبرتهن بصفاته الحسنة التي تخفى عنهن وهي العفة مع هذا الجمال، ثم قالت تتوعده: ﴿ولئن لم يفعل ما أمره لیسجنن وليكونن من الصاغرين﴾، فعند ذلك استعاذ يوسف عليه السلام من شرهن وكيدهن، و ﴿قال رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه﴾ أي من الفاحشة، ﴿وإلا تصرف عني كيدهن أصب إليهن﴾ أي إن وكلتني إلى نفسي فليس لي منها قدرة ولا أملك لها ضرراً ولا نفعاً إلا بحولك وقوتك، أنت المستعان وعليك التكلان، فلا تكلني إلى نفسي ﴿أصب إليهن وأكن من الجاهلين فاستجاب له ربه﴾ الآية، وذلك أن يوسف عليه السلام عصمه الله عصمة عظيمة وحماه، فامتنع منها أشد

الامتناع، واختار السجن على ذلك، وهذا في غاية مقامات الكمال، أنه من شبابه وجماله وكمالته تدعوه سيده وهي امرأة عزيز مصر، وهي مع هذا في غاية الجمال والمال والرياسة، ويمتنع من ذلك، ويختار السجن على ذلك خوفاً من الله ورجاء ثوابه. ولهذا ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله»، وعد منها «ورجل دعت امرأته ذات منصب وجمال فقال إني أخاف الله»، الحديث.

ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوْا الْآيَاتِ لَيْسَجْنُهُ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾

يقول تعالى: ثم ظهر لهم من المصلحة فيما رأوه أنهم يسجنونه إلى حين أي إلى مدة، وذلك بعد ما عرفوا براءته وظهرت الآيات، وهي الأدلة على صدقه في عفته ونزاهته، وكأنهم - والله أعلم - إنما سجنوه لما شاع الحديث إياهاً أنه راودها عن نفسها وأنهم سجنوه على ذلك، ولهذا لما طلبه الملك الكبير في آخر المدة امتنع من الخروج، حتى تبين براءته مما نسب إليه من الخيانة، فلما تقرر ذلك خرج وهو نقي العرض صلوات الله عليه وسلامه. وذكر السدي: أنهم إنما سجنوه لثلاثين ما كان منها في حقه ويبرأ عرضه فيفضحها.

وَدَخَلَ مَعَهُ السَّجْنَ فَتَيَانٍ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرْنِي آعِصْرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرْنِي أَحْمَلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾

قال قتادة: كان أحدهما ساقى الملك والآخر خبازه، قال السدي: كان سبب حبس الملك إياهما أنه توهم أنهما تمالآ على سمة في طعامه وشرابه، وكان يوسف عليه السلام قد اشتهر في السجن بالجود والأمانة، وصدق الحديث، وكثرة العبادة، ومعرفة التعبير، والإحسان إلى أهل السجن، ولما دخل هذان الفتيان إلى السجن تألفا به وأحباها حباً شديداً، وقالوا له: والله لقد أحبيناك حباً زائداً، قال: بارك الله فيكما، إنه ما أحبني أحد إلا دخل علي من محبته ضرر، أحببني عمي فدخل علي الضرر بسببها، وأحبني أبي فأوذيت بسببه، وأحبتني امرأة العزيز فكذلك، فقالا: والله ما نستطيع إلا ذلك، ثم إنهما رأيا مناماً، فرأى الساقى أنه يعصر خمرًا، يعني عنباً، قال الضحاك في قوله: ﴿إني أراي أعصر خمرًا﴾ يعني عنباً، قال: وأهل عمان يسمون العنب خمرًا، وقال عكرمة: قال له إني رأيت فيما يرى النائم أني غرست حبة من عنب فنبتت، فخرج فيها عناقيد، فعصرتهن ثم سقيتهن الملك فقال: تمكث في السجن ثلاثة أيام ثم تخرج فتسقيه خمرًا، وقال الآخر وهو الخباز: ﴿إني أراي أحمل فوق رأسي خبزاً تأكل الطير منه نبئنا بتأويله﴾ الآية، والمشهور عند الأكثرين ما ذكرناه أنهما رأيا مناماً وطلبا تعبيره. وقال ابن جرير عن عبد الله ابن مسعود قال: ما رأى صاحباً يوسف شيئاً إنما كانا تحالماً ليجر با عليه.

قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَاتٌ مِمَّا بَنَاتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكَ مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَأَتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا

كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾

يخبرهما يوسف عليه السلام أنهما مهما رأيا في منامهما من حلم، فإنه عارف بتفسيره، ويخبرهما بتأويله قبل وقوعه ولهذا قال: ﴿ لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نباتكما بتأويله ﴾، قال مجاهد، يقول: ﴿ لا يأتيكما طعام ترزقانه ﴾ في يومكما ﴿ إلا نباتكما بتأويله قبل أن يأتيكما ﴾، وكذا قال السدي، وهذا إنما هو من تعلم الله إياي، لأنني اجتنبت ملة الكافرين بالله واليوم الآخر، فلا يرجون ثواباً ولا عقاباً في المعاد، ﴿ واتبعت ملة آباي إبراهيم وإسحق ويعقوب ﴾ الآية، ويقول: هجرت طريق الكفر والشرك، وسلكت طريق هؤلاء المرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وهكذا يكون حال من سلك طريق الهدى واتبع طريق المرسلين وأعرض عن طريق الضالين، فإن الله يهدي قلبه ويعلمه ما لم يكن يعلم، ويجعله إماماً يقتدى به في الخير وداعياً إلى سبيل الرشاد، ﴿ ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء، ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ﴾، هذا التوحيد وهو الإقرار بأنه لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ﴿ من فضل الله علينا ﴾ أي أوحاه إلينا وأمرنا به، ﴿ وعلى الناس ﴾ إذ جعلنا دعاء لهم إلى ذلك، ﴿ ولكن أكثر الناس لا يشكرون ﴾ أي لا يعرفون نعمة الله عليهم بإرسال الرسل إليهم، بل ﴿ بدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار ﴾.

يَصْحَبِي السِّجْنِ ۖ أَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَّاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ ۖ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ۚ إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾

ثم إن يوسف عليه السلام أقبل على الفتين بالمخاطبة والدعاء لهما إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وخلع ما سواه من الأوثان التي يعبدها قومهما، فقال: ﴿ أرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ﴾ أي الذي ذل كل شيء لغز جلاله وعظمة سلطانه، ثم بين لهما أن التي يعبدونها ويسمونها آلهة إنما هو تسمية من تلقاها أنفسهم، تلقاها خلفهم عن سلفهم، وليس لذلك مستند من عند الله، ولهذا قال: ﴿ ما أنزل الله بها من سلطان ﴾ أي حجة ولا برهان، ثم أخبرهم أن الحكم والتصرف والمشئبة والملك كله لله، وقد أمر عباده قاطبة أن لا يعبدوا إلا إياه، ثم قال تعالى: ﴿ ذلك الدين القيم ﴾ أي هذا الذي أدعوكم إليه من توحيد الله وإخلاص العمل له، هو الدين المستقيم الذي أمر الله به، وأنزل به الحجة والبرهان الذي يحبه ويرضاه، ﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ أي فلماذا كان أكثرهم مشركين، ﴿ وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين ﴾ جعل سؤالهما له سبباً إلى دعائهما إلى التوحيد والإسلام، لما رأى في سجيتهما من قبول الخير، والإقبال عليه والإنصات إليه، ولهذا لما فرغ من دعوتها شرع في تعبير رؤياهما من غير تكرار سؤال فقال:

يَصْحَبِي السِّجْنِ ۖ أَمَا أَحَدُكُمْ فَيَسْتَفِئُ رَبَّهُ تَحْمُرًا ۖ وَأَمَا الْآخَرُ فَيُصَلِّبُ فَنَأْكُلُ الطَّيْرَ مِنْ رَأْسِهِ ۚ قُضِيَ الْأَمْرُ

الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾

يقول لهما: ﴿يا صاحبي السجن أما أحدكما فيسقي ربه خمراً﴾ وهو الذي رأى أنه يعصر خمراً ولكنه لم يعينه لتلا يحزن ذلك، ولهذا أبهمه في قوله: ﴿وأما الآخر فيصلب فتأكل الطير من رأسه﴾ وهو الذي رأى أنه يحمل فوق رأسه خبزاً، ثم أعلمهما أن هذا قد فرغ منه، وهو واقع لا محالة لأن الرؤيا على رجل طائر ما لم تعبر، فإذا عبرت وقعت. قال الثوري: لما قالوا ما قالوا، وأخبرهما قالوا: ما رأينا شيئاً، فقال: ﴿قضي الأمر الذي فيه تستفتيان﴾.

وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنَسَهُ الشَّيْطَانُ أَن يَكْفُرَ بِهِ فُلَبَّثَ فِي السِّجْنِ بِضَعِّ سِنِينَ ﴿٤٢﴾

ولما ظن يوسف عليه السلام أن الساقى ناج، قال له يوسف خفية عن الآخر: ﴿اذكرني عند ربك﴾ يقول: اذكر قصتي عند ربك وهو الملك فنسي ذلك الموصى أن يذكر مولاه الملك بذلك وكان من جملة مكاييد الشيطان لتلا يطلع نبي الله من السجن، هذا هو الصواب أن الضمير في قوله: ﴿فأنساه الشيطان ذكر ربه﴾ عائد على الناجي، كما قاله مجاهد وغير واحد؛ ويقال إن الضمير عائد على يوسف عليه السلام، رواه ابن جرير عن ابن عباس ومجاهد أيضاً، وأما البضع فقال مجاهد وقتادة: هو ما بين الثلاث إلى التسع، وقال وهب بن منبه: مكث أيوب في البلاء سبعاً، ويوسف في السجن سبعاً.

وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعٌ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخْرَىٰ يُاسِئَاتٍ يَأْتِيهَا الْمَلَأُ أَفْتُونًا فِي رُءُوسِهِنَّ إِن كُنتُمْ لِلرُّءُوسِ يَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوا أَضْغَاتُ أَحْلَامٍ ﴿٤٤﴾ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ ﴿٤٥﴾ وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٦﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخْرَىٰ يُاسِئَاتٍ لِّعَلَىٰ أَرْجَعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذُرُّهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٩﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْرِضُونَ ﴿٥٠﴾

هذه الرؤيا من ملك مصر مما قدر الله تعالى أنها كانت سبباً لخروج يوسف عليه السلام من السجن معزراً مكرماً وذلك أن الملك رأى هذه الرؤيا فهالته، وتعجب من أمرها، وما يكون تفسيرها، فجمع الكهنة وكبار دولته وأمرأه، فقص عليهم ما رأى وسألهم عن تأويلها، فلم يعرفوا ذلك، واعتدروا إليه بأنها ﴿أضغاث أحلام﴾ أي أخطاط أحلام اقتضته رؤياك هذه، ﴿وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين﴾ أي لو كانت رؤيا صحيحة من أخطاط

لما كان لنا معرفة بتأويلها وهو تعبيرها؛ وعند ذلك تذكر الذي نجا من ذينك الفتين اللذين كانا في السجن مع يوسف، وكان الشيطان قد أنساه ما وصاه به يوسف من ذكر أمره للملك، فعند ذلك تذكر ﴿ بعد أمة ﴾ أي مدة، فقال للملك: ﴿ أنا أنبئكم بتأويله ﴾ أي بتأويل هذا المنام ﴿ فأرسلون ﴾ أي فابعثون إلى يوسف الصديق إلى السجن، ومعنى الكلام فبعثوه فجاء فقال: ﴿ يوسف أيها الصديق أفتنا ﴾ وذكر المنام الذي رآه الملك، فعند ذلك ذكر له يوسف عليه السلام تعبيرها من غير تعنيف للفتى في نسيانه ما أوصاه به ومن غير اشتراط للخروج قبل ذلك، بل قال: ﴿ تزرعون سبع سنين دأباً ﴾ أي يأتيكم الخصب والمطر سبع سنين متواليات، ﴿ فما حصدتم فذروه في سنبله إلا قليلاً مما تأكلون ﴾: أي مهما استغلتم وهذه السبع السنين الخصب فادخروه في سنبله ليكون أبقى له وأبعد عن إسراع الفساد إليه إلا المقدار الذي تأكلونه، وليكن قليلاً قليلاً لا تسرفوا فيه، لتنتفعوا في السبع الشداد، وهن السبع السنين المحل التي تعقب هذه السبع المتواليات، وهن البقرات العجاف اللاتي تأكل السمان، لأن سني الجذب يؤكل فيها ما جمعه في سني الخصب، وهن السنبلات اليابسات؛ وأخبرهم أنهم لا يبنتن شيئاً وما بذروه فلا يرجعون منه إلى شيء، ولهذا قال: ﴿ يأكلن ما قدمتم هن إلا قليلاً مما تحصنون ﴾ ثم بشرهم بعد الجذب العام المتوالى بأنه يعقبهم بعد ذلك ﴿ عام فيه يغاث الناس ﴾ أي يأتيهم الغيث وهو المطر، وتغل البلاد، ويعصر الناس ما كانوا يعصرون على عادتهم من زيت وسكر ونحوه .

وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْتِنِي بِهِ ۖ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْأَلْهُ مَا بَالُ النَّسُوءِ الَّتِي قَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ
 إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُمْ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ ۖ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ ۚ
 قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ ۖ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ
 أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴿٥٢﴾ * وَمَا أَبْرَىٰ نَفْسِي ۚ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ ۗ إِلَّا
 مَا رَحِمَ رَبِّي ۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥٣﴾

يقول تعالى إخباراً عن الملك بتعبير رؤياه التي كان رآها بما أعجبه وأيقنه، فعرف فضل يوسف عليه السلام وعلمه وحسن اطلاعه على رؤياه فقال: ﴿ ائتوني به ﴾ أي أخرجوه من السجن وأحضروه، فلما جاءه الرسول امتنع من الخروج حتى يتحقق الملك ورعيته براءة ساحته، ونزاهة عرضه مما نسب إليه من جهة امرأة العزيز، وأن هذا السجن كان ظلماً وعدواناً، فقال: ﴿ ارجع إلى ربك ﴾ الآية، وقد وردت السنة بمدحه على ذلك والتنبية على فضله وشرفه وعلو قدره، ففي المسند والصحيحين عنه صلى الله عليه وسلم: « نحن أحق بالشك من إبراهيم إذ قال: ﴿ رب أرني كيف تحيي الموتى ﴾، ويرحم الله لوطاً لقد كان يأوي إلى ركن شديد، ولو لبثت في السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعي »^(١). وفي لفظ لأحمد عنه صلى الله عليه وسلم في قوله: ﴿ فأسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن إن ربِّي بكيدهن عَلِيمٌ ﴾

(١) أخرجه البخاري ومسلم وأحمد عن أبي هريرة .

فقال رسول الله ﷺ: « لو كنت أنا لأسرعت الإجابة وما ابتغيت العذر »، وعن عكرمة قال، قال رسول الله ﷺ: « لقد عجبت من يوسف وصبره وكرمه، والله يغفر له، حين سئل عن البقرات العجاف والسمان، ولو كنت مكانه ما أجبتهم حتى أشرط أن يخرجوني، ولقد عجبت من يوسف وصبره وكرمه والله يغفر له، حين أتاه الرسول ولو كنت مكانه لبادرتهم الباب، ولكنه أراد أن يكون له العذر»^(١). وقوله تعالى: ﴿ قال ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه ﴾ إخبار عن الملك حين جمع النسوة اللاتي قطعن أيديهن عند امرأة العزيز، فقال مخاطباً لهن كلهن وهو يريد امرأة وزيره وهو العزيز، قال الملك: ﴿ ما خطبكن ﴾ أي ما شأنكن وخبركن ﴿ إذ راودتن يوسف عن نفسه ﴾ يعني يوم الضيافة ﴿ قلن حاش لله ما علمنا عليه من سوء ﴾ أي قالت النسوة جواباً للملك: حاش لله أن يكون يوسف مثمماً والله ما علمنا عليه من سوء، فعند ذلك ﴿ قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحق ﴾، قال ابن عباس: الآن تبين الحق وظهر وبرز، ﴿ أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين ﴾ أي في قوله ﴿ هي راودتني عن نفسي ﴾، ﴿ ذلك ليعلم أنني لم أخنه بالغيب ﴾ تقول: إنما اعترفت بهذا على نفسي ليعلم زوجي أنني لم أخنه بالغيب في نفس الأمر، وإنما راودت هذا الشاب مراودة، فامتنع، فلهذا اعترفت ليعلم أنني بريئة ﴿ وأن الله لا يهدي كيد الخائنين ﴾ وما أبرئ نفسي ﴿، تقول المرأة: ولست أبرئ نفسي، فإن النفس تتحدث وتتمنى، ولهذا راودته، ﴿ إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي ﴾ أي إلا من عصمه الله تعالى ﴿ إن ربي غفور رحيم ﴾، وهذا القول هو الأشهر والأليق والأنسب بسياق القصة ومعاني الكلام^(٢)، وقد قيل: إن ذلك من كلام يوسف عليه السلام يقول: ﴿ ذلك ليعلم أنني لم أخنه ﴾ في زوجته ﴿ بالغيب ﴾ الآيتين، أي إنما رددت الرسول ليعلم الملك براءتي، وليعلم العزيز ﴿ أنني لم أخنه ﴾ في زوجته، ﴿ بالغيب وأن الله لا يهدي كيد الخائنين ﴾ الآية، وهذا القول هو الذي لم يحك ابن جرير ولا ابن أبي حاتم سواه. قال ابن جرير، عن ابن عباس قال: لما جمع الملك النسوة فسألهن هل راودتن يوسف عن نفسه؟ ﴿ قلن حاش لله ما علمنا عليه من سوء، قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحق ﴾ الآية، قال يوسف: ﴿ ذلك ليعلم أنني لم أخنه بالغيب ﴾ فقال له جبريل عليه السلام: ولا يوم هممت بما هممت به؟ فقال: ﴿ وما أبرئ نفسي ﴾ الآية، وهكذا قال مجاهد والحسن وقتادة والسدي، والقول الأول أقوى وأظهر، لأن سياق الكلام كله من كلام امرأة العزيز بحضرة الملك ولم يكن يوسف عليه السلام عندهم بل بعد ذلك أحضره الملك.

وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُونِي بِهِ استَخْلَصَهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾

يقول تعالى إخباراً عن الملك حين تحقق براءة يوسف عليه السلام ونزاهة عرضه مما نسب إليه قال: ﴿ اتتوني به استخلصه لنفسي ﴾ أي أجعله من خاصتي وأهل مشورتي، ﴿ فلما كلمه ﴾ أي خاطبه الملك وعرفه ورأى فضله

(١) رواه عبد الرزاق عن عكرمة وهو حديث مرسل.

(٢) حكاها الماوردي في تفسيره وانتدب لنصره الإمام ابن تيمية رحمه الله فأفرده بتصنيف على حدة.

وبراعته وعلم ما هو عليه من خلق وخلق وكمال قال له الملك: ﴿إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ أي إنك عندنا ذا مكانة وأمانة ، فقال يوسف عليه السلام: ﴿اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ مدح نفسه، ويجوز للرجل ذلك إذا جهل أمره للحاجة، وذكر أنه ﴿حَفِيظٌ﴾ أي خازن أمين، ﴿عَلِيمٌ﴾ ذو علم وبصيرة بما يتولاه، وقال شيبه بن نعامه: حفيظ لما استودعني، عليم بسني الجذب^(١)، وسأل العمل لعلمه بقدرته عليه، ولما فيه من المصالح للناس، وإنما سأله أن يجعله على خزائن الأرض، ليتصرف لهم على الوجه الأحوط والأصلح والأرشد، فأجيب إلى ذلك رغبة فيه وتكرمة له، ولهذا قال تعالى:

﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ ﴿٥٦﴾ وَلَا أَجْرَ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾

يقول تعالى: ﴿وكذلك مكنا ليوسف في الأرض﴾ أي أرض مصر، ﴿يتبعوا منها حيث يشاء﴾ قال السدي: يتصرف فيها كيف يشاء، وقال ابن جرير: يتخذ منها منزلاً حيث يشاء بعد الضيق والحبس، ﴿نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين﴾، أي وما أضعنا صبر يوسف على أذى أخوته وصبره على الحبس بسبب امرأة العزيز، فلهذا أعقبه الله عز وجل النصر والتأييد، ﴿ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون﴾، يخبر تعالى أن ما ادخره الله تعالى لنبية يوسف عليه السلام في الدار الآخرة، أعظم وأكثر وأجل مما خوله من التصرف والنفوذ في الدنيا، والغرض أن يوسف عليه السلام ولاه ملك مصر (الريان بن الوليد) الوزارة في بلاد مصر، وأسلم الملك على يدي يوسف عليه السلام قاله مجاهد .

﴿وَجَاءَ إِخْوَتُهُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾ ﴿٥٨﴾ ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ قَالَ أَتُنُونِي بِأَنْعَامِكُمْ مِّنْ أَيْمَانِكُمْ أَلا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾ ﴿٥٩﴾ ﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِي﴾ ﴿٦٠﴾ ﴿قَالُوا سُرُودٌ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ﴾ ﴿٦١﴾ ﴿وَقَالَ لِفَتَاتِهِ اجْعَلُوا بِضْعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ ﴿٦٢﴾

ذكر السدي ومحمد بن إسحاق وغيرهما من المفسرين، أن السبب الذي أقدم إخوة يوسف بلاد مصر أن يوسف عليه السلام لما باشر الوزارة بمصر، ومضت السنين المخصبة، ثم تلتها السبع السنين المجذبة، وعم القحط بلاد مصر بكماها ووصل إلى بلاد كنعان، وهي التي فيها يعقوب عليه السلام وأولاده، وحينئذ احتاط يوسف عليه السلام للناس في غلاتهم، وجمعها أحسن جمع، فحصل من ذلك مبلغ عظيم، وورد عليه الناس من سائر الأقاليم، يمتارون لأنفسهم وعيالهم، فكان لا يعطي الرجل أكثر من حمل بعير في السنة، وكان عليه السلام لا يشبع نفسه، ولا يأكل

هو والملك وجنودهما إلا أكلة واحدة في وسط النهار، حتى يتكفأ الناس بما في أيديهم مدة السبع سنين، وكان رحمة من الله على أهل مصر، والغرض أنه كان في جملة من ورد للميرة إخوة يوسف، فإنه بلغهم أن عزيز مصر يعطي الناس الطعام بثمنه، فأخذوا معهم بضاعة، يعترضون بها طعاماً، وركبوا عشرة نفر، واحتبس يعقوب عليه السلام عنده ابنه (بنيامين) شقيق يوسف عليه السلام، وكان أحب ولده إليه بعد يوسف، فلما دخلوا على يوسف، وهو جالس في أبيته ورياسته وسيادته عرفهم حين نظر إليهم ﴿وهم له منكرون﴾، أي لا يعرفونه، لأنهم فارقه وهو صغير حدث وباعوه للسيارة ولم يلدروا أين يذهبون به، ولا كانوا يستشعرون في أنفسهم أن يصير إلى ما صار إليه، فلماذا لم يعرفوه، وأما هو فعرفهم، فذكر السدي وغيره، أنه شرع يخاطبهم، فقال لهم كالمنكر عليهم: ما أقدمكم بلادي؟ فقالوا: أيها العزيز قدمنا للميرة، قال: فلعلكم عيون؟ قالوا: معاذ الله، قال: فمن أين أنتم؟ قالوا: من بلاد كنعان وأبونا يعقوب نبي الله، قال: وله أولاد غيركم؟ قالوا: نعم، كنا اثني عشر، فذهب أصغرنا هلك في البرية، وكان أحبنا إلى أبيه، وبقي شقيقه فاحتبسه أبوه ليتسلى به عنه، فأمر بإتزانهم وإكرامهم، ﴿ولما جهزهم بجهازهم﴾ أي أوفى لهم كيلهم وحمل لهم أحمالهم قال: اتئوني بأخيكم هذا الذي ذكرت لأعلم صدقكم فيما ذكرت، ﴿ألا ترون أني أوفى الكيل وأنا خير المتزلين؟﴾ يرغبهم في الرجوع إليه، ثم رهبهم فقال: ﴿فإن لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي﴾ أي إن لم تقدموا به معكم في المرة الثانية فليس لكم عندي ميرة، ﴿ولا تقرّبون﴾ قالوا سزاود عنه أباه وإنا لفاعلون ﴿أي سنحرص على مجيئه إليك بكل ممكن ولا نبقى مجهوداً لتعلم صدقنا فيما قلناه.﴾ وقال لفتيانہ ﴿أي غلمانہ، ﴿اجعلوا بضاعتهم﴾ أي التي قدموا بها ليمتاروا عوضاً عنها ﴿في رحالهم﴾ أي في أمتعتهم من حيث لا يشعرون ﴿لعلهم يرجعون﴾ بها، قيل خشى أن لا يكون عندهم بضاعة أخرى يرجعون للميرة بها، وقيل: أراد أن يردهم إذا وجدوها في متاعهم ترحماً وتورعاً، لأنه يعلم ذلك منهم، والله أعلم.

فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا آخَانًا نَّكَتِلُ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ هَلْ ءَأَمِنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا ءَأَمِنْتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٦٤﴾

يقول تعالى عنهم إنهم رجعوا إلى أبيهم: ﴿قالوا يا أبانا منع منا الكيل﴾ يعنون بعد هذه المرة إن لم ترسل معنا أخانا (بنيامين)، فأرسله معنا نكتل ﴿وإننا له لحافظون﴾ أي لا نخف عليه فإنه سيرجع إليك، وهذا كما قالوا له في يوسف ﴿أرسله معنا غداً يرتع ويلعب وإننا له لحافظون﴾ ولهذا قال لهم: ﴿هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل﴾ أي هل أنتم صانعون به إلا كما صنعتم بأخيه من قبل، تغيبونه عني وتحولون بيني وبينه؟ ﴿فإن الله خير حافظاً﴾، ﴿وهو أرحم الراحمين﴾ أي هو أرحم الراحمين بي وسيرحم كبري وضعفي ووجدي بولدي وأرجو من الله أن يرده عليّ ويجمع شملني به، إنه أرحم الراحمين.

وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي ۚ هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانًا وَزَدَادٌ كَيْلٌ بَعِيرٌ ۚ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾ قَالَ لَنْ أَرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُوا مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ

إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْتَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾

يقول تعالى: ولما فتح إخوة يوسف متاعهم وجدوا بضاعتهم ردت إليهم، هي التي كان أمر يوسف فتيانه بوضعها في رحلم، ولما وجدوها في متاعهم ﴿﴾ قالوا يا أبانا ما نبغي ﴿﴾ أي ماذا نريد، ﴿﴾ هذه بضاعتنا ردت إلينا ﴿﴾، كما قال قتادة: ما نبغي وراء هذا إن بضاعتنا ردت إلينا وقد أوفى لنا الكيل، ﴿﴾ ونمير أهلنا ﴿﴾ أي إذا أرسلت أخانا معنا نأتي بالميرة إلى أهلنا، ﴿﴾ ونحفظ أخانا ونزداد كيل بعير ﴿﴾، وذلك أن يوسف عليه السلام كان يعطي كل رجل حمل بعير، ﴿﴾ ذلك كيل يسير ﴿﴾ هذا من تمام الكلام وتحسينه، إي إن هذا يسير في مقابلة أخذ أخيه ما يعدل هذا، ﴿﴾ قال لن أرسله معكم حتى توتون موثقاً من الله ﴿﴾ أي تحلفون بالعهد والمواثيق، ﴿﴾ لتأتني به إلا أن يحاط بكم ﴿﴾، إلا أن تغلبوا كلكم ولا تقدرن على تخليصه، ﴿﴾ فلما آتوه موثقهم ﴿﴾ أكده عليهم، ﴿﴾ قال الله على ما نقول وكيل ﴿﴾، قال ابن إسحاق: وإنما فعل ذلك لأنه لم يجد بدأ من بعثهم لأجل الميرة التي لا غنى لهم عنها فبعثه معهم.

وَقَالَ يَبْنَئِي لَا تَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ۗ إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ۗ إِلَّا حَاجَةٌ فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا ۗ وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾

يقول تعالى إخباراً عن يعقوب عليه السلام: أنه أمر بنيه لما جهزهم مع أخيهم (بنيامين) إلى مصر أن لا يدخلوا من باب واحد، وليدخلوا من أبواب متفرقة، فإنه - كما قال ابن عباس والسدي وغير واحد - خشي عليهم العين، وذلك أنهم كانوا ذوي جمال وهيئة حسنة ومنظر وبهاء، فخشى عليهم أن يصيبهم الناس بعيونهم، فإن العين حق تستترل الفارس عن فرسه، وقوله: ﴿﴾ وما أغني عنكم من الله من شيء ﴿﴾ أي أن هذا الاحتراز لا يرد قدر الله وقضائه، فإن الله إذا أراد شيئاً لا يخالف ولا يمانع، ﴿﴾ إن الحكم إلا لله عليه توكلت وعليه فليتوكل المتوكلون * ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم ما كان يغني عنهم من الله من شيء إلا حاجة في نفس يعقوب قضاها ﴿﴾، قالوا: هي دفع إصابة العين لهم ﴿﴾ وإنه لذو علم لما علمناه ﴿﴾، قال قتادة: لذو علم بعلمه، وقال ابن جرير: لذو علم لتعلمنا إياه ﴿﴾ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴿﴾.

* وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾

يخبر تعالى عن إخوة يوسف لما قدموا على يوسف ومعهم أخوه (بنيامين) وأدخلهم دار كرامته ومترل ضيافته، وأفاض عليهم الصلة والإلطاف والإحسان، واختلى بأخيه، فأطلعته على شأنه وما جرى له وعرفه أنه أخوه وقال له: ﴿﴾ لا تبتئس ﴿﴾، أي لا تأسف على ما صنعوا بي، وأمره بكتيان ذلك عنهم، وأن لا يطلعهم على ما أطلعته عليه من أنه أخوه، وتواطأ معه أنه سيحتال على أن يبقية عنده معزراً مكرماً معظماً.

فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رَحْلِ أُخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقَدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا نَفَقْدُ صُوعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾

لما جهزهم وحمل معهم أبعرتهم طعاماً أمر بعض فتيانہ أن يضع ﴿السقاية﴾ وهي إناء من فضة في قول الأكثرين، وقيل: من ذهب، ويكيل للناس به من عزة الطعام إذ ذاك، قاله ابن عباس ومجاهد، وعن ابن عباس: ﴿صواع الملك﴾ قال: كان من فضة يشربون فيه، وكان للعباس مثله في الجاهلية، فوضعها في متاع (بنيامين) من حيث لا يشعر أحد، ثم نادى مناد بينهم: ﴿أيتها العير إنكم لسارقون﴾، فالتفتوا إلى المنادي، وقالوا: ﴿ماذا تفقدون﴾ قالوا نفقد صواع الملك ﴿أي صاعه الذي يكيل به﴾ ولمن جاء به حمل بعير ﴿وهذا من باب الجعالة﴾ وأنا به زعيم ﴿وهذا من باب الضمان والكفالة﴾.

قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا جَزَاؤُهُ مَن وَجَدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أُخِيهِ ثُمَّ أَسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أُخِيهِ كَذَلِكَ كَدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ فَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾

لما اتهمهم أولئك الفتيان بالسرقة قال لهم إخوة يوسف: ﴿تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الأرض وما كنا سارقين﴾ أي لقد تحققتم وعلمتم منذ عرفتمونا، لأنهم شاهدوا منهم سيرة حسنة، إنا ﴿ما جئنا لنفسد في الأرض وما كنا سارقين﴾ أي ليست سجاياتنا تقتضي هذه الصفة، فقال لهم الفتيان: ﴿فما جزاؤه﴾ أي السارق إن كان فيكم ﴿إن كنتم كاذبين﴾ أي: أي شيء يكون عقوبته إن وجدنا فيكم من أخذه؟ ﴿قالوا جزاؤه من وجد في رحله فهو جزاؤه كذلك نجزي الظالمين﴾، وهكذا كانت شريعة إبراهيم عليه السلام أن السارق يدفع إلى المسروق منه، وهذا هو الذي أراد يوسف عليه السلام، ولهذا بدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه، أي فتنها قبله تورية، ﴿ثم استخرجها من وعاء أخيه﴾ فأخذه منهم بحكم اعترافهم والتزامهم وإلزامهم بما يعتقدونه، ولهذا قال تعالى: ﴿كذلك كدنا ليوسف﴾ وهذا من الكيد المحبوب المراد الذي يحبه ويرضاه لما فيه من الحكمة والمصلحة المطلوبة، وقوله: ﴿ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك﴾ أي لم يكن له أخذه في حكم ملك مصر، وإنما كان يعلم ذلك من شريعتهم، ولهذا مدحه الله تعالى فقال: ﴿نرفع درجات من نشاء﴾، كما قال تعالى: ﴿يرفع الله الذين آمنوا منكم﴾ الآية، ﴿وفوق كل ذي علم علم عليم﴾. قال الحسن البصري: ليس عالم إلا فوقه عالم حتى ينتهي إلى الله عز وجل. عن سعيد بن جبیر قال: كنا عند ابن عباس فحدثت بحديث عجيب، فتعجب رجل فقال: الحمد لله، فوق كل ذي علم عليم، فقال ابن عباس: بشئ ما قلت، الله العليم فوق كل عالم^(١)، يكون هذا أعلم من هذا وهذا أعلم من هذا، والله فوق

(١) أخرجه عبد الرزاق عن سعيد بن جبیر .

كل عالم، وقال قتادة: ﴿وفوق كل ذي علم عليم﴾ حتى ينهي العلم إلى الله، منه بدى وتعلمت العلماء وإليه يعود .

* قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسْرَهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانًا
وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾

وقال إخوة يوسف لما رأوا الصواع قد أخرج من متاع بنيامين ﴿إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل﴾ يتصلون إلى العزيز من التشبه به، ويذكرون أن هذا فعل كما فعل أخ له من قبل، يعنون به يوسف عليه السلام . قال قتادة: كان يوسف عليه السلام قد سرق صنماً لجدّه أبي أمه فكسره، وقوله: ﴿فأسرها يوسف في نفسه﴾ يعني الكلمة التي بعدها وهي قوله: ﴿أنتم شر مكاناً والله أعلم بما تصفون﴾ أي تذكرون، قال هذا في نفسه ولم يبدها لهم، وهذا من باب الإضمار قبل الذكر، وله شواهد كثيرة في القرآن والحديث واللغة، قال ابن عباس: ﴿فأسرها يوسف في نفسه﴾ قال: أسر في نفسه ﴿أنتم شر مكاناً والله أعلم بما تصفون﴾ .

قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذًا لَظَالِمُونَ ﴿٧٩﴾

لما تعين أخذ بنيامين وتقرر تركه عند يوسف بمقتضى اعترافهم، شرعوا يترققون له ويعطفونه عليهم ﴿فقالوا يا أيها العزيز إن له أباً شيخاً كبيراً﴾ يعنون وهو يحبه حباً شديداً ويتسلى به عن ولده الذي فقده، ﴿فخذ أحداً مكانه﴾ أي بدله يكون عندك عوضاً عنه، ﴿إنا نراك من المحسنين﴾ أي العادلين المنصفين القابلين للخير، ﴿قال معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده﴾ أي كما قلم واعترقم، ﴿إنا إذا لظالمون﴾ أي إن أخذنا بريئاً بمذنب .

فَلَمَّا اسْتَيْسَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٠﴾ أَرْجِعُوا إِلَى آبَائِكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسَعَلَ الْقَرِيبَةُ آلِي كَثًّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٨٢﴾

يخبر تعالى عن إخوة يوسف أنهم لما يشوا من تخلص أخيه بنيامين الذي قد التزموا لأبيهم برده إليه وعاهدوه على ذلك فامتنع عليهم ذلك ﴿خلصوا﴾ أي انفردوا عن الناس ﴿نجياً﴾ يتناجون فيما بينهم، ﴿قال كبيرهم﴾ وهو الذي أشار عليهم بإلقائه في البئر عندما هموا بقتله قال لهم: ﴿ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم ميثاقاً من الله﴾

لتردنه إليه، فقد رأيتم كيف تعذر عليكم ذلك مع ما تقدم لكم من إضاعة يوسف عنه، ﴿فلن أبرح الأرض﴾ أي لن أفارق هذه البلدة ﴿حتى يأذن لي أبي﴾ في الرجوع إليه راضياً عني، ﴿أو يحكم الله لي﴾ بأن يمكنني من أخذ أخي ﴿وهو خير الحاكمين﴾، ثم أمرهم أن يخبروا أباهم بصورة ما وقع حتى يكون عندهم عنداً لهم عنده، ويتصلوا إليه ويبرأوا مما وقع بقولهم، وقوله: ﴿وما كنا للغيب حافظين﴾، قال قتادة: ما علمنا أن ابنك سرق، ﴿واسأل القرية التي كنا فيها﴾ قيل المراد مصر، وقيل غيرها: ﴿والعير التي أقبلنا فيها﴾ أي التي رافقناها عن صدقنا وأمانتنا وحفظنا وحراستنا، ﴿وإنا لصادقون﴾ فيما أخبرناك به من أنه سرق وأخذناه بسرقة .

قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾
 وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا سَفِي عَلَى يُوسُفَ وَأَبْيَضَتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَوُا تَذَكَّرُ يُونُسَ
 حَتَّى تَكُونَ حَرَضاً أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَنِي وَحْزَنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا
 تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾

قال لهم ، كما قال لهم حين جاءوا على قميص يوسف بدم كذب: ﴿بل سوّلت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل﴾، قال محمد بن إسحاق: لما جاءوا يعقوب وأخبروه بما جرى اتهمهم ، فظن أنها كفعلتهم بيوسف، قال: ﴿بل سوّلت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل﴾، ثم ترجى من الله أن يرد عليه أولاده الثلاثة يوسف وأخاه بنيامين وروبير الذي أقام بديار مصر ينتظر أمر الله فيه، إما أن يرضى عنه أبوه، فيأمره بالرجوع إليه، وإما أن يأخذ أخاه خفية، ولهذا قال: ﴿عسى الله أن يأتيني بهم جميعاً إنه هو العليم﴾ أي العليم بحالي، ﴿الحكيم﴾ في أفعاله وقضائه وقدره، ﴿وتولى عنهم وقال يا أسفا على يوسف﴾ أي أعرض عن بنيه، وقال متذكراً حزن يوسف القديم الأول ﴿يا أسفا على يوسف﴾ جدد له حزن الإبنين الحزن الدفين، قال سعيد بن جبير: لم يعط أحد غير هذه الأمة الاسترجاع، ألا تسمعون إلى قول يعقوب عليه السلام: ﴿يا أسفا على يوسف وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم﴾ أي ساكت لا يشكو أمره إلى مخلوق، قاله قتادة وغيره، وقال الضحاك ﴿فهو كظيم﴾ كتيب حزين، فعند ذلك رق له بنوه، وقالوا له على سبيل الرفق به والشفقة عليه: ﴿تالله تفتؤ تذكرو يوسف﴾ أي لا تفارق ﴿حتى تكون حرصاً﴾ أي ضعيف القوة ، ﴿أو تكون من الهالكين﴾، يقولون: إن استمر بك هذا الحال خشينا عليك الهلاك والتلف، ﴿قال إنما أشكو بني وحزني إلى الله﴾ أي أجابهم عما قالوا بقوله: ﴿إنما أشكو بني وحزني﴾ أي هي وما أنا فيه ﴿إلى الله﴾ وحده، ﴿وأعلم من الله ما لا تعلمون﴾ أي أرجو منه كل خير. وعن ابن عباس في الآية يعني رؤيا يوسف أنها صدق وأن الله لا بد أن يظهرها، وقال العوفي عنه: أعلم أن رؤيا يوسف صادقة وأنى سوف أسجد له .

يَلْبَسِيَّ أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَأْبَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَأْبَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ

الْكَافِرُونَ ﴿٨٧﴾ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلْنَا الضَّرَّ وَجِئْنَا بِبِضْعَةٍ مُرَجَبَةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا ۗ إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾

يقول تعالى مخبراً عن يعقوب عليه السلام إنه ندب بنيه على الذهاب في الأرض يستعلمون أخبار يوسف وأخيه بنيامين، و (التحسس) يكون في الخير، و (التجسس) يكون في الشر، ونهضهم وبشرهم وأمرهم أن لا يياسوا ﴿من روح الله﴾ أي لا يقطعوا رجاءهم وأملهم من الله فيما يرومونه ويقصدونه فإنه لا يقطع الرجاء ولا يياس من روح الله إلا القوم الكافرون، وقوله: ﴿فلما دخلوا عليه﴾ تقدير الكلام: فذهبوا فدخلوا مصر ودخلوا على يوسف، ﴿قالوا يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضر﴾ يعنون الجذب والقحط وقلة الطعام، ﴿وجئنا ببضاعة مزجاة﴾ أي ومعنا ثمن الطعام الذي نمتاره وهو ثمن قليل، قاله مجاهد والحسن، وقال ابن عباس: الرديء لا ينفق، وفي رواية عنه: الدراهم الرديئة التي لا تجوز إلا بنقصان، وقال الضحاك: كاسدة لا تنفق، وأصل الإزجاء الدفع لضعف الشيء، وقوله إخباراً عنهم: ﴿فأوف لنا الكيل﴾ أي أعطنا بهذا الثمن القليل ما كنت تعطينا قبل ذلك، قال ابن جريج: ﴿وتصدق علينا﴾ برد أخينا إلينا، وقال سعيد بن جبير والسدي: يقولون تصدق علينا بقبض هذه البضاعة المزجاة وتجوز فيها .

قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوا أَوَإِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا ۗ إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ ۗ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٩٢﴾

يقول تعالى مخبراً عن يوسف عليه السلام أنه لما ذكر له إخوته ما أصابهم من الجهد والضيق وقلة الطعام وعموم الجذب، وتذكر أباه، وما هو فيه من الحزن لفقد ولديه مع ما هو فيه من الملك والتصرف والسعة، فعند ذلك أخذته رقة ورافة ورحمة وشفقة على أبيه وإخوته، وبدره البكاء، فتعرف إليهم، والظاهر - والله أعلم - أن يوسف عليه السلام إنما تعرف إليهم بنفسه بإذن الله تعالى له في ذلك، كما أنه إنما أخفى منهم نفسه في المرتين الأوليين بأمر الله تعالى له في ذلك، والله أعلم، ولكن لما ضاق الحال واشتد الأمر فرج الله تعالى من ذلك الضيق فعند ذلك قالوا: ﴿أنتك لأنت يوسف﴾؟ والاستفهام يدل على الاستعظام، أي أنهم تعجبوا من ذلك أنهم يترددون إليه من ستين وأكثر، وهم لا يعرفونه، وهو مع هذا يعرفهم ويكتم نفسه، فلماذا قالوا على سبيل الاستفهام: ﴿أنتك لأنت يوسف قال أنا يوسف وهذا أخي﴾، وقوله: ﴿قد من الله علينا﴾ أي بجمعه بيننا بعد التفارقة وبعد المدة، ﴿إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين﴾ قالوا تالله لقد آثرك الله علينا﴾ الآية، يقولون معترفين له بالفضل والأثرة عليهم في الخلق والخلق والسعة والملك وأقروا له بأنهم أساءوا إليه وأخطأوا في حقه، ﴿قال لا تثريب عليكم اليوم﴾ يقول أي لا تأنيب عليكم ولا عتب عليكم اليوم، ثم زادهم الدعاء لهم بالمغفرة، فقال: ﴿يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين﴾ قال السدي: اعتذروا إلى يوسف فقال: ﴿لا تثريب عليكم اليوم﴾ يقول:

لا أذكر لكم ذنبكم ، وقال ابن إسحاق والثوري: أي لا تأنيب عليكم اليوم عندي فيما صنعتم ، ﴿ يغفر الله لكم ﴾ أي يستر الله عليكم فيما فعلتم ﴿ وهو أرحم الراحمين ﴾ .

أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَالْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأَتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾

يقول: اذهبوا بهذا القميص ﴿ فالقوه على وجه أبي يأت بصيراً ﴾ وكان قد عمي من كثرة البكاء، ﴿ وأتوني بأهلكم أجمعين ﴾ أي بجميع بني يعقوب، ﴿ ولما فصلت العير ﴾ أي خرجت من مصر، ﴿ قال أبوهم ﴾ يعني يعقوب عليه السلام لمن بقي عنده من بنيه: ﴿ إني لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون ﴾ تنسبوني إلى القند والكبر، قال ابن عباس ومجاهد: تسفهون، وقال مجاهد أيضاً والحسن: تهرمون، وقولهم: ﴿ إنك لفي ضلالك القديم ﴾ قال ابن عباس: لفي خطئك القديم، وقال قتادة: أي من حب يوسف لا تنساه ولا تسلاه، قالوا لوالدهم كلمة غليظة لم يكن ينبغي لهم أن يقولوها لوالدهم ولا لني الله ﷺ، وكذا قال السدي وغيره .

* فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَرَأَيْتُمْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾

قال ابن عباس: ﴿ البشير ﴾ البريد، وقال السدي^(١): هو يهوذا بن يعقوب وإنما جاء به لأنه هو الذي جاء بالقميص وهو ملطخ بدم كذب، فأحب أن يغسل ذلك بهذا، فجاء بالقميص فألقاه على وجه أبيه فرجع بصيراً، وقال لبنيه عند ذلك: ﴿ ألم أقل لكم إني أعلم من الله ما لا تعلمون ﴾ أي أعلم أن الله سيرده إليّ، فعند ذلك قالوا لأبيهم مترفين له: ﴿ يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين ﴾ قال سوف استغفر لكم ربي إنه هو الغفور الرحيم ﴿ أي من تاب إليه تاب عليه، قال ابن مسعود: أرجأهم إلى وقت السحر، وقال ابن جرير: كان عمر رضي الله عنه يأتي المسجد فيسمع إنساناً يقول: اللهم دعوتني فأجبت، وأمرتني فأطعت، وهذا السحر فاغفر لي، قال: فاستمع الصوت فإذا هو من دار (عبد الله بن مسعود) فسأل عبد الله عن ذلك فقال: إن يعقوب أخر بنيه إلى السحر بقوله ﴿ سوف استغفر لكم ربي ﴾^(٢) .

فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَبُويهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبُويهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلْنَا رُبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي

(١) وهو قول مجاهد أيضاً .

(٢) أخرجه ابن جرير .

مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾

يخبر تعالى عن ورود يعقوب عليه السلام وقلومه بلاد مصر، لما كان يوسف قد تقدم لإخوته أن يأتوه بأهلهم أجمعين، فتحملوا عن آخرهم، وترحلوا من بلاد كنعان قاصدين بلاد مصر، فلما أخبر يوسف عليه السلام باقترابهم خرج لتلقيهم، وأمر الملك أمراءه وأكابر الناس بالخروج مع يوسف لتلقي نبي الله (يعقوب عليه السلام)، ويقال إن الملك خرج أيضاً لتلقيه وهو الأشبه، وقوله: ﴿آوى إليه أبويه﴾ قال السدي: إنما كان أباه وخالته وكانت أمه قد ماتت قديماً، قال ابن جرير: ولم يبق دليل على موت أمه، وظاهر القرآن يدل على حياتها، وقوله: ﴿ورفع أبويه على العرش﴾، قال ابن عباس: يعني السرير أي أجلسهما معه على سريره، ﴿وخروا له سجداً﴾ أي سجد له أبواه وإخوته الباقون، وكانوا أحد عشر رجلاً، ﴿وقال يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل﴾ أي التي كان قصها على أبيه من قبل، وقد كان هذا سائغاً في شرائعهم إذا سلموا على الكبير يسجدون له، ولم يزل هذا جائزاً من لدن آدم إلى شريعة عيسى عليه السلام، فحرم هذا في هذه الملة، وجعل السجود مختصاً بجناب الرب سبحانه وتعالى، هذا مضمون قول قتادة وغيره، وفي الحديث: «لو كنت امرأةً أحدًا أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها لعظم حقه عليها»^(١)، وفي حديث آخر: ان سلمان لقي النبي ﷺ في بعض المدينة، وكان سلمان حديث عهد بالإسلام، فسجد للنبي ﷺ، فقال: «لا تسجد لي يا سلمان واسجد للحج الذي لا يموت». والغرض أن هذا كان جائزاً في شريعتهم، ولهذا خروا له سجداً فعندها قال يوسف: ﴿يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقاً﴾ أي هذا ما آل إليه الأمر، فإن التأويل يطلق على ما يصير إليه الأمر، كما قال تعالى: ﴿هل ينظرون إلا تأويله يوم يأتي تأويله﴾ أي يوم القيامة يأتيهم ما وعدوا به من خير وشر، وقوله: ﴿قد جعلها ربي حقاً﴾ أي صحيحة صدقاً، يذكر نعم الله عليه، ﴿وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن وجاء بكم من البدو﴾ أي البادية، قال ابن جريج وغيره: كانوا أهل بادية وماشية، ﴿من بعد أن نزع الشيطان بيني وبين إخوتي إن ربي لطيف لما يشاء﴾، أي إذا أراد أمراً قبيحاً له أسباباً وقلده ويسره ﴿إنه هو العليم﴾ بمصالح عباده ﴿الحكيم﴾ في أقواله وأفعاله وقضائه وقلده وما يختاره ويريده. قال محمد بن إسحاق: ذكروا - والله أعلم - أن غيبة يوسف عن يعقوب كانت ثمانين سنة، وأهل الكتاب يزعمون أنها كانت أربعين سنة، وأن يعقوب عليه السلام بقي مع يوسف بعد أن قدم عليه مصر سبع عشرة سنة ثم قبضه الله إليه، وقال عبدالله بن شداد: اجتمع آل يعقوب إلى يوسف بمصر وهم ستة وثمانون إنساناً صغيرهم وكبيرهم، وذكرهم وأنتاهم، وخرجوا منها وهم ستمائة ألف ونيف.

* رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا

(١) الحديث في الصحاح وسببه أن معاذاً قدم الشام فوجدهم يسجدون لأساقفتهم، فلما رجع إلى رسول الله ﷺ سجد له، فقال: «ما هذا يا معاذ؟» فقال: إني رأيتهم يسجدون لأساقفتهم وأنت أحق أن يسجد لك يا رسول الله ﷺ فقال له ﷺ: «...»

وَالْآخِرَةَ تَوْفَنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿١٠١﴾

هذا دعاء من يوسف الصديق، دعا به ربه عز وجل لما تمت نعمة الله عليه باجتماعه بأبويه واخوته، وما من الله به عليه من النبوة والملك، سأل ربه عز وجل أن يتوفاه مسلماً حين يتوفاه وأن يلحقه بالصالحين، وهم إخوانه من النبيين والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين؛ وهذا الدعاء يحتمل أن يوسف عليه السلام قاله عند احتضاره، كما ثبت في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ جعل يرفع أصبعه عند الموت ويقول: «اللهم في الرفيق الأعلى» ثلاثاً؛ ويحتمل أنه سأل الوفاة على الإسلام واللحاق بالصالحين إذا جاء أجله وانقضى عمره، لأنه سأل ذلك منجزاً كما يقول الداعي لغيره أمانك الله على الإسلام، ويقول الداعي: اللهم أحيينا مسلمين وتوفنا مسلمين وألحقنا بالصالحين؛ ويحتمل أنه سأل ذلك منجزاً وكان ذلك سائغاً في ملتهم، كما قال قتادة: لما جمع الله شمله وأقر عينه وهو يومئذ مغمور في الدنيا وملكها ونضارتها اشتاق إلى الصالحين قبله، وكان ابن عباس يقول: ما تمنى نبي قط الموت قبل يوسف عليه السلام. ولكن هذا لا يجوز في شريعتنا لما في الصحيحين: «لا يتمنين أحدكم الموت لضر نزل به إما محسناً فيزداد، وإما مسيئاً فلعله يستعقب، ولكن ليقل: اللهم أحييني ما كانت الحياة خيراً لي، وتوفني إذا كانت الوفاة خيراً لي».

وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «لا يتمنين أحدكم الموت لضر نزل به ولا يدع به من قبل أن يأتيه إلا أن يكون قد وثق بعمله، فإنه إذا مات أحدكم انقطع عنه عمله وإنه لا يزيد المؤمن عمله إلا خيراً^(١)، وهذا فيما إذا كان الضر خاصاً به، وأما إذا كان فتنة في الدين فيجوز سؤال الموت، كما قال تعالى إخباراً عن السحرة لما أرادهم فرعون عن دينهم وتهدهم بالقتل: ﴿قالوا ربنا أفرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين﴾. وقالت مريم عليها السلام: ﴿يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً﴾ لما علمت من أن الناس يقذفونها بالفاحشة لأنها لم تكن ذات زوج وقد حملت ووضعت. وفي حديث معاذ الذي رواه الإمام أحمد والترمذي: «وإذا أردت بقوم فتنة فاقبضني إليك غير مفتون»، فعند حلول الفتنة في الدين يجوز سؤال الموت، ولهذا قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه في آخر خلافته لما رأى أن الأمور لا تجتمع له، ولا يزداد الأمر إلا شدة فقال: اللهم خذني إليك فقد سئمتهم وسئمتوني، وقال البخاري رحمه الله: لما وقعت له تلك الفتنة وجرى له مع أمير خراسان ما جرى قال: اللهم توفني إليك، وفي الحديث: «إن الرجل ليمر بالقبور - أي في زمان الدجال - فيقول يا ليتني مكانك» لما يرى من الفتنة والزلازل والأمور الهائلة التي هي فتنة لكل مفتون.

* ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿١٠٤﴾

يقول تعالى لمحمد ﷺ لما قص عليه نبأ إخوة يوسف، وكيف رفعه الله عليهم وجعل له العاقبة والنصر والملك

(١) تفرد به الإمام أحمد رحمه الله.

والحكم، مع ما أرادوا به من السوء والهلاك والإعدام: هذا وأمثاله يا محمد من أخبار الغيوب السابقة ﴿ نوحيه إليك ﴾ ونعلمك به يا محمد لما فيه من العبرة لك والاتعاظ لمن خالفك، ﴿ وما كنت لديهم ﴾ حاضراً عندهم ولا مشاهداً لهم ﴿ إذ أجمعوا أمرهم ﴾ أي على إلقائه في الجب، ﴿ وهم يمكرون ﴾ به، ولكننا أعلمناك به وحيّاً إليك وإنزالاً عليك كقوله: ﴿ وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم ﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿ وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر ﴾ الآية، إلى قوله: ﴿ وما كنت بجانب الطور إذ نادينا ﴾ الآية، يقول تعالى: إنه رسوله وإنه قد أطلعنا على أبناء ما قد سبق مما فيه عبرة للناس ونجاة لهم في دينهم وديناهم، ومع هذا ما آمن أكثر الناس، ولهذا قال: ﴿ وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين ﴾، وقال: ﴿ وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله ﴾، وقوله: ﴿ وما تسألهم عليه من أجر ﴾ أي ما تسألهم يا محمد على هذا النصيح والرشد من أجر أي من جعالة ولا أجرة، بل تفعله ابتغاء وجه الله ونصحاً لخلقه، ﴿ إن هو إلا ذكر للعالمين ﴾ أي يتذكرون به ويهتدون وينجون به في الدنيا والآخرة .

وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ أَفَأَمِنُوا أَن تَأْتِيَهُمْ غَشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ أَتَأْتِيهِمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾

يخبر تعالى عن غفلة أكثر الناس عن التفكير في آيات الله، ودلائل توحيده، بما خلقه الله في السماوات والأرض من كواكب زاهرات وأفلاك دائرات، وحدائق وجنات، وجبال راسيات، وبحار زاخرات، وحيوان ونبات، فسبحان الواحد الأحد خالق أنواع المخلوقات، المنفرد بالدوام والبقاء والصمدية للأسماء والصفات، وقوله: ﴿ وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون ﴾ قال ابن عباس: من إيمانهم أنهم إذا قيل لهم: من خلق السماوات ومن خلق الأرض ومن خلق الجبال؟ قالوا: الله وهم مشركون به^(١). وفي الصحيحين: أن المشركين كانوا يقولون في تلبيتهم: لبيك لا شريك لك، إلا شريك هو لك، تملكه وما ملك. وفي صحيح مسلم: أنهم كانوا إذا قالوا لبيك لا شريك لك، قال رسول الله ﷺ: « قد قد » أي حسب حسب لا تزيدوا على هذا، وقال الله تعالى: ﴿ إن الشرك لظلم عظيم ﴾ . وقال الحسن البصري في قوله: ﴿ وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون ﴾ قال: ذلك المنافق يعمل إذا عمل رياء الناس، وهو مشرك بعمله ذلك، يعني في قوله تعالى: ﴿ يراؤون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلاً ﴾، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: « يقول الله أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه »^(٢)، وعن أبي سعيد بن أبي فضالة قال، سمعت رسول الله ﷺ يقول: « إذا جمع الله الأولين والآخرين ليوم لا ريب فيه، ينادي مناد من كان أشرك في عمل عمله لله فليطلب ثوابه من عند غير الله، فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك »^(٣). وقال: « إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر »، قالوا:

(١) وكذا قال مجاهد وعطاء وعكرمة والشعبي وقتادة والضحاك .

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(٣) أخرجه الإمام أحمد في المسند .

وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال: «الرياء، يقول الله تعالى يوم القيامة إذا جاز الناس بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤون في الدنيا، فانظروا هل تجدون عندهم جزاء؟». وقد روى الإمام أحمد وأبو داود والترمذي قال، قال أبو بكر الصديق: يا رسول الله علمني شيئاً أقوله إذا أصبحت وإذا أمسيت وإذا أخذت مضجعي، قال: «قل اللهم فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، رب كل شيء ومليكه، أشهد أن لا إله إلا أنت، أعوذ بك من شر نفسي، ومن شر الشيطان وشركه»، وقوله: ﴿أفأمنوا أن تأتيهم غاشية من عذاب الله﴾ الآية، أي أفأمن هؤلاء المشركون بالله أن يأتيهم أمر يغشاهم من حيث لا يشعرون، كقوله تعالى: ﴿أفأمن الذين مكروا السيئات أن يخسف الله بهم الأرض أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون﴾؟ وقوله: ﴿أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتاً وهم ناعون﴾ أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلبعون * أفأمنوا مكر الله * فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون﴾؟

قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾

يقول تعالى لرسوله ﷺ إلى الثقلين الإنس والجن أمراً له أن يخبر الناس أن هذه سبيله، أي طريقته ومسلكه وسنته، وهي الدعوة إلى شهادة أن «لا إله إلا الله وحده لا شريك له» يدعو إلى الله بها على بصيرة من ذلك ويقين وبرهان، هو وكل من اتبعه، وقوله: ﴿وسبحان الله﴾ أي وأنزله الله وأجله وأعظمه وأقدسه عن أن يكون له شريك أو نظير أو عدل أو نديد أو ولد أو والد أو صاحبة أو وزير أو مشير، تبارك وتقدس وتتره وتعالى عن ذلك كله علواً كبيراً ﴿تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليماً غفوراً﴾.

* وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ أَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾

يخبر تعالى أنه إنما أرسل رسوله من (الرجال) لا من (النساء) وهذا قول جمهور العلماء، وزعم بعضهم أن (سارة) امرأة الخليل، وأم موسى، ومريم بنت عمران أم عيسى نبيات، واحتجوا بأن الملائكة بشرت سارة بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب، وبقوله: ﴿وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه﴾ الآية، وبأن الملك جاء إلى مريم فبشرها بعيسى عليه السلام، وبقوله تعالى: ﴿إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين﴾، وهذا القدر حاصل هن، ولكن لا يلزم من هذا أن يكن نبيات بذلك، ويبقى الكلام في أن هذا هل يكفي في الانتظام في سلك النبوة بمجرد أم لا؟ الذي عليه أهل السنة والجماعة - وهو الذي نقله الشيخ أبو الحسن الأشعري عنهم - أنه ليس في النساء نبية، وإنما فيهن (صديقات) (١)، كما قال تعالى مخبراً عن (مريم بنت عمران): ﴿وأمة صديقة كانا يأكلان الطعام﴾، فوصفها في أشرف مقاماتها بالصدقية، فلو كانت نبية لذكر ذلك في مقام التشريف والإعظام فهي صديقة بنص القرآن، وقال الضحّاك عن ابن عباس في الآية: أي ليسوا من

(١) هذا هو القول الفصل في الموضوع: أنه ليس في النساء نبية، والأنبياء جميعهم من الرجال لقوله تعالى: ﴿وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً﴾ الآية، وبهذا تسقط دعوى ابن حزم أن من النساء نبيات.

أهل السماء كما قلم، وهذا القول من ابن عباس يعترض بقوله تعالى: ﴿وما أرسلنا من قبلك من المرسلين إلا أنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق﴾ الآية، وقوله تعالى: ﴿وما جعلناهم جسداً لا يأكلون الطعام وما كانوا خالدين﴾، وقوله: ﴿من أهل القرى﴾ المراد بالقرى المدن لا أنهم من أهل البوادي الذين هم من أجفى الناس طباعاً وأخلاقاً، وقوله: ﴿أفلم يسيروا في الأرض﴾ يعني هؤلاء المكذبين لك يا محمد في الأرض ﴿فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم﴾ أي من الأمم المكذبة للرسول كيف دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها، كقوله: ﴿أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها﴾ الآية، فإذا استمعوا خبر ذلك رأوا أن الله قد أهلك الكافرين ونجى المؤمنين، وهذه كانت سنته تعالى في خلقه، ولهذا قال تعالى: ﴿ولدار الآخرة خير للذين اتقوا﴾ أي وكما نجينا المؤمنين في الدنيا كذلك كتبنا لهم النجاة في الدار الآخرة، وهي خير لهم من الدنيا بكثير، وأضاف الدار إلى الآخرة فقال: ﴿ولدار الآخرة﴾ كما يقال: صلاة الأولى ومسجد الجامع .

* حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كَذَّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىٰ مِنْ نَشَأٍ ۗ وَلَا يَرُدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ

الْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾

بذكر تعالى أن نصره ينزل على رسله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين عند ضيق الحال وانتظار الفرج من الله في أحوج الأوقات إليه، كقوله تعالى: ﴿وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله﴾ الآية. وفي قوله: ﴿كذبوا﴾ قراءتان إحداهما بالتشديد ﴿قد كذبوا﴾، وكذلك كانت عائشة رضي الله عنها تقرؤها، قال البخاري عن ابن شهاب قال: أخبرني عروة بن الزبير عن عائشة أنها قالت له وهو يسألها عن قول الله تعالى: ﴿حتى إذا استيأس الرسل﴾ قال، قلت: أكذبوا أم كذبوا؟ قالت عائشة: كذبوا، قلت: فقد استيقنوا أن قومهم كذبوهم فما هو بالظن؟ قالت: أجل لعمرى لقد استيقنوا بذلك، فقلت لها: ﴿وظنوا أنهم قد كذبوا﴾؟ قالت: معاذ الله لم تكن الرسل تظن ذلك بربها، قلت فما هذه الآية؟ قالت هم أتباع الرسل الذين آمنوا بربهم وصدقوهم فطال عليهم البلاء، واستأخر عنهم النصر ﴿حتى إذا استيأس الرسل﴾ من كذبهم من قومهم، وظنت الرسل أن أتباعهم قد كذبوهم، جاءهم نصر الله عند ذلك^(١). والقراءة الثانية بالتخفيف واختلفوا في تفسيرها، فقال ابن عباس في قوله: ﴿حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا﴾ قال: لما أيست الرسل أن يستجيب لهم قومهم، وظن قومهم أن الرسل قد كذبوهم جاءهم النصر على ذلك، ﴿فنجي من نشاء﴾، وقال ابن جرير، عن إبراهيم بن أبي حمزة الجزري قال، سألت فتي من قريش سعيد بن جبيرة قال: أخبرنا أبا عبد الله كيف هذا الحرف؟ فإني إذا أتيت عليه تمنيت أن لا أقرأ هذه السورة: ﴿حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا﴾ قال: نعم، حتى إذا استيأس الرسل من قومهم أن يصدقوهم، وظن المرسل إليهم أن الرسل قد كذبوا، فقال الضحاک ابن مزاحم: ما رأيت كاليوم قط رجلاً يدعى إلى علم فيتلکأ، لو رحلت إلى اليمن في هذه كان قليلاً^(٢). ثم روى ابن جرير أيضاً من وجه آخر أن مسلم بن يسار سأل سعيد بن جبيرة عن ذلك فأجابه بهذا الجواب، فقام إلى سعيد فاعتقه، وقال: فرج الله عنك كما فرجت عني. وأما ابن مسعود فقال ابن جرير، عن تميم بن حزم، قال: سمعت

(١) أخرجه البخاري في صحيحه عن عروة بن الزبير . (٢) أخرجه ابن جرير الطبري .

عبد الله بن مسعود يقول في هذه الآية: ﴿ حتى إذا استيأس الرسل ﴾ من إيمان قومهم أن يؤمنوا بهم، وظن قومهم حين أبطأ الأمر أنهم قد كذبوا بالتخفيف، فهاتان الروايتان عن كل من ابن مسعود وابن عباس والله أعلم .

لَقَدْ كَانَ فِي قَصصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾

يقول تعالى : لقد كان في خبر المرسلين مع قومهم وكيف نجينا المؤمنين وأهلكنا الكافرين ﴿ عبرة لأولي الألباب ﴾ وهي العقول، ﴿ ما كان حديثاً يفترى ﴾ أي وما كان لهذا القرآن أن يفترى من دون الله، أي يكذب ويخترق، ﴿ ولكن تصديق الذي بين يديه ﴾ أي من الكتب المنزل من السماء هو يصدق ما فيها من الصحيح وينفي ما وقع فيها من تحريف وتبديل وتغيير، ﴿ وتفصيل كل شيء ﴾ من تحليل وتحريم وغير ذلك من الأمر بالطاعات والواجبات والمستحبات، والنهي عن المحرمات وما شاكلها من المكروهات ، والإخبار عن الأمور الجليلة، وعن الغيوب المستقبلية المجملة والتفصيلية، والإخبار عن الرب تبارك وتعالى بالأسماء والصفات، وتنزهه عن مماثلة المخلوقات، فلهذا كان: ﴿ هدى ورحمة لقوم يؤمنون ﴾ تهدي به قلوبهم من الغي إلى الرشاد، ومن الضلال إلى السداد ، ويتبعون به الرحمة من رب العباد، في هذه الحياة الدنيا ويوم المعاد، فنسأل الله العظيم أن يجعلنا منهم في الدنيا والآخرة .

آخر تفسير سورة يوسف عليه السلام ، والله الحمد والمنة وبه المستعان .





بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْمَرَّتِ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾

أما الكلام على الحروف المقطعة في أوائل السور فقد تقدم في أول سورة البقرة، وقدمنا: أن كل سورة ابتدئت بهذه الحروف ففيها الانتصار للقرآن، وتبيان أن نزوله من عند الله حق لا شك فيه ولا مرية ولا ريب، ولهذا قال: ﴿تلك آيات الكتاب﴾ أي هذه آيات الكتاب وهو القرآن، ثم عطف على ذلك عطف صفات فقال: ﴿والذي أنزل إليك﴾ أي يا محمد ﴿من ربك الحق﴾، وقوله: ﴿ولكن أكثر الناس لا يؤمنون﴾ كقوله: ﴿وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين﴾ أي مع هذا البيان والجللاء والوضوح لا يؤمن أكثرهم لما فيهم من الشقاق، والعناد، والنفاق.

اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿١٤﴾

يخبر تعالى عن كمال قدرته وعظيم سلطانه، أنه الذي يأذنه وأمره رفع السماوات بغير عمد، بل يأذنه وأمره وتسخيروه رفعها عن الأرض بعداً لا تنال ولا يدرك مداها، فالسماوات الدنيا محيطة بجميع الأرض وما حولها من الماء والهواء، من جميع نواحيها وجهاً وأرجائها، مرتفعة عليها من كل جانب على السواء، وبعد ما بينها وبين الأرض من كل ناحية مسيرة خمسمائة عام، ثم السماء الثانية محيطة بالسماوات الدنيا وما حوت، وهكذا إلى السابعة، وفي الحديث: «ما السموات السبع وما فيهن وما بينهن في الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة، والكرسي في العرش المجيد كذلك الحلقة في تلك الفلاة». وفي رواية: «العرش لا يقدر قدره إلا الله عز وجل». وجاء عن بعض السلف: أن بعد ما بين العرش إلى الأرض مسيرة خمسين ألف سنة، وبعد ما بين قطريه مسيرة خمسين ألف سنة، وهو من ياقوته حمراء، وقوله: ﴿بغير عمد ترونها﴾ السماء على الأرض مثل القبة، يعني بلا عمد، وهذا هو اللائق بالسياق، والظاهر من قوله تعالى: ﴿ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه﴾ فعلى هذا يكون قوله: ﴿ترونها﴾

تأكيداً لنفي ذلك، أي هي مرفوعة بغير عمد كما ترونها، وهذا هو الأكمل في القدرة^(١)، وقوله تعالى: ﴿ثم استوى على العرش﴾ تقدم تفسيره في سورة الأعراف، وأنه يمر كما جاء من غير تكييف ولا تشبيه ولا تعطيل، ولا تمثيل، تعالى الله علواً كبيراً، وقوله: ﴿وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى﴾ قيل: المراد أنهما يجريان إلى انقطاعهما بقيام الساعة، كقوله تعالى: ﴿والشمس تجري لمستقر لها﴾، وقيل: المراد إلى مستقرهما وهو تحت العرش، وذكر الشمس والقمر لأنهما أظهر الكواكب السيارة السبعة التي هي أشرف وأعظم من الثوابت، فإذا كان قد سخر هذه فلأن يدخل في التسخير سائر الكواكب بطريق الأولى والأخرى، كما نبه بقوله تعالى: ﴿لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن إن كنتم إياه تعبدون﴾، مع أنه قد صرح بذلك بقوله: ﴿والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين﴾، وقوله: ﴿يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون﴾ أي يوضح الآيات والدلالات الدالة على أنه لا إله إلا هو وأنه يعيد الخلق إذا شاء كما بدأه .

* وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشَى
 آيِلَ النَّهَارِ^ج إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ
 وَزُرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنَوَانٌ وَغَيْرُ صِنَوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِضَ لِّبَعْضِهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ^ج إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ
 لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢١﴾

لما ذكر تعالى العالم العلوي، شرع في ذكر قدرته وحكمته وإحكامه للعالم السفلي، فقال: ﴿وهو الذي مدَّ الأرض﴾ أي جعلها متسعة ممتدة في الطول والعرض، وأرساها بجبال راسيات شامخات، وأجرى فيها الأنهار والجداول والعيون، ليسقى ما جعل فيها من الثمرات المختلفة الألوان والأشكال والطعوم ﴿ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين﴾ أي من كل شكل صنفان ﴿يغشي الليل النهار﴾ أي جعل كلاً منهما يطلب الآخر طلباً حثيثاً، فإذا ذهب هذا غشيه هذا، وإذا انقضى هذا جاء الآخر فيتصرف أيضاً في الزمان كما يتصرف في المكان والسكان ﴿أما في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾ أي في آلاء الله وحكمه ودلالته، وقوله: ﴿وفي الأرض قطع متجاورات﴾ أي أراض يجاور بعضها بعضاً، مع أن هذه طيبة تنبت ما ينفع الناس وهذه سبخة مالحة لا تنبت شيئاً، ويدخل في هذه الآية اختلاف ألوان بقاع الأرض، فهذه تربة حمراء، وهذه بيضاء، وهذه صفراء، وهذه سوداء، وهذه محجرة، وهذه سهلة، وهذه سميكة، وهذه رقيقة، والكل متجاورات، فهذا كله مما يدل على الفاعل المختار لا إله إلا هو، وقوله: ﴿وجنات من أعناب وزرع ونخيل﴾ يحتمل أن تكون عاطفة على جنات، فيكون ﴿زرع ونخيل﴾ مرفوعين؛ ويحتمل أن يكون معطوفاً على أعناب فيكون مجروراً، ولهذا قرأ بكل منهما طائفة

(١) وروي عن ابن عباس ومجاهد والحسن أنهم قالوا: لها عمد ولكن لا ترى فتكون جملة (ترونها) صفة ل (عمد) أي بغير عمد مرئية، وهذا التأويل خلاف الظاهر المتبادر وقد أشار ابن كثير رحمه الله لضعف هذا القول .

من الأئمة، وقوله: ﴿صنوان وغير صنوان﴾ الصنوان هو الأصول المجتمعة في منبت واحد كالرمان والتين وبعض النخيل ونحو ذلك، وغير الصنوان ما كان على أصل واحد كسائر الأشجار، وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ قال لعمر: «أما شعرت أن عم الرجل صنو أبيه»، وقال سفيان الثوري عن البراء رضي الله عنه: الصنوان هي النخلات في أصل واحد، وغير الصنوان المتفرقات، وقوله: ﴿يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنَفْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ﴾ قال الأعمش، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ: ﴿وَنَفْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ﴾ قال: «الدقل والفارسي والحلو والحامض»^(١)، أي هذا الاختلاف في أجناس الثمرات والزرورع في أشكالها وألوانها وطعومها وروائحها وأوراقها وازهارها، فهذا في غاية الحلاوة، وهذا في غاية الحموضة، وذا في غاية المرارة، وذا عفص، وهذا عذب، وهذا أصفر، وهذا أحمر، وهذا أبيض، وكذلك الزهورات مع أنها كلها تستمد من طبيعة واحدة وهو الماء، مع هذا الاختلاف الكثير الذي لا ينحصر ولا ينضب، ففي ذلك آيات لمن كان واعياً، وهذا من أعظم الدلالات على الفاعل المختار الذي بقدرته فاوت بين الأشياء وخلقها على ما يريد، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

* وَإِنْ تَعْجَبَ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا أءِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ۗ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ
الْأَعْغَلُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٥﴾

يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ: ﴿وَإِنْ تَعْجَبَ﴾ من تكذيب هؤلاء المشركين بالمعاد، مع ما يشاهدونه من آيات الله سبحانه ودلائله في خلقه، ومع ما يعترفون به من أنه ابتداء خلق الأشياء بعد أن لم تكن شيئاً مذكوراً، ثم هم بعد هذا يكذبون في أنه سيعيد العالم خلقاً جديداً، فالعجب من قولهم: ﴿أئنذا كنا تراباً أئننا لفي خلق جديد﴾ وقد علم كل عالم وعاقل أن خلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس، وأن من بدأ الخلق بالإعادة عليه أسهل، كما قال تعالى: ﴿أولم يروا أن الله الذي خلق السموات والأرض ولم يعي بخلقهن بقادر على أن يحيي الموتى؟ بلى إنه على كل شيء قدير﴾، ثم نعت المكذبين بهذا، فقال: ﴿أولئك الذين كفروا بربههم وأولئك الأغلال في أعناقهم﴾ أي يسحبون بها في النار، ﴿وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ أي ما كثون فيها أبداً لا يحولون عنها ولا يزولون.

* وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٦﴾

يقول تعالى: ﴿ويستعجلونك﴾ أي هؤلاء المكذبون، ﴿بالسيئة قبل الحسنة﴾ أي بالعقوبة، كما أخبر عنهم في قوله: ﴿ويستعجلونك بالعذاب﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿سأل سائل بعذاب واقع﴾، وقال: ﴿يستعجل

(١) رواه الترمذي وقال حسن غريب.

بها الذين لا يؤمنون بها ﴿٧﴾، وقال: ﴿وقالوا ربنا عجل لنا قطناً﴾ الآية، أي عقابنا وحسابنا، فكانوا من شدة تكذيبهم وعنادهم وكفرهم، يطلبون أن يأتيهم بعذاب الله، قال الله تعالى: ﴿وقد خلت من قبلهم المثلثات﴾ أي قد أوقعنا نعمنا بالأُمم الخالية، وجعلناهم عبرة وعظة لمن اتعظ بهم؛ ثم أخبر تعالى أنه لولا حلمه وعفوه لعاجلهم بالعقوبة كما قال: ﴿ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة﴾، وقال تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم﴾ أي إنه تعالى ذو عفو وصفح وستر للناس، مع أنهم يظلمون ويخطئون بالليل والنهار، ثم قرن هذا الحكم بأنه شديد العقاب ليعتدل الرجاء والخوف، كما قال تعالى: ﴿فإن كذبوك فقل ربكم ذو رحمة واسعة ولا يرد بأسه عن القوم المجرمين﴾، وقال: ﴿إن ربك لسريع العقاب وإنه لغفور رحيم﴾ إلى أمثال ذلك من الآيات التي تجمع الرجاء والخوف، عن سعيد بن المسيب قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم﴾ قال رسول الله ﷺ: «لولا عفو الله وتجاوزه ما هنا أحداً العيش، ولولا وعيده وعقابه لا تكل كل أحد»^(١).

﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنْ مَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾

يقول تعالى إخباراً عن المشركين إنهم يقولون كفراً وعناداً: لولا يأتينا بآية من ربه كما أرسل الأولون، كما تعتوا عليه أن يجعل لهم الصفا ذهباً، وأن يزيح عنهم الجبال ويجعل مكانها مروجاً وأنهاراً، قال تعالى: ﴿وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون﴾ الآية، قال الله تعالى: ﴿إنما أنت منذر﴾ أي إنما عليك أن تبلغ رسالة الله التي أمرك بها، و﴿ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء﴾، وقوله: ﴿ولكل قوم هاد﴾ قال ابن عباس: أي ولكل قوم داع، وقال العوفي عن ابن عباس في الآية: أنت يا محمد منذر وأنا هادي كل قوم^(٢). عن مجاهد ﴿ولكل قوم هاد﴾ أي نبي كقوله: ﴿وإن من أمة إلا خلا فيها نذير﴾، وقال يحيى بن رافع: ﴿ولكل قوم هاد﴾ أي قائد، وعن عكرمة: ﴿ولكل قوم هاد﴾: هو محمد ﷺ، وقال مالك ﴿ولكل قوم هاد﴾: يدعوهم إلى الله عز وجل.

﴿ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ ﴾ ﴿٨﴾ عَلِيمٌ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ

الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ﴿٩﴾

يخبر تعالى عن تمام علمه الذي لا يخفى عليه شيء، وأنه محيط بما تحمله الحوامل من كل الإناث، كما قال تعالى: ﴿ويعلم ما في الأرحام﴾ أي ما حملت من ذكر أو أنثى، أو حسن أو قبيح، أو شقي أو سعيد، أو طويل العمر أو قصيره، كقوله تعالى: ﴿هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض وإذ أنتم أجنة﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق في ظلمات ثلاث﴾ أي خلقكم طوراً من بعد طور، كما قال تعالى:

(١) أخرجه ابن أبي حاتم.

(٢) وكذا قال الضحاك وسعيد بن جبير وغير واحد.

﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ﴾. وفي الصحيحين عن ابن مسعود قال، قال رسول الله ﷺ: « إن خلق أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين يوماً، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث الله إليه ملكاً فيؤمر بأربع كلمات، بكتب رزقه وعمره وعمله وشقي أو سعيد»، وفي الحديث الآخر: « فيقول الملك أي رب! أذكر أم أنثى! أشقي أم سعيد؟ فما الرزق؟ فما الأجل؟ فيقول الله ويكتب الملك ».

وقوله تعالى: ﴿ وما تغيض الأرحام وما تزداد ﴾، قال البخاري، عن ابن عمر، أن رسول الله ﷺ قال: « مفاتيح الغيب خمس لا يعلمهن إلا الله، لا يعلم ما في غد إلا الله، ولا يعلم ما تغيض الأرحام إلا الله، ولا يعلم متى يأتي المطر أحد إلا الله، ولا تدري نفس بأي أرض تموت، ولا يعلم متى تقوم الساعة إلا الله»، وقال ابن عباس: ﴿ وما تغيض الأرحام ﴾ يعني السقط ﴿ وما تزداد ﴾، يقول: ما زادت الرحم في الحمل على ما غاضت حتى ولدته تماماً، وذلك أن من النساء من تحمل عشرة أشهر، ومن تحمل تسعة أشهر، ومنهن من تزيد في الحمل، ومنهن من تنقص، فلذلك الغيظ والزيادة التي ذكر الله تعالى وكل ذلك بعلمه تعالى، وعنه: ما نقصت من تسعة وما زاد عليها، وقال الضحاك: وضعتني أمي وقد حملتني في بطني سنتين، وولدتني وقد نبتت ثنيتي، وقال ابن جريج، عن عائشة قالت: لا يكون الحمل أكثر من سنتين قدر ما يتحرك ظل مغزل، وقال مجاهد: ﴿ وما تغيض الأرحام وما تزداد ﴾ قال: ما ترى من الدم في حملها وما تزداد على تسعة أشهر^(١)، وقال مجاهد أيضاً ﴿ وما تغيض الأرحام ﴾: إراقة الدم حتى يحس الولد، ﴿ وما تزداد ﴾ إن لم تهرق الدم تم الولد وعظم، وقال مكحول: الجنين في بطن أمه لا يحزن ولا يغم، وإنما يأتيه رزقه في بطن أمه من دم حيضتها فمن ثم لا تحيض الحامل، فإذا وقع إلى الأرض استهل، واستهله استنكاره لمكانه، فإذا قطعت سرتة حوّل الله رزقه إلى ثديي أمه، حتى لا يحزن ولا يطلب ولا يغم، ثم يصير طفلاً يتناول الشيء بكفه فيأكله، فإذا هو بلغ قال: هو الموت أو القتل أني لي بالرزق؟ فيقول مكحول: يا ويحك، غذاك وأنت في بطن أمك، وأنت طفل صغير، حتى إذا اشتدت وعقلت قلت: هو الموت أو القتل أني لي بالرزق؟ ثم قرأ مكحول: ﴿ والله يعلم ما تحمل كل أنثى ﴾ الآية، وقال قتادة: ﴿ وكل شيء عنده بمقدار ﴾ أي بأجل، حفظ أرزاق خلقه وآجالهم وجعل لذلك أجلاً معلوماً، وفي الحديث الصحيح: إن إحدى بنات النبي ﷺ بعثت إليه أن ابناً لها في الموت، وأنها تحب أن يحضره، فبعث إليها يقول: « إن الله ما أخذ وله ما أعطى، وكل شيء عنده بأجل مسمى، فروها فلتصبر ولتحتسب » الحديث بتمامه، وقوله: ﴿ عالم الغيب والشهادة ﴾ أي يعلم كل شيء مما يشاهده العباد ومما يغيب عنهم ولا يخفى عليه منه شيء ﴿ الكبير ﴾ الذي هو أكبر من كل شيء، ﴿ المتعال ﴾ أي على كل شيء، ﴿ قد أحاط بكل شيء علماً ﴾ وقهر كل شيء فخضعت له الرقاب ودان له العباد طوعاً وكرهاً.

سَوَاءٌ مِّنْكُمْ مَّنْ أَسَرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ ۚ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ﴿١٠﴾ لَهُ مَعْقَبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ

(١) وبه قال الحسن البصري وقاتادة والضحاك.

يَدِيهِ وَمِنْ خَلْفِهِ ۖ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ۗ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ ۗ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ ﴿١١﴾

يخبر تعالى عن إحاطة علمه بجميع خلقه، وأنه سواء منهم من أسر قوله أو جهر به، فإنه يسمعه لا يخفى عليه شيء كقوله: ﴿وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى﴾، وقال: ﴿ويعلم ما تخفون وما تعلنون﴾، وقوله: ﴿ومن هو مستخف بالليل﴾ أي مختم في قعر بيته في ظلام الليل، ﴿وسارب بالنهار﴾ أي ظاهر ماش في بياض النهار وضيائه، فإن كلاهما في علم الله على السواء، كقوله تعالى: ﴿الذين يستغشون ثيابهم﴾ الآية، وقوله تعالى: ﴿وما تكون في شأن وما تتلو منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهوداً إذ تفيضون فيه﴾، وقوله: ﴿له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله﴾ أي للعبد ملائكة يتعاقبون عليه، حرس بالليل، وحرس بالنهار، يحفظونه من الأسواء والحادثات، كما يتعاقب ملائكة آخرون لحفظ الأعمال من خير أو شر، ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، فائنان عن اليمين والشمال، يكتبان الأعمال، صاحب اليمين يكتب الحسنات، وصاحب الشمال يكتب السيئات، وملكان آخران يحفظانه ويحرسانه، واحد من ورائه وآخر من قدامه، فهو بين أربعة أملاك بالنهار، وأربعة آخرين بالليل بدلاً، حافظان وكاتبان، كما جاء في الصحيح: «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار» الحديث، وفي الحديث الآخر: «إن معكم من لا يفارقكم إلا عند الخلاء وعند الجماع فاستحيوهم وأكرمهم»، وقال ابن عباس: ﴿يحفظونه من أمر الله﴾ قال: ملائكة يحفظونه من بين يديه ومن خلفه، فإذا جاء قدر الله خلوا عنه، وقال مجاهد: ما من عبد إلا له ملك موكل يحفظه في نومه ويقظته من الجن والإنس والهوام، فما منها شيء يأتيه يريده إلا قال له الملك: وراءك، إلا شيء أذن الله فيه فيصبيه.

وقال الإمام أحمد رحمه الله، عن عبد الله قال، قال رسول الله ﷺ: «ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن، وقرينه من الملائكة» قالوا: وإياك يا رسول الله، قال: «وإياي، ولكن الله أعاني عليه فلا يأمرني إلا بخير»^(١). وقوله: ﴿يحفظونه من أمر الله﴾ قيل: المراد حفظهم له من أمر الله، قاله ابن عباس، وإليه ذهب مجاهد وسعيد بن جبیر، وقال قتادة ﴿يحفظونه من أمر الله﴾ يحفظونه بأمر الله، وقال كعب الأحبار: لو تجلى لابن آدم كل سهل وكل حزن لرأى كل شيء من ذلك شيئاً يقبه، ولولا أن الله وكل بكم ملائكة يذبون عنكم في مطعمكم ومشربكم وعوراتكم إذا لتخطفتن، قال أبو أمامة: ما من آدمي إلا ومعه ملك ينود عنه حتى يسلمه للذي قدر له. وقال أبو مجلز: جاء رجل إلى علي رضي الله عنه وهو يصلي، فقال: احترس، فإن ناساً يريدون قتلك، فقال: إن مع كل رجل ملكين يحفظانه مما لم يقدر، فإذا جاء القدر خليا بينه وبينه، إن الأجل جنة حصينة. وقال بعضهم: ﴿يحفظونه من أمر الله﴾ بأمر الله، كما جاء في الحديث أنهم قالوا: يا رسول الله أرأيت رقيبا نسترتي بها، هل ترد من قدر الله شيئاً؟ فقال: «هي من قدر الله»، وقال ابن أبي حاتم: «أوحى الله إلى نبي من أنبياء بني إسرائيل أن قل لقومك: إنه ليس من أهل قرية ولا أهل بيت يكونون على طاعة الله فيتحولون منها

(١) رواه مسلم وأحمد عن عبد الله بن مسعود.

إلى معصية الله إلا حول الله عنهم ما يحبون إلى ما يكرهون»، ثم قال: إن تصديق ذلك في كتاب الله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا بَقِيَ حَتَّىٰ يَغْيُرُوا مَا بَأَنفُسِهِمْ﴾ (١).

* هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيَسْبِغُ الرِّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ ﴿١٣﴾

يخبر تعالى أنه هو الذي يسخر البرق، وهو ما يرى من النور اللامع ساطعاً من خلل السحاب، ﴿خَوْفًا وَطَمَعًا﴾، قال قتادة: خوفاً للمسافر يخاف أذاه ومشقته، وطمعاً للمقيم يرجو بركته ومنفعته ويطمع في رزق الله. ﴿وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ﴾ أي ويخلقها منشأة جديدة، وهي لكثرة ماؤها ثقيلة قريبة إلى الأرض، قال مجاهد: السحاب الثقال: الذي فيه الماء، ﴿وَيَسْبِغُ الرِّعْدُ بِحَمْدِهِ﴾، كقوله: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يَسْبِغُ بِحَمْدِهِ﴾، وكان رسول الله ﷺ إذا سمع الرعد والصواعق قال: «اللهم لا تقتلنا بغضبك، ولا تهلكنا بعذابك، وعافنا قبل ذلك» (٢). وعن أبي هريرة رفعه، أنه كان إذا سمع الرعد قال: «سبحان من يسبح الرعد بحمده»، وعن عبد الله ابن الزبير أنه كان إذا سمع الرعد ترك الحديث، وقال: سبحان الذي يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته، ويقول: إن هذا لو عيد شديد لأهل الأرض (٣). وروى الطبراني عن ابن عباس قال، قال رسول الله ﷺ: «إِذَا سَمِعْتُمُ الرِّعْدَ فَادْكُرُوا اللَّهَ، فَإِنَّهُ لَا يَصِيبُ ذَاكِرًا»، وقوله تعالى: ﴿وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ﴾ أي يرسلها نعمة ينتقم بها من يشاء، ولهذا تكثر في آخر الزمان؛ كما قال الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «تكثر الصواعق عند اقتراب الساعة، حتى يأتي الرجل القوم فيقول: من صعق قبلكم الغداة؟ فيقولون: صعق فلان وفلان وفلان».

وقد روي في سبب نزولها أن رسول الله ﷺ بعث رجلاً مرة إلى رجل من فراعنة العرب، فقال: «اذهب فادعه لي»، قال: فذهب إليه فقال: يدعوك رسول الله ﷺ، فقال له: من رسول الله؟ وما الله؟ أم من ذهب هو، أم من فضة هو، أم من نحاس هو؟ قال: فرجع إلى رسول الله ﷺ، فأخبره، فقال: يا رسول الله قد أخبرتك أنه أعتى من ذلك، قال لي: كذا وكذا. فقال لي: «ارجع إليه ثانية»، فذهب فقال له مثلها، فرجع إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله قد أخبرتك أنه أعتى من ذلك؛ فقال: «ارجع إليه فادعه»، فرجع إليه الثالثة قال: فأعاد عليه ذلك الكلام، فبينما هو يكلمه إذ بعث الله عز وجل سحابة حيال رأسه فرعدت، فوقت منها صاعقة فذهبت بقحف رأسه، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ﴾ الآية (٤). وعن مجاهد قال: جاء يهودي فقال: يا محمد أخبرني عن ربك من أي شيء هو؟ من نحاس هو؟ أم من لؤلؤ، أو ياقوت؟ قال، فجاءت

(١) أخرجه ابن أبي حاتم عن إبراهيم النخعي موقوفاً، وقد ورد نحوه في حديث مرفوع رواه ابن أبي شيبة.

(٢) رواه الترمذي والنسائي والحاكم وأحمد، وأخرجه البخاري في كتاب الأدب.

(٣) رواه مالك في الموطأ والبخاري في كتاب الأدب.

(٤) رواه الحافظ أبو يعلى الموصلي وابن جرير عن أنس رضي الله عنه وأخرجه الحافظ البزار بنحوه.

صاعقة فأخذته، وأنزل الله: ﴿ويرسل الصواعق﴾ الآية، وقال قتادة: ذكر لنا أن رجلاً أنكر القرآن، وكذب النبي ﷺ، فأرسل الله صاعقة فأهلكته، وأنزل الله: ﴿ويرسل الصواعق﴾ الآية؛ وذكروا في سبب نزولها قصة (عامر بن الطفيل) و (أربد بن ربيعة) لما قدما على رسول الله ﷺ المدينة، فسألاه أن يجعل لهما نصف الأمر، فأبي عليهما رسول الله ﷺ، فقال له عامر بن الطفيل لعنه الله: أما والله لأملأها عليك خيلاً جرداً، ورجالاً مردأً، فقال له رسول الله ﷺ: «يأبى الله عليك ذلك وأبناء قبيلة» يعني الأنصار، ثم أنهما هما بالفتك برسول الله ﷺ فجعل أحدهما يخاطبه، والآخر يستل سيفه ليقتله من ورائه، فحماه الله تعالى منهما وعصمه، فخرجا من المدينة، فانطلقا في أحياء العرب يجمعان الناس لحربه عليه الصلاة والسلام، فأرسل الله على (أربد) سحابة فيها صاعقة فأحرقته، وأما (عامر بن الطفيل) فأرسل الله عليه الطاعون، فخرجت فيه غدة عظيمة، فجعل يقول: يا أهل عامر غدة كغدة البكر، وموت في بيت سلولية، حتى ماتا لعنهما الله، وأنزل الله في مثل ذلك: ﴿ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء وهم يجادلون في الله﴾^(١)، وقوله: ﴿وهم يجادلون في الله﴾ أي يشكون في عظمته وأنه لا إله إلا هو ﴿وهو شديد المحال﴾. قال ابن جرير: شديدة ماحلته في عقوبة من طغى عليه، وعتا وتمادى في كفره، وهذه الآية شبيهة بقوله: ﴿ومكروا مكراً ومكرنا مكراً وهم لا يشعرون﴾ فانظر كيف كان عاقبة مكروهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين ﴿، وعن علي رضي الله عنه: ﴿وهو شديد المحال﴾ أي شديد الأخذ؛ وقال مجاهد: شديد القوة.

لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ شَيْءٌ إِلَّا كَبَسِطَ كَفِيهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِيَبْلُغُهُ وَمَا دَعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿١٤﴾

﴿له دعوة الحق﴾ التوحيد، لا إله إلا الله^(٢) ﴿والذين يدعون من دونه﴾ أي ومثل الذين يعبدون آلهة غير الله ﴿كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه﴾، قال علي بن أبي طالب: كمثل الذي يتناول الماء من طرف البئر بيده، وهو لا يناله أبداً بيده، فكيف يبلغ فاه؟ وقال مجاهد: ﴿كباسط كفيه﴾ يدعو الماء بلسانه ويشير إليه فلا يأتيه أبداً، وقيل: المراد كقابض يده على الماء، فإنه لا يحكم منه على شيء، كما قال الشاعر:

فأصبحت مما كان بيني وبينها من الود مثل القابض الماء باليد

ومعنى هذا الكلام أن الذي يسط يده إلى الماء إما قابضاً، وإما متناولاً له من بعد، كما أنه لا ينتفع بالماء الذي لم يصل إلى فيه الذي جعله محلاً للشرب، فكذلك هؤلاء المشركون الذين يعبدون مع الله إلهاً غيره لا ينتفعون بهم أبداً في الدنيا ولا في الآخرة، ولهذا قال: ﴿وما دعاء الكافرين إلا في ضلال﴾.

وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظَلَّلَهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿١٥﴾

(١) روى هذه القصة الحافظ الطبراني عن عطاء بن يسار عن ابن عباس مفصلة أكثر من هذا.

(٢) قاله ابن عباس وفتادة.

يعبر تعالى عن عظمته وسلطانه الذي قهر كل شيء ودان له كل شيء، ولهذا يسجد له كل شيء طوعاً من المؤمنين وكرهاً من الكافرين، ﴿وظلالهم بالغلو﴾ أي البكور، ﴿والأصال﴾ وهو آخر النهار، كقوله تعالى: ﴿أو لم يروا إلى ما خلق الله من شيء يتفيؤ ظلاله﴾ الآية .

﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسِهِمْ نَفَعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا تَخْلُقُهُ فَتَشَبَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾

يقدر تعالى أنه لا إله إلا هو لأنهم معترفون بأنه هو الذي خلق السماوات والأرض وهو ربها ومدبرها، وهم مع هذا قد اتخذوا من دونه أولياء يعبدونهم، وأولئك الآلهة لا تملك لا لنفسها ولا لعبادها بطريق الأولى نفعاً ولا ضراً، أي لا تحصل لهم منفعة ولا تدفع عنهم مضرة، فهل يستوي من عبد هذه الآلهة مع الله ومن عبد الله وحده لا شريك له فهو على نور من ربه؟ ولهذا قال: ﴿قل هل يستوي الأعمى والبصير أم هل تستوي الظلمات والنور أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم﴾ أي أجعل هؤلاء المشركون مع الله آلهة تناظر الرب وتمثاله في الخلق، فخلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم، فلا يدرون أنها مخلوقة من مخلوق غيره، أي ليس الأمر كذلك، فإنه لا يشابهه شيء ولا يماثله، ولا ند له ولا عدل، ولا وزير له ولا ولد ولا صاحبة، ﴿تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً﴾، فأنكر تعالى عليهم ذلك، حيث اعتقدوا ذلك وهو تعالى لا يشفع أحد عنده إلا بإذنه، ﴿ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له﴾، ﴿وكم من ملك في السموات﴾ الآية، وقال: ﴿إن كل من في السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً﴾، فإذا كان الجميع عبيداً فلم يعبد بعضهم بعضاً بلا دليل ولا برهان؟ بل بمجرد الرأي والاختراع والابتداع فحقت عليهم كلمة العذاب لا محالة، ﴿ولا يظلم ربك أحداً﴾ .

﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾

اشتملت هذه الآية الكريمة على مثلين مضروبين للحق في ثباته وبقائه، والباطل في اضمحلاله وفنائه، فقال تعالى: ﴿أنزل من السماء ماء﴾ أي مطراً، ﴿فسالت أودية بقدرها﴾ أي أخذ كل واد بحسبه، فهذا كبير وسع كثيراً من الماء، وهذا صغير وسع بقدره، وهو إشارة إلى القلوب وتفاوتها، فمنها ما يسع علماً كثيراً، ومنها من لا يتسع لكثير من العلوم بل يضيق عنها ﴿فاحتمل السيل زبداً رابياً﴾، أي فجاء على وجه الماء الذي سال في هذه الأودية زبد عالٍ عليه؛ هذا مثل، وقوله: ﴿ومما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع﴾ الآية؛ هذا هو المثل

الثاني وهو ما يسبك في النار من ذهب أو فضة ﴿ ابتغاء حلية ﴾ أي ليجعل حلية أو نحاساً أو حديداً فيجعل متاعاً، فإنه يعلوه زبد منه، كما يعلو ذلك زبد منه، ﴿ كذلك يضرب الله الحق والباطل ﴾، أي إذا اجتماعاً لاثبات الباطل ولا دوام له، كما أن الزبد لا يثبت مع الماء، ولا مع الذهب والفضة مما يسبك في النار، بل يذهب ويضمحل، ولهذا قال: ﴿ فأما الزبد فيذهب جفاء ﴾ أي لا ينتفع به بل يتفرق ويتمزق ويذهب في جانبي الوادي، ويعلق بالشجر وتنسفه الرياح، وكذلك خبث الذهب والفضة والحديد والنحاس يذهب ولا يرجع منه شيء ولا يبقى إلا الماء، وذلك الذهب ونحوه ينتفع به، ولهذا قال: ﴿ وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض كذلك يضرب الله الأمثال ﴾، كقوله تعالى: ﴿ وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون ﴾. وقال بعض السلف: كنت إذا قرأت مثلاً من القرآن فلم أفهمه بكيت على نفسي لأن الله تعالى يقول: ﴿ وما يعقلها إلا العالمون ﴾، قال ابن عباس: هذا مثل ضربه الله احتملت منه القلوب على قدر يقينها وشكها، فأما الشك فلا ينفع معه العمل، وأما اليقين فينفع الله به أهله، وهو قوله: ﴿ فأما الزبد ﴾ وهو الشك ﴿ فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض ﴾ وهو اليقين، وكما يجعل الحلي في النار فيؤخذ خالصه ويترك خبثه في النار، فكذلك يقبل الله اليقين ويترك الشك. وقال العوفي عن ابن عباس قوله: ﴿ أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبداً رابياً ﴾ يقول: احتمل السيل ما في الوادي من عود ودمنة، ﴿ ومما يوقدون عليه في النار ﴾ فهو الذهب والفضة والحلية والمتاع والنحاس والحديد، فللنحاس والحديد خبث، فجعل الله مثل خبثه كزبد الماء، فأما ما ينفع الناس فالذهب والفضة، وأما ما ينفع الأرض فما شربت من الماء فأنبتت فجعل ذلك مثل العمل الصالح يبقى لأهله، والعمل السيء يضمحل عن أهله، كما يذهب هذا الزبد، وكذلك الهدى والحق، جاء من عند الله فن عمل بالحق كان له وبقي كما بقي ما ينفع الناس في الأرض، وكذلك الحديد لا يستطيع أن يعمل منه سكين ولا سيف حتى يدخل في النار فتأكل خبثه ويخرج جيده فينتفع به، فكذلك يضمحل الباطل، فإذا كان يوم القيامة وأقم الناس وعرضت الأعمال فيزيغ الباطل ويهلك، وينتفع أهل الحق بالحق.

وفي الصحيحين عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: « إن مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضاً فكان منها طائفة قبلت الماء فأنبتت الكلاً والعشب الكثير، وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وروعوا وزرعوا، وأصاب طائفة منها أخرى، إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلاً؛ فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه الله بما بعثني ونفع به فعلم وعلم؛ ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به.

﴿ الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ أَحْسَنُ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَاءَ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ ۗ أُولَٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٨﴾

يخبر تعالى عن مآل السعداء والأشقياء: ﴿ للذين استجابوا لربهم ﴾ أي أطاعوا الله ورسوله وانقادوا لأوامره وصدقوا أخباره الماضية والآتية، فلهم ﴿ الحسنى ﴾ وهو الجزاء الحسن كقوله تعالى: ﴿ وأما من آمن وعمل صالحاً

فله جزاء الحسنى وستقول له من أمرنا يسراً ﴿١٩﴾ ، وقال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ ، وقوله: ﴿وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ﴾ أي لم يطيعوا الله، ﴿لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ أي في الدار الآخرة، لو أنه يمكنهم أن يفتلوا من عذاب الله بملء الأرض ذهباً ومثله معه لافتلوا به، ولكن لا يتقبل منهم، لأنه تعالى لا يقبل منهم يوم القيامة صرفاً ولا عدلاً ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ﴾ أي في الدار الآخرة، أي يناقشون على النقيير والقطمير، والجليل والحقير، ومن نوقش الحساب عذب، ولهذا قال: ﴿وَمَا وَاهُمْ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ .

* أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٢٠﴾

يقول تعالى: لا يستوي من يعلم من الناس أن الذي ﴿أنزل إليك﴾ يا محمد ﴿من ربك﴾ هو الحق الذي لا شك فيه ولا مرية، بل هو كله حق يصدق بعضه بعضاً، فأخبره كلها حق، وأوامره ونواهيها عدل، فلا يستوي من تحقق صدق ما جئت به يا محمد، ومن هو أعمى لا يهتدي إلى خير ولا يفهمه، ولو فهمه ما اتقاد له ولا صدقه ولا اتبعه، كقوله تعالى: ﴿لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة﴾ ، وقال هنا: ﴿أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى﴾ أي أفهذا كهذا؟ لا استواء . وقوله: ﴿إنما يتذكر أولو الأبواب﴾ أي إنما يتعظ ويعتبر أولو العقول السليمة الصحيحة؛ جعلنا الله منهم .

* الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ ﴿٢١﴾ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ ۖ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴿٢٢﴾ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَدْرءُونَ بِالْحَسَنَةِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٣﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ ءَابَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ﴿٢٤﴾ سَلَّمَ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٥﴾

يقول تعالى مخبراً عن انصف بهذه الصفات الحميدة بأن لهم عقبى الدار، وهي العاقبة والنصرة في الدنيا والآخرة ﴿الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق﴾ وليسوا كالمتناقضين الذين إذا عاهد أحدهم غدر، وإذا خاصم فجر، وإذا اتتمن خان ﴿والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل﴾ من صلة الأرحام والإحسان إليهم وإلى الفقراء والمحاويج وبذل المعروف، ﴿ويخشون ربهم﴾ أي فيما يأتون وما يذرون من الأعمال، يراقبون الله في ذلك ويخافون سوء الحساب في الدار الآخرة، فلهذا أمرهم على السداد والاستقامة في جميع حركاتهم وسكناتهم، ﴿والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم﴾ أي عن المحارم والمأثم فقطموا أنفسهم عنها لله عز وجل ابتغاء مرضاته وجزيل ثوابه، ﴿وأقاموا الصلاة﴾ بحلودها ومواقيتها وركوعها وسجودها وخشوعها على الوجه الشرعي المرضي، ﴿وأنفقوا مما رزقناهم﴾ أي على الذين يجب عليهم الإنفاق لهم، من زوجات وقرابات وأجانب، من فقراء ومحاويج ومساكين، ﴿سراً وعلانية﴾ أي في السر والجهر، لم يمنعهم من ذلك حال من الأحوال آناء الليل وأطراف النهار، ﴿ويدروون

بالحسنة السيئة ﴿ أي يدفعون القبيح بالحسن ، فإذا آذاهم أحد قابلوه بالجميل صبراً واحتمالاً وصفحاً وعتواً ، كقوله تعالى : ﴿ ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم ﴾ ، ولهذا قال مخبراً عن هؤلاء السعداء المتصفين بهؤلاء الصفات الحسنة بأن لهم عقبى الدار ، ثم فسر ذلك بقوله : ﴿ جنات عدن ﴾ والعدن : الإقامة ، أي جنات إقامة يخلدون فيها . وقال الضحاك في قوله : ﴿ جنات عدن ﴾ مدينة الجنة فيها الرسل والأنبياء والشهداء ، وأمة الهدى والناس حولهم بعد والجنات حولها ، وقوله : ﴿ ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم ﴾ أي يجمع بينهم وبين أحبابهم فيها من الآباء والأهلين والأبناء ممن هو صالح لدخول الجنة من المؤمنين لتقر أعينهم بهم ، حتى إنه ترفع درجة الأدنى إلى درجة الأعلى امتناناً من الله ، وإحساناً من غير تنقيص للأعلى عن درجته ، كما قال تعالى : ﴿ والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم ﴾ الآية . وقوله : ﴿ والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار ﴾ أي وتدخّل عليهم الملائكة من ههنا ومن ههنا للتهنئة بدخول الجنة ، فعند دخولهم إياها تفد عليهم الملائكة مسلمين مهئين لهم بما حصل لهم من الله من التقريب والإينعام ، والإقامة في دار السلام ، في جوار الصديقين والأنبياء والرسل الكرام .

روى الإمام أحمد ، عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ أنه قال : « هل تدرون أول من يدخل الجنة من خلق الله ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : « أول من يدخل الجنة من خلق الله الفقراء المهاجرون الذين تسد بهم الثغور ، وتتقى بهم المكاره ويموت أحدهم وحاجته في صدره لا يستطيع لها قضاء ، فيقول الله تعالى لمن يشاء من ملائكته : ائتوهم فحيوهم ، فتقول الملائكة : نحن سكان سمانك وخيرتك من خلقك ، أفأتمرنا أن نأتي هؤلاء ونسلم عليهم ؟ فيقول : إنهم كانوا عباداً يعبدوني لا يشركون بي شيئاً ، وتسد بهم الثغور ، وتتقى بهم المكاره ، ويموت أحدهم وحاجته في صدره لا يستطيع لها قضاء - قال - فتأتيهم الملائكة عند ذلك فيدخلون عليهم من كل باب ﴿ سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار ﴾ » ، ورواه أبو القاسم الطبراني ، عن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ قال : « أول ثلثة يدخلون الجنة فقراء المهاجرين الذين تتقى بهم المكاره ، وإذا أمروا سمعوا وأطاعوا ، وإن كانت منهم حاجة إلى سلطان لم تقض حتى يموت وهي في صدره ، وإن الله يدعو يوم القيامة الجنة فتأتي بزخرفها وزينتها فيقول : أين عبادي الذين قاتلوا في سبيلي وأوذوا في سبيلي وجاهلوا في سبيلي ؟ ادخلوا الجنة بغير عذاب ولا حساب ، وتأتي الملائكة فيسجدون ويقولون : ربنا نحن نسبح بحمدك الليل والنهار ونقدس لك ، من هؤلاء الذين آثرتهم علينا ؟ فيقول الرب عز وجل : هؤلاء عبادي الذين جاهلوا في سبيلي ، وأوذوا في سبيلي ، فتدخل عليهم الملائكة من كل باب : ﴿ سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار ﴾ » ، وقد جاء في الحديث أن رسول الله ﷺ كان يزور قبور الشهداء في رأس كل حول فيقول لهم : ﴿ سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار ﴾ ، وكذلك أبو بكر وعمر وعثمان .

وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ

لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٢٥﴾

هذا حال الاشقياء وصفاتهم وذكر مآلهم في الآخرة، ومصيرهم إلى خلاف ما صار إليه المؤمنون، كما أنهم اتصفوا بخلاف صفاتهم في الدنيا فأولئك كانوا يوفون بعهد الله ويصلون ما أمر الله به أن يوصل، وهؤلاء ﴿ ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض ﴾ كما ثبت في الحديث: « آية المنافق ثلاث إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أؤتمن خان » ولهذا قال: ﴿ أولئك لهم اللعنة ﴾ وهي الإبعاد عن الرحمة ﴿ ولهم سوء الدار ﴾، وهي سوء العاقبة والمآل ﴿ ومأواهم جهنم وبئس المهاد ﴾. وقال أبو العالية: هي ست خصال في المنافقين، وإذا كان فيهم الظهرة على الناس أظهروا هذه الخصال: إذا حدثوا كذبوا، وإذا وعدوا أخلفوا، وإذا ائتمنوا خانوا، ونقضوا عهد الله بعد ميثاقه، وقطعوا ما أمر الله به أن يوصل، وأفسدوا في الأرض، وإذا كانت الظهرة عليهم أظهروا الثلاث الخصال: إذا حدثوا كذبوا، وإذا وعدوا أخلفوا، وإذا ائتمنوا خانوا.

اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلَّا مَتَعٌ ﴿٢٦﴾

يذكر تعالى أنه هو الذي يوسع الرزق على من يشاء ويقتر على من يشاء، لما له في ذلك من الحكمة والعدل، وفرح هؤلاء الكفار بما أوتوا من الحياة الدنيا استدراجاً لهم وإمهالاً كما قال: ﴿ أيحسبون أننا نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون ﴾، ثم حقر الحياة الدنيا بالنسبة إلى ما ادخر تعالى لعباده المؤمنين في الدار الآخرة فقال: ﴿ وما الحياة الدنيا في الآخرة إلا متاع ﴾، كما قال: ﴿ قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فتية ﴾، وقال: ﴿ بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى ﴾، وقال الإمام أحمد، عن المستورد أخي بني فهر قال، قال رسول الله ﷺ: « ما الدنيا في الآخرة إلا كما يجعل أحدكم أصبعه هذه في اليم فلينظر به ترجع »، وأشار بالسبابة^(١)، وفي الحديث الآخر أن رسول الله ﷺ مر بجدي أسك ميت، والأسك الصغير الأذنين، فقال: « والله للدنيا أهون على الله من هذا على أهله حين ألقوه »^(٢).

وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنْ أَلَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنَابِ ﴿٢٧﴾
الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
طُوبَى لَهُمْ وَحَسَنُ مَّعَابٍ ﴿٢٩﴾

يخبر تعالى عن المشركين قولهم ﴿ لولا ﴾ أي هلا، ﴿ أنزل عليه آية من ربه ﴾، كقولهم: ﴿ فليأتنا بآية كما أرسل الأولون ﴾ وقد تقدم الكلام على هذا غير مرة، وأن الله قادر على إجابة ما سألوا؛ ﴿ قل إن الله يضل من يشاء، ويهدي إليه من أناب ﴾ أي هو المضل والهادي، سواء بعث الرسول بآية على وفق ما اقترحوا، أو لم يجبههم إلى سؤالهم، فإن الهداية والإضلال ليس منوطاً بذلك، كما قال: ﴿ وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون ﴾، وقال: ﴿ ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلاً ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ولكن

(٢) أخرجه مسلم أيضاً في صحيحه .

(١) أخرجه مسلم في صحيحه .

أكثرهم يجهلون ﴿﴾، ولهذا قال: ﴿قل إن الله يضل من يشاء ويهدي إليه من أناب﴾ أي ويهدي إليه من أناب إلى الله، ورجع إليه واستعان به وتضرع لديه، ﴿الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله﴾ أي تطيب وتركن إلى جانب الله وتسكن عند ذكره، وترضى به مولى ونصيراً، ولهذا قال: ﴿ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾ أي هو حقيقي بذلك، وقوله: ﴿الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب﴾، قال ابن عباس: فرج وقرّة عين، وقال عكرمة: نعم ما لهم، وقال الضحاك: غبطة لهم. وقال إبراهيم النخعي: خير لهم، وقال قتادة: يقول الرجل: طوبى لك، أي أصبت خيراً، وقيل: حسنى لهم، ﴿وحسن مآب﴾ أي مرجع، وهذه الأقوال لا منافاة بينها، وروى السدي عن عكرمة: طوبى لهم هي الجنة، وبه قال مجاهد.

وروى ابن جرير، عن شهر بن حوشب قال: طوبى شجرة في الجنة كل شجر الجنة منها أغصانها، وهكذا روى غير واحد من السلف أن طوبى شجرة في الجنة في كل دار منها غصن منها، وذكر بعضهم أن الرحمن تبارك وتعالى غرسها بيده من حبة لؤلؤة وأمرها أن تمتد، فامتدت إلى حيث يشاء الله تبارك وتعالى، وخرجت من أصلها ينابيع أنهار الجنة من عسل وخمر وماء ولبن. وروى البخاري ومسلم عن سهل بن سعد رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها»، قال: فحدثت بها النعمان بن أبي عياش الزرقني فقال: حدثني أبو سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال: «إن في الجنة شجرة يسير الراكب الجواد المضمر السريع مائة عام ما يقطعها. وفي صحيح البخاري عن أنس رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ في قول الله تعالى: ﴿وظل مملود﴾ قال: «في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها».

كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لَتَتْلُوا عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابٍ ﴿٣٠﴾

يقول تعالى وكما أرسلناك يا محمد في هذه الأمة ﴿لتتلوا عليهم الذي أوحينا إليك﴾ أي تبلغهم رسالة الله إليهم كذلك أرسلنا في الأمم الماضية الكافرة بالله، وقد كذب الرسل من قبلك فلك بهم أسوة، وكما أوقعنا بأسنا ونقمنا بأولئك فليحذر هؤلاء من حلول النقم بهم، قال الله تعالى: ﴿ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا﴾ أي كيف نصرناهم وجعلنا العاقبة لهم ولأتباعهم في الدنيا والآخرة، وقوله: ﴿وهم يكفرون بالرحمن﴾ أي هذه الأمة التي بعثناك فيها يكفرون بالرحمن لا يقرون به، لأنهم كانوا يأنفون من وصف الله بـ ﴿الرحمن الرحيم﴾ ولهذا أنفوا يوم الحديبية أن يكتبوا بسم الله الرحمن الرحيم، وقالوا: ما ندري ما الرحمن الرحيم^(١). وفي صحيح مسلم: «إن أحب الأسماء إلى الله عبد الله وعبد الرحمن». ﴿قل هو ربي لا إله إلا هو﴾ أي هذا الذي تكفرون به أنا مؤمن به معترف مقر له بالرؤية والإلهية، هو ربي لا إله إلا هو ﴿عليه توكلت﴾ أي في جميع أمور، ﴿وإليه متاب﴾ أي إليه أرجع وأنيب فإنه لا يستحق ذلك أحد سواه.

(١) قاله قتادة، والحديث في صحيح البخاري.

وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كَلِمَةٌ بِهِ الْمَوْتَىٰ بَلِ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَأْيِسَ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَىٰ النَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿٣١﴾

يقول تعالى مادحاً للقرآن الذي أنزله على محمد ﷺ ومفضلاً له على سائر الكتب المنزلة قبله: ﴿ولو أن قرآناً سيرت به الجبال﴾ أي لو كان في الكتب الماضية كتاب تسير به الجبال عن أماكنها، أو تقطع به الأرض وتنشق، أو تكلم به الموتى في قبورها، لكان هذا القرآن هو المتصف بذلك دون غيره، أو بطريق الأولى أن يكون كذلك، لما فيه من الإعجاز الذي لا يستطيع الإنسان والجن عن آخرهم إذا اجتمعوا أن يأتوا بمثله ولا بسورة من مثله، ومع هذا فهؤلاء المشركون كافرون به جاحدون له، ﴿بل لله الأمر جميعاً﴾ أي مرجع الأمور كلها إلى الله عز وجل ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وقد يطلق اسم القرآن على كل من الكتب المتقدمة لأنه مشتق من الجمع، وفي الحديث الصحيح، قال رسول الله ﷺ: «خفف على داود القرآن، فكان يأمر بدابته أن تسرح، فكان يقرأ القرآن من قبل أن تسرح دابته، وكان لا يأكل إلا من عمل يديه»^(١)، والمراد بالقرآن هو الزبور، وقوله: ﴿أفلم ييأس الذين آمنوا﴾ أي من إيمان جميع الخلق ويعلموا أو يتبينوا ﴿أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً﴾ فإنه ليس ثم حجة ولا معجزة، أبلغ ولا أجمع في العقول والنفوس، من هذا القرآن الذي لو أنزله الله عز وجل على جبل لرأيت حاشعاً متصدعاً من خشية الله، وثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «ما من نبي إلا وقد أوتي ما آمن على مثله البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة» معناه أن معجزة كل نبي انقرضت بموته وهذا القرآن حجة باقية على الآباد لا تنقضي عجائبه، ولا يخلق عن كثرة الرد، ولا يشبع منه العلماء.

وروي أن المشركين قالوا لمحمد ﷺ: لو سيرت لنا جبال مكة حتى تتسع فنحرق فيها، أو قطعت لنا الأرض كما كان سليمان يقطع لقومه بالريح، أو أحييت لنا الموتى كما كان عيسى يحيي الموتى لقومه، فأنزل الله هذه الآية: ﴿ولو أن قرآناً سيرت به الجبال﴾^(٢). وقال قتادة: لو فعل هذا بقرآن غير قرآنكم لفعل بقرآنكم، وقوله: ﴿بل لله الأمر جميعاً﴾ قال ابن عباس: أي لا يصنع من ذلك إلا ما شاء ولم يكن ليفعل. وقال غير واحد من السلف في قوله: ﴿أفلم ييأس الذين آمنوا﴾ أفلم يعلم الذين آمنوا، وقوله: ﴿ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة أو تحل قريباً من دارهم﴾ أي بسبب تكذيبهم لا تزال القوارع تصيبهم في الدنيا أو تصيب من حولهم ليتعظوا ويعتبروا، كما قال تعالى: ﴿أفلا يرون أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها أفهم الغالبون﴾، قال الحسن: ﴿أو تحل قريباً من دارهم﴾: أي القارعة، وهذا هو الظاهر من السياق، وقال العوفي عن ابن عباس ﴿تصيبهم بما

(١) أخرجه البخاري وأحمد عن أبي هريرة.

(٢) رواه ابن أبي حاتم، وبه قال ابن عباس والشعبي وقتادة وغير واحد في سبب نزول هذه الآية.

صنعوا قارعة ﴿﴾ قال: عذاب من السماء يتزل عليهم، ﴿﴾ أو تحل قريباً من دارهم ﴿﴾ يعني نزول رسول الله ﷺ بهم وقتاله إياهم؛ وقال عكرمة في رواية عنه ﴿﴾ قارعة ﴿﴾: أي نكبة، ﴿﴾ حتى يأتي وعد الله ﴿﴾ يعني فتح مكة، وقال الحسن البصري: يوم القيامة، وقوله: ﴿﴾ إن الله لا يخلف الميعاد ﴿﴾ أي لا يتقض وعده لرسله بالنصرة لهم ولأتباعهم في الدنيا والآخرة: ﴿﴾ فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله إن الله عزيز ذو انتقام ﴿﴾.

﴿﴾ وَلَقَدْ اسْتَهْزَيْتُمْ بِرُسُلِنَا مِن قَبْلِكَ فَأَمَلَيْتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾

يقول تعالى مسلماً لرسوله ﷺ في تكذيب من كذبه من قومه: ﴿﴾ ولقد استهزئ برسل من قبلك ﴿﴾ أي فلك فيهم أسوة، ﴿﴾ فأمليت للذين كفروا ﴿﴾ أي أنظرتهم وأجلتهم، ﴿﴾ ثم أخذتهم ﴿﴾ أخذة رابية فكيف بلغك ما صنعت بهم وكيف كان عقابي لهم؟ كما قال تعالى: ﴿﴾ وكأين من قرية أملت لها وهي ظالمة ثم أخذتها وإلي المصير ﴿﴾. وفي الصحيحين: «إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته»، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿﴾ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد ﴿﴾.

﴿﴾ أَفَمَن هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلُوبَهُمْ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ مِمَّنْ يَبْظَاهِرُونَ مِنَ الْقَوْلِ بَلْ زِينٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرَهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَن يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن هَادٍ ﴿٣٣﴾

يقول تعالى: ﴿﴾ أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت ﴿﴾ أي حفيظ علم رقيب على كل نفس منقوسة يعلم ما يعمل العاملون من خير وشر ولا يخفى عليه خافية ﴿﴾ ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهوداً إذ تفيضون فيه ﴿﴾، وقال تعالى: ﴿﴾ وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ﴿﴾، وقال: ﴿﴾ سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار ﴿﴾، وقال: ﴿﴾ يعلم السر وأخفى ﴿﴾، وقال: ﴿﴾ وهو معكم أين ما كنتم والله بما تعملون بصير ﴿﴾، أفمن هو كذلك كالأصنام التي يعبدونها لا تسمع ولا تبصر ولا تعقل ولا تكشف ضراً عنها ولا عن عابديها؟ وحذف هذا الجواب اكتفاء بدلالة السياق عليه، وهو قوله: ﴿﴾ وجعلوا لله شركاء ﴿﴾ أي عبدوها معه من أصنام وأنداد وأوثان، ﴿﴾ قل سموهم ﴿﴾ أي أعلمونا بهم واكشفوا عنهم حتى يعرفوا فإنهم لا حقيقة لهم، ولهذا قال: ﴿﴾ أم تنبئونه بما لا يعلم في الأرض ﴿﴾ أي لا وجود له، لأنه لو كان لها وجود في الأرض لعلمها، لأنه لا تخفى عليه خافية ﴿﴾ أم بظاهر من القول ﴿﴾، قال مجاهد: بظن من القول، وقال الضحاك وقتادة: يبطل من القول، أي إنما عبدتم هذه الأصنام بظن منكم أنها تنفع وتضر وسميتوها آلهة، ﴿﴾ إن هي إلا أسماء سميتموها أتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ﴿﴾، ﴿﴾ بل زين للذين كفروا مكرهم ﴿﴾ قال مجاهد: قولهم أي ما هم عليه من الضلال والدعوة إليه آناء الليل وأطراف النهار، كقوله تعالى: ﴿﴾ وقبضنا لهم قرناء فزينوا لهم ﴿﴾ الآية، ﴿﴾ وصدوا عن السبيل ﴿﴾ أي بما زين لهم من صحة ما هم عليه صلوا به عن سبيل الله، ولهذا قال: ﴿﴾ ومن يضلل الله فما له من هادٍ ﴿﴾، كما قال: ﴿﴾ ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئاً ﴿﴾، وقال: ﴿﴾ إن تحرص على هداهم فإن الله لا يهدي من يضل وما لهم من ناصرين ﴿﴾.

لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ ﴿٣٤﴾ * مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلُّهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ ﴿٣٥﴾

ذكر تعالى عقاب الكفار وثواب الأبرار، فقال بعد إخباره عن حال المشركين وما هم عليه من الكفر والشرك: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي بأيدي المؤمنين قتلاً وأسراً، ﴿وَلِعَذَابِ الْآخِرَةِ﴾ أي المدخر مع هذا الخزي في الدنيا ﴿أَشَقُّ﴾ أي من هذا بكثير كما قال رسول الله ﷺ للمتلاعنين: «إن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة»، وهو كما قال صلوات الله وسلامه عليه: فإن عذاب الدنيا له انقضاء، وذلك دائم أبداً في نار هي بالنسبة إلى هذه سبعون ضعفاً، ووثاق لا يتصور كثافته وشدته، كما قال تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ وَلَا يُوثِقُ وِثْقَهُ أَحَدٌ﴾، وقال تعالى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَبَ بِالسَّاعَةِ سَعيراً﴾ * إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظاً وزفيراً ﴿ولهذا قرن هذا بقوله: ﴿مثل الجنة التي وعد المتقون﴾ أي صفتها ونعتها ﴿تجري من تحتها الأنهار﴾ أي سارحة في أرجائها وجوانبها، وحيث شاء أهلها يفجرونها تفجيراً، أي يصرفونها كيف شاءوا وأين شاءوا، كقوله: ﴿مثل الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن﴾ الآية، وقوله: ﴿أكلها دائم وظلها﴾ أي فيها الفواكه والمطاعم والمشارب لا انقطاع ولا فناء. وفي الصحيحين من حديث ابن عباس في صلاة الكسوف، وفيه قالوا: يا رسول الله رأيناك تناولت شيئاً في مقامك هذا ثم رأيناك تكعكت، فقال: «إني رأيت الجنة - أو أريت الجنة - فتناولت منها عنقوداً، ولو أخذته لأكلتم منه ما بقيت الدنيا». وقال الحافظ أبو يعلى، عن جابر قال: بينما نحن في صلاة الظهر، إذ تقدم رسول الله ﷺ فتقدمنا، ثم تناول شيئاً ليأخذه ثم تأخر، فلما قضى الصلاة قال له أبي بن كعب: يا رسول الله صنعت اليوم في الصلاة شيئاً ما رأيناك كنت تصنعه، فقال: ﴿إني عرضت عليّ الجنة وما فيها من الزهرة والنضرة، فتناولت منها قطفاً من عنب لآتيكم به فحيل بيني وبينه، ولو أتيتكم به لأكل منه من بين السماء والأرض لا يفتنونه».

وروى الإمام أحمد والنسائي عن زيد بن أرقم قال: جاء رجل من أهل الكتاب فقال: يا أبا القاسم، تزعم أن أهل الجنة يأكلون ويشربون؟ قال: «نعم، والذي نفس محمد بيده إن الرجل منهم ليعطى قوة مائة رجل في الأكل والشرب والجماع والشهوة»، قال: إن الذي يأكل ويشرب تكون له الحاجة وليس في الجنة الأذى، قال: «تكون حاجة أحدهم رشحاً يفيض من جلودهم كريح المسك فيضمربطنه»، وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال، قال لي رسول الله ﷺ: «إنك لتنظر إلى الطير في الجنة فيخر بين يديك مشوياً»، وجاء في بعض الأحاديث أنه إذا فرغ منه عاد طائراً كما كان يأذن الله تعالى، وقد قال الله تعالى: ﴿وفاكهة كثيرة لا مقطوعة ولا ممنوعة﴾، وقال: ﴿ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلاً﴾، وكذلك ظلها لا يزول ولا يقلص كما قال تعالى: ﴿لهم فيها أزواج مطهرة وندخلهم ظلاً ظليلاً﴾. وقد تقدم في الصحيحين من غير وجه أن رسول الله ﷺ قال: «إن في الجنة شجرة يسير الراكب المجد الجواد المضمض السريع في ظلها مائة عام لا يقطعها» ثم قرأ: ﴿وظل ممدود﴾ وكثيراً ما يقرن الله تعالى بين صفة الجنة وصفة النار ليرغب في الجنة ويحذر من النار؛ ولهذا لما ذكر صفة الجنة

بما ذكر قال بعده: ﴿تلك عقبى الذين اتقوا وعقبى الكافرين النار﴾، كما قال تعالى: ﴿لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة، أصحاب الجنة هم الفائزون﴾.

وَالَّذِينَ اتَّبَعَتْهُمْ أَكْتَبَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَعَابِدٌ ﴿٣٦﴾ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنْ أَلْعَلِمَ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾

يقول تعالى: ﴿والذين آتيناهم الكتاب﴾ وهم قائلون بمقتضاه ﴿يفرحون بما أنزل إليك﴾ أي من القرآن لما في كتبهم من الشواهد على صدقه والبشارة، كما قال الله تعالى: ﴿قل آمنوا به أو لا تؤمنوا - إلى قوله - إن كان وعد ربنا لمفعولاً﴾ أي إن كان ما وعدنا الله به في كتبنا من إرسال محمد ﷺ لحقاً وصدقاً مفعولاً لا محالة وكائناً وقوله: ﴿ومن الأحزاب من ينكر بعضه﴾ أي ومن الطوائف من يكذب بعض ما أنزل إليك، وقال مجاهد ﴿ومن الأحزاب﴾: أي اليهود والنصارى ﴿من ينكر بعضه﴾ أي بعض ما جاءك من الحق، وهذا كما قال تعالى: ﴿وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله﴾ الآية، ﴿قل إنما أمرت أن أعبد الله ولا أشرك به﴾، أي إنما بعثت بعبادة الله وحده لا شريك له، كما أرسل الأنبياء من قبلي، ﴿إليه أَدْعُوا﴾ أي إلى سبيله أَدْعُوا الناس، ﴿وإليه مآب﴾ أي مرجعي ومصيري، وقوله: ﴿وكذلك أنزلناه حكماً عربياً﴾ أي وكما أرسلنا قبلك المرسلين وأنزلنا عليهم الكتب من السماء، كذلك أنزلنا عليك القرآن محكماً عربياً شرفناك به وفضلناك على من سواك بهذا الكتاب المبين الواضح الجلي، الذي ﴿لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد﴾. وقوله: ﴿ولئن اتبعت أهواءهم﴾ أي آراءهم ﴿بعد ما جاءك من العلم﴾ أي من الله سبحانه، ﴿ما لك من الله من وليٍّ ولا واقٍ﴾، وهذا وعيد لأهل العلم أن يتبعوا سبيل أهل الضلالة بعد ما صاروا إليه من سلوك السنة النبوية، والمحنة المحمدية على من جاء بها أفضل الصلاة والسلام.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِعَايَةٍ إِلَّا بِيَاذِنِ اللَّهُ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٍ ﴿٣٨﴾ يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴿٣٩﴾

يقول تعالى: وكما أرسلناك يا محمد رسولاً بشرياً، كذلك قد بعثنا المرسلين قبلك بشراً يأكلون الطعام، ويمشون في الأسواق، ويأتون الزوجات، ويولد لهم، وجعلنا لهم أزواجاً وذرية، وقد قال تعالى لأشرف الرسل وخاتمهم: ﴿قل إنما أنا بشر مثلكم يوحي إلي﴾، وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «أما أنا فأصوم وأفطر وأقوم وأنام، وآكل اللحم، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني». وقوله: ﴿وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله﴾ أي لم يكن يأتي قومه بخارق، إلا إذا أذن له فيه، ليس ذلك إليه بل إلى الله عز وجل، يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، ﴿لكل أجل كتاب﴾ أي لكل مدة مضروبة كتاب مكتوب بها وكل شيء عنده

بمقدار، ﴿ألم تعلم أن الله يعلم ما في السموات والأرض إن ذلك في كتاب إن ذلك على الله يسير﴾. وكان الضحك يقول: ﴿لكل أجل كتاب﴾: أي لكل كتاب أجل، يعني لكل كتاب أنزل من السماء مدة مضروبة عند الله ومقدار معين، فهذا ﴿يمحو الله ما يشاء﴾ منها ﴿ويثبت﴾ يعني حتى نسخت كلها بالقرآن الذي أنزله الله على رسوله صلوات الله وسلامه عليه، وقوله: ﴿يمحو الله ما يشاء ويثبت﴾ اختلف المفسرون في ذلك: فقال الثوري، عن ابن عباس: يدبر أمر السنة، فيمحو الله ما يشاء، إلا الشقاء والسعادة والحياة والموت. وفي رواية ﴿يمحو الله ويثبت﴾ قال: كل شيء إلا الموت والحياة، والشقاء والسعادة، فإنه قد فرغ منهما^(١)، وقال منصور: سألت مجاهداً فقلت: رأيت دعاء أحدنا، يقول: اللهم إن كان اسمي في السعداء فأثبتته فيهم، وإن كان في الأشقياء فامححه عنهم، واجعله في السعداء، فقال: حسن؛ ثم لقيته بعد ذلك بحول أو أكثر فسألته عن ذلك، فقال: ﴿إنا أنزلناه في ليلة مباركة﴾ الآيتين، قال: يقضى في ليلة القدر ما يكون في السنة من رزق أو معصية، ثم يقدم ما يشاء ويؤخر ما يشاء، فأما كتاب السعادة والشقاوة فهو ثابت لا يغير، وقال الأعمش عن أبي وائل: إنه كان كثيراً يدعو بهذا الدعاء: اللهم إن كنت كتبنا أشقياء فامححه، واكتبنا سعداء، وإن كنت كتبنا سعداء فأثبتنا، فإنك تمحو ما تشاء وتثبت وعندك أم الكتاب^(٢)، وقال ابن جرير، عن أبي عثمان النهدي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال وهو يطوف بالبيت ويبيكي: اللهم إن كنت كتبت علي شقوة أو ذنباً فامححه، فإنك تمحو ما تشاء وتثبت وعندك أم الكتاب، فاجعله سعادة ومغفرة.

ومعنى هذه الأقوال أن الأقدار ينسخ الله ما يشاء منها ويثبت منها ما يشاء، وقد يستأنس لهذا القول بما رواه الإمام أحمد، عن ثوبان قال، قال رسول الله ﷺ: «إن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه، ولا يرد القدر إلا الدعاء، ولا يزيد في العمر إلا البر»^(٣) وثبت في الصحيح أن صلة الرحم يزيد في العمر، وفي حديث آخر: «إن الدعاء والقضاء ليعتلجان بين السماء والأرض». وقال الكلبي: يمحو من الرزق ويزيد فيه، ويمحو من الأجل ويزيد فيه، وقال العوفي عن ابن عباس: هو الرجل يعمل الزمان بطاعة الله، ثم يعود لمعصية الله فيموت على ضلالة، فهو الذي يمحو؛ والذي يثبت الرجل يعمل بمعصية الله وقد كان سبق له خير حتى يموت وهو في طاعة الله وهو الذي يثبت. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿يمحو الله ما يشاء ويثبت﴾ يقول: يبدل ما يشاء فينسخه، ويثبت ما يشاء فلا يبدله ﴿وعنده أم الكتاب﴾، وجملة ذلك عنده في أم الكتاب الناسخ وما يبدل وما يثبت كل ذلك في كتاب، وقال مجاهد: قالت كفار قريش لما نزلت ﴿وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله﴾: ما نرى محمداً يملك شيئاً وقد فرغ من الأمر، فأنزلت هذه الآية مخوفاً ووعيداً لهم: إنا إن شئنا أحدثنا له من أمرنا ما شئنا، ونحدث في كل رمضان، فيمحو ما يشاء ويثبت ما يشاء من أرزاق الناس ومصائبهم وما يعطيهم وما يقسم لهم. وقال الحسن البصري ﴿يمحو الله ما يشاء ويثبت﴾ قال: من جاء أجله يذهب ويثبت الذي هو حي يجري إلى

(١) وهذا قول مجاهد أيضاً حيث قال: إلا الحياة والموت والشقاوة والسعادة فإنهما لا يتغيران.

(٢) أخرجه ابن جرير.

(٣) رواه أحمد والنسائي وابن ماجه.

أجله، وقد اختار هذا القول أبو جعفر بن جرير رحمه الله، وقوله: ﴿وعنده أم الكتاب﴾ قال: الحلال والحرام، وقال قتادة: أي جملة الكتاب وأصله، وقال ابن جريج عن ابن عباس: ﴿وعنده أم الكتاب﴾ قال: الذكر.

وَإِنَّمَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعْدُهُمْ أَوْ نتوفينك فإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَّغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴿٤٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي
الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٤١﴾

يقول تعالى لرسوله: ﴿وإما نرينك﴾ يا محمد بعض الذي نعد أعداءك من الخزي والنكال في الدنيا، ﴿أو توفينك﴾ أي قبل ذلك ﴿فإنما عليك البلاغ﴾ أي إنما أرسلناك لتبلغهم رسالة الله وقد فعلت ما أمرت به ﴿وعلينا الحساب﴾ أي حسابهم وجزاؤهم كقوله تعالى: ﴿إن إلينا إيابهم﴾ ثم إن علينا حسابهم. وقوله: ﴿أولم يروا أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها﴾ قال ابن عباس: أولم يروا أنا نفتح لمحمد ﷺ الأرض بعد الأرض، وقال مجاهد وعكرمة: ﴿ننقصها من أطرافها﴾ قال: خرابها، وقال الحسن والضحاك: هو ظهور المسلمين على المشركين، وقال: نقصان الأنفس والثمرات وخراب الأرض، وقال الشعبي: لو كانت الأرض تنقص لضاق عليك حشك^(١)، ولكن تنقص الأنفس والثمرات، وقال ابن عباس في رواية: خرابها بموت علمائها وفقهائها وأهل الخير منها. وكذا قال مجاهد أيضاً: هو موت العلماء، وأنشد أحمد بن نمرال:

الأرض تحيا إذا ما عاش عالمها متى يموت عالم منها يموت طرف
كالأرض تحيا إذا ما الغيث حلَّ بها وإن أبي عاد في أكنافها التلف

والقول الأول أولى، وهو ظهور الإسلام على الشرك قرية بعد قرية، كقوله: ﴿ولقد أهلكتنا ما حولكم من القرى﴾ الآية، وهذا اختيار ابن جرير.

وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفْرُ لِمَنْ عُقِبِيَ الدَّارِ ﴿٤٢﴾

يقول تعالى: ﴿وقد مكر الذين من قبلهم﴾ يرسلهم وأرادوا إخراجهم من بلادهم ففكر الله بهم وجعل العاقبة للمتقين كقوله: ﴿وإذ يمكر بك الذين كفروا﴾ الآية، وقوله تعالى: ﴿ومكروا مكراً ومكرنا مكراً وهم لا يشعرون﴾ وقوله: ﴿يعلم ما تكسب كل نفس﴾ أي أنه تعالى عالم بجميع السرائر والضمائر وسيجزى كل عامل بعمله، ﴿وسيعلم الكفار لمن عقبي الدار﴾ أي لمن تكون الدائرة والعاقبة لهم أو لأتباع الرسل، كلا، بل هي لأتباع الرسل في الدنيا والآخرة والله الحمد والمنة.

* وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴿٤٣﴾

يقول تعالى: يكذبك هؤلاء الكفار ويقولون: ﴿لست مرسلًا﴾ أي ما أرسلك الله، ﴿قل كفى بالله شهيداً

(١) الحشَّ والحش: البستان، قال في القاموس: الحشُّ مثلثة: المخرج لانهم كانوا يقضون حوائجهم في البساتين.

بيني وبينكم ﴿ أي حسبي الله هو الشاهد عليّ وعليكم ، شاهد عليّ فيما بلغت عنه من الرسالة ، وشاهد عليكم أيها المكذبون فيما تفترونه من البهتان ، وقوله : ﴿ ومن عنده علم الكتاب ﴾ قيل نزلت في عبد الله بن سلام ، وهذا القول غريب ، لأن هذه الآية مكية ، وعبد الله بن سلام إنما أسلم في أول مقدم النبي ﷺ المدينة ، والأظهر في هذا ما قاله ابن عباس : هم من اليهود والنصارى ، وهو يشمل علماء أهل الكتاب الذين يجدون صفة محمد ﷺ ونعته في كتبهم المتقدمة من بشارات الأنبياء به ، كما قال تعالى : ﴿ الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذين يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل ﴾ الآية ، وقال تعالى : ﴿ أولم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل ﴾ ، وأمثال ذلك مما فيه الإخبار عن علماء بني إسرائيل أنهم يعلمون ذلك من كتبهم المنزلة .

[تمّ تفسير سورة الرعد ، ولله الحمد والمنة] .

* * *

(١٤) سُورَةُ إِبْرَاهِيمَ مَكِّيَّةٌ
وَأَيَّانَهَا ثَنَانٌ وَخَمْسُونَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّ كَتَبُ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿١﴾
اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ
الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿٣﴾

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة في أوائل السور. ﴿ كتاب أنزلناه إليك ﴾ أي هذا كتاب أنزلناه إليك يا محمد، وهو (القرآن العظيم) الذي هو أشرف كتاب أنزله الله من السماء، على أشرف رسول بعثه الله في الأرض، إلى جميع أهلها عربهم وعجمهم، ﴿ لتخرج الناس من الظلمات إلى النور ﴾ أي إنما بعثناك يا محمد بهذا الكتاب لتخرج الناس مما هم فيه من الضلال والغي، إلى الهدى والرشد، كما قال تعالى: ﴿ هو الذي ينزل على عبده آيات بينات ليخرجكم من الظلمات إلى النور ﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿ بإذن ربهم ﴾ أي هو الهادي لمن قدر له الهداية على يدي رسوله المبعوث عن أمره، يهديهم ﴿ إلى صراط العزيز ﴾ أي العزيز الذي لا يمانع ولا يغالب بل هو القاهر لكل ما سواه، ﴿ الحميد ﴾ أي المحمود في جميع أفعاله وأقواله وشرعته وأمره ونهيه، الصادق في خبره، ﴿ الله الذي له ما في السموات وما في الأرض ﴾ بالجر على الاتباع صفة للجلالة، كقوله تعالى: ﴿ قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً الذي له ملك السموات والأرض ﴾ الآية. وقوله: ﴿ وويل للكافرين من عذاب شديد ﴾ أي ويل لهم يوم القيامة إذ خالفوك يا محمد وكذبوك، ثم وصفهم بأنهم يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة، أي يقدمونها ويؤثرونها عليها ويعملون للدنيا، ونسوا الآخرة وتركوها وراء ظهورهم. ﴿ ويصدون عن سبيل الله ﴾ وهي اتباع الرسل، ﴿ ويبغونها عوجاً ﴾ أي ويحبون أن تكون سبيل الله عوجاً مائلة عائلة، وهي مستقيمة في نفسها، لا يضرها من خالفها ولا من خذلها، فهم في ابتغائهم ذلك في جهل وضلال بعيد من الحق لا يرجي لهم والحالة هذه صلاح.

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ

الْحَكِيمُ ﴿٤﴾

هذا من لطفه تعالى بخلقه أنه يرسل إليهم رسلاً منهم بلغاتهم، ليفهموا عنهم ما يريدون وما أرسلوا به إليهم، كما روى الإمام أحمد عن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «لم يبعث الله عز وجل نبياً إلا بلغه قومه». وقوله: ﴿يفضل الله من يشاء ويهدي من يشاء﴾ أي بعد البيان وإقامة الحججة عليهم، يضل الله من يشاء عن وجه الهدى، ويهدي من يشاء إلى الحق ﴿وهو العزيز﴾ الذي ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، ﴿الحكيم﴾ في أفعاله يفضل من يستحق الإضلال، ويهدي من هو أهل لذلك.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِآيَاتِنَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾

يقول تعالى: وكما أرسلناك يا محمد وأنزلنا عليك الكتاب، لتخرج الناس من الظلمات إلى النور، كذلك أرسلنا موسى إلى بني إسرائيل بآياتنا. قال مجاهد: هي التسع الآيات، ﴿أن أخرج قومك﴾ أي أمرناه قائلين له: ﴿أخرج قومك من الظلمات إلى النور﴾ أي ادعهم إلى الخير ليخرجوا من ظلمات ما كانوا فيه من الجهل والضللال، إلى نور الهدى وبصيرة الإيمان، ﴿وذكّرهم بأيام الله﴾ أي بأياديه ونعمه عليهم^(١)، في إخراجه إياهم من أسر فرعون وقهره وظلمه وغشمه، وإنجائه إياهم من علوهم، وقلقه لهم البحر، وتظليله إياهم الغمام، وإنزاله عليهم المن والسلوى، إلى غير ذلك من النعم. قال ذلك مجاهد وقتادة وغير واحد. وقوله: ﴿إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور﴾ أي إن فيما صنعنا بأوليائنا بني إسرائيل حين أنقذناهم من يد فرعون، وأنجيناهم مما كانوا فيه من العذاب المهين، لبرة لكل ﴿صبار﴾ أي في الضراء، ﴿شكور﴾ أي في السراء، كما قال قتادة: نعم العبد عبد إذا ابتلي صبر، وإذا أعطي شكر. وكذا جاء في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن أمر المؤمن كله عجب، لا يقضي الله له قضاء إلا كان خيراً له، إن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له، وإن أصابته سراء شكر فكان خيراً له».

وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ أَذْكُرُونَ نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيَدْبِجُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ إِنَّ تَكْفُرًا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾

يقول تعالى مخبراً عن موسى حين ذكر قومه بأيام الله عندهم ونعمه عليهم، إذ أنجاهم من آل فرعون وما كانوا

(١) ورد تفسير ﴿أيام الله﴾ بالنعم في حديث مرفوع في المسند عن النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿وذكّرهم بأيام الله﴾ قال: بنعم الله، قال ابن كثير: وورد موقوفاً وهو أشبه.

يسومونهم به من العذاب والإذلال، حيث كانوا يذبحون من وجد من أبنائهم، ويتركون إناهم فأنقذهم الله من ذلك، وهذه نعمة عظيمة، ولهذا قال: ﴿ وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم ﴾ أي نعمة عظيمة منه عليكم في ذلك أتم عاجزون عن القيام بشكرها. وقيل ﴿ بلاء ﴾ أي اختبار عظيم، ويحتمل أن يكون المراد هذا، وهذا - والله أعلم - كقوله تعالى: ﴿ وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون ﴾، وقوله: ﴿ وإذ تأذن ربكم ﴾ أي أذنكم وأعلمكم بوعده لكم؛ ويحتمل أن يكون المعنى: وإذ أقسم ربكم وآلى بعزته وجلاله وكبريائه، كقوله تعالى: ﴿ وإذ تأذن ربك ليعثن عليهم إلى يوم القيامة ﴾. وقوله: ﴿ لئن شكرتم لأزيدنكم ﴾ أي لئن شكرتم نعمتي عليكم لأزيدنكم منها، ﴿ ولئن كفرتم ﴾ أي كفرتم النعم وسترتموها وجحدتموها، ﴿ إن عذابي لشديد ﴾ وذلك بسلبها عنهم وعقابه إياهم على كفرها، وقد جاء الحديث: « إن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه ». وقوله تعالى: ﴿ وقال موسى إن تكفروا أتم ومن في الأرض جميعاً فإن الله لغني حميد ﴾ أي هو غني عن شكر عباده، وهو الحميد الم محمود وإن كفره من كفره .

الرَّيَاتِكُمْ نَبُؤُا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ

مريب ①

قص الله علينا خبر قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم من الأمم المكذبة للرسل مما لا يحصي عددهم إلا الله عز وجل، ﴿ جاءتهم رسلهم بالبينات ﴾ أي بالحجج والدلائل الواضحات الباهرات القاطعات، وقوله: ﴿ فردوا أيديهم في أفواههم ﴾ اختلف المفسرون في معناه، قيل: معناه أنهم أشاروا إلى أفواه الرسل يأمرؤنهم بالسكوت عنهم لما دعواهم إلى الله عز وجل، وقيل: بل وضعوا أيديهم على أفواههم تكديماً لهم، وقال مجاهد وقتادة: معناه أنهم كذبوهم وردوا عليهم قولهم بأفواههم، ويؤيد قول مجاهد: تفسير ذلك بتام الكلام ﴿ وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به وإنا لفي شك مما تدعوننا إليه مريب ﴾ فكان هذا - والله أعلم - تفسير لمعنى: ﴿ فردوا أيديهم في أفواههم ﴾، وقال العوفي عن ابن عباس: لما سمعوا كلام الله عجبوا ورجعوا بأيديهم إلى أفواههم، وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به الآية، يقولون: لا نصدقكم فيما جئتم به فإن عندنا فيه شكاً قوياً .

* قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَلِى اللَّهِ شَكُّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ① قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۗ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ② وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ

عَلَىٰ مَاءٍ أَذِيْتُمْوْنَا وَعَلَىٰ ٱللَّهِ فَلَيتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾

يخبر تعالى عما دار بين الكفار وبين رسلهم من المجادلة، وذلك أن أمهم لما واجهوهم بالشك فيما جاؤوهم به من عبادة الله وحده لا شريك له، قالت الرسل: ﴿أفي الله شك﴾، أفي وجوده شك؟ فإن الفطر شاهدة بوجوده ومجبولة على الإقرار به، فإن الاعتراف به ضروري في الفطر السليمة، ولكن قد يعرض لبعضها شك واضطرار، فحتاج إلى النظر في الدليل الموصول إلى وجوده، ولهذا قالت الرسل ترشدكم إلى طريق معرفته بأنه: ﴿فاطر السموات والأرض﴾ الذي خلقهما وابتدعهما على غير مثال سبق، فإن شواهد الحدوث والخلق والتسخير ظاهر عليهما فلا بد لهما من صانع، وهو الله لا إله إلا هو خالق كل شيء وإلاهه ومليكه، وقالت لهم رسلهم: ﴿يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم﴾ أي في الدار الآخرة، ﴿ويؤخركم إلى أجل مسمى﴾ أي في الدنيا، فقالت لهم الأمم: ﴿إن أتمم إلا بشر مثلنا﴾ أي كيف تتبعكم بمجرد قولكم ولما نر منكم معجزة، ﴿فأتونا بسلطان مبين﴾ أي خارق تقترحه عليكم، ﴿قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم﴾ أي صحيح إنا بشر مثلكم في البشرية، ﴿ولكن الله يمنّ على من يشاء من عباده﴾ أي بالرسالة والنبوة، ﴿وما كان لنا أن نأتىكم بسلطان﴾ على وفق ما سألتهم ﴿إلا بإذن الله﴾، أي بعد سؤالنا إياه وإذنه لنا في ذلك، ﴿وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾ أي في جميع أمورهم. ثم قالت الرسل: ﴿وما لنا أن لا نتوكل على الله﴾ أي وما يمنعنا من التوكل عليه؟ وقد هداانا لأقوم الطرق وأوضحها وأبينها، ﴿ولنصبرنّ على ما آذيتمونا﴾ أي من الكلام السيء والأفعال السخيفة، ﴿وعلى الله فيتوكل المتوكلون﴾.

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِّنْ أَرْضِنَاۤءٍ أَوْ لَتَعُوْدُنَّ فِي مِلَّتِنَاۤءٍ فَأُوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ذَٰلِكَ لِمَن خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ وَأَسْتَفْتَحُوا۟ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّنۢ وَّرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِنۢ مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَجْرَعُهُۥ وَلَا يَكَادُ لِيُسِغَهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِّنۢ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنۢ وَّرَآئِهِۦ عَذَابٌۭ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾

يخبر تعالى عما توعدت به الأمم الكافرة رسلهم من الإخراج من أرضهم والنفي من بين أظهرهم، كما قال قوم شعيب له ولئن آمن به: ﴿لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا﴾ الآية، وكما قال قوم لوط: ﴿أخرجوا آل لوط من قريبتكم﴾ الآية، ولهذا قال تعالى: ﴿فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين﴾. ولنسكننكم الأرض من بعدهم، كما قال تعالى: ﴿وإن جندنا لهم الغالبون﴾، وقال تعالى: ﴿كتب الله لأغلبن أنا ورسلي إن الله قوي عزيز﴾، وقال تعالى: ﴿وقال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين﴾، وقال تعالى: ﴿وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها﴾، وقوله: ﴿ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيدي﴾ أي وعيدي، هذا لمن خاف مقامي بين يدي يوم القيامة، وخشي من وعيدي وهو تخويفي وعذابي، كما قال تعالى: ﴿فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا فإن الجحيم هي المأوى﴾،

وقال: ﴿ولمن خاف مقام ربه جنتان﴾، وقوله: ﴿واستفتحوا﴾ أي استنصرت الرسل ربها على قومهم^(١)، وقال ابن أسلم: استفتحت الأمم على أنفسها، كما قالوا: ﴿اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم﴾، ويحتمل أن يكون هذا مراداً، وهذا مراداً، كما أنهم استفتحوا على أنفسهم يوم بدر، واستفتح رسول الله ﷺ واستنصر، وقال الله تعالى للمشركين: ﴿إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح وإن تنتهوا فهو خير لكم﴾ الآية، ﴿وخاب كل جبار عنيد﴾ أي متجبر في نفسه عنيد معاند للحق، كقوله تعالى: ﴿ألقيا في جهنم كل كفار عنيد، منع للخير معتد مريب﴾. وفي الحديث: «إنه يؤتى بجهنم يوم القيامة، فتنادي الخلائق فتقول: إني وكلت بكل جبار عنيد» الحديث، وقوله: ﴿من ورائه جهنم﴾ وراء هنا بمعنى أمام، كقوله تعالى: ﴿وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصباً﴾، وكان ابن عباس يقرؤها: وكان أمامهم ملك، أي من وراء الجبار العنيد جهنم، أي هي له بالمرصاد يسكنها مخلدلاً يوم المعاد، ويعرض عليها غدواً وعشيا إلى يوم التناد، ﴿ويسقى من ماء صديد﴾ أي في النار ليس له شراب إلا من حميم وغساق، كما قال: ﴿هذا فليذوقوه حميم وغساق وآخر من شكله أزواج﴾، وقال مجاهد: الصديد من القيح والدم. وقال قتادة: هو ما يسيل من لحمه وجلده، وفي رواية عنه: الصديد ما يخرج من جوف الكافر فقد خالط القيح والدم، وفي حديث شهر بن حوشب عن أسماء بنت يزيد ابن السكن قالت، قلت: يا رسول الله ما طينة الخبال؟ قال: «صديد أهل النار»، وفي رواية: «عصارة أهل النار»، وقال الإمام أحمد، عن أبي أمامة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ في قوله: ﴿ويسقى من ماء صديد يتجرعه﴾ قال: «يقرب إليه فيتكرهه، فإذا أدنى منه شوي وجهه ووقعت فروة رأسه، فإذا شربه قطع أمعاءه حتى يخرج من دبره»، يقول تعالى: ﴿وسقوا ماء حميماً فقطع أمعاءهم﴾، ويقول: ﴿وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه﴾ الآية^(٢).

وقوله تعالى: ﴿يتجرعه﴾ أي يتغصصه ويتكرهه، أي يشربه قهراً وقسراً لا يضعه في فمه حتى يضربه الملك بمطراق من حديد، كما قال تعالى: ﴿ولهم مقامع من حديد﴾، ﴿ولا يكاد يسيغه﴾ أي يزدرده لسوء طعمه ولونه وريحه وحرارته أو برده الذي لا يستطيع، ﴿ويأتيه الموت من كل مكان﴾ أي يألم له جميع بدنه من كل عظم وعصب وعرق، وقال عكرمة: حتى من أطراف شعره، وقال ابن عباس: ﴿ويأتيه الموت من كل مكان﴾ قال: أنواع العذاب الذي يعذبه الله بها يوم القيامة في نار جهنم ليس منها نوع إلا يأتيه الموت منه، لو كان يموت، ولكن لا يموت لأن الله تعالى قال: ﴿لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها﴾، ومعنى كلام ابن عباس رضي الله عنه أنه ما من نوع من هذه الأنواع من العذاب إلا إذا ورد عليه، اقتضى أن يموت منه لو كان يموت، ولكنه لا يموت ليخلد في دوام العذاب والنكال، ولهذا قال تعالى: ﴿ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت﴾، وقوله: ﴿ومن ورائه عذاب غليظ﴾ أي وله من بعد هذه الحال عذاب آخر غليظ أي مؤلم صعب شديد أغلظ من الذي قبله وأدهى وأمر، وهذا كما قال تعالى عن شجرة الزقوم: ﴿فإنهم لا يكلون منها فالثون منها البطون * ثم إن لهم عليها لشوباً من حميم * ثم إن مرجعهم لإلى الجحيم﴾، فأخبر أنهم تارة يكونون في أكل زقوم، وتارة في

(٢) أخرجه الإمام أحمد وابن جرير .

(١) قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة .

شرب حميم ، وتارة يردون إلى جحيم ، عياداً بالله من ذلك ، وهكذا قال تعالى : ﴿ إن شجرة الزقوم طعام الأثيم ، كالمهل يغلي في البطون كغلي الحميم ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ هذا فليذوقوه حميم وغساق وآخر من شكله أزواج ﴾ إلى غير ذلك من الآيات الدالة على تنوع العذاب عليهم ، وتكراره وأنواعه وأشكاله ، مما لا يحصيه إلا الله عز وجل ، جزاء وفاقاً ﴿ وما ربك بظلام للعبيد ﴾ .

مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أََعْمَلُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴿١٨﴾

هذا مثل ضربه الله تعالى لأعمال الكفار ، الذين عبدوا معه غيره ، وكذبوا رسله وبنوا أعمالهم على غير أساس صحيح ، فانهارت فقال تعالى : ﴿ مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم ﴾ أي مثل أعمالهم يوم القيامة إذا طلبوا ثوابها من الله تعالى ، لأنهم كانوا يحسبون أنهم كانوا على شيء ، فلم يجدوا شيئاً إلا كما يتحصل من الرماد إذا اشتدت به الريح العاصفة ﴿ في يوم عاصف ﴾ أي ذي ريح شديدة عاصفة قوية ، فلم يقدرُوا على شيء من أعمالهم التي كسبوا في الدنيا ، كقوله تعالى : ﴿ وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءً منثوراً ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ مثل ما ينفقون في هذه الحياة الدنيا كمثل ريح فيها صر أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ فثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلداً لا يقدرُونَ على شيء مما كسبوا ﴾ ، ﴿ ذلك هو الضلال البعيد ﴾ أي سعيهم وعملهم على غير أساس ولا استقامة ، حتى فقدوا ثوابهم أحوج ما كانوا إليه .

* أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ يَٰسَأُ يَذْهَبِكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَىٰ اللَّهِ

بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾

يقول تعالى مخبراً عن قدرته على معاد الأبدان يوم القيامة ، بأنه خلق السماوات والأرض التي هي أكبر من خلق الناس ، أفليس الذي قدر على خلق هذه السماوات في ارتفاعها واتساعها وعظمتها ، وما فيها من الكواكب الثوابت والسيارات والآيات الباهرات ، وهذه الأرض بما فيها من مهاد ووهاد ، وأوتاد وبراري وصحارى وقفار وبحار وأشجار ، ونبات وحيوان ﴿ أولم يروا أن الله الذي خلق السماوات والأرض ولم يعي بخلقهن بقادر على أن يحيي الموتى ، بلى إنه على كل شيء قدير ﴾ ، وقوله : ﴿ إن يسأ يذهبكم ويأت بخلق جديد ﴾ * وما ذلك على الله بعزير ﴿ أي بعظيم ولا ممتنع ، بل هو سهل عليه إذا خالفتم أمره أن يذهبكم ويأت بآخرين على غير صفتكم .

وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنَ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَدَنَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سِوَاءَ عَلَيْنَا أَجْرٌ عَلْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنَ مَحِيصٍ ﴿٢١﴾

يقول تعالى : ﴿ وبرزوا ﴾ أي برزت الخلائق كلها ، برها وفاجرها لله الواحد القهار ، أي اجتمعوا له في براز

من الأرض، وهو المكان الذي ليس فيه شيء يستر أحداً، ﴿فقال الضعفاء﴾ وهم الأتباع لقادتهم وسادتهم وكبرائهم ﴿للذين استكبروا﴾ عن عبادة الله وحده لا شريك له، وعن موافقة الرسل، قالوا لهم: ﴿إنا كنا لكم تبعاً﴾ أي مهما أمرتمونا ائتمرنا وفعلنا، ﴿فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شيء﴾ أي فهل تدفون عنا شيئاً من عذاب الله كما كنتم تعلوننا وتمنوننا، فقالت القادة لهم: ﴿لو هدانا الله لهديناكم﴾ ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين، ﴿سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص﴾ أي ليس لنا خلاص مما نحن فيه إن صبرنا عليه أو جزعنا منه. قال عبد الرحمن بن أسلم: إن أهل النار قالوا: تعالوا فإنما أدرك أهل الجنة الجنة بيكائهم وتضرعهم إلى الله عز وجل، تعالوا نبك ونتضرع إلى الله، فبكوا وتضرعوا، فلما رأوا أنه لا ينفعهم، قالوا: إنما أدرك أهل الجنة الجنة بالصبر، تعالوا حتى نصبر فصبروا صبراً لم ير مثله، فلم ينفعهم ذلك، فعند ذلك قالوا: ﴿سواء علينا أجزعنا أم صبرنا﴾ الآية. قلت: والظاهر أن هذه المراجعة في النار بعد دخولهم إليها، كما قال تعالى: ﴿وإذا يتحاجون في النار فيقول الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعاً فهل أنتم مغنون عنا نصيباً من النار﴾، وقال ﴿حتى إذا ادركوا فيها جميعاً قالت أوراهاهم لأولاهم ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذاباً ضعفاً من النار: قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون﴾، وقال تعالى: ﴿ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلاً﴾، وأما تخصمهم في المحشر فقال تعالى: ﴿ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول، يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكنا مؤمنين. قال الذين استكبروا للذين استضعفوا أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم، بل كنتم مجرمين﴾.

وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلَوْلَا أَنفُسُكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِي إِيَّايَ كَفَرْتُمْ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ وَأَدْخِلِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ يُحَيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ﴿٢٣﴾

يخبر تعالى عما خاطب به إبليس أتباعه بعد ما قضى الله بين عباده فأدخل المؤمنين الجنات، وأسكن الكافرين الدركات، فقام فيهم إبليس لعنه الله يومئذ خطيباً ليزيدهم حزناً إلى حزنهم وغبناً إلى غبنهم وحسرة إلى حسرتهم فقال: ﴿إن الله وعدكم وعد الحق﴾ أي على السنة رسله ووعدكم في اتباعهم النجاة والسلامة، وكان وعداً حقاً وخبراً صدقاً وأما أنا فوعدتكم فأخلفتكم، كما قال الله تعالى: ﴿يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غوراً﴾ ثم قال: ﴿وما كان لي عليكم من سلطان﴾ أي ما كان لي عليكم فيما دعوتكم إليه دليل ولا حجة فيما وعدتكم به، ﴿إلا أن دعوتكم فاستجبت لي﴾ بمجرد ذلك، هذا وقد أقامت عليكم الرسل الحجج والأدلة الصحيحة على صدق ما جاؤوكم به، فخالفتموهم فصرتم إلى ما أنتم فيه ﴿فلا تلموني﴾ اليوم، ﴿ولوموا أنفسكم﴾ فإن الذنب لكم لكونكم خالفتم الحجج، واتبعتموني بمجرد ما دعوتكم إلى الباطل، ﴿ما أنا بمصرخكم﴾ أي بنافعكم ومنقذكم

ومخلصكم مما أنتم فيه، ﴿وما أنتم بمصرحيين﴾ أي بنافعي بإنقاذي مما أنا فيه من العذاب والنكال، ﴿إني كفرت بما أشركتمون من قبل﴾ قال قتادة: أي بسبب ما أشركتموني من قبل، قال ابن جرير: يقول إني جحدت أن أكون شريكاً لله عز وجل، وهذا الذي قاله هو الراجح، كما قال تعالى: ﴿ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون﴾ وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين، وقال: ﴿كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدًا﴾. وقوله: ﴿إن الظالمين﴾ أي في إعراضهم عن الحق واتباعهم الباطل لهم عذاب أليم، والظاهر من سياق الآية أن هذه الخطبة تكون من إبليس بعد دخولهم النار كما قدمنا، قال الشعبي: يقوم خطيبان يوم القيامة على رؤوس الناس، يقول تعالى لعيسى بن مريم: ﴿أنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله﴾؟ قال: ويقوم إبليس لعنه الله فيقول: ﴿وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي﴾ الآية، ثم لما ذكر تعالى مآل الأشقياء وما صاروا إليه من الخزي والنكال، وأن خطيئهم إبليس عطف بمآل السعداء، فقال: ﴿وأدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار﴾ سارحة فيها حيث ساروا وأين ساروا، ﴿خالدين فيها﴾ ما كثرين أبداً لا يحولون ولا يزولون ﴿ياذن ربهم تحيتهم فيها سلام﴾، كما قال تعالى: ﴿حتى إذا جاؤوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم﴾، وقال تعالى: ﴿والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم﴾، وقال تعالى: ﴿ويلقون فيها تحية وسلاماً﴾، وقال تعالى: ﴿دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين﴾.

الرَّتْرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُوْتِي أَكْلَهَا كُلَّ حِينٍ يَاذْنُ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمِثْلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ ﴿٢٦﴾

قال ابن عباس: قوله: ﴿مثل كلمة طيبة﴾: شهادة أن لا إله إلا الله ﴿كشجرة طيبة﴾ وهو المؤمن ﴿أصلها ثابت﴾ يقول: لا إله إلا الله في قلب المؤمن، ﴿وفرعها في السماء﴾ يقول: يرفع بها عمل المؤمن إلى السماء؛ وقال البخاري عن ابن عمر قال: كنا عند رسول الله ﷺ فقال: «أخبروني عن شجرة تشبه - أو - كالرجل المسلم، لا يتحات ورقها صيفاً ولا شتاء، وتؤتي أكلها كل حين ياذن بها، قال ابن عمر: فوقع في نفسي أنها النخلة، ورأيت أبا بكر وعمر لا يتكلمان، فكرهت أن أتكلم، فلما لم يقولوا شيئاً قال رسول الله ﷺ: «هي النخلة»، فلما قمنا قلت لعمر: يا أبتاه والله لقد كان وقع في نفسي أنها النخلة، قال: ما منعك أن تتكلم؟ قلت: لم أركم تتكلمون، فكرهت أن أتكلم أو أقول شيئاً، قال عمر: لأن تكون قلبها أحب إليّ من كذا وكذا. وعن ابن عباس: ﴿كشجرة طيبة﴾ قال: هي شجرة في الجنة. وقوله: ﴿تؤتي أكلها كل حين﴾ قيل: غدوة وعشياً، وقيل: كل شهر، وقيل كل شهرين، وقيل غير ذلك. والظاهر من السياق أن المؤمن مثله كمثل شجرة، لا يزال يوجد منها ثمرة في كل وقت، من صيف أو شتاء أو ليل أو نهار، كذلك المؤمن لا يزال يرفع له عمل صالح آناء الليل وأطراف النهار في كل وقت وحين ﴿ياذن ربها﴾ أي كاملاً حسناً كثيراً طيباً مباركاً ﴿ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم

يتذكرون ﴿١﴾. وقوله تعالى: ﴿ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة﴾ هذا مثل كفر الكافر لا أصل له ولا ثبات، مشبه بشجرة الحنظل^(١)، وقوله: ﴿اجتثت﴾ أي استؤصلت ﴿من فوق الأرض ما لها من قرار﴾ أي لا أصل لها ولا ثبات، كذلك الكفر لا أصل له ولا فرع، ولا يصعد للكافر عمل ولا يتقبل منه شيء.

* يَثْبُتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ

مَا يَشَاءُ ﴿٢٧﴾

روى البخاري، عن البراء بن عازب رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «المسلم إذا سئل في القبر شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فذلك قوله: ﴿يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة﴾»^(٢). وقال الإمام أحمد، عن البراء بن عازب قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ في جنازة رجل من الأنصار، فأتيناه إلى القبر ولما يلحد، فجلس رسول الله ﷺ وجلسنا حوله كأن على رؤوسنا الطير، وفي يده عود ينكت به الأرض فرفع رأسه فقال: «استعينوا بالله من عذاب القبر» مرتين أو ثلاثاً، ثم قال: «إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة، نزل إليه ملائكة من السماء بيض الوجوه، كأن وجوههم الشمس، معهم كفن من أكفان الجنة وحنوط من حنوط الجنة حتى يجلسوا منه مد البصر، ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه، فيقول أيتها النفس الطيبة اخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان - قال فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من في السقاء فيأخذها، فإذا أخذها لم يدعها في يده طرفة عين، حتى يأخذوها فيجعلوها في ذلك الكفن وفي ذلك الحنوط، ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض، فيصعدون بها، فلا يمرون بها يعني على ملاء من الملائكة إلا قالوا ما هذه الروح الطيبة؟ فيقولون: فلان بن فلان بأحسن أسمائه التي كانوا يسمونه بها في الدنيا حتى ينتهوا به إلى السماء الدنيا، فيستفتحون له فيفتح له، فيشيعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التي تليها، حتى ينتهي بها إلى السماء السابعة، فيقول الله: اكتبوا كتاب عبدي في عليين، وأعيدوه إلى الأرض، فإني منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى، قال: فتعاد روحه في جسده، فيأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له: من ربك؟ فيقول: «ربي الله»، فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: ديني الإسلام، فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هو رسول الله، فيقولان له: وما علمك؟ فيقول: قرأت كتاب الله فأمنت به وصدقت، فينادي مناد من السماء أن صدق عبدي فأفرشوه من الجنة، وألبسوه من الجنة، وافتحوا له باباً إلى الجنة، قال: فيأتيه من روحها وطيبها، ويفسح له في قبره مد بصره، ويأتيه رجل حسن الوجه حسن الثياب طيب الريح فيقول: أبشر بالذي كنت يسرك، هذا يومك الذي كنت توعد، فيقول له: من أنت فوجهك الوجه الذي يأتي بالخير؟ فيقول: أنا عمك الصالح، فيقول: رب أقم الساعة، رب أقم الساعة، حتى أرجع إلى أهلي ومالي.

قال: وإن العبد الكافر إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة، نزل إليه ملائكة من السماء سود الوجه

(١) روي هذا في حديث مرفوع أن الشجرة الخبيثة هي الحنظلة، رواه ابن أبي حاتم وابن جرير.

(٢) ورواه مسلم أيضاً وبقية الجماعة.

معهم المسوح فجلسوا منه مد البصر، ثم يجيء ملك الموت، فيجلس عند رأسه فيقول: أيتها النفس الخبيثة، اخرجي إلى سخط من الله وغضب - قال - فتفرق في جسده فينتزعه كما ينتزع السفود من الصوف المبلول، فيأخذها، فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يجعلوها في تلك المسوح، فيخرج منها كأتين ريح جيفة وجدت على وجه الأرض، فيصعدون بها فلا يمرون بها على ملا من الملائكة إلا قالوا: ما هذه الروح الخبيثة؟ فيقولون: فلان بن فلان بأقبح أسمائه التي كان يسمى بها في الدنيا، حتى ينتهي بها إلى السماء الدنيا فيستفتح له فلا يفتح له، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿ لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط ﴾، فيقول الله: اكتبوا كتابه في سجين في الأرض السفلى، فتطرح روحه طراحاً - ثم قرأ: ﴿ ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق ﴾، فتعاد روحه في جسده، ويأتيه ملكان فيجلسانه ويقولان له من ربك؟ فيقول: هاه هاه لا أدري، فيقولان له ما دينك؟ فيقول هاه هاه لا أدري، فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هاه هاه لا أدري، فينادي منادٍ من السماء: أن كذب عبدي، فأفرشوه من النار وافتحوا له باباً إلى النار، فيأتيه من حرها وسمومها ويضيق عليه قبره حتى تختلف فيه أضلاعه، ويأتيه رجل قبيح الوجه قبيح الثياب متنن الریح فيقول: أبشر بالذي يسوؤك، هذا يومك الذي كنت توعده، فيقول: ومن أنت فوجهك الوجه يجيء بالشر؟ فيقول: أنا عمك الخبيث، فيقول: رب لا تقم الساعة .

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: إذا خرجت روح العبد المؤمن تلقاها ملكان يصعدان بها قال حماد: فذكر من طيب ريحها وذكر المسك - قال - ويقول أهل السماء: روح طيبة جاءت من قبل الأرض، صلى الله عليك وعلى جسد كنت تعميرينه، فينطلق به إلى ربه عز وجل فيقول: انطلقوا به إلى آخر الأجل. وإن كان الكافر إذا خرجت روحه - قال حماد - وذكر من نتنها، وذكر مقتاً ويقول أهل السماء روح خبيثة جاءت من قبل الأرض، فيقال: انطلقوا به إلى آخر الأجل. قال أبو هريرة: فرد رسول الله ﷺ ربطة كانت عليه على أنفه هكذا. وقال ابن حبان في صحيحه، عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ قال: « إن المؤمن إذا قبض أته ملائكة الرحمة بحريرة بيضاء فيقولون: اخرجي إلى روح الله، فتخرج كأطيب ريح مسك، حتى أنه ليناوله بعضهم بعضاً يشمونهم حتى يأتوا به باب السماء، فيقولون: ما هذه الريح الطيبة التي جاءت من قبل الأرض؟ ولا يأتون سماء إلا قالوا مثل ذلك حتى يأتوا به أرواح المؤمنين، فلهم أشد فرحاً به من أهل الغائب بغائبهم، فيقولون: ما فعل فلان، فيقولون: دعوه حتى يستريح، فإنه كان في غم، فيقول: قدمات أما أتاكم، فيقولون: ذهب إلى أمه الهاوية، وأما الكافر فيأتيه ملائكة العذاب بمسح فيقولون: اخرجي إلى غضب الله، فتخرج كأتين ريح جيفة، فيذهب به إلى الأرض » .

وروى العوفي، عن ابن عباس رضي الله عنهما في هذه الآية قال: إن المؤمن إذا حضره الموت شهدته الملائكة فسلموا عليه وبشروه بالجنة، فإذا مات مشوا مع جنازته، ثم صلوا عليه مع الناس، فإذا دفن أجلس في قبره فيقال له: من ربك؟ فيقول: ربي الله، فيقال له: من رسولك؟ فيقول: محمد ﷺ، فيقال له: ما شهادتك؟ فيقول:

أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله، فيوسع له في قبره مد بصره . وأما الكافر فتتزل عليه الملائكة فيسبطون أيديهم، والبسط هو الضرب ﴿ يضربون وجوههم وأدبارهم ﴾ عند الموت، فإذا أدخل قبره أقعد، فقيل له: من ربك؟ فلم يرجع إليهم شيئاً، وأنساه الله ذكر ذلك، وإذا قيل: من الرسول الذي بعث إليك؟ لم يهتد له ولم يرجع إليهم شيئاً ﴿ كذلك يضل الله الظالمين ﴾ . وقال ابن أبي حاتم، عن أبي قتادة الأنصاري في قوله تعالى: ﴿ يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ﴾ الآية، قال: إن المؤمن إذا مات أجلس في قبره، فيقال له: من ربك؟ فيقول: الله، فيقال له: من نبيك؟ فيقول: محمد بن عبد الله، فيقال له: ذلك مرات ثم يفتح له باب إلى النار، فيقال له: أنظر إلى منزلك من النار لو زغت، ثم يفتح له باب إلى الجنة فيقال له: انظر إلى منزلك من الجنة إذا ثبت. وإذا مات الكافر أجلس في قبره فيقال له: من ربك؟ من نبيك؟ فيقول: لا أدري، كنت أسمع الناس يقولون، فيقال له: لا دريت، ثم يفتح له باب إلى الجنة، فيقال له: انظر إلى منزلك إذا ثبت، ثم يفتح له باب إلى النار، فيقال له: انظر إلى منزلك إذ زغت، فذلك قوله تعالى: ﴿ يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ﴾ . وقال عبد الرزاق: عن معمر عن ابن طاووس عن أبيه: ﴿ يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا ﴾ قال: لا إله إلا الله ﴿ وفي الآخرة ﴾: المسألة في القبر، وقال قتادة أما الحياة الدنيا فيثبتهم بالخير والعمل الصالح ﴿ وفي الآخرة ﴾: في القبر . وكذا روي عن غير واحد من السلف، وعن عثمان رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ إذا فرغ من دفن الرجل وقف عليه وقال: « استغفروا لأخيكم واسألوا له التثبيت، فإنه الآن يسأل »^(١) .

* أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ ۗ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴿٣٠﴾

قال البخاري: قوله: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا ﴾، ألم تعلم، كقوله: ﴿ ألم تر كيف ﴾، ﴿ ألم تر إلى الذين خرجوا ﴾. البوار: الهلاك، بار يبور بوراً، ﴿ قوماً بوراً ﴾ هالكين . حدثنا علي بن عبد الله، حدثنا سفيان عن عمرو عن عطاء سمع ابن عباس: ﴿ ألم تر إلى الذين بدلوا نعمت الله كُفْرًا ﴾ قال: هم كفار أهل مكة. والمعنى جميع الكفار، فإن الله تعالى بعث محمداً ﷺ رحمة للعالمين ونعمة للناس، فن قبلها وقام بشكرها دخل الجنة، ومن ردها وكفرها دخل النار. وقال ابن أبي حاتم: قام علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقال: ألا أحد يسألني عن القرآن؟ فوالله لو أعلم اليوم أحداً أعلم به مني وإن كان من وراء البحار لأنتبه، فقام عبد الله بن الكواء، فقال: مَنْ ﴿ الذين بدلوا نعمة الله كُفْرًا وأحلوا قومهم دار البوار ﴾؟ قال: مشركو قريش أنتهم نعمة الله الإيمان، فبدلوا نعمة الله كُفْرًا وأحلوا قومهم دار البوار. وقال سفيان الثوري، عن عمر بن الخطاب في قوله: ﴿ ألم تر إلى الذين بدلوا نعمت الله كُفْرًا ﴾ قال: هم الأفجران من قريش: بنو المغيرة وبنو أمية، فأما بنو المغيرة فكفيتهم يوم بدر، وأما بنو أمية فتمتعوا إلى حين. وكذا رواه حمزة الزيات عن عمرو بن مرة قال، قال ابن عباس لعمر

(١) أخرجه أبو داود في سننه .

ابن الخطاب: يا امير المؤمنين هذه الآية: ﴿ ألم تر إلى الذين بدلوا نعمت الله كفرًا وأحلوا قومهم دار البوار ﴾ قال: هم الأفجران من فريش أخوالي وأعمامك، فأما أخوالي فاستأصلهم الله يوم بدر، وأما أعمامك فأملى الله لهم إلى حين. وقال مجاهد وسعيد بن جبير والضحاك وقتادة وابن زيد: هم كفار قريش الذين قتلوا يوم بدر؛ وكذا رواه مالك في تفسيره عن نافع عن ابن عمر. وقوله: ﴿ وجعلوا لله أنداداً ليضلوا عن سبيله ﴾، أي جعلوا له شركاء عبدهم معه ودعوا الناس إلى ذلك، ثم قال تعالى: مهدياً لهم ومتوعداً لهم على لسان نبيِّه ﷺ: ﴿ قل تمتعوا فإن مصيركم إلى النار ﴾ أي مهما قدرتم عليه في الدنيا فافعلوا ففهما يكن من شيء ﴿ فإن مصيركم إلى النار ﴾ أي مرجعكم وموتلكم إليها، كما قال تعالى: ﴿ تمتعهم قليلاً ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ ﴾. وقال تعالى: ﴿ متاع في الدنيا ثم إلينا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون ﴾.

* قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خِلَالَ ۝

يقول تعالى آمراً عباده بطاعته، والقيام بحقه والإحسان إلى خلقه، بأن يقيموا الصلاة، وأن ينفقوا مما رزقهم الله، بأداء الزكوات والنفقة على القرابات والإحسان إلى الأجانب، والمراد بإقامتها هو المحافظة على وقتها وحدودها وركوعها وخشوعها وسجودها، وأمر تعالى بالإتفاق مما رزق في السر، أي في الخفية والعلانية وهي الجهر، وليبادروا إلى ذلك لخلاص أنفسهم ﴿ من قبل أن يأتي يوم ﴾ وهو يوم القيامة، ﴿ لا بيع فيه ولا خلال ﴾ أي ولا يقبل من أحد فدية بأن تباع نفسه، كما قال تعالى: ﴿ فاليوم لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا ﴾. وقوله: ﴿ ولا خلال ﴾ قال ابن جرير: يقول: ليس هناك مخالفة خليل فيصبح عمن استوجب العقوبة عن العقاب لمخالفته، بل هناك العدل والقسط، يخبر تعالى أنه لا ينفع أحداً بيع ولا فدية، ولو افتدى بملء الأرض ذهباً لو وجده، ولا تنفع صداقة أحد ولا شفاعة أحد، إذا لقي الله كافراً، قال الله تعالى: ﴿ واتقوا يوماً لا تجزي نفس عن نفس شيئاً ولا يقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعة ولا هم ينصرون ﴾، وقال تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبل من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة والكافرون هم الظالمون ﴾.

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ ۝ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ ۝ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبِينَ ۝ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ۝ وَءَاتَاكُمْ مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا ۚ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ۝

يعدد تعالى نعمه على خلقه بأن خلق لهم السموات سقفاً محفوظاً والأرض فراشاً، ﴿ وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً بكم ﴾ ما بين ثمار وزروع مختلفة الألوان والأشكال والطعوم والروائح والمنافع، وسخر الفلك بأن جعلها طافية على تيار ماء البحر، تجري عليه بأمر الله تعالى، وسخر البحر لحملها ليقطع المسافرون بها

من إقليم إلى إقليم آخر جلب ما هنا إلى هناك، وما هناك إلى هنا، وسخر الأنهار تشق الأرض من قطر إلى قطر، رزقاً للعباد، ﴿وسخر لكم الشمس والقمر دائنين﴾ أي سيران لا يفران ليلاً ولا نهاراً ﴿لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون﴾، ﴿يعتني الليل النهار يطلبه حيناً﴾ فالشمس والقمر يتعاقبان، والليل والنهار يتعارضان، فتارة يأخذ هذا من هذا فيطول، ثم يأخذ الآخر من هذا فيقصر، ﴿يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل، وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى ألا هو العزيز الغفار﴾، وقوله: ﴿وآتاكم من كل ما سألتموه﴾ يقول: هياً لكم كل ما تحتاجون إليه في جميع أحوالكم مما تسألونه بحالكم وقالكم. وقال بعض السلف: من كل ما سألتموه وما لم تسألوه، وقوله: ﴿وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها﴾، يخبر تعالى عن عجز العباد عن تعداد النعم فضلاً عن القيام بشكرها، كما قال طلق بن حبيب رحمه الله: إن حق الله أثقل من أن يقوم به العباد، وإن نعم الله أكثر من أن يحصيها العباد، ولكن أصبحوا تائبين، وأمسوا تائبين. وفي صحيح البخاري أن رسول الله ﷺ كان يقول: «اللهم لك الحمد غير مكفي ولا مودع ولا مستغنى عنه ربنا». وقد روي في الأثر أن داود عليه السلام قال: يا رب كيف أشكرك وشكري لك نعمة منك عليّ؟ فقال الله تعالى: الآن شكرتني يا داود، أي حين اعترفت بالتقصير عن أداء شكر المنعم. وقال الإمام الشافعي رحمه الله: الحمد لله الذي لا يؤدي شكر نعمة من نعمه، إلا بنعمة حادثة توجب على مؤديها شكره بها، وقال القائل في ذلك:

لو كل جارحة مني لها لغة تنني عليك بما أوليت من حسن
لكان ما زاد شكري إذ شكرت به إليك أبلغ في الإحسان والمنن

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلُّنَا كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعْنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾

يذكر تعالى في هذا المقام محتجاً على مشركي العرب بأن البلد الحرام مكة، إنما وضعت أول ما وضعت على عبادة الله وحده لا شريك له، وأن إبراهيم الذي كانت عامرة بسببه أهلة تبرا ممن عبد غير الله، وأنه دعا لمكة بالأمن فقال: ﴿رب اجعل هذا البلد آمناً﴾، وقد استجاب الله له فقال تعالى: ﴿أو لم يروا أنا جعلنا حرماً آمناً﴾ الآية. وقال في هذه القصة: ﴿رب اجعل هذا البلد آمناً﴾ فعرّفه لأنه دعا به بعد بنائها، ولهذا قال: ﴿الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل واسحق﴾، ومعلوم أن إسماعيل أكبر من إسحاق بثلاث عشرة سنة، وقوله: ﴿واجنبني وبني أن نعبد الأصنام﴾ ينبغي لكل داع أن يدعو لنفسه ولوالديه ولذريته، ثم ذكر أنه افتتن بالأصنام خلافاً من الناس، وأنه تبرأ ممن عبدها ورد أمرهم إلى الله إن شاء عذبهم وإن شاء غفر لهم، كقول عيسى عليه السلام: ﴿إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم﴾ وليس فيه أكثر من الرد إلى مشيئة الله تعالى لا تجوز وقوع ذلك. قال عبد الله بن وهب، عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ تلا قول إبراهيم عليه السلام: ﴿رب إنهم أضلننا كثيراً من الناس﴾ الآية، وقول عيسى عليه السلام: ﴿إن تعذبهم فإنهم عبادك﴾ الآية، ثم رفع يديه ثم قال: «اللهم أمّتي، اللهم أمّتي، اللهم أمّتي» وبكى، فقال الله: اذهب يا جبريل إلى محمد، وربك

أعلم؛ وسله ما يبكيك؟ فأتاه جبريل عليه السلام، فسأله فأخبره رسول الله ﷺ ما قال، فقال الله: اذهب إلى محمد فقل له: إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوؤك.

رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾

وهذا يدل على أن هذا دعاء ثان بعد الدعاء الأول الذي دعا به عندما ولى عن هاجر وولدها، وذلك قبل بناء البيت، وهذا كان بعد بنائه تأكيداً ورغبة إلى الله عز وجل، ولهذا قال: ﴿عند بيتك المحرم﴾. وقوله: ﴿ربنا ليقيموا الصلاة﴾ أي إنما جعلته محرماً ليمكن أهله من إقامة الصلاة عنده ﴿فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم﴾، قال ابن عباس^(١): لو قال أفئدة الناس لازدحم عليه فارس والروم واليهود والنصارى والناس كلهم، ولكن قال: ﴿من الناس﴾ فاختص به المسلمون. وقوله: ﴿وارزقهم من الثمرات﴾ أي ليكون ذلك عوناً لهم على طاعتك، وكما أنه واد غير ذي زرع فاجعل لهم ثماراً يأكلونها، وقد استجاب الله ذلك، كما قال: ﴿أو لم نمكن لهم حرماً آمناً يجيب إليه ثمرات كل شيء رزقاً من لدنا﴾ وهذا من لطفه تعالى وكرمه ورحمته وبركته أنه ليس في البلد الحرام (مكة) شجرة مثمرة، وهي تجيب إليها ثمرات ما حوفاً استجابة لدعاء الخليل عليه السلام.

رَبَّنَا إِنَّكَ تَعَلَّمَ مَاتُحْنِي وَمَا نُعَلِّنُ وَمَا يُخْفَى عَلَيَّ عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴿٣٨﴾ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴿٤١﴾

قال ابن جرير: يقول تعالى مخبراً عن إبراهيم خليله أنه قال: ﴿ربنا إنك تعلم ما نخفي وما نعلن﴾ أي أنت تعلم قصدي في دعائي وما أردت بدعائي لأهل هذا البلد، وإنما هو القصد إلى رضاك والإخلاص لك، فإنك تعلم الأشياء كلها ظاهرها وباطنها لا يخفى عليك منها شيء في الأرض ولا في السماء، ثم حمد ربه عز وجل على ما رزقه من الولد بعد الكبر فقال: ﴿الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحاق إن ربي لسميع الدعاء﴾ أي أنه يستجيب لمن دعاه، وقد استجاب لي فيما سألته من الولد، ثم قال: ﴿رب اجعلني مقيم الصلاة﴾ أي محافظاً عليها مقبلاً لحدودها ﴿ومن ذريتي﴾ أي واجعلهم كذلك مقيمين لها^(٢)، ﴿ربنا وتقبل دعاء﴾ أي فيما سألتك فيه ﴿ربنا اغفر لي ولوالدي﴾، وكان هذا قبل أن يتبرأ من أبيه لما تبين له عداوته لله عز وجل ﴿وللمؤمنين﴾ أي كلهم ﴿يوم يقوم الحساب﴾ أي يوم تحاسب عبادك فتجازيهم بأعمالهم إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

(١) وهو قول مجاهد وسعيد بن جبير وغيرهما.

(٢) يعني بذريته: بني إسماعيل الذين تناسلت فيهم عرب الحجاز. وقيل أيضاً عرب اليمن، وذريته اثنا عشر رجلاً وامرأة.

وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفْلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ ﴿٤٣﴾

يقول تعالى: ولا تحسبن الله - يا محمد - غافلاً عما يعمل الظالمون، أي لا تحسبنه إذا أنظرهم وأجلهم أنه غافل عنهم، مهمل لهم لا يعاقبهم على صنعهم، بل هو يحصي ذلك عليهم ويعدده عليهم عدلاً، ﴿إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار﴾ أي من شدة الأهوال يوم القيامة: ثم ذكر تعالى كيفية قيامهم من قبورهم وعجلتهم إلى قيام المحشر، فقال: ﴿مهطعين﴾ أي مسرعين، كما قال تعالى: ﴿مهطعين إلى الداع﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿يومئذ يتبعون الداعي لا عوج له﴾. وقال تعالى: ﴿يوم يخرجون من الأجداث سراغاً﴾ الآية، وقوله: ﴿مقني رؤوسهم﴾ قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد: رافعي رؤوسهم، ﴿لا يرتد إليهم طرفهم﴾ أي أبصارهم ظاهرة شاخصة مديمون النظر، لا يطفون لحظة لكثرة ما هم فيه من الهول والفكرة والمخافة لما يحل بهم عياداً بالله العظيم من ذلك؛ ولهذا قال: ﴿وأفئدتهم هواء﴾ أي وقلوبهم خاوية خالية ليس فيها شيء لكثرة الوجع والخوف، ولهذا قال قتادة وجماعة: إن أمكنة أفئدتهم خالية، لأن القلوب لدى الحناجر قد خرجت من أماكنها من شدة الخوف. وقال بعضهم: هي خراب لا تعي شيئاً لشدة ما أخبر به تعالى عنهم، ثم قال تعالى لرسوله ﷺ:

﴿ وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخْرَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نَحْبُ دَعْوَتِكَ وَتَتَّبِعِ الرَّسُلَ أُولَٰئِكَ تَكُونُوا آقْسَمْتُمْ مِّنْ قَبْلِ مَا لَكُم مِّنْ زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُم كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴿٤٦﴾ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن قيل الذين ظلموا أنفسهم عند معاينة العذاب: ﴿ربنا أخرنا إلى أجل قريب نجب دعوتك وتتبع الرسل﴾، كقوله: ﴿حتى إذ جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون﴾ الآية. وقال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم﴾ الآيتين، وقال تعالى مخبراً عنهم في حال محشرهم: ﴿ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رؤوسهم﴾ الآية، وقال: ﴿ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿وهم يصطرخون فيها﴾ الآية، قال تعالى راداً عليهم في قولهم هذا: ﴿أو لم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال﴾ أي أو لم تكونوا تحلفون من قبل هذه الحالة أنه لا زوال لكم عما أنتم فيه، وأنه لا معاد ولا جزاء فدوقوا هذا بذلك، قال مجاهد وغيره: ﴿ما لكم من زوال﴾ أي ما لكم من انتقال من الدنيا إلى الآخرة، كقوله: ﴿وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت﴾ الآية، ﴿وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال﴾ أي قد رأيتم وبلغكم ما أحللتنا بالأثم المكذبة قبلكم ومع هذا لم يكن لكم فيهم معتبر ولم يكن فيما أوقعنا بهم لكم مزدجر ﴿حكمة بالغة فاتغني النذر﴾. وروى العوفي عن ابن عباس في قوله: ﴿وإن كان

مكرهم لتزول منه الجبال ﴿ يقول: ما كان مكرهم لتزول منه الجبال، وكذا قال الحسن البصري، ووجهه ابن جرير بأن هذا الذي فعلوه بأنفسهم من شركهم بالله وكفرهم به ما ضر ذلك شيئاً من الجبال ولا غيرها، وإنما عاد وبأل ذلك عليهم، ويشبه هذا قول الله تعالى: ﴿ ولا تمش في الأرض مرحاً إنك لن تحرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولاً ﴾، والقول الثاني في تفسيرها ما رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿ وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال ﴾ يقول: شركهم كقوله: ﴿ تكاد السموات والأرض يتفتطرن منه ﴾ الآية، وهكذا قال الضحاك وقتادة.

﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلَفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضَ غَيْرَ الْأَرْضِ
وَالسَّمَوَاتِ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾

يقول تعالى مقررًا لوعده ومؤكداً ﴿ فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله ﴾ أي من نصرتهم في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد، ثم أخبر تعالى أنه ذو عزة لا يمتنع عليه شيء أرادته ولا يغالب، وذو انتقام ممن كفر به وجحدته، ﴿ فويل يومئذ للمكذبين ﴾، ولهذا قال: ﴿ يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات ﴾ أي وعده هذا حاصل يوم تبدل الأرض غير الأرض، كما جاء في الصحيحين، عن سهل بن سعد قال، قال رسول الله ﷺ: «يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقرصة النقي ليس فيها معلم لأحد»، وقال الإمام أحمد، عن عائشة أنها قالت: أنا أول الناس سأل رسول الله ﷺ عن هذه الآية: ﴿ يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات ﴾ قالت، قلت: أين الناس يومئذ يا رسول الله؟ قال: «على الصراط»^(١). وقال الإمام مسلم بن الحجاج في صحيحه عن ثوبان مولى رسول الله ﷺ قال: كنت قائماً عند رسول الله ﷺ فجاءه خبر من أحبار يهود فقال: السلام عليك يا محمد، فدفعته دفعة كاد يصرع منها، فقال: لم تدفني؟ فقلت: ألا تقول يا رسول الله؟ فقال اليهودي: إنما ندعوه باسمه الذي سماه به أهله، فقال رسول الله ﷺ: «إن اسمي محمد الذي سماني به أهلي»، فقال اليهودي: جئت أسألك، فقال رسول الله ﷺ: «أينفعك شيئاً إن حدثتكَ؟» فقال: أسمع بأذني، فنكت رسول الله ﷺ بعود معه، فقال: «سل»، فقال اليهودي: أين يكون الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات؟ فقال رسول الله ﷺ: «هم في الظلمة دون الجسر»، قال: فمن أول الناس إجازة؟ فقال: «فقراء المهاجرين»، فقال اليهودي: فما تحفتهم حين يدخلون الجنة؟ قال: «زيادة كبد النون»، قال: فما غذاؤهم في أثرها؟ قال: «ينحر لهم ثور الجنة الذي كان يأكل من أطرافها»، قال: فما شرابهم عليه؟ قال: «من عين فيها تسمى سلسبيلاً»، قال: صدقت. قال: وجئت أسألك عن شيء لا يعلمه أحد من أهل الأرض إلا نبي أو رجل أو رجلان، قال: «أينفعك إن حدثتكَ؟» قال: أسمع بأذني، قال جئت أسألك عن الولد، قال: «ماء الرجل أبيض وماء المرأة أصفر، فإذا اجتمعا فعلا مني الرجل مني المرأة كان ذكراً بإذن الله تعالى، وإذا علا مني المرأة مني الرجل كان أنثى بإذن الله»، قال اليهودي: لقد صدقت، وإنك لنيبي، ثم انصرف، فقال رسول الله ﷺ: «لقد سألتني هذا عن الذي سألتني عنه وما لي علم بشيء منه حتى أتاني الله به».

(١) رواه أحمد ومسلم والترمذي وابن ماجه، وقال الترمذي: حسن صحيح.

وروى أبو جعفر بن جرير الطبري، عن عمرو بن ميمون يقول: ﴿يوم تبدل الأرض غير الأرض﴾ قال: أرض كالفضة البيضاء نقية، لم يسفك فيها دم، ولم يعمل عليها خطيئة، ينفذهم البصر، ويسمعهم الداعي حفاة عراة كما خلقوا، قال، أراه قال قياماً حتى يلجمهم العرق، وعن عمرو بن ميمون عن عبد الله عن النبي ﷺ في قول الله عز وجل ﴿يوم تبدل الأرض غير الأرض﴾ قال: «أرض بيضاء لم يسفك عليها دم، ولم يعمل عليها خطيئة»^(١). وقال الربيع، عن أبي بن كعب قال: تصير السماوات جناناً. وقال الأعمش، عن عبد الله بن مسعود: الأرض كلها نار يوم القيامة، والجنة من ورائها ترى أكوابها وكواعبها، والذي نفس عبد الله بيده إن الرجل ليفيض عرقاً حتى ترشح في الأرض قدمه، ثم يرتفع حتى يبلغ أنفه، وما مسه الحساب، قالوا: مم ذلك يا أبا عبد الرحمن؟ قال مما يرى الناس ويلقون. وقال أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس عن كعب في قوله: ﴿يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات﴾ قال: تصير السماوات جناناً ويصير مكان البحر ناراً وتبدل الأرض غيرها. وقوله: ﴿وبرزوا لله﴾ أي خرجت الخلائق جميعها من قبورهم لله ﴿الواحد القهار﴾ أي الذي قهر كل شيء وغلبه، ودانت له الرقاب وخضعت له الأبواب.

وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقْرَنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِلُهُمْ مِّنْ قَطْرَانٍ وَتَعَشَىٰ جُوهُهُمْ النَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٥١﴾

يقول تعالى: ﴿يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات﴾ وتبرز الخلائق لديانها ترى يا محمد يومئذ المجرمين وهم الذين أجزوا بكفرهم وفسادهم، ﴿مقرنين﴾ أي بعضهم إلى بعض قد جمع بين النظراء أو الأشكال منهم كل صنف إلى صنف، كما قال تعالى: ﴿احشروا الذين ظلموا وأزواجهم﴾، وقال: ﴿وإذا النفوس زوجت﴾، وقال: ﴿وإذا ألقوا منها مكاناً ضيقاً مقرنين دعوا هنالك ثوراً﴾، وقال: ﴿والشياطين كل بناء وغواص وآخرين مقرنين في الأصفاد﴾ والأصفاد هي القيود^(٢)، قال عمرو بن كلثوم:

فآبوا ، بالثياب وبالسبايا وأبنا بالملوك مصفدينا

وقوله تعالى: ﴿سراويلهم من قطران﴾ أي ثيابهم التي يلبسونها من قطران، وهو الذي تهنأ به الإبل، أي تطفى، قال قتادة: وهو ألصق شيء بالنار، وكان ابن عباس يقول: القطران هو النحاس المذاب^(٣)، أي من نحاس حار قد انتهى حره، وقوله: ﴿وتعشى جوههم النار﴾، كقوله: ﴿تلفح جوههم النار وهم فيها كالحنون﴾، وقال الإمام أحمد، عن أبي مالك الأشعري قال، قال رسول الله ﷺ: «أربع في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونهن: الفخر بالأحساب، والطعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة على الميت، والنائحة إذا لم تتب قبل موتها؛ تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران ودرع من جرب»^(٤)، وقوله: ﴿ليجزى الله كل نفس ما كسبت﴾ أي يوم

(١) رواه الحافظ أبو بكر البزار .

(٢) قاله ابن عباس وسعيد بن جبير والأعمش وعبد الرحمن بن زيد .

(٣) وهو مروى عن مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وقتادة .

(٤) أخرجه مسلم والإمام أحمد في المسند .

القيامة ﴿ ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ﴾ الآية، ﴿ إن الله سريع الحساب ﴾ يحتمل أن يكون كقوله تعالى: ﴿ اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون ﴾ ويحتمل أنه في حال محاسبته لعبده سريع النجاز، لأنه يعلم كل شيء ولا يخفى عليه خافية، وإن جميع الخلق بالنسبة إلى قدرته كالواحد منهم، كقوله تعالى: ﴿ ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة ﴾، وهذا معنى قول مجاهد: ﴿ سريع الحساب ﴾ إحصاءً، ويحتمل أن يكون المعنيان مرادين والله أعلم .

هَذَا بَلَّغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذِرُوا بِهِءَ وَيَعْلَمُوا أَنَّ مَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٥٢﴾

يقول تعالى: هذا القرآن بلاغ للناس، كقوله: ﴿ لأنذركم به ومن بلغ ﴾ أي هو بلاغ لجميع الخلق من إنس وجن كما قال في أول السورة: ﴿ كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور ﴾ الآية، ﴿ وليندروا به ﴾ أي ليتعظوا به، ﴿ وليعلموا أنما هو إله واحد ﴾ أي يستدلوا بما فيه من الحجج والدلالات على أنه لا إله إلا هو، ﴿ وليذكر أولو الأبواب ﴾ أي ذوو العقول .

[آخر تفسير سورة إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، والحمد لله رب العالمين] .

* * *

(١٥) سُورَةُ الْحَجْرِ مَكِّيَّةٌ
وَآيَاتُهَا تِسْعٌ وَتِسْعُونَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ رَبِّمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾ ذَرَّهُمْ يَأْكُلُوا
وَيَمْتَمِعُوا وَيَلْتَمِئُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة في أوائل السور، وقوله تعالى: ﴿ربما يود الذين كفروا﴾ إخبار عنهم أنهم سيندمون على ما كانوا فيه من الكفر، ويتمنون لو كانوا في الدنيا مسلمين، ونقل السدي عن ابن عباس، أن كفار قريش لما عرضوا على النار تمنوا أن لو كانوا مسلمين، وقيل: المراد أن كل كافر يود عند احتضاره أن لو كان مؤمناً، وقيل: هذا إخبار عن يوم القيامة، كقوله تعالى: ﴿ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين﴾، وقال بعضهم: يحبس الله أهل الخطايا من المسلمين مع المشركين في النار، قال: فيقول لهم المشركون: ما أغنى عنكم ما كنتم تعملون في الدنيا، قال: فيغضب الله لهم بفضل رحمته، فيخرجهم، فذلك حين يقول: ﴿ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين﴾^(١). وقال مجاهد: يقول أهل النار للموحدين: ما أغنى عنكم إيمانكم؟ فإذا قالوا ذلك قال الله: أخرجوا من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان، فعند ذلك قوله: ﴿ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين﴾، وقد ورد في ذلك أحاديث مرفوعة، فقال الحافظ الطبراني، عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «إن ناساً من أهل لا إله إلا الله يدخلون النار بذنوبهم، فيقول لهم أهل اللات والعزى: ما أغنى عنكم قولكم: ﴿لا إله إلا الله﴾ وأنتم معنا في النار؟ فيغضب الله لهم، فيخرجهم فيلقبهم في نهر الحياة، فيبرؤون من حرقهم، كما يبرأ القمر من خسوفه، ويدخلون الجنة ويسمون فيها الجنةيين».

(الحديث الثاني) : عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «إذا اجتمع أهل

(١) روى هذا القول ابن جرير عن ابن عباس وأنس بن مالك وقال: كانا يتأولان الآية: ﴿ربما يود الذين كفروا﴾ بذلك التأويل.

النار في النار ومعهم من شاء الله من أهل القبلة، قال الكفار للمسلمين: ألم تكونوا مسلمين؟ قالوا: بلى، قالوا: فما أغنى عنكم الإسلام وقد صرتم معنا في النار؟ قالوا: كانت لنا ذنوب فأخذنا بها، فسمع الله ما قالوا، فأمر بمن كان في النار من أهل القبلة فأخرجوا، فلما رأى ذلك من بقي من الكفار قالوا: يا ليتنا كنا مسلمين فنخرج كما خرجوا - قال: ثم قرأ رسول الله ﷺ - أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿الر تلك آيات الكتاب وقرآن مبين * ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين﴾^(١). وقوله: ﴿ذرهم يأكلون ويتمتعوا﴾ تهديد شديد لهم ووعيد أكيد، كقوله تعالى: ﴿قل تمتعوا فإن مصيركم إلى النار﴾، وقوله: ﴿كلوا وتمتعوا قليلاً إنكم مجرمون﴾، ولهذا قال: ﴿ويلهم الأمل﴾ أي عن التوبة والإنابة ﴿فسوف يعلمون﴾ أي عاقبة أمرهم.

* وَمَا أَهْلَكَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٥﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجْلَهَا وَمَا يَسْتَعْرِخُونَ ﴿١٦﴾

يخبر تعالى أنه ما أهلك قرية إلا بعد قيام الحجة عليها وانتهاء أجلها، وأنه لا يؤخر أمة حان هلاكهم عن ميقاتهم ولا يتقدمون عن مدتهم، وهذا تنبيه لأهل مكة وإرشادهم، إلى الإقلاع عما هم عليه من الشرك والعناد والإلحاد الذي يستحقون به الهلاك.

وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿١٦﴾ لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٧﴾ مَا نَزَّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ ﴿١٨﴾ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿١٩﴾

يخبر تعالى عن كفرهم وعنادهم في قولهم: ﴿يا أيها الذي نزل عليه الذكر﴾ أي الذي تدعي ذلك، ﴿إنك لمجنون﴾ أي في دعائك إيانا إلى اتباعك وترك ما وجدنا عليه آباءنا، ﴿لوما﴾ أي هلا، ﴿تأتينا بالملائكة﴾ أي يشهدون لك بصحة ما جئت به كما قال فرعون: ﴿فلولا ألقى عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين﴾، وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتواً كبيراً، وكذا قال في هذه الآية ﴿ما ننزل الملائكة إلا بالحق وما كانوا إذا منظرين﴾. وقال مجاهد في قوله: ﴿ما ننزل الملائكة إلا بالحق﴾: بالرسالة والعذاب، ثم قرر تعالى أنه هو الذي أنزل عليه الذكر وهو القرآن وهو الحافظ له من التغيير والتبديل.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شَيْعِ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٢١﴾ كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ ۖ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٣﴾

يقول تعالى مسلماً لرسوله ﷺ في تكذيب من كذبه من كفار قريش، إنه أرسل من قبله من الأمم الماضية، وإنه ما أتى أمة من رسول إلا كذبوه واستهزؤوا به، ثم أخبر أنه سلك التكذيب في قلوب المجرمين الذين عاندوا

(١) أخرجه الطبراني وابن أبي حاتم.

واستكبروا عن اتباع الهدى، قال أنس والحسن البصري: ﴿كذلك نسلكه في قلوب المجرمين﴾: يعني الشرك، وقوله: ﴿قد خلت سنة الأولين﴾: أي قد علم ما فعل تعالى بمن كذب رسله من الهلاك والدمار، وكيف أنجى الله الأنبياء وأتباعهم في الدنيا والآخرة.

﴿لَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ﴾ (١٤) ﴿لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾ (١٥)

يخبر تعالى عن قوة كفرهم وعنادهم ومكابرتهم للحق أنه لو فتح لهم باباً من السماء فجعلوا يصعدون فيه لما صدقوا بذلك بل قالوا: ﴿إنما سكرت أبصارنا﴾ قال مجاهد والضحاك: سدت أبصارنا، وقال قتادة عن ابن عباس: أخذت أبصارنا. وقال العوفي عن ابن عباس: شبه علينا وإنما سحرنا، وقال الكلبي: عميت أبصارنا.

﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّهَا لِلنَّاظِرِينَ﴾ (١٦) ﴿وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ﴾ (١٧) ﴿إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَاتَّبَعُهُ رِشَابٌ مِّمِّنْ﴾ (١٨) ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ﴾ (١٩) ﴿وَجَعَلْنَا لِكُلِّ فِيهَا مَعْيِشًا وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَزَاقِينَ﴾ (٢٠)

يذكر تعالى خلقه السماء في ارتفاعها، وما زينها به من الكواكب الثوابت والسيارات، لمن تأمل وكرر النظر فيما يرى من العجائب والآيات الباهرات، ما يحار نظره فيه، ولهذا قال مجاهد وقتادة: البروج ههنا هي الكواكب وهذا كقوله تعالى: ﴿تبارك الذي جعل في السماء بروجاً﴾ الآية. ومنهم من قال: البروج هي منازل الشمس والقمر، ثم ذكر تعالى خلقه الأرض ومدته إياها وتوسيعها وبسطها، وما جعل فيها من الجبال الرواسي والأودية والأراضي والرمال، وما أنبت فيها من الزروع والثمار المتناسبة، وقال ابن عباس: ﴿من كل شيء موزون﴾: أي معلوم^(١)، ومنهم من يقول: مقدر بقدر، وقال ابن زيد: من كل شيء يوزن ويقدر بقدر، وقوله: ﴿وجعلنا لكم فيها معاش﴾ المعاش وهي جمع معيشة، وقوله: ﴿ومن لستم له برازقين﴾، قال مجاهد: هي الدواب والأنعام. وقال ابن جرير: هم العبيد والإماء والدواب والأنعام، والقصد أنه تعالى يمتن عليهم بما يسر لهم من أسباب المكاسب ووجوه الأسباب وصنوف المعاش، وبما سخر لهم من الدواب التي يركبونها، والأنعام التي يأكلونها، والعبيد والإماء التي يستخدمونها، ورزقهم على خالقهم لا عليهم، فلهم هم المنفعة، والرزق على الله تعالى.

﴿وَإِنْ مِّنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ (٢١) ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيْحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾ (٢٢) ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ مُخْتَارُونَ﴾ (٢٣) ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ﴾

(١) وكذلك قال عكرمة ومجاهد والحسن وقتادة.

مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَعْرِبِينَ ﴿٢٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يُحْشِرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾

يخبر تعالى أنه مالك كل شيء، وأن كل شيء سهل عليه يسير لديه، وأن عنده خزائن الأشياء من جميع الصنوف ﴿وما ننزله إلا بقدر معلوم﴾ كما يشاء وكما يريد، لما له في ذلك من الحكمة البالغة والرحمة بعباده، لا على جهة الوجوب بل هو كتب على نفسه الرحمة. قال ابن مسعود في قوله: ﴿وما ننزله إلا بقدر معلوم﴾ ما عام بأكثر مطراً من عام، ولا أقل، ولكنه يمطر قوم، ويحرم آخرون بما كان في البحر، قال: وبلغنا أنه ينزل مع المطر من الملائكة أكثر من عدد ولد إبليس وولد آدم، يحصون كل قطرة حيث تقع وما تنبت^(١)، وقوله تعالى: ﴿وأرسلنا الرياح لواقح﴾ أي تلتفح السحاب فتدر ماء وتلقح الشجر، فتفتح عن أوراقها وأكمامها، وذكرها بصيغة الجمع ليكون منها الإنتاج بخلاف الريح العقيم، فإنه أفردا ووصفها بالعقيم، وهو عدم الإنتاج، وقال أعمش، عن عبد الله ابن مسعود في قوله: ﴿وأرسلنا الرياح لواقح﴾ قال: ترسل الريح فتحمل الماء من السماء، ثم تمر مر السحاب حتى تدر كما تدر اللقحة^(٢)، وقال الضحاك: يبعثها الله على السحاب فتلقحه فيمتلئ ماء، وقال عبيد بن عمير الليثي: يبعث الله المبشرة فتقم الأرض قمأ، ثم يبعث الله المؤلففة فتؤلف السحاب، ثم يبعث الله اللواقح فتلقح الشجر، ثم تلا: ﴿وأرسلنا الرياح لواقح﴾.

وقوله تعالى: ﴿فأسقيناكموه﴾ أي أنزلناه لكم عذاباً يمكنكم أن تشربوا منه ﴿لو نشاء جعلناه أجاجاً﴾ كما نبه على ذلك في قوله تعالى: ﴿أفأرأيتم الماء الذي تشربون * أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون * لو نشاء جعلناه أجاجاً فلولا تشكرون﴾، وقوله: ﴿وما أنتم له بخازنين﴾، قال سفيان الثوري: بمانعين؛ ويحتمل أن المراد: وما أنتم له بحافظين، بل نحن ننزله ونحفظه عليكم ونجعله معيناً وينابيع في الأرض، ولو شاء تعالى لأغاره وذهب به، ولكن من رحمته أنزله وجعله عذاباً وحفظه في العيون والآبار والأنهار، ليبقى لهم في طول السنة يشربون ويسقون أنعامهم وزروعهم وثمارهم. وقوله: ﴿وإنا لنحن نحيي ونميت﴾ إخبار عن قدرته تعالى على بدء الخلق وإعادة، وأنه هو الذي أحى الخلق من العدم، ثم يميتهم، ثم يعيهم كلهم ليوم الجمع، وأخبر تعالى بأنه يرث الأرض ومن عليها وإليه يرجعون. ثم أخبر تعالى عن تمام علمه بهم أولهم وآخرهم فقال: ﴿ولقد علمنا المستقدمين منكم﴾ الآية. قال ابن عباس رضي الله عنهما: المستقدمون كل من هلك من لدن آدم عليه السلام، والمستأخرون من هو حي ومن سيأتي إلى يوم القيامة، وهو اختيار ابن جرير رحمه الله. وقال ابن جرير، عن مروان بن الحكم أنه قال: كان أناس يستأخرون في الصفوف من أجل النساء، فأنزل الله: ﴿ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين﴾^(٣).

وروى ابن جرير عن محمد بن أبي معشر عن أبيه أنه سمع عون بن عبد الله يذكر محمد بن كعب في قوله: ﴿ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين﴾ وأنها في صفوف الصلاة، فقال محمد بن كعب:

(١) رواه ابن جرير عن عبد الله بن مسعود. (٢) وكذا قال ابن عباس وإبراهيم النخعي والضحاك.

(٣) قال ابن كثير: ورد فيه حديث غريب جداً رواه أصحاب السنن وفيه نكارة شديدة وهو أنه كانت تصلي خلف النبي ﷺ

امرأة حسناء، وكان بعض المسلمين إذا سجدوا نظروا إليها من تحت أيديهم فنزلت الآية. وقد نبه رحمه الله إلى نكارة هذه

الرواية وضعفها.

ليس هكذا ﴿ ولقد علمنا المتقدمين منكم ﴾ : الميت والمقتول، ﴿ والمستأخرين ﴾ من يخلق بعد، ﴿ وإن ربك هو يحشرهم إنه حكيم عليم ﴾ ، فقال عون بن عبد الله : وفكك الله وجزاك خيراً .

وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمِإٍ مَسْنُونٍ ﴿٣٦﴾ وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ ﴿٣٧﴾

قال ابن عباس : المراد بالصلصال التراب اليابس ، كقوله تعالى : ﴿ خلق الإنسان من صلصال كالفخار ﴾ . وعن مجاهد : (الصلصال) المتن ، وتفسير الآية بالآية أولى ، وقوله : ﴿ من حمأ مسنون ﴾ أي الصلصال من حمأ وهو الطين ، والمسنون الأملس ، وروي عن ابن عباس أنه قال : هو التراب الرطب ، وعن ابن عباس ومجاهد : أن الحمأ المسنون هو المتن ، وقيل : المراد بالمسنون ههنا المصبوب . وقوله : ﴿ والجنان خلقناه من قبل ﴾ أي من قبل الإنسان ، ﴿ من نار السموم ﴾ قال ابن عباس : هي السموم التي تقتل ، وعن ابن عباس : أن الجان خلق من هب النار ، وقد ورد في الصحيح : « خلقت الملائكة من نور ، وخلقت الجان من مارج من نار ، وخلق آدم مما وصف لكم »^(١) ، والمقصود من الآية التنبيه على شرف آدم عليه السلام ، وطيب عنصره وطهارته محتده .

وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمِإٍ مَسْنُونٍ ﴿٣٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوْحِي

فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٣٩﴾ فَسَجَدَ الْمَلَأِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٤٠﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ ابْتَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٤١﴾

قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَمَّا كُنْتُ لَأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمِإٍ

مَسْنُونٍ ﴿٤٣﴾

يذكر تعالى تنويهه بذكر آدم في ملائكته ، قبل خلقه له وتشريفه إياه بأمر الملائكة بالسجود له ، ويذكر تخلف إبليس عدوه عن السجود له حسداً وكفراً ، وعناداً واستكباراً وافتخاراً بالباطل ، ولهذا قال : ﴿ لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمأ مسنون ﴾ ، كقوله : ﴿ أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين ﴾ .

قَالَ فَانْحَرِجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٤٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴿٤٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٤٦﴾

قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿٤٧﴾ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٤٨﴾

يذكر تعالى أنه أمر إبليس بالخروج من المنزل التي كان فيها من الملائكة الأعلى ، وأنه رجم أي مرجوم ، وأنه قد أتبعه لعنة لا تزال متصلة به لاحقة له متواترة عليه إلى يوم القيامة ، وعن سعيد بن جبير أنه قال : لما لعن الله إبليس تغيرت صورته عن صور الملائكة ، ورن رنة ، فكل رنة في الدنيا إلى يوم القيامة منها^(٢) . وأنه لما تحقق الغضب الذي

(١) رواه مسلم وأحمد عن عائشة .

(٢) رواه ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير .

لا مرد له سأل من تمام حسده لآدم وذريته النظرة إلى يوم القيامة، وهو يوم البعث، وأنه أجيب إلى ذلك استدراجاً له وإمهالاً، فلما تحقق النظرة قبحه الله قال ما قصه الله تعالى :

* قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزِينََنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَا أُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلِصِينَ ﴿٤٤﴾
قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾
وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٥﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ ﴿٤٦﴾

يقول تعالى مخبراً عن إبليس وتمرده وعتوه أنه قال للرب: ﴿بما أغويتني﴾ أي بسبب ما أغويتني وأضللتني ﴿لأزوين لهم﴾ أي لذرية آدم عليه السلام، ﴿في الأرض﴾ أي أحبب إليهم المعاصي وأرعبهم فيها، ﴿ولأغوينهم أجمعين﴾ أي كما أغويتني وقدرت علي ذلك، ﴿إلا عبادك منهم المخلصين﴾، كقوله: ﴿لئن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلاً﴾، قال ﴿الله تعالى له متهدداً ومتوعداً﴾، هذا صراط علي مستقيم أي مرجعكم إلي فأجازيكم بأعمالكم، إن خيراً فخير وإن شراً فشر، وقيل: طريق الحق مرجعها إلى الله تعالى وإليه تنتهي^(١)، كقوله: ﴿وعلى الله قصد السبيل﴾، وقوله: ﴿إن عبادي ليس لك عليهم سلطان﴾ أي الذين قدرت لهم الهداية فلا سبيل لك عليهم، ولا وصول لك إليهم ﴿إلا من اتبعك من الغاوين﴾ استثناء منقطع، ﴿وإن جهنم لموعدهم أجمعين﴾ أي جهنم موعد جميع من اتبع إبليس كما قال عن القرآن، ﴿ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده﴾، ثم أخبر أن لجهنم سبعة أبواب^(٢) ﴿لكل باب منهم جزء مقسوم﴾ أي قد كتب لكل باب منها جزء من أتباع إبليس يدخلونه لا محيد لهم عنه أجازنا الله منها، وكل يدخل من باب بحسب عمله ويستقر في درك بقدر عمله، وعن علي بن أبي طالب أنه قال: إن أبواب جهنم هكذا أطباق بعضها فوق بعض، وعن هبيرة بن أبي مریم عن علي رضي الله عنه قال: أبواب جهنم سبعة بعضها فوق بعض، فيمتلئ الأول ثم الثاني ثم الثالث، حتى تمتلئ كلها. وقال عكرمة: سبعة أبواب سبعة أطباق، وقال ابن جريج: سبعة أبواب أولها جهنم، ثم لظى، ثم الحطمة، ثم السعير، ثم سقر، ثم الجحيم، ثم الهاوية^(٣)، وقال قتادة ﴿لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم﴾: هي والله منازل بأعمالهم، وقال الترمذي، عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: ﴿لجهنم سبعة أبواب باب منها لمن سل السيف على أمي - أو قال على أمة محمد -﴾^(٤). وقال ابن أبي حاتم، عن سمرة بن جندب عن النبي ﷺ في قوله: ﴿لكل باب منهم جزء مقسوم﴾ قال: ﴿إن من أهل النار من تأخذه النار إلى كعبيه، وإن منهم من تأخذه النار إلى حيزته، ومنهم من تأخذه النار إلى تراقيه، منازلهم بأعمالهم، فذلك قوله: ﴿لكل باب منهم جزء مقسوم﴾ .

(١) قاله مجاهد والحسن وقتادة .

(٢) في اللباب : أخرج الثعلبي : أن سلمان الفارسي لما سمع قوله تعالى : ﴿ وإن جهنم لموعدهم أجمعين ﴾ فر ثلاثة أيام هارباً من الخوف لا يعقل ، فجيء به إلى النبي ﷺ ؟ فقال : يا رسول الله ، أنزلت هذه الآية ؟ فوالذي بعثك بالحق لقد قطعت قلبي ،

فأنزل الله : ﴿ إن المتقين في جنات وعيون ﴾ . (٣) روى الضحاک عن ابن عباس نحوه ، وكذلك روي عن الأعمش

(٤) رواه الترمذي وقال : لا نعرفه إلا من حديث مالك بن مغول .

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾ * نَبِيِّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾

لما ذكر تعالى حال أهل النار، عطف على ذكر أهل الجنة وأنهم في جنات وعيون. وقوله: ﴿ادخلوها بسلام﴾ أي سالمين من الآفات مسلم عليكم، ﴿آمنين﴾ أي من كل خوف وفرع، ولا تخشوا من إخراج ولا انقطاع ولا فناء. وقوله: ﴿ونزعنا ما في صدورهم من غل إخواناً على سرر متقابلين﴾. عن أبي أمامة قال: لا يدخل الجنة مؤمن حتى يتزع الله ما في صدره من غل حتى يتزع منه مثل السبع الضاري، وهذا موافق لما في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «يخلص المؤمنون من النار فيحسبون على قنطرة بين الجنة والنار، فيقتص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا حتى إذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة». وقال ابن جرير: دخل عمران بن طلحة على علي رضي الله عنه بعد ما فرغ من أصحاب الجمل فرحب به وقال: إني لأرجو أن يجعلني الله وأياك من الذين قال الله: ﴿ونزعنا ما في صدورهم من غل إخواناً على سرر متقابلين﴾. وعن أبي حبيبة مولى لطلحة قال: دخل عمران بن طلحة على علي رضي الله عنه بعدما فرغ من أصحاب الجمل فرحب به وقال: إني لأرجو أن يجعلني الله وأياك من الذين قال الله: ﴿ونزعنا ما في صدورهم من غل إخواناً على سرر متقابلين﴾ قال: ورجلان جالسان إلى ناحية البساط، فقالا: الله أعدل من ذلك تقتلهم بالأمس وتكونون إخواناً، فقال علي رضي الله عنه: قوما أبعد أرض وأسحقها، فمن هم إذاً إن لم أكن أنا وطلحة؟ وفي رواية: فقام رجل من همدان فقال: الله أعدل من ذلك يا أمير المؤمنين، قال: فصاح به علي صيحة، فظننت أن القصر تدهده لها، ثم قال: إذا لم تكن نحن فمن هم؟ وقال سفيان الثوري: جاء (ابن جرموز)، قاتل الزبير، يستأذن على علي رضي الله عنه فحجبه طويلاً، ثم أذن له: فقال له: أما أهل البلاء فتجفؤهم، فقال علي: بفيك التراب، إني لأرجو أن أكون أنا وطلحة والزبير ممن قال الله: ﴿ونزعنا ما في صدورهم من غل إخواناً على سرر متقابلين﴾. وقال الحسن البصري، قال علي: فينا والله أهل بدر نزلت هذه الآية: ﴿ونزعنا ما في صدورهم من غل إخواناً على سرر متقابلين﴾. وقال الثوري في قوله: ﴿إخواناً على سرر متقابلين﴾ قال، هم عشرة: أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وسعيد بن زيد وعبد الله بن مسعود رضي الله عنهم أجمعين، وقوله: ﴿متقابلين﴾ قال مجاهد: لا ينظر بعضهم في قفا بعض، وفيه حديث مرفوع.

قال ابن أبي حاتم، عن زيد بن أبي أوفى قال: خرج علينا رسول الله ﷺ فتلا هذه الآية: ﴿إخواناً على سرر متقابلين﴾ في الله ينظر بعضهم إلى بعض^(١). وقوله: ﴿لا يمسهم فيها نصب﴾ يعني المشقة والأذى، كما جاء في

(١) في اللباب: أخرج ابن أبي حاتم عن علي بن الحسين: أن هذه الآية: ﴿ونزعنا ما في صدورهم...﴾ نزلت في أبي بكر، وعمر، قيل: وأي غل؟ قال: غل الجاهلية، إن بني تميم وبني عدي وبني هاشم كانوا أعداء، فلما أسلموا تحابوا، فأخذت أبا بكر الخاصة، فجعل علي يسخن يده فيكدها بها خاصة أبي بكر، فنزلت هذه الآية.

الصحيحين: « إن الله أمرني أن أبشر خديجة ببيت في الجنة من قصب، لا صخب فيه ولا نصب ». وقوله: ﴿ وهم منها بمخرجين ﴾، كقوله تعالى: ﴿ خالدین فیها لا یغنون عنها حولاً ﴾، وقوله: ﴿ نبيء عبادي أني أنا الغفور الرحيم ﴾ وأن عذابي هو العذاب الأليم ﴿ أي أخبر يا محمد عبادي أني ذو رحمة وذو عذاب أليم، وقد تقدم ذكر نظير هذه الآية الكريمة وهي دالة على مقامي الرجاء والخوف، وذكر في سبب نزولها ما رواه ابن جرير عن ابن أبي رباح عن رجل من أصحاب النبي ﷺ قال: طلع علينا رسول الله ﷺ من الباب الذي يدخل منه بنو شيبه فقال: « لا أراكم تضحكون » ثم أدير، حتى إذا كان عند الحجر رجع علينا القهقري فقال: « اني لما خرجت جاء جبريل عليه السلام فقال: يا محمد إن الله يقول: لم تقنط عبادي؟ ﴿ نبيء عبادي أني أنا الغفور الرحيم ﴾ وأن عذابي هو العذاب الأليم ﴾. » وقال قتادة: بلغنا أن رسول الله ﷺ قال: « لو يعلم العبد قدر عفو الله لما تورع من حرام، ولو يعلم العبد قدر عذاب الله لبخع نفسه ».

وَنَبِيَّهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشْرْتُمُونِي عَلَىٰ أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فِيمَ تَبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا بَشْرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴿٥٦﴾

يقول تعالى: وخبرهم يا محمد عن قصة ﴿ ضيف إبراهيم ﴾، والضيف يطلق على الواحد والجمع كالزور والسفر، وكيف ﴿ دخلوا عليه فقالوا سلاماً قال إنا منكم وجلون ﴾ أي خائفون، وقد ذكر سبب خوفه منهم لما رأى أيديهم لا تصل إلى ما قربه إليهم من الضيافة وهو العجل السمين الحنيد، ﴿ قالوا لا توجل ﴾ أي لا تخف، ﴿ وبشروه بغلام عليم ﴾ أي إسحاق عليه السلام كما تقدم في سورة هود، ثم ﴿ قال ﴾ متعجباً من كبره وكبر زوجته ومتحققاً للوعد ﴿ أبشرتموني على أن مسني الكبر فم تبشرون ﴾، فأجابوه مؤكدين لما بشروه به تحقيقاً وبشارة بعد بشارة، ﴿ قالوا بشرناك بالحق فلا تكن من القانطين ﴾، فأجابهم بأنه ليس يقنط ولكن يرجو من الله الولد، وإن كان قد كبر وأسنت امرأته، فإنه يعلم من قدرة الله ورحمته ما هو أبلغ من ذلك.

قَالَ فَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَرْنَا لَهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٦٠﴾

يقول تعالى إخباراً عن إبراهيم عليه السلام لما ذهب عنه الروح وجاءته البشري، إنه شرع يسألهم عما جاءوا له فقالوا: ﴿ إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين ﴾ يعنون قوم لوط، وأخبروه أنهم سينجون آل لوط من بينهم إلا امرأته فإنها من المهلكين، ولهذا قالوا: ﴿ إلا امرأته قدرنا إنها لمن الغابرين ﴾ أي الباقين المهلكين.

فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٦٤﴾

يخبر تعالى عن لوط لما جاءته الملائكة في صورة شباب حسان الوجوه فدخلوا عليه داره قال: ﴿إنكم قوم منكرون﴾ قالوا بل جنتك بما كانوا فيه يمترون ﴿يعنون بعدا بهم وهلاكهم ودمارهم الذي كانوا يشكون في وقوعه بهم وحلوله بساحتهم﴾ ﴿وأتيناك بالحق﴾ كقوله تعالى: ﴿ما نزل الملائكة إلا بالحق﴾، وقوله: ﴿وإنا لصادقون﴾ تأكيد لخبرهم إياه بما أخبروه به من نجاته وإهلاك قومه .

﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكَ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾^(٦٥)
 وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَوْلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾

يذكر تعالى عن الملائكة أنهم أمروه أن يسري بأهله بعد مضي جانب من الليل، وأن يكون لوط عليه السلام يمشي وراءهم ليكون أحفظ لهم؛ وهكذا كان رسول الله ﷺ يمشي في الغزو يزجي الضعيف ويحمل المنقطع، وقوله: ﴿ولا يلتفت منكم أحد﴾ أي إذا سمعت الصيحة بالقوم فلا تلتفتوا إليهم وذروهم فيما حل بهم من العذاب والنكال، ﴿وامضوا حيث تؤمرون﴾ كأنه كان معهم من يهديهم السبيل، ﴿وقضينا إليه ذلك الأمر﴾ أي تقدمنا إليه في هذا ﴿أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين﴾ أي وقت الصباح، كقوله في الآية الأخرى: ﴿إن موعدهم الصبح ليس الصبح بقريب﴾ .

وَجَاءَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضِيفِي فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾
 قَالُوا أَوْلَىٰ نَهَكَ عَنِ الْعَالِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَعَلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾

يخبر تعالى عن مجيء قوم لوط لما علموا بأضيافه وصباحة وجوههم، وأنهم جاءوا مستبشرين بهم فرحين ﴿قال إن هؤلاء ضيفي فلا تفضحون﴾ واتقوا الله ولا تخزون ﴿وهذا إنما قاله لهم قبل أن يعلم أنهم رسل الله، كما قال في سورة هود، وأما ههنا فتقدم ذكر أنهم رسل الله وعطف بذكر مجيء قومه ومحاجته لهم، ولكن الواو لا تقتضي الترتيب، ولا سببا إذا دل دليل على خلافه، فقالوا له مجيبين: ﴿أو لم نهك عن العالمين﴾ أي أو ما نهيناك أن تضيف أحدا؟ فأرشدهم إلى نسائهم وما خلق لهم ربهم منهن من الفروج المباحة، هذا كله وهم غافلون عما يراد بهم وما قد أحاط بهم من البلاء، وماذا يصبغهم من العذاب المستقر. ولهذا قال تعالى لمحمد ﷺ: ﴿لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون﴾، أقسم تعالى بحياة نبيه صلوات الله وسلامه عليه، وفي هذا تشريف عظيم ومقام رفيع وجاه عريض. قال ابن عباس: ما خلق الله وما ذرا وما برأ نفساً أكرم عليه من محمد ﷺ، وما سمعت الله أقسم بحياة أحد غيره، قال الله تعالى: ﴿لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون﴾ يقول: وحياتك وعمرك وبقائك في الدنيا ﴿إنهم لفي سكرتهم يعمهون﴾^(١)، وقال قتادة: ﴿في سكرتهم﴾ أي ضلاتهم، ﴿يعمهون﴾ أي يلعبون، وقال ابن عباس: ﴿لعمرك﴾ لعيشك، ﴿إنهم لفي سكرتهم يعمهون﴾ قال: يترددون .

فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةَ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَلَيْهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لِبَسْبِيلٍ مَّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾

يقول تعالى: ﴿ فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةَ ﴾ وهي ما جاءهم من الصوت القاصف عند شروق الشمس وهو طلوعها، وذلك مع رفع بلادهم إلى عنان السماء، ثم قلبها، وجعل عاليها سافلها، وإرسال حجارة السجيل عليهم. وقد تقدم الكلام على السجيل في هود بما فيه كفاية، وقوله: ﴿ إن في ذلك آيات للمتوسمين ﴾ أي إن آثار هذه النقم الظاهرة على تلك البلاد لمن تأمل ذلك وتوسمه بعين بصره وبصيرته، كما قال مجاهد في قوله: ﴿ للمتوسمين ﴾ قال: المتفرسين. وعن ابن عباس والضحاك: للناظرين، وقال قتادة: للمعتبرين، وقال مالك عن بعض أهل المدينة: ﴿ للمتوسمين ﴾ للمتأملين. وقال ابن أبي حاتم، عن أبي سعيد مرفوعاً قال، قال رسول الله ﷺ: « اتقوا فِرَاسَةَ الْمُؤْمِنِ فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ اللَّهِ »، ثم قرأ النبي ﷺ: ﴿ إن في ذلك آيات للمتوسمين ﴾^(١). وفي رواية عن ابن عمر: « اتقوا فِرَاسَةَ الْمُؤْمِنِ فَإِنَّ الْمُؤْمِنَ يَنْظُرُ بِنُورِ اللَّهِ »^(٢). وروى الحافظ البزار عن أنس قال، قال رسول الله ﷺ: « إن لله عبداً يعرفون الناس بالتوسم ». وقوله: ﴿ وإنها لبسبيل مقيم ﴾ أي وإن قرية سدوم التي أصابها ما أصابها من القلب والقذف للحجارة حتى صارت بحيرة منتنة خبيثة، بطريق مهيع مسالكة مستعمرة إلى اليوم، كقوله: ﴿ وإنكم لتمرون عليهم مصبحين وبالليل أفلا تعقلون ﴾، وقال مجاهد والضحاك: ﴿ وإنها لبسبيل مقيم ﴾ قال: معلم، وقال قتادة: بطريق واضح. وقال قتادة أيضاً: بصقع من الأرض واحد. وقوله: ﴿ إن في ذلك آية للمؤمنين ﴾ أي إن الذي صنعنا بقوم لوط من الهلاك والدمار، وإنجائنا لوطاً وأهله لدلالة واضحة جلية للمؤمنين بالله ورسوله.

وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مَّبِينٍ ﴿٧٩﴾

أصحاب الأيكة هم قوم شعيب، قال الضحاك: الأيكة: الشجر الملتف، وكان ظلمهم بشركهم بالله وقطعهم الطريق، ونقصهم المكيال والميزان، فانتقم الله منهم بالصيحة والرجفة وعذاب يوم الظلمة، وقد كانوا قريباً من قوم لوط بعدهم في الزمان ومسامتين لهم في المكان، ولهذا قال تعالى: ﴿ وإنها لبإمام مبین ﴾ أي طريق مبین. قال ابن عباس: طريق ظاهر، ولهذا لما أنذر شعيب قومه قال في إنذاره إياهم: ﴿ وما قوم لوط منكم ببعيد ﴾.

وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسِلِينَ ﴿٨٠﴾ وَءَاتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا يُخْتُونَ مِنَ الْجِبَالِ يُبُوتَاءَ أَمِينٍ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْحِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَاغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾

أصحاب الحجر هم ثمود الذين كذبوا صالحاً نبياً عليهم عليه السلام، ومن كذب برسول فقد كذب بجميع

(١) رواه الترمذي وابن جرير، وقال الترمذي: لا نعرفه إلا من هذا الوجه. (٢) رواه ابن جرير.

المرسلين، ولهذا أطلق عليهم تكذيب المرسلين، وذكر تعالى أنه أتاهم من الآيات ما يدلهم على صدق ما جاءهم به صالح، كالناقة التي أخرجها الله لهم بدعاء صالح من صخرة صماء، وكانت تسرح في بلادهم لها شرب ولهم شرب يوم معلوم، فلما عتوا وعقروها قال لهم: ﴿تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب﴾، وقال تعالى: ﴿وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى﴾، وذكر تعالى أنهم: ﴿كانوا ينحتون من الجبال بيوتاً آمنين﴾ أي من غير خوف ولا احتياج إليها بل أشراً وبطراً وعبثاً، كما هو المشاهد من صنعهم في بيوتهم بوادي الحجر الذي مر به رسول الله ﷺ، وهو ذاهب إلى تبوك، ففقع رأسه وأسرع دابته، وقال لأصحابه: «لا تدخلوا بيوت القوم المعذنين إلا أن تكونوا باكين، فإن لم تبكوا فتباكوا خشية أن يصيبكم ما أصابهم»^(١). وقوله: ﴿فأخذتهم الصيحة مصبحين﴾ أي وقت الصباح من اليوم الرابع، ﴿فاغنى عنهم ما كانوا يكسبون﴾ أي ما كانوا يستغلونه من زروعهم وثمارهم التي ضنوا بمائها عن الناقة حتى عقروها لثلاث تضيق عليهم في المياه، فما دفعت عنهم تلك الأموال ولا نفعتم لما جاء أمر ربك.

وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَأْتِيَةٌ فَاصْفَحَ الْجَمِيلِ

﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾

يقول تعالى: ﴿وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وإن الساعة لآتية﴾ أي بالعدل ﴿ليجزى الذين أساءوا بما عملوا﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار﴾، ثم أخبر نبيه بقيام الساعة وأنها كائنة لا محالة، ثم أمره بالصفح الجميل عن المشركين في أذاهم له وتكذيبهم ما جاءهم به، كقوله: ﴿فاصفح عنهم وقل سلام فسوف يعلمون﴾، وقال مجاهد وقتادة: كان هذا قبل القتال^(٢)، وقوله: ﴿إن ربك هو الخلاق العليم﴾ تقرير للمعاد وأنه تعالى قادر على إقامة الساعة، فإنه الخلاق الذي لا يعجزه خلق شيء ﴿العليم﴾ بما تمزق من الأجساد وتفرق في سائر أقطار الأرض كقوله: ﴿أو ليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم﴾.

وَلَقَدْ آتَيْنَكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ

وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾

يقول تعالى لنبيه ﷺ: كما آتيناك القرآن العظيم فلا تنظرن إلى الدنيا وزينتها، وما متعنا به أهلها من الزهرة الفانية لفتنتهم فيه، فلا تغبطهم بما هم فيه، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات حزناً عليهم في تكذيبهم لك ومخالفتهم دينك، ﴿واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين﴾ أي ألق لهم جانبك، كقوله: ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم

(١) الحديث في الصحاح والسنن.

(٢) قال ابن كثير: وهو كما قالوا، فإن الآية مكية والقتال إنما شرع بعد الهجرة.

عزيز عليه ما عتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم ﴿١﴾، وقد اختلف في السبع المثاني ما هي؟ فقال ابن مسعود وابن عباس: هي السبع الطوال، يعنون «البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنعام والأعراف ويونس» ﴿٢﴾، وقال سعيد: بين فيهن الفرائض والحلود والقصص والأحكام، وقال ابن عباس: بين الأمثال والخبر والعبر، ولم يعطهن أحد إلا النبي ﷺ، وأعطى موسى منهن ثنتين، (والقول الثاني): أنها الفاتحة وهي سبع آيات. قال ابن عباس: والبسلة هي الآية السابعة، وقد خصكم الله بها، وقال قتادة: ذكر لنا أنهم فاتحة الكتاب وأنهم يثنون في كل ركعة مكتوبة أو تطوع؛ واختاره ابن جرير، واحتج بالأحاديث الواردة في ذلك، وقد أورد البخاري رحمه الله ههنا حديثين: (أحدهما) عن أبي سعيد بن المعلی قال: مرّ بي النبي ﷺ وأنا أصلي فدعاني، فلم آت حتى صليت فاتيته، فقال: «ما منعك أن تأتيني؟» فقلت: كنت أصلي، فقال: «لم يقل الله: ﴿يا أيها الذين آمنوا استجبوا لله وللرسول إذا دعاكم﴾ إلا أعلمك أعظم سورة في القرآن قبل أن أخرج من المسجد»؟ فذهب النبي ﷺ ليخرج فذكرت فقال: ﴿الحمد لله رب العالمين﴾ هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته. (الثاني) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «أم القرآن هي السبع المثاني والقرآن العظيم»، فهذا نص في الفاتحة هي (السبع المثاني) والقرآن العظيم، ولكن لا ينافي وصف غيرها من السبع الطوال بذلك لما فيها من هذه الصفة، كما لا ينافي وصف القرآن بكماله بذلك أيضاً، كما قال تعالى: ﴿الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني﴾ فهو مثاني من وجه ومتشابه من وجه وهو القرآن العظيم أيضاً، كما أنه عليه الصلاة والسلام لما سئل عن المسجد الذي أسس على التقوى، فأشار إلى مسجده والآية نزلت في مسجد قباء، فلا تنافي، فإن ذكر الشيء لا ينفي ذكر ما عداه إذا اشتركا في تلك الصفة والله أعلم. وقوله: ﴿لا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم﴾ أي استغن بما آتاك الله من القرآن العظيم عما هم فيه من المتاع والزهرة الفانية. ومن ههنا ذهب ابن عيينة إلى تفسير الحديث الصحيح: «ليس منا من لم يتغن بالقرآن» إلى أنه يستغنى به عما عداه، وهو تفسير صحيح ولكن ليس هو المقصود من الحديث كما تقدم في أول التفسير، وقال ابن أبي حاتم عن أبي رافع صاحب النبي ﷺ قال: ضاف النبي ﷺ ضيف، ولم يكن عند النبي ﷺ شيء يصلحه، فأرسل إلى رجل من اليهود: «يقول لك محمد رسول الله أسلفني دقيماً إلى هلال رجب»، قال: لا، إلا برهن، فأتيت النبي ﷺ فأخبرته فقال: «أما والله إني لأمين من في السماء، وأمين من في الأرض، ولئن أسلفني أو باعني لأؤدين إليه»، فلما خرجت من عنده نزلت هذه الآية ﴿لا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا﴾ إلى آخر الآية، كأنه يعزیه عن الدنيا. قال ابن عباس ﴿لا تمدن عينيك﴾ قال: نهى الرجل أن يتمنى ما لصاحبه. وقال مجاهد: ﴿إلى ما متعنا به أزواجاً منهم﴾ هم الأغنياء.

وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ ﴿٩٣﴾ كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٢﴾ الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ ﴿٩١﴾ فَوَرَبِّكَ

لِنَسَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾

(١) وهو قول ابن عمر ومجاهد وسعيد بن جبیر والضحاك وغيرهم.

يأمر تعالى نبيه ﷺ أن يقول للناس: ﴿إني أنا النذير المبين﴾ البين النذارة، نذير للناس من عذاب ألم، كما حل بمن تقدمهم من الأمم المكذبة لرسالتها، وما أنزل الله عليهم من العذاب والانتقام، وقوله: ﴿المقتسمين﴾ أي المتحالفين، أي تحالفوا على مخالفة الأنبياء وتكذيبهم وأذاهم، كقوله تعالى إخباراً عن قوم صالح إنهم: ﴿قالوا تقاسموا بالله لنبئته وأهله﴾ الآية، أي نقتلهم ليلاً، قال مجاهد: تقاسموا وتحالفوا ﴿وأقسموا بالله جهداً أيانهم لا يبعث الله من يموت﴾، ﴿أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة﴾ فكأنهم لا يكذبون بشيء من الدنيا إلا أقسموا عليه فسموا مقتسمين. قال عبد الرحمن بن زيد: المقتسمون أصحاب صالح الذين تقاسموا بالله لنبئته وأهله، وفي الصحيحين عن أبي موسى عن النبي ﷺ قال: «إنما مثلي ومثل ما بعثني الله به كمثل رجل أتى قومه فقال: يا قوم إني رأيت الجيش بعيني، وإني أنا النذير العريان فالنجاء النجاء، فأطاعه طائفة من قومه فأدلجوا وانطلقوا على مهلهم فنجوا، وكذبه طائفة منهم فأصبحوا مكانهم فصبّحهم الجيش فأهلكهم واجتاحهم، فذلك مثل من أطاعني واتبع ما جئت به، ومثل من عصاني وكذب ما جئت به من الحق»، وقوله: ﴿الذين جعلوا القرآن عضين﴾ أي جزأوا كتبهم المترلة عليهم، فأمنوا ببعض وكفروا ببعض، قال البخاري عن ابن عباس: ﴿جعلوا القرآن عضين﴾ قال: هم أهل الكتاب جزأوه أجزاء فأمنوا ببعضه وكفروا ببعضه^(١). وقال عكرمة: العضه، السحر بلسان قريش، تقول للساخرة: إنها العاضهة، وقال مجاهد: عضوه اعضاء قالوا: سحر، وقالوا: كهانة، وقالوا: أساطير الأولين، وقال عطاء: قال بعضهم: ساحر، وقالوا: مجنون، وقالوا: كاهن، فذلك العضين.

وقال محمد بن إسحاق، عن ابن عباس: إن الوليد بن المغيرة اجتمع إليه نفر من قريش، وكان ذا شرف فيهم، وقد حضر الموسم، فقال لهم يا معشر قريش إنه قد حضر هذا الموسم، وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا، فأجمعوا فيه رأياً واحداً ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضاً، ويرد قولكم بعضه بعضاً، فقالوا: وأنت يا أبا عبد شمس فقل وأقم لنا رأياً نقول به، قال: بل أتم قولوا لأسمع، قالوا: نقول كاهن، قال: ما هو بكاهن، قالوا: فنقول مجنون، قال ما هو بمجنون، قالوا: فنقول شاعر، قال: ما هو بشاعر، قالوا: فنقول ساحر، قال: ما هو بساحر، قالوا: فإذا تقول؟ قال: والله إن لقوله لحلاوة فما أتم بقائلين من هذا شيئاً إلا عرف أنه باطل، وإن أقرب القول أن تقولوا: هو ساحر، فتفرقوا عنه بذلك، وأنزل الله فيهم: ﴿الذين جعلوا القرآن عضين﴾ أصنافاً: ﴿فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون﴾ أولئك النفر الذين قالوا لرسول الله . وقال ابن عمر في قوله: ﴿لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون﴾ قال: عن ﴿لا إله إلا الله﴾^(٢)، وقال ابن مسعود: والذي لا إله غيره ما منكم من أحد إلا سيخلو الله به يوم القيامة، فيقول: ابن آدم ماذا غرك مني بي؟ ابن آدم ماذا عملت فيما علمت؟ ابن آدم ماذا أجبت المرسلين؟ وقال أبو جعفر، عن أبي العالية في قوله: ﴿فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون﴾ قال: يسأل العباد كلهم عن خلتين يوم القيامة: عما كانوا يعملون، وعماذا أجابوا المرسلين، وقال ابن عيينة: عن عمك وعن مالك، وقال ابن أبي حاتم، عن معاذ بن جبل قال، قال رسول الله

(١) وروي عن مجاهد والحسن والضحاك وعكرمة وسعيد بن جبير نحو ذلك .

(٢) ورد فيه حديث مرفوع رواه الترمذي عن أنس عن النبي ﷺ في قوله: ﴿فوربك لنسألنهم أجمعين﴾ قال: عن ﴿لا إله

ﷺ: « يا معاذ إن المرء يسأل يوم القيامة عن جميع سعيه حتى كحل عينيه، وعن فتات الطينة بأصبعه، فلا ألفينك يوم القيامة وأحد غيرك أسعد بما آتاك الله منك ». وقال ابن عباس في قوله: ﴿ فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون ﴾، ثم قال: ﴿ فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان ﴾ قال: لا يسألهم هل عملتم كذا؟ لأنه أعلم بذلك منهم، ولكن يقول لم عملتم كذا وكذا؟

فَأَصْدَعِ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴿٩٥﴾ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴿٩٩﴾

يقول تعالى أمرأ رسول الله ﷺ بإبلاغ ما بعثه به وبإفاده والصدع به، وهو مواجهة المشركين به، كما قال ابن عباس في قوله: ﴿ فاصدع بما تؤمر ﴾: أي أمضه؛ وفي رواية (افعل ما تؤمر). وقال مجاهد: هو الجهر بالقرآن في الصلاة. وعن عبد الله بن مسعود: ما زال النبي ﷺ مستخفياً حتى نزلت: ﴿ فاصدع بما تؤمر ﴾ فخرج هو وأصحابه، وقوله: ﴿ وأعرض عن المشركين * إنا كفيناك المستهزين ﴾ أي بلغ ما أنزل إليك من ربك، ولا تلتفت إلى المشركين الذين يريدون أن يصدوك عن آيات الله ﴿ ودوا لو تدهن فيدهنون ﴾ ولا تخفهم، فإن الله كافيك إياهم، وحافظك منهم، كقوله تعالى: ﴿ يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس ﴾. وعن أنس مر رسول الله ﷺ فغمز بعضهم، فجاء جبريل - أحسبه قال: فغمزهم - فوقع في أجسادهم كهيئة الطعنة فاتوا^(١). وقال محمد بن إسحاق: كان عظماء المستهزين خمسة نفر، وكانوا ذوي أسنان وشرف في قومهم، من بني أسد بن عبد العزى (أبو زمعة) كان رسول الله ﷺ فيما بلغني قد دعا عليه لما كان يبلغه من أذاه واستهزائه، فقال: « اللهم أعم بصره وأثكله ولده »، ومن بني زهرة (الأسود ابن عبد يغوث)، ومن بني مخزوم (الوليد بن المغيرة)، ومن بني سهم (العاص بن وائل)، ومن خزاعة (الحارث ابن الطلائع). فلما تبادوا في الشر وأكثروا برسول الله ﷺ الاستهزاء أنزل الله تعالى: ﴿ فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين * إنا كفيناك المستهزين - إلى قوله - فسوف يعلمون ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ الذين يجعلون مع الله إلهاً آخر فسوف يعلمون ﴾ تهديد شديد ووعد أكيد لمن جعل مع الله معبوداً آخر. وقوله: ﴿ ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين ﴾ أي وإنا لنعلم يا محمد أنك يحصل لك من أذاهم لك ضيق صدر وانقباض، فلا يضيقنك ذلك، ولا يثنيك عن إبلاغك رسالة الله وتوكل عليه، فإنه كافيك وناصرك عليهم، فاشتغل بذكر الله وتحميده وتسيحه وعبادته التي هي الصلاة. ولهذا قال: ﴿ فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين ﴾، ولهذا كان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر صلى. وقوله: ﴿ واعبد ربك حتى يأتيك اليقين ﴾، قال البخاري عن سالم بن عبد الله ﴿ واعبد ربك حتى يأتيك اليقين ﴾ قال:

(١) أخرجه الحافظ البزار في قوله تعالى: ﴿ إنا كفيناك المستهزين ﴾.

الموت^(١). والدليل على ذلك قوله تعالى إخباراً عن أهل النار أنهم قالوا: ﴿وكنا نكذب بيوم الدين هـ حتى أتانا اليقين﴾. وفي الصحيح: «أما هو فقد جاءه اليقين وإني لأرجو له الخير»^(٢). ويستدل بهذه الآية الكريمة وهي قوله: ﴿واعبد ربك حتى يأتيك اليقين﴾ على أن العبادة كالصلاة ونحوها واجبة على الإنسان ما دام عقله ثابتاً فيصلي بحسب حاله، كما ثبت في صحيح البخاري عن عمران بن حصين رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «صل قائماً، فإن لم تستطع فقاعداً، فإن لم تستطع فعلى جنب»، ويستدل بها على تخطئة من ذهب من الملاحدة إلى أن المراد باليقين المعرفة، فتى وصل أحدهم إلى المعرفة سقط عنه التكليف عندهم، وهذا كفر وضلال وجهل، فإن الأنبياء عليهم السلام كانوا - هم وأصحابهم - أعلم الناس بالله وأعرفهم بحقوقه وصفاته، وما يستحق من التعظيم، وكانوا مع هذا أكثر الناس عبادة ومواظبة على فعل الخيرات إلى حين الوفاة؛ وإنما المراد باليقين ههنا الموت، كما قدمناه، ولله الحمد والمنة.

[آخر تفسير سورة الحجر ، والحمد لله رب العالمين] .

* * *

(١) وهكذا روي عن مجاهد والحسن وقتادة وعبد الرحمن بن زيد وغيرهم أنهم فسروا اليقين بالموت .
 (٢) قاله ﷺ لما دخل على عثمان بن مظعون وقد مات ، فقالت أم العلاء : رحمة الله عليك ، فشهادتي عليك لقد أكرمك الله ، فقال رسول الله ﷺ : « وما يدرك أن الله أكرمه » الحديث .

(١٦) سُورَةُ النَّجْمِ مَكِّيَّةٌ
وَإِيَّاهُمَا ثِنْتَانِ عَشْرُونَ وَمِائَةٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١﴾

يخبر تعالى عن اقتراب الساعة ودنوها، معبراً بصيغة الماضي الدال على التحقق والوقوع لا محالة، كقوله: ﴿ اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون ﴾ ، وقال: ﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر ﴾ ، وقوله: ﴿ فلا تستعجلوه ﴾ أي قرب ما تباعد فلا تستعجلوه ، والضمير يعود على العذاب، كقوله تعالى: ﴿ ويستعجلونك بالعذاب ولولا أجل مسمى لجاءهم العذاب وليأتينهم بغتة وهم لا يشعرون ﴾ ، فإنهم استعجلوا العذاب قبل كونه استبعاداً وتكذيباً، ثم إنه تعالى نزه نفسه عن شركهم به غيره، وعبادتهم معه ما سواه من الأوثان والأنداد، تعالى وتقدس علواً كبيراً، وهؤلاء هم المكذبون بالساعة^(١)، فقال: ﴿ سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾ .

يُنزِلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ﴿٢﴾

يقول تعالى: ﴿ ينزل الملائكة بالروح ﴾ أي الوحي كقوله: ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ﴾ ، وقوله: ﴿ على من يشاء من عباده ﴾ وهم الأنبياء، كما قال تعالى: ﴿ الله أعلم حيث يجعل رسالته ﴾ ، وقال: ﴿ الله يصطفي من الملائكة رسلاً ومن الناس ﴾ ، وقال: ﴿ يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده ﴾ ، وقوله: ﴿ أن أنذروا ﴾ أي لينذروا ﴿ أنه لا إله إلا أنا فاتقون ﴾ أي فاتقوا عقوبي لمن خالف أمري وعبد غيري .

خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾

يخبر تعالى عن خلقه العالم العلوي وهو السماوات، والعالم السفلي وهو الأرض بما حوت، وأن ذلك مخلوق بالحق لا للعبث بل ﴿ ليجزي الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى ﴾ ، ثم نزه نفسه عن شرك

(١) في اللباب: أخرج ابن مردويه: لما نزلت ﴿ أتى أمر الله ﴾ وغمر أصحاب رسول الله حتى نزلت ﴿ فلا تستعجلوه ﴾ فسكتوا - وأخرج عبد الله بن الإمام أحمد: لما نزلت ﴿ أتى أمر الله ﴾ قاموا، فنزلت: ﴿ فلا تستعجلوه ﴾ .

من عبد معه غيره وهو المستقل بالخلق وحده لا شريك له ؛ فلهذا يستحق أن يعبد وحده لا شريك له ، ثم نبه على خلق جنس الإنسان ﴿ من نطفة ﴾ أي مهينة ضعيفة ، فلما استقل ودرج إذا هو يخاصم ربه تعالى ويكذبه ويحارب رسله ، وهو إنما خلق ليكون عبداً لا ضداً كقوله تعالى : ﴿ ويعبدون من دون الله ما لا ينفعهم ولا يضرهم وكان الكافر على ربه ظهيراً ﴾ . وقوله : ﴿ أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين ﴾ . وفي الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن بشر بن جحاش قال : بصق رسول الله ﷺ في كفه ، ثم قال : « يقول الله تعالى : ابن آدم ! أنى تعجزني وقد خلقتك من مثل هذه ، حتى إذا سويتك فعدلتك مشيت بين برديك وللأرض منك وئيد ، فجمعت ومنعت ، حتى إذا بلغت الحلقوم ، قلت أتصدق ، وأنى أو أن الصدقة ؟ » (١) .

وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دَفٌّ وَمَنْفَعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٦﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تَرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿١٧﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَلِّغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ ﴿١٨﴾ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩﴾

يمتن تعالى على عباده بما خلق لهم من الأنعام وهي (الإبل والبقر والغنم) وبما جعل لهم فيها من المصالح والمنافع من أصوافها وأوبارها وأشعارها يلبسون ويفترشون ، ومن ألبانها يشربون ، وبأكلون من أولادها وما لهم فيها من الجمال وهو الزينة ، ولهذا قال : ﴿ ولكم فيها جمال حين تريحون ﴾ ، وهو وقت رجوعها عشياً من المرعى ، فإنها تكون أمده خواصر وأعظمه ضروعاً وأعلاه أسنمة ، ﴿ وحين تسرحون ﴾ أي غلوة حين تبعثونها المرعى ، ﴿ وتحمل أثقالكم ﴾ وهي الأحمال الثقيلة التي تعجزون عن نقلها وحملها ، ﴿ إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس ﴾ وذلك في الحج والعمرة والغزو والتجارة وما جرى مجرى ذلك ، تستعملونها في أنواع الاستعمال من ركوب وتحميل كقوله تعالى : ﴿ الله الذي جعل لكم الأنعام لتركبوها ومنها تأكلون ﴾ . ولكم فيها منافع وتبلغوا عليها حاجة في صدوركم وعليها وعلى الفلك تحملون ﴾ ، ولهذا قال ههنا بعد تعداد هذه النعم : ﴿ إن ربكم لرؤوف رحيم ﴾ أي ربكم الذي قبض لكم هذه الأنعام وسخرها لكم كقوله : ﴿ وذللناها لهم فنها ركوبهم ومنها يأكلون ﴾ ، وقال : ﴿ وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون ﴾ ، قال ابن عباس : ﴿ لكم فيها دف ﴾ أي ثياب ، ﴿ ومنافع ﴾ ما تنتفعون به من الأطعمة والأشربة ، ومنافع نسل كل دابة . وقال مجاهد : ﴿ لكم فيها دف ﴾ أي لباس ينسج و ﴿ منافع ﴾ مركب ولحم ولبن . وقال قتادة : دف ومنافع يقول : لكم فيها لباس ومنفعة وبلغة ، وكذا قال غير واحد من المفسرين بألفاظه متقاربة .

وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٠﴾

هذا صنف آخر مما خلق تبارك وتعالى لعباده ، يمتن به عليهم وهو ﴿ الخيل والبغال والحمير ﴾ التي جعلها للركوب والزينة بها وذلك أكبر المقاصد منها ، ولما فصلها من الأنعام وأفردها بالذكر ، استدل من استدل من العلماء ممن ذهب إلى تحريم لحوم الخيل بذلك على ما ذهب إليه فيها ، كالإمام أبي حنيفة رحمه الله ومن وافقه

(١) رواه الإمام أحمد وابن ماجه في السنن .

من الفقهاء بأنه تعالى قرنها بالبغال والحمير، وهي حرام، كما ثبتت به السنة النبوية، وذهب إليه أكثر العلماء. وقد روى الإمام أبو جعفر بن جرير عن ابن عباس: أنه كان يكره لحوم الخيل والبغال والحمير، وكان يقول: قال الله تعالى: ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دَفٌّ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ فهذه للأكل، ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا﴾ فهذه للركوب، ويستأنس لهذا بحديث رواه الإمام أحمد عن خالد بن الوليد رضي الله عنه قال: نهى رسول الله ﷺ عن أكل لحوم الخيل والبغال والحمير، ولكن لا يقاوم ما ثبت في الصحيحين عن جابر بن عبد الله قال: نهى رسول الله ﷺ عن لحوم الحمر الأهلية وأذن في لحوم الخيل، وعن جابر قال: ذبحنا يوم خيبر الخيل والبغال والحمير، فنهانا رسول الله ﷺ عن البغال والحمير، ولم ينهنا عن الخيل^(١)، وفي صحيح مسلم عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالت: نحرنا على عهد رسول الله ﷺ فرساً فأكلناه ونحن بالمدينة فهذه أدل وأقوى وأثبت، وإلى ذلك صار جمهور العلماء مالك والشافعي وأحمد وأصحابهم وأكثر السلف والخلف والله أعلم.

وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾

لما ذكر تعالى في هذه السورة الحيوانات من الأنعام وغيرها التي يركبونها ويبلغون عليها حاجة في صلورهم، وتحمل أثقالهم إلى البلاد والأماكن البعيدة والأسفار الشاقة، شرع في ذكر الطرق التي يسلكها الناس إليه، فبين أن الحق منها ما هي موصلة إليه فقال: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾، كقوله: ﴿وَأَنْ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السَّبِيلَ فَتَفْرُقَ بَكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾، وقال: ﴿هَذَا صِرَاطٌ عَلِيٌّ مُسْتَقِيمٌ﴾، قال مجاهد في قوله: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾، قال: طريق الحق على الله. وقال السدي: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ الإسلام، وقال ابن عباس: وعلى الله البيان أي بين الهدى والضلالة^(١). وقول مجاهد ههنا أقوى من حيث السياق، لأنه تعالى أخبر أن ثم طرقاً تسلك إليه، فليس يصل إليه منها إلا طريق الحق، وهي الطريق التي شرعها ورضيها، وما عداها مسدودة والأعمال فيها مردودة، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمِنْهَا جَائِرٌ﴾ أي حائد مائل زائل عن الحق. قال ابن عباس وغيره: هي الطرق المختلفة والآراء والأهواء المتفرقة كاليهودية والنصرانية والمجوسية، وقرأ ابن مسعود: ﴿مِنْكُمْ جَائِرٌ﴾؛ ثم أخبر تعالى أن ذلك كله كائن عن قدرته ومشيتته فقال: ﴿وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَّنَ مِنْ فِي الْأَرْضِ كُلِّهِمْ جَمِيعًا﴾، وقال: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ الآية.

هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجْرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنْتِجُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾

لما ذكر تعالى ما أنعم به عليهم من الأنعام والدواب، شرع في ذكر نعمته عليهم في إنزال المطر من السماء - وهو العلو - مما لهم فيه بلغة ومتاع لهم ولأنعامهم فقال: ﴿لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ﴾ أي جعله عذبا زلالا يسوغ لكم شرابه ولم يجعله ملحا أجاجا، ﴿وَمِنْهُ شَجْرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ أي وأخرج لكم منه شجرا ترعون فيه أنعامكم، كما قال ابن

(٢) وكذا قال قتادة والضحاك .

(١) رواه أحمد وأبو داود .

عباس^(١) : ﴿ تسميون ﴾ أي ترعون ومنه الإبل السائمة، والسوم: الرعي . روى ابن ماجة أن رسول الله ﷺ نهى عن السوم قبل طلوع الشمس. وقوله: ﴿ ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات ﴾ أي يخرجها من الأرض بهذا الماء الواحد على اختلاف صنوفها وطعومها وألوانها وروائحها وأشكالها، ولهذا قال: ﴿ إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون ﴾ أي دلالة وحجة على أنه لا إله إلا الله، كما قال تعالى: ﴿ أمن خلق السماوات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها ؟ أإله مع الله ؟ بل هم قوم يعدلون ﴾ ، ثم قال تعالى :

وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنَّجْمُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾
وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٧﴾

ينبه تعالى عباده على آياته العظام، ومننه الجسام في تسخيره الليل والنهار يتعاقبان، والشمس والقمر يدوران، والنجوم الثابت والسيارات في أرجاء السماوات، نوراً وضياءً ليتهدي بها في الظلمات، وكل منها يسير في فلكه الذي جعله الله تعالى فيه، يسير بحركة مقدره لا يزيد عليها ولا ينقص عنها، والجميع تحت قهره وسلطانه وتسخيره وتقديره وتسهيله كقوله: ﴿ والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين ﴾ ولهذا قال: ﴿ إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾ أي لدلالات على قدرته تعالى الباهرة وسلطانه العظيم، لقوم يعقلون عن الله ويفهمون حججه. وقوله: ﴿ وما ذراً لكم في الأرض مختلفاً ألوانه ﴾ لما نبه تعالى على معالم السماء نبه على ما خلق في الأرض من الأمور العجيبة والأشياء المختلفة، من الحيوانات والمعادن والنباتات والجمادات، على اختلاف ألوانها وأشكالها وما فيها من المنافع والخواص ﴿ إن في ذلك لآية لقوم يذكرون ﴾ أي آلاء الله ونعمه فيشكرونها .

* وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لَنَا نَافِئًا وَمِنْهُ لَحْمٌ طَرِيًّا وَنَسَخَّرِجُوا مِنْهُ حَلِيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاحِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨﴾ وَالْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِي أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٩﴾ وَعَلَّمَتِ بِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٢٠﴾ أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٢﴾

يخبر تعالى عن تسخيره البحر المتلاطم الأمواج، ويمتن على عباده بتذليله لهم وتيسيرهم للركوب فيه، وما يخلقه فيه من اللؤلؤ والجواهر النفيسة، وتسهيله للعباد استخراجهم من قراره حلية يلبسونها، وتسخيره البحر لحمل السفن التي تمخره أي تشقه، وقيل: تمخر الرياح وكلاهما صحيح، الذي أرشد العباد إلى صنعها، وهداهم إلى ذلك إرثاً عن نوح عليه السلام، فإنه أول من ركب السفن، وله كان تعليم صنعها، ثم أخذها الناس عنه قرناً بعد قرن وجيلاً بعد

جبل، يسرون من قطر إلى قطر، ومن بلد إلى بلد، لجلب ما هناك من الأزراق، ولهذا قال تعالى: ﴿ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون﴾ أي نعمه وإحسانه؛ ثم ذكر تعالى الأرض وما ألقى فيها من الرواسي الشامخات والجبال الراسيات لتقر الأرض ولا تميد، أي تضطرب بما عليها من الحيوانات، فلا يهنأ لهم عيش بسبب ذلك، ولهذا قال: ﴿والجبال أرساها﴾ وقال الحسن: لما خلقت الأرض كانت تميد فقالوا: ما هذه بمقرة على ظهرها أحداً، فأصبحوا وقد خلقت الجبال، فلم تدر الملائكة مِم خلقت الجبال؟ وقال سعيد، عن قيس بن عباد: إن الله لما خلق الأرض جعلت تمور فقالت الملائكة: ما هذه بمقرة على ظهرها أحداً، فأصبحت صباحاً وفيها رواسيها^(١). وقوله: ﴿وأنهاراً وسبلاً﴾ أي جعل فيها أنهاراً تجري من مكان إلى مكان إلى مكان آخر رزقاً للعباد ينبع في موضع، وهو رزق لأهل موضع آخر، فيقطع البقاع والبراري والقفار، ويخترق الجبال والآكام، فيصل إلى البلد الذي سخر لأهله، وهي سائرة في الأرض يمنة ويسرة وجنوباً وشمالاً وشرقاً وغرباً، ما بين صغار وكبار، وأودية تجري حيناً وتنقطع في وقت، وما بين نبع وجمع، وقوي السير وبطيئه بحسب ما أراد وقدر وسخر ويسر، فلا إله إلا هو ولا رب سواه، وكذلك جعل فيها ﴿سبلاً﴾ أي طرقاً يسلك فيها من بلاد إلى بلاد حتى إنه تعالى ليقطع الجبل حتى يكون ما بينهما ممراً ومسلكاً، كما قال تعالى: ﴿وجعلنا فيها فجاً سبلاً﴾ الآية. وقوله: ﴿وعلامات﴾ أي دلائل من جبال كبار وآكام صغار ونحو ذلك يستدل بها المسافرون براً وبحراً إذا ضلوا الطرق. وقوله: ﴿وبالنجم هم يهتدون﴾ أي في ظلام الليل، قاله ابن عباس، ثم تبه تعالى على عظمته وأنه لا تنبغي العبادة إلا له دون ما سواه من الأوثان التي لا تخلق شيئاً بل هم يخلقون، ولهذا قال: ﴿أفمن يخلق كمن لا يخلق؟ أفلا تذكرون﴾ ثم نبههم على كثرة نعمه عليهم وإحسانه إليهم فقال: ﴿وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الله لغفور رحيم﴾ أي يتجاوز عنكم ولو طالبكم بشكر جميع نعمه لعجزتم عن القيام بذلك، ولو أمركم به لضعفتم وتركتكم، ولو عذبكم لعذبكم وهو غير ظالم لكم، ولكنه غفور رحيم يغفر الكثير ويجازي على اليسير. وقال ابن جرير: يقول: إن الله لغفور لما كان منكم من تقصير في شكر بعض ذلك إذا تبتم وأنتم إلى طاعته واتباع مرضاته، رحيم بكم لا يعذبكم بعد الإنابة والتوبة.

﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسْرُونَ وَمَا تَعْلِنُونَ ﴾ ١٩ ﴿ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ ٢٠ ﴿ أَمْ أَمْواتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾ ٢١

يخبر تعالى أنه يعلم الضمائر والسرائر كما يعلم الظواهر، وسيجزي كل عامل بعمله يوم القيامة إن خيراً فخير وإن شراً فشر، ثم أخبر أن الأصنام التي يدعونها من دون الله لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون، كما قال الخليل: ﴿أتعبدون ما تتحتون؟ والله خلقكم وما تعملون﴾، وقوله: ﴿أموات غير أحياء﴾ أي هي جمادات لا أرواح فيها فلا تسمع ولا تبصر ولا تعقل ﴿وما يشعرون أيان يبعثون﴾ أي لا يدرون متى تكون الساعة فكيف يرتجى عند هذه نفع أو ثواب أو جزاء؟ إنما يرجى ذلك من الذي يعلم كل شيء وهو خالق كل شيء.

(١) وفي رواية ابن جرير عن علي قال: لما خلق الله الأرض فضت وقالت: أي ربّ يجعل عليّ بني آدم يعملون الخطايا ويعملون =

* إِلَهكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنكِرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ لَاجِرَمَ أَنْ اللهُ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾

يخبر تعالى أنه لا إله إلا هو الواحد الأحد الفرد الصمد، وأخبر أن الكافرين تنكر قلوبهم ذلك كما أخبر عنهم متعجبين من ذلك: ﴿أجعل الآلهة إلهاً واحداً؟ إن هذا لشيء عجاب﴾، وقال تعالى: ﴿وإذا ذكر الله وحده استمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة﴾، وقوله: ﴿وهم مستكبرون﴾ أي عن عبادة الله مع إنكار قلوبهم التوحيد. كما قال: ﴿إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين﴾، ولهذا قال ههنا: ﴿لا جرم﴾ أي حقاً، ﴿أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون﴾ أي وسيجزئهم على ذلك أتم الجزاء ﴿إنه لا يحب المستكبرين﴾.

* وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أُنزِلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلْسَاءٌ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾

يقول تعالى: وإذا قيل لهؤلاء المكذبين ﴿ماذا أنزل ربكم قالوا﴾ معرضين عن الجواب ﴿أساطير الأولين﴾ أي لم ينزل شيئاً إنما هذا الذي يتلى علينا أساطير الأولين، أي مأخوذ من كتب المتقدمين، كما قال تعالى: ﴿وقالوا أساطير الأولين اكتبتها فهي تملى عليه بكرة وأصيلاً﴾ أي يفترقون على الرسول ويقولون أقوالاً متضادة مختلفة كلها باطلة، كما قال تعالى: ﴿أنظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلاً﴾ وذلك أن كل من خرج عن الحق فهما قال أخطأ، وكانوا يقولون: ساحر وشاعر وكاهن ومجنون، ثم استقر أمرهم إلى ما اختلقه لهم شيخهم المسمى بالوليد بن المغيرة لما ﴿فكر وقدر، فقتل كيف قدر، ثم قتل كيف قدر، ثم نظر، ثم عبس وبسر، ثم أدبر واستكبر، فقال إن هذا إلا سحر يؤثر﴾ أي ينقل، ويحكي: فتفرقوا عن قوله ورأيه قبحهم الله، قال الله تعالى: ﴿ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم﴾، أي إنما قدرنا عليهم أن يقولوا ذلك ليتحملوا أوزارهم ومن أوزار الذين يتبعونهم ويوافقونهم، أي يصير عليهم خطيئة ضلالتهم في أنفسهم، وخطيئة إغوائهم لغيرهم واقتداء أولئك بهم، كما جاء في الحديث: «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من اتبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً»، روى العوفي عن ابن عباس في الآية: ﴿ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم﴾ إنها كقوله: ﴿وليحملن أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم﴾، وقال مجاهد: يحملون أثقالهم، ذنوبهم وذنوب من أطاعهم، ولا يخفف عن أطاعهم من العذاب شيئاً.

قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ

حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِبُهُمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ نُسْتَشْفِقُونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٢٧﴾

قال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿قد مكر الذين من قبلهم﴾ قال: هو النمرود الذي بنى الصرح؛ وقال زيد بن أسلم: أول جبار كان في الأرض النمرود، وقال آخرون: بل هو بختنصر، وقال آخرون: هذا من المثل لإبطال ما صنعه هؤلاء الذين كفروا بالله وأشركوا في عبادته غيره، كما قال نوح عليه السلام: ﴿ومكروا مكراً كباراً﴾ أي احتالوا في إضلال الناس بكل حيلة وأمالوهم إلى شركهم بكل وسيلة كما يقول لهم أتباعهم يوم القيامة، ﴿بل مكر الليل والنهار إذ تأمرونا أن نكفر بالله ونجعل له أنداداً﴾ الآية. وقوله: ﴿فأتى الله بنيانهم من القواعد﴾ أي اجتثه من أصله وأبطل عملهم، كقوله تعالى: ﴿كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله﴾، وقوله: ﴿فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب﴾، وقال الله ههنا: ﴿فأتى الله بنيانهم من القواعد فخر عليهم السقف من فوقهم وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون ثم يوم القيامة يخزيهم﴾ أي يظهر فضائحهم وما كانت تجنح ضمائرهم فيجعله علانية كقوله تعالى: ﴿يوم تبلى السرائر﴾ أي تظهر وتشتبه، كما في الصحيحين عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «ينصب لكل غادر لواء يوم القيامة عند استه بقدر غدوته، فيقال: هذه غدرة فلان بن فلان». وهكذا هؤلاء يظهر للناس ما كانوا يسرونه من المكر ويخزيهم الله على رؤوس الخلائق، ويقول لهم الرب تبارك وتعالى مقرعاً لهم وموئخاً: ﴿أين شركائي الذين كنتم تشاقون فيهم؟﴾ تحاربون وتعادون في سبيلهم أين هم عن نصركم وخلاصكم ههنا؟ ﴿هل ينصرونكم أو ينتصرون؟﴾، ﴿فاله من قوة ولا ناصر﴾، فإذا توجهت عليهم الحججة وقامت عليهم الدلالة: وحقت عليهم الكلمة وسكنوا عن الاعتذار حين لا فرار، ﴿قال الذين أوتوا العلم﴾ وهم السادة في الدنيا والآخرة، ﴿إن الخزي اليوم والسوء على الكافرين﴾ أي الفضيحة والعذاب محيط اليوم بمن كفر بالله، وأشرك به ما لا يضره وما لا ينفعه.

* الَّذِينَ نَتَوَقَّعُهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَلْقَوْا السَّلَامَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَىٰ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا

كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فليئسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾

يخبر تعالى عن حال المشركين الظالمين أنفسهم عند احتضارهم ومجيء الملائكة إليهم لقبض أرواحهم الخبيثة ﴿فألقيوا السلم﴾ أي أظهروا السمع والطاعة والانقياد قائلين: ﴿ما كنا نعمل من سوء﴾، كما يقولون يوم المعاد: ﴿والله ربنا ما كنا مشركين﴾، قال الله مكذباً لهم في قلوبهم ذلك: ﴿بلى إن الله عليم بما كنتم تعملون﴾ فادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فليئس مَثْوَى المتكبرين ﴿أي بشس المقييل والمقام، والمكان، من دار هوان لمن كان متكبراً عن آيات الله واتباع رسله، وهم يدخلون جهنم من يوم مماتهم بأرواحهم، وينال أجسادهم في قبورها من حرها وسمومها، فإذا كان يوم القيامة سلكت أرواحهم في أجسادهم، وخلدت في نار جهنم﴾ لا يقضى عليهم فيموتوا

ولا يخفف عنهم من عذابها ﴿٣٠﴾ ، كما قال الله تعالى: ﴿النار يعرضون عليها غدواً وعشياً ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب﴾ .

* وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٢﴾ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾

هذا خبر عن السعداء بخلاف ما أخبر به عن الأشقياء، فإن أولئك قيل لهم: ﴿ماذا أنزل ربكم﴾ قالوا: معرضين عن الجواب، لم ينزل شيئاً إنما هذا أساطير الأولين، وهؤلاء قالوا: خيراً أي أنزل خيراً، أي رحمة وبركة لمن اتبعه وآمن به، ثم أخبر عما وعد الله عباده فيما أنزله على رسله، فقال: ﴿للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة﴾ الآية، كقوله تعالى: ﴿من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنجينه حياة طيبة﴾ أي من أحسن عمله في الدنيا أحسن الله إليه عمله في الدنيا والآخرة، ثم أخبر بأن دار الآخرة خير، أي من الحياة الدنيا والجزء فيها أتم من الجزء في الدنيا، كقوله: ﴿وما عند الله خير للأبرار﴾، وقال تعالى: ﴿والآخرة خير وأبقى﴾، وقال لرسوله ﷺ: ﴿وللآخرة خير لك من الأولى﴾، ثم وصف الدار الآخرة فقال: ﴿ولنعيم دار المتقين﴾، وقوله: ﴿جنت عدن﴾ بدل من دار المتقين، أي لهم في الآخرة جنات عدن أي مقام يدخلونها، ﴿تجري من تحتها الأنهار﴾ أي بين أشجارها وقصورها، ﴿لهم فيها ما يشاءون﴾، كقوله تعالى: ﴿وفيها ما تشبهه الأنفس وتلذ الأعين وأنتم فيها خالدون﴾، وفي الحديث: «إن السحابة لتمر بالملأ من أهل الجنة وهم جلوس على شراهم، فلا يشتهي أحد منهم شيئاً إلا أمطرته عليه، حتى إن منهم لمن يقول: أمطرينا كواعب أتراباً فيكون ذلك»، ﴿كذلك يجزي الله المتقين﴾، أي كذلك يجزي الله كل من آمن به واتقاه وأحسن عمله. ثم أخبر تعالى عن حالهم عند الاحتضار أنهم طيبون، أي مخلصون من الشرك والدنس وكل سوء، وأن الملائكة تسلم عليهم وتبشرهم بالجنة، كقوله تعالى: ﴿إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة أن لا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون﴾. وقد قدمنا الأحاديث الواردة في قبض روح المؤمن وروح الكافر عند قوله تعالى: ﴿يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت﴾ الآية .

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرٌ رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٤﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٣٥﴾

يقول تعالى مهدداً للمشركين على تماديهم في الباطل وافتقارهم بالدنيا: هل ينتظر هؤلاء إلا الملائكة أن تأتيهم لقبض أرواحهم، قاله قتادة، ﴿أو يأتي أمر ربك﴾ أي يوم القيامة وما يعاينونه من الأحوال. وقوله: ﴿كذلك فعل الذين من قبلهم﴾ أي هكذا تمادى في شركهم أسلافهم ونظراؤهم وأشباههم من المشركين، حتى ذاقوا بأس

الله، وحلوا فيما هم فيه من العذاب والنكال، ﴿وما ظلمهم الله﴾ لأنه تعالى أعذر إليهم وأقام حججه عليهم بإرسال رسله، وإنزال كتبه، ﴿ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾ أي بمخالفة الرسل والتكذيب بما جاءوا به؛ فلهذا أصابتهم عقوبة الله على ذلك، ﴿وحاق بهم﴾ أي أحاط بهم من العذاب الأليم، ﴿ما كانوا به يستهزئون﴾ أي يسخرون من الرسل إذا توعدوهم بعقاب الله فلهذا يقال لهم يوم القيامة ﴿هذه النار التي كنتم بها تكذبون﴾.

وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ ۚ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلْغُ الْمُبِينُ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ۚ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ۚ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴿٣٦﴾ إِنْ تَحْرَصْ عَلَىٰ هُدْيِهِمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٣٧﴾

يخبر تعالى عن اغترار المشركين بما هم فيه من الاشرار واعتذارهم محتجين بالقدر بقولهم: ﴿لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا آباؤنا ولا حرمنا من دونه من شيء﴾ أي من البحائر والسوائب والوصائل وغير ذلك، مما كانوا ابتدعوه واخترعوه من تلقاء أنفسهم ما لم ينزل به سلطاناً، ومضمون كلامهم أنه لو كان تعالى كارهاً لما فعلنا لأنكره علينا بالعقوبة ولما أمكننا منه، قال تعالى راداً عليهم شبهتهم: ﴿فهل على الرسل إلا البلاغ المبين﴾ أي ليس الأمر كما تزعمون أنه لم ينكره عليكم، بل قد أنكره عليكم أشد الإنكار ونهاكم عنه أكد النهي، وبعث في كل أمة أي في كل قرن وطائفة من الناس رسولاً، فلم يزل تعالى يرسل إلى الناس الرسل بذلك منذ حدث الشرك في بني آدم في قوم نوح الذين أرسل إليهم نوح، وكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض، إلى أن ختمهم بمحمد ﷺ الذي طبقت دعوته الإنس والجن في المشارق والمغارب. ﴿ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت﴾ فكيف يسوغ لأحد من المشركين بعد هذا أن يقول: ﴿لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء﴾؟ فشيئته تعالى الشرعية عنهم منتفية لأنه نهاهم عن ذلك على السنة رسله؛ وأما مشيئته الكونية وهي تمكينهم من ذلك قديراً فلا حجة لهم فيها، لأنه تعالى خلق النار وأهلها من الشياطين والكفرة وهو لا يرضى لعباده الكفر، وله في ذلك حجة بالغة وحكمة قاطعة، ثم إنه تعالى قد أخبر أنه أنكر عليهم بالعقوبة في الدنيا بعد إنذار الرسل، فلهذا قال: ﴿فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليهم الضلالة فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين﴾ أي أسألوا عما كان من أمر من خالف الرسل وكذب الحق، كيف ﴿دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها﴾، فقال: ﴿ولقد كذب الذين من قبلهم فكيف كان نكير﴾، ثم أخبر الله تعالى رسوله ﷺ أن حرصه على هدايتهم لا ينفعهم، إذا كان الله قد أراد إضلالهم، كقوله تعالى: ﴿ومن يرد الله فتنه فلا تملك له من الله شيئاً﴾، وقال نوح لقومه: ﴿ولا يفتعنكم نصحي إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم﴾، وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿إن تحرص على هدايتهم فإن الله لا يهدي من يضل﴾. كما قال الله: ﴿من يضل الله فلا هادي له

ويذرهم في طغيانهم يعمهون ﴿٣٨﴾، وقوله: ﴿فإن الله﴾ أي شأنه وأمره، ﴿لا يهدي من يضل﴾ أي من أضله، فن ذا الذي يهديه من بعد الله؟ أي لا أحد ﴿وما لهم من ناصرين﴾ أي ينقذونه من عذابه ووثاقه ﴿ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين﴾ .

وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مِنْ يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾
لَيَبِينَ لَهُمُ الَّذِي يُخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلَيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَذِبِينَ ﴿٤٠﴾ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٤١﴾

يقول تعالى مخبراً عن المشركين أنهم حلفوا فأقسموا بالله ﴿جهداً أيمانهم﴾ أي اجتهدوا في الحلف وغلظوا الأيمان أنه لا يبعث الله من يموت، أي استبعدوا ذلك وكذبوا الرسل في إخبارهم لهم بذلك، وحلفوا على نقيضه. فقال تعالى مكذباً لهم وراداً عليهم: ﴿بلى﴾ أي بلى سيكون ذلك، ﴿وعداً عليه حقاً﴾ أي لا بد منه، ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ أي فلجهلهم يخالفون الرسل ويقعون في الكفر. ثم ذكر تعالى حكمته في المعاد وقيام الأجساد يوم التناد فقال: ﴿ليبين لهم﴾ أي للناس، ﴿الذي يختلِفون فيه﴾ أي من كل شيء، وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين ﴿أي في أيمانهم وأقسامهم لا يبعث الله من يموت. ثم أخبر تعالى عن قدرته على ما يشاء وأنه لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، والمعاد من ذلك إذا أراد كونه فإنما يأمر به مرة واحدة، فيكون كما يشاء كقوله ﴿وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر﴾، وقال: ﴿ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة﴾، وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون﴾ أي انه تعالى لا يحتاج إلى تأكيد فيما يأمر به فإنه تعالى لا يمانع، ولا يخالف، لأنه الواحد القهار، العظيم الذي قهر سلطانه وجبروته وعزته كل شيء فلا إله إلا هو ولا رب سواه .

وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنبُوئِهِمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَالْآخِرَةُ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٣﴾

يخبر تعالى عن جزائه للمهاجرين في سبيله ابتغاء مرضاته، الذين فارقوا الدار والإخوان والخلان رجاء ثواب الله وجزائه، وقد وعدهم تعالى بالمجازاة الحسنة في الدنيا والآخرة فقال: ﴿لنبوئهم في الدنيا حسنة﴾، قال ابن عباس: المدينة، وقيل: الرزق الطيب، قاله مجاهد، ولا منافاة بين القولين، فإنهم تركوا مساكنهم وأموالهم فوضههم الله خيراً منها في الدنيا، فإن من ترك شيئاً لله عوضه الله بما هو خير له منه، وكذلك وقع، فإن الله مكن لهم في البلاد، وحكمهم على رقاب العباد، وصاروا أمراء حكاماً وكل منهم للمتقين إماماً، وأخبر أن ثوابه للمهاجرين في الدار الآخرة أعظم مما أعطاهم في الدنيا فقال: ﴿ولأجر الآخرة أكبر﴾ أي مما أعطيناهم في الدنيا ﴿لو كانوا يعلمون﴾ أي لو كان المتخلفون عن الهجرة معهم يعلمون ما ادخر الله لمن أطاعه واتبع رسوله، ولهذا كان عمر

ابن الخطاب رضي الله عنه إذا أعطى الرجل من المهاجرين عطاءه يقول: خذ بارك الله لك فيه، هذا ما وعدك الله في الدنيا، وما ادخر لك في الآخرة أفضل، ثم قرأ هذه الآية: ﴿لنبوئهم في الدنيا حسنة ولأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون﴾، ثم وصفهم تعالى فقال: ﴿الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون﴾ أي صبروا على الأذى من قومهم متوكلين على الله الذي أحسن لهم العاقبة في الدنيا والآخرة.

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِيَ إِلَيْهِمْ فَسَلُّوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لَتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾

قال ابن عباس: لما بعث الله محمداً ﷺ رسولاً أنكرت العرب ذلك أو من أنكر منهم وقالوا: الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً فأنزل الله: ﴿أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس﴾ الآية، وقال: ﴿وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون﴾ يعني أهل الكتب الماضية أبشراً كانت الرسل إليهم أم ملائكة؟ فإن كانوا ملائكة أنكرتم، وإن كانوا بشراً فلا تنكروا أن يكون محمداً ﷺ رسولاً، والغرض أن هذه الآية الكريمة أخبرت بأن الرسل الماضين قبل محمداً ﷺ كانوا بشراً كما هو بشر، كما قال تعالى: ﴿قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولاً﴾، وقال: ﴿قل ما كنت بدعاً من الرسل﴾، وقال تعالى: ﴿قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي﴾، ثم أرشد الله تعالى من شك في كون الرسل كانوا بشراً إلى سؤال أصحاب الكتب المتقدمة عن الأنبياء الذين سلفوا، هل كان أنبياءهم بشراً أو ملائكة، ثم ذكر تعالى أنه أرسلهم ﴿بالبينات﴾ أي بالحجج والدلائل ﴿والزبر﴾ وهي الكتب، قاله ابن عباس ومجاهد؛ والزبر: جمع زبور، تقول العرب: زبرت الكتاب إذا كتبه. وقال تعالى: ﴿وكل شيء فعلوه في الزبر﴾، وقال: ﴿ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون﴾، ثم قال تعالى: ﴿وأزلنا إليك الذكر﴾ يعني القرآن ﴿لتبين للناس ما نزل إليهم﴾ أي من ربهم لعلكم بمعنى ما أنزل الله عليكم، وحرصك عليه واتباعك له، ولعلمنا بأنك أفضل الخلائق وسيد ولد آدم فتفصل لهم ما أجمل وتبين لهم ما أشكل والمراد بأهل الذكر أهل الكتاب^(١)، ﴿ولعلمهم يتفكرون﴾ أي ينظرون لأنفسهم فيبتدون فيفوزون بالنجاة في الدارين.

أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذُهُمْ فِي تَقْلُبِهِمْ فَهُمْ بِمَعْجَازِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكَ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٤٧﴾

يخبر تعالى عن حلمه وإنظاره العصاة الذين يعملون السيئات ويدعون إليها، ويمكرون بالناس في دعائهم إياهم وحملهم عليها مع قدرته على أن يخسف بهم الأرض، أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون، أي من حيث لا يعلمون مجيئه إليهم، كقوله تعالى: ﴿أفأمنتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هي تمور﴾، وقوله: ﴿أو يأخذهم

(١) قاله ابن عباس ومجاهد والأعمش وعبد الرحمن بن زيد.

في قلبهم ﴿ في أي في قلبهم في المعاش واشتغالهم بها في أسفار ونحوها من الأشغال الملهمية، قال قتادة والسدي: قلبهم أي أسفارهم؛ وقال مجاهد والضحاك: ﴿ في قلبهم ﴾ في الليل والنهار، كقوله: ﴿ أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتاً وهم نائمون ﴾، وقوله: ﴿ فاهم بمعجزين ﴾ أي لا يعجزون الله على أي حال كانوا عليه، وقوله: ﴿ أو يأخذهم على تخوف ﴾ أي أو يأخذهم الله في حال خوفهم من أخذه لهم، فإنه يكون أبلغ وأشد، فإن حصول ما يتوقع مع الخوف شديد، ولهذا قال ابن عباس: ﴿ أو يأخذهم على تخوف ﴾ يقول: إن شئت أخذته على أثر موت صاحبه وتخوفه بذلك^(١). ثم قال تعالى: ﴿ فإن ربكم لرؤوف رحيم ﴾ أي حيث لم يعاجلكم بالعقوبة، كما ثبت في الصحيحين « لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله، إنهم يجعلون له ولداً وهو يرزقهم ويعافيهم »، وقال تعالى: ﴿ وكأي من قرية أمليت لها وهي ظالمة ثم أخذتها وإلي المصير ﴾.

أُولَئِكَ يَرْوُونَ إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَيَتَفَيَّؤُا ظِلَّ لَهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِّنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٥٠﴾

يخبر تعالى عن عظمته وجلاله وكبريائه الذي خضع له كل شيء، ودانت له الأشياء والمخلوقات بأسرها، جماداتها وحيواناتها ومكلفوها من الإنس والجن والملائكة، فأخبر أن كل ما له ظل يتفياً ذات اليمين وذات الشمال، أي بكرة وعشياً فإنه ساجد بظله لله تعالى. قال مجاهد: إذا زالت الشمس سجد كل شيء لله عز وجل، وقوله: ﴿ وهم داخرون ﴾ أي صاغرون. وقال مجاهد أيضاً: سجد كل شيء فيؤه، وأمواج البحر صلاته، ونزلهم منزلة من يعقل إذ أسند السجود إليهم، فقال: ﴿ ولله يسجد ما في السماوات وما في الأرض من دابة ﴾، كما قال: ﴿ ولله يسجد من في السماوات والأرض طوعاً وكرهاً وظلالهم بالغنو والآصال ﴾، وقوله: ﴿ والملائكة وهم لا يستكبرون ﴾ أي تسجد لله أي غير مستكبرين عن عبادته، ﴿ يخافون ربهم من فوقهم ﴾ أي يسجلون خائفين وجلين من الرب جل جلاله، ﴿ ويفعلون ما يؤمرون ﴾ أي مثابرين على طاعته تعالى وامتثال أوامره، وترك زواجه.

* وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا لِلْهَيْنِ آئِينَ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ فَإِنِّي فَأَرْهَبُونَ ﴿٥١﴾ وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾ وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضَّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْرَعُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَسَفَ الضَّرَّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾

(١) وكذا روي عن مجاهد وقتادة والضحاك وغيرهم.

يخبر تعالى أنه لا إله إلا هو، وأنه لا ينبغي العبادة إلا له وحده لا شريك له، فإنه مالك كل شيء وخالقه وربّه ﴿وله الدين واصباً﴾، قال ابن عباس ومجاهد: أي دائماً، وعن ابن عباس أيضاً: أي واجباً، وقال مجاهد: أي خالصاً له، أي له العبادة وحده ممن في السماوات والأرض، كقوله: ﴿ألا لله الدين الخالص﴾، ثم أخبر أنه مالك النفع والضرر، وأن ما بالعباد من رزق ونعمة وعافية ونصر فمن فضله عليهم، وإحسانه إليهم، ﴿ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون﴾ أي لعلمكم أنه لا يقدر على إزالته إلا هو، فإنكم عند الضرورات تلجأون إليه، وتسالونه وتلحون في الرغبة إليه مستغيثين به، كقوله تعالى: ﴿وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه﴾، وقال ههنا: ﴿ثم إذا كشف الضر عنكم إذا فريق منكم يرميهم يشركون﴾ ليكفروا بما آتيناكم ﴿قيل: اللام ههنا لام العاقبة، وقيل: لام التعليل بمعنى قيضنا لهم ذلك ليكفروا أي يستروا ويحسدوا نعم الله عليهم، مع أنه المسدي إليهم النعم، الكاشف عنهم النقم، ثم توعدهم قائلاً: ﴿فتمتعوا﴾ أي اعملوا ما شئتم وتمتعوا بما أتم فيه قليلاً ﴿فسوف تعلمون﴾ أي عاقبة ذلك .

* وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَتَسْتَطَنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَبِهِ ۚ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السُّوءِ ۗ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ ۗ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾

يخبر تعالى عن قبائح المشركين الذين عبدوا مع الله غيره من الأصنام والأوثان والأنداد بغير علم وجعلوا للأوثان نصيباً مما رزقهم الله، فقالوا: ﴿هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا﴾ أي جعلوا لأنفسهم نصيباً مع الله وفضلها على جانبه، فأقسم الله تعالى بنفسه الكريمة ليسألنهم عن ذلك الذي افتروه واثفتكوه، وليقابلنهم عليه وليجازينهم أوفر الجزاء في نار جهنم فقال: ﴿تالله لتسألن عما كنتم تفترون﴾، ثم أخبر تعالى عنهم أنهم جعلوا الملائكة إناثاً وجعلوا بنات الله، فعبدها معه، فنسبوا إليه تعالى الولد ولا ولد له، ثم أعطوه أخس القسمين من الأولاد وهو البنات وهم لا يرضونها لأنفسهم، كما قال: ﴿ألكم الذكر وله الأنثى؟ تلك إذا قسمة ضيزى﴾، وقوله ههنا: ﴿ويجعلون لله البنات سبحانه﴾ أي عن قولهم وإفكهم، ﴿ألا إنهم من إفكهم ليقولن ولد الله وإنهم لكاذبون. أصطفى البنات على البنين؟ ما لكم كيف تحكمون﴾، وقوله: ﴿وله ما يشتهون﴾ أي يختارون لأنفسهم الذكور ويأنفون لأنفسهم من البنات التي نسبوها إلى الله، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً. فإنه ﴿إذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً﴾ أي كئيباً من الهم ﴿وهو كظيم﴾ ساكت من شدة ما هو فيه من الحزن، ﴿يتوارى من القوم﴾ أي يكره أن يراه الناس، ﴿من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه في التراب﴾ أي إن أبقاها أبقاها مهانة لا يورثها ولا يعتني بها، ويفضل أولاده الذكور عليها، ﴿أم يدسه في التراب﴾ أي يثدها وهو أن يدفنها فيه حية كما كانوا يصنعون في الجاهلية، أفن يكرهونه هذه الكراهة ويأنفون لأنفسهم عنه يجعلونه لله؟ ﴿ألا ساء ما يحكمون﴾ أي بشس ما قالوا،

وبئس ما قسموا، وبئس ما نسبوه إليه ، كقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا بَشَّرَ أَحَدَهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَ وَجْهَهُ مَسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ ، وقوله ههنا: ﴿ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ ﴾ أي النقص إنما ينسب إليهم ﴿ والله المثل الأعلى ﴾ أي الكمال المطلق من كل وجه وهو منسوب إليه ﴿ وهو العزيز الحكيم ﴾ .

* وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَعْرِفُونَ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ السُّنْتَهُمُ الْكُذْبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾

يخبر تعالى عن حلمه بخلقه مع ظلمهم، وأنه لو يؤاخذهم بما كسبوا ما ترك على ظهر الأرض من دابة، أي لأهلك دواب الأرض ومعهم بنو آدم، ولكن الرب جل جلاله يحلم ويستتر، وينظر إلى أجل مسمى أي لا يعاجلهم بالعقوبة إذ لو فعل ذلك بهم لما أبقى أحداً. وفي الحديث: « إن الله لا يؤخر شيئاً إذا جاء أجله، وإنما زيادة العمر بالذرية الصالحة يرزقها الله العبد فيدعون له من بعده، فيلحقه دعاؤهم في قبره، فذلك زيادة العمر »^(١). وقوله: ﴿ ويجعلون لله ما يكرهون ﴾ أي من البنات ومن الشركاء الذين هم عبيده وهم يأنفون أن يكون عند أحدهم شريك له في ماله، وقوله: ﴿ وتصف السنتهم الكذب أن لهم الحسنى ﴾ إنكار عليهم في دعواهم مع ذلك أن لهم الحسنى في الدنيا، كقوله: ﴿ ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته ليقولن هذا لي وما أظن الساعة قائمة ولئن رجعت إلى ربي إن لي عنده للحسنى ﴾، وقوله: ﴿ أفرايت الذي كفر بآياتنا وقال لأوتين مالا وولداً ﴾ فجمع هؤلاء بين عمل السوء، وتمني الباطل بأن يجازوا على ذلك حسناً وهذا مستحيل، يعملون السيئات ويجزون الحسنات؟ أيجتنى من الشوك العنب؟ ولهذا قال تعالى رداً عليهم في تمنيه ذلك: ﴿ لا جرم ﴾ أي حقاً لا بد منه، ﴿ أن لهم النار ﴾ أي يوم القيامة، ﴿ وأنهم مفراطون ﴾، قال مجاهد وسعيد بن جبير وقتادة وغيرهم: منسيون فيها مضيعون، وهذا كقوله تعالى: ﴿ فالיום ننسأهم كما نسأ لقاء يومهم هذا ﴾ وعن قتادة أيضاً ﴿ مفراطون ﴾: أي معجلون إلى النار من الفرط وهو السابق إلى الورد، ولا منافاة لأنهم يعجل بهم يوم القيامة إلى النار وينسون فيها أي يخلدون.

تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ وَمَا أُنزِلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾ وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾

يذكر تعالى أنه أرسل إلى الأمم الخالية رسلاً فكذبت الرسل، فلك يا محمد في إختوتك من المرسلين أسوة فلا يهمنك تكذيب قومك لك، وأما المشركون الذين كذبوا الرسل فإنما حملهم على ذلك تزيين الشيطان لهم ما

(١) أخرجه ابن أبي حاتم عن أبي الدرداء مرفوعاً .

فعلوه ﴿فهو وليهم اليوم﴾ أي هم تحت العقوبة والنكال، والشيطان وليهم ولا يملك لهم خلاصاً، ولا صريخ لهم ولهم عذاب ألم، ثم قال تعالى لرسوله إنه إنما أنزل عليه الكتاب ليبين للناس الذي يختلفون فيه، فالقرآن فاصل بين الناس في كل ما يتنازعون فيه، ﴿وهدى﴾ أي للقلوب، ﴿ورحمة﴾ أي لمن تمسك به، ﴿لقوم يؤمنون﴾، وكما جعل سبحانه القرآن حياة للقلوب الميتة بكفرها كذلك يحيي الأرض بعد موتها بما أنزله عليها من السماء من ماء ﴿إن في ذلك لآية لقوم يسمعون﴾ أي يفهمون الكلام ومعناه .

وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً لِّئَلَّا تُسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ ۚ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبِنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ ﴿٦٦﴾
وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۚ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾

يقول تعالى: ﴿وإن لكم﴾ أيها الناس ﴿في الأنعام﴾ وهي الإبل والبقر والغنم، ﴿لعبرة﴾ أي لآية ودلالة على حكمة خالقها وقدرته ورحمته ولطفه، ﴿نسقيكم مما في بطونه﴾ الضمير عائد على الحيوان، فإن الأنعام حيوانات، أي نسقيكم مما في بطن هذا الحيوان، وفي الآية الأخرى ﴿مما في بطونها﴾ ويجوز هذا وهذا، كما في قوله: ﴿كلا إنها تذكرة فمن شاء ذكره﴾، وقوله: ﴿من بين فرث ودم لبناً خالصاً﴾ أي يتخلص الدم بياضه وطعمه وحلاوته، من بين فرث ودم في باطن الحيوان، فيسري كل إلى موطنه إذا نضج الغذاء في معدته، فيصرف منه دم إلى العروق، ولبن إلى الضرع، وبول إلى المثانة، وروث إلى المخرج، وكل منها لا يشوب الآخر، ولا يمازجه بعد انفصاله عنه ولا يتغير به. وقوله: ﴿لبناً خالصاً سائغاً للشاربين﴾ أي لا يغص به أحد، ولما ذكر اللبن وأنه تعالى جعله شراباً للناس سائغاً ثنى بذكر ما يتخذه الناس من الأشربة من ثمرات النخيل والأعناب، وما كانوا يصنعون من النبيذ المسكر قبل تحريمه، ولهذا امتن به عليهم فقال: ﴿ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرًا﴾، قال ابن عباس: السكر ما حرم من ثمرتيهما، والرزق الحسن ما أحل من ثمرتيهما، وفي رواية: السكر حرامه، والرزق الحسن حلاله، يعني ما يبس منهما من تمر وزبيب، وما عمل منهما من طلاء وهو الدبس وخل ونبيذ حلال يشرب قبل أن يشتد، كما وردت السنة بذلك ﴿إن في ذلك لآية لقوم يعقلون﴾ ناسب ذكر العقل ههنا فإنه أشرف ما في الإنسان، ولهذا حرم الله على هذه الأمة الأشربة المسكرة صيانة لعقولها وقال الله تعالى: ﴿وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب وفجرنا فيها من العيون لباً كلوا من ثمره وما عملته أيديهم أفلا يشكرون؟﴾

وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سَبِيلَ رَبِّكَ ذُلًّا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ ۚ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾

المراد بالوحي هنا (الإلهام) والهداية والإرشاد للنحل، أن تتخذ من الجبال بيوتاً تأوي إليها، ومن الشجر ومما يعرشون، ثم أذن لها تعالى إذناً قديراً تسخيراً أن تأكل من كل الثمرات، وأن تسلك الطرق التي جعلها الله تعالى

مذلة لها أي مسهلة عليها حيث شاءت من هذا الجو العظيم والبراري الشاسعة والأودية والجبال الشاهقة، ثم تعود كل واحدة منها إلى بيتها وما لها فيه من فراخ وعسل، فتبني الشمع من أجنحتها، وتقيء العسل من فيها، ثم تصبح إلى مراعيها. وقوله تعالى: ﴿فاسلكي سبل ربك ذللاً﴾ أي فاسلكيها مذلة لك، نص عليه مجاهد، وقوله تعالى: ﴿يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس﴾ ما بين أبيض وأصفر وأحمر، وغير ذلك من الألوان الحسنة على اختلاف مراعيها ومأكلاها منها، وقوله: ﴿فيه شفاء للناس﴾ أي في العسل شفاء للناس، أي من أدواء تعرض لهم. قال بعض من تكلم على الطب النبوي: لو قال فيه الشفاء للناس لكان دواء لكل داء؛ ولكن قال: فيه شفاء للناس^(١)، أي يصلح لكل أحد من أدواء باردة، فإنه حار، والشئ يداوى بضده. عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رجلاً جاء إلى رسول الله ﷺ فقال إن أخي استطلق بطنه، فقال: «اسقه عسلاً» فذهب فسقاه عسلاً، ثم جاء فقال: يا رسول الله سقيته عسلاً فما زاده استطلاقاً. قال: «اذهب فاسقه عسلاً»، فذهب فسقاه عسلاً، ثم جاء فقال: يا رسول الله ما زاده إلا استطلاقاً، فقال رسول الله ﷺ: «صدق الله وكذب بطن أخيك»، فذهب فاسقه عسلاً، فذهب فسقاه عسلاً فبرئ^(٢). قال بعض العلماء بالطب: كان هذا الرجل عنده فضلات، فلما سقاه عسلاً وهو حار تحللت فأسرعت في الاندفاع، فزاده إسهالاً، فاعتقد الأعرابي أن هذا يضره وهو مصلحة لأخيه، ثم سقاه فزاد التحليل والدفع، ثم سقاه فكدلك، فلما اندفعت الفضلات الفاسدة المضرة بالبدن استمسك بطنه وصلح مزاجه واندفعت الأسقام والآلام ببركة إشارته عليه من ربه أفضل الصلاة والسلام. وفي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ كان يعجبه الحلواء والعسل. وفي صحيح البخاري عن ابن عباس قال، قال رسول الله ﷺ: «الشفاء في ثلاثة: في شرطة محجم، أو شربة عسل، أو كية بنار، وأنهى أمتي عن الكي».

وقال البخاري، عن جابر بن عبد الله قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن كان في شيء من أدويتكم خير: ففي شرطة محجم، أو شربة عسل، أو لذعة بنار توافق الداء، وما أحب أن أكتوى». وفي الحديث: «عليكم بالشفاءين: العسل والقرآن»^(٣)، وعن علي بن أبي طالب أنه قال: إذا أراد أحدكم الشفاء فليكتب آية من كتاب الله في صحيفة، وليغسلها بماء السماء، وليأخذ من امرأته درهماً عن طيب نفس منها، فليشتر به عسلاً فليشربه كذلك فإنه شفاء، أي من وجوه: قال الله تعالى: ﴿ونزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين﴾، وقال: ﴿وأنزلنا من السماء ماء مباركاً﴾، وقال: ﴿فإن طبن لكم عن شيء منه نفساً فكلوه هنيئاً مريئاً﴾، وقال في العسل: ﴿فيه شفاء للناس﴾، وقوله: ﴿إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون﴾ أي إن في إلهام الله لهذه الدواب الضعيفة الخلقية إلى السلوك في هذه المهامه والاجتناء من سائر الثمار، ثم جمعها للشمع والعسل وهو أطيب الأشياء لآية لقوم يتفكرون في عظمة خالقها ومقدرها ومسخرها وميسرها فيستدلون بذلك على أنه الفاعل القادر الحكيم العليم الكريم الرحيم.

(١) روي عن مجاهد وابن جرير في قوله: ﴿فيه شفاء للناس﴾ أن المراد به القرآن وهذا قول صحيح في نفسه، ولكن ليس هو الظاهر ههنا من سياق الآية، فإن الآية ذكر فيها العسل فالضمير يعود إليه والله أعلم.

(٢) أخرجه البخاري ومسلم عن أبي سعيد الخدري.

(٣) رواه ابن ماجه عن ابن مسعود مرفوعاً، قال ابن كثير: وإسناده جيد.

* وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ

عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾

يخبر تعالى عن تصرفه في عباده، وأنه هو الذي أنشأهم من العدم، ثم بعد ذلك يتوفاهم، ومنهم من يتركه حتى يدركه الهرم. وقد روي عن علي رضي الله عنه ﴿أرذل العمر﴾: خمس وسبعون سنة. وفي هذا السن يحصل له ضعف القوى والخرف وسوء الحفظ وقلة العلم، ولهذا قال: ﴿لكي لا يعلم بعد علم شيئاً﴾ أي بعد ما كان عالماً أصبح لا يدري شيئاً من الفند والخرف، ولهذا روى البخاري عند تفسير هذه الآية عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ كان يدعو: «أعوذ بك من البخل والكسل والهرم وأرذل العمر وعذاب القبر وفتنة الدجال وفتنة المحيا والممات».

وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِي رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾

يبين تعالى للمشركين جهلهم وكفرهم فيما زعموه لله من الشركاء، وهم يعترفون أنها عبيد له، كما كانوا يقولون في تليبتهم في حجهم: لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك، فقال تعالى منكرأ عليهم: أنتم لا ترضون أن تساوا عبيدكم فيما رزقناكم فكيف يرضى هو تعالى بمساواة عبيد له في الإلهية والتعظيم؟ قال ابن عباس في هذه الآية: لم يكونوا ليشركوا عبيدهم في أموالهم ونسائهم، فكيف يشركون عبيدي معي في سلطاني؟ فذلك قوله: ﴿أفبنعمة الله يجحدون﴾. وقال في الرواية الأخرى عنه: فكيف ترضون لي ما لا ترضون لأنفسكم؟ وقال مجاهد: هذا مثل الآلهة الباطلة. وقال قتادة: هذا مثل ضربه الله فهل منكم من أحد يشاركه مملوكه في زوجته وفي فراشه فتعدلون بالله خلقه وعباده؟ فإن لم ترض لنفسك هذا فالله أحق أن يتره منك، وقوله: ﴿أفبنعمة الله يجحدون﴾ أي كيف جحدوا نعمته وأشركوا معه غيره. وعن الحسن البصري قال: كتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى أبي موسى الأشعري: (واقنع برزقك من الدنيا فإن الرحمن فضل بعض عباده على بعض في الرزق، بلاء يبتلي به كلا، فيبتلي من بسط له كيف شكره لله وأداؤه الحق الذي اقترض عليه فيما رزقه وخوله) (١).

وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَفِي الْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾

يذكر تعالى نعمه على عبيده بأن جعل لهم من أنفسهم أزواجاً من جنسهم وشكلهم، ولو جعل الأزواج من نوع

آخر ما حصل الائتلاف والمودة والرحمة، ولكن من رحمته خلق من بني آدم ذكوراً وإناثاً، وجعل الإناث أزواجاً للذكور، ثم ذكر تعالى أنه جعل من الأزواج البنين والحفدة وهم أولاد البنين، عن ابن عباس: ﴿بنين وحفدة﴾ هم الولد وولد الولد، وقال مجاهد: ﴿بنين وحفدة﴾ ابنه وخادمه، وقال طاووس وغير واحد: الحفدة الخدم. وعن عكرمة أنه قال: الحفدة من خدَمك من ولدك وولد ولدك، قال الضحاك: إنما كانت العرب تخدمها بنوها. وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: هم الأصهار، قال ابن جرير: وهذه الأقوال كلها داخلة في معنى الحفدة وهو الخدمة، ومنه قوله في القنوت: (وإليك نسعى ونحفد) ولما كانت الخدمة قد تكون من الأولاد والخدم والأصهار فالنعمة حاصلة بهذا كله، ولهذا قال: ﴿وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة﴾، قلت: فن جعل ﴿حفدة﴾ متعلقاً بأزواجكم فلا بد أن يكون المراد الأولاد وأولاد الأولاد أو الأصهار، لأنهم أزواج البنات أو أولاد الزوجة، فإنهم يكونون غالباً تحت كنف الرجل وفي حجره وفي خدمته، وأما من جعل الحفدة الخدم فعنده أنه معطوف على قوله: ﴿والله جعل لكم من أنفسكم أزواجاً﴾ أي جعل لكم الأزواج والأولاد خدماً، وقوله: ﴿ورزقكم من الطيبات﴾ أي من المطاعم والمشارب، ثم قال تعالى منكراً على من أشرك في عبادة المنعم غيره: ﴿أفبالباطل يؤمنون﴾؟ وهم الأنداد والأصنام ﴿وبنعمة الله هم يكفرون﴾؟ أي يسترون نعم الله عليهم ويضيفونها إلى غيره.

وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾

يقول تعالى إخباراً عن المشركين الذين عبدوا معه غيره مع أنه هو المنعم المتفضل الخالق الرازق وحده لا شريك له، ومع هذا يعبدون من دونه من الأصنام والأنداد والأوثان ﴿ما لا يملك لهم رزقاً من السموات والأرض شيئاً﴾ أي لا يقدر على إنزال مطر ولا إنبات زرع ولا شجر، ولا يملكون ذلك لأنفسهم، أي ليس لهم ذلك ولا يقدر عليهم لو أرادوه، ولهذا قال تعالى: ﴿فلا تضربوا الله الأمثال﴾ أي لا تجعلوا له أنداداً وأشياءاً وأمثالاً ﴿إن الله يعلم وأتم لا تعلمون﴾ أي أنه يعلم ويشهد أنه لا إله إلا هو وأتم بجهلكم تشركون به غيره.

* ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا

هَلْ يَسْتَوِدْنَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾

قال ابن عباس: هذا مثل ضربه الله للكافر والمؤمن، وكذا قال قتادة، واختاره ابن جرير، فالعبد المملوك الذي لا يقدر على شيء مثل الكافر، والمرزوق الرزق الحسن فهو ينفق منه سراً وجهراً هو مثل مضروب للوثن وللحق تعالى، فهل يستوي هذا وهذا؟ ولما كان الفرق بينهما ظاهراً واضحاً بيناً لا يجهله إلا كل غبي قال الله تعالى: ﴿الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون﴾.

* وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكُرُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾

قال مجاهد: وهذا أيضاً المراد به الوثن والحق تعالى، يعني أن الوثن أبكم لا يتكلم ولا ينطق بخير ولا بشيء ولا يقدر على شيء بالكلية، فلا مقال ولا فعال، وهو مع هذا ﴿كُلٌّ﴾ أي عيال وكلفة على مولاه ﴿أينما يوجهه﴾ أي يبعثه ﴿لا يأت بخير﴾ ولا ينجح مسعاه ﴿هل يستوي﴾ من هذه صفاته ﴿ومن يأمر بالعدل﴾ أي بالقسط فقال له حق وفعاله مستقيمة ﴿وهو على صراط مستقيم﴾، وقال ابن عباس: هو مثل للكافر والمؤمن أيضاً كما تقدم: وقال ابن جرير: نزلت في رجل من قريش وعنده يعني قوله: ﴿عبداً مملوكاً﴾ الآية، وفي قوله: ﴿وضرب الله مثلاً رجلين أحدهما أبكم - إلى قوله - وهو على صراط مستقيم﴾ قال: هو عثمان بن عفان، قال: والأبكم الذي أينما يوجه لا يأت بخير قال: هو مولى لعثمان بن عفان، كان عثمان ينفق عليه ويكفله ويكفيه المؤونة، وكان الآخر يكره الإسلام ويأباه، وبنهاه عن الصدقة والمعروف، فنزلت فيهما^(١).

وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾
وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ
﴿٧٨﴾ أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوْ السَّمَاءِ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾

يخبر تعالى عن كمال علمه وقدرته على الأشياء في علمه غيب السماوات والأرض واختصاصه بعلم الغيب، فلا اطلاع لأحد على ذلك إلا أن يطلعه تعالى على ما يشاء، وفي قدرته التامة التي لا تخالف ولا تمنع، وأنه إذا أراد شيئاً فإنما يقول له كن فيكون كما قال: ﴿وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر﴾ أي فيكون ما يريد كطرف العين، وهكذا قال ههنا: ﴿وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب إن الله على كل شيء قدير﴾، ثم ذكر تعالى منته على عباده في إخراجهم من بطون أمهاتهم لا يعلمون شيئاً، ثم بعد هذا يرفقههم السمع الذي به يدركون الأصوات، والأبصار التي بها يحسون المرئيات، والأفئدة وهي العقول، وهذه القوى والحواس تحصل للإنسان على التدريج قليلاً قليلاً، كلما كبر زيد في سمعه وبصره وعقله حتى يبلغ أشده، وإنما جعل تعالى هذه في الإنسان ليتمكن بها من عبادة ربه تعالى، فيستعين بكل جارحة وعضو وقوة على طاعة مولاه، كما جاء في صحيح البخاري عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «يقول تعالى: من عادى لي ولياً فقد بارزني بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أفضل من أداء ما افترضت عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا

(١) ذكر السهيلي: أن الأبكم، هو أبو جهل لعنه الله، واسمه عمرو بن هشام بن المغيرة. والذي يأمر بالعدل: هو عمار بن ياسر الغنسي المذحجي، وكان أبو جهل يعذبه على الإسلام، ويعذب أمه سمية، وكانت مولاة لأبي جهل، وقد طعنها بالرمح في قلبها، فانت، فهي أول شهيدة في الإسلام.

أحبيته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن سألتني لأعطينه، ولئن دعاني لأجيبنه، ولئن استعاذ بي لأعيذنه، وما ترددت في شيء أنا فاعله ترددي في قبض نفس عبدي المؤمن، يكره الموت وأكره مساءته، ولا بد له منه». فعنى الحديث أن العبد إذا أخلص الطاعة صارت أفعاله كلها لله عز وجل، فلا يسمع إلا لله، ولا يبصر إلا لله أي ما شرعه الله له، ولا يبطش ولا يمشي إلا في طاعة الله عز وجل مستعيناً بالله في ذلك كله. ولهذا جاء في بعض رواية الحديث في غير الصحيح: «في يسمع ويبي يبصر ويبي يبطش ويبي يمشي»، ولهذا قال تعالى: ﴿وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون﴾، كقوله تعالى في الآية الأخرى: ﴿قل هو الذي أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون﴾، ثم نبه تعالى عباده إلى النظر إلى الطير المسخر بين السماء والأرض كيف جعله يطير بجناحين بين السماء والأرض في جو السماء ما يملكه هناك إلا الله بقدرته تعالى التي جعل فيها قوى تفعل ذلك، وسخر الهواء يحملها، وبسير الطير كذلك كما قال تعالى في سورة الملك: ﴿أو لم يروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن ما يمسكهن إلا الرحمن إنه بكل شيء بصير﴾، وقال ههنا: ﴿إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون﴾.

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثْنَا وَمِئْتًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُم سُرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسُرَابِيلَ تَقِيكُمُ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ الْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يَنْكُرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٣﴾﴾

يذكر تبارك وتعالى تمام نعمه على عبده بما جعل لهم من البيوت التي هي سكن لهم يأوون إليها، ويستترون بها ويتنفعون بها بسائر وجوه الانتفاع. وجعل لهم أيضاً من جلود الأنعام بيوتاً، أي من الأدم يستخفون حملها في أسفارهم ليضربوها لهم في إقامتهم في السفر والحضر. ولهذا قال: ﴿تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم ومن أصوافها﴾ أي الغنم، ﴿وأوبارها﴾ أي الإبل، ﴿وأشعارها﴾ أي المعز، والضمير عائد على الأنعام ﴿أثناً﴾ أي تتخذون منه أثناً، وهو المال وقيل: المتاع، وقيل: الثياب، والصحيح أعم من هذا كله فإنه يتخذ من الأثاث البسط والثياب وغير ذلك، ويتخذ ما لا وتجارة. وقوله: ﴿إلى حين﴾ أي إلى أجل مسمى ووقت معلوم. وقوله: ﴿والله جعل لكم مما خلق ظلالاً﴾، قال قتادة، يعني الشجر ﴿وجعل لكم من الجبال أكناناً﴾ أي حصوناً ومعاقل كما ﴿جعل لكم سراويل تقيكم الحر﴾ وهي الثياب من القطن والكتان والصوف ﴿وسراويل تقيكم بأسكم﴾ كالدرع من الحديد المصفح والزررد وغير ذلك، ﴿كذلك يتم نعمته عليكم﴾ أي هكذا يجعل لكم ما تستعينون به على أمركم وما تحتاجون إليه ليكون عوناً لكم على طاعته وعبادته، ﴿لعلكم تسلمون﴾ أي من الإسلام، وقوله: ﴿فإن تولوا﴾ أي بعد هذا البيان وهذا الامتنان فلا عليك منهم، ﴿فإنما عليك البلاغ المبين﴾ وقد أدبته إليهم، ﴿يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها﴾ أي يعرفون أن الله تعالى هو المسدي إليهم ذلك وهو المتفضل به عليهم، ومع هذا

ينكرون ذلك ويعبدون معه غيره ويسئلون النصر والرزق إلى غيره ﴿ وأكثروا الكافرون ﴾ ، عن مجاهد أن أعرابياً أتى النبي ﷺ فسأله فقراً عليه رسول الله ﷺ ﴿ والله جعل لكم من بيوتكم سكناً ﴾ فقال الأعرابي: نعم، قال: ﴿ وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتاً ﴾ . الآية، قال الأعرابي: نعم، ثم قرأ عليه كل ذلك، يقول الأعرابي: نعم، حتى بلغ: ﴿ كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون ﴾ فولى الأعرابي، فأنزل الله: ﴿ يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها ﴾^(١) الآية .

وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾ وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفِّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَالْقَوْلُ إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ أَلْسَمٌ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾

يخبر تعالى عن شأن المشركين يوم معادهم في الدار الآخرة، وأنه يبعث من كل أمة شهيداً وهو نبيها، يشهد عليها بما أجبته فيما بلغها عن الله تعالى: ﴿ ثم لا يؤذن للذين كفروا ﴾ أي في الاعتذار لأنهم يعلمون بطلانه وكذبه كقوله: ﴿ هذا يوم لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون ﴾ ، فهذا قال: ﴿ ولا هم يستعتبون ﴾ . وإذا رأى الذين ظلموا ﴿ أي الذين أشركوا ﴾ العذاب فلا يخفف عنهم ﴿ أي لا يفر عنهم ساعة واحدة ﴾ ﴿ ولا هم ينظرون ﴾ أي لا يؤخر عنهم، بل يأخذهم سريعاً من الموقف بلا حساب، ثم أخبر تعالى عن تبري آلهتهم منهم أحوج ما يكونون إليها فقال: ﴿ وإذا رأى الذين أشركوا شركاءهم ﴾ أي الذين كانوا يعبدونهم في الدنيا ﴿ قالوا ربنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعو من دونك ﴾ . فألقوا إليهم القول إنكم لكاذبون ﴿ أي قالت لهم الآلهة كذبتم ما نحن أمرناكم بعبادتنا كما قال تعالى: ﴿ ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون ﴾ وقوله: ﴿ وألقوا إلى الله يومئذ السلم ﴾ قال: قتادة وعكرمة: ذلوا واستسلموا يومئذ، أي استسلموا لله جميعهم، فلا أحد إلا سامع مطيع . وكقوله: ﴿ أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا ﴾ أي ما أسمعهم وما أبصرهم يومئذ، وقال: ﴿ ولو ترى إذ المجرمون ناكسو رؤوسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا ﴾ الآية، وقال: ﴿ وعنت الوجوه للحي القيوم ﴾ أي خضعت وذلت واستكانت وأنابت واستسلمت . وقوله: ﴿ وألقوا إلى الله يومئذ السلم وضل عنهم ما كانوا يفترون ﴾ أي ذهب واضمححل ما كانوا يعبدونه افتراء على الله فلا ناصر لهم ولا معين ولا مجير، ثم قال تعالى: ﴿ الذين كفروا وصلوا عن سبيل الله زدناهم عذاباً ﴾ الآية، أي عذاباً على كفرهم وعذاباً على صدمهم الناس عن اتباع الحق، وهذا دليل على تفاوت الكفار في عذابهم كما يتفاوت المؤمنون في منازلهم في الجنة ودرجاتهم، كما قال تعالى: ﴿ قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون ﴾ .

(١) أخرجه ابن أبي حاتم عن مجاهد .

وَيَوْمَ نَبِّئُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ ۗ وَزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ
تَبْيِينًا لِّكُلِّ شَيْءٍ ۖ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾

يقول تعالى مخاطباً عبده ورسوله محمداً ﷺ: ﴿ويوم نبعث في كل أمة شهيداً عليهم من أنفسهم وجئنا بك شهيداً على هؤلاء﴾ يعني أمتك، أي اذكر ذلك اليوم وهوله وما منحك الله فيه من الشرف العظيم والمقام الرفيع، وهذه الآية شبيهة بقوله: ﴿فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً﴾، وقوله: ﴿وزلنا عليك الكتاب تبيناً لكل شيء﴾ قال ابن مسعود: قد بين لنا في هذا القرآن كل علم وكل شيء، وقال مجاهد: كل حلال وكل حرام. وقول ابن مسعود أعم وأشمل، فإن القرآن اشتمل على كل علم نافع من خبر ما سبق، وعلم ما سيأتي، وكل حلال وحرام، وما الناس إليه محتاجون في أمر دنياهم ودينهم ومعاشهم ومعادهم، ﴿وهدى﴾ أي للقلوب، ﴿ورحمة وبشرى للمسلمين﴾.

* إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَنِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمُ

لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾

يخبر تعالى أنه يأمر عباده بالعدل وهو القسط، ويندب إلى الإحسان كقوله تعالى: ﴿وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله﴾، وقال: ﴿والجروح قصاص فمن تصدق به فهو كفارة له﴾ إلى غير ذلك من الآيات الدالة على شرعية العدل والندب إلى الفضل. وقال ابن عباس ﴿إن الله يأمر بالعدل﴾ قال: شهادة أن لا إله إلا الله، وقال سفيان بن عيينة: العدل في هذا الموضع هو استواء السريرة والعلائية من كل عامل لله عملاً، والإحسان أن تكون سريرته أحسن من علانيته، وقوله: ﴿ وإيتاء ذي القربى ﴾ أي يأمر بصلة الأرحام، كما قال: ﴿ وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيراً ﴾، وقوله: ﴿ وينهى عن الفحشاء والمنكر ﴾، فالفواحش المحرمات والمنكرات ما ظهر منها من فاعلها؛ ولهذا قال في الموضع الآخر: ﴿ قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن ﴾، وأما البغي فهو العدوان على الناس. وقد جاء في الحديث: « ما من ذنب أجدر أن يعجل الله عقوبته في الدنيا مع ما يدخر لصاحبه في الآخرة من البغي وقطيعة الرحم »، وقوله: ﴿ يعظكم ﴾ أي يأمركم بما يأمركم به من الخير وينهاكم عما ينهاكم عنه من الشر ﴿ لعلكم تذكرون ﴾. وقال الشعبي، عن ابن مسعود يقول: إن أجمع آية في القرآن في سورة النحل: ﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان ﴾ الآية^(١)، وقال قتادة: ليس من خلق حسن كان أهل الجاهلية يعملون به ويستحسنونه إلا أمر الله به، وليس من خلق سيء كانوا يتعايرونه بينهم إلا نهى الله عنه وقدم فيه، وإنما نهى عن سفاسف الأخلاق ومذامها، وفي الحديث: « إن الله يحب معالي الأخلاق ويكره سفاسفها ». وقال الحافظ أبو يعلى عن علي بن عبد الملك بن عمير عن أبيه قال: بلغ أكرم بن صيفي مخرج النبي

(١) أخرجه ابن جرير الطبري .

ﷺ فأراد أن يأتيه فأبى قومه أن يدعوه وقالوا: أنت كبيرنا لم تكن لتخف إليه، قال: فليأته من يبلغه عني ويبلغني عنه، فانتدب رجلاً، فأتيا النبي ﷺ فقالا: نحن رسل أكرم بن صيفي، وهو يسألك من أنت وما أنت؟ فقال الله ﷻ: «أما من أنا فأنا محمد بن عبد الله، وأما ما أنا فأنا عبد الله ورسوله»، قال، ثم تلا عليهم هذه الآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ الآية، قالوا: ردد علينا هذا القول، فردد عليهم حتى حفظوه، فأتيا أكرم فقالا: أبى أن يرفع نسبه، فسألنا عن نسبه فوجدناه زاكي النسب وسطاً في مضر - أي شريفاً - وقد رمى إلينا بكلمات قد سمعناها، فلما سمعهن أكرم قال: إني أراه يأمر بمكارم الأخلاق وينهى عن ملامتها، فكفونا في هذا الأمر رؤوساً ولا تكونوا فيه أذناً. وعن عثمان بن أبي العاص قال: كنت عند رسول الله ﷺ جالساً إذ شخص بصره فقال: «أتاني جبريل فأمرني أن أضع هذه الآية بهذا الموضع من هذه السورة: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾» الآية.

وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَقَضَتْ غَزَاهُمْ بَعْدَ قُوَّةٍ أَنْكُنَّا نَتَخَدُّونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ ۗ وَلِيُبَيِّنَ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾

هذا مما يأمر الله تعالى به وهو الوفاء بالعهود والمواثيق والمحافظة على الأيمان المؤكدة، ولهذا قال: ﴿ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها﴾، ولا تعارض بين هذا وبين قوله: ﴿ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم﴾ الآية، وبين قوله تعالى: ﴿ذلك كفارة أيمانكم إذا حلفتم واحفظوا أيمانكم﴾ أي لا تتركوها بلا كفارة، وبين قوله عليه السلام فيما ثبت عنه في الصحيحين أنه عليه الصلاة والسلام قال: «إني والله - إن شاء الله - لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيراً منها إلا أتيت الذي هو خير وتحللتها، وفي رواية: وكفرت عن يميني» لا تعارض بين هذا كله ولا بين الآية المذكورة ههنا وهي قوله: ﴿ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها﴾، لأن هذه الأيمان المراد بها الداخلة في العهود والمواثيق، لا الأيمان التي هي واردة على حث أو منع؛ ولهذا قال مجاهد في قوله: ﴿ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها﴾ يعني الحلف، أي حلف الجاهلية. ويؤيده ما رواه الإمام أحمد عن جبير بن مطعم قال، قال رسول الله ﷺ: «لا حلف في الإسلام، وإيما حلف كان في الجاهلية فإنه لا يزيده الإسلام إلا شدة»^١، ومعناه أن الإسلام لا يحتاج معه إلى الحلف الذي كان أهل الجاهلية يفعلونه، فإن في التمسك بالإسلام كفاية عما كانوا فيه. وقال ابن جرير، عن بريدة في قوله: ﴿وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم﴾ قال: نزلت في بيعة النبي ﷺ، كان من أسلم بايع النبي ﷺ على الإسلام، فقال: ﴿وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم﴾ هذه البيعة التي بايعتم على الإسلام، ﴿ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها﴾ لا يحملنكم قلة محمد وكثرة المشركين أن تنقضوا البيعة التي بايعتم على الإسلام. وقوله: ﴿إن الله يعلم ما تفعلون﴾ تهديد ووعيد لمن نقض الأيمان بعد توكيدها. وقوله: ﴿ولا تكونوا كالتى نقضت غزها من بعد

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند. (٢) رواه أحمد ومسلم عن جبير بن مطعم مرفوعاً.

قوة إنكاثاً ﴿٩٣﴾. قال السدي: هذه امرأة خرقاء كانت بمكة كلما غزلت شيئاً نقضته بعد إبرامه، وقال مجاهد وقتادة: هذا مثل لمن نقض عهده بعد توكيده، وهذا القول أرجح وأظهر، سواء كان بمكة امرأة تنقض غزلها أم لا، وقوله: ﴿٩٤﴾ أنكاثاً أي أنقاضاً، ﴿٩٥﴾ تتخنون أيمنكم دخلاً بينكم ﴿٩٦﴾ أي خديعة ومكرراً ﴿٩٧﴾ أن تكون أمة هي أربى من أمة ﴿٩٨﴾ أي تحلفون للناس إذا كانوا أكثر منكم ليطمئنوا إليكم، فإذا أمكنكم الغدر بهم غدرتم، فهى الله عن ذلك لينبه بالأدنى على الأعلى، قال ابن عباس ﴿٩٩﴾ أن تكون أمة هي أربى من أمة ﴿١٠٠﴾ أي أكثر، وقال مجاهد: كانوا يحالفون الحلفاء فيجدون أكثر منهم وأعز، فينقضون حلف هؤلاء ويحالفون أولئك الذين هم أكثر وأعز فنها عن ذلك، وقوله: ﴿١٠١﴾ إنما يبلوكم الله به ﴿١٠٢﴾ قال ابن جرير: أي بأمره إياكم بالوفاء بالعهد ﴿١٠٣﴾ وليبين لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون ﴿١٠٤﴾ فيجازي كل عامل بعمله من خير وشر.

وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يَضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلِتَسَلَّنَّ عَنْكُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾
وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾
وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴿٩٥﴾ إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ مَا عِنْدَ اللَّهِ يَنْفَعُ
وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾

يقول الله تعالى: ﴿٩٣﴾ ولو شاء الله لجعلكم ﴿٩٤﴾ أيها الناس ﴿٩٥﴾ أمة واحدة ﴿٩٦﴾ أي لوفى بينكم ولما جعل اختلافاً ولا تباغض ولا شحناء، ﴿٩٧﴾ ولكن يضل من يشاء ويهدي من يشاء ﴿٩٨﴾ ثم يسألكم يوم القيامة عن جميع أعمالكم فيجازيكم عليها على الفتل والنقير والقطمير؛ ثم حذر تعالى عباده عن اتخاذ الأيمان دخلاً: أي خديعة ومكرراً لثلاث تزل قدم ﴿٩٩﴾ بعد ثبوتها ﴿١٠٠﴾ مثل لمن كان على الاستقامة فحاد عنها، وزل عن طريق الهدى بسبب الأيمان الحانثة، المشتعلة على الصد عن سبيل الله، لأن الكافر إذا رأى أن المؤمن قد عاهده ثم غدر به لم يبق له وثوق بالدين، فيصد بسببه عن الدخول في الإسلام، ولهذا قال: ﴿١٠١﴾ وتذوقوا السوء بما صدتكم عن سبيل الله ولكم عذاب عظيم ﴿١٠٢﴾، ثم قال تعالى: ﴿١٠٣﴾ ولا تشتروا بعهد الله ثمناً قليلاً ﴿١٠٤﴾ أي لا تعتاضوا عن الأيمان بالله عرض الحياة الدنيا وزينتها، فإنها قليلة ولو حيزت لابن آدم الدنيا بحذافيرها لكان ما عند الله هو خير له، أي جزاء الله وثوابه خير لمن رجاه وآمن به، وطلبه وحفظ عهده رجاه موعوده، ولهذا قال: ﴿١٠٥﴾ إن كنتم تعلمون ما عندكم ينفذ ﴿١٠٦﴾ أي يفرغ وينقضي فإنه إلى أجل معدود، ﴿١٠٧﴾ وما عند الله باق ﴿١٠٨﴾ أي وثوابه لكم في الجنة باق لا انقطاع ولا نفاذ له، فإنه دائم لا يحول ولا يزول ﴿١٠٩﴾ ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴿١١٠﴾ قسم من الرب تعالى مؤكد باللام أنه يجازي الصابرين بأحسن أعمالهم أي ويتجاوز عن سيئها.

مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْتَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا

هذا وعد من الله تعالى لمن عمل صالحاً، وهو العمل المتابع لكتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ، من ذكر أو أنثى من بني آدم وقلبه مؤمن بالله ورسوله، بأن يحييه الله حياة طيبة في الدنيا، وأن يجزيه بأحسن ما عمله في الدار الآخرة، والحياة الطيبة تشمل وجوه الراحة من أي جهة كانت، وقد روي عن ابن عباس وجماعة أنهم فسروها بالرزق الحلال الطيب. وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه فسرها بالقناعة. وقال ابن عباس: إنها هي السعادة، وقال الحسن ومجاهد وقتادة: لا يطيب لأحد حياة إلا في الجنة، وقال الضحاك: هي الرزق الحلال والعبادة في الدنيا. والصحيح أن الحياة الطيبة تشمل هذا كله، كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «قد أفلح من أسلم، ورزق كفافاً، وقنع الله بما آتاه». وفي رواية: «قد أفلح من هدي للإسلام وكان عيشه كفافاً وقنع به»^(١). وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد، حدثنا همام عن يحيى عن قتادة عن أنس ابن مالك قال، قال رسول الله ﷺ: «إن الله لا يظلم المؤمن حسنة يعطى بها في الدنيا ويثاب عليها في الآخرة، وأما الكافر فيطعم بحسناته في الدنيا، حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم تكن له حسنة يعطى بها خيراً»^(٢).

فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾

هذا أمر من الله تعالى لعباده على لسان نبيه ﷺ، إذا أرادوا قراءة القرآن أن يستعينوا بالله من الشيطان الرجيم، وهذا أمر نذب ليس بواجب، حكى الإجماع على ذلك أبو جعفر بن جرير وغيره من الأئمة. وقد قدمنا الأحاديث الواردة في الاستعاذة مبسوطاً في أول التفسير والله الحمد والمنة. وقوله: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ قال الثوري: ليس له عليهم سلطان أن يوقعهم في ذنب لا يتوبون منه، وقال آخرون: معناه لا حجة له عليهم، وقال آخرون كقوله: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلِصِينَ﴾، ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ﴾ قال مجاهد: يطيعونه، وقال آخرون: اتخذه ولياً من دون الله ﴿وَهُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾، أي أشركوه في عبادة الله، ويحتمل أن تكون الباء سببية أي صاروا بسبب طاعتهم للشيطان مشركين بالله تعالى.

وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنزِلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾

يخبر تعالى عن ضعف عقول المشركين وقلة ثباتهم وإيقانهم وأنه لا يتصور منهم الإيمان، وقد كتب عليهم الشقاوة وذلك أنهم إذا رأوا تغير الأحكام ناسخها بمنسوخها قالوا الرسول الله ﷺ: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ﴾ أي كذاب، وإنما هو الرب تعالى يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد. وقال مجاهد: ﴿بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ﴾: أي ورفعتها وأثبتنا

(١) أخرجه أحمد والترمذي والنسائي.

(٢) أخرجه أحمد ومسلم في صحيحه.

غيرها. وقال قتادة: هو كقوله تعالى: ﴿ ما ننسخ من آية أو ننسها ﴾ الآية، فقال تعالى مجيباً لهم: ﴿ قل نزله روح القدس ﴾ أي جبريل ﴿ من ربك بالحق ﴾ أي بالصدق والعدل، ﴿ ليثبت الذين آمنوا ﴾ فيصدقوا بما أنزل أولاً وثانياً ونحبت له قلوبهم، ﴿ وهدى وبشرى للمؤمنين ﴾ أي وجعله هادياً وبشارة للمسلمين الذين آمنوا بالله ورسوله .

وَلَقَدْ نَعَلْنَا لِيُذَكِّرَ الَّذِينَ لَمْ يَرْوَوْا مِنْهُ لِقَاءَهُمْ يَوْمَ يَدْعَاؤُهُمْ هَٰذَا يَوْمَ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾

يقول تعالى مخبراً عن المشركين ما كانوا يقولونه من الكذب والافتراء والبهت أن محمداً إنما يعلمه هذا الذي يتلوه علينا من القرآن بشر، ويشيرون إلى رجل أعجمي كان بين أظهرهم، غلام لبعض بطون قريش، وكان يباعاً يبيع عند الصفا، وربما كان رسول الله ﷺ يجلس إليه ويكلمه بعض الشيء، وذلك كان أعجمي اللسان لا يعرف العربية، فلماذا قال الله تعالى راداً عليهم في افتراءهم ذلك: ﴿ لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين ﴾ أي القرآن، أي فكيف يتعلم من جاء بهذا القرآن في فصاحته وبلاغته ومعانيه التامة الشاملة التي هي أكمل من معاني كل كتاب نزل على بني إسرائيل، كيف يتعلم من رجل أعجمي؟ لا يقول هذا من له أدنى مسكة من العقل. قال محمد بن إسحاق: كان رسول الله ﷺ - فيما بلغني - كثيراً ما يجلس عند المروة إلى غلام نصراني يقال له (جبر) عبد لبعض بني الحضرمي، فأنزل الله: ﴿ ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر، لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين ﴾. وعن عكرمة وقاتدة كان اسمه (يعيش)، وقال ابن جرير، عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ يعلم قيناً بمكة، وكان اسمه بلعام، وكان أعجمي اللسان، وكان المشركون يرون رسول الله ﷺ يدخل عليه ويخرج من عنده، فقالوا: إنما يعلمه بلعام، فأنزل الله هذه الآية: ﴿ ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر، لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين ﴾ .

إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ ﴿١٠٤﴾ إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾

يخبر تعالى أنه لا يهدي من أعرض عن ذكره، وتغافل عما أنزله على رسوله ﷺ ولم يكن له قصد إلى الإيمان بما جاء من عند الله، فهذا الجنس من الناس لا يهديهم الله إلى الإيمان بآياته، وما أرسل به رسوله في الدنيا ولهم عذاب أليم موجع في الآخرة، ثم أخبر تعالى أن رسوله ﷺ ليس بمفتر ولا كذاب لأنه إنما يفتري الكذب على الله وعلى رسوله ﷺ شرار الخلق ﴿ الذين لا يؤمنون بآيات الله ﴾ من الكفرة والملاحدين المعروفين بالكذب عند الناس، والرسول محمد ﷺ كان أصدق الناس، وأبرهم وأكملهم علماً وعملاً، وإيماناً وإيقاناً، معروفاً بالصدق في قومه لا يشك في ذلك أحد منهم، بحيث لا يدعى بينهم إلا بالأمين محمد؛ ولهذا قال هرقل ملك الروم، لأبي سفيان: (فما كان ليدع الكذب على الناس ويذهب فيكذب على الله عز وجل) .

* مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا

فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَأَجْرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٠٩﴾

أخبر تعالى عن كفر به بعد الإيمان والتبصر وشرح صدره بالكفر ، واطمأن به ، أنه قد غضب عليه لعلمهم بالإيمان ثم عدوهم عنه ، وأن لهم عذاباً عظيماً في الدار الآخرة ، لأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة ، فأقدموا على ما أقدموا عليه من الردة لأجل الدنيا ، ولم يهد الله قلوبهم ويثبتهم على الدين الحق ، فطبع على قلوبهم ، فهم لا يعقلون بها شيئاً ينفعهم ، وختم على سمعهم وأبصارهم فلا ينتفعون بها ، فهم غافلون عما يراد بهم ، ﴿ لا جرم ﴾ أي لا بد ولا عجب أن من هذه صفته ، ﴿ أنهم في الآخرة هم الخاسرون ﴾ أي الذين خسروا أنفسهم وأهلهم يوم القيامة - وأما قوله : ﴿ إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ﴾ فهو استثناء ممن كفر بلسانه ووافق المشركين بلفظه مكرها لما ناله من ضرب وأذى وقلبه يأبى ما يقول ، وهو مطمئن بالإيمان بالله ورسوله . وقد روي عن ابن عباس أن هذه الآية نزلت في (عمار بن ياسر) حين عذبه المشركون حتى يكفر بمحمد ﷺ ، فوافقهم على ذلك مكرهاً ، وجاء معتذراً إلى النبي ﷺ فأنزل الله هذه الآية . وقال ابن جرير : أخذ المشركون عمار بن ياسر فعذبوه ، حتى قاربهم في بعض ما أرادوا ، فشكا ذلك إلى النبي ﷺ ، فقال النبي ﷺ : « كيف تجرد قلبك ؟ » قال : مطمئناً بالإيمان ، قال النبي ﷺ : « إن عادوا فعد » ، وفيه أنه سب النبي ﷺ ، وذكر آهتهم بخير ، فشكا ذلك إلى النبي ﷺ فقال : « كيف تجرد قلبك ؟ » قال : مطمئناً بالإيمان ، فقال : « إن عادوا فعد » ، وفي ذلك أنزل الله : ﴿ إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ﴾ ، ولهذا اتفق العلماء على أن المكروه على الكفر يجوز له أن يوالي إبقاء لمهجته ، ويجوز له أن يأبى كما كان بلال رضي الله عنه يأبى عليهم ذلك وهم يفعلون به الأفاعيل ، حتى إنهم ليضعون الصخرة العظيمة على صدره في شدة الحر ويأمرونه بالشرك بالله فيأبى عليهم وهو يقول : أحد ، أحد ، ويقول : والله لو أعلم كلمة هي أغبط لكم منها لقلتها ، رضي الله عنه وأرضاه . وكذلك حبيب بن زيد الأنصاري لما قال له مسيلمة الكذاب : أتشهد أن محمداً رسول الله ؟ فيقول : نعم ، فيقول : أتشهد أني رسول الله ؟ فيقول : لا أسمع ، فلم يزل يقطعه إرباً إرباً وهو ثابت على ذلك .

والأفضل والأولى أن يثبت المسلم على دينه ولو أفضى إلى قتله ؛ كما ذكر الحافظ ابن عساكر في ترجمة (عبد الله بن حذافة السهمي) أحد الصحابة أنه أسرته الروم فجاجوا به إلى ملكهم فقال له : تنصر وأنا أشركك في ملكي وأزوجك ابنتي ، فقال له : لو أعطيتني جميع ما تملك وجميع ما تملكه العرب على أن أرجع عن دين محمد ﷺ طرفه عين ما فعلت ، فقال : إذا أقتلك ، فقال أنت وذاك ، قال : فأمر به فصلب ، وأمر الرماة فرموه قريباً من يديه ورجليه ، وهو يعرض عليه دين النصرانية فيأبى ، ثم أمر به فأنزل ، ثم أمر بقدر من نحاس ، فأحميت وجاء بأسير من المسلمين ، فألقاه وهو ينظر ، فإذا هو عظام تلوح ، وعرض عليه فأبى ، فأمر به أن يلقي فيها فرفع في البكرة ليلقى فيها ، فبكى ، فطمع فيه ودعاه ، فقال : إني إنما بكيت لأن نفسي إنما هي نفس واحدة تلقى في

هذه القدر الساعة في الله، فأحببت أن يكون لي بعدد كل شعرة في جسدي نفس تعذب هذا العذاب في الله. وفي بعض الروايات: أنه سجنه ومنع منه الطعام والشراب أياماً، ثم أرسل إليه بنجر ولحم خنزير، فلم يقربه، ثم استدعاه فقال: ما منعك أن تأكل؟ فقال: أما إنه قد حل لي، ولكن لم أكن لأشمتك بي، فقال له الملك: فقبل رأسي، وأنا أطلقك، فقال: وتطلق معي جميع أسارى المسلمين، قال: نعم، فقبل رأسه، فأطلقه، وأطلق معه جميع أسارى المسلمين عنده، فلما رجع قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: حق على كل مسلم أن يقبل رأس عبد الله ابن حذافة، وأنا أبداً، فقام فقبل رأسه رضي الله عنهما.

* ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا تَمَّ جَهْدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١٠﴾ * يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ مُجَدِّدٌ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾

هؤلاء صنف آخر كانوا مستضعفين بمكة مهانين في قومهم فوافقهم على الفتنة، إنهم أمكنهم الخلاص بالهجرة فتركوا بلادهم وأهلهم وأموالهم ابتغاء رضوان الله وغفرانه، وانتظموا في سلك المؤمنين، وجاهدوا معهم الكافرين وصبروا، فأخبر تعالى أنه من بعدها أي تلك الفعلة وهي الإجابة إلى الفتنة لغفور هم رحيم بهم يوم معادهم ﴿١١٠﴾ يوم تأتي كل نفس مجادل ﴿١١١﴾ أي تحاج ﴿١١٢﴾ عن نفسها ﴿١١٣﴾ ليس أحد يحاج عنها لا أب ولا ابن ولا أخ ولا زوجة ﴿١١٤﴾ وتوفى كل نفس ما عملت ﴿١١٥﴾ أي من خير وشر ﴿١١٦﴾ وهم لا يظلمون ﴿١١٧﴾ أي لا ينقص من ثواب الخير، ولا يزداد على ثواب الشر ولا يظلمون فقيراً.

وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١١٣﴾

هذا مثل أريد به أهل مكة؟ فإنها كانت آمنة مطمئنة مستقرة يتخطف الناس من حولها، ومن دخلها كان آمناً لا يخاف، كما قال تعالى: ﴿١١٢﴾ أو لم نمكن لهم حرماً آمناً يجيبى إليه ثمرات كل شيء رزقاً من لدنا ﴿١١٤﴾، وهكذا قال ههنا: ﴿١١٥﴾ يأتيا رزقها رغداً ﴿١١٦﴾، أي هينئاً سهلاً، ﴿١١٧﴾ من كل مكان فكفرت بأنعم الله ﴿١١٨﴾ أي جحدت آلاء الله عليها وأعظمها بعثة محمد ﷺ إليهم، كما قال تعالى: ﴿١١٩﴾ ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار جهنم يصلونها وبنس القرار ﴿١٢٠﴾ ولهذا بدلهم الله بحالهم الأولين خلافاً فقال: ﴿١٢١﴾ فأذاقها الله لباس الجوع والخوف ﴿١٢٢﴾ أي ألبسها وأذاقها الجوع بعد أن كان يجيبى إليها ثمرات كل شيء ويأتيا رزقها رغداً من كل مكان، وذلك أنهم استعصوا على رسول الله ﷺ، وأبوا إلا خلافة، فدعا عليهم بسبع كسبغ يوسف، فأصابتهم سنة أذهبت كل شيء لهم، فأكلوا العلهز، وهو وبر يخلط بدمه إذا نحره. وفوله: ﴿١٢٣﴾ والخوف ﴿١٢٤﴾ وذلك أنهم بدلوا بأنهم خوفاً من رسول الله ﷺ وأصحابه، حين هاجروا إلى المدينة من سطوته وسراياه وجيوشه، وجعل كل ما لهم في دمار

وسفال، حتى فتحها الله على رسوله ﷺ وذلك بسبب صنيعهم وبغيهم وتكذيبهم الرسول ﷺ الذي بعثه الله فيهم منهم وامتن به عليهم في قوله: ﴿لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم﴾ الآية. وهذا الذي قلناه من أن هذا المثل ضرب لأهل مكة قاله ابن عباس، وإليه ذهب مجاهد وقتادة والزهري رحمهم الله.

فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنَّ كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَنزِيرِ وَمَا أَهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ۖ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ ألسِنَتُكَ الْكُذِبَ هَذَا حَلالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لَتفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾

يقول تعالى آمراً عباده المؤمنين بأكل رزقه الحلال الطيب وبشكره على ذلك، فإنه المنعم المتفضل به ابتداء، ثم ذكر تعالى ما حرمه عليهم مما فيه مضرة لهم في دينهم وديناهم من الميتة والدم ولحم الخنزير، ﴿وما أهل لغير الله به﴾ أي ذبح على غير اسم الله ومع هذا، ﴿فمن اضطر إليه﴾ أي احتاج من غير بغي ولا عدوان، ﴿فإن الله غفور رحيم﴾. وقد تقدم الكلام على مثل هذه الآية في سورة البقرة بما فيه كفاية عن إعادته والله الحمد. ثم نهى تعالى عن سلوك سبيل المشركين الذين حللوا وحرموا، بمجرد ما وصفوه واصطلحوا عليه وابتدعوه في جاهليتهم، فقال: ﴿ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب﴾ ويدخل في هذا كل من ابتدع بدعة ليس له فيها مستند شرعي، أو حلل شيئاً مما حرم الله أو حرم شيئاً مما أباح الله بمجرد رأيه وتشهيه، ثم توعد على ذلك فقال: ﴿إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون﴾ أي في الدنيا ولا في الآخرة؛ أما في الدنيا فتعاقب قليل، وأما في الآخرة فلهم عذاب أليم، كما قال: ﴿نمتعهم قليلاً ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ﴾، وقال: ﴿إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون * متاع في الدنيا ثم إلينا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون﴾.

وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلٍ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١٩﴾

لما ذكر تعالى أنه إنما حرم علينا الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به، ذكر سبحانه وتعالى ما كان حرمه على اليهود في شريعتهم قبل أن ينسخها، وما كانوا فيه من الآصار والتضييق والأغلال والحرَج فقال: ﴿وعلى الذين هادوا حرمنا ما قصصنا عليك من قبل﴾ أي في سورة الأنعام، ﴿وما ظلمناهم﴾ أي فيما ضيقنا عليهم، ﴿ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾ أي فاستحقوا ذلك، كقوله: ﴿فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيراً﴾، ثم أخبر تعالى تكراً وامتناناً في حق العصاة المؤمنين أن من تاب منهم إليه تاب عليه فقال: ﴿ثم إن ربك للذين عملوا السوء بجهالة﴾ قال بعض السلف: كل من عصى الله فهو جاهل ﴿ثم تابوا من

بعد ذلك وأصلحوا ﴿١٢٠﴾ ، أي أقلعوا عما كانوا فيه من المعاصي وأقبلوا على فعل الطاعات ، ﴿ إن ربك من بعدها ﴾ أي تلك الفعلة والزلة ﴿ لغفور رحيم ﴾ .

إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢١﴾ شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٢٢﴾ وَأَتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّا فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٢٣﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٤﴾

يمدح تعالى عبده ورسوله وخليته إبراهيم ، إمام الحنفاء ووالد الأنبياء ، ويبرئه من المشركين ومن اليهودية والنصرانية فقال : ﴿ إن إبراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفاً ﴾ ، فأما الأمة : فهو الإمام الذي يقتدى به ، والقانت : هو الخاشع المطيع ، والحنيف المنحرف قصداً عن الشرك إلى التوحيد ، ولهذا قال : ﴿ ولم يك من المشركين ﴾ ، قال عبدالله بن مسعود : الأمة معلم الخير ، والقانت المطيع لله ورسوله . وقال ابن عمر : الأمة الذي يعلم الناس دينهم . وقال مجاهد ﴿ أمة ﴾ أي أمة وحده ، والقانت : المطيع . وعنه كان مؤمناً وحده والناس كلهم إذ ذاك كفار ، وقال قتادة : كان إمام هدى ، والقانت : المطيع لله ، وقوله ﴿ شاكراً لأنعمه ﴾ أي قائماً بشكر نعم الله عليه ، كقوله تعالى : ﴿ وإبراهيم الذي وفى ﴾ أي قام بجميع ما أمره الله تعالى به . وقوله ﴿ اجتبه ﴾ أي اختاره واصطفاه كقوله : ﴿ ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين ﴾ ، ثم قال : ﴿ وهدهاه إلى صراط مستقيم ﴾ وهو عبادة الله وحده لا شريك له على شرع مرضى . وقوله : ﴿ وآتيناه في الدنيا حسنة ﴾ أي جمعنا له خير الدنيا من جميع ما يحتاج المؤمن إليه في إكمال حياته الطيبة ، ﴿ وإنه في الآخرة لمن الصالحين ﴾ . وقال مجاهد في قوله : ﴿ وآتيناه في الدنيا حسنة ﴾ أي لسان صدق ، وقوله : ﴿ ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً ﴾ أي ومن كماله وعظمته وصحة توحيده وطريقه أنا أوحينا إليك يا خاتم الرسل وسيد الأنبياء ﴿ أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين ﴾ ، كقوله في الأنعام : ﴿ قل إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم * ديناً قيماً ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين ﴾ ، ثم قال تعالى منكرأ على اليهود :

إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٥﴾

لا شك أن الله تعالى شرع في كل ملة يوماً من الأسبوع يجتمع الناس فيه للعبادة ، فشرع تعالى لهذه الأمة يوم الجمعة لأنه اليوم السادس الذي أكمل الله فيه الخليقة واجتمعت فيه وتمت النعمة على عباده ، ويقال إن الله تعالى شرع ذلك لبني إسرائيل على لسان موسى ، فعدلوا عنه ، واختاروا السبت لأنه اليوم الذي لم يخلق فيه الرب شيئاً من المخلوقات الذي كمل خلقها يوم الجمعة ، فألزهم تعالى به في شريعة التوراة ، ووصاهم أن يتمسكوا به ، وأن يحافظوا عليه مع أمره إياهم بمتابعة محمد ﷺ إذا بعثه وأخذ مواعيقهم وعهودهم على ذلك ، ولهذا قال تعالى : ﴿ إنما جعل السبت على الذين اختلفوا فيه ﴾ ، قال مجاهد : اتبعوه وتركوا الجمعة ، وقد ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : « نحن الآخرون السابقون يوم القيامة ، بيد أنهم أوتوا الكتاب

من قبلنا، ثم هذا يومهم الذي فرض الله عليهم فاختلفوا فيه، فهدانا الله له، فالتاس لنا فيه تبع اليهود غداً والنصارى بعد غد»^(١).

أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِّدْ لَهُم بِآيَاتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ ۗ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾

يقول تعالى أمرأ رسوله محمداً ﷺ أن يدعو الخلق إلى الله بالحكمة. قال ابن جرير: وهو ما أنزله عليه من الكتاب والسنة والموعظة الحسنة، أي بما فيه من الزواجر والوقائع بالناس ذكرهم بها ليحذروا بأس الله تعالى، وقوله: ﴿وجادلهم بالتي هي أحسن﴾، أي من احتاج منهم إلى مناظرة وجدال، فليكن بالوجه الحسن برفق ولين وحسن خطاب كقوله تعالى: ﴿ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم﴾ الآية، فأمره تعالى تعالى بلين الجانب، كما أمر به موسى وهارون عليهما السلام حين بعثهما إلى فرعون في قوله: ﴿فقولا له قولاً ليناً لعله يتذكر أو يخشى﴾. وقوله: ﴿إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله﴾ الآية، أي قد علم الشقي منهم والسعيد، وكتب ذلك عنده وفرغ منه فادعهم إلى الله، ولا تذهب نفسك على من ضل منهم حسرات، فإنه ليس عليك هدام إنما أنت نذير، عليك البلاغ وعلينا الحساب، ﴿إنك لا تهدي من أحببت﴾، ﴿ليس عليك هدام ولكن الله يهدي من يشاء﴾.

وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوِقْتُمْ بِهِ ۗ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ ۗ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾

يأمر تعالى بالعدل في القصاص والمماثلة في استيفاء الحق، قال ابن سيرين: إن أخذ منكم رجل شيئاً فخذوا مثله، وكذا قال مجاهد والحسن البصري واختاره ابن جرير، وقال ابن زيد: كانوا قد أمروا بالصفح عن المشركين فأسلم رجال ذوو منعة، فقالوا: يا رسول الله، لو أذن الله لنا لانتصرنا من هؤلاء الكلاب، فنزلت هذه الآية ثم نسخ ذلك بالجهاد. قال عطاء بن يسار: نزلت سورة النحل كلها بمكة، وهي مكية إلا ثلاث آيات من آخرها، نزلت بالمدينة، بعد أحد حين قتل حمزة رضي الله عنه ومثل به، فقال رسول الله ﷺ: «لئن أظهرني الله عليهم لأمثلن بثلاثين رجلاً منهم، فلما سمع المسلمون ذلك قالوا: والله لئن ظهرنا عليهم لنمثلن بهم مثله لم يمثلها أحد من العرب بأحد قط فأنزل الله: ﴿وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به﴾ إلى آخر السورة، وقال الحافظ أبو بكر البزار، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ وقف على حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه حين استشهد، فنظر إلى منظر لم ينظر إلى منظر أوجع للقلب منه، أو قال لقلبه، فنظر إليه وقد مثل به، فقال: «رحمة الله عليك، إن كنت ما علمت إلا وصولاً للرحم، فعولاً للخيرات، والله لولا حزن من بعدك عليك لسرني أن أتركك حتى

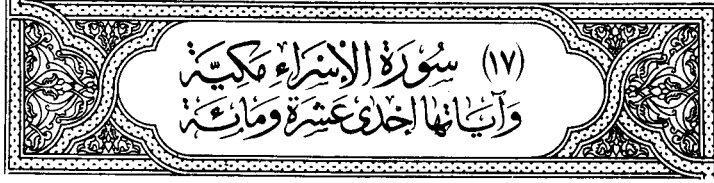
(١) هذا لفظ البخاري.

يحشرك الله من بطون السباع - أو كلمة نحوها - أما والله على ذلك لأمثلن بسبعين كمثلك »، فتزل جبريل على محمد ﷺ بهذه السورة وقرأ: ﴿ وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ﴾ إلى آخر الآية، فكفر رسول الله ﷺ يعني عن يمينه وأمسك عن ذلك^(١). وهذه الآية الكريمة لها أمثال في القرآن، فإنها مشتملة على مشروعية العدل والندب إلى الفضل، كما في قوله: ﴿ وجزاء سيئة سيئة مثلها ﴾، ثم قال: ﴿ فمن عفا وأصلح فأجره على الله ﴾، الآية. وقال: ﴿ والجروح قصاص ﴾، ثم قال: ﴿ فمن تصدق به فهو كفارة له ﴾، وقال في هذه الآية: ﴿ وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ﴾، ثم قال: ﴿ ولئن صبرتم لهو خير للصابرين ﴾، وقوله تعالى: ﴿ واصبر وما صبرك إلا بالله ﴾ تأكيد للأمر بالصبر، وإخبار بأن ذلك لا ينال إلا بمشيئة الله وإعانتة، وحوله وقوته، ثم قال تعالى: ﴿ ولا تحزن عليهم ﴾، أي على من خالفك فإن الله قدر ذلك، ﴿ ولا تك في ضيق ﴾ أي غم، ﴿ مما يمكرون ﴾ أي مما يجهدون أنفسهم في عداوتك وإيصال الشر إليك، فإن الله كافيك وناصرك ومؤيدك ومظهرك ومظفرك بهم، وقوله: ﴿ إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ﴾، أي معهم بتأييده ونصره ومعونته وهدية وسعيه.

[آخر تفسير سورة النحل ، والله الحمد والمنة]

* * *

(١) قال ابن كثير في إسناده ضعف .



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١﴾

يمجد تعالى نفسه، ويعظم شأنه، لقدرته على ما لا يقدر عليه أحد سواه، فلا إله غيره ولا رب سواه ، ﴿الذي أسرى عبده﴾ يعني محمداً ﷺ ، ﴿ليلاً﴾ : أي في جنح الليل، ﴿من المسجد الحرام﴾ : وهو مسجد مكة ﴿إلى المسجد الأقصى﴾^(١) وهو بيت المقدس الذي يبلياء معدن الأنبياء من لدن إبراهيم الخليل عليه السلام، ولهذا جمعوا له هناك كلهم فأمهم في محلهم ودارهم، فدل على أنه هو الإمام الأعظم، والرئيس المقدم، صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين. وقوله تعالى ﴿الذي باركنا حوله﴾ : أي في الزروع والثمار، ﴿لنريه﴾ : أي محمداً ﴿من آياتنا﴾ : أي العظام، كما قال تعالى: ﴿لقد رأى من آيات ربه الكبرى﴾، ﴿إنه هو السميع البصير﴾ أي السميع لأقوال عباده البصير بهم، فيعطي كلا منهم ما يستحقه في الدنيا والآخرة .

« ذكر الأحاديث الواردة في الإسراء »

قال الإمام البخاري، عن أنس بن مالك، يقول: ليلة أسري برسول الله ﷺ من مسجد الكعبة، إنه جاءه ثلاثة نفر قبل أن يوحى إليه وهو نائم في المسجد الحرام، فقال أولهم: أيهم هو؟ فقال أوسطهم: هو خيرهم، فقال

(١) قال الحافظ السهيلي: قوله عز وجل ﴿إلى المسجد الأقصى﴾ : يعني بيت المقدس . وهو إيليا، ومعنى إيليا - بيت الله - ﴿وباركنا حوله﴾ - يعني الشام - والشام بالسريانية : الطيب، فسميت بذلك لطيبها وخصبها، وبيت المقدس بناه سليمان عليه السلام، وكان داود عليه السلام قد ابتدأ مبناه فأكملة ابنه سليمان عليه السلام، واسمه: إيلياء، وتفسيره بالعربية: بيت الله، ذكره البكري، وقال الطبري: كان داود عليه السلام قد همَّ ببنائه فأوحى الله تعالى إليه «إنما بينه ابن لك طاهر اليد من الدماء»، وفي الصحيح أنه وضع للناس بعد البيت الحرام، بأربعين سنة، وهذا يدل على أنه قد كان بني أيضاً في زمن إسحاق ويعقوب عليهما السلام، ولكن بنيانه على التمام وكمال الهيئة كان على عهد سليمان عليه السلام .

آخرهم: خنوا خيرهم، فكانت تلك الليلة فلم يرهم، حتى أتوه ليللة أخرى فيما يرى قلبه وتنام عينه ولا ينام قلبه - وكذلك الأنبياء تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم - فلم يكلموه حتى احتملوه، فوضعه عند بئر زمزم، فتولاه منهم جبريل، فشق جبريل ما بين نحره إلى لبتة حتى فرغ من صدره وجوفه، فغسله من ماء زمزم بيده حتى أنقى جوفه، ثم أتى بطست من ذهب فيه تور من ذهب محشو إيماناً وحكمة فحشا به صدره ولغاديدته - يعني عروق حلقه - ثم أطبقه، ثم عرج به إلى السماء الدنيا فضرب باباً من أبوابها فناده أهل السماء من هذا؟ فقال: جبريل، قالوا: ومن معك؟ قال: معي محمد، قالوا: وقد بعث إليه؟ قال: نعم. قالوا: فرحياً به وأهلاً، يستبشر به أهل السماء، لا يعلم أهل السماء بما يريد الله به في الأرض حتى يعلمهم، فوجد في السماء الدنيا آدم، فقال له جبريل هذا أبوك آدم فسلم عليه، فسلم عليه ورد عليه آدم، فقال: مرحباً وأهلاً بابني، نعم الابن أنت، فإذا هو في السماء الدنيا بنهرين يطردان، فقال: «ما هذان النهران يا جبريل؟» قال: هذان النيل والفرات عنصرهما، ثم مضى به في السماء فإذا هو بنهر آخر عليه قصر من لؤلؤ وزبرجد، فضرب بيده فإذا هو مسك أذفر، فقال: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا الكوثر الذي حبأ لك ربك، ثم عرج به إلى السماء الثانية، فقالت الملائكة له مثل ما قالت له الملائكة الأولى من هذا؟ قال جبريل، قالوا: ومن معك؟ قال: محمد ﷺ، قالوا: وقد بعث إليه؟ قال: نعم، قالوا: مرحباً به وأهلاً. ثم عرج به إلى السماء الثالثة فقالوا له مثل ما قالت الأولى والثانية. ثم عرج به إلى السماء الرابعة، فقالوا له مثل ذلك، ثم عرج به إلى السماء الخامسة، فقالوا له مثل ذلك. ثم عرج به إلى السماء السادسة، فقالوا له مثل ذلك، ثم عرج به إلى السماء السابعة، فقالوا له مثل ذلك، كل سماء فيها أنبياء قد سماهم فوعيت منهم إدريس في الثانية، وهارون في الرابعة، وآخر في الخامسة لم أحفظ اسمه، وإبراهيم في السادسة، وموسى في السابعة بتفضيل كلام الله تعالى، فقال موسى: رب لم أظن أن ترفع علي أحداً.

ثم علا به فوق ذلك بما لا يعلمه إلا الله عز وجل، حتى جاء سدرة المنتهى، ودنا الجبار رب العزة فتدلى، حتى كان منه قاب قوسين أو أدنى، فأوحى الله إليه فيما يوحى خمسين صلاة على أمتك كل يوم وليلة، ثم هبط به حتى بلغ موسى، فاحتبسه موسى فقال: يا محمد، ماذا عهد إليك ربك؟ قال: «عهد إلي خمسين صلاة كل يوم وليلة». قال إن أمتك لا تستطيع ذلك، فارجع فليخفف عنك ربك وعنهم، فالتفت النبي ﷺ إلى جبريل كأنه يستشير به في ذلك، فأشار إليه جبريل أن نعم إن شئت، فعلا به إلى الجبار تعالى وتقدس، فقال وهو في مكانه: «يا رب خفف عنا فإن أمتي لا تستطيع هذا»، فوضع عنه عشر صلوات، ثم رجع موسى فاحتبسه، فلم يزل يردده موسى إلى ربه حتى صارت إلى خمس صلوات، ثم احتبسه موسى عند الخمس، فقال: يا محمد والله لقد راودت بني إسرائيل قومي على أدنى من هذا فضعفوا فتركوه، فأمتك أضعف أجساداً وقلوباً وأبداناً وأبصاراً وأسماعاً، فارجع فليخفف عنك ربك، كل ذلك يلتفت النبي ﷺ إلى جبريل ليشير عليه ولا يكره ذلك جبريل، فرفعه عند الخامسة فقال: «يا رب إن أمتي ضعفاء، أجسادهم وقلوبهم وأسماعهم وأبصارهم وأبدانهم، فخفف عنا، فقال الجبار تبارك وتعالى: يا محمد! قال: «ليبك وسعديك»، قال: إنه لا يبدل القول لدي كما فرضت عليك في أم الكتاب، فكل حسنة بعشر أمثالها، فهي خمسون في أم الكتاب، وهي خمس عليك، فرجع إلى موسى، فقال: كيف فعلت؟ فقال: «خفف عنا أعطانا بكل حسنة عشر أمثالها»، قال موسى: قد والله راودت بني إسرائيل على

أدنى من ذلك فتركوه، فارجع إلى ربك فليخفف عنك أيضاً، قال رسول الله ﷺ: «يا موسى قد والله استحيت من ربي عز وجل مما اختلف إليه». قال فاهبط باسم الله. قال واستيقظ وهو في المسجد الحرام، هكذا ساقه البخاري في كتاب التوحيد.

وقد قال الحافظ البيهقي: في حديث شريك زيادة تفرد بها على مذهب من زعم أنه ﷺ رأى الله عز وجل، يعني قوله: ثم دنا الجبار رب العزة فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى. قال: وقول عائشة وابن مسعود وأبي هريرة في حملهم هذه الآيات على رؤيته جبريل أصح. وهذا الذي قاله البيهقي رحمه الله في هذه المسألة هو الحق، فإن أبا ذر قال: يا رسول الله هل رأيت ربك؟ قال: «نور أنى أراه». وفي رواية: «رأيت نوراً» أخرجه مسلم، وقوله: ﴿ثم دنا فتدلى﴾ إنما هو جبريل عليه السلام كما ثبت ذلك في الصحيحين عن عائشة أم المؤمنين، وعن ابن مسعود، وكذلك هو في صحيح مسلم عن أبي هريرة، ولا يعرف لهم مخالف من الصحابة في تفسير هذه الآية بهذا.

وقال الإمام أحمد، عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «أتيت بالبراق وهو دابة، أبيض، فوق الحمار ودون البغل، يضع حافره عند منتهى طرفه، فركبته فسار بي حتى أتيت بيت المقدس، فربطت الدابة بالحلقة التي يربط فيها الأنبياء، ثم دخلت فضليت فيه ركعتين، ثم خرجت فأتاني جبريل بإناء من خمر وإناء من لبن، فاخترت اللبن، فقال جبريل: أصبت الفطرة، قال: ثم عرج بي إلى السماء الدنيا فاستفتح جبريل، فقيل له من أنت؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: قد أرسل إليه، ففتح لنا فإذا أنا بآدم فرحب بي ودعا لي بخير، ثم عرج بنا إلى السماء الثانية فاستفتح جبريل، فقيل: من أنت؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: قد أرسل إليه، ففتح لنا، فإذا أنا بابني الخالة يحيى وعيسى، فرحبا بي ودعوا لي بخير، ثم عرج بنا إلى السماء الثالثة، فاستفتح جبريل، فقيل له: من أنت؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: قد أرسل إليه، ففتح لنا، فإذا أنا بيوسف عليه السلام وإذا هو قد أعطي شطر الحسن، فرحب بي ودعا لي بخير، ثم عرج بنا إلى السماء الرابعة، فاستفتح جبريل، فقيل: من أنت؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: قد أرسل إليه، ففتح لنا، فإذا أنا بإدريس، فرحب بي ودعا لي بخير، ثم يقول تعالى ﴿ورفعناه مكاناً علياً﴾، ثم عرج بنا إلى السماء الخامسة فاستفتح جبريل، فقيل: من أنت؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، فقيل: قد أرسل إليه؟ قال: قد بعث إليه، ففتح لنا، فإذا أنا بهارون، فرحب بي ودعا لي بخير، ثم عرج بنا إلى السماء السادسة فاستفتح جبريل، فقيل: من أنت؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، فقيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه، ففتح لنا، فإذا أنا بموسى عليه السلام، فرحب بي ودعا لي بخير، ثم عرج بنا إلى السماء السابعة، فاستفتح جبريل، فقيل: من أنت؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، فقيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه، ففتح لنا، فإذا أنا بإبراهيم عليه السلام، وإذا هو مستند إلى البيت المعمور، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك، ثم لا يعودون إليه.

ثم ذهب بي إلى سدره المنتهى، فإذا ورقها كآذان الفيلة وإذا ثمرها كالقلال، فلما غشيها من أمر الله ما غشيها تغيرت فما أحد من خلق الله تعالى يستطيع أن يصفها من حسنها، قال: فأوحى الله إليّ ما أوحى، وقد فرض عليّ في كل يوم وليلة، خمسين صلاة، فترلت حتى انتهيت إلى موسى، قال: ما فرض ربك على أمتك؟ قلت: خمسين صلاة في كل يوم وليلة، قال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك فإن أمتك لا تطيق ذلك، وإني قد بلوت بني إسرائيل وخبرتهم، قال فرجعت إلى ربي فقلت: أي رب خفف عن أمتي، فحط عني خمساً، فترلت حتى انتهيت إلى موسى، فقال: ما فعلت، فقلت: قد حط عني خمساً، فقال: إن أمتك لا تطيق ذلك، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك، قال: فلم أزل أرجع إلى ربي وبين موسى، ويحط عني خمساً خمساً حتى قال: يا محمد هن خمس صلوات في كل يوم وليلة، بكل صلاة عشر، فتلك خمسون صلاة، ومن همّ بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة فإن عملها كتبت عشرًا، ومن همّ بسيئة فلم يعملها لم تكتب فإن عملها كتبت سيئة واحدة، فترلت حتى انتهيت إلى موسى فأخبرته، فقال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك فإن أمتك لا تطيق ذلك، فقال رسول الله ﷺ: «لقد رجعت إلى ربي حتى استحيت».

عن أنس بن مالك قال: لما جاء جبريل إلى رسول الله ﷺ بالبراق فكأنها حركت ذنبها، فقال لها جبريل: مه يا براق فوالله ما ركبت مثله، وسار رسول الله ﷺ فإذا هو بعجوز على جانب الطريق، فقال: «ما هذه يا جبريل؟» قال: سر يا محمد. قال، فسار ما شاء الله أن يسير فإذا شيء يدعو متنجياً عن الطريق، فقال: هلم يا محمد، فقال له جبريل: سر يا محمد، فسار ما شاء الله أن يسير، قال فلقبه خلق من خلق الله، فقالوا: السلام عليك يا أول، السلام عليك يا آخر، السلام عليك يا حاشر، فقال له جبريل: اردد السلام يا محمد، فرد السلام، ثم لقيه الثانية، فقال له مثل مقالته الأولى، ثم الثالثة كذلك حتى انتهى إلى بيت المقدس، فعرض عليه الخمر والماء واللبن، فتناول رسول الله ﷺ اللبن، فقال له جبريل: أصبت الفطرة، ولوشربت الماء لفرقت وغرقت أمتك، ولو شربت الخمر لغويت ولغوت أمتك، ثم بعث له آدم فن دونه من الأنبياء عليهم السلام، فأمرهم رسول الله ﷺ تلك الليلة. ثم قال له جبريل: أما العجوز التي رأيت على جانب الطريق فلم يبق من الدنيا إلا كما بقي من عمر تلك العجوز، وأما الذي أراد أن تميل إليه فذاك عدو الله إبليس أراد أن تميل إليه، وأما الذين سلموا عليك فإبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام^(١).

(رواية عن أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة)

قال الإمام أحمد، عن أنس بن مالك: إن مالك بن صعصعة حدثه، أن نبي الله ﷺ حدثهم عن ليلة أسري به قال: «بينما أنا في الحطيم - وربما قال قتادة في الحجر - مضطجعاً إذ أتاني آت، فجعل يقول لصاحبه: الأوسط بين الثلاثة، قال: فأتاني فشق ما بين هذه إلى هذه»، أي من ثغرة نحره إلى شعرته، «فاستخرج قلبي، قال: فأتيت بطست من ذهب مملوءة إيماناً وحكمة، فغسل قلبي ثم حشا ثم أعيد، ثم أتيت بدابة دون البغل وفوق الحمار أبيض». قال، فقال الجارود: هو البراق يا أبا حمزة؟

(١) أخرجه ابن جرير ورواه الحافظ البيهقي في دلائل النبوة، وفي بعض ألفاظه غرابة.

قال: نعم يقع خطوه عند أقصى طرفه، قال: « فحملت عليه فانطلق بي جبريل عليه السلام حتى أتى بي إلى السماء الدنيا فاستفتح، فقيل: من هذا، قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: أو قد أرسل إليه؟ قال: نعم، فقيل: مرحباً به ولنعم المجيء جاء، قال: ففتح لنا، فلما خلصت فإذا فيها آدم عليه السلام، قال: هذا أبوك آدم فسلم عليه، فسلمت عليه فرد السلام، ثم قال: مرحباً بالابن الصالح والنبي الصالح، ثم صعد حتى أتى السماء الثانية فاستفتح، فقيل: من هذا؟ فقال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: أو قد أرسل إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحباً به ولنعم المجيء جاء، قال: ففتح لنا، فلما خلصت فإذا عيسى ويحيى وهما ابنا الخالة، قال: هذان يحيى وعيسى فسلم عليهما، قال: فسلمت فردا السلام، ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح، ثم صعد حتى أتى السماء الثالثة فاستفتح، فقيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: أو قد أرسل إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحباً به ولنعم المجيء جاء، قال: ففتح لنا، فلما خلصت إذا يوسف عليه السلام، قال: هذا يوسف، قال: فسلمت عليه فرد السلام، ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح، ثم صعد حتى أتى السماء الرابعة فاستفتح، فقيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: أو قد أرسل إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحباً به ولنعم المجيء جاء، قال: ففتح لنا، فلما خلصت فإذا إدريس عليه السلام، قال: هذا إدريس، قال: فسلمت عليه فرد السلام، ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح، قال: ثم صعد حتى أتى السماء الخامسة فاستفتح، فقيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: أو قد أرسل إليه؟ قال: نعم، قال: مرحباً بك ولنعم المجيء جاء، ففتح لنا، فلما خلصت فإذا هارون عليه السلام، قال: هذا هارون فسلم عليه، فسلمت عليه فرد السلام، ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح، قال: ثم صعد حتى أتى السماء السادسة فاستفتح، فقيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: أو قد أرسل إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحباً به ولنعم المجيء جاء، ففتح لنا، فلما خلصت فإذا أنا بموسى عليه السلام، قال: هذا موسى عليه السلام فسلم عليه، فسلمت عليه فرد السلام، ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح، قال: فلما تجاوزته بكى، قيل له: ما يبكيك؟ قال: أبكي لأن غلاماً بعث بعدي يدخل الجنة من أمته أكثر مما يدخلها من أمتي، قال: ثم صعد حتى أتى السماء السابعة فاستفتح، قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: أو قد بعث إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحباً به ولنعم المجيء جاء، قال: ففتح لنا، فلما خلصت فإذا إبراهيم عليه السلام، فقال: هذا إبراهيم فسلم عليه، قال: فسلمت عليه فرد السلام، ثم قال: مرحباً بالابن الصالح والنبي الصالح، قال: ثم رفعت إلى سدرة المنتهى فإذا نبقها مثل قلال هجر، وإذا ورقها مثل آذان الفيلة، فقال: هذه سدرة المنتهى، قال: وإذا أربعة أنهار نهران باطنان ونهران ظاهران، فقلت: ما هذا يا جبريل؟ قال: أما الباطنان فنهران في الجنة، وأما الظاهران فالنيل والفرات، قال: ثم رفع إلي البيت المعمور .

قال قتادة: وحدثنا الحسن، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ أنه رأى البيت المعمور، يدخله كل يوم سبعون ألفاً ثم لا يعودون فيه، ثم رجع إلى حديث أنس، قال: « ثم أتيت بيضاء من خمر وإناء من لبن وإناء من عسل قال: فأخذت اللبن، قال: هذه الفطرة أنت عليها وأمتك، قال: ثم فرضت علي الصلاة خمسين صلاة كل يوم،

قال: فنزلت حتى أتيت موسى، فقال: ما فرض ربك على أمتك؟ قال، قلت: خمسين صلاة كل يوم، قال: إن أمتك لا تستطيع خمسين صلاة وإني قد خبرت الناس قبلك، وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك، قال: فرجعت فوضع عني عشراً، قال: فرجعت إلى موسى، فقال: بم أمرت؟ قلت: بأربعين صلاة كل يوم، قال: إن أمتك لا تستطيع أربعين صلاة كل يوم وإني قد خبرت الناس قبلك وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك، قال: فرجعت فوضع عني عشراً آخر، فرجعت إلى موسى، فقال: بم أمرت، فقلت: أمرت بثلاثين صلاة، قال: إن أمتك لا تستطيع ثلاثين صلاة كل يوم وإني قد خبرت الناس قبلك وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك، قال: فرجعت فوضع عني عشراً آخر، فرجعت إلى موسى فقال: بم أمرت؟ قلت: بعشرين صلاة كل يوم، فقال: إن أمتك لا تستطيع العشرين صلاة كل يوم، وإني قد خبرت الناس قبلك وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك، قال: فرجعت فوضع عني عشراً آخر، فرجعت إلى موسى فقال: بم أمرت؟ فقلت: أمرت بعشر صلوات كل يوم، فقال: إن أمتك لا تستطيع العشر صلوات كل يوم، وإني قد خبرت الناس قبلك وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك، قال: فرجعت فأمرت بخمس صلوات كل يوم، فرجعت إلى موسى فقال: بم أمرت، فقلت: أمرت بخمس صلوات كل يوم، فقال: إن أمتك لا تستطيع الخمس صلوات كل يوم، وإني قد خبرت الناس قبلك وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك، قال، قلت: قد سألت ربي حتى استحيت ولكن أرضى وأسلم. فنفذت، فنأدى مناد قد أمضيت فريضتي وخففت عن عبادي»^(١).

(رواية أنس عن أبي ذر)

قال البخاري، عن أنس بن مالك قال: كان أبو ذر يحدث أن رسول الله ﷺ قال: «فرج عن سقف بيتي وأنا بمكة، فنزل جبريل ففرج صدري ثم غسله بماء زمزم، ثم جاء بطست من ذهب ممتلئ حكمة وإيماناً فأفرغه في صدري، ثم أطبقه، ثم أخذ بيدي فخرج بي إلى السماء الدنيا، فلما جئت إلى السماء قال جبريل لخازن السماء: افتح، قال: من هذا؟ قال: جبريل، قال: هل معك أحد؟ قال: نعم معي محمد ﷺ، فقال: أرسل إليه؟ قال: نعم، فلما فتح علونا السماء الدنيا فإذا رجل قاعد على يمينه أسودة وعلى يساره أسودة إذا نظر قبل يمينه ضحك، وإذا نظر قبل شماله بكى، فقال: مرحباً بالنبي الصالح والابن الصالح، قال: قلت لجبريل: من هذا؟ قال: هذا آدم وهذه الأسودة عن يمينه وعن شماله نسمة بنيه، فأهل اليمين منهم أهل الجنة والأسودة التي عن شماله أهل النار، فإذا نظر عن يمينه ضحك، وإذا نظر عن شماله بكى، ثم عرج بي إلى السماء الثانية، فقال لخازنها: افتح، فقال له خازنها مثل ما قال له الأول ففتح»، قال أنس: فذكر أنه قد وجد في السماوات آدم وإدريس وموسى وعيسى وإبراهيم ولم يثبت كيف منازلهم، غير أنه ذكر أنه وجد آدم في السماء الدنيا، وإبراهيم في السماء السادسة. قال أنس: فلما مر جبريل والنبي ﷺ بإدريس، قال: مرحباً بالنبي الصالح

(١) أخرجه أحمد ورواه الشيخان من حديث قتادة بنحوه.

والأخ الصالح، فقلت: من هذا؟ قال: إدريس، ثم مر بموسى فقال: مرحباً بالنبي الصالح والأخ الصالح، فقلت: من هذا، قال: هذا موسى، ثم مررت بعيسى، فقال: مرحباً بالنبي الصالح والأخ الصالح، قلت: من هذا؟ قال: هذا عيسى، ثم مررت بإبراهيم، فقال: مرحباً بالنبي الصالح والابن الصالح، قلت: من هذا؟ قال: هذا إبراهيم، قال الزهري: فأخبرني ابن حزم أن ابن عباس وأبا حية الأنصاري كانا يقولان، قال النبي ﷺ: « ثم عرج بي حتى ظهرت لمستوى أسمع فيه صريف الأقدام ». قال ابن حزم وأنس بن مالك، قال رسول الله ﷺ: « ففرض الله على أمي خمسين صلاة، فرجعت بذلك حتى مررت على موسى عليه السلام، فقال: ما فرض الله على أمتك؟ قلت: فرض خمسين صلاة، قال موسى: فارجع إلى ربك فإن أمتك لا تطيق ذلك، فرجعت فوضع شطرها، فرجعت إلى موسى قلت: وضع شطرها، فقال ارجع إلى ربك فإن أمتك لا تطيق ذلك، فرجعت فوضع شطرها فرجعت إليه، فقال: ارجع إلى ربك فإن أمتك لا تطيق ذلك، فراجعته فقال: هي خمس وهي خمسون لا يبدل القول لدي، فرجعت إلى موسى فقال: ارجع إلى ربك، قلت قد استحييت من ربي، ثم انطلق بي حتى انتهى إلى سدره المنتهى فغشيها ألوان لا أدري ما هي، ثم أدخلت الجنة فإذا فيها حبات اللؤلؤ وإذا ترابها المسك»^(١).

عن جابر بن عبد الله، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: « لما كذبتني قريش حين أسري بي إلى بيت المقدس، قمت في الحجر فجلى الله لي بيت المقدس فطفقت أخبرهم عن آياته وأنا أنظر إليه »^(٢). عن ابن شهاب قال: سمعت سعيد بن المسيب يقول: إن رسول الله ﷺ حين انتهى إلى بيت المقدس لقي فيه إبراهيم وموسى وعيسى، وإنه أتى بقدرين قدح من لبن وقدح من خمر، فنظر إليهما ثم أخذ قدح اللبن، فقال جبريل: أصبت هديت للفطرة، لو أخذت الخمر لغوت أمتك، ثم رجع رسول الله ﷺ إلى مكة فأخبر أنه أسري به فافتتن ناس كثير كانوا قد صلوا معه. وقال ابن شهاب: قال أبو سلمة بن عبدالرحمن: فتجهز - أو كلمة نحوها - ناس من قريش إلى أبي بكر فقالوا: هل لك في صاحبك؟ يزعم أنه جاء إلى بيت المقدس، ثم رجع إلى مكة في ليلة واحدة. فقال أبو بكر: أو قال ذلك؟ قالوا: نعم، قال: فأنا أشهد لئن كان قال ذلك لقد صدق، قالوا: فتصدقه في أن يأتي الشام في ليلة واحدة ثم يرجع إلى مكة قبل أن يصبح؟ قال: نعم أنا أصدقه بأبعد من ذلك، أصدقه بخبر السماء، قال أبو سلمة: فيها سمي أبو بكر الصديق. قال أبو سلمة: فسمعت جابر بن عبد الله رضي الله عنهما يحدث، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: « لما كذبتني قريش حين أسري بي إلى بيت المقدس، قمت في الحجر فجلى الله لي بيت المقدس فطفقت أخبرهم عن آياته وأنا أنظر إليه »^(٣).

(رواية شداد بن أوس)

روى الإمام الترمذي، عن جبير بن نفير، عن شداد بن أوس قال، قلنا: يا رسول الله، كيف أسري بك؟ قال: « صليت لأصحابي صلاة العتمة بمكة معتماً، فأتاني جبريل عليه السلام بدابة أبيض - أو قال بيضاء -

(١) هذا لفظ البخاري في كتاب الصلاة، ورواه مسلم في كتاب الإيمان بنحوه.

(٢) رواه أحمد وأخرجه الشيخان. (٣) أخرجه البيهقي عن سعيد بن المسيب.

فوق الحمار ودون البغل ، فقال : اركب ، فاستصعب علي ، فرازها بأذنها ، ثم حملني عليها ، فانطلقت تهوي بنا يقع حافرها حيث انتهى طرفها حتى بلغنا أرضاً ذات نخل فأنزلي ، فقال : صل ، فصليت ، ثم ركب ، فقال : أتدري أين صليت ؟ قلت : الله أعلم ، قال : صليت بيثرب ، صليت بطيبة ، فانطلقت تهوي بنا ، يقع حافرها عند منتهى طرفها ، ثم بلغنا أرضاً ، قال : انزل ، ثم قال : صل ، فصليت ، ثم ركبنا ، فقال : أتدري أين صليت ؟ قلت : الله أعلم ، قال : صليت بمدين عند شجرة موسى ، ثم انطلقت تهوي بنا يقع حافرها حيث أدرك طرفها ، ثم بلغنا أرضاً بدت لنا قصور ، فقال : انزل فتزلت ، فقال : صل ، فصليت ، ثم ركبنا ، فقال : أتدري أين صليت ؟ قلت : الله أعلم ، قال : صليت بيت لحم ، حيث ولد عيسى بن مريم ، ثم انطلق بي حتى دخلنا المدينة من بابها اليمني ، فأتى قبلة المسجد فربط فيه دابته ودخلنا المسجد من باب تميل فيه الشمس والقمر ، فصليت من المسجد حيث شاء الله ، وأخذني من العطش أشد ما أخذني ، فأتيت بإناءين في أحدهما لبن وفي الآخر عسل أرسل إليّ بهما جميعاً ، فعدلت بينهما ثم هداني الله عزّ وجلّ فأخذت اللبن فشربت حتى عرفت به جيني ، وبين يدي شيخ متكئ على مئذنة له ، فقال : أخذ صاحبك الفطرة إنه ليهدى ، ثم انطلق بي حتى أتينا الوادي الذي فيه المدينة فإذا جهنم تنكشف عن مثل الروابي ، قلت : يا رسول الله كيف وجدتها ؟ قال : وجدتها مثل الحمة السنخة ، ثم انصرف بي فررنا بغير لقريش بمكان كذا وكذا قد أضلوا بغيراً لهم قد جمعه فلان فسلمت عليهم ، فقال بعضهم : هذا صوت محمد ، ثم أتيت أصحابي قبل الصبح بمكة ، فأتاني أبو بكر رضي الله عنه ، فقال : يا رسول الله أين كنت الليلة فقد التمسك في منامك ، فقد علمت أنك أتيت بيت المقدس الليلة ، فقال يا رسول الله إنه مسيرة شهر فصفه لي ، قال : ففتح لي صراط كأني أنظر إليه لا يسألني عن شيء إلا أنبأته ، فقال أبو بكر : أشهد أنك لرسول الله ، وقال المشركون : انظروا إلى ابن أبي كبشة يزعم أنه أتى بيت المقدس الليلة ! قال ، فقال : إن من آية ما أقول لكم أنني مررت بغير لكم في مكان كذا وكذا ، وقد أضلوا بغيراً لهم فجمعه لهم فلان ، وإن مسيرهم يتزلون بكذا ثم بكذا ، ويأتونكم يوم كذا وكذا ، يقدمهم جمل آدم عليه مسح أسود وغرارتان سوداوان ، فلما كان ذلك اليوم أشرف الناس ينظرون حين كان قريباً من نصف النهار ، حتى أقبلت العير يقدمهم ذلك الجمل الذي وصفه رسول الله ﷺ^(١) .

قال البيهقي ، عن قتادة عن أبي العالية ، قال : حدثنا ابن عم نبيكم ﷺ ابن عباس رضي الله عنهما قال ، قال رسول الله ﷺ : « رأيت ليلة أسري بي موسى بن عمران رجلاً طوالاً جعداً كأنه من رجال شنوءة ، ورأيت عيسى ابن مريم عليه السلام مربع الخلق إلى الحمرة والبياض سبط الرأس » ، وأري مالكاً خازن جهنم ، والدجال في آيات أراهن الله إياه ، قال : ﴿ فلا تكن في مربة من لقائه ﴾ ، فكان قتادة يفسرها أن نبي الله ﷺ قد لقي موسى عليه السلام ، ﴿ وجعلناه هدى لبني إسرائيل ﴾ قال : جعل موسى هدى لبني إسرائيل^(٢) عن ابن عباس قال ، قال رسول الله ﷺ : « لما كان ليلة أسري بي فأصبحت بمكة ، عرفت أن الناس مكذبي » . ففعد معتزلاً حزيناً ، قرّ به

(١) رواه الترمذي والبيهقي وقال : إسناده صحيح ، قال ابن كثير : وهذا الحديث مشتمل على ما هو صحيح كما قال البيهقي ، وعلى ما هو منكر كالصلاة في بيت المقدس ، وسؤال الصديق عن نعت بيت المقدس .

(٢) رواه البيهقي ومسلم وأخرجه عن قتادة مختصراً .

عدو الله أبو جهل، فجاء حتى جلس إليه فقال له كالمستهزئ: هل كان من شيء؟ فقال له رسول الله ﷺ: «نعم»، قال: وما هو؟ قال: «إني أسري بي الليلة»، قال: إلى أين؟ قال: «إلى بيت المقدس». قال: ثم أصبحت بين ظهرانينا؟! قال: «نعم»، قال: فلم ير أن يكذبه مخافة أن يجحد الحديث إن دعا قومه إليه، قال: رأيت إن دعوت قومك أتحدثهم بما حدثني؟ فقال رسول الله ﷺ: «نعم»، فقال: يا معشر بني كعب ابن لؤي، قال، فانفضت إليه المجالس وجاءوا حتى جلسوا إليهما، قال: حدث قومك بما حدثني. فقال رسول الله ﷺ: «إني أسري بي الليلة»، فقالوا: إلى أين؟ قال: «إلى بيت المقدس»، قالوا: ثم أصبحت بين ظهرانينا؟ قال: «نعم». قال، فمن بين مصفق ومن بين واضع يده على رأسه متعجباً للكذب، قالوا: وتستطيع أن تنتع لنا المسجد؟ وفيهم من قد سافر إلى ذلك البلد ورأى المسجد، فقال رسول الله ﷺ: «فازلت أنت حتى التبس علي بعض النعت، قال: فجيء بالمسجد وأنا أنظر إليه حتى وضع دون دار عقيل، فنتعته وأنا أنظر إليه، قال: وكان مع هذا نعت لم أحفظه، قال، فقال القوم: أما النعت فوالله لقد أصاب فيه»^(١).

وقد روى البخاري ومسلم في الصحيحين، عن أبي هريرة قال، قال رسول الله ﷺ: «حين أسري بي لقيت موسى عليه السلام - فنتعته فإذا رجل حسبه قال: مضطرب، رَجُلُ الرأس، كأنه من رجال شنوءة، قال: ولقيت عيسى - فنتعته النبي ﷺ قال: ربعة أحمر كأنما خرج من ديماس - يعني حمام، قال: ولقيت إبراهيم وأنا أشبه ولده به، قال: وأتيت بإناءين في أحدهما لبن وفي الآخر خمر، قيل لي: خذ أيهما شئت، فأخذت اللبن فشربت، فقيل لي: هديت الفطرة، - أو أصبت الفطرة - أما إنك لو أخذت الخمر غوت أمتك». وفي صحيح مسلم، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «لقد رأيتني في الحجر وقريش تسألني مسراي، فسألوني عن أشياء من بيت المقدس لم أثبتها فكربت كرباً ما كربت مثله قط، فرفعه الله إلي أنظر إليه، ما سألوني عن شيء إلا أنبأهم به، وقد رأيتني في جماعة من الأنبياء، وإذا موسى قائم يصلي وإذا هو رجل جعد كأنه من رجال شنوءة، وإذا عيسى بن مريم قائم يصلي أقرب الناس شبيهاً به عروة بن مسعود الثقفي، وإذا إبراهيم قائم يصلي أقرب الناس شبيهاً به صاحبكم - يعني نفسه - فحانت الصلاة فأمتهم، فلما فرغت قال قائل: يا محمد هذا مالك خازن جهنم، فالتفت إليه فبداني بالسلام»^(٢).

قال ابن أبي حاتم، عن أبي هريرة قال، قال رسول الله ﷺ: «رأيت ليلة أسري بي لما انتهيت إلى السماء السابعة، فنظرت فوق، فإذا رعد وبرق وصواعق، قال: وأتيت على قوم بطونهم كالبيوت فيها الحيات ترى من خارج بطونهم، فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء آكلو الربا، فلما نزلت إلى السماء الدنيا نظرت أسفل مني فإذا أنا برهج ودخان وأصوات، فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هذه الشياطين يحومون على أعين بني آدم لا يتفكرون في ملكوت السماوات والأرض، ولولا ذلك لرأوا العجائب»^(٣).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه .

(١) أخرجه أحمد والبيهقي والنسائي .

(٣) ورواه الإمام أحمد وابن ماجه .

فصل

وإذا حصل الوقوف على مجموع هذه الأحاديث يحصل مضمون ما اتفقت عليه من مسرى رسول الله ﷺ من مكة إلى بيت المقدس، وأنه مرة واحدة، قال الزهري: كان الإسراء قبل الهجرة والحق أنه عليه السلام أسري به (يقظة) لا (مناماً) من مكة إلى بيت المقدس راكباً على البراق، فلما انتهى إلى باب المسجد ربط الدابة عند الباب ودخله فصلى في قبلته تحية المسجد ركعتين، ثم أتى بالمعراج وهو كالسلم ذو درج يرقى فيها فصعد فيه إلى السماء الدنيا، ثم إلى بقية السماوات السبع، فتلقاه من كل سماء مقربوها، وسلم على الأنبياء الذين في السماوات بحسب منازلهم ودرجاتهم، حتى مرّ بموسى الكليم في السادسة، وإبراهيم الخليل في السابعة، ثم جاوز منزلتيهما صلى الله عليه وسلم وعليهما وعلى سائر الأنبياء، حتى انتهى إلى مستوى يسمع فيه صريف الأقلام، أي أقلام القدر، بما هو كائن، ورأى سدرة المنتهى وغشياً من أمر الله تعالى عظمة عظيمة من فراش من ذهب وألوان متعددة، وغشياً الملائكة، ورأى هناك جبريل على صورته وله ستمائة جناح، ورأى رفرفاً أخضر قد سد الأفق. ورأى البيت المعمور وإبراهيم الخليل باني الكعبة الأرضية مسنداً ظهره إليه لأنه الكعبة السماوية، يدخله كل يوم سبعون ألفاً من الملائكة يتعبدون فيه ثم لا يعودون إليه إلى يوم القيامة. ورأى الجنة والنار وفرض الله عليه هنالك الصلوات خمسين، ثم خفضها إلى خمس رحمة منه ولطفاً بعباده، وفي هذا اعتناء عظيم بشرف الصلاة وعظمتها، ثم هبط إلى بيت المقدس وهبط معه الأنبياء فصلى بهم فيه لما حانت الصلاة، ويحتمل أنها الصبح يومئذ، ومن الناس من يزعم أنه أهمهم في السماء، والذي تظاهرت به الروايات أنه بيت المقدس ولكن في بعضها أنه كان أول دخوله إليه، والظاهر أنه بعد رجوعه إليه لأنه لما مرّ بهم في منازلهم جعل يسأل عنهم جبريل واحداً واحداً وهو يخبره بهم، وهذا هو اللائق، لأنه كان أولاً مطلوباً إلى الجناب العلوي ليفرض عليه وعلى أمته ما يشاء الله تعالى، ثم لما فرغ من الذي أريد به اجتمع به هو وإخوته من النبيين، ثم أظهر شرفه وفضله عليهم بتقديمه في الإمامة، وذلك عن إشارة جبريل عليه السلام له في ذلك. ثم خرج من بيت المقدس فركب البراق وعاد إلى مكة بغلس والله سبحانه وتعالى أعلم.

ثم اختلف الناس هل كان الإسراء بيدنه عليه السلام وروحه أو بروحه فقط؟ على قولين، فالأكثر من العلماء على أنه أسري بيدنه وروحه يقظة لا مناماً، ولا ينكرون أن رسول الله ﷺ رأى قبل ذلك مناماً ثم رآه بعد ذلك يقظة لأنه كان عليه السلام لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، والدليل على هذا قوله تعالى: ﴿سبحان لذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله﴾. فالتسبيح إنما يكون عند الأمور العظام، فلو كان مناماً لم يكن فيه كبير شيء ولم يكن مستعظماً، ولما بادرت كفار قريش إلى تكذيبه، ولما ارتدت جماعة مما كان قد أسلم. وأيضاً فإن العبد عبارة عن مجموع الروح والجسد وقد قال: ﴿أسرى بعبده ليلاً﴾. وقال تعالى: ﴿وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس﴾ قال ابن عباس: هي رؤيا عين أريها رسول الله ﷺ ليلة أسري به، والشجرة الملعونة هي شجرة الزقوم^(١). وقال تعالى: ﴿ما زاغ البصر وما طغى﴾، والبصر من آلات الذات لا الروح، وأيضاً فإنه حمل على البراق وهو دابة بيضاء براق لها لمعان وإنما يكون هذا للبدن لا للروح لأنها

(١) رواه البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما.

لا تحتاج في حركتها إلى مركب تركب عليه والله أعلم . وقال آخرون : بل أسري برسول الله ﷺ بروحه لا بجسده وقد تعقبه أبو جعفر بن جرير في تفسيره بالرد والإنكار والتشنيع بأن هذا خلاف ظاهر سياق القرآن .

فسائرة

وقد ذكر حديث الإسراء، من طريق أنس، وقد تواترت الروايات في حديث الاسراء، عن عمر بن الخطاب، وعلي، وابن مسعود، وأبي ذر، ومالك بن صعصعة، وأبي هريرة، وأبي سعيد، وابن عباس، وشداد بن أوس، وأبي بن كعب، وعبدالله بن عمرو، وجابر، وحذيفة، وأبي أيوب، وأبي أمامة، وسمرة بن جندب، وصهيب الرومي، وأم هانئ، وعائشة، وأسماء رضي الله عنهم أجمعين، منهم من ساقه بطوله ومنهم من اختصره على ما وقع في المسانيد، وإن لم تكن رواية بعضهم على شرط الصحة، فحديث الإسراء أجمع عليه المسلمون وأعرض عنه الزنادقة والملحدون ﴿ يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون ﴾ .

وَأَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا تَخَذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلًا ﴿٢﴾ ذُرِّيَّةً مِّنْ حَمَلْنَا
مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾

لما ذكر تعالى أنه أسرى بعبد محمد ﷺ، عطف بذكر موسى عبده ورسوله وكليمه أيضاً، فإنه تعالى كثيراً ما يقرن بين ذكر موسى ومحمد عليهما من الله الصلاة والسلام، وبين ذكر التوراة والقرآن، ولهذا قال بعد ذكر الإسراء: ﴿ وأتينا موسى الكتاب ﴾ يعني التوراة، ﴿ وجعلناه ﴾ أي الكتاب، ﴿ هدى ﴾ أي هادياً ﴿ لبني إسرائيل ألا تتخذوا ﴾ أي لئلا تتخذوا، ﴿ من دوني وكيلاً ﴾ أي ولياً ولا نصيراً ولا معبوداً دوني، لأن الله تعالى أنزل على كل نبي أرسله أن يعبد وحده لا شريك له، ثم قال: ﴿ ذرية من حملنا مع نوح ﴾ تقديره: يا ذرية من حملنا مع نوح ! فيه تهيب وتنبه على المنة، أي يا سلالة من نجينا فحملنا مع نوح في السفينة تشبهاً بأبيكم ﴿ إنه كان عبداً شكوراً ﴾ فاذكروا نعمتي عليكم بإرسالي إليكم محمداً ﷺ، وقد ورد في الأثر: أن نوحاً عليه السلام كان يحمد الله على طعامه وشرابه ولباسه وشأنه كله، فلهذا سمي عبداً شكوراً. قال الطبراني، عن سعد بن مسعود الثقفي قال: إنما سمي نوح عبداً شكوراً لأنه كان إذا أكل أو شرب حمد الله. وفي الحديث: « إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة أو يشرب الشربة فيحمد الله عليها »^(١). وفي حديث الشفاعة، عن أبي هريرة مرفوعاً، قال: « فيأتون نوحاً، فيقولون: يا نوح إنك أنت أول الرسل إلى أهل الأرض، وقد سماك الله عبداً شكوراً فاشفع لنا إلى ربك »^(٢).

وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ
أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عَبَادًا لَّنَا أُولَىٰ بَأْسٍ شَدِيدٍ جَحَاسُوا خَلَّلَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ

(١) رواه مسلم وأحمد والترمذي والنسائي .

(٢) أخرجه البخاري في حديث الشفاعة عن أبي هريرة مرفوعاً .

الْكُرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمَدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنَّ أَحْسَنَكُمْ أَحْسَنُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ﴿٧﴾ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسْتَعْمُوا وَجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبَرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا ﴿٨﴾ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمُ ﴿٩﴾ وَإِنْ عُدْتُمْ عَدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴿١٠﴾

يخبر تعالى أنه قضى إلى بني إسرائيل في الكتاب، أي تقدم إليهم وأخبرهم في الكتاب الذي أنزله عليهم أنهم سيفسدون في الأرض مرتين ويعلون علواً كبيراً، أي يتجربون ويطغون ويفجرون على الناس، كقوله تعالى: ﴿وقضينا إليه الأمر أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين﴾ أي تقدمنا إليه وأخبرناه بذلك وأعلمناه به. وقوله: ﴿فإذا جاء وعد أولاهما﴾ أي أولى الإفسادتين ﴿بعثنا عليكم عبداً لنا أولي بأس شديد﴾ أي سلطنا عليكم جنداً من خلقنا أولي بأس شديد، أي قوة وعدة وسلطنة شديدة، ﴿فجاسوا خلال الديار﴾ أي تملكوا بلادكم وسلخوا خلال بيوتكم، أي بينها ووسطها ذاهبين وجائين لا يخافون أحداً، ﴿وكان وعداً مفعولاً﴾. وقد اختلف المفسرون في هؤلاء المصلطين عليهم من هم؟ فعن ابن عباس وقتادة: أنه (جالوت) وجنوده سلط عليهم أولاً ثم أدبلوا عليه بعد ذلك؛ وقتل داود جالوت، ولهذا قال: ﴿ثم رددنا لكم الكرة عليهم﴾ الآية. وعن سعيد بن جبير وعن غيره أنه (بختنصر) ملك بابل. وقد أخبر الله عنهم أنهم لما طغوا وبغوا سلط الله عليهم عدوهم فاستباح بيضتهم، وسلك خلال بيوتهم، وأظلم وقهرهم، جزاء وفاقاً ﴿وما ربك بظلام للعبيد﴾، فإنهم كانوا قد تردوا، وقتلوا خلقاً من الأنبياء والعلماء. وقد روى ابن جرير، عن يحيى بن سعيد قال: سمعت سعيد بن المسيب يقول: ظهر بختنصر على الشام فخرّب بيت المقدس وقتلهم، ثم أتى دمشق فوجد بها دماً يغلي على كبا، فسألهم ما هذا الدم؟ فقالوا: أدركنا آباءنا على هذا، قال: فقتل على ذلك الدم سبعين ألفاً من المسلمين وغيرهم، فسكن. وهذا صحيح إلى سعيد بن المسيب وهذا هو المشهور. وأنه قتل أشrafهم وعلماءهم، حتى إنه لم يبق من يحفظ التوراة، وأخذ معه منهم خلقاً كثيراً أسرى من أبناء الأنبياء وغيرهم، وجرت أمور وكوائن يطول ذكرها، ولو وجدنا ما هو صحيح أو ما يقاربه لجاز كتابته وروايته والله أعلم. ثم قال تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ أي فعلها، كما قال تعالى: ﴿من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها﴾، وقوله: ﴿فإذا جاء وعد الآخرة﴾^(١) أي الكرة الآخرة، أي إذا أفسدتم الكرة الثانية وجاء أعداؤكم ﴿ليسعوا وجوهكم﴾: أي يهينوكم ويقهروكم، ﴿وليدخلوا المسجد﴾ أي بيت المقدس ﴿كما دخلوه أول مرة﴾: أي في التي جاسوا فيها خلال الديار، ﴿وليتبروا﴾: أي يدمروا ويخربوا ﴿ما علوا﴾ أي ما ظهروا عليه ﴿تتبيراً﴾ * عسى ربكم أن يرحمكم: أي فيصرفهم عنكم، ﴿وإن عدتم عدنا﴾ أي متى عدتم إلى الإفساد عدنا إلى الإدالة عليكم في الدنيا مع ما ندخره لكم في الآخرة من العذاب والنكال، ولهذا قال: ﴿وجعلنا جهنم للكافرين حصيراً﴾ أي مستقراً ومحصراً وسجناً لا محيد عنه. قال ابن عباس ﴿حصيراً﴾ أي سجنناً. وقال الحسن: فراشاً ومهاداً، وقال قتادة: قد عاد بنو إسرائيل فسلط الله عليهم هذا الحي محمد ﷺ وأصحابه يأخذون منهم الجزية عن يدهم صاغرون.

(١) قال مجاهد: بعث عليهم بختنصر في الآخرة، كما أخرجه عنه ابن أبي حاتم. وقوله: ﴿عباداً لنا﴾ قال ابن عباس وقتادة: =

إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾

يمدح تعالى كتابه العزيز الذي أنزله على رسوله محمد ﷺ وهو القرآن، بأنه يهدي لأقوم الطرق وأوضح السبل، ويبشر المؤمنين به الذين يعملون الصالحات على مقتضاه أن لهم أجراً كبيراً أي يوم القيامة، وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة: أي ويبشر الذين لا يؤمنون بالآخرة، أن لهم عذاباً أليماً، أي يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿ فبشرهم بعذاب أليم ﴾ .

وَيَدْعُ الْإِنْسَانَ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالنَّخِيرِ ﴿١١﴾ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا ﴿١٢﴾

يخبر تعالى عن عجلة الإنسان ودعائه في بعض الأحيان على نفسه أو ولده أو ماله بالشر، أي بالموت أو الهلاك والدمار واللعنة ونحو ذلك، فلو استجاب له ربه لهلك بدعائه، كما قال تعالى: ﴿ ولو يعجل الله للناس الشر ﴾ الآية. وكذا فسره ابن عباس ومجاهد وقتادة، وقد تقدم في الحديث: « لا تدعوا على أنفسكم ولا على أموالكم أن توافقوا من الله ساعة إجابة يستجيب فيها^(١) » وإنما يحمل ابن آدم على ذلك قلقه وعجلته، ولهذا قال تعالى: ﴿ وكان الإنسان عجولاً ﴾ .

وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتَيْنِ ﴿١٣﴾ فَمَنْ حَوَّنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابِ ﴿١٤﴾ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَصَلْتُهُ تَفْصِيلًا ﴿١٥﴾

يمتن تعالى على خلقه بآياته العظام، فمنها مخالفته بين الليل والنهار ليسكنوا في الليل ويتشروا في النهار للمعاش والصنائع والأعمال والأسفار، وليعلموا عدد الأيام والجمع والشهور والأعوام، ويعرفوا مضي الآجال المضروبة للديون والعبادات والمعاملات والإجازات وغير ذلك، ولهذا قال ﴿ لتبتغوا فضلاً من ربكم ﴾: أي في معاشكم وأسفاركم ونحو ذلك، ﴿ ولتعلموا عدد السنين والحساب ﴾، فإنه لو كان الزمان كله نسقاً واحداً وأسلوباً متساوياً لما عرف شيء من ذلك، كما قال تعالى: ﴿ قل أرايتم إن جعل الله عليكم الليل سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء؟ أفلا تسمعون ﴾، وقال تعالى: ﴿ وهو الذي جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكوراً ﴾، وقال تعالى: ﴿ وله اختلاف الليل والنهار ﴾، وقال: ﴿ يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل ﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿ فالفق الإصباح وجعل الليل سكناً والشمس والقمر حسباناً ذلك تقدير العزيز العليم ﴾، ثم إنه تعالى جعل الليل آية، أي علامة يعرف بها، وهي الظلام وظهور القمر فيه، وللنهار علامة، وهي النور وطلوع

= بعث الله عليهم جالوت، أخرجه ابن أبي حاتم. وفي العجائب للكرماني: قيل هم (سحاريب) وجنوده. وقيل: العمالقة، وقيل: قوم مؤمنون.

(١) أخرجه أبو داود عن جابر، بتغيير وزيادة.

الشمس النيرة فيه، وفاوت بين نور القمر وضياء الشمس ليعرف هذا من هذا، كما قال تعالى: ﴿هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نوراً وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك إلا بالحق﴾، وقال تعالى: ﴿يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس والحج﴾ الآية. قال ابن جريج عن عبد الله بن كثير في قوله ﴿فحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة﴾ قال: ظلمة الليل وسدف النهار، وعن مجاهد: الشمس آية النهار، والقمر آية الليل. وقال ابن عباس: كان القمر يضيء كما تضيء الشمس، والقمر آية الليل، والشمس آية النهار، فحونا آية الليل السواد الذي في القمر. وقال قتادة: كنا نحدث أن محو آية الليل سواد القمر الذي فيه، وجعلنا آية النهار مبصرة أي منيرة، وخلق الشمس أنور من القمر وأعظم، وقال ابن عباس ﴿وجعلنا الليل والنهار آيتين﴾ قال: ليلاً ونهاراً، كذلك خلقهما الله عز وجل.

وَكُلِّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا ﴿١٦﴾ أَقْرَأَ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٧﴾

يقول تعالى بعد ذكر الزمان وذكر ما يقع فيه من أعمال بني آدم ﴿وكل إنسان أُلزِمناه طائرهُ في عنقه﴾، وطائرهُ: هو ما طار عنه من عمله، كما قال ابن عباس ومجاهد وغيرهما: من خير وشر، ويلزم به ويجازى عليه، ﴿فن يعمل مثقال ذرة خيراً يره * ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره﴾، وقال تعالى: ﴿عن اليمين وعن الشمال قعيد * ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد﴾، وقال: ﴿وإن عليكم لحافظين كراماً كاتبين يعلمون ما تفعلون﴾، والمقصود أن عمل ابن آدم محفوظ عليه قليله وكثيره، ويكتب عليه ليلاً ونهاراً، صباحاً ومساءً، وقال الإمام أحمد عن جابر سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لطائر كل إنسان في عنقه». وقوله: ﴿ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً﴾ أي يجمع له عمله كله في كتاب، يعطاه يوم القيامة، إما يمينه إن كان سعيداً، أو بشماله إن كان شقيماً ﴿منشوراً﴾ أي مفتوحاً يقرؤه هو وغيره، فيه جميع عمله من أول عمره إلى آخره ﴿ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر﴾، ولهذا قال تعالى: ﴿أقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً﴾ أي إنك تعلم أنك لم تظلم ولم يكتب عليك إلا ما عملت، لأنك ذكرت جميع ما كان منك، ولا ينسى أحد شيئاً مما كان منه، وكل أحد يقرأ كتابه من كاتب وأمي، وقوله: ﴿الزمناه طائرهُ في عنقه﴾ إنما ذكر العنق لأنه عضو لا نظير له في الجسد، ومن أُلزم بشيء فيه فلا محيد له عنه، عن النبي ﷺ قال: «ليس من عمل يوم إلا وهو يحتم عليه، فإذا مرض المؤمن قالت الملائكة: يا ربنا عبدك فلان قد حبسته، فيقول الرب جل جلاله: اختموا له على مثل عمله حتى يبرأ أو يموت»^(١)، وقال معمر عن قتادة ﴿الزمناه طائرهُ في عنقه﴾ قال: عمله، ﴿ونخرج له يوم القيامة﴾ قال: نخرج ذلك العمل ﴿كتاباً﴾ يلقاه منشوراً ﴿قال معمر: وتلا الحسن البصري﴾ عن اليمين وعن الشمال قعيد ﴿يا ابن آدم بسطت لك صحيفتك، ووكل بك ملكان كريمان أحدهما عن يمينك والآخر عن شمالك، فأما الذي عن يمينك فيحفظ حسناتك، وأما الذي عن شمالك فيحفظ سيئاتك، فاعمل ما شئت، أقلل أو أكثر، حتى إذا مت طويت صحيفتك فجعلت في

(١) أخرجه الإمام أحمد عن عقبه بن عامر وإسناده قوي جيد كذا قال ابن كثير .

عنقك معك في قبرك، حتى تخرج يوم القيامة كتاباً تلقاه منشوراً ﴿ اقرأ كتابك ﴾ الآية. فقد عدل والله من جعلك حسيب نفسك، هذا من أحسن كلام الحسن رحمه الله .

مِّنْ أَهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۗ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾

يخبر تعالى أن من اهتدى واتبع الحق واقتفى أثر النبوة، فإنما يحصل عاقبة ذلك الحميدة لنفسه، ﴿ ومن ضل ﴾ أي عن الحق وزاغ عن سبيل الرشاد، فإنما يجني على نفسه، وإنما يعود وبال ذلك عليه، ثم قال: ﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ (١) أي لا يحمل أحد ذنب أحد؟ ولا يجني جان إلا على نفسه. كما قال تعالى: ﴿ وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شيء ﴾، ولا منافاة بين هذا وبين قوله: ﴿ وليحملن أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم ﴾، وقوله: ﴿ ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم ﴾ فإن الدعاة عليهم إثم ضلالتهم في أنفسهم، وإثم آخر بسبب ما أضلوا من أضلوا، وهذا من عدل الله ورحمته بعباده، وكذا قوله تعالى: ﴿ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً ﴾ إخبار عن عدله تعالى؛ وأنه لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه، بإرسال الرسول إليه كقوله تعالى: ﴿ كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير، قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا ﴾ الآية، وقوله: ﴿ وقال لهم خزنتها: ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا؟ قالوا: بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين ﴾، وقال تعالى: ﴿ أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير ﴾ إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أن الله تعالى لا يدخل أحداً النار إلا بعد إرسال الرسول إليه .

مسألة

بقي ههنا مسألة قد اختلف الأئمة رحمهم الله تعالى فيها قديماً وحديثاً، هي الولدان الذين ماتوا وهم صغار وآباؤهم كفار ماذا حكمهم! وكذا المجنون والأصم والشيخ الخرف، ومن مات في الفترة ولم تبلغه دعوته. وقد ورد في شأنهم أحاديث أنا أذكرها لك بعون الله وتوفيقه، ثم نذكر فضلاً ملخصاً من كلام الأئمة في ذلك والله المستعان. (فالحديث الأول) : رواه الإمام أحمد عن الأسود بن سريع أن رسول الله ﷺ قال: « أربعة يحتجون يوم القيامة: رجل أصم لا يسمع شيئاً، ورجل أحمق، ورجل هرم، ورجل مات في فترة. فأما الأصم فيقول رب قد جاء الإسلام وما أسمع شيئاً، وأما الأحمق فيقول: رب قد جاء الإسلام والصبيان يحذفوني بالبرع، وأما الهرم فيقول لقد جاء الإسلام وما أعقل شيئاً، وأما الذي مات في الفترة فيقول: رب ما أتاني لك رسول. فيأخذ موثيقهم ليطيعنه فيرسل إليهم أن ادخلوا النار، فوالذي نفس محمد بيده لو دخلوها لكانت عليهم برداً وسلاماً ».

(١) أخرج ابن عبد البر بسند ضعيف عن عائشة قالت: سألت خديجة رسول الله ﷺ عن أولاد المشركين، فقال: هم من آباؤهم، ثم سأله بعد ذلك، فقال: الله أعلم بما كانوا عاملين، ثم سأله بعد ما استحکم الإسلام فترلت الآية: ﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ وقال: هم على الفطرة - أو قال في الجنة - كما في اللباب .

(الحديث الثاني) : عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال : سئل رسول الله ﷺ عن أطفال المسلمين، قال : «هم مع آبائهم»، وسئل عن أولاد المشركين فقال : «هم مع آبائهم»، فقيل : يا رسول الله ما يعملون ؟ قال : «الله أعلم بهم»^(١). (الحديث الثالث) : عن ثوبان أن النبي ﷺ عظم شأن المسألة قال : «إذا كان يوم القيامة جاء أهل الجاهلية يحملون أوزارهم على ظهورهم فيسألهم ربهم فيقولون : ربنا لم ترسل إلينا رسولاً، ولم يأتنا لك أمر، ولو أرسلت إلينا رسولاً لكننا أطوع عبادك، فيقول لهم ربهم : رأيتم إن أمرتكم بأمر تطيعوني ؟ فيقولون : نعم، فيأمرهم أن يعمدوا إلى جهنم فيدخلوها، فينطلقون حتى إذا دنوا منها وجدوا لها تغيضاً وزفيراً، فرجعوا إلى ربهم، فيقولون : ربنا أخرجنا أو أجرنا منها، فيقول لهم : ألم تزعموا أي إن أمرتكم بأمر تطيعوني ؟ فيأخذ على ذلك موثيقهم، فيقول : اعمدوا إليها فادخلوها، فينطلقون، حتى إذا رأوها فرقوا منها ورجعوا، وقالوا : ربنا فرقنا منها ولا نستطيع أن ندخلها، فيقول : ادخلوها داخرين»، فقال نبي الله ﷺ : «لو دخلوها أول مرة كانت عليهم برداً وسلاماً»^(٢). (الحديث الرابع) : عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «كل مولود يولد على فطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء»، وفي رواية قالوا : يا رسول الله أفرايت من يموت صغيراً، قال : «الله أعلم بما كانوا عاملين»، وروى الإمام أحمد، عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : «ذراري المسلمين في الجنة يكفلهم إبراهيم عليه السلام». وفي صحيح مسلم عن عياض بن حمار عن رسول الله ﷺ عن الله عز وجل أنه قال : «إني خلقت عبادي حنفاء». (الحديث الخامس) : عن سمرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : «كل مولود يولد على الفطرة»، فناداه الناس : يا رسول الله وأولاد المشركين، قال : «وأولاد المشركين»^(٣). وقال الطبراني عن أبي رجاء عن سمرة قال : سألتنا رسول الله ﷺ عن أطفال المشركين فقال : «هم خدم أهل الجنة». (الحديث السادس) : عن خنساء بنت معاوية ، من بني صريم قالت : حدثني عمي قال، قلت : يا رسول الله من في الجنة ؟ قال : «النبي في الجنة، والشهيد في الجنة، والمولود في الجنة، والوثيد في الجنة»^(٤). فمن العلماء من ذهب إلى الوقوف فيهم لهذا الحديث، ومنهم من جزم لهم بالجنة لحديث سمرة بن جندب في صحيح البخاري أنه عليه الصلاة والسلام قال في جملة ذلك المنام حين مر على ذلك الشيخ تحت الشجرة وحوله ولدان، فقال له جبريل : هذا إبراهيم عليه السلام وهؤلاء أولاد المسلمين وأولاد المشركين، قالوا : يا رسول الله وأولاد المشركين ؟ قال : «نعم، وأولاد المشركين». ومنهم من جزم لهم بالنار، لقوله عليه السلام : «هم مع آبائهم». ومنهم من ذهب إلى أنهم يمتحنون يوم القيامة في العرصات، فمن أطاع دخل الجنة وانكشف علم الله فيهم بسابق السعادة، ومن عصى دخل النار داخراً وانكشف علم الله فيه بسابق الشقاوة. وهذا القول يجمع بين الأدلة كلها. وقد صرحت به الأحاديث المتقدمة المتعاضدة الشاهد بعضها لبعض. وهذا القول الذي حكاه الشيخ أبو الحسن الأشعري عن أهل السنة والجماعة، وهو الذي نصره الحافظ أبو بكر البيهقي في «كتاب الاعتقاد». وكذلك غيره من محققي العلماء والحفاظ والنقاد. وقد ذكر الشيخ ابن عبد البر أن أحاديث هذا الباب ليست قوية ولا تقوم بها حجة، وأهل العلم ينكرونها لأن الآخرة دار جزاء وليست

(٣) رواه الحافظ البرقاني في المستخرج على البخاري .

(٤) أخرجه الإمام أحمد .

(١) أخرجه الحافظ أبو يعلى الموصلي .

(٢) أخرجه الحافظ البزار في مسنده .

بدار عمل ولا ابتلاء، فكيف يكلفون دخول النار، وليس ذلك في وسع المخلوقين، والله لا يكلف نفساً إلا وسعها .

(والجواب) عما قال: ان أحاديث هذا الباب منها ما هو صحيح كما قد نص على ذلك كثير من أئمة العلماء، ومنها ما هو حسن، ومنها ما هو ضعيف يتقوى بالصحيح والحسن، وإذا كانت أحاديث الباب الواحد متصلة متعاضدة على هذا النمط أفادت الحجة عند الناظر فيها . وأما قوله: إن الدار الآخرة دار جزاء فلا شك أنها دار جزاء ولا ينافي التكليف في عرصاتها قبل دخول الجنة أو النار كما حكاها الشيخ أبو الحسن الأشعري عن مذهب أهل السنة والجماعة من امتحان الأطفال . وقد قال تعالى: ﴿يوم يكشف عن ساق ويدعون إلى السجود﴾ الآية . وقد ثبت في الصحاح وغيرها أن المؤمنين يسجلون لله يوم القيامة، وأن المنافق لا يستطيع ذلك ويعود ظهره كالصفحة الواحدة طبقاً واحداً ، كلما أراد السجود خر لقفاه . وفي الصحيحين في الرجل الذي يكون آخر أهل النار خروجاً منها، أن الله يأخذ عهوده ومواثيقه أن لا يسأل غير ما هو فيه، ويتكرر ذلك مراراً، ويقول الله تعالى: يا ابن آدم ما أغدرك ! ثم يأذن له في دخول الجنة، وأما قوله: فكيف يكلفهم الله دخول النار وليس ذلك في وسعهم، فليس هذا بمنع من صحة الحديث، فإن الله يأمر العباد يوم القيامة بالجواز على الصراط، وهو جسر على جهنم أحد من السيف وأدق من الشعرة، ويمر المؤمنون عليه بحسب أعمالهم كالبرق وكالريح، وكأجاويد الخيل، والركاب، ومنهم الساعي ومنهم الماشي، ومنهم من يجبو حبواً، ومنهم المكدوش على وجهه في النار، وليس ما ورد في أولئك بأعظم من هذا بل هذا أطم وأعظم . وأيضاً فقد ثبتت السنة بأن الدجال يكون معه جنة ونار، وقد أمر الشارع المؤمنين الذين يدركونه أن يشرب أحدهم من الذي يرى أنه نار فإنه يكون عليه برداً وسلاماً، فهذا نظير ذلك؛ وأيضاً فإن الله تعالى أمر بني إسرائيل أن يقتلوا أنفسهم، فقتل بعضهم بعضاً حتى قتلوا فيما قيل في غداة واحدة سبعين ألفاً، يقتل الرجل أباه وأخاه وهم في عماية غمامة أرسلها الله عليهم، وذلك عقوبة لهم على عبادتهم العجل، وهذا أيضاً شاق على النفوس جداً لا يتقاصر عما ورد في الحديث المذكور، والله أعلم .

فصل

إذا تقرر هذا، فقد اختلف الناس في ولدان المشركين على أقوال، (أحدها): أنهم في الجنة، واحتجوا بحديث سمرة أنه عليه السلام رأى مع إبراهيم عليه السلام أولاد المسلمين وأولاد المشركين، (والقول الثاني): أنهم مع آبائهم في النار: واستدل عليه بما روي عن عبدالله بن أبي قيس، أنه أتى عائشة فسألها عن ذراري الكفار فقالت، قال رسول الله ﷺ: «هم تبع لآبائهم». فقلت: يا رسول الله بلا أعمال؟ فقال: «الله أعلم بما كانوا عاملين»^(١). (والقول الثالث): التوقف فيهم، واعتمدوا على قوله ﷺ: «الله أعلم بما كانوا عاملين». وهو في الصحيحين، ومنهم من جعلهم من أهل الأعراف، وهذا القول يرجع إلى من ذهب إلى أنهم من أهل الجنة، لأن الأعراف ليس دار قرار، ومآل أهلها إلى الجنة، كما تقدم تقرير ذلك في سورة الأعراف، والله أعلم، وليعلم أن

هذا الخلاف مخصوص بأطفال المشركين، فأما ولدان المؤمنين فلا خلاف بين العلماء أنهم من أهل الجنة، وهذا هو المشهور بين الناس وهو الذي قطع به إن شاء الله عز وجل .

﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَا تِلْكَ الْقَرْيَةَ ۖ وَكَذَلِكَ نُمِطُ الْبِلَادِ الَّتِي نَشَاءُ وَنُحْيِيهَا ۚ إِنَّ إِلَهَنَا لَشَدِيدُ ٱلْحِسَابِ ﴾ (١٦)

اختلف القراء في قراءة قوله: ﴿ أمرنا ﴾، فالمشهور قراءة التخفيف، واختلف المفسرون في معناها، فقيل معناه: أمرنا مترفيها ففسقوا فيها أمراً قديراً، كقوله تعالى: ﴿ أتأنا أمرنا ليلاً أو نهاراً ﴾ ﴿ قل إن الله لا يأمر بالفحشاء ﴾ قالوا معناه أنه سخرهم إلى فعل الفواحش فاستحقوا العذاب، وقيل معناه: أمرهم بالطاعات ففعلوا الفواحش، فاستحقوا العقوبة^(١). وقال ابن جرير: يحتمل أن يكون معناه جعلناهم أمراء، قلت: إنما يجيء هذا على قراءة من قرأ ﴿ أمرنا مترفيها ﴾، قال ابن عباس قوله ﴿ أمرنا مترفيها ففسقوا فيها ﴾ يقول: سلطنا أشرارها فعصوا فيها، فإذا فعلوا ذلك أهلكهم الله بالعذاب، وهو قوله: ﴿ وكذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها ﴾ الآية، وعنه قال: أكثرنا عددهم .

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴾ (١٧)

يقول تعالى منذراً كفار قريش في تكذيبهم رسوله محمداً ﷺ، بأنه قد أهلك أما من المكذبين للرسول بعد نوح، ودل هذا على أن القرون التي كانت بين آدم ونوح على الإسلام، كما قاله ابن عباس . كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام . ومعناه أنكم أيها المكذبون لستم أكرم على الله منهم، وقد كذبتم أشرف الرسل وأكرم الخلائق فعقوبتكم أولى وأحرى. وقوله: ﴿ وكفى بربك بذنوب عباده خبيراً بصيراً ﴾ أي هو عالم بجميع أعمالهم خيراً وشرها، لا يخفى عليه منها خافية سبحانه وتعالى .

﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا ﴾ (١٨)
﴿ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيًا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ﴾ (١٩)

يخبر تعالى أنه ما كل من طلب الدنيا وما فيها من النعم يحصل له، بل إنما يحصل لمن أراد الله وما يشاء، وهذه مقيدة لإطلاق ما سواها من الآيات، فإنه قال: ﴿ جعلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم ﴾ أي في الدار الآخرة ﴿ يصلها ﴾ أي يدخلها حتى تغمره من جميع جوانبه، ﴿ مذموماً ﴾ أي في حال كونه مذموماً على سوء تصرفه وصنيعه، إذ اختار الفاني على الباقي، ﴿ مدحوراً ﴾ مبعداً مقصياً حقيراً ذليلاً مهاناً . وفي الحديث: « الدنيا دار من لا دار له، ومال من لا مال له، ولها يجمع من لا عقل له »^(٢)، وقوله: ﴿ ومن أراد الآخرة ﴾

(١) روي هذا القول عن سعيد بن جبير وابن عباس وهو قول حسن ورأي شديد .

(٢) أخرجه أحمد عن عائشة مرفوعاً .

وما فيها من النعم والسرور ﴿ وسعى لها سعيها ﴾ أي طلب ذلك من طريقه، وهو متابعة الرسول ﷺ ﴿ وهو مؤمن ﴾ أي قلبه مؤمن، أي مصدق بالثواب والجزاء ﴿ فأولئك كان سعيهم مشكوراً ﴾ .

كَلَّا بُدْ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ أَنْظِرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ ۗ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾

يقول تعالى ﴿ كلاً ﴾ أي كل واحد من الفريقين الذين أرادوا الدنيا والذين أرادوا الآخرة، نمدهم فيما فيه ﴿ من عطاء ربك ﴾ أي هو المتصرف الحاكم الذي لا يجور فيعطي كلاً ما يستحقه من السعادة والشقاوة، ولهذا قال: ﴿ وما كان عطاء ربك محظوراً ﴾ أي لا يمنعه أحد ولا يرده راد، قال قتادة ﴿ محظوراً ﴾، أي منقوصاً، وقال الحسن وغيره: أي ممنوعاً، ثم قال تعالى: ﴿ انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض ﴾ أي في الدنيا، فمنهم الغني والفقير وبين ذلك، والحسن والقبيح وبين ذلك، ومن يموت صغيراً، ومن يعمر حتى يبقى شيخاً كبيراً، وبين ذلك ﴿ وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً ﴾: أي ولتفاوتهم في الدار الآخرة أكبر من الدنيا، فإن منهم من يكون في الدرجات في جهنم وسلسلها وأغلاها، ومنهم من يكون في الدرجات العلى ونعيمها وسرورها، ثم أهل الدرجات يتفاوتون فيما هم فيه، كما أن أهل الدرجات يتفاوتون، فإن الجنة مائة درجة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض. وفي الصحيحين: « إن أهل الدرجات العلى ليرون أهل عِلين، كما ترون الكوكب الغابر في أفق السماء »، ولهذا قال تعالى: ﴿ وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً ﴾ .

* لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾

يقول تعالى والمراد المكلفون من الأمة، لا تجعل أيها المكلف في عبادتك ربك له شريكاً ﴿ فتقعد مذموماً ﴾ أي على إشراكك به ﴿ مخذولاً ﴾ لأن الرب تعالى لا ينصرك، بل يكلك إلى الذي عبدت معه، وهو لا يملك ضراً ولا نفعاً، عن عبد الله بن مسعود قال، قال رسول الله ﷺ: « من أصابته فاقة فأنزلها بالناس لم تسد فاقته، ومن أنزلها بالله . فيوشك الله له برزق عاجل ، أو آجل »^(١) .

* وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ۖ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا آفٌ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ أَرْحَمُهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿٢٤﴾

يقول تعالى آمراً بعبادته وحده لا شريك له، فان القضاء ههنا بمعنى الأمر. قال مجاهد ﴿ وقضى ﴾ يعني

(١) رواه أحمد وأبو داود والترمذي .

وصى ، ولهذا قرن بعبادته بر الوالدين فقال: ﴿ وبالوالدين إحساناً ﴾ أي وأمر بالوالدين إحساناً، كقوله في الآية الأخرى: ﴿ أن اشكر لي ولوالديك إلي المصير ﴾ ، وقوله: ﴿ إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ﴾ أي لا تسمعهما قولاً سيئاً حتى ولا التأفف الذي هو أدنى مراتب القول السيء، ﴿ ولا تنهرهما ﴾ أي ولا يصدر منك إليهما فعل قبيح، كما قال عطاء ﴿ ولا تنهرهما ﴾ أي لا تنفض يدك عليهما، ولما نهاه عن القول القبيح والفعل القبيح، أمره بالقول الحسن والفعل الحسن، فقال: ﴿ وقل لهما قولاً كريماً ﴾ أي ليناً طيباً حسناً بتأدب وتوقير وتعظيم، ﴿ واخفض لهما جناح الذل من الرحمة ﴾ أي تواضع لهما بفعلك، ﴿ وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيراً ﴾ أي في كبرهما وعند وفاتهما. وقد جاء في بر الوالدين أحاديث كثيرة، (منها) الحديث المروي من طرق عن أنس وغيره أن النبي ﷺ صعد المنبر ثم قال: « آمين آمين آمين »، قيل: يا رسول الله علام أمنت؟ قال: « أتاني جبريل، فقال: يا محمد رغم أنف رجل ذكرت عنده فلم يصل عليك، قل آمين، فقلت آمين، ثم قال رغم أنف رجل دخل عليه شهر رمضان ثم خرج فلم يغفر له، قل آمين فقلت آمين، ثم قال: رغم أنف رجل أدرك والديه أو أحدهما فلم يدخله الجنة، قل آمين، فقلت آمين»^(١). (حديث آخر): روى الإمام أحمد عن أبي مالك القشيري قال، قال النبي ﷺ: « من أدرك والديه أو أحدهما ثم دخل النار من بعد ذلك فأبعده الله وأسحقه »^(٢). (حديث آخر): روى الإمام أحمد، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: « رغم أنف ثم رغم أنف ثم رغم أنف: رجل أدرك أحد أبويه أو كلاهما عنده الكبر ولم يدخل الجنة ». (حديث آخر): عن مالك بن ربيعة الساعدي قال: بينا أنا جالس عند رسول الله ﷺ إذ جاءه رجل من الأنصار، فقال: يا رسول الله هل بقي علي من بر أبوي شيء بعد موتهما أبرهما به؟ قال: « نعم، خصال أربع: الصلاة عليهما والاستغفار لهما وإنفاذ عهدهما وإكرام صديقتهما، وصلة الرحم التي لا رحم لك إلا من قبلهما، فهو الذي بقي عليك من برهما بعد موتهما »^(٣). (حديث آخر): عن معاوية بن جهمه السلمي، أن جهمه جاء إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله أردت الغزو، وجئتك أستشيرك، فقال: « فهل لك من أم؟ » قال: نعم، قال: « فالزمها فإن الجنة عند رجلها »^(٤). (حديث آخر): قال الحافظ البزار في مسنده عن سليمان ابن بريدة، عن أبيه أن رجلاً كان في الطواف حاملاً أمه يطوف بها، فسأل النبي ﷺ: هل أدبت حقها؟ قال: « لا، ولا بزفرة واحدة »^(٥).

﴿ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ ۚ إِنَّ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غُفُورًا ۝٢٥﴾

قال سعيد بن جبیر: هو الرجل تكون منه البادرة إلى أبويه وفي نيته وقلبه أنه لا يؤخذ به، وفي رواية لا يريد إلا الخير بذلك، فقال: ﴿ ربكم أعلم بما في نفوسكم إن تكونوا صالحين ﴾، وقوله: ﴿ فإنه كان للأوابين غفوراً ﴾

(١) أخرجه الترمذي والحاكم عن أبي هريرة .

(٢) ورواه أبو داود الطيالسي عن شعبة وفيه زيادات أخر .

(٣) رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه .

(٤) رواه أحمد والنسائي وابن ماجه .

(٥) قال ابن كثير: في سننه الحسن بن أبي جعفر وهو ضعيف .

قال قتادة: للمطيعين أهل الصلاة، وعن ابن عباس: المطيعين المحسنين. وعن ابن المسيب: الذين يصيرون الذنب ثم يتوبون، وعن عطاء بن يسار، وسعيد ابن جبير، ومجاهد: هم الراجعون إلى الخير. وعن عبيد بن عمير قال: كنا نعد الأواب من يقول: اللهم اغفر لي ما أصبت في مجلسي هذا. وقال ابن جرير: والأولى في ذلك قول من قال هو التائب من الذنب، الرجوع من المعصية إلى الطاعة، مما يكره الله إلى ما يحبه ويرضاه، وهذا الذي قاله هو الصواب، لأن الأواب مشتق من الأوب وهو الرجوع، يقال: آب فلان إذا رجع، قال تعالى: ﴿إِنْ إِنْشَاءُ إِيَابِهِمْ﴾. وفي الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ كان إذا رجع من سفر قال: «أيون تائبون عابدون لربنا حامدون».

وَأَاتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تَبْذِرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ الْمُبْذِرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كُفُورًا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تَعْرِضْ عَنْهُمْ أِبْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾

لما ذكر تعالى بر الوالدين، عطف بذكر الإحسان إلى القرابة وصللة الأرحام، وفي الحديث: «أملك وأباك ثم أدناك أدناك»، وفي رواية: «ثم الأقرب فالأقرب». وفي الحديث: «من أحب أن يبسط له في رزقه وينسأ له في أجله فليصل رحمه». وقوله: ﴿وَلَا تَبْذِرْ تَبْذِيرًا﴾ لما أمر بالإنفاق نهى عن الإسراف فيه، بل يكون وسطاً كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يَسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا﴾ الآية، ثم قال منفراً عن التبذير والسرف: ﴿إِنَّ الْمُبْذِرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ﴾: أي أشباههم في ذلك، قال ابن مسعود: التبذير الإنفاق في غير حق، وقال مجاهد: لو أنفق إنسان ماله كله في الحق لم يكن مبذراً، ولو أنفق مداً في غير حق كان مبذراً. وقال قتادة: التبذير النفقة في معصية الله تعالى، وفي غير الحق والفساد، وقوله: ﴿إِنَّ الْمُبْذِرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ﴾: أي في التبذير والسفه، وترك طاعة الله وارتكاب معصيته، ولهذا قال: ﴿وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كُفُورًا﴾: أي جحوداً، لأنه أنكر نعمة الله عليه ولم يعمل بطاعته، بل أقبل على معصيته ومخالفته، وقوله: ﴿وَإِمَّا تَعْرِضْ عَنْهُمْ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ﴾ الآية: أي إذا سألت أقاربك ومن أمرناك بإعطائهم وليس عندك شيء وأعرضت عنهم لفقد النفقة ﴿فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا﴾: أي عدهم وعداً بسهولة ولين إذا جاء رزق الله فسنصلكم إن شاء الله ^(١).

وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾

يقول تعالى آمراً بالاقتصاد في العيش، ذاماً للبخل، ناهياً عن السرف: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ أي لا تكن بخيلاً ممنوعاً لا تعطي أحداً شيئاً، كما قالت اليهود عليهم لعائن الله (يد الله مغلولة) أي نسبه إلى البخل، تعالى وتقدس الكريم الوهاب، وقوله: ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾ أي ولا تسرف في الإنفاق فتعطي فوق طاقتك، وتخرج أكثر من دخلك ﴿فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾، وهذا من باب اللف والنشر، أي فتقعده إن

(١) هكذا فسره مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير والحسن وقتادة فسروا القول الميسور بالوعد.

بخلت ملوماً يلومك الناس ويذمونك، ومتى بسطت يدك فوق طاقتك قعدت بلا شيء تنفقه^(١) فتكون كالحسير، وهو الدابة التي قد عجزت عن السير فوقفت ضعفاً وعجزاً، فإنها تسمى الحسير. وهو مأخوذ من الكلال، كما قال تعالى: ﴿ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير﴾ أي كليل عن أن يرى عيباً، وقد جاء في الصحيحين عن أبي هريرة أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «مثل البخيل والمنفق كمثل رجلين عليهما جبتان من حديد من ثديهما إلى تراقيهما، فأما المنفق فلا ينفق إلا سبغت، أو وفرت على جلده حتى تخفي بنانة وتعفو أثره، وأما البخيل فلا يريد أن ينفق شيئاً إلا لزقت كل حلقة مكانها فهو يوسعها فلا تتسع»^(٢). وفي الصحيحين عن أسماء بنت أبي بكر قالت، قال رسول الله ﷺ: «أنفقي هكذا وهكذا وهكذا، ولا نوعي فيوعي الله عليك، ولا توكي فيوكي الله عليك»، وفي لفظ: «ولا تحصي فيحصي الله عليك». وفي صحيح مسلم، قال رسول الله ﷺ: «إن الله قال لي: أنفق أنفق عليك». وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «ما من يوم يصبح العباد فيه إلا وملكان ينزلان من السماء يقول أحدهما: اللهم أعط منفقاً خلفاً، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكاً تلفاً»، وروى مسلم عن أبي هريرة مرفوعاً: «ما نقص مالٌ من صدقة، وما زاد الله عبداً أنفق إلا عزاً، ومن تواضع لله رفعه الله». وفي حديث عبد الله بن عمر مرفوعاً: «إياكم والشح فإنه أهلك من كان قبلكم، أمرهم بالبخل فبخلوا، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا، وأمرهم بالفجور ففجروا»^(٣). وروى البيهقي عن الأعمش، عن أبيه قال، قال رسول الله ﷺ: «ما يخرج رجل صدقة حتى يفك لحي سبعين شيطاناً». وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود قال، قال رسول الله ﷺ: «ما عال من اقتصد»، وقوله: ﴿إن ربك يسط الرزق لمن يشاء ويقدر﴾ إخبار أنه تعالى هو الرزاق، القابض الباسط، المتصرف في خلقه بما يشاء، فيغني من يشاء ويفقر من يشاء، لما له في ذلك من الحكمة، ولهذا قال: ﴿إنه كان بعباده خبيراً بصيراً﴾ أي خبيراً بصيراً بمن يستحق الغنى ويستحق الفقر. كما جاء في الحديث: «إن من عبادي لمن لا يصلحه إلا الفقر ولو أغنيته لأفسدت عليه دينه، وإن من عبادي لمن لا يصلحه إلا الغنى ولو أفقرته لأفسدت عليه دينه». وقد يكون الغنى في حق بعض الناس استدراجاً، والفقر عقوبة عياداً بالله من هذا وهذا.

﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا ﴾ (٣١)

هذه الآية الكريمة دالة على أن الله تعالى أرحم بعباده من الوالد بولده، لأنه نهى عن قتل الأولاد، كما أوصى الآباء بالأولاد في الميراث، وكان أهل الجاهلية لا يورثون البنات، بل كان أحدهم ربما قتل ابنته لثلاث تكثر عيلته، فنهى الله تعالى عن ذلك وقال: ﴿ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق﴾ أي خوف أن تفتقروا في ثاني الحال، ولهذا قدم الاهتمام برزقهم فقال: ﴿نحن نرزقهم وإياكم﴾. وفي الأنعام: ﴿ولا تقتلوا أولادكم من إملاق﴾: أي من فقر ﴿نحن نرزقهم وإياهم﴾، وقوله: ﴿إن قتلهم كان خطئاً كبيراً﴾: أي ذنباً عظيماً، وفي الصحيحين عن عبد الله

(١) فسر ابن عباس والحسن وقتادة وابن جريج الآية بأن المراد هنا البخل والسرف.

(٢) هذا لفظ البخاري في الزكاة.

(٣) الحديث أخرجه أبو داود والحاكم عن ابن عمرو.

ابن مسعود، قلت: يا رسول الله أي الذنب أعظم؟ قال: « أن يجعل لله نداً وهو خلقك »، قلت: ثم أي؟ قال: « أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك »، قلت: ثم أي؟ قال: « أن تزاني بحليلة جارك ».

وَلَا تَقْرَبُوا الزَّيْنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿٣٣﴾

يقول تعالى ناهياً عباده عن الزنا، وعن مقاربتة، ومخالطة أسبابه ودواعيه ﴿ ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة ﴾ أي ذنباً عظيماً، ﴿ وساء سبيلاً ﴾ أي وبئس طريقاً ومسلكاً، روى الإمام أحمد، عن أبي أمامة، أن فتى شاباً أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله ائذن لي بالزنا، فأقبل القوم عليه فزجروه، وقالوا: مه مه . فقال: « اذنه »، فدنا منه قريباً، فقال: « اجلس » فجلس، فقال: « أتجبه لأمك؟ » قال: لا والله، جعلني الله فداك، قال: « ولا الناس يحبونه لأمهاتهم، قال: « أفنجه لابنتك؟ » قال: لا والله يا رسول الله، جعلني الله فداك، قال: « ولا الناس يحبونه لبناتهم، قال: « أفنجه لأختك؟ » قال: لا والله، جعلني الله فداك، قال: « ولا الناس يحبونه لأخواتهم، قال: « أفنجه لعمتك؟ » قال: لا والله، جعلني الله فداك، قال: « ولا الناس يحبونه لعماتهم، قال: « أفنجه لخالتك؟ » قال: لا والله جعلني الله فداك، قال: « ولا الناس يحبونه لخالاتهم، قال: فوضع يده عليه وقال: « اللهم اغفر ذنبه وطهر قلبه وحصن فرجه »، قال: فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شيء^(١). وعن النبي ﷺ قال: « ما من ذنب بعد الشرك أعظم عند الله من نطفة وضعها رجل في رحم لا يحل له^(٢) ».

وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قَتَلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيَّهِ سُلْطٰنًا فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا ﴿٣٤﴾

يقول تعالى ناهياً عن قتل النفس بغير حق شرعي، كما ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: « لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله إلا بإحدى ثلاث: النفس بالنفس، والزاني المحصن، والتارك لدينه المفارق للجماعة ». وفي السنن: « لزوال الدنيا عند الله أهون من قتل مسلم ». وقوله: ﴿ ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً ﴾: أي سلطة على القاتل، فإنه بالخيار فيه، إن شاء قتله قوداً، وإن شاء عفا عنه على البدية، وإن شاء عفا عنه مجاناً، كما ثبتت السنة بذلك، وقوله: ﴿ فلا يسرف في القتل ﴾ أي فلا يسرف الولي في قتل القاتل بأن يمثل به أو يقتص من غير القاتل، وقوله: ﴿ إنه كان منصوراً ﴾: أي إن الولي منصور على القاتل شرعاً وقدرًا .

وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْغُولًا ﴿٣٥﴾
وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِذَا كَلِمْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند . (٢) أخرجه ابن أبي الدنيا عن الهيثم بن مالك الطائي مرفوعاً .

يقول تعالى: ﴿ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده﴾ أي لا تتصرفوا في مال اليتيم إلا بالغبطة، ﴿ولا تأكلوها إسرافاً وبداراً أن يكبروا﴾. وقد جاء في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال لأبي ذر: «يا أبا ذر إني أراك ضعيفاً، وإني أحب لك ما أحب لنفسي، لا تأمرن على اثنين ولا تولين مال يتيم». وقوله: ﴿وأوفوا بالعهد﴾ أي الذي تعاهدون عليه الناس، والعقود التي تعاملونهم بها، فإن العهد والعقد كل منهما يسأل صاحبه عنه، ﴿إن العهد كان مسئولاً﴾ أي عنه. وقوله: ﴿وأوفوا الكيل إذا كتمتم﴾ أي من غير تطفيف، ولا تبخسوا الناس أشياءهم، ﴿وزنوا بالقسطاس﴾ وهو الميزان، قال مجاهد هو العدل بالرومية، وقوله: ﴿المستقيم﴾ أي الذي لا اعوجاج فيه ولا انحراف، ولا اضطراب: ﴿ذلك خير﴾ أي لكم في معاشكم ومعادكم، ولهذا قال: ﴿وأحسن تأويلاً﴾ أي مآلاً ومنقلباً في آخرتكم، قال قتادة: أي خير ثواباً وأحسن عاقبة، وكان ابن عباس يقول: يا معشر الموالي إنكم وليتم أمرين بهما هلك الناس قبلكم: هذا المكيال. وهذا الميزان.

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً﴾ (٣٦)

قال ابن عباس: لا تقف، وقال العوفي: لا ترم أحداً بما ليس لك به علم، وقال قتادة: لا تقف رأيت ولم تر، وسمعت ولم تسمع، وعلمت ولم تعلم، فإن الله تعالى سائلك عن ذلك كله، ومضمون ما ذكره أن الله تعالى نهى عن القول بلا علم، بل بالظن الذي هو التوهم والخيال، كما قال تعالى: ﴿اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم﴾. وفي الحديث: «ياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث». وفي سنن أبي داود: «بئس مطية الرجل زعموا». وفي الحديث الآخر: «إن أفرى الفرى أن يري الرجل عينيه ما لم تريا». وفي الصحيح: «من تحلم حلماً كلف يوم القيامة أن يعقد بين شعيرتين وليس بفاعل». وقوله: ﴿كل أولئك﴾ أي هذه الصفات من السمع والبصر والفؤاد ﴿كان عنه مسئولاً﴾ أي سيسأل العبد عنها يوم القيامة، وتساءل عنه.

﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً﴾ (٣٧) ﴿كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ (٣٨)

يقول تعالى ناهياً عباده عن التجبر والتبختر في المشية: ﴿ولا تمش في الأرض مرحاً﴾ أي متبختراً متمايلاً مشي الجبارين، ﴿إنك لن تخرق الأرض﴾ أي لن تقطع الأرض ممشيك، ﴿ولن تبلغ الجبال طولاً﴾: أي بتمايلك وفخرك وإعجابك بنفسك، بل قد يجازي فاعل ذلك بتقيض قصده، كما ثبت في الصحيح: «بينما رجل يمشي فيمن كان قبلكم وعليه بردان يتبختر فيهما إذ خسف به الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة». وكذلك أخبر الله تعالى عن قارون أنه خرج على قومه في زينته، وأن الله تعالى خسف به وبداره الأرض، وفي الحديث: «من تواضع لله رفعه الله فهو في نفسه حقير وعند الناس كبير»، ورأى البخاري العابد رجلاً من آل (علي) يمشي وهو يخطر في مشيته، فقال له: يا هذا! إن الذي أكرمك به لم تكن هذه مشيته، قال: فتركها الرجل بعد. ورأى ابن عمر رجلاً يخطر في مشيته، فقال: إن للشياطين إخواناً، وقال رسول الله ﷺ: «إذا مشت أمتي الميطاء

وخدمتهم فارس والروم سلط بعضهم على بعض^(١). وقوله: ﴿ كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروهاً ﴾، أي كل هذا الذي ذكرناه من قوله: ﴿ وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه ﴾ إلى هنا، (فسيئه) أي فقيحه مكروه عند الله .

ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُنْقَلِي فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾

يقول تعالى هذا الذي أمرناك به من الأخلاق الجميلة، ونهيناك عنه من الصفات الرذيلة، مما أوحينا إليك يا محمد لتأمر به الناس، ﴿ ولا تجعل مع الله إلهاً آخر فنلقى في جهنم ملوماً ﴾ أي تلومك نفسك، ويلومك الله والخلق ﴿ مدحوراً ﴾: أي مبعداً من كل خير، قال ابن عباس وقتادة: مطروداً، والمراد من هذا الخطاب الأمة بواسطة الرسول ﷺ فإنه صلوات الله وسلامه عليه معصوم .

أَفَاصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَيْنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾

يقول تعالى راداً على المشركين الكاذبين الزاعمين - عليهم لعائن الله - أن الملائكة بنات الله، فجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً، ثم ادعوا أنهم بنات الله، ثم عبدوهم فأخطأوا في كل من المقامات الثلاث خطأ عظيماً، فقال تعالى منكرأ عليهم: ﴿ أفأصفاكم ربكم بالبينين ﴾ أي خصصكم بالذكر ﴿ واتخذ من الملائكة إناثاً ﴾ أي واختار لنفسه على زعمكم البنات، ثم شدد الإنكار عليهم فقال: ﴿ إنكم لتقولون قولاً عظيماً ﴾ أي في زعمكم أن الله ولدأ ثم جعلكم ولده الإناث التي تأفون أن يكن لكم وربما قتلتموهن بالوآد، فتلك إذا قسمة ضيزى، وقال تعالى: ﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولداً * لقد جئتم شيئاً إداً * تكاد السماوات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً * أن دعوا للرحمن ولداً * وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولداً * إن كل من في السماوات والأرض إلا آتي الرحمن عبداً * لقد أحصاهم وعدهم عدداً * وكلهم آتية يوم القيامة فرداً ﴾ .

وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾

يقول تعالى: ﴿ ولقد صرّفنا في هذا القرآن من كل مثل ﴾: أي صرّفنا فيه من الوعيد لعلهم يذكرون ما فيه من الحجج والبيّنات والمواعظ؛ فيتجزون عما هم فيه من الشرك والظلم والإفك ﴿ وما يزيدهم ﴾ أي الظالمين منهم ﴿ إلا نفوراً ﴾ أي عن الحق وبعداً عنه .

قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ رِبُّ إِلَهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَا بَتَّغُوا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحٰنَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾

يقول تعالى: قل يا محمد لهؤلاء المشركين الزاعمين أن لله شريكاً من خلقه، العابدين معه غيره ليقربهم إليه

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا عن سعيد عن محسن .

زلفاً: لو كان الأمر كما تقولون وأن معه آلهة تعبد لتقرب إليه وتشفع لديه، لكان أولئك المعبودون يعبدونه ويتقربون إليه ويبتغون إليه الوسيلة والقربة، فاعبدوه أنتم وحده كما يعبد من تدعونه من دونه، ولا حاجة لكم إلى معبود يكون واسطة بينكم وبينه، فإنه لا يجب ذلك ولا يرضاه بل يكرهه ويأباه. وقد نهى عن ذلك على السنة جميع رسله وأنبيائه، ثم نزه نفسه الكريمة وقدها، فقال: ﴿سبحانه وتعالى عما يقولون﴾ أي هؤلاء المشركون المعتدون الظالمون في زعمهم أن معه آلهة أخرى ﴿علواً كبيراً﴾: أي تعالياً كبيراً، بل هو الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد.

تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾

يقول تعالى تقدسه السماوات السبع والأرض ومن فيهن، أي من المخلوقات، وتنزهه وتعظمه وتبجله وتكبره عما يقول هؤلاء المشركون، وتشهد له بالوحدانية في ربوبته وإلهيته:

ففي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

كما قال تعالى: ﴿تكاد السماوات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدأً أن دعوا للرحمن ولداً﴾. وقوله: ﴿وإن من شيء إلا يسبح بحمده﴾ أي وما من شيء من المخلوقات إلا يسبح بحمد الله ﴿ولكن لا تفقهون تسبيحهم﴾ أي لا تفهمون تسبيحهم لأنها بخلاف لغاتكم، وهذا عام في الحيوانات والجمادات والنباتات، كما ثبت في صحيح البخاري عن ابن مسعود أنه قال: كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل، وفي حديث أبي ذر أن النبي ﷺ أخذ في يده حصيات فسمع هن تسبيح كحنين النحل، وكذا في يد أبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم^(١). وقال الإمام أحمد عن أنس رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه دخل على قوم وهم وقوف على دواب لهم ورواحل، فقال لهم: «اركبوها سالمة ودعوها سالمة، ولا تتخذوها كراسي لأحاديثكم في الطرق والأسواق، فرب مركوبة خير من راكبها، وأكثر ذكراً لله منه». وفي سنن النسائي عن عبد الله بن عمرو قال: نهى رسول الله ﷺ عن قتل الضفدع، وقال: نقيقتها تسبيح. وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «ألا أخبركم بشيء أمر به نوح ابنه؟ إن نوحاً عليه السلام قال لابنه: يا بني أمرك أن تقول سبحان الله فإنها صلاة الخلق، وتسبيح الخلق، وبها يرزق الخلق»، قال الله تعالى: ﴿وإن من شيء إلا يسبح بحمده﴾^(٢). وقال عكرمة في قوله تعالى: ﴿وإن من شيء إلا يسبح بحمده﴾ قال: الأسطوانة تسبح، والشجرة تسبح، وقال بعض السلف: صرير الباب تسبيحه، وخرير الماء تسبيحه.

وقال آخرون: إنما يسبح من كان فيه روح من حيوان ونبات، قال قتادة في قوله ﴿وإن من شيء إلا يسبح بحمده﴾ قال: كل شيء فيه روح يسبح من شجر أو شيء فيه، وقال الحسن والضحاك: كل شيء فيه الروح. وقد يستأنس

(١) قال ابن كثير: وهو حديث مشهور في المسانيد.

(٢) أخرجه ابن جرير، قال ابن كثير: في إسناده ضعف.

وهي جمع كنان: الذي يغشى القلب ﴿ أن يفقهوه ﴾: أي لثلا يفهموا القرآن ﴿ وفي آذانهم وقرأ ﴾ وهو الثقل الذي يمنعهم من سماع القرآن سماعاً ينفعم به ويهتدون به . وقوله تعالى: ﴿ وإذا ذكرت ربك في القرآن وحده ﴾ أي إذا وحدت الله في تلاوتك وقلت: لا إله إلا الله ﴿ ولوا ﴾ أي أدبروا راجعين ﴿ على أدبارهم نفوراً ﴾، كما قال تعالى: ﴿ وإذا ذكر الله وحده استمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة ﴾ الآية، قال قتادة: إن المسلمين لما قالوا: لا إله إلا الله، أنكر ذلك المشركون وكبرت عليهم فضاقتها إبليس وجنوده، فأبى الله إلا أن يمضيها ويعليها وينصرها ويظهرها على من ناوأها، إنها كلمة من خاصم بها فلج، ومن قاتل بها نصر، إنما يعرفها أهل هذه الجزيرة من المسلمين التي يقطعها الراكب في ليال قلائل، ويسير الدهر في فنام من الناس لا يعرفونها ولا يقرون بها .

* نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ ۖ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنَّا تَبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾ أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾

يخبر تعالى نبيه محمداً ﷺ بما يتناجى به رؤساء كفار قريش، حين جاءوا يستمعون قراءته ﷺ سرّاً من قومهم بما قالوا: من أنه رجل مسحور له رأي يأتيه بما استمعوه من الكلام الذي يتلوه، ولهذا قال تعالى: ﴿ انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلاً ﴾ أي فلا يهتدون إلى الحق ولا يجدون إليه مخلصاً، قال محمد بن إسحاق في السيرة: إن أبا سفيان بن حرب، وأبا جهل بن هشام، والأخنس بن شريق خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله ﷺ وهو يصلي بالليل في بيته، فأخذ كل واحد منهم مجلساً يستمع فيه، وكل لا يعلم بمكان صاحبه، فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا، حتى إذا جمعتهم الطريق تلاوموا، وقال بعضهم لبعض: لا تعودوا فلو رأيكم بعض سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئاً، ثم انصرفوا حتى إذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم إلى مجلسه، فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا وجمعتهم الطريق، فقال بعضهم لبعض مثل ما قال أول مرة، ثم انصرفوا حتى إذا كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجل مجلسه، فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعتهم الطريق فقال بعضهم لبعض: لا نبرح حتى نتعاهد لا نعود. فتعاهدوا على ذلك ثم تفرقوا. فلما أصبح الأخنس بن شريق أخذ عصاه ثم خرج حتى أتى أبا سفيان بن حرب في بيته، فقال: أخبرني يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد، قال: يا أبا ثعلبة، والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراد بها، وسمعت أشياء ما عرفت معناها ولا ما يراد بها، قال الأخنس: وأنا والذي حلفت به، قال: ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل فدخل عليه بيته، فقال: يا أبا الحكم ما رأيك فيما سمعت من محمد؟ قال: ماذا سمعت؟ قال: تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف: أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تجاثينا على الركب وكنا كفرسي رهان، قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء، فمتى ندرك هذه؟ والله لا نؤمن به أبداً ولا نصدقه، قال: فقام عنه الأخنس وتركه .

وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظْمًا وَّرُفَاتًا إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ * قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى

﴿ هُوَ قُلٌّ عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا ۝٥١﴾ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ ۖ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۝٥٢﴾

يقول تعالى مخبراً عن الكفار المستبدين وقوع المعاد، القائلين استفهام إنكار منهم لذلك : ﴿أثدا كنا عظاماً ورفاتاً﴾ أي تراباً، ﴿أثنا لمبعوثون خلقاً جديداً﴾ أي يوم القيامة بعد ما بلينا وصرنا عدماً لا نذكر، كما أخبر عنهم في الموضع الآخر : ﴿يقولون أثنا لمدودون في الحافرة * أثدا كنا عظاماً نخرة * قالوا تلك إذا كرة خاسرة﴾، وقوله تعالى : ﴿وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه﴾ الآية، فأمر الله سبحانه رسول الله ﷺ أن يجيبهم، فقال : ﴿قل كونوا حجارة أو حديداً﴾ إذ هما أشد امتناعاً من العظام والرفات، ﴿أو خلقاً مما يكبر في صدوركم﴾، عن مجاهد : سألت ابن عباس عن ذلك فقال : هو الموت، وعن ابن عمر أنه قال في تفسير هذه الآية لو كنتم موتى لأحييتكم^(١)، ومعنى ذلك أنكم لو فرضتم أنكم لو صرتم إلى الموت الذي هو ضد الحياة لأحياكم الله إذا شاء فإنه لا يمتنع عليه شيء إذا أراه. وقال مجاهد ﴿أو خلقاً مما يكبر في صدوركم﴾ : يعني السماء والأرض والجبال، وفي رواية : ما شتم فكونوا فسيعدكم الله بعد موتكم، وقوله تعالى ﴿فسيقولون من يعيدنا﴾ : أي من يعيدنا إذا كنا حجارة أو حديداً أو خلقاً آخر شديداً ﴿قل الذي فطركم أول مرة﴾ أي الذي خلقكم ولم تكونوا شيئاً مذكوراً، ثم صرتم بشراً تنتشرون، فإنه قادر على إعادتكم ولو صرتم إلى أي حال : ﴿وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه﴾ الآية، وقوله تعالى : ﴿فسينغضون إليك رؤوسهم﴾. قال ابن عباس وفتادة : يحركونها استهزاءً، والإنغاض هو التحرك من أسفل إلى أعلى، أو من أعلى إلى أسفل، يقال نغضت سنه : إذا تحركت وارتفعت من منبتها. وقال الراجز : ونغضت من هرم أسنانها .

وقوله : ﴿ويقولون متى هو﴾ إخبار عنهم بالاستبعاد منهم لوقوع ذلك كما قال تعالى : ﴿ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين﴾، وقال تعالى : ﴿يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها﴾، وقوله : ﴿قل عسى أن يكون قريباً﴾ أي احذروا ذلك فإنه قريب إليكم سيأتيكم لا محالة، فكل ما هو آت قريب، وقوله تعالى : ﴿يوم يدعوكم﴾ أي الرب تبارك وتعالى، ﴿إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون﴾ : أي إذا أمركم بالخروج منها فإنه لا يخالف ولا يمانع، بل كما قال تعالى : ﴿وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر﴾، ﴿إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون﴾، وقوله ﴿فإنما هي زجرة واحدة * فإذا هم بالساهرة﴾ : أي إنما هو أمر واحد بانتهاز، فإذا الناس قد خرجوا من باطن الأرض إلى ظاهرها، كما قال تعالى : ﴿يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده﴾ : أي تقومون كلكم إجابة لأمره وطاعة لإرادته، قال ابن عباس ﴿فتستجيبون بحمده﴾ : أي بأمره، وقال فتادة : بمعرفته وطاعته، وقال بعضهم ﴿يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده﴾ : أي وله الحمد في كل حال، وقد جاء في الحديث : « ليس على أهل لا إله إلا الله وحشة في قبورهم، كأني بأهل لا إله إلا الله يقومون من قبورهم ينفضون التراب عن رؤوسهم يقولون لا إله إلا الله ». وفي رواية يقولون : « الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن »^(٢)، وقوله تعالى ﴿وتظنون﴾ : أي يوم تقومون من قبوركم، ﴿إن لبثتم﴾ أي في الدار الدنيا، ﴿إلا قليلاً﴾ كقوله تعالى :

(١) وكذلك قال سعيد بن جبير والحسن وفتادة والضحاك وغيرهم .

(٢) الرواية الثانية : أخرجها الطبراني عن ابن عمر .

﴿ كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها ﴾ . وقال تعالى: ﴿ نحن أعلم بما يقولون إذ يقول أمثلهم طريقة إن لبثتم إلا يوماً ﴾ ، وقال تعالى: ﴿ ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة ﴾ .

وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا ﴿٥٣﴾
 يأمر تبارك وتعالى رسوله ﷺ أن يأمر عباد الله المؤمنين، أن يقولوا في مخاطباتهم ومحاوراتهم الكلام الأحسن، والكلمة الطيبة، فإنهم إن لم يفعلوا ذلك نزغ الشيطان بينهم، وأخرج الكلام إلى الفعال، ووقع الشر والمخاصمة والمقاتلة، فإنه عدو لآدم وذريته من حين امتنع من السجود لآدم، وعداوته ظاهرة بينة، ولهذا نهى أن يشير الرجل إلى أخيه المسلم بحديدة فإن الشيطان ينزغ في يده فرمما أصابه بها، ففي الحديث: « لا يشيرن أحدكم إلى أخيه بالسلاح فإنه لا يدري أحدكم لعل الشيطان أن ينزغ في يده فيقع في حفرة من النار »^(١). وفي الحديث: « المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله؛ التقوى ههنا »، قال حماد: وقال بيده إلى صدره: « وما تواد رجلان في الله ففرق بينهما إلا حدث يحدثه أحدهما، والحدث شر، والمحدث شر، والمحدث شر »^(٢).

* رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنَّ يُسَاءَ بِرَحْمِكُمْ أَوْ إِنْ يُسَاءَ يَعَذِّبُكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾ وَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَءَاتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾

يقول تعالى: ﴿ ربكم أعلم بكم ﴾ أيها الناس، أي أعلم بمن يستحق منكم الهداية ومن لا يستحق، ﴿ إن يسأ يرحمكم ﴾ بأن يوفقكم لطاعته والإجابة إليه، ﴿ أو إن يسأ يعذبكم وما أرسلناك يا محمد عليهم وكيلاً ﴾ أي إنما أرسلناك نذيراً، فمن أطاعك دخل الجنة، ومن عصاك دخل النار. وقوله: ﴿ وربكم أعلم بمن في السموات والأرض ﴾ أي بمراتبهم في الطاعة والمعصية، ﴿ ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض ﴾، كما قال تعالى: ﴿ تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض ﴾، وهذا لا ينافي ما ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: « لا تفضلوا بين الأنبياء »، فإن المراد من ذلك هو التفضيل بمجرد التشهي والمعصية، لا بمقتضى الدليل، فإذا دل الدليل على شيء وجب اتباعه، ولا خلاف أن الرسل أفضل من بقية الأنبياء، وأن أولى العزم منهم أفضلهم، وهم الخمسة المذكورون نصاً في آيتين من القرآن في سورة الأحزاب ﴿ وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم ﴾ . وفي الشورى في قوله: ﴿ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ﴾، ولا خلاف أن محمداً ﷺ أفضلهم، ثم بعده إبراهيم، ثم موسى، ثم عيسى عليهم السلام على المشهور، وقد بسطناه بدلائله في غير هذا الموضع والله الموفق. وقوله تعالى: ﴿ وآتيناه داود زبوراً ﴾ تنبيه على فضله وشرفه، عن النبي ﷺ قال: « خفف على داود القرآن فكان يأمر بلوابة فتسرح فكان يقرؤه قبل أن يفرغ »^(٣) يعني القرآن .

(١) رواه أحمد وأخرجه البخاري ومسلم من حديث عبد الرزاق .

(٢) رواه البخاري عن أبي هريرة مرفوعاً .

(٣) أخرجه الإمام أحمد .

قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضَّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ﴿٥٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٨﴾

يقول تعالى ﴿قل﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين الذين عبدوا غير الله ﴿ادعوا الذين زعتم من دونه﴾ من الأصنام والأنداد فارغبوا إليهم، فإنهم ﴿لا يملكون كشف الضر عنكم﴾ أي بالكلية، ﴿ولا تحويلاً﴾ أي بأن يحولوه إلى غيركم، والمعنى أن الذي يقدر على ذلك هو الله وحده لا شريك له الذي له الخلق والأمر، قال ابن عباس: كان أهل الشرك يقولون: نعبد الملائكة والمسيح وعزيراً، وهم الذين يدعون، يعني الملائكة، والمسيح وعزيراً، وروى البخاري عن عبد الله بن مسعود في قوله ﴿أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة﴾ قال ناس من الجن كانوا يعبدون فأسلموا، وفي رواية قال: كان ناس من الإنس يعبدون ناساً من الجن فأسلم الجن وتمسك هؤلاء بدينهم. وقال قتادة، عن ابن مسعود في قوله: ﴿أولئك الذين يدعون﴾ الآية قال: نزلت في نفر من العرب كانوا يعبدون نفرأ من الجن فأسلم الجنيون، والإنس الذين كانوا يعبدونهم لا يشعرون بإسلامهم، فنزلت هذه الآية. وفي رواية عن ابن مسعود: كانوا يعبدون صنفاً من الملائكة يقال لهم الجن فذكره، وقال ابن عباس: هم عيسى وعزير والشمس والقمر، وقال مجاهد: عيسى والعزير والملائكة، واختار ابن جرير قول ابن مسعود لقوله: ﴿يبتغون إلى ربهم الوسيلة﴾ وهذا لا يعبر به عن الماضي، فلا يدخل فيه عيسى والعزير والملائكة، وقال: والوسيلة هي القرية، كما قال قتادة، ولهذا قال: ﴿أيهم أقرب﴾، وقوله تعالى: ﴿ويرجون رحمته ويخافون عذابه﴾ لا تتم العبادة إلا بالخوف والرجاء، فبالخوف ينكف عن المناهي، وبالرجاء يكثر من الطاعات، وقوله تعالى: ﴿إن عذاب ربك كان محذوراً﴾ أي ينبغي أن يحذر منه ويخاف من وقوعه وحصوله عياداً بالله منه.

وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴿٥٩﴾

هذا إخبار من الله عز وجل بأنه قد حتم وقضى بما قد كتب عنده في اللوح المحفوظ، أنه ما من قرية إلا سيهلكها، بأن يبئد أهلها جميعهم أو يعذبهم ﴿عذاباً شديداً﴾ إما بقتل أو ابتلاء بما يشاء، وإنما يكون ذلك بسبب ذنوبهم وخطاياهم، كما قال تعالى عن الأمم الماضين: ﴿وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم﴾، وقال تعالى: ﴿فذاقت وبال أمرها وكان عاقبة أمرها خسرأ﴾، وقال: ﴿وكأين من قرية عتت عن أمر ربها ورسله﴾ الآيات.

﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ﴾ وَآتَيْنَا مُوَدَّ النَّاقَةَ مَبْصُرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ

بِالْآيَاتِ إِلَّا تَحْوِيلًا ﴿٥٩﴾

عن ابن عباس قال: سأل أهل مكة النبي ﷺ أن يجعل لهم الصفا ذهباً، وأن ينحي الجبال عنهم فيزرعوا، فقيل له: إن شئت أن نستأني بهم، وإن شئت أن يأتيهم الذي سألوها، فإن كفروا هلكوا، كما هلكت من كان

قبلهم من الأمم. قال: « لا، بل استأن بهم »، وأنزل الله تعالى: ﴿ وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون ﴾^(١) الآية. وعن ابن عباس قال، قالت قريش للنبي ﷺ: ادع لنا ربك أن يجعل لنا الصفا ذهباً، وتؤمن بك، قال: « وتفعلون؟ » قالوا: نعم، قال، فدعا فأتاه جبريل، فقال: إن ربك يقرأ عليك السلام، ويقول لك: إن شئت أصبح لهم الصفا ذهباً، فمن كفر منهم بعد ذلك عذبه عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين، وإن شئت فتحت لهم أبواب التوبة والرحمة، فقال: « بل باب التوبة والرحمة ».

وقال الحافظ أبو يعلى في مسنده: لما نزلت ﴿ وأنذر عشيرتَك الأقرين ﴾ صاح رسول الله ﷺ على أبي قبيس: « يا آل عبد مناف إني نذير » فجاءته قريش فحذرهم وأنذرهم، فقالوا: تزعم أنك نبي يوحى إليك وإن سليمان سخر له الريح والجبال، وإن موسى سخر له البحر، وإن عيسى كان يحيي الموتى، فادع الله أن يسير عنا هذه الجبال ويفجر لنا الأرض أنهاراً فتتخذ محارث فترزع ونأكل، وإلا فادع الله أن يحيي لنا موتانا لنكلمهم ويكلمونا، وإلا فادع الله أن يصير لنا هذه الصخرة التي تحتك ذهباً فننحت منها وتغنينا عن رحلة الشتاء والصيف، فإنك تزعم أنك كهيئتهم. قال، فبينما نحن حوله إذ نزل عليه الوحي فلما سري عنه قال: « والذي نفسي بيده لقد أعطاني ما سألتهم، ولو شئت لكان، ولكنه خيرني بين أن تدخلوا باب الرحمة فيؤمن مؤمنكم، وبين أن يكلكم إلى ما اخترتم لأنفسكم فتضلوا عن باب الرحمة فلا يؤمن منكم أحد. فاخترت باب الرحمة فيؤمن مؤمنكم، وأخبرني أنه إن أعطاكم ذلك ثم كفرتم أنه يعذبكم عذاباً لا يعذبه أحداً من العالمين »، ونزلت: ﴿ وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون ﴾، وقرأ ثلاث آيات، ولهذا قال تعالى: ﴿ وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون ﴾ أي نبعت الآيات ونأتي بها على ما سألتهم، فإنه سهل علينا يسير لدينا، إلا أنه قد كذب بها الأولون بعد ما سألوها، وجرت سنتنا فيهم وفي أمثالهم أنهم لا يؤخرون إن كذبوا بها بعد نزولها، كما قال تعالى في المائدة: ﴿ قال الله إني منزها عليكم من يكفر بعد منكم فإني أعذبه عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين ﴾، وقال تعالى عن ثمود حين سألوها الناقة: ﴿ قال تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب ﴾، ولهذا قال تعالى: ﴿ وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها ﴾: أي دالة على وحدانية من خلقها وصدق رسوله ﴿ فظلموا بها ﴾ أي كفروا بها ومنعوها شربها وقتلوا، فأبادهم الله عن آخرهم، وانتقم منهم وأخذهم أخذ عزيز مقتدر.

وقوله تعالى: ﴿ وما نرسل بالآيات إلا تخويفاً ﴾ قال قتادة: إن الله تعالى يخوف الناس بما شاء من الآيات لعلمهم يعتبرون، ويذكرون ويرجعون،^(٢) ذكر لنا أن الكوفة رجفت على عهد ابن مسعود رضي الله عنه، فقال:

(١) أخرجه أحمد والنسائي عن ابن عباس.

(٢) أخرج أبو يعلى عن أم هانئ: أنه ﷺ، لما أسري به أصبح يحدث نقرأ من قريش يستهزئون به، فطلبوا منه آية فوصف لهم بيت المقدس وذكر لهم قصة العير، فقال الوليد بن المغيرة: هذا ساحر، فأنزل الله: ﴿ وما جعلنا الرؤيا ﴾ الآية. وأخرج ابن المنذر عن الحسن نحوه. وأخرج ابن مردويه عن الحسين بن علي: أن رسول الله ﷺ أصبح يوماً مهموماً، فقيل له: مالك يا رسول الله؟ لا تهتم فإن رؤياك فتنة لهم فأنزل الله: ﴿ وجعلنا ﴾ الآية. وأخرج ابن جرير من حديث سهل بن سعد نحوه. وأخرج ابن أبي حاتم من حديث عمرو بن العاص، ومن حديث يعلى بن قرة، ومن مرسل سعيد بن المسيب نحوه. قال السيوطي: وأسانيدنا ضعيفة.

يا أيها الناس إن ربكم يستعبدكم فأعقبوه، وهكذا روي أن المدينة زلزلت على عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه مرات، فقال عمر أحدثتم والله لئن عادت لأفعلن ولأفعلن، وفي الحديث المتفق عليه: «إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله وإنهما لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته، ولكن الله عز وجل يخوف بهما عباده؛ فإذا رأيتم ذلك فافزعوا إلى ذكره ودعائه واستغفاره» - ثم قال - يا أمة محمد والله ما أحد أغبر من الله أن يزني عبده أو تزني أمته، يا أمة محمد والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً .

وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّءْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُحُوفُهُمْ قَمًا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾

يقول تعالى لرسوله ﷺ محرضاً له على إبلاغ رسالته، ومخبراً له بأنه قد عصمه من الناس فإنه القادر عليهم وهم في قبضته وتحت قهره وغلبته. قال مجاهد والحسن وقتادة في قوله: ﴿إن ربك أحاط بالناس﴾ أي عصمك منهم. قال البخاري، عن ابن عباس ﴿وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس﴾ قال: هي رؤيا عين أريها رسول الله ﷺ ليلة أسري به، ﴿والشجرة الملعونة في القرآن﴾ شجرة الزقوم. (١) ﴿إلا فتنة﴾: أي اختباراً وامتحاناً، وأما الشجرة الملعونة فهي شجرة الزقوم (٢)، لما أخبرهم رسول الله ﷺ أنه رأى الجنة والنار، ورأى شجرة الزقوم فكذبوا بذلك، حتى قال أبو جهل عليه لعائن الله: هاتوا لنا تمراً وزبداءً، وجعل يأكل من هذا بهذا ويقول: تزقوموا فلا تعلم الزقوم غير هذا (٣)، وكل من قال إنها ليلة الإسراء فسره كذلك بشجرة الزقوم، واختار ابن جرير أن المراد بذلك ليلة الإسراء، وأن الشجرة الملعونة هي شجرة الزقوم، قال لإجماع الحجة من أهل التأويل على ذلك، أي في الرؤيا والشجرة، وقوله ﴿ونحوفهم﴾: أي الكفار، بالوعيد والعذاب والنكال، ﴿فما يزيدهم إلا طغياناً كبيراً﴾: أي تمادياً فيما هم فيه من الكفر والضلال، وذلك من خذلان الله لهم .

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أُخِّرْتِنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَآحْتَكِنَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾

يذكر تبارك وتعالى عدواة إبليس لعنه الله لآدم وذريته وأنها عداوة قديمة منذ خلق آدم، فإنه تعالى أمر الملائكة بالسجود لآدم فسجدوا كلهم إلا إبليس استكبر وأبى أن يسجد له، افتخاراً عليه واحتقاراً له ﴿قال أسجد لمن خلقت طيناً﴾، كما قال في الآية الأخرى: ﴿أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين﴾، وقال أيضاً: أرايتك، يقول للرب جراءة وكفراً، والرب يحلم وينظر ﴿قال أرايتك هذا الذي كرمت علي﴾ الآية، قال

(١) أخرجه البخاري والإمام أحمد .

(٢) أخرج ابن أبي حاتم والبيهقي في البعث عن ابن عباس قال: لما ذكر الله هذا الزقوم، خوف به هذا الحي من قريش، قال أبو جهل: هل تدرون ما هذا الزقوم الذي خوفكم به محمد؟ قالوا: لا . قال: الثريد بالزبد، أما لئن أمكننا منها لترقمها زقماً، فأنزل الله تعالى: ﴿والشجرة الملعونة﴾ الآية، وأنزل: ﴿إن شجرة الزقوم طعام الأثيم﴾ .

(٣) روي ذلك عن ابن عباس ومسروق والحسن البصري وغير واحد .

ابن عباس ﴿لأحتنكن﴾ يقول : لأستولين على ذريته إلا قليلاً . وقال مجاهد : لأحتوين ، وقال ابن زيد : لأضلنهم ، وكلها متقاربة ، والمعنى : أرايتك هذا الذي شرفته وعظمته عليّ ، لئن أنظرتني لأضلن ذريته إلا قليلاً منهم .

قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُ مَنْ جَاءَهُ مَوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَأَسْتَفْزِزُ مَنْ أَسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبُ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعَدَّهُمْ وَمَا يَعْدهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾

لما سأل إبليس النظرة قال الله له ﴿ اذهب ﴾ فقد أنظرتك ، كما قال في الآية الأخرى ﴿ فإنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم ﴾ ، ثم أوعده ومن اتبعه من ذرية آدم جهنم ﴿ قال اذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزأؤكم ﴾ أي على أعمالكم ﴿ جزاء موفوراً ﴾ قال مجاهد : وافراً ، وقال قتادة : موفوراً عليكم لا ينقص لكم منه ، وقوله تعالى : ﴿ واستفزز من استطعت منهم بصوتك ﴾ قيل : هو الغناء . قال مجاهد : باللهو والغناء ، أي استخفهم بذلك ، وقال ابن عباس في قوله ﴿ واستفزز من استطعت منهم بصوتك ﴾ قال : كل داع دعا إلى معصية الله عز وجل ، واختاره ابن جرير ، وقوله تعالى : ﴿ وأجلب عليهم بخيلك ورجلك ﴾ يقول : واحمل عليهم بجنودك خيالتهم ورجلتهم ، فإن الرجل جمع راجل ، كما أن الركب جمع راكب ، ومعناه تسلط عليهم بكل ما تقدر عليه ، وهذا أمر قدره ، كقوله تعالى : ﴿ ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزا ﴾ أي ترعجهم إلى المعاصي إزعاجاً وتسوقهم إليها سوقاً . وقال قتادة : إن له خيلاً ورجلاً من الجن والإنس وهم الذين يطيعونه ، تقول العرب : أجلب فلان على فلان إذا صاح عليه ، ومنه نهى في المسابقة عن الجلب والجنب ، ومنه اشتقاق الجلبة ، وهي ارتفاع الأصوات ، وقوله تعالى : ﴿ وشاركهم في الأموال والأولاد ﴾ قال ابن عباس ومجاهد : هو ما أمرهم به من إنفاق الأموال في معاصي الله تعالى ، وقال عطاء : هو الربا ، وقال الحسن : هو جمعها من خبيث وإنفاقها في حرام ، والآية تعم ذلك كله ، وقوله : ﴿ والأولاد ﴾ يعني أولاد الزنا^(١) ، وقال ابن عباس : هو ما كانوا قتلوه من أولادهم سفهاً بغير علم ، وقال الحسن البصري : قد والله شاركهم في الأموال والأولاد ، مجسوا وهودوا ونصروا وصبغوا غير صبغة الإسلام ، وجزأوا من أموالهم جزءاً للشيطان ، وقال أبو صالح عن ابن عباس : هو تسميتهم أولادهم عبد الحارث وعبد شمس وعبد فلان .

قال ابن جرير : وأولى الأقوال بالصواب أن يقال كل مولود ولدته أنثى عصي الله فيه بتسميته بما يكرهه الله ، أو بإدخاله في غير الدين الذي ارتضاه الله ، أو بالزنا بأمه ، أو بقتله أو وأده ، أو غير ذلك من الأمور التي يعصي الله بفعله به ، فقد دخل في مشاركة إبليس فيه لأن الله لم يخص بقوله : ﴿ وشاركهم في الأموال والأولاد ﴾ معنى الشركة فيه ، بمعنى دون معنى ، فكل ما عصي الله فيه أو به ، أو أطع الشيطان فيه أو به فهو مشاركة ،

(١) قاله ابن عباس ومجاهد والضحاك .

وهذا الذي قاله متجه . وكل من السلف رحمهم الله فسر بعض المشاركة ، وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : « لو أن أحدهم إذا أراد أن يأتي أهله قال باسم الله ، اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا فإنه إن يقدر بينهما ولد في ذلك لم يضره الشيطان أبداً » ، وقوله تعالى : ﴿ وَعَدْتُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ كما أخبر تعالى عن إبليس أنه يقول ، إذا حصحص الحق يوم يلقى بالحق : ﴿ إِنْ اللَّهُ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقُّ وَوَعَدْتُمْ فَأَخْلَفْتُمْ ﴾ الآية . وقوله تعالى : ﴿ إِنْ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ﴾ إخبار بتأييده تعالى عباده المؤمنين وحفظه إياهم وحراسته لهم من الشيطان الرجيم ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَكَفَىٰ بَرِكًا وَكَيْلًا ﴾ أي حافظاً ومؤيداً ونصيراً . وفي الحديث : « إن المؤمن لينضي شياطينه كما ينضي أحدكم بعيره في السفر »^(١) ينضي أي يأخذ بناصيته ويقهره .

* رَبُّكُمْ الَّذِي يُرْجِي لَكُمْ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِيَتَّبِعُوا مِنْ فَضْلِهِ ۚ إِنَّهٗ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾

يخبر تعالى عن لطفه بخلق في تسخيره لعباده الفلك في البحر وتسهيله لمصالح عباده ، لا بتغائهم من فضله في التجارة من إقليم إلى إقليم ، ولهذا قال : ﴿ إِنَّهٗ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾ أي إنما فعل هذا بكم من فضله عليكم ورحمته بكم .

وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَٰهَ ۙ فَلَمَّا نَجَّكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾

يخبر تبارك وتعالى أن الناس إذا مسهم ضر دعوه منييين إليه مخلصين له الدين ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَٰهَ ۙ أَي ذَهَبَ عَنْ قُلُوبِكُمْ كُلَّ مَا تَعْبُدُونَ غَيْرَ اللَّهِ تَعَالَى ، كَمَا اتَّفَقَ لِعُكْرَمَةَ بْنِ أَبِي جَهْلٍ لَمَّا ذَهَبَ فَارًّا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حِينَ فَتَحَ مَكَّةَ ، فَذَهَبَ هَارِبًا فَرَكَبَ فِي الْبَحْرِ لِيَدْخُلَ الْحَبْشَةَ فَجَاءَتْهُمْ رِيحٌ عَاصِفٌ فَقَالَ الْقَوْمُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ : إِنَّهٗ لَا يَغْنِي عَنْكُمْ إِلَّا أَنْ تَدْعُوا اللَّهَ وَحْدَهُ ، فَقَالَ عُكْرَمَةُ فِي نَفْسِهِ ، وَاللَّهِ إِنْ كَانَ لَا يَنْفَعُ فِي الْبَحْرِ غَيْرُهُ فَإِنَّهٗ لَا يَنْفَعُ فِي الْبَرِّ غَيْرُهُ ، اللَّهُمَّ لَكَ عَلَيَّ عَهْدٌ لئن أَخْرَجْتَنِي مِنْهُ لِأَذْهَبَ فَلَاضَعَنْ يَدِي فِي يَدِ مُحَمَّدٍ فَلَأَجِدَنَّ رَوْفًا رَحِيمًا ، فَخَرَجُوا مِنَ الْبَحْرِ فَرَجَعَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَأَسْلَمَ وَحَسَنَ إِسْلَامَهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَلَمَّا نَجَّكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ﴾ أَي نَسِيتُمْ مَا عَرَفْتُمْ مِنْ تَوْحِيدِهِ فِي الْبَحْرِ ، وَأَعْرَضْتُمْ عَنْ دَعَائِهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ﴾ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا ﴾ أَي سَجِيئَةً هَذَا ، يَنْسَى النِّعْمَ وَيَجْحَدُهَا إِلَّا مِنْ عَصَمِ اللَّهِ .

* أَفَأَمْنْتُمْ أَنْ يَخْشِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾

يقول تعالى أفحسبتم بخروجكم إلى البر ، أمتن من انتقامه وعذابه أن يخسف بكم جانب البر ، أو يرسل عليكم حاصباً ، وهو المطر الذي فيه حجارة^(٢) ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسِحْرِ ﴾ ، وقال : ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ ﴾ ، وقوله : ﴿ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا ﴾ أي ناصراً يرد ذلك عنكم وينقذكم منه .

(١) رواه أحمد عن أبي هريرة مرفوعاً .

(٢) قاله مجاهد وغير واحد من السلف .

* أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَ كُرْفِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾

يقول تبارك وتعالى: أم أمنتم أيها المعرضون عنا، بعدما اعترفوا بتوحيدنا في البحر، وخرجوا إلى البر، أن يعيدكم في البحر مرة ثانية، ﴿٦٩﴾ فيرسل عليكم قاصفاً من الريح ﴿٦٩﴾ أي يقصف الصواري ويغرق المراكب، قال ابن عباس وغيره: القاصف ريح البحار التي تكسر المراكب وتغرقها، وقوله ﴿٦٩﴾ فيغرقكم بما كفرتم ﴿٦٩﴾: أي بسبب كفركم وإعراضكم عن الله تعالى، وقوله: ﴿٦٩﴾ ثم لا تجدوا لكم علينا به تبعاً ﴿٦٩﴾، قال ابن عباس: نصيراً، وقال مجاهد: نصيراً ثائراً، أي يأخذ بثأركم بعدكم. وقال قتادة: ولا تخاف أحداً يتبعنا بشيء من ذلك.

* وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾

يخبر تعالى عن تشريفه لبني آدم وتكريمه إياهم في خلقه لهم على أحسن الهيئات وأكملها، كقوله تعالى: ﴿٧٠﴾ لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ﴿٧٠﴾ أي يمشي قائماً منتصباً على رجله، ويأكل بيديه، وغيره من الحيوانات يمشي على أربع، ويأكل بفمه، وجعل له سمعاً وبصراً وفؤاداً يفقه بذلك كله ويتفهم به، ويفرق بين الأشياء وخواصها ومضارها في الأمور الدينية والدنيوية، ﴿٧٠﴾ وحملناهم في البر ﴿٧٠﴾ أي على الدواب من الأنعام والخيول والبغال، وفي البحر أيضاً على السفن الكبار والصغار، ﴿٧٠﴾ ورزقناهم من الطيبات ﴿٧٠﴾ أي من زروع وثمار ولحوم وألبان من سائر أنواع الطعوم والألوان المشتهة اللذيذة، والمناظر الحسنة، والملابس الرفيعة من سائر الأنواع على اختلاف أصنافها وألوانها وأشكالها مما يصنعونه لأنفسهم ويجلبه إليهم غيرهم من أقطار الأقاليم والنواحي، ﴿٧٠﴾ وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً ﴿٧٠﴾ أي من سائر الحيوانات وأصناف المخلوقات. وقد استدلت بهذه الآية الكريمة على أفضلية جنس البشر على جنس الملائكة. عن عبدالله بن عمرو عن النبي ﷺ قال: «إن الملائكة قالت: ياربنا! أعطيت بني آدم الدنيا، يأكلون فيها ويشربون ويلبسون، ونحن نسبح بحمدك ولا نأكل ولا نشرب ولا نلهو، فكما جعلت لهم الدنيا فاجعل لنا الآخرة، قال: لا أجعل صالح ذرية من خلقت بيدي كمن قلت له كن فكان» ﴿٧١﴾.

يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمْئِنِّهِمْ فَمَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَٰئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾
وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾

يخبر تبارك وتعالى عن يوم القيامة أنه يحاسب كل أمة بإمامهم، وقد اختلفوا في ذلك، فقال مجاهد وقاتدة: أي بنبيهم، وهذا كقوله تعالى: ﴿٧٢﴾ ولكل أمة رسول فإذا جاء رسولهم قضي بينهم بالقسط ﴿٧٢﴾ الآية، وقال بعض

(١) رواه الحافظ الطبراني وأخرجه عبد الرزاق عن زيد بن مسلم موقوفاً وابن عساكر عن أنس بن مالك مرفوعاً.

السلف: هذا أكبر شرف لأصحاب الحديث، لأن إمامهم النبي ﷺ، وقال ابن زيد: بكتابهم الذي أنزل على نبيهم واختاره ابن جرير، وروي عن مجاهد أنه قال: بكتيبهم، فيحتمل أن يكون أراد ما روي عن ابن عباس في قوله ﴿يوم ندعو كل أناس بإمامهم﴾ أي بكتاب أعمالهم^(١)، وهذا القول هو الأرجح، لقوله تعالى: ﴿وكل شيء أحصيناه في إمام مبين﴾، وقال تعالى: ﴿ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه﴾ الآية، ويحتمل أن المراد ﴿بإمامهم﴾ أي كل قوم بمن يأتون به، فأهل الإيمان ائتموا بالأنبياء عليهم السلام، وأهل الكفر ائتموا بآئمتهم، كما قال: ﴿وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار﴾. وفي الصحيحين: «لتتبع كل أمة ما كانت تعبد، فيتبع من كان يعبد الطواغيت الطواغيت» الحديث، وقال تعالى: ﴿هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون﴾. وهذا لا ينافي أن يجاء بالنبي إذا حكم الله بين أمته، فإنه لا بد أن يكون شاهداً على أمته بأعمالها، كقوله تعالى: ﴿وأشرقت الأرض بنور ربها ووضع الكتاب وجيء بالنبيين والشهداء﴾.

وقوله تعالى: ﴿فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً﴾، ولكن المراد ههنا بالإمام هو كتاب الأعمال، ولهذا قال تعالى: ﴿يوم ندعو كل أناس بإمامهم فن أوتي كتابه بيمينه فأولئك يقرأون كتابهم﴾ أي من فرحته وسروره بما فيه من العمل الصالح يقرؤه ويحب قراءته، كقوله: ﴿فأما من أوتي كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرأوا كتابيه﴾ الآيات، وقوله تعالى: ﴿ولا يظلمون قتيلاً﴾ القتل: هو الخيط المستطيل في شق النواة، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ في قول الله تعالى: ﴿يوم ندعو كل أناس بإمامهم﴾، قال: «يدعى أحدهم فيعطى كتابه بيمينه، ويمد له في جسمه، ويبيض وجهه، ويجعل على رأسه تاج من لؤلؤة يتلأأ، فينطلق إلى أصحابه فيرونه من بعيد فيقولون: اللهم أتنا بهذا، وبارك لنا في هذا، فيأتيهم فيقول لهم: أبشروا فإن لكل رجل منكم مثل هذا، وأما الكافرون فيسود وجهه ويمد له في جسمه، ويراه أصحابه فيقولون: نعوذ بالله من هذا أو من شر هذا، اللهم لا تأتنا به، فيأتيهم فيقولون: اللهم اخزه، فيقول: أبعدكم الله فإن لكل رجل منكم مثل هذا»^(٢). وقوله تعالى: ﴿ومن كان في هذه أعمى﴾ أي في الحياة الدنيا ﴿أعمى﴾ أي عن حجة الله وآياته وبيناته، ﴿فهو في الآخرة أعمى﴾ أي كذلك يكون ﴿وأضل سبيلاً﴾ أي وأضل منه كما كان في الدنيا، عياداً بالله من ذلك.

وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذَا لَا تَخَذُوكَ خَلِيلاً ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْعًا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذَا لَا ذَقْنَكَ ضَعْفَ الْحَيَوةِ وَضَعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾

يخبر تعالى عن تأييده رسوله صلوات الله عليه وسلامه وتثبيتته وعصمته وسلامته من شر الأشرار وكيد الفجّار، وأنه تعالى هو المتولي أمره ونصره، وأنه لا يكله إلى أحد من خلقه، بل هو وليه وحافظه وناصره، ومظهر دينه على من عاداه وخالفه وناواه في مشارق الأرض ومغاربها ﷺ تسليماً كثيراً إلى يوم الدين.

(١) وهو قول أبي العالية والحسن والضحاك. (٢) أخرج الحافظ أبو بكر البزار.

وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبَثُونَ خَلْفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةً مَن قَدْ
أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا نَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾

قيل: نزلت في اليهود حين أتوا رسول الله ﷺ فقالوا: يا أبا القاسم إن كنت صادقاً أنك نبي فالحق بالشام، فإن الشام أرض المحشر، وأرض الأنبياء، فغزا غزوة تبوك لا يريد إلا الشام، فلما بلغ تبوك أنزل الله عليه: ﴿ وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ﴾ فأمره الله بالرجوع إلى المدينة، وقال: فيها محياك ومماتك ومنها تبعث^(١). وقيل: نزلت في كفار قريش لما هوا بإخراج رسول الله ﷺ من بين أظهرهم فتوعدهم الله بهذه الآية، وأنهم لو أخرجوه لما لبثوا بعده بمكة إلا يسيراً، وكذلك وقع فإنه لم يكن بعد هجرته من بين أظهرهم بعد ما اشتد أذاهم له إلا سنة ونصف، حتى جمعهم الله وإياه بيدر على غير ميعاد، فأمكنه منهم وسلطه عليهم وأظفره بهم، فقتل أشرافهم وسبى ذراريهم، ولهذا قال تعالى: ﴿ سُنَّةً مَن قَدْ أَرْسَلْنَا ﴾ الآية أي هكذا عادتنا في الذين كفروا برسولنا وأذوهم بخروج الرسول من بين أظهرهم يأتيهم العذاب، ولولا أنه صلى الله تعالى عليه وسلم رسول الرحمة لجاهم من النقم في الدنيا ما لا قبل لأحد به، قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ ﴾ الآية .

أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾

يقول تبارك وتعالى لرسوله ﷺ آمراً له بإقامة الصلوات المكتوبات في أوقاتها: ﴿ أقم الصلاة لدلوك الشمس ﴾ قيل: لغروبها^(٢)، وقال ابن عباس: دلوكها زوالها^(٣)، فعلى هذا تكون هذه الآية دخل فيها أوقات الصلوات الخمس، فمن قوله ﴿ لدلوك الشمس إلى غسق الليل ﴾ وهو ظلامه؛ أخذ منه الظهر والعصر والمغرب والعشاء، وقوله: ﴿ وقرآن الفجر ﴾ يعني صلاة الفجر؛ وقد ثبتت السنة عن رسول الله ﷺ تواتراً من أفعاله وأقواله بتفاصيل هذه الأوقات على ما عليه أهل الإسلام اليوم مما تلقوه خلفاً عن سلف وقرناً بعد قرن كما هو مقرر في مواضعه والله الحمد، ﴿ إن قرآن الفجر كان مشهوداً ﴾ قال: تشهد ملائكة الليل وملائكة النهار، وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: « فضل صلاة الجميع على صلاة الواحد خمس وعشرون درجة، وتجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار في صلاة الفجر ». يقول أبو هريرة: اقرأوا إن شئتم ﴿ وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهوداً ﴾^(٤). وعن أبي هريرة، عن النبي ﷺ في قوله ﴿ وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهوداً ﴾ قال: « تشهد ملائكة الليل وملائكة النهار »^(٥).

(١) أخرجه البيهقي عن عبد الله بن غنم، قال ابن كثير: وفي إسناده نظر، لأن النبي ﷺ غزا تبوك عن أمر الله لا عن أم اليهود.

(٢) قاله ابن مسعود ومجاهد وابن زيد.

(٣) رواه نافع عن ابن عمر، وبه قال الحسن والضحاك وقتادة وهو الأظهر.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه.

(٥) أخرجه أحمد والترمذي والنسائي وابن ماجه.

وفي الصحيحين عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال : « يتعاقبون فيكم ، ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ، ويجتمعون في صلاة الصبح ، وفي صلاة العصر ، فيعرج الذين باتوا فيكم فيسألهم ربهم - وهو أعلم بكم - كيف تركتم عبادي ؟ فيقولون : أتيناهم وهم يصلون ، وتركناهم وهم يصلون »^(١) . وقال عبد الله بن مسعود : يجتمع الحرسان في صلاة الفجر ، فيصعد هؤلاء ويقيم هؤلاء . وقوله تعالى : ﴿ ومن الليل فتهجد به نافلة لك ﴾ أمر له بقيام الليل بعد المكتوبة ، كما ورد عن رسول الله ﷺ أنه سئل أي الصلاة أفضل بعد المكتوبة ؟ قال : « صلاة الليل »^(٢) ، ولهذا أمر تعالى رسوله بعد المكتوبات بقيام الليل ، فإن التهجد ما كان بعد نوم^(٣) ، وهو المعروف في لغة العرب ، وكذلك ثبتت الأحاديث عن رسول الله ﷺ أنه كان يتهجد بعد نومه ، وقال الحسن البصري : هو ما كان بعد العشاء ، ويحمل على ما كان بعد النوم ، واختلف في معنى قوله تعالى : ﴿ نافلة لك ﴾ ، فقيل : معناه أنك مخصوص بوجوب ذلك وحسدك ، فجعلوا قيام الليل واجباً في حقه دون الأمة ، رواه العوفي عن ابن عباس واختاره ابن جرير ، وقيل : إنما جعل قيام الليل في حقه نافلة على الخصوص ، لأنه قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، وغيره من أمته إنما يكفر عن صلواته النوافل الذنوب التي عليه

وقوله تعالى : ﴿ عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً ﴾ أي افعل هذا الذي أمرتك به لنقيمك يوم القيامة مقاماً محموداً ، يحمدك فيه الخلائق كلهم ، وخالقهم تبارك وتعالى ، قال ابن جرير : قال أكثر أهل التأويل ، ذلك هو المقام الذي يقومه محمد ﷺ يوم القيامة للشفاعة للناس ، ليريحهم ربهم من عظيم ما هم فيه من شدة ذلك اليوم ، عن حذيفة قال : يجمع الناس في صعيد واحد يسمعون الداعي ، وينفذهم البصر ، حفاة عراة كما خلقوا ، قياماً لا تكلم نفس إلا بإذنه ، ينادى : يا محمد « يقول : لبيك وسعديك ، والخير في يديك ، والشر ليس إليك ، والمهدي من هديت ، وعبدك بين يديك ومنك وإليك ، لا منجى ولا ملجأ منك إلا إليك ، تباركت وتعاليت سبحانك رب البيت » . فهذا المقام المحمود الذي ذكره الله عز وجل ، وقال ابن عباس : المقام المحمود مقام الشفاعة ، وكذا قال مجاهد والحسن البصري ، وقال قتادة : هو أول من تنشق عنه الأرض يوم القيامة وأول شافع ، وكان أهل العلم يرون أنه المقام المحمود . قلت : لرسول الله ﷺ تشريفات يوم القيامة لا يشركه فيها أحد ، وتشريفات لا يساويه فيها أحد ، فهو أول من تنشق عنه الأرض ويبعث ركباً إلى المحشر ، وله اللواء الذي آدم فن دونه تحت لوائه ، وله الحوض الذي ليس في الموقف أكثر وارداً منه ، وله الشفاعة العظمى عند الله ليأتي لفصل القضاء بين الخلائق ، وذلك بعد ما يسأل الناس آدم ثم نوحاً ثم إبراهيم ثم موسى ثم عيسى ، فكل يقول : لست لها ، حتى يأتوا إلى محمد ﷺ فيقول : « أنا لها ، أنا لها » ، كما سندر ذلك مفصلاً في هذا الموضوع إن شاء الله تعالى ، ومن ذلك أنه يشفع في أقوام قد أمر بهم إلى النار فيردون عنها ، وهو أول الأنبياء يقضى بين أمته ، وأولهم إجازة على الصراط بأمته ، وهو أول شفيع في الجنة ، وهو أول داخل إليها وأمته قبل الأمم كلهم ، ويشفع في رفع درجات أقوام لا تبلغها أعمالهم ، وهو صاحب الوسيلة التي هي أعلى منزلة في الجنة لا تليق إلا له ، وإذا أذن الله تعالى في الشفاعة للعصاة

(١) أخرجه البخاري ومسلم . (٢) أخرجه مسلم عن أبي هريرة .

(٣) قاله علقمة والأسود وإبراهيم النخعي وغير واحد .

شفع الملائكة والنبيون والمؤمنون، فيشفع هو في خلائق لا يعلم عدتهم إلا الله تعالى، ولا يشفع أحد مثله ولا يساويه في ذلك. ولنذكر الآن الأحاديث الواردة في المقام المحمود وبالله المستعان.

روى البخاري، عن ابن عمر قال: إن الناس يصيرون يوم القيامة جثاء، كل أمة تتبع نبيها يقولون: يا فلان اشفع، يا فلان اشفع، حتى تنتهي الشفاعة إلى محمد ﷺ، فذلك يوم يبعثه الله مقاماً محموداً. وفي رواية: «إن الشمس لتندنو حتى يبلغ العرق نصف الأذن، فبينما هم كذلك استغاثوا بآدم، فيقول: لست بصاحب ذلك، ثم بموسى فيقول كذلك، ثم بمحمد ﷺ فيشفع بين الخلق، فيمشي حتى يأخذ بحلقه باب الجنة، فيومئذ يبعثه الله مقاماً محموداً، يحمده أهل الجمع كلهم. وعن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال: «من قال حين يسمع النداء: اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمداً الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته، حلت له شفاعتي يوم القيامة»^(١) وعن أبي بن كعب، عن النبي ﷺ قال: «إذا كان يوم القيامة كنت إمام الأنبياء وخطيبهم وصاحب شفاعتهم غير فخر»^(٢).

حديث أنس بن مالك، عن النبي ﷺ قال: «يجتمع المؤمنون يوم القيامة فيلهمون ذلك، فيقولون: لو شفعنا إلى ربنا فأراحنا من مكاننا هذا، فيأتون آدم فيقولون: يا آدم أنت أبو البشر، خلقك الله بيده، وأسجد لك ملائكته، وعلمك أسماء كل شيء، فاشفع لنا إلى ربك حتى يريحنا من مكاننا هذا. فيقول لهم آدم: لست هناكم، ويذكر ذنبه الذي أصاب، فيستحيي ربه عز وجل من ذلك، ويقول: ولكن ائتوا نوحاً فإنه أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض، فيأتون نوحاً، فيقول: لست هناكم، ويذكر خطيئة سؤاله ربه ما ليس له به علم، فيستحيي ربه من ذلك، ويقول: ولكن ائتوا إبراهيم خليل الرحمن فيأتوه، فيقول: لست هناكم، ولكن ائتوا موسى عبداً كلمه الله وأعطاه التوراة، فيأتون موسى فيقول: لست هناكم، ويذكر لهم النفس التي قتل بغير نفس، فيستحيي ربه من ذلك، ويقول: ولكن ائتوا عيسى، عبد الله وكلمته وروحه، فيأتون عيسى فيقول: لست هناكم، ولكن ائتوا محمداً غفر الله ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فيأتوني - قال الحسن هذا الحرف - فأقوم فأمشي بين سماطين من المؤمنين، قال أنس: حتى استأذن على ربي، فإذا رأيت ربي وقعت له - أو خررت - ساجداً لربي، فيدعني ما يشاء الله أن يدعني، قال، ثم يقال: ارفع محمد، قل تسمع، واشفع تشفع، وسل تعطه؛ فأرفع رأسي فأحمده بتحميد يعلمنيه، ثم أشفع فيحد لي حداً، فأدخلهم الجنة، ثم أعود إليه الثانية، فإذا رأيت ربي وقعت له - أو خررت - ساجداً لربي فيدعني ما شاء الله أن يدعني، ثم يقال: ارفع محمد، قل تسمع، وسل تعطه، واشفع تشفع، فأحمده بتحميد يعلمنيه ثم أشفع، فيحد لي حداً فأدخلهم الجنة، قال: ثم أعود الثالثة، فإذا رأيت ربي وقعت - أو خررت - ساجداً لربي، فيدعني ما شاء الله أن يدعني، ثم يقال: ارفع محمد، قل تسمع، وسل تعطه، واشفع تشفع، فأرفع رأسي فأحمده بتحميد يعلمنيه، ثم أشفع فيحد لي حداً، فأدخلهم الجنة، ثم أعود الرابعة فقال: يارب ما بقي إلا من حبسه القرآن». فحدثنا أنس بن مالك، أن النبي ﷺ قال: «فيخرج من النار من قال لا إله إلا الله، وكان في قلبه من الخير ما يزن شعيرة، ثم يخرج من النار من قال لا إله

(١) أخرجه البخاري عن جابر بن عبد الله.

(٢) أخرجه أحمد والترمذي وابن ماجه عن أبي بن كعب.

إلا الله، وكان في قلبه من الخير ما يزن برة، ثم يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وكان في قلبه من الخير ما يزن ذرة»^(١).

(الثاني) حديث كعب بن مالك رضي الله عنه: عن كعب بن مالك، أن رسول الله ﷺ قال: «يبعث الناس يوم القيامة فأكون أنا وأمتي على تل، ويكسوني ربي عز وجل حلة خضراء، ثم يؤذن لي، فأقول ما شاء الله أن أقول، فذلك المقام المحمود»^(٢).

(الثالث) حديث أبي الدرداء رضي الله عنه: عن أبي الدرداء، قال، قال رسول الله ﷺ: «أنا أول من يؤذن له بالسجود يوم القيامة، وأنا أول من يؤذن له أن يرفع رأسه، فأنظر إلى ما بين يدي فأعرف أمتي من بين الأمم، ومن خلني مثل ذلك، وعن يميني مثل ذلك، وعن شمالي مثل ذلك»، فقال رجل: يا رسول الله، كيف تعرف أمتك من بين الأمم فيما بين نوح إلى أمتك؟ قال: «هم غر محجلون من أثر الوضوء، ليس أحد كذلك غيرهم، وأعرفهم أنهم يؤتون كتبهم بأيامهم، وأعرفهم تسعى من بين أيديهم ذريتهم»^(٣).

(الرابع) حديث أبي هريرة رضي الله عنه: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أتى رسول الله ﷺ بلحم فرفع إليه الذراع، وكانت تعجبه فنهش منها نهشة ثم قال: «أنا سيد الناس يوم القيامة، وهل تدرون مم ذاك؟ يجمع الله الأولين والآخريين في صعيد واحد، يسمعهم الداعي وينفذهم البصر، وتدنو الشمس فيبلغ الناس من الغم والكره ما لا يطيقون ولا يحتملون، فيقول بعض الناس لبعض: ألا ترون ما أنتم فيه مما قد بلغكم، ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربكم؟ فيقول بعض الناس لبعض: عليكم بآدم عليه السلام، فيقولون: يا آدم أنت أبو البشر خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأمر الملائكة فسجدوا لك، فاشفع لنا إلى ربك ألا ترى ما نحن فيه، ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول آدم: ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنه قد نهاني عن الشجرة فعصيت، نفسي نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى نوح، فيأتون نوحاً فيقولون: يا نوح أنت أول الرسل إلى أهل الأرض، وقد سماك الله عبداً شكوراً، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه، ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول نوح: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله قط، وإنه قد كان لي دعوة دعوتها على قومي، نفسي نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى إبراهيم؛ فيأتون إبراهيم فيقولون: يا إبراهيم أنت نبي الله وخليته من أهل الأرض، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه، ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، فذكر كذباته، نفسي نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى موسى؛ فيأتون موسى عليه السلام فيقولون: يا موسى أنت رسول الله، اصطفاك الله برسالاته وبكلامه على الناس، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه، ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول لهم موسى: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإني قد قتلت نفساً لم أؤمر بقتلها،

(١) أخرجه في الصحيحين ورواه أحمد واللفظ له .

(٢) أخرجه الإمام أحمد عن كعب بن مالك .

(٣) أخرجه أحمد أيضاً عن أبي الدرداء .

نفسى نفسى نفسى، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى عيسى؛ فيأتون عيسى، فيقولون: يا عيسى أنت رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، وكلمت الناس في المهدي صبياً، فاشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه، ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول لهم عيسى: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله، ولم يذكر ذنباً، نفسى نفسى نفسى، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى محمد ﷺ؛ فيأتون محمداً ﷺ، فيقولون: يا محمد أنت رسول الله وخاتم الأنبياء، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، فاشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه، ألا ترى ما قد بلغنا؟ فأقوم فأتي تحت العرش، فأقع ساجداً لربي عز وجل، ثم يفتح الله علي ويلهمني من محامده وحسن الثناء عليه ما لم يفتحني على أحد قبلي، فيقال: يا محمد ارفع رأسك وسل تعطه، واشفع تشفع، فأرفع رأسي، فأقول: أمي يارب، أمي يارب، أمي يارب؟ فيقال: يا محمد، أدخل من أمتك من لا حساب عليه من الباب الأيمن من أبواب الجنة، وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب، ثم قال: والذي نفسي محمد بيده، إن ما بين المصراعين من مصاريع الجنة كما بين مكة وهجر، أو كما بين مكة وبصرى»^(١).

وفي صحيح مسلم رحمه الله، قال رسول الله ﷺ: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة وأول من ينشق عنه القبر يوم القيامة، وأول شافع وأول مشفع». وعن النبي ﷺ في قوله تعالى ﴿عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً﴾ قال: «هو المقام الذي أشفع لأمتي فيه». وفي الحديث: «إذا كان يوم القيامة مد الله الأرض مد الأديم، حتى لا يكون لبشر من الناس إلا موضع قدميه - قال النبي ﷺ - فأكون أول من يدعى وجبريل عن يمين الرحمن تبارك وتعالى - والله ما رآه قبلها - فأقول: أي رب إن هذا أخبرني أنك أرسلته إلي، فيقول الله عز وجل صدق، ثم أشفع فأقول يارب عبادك عبدوك في أطراف الأرض، قال فهو المقام المحمود»^(٢).

وَقُلْ رَبِّ ادْخُلْنِيْ مُدْخَلَ صِدْقٍ وَاَخْرِجْنِيْ مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاَجْعَلْ لِيْ مِنْ لَّدُنْكَ سُلْطٰنًا نَّصِيْرًا ﴿٨٠﴾ وَقُلْ جَاۗءَ الْحَقُّ وَزَهَّقَ الْبٰطِلُ اِنَّ الْبٰطِلَ كَانَ زَهُوْقًا ﴿٨١﴾

عن ابن عباس قال: كان النبي ﷺ بمكة ثم أمر بالهجرة، فأنزل الله: ﴿وقل رب ادخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق واجعل لي من لَدُنْكَ سلطاناً نصيراً﴾، وقال الحسن البصري: إن كفار أهل مكة لما ائتمروا برسول الله ﷺ ليقتلوه أو يطردوه أو يوثقوه، فأراد الله قتال أهل مكة، أمره أن يخرج إلى المدينة، فهو الذي قال الله عز وجل: ﴿وقل رب ادخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق﴾ الآية. وقال قتادة: ﴿ادخلني مدخل صدق﴾ يعني المدينة ﴿وأخرجني مخرج صدق﴾ يعني مكة، وكذا قال عبد الرحمن بن زيد، وهذا القول هو أشهر الأقوال، وهو اختيار ابن جرير، وقوله: ﴿واجعل لي من لَدُنْكَ سلطاناً نصيراً﴾ قال الحسن البصري: وعده ربه ليتزعن ملك فارس وعز فارس، وليجعلنه له، وملك الروم وعز الروم وليجعلنه له. وقال قتادة: إن نبي

(١) أخرجه البخاري ومسلم وأحمد عن أبي هريرة مرفوعاً.

(٢) أخرجه عبد الرزاق، وهو حديث مرسل.

الله ﷺ علم أن لا طاقة له بهذا الأمر إلا بسلطان، فسأل سلطاناً نصيراً لكتاب الله، ولحدود الله، ولفرائض الله، ولإقامة دين الله؛ فإن السلطان رحمة من الله، جعله بين أظهر عباده، ولولا ذلك لأغار بعضهم على بعض فأكل شديدتهم ضعيفهم، قال مجاهد: ﴿سلطاناً نصيراً﴾ حجة بينة، واختار ابن جرير الأول، لأنه لا بد مع الحق من قهر، لمن عاداه وناوأه، ولهذا يقول تعالى: ﴿لقد أرسلنا رسلاً بالبينات - إلى قوله - وأنزلنا الحديد﴾ الآية. وفي الحديث: «إن الله لنيزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن». أي ليمنع بالسلطان عن ارتكاب الفواحش والآثام ما لا يمتنع كثير من الناس بالقرآن، وما فيه من الوعيد الأكد والتهديد الشديد، وهذا هو الواقع، وقوله: ﴿وقل جاء الحق وزهق الباطل﴾ تهديد ووعيد لكفار قريش، فإنه قد جاءهم من الله الحق الذي لا مرية فيه، ولا قبل لهم به، وهو ما بعثه الله به من القرآن والإيمان، والعلم النافع وزهق باطلهم: أي اضمحل وهلك، فإن الباطل لا ثبات له مع الحق ولا بقاء ﴿بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق﴾. عن عبد الله بن مسعود قال: دخل النبي ﷺ مكة وحول البيت ستون وثلاثمائة نصب، فجعل يطعنها يعود في يده ويقول: «جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً، جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد»^(١). وقال الحافظ أبو يعلى، عن جابر رضي الله عنه قال: دخلنا مع رسول الله ﷺ مكة وحول البيت ثلاثمائة وستون صنماً تُعبد من دون الله، فأمر بها رسول الله ﷺ فأكبت على وجوهها، وقال: «جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً».

﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ الْقُرْآنِ مَاهُوشِفَاءً وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ۗ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ۝٨٢﴾

يقول تعالى مخبراً عن كتابه الذي أنزله على رسوله محمد ﷺ، إنه شفاء ورحمة للمؤمنين، أي يذهب ما في القلوب من أمراض من شك ونفاق، وشرك وزيف وميل، فالقرآن يشفي من ذلك كله. وهو أيضاً رحمة، يحصل فيها الإيمان والحكمة وطلب الخير والرغبة فيه، وليس هذا إلا لمن آمن به وصدقته، واتبعه، فإنه يكون شفاء في حقه ورحمة، وأما الكافر الظالم نفسه بذلك؛ فلا يزيده سماعه القرآن إلا بعداً وكفراً، والآفة من الكافر لا من القرآن، كقوله تعالى: ﴿قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى أولئك ينادون من مكان بعيد﴾. وقال تعالى: ﴿فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون * وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون﴾، قال قتادة: إذا سمعه المؤمن انتفع به وحفظه ووعاه ﴿ولا يزيده الظالمين إلا خساراً﴾: أي لا ينتفع به ولا يحفظه ولا يعيه، فإن الله جعل هذا القرآن شفاء ورحمة للمؤمنين.

﴿ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ ۗ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا ۝٨٣﴾ قُلْ كُلُّ يَعْمَلُ عَلَىٰ

شَاكِلَتِهِ ۗ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ۝٨٤﴾

يخبر تعالى عن نقص الإنسان من حيث هو، إلا من عصمه الله تعالى في حالتي السراء والضراء، فإنه إذا أنعم الله عليه بمال وعافية وفتح ورزق ونصر، ونال ما يريد، أعرض عن طاعة الله وعبادته، ونأى بجانبه. قال مجاهد:

(١) أخرجه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي .

بَعْدَ عَنَا، وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ﴾، وبأنه إذا مسه الشر وهو المصائب والحوادث والنوابغ ﴿كَانَ يَتُوسَّأُ﴾ أي قنط أن يعود، يحصل له بعد ذلك خير، كقوله تعالى: ﴿وَلِئِنْ أَدْقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَتُوسَّسُ كُفُورًا * وَلِئِنْ أَدْقْنَاهُ نَعْمَاءً بَعْدَ ضَرَاءٍ مَسْتَه، لَيَقُولُنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحَ فَخُورًا﴾، وقوله تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ﴾ قال ابن عباس: على ناحيته، وقال مجاهد: على حدته وطبيعته، وقال قتادة: على نيته، وقال ابن زيد: على دينه، وكل هذه الأقوال متقاربة في المعنى، وهذه الآية - والله أعلم - تهديد للمشركين ووعيد لهم، كقوله تعالى: ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ الآية. ولهذا قال: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا﴾ أي منا ومنكم، وسيجزى كل عامل بعمله، فإنه لا تخفى عليه خافية .

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾

عن عبد الله هو ابن مسعود رضي الله عنه، قال: كنت أمشي مع رسول الله ﷺ في حرث في المدينة وهو متوكئ على عسيب، فر يقوم من اليهود، فقال بعضهم لبعض: سلوه عن الروح، وقال بعضهم: لا تسألوه، قال: فسألوه عن الروح، فقالوا: يا محمد ما الروح؟ فزال متوكئاً على العسيب، قال: فظننت أنه يوحى إليه، فقال: ﴿ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً﴾ قال، فقال بعضهم لبعض: قد قلنا لكم لا تسألوه^(١). وهذا السياق يقتضي أن هذه الآية مدنية، وأنها نزلت حين سأله اليهود عن ذلك بالمدينة، مع أن السورة كلها مكية. وقد يجاب عن هذا بأنه قد تكون نزلت عليه بالمدينة مرة ثانية، كما نزلت عليه بمكة قبل ذلك، أو أنه نزل عليه الوحي بأنه يجيبهم عما سأله بالآية المتقدم إنزالها عليه، وهي هذه الآية ﴿ويسألونك عن الروح﴾، ومما يدل على نزول هذه الآية بمكة، ما قال الإمام أحمد، عن ابن عباس قال: قالت قريش لليهود: أعطونا شيئاً نسأل عنه هذا الرجل، فقالوا سلوه عن الروح، فسألوه فترلت: ﴿ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً﴾ قالوا: أوتينا علماً كثيراً، أوتينا التوراة، ومن أوتي التوراة فقد أوتي خيراً كثيراً، قال، وأنزل الله: ﴿قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر﴾ الآية. وقد روى ابن جرير عن عكرمة قال: سأل أهل الكتاب رسول الله ﷺ عن الروح، فأنزل الله ﴿ويسألونك عن الروح﴾ الآية، فقالوا: تزعم أنا لم نؤت من العلم إلا قليلاً وقد أوتينا التوراة وهي الحكمة ﴿ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً﴾. قال: فترلت: ﴿ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله﴾ الآية .

وقال محمد بن إسحاق، عن عطاء بن يسار قال: نزلت بمكة ﴿وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً﴾، فلما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة، أتاه أحبار يهود، وقالوا: يا محمد! ألم يبلغنا عنك أنك تقول ﴿وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً﴾ أفعنيتنا أم عنيت قومك؟ فقال: «كلاً قد عنيت»، فقالوا: إنك تتلو أنا أوتينا التوراة، وفيها تبيان كل شيء فقال رسول الله ﷺ: «هي في علم الله قليل وقد أتاكم الله ما إن علمتم به انتفعتم». وأنزل الله: ﴿ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله إن الله عزيز حكيم﴾،

(١) أخرجه البخاري ورواه أحمد واللفظ له عن عبد الله بن مسعود .

وقد اختلف المفسرون في المراد بالروح ههنا على أقوال : (أحدها) أن المراد أرواح بني آدم ، عن ابن عباس أن اليهود قالوا للنبي ﷺ أخبرنا عن الروح وكيف تعذب الروح التي في الجسد؟ ولم يكن نزل عليه فيه شيء ، فأتاه جبريل فقال له : ﴿ قل الروح من أمر ربي ، وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً ﴾ . فأخبرهم النبي ﷺ بذلك . فقالوا : من جاءك بهذا ؟ قال : « جاءني به جبريل من عند الله » ، فقالوا له : والله ما قاله لك إلا عدونا ، فأنزل الله : ﴿ قل من كان عدواً لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله مصدقاً لما بين يديه ﴾ ، وقيل : المراد بالروح ههنا جبريل ، قاله قتادة ، وقيل : المراد به ههنا ، ملك عظيم بقدر المخلوقات كلها .

وقوله تعالى : ﴿ قل الروح من أمر ربي ﴾ : أي من شأنه ، ومما استأثر بعلمه دونكم ، ولهذا قال : ﴿ وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً ﴾ أي وما أطلعكم من علمه إلا على القليل ، فإنه لا يحيط أحد بشيء من علمه إلا بما شاء تبارك وتعالى ، والمعنى أن علمكم في علم الله قليل ، وهذا الذي تسألون عنه من أمر الروح مما استأثر به تعالى ولم يطلعكم عليه ، كما أنه لم يطلعكم إلا على القليل من علمه تعالى . وسيأتي إن شاء الله في قصة موسى والخضر ، أن الخضر قال : يا موسى ما علمي وعلمك وعلم الخلائق في علم الله إلا كما أخذ هذا العصفور من هذا البحر ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً ﴾ . وقال السهيلي ، قال بعض الناس : لم يجيبهم عما سألوهم لأنهم سألوهم على وجه التعنت ، وقيل أجابهم ، ثم ذكر السهيلي : الخلاف بين العلماء في أن الروح هي النفس أو غيرها ، وقرر : أنها ذات لطيفة كالهواء سارية في الجسد كسريان الماء في عروق الشجر ، وحاصل القول : إن الروح هي أصل النفس ومادتها ، والنفس مركبة منها ومن اتصالها بالبدن ، فهي هي من وجه ، لا من كل وجه ، وهذا معنى حسن ، والله أعلم .

وَلَكِنْ شِئْنَا لَنُدْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾ قُل لِّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾

يذكر تعالى نعمته وفضله العظيم على عبده ورسوله الكريم ، ﷺ فيما أوحاه إليه من القرآن المجيد الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ، ثم نبه تعالى على شرف هذا القرآن العظيم فأخبر أنه لو اجتمعت الإنس والجن كلهم وانفقوا على أن يأتوا بمثل ما أنزله على رسوله لما أطاقوا ذلك ولما استطاعوه ، ولو تعاونوا وتساعدوا وتظافروا فإن هذا أمر لا يستطيع ، وكيف يشبه كلام المخلوقين كلام الخالق الذي لا نظير له ولا مثال ولا عديل ؟ وقوله : ﴿ ولقد صرفنا للناس في هذا القرآن من كل مثل فأبى أكثر الناس إلا كفوراً ﴾ الحق وشرحناه وبسطناه ، ومع هذا ﴿ فأبى أكثر الناس إلا كفوراً ﴾ أي جحوداً للحق ، ورداً للصواب .

وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن تَحْتِهَا عَيْنٌ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَافَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَّمْتَ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِي بِنَا إِلَهُ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ

بَيْتٍ مِّنْ زُحْرٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُفَيْكَ حَتَّى تَنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ﴿٩٣﴾

قال ابن جرير عن ابن عباس : إن عتبة وشيبة ابني ربيعة، وأبا سفيان بن حرب، وأبا البختری، والوليد ابن المغيرة، وأبا جهل بن هشام، وعبدالله بن أبي أمية، وأمیه بن خلف، والعاص بن وائل، اجتمعوا بعد غروب الشمس عند ظهر الكعبة، فقال بعضهم لبعض: ابعثوا إلى محمد فكلموه وخاصموه حتى تعذروا فيه، فبعثوا إليه أن أشرف قومك قد اجتمعوا لك ليكلموك، فجاءهم رسول الله ﷺ وهو يظن أنه قد بدا لهم في أمره بداء، وكان عليهم حريصاً يحب رشدهم ويعز عليه عنتهم، حتى جلس إليهم فقالوا: يا محمد، إنا قد بعثنا إليك لنعذر فيك، وإنا والله ما نعلم رجلاً من العرب أدخل على قومه ما أدخلت على قومك، لقد شتمت الآباء، وعبت الدين، وسفهت الأحلام، وشتمت الآلهة، وفرقت الجماعة، فما بقي من قبيح إلا وقد جثته فيما بيننا وبينك، فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب به مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت إنما تطلب الشرف فينا سوذناك علينا، وإن كنت تريد ملكاً ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك بما يأتيك رثياً تراه قد غلب عليك - وكانوا يسمون التابع من الجن الرئي - فربما كان ذلك، بذلنا أموالنا في طلب الطب حتى نبرئك منه أو نعذر فيك. فقال رسول الله ﷺ: « ما بي ما تقولون، ما جئتكم بما جئتكم به أطلب أموالكم، ولا الشرف فيكم، ولا الملك عليكم، ولكن الله بعثني إليكم رسولاً، وأنزل علي كتاباً، وأمرني أن أكون لكم بشيراً ونذيراً، فبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم، فإن تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه عليّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم ». فقالوا: يا محمد فإن كنت غير قابل منا ما عرضنا عليك، فقد علمت أنه ليس أحد من الناس أضيع منا بلاداً، ولا أقل مالاً، ولا أشد عيشاً منا، فاسأل لنا ربك الذي بعثك بما بعثك به، فليسير عنا هذه الجبال التي قد ضيقت علينا، ولييسر لنا بلادنا، وليفجر فيها أنهاراً كأنهار الشام والعراق، وليبعث لنا من مضي من آبائنا، وليكن فيمن يبعث لنا، منهم (قصي بن كلاب) فإنه كان شيخاً صدوقاً، فنسألهم عما تقول حق هو أم باطل؟ فإن صنعت ما سألتك وصدقك صدقتك وعرفنا به منزلتك عند الله، وأنه بعثك رسولاً، كما تقول، فقال لهم رسول الله ﷺ: « ما بهذا بعثت، إنما جئتكم من عند الله بما بعثني به، فقد بلغتكم ما أرسلت به إليكم، فإن تقبلوه فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه عليّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم ». قالوا: فإن لم تفعل لنا هذا فخذ لنفسك فسل ربك أن يبعث ملكاً يصدقك بما تقول ويراجعنا عنك، وتساله فيجعل لك جنات وكنوزاً وقصوراً من ذهب وفضة ويغنيك بها عما نراك تبتغي، فإنك تقوم بالأسواق وتلتمس المعاش كما نلتمسه، حتى نعرف فضل منزلتك من ربك إن كنت رسولاً كما تزعم! فقال لهم رسول الله ﷺ: « ما أنا بفاعل، ما أنا بالذي يسأل ربه هذا، وما بعثت إليكم بهذا، ولكن الله بعثني بشيراً ونذيراً، فإن تقبلوا ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه عليّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم ». قالوا: فأسقط السماء كما زعمت أن ربك إن شاء فعل ذلك، فإننا لن نؤمن لك إلا أن تفعل. فقال لهم رسول الله ﷺ: « ذلك إلى الله إن شاء فعل بكم ذلك », فقالوا: يا محمد! أما علم ربك أنا سنجلس معك،

ونسألك عما سألتناك عنه، ونطلب منك ما نطلب، فيقدم إليك ويعلمك ما تراجعنا به، ويخبرك ما هو صانع في ذلك بنا إذا لم تقبل منك ما جئتنا به، فقد بلغنا أنه إنما يعلمك هذا رجل باليامة يقال له الرحمن، وإنا والله لا نؤمن بالرحمن أبداً، فقد أعذرتنا إليك يا محمد، أما والله لا تتركك وما فعلت بنا حتى نهلكك أو تهلكنا .

فلما قالوا ذلك، قام رسول الله ﷺ عنهم، وقام معه عبد الله بن أبي أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمر ابن مخزوم، وهو ابن عمته عاتكة ابنة عبد المطلب، فقال: يا محمد عرض عليك قومك ما عرضوا فلم تقبله منهم، ثم سألوك لأنفسهم أموراً ليعرفوا بها منزلتك من الله فلم تفعل ذلك، ثم سألوك أن تعجل لهم ما تخوفهم به من العذاب، فوالله لا أومن بك أبداً حتى تتخذ إلى السماء سلماً ثم ترقى فيه وأنا أنظر حتى تأتيها وتأتي معك بصحيفة منشورة، ومعك أربعة من الملائكة يشهدون لك أنك كما تقول، وإيم الله لو فعلت ذلك لظننت أنني لا أصدقك، ثم انصرف عن رسول الله ﷺ وانصرف رسول الله ﷺ إلى أهله حزينا أسفاً، لما فاته مما كان طمع فيه من قومه حين دعوه ولما رأى من مبادئهم إياه^(١). ولو علم الله منهم أنهم يسألون ذلك استرشاداً لأجيابوا إليه، ولكن علم أنهم إنما يطلبون ذلك كفراً وعناداً، فقبل لرسول الله ﷺ: إن شئت أعطيناكم ما سألوكم، فإن كفروا عذبتم عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين، وإن شئت فتحت عليهم باب التوبة والرحمة، فقال: « بل تفتح عليهم باب التوبة والرحمة » .

وقوله تعالى: ﴿ حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً ﴾ ينبوع: العين الجارية، سألوه أن يجري لهم عيناً معيناً في أرض الحجاز ههنا وههنا، وذلك سهل على الله تعالى يسير لو شاء لفعله ولأجابهم إلى جميع ما سألوهم وطلبوا، ولكن علم أنهم لا يهتدون، كما قال تعالى: ﴿ إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون * ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم ﴾ . وقوله تعالى: ﴿ أو تسقط السماء كما زعمت ﴾ أي أنك وعدتنا أن يوم القيامة تنشق فيه السماء وتهب وتدلي أطرافها فجعل ذلك في الدنيا، وأسقطها كسفاً، أي قطعاً، كذلك سأل قوم شعيب فقالوا: ﴿ أسقط علينا كسفاً من السماء إن كنت من الصادقين ﴾ ، فعاقبهم الله بعذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم، وأما نبي الرحمة المبعوث رحمة للعالمين فسأل إنظارهم وتأجيلهم، لعل الله يخرج من أصلابهم من يعبده لا يشرك به شيئاً، وكذلك وقع، فإن من هؤلاء الذين ذكروا من أسلم بعد ذلك وحسن إسلامه حتى (عبد الله بن أبي أمية) الذي تبع النبي ﷺ وقال له ما قال، أسلم إسلاماً تاماً وأتاب إلى الله عز وجل، وقوله تعالى: ﴿ أو يكون لك بيت من زخرف ﴾ . قال ابن عباس ومجاهد: هو الذهب، أي يكون لك بيت من ذهب، ﴿ أو ترقى في السماء ﴾ أي تصعد في سلم، ونحن ننظر إليك، ﴿ ولن تؤمن لرقيق حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه ﴾ ، قال مجاهد: أي مكتوب فيه، إلى كل واحد واحد صحيفة، هذا كتاب من الله لفلان بن فلان تصبغ موضوعة عند رأسه، وقوله تعالى: ﴿ قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولاً ﴾ أي سبحانه وتعالى وتقدس، أن يتقدم أحد بين يديه في أمر من أمور سلطانه وملكوته، بل هو الفعال لما يشاء، وما أنا إلا رسول إليكم أبلغكم رسالات ربي، وأنصح لكم، وأمركم فيما سألتكم إلى الله عز وجل، وعن أبي أمامة، عن النبي ﷺ قال: « عرض علي ربي عز وجل ليجعل لي بطحاء مكة

(١) أخرجه ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما .

ذهباً، فقلت: لا يارب ولكن أشيع يوماً وأجوع يوماً - أو نحو ذلك - فإذا جعت تضرعت إليك وذكرتك، وإذا شبعت حمدتك وشكرتك» (١).

* وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ﴿٩٤﴾ قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمشُونَ مَطْمَئِنِينَ لَنَزَلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًَا رَسُولًا ﴿٩٥﴾

يقول تعالى: ﴿وما منع الناس﴾ أي أكثرهم، ﴿أن يؤمنوا﴾ ويتابعوا الرسل، إلا استعجابهم من بعثة البشر رسلاً كما قال تعالى: ﴿أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس﴾؟ وقال تعالى: ﴿ذلك بأنه كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فقالوا أبشر يهدوننا﴾ الآية. وقال فرعون وملؤه: ﴿أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون﴾؟ وكذلك قالت الأمم لرسولهم: ﴿إن أنتم إلا بشر مثلنا تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا فأتونا بسلطان مبين﴾، والآيات في هذا كثيرة، ثم قال تعالى منهاً على لطفه ورحمته بعباده، أنه يبعث إليهم الرسول من جنسهم، ليفقهوا عنه ويفهموا منه، لتمكينهم من مخاطبته ومكالمته، ولو بعث إلى البشر رسولاً من الملائكة لما استطاعوا مواجهته، ولا الأخذ عنه، كما قال تعالى: ﴿كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون﴾، ولهذا قال ههنا: ﴿قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين﴾ أي كما أنتم فيها ﴿لنزلنا عليهم من السماء ملكاً رسولاً﴾ أي من جنسهم، ولما كنتم أنتم بشراً بعثنا فيكم رسلاً منكم لطفاً ورحمة.

* قُلْ كُنِيَ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾

يقول تعالى مرشداً نبيه ﷺ إلى الحجة على قومه، في صدق ما جاءهم به إنه شاهد علي وعليكم، عالم بما جتتكم به، فلو كنت كاذباً عليه لانتقم مني أشد الانتقام، كما قال تعالى: ﴿ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين﴾. وقوله ﴿إنه كان بعباده خبيراً بصيراً﴾: أي علماً بهم، بمن يستحق الإنعام والإحسان والهداية، بمن يستحق الشقاء والإضلال والإزاعة، ولهذا قال:

وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ ۗ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمِيًَّا ۖ وَبِكُمْ وَصَمًا مَّا وَلَّهُمْ جَهَنَّمَ كَمَا خَبَتِ زِدْنَهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾

يقول تعالى مخبراً عن تصرفه في خلقه ونفوذ حكمه، وأنه لا معقب له بأنه من يهده فلا مضل له، ومن يضلل فلن تجد لهم أولياء من دونه، أي يهدونهم، كما قال: ﴿من يهد الله فهو المهتد، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً﴾، وقوله: ﴿ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم﴾، عن أنس بن مالك: قيل يا رسول الله كيف يحشر

(١) رواه أحمد والترمذي، وقال الترمذي: حديث حسن.

الناس على وجوههم؟ قال: «الذي أمشاهم على أرجلهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم»^(١). وعن حذيفة بن أسيد، قال، قام أبو ذر فقال: يا بني غفار قولوا ولا تحلفوا فإن الصادق المصدوق حدثني: أن الناس يحشرون على ثلاثة أفواج، فوج راكبين طاعمين كاسين، وفوج يمشون ويسعون، وفوج تسحبهم الملائكة على وجوههم وتحشرهم إلى النار^(٢). وقوله ﴿عمياً﴾ أي لا يبصرون ﴿وبكماً﴾ يعني لا ينطقون ﴿وصماً﴾ لا يسمعون، وهذا يكون في حال دون حال، جزاء لهم كما كانوا في الدنيا، بكماً وعمياً وصماً عن الحق، فجزوا في محشرهم بذلك أحوج ما يحتاجون إليه، ﴿مأواهم﴾ أي منقلبهم ومصيرهم ﴿جهنم كلما خبت﴾ قال ابن عباس: سكنت، وقال مجاهد: طفت ﴿زدناهم سعيراً﴾ أي لهباً ووهجاً وجمراً، كما قال: ﴿فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذاباً﴾.

ذَلِكَ جَزَاءُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِبَيِّنَاتِنَا وَقَالُوا إِذْ كُنَّا عِظَمًا وَرَفْنَا أَيْنَا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ * أَو لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّارِيبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾

يقول تعالى هذا الذي جازيناهم به من البعث على العمى والبكم والصمم جزاؤهم الذي يستحقونه، لأنهم كذبوا ﴿بآياتنا﴾ أي بأدلتنا وحجتنا، واستبعدوا وقوع البعث، ﴿وقالوا أنذا كنا عظاماً ورفاتاً﴾، أي بالية نخرة ﴿أئنا لمبعوثون خلقاً جديداً﴾ أي بعد ما صرنا إلى ما صرنا إليه، من البلى والهلاك، والتفرق والذهاب في الأرض، نعاد مرة ثانية؟ فاحتج تعالى عليهم ونبههم على قدرته على ذلك بأنه خلق السماوات والأرض، فقدرته على إعادتهم أسهل من ذلك، كما قال: ﴿لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس﴾، وقال: ﴿أولم يروا أن الله الذي خلق السماوات والأرض، ولم يعي بخلقهن بقادر على أن يحيي الموتى﴾ الآية، وقال: ﴿أوليس الذي خلق السماوات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم﴾، وقال ههنا: ﴿أولم يروا أن الله الذي خلق السماوات والأرض قادر على أن يخلق مثلهم﴾ أي يوم القيامة يعيد أبدانهم وينشئهم نشأة أخرى، كما بدأهم، وقوله: ﴿وجعل لهم أجلاً لا ريب فيه﴾ أي جعل لإعادتهم وإقامتهم من قبورهم أجلاً مضروباً ومدة مقدره لا بد من انقضائها، كما قال تعالى: ﴿وما تؤخره إلا لأجل معدود﴾، وقوله: ﴿فأبى الظالمون﴾ أي بعد قيام الحجة عليهم ﴿إلا كفوراً﴾: إلا تمادياً في باطلهم وضلالهم.

* قُلْ لَوْ أَنَّكُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ نُتُورًا ﴿١٠٠﴾

يقول تعالى لرسوله صلوات الله وسلامه عليه، قل لهم يا محمد: لو أنكم أيها الناس تملكون التصرف في خزائن الله، لأمسكتم خشية الإنفاق، قال ابن عباس: أي الفقر، أي خشية أن تذهبوها، مع أنها لا تفرغ ولا تنفذ أبداً؛

(١) أخرجه الشيخان والإمام أحمد.

(٢) أخرجه الإمام أحمد.

لأن هذا من طبايعكم وسجاياكم، ولهذا قال: ﴿وكان الإنسان قتوراً﴾ قال ابن عباس وقتادة. أي بخيلاً منوعاً، وقال الله تعالى: ﴿أم لهم نصيب من الملك فإذا لا يؤتون الناس نقيراً﴾ أي لو أن لهم نصيباً في ملك الله لما أعطوا أحداً شيئاً، ولا مقدار نقير، والله تعالى يصف الإنسان من حيث هو إلا من وفقه الله وهداه، فإن البخل والجزع والهلع صفة له، كما قال تعالى: ﴿إن الإنسان خلق هلوعاً إذا مسه الشر جزوعاً وإذا مسه الخير منوعاً إلا المصلين﴾ ولهذا نظائر كثيرة في القرآن العزيز، ويدل هذا على كرمه وجوده وإحسانه. وقد جاء في الصحيحين: «يد الله ملأى لا يغيضها نفقة، سحاء الليل والنهار، أرأيتم ما أنفق منذ خلق السماوات والأرض فإنه لم يغيض ما في يمينه؟» .

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَسَعَلَ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَمُوسَى مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءَ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَنْفِرِعُونَ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ فَأَرَادَ أَنْ يَنْتَفِزَهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ أَسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾

يخبر تعالى أنه بعث موسى بتسع آيات بينات، وهي الدلائل القاطعة على صحة نبوته وصدقه، فيما أخبر به عن أرسله إلى فرعون، وهي «العصا، واليد، والسنين، والبحر، والظوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم» آيات مفصلات، قاله ابن عباس، وقال محمد بن كعب: هي اليد والعصا والخمس في الأعراف والطمس والحجر، وقال ابن عباس أيضاً ومجاهد: (هي يده، وعصاه، والسنين، ونقص الثمرات، والظوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم)، وهذا القول ظاهر جلي حسن قوي، وجعل الحسن البصري: السنين ونقص الثمرات واحدة؛ وعنده أن التسعة هي تلقف العصا ما يافكون، ﴿فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين﴾ أي ومع هذه الآيات ومشاهدتهم لها كفروا بها وجحدوا بها، واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً وما نجعت فيهم؛ فكذلك لو أجبنا هؤلاء الذين سألوها منك ما سألوها وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً إلى آخرها، لما استجابوا ولا آمنوا إلا أن يشاء الله، كما قال فرعون لموسى - وقد شاهد منه ما شاهد من هذه الآيات - ﴿إني لأظنك يا موسى مسحوراً﴾ قيل: بمعنى ساحر، والله تعالى أعلم. فهذه الآيات التسع التي ذكرها هؤلاء الأمة هي المرادة ههنا، وهي المعنية في قوله تعالى: ﴿وألق عصاك فلما رآها تهتراً كأنها جان وكى مدبراً ولم يعقب يا موسى لا تخف - إلى قوله في تسع آيات - إلى فرعون وقومه إنهم كانوا قوماً فاسقين﴾، فذكر هاتين الآيتين العصا واليد، وبين الآيات الباقيات في سورة الأعراف وفصلها، وقد أوتي موسى عليه السلام آيات أخر كثيرة: منها ضربه الحجر بالعصا، وخروج الماء منه، ومنها تظليلهم بالغمام، وإنزال المن والسلوى، وغير ذلك مما أوتيته بنو إسرائيل بعد مفارقتهم بلاد مصر، ولكن ذكر ههنا التسع الآيات التي شاهدها فرعون وقومه من أهل مصر، فكانت حجة عليهم، فخالقوها وعاندوها كفرةً وجحدواً .

ولهذا قال موسى لفرعون: ﴿لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر﴾ أي حججاً وأدلة

على صدق ما جئتكم به، ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ أي هالكاً، قاله مجاهد وقتادة، وقال ابن عباس: ملعوناً، وقال الضحَّاك ﴿مَثْبُورًا﴾: أي مغلوباً^(١)، والهالك كما قال مجاهد، يشمل هذا كله. ويدل على أن المراد بالتسع الآيات إنما هي ما تقدم ذكره من العصا واليد والسنين ونقص من الثمرات والظوفان والجراد والقمل والضفادع والدم، التي فيها حجج وبراهين على فرعون وقومه، وخوارق ودلائل على صدق موسى ووجود الفاعل المختار الذي أرسله، وقوله: ﴿فَأَرَادَ أَنْ يَنْتَفِزَهُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾ أي يخليهم منها ويزيلهم عنها ﴿فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا وَقَلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ﴾، وفي هذا بشارة لمحمد ﷺ بفتح مكة مع أن السورة مكية، نزلت قبل الهجرة وكذلك وقع فإن أهل مكة هموا بإخراج الرسول منها كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكُمْ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكُمْ مِنْهَا﴾ الآيتين، ولهذا أورد الله رسوله مكة فدخلها عنوة وقهر أهلها ثم أطلقهم حلاًماً وكرماً، كما أورد الله القوم الذين كانوا يستضعفون من بني إسرائيل مشارق الأرض ومغاربها، وأورثهم بلاد فرعون وأمواهم وزروعهم وثمارهم وكنوزهم، كما قال: كذلك وأورثناها بني إسرائيل، وقال ههنا: ﴿وَقَلْنَا مَنْ بَعْدَهُ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدَ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾ أي جميعكم أتم وعدوكم، قال ابن عباس: ﴿لَفِيفًا﴾ أي جميعاً^(٢).

* وَالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَّلَهُ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْتٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا ﴿١٠٦﴾

يقول تعالى مخبراً عن كتابه العزيز وهو القرآن المجيد، إنه بالحق نزل، أي متضمناً للحق، كما قال تعالى: ﴿لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ﴾ أي متضمناً علم الله الذي أراد أن يطلعكم عليه من أحكامه وأمره ونهيه، وقوله ﴿وبالحق نزل﴾ أي ونزل إليك يا محمد محفوظاً محروساً، لم يشب بغيره ولا زيد فيه، ولا نقص منه، بل وصل إليك بالحق فإنه نزل به شديد القوى، الأمين المكين المطاع في الملأ الأعلى، وقوله: ﴿وما أرسلناك﴾ أي يا محمد ﴿إلا مبشراً ونذيراً﴾ مبشراً لمن أطاعك من المؤمنين، ونذيراً لمن عصاك من الكافرين، وقوله: ﴿وقرآنًا فرقناه﴾ بالتخفيف، ومعناه فصلناه من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة من السماء الدنيا، ثم نزل مفراً منجماً في ثلاث وعشرين سنة، قاله ابن عباس، وعن ابن عباس ﴿فرقناه﴾ بالتشديد أي أنزلناه آية آية مبيناً مفسراً، ولهذا قال ﴿لتقرؤه على الناس﴾ أي لتبلغه الناس وتتلوه عليهم ﴿على مكث﴾ أي مهل ﴿ونزلناه تنزيلاً﴾ شيئاً بعد شيء.

قُلْ ءَأَمِنُوا بِهِ ءَوْ لَا تُؤْمِنُوا ۚ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتَىٰ عَلَيْهِمْ يَجِرُونَ ۚ لِلَّذِينَ كَفَرُوا جَزَاءٌ مِمَّا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحٰنَ رَبِّنَا ۚ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَجِرُونَ ۚ لِلَّذِينَ كَفَرُوا جَزَاءٌ مِمَّا كَانُوا يَكْفُرُونَ ۚ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿١٠٩﴾

(١) وهو قول لابن عباس أيضاً .

(٢) وهو قول مجاهد وقتادة والضحَّاك .

يقول تعالى لبيته محمد ﷺ ﴿ قل ﴾ يا محمد لهؤلاء الكافرين بما جنتهم به من هذا القرآن العظيم ﴿ آمنوا به أو لا تؤمنوا ﴾ أي سواء آمنتم به أم لا، فهو حق في نفسه أنزله الله، وتوه بذكره في كتبه المنزلة على رسله، ولهذا قال ﴿ إن الذين أتوا العلم من قبله ﴾ أي من صالح أهل الكتاب الذين تمسكوا بكتابتهم ولم يبدلوه ولا حرفوه ﴿ إذا يتلى عليهم ﴾ هذا القرآن ﴿ يخرون للأذقان ﴾ جمع ذقن، وهو أسفل الوجه ﴿ سجداً ﴾ أي لله عز وجل، شكراً على ما أنعم به عليهم، ولهذا يقولون ﴿ سبحان ربنا ﴾ أي تعظيماً وتوقيراً على قدرته التامة، وأنه لا يخلف الميعاد، ولهذا قالوا: ﴿ إن كان وعد ربنا لمفعولاً ﴾، وقوله: ﴿ ويخرون للأذقان يكون ﴾ أي خضوعاً لله عز وجل، وإيماناً وتصديقاً بكتابه ورسوله، ﴿ ويزيدهم خشوعاً ﴾ أي إيماناً وتسليماً، كما قال: ﴿ والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم ﴾ .

﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرُوا بِصَلَاتِكُمْ وَلَا تَخَافُوهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ۝١١٠ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَخْذَ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وِليٌّ مِّنَ الدَّلِّ وَكَبِيرُهُ تَكْبِيرًا ۝١١١﴾

يقول تعالى: ﴿ قل ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين المنكرين صفة الرحمة لله عز وجل، المانعين من تسميته بالرحمن، ﴿ ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيًّا ما تدعوا فله الأسماء الحسنى ﴾ أي لا فرق بين دعائكم له باسم ﴿ الله ﴾ أو باسم ﴿ الرحمن ﴾ فإنه ذو الأسماء الحسنى، كما قال تعالى: ﴿ له الأسماء الحسنى، يسبح له ما في السموات والأرض ﴾ الآية. وقد روى مكحول أن رجلاً من المشركين سمع النبي ﷺ وهو يقول في سجوده: « يا الرحمن يا رحيم »، فقال إنه يزعم أنه يدعو واحداً وهو يدعو اثنين فأنزل الله هذه الآية، وكذا روي عن ابن عباس رواهما ابن جرير^(١)، وقوله ﴿ ولا تجهر بصلواتك ﴾، عن ابن عباس قال: نزلت هذه الآية ورسول الله ﷺ متوار بمكة، ﴿ ولا تجهر بصلواتك ولا تخافت بها ﴾: قال كان إذا صلى بأصحابه رفع صوته بالقرآن، فلما سمع ذلك المشركون سبوا القرآن وسبوا من أنزله ومن جاء به، قال، فقال الله تعالى لبيته ﷺ: ﴿ ولا تجهر بصلواتك ﴾: أي بقراءتك فيسمع المشركون فيسبون القرآن، ﴿ ولا تخافت بها ﴾ عن أصحابك فلا تسمعهم القرآن حتى يأخذوه عنك، ﴿ وابتغ بين ذلك سبيلاً ﴾^(٢). وقال محمد بن إسحاق عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ إذا جهر بالقرآن وهو يصلي تفرقوا عنه وأبوا أن يسمعوا منه، وكان الرجل إذا أراد أن يسمع من رسول الله ﷺ بعض ما يتلو وهو يصلي، استرق

(١) أخرج البخاري عن ابن عباس قال: نزلت ورسول الله مختف بمكة، وكان إذا صلى بأصحابه ورفع صوته بالقرآن، فكان المشركون إذا سمعوا القرآن سبوه ومن أنزله ومن جاء به فترلت. وأخرج البخاري أيضاً عن عائشة: أنها نزلت في الدعاء، وأخرج ابن جرير مثله، ثم رجح الأول لأنها أصح سنداً، وكذا رجحها النووي وغيره، وقال الحافظ ابن حجر: لكن يحتمل الجمع بينهما بأنها نزلت في الدعاء داخل الصلاة. وأخرج ابن جرير والحاكم عن عائشة: أنها نزلت في التشهد، وهي مبينة لمرادها في الرواية السابقة .

(٢) أخرجه البخاري ومسلم وأحمد عن ابن عباس

السمع منهم دونهم فرقاً منهم، فإذا رأى أنهم قد عرفوا أنه يستمع ذهب خشية أذاهم فلم يسمع، فإن خفض صوته ﷺ لم يسمع الذين يستمعون من قراءته شيئاً، فأنزل الله ﴿ولا تجهر بصلاتك﴾ فيتفرقوا عنك ﴿ولا تخافت بها أي فلا يسمع من أراد أن يسمع فينتفع به،﴾ وابتغ بين ذلك سبيلاً .

قال ابن جرير، عن محمد بن سيرين، قال: نبئت أن أبا بكر كان إذا صلى فقرأ خفض صوته، وأن عمر كان يرفع صوته، فقيل لأبي بكر لم تصنع هذا؟ قال: أناجي ربي عز وجل وقد علم حاجتي، فقيل: أحسنت، وقيل لعمر: لم تصنع هذا؟ قال: أطرد الشيطان وأوقظ الوسنان، قيل: أحسنت، فلما نزلت: ﴿ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها﴾ وابتغ بين ذلك سبيلاً ﴿قيل لأبي بكر: ارفع شيئاً، وقيل لعمر: اخفض شيئاً. وقال عكرمة، عن ابن عباس: نزلت في الدعاء، وقوله: ﴿وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً﴾ لما أثبت تعالى لنفسه الكريمة الأسماء الحسنی نزه نفسه عن النقائص، فقال: ﴿وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك﴾، بل هو الله الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، ﴿ولم يكن له ولي من الذل﴾ أي ليس بذليل فيحتاج إلى أن يكون له ولي، أو وزير أو مشير، بل هو تعالى خالق الأشياء وحده لا شريك له، ومدبرها ومقدرها بمشيئته وحده لا شريك له، قال مجاهد في قوله: ﴿ولم يكن له ولي من الذل﴾: لم يحالف أحداً، ولم يتبع نصر أحد، ﴿وكبره تكبيراً﴾ أي عظمه وأجله عما يقول الظالمون المعتدون علواً كبيراً .

[آخر تفسير سورة الإسراء . والله الحمد والمنة]

* * *

(١٨) سُورَةُ الْكَهْفِ مَكِّيَّةٌ
وَآيَاتُهَا عَشْرٌ وَمِائَتَانِ

« ذكر ما ورد في فضلها وأنها عصمة من الدجال »

عن أبي الدرداء، عن النبي ﷺ قال: « من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عصم من الدجال »^(١)، طريق أخرى: قال الإمام أحمد، عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ قال: « من قرأ العشر الأواخر من سورة الكهف عصم من فتنه الدجال ». ورواه مسلم أيضاً والنسائي، وفي لفظ النسائي: « من قرأ عشر آيات من الكهف » فذكره. حديث آخر: عن ثوبان، عن رسول الله ﷺ أنه قال: « من قرأ العشر الأواخر من سورة الكهف فإنه عصمة له من الدجال »^(٢).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ﴿١﴾ قَيِّمًا لِيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِمَّنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَكِينٍ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾

قد تقدم في أول التفسير، أنه تعالى يحمد نفسه المقدسة، عند فواتح الأمور وخواتمها، فإنه المحمود على كل حال، وله الحمد في الأولى والآخرة، ولهذا حمد نفسه على إنزاله كتابه العزيز على رسوله الكريم، محمد صلوات الله وسلامه عليه، فإنه أعظم نعمة أنعمها الله على أهل الأرض، إذ أخرجهم به من الظلمات إلى النور، حيث جعله كتاباً مستقيماً لا اعوجاج فيه ولا زيغ، بل يهدي إلى صراط مستقيم، واضحاً بيناً جليلاً، نذيراً للكافرين بشيراً للمؤمنين، ولهذا قال: ﴿ ولم يجعل له عوجاً ﴾ أي لم يجعل فيه اعوجاجاً ولا زيغاً ولا ميلاً، بل جعله معتدلاً مستقيماً، ولهذا قال: ﴿ قَيِّمًا ﴾ أي مستقيماً، ﴿ لينذر بأساً شديداً من لدنه ﴾ أي لمن خالفه وكذبه، ولم يؤمن به، ينذره بأساً

(١) رواه مسلم وأبرداود والنسائي والترمذي .

(٢) أخرجه النسائي في سننه .

شديداً عقوبة عاجلة في الدنيا، وآجلة في الآخرة، ﴿من لدنه﴾ أي من عند الله، ﴿ويبشر المؤمنين﴾ أي بهذا القرآن، الذين صدقوا إيمانهم بالعمل الصالح ﴿أن لهم أجراً حسناً﴾ أي مثوبة عند الله جميلة، ﴿ما كثر في﴾ في ثوابهم عند الله، وهو الجنة، خالدين فيه ﴿أبدأ﴾ دائماً، لا زوال له ولا انقضاء، وقوله: ﴿وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولداً﴾ قال ابن إسحاق: وهم مشركو العرب، في قولهم نحن نعبد الملائكة، وهم بنات الله ﴿ما لهم به من علم﴾، أي بهذا القول الذي افتروه واثنّفكوه، ﴿ولا لآبائهم﴾ أي لأسلافهم، ﴿كبرت كلمة﴾ كبرت كلمتهم هذه، وفي هذا تبشيع لمقاتلهم واستعظام لإفكهم. ولهذا قال: ﴿كبرت كلمة تخرج من أفواههم﴾ أي ليس لها مستند سوى قولهم ولا دليل لهم عليها إلا كذبهم وافتراؤهم، ولهذا قال: ﴿إن يقولون إلا كذباً﴾.

وقد ذكر محمد بن إسحاق في سبب نزول هذه السورة الكريمة عن ابن عباس قال: بعثت قريش (النضر ابن الحارث) و (عقبة بن أبي معيط) إلى أحبار يهود بالمدينة، فقالوا لهم: سلوهم عن محمد وصفوا لهم صفته وأخبروهم بقوله، فإنهم أهل الكتاب الأول، وعندهم ما ليس عندنا من علم الأنبياء، فخرجنا حتى أتينا المدينة، فسألوا أحبار يهود عن رسول الله ﷺ ووصفوا لهم أمره وبعض قوله وقالوا: إنكم أهل التوراة وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا، قال، فقالوا لهم: سلوه عن ثلاث نأمركم بهن، فإن أخبركم بهن فهو نبي مرسل، وإلا فرجل متقول فتروا فيه رأيكم، سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ما كان من أمرهم فإنهم قد كان لهم حديث عجيب، وسلوه عن رجل طواف، بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبؤه؟ وسلوه عن الروح ما هو؟ فإن أخبركم بذلك فهو نبي فاتبعوه، وإن لم يخبركم فإنه رجل متقول فاصنعوا في أمره ما بدا لكم، فأقبل النضر وعقبة حتى قدما على قريش، فقالوا: يا معشر قريش قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمد، قد أمرنا أحبار يهود أن نسأله عن أمور؛ فأخبروهم بها، فجاءوا رسول الله ﷺ فقالوا: يا محمد! أخبرنا، فسأله عما أمرهم به، فقال لهم رسول ﷺ: «أخبركم غداً عما سألتهم عنه»، ولم يستثن، فانصرفوا عنه، ومكث رسول الله ﷺ خمس عشرة ليلة لا يحدث الله له في ذلك وحياً، ولا يأتيه جبرائيل عليه السلام، حتى أرجف أهل مكة، وقالوا: وعدنا محمد غداً واليوم خمس عشرة، قد أصبحنا فيها لا يخبرنا بشيء عما سألناه عنه، وحتى أحزن رسول الله ﷺ مكث الوحي عنه، وشق عليه ما يتكلم به أهل مكة. ثم جاءه جبرائيل عليه السلام من الله عز وجل بسورة أصحاب الكهف، فيها معاتبته إياه على حزنه عليهم، وخبر ما سأله عنه من خبر الفتية والرجل الطواف، وقول الله عز وجل ﴿ويسألونك عن الروح؟ قل الروح﴾ الآية.

فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسِكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرًّا ﴿٨﴾

يقول تعالى مسلماً لرسوله صلوات الله وسلامه عليه في حزنه على المشركين لتركهم الإيمان وبعدهم عنه، كما قال تعالى: ﴿فلا تذهب نفسك عليهم حسرات﴾، وقال: ﴿ولا تحزن عليهم﴾، وقال: ﴿لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين﴾، باخع: أي مهلك نفسك بحزنك عليهم، ولهذا قال: ﴿فعلك باخع نفسك على آثارهم﴾

إن لم يؤمنوا بهذا الحديث ﴿١﴾ يعني القرآن، ﴿أسفأ﴾ يقول: لا تهلك نفسك أسفأ، قال قتادة: قاتل نفسك غضباً وحرناً عليهم. وقال مجاهد: جزعاً، والمعنى متقارب أي: لا تأسف عليهم بل أبلغهم رسالة الله فمن اهتدى فلنفسه، ومن ضل فإنما يضل عليها، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات، ثم أخبر تعالى أنه جعل الدنيا داراً فانية مزينة بزينة زائلة، وإنما جعلها دار اختبار لا دار قرار، فقال: ﴿إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملاً﴾. عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الدنيا حلوة خضرة وإن الله مستخلفكم فيها فناظر ماذا تعملون، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء». ثم أخبر تعالى بزوالها وفنائها وذهابها، وخرابها، فقال تعالى: ﴿وإنا لجاعلون ما عليها صعيداً جرزاً﴾ أي وإنا لمصبروها بعد الزينة إلى الخراب والدمار، فنجعل كل شيء عليها هالكاً ﴿صعيداً جرزاً﴾ لا يثبت ولا ينتفع به، كما قال ابن عباس: يهلك كل شيء عليها ويبيد، وقال مجاهد ﴿صعيداً جرزاً﴾ بلفعاً. وقال قتادة: الصعيد الأرض التي ليس فيها شجر ولا نبات. وقال ابن زيد: الصعيد الأرض التي ليس فيها شيء، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿أو لم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز فنخرج به زرعاً تأكل منه أنعامهم وأنفسهم أفلا يبصرون﴾ ؟ .

أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ فَضْرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا ﴿١٢﴾

هذا إخبار من الله تعالى عن قصة أصحاب الكهف ﴿أم حسبت﴾ يعني يا محمد ﴿أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجباً﴾ أي ليس أمرهم عجباً في قدرتنا وسلطاننا فإن خلق السماوات والأرض وتسخير الشمس والقمر وغير ذلك من الآيات العظيمة الدالة على قدرة الله تعالى، وأنه على ما يشاء قادر، ولا يعجزه شيء - أعجب من أخبار أصحاب الكهف، كما قال مجاهد: قد كان من آياتنا ما هو أعجب من ذلك، وقال ابن عباس: الذي آتيتك من العلم والسنة والكتاب أفضل من شأن أصحاب الكهف والرقيم، وقال محمد بن إسحاق: ما أظهرت من حجج على العباد أعجب من شأن أصحاب الكهف والرقيم، وأما الكهف: فهو الغار في الجبل، وهو الذي لجأ إليه هؤلاء الفتية المذكورون، وأما الرقيم: فقال ابن عباس: هو واد قريب من أيلة. وقال الضحاك: أما الكهف فهو غار الوادي، والرقيم اسم الوادي، وقال مجاهد: الرقيم كتاب بنيانهم، ويقول بعضهم هو الوادي الذي فيه كهفهم. وقال ابن عباس: الرقيم الجبل الذي فيه الكهف. وقال سعيد بن جبير: الرقيم لوح من حجارة كتبوا فيه قصص أصحاب الكهف ثم وضعوه على باب الكهف، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: الرقيم الكتاب، ثم قرأ ﴿كتاب مرقوم﴾ وهذا هو الظاهر من الآية وهو اختيار ابن جرير، قال الرقيم فاعيل بمعنى مرقوم، كما يقال للمقتول قتيل وللمجروح جريح، والله أعلم.

(١) أخرج ابن مردويه عن ابن عباس، قال: اجتمع عتبة بن ربيعة وأبو جهل بن هشام في نفر من قريش، وكان رسول الله ﷺ =

وقوله تعالى : ﴿ إِذْ أَوْى الْفَتِيَّةَ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴾ يخبر تعالى عن أولئك الفتية الذين فروا بدينهم من قومهم لثلاثا يفتنهم عنه فهربوا منهم فلجأوا إلى غار في جبل ليختفوا عن قومهم ، فقالوا حين دخلوا سائلين من الله تعالى رحمته ولطفه بهم : ﴿ رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً ﴾ أي هب لنا من عندك رحمة ترحمنا بها وتسترنا عن قومنا ، ﴿ وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴾ أي اجعل عاقبتنا رشداً ، كما جاء في الحديث : « وما قضيت لنا من قضاء فاجعل عاقبته رشداً » . وفي المسند عن رسول الله ﷺ أنه كان يدعو : « اللهم أحسن عاقبتنا في الأمور كلها ، وأجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة » ، وقوله : ﴿ فَصَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴾ أي ألقينا عليهم النوم حين دخلوا إلى الكهف فناموا سنين كثيرة ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ ﴾ أي من رقدتهم تلك ، وخرج أحدهم بدرهم معه ليشتري لهم بها طعاماً يأكلونه كما سيأتي بيانه وتفصيله ، ولهذا قال : ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيِ الْحِزْبَيْنِ ﴾ أي المختلفين فيهم ﴿ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمْدَانًا ﴾ قيل : عدداً ، وقيل : غاية .

ثُمَّ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ مِّنْ أَظْلَمِ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾ وَإِذِ اعْتزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يُعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَاوَدَّ إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مَرْفَقًا ﴿١٦﴾

من ههنا شرع في بسط القصة وشرحها ، فذكر تعالى أنهم فتية وهم الشباب ، وهم أقبل للحق وأهدى للسبيل من الشيوخ الذين قد عتوا وانغمسوا في دين الباطل ، ولهذا كان أكثر المستجيبين لله تعالى ولرسوله ﷺ شباباً . وأما المشايخ من قريش فعامتهم بقوا على دينهم ولم يسلم منهم إلا القليل ، وهكذا أخبر تعالى عن أصحاب الكهف أنهم كانوا فتية شباباً . وقال مجاهد : بلغني أنه كان في آذان بعضهم القرطة ، يعني الحلقة ، فألمهم الله رشدهم ، وآتاهم تقواهم فآمنوا بربههم ، أي اعترفوا له بالوحدانية وشهدوا أنه لا إله إلا هو ، ﴿ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴾ استدل بهذه الآية وأمثالها على زيادة الإيمان وتفاضله ، وأنه يزيد وينقص ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴾ ، كما قال : ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴾ ، وقد ذكر أنهم كانوا على دين المسيح عيسى بن مريم ، والله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبَّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ يقول تعالى : وصبرناهم على مخالفة قومهم ، ومفارقة ما كانوا فيه من العيش الرغيد والسعادة والنعمة ، فإنه قد ذكر غير واحد من المفسرين من السلف والخلف أنهم كانوا من أبناء ملوك الروم وسادتهم ، وأنهم خرجوا يوماً في بعض أعياد قومهم ، وكان لهم مجتمع في السنة يجتمعون في ظاهر البلد ، وكانوا يعبدون الأصنام والطواغيت ويذبحون لها ، وكان لها ملك جبار عنيد يقال له (دقيانوس) وكان يأمر الناس بذلك ويحثهم عليه ويدعوهم إليه ، فلما خرج الناس لمجتمعهم

= قد كبر عليه ما يرى من خلاف قومه إياه ، وإنكارهم ما جاء به من الفضيلة ، فأحزنه حزناً شديداً ، فأنزل الله : ﴿ فَلَعَلَّكَ

باخع نفسك على آثارهم ﴾ الآية .

ذلك وخرج هؤلاء الفتية مع آبائهم وقومهم، ونظروا إلى ما يصنع قومهم بعين بصيرتهم، عرفوا أن هذا الذي يصنعه قومهم من السجود لأصنامهم والذبح لها لا ينبغي إلا لله الذي خلق السماوات والأرض؛ فجعل كل واحد منهم يتخلص من قومه وينحاز عنهم، واتخذوا لهم معبداً يعبدون الله فيه، فعرف بهم قومهم فوشوا بأمرهم إلى ملكهم، فاستحضرهم بين يديه فسألهم عن أمرهم وما هم عليه، فأجابوه بالحق ودعوه إلى الله عز وجل، ولهذا أخبر تعالى عنهم بقوله: ﴿ وربطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا ربنا رب السماوات والأرض لن ندعو من دونه إلهاً ﴾ و « لن » لنفي التأييد: أي لا يقع منا هذا أبداً لأننا لو فعلنا ذلك لكان باطلاً، ولهذا قال عنهم: ﴿ لقد قلنا إذا شططاً ﴾ أي باطلاً وكذباً وبهتاناً، ﴿ هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة لولا يأتون عليهم بسلطان بين ﴾ أي هلا أقاموا على صحة ما ذهبوا إليه دليلاً واضحاً صحيحاً، ﴿ فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً ﴾، يقولون: بل هم ظالمون كاذبون في قولهم ذلك، فيقال إن ملكهم تهددهم وتوعددهم وأمر بتزع لباسهم عنهم وأجلهم لينظروا في أمرهم لعلهم يرجعون عن دينهم الذي كانوا عليه، وكان هذا من لطف الله بهم فإنهم توصلوا إلى الهرب منه والفرار بدينهم من الفتنة، وهذا هو المشروع عند وقوع الفتن في الناس أن يفر العبد منهم خوفاً على دينه كما جاء في الحديث: « يوشك أن يكون خير مال أحدكم غنماً يتبع بها شرف الجبال ومواقع القطر يفر بدينه من الفتن »^(١)، ففي هذه الحال تشرع العزلة عن الناس ولا تشرع فيما عداها، لما يفوت بها من ترك الجماعات والجمع، فلما وقع عزمهم على الذهاب والهرب من قومهم، واختار الله تعالى لهم ذلك وأخبر عنهم بذلك في قوله: ﴿ وإذ اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله ﴾: أي وإذ فارقتموهم وخالفتموهم بأديانكم في عبادتهم غير الله، ففارقوهم أيضاً بأبدانكم، ﴿ فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ﴾: أي ييسر عليكم رحمة يستركم بها من قومكم ﴿ ويهيئ لكم من أمركم ﴾ الذي أتم فيه، ﴿ مرفقاً ﴾ أي أمراً ترتفقون به، فعند ذلك خرجوا هرباً إلى الكهف، فأووا إليه ففقدتهم قومهم من بين أظهرهم وتطلبهم الملك، فيقال إنه لم يظفر بهم، وعمى الله عليه خبرهم كما فعل بنبينا محمد ﷺ وصاحبه الصديق حين لجأ إلى (غار ثور).

* وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا ﴿١٧﴾

أخبر تعالى أن الشمس إذا دخلته عند طلوعها تزاور عنه ﴿ ذات اليمين ﴾، قال ابن عباس ﴿ تزاور ﴾: أي تميل، وذلك أنها كلما ارتفعت في الأفق تقلص شعاعها بارتفاعها حتى لا يبقى منه شيء عند الزوال في مثل ذلك المكان، ولهذا قال: ﴿ وإذا غربت تقرضهم ذات الشمال ﴾ أي تدخل إلى غارهم من شمال بابيه وهو من ناحية المشرق، فدل على صحة ما قلناه، وهذا بين لمن تأمله وكان له علم بمعرفة الهيئة وسير الشمس والقمر والكواكب. وبيانه أنه لو كان باب الغار من ناحية المشرق لما دخل إليه منها شيء عند الغروب، ولو كان من ناحية القبلة لما دخل منها شيء عند الطلوع ولا عند الغروب ولا تزاور الفئء يميناً ولا شمالاً؛ ولو كان من جهة الغرب لما

(١) الحديث: أخرجه البخاري وأبو داود عن أبي سعيد .

دخلته وقت الطلوع، بل بعد الزوال ولم تزل فيه إلى الغروب، فتعين ما ذكرناه والله الحمد. وقال ابن عباس ومجاهد: ﴿تقرضهم﴾ تركهم، وقد أخبر الله تعالى بذلك وأراد منا فهمه وتدبره، ولم يخبرنا بمكان هذا الكهف في أي البلاد من الأرض، ولو كان لنا فيه مصلحة دينية لأرشدنا الله تعالى ورسوله إليه، فقد قال ﷺ: «ما تركت شيئاً يقربكم إلى الجنة ويباعدكم من النار إلا وقد أعلمتكم به». فأعلمنا تعالى بصفته ولم يعلمنا بمكانه فقال: ﴿وترى الشمس إذا طلعت تزاور عن كهفهم﴾، قال مالك: تميل، ﴿ذات اليمين وإذا غربت تقرضهم ذات الشمال وهم في فجوة منه﴾ أي في متسع منه داخلاً، بحيث لا تصيبهم، إذ لو أصابتهم لأحرقت أبدانهم وثيابهم، قاله ابن عباس، ﴿ذلك من آيات الله﴾ حيث أرشدهم إلى هذا الغار الذي جعلهم فيه أحياء والشمس والرياح تدخل عليهم فيه لتبقى أبدانهم، ولهذا قال تعالى: ﴿ذلك من آيات الله﴾ ثم قال: ﴿من يهد الله فهو المهتد﴾ أي هو الذي أرشد هؤلاء الفتية إلى الهداية من بين قومهم فإنه من هداه الله اهتدى، ومن أضله فلا هادي له.

وَحَسِبُهمُ آيِقَاطًا وَهمُ رُقُودٌ وَنَقَلِهمُ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُمُ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعَتْ عَلَيْهِمُ لَوْلِيَّتٌ مِنْهُمُ فَرَارًا وَلَمِلَّتْ مِنْهُمُ رُعبًا ﴿١٨﴾

ذكر أنهم لما ضرب الله على آذانهم بالنوم، لم تنطبق أعينهم لثلا يسرع إليها البلى، وقوله تعالى: ﴿ونقلهم ذات اليمين وذات الشمال﴾، قال بعض السلف: يقبلون في العام مرتين، قال ابن عباس: لو لم يقبلوا لأكلتهم الأرض، وقوله: ﴿وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد﴾ الوصيد الفناء، وقال ابن عباس: بالباب، قال ابن جريج: يحرس عليهم الباب، وهذا من سجيته وطبيعته حيث يربض بياهم، كأنه يحرسهم، وكان جلوسه خارج الباب لأن الملائكة لا تدخل بيتاً فيه كلب، كما ورد في الصحيح، ولا صورة ولا جنب، وشملت كلبهم بركتهم فأصابه ما أصابهم من النوم على تلك الحال، وهذه فائدة صعبة الأختيار فإنه صار لهذا الكلب ذكر وخبر وشأن، وقوله تعالى: ﴿لو اطلعت عليهم لوليت منهم فراراً ولملت منهم رعباً﴾ أي أنه تعالى ألقى عليهم المهابة بحيث لا يقع نظر أحد عليهم إلا هابهم لما ألبسوا من المهابة والذعر، لثلا يدنو منهم أحد ولا تمسهم يد لا مس، حتى يبلغ الكتاب أجله، لما له في ذلك من الحكمة البالغة، والرحمة الواسعة.

* وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِئْتُمْ قَالُوا لَبِئْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِئْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُسْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذَا أَبَدَأ ﴿٢٠﴾

يقول تعالى: كما أرقدناهم بعثناهم صحيحة أبدانهم، وأشعارهم وأبشارهم، لم يفقدوا من أحوالهم وهيئاتهم شيئاً، وذلك بعد ثلثمائة سنة وتسع سنين، ولهذا تساءلوا بينهم ﴿كم لبئتم﴾؟ أي كم رقدتم؟ ﴿قالوا لبئنا يوماً أو بعض يوم﴾ لأنه كان دخولهم إلى الكهف في أول نهار، واستيقاظهم كان في آخر نهار، ولهذا استدركوا فقالوا:

﴿ أو بعض يوم قالوا ربكم أعلم بما لبثتم ﴾ أي أعلم بأمركم، وكأنه حصل لهم نوع تردد في كثرة نومهم، فالله أعلم، ثم عدلوا إلى الأهم في أمرهم إذ ذاك، وهو احتياجهم إلى الطعام والشراب، فقالوا ﴿ فابعثوا أحدكم بورقكم ﴾ أي فضتكم هذه، وذلك أنهم كانوا قد استصبحوا معهم دراهم من منازلهم لحاجتهم إليها، فتصدقوا منها وبقي منها؛ فلهذا قالوا ﴿ فابعثوا أحدكم بورقكم هذه إلى المدينة ﴾ أي مدينتكم التي خرجتم منها ﴿ فلينظر أيها أزكى طعاماً ﴾ أي أطيب طعاماً، كقوله: ﴿ ما زكى منكم من أحد أبداً ﴾، وقوله: ﴿ قد أفلح من تزكى ﴾، ومنه الزكاة التي تطيب المال وتطهره. وقوله ﴿ وليتلف ﴾ أي في خروجه وإيابه، يقولون وليتلف كل ما يقدر عليه، ﴿ ولا يشعروا ﴾ أي ولا يعلمن ﴿ بكم أحداً ﴾ إنهم إن يظهروا عليكم يرجعوا إليكم ﴿ أي إن علموا بمكانكم ﴾ يرجعوا إليكم أو يعيدوكم في ملتهم ﴿ يعنون أصحاب دقيانوس، يخافون منهم أن يطلعوا على مكانهم، فلا يزالون يعذبونكم بأنواع العذاب إلى أن يعيدوكم في ملتهم التي هم عليها أو يموتوا، وإن وافقتهم على العود في الدين فلا فلاح لكم في الدنيا ولا في الآخرة، ولهذا قال: ﴿ ولن تفلحوا إذا أبداً ﴾.

وَكَذَلِكَ أَعْرَضْنَا عَنْهُمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَزَّعُونَ مِنْهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا
أَبْنَاؤُا عَلَيْهِمْ بَنِينَآ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا ﴿٢١﴾

يقول تعالى ﴿ وكذلك أعرضنا عنهم ﴾ أي أطلعنا عليهم الناس ﴿ ليعلموا أن وعد الله حق وأن الساعة لا ريب فيها ﴾ ذكر غير واحد من السلف، أنه كان قد حصل لأهل ذلك الزمان شك في البعث وفي أمر القيامة، فبعث الله أهل الكهف حجة ودلالة وآية على ذلك، وذكروا أنه لما أراد أحدهم الخروج ليذهب إلى المدينة في شراء شيء لهم ليأكلوه، تنكر وخرج يمشي في غير الجادة حتى انتهى إلى المدينة، وهو يظن أنه قريب العهد بها، وكان الناس قد تبدلوا قرناً بعد قرن وجيلاً بعد جيل، فجعل لا يرى شيئاً من معالم البلد التي يعرفها، ولا يعرف أحداً من أهلها لا خرواصها ولا عوامها، فجعل يتحير في نفسه، ويقول إن عهدي بهذه البلدة عشية أمس على غير هذه الصفة. ثم قال: إن تعجيل الخروج من ههنا لأولى لي، ثم عمد إلى رجل ممن يبيع الطعام فدفع إليه ما معه من النفقة، وسأله أن يبيعه بها طعاماً، فلما رآها ذلك الرجل أنكرها وأنكر ضربها، فدفعها إلى جاره، وجعلوا يتداولونها بينهم، ويقولون لعل هذا وجد أكثر، فسألوه عن أمره ومن أين له هذه النفقة، لعله وجدها من كثر، ومن أنت؟ فجعل يقول أنا من أهل هذه البلدة، وعهدي بها عشية أمس، وفيها دقيانوس فنسبوه إلى الجنون، فحملوه إلى ولي أمرهم، فسأله عن شأنه وخبره حتى أخبرهم بأمره، فلما أعلمهم بذلك قاموا معه إلى الكهف - ملك البلد وأهلها - حتى انتهى بهم إلى الكهف، فقال لهم دعوني حتى أقدمكم في الدخول لأعلم أصحابي فدخل، فيقال إنهم لا يدرون كيف ذهب فيه، وأخفى الله عليهم خبرهم، ويقال: بل دخلوا عليهم ورأوهم وسلم عليهم الملك واعتنقهم، وكان مسلماً فيما قيل، واسمه يندوسيس، ففرحوا به وآسوه بالكلام، ثم ودعوه وسلموا عليه وعادوا إلى مضاجعهم، وتوفاهم الله عز وجل، فالله أعلم. وقوله ﴿ وكذلك أعرضنا عنهم ﴾: أي كما أرقدناهم وأيقظناهم بهيأتهم، أطلعنا عليهم أهل ذلك الزمان ﴿ ليعلموا أن وعد الله حق وأن الساعة لا ريب فيها إذ يتنازعون بينهم أمرهم ﴾ أي في أمر

القيامة، فن مثبت لها ومن منكر، فجعل الله ظهورهم على أصحاب الكهف حجة لهم وعليهم ﴿ فقالوا ابنوا عليهم بنياناً ربهم أعلم بهم ﴾ أي سلوا عليهم باب كهفهم، وذروهم على حالهم ﴿ قال الذين غلبوا على أمرهم لنتخذن عليهم مسجداً ﴾. حكى ابن جرير في القائلين ذلك قولين (أحدهما) : أنهم المسلمون منهم، و (الثاني) : أهل الشرك منهم، فالله أعلم .

سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ ۗ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ۗ فَلَا تُحَارِبْهُمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾

يقول تعالى مخبراً عن اختلاف الناس في عدة أصحاب الكهف، فحكى ثلاثة أقوال، ولما ضعف القولين الأولين^(١) بقوله ﴿ رجماً بالغيب ﴾ أي قولاً بلا علم كمن يرمي إلى مكان لا يعرفه، فإنه لا يكاد يصيب وإن أصاب فبلا قصد. ثم حكى الثالث وسكت عليه أو قرره بقوله ﴿ وثامنهم كلبهم ﴾، فدل على صحته، وأنه هو الواقع في نفس الأمر، وقوله: ﴿ قل ربي أعلم بعدتهم ﴾ إرشاد إلى أن الأحسن في مثل هذا المقام رد العلم إلى الله تعالى، إذ لا احتياج إلى الخوض في مثل ذلك بلا علم، لكن إذا أطلعنا على أمر قلنا به وإلا وقفنا، وقوله ﴿ ما يعلمهم إلا قليل ﴾: أي من الناس. قال ابن عباس: أنا من القليل الذي استثنى الله عز وجل، كانوا سبعة. وكذا روى ابن جرير عن عطاء أنه كان يقول: عدتهم سبعة. فكانوا ليلهم ونهارهم في عبادة الله، ليكون ويستغيثون بالله. قال تعالى: ﴿ فلا تحاربهم إلا مراء ظاهراً ﴾ أي سهلاً هيناً، فإن الأمر في معرفة ذلك لا يترتب عليه كبير فائدة، ﴿ ولا تستفت فيهم منهم أحداً ﴾: أي فإنهم لا علم لهم بذلك إلا ما يقولونه من تلقاء أنفسهم رجماً بالغيب، أي من غير استناد إلى كلام معصوم، وقد جاءك الله يا محمد بالحق الذي لا شك فيه ولا مرية فيه، فهو المقدم الحاكم على كل ما تقدمه من الكتب والأقوال .

وَلَا تَقُولَنَّ لِشَايٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ ۖ إِلَّا أَنْ يَسْأَلَ اللَّهُ ۗ وَادْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِّي رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾

هذا إرشاد من الله تعالى لرسول الله ﷺ إلى الأدب فيما إذا عزم على شيء ليفعله في المستقبل أن يرد إلى مشيئة الله عز وجل علام الغيوم، كما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: « قال سليمان ابن داود عليهما السلام لأطوفن الليلة على سبعين امرأة - وفي رواية مائة امرأة - تلد كل امرأة منهن غلاماً يقاتل في سبيل الله، فقيل له - وفي رواية قال له الملك: قل إن شاء الله، فلم يقل، فظاف بهن فلم يلد منهن إلا امرأة واحدة نصف إنسان، فقال رسول الله ﷺ - والذي نفسي بيده لو قال إن شاء الله لم يحث وكان دركاً لحاجته ». وفي رواية: « ولقاتلوا في سبيل الله فرساناً أجمعون ». وقد تقدم في أول السورة ذكر سبب نزول هذه الآية في قول

(١) القائلون بالثلاثة: اليهود، والقائلون بالخمسة: النصارى، كما ذكره السدي .

النبي ﷺ لما سئل عن قصة أصحاب الكهف: «غداً أجيئكم»، فأنخر الوحي خمسة عشر يوماً، وقوله ﴿واذكر ربك إذا نسيت﴾: قيل معناه إذا نسيت الاستثناء فاستثن عند ذكرك له^(١)، وقال ابن عباس في الرجل يحلف، له أن يستثنى ولو إلى سنة، وكان يقول ﴿واذكر ربك إذا نسيت﴾ ذلك، ومعنى قول ابن عباس أنه يستثنى ولو بعد سنة أي إذا نسي أن يقول في حلفه أو في كلامه إن شاء الله وذكر ولو بعد سنة فالسنة له أن يقول ذلك ليكون آتياً بسنة الاستثناء، حتى ولو كان بعد الحنث. قاله ابن جرير رحمه الله ونص على ذلك، لأن يكون رافعاً لحنث اليمين ومسقطاً للكفارة، وهذا الذي قاله ابن جرير رحمه الله هو الصحيح، وهو الأليق بحمل كلام ابن عباس عليه والله أعلم. وقال عكرمة ﴿واذكر ربك إذا نسيت﴾: إذا غضبت. وقال الطبراني، عن ابن عباس في قوله ﴿واذكر ربك إذا نسيت﴾ أن تقول إن شاء الله. وروى الطبراني أيضاً عنه استثن إذا ذكرت، وقال هي خاصة برسول الله ﷺ وليس لأحد منا أن يستثنى إلا في صلة من يمينه، ويحتمل في الآية وجه آخر، وهو أن يكون الله تعالى قد أرشد من نسي الشيء في كلامه إلى ذكر الله تعالى، لأن النسيان منشؤه من الشيطان، كما قال فتى موسى: ﴿وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره﴾ وذكر الله تعالى يطرد الشيطان، فإذا ذهب الشيطان ذهب النسيان، فذكر الله تعالى سبب للذكر، ولهذا قال ﴿واذكر ربك إذا نسيت﴾. وقوله: ﴿وقل عسى أن يهدين ربي لأقرب من هذا رشداً﴾ أي إذا سئلت عن شيء لا تعلمه فاسأل الله تعالى فيه، وتوجه إليه في أن يوفقك للصواب والرشد في ذلك.

وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا ﴿٢٥﴾ قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
أَبْصَرُ بِهِ وَأَسْمِعُ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾

هذا خبر من الله تعالى لرسوله ﷺ، بمقدار ما لبث أصحاب الكهف في كهفهم، منذ أرقدهم إلى أن بعثهم الله، أعتز عليهم أهل ذلك الزمان، وأنه كان مقداره ثلاثمائة سنة تزيد تسع سنين بالهلالية. وهي ثلاثمائة سنة بالشمسية، فإن تفاوت ما بين كل مائة سنة بالقمرية إلى الشمسية ثلاث سنين، فلهذا قال بعد الثلاثمائة وازدادوا تسعاً، وقوله: ﴿قل الله أعلم بما لبثوا﴾ أي إذا سئلت عن لبثهم وليس عندك علم في ذلك وتوقيف من الله تعالى فلا تتقدم فيه بشيء، بل قل في مثل هذا ﴿الله أعلم بما لبثوا له غيب السماوات والأرض﴾ أي لا يعلم ذلك إلا هو، ومن أطلعه عليه من خلقه^(٢). وقوله ﴿أبصر به وأسمع﴾ أي إنه لبصير بهم سميع لهم، قال ابن جرير: وذلك في معنى المبالغة في المدح كأنه قيل ما أبصره وأسمعه، وتأويل الكلام: ما أبصر الله لكل موجود وأسمعه لكل مسموع، لا يخفى عليه من ذلك شيء. ثم روي عن قتادة في قوله ﴿أبصر به وأسمع﴾: فلا أحد أبصر من الله ولا أسمع. وقوله ﴿ما لهم

(١) قاله أبو العالية والحسن البصري.

(٢) هذا قول جمهور المفسرين من السلف والخلف، وقال قتادة في قوله: ﴿ولبثوا في كهفهم ثلاثمائة سنين﴾ أنه قول أهل الكتاب، وقد رده الله تعالى بقوله: ﴿الله أعلم بما لبثوا﴾، والظاهر أنه إخبار من الله لا حكاية عنهم كما قال ابن جرير.

من دونه من ولي ولا يشرك في حكمه أحداً ﴿٢٧﴾ أي أنه تعالى هو الذي له الخلق والأمر لا معقب لحكمه، وليس له وزير ولا نصير، ولا شريك ولا مشير، تعالى وتقدس .

وَأْتَلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴿٢٨﴾ وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴿٢٩﴾

يقول تعالى آمراً رسوله ﷺ بتلاوة كتابه العزيز وإبلاغه إلى الناس، ﴿ لا مبدل لكلماته ﴾ أي لا مغير لها ولا محرف ولا مزيل، وقوله ﴿ ولن تجد من دونه ملتحداً ﴾ قال مجاهد: ﴿ ملتحداً ﴾ ملجأ، وعن قتادة: ولياً ولا مولى، قال ابن جرير: يقول إن أنت يا محمد لم تتل ما أوحى إليك من كتاب ربك، فإنه لا ملجأ لك من الله كما قال تعالى: ﴿ يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته ﴾، وقوله: ﴿ واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ﴾ أي اجلس مع الذين يذكرون الله ويحملونه ويسبحونه ويكبرونه ويسألونه بكرة وعشياً، من عباد الله، سواء كانوا فقراء أو أغنياء، يقال: إنها نزلت في أشرف قريش حين طلبوا من النبي ﷺ أن يجلس معهم وحده، ولا يجالسهم بضعفاء أصحابه، كبلال وعمار وصهيب وخباب وابن مسعود، وليفرد أولئك بمجلس على حدة، فنهاه الله عن ذلك، فقال: ﴿ ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي ﴾ الآية، وأمره أن يصبر نفسه في الجلوس مع هؤلاء، فقال: ﴿ واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي ﴾ الآية. عن سعد بن أبي وقاص قال: كنا مع النبي ﷺ ستة نفر، فقال المشركون للنبي ﷺ: أطرده هؤلاء لا يجترئون علينا، قال: وكنت أنا وابن مسعود ورجل من هذيل وبلال ورجلان نسيت اسميهما، فوقع في نفس رسول الله ﷺ ما شاء الله أن يقع، فحدث نفسه فأنزل الله عز وجل ﴿ ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ﴾ (١).

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: « ما من قوم اجتمعوا يذكرون الله لا يريدون بذلك إلا وجهه إلا ناداهم مناد من السماء أن قوموا مغفوراً لكم، قد بدلت سيئاتكم حسنات » (٢). وقال الطبراني، عن عبد الرحمن بن سهل بن حنيف، قال: نزلت على رسول الله ﷺ وهو في بعض أبياته: ﴿ واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي ﴾ الآية، فخرج يلتمسهم فوجد قوماً يذكرون الله تعالى، منهم ثائر الرأس وجاف الجلد، وذو الثوب الواحد، فلما رآهم جلس معهم، وقال: « الحمد لله الذي جعل في أمي من أمرني أن أصبر نفسي معهم »، وقوله: ﴿ ولا تعد عينك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ﴾ قال ابن عباس: ولا تجاوزهم إلى غيرهم يعني تطلب بدلم أصحاب الشرف والثروة، ﴿ ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا ﴾ أي شغل عن الدين وعبادة

(١) أخرجه مسلم في صحيحه .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند .

ربه بالدنيا، ﴿وكان أمره فرطاً﴾ أي أعماله وأفعاله سفه وتفريط وضياح، ولا تكن مطيعاً له ولا محبباً لطريقته، ولا تغبطه بما هو فيه، كما قال: ﴿ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا لفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى﴾.

وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ ۖ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفِرْ ۚ إِنَّا أَعَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِنَّ سَرَادِقُهَا ۗ وَإِنْ يَسْتَعِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾

يقول تعالى لرسوله ﷺ: قل يا محمد للناس هذا الذي جئتمكم به من ربكم، هو الحق الذي لا مرية فيه ولا شك ﴿فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾، هذا من باب التهديد والوعيد الشديد، ولهذا قال: ﴿إنا أعدنا﴾ أي أَرصدنا ﴿للظالمين﴾ وهم الكافرون بالله ورسوله وكتابه ﴿ناراً أحاط بهم سرادقها﴾ أي سورها، وعن أبي سعيد الخدري، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لسرادق النار أربعة جدر، كثافة كل جدار مسافة أربعين سنة»^(١). وقال ابن عباس ﴿أحاط بهم سرادقها﴾ قال: حائط من نار، وقوله: ﴿وإن يستعيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه﴾ الآية، قال ابن عباس: المهل الماء الغليظ، مثل دردي الزيت، وقال مجاهد: هو كالدّم والقبيح، وقال عكرمة: هو الشيء الذي انتهى حره، وقال الضحّاك: ماء جهنم أسود وهي سوداء وأهلها سود، وهذه الأقوال ليس شيء منها ينفي الآخر، فإن المهل يجمع هذه الأوصاف الرذيلة كلها، فهو أسود منتن غليظ حار، ولهذا قال ﴿يشوي الوجوه﴾: أي من حره، إذا أراد الكافر أن يشربه وقربه من وجهه شواه، حتى تسقط جلدة وجهه فيه، كما جاء في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ماء كالمهل، قال: كعكر الزيت فإذا قرب به إليه سقطت فروة وجهه فيه»^(٢). وعن النبي ﷺ في قوله ﴿ويسقى من ماء صديد يتجرعه﴾ قال: «يقرب إليه فيتكرهه، فإذا قرب منه شوى وجهه، ووقعت فروة رأسه، فإذا شربه قطع أمعاه، يقول الله تعالى: ﴿وإن يستعيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه بنس الشراب﴾»^(٣). وقال سعيد بن جبیر: إذا جاع أهل النار استغاثوا فأغاثوا بشجرة الزقوم، فيأكلون منها فاجتشت جلود وجوههم، فلو أن ماراً مر بهم يعرفهم لعرف جلود وجوههم فيها، ثم يصب عليهم العطش فيستعيثون فيغاثون بماء كالمهل، وهو الذي قد انتهى حره، فإذا أدنوه من أفواههم اشتوى من حره لحوم وجوههم التي قد سقطت عنها الجلود، ولهذا قال تعالى بعد وصفه هذا الشراب بهذه الصفات الذميمة القبيحة ﴿بنس الشراب﴾ أي بنس هذا الشراب، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وسقوا ماءً حميماً فقطع أمعاهم﴾، وقال تعالى: ﴿تسقى من عين آنية﴾ أي حارة، كما قال تعالى: ﴿وبين حمم أن﴾ ﴿وساءت مرتفقاً﴾ أي وساءت النار منزلاً ومقبلاً ومجتمعاً وموضعاً للارتفاق، كما قال في الآية الأخرى ﴿إنها ساءت مستقراً ومقاماً﴾.

* إِنَّ الدِّينَ أَمْنٌ وَعَمَلٌ وَالصَّالِحَاتُ إِنَّا لَا نُنْصِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي

(١) أخرجه أحمد والترمذي في صفة النار وابن جرير في تفسيره.

(٢) أخرجه أحمد والترمذي.

(٣) أخرجه عبد الله بن المبارك عن أبي أمامة مرفوعاً.

مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُجَلُونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَكِينٍ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾

لما ذكر تعالى حال الأشقياء، ثنى بذكر السعداء الذين آمنوا بالله وصدقوا المرسلين فيما جاءوا به وعملوا بما أمرهم به من الأعمال الصالحة، فلهم جنات عدن، والعدن الإقامة ﴿ تجري من تحتهم الأنهار ﴾ أي من تحت غرفهم ومنازلهم، قال فرعون ﴿ وهذه الأنهار تجري من تحتي ﴾ الآية. ﴿ يحلون ﴾ أي من الحلية ﴿ فيها من أساور من ذهب ﴾ وقال في المكان الآخر ﴿ ولؤلؤاً ولباسهم فيها حرير ﴾ وفضله هنا فقال ﴿ ويلبسون ثياباً خضراً من سندس وإستبرق ﴾ فالسندس ثياب رقاق كالقمصان وما جرى مجراها، وأما الإستبرق فغليظ الديباج، وفيه بريق. وقوله: ﴿ متكئين فيها على الأرائك ﴾ الاتكاء قيل: الاضطجاع، وقيل: التربع في الجلوس، وهو أشبه بالمراد هنا - ومنه الحديث الصحيح: «أما أنا فلا آكل متكئاً»، والأرائك جمع أريكة وهي السرير تحت الحجلة، عن قتادة ﴿ على الأرائك ﴾ قال: هي الحجال، وقال غيره: السرر في الحجال، وقوله ﴿ نعم الثواب وحسنت مرتفقاً ﴾: أي الجنة ثواباً على أعمالهم، ﴿ وحسنت مرتفقاً ﴾ أي حسنت منزلاً ومقيلاً ومقاماً، كما قال في النار: ﴿ بشس الشراب وساءت مرتفقاً ﴾، وهكذا قابل بينهما في سورة الفرقان في قوله: ﴿ إنها ساءت مستقراً ومقاماً ﴾، ثم ذكر صفات المؤمنين فقال: ﴿ خالدن المؤمنين فقال: ﴿ خالدن فيها حسنت مستقراً ومقاماً ﴾ .

* وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زُرْعًا ﴿٣٢﴾
كَلَّمَا الْجَنَّتَيْنِ ءَأْتَتْ أَكْلَهَا وَلَمْ تَظَلِمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلْفَهُمَا نَهْرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفْرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا ﴿٣٦﴾

يقول تعالى بعد ذكره المشركين، المستكبرين عن مجالسة الضعفاء والمساكين من المسلمين، وافتخروا عليهم بأموالهم وأحسابهم، فضرب لهم مثلاً برجلين، جعل الله لأحدهما جنتين، أي بستانين من أعناب محفوفتين بالنخيل المحدقة في جنباتها وفي خلالهما الزروع، وكل من الأشجار والزروع ثمرة مقبل في غاية الجودة^(١). ولهذا قال:

(١) نقل السهيلي: عن محمد بن الحسن المقرئ: اسم الخَيْر من الرجلين (تمليخاً) واسم الآخر (فوطيس) وأنها كانا شريكين، ثم اقتسما المال، فصار لكل واحد منهما ثلاثة آلاف دينار، فاشتري المؤمن منها عبيداً بألف وأعتقهم، وبالألف الثانية ثياباً وكساء العراة، وبالألف الثالثة طعاماً وأطعم الجياع، وبنى أيضاً مساجد، وفعل خيراً - وأما الآخر: فنكح بماله نساء ذات يسار، واشترى دواب وبقراً فاستنتجها فتمت له نساء مفرطاً، والبحر بياقها فربح حتى فاق أهل زمانه غنى. وأدركت الأول الحاجة فأراد أن يستأجر نفسه في جنة يخدمها فقال: لو ذهبت إلى شريكي وصاحبي فسألته أن يستخدمني في بعض جناته رجوت أن يكون ذلك أصلح لي، فجاء فلم يكذب يوصل إليه من غلظ الحجاب، فلما دخل عليه وعرفه سأله =

﴿ كلنا الجنين آتت أكلها ﴾ أي أخرجت ثمرها ﴿ ولم تظلم منه شيئاً ﴾ أي لم تنقص منه شيئاً ﴿ وفجرنا خللهما نهراً ﴾ أي والأنهار متفرقة فيما ههنا وههنا ﴿ وكان له ثمر ﴾ قيل، المراد به المال، وقيل: الثمار، وهو أظهر ههنا، ﴿ فقال ﴾ أي صاحب هاتين الجنتين ﴿ لصاحبه وهو يحاوره ﴾ أي يجادله ويخاصمه، يفتخر عليه ويترأس ﴿ أنا أكثر منك مالاً وأعز نفراً ﴾ أي أكثر خدماً وحشماً وولداً، قال قتادة: تلك والله أمنية الفاجر، كثرة المال، وعزة النفس. وقوله: ﴿ ودخل جنته وهو ظالم لنفسه ﴾ أي بكفره وتمرده وتجبره وإنكاره المعاد، ﴿ قال ما أظن أن تبید هذه أبداً ﴾ وذلك اغترار منه، لما رأى فيها من الزروع والثمار والأشجار والأنهار المطردة في جوانبها وأرجائها ظن أنها لا تفتنى ولا تفرغ ولا تهلك ولا تتلف، وذلك لقله عقله وضعف يقينه بالله وإعجابه بالحياة الدنيا وزينتها، وكفره بالآخرة، ولهذا قال ﴿ وما أظن الساعة قائمة ﴾ أي كائنة، ﴿ ولئن رددت إلى ربي لأجدن خيراً منها منقلباً ﴾ أي ولئن كان معاد ورجعة ومرد إلى الله ليكونن لي هناك أحسن من هذا الحظ عند ربي، ولولا كرامتي عليه ما أعطاني هذا، كما قال في الآية الأخرى ﴿ ولئن رجعت إلى ربي إن لي عنده للحسنى ﴾، وقال ﴿ أفرأيت الذي كفر بآياتنا وقال لأوتين مالاً وولداً ﴾ .

قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ: أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنْ تَرَىٰ أَنَا أَقْلَمَ مِنْكَ مَالًا وَّوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُوْتِيَنِي خَيْرًا مِّنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحُ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَاءً وَّهِيَ غُورًا فَلَنْ نَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا ﴿٤١﴾

يقول تعالى مخبراً عما أجابه به صاحبه المؤمن واعظاً له وزاجراً عما هو فيه من الكفر بالله والاعترار: ﴿ أكفرت بالذي خلقك من تراب ﴾، وهذا إنكار وتعظيم لما وقع فيه من جحود ربه الذي خلقه، وابتدأ خلق الإنسان من طين وهو آدم، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين، كما قال تعالى: ﴿ كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ﴾ الآية، أي كيف تمجدون ربكم، ودلالته عليكم ظاهرة جلية، ولهذا قال المؤمن ﴿ لكن هو الله ربي ﴾: أي لكن أنا لا أقول بمقالتك بل أعترف لله بالوحدانية والربوبية، ﴿ ولا أشرك بربي أحداً ﴾ أي بل هو الله المعبود وحده لا شريك له، ثم قال: ﴿ ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله، لا قوة إلا بالله إن ترن أنا أقل

= حاجته، قال: ألم أكن قاسمتك المال شطرين، فما صنعت بمالك؟ قال: اشتريت به من الله، ما هو خير منه وأبقى. قال: أنتك لمن المصدقين، ما أظن الساعة قائمة، وما أراك إلا سفيهاً، وما جزاؤك عندي على سفاهتك إلا الحرمان. أو ما ترى ما صنعت أنا بمالي حتى آل إلى ما تراه من الثروة وحسن المال؟ وذلك أي كسبت وسفقت أنت، أخرج عني. ثم كان من قصة هذا الغني ما ذكره الله في القرآن من الإحاطة بشرها وذهابها أصلاً. وفي عجائب الكرمان، قيل: كانا أخوين في بني إسرائيل، أحدهما مؤمن اسمه (تمليخاً) وقيل: (يهوذا)، والآخر كافر اسمه (نطروس) وهما المذكوران في سورة الصافات ﴿ قال قاتل منهم إني كان لي قرين • يقول أنتك لمن المصدقين ﴾ الآية .

منك مالا وولداً ﴿٤٢﴾، هذا تحضيض وحث على ذلك، أي هلا إذا أعجبتك حين دخلتها ونظرت إليها حمدت الله على ما أنعم به عليك، وأعطاك من المال والولد ما لم يعطه غيرك، وقلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله، ولهذا قال بعض السلف من أعجبه شيء من حاله أو ماله أو ولده فليقل: ما شاء الله لا قوة إلا بالله، وهذا مأخوذ من هذه الآية الكريمة. وقد روي فيه حديث مرفوع عن أنس رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: « ما أنعم الله على عبد نعمة من أهل أو مال أو ولد فيقول ما شاء الله لا قوة إلا بالله، فيرى فيه آفة دون الموت^(١) ». وكان يتأول هذه الآية: ﴿ ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله ﴾، وقد ثبت في الصحيح عن أبي موسى أن رسول الله ﷺ قال له: « ألا أدلك على كثر من كنوز الجنة؟ لا حول ولا قوة إلا بالله ».

وقال أبو هريرة، قال لي رسول الله ﷺ: « يا أبا هريرة ألا أدلك على كثر من كنوز الجنة تحت العرش؟ » قال، قلت: فذاك أبي وأمي، قال: « أن تقول لا قوة إلا بالله ». قال أبو بلخ وأحسب أنه قال: « فإن الله يقول أسلم عبدي واستسلم^(٢) ». وقوله: ﴿ فعسى ربي أن يؤتين خيراً من جنتك ﴾ أي في الدار الآخرة، ﴿ ويرسل عليها ﴾ أي على جنتك في الدنيا التي ظننت أنها لا تبید ولا تفتنى ﴿ حساباً من السماء ﴾، قال ابن عباس والضحاك: أي عذاباً من السماء، والظاهر أنه مطر عظيم مزعج، يقلع زرعها وأشجارها، ولهذا قال: ﴿ فتصبح صعيداً زلقاً ﴾، أي بلقاً تراباً أملس، لا يثبت فيه قدم. وقال ابن عباس: كالجز الذي لا يثبت شيئاً، وقوله ﴿ أو يصبح ماؤها غوراً ﴾ أي غائراً في الأرض وهو ضد النابج الذي يطلب وجه الأرض. فالغائر يطلب أسفلها، كما قال تعالى ﴿ قل أرايتم إن أصبح ماؤكم غوراً فمن يأتيكم بماء معين ﴾: أي جار وسائح، وقال ههنا: ﴿ أو يصبح ماؤها غوراً فلن تستطيع له طلباً ﴾، والغور مصدر بمعنى غائر، وهو أبلغ منه كما قال الشاعر:

تظل جياده نوحاً عليه تقلده أعتها صفوفاً

بمعنى نائحات عليه .

وَأَحِيطَ بِشَمْرِهِ ۖ فَأَصْبَحَ يَقْلِبُ كَفَيْهِ عَلَىٰ مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٤٣﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٤﴾ هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٥﴾

يقول تعالى: ﴿ وأحيط بشمره ﴾ بأمواله وبثاره ما كان يحذر مما خوفه به المؤمن، من إرسال الحسابان على الجنة التي اغتر بها وألته عن الله عز وجل، ﴿ فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها ﴾، وقال قتادة: يصفق كفيه متأسفاً متلهفاً على الأموال التي أذهبها عليها، ﴿ ويقول يا ليتني لم أشرك بربي أحداً * ولم تكن له فئة ﴾ أي عشيرة أو ولد كما افتخر بهم واستعز ﴿ ينصرونه من دون الله وما كان منتصراً * هنالك الولاية لله الحق ﴾ أي الموالية لله، أي هنالك كل أحد مؤمن أو كافر يرجع إلى الله وإلى موالاته والخضوع له إذا وقع العذاب، كقوله: ﴿ فلما

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند .

(١) أخرجه الحافظ أبو يعلى الموصلي .

رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين ﴿٤٥﴾. وكقوله إخباراً عن فرعون ﴿٤٦﴾ حتى إذا أدركه الفرق قال آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين ﴿٤٧﴾، ومنهم من كسر الواو من ﴿الولاية﴾ أي هنالك الحكم لله الحق، كقوله: ﴿٤٨﴾ ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق ﴿٤٩﴾ الآية. ولهذا قال تعالى ﴿٥٠﴾ هو خير ثواباً ﴿٥١﴾: أي جزاء ﴿٥٢﴾ وخير عقاباً ﴿٥٣﴾ أي الأعمال التي تكون لله عز وجل ثوابها خير، وعاقبتها حميدة رشيدة، كلها خير.

وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْخَيْوَةِ الدُّنْيَا كَمَا أَتَزَلَّ مِنْ السَّمَاءِ فَأَخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمْلاً ﴿٤٦﴾

يقول تعالى: ﴿٤٥﴾ واضرب ﴿٤٦﴾ يا محمد للناس ﴿٤٧﴾ مثل الحياة الدنيا ﴿٤٨﴾ في زوالها وفنائها وانقضائها، ﴿٤٩﴾ كما أنزلناه من السماء فاختلف به نبات الأرض ﴿٥٠﴾ أي ما فيها من الحب، فشب وحسن، وعلاه الزهر والنور، والنضرة، ثم بعد هذا كله ﴿٥١﴾ أصبح هشياً ﴿٥٢﴾ يابساً ﴿٥٣﴾ تذروه الرياح ﴿٥٤﴾ أي تفرقه وتطرحه ذات اليمين وذات الشمال، ﴿٥٥﴾ وكان الله على كل شيء مقتدراً ﴿٥٦﴾ أي هو قادر على هذه الحال وهذه الحال، وكثيراً ما يضرب الله مثل الحياة الدنيا بهذا المثل كما قال تعالى في سورة يونس: ﴿٥٧﴾ إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلف به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام ﴿٥٨﴾ الآية، وقال في سورة الحديد: ﴿٥٩﴾ اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ﴿٦٠﴾ الآية. وفي الحديث الصحيح: «الدنيا خضرة حلوة». وقوله: ﴿٦١﴾ المال والبنون زينة الحياة الدنيا ﴿٦٢﴾ كقوله: ﴿٦٣﴾ زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب ﴿٦٤﴾ الآية. وقال تعالى: ﴿٦٥﴾ إنما أموالكم وأولادكم فتنة والله عنده أجر عظيم ﴿٦٦﴾: أي الإقبال عليه والتفرغ لعبادته خير لكم من اشتغالكم بهم والجمع لهم والشفقة المفرطة عليهم، ولهذا قال: ﴿٦٧﴾ والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير أملاً ﴿٦٨﴾، قال ابن عباس وسعيد بن جبیر، وغير واحد من السلف: الباقيات الصالحات: الصلوات الخمس. وقال ابن عباس: ﴿٦٩﴾ الباقيات الصالحات: ﴿٧٠﴾ سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، وهكذا سئل أمير المؤمنين عثمان بن عفان عن ﴿٧١﴾ الباقيات الصالحات ﴿٧٢﴾ ما هي؟ فقال: هي لا إله إلا الله، وسبحان الله، والحمد لله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. وروي عن سعيد بن المسيب قال: الباقيات الصالحات (سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله) وقال محمد بن عجلان عن عمارة قال: سألت سعيد بن المسيب عن الباقيات الصالحات، فقلت: الصلاة والصيام، فقال: لم تصب، فقلت: الزكاة والحج، فقال: لم تصب، ولكنهن الكلمات الخمس: لا إله إلا الله، والله أكبر، وسبحان الله، والحمد لله، ولا حول ولا قوة إلا بالله. عن أبي هريرة قال، قال رسول الله ﷺ: «سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر هن الباقيات الصالحات» (١). وفي الحديث: «أما إنه سيكون بعدي أمراء

(١) أخرجه ابن جرير عن أبي هريرة.

يكذبون ويظلمون فن صدقهم بكذبهم ومالهم على ظلمهم فليس مني ولست منه، ومن لم يصدقهم بكذبهم ولم يمالئهم على ظلمهم فهو مني وأنا منه، ألا وإن سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر من الباقيات الصالحات»^(١). وقال ابن عباس قوله ﴿والباقيات الصالحات﴾ قال: هي ذكر الله، قول: لا إله إلا الله، والله أكبر، وسبحان الله والحمد لله، وتبارك الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وأستغفر الله، وصلى الله على رسول الله، والصيام والصلاة والحج والصدقة والعتق والجهاد والصلة وجميع أعمال الحسنات، وهن الباقيات الصالحات التي تبقى لأهلها في الجنة ما دامت السماوات والأرض، وعنه: هي الكلام الطيب، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هي الأعمال الصالحة كلها، واختاره ابن جرير رحمه الله.

* وَيَوْمَ نُسِرُّ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعَرَضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا ﴿٤٨﴾ وَوَضَعَ الْكِتَابَ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾

يخبر تعالى عن أهوال يوم القيامة، وما يكون فيه من الأمور العظام، كما قال تعالى: ﴿يوم تمور السماء مورا﴾ وتسير الجبال سيراً: أي تذهب من أماكنها وتزول كما قال تعالى: ﴿ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفاً﴾، يذكر تعالى أنه تذهب الجبال وتتساوى المهاد، وتبقى الأرض قاعاً صاففاً، أي سطحاً مستوياً لا عوج فيه ولا أمناً، أي لا وادي ولا جبل. ولهذا قال تعالى ﴿وترى الأرض بارزة﴾ أي بادية ظاهرة، ليس فيها معلم لأحد ولا مكان يوارى أحداً، بل الخلق كلهم ضاحون لربهم لا تخفى عليه منهم خافية. قال مجاهد وقتادة ﴿وترى الأرض بارزة﴾: لا حجر فيها ولا غيابة، وقال قتادة: لا بناء ولا شجر، وقوله: ﴿وحشرناهم فلم نغادرهم منهم أحداً﴾ أي وجمعناهم الأولين منهم والآخرين، فلم نترك منهم أحداً لا صغيراً ولا كبيراً. كما قال ﴿قل إن الأولين والآخرين لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم﴾، وقال: ﴿ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود﴾، وقوله: ﴿وعرضوا على ربك صفاً﴾ يحتمل أن يكون المراد أن جميع الخلائق يقومون بين يدي الله صفاً واحداً، ويحتمل أنهم يقومون صفوفاً صفوفاً، كما قال: ﴿وجاء ربك والملك صفاً صفاً﴾، وقوله: ﴿لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة﴾ هذا تبريع للمنكرين للمعاد، وتوبيخ لهم على رؤوس الأشهاد، ولهذا قال تعالى مخاطباً لهم: ﴿بل زعمت أن لن نجعل لكم موعداً﴾ أي ما كان ظنكم أن هذا واقع بكم، ولا أن هذا كائن. وقوله: ﴿ووضع الكتاب﴾ أي كتاب الأعمال، الذي فيه الجليل والحقير، والفيتل والقطمير، والصغير والكبير، ﴿فترى المجرمين مشفقين مما فيه﴾ أي من أعمالهم السيئة، وأفعالهم القبيحة، ﴿ويقولون يا ويلتنا﴾ أي يا حسرتنا وويلنا على ما فرطنا في أعمارنا، ﴿ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها﴾ أي لا يترك ذنباً صغيراً ولا كبيراً ولا عملاً

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند.

وإن صغر، إلا أحصاها أي ضبطها وحفظها، وقوله ﴿ ووجدوا ما عملوا حاضراً ﴾ أي من خير وشر، كما قال تعالى: ﴿ يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً ﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿ ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر ﴾ وفي الحديث: « يرفع لكل غادر لواء يوم القيامة عند استه بقدر غدرته، يقال هذه غدرة فلان بن فلان »^(١). وقوله: ﴿ ولا يظلم ربك أحداً ﴾ أي فيحكم بين عباده في أعمالهم جميعاً ولا يظلم أحداً من خلقه، بل يعفو ويصفح ويغفر ويرحم، ويعذب من يشاء بقدرته وحكمته وعدله، ويملأ النار من الكفار وأصحاب المعاصي، ثم ينجي أصحاب المعاصي ويخلد فيها الكافرين، وهو الحاكم الذي لا يجور ولا يظلم، قال تعالى: ﴿ إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ﴾ الآية، وقال: ﴿ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً - إلى قوله - حاسبين ﴾ والآيات في هذا كثيرة .

روى الإمام أحمد، عن جابر بن عبد الله يقول: بلغني حديث عن رجل سمعه من النبي ﷺ، فاشترت بعيراً ثم شددت عليه رحلاً فسرت عليه شهراً حتى قدمت عليه الشام، فإذا (عبد الله بن أنيس)، فقلت للبواب: قل له جابر على الباب، فقال: ابن عبد الله؟ قلت: نعم، فخرج يطأ ثوبه فاعتنقني واعتنقته، فقلت: حديث بلغني عنك أنك سمعت من رسول الله ﷺ في القصاص فخشيت أن تموت أو أموت قبل أن أسمع، فقال، سمعت رسول الله ﷺ يقول: « يحشر الله عز وجل الناس يوم القيامة - أو قال العباد - عراة غرلاً بهماً ». قلت: وما بهماً؟ قال: « ليس معهم شيء، ثم يناديهم بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب: أنا الملك أنا الديان، لا ينبغي لأحد من أهل النار أن يدخل النار وله عند أحد من أهل الجنة حق حتى أفضيه منه، ولا ينبغي لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة وله عند رجل من أهل النار حق حتى أفضيه منه، حتى اللطمة قال: قلنا، كيف وإنما تأتي الله عز وجل حفاة عراة غرلاً بهماً؟ قال: « بالحسنات والسيئات »^(٢).

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ
أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴿٣٥﴾

يقول تعالى منبهاً بني آدم على عداوة إبليس لهم ولأبيهم من قبلهم، ومقرعاً لمن اتبعه منهم وخالف خالقه ومولاه، فقال تعالى: ﴿ وإذ قلنا للملائكة ﴾ أي لجميع الملائكة كما تقدم تقريره في أول سورة البقرة ﴿ اسجدوا لآدم ﴾ أي سجدوا تشريف وتكريم وتعظيم، كما قال تعالى: ﴿ وإذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من صلصال من حمأ مسنون » فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين ﴾، وقوله ﴿ فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ﴾ أي خانه أصله، فإنه خلق من مارج من نار، وأصل خلق الملائكة من نور، كما ثبت في صحيح مسلم: (خلقت الملائكة من نور وخلق إبليس من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم)^(٣)، ونبه تعالى ههنا على أنه من الجن،

(١) أخرجه في الصحيحين .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند .

(٣) أخرجه مسلم عن عائشة رضي الله عنها مرفوعاً .

أي على أنه خلق من نار كما قال: ﴿أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين﴾، قال الحسن البصري: ما كان إبليس من الملائكة طرفة عين قط، وإنه لأصل الجن. كما أن آدم عليه السلام أصل البشر^(١). وقوله: ﴿فسق عن أمر ربه﴾ أي فخرج عن طاعة الله فإن الفسق هو الخروج، يقال فسقت الرطبة إذا خرجت من أكمامها، وفسقت الفأرة من جحرها، إذا خرجت منه للعيث والفساد، ثم قال تعالى مفرعاً وموبخاً لمن اتبعه وأطاعه ﴿أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني﴾ أي بدلاً عني، ولهذا قال: ﴿بئس للظالمين بدلاً﴾، وهذا المقام كقوله بعد ذكر القيامة وأهوالها، ومصير كل من الفريقين السعداء والأشقياء في سورة يس: ﴿وامتازوا اليوم أيها المجرمون - إلى قوله - أفلم تكونوا تعقلون﴾.

* مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلَقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُمْ تُنذِرُونَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾

يقول تعالى هؤلاء الذين اتخذتموهم أولياء من دوني، عبيد أمثالكم لا يملكون شيئاً، ولا أشهدتهم خلق السموات والأرض، ولا كانوا إذ ذاك موجودين، يقول تعالى: أنا المستقل بخلق الأشياء كلها، ومدبرها ومقدرها وحدي، وليس معي في ذلك شريك ولا وزير، ولا مشير ولا نظير، كما قال: ﴿قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض وما لهم فيهما من شرك وما له منهم من ظهير﴾، ولهذا قال: ﴿وما كنت متخذ المضلين عضداً﴾ قال مالك: أعواناً.

* وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا ﴿٥٢﴾ وَرَأَى

الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾

يقول تعالى مخبراً عما يخاطب به المشركين يوم القيامة، على رؤوس الأشهاد تقريباً لهم وتوبيخاً ﴿نادوا شركائي الذين زعمتم﴾ أي في دار الدنيا، ادعوا اليوم ينقلونكم مما أنتم فيه، كما قال تعالى: ﴿وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء لقد تقطع بينكم وضل عنكم ما كنتم تزعمون﴾، وقوله: ﴿فدعواهم فلم يستجيبوا لهم﴾، كما قال: ﴿وقبل ادعوا شركاءكم فدعواهم فلم يستجيبوا لهم﴾ الآية، وقال: ﴿ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له﴾، وقال تعالى: ﴿واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا﴾ * كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضداً﴾، وقوله: ﴿وجعلنا بينهم موبقاً﴾ قال ابن عباس: مهلكاً، وقال قتادة: موبقاً وادياً في جهنم. وقال ابن جرير، عن أنس بن مالك في قوله تعالى ﴿وجعلنا بينهم موبقاً﴾ قال: واد في جهنم من قيح ودم، وقال الحسن البصري: موبقاً: عداوة، والظاهر من السياق ههنا أنه المهلك، ويجوز أن يكون وادياً في جهنم أو غيره، والمعنى أن الله تعالى بين أنه لا سبيل لهؤلاء المشركين ولا وصول لهم إلى آلهتهم التي كانوا يزعمون في الدنيا، وأنه يفرق بينهم وبينها في الآخرة، فلا خلاص لأحد من الفريقين إلى الآخر، بل بينهما مهلك وهول عظيم وأمر كبير، قال تعالى: ﴿وامتازوا اليوم أيها المجرمون﴾ وقال تعالى: ﴿ويوم نحشرهم جميعاً ثم نقول للذين أشركوا

(١) رواه ابن جرير بإسناد صحيح عنه .

مكانكم أتم وشركاؤكم فزيلنا بينهم ﴿٥٤﴾، وقوله ﴿٥٥﴾ ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها ولم يجدوا عنها مصرفاً ﴿٥٦﴾ أي أنهم لما عينوا جهنم حين جيء بها تقاد بسبعين ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك، فإذا رأى المجرمون النار تحققوا لا محالة أنهم مواقعوها ليكون ذلك من باب تعجيل الهم والحزن لهم، فإن توقع العذاب والخوف منه قبل وقوعه عذاب ناجز، وقوله ﴿٥٦﴾ ولم يجدوا عنها مصرفاً ﴿٥٦﴾ أي ليس لهم طريق يعدل بهم عنها، ولا بد لهم منها. وقال ابن جرير، عن أبي سعيد، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الكافر ليرى جهنم فيظن أنها مواقعه من مسيرة أربعين سنة» .

وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٧﴾

ويقول تعالى : ولقد بينا للناس في هذا القرآن ووضحنا لهم الأمور وفصلناها، كيلا يضلوا عن الحق، ويخرجوا عن طريق الهدى، ومع هذا البيان وهذا الفرقان فإن الإنسان كثير المجادلة والمخاصمة والمعارضة للحق بالباطل، إلا من هدى الله وبصره لطريق النجاة. قال الإمام أحمد، عن علي بن أبي طالب أخبره أن رسول الله ﷺ طرده وفاطمة بنت رسول الله ﷺ ليلة، فقال: «ألا تصليان»، فقلت: يا رسول الله إنما أنفسنا بيد الله، فإذا شاء أن يعثنا بعثنا، فانصرف حين قلت ذلك، ولم يرجع إلي شيئاً ثم سمعته وهو مولٍ يضرب فخذه ويقول: ﴿٥٧﴾ وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً ﴿٥٧﴾^(١).

وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمْ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةٌ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٨﴾ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا ﴿٥٩﴾

يخبر تعالى عن تمرد الكفرة في قديم الزمان وحديثه، وتكذيبهم بالحق البين الظاهر مع ما يشاهدون من الآيات والدلالات الواضحات، وأنه ما منعهم من اتباع ذلك إلا طلبهم أن يشاهدوا العذاب الذي وعدوا به عياناً كما قال أولئك لنبيهم: ﴿٥٨﴾ فأسقط علينا كسفاً من السماء إن كنت من الصادقين ﴿٥٨﴾، وآخرون قالوا: ﴿٥٨﴾ اثنتا بعذاب الله إن كنت من الصادقين ﴿٥٨﴾، وقالت قريش: ﴿٥٩﴾ اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ﴿٥٩﴾ إلى غير ذلك من الآيات الدالة على ذلك، ثم قال: ﴿٥٩﴾ إلا أن تأتيهم سنة الأولين ﴿٥٩﴾ من غشيانهم بالعذاب، وأخذهم عن آخرهم ﴿٥٩﴾ أو يأتيهم العذاب قبلاً ﴿٥٩﴾ أي يروونه عياناً مواجهة ومقابلة، ثم قال تعالى: ﴿٥٩﴾ وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين ﴿٥٩﴾ أي مبشرين من صدقهم وآمن بهم، ومنذرين لمن كذبهم وخالفهم، ثم أخبر عن الكفار بأنهم ﴿٥٩﴾ يجادلون بالباطل ليدحضوا به ﴿٥٩﴾ أي ليضعفوا به الحق، الذي جاءهم به الرسل، وليس ذلك بحاصل لهم، ﴿٥٩﴾ واتخذوا آياتي وما أُنذروا هُزُوًا ﴿٥٩﴾ أي اتخذوا الحجج والبراهين وخوارق العادات التي بعث بها الرسل، وما أُنذروهم وخوفهم به من العذاب، ﴿٥٩﴾ هُزُوًا ﴿٥٩﴾: أي سخروا منهم في ذلك وهو أشد التكذيب .

(١) أخرجه البخاري ومسلم والإمام أحمد .

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ۖ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَنْ يَهْتَدُوا إِلَّا إِذَا أَبَدَا ﴿٥٧﴾ وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ ۚ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَّنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ ۚ مَوْيَلًا ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا ﴿٥٩﴾

يقول تعالى: وأي عباد الله أظلم ممن ذكّر بآيات الله فأعرض عنها، أي تناساها وأعرض عنها ولم يصغ لها، ولا ألقى إليها بالأمر ونسي ما قدمت يدها ﴿﴾ أي من الأعمال السيئة والأفعال القبيحة، ﴿﴾ إنا جعلنا على قلوبهم ﴿﴾ أي قلوب هؤلاء ﴿﴾ أكنته ﴿﴾ أي أغطية وغطاوة، ﴿﴾ أن يفقهوه ﴿﴾ أي لثلا يفهموا هذا القرآن والبيان، ﴿﴾ وفي آذانهم ﴿﴾ قرأ ﴿﴾ أي صمماً معنوياً عن الرشد، ﴿﴾ وإن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذا أبداً ﴿﴾، وقوله: ﴿﴾ وربك الغفور ذو الرحمة ﴿﴾: أي ربك يا محمد غفور ذو رحمة واسعة، ﴿﴾ لو يؤاخذهم بما كسبوا لعجل لهم العذاب ﴿﴾، كما قال: ﴿﴾ ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ﴿﴾، وقال: ﴿﴾ وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم وإن ربك لشديد العقاب ﴿﴾ والآيات في هذا كثيرة شتى، ثم أخبر أنه يحلم ويستر ويغفر وربما هدى بعضهم من الغي إلى الرشد، ومن استمر منهم فله يوم يشيب فيه الوليد وتضع كل ذات حمل حملها، ولهذا قال: ﴿﴾ بل لهم موعد لن يجدوا من دونه موئلاً ﴿﴾: أي ليس لهم عنه محيص ولا معيد، ولا معدل، وقوله: ﴿﴾ وتلك القرى أهلكتناهم لما ظلموا ﴿﴾ أي الأمم السالفة والقرون الخالية أهلكتناهم بسبب كفرهم وعنادهم ﴿﴾ وجعلنا لمهلكهم موعداً ﴿﴾: أي جعلناهم إلى مدة معلومة ووقت معين لا يزيد ولا ينقص، أي وكذلك أنتم أيها المشركون احذروا أن يصيبكم ما أصابهم فقد كذبتم أشرف رسول وأعظم نبي، ولستم بأعز علينا منهم فخافوا عذابي ونذري .

وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتْنِهِ لَا أBRحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتْنِهِ ءَاتِنَا غَدَاءً نَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَنِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغُ فَارْتَدَّآ عَلَىٰ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا ءَاتِيَنَّهُ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَهُ مِنَ لَدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾

سبب قول موسى لفتناه وهو (يوشع بن نون) هذا الكلام، أنه ذكر له أن عبداً من عباد الله بمجمع البحرين عنده من العلم ما لم يحط به موسى فأحب الرحيل إليه، وقال لفتناه ذلك ﴿﴾ لا أبرح ﴿﴾: أي لا أزال سائراً ﴿﴾ حتى أبلغ مجمع البحرين ﴿﴾ أي هذا المكان الذي فيه مجمع البحرين، قال قتادة وغير واحد: هما (بحر فارس) مما يلي

المشرق و (بحر الروم) مما يلي المغرب، وقال محمد بن كعب: مجمع البحرين عند طنجة، يعني في أقصى بلاد المغرب، فالله أعلم. وقوله: ﴿ أو أمضي حقباً ﴾ أي ولو أني أسير حقباً من الزمان، عن عبد الله بن عمرو أنه قال: الحقب ثمانون سنة، وقال مجاهد: سبعون خريفاً، وقال ابن عباس ﴿ أو أمضي حقباً ﴾ قال: دهرأ، وقوله: ﴿ فلما بلغا مجمع بينهما نسيا حوتهما ﴾ وذلك أنه كان قد أمر بحمل حوت مملوح معه وقيل له متى فقدت الحوت فهو ثمة، فسارا حتى بلغا مجمع البحرين، وكان في مكث مع يوشع عليه السلام، وظهر من المكث إلى البحر، فاستيقظ يوشع عليه السلام وسقط الحوت في البحر فجعل يسير في الماء والماء له مثل الطاق لا يلتثم بعده، ولهذا قال تعالى: ﴿ واتخذ سبيله في البحر سرباً ﴾ أي مثل السرب في الأرض، قال ابن عباس: صار أثره كأنه حجر، وقال قتادة: سرب من البحر حتى أفضى إلى البحر، ثم سلك فيه فجعل لا يسلك فيه طريقاً إلا صار ماء جامداً، وقوله: ﴿ فلما جاوزا ﴾: أي المكان الذي نسيا الحوت فيه، ﴿ قال ﴾ موسى ﴿ لفتاه آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا ﴾ أي الذي جاوزا فيه المكان ﴿ نصباً ﴾ أي تعباً، ﴿ قال أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة، فإني نسيت الحوت، وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره ﴾، ولهذا قال: ﴿ فاتخذ سبيله ﴾ أي طريقه ﴿ في البحر عجباً قال ذلك ما كنا نبغي ﴾ أي هذا هو الذي نطلب ﴿ فارتدا ﴾ أي رجعا ﴿ على آثارهما ﴾ أي طريقهما ﴿ قصصاً ﴾ أي يقصان آثار مشيما، ويقفوان أثرهما ﴿ فوجدنا عبداً من عبادنا آتينا رحمة من عندنا وعلمانه من لدنا علماً ﴾، وهذا هو الخضر عليه السلام، كما دلت عليه الأحاديث الصحيحة عن رسول الله ﷺ .

روى البخاري، عن أبي بن كعب رضي الله عنه، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: « إن موسى قام خطيباً في بني إسرائيل، فسئل أي الناس أعلم؟ قال: أنا، فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إليه، فأوحى الله إليه إن لي عبداً بمجمع البحرين هو أعلم منك. قال موسى: يارب كيف لي به؟ قال: تأخذ معك حوتاً فتجعله بمكث فحيثما فقدت الحوت فهو ثم، فأخذ حوتاً فجعله بمكث ثم انطلق وانطلق معه فتاه يوشع بن نون عليه السلام، حتى إذا أتيا الصخرة وضعا رؤوسهما فناما، واضطرب الحوت في المكث فخرج منه فسقط في البحر، فاتخذ سبيله في البحر سرباً، وأمسك الله عن الحوت جرية الماء، فصار عليه مثل الطاق. فلما استيقظ نسي صاحبه أن يخبره بالحوت، فانطلقا بقية يومهما وليتهما، حتى إذا كان من الغد قال موسى لفتاه: ﴿ آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً ﴾، ولم يجد موسى النصب حتى جاوز المكان الذي أمره الله به، قال له فتاه: ﴿ أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره واتخذ سبيله في البحر عجباً ﴾، قال فكان للحوت سرباً، ولموسى وفناه عجباً، فقال: ﴿ ذلك ما كنا نبغي فارتدا على آثارهما قصصاً ﴾ قال، فرجعا يقصان أثرهما حتى اتبها إلى الصخرة، فإذا رجل مسجى بثوب، فسلم عليه موسى، فقال الخضر: وأنى بأرضك السلام؟ فقال: أنا موسى. فقال: موسى بني إسرائيل؟ قال: نعم، قال أتيتك لتعلمني مما علمت رشداً ﴿ قال إنك لن تستطيع معي صبراً ﴾ يا موسى، إني على علم من علم الله علمنيه لا تعلمه أنت، وأنت على علم من علم الله علمكه الله لا أعلمه. فقال موسى: ﴿ ستجدني إن شاء الله صابراً ولا أعصى لك أمراً ﴾، قال له الخضر: ﴿ فإن اتبعني فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكراً ﴾، فانطلقا يمشيان على ساحل البحر، فمرت سفينة فكلموهم أن يحملوهم، فعرفوا الخضر، فحملوهم بغير نول، فلما ركبا في السفينة لم يفجأ إلا والخضر قد قلع لوحاً من الواح السفينة بالقدم، فقال له موسى: قد حملونا

بغير نول فعمدت إلى سفينتهم فخرقتها لتغرق أهلها ! لقد جئت شيئاً إمرأً ﴿٦٦﴾ قال ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبراً؟ قال: لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمري عسراً ﴿٦٧﴾ . قال، وقال رسول الله ﷺ وعلى آله - فكانت الأولى من موسى نسياناً، قال، وجاء عصفور، فوقع على حرف السفينة فنقر في البحر نقرة أو نقرتين، فقال له الخضر: ما علمي وعلمك في علم الله إلا مثل ما نقص هذا العصفور من هذا البحر، ثم خرجا من السفينة فيينا هم يمشيان على الساحل إذ أبصر الخضر غلاماً يلعب مع الغلمان فأخذ الخضر رأسه، فاقتلعه بيده فقتله، فقال له موسى: ﴿أقتلت نفساً زكية بغير نفس لقد جئت شيئاً نكراً﴾ قال ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبراً ﴿٦٨﴾، قال وهذه أشد من الأولى، ﴿قال إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني، قد بلغت من لدني عذراً﴾ فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما، فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقض ﴿أي مائلاً﴾ فقال الخضر بيده ﴿فأقامه﴾ فقال موسى: قوم أتيناكم فلم يطعمونا ولم يضيفونا ﴿لو شئت لا اتخذت عليه أجراً﴾ قال هذا فراق بيني وبينك سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبراً ﴿٦٩﴾، فقال رسول الله ﷺ: «وددنا أن موسى كان صبر حتى يقصص الله علينا من خبرهما». قال سعيد بن جبير: كان ابن عباس يقرأ: ﴿وكان أمامهم ملك يأخذ كل سفينة صالحة غصباً﴾، وكان يقرأ: ﴿وأما الغلام فكان كافراً وكان أبواه مؤمنين﴾ ﴿٧٠﴾ .

وروى الزهري: عن ابن عباس، أنه تمارى هو والحر بن قيس بن حصن الفزاري، في صاحب موسى، فقال ابن عباس: هو خضر، فر بها أبي بن كعب فدعاه ابن عباس، فقال: إني تماريت أنا وصاحبي هذا في صاحب موسى، الذي سأل السبيل إلى لقيه، فهل سمعت رسول الله ﷺ يذكر شأنه؟ قال: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «بينما موسى في ملاء من بني إسرائيل إذ جاءه رجل، فقال: تعلم مكان رجل أعلم منك؟ قال: لا، فأوحى الله إلى موسى: بلي عبدنا خضر، فسأل موسى السبيل إلى لقيه، فجعل الله له الحوت آية، وقيل له: إذا فقدت الحوت فارجع، فإنك ستلقاه، فكان موسى يتبع أثر الحوت في البحر، فقال فتى موسى لموسى رأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت، قال موسى ﴿ذلك ما كنا نبغ فارتدا على آثارهما قصصاً﴾ فوجدا عبدنا خضراً، فكان من شأنهما ما قص الله في كتابه .

﴿قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَني مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا﴾ ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾
 وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحَدِّثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾

يخبر تعالى عن قبل موسى عليه السلام، لذلك الرجل العالم، وهو الخضر الذي خصه الله بعلم لم يطلع عليه موسى، كما أنه أعطى موسى من العلم ما لم يعطه الخضر. ﴿قال له موسى هل اتبعك﴾ سؤال تلتطف لا على وجه الإلزام والإجبار، وهكذا ينبغي أن يكون سؤال المتعلم من العالم، وقوله ﴿أتبعك﴾ أي أصحبك وأرافقك، ﴿على أن تعلمن مما علمت رشداً﴾ أي مما علمك الله شيئاً أسترشد به في أمري من علم نافع وعمل صالح، فعندها

(١) أخرجه البخاري في صحيحه عن ابن عباس عن أبي كعب رضي الله عنهما .

﴿ قال ﴾ الخضر لموسى ﴿ إنك لن تستطيع معي صبراً ﴾ أي إنك لا تقدر على مصاحبتى لما ترى منى من الأفعال التي تخالف شريعتك، لأنى على علم من علم الله ما علمك الله، وأنت على علم من علم الله ما علمنيه الله، فكل منا مكلف بأمور من الله دون صاحبه، وأنت لا تقدر على صحبتي ﴿ وكيف تصبر على ما لم تحط به خبراً ﴾ فأنا أعرف أنك ستنكر عليّ ما أنت معذور فيه، ولكن ما اطلعت على حكمته ومصالحته الباطنة، التي اطلعت أنا عليها دونك، ﴿ قال ﴾ أي موسى ﴿ ستجدني إن شاء الله صابراً ﴾ أي على ما أرى من أمورك، ﴿ ولا أعصى لك أمراً ﴾ أي ولا أخالفك في شيء، فعند ذلك شارطه الخضر عليه السلام ﴿ قال فإن اتبعني فلا تسألني عن شيء ﴾ أي ابتداءً حتى أحدث لك منه ذكراً ﴿ أي حتى أبدأك أنا به، قبل أن تسألني. عن ابن عباس قال: سأل موسى عليه السلام ربه عز وجل فقال: أي رب أي عبادك أحب إليك؟ قال: الذي يذكرني ولا ينساني، قال فأبي عبادك أفضى؟ قال: الذي يقضي بالحق ولا يتبع الهوى، قال: أي رب أي عبادك أعلم؟ قال: الذي يبتغي علم الناس إلى علمه عسى أن يصيب كلمة تهديه إلى هدى أو ترده عن ردى، قال، أي رب: هل في أرضك أحد أعلم منى؟ قال: نعم، قال: فمن هو؟ قال: الخضر، قال: وأين أطلبه؟ قال: على الساحل عند الصخرة التي ينفلت عندها الحوت، قال، فخرج موسى يطلبه حتى كان ما ذكر الله وانتهى موسى إليه عند الصخرة، فسلم كل واحد منهما على صاحبه، فقال له موسى: إني أحب أن أصحبك، قال: إنك لن تطيق صحبتي. قال: بلى، قال: فإن صحبتي ﴿ فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكراً ﴾، قال فسار به في البحر، حتى انتهى إلى مجمع البحرين، وليس في الأرض مكان أكثر ماء منه، قال، وبعث الله الخطاف، فجعل يستقي منه بمنقاره، فقال لموسى: كم ترى هذا الخطاف رزاً من هذا الماء؟ قال: ما أقل ما رزاً، قال: يا موسى فإن علمي وعلمك في علم الله كقدر ما استقي هذا الخطاف من هذا الماء، وكان موسى قد حدث نفسه أنه ليس أحد أعلم منه أو تكلم به، فن ثم أمر أن يأتي الخضر، وذكر تمام الحديث في خرق السفينة، وقتل الغلام، وإصلاح الجدار، وتفسيره له ذلك^(١).

فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخْرَقَهَا لِنُفْرَقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ إِنْ

إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴿٧٣﴾

يقول تعالى مخبراً عن موسى وصاحبه وهو الخضر، أنهما انطلقا لما توافقا واصطحبا، واشترط عليه أن لا يسأله عن شيء أنكره حتى يكون هو الذي يبتدئه من تلقاء نفسه بشرحه وبيانه، فركبا في السفينة، وقد تقدم في الحديث كيف ركبا في السفينة، وأنهم عرفوا الخضر، فحملوهما بغير نول، يعني بغير أجره تكريماً للخضر، فلما استقلت بهم السفينة في البحر ولججت، أي دخلت اللجة، قام الخضر فخرقها، واستخرج لوحاً من ألواحها، ثم رقعها، فلم يملك موسى عليه السلام نفسه أن قال منكراً عليه ﴿ أخرقها لتفرك أهلها ﴾ وهذه اللام العاقبة. لا لام التعليل. كما قال الشاعر:

* لدوا للموت وابنوا للخراب *

﴿ لقد جئت شيئاً إمرأاً ﴾ قال مجاهد: منكراً، وقال قتاده: عجباً، فعندها قال له الخضر مذكراً بما تقدم من الشرط

(١) أخرجه ابن جرير عن ابن عباس.

﴿ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾، يعني وهذا الصنيع فعلته قصداً، وهو من الأمور التي اشترطت معك أن لا تنكر عليّ فيها، لأنك لم تحط بها خبيراً، ولها دخل هو مصلحة ولم تعلمه أنت، ﴿ قَالَ ﴾ أي موسى ﴿ لَا تَوَاخِذُنِي بِمَا نَسِيتَ، وَلَا تَرْهَقْنِي مِنْ أَمْرِي عَسْرًا ﴾: أي لا تضيق علي ولا تشدد علي، ولهذا تقدم في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: « كانت الأولى من موسى نسياناً ».

فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقْتَلْتَنِي بغيرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكَرًا ﴿٧٤﴾ * قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِنْ سَأَلْتِكِ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَحِّحْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٦﴾

يقول تعالى ﴿ فانطلقا ﴾ أي بعد ذلك ﴿ حتى إذا لقيا غلاماً فقتله ﴾، وقد تقدم أنه كان يلعب مع الغلمان في قرية من القرى، وأنه عمد إليه من بينهم، وكان أحسنهم وأجملهم فقتله، وروي أنه اجتر رأسه، وقيل رضخه بحجر، وفي رواية اقتلعه بيده، والله أعلم. فلما شاهد موسى عليه السلام هذا أنكره أشد من الأول، وبادر فقال ﴿ أقتلت نفساً زكية ﴾: أي صغيرة، لم تعمل الحنث، ولا عملت إثمياً بعد، فقتلته ﴿ بغير نفس ﴾: أي بغير مستند لقتله ﴿ لقد جئت شيئاً نكراً ﴾: أي ظاهر النكارة ﴿ قال ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبراً ﴾ فأكد أيضاً في التذكار بالشرط الأول، فلماذا قال له موسى ﴿ إن سألتك عن شيء بعدها ﴾: أي إن اعترضت عليك بشيء بعد هذه المرة ﴿ فلا تصاحبني قد بلغت من لدني عذراً ﴾: أي قد أعذرت إلي مرة بعد مرة، قال ابن جرير، عن ابن عباس، عن أبي بن كعب، قال: كان النبي ﷺ إذا ذكر أحداً فدعا له بدأ بنفسه، فقال ذات يوم: « رحمة الله علينا وعلى موسى لو لبث مع صاحبه لأبصر العجب، لكنه قال: إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني قد بلغت من لدني عذراً ».

فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا آتَىٰ أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطَعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقُضَ فَاقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾

يقول تعالى مخبراً عنهما؛ إنهما ﴿ انطلقا ﴾ بعد المرتين الأولين ﴿ حتى إذا أتيا أهل قرية ﴾، روي عن ابن سيرين أنها الإيكة، وفي الحديث: « حتى إذا أتيا أهل قرية لثاماً » أي بخلاء، ﴿ فأبوا أن يضيفوهم فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقض ﴾ إسناد الإرادة هنا إلى الجدار على سبيل الاستعارة؛ فإن الإرادة في المحدثات بمعنى الميل؛ والانقضاض هو السقوط، وقوله ﴿ فأقامه ﴾ أي فرده إلى حالة الاستقامة، وقد تقدم في الحديث أنه رده بيديه ودعمه حتى رد ميله، وهذا خارق، فعند ذلك قال موسى له ﴿ لو شئت لاتخذت عليه أجراً ﴾ أي لأجل أنهم لم يضيفونا كان ينبغي أن لا تعمل لهم مجاناً ﴿ قال هذا فراق بيني وبينك ﴾ أي لأنك شرطت عند قتل الغلام أنك إن سألتني عن شيء بعدها فلا تصاحبني، فهو فراق بيني وبينك، ﴿ سأنبئك بتأويل ﴾ أي بتفسير ﴿ ما لم تستطع عليه صبراً ﴾.

أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾

هذا تفسير ما أشكل أمره على موسى عليه السلام وما كان أنكر ظاهره، وقد أظهر الله الخضر عليه السلام على حكمة باطنة، فقال: إن السفينة إنما خرقها لأعيبها، لأنهم كانوا يمرون بها على ملك من الظلمة ﴿يأخذ كل سفينة﴾ صالحة أي جيدة ﴿غصباً﴾ فأردت أن أعيبها لأرده عنها لعيبها، فينتفع بها أصحابها المساكين الذين لم يكن لهم شيء ينتفعون به غيرها، وقد قيل إنهم أيتام، وروى ابن جريج، أن اسم ذلك الملك، (هدد بن بدد)، وهو مذكور في التوراة في ذرية العيص بن إسحاق.

وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهَقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ

زَكَوَّةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾

عن أبي بن كعب، عن النبي ﷺ قال: «الغلام الذي قتله الخضر طبع يوم طبع كافراً»^(١)، ولهذا قال: ﴿فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقهما طغياناً وكفراً﴾ أي يحملهما حبه على متابعتة على الكفر، قال قتادة: قد فرح به أبواه حين ولد وحزنا عليه حين قتل، ولو بقي لكان فيه هلاكهما، فليرض امرؤ بقضاء الله فإن قضاء الله للمؤمن فيما يكره خير له من قضائه فيما يحب، وصح في الحديث: «لا يقضي الله لمؤمن قضاء إلا كان خيراً له»، وقال تعالى: ﴿وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم﴾، وقوله: ﴿فأردنا أن يبدلنا ربهما خيراً منه زكاة وأقرب رحماً﴾ أي ولدأ أذكى من هذا، وهما أرحم به منه، وقال قتادة: أبر بالديه، وقيل لما قتله الخضر كانت أمه حاملاً بغلام مسلم، قاله ابن جريج.

وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا

أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِّنَ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ﴿٨٢﴾ ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٣﴾

في هذه الآية دليل على إطلاق القرية على المدينة، لأنه قال أولاً ﴿حتى إذا أتيا أهل قرية﴾، وقال ههنا: ﴿فكان لغلامين يتيمين في المدينة﴾^(٢)، كما قال تعالى: ﴿فكأين من قرية هي أشد قوة من قريتك التي أخرجتك﴾ وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ﴿يعني مكة والطائف، ومعنى الآية أن هذا الجدار إنما أصلحته لأنه كان لغلامين يتيمين في المدينة، وكان تحته كنز لهما. قال عكرمة: كان تحته مال مدفون لهما، وهو

(١) أخرجه ابن جرير عن ابن عباس عن أبي بن كعب.

(٢) قال السهيلي في الغلامين اليتيمين: هما أصرم وصريم ابنا كاشح، والأب الصالح الذي حفظ كثرها من أجله كان بينهما وبينه سبعة آباء، وقيل عشرة، ولم يكونا أبنيه من صلبه فيما ذكر عن ابن عباس، وذكر السيوطي: أن اسم الملك (هدد ابن بدد) واسم أبوي الغلام المقتول (أبرا) وأمه (سهواً) وقد أبدلها الله خيراً منه بجمالية ولدت نبياً كان بعد موسى اسمه (شمعون).

ظاهر السياق من الآية، وهو اختيار ابن جرير رحمه الله، وقال ابن عباس: كان تحته كثر علم، وعن الحسن البصري أنه قال: لوح من ذهب مكتوب فيه: «بسم الله الرحمن الرحيم، عجبت لمن يؤمن بالقدر كيف يحزن، وعجبت لمن يؤمن بالموت كيف يفرح، وعجبت لمن يعرف الدنيا وتقلبها بأهلها كيف يطمئن إليها، لا إله إلا الله محمد رسول الله»^(١)، وذكر أنهما حفظا بصلاح أبيهما، ولم يذكر منهما صلاح، وكان بينهما وبين الأب الذي حفظا به سبعة آباء، وكان نساجاً، وهذا الذي ذكر - وإن صح - لا ينافي قول عكرمة إنه كان مالاً، لأنهم ذكروا أنه كان لوحاً من ذهب، وفيه مال جزيل أكثر، كان مودعاً فيه علم وهو حكم ومواعظ والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وكان أبوهما صالحاً﴾ فيه دليل على أن الرجل الصالح يحفظ في ذريته، وتشمل بركة عبادته لهم في الدنيا والآخرة بشفاعته فيهم، ورفع درجاتهم إلى أعلى درجة في الجنة، لتقر عينه بهم، كما جاء في القرآن، ووردت به السنة، قال سعيد بن جبيرة عن ابن عباس: حفظا بصلاح أبيهما، ولم يذكر لهما صلاحاً، وتقدم أنه كان الأب السابع فالله أعلم. وقوله: ﴿فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كثرهما﴾ ههنا أسند الإرادة إلى الله تعالى، لأن بلوغهما الحلم لا يقدر عليه إلا الله، وقال في الغلام: ﴿فأردنا أن يبدلها ربهما خيراً منه زكاة﴾ وقال في السفينة: ﴿فأردت أن أعيها﴾ فالله أعلم. وقوله تعالى: ﴿رحمة من ربك وما فعلته عن أمري﴾ أي هذا الذي فعلته في هذه الأحوال الثلاثة إنما هو من رحمة الله بمن ذكرنا من أصحاب السفينة، ووالدي الغلام، وولدي الرجل الصالح، وما فعلته عن أمري، لكني أمرت به ووقفت عليه، وفيه دلالة لمن قال بنبوة الخضر عليه السلام مع ما تقدم من قوله: ﴿فوجدنا عبداً من عبادنا أتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علماً﴾، وذهب كثيرون إلى أنه لم يكن نبياً بل كان ولياً، فالله أعلم. وحكي في كونه باقياً إلى الآن ثم إلى يوم القيامة قولان، ومال النووي وابن الصلاح إلى بقاءه، ورجح آخرون من المحدثين وغيرهم خلاف ذلك، واحتجوا بقوله تعالى: ﴿وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد﴾، ويقول النبي ﷺ يوم بدر: «اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد في الأرض»، وبأنه لم ينقل أنه جاء إلى رسول الله ﷺ ولا حضر عنده ولا قاتل معه، ولو كان حياً لكان من أتباع النبي ﷺ وأصحابه، لأنه عليه السلام كان مبعوثاً إلى جميع الثقيلين الجن والإنس، وقد قال: «لو كان موسى وعيسى حين لما وسعهما إلا اتباعي»، وأخبر قبل موته بقليل أنه لا يبقى ممن هو على وجه الأرض إلى مائة سنة من ليلته تلك عين تطرف، إلى غير ذلك من الدلائل^(٢).

وفي صحيح البخاري، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إنما سمي الخضر لأنه جلس على فروة فإذا هي تهتز من تحته خضراء»^(٣) والمراد بالفروة ههنا الحشيش اليابس، وهو الهشيم من النبات، وقيل المراد بذلك وجه الأرض. وقوله: ﴿ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبراً﴾ أي هذا تفسير ما ضقت به ذرعاً، ولم تصبر حتى أخبرك به ابتداء، ولما أن فسره له وبينه ووضحه وأزال المشكل قال: ﴿تسطع﴾ وقبل ذلك كان الإشكال قوياً ثقیلاً، فقال: ﴿سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبراً﴾ فقابل الأثقل بالأثقل، والأخف بالأخف، كما قال: ﴿فما

(١) أخرجه ابن جرير في تفسيره عن الحسن البصري، وورد في حديث مرفوع رواه الحافظ البزار عن أبي ذر بمثله.

(٢) أخرجه البخاري وأحمد ورواه أيضاً عبد الرزاق. (٣) الراجح قول أهل الحديث بموت الخضر للأدلة المذكورة.

استطاعوا أن يظهره ﴿ وهو الصعود إلى أعلاه ﴾ وما استطاعوا له نقباً ﴿ وهو أشق من ذلك، فقابل كلا بما يناسبه لفظاً ومعنى والله أعلم. فإن قيل: فما بال فتى موسى ذكر في أول القصة ثم لم يذكر بعد ذلك؟ فالجواب أن المقصود بالسياق إنما هو قصة موسى مع الخضر، وذكر ما كان بينهما، وفتى موسى معه تبع، وقد صرح في الأحاديث المتقدمة في الصحاح وغيرها، أنه (يوشع بن نون) وهو الذي كان يلي بني إسرائيل بعد موسى عليه السلام.

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٤﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَءَاتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ

شَيْءٍ سَبَبًا ﴿٨٥﴾

يقول تعالى لنيبهِ ﷺ ﴿ ويسألونك ﴾ يا محمد ﴿ عن ذي القرنين ﴾ أي عن خبره، وقد قدمنا أنه بعث كفار مكة إلى أهل الكتاب، يسألون منهم ما يمتحنون به النبي ﷺ، فقالوا: سلوه عن رجل طواف في الأرض، وعن فتية ما يدري ما صنعوا، وعن الروح، فترلت سورة الكهف. وقد ذكر الأزرق وغيره أنه طاف بالبيت مع إبراهيم الخليل عليه السلام أول ما بناه وآمن به، وتبعه، وكان وزيره الخضر عليه السلام، وقد ذكرنا طرفاً صالحاً من أخباره في كتاب (البداية والنهاية) بما فيه كفاية والحمد لله. وقال بعض أهل الكتاب: سمي ذا القرنين لأنه ملك الروم وفارس، وقال بعضهم: كان في رأسه شبه القرنين. وقال سفيان الثوري، عن أبي الطفيل: سئل علي رضي الله عنه عن ذي القرنين فقال: كان عبداً ناصحاً لله فناصره، دعا قومه لله فضربوه على قرنيه فمات، فسمي ذا القرنين، ويقال إنه سمي ذا القرنين لأنه بلغ المشارق والمغرب من حيث يطلع قرن الشمس ويغرب. وقوله: ﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ ﴾ أي أعطيناه ملكاً عظيماً، ممكناً فيه من جميع ما يؤتى الملوك من التمكين والجنود وآلات الحرب والحضارات، ولهذا ملك المشارق والمغرب من الأرض، ودانت له البلاد وخضعت له ملوك العباد، وخدمته الأمم من العرب والعجم، ولهذا ذكر بعضهم أنه إنما سمي ذا القرنين لأنه بلغ قرني الشمس مشرقها ومغربها، وقوله: ﴿ وَءَاتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴾، قال ابن عباس: يعني علماً^(١)، وقال قتادة: منازل الأرض وأعلامها، وقال عبد الرحمن بن زيد، تعلم الألسنة، قال: كان لا يغزو قوماً إلا كلمهم بلسانهم، وعن حبيب بن حماد قال: كنت عند علي رضي الله عنه، وسأله رجل عن ذي القرنين، كيف بلغ المشرق والمغرب؟ فقال: سبحان الله سخر له السحاب وقدر له الأسباب وبسط له اليد^(٢).

﴿ فَاتَّبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَأْتِيكُمُ الْقُرْنَيْنُ بِأَمْرٍ أَلَمْ نَقُلْ لَكُمْ أَن تَعْدَبُ وَإِنَّمَا أَن نَّخَذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نَعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ

(١) وبه قال مجاهد وسعيد بن جبيرة وعكرمة والسدي وقاتادة والضحاك وغيرهم.

(٢) ذكره الضياء المقدسي عن سماك بن حرب عن حبيب بن حماد.

عَذَابًا نُّكَرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءٌ الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾

قال ابن عباس ﴿فَاتَّبَعَ سَبِيًّا﴾: يعني بالسبب المنزل. وقال مجاهد ﴿فَاتَّبَعَ سَبِيًّا﴾: منزلاً وطريقاً ما بين المشرق والمغرب، وقال قتادة: أي اتبع منازل الأرض ومعلمها. وقال سعيد بن جبير: علماً، وقال مطر: معالم وآثار كانت قبل ذلك. وقوله ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ﴾: أي فسلك طريقاً حتى وصل إلى أقصى ما يسلك فيه من الأرض من ناحية المغرب وهو مغرب الأرض، وأما الوصول إلى مغرب الشمس من السماء فتعذر، وما يذكره أصحاب القصص والأخبار من أنه سار في الأرض مدة والشمس تغرب من ورائه، فشيء لا حقيقة له، وأكثر ذلك من خرافات أهل الكتاب واختلاق زنادقهم وكذبهم، وقوله ﴿وَجَدَهَا تَغْرِبُ فِي عَيْنِ حِمَّةٍ﴾: أي رأى الشمس في منظره تغرب في البحر المحيط وهذا شأن كل من انتهى إلى ساحله، يراها كأنها تغرب فيه، والحمئة مشتقة على إحدى القراءتين من الحمأة وهو الطين، كما قال تعالى ﴿إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾: أي من طين أملس، وقد تقدم بيانه. وقال ابن جرير: كان ابن عباس يقول ﴿فِي عَيْنِ حِمَاةٍ﴾ ثم فسرها ذات حمأة، قال نافع: وسئل عنها كعب الأخبار فقال: أتم أعلم بالقرآن مني ولكني أجدها في الكتاب تغيب في طينة سوداء. وبه قال مجاهد وغير واحد. وعن أبي بن كعب أن النبي ﷺ أقرأه حمئة، وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس وجدها تغرب في عين حامية يعني حارة. وكذا قال الحسن البصري، وقال ابن جرير: والصواب أنهما قراءتان مشهورتان، وأيهما قرأ القارئ فهو مصيب، ولا منافاة بين معنيهما إذ قد تكون حارة لمجاورتها وهج الشمس عند غروبها وملاقاتها الشعاع بلا حائل، وحمئة في ماء وطين أسود كما قال كعب الأخبار وغيره. وقوله تعالى ﴿وَوَجَدَهَا قَوْمًا﴾: أي أمة من الأمم، ذكروا أنها كانت أمة عظيمة من بني آدم^(١)، وقوله ﴿قُلْنَا يَا ذَا الْقُرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تَعَذَّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حَسَنًا﴾ معنى هذا أن الله تعالى مكّنه منهم، وحكّمه فيهم وأظفّره بهم، وخيّرهُ إن شاء قتل وسبى، وإن شاء من أو فدى، فعرف عدله وإيمانه، فيما أبداه عدله وبيانه في قوله ﴿أَمَا مِنْ ظَلَمٍ﴾ أي استمر على كفره وشركه بربه ﴿فَسَوْفَ نَعَذِّبُهُ﴾، قال قتادة: بالقتل، وقال السدي: كان يحيي لهم النحاس ويضعهم فيها حتى يذوبوا. وقال وهب بن منبه: كان يسلط الظلمة فتدخل بيوتهم، وتغشاهم من جميع جهاتهم، والله أعلم. وقوله ﴿ثُمَّ يَرُدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكَرًا﴾ أي شديداً بليغاً وجيلاً أليماً، وفي هذا إثبات المعاد والجزاء. وقوله ﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ﴾ أي تابعنا على ما ندعوه إليه من عبادة الله وحده لا شريك له ﴿فَلَهُ جَزَاءٌ الْحُسْنَىٰ﴾ أي في الدار الآخرة عند الله عز وجل، ﴿وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ قال مجاهد: معروفاً.

ثُمَّ أَتَّبَعَ سَبِيًّا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطَّلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَمْ يَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾
كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾

(١) قال السهيلي: هم أهل جابرص، ويقال لها بالسريانية: جرجيا يسكنها قوم من نسل ثمود بقيتهم الذين آمنوا بصالح.

يقول تعالى: ثم سلك طريقاً فسار من مغرب الشمس إلى مطلعها، وكان كلما مرّ بأمة قهرهم وغلبهم ودعاهم إلى الله عزّ وجلّ، فإن أطاعوه وإلا أذلم وأرغم آنافهم واستباح أموالهم وأمتعتهم، واستخدم من كل أمة ما تستعين به جيوشه على قتال الإقليم المتساخم لهم. وذكر في أخبار بني إسرائيل أنه عاش ألفاً وستمائة سنة يجوب الأرض، طولها والعرض، حتى بلغ المشارق والمغرب، ولما انتهى إلى مطلع الشمس من الأرض كما قال الله تعالى ﴿وجدها تطلع على قوم﴾ أي أمة ﴿لم نجعل لهم من دونها ستراً﴾ أي ليس لهم بناء يكنهم، ولا أشجار تظلمهم وتسترهم من حر الشمس، قال سعيد بن جبير: كانوا حمراً قصاراً مساكنهم الغيران، أكثر معيشتهم من السمك. وقال الحسن في قول الله تعالى ﴿لم نجعل لهم من دونها ستراً﴾ قال: إن أرضهم لا تحمل البناء، فإذا طلعت الشمس تغوروا في المياه، فإذا غربت خرجوا يترعون كما ترعى البهائم^(١)، وقال قتادة: ذكر لنا أنهم بأرض لا تثبت لهم شيئاً، فهم إذا طلعت الشمس دخلوا في أسراب، حتى إذا زالت الشمس خرجوا إلى حروثهم ومعاشهم. وقال ابن جرير: لم يبنوا فيها بناء قط ولم بين عليهم فيها بناء قط، كانوا إذا طلعت الشمس دخلوا أسراباً لهم حتى تزول الشمس، أو دخلوا البحر، وذلك أن أرضهم ليس فيها جبل. وقوله ﴿كذلك وقد أحطنا بما لديه خبراً﴾ قال مجاهد والسدي: علماً، أي نحن مطلعون على جميع أحواله، وأحوال جيشه لا يخفى علينا منها شيء، وإن تفرقت أممهم وتقطعت بهم الأرض، فإنه تعالى ﴿لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء﴾.

* ثُمَّ اتَّبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا يَا بَنِي آدَمَ إِنَّا فَجَّرْنَا بِكَ الْوَادِئَيْنِ إِنَّا نَجْعَلُكَ خَرَجًا عَلَيْنَا أَن نَّجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ أَنْفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ ءَاتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾

يقول تعالى مخبراً عن ذي القرنين ﴿ثم اتبع سبباً﴾ أي ثم سلك طريقاً من مشارق الأرض، حتى إذا بلغ بين السدين وهما جبلان متناوحيان بينهما ثغرة، يخرج منها يأجوج ومأجوج على بلاد الترك، فيعيثون فيها فساداً ويهلكون الحرث والنسل، ويأجوج ومأجوج من سلالة آدم عليه السلام كما ثبت في الصحيحين: «أن الله تعالى يقول: يا آدم، فيقول: لبيك وسعديك، فيقول: ابعث بعث النار، فيقول: وما بعث النار؟ فيقول: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار، وواحد إلى الجنة، فحيثئذ يشيب الصغير وتضع كل ذات حمل حملها، فقال: إن فيكم أمتين ما كانتا في شيء إلا كثرتا، يأجوج ومأجوج»^(٢). وفي مسند الإمام أحمد، عن سمرة أن رسول الله ﷺ قال: «ولد نوح ثلاثة: سام أبو العرب، وحام أبو السودان، ويافث أبو الترك»، قال بعض العلماء: هؤلاء من نسل يافث أبي الترك، وقال، إنما سمي هؤلاء تركاً لأنهم تركوا من وراء السد من هذه الجهة، وإلا فهم أقرباء أولئك، ولكن كان في أولئك بغي وفساد وجراءة، وقد ذكر ابن جرير ههنا عن وهب بن منبه أثراً طويلاً عجيباً في

(١) أخرجه أبو داود الطيالسي عن الحسن البصري. (٢) أخرجه البخاري ومسلم.

سير ذي القرنين وبنائه السد وكيفية ما جرى له، وفيه طول وغرابة ونكارة في أشكالهم وصفاتهم وطولهم وقصر بعضهم وآذانهم. وروى ابن أبي حاتم عن أبيه في ذلك أحاديث غريبة لا تصح أسانيدُها، والله أعلم .

وقوله تعالى ﴿﴾ وجد من دونهما قوماً لا يكادون يفقهون قولاً ﴿﴾ أي لاستعجاب كلامهم، وبعدهم عن الناس، ﴿﴾ قالوا يا ذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون في الأرض فهل نجعل لك خرجاً ﴿﴾ قال ابن عباس: أجرًا عظيمًا، يعني أنهم أرادوا أن يجمعوا له من بينهم مالا يعطونه إياه حتى يجعل بينهم وبينهم سداً، فقال ذو القرنين بعبق وديانة وصلاح وقصد للخير ﴿﴾ ما مكنتي فيه ربي خيراً ﴿﴾ أي إن الذي أعطاني الله من الملك والتمكين خير لي من الذي تجمعونه، كما قال سليمان عليه السلام: ﴿﴾ أتمدنون بما ل فإنا آتاني الله خيراً مما آتاكم ﴿﴾ الآية. وهكذا قال ذو القرنين، الذي أنا فيه خير من الذي تبدلونه، ولكن ساعدوني بقوة، أي بعملكم وآلات البناء ﴿﴾ أجعل بينكم وبينهم ردمًا. آتوني زبر الحديد ﴿﴾ والزبر، جمع (زبرة) وهي القطعة منه^(١) وهي كاللينة يقال كل لينة زنة فنطار بالدمشقي أو تزيد عليه ﴿﴾ حتى إذا ساوى بين الصدفين ﴿﴾ أي وضع بعضه على بعض من الأساس، حتى إذا حاذى به رؤوس الجبلين طولاً وعرضاً^(٢) ﴿﴾ قال انفخوا ﴿﴾ أي أجاج عليه النار، حتى صار كله ناراً ﴿﴾ قال آتوني أفرغ عليه قطراً ﴿﴾ قال ابن عباس والسدي: هو النحاس^(٣)، زاد بعضهم المذاب، ويستشهد بقوله تعالى: ﴿﴾ وأسلنا له عين القطر ﴿﴾، عن قتادة قال: ذكر لنا أن رجلاً قال: يا رسول الله قد رأيت سد يأجوج ومأجوج. قال: «انعت لي»، قال كالبرد المحبّر، طريقة سوداء، وطريقة حمراء، قال: «قد رأيت»^(٤)، وقد بعث الخليفة الواثق في دولته بعض أمراءه وجهاز معه جيشاً سرية لينظروا إلى السد ويعاينوه وينعتونه له إذا رجعوا، فتوصلوا من بلاد إلى بلاد، ومن ملك إلى ملك، حتى وصلوا إليه، ورأوا بناءه من الحديد ومن النحاس، وذكروا أنهم رأوا فيه باباً عظيماً، وعليه أقفال عظيمة، ورأوا بقية اللبن والعمل في برج هناك، وأن عنده حرساً من الملوك المتاخمة له، وأنه عال منيف شاهر، لا يستطيع، ولا ما حوله من الجبال، ثم رجعوا إلى بلادهم وكانت غيبتهم أكثر من ستين، وشاهدوا أهوالاً وعجائب، ثم قال الله تعالى :

فَاسْطَوعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَعُوا لَهُ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴿٩٨﴾ * وَتَرَكْنَا بَعْضَهُم يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ جَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾

يقول تعالى مخبراً عن يأجوج ومأجوج، إنهم ما قدروا على أن يصعدوا من فوق هذا السد، ولا قدروا على نقبه من أسفله، ولما كان الظهور عليه أسهل من نقبه قابل كلا بما يناسبه، فقال: ﴿﴾ فما استطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقباً ﴿﴾، وهذا دليل على أنهم لم يقدرُوا على نقبه ولا على شيء منه، فأما الحديث الذي رواه الإمام

(١) قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة .

(٢) قال السيوطي عن الضحاك: هما من قبل أرمينية وآذربيجان أخرجه ابن أبي حاتم .

(٣) وهو قول مجاهد وعكرمة والضحاك وقتادة .

(٤) أخرجه ابن جرير وهو حديث مرسل .

أحمد ، عن أبي هريرة ، عن رسول الله ﷺ قال : « يأجوج ومأجوج ليحفرون السد كل يوم ، حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس ، قال الذي عليهم ، ارجعوا فستحفرونه غداً ، فيعودون إليه كأشد ما كان ، حتى إذا بلغت مدتهم وأراد الله أن يبعثهم على الناس ، حفروا حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس قال الذي عليهم : ارجعوا فستحفرونه غداً إن شاء الله ، فيستني فيعودون إليه ، وهو كهيئته حين تركوه فيحفرونه ، ويخرجون على الناس فينشقون المياه ويتحصن الناس منهم في حصونهم ، فيرمون بسهامهم إلى السماء ، فترجع وعليها كهيئة الدم فيقولون قهرنا أهل الأرض وعلونا أهل السماء ، فيبعث الله عليهم نغفاً في رقابهم فيقتلهم بها ، قال رسول الله ﷺ : « والذي نفس محمد بيده إن دواب الأرض لتسمن وتشكر شكراً من لحومهم ودمائهم »^(١) ، ففي رفعه نكارة ، لأن ظاهر الآية يقتضي أنهم لم يتمكنوا من ارتقائه ولا من نقبه لإحكام بنائه وصلابته ، وشدته ويؤيد ما قلناه ، من أنهم لم يتمكنوا من نقبه ، ومن نكارة هذا المرفوع ، قول الإمام أحمد ، عن زينب بنت جحش زوج النبي ﷺ قالت : استيقظ النبي ﷺ من نومه وهو محمر وجهه وهو يقول : « لا إله إلا الله ويل للعرب من شر قد اقترب فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذا ، وحلق بأصبعيه السبابة والإبهام » ، قلت : يا رسول الله ! أنهلك وفينا الصالحون ؟ قال : « نعم إذا كثرت الخبث » .

﴿ قال هذا رحمة من ربي ﴾ أي لما بناه ذو القرنين ﴿ قال هذا رحمة من ربي ﴾ ، أي بالناس حيث جعل بينهم وبين يأجوج ومأجوج حائلاً يمنعهم من العيث في الأرض والفساد ﴿ فإذا جاء وعد ربي ﴾ أي إذا اقترب الوعد الحق ﴿ جعله دكاء ﴾ أي ساواه بالأرض ، تقول العرب : ناقة دكاء إذا كان ظهرها مستويلاً لا سنام لها ، وقال تعالى : ﴿ فلما تجلج ربه للجبل جعله دكاء ﴾ أي مساوياً للأرض ، وقال عكرمة في قوله ﴿ فإذا جاء وعد ربي جعله دكاء ﴾ قال : طريقاً كما كان ، ﴿ وكان وعد ربي حقاً ﴾ أي كائناً لا محالة . وقوله : ﴿ وتركنا بعضهم ﴾ أي الناس ، ﴿ يومئذ ﴾ أي يوم يدك هذا السد ويخرج هؤلاء فيموجون في الناس ، ويفسدون على الناس أموالهم ، ويتلفون أشياءهم ، وهكذا قال السدي ، في قوله ﴿ وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض ﴾ قال : ذلك حين يخرجون على الناس ، وهذا كله قبل يوم القيامة ، وبعد الدجال ، كما سيأتي بيانه عند قوله : ﴿ حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون ﴾ واقترب الوعد الحق ﴿ الآية . وهكذا قال ههنا ، ﴿ وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض ﴾ قال : هذا أول يوم القيامة ، ﴿ ونفخ في الصور ﴾ على أثر ذلك ﴿ فجمعناهم جمعاً ﴾ ، وقال آخرون : بل المراد بقوله : ﴿ وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض ﴾ ، قال : إذا ماج الجن والإنس يوم القيامة يختلط الإنس والجن ، وقوله : ﴿ ونفخ في الصور ﴾ ، والصور كما جاء في الحديث ، قرن ينفخ فيه ، والذي ينفخ فيه إسرافيل عليه السلام ، وفي الحديث عن ابن عباس وأبي سعيد مرفوعاً : « كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن وحتى جبهته ، واستمع متى يؤمر » ، قالوا : كيف نقول ؟ قال : « قولوا حسبنا الله ونعم الوكيل ، على الله توكلنا » ، وقوله : ﴿ فجمعناهم جمعاً ﴾ أي أحضرنا الجميع للحساب ﴿ قل إن الأولين والآخرين لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم ﴾ ، ﴿ وحشرناهم فلم نغادر منهم أحداً ﴾ .

(١) وأخرجه ابن ماجه أيضاً والترمذي ، وقال الترمذي : إسناده جيد قوي ، واختار ابن كثير أن يكون موقوفاً .

وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غَطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ
 سَمْعًا ﴿١٠١﴾ أَحْسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِي أَوْلِيَاءَ ۗ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ
 نُزُلًا ﴿١٠٢﴾

يقول تعالى مخبراً عما يفعله بالكفار يوم القيامة : أنه يعرض عليهم جهنم ، أي يبرزها لهم ويظهرها ليروا ما فيها من العذاب والنكال قبل دخولها ليكون ذلك أبلغ في تعجيل الهم والحزن لهم ، وفي صحيح مسلم عن ابن مسعود قال ، قال رسول الله ﷺ : « يؤتى بجهنم تقاد يوم القيامة بسبعين ألف زمام ، مع كل زمام سبعون ألف ملك » (١) ، ثم قال مخبراً عنهم ﴿ الذين كانت أعينهم في غطاء عن ذكري ﴾ أي تغافلوا وتعاموا عن قبول الهدى واتباع الحق ، كما قال ﴿ ومن يعيش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين ﴾ ، وقال ههنا ﴿ وكانوا لا يستطيعون سمعاً ﴾ أي لا يعقلون عن الله أمره ونهيه ، ثم قال : ﴿ أحسب الذين كفروا أن يتخذوا عبادي من دوني أولياء ﴾ أي اعتقدوا أنهم يصح لهم ذلك ويتفجعون به ﴿ كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضداً ﴾ ولهذا أخبر الله تعالى أنه قد أعد لهم جهنم يوم القيامة متراً .

قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيهِمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ
 صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنًا
 ﴿١٠٥﴾ ذَلِكَ جَزَاءُهُمْ جَهَنَّمَ بِمَا كَفَرُوا وَتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴿١٠٦﴾

عن مصعب قال : سألت أبي ، يعني سعد بن أبي وقاص ، عن قول الله : ﴿ قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً ﴾ أهم الحرورية ؟ قال : لا ، هم اليهود والنصارى ، أما اليهود فكذبوا محمداً ﷺ ، وأما النصارى فكفروا بالجنة وقالوا : لا طعام فيها ولا شراب ، والحرورية الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ، فكان سعد رضي الله عنه يسميهم الفاسقين (٢) . وقال علي بن أبي طالب والضحاك وغير واحد : هم الحرورية ، ومعنى هذا عن علي رضي الله عنه ، أن هذه الآية الكريمة تشمل الحرورية كما تشمل اليهود والنصارى وغيرهم ، لا أنها نزلت في هؤلاء على الخصوص ، وإنما هي عامة في كل من عبد الله على غير طريقة مرضية بحسب أنه مصيب فيها ، وأن عمله مقبول ، وهو مخطئ وعمله مردود ، كما قال تعالى ﴿ وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ والذين كفروا برهم أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ﴾ ، وقال في هذه الآية الكريمة ﴿ قل هل ننبئكم ﴾ أي نخبركم ﴿ بالأخسرين أعمالاً ﴾ ، ثم فسره فقال : ﴿ الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا ﴾ أي عملوا أعمالاً باطلة على غير شريعة مشروعة مرضية مقبولة ، ﴿ وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ﴾ أي يعتقدون أنهم على شيء ، وأنهم مقبولون محبوبون ، وقوله ﴿ أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه ﴾ :

(١) أخرجه مسلم عن ابن مسعود . (٢) أخرجه البخاري في صحيحه في باب التفسير .

أي جحدوا آيات الله في الدنيا، وبراهينه التي أقام على وحدانيته، وصدق رسله وكذبوا بالدار الآخرة، ﴿ فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً ﴾ أي لا ننقل موازينهم لأنها خالية عن الخير، روى البخاري، عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ أنه قال: « إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة - وقال - اقرأوا إن شئتم: ﴿ فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً ﴾ »، وقال ابن أبي حاتم، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: « يؤتى بالرجل الأكل الشروب العظيم فيوزن بحبة فلا يزنها »، قال قرأ ﴿ فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً ﴾، عن عبد الله بن بريدة، عن أبيه قال: كنا عند رسول الله ﷺ فأقبل رجل من قريش يخطر في حلة له، فلما قام على النبي ﷺ قال: « يا بريدة هذا ممن لا يقيم الله لهم يوم القيامة وزناً »^(١)، وعن كعب قال: يؤتى يوم القيامة برجل عظيم طويل فلا يزن عند الله جناح بعوضة، اقرأوا: ﴿ فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً ﴾^(٢). وقوله ﴿ ذلك جزاؤهم جهنم بما كفروا ﴾ أي إنما جازيناهم بهذا الجزاء بسبب كفرهم، واتخاذهم آيات الله ورسله هزواً استهزأوا بهم وكذبوهم أشد التكذيب.

إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١١٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حَوْلًا ﴿١١٨﴾

يخبر تعالى عن عباده السعداء، وهم الذين آمنوا بالله ورسوله وصدقوا المرسلين فيما جاؤوا به، أن لهم جنات الفردوس، قال مجاهد: هو البستان بالرومية، وقال الضحاك: هو البستان الذي فيه شجر الأعناب، وقال قتادة: الفردوس ربوة الجنة وأوسطها وأفضلها، وقد روي عن النبي ﷺ: « الفردوس ربوة الجنة أوسطها وأحسنها »^(٣). وفي الصحيحين: « إذا سألت الله الجنة فاسأله الفردوس فإنه أعلى الجنة وأوسط الجنة، ومنه تفجر أنهار الجنة »، وقوله تعالى ﴿ نزلاً ﴾ أي ضيافة فإن التزل الضيافة، وقوله ﴿ خالدين فيها ﴾ أي مقيمين ساكنين فيها، لا يظعنون عنها أبداً، ﴿ لا يبتغون عنها حولاً ﴾ أي لا يختارون عنها غيرها، ولا يحبون سواها، كما قال الشاعر:

فحلّت سويدا القلب لا أنا باغياً سواها ، ولا عن حبا أتحول

وفي قوله تعالى: ﴿ لا يبتغون عنها حولاً ﴾ تنبيه على رغبتهم فيها وحبهم لها، مع أنه قد يتوهم فيمن هو مقيم في المكان دائماً أنه قد يسأمه أو يمل، فأخبر أنهم مع هذا اللوام والخلود السرمدي لا يختارون عن مقامهم ذلك متحولاً ولا انتقالاً، ولا ظعنًا ولا رحلة ولا بدلاً.

قُلْ لَوْ كَانِ الْبَحْرُ مَدَادًا لَكَلِمَتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴿١١٩﴾

يقول تعالى: قل يا محمد لو كان ماء البحر مداداً للعلم الذي يكتب به كلمات الله وحكمه وآياته الدالة عليه،

(١) أخرجه الحافظ البزار .

(٢) أخرجه ابن جرير في تفسيره .

(٣) أخرجه ابن جرير عن سمرة مرفوعاً .

لنفد البحر قبل أن يفرغ كتابة ذلك ﴿ولو جئنا بمثله﴾ أي بمثل البحر آخر ثم آخر، وهلم جرأ، بحور تمده ويكتب بها لما نفذت كلمات الله، كما قال تعالى: ﴿ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفذت كلمات الله إن الله عزير حكيم﴾، وقال الربيع بن أنس: إن مثل علم العباد كلهم في علم الله كقطرة من ماء البحور كلها، وقد أنزل الله ذلك: ﴿قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفذ كلمات ربي﴾^(١) يقول: لو كانت تلك البحور مداداً لكلمات الله، والشجر كله أقلام، لانكسرت الأقلام وفي ماء البحر، وبقيت كلمات الله قائمة لا يفنيها شيء، لأن أحداً لا يستطيع أن يقدر قدره ولا يثني عليه كما ينبغي، حتى يكون هو الذي يثني على نفسه، إن ربنا كما يقول وفوق ما نقول، إن مثل نعيم الدنيا أولها وآخرها في نعيم الآخرة كحبة من خردل في خلال الأرض كلها.

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُمُ الْوَاحِدُ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ ۚ أَحَدًا﴾

يقول تعالى لرسوله محمد صلوات الله وسلامه عليه ﴿قل﴾ هؤلاء المشركين المكذبين برسالتك إليهم ﴿إنما أنا بشر مثلكم﴾، فن زعم أنني كاذب فليأت بمثل ما جئت به، فإني لا أعلم الغيب فيما أخبرتكم به من الماضي، عما سألتكم من قصة أصحاب الكهف، وخبر ذي القرنين، مما هو مطابق في نفس الأمر، لولا ما أطلعني الله عليه، وإنما أخبركم ﴿أنما إلهكم﴾ الذي أدعوكم إلى عبادته ﴿إله واحد﴾ لا شريك له، ﴿فمن كان يرجو لقاء ربه﴾ أي ثوابه وجزاءه الصالح ﴿فليعمل عملاً صالحاً﴾ ما كان موافقاً لشرع الله، ﴿ولا يشرك بعبادة ربه أحداً﴾ وهو الذي يراد به وجه الله وحده لا شريك له، وهذان ركنا العمل المتقبل، لا بد أن يكون خالصاً لله، صواباً على شريعة رسول الله ﷺ، وقد روي عن طاووس قال، قال رجل: يا رسول الله! إني أقف المواقف أريد وجه الله، وأحب أن يرى موطني، فلم يرد عليه رسول الله ﷺ شيئاً، حتى نزلت هذه الآية ﴿فمن كان يرجو لقاء فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً﴾، وجاء رجل إلى عبادة بن الصامت، فقال أنبئي عما أسألك عنه، أرايت رجلاً يصلي بيني وجه الله ويحب أن يحمده، ويصوم بيني وجه الله ويحب أن يحمده، ويتصدق بيني وجه الله ويحب أن يحمده، ويحج بيني وجه الله ويحب أن يحمده، فقال عبادة: ليس له شيء، إن الله تعالى يقول: أنا خير شريك، فمن كان له معي شريك فهو له كله لا حاجة لي فيه.

وروي الإمام أحمد. عن شداد بن أوس رضي الله عنه أنه بكى، فقيل له: ما يبكيك؟ قال شيء سمعته من رسول الله ﷺ فأبكاني. سمعت رسول الله يقول: «أنخوف على أمي الشرك والشهوة الخفية»، قلت: يا رسول

(١) أخرج الحاكم وغيره عن ابن عباس قال، قالت قريش لليهود: اعطونا شيئاً نسأل عنه هذا الرجل، فقالوا: سلوه عن الروح، فسألوه فنزلت: ﴿ويسألونك عن الروح - إلى - وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً﴾، وقال اليهود: أوتينا علماً كثيراً أوتينا التوراة، ومن أوتي التوراة فقد أوتي خيراً كثيراً، فنزلت: ﴿قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي﴾ الآية.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم عن طاووس وهو حديث مرسل.

الله ! أتشرك أمتك من بعدك ؟ قال : « نعم ، أما إنهم لا يعبدون شمساً ولا قمرأً ولا حجراً ولا وثناً ، ولكن يراؤون بأعمالهم ، والشهوة الخفية أن يصبح أحدهم صائماً فتعرض له شهوة من شهواته فيترك صومه »^(١) . (حديث آخر) : قال الإمام أحمد ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ يرويه عن الله عز وجل أنه قال : « أنا خير الشركاء ، فمن عمل عملاً أشرك فيه غيري فأنا بريء منه وهو للذي أشرك » . (حديث آخر) : قال الإمام أحمد ، عن أبي سعيد ابن أبي فضالة الأنصاري ، وكان من الصحابة أنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إذا جمع الله الأولين والآخرين ليوم لا ريب فيه نادى مناد : من كان أشرك في عمل عمله لله أحداً فليطلب ثوابه من عند غير الله ، فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك »^(٢) . (حديث آخر) : عن أنس رضي الله عنه قال ، قال رسول الله ﷺ : « تعرض أعمال بني آدم بين يدي الله عز وجل يوم القيامة ، في صحف مختمة ، فيقول الله : ألقوا هذا واقبلوا هذا ، فتقول الملائكة : يا رب ، والله ما رأينا منه إلا خيراً ، فيقول : إن عمله كان لغير وجهي ، ولا أقبل اليوم من العمل إلا ما أريد به وجهي »^(٣) . وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال ، قال رسول الله ﷺ : « من أحسن الصلاة حيث يراه الناس وأساءها حيث يخلو فتلك استهانة استهان بها ربه عز وجل »^(٤) .

[آخر تفسير سورة الكهف ، والله الحمد والمنة]

- (١) أخرجه الإمام أحمد وابن ماجه .
- (٢) رواه أحمد والترمذي وابن ماجه .
- (٣) أخرجه الحافظ أبو بكر البزار .
- (٤) رواه الحافظ أبو يعلى الموصلي .

(١٩) سُورَةُ مَرْيَمَ مَكِّيَّةٌ
وَأَيُّهَا مَا كَانَ وَتَسْبَعُونَ

وقد روى محمد بن إسحاق في السيرة من حديث أم سلمة، وأحمد بن حنبل عن ابن مسعود في قصة الهجرة إلى أرض الحبشة من مكة، أن جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه قرأ صدر هذه السورة على النجاشي وأصحابه .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

كَهَيْعَصَ ﴿١﴾ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ﴿٢﴾ إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾

أما الكلام على الحروف المقطعة فقد تقدم في أول سورة البقرة. وقوله: ﴿ذكر رحمت ربك﴾ أي هذا ذكر رحمة الله عبده زكريا، وزكريا يمد ويقصر، قراءتان مشهورتان، وكان نبياً عظيماً من أنبياء بني إسرائيل، وفي صحيح البخاري، أنه كان نجاراً يأكل من عمل يده في التجارة، وقوله: ﴿إذ نادى ربه نداء خفياً﴾ قال بعض المفسرين: إنما أخفى دعاءه لثلاثين نسب في طلب الولد إلى الرعونة لكبره، حكاه الماوردي، وقال الآخرون: إنما أخفاه لأنه أحب إلى الله، كما قال قتادة في هذه الآية: ﴿إذ نادى ربه نداء خفياً﴾: إن الله يعلم القلب التقى، ويسمع الصوت الخفي، وقال بعض السلف: قام من الليل عليه السلام وقد نام أصحابه، فجعل يهتف بربه يقول خفية: يا رب يا رب يا رب، فقال الله له: لبيك لبيك لبيك ﴿قال رب إني وهن العظم مني﴾ أي ضعفت وخارت القوى ﴿واشتعل الرأس شيباً﴾ أي اضطرم المشيب في السواد. والمراد من هذا الإخبار عن الضعف والكبر، ودلائله الظاهرة والباطنة، وقوله: ﴿ولم أكن بدعائك رب شقياً﴾ أي ولم أعهد منك إلا الإجابة في الدعاء، ولم تردني قط فيما سألتك، وقوله: ﴿وإني خفت الموالى من ورائي﴾، قال مجاهد وقاتدة والسدي: أراد بالموالي العصبية، ووجه خوفه أنه خشي أن يتصرفوا من بعده في الناس تصرفاً سيئاً، فسأل الله ولداً يكون نبياً من بعده ليسوسهم بنبوته ما يوحي إليه، فأجيب في ذلك، لا أنه خشي من وراثتهم له ماله، فإن النبي أعظم منزلة وأجل قدراً من أن يشفق على ماله إلى ما هذا حده، وأن يأنف من وراثته عصباته له، ويسأل أن يكون له ولد ليحوز ميراثه

دونهم هذا وجه. (الثاني) أنه لم يذكر أنه كان ذا مال بل كان نجاراً يأكل من كسب يديه، ومثل هذا لا يجمع مالاً ولا سبياً الأنبياء، فإنهم كانوا أزهقاً في الدنيا. (الثالث) أنه قد ثبت في الصحيحين من غير وجه، أن رسول الله ﷺ قال: « لا نورث، ما تركناه صدقة ». وفي رواية عند الترمذي بإسناد صحيح: « نحن معشر الأنبياء لا نورث ». وعلى هذا فتعين حمل قوله: ﴿ فهب لي من لدنك ولياً يرثني ﴾ على ميراث النبوة، ولهذا قال: ﴿ ويرث من آل يعقوب ﴾ كقوله: ﴿ وورث سليمان داود ﴾ أي في النبوة. إذ لو كان في المال لما خصه من بين إخوته بذلك، ولما كان في الإخبار بذلك كبير فائدة، إذ من المعلوم المستقر في جميع الشرائع والمثل أن الولد يرث أباه، فلولا أنها وراثه خاصة لما أخبر بها، وكل هذا يقرره ويثبته ما صح في الحديث: « نحن معشر الأنبياء لا نورث، ما تركناه فهو صدقة »، قال مجاهد: كان وراثته علماً وقال الحسن: يرث نبوته وعلمه، وقال السدي: يرث نبوتي ونبوة آل يعقوب، وعن أبي صالح في قوله ﴿ يرثني ويرث من آل يعقوب ﴾ قال: يرث مالي ويرث من آل يعقوب النبوة، وهذا اختيار ابن جرير في تفسيره. وقوله: ﴿ واجعله رب رضياً ﴾ أي مرضياً عندك وعند خلقك، تحبه وتحبه إلى خلقك في دينه وخلقه.

* يَنْزَكِرِيَا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾

هذا الكلام يتضمن محذوفاً، وهو أنه أجيب إلى ما سأل في دعائه فقيل له: ﴿ يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى ﴾، كما قال تعالى: ﴿ هنالك دعا زكريا ربه قال رب هب لي من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء * فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب أن الله يبشرك بيحيى مصدقاً بكلمة من الله وسيداً وحسوراً ونبيساً من الصالحين ﴾، وقوله: ﴿ لم نجعل له من قبل سمياً ﴾. قال قتادة: أي لم يسم أحد قبله بهذا الاسم^(١)، وقال مجاهد: ﴿ لم نجعل له من قبل سمياً ﴾ أي شيباً، أخذه من معنى قوله: ﴿ هل تعلم له سمياً ﴾؟ أي شيباً، وقال ابن عباس: أي لم تلد العواقر قبله مثله، وهذا دليل على أن زكريا عليه السلام كان لا يولد له، وكذلك امرأته كانت عاقراً من أول عمرها، بخلاف إبراهيم وسارة عليهما السلام، فإنهما إنما تعجبا من البشارة بإسحاق لكبرهما، ولهذا قال: ﴿ أبشرتوني على أن منسي الكبر فم تبشرون ﴾ مع أنه كان قد ولد له قبله إسماعيل بثلاث عشرة سنة.

قَالَ رَبِّ أُنِّي يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىٰ هَيْنٍ وَقَدْ خَلَقْتكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْعًا ﴿٩﴾

هذا تعجب من زكريا عليه السلام حين أجيب إلى ما سأل، وبشر بالولد ففرح فرحاً شديداً وسأل عن كيفية ما يولد له، والوجه الذي يأتيه منه الولد، مع أن امرأته كانت عاقراً لم تلد من أول عمرها مع كبرها^(٢)، ومع أنه

(١) واختار هذا القول ابن جرير رحمه الله.

(٢) ذكر السهلي: أن امرأته اسمها (إيشاع بنت قافوذ)، وهي أخت حنة بنت قافوذ، قاله الطبري، وحنة هي أم مريم. وقال العتي: امرأة زكريا هي (إيشاع بنت عمران)، فعلى هذا القول يكون يحيى ابن خالة عيسى على الحقيقة، وعلى القول =

قد كبر وعتا، أي عسا عظمه، ونحل، ولم يبق فيه لقاح ولا جماع، والعرب تقول للعود إذا يبس: عتا، وقال مجاهد: ﴿عتياً﴾ يعني قحول العظم، وقال ابن عباس وغيره، عتياً يعني الكبر، والظاهر أنه أخص من الكبر، ﴿قال﴾ أي الملك مجيباً لذكرها عما استعجب منه ﴿كذلك قال ربك هو عليّ هين﴾ أي إيجاد الولد منك ومن زوجتك هذه لا من غيرها، ﴿هين﴾ أي يسير سهل على الله، ثم ذكر له ما هو أعجب مما سأل عنه فقال: ﴿وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئاً﴾، كما قال تعالى: ﴿هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً﴾ .

قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَتْ آيَتُكَ إِلَّا أَنْتَ الْإِنْسَانُ الْأَكْفَرُ ﴿١٠﴾ فَاجْعَلْ لِي آيَةً قَالَتْ آيَتُكَ إِلَّا أَنْتَ الْإِنْسَانُ الْأَكْفَرُ ﴿١١﴾ فَاجْعَلْ لِي آيَةً قَالَتْ آيَتُكَ إِلَّا أَنْتَ الْإِنْسَانُ الْأَكْفَرُ ﴿١٢﴾ فَاجْعَلْ لِي آيَةً قَالَتْ آيَتُكَ إِلَّا أَنْتَ الْإِنْسَانُ الْأَكْفَرُ ﴿١٣﴾ فَاجْعَلْ لِي آيَةً قَالَتْ آيَتُكَ إِلَّا أَنْتَ الْإِنْسَانُ الْأَكْفَرُ ﴿١٤﴾ فَاجْعَلْ لِي آيَةً قَالَتْ آيَتُكَ إِلَّا أَنْتَ الْإِنْسَانُ الْأَكْفَرُ ﴿١٥﴾

يقول تعالى مخبراً عن زكريا عليه السلام أنه ﴿قال رب اجعل لي آية﴾ أي علامة ودليلاً على وجود ما وعدتني، لتستقر نفسي ويطمئن قلبي بما وعدتني، كما قال إبراهيم عليه السلام ﴿رب أرني كيف تحيي الموتى﴾ قال أو لم تؤمن؟ قال: بلى ولكن ليطمئن قلبي، ﴿قال آيتك﴾ أي علامتك ﴿أن لا تكلم الناس ثلاث ليال سوياً﴾ أي أن يُحبس لسانك عن الكلام ثلاث ليال، وأنت صحيح سوي، من غير مرض ولا علة، قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد: اعتقل لسانه من غير مرض ولا علة. قال زيد بن أسلم: كان يقرأ ويسبح ولا يستطيع أن يكلم قومه إلا إشارة، وقال العوفي، عن ابن عباس: ﴿ثلاث ليال سوياً﴾ أي متتابعات^(١). وقال مالك، عن زيد بن أسلم: ﴿ثلاث ليال سوياً﴾ من غير خرس، وهذا دليل على أنه لم يكن يكلم الناس في هذه الليالي الثلاث وأيامها ﴿الإرماً﴾ أي إشارة، ولهذا قال في هذه الآية الكريمة ﴿فخرج على قومه من المحراب﴾ أي الذي بشر فيه بالولد ﴿فأوحى إليهم﴾ أي أشار، إشارة خفية سريعة ﴿أن سبحوا بكرة وعشيا﴾ أي موافقة له فيما أمر به في هذه الأيام الثلاثة زيادة على أعماله، شكراً لله على ما أولاه. قال مجاهد ﴿فأوحى إليهم﴾ أي أشار^(٢). وقال مجاهد: أي كتب لهم في الأرض .

يُحْيِي خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيحًا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِن لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَّمْ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾

وهذا أيضاً تضمن محذوفاً، تقديره أنه وجد هذا الغلام المبشر به وهو يحيى عليه السلام، وأن الله علمه الكتاب وهو (التوراة) التي كانوا يتدارسونها بينهم، وقد كان سنه إذ ذاك صغيراً، فلهذا نوه بذكره وبما أنعم

= الأول يكون ابن خالة أمه، وفي حديث الإسراء قال عليه السلام: «فلقيت ابني الخالة يحيى وعيسى»، وهذا شاهد للقول الأول .

(١) القول الأول عن ابن عباس وعن الجمهور أصح كما في آل عمران ﴿قال آيتك أن لا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزاً، واذكر ربك كثيراً وسبح بالعشي والإبكار﴾ .

(٢) وهذا القول أرجح، وبه قال وهب وقتادة .

به عليه وعلى والديه، فقال ﴿يا يحيى خذ الكتاب بقوة﴾ أي تعلم الكتاب بقوة أي بجد وحرص واجتهاد ﴿وآتيناه الحكم صبياً﴾ أي الفهم والعلم والجد والعزم، والإقبال على الخير والإكباب عليه والاجتهاد فيه، وهو صغير حدث. قال عبد الله بن المبارك، قال الصبيان ليحيى بن زكريا: اذهب بنا نلعب، فقال: ما للعب خلقنا. وقوله: ﴿وحناناً من لدنا﴾ قال ابن عباس: يقول ورحمة من عندنا. وزاد قتادة: رحم الله بها زكريا، وقال مجاهد: ﴿وحناناً من لدنا﴾ وتعطفاً من ربه عليه، وقال عكرمة: محبة عليه، وقال عطاء بن أبي رباح: تعظيماً من لدنا، والظاهر من السياق أن قوله ﴿وحناناً﴾ معطوف على قوله ﴿وآتيناه الحكم صبياً﴾ أي وآتيناه الحكم وحناناً، وزكاة أي وجعلناه ذا حنان وزكاة، فالحنان هو المحبة في شفقة وميل كما تقول العرب: حنت الناقة على ولدها، وحن الرجل إلى وطنه، ومنه التعطف والرحمة، وفي المسند للإمام أحمد، عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يقي رجل في النار ينادي ألف سنة يا حنان يا منان». وقد يثنى كما قال طرفة:

أبا منذر أفنيتَ فاستبق بعضنا حنانيك بعضُ الشر أهون من بعض

وقوله تعالى ﴿وزكاة﴾ معطوف على ﴿وحناناً﴾ فالزكاة الطهارة من الدنس والآثام والذنوب، وقال قتادة: الزكاة: العمل الصالح، وقال الضحاك: العمل الصالح الزكي، وقال ابن عباس ﴿وزكاة﴾ قال: بركة ﴿وكان تقياً﴾ طاهراً فلم يذنب، وقوله ﴿وبراً بالديه ولم يكن جباراً عصياً﴾ لما ذكر تعالى طاعته لربه، وأنه خلقه ذا رحمة وزكاة، وتقى، عطف بذكر طاعته لوالديه وبره بهما، ومجانبة عقوقهما قولاً وفعلاً، أمراً ونهيماً، ولهذا قال: ﴿ولم يكن جباراً عصياً﴾، ثم قال بعد هذه الأوصاف الجميلة جزاء له على ذلك ﴿وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حياً﴾ أي له الأمان في هذه الثلاثة الأحوال، عن ابن عباس، أن رسول الله ﷺ قال: «ما من أحد من ولد آدم إلا وقد أخطأ أو هم بخطيئة، ليس يحيى بن زكريا، وما ينبغي لأحد أن يقول أنا خير من يونس بن متى» (١)، وقال سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة، أن الحسن قال: إن يحيى وعيسى عليهما السلام التقيا، فقال له عيسى استغفر لي أنت خير مني، فقال له الآخر: أنت خير مني، فقال له عيسى: أنت خير مني سلمتُ على نفسي وسلم الله عليك، فعرف والله فضلهما.

وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرِيحًا ﴿١٦﴾ فَأَخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا ﴿٢١﴾

لما ذكر تعالى قصة زكريا عليه السلام، وأنه أوجد منه في حال كبره وعقم زوجته ولداً زكياً طاهراً، مباركاً،

(١) أخرجه الإمام أحمد، قال ابن كثير: وفي إسناده ضعف.

عطف بذكر قصة مريم في إيجاد ولدها عيسى عليه السلام منها من غير أب، فإن بين القصتين مناسبة ومشابهة، لتقارب ما بينهما في المعنى، ليدل عباده على قدرته وعظمة سلطانه، وأنه على ما يشاء قادر، فقال: ﴿واذكر في الكتاب مريم﴾ وهي مريم بنت عمران، من سلالة داود عليه السلام، وكانت من بيت طاهر طيب في بني إسرائيل وقد ذكر الله تعالى قصة ولادة أمها لها في سورة آل عمران، وأنها نذرتها محررة، أي تخدم مسجد بيت المقدس، وكانوا يتقربون بذلك^(١) ﴿فتقبلها ربها بقبول حسن وأنبأها نباتاً حساناً﴾ ونشأت في بني إسرائيل نشأة عظيمة، فكانت إحدى العابדות الناسكات، المشهورات بالعبادة العظيمة والتبتل والدؤوب، وكانت في كفالة زوج أختها زكريا نبي بني إسرائيل إذ ذاك وعظيمهم الذي يرجعون إليه في دينهم، ورأى لها زكريا من الكرامات الهائلة ما بهره ﴿كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً قال يا مريم أنى لك هذا؟ قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب﴾، فذكر أنه كان يجد عندها ثمر الشتاء في الصيف، وثمر الصيف في الشتاء كما تقدم بيانه في سورة آل عمران، فلما أراد الله تعالى - وله الحكمة والحجة البالغة - أن يوجد منها عبده ورسوله عيسى عليه السلام، أحد الرسل أولي العزم الخمسة العظام ﴿انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً﴾ أي اعتزلتهم، وتنتحت عنهم وذهبت إلى شرقي المسجد المقدس؛ عن ابن عباس، قال: إن أهل الكتاب كتب عليهم الصلاة إلى البيت والحج إليه، وما صرفهم عنه إلا قيل ربك ﴿فانتبذت من أهلها مكاناً شرقياً﴾ قال: خرجت مريم مكاناً شرقياً فصلوا قبل مطلع الشمس^(٢). وعنه قال: إني لأعلم خلق الله لأي شيء اتخذت النصارى المشرق قبلة، لقول الله تعالى: ﴿فانتبذت من أهلها مكاناً شرقياً﴾ واتخذوا ميلاد عيسى قبلة، وقال قتادة: ﴿مكاناً شرقياً﴾ شامعاً متنجساً، وقوله ﴿فانتبذت من دونهم حجاباً﴾ أي استترت منهم وتوارت، فأرسل الله تعالى إليها جبريل عليه السلام ﴿فتمثل لها بشراً سوياً﴾ أي على صورة إنسان تام كامل.

قال مجاهد والضحاك ﴿فأرسلنا إليها روحنا﴾: يعني جبرائيل عليه السلام، وهذا هو ظاهر القرآن، قال تعالى: ﴿نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين﴾، ﴿قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً﴾ أي لما تبدى لها الملك في صورة بشر، وهي في مكان منفرد وبينها وبين قومها حجاب خافته وظنت أنه يريد لها على نفسها، فقالت ﴿إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً﴾ أي إن كنت تخاف الله تذكيراً له بالله، قال أبو وائل: قد علمت أن التقي ذو نية، حين قالت: ﴿إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً﴾ قال إنما أنا رسول ربك ﴿أي فقال لها الملك مجيباً لها ومزياً لما حصل عندها من الخوف على نفسها، لست مما تظنين، ولكني رسول ربك أي بعثني الله إليك﴾ لأهب لك غلاماً زكياً﴾، ﴿قالت أنى يكون لي غلام﴾ أي فتعجبت مريم من هذا، وقالت كيف

(١) ذكر السهيلي: أن القرآن لم يذكر امرأة باسمها إلا (مريم ابنة عمران) فإنه ذكر اسمها في نحو من ثلاثين موضعاً، لحكمة ذكرها بعض الأشياخ، وذكر أن الملوك والأشراف لا يذكرون حرائرهم في ملاء ولا يتبدلون أسماءهن، بل يكونون عن الزوجة بالعرس والأهل والعيال، ولم يصونوا أسماء الإماء عن الذكر، فصرح الله باسم مريم لما قالت النصارى في مريم تأكيداً لعبوديتها، وإجراء الكلام على عادة العرب من ذكر إمامها، وتكرر ذكر عيسى منسوباً إلى أمه لتشعر القلوب بنفي أبوة الله وبزاهة أمه الطاهرة عن مقالة اليهود.

(٢) رواه ابن أبي حاتم وابن جرير، وهذه هي العلة في توجه النصارى جهة المشرق.

يكون لي غلام، أي على أي صفة يوجد هذا الغلام مني ولست بذات زوج، ولا يتصور مني الفجور. ولهذا قالت: ﴿ولم يمسنني بشر ولم أك بغياً﴾ والبغي هي الزانية، ﴿قال كذلك قال ربك هو علي هين﴾ أي فقال لها الملك جيباً لها عما سألت، إن الله قد قال إنه سيوجد منك غلاماً، وإن لم يكن لك بعل ولا يوجد منك فاحشة، فإنه على ما يشاء قادر، ولهذا قال: ﴿ولنجعله آية للناس﴾ أي دلالة وعلامة للناس على قدرة بارئهم وخالقهم ﴿ورحمة منا﴾ أي ونجعل هذا الغلام رحمة من الله، نبياً من الأنبياء يدعو إلى عبادة الله تعالى وتوحيده، كما قال تعالى في الآية الأخرى ﴿إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى بن مريم وجيهاً في الدنيا والآخرة ومن المقربين﴾ أي يدعو إلى عبادة ربه في مهده وكهولته. قال ابن أبي حاتم، عن مجاهد قال، قالت مريم عليها السلام: كنت إذا خلوت حدثني عيسى وكلمني وهو في بطني وإذا كنت مع الناس، سبّح في بطني وكبّر، وقوله: ﴿وكان أمراً مقضياً﴾ يحتمل أن هذا من تمام كلام جبريل لمريم، يخبرها أن هذا أمر مقدر في علم الله تعالى وقدره ومشيئته، ويحتمل أن يكون من خبر الله تعالى لرسوله محمد ﷺ وأنه كنى بهذا عن النفخ في فرجها، كما قال تعالى: ﴿ومريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا﴾، وقال: ﴿والتي أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا﴾، قال محمد بن إسحاق ﴿وكان أمراً مقضياً﴾: أي إن الله قد عزم على هذا فليس منه بد، واختار هذا أيضاً ابن جرير في تفسيره ولم يحك غيره، والله أعلم.

* فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنِيًّا ﴿٢٣﴾

يقول تعالى مخبراً عن مريم، انها لما قال لها جبريل ما قال، استسلمت لقضاء الله تعالى، فذكر غير واحد من علماء السلف، أن الملك وهو جبرائيل عليه السلام عند ذلك نفخ في جيب درعها، فتزلت النفخة حتى ولجت في الفرج فحملت بالولد، بإذن الله تعالى، فلما حملت به ضاقت ذرعاً، ولم تدر ماذا تقول للناس، فإنها تعلم أن الناس لا يصدقونها فيما يخبرهم به، غير أنها أفشت سرها وذكرت أمرها لأختها امرأة زكريا، وذلك أن زكريا عليه السلام كان قد سأل الله الولد فأجيب إلى ذلك، فحملت امرأته، فدخلت عليها مريم، فقامت إليها فاعتقتها وقالت: أشعرت يا مريم أي حبلى؟ فقالت لها مريم: وهل علمت أيضاً أي حبلى، وذكرت لها شأنها، وما كان من خبرها، وكانوا بيت إيمان وتصديق، قال مالك رحمه الله: بلغني أن عيسى بن مريم ويحيى بن زكريا عليهما السلام ابنا خالة، وكان حملهما جميعاً معاً، فبلغني أن أم يحيى قالت لمريم: إني أرى أن ما في بطني يسجد لما في بطنك، قال مالك: أرى ذلك لتفضيل عيسى عليه السلام، لأن الله جعله يحيى الموتى ويرى الأكمه والأبرص^(١). ثم اختلف المفسرون في مدة حمل عيسى عليه السلام، فالمشهور عن الجمهور أنها حملت به تسعة أشهر، وقال عكرمة: ثمانية أشهر، وقال ابن جريج، عن ابن عباس، وسئل عن حمل مريم، قال: لم يكن إلا أن حملت فوضعت^(٢).

(١) أخرجه ابن أبي حاتم .

(٢) قال ابن كثير : هذا القول عن ابن عباس غريب ، وكأنه مأخوذ من ظاهر قوله تعالى : ﴿ فحملته فانتبذت به مكاناً قصياً ﴾ =

والمشهور الظاهر - والله على كل شيء قدير - أنها حملت به كما تحمل النساء بأولادهن . ولهذا لما ظهرت مخايل الحمل بها، وكان معها في المسجد رجل صالح من قراباتها يخدم معها البيت المقدس، يقال له يوسف النجار، فلما رأى ثقل بطنها وكبره أنكر ذلك من أمرها، ثم صرفه ما يعلم من براءتها ونزاهتها ودينها وعبادتها، ثم تأمل ما هي فيه فجعل أمرها يجوس في فكره لا يستطيع صرفه عن نفسه، فحمل نفسه على أن عرض لها في القول، فقال: يا مريم إني سائلك عن أمر فلا تعجلي عليّ، قالت: وما هو؟ قال: هل يكون قط شجر من غير حب؟ وهل يكون زرع من غير بذر؟ وهل يكون ولد من غير أب؟ فقالت: نعم، وفهمت ما أشار إليه، أما قولك هل يكون شجر من غير حب وزرع من غير بذر، فإن الله قد خلق الشجر والزرع أول ما خلقهما من غير حب ولا بذر، وهل يكون ولد من غير أب، فإن الله تعالى قد خلق آدم من غير أب ولا أم، فصدقها، وسلم لها حالها، ولما استشعرت مريم من قومها اتهامها بالريية، انتبذت منهم مكاناً قصياً، أي قاصياً منهم بعيداً عنهم لثلاث تراهم ولا يروها. قال محمد بن إسحاق: فلما حملت به وملأت قلبها ورجعت، استمسك عنها الدم وأصابها ما يصيب الحامل على الولد من الوصب والتوحم، وتغير اللون، حتى فطر لسانها، فادخل على أهل بيت ما دخل على آل زكريا وشاع الحديث في بني إسرائيل، فقالوا: إنما صاحبها يوسف، ولم يكن معها في الكنيسة غيره، وتوارت من الناس، واتخذت من دونهم حجاً، فلا يراها أحد ولا تراه .

وقوله تعالى: ﴿ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ ﴾ أي فاضطرها وألجأها إلى جذع النخلة، في المكان الذي تنحت إليه. وقد اختلفوا فيه، فقال السدي: كان شرقي محرابها الذي تصلي فيه من بيت المقدس، وقال وهب ابن منبه: كان ذلك على ثمانية أميال من بيت المقدس، في قرية يقال لها بيت لحم، وهذا هو المشهور، الذي تلقاه الناس بعضهم عن بعض، ولا يشك فيه النصاري أنه بيت لحم، وقوله تعالى إخباراً عنها: ﴿ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مَتَّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا نَسِيًّا ﴾ فيه دليل على جواز تمنّي الموت عند الفتنة، فإنها عرفت أنها ستبتلى وتمتحن بهذا المولود الذي لا يحمل الناس أمرها فيه على السداد ولا يصدقونها في خبرها، وبعد ما كانت عندهم عابدة ناسكة تصبح عندهم فيما يظنون عاهرة زانية، فقالت ﴿ يَا لَيْتَنِي مَتَّ قَبْلَ هَذَا ﴾ أي قبل هذا الحمل ﴿ وَكُنْتُ نَسِيًّا نَسِيًّا ﴾ أي لم أخلق ولم أك شيئاً قاله ابن عباس، وقال قتادة ﴿ وَكُنْتُ نَسِيًّا نَسِيًّا ﴾: أي شيئاً لا يعرف ولا يذكر، ولا يدري الناس من أنا . وقال ابن زيد: لم أكن شيئاً قط، وقد قدمنا الأحاديث الدالة على النهي عن تمنّي الموت إلا عند الفتنة عند قوله: ﴿ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ .

فَنَادَيْهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهَزَيْتُ إِلَيْكَ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسْقِطُ عَلَيْكَ رَطْبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكَلِمِي وَأَشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فِيمَا تَرَيْنَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا ﴿٢٦﴾

اختلف المفسرون في المراد بذلك من هو؟ فقال ابن عباس: ﴿فناداها من تحتها﴾ جبريل^(١)، ولم يتكلم عيسى حتى أتت به قومها، أي ناداها من أسفل الوادي، وقال مجاهد ﴿فناداها من تحتها﴾ قال: عيسى بن مريم، وقال الحسن: هو ابنها^(٢). قال: أو لم تسمع الله يقول ﴿فأشارت إليه﴾، وقوله ﴿أن لا تحزني﴾ أي ناداها قائلاً لا تحزني ﴿قد جعل ربك تحتك سرياً﴾، عن البراء بن عازب، وعن ابن عباس: السري النهر، وقال الضحاك: هو النهر الصغير بالسريانية، وقال قتادة: هو الجدول بلغة أهل الحجاز، وقال السدي: هو النهر، واختار هذا القول ابن جرير، وقال آخرون: المراد بالسري عيسى عليه السلام^(٣). والقول الأول أظهر، ولهذا قال بعده: ﴿وهزي إليك بجذع النخلة﴾ أي وخذي إليك بجذع النخلة، قيل: كانت يابسة قاله ابن عباس، وقيل: مثمرة، والظاهر أنها كانت شجرة، ولكن لم تكن في إبان ثمرها، قاله وهب بن منبه: ولهذا امتن عليها بذلك بأن جعل عندها طعاماً وشراباً فقال: ﴿تساقط عليك رطباً جنياً﴾ فكلي واشربي وقري عينا ﴿أي طيبي نفساً، ولهذا قال عمرو بن ميمون: ما من شيء خير للنفساء من التمر والرطب، ثم تلا هذه الآية الكريمة.

وقوله تعالى: ﴿فإما ترين من البشر أحداً﴾ أي مهما رأيت من أحد، ﴿فقولي إني نذرت للرحمن صوماً فلن أكلم اليوم إنسياً﴾، المراد بهذا القول الإشارة إليه بذلك، لا أن المراد به القول اللفظي، لثلاثين في ﴿فلن أكلم اليوم إنسياً﴾، قال أنس بن مالك في قوله ﴿إني نذرت للرحمن صوماً﴾ قال: صمتاً، وكذا قال ابن عباس والضحاك، وفي رواية عن أنس: صوماً وصمتاً، والمراد أنهم كانوا إذا صاموا في شريعتهم يحرم عليهم الطعام والكلام. روى ابن إسحاق، عن حارثة قال: كنت عند ابن مسعود فجاء رجلان فسلم أحدهما ولم يسلم الآخر فقال: ما شأنك؟ قال أصحابه: حلف أن لا يكلم الناس اليوم. فقال عبد الله بن مسعود: كلم الناس وسلم عليهم، فإن تلك امرأة علمت أن أحداً لا يصدقها، أنها حملت من غير زوج، يعني بذلك مريم عليها السلام، ليكون عذراً لها إذا سئلت^(٤). وقال عبد الرحمن بن زيد: لما قال عيسى لمريم ﴿لا تحزني﴾ قالت: وكيف لا أحزن وأنت معي لا ذات زوج ولا مملوكة، أي شيء عذري عند الناس؟ ﴿يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً﴾.

فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِيلاً ۗ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَتَّخِذَ هَذُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْأَمْهِدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾

(١) وهو قول الضحاك والسدي وقاتدة وسعيد بن جبير .

(٢) وهو رواية سعيد بن جبير واختاره ابن جرير .

(٣) وبه قال الحسن والربيع بن أنس وعدد الرحمن بن زيد ، وهو ضعيف والقول الأول أظهر كما قال ابن كثير .

(٤) رواه ابن إسحاق وابن أبي حاتم وابن جرير .

يقول تعالى مخبراً عن مريم حين أمرت أن تصوم يوماً ذلك، وأن لا تكلم أحداً من البشر، فإنها ستكفي أمرها ويقام بحجتها، فسلمت لأمر الله عز وجل واستسلمت لقضائه؛ فأخذت ولدها فأنت به قومها تحمله، فلما رأوها كذلك أعظموا أمرها واستنكروه جداً، وقالوا ﴿يا مريم لقد جئت شيئاً فرياً﴾ أي أمراً عظيماً، ﴿يا أخت هرون﴾ أي يا شبيهة هارون في العبادة، ﴿ما كان أبوك أمراً سوء وما كانت أمك بغياً﴾ أي أنت من بيت طيب طاهر معروف بالصلاح والعبادة والزهادة، فكيف صدر هذا منك؟ قال السدي: قيل لها ﴿يا أخت هرون﴾ أي أخي موسى وكانت من نسله، كما يقال للتميمي: يا أخا تميم، وللمضري: يا أخا مضر، وقيل: نسبت إلى رجل صالح كان فيهم اسمه هارون^(١)، فكانت تقاس به في الزهادة والعبادة. وقد كانوا يسمون بأسماء أنبيائهم وصالحهم. كما قال الإمام أحمد، عن المغيرة بن شعبة قال: بعثني رسول الله ﷺ إلى نجران، فقالوا: رأيت ما تقرؤون ﴿يا أخت هرون﴾ وموسى قبل عيسى بكذا وكذا؟ قال: فرجعت فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «ألا أخبرتهم أنهم كانوا يسمون بالأنبياء والصالحين قبلهم»^(٢).

وقال ابن جرير، عن قتادة قوله ﴿يا أخت هرون﴾ الآية قال: كانت من أهل بيت يعرفون بالصلاح ولا يعرفون بالفساد، ومن الناس من يعرفون بالصلاح ويتوالدون به، وآخرون يعرفون بالفساد ويتوالدون به، وكان هارون مصلحاً محبباً في عشيرته، وليس بهارون أخي موسى، ولكنه هارون آخر، قال وذكر لنا أنه شيع جنازته يوم مات أربعون ألفاً كلهم يسمون هارون من بني إسرائيل. وقوله: ﴿فأشارت إليه قالوا كيف نكلم من كان في المهد صبياً﴾ أي أنهم لما استرابوا في أمرها واستنكروا قضيتها، وقالوا لها ما قالوا معرضين بقذفها ورميها بالقرية، وقد كانت يومها هذا صائمة صامته، فأحالت الكلام عليه، وأشارت لهم إلى خطابه وكلامه، فقالوا متهمين بها ظانين أنها تزدرى بهم وتلعب بهم ﴿كيف نكلم من كان في المهد صبياً﴾؟ قال السدي: لما أشارت إليه غضبوا وقالوا لسخريتها بنا حتى تأمرنا أن نكلم هذا الصبي أشد علينا من زناها ﴿قالوا كيف نكلم من كان في المهد صبياً﴾ أي من هو موجود في مهده في حال صباه وصغره، كيف يتكلم؟ ﴿قال: إني عبد الله﴾ أول شيء تكلم به أن نزه جناب ربه تعالى وبراه عن الولد، وأثبت لنفسه العبودية لربه، وقوله: ﴿آتاني الكتاب وجعلني نبياً﴾ تبرئة لأمه مما نسبت إليه من الفاحشة، قال نوف البكالي: لما قالوا لأمه ما قالوا كان يرتضع ثديه، فترع الثدي من فمه، واتكأ على جنبه الأيسر وقال: ﴿إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبياً﴾ - إلى قوله - ما دمت حياً.

وقوله تعالى: ﴿وجعلني مباركاً أينما كنت﴾، قال مجاهد: وجعلني معلماً للخير، وفي رواية عنه: نفاعاً، وقوله: ﴿وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حياً﴾ كقوله تعالى لمحمد ﷺ: ﴿واعبد ربك حتى يأتيك اليقين﴾. وقوله: ﴿وبراً بالديني﴾ أي وأمرني ببر والديني، ذكره بعد طاعة ربه لأن الله تعالى كثيراً ما يقرن بين الأمر بعبادته وطاعة الوالدين، كما قال تعالى: ﴿أن اشكر لي ولوالديك إليّ المصير﴾، وقوله: ﴿ولم يجعلني جباراً شقياً﴾

(١) قال السهيلي: هارون رجل من عباد بني إسرائيل المجتهدين كانت مريم تشبه به في اجتهادها، ليس بهارون أخي موسى بن عمران، فإن بينهما من الدهر الطويل والقرون الماضية والأمم الخالية ما قد عرفه الناس.

(٢) وأخرجه مسلم والترمذي والنسائي، وقال الترمذي: حسن صحيح غريب.

أي ولم يجعلني جباراً مستكبراً عن عبادته وطاعته وبر والدتي فأشقى بذلك، قال سفيان الثوري: الجبار الشقي الذي يقتل على الغضب، وقال بعض السلف: لا تجد أحداً عاقباً لوالديه إلا وجدته جباراً شقيماً، ثم قرأ: ﴿وبراً بالذي ولم يجعلني جباراً شقيماً﴾. وقوله: ﴿والسلام عليّ يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حياً﴾ إثبات منه لعبوديته لله عزّ وجلّ، وأنه مخلوق من خلق الله يحيا ويموت ويبعث كسائر الخلائق، ولكن له السلامة في هذه الأحوال التي هي أشق ما يكون على العباد، صلوات الله وسلامه عليه .

ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾

يقول تعالى لرسوله محمد صلوات الله وسلامه عليه: ذلك الذي قصصناه عليك من خبر عيسى عليه السلام ﴿قول الحق الذي فيه يمترون﴾ أي يختلف المبطلون والمحقون ممن آمن به وكفر به، ولما ذكر تعالى أنه خلقه عبداً نبياً نزه نفسه المقدسة، فقال: ﴿ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه﴾ أي عما يقول هؤلاء الجاهلون الظالمون المعتلون علواً كبيراً ﴿إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون﴾، أي إذا أراد شيئاً فإنما يأمر به، فيصير كما يشاء كما قال: ﴿إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون﴾، وقوله: ﴿وإن الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم﴾ أي ومما أمر به عيسى قومه وهو في مهده أن أخبرهم إذ ذاك أن الله ربه وربهم، وأمرهم بعبادته فقال ﴿فاعبدوه هذا صراط مستقيم﴾ أي هذا الذي جئتكم به عن الله صراط مستقيم أي قويم من اتبعه رشد وهدى ومن خالفه ضل وغوى، وقوله: ﴿فاختلف الأحزاب من بينهم﴾ أي اختلف قول أهل الكتاب في عيسى بعد بيان أمره ووضوح حاله، وأنه عبده ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، فصممت طائفة منهم وهم جمهور اليهود عليهم لعائن الله، على أنه ولد زنية، وقالوا: كلامه هذا سحر، وقالت طائفة أخرى: إنما تكلم الله، وقال آخرون: بل هو ابن الله، وقال آخرون: ثالث ثلاثة، وقال آخرون: بل هو عبد الله ورسوله، وهذا هو قول الحق الذي أرشد الله إليه المؤمنين، وقد روي نحو هذا عن ابن جريج وقتادة وغير واحد من السلف والخلف .

وقد ذكر غير واحد من علماء التاريخ من أهل الكتاب وغيرهم. أن (قسطنطين) جمعهم في محفل كبير من مجامعهم الثلاثة المشهورة عندهم، فكان جماعة الأساقفة منهم ألفين ومائة وسبعين أسقفاً، فاختلفوا في عيسى بن مريم عليه السلام اختلافاً متبايناً جداً، فقالت كل شذمة فيه قولاً، ولم يجتمع على مقالة واحدة أكثر من ثلثمائة وثمانية منهم اتفقوا على قول وصمموا عليه فقال إليهم الملك، وكان فيلسوفاً، فقدمهم ونصرهم وطردهم من عداهم، فوضعوا له الأمانة الكبيرة بل هي الخيانة العظيمة، ووضعوا له كتب القوانين وشرعوا له أشياء وابتدعوا بدعاً كثيرة، وحرّفوا دين المسيح وغيره، فابتنى لهم حينئذ الكنائس الكبار في مملكته كلها، بلاد الشام والجزيرة والروم، فكان مبلغ الكنائس في أيامه ما يقارب اثني عشر ألف كنيسة، وقوله: ﴿فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم﴾ تهديد

ووعيد شديد لمن كذب على الله واقترى، وزعم أن له ولداً، ولكن أنظرهم تعالى إلى يوم القيامة، وأجلهم حلماً فإنه الذي لا يعجل على من عصاه، كما جاء في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: « لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله إنهم يجعلون له ولداً وهو يرزقهم ويعافيهم » وقد قال تعالى: ﴿ وكأين من قرية أهلكنا لها وهي ظالمة ثم أخذتها وإليّ المصير ﴾، وقال تعالى: ﴿ ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار ﴾، ولهذا قال ههنا ﴿ فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم ﴾ أي يوم القيامة. وقد جاء في الحديث الصحيح المتفق على صحته عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: « من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، وأن عيسى عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، وأن الجنة حق، والنار حق؛ أدخله الله الجنة على ما كان من العمل ».

أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّا نَحْنُ نَزَّتْ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾

يقول تعالى مخبراً عن الكفار يوم القيامة: ﴿ أسمع بهم وأبصر ﴾ أي ما أسمعهم وأبصرهم ﴿ يوم يأتوننا ﴾ يعني يوم القيامة، ﴿ لكن الظالمون اليوم ﴾ أي في الدنيا ﴿ في ضلال مبين ﴾ أي: لا يسمعون ولا يبصرون ولا يعقلون، فحيث يطلب منهم الهدى لا يهتدون، ويكونون مطيعين حيث لا ينفعهم ذلك، ثم قال تعالى: ﴿ وأنذرهم يوم الحسرة ﴾ أي أنذر الخلائق يوم الحسرة ﴿ إذ قضي الأمر ﴾: أي فصل بين أهل الجنة وأهل النار، وصار كل إلى ما صار إليه مخلداً فيه، ﴿ وهم ﴾ أي اليوم ﴿ في غفلة ﴾ عما أنذروا به يوم الحسرة والندامة ﴿ وهم لا يؤمنون ﴾ أي: لا يصدقون به. عن أبي سعيد الخدري قال، قال رسول الله ﷺ: « إذا دخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، يجاء بالموت كأنه كبش أملح، فيوقف بين الجنة والنار، فيقال: يا أهل الجنة هل تعرفون هذا؟ قال، فيشربون وينظرون ويقولون، نعم هذا الموت، قال: فيقال: يا أهل النار هل تعرفون هذا؟ قال، فيشربون وينظرون ويقولون: نعم هذا الموت، قال، فيؤمر به فيذبح، قال، ويقال: يا أهل الجنة خلود ولا موت، ويا أهل النار خلود ولا موت » ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿ وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضي الأمر وهم في غفلة وهم لا يؤمنون ﴾، وأشار بيده ثم قال: « أهل الدنيا في غفلة الدنيا »^(١).

وقال السدي، عن ابن مسعود في قوله ﴿ وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضي الأمر ﴾ قال: إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار، أتى بالموت في صورة كبش أملح حتى يوقف بين الجنة والنار، ثم ينادي مناد: يا أهل الجنة هذا الموت الذي كان يميت الناس في الدنيا، فلا يبقى أحد في أهل عليين، ولا في أسفل درجة في الجنة إلا نظر إليه، ثم ينادي مناد: يا أهل النار هذا الموت الذي كان يميت الناس في الدنيا فلا يبقى أحد في ضحضاح من نار ولا في أسفل درك من جهنم إلا نظر إليه، ثم يذبح بين الجنة والنار، ثم ينادي: يا أهل الجنة هو الخلود أبدي الآبدين، ويا أهل النار هو الخلود أبدي الآبدين، فيفرح أهل الجنة فرحة لو كان أحد ميتاً من فرح ماتوا، ويشهق

(١) رواه أحمد عن أبي سعيد الخدري واللفظ له وأخرجه الشيخان عن ابن عمر ولفظهما قريب من ذلك .

أهل النار شهقة لو كان أحد ميتاً من شهقة ماتوا، فذلك قوله تعالى ﴿ وَأَنْذَرَهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ ﴾ : يقول إذا ذبح الموت^(١). وقال ابن عباس: ﴿ يَوْمَ الْحَسْرَةِ ﴾ من أسماء يوم القيامة، عظمه الله وحذره عباده، وقال عبد الرحمن بن زيد، في قوله ﴿ وَأَنْذَرَهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ ﴾ قال يوم القيامة، وقرأ: ﴿ أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَطْتَ فِي جَنبِ اللَّهِ ﴾، وقوله: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾ يخبر تعالى أنه الخالق المالك المتصرف، وأن الخلق كلهم يهلكون ويبقى هو تعالى وتقدس، ولا أحد يدعي ملكاً ولا تصرفاً، بل هو الوارث لجميع خلقه الباقي بعدهم، الحاكم فيهم، فلا تظلم نفس شيئاً ولا جناح بعوضة ولا مثقال ذرة .

وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾

يقول تعالى لنبية محمد ﷺ: ﴿ واذكر في الكتاب إبراهيم ﴾ أي اتل على قومك هؤلاء الذين يعبدون الأصنام، خبر إبراهيم خليل الرحمن، وقد كان صديقاً نبياً مع أبيه كيف نهاه عن عبادة الأصنام، فقال: ﴿ يا أبت لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ﴾ أي لا ينفعك ولا يدفع عنك ضرراً، ﴿ يا أبت إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ ﴾ يقول: وإن كنت من صلبك وتراني أصغر منك، لأني ولدك، فاعلم أني قد اطلعت من العلم من الله على ما لم تعلمه أنت، ولا اطلعت عليه ولا جاءك ﴿ فاتبعني أهدك صراطاً سويّاً ﴾ أي طريقاً مستقيماً موصلاً إلى نيل المطلوب، والنجاة من المهوب، ﴿ يا أبت لا تعبد الشيطان ﴾ أي لا تطعه في عبادتك هذه الأصنام فإنه هو الداعي إلى ذلك والراضي به كما قال تعالى: ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾، وقوله ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ﴾ أي مخالفاً مستكبراً عن طاعة ربه، فطرده وأبعده، فلا تتبعه ﴿ يا أبت إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ ﴾: أي على شركك وعصيانك لما أمرك به ﴿ فتكون للشيطان ولياً ﴾ يعني فلا يكون لك مولى ولا ناصرأ ولا مغنياً إلا إبليس، وليس إليه ولا إلى غيره من الأمر شيء، بل اتباعك له موجب لإحاطة العذاب بك، كما قال تعالى: ﴿ فزین لهم الشيطان أعمالهم فهو وليهم اليوم ولهم عذاب أليم ﴾ .

﴿ قَالَ أَرَأَيْبُ أَنْتَ عَنِّي يَا إِبْرَاهِيمَ لَبِنٌ لَمْ تَنْتَهَ لِأَرْجَمَنَّكَ وَأَهْرَجَنِي مَلِيًّا ﴾ ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَّمَ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿٤٨﴾

يقول تعالى مخبراً عن جواب أبي إبراهيم لولده إبراهيم فيما دعاه إليه إنه قال: ﴿أرأغب أنت عن آلهي يا إبراهيم﴾؟ يعني إن كنت لا تريد عبادتها ولا ترضاها، فانت عن سبها وشتمها وعيها، فإنك إن لم تنته عن ذلك اقتصت منك وشتمتك وسببتك، وهو قوله: ﴿لأرحمك﴾، قاله ابن عباس^(١)، وقوله: ﴿واهجرني ملياً﴾ قال مجاهد: يعني دهرأ، وقال الحسن البصري: زماناً طويلاً، وقال السدي ﴿واهجرني ملياً﴾ قال: أبدأ. وقال ابن عباس ﴿واهجرني ملياً﴾ قال: سوياً سالماً، قبل أن تصيبك مني عقوبة^(٢)، فعندها قال إبراهيم لأبيه ﴿سلام عليك﴾، كما قال تعالى في صفة المؤمنين: ﴿وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً﴾، وقال تعالى: ﴿سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين﴾، ومعنى قول إبراهيم لأبيه ﴿سلام عليك﴾ يعني: أما أنا فلا ينالك مني مكروه ولا أذى وذلك لحرمة الأبوة ﴿سأستغفر لك ربي﴾، ولكن سأسأل الله فيك أن يهديك ويغفر ذنبك، ﴿إنه كان بي حفيماً﴾ قال ابن عباس وغيره: لطيفاً، أي في أن هداني لعبادته. وقال قتادة ومجاهد ﴿إنه كان بي حفيماً﴾ قالوا: عوده الإجابة، وقال السدي: الحفي الذي يهتم بأمره، وقد استغفر إبراهيم ﷺ لأبيه مدة طويلة، وبعد أن هاجر إلى الشام وبنى المسجد الحرام، وبعد أن ولد له إسماعيل وإسحاق عليهما السلام في قوله: ﴿ربنا اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين يوم يقوم الحساب﴾، وقد استغفر المسلمون لقراباتهم وأهلبيهم من المشركين في ابتداء الإسلام، حتى أنزل الله تعالى: ﴿قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله - إلى قوله - إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك وما أملك لك من الله من شيء﴾ الآية، يعني إلا في هذا القول فلا تتأسوا به، ثم بين تعالى أن إبراهيم أطلع عن ذلك ورجع عنه، فقال تعالى: ﴿وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه أن إبراهيم لأواه حلیم﴾، وقوله: ﴿واعترلكم وما تدعون من دون الله وأدعو ربي﴾ أي أجتنبكم وأتبرأ منكم ومن آلهتكم التي تعبدونها من دون الله، ﴿وأدعو ربي﴾ أي وأعبد ربي وحده لا شريك له، ﴿عسى ألا أكون بدعاء ربي شقياً﴾ وعسى هذه موجبة لا محالة، فإنه عليه السلام سيد الأنبياء بعد محمد ﷺ .

فَلَمَّا اعْتَرَضَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ۖ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾

يقول تعالى: فلما اعترل الخليل أباه وقومه في الله، أبدله الله من هو خير منهم، ووهب له إسحاق ويعقوب، يعني ابنه وابن إسحاق، كما قال في الآية الأخرى: ﴿ويعقوب نافلة﴾، وقال: ﴿ومن وراء إسحاق يعقوب﴾، ولا خلاف أن إسحاق والد يعقوب وهو نص القرآن في سورة البقرة: ﴿أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي؟ قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق﴾ ولهذا إنما ذكر ههنا إسحاق ويعقوب، أي جعلنا له نسلًا وعقبًا أنبياء، أقر الله بهم عينه في حياته، ولهذا قال: ﴿وكلا جعلنا

(١) وقاله أيضاً السدي وابن جريج والضحاك وغيرهم .

(٢) وكذا قال الضحاك وقتادة وأبو مالك، واختاره ابن جرير .

نبياً ﴿ فلو لم يكن يعقوب عليه السلام قد نبئ في حياة إبراهيم، لما اقتصر عليه ولذكر ولده يوسف. فإنه نبي أيضاً. وقوله: ﴿ ووهبنا لهم من رحمتنا وجعلنا لهم لسان صدق علياً ﴾، قال ابن عباس: يعني الثناء الحسن، وقال ابن جرير: إنما قال ﴿ علياً ﴾ لأن جميع الملل والأديان يشنون عليهم ويمدحونهم، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾ وَنَدَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾

لما ذكر تعالى إبراهيم الخليل وأثنى عليه، عطف بذكر الكلم فقال: ﴿ واذكر في الكتاب موسى إنه كان مخلصاً ﴾ بكسر اللام من الإخلاص في العبادة، وقرأ الآخرون بفتحها، بمعنى أنه كان مصطفى، كما قال تعالى: ﴿ إني اصطفيتك على الناس ﴾، ﴿ وكان رسولاً نبياً ﴾ جمع الله له بين الوصفين، فإنه كان من المرسلين الكبار، أولي العزم الخمسة، وهم (نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد) صلوات الله وسلامه عليهم وعلى سائر الأنبياء أجمعين، وقوله: ﴿ ونادينا من جانب الطور ﴾ أي الجانب ﴿ الأيمن ﴾ من موسى حين ذهب يبتغي من تلك النار جلوة، فرآها تلوح فقصدتها فوجدها في جانب الطور الأيمن منه، غريبه عند شاطئ الوادي، فكلمه الله تعالى وناداه وقربه فناجاه. روى ابن جرير، عن ابن عباس ﴿ وقربناه نجياً ﴾ قال: أدني حتى سمع صريف القلم. وقال السدي ﴿ وقربناه نجياً ﴾ قال: أدخل في السماء فكلم، وعن مجاهد نحوه، وروى ابن أبي حاتم، عن عمرو بن معد يكرب قال: لما قرب الله موسى نجياً بطور سيناء قال: يا موسى إذا خلقت لك قلباً شاكراً، ولساناً ذاكراً، وزوجة تعين على الخير، فلم أخزن عنك من الخير شيئاً، ومن أخزن عنه هذا فلم أفتح له من الخير شيئاً، وقوله: ﴿ ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبياً ﴾ أي وأجبنا سؤاله وشفاعته في أخيه فجعلناه نبياً، كما قال في الآية الأخرى: ﴿ وأخي هارون هو أفصح مني لساناً فأرسله معي ردءاً يصدقني إني أخاف أن يكذبون ﴾، وقال: ﴿ قد أوتيت سؤالك يا موسى ﴾، ولهذا قال بعض السلف: ما شفع أحد شفاعته في الدنيا أعظم من شفاعته موسى في هارون أن يكون نبياً، قال الله تعالى: ﴿ ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبياً ﴾، قال ابن عباس: كان هارون أكبر من موسى، ولكن أراد وهب نبوته له^(١).

وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾

هذا ثناء من الله تعالى على إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليهما السلام، وهو والد عرب الحجاز كلهم بأنه كان صادق الوعد. قال ابن جرير لم يعد ربه عدة إلا أنجزها، يعني ما التزم عبادة قط بنذر إلا قام بها، ووفأها حقها. وقال ابن جرير، عن سهل بن عقيل، إن (إسماعيل) النبي عليه السلام وعد رجلاً مكاناً أن يأتيه فيه،

(١) أخرجه ابن جرير وابن أبي حاتم.

فجاء ونسي الرجل فضل به إسماعيل، وبات حتى جاء الرجل من الغد، فقال: ما برحت من ههنا؟ قال: لا، قال: إني نسيت، قال: لم أكن لأبرح حتى تأتيني، فلذلك ﴿ كان صادق الوعد ﴾ ، وقد روى أبو داود في سننه، عن عبد الله بن أبي الحسماء قال: بايعت رسول الله ﷺ قبل أن يبعث فبقيت له عليّ بقية، فوعده أن آتبه بها في مكانه ذلك، قال فنسيت يومي والغد، فأتيته في اليوم الثالث وهو في مكانه ذلك، فقال لي: « يا فتى لقد شققت عليّ أنا ههنا منذ ثلاث أنتظرك »، وقال بعضهم: إنما قيل له ﴿ صادق الوعد ﴾ لأنه قال لأبيه ﴿ ستجدني إن شاء الله من الصابرين ﴾ فصدق في ذلك، فصدق الوعد من الصفات الحميدة، كما أن خلفه من الصفات الذميمة، قال الله تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون ﴾، وقال رسول الله ﷺ: « آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أؤتمن خان »^(١)، ولما كانت هذه صفات المنافقين، كان التلبس بضدها من صفات المؤمنين، ولهذا أثنى الله على عبده ورسوله إسماعيل بصدق الوعد، وكذلك كان رسول الله ﷺ صادق الوعد أيضاً، لا يعد أحداً شيئاً إلا وفى له به، وقد أثنى على أبي العاص بن الربيع زوج ابنته زينب فقال: « حدثني فصدقني ووعدني فوفى لي » .

وقوله تعالى: ﴿ وكان رسولاً نبياً ﴾ في هذا دلالة على شرف إسماعيل على أخيه إسحاق لأنه إنما وصف بالنبوة فقط، وإسماعيل وصف بالنبوة والرسالة، وقد ثبت في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال: « إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل » وذكر تمام الحديث، فدل على صحة ما قلناه، وقوله: ﴿ وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة وكان عنده مرضياً ﴾، هذا أيضاً من الثناء الجميل والصفة الحميدة والخلة السديدة، حيث كان صابراً على طاعة ربه عز وجل، آمراً بها لأهله، كما قال تعالى لرسوله: ﴿ وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها ﴾ الآية. وقد جاء في الحديث عن أبي هريرة قال، قال رسول الله ﷺ: « رحم الله رجلاً قام من الليل فضلى وأيقظ امرأته، فإن أبت نضح في وجهها الماء، رحم الله امرأة قامت من الليل فصلت وأيقظت زوجها فإن أبى نضحت في وجهه الماء »^(٢). وعن أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: « إذا استيقظ الرجل من الليل وأيقظ امرأته فصليا ركعتين كتبا من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات »^(٣).

*** وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾**

ذكر إدريس عليه السلام بالثناء عليه، بأنه كان صديقاً نبياً، وأن الله رفعه مكاناً علياً. وقد تقدم في الصحيح أن رسول الله ﷺ مرَّ به في ليلة الإسراء وهو في السماء الرابعة. وعن ابن عباس: أن إدريس كان خياطاً فكان لا يغرز إبرة إلا قال سبحان الله، فكان يسمى حين يمسى وليس في الأرض أحد أفضل عملاً منه، وقال مجاهد في قوله ﴿ ورفعناه مكاناً علياً ﴾ قال: إدريس رفع ولم يمت كما رفع عيسى. وقال سفيان، عن مجاهد ﴿ ورفعناه مكاناً علياً ﴾ قال: السماء الرابعة، وقال الحسن وغيره في قوله ﴿ ورفعناه مكاناً علياً ﴾ قال: الجنة .

(١) الحديث أخرجه الشيخان والترمذي والنسائي عن أبي هريرة .

(٢) أخرجه أبو داود وابن ماجه .

(٣) رواه أبو داود والنسائي وابن ماجه واللفظ له .

أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ
وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴿٥٨﴾

يقول تعالى: هؤلاء النبيون، وليس المراد المذكورين في هذه السورة فقط، بل جنس الأنبياء عليهم السلام، استطراد من ذكر الأشخاص إلى الجنس، ﴿الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم﴾ الآية. قال السدي وابن جرير رحمه الله: فالذي عنى به من ذرية آدم (إدريس)، والذي عنى به من ذرية من حملنا مع نوح (إبراهيم)، والذي عنى به من ذرية إبراهيم (إسحاق ويعقوب وإسماعيل)، والذي عنى به من ذرية إسرائيل (موسى وهارون وزكريا ويحيى وعيسى بن مريم)، قال ابن جرير: ولذلك فرق أنسابهم، وإن كان يجمع جميعهم آدم، لأن فيهم من ليس من ولد من كان مع نوح في السفينة وهو إدريس، فإنه جد نوح، (قلت): هذا هو الأظهر، أن إدريس في عمود نسب نوح عليهما السلام، وقد قيل إنه من أنبياء بني إسرائيل، أخذاً من حديث الإسرائ، حيث قال في سلامه على النبي ﷺ: مرحباً بالنبي الصالح والأخ الصالح، ولم يقل والولد الصالح، كما قال آدم وإبراهيم عليهما السلام، وفي صحيح البخاري عن مجاهد: «أنه سأل ابن عباس أفي ﴿ص﴾ سجدة؟ فقال: نعم، ثم تلا هذه الآية: ﴿أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده﴾ فنيكم ممن أمر أن يقتدي بهم، قال وهو منهم يعني داود. وقال الله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿إذا تلى عليهم آيات الرحمن خروا سجداً وبكياً﴾ أي إذا سمعوا كلام الله المتضمن حججه ودلائله وبراهينه سجدوا لربهم خضوعاً واستكانة حمداً وشكراً على ما هم فيه من النعم العظيمة، والبكي جمع باك فلهذا أجمع العلماء على شرعية السجود ههنا اقتداء بهم واتباعاً لمنواهم. قال سفيان الثوري قرأ عمر بن الخطاب رضي عنه سورة مريم فسجد «وقال هذا السجود، فأين البكي؟ يريد البكاء»^(١).

* نَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا ﴿٥٩﴾ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا ﴿٦٠﴾

لما ذكر تعالى حزب السعداء وهم الأنبياء عليهم السلام، ومن اتبعهم من القامئين بحدود الله وأوامره المؤدبين فرائض الله التاركين لزواجره، ذكر أنه ﴿خلف من بعدهم خلف﴾ أي قرون أخر، ﴿أضاعوا الصلاة﴾، وأقبلوا على شهوات الدنيا وملاذها، ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها، فهؤلاء سيلقون غيًّا، أي خساراً يوم القيامة، وقد اختلفوا في المراد بإضاعة الصلاة ههنا، فقال قائلون: المراد بإضاعتها تركها بالكلية، قاله محمد بن كعب القرظي والسدي واختاره ابن جرير، ولهذا ذهب من ذهب من السلف والخلف والأئمة كما هو مشهور عن الإمام أحمد، إلى تكفير تارك الصلاة للحديث: «بين العبد وبين الشرك ترك الصلاة»^(٢)، والحديث الآخر: «العهد الذي

(١) رواه ابن أبي حاتم وابن جرير.

(٢) الحديث: أخرجه مسلم وأبو داود والترمذي عن جابر بلفظ «بين الرجل وبين الشرك والكفر...».

بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر»، وليس هذا محل بسط هذه المسألة. وقال الأوزاعي: إنما أضاعوا المواقيت ولو كان تركاً كان كفراً. وقيل لابن مسعود: إن الله يكثر ذكر الصلاة في القرآن ﴿الذين هم عن صلاتهم ساهون﴾، و﴿على صلاتهم دائمون﴾، و﴿على صلاتهم يحافظون﴾، فقال ابن مسعود: على مواقيتها، قالوا: ما كنا نرى ذلك إلا على الترك، قال: ذلك الكفر، وقال مسروق: لا يحافظ أحد على الصلوات الخمس فيكتب من الغافلين، وفي إفراطهن الهلكة؛ وإفراطهن إضاعتهم عن وقتهن، وقال الأوزاعي: قرأ عمر بن عبد العزيز: ﴿فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة﴾، ثم قال: لم تكن إضاعتهم تركها ولكن أضاعوا الوقت، وقال مجاهد: ذلك عند قيام الساعة، وذهب صالح بن أبي محمد رضي الله عنه يترو بعضهم على بعض في الأزقة. وقال ابن جرير، عن مجاهد ﴿فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات﴾ قال: هم في هذه الأمة، يترابون تراكب الأنعام والحرر في الطرق، لا يخافون الله في السماء، ولا يستحيون من الناس في الأرض. وقال كعب الأحبار: والله إني لأجد صفة المنافقين في كتاب الله عز وجل: شرابين للقهوات، تراكين للصلوات، لعابين بالكعبات، رقادين عن العتات، مفرطين في الغدوات، تراكين للجماعات، قال: ثم تلا هذه الآية: ﴿فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غياً﴾، وقال الحسن البصري: عطلوا المساجد ولزموا الضيعات. وقال أبو الأشهب: أوحى الله إلى داود عليه السلام: يا داود حذر وأنذر أصحابك أكل الشهوات، فإن القلوب المعلقة بشهوات الدنيا عقولها عني محجوبة، وإن أهون ما أصنع بالعبد من عبيدي إذا أثر شهوة من شهواته أن أحرمه طاعتي، وقوله: ﴿فسوف يلقون غياً﴾، قال ابن عباس: أي خسراً، وقال قتادة شراً، وقال عبد الله بن مسعود ﴿فسوف يلقون غياً﴾ قال: وادٍ في جهنم بعيد القعر خبيث الطعم. وقال الأعمش، عن زياد، عن أبي عياض في قوله ﴿فسوف يلقون غياً﴾ قال: وادٍ في جهنم من قيح ودم. وقوله ﴿إلا من تاب وآمن وعمل صالحاً﴾ أي إلا من رجع عن ترك الصلوات واتباع الشهوات، فإن الله يقبل توبته ويحسن عاقبته ويجعله من ورثة جنة النعيم، ولهذا قال: ﴿فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون شيئاً﴾ ذلك لأن التوبة تجب ما قبلها. وفي الحديث الآخر «التائب من الذنب كمن لا ذنب له»^(١) ولهذا لا ينقص هؤلاء التائبون من أعمالهم التي عملوها شيئاً ولا قولوا بما عملوه قبلها فينقص لهم مما عملوه بعدها لأن ذلك ذهب هدرًا وترك نسيًا، وذهب مجاناً من كرم الكريم وحلم الحليم، وهذا الاستثناء ههنا كقوله في سورة الفرقان: ﴿والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق - إلى قوله - وكان الله غفوراً رحيماً﴾ .

﴿ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ ۗ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًا ۗ ﴾ ﴿٦١﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا ۗ وَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةٌ وَعِشْيَاءٌ ﴿٦٢﴾ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾

يقول تعالى: الجنات التي يدخلها التائبون هي ﴿جنات عدن﴾ أي إقامة ﴿التي وعد الرحمن عباده﴾ بظهر الغيب، أي هي من الغيب الذي يؤمنون به وما رأوه، وذلك لشدة إيقانهم وقوة إيمانهم. وقوله: ﴿إنه كان

(١) أخرجه ابن ماجه عن ابن مسعود والحكيم الترمذي عن أبي سعيد الخدري .

وعده مأتياً ﴿﴾ تأكيداً لحصول ذلك وثبوته واستقراره، فإن الله لا يخلف الميعاد ولا يبده، كقوله ﴿﴾ كان وعده مفعولاً ﴿﴾ أي كائناً لا محالة، وقوله ههنا ﴿﴾ مأتياً ﴿﴾ أي العباد صائرون إليه وسيأتونه، ومنهم من قال ﴿﴾ مأتياً ﴿﴾ بمعنى آتياً، لأن كل ما أتاك فقد أتيت، كما تقول العرب: أتت عليّ خمسون سنة وأتيت على خمسين سنة كلاهما بمعنى واحد، وقوله: ﴿﴾ لا يسمعون فيها لغواً ﴿﴾، أي هذه الجنات ليس فيها كلام ساقط تافه لا معنى له، كما قد يوجد في الدنيا، وقوله ﴿﴾ إلا سلاماً ﴿﴾ استثناء منقطع، كقوله: ﴿﴾ لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيماً إلا قليلاً سلاماً سلاماً ﴿﴾، وقوله: ﴿﴾ ولهم رزقهم فيها بكرة وعشياً ﴿﴾ أي في مثل وقت البكرات ووقت العشيات، لا أن هناك ليلاً ونهاراً، ولكنهم في أوقات تتعاقب يعرفون مضياً بأضواء وأنوار، كما قال رسول الله ﷺ: « أول زمرة تلج الجنة صورهم على صورة القمر ليلة البدر، لا يبصقون فيها ولا يتمخطون فيها، ولا يتغوطون، آنيهم وأمشاطهم الذهب والفضة، ومجامرهم الألوة ورشحهم المسك، ولكل واحد منهم زوجتان يرى مخ ساقها من وراء اللحم من الحسن، لا اختلاف بينهم ولا تباغض، قلوبهم على قلب رجل واحد، يسبحون الله بكرة وعشياً »^(١). وعن ابن عباس قال، قال رسول الله ﷺ: « الشهداء على بارق نهر بباب الجنة، في قبة خضراء يخرج عليهم رزقهم من الجنة بكرة وعشياً »^(٢). وقال الضحاك عن ابن عباس ﴿﴾ ولهم رزقهم فيها بكرة وعشياً ﴿﴾ قال: مقادير الليل والنهار. وقال ابن جرير، عن الوليد بن أسلم قال: سألت زهير بن محمد عن قول الله تعالى: ﴿﴾ ولهم رزقهم فيها بكرة وعشياً ﴿﴾ قال: ليس في الجنة ليل، هم في نور أبداً ولهم مقدار الليل والنهار، يعرفون مقدار الليل بإرخاء الحجب وإغلاق الأبواب. ويعرفون مقدار النهار، برفع الحجب وفتح الأبواب. وقال قتادة: فيها ساعتان بكرة وعشياً، ليس ثم ليل ولا نهار، وإنما هو ضوء ونور. وقال مجاهد: ليس بكرة ولا عشياً، ولكن يؤتون به على ما كانوا يشتهون في الدنيا. وقوله: ﴿﴾ تلك الجنة التي نورث من عبادنا من كان تقياً ﴿﴾ أي هذه الجنة التي وصفنا بهذه الصفات العظيمة هي التي نورثها عبادنا المتقين، وهم المطيعون لله عز وجل في السراء والضراء، والكاظمون الغيظ والعافون عن الناس، وكما قال تعالى في سورة المؤمنين: ﴿﴾ أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون ﴿﴾.

وَمَا نَنْتَزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾

عن ابن عباس قال، قال رسول الله ﷺ لجبرائيل: « ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا؟ » قال، فنزلت: ﴿﴾ وما ننتزل إلا بأمر ربك ﴿﴾^(٣). وقال العوفي عن ابن عباس: احتبس جبرائيل عن رسول الله ﷺ، فوجد رسول الله ﷺ من ذلك وحزن، فأتاه جبرائيل وقال: يا محمد ﴿﴾ وما ننتزل إلا بأمر ربك ﴿﴾ الآية. وقوله: ﴿﴾ له ما بين أيدينا وما خلفنا ﴿﴾، قيل: المراد ما بين أيدينا أمر الدنيا، وما خلفنا أمر الآخرة ﴿﴾ وما بين ذلك ﴿﴾ ما بين النفتين، وهذا قول عكرمة ومجاهد والسدي، وقيل ﴿﴾ ما بين أيدينا ﴿﴾: ما يستقبل من أمر الآخرة، ﴿﴾ وما خلفنا ﴿﴾

(١) الحديث أخرجه البخاري ومسلم ورواه أحمد عن أبي هريرة مرفوعاً.

(٢) رواه الإمام أحمد في المسند. (٣) أخرجه البخاري في باب التفسير ورواه الإمام أحمد.

أي ما مضى من الدنيا، ﴿وما بين ذلك﴾ أي ما بين الدنيا والآخرة، واختاره ابن جرير، والله أعلم. وقوله: ﴿وما كان ربك نسياً﴾، قال مجاهد والسدي: معناه ما نسيتك ربك، وقد تقدم عنه أن هذه الآية كقوله: ﴿والضحى والليل إذا سجى ما ودعك ربك وما قلى﴾، وعن أبي الدرداء يرفعه قال: «ما أحل الله في كتابه فهو حلال وما حرمه فهو حرام وما سكت عنه فهو عافية فاقبلوا من الله عافيته، فإن الله لم يكن لينسى شيئاً»، ثم تلا هذه الآية: ﴿وما كان ربك نسياً﴾^(١). وقوله: ﴿رب السماوات والأرض وما بينهما﴾ أي خالق ذلك ومدبره، والحاكم فيه والمتصرف الذي لا معقب لحكمه، ﴿فاعبده واصطبر لعبادته هل تعلم له سمياً﴾ قال ابن عباس: هل تعلم للرب مثلاً أو شبيهاً^(٢). وقال عكرمة، عن ابن عباس: ليس أحد يسمى الرحمن غيره تبارك وتعالى وتقدس اسمه.

* وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ إِذَا مَا مَاتَ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوْ لَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ﴿٦٧﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾

يخبر تعالى عن الإنسان، أنه يتعجب ويستبعد إعادته بعد موته، كما قال تعالى: ﴿وإن تعجب فعجب قولهم أئذا كنا تراباً أئنا لفي خلق جديد﴾، وقال: ﴿أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين * وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم﴾، وقال ههنا: ﴿ويقول الإنسان أئذا ما مت لسوف أخرج حياً * أولاً يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئاً﴾، يستدل تعالى بالبداة على الإعادة، يعني أنه تعالى قد خلق الإنسان ولم يك شيئاً، أفلا يعيده؟ وقد صار شيئاً، كما قال تعالى: ﴿وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه﴾، وفي الصحيح: «يقول الله تعالى كذبتني ابن آدم ولم يكن له أن يكذبني، وآذاني ابن آدم ولم يكن له أن يؤذيني، أما تكذبه إياي فقله لن يعيدني كما بدأتي، وليس أول الخلق بأهون علي من آخره، وأما أذاه إياي فقله: إن لي ولداً وأنا الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد»^(٣)، وقوله: ﴿فوربك لنحشرهم والشياطين﴾ أقسم الرب تبارك وتعالى بنفسه الكريمة، أنه لا بد أن يحشرهم جميعاً، وشياطينهم الذين كانوا يعبدون من دون الله، ﴿ثم لنحضرهم حول جهنم جثياً﴾، قال ابن عباس: يعني قعوداً كقوله: ﴿وترى كل أمة جاثية﴾ وقال السدي في قوله ﴿جثياً﴾ يعني قياماً، وروي عن ابن مسعود مثله. وقوله: ﴿ثم لننزغن من كل شيعه﴾ يعني من كل أمة قاله مجاهد، ﴿أيهم أشد على الرحمن عتياً﴾ قال الثوري عن ابن مسعود قال: يجبس الأول على الآخر، حتى إذا تكاملت العدة أتاهم جميعاً، ثم بدأ بالأكابر فالأكابر جرماً، وهو قوله: ﴿ثم لننزغن من كل شيعه أيهم أشد على الرحمن عتياً﴾، وقال قتادة: ثم لننزغن من أهل كل دين قادتهم ورؤساءهم في الشر، وكذا قال ابن جريج وغير واحد من السلف، وهذا كقوله تعالى، ﴿حتى إذا ادركوا فيها جميعاً قالت أوراهاهم لأولاهم﴾

(١) رواه ابن أبي حاتم. (٢) وهو قول مجاهد وقاتادة وسعيد بن جبير وغيرهم.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه.

ربنا هولاء أضلونا فاتهم عذاباً ضعفاً من النار ﴿١٩﴾، وقوله: ﴿٢٠﴾ ثم لنحن أعلم بالذين هم أولى بها صلياً ﴿٢١﴾، المراد أنه تعالى أعلم بمن يستحق من العباد أن يصلى بنار جهنم ويخلد فيها، وبمن يستحق تضعيف العذاب كما قال في الآية المتقدمة: ﴿٢٢﴾ قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون ﴿٢٣﴾.

وَإِنْ مَنكُمُ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٢٤﴾ ثُمَّ نُجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٢٥﴾

روى الإمام أحمد، عن أبي سمية قال: اختلفنا في الورد، فقال بعضنا: لا يدخلها مؤمن، وقال بعضهم يدخلونها جميعاً، ثم ينجي الله الذين اتقوا، فلقيت جابر بن عبد الله فقلت له: إنا اختلفنا في الورد، فقال: يردونها جميعاً، وأهوى بأصبعه إلى أذنيه، وقال: صُمْتًا إن لم أكن سمعت رسول الله ﷺ يقول: « لا يبقى بر ولا فاجر إلا دخلها، فتكون على المؤمن برداً وسلاماً كما كانت على إبراهيم، حتى إن للنار ضجيجاً من بردهم، ثم ينجي الله الذين اتقوا ويذر الظالمين فيها جثياً ». وعن قيس بن أبي حازم قال: كان عبد الله بن رواحة واضعاً رأسه في حجر امرأته فبكت، فبكت امرأته، قال: ما يبكيك؟ قالت: رأيتك تبكي فبكيت، قال إني ذكرت قول الله عز وجل ﴿٢٤﴾ وإنا منكم إلا واردها ﴿٢٥﴾ فلا أدري أنجو منها أم لا، وكان مريضاً^(١). وقال ابن جرير عن ابي إسحاق: كان أبو ميسرة إذا أوى إلى فراشه قال: يا ليت أُمِّي لم تلدني، ثم يبكي، فقيل له: ما يبكيك يا أبا ميسرة؟ فقال: أخبرنا أنا واردوها ولم نخبر أنا صادرون عنها، وعن الحسن البصري قال، قال رجل لأخيه: هل أتاك أنك وارد النار؟ قال: نعم، قال: فهل أتاك أنك صادر عنها؟ قال: لا، قال: فقيم الضحك، قال: فإني ضاحكاً حتى لحق بالله، وقال عبد الرزاق خاصم ابن عباس نافع بن الأزرق، فقال ابن عباس: الورد الدخول، فقال نافع: لا، فقرأ ابن عباس ﴿٢٤﴾ إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم، أنتم لها واردون ﴿٢٥﴾ وردوا أم لا؟ وقال: ﴿٢٤﴾ يقدم قومه يوم القيامة فأوردتهم النار ﴿٢٥﴾ أوردتهم أم لا؟ أما أنا وأنت فسندخلها، فانظر هل نخرج منها أم لا؟ وما أرى الله مخرجك منها بتكديك، فضحك نافع. وقال: عن مجاهد قال: كنت عند ابن عباس فأتاه رجل يقال له أبو راشد، وهو نافع بن الأزرق. فقال له: يا ابن عباس، رأيت قول الله: ﴿٢٤﴾ وإنا منكم إلا واردها كان على ربك حتماً مقضياً ﴿٢٥﴾، قال: أما أنا وأنت يا أبا راشد فسنردها فانظر هل نصدر عنها أم لا؟

وعن عبد الله بن مسعود ﴿٢٤﴾ وإنا منكم إلا واردها ﴿٢٥﴾ قال رسول الله ﷺ: « يرد الناس كلهم ثم يصدرون عنها بأعمالهم »^(٢). وقد رواه أسباط عن السدي، عن مرة عن عبد الله بن مسعود قال: يرد الناس جميعاً الصراط، وورودهم قيامهم حول النار، ثم يصدرون عن الصراط بأعمالهم، فمنهم من يمر مثل البرق، ومنهم من يمر مثل الريح ومنهم من يمر مثل الطير، ومنهم من يمر كأجود الخيل، ومنهم من يمر كأجود الإبل، ومنهم من يمر كعدو الرجل، حتى إن آخرهم مرأ رجل نوره على موضع إبهامي قدميه يمر فيتكفأ به الصراط، والصراط دحض مزلة، عليه حسك كحسك القتاد، حافظاه ملائكة معهم كلاب من نار يختطفون بها الناس^(٣)، وقال ابن جرير، عن عبد الله قوله

(١) أخرجه عبد الرزاق .

(٢) رواه أحمد والترمذي .

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم .

﴿ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ قال: الصراط على جهنم مثل حد السيف، فتمر الطبقة الأولى كالبرق، والثانية كالريح، والثالثة كأجود الخيل، والرابعة كأجود البهائم، ثم يمرون والملائكة يقولون اللهم سلم سلم، ولهذا شواهد في الصحيحين وغيرهما. عن أم مبشر امرأة زيد بن حارثة، قالت كان رسول الله ﷺ في بيت حفصة فقال: « لا يدخل النار أحد شهد بدرًا والحديبية »، قالت حفصة: أليس الله يقول: ﴿ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ ؟ فقال رسول الله ﷺ: ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا ﴾ الآية، وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: « لا يموت لأحد من المسلمين ثلاثة من الولد تمسه النار إلا تحلة القسم » يعني الورود. وقال قتادة قوله: ﴿ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ هو المر عليها. وقال عبد الرحمن بن زيد: ورود المسلمين المرور على الجسر بين ظهرانيها، وورود المشركين أن يدخلوها، والزلون والزالات يومئذ كثير، وقد أحاط بالجسر يومئذ سباطان من الملائكة دعاؤهم يا الله سلم سلم. وقال السدي، عن ابن مسعود في قوله ﴿ كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا ﴾ قال: قسمًا واجبًا، وقال مجاهد: حتمًا، قال قضاء، وقوله ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا ﴾ أي إذا مر الخلائق كلهم على النار، وسقط فيها من سقط من الكفار، والعصاة، نجى الله تعالى المؤمنين المتقين منها بحسب أعمالهم، فجازهم على الصراط وسرعتهم بقدر أعمالهم التي كانت في الدنيا، ثم يشفعون في أصحاب الكبائر من المؤمنين، فيشفع الملائكة والنبيون والمؤمنون، فيخرجون خلقًا كثيرًا قد أكلتهم النار إلا دارات وجوههم، وهي مواضع السجود، ولا يبقى في النار إلا من وجب عليه الخلود، كما وردت بذلك الأحاديث الصحيحة عن رسول الله ﷺ، ولهذا قال تعالى: ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جَنًّا ﴾.

وَإِذَا نُتِيَ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَكْثَرُ اثْنَا وَرَبِّيَا ﴿٧٤﴾

يخبر تعالى عن الكفار حين تتلى عليهم آيات الله ظاهرة الدلالة بينة الحجة واضحة البرهان، أنهم يصلون ويعرضون عن ذلك، ويقولون عن الذين آمنوا مفتخرين عليهم ومحتجين على صحة ما هم عليه من الدين الباطل بأنهم ﴿ خير مقامًا وأحسن نديًا ﴾ أي أحسن منازل، وأرفع دورًا، وأحسن نديًا، وهو مجتمع الرجال للحديث، أي ناديهم أعمر وأكثر واردًا وطارقًا، يعنون فكيف نكون ونحن بهذه المثابة على باطل؟ كما قال تعالى مخبرًا عنهم ﴿ وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيرا ما سبقونا إليه ﴾، وقال قوم نوح، ﴿ أتؤمنن لك واتبعتك الأزدلون ﴾ وقال تعالى: ﴿ وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا أليس الله بأعلم بالشاكرين ﴾ ؟ ولهذا قال تعالى، رادًا عليهم شبهتهم: ﴿ وكم أهلكنا قبلهم من قرن ﴾: أي وكم من أمة وقرن من المكذبين، قد أهلكناهم بكفرهم ﴿ هم أحسن أئانًا ورثيًّا ﴾ أي كانوا أحسن من هؤلاء أموالًا وأمتعة ومناظر وأشكالًا. قال ابن عباس ﴿ خير مقامًا وأحسن نديًا ﴾ المقام: المنزل، والندي: المجلس، والأثاث: المتاع، والرئي: المنظر، وهو كما قال الله تعالى ﴿ كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم ﴾ فالمقام المسكن والنعيم، والنسدي: المجلس، والمجمع، الذي كانوا يجتمعون فيه، وقال تعالى فيما قصص على رسوله من أمر قوم لوط ﴿ وتأتون في ناديكم المنكر ﴾ والعرب تسمي المجلس النادي، وقال قتادة: لما رأوا أصحاب محمد ﷺ في عيشهم خشونة وفيهم

قشافة، فعرض أهل الشرك ما تسمعون ﴿أي الفريقين خير مقاماً وأحسن ندياً﴾، ومنهم من قال في الأثاث هو المال، ومنهم من قال الثياب، ومنهم من قال المتاع، والرئي المنظر كما قاله ابن عباس ومجاهد وغير واحد. وقال الحسن البصري يعني الصور، وكذا قال مالك ﴿أثاثاً ورتباً﴾ أكثر أموالاً وأحسن صوراً، والكل متقارب صحيح.

قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ
مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا ﴿٧٥﴾

يقول تعالى ﴿قل﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين برهم، المدعين أنهم على الحق وأنكم على الباطل ﴿من كان في الضلالة﴾ أي منا ومنكم ﴿فليمدد له الرحمن مداً﴾ أي فليمهله الرحمن فيما هو فيه، حتى يلقي ربه وينقضي أجله، ﴿إما العذاب﴾ بصيبه، ﴿وإما الساعة﴾ بغتة تأتيه، ﴿فسيعلمون﴾ حينئذ ﴿من هو شر مكاناً وأضعف جنداً﴾ في مقابلة ما احتجوا به من خيرية المقام وحسن الندي، قال مجاهد في قوله: ﴿فليمدد له الرحمن مداً﴾ فليدعه الله في طغيانه، هكذا قرر ذلك أبو جعفر بن جرير رحمه الله.

﴿ويزيدُ اللهُ الَّذِينَ أَهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَاقِيَتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا﴾ ﴿٧٦﴾

لما ذكر تعالى إمداد من هو في الضلالة فيما هو فيه، وزيادته على ما هو عليه، أخبر بزيادة المهتدين هدى، كما قال تعالى: ﴿وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيماناً﴾ الآيتين. وقوله: ﴿والباقيات الصالحات﴾ قد تقدم تفسيرها في سورة الكهف ﴿خير عند ربك ثواباً﴾ أي جزاء ﴿وخير مرداً﴾ أي عاقبة ومرداً على صاحبها. عن أبي سلمة بن عبد الرحمن، قال: جلس رسول الله ﷺ ذات يوم فأخذ عوداً يابساً فحط ورقه، ثم قال: «إن قول لا إله إلا الله والله أكبر وسبحان الله والحمد لله تحط الخطايا كما تحط ورق هذه الشجرة الريح، خذهن يا أبا الدرداء قبل أن يحال بينك وبينهن، هن الباقيات الصالحات وهن من كنوز الجنة». قال أبو سلمة: فكان أبو الدرداء إذا ذكر هذا الحديث قال لأهلن الله ولأكبرن الله ولأسبحن الله، حتى إذا رآني الجاهل حسب أي مجنون^(١).

أَفْرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِعَايُنِنَا وَقَالَ لَأُوتِينَ مَا لَمْ يُؤْتِ مَلَأًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمْ أَخْتَدَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا
سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرَاهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾

روى الإمام أحمد، عن خباب بن الأرت قال: كنت رجلاً قيناً، وكان لي علي (العاص بن وائل) دين فأتيته أتقاضاه منه، فقال: لا والله لا أقضيك حتى تكفر بمحمد، فقلت: لا والله لا أكفر بمحمد ﷺ، حتى تموت ثم

(١) رواه عبد الرزاق وظاهره أنه مرسل ولكن وقع في سنن ابن ماجه عن أبي سلمة عن أبي الدرداء فذكره وهو حديث

تبعث، قال: فأبني إذا مت ثم بعثت جنتي ولي ثم مال وولد فأعطيتك، فأنزل الله ﴿أفرأيت الذي كفر بآياتنا وقال لأوتين مالا وولداً - إلى قوله - ويأتينا فرداً﴾^(١)، وفي لفظ البخاري: كنت قيناً بمكة فعملت للعاص بن وائل سيفاً، فجئت ألقاضاه، فذكر الحديث وقال ﴿أم اتخذ عند الرحمن عهداً﴾ قال: موثقاً .

وروى عبدالرزاق، عن مسروق قال، قال خباب بن الأرت: كنت قيناً بمكة فكنت أعمل للعاص بن وائل، فاجتمعت لي عليه دراهم، فجئت لألقاضاها، فقال لي: لا أقضيك حتى تكفر بمحمد، فقلت: لا أكفر بمحمد حتى تموت ثم تبعث، قال: فإذا بعثت كان لي مال وولد، قال: فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ، فأنزل الله: ﴿أفرأيت الذي كفر بآياتنا﴾ الآيات. وقال ابن عباس: إن رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ كانوا يطلبون (العاص بن وائل) بدين، فأتوه يتقاضونه، فقال: ألسم تزعمون أن في الجنة ذهباً وفضة وحريراً ومن كسل الثمرات؟ قالوا: بلى، قال: فإن موعدكم الآخرة فوالله لأوتين مالا وولداً، ولأوتين مثل كتابكم الذي جثم به فضرب الله مثله في القرآن فقال: ﴿أفرأيت الذي كفر بآياتنا - إلى قوله - ويأتينا فرداً﴾، وقوله: ﴿لأوتين مالا وولداً﴾، قرأ بعضهم بفتح الواو من ﴿ولداً﴾ وقرأ آخرون بضمها وهو بمعناه، وقيل: إن الولد بالضم جمع، والولد بالفتح مفرد، وهي لغة قيس، والله أعلم .

وقوله تعالى: ﴿أطلع الغيب﴾ إنكار على هذا القائل ﴿لأوتين مالا وولداً﴾ يعني يوم القيامة، أي أعلم ماله في الآخرة، حتى تألى وحلف على ذلك ﴿أم اتخذ عند الرحمن عهداً﴾ أم له عند الله عهد سيؤتيه ذلك؟ وقد تقدم عند البخاري أنه الموثق، وقال ابن عباس: ﴿أم اتخذ عند الرحمن عهداً﴾ قال: لا إله إلا الله فيرجو بها، وقال القرظي: شهادة أن لا إله إلا الله، ثم قرأ: ﴿إلا من اتخذ عند الرحمن عهداً﴾، وقوله ﴿كلا﴾ هي حرف ردع لما قبلها، وتأكيدها لما بعدها ﴿سنكتب ما يقول﴾ أي من طلبه ذلك، وحكمه لنفسه بما يتمناه وكفره بالله العظيم، ﴿ونمد له من العذاب مداً﴾ أي في الدار الآخرة على قوله ذلك وكفره بالله في الدنيا، ﴿ونرثه ما يقول﴾ أي من مال وولد، نسلبه منه عكس ما قال إنه يؤتى في الدار الآخرة مالا وولداً، زيادة على الذي له في الدنيا، بل في الآخرة يسلب من الذي كان له في الدنيا، ولهذا قال تعالى: ﴿ويأتينا فرداً﴾ أي من المال والولد، قال مجاهد ﴿ونرثه ما يقول﴾: ماله وولده، وقال قتادة ﴿ونرثه ما يقول﴾ قال: ما عنده، وهو قوله: ﴿لأوتين مالا وولداً﴾ ﴿ويأتينا فرداً﴾ لا مال له ولا ولد، وقال عبد الرحمن بن زيد ﴿ونرثه ما يقول﴾ قال: ما جمع من الدنيا وما عمل فيها، ﴿ويأتينا فرداً﴾ قال: فرداً من ذلك لا يتبعه قليل ولا كثير .

وَأَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤْزُهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَذَابًا ﴿٨٤﴾

يخبر تعالى عن الكفار المشركين بربهم، أنهم اتخذوا من دونه آلهة لتكون لهم تلك الآلهة ﴿عزاً﴾ يعترفون بها ويستنصرونها، ثم أخبر أنه ليس الأمر كما زعموا ولا يكون ما طمعوا، فقال ﴿كلا سيكفرون بعبادتهم﴾: أي

(١) أخرجه الشيخان والإمام أحمد عن خباب بن الأرت .

يوم القيامة ﴿ ويكونون عليهم ضدًا ﴾ أي بخلاف ما ظنوا فيهم، كما قال تعالى: ﴿ وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين ﴾، وقال السدي ﴿ كلا سيكفرون بعبادتهم ﴾: أي بعبادة الأوثان، وقوله ﴿ ويكونون عليهم ضدًا ﴾ أي بخلاف ما رجوا منهم. وقال ابن عباس ﴿ ويكونون عليهم ضدًا ﴾ قال: أعواناً، قال مجاهد: عوناً عليهم تخاصمهم وتكذبهم، وقال قتادة: قرناء في النار، يلعن بعضهم بعضاً ويكفر بعضهم ببعض، وقال الضحاك ﴿ ويكونون عليهم ضدًا ﴾ قال: أعداء. وقوله: ﴿ ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزا ﴾ قال ابن عباس: تغويهم إغواء، وقال العوفي عنه: تحرضهم على محمد وأصحابه، وقال مجاهد: تشليهم إشلاء، وقال قتادة: ترعجهم إزعاجاً إلى معاصي الله، وقال سفيان الثوري: تغريهم إغراء وتستعجلهم استعجالاً، وقال السدي: تطغيهم طغياناً، وقال عبد الرحمن بن زيد: هذا كقوله تعالى: ﴿ ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين ﴾، وقوله: ﴿ فلا تعجل عليهم إنما نعد لهم عدا ﴾ أي لا تعجل يا محمد على هؤلاء في وقوع العذاب بهم، ﴿ إنما نعد لهم عدا ﴾ أي إنما تؤخرهم لأجل معدود ومضبوط، وهم صائرون لا محالة إلى عذاب الله ونكاله، كما قال تعالى: ﴿ فمهل الكافرين أمهلهم رويداً ﴾، ﴿ إنما نعلي لهم ليزدادوا إثماً ﴾، ﴿ نمتعهم قليلاً ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ ﴾، ﴿ قل تمنعوا فإن مصيركم إلى النار ﴾، وقال السدي: ﴿ إنما نعد لهم عدا ﴾ السنين والشهور والأيام والساعات، وقال ابن عباس: ﴿ إنما نعد لهم عدا ﴾ قال: نعد أنفاسهم في الدنيا.

يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرِدًا ﴿٨٦﴾ لَأَيَّمْلِكُونَ الشَّفْعَةَ إِلَّا

مَنْ آتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾

يخبر تعالى عن أوليائه المتقين الذين خافوه في الدار الدنيا، واتبعوا رسله، وصدقوهم فيما أخبروهم وأطاعوهم فيما أمرهم به، وانتهوا عما زجروهم أنه يحشرهم يوم القيامة، وفداً إليه، والوفد هم القادمون ركبانياً ومنه الوفود، وركوبهم على نجائب من نور من مراكب الدار الآخرة، وهم قادمون على خير موفود إليه إلى دار كرامته ورضوانه، وأما المجرمون المكذبون للرسول المخالفون لهم فإنهم يساقون عنفاً إلى النار ﴿ ورداً ﴾ عطاشاً^(١)، وقال ابن أبي حاتم، عن ابن مرزوق ﴿ يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً ﴾ قال: يستقبل المؤمن عند خروجه من قبره أحسن صورة رآها وأطيبها ريحاً، فيقول: من أنت؟ فيقول: أما تعرفني؟ فيقول: لا، إلا أن الله قد طيب ريحك وحسن وجهك. فيقول: أنا عمك الصالح وهكذا كنت في الدنيا حسن العمل طيبه، فظالماً ركبك في الدنيا، فهلم اركبني فيركبه، فذلك قوله: ﴿ يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً ﴾^(٢). قال ابن عباس: ركبانياً، وقال أبو هريرة ﴿ يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً ﴾ قال: على الإبل. وقال الثوري: على الإبل النوق، وقال قتادة ﴿ يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً ﴾ قال: إلى الجنة، عن ابن النعمان بن سعيد قال: كنا جلوساً عند علي رضي الله عنه، فقرأ هذه الآية ﴿ يوم

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم.

(١) قاله ابن عباس وعطاء ومجاهد والحسن وقاتادة وغير واحد.

نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً ﴿٨٨﴾ قال: لا والله ما على أرجلهم يحشرون ، ولا يحشر الوفد على أرجلهم ، ولكن بنوق لم ير الخلائق مثلها ، عليها رحائل من ذهب ، فيركبون عليها حتى يضربوا أبواب الجنة^(١) .

وقوله تعالى ﴿٨٩﴾ ونسوق المجرمين إلى جهنم ورداً ﴿٩٠﴾ أي عطاشاً ، ﴿ لا يملكون الشفاعة ﴾ أي ليس لهم من يشفع لهم كما يشفع المؤمنون بعضهم لبعض ، كما قال تعالى مخبراً عنهم : ﴿ قال لنا من شافعين ولا صديق حميم ﴾ ، وقوله : ﴿ إلا من اتخذ عند الرحمن عهداً ﴾ هذا استثناء منقطع ، بمعنى : لكن من اتخذ عند الرحمن عهداً ، وهو شهادة أن لا إله إلا الله ، والقيام بحقها . قال ابن عباس : العهد (شهادة إن لا إله إلا الله) ، ويرأى إلى الله من الحول والقوة ولا يرجو إلا الله عز وجل . وقال ابن أبي حاتم ، عن الأسود بن يزيد ، قال : قرأ عبدالله بن مسعود هذه الآية ﴿ إلا من اتخذ عند الرحمن عهداً ﴾ ثم قال : اتخذوا عند الله عهداً ، فإن الله يقول يوم القيامة : من كان له عند الله عهد فليقم ، قالوا : يا أبا عبد الرحمن فعلمنا ، قال قولوا : اللهم فاطر السماوات والأرض عالم الغيب والشهادة ، فإني أعهد إليك في هذه الحياة الدنيا ، أنك إن تكلمي إلى عملي يقربني من الشر ويباعدني من الخير ، وإني لا أثق إلا برحمتك فاجعل لي عندك عهداً تؤديه إليّ يوم القيامة ، إنك لا تخلف الميعاد . قال المسعودي : وكان يلحق بهن : خائفاً مستنجباً مستنجباً راهباً راهباً إليك .

وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْعًا إِذَا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًا ﴿٩٠﴾ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلَّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾

لما قرر تعالى في هذه السورة الشريفة عبودية عيسى عليه السلام ، وذكر خلقه من مريم بلا أب ، شرع في مقام الإنكار على من زعم أن له ولداً ، تعالى وتقدس وتتره عن ذلك علواً كبيراً فقال : ﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولداً لقد جئتم في قولكم ، هذا ﴿ شيئاً إذا ﴾ ، قال ابن عباس : أي عظيماً ، وقوله : ﴿ تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخِر الجبال هداً أن ادعو للرحمن ولداً ﴾ أي يكاد يكون ذلك عند سماعهن هذه المقالة من فجرة بني آدم إعظاماً للرب وإجلالاً ، لأنهن مخلوقات ومؤسسات على توحيده وأنه لا إله إلا هو ، قال ابن جرير ، عن ابن عباس في قوله ﴿ تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخِر الجبال هداً ﴾ أن ادعوا للرحمن ولداً ﴿ قال : إن الشرك فرغت منه السماوات والأرض والجبال وجميع الخلائق إلا الثقلين ، وكادت تزول منه لعظمة الله ، وكما لا ينفع مع الشرك إحسان المشرك كذلك نرجو أن يغفر الله ذنوب الموحدين ، وقال رسول الله ﷺ : « لقنوا موتاكم شهادة أن لا إله إلا الله ، فمن قالها عند موته وجبت له الجنة » ، فقالوا : يا رسول الله فمن قالها في صحته ؟ قال : « تلك أوجب وأوجب » ، ثم قال : « والذي نفسي بيده لو جيء بالسموات والأرضين وما فيهن وما بينهن وما تحتهن فوضعن في كفة الميزان ووضعت شهادة أن لا إله إلا الله في الكفة الأخرى لرجحت بهن »^(٢) ، وقال

(١) رواه ابن أبي حاتم وابن جرير وزاد : عليها رحائل من ذهب وأزمها الزبرجد .

(٢) هكذا رواه ابن جرير ويشهد له حديث البطاقة والله أعلم .

الضحك ﴿ تكاد السموات يتفطرن منه ﴾ أي يتشققن فرقاً من عظمة الله . وقال عبدالرحمن بن زيد ﴿ وتنشق الأرض ﴾ أي غضباً له عز وجل ، ﴿ وتخر الجبال هداً ﴾ قال ابن عباس : هدماً ، وقال سعيد بن جبير : هداً ينكسر بعضها على بعض متتابعات . عن عون بن عبدالله : قال إن الجبل لينادي الجبل باسمه : يا فلان هل مر بك اليوم ذكر الله عز وجل ؟ فيقول : نعم ويستبشر ، قال عون : لهي للخير أسمع ، أفيسمعن الزور والباطل ، إذا قيل ولا يسمعن غيره ؟ ثم قرأ ﴿ تكاد السموات يتفطرن منه ﴾ (١) الآية وعن أبي موسى رضي الله عنه قال ، قال رسول الله ﷺ : « لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله أن يشرك به ويُجعل له ولد ، وهو يعافهم ويدفع عنهم ويرزقهم ، أخرجاه في الصحيحين . وفي لفظ : « إنهم يجعلون له ولداً وهو يرزقهم ويعافهم » . وقوله : ﴿ وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولداً ﴾ أي لا يصلح له ولا يليق به لجلاله وعظمته ، لأنه لا كف له من خلقه ، لأن جميع الخلائق عبيد له ، ولهذا قال : ﴿ إن كل من في السموات والأرض إلا آت الرحمن عبداً ﴾ لقد أحصاهم وعدهم عدداً أي قد علم عددهم ، منذ خلقهم إلى يوم القيامة ، ذكرهم وأنتاهم وصغيرهم وكبيرهم ، ﴿ وكلهم آتية يوم القيامة فرداً ﴾ أي لا ناصر ولا مجير إلا الله وحده لا شريك له ، فيحكم في خلقه بما يشاء ، هو العادل الذي لا يظلم مثقال ذرة ولا يظلم أحداً .

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾ فَإِنَّمَا يَسْرُنَهُ لِبَلْسَانِكَ لَتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا ﴿٩٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّن قَرْنٍ هَلْ يُحِشُّ مِنْهُمْ مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴿٩٨﴾

يخبر تعالى : أنه يغرس لعباده المؤمنين الذين يعملون الصالحات ، في قلوب عباده الصالحين محبة ومودة ، وقد وردت بذلك الأحاديث الصحيحة عن رسول الله ﷺ من غير وجه . فروى الإمام أحمد عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال : « إن الله إذا أحب عبداً دعا جبريل ، فقال : يا جبريل إني أحب فلاناً فأحبه - قال - فيحبه جبريل ، قال : ثم ينادي في أهل السماء إن الله يحب فلاناً فأحبه ، قال فيحبه أهل السماء ، ثم يوضع له القبول في الأرض ، وإن الله إذا أبغض عبداً دعا جبريل ، فقال : يا جبريل إني أبغض فلاناً فأبغضه ، قال فيبغضه جبريل ، ثم ينادي في أهل السماء ، إن الله يبغض فلاناً فأبغضوه ، قال ، فيبغضه أهل السماء ، ثم يوضع له البغضاء في الأرض » (٢) وعن ثوبان رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « إن العبد ليلتمس مرضاة الله عز وجل ، فلا يزال كذلك ، فيقول الله عز وجل لجبريل إن فلاناً عبدي يلتمس أن يرضيني ألا وإن رحمتي عليه ، فيقول جبريل : رحمة الله على فلان ، ويقولها حملة العرش ويقولها من حولهم ، حتى يقولها أهل السماوات السبع ، ثم يهبط إلى الأرض » (٣) وروى ابن أبي حاتم عن أبي هريرة رضي الله عنه ، أن النبي ﷺ قال : « إذا أحب الله عبداً نادى جبريل : إني قد أحببت فلاناً فأحبه فينادي في السماء ثم ينزل له المحبة في أهل الأرض ، فذلك قول الله عز وجل : ﴿ إن الذين

(١) أخرجه ابن أبي حاتم .

(٢) أخرجه البخاري ومسلم وأحمد ، واللفظ لأحمد .

(٣) أخرجه الإمام أحمد .

الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن وداً ﴿١٩﴾ ، وقال ابن عباس : ﴿ سيجعل لهم الرحمن وداً ﴾ قال : حباً ، وقال مجاهد عنه ﴿ سيجعل لهم الرحمن وداً ﴾ قال : محبة في الناس في الدنيا . وقال سعيد بن جبير : يحبهم ويحبهم يعني إلى خلقه المؤمنين ، وقال العوفي ، عن ابن عباس : الود من المسلمين في الدنيا ، والرزق الحسن واللسان الصادق ، وقال قتادة ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن وداً ﴾ إي والله في قلوب أهل الإيمان ، وذكر لنا أن هرم بن حيان كان يقول : ما أقبل عبد بقلبه إلى الله إلا أقبل الله بقلوب المؤمنين إليه ، حتى يرزقه مودتهم ورحمتهم ، وقال قتادة : وكان عثمان بن عفان رضي الله عنه يقول : ما من عبد يعمل خيراً أو شراً إلا كساه الله عز وجل رداء عمله .

وقوله تعالى : ﴿ فإنما يسرناه ﴾ يعني القرآن ﴿ بلسانك ﴾ : أي يا محمد وهو اللسان العربي المبين الفصيح الكامل ، ﴿ لتبشر به المتقين ﴾ أي المستجيبين لله المصدقين لرسوله ، ﴿ وتنذر به قوماً لداً ﴾ : أي عوجاً عن الحق مائلين إلى الباطل ، وقال مجاهد ﴿ قوماً لداً ﴾ لا يستقيمون ، وقال الثوري ، عن أبي صالح ﴿ وتنذر به قوماً لداً ﴾ : عوجاً عن الحق . وقال الضحّاك : الألد الخصم ، وقال القرظي : الألد الكذاب ، وقال الحسن البصري ﴿ قوماً لداً ﴾ صماً ، وقال غيره : صم آذان القلوب ، وقال ابن عباس ﴿ قوماً لداً ﴾ : فجاراً ، وكذا روي عن مجاهد ، وقال ابن زيد : الألد الظلوم ، وقرأ قوله تعالى : ﴿ وهو ألد الخصام ﴾ ، وقوله : ﴿ وكم أهلكنا قبلهم من قرن ﴾ : أي من أمة كفروا بآيات الله وكذبوا رسله ﴿ هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزاً ﴾ : أي هل ترى منهم أحداً أو تسمع لهم ركزاً . قال ابن عباس وأبو العالية وعكرمة : يعني صوتاً ، وقال الحسن وقتادة : هل ترى عيناً أو تسمع صوتاً ، والركز في أصل اللغة : هو الصوت الخفي ، قال الشاعر :

فتوجست ركز الأنيس فراعها عن ظهر غيب والأنيس سقامها

[آخر تفسير سورة مريم . والله الحمد والمنة]

سُورَةُ طهٍ مَكِّيَّةٌ
وَآيَاتُهَا خَمْسٌ وَثَلَاثُونَ وَمِائَةٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

طه ﴿١﴾ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴿٢﴾ إِلَّا تَذَكُّرَةً لِمَنْ يَخْشَى ﴿٣﴾ تَنْزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ
وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى ﴿٤﴾ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴿٥﴾ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ
الْأَثَرِ ﴿٦﴾ وَإِنْ تَجَهَّرَ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴿٨﴾

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة في أول سورة البقرة بما أغنى عن إعادته .

روي عن ابن عباس قال: ﴿طه﴾ يارجل، وهكذا روي عن مجاهد وعكرمة والضحاك، وأسند القاضي عياض في كتابه «الشفاء» عن الربيع بن أنس، قال: كان النبي ﷺ إذا صلى قام على رجل ورفع الأخرى، فأنزل الله تعالى: ﴿طه﴾ يعني طأ الأرض يا محمد^(١) ﴿﴾ ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى ﴿﴾ ثم قال: ولا يخفى ما في هذا من الإكرام وحسن المعاملة، وقوله: ﴿﴾ ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى ﴿﴾ قال الضحاك: لما أنزل الله القرآن على رسوله ﷺ قام به هو وأصحابه، فقال المشركون من قريش: ما أنزل هذا القرآن على محمد إلا ليشقى، فأنزل الله تعالى: ﴿طه﴾ ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى إلا تذكرة لمن يخشى ﴿﴾ فليس الأمر كما زعمه المبطلون، بل من آتاه العلم فقد أراد به خيراً كثيراً، كما ثبت في الصحيحين عن معاوية قال، قال رسول الله ﷺ: «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين». وما أحسن الحديث الذي رواه الحافظ الطبراني، عن ثعلبة بن الحكم، قال، قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى للعلماء إذا قعد على كرسيه لقضاء عباده، إني لم أجعل علمي وحكمتي فيكم إلا وأنا أريد أن أغفر لكم على ما كان منكم ولا أبالي»^(٢). وقال مجاهد في قوله ﴿﴾ ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى ﴿﴾ هي كقوله: ﴿﴾ فاقروا ما تيسر منه ﴿﴾ وكانوا يعلقون الحبال بصدورهم في الصلاة. وقال قتادة: لا والله ما جعله

(١) هذا التفسير غريب ولم ينكره ابن كثير رحمه الله ولم يثبت في أحاديث صحيحة عنه ﷺ أنه كان يقوم على رجل واحدة وإنما ثبت أنه كان يقوم من الليل حتى تفطرت قدماه، فتفسير (طه) بمعنى طأها مستبعد، والله أعلم .

(٢) قال ابن كثير: إسناده جيد، وثعلبة بن الحكم هو الليثي، نزل البصرة ثم تحول إلى الكوفة .

شقاء ولكن جعله رحمة ونوراً، ودليلاً إلى الجنة ﴿إلا تذكرة لمن يخشى﴾ أن الله أنزل كتابه وبعث رسوله رحمة رحم بها عباده ليتذكر ذاكر، ويتنفع رجل بما سمع من كتاب الله، وهو ذكر أنزل الله فيه حلاله وحرامه، وقوله: ﴿تنزيلاً ممن خلق الأرض والسماوات العلى﴾ أي هذا القرآن الذي جاءك يا محمد هو تنزيل من ربك، الذي خلق الأرض بانخفاضها وكثافتها، وخلق السماوات العلى في ارتفاعها ولطافتها، وقد جاء في الحديث الذي صححه الترمذي وغيره، أن سمك كل سماء مسيرة خمسمائة عام، وبعد ما بينها، والتي تليها مسيرة خمسمائة عام.

وقوله تعالى: ﴿الرحمن على العرش استوى﴾ المسلك الأسلم طريقة السلف، وهو إمرار ما جاء في ذلك من الكتاب والسنة من غير تكليف ولا تحريف، ولا تشبيه ولا تعطيل ولا تمثيل، وقوله: ﴿له ما في السموات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى﴾ أي الجميع ملكه وفي قبضته، وتحت تصرفه ومشيتته وإرادته وحكمه، وهو خالق ذلك ومالكه، وإله لا إله سواه، وقوله ﴿وما تحت الثرى﴾ قال محمد بن كعب: أي ما تحت الأرض السابعة، ﴿وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى﴾ أي أنزل هذا القرآن الذي خلق الأرض والسماوات العلى الذي يعلم السر وأخفى، كما قال تعالى: ﴿قل أنزله الذي يعلم السر في السموات والأرض، إنه كان غفوراً رحيماً﴾، قال ابن عباس ﴿يعلم السر وأخفى﴾ قال: السر ما أسر به آدم في نفسه، ﴿وأخفى﴾ ما أخفى على ابن آدم مما هو فاعله قبل أن يعلمه، فالله يعلم ذلك كله، فعلمه فيما مضى من ذلك، وما بقي علم واحد، وجميع الخلائق في ذلك عنده كنفس واحدة، وهو قوله: ﴿ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة﴾. وقال الضحاك ﴿يعلم السر وأخفى﴾ قال: السر ما تحدث به نفسك، وأخفى ما لم تحدث نفسك به بعد. وقال سعيد بن جبير: أنت تعلم ما تسر اليوم، ولا تعلم ما تسر غداً، والله يعلم ما تسر اليوم وما تسر غداً، وقال مجاهد ﴿وأخفى﴾ يعني الوسوسة، وقال أيضاً ﴿وأخفى﴾ أي ما هو عامله مما لم يحدث به نفسه، وقوله: ﴿الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى﴾: أي الذي أنزل عليك القرآن هو الله الذي لا إله إلا هو ذو الأسماء الحسنى، والصفات العلى، وقد تقدم بيان الأحاديث الواردة في الأسماء الحسنى في أواخر سورة الأعراف والله الحمد والمنة.

وَهَلْ أَتَىكَ حَدِيثُ مُوسَى ﴿١٠﴾ إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدٍ عَلَى النَّارِ هُدًى ﴿١١﴾

من ههنا شرع تبارك وتعالى في ذكر قصة موسى، وكيف كان ابتداء الوحي إليه، وتكليمه إياه، وذلك بعد ما قضى موسى الأجل الذي كان بينه وبين صهره في رعاية الغنم، وسار بأهله: قيل قاصداً بلاد مصر بعد ما طالت الغيبة عنها أكثر من عشر سنين، ومعه زوجته، فأضل الطريق وكانت ليلة شاتية، ونزل منزلاً بين شعاب وجبال في برد وشتاء، وسحاب وظلام وضباب، وجعل يقده بزند معه ليوري نارا كما جرت له العادة به، فجعل لا يقده شيئاً ولا يخرج منه شر ولا شيء، فبينما هو كذلك إذ آنس من جانب الطور نارا، أي ظهرت له نار من جانب الجبل الذي هناك عن يمينه، فقال لأهله يبشرهم ﴿إني آنست نارا لعلي آتيكم منها بقبس﴾ أي شهاب من نار، وفي الآية الأخرى ﴿أو جذوة من النار﴾ وهي الجمر الذي معه لعلكم تصطلون ﴿دل على وجود البرد، وقوله: ﴿بقبس﴾ دل على وجود الظلام، وقوله: ﴿أو أوجد على النار هدى﴾ أي من يهديني الطريق، دل على أنه قد

تاه عن الطريق كما قال ابن عباس في قوله ﴿أو أجد على النار هدى﴾ قال : من يهديني إلى الطريق وكانوا شاتين وصلوا الطريق ، فلما رأى النار ، قال : إن لم أجد أحداً يهديني إلى الطريق أتيتكم بنار توقنون بها .

فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَمُوسَى ﴿١١﴾ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا آخَرْتِكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى ﴿١٣﴾ إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴿١٤﴾ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾

يقول تعالى ﴿ فلما أتاهها ﴾ أي النار واقترب منها ﴿ نودي يا موسى ﴾ ، وفي الآية الأخرى : ﴿ نودي من شاطئ الوادي الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة أن يا موسى إني أنا الله ﴾ ، وقال ههنا : ﴿ إني أنا ربك ﴾ أي الذي يكلمك ويخاطبك ﴿ فاخلع نعليك ﴾ قيل : كانتا من جلد حمار غير ذكي^(١) ، وقيل : إنما أمره بخلع نعليه تعظيماً للبقعة ، قال سعيد بن جبير : كما يؤمر الرجل أن يخلع نعليه إذا أراد أن يدخل الكعبة ، وقيل ليطأ الأرض المقدسة بقدميه حافياً غير منتعل ، وقيل غير ذلك ، و الله أعلم . وقوله ﴿ طوى ﴾ قال ابن عباس : هو اسم للوادي ، وكذا قال غير واحد ، وقيل : عبارة عن الأمر بالوطء بقدميه ، والأول أصح كقوله ﴿ إذ ناداه ربه بالوادي المقدس طوى ﴾ ، وقوله : ﴿ وأنا اخترتك ﴾ ، كقوله : ﴿ إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي ﴾ أي على جميع الناس من الموجودين في زمانه ، وقد قيل : إن الله تعالى قال : يا موسى أتدري لم اختصصتك بالتكليم من بين الناس ؟ قال : لا ، قال : لأنني لم يتواضع إلي أحد تواضعك ، وقوله ﴿ فاستمع لما يوحى ﴾ أي واستمع الآن ما أقول لك ، وأوحيه إليك ﴿ إني أنا الله لا إله إلا أنا ﴾ ، هذا أول واجب على المكلفين أن يعلموا أنه لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وقوله ﴿ فاعبدي ﴾ أي وحدني وطمع بعبادتي من غير شريك ، ﴿ وأقم الصلاة لذكري ﴾ قيل معناه : صلّ لتذكرني ، وقيل معناه : وأقم الصلاة عند ذكرك لي ، ويشهد لهذا الثاني ما روي عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إذا رقد أحدكم عن الصلاة أو غفل عنها فليصلها إذا ذكرها فإن الله تعالى قد قال : وأقم الصلاة لذكري »^(٢) . وفي الصحيحين عن أنس قال ، قال رسول الله ﷺ : « من نام عن صلاة أو نسيها فكفارتها أن يصلها إذا ذكرها ، لا كفارة لها إلا ذلك »^(٣)

وقوله تعالى : ﴿ إن الساعة آتية ﴾ : أي قائمة لا محالة وكائنه لا بد منها . وقوله ﴿ أكاد أخفيها ﴾ قال ابن عباس : أي لا أطلع عليها أحداً غيري ، وقال السدي : ليس أحد من أهل السماوات والأرض إلا قد أخفى الله تعالى عنه علم الساعة ، وهي في قراءة ابن مسعود : إني أكاد أخفيها من نفسي ، يقول : كتمتها من الخلائق ، حتى لو استطعت أن أكتمها من نفسي لفعلت . قال قتادة : لقد أخفاها الله من الملائكة المقربين ومن الأنبياء والمرسلين ، قلت وهذا كقوله تعالى : ﴿ قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله ﴾ ، وقال : ﴿ ثقلت في السموات والأرض

(١) قاله علي بن أبي طالب وغير واحد من السلف .

(٢) أخرجه الشيخان عن أنس أيضاً .

(٣) أخرجه الإمام أحمد عن أنس بن مالك .

لا تأتيكم إلا بغتة ﴿ أي ثقل علمها على أهل السماوات والأرض. وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ لتجزى كل نفس بما تسعى ﴾ أي أقيمتها لا محالة؛ لأجزى كل عامل بعمله ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴾، ﴿ وإنما تجزون ما كنتم تعملون ﴾، وقوله: ﴿ فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها ﴾ الآية. المراد بهذا الخطاب آحاد المكلفين، أي لا تتبعوا سبيل من كذب بالساعة، وأقبل على ملاذته في دنياه وعصى مولاه، واتبع هواه، فمن وافقهم على ذلك فقد خاب وخسر ﴿ فردى ﴾: أي تهلك وتعطب، قال الله تعالى: ﴿ وما يغني عنه ماله إذا تردى ﴾.

وَمَا تِلْكَ يَمِينِكَ يَا مُوسَى ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقَاهَا يَا مُوسَى ﴿١٩﴾ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَحْفَظْ سُنْعِيدَهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى ﴿٢١﴾

هذا برهان من الله تعالى لموسى عليه السلام، ومعجزة عظيمة وخرق للعادة باهر دال على أنه لا يقدر على مثل هذا إلا الله عز وجل، وأنه لا يأتي به إلا نبي مرسل، وقوله ﴿ وما تلك يمينك يا موسى ﴾ قال بعض المفسرين إنما قال له ذلك على سبيل الإيناس له؛ وقيل وإنما قال له ذلك على وجه التقرير، أي أما هذه التي في يمينك عصاك التي تعرفها؟ فسترى ما نصنع بها الآن، ﴿ وما تلك يمينك يا موسى ﴾؟ استفهام تقرير، ﴿ قال هي عصاي أتوكأ عليها ﴾ أي اعتمد عليها، في حال المشي، ﴿ وأهش بها على غنمي ﴾ أي أهز بها الشجرة ليتساقط ورقها لترعاه غنمي، قال الإمام مالك: الهش أن يضع الرجل المحجن في الغصن ثم يحركه حتى يسقط ورقه وثمره ولا يكسر العود، فهذا الهش ولا يخط، وقوله: ﴿ ولي فيها مآرب أخرى ﴾ أي مصالح ومنافع وحاجات أخر غير ذلك.

وقوله تعالى: ﴿ ألقها يا موسى ﴾ أي هذه العصا التي في يدك يا موسى ألقها، ﴿ فألقها فإذا هي حية تسعى ﴾ أي صارت في الحال حية عظيمة، ثعباناً طويلاً يتحرك حركة سريعة، فإذا هي تهتز كأنها جان، وهو أسرع الحيات حركة، ولكنه صغير، فهذه في غاية الكبر، وفي غاية سرعة الحركة، ﴿ تسعى ﴾ أي تمشي وتضطرب. عن ابن عباس ﴿ فألقها فإذا هي حية تسعى ﴾، ولم تكن قبل ذلك حية، فمرت بشجرة فأكلتها، ومرت بصخرة فابتلعها، فجعل موسى يسمع وقع الصخرة في جوفها، فولى مديراً، ونودي أن يا موسى خذها، ثم نودي الثانية أن خذها ولا تحفظ، فقيل له في الثالثة إنك من الآمنين، فأخذها. وقال وهب بن منبه: ألقها على وجه الأرض، ثم حانت منه نظرة فإذا بأعظم ثعبان نظر إليه الناظرون، يدب يلتمس كأنه يبغى شيئاً يريد أخذه، يمر بالصخرة فيلتقمها، ويطعن بالناب من أنيابه في أصل الشجرة العظيمة فيجتثها، عيناه تتقدان ناراً، وقد عاد المحجن منها عرفاً، فلما عاين ذلك موسى ولى مديراً ولم يعقب، فذهب حتى أمعن، ورأى أنه قد أعجز الحية، ثم ذكر ربه فوقف استحياء منه، ثم نودي يا موسى أن ارجع حيث كنت، فرجع موسى وهو شديد الخوف، فقال ﴿ خذها ﴾ يمينك ﴿ ولا تحفظ سنعيدها، سيرتها الأولى ﴾، وعلى موسى حينئذ مدرعة من صوف، فدخلها بخلال من عيدان، فلما أمره بأخذها لف طرف المدرعة على يده، ثم وضعها على فم الحية حتى سمع حس الأضراس والأنياب، ثم قبض

فإذا هي عصاه التي عهدا وإذا يده في موضعها الذي كان يضعها، إذا توكأ بين الشعبين ولهذا قال تعالى ﴿سنعيدها سيرتها الأولى﴾ أي إلى حالها التي تعرف قبل ذلك .

وَأَضْمَمُ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ؕ آيَةٌ أُخْرَى ﴿٢٢﴾ لِنُرِيكَ مِنْ ءَايَاتِنَا الْكُبْرَى ﴿٢٣﴾
 أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَأَحْلِلْ عُقْدَةَ مِنِّ
 لِسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴿٢٨﴾ وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ أَشَدُّ بِهِ أَزْرَى ﴿٣١﴾
 وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي ﴿٣٢﴾ كَى نُسِخَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذَرَكُكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾

وهذا برهان ثان لموسى عليه السلام، وهو أن الله أمره أن يدخل يده في جيبه، كما صرح به في الآية الأخرى .
 وههنا عبر عن ذلك بقوله: ﴿واضمم يدك إلى جناحك﴾، وقال في مكان آخر: ﴿واضمم إليك جناحك من الرهب فدانك برهانان من ربك إلى فرعون وملته﴾، وقال مجاهد: ﴿واضمم يدك إلى جناحك﴾ : كفك تحت عضدك؛ وذلك أن موسى عليه السلام كان إذا أدخل يده في جيبه ثم أخرجها، تخرج تتلألاً كأنها فلقة قمر، وقوله ﴿تخرج بيضاء من غير سوء﴾ أي من غير برص ولا أذى، ومن غير شين^(١)، وقال الحسن البصري: أخرجها والله كأنها مصباح، فعلم موسى أنه قد لقي ربه عز وجل، ولهذا قال تعالى: ﴿لنريك من آياتنا الكبرى﴾، وقال وهب، قال له ربه: أدنه، فلم يزل يدينه حتى أسند ظهره بجذع الشجرة فاستقر، وذهبت عنه الرعدة، وجمع يده في العصا وخضع برأسه وعنقه. وقوله ﴿اذهب إلى فرعون إنه طغى﴾: أي اذهب إلى فرعون ملك مصر، الذي خرجت فاراً منه وهارباً، فادعه إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ومره فليحسن إلى بني إسرائيل ولا يعذبهم، فإنه قد طغى وبغى وآثر الحياة الدنيا ونسي الرب الأعلى. قال وهب بن منبه: قال الله لموسى: انطلق برسالتى فإنك بسمعي وعيني، وقد ألبستك جنة من سلطاني لتستكمل بها القوة في أمري، فأنت جند عظيم من جندي، بعثتك إلى خلق ضعيف من خلقي، بطر نعمتي وأمن مكري، وغرته الدنيا عني، حتى جحد حقي وأنكر ربوبيتي، وزعم أنه لا يعرفني فأني أقسم بعزتي لولا القدر الذي وضعت بيني وبين خلقي، لبطشت به بطشة جبار، يغضب لغضبه السماوات والأرض والجبال والبحار، فإن أمرت السماء حصبته، وإن أمرت الأرض ابتلعته، وإن أمرت الجبال دمرته، وإن أمرت البحار غرقته، ولكنه هان عليّ وسقط من عيني، ووسع حلمي واستغنيت بما عندي وحقي، إني أنا الغني لا غني غيري، فبلغه رسالتي، وادعه إلى عبادتي وتوحيدي وإخلاصي، وذكره أيامي، وحذره من تقمّي وبأسي، وقل له فيما بين ذلك قولاً ليناً لعله يتذكر أو يخشى، وأخبره أني إلى العفو والمغفرة أسرع مني إلى الغضب والعقوبة، ولا يروعنك ما ألبسته من لباس الدنيا، فإن ناصيته بيدي، أفيظن الذي يحاربني أن يقوم لي، أم يظن الذي يعاديني أن يعجزني، أم يظن الذي يبارزني أن يسبقني أو يفوتني^(٢) .

(١) قاله ابن عباس ومجاهد وعكرمة وقتادة والضحاك وغيرهم .

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم من كلام وهب بن منبه، وهو طويل اقتصرنا على بعضه .

﴿ قال رب اشرح لي صدري ويسر لي أمري ﴾ هذا سؤال من موسى عليه السلام لربه عز وجل، أن يشرح له صدره فيما بعثه به، فإنه قد أمره بأمر عظيم، وخطب جسيم، بعثه إلى أعظم ملك على وجه الأرض إذ ذاك، وأجبرهم وأشدهم كفراً وأكثرهم جنوداً، وأبلغهم تمرداً، هذا وقد مكث موسى في داره مدة وليداً عندهم في حجر فرعون على فراشه، ثم قتل منهم نفساً فخافهم أن يقتلوه فهرب منهم، هذه المدة بكاملها، ثم بعد هذا بعثه ربه عز وجل إليهم نذيراً يدعوهم إلى الله عز وجل أن يعبدوه وحده لا شريك له، ولهذا قال: ﴿ رب اشرح لي صدري ويسر لي أمري ﴾ أي إن لم تكن أنت عوني ونصيري وعضدي وظهيري وإلا فلا طاقة لي بذلك ﴿ واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي ﴾. وما سأل أن يزول ذلك بالكلية، بل بحيث يزول العي ويحصل لهم فهم ما يريد منه، وهو قدر الحاجة، ولو سأل الجميع لزال ولكن الأنبياء لا يسألون إلا بحسب الحاجة، ولهذا بقيت. قال الله تعالى إخباراً عن فرعون أنه قال ﴿ أم أنا خير من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يبين ﴾ أي يفصح بالكلام، وقال الحسن البصري ﴿ واحلل عقدة من لساني ﴾ قال: حل عقدة واحدة، ولو سأل أكثر من ذلك أعطي، وقال ابن عباس: شكا موسى إلى ربه ما يتخوف من آل فرعون في القتل، وعقدة لسانه فإنه كان في لسانه عقدة تمنعه من كثير من الكلام، وسأل ربه أن يعينه بأخيه هارون، يكون له ردهاً ويتكلم عنه بكثير مما يفصح به لسانه، فأتاه سؤله، فحل عقدة من لسانه.

وقوله تعالى: ﴿ واجعل لي وزيراً من أهلي هارون أخي ﴾، وهذا أيضاً سؤال من موسى عليه السلام في أمر خارجي عنه، وهو مساعدة أخيه هارون له، قال ابن عباس: نبى هارون ساعته وحين نبى موسى عليهما السلام. روي عن عائشة أنها خرجت فيما كانت تعتمر، فزلت ببعض الأعراب فسمعت رجلاً يقول: أي أخ كان في الدنيا أنفع لأخيه؟ قالوا: لا ندري، قال أنا والله أدري! قالت، فقلت في نفسي في حلفه لا يستثني، إنه ليعلم أي أخ كان في الدنيا أنفع لأخيه، قال: (موسى) حين سأل لأخيه النبوة، فقلت: صدق والله^(١). وقوله ﴿ اشدد به أذري ﴾ قال مجاهد: ظهري، ﴿ وأشركه في أمري ﴾ أي في مشاورتي، ﴿ كي نسبحك كثيراً ونذكرك كثيراً ﴾ قال مجاهد: لا يكون العبد من الذاكرين الله كثيراً حتى يذكر الله قائماً وقاعداً ومضطجعاً، وقوله: ﴿ إنك كنت بنا بصيراً ﴾ أي في اصطفاك لنا وإعطائك إيانا النبوة وبعثك لنا إلى عدوك فرعون، فلك الحمد على ذلك.

قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مَا يُوحَى ﴿٣٨﴾
 أَنْ أَقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَآقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوِّي وَعَدُوُّهُ، وَالْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةٌ
 مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي ﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ، فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ
 كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا

هذه إجابة من الله لرسوله موسى عليه السلام، فيما سأل من ربه عز وجل، وتذكير له بنعمه السالفة عليه، فيما

(١) أخرجه ابن أبي حاتم.

كان من أمر أمه، حين كانت ترضعه وتحذر عليه، من فرعون وملكه أن يقتلوه، حيث كانوا يقتلون الغلمان من بني إسرائيل حذراً من وجود موسى، فحكّم الله - وله السلطان العظيم والقدرة التامة - أن لا يربى إلا على فراش فرعون، ويغذى بطعامه وشرابه، مع محبته وزوجته له، ولهذا قال تعالى ﴿يأخذه عدو لي وعدو له﴾ وألقيت عليك محبة مني ﴿أي عدوك جعلته يحبك، قال سلمة بن كهبل﴾ وألقيت عليك محبة مني ﴿قال: حبيبتك إلى عبادي، ولتصنع على عيني﴾: تربي بعين الله، وقال قتادة: تغذى على عيني، وقال ابن أسلم: يعني أجعله في بيت الملك ينعم ويترف، وغداؤه عندهم غذاء الملك، فتلك الصنعة. وقوله: ﴿إذ تمشي أحتك فتقول هل أدلكم على من يكفله فرجعناك إلى أمك كي تقر عينها﴾، وذلك أنه لما استقر عند آل فرعون، وعرضوا عليه المراضع فأبأها، قال الله تعالى: ﴿وحرمنا عليه المراضع من قبل﴾، فجاءت أخته، وقالت: ﴿هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون﴾ تعني هل أدلكم على من يرضعه لكم بالأجرة، فذهبت به وهم معها إلى أمه، فعرضت عليه ثديها فقبله، ففرحوا بذلك فرحاً شديداً، واستأجروها على إرضاعه، فناها بسببه سعادة ورفعة وراحة في الدنيا، وفي الآخرة أعظم وأجزل، ولهذا جاء في الحديث: «مثل الصانع الذي يحتسب في صنعته الخير، كمثل أم موسى ترضع ولدها وتأخذ أجرها»، وقال تعالى ههنا: ﴿فرجعناك إلى أمك كي تقر عينها ولا تحزن﴾ أي عليك، ﴿وقلت نفساً﴾ يعني القبطي ﴿فنجيناك من الغم﴾ وهو ما حصل له بسبب عزم آل فرعون على قتله، ففر منهم هارباً حتى ورد ماء مدين، وقوله: ﴿وفتناك فتونا﴾.

(حديث الفتون) : روى الإمام أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي في سننه، عن سعيد بن جبير، قال: سألت عبد الله بن عباس عن قول الله عز وجل لموسى عليه السلام: ﴿وفتناك فتونا﴾، فسألته عن الفتون ما هو؟ فقال: استأنف النهار يا أبا جبير، فإن لها حديثاً طويلاً، فلما أصبحت غلوت إلى ابن عباس لأنتجز منه ما وعدني من حديث الفتون، فقال: تذاكر فرعون وجلساؤه ما كان الله وعد إبراهيم عليه السلام أن يجعل في ذريته أبناء وملوكاً، فقال بعضهم: إن بني إسرائيل ينتظرون ذلك لا يشكون فيه، وكانوا يظنون أنه يوسف بن يعقوب، فلما هلك قالوا: ليس هكذا كان وعد إبراهيم عليه السلام، فقال فرعون: كيف ترون؟ فائتمروا وأجمعوا أمرهم على أن يبعث رجالاً معهم الشفار يطوفون في بني إسرائيل، فلا يجدون مولوداً ذكراً إلا ذبحوه، ففعلوا ذلك، فلما رأوا أن الكبار من بني إسرائيل يموتون بأجلهم، والصغار يذبحون، قالوا: ليوشكن أن تفنوا بني إسرائيل، فتصيروا إلى أن تباشروا من الأعمال والخدمة التي يكفونكم، فاقتلوا عاماً كل مولود ذكر واتركوا بناتهم، ودعوا عاماً فلا تقتلوا منهم أحداً، فيشب الصغار مكان من يموت من الكبار، فإنهم لن يكثرُوا بمن تستحيون منهم، فتخافوا مكائرتهم إياكم، ولم يفنوا بمن تقتلون، وتحتاجون إليهم، فأجمعوا أمرهم على ذلك، فحملت أم موسى بهارون في العام الذي لا يذبح فيه الغلمان، فولدته علانية آمنة، فلما كان من قابل حملت بموسى عليه السلام فوق في قلبها الهم والحزن، وذلك من الفتون يا ابن جبير، ما دخل عليه وهو في بطن أمه مما يراد به.

فأوحى الله إليها أن لا تخافي ولا تحزني إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين، فأمرها إذا ولدت أن تجعله في تابوت ثم تلقيه في اليم، فلما ولدت فعلت ذلك، فلما توارى عنها ابنها أتاها الشيطان، فقالت في نفسها: ما فعلت

بابني لو ذبح عندي فواريته وكفنته كان أحب إليّ من أن ألقيه إلى دواب البحر وحيثانه، فانتهى الماء به حتى أوفى به عند مرفعة مستقى جوارى امرأة فرعون، فلما رأينه أخذته فأردن أن يفتحن التابوت، فقال بعضهم إن في هذا مالا، وإنا إن فتحناه لم تصدقنا امرأة الملك بما وجدنا فيه، فحملنه كهيشته لم يخرج منه شيئا، حتى دفعنه إليها، فلما فتحت رأت فيه غلاما، فألقى الله عليه منها محبة لم يلق منها على أحد قط، وأصبح فؤاد أم موسى فارغا من ذكر كل شيء إلا من ذكر موسى، فلما سمع الذباحون بأمره أقبلوا بشفارهم إلى امرأة فرعون ليذبحوه، وذلك من الفتون يا ابن جبير. فقالت لهم: أقرّوه، فإن هذا الواحد لا يزيد في بني إسرائيل، حتى آتى فرعون فأستوهبه منه، فإن وهبه لي كنتم قد أحسنتم وأجملتم، وإن أمر بذيحه لم ألكم، فأتت فرعون فقالت: قرّة عين لي ولك، فقال فرعون: يكون لك فأما لي فلا حاجة لي فيه، فقال رسول الله ﷺ: «والذي يُحلف به لو أقر فرعون أن يكون قرّة عين له كما أقرت امرأته لهداه الله كما هداها، ولكن حرمه ذلك». فأرسلت إلى من حولها إلى كل امرأة لها، لأن تختار له ظئرا، فجعل كلما أخذته امرأة منهن لترضعه لم يقبل على ثديها حتى أشفقت امرأة فرعون أن يمتنع من اللبن فيموت، فأحزنها ذلك فأمرت به فأخرج إلى السوق ومجمع الناس، ترجو أن تجد له ظئرا تأخذه منها، فلم يقبل، وأصبحت أم موسى والهأ فقالت لأختها: قصي أثره واطلبيه، هل تسمعين له ذكرا، حي ابني أم قد أكلته الدواب؟ ونسيت ما كان الله وعدّها فيه، فبصرت به أختها عن جنب وهم لا يشعرون، والجنب أن يسمو بصر الإنسان إلى شيء بعيد، وهو إلى جنبه، وهو لا يشعر به، فقالت من الفرح حين أعياهم الظؤرات: أنا أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون، فأخذوها فقالوا: ما يدريك ما نصحهم له، هل تعرفينه؟ حتى شكوا في ذلك، وذلك من الفتون يا ابن جبير.

فقالت: نصحهم له وشفقتهم عليه رغبتهم في صهر الملك، ورجاء منفعة الملك، فتركوها فانطلقت إلى أمها فأخبرتها الخبر، فجاءت أمه، فلما وضعته في حجرها نزا إلى ثديها، فمصه حتى امتلأ جنباه ريا، وانطلق البشير إلى امرأة فرعون يبشرونها أن قد وجدنا لابنك ظئرا، فأرسلت إليها فأنت بها وبه. فلما رأت ما يصنع بها، قالت: امكثي ترضعي ابني هذا، فإني لم أحب شيئا حبه قط، قالت أم موسى: لا أستطيع أن أدع بيتي وولدي فيضيع، فإن طابت نفسك أن تعطينيه فأذهب به إلى بيتي فيكون معي لا آله خيرا، فإني غير تاركة بيتي وولدي، وذكرت أم موسى ما كان الله وعدّها فيه، فتعاسرت على امرأة فرعون، وأيقنت أن الله منجز وعده، فرجعت به إلى بيتها من يومها، وأنبته الله نباتا حسنا، وحفظه لما قد قضى فيه. فلم يزل بنو إسرائيل، وهم في ناحية القرية ممتنعين من السخرة والظلم ما كان فيهم.

فلما ترعرع قالت امرأة فرعون لأم موسى: أزريني ابني، فوعدتها يوما تزيرها إياه فيه، وقالت امرأة فرعون لجزانها وظؤها وقهارمتها: لا يبقين أحد منكم إلا استقبل ابني اليوم بهدية وكرامة، لأرى ذلك، وأنا باعثة أمينا يحصي ما يصنع كل إنسان منكم، فلم تزل الهدايا والكرامة والنحل تستقبله من حين خرج من بيت أمه إلى أن دخل على امرأة فرعون، فلما دخل عليها بجلته وأكرمه وفرحت به، ونحلت أمه لحسن أثرها عليه، ثم قالت: لآتين به فرعون فلينحلنه وليكرمه، فلما دخلت به عليه جعله في حجره، فتناول موسى لحية فرعون فمدها إلى الأرض، فقال الغواة من أعداء الله لفرعون: ألا ترى ما وعد الله إبراهيم نبيه أنه زعم أن يرثك ويعلوك ويصرعك، فأرسل إلى

الذباحين ليذبحوه، وذلك من الفتون يا ابن جبير . بعد كل بلاء ابتلي به، وأريد به فتوناً، فجاءت امرأة فرعون فقالت: ما بدا لك في هذا الغلام الذي وهبته لي؟ فقال: ألا ترى أنه يصرعني ويعلوني، فقالت: اجعل بيني وبينك أمراً يعرف الحق به، اثت بجمرتين ولؤلؤتين، فقدمهن إليه، فإن بطش باللؤلؤتين واجتنب الجمرتين عرفت أنه يعقل، وإن تناول الجمرتين ولم يرد اللؤلؤتين علمت أن أحداً لا يؤثر الجمرتين على اللؤلؤتين، وهو يعقل، فقرب إليه الجمرتين واللؤلؤتين فتناول الجمرتين، فاتترعهما منه مخافة أن يحرقا يده، فقالت المرأة: ألا ترى؟ فصرفه الله عنه بعد ما كان قد هم به، وكان الله بالغاً فيه أمره .

فلما بلغ أشده، وكان من الرجال، لم يكن أحد من آل فرعون يخلص إلى أحد من بني إسرائيل معه بظلم ولا سخرة حتى امتنعوا كل الامتناع، فبينما موسى عليه السلام يمشي في ناحية المدينة إذا هو برجلين يقتتلان، أحدهما فرعوني والآخر إسرائيلي، فاستغاثه الإسرائيلي على الفرعوني فغضب موسى غضباً شديداً لأنه تناوله، وهو يعلم منزلته من بني إسرائيل وحفظه لهم، لا يعلم الناس إلا إنما ذلك من الرضاع، إلا أم موسى، إلا أن يكون الله أطلع موسى من ذلك على ما لم يطلع عليه غيره، فوكر موسى الفرعوني فقتله، وليس يراها أحد إلا الله عز وجل وإسرائيلي، فقال موسى حين قتل الرجل: هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين، ثم قال: ﴿رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي فغفر له إنه هو الغفور الرحيم﴾، فأصبح في المدينة خائفاً يترقب الأخبار، فأتى فرعون، فقيل له: إن بني إسرائيل قتلوا رجلاً من آل فرعون فخذ لنا بحقنا ولا ترخص لهم، فقال: ابغوني قاتله ومن يشهد عليه، فإن الملك وإن كان صفوة مع قومه لا يستقيم له أن يقيد بغير بينة ولا ثبت، فاطلبوا لي علم ذلك آخذ لكم بحقكم، فبينما هم يطوفون لا يجدون ثبناً إذا بموسى من الغد قد رأى ذلك الإسرائيلي يقاتل رجلاً من آل فرعون آخر، فاستغاثه الإسرائيلي على الفرعوني فصادف موسى قد ندم على ما كان منه، وكره الذي رأى، فغضب الإسرائيلي وهو يريد أن يبطش بالفرعوني، فقال للإسرائيلي لما فعل بالأمس واليوم إنك لغوي مبين، فنظر الإسرائيلي إلى موسى بعد ما قال له ما قال، فإذا هو غضبان كغضبه بالأمس الذي قتل فيه الفرعوني، فخاف أن يكون بعد ما قال له إنك لغوي مبين، أن يكون إياه أراد ولم يكن أراده إنما أراد الفرعوني، فخاف الإسرائيلي وقال: يا موسى أتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس، وإنما قاله مخافة أن يكون إياه أراد موسى ليقته فتتاركا، وانطلق الفرعوني فأخبرهم بما سمع من الإسرائيلي من الخبر، حين يقول: يا موسى أتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس. فأرسل فرعون الذباحين ليقتلوا موسى، فأخذ رسل فرعون في الطريق الأعظم يمشون على هيتهم، يطلبون موسى وهم لا يخافون أن يفوتهم، فجاء رجل من شيعة موسى من أقصى المدينة، فاختر طريقاً حتى سبقهم إلى موسى فأخبره، وذلك من الفتون يا ابن جبير .

فخرج موسى متوجهاً نحو مدين لم يلق بلاء قبل ذلك، وليس له بالطريق علم إلا حسن ظنه بربه عز وجل، فإنه قال: ﴿عسى ربي أن يهديني سواء السبيل﴾ ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ووجد من دونهم امرأتين تنودان ﴿يعني بذلك حابستين غنمهما، فقال لهما: ما خطبكما معترلتين لا تسقيان مع الناس؟ قالتا: ليس لنا قوة نزاحم القوم، وإنما نسقي من فضول حياضهم، فسقى لهما، فجعل يغترف في الدلو ماء كثيراً حتى كان أول الرعاء، فانصرفنا بغنمهما إلى أبيهما وانصرف موسى عليه السلام فاستظل بشجرة، وقال: ﴿رب إني لما أنزلت

إليّ من خير فقير ﴿﴾، واستنكر أبوهما سرعة صدورهما، بغنمهما حفلاً بطاناً، فقال: إن لكما اليوم لشأنًا، فأخبرناه بما صنع موسى، فأمر إحداهما أن تدعوه، فأنت موسى فدعته، فلما كلمه، قال: لا تخف نجوت من القوم الظالمين، ليس لفرعون ولا لقومه علينا سلطان، ولسنا في مملكته، فقالت إحداهما: ﴿﴾ يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوي الأمين ﴿﴾ فاحتملته الغيرة على أن قال لها: ما يدريك ما قوته، وما أمانته؟ فقالت: أما قوته فما رأيت منه في الدلو حين سقى لنا، لم أر رجلاً قط أقوى في ذلك السقي منه، وأما الأمانة فإنه نظر إليّ حين أقبلت إليه وشخصت له، فلما علم أنني امرأة صوّب رأسه فلم يرفعه حتى بلغته رسالتك، ثم قال لي: امشي خلفي وانعتي لي الطريق، فلم يفعل هذا إلا وهو أمين، فسري عن أبيها وصدقها وظن به الذي قالت، فقال له: هل لك أن أنكحك إحدى ابنتي هاتين على أن تأجرني ثمانئ حجاج، فإن أتممت عشراً فمن عندك، وما أريد أن أشق عليك ستجدني إن شاء الله من الصالحين، ففعل، فكانت على نبي الله موسى ثمان سنين واجبة، وكانت ستان عدة فقضى الله عنه عدته فأتمها عشراً. قال سعيد بن جبير: فلقيني رجل من أهل النصرانية من علمائهم، قال: هل تدري أي الأجلين قضى موسى؟ قلت: لا، وأنا يومئذ لا أدري، فلقيت ابن عباس فذكرت له ذلك، فقال: أما علمت أن ثمانياً كانت على نبي الله واجبة لم يكن نبي الله لينقص منها شيئاً، ويعلم أن الله كان قاضياً عن موسى عدته التي كان وعده، فإنه قضى عشر سنين، فلقيت النصراني فأخبرته ذلك، فقال: الذي سألته فأخبرك أعلم منك بذلك، قلت: أجل وأولى.

فلما سار موسى بأهله كان من أمر النار والعصا ويده ما قص الله عليك في القرآن، فشكا إلى الله تعالى ما يحذر من آل فرعون في القتل، وعقدة لسانه، فإنه كان في لسانه عقدة تمنعه من كثير من الكلام، وسأل ربه أن يعينه بأخيه هارون يكون له رداءً يتكلم عنه بكثير مما لا يفصح به لسانه، فأثاه الله سؤاله وحل عقدة من لسانه، وأوحى الله إلى هارون وأمره أن يلقاه، فاندفع موسى بعصاه حتى لقي هارون عليه السلام، فانطلقا جميعاً إلى فرعون فأقاما على بابه حيناً لا يؤذن لهما، ثم أذن لهما بعد حجاب شديد، فقالا: ﴿﴾ إنا رسولا ربك ﴿﴾، قال: فمن ربكما؟ فأخبراه بالذي قص الله عليك في القرآن، قال: فما تريدان؟ وذكره القتل فاعتذر بما قد سمعت، قال: أريد أن تؤمن بالله وترسل معنا بني إسرائيل. فأبى عليه، فقال: ائت بآية إن كنت من الصادقين، فألقى عصاه فإذا هي حية تسعى عظيمة فاغرة فاها مسرعة إلى فرعون، فلما رآها فرعون قاصدة إليه خافها فاقترح عن سريره، واستغاث بموسى أن يكفها عنه، ففعل، ثم أخرج يده من جيبه فرآها بيضاء من غير سوء، يعني من غير برص، ثم ردها فعادت إلى لونها الأول، فاستشار الملائكة حولها فيما رأى، فقالوا له: هذان ساحران يريدان أن يخرجاك من أرضكم بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المثلى، يعني ملكهم الذي هم فيه والعيش، وأبوا على موسى أن يعطوه شيئاً مما طلب، وقالوا له: اجمع لهما السحرة، فإنهم بأرضك كثير حتى تغلب بسحرك سحرهما، فأرسل إلى المدائن فحشر له كل ساحر متعالم، فلما أتوا فرعون قالوا: بم يعمل هذا الساحر؟ قالوا: يعمل بالحيات، قالوا: فلا والله ما أحد في الأرض يعمل بالسحر بالحيات والحبال والعصي الذي نعمل فما أجرنا إن نحن غلبناه؟ قال لهم: أتم أقاربي وخاصتي وأنا صانع إليكم كل شيء أحببتم، فتواعدوا يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى.

قال سعيد بن جبير: فحدثني ابن عباس: أن يوم الزينة اليوم الذي أظهر الله فيه موسى على فرعون والسحرة

هو يوم عاشوراء . فلما اجتمعوا في صعيد واحد، قال الناس بعضهم لبعض: انطلقوا فلنحضر هذا الأمر ﴿لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين﴾ يعنون موسى وهارون، استهزاء بهما ﴿فقالوا يا موسى إما أن تلقى وإما أن نكون نحن الملقين﴾ قال بل ألقوا، فألقوا حبالهم وعصيهم وقالوا بغزة فرعون إنا لنحن الغالبون ﴿﴾، فرأى موسى من سحرهم ما أوجس في نفسه خيفة، فأوحى الله إليه أن ألق عصاك، فلما ألقاها صارت ثعباناً عظيماً فاغراً فاه فجعلت العصي تلتبس بالحبال حتى صارت جزراً إلى الثعبان تدخل فيه، حتى ما أبقّت عصاً ولا حبلاً إلا ابتلعتها، فلما عرف السحرة ذلك قالوا: لو كان هذا سحراً لم يبلغ من سحرنا كل هذا، ولكن هذا أمر من الله عز وجل، آمنّا بالله وبما جاء به موسى من عند الله ونتوب إلى الله بما كنا عليه، فكسر الله ظهر فرعون في ذلك الموطن وأشياعه، وظهر الحق، وبطل ما كانوا يعملون ﴿فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين﴾، وامرأة فرعون بارزة متبذلة تدعو الله بالنصر لموسى على فرعون وأشياعه، فن رآها من آل فرعون ظن أنها ابتذلت للشفقة على فرعون وأشياعه وإنما كان حزنها وهمها لموسى .

فلما طال مكث موسى بمواعيد فرعون الكاذبة، كلما جاء بآية وعده عندها أن يرسل معه بني إسرائيل، فإذا مضت أخلف مواعده، وقال: هل يستطيع ربك أن يصنع غير هذا؟ فأرسل الله على قومه: الطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، آيات مفصلات، كل ذلك يشكو إلى موسى ويطلب إليه أن يكفها عنه ويوائمه على أن يرسل معه بني إسرائيل، فإذا كف ذلك عنه أخلف مواعده ونكث عهده، حتى أمر الله موسى بالخروج بقومه فخرج بهم ليلاً، فلما أصبح فرعون ورأى أنهم قد مضوا أرسل في المدائن حاشرين، فتبعه بجنود عظيمة كثيرة، وأوحى الله إلى البحر إذا ضربك عبدي موسى بعصاه فانفلق اثنتي عشرة فرقة حتى يجوز موسى ومن معه، ثم التقى على من بقي بعد من فرعون وأشياعه، فنسي موسى أن يضرب البحر بالعصا وانتهى إلى البحر وله قصيف، مخافة أن يضربه موسى بعصاه وهو غافل فيصير عاصياً لله . فلما تراءى الجمعان وتقاربا، قال أصحاب موسى: إنا لمدركون، افعل ما أمرك به ربك فإنه لم يكذب ولم تكذب . قال: وعدني ربي إذا أتيت البحر انفلق اثنتي عشرة فرقة، حتى أجازه، ثم ذكر بعد ذلك العصا، فضرب البحر بعصاه حين دنا أوائل جند فرعون من أواخر جند موسى، فانفلق البحر كما أمره ربه وكما وعد موسى، فلما أن جاز موسى وأصحابه كلهم البحر ودخل فرعون وأصحابه، التقى عليهم البحر كما أمر؛ فلما جاوز موسى البحر قال أصحابه: إنا نخاف أن لا يكون فرعون غرق ولا تؤمن بهلاكه، فدعا ربه فأخرجه له ببدنه حتى استيقنوا بهلاكه .

ثم مروا بعد ذلك على قوم يعكفون على أصنام لهم ﴿قالوا يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون﴾ إن هؤلاء متبر ما هم فيه ﴿الآية: قد رأيتم من العبر، وسمعتم ما يكفيكم، ومضى فأنزلهم موسى منزلاً، وقال: أطيعوا هارون فإنني قد استخلفته عليكم فإني ذاهب إلى ربي، وأجلهم ثلاثين يوماً أن يرجع إليهم فيها، فلما أتى ربه وأراد أن يكلمه ثلاثين يوماً وقد صامهن ليلهن ونهارهن، وكره أن يكلم ربه وريح فيه، ريح فم الصائم، فتناول موسى من نبات الأرض شيئاً فضغّه، فقال له ربه حين أتاه: لم أفطرت؟ وهو أعلم بالذي كان! قال: يارب إني كرهت أن أكلمك إلا وفي طيب الريح، قال: أو ما علمت يا موسى أن ريح فم الصائم أطيب عندي من ريح المسك، ارجع فصم عشرًا . ثم اثنتي. ففعل موسى عليه السلام ما أمر به، فلما رأى قومه أنه لم

يرجع إليهم في الأجل ساءهم ذلك، وكان هارون قد خطبهم، وقال: إنكم قد خرجتم من مصر ولقوم فرعون عندكم عوار وودائع ولكم فيهم مثل ذلك، فإني أرى أنكم تحتسبون مالكم عندهم، ولا أحل لكم وديعة استودعتموها ولا عارية، ولسنا برادين إليهم شيئاً من ذلك. ولا ممسكيه لأنفسنا، فحفر حفيراً وأمر كل قوم عندهم من ذلك من متاع أو حلية أن يقدفوه في ذلك الحفير، ثم أوقد عليه النار فأحرقته، فقال: لا يكون لنا ولا لهم. وكان السامري من قوم يعبدون البقر، جيران لبني إسرائيل، ولم يكن من بني إسرائيل، فاحتمل مع موسى وبني إسرائيل حين احتملوا. فقضي له أن رأى أثراً فقبض منه قبضة فر بهارون، فقال له هارون عليه السلام: يا سامري إلا تلقي ما في يدك وهو قابض عليه لا يراه أحد طول ذلك، فقال: هذه قبضة من أثر الرسول الذي جاوز بكم البحر، لا ألقيا لشيء إلا أن تدعو الله إذا ألقيتها أن يجعلها ما أريد، فألقاها ودعا له هارون، فقال: أريد أن يكون عجلاً، فاجتمع ما كان في الحفيرة من متاع أو حلية أو نحاس أو حديد، فصار عجلاً أجوف ليس فيه روح وله خوار! قال ابن عباس: لا والله ما كان له صوت قط إنما كانت الريح تدخل في دبره وتخرج من فيه، وكان ذلك الصوت من ذلك، فتفرق بنو إسرائيل فرقاً؛ فقالت فرقة: يا سامري ما هذا وأنت أعلم به؟ قال هذا ربكم، ولكن موسى أضل الطريق، فقالت فرقة: لا نكذب بهذا حتى يرجع إلينا موسى، فإن كان ربنا لم نكن ضيعناه وعجزنا فيه حين رأينا، وإن لم يكن ربنا، فإننا نتبع قول موسى، وقالت فرقة: هذا من عمل الشيطان، وليس بربنا، ولا تؤمن ولا نصدق، وأشرب فرقة في قلوبهم الصدق بما قال السامري في العجل، وأعلموا التكذيب به، فقال لهم هارون: ﴿يا قوم إنما فتنتم به وإن ربكم الرحمن فاتبعوني وأطيعوا أمري﴾، قالوا: فما بال موسى وعدنا ثلاثين يوماً، ثم أخلفنا، هذه أربعون يوماً قد مضت، وقال سفهاؤهم: أخطأ ربه فهو يطلبه يتبعه.

فلما كلم الله موسى وقال له ما قال، أخبره بما لقي قومه من بعده، ﴿فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفاً﴾، فقال لهم: ما سمعتم في القرآن، وأخذ برأس أخيه يجره إليه، وألقى الألواح من الغضب، ثم إنه عذر أخاه بعذره واستغفر له وانصرف إلى السامري، فقال له: ما حملك على ما صنعت؟ قال: قبضت قبضة من أثر الرسول وفطنت لها وعميت عليكم ﴿فنبذتها وكذلك سولت لي نفسي﴾، قال فاذهب فإن لك في الحياة أن تقول لا مساس، وإن لك موعداً لن تخلفه، وانظر إلى إلهك الذي ظلت عليه عاكفاً، لنحرقته ثم لننسفنه في اليم نسفاً. ولو كان إلهاً لم يخلص إلى ذلك منه، فاستيقن بنو إسرائيل بالفتنة، واعتبط الذين كان رأيهم فيه مثل رأي هارون، فقالوا لجماعتهم: يا موسى سل لنا ربك أن يفتح لنا باب توبة نصنعها، فيكفر عنا ما عملنا، فاختر موسى قومه سبعين رجلاً لذلك لا يألو الخير، خيار بني إسرائيل ومن لم يشرك في العجل، فانطلق بهم يسأل لهم التوبة، فرجفت بهم الأرض فاستحيا نبي الله من قومه ومن وفده حين فعل بهم ما فعل، فقال: ﴿رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي أهلكنا بما فعل السفهاء منا﴾؟ وفيهم من كان الله اطلع منه على ما أشرب قلبه من حب العجل وإيمانه به، فلذلك رجفت بهم الأرض، فقال: ﴿ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون، الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل﴾، فقال: يا رب سألتك التوبة لقومي فقلت إن رحمتي كتبتها لقوم غير قومي، هلا أخرجتني حتى تخرجني في أمة ذلك الرجل المرحومة؟ فقال له: إن توبتهم أن يقتل كل رجل منهم من لقي من والد وولد، فيقتله

بالسيف ولا يبالي في ذلك الموطن، وتاب أولئك الذين كان خفي أمرهم على موسى وهارون، واطلع الله من ذنوبهم فاعترفوا بها وفعلوا ما أمروا وغفر الله للقاتل والمقتول .

ثم سار بهم موسى عليه السلام متوجهاً نحو الأرض المقدسة، وأخذ الألواح بعدما سكت عنه الغضب ، فأمرهم بالذي أمرهم به أن يبلغهم من الوظائف . فثقل ذلك عليهم وأبوا أن يقرؤا بها، فنتق الله عليهم الجبل كأنه ظلة، ودنا منهم حتى خافوا أن يقع عليهم، فأخذوا الكتاب بأيمانهم وهم مصفون، ينظرون إلى الجبل والكتاب بأيديهم وهم من وراء الجبل مخافة أن يقع عليهم، ثم مضوا حتى أتوا الأرض المقدسة، فوجدوا مدينة فيها قوم جبارون، خلقهم خلق منكر ، وذكروا من ثمارهم أمراً عجيباً من عظمها ، فقالوا: يا موسى ! إن فيها قوماً جبارين لا طاقة لنا بهم ولا ندخلها ما داموا فيها، فإن يخرجوا منها فإننا داخلون، قال رجلان من الذين يخافون: قيل ليزيد هكذا قرأت؟ قال: نعم من الجبارين آمننا بموسى، وخرجا إليه، قالوا: نحن أعلم بقومنا إن كنتم إنما تخافون ما رأيتم من أجسامهم وعددهم فإنهم لا قلوب لهم ولا منعة عندهم، فادخلوا عليهم الباب، فإذا دخلتموه فإنكم غالبون. ويقول أناس: إنهم من قوم موسى، فقال الذين يخافون بنو إسرائيل: ﴿ قالوا يا موسى إنا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون ﴾ ، فأغضبوا موسى فدعا عليهم وسماهم فاسقين، ولم يدع عليهم قبل ذلك لما رأى منهم من المعصية وإساءتهم، حتى كان يومئذ، فاستجاب الله له وسماهم كما سماهم موسى فاسقين ، وحرمها عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض يصبحون كل يوم فيسيرون ليس لهم قرار ، وظلل عليهم الغمام في التيه وأنزل عليهم المن والسلوى، وجعل لهم ثياباً لا تبلى ولا تتسخ، وجعل بين ظهرانيهم حجراً مربعاً وأمر موسى فضربه بعصاه فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً في كل ناحية ثلاثة أعين، وأعلم كل سبط عينهم التي يشربون منها فلا يرتحلون من مكان إلا وجدوا ذلك الحجر بينهم بالمكان الذي كان فيه بالأمس^(١) .

فَلَيْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنٍ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَمْوَسِي ﴿٤٠﴾ وَأَصْطَنَعْتَكَ لِنَفْسِي ﴿٤١﴾ أَذْهَبَ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِكَائِنِي وَلَا تَنْبِيَا فِي ذِكْرِي ﴿٤٢﴾ أَذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيْنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَحْشَى ﴿٤٤﴾

يقول تعالى مخاطباً لموسى عليه السلام: إنه لبث مقيماً في أهل مدين فاراً من فرعون وملكه، يرعى على صهره حتى انتهت المدة وانقضى الأجل، ثم جاء موافقاً لقدرة الله وإرادته من غير ميعاد، والامر كله لله تبارك وتعالى، وهو المسير عباده وخلقه فيما يشاء، ولهذا قال: ﴿ ثم جئت على قدر يا موسى ﴾ قال مجاهد: أي على موعد، وقال قتادة: على قدر الرسالة والنبوة، وقوله: ﴿ واصطنعتك لنفسي ﴾ أي اصطفيتك واجتيتك رسولاً لنفسي، أي كما

(١) أخرجه النسائي في سننه وابن جرير وابن أبي حاتم في تفسيريهما ، قال ابن كثير : وهو موقوف من كلام ابن عباس وليس فيه مرفوع إلا قليل منه وكأنه تلقاه ابن عباس مما أبيع نقله من الإسرائيليات .

أريد وأشاء، روى البخاري عند تفسيرها عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «التقى آدم وموسى، فقال موسى: أنت الذي أشقيت الناس وأخرجتهم من الجنة، فقال آدم: وأنت الذي اصطفاك الله برسالته واصطفاك لنفسه وأنزل عليك التوراة؟ قال: نعم، قال: فوجدته مكتوباً عليّ قبل أن يخلقني؟ قال: نعم، فحج آدم موسى»^(١). وقوله ﴿ اذهب أنت وأخوك بآياتي ﴾ أي بحججي وبراهيني ومعجزاتي ﴿ ولا تنيا في ذكري ﴾ قال ابن عباس: لا تبطئا، وقال مجاهد عن ابن عباس: لا تضعفا، والمراد أنهما لا يفتران في ذكر الله، بل يذكران الله في حال مواجهة فرعون ليكون ذكر الله عوناً لهما عليه، وقوة لهما وسلطاناً كاسراً له كما جاء في الحديث: «إن عبدي كل عبدي الذي يذكرني وهو مناجز قرنه»، وقوله ﴿ اذهباً إلى فرعون إنه طغى ﴾ أي تمرد وعتا، وتجبر على الله وعصاه، ﴿ فقولا له قولاً ليناً ﴾ لعله يتذكر أو يخشى ﴿ هذه الآية فيها عبرة عظيمة، وعو أن فرعون في غاية العتو والاستكبار، وموسى صفوة الله من خلقه إذ ذاك، ومع هذا أمر أن لا يخاطب فرعون إلا بالملاطفة واللين، وعن الحسن البصري ﴿ فقولا له قولاً ليناً ﴾ أعذرا إليه، قولاً له: إن لك رباً ولك معاداً، وإن بين يديك جنة ونارا، والحاصل من أقوالهم أن دعوتهما له تكون بكلام رقيق لين سهل رقيق، ليكون أوقع في النفوس وأبلغ وأنجع، كما قال تعالى: ﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن ﴾، وقوله ﴿ لعله يتذكر أو يخشى ﴾ أي لعله يرجع عما هو فيه من الضلال والهلكة، أو يخشى - أي يوجد طاعة من خشية ربه - كما قال تعالى: ﴿ لمن أراد أن يذكر أو يخشى ﴾ فالنذكر الرجوع عن المحذور، والخشية تحصيل الطاعة، وقال الحسن البصري: ﴿ لعله يتذكر أو يخشى ﴾ يقول: لا تقل أنت يا موسى وأخوك هارون أهلكه قبل أن اعذر إليه.

قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى ﴿٤٦﴾ فَاتَّبَاهُ فَقَوْلَا
إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِبَيِّنَاتٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَيْنَا مِنْ أَتْبَعِ
الْهُدَى ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴿٤٨﴾

يقول تعالى إخباراً عن موسى وهارون عليهما السلام: أنهما قالا مستجيرين بالله تعالى شاكين إليه ﴿ إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى ﴾ يعنيان أن يبدر إليهما بعقوبة، أو يعتدي عليهما فيعاقبهما وهما لا يستحقان منه ذلك، قال عبد الرحمن بن زيد ﴿ أن يفرط ﴾ يعجل، وقال مجاهد: يسلط علينا، وقال ابن عباس ﴿ أو أن يطغى ﴾ يعتدي ﴿ قال لا تخافا إنني معكما أسمع وأرى ﴾ أي لا تخافا منه فإنني معكما أسمع كلامكما وكلامه، وأرى مكانكما ومكانه، لا يخفى عليّ من أمركم شيء، واعلما أن ناصيته بيدي فلا يتكلم ولا يتنفس ولا يبطش إلا بإذني، وأنا معكم بحفظي ونصري، وتأبيدي. ﴿ فأتياه فقولا إننا رسولا ربك ﴾ قد تقدم في حديث الفتون عن ابن عباس، أنه قال: مكثا على بابه حيناً لا يؤذن لهما، حتى أذن لهما بعد حجاب شديد. وقوله ﴿ قد جئناك بآية من ربك ﴾ أي بدلالة ومعجزة من ربك، ﴿ والسلام على من أتبع الهدى ﴾ أي والسلام عليك إن اتبعت الهدى، ولهذا لما كتب رسول الله ﷺ إلى هرقل عظيم الروم كتاباً كان أوله «بسم الله الرحمن الرحيم». من محمد رسول الله إلى هرقل

عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين»، ولهذا قال موسى وهارون عليهما السلام لفرعون ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مِنْ اتَّبَعَ الْهُدَى﴾ إنا قد أوحى إلينا أن العذاب على من كذب وتولى ﴿أَيُّ قَدْ أَخْبَرْنَا اللَّهَ فِيمَا أَوْحَاهُ إِلَيْنَا مِنَ الْوَحْيِ الْمَعْصُومِ، أَنَّ الْعَذَابَ مَتَمَحْضٌ لِمَنْ كَذَبَ بَيِّنَاتٍ اللَّهُ وَتَوَلَّى عَنْ طَاعَتِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَى وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى﴾، وقال تعالى: ﴿فَأَنْذَرْتَكُمْ نَارًا تَلْظَى﴾ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى الَّذِي كَذَبَ وَتَوَلَّى﴾، وقال تعالى ﴿فَلَا صَدْقَ وَلَا صِلَى وَلَكِنْ كَذَبَ وَتَوَلَّى﴾ أَي كَذَبَ بِقَلْبِهِ وَتَوَلَّى بِفِعْلِهِ .

* قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى ﴿٥١﴾ قَالَ عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى ﴿٥٢﴾

يقول تعالى مخبراً عن فرعون، أنه قال لموسى منكراً وجود الصانع الخالق ﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى﴾ أَي الَّذِي بَعَثَكَ وَأَرْسَلَكَ مِنْ هُوَ؟ فَإِنِّي لَا أَعْرِفُهُ وَمَا عَلِمْتَ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يَقُولُ خَلَقَ لِكُلِّ شَيْءٍ زَوْجَهُ، وَعَنهُ: جَعَلَ الْإِنْسَانَ إِنْسَانًا وَالْحِمَارَ حِمَارًا وَالشَّاةَ شَاةً . وَقَالَ مُجَاهِدٌ: أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ صُورَتَهُ، وَسَوَّى خَلْقَ كُلِّ دَابَّةٍ . وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ فِي قَوْلِهِ ﴿أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ قَالَ: أَعْطَى كُلَّ ذِي خَلْقٍ مَا يَصْلُحُهُ مِنْ خَلْقِهِ، وَلَمْ يَجْعَلْ لِلْإِنْسَانِ مِنْ خَلْقِ الدَّابَّةِ، وَلَا لِلدَّابَّةِ مِنْ خَلْقِ الْكَلْبِ، وَلَا لِلْكَلْبِ مِنْ خَلْقِ الشَّاةِ، وَأَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ مَا يَنْبَغِي لَهُ مِنَ النِّكَاحِ، وَهِيَ كُلُّ شَيْءٍ عَلَى ذَلِكَ، لَيْسَ شَيْءٌ مِنْهَا يَشْبَهُ شَيْئًا مِنْ أَعْمَالِهِ فِي الْخَلْقِ وَالرِّزْقِ وَالنِّكَاحِ، ﴿قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى﴾؟ أَصَحُّ الْأَقْوَالِ فِي مَعْنَى ذَلِكَ، أَنَّ فِرْعَوْنَ لَمَّا أَخْبَرَهُ مُوسَى بِأَنَّ رَبَّهُ الَّذِي أَرْسَلَهُ، هُوَ الَّذِي خَلَقَ وَرَزَقَ وَقَدَّرَ فَهَدَى، شَرَعَ يَحْتَجِجُ بِالْقُرُونِ الْأُولَى، أَي الَّذِينَ لَمْ يَعْبُدُوا اللَّهَ، أَي فَمَا بِالْهِمَّ إِذْ كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ، لَمْ يَعْبُدُوا رَبَّكَ بَلْ عَبَدُوا غَيْرَهُ، فَقَالَ لَهُ مُوسَى فِي جَوَابِ ذَلِكَ: هُمْ وَإِنْ لَمْ يَعْبُدُوهُ فَإِنَّ عَمَلَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ مَضْبُوطٌ عَلَيْهِمْ، وَسَيَجْزِيهِمْ بِعَمَلِهِمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ وَهُوَ اللَّوْحُ الْمَحْفُوظُ وَكِتَابُ الْأَعْمَارِ، ﴿لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى﴾ أَي لَا يَشُدُّ عَنْهُ شَيْءٌ، وَلَا يَفُوتُهُ صَغِيرٌ وَلَا كَبِيرٌ وَلَا يَنْسَى شَيْئًا، يَصِفُ عِلْمَهُ تَعَالَى بِأَنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ، وَأَنَّهُ لَا يَنْسَى شَيْئًا تَبَارَكَ وَتَقَدَّسَ، فَإِنَّ عِلْمَ الْخَلْقِ يُعْتَرِبُهُ نَقْصَانًا «أَحَدُهُمَا عَدَمُ الْإِحَاطَةِ بِالشَّيْءِ، وَالْآخَرُ نَسْيَانُهُ بَعْدَ عِلْمِهِ، فَتَرَهُ نَفْسَهُ عَنْ ذَلِكَ .

الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى ﴿٥٣﴾ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٥٤﴾ * مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ﴿٥٥﴾ وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى ﴿٥٦﴾

هذا من تمام كلام موسى فيما وصف به ربه عز وجل، حين سأله فرعون عنه فقال: ﴿الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾، ثم اعترض الكلام بين ذلك، ثم قال: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا﴾ أَي قَرَارًا تَسْتَقِرُّونَ عَلَيْهَا وَتَقُومُونَ وَتَتَامُونَ عَلَيْهَا، وَتَسَافِرُونَ عَلَى ظَهْرِهَا، ﴿وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ أَي جَعَلَ لَكُمْ طَرَفًا تَمْشُونَ فِي مَنَاكِبِهَا

كما قال تعالى: ﴿وجعلنا فيها فجاجاً سبلاً لعلهم يهتدون﴾، ﴿ وأنزلنا من السماء ماء فأخرجنا به أزواجاً من نبات شتى﴾ أي من أنواع النباتات من زروع وثمار، ومن حامض وحلو ومر، وسائر الأنواع، ﴿كلوا وارعوا أنعامكم﴾ أي شيء لطعامكم وفاكهتكم، وشيء لأنعامكم لأقواتها خضراً وبيساً، ﴿إن في ذلك لآيات﴾ أي للدلالات وحججاً وبراهين، ﴿لأولي النهى﴾ أي لذوي العقول السليمة المستقيمة، ﴿منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى﴾ أي من الأرض مبدؤكم، فإن أباكم آدم مخلوق من تراب من أديم الأرض، وفيها نعيدكم أي وإليها تصيرون إذا تمم وبلتتم ومنها نخرجكم تارة أخرى، ﴿يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده وتظنون إن لبثتم إلا قليلاً﴾. وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون﴾، وفي الحديث الذي في السنن أن رسول الله ﷺ حضر جنازة، فلما دفن الميت أخذ قبضة من التراب فألقاها في القبر، وقال: منها خلقناكم، ثم أخذ أخرى وقال: وفيها نعيدكم، ثم أخرى وقال: ومنها نخرجكم تارة أخرى، وقوله: ﴿ولقد أريناه آياتنا كلها فكذب وأبى﴾، يعني فرعون أنه قامت عليه الحجج والآيات والدلالات، وعابن ذلك وأبصره فكذب بها وأباها كفرأ وعناداً وبغياً، كما قال تعالى: ﴿وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً﴾ الآية .

قَالَ أَجِئْنَا لِنُخْرِجَنَّكَ مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَلْمُوسَى ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُحَشِّرَ النَّاسَ ضُحًى ﴿٥٩﴾

يقول تعالى مخبراً عن فرعون: أنه قال لموسى حين أراه الآية الكبرى وهي إلقاء عصاه فصارت ثعباناً عظيماً، ونزع يده من تحت جناحه فخرجت بيضاء من غير سوء، فقال: هذا سحر جئت به لتسحرنا وتستولي به على الناس فيتبعونك وتكاثرنا بهم، ولا يتم هذا معك، فإن عندنا سحراً مثل سحرك فلا يفرنك ما أنت فيه ﴿فاجعل بيننا وبينك موعداً﴾ أي يوماً تجتمع نحن وأنت فيه، فنعارض ما جئت به بما عندنا من السحر، في مكان معين ووقت معين، فعند ذلك ﴿قال﴾ لهم موسى ﴿موعدكم يوم الزينة﴾^(١)، وهو يوم عيدهم وتفرغهم من أعمالهم، واجتماع جميعهم، ليشاهد الناس قدرة الله على ما يشاء، ومعجزات الأنبياء، وبطلان معارضة السحر لخوارق العادات النبوية، ولهذا قال: ﴿وأن يحشّر الناس﴾ أي جميعهم ﴿ضحى﴾ أي ضحوة من النهار ليكون أظهر وأجلى وأبين وأوضح، وهكذا شأن الأنبياء، كل أمرهم بين واضح ليس فيه خفاء ولا ترويح، ولهذا لم يقل: ليلاً، ولكن نهراً، ضحى، قال ابن عباس: وكان يوم الزينة، يوم عاشوراء، وقال السدي: كان يوم عيدهم. قلت: وفي مثله أهلك الله فرعون وجنوده. كما ثبت في الصحيح، وقال وهب ابن منبه، قال فرعون: يا موسى اجعل بيننا وبينك أجلاً ننظر فيه، قال موسى: لم أؤمر بهذا، إنما أمرت بمناجرتك إن أنت لم تخرج دخلت إليك، فأوحى الله إلى موسى: أن اجعل بينك وبينه أجلاً، وقل له أن يجعل هو، قال فرعون اجعله إلى أربعين يوماً ففعل، وقال مجاهد وقتادة ﴿مكاناً سوى﴾ منصفاً، وقال السدي عدلاً، وقال عبدالرحمن بن زيد: مستو بين الناس، وما فيه لا يكون صوت ولا شيء، يتغيب بعض ذلك عن بعض، مستو حين يرى .

(١) روي عن ابن عباس أنه يوم عاشوراء، أخرجه ابن أبي حاتم .

فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ جَمْعَ كَيْدِهِ ۖ ثُمَّ أُنزِلَ إِلَيْهِ ۖ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ وَيْلَكَ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ ﴿٦١﴾ فَتَنَزَّعُوا أَمْرَهُمُ بَيْنَهُمْ وَأَسْرُوا النَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوا إِنْ هَذَا إِلَّا لَسِحْرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَ بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثَلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجْمَعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ أَتَوْنَ صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾

يقول تعالى مخبراً عن فرعون: أنه لما تواعد هو وموسى عليه السلام إلى وقت ومكان معلومين، تولى: أي شرع في جمع السحرة من مدائن مملكته، كل من ينسب إلى السحر في ذلك الزمان، وقد كان السحر فيهم كثيراً نافقاً جداً، كما قال تعالى: ﴿وقال فرعون ائتوني بكل ساحر عليم﴾، ثم أتى: أي اجتمع الناس، لميقات يوم معلوم: وهو يوم الزينة، وجلس فرعون على سرير مملكته، واصطف له أكابر دولته، ووقفت الرعايا يمنة ويسرة، وأقبل موسى عليه الصلاة والسلام متوكئاً على عصاه، ومعه أخوه هارون، ووقفت السحرة بين يدي فرعون صفوفاً وهو يحرضهم ويحثهم ويرغبهم في إجادة عملهم في ذلك اليوم، ويتمنون عليه وهو يعدهم ويمنيهم، يقولون ﴿أئن لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين﴾ قال نعم وإنكم إذا لمن المقربين. ﴿قال هم موسى ويلكم لا تفتروا على الله كذباً﴾ أي لا تخيلوا للناس بأعمالكم إيجاد أشياء لا حقائق لها، وإنها مخلوقة وليست مخلوقة، فتكونون قد كذبتهم على الله. ﴿فيسحبتكم بعذاب﴾ أي يهلككم بعقوبة هلاكاً لا بقية له، ﴿وقد خاب من افترى﴾ فتنازعوا أمرهم بينهم ﴿قيل: معناه أنهم تشاجروا فيما بينهم، فقائل يقول: ليس هذا بكلام ساحر، إنما هذا كلام نبي، وقائل يقول: بل هو ساحر، وقيل غير ذلك، والله أعلم. وقوله: ﴿وأسرُوا النجوى﴾: أي تناجوا فيما بينهم، ﴿قالوا إن هذان لساحران﴾ وهذه لغة لبعض العرب، جاءت هذه القراءة على إعرابها، ومنهم من قرأ ﴿إن هذين لساحران﴾، والغرض أن السحرة قالوا فيما بينهم: تعلمون أن هذا الرجل وأخاه - يعنون موسى وهارون - ساحران عالمان خبيران بصناعة السحر، يريدان في هذا اليوم أن يغلباكم وقومكم ويستوليا على الناس، وتتبعهما العامة ويقاتلا فرعون وجنوده فينصرا عليه، ويخرجاكم من أرضكم، وقوله: ﴿ويذها بطريقكم المثلى﴾ أي ويستبدا بهذه الطريقة وهي السحر، فإنهم كانوا معظمين بسببها، لهم أموال وأرزاق عليها، يقولون: إذا غلب هذان أهلناكم وأخرجناكم من الأرض وتفردا بذلك وتمحضت لهما الرياسة بها دونكم، وقد تقدم في حديث الفتون أن ابن عباس قال في قوله ﴿ويذها بطريقكم المثلى﴾ يعني ملكهم الذي هم فيه والعيش، وعن علي في قوله ﴿ويذها بطريقكم المثلى﴾ قال: يصرفا وجوه الناس إليهما^(١)، وقال مجاهد ﴿ويذها بطريقكم المثلى﴾ قال: أولو الشرف والعقل والأسنان. ﴿فأجمعوا كيدكم ثم اتوا صفّاً﴾ أي اجتمعوا كلكم صفّاً واحداً، وألقوا ما في أيديكم مرة واحدة، لتبهروا الأبصار وتغلبوا هذا وأخاه، ﴿وقد أفلح اليوم من استعلى﴾ أي منا ومنه، أما نحن فقد وعدنا هذا الملك، العطاء الجزيل، وأما هو فينال الرياسة العظيمة.

(١) أخرجه ابن أبي حاتم.

قَالُوا يَمْوَسِيَّ إِيمَانًا أَنْ تُلْقِي وَإِمَانًا أَنْ نَكُونَ أَوْلَىٰ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا جِبَاهُهُمْ وَعَصِيهِمْ يُخِيلُ إِلَيْهِ
 مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهُمْ تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةَ مُوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾
 وَالَّذِي مَا فِي يَمِينِكَ تَلَقَّفَ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سِحْرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ فَأَلْقَى السَّحْرَةَ
 سَجْدًا قَالُوا أَمَّا رَبِّ هَرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾

يقول تعالى مخبراً عن السحرة حين توافقوا هم وموسى عليه السلام أنهم قالوا لموسى ﴿إما أن تلقي﴾: أي أنت أولاً، ﴿وإما أن نكون أول من ألقى﴾ قال بل ألقوا: أي أتم أولاً لنرى ماذا تصنعون من السحر، وليظهر للناس جلية أمرهم، ﴿فإذا جباههم وعصبيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى﴾، وفي الآية الأخرى أنهم لما ألقوا ﴿قالوا بغزة فرعون إنا لنحن الغالبون﴾، وقال تعالى: ﴿سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم﴾، وقال ههنا: ﴿فإذا جباههم وعصبيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى﴾.

وذلك أنهم أودعوها من الزئبق ما كانت تتحرك بسببه، وتضطرب وتميد بحيث يخيل للناظر أنها تسعى باختيارها، وإنما كانت حيلة، وكانوا جماعاً غفيراً وجمعاً كثيراً، فألقى كل منهم عصاً وحبلًا حتى صار الوادي ملآن حيات يركب بعضها بعضاً، وقوله: ﴿فأوجس في نفسه خيفة موسى﴾ أي خاف على الناس أن يفتنوا بسحرهم، ويغفروا بهم قبل أن يلقي ما في يمينه، فأوحى الله تعالى إليه في الساعة الراهنة، أن ألق ما في يمينك يعني عصاك فإذا هي تلقف ما صنعوا، وذلك أنها صارت تيناً عظيماً هائلاً ذا قوائم وعنق ورأس وأضراس، فجعلت تتبع تلك الجبال والعصي حتى لم تبق منها شيئاً إلا تلقفته وابتلعتها، والسحرة والناس ينظرون إلى ذلك عياناً جهرة نهاراً ضحوة، فقامت المعجزة واتضح البرهان ووقع الحق وبطل السحر، ولهذا قال تعالى: ﴿إنما صنعوا كيد ساحر، ولا يفلح الساحر حيث أتى﴾، فلما عاين السحرة ذلك وشاهدوه، ولم خبرة بفنون السحر وطرقه ووجوهه، علموا علم اليقين أن هذا الذي فعله موسى ليس من قبيل السحر والحيل، وأنه حق لا مرية فيه، ولا يقدر على هذا إلا الذي يقول للشيء كن فيكون، فعند ذلك وقعوا سجداً لله، وقالوا آمنا برب العالمين رب موسى وهارون، ولهذا قال ابن عباس: كانوا أول النهار سحرة وفي آخر النهار شهداء بررة، قال محمد بن كعب: كانوا ثمانين ألفاً، وقال السدي: بضعة وثلاثين ألفاً، وقال محمد بن إسحاق: كانوا خمسة عشر ألفاً، وقال كعب الأحبار: كانوا اثني عشر ألفاً. قال الأوزاعي: لما خر السحرة سجداً رفعت لهم الجنة حتى نظروا إليها. قال وذكر عن سعيد بن جبير قوله ﴿وألقى السحرة سجداً﴾ قال: رأوا منازلهم تبين لهم وهم في سجودهم.

قَالَ ءَامَنَّا لَهُ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكَ إِنَّهُ لَكَبِيرٌ كَرَّمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَا قَطْعَانَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ وَلَا صَلْبَيْكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمَنَّ آيْنَا أَشَدَّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُوا لَنْ نُؤْتِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنْ الْبَيْتِ وَالَّذِي فَطَرْنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٧٢﴾ إِنَّا ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ

لَنَا خَطِيئَاتِنَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴿٧٣﴾

يقول تعالى مخبراً عن كفر فرعون وعناده وبغيه، ومكابرتة الحق بالباطل حين رأى ما رأى من المعجزة الباهرة، والآية العظيمة، ورأى الذين قد استنصر بهم قد آمنوا بحضرة الناس كلهم، وغلب كل الغلب، شرع في المكابرة والبهت، وعدل إلى استعمال جاهه وسلطانه في السحرة فتهدهم وتوعدهم، وقال ﴿آمنتم له﴾ أي صدقتموه ﴿قبل أن أذن لكم﴾ أي وما أمرتكم بذلك، وانفقتم عليّ في ذلك، وقال قولاً يعلم هو والسحرة والخلق كلهم أنه بهت وكذب ﴿إنه لكبيركم الذي علمكم السحر﴾ أي أتم إنما أخذتم السحر عن موسى، وانفقتم أتم وإياه عليّ وعلى رعبتي لتظهروه، كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿إن هذا لمكر مكرتموه في المدينة لتخرجوا منها أهلها فسوف تعلمون﴾، ثم أخذ يتهدهم فقال: ﴿لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم في جذوع النخل﴾ أي لأجعلنكم مثله، ولأقتلنكم ولأشهرنكم. ﴿ولتعلمن أننا أشد عذاباً وأبقى﴾ أي أتم تقولون إني وقومي على ضلالة، وأتم مع موسى وقومه على الهدى، فسوف تعلمون من يكون له العذاب ويبقى فيه، فلما صال عليهم بذلك وتوعدهم، هانت عليهم أنفسهم في الله عز وجل ﴿قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات﴾ أي لن نختارك على ما حصل لنا من الهدى واليقين ﴿والذي فطرنا﴾ يعنون لا نختارك على فاطرنا وخالقنا الذي أنشأنا من العدم، المبتدئ خلقنا من الطين، فهو المستحق للعبادة والخضوع لا أنت ﴿فاقض ما أنت قاض﴾ أي فافعل ما شئت، وما وصلت إليه يدك ﴿إنما تقضي هذه الحياة الدنيا﴾ أي إنما لك تسلط في هذه الدار، وهي دار الزوال، ونحن قد رغبتنا في دار القرار، ﴿إنا آمننا بربنا ليغفر لنا خطايانا﴾ أي ما كان منا من الآثام، خصوصاً ما أكرهتنا عليه من السحر، لتعارض به آية الله تعالى ومعجزة نبيه. عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وما أكرهتنا عليه من السحر﴾ قال: أخذ فرعون أربعين غلاماً من بني إسرائيل، فأمر أن يعلموا السحر بالفرماء، وقال علموهم تعليماً لا يعلمه أحد في الأرض، قال ابن عباس: فهم من الذين آمنوا بموسى، وهم من الذين قالوا: ﴿آمننا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر﴾^(١). وقوله: ﴿والله خير وأبقى﴾ أي خير لنا منك ﴿وأبقى﴾ أي أدم ثواباً مما كنت وعدتنا ومينتنا، وقال محمد بن كعب القرظي ﴿والله خير﴾: أي لنا منك إن أطيع ﴿وأبقى﴾: أي منك عذاباً إن عصي، والظاهر أن فرعون لعنه الله صمم على ذلك وفعله بهم رحمة لهم من الله؛ ولهذا قال ابن عباس وغيره من السلف: أصبحوا سحرة وأمسا شهداء بررة.

* إِنَّهُ مِنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمَلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّاتٌ عِدْنُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾

الظاهر من السياق أن هذا من تمام ما وعظ به السحرة لفرعون، يحذرونه من نقمة الله وعذابه الدائم

السرمدى، ويرغبونه في ثوابه الأبدي المخلد، فقالوا ﴿إنه من يأت ربه مجرماً﴾ أي يلقي الله يوم القيامة وهو مجرم ﴿فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيى﴾، كقوله: ﴿لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها كذلك نجزي كل كفور﴾. عن أبي سعيد الخدري قال، قال رسول الله ﷺ: «أما أهل النار الذين هم أهلها فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون، ولكن أناس تصيبهم النار بذنوبهم، فتميتهم إماتة، حتى إذا صاروا فحماً وأذن في الشفاعة جيء بهم ضباطر ضباطر، فبثوا على أنهار الجنة، فيقال: يا أهل الجنة اقبضوا عليهم فينتون نبات الحبة تكون في حميل السيل»، فقال رجل من القوم: كأن رسول الله ﷺ كان بالبادية^(١). وقوله تعالى: ﴿ومن يأت مؤمناً قد عمل الصالحات﴾ أي ومن لقي ربه يوم المعاد، مؤمن القلب قد صدق ضميره بقوله وعمله، ﴿فأولئك لهم الدرجات العلى﴾ أي الجنة ذات الدرجات العاليات، والغرف الآمات والمساكن الطيبات، عن النبي ﷺ قال: «الجنة مائة درجة، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، والفردوس أعلاها درجة، ومنها تخرج الأنهار الأربعة، والعرش فوقها، فإذا سألت الله فاسأله الفردوس»^(٢)، وفي الصحيحين: «إن أهل عليين ليرون من فوقهم كما ترون الكوكب الغابر في أفق السماء، لتفاضل ما بينهم - قالوا: يا رسول الله تلك منازل الأنبياء؟ قال: بلى والذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين»، وفي السنن وإن أبا بكر وعمر لمنهم وأنعماء، وقوله: ﴿جنات عدن﴾ أي إقامة وهي بدل من الدرجات العلى ﴿تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها﴾ أي ما كثرين أبداً ﴿وذلك جزاء من تزكى﴾ أي طهر نفسه من الدنس والخبث والشرك، وعبد الله وحده لا شريك له، واتبع المرسلين فيما جاءوا به من خير وطلب.

وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاصْرَبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَفْ دَرَكًا وَلَا تَحْشَىٰ ﴿٧٧﴾

فَاتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾

يقول تعالى معبراً: أنه أمر موسى عليه السلام حين أبى فرعون أن يرسل معه بني إسرائيل أن يسري بهم في الليل، ويذهب بهم من قبضة فرعون، وذلك أن موسى لما خرج ببني إسرائيل أصبحوا وليس منهم بمصر لا داع ولا مجيب، فغضب فرعون غضباً شديداً، وأرسل من يجمعون له الجند من بلدانه، ثم لما جمع جنده واستوثق له جيشه، ساق في طلبهم فاتبعوهم مشرقين، أي عند طلوع الشمس، ﴿فلما تراءى الجمعان﴾: أي نظر كل من الفريقين إلى الآخر، ﴿قال أصحاب موسى إنا لمدركون﴾ قال كلا إن معي ربي سيهدين ﴿ووقف ببني إسرائيل أمامهم، وفرعون وراءهم، فعند ذلك أوحى الله إليه: ﴿أن اضرب لهم طريقاً في البحر يبساً﴾ فضرب البحر بعصاه، فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم، أي الجبل العظيم، فأرسل الله الريح على أرض البحر، فلفحته حتى صار يابساً كوجه الأرض، فلماذا قال ﴿فاضرب لهم طريقاً في البحر يبساً لا تخاف دركاً﴾: أي من فرعون ﴿ولا تحشى﴾ يعني من البحر أن يفرق قومك، ثم قال تعالى ﴿فاتبعهم فرعون بجنوده فغشيهم من اليم﴾: أي البحر ﴿ما غشيهم﴾ وهذا يقال عند الأمر المعروف المشهور كما قال تعالى ﴿والمؤتفة أهوى فغشاها ما غشى﴾.

(٢) الحديث أخرجه الإمام أحمد والترمذي.

(١) الحديث رواه مسلم والإمام أحمد.

يَبْنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَجْجَيْنَاكُمْ مِنْ عُدُوكُمْ وَوَعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَى ﴿٨٠﴾
كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحِلِّ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى ﴿٨١﴾ وَإِنِّي
لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى ﴿٨٢﴾

يذكر تعالى نعمه - على بني إسرائيل - العظام، ومننه الجسام، حيث أنجاهم من عدوهم فرعون، وأقر أعينهم منه وهم ينظرون إليه، وإلى جنده قد غرقوا في صبيحة واحدة، لم ينج منهم أحد، كما قال: ﴿وأغرقنا آل فرعون وأتم تنظرون﴾. عن ابن عباس قال: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة وجد اليهود تصوم عاشوراء، فسألهم فقالوا: هذا اليوم الذي أظفر الله فيه موسى على فرعون، فقال: «نحن أولى بموسى فصوموه»^(١)، ثم إنه تعالى واعد موسى وبني إسرائيل بعد هلاك فرعون، جانب الطور الأيمن، وهو الذي كلمه الله تعالى عليه وسأل فيه الرؤية، وأعطاه التوراة هنالك، وفي غضون ذلك عبد بنو إسرائيل العجل، كما يقصه الله تعالى قريباً، وأما المن والسلوى فقد تقدم الكلام على ذلك في سورة البقرة وغيرها، فالمن حلوى كانت تنزل عليهم من السماء، والسلوى طائر يسقط عليهم، فيأخذون من كل قدر الحاجة إلى الغد لطفاً من الله ورحمة بهم وإحساناً إليهم، ولهذا قال تعالى: ﴿كلوا من طيبات ما رزقناكم ولا تطغوا فيه فيحل عليكم غضبي﴾ أي كلوا من هذا الرزق الذي رزقناكم ولا تطغوا في رزقي، فتأخذوه من غير حاجة، وتخالفوا ما أمرتكم به، ﴿فيحل عليكم غضبي﴾ أي أغضب عليكم، ﴿ومن يحلل عليه غضبي فقد هوى﴾ أي فقد شقي، وقوله ﴿وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً﴾ أي كل من تاب إليّ تبت عليه من أي ذنب كان، حتى إنه تاب تعالى على من عبد العجل من بني إسرائيل، وقوله تعالى ﴿تاب﴾ أي رجع عما كان فيه من كفر أو شرك أو معصية أو نفاق، قوله ﴿وآمن﴾ أي قبله، ﴿وعمل صالحاً﴾ أي بجوارحه، وقوله: ﴿ثم اهتدى﴾ عن ابن عباس: أي ثم لم يشكك، وقال سعيد بن جبير ﴿ثم اهتدى﴾: أي استقام على السنة والجماعة^(٢)، وقال قتادة ﴿ثم اهتدى﴾: أي لزم الإسلام حتى يموت، و«ثم» ههنا لترتيب الخبر على الخبر، كقوله: ﴿ثم كان من الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾.

* وَمَا أَجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَمُوسَى ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أَوْلَاءُ عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي ﴿٨٦﴾ قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكِنَا وَلَكِنَّا حَمَلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَدَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلَقَى السَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ

(١) الحديث أخرجه الشيخان عن ابن عباس .

(٢) وروى نحوه عن مجاهد والضحاك وغير واحد من السلف .

لَهُمْ عَجَلًا جَسَدًا لَهُ خُورًا فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّ إِلَهُهُمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾

لما سار موسى عليه السلام ببني إسرائيل بعد هلاك فرعون، وواعد ربه ثلاثين ليلة ثم أتبعها عشرًا فتمت أربعين ليلة، أي يصومها ليلاً ونهاراً، وقد تقدم في حديث الفتون بيان ذلك، فسارع موسى عليه السلام مبادراً إلى الطور، واستخلف على بني إسرائيل أخاه هارون، ولهذا قال تعالى: ﴿وما أعجلك عن قومك يا موسى * قال هم أولاء على أثري﴾ أي قادمون ينزلون قريباً من الطور، ﴿وعجلت إليك رب لترضى﴾ أي لتزداد عني رضا، ﴿قال فإنا قد فطنا قومك من بعدك وأضلهم السامري﴾، أخبر تعالى نبيه موسى بما كان بعده من الحدث في بني إسرائيل، وعبادتهم العجل الذي عمله لهم ذلك السامري، وقوله ﴿فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفاً﴾ أي رجع بعد ما أخبره تعالى بذلك في غاية الغضب والحنق عليهم، والأسف: شدة الغضب، وقال مجاهد ﴿غضبان أسفاً﴾: أي جزعاً، وقال قتادة والسدي: أسفاً حزيناً على ما صنع قومه من بعده، ﴿قال يا قوم ألم يعدكم ربكم وعداً حسناً﴾ أي أما وعدكم على لساني كل خير في الدنيا والآخرة وحسن العاقبة كما شاهدتم من نصرته إياكم على عدوكم وإظهاركم عليه، وغير ذلك من أيادي الله، ﴿أفطال عليكم العهد﴾ أي في انتظار ما وعدكم الله ونسيان ما سلف من نعمه ﴿أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم﴾ «أم» ههنا بمعنى بل، هي للإضراب عن الكلام الأول، وعدول إلى الثاني؛ كأنه يقول: بل أردتم بصنيعكم هذا أن يحل عليكم غضب من ربكم فأخلفتم موعدى، قالوا - أي بنو إسرائيل، في جواب ما أنبههم موسى وقرعهم - ﴿ما أخلفنا موعدك بملكنا﴾ أي عن قدرتنا واختيارنا، ثم شرعوا يعتذرون بالعذر البارد، يخبرونه عن تورعهم عما كان بأيديهم من حلي القبط الذي كانوا قد استعاروه منهم حين خرجوا من مصر، ﴿فقدفناها﴾ أي ألقيناها عنا، ودعا السامري أن يكون عجلاً، فكان عجلاً ﴿له خوار﴾ أي صوت، استدراجاً وإمهالاً ومحنة واختباراً ولهذا قال: ﴿فكذلك ألقى السامري * فأخرج لهم عجلاً جسداً له خوار﴾.

عن ابن عباس، أن هارون مر بالسامري وهو ينحت العجل، فقال له: ما تصنع؟ فقال: أصنع ما يضر ولا ينفع، فقال هارون: اللهم أعطه ما سألك على ما في نفسه، ومضى هارون وقال السامري: اللهم إني أسألك أن يخور، فخار، فكان إذا خار سجدوا له، وإذا خار رفعوا رؤوسهم، وقال السدي: كان يخور ويمشي، فقالوا: أي الضلال منهم الذين افتتنوا بالعجل وعبده ﴿هذا إلهكم وإله موسى فنسي﴾ أي نسيه ههنا وذهب يتطلبه، وعن ابن عباس ﴿فنسي﴾ أي نسي أن يذكركم أن هذا إلهكم، فمكفوا عليه وأحبوه حباً لم يحبوا شيئاً قط، قال الله تعالى رداً عليهم وتقريعاً لهم وبياناً لفضيحتهم وسخافة عقولهم فيما ذهبوا إليه: ﴿أفلا يرون أن لا يرجع إليهم قولاً ولا يملك لهم ضراً ولا نفعاً﴾ أي العجل، فلا يرون أنه لا يجيبهم إذا سألوه، ولا إذا خاطبوه، ولا يملك لهم ضراً ولا نفعاً، أي في دنياهم ولا في آخراهم، قال ابن عباس: لا والله ما كان خواره إلا أن يدخل الريح في دبره فيخرج من فمه فيسمع له صوت، وحاصل ما اعتذر به هؤلاء الجهلة أنهم تورعوا عن زينة القبط فألقوها عنهم، وعبدوا العجل فتورعوا عن الحقير وفعلوا الأمر الكبير، كما جاء في الحديث الصحيح عن عبد الله بن عمر، أنه

سأله رجل من أهل العراق عن دم البعوض إذا أصاب الثوب، يعني هل يصلى فيه أم لا؟ فقال ابن عمر رضي الله عنهما: انظروا إلى أهل العراق! قتلوا ابن بنت رسول الله ﷺ، يعني الحسين، وهم يسألون عن دم البعوضة!

وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَنْقَوْمِ إِمَّا فَتِنْتُمْ بِهِ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبَعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴿٩٠﴾ قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾

يخبر تعالى عما كان من نهي هارون عليه السلام لهم عن عبادتهم العجل، وإخباره إياهم إنما هذا فتنة لكم، وإن ربكم الرحمن الذي خلق كل شيء قفدره تقديراً. ذو العرش المجيد الفعال لما يريد، ﴿فاتبعوني وأطيعوا أمري﴾: أي فيما أمركم به واتركوا ما أنهاكم عنه، ﴿قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى﴾: أي لا ترك عبادته حتى نسمع كلام موسى فيه وخالفوا هارون في ذلك، وحاربوه وكادوا أن يقتلوه.

قَالَ يَهْرُونَ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ﴿٩٢﴾ أَلَا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمْ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي ۖ إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿٩٤﴾

يخبر تعالى عن موسى عليه السلام حين رجع إلى قومه، فرأى ما قد حدث فيهم من الأمر العظيم، فامتلاً عند ذلك غضباً، وألقى ما كان في يده من الألواح الإلهية، وأخذ برأس أخيه يجره إليه، فقال: ﴿ما منعك إذ رأيتم ضلوا ألا تتبعن﴾ أي فتخبرني بهذا الأمر أول ما وقع ﴿أف عصيت أمري﴾: أي فيما كنت قدمت إليك، وهو قوله: ﴿اخلفني في قومي وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين﴾، قال ﴿يا ابن أم﴾ ترقق له بذكر الأم مع أنه شقيقه لأبويه، لأن ذكر الأم ههنا أرق وأبلغ في الحنو والعطف، ولهذا قال: ﴿يا ابن أم لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي﴾ الآية. هذا اعتذار من هارون عند موسى في سبب تأخره عنه، حيث لم يلحقه فيخبره بما كان من هذا الخطب الجسم، قال ﴿إني خشيت﴾ أن أتبعك فأخبرك بهذا، فتقول لي لم تركتهم وحدهم ورفقت بينهم، ﴿ولم ترقب قولي﴾: أي وما راعيت ما أمرتك به، حيث استخلفتك فيهم، قال ابن عباس: وكان هارون هائباً مطيعاً له.

* قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ ۖ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴿٩٦﴾ قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ ۖ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّنْ نُحْلِفَهُ ۖ وَأَنْظُرْ إِلَىٰ إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ إِمَّا إِلَهِكُمْ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾

يقول موسى عليه السلام للسامري: ما حملك على ما صنعت؟ وما الذي عرض لك حتى فعلت ما فعلت؟

عن ابن عباس قال: كان السامري رجلاً من أهل باجر، وكان من قوم يعبدون البقر وكان حب عبادة البقر في نفسه، وكان قد أظهر الإسلام مع بني إسرائيل، وكان اسمه (موسى بن ظفر)، وفي رواية عن ابن عباس أنه كان من كرماني، وقال قتادة: كان من قرية سامرا، ﴿قال بصرت بما لم يبصروا به﴾: أي رأيت جبريل حين جاء لهلاك فرعون ﴿فقبضت قبضة من أثر الرسول﴾ أي من أثر فرسه، هذا هو المشهور عند كثير من المفسرين، أو أكثرهم، وقال مجاهد: من تحت حافر فرس جبريل، قال: والقبضة ملء الكف، والقبضة بأطراف الأصابع، قال مجاهد: نبذ السامري، أي ألقى ما كان في يده على حلية بني إسرائيل، فانسبك عجلًا جسداً له خوار، حفيف الريح فيه فهو خواره. وقال ابن أبي حاتم، عن عكرمة: إن السامري رأى الرسول فألقى في روعه أنك إن أخذت من أثر هذا الفرس قبضة فألقيتها في شيء فقلت له كن فكان، فقبض قبضة من أثر الرسول فبيست أصابعه على القبضة، فلما ذهب موسى للميقات، وكان بنو إسرائيل قد استعاروا حلي آل فرعون، فقال لهم السامري: إن ما أصابكم من أجل هذا الحلي، فاجمعوه فجمعوه، فأوقدوا عليه فذاب، فرآه السامري، فألقى في روعه: أنك لو قذفت هذه القبضة في هذه، فقلت كن فكان، فقذف القبضة وقال: كن فكان عجلًا جسداً له خوار، فقال: ﴿هذا إلهكم وإله موسى﴾، ولهذا قال ﴿فنبذتها﴾ أي ألقىتها مع من ألقى، ﴿وكذلك سولت لي نفسي﴾: أي حسنته وأعجبها إذ ذاك ﴿قال فاذهب فإن لك في الحياة أن تقول لا مساس﴾: أي كما أخذت ومسست ما لم يكن لك أخذه ومسه من أثر الرسول، فعقوبتك في الدنيا أن تقول لا مساس، أي لا تماس الناس ولا يمسونك، ﴿وإن لك موعداً﴾ أي يوم القيامة ﴿لن تخلفه﴾ أي لا محيد لك عنه. وقال قتادة ﴿أن تقول لا مساس﴾ قال: عقوبة لهم، وبقاياهم اليوم يقولون لا مساس: وقوله ﴿وإن لك موعداً لن تخلفه﴾ قال الحسن: لن تغيب عنه. وقوله ﴿وانظر إلى إلهك﴾ أي معبودك ﴿الذي ظلت عليه عاكفاً﴾ أي أقمت على عبادته يعني العجل، ﴿لنحرقنه﴾ قال السدي: سحله بالمبارد وألقاه على النار، وقال قتادة: استحال العجل من الذهب لحمًا ودمًا، فحرقه بالنار، ثم ألقى رماده في البحر، ولهذا قال: ﴿ثم لننسفنه في اليم نسفاً﴾. وقوله تعالى: ﴿إنما إلهكم الله الذي لا إله إلا هو وسع كل شيء علماً﴾ يقول لهم موسى عليه السلام: ليس هذا إلهكم إنما إلهكم الله الذي لا يستحق ذلك على العباد إلا هو، ولا تنبغي العبادة إلا له، فإن كل شيء فقير إليه عبد له، وقوله: ﴿وسع كل شيء علماً﴾ أي هو عالم بكل شيء، أحاط بكل شيء علماً وأحصى كل شيء عدداً، فلا يعزب عنه مثقال ذرة، كما قال تعالى: ﴿وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها، ويعلم مستورها ومستودعها كل في كتاب مبين﴾ والآيات في هذا كثيرة جداً.

كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَمْجُلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾

يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: كما قصصنا عليك خبر موسى، وما جرى له مع فرعون وجنوده على الجلية والأمر الواقع، كذلك نقص عليك الأخبار الماضية كما وقعت من غير زيادة ولا نقص، هذا ﴿وقد آتيناك من لدنا﴾ أي من عندنا ﴿ذكرًا﴾ وهو القرآن العظيم الذي لا ياتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من

حكيم حميد، الذي لم يعط نبي من الأنبياء كتاباً مثله، ولا أكمل منه ولا أجمع لخبر ما سبق وخبر ما هو كائن منه، وقوله تعالى: ﴿من أعرض عنه﴾ أي كذب به وأعرض عن اتباعه أمراً وطلباً، وابتغى الهدى من غيره، فإن الله يضلّه ويهديه إلى سواء الجحيم، ولهذا قال: ﴿من أعرض عنه فإنه يحمل يوم القيامة وزراً﴾ أي إثماً، كما قال تعالى: ﴿ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده﴾، وهذا عام في كل من بلغه القرآن من العرب والعجم أهل الكتاب وغيرهم، كما قال: ﴿لأنذرکم به ومن بلغ﴾، فكل من بلغه القرآن فهو نذير له، وداع، فمن اتبعه هدي، ومن خالفه وأعرض عنه ضل وشقي في الدنيا، والنار موعده يوم القيامة، ولهذا قال: ﴿من أعرض عنه فإنه يحمل يوم القيامة وزراً خالدين فيه﴾ أي لا محيد لهم عنه ولا انفكاك، ﴿وساء لهم يوم القيامة حملاً﴾ أي بشس الحمل حملهم.

يَوْمٌ يَنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَخْلَفْتُون بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾

ثبت في الحديث أن رسول الله ﷺ سئل عن الصور فقال: «قرن ينفخ فيه». وجاء في الحديث: «كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن وحنى جبهته وانتظر أن يؤذن له»، فقالوا: يا رسول الله كيف نقول؟ قال: «قولوا حسبنا الله ونعم الوكيل على الله توكلنا»، وقوله ﴿ونحشر المجرمين يومئذ زرقاً﴾، قيل معناه زرق العيون، من شدة ما هم فيه من الأهوال، ﴿يتخافتون بينهم﴾ قال ابن عباس: يتسارون بينهم، أي يقول بعضهم لبعض ﴿إن لبثتم إلا عَشْرًا﴾ أي في الدار الدنيا، لقد كان لبثكم فيها قليلاً عشرة أيام أو نحوها. قال الله تعالى: ﴿نحن أعلم بما يقولون﴾: أي في حال تناجيهم بينهم، ﴿إذ يقول أمثلهم طريقة﴾: أي العاقل الكامل فيهم ﴿إن لبثتم إلا يوماً﴾: أي لقصر مدة الدنيا في أنفسهم يوم المعاد، لأن الدنيا كلها وإن تكررت أوقاتها وتعاقت لياليها وأيامها وساعاتها كأنها يوم واحد، وكان غرضهم درء قيام الحجة عليهم لقصر المدة، ولهذا قال تعالى: ﴿ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة﴾، وقال تعالى: ﴿أو لم نعلمكم ما يتذكر فيه من تذكروا وجاءكم النذير﴾ الآية. وقال تعالى: ﴿كم لبثتم في الأرض عدد سنين * قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم فاسأل العادين﴾ ولو كنتم تعلمون لآترتم الباقي على الفائى ولكن تصرفتم فأسأتم التصرف.

* وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَعِوَجٍ لَهُ^ط وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾

يقول تعالى ﴿ويسألونك عن الجبال﴾ أي هل تبقى يوم القيامة أو تزول؟ ﴿فقل ينسفها ربي نسفاً﴾ أي يذهبها عن أماكنها ويمحقها ويسيرها تسييراً^(١) ﴿فَيَذَرُهَا﴾ أي الأرض ﴿قَاعًا صَفْصَفًا﴾ أي بساطاً واحداً، والقاع

(١) أخرج ابن المنذر عن ابن جريج قال: قالت قريش: يا محمد كيف يفعل ربك بهذه الجبال يوم القيامة، فترلت الآية.

هو المستوي من الأرض، والصفصف تأكيد لمعنى ذلك، وقيل الذي لا نبات فيه، والأول أولى، وإن كان الآخر مراداً أيضاً باللازم، ولهذا قال: ﴿ لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً ﴾ لا ترى في الأرض يومئذ وادياً ولا رابية ولا مكاناً منخفضاً ولا مرتفعاً، كذا قال ابن عباس وغير واحد من السلف ﴿ يومئذ يتبعون الداعي لا عوج له ﴾: أي يوم يرون هذه الأحوال، يستجيبون مسارعين إلى الداعي حيناً أمروا بادرُوا إليه، ولو كان هذا في الدنيا لكان أنفع لهم، ولكن حيث لا ينفعهم كما قال تعالى: ﴿ أسمع بهم وأبصر يوم أتوننا ﴾، وقال ﴿ مهطعين إلى الداع ﴾ وقال محمد القرظي: يحشر الله الناس يوم القيامة في ظلمة، وتطوى السماء وتتناثر النجوم وتذهب الشمس والقمر، وينادي مناد فيتبع الناس الصوت يؤمنونه، فذلك قوله: ﴿ يومئذ يتبعون الداعي لا عوج له ﴾^(١)، وقال قتادة: لا عوج له لا يميلون عنه، وقال أبو صالح: لا عوج له لا عوج عنه، ﴿ وخشعت الأصوات للرحمن ﴾ قال ابن عباس: سكنت، وكذا قال السدي، ﴿ فلا تسمع إلا همساً ﴾ قال سعيد بن جبير عن ابن عباس: يعني وطء الأقدام. وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿ فلا تسمع إلا همساً ﴾ الصوت الخفي، وقال سعيد بن جبير: الحديث وسره، ووطء الأقدام، فقد جمع سعيد كلا القولين، وهو محتمل، أما وطء الأقدام فالمراد سعي الناس إلى المحشر وهو مشيهم في سكون وخضوع، وأما الكلام الخفي فقد يكون في حال دون حال، فقد قال تعالى ﴿ يوم يأت لا تكلم نفس إلا بإذنه فمنهم شقي وسعيد ﴾.

يَوْمَئِذٍ لَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا ﴿١١٠﴾ * وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾

يقول تعالى ﴿ يومئذ ﴾: أي يوم القيامة ﴿ لا تنفع الشفاعة ﴾ أي عنده ﴿ إلا من أذن له الرحمن ورضي له قولاً ﴾، كقوله: ﴿ من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه ﴾. وقوله: ﴿ ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون ﴾، وقال: ﴿ ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له ﴾. وفي الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: « آتي تحت العرش وآخر لله ساجداً، ويفتح عليّ بمحامد لا أحصيها الآن، فيدعني ما شاء أن يدعني ثم يقول: يا محمد ارفع رأسك، وقل يسمع واشفع تشفع، قال: فيحدي حدي فأدخلهم الجنة ثم أعود»، فذكر أربع مرات صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر الأنبياء. وقوله: ﴿ يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ﴾ أي يحيط علماً بالخلائق كلهم ﴿ ولا يحيطون به علماً ﴾ كقوله: ﴿ ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء ﴾، وقوله: ﴿ وعنت الوجوه للحي القيوم ﴾. قال ابن عباس وغير واحد: خضعت وذلت واستسلمت الخلائق لجبارها الحي الذي لا يموت، القيوم الذي لا ينام، وهو قيم على كل شيء، يدبره ويحفظه، فهو الكامل في نفسه، الذي كل شيء فقير إليه لا قوام له إلا به. وقوله ﴿ وقد خاب من حمل ظلماً ﴾: أي يوم القيامة فإن الله سيؤدي كل حق إلى صاحبه حتى يقتص للشارة الجماء

(١) قال السهيلي: الداعي: هو إسرئيل عليه السلام، وهو المنادي المذكور في سورة (ق) في قوله تعالى: ﴿ واستمع يوم ينادي المناد من مكان قريب ﴾.

من الشاة القراء، وفي الحديث: « يقول الله عز وجل: وعزتي وجلالي لا يجاوزني اليوم ظلم ظالم ». وقوله: ﴿ ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلماً ولا هضماً ﴾ لما ذكر الظالمين ووعدهم ثنى بالمتقين وحكمهم، وهو أنهم لا يظلمون ولا يهضمون أي لا يزداد في سيئاتهم ولا ينقص من حسناتهم، قاله ابن عباس ومجاهد وغير واحد، فالظلم الزيادة بأن يحمل عليه ذنب غيره، والهضم: النقص .

وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحَدِّثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ، وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١١٤﴾

يقول تعالى : ولا كان يوم المعاد والجزاء واقعاً لا محالة أنزلنا القرآن بشيراً ونذيراً بلسان عربي مبين ﴿ وصرفنا فيه من الوعيد لعلهم يتقون ﴾ أي يتركون المآثم والمحارم والفواحش ﴿ أو يحدث لهم ذكراً ﴾ وهو إيجاد الطاعة وفعل القربات، ﴿ فتعالى الله الملك الحق ﴾ أي تزه وتقدس الملك الحق، الذي وعده حق ووعيده حق، وعدله تعالى أن لا يعذب أحداً قبل الإنذار وبعثة الرسل لثلا يبقى لأحد حجة ولا شبهة، وقوله: ﴿ ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يلقى إليك وحيه ﴾ ، كقوله تعالى: ﴿ لا تحرك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه وقرآنه ﴾ وثبت في الصحيح عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ كان يعالج من الوحي شدة، فكان مما يحرك به لسانه، فأنزل الله هذه الآية يعني أنه عليه السلام كان إذا جاءه جبريل بالوحي، كلما قال جبريل آية قالها معه، من شدة حرصه على حفظ القرآن فأرشده الله تعالى إلى ما هو الأسهل والأخف في حقه لثلا يشق عليه فقال: ﴿ لا تحرك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه وقرآنه ﴾ أي أن نجمعه في صدرك ثم تقرأه على الناس من غير أن تنسى منه شيئاً، ﴿ فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ثم إن علينا بيانه ﴾، وقال في هذه الآية: ﴿ ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يلقى إليك وحيه ﴾ أي بل انصت، فإذا فرغ الملك من قراءته عليك فاقراءه بعده، ﴿ وقول رب زدني علماً ﴾ أي زدني منك علماً، ولم يزل ﷺ في زيادة حتى توفاه الله عز وجل، وكان رسول الله ﷺ يقول: « اللهم انفعني بما علمتني وعلمي ما ينفعني وزدني علماً والحمد لله على كل حال »^(١)

وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَتَنِيَّ وَلَمْ نُجِدْ لَهُ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسَّوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتَ لهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ أَجْتَبَهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾

(١) الحديث أخرجه ابن ماجه والترمذي والبخاري عن أبي هريرة وزاد البخاري في آخره : وأعوذ بالله من حال أهل النار .

عن ابن عباس قال: إنما سمي الإنسان لأنه عهد إليه فنسي^(١)، وقال مجاهد والحسن: ترك. وقوله: ﴿وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم﴾ يذكر تعالى تشریف آدم وتكريمه وما فضله به على كثير ممن خلق تفضيلاً، ﴿فسجدوا إلا إبليس أبى﴾ أي امتنع واستكبر، ﴿فقلنا يا آدم إن هذا عدو لك ولزوجك﴾ يعني حواء عليهما السلام، ﴿فلا يخرجكما من الجنة فتشقى﴾ أي إياك أن تسعى في إخراجك منها، فتتعب وتعنى وتشقى في طلب رزقك، فانك ههنا في عيش رغيد هنيء بلا كلفة ولا مشقة، ﴿إن لك ان لا تجوع فيها ولا تعرى﴾ إنما قرن بين الجوع والعري لأن الجوع ذل الباطن والعري ذل الظاهر، ﴿وأنت لا تطمأ فيها ولا تضحى﴾ وهذان أيضاً متقابلان، فالطمأ حر الباطن وهو العطش، والضحى حر الظاهر. وقوله: ﴿فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى﴾ قد تقدم أنه دلأهما بغرور ﴿وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين﴾، وقد تقدم أن الله تعالى عهد إلى آدم وزوجه أن يأكلا من كل الثمار ولا يقربا هذه الشجرة المعينة في الجنة، فلم يزل بهما إبليس حتى أكلا منها. وقوله: ﴿فأكلا منها فبدت لهما سوءاتهما﴾، روي أن الله خلق آدم رجلاً طوالاً كثير شعر الرأس كأنه نخلة سحوق، فلما ذاق الشجرة سقط عنه لباسه، فأول ما بدا منه عورته، فلما نظر إلى عورته جعل يشتد في الجنة، فناداه الرحمن: يا آدم مني تفر؟ فلما سمع كلام الرحمن قال: يارب لا ولكن استحياء، رأيت إن تبت ورجعت أعائدي إلى الجنة؟ قال: نعم، فذلك قوله: ﴿فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه﴾^(٢).

وقوله تعالى: ﴿وظففا يخلصان عليهما من ورق الجنة﴾، قال مجاهد: يرقعان كهيئة الثوب، وروى ابن أبي حاتم، عن ابن عباس: يترعان ورق التين فيجعلانه على سوءاتهما، وقوله: ﴿وعصى آدم ربه فغوى﴾ ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى، روى البخاري، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «حاج موسى آدم فقال له: أنت الذي أخرجت الناس من الجنة بذنبك وأشقيتهم؟ قال آدم: يا موسى أنت الذي اصطفاك الله برسالاته وبكلامه؟ أتولموني على أمر كتبه الله عليّ قبل أن يخلقني، أو قدره الله عليّ قبل أن يخلقني؟ قال رسول الله ﷺ: فحج آدم موسى»، وفي رواية لابن أبي حاتم: «احتج آدم وموسى عند ربهما، فحج آدم موسى. قال موسى: أنت الذي خلقتك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأسجد لك ملائكته، وأسكنك في جنته، ثم أهبطت الناس إلى الأرض بخطيتك! قال آدم: أنت موسى الذي اصطفاك الله برسالاته وكلامه، وأعطاك الألواح فيها تبيان كل شيء، وقربك نجياً، فكم وجدت الله كتب التوراة قبل أن أخلق؟ قال موسى: بأربعين عاماً، قال آدم: فهل وجدت فيها وعصى آدم ربه فغوى؟ قال: نعم، قال: أتولموني على أن عملت عملاً كتب الله عليّ أن أعمله قبل أن يخلقني بأربعين سنة؟ قال رسول الله ﷺ: فحج آدم موسى»^(٣).

قَالَ أَهْبَطًا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَا بُنَيَّ كُنْ مَنِّي هُدًى فَمِنَ اتَّبَعِ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ

(١) أخرجه ابن أبي حاتم.

(٢) رواه ابن أبي حاتم عن أبي بن كعب مرفوعاً، قال ابن كثير: وهو منقطع وفي رفعه نظر.

(٣) الحديث له طرق في الصحيحين والمسند، وهذه الرواية لابن أبي حاتم عن أبي هريرة.

وَلَا يَسْقَى ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى ﴿١٢٦﴾

يقول تعالى لآدم وحواء وإبليس اهبطوا منها جميعاً: أي من الجنة كلكم ﴿ بعضكم لبعض عدو ﴾ آدم وذريته، وإبليس وذريته، وقوله: ﴿ فإما يأتينكم مني هدى ﴾ قال أبو العالية: الأنبياء والرسل والبيان، ﴿ فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى ﴾ قال ابن عباس: لا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة ﴿ ومن أعرض عن ذكري ﴾ أي خالف أمري وما أنزلته على رسولي، أعرض عنه وتناساه وأخذ من غيره هداه، ﴿ فإن له معيشة ضنكاً ﴾ أي ضنكاً في الدنيا فلا طمأنينة له ولا انشراح لصدره، بل صدره ضيق حرج لضلالة وإن تنعم ظاهره، ولبس ما شاء وأكل ما شاء وسكن حيث شاء، فإن قلبه ما لم يخلص إلى اليقين والهدى فهو في قلق وحيرة وشك، فلا يزال في ريبة يتردد، فهذا من ضنك المعيشة. قال ابن عباس ﴿ فإن له معيشة ضنكاً ﴾ قال: الشقاء. وعنه: إن قوماً ضللاً أعرضوا عن الحق، وكانوا في سعة من الدنيا متكبرين، فكانت معيشتهم ضنكاً، فإذا كان العبد يكذب بالله ويسيء الظن به والثقة به اشتدت عليه معيسته فذلك الضنك. وقال الضحّاك: هو العمل السيء والرزق الخيث. وروى سفيان بن عيينة، عن أبي سعيد في قوله ﴿ معيشة ضنكاً ﴾ قال: يضيق عليه قبره حتى تختلف أضلاعه فيه.

عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: « المؤمن في قبره في روضة خضراء ويفسح له في قبره سبعون ذراعاً، وينور له قبره كالقمر ليلة البدر، أتدرون فيم أنزلت هذه الآية ﴿ فإن له معيشة ضنكاً ﴾؟ أتدرون ما المعيشة الضنك؟ » قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: « عذاب الكافر في قبره، والذي نفسي بيده إنه ليسلط عليه تسعة وتسعون تينياً، أتدرون ما التين؟ تسعة وتسعون حية، لكل حية سبعة رؤوس ينفخون في جسمه ويلسعونه ويخدشونه إلى يوم يبعثون » (١). وروى البزار، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ في قول الله عز وجل ﴿ فإن له معيشة ضنكاً ﴾ قال: « المعيشة الضنك الذي قال الله إنه يسلط عليه تسعة وتسعون حية ينهشون لحمه حتى تقوم الساعة ». وقوله: ﴿ ونحشره يوم القيامة أعمى ﴾ قال مجاهد والسدي: لا حجة له، وقال عكرمة: عمي عليه كل شيء إلا جهنم، ويحتمل أن يكون المراد أنه يبعث أو يحشر إلى النار أعمى البصر والبصيرة أيضاً كما قال تعالى: ﴿ ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عمياً وبكماً وصماً ما أوام جهنم ﴾ الآية، ولهذا يقول: ﴿ رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً ﴾؟ أي في الدنيا ﴿ قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى ﴾ أي لما أعرضت عن آيات الله وتناسيتها وأعرضت عنها، كذلك اليوم نعاملك معاملة من ينسك، ﴿ فاليوم ننسأهم كما نسوا لقاء يومهم هذا ﴾ فإن الجزاء من جنس العمل، فأما نسيان لفظ القرآن مع فهم معناه والقيام بمقتضاه، فليس داخلياً في هذا الوعيد الخاص، وإن كان متوعداً عليه من جهة أخرى، عن سعد بن عبادة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: « ما من رجل قرأ القرآن فنسيه إلا لقي الله يوم يلقاه وهو أجدم » (٢).

(١) الحديث رواه ابن أبي حاتم عن أبي هريرة مرفوعاً وفي رفعه نظر، قال ابن كثير: رفعه منكر جداً.

(٢) الحديث أخرجه الإمام أحمد عن سعد بن عبادة.

﴿ وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِحَايَتِ رَبِّهِ ۗ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْوَىٰ ﴿١٢٧﴾ ﴾

يقول تعالى : وهكذا نجازي المسرفين، المكذبين بآيات الله في الدنيا والآخرة ﴿ لهم عذاب في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أشق وما لهم من الله من واق ﴾ ، ولهذا قال : ﴿ ولعذاب الآخرة أشد وأبقى ﴾ أي أشد ألماً من عذاب الدنيا، وأدوم عليهم فهم مخلدون فيه، ولهذا قال رسول الله ﷺ للمتلاعنين : « إن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة » .

﴿ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْكِنِهِمْ ۗ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ ﴿١٢٨﴾ ﴾
 ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾ ﴾

يقول تعالى : ﴿ أفلم يهد لهم ﴾ هؤلاء المكذبين بما جنتهم به يا محمد، كم أهلكتنا من الأمم المكذبين بالرسول قبلهم، فبادوا فليس لهم باقية ولا عين ولا أثر، كما يشاهدون ذلك من ديارهم الخالية، التي خلفوهم فيها يمشون فيها، ﴿ إن في ذلك لآيات لأولى النهى ﴾ أي العقول الصحيحة والألباب المستقيمة، كما قال تعالى : ﴿ أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها ﴾ ، وقال : ﴿ أو لم يهد لهم كم أهلكتنا من قبلهم من القرون يمشون في مساكنهم ﴾ الآية؛ ثم قال تعالى : ﴿ ولولا كلمة سبقت من ربك لكان لزاماً وأجل مسمى ﴾ أي لولا الكلمة السابقة من الله وهو أنه لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه، والأجل المسمى الذي ضربه الله تعالى لهؤلاء المكذبين إلى مدة معينة لجاءهم العذاب بغتة، ولهذا قال لنبيه مسلماً له : ﴿ فاصبر على ما يقولون ﴾ أي من تكذيبهم لك، ﴿ وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس ﴾ يعني صلاة الفجر ﴿ وقبل غروبها ﴾ يعني صلاة العصر، كما جاء في الصحيحين : « إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته، فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا » ثم قرأ هذه الآية، وقال رسول الله ﷺ : « لن يلج النار أحد صلى قبل طلوع الشمس وقبل غروبها »^(١) . وفي الحديث الصحيح : « أن أدنى أهل الجنة منزلة من ينظر في ملكه مسيرة ألفي سنة، ينظر إلى أقصاه كما ينظر إلى أدناه، وإن أعلاه منزلة لمن ينظر إلى الله تعالى في اليوم مرتين »^(٢) . وقوله : ﴿ ومن آناء الليل فسبح ﴾ : أي من ساعته قهجد به، وحمله بعضهم على المغرب والعشاء، ﴿ وأطراف النهار ﴾ في مقابلة آناء الليل ﴿ لعلك ترضى ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ ولسوف يعطيك ربك فترضى ﴾ . وفي الصحيح : « يقول الله تعالى : يا أهل الجنة فيقولون : لبيك ربنا وسعديك، فيقول : هل رضيتم ؟ فيقولون : ربنا وما لنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك ؟ فيقول : إني أعطيتكم أفضل من ذلك، فيقولون : وأي شيء أفضل من ذلك ؟ فيقول : أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً » .

(١) رواه مسلم وأخرجه الإمام أحمد .

(٢) الحديث أخرجه الإمام أحمد ورواه أصحاب السنن عن عبد الله بن عمر .

وَلَا تُمَدَّنْ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾

يقول تعالى لنبى محمد ﷺ: لا تنظر إلى ما هؤلاء المترفون وأشباههم ونظراؤهم فيه من النعم، فإنما هو زهرة زائلة ونعمة حائلة لنختبرهم بذلك وقليل من عبادي الشكور، وقال مجاهد ﴿أزواجاً منهم﴾: يعني الأغنياء، فقد أتاك خيراً مما آتاهم، ولهذا قال: ﴿ورزق ربك خير وأبقى﴾^(١)، وفي الصحيح أن عمر بن الخطاب لما دخل على رسول الله ﷺ في تلك المشربة التي كان قد اعتزل فيها نساءه حين آلى منهن، فرآه متوسداً مضطجعاً على رمال حصير، وليس في البيت إلا صبرة من قرظ^(٢) واهية معلقة، فابتدرت عيننا عمر بالبكاء، فقال له رسول الله ﷺ: «ما يبكيك يا عمر؟» فقال: يا رسول الله إن كسرى وقيصر فيما هما فيه وأنت صفوة الله من خلقه! فقال: «أو في شك أنت يا ابن الخطاب؟ أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم في حياتهم الدنيا»، فكان ﷺ أزهدهم الناس في الدنيا مع القدرة عليها إذا حصلت له ينفقها هكذا وهكذا في عباد الله، ولم يدخر لنفسه شيئاً لغد.

عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد أن رسول الله ﷺ قال: «إن أخوف ما أخاف عليكم ما يفتح الله لكم من زهرة الدنيا»، قالوا: وما زهرة الدنيا يا رسول الله؟ قال: «بركات الأرض»^(٣). وقال قتادة والسدي ﴿زهرة الحياة﴾: يعني زينة الحياة الدنيا: وقال قتادة ﴿لنفتنهم فيه﴾ لنبتليهم، وقوله: ﴿وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها﴾ أي استنقذهم من عذاب الله بإقام الصلاة واصبر أنت على فعلها، كما قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً﴾. وقوله: ﴿لا نسألك رزقاً نحن نرزقك﴾ يعني إذا أقمت الصلاة أتاك الرزق من حيث لا تحتسب، كما قال تعالى: ﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب﴾، ولهذا قال: ﴿لا نسألك رزقاً نحن نرزقك﴾، وقال الثوري: لا نسألك رزقاً: أي لا نكلفك الطلب. وقال ابن أبي حاتم، عن ثابت قال: كان النبي ﷺ إذا أصابه خصاصة نادى أهله يا أهلاه صلوا، صلوا. قال ثابت: وكانت الأنبياء إذا نزل بهم أمر فرعوا إلى الصلاة. وقال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى يا ابن آدم تفرغ لعبادتي أملأ صدرك غنى وأسد فقرك، وإن لم تفعل ملأت صدرك شغلاً ولم أسد فقرك»^(٤). وعن زيد بن ثابت قال، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من كانت الدنيا همه فرق الله عليه أمره، وجعل فقره بين عينيه، ولم يأت من الدنيا إلا ما كتب له، ومن كانت الآخرة نيته جمع له أمره، وجعل غناه في قلبه وأتته الدنيا وهي راغمة»، وقوله ﴿والعاقبة

(١) أخرج ابن أبي شيبة وابن مردويه، عن أبي رافع قال: أضاف النبي ﷺ ضيفاً، فأرسلني إلى رجل من اليهود أن أسلفني دقيقاً إلى هلال رجب، فقال: لا، إلا برهن، فأتيت النبي ﷺ وسلم فأخبرته، فقال: أما والله إني لأمين في السماء أمين في الأرض، فلم أخرج من عنده حتى نزلت الآية: ﴿ولا تمدن عينيك...﴾ كما في اللباب.

(٢) صبرة: مجموعة، قرظ: ورق السلم، وهو شجر شائك يستعمل ورقه في دبغ الجلود.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً.

(٤) الحديث أخرجه الترمذي وابن ماجه عن أبي هريرة.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحَدَّثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسْرَأَ النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشْرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السَّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٣﴾ قُلْ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٤﴾ بَلْ قَالُوا أَضْغَتْ أُحْلَامٌ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوْلُونَ ﴿٥﴾ مَا ءَامَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾

هذا تشبيه من الله عز وجل على اقتراب الساعة ودنوها، وأن الناس في غفلة عنها، أي لا يعملون لها ولا يستعدون من أجلها، روي عن النبي ﷺ ﴿ في غفلة معرضون ﴾ قال: « في الدنيا »^(١). وقال تعالى: ﴿ أتى أمر الله فلا تستعجلوه ﴾. وقال أبو العتاهية :

الناس في غفلاتهم ورحا المنية تطحن

وروي عن عامر بن ربيعة أنه نزل به رجل من العرب، فأكرم عامر مثواه وكلم فيه رسول الله ﷺ، فجاءه الرجل فقال: إني استقطعت من رسول الله ﷺ وادياً في العرب، وقد أردت أن أقطع لك منه قطعة تكون لك ولعقبك من بعدك، فقال عامر: لا حاجة لي في قطيعتك نزلت اليوم سورة أذهلتنا عن الدنيا: ﴿ اقرب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون ﴾؛ ثم أخبر تعالى أنهم لا يصفون إلى الوحي الذي أنزل الله على رسوله، والخطاب مع قريش ومن شابههم من الكفار فقال: ﴿ ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث ﴾ أي جديد إنزاله ﴿ إلا استمعوه وهم يلعبون ﴾، كما قال ابن عباس: مالكم تسألون أهل الكتاب عما بأيديهم وقد حرفوه وبدلوه وزادوا فيه ونقصوا منه، وكتابكم أحدث الكتب بالله تقرأونه محضاً لم يشب^(٢). وقوله ﴿ وأسروا النجوى الذين ظلموا ﴾ أي

(١) الحديث أخرجه النسائي عن أبي سعيد الخدري .

(٢) أخرجه البخاري بنحوه ، ومعنى لم يشب : أي لم يخلط بغيره من الأباطيل والأضاليل .

قائلين فيما بينهم خفية ﴿ هل هذا إلا بشر مثلكم ﴾ يعنون رسول الله ﷺ يستبعدون كونه نبياً لأنه بشر مثلهم فكيف اختص بالوحي دونهم، ولهذا قال ﴿ أفأتأتون السحر وأنتم تبصرون ﴾ أي أفتتبعونه فتكونون كمن يأتي السحر وهو يعلم أنه سحر ، فقال تعالى مجيباً لهم عما افتروه واختلقوه من الكذب ﴿ قال ربي يعلم القول في السماء والأرض ﴾ : أي الذي يعلم ذلك لا يخفى عليه خافية وهو الذي أنزل هذا القرآن المشتمل على خير الأولين والآخرين، الذي لا يستطيع أحد أن يأتي بمثله إلا الذي يعلم السر في السماوات والأرض .

وقوله تعالى: ﴿ وهو السميع العليم ﴾ أي السميع لأقوالكم العليم بأحوالكم، وفي هذا تهديد لهم ووعيد، وقوله: ﴿ بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراء ﴾، هذا إخبار عن تعنت الكفار وإلحادهم واختلافهم فيما يصفون به القرآن وحيرتهم فيه وضلالهم عنه؛ فتارة يجعلونه سحراً، وتارة يجعلونه شعراً، وتارة يجعلونه أضغاث أحلام، وتارة يجعلونه مفترى، كما قال: ﴿ انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلاً ﴾، وقوله: ﴿ فليأتنا بآية كما أرسل الأولون ﴾ يعنون كفاية صالح وآيات موسى وعيسى، وقد قال الله: ﴿ وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون ﴾ الآية. ولهذا قال تعالى: ﴿ ما آمنت قبلهم من قرية أهلكناها أفهم يؤمنون ﴾^(١) أي ما آتينا قرية من القرى التي بعث فيها الرسل آية على أيدي نبيها فآمنوا بها بل كذبوا فأهلكناهم بذلك أفهؤلاء يؤمنون بالآيات لو رأوها دون أولئك؟ كلا، بل ﴿ إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون * ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم ﴾ هذا كله، وقد شاهدوا من الآيات الباهرات والحجج القاطعات، والدلائل البينات على يدي رسول الله ﷺ، ما هو أظهر وأجلى وأبهر وأقطع وأقهر مما شوهد مع غيره من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ فَسَعَوْا أَهْلَ الدِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ﴿٨﴾ ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾

يقول تعالى راداً على من أنكر بعثة الرسل من البشر: ﴿ وما أرسلنا قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم ﴾ أي جميع الرسل الذين تقدموا كانوا رجالاً من البشر لم يكن فيهم أحد من الملائكة، كما قال في الآية الأخرى: ﴿ وما أرسلنا قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم من أهل القرى ﴾، وقال تعالى: ﴿ قل ما كنت بدعاً من الرسل ﴾. وقال تعالى حكاية عن تقدم من الأمم لأنهم أنكروا ذلك فقالوا: ﴿ أبشر يهلوننا ﴾، ولهذا قال تعالى: ﴿ فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون ﴾، أي اسألوا أهل العلم من الأمم كاليهود والنصارى وسائر الطوائف، هل كان الرسل الذين أتوهم بشراً أو ملائكة؟ وقوله: ﴿ وما جعلناهم جسداً لا يأكلون الطعام ﴾ أي بل قد كانوا أجساداً يأكلون الطعام، كما قال تعالى: ﴿ وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا أنهم ليأكلون الطعام ويمسكون في الأسواق ﴾: أي

(١) أخرج ابن جرير عن قتادة قال، قال أهل مكة للنبي عليه السلام: إن كان ما تقول حقاً ويسرك أن تؤمن، فحول لنا الصفا ذهباً، فأتاه جبريل عليه السلام فقال: إن شئت كان الذي سألك قومك، ولكنه إن كان ثم ولم يؤمنوا لم ينظروا، وإن شئت استأنيت بقومك. فنزلت الآية: ﴿ ما آمنت قبلهم من قرية أهلكناها ﴾ .

قد كانوا بشراً من البشر، يأكلون ويشربون مثل الناس، ويدخلون في الأسواق للتكسب والتجارة، وليس ذلك بضار لهم ولا ناقص منهم شيئاً كما توهمه المشركون في قولهم: ﴿ ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيراً ﴾. وقوله: ﴿ وما كانوا خالدين ﴾ أي في الدنيا، بل كانوا يعيشون ثم يموتون ﴿ وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد ﴾ وخاصتهم أنهم يوحي إليهم من الله عز وجل تنزل عليهم الملائكة عن الله بما يحكمه في خلقه مما يأمر به وينهى عنه، وقوله: ﴿ ثم صدقناهم الوعد ﴾ أي الذي وعدهم ربهم ليهلكن الظالمين، صدقهم الله وعده وفعل ذلك، ولهذا قال ﴿ فأنجيناهم ومن نشاء ﴾ أي أتباعهم من المؤمنين، ﴿ وأهلكنا المسرفين ﴾: أي المكذبين بما جاءت به الرسل.

لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرٌ مُّذَكَّرٌ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾ وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّا أَحْسَوْا بِأَسْنَانَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسْكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَسْأَلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا يُؤَيِّلْنَا إِنَّا نُكَاظِلِّينَ ﴿١٤﴾ فَزَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ ﴿١٥﴾

يقول تعالى منبهاً على شرف القرآن ومحرضاً لهم على معرفة قدره: ﴿ لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذكركم ﴾ قال ابن عباس: شرفكم، وقال مجاهد: حديثكم، وقال الحسن: دينكم ﴿ أفلا تعقلون ﴾: أي هذه النعمة وتلقونها بالقبول، كما قال تعالى: ﴿ وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون ﴾، وقوله: ﴿ وكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً ﴾ هذه صيغة تكثير، كما قال: ﴿ وكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ ﴾، وقال تعالى: ﴿ وكأين من قرية أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فِيهَا فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا... ﴾ الآية، وقوله: ﴿ وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴾ أي أمة أخرى بعدهم، ﴿ فلما أحسوا بأسنا ﴾ أي تيقنوا أن العذاب واقع بهم لا محالة كما وعدهم نبيهم ﴿ إذا هم منها يركضون ﴾ أي يفرون هارين، ﴿ لا تركضوا وارجعوا إلى ما أترقتم فيه ومساكنكم ﴾ هذا تهكم بهم نزرأ، أي قيل لهم نزرأ لا تركضوا هارين من نزول العذاب وارجعوا إلى ما كنتم فيه من النعمة والسرور والمعيشة والمساكن الطيبة، قال قتادة: استهزاء بهم ﴿ لعلكم تسألون ﴾: أي عما كنتم فيه من أداء شكر النعم. ﴿ قالوا يا ويلنا إنا كنا ظالمين ﴾ اعترفوا بذنوبهم حين لا ينفعمهم ذلك، ﴿ فما زالت تلك دعواهم حتى جعلناهم حصيداً خامدين ﴾: أي ما زالت تلك المقالة وهي الاعتراف بالظلم هيجراًهم^(١) حتى حصدناهم حصداً، وخمدت حركاتهم وأصواتهم خموداً.

وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعِبِينِ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهَوًا لَآتَخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَلَهُمْ فِي

(١) دأبهم وعادتهم وشأنهم.

السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿٢١﴾ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٢﴾

يخبر تعالى أنه خلق السماوات والأرض بالحق أي بالعدل والقسط، ليجزي الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى، وأنه لم يخلق ذلك عبثاً ولا لعباً، كما قال: ﴿وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار﴾، وقوله تعالى: ﴿لو أردنا أن نتخذ لهواً لا تتخذناه من لدنا إن كنا فاعلين﴾، قال مجاهد: يعني من عندنا، يقول: وما خلقنا جنة ولا ناراً ولا موتاً ولا بعثاً ولا حساباً. وقال الحسن وقتادة: ﴿لو أردنا أن نتخذ لهواً﴾ اللهو: المرأة بلسان أهل اليمن، وقال إبراهيم النخعي: ﴿لا تتخذناه﴾ من الحور العين. وقال عكرمة والسدي: والمراد باللهو ههنا الولد، وهذا والذي قبله متلازمان، وهو كقوله تعالى: ﴿لو أراد الله أن يتخذ ولداً لأصطفى مما يخلق ما يشاء سبحانه هو الله الواحد القهار﴾ فتره نفسه عن اتخاذ الولد مطلقاً ولا سبياً عما يقولون من الإفك والباطل من اتخاذ عيسى أو العزير أو الملائكة ﴿سبحان الله وتعالى عما يقولون علواً كبيراً﴾، وقوله ﴿إن كنا فاعلين﴾ قال قتادة والسدي: أي ما كنا فاعلين، وقال مجاهد: كل شيء في القرآن «إن» فهو إنكار. وقوله: ﴿بل نقذف بالحق على الباطل﴾ أي نبين الحق فيدحض الباطل ولهذا قال: ﴿فيدمغه فإذا هو زاهق﴾ أي ذاهب مضمحل، ﴿ولكم الويل﴾ أي أيها القائلون لله ولد ﴿مما تصفون﴾ أي تقولون وتفترون. ثم أخبر تعالى عن عبودية الملائكة له ودأبهم في طاعته ليلاً ونهاراً، فقال: ﴿وله من في السماوات والأرض ومن عنده﴾ يعني الملائكة ﴿لا يستكبرون عن عبادته﴾: أي لا يستنكفون عنها كما قال: ﴿لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون﴾، وقوله ﴿ولا يستحسرون﴾ أي لا يتبعون ولا يملون، ﴿يسبحون الليل والنهار لا يفترون﴾ فهم دائبون في العمل ليلاً ونهاراً مطيعون قصداً وعملاً، قادرون عليه كما قال تعالى: ﴿لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون﴾. وقال محمد بن إسحاق عن عبد الله بن الحارث بن نوفل قال: جلست إلى كعب الأبحار وأنا غلام، فقلت له: رأيت قول الله تعالى للملائكة: ﴿يسبحون الليل والنهار لا يفترون﴾ أما يشغلهم عن التسبيح الكلام والرسالة والعمل؟ فقال: من هذا الغلام؟ فقالوا: من بني عبد المطلب، قال: فقبل رأسي ثم قال: يا بني إنه جعل لهم التسبيح كما جعل لكم النفس، أليس تتكلم وأنت تتنفس وتمشي وأنت تتنفس؟

أَمْ اتَّخَذُوا إِلَهًا مِّنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴿٢٣﴾

ينكر تعالى على من اتخذ من دونه آلهة فقال ﴿أم اتخذوا آلهة من الأرض هم ينشرون﴾ أي يحيون الموتى وينشرونهم من الأرض؟ أي لا يقدر على شيء من ذلك فكيف جعلوها لله نداً وعبوداً معه؟ ثم أخبر تعالى أنه لو كان في الوجود آلهة غيره لفسدت السماوات والأرض، فقال ﴿لو كان فيهما آلهة إلا الله﴾ أي في السماوات

والأرض ﴿لفسدنا﴾، كقوله تعالى: ﴿ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذاً لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحانه الله عما يصفون﴾، وقال ههنا: ﴿فسبحان الله رب العرش عما يصفون﴾ أي عما يقولون ان له ولداً أو شريكاً. وقوله: ﴿لا يسأل عما يفعل وهم يسألون﴾ أي هو الحاكم الذي لا معقب لحكمه، ولا يعترض عليه أحد لعظمته وجلاله وكبريائه، وعدله ﴿وهم يسألون﴾ أي وهو سائل خلقه عما يعملون، كقوله: ﴿فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون﴾.

أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرٌ مِنْ مَعِيَ وَذِكْرٌ مِنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾

يقول تعالى: ﴿أم اتخذوا من دونه آهة قل﴾ يا محمد ﴿هاتوا برهانكم﴾ أي دليلكم على ما تقولون، ﴿هذا ذكر من معي﴾ يعني القرآن، ﴿وذكر من قبلي﴾ يعني الكتب المتقدمة على خلاف ما تقولونه وتزعمون، فكل كتاب أنزل على كل نبي أرسل، ناطق بأنه ﴿لا إله إلا الله﴾ ولكن أتم أيها المشركون لا تعلمون الحق فأنتم معرضون عنه؛ ولهذا قال: ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون﴾، كما قال: ﴿واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آهة يعبدون﴾؟ فكل نبي بعثه الله يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له، والفترة شاهدة بذلك أيضاً، والمشركون لا برهان لهم، وعليهم غضب ولهم عذاب شديد.

* وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ * وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾

يقول تعالى راداً على من زعم أن له ولداً من الملائكة، كمن قال ذلك من العرب إن الملائكة بنات الله فقال: ﴿سبحانه بل عباد مكرمون﴾ أي الملائكة عباد الله مكرمون عنده، في منازل عالية ومقامات سامية، وهم له في غاية الطاعة قولاً وفِعْلاً، ﴿لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون﴾ أي لا يتقدمون بين يديه بأمر ولا يخالفونه فيما أمرهم فيما أمرهم به بل يبادرون إلى فعله، وهو تعالى علمه محيط بهم فلا يخفى عليه منهم خافية، ﴿يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم﴾، وقوله ﴿ولا يشفعون إلا لمن ارتضى﴾، كقوله: ﴿من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه﴾، وقوله: ﴿ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له﴾ في آيات كثيرة في معنى ذلك ﴿وهم من خشيته﴾ أي من خوفه ورهبته ﴿مشفقون﴾ ومن يقل منهم إني إله من دونه ﴿أي ادعى منهم أنه إله من دون الله أي مع الله﴾، فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزي الظالمين ﴿أي كل من قال ذلك وهذا شرط، والشرط لا يلزم وقوعه كقوله: ﴿قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين﴾.

أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيًا أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ۗ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾

يقول تعالى منبهاً على قدرته التامة وسلطانه العظيم، في خلقه الأشياء وقهره لجميع المخلوقات فقال: ﴿أولم ير الذين كفروا﴾ أي الجاحدون لإلهيته العابدون معه غيره، ألم يعلموا أن الله هو المستقل بالخلق المستبد بالتدبير، فكيف يليق أن يعبد معه غيره أو يشرك به ما سواه؟ ألم يروا أن السماوات والأرض ﴿كانتا رتقاً﴾ أي كان الجميع متصلاً ببعضه ببعض متلاصق متراكم بعضه فوق بعض في ابتداء الأمر، ففتق هذه من هذه فجعل السماوات سبعاً والأرض سبعاً، وفصل بين السماء الدنيا والأرض بالهواء، فأمرت السماء وأنبتت الأرض؛ ولهذا قال: ﴿وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون﴾ أي وهم يشاهدون المخلوقات تحدث شيئاً فشيئاً عياناً، وذلك كله دليل على وجود الصانع الفاعل المختار القادر على ما يشاء :

وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

عن عكرمة قال، سئل ابن عباس: الليل كان قبل أو النهار؟ فقال: رأيت السماوات والأرض حين كانتا رتقاً هل كان بينهما إلا ظلمة؟ ذلك لتعلموا أن الليل قبل النهار. وروى ابن أبي حاتم، عن ابن عمر: أن رجلاً أتاه يسأله عن السماوات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما؟ قال: اذهب إلى ذلك الشيخ، فأسأله، ثم تعال فأخبرني بما قال لك، قال، فذهب إلى ابن عباس فسأله، فقال ابن عباس: نعم، كانت السماوات رتقاً لا تمطر وكانت الأرض رتقاً لا تنبت، فلما خلق للأرض أهلاً فتق هذه بالمطر وفتق هذه بالنبات، فرجع الرجل إلى ابن عمر فأخبره، فقال ابن عمر، قد كنت أقول: ما يعجبني جراءة ابن عباس في تفسير القرآن فالآن علمت أنه قد أوتي في القرآن علماً، وقال عطية العوفي: كانت هذه رتقاً تمطر فأمرت وكانت هذه رتقاً لا تنبت فأنبتت، وقال سعيد بن جبير: كانت السماء والأرض ملتزقتين فلما رفع السماء وأبرز منها الأرض كان ذلك فتقهما الذي ذكر الله في كتابه، وقال الحسن وقتادة: كانتا جميعاً ففصل بينهما بهذا الهواء، وقوله ﴿وجعلنا من الماء كل شيء حي﴾ أي أصل كل الأحياء. عن أبي هريرة قال، قلت: يا رسول الله إني إذا رأيتك طابت نفسي وقرت عيني، فأنبئني عن كل شيء، قال: «كل شيء خلق من ماء» قال، قلت: أنبئني عن أمرٍ إذا عملت به دخلت الجنة؟ قال: «أفش السلام، وأطعم الطعام، وصل الأرحام، وقم بالليل والناس نيام، ثم ادخل الجنة بسلام»^(١).

وقوله تعالى: ﴿وجعلنا في الأرض رواسي﴾ أي جبلاً أرسى الأرض بها وثقلها لئلا تميد بالناس أي تضطرب

(١) الحديث أخرجه الإمام أحمد وإسناده على شرط الصحيحين، وأخرج ابن أبي حاتم بعضه .

وتتحرك فلا يحصل لهم قرار عليها، لأنها غامرة في الماء إلا مقدار الربع، فإنه باد للهواء والشمس ليشاهد أهلها السماء، وما فيها من الآيات الباهرات والحكم والدلالات، ولهذا قال ﴿ أن تميد بهم ﴾: وقوله ﴿ وجعلنا فيها فجاجاً سبلاً ﴾ أي ثغراً في الجبال يسلكون فيها طرقاتاً، من قطر إلى قطر وإقليم إلى إقليم، كما هو المشاهد في الأرض يكون الجبل حائلاً بين هذه البلاد وهذه البلاد، فيجعل الله فيه فجوة ثغرة ليسلك الناس فيها من ههنا إلى ههنا، ولهذا قال: ﴿ لعلمهم يهتدون ﴾، وقوله ﴿ وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً ﴾: أي على الأرض وهي كالقبة عليها، كما قال: ﴿ والسماء بنيناها بأيدٍ وإنا لموسعون ﴾، وقال: ﴿ أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج ﴾، والبناء هو نصب القبة كما قال رسول الله ﷺ: « بني الإسلام على خمس » أي خمسة دعائم وهذا لا يكون إلا في الخيام كما تعهده العرب، ﴿ محفوظاً ﴾ أي عالياً محروساً أن ينال، وقال مجاهد: مرفوعاً، وقوله: ﴿ وهم عن آياتها معرضون ﴾ كقوله: ﴿ وكأين من آية في السموات والأرض يمدون عليها وهم عنها معرضون ﴾ أي لا يتفكرون فيما خلق الله فيها من الاتساع العظيم والارتفاع الباهر، وما زينته به من الكواكب الثوابت والسيارات في ليلاها ونهارها، من هذه الشمس التي تقطع الفلك بكامله في يوم وليلة، فتسير غاية لا يعلم قدرها إلا الله، الذي قدرها وسخرها وسيرها، ثم قال منبهاً على بعض آياته ﴿ وهو الذي خلق الليل والنهار ﴾ أي هذا في ظلامه وسكونه، وهذا بضياؤه وأنسه، يطول هذا تارة ثم يقصر أخرى وعكسه الآخر، ﴿ والشمس والقمر ﴾ هذه لها نور يخصها وحركة وسير خاص، وهذا بنور آخر وفلك آخر وسير آخر وتقدير آخر. ﴿ وكل في فلك يسبحون ﴾ أي يدورون. قال ابن عباس: يدورون كما يدور المغزل في الفلكة، قال مجاهد: فلا يدور المغزل إلا بالفلكة ولا الفلكة إلا بالمغزل، كذلك النجوم والشمس والقمر لا يدورون إلا به ولا يدور إلا بهن، كما قال تعالى: ﴿ فالتق الإصباح وجعل الليل سكناً والشمس والقمر حسباناً ذلك تقدير العزيز العليم ﴾.

* وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخَلْدَ أَفَإِنَّ مَتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾

يقول تعالى: ﴿ وما جعلنا لبشر من قبلك ﴾ أي يا محمد ﴿ الخلد ﴾ أي في الدنيا^(١) بل ﴿ كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام ﴾، وقوله: ﴿ أفائن مت ﴾ أي يا محمد ﴿ فهم الخالدون ﴾؟ أي يؤملون أن يعيشوا بعدك ! لا يكون هذا بل كل إلى الفناء، ولهذا قال تعالى: ﴿ كل نفس ذائقة الموت ﴾ وقد روي عن الشافعي رحمه الله أنه أنشد واستشهد بهذين البيتين :

تمنى رجال أن أموت وإن أمت فتلك سبيل لست فيها بأوحد
فقل للذي يبغي خلاف الذي مضى تهباً لأخرى مثلها فكأن قد

وقوله تعالى: ﴿ ونبلوكم بالشر والخير فتنة ﴾ أي نختبركم بالمصائب تارة، وبالنعم أخرى، فننظر من يشكر

(١) أخرج ابن المنذر عن ابن جريج قال: نعي إلى النبي ﷺ نفسه، فقال: « يارب، فن لأمتي »، فنزلت: ﴿ وما جعلنا لبشر ﴾ الآية .

ومن يكفر، ومن يصبر ومن يقنط، قال ابن عباس: ونبلوكم يقول: نبتليكم بالشر والخير فتنه، بالشدة والرخاء، والصحة والسقم، والغنى والفقر. والحلال والحرام، والطاعة والمعصية، والهدى والضلال، وقوله: ﴿وإلينا ترجعون﴾ أي فنجازيكم بأعمالكم.

وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٣٦﴾
خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ جَلَلٍ سَأُورِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾

يقول تعالى لنبية صلوات الله وسلامه عليه: ﴿وإذا رآك الذين كفروا﴾ يعني كفار قريش كأبي جهل وأشباهه ﴿أن يتخذونك إلا هزواً﴾ أي يستهزئون بك وينتقصونك، يقولون ﴿أهذا الذي يذكركم﴾؟ يعنون أهذا الذي يسب آلهتكم ويسفه أحلامكم، قال تعالى: ﴿وهم يذكرون﴾ أي وهم كفارون بالله ومع هذا يستهزئون برسول الله كما قال في الآية الأخرى: ﴿وإذا رأوك إن يتخذونك إلا هزواً﴾ الذي بعث الله رسولا؟ وقوله: ﴿خلق الإنسان من عجل﴾ كقوله: ﴿وكان الإنسان عجولاً﴾ أي في الأمور، والحكمة في ذكر عجلة الإنسان ههنا، أنه لما ذكر المستهزئين بالرسول صلوات الله وسلامه عليه، وقع في النفوس سرعة الانتقام منهم واستعجلت ذلك، فقال الله تعالى: ﴿خلق الإنسان من عجل﴾ لأنه تعالى يميل للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته، يؤجل ثم يعجل، وينظر ثم لا يؤخر، ولهذا قال: ﴿سأريكم آياتي﴾ أي نقمي وحكمي واقتداري على من عصاني ﴿فلا تستعجلون﴾.

وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٨﴾ لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ
النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يَنْصُرُونَ ﴿٣٩﴾ بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ
يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾

يخبر تعالى عن المشركين أنهم يستعجلون أيضاً بوقوع العذاب بهم، تكذيباً وجحوداً وكفراً وعناداً فقال: ﴿ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين﴾؟ قال الله تعالى: ﴿لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم﴾ أي لو تيقنوا أنها واقعة بهم لا محالة لما استعجلوا، ولو يعلمون حين يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم ﴿لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل﴾، وقال في هذه الآية: ﴿حين لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم﴾، فالعذاب محيط بهم من جميع جهاتهم ﴿ولا هم ينصرون﴾ أي لا ناصر لهم، كما قال: ﴿وما لهم من الله من واق﴾، وقوله: ﴿بل تأتيهم بغتة﴾ أي تأتيهم النار بغتة أي فجأة، ﴿فتبتهتهم﴾

(١) أخرج ابن أبي حاتم: عن السدي قال: مرَّ النبي ﷺ على أبي جهل وأبي سفيان وهما يتحدثان، فلما رآه أبو جهل ضحك، وقال: ما أراك متبهاً حتى يصيبك ما أصاب من غير عهده، فترلت: ﴿وإذا رآك الذين كفروا﴾ الآية.

أي تذعرهم فيستسلمون لها، حائرين لا يدرون ما يصنعون ﴿ فلا يستطيعون ردها ﴾ أي ليس لهم حيلة في ذلك، ﴿ ولا هم ينظرون ﴾ أي ولا يؤخر عنهم ذلك ساعة واحدة .

وَلَقَدْ اسْتَهْزَيْتُمْ بِرُسُلِنَا مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ مَنْ يَكْفُرْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾

يقول تعالى مسلماً لرسوله عما آذاه به المشركون من الاستهزاء والتكذيب ﴿ ولقد استهزئتم برسول من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون ﴾ يعني من العذاب الذي كانوا يستبعدون وقوعه، كما قال تعالى: ﴿ ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ﴾ ثم ذكر تعالى نعمته على عبده في حفظه لهم بالليل والنهار، وكلاءته وحرصاته لهم بعينه التي لا تنام، فقال: ﴿ قل من يكفؤكم بالليل والنهار من الرحمن ﴾ أي بدل الرحمن يعني غيره، وقوله تعالى ﴿ بل هم عن ذكر ربهم معرضون ﴾ أي لا يعترفون بنعمة الله عليهم وإحسانه إليهم، بل يعرضون عن آياته وآلائه، ثم قال: ﴿ أم لهم آلهة تمنعهم من دوننا ﴾ استفهام إنكار وتقرير وتوبيخ، أي ألم آلهة تمنعهم وتكفؤهم غيرنا؟ ليس الأمر كما توهموا، لا، ولا كما زعموا، ولهذا قال: ﴿ لا يستطيعون نصر أنفسهم ﴾ أي هذه الآلهة التي استندوا إليها غير الله لا يستطيعون نصر أنفسهم، وقوله: ﴿ ولا هم منا يصحبون ﴾ قال ابن عباس: أي يجارون. وقال قتادة: لا يصحبون من الله بخير، وقال غيره ﴿ يصحبون ﴾ يُمْنون .

بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٤٤﴾ قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصَّمْعُ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَئِنْ مَسَّتْهُمُ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يُوَيْلِنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكُنَّا بِهَا حَاسِبِينَ ﴿٤٧﴾

يقول تعالى مخبراً عن المشركين إنما غرهم وحملهم على ما هم فيه من الضلال: أنهم متعوا في الحياة الدنيا ونعموا، وطال عليهم العمر فيما هم فيه، فاعتقدوا أنهم على شيء؛ ثم قال واعظاً لهم: ﴿ أفلا يرون أنا نأتي الأرض نناقصها من أطرافها ﴾ اختلف المفسرون في معناه، وقد أسلفناه في سورة الرعد، وأحسن ما فسر بقوله تعالى: ﴿ ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى وصرفنا الآيات لعلهم يرجعون ﴾، وقال الحسن البصري: يعني بذلك ظهور الإسلام على الكفر، والمعنى: أفلا يعتبرون بنصر الله لأوليائه على أعدائه؟ وإهلاكه الأمم المكذبة والقرى الظلمة وإنجائه لعباده المؤمنين؟ ولهذا قال: ﴿ أفهم الغالبون ﴾ يعني بل هم المغلوبون الأخرسون الأردلون، وقوله: ﴿ قل إنما أندرکم بالوحي ﴾ أي إنما أنا مبلغ عن الله ما أنذرتكم به من العذاب والتكال، ليس ذلك

إلا عما أوحاه الله إليّ ولكن لا يجدي هذا عنم أعمى الله بصيرته وختم على سمعه وقلبه، ولهذا قال: ﴿ولا يسمع الصم الدعاء إذا ما ينذرون﴾، وقوله: ﴿ولئن مستهم نفحة من عذاب ربك ليقولن يا ويلنا إنا كنا ظالمين﴾، أي ولئن مس هؤلاء المكذبين أدنى شيء من عذاب الله، ليعترفن بذنوبهم وأنهم كانوا ظالمين أنفسهم في الدنيا، وقوله: ﴿ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً﴾ أي ونضع الموازين العدل ليوم القيامة، الأكثر على أنه إنما هو ميزان واحد وإنما جمع باعتبار تعدد الأعمال الموزونة فيه، وقوله: ﴿فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسين﴾، كما قال تعالى: ﴿ولا يظلم ربك أحداً﴾، وقال: ﴿إن الله لا يظلم مثقال ذرة﴾، وقال لقمان: ﴿يا بني إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة أو في السموات أو في الأرض يأت بها الله إن الله لطيف خبير﴾.

وقال رسول الله ﷺ: «كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم»^(١)، وعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال، قال رسول الله ﷺ: «إن الله عز وجل يستخلص رجلاً من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة فينشر عليه تسعة وتسعين سجلاً كل سجل مد البصر، ثم يقول: أتنكر من هذا شيئاً؟ أظلمك كتبتي الحافظون؟ قال: لا يا رب، قال: أفلك عذر أو حسنة؟ قال: فهت الرجل، فيقول: لا يا رب، فيقول: بلى، إن لك عندنا حسنة واحدة لا ظم عليك اليوم، فيخرج له بطاقة فيها أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله، فيقول: أحضروه، فيقول: يا رب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟ فيقول: إنك لا تظلم، قال: فتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة، قال: فطاشت السجلات وثقلت البطاقة، قال: ولا يثقل شيء مع بسم الله الرحمن الرحيم»^(٢)، وقال الإمام أحمد، عن عائشة، أن رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ جلس بين يديه فقال: يا رسول الله إن لي مملوكين يكذبوني ويخونونني ويعصونني، وأضربهم وأشتمهم فكيف أنا منهم؟ فقال له رسول الله ﷺ: «يحسب ما خانوك وعصوك وكذبوك وعقابك إياهم، فإن كان عقابك إياهم بقدر ذنوبهم كان كفافاً لا لك ولا عليك، وإن كان عقابك إياهم دون ذنوبهم كان فضلاً لك، وإن كان عقابك إياهم فوق ذنوبهم اقتص لهم منك الفضل الذي بقي قبلك»، فجعل الرجل يبكي بين يدي رسول الله ﷺ ويهتف، فقال رسول الله ﷺ: «ما له لا يقرأ كتاب الله ﷻ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسين» فقال الرجل: يا رسول الله ما أجد شيئاً خيراً من فراق هؤلاء - يعني عبده - إني أشهدك أنهم أحرار كلهم^(٣).

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِّنَ السَّاعَةِ

مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴿٥٠﴾

(١) الحديث أخرجه الشيخان وختم البخاري رحمه الله صحيحه بهذا الحديث الشريف .

(٢) الحديث أخرجه الإمام أحمد والترمذي وابن ماجه، وقال الترمذي: حسن غريب . (٣) أخرجه الإمام أحمد في المسند .

قد تقدم التنبيه على أن الله تعالى كثيراً ما يقرن بين ذكر موسى ومحمد صلوات الله وسلامه عليهما وبين كتابيهما ولهذا قال: ﴿ ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان ﴾، قال مجاهد: يعني الكتاب، وقال قتادة: التوراة حلالها وحرامها وما فرق الله بين الحق والباطل، وقال ابن زيد: يعني النصر، وجامع القول في ذلك أن الكتب السماوية مشتملة على التفرقة بين الحق والباطل، والهدى والضلال، والغي والرشاد، والحلال والحرام وعلى ما يحصل نوراً في القلوب، وهداية وخوفاً، وإنابة وخشية، ولهذا قال: ﴿ الفرقان وضياء وذكراً للمتقين ﴾ أي تذكيراً لهم وعظة، ثم وصفهم فقال: ﴿ الذين يخشون ربهم بالغيب ﴾، كقوله: ﴿ من خشى الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب ﴾، وقوله: ﴿ إن الذين يخشون ربهم بالغيب لهم مغفرة وأجر كبير ﴾، ﴿ وهم من الساعة مشفقون ﴾ أي خائفون وجلون، ثم قال تعالى: ﴿ وهذا ذكر مبارك أنزلناه ﴾ يعني القرآن العظيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزِيل من حكيم حميد ﴿ أفأنتم له منكرون ﴾ أي أفتنكرونه وهو في غاية الجلاء والظهور؟

* وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَائِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٦﴾

يخبر تعالى عن خليله إبراهيم عليه السلام أنه آتاه رشده من قبل، أي من صغره ألهمه الحق والحجة على قومه كما قال تعالى: ﴿ وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه ﴾، والمقصود أن الله تعالى أخبر أنه قد آتى إبراهيم رشده من قبل أي من قبل ذلك، وقوله: ﴿ وكنا به عالمين ﴾ أي وكان أهلاً لذلك، ثم قال: ﴿ إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون ﴾ هذا هو الرشد الذي أوتيته من صغره الإنكار على قومه في عبادة الأصنام من دون الله عز وجل، فقال ﴿ ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون ﴾: أي معتكفون على عبادتها، قال ابن أبي حاتم: مرَّ علي رضي الله عنه على قوم يلعبون بالشطرنج، فقال: ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون؟ لأن يمس أحدكم جمراً حتى يطفأ خير له من أن يمسها، ﴿ قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين ﴾ لم يكن لهم حجة سوى صنيع آباءهم الضلال، ولهذا قال: ﴿ لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين ﴾ أي الكلام مع آباتكم الذين احتججتم بصنيعهم كالكلام معكم، فأنتم وهم في ضلال على غير الطريق المستقيم، فلما سفه أحلامهم وضلل آباءهم واحتقر آلتهم ﴿ قالوا أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين ﴾؟ يقولون: هذا الكلام الصادر عنك تقوله لاعباً أو محققاً فيه فإننا لم نسمع به قبلك، ﴿ قال بل ربكم رب السموات والأرض الذي فطرهن ﴾ أي ربكم الذي لا إله غيره وهو الذي خلق السموات والأرض وما حوت من المخلوقات، الذي ابتداء خلقهن وهو الخالق لجميع الأشياء ﴿ وأنا على ذلكم من الشاهدين ﴾ أي وأنا أشهد أنه لا إله غيره ولا رب سواه .

وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُدُودًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾

قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا سَمِعْنَا فَتَىٰ يَدُوكُمْ يُقَالُ لَهُ - إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا فَاتُوا بِهِ عَلَىٰ عَيْنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوا أَأنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ ﴿٦٣﴾

ثم أقسم الخليل قسماً أسمع به قومه ليكيدن أصنامهم، أي ليحرضن على أذاهم وتكسيرهم بعد أن يولوا مدبرين أي إلى عيدهم، وكان لهم عيد يخرجون إليه، قال السدي: لما اقترب وقت ذلك العيد قال أبوه: يا بني لو خرجت معنا إلى عيدنا لأعجبك ديننا، فخرج معهم، فلما كان ببعض الطريق ألقى نفسه إلى الأرض وقال: إني سقيم، فجعلوا يمشون عليه وهو صريع فيقولون: مه، فيقول: إني سقيم، فلما جاز عامتهم وبقي ضعفاؤهم، قال: ﴿تالله لأكيدن أصنامكم﴾، فسمعه أولئك. وقال ابن إسحاق، عن عبد الله قال: لما خرج قوم إبراهيم إلى عيدهم مروا عليه فقالوا: يا إبراهيم ألا تخرج معنا؟ قال: إني سقيم وقد كان بالأمس قال: ﴿تالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين﴾ فسمعه ناس منهم، وقوله: ﴿فجعلهم جذاذا﴾ أي حطاماً كسرها كلها ﴿إلا كبيراً لهم﴾ يعني إلا الصنم الكبير عندهم، كما قال: ﴿فراغ عليهم ضرباً باليمين﴾، وقوله: ﴿لعلهم إليه يرجعون﴾ ذكروا أنه وضع القدم في يد كبيرهم لعلهم يعتقدون أنه هو الذي غار لنفسه، وأنف أن تعبد معه هذه الأصنام الصغار فكسرها، ﴿قالوا من فعل هذا بأهتنا إنه لمن الظالمين﴾؟ أي حين رجعوا وشاهدوا ما فعله الخليل بأصنامهم، من الإهانة والإذلال الدال على عدم إلهيتها، وعلى سخافة عقول عابديها، ﴿قالوا من فعل هذا بأهتنا إنه لمن الظالمين﴾ أي في صنيعه هذا، ﴿قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم﴾ أي قال من سمعه يحلف إنه ليكيدنهم ﴿سمعنا فتى﴾ أي شاباً يذكرهم يقال له إبراهيم. عن ابن عباس قال: ما بعث الله نبياً إلا شاباً ولا أوتي العلم عالم إلا وهو شاب، وتلا هذه الآية: ﴿قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم﴾^(١). وقوله: ﴿قالوا فاتوا به على أعين الناس﴾ أي على رؤوس الأشهاد في الملا الأكبر بحضرة الناس كلهم، هذا هو المقصود الأكبر لإبراهيم عليه السلام، أن يبين في هذا المحفل العظيم كثرة جهلهم وقلة عقلهم، في عبادة هذه الأصنام التي لا تدفع عن نفسها ضرراً ولا تملك لها نصراً، فكيف يطلب منها شيء من ذلك؟ ﴿قالوا أنت فعلت هذا بأهتنا يا إبراهيم قال بل فعله كبيرهم هذا﴾ يعني الذي تركه لم يكسره، ﴿فأسألوهم إن كانوا ينطقون﴾، وإنما أراد بهذا أن يبادروا من تلقاء أنفسهم فيعرفوا أنهم لا ينطقون، وأن هذا لا يصدر عن هذا الصنم لأنه جماد.

وفي الصحيحين، عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «إن إبراهيم عليه السلام لم يكذب غير ثلاث: ثنتين في ذات الله، قوله: ﴿بل فعله كبيرهم هذا﴾، وقوله: ﴿إني سقيم﴾. قال: وبينما هو يسير في أرض جبار من الجبابرة ومعه (سارة) إذ نزل منزلاً. فأتى الجبار رجل فقال: إنه قد نزل ههنا رجل بأرضك معه امرأة أحسن الناس، فأرسل إليه فجاءه، فقال: ما هذه المرأة منك؟ قال: أختي، قال: فاذهب فأرسل بها إلي، فانطلق

(١) أخرجه ابن أبي حاتم.

إلى سارة فقال: إن هذا الجبار قد سألتني عنك فأخبرته أنك أختي، فلا تكذبيني عنده، فإنك أختي في كتاب الله، وإنه ليس في الأرض مسلم غيري وغيرك، فانطلق بها إبراهيم ثم قام يصلي، فلما أن دخلت عليه فرآها أهوى إليها فتناولها فأخذ أخذاً شديداً، فقال: ادعي الله لي ولا أضرك، فدعت له فأرسل، فأهوى إليها فتناولها، فأخذ بمثلها أو أشد، ففعل ذلك الثالثة، فأخذ، فذكر مثل المرتين الأولين، فقال: ادعي الله فلا أضرك، فدعت له فأرسل، ثم دعا أدنى حجابيه فقال: إنك لم تأتيي بإنسان ولكنك أتيتني بشيطان، أخرجها وأعطها هاجر، فأخرجت وأعطيت هاجر فأقبلت، فلما أحس إبراهيم بمجيئها انفتل من صلاته وقال: مهيم^(١)، قالت: كفى الله كيد الكافر الفاجر فأخدمني هاجر»، قال محمد بن سيرين: فكان أبو هريرة إذا حدث بهذا الحديث قال: تلك أمكم يا بني ماء السماء^(٢).

فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نَكَسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَاهْتَوَلَاءَ يَنْطِقُونَ ﴿٦٥﴾
قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أَفِ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾

يقول تعالى مخبراً عن قوم إبراهيم حين قال لهم ما قال ﴿ فرجعوا إلى أنفسهم ﴾ أي بالملامة، فقالوا ﴿ إنكم أنتم الظالمون ﴾، أي في ترككم لها مهملة لا حافظ عندها، ﴿ ثم نكسوا على رؤوسهم ﴾ أي ثم أطرقوا في الأرض فقالوا ﴿ لقد علمت ما هؤلاء ينطقون ﴾، قال قتادة: أدركت القوم حيرة سوء فقالوا ﴿ لقد علمت ما هؤلاء ينطقون ﴾، وقال السدي ﴿ ثم نكسوا على رؤوسهم ﴾: أي في الفتنة، وقول قتادة أظهر في المعنى لأنهم إنما فعلوا ذلك حيرة وعجزاً، ولهذا قالوا له ﴿ لقد علمت ما هؤلاء ينطقون ﴾ فكيف تقول لنا سلوهم إن كانوا ينطقون وأنت تعلم أنها لا تنطق، فعندها قال لهم إبراهيم لما اعترفوا بذلك ﴿ أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئاً ولا يضركم ﴾؟ أي إذا كانت لا تنطق وهي لا تنفع ولا تضر فلم تعبدونها من دون الله؟ ﴿ أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون ﴾؟! أي أفلا تتدبرون ما أنتم فيه من الضلال والكفر الغليظ، الذي لا يروج إلا على جاهل ظالم فاجر؟ فأقام عليهم الحجة وألزمهم بها، ولهذا قال تعالى: ﴿ وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه ﴾ الآية.

قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا الهَتَّكَرَ إِن كُنْتُمْ فَعَلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾

لما دحضت حججهم وبان عجزهم وظهر الحق واندفع الباطل، عدلوا إلى استعمال جاه ملكهم

(١) مهيم: كلمة استفهام معناها: ما الخير، ماذا حدث لك.

(٢) أخرجه الشيخان عن أبي هريرة.

فقالوا: ﴿حرقوه وانصروا آهتكم إن كنتم فاعلين﴾ فجمعوا حطباً كثيراً جداً، قال السدي: حتى إن كانت المرأة تمرض فتنذر إن عوفيت أن تحمل حطباً لحريق إبراهيم، ثم جعلوه في جوبة^(١) من الأرض وأضرموها ناراً فكان لها شرر عظيم ولهب مرتفع لم توقد نار قط مثلها، وجعلوا إبراهيم عليه السلام في كفة المنجنيق بإشارة رجل من أعراب فارس من الأكراد، فلما ألقوه قال: حسبي الله ونعم الوكيل، روى البخاري عن ابن عباس أنه قال ﴿حسبي الله ونعم الوكيل﴾ قالها إبراهيم حين ألقى في النار، وقالها محمد عليهما السلام حين قالوا: «إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل»، وروى الحافظ أبو يعلى، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لما ألقى إبراهيم عليه السلام في النار، قال: اللهم إنك في السماء واحد وأنا في الأرض واحد أعبدك»، ويروى أنه لما جعلوا يوثقونه قال: لا إله إلا أنت سبحانك لك الحمد ولك الملك لا شريك لك، وكان عمره إذ ذاك ست عشرة سنة .

وذكر بعض السلف أنه عرض له جبريل وهو في الهواء، فقال: ألك حاجة؟ فقال: أما إليك فلا، وأما من الله فلي . ويروى عن ابن عباس قال: لما ألقى إبراهيم جعل خازن المطر يقول: متى أومر بالمطر فأرسله، قال: فكان أمر الله أسرع من أمره، قال الله: ﴿يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم﴾، قال: لم يبق نار في الأرض إلا طفتت، وقال كعب الأحبار: لم تحرق النار من إبراهيم سوى وثاقه، وقال ابن عباس: لولا أن الله عز وجل قال ﴿وسلاماً﴾ لآذى إبراهيم بردها، وقال أبو هريرة: إن أحسن شيء قال أبو إبراهيم لما رفع عنه الطبق وهو في النار وجده يرشح جبينه قال عند ذلك: نعم الرب ربك يا إبراهيم^(٢). وقال قتادة: لم يأت يومئذ دابة إلا أطفأت عنه النار إلا الوزغ . وقال الزهري: أمر النبي ﷺ بقتله وسماه فويسقا، وعن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: «إن إبراهيم حين ألقى في النار لم يكن في الأرض دابة إلا تطفئ النار غير الوزغ فإنه كان ينفخ على إبراهيم»، فأمرنا رسول الله ﷺ بقتله^(٣)، وقوله: ﴿وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأחסرين﴾، أي المغلوبين الأسفلين لأنهم أرادوا بنبي الله كيداً، فكأدهم الله ونجاه من النار فغلبوا هنالك، وقال عطية العوفي: لما ألقى إبراهيم في النار جاء ملكهم لينظر إليه فطارت شرارة فوقعت على إبهامه فأحرقته مثل الصوفة .

﴿وَجَبَّيْنَهُ وُلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ (٧١) ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ﴾ (٧٢) ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾ (٧٣) ﴿وُلُوطًا اتَّبَعْتَهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَجَبَّيْنَهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبِيثَاتِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ﴾ (٧٤) ﴿وَادْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (٧٥)

يقول تعالى مخبراً عن إبراهيم، أنه سلمه الله من نار قومه وأخرجه من بين أظهرهم، مهاجراً إلى بلاد الشام

(١) حفرة من الأرض . (٢) رواه أبو زرعة عن أبي هريرة رضي الله عنه وأخرجه ابن أبي حاتم .

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم وفي بعض الروايات أن امرأة دخلت على عائشة فوجدت عندها رمحاً فقالت: ما تصنعين بهذا الرمح؟ فقالت: نقتل به الأوزاغ، وذكرت الحديث .

إلى الأرض المقدسة منها، عن أبي بن كعب قال: هي الشام، وما من ماء عذب إلا يخرج من تحت الصخرة، وقال قتادة: كان بأرض العراق، فأنبأه الله إلى الشام، وكان يقال للشام أعقار دار الهجرة، وما نقص من الأرض يزيد في الشام، وما نقص من الشام زيد في فلسطين، وكان يقال هي أرض المحشر والمنشر وبها ينزل عيسى ابن مريم عليه السلام وبها يهلك المسيح الدجال، وقوله: ﴿ووهبنا له إسحاق ويعقوب نافلة﴾ النافلة: ولد الولد يعني أن يعقوب ولد إسحاق، كما قال: ﴿فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب﴾، وقال عبد الرحمن ابن أسلم: سألت واحداً فقال: ﴿رب هب لي من الصالحين﴾ فأعطاه الله إسحاق وزاده يعقوب نافلة، ﴿وكلا جعلنا صالحين﴾ أي الجميع أهل خير وصلاح، ﴿وجعلناهم أئمة﴾ أي يقتدى بهم ﴿يهدون بأمرنا﴾ أي يدعون إلى الله بإذنه، ولهذا قال: ﴿وأوحينا إليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة﴾ من باب عطف الخاص على العام، ﴿وكانوا لنا عابدين﴾: أي فاعلين لما يأمرون الناس به، وكان قد آمن بإبراهيم عليه السلام واتبعه وهاجر معه، كما قال تعالى: ﴿فأمن له لوط وقال إني مهاجر إلى ربي﴾ فاتاه الله حكماً وعلماً وأوحى إليه وجعله نبياً وبعثه إلى (سليم) وأعمالها فخالفوه وكذبوه، فأهلكهم الله ودمر عليهم كما قص خبرهم في غير موضع من كتابه العزيز، ولهذا قال: ﴿ونجيناه من القرية التي كانت تعمل الخبائث إنهم كانوا قوم سوء فاسقين * وأدخلناه في رحمتنا إنه من الصالحين﴾.

وَنوحًا إِذْ نَادَىٰ مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾

يخبر تعالى عن استجابته لعبده ورسوله نوح عليه السلام حين دعا على قومه لما كذبوه. ﴿فدعا ربه أني مغلوب فانتصر﴾، وقال نوح: ﴿رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً﴾، ولهذا قال ههنا: ﴿إذ نادى من قبل فاستجبنا له فنجيناه وأهله﴾ أي الذين آمنوا به، كما قال: ﴿وأهلك إلا من سبق عليه القول ومن آمن وما آمن معه إلا قليل﴾، وقوله: ﴿من الكرب العظيم﴾ أي من الشدة والتكذيب والأذى فإنه لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعوهم إلى الله عز وجل فلم يؤمن به منهم إلا القليل، وكانوا يتصلون لأذاه ويتواصلون قرناً بعد قرن وجيلاً بعد جيل على خلفه، وقوله ﴿ونصرناه من القوم﴾ أي ونجيناه وخلصناه منتصراً من القوم ﴿الذين كذبوا بآياتنا إنهم كانوا قوم سوء فأغرقناهم أجمعين﴾، أي أهلكهم الله بعامته، ولم يبق على وجه الأرض منهم أحد كما دعا عليهم نبيهم.

وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَمُّ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحَكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكَرَّ لِتَحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ ﴿٨٠﴾ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ

إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمِينَ ﴿٨١﴾ وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ
عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ ﴿٨٢﴾

قال ابن عباس : النفس الرعي ، وقال قتادة : النفس لا يكون إلا بالليل ، والهمل بالنهار ، وعن ابن مسعود في قوله : ﴿ وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرث إذ نفشت فيه غم القوم ﴾ قال : كرم قد أنبت عناقيده فأفسدته ، قال : ففضى داود بالغنم لصاحب الكرم . فقال سليمان : غير هذا يا نبي الله ، قال : وما ذاك ؟ قال : تدفع الكرم إلى صاحب الغنم ، فيقوم عليه حتى يعود كما كان ، وتدفع الغنم إلى صاحب الكرم فيصيب منها حتى إذا كان الكرم كما كان ، دفعت الكرم إلى صاحبه ، ودفعت الغنم إلى صاحبها ، فذلك قوله : ﴿ ففهمناها سليمان ﴾^(١) وروى ابن أبي حاتم ، عن مسروق قال : الحرث الذي نفشت فيه الغنم إنما كان كرمًا فلم تدع فيه ورقة ولا عتقوداً من عنب إلا أكلته ، فأتوا داود فأعطاهم رقابها ، فقال سليمان : لا ؛ بل تؤخذ الغنم فيعطاهم أهل الكرم ، فيكون لهم لبنها ونفعها ، ويعطى أهل الغنم الكرم فيعمروه ويصلحوه حتى يعود كالذي كان ليلة نفشت فيه الغنم ، ثم يعطى أهل الغنم غنمهم وأهل الكرم كرمهم .

وقوله تعالى : ﴿ ففهمناها سليمان وكلاً آتينا حكماً وعلماً ﴾ قال ابن أبي حاتم : إن (إياس بن معاوية) لما استقضى آتاه الحسن فبكى ، فقال : ما يبكيك ؟ قال : يا أبا سعيد بلغني أن القضاة : رجل اجتهد فأخطأ فهو في النار ، ورجل مال به الهوى فهو في النار ، ورجل اجتهد فأصاب فهو في الجنة ، فقال الحسن البصري : إن فيما قص الله من نبأ داود وسليمان عليهما السلام والأنبياء حكماً يرد قول هؤلاء الناس عن قولهم ، قال الله تعالى : ﴿ وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرث إذ نفشت فيه غم القوم وكنا لحكمهم شاهدين ﴾ فأثنى الله على سليمان ولم يذم داود ، ثم قال الحسن : إن الله اتخذ على الحكام ثلاثاً : لا يشتروا به ثمناً قليلاً ، ولا يتبعوا فيه الهوى ولا يخشوا فيه أحداً ثم تلا : ﴿ يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ﴾ ، وقال : ﴿ فلا تخشوا الناس واخشوني ﴾ ، وقال : ﴿ ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً ﴾ . وفي صحيح البخاري عن عمرو ابن العاص أنه قال ، قال رسول الله ﷺ : « إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران ، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر » ، وفي السنن : القضاة ثلاثة قاض في الجنة وقاضيان في النار : رجل علم الحق وقضى به فهو في الجنة ، ورجل حكم بين الناس على جهل فهو في النار ، ورجل علم الحق وقضى بخلافه فهو في النار ، وقريب من هذه القصة المذكورة في القرآن ما رواه الإمام أحمد عن أبي هريرة قال ، قال رسول الله ﷺ : « بينا امرأتان معهما ابنان لهما إذ جاء الذئب ، فأخذ أحد الابنين ، فتحاكما إلى داود ، ففضى به للكبرى ، فخرجتا ، فدعاها سليمان ، فقال : هاتوا السكين أشقه بينكما ، فقالت الصغرى : يرحمك الله هو ابنها لا تشقه ، فقضى به للصغرى »^(٢)

وقوله تعالى : ﴿ وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير ﴾ الآية ، وذلك لطيب صوته بتلاوة الزبور ، وكان

(١) أخرجه ابن جرير ، وكذا روي عن ابن عباس .

(٢) الحديث أخرجه الإمام أحمد وأخرجه البخاري ومسلم في صحيحهما وبوّب له النسائي في كتاب القضاء .

إذا ترنم به تقف الطير في الهواء فتجاوبه، وترد عليه الجبال تأويباً، ولهذا لما مرّ النبي ﷺ على أبي موسى الأشعري وهو يتلو القرآن من الليل، وكان له صوت طيب جداً، فوقف واستمع لقراءته، وقال: «لقد أوتي هذا مزمراً من مزامير آل داود»، قال: يا رسول الله لو علمت أنك تستمع لحبّرتُه^(١) لك تحبيراً، وقوله: ﴿وعلمناه صنعة لبوس لكم لنحصنكم من بأسكم﴾ يعني صنعة الدروع، قال قتادة: إنما كانت الدروع قبله صفائح وهو أول من سردها حلقاتاً، كما قال تعالى: ﴿وَأَلْنَا لَهُ الْحَدِيدَ أَنْ أَعْمَلَ سَابِغَاتٍ وَقَدَّرَ فِي السَّرْدِ﴾ أي لا توسع الحلقة فتفلق المسامير ولا تغلظ المسامير فتتقد الحلقة، ولهذا قال: ﴿لنحصنكم من بأسكم﴾ يعني في القتال، ﴿فهل أتمم شاكرون﴾ أي نعم الله عليكم لما أهدى به عبده داود فعله ذلك من أجلكم، وقوله: ﴿ولسليمان الريح عاصفة﴾ أي وسخرنا لسليمان الريح العاصفة ﴿تجرى بأمره إلى الأرض التي باركنا فيها﴾ يعني أرض الشام ﴿وكننا بكل شيء عالمين﴾، وذلك أنه كان له بساط من خشب يوضع عليه كل ما يحتاج إليه من أمور المملكة والخيل والجمال والخيام والجند، ثم يأمر الريح أن تحمله فتدخل تحته ثم تحمله وترفعه وتسير به، وتظله الطير تقيه الحر إلى حيث يشاء من الأرض، فينزل وتوضع آلاته وحشمه، قال الله تعالى: ﴿فسخرنا له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب﴾، عن سعيد ابن جبير قال: كان يوضع لسليمان ستمائة ألف كرسي فيجلس مما يليه مؤمنو الإنس، ثم يجلس من ورائهم مؤمنو الجن، ثم يأمر الطير فتظلمهم، ثم يأمر الريح فتحملهم ﷺ^(٢). وقوله: ﴿ومن الشياطين من يغوصون له﴾ أي في الماء يستخرجون اللآلئ والجواهر وغير ذلك، ﴿ويعملون عملاً دون ذلك﴾ أي غير ذلك كما قال تعالى: ﴿والشياطين كل بناء وغواص وآخرين مقرنين في الأصفاد﴾، وقوله: ﴿وكنناهم حافظين﴾ أي يحرسه الله أن يناله أحد من الشياطين بسوء، بل كل في قبضته وتحت قهره لا يتجاسر أحد منهم على الدنو إليه والقرب منه، بل هو يحكم فيهم إن شاء أطلق وإن شاء حبس منهم من يشاء، ولهذا قال: ﴿وآخرين مقرنين في الأصفاد﴾.

* وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرِّهِ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ ﴿٨٤﴾

يذكر تعالى عن أيوب عليه السلام ما كان أصابه من البلاء في ماله وولده وجسده؛ وذلك أنه كان له من الدواب والأنعام والحرث شيء كثير وأولاد كثيرة ومنازل مرضية، فابتلي في ذلك كله وذهب عن آخره. وقد روي أنه مكث في البلاء مدة طويلة، ثماني عشرة سنة، فرفضه القريب والبعيد، إلا رجلين من إخوانه كانا من أخص إخوانه له، كانا يغدوان إليه ويروحان، فقال أحدهما لصاحبه: تعلم والله لقد أذنب أيوب ذنباً ما أذنبه أحد من العالمين، فقال له صاحبه: وما ذاك؟ قال: منذ ثماني عشرة سنة لم يرحمه الله فيكشف ما به، فلما راحا إليه لم يصبر الرجل، حتى ذكر ذلك له، فقال أيوب عليه السلام: ما أدري ما تقول غير أن الله عز وجل يعلم أي كنت أمر على الرجلين يتنازعان فيذكران الله، فأرجع إلى بيتي فأكفر عنهما كراهية أن يذكر الله إلا في حق^(٣)، قال ابن عباس:

(١) حسنته وزينته .

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير .

(٣) رواه ابن أبي حاتم عن أنس بن مالك مرفوعاً وفي رفعه نظر ، كما قال ابن كثير : رفع هذا غريب جداً .

ورد عليه ماله عياناً ومثلهم معهم، وقال وهب بن منبه: أوحى الله إلى أيوب: قد رددت عليك أهلك ومالك ومثلهم معهم، فاغتسل بهذا الماء، فإن فيه شفاءك، وقرب عن صحابتك قرباناً واستغفر لهم فإنهم قد عصوني فيك، وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «لما عافى الله أيوب أمطر عليه جراداً من ذهب، فجعل يأخذ منه بيده ويجعله في ثوبه قال: فقيل له: يا أيوب أما تشيع؟ قال: يارب ومن يشيع من رحمتك»^(١). وقوله: ﴿وآتيناه أهله ومثلهم معهم﴾ قد تقدم عن ابن عباس أنه قال: ردوا عليه بأعينهم، وقد زعم بعضهم أن اسم زوجته (رحمة) ويقال (ليا) بنت يعقوب عليه السلام، وقال مجاهد: قيل له: يا أيوب إن أهلك في الجنة، فإن شئت أتيناك بهم، وإن شئت تركناهم لك في الجنة وعوضناك مثلهم، قال: لا بل أتركهم في الجنة، فتركوا له في الجنة، وعوض مثلهم في الدنيا، وقوله: ﴿رحمة من عندنا﴾ أي فعلنا به ذلك رحمة من الله به ﴿وذكري للعابدين﴾ أي وجعلناه في ذلك قدوة لثلاثي أهل البلاء إنما فعلنا بهم ذلك لهُوانهم علينا، ولتأسوا به في الصبر على مقذورات الله، وابتلائه لعباده بما يشاء، وله الحكمة البالغة في ذلك.

وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٦﴾

وأما إسماعيل فالمراد به ابن إبراهيم الخليل عليهما السلام، وقد تقدم ذكره في سورة مريم، وكذا إدريس عليه السلام. وأما ذو الكفل فالظاهر من السياق أنه ما قرن مع الأنبياء إلا وهو نبي، وقال آخرون: إنما كان رجلاً صالحاً وكان ملكاً عادلاً وحكماً مقسطاً؛ وتوقف ابن جرير في ذلك فالله أعلم. قال مجاهد في قوله: ﴿وذا الكفل﴾ قال: رجل صالح غير نبي تكفل لبني قومه أن يكفيه أمر قومه، ويقمهم له، ويقضي بينهم بالعدل، ففعل ذلك، فسمي ذا الكفل. وقال ابن أبي حاتم، عن كنانة بن الأخنس قال: سمعت الأشعري وهو يقول على هذا المنبر: ما كان ذو الكفل نبي ولكن كان - يعني في بني إسرائيل - رجل صالح يصلي كل يوم مائة صلاة، فتكفل له ذو الكفل من بعده، فكان يصلي كل يوم مائة صلاة فسمي ذا الكفل^(٢).

﴿ وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغْلَبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَجَجَبْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُخَيِّجُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾

هذه القصة مذكورة ههنا وفي الصافات وفي سورة ن، وذلك أن (يونس بن متى) عليه السلام بعثه الله إلى أهل نينوى، وهي قرية من أرض الموصل، فدعاهم إلى الله تعالى، فأبوا عليه، وتنادوا على كفرهم، فخرج من بين أظهرهم مغاضباً لهم، ووعدهم بالعذاب بعد ثلاث، فلما تحققوا منه ذلك وعلموا أن النبي لا يكذب، خرجوا إلى الصحراء بأطفالهم وأنعامهم ومواشيهم، ثم تضرعوا إلى الله عز وجل، وجأروا إليه فرفع الله عنهم العذاب، قال الله تعالى: ﴿فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين﴾.

(١) أصل هذا الحديث في الصحيحين. (٢) أخرجه ابن أبي حاتم.

وأما يونس عليه السلام فإنه ذهب فركب مع قوم في سفينة، فلججت بهم، وخافوا أن يغرقوا، فاقترعوا على رجل يلقونه من بينهم يتخففون منه، فوَقعت القرعة على يونس، فأبوا أن يلقوه، ثم أعادوها فوقعت عليه أيضاً، فأبوا، ثم أعادوها فوقعت عليه أيضاً، قال الله تعالى: ﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ﴾، فقام يونس عليه السلام وتجرد من ثيابه، ثم ألقى نفسه في البحر، وقد أرسل الله سبحانه حوتاً يشق البحار، حتى جاء فالتقم (يونس) حين ألقى نفسه من السفينة، فأوحى الله إلى ذلك الحوت أن لا تأكل له لحماً ولا تهشم له عظماً، فإن يونس ليس لك رزقاً، وإنما بطنك تكون له سجناً، وقوله: ﴿وَذَا النُّونِ﴾ يعني الحوت صحت الإضافة إليه بهذه النسبة، وقوله: ﴿إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا﴾ قال الضحَّاك: لقومه ﴿فَظُنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ أي نصَّبِقُ^(١) عليه في بطن الحوت، وقال عطية العوفي: أي نقضي عليه، فإن العرب تقول: قدر وقدَّر بمعنى واحد. ومنه قوله تعالى: ﴿فالتقى الماء على أمرٍ قد قدر﴾: أي قدر، وقوله: ﴿فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت﴾ قال ابن مسعود: ظلمة بطن الحوت، وظلمة البحر، وظلمة الليل، وذلك أنه ذهب به الحوت في البحار يشقها حتى انتهى به إلى قرار البحر، فسمع يونس تسبيح الحصى في قراره، فعند ذلك قال: ﴿لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين﴾، وقيل: مكث في بطن الحوت أربعين يوماً، وقوله: ﴿فاستجبنا له ونجيناه من الغم﴾ أخرجناه من بطن الحوت وتلك الظلمات ﴿وكذلك ننجي المؤمنين﴾ أي إذا كانوا في الشدائد ودعونا منيين إلينا. قال عليه السلام: «دعوة ذي النون إذ هو في بطن الحوت: ﴿لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين﴾، فإنه لم يدع بها مسلم ربه في شيء إلا استجاب له»^(٢). وفي الحديث: «من دعا بدعاء يونس استجيب له»، قال أبو سعيد يريد به ﴿وكذلك ننجي المؤمنين﴾. وعن سعد بن أبي وقاص. قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «اسم الله الذي إذا دعى به أجاب، وإذا سئل به أعطى، دعوة يونس بن متى» قال، قلت: يا رسول الله هي ليونس خاصة أم لجماعة المسلمين؟ قال: «هي ليونس ابن متى خاصة، وجماعة المؤمنين عامة إذا دعوا بها، ألم تسمع قول الله عز وجل: ﴿فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين﴾ فاستجبنا له ونجيناه من الغم، وكذلك ننجي المؤمنين﴾، فهو شرط من الله لمن دعاه به»^(٣).

وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ وَزَوْجَهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۚ وَكَانُوا لَنَا خَشِيعِينَ ﴿٩٠﴾

يخبر تعالى عن عبده زكريا حين طلب أن يهبه الله ولداً يكون من بعده نبياً، ﴿إذ نادى ربه﴾ أي خفية عن قومه ﴿رب لا تذرني فرداً﴾ أي لا ولد لي ولا وارث يقوم بعدي في الناس ﴿وأنت خير الوارثين﴾ دعاء وثناء مناسب للمسألة، قال الله تعالى: ﴿فاستجبنا له ووهبنا له يحيى وأصلحنا له وزوجه﴾ أي امرأته، قال ابن عباس

(١) هذا التفسير مروى عن ابن عباس ومجاهد وغيرهم واختاره ابن جرير واستشهد عليه بقوله تعالى: ﴿ومن قدر عليه رزقه فلينفق بما آتاه الله﴾ أي ضيق عليه في الرزق.

(٢) هذا الحديث جزء من حديث طويل ذكره الإمام أحمد ورواه الترمذي والنسائي.

(٣) أخرجه ابن جرير عن سعيد بن أبي وقاص مرفوعاً ورواه ابن أبي حاتم بمثله.

ومجاهد وسعيد بن جبير : كانت عاقراً لا تلد فولدت ، وقال عطاء : كان في لسانها طول ، فأصلحها الله ، وفي رواية : كان في خلقها شيء فأصلحها الله ، والأظهر من السياق ؛ الأول ، وقوله : ﴿ إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ﴾ : أي في عمل القربات وفعل الطاعات ﴿ ويدعوننا رغباً ورهباً ﴾ قال الثوري : رغباً فيما عندنا ، ورهباً مما عندنا ﴿ وكانوا لنا خاشعين ﴾ ، قال ابن عباس : أي مصدقين بما أنزل الله ، وقال مجاهد : مؤمنين حقاً ، وقال أبو العالية : خائفين ، وقال الحسن وقتادة والضحاك ﴿ خاشعين ﴾ : أي متذللين لله عز وجل ، وكل هذه الأقوال متقاربة . وروى ابن أبي حاتم ، عن عبد الله بن حكيم قال : خطبنا أبو بكر رضي الله عنه ثم قال : أما بعد فإني أوصيكم بتقوى الله ، وتثنا عليه بما هو له أهل ، وتخلطوا الرغبة بالرهبة ، وتجمعوا الإلحاف بالمسألة فإن الله عز وجل أثنى على زكريا وأهل بيته فقال : ﴿ إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغباً ورهباً وكانوا لنا خاشعين ﴾ .

وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴿٩١﴾

هكذا يذكر تعالى قصة مريم وابنها عيسى عليهما السلام ، مقرونة بقصة زكريا وابنه يحيى عليهما السلام ، فيذكر أولاً قصة زكريا ، ثم يتبعها بقصة مريم ، لأن تلك مربوطة بهذه ، فإنها إيجاد ولد من شيخ كبير قد طعن في السن ، ومن امرأة عجوز عاقر ، لم تكن تلد في حال شبابها ، ثم يذكر قصة مريم ، وهي أعجب ، فإنها إيجاد ولد من أنثى بلا ذكر ، قال تعالى : ﴿ والتي أحصنت فرجها ﴾ ^(١) يعني مريم عليها السلام ، كما قال في سورة التحريم : ﴿ ومريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا ﴾ ، وقوله : ﴿ وجعلناها وابنها آية للعالمين ﴾ أي دلالة على أن الله على كل شيء قدير ، وأنه يخلق ما يشاء ، وإنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ، وهذا كقوله ﴿ ولنجعله آية للناس ﴾ قال ابن عباس في قوله : ﴿ للعالمين ﴾ قال : العالمين الجن والإنس .

إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾ وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلَّ إِلِينَا رَاغِعُونَ ﴿٩٣﴾ فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ ﴿٩٤﴾

قال ابن عباس ﴿ إن هذه أمتكم أمة واحدة ﴾ يقول : دينكم دين واحد ، أي هذه شريعتكم التي بينت لكم ووضحت لكم . وقال رسول الله ﷺ : « نحن معاشر الأنبياء أولاد علات ديننا واحد » ، يعني أن المقصود هو عبادة الله وحده لا شريك له بشرائع متنوعة لرسله ، كما قال تعالى : ﴿ لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ﴾ ، وقوله ﴿ وتقطعوا أمرهم بينهم ﴾ أي اختلفت الأمم على رسلها فمن بين مصدق لم ومكذب ، ولهذا قال ﴿ كل إلينا راجعون ﴾ أي يوم

(١) يراد من الفرج : فرج القميص : أي لم يعلق بثوبها ربية ، أي أنها طاهرة الأثواب ، قال السهيلي : فلا يذهبن وهمك إلى غير هذا من لطيف الكناية ، لأن القرآن أنزه معنى ، وأوزن لفظاً ، وألطف إشارة ، وأملح عبارة من أن يريد ما يذهب إليه وهم الجاهلين ، لا سيما والنفخ من روح القدس بأمر القدوس ، فأضعف القدس إلى القدوس ونزه المقدسة المطهرة عن الظن الكاذب والحدس .

القيامة فيجازى كل بحسب عمله إن خيراً فخير وإن شراً فشر ، ولهذا قال ﴿ فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن ﴾ أي قلبه مصدق وعمل عملاً صالحاً ﴿ فلا كفران لسعيه ﴾ ، كقوله ﴿ إنا لا نضيع أجر من أحسن عملاً ﴾ أي لا يكفر سعيه وهو عمله ، بل يشكر فلا يظلم مثقال ذرة ، ولهذا قال ﴿ وإنا له كاتبون ﴾ أي يكتب جميع عمله فلا يضيع عليه منه شيء .

وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾ حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِمَّنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَأَقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَرُ الَّذِينَ كَفَرُوا يُؤْيِلْنَا قَدْ كَفَّ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٩٧﴾

يقول تعالى : ﴿ وحرام على قرية ﴾ قال ابن عباس : وجب ، يعني قد قدر أن أهل كل قرية أهلكوا أنهم لا يرجعون إلى الدنيا قبل يوم القيامة ، وفي رواية عن ابن عباس أنهم لا يرجعون أي لا يتوبون ، والقول الأول أظهر والله أعلم ، وقوله : ﴿ حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج ﴾ قد قدمنا أنهم من سلالة آدم عليه السلام ، بل هم من نسل نوح أيضاً من أولاد (يافث) أي أبي الترك ، والترك شرذمة منهم ، ﴿ حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون ﴾ أي يسرعون في المشي إلى الفساد ، والحدب هو المرتفع من الأرض ^(١) . وهذه صفتهم في حال خروجهم ، كأن السامع مشاهد لذلك ﴿ ولا ينبئك مثل خبِير ﴾ هذا إخبار الذي يعلم غيب السماوات والأرض لا إله إلا هو ، وقال ابن جرير : رأى ابن عباس صبيانياً يتزو بعضهم على بعض يلعبون ، فقال ابن عباس : هكذا يخرج يأجوج ومأجوج ، وقد ورد ذكر خروجهم في أحاديث متعددة من السنة النبوية ، فروى الإمام أحمد ، عن أبي سعيد الخدري قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « تفتح يأجوج ومأجوج فيخرجون على الناس ، كما قال الله عز وجل : ﴿ وهم من كل حدب ينسلون ﴾ فيغشون الناس وينحاز المسلمون عنهم إلى مدائنهم وحصونهم ويضمون إليهم مواشيهم ، ويشربون مياه الأرض ، حتى إن بعضهم ليمر بالنهر فيشربون ما فيه حتى يتركوه يابساً ، حتى إن من بعدهم ليمر بذلك النهر فيقول : قد كان ههنا ماء مرة ، حتى إذا لم يبق من الناس أحد إلا أحد في حصن أو مدينة ، قال قائلهم : هؤلاء أهل الأرض قد فرغنا منهم بقي أهل السماء ، قال : ثم يهز أحدهم حربته ثم يرمي بها إلى السماء فترجع إليه مخضبة دماً للبلاء والفتنة ، فبينما هم على ذلك بعث الله عز وجل دوداً في أعناقهم كنفج الجراد الذي يخرج في أعناقه ، فيصبحون موتى لا يسمع لهم حس ، فيقول المسلمون : ألا رجل يشري لنا نفسه فينظر ما فعل هذا العدو ، قال : فينحدر رجل منهم محتسباً نفسه قد أوطئها على أنه مقتول فينزل ، فيجدهم موتى بعضهم على بعض ، فينادي : يا معشر المسلمين ألا أبشروا إن الله عز وجل قد كفاكم عدوكم ، فيخرجون من مدائنهم وحصونهم ويسرحون مواشيهم ، فما يكون لهم رعي إلا لحومهم فتشكر عنهم كأحسن ما شكرت عن شيء من النبات أصابته قط ^(٢) .

وفي حديث الدجال : « فبينما هم كذلك إذ أوحى الله عز وجل إلى عيسى بن مريم عليه السلام أي قد أخرجت

(١) قاله ابن عباس وعكرمة وأبو صالح والثوري وغيرهم .

(٢) أخرجه الإمام أحمد ورواه ابن ماجه عن أبي سعيد الخدري .

عباداً من عبادي لا يدان لك بقتالهم، فحرر عبادي إلى الطور فيبعث الله عز وجل يأجوج ومأجوج، كما قال تعالى: ﴿وهم من كل حذب ينسلون﴾ فيرغب عيسى وأصحابه إلى الله عز وجل، فيرسل عليهم نغفاً في رقابهم فيصبحون فرسى كموت نفس واحدة، فيهبط عيسى وأصحابه، فلا يجدون في الأرض بيتاً إلا قد ملأه زهمهم وبتهم، فيرغب عيسى وأصحابه إلى الله عز وجل، فيرسل الله عليهم طيراً كأعناق البخت فتحملهم فتطرحهم حيث شاء الله»، قال ابن جابر: فحدثني عطاء بن يزيد السكسكي عن كعب أو غيره قال: فتطرحهم بالمهيل. قال ابن جابر، فقلت: يا أبا يزيد وأين المهيل؟ قال: مطلع الشمس، قال: «ويرسل الله مطراً لا يكن منه بيت مدر ولا وبر أربعين يوماً، فيغسل الأرض حتى يتركها كالزَّلَقَة، ويقال للأرض انبتي ثمرك ودري بركتك، قال: فيومئذ يأكل النفر من الرمانة، فيستظلون بقحفها ويبارك في الرسل، حتى إن اللقحة من الإبل لتكفي الفئام من الناس، واللقحة من البقر تكفي الفخذ، والشاة من الغنم تكفي أهل البيت، قال: فيبهاهم على ذلك إذ بعث الله عز وجل ريحاً طيبة فتأخذهم تحت آباطهم فتقبض روح كل مسلم - أو كما قال مؤمن - ويبقى شرار الناس يتهاجرون تهارج الحمر وعليهم تقوم الساعة»^(١).

وقد ثبت في الحديث أن عيسى بن مريم يحج البيت العتيق، وعن أبي سعيد قال، قال رسول الله ﷺ: «ليحجن هذا البيت وليعتمرن بعد خروج يأجوج ومأجوج». وقوله: ﴿واقرب الوعد الحق﴾ يعني يوم القيامة إذا حصلت هذه الأحوال والزلازل والبلابل أزفت الساعة واقتربت، فإذا كانت وقعت، قال الكافرون: هذا يوم عسر، ولهذا قال تعالى: ﴿فإذا هي شاخصة أبصار الذين كفروا﴾ أي من شدة ما يشاهدونه من الأمور العظام، ﴿يا ويلنا﴾ أي يقولون يا ويلنا ﴿قد كنا في غفلة من هذا﴾ أي في الدنيا، ﴿بل كنا ظالمين﴾ يعترفون بظلمهم لأنفسهم حيث لا ينفعهم ذلك.

إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ آلِهَةً مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَ الْحَسَنِی أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا أُشْتَهتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَرَعُ الْأَكْبَرُ وَتُلْقَاهُمُ الْمَلٰئِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾

يقول تعالى: مخاطباً لأهل مكة من مشركي قريش ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم﴾ قال ابن عباس: أي وقودها، يعني كقوله ﴿وقودها الناس والحجارة﴾. وفي رواية قال: ﴿حصب جهنم﴾ يعني حطب جهنم^(٢). وقال الضحاك ﴿حصب جهنم﴾: أي ما يرمى به فيها، والجمع قريب، وقوله ﴿أنتم لها واردون﴾: أي داخلون، ﴿لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها﴾ يعني لو كانت هذه الأصنام والأنداد آلهة صحيحة

(١) أخرجه مسلم وأحمد وأصحاب السنن، وقال الترمذي: حسن صحيح.

(٢) وهو قول مجاهد وعكرمة وقتادة.

لما وردوا النار وما دخلوها، ﴿ وكل فيها خالدون ﴾: أي العابدون ومعبوداتهم كلهم فيها خالدون، ﴿ لهم فيها زفير ﴾ كما قال تعالى ﴿ لهم فيها زفير وشهيق ﴾، والزفير: خروج أنفاسهم، والشهيق ولوج أنفاسهم ﴿ وهم فيها لا يسمعون ﴾، قال ابن أبي حاتم، عن ابن مسعود: إذا بقي من يخلد في النار جعلوا في توابيت من نار فيها مسامير من نار، فلا يرى أحد منهم أنه يعذب في النار غيره، ثم تلا عبد الله: ﴿ لهم فيها زفير وهم فيها لا يسمعون ﴾، وقوله: ﴿ إن الذين سبقت لهم منا الحسنى ﴾ قال عكرمة: الرحمة، وقال غيره: السعادة ﴿ أولئك عنها مبعدون ﴾. لما ذكر تعالى أهل النار وعذابهم بسبب شركهم بالله، عطف بذكر السعداء من المؤمنين بالله ورسوله، وهم الذين سبقت لهم من الله السعادة وأسلفوا الأعمال الصالحة في الدنيا كما قال تعالى: ﴿ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ﴾، وقال: ﴿ هل جزاء الإحسان إلا الإحسان ﴾، فكما أحسنوا العمل في الدنيا أحسن الله ما بهم وثوابهم ونجّاهم من العذاب وحصل لهم جزيل الثواب، فقال ﴿ أولئك عنها مبعدون لا يسمعون حسيها ﴾ أي حريقها في الأجساد، عن أبي عثمان ﴿ لا يسمعون حسيها ﴾ قال: حيات على الصراط تلسعهم، فإذا لسعتم قال حس حس، وقوله: ﴿ وهم فيما اشتبهت أنفسهم خالدون ﴾ فسلمهم من المحذور والمرهوب، وحصل لهم المطلوب والمحجوب.

قال ابن عباس: ﴿ أولئك عنها مبعدون ﴾ فأولئك أولياء الله يمشون على الصراط مرأ هو أسرع من البرق، ويبقى الكفار فيها جثياً، فهذا مطابق لما ذكرناه. وقال آخرون: بل نزلت استثناء من المعبودين وخرج منهم عزير والمسيح كما قال ابن عباس ﴿ إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أتم لها واردون ﴾، ثم استثنى، فقال: ﴿ إن الذين سبقت لهم منا الحسنى ﴾ فيقال: هم الملائكة وعيسى ونحو ذلك مما يعبد من دون الله عز وجل، وقال الضحّاك عن ابن عباس في قوله ﴿ إن الذين سبقت لهم منا الحسنى ﴾ قال: نزلت في عيسى بن مريم وعزير عليهما السلام. وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد ﴿ أولئك عنها مبعدون ﴾ قال: عيسى وعزير والملائكة، وقال الضحّاك: عيسى ومريم والملائكة والشمس والقمر. والآية إنما نزلت خطاباً لأهل مكة في عبادتهم الأصنام التي هي جماد لا تعقل ليكون ذلك تقريباً وتوبيخاً لعبادها، ولهذا قال: ﴿ إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم ﴾ فكيف يورد على هذا المسيح والعزير ونحوهما ممن له عمل صالح ولم يرض بعبادة من عبده؟ وعول ابن جرير في تفسيره في الجواب على أن (ما) لما لا يعقل عند العرب. وقوله: ﴿ لا يحزنهم الفزع الأكبر ﴾ قيل: المراد بذلك الموت، قاله عطاء. وقيل: المراد بالفزع الأكبر الفسخة في الصور، قاله ابن عباس واختاره ابن جرير في تفسيره. وقيل: حين يؤمر بالعبد إلى النار، قاله الحسن البصري؛ وقيل: حين تطبق النار على أهلها، قاله سعيد بن جبير وابن جريج، وقوله: ﴿ وتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون ﴾ يعني تقول لهم الملائكة تبشرهم يوم معادهم إذا خرجوا من قبورهم ﴿ هذا يومكم الذي كنتم توعدون ﴾ أي فأملوا ما يسركم.

يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجْلِ لِلْكِتَابِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدَّا عَلَيْهَا إِنَّا كَّا فَعَلِينِ ﴿١٠٤﴾

يقول تعالى: هذا كائن يوم القيامة ﴿ يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب ﴾، كما قال تعالى: ﴿ وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾.

عن ابن عمر، عن رسول الله ﷺ قال: «إن الله يقبض يوم القيامة الأرضين وتكون السماوات بيمينه»^(١) وعن ابن عباس قال: يطوي الله السماوات السبع بما فيها من الخليقة والأرضين السبع بما فيها من الخليقة يطوي ذلك كله بيمينه يكون ذلك كله في يده بمتزلة خردلة^(٢). وقوله: ﴿كُتِبَ السَّجْدُ لِلْكِتَابِ﴾ قيل: المراد بالسجل الكتاب، وقيل: المراد بالسجل ههنا ملك من الملائكة، والصحيح عن ابن عباس أن السجل هي الصحيفة، ونص على ذلك مجاهد وقتادة وغير واحد، واختاره ابن جرير لأنه المعروف في اللغة؛ فعلى هذا يكون معنى الكلام: يوم نظوي السماء كطي السجل للكتاب، أي على الكتاب بمعنى المكتوب كقوله: ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾ أي على الجبين، وله نظائر في اللغة، والله أعلم. وقوله: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نَعِيدُهُ وَعَدًّا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ يعني هذا كائن لا محالة يوم يعيد الله الخلاق خلقاً جديداً كما بدأهم هو القادر على إعادتهم، وذلك واجب الوقوع لأنه من جملة وعد الله الذي لا يخلف ولا يبدل وهو القادر على ذلك، ولهذا قال: ﴿إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾. عن ابن عباس قال: قام فينا رسول الله ﷺ بموعظة فقال: «إنكم محشورون إلى الله عز وجل حفاة عراة غرلاً، كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا إنا كنا فاعلين»، وذكر تمام الحديث^(٣)، قال ابن عباس في قوله: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نَعِيدُهُ﴾ قال: يهلك كل شيء كما كان أول مرة.

وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَبْدِينَ ﴿١٠٦﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾

يقول تعالى مخبراً عما حتمه وقضاه لعباده الصالحين من السعادة في الدنيا والآخرة ووراثه الأرض في الدنيا والآخرة كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ وقال: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾، وقال: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ﴾، وأخبر تعالى أن هذا مسطور في الكتب الشرعية والقدرية وهو كائن لا محالة، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ﴾. قال مجاهد: الزبور الكتاب، وقال ابن عباس والحسن: ﴿الزبور﴾ الذي أنزل على داود و﴿الذکر﴾ التوراة، وعن ابن عباس: الذکر القرآن. وقال سعيد بن جبیر: الذکر الذي في السماء، وقال مجاهد: الزبور الكتاب، والذکر أم الكتاب عند الله، واختار ذلك ابن جرير رحمه الله، وكذا قال زيد بن أسلم هو الكتاب الأول، وقال الثوري: هو اللوح المحفوظ. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: الزبور الكتب التي أنزلت على الأنبياء، والذکر أم الكتاب الذي يكتب فيه الأشياء قبل ذلك، أخبر الله سبحانه وتعالى في التوراة والزبور وسابق علمه قبل أن تكون السماوات والأرض أن يورث أمّة محمد ﷺ الأرض، ويدخلهم الجنة وهم الصالحون^(٤). وقال ابن عباس: ﴿أَنَّ

(١) أخرجه البخاري عن ابن عمر مرفوعاً .

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم عن ابن عباس

(٣) الحديث أخرجه في الصحيحين ورواه الإمام أحمد عن ابن عباس . (٤) رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس

الأرض يرثها عبادي الصالحون ﴿١٠٨﴾ قال: أرض الجنة، وقال أبو الدرداء: نحن الصالحون، وقال السدي: هم المؤمنون ﴿١٠٩﴾. وقوله ﴿١١٠﴾ إن في هذا لبلاغاً لقوم عابدين ﴿١١١﴾ أي إن في هذا القرآن الذي أنزلناه على عبدنا محمد ﷺ لبلاغاً ﴿١١٢﴾ لمنفعة وكفاية ﴿١١٣﴾ لقوم عابدين ﴿١١٤﴾ وهم الذين عبدوا الله فيما شرعه وأحبه ورضيه وآثروا طاعة الله على طاعة الشيطان وشهوات أنفسهم. وقوله: ﴿١١٥﴾ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴿١١٦﴾ يخبر تعالى أن الله جعل محمداً ﷺ رحمة للعالمين أي أرسله رحمة لهم كلهم، فمن قبل هذه الرحمة وشكر هذه النعمة سعد في الدنيا والآخرة، ومن ردها وجعلها خسر الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿١١٧﴾ ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار جهنم يصلونها وبئس القرار ﴿١١٨﴾.

وقال تعالى في صفة القرآن: ﴿١١٩﴾ قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى أولئك ينادون من مكان بعيد ﴿١٢٠﴾. وقال مسلم في صحيحه، عن أبي هريرة قال: قيل يا رسول الله ادع على المشركين، قال: «إني لم أبعث لعناً وإنما بعثت رحمة»، وفي الحديث الآخر: «إنما أنا رحمة مهداة» ﴿١٢١﴾، وفي الحديث الذي رواه الطبراني: «إني رحمة بعثني الله ولا يتوفاني حتى يظهر الله دينه، لي خمسة أسماء: أنا محمد، وأحمد، وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب». وفي الحديث الذي رواه الإمام أحمد: «أيما رجل سببته في غضبي أو لعنته لعنة، فإنما أنا رجل من ولد آدم، أغضب كما تغضبون وإنما بعثني الله رحمة للعالمين، فأجعلها صلاة عليه يوم القيامة» ﴿١٢٢﴾، فإن قيل: فأي رحمة حصلت لمن كفر به؟ فالجواب ما رواه أبو جعفر بن جرير عن ابن عباس في قوله ﴿١٢٣﴾ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴿١٢٤﴾ قال: من آمن بالله واليوم الآخر كتب له الرحمة في الدنيا والآخرة، ومن لم يؤمن بالله ورسوله عوفي مما أصاب الأمم من الخسف والقذف.

قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَىٰ أُمَّةٍ إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ ۗ فَهَلْ أُنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٢٥﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ ءَاذَنْتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ وَإِنْ أَدْرَىٰ أَقْرَبٌ أَمْ بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٢٦﴾ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١٢٧﴾ وَإِنْ أَدْرَىٰ لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٢٨﴾ قُلْ رَبِّ أَحْكُم بِالْحَقِّ ۗ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٢٩﴾

يقول تعالى أمراً رسوله صلوات الله وسلامه عليه أن يقول للمشركين ﴿١٢٥﴾ إنما يوحى إلي أنما إلهكم إله واحد فهل أنتم مسلمون ﴿١٢٦﴾؟ أي متبعون على ذلك مستسلمون متقادون له، ﴿١٢٧﴾ فإن تولوا ﴿١٢٨﴾ أي تركوا ما دعوتهم إليه ﴿١٢٩﴾ فقل آذنتكم على سواء ﴿١٣٠﴾ أي أعلمتكم أي حرب لكم كما أنتم حرب لي، بريء منكم كما أنتم برآء مني، كقوله: ﴿١٣١﴾ وإن كذبوك فقل لي عملي ولكم عملكم أنتم بريئون مما أعمل وأنا بريء مما تعملون ﴿١٣٢﴾، وقال: ﴿١٣٣﴾ وإما تخافن من قوم

(١) وقال أبو الدرداء: الأرض هي الشام، والصالحون: الأمة المحمدية.

(٢) أخرجه الحافظ ابن عساكر عن أبي هريرة مرفوعاً، وسئل البخاري عن هذا الحديث فقال: كان عند حفص بن غياث رسلاً، وروي عن ابن عمر مرفوعاً: «إن الله بعثني رحمة مهداة بعثت برفع قوم وخفض آخرين».

(٣) أخرجه الإمام أحمد وأبو داود ولفظه عن حذيفة أن رسول الله ﷺ خطب فقال ... فذكره.

خيانة فانبذ إليهم على سواء ﴿١٠٨﴾ ، أي ليكن علمك وعلمهم بنبذ اليهود على السواء وهكذا ههنا ﴿١٠٩﴾ فإن تولوا فقل آذنتكم على سواء ﴿١١٠﴾ أي أعلمتكم ببراءتي منكم وبراءتكم مني لعلمي بذلك ، وقوله : ﴿١١١﴾ وإن أدري أقرب أم بعيد ما توعدون ﴿١١٢﴾ أي هو واقع لا محالة ولكن لا علم لي بقربه ولا ببعده ، ﴿١١٣﴾ إنه يعلم الجهر من القول ويعلم ما تكتمون ﴿١١٤﴾ أي إن الله يعلم الغيب جميعه ، ويعلم ما يظهره العباد وما يسرون ، يعلم الظواهر والضمائر ، ويعلم السر وأخفى ، ويعلم ما العباد عاملون في إجهارهم وإسرارهم ، وسيجزئهم على ذلك القليل والجليل . وقوله ﴿١١٥﴾ وإن أدري لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين ﴿١١٦﴾ أي وما أدري لعل هذا فتنة لكم ومتاع إلى حين ، قال ابن جرير : لعل تأخير ذلك عنكم فتنة لكم ومتاع إلى أجل مسمى ^(١) ، ﴿١١٧﴾ قال رب احكم بالحق ﴿١١٨﴾ أي افصل بيننا وبين قومنا المكذبين بالحق ، قال قتادة : كانت الأنبياء عليهم السلام يقولون : ﴿١١٩﴾ ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين ﴿١٢٠﴾ ، وأمر رسول الله ﷺ أن يقول ذلك . وعن مالك ، عن زيد بن أسلم : كان رسول الله ﷺ إذا شهد غزاة قال : ﴿١٢١﴾ رب احكم بالحق ﴿١٢٢﴾ ، وقوله : ﴿١٢٣﴾ وربنا الرحمن المستعان على ما تصفون ﴿١٢٤﴾ أي على ما يقولون ويفترون من الكذب ، ويتنوعون في مقامات التكذيب والإفك ، والله المستعان عليكم في ذلك .

[آخر تفسير سورة الأنبياء عليهم السلام . والله الحمد والمنة]

* * *

(١) وحكي هذا القول عن ابن عباس رضي الله عنهما .

(٢٢) سُورَةُ الْجَاحِ فَلَنُنَبِّئَنَّ
وَأَيُّهَا الْمَأْتُونَ وَسَكَّابُونَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَأْتِيهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوُنَّهَا تُذْهِلُ كُلَّ مَرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾

يقول تعالى آمراً عباده بتقواه ، ومخبراً لهم بما يستقبلون من أهوال يوم القيامة وأحوالها ، وقد اختلف المفسرون في زلزلة الساعة ، هل هي بعد قيام الناس من قبورهم يوم نشورهم إلى عرصات القيامة ، أو ذلك عبارة عن زلزلة الأرض قبل قيام الناس من أجدانهم ، كما قال تعالى : ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زَلَّالَهَا وَأُخْرِجَتِ الْأَرْضُ أَنْقَالَهَا ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ وَحَمَلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴾ الآية ، فقال قائلون : هذه الزلزلة كائنة في آخر عمر الدنيا وأول أحوال الساعة ، عن علقمة في قوله ﴿ إِنْ زُلْزِلَتِ السَّاعَةُ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴾ قال : قبل الساعة^(١) . وعن عامر الشعبي قال : هذا في الدنيا قبل يوم القيامة ، وقد أورد الإمام ابن جرير في حديث الصور عن أبي هريرة قال ، قال رسول الله ﷺ : « إِنْ لَمْ يَفْرَغْ مِنْ خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، خَلَقَ الصُّورَ فَأَعْطَاهُ إِسْرَافِيلَ ، فَهُوَ وَاضِعُهُ عَلَىٰ فِيهِ شَاحِصٌ يَبْصُرُهُ إِلَى الْعَرْشِ ، يَنْتَظِرُ مَتَى يَوْمَرُ . » قال أبو هريرة : يا رسول الله ! وما الصور ؟ قال : « قرن » ، قال : فكيف هو ؟ قال : « قرن عظيم ينفخ فيه ثلاث نفخات : الأولى نفخة الفزع ، والثانية نفخة الصعق ، والثالثة نفخة القيام لرب العالمين ، يأمر الله إسرافيل بالنفخة الأولى ، فيقول : انفخ نفخة الفزع ، فيفزع أهل السماوات وأهل الأرض إلا من شاء الله ، ويأمره فيمدها ويطولها ولا يفتّر ، وهي التي يقول الله تعالى : ﴿ وَمَا يَنْظُرُ هُوَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِنْ فَوْقِ ﴾ ، تفسير الجبال فتكون تراباً ، وترج الأرض بأهلها رجاً وهي التي يقول الله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَرْجَفُ الرَّاجِفَةُ ، تَتَّبِعُهَا الرَّادِفَةُ ، قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴾ ، فتكون الأرض كالسفينة الموقفة في البحر تضربها الأمواج تكفؤها بأهلها ، وكالقنديل المعلق بالعرش ترجحه الأرواح ، فيمتد الناس على ظهرها ، فتذهل المراضع وتضع الحوامل ويشيب الولدان ، وتطير الشياطين هاربة حتى تأتي الأقطار فتلقاها الملائكة فتضرب وجوهها فترجع ويولي الناس مدبرين ينادي بعضهم بعضاً ، وهي التي يقول الله تعالى :

(١) ذكره ابن جرير وابن أبي حاتم عن إبراهيم عن علقمة .

﴿ يوم التناد يوم تولون مدبرين ما لكم من الله من عاصم ومن يضلل الله فإله من هاد ﴾ . فبينما هم على ذلك إذ انصدعت الأرض من قطر إلى قطر ورأوا أمراً عظيماً، فأخذهم لذلك من الكرب ما الله أعلم به، ثم نظروا إلى السماء فإذا هي كالملهل، ثم خسف شمسها وقمرها وانثرت نجومها ثم كسخت عنهم - قال رسول الله ﷺ : والاموات لا يعلمون بشيء من ذلك ، قال أبو هريرة: فن استثنى الله حين يقول: ﴿ ففرع من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء ﴾ قال: « أولئك الشهداء، وإنما يصل الفرع إلى الأحياء، أولئك أحياء عند ربهم يرزقون ووقاهم الله شر ذلك اليوم وآمنهم، وهو عذاب الله يبعثه على شرار خلقه وهو الذي يقول الله: ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد ﴾ »^(١) . وهذا الحديث دل على أن هذه الزلزلة كائنة قبل يوم الساعة، أضيفت إلى الساعة لقربها منها، كما يقال أشرط الساعة ونحو ذلك والله أعلم.

وقال آخرون: بل ذلك هول وفرع وزلزال كائن يوم القيامة في العرصات بعد القيام من القبور، واختار ذلك ابن جرير، واحتجوا بأحاديث:

(الحديث الأول): عن عمران بن حصين أن النبي ﷺ قال: لما نزلت ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم - إلى قوله - ولكن عذاب الله شديد ﴾ قال: نزلت عليه هذه الآية وهو في سفر فقال: « أتدرون أي يوم ذلك؟ » قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: « ذلك يوم يقول الله لآدم ابعث بعث النار، قال: يارب وما بعث النار؟ قال: تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار وواحد إلى الجنة، فأنشأ المسلمون ييكون، فقال رسول الله ﷺ: « قاربوا وسددوا فإنها لم تكن نبوة قط إلا كان بين يديها جاهلية، قال فيؤخذ العدد من الجاهلية فإن تمت وإلا كملت من المنافقين، وما مثلكم ومثل الأمم إلا كمثل الرقمة في ذراع الدابة أو كالشامة في جنب البعير، » ثم قال: « إني لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة، فكبروا، ثم قال: « إني لأرجو أن تكونوا ثلث أهل الجنة، فكبروا، ثم قال: « إني لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة، فكبروا، ثم قال: « ولا أدري أقال الثلثين أم لا؟ »^(٢) .

(الحديث الثاني): قال البخاري عند تفسير هذه الآية، عن أبي سعيد الخدري قال، قال النبي ﷺ: « يقول الله تعالى يوم القيامة: يا آدم، فيقول: لبيك ربنا وسعديك، فينادى بصوت إن الله يأمرك أن تخرج من ذريتك بعثاً إلى النار، قال: يارب وما بعث النار؟ قال: من كل ألف - أراه قال - تسعمائة وتسعة وتسعون، فحينئذ تضع الحامل حملها ويشيب الوليد ﴿ وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد ﴾، فشق ذلك على الناس حتى تغيرت وجوههم، قال النبي ﷺ: « من يأجوج ومأجوج تسعمائة وتسعة وتسعون ومنكم واحد، أتم في الناس كالشعرة السوداء في جنب الثور الأبيض، أو كالشعرة البيضاء في جنب الثور الأسود، إني لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة، فكبّرنا، ثم قال: ثلث أهل الجنة، فكبّرنا، ثم قال: شطر أهل الجنة، فكبّرنا^(٣) .

(١) الحديث رواه الطبراني وابن جرير وابن أبي حاتم وغيرهم .

(٢) الحديث أخرجه الترمذي والإمام أحمد عن عمران بن حصين، وقال الترمذي: حديث صحيح .

(٣) أخرجه البخاري ومسلم والنسائي عن أبي سعيد الخدري .

وقال مجاهد: جاء يهودي فقال يا محمد: أخبرني عن ربك، من أي شيء هو؟ من در أم من ياقوت؟ قال: فجاءت صاعقة فأخذته .

* يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِّن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِّن عِلْقَةٍ ثُمَّ مِّن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِنَبْلُوَكُمْ أَشَدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ وَأُنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَالِمُ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ ﴿٧﴾

لما ذكر تعالى المخالف للبعث المنكر للمعاد، ذكر تعالى الدليل على قدرته تعالى على المعاد، بما يشاهد من بدئه للخلق فقال: ﴿يا أيها الناس إن كنتم في ريب في شك﴾ من البعث وهو المعاد، وقيام الأرواح والأجساد يوم القيامة، ﴿فإننا خلقناكم من تراب﴾ أي أصل برثه لكم من تراب وهو الذي خلق منه آدم عليه السلام، ﴿ثم من نطفة﴾ أي ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين، ﴿ثم من علقه ثم من مضغة﴾، وذلك أنه إذا استقرت النطفة في رحم المرأة مكثت أربعين يوماً كذلك يضاف إليه ما يجتمع إليها، ثم تقلب علقه حمراء بإذن الله فتمكث كذلك أربعين يوماً، ثم تستحيل فتصير مضغة قطعة من لحم لا شكل فيها ولا تخطيط، ثم يشرع في التشكيل والتخطيط فيصور منها رأس ويدان وصدر وبطن وفخذان ورجلان وساير الأعضاء، فتارة تسقطها المرأة قبل التشكيل والتخطيط، وتارة تلقيها وقد صارت ذات شكل وتخطيط، ولهذا قال تعالى: ﴿ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة﴾ أي كما تشاهدونها، ﴿لنبين لكم ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى﴾ أي وتارة تستقر في الرحم لا تلقيها المرأة ولا تسقطها، كما قال مجاهد في قوله تعالى: ﴿مخلقة وغير مخلقة﴾ قال: هو السقط مخلوق وغير مخلوق، فإذا مضى عليها أربعون يوماً وهي مضغة أرسل الله تعالى ملكا إليها فنفخ فيها الروح وسواها كما يشاء الله عز وجل، من حسن وقبح وذكر وأنثى، وكتب رزقها وأجلها، وشقي أو سعيد، كما ثبت في الصحيحين عن ابن مسعود قال: حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق: «إن خلق أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين ليلة نطفة، ثم يكون علقه مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث الله إليه الملك فيؤمر بأربع كلمات فيكتب رزقه وعمله وأجله وشقي أو سعيد، ثم ينفخ فيه الروح» .

وروى ابن أبي حاتم، عن عبد الله بن مسعود قال: النطفة إذا استقرت في الرحم جاءها ملك بكفه، فقال: يارب مخلقة أو غير مخلقة؟ فإن قيل: غير مخلقة لم تكن نسمة وقدفتها الأرحام دماً، وإن قيل: مخلقة، قال: أي رب ذكر أو أنثى، شقي أو سعيد، ما الأجل وما الأثر؟ وبأي أرض يموت؟ قال، فيقال للنطفة من ربك؟ فتقول: الله، فيقال من رازقك؟ فتقول: الله، فيقال له: اذهب إلى الكتاب فإنك ستجد فيه قصة هذه النطفة، قال: فتخلق فتعيش في أجلها وتأكل رزقها، وتطأ أثرها حتى إذا جاء أجلها ماتت فدفنت في ذلك، ثم تلا عامر

الشعبي: ﴿ يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة ﴾^(١)، وقال ابن أبي حاتم، عن حذيفة بن أسيد يبلغ به النبي ﷺ قال: « يدخل الملك على النطفة بعد ما تستقر في الرحم بأربعين يوماً أو خمس وأربعين فيقول: أي رب أشقي أم سعيد؟ فيقول الله، ويكتبان فيقول: أذكر أم أنثى؟ فيقول الله، ويكتبان، ويكتب عمله وأثره ورزقه وأجله، ثم تطوى الصحف، فلا يزداد على ما فيها ولا ينقص^(٢) ». ﴿ ثم نخرجكم طفلاً ﴾ أي ضعيفاً في بدنه وسمعه وبصره وحواسه، ثم يعطيه الله القوة شيئاً فشيئاً، ويلطف به ويحنن عليه والديه، ولهذا قال ﴿ ثم لتبلغوا أشدكم ﴾ أي بتكامل القوى، ويتزايد ويصل إلى عنفوان الشباب وحسن المنظر، ﴿ ومنكم من يتوفى ﴾ أي في حال شبابه وقواه، ﴿ ومنكم من يرد إلى أرذل العمر ﴾ وهو الشيخوخة والهرم وضعف القوة والعقل والفهم وتناقص الأحوال من الخرف وضعف الفكر، ولهذا قال: ﴿ لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً ﴾، كما قال تعالى: ﴿ الله الذي خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة، ثم جعل من بعد قوة ضعفاً وشيبة ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ وترى الأرض هامدة ﴾ هذا دليل آخر على قدرته تعالى على إحياء الموتى، كما يحيي الأرض الميتة الهامدة وهي المقحلة التي لا ينبت فيها شيء. وقال قتادة: غبراء متهشمة، وقال السدي: ميتة، ﴿ فإذا أنزلنا عليها الماء اهترت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ﴾: أي فإذا أنزل الله عليها المطر ﴿ اهترت ﴾ أي تحركت بالنبات وحييت بعد موتها، ﴿ وربت ﴾ أي ارتفعت لما سكن فيها الثرى، ثم أنبتت ما فيها من ثمار وزروع، وأشتات النبات في اختلاف ألوانها وطعومها، وروائحها وأشكالها ومنافعها، ولهذا قال تعالى: ﴿ وأنبتت من كل زوج بهيج ﴾ أي حسن المنظر طيب الريح، وقوله ﴿ ذلك بأن الله هو الحق ﴾ أي الخالق المدبر الفعال لما يشاء، ﴿ وأنه يحيي الموتى ﴾ أي كما أحيا الأرض الميتة وأنبت منها هذه الأنواع ﴿ إن الذي أحياها يحيي الموتى إنه على كل شيء قدير ﴾ ﴿ إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ﴾، ﴿ وأن الساعة آتية لا ريب فيها ﴾ أي كائنة لا شك فيها ولا مرية، ﴿ وأن الله يبعث من في القبور ﴾ أي يعيدهم بعد ما صاروا في قبورهم رماً ويوجدتهم بعد العدم، كما قال تعالى: ﴿ قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل شيء عليم ﴾ والآيات في هذا كثيرة. وقد روى الإمام أحمد. عن لقيط ابن عامر أنه قال: يا رسول الله أكلنا يرى ربه عز وجل يوم القيامة وما آية ذلك في خلقه؟ فقال رسول الله ﷺ: « أليس كلكم ينظر إلى القمر مخلياً به؟ » قلنا: بلى، قال: فإله أعظم، قال، قلت: يا رسول الله كيف يحيي الله الموتى وما آية ذلك في خلقه؟ قال: « أما مررت بوادي أهلك ممحلاً؟ » قال: بلى، قال: « ثم مررت به بهتر خضراً » قال: بلى، قال: « فكذلك يحيي الله الموتى وذلك آية في خلقه^(٣) ». وقال ابن أبي حاتم، عن معاذ ابن جبل قال: من علم أن الله هو الحق المبين، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور؛ دخل الجنة^(٤).

(١) أخرجه ابن أبي حاتم وابن جرير عن عبد الله بن مسعود.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم ورواه مسلم بنحو معناه.

(٣) أخرجه الإمام أحمد وأبو داود وابن ماجه.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم عن معاذ بن جبل.

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ ﴿٨﴾ ثَانِي عَطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٩﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَالِمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٠﴾

لما ذكر تعالى حال الضلال الجهال المقلدين في قوله: ﴿ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد﴾ ذكر في هذه حال الدعاة إلى الضلالة من رؤوس الكفر والبدع، فقال: ﴿ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير﴾ أي بلا عقل صحيح، ولا نقل صحيح، بل بمجرد الرأي والهوى، وقوله ﴿ثاني عطفه﴾ قال ابن عباس: مستكبراً عن الحق إذا دعي إليه، وقال مجاهد وقتادة: لاوي عطفه وهي رقبته يعني يعرض عما يدعى إليه من الحق، ويثني رقبته استكباراً، كقوله تعالى: ﴿وفي موسى إذ أرسلناه إلى فرعون بسطان مبين فتولى بركنه﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً﴾، وقال تعالى: ﴿وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لووا رؤوسهم ورأيتهم يصدون وهم مستكبرون﴾، وقال تعالى: ﴿وإذا تتلى عليه آياتنا ولي مستكبراً﴾ الآية، وقوله: ﴿ليضل عن سبيل الله﴾ قال بعضهم: هذه لام العاقبة لأنه قد لا يقصد ذلك، ثم قال تعالى: ﴿له في الدنيا خزي﴾ وهو الإهانة والذل كما أنه لما استكبر عن آيات الله لقاءه الله المذلة في الدنيا وعاقبه فيها قبل الآخرة، لأنها أكبر همه ومبلغ علمه ﴿ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق﴾. ذلك بما قدمت يدك﴾ أي يقال له هذا تقريباً وتوبيخاً ﴿وأن الله ليس بظلام للعبيد﴾ كقوله تعالى: ﴿ذق إنك أنت العزيز الكريم﴾ إن هذا ما كنتم به تتمرون﴾. عن الحسن قال: بلغني أن أحدهم يحرق في اليوم سبعين ألف مرة^(١)

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ ؕ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ ؕ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿١١﴾ يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا نُنْفَعُهُ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدْعُوا لِمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ ؕ لَيْسَ الْمَوْلَىٰ وَلَيْسَ الْعَشِيرُ ﴿١٣﴾

قال مجاهد: ﴿على حرف﴾ على شك، وقال غيره: على طرف، ومنه حرف الجبل أي طرفه، أي دخل في الدين على طرف، فإن وجد ما يحبه استقر وإلا انشمر، عن ابن عباس ﴿ومن الناس من يعبد الله على حرف﴾ قال: كان الرجل يقدم المدينة، فإن ولدت امرأته غلاماً ونتجت خيله قال: هذا دين صالح، وإن لم تلد امرأته ولم تنتج خيله قال: هذا دين سوء^(٢). وروى ابن أبي حاتم، عن ابن عباس قال: كان ناس من الأعراب يأتون النبي ﷺ فيسلمون، فإذا رجعوا إلى بلادهم، فإن وجدوا عام غيث وعام خصب، وعام ولاد حسن قالوا: إن ديننا هذا لصالح فتمسكوا به، وإن وجدوا عام جدوبة وعام ولاد سوء وعام قحط قالوا: ما في ديننا هذا خير، فأنزل

(١) أخرجه ابن أبي حاتم .

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه .

الله على نبيه: ﴿ ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به ﴾ الآية. وهكذا ذكر قتادة والضحاك وابن جريج وغير واحد من السلف في تفسير هذه الآية، وقال عبد الرحمن بن زيد: هو المنافق إن صلحت له دنياه أقام على العبادة، وإن فسدت عليه دنياه وتغيرت انقلب فلا يقيم على العبادة إلا لما صلح من دنياه، فإن أصابته فتنة أو شدة أو اختبار أو ضيق ترك دينه ورجع إلى الكفر^(١)، وقال مجاهد في قوله ﴿ انقلب على وجهه ﴾ أي ارتد كافراً، وقوله: ﴿ خسر الدنيا والآخرة ﴾ أي فلا هو حصل من الدنيا على شيء، وأما الآخرة فقد كفر بالله العظيم فهو فيها في غاية الشقاء والإهانة، ولهذا قال تعالى ﴿ ذلك هو الخسران المبين ﴾ أي هذه هي الخسارة العظيمة والصفقة الخاسرة، وقوله: ﴿ يدعو من دون الله ما لا يضره وما لا ينفعه ﴾ أي من الأصنام والأنداد يستغيث بها ويستنصرها ويسترزقها وهي لا تنفعه ولا تضره ﴿ ذلك هو الضلال البعيد ﴾، وقوله ﴿ يدعو لمن ضره أقرب من نفعه ﴾ أي ضرره في الدنيا قبل الآخرة أقرب من نفعه فيها، وأما في الآخرة فضرره محقق متيقن، وقوله: ﴿ لبئس المولى ولبئس العشير ﴾ قال مجاهد: يعني الوثن، يعني بئس هذا الذي دعاه من دون الله مولى، يعني ولياً وناصرًا، ﴿ وبئس العشير ﴾ وهو المخالط والمعاشر، واختار ابن جرير أن المراد: لبئس ابن العم والصاحب، ﴿ من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه ﴾ وقول مجاهد: إن المراد به الوثن أولى وأقرب إلى سياق الكلام، والله أعلم.

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾ (١٤)

لما ذكر أهل الضلالة الأشقياء، عطف بذكر الأبرار السعداء من الذين آمنوا بقلوبهم وصدقوا إيمانهم بأفعالهم، فعملوا الصالحات من جميع أنواع القربات وتركوا المنكرات، فأورثهم ذلك سكنى الدرجات العاليات في روضات الجنات، ولما ذكر تعالى أنه أضل أولئك وهدى هؤلاء قال ﴿ إن الله يفعل ما يريد ﴾.

﴿ مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لِيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُدْهِبَنَّ كَيْدَهُ مَا يَغْنِظُ ﴾ (١٥) وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ ﴾ (١٦)

قال ابن عباس: من كان يظن أن لن ينصره الله محمدًا ﷺ في الدنيا والآخرة، فليمدد بسبب أي بحبل ﴿ إلى السماء ﴾ أي سماء بيته، ﴿ ثم ليقطع ﴾ يقول: ثم ليختنق به، وقال عبد الرحمن بن زيد: ﴿ فليمدد بسبب إلى السماء ﴾، أي ليتوصل إلى بلوغ السماء فإن النصر إنما يأتي محمدًا من السماء، ﴿ ثم ليقطع ﴾ ذلك عنه إن قدر على ذلك، وقول ابن عباس وأصحابه أولى وأظهر في المعنى وأبلغ في التهكم، فإن المعنى: من كان يظن أن الله ليس بناصر محمدًا وكتابه ودينه فليذهب فليقتل نفسه إن كان ذلك غائظه فإن الله ناصره لا محالة، قال الله تعالى:

(١) في اللباب: وكذلك: أخرج ابن مردويه: أسلم رجل من اليهود فذهب بصره وماله وولده، فنشأه بالإسلام، فقال: لم أصب من ديني هذا خيراً، فنزلت: ﴿ ومن الناس ﴾ الآية.

(٢) وكذا قال مجاهد وعكرمة وعطاء وقتادة وغيرهم.

﴿إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد﴾ الآية، ولهذا قال ﴿فلينظر هل يذهبن كيده ما يغيظ﴾ قال السدي: يعني من شأن محمد ﷺ، وقال عطاء الخراساني: فلينظر هل يشفي ذلك ما يجد في صدره من الغيظ، وقوله: ﴿وكذلك أنزلناه﴾ أي القرآن ﴿آيات بينات﴾ أي واضحات في لفظها ومعناها حجة من الله على الناس، ﴿وأن الله يهدي من يريد﴾ أي يضل من يشاء ويهدي من يشاء، وله الحكمة التامة والحجة القاطعة في ذلك، ﴿لا يسأل عما يفعل وهم يسألون﴾.

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّالِحِينَ وَالنَّصْرَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾

يخبر تعالى عن أهل هذه الأديان المختلفة من المؤمنين، ومن سواهم من اليهود والصابئين^(١)، والنصارى والمجوس، والذين أشركوا فعبدوا مع الله غيره فإنه تعالى ﴿يفصل بينهم يوم القيامة﴾ ويحكم بينهم بالعدل، فيدخل من آمن به الجنة ومن كفر به النار، فإنه تعالى شهيد على أفعالهم، حفيظ لأقوالهم، عليم بسرائرهم وما تكن ضمائرهم.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالْدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿١٨﴾

يخبر تعالى أنه المستحق للعبادة وحده لا شريك له، فإنه يسجد لعظمته كل شيء طوعاً وكرهاً، وسجود كل شيء مما يختص به كما قال تعالى: ﴿أو لم يروا إلى ما خلق الله من شيء يتفياً ظلاله عن اليمين والشمال يسجداً لله وهم داخرون﴾ وقال ههنا ﴿ألم تر أن الله يسجد له من في السموات ومن في الأرض﴾، أي من الملائكة في أقطار السماوات، والحيوانات في جميع الجهات، من الإنس والجن والدواب والطيور، ﴿وإن من شيء إلا يسبح بحمده﴾، وقوله: ﴿والشمس والقمر والنجوم﴾ إنما ذكر هذه على التنصيص لأنها قد عبدت من دون الله، فبين أنها تسجد لخالقها وأنها مربوبة مسخرة، ﴿لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن﴾ الآية. وفي الصحيحين عن أبي ذر رضي الله عنه قال، قال لي رسول الله ﷺ: «أتدري أين تذهب هذه الشمس؟» قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «فإنها تذهب فتسجد تحت العرش، ثم تستأمر فيوشك أن يقال لها ارجعي من حيث جئت». وفي حديث الكسوف: «إن الشمس والقمر خلقان من خلق الله وإنهما لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته ولكن الله عز وجل إذا تجلى لشيء من خلقه خشع له»^(٢).

وقال أبو العالية: ما في السماء نجم ولا شمس ولا قمر إلا يقع لله ساجداً حين يغيب ثم ينصرف حتى يؤذن له

(١) تقدم في سورة البقرة التعريف بهم واختلاف الأقوال فيهم فارجع إليه هناك.

(٢) أخرجه الإمام أحمد وأبو داود والنسائي وابن ماجه.

فيأخذ ذات اليمين حتى يرجع إلى مطلعته، وأما الجبال والشجر فسجودهما بفيء ظللهما عن اليمين والشمال. وعن ابن عباس قال: جاء رجل فقال: يا رسول الله إني رأيتني الليلة وأنا نائم كأني أصلي خلف شجرة فسجدت، فسجدت الشجرة لسجودي فسمعتها وهي تقول: اللهم اكتب لي بها عندك أجراً، وضع عني بها وزراً، واجعلها لي عندك ذخراً، وتقبلها مني كما تقبلتها من عبدك داود، قال ابن عباس: فقرأ رسول الله ﷺ سجدة، ثم سجد فسمعتته وهو يقول مثل ما أخبره الرجل عن قول الشجرة^(١). وقوله: ﴿والدواب﴾ أي الحيوانات، كلها، وقد جاء في الحديث عن الإمام أحمد أن رسول الله ﷺ نهى عن اتخاذ ظهور الدواب منابر، فرب مركوبة خير وأكثر ذكراً لله تعالى من راجها. وقوله ﴿وكثير من الناس﴾ أي يسجد لله طوعاً مختاراً متعبداً بذلك، ﴿وكثير حق عليه العذاب﴾ أي ممن امتنع وأبى واستكبر، ﴿ومن يهن الله فما له من مكرم إن الله يفعل ما يشاء﴾. وقال ابن أبي حاتم: قيل لعلي إن ههنا رجلاً يتكلم في المشيئة، فقال له علي: يا عبدالله، خلقت الله كما يشاء أو كما شئت؟ قال: بل كما شاء، قال: فيمرضك إذا شاء أو إذا شئت؟ قال: بل إذا شاء، قال: فيشفيك إذا شاء أو إذا شئت؟ قال: بل إذا شاء، قال: فيدخلك حيث شئت أو حيث يشاء، قال: بل حيث يشاء. قال: والله لو قلت غير ذلك لضربت الذي فيه عينك بالسيف، وعن أبي هريرة قال، قال رسول الله ﷺ: «إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد لها اعتزل الشيطان يبكي يقول: يا ويله أمر ابن آدم بالسجود فسجد فله الجنة، وأمرت بالسجود فأبيت فلي النار»^(٢).

* هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ^{١٩} فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ نِيَابٌ مِّنْ نَّارٍ يَصُبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ
الْحَمِيمُ^{٢٠} يُصْهَرُ بِهِ مَآ فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ^{٢١} وَهُمْ مَقْمَعُونَ مِّنْ حَديدٍ^{٢٢} كَمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا
مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ^{٢٣}

ثبت في الصحيحين عن أبي ذر أنه كان يقسم قسماً أن هذه الآية ﴿هذان خصمان اختصموا في ربهم﴾ نزلت في حمزة وصاحبيه، وعتبة وصاحبيه يوم برزوا في بدر^(٣)، وروى البخاري عن علي بن أبي طالب أنه قال: أنا أول من يجثو بين يدي الرحمن للخصومة يوم القيامة، قال قيس: وفيهم نزلت ﴿هذان خصمان اختصموا في ربهم﴾ قال: هم الذين بارزوا يوم بدر: علي وحمزة وعبيدة، وشيبة بن ربيعة وعتبة بن ربيعة والوليد بن عتبة. وقال قتادة في قوله ﴿هذان خصمان اختصموا في ربهم﴾ قال: اختصم المسلمون وأهل الكتاب، فقال أهل الكتاب: نبينا قبل نبيكم، وكتابنا قبل كتابكم فنحن أولى بالله منكم، وقال المسلمون: كتابنا يقضي على الكتب كلها ونبينا خاتم الأنبياء، فنحن أولى بالله منكم فأفلق الله الإسلام على من ناواه، وأنزل: ﴿هذان خصمان اختصموا في ربهم﴾. وقال مجاهد في هذه الآية: مثل الكافر والمؤمن اختصما في البعث، وقال مجاهد وعطاء في هذه الآية: هم المؤمنون

(١) رواه الترمذي وابن ماجه وابن حبان.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه.

(٣) هذا لفظ البخاري في كتاب التفسير.

والكافرون . وقال عكرمة ﴿ هذان خصمان اختصموا في ربهم ﴾ قال : هي الجنة والنار ، قالت النار : اجعلني للعقوبة ، وقالت الجنة : اجعلني للرحمة ، وقول مجاهد وعطاء إن المراد بهذه الكافرون والمؤمنون يشمل الأقوال كلها ، وينتظم فيه قصة يوم بدر وغيرها ، فإن المؤمنين يريدون نصره دين الله عز وجل ، والكافرون يريدون إطفاء نور الإيمان وخذلان الحق وظهور الباطل ، وهذا اختيار ابن جرير وهو حسن ، ولهذا قال ﴿ فالذين كفروا قطعتم لهم نيباً من نار ﴾ أي فصلت لهم مقطعات من النار ، قال سعيد بن جبير : من نحاس وهو أشد الأشياء حرارة إذا حمي ﴿ يصب من فوق رؤوسهم الحمم ﴾ يصهر به ما في بطونهم والجلود أي إذا صب على رؤوسهم الحمم وهو الماء الحار في غاية الحرارة ، وقال سعيد بن جبير : هو النحاس المذاب أذاب ما في بطونهم من الشحم والأمعاء^(١) ، وكذلك تذوب جلودهم .

عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال : « إن الحمم ليصب على رؤوسهم فينفذ الجمجمة حتى يخلص إلى جوفه ، فيسلت ما في جوفه حتى يبلغ قدميه ، وهو الصهر ثم يعاد كما كان »^(٢) . وفي رواية : يأتيه الملك يحمل الإناء بكلبتين من حرارته ، فإذا أدناه من وجهه تكّرهه ، قال : فيرفع مقمعة معه فيضرب بها رأسه ، فيفرغ دماغه ، ثم يفرغ الإناء من دماغه فيصل إلى جوفه من دماغه ، فذلك قوله : ﴿ يصهر به ما في بطونهم والجلود ﴾ . وقوله ﴿ ولهم مقامع من حديد ﴾ ، عن رسول الله ﷺ قال : « لو أن مقمعا من حديد وضع في الأرض فاجتمع له الثقلان ما أقلوه من الأرض »^(٣) . وروى الإمام أحمد : عن أبي سعيد الخدري قال ، قال رسول الله ﷺ : « لو ضرب الجبل بمقمع من حديد لتفتت ثم عاد كما كان ، ولو أن دلواً من غساق يهراق في الدنيا لأتت أهل الدنيا »^(٤) ، وقال ابن عباس في قوله ﴿ ولهم مقامع من حديد ﴾ قال : يضربون بها فيقع كل عضو على حياله فيدعون بالثبور ، وقوله ﴿ كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها ﴾ ، قال سلمان : النار سوداء مظلمة لا يضيء لها ولا جمرها ، ثم قرأ : ﴿ كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها ﴾ ، وقال زيد بن أسلم في هذه الآية : بلغني أن أهل النار في النار لا يتنفسون ، وقال الفضيل بن عياض : والله ما طمعوا في الخروج ، إن الأرجل لمقيدة وإن الأيدي لموثقة ، ولكن يرفعهم لها وتردهم مقامعها ، وقوله : ﴿ وذوقوا عذاب الحريق ﴾ ، كقولهم : ﴿ وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذي كنتم به تكذبون ﴾ ، ومعنى الكلام أنهم يهانون بالعذاب قولاً وفعلاً .

إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُجْلُونَ فِيهَا مِنْ أَسْوَارٍ مِنْ ذَهَبٍ
وَلَوْثُورٍ^{٢٣} وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ^{٢٤} وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطٍ الْحَمِيدِ^{٢٥}

لما أخبر تعالى عن حال أهل النار ، وما هم فيه من العذاب والنكال ، والحريق والأغلال ، وما أعد لهم من الثياب من النار ، ذكر حال أهل الجنة فقال : ﴿ إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات

(١) قاله ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وغيرهم .

(٢) رواه ابن جرير والترمذي وقال : حسن صحيح وأخرجه ابن أبي حاتم بنحوه .

(٣) أخرجه الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري . (٤) أخرجه الإمام أحمد في المسند .

تجري من تحتها الأنهار ﴿﴾ أي تتخرق في أكنافها وأرجائها وجوانبها، وتحت أشجارها وقصورها يصرفونها حيث شاءوا وأين أرادوا، ﴿﴾ يحلون فيها ﴿﴾ من الحلية، ﴿﴾ من أساور من ذهب ولؤلؤاً ﴿﴾ أي في أيديهم، كما قال النبي ﷺ في الحديث المتفق عليه: «تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء». وقوله: ﴿﴾ ولباسهم فيها حرير ﴿﴾ في مقابلة ثياب أهل النار التي فصلت لهم، لباس هؤلاء من الحرير استبرقه وسندسه، كما قال: ﴿﴾ عاليهم ثياب سندس خضر وإستبرق ﴿﴾، وفي الصحيح: «لا تلبسوا الحرير ولا الديباج في الدنيا فإنه من لبسه في الدنيا لم يلبسه في الآخرة»، وقال عبدالله بن الزبير: من لم يلبس الحرير في الآخرة لم يدخل الجنة، قال الله تعالى: ﴿﴾ ولباسهم فيها حرير ﴿﴾، وقوله: ﴿﴾ وهدوا إلى الطيب من القول ﴿﴾ كقوله تعالى: ﴿﴾ والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليهم بما صبرتم فنعم عقبى الدار ﴿﴾، وقوله: ﴿﴾ لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيماً إلا قليلاً سلاماً سلاماً ﴿﴾ فهدوا إلى المكان الذي يسمعون فيه الكلام الطيب، ﴿﴾ ويلقون فيها تحيةً وسلاماً ﴿﴾ لا كما يهان أهل النار بالكلام الذي يوجعون به ويقرعون به، يقال لهم: ﴿﴾ ذوقوا عذاب الحريق ﴿﴾، وقوله: ﴿﴾ وهدوا إلى صراط الحميد ﴿﴾ أي إلى المكان الذي يحمدون فيه ربهم على ما أحسن إليهم، وأنعم به وأسداه إليهم، كما جاء في الحديث الصحيح: «أنهم يلهمون التسييح والتحميد كما يلهمون النفس»، وقد قال بعض المفسرين في قوله: ﴿﴾ وهدوا إلى الطيب من القول ﴿﴾ أي القرآن، وقيل: لا إله إلا الله، وقيل: الأذكار المشروعة، ﴿﴾ وهدوا إلى صراط الحميد ﴿﴾ أي الطريق المستقيم في الدنيا، وكل هذا لا ينافي ما ذكرناه، والله أعلم .

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيُصَدِّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَادِ بِظُلْمٍ نُدِقُهُ مِنْ عَذَابِ الْعِمْ ۝٢٥

يقول تعالى منكرًا على الكفار في صدهم المؤمنين عن إتيان المسجد الحرام وقضاء مناسكهم فيه، ﴿﴾ إن الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام ﴿﴾ أي ومن صفتهم أنهم مع كفرهم يصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام، أي ويصدون عن المسجد الحرام من أراده من المؤمنين، الذين هم أحق الناس به في نفس الأمر، وقوله: ﴿﴾ الذي جعلناه للناس سواءً العاكف فيه والباد ﴿﴾ أي يمنعون عن الوصول إلى المسجد الحرام، وقد جعله الله للناس لا فرق فيه بين المقيم فيه والتأني عنه البعيد الدار منه، ﴿﴾ سواء العاكف فيه والباد ﴿﴾، ومن ذلك استواء الناس في رباع مكة وسكناها، كما قال ابن عباس: ينزل أهل مكة وغيرهم في المسجد الحرام؛ وقال مجاهد: ﴿﴾ سواء العاكف فيه والباد ﴿﴾ أهل مكة وغيرهم فيه سواء في المنازل، وقال قتادة: سواء فيه أهله وغير أهله؛ وهذه المسألة هي التي اختلف فيها الشافعي وإسحاق بن راهويه بمسجد الخيف وأحمد بن حنبل حاضر أيضاً. فذهب رحمه الله إلى أن رباع مكة تملك وتورث وتوَجَّر، واحتج بحديث الزهري عن أسامة بن زيد قال، قلت: يا رسول الله أتزل غداً في دارك بمكة؟ فقال: «وهل ترك لنا عقيل من رباع» ثم قال: «لا يرث الكافر المسلم ولا المسلم الكافر»^(١)، وبما ثبت أن عمر بن الخطاب اشترى من (صفوان بن أمية) داراً بمكة فجعلها سجنًا بأربعة آلاف درهم، وذهب

(١) هذا الحديث مخرج في الصحيحين .

إسحاق بن راهويه إلى أنها لا تورث ولا توجر، وهو مذهب طائفة من السلف، واحتج إسحاق بن راهويه بما روي عن علقمة بن نضلة قال: توفي رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر وما تدعى رباع مكة إلا السوائب من احتاج سكن ومن استغنى أسكن^(١). وقال عبد الله بن عمرو: لا يحل بيع دور مكة ولا كراؤها، وكان عطاء ينهى عن الكراء في الحرم. وقال عمر بن الخطاب: يا أهل مكة لا تتخذوا للدوركم أبواباً لينزل البادي حيث يشاء، وروى الدارقطني عن عبد الله بن عمرو موقوفاً: «من أكل كراء بيوت مكة أكل ناراً»، وتوسط الإمام أحمد فقال: تملك وتورث ولا توجر جمعاً بين الأدلة والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم﴾ قال بعض المفسرين: الباء ههنا زائدة، كقوله: ﴿تنبت بالدهن﴾ أي تنبت الدهن، وكذا قوله: ﴿ومن يرد فيه بإلحاد﴾ تقديره إلحاداً. والأجود أنه ضمن الفعل ههنا معنى يهيم، ولهذا عداه بالباء فقال: ﴿ومن يرد فيه بإلحاد﴾ أي يهيم فيه بأمر فطيع من المعاصي الكبار، وقوله: ﴿بظلم﴾ أي عامداً قاصداً أنه ظلم ليس بمتأول، وقال ابن عباس: بظلم بشرك، وقال مجاهد: أن يعبد فيه غير الله، وكذا قال قتادة وغير واحد. وقال العوفي عن ابن عباس: بظلم هو أن تستحل من الحرم ما حرم الله عليك من إساءة أو قتل فتظلم من لا يظلمك وتقتل من لا يقتلك، فإذا فعل ذلك فقد وجب له العذاب الأليم. وقال مجاهد: بظلم يعمل فيه عملاً سيئاً، وهذا من خصوصية الحرم أنه يعاقب البادي فيه الشر إذا كان عازماً عليه وإن لم يوقعه، كما قال ابن مسعود: لو أن رجلاً أراد فيه بإلحاد بظلم وهو بعدن أبين لأذاقه الله من العذاب الأليم^(٢). وقال الثوري عن عبد الله بن مسعود قال: ما من رجل يهيم بسيئة فتكتب عليه ولو أن رجلاً بعدن أبين هم أن يقتل رجلاً بهذا البيت لأذاقه الله من العذاب الأليم؛ وقال سعيد بن جبير: شتم الخادم ظلم فما فوقه؛ وقال ابن عباس في قول الله: ﴿ومن يرد فيه بإلحاد بظلم﴾ قال: نزلت في عبد الله بن أنيس، أن رسول الله ﷺ بعثه مع رجلين أحدهما مهاجر والآخر من الأنصار، فافتخروا في الأنساب، فغضب عبد الله بن أنيس فقتل الأنصاري، ثم ارتد عن الإسلام، ثم هرب إلى مكة، فنزلت فيه: ﴿ومن يرد فيه بإلحاد بظلم﴾ يعني من لجأ إلى الحرم بإلحاد يعني بميل عن الإسلام. وهذه الآثار وإن دلت على أن هذه الأشياء من الإلحاد، ولكن هو أعم من ذلك، بل فيها تنبيه على ما هو أغلظ منها؛ ولهذا لما هم أصحاب القيل على تخريب البيت أرسل الله عليهم ﴿طيراً أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل فجعلهم كعصف ما كول﴾ أي دمرهم وجعلهم عبرة ونكالاً لكل من أراد بسوء، ولذلك ثبت في الحديث أن رسول الله ﷺ قال: «يغزو هذا البيت جيش حتى إذا كانوا بببءاء من الأرض خسف بأولهم وآخرهم» وعن سعيد بن عمرو قال: أتى عبد الله بن عمر عبد الله بن الزبير وهو جالس في الحجر فقال: يا ابن الزبير إياك والإلحاد في الحرم، فإني أشهد لسمعت رسول الله ﷺ يقول: «يحلها ويحل به رجل من قريش لو وزنت ذنوبه بذنوب الثقلين لوزنتها» قال: فانظر لا تكن هو^(٣).

(١) رواه ابن ماجه عن علقمة بن نضلة .

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم عن ابن مسعود موقوفاً .

(٣) أخرجه الإمام أحمد .

وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿٢٦﴾
وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَا تُوتَكُ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾

ذكر تعالى أنه بوأ إبراهيم مكان البيت أي أرشده إليه، وسلمه له وأذن له في بنائه، واستدل به كثير ممن قال إن إبراهيم عليه السلام هو أول من بنى البيت العتيق وأنه لم يبن قبله، كما ثبت في الصحيحين عن أبي ذر قلت: يا رسول الله أي مسجد وضع أول؟ قال: «المسجد الحرام» قلت: ثم أي؟ قال: «بيت المقدس» قلت كم بينهما؟ قال: «أربعون سنة»، وقد قال الله تعالى: ﴿إِنْ أُولَ الْأَيْمَانِ وَالْأَيْتِينَ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَعَهَدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ وقد قدمنا ذكر ما ورد في بناء البيت من الصحاح والآثار بما أغنى عن إعادته ههنا، وقال تعالى ههنا: ﴿أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا﴾ أي ابنه على اسمي وحدي ﴿وطهر بيتي﴾ قال مجاهد: من الشرك ﴿لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ أي اجعله خالصاً لهؤلاء الذين يعبدون الله وحده لا شريك له، فالطائف به معروف، وهو أخص العبادات عند البيت، فإنه لا يفعل بقعة من الأرض سواها ﴿والقائم﴾ أي في الصلاة، ولهذا قال ﴿والركع السجود﴾ فقرن الطواف بالصلاة لأنهما لا يشرعان إلا مختصين بالبيت .

وقوله تعالى: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ﴾ أي ناد في الناس بالحج داعياً لهم لحج هذا البيت الذي أمرناك ببنائه فذكر أنه قال: يا رب كيف أبلغ الناس وصوتي لا ينفذهم؟ فقال: ناد وعلينا البلاغ، فقام على مقامه، وقيل على الحجر، وقيل على الصفا، وقيل على أبي قبيس، وقال: يا أيها الناس إن ربكم قد اتخذ بيتاً فحجوه، فيقال: إن الجبال تواضعت حتى بلغ الصوت أرجاء الأرض، وأسمع من في الأرحام والأصلاب، وأجابه كل شيء سمعه من حجر ومدبر وشجر، ومن كتب الله أنه يحج إلى يوم القيامة لييك اللهم لييك؛ هذا مضمون ما ورد عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وغير واحد من السلف والله أعلم، وأوردها ابن جرير وابن أبي حاتم مطولة، وقوله: ﴿يَأْتُوكُ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ﴾^(١) الآية. قد يستدل بهذه الآية من ذهب من العلماء إلى أن الحج ماشياً لمن قدر عليه أفضل من الحج راكباً لأنه قدمهم في الذكر، فدل على الاهتمام بهم وقوة همهم وشدة عزمهم، وقال ابن عباس: ما أساء على شيء إلا أنني وددت أنني كنت حججت ماشياً، لأن الله يقول: ﴿يَأْتُوكُ رِجَالًا﴾، والذي عليه الأكثر أن الحج راكباً أفضل اقتداء برسول الله ﷺ، فإنه حج راكباً مع كمال قوته عليه السلام. وقوله: ﴿يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ يعني طريق، كما قال: ﴿وجعلنا فيها فجاً سبلاً﴾، وقوله: ﴿عميق﴾ أي بعيد، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم﴾، فليس أحد من أهل الإسلام إلا وهو يحن إلى رؤية الكعبة والطواف، والناس يقصدونها من سائر الجهات والأقطار .

لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَيْمَاتٍ الْأَنْعَمِ فَاكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا
أَلْبَاسَ الْفَقِيرِ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلِيُوفُوا نَدْوَهُمْ وَلِيُطَافُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾

(١) الضامر: البعير الذي قد هزل من كثرة المشي .

قال ابن عباس ﴿ليشهدوا منافع لهم﴾، قال: منافع الدنيا والآخرة، أما منافع الآخرة فرضوان الله تعالى، وأما منافع الدنيا فما يصيبون من منافع البدن والذبايح والتجارات، وكذا قال مجاهد وغير واحد: إنها منافع الدنيا والآخرة، كقوله: ﴿ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم﴾، وقوله: ﴿وذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام﴾، قال ابن عباس: الأيام المعلومات أيام العشر، وهو مذهب الشافعي والمشهور عن أحمد بن حنبل، وقال البخاري عن سعيد بن جبيرة عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «ما العمل في أيام أفضل منها في هذه» قالوا: ولا الجهاد في سبيل الله؟ قال: «ولا الجهاد في سبيل الله إلا رجل يخرج يخاطر بنفسه وماله فلم يرجع بشيء»، وروى الإمام أحمد عن ابن عمر قال، قال رسول الله ﷺ: «ما من أيام أعظم عند الله ولا أحب إليه العمل فيهن من هذه الأيام العشر، فأكثروا فيهن من التهليل والتكبير والتحميد»، وقال البخاري: وكان ابن عمر وأبو هريرة يخرجان إلى السوق في أيام العشر فيكبران ويكبر الناس بتكبيرهما، وقد روي عن جابر مرفوعاً أن هذا هو العشر الذي أقسم الله به في قوله: ﴿والفجر وليال عشر﴾؛ وقال بعض السلف: إنه المراد بقوله: ﴿وأتمناها بعشر﴾.

وفي سنن أبي داود أن رسول الله ﷺ كان يصوم هذا العشر، وهذا العشر مشتمل على يوم عرفة، وقد سئل رسول الله ﷺ عن صيام يوم عرفة فقال: أحسب على الله أن يكفر السنة الماضية والآتية^(١)، ويشتمل على يوم النحر الذي هو يوم الحج الأكبر، وقد ورد في حديث أنه أفضل الأيام عند الله، وبالجملة فهذا العشر قد قيل إنه أفضل أيام السنة كما نطق به الحديث، وفضله كثير على عشر رمضان الأخير، لأن هذا يشرع فيه ما يشرع في ذلك من صلاة وصيام وصدقة وغيرها، ويمتاز هذا باختصاصه بأداء فرض الحج فيه، وقيل ذلك أفضل لاشتماله على ليلة القدر التي هي خير من ألف شهر؛ وتوسط آخرون فقالوا: أيام هذا أفضل وليالي ذلك أفضل؛ وبهذا يجتمع شمل الأدلة والله أعلم، (قول ثان) في الأيام المعلومات: قال ابن عباس: الأيام المعلومات يوم النحر وثلاثة أيام بعده؛ وإليه ذهب أحمد بن حنبل في رواية عنه. (قول ثالث): عن نافع عن ابن عمر كان يقول: الأيام المعلومات المعدودات هن جميعهن أربعة أيام، فالأيام المعلومات يوم النحر ويومان بعده، والأيام المعدودات ثلاثة أيام بعد يوم النحر، وهو مذهب الإمام مالك بن أنس. (قول رابع): إنها يوم عرفة ويوم النحر ويوم آخر بعده وهو مذهب أبي حنيفة، وقوله: ﴿على ما رزقهم من بهيمة الأنعام﴾ يعني الإبل والبقر والغنم كما فصلها تعالى في سورة الأنعام. وقوله: ﴿فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير﴾ استدل بهذه الآية من ذهب إلى وجوب الأكل من الأضاحي، وهو قول غريب والذي عليه الأكثر أنه من باب الرخصة أو الاستحباب، كما ثبت أن رسول الله ﷺ لما نحر هديه أمر من كل بدنة بيضعة فتطبخ فأكل من لحمها وحسا من مرقها، وقال مالك أحب أن يأكل من أضحيته، لأن الله يقول: ﴿فكلوا منها﴾، وقال سفيان الثوري عن إبراهيم ﴿فكلوا منها﴾ قال: المشركون لا يأكلون من ذبائحهم، فرخص للمسلمين، فمن شاء أكل ومن لم يشأ لم يأكل. وعن مجاهد في قوله ﴿فكلوا منها﴾ قال: هي كقوله: ﴿فاذا حلتم فاصطادوا﴾ ﴿فاذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض﴾، وهذا اختيار ابن جرير في تفسيره.

(١) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه.

وقوله تعالى: ﴿البائس الفقير﴾ قال عكرمة: هو المضطر الذي يظهر عليه البؤس وهو الفقير المتعفف، وقال مجاهد: هو الذي لا يسطر يده. وقال قتادة: هو الزّمين. وقال مقاتل: هو الضرير، وقوله: ﴿ثم ليقتضوا نفهم﴾، قال ابن عباس: هو وضع الإحرام من حلق الرأس، ولبس الثياب، وقص الأظافر ونحو ذلك، وقوله: ﴿وليوفوا نذروهم﴾ يعني نحر ما نذر من أمر البدن، وقال مجاهد ﴿وليوفوا نذورهم﴾ نذر الحج والهدي وما نذر الإنسان من شيء يكون في الحج، وعنه: كل نذر إلى أجل، وقوله: ﴿وليطوفوا بالبيت العتيق﴾ قال مجاهد: يعني الطواف الواجب يوم النحر، وقال أبو حمزة قال، قال لي ابن عباس: أنقرأ سورة الحج، يقول الله تعالى: ﴿وليطوفوا بالبيت العتيق﴾؟ فإن آخر المناسك الطواف بالبيت العتيق^(١)، قلت: وهكذا صنع رسول الله ﷺ، فإنه لما رجع إلى منى يوم النحر بدأ برمي الجمرة، فرماها بسبع حصيات، ثم نحر هديه وحلق رأسه، ثم أفاض فطاف بالبيت، وفي الصحيحين عن ابن عباس أنه قال: أمر الناس أن يكون آخر عهدهم بالبيت الطواف إلا أنه خفف عن المرأة الحائض، وقوله: ﴿بالبيت العتيق﴾، قال الحسن البصري في قوله ﴿وليطوفوا بالبيت العتيق﴾ قال: لأنه أول بيت وضع للناس، وقال خصيف: إنما سمي البيت العتيق لأنه لم يظهر عليه جبار قط. وعن مجاهد: لم يرد أحد بسوء إلا هلك، وفي الحديث: «إنما سمي البيت العتيق لأنه لم يظهر عليه جبار»^(٢). روي مرفوعاً ومرسلاً.

ذَلِكَ وَمَنْ يُعِظْ حُرْمَتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ ۖ وَأُحِلَّتْ لَكُمْ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا بَتَلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴿٢٤﴾ حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرِ مُشْرِكِينَ بِهِ ۚ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخَطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوَىٰ بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٢٥﴾

يقول تعالى هذا الذي أمرنا به من الطاعات في أداء المناسك وما يلقي عليها من الثواب الجزيل، ﴿ومن يعظم حرمات الله﴾ أي ومن يجتنب معاصيه ومحارمه، ﴿فهو خير له عند ربه﴾ أي فله على ذلك خير كثير وثواب جزيل، فكما على فعل الطاعات ثواب كثير وأجر جزيل، كذلك على ترك المحرمات واجتناب المحظورات. قال مجاهد في قوله ﴿ذلك ومن يعظم حرمات الله﴾ قال: الحرمات مكة والحج والعمرة وما نهى الله عنه من معاصيه كلها، وقوله: ﴿وأحلت لكم الأنعام إلا ما يتلى عليكم﴾ أي أحللتنا لكم جميع الأنعام، وقوله: ﴿إلا ما يتلى عليكم﴾ أي من تحريم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به والمنخفة الآية، قال ذلك ابن جرير وحكاه عن قتادة، وقوله: ﴿فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور﴾، أي اجتنبوا الرجس الذي هو الأوثان، وقرن الشرك بالله بقول الزور، كقوله: ﴿قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون﴾ ومنه شهادة الزور. وفي الصحيحين عن أبي بكر أن رسول الله ﷺ قال: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟» قلنا: بلى يا رسول الله، قال: «الإشراك بالله وعقوق الوالدين - وكان متكئاً فجلس - فقال: ألا وقول الزور، ألا وشهادة الزور»؛ فما زال يكررها حتى

(١) أخرجه ابن أبي حاتم عن ابن عباس .

(٢) أخرجه الترمذي عن عبد الله بن الزبير مرفوعاً وكذا رواه ابن جرير وقال الترمذي: حديث حسن غريب .

قلنا: لبيته سكت. وعن خريم بن فاتك الأسدي قال: صلى رسول الله ﷺ الصبح فلما انصرف قام قائماً، فقال: « عدلت شهادة الزور الإشراف بالله عز وجل »، ثم تلا هذه الآية: ﴿ فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور حنفاء لله غير مشركين به ﴾^(١)، وقوله ﴿ حنفاء لله ﴾: أي مخلصين له الدين منحرفين عن الباطل قصداً إلى الحق، ولهذا قال: ﴿ غير مشركين به ﴾، ثم ضرب للمشرك مثلاً في ضلاله وهلاكه وبعده عن الهدى، فقال: ﴿ ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء ﴾ أي سقط منها، ﴿ فتخطفه الطير ﴾ أي تقطعه الطيور في الهواء، ﴿ أو تهوي به الريح في مكان سحيق ﴾ أي بعيد، مهلك لمن هوى فيه، ولهذا جاء في حديث البراء: أن الكافر إذا توفته ملائكة الموت وصعدوا بروحه إلى السماء، فلا تفتح له أبواب السماء، بل تطرح روحه طرْحاً من هناك، ثم قرأ هذه الآية: ﴿ فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق ﴾.

ذَلِكَ وَمَنْ يُعِظْ شَعَثِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴿٣٣﴾ لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَىٰ الْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٣٤﴾

يقول تعالى: هذا ﴿ ومن يعظم شعائر الله ﴾ أي أوامره، ﴿ فإنها من تقوى القلوب ﴾، ومن ذلك تعظيم الهدايا والبدن، كما قال ابن عباس: تعظيمها استسماها واستحسانها. وقال أبو أمامة عن سهل: كنا نسمن الأضحية بالمدينة، وكان المسلمون يسمنون^(٢). وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: « دم عفراء أحب إلى الله من دم سوداوين »، رواه أحمد وابن ماجه، قالوا: والعفراء - هي البيضاء بياضاً ليس بناصع، فالبيضاء أفضل من غيرها، وغيرها يجزى أيضاً لما ثبت في صحيح البخاري عن أنس أن رسول الله ﷺ ضحى بكبشين أملحين أقرنين، وفي سنن ابن ماجه عن أبي رافع أن رسول الله ﷺ ضحى بكبشين عظيمين سمينين أقرنين أملحين موجوثين، وعن علي رضي الله عنه قال: أمرنا رسول الله ﷺ أن نستشرف العين والأذن، وأن لا نضحى بمقابلة ولا مدابرة، ولا شرقاء ولا خرقاء؛ وعن البراء قال، قال رسول الله ﷺ: « أربع لا تجوز في الأضاحي: العوراء البين عورها، والمريضة البين مرضها، والعرجاء البين ضلعها، والكسيرة التي لا تنقى »^(٣)، وهذه العيوب تنقص اللحم لضعفها وعجزها عن استكمال الرعي، لأن الشاء يسبقونها إلى المرعى، فلهذا لا تجزى التضحية بها عند الشافعي وغيره من الأئمة كما هو ظاهر الحديث، ولهذا جاء في الحديث: أمرنا النبي ﷺ أن نستشرف العين والأذن أي أن تكون الهدية أو الأضحية سميحة حسنة ثمينة، كما روى عبد الله بن عمر: أهدي عمر نجياً فأعطي بها ثلاثمائة دينار، فأتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله إني أهديت نجياً فأعطيت بها ثلاثمائة دينار، فأبيعها وأشتري بئها بدنأ؟ قال: « لا، إنجرها إياها »^(٤). وقال ابن عباس: البدن من شعائر الله، وقال محمد بن أبي موسى: الوقوف ومزدلفة والجمار والرمي والحلق والبدن من شعائر الله؛ وقال ابن عمر: أعظم الشعائر البيت .

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند .

(٢) رواه البخاري في صحيحه .

(٣) رواه أحمد وأصحاب السنن وصححه الترمذي .

(٤) رواه الإمام أحمد وأبو داود .

وقوله: ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعٌ﴾ أي لكم في البدن منافع من لبنها وصفوها وأوبارها وأشعارها وركوبها إلى أجل مسمى، قال مجاهد في قوله ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعٌ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ قال: الركوب واللبن والولد، فإذا سميت بدنة أو هدياً ذهب ذلك كله^(١)، وقال آخرون: بل له أن ينتفع بها وإن كانت هدياً إذا احتاج إلى ذلك؛ كما ثبت في الصحيحين عن أنس أن رسول الله ﷺ رأى رجلاً يسوق بدنة قال: «اركبها» قال: إنها بدنة، قال: «اركبها ويحك» في الثانية أو الثالثة، وفي رواية لمسلم: «اركبها بالمعروف إذا ألجئت إليها». وعن علي أنه رأى رجلاً يسوق بدنة ومعها ولدها، فقال: لا تشرب من لبنها إلا ما فضل عن ولدها فإذا كان يوم النحر فاذبحها وولدها، وقوله: ﴿ثُمَّ مَحَلُهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ أي محل الهدي واتهاؤه إلى البيت العتيق وهو الكعبة، كما قال تعالى: ﴿هُدًى بَالِغِ الْكَعْبَةِ﴾، وقال: ﴿وَالْهَدْيِ مَعْكُوفاً أَنْ يَبْلُغَ مَحَلَّهُ﴾. وقال عطاء، كان ابن عباس يقول: كل من طاف بالبيت فقد حل، قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ مَحَلُهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾.

وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِيَذُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِّنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِلَهُكُمْ إِلَهُ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٣٥﴾

يخبر تعالى: أنه لم يزل ذبح المناسك وإراقة الدماء على اسم الله مشروعاً في جميع الملل، قال ابن عباس ﴿مَنْسَكًا﴾: عيداً، وقال عكرمة: ذبحاً، وقال زيد بن أسلم في قوله ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا﴾: إنها مكة لم يجعل الله لأمة قط منسكاً غيرها، وقوله: ﴿لِيَذُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِّنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾ كما ثبت في الصحيحين عن أنس قال: أتى رسول الله ﷺ بكبشين أملحين أقرنين فسَمَّى وكبر ووضع رجله على صفاحهما، وقال الإمام أحمد بن حنبل عن زيد بن أرقم قال، قلت أو قالوا: يا رسول الله ما هذه الأضاحي؟ قال: «سنة أبيكم إبراهيم»، قالوا: ما لنا منها؟ قال: «بكل شعرة حسنة»، قالوا: فالصوف؟ قال: «بكل شعرة من الصوف حسنة»^(٢)، وقوله: ﴿فَالِهَكُمْ إِلَهُ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا﴾ أي معبودكم واحد وإن تنوعت شرائع الأنبياء ونسخ بعضها بعضاً، فالجميع يدعون إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾، ولهذا قال: ﴿فَلَهُ أَسْلِمُوا﴾ أي أخلصوا واستسلموا لحكمه وطاعته، ﴿وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ﴾ قال مجاهد: المطمئنين، وقال الضحاك: المتواضعين، وقال السدي: الوجلين، وقال الثوري: المطمئنين الراضين بقضاء الله المستسلمين له، وأحسن ما يفسر بما بعده وهو قوله: ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي خافت منه قلوبهم، ﴿وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ﴾ أي من المصائب، قال الحسن البصري: والله لنصبرن أو لنهلكن، ﴿وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ﴾ أي المؤدين حق الله فيما أوجب عليهم من أداء فرائضه، ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ أي وينفقون ما آتاهم الله من طيب الرزق على أهلبيهم وأقاربهم وفقرائهم ومحاويجهم، ويحسنون إلى الخلق مع محافظتهم على حدود الله.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند.

(١) كذا قال عطاء والضحاك وقتادة وغيرهم.

﴿ وَالْبَدَنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِّنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ۗ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافٍ ۗ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِعُوا ۗ الْقَنَاعَ ۗ وَالْمُعْتَرَّ ۗ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾

يقول تعالى: ممتناً على عبده فيما خلق لهم من البدن وجعلها من شعائره، وهو أنه جعلها تهدي إلى بيته الحرام بل هي أفضل ما يهدي إليه. قال عطاء ﴿ والبدن ﴾: البقرة والبعير^(١). وقال مجاهد: إنما البدن من الإبل، واختلفوا في صحة إطلاق البدنة على البقرة على قولين: أصحهما أنه يطلق عليها ذلك شرعاً كما صح الحديث، ثم جمهور العلماء على أنه تجزئ البدنة عن سبعة والبقرة عن سبعة، كما ثبت عن جابر بن عبد الله قال: أمرنا رسول الله ﷺ أن نشترك في الأضاحي: البدنة عن سبعة، والبقرة عن سبعة^(٢)، وقوله: ﴿ لكم فيها خير ﴾ أي ثواب في الدار الآخرة، لما روي عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: « ما عمل ابن آدم يوم النحر عملاً أحب إلى الله من إهراق دم وإنما لتأتي يوم القيامة بقرونها وأظلافها وأشعارها، وإن الدم ليقع من الله بمكان قبل أن يقع من الأرض فطيبوا بها نفساً »^(٣)، وقال سفيان الثوري: كان أبو حازم يستدين ويسوق البدن، فقيل له: تستدين وتسوق البدن؟ فقال: إني سمعت الله يقول ﴿ لكم فيها خير ﴾، وقال مجاهد ﴿ لكم فيها خير ﴾ قال: أجر ومنافع، وقال إبراهيم النخعي: يركبها ويحلها إذا احتاج إليها، وقوله: ﴿ فاذكروا اسم الله عليها صواف ﴾، وعن جابر بن عبد الله قال: صليت مع رسول الله ﷺ عيد الأضحى، فلما انصرف أتني بكبش فذبحه، فقال: « بسم الله والله أكبر، اللهم هذا عني وعن من لم يضح من أمتي »^(٤). وروى محمد بن إسحاق عن جابر قال: ضحى رسول الله ﷺ بكبشين في يوم عيد فقال حين وجههما: « وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفاً، وما أنا من المشركين » إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين، اللهم منك ولك عن محمد وأمته»، ثم سَمَّى وكبر وذبح.

وعن علي بن الحسين عن أبي رافع أن رسول الله ﷺ كان إذا ضحى اشترى كبشين سميين قرنين أملحين، فإذا صلى وخطب الناس أتى بأحدهما وهو قائم في مصلاه فذبحه بنفسه بالمدينة ثم يقول: « اللهم هذا عن أمتي جميعها من شهد لك بالتوحيد وشهد لي بالبلاغ. ثم يُؤتى بالآخر فيذبحه بنفسه، ثم يقول: « هذا عن محمد وآل محمد » فيطعمهما جميعاً للمساكين ويأكل هو وأهله منهما^(٥). وقال الأعمش عن ابن عباس في قوله ﴿ فاذكروا اسم الله عليها صواف ﴾ قال: قياماً على ثلاث قوائم معقولة يدها اليسرى يقول: باسم الله والله أكبر لا إله إلا الله، اللهم منك ولك، وقال ليث عن مجاهد: إذا عقلت رجلها اليسرى قامت على ثلاث. وفي الصحيحين عن ابن عمر أنه أتى على رجل قد أناخ بدنة وهو ينحرها فقال: ابعثها قياماً مقيدة سنة أبي القاسم ﷺ^(٦)، وعن جابر

(١) وكذا روي عن ابن عمر وسعيد بن المسيب والحسن البصري

(٢) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه .

(٣) رواه ابن ماجه والترمذي وحسنه .

(٤) رواه أحمد وأبو داود والترمذي .

(٥) رواه أحمد وابن ماجه . (٦) أخرجه البخاري ومسلم .

أن رسول الله ﷺ وأصحابه: كانوا ينحرون البدن معقولة اليسرى قائمة على ما بقي من قوائمها^(١). وقال العوفي عن ابن عباس ﴿فإذا وجبت جنوبها﴾ يعني نحرت، وقال ابن أسلم: ﴿فإذا وجبت جنوبها﴾ يعني ماتت؛ وهذا القول هو مراد ابن عباس ومجاهد، فإنه لا يجوز الأكل من البدنة إذا نحرت حتى تموت وتبرد حركتها، وقد جاء في حديث مرفوع: «لا تعجلوا النفوس أن ترهق»، ويؤيده حديث شداد بن أوس في صحيح مسلم: «إن الله كتب الإحسان على كل شيء فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة، وليحد أحدكم شفرته وليرح ذبيحته»^(٢). وقوله: ﴿فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر﴾ قال بعض السلف: قوله ﴿فكلوا منها﴾ أمر بإباحة، وقال مالك: يستحب ذلك، وقال غيره يجب، واختلفوا في المراد بالقانع والمعتر، فقال ابن عباس: القانع المستغني بما أعطيته وهو في بيته، والمعتر الذي يتعرض لك ويلم بك أن تعطيه من اللحم ولا يسأل، وكذا قال مجاهد، وقال ابن عباس: القانع المتعفف، والمعتر السائل^(٣)، وقال سعيد بن جبير: القانع هو السائل، أما سمعت قول الشماخ:

لمال المرء يصلحه فيغني مفاقره أعف من القنوع

أي: يغني من السؤال، وقال زيد بن أسلم: القانع المسكين الذي يطوف، والمعتر الصديق والضعيف الذي يزور، واختار ابن جرير: أن القانع هو السائل لأنه من أقنع بيده إذا رفعها للسؤال، والمعتر من الاعتراء وهو الذي يتعرض لأكل اللحم، وفي الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ قال للناس: «إني كنت نهيتكم عن ادخار لحوم الأضاحي فوق ثلاث فكلوا وادخروا ما بدا لكم»، وفي رواية: «فكلوا وادخروا وتصدقوا».

مسألة

عن البراء بن عازب قال، قال رسول الله ﷺ: «إن أول ما نبدا به في يومنا هذا أن نصلي ثم نرجع فنحمر، فن فعل فقد أصاب سنتنا، ومن ذبح قبل الصلاة فإنما هو لحم قدمه لأهله ليس من النسك في شيء»^(٤)، فلهذا قال الشافعي وجماعة من العلماء: إن أول وقت ذبح الأضاحي إذا طلعت الشمس يوم النحر ومضى قدر صلاة العيد والخطبتين، زاد أحمد: وأن يذبح الإمام بعد ذلك، لما جاء في صحيح مسلم: وأن لا تذبحوا حتى يذبح الإمام، وقال أبو حنيفة: أما أهل السواد من القرى ونحوها فلهم أن يذبحوا بعد طلوع الفجر إذ لا صلاة عيد تشرع عندهم، وأما أهل الأمصار فلا يذبحوا حتى يصلي الإمام والله أعلم. ثم قيل: لا يشرع الذبح إلا يوم النحر وحده، وقيل: يوم النحر ويوم بعده للجميع، وقيل: ويومان بعده، وبه قال الإمام أحمد، وقيل: يوم النحر وثلاثة أيام التشريق بعده، وبه قال الشافعي، لحديث جبير بن مطعم أن رسول الله ﷺ قال: «أيام التشريق كلها ذبح»^(٥)، وقوله: ﴿كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون﴾، يقول تعالى من أجل هذا ﴿سخرناها لكم﴾ أي ذللناها لكم وجعلناها منقادة لكم خاضعة إن شئتم ركبتهم وإن شئتم حلبتم وإن شئتم ذبحتم ﴿كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون﴾.

(١) رواه أبو داود في سننه. (٢) أخرجه مسلم في صحيحه.

(٣) وهذا قول قتادة وإبراهيم النخعي ومجاهد في رواية عنه.

(٤) أخرجاه في الصحيحين. (٥) رواه الإمام أحمد وابن حبان.

﴿ لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا دَمَآؤَهَا وَلَكِنَّ يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَيْتُمْ ۗ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾

يقول تعالى إنما شرع لكم نحر هذه الضحايا لتذكروه عند ذبحها، فإنه الخالق الرازق لا يناله شيء من لحومها ولا دماؤها، فهو الغني عما سواه، وقد كانوا في جاهليتهم إذا ذبحوها لأهلهم، وضعوا عليها من لحوم قرابينهم ونضحوا عليها من دماؤها، فقال تعالى: ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا دَمَآؤَهَا﴾. عن ابن جريج قال: كان أهل الجاهلية ينضحون البيت بلحوم الإبل ودماؤها، فقال أصحاب رسول الله ﷺ: فنحن أحق أن ننضح فأنزل الله: ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا دَمَآؤَهَا وَلَكِنَّ يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾^(١) أي يتقبل ذلك ويجزي عليه، كما جاء في الصحيح: «إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم». وجاء في الحديث: «إن الصدقة لتقع في يد الرحمن قبل أن تقع في يد السائل، وإن الدم ليقع من الله بمكان قبل أن يقع إلى الأرض»^(٢)، وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ﴾ أي من أجل ذلك سخر لكم البدن ﴿لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ﴾ أي لتعظموه على ما هداكم لدينه وشرعه وما يحبه ويرضاه، ونهاكم عن فعل ما يكرهه ويأباه، وقوله: ﴿وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي وبشر يا محمد المحسنين في عملهم، القائمين بحدود الله، المتبعين ما شرع لهم، المصدقين الرسول فيما أبلغهم وجاءهم به من عند ربه عز وجل.

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدْفِعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾ ﴾

يخبر تعالى: أنه يدفع عن عباده الذين توكلوا عليه وأتابوا إليه، شر الأشرار وكيد الفجار، ويحفظهم ويكلوهم وينصرهم، كما قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾؟ وقال: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾، وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ أي لا يحب من عباده من اتصف بهذا، وهو الخيانة في العهود والمواثيق، لا يني بما قال، والكفر: الجحد للنعم فلا يعترف بها.

﴿ أذِنَ لِلَّذِينَ يُقْتَلُونَ بِإِنِّهِمْ ظُلْمُوا ۗ وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبَّنَا اللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفُتَّتْ صَوْمِعُ وَيَبِعُ وَصَلَوَاتٌ وَمَسْجِدٌ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾

قال ابن عباس: نزلت في محمد وأصحابه حين أخرجوا من مكة، وقال مجاهد والضحاك وغير واحد من السلف: هذه أول آية نزلت في الجهاد، وقال ابن جرير عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: لما أخرج النبي ﷺ من مكة قال أبو بكر: أخرجوا نبيهم إنا لله وإنا إليه راجعون ليهلكن، قال ابن عباس: فأنزل الله

(١) أخرجه ابن أبي حاتم.

(٢) تقدم الحديث عن عائشة مرفوعاً وقد رواه ابن ماجه والترمذي وحسنه.

عزَّ وجلَّ: ﴿أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير﴾، قال أبو بكر رضي الله عنه: فعرفت أنه سيكون قتال، زاد أحمد: وهي أول آية نزلت في القتال^(١). وقوله: ﴿وإن الله على نصرهم لقدير﴾ أي هو قادر على نصر عباده المؤمنين من غير قتال، ولكن هو يريد من عباده أن يبذلوا جهدهم في طاعته كما قال: ﴿ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض، والذين قتلوا في سبيل الله فلن يضل أعمالهم﴾، وقال تعالى: ﴿قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين﴾، وقال: ﴿أم حسبكم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين﴾، وقال: ﴿ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم﴾ والآيات في هذا كثيرة، ولهذا قال ابن عباس في قوله ﴿وإن الله على نصرهم لقدير﴾ وقد فعل، وإنما شرع تعالى الجهاد في الوقت الأليق به، لأنهم لما كانوا بمكة كان المشركون أكثر عدداً، فلو أمر المسلمون وهم أقل بقتال الباقي لشق عليهم، ولهذا لما بايع أهل يثرب ليلة العقبة رسول الله ﷺ وكانوا نيفاً وثمانين قالوا: يا رسول الله ألا نميل على أهل الوادي، يعنون أهل منى ليالي منى ففقتلهم؟ فقال رسول الله ﷺ: «إني لم أؤمر بهذا»، فلما بغى المشركون وأخرجوا النبي ﷺ من بين أظهرهم، وهما بقتله وشردوا أصحابه، فلما استقروا بالمدينة وصارت لهم دار إسلام، ومعقلاً يلجئون إليه، شرع الله جهاد الأعداء، فكانت هذه الآية أول ما نزل في ذلك، فقال تعالى: ﴿أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير﴾ الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق ﴿قال ابن عباس: أخرجوا من مكة إلى المدينة بغير حق يعني محمداً وأصحابه﴾ إلا أن يقولوا ربنا الله ﴿أي ما كان لهم إساءة ولا ذنب، إلا أنهم وحدوا الله وعبدوه لا شريك له، كما قال تعالى: ﴿يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم﴾، وقال تعالى في قصة أصحاب الأخدود: ﴿وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد﴾.

ثم قال تعالى: ﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض﴾ أي لولا أنه يدفع بقوم عن قوم، ويكف شرور أناس عن غيرهم، بما يخلق ويقدره من الأسباب لفسدت الأرض، ولأهلك القوي الضعيف، ﴿لهدمت صوامع﴾ وهي المعابد للرهبان^(٢)، وقال قتادة: هي معابد الصابئين، وفي رواية عنه: صوامع المجوس، ﴿وبيع﴾ وهي أوسع منها وهي للنصارى أيضاً، وحكى ابن جبير عن مجاهد وغيره: أنها كنائس اليهود، وعن ابن عباس: أنها كنائس اليهود، وقوله: ﴿وصلوات﴾ قال ابن عباس: الصلوات الكنائس، وكذا قال عكرمة والضحاك وقاتادة: إنها كنائس اليهود وهم يسمونها صلوات، وحكى السدي عن ابن عباس: أنها كنائس النصارى، وقال أبو العالية وغيره: الصلوات معابد الصابئين. وقال مجاهد: الصلوات مساجد لأهل الكتاب، ولأهل الإسلام بالطرق، وأما المساجد فهي للمسلمين. وقوله: ﴿يذكر فيها اسم الله كثيراً﴾، فقد قيل: الضمير في قوله ﴿يذكر فيها﴾ عائذ إلى المساجد لأنها أقرب المذكورات، وقال الضحاك: الجميع يذكر فيها الله كثيراً، وقال ابن جرير: الصواب لهدمت صوامع الرهبان وبيع النصارى وصلوات اليهود وهي كنائسهم ومساجد المسلمين التي يذكر فيها اسم الله

(١) أخرجه أحمد والترمذي والنسائي وقال الترمذي: حديث حسن .

(٢) قاله ابن عباس ومجاهد وعكرمة والضحاك وغيرهم .

كثيراً، لأن هذا هو المستعمل المعروف في كلام العرب. وقال بعض العلماء: هذا ترقٍ من الأقل إلى الأكثر إلى أن انتهى إلى المساجد، وهي أكثر عماراً وأكثر عبّاداً، وهم ذوو القصد الصحيح. وقوله: ﴿ولينصرن الله من ينصره﴾، كقوله تعالى: ﴿إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم﴾، وقوله: ﴿إن الله لقوي عزيز﴾ وصف نفسه بالقوة والعزة؛ فبقوته خلق كل شيء فقدره تقديراً، وبعزته لا يقهره قاهر، ولا يغلبه غالب، بل كل شيء ذليل لديه فقير إليه، ومن كان القوي العزيز ناصره فهو المنصور، وعدوه هو المقهور، قال الله تعالى: ﴿ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين، إنهم لهم المنصورون وإن جندنا لهم الغالبون﴾، وقال تعالى: ﴿كتب الله لأغلبن أنا ورسلي إن الله لقوي عزيز﴾.

الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَاللَّهُ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿٤١﴾

قال عثمان بن عفان: فينا نزلت ﴿الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر﴾ فأخرجنا من ديارنا بغير حق إلا أن قلنا ربنا الله ثم مكنا في الأرض، فأقمنا الصلاة وآتينا الزكاة، وأمروا بالمعروف ونهينا عن المنكر، والله عاقبة الأمور، فهي لي ولأصحابي^(١). وقال أبو العالية: هم أصحاب محمد ﷺ، وقال عطية العوفي: هذه الآية كقوله: ﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض﴾، وقوله: ﴿والله عاقبة الأمور﴾، كقوله تعالى: ﴿والعاقبة للمتقين﴾، وقال زيد بن أسلم: ﴿والله عاقبة الأمور﴾ وعند الله ثواب ما صنعوا.

وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَى فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ فَكَايِنَ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فِيهَا خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيُرِيهَا مَعْطَلَةٌ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾

يقول تعالى مسلماً لنبيه محمد ﷺ في تكذيب من خالفه من قومه ﴿وإن يكذبوك فقد كذبت قبلهم قوم نوح - إلى أن قال - وكذب موسى﴾ أي مع ما جاء به من الآيات والدلائل الواضحات، ﴿فأمليت للكافرين﴾ أي أنظرتهم وأخرتهم، ﴿ثم أخذتهم فكيف كان نكير﴾ أي فكيف كان إنكاري عليهم ومعاقبتي لهم؟! وذكر بعض السلف أنه كان بين قول فرعون لقومه ﴿أنا ربكم الأعلى﴾ وبين إهلاك الله له أربعون سنة، وفي الصحيحين عن أبي موسى عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته»، ثم قرأ ﴿وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد﴾^(٢)، ثم قال تعالى: ﴿فكايين من قرية أهلكتناها﴾ أي كم

(١) أخرجه ابن أبي حاتم عن عثمان رضي الله عنه . (٢) أخرجه البخاري ومسلم .

من قرية أهلكتها ﴿ وهي ظالمة ﴾ أي مكذبة لرسولها، ﴿ فهي خاوية على عروشها ﴾، قال الضحاك: سقوفها، أي قد خربت منازلها وتعطلت حواضرها، ﴿ وبئر معطله ﴾ أي لا يستقى منها ولا يردها أحد، بعد كثرة واردة والازدحام عليها، ﴿ وقصر مشيد ﴾ قال عكرمة: يعني المبيض بالحصص، وقال آخرون هو المنيف المرتفع، وقال آخرون: المشيد المنيع الحصين، وكل هذه الأقوال متقاربة، ولا منافاة بينها، فإنه لم يحم أهله شدة بنائه ولا ارتفاعه ولا إحكامه ولا حصانته عن حلول بأس الله بهم، كما قال تعالى: ﴿ أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة ﴾، وقوله: ﴿ أفلم يسيروا في الأرض ﴾ أي بأبدانهم وبفكرهم أيضاً، وذلك للاعتبار، أي انظروا ما حل بالأمم المكذبة من النقم والنكال، ﴿ فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها ﴾ أي فيعتبرون بها، ﴿ فإنها لا تعمي الأبصار ولكن تعمي القلوب التي في الصدور ﴾ أي ليس العمى عمى البصر، وإنما العمى عمى البصيرة، وإن كانت القوة الباصرة سليمة فإنها لا تنفذ إلى العبر ولا تدري ما الخبر .

وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمَلْتُمْ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْنَا وَإِلَى الْمَصِيرِ ﴿٤٨﴾

يقول تعالى لنبيه صلوات الله وسلامه عليه ﴿ ويستعجلونك بالعذاب ﴾ أي هؤلاء الكفار الملحدون المكذبون بالله وكتابه ورسوله واليوم الآخر، كما قال تعالى: ﴿ وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ﴾، ﴿ وقالوا ربنا عجل لنا قطننا قبل يوم الحساب ﴾، وقوله: ﴿ ولن يخلف الله وعده ﴾ أي الذي قد وعد من إقامة الساعة، والانتقام من أعدائه، والإكرام لأوليائه، وقوله: ﴿ وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون ﴾ أي هو تعالى لا يعجل فإن مقدار ألف سنة عند خلقه كيوم واحد عنده بالنسبة إلى حكمه لعلمه بأنه على الانتقام قادر، وأنه لا يفوته شيء، وإن أجل وأنظر، ولهذا قال بعد هذا: ﴿ وكأين من قرية أمليت لها وهي ظالمة ثم أخذتها وإلى المصير ﴾. عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: « يدخل فقراء المسلمين الجنة قبل الأغنياء بنصف يوم خمسمائة عام »^(١) وعن ابن عباس ﴿ وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون ﴾ قال: من الأيام التي خلق الله فيها السماوات والأرض. وقال مجاهد: هذه الآية كقوله: ﴿ يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون ﴾ .

قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا كُرْهُؤُا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٤٩﴾ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي ءَايَاتِنَا مُعْجِزِينَ ءَأُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٥١﴾

يقول تعالى لنبيه ﷺ حين طلب منه الكفار وقوع العذاب واستعجلوه به: ﴿ قل يا أيها الناس إنما أنا لكم نذير مبين ﴾ أي إنما أرسلني الله إليكم نذيراً لكم بين يدي عذاب شديد، وليس إلي من حسابكم من شيء، أمركم إلى الله إن شاء عجل لكم العذاب وإن شاء أخره عنكم، وإن شاء تاب على من يتوب إليه، وإن شاء أضل من كتب

(١) أخرجه ابن أبي حاتم والترمذي والنسائي وقال الترمذي: حسن صحيح

عليه الشقاوة وهو الفعال لما يشاء، ﴿ وَإِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ فالذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴿ أَي آمَنَتْ قُلُوبُهُمْ وَصَدَقُوا إِيمَانَهُمْ بِأَعْمَالِهِمْ ﴾، ﴿ لَّهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ أي مغفرة لما سلف من سيئاتهم، ومجازاة حسنة على القليل من حسناتهم، قال القرظي^(١) : إذا سمعت الله تعالى يقول: ﴿ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ فهو الجنة، وقوله: ﴿ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ ﴾ قال مجاهد: يشطون الناس عن متابعة النبي ﷺ، وقال ابن عباس ﴿ مُعَاجِزِينَ ﴾ مراغمين ﴿ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾ وهي النار الحارة الموجهة، الشديد عذابها ونكالها أجازنا الله منها .

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾

قد ذكر كثير من المفسرين هنا (قصة الغرائق) وما كان من رجوع كثير من المهاجرة إلى أرض الحبشة ظناً منهم أن مشركي قريش قد أسلموا، وخلصتها عن سعيد بن جبیر قال: قرأ رسول الله ﷺ بمكة « النجم » فلما بلغ هذا الموضع: ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ ﴾ قال: فألقى الشيطان على لسانه: « تلك الغرائق العلى، وإن شفاعتهن لترتجى »، قالوا: ما ذكر آهتنا بخير قبل اليوم فسجد وسجدوا، فأنزل الله عز وجل هذه الآية: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾؛ وقد ذكرها محمد بن إسحاق في السيرة بنحو من هذا، وكلها مراسلات ومنقطعات والله أعلم. وقد ساقها البغوي في تفسيره ثم سأل ههنا سؤالا: كيف وقع مثل هذا مع العصمة المضمونة من الله تعالى لرسوله صلاة الله وسلامه عليه؟ ثم حكى أجوبة عن الناس، من أظفها: أن الشيطان أوقع في مسامع المشركين ذلك. فتوهما أنه صدر عن رسول الله ﷺ، وليس كذلك في نفس الأمر، بل إنما كان من صنع الشيطان، لا عن رسول الرحمن ﷺ والله أعلم. وقوله: ﴿ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ ﴾ هذا فيه تسلية من الله لرسوله صلاة الله وسلامه عليه، قال البخاري قال ابن عباس ﴿ فِي أُمْنِيَّتِهِ ﴾ إذا حدث ألقى الشيطان في حديثه، فيبطل الله ما يلقي الشيطان ﴿ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ ﴾. وقال مجاهد: ﴿ إِذَا تَمَنَّى ﴾ يعني إذا قال؛ ويقال أمنيته قراءته ﴿ إِلَّا أَمَانِي ﴾ يقرؤون ولا يكتبون. قال البغوي: وأكثر المفسرين قالوا: معنى قوله ﴿ تَمَنَّى ﴾ أي تلا وقرأ كتاب الله ﴿ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ ﴾ أي في تلاوته، قال الشاعر في عثمان حين قتل:

تَمَنَّى كِتَابَ اللَّهِ أَوَّلَ لَيْلِهِ وَأَخْرَاهَا لَأَقَى حَمَامَ الْمَقَادِرِ

وقال الضحاك ﴿ إِذَا تَمَنَّى ﴾: إذا تلا، قال ابن جرير: هذا القول أشبه بتأويل الكلام .

وقوله تعالى: ﴿ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ﴾ حقيقة النسخ لغة الإزالة والرفع، قال ابن عباس: أي فيبطل

(١) هو محمد بن كعب القرظي رضي الله عنه .

الله سبحانه وتعالى ما ألقى الشيطان^(١)؛ وقال الضحاك: نسخ جبريل بأمر الله ما ألقى الشيطان وأحكم الله آياته، وقوله: ﴿والله عليم﴾ أي بما يكون من الأمور والحوادث لا تخفى عليه خافية ﴿حكيم﴾ أي في تقديره وخلقه وأمره، له الحكمة التامة والحجة البالغة، ولهذا قال: ﴿ليجعل ما يلقي الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض﴾ أي شك وشرك وكفر ونفاق كالمشركين حين فرحوا بذلك واعتقدوا أنه صحيح من عند الله وإنما كان من الشيطان، قال ابن جريج ﴿للذين في قلوبهم مرض﴾ هم المنافقون، ﴿والقاسية قلوبهم﴾ هم المشركون، وقال مقاتل بن حيان: هم اليهود، ﴿وإن الظالمين لفي شقاق بعيد﴾ أي في ضلال ومخالفة وعناد بعيد أي من الحق والصواب، ﴿وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به﴾ أي وليعلم الذين أوتوا العلم النافع الذي يفرقون به بين الحق والباطل، والمؤمنون بالله ورسوله أن ما أوحينا إليك، هو الحق من ربك الذي أنزله بعلمه وحفظه، وحرصه أن يختلط به غيره، بل هو كتاب عزيز ﴿لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد﴾، وقوله: ﴿فيؤمنوا به﴾ أي يصدقوه وينقادوا له ﴿فتخبت له قلوبهم﴾ أي تخضع وتذل له قلوبهم، ﴿وإن الله لهاد الذين آمنوا إلى صراط مستقيم﴾ أي في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا فيرشدهم إلى الحق واتباعه ويوفقهم لمخالفة الباطل واجتنابه، وفي الآخرة يهديهم الصراط المستقيم الموصل إلى درجات الجنات، ويزحزحهم عن العذاب الأليم والدركات.

وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مَرِيَةٍ مِّنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾ الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ
لَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ﴿٥٦﴾ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا
فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥٨﴾

يقول تعالى مخبراً عن الكفار أنهم لا يزالون في ﴿مريَةٍ﴾ أي في شك وريب من هذا القرآن قاله ابن جريج، واختاره ابن جرير، وقال سعيد بن جبير وابن زيد ﴿منه﴾ أي مما ألقى الشيطان، ﴿حتى تأتيهم الساعة بغتة﴾ قال مجاهد: فجأة، وقال قتادة: ﴿بغتة﴾ بغت القوم أمر الله، وما أخذ الله قوماً قط إلا عند سكرتهم وغرثهم ونعمتهم، فلا تغتروا بالله، إنه لا يغتر بالله إلا القوم الفاسقون، وقوله: ﴿أو يأتيهم عذاب يوم عقيم﴾ قال أبي بن كعب: هو يوم بدر؛ وقال عكرمة ومجاهد: هو يوم القيامة لا ليل له، وهذا القول هو الصحيح، وإن كان يوم بدر من جملة ما أوعدوا به لكن هذا هو المراد، ولهذا قال: ﴿الملك يومئذ لله يحكم بينهم﴾، كقوله: ﴿مالك يوم الدين﴾، وقوله: ﴿الملك يومئذ الحق للرحمن وكان يوماً على الكافرين عسيراً﴾ ﴿فالذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ أي آمنت قلوبهم وصدقوا بالله ورسوله، وعملوا بمقتضى ما علموا مع توافق قلوبهم وأقوالهم ﴿في جنات النعيم﴾ أي لهم النعيم المقيم الذي لا يحول ولا يزول ولا يبديد، ﴿والذين كفروا وكذبوا بآياتنا﴾ أي كفرت قلوبهم بالحق وجحدته، وكذبوا به وخالفوا الرسل، واستكبروا عن اتباعهم، ﴿فأولئك لهم عذاب مهين﴾ أي

(١) قال السيوطي بعدما ذكر هذه الروايات في اللباب: وكلها إما ضعيفة وإما منقطعة، قال الحافظ ابن حجر: لكن كثرة الطرق تدل على أن للقصة أصلاً، وقال ابن العربي: إن هذه الروايات باطلة لا أصل لها.

مقابلة استكبارهم وإبائهم عن الحق، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ أي صاغرين .

وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٥٨﴾ لِيَدْخُلَنَّهُمْ مَدْخُلًا يُرْضُونَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾ * ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لِيَنْصُرَهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾

يخبر تعالى عن مخرج مهاجراً في سبيل الله ابتغاء مرضاته، وطلباً لما عنده وترك الأوطان والأهلين والخلان، وفارق بلاده في الله ورسوله ونصرة لدين الله ﴿ثم قتلوا﴾ أي في الجهاد ﴿أو ماتوا﴾ أي حتف أنفسهم من غير قتال على فرشهم، فقد حصلوا على الأجر الجزيل والثناء الجميل، كما قال تعالى: ﴿ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله﴾، وقوله: ﴿ليرزقنهم الله رزقاً حسناً﴾ أي ليجرين عليهم من فضله ورزقه من الجنة ما تقر به أعينهم، ﴿وإن الله هو خير الرازقين﴾ ليدخلنهم مدخلاً يرضونه ﴿أي الجنة، كما قال تعالى: ﴿فأما إن كان من المقربين فروح وريحان وجنة نعيم﴾ فأخبر أنه يحصل له الراحة والرزق وجنة النعيم، كما قال ههنا: ﴿ليرزقنهم الله رزقاً حسناً﴾، ثم قال: ﴿ليدخلنهم مدخلاً يرضونه وإن الله لعليم﴾ أي بمن يهاجر ويجاهد في سبيله وبمن يستحق ذلك، ﴿حليم﴾ أي يحلم ويصفح ويغفر لهم الذنوب، فأما من قتل في سبيل الله فإنه حي عند ربه يرزق، كما قال تعالى: ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون﴾. والأحاديث في هذا كثيرة كما تقدم؛ وأما من توفي في سبيل الله فقد تضمنت هذه الآية الكريمة مع الأحاديث الصحيحة إجراء الرزق عليه، وعظيم إحسان الله إليه، قال ابن أبي حاتم عن ابن عقبة يعني أبا عبيدة بن عقبة قال، قال شرحبيل بن السمط: طال رباطنا وإقامتنا على حصن بأرض الروم، فر بي سلمان يعني الفارسي رضي الله عنه فقال، إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من مات مرابطاً أجرى الله عليه مثل ذلك الأجر، وأجرى عليه الرزق وأمن من القتائين» وأقرأوا إن شئتم ﴿والذين هاجروا في الله ثم قتلوا أو ماتوا ليرزقنهم الله رزقاً حسناً﴾ وإن الله هو خير الرازقين ليدخلنهم مدخلاً يرضونه وإن الله لعليم ﴿وعن عبد الرحمن بن جحدم الخولاني أنه حضر (فضالة بن عبيد) في البحر مع جنازتين، أحدهما أصيب بمنجنيق والآخر توفي، فجلس فضالة بن عبيد عند قبر المتوفى، فقيل له: تركت الشهيد فلم تجلس عنده، فقال: ما أبالي من أي حفرتيها بعثت، إن الله يقول: ﴿والذين هاجروا في سبيل الله ثم قتلوا أو ماتوا ليرزقنهم الله رزقاً حسناً﴾ الآيتين، فما تبتغي أيها العبد إذا أدخلت مدخلاً ترضاه ورزقت رزقاً حسناً! والله ما أبالي من أي حفرتيها بعثت^(١). وقوله: ﴿ذلك ومن عاقب بمثل ما عوقب به﴾ الآية، نزلت في سرية من الصحابة لقوا جمعاً من المشركين في شهر محرم، فناشدهم المسلمون لثلاثا يقاتلوهم في الشهر الحرام، فأبى المشركون إلا قتالهم وبغوا عليهم، فقاتلهم المسلمون، فنصرهم الله عليهم ﴿إن الله لعفو غفور﴾^(٢).

(٢) ذكره مقاتل بن حيان وابن جرير .

(١) رواه ابن أبي حاتم ورواه ابن جرير بنحوه .

ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾

يقول تعالى منبهاً على أنه الخالق المتصرف في خلقه بما يشاء، كما قال: ﴿قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء﴾ الآية، ومعنى إيلاجه الليل في النهار، والنهار في الليل، إدخاله من هذا في هذا، ومن هذا في هذا، فتارة يطول الليل ويقصر النهار كما في الشتاء، وتارة يطول النهار ويقصر الليل كما في الصيف، وقوله: ﴿وأن الله سميع بصير﴾ أي سميع بأقوال عباده بصير بهم، لا يخفى عليه منهم خافية في أحوالهم وحركاتهم وسكناتهم، ولما تبين أنه المتصرف في الوجود الحاكم الذي لا معقب لحكمه قال: ﴿ذلك بأن الله هو الحق﴾ أي الإله الحق الذي لا تنبغي العبادة إلا له، لأنه ذو السلطان العظيم، الذي ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وكل شيء فقير إليه، دليل لديه ﴿وأن ما يدعون من دونه هو الباطل﴾ أي من الأصنام والأنداد والأوثان، وكل ما عبد من دونه تعالى فهو باطل، لأنه لا يملك ضراً ولا نفعاً، وقوله: ﴿وأن الله هو العلي الكبير﴾، كما قال: ﴿وهو العلي العظيم﴾، وقال: ﴿وهو الكبير المتعال﴾ فكل شيء تحت قهره وسلطانه وعظمته لا إله إلا هو ولا رب سواه، لأنه العظيم الذي لا أعظم منه، العلي الذي لا أعلى منه، الكبير الذي لا أكبر منه، تعالى وتقدس وتتره عز وجل عما يقول الظالمون المعتدون علواً كبيراً .

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مِمَّا فِي الْأَرْضِ وَأَلْفُكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٦٥﴾ وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾

وهذا أيضاً من الدلالة على قدرته وعظيم سلطانه، وأنه يرسل الرياح فتثير سحاباً فيمطر على الأرض الجزر، التي لا نبات فيها وهي هامة يابسة سوداء ممحلة ﴿فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت﴾، وقوله: ﴿فتصبح الأرض مخضرة﴾ أي خضراء بعد يبسها ومحولها، ﴿إن الله لطيف خبير﴾ أي عليم بما في أرجاء الأرض وأقطارها وأجزائها، لا يخفى عليه خافية، كما قال لقمان: ﴿يا بني إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة أو في السموات أو في الأرض يأت بها الله إن الله إن الله لطيف خبير﴾، وقال تعالى: ﴿وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين﴾، وقوله: ﴿له ما في السموات وما في الأرض﴾ أي ملكه جميع الأشياء وهو غني عما سواه، وكل شيء فقير إليه عبد لديه، وقوله: ﴿ألم تر أن الله سخر لكم ما في الأرض﴾ أي من حيوان وجماد وزروع وثمار كما قال: ﴿وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً﴾ منه ﴿أي من إحسانه وفضله وامتنانه﴾ والفلك تجري في البحر بأمره ﴿أي بتسخيره وتسييره، أي في البحر العجاج وتلاطم الأمواج، تجري الفلك بأهلها بريح طيبة فيحملون فيها ما شاءوا من بضائع ومنافع، من بلد إلى بلد وقطر

إلى قطر ﴿ ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه ﴾ أي لو شاء لأذن للسماء فسقطت على الأرض فهلك من فيها، ولكن من لطفه ورحمته وقدرته يمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه، ولهذا قال: ﴿ إن الله بالناس لرؤوف رحيم ﴾ أي مع ظلمهم كما قال في الآية الأخرى ﴿ وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم وإن ربك لشديد العقاب ﴾، وقوله: ﴿ وهو الذي أحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم يميتكم ﴾، وقوله: ﴿ قل الله يحييكم ثم يميتكم ثم يجمعكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه ﴾، وقوله: ﴿ قالوا ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين ﴾ ومعنى الكلام كيف يجعلون لله أنداداً وتعبدون معه غيره، وهو المستقل بالخلق والرزق والتصرف، ﴿ وهو الذي أحياكم ﴾ أي خلقكم بعد أن لم تكونوا شيئاً يذكر فأوجدكم، ﴿ ثم يميتكم ثم يحييكم ﴾ أي يوم القيامة، ﴿ إن الإنسان لكفور ﴾ أي جحود لربه .

﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنْزِعُكَ فِي الْأَمْرِ وَأَدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾ وَإِنْ جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ اللَّهُ يُحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾

يخبر تعالى أنه جعل لكل قوم منسكاً، وأصل المنسك في كلام العرب هو الموضع الذي يعتاده الإنسان ويردد إليه، ولهذا سميت مناسك الحج بذلك، لترداد الناس إليها وعكوفهم عليها، والمراد لكل أمة نبي جعلنا منسكاً، ﴿ فلا ينازعك في الأمر ﴾ أي هؤلاء المشركون، ﴿ هم ناسكوه ﴾ أي فاعلوه، فالضمير ههنا عائد على هؤلاء الذين لهم مناسك وطرائق، فلا تتأثر بمنازعتهم لك ولا يصرفك ذلك عما أنت عليه من الحق، ولهذا قال: ﴿ وادع إلى ربك إنك لعلي هدى مستقيم ﴾ أي طريق واضح مستقيم موصل إلى المقصود، وهذه كقوله: ﴿ ولا يصدنك عن آيات الله بعد إذ أنزلت إليك ﴾، وقوله: ﴿ وإن جادلوك فقل الله أعلم بما تعملون ﴾ تهديد شديد ووعد أكيد كقوله: ﴿ هو أعلم بما تفيضون فيه كفى به شهيداً بيني وبينكم ﴾، ولهذا قال: ﴿ الله يحكم بينكم يوم القيامة فيما كنتم فيه تختلفون ﴾، وهذه كقوله تعالى: ﴿ فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب ﴾ الآية .

﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ ﴿٧٠﴾ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧١﴾ ﴾

يخبر تعالى عن كمال علمه بخلقه، وأنه محيط بما في السماوات وما في الأرض، وأنه تعالى علم الكائنات كلها قبل وجودها وكتب ذلك في اللوح المحفوظ، كما قال رسول الله ﷺ: « إن الله قدّر مقادير الخلائق قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة وكان عرشه على الماء »^(١)، وفي السنن من حديث جماعة من الصحابة أن رسول الله ﷺ: « قال أول ما خلق الله القلم قال له: اكتب، قال: وما أكتب؟ قال: اكتب ما هو كائن،

(١) أخرجه مسلم عن عبد الله بن عمرو .

فجرى القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة»، وقال ابن عباس: خلق الله اللوح المحفوظ كمسيرة مائة عام، وقال للقلم قبل أن يخلق الخلق وهو على العرش تبارك وتعالى: اكتب فقال القلم: وما أكتب؟ قال علمي في خلقي إلى يوم تقوم الساعة، فجرى القلم بما هو كائن في علم الله إلى يوم القيامة فذلك قوله: ﴿ألم تعلم أن الله يعلم ما في السماء والأرض﴾، وهذا من تمام علمه تعالى علم الأشياء قبل كونها وقدرها وكتبها أيضاً، فيعلم قبل الخلق أن هذا يطبع باختياره وهذا يعصي باختياره وكتب ذلك عنده، وأحاط بكل شيء علماً، وهو سهل عليه يسير لديه، ولهذا قال تعالى: ﴿إن ذلك في كتاب إن ذلك على الله يسير﴾ .

وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يَنْزَلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٧١﴾ وَإِذَا نُتِيَ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتَّبِعُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قُلْ أَفَأَنْتُمْ بِشِرِّ مَن ذَلِكُمُ النَّارُ وَعَدَّهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيُبْسِ الْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾

يقول مخبراً عن المشركين فما جهلوا وكفروا، وعبدوا من دون الله ما لم ينزل به سلطاناً، يعني حجة وبرهاناً كقوله: ﴿ومن يدع مع الله إلهاً آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه إنه لا يفلح الكافرون﴾، ولهذا قال ههنا ﴿ما لم ينزل به سلطاناً وما ليس لهم به علم﴾ أي ولا علم لهم فيما اختلقوه واثفقوه، وإنما هو أمر تلقوه عن آبائهم وأسلافهم بلا دليل ولا حجة، وأصله مما سؤل لهم الشيطان وزينه لهم، ولهذا توعدهم تعالى بقوله: ﴿وما للظالمين من نصير﴾ أي من ناصر ينصرهم من الله فيما يحل بهم من العذاب والنكال؛ ثم قال: ﴿وإذا نتى عليهم آياتنا بينات﴾ أي وإذا ذكرت لهم آيات القرآن والحجج والدلائل الواضحات على توحيد الله ﴿يكادون يسطون بالذين يتلون عليهم آياتنا﴾ أي يكادون يبادرون الذين يحتجون عليهم بالدلائل الصحيحة من القرآن ويسطون إليهم أيديهم وألسنتهم بالسوء ﴿قل﴾ أي يا محمد هؤلاء ﴿أفأنبتكم بشر من ذلكم النار وعدها الله الذين كفروا﴾ أي النار وعذابها ونكالها أشد وأشق، وأطم وأعظم مما تخوفون به أولياء الله المؤمنين في الدنيا، وعذاب الآخرة على صنيعكم هذا أعظم مما تنالون منهم إن نلتهم بزعمكم وإرادتكم، وقوله: ﴿وبئس المصير﴾ أي وبئس النار مقيلاً ومنزلاً ومرجعاً وموثلاً ومقاماً ﴿إنها ساءت مستقراً ومقاماً﴾ .

يَأْتِيهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٍ فَاَسْتَمِعُوا لَهُ ۗ وَإِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ ۗ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْعًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾

يقول تعالى منهاً على حقارة الأصنام وسخافة عقول عابديها ﴿يا أيها الناس ضرب مثل﴾ أي لما يعبده الجاهلون بالله المشركون به ﴿فاستمعوا له﴾ أي أنصتوا وتفهموا ﴿إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له﴾ أي لو اجتمع جميع ما تعبدون من الأصنام والأنداد، على أن يقدروا على خلق ذباب واحد ما قدروا على ذلك؛ كما قال أبو هريرة عن النبي ﷺ قال: «قال الله عز وجل: ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي؟ فليخلقوا

ذرة، فليخلقوا شعيرة»^(١)، ثم قال تعالى أيضاً: ﴿وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه﴾ أي هم عاجزون عن خلق ذباب واحد، بل أبلغ من ذلك عاجزون عن مقاومته والانتصار منه، لو سلبها شيئاً من الذي عليها من الطيب، ثم أرادت أن تستنقذه منه لما قدرت على ذلك، هذا والذباب من أضعف مخلوقات الله وأحقرها، ولهذا قال: ﴿ضعف الطالب والمطلوب﴾، قال ابن عباس: الطالب الصنم، والمطلوب الذباب؛ واختاره ابن جرير، وقال السدي وغيره: الطالب العابد والمطلوب الصنم، ثم قال: ﴿ما قدروا الله حق قدره﴾ أي ما عرفوا قدر الله وعظمته حين عبدوا معه غيره من هذه التي لا تقاوم الذباب لضعفها وعجزها، ﴿إن الله لقوي عزيز﴾ أي هو القوي الذي بقدرته وقوته خلق كل شيء، ﴿وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه﴾، ﴿إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين﴾، وقوله ﴿عزيز﴾ أي قد عز كل شي وغلبه، فلا يمانع ولا يغالب، لعظمته وسلطانه وهو الواحد القهار.

﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ ﴿٧٥﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٧٦﴾

يخبر تعالى أنه يختار من الملائكة رسلاً فيما يشاء من شرعه وقدره ومن الناس لإبلاغ رسالته، ﴿إن الله سميع بصير﴾ أي سميع لأقوال عباده بصير بهم، علم بمن يستحق ذلك منهم كما قال: ﴿الله أعلم حيث يجعل رسالته﴾، وقوله: ﴿يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم وإلى الله ترجع الأمور﴾ أي يعلم ما يفعل برسله فيما أرسلهم به، فلا يخفى عليه شيء من أمورهم، فهو سبحانه رقيب عليهم شهيد على ما يقال لهم، حافظ لهم، ناصر لجنابهم.

يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَرْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبَدُوا رَبَّكُمْ وَأَفْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٧٦﴾ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِثْلَ مَا اجْتَبَاكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴿٧٧﴾

اختلف في هذه السجدة الثانية على قولين وقد قدمنا عن النبي ﷺ قال: «فضلت سورة الحج بسجديتين فن لم يسجدهما فلا يقرأهما»، وقوله: ﴿وجاهدوا في الله حق جهاده﴾ أي بأموالكم وألسنتكم وأنفسكم، كما قال تعالى: ﴿اتقوا الله حق تقاته﴾، وقوله: ﴿هو اجتباكم﴾ أي يا هذه الأمة الله اصطفاكم واختاركم على سائر الأمم، وفضلكم وشرفكم وخصكم بأكرم رسول وأكمل شرع، ﴿وما جعل عليكم في الدين من حرج﴾ أي ما كلفكم ما لا تطيقون، وما ألزمكم بشيء يشق عليكم إلا جعل الله لكم فرجاً ومخرجاً، ولهذا قال عليه السلام: «بعثت بالحنيفية السمحة» وقال لمعاذ وأبي موسى حين بعثهما أميرين إلى اليمن: «بشراً ولا تفراً، ويسراً ولا تعسراً»، والأحاديث في هذا كثيرة، ولهذا قال ابن عباس في قوله: ﴿وما جعل عليكم في الدين من حرج﴾

(١) أخرجه في الصحيحين ورواه الإمام أحمد.

يعني من ضيق، وقوله: ﴿ملة أبيكم إبراهيم﴾ قال ابن جرير: نصب على تقدير ﴿ما جعل عليكم في الدين من حرج﴾ أي من ضيق بل وسَّعه عليكم كملة أبيكم إبراهيم، ويحتمل أنه منصوب على تقدير الزموا ملة أبيكم إبراهيم (قلت): وهذا المعنى في هذه الآية كقوله: ﴿قل إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم ديناً قيمياً ملة إبراهيم حنيفاً﴾ الآية، وقوله: ﴿هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا﴾، قال ابن عباس في قوله ﴿هو سماكم المسلمين من قبل﴾ قال: الله عزَّ وجلَّ. وقال ابن أسلم ﴿هو سماكم المسلمين من قبل﴾ يعني إبراهيم، وذلك لقوله: ﴿ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك﴾، وقد قال الله تعالى: ﴿هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا﴾ قال مجاهد: الله سماكم المسلمين من قبل في الكتب المتقدمة، وفي الذكر، ﴿وفي هذا﴾ يعني القرآن وكذا قال غيره. (قلت): وهذا هو الصواب لأنه تعالى قال: ﴿هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج﴾ ثم حثهم وأغراهم على ما جاء به الرسول صلوات الله وسلامه عليه بأنه ملة إبراهيم الخليل، ثم ذكر منته تعالى على هذه الأمة، بما نوه به من ذكرها والثناء عليها، في سالف الدهر وقديم الزمان، في كتب الأنبياء يتلى على الأجر والرهبان، فقال: ﴿هو سماكم المسلمين من قبل﴾ أي من قبل هذا القرآن ﴿وفي هذا﴾، روى النسائي عن الحارث الأشعري عن رسول الله ﷺ قال: «من دعا بدعوى الجاهلية فإنه من جثي جهنم»، قال رجل: يا رسول الله وإن صام وصلى؟ قال: «نعم وإن صام وصلى» فادعوا بدعوة الله التي سماكم بها المسلمين المؤمنين عباد الله^(١)، ولهذا قال: ﴿ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس﴾ أي إنما جعلناكم هكذا أمة وسطاً، عدولاً خياراً مشهوداً بعدالتكم عند جميع الأمم لتكونوا يوم القيامة ﴿شهداء على الناس﴾ لأن جميع الأمم معترفة يومئذ بسيادتها وفضلها على كل أمة سواها، فلهذا تقبل شهادتهم عليهم يوم القيامة، في أن الرسل بلغتهم رسالة ربهم، والرسول يشهد على هذه الأمة أنه بلغها ذلك، وقد تقدم الكلام على هذا عند قوله: ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطاً﴾، وقوله: ﴿فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة﴾ أي قابلوا هذه النعمة العظيمة بالقيام بشكرها، فأدوا حق الله عليكم في أداء ما افترض، وترك ما حرم، ومن أهم ذلك إقام الصلاة وإيتاء الزكاة، ﴿واعتصموا بالله﴾ أي اعتصدوا بالله واستعينوا به وتوكلوا عليه وتأيدوا به، ﴿هو مولاكم﴾ أي حافظكم وناصركم ومظفركم على أعدائكم، ﴿فنعم المولى ونعم النصير﴾: يعني نعم الولي، ونعم الناصر من الأعداء.

[آخر تفسير سورة الحج ، والله الحمد والمنة]

* * *

(١) أخرجه النسائي في سننه .



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾
 وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ
 أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنْ أَبْغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ
 رَاعُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ
 فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١﴾

روى الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب قال: كان إذا نزل على رسول الله ﷺ الوحي يسمع عند وجهه
 كدوي النحل، فلبثنا ساعة، فاستقبل القبلة ورفع يديه وقال: «اللهم زدنا ولا تنقصنا، وأكرمنا ولا تهنا، وأعطنا
 ولا تحرمنا، وآثرنا ولا تؤثر علينا، وارض عنا وأرضنا»، ثم قال: لقد أنزل عليّ عشر آيات من أقامهن دخل الجنة»
 ثم قرأ ﴿قد أفلح المؤمنون﴾ حتى ختم العشر^(١). وقال النسائي في تفسيره عن يزيد بن بانوس، قال، قلنا لعائشة
 أم المؤمنين: كيف كان خلق رسول الله ﷺ؟ قالت: كان خلق رسول الله ﷺ القرآن، فقرأت: ﴿قد أفلح
 المؤمنون - حتى انتهت إلى - والذين هم على صلواتهم يحافظون﴾ قالت: هكذا كان خلق رسول الله ﷺ.
 وعن أنس رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «خلق الله جنة عدن بيده لبنة من درة بيضاء، ولبنة من
 ياقوتة حمراء، ولبنة من زبرجدة خضراء، ملاطها المسك، وحصباؤها اللؤلؤ، وحشيشها الزعفران، ثم قال لها:
 انطقي، قالت: ﴿قد أفلح المؤمنون﴾، فقال الله: وعزتي وجلالي لا يجاورني فيك بخيل»؛ ثم تلا رسول الله ﷺ:
 ﴿ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون﴾^(٢)، وقوله تعالى: ﴿قد أفلح المؤمنون﴾ أي قد فازوا وسعدوا وحصلوا
 على الفلاح وهم المؤمنون المتصفون بهذه الأوصاف ﴿الذين هم في صلاتهم خاشعون﴾ قال ابن عباس: ﴿خاشعون﴾

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا ورواه الحافظ البزار والطبراني بنحوه .

(١) أخرجه الإمام أحمد والترمذي والنسائي .

خائفون ساكنون، وعن علي: الخشوع خشوع القلب، وقال الحسن البصري: كان خشوعهم في قلوبهم، فغضوا بذلك أبصارهم، وخفضوا الجناح. وقال محمد بن سيرين: كان أصحاب رسول الله ﷺ يرفعون أبصارهم إلى السماء في الصلاة فلما نزلت هذه الآية: ﴿قد أفلح المؤمنون﴾ الذين هم في صلاتهم خاشعون ﴿خفضوا أبصارهم إلى موضع سجودهم، والخشوع في الصلاة إنما يحصل لمن فرغ قلبه لها، واشتغل بها عما عداها وآثرها على غيرها، وحينئذ تكون راحة له وقرّة عين؛ كما قال النبي ﷺ: «حَبَّ إِلَيَّ الطَّيِّبُ، والنِّسَاءُ، وجعلت قرّة عيني في الصلاة»^(١). وكان رسول الله ﷺ يقول: «يا بلال، أرحنا بالصلاة»^(٢).

وقوله تعالى: ﴿والذين هم عن اللغو معرضون﴾ أي عن الباطل وهو يشمل الشرك كما قاله بعضهم، والمعاصي كما قاله آخرون، وما لا فائدة فيه من الأقوال والأفعال كما قال تعالى: ﴿وإذا مروا باللغو مروا كراماً﴾، قال قتادة: أتاهم والله من أمر الله ما وقفهم عن ذلك، وقوله: ﴿والذين هم للزكاة فاعلون﴾ الأكثرون على أن المراد بالزكاة ههنا زكاة الأموال مع أن هذه الآية مكية، وإنما فرضت الزكاة بالمدينة في سنة اثنتين من الهجرة، والظاهر أن أصل الزكاة كان واجباً بمكة، قال تعالى في سورة الأنعام وهي مكية: ﴿وآتوا حقه يوم حصاده﴾؛ وقد يحتمل أن يكون المراد بالزكاة ههنا زكاة النفس من الشرك والدنس، كقوله: ﴿قد أفلح من زكاهها﴾ وقد خاب من دساها﴾، وقد يحتمل أن يكون كلا الأمرين مراداً، وهو زكاة النفوس وزكاة الأموال، فإنه من جملة زكاة النفوس، والمؤمن الكامل هو الذي يفعل هذا وهذا والله أعلم. وقوله: ﴿والذين هم لفروجهم حافظون﴾ إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين * فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون﴾ أي والذين قد حفظوا فروجهم من الحرام فلا يقعون فيما نهاهم الله عنه من زنا ولواط، لا يقربون سوى أزواجهم التي أحلها الله لهم، أو ما ملكت أيمانهم من السراري، ومن تعاطى ما أحله الله له فلا لوم عليه ولا حرج، ولهذا قال: ﴿فإنهم غير ملومين * فمن ابتغى وراء ذلك﴾ أي غير الأزواج والإماء ﴿فأولئك هم العادون﴾ أي المعتدون. وقد استدل الإمام الشافعي رحمه الله ومن وافقه على تحريم الاستمنا باليد بهذه الآية الكريمة: ﴿والذين هم لفروجهم حافظون﴾ إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم﴾ قال: فهذا الصنيع خارج عن هذين القسمين، وقد قال الله تعالى: ﴿فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون﴾.

وقوله تعالى: ﴿والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون﴾ إي إذا أوتمنوا لم يخونوا بل يؤدونها إلى أهلها، وإذا عاهدوا أو عاقدوا أو فؤا بذلك، لا كصفات المنافقين الذين قال فيهم رسول الله ﷺ: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أوتمن خان»، وقوله: ﴿والذين هم على صلواتهم يحافظون﴾ أي يواظبون عليها في مواقيتها كما قال ابن مسعود: سألت رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله أي العمل أحب إلى الله؟ قال: «الصلاة على وقتها» قلت: ثم أي؟ قال: «بر الوالدين»، قلت: ثم أي؟ قال: «الجهاد في سبيل الله»^(٣)، وفي مستدرک الحاكم قال: «الصلاة في أول وقتها»، وقال ابن مسعود ومسروق في قوله: ﴿والذين هم على صلواتهم

(١) الحديث أخرجه الإمام أحمد والنسائي عن أنس بن مالك مرفوعاً .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند .

(٣) أخرجاه في الصحيحين .

يحافظون ﴿ يعني مواقيت الصلاة، وقال قتادة: على مواقيتها وركوعها وسجودها، وقد افتتح الله ذكر هذه الصفات الحميدة بالصلاة واختتمها بالصلاة، فدل على أفضليتها كما قال رسول الله ﷺ: « استقيموا ولن تحصوا، واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة، ولا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن ». ولما وصفهم تعالى بالقيام بهذه الصفات الحميدة والأفعال الرشيدة قال: ﴿ أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون ﴾، وثبت في الصحيحين: « إذا سألت الله الجنة فاسأله الفردوس فإنه أعلى الجنة وأوسط الجنة، ومنه تفجر أنهار الجنة، وفوقه عرش الرحمن ». وقال رسول الله ﷺ: « ما منكم من أحد إلا وله منزلان منزل في الجنة ومنزل في النار، فإن مات ودخل النار ورث أهل الجنة منزله، فذلك قوله: ﴿ أولئك هم الوارثون ﴾^(١) ». وقال مجاهد: ما من عبد إلا وله منزلان منزل في الجنة ومنزل في النار، فأما المؤمن فيبني بيته الذي في الجنة، ويهدم بيته الذي في النار، وأما الكافر فيهدم بيته الذي في الجنة، ويبني بيته الذي في النار، فالؤمنون يرثون منازل الكفار لأنهم أطاعوا ربهم عز وجل بل أبلغ من هذا أيضاً، وهو ما ثبت في صحيح مسلم عن النبي ﷺ قال: « إذا كان يوم القيامة دفع الله لكل مسلم يهودياً أو نصرانياً فيقال هذا فكاكك من النار »، فاستحلف عمر بن عبد العزيز أبا بردة بالله الذي لا إله إلا هو ثلاث مرات أن أباه حدثه عن رسول الله ﷺ بذلك، قال: فحلف له^(٢). قلت: وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿ تلك الجنة التي نورث من عبادنا من كان تقياً ﴾، وكقوله: ﴿ وتلك الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون ﴾ وقد قال مجاهد: الجنة هي الفردوس، وقال بعض السلف: لا يسمى البستان الفردوس إلا إذا كان فيه عنب، فالله أعلم .

وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ﴿١٦﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ﴿١٧﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ﴿٢٠﴾

يقول تعالى مخبراً عن ابتداء خلق الإنسان من سلالة من طين، وهو آدم عليه السلام خلقه الله من صلصال من حمإ مسنون، وقال ابن عباس ﴿ من سلالة من طين ﴾ قال: من صفوة الماء، وقال مجاهد: من سلالة أي من مني بني آدم، وقال ابن جرير: إنما سمي آدم طيناً لأنه مخلوق منه، وقال قتادة: استل آدم من الطين، وهذا أظهر في المعنى وأقرب إلى السياق، فإن آدم عليه السلام خلق من طين لازب، وهو الصلصال من الحمإ المسنون، وذلك مخلوق من التراب، كما قال تعالى: ﴿ ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون ﴾، وقال النبي ﷺ: « إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض، جاء منهم الأحمر والأبيض والأسود وبين ذلك، والخبيث والطيب وبين ذلك »^(٣). ﴿ ثم جعلناه نطفة ﴾ هذا الضمير عائد

(١) أخرجه ابن أبي حاتم عن أبي هريرة .

(٢) أخرجه مسلم عن أبي بردة عن أبيه مرفوعاً .

(٣) أخرجه أحمد وأبو داود والترمذي وقال: حسن صحيح .

على جنس الإنسان، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وبدأ خلق الإنسان من طين﴾ ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ﴿أي ضعيف كما قال: ﴿لم نخلقكم من ماء مهين فجعلناه في قرار مكين﴾ يعني الرحم معد لذلك مهياً له، ﴿إلى قدر معلوم فقدرنا نعم القادرون﴾ أي مدة معلومة وأجل معين، حتى استحکم ونقل من حال إلى حال وصفة إلى صفة، ولهذا قال ههنا ﴿ثم خلقنا النطفة علقة﴾ أي ثم صيرنا النطفة وهي الماء الدافق الذي يخرج من صلب الرجل وهو ظهره، وترائب المرأة وهي عظام صدرها ما بين الترقوة إلى السرة، فصارت علقة حمراء على شكل العلقة مستطيلة، قال عكرمة، وهي دم ﴿فخلقنا العلقة مضغة﴾ وهي قطعة كالبضعة من اللحم لا شكل فيها ولا تخطيط ﴿فخلقنا المضغة عظماً﴾ يعني شكلناها ذات رأس ويدين ورجلين بعظامها وعصبا وعروقها. وفي الصحيح: «كل جسد ابن آدم يبلى إلا عَجَب»^(١) الذَّنْب، منه خلق وفيه يركب. ﴿فكسونا العظام لحماً﴾ أي جعلنا على ذلك ما يستره ويشده ويقويه، ﴿ثم أنشأناه خلقاً آخر﴾ أي ثم نفخنا فيه الروح فتحرك وصار خلقاً آخر ذا سمع وبصر وإدراك وحركة واضطراب ﴿فتبارك الله أحسن الخالقين﴾. عن ابن أبي طالب رضي الله عنه قال: إذ أتت على النطفة أربعة أشهر بعث الله إليها ملكاً فنفخ فيها الروح في ظلمات ثلاث، فذلك قوله: ﴿ثم أنشأناه خلقاً آخر﴾ يعني نفخنا فيه الروح، وقال ابن عباس: يعني فنفخنا فيه الروح^(٢)؛ واختاره ابن جرير، وقال العوفي عن ابن عباس ﴿ثم أنشأناه خلقاً آخر﴾: يعني نقله من حال إلى حال، إلى أن خرج طفلاً، ثم نشأ صغيراً، ثم احتلم، ثم صار شاباً، ثم كهلاً، ثم شيخاً، ثم هرمًا، وفي الصحيح: «إن أحدكم ليجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً نطفة ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات: رزقه وأجله وعمله وهل هو شقي أو سعيد، فوالذي لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيختم له بعمل أهل النار فيدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيختم له بعمل أهل الجنة فيدخلها»^(٣).

وقال عبد الله بن مسعود: إن النطفة إذا وقعت في الرحم طارت في كل شعر وظفر، فتمكث أربعين يوماً، ثم تنحدر في الرحم فتكون علقة^(٤)، وفي الصحيح: «يدخل الملك على النطفة بعدما تستقر في الرحم بأربعين ليلة فيقول يا رب ماذا؟ شقي أم سعيد، أذكر أم أنثى؟ فيقول الله فيكتب عمله وأثره ومصيبته ورزقه، ثم تطوى الصحيفة فلا يزداد على ما فيها ولا ينقص»^(٥). وروى الحافظ أبو بكر البزار عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله وكل بالرحم ملكاً فيقول: أي رب نطفة، أي رب علقة، أي رب مضغة، فإذا أراد الله خلقها قال: أي رب ذكر أو أنثى؟ شقي أم سعيد؟ فما الرزق والأجل؟ قال: فذلك يكتب في بطن أمه»^(٦). وقوله: ﴿فتبارك

(١) ما استدق في مؤخره.

(٢) وكذا روي عن أبي سعيد الخدري، ومجاهد، وعكرمة، والشعبي، والضحاك، والحسن البصري.

(٣) أخرجه في الصحيحين عن عبد الله بن مسعود ورواه الإمام أحمد.

(٤) رواه ابن أبي حاتم عن ابن مسعود موقوفاً.

(٥) الحديث رواه مسلم والإمام أحمد عن حذيفة بن أسيد الغفاري مرفوعاً.

(٦) الحديث أخرجه في الصحيحين ورواه الحافظ البزار واللفظ له.

الله أحسن الخالقين ﴿١٧﴾: يعني حين ذكر قدرته ولطفه في خلق هذه النطفة من حال إلى حال، ومن شكل إلى شكل، حتى تصورت إلى ما صارت إليه من الإنسان السوي الكامل الخلق، قال: ﴿فتبارك الله أحسن الخالقين﴾، وقوله: ﴿ثم إنكم بعد ذلك لميتون﴾ يعني بعد هذه النشأة الأولى من العدم تصيرون إلى الموت، ﴿ثم إنكم يوم القيامة تبعثون﴾ يعني النشأة الآخرة، ﴿ثم الله ينشئ النشأة الآخرة﴾ يعني يوم المعاد، وقيام الأرواح إلى الأجساد، فيحاسب الخلائق، ويوفي كل عامل عمله إن خيراً فخير وإن شراً فشر .

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ ﴾ (١٧)

لما ذكر تعالى خلق الإنسان عطف بذكر خلق السماوات السبع، وكثيراً ما يذكر تعالى خلق السماوات والأرض مع خلق الإنسان كما قال تعالى: ﴿لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس﴾، وقوله: ﴿سبع طرائق﴾ قال مجاهد: يعني السموات السبع وهذه كقوله تعالى: ﴿تسبح له السماوات السبع والأرض ومن فيهن﴾، ﴿ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقاً﴾، ﴿الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن ينزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً﴾، وهكذا قال ههنا ﴿ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق وما كنا عن الخلق غافلين﴾ أي أنه سبحانه لا يحجب عنه سماء ولا أرض، ولا جبل إلا يعلم ما في وعره، ولا بحر إلا يعلم ما في قعره، يعلم عدد ما في الجبال والتلال والرمال والبحار والقفار والأشجار، ﴿وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين﴾ .

﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَتْهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ﴾ (١٨) ﴿ فَأَنْسَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّتٍ مِّنْ نَّجِيلٍ وَأَعْنَبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ (١٩) ﴿ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالذَّهْنِ وَصَبِغٍ لِللَّاكِلِينَ ﴾ (٢٠) ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً لِّتُسْقِيَهُمْ مِّمَّا فِي بَطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ (٢١) ﴿ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ مُحْمَلُونَ ﴾ (٢٢)

يذكر تعالى نعمه على عبده التي لا تعد ولا تحصى في إنزاله القطر من السماء بقدر، أي بحسب الحاجة لا كثيراً فيفسد الأرض والعمران، ولا قليلاً فلا يكفي الزروع والثمار، بل بقدر الحاجة إليه من السقي والشرب والانتفاع به، حتى إن الأراضي التي تحتاج ماء كثيراً لزرعها ولا تحتل دمتها إنزال المطر عليها يسوق إليها الماء من بلاد أخرى، كما في أرض مصر، ويقال لها الأرض الجزر يسوق الله إليها ماء النيل معه طين أحمر يجترفه من بلاد الحبشة في زمان أمطارها، فيأتي الماء يحمل طيناً أحمر، فيسقي أرض مصر، ويقر الطين على أرضهم ليزرعوا فيه، لأن أرضهم سباح يغلب عليها الرمال، فسبحان اللطيف الخبير الرحيم الغفور، وقوله: ﴿فأسكناه في الأرض﴾ أي جعلنا الماء إذا نزل من السحاب يخلد في الأرض، وجعلنا في الأرض قابلية إليه، تشربه ويتغذى به ما فيها من الحب والنوى، وقوله: ﴿وإننا على ذهاب به لقادرون﴾ أي لو شئنا أن لا تمطر لفعلنا، ولو شئنا أذى لصرناه عنكم إلى السباح والبراري والقفار لفعلنا، ولو شئنا لجعلناه أجاجاً لا ينتفع به لشرب ولا لسقي لفعلنا،

ولو شئنا لجعلناه إذا نزل فيها يغور إلى مدى لا تصلون إليه ولا تنتفعون به لفضلنا، ولكن بلطفه ورحمته ينزل عليكم المطر من السحاب عذباً فرائناً زلالاً، فيسكنه في الأرض ويسلكه ينابيع في الأرض، فيفتح العيون والأنهار، ويسقي به الزروع والثمار، تشربون منه ودوابكم وأنعامكم، وتغتسلون منه وتطهرون منه وتنظفون، فله الحمد والمنة .

وقوله تعالى: ﴿ فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ ﴾ يعني فأخرجنا لكم بما أنزلنا من السماء جنات أي بساتين وحدائق ﴿ ذات بهجة ﴾ أي ذات منظر حسن، وقوله: ﴿ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ ﴾ أي فيها نخيل وأعناب، وهذا ما كان يألف أهل الحجاز ولا فرق بين الشيء وبين نظيره، وكذلك في حق كل أهل إقليم عندهم من الثمار من نعمة الله عليهم ما يعجزون عن القيام بشكره، وقوله: ﴿ لَكُمْ فِيهَا فَوَاكِهَ كَثِيرَةٌ ﴾ أي من جميع الثمار، كما قال: ﴿ يَنْبِتْ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ﴾، وقوله: ﴿ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ معطوف على شيء مقدر، تقديره: تنظرون إلى حسنه ونضجه ومنه تأكلون، وقوله: ﴿ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ ﴾ يعني الزيتون، والطور هو الجبل، وقال بعضهم: إنما يسمى طوراً إذا كان فيه شجر، فإن عري عنها سمي جبلاً لا طوراً والله أعلم. ﴿ وَطُورِ سَيْنَاءَ ﴾ هو طور سينين، وهو الجبل الذي كلم الله عليه موسى بن عمران عليه السلام وما حوله من الجبال التي فيها شجر الزيتون، وقوله: ﴿ تَنْبِتُ بِالذَّهْنِ ﴾ أي تنبت الدهن، كما في قول العرب: ألقى فلان بيده أي يده، ولهذا قال: ﴿ وَصَبَّغَ ﴾ أي أدم قاله قتادة ﴿ لِلْأَكْلِينَ ﴾ أي فيها ما ينتفع به من الدهن والاصطباغ، قال رسول الله ﷺ: « كلوا الزيت وادهنوا به فإنه من شجرة مباركة »^(١). وروى عبد ابن حميد في مسنده عن عمر أن رسول الله ﷺ قال: « اتدوموا بالزيت وادهنوا به، فإنه يخرج من شجرة مباركة ». وقوله: ﴿ وَإِنْ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةٌ نَسَقِيكُمْ مِمَّا فِي بَطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ وَعَلَى الْفُلْكِ تَحْمَلُونَ ﴾ يذكر تعالى ما جعل لخلقه في الأنعام من المنافع، وذلك أنهم يشربون من ألبانها الخارجة من بين فرث ودم ويأكلون من حملانها، ويلبسون من أصوافها وأوبارها وأشعارها، ويركبون ظهورها، ويحملونها الأحمال الثقال إلى البلاد النائية عنهم، كما قال تعالى: ﴿ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بِالْغَيْهِ إِلَّا يَشُقُّ الْأَنْفُسَ إِنْ رَكِبْتُمْ لِرُؤُوفٍ رَحِيمٍ ﴾، وقال تعالى: ﴿ وَذَلَّلْنَاهَا لِمِمْسِكِهَا رُكُوبَهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ * وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾ .

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَّقُوا اللَّهَ مَا كُفِرْتُمْ بِهِ مِنْ إِلَهِ غَيْرِهِ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ الْمَلَأُوا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأُولِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فُتَرَبِّصُوا بِهِ ۚ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾

يخبر تعالى عن نوح عليه السلام حين بعثه إلى قومه، لينذرهم عذاب الله وبأسه الشديد، وانتقامه ممن أشرك به وخالف أمره وكذب رسله ﴿ فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون ﴾ أي ألا تخافون من الله في إشراككم به؟ فقال الملائكة - وهم السادة والأكابر منهم - ﴿ ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم ﴾

(١) أخرجه الإمام أحمد عن مالك بن ربيعة الساعدي مرفوعاً .

يعنون يترفع عليكم ويتعاضم بدعوى النبوة وهو بشر مثلكم فكيف أوحى إليه دونكم؟! ﴿ ولو شاء الله لأنزل ملائكة ﴾ أي لو أراد أن يبعث نبياً لبعث ملكاً من عنده ولم يكن بشراً ﴿ ما سمعنا بهذا ﴾ أي ببعثة البشر ﴿ في آبائنا الأولين ﴾ يعنون بهذا أسلافهم وأجدادهم في الدهور الماضية، وقوله: ﴿ إن هو إلا رجل به جنة ﴾ أي مجنون فيما يزعمه من أن الله أرسله إليكم، واختصه من بينكم بالوحي ﴿ فتربصوا به حتى حين ﴾ أي انتظروا به ريب المنون، واصبروا عليه مدة حتى تستريحوا منه .

* قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَبُونَ ﴿٢٦﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعْ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَّوَحَيْنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطَبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكَ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّيْنَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُلْ رَبِّ أُنزِلْنِي مُنْزَلًا مُبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾

يخبر تعالى عن نوح عليه السلام أنه دعا ربه ليستنصره على قومه كما قال تعالى مخبراً عنه في الآية الأخرى: ﴿ فدعا ربه أي مغلوب فانتصر ﴾، وقال ههنا: ﴿ رب انصُرْنِي بِمَا كَذَبُونَ ﴾، فعند ذلك أمره الله تعالى بصنعة السفينة وإحكامها وإتقانها، وأن يحمل فيها من كل زوجين اثنين، أي ذكراً وأنثى من كل صنف من الحيوانات والنباتات والثمار وغير ذلك، وأن يحمل فيها أهله ﴿ إلا من سبق عليه القول منهم ﴾ أي من سبق عليه القول بالهلاك، وهم الذين لم يؤمنوا به من أهله كابنه وزوجته والله أعلم، وقوله: ﴿ ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغروقون ﴾ أي عند معاينة إنزال المطر العظيم لا تأخذنك رافة بقومك وشفقة عليهم، وطمع في تأخيرهم لعلهم يؤمنون، فإني قد قضيت أنهم مغروقون على ما هم عليه من الكفر والطغيان، وقد تقدمت القصة مبسوطة في سورة هود بما يغني عن إعادة ذلك ههنا، وقوله: ﴿ فإذا استويت أنت ومن معك على الفلك فقل الحمد لله الذي نجانا من القوم الظالمين ﴾، كما قال: ﴿ وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون * لتستوتوا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه، وتقولوا سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين * وإنا إلى ربنا لمنقلبون ﴾، وقد امتثل نوح عليه السلام هذا، كما قال تعالى: ﴿ وقال اركبوا فيها بسم الله مجريها ومرساها ﴾، فذكر الله تعالى عند ابتداء سيره وعند انتهائه. ﴿ إن في ذلك لآيات ﴾ أي إن في هذا الصنيع - وهو إنجاء المؤمنين وإهلاك الكافرين - آيات، أي لحججاً ودلالات واضحات على صدق الأنبياء فيما جاءوا به عن الله تعالى، وأنه تعالى فاعل لما يشاء قادر على كل شيء عليم بكل شيء، وقوله: ﴿ وإن كنا لمبتلين ﴾ أي لمختبرين للعباد بإرسال المرسلين .

ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ - أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا لَخٰسِرُونَ

﴿٣٤﴾ أَيْدُكُمْ أَنْكُرُوا إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظْمًا أَنْكُمْ تُخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ * هِيَاتَ هِيَاتَ لِمَا تُوْعَدُونَ ﴿٣٦﴾
 إِنَّ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ
 لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبْتَنِي ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لِيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ ﴿٤٠﴾ فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ
 فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً ۖ فَبَعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾

يخبر تعالى أنه أنشأ بعد قوم نوح قرناً آخرين، قيل: المراد بهم عاد، فإنهم كانوا مستخلفين بعدهم، وقيل: المراد بهؤلاء ثمود، لقوله: ﴿فأخذتهم الصيحة بالحق﴾، وأنه تعالى أرسل فيهم رسولا منهم فدعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، فكذبه وخالفوه وأبوا اتباعه لكونه بشراً مثلهم، وكذبوا بقاء الله، وقالوا: ﴿أيعدكم أنكم إذا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظْمًا أَنْكُمْ تُخْرَجُونَ﴾ أي بعد ذلك، ﴿إن هو إلا رجل افتري على الله كذباً﴾ أي فيما جاءكم به من الرسالة والإخبار بالمعاد، ﴿وما نحن له بمؤمنين﴾ قال رب انصُرْنِي بِمَا كَذَّبْتَنِي ﴿أي استفتح عليهم الرسول واستنصر ربه عليهم فأجاب دعاءه﴾ قال عَمَّا قَلِيلٍ لِيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ ﴿أي بمخالفتك وعنادك فيما جئتكم به﴾ فأخذتهم الصيحة بالحق ﴿أي وكانوا يستحقون ذلك من الله بكفرهم وطغيانهم، والظاهر أنه اجتمع عليهم صيحة مع الريح الصرصر العاصف القوي الباردة تدمر كل شيء بأمر ربه﴾ فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم ﴿وقوله﴾ ﴿فجعلناهم غثاء﴾ أي صرعى هلكى كغثاء السيل وهو الشيء الحقيقير التافه الهالك الذي لا ينتفع بشيء منه، ﴿فبعداً للقوم الظالمين﴾، كقوله: ﴿وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين﴾ أي بكفرهم وعنادهم ومخالفة رسول الله، فليحذر السامعون أن يكذبوا رسولهم .

﴿٤٢﴾ ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ ﴿٤٣﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَعْمِرُونَ ﴿٤٤﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرًا كُلًّا
 مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولًا كَذَّبُوهُ فَاتَّبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ ۖ فَبَعْدًا لِلْقَوْمِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٥﴾

يقول تعالى: ﴿ثم أنشأنا من بعدهم قرونًا آخرين﴾ أي أمماً وخلائق ﴿ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون﴾ يعني بل يؤخذون على حسب ما قدر لهم تعالى في كتابه المحفوظ وعلمه، قبل كونهم أمة بعد أمة، وجيلاً بعد جيل، ﴿ثم أرسلنا رسلنا تترى﴾ قال ابن عباس: يعني يتبع بعضهم بعضاً، وهذا كقوله تعالى: ﴿ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة﴾، وقوله: ﴿كلما جاء أمة رسولا كذبه﴾ يعني جمهورهم وأكثرهم، كقوله تعالى: ﴿يا حسرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون﴾، وقوله: ﴿فاتبعنا بعضهم بعضاً﴾ أي أهلكتناهم، كقوله: ﴿وكم أهلكتنا من القرون من بعد نوح﴾، وقوله: ﴿وجعلناهم أحاديث﴾ أي أخباراً وأحاديث للناس، كقوله: ﴿فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق﴾ .

﴿٤٦﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عٰلِينَ ﴿٤٨﴾

فَقَالُوا أَنْزَلْنَا مِثْلَنَا وَقَوْمَهُمَا لَنَا عَبْدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾

يخبر تعالى أنه بعث رسوله موسى عليه السلام وأخاه هارون إلى فرعون وملئه، بالآيات والحجج الدامغات والبراهين القاطعات، وأن فرعون وقومه استكبروا عن اتباعهما والانقياد لأمرهما، لكونهما بشرين كما أنكرت الأمم الماضية بعثة الرسل من البشر، تشابهت قلوبهم. فأهلك الله فرعون وملأه وأغرقهم في يوم واحد أجمعين، وأنزل على موسى الكتاب - وهو التوراة - فيها أحكامه وأوامره ونواهيته، وذلك بعد أن قصم الله فرعون والقبط، وأخذهم أخذ عزيز مقتدر، وبعد أن أنزل الله التوراة لم يهلك أمة بعامة، بل أمر المؤمنين بقتال الكافرين، كما قال تعالى: ﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى بصائر للناس وهدى ورحمة لعلهم يتذكرون ﴾.

* وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَهُمَا إِلَى رُبُوبَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾

يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله عيسى بن مريم عليهما السلام أنه جعلهما آية للناس، أي حجة قاطعة على قدرته على ما يشاء، فإنه خلق آدم من غير أب ولا أم، وخلق حواء من ذكر بلا أنثى، وخلق عيسى من أنثى بلا ذكر، وخلق بقية الناس من ذكر وأنثى. وقوله: ﴿ وآويناها إلى ربوة ذات قرار ومعين ﴾ قال ابن عباس: الربوة المكان المرتفع من الأرض، وهو أحسن ما يكون فيه النبات، ﴿ ذات قرار ﴾ يقول ذات خصب ﴿ ومعين ﴾ يعني ماء ظاهراً^(١)، وقال مجاهد: ربوة مستوية. وقال سعيد بن جبيرة ﴿ ذات قرار ومعين ﴾: استوى الماء فيها، وقال مجاهد وقتادة: ﴿ ومعين ﴾ الماء الجاري، ثم اختلف المفسرون في مكان هذه الربوة؟ فقال سعيد بن المسيب: هي دمشق، وعن ابن عباس ﴿ ذات قرار ومعين ﴾ قال: أنهار دمشق، وقال مجاهد ﴿ وآويناها إلى ربوة ﴾ قال: عيسى بن مريم وأمه حين أويا إلى غوطة دمشق وما حولها، وقال عبد الرزاق عن أبي هريرة قال: هي الرملة من فلسطين، وأقرب الأقوال في ذلك ما رواه العوفي عن ابن عباس قال: المعين الماء الجاري وهو النهر الذي قال الله تعالى: ﴿ قد جعل ربك تحتك سريان ﴾، وكذا قال الضحاك وقتادة: إلى ربوة ذات قرار ومعين، هو بيت المقدس، فهذا والله أعلم هو الأظهر، لأنه المذكور في الآية الأخرى، والقرآن يفسر بعضه بعضاً، وهذا أولى ما يفسر به، ثم الأحاديث الصحيحة، ثم الآثار.

يَتَأْتِيهَا الرُّسُلُ كُلُّوَا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَأَعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ وَأَنَا رِبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾ فَذَرَهُمْ فِي عَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾

يأمر تعالى عباده المرسلين عليهم الصلاة والسلام أجمعين بالأكل من الحلال، والقيام بالصالح من الأعمال،

(١) وكذا قال مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبيرة وقتادة.

فدل هذا على أن الحلال عون على العمل الصالح، فقام الأنبياء عليهم السلام بهذا أتم القيام، وجمعوا بين كل خير قولاً وعملاً ودلالة ونصحاً، فجزاهم الله عن العباد خيراً، قال الحسن البصري في قوله ﴿يا أيها الرسل كلوا من الطيبات﴾ قال: أما والله ما أمركم بأصفركم ولا أحمركم ولا حلوكم ولا حامضكم، ولكن قال: انتهوا إلى الحلال منه. وقال سعيد بن جبير والضحاك ﴿كلوا من الطيبات﴾: يعني الحلال، وكان عيسى بن مريم يأكل من غزل أمه، وفي الصحيح: «وما من نبي إلا رعى الغنم» قالوا: وأنت يا رسول الله؟ قال: «نعم وأنا كنت أرهاها على قراريط لأهل مكة»، وفي الصحيح: «إن داود عليه السلام كان يأكل من كسب يده»، وقد ثبت عن أبي هريرة رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «يا أيها الناس إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال: ﴿يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً إني بما تعملون عليم﴾، وقال: ﴿يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم﴾، ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء يارب يارب، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغذي بالحرام فإني يستجاب لذلك»^(١)؟! وقوله: ﴿وإن هذه أمتكم أمة واحدة﴾ أي دينكم يا معشر الأنبياء دين واحد، وملة واحدة، وهو الدعوة إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ولهذا قال: ﴿وأنا ربكم فاتقون﴾، وقوله: ﴿فتقطعوا أمرهم بينهم زبراً﴾ أي الأمم التي بعثت إليهم الأنبياء ﴿كل حزب بما لديهم فرحون﴾ أي يفرحون بما هم فيه من الضلال لأنهم يحسبون أنهم مهتدون، ولهذا قال متهدداً لهم ومتوعداً ﴿فذرهم في غمرتهم﴾ أي في غيهم وضلالهم ﴿حتى حين﴾ أي إلى حين هلاكهم، كما قال تعالى: ﴿فهل الكافرين أمهلهم رويداً﴾، وقال تعالى: ﴿ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون﴾.

وقوله تعالى: ﴿أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون﴾ يعني أيظن هؤلاء المغرورون أن ما نعطيهم من الأموال والأولاد، لكرامتهم علينا ومعزتهم عندنا، كلاً ليس الأمر كما يزعمون في قولهم ﴿نحن أكثر أموالاً وأولاداً وما نحن بمعدين﴾ لقد أخطأوا في ذلك وخاب رجاؤهم، بل إنما نفعل بهم ذلك استدراجاً وإنظاراً وإملاء، ولهذا قال: ﴿بل لا يشعرون﴾، كما قال تعالى: ﴿فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿إنما نملئ لهم ليزدادوا إثماً﴾، وقال تعالى: ﴿وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقرّبكم عندنا زلفى إلا من آمن وعمل صالحاً﴾ الآية، والآيات في هذا كثيرة. قال قتادة: مكر والله بالقوم في أموالهم وأولادهم، يا ابن آدم فلا تعتبر الناس بأموالهم وأولادهم ولكن اعتبرهم بالإيمان والعمل الصالح، وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «إن الله قسم بينكم أخلاقكم كما قسم بينكم أرزاقكم، وإن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الدين إلا لمن أحب، فن أعطاه الله الدين فقد أحبه، والذي نفس محمد بيده لا يسلم عبد حتى يسلم قلبه ولسانه، ولا يؤمن حتى يأمن جاره بوائقه» قالوا: وما بوائقه يا رسول الله؟ قال: «غشمه وظلمه، ولا يكسب عبد مالاً من حرام فينفق منه فيبارك له فيه، ولا يتصدق به فيقبل منه، ولا يتركه خلف ظهره إلا كان زاده إلى النار، إن الله لا يمحو السيء بالسيء، ولكن يمحو السيء بالحسن، إن الخبيث لا يمحو الخبيث»^(٢).

(١) رواه مسلم والترمذي والإمام أحمد واللفظ له . (٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند عن ابن مسعود مرفوعاً .

إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِعِبَائَتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَاءً آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُولَٰئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴿٦١﴾

يقول تعالى: ﴿إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون﴾ أي هم مع إحسانهم وإيمانهم وعملهم الصالح، مشفقون من الله خائفون منه، وجلون من مكره بهم، كما قال الحسن البصري: إن المؤمن جمع إحساناً وشفقة، وإن المناقق جمع إساءة وأمناء، ﴿والذين هم بآيات ربهم يؤمنون﴾ أي يؤمنون بآياته الكونية والشرعية، كقوله تعالى إخباراً عن مريم عليها السلام ﴿وصدقت بكلمات ربها وكتبه﴾ أي أيقنت أن ما كان إنما هو عن قدر الله وقضائه، وما شرعه الله فهو إن كان أمراً فما يحبه ويرضاه، وإن كان نهياً فهو مما يكرهه ويأباه، وإن كان خيراً فهو حق، كما قال الله: ﴿والذين هم بربههم لا يشركون﴾ أي لا يعبدون معه غيره بل يوحّدونه ويعلمون أنه لا إله إلا الله، وأنه لا نظير له ولا كفاء. وقوله: ﴿والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون﴾ أي يعطون العطاء وهم خائفون وجلون أن لا يتقبل منهم، لخوفهم أن يكونوا قد قصروا في القيام بشروط الإعطاء، وهذا من باب الإشفاق والاحتياط، كما قال الإمام أحمد عن عائشة أنها قالت: يا رسول الله يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة هو الذي يسرق ويزني ويشرب الخمر وهو يخاف الله عزّ وجلّ؟ قال: « لا بنت أبي بكر، يا بنت الصديق! ولكنه الذي يصلي ويصوم ويتصدق وهو يخاف الله عزّ وجلّ»^(١). ﴿أولئك يسارعون في الخيرات﴾ «، وقد قرأ آخرون هذه الآية ﴿والذين يأتون ما أتوا وقلوبهم وجلة﴾: أي يفعلون ما يفعلون وهم خائفون، وروي هذا مرفوعاً إلى النبي ﷺ أنه قرأها كذلك، والمعنى على القراءة الأولى وهي قراءة الجمهور السبعة وغيرهم أظهر؛ لأنه قال: ﴿أولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون﴾ فجعلهم من السابقين، ولو كان المعنى على القراءة الأخرى لأوشك أن لا يكونوا من السابقين بل من المقتصدين أو المقصرين، والله أعلم.

وَلَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هَٰذَا وَهُمْ أَعْمَلٌ مِنْ دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَمَلُونَ ﴿٦٣﴾ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْعَرُونَ ﴿٦٤﴾ لَا تَجْعَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُمْ مِنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾ قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُنَادِي عَلَيْكُمْ فَاكْفُرُوا عَلَيَّ أَعْقَبِكُمْ تَكْصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾

يقول تعالى مخبراً عن عدله في شرعه على عباده في الدنيا، أنه لا يكلف نفساً إلا وسعها: أي إلا ما تطيق حمله والقيام به، وأنه يوم القيامة يحاسبهم بأعمالهم، التي كتبها عليهم في كتاب مسطور لا يضيع منه شيء، ولهذا

(١) ورواه الترمذي وابن أبي حاتم بنحوه وقال: لا يا ابنة الصديق ولكنهم الذين يصلون ويصومون ويتصدقون وهم يخافون ألا يتقبل منهم.

قال: ﴿ولدينا كتاب ينطق بالحق﴾ يعني كتاب الأعمال، ﴿وهم لا يظلمون﴾ أي لا يبخسون من الخير شيئاً، وأما السيئات فيعفو ويصفح عن كثير منها لعباده المؤمنين، ثم قال منكراً على الكفار والمشركين من قريش: ﴿بل قلوبهم في غمرة﴾ أي في غفلة وضلالة من هذا، أي القرآن الذي أنزل على رسوله ﷺ، وقوله: ﴿ولهم أعمال من دون ذلك﴾ هم لها عاملون، قال ابن عباس: ﴿ولهم أعمال﴾ أي سيئة من دون ذلك يعني الشرك ﴿لهم لها عاملون﴾، قال: لا بد أن يعملوها، وقال آخرون ﴿ولهم أعمال من دون ذلك﴾ هم لها عاملون: أي قد كتبت عليهم أعمال سيئة لا بد أن يعملوها قبل موتهم لا محالة لتحقق عليهم كلمة العذاب^(١)؛ وهو ظاهر قوي حسن، وقد قدمنا في حديث ابن مسعود: «فوالذي لا إله غيره إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها»، وقوله: ﴿حتى إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب إذا هم يجأرون﴾ يعني حتى إذا جاء مترفيهم - وهم المنعمون في الدنيا - عذاب الله وبأسه ونقمته بهم ﴿إذا هم يجأرون﴾ أي يصرخون ويستغيثون، كما قال تعالى: ﴿ذري والمكذبين أولى النعمة ومهلهم قليلاً﴾، وقال تعالى: ﴿وكم أهلكتنا من قبلهم من قرن فنادوا ولات حين مناص﴾، وقوله: ﴿لا تجأروا اليوم إنكم منا لا تنصرون﴾ أي لا يجيركم أحد مما حل بكم سواء جأرتهم أو سكتهم لا محيد ولا مناص ولا وزر، لزم الأمر ووجب العذاب، ثم ذكر أكبر ذنوبهم فقال: ﴿قد كانت آياتي تتلى عليكم فكنتم على أعقابكم تنكصون﴾: أي إذا دعيتم أبيتتم وإن طلبتم امتنعتم، ذلكم بأنه إذا دعي الله وحده كفرتم وإن يشرك به تؤمنوا فالحكم لله العلي الكبير، وقوله: ﴿مستكبرين به سامراً تهجرون﴾ الضمير للقرآن كانوا يسمرون ويذكرون القرآن بالهجر من الكلام: إنه سحر، إنه شعر، إنه كهانة إلى غير ذلك من الأقوال الباطلة. وقيل: إنه محمد ﷺ، كانوا يذكرونه في سمرهم بالأقوال الفاسدة ويضربون له الأمثال الباطلة، من أنه شاعر، أو كاهن، أو ساحر، أو كذاب، أو مجنون. وقيل المراد بقوله: ﴿مستكبرين به﴾ أي بالبيت يفتخرون به ويعتقدون أنهم أولياؤه وليسوا به، كما قال ابن عباس: إنما كره السمر حين نزلت هذه الآية ﴿مستكبرين به سامراً تهجرون﴾ فقال: مستكبرين بالبيت، يقولون: نحن أهلهم ﴿سامراً﴾ قال: كانوا يتكبرون ويسمرون فيه ولا يعمرونه ويهجرونه^(٢).

أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَهُ بَيَاتٌ أَبَاءَهُمُ الْأَوْلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴿٦٩﴾
 أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُم لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ
 السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ ﴿٧١﴾ أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرَجًا
 نَفَرَاجٍ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ
 عَنِ الصِّرَاطِ لَنُكَيِّبُونَ ﴿٧٤﴾ * وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرِّ الْجَوِّ فِي طُعْيَتِهِمْ يَعْصَمُونَ ﴿٧٥﴾

(١) وروي نحو هذا عن مقاتل والسدي وابن أسلم.

(٢) أخرجه النسائي في التفسير عن ابن عباس.

يقول تعالى منكرًا على المشركين، في عدم تفهمهم للقرآن العظيم وإعراضهم عنه، مع أنهم قد خصوا بهذا الكتاب الذي لم ينزل الله على رسول أكمل منه ولا أشرف، فكان اللائق بهؤلاء أن يقابلوا النعمة التي أسداها الله عليهم بقبولها، والقيام بشكرها وتفهمها والعمل بمقتضاها آناء الليل وأطراف النهار، ثم قال منكرًا على الكافرين من قريش: ﴿أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون﴾ أي أنهم لا يعرفون محمداً وصدقه وأمانته وصيافته التي نشأ بها فيهم، ولهذا قال (جعفر بن أبي طالب) رضي الله عنه للنجاشي ملك الحبشة: أيها الملك إن الله بعث فينا رسولاً نعرف نسبه وصدقه وأمانته، وهكذا قال (المغيرة بن شعبة) لنائب كسرى حين بارزهم، وكذلك قال (أبو سفيان) لملك الروم هرقل حين سأله وأصحابه عن صفات النبي ﷺ، ونسبه وصدقه وأمانته، وكانوا بعد كفاراً لم يسلموا، ومع هذا لم يمكنهم إلا الصدق فاعترفوا بذلك. وقوله: ﴿أم يقولون به جنة﴾ يحكي قول المشركين عن النبي ﷺ، أنه تقول القرآن أي افتراه من عنده، أو أن به جنوناً لا يدري ما يقول، وأخبر عنهم أن قلوبهم لا تؤمن به، وهم يعلمون بطلان ما يقولون في القرآن، وقد تحداهم وجميع أهل الأرض أن يأتوا بمثل ما استطاعوا ولا يستطيعون أبد الآبدين، ولهذا قال: ﴿بل جاءهم بالحق وأكثرهم للحق كارهون﴾، قال قتادة: ذكر لنا أن نبي الله ﷺ لقي رجلاً فقال: «أسلم» فقال الرجل: إنك لتدعوني إلى أمر أنا له كاره، فقال نبي الله ﷺ: «وإن كنت كارهاً». وذكر لنا أنه لقي رجلاً فقال له: «أسلم» فتصعده ذلك وكبر عليه، فقال له نبي الله ﷺ: «أرأيت لو كنت في طريق وعر وعث، فلقيت رجلاً تعرف وجهه وتعرف نسبه، فدعاك إلى طريق واسع سهل أكنت تتبعه؟» قال: نعم، قال: «فوالذي نفس محمد بيده إنك لني أوعر من ذلك الطريق لو قد كنت عليه، وإني لأدعوك لأسهل من ذلك لو دعيت إليه». وقوله: ﴿ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السماوات والأرض ومن فيهن﴾ قال مجاهد والسدي: الحق هو الله عز وجل، والمراد لو أجابهم الله إلى ما في أنفسهم من الهوى وشرع الأمور على وفق ذلك، لفسدت السماوات والأرض ومن فيهن أي لفساد أهوائهم واختلافهم، كما أخبر عنهم في قوهم: ﴿لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم﴾، وقال تعالى: ﴿قل لو أتم تملكون خزائن رحمة ربي إذا لأمسكنم خشية الإنفاق﴾ الآية .

ففي هذا كله تبيين عجز العباد واختلاف آرائهم وأهوائهم، وأنه تعالى هو الكامل في جميع صفاته وأقواله وأفعاله وتدييره لخلقته تعالى وتقدس، ولهذا قال: ﴿بل أتيناهم بذكرهم﴾ أي القرآن ﴿فهم عن ذكرهم معرضون﴾، وقوله: ﴿أم تسألهم خرجاً﴾ قال الحسن: أجراً، وقال قتادة: جُعلاً ﴿فخرج ربك خير﴾ أي أنت لا تسألهم أجره ولا جعلاً ولا شيئاً على دعوتك إياهم إلى الهدى، بل أنت في ذلك تحتسب عند الله جزيل ثوابه، كما قال: ﴿قل ما سألتكم من أجر فهو لكم إن أجري إلا على الله﴾، وقال: ﴿قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين﴾، وقال: ﴿اتبعوا من لا يسألكم أجراً﴾، وقوله: ﴿وإنك لتدعوهم إلى صراط مستقيم﴾ وإن الذين لا يؤمنون بالآخرة عن الصراط لناكبون. عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ أتاه فيما يرى النائم ملكان، فقعد أحدهما عند رجله، والآخر عند رأسه، فقال الذي عند رجله للذي عند رأسه: اضرب مثل هذا ومثل أمته، فقال: إن مثل هذا ومثل أمته كمثل قوم سفر انتهوا إلى رأس مفازة، فلم يكن معهم من الزاد ما يقطعون به المفازة ولا ما يرجعون به، فبينما هم كذلك إذ أتاهم رجل في حلة حبرة، فقال: أرأيتم إن أوردتكم رياضاً معشبة وحياضاً

رواء تتبعوني؟ فقالوا: نعم، قال: فانطلق بهم وأوردتهم رياضاً معشبة وحياضاً رواء، فأكلوا وشربوا وسمنوا، فقال لهم: ألم ألكم على تلك الحال، فجعلتم لي إن وردت بكم رياضاً معشبة وحياضاً رواء أن تتبعوني؟ قالوا: بلى، قال: فإن بين أيديكم رياضاً أعشب من هذه، وحياضاً هي أروى من هذه، فاتبعوني، قال: فقالت طائفة: صدق والله لتتبعنه، وقالت طائفة: قد رضينا بهذا نقيم عليه^(١). وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «إني ممسك بحجزكم هلم عن النار، هلم عن النار وتغلبوني، تتقاحمون فيها تقاحم الفراش والجنادب، فأوشك أن أرسل حجزكم وأنا فرطكم على الحوض، فتردون عليّ معاً وأشتاتاً، أعرفكم بسياكم وأسماكم كما يعرف الرجل الغريب من الإبل في إبله، فيذهب بكم ذات اليمين وذات الشمال، فأناشد فيكم رب العالمين أي رب قومي، أي رب أمي، فيقال: يا محمد إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك، إنهم كانوا يمشون بعدك القهقري على أعقابهم»^(٢). وقوله: ﴿وإن الذين لا يؤمنون بالآخرة عن الصراط لناكبون﴾ أي لعادلون جائرون منحرفون، تقول العرب: نكب فلان عن الطريق إذا زاغ عنها، وقوله: ﴿ولو رحمناهم وكشفنا ما بهم من ضر للجوا في طغيانهم يعمهون﴾ يخبر تعالى عن غلظهم في كفرهم، بأنه لو أزاح عنهم الضر وأفهمهم القرآن لما انقادوا له، ولا استمروا على كفرهم وعنادهم وطغيانهم، كما قال تعالى: ﴿ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون﴾ فهذا من باب علمه تعالى بما لا يكون لو كان كيف يكون، قال ابن عباس: كل ما فيه (لو) فهو مما لا يكون أبداً.

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا رَبَّهُمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ (٧٦) حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾ بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوا إِذْ أَمِنَّا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أءَأَنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وَعَدْنَا نَحْنُ وَءَابَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾

يقول تعالى: ﴿ولقد أخذناهم بالعذاب﴾ أي ابتليناهم بالمصائب والشدائد، ﴿فما استكانوا لربهم وما يتضرعون﴾ أي فما ردهم ذلك عما كانوا فيه من الكفر والمخالفة بل استمروا على غيهم وضلالهم، ما استكانوا أي ما خشعوا ﴿وما يتضرعون﴾ أي ما دعوا، كما قال تعالى: ﴿فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا ولكن قست قلوبهم﴾ الآية. عن ابن عباس أنه قال: جاء أبو سفيان إلى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد أنشدك الله والرحم فقد أكلنا العلهز يعني الوبر والدم - فأنزل الله: ﴿ولقد أخذناهم بالعذاب فاستكانوا﴾^(٣)، وأصله في الصحيحين أن رسول الله ﷺ دعا على قريش حين استعصوا فقال: «اللهم أعني عليهم بسبع كسبع يوسف». وقوله: ﴿حتى إذا

(١) أخرجه الإمام أحمد عن ابن عباس مرفوعاً.

(٢) أخرجه الحافظ الموصلي وقال علي بن المديني: هذا حديث حسن الإسناد.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم والنسائي، وأصله في الصحيحين.

فتحننا عليهم باباً ذا عذاب شديد إذا هم فيه مبلسون ﴿٨٤﴾، أي حتى إذا جاءهم أمر الله وجاءتهم الساعة بغتة، فأخذهم من عذاب الله ما لم يكونوا يحتسبون، فعند ذلك أبلسوا من كل خير، وأيسوا من كل راحة وانقطعت آمالهم ورجاؤهم، ثم ذكر تعالى نعمه على عباده بأن جعل لهم السمع والأبصار والأفئدة وهي العقول التي يذكرون بها الأشياء، ويعتبرون بما في الكون من الآيات الدالة على وحدانية الله، وأنه الفاعل المختار لما يشاء. وقوله: ﴿٨٥﴾ قليلاً ما تشكرون ﴿٨٦﴾ أي ما أقل شكركم لله على ما أنعم به عليكم، ثم أخبر تعالى عن قدرته العظيمة وسلطانه القاهر، في برئه الخليقة وذرئه لهم في سائر أقطار الأرض، على اختلاف أجناسهم ولغاتهم وصفاتهم، ثم يوم القيامة يجمع الأولين منهم والآخرين لميقات يوم معلوم، ولهذا قال: ﴿٨٧﴾ وهو الذي يحيي ويميت ﴿٨٨﴾ أي يحيي الرمم ويميت الأمم، ﴿٨٩﴾ وله اختلاف الليل والنهار ﴿٩٠﴾ أي وعن أمره تسخير الليل والنهار كل منهما يطلب الآخر طلباً حثيثاً، يتعاقبان لا يفتران ولا يفترقان بزمان غيرهما كقوله: ﴿٩١﴾ لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار ﴿٩٢﴾ الآية، وقوله: ﴿٩٣﴾ أفلا تعقلون ﴿٩٤﴾ أي أفليس لكم عقول تدلكم على العزيز العليم الذي قد قهر كل شيء وخضع له كل شيء؟ ثم قال مخبراً عن منكري البعث الذين أشبهوا من قبلهم من المكذبين ﴿٩٥﴾ بل قالوا مثل ما قال الأولون * قالوا أنذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمبعوثون ﴿٩٦﴾ يعني يستبدلون وقوع ذلك بعد صيرورتهم إلى البلى، ﴿٩٧﴾ لقد وعدنا نحن وآبائنا هذا من قبل، إن هذا إلا أساطير الأولين ﴿٩٨﴾ يعنون الإعادة محال إنما يخبر بها من تلقاها عن كتب الأولين واختلاقهم، وهذا الإنكار والتكذيب منهم كقوله إخباراً عنهم ﴿٩٩﴾ أنذا كنا عظاماً نخرة قالوا تلك إذا كرة خاسرة ﴿١٠٠﴾، ﴿١٠١﴾ وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم * قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم ﴿١٠٢﴾ الآيات .

قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنْ يَدِينُ مَلَكُوتِ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنِّي تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ بَلْ أَتَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٩٠﴾

يقرر تعالى وحدانيته واستقلاله بالخلق والتصرف والملك ﴿٨٤﴾ قل لمن الأرض ومن فيها؟ ﴿٨٥﴾ أي من مالكتها الذي خلقها، ومن فيها من الحيوانات والنباتات، والثمرات وسائر صنوف المخلوقات؟ ﴿٨٦﴾ إن كنتم تعلمون؟ سيقولون لله ﴿٨٧﴾ أي فيعرفون لك بأن ذلك لله وحده لا شريك له، فإذا كان ذلك ﴿٨٨﴾ قل أفلا تذكرون؟ أنه لا تنبغي العبادة إلا للخالق الرازق لا غيره، ﴿٨٩﴾ قل من رب السماوات السبع ورب العرش العظيم؟ ﴿٩٠﴾ أي من هو خالق العالم العلوي بما فيه من الكواكب النيرات، والملائكة الخاضعين له في سائر الأقطار منها والجهات؟ ومن هو رب العرش العظيم يعني الذي هو سقف المخلوقات؟ كما جاء في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «شأن الله أعظم من ذلك إن عرشه على سماواته هكذا» وأشار بيده مثل القبة^(١). وفي الحديث الآخر: «ما السماوات السبع والأرضون

(١) أخرجه أبو داود في سننه .

السبع وما بينهنّ وما فيهنّ في الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة، وإن الكرسي بما فيه بالنسبة إلى العرش كذلك الحلقة في تلك الفلاة»، عن ابن عباس: إنما سمي عرشاً لارتفاعه، وقال مجاهد: ما السماوات والأرض في العرش إلا كحلقة في أرض فلاة، وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: العرش لا يقدر قدره أحد إلا الله عزّ وجلّ. ولهذا قال ههنا: ﴿ ورب العرش العظيم ﴾ أي الكبير، وقال آخر السورة ﴿ رب العرش الكريم ﴾ أي الحسن البهي فقد جمع العرش بين العظمة في الاتساع، والعلو والحسن الباهر؛ قال ابن مسعود: إن ربكم ليس عنده ليل ولا نهار، نور العرش من نور وجهه، وقوله: ﴿ سيقولون لله قل أفلا تتقون ﴾ أي إذا كنتم تعترفون بأنه رب السماوات ورب العرش العظيم، أفلا تحافون عقابه وتحذرون عذابه في عبادتكم معه غيره وإشراككم به؟

قوله: ﴿ قل من بيده ملكوت كل شيء ﴾ أي بيده الملك ﴿ ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها ﴾ أي متصرف فيها، وكان رسول الله ﷺ يقول: « لا والذي نفسي بيده»، وكان إذا اجتهد في اليمين قال: « لا ومقلب القلوب»، فهو سبحانه الخالق المالك المتصرف، ﴿ وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون ﴾ كانت العرب إذا كان السيد فيهم أجار أحداً لا يخفر في جواره، وليس لمن دونه أن يجير عليه لثلاث يفتات عليه، ولهذا قال الله: ﴿ وهو يجير ولا يجار عليه ﴾ أي وهو السيد العظيم الذي لا أعظم منه، الذي له الخلق والأمر ولا معقب لحكمه، ﴿ لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ﴾، ﴿ سيقولون لله ﴾ أي سيعترفون أن السيد العظيم الذي يجير ولا يجار عليه هو الله تعالى وحده لا شريك له ﴿ قل فأنى تسحرون ﴾ أي فكيف تذهب عقولكم في عبادتكم معه غيره مع اعترافكم وعلمكم بذلك؟ ثم قال تعالى: ﴿ بل أتيناهم بالحق ﴾ وهو الإعلام بأنه لا إله إلا الله وأقمنا الأدلة الصحيحة الواضحة القاطعة على ذلك، ﴿ وإنهم لكاذبون ﴾ أي في عبادتهم مع الله غيره ولا دليل لهم على ذلك، كما قال في آخر السورة ﴿ ومن يدع مع الله إلهاً آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه ﴾ فالمشركون إنما يفعلون ذلك اتباعاً لآبائهم وأسلافهم الحيارى الجهال كما قال الله عنهم ﴿ إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون ﴾.

مَا آتَخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَدَّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَلِيمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَلَّى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾

ينزه تعالى نفسه عن أن يكون له ولد أو شريك في الملك والتصرف والعبادة، فقال تعالى: ﴿ ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذا لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض ﴾ أي لو قدر تعدد الآلهة، لانفرد كل منهم بما خلق، فما كان ينتظم الوجود، والمشاهد أن الوجود منتظم متسق، غاية الكمال ﴿ ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت ﴾، ثم لكان كل منهم يطلب قهر الآخر وخلافه، فيعلو بعضهم على بعض، والمتكلمون عبروا عنه بدليل (التمايز) وهو أنه لو فرض صانعان فصاعداً فأراد واحد تحريك جسم والآخر أراد سكونه، فإن لم يحصل مراد كل واحد منهما كانا عاجزين، ويمتنع اجتماع مراديهما للتضاد، وما جاء هذا المحال إلا من فرض التعدد فيكون محالاً؛ فأما إن حصل مراد أحدهما دون الآخر كان الغالب هو الواجب، والآخر المغلوب ممكناً، لأنه لا يليق بصفة الواجب أن يكون مقهوراً؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ ولعلا بعضهم على بعض سبحانه الله عما يصفون ﴾ أي عما يقول الظالمون المعتدون في دعواهم الولد أو الشريك علواً كبيراً، ﴿ عالم الغيب والشهادة ﴾ أي يعلم ما يغيب

عن المخلوقات وما يشاهدونه، ﴿فتعالى عما يشركون﴾ أي تقدس وتنزه وتعالى وعز وجل عما يقول الظالمون والجاحدون .

قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيْنِي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٩٤﴾ وَإِنَّا عَلَىٰ أَنْ تُرِيَك مَا نَعْدُهُمْ لَقَدِيرُونَ ﴿٩٥﴾ اُدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُلْ رَبِّ اءُذُوكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴿٩٧﴾ وَاَعُوْذُ بِكَ رَبِّ اَنْ يَّحْضُرُوْا ﴿٩٨﴾

يقول تعالى أمراً نبيه محمداً ﷺ أن يدعو بهذا الدعاء عند حلول النقم ﴿رب إما تريني ما يوعدون﴾ أي إن عاقبتهم وأنا أشاهد ذلك فلا تجعلني فيهم؛ كما جاء في الحديث: «وإذا أردت بقوم فتنه فتوفني إليك غير مفتون»^(١). وقوله تعالى: ﴿وإنا على أن نريك ما نعدهم لقادرون﴾ أي لو شئنا لأرينك ما نحل بهم من النقم والبلاء والحزن، ثم قال تعالى مرشداً له إلى الترياق النافع في مخالطة الناس وهو الإحسان إلى من يسيء إليه ليستجلب خاطره، فتعود عداوته صداقة وبغضه محبة، فقال تعالى: ﴿ادفع بالتي هي أحسن السيئة﴾، وهذا كما قال: ﴿ادفع بالتي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم﴾، وقوله تعالى: ﴿وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين﴾ أمره الله أن يستعيذ من الشياطين لأنهم لا تنفع معهم الحيل، ولا يتقادون بالمعروف، وفي الصحيح: «أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم من همزه ونفخه ونفثه». وقوله تعالى: ﴿وأعوذ بك رب أن يحضرون﴾ أي في شيء من أمري، ولهذا أمر بذكر الله في ابتداء الأمور، وذلك لطرد الشيطان عند الأكل والجماع والذبح وغير ذلك من الأمور، ولهذا روي أن رسول الله ﷺ كان يقول: «اللهم إني أعوذ بك من الهرم، وأعوذ بك من الهدم، ومن الغرق، وأعوذ بك أن يتخبطني الشيطان عند الموت»^(٢). وروى الإمام أحمد عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: كان رسول الله ﷺ يعلمنا كلمات يقولهن عند النوم من الفزع: «باسم الله، أعوذ بكلمات الله التامة من غضبه وعقابه ومن شر عباده ومن همزات الشياطين وأن يحضرون» قال: فكان عبد الله بن عمرو يعلمها من بلغ من ولده أن يقولها عند نومه، ومن كان منهم صغيراً لا يعقل أن يحفظها كتبها له فعلقها في عنقه^(٣).

حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾

يخبر تعالى عن حال المحتضر عند الموت من الكافرين، وسؤالهم الرجعة إلى الدنيا ليصلح ما كان أفسده في مدة حياته، ولهذا قال: ﴿رب ارجعون لعلني أعمل صالحاً فيما تركت﴾ كقوله ﴿ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رؤوسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحاً إنا موقنون﴾، وقال تعالى: ﴿وترى الظالمين لما رأوا العذاب

(١) أخرجه أحمد والترمذي وصححه .

(٢) أخرجه أبو داود في سننه .

(٣) ورواه أبو داود والترمذي والنسائي وقال الترمذي: حسن غريب .

يقولون هل إلى مرد من سبيل ﴿١٠١﴾، وقال تعالى: ﴿١٠٢﴾ وهم يصطرخون فيها ربنا أخرجنا نعمل صالحاً غير الذي كنا نعمل ﴿١٠٣﴾ الآية، فذكر تعالى أنهم يسألون الرجعة فلا يجابون عند الاحتضار، ويوم النشور ووقت العرض على الجبار، وهم في غمرات عذاب الجحيم، وقوله ههنا: ﴿١٠٤﴾ كلا إنها كلمة هو قائلها ﴿١٠٥﴾ كلا حرف ردع وزجر أي لا نجيبه إلى ما طلب ولا نقبل منه. وقوله تعالى: ﴿١٠٦﴾ إنها كلمة هو قائلها ﴿١٠٧﴾ قال ابن أسلم: أي لا بد أن يقولها لا محالة كل محتضر ظالم، ويحتمل أن يكون ذلك علة لقوله ﴿١٠٨﴾ كلا ﴿١٠٩﴾ أي سؤال الرجوع ليعمل صالحاً هو كلام منه وقول لا عمل معه، ولو رد لما عمل صالحاً ولكن يكذب في مقاله هذه، كما قال تعالى: ﴿١١٠﴾ ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون ﴿١١١﴾. قال قتادة: والله ما تمنى أن يرجع إلى أهل ولا إلى عشيرة، ولا بأن يجمع الدنيا ويقضي الشهوات، ولكن تمنى أن يرجع فيعمل بطاعة الله عز وجل، فرحم الله امرأ عمل فيما يتمناه الكافر إذا رأى العذاب إلى النار. وقال عمر بن عبد الله مولى غفرة: إذا قال الكافر رب ارجعون لعلني أعمل صالحاً يقول الله تعالى: كلا كذبت، وكان العلاء بن زياد يقول: ليتزلن أحدكم نفسه أنه قد حضره الموت فاستقال ربه فأقاله فليعمل بطاعة الله تعالى. وقال قتادة: والله ما تمنى إلا أن يرجع فيعمل بطاعة الله، فانظروا أمنية الكافر المفرط، فاعملوا بها ولا قوة إلا بالله. وعن أبي هريرة قال: إذا وضع - يعني الكافر - في قبره فيرى مقعده من النار، قال: فيقول رب ارجعون أتوب وأعمل صالحاً، قال: فيقال: قد عمرت ما كنت معمراً، قال: فيضيق عليه قبره ويلتئم فهو كالمنهوش ينام ويفزع تهوي إليه هوام الأرض وحياتها وعقاربها^(١). وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: ويل لأهل المعاصي من أهل القبور، تدخل عليهم في قبورهم حيات سود، أو دُهم. حية عند رأسه، وحية عند رجله، يقرصانه حتى يلتقيا في وسطه، فذلك العذاب في البرزخ الذي قال الله تعالى: ﴿١١٢﴾ ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون ﴿١١٣﴾. قال مجاهد: البرزخ الحاجز ما بين الدنيا والآخرة. وقال محمد بن كعب: البرزخ ما بين الدنيا والآخرة ليسوا مع أهل الدنيا يأكلون ويشربون ولا مع أهل الآخرة يجازون بأعمالهم، وقال أبو صخر: البرزخ المقابر لا هم في الدنيا ولا هم في الآخرة فهم مقيمون إلى يوم يبعثون، وفي قوله تعالى: ﴿١١٤﴾ ومن ورائهم برزخ ﴿١١٥﴾ تهديد لهؤلاء المحتضرين من الظلمة بعذاب البرزخ، كما قال تعالى: ﴿١١٦﴾ من ورائهم جهنم ﴿١١٧﴾، وقال تعالى: ﴿١١٨﴾ ومن ورائه عذاب غليظ ﴿١١٩﴾، وقوله تعالى: ﴿١٢٠﴾ إلى يوم يبعثون ﴿١٢١﴾ أي يستمر به العذاب إلى يوم البعث كما جاء في الحديث: « فلا يزال معذباً فيها » أي في الأرض .

* فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴿١٢٢﴾ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿١٢٤﴾ تَلْفَحُ وُجُوهُهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ﴿١٢٥﴾

يخبر تعالى أنه إذا نفخ في الصور نفخة النشور، وقام الناس من القبور ﴿١٢٢﴾ فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون ﴿١٢٣﴾

(١) أخرجه ابن أبي حاتم عن أبي هريرة موقوفاً .

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم عن عائشة موقوفاً .

أي لا تنفع الإنسان يومئذ قرابة ولا يرثي والد لولده ولا يلوي عليه، قال الله تعالى: ﴿ولا يسأل حميم حميماً يبصرونهم﴾ أي لا يسأل القريب قريبه وهو يبصره، ولو كان عليه من الأوزار ما قد أثقل ظهره، ولو كان أعز الناس عليه في الدنيا ما التفت إليه ولا حمل عنه وزن جناح بعوضة، قال الله تعالى: ﴿يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه﴾ الآية. وقال ابن مسعود: إذا كان يوم القيامة جمع الله الأولين والآخرين ثم نادى مناد: ألا من كان له مظلمة فليجيء فليأخذ حقه، قال: فيفرح المرء أن يكون له الحق على والده أو ولده أو زوجته وإن كان صغيراً، ومصداق ذلك في كتاب الله، قال الله تعالى: ﴿فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون﴾^(١). وروى الإمام أحمد عن المسور بن مخرمة رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «فاطمة بضعة مني يغظني ما يغظها وينشطني ما ينشطها، وإن الأنساب تنقطع يوم القيامة إلا نسبي وسبي وصهري»؛ وهذا الحديث له أصل في الصحيحين: «فاطمة بضعة مني يرييني ما يرييها ويؤذيني ما آذاها». وقد ذكرنا في مسند أمير المؤمنين عمر بن الخطاب من طرق متعددة عنه رضي الله عنه أنه لما تزوج (أم كلثوم) بنت علي بن أبي طالب رضي الله عنهما قال: أما والله ما بي إلا أني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كل سبب ونسب فإنه منقطع يوم القيامة إلا سبي ونسبي»^(٢)، وروى الحافظ ابن عساكر عن ابن عمر قال، قال رسول الله ﷺ: «كل نسب وصهر ينقطع يوم القيامة إلا نسبي وصهري».

وقوله تعالى: ﴿فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون﴾ أي من رجحت حسناته على سيئاته ولو بواحدة، قال ابن عباس: ﴿فأولئك هم المفلحون﴾ أي الذين فازوا فنجوا من النار وأدخلوا الجنة، ﴿ومن خفت موازينه﴾ أي ثقلت سيئاته على حسناته ﴿فأولئك الذين خسروا أنفسهم﴾ أي خابوا وهلكوا وباعوا بالصفقة الخاسرة. عن أنس بن مالك يرفعه قال: إن لله ملكاً موكلاً بالميزان فيؤتى بادن آدم فيوقف بين كفتي الميزان، فإن ثقل ميزانه نادى ملك بصوت يسمعه الخلائق: سعد فلان سعادة لا يشقى بعدها أبداً، وإن خف ميزانه نادى ملك بصوت يسمع الخلائق: شقي فلان شقاوة لا يسعد بعدها أبداً^(٣). قال تعالى: ﴿في جهنم خالدون﴾ أي ما كثون فيها دائمون مقيمون فلا يظنون ﴿تلفح وجوههم النار﴾، كما قال تعالى: ﴿وتغشى وجوههم النار﴾، وقال تعالى: ﴿لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم﴾ الآية. عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إن جهنم لما سيق لها أهلها، تلقاهم لها ثم تلفحهم لفحة فلم يبق لهم لحم إلا سقط على العرقوب»^(٤). وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ في قول الله تعالى ﴿تلفح وجوههم النار﴾ قال: تلفحهم لفحة تسيل لحومهم على أعقابهم^(٥). وقوله تعالى: ﴿وهم فيها كالحون﴾ قال ابن عباس: يعني عابسون، وقال ابن مسعود: ﴿وهم فيها كالحون﴾ قال: ألم تر إلى الرأس المشيط الذي قد بدا أسنانه وقلصت شفتاه، وعن أبي سعيد

(١) أخرجه ابن أبي حاتم عن ابن مسعود .

(٢) رواه الطبراني والبخاري والبيهقي والحافظ الضياء في المختارة وذكر أنه أصدقها أربعين ألفاً إعظماً وإكراماً .

(٣) رواه الحافظ البزار وفي إسناده ضعف .

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم عن أبي هريرة .

(٥) أخرجه ابن مردويه عن أبي الدرداء .

الخدري عن النبي ﷺ قال: « ﴿ وهم فيها كالحون ﴾ قال تشويه النار، فتقلص شفته العليا حتى تبلغ وسط رأسه. وتسترخي شفته السفلى حتى تبلغ سرتة»^(١).

أَلَمْ تَكُنْ أَهْلَ عِلِّيِّينَ ﴿١٠٦﴾ قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴿١٠٧﴾ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴿١٠٨﴾

هذا تفريع من الله وتوبيخ لأهل النار على ما ارتكبه من الكفر والمآثم، والمحارم والعظائم التي أوبقتهم في ذلك فقال تعالى: ﴿ ألم تكن آياتي تتلى عليكم فكنتم بها تكذبون ﴾ أي قد أرسلت إليكم الرسل وأنزلت إليكم الكتب وأزلت شبهكم ولم يبق لكم حجة، كما قال تعالى: ﴿ لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ﴾، وقال: ﴿ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ﴾، ولهذا قال: ﴿ ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوماً ضالين ﴾ أي قد قامت علينا الحجة ولكن كنا أشقى من أن نقاد لها ونتبعها فضللتنا عنها ولم نرزقها، ثم قالوا: ﴿ ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون ﴾ أي أرددنا إلى الدنيا فإن عدنا إلى ما سلف منا فنحن ظالمون مستحقون للعقوبة، كما قال: ﴿ فاعترفنا بذنوبنا فهل إلى خروج من سبيل ﴾؟ أي لا سبيل إلى الخروج لأنكم كنتم تشركون بالله إذا وحده المؤمنون.

قَالَ أَحْسَبُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٩﴾ إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١١٠﴾ فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سَخِرَ بِأَحْسَبُوا أَن سَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١١﴾ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَآرِضُونَ ﴿١١٢﴾

هذا جواب من الله تعالى للكفار إذا سألوا الخروج من النار، والرجعة إلى هذه الدار. يقول: ﴿ اخسأوا فيها ﴾ أي امكثوا فيها صاغرين مهانين أذلاء ﴿ ولا تكلمون ﴾ أي لا تعودوا إلى سؤالكم هذا فإنه لا جواب لكم عندي، قال ابن عباس ﴿ اخسأوا فيها ولا تكلمون ﴾ قال: هذا قول الرحمن حين انقطع كلامهم منه. وروى ابن أبي حاتم: عن عبد الله بن عمرو قال: إن أهل جهنم يدعون مالكا فلا يجيبهم أربعين عاماً، ثم يرد عليهم إنكم ما كنتم، قال: هانت دعوتهم والله على (مالك) ورب مالك؛ ثم يدعون ربهم فيقولون: ﴿ ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوماً ضالين ﴾ ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون ﴿ قال: فيسكت عنهم قدر الدنيا مرتين، ثم يرد عليهم: ﴿ اخسأوا فيها ولا تكلمون ﴾ قال: فوالله ما نبس القوم بعدها بكلمة واحدة، وما هو إلا الزفير والشهيق في نار جهنم، قال: فشبهت أصواتهم بأصوات الحمير أوها زفير وآخرها شهيق، وقال عبد الله بن مسعود: إذا أراد الله تعالى أن لا يخرج منهم أحداً يعني من جهنم غير وجوههم وألوانهم، فيجيء الرجل من المؤمنين فيشفع، فيقول: يا رب، فيقول الله من عرف أحداً فليخرجه، فيجيء الرجل من المؤمنين فينظر، فلا يعرف أحداً فيناديه الرجل: يا فلان أنا فلان، فيقول: ما أعرفك، قال: فعند ذلك يقولون: ﴿ ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون ﴾ فعند ذلك يقول الله تعالى: ﴿ اخسأوا فيها ولا تكلمون ﴾ فإذا قال ذلك أطبقت عليهم النار فلا يخرج منهم أحد^(٢)؛ ثم قال تعالى

(١) أخرجه أحمد والترمذي، وقال الترمذي: حسن غريب. (٢) أخرجه ابن أبي حاتم عن ابن مسعود موقوفاً.

مذكراً لهم بذنوبهم في الدنيا وما كانوا يستهزئون بعباده المؤمنين وأوليائه، فقال تعالى: ﴿إِنَّه كَانَ فَرِيقَ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ۖ فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سَخِرِيًّا ۙ أَي فسخرتهم منهم في دعائهم إياي وتضرعهم إلي ۙ﴾ حتى أنسواكم ذكري ﴿أَي حملكم بغضهم على أن أنسىتم معاملتي ۙ﴾ وكنتم منهم تضحكون ﴿أَي من صنعهم وعبادتهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُجْرِمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ وَإِذَا مَرُوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ۙ﴾ أي يلمزونهم استهزاء؛ ثم أخبر تعالى عما جازى به أوليائه وعباده الصالحين، فقال تعالى: ﴿إِنِّي جَزَيْتَهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا ۙ﴾ أي على إذاكم لهم واستهزائكم بهم ﴿أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ ۙ﴾ أي جعلتهم هم الفائزين بالسعادة والسلامة والجنة والنجاة من النار .

قَالَ كَر لِبِتْمُ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٦﴾ قَالُوا لِبِتْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسَعَلَ الْعَادِينَ ﴿١١٧﴾ قَلَّ إِن لِبِتْمُ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنكُرْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٨﴾ أَحْسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبْنًا وَأَنْكُرَ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٩﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿١٢٠﴾

يقول تعالى منبهاً لهم على ما أضاعوه في عمرهم القصير في الدنيا من طاعة الله تعالى وعبادته وحده ولو صبروا في مدة الدنيا القصيرة لفازوا كما فاز أولياؤه المتقون، ﴿قال كم لبتم في الأرض عدد سنين﴾ أي كم كانت إقامتكم في الدنيا؟ ﴿قالوا لبنا يوماً أو بعض يوم فاسأل العادين﴾ أي الحاسبين، ﴿قال إن لبتم إلا قليلاً﴾ أي مدة يسيرة على كل تقدير ﴿لو أنكم كنتم تعلمون﴾ أي لما آثرتم الفاني على الباقي، ولما تصرفتم لأنفسكم هذا التصرف السيء، ولا استحققتهم من الله سخطه في تلك المدة اليسيرة، فلو أنكم صبرتم على طاعة الله وعبادته كما فعل المؤمنون لفزتم كما فازوا، وفي الحديث: «إن الله إذا أدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار قال: يا أهل الجنة كم لبتم في الأرض عدد سنين؟ قالوا: لبنا يوماً أو بعض يوم، قال: لنعم ما تجرتم في يوم أو بعض يوم، رحمتي ورضواني وجنتي امكثوا فيها خالدين . ثم قال: يا أهل النار كم لبتم في الأرض عدد سنين؟ قالوا: لبنا يوماً أو بعض يوم، فيقول بثس ما تجرتم في يوم أو بعض يوم، ناري وسخطي امكثوا فيها خالدين مخلصين»^(١) . وقوله تعالى: ﴿أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً﴾ أي أفضنتم أنكم مخلوقون عبثاً بلا قصد ولا إرادة منكم ولا حكمة لنا؟ وقيل: للعبث لتلعبوا وتعبثوا كما خلقت البهائم لا ثواب لها ولا عقاب، وإنما خلقناكم للعبادة وإقامة أوامر الله عز وجل ﴿وأنكم إلينا لا ترجعون﴾ أي لا تعودون في الدار الآخرة، كما قال تعالى: ﴿أيحسب الإنسان أن يترك سدى﴾ يعني هملأً، وقوله: ﴿فتعالى الله الملك الحق﴾ أي تقدس أن يخلق شيئاً عبثاً فإنه الملك الحق المتزه عن ذلك، ﴿لا إله إلا هو رب العرش الكريم﴾ فذكر العرش لأنه سقف جميع المخلوقات، ووصفه بأنه كريم أي حسن المنظر بهي الشكل، كما قال تعالى: ﴿وأنبتنا فيها من كل زوج كريم﴾ .

وكان آخر خطبة خطبها (عمر بن عبد العزيز) أن حمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد أيها الناس إنكم لم تخلقوا عبثاً، ولن تركوا سدى، وإن لكم معاداً ينزل الله فيه للحكم بينكم والفصل بينكم، فخاب وخسر وشقي

(١) أخرجه ابن أبي حاتم عن أبيع بن عبد الكلاعي مرفوعاً .

عبد أخرجه الله من رحمته، وحرّم جنة عرضها السماوات والأرض، ألم تعلموا أنه لا يؤمن عذاب الله غداً إلا من حذر هذا اليوم وخافه، وباع نافداً بياق، وقليلاً بكثير، وخوفاً بأمان، ألا ترون أنكم من أصلاب المالكين وسيكون من بعدكم الباقين، حتى تردون إلى خير الوارثين؟ ثم إنكم في كل يوم تشيعون غادياً ورائحاً إلى الله عزّ وجلّ قد قضى نجه، وانقضى أجله، حتى تغيّبه في صدع من الأرض، في بطن صدع غير ممهد ولا موسد، قد فارق الأحباب وياشر التراب، وواجه الحساب، مرتين بعمله، غني عما ترك، فقير إلى ما قدم، فاتقوا الله عباد الله قبل انقضاء موثيقه ونزول الموت بكم؛ ثم جعل طرف ردايه على وجهه فبكى وأبكى من حوله^(١). وروى أبو نعيم عن محمد بن إبراهيم بن الحارث عن أبيه قال: بعثنا رسول الله ﷺ في سرية، وأمرنا أن نقول إذا نحن أسيّنا وأصبحنا ﴿أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون﴾؟ قال: فقرأناها فغنمنا وسلمنا، وروى ابن أبي حاتم عن عبد الله بن عباس قال، قال رسول الله ﷺ: «أمان أمّتي من الغرق إذا ركبوا السفينة: باسم الله الملك الحق، وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسماوات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون، بسم الله مجراها ومرساها إن ربي لغفور رحيم».

وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿١١٧﴾
 وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١١٨﴾

يقول تعالى متوعداً من أشرك به غيره وعبد معه سواه، ومخبراً أن من أشرك بالله لا برهان له، أي لا دليل له على قوله، فقال تعالى: ﴿ومن يدع مع الله إلهاً آخر لا برهان له به﴾ وهذه جملة معترضة، وجواب الشرط في قوله: ﴿فإنما حسابه عند ربه﴾ أي الله يحاسبه على ذلك؛ ثم أخبر ﴿إنه لا يفلح الكافرون﴾: أي لديه يوم القيامة لا فلاح لهم ولا نجاة. قال قتادة: ذكر لنا أن النبي ﷺ قال لرجل: «ما تعبد؟» قال: أعبد الله وكذا وكذا حتى عدّ أصناماً، فقال رسول الله ﷺ: «فأيهم إذا أصابك ضر فدعوته كشفه عنك؟» قال: الله عزّ وجلّ، قال: «فأيهم إذا كانت لك حاجة فدعوته أعطاكها؟» قال: الله عزّ وجلّ، قال: «فما يحملك على أن تعبد هؤلاء معه أم حسبت أن تغلب عليه» قال: أردت شكره بعبادة هؤلاء معه، فقال رسول الله ﷺ: «تعلمون ولا يعلمون»، فقال الرجل بعدما أسلم: لقيت رجلاً خصمني^(٢). وقوله تعالى: ﴿وقل رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين﴾ هذا إرشاد من الله تعالى إلى هذا الدعاء، فالغفر إذا أطلق، معناه محو الذنب وستره عن الناس، والرحمة معناها أن يسدده ويوفقه في الأقوال والأفعال.

[آخر تفسير سورة المؤمنون ، والله الحمد والمنة]

(١) أخرجه ابن أبي حاتم عن رجل من آل سعيد بن العاص .

(٢) قال ابن كثير : هذا مرسل من هذا الوجه وقد رواه الترمذي مسنداً .

(٢٤) سُورَةُ النُّورِ مِنْ تِسْعِينَ
وَأَيَّانَهَا أَنْجِ وَسَيُّئُونَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٥﴾

يقول تعالى هذه السورة أنزلناها، فيه تنبيه على الاعتناء بها ولا ينبي ما عداها ﴿ وفرضناها ﴾ قال مجاهد: أي بينا الحلال والحرام والأمر والنهي والحدود، وقال البخاري: ومن قرأ ﴿ فرضناها ﴾ يقول: فرضناها عليكم وعلى من بعدكم، ﴿ وأنزلنا فيها آيات بينات ﴾ أي مفسرات واضحات ﴿ لعلكم تذكرون ﴾، ثم قال تعالى: ﴿ الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ﴾ يعني هذه الآية الكريمة فيها حكم الزاني في الحد، وللعلماء فيه تفصيل، فإن الزاني لا يخلو إما أن يكون بكراً وهو الذي لم يتزوج، أو محصناً وهو الذي قد وطئ في نكاح صحيح وهو حر بالغ عاقل، فأما إذا كان بكراً لم يتزوج فإن حده مائة جلدة كما في الآية، ويزاد على ذلك أن يغرب عاماً عن بلده عند جمهور العلماء، خلافاً لأبي حنيفة رحمه الله فإن عنده أن التغريب إلى رأي الإمام إن شاء غُرب وإن شاء لم يغرب، وحجة الجمهور في ذلك ما ثبت في الصحيحين في الأعرابيين اللذين أتيا رسول الله ﷺ فقال أحدهما: يا رسول الله إن ابني هذا كان عسيفاً - يعني أجيراً - على هذا، فزني بامرأته، فافتديت ابني منه بمائة شاة ووليدة، فسألت أهل العلم فأخبروني أن على ابني جلد مائة وتغريب عام وأن على امرأة هذا الرجم، فقال رسول الله ﷺ: « والذي نفسي بيده لأفضين بينكما بكتاب الله تعالى: الوليدة والغنم رد عليك، وعلى ابنتك مائة جلدة وتغريب عام، واغد يا أنيس - لرجل من أسلم - إلى امرأة هذا، فإن اعترفت فارجمها » فغدا عليها فاعترفت فرجمها^(١). وفي هذا دلالة على تغريب الزاني مع جلد مائة إذا كان بكراً؛ فأما إذا كان محصناً فإنه يرجم، كما روى الإمام مالك.

(١) أخرجه في الصحيحين عن أبي هريرة وزيد بن خالد الجهني .

عن ابن عباس أن عمر قام فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «أما بعد أيها الناس فإن الله تعالى بعث محمداً ﷺ بالحق، وأنزل عليه الكتاب، فكان فيما أنزل عليه آية الرجم فقرأناها ووعيناها، ورجم رسول الله ﷺ، ورجمنا بعده، فأخشى أن يطول بالناس زمان أن يقول قائل: لا نجد آية الرجم في كتاب الله، فيضنوا بترك فريضة قد أنزلها الله، فالرجم في كتاب الله حق على من زنى إذا أحصن من الرجال ومن النساء إذا قامت البينة أو الحبل أو الاعتراف»^(١). وفي رواية عنه: «ولولا أن يقول قائل أو يتكلم متكلم أن عمر زاد في كتاب الله ما ليس منه لأثبتها كما نزلت»^(٢). وقال ابن عمر: نبئت عن كثير بن الصلت قال: كنا عند مروان وفينا زيد فقال زيد بن ثابت: كنا نقرأ: الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة، قال مروان: ألا كتبها في المصحف؟ قال: ذكرنا ذلك وفينا عمر بن الخطاب، فقال: أنا أشفيكم من ذلك، قال، قلنا: فكيف؟ قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ قال: فذكر كذا وكذا الرجم، فقال: يا رسول الله اكتب لي آية الرجم، قال: «لا أستطيع الآن»، هذا أو نحو ذلك^(٣). وهذه طرق كلها متعددة متعاضدة، ودالة على أن آية الرجم كانت مكتوبة فنسخ تلاوتها وبقي حكمها معمولاً به والله أعلم. وقد أمر رسول الله ﷺ برجم هذه المرأة لما زنت مع الأجير، ورجم رسول الله ﷺ (ماعزاً) و (الغامدية) ولم ينقل عن رسول الله ﷺ أنه جلدهم قبل الرجم، ولهذا كان هذا مذهب جمهور العلماء، وإليه ذهب أبو حنيفة ومالك والشافعي رحمهم الله؛ وذهب الإمام أحمد إلى أنه يجب أن يجمع على الزاني المحصن بين الجلد للآية والرجم للسنة، كما روى الإمام أحمد وأهل السنن عن عبادة بن الصامت قال، قال رسول الله ﷺ: «خذوا عني خذوا عني، قد جعل الله لهن سبيلاً، البكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام، والثيب بالثيب جلد مائة والرجم».

وقوله تعالى: ﴿ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله﴾ أي في حكم الله أي لا ترأفوا بهما في شرع الله، وليس المنهي عنه الرأفة الطبيعية على ترك الحد، وإنما هي الرأفة التي تحمل الحاكم على ترك الحد فلا يجوز ذلك، قال مجاهد ﴿ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله﴾ قال: إقامة الحدود إذا رفعت إلى السلطان فتقام ولا تعطل، وقد جاء في الحديث: «تعافوا الحدود فيما بينكم فما بلغني من حد فقد وجب»، وفي الحديث الآخر: «لحد يقام في الأرض خير لأهلها من أن يمطروا أربعين صباحاً»، وقيل: المراد ﴿ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله﴾ فلا تقيموا الحد كما ينبغي من شدة الضرب الزاجر عن المأثم، وليس المراد الضرب المبرح، قال عامر الشعبي: رحمة في شدة الضرب، وقال عطاء: ضرب ليس بالمبرح، وقال: هذا في الحكم والجلد يعني في إقامة الحد وفي شدة الضرب، عن عبيد الله بن عبد الله بن عمر: أن جارية لابن عمر زنت فضرب رجلها، قال نافع: أراه قال: وظهرها، قال، قلت: ﴿ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله﴾ قال: يا بني ورأيتني أخذتني بها رأفة إن الله لم يأمرني أن أقتلها، ولا أن أجعل جلودها في رأسها، وقد أوجعت حين ضربتها، وقوله تعالى: ﴿إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر﴾ أي فافعلوا ذلك وأقيموا الحدود على من زنى وشددوا عليه الضرب، ولكن ليس مبرحاً،

(١) أخرجه في الصحيحين من حديث مالك مطولاً .

(٢) أخرجه الإمام أحمد والنسائي .

(٣) أخرجه الحافظ الموصلي عن محمد بن سيرين .

ليرتدع هو ومن يصنع مثله بذلك، وقد جاء في المسند عن بعض الصحابة أنه قال: يا رسول الله إني لأذبح الشاة وأنا أرحمها، فقال: «ولك في ذلك أجر»، وقوله تعالى: ﴿وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين﴾ هذا فيه تنكيل للزانيين إذا جلدا بحضرة الناس، فإن ذلك يكون أبلغ في زجرهما، وأنجع في ردهما، فإن في ذلك تقيماً وتوبيخاً وفضيحة إذا كان الناس حضوراً، قال الحسن البصري في قوله ﴿وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين﴾: يعني علانية، والطائفة الرجل فما فوقه، وقال مجاهد: الطائفة الرجل الواحد إلى الألف، وكذا قال عكرمة ولهذا قال أحمد: إن الطائفة تصدق على واحد، وقال عطاء بن أبي رباح: اثنان، وقال الزهري ثلاثة نفر فصاعداً، وقال الإمام مالك: الطائفة أربعة نفر فصاعداً، لأنه لا يكفي شهادة في الزنا إلا أربعة شهداء فصاعداً، وبه قال الشافعي، وقال الحسن البصري: عشرة، وقال قتادة: أمر الله أن يشهد عذابهما طائفة من المؤمنين: أي نفر من المسلمين ليكون ذلك موعظة وعبرة ونكالاً.

الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾

هذا خبر من الله تعالى بأن الزاني لا يطأ إلا زانية أو مشركة، أي لا يطاوعه على مراده من الزنا إلا زانية عاصية أو مشركة لا ترى حرمة ذلك، وكذلك ﴿الزانية لا ينكحها إلا زان﴾ أي عاص بزناه ﴿أو مشرك﴾ لا يعتقد تحريمه، عن ابن عباس رضي الله عنه قال: ليس هذا بالنكاح إنما هو الجماع لا يزني بها إلا زان أو مشرك^(١)، وقوله تعالى: ﴿وحرم ذلك على المؤمنين﴾ أي تعاطيه والتزوج بالبغايا أو تزويج العفاف بالرجال الفجار، وقال أبو داود الطيالسي عن ابن عباس ﴿وحرم ذلك على المؤمنين﴾ قال: حرم الله الزنا على المؤمنين، وقال قتادة ومقاتل ابن حيان: حرم الله على المؤمنين نكاح البغايا، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿محصنات غير مسافحات ولا متخذات أخدان﴾، وقوله: ﴿محصنين غير مسافحين ولا متخذي أخدان﴾ الآية، ومن ههنا ذهب الإمام أحمد إلى أنه لا يصح العقد من الرجل العفيف على المرأة البغي ما دامت كذلك حتى تستتاب، فإن تابت صح العقد عليها وإلا فلا، وكذلك لا يصح تزويج المرأة الحرة العفيفة بالرجل الفاجر المسافح حتى يتوب توبة صحيحة، لقوله تعالى: ﴿وحرم ذلك على المؤمنين﴾. عن عبد الله بن عمرو: قال كانت امرأة يقال لها أم مهزول وكانت تسافح، فأراد رجل من أصحاب رسول الله ﷺ أن يتزوجها، فأنزل الله عز وجل: ﴿الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك وحرم ذلك على المؤمنين﴾^(٢). وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: كان رجل يقال له (مرثد بن أبي مرثد) وكان رجلاً يحمل الأسارى من مكة حتى يأتي بهم المدينة، قال: وكانت امرأة بغي بمكة يقال لها (عناق) وكانت صديقة له، وأنه واعد رجلاً من أسارى مكة يحمله، قال: فجئت حتى انتهيت إلى ظل حائط من حوائط مكة في ليلة مقمرة، قال: فجاءت عناق فأبصرت سواد ظل تحت الحائط، فلما انتهت إلي عرفني، فقالت: مرثد؟ فقلت: مرثد، فقالت: مرحباً وأهلاً، فلم فبت عندنا الليلة، قال، فقلت: يا عناق حرم الله الزنا، فقالت: يا أهل الخيام هذا الرجل يحمل أسراكم، قال: فتبعتي ثمانية ودخلت الحديقة، فانتهيت إلى غار أو كهف، فدخلت فيه فجاءوا حتى قاموا على رأسي، فبالوا، فظل بولهم على رأسي، فأعماهم

(١) هذا إسناد صحيح عن ابن عباس وقد روي نحو ذلك عن مجاهد وعكرمة والضحاك ومقاتل وسعيد بن جبير .

(٢) رواه النسائي والمام أحمد .

الله عني، قال: ثم رجعوا فرجعت إلى صاحبي فحملته، وكان ثقيلاً حتى انتهيت إلى الإذخر، ففككت عنه أحبله، فجعلت أحمله ويعينني حتى أتيت به المدينة، فأتيت رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله أنكح عناقاً أنكح عناقاً - مرتين؟ - فأمسك رسول الله ﷺ، فلم يرد علي شيئاً حتى نزلت ﴿الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك وحرم ذلك على المؤمنين﴾، فقال رسول الله ﷺ: «يا مرثد: الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة فلا تنكحها»^(١).

وقال الإمام أحمد عن عبد الله بن يسار مولى ابن عمر قال: أشهد لسمعت سالماً يقول: قال عبد الله، قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة لا يدخلون الجنة ولا ينظر الله إليهم يوم القيامة، العاق لوالديه، والمرأة المترجلة المشبهة بالرجال، والديوث» وفي رواية: «ثلاثة حرم الله عليهم الجنة: مدمن الخمر، والعاق لوالديه، والذي يقر في أهله الخبث». وقال أبو داود الطيالسي في مسنده عن عمار بن ياسر قال، قال رسول الله ﷺ: «لا يدخل الجنة ديوث»^(٢). وفي الحديث: «من أراد أن يلقي الله وهو طاهر متطهر فليتزوج الحرائر»^(٣). فأما إذا حصلت توبة فإنه يحل التزويج، لما روي عن ابن عباس وسأله رجل فقال: إني كنت ألم بامرأة آتت منها ما حرم الله عز وجل عليّ فرزق الله عز وجل من ذلك توبة، فأردت أن أتزوجها، فقال أناس: إن الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة، فقال ابن عباس: ليس هذا في هذا، انكحها فما كان من إثم فعلي^(٤)، وقد ادعى طائفة من العلماء أن هذه الآية منسوخة. قال ابن أبي حاتم عن سعيد بن المسيب قال: ذكر عنده ﴿الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك﴾ قال: نسختها التي بعدها: ﴿وأنكحوا الأيامى منكم﴾ قال: كان يقال الأيامى من المسلمين^(٥).

وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٤٢﴾

هذه الآية الكريمة فيها بيان جلد القاذف للمحصنة وهي الحرة البالغة العفيفة، فإذا كان المقدوف رجلاً فكذلك يجلد قاذفه أيضاً، وليس فيه نزاع بين العلماء، فإن أقام القاذف بينة على صحة ما قاله درأ عنه الحد، ولهذا قال تعالى: ﴿ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً وأولئك هم الفاسقون﴾ فأوجب على القاذف إذا لم يقم البينة على صحة ما قال ثلاثة أحكام: (أحدها) أن يجلد ثمانين جلدة، (الثاني) أن ترد شهادته أبداً، (الثالث) أن يكون فاسقاً ليس يعدل لا عند الله ولا عند الناس؛ ثم قال تعالى: ﴿إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا﴾ الآية. واختلف العلماء في هذا الاستثناء؛ هل يعود إلى الجملة الأخيرة فقط، فترفع التوبة

(١) رواه الترمذي والنسائي وأبو داود واللفظ للترمذي.

(٢) في الصحاح للجوهري الديوث: القترع وهو الذي لا غيره له على أهله.

(٣) أخرجه ابن ماجه وفي إسناده ضعف.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم عن شعبة مولى ابن عباس رضي الله عنهما.

(٥) أخرجه ابن سلام في كتاب الناسخ والمنسوخ ونص عليه الإمام الشافعي رحمه الله.

الفسق فقط، ويبقى مردود الشهادة دائماً وإن تاب، أو يعود إلى الجملتين الثانية والثالثة؟ وأما الجلد فقد ذهب وانقضى سواء تاب أو أصر، ولا حكم له بعد ذلك، بلا خلاف. فذهب (مالك وأحمد والشافعي) إلى أنه إذا تاب قبلت شهادته وارتفع عنه حكم الفسق^(١)، وقال الإمام أبو حنيفة: إنما يعود الاستثناء إلى الجملة الأخيرة فقط فيرتفع الفسق بالتوبة ويبقى مردود الشهادة أبداً^(٢)، وقال الشعبي والضحاك: لا تقبل شهادته وإن تاب إلا أن يعترف على نفسه أنه قد قال البهتان، فحينئذ تقبل شهادته، والله أعلم.

وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ فَشَهَدُوا أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٦﴾ وَالْخَامِسَةَ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَدْرُؤُا عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٨﴾ وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾

هذه الآية الكريمة فيها فرج للأزواج وزيادة مخرج إذا قذف أحدهم زوجته، وتعسر عليه إقامة البينة أن يلاعنها كما أمر الله عز وجل، وهو أن يحضرها إلى الإمام، فيدعي عليها بما رماها به، فيحلفه الحاكم أربع شهادات بالله في مقابلة أربعة شهداء إنه لمن الصادقين: أي فيما رماها به من الزنا^(١) والخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين^(٢) فإذا قال ذلك بانت منه وحرمت عليه أبداً، ويعطيها مهرها ويتوجه عليها حد الزنا، ولا يدرأ عنها العذاب إلا أن تلاعن، فتشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين: أي فيما رماها به،^(٣) والخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين^(٤)، ولهذا قال: ﴿ويدرأ عنها العذاب﴾ يعني الحد، ﴿أن تشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين﴾ والخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين^(٥) فخصها بالغضب، كما أن الغالب أن الرجل لا يتجشم فضيحة أهله ورميها بالزنا إلا وهو صادق معذور وهي تعلم صدقه فيما رماها به، ولهذا كانت الخامسة في حقها أن غضب الله عليها، والمغضوب عليه هو الذي يعلم الحق ثم يحيد عنه؛ ثم ذكر تعالى رأفته بخلقه ولطفه بهم فيما شرع لهم من الفرج والمخرج من شدة ما يكون بهم من الضيق، فقال تعالى: ﴿ولولا فضل الله عليكم ورحمته﴾ أي لخرجتم ولشق عليكم كثير من أموركم^(٦) وأن الله تواب^(٧) أي على عباده، وإن كان ذلك بعد الحلف والأيمان المغلظة^(٨) ﴿حكيم﴾ فيما يشرعه ويأمر به وفيما ينهى عنه.

عن ابن عباس قال: لما نزلت ﴿والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً﴾، قال سعد بن عبادة وهو سيد الأنصار رضي الله عنه: أهلكذا أنزلت يا رسول الله؟ فقال رسول الله ﷺ: «يا معشر الأنصار ألا تسمعون ما يقول سيدكم؟» فقالوا: يا رسول الله لا تلمه، فإنه رجل غيور، والله ما تزوج امرأة قط إلا بكراً، وما طلق امرأة قط فاجترأ رجل منا أن يتزوجها من شدة غيرته، فقال

(١) نقل هذا عن سعيد بن المسيب سيد التابعين وجماعة من السلف أيضاً.

(٢) وبه قال شريح وإبراهيم النخعي وسعيد بن جبير ومكحول وغيرهم رضي الله عنهم.

سعد: والله يا رسول الله إني لأعلم إنها لحق وأنها من الله، ولكني قد تعجبت أي لو وجدت لكاعاً قد تفخذها رجل لم يكن لي أن أهيجه ولا أحرکه، حتى آتي بأربعة شهداء، فوالله إني لا آتي بهم حتى يقضي حاجته، قال: فلبثوا إلا يسيراً حتى جاء (هلال بن أمية) وهو أحد الثلاثة الذين تيب عليهم، فجاء من أرضه عشاء فوجد عند أهله رجلاً، فرأى بعينه وسمع بأذنيه، فلم يهيجه حتى أصبح فغدا على رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إني جئت أهلي عشاء فوجدت عندها رجلاً فرأيت بعيني وسمعت بأذني، فكره رسول الله ﷺ ما جاء به واشتد عليه واجتمعت عليه الأنصار، وقالوا: قد ابتلينا بما قال سعد بن عباد، الآن يضرب رسول الله ﷺ هلال بن أمية ويبطل شهادته في الناس، فقال هلال: والله إني لأرجو أن يجعل الله لي منها مخرجاً؛ وقال هلال: يا رسول الله فإني قد أرى ما اشتد عليك مما جئت به والله يعلم إني لصادق، فوالله إن رسول الله ﷺ يريد أن يأمر بضربه إذ أنزل الله على رسوله ﷺ الوحي، وكان إذا أنزل عليه الوحي عرفوا ذلك في تبرد وجهه، يعني فأمسكوا عنه حتى فرغ من الوحي، فتزلت: ﴿والذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهداء إلا أنفسهم فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله﴾ الآية، فسري عن رسول الله ﷺ فقال: «أبشر يا هلال فقد جعل الله لك فرجاً ومخرجاً»، فقال هلال: قد كنت أرجو ذلك من ربي عز وجل، فقال رسول الله ﷺ: «فأرسلوا إليها»، فأرسلوا إليها فجاءت فتلاها رسول الله ﷺ عليهما فذكرهما، وأخبرهما أن عذاب الآخرة أشد من عذاب الدنيا، فقال هلال: والله يا رسول الله لقد صدقت عليهما، فقالت: كذب، فقال رسول الله ﷺ: «لاعنوا بينهما»، فقيل لهلال، اشهد، فشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين، فلما كانت الخامسة قيل له يا هلال اتق الله فإن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة، وإن هذه الموجبة التي توجب عليك العذاب، فقال: والله لا يعذبني الله عليها كما لم يجلدني عليها، فشهد في الخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين، ثم قيل للمرأة: اشهدي أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين، وقيل لها عند الخامسة اتق الله فإن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة، وإن هذه الموجبة التي توجب عليك العذاب، فتلكأت ساعة وهمت بالاعتراف، ثم قالت: والله لا أفصح قومي فشهدت في الخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين؛ ففرق رسول الله ﷺ بينهما، وقضى أن لا يدعى ولدها لأب، ولا يرمى ولدها، ومن رماها أو رمى ولدها فعليه الحد، وقضى أن لا يبت لها عليه ولا قوت لها من أجل أنهما يفترقان من غير طلاق ولا متوفى عنها، وقال: «إن جاءت به أصيب أريشح حمش الساقين فهو لهلال، وإن جاءت به أورق جعداً جمالياً خدلج الساقين فهو الألبين، فقال رسول الله ﷺ: «لولا الأيمان لكان لي ولها شأن»، قال عكرمة: فكان بعد ذلك أميراً على مصر، وكان يدعى لأمه ولا يدعى لأب^(١).

ولهذا الحديث شواهد كثيرة في الصحاح وغيرها من وجوه كثيرة؛ فمنها ما رواه البخاري عن ابن عباس:
 أن هلال بن أمية كذب امرأته عند النبي ﷺ بشريك بن سحماء، فقال النبي ﷺ: «البينة أو حد في ظهرك» فقال: يا رسول الله إذا رأى أحدنا على امرأته رجلاً ينطلق يلتمس البينة، فجعل النبي ﷺ يقول: «البينة وإلا حد في ظهرك»، فقال هلال: والذي بعثك بالحق إني لصادق وليترن الله ما يرى ظهري من الحد، فتزل جبريل

(١) أخرجه الإمام أحمد وأبو داود بنحوه مختصراً.

وأنزل عليه: ﴿والذين يرمون أزواجهم﴾ - فقرأ حتى بلغ ﴿إن كان من الصادقين﴾ فانصرف النبي ﷺ، فأرسل إليهما فشهد هلال والنبي ﷺ يقول «إن الله يعلم أن أحدكما كاذب فهل منكما تائب» ثم قامت فشهدت، فلما كان في الخامسة وقفوها، وقالوا: إنها موجبة. قال ابن عباس: فتلكأت ونكصت حتى ظننا أنها ترجع، ثم قالت: لا أفضح قومي سائر اليوم فضمت، فقال النبي ﷺ: «أبصروها فإن جاءت به أكحل العينين سابغ الألبتين خدلج الساقين فهو لشريك بن سحماء» فجاءت به كذلك، فقال النبي ﷺ: «لولا ما مضى من كتاب الله لكان لي ولها شأن»^(١). وروى الإمام أحمد عن عبدالله قال: كنا جلوساً عشية الجمعة في المسجد، فقال رجل من الأنصار: إن أحدنا إذا رأى مع امرأته رجلاً إن قتله قتلتموه وإن تكلم جلدتموه، وإن سكت سكت على غيظ؟! والله لئن أصبحت صحيحاً لأسألن رسول الله ﷺ، قال: فسأله، فقال: يا رسول الله إن أحدنا إذا رأى مع امرأته رجلاً إن قتله قتلتموه، وإن تكلم جلدتموه، وإن سكت سكت على غيظ، اللهم احكم، قال: فتزلت آية اللعان، فكان ذلك الرجل أول من ابتلي به^(٢). وعن سهل بن سعد قال: جاء عويمر إلى (عاصم بن عدي) فقال له: سل رسول الله ﷺ أرايت رجلاً وجد رجلاً مع امرأته فقتله أيقتل به أم كيف يصنع؟ فسأل عاصم رسول الله ﷺ، فعاب رسول الله ﷺ المسائل، قال: فلقبه عويمر فقال: ما صنعت؟ قال: ما صنعت أنك لم تأتني بخير، سألت رسول الله ﷺ فعاب المسائل، فقال عويمر: والله لآتين رسول الله ﷺ فلا سألته؛ فاتاه فوجده قد أنزل عليه فيها، قال: فدعا بهما ولاعن بينهما، قال عويمر: إن انطلقت بها يا رسول الله لقد كذبت عليها، قال ففارقها قبل أن يأمره رسول الله ﷺ، فصارت سنة المتلاعنين، وقال رسول الله ﷺ: «أبصروها فإن جاءت به أسحم أدعج العينين عظيم الألبتين فلا أراه إلا قد صدق، وإن جاءت به أحيمر كأنه وحررة، فلا أراه إلا كاذباً»، فجاءت به على النعت المكروه^(٣).

وروى الحافظ أبو يعلى عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: لأول لعان كان في الإسلام أن شريك بن سحماء قذفه هلال بن أمية بامرأته، فرفعه إلى رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «أربعة شهود وإلا فحد في ظهرك» فقال: يا رسول الله إن الله يعلم إني لصادق، وليتزلن الله عليك ما يبرء به ظهري من الجلد، فأنزل الله آية اللعان: ﴿والذين يرمون أزواجهم﴾ إلى آخر الآية، قال: فدعاه النبي ﷺ فقال: «أشهد بالله إنك لمن الصادقين فيما رميتها به من الزنا» فشهد بذلك أربع شهادات، ثم قال له الخامسة: «ولعنة الله عليك إن كنت من الكاذبين فيما رميتها به من الزنا» ففعل، ثم دعاها رسول الله ﷺ فقال: «قومي فاشهدي بالله إنه لمن الكاذبين فيما رماك به من الزنا» فشهدت بذلك أربع شهادات، ثم قال لها في الخامسة: «وغضب الله عليك إن كان من الصادقين فيما رماك به من الزنا» قال: فلما كانت الرابعة أو الخامسة سكتت سكتة حتى ظنوا أنها ستعترف، ثم قالت: لا أفضح قومي سائر اليوم فضمت على القول، ففرق رسول الله ﷺ بينهما وقال: «انظروا فإن جاءت به جعداً حمش الساقين فهو لشريك بن سحماء، وإن جاءت به أبيض سبطاً قصير العينين فهو لهلال بن أمية»

(١) انفرد به البخاري من هذا الوجه .

(٢) وأخرجه مسلم من طرق عن سليمان بن مهران الأعمش .

(٣) أخرجاه في الصحيحين وبقية الجماعة إلا الترمذي .

فجاءت به جعداً حمش الساقين، فقال رسول الله ﷺ: «لولا ما نزل فيهما من كتاب الله لكان لي ولها شأن»^(١).
 إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكَ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لِّكُم لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ
 الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾

هذه العشر الآيات كلها نزلت في شأن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، حين رماها أهل الإفك والبهتان من المنافقين بما قالوه من الكذب البحت، والفرية التي غار الله عز وجل لها ولنبيه صلوات الله وسلامه عليه، فأنزل الله تعالى براءتها صيانة لعرض الرسول ﷺ، فقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ﴾ أي جماعة منكم يعني ما هو واحد ولا اثنان بل جماعة؛ فكان المقدم في هذه اللعنة (عبد الله بن أبي بن سلول) رأس المنافقين، فإنه كان يجمعه ويستوشيه حتى دخل ذلك في أذهان بعض المسلمين، فتكلموا به، وجوزه آخرون منهم، وبقي الأمر كذلك قريباً من شهر حتى نزل القرآن؛ ويبان ذلك في الأحاديث الصحيحة.

عن عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ قالت: كان رسول الله ﷺ إذا أراد أن يخرج لسفر أقرع بين نسائه، فأبتن خرج سهمها خرج بها رسول الله ﷺ معه، قالت عائشة رضي الله عنها: فأقرع بيننا في غزوة غزاها، فخرج فيها سهمي، وخرجت مع رسول الله ﷺ، وذلك بعدما نزل الحجاب، فأنا أحمل في هودجي وأنزل فيه، فسرنا حتى إذا فرغ رسول الله ﷺ من غزوته تلك وقفل، ودنونا من المدينة آذن ليلة بالرحيل، فقممت حين آذن بالرحيل، فمشيت حتى جاوزت الجيش، فلما قضيت شأني أقبلت إلى رحلي، فلمست صدري فإذا عقد لي من جزع ظفار قد انقطع، فرجعت فالتمت عقدي فحبسني ابتغاؤه، وأقبل الرهط الذين كانوا يرحلونني، فاحتلموا هودجي فرحلوه على بعيري الذي كنت أركب وهم يحسبون أنني فيه، قالت: وكان النساء إذ ذاك خفافاً لم يثقلن ولم يغشهن اللحم، إنما يأكلن العلقمة من الطعام؛ فلم يستنكر القوم خفة الهودج حين رفعوه وحملوه، وكنت جارية حديثة السن، فبعثوا الجمل وساروا، ووجدت عقدي بعدما استمر الجيش، فجئت منازلهم وليس بها داع ولا مجيب، فتيممت منزلي الذي كنت فيه، وظننت أن القوم سيفقدونني فيرجعون إلي، فبينما أنا جالسة في منزلي غلبني عيناى فتمت، وكان صفوان بن المعطل السلمي ثم الذكواني قد عرس من وراء الجيش، فأدلج فأصبح عند منزلي، فرأى سواد إنسان نائم، فأتاني فعرفني حين رأي، وقد كان رأي قبل الحجاب، فاستيقظت باسترجاعه حين عرفني فخمرت وجهي بجلبابي والله ما كلمني كلمة ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه حين أناخ راحلته، فوطئ على يدها فركبتها، فانطلق يقود بي الراحلة حتى أتينا الجيش بعدما نزلوا موغرين في نحر الظهيرة، فهلك من هلك في شأني، وكان الذي تولى كبره (عبد الله بن أبي بن سلول).

فقدمننا المدينة، فاشتكت حين قدمناها شهراً والناس يفيضون في قول أهل الإفك، ولا أشعر بشيء من ذلك،

(١) ذكر السيوطي الروايات في ذلك وقال، قال ابن حجر: اختلف الأئمة فمنهم من رجح أنها نزلت في هلال، ومنهم من رجح أنها في عويمر، ومنهم جمع بينهما، ويحتمل أن النزول سيق بسبب هلال ثم صادف مجيء عويمر ولم يكن له علم بما وقع لهلال، وجنح القرطبي إلى تجويز نزول الآية مرتين، قال ابن حجر: ولا مانع من تعدد الأسباب.

وهو يريني في وجعي أني لا أرى من رسول الله ﷺ اللطف الذي أرى منه حين أشتكي، إنما يدخل رسول الله ﷺ فيسلم ثم يقول: « كيف تيكم؟ » فذلك الذي يريني ولا أشعر بالشر، حتى خرجت بعدما نهيت، وخرجت معي أم مسطح قبل المناصع وهو متبرزنا ولا نخرج إلا ليلاً إلى ليل؛ وذلك قيل أن نتخذ الكنف قريباً من بيوتنا، وأمرنا أمر العرب الأول في التزه في البرية، وكنا نتأذى بالكنف أن نتخذها في بيوتنا، فانطلقت أنا وأم مسطح وهي بنت أبي رهم بن المطلب بن عبد مناف، وأمها ابنة صخر بن عامر خالة أبي بكر الصديق، وابنها مسطح بن أثانة بن عباد بن عبد المطلب بن عبد مناف، فأقبلت أنا وابنة أبي رهم أم مسطح قبل بيتي حين فرغنا من شأننا، فعثرت أم مسطح في مرطها فقالت: تعس مسطح، فقلت لها: بشما قلت، تسيين رجلاً شهد بديراً؟ فقالت: أي هنتاه ألم تسمعي ما قال؟ قلت: وماذا قال؟ قالت: فأخبرتني بقول أهل الإفك، فازددت مرضاً إلى مرضي، فلما رجعت إلى بيتي دخل علي رسول الله ﷺ فسلم، ثم قال: « كيف تيكم؟ » فقلت له: أتأذن لي أن آتي أبوي، قالت: وأنا حينئذ أريد أن أتيقن الخبر من قبلهما، فأذن لي رسول الله ﷺ فجئت أبوي، فقلت لأمي: يا أمته لماذا يتحدث الناس به؟ فقالت أي بنية هوني عليك فوالله لقلما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبها ولها ضرائر إلا أكثرن عليها، قالت، فقلت: سبحان الله وقد تحدث الناس بها؟ فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لي دمع، ولا أكتحل بنوم، ثم أصبحت أبكي.

قالت: فدعا رسول الله ﷺ (علي بن أبي طالب) و (أسامة بن زيد) حين استلبت الوحي، يسألها ويستشيرها في فراق أهله، قالت: فأما أسامة بن زيد فأشار علي رسول الله ﷺ بالذي يعلم من براءة أهله، وبالذي يعلم في نفسه لهم من الود، فقال أسامة: يا رسول الله أهلك ولا نعلم إلا خيراً، وأما علي بن أبي طالب فقال: يا رسول الله لم يضييق الله عليك والنساء سواها كثير، وإن تسأل الجارية تصدقك الخبر، قالت: فدعا رسول الله ﷺ بريرة فقال: « أي بريرة هل رأيت من شيء يريبك من عائشة؟ » فقالت له بريرة: والذي بعثك بالحق إن رأيت منها امرأة قط أغمصه عليها أكثر من أنها جارية حديثة السن تنام عن عجبين أهلها فتأتي الداجن فتأكله، فقام رسول الله ﷺ من يومه، فاستعذر من عبد الله بن أبي بن سلول، قالت: فقال رسول الله ﷺ وهو على المنبر: « يا معشر المسلمين من يعذرنني من رجل قد بلغني أذاه في أهلي، فوالله ما علمت على أهلي إلا خيراً، ولقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلا خيراً، وما كان يدخل على أهلي إلا معي، » فقام سعد بن معاذ الأنصاري رضي الله عنه فقال: أنا أعنرك منه يا رسول الله، إن كان من الأوس ضربنا عنقه، وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك، قالت: فقام سعد بن عباد وهو سيد الخزرج وكان رجلاً صالحاً ولكن احتملته الحمية، فقال لسعد بن معاذ: كذبت لعمر الله لا تقتله ولا تقدر على قتله، ولو كان من رهطك ما أحببت أن يقتل، فقام أسيد بن حضير وهو ابن عم سعد بن معاذ فقال لسعد بن عباد، كذبت لعمر الله لقتلته، فإنك منافق تجادل عن المنافق، فتناور الحيان الأوس والخزرج، حتى هموا أن يقتلوا ورسول الله ﷺ على المنبر، فلم يزل رسول الله ﷺ يخفضهم حتى سكتوا، وسكت رسول الله ﷺ، قالت: وبكيت يومي ذلك لا يرقأ لي دمع، ولا أكتحل بنوم وأبواي يظنان أن البكاء فالتق كبدني، قالت: فبينما هما جالسان عندي وأنا أبكي إذا استأذنت علي امرأة من الأنصار، فأذنت لها، فجلست تبكي معي، فبينما نحن على ذلك إذ دخل علينا رسول الله ﷺ فسلم ثم جلس، قالت: ولم يجلس

عندي منذ قيل ما قيل، وقد لبث شهراً لا يوحى إليه في شأني شيء .

قالت: فتشهد رسول الله ﷺ حين جلس، ثم قال: «أما بعد يا عائشة فإنه قد بلغني عنك كذا وكذا، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله، وإن كنت ألمت بذنب فاستغفري الله وتوبي إليه، فإن العبد إذا اعترف بذنبه وتاب تاب الله عليه» قالت: فلما قضى رسول الله ﷺ مقاله قلص دمعي حتى ما أحس منه قطرة، فقلت لأبي: أجب عني رسول الله، فقال: والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ، فقلت لأمي: أجيبي رسول الله ﷺ، فقالت: والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ، قالت، فقلت وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ كثيراً من القرآن: والله لقد علمت، لقد سمعتم بهذا الحديث حتى استقر في أنفسكم وصدقتم به، فلئن قلت لكم إني بريئة - والله يعلم أنني بريئة - لا تصدقوني، ولئن اعترفت بأمر والله يعلم أنني منه بريئة لتصدقني، فوالله ما أجد لي ولكم مثلاً إلا كما قال أبو يوسف: ﴿فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون﴾، قالت: ثم تحولت فاضطجعت على فراشي، قالت: وأنا والله أعلم حينئذ أنني بريئة، وأن الله تعالى مبرئي براءتي، ولكن: والله ما كنت أظن أن يتزل في شأني وحي يتلى، ولشأني كان أحقر في نفسي من أن يتكلم الله فيّ بأمر يتلى، ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ في النوم رؤيا يبرئني الله بها، قالت: فوالله ما رام رسول الله ﷺ مجلسه، ولا خرج من أهل البيت أحد، حتى أنزل الله تعالى على نبيه، فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء عند الوحي، حتى إنه ليتحدر منه مثل الجمان من العرق، وهو في يوم شات من ثقل القول الذي أنزل عليه قالت: فسري عن رسول الله ﷺ وهو يضحك، فكان أول كلمة تكلم بها أن قال: «أبشري يا عائشة، أما الله عز وجل فقد برأك» .

قالت: فقالت لي أمي: قومي إليه، فقلت: والله لا أقوم إليه، ولا أحمد إلا الله عز وجل، هو الذي أنزل براءتي، وأنزل الله عز وجل: ﴿إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم﴾ العشر الآيات كلها، فلما أنزل الله هذا في براءتي قال أبو بكر رضي الله عنه، وكان ينفق على مسطح بن أثانة لقربته منه وفقره: والله لا أنفق عليه شيئاً أبداً بعد الذي قال لعائشة، فأنزل الله تعالى: ﴿ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولي القربى - إلى قوله - ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم﴾، فقال أبو بكر: بلى والله إني لأحب أن يغفر الله لي، فرجع إلى مسطح النفقة التي كان ينفق عليه، وقال: والله لا أنزعها منه أبداً، قالت عائشة: وكان رسول الله ﷺ يسأل (زينت بنت جحش) زوج النبي ﷺ عن أمري، فقال: «يا زينب ماذا علمت أو رأيت؟» فقالت: يا رسول الله أحمي سمعي وبصري، والله ما علمت إلا خيراً، قالت عائشة: وهي التي كانت تساميني من أزواج النبي ﷺ فعصمها الله تعالى بالورع؛ وطفقت أختها (حمنة بنت جحش) تحارب لها فهلكت فيمن هلك، قال ابن شهاب فهذا ما انتهى إلينا من أمر هؤلاء الرهط^(١) .

وروى الإمام أحمد عن عائشة قالت: لما نزل عندي قام رسول الله ﷺ فذكر ذلك وتلا القرآن، فلما نزل أمر برجلين وامرأة فضربوا حدّهم^(٢)، وروى الإمام أحمد أيضاً عن مسروق عن أم رومان قالت: بينا أنا عند عائشة

(١) أخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث الزهري عن عائشة رضي الله عنها .

(٢) رواه أحمد وأصحاب السنن الأربعة وقال الترمذي: حديث حسن، ووقع عند أبي داود تسميتهم وهم (حسان بن ثابت) =

إذ دخلت عليها امرأة من الأنصار فقالت: فعل الله بابنها وفعل، فقالت عائشة: ولم؟ قالت: إنه كان فيمن حدث الحديث، قالت: وأي الحديث؟ قالت: كذا وكذا، قالت: وقد بلغ ذلك رسول الله ﷺ؟ قالت: نعم، قالت: وبلغ أبا بكر؟ قالت: نعم، فخرت عائشة رضي الله عنها مغشياً عليها، فما أفاقت إلا وعليها حمى بنافض، قالت: فممت فدفرتها، قالت: فجاء النبي ﷺ قال: «فما شأن هذه؟» فقلت: يا رسول الله أخذتها حمى بنافض، قال: «فلعله في حديث تحدث به» قالت: فاستوت عائشة قاعدة، فقالت: والله لئن حلفت لكم لا تصدقوني، ولئن اعتذرت إليكم لا تعذروني، فثلي ومثلكم كمثل يعقوب وبنيه حين قال: ﴿فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون﴾ قالت: فخرج رسول الله ﷺ وأتزل الله عندها، فرجع رسول الله ﷺ ومعه أبو بكر فدخل، فقال يا عائشة: «إن الله تعالى قد أنزل عذرك»، فقالت: بحمد الله لا بحمدك، فقال لها أبو بكر، تقولين هذا لرسول الله ﷺ؟ قالت: نعم، قالت: وكان فيمن حدث هذا الحديث رجل كان يعوله أبو بكر، فحلف أن لا يصله، فأنزل الله: ﴿ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة﴾ إلى آخر الآية، فقال أبو بكر بلى فوصله.

فقوله تعالى: ﴿إن الذين جاءوا بالإفك﴾ أي الكذب والبهت والافتراء ﴿عصبة﴾ أي جماعة منكم ﴿لا تحسبوه شراً لكم﴾ أي يا آل أبي بكر ﴿بل هو خير لكم﴾ أي في الدنيا والآخرة، لسان صدق في الدنيا ورفعة منازل في الآخرة، وإظهار شرف لهم باعتهاء الله تعالى بعائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، حيث أنزل الله براءتها في القرآن العظيم، ولهذا لما دخل عليها ابن عباس رضي الله عنه وعنهما وهي في سياق الموت، قال لها: أبشري فإنك زوجة رسول الله ﷺ، وكان يحبك ولم يتزوج بكراً غيرك، ونزلت براءتك من السماء، وقوله تعالى: ﴿لكل امرئ منهم ما اكتسب من الإثم﴾ أي لكل من تكلم في هذه القضية، ورمى أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها بشيء من الفاحشة نصيب عظيم من العذاب، ﴿والذي تولى كبره منهم﴾ قيل: ابتداء به، وقيل: الذي كان يجمعه ويذيعه ويشيعه ﴿له عذاب عظيم﴾ أي على ذلك، ثم الأكثرون على أن المراد بذلك إنما هو (عبد الله بن أبي بن سلول) قبحه الله تعالى ولعنه، وهو الذي تقدم النص عليه في الحديث؛ وقيل: بل المراد به حسان بن ثابت، وهو قول غريب، فإنه من الصحابة الذين لهم فضائل ومناقب ومآثر، وأحسن مآثره أنه كان يذب عن رسول الله ﷺ بشعره، وهو الذي قال له ﷺ: «هاجهم وجبريل معك». وقال مسروق: كنت عند عائشة رضي الله عنها، فدخل حسان ابن ثابت، فأمرت فألقي له وسادة، فلما خرج قلت لعائشة: ما تصنعين بهذا؟ يعني يدخل عليك، وفي رواية قيل لها: أتأذنين لهذا يدخل عليك؟ وقد قال الله: ﴿والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم﴾، قالت: وأي عذاب أشد من العمى، وكان قد ذهب بصره، لعل الله أن يجعل ذلك هو العذاب العظيم، ثم قالت: إنه كان ينافح عن رسول الله ﷺ، وفي رواية أنه أنشدها عندما دخل عليها شعراً يمتدحها به فقال:

حصان رزان ما تزن بريية وتصبح غرثي من لحوم الغوافل

فقالت: لكنك لست كذلك.

لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِنَفْسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَوْلَا جَاءَهُ وَعَلَيْهِ

بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءٍ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٣﴾

هذا تأديب من الله تعالى للمؤمنين في قصة عائشة رضي الله عنها حين أفاض بعضهم في ذلك الكلام السوء وما ذكر من شأن الإفك، فقال تعالى: ﴿لولا﴾ يعني هلا ﴿إذ سمعتموه﴾ أي ذلك الكلام الذي رميت به أم المؤمنين رضي الله عنها ﴿ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً﴾ أي قاسوا ذلك الكلام على أنفسهم، فإن كان لا يليق بهم فأم المؤمنين أولى بالبراءة منه بطريق الأولى والأحرى، روي أن أبا أيوب (خالد بن زيد الأنصاري) قالت له امرأته أم أيوب: يا أبا أيوب أما تسمع ما يقول الناس في عائشة رضي الله عنها؟ قال: نعم، وذلك الكذب، أكنت فاعلة ذلك يا أم أيوب؟ قالت: لا والله ما كنت لأفعله، قال: فعائشة والله خير منك، فلما نزل القرآن وذكر أهل الإفك، قال الله عز وجل: ﴿لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً وقالوا هذا إفك مبين﴾ يعني أبا أيوب حين قال لأم أيوب ما قال (١). وقوله تعالى: ﴿ظن المؤمنون﴾ الخ: أي هلا ظنوا الخير، فإن أم المؤمنين أهله وأولى به، هذا ما يتعلق بالباطن، وقوله: ﴿وقالوا﴾: أي بالستهم ﴿هذا إفك مبين﴾ أي كذب ظاهر على أم المؤمنين رضي الله عنها، فإن الذي وقع لم يكن ريبة، وذلك أن محبي أم المؤمنين راكبة جهرة على راحلة (صفوان بن المعطل) في وقت الظهر والجيش بكاله يشاهدون ذلك ورسول الله ﷺ بين أظهرهم، ولو كان هذا الأمر فيه ريبة لم يكن هكذا جهرة، ولا كانا يقدمان على مثل ذلك على رؤوس الأشهاد، بل كان هذا يكون لو قدر خفية مستوراً، فتعين أن ما جاء به أهل الإفك مما رموا به أم المؤمنين هو الكذب البحت، والقول الزور، والرعونة الفاحشة الفاجرة، قال الله تعالى ﴿لولا﴾ أي هلا ﴿جاءوا عليه﴾ أي على ما قالوه ﴿بأربعة شهداء﴾ يشهدون على صحة ما جاءوا به ﴿فإذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون﴾ أي في حكم الله كاذبون فاجرون .

وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوهُمُ
بِالسِّنِّكَرِ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هِينًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾

يقول تعالى: ﴿لولا فضل الله عليكم ورحمته في الدنيا والآخرة﴾ أيها الخائضون في شأن عائشة، بأن قبل توبتكم وإنابتكم إليه في الدنيا، وعفا عنكم لإيمانكم بالنسبة إلى الدار الآخرة ﴿لمسكم فيما أفضتم فيه﴾ من قضية الإفك ﴿عذاب عظيم﴾ وهذا فيمن عنده إيمان يقبل الله بسببه التوبة، كمسطح و (حسان) و (حمنة بنت جحش)، فأما من خاض فيه من المنافقين كعبد الله بن أبي بن سلول وأضرابه، فليس أولئك مرادين في هذه الآية، لأنه ليس عندهم من الإيمان والعمل الصالح ما يعادل هذا ولا ما يعارضه، ثم قال تعالى: ﴿إذ تلقونه بالسنتكم﴾ قال مجاهد: أي يرويه بعضكم عن بعض، يقول: هذا سمعته من فلان، وقال فلان كذا، وذكر بعضهم كذا، وقوله تعالى: ﴿وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم﴾ أي تقولون ما لا تعلمون. ثم قال تعالى: ﴿وتحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم﴾ أي تقولون ما تقولون في شأن أم المؤمنين وتحسبون ذلك يسيراً سهلاً، ولو لم تكن زوجة

(١) ذكره محمد بن إسحاق بن يسار ومحمد بن عمر الواقدي .

النبي ﷺ لما كان هيناً، فكيف وهي زوجة خاتم الأنبياء وسيد المرسلين، فعظيم عند الله أن يقال في زوجة نبيه ورسوله ما قيل، فإن الله سبحانه وتعالى يغار لهذا، ولهذا قال تعالى: ﴿وتحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم﴾، وفي الصحيحين: «إن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يدرى ما تبلغ^(١) يهوي بها في النار أبعد مما بين السماء والأرض».

وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾

هذا تأديب آخر بعد الأول، يقول الله تعالى: ﴿ولولا إذ سمعتموه قلم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا﴾ أي ما ينبغي لنا أن نتفوه بهذا الكلام ولا نذكره لأحد ﴿سبحانك هذا بهتان عظيم﴾ أي سبحان الله أن يقال هذا الكلام على زوجة رسوله، وحليلة خليله، ثم قال تعالى: ﴿يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبداً﴾ أي ينهاكم الله متوعداً أن يقع منكم ما يشبه هذا أبداً، أي فيما يستقبل، ولهذا قال: ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ أي إن كنتم تؤمنون بالله وشرعه وتعظمون رسوله ﷺ، ثم قال تعالى: ﴿ويبين الله لكم الآيات﴾ أي يوضح لكم الأحكام الشرعية والحكم القدرية، ﴿والله عليم حكيم﴾ أي عليم بما يصلح عباده، حكيم في شرعه وقدره.

* إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ

لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾

هذا تأديب ثالث لمن سمع شيئاً من الكلام السيء فقام بذهنه شيء منه وتكلم به، فقد قال تعالى: ﴿إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا﴾ أي يختارون ظهور الكلام عنهم بالقبیح ﴿لهم عذاب أليم في الدنيا﴾ أي بالحد، وفي الآخرة بالعذاب ﴿والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾ أي فردوا الأمر إليه ترشدوا، وقال النبي ﷺ: «لا تؤذوا عباد الله ولا تعيروهم ولا تطلبوا عوراتهم، فإنه من طلب عورة أخيه المسلم طلب الله عورته حتى يفضحه في بيته»^(٢).

وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٢٠﴾ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾

يقول الله تعالى: ﴿ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله رؤوف رحيم﴾ أي لولا هذا لكان أمر آخر، ولكنه

(١) وفي رواية: لا يلقي لها بالاً.

(٢) أخرجه الإمام أحمد عن ثوبان مرفوعاً.

تعالى رؤوف بعباده رحيم بهم، فتاب على من تاب إليه من هذه القضية، وطهر من طهر منهم بالحد الذي أقيم عليهم، ثم قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان﴾ يعني طرائقه ومسالكه وما يأمر به، ﴿ومن يتبع خطوات الشيطان فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر﴾، هذا تنفير وتحذير من ذلك بأفصح عبارة وأبلغها وأوجزها وأحسنها. قال ابن عباس ﴿خطوات الشيطان﴾: عمله، وقال عكرمة: نزغاته، وقال قتادة: كل معصية فهي من خطوات الشيطان، وسأل رجل ابن مسعود فقال: إني حرمت أن آكل طعاماً وسماه، فقال: هذا من نزغات الشيطان، كَفَّرَ عن يمينك وكل. وقال الشعبي في رجل نذر ذبح ولده: هذا من نزغات الشيطان وأفتاه أن يذبح كبشاً. وعن أبي رافع قال: غضبت على امرأتي فقالت: هي يوماً يهودية ويوماً نصرانية وكل مملوك لها حر إن لم تطلق امرأتك، فأتيت عبد الله بن عمر فقال: إنما هذه من نزغات الشيطان^(١). ثم قال تعالى: ﴿ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبداً﴾ أي لولا أن الله يرزق من يشاء التوبة والرجوع إليه، ويزكي النفوس من شركها وفجورها ودنسها، وما فيها من أخلاق رديئة كل بحسبه، لما حصل أحد لنفسه زكاة ولا خيراً، ﴿ولكن الله يزكي من يشاء﴾ أي من خلقه ويضل من يشاء ويرديه في مهالك الضلال والغي، وقوله: ﴿والله سميع﴾ أي سميع لأقوال عباده، ﴿عليم﴾ بمن يستحق منهم الهدى والضلال.

وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِيَعْفُوا وَلِيَصْفَحُوا أَلَا يُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٢﴾

يقول تعالى: ﴿ولا يأتل﴾ من الألية وهي الحلف أي لا يحلف ﴿أولو الفضل منكم﴾ أي الطول والصدقة والإحسان. ﴿والسعة﴾ أي الجدة ﴿أن يؤتوا أولي القربى والمسكين والمهاجرين في سبيل الله﴾ أي لا تحلفوا أن لا تصلوا قراباتكم المسكين والمهاجرين، وهذا في غاية الترفق والعطف على صلة الأرحام، ولهذا قال تعالى: ﴿وليصفحوا﴾ أي عما تقدم منهم من الإساءة والأذى، وهذا من حلمه تعالى وكرمه ولطفه بخلقه مع ظلمهم لأنفسهم، وهذه الآيات نزلت في (الصديق) رضي الله عنه، حين حلف أن لا ينفع (مسطح بن أثاثة) بنافعة أبداً، بعدما قال في عائشة ما قال كما تقدم في الحديث، فلما أنزل الله براءة أم المؤمنين عائشة، وطابت النفوس المؤمنة واستقرت، وتاب الله على من كان تكلم من المؤمنين في ذلك، وأقيم الحد على من أقيم عليه، شرع تبارك وتعالى - وله الفضل والمنة - يعطف الصديق على قريبه ونسيبه، وهو مسطح بن أثاثة، فإنه كان ابن خالة الصديق، وكان مسكيناً لا مال له إلا ما ينفق عليه أبو بكر رضي الله عنه، وكان من المهاجرين في سبيل الله وقد زلق زلقة تاب الله عليه منها، وضرب الحد عليها، وكان الصديق رضي الله عنه معروفاً بالمعروف، له الفضل والأيدى على الأقارب والأجانب، فلما نزلت هذه الآية، قال الصديق: بلى والله إنا نحب أن تغفر لنا يا ربنا، ثم رجع إلى مسطح ما كان يصله من النفقة وقال: والله لا أنزعها منه أبداً، فلهذا كان الصديق هو الصديق رضي الله عنه وعن بنته.

إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لَعُنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾

(١) ذكره ابن أبي حاتم.

يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمُ أَلْسِنُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوقِفُهُمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴿٢٥﴾

هذا وعيد من الله تعالى للذين يرمون المحصنات الغافلات، خرج مخرج الغالب ﴿المؤمنات﴾ فأمهات المؤمنين أولى بالدخول في هذا من كل محصنة، ولا سيما التي كانت سبب التزول وهي عائشة بنت الصديق رضي الله عنهما؛ وقد أجمع العلماء رحمهم الله قاطبة على أن من سبها بعد هذا، ورمأها بما رمأها به بعد هذا الذي ذكر في هذه الآية، فإنه كافر لأنه معاند للقرآن، وقوله تعالى: ﴿لنعنوا في الدنيا والآخرة﴾، كقوله: ﴿إن الذين يؤذون الله ورسوله﴾ الآية، وقد ذهب بعضهم إلى أنها خاصة بعائشة رضي الله عنها، قال ابن عباس: نزلت في عائشة خاصة، وعن عائشة رضي الله عنها قالت: رميت بما رميت به وأنا غافلة فبلغني بعد ذلك، قالت: فينا رسول الله ﷺ جالس عندي، إذ أوحى إليه، قالت: وكان إذا أوحى إليه أخذه كهيئة السبات، وإنه أوحى إليه وهو جالس عندي ثم استوى جالساً يمسح على وجهه وقال: «يا عائشة أبشري» قالت، فقلت: بحمد الله لا بحمدك، فقراً: ﴿إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات - حتى بلغ - أولئك مبرأون مما يقولون لهم مغفرة ورزق كريم﴾^(١)، وقال الضحاك: المراد بها أزواج النبي خاصة دون غيرهن من النساء، وقال العوفي عن ابن عباس في الآية ﴿إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات﴾ الآية: يعني أزواج النبي ﷺ رماهن أهل النفاق، فأوجب الله لهم اللعنة والغضب وباؤوا بسخط من الله، فكان ذلك في أزواج النبي ﷺ، ثم نزل بعد ذلك: ﴿والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء - إلى قوله - فإن الله غفور رحيم﴾ فأنزل الله الجلد والتوبة، فالتوبة تقبل والشهادة ترد .

وقال ابن جرير: فسر ابن عباس سورة النور، فلما أتى على هذه الآية ﴿إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات﴾ الآية قال: في شأن عائشة وأزواج النبي ﷺ، وهي مبهمة^(٢) وليست لهم توبة، ثم قرأ: ﴿والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء - إلى قوله - إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا﴾ الآية، قال: فجعل هؤلاء توبة، ولم يجعل لمن قذف أولئك توبة، قال فهم بعض القوم أن يقوم إليه فيقبل رأسه من حسن ما فسر به سورة النور، وقد اختار ابن جرير عمومها، وهو الصحيح ويعضد العموم ما رواه ابن أبي حاتم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «اجتنبوا السبع الموبقات» قيل: وما هن يا رسول الله؟ قال: «الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات»^(٣). وقوله تعالى: ﴿يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون﴾، عن ابن عباس قال: إنهم يعني المشركين إذا رأوا أنه لا يدخل الجنة إلا أهل الصلاة، قالوا: تعالوا حتى نجحد فيجحدون فيحتم على أفواههم، وتشهد أيديهم وأرجلهم، ولا يكتمون الله حديثاً .

(١) أخرجه ابن جرير .

(٢) قوله وهي مبهمة: أي عامة في تحريم قذف كل محصنة .

(٣) أخرجاه في الصحيحين .

وروى ابن أبي حاتم عن أنس بن مالك قال: كنا عند النبي ﷺ فضحك حتى بدت نواجذه ثم قال: «أتدرون مم أضحك؟» قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: «من مجادلة العبد ربه، يقول: يا رب ألم تجرني من الظلم؟ فيقول: بلى، فيقول: لا أجز عليّ شاهداً إلا من نفسي، فيقول: كفى بنفسك اليوم عليك شهيداً، وبالكرام عليك شهوداً، فيختم على فيه ويقال لأركانها: انطقي، فتنتطق بعمله، ثم يخلى بينه وبين الكلام، فيقول: بعداً لكنّ وسحقاً، فعنكن كنت أناضل»^(١). وقال قتادة: ابن آدم، والله إن عليك لشهوداً غير متهمة من بدنك فراقبهم، واتق الله في شرك وعلانيتك، فإنه لا يخفى عليه خافية، الظلمة عنده ضوء، والسر عنده علانية، فمن استطاع أن يموت وهو بالله حسن الظن فليفعل ولا قوة إلا بالله. وقوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يوفيهم الله دينهم الحق﴾، قال ابن عباس ﴿دينهم﴾: أي حسابهم، وكذا قال غير واحد، وقوله: ﴿ويعلمون أن الله هو الحق المبين﴾ أي وعده ووعيدته وحسابه هو العدل الذي لا جور فيه.

أَلْحَيْبَتُ لِلْحَيْبِثِ وَالْحَيْبُوثُ لِلْحَيْبِثِ وَالطَّيْبَتُ لِلطَّيْبِ وَالطَّيْبُوثُ لِلطَّيْبِثِ أَوْلَيْكَ مُبْرَأُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾

قال ابن عباس: الخبيثات من القول للخبيثين من الرجال، والخبيثون من الرجال للخبيثات من القول، والطيبات من القول للطيبين من الرجال، والطيبون من الرجال للطيبات من القول، قال: ونزلت في عائشة وأهل الإفك^(٢)، واختاره ابن جرير، ووجهه بأن الكلام القبيح أولى بأهل القبح من الناس، والكلام الطيب أولى بالطيبين من الناس، فما نسبته أهل النفاق إلى عائشة من كلام هم أولى به، وهي أولى بالبراءة والتزاهة منهم! ولهذا قال تعالى: ﴿أولئك مبرأون مما يقولون﴾. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: الخبيثات من النساء للخبيثين من الرجال، والخبيثون من الرجال للخبيثات من النساء؛ والطيبات من النساء للطيبين من الرجال، والطيبون من الرجال للطيبات من النساء؛ أي ما كان الله ليجعل عائشة زوجة لرسول الله ﷺ إلا وهي طيبة لأنه أطيّب من كل طيب من البشر، ولو كانت خبيثة لما صلحت له لا شرعاً ولا قدراً؛ ولهذا قال تعالى: ﴿أولئك مبرأون مما يقولون﴾ أي هم بعداء عما يقوله أهل الإفك والعدوان ﴿لهم مغفرة﴾ أي بسبب ما قيل فيهم من الكذب ﴿ورزق كريم﴾ أي عند الله في جنات النعيم، وفيه وعد بأن تكون زوجة رسول الله ﷺ في الجنة.

يَتَأَيَّبُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ آرْجِعُوا فَآرْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾

(٢) وبه قال مجاهد وعطاء وسعيد بن جبير والشعبي والحسن البصري.

(١) ورواه مسلم والنسائي.

هذه آداب شرعية أدب الله بها عباده المؤمنين، أمرهم أن لا يدخلوا بيوتاً غير بيوتهم حتى (يستأنسوا) أي يستأذنوا قبل الدخول ويسلموا بعده، وينبغي أن يستأذن ثلاث مرات، فإن أذن له وإلا انصرف كما ثبت في الصحيح أن أبا موسى حين استأذن على عمر ثلاثاً، فلم يؤذن له انصرف، ثم قال عمر: ألم تسمع صوت عبد الله ابن قيس يستأذن؟ ائذنوا له، فطلبوه فوجدوه قد ذهب، فلما جاء بعد ذلك قال: ما أرجعك؟ قال: إني استأذنت ثلاثاً فلم يؤذن لي، وإني سمعت النبي ﷺ يقول: «إذا استأذن أحدكم ثلاثاً فلم يؤذن له فلينصرف»، فقال عمر لتأنيبي على هذا بيينة وإلا أوجعتك ضرباً، فذهب إلى ملا من الأنصار فذكر لهم ما قال عمر، فقالوا: لا يشهد لك إلا أصغرنا، فقام معه أبو سعيد الخدري فأخبر عمر بذلك، فقال: ألهاني عنه الصفق بالأسواق. وعن أنس أن النبي ﷺ استأذن على (سعد بن عباد) فقال: «السلام عليك ورحمة الله» فقال سعد: عليك والسلام ورحمة الله، ولم يسمع النبي ﷺ حتى سلم ثلاثاً، ورد عليه سعد ثلاثاً، ولم يسمعه، فرجع النبي ﷺ، فاتبعه سعد فقال: يا رسول الله بأبي أنت وأمي ما سلمت تسليمه إلا وهي بأذني، ولقد رددت عليك ولم أسمعك، وأردت أن أستكثر من سلامك ومن البركة، ثم أدخله البيت فقرب إليه زيبياً، فأكل نبي الله فلما فرغ قال: «أكل طعامكم الأبرار، وصلت عليكم الملائكة وأفطر عندكم الصائمون»^(١). ثم ليعلم أنه ينبغي للمستأذن على أهل المنزل أن لا يقف تلقاء الباب بوجهه، ولكن ليكن الباب عن يمينه أو يساره، لما رواه أبو داود عن عبد الله بن بشر قال: كان رسول الله ﷺ إذا أتى باب قوم لم يستقبل الباب من تلقاء وجهه ولكن من ركنه الأيمن أو الأيسر، ويقول: «السلام عليكم، السلام عليكم»، وذلك أن الدور لم يكن عليها يومئذ ستور. وجاء رجل فوقف على باب النبي ﷺ يستأذن، فقام على الباب - يعني: مستقبل الباب - فقال له النبي ﷺ: «هكذا عنك - أو هكذا - فإتبع الاستئذان من النظر»^(٢).

وفي الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لو أن امرأ أطلع عليك بغير إذن فحذفته بحصاة ففقت عينه ما كان عليك من جناح»، وعن جابر قال: أتيت النبي ﷺ في دين كان على أبي، فدققت الباب، فقال: «من ذا؟» فقلت: أنا، قال: «أنا أنا»، كأنه كرهه^(٣)، وإنما كره ذلك لأن هذه اللفظة لا يعرف صاحبها حتى يفصح باسمه أو كنيته التي هو مشهور بها، وإلا فكل أحد يعبر عن نفسه بأنا، فلا يحصل بها المقصود من الاستئذان المأمور به في الآية، قال ابن عباس: الاستئناس الاستئذان، وكذا قال غير واحد. وعن عمرو بن سعيد الثقيني أن رجلاً استأذن على النبي ﷺ فقال: أألج أو أنلج؟ فقال النبي ﷺ لأمة له يقال لها روضة: «قومي إلى هذا فعلميه، فإنه لا يحسن يستأذن، فقولي له يقول السلام عليكم أأدخل؟»، فسمعها الرجل فقال: السلام عليكم أأدخل؟ فقال: «أدخل»^(٤). وقال مجاهد: جاء ابن عمر من حاجة وقد آذاه الرضاء، فأتى فسطاط امرأة من قريش، فقال: السلام عليكم أأدخل، قالت: ادخل بسلام، فأعاد، فأعادت وهو يراوح بين قدميه قال: قولي

(١) أخرجه أحمد واللفظ له ورواه أبو داود والنسائي بنحوه .

(٢) أخرجه أبو داود وقد جاء في بعض الروايات أن الرجل سعد رضي الله عنه .

(٣) أخرجه الجماعة من حديث شعبة عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه .

(٤) أخرجه أبو داود .

ادخل، قالت أدخل، فدخل. وروى هشيم عن ابن مسعود قال: عليكم أن تستأذنوا على أمهاتكم وأخواتكم، وقال أشعث عن (عدي بن ثابت) أن امرأة من الأنصار قالت: يا رسول الله إني أكون في مترلي على الحال التي لا أحب أن يراني أحد عليها، لا والد ولا ولد، وإنه لا يزال يدخل علي رجل من أهلي وأنا على تلك الحال، قال: فتزلت: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتاً﴾ الآية^(١). وقال ابن جريج: سمعت عطاء بن أبي رباح يخبر عن ابن عباس رضي الله عنه قال: ثلاث آيات جحدهن الناس، قال الله تعالى: ﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾ قال: ويقولون: إن أكرمهم عند الله أعظمهم بيتاً، قال: والأدب كله قد جحدته الناس، قال: قلت: أستأذن على أخواتي أيتام في حجري معي في بيت واحد؟ قال: نعم، فرددت عليه ليرخص لي فأبى، فقال: تحب أن تراها عريانة؟ قلت: لا، قال: فاستأذن، قال: فراجعته أيضاً فقال: أتحب أن تطيع الله؟ قال: قالت: نعم، قال: فاستأذن، وقال طاووس: ما من امرأة أكره إليّ أن أرى عورتها من ذات محرم قال: وكان يشدد في ذلك. وقال ابن مسعود: عليكم الإذن على أمهاتكم، وقال ابن جريج: قلت لعطاء أيسأذن الرجل على امرأته؟ قال: لا، وهذا محمول على عدم الوجوب، وإلا فالأولى أن يعلمها بدخوله ولا يفاجئها به، لاحتمال أن تكون على هيئة لا تحب أن يراها عليها.

وروى ابن جرير عن زينب امرأة عبد الله بن مسعود قالت: كان عبد الله إذا جاء من حاجة فاتمى إلى الباب تنحنح ويزق، كراهة أن يهجم منا على أمر يكرهه^(٢). وروى ابن أبي حاتم عن أبي هريرة قال: كان عبد الله إذا دخل الدار استأنس تكلم ورفع صوته، وقال مجاهد: ﴿حتى تستأنسوا﴾ قال: تنحنحوا أو تنخموا، وقال الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله: إذا دخل الرجل بيته استحب له أن يتنحنح أو يحرك نعليه؛ ولهذا جاء في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه نهى أن يطرق الرجل أهله طروقاً - وفي رواية - لئلا يتخوفهم، وفي الحديث الآخر أن رسول الله ﷺ قدم المدينة نهاراً فأناخ بظاهرها وقال: «انتظروا حتى ندخل عشاء - يعني آخر النهار - حتى تمتشط الشعثة وتستحد المغيبة». وقال قتادة في قوله ﴿حتى تستأنسوا﴾: هو الاستئذان ثلاثاً، فمن لم يؤذن له منهم فليرجع، أما الأولى فليسمع الحي، وأما الثانية فليأخذوا حذرهم، وأما الثالثة فإن شاعوا أذنوا وإن شاعوا ردوا؛ ولا تقفن على باب قوم ردوك عن بابهم، فإن للناس حاجات وهم أشغال والله أولى بالعدر. وقال مقاتل بن حيان في الآية: كان الرجل في الجاهلية إذا لقي صاحبه لا يسلم عليه، ويقول: حيت صباحاً وحيت مساء، وكان ذلك تحية القوم بينهم، وكان أحدهم ينطلق إلى صاحبه، فلا يستأذن حتى يفتح ويقول: قد دخلت ونحو ذلك، فيشق ذلك على الرجل، ولعله يكون مع أهله، فغير الله ذلك كله في ستر وعفة، وجعله نقياً نزهاً من الدنس والقذر والدرن. فقال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها﴾ الآية، وهذا الذي قاله مقاتل حسن، ولهذا قال تعالى: ﴿ذلكم خير لكم﴾ يعني الاستئذان، خير لكم بمعنى هو خير من الطرفين للمستأذن ولأهل البيت ﴿لعلكم تذكرون﴾، وقوله تعالى: ﴿فإن لم تجدوا فيها أحداً فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم﴾، وذلك لما فيه من التصرف في ملك الغير بغير إذنه، فإن شاء أذن وإن شاء لم يأذن، ﴿وإن

(١) أخرجه ابن أبي حاتم .

(٢) أخرجه ابن جرير وقال ابن كثير: إسناده صحيح .

قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم ﴿٣٠﴾ أي إذا اردوكم من الباب قبل الإذن أو بعده ﴿فارجعوا هو أزكى لكم﴾ أي رجوعكم أزكى لكم وأطهر ﴿والله بما تعملون علم﴾. وقال قتادة: قال بعض المهاجرين: لقد طلبت عمري كله هذه الآية فما أدركتها أن أستاذن على بعض إخواني، فيقول لي: ارجع فأرجع وأنا مغتبط، لقوله تعالى: ﴿وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم والله بما تعملون علم﴾ وقال سعيد بن جبير في الآية: أي لا تقفوا على أبواب الناس، وقوله تعالى: ﴿ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتاً غير مسكونة﴾ الآية، هذه الآية الكريمة أخص من التي قبلها وذلك أنها تقتضي جواز الدخول إلى البيوت التي ليس فيها أحد إذا كان له متاع فيها بغير إذن كالبيت المعد للضيف إذا أذن له فيه أول مرة كفى، قال ابن عباس ﴿لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم﴾، ثم نسخ واستثنى، فقال تعالى: ﴿ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتاً غير مسكونة فيها متاع لكم﴾^(١)، وقال آخرون: هي بيوت التجار كالحانات ومنازل الأسفار وبيوت مكة وغير ذلك .

* قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّونَ مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣١﴾

هذا أمر من الله تعالى لعباده المؤمنين، أن يغضوا من أبصارهم عما حرم عليهم، فلا ينظروا إلا لما أباح لهم النظر إليه، وأن يغضوا أبصارهم عن المحارم، فإن اتفق أن وقع البصر على محرم من غير قصد فليصرف بصره عنه سريعاً، كما روي عن جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه قال: سألت النبي ﷺ عن نظرة الفجأة فأمرني أن أصرف بصري^(٢). وقال رسول الله ﷺ لعلي: «يا علي لا تتبع النظرة النظرة، فإن لك الأولى وليس لك الآخرة»^(٣). وفي الصحيح عن أبي سعيد قال، قال رسول الله ﷺ: «إياكم والجلوس على الطرقات» قالوا: يا رسول الله لا بد لنا من مجالسنا نتحدث فيها، فقال رسول الله ﷺ: «إن أبيتُم فأعطوا الطريق حقه» قالوا: وما حق الطريق يا رسول الله؟ قال: «غض البصر، وكف الأذى، ورد السلام، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»، ولما كان النظر داعية إلى فساد القلب، لذلك أمر الله بحفظ الفروج، كما أمر بحفظ الأبصار التي هي بواعث إلى ذلك، فقال تعالى: ﴿قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم﴾ وحفظ الفرج تارة يكون بمنعه من الزنا كما قال تعالى: ﴿والذين هم لفروجهم حافظون﴾ الآية، وتارة يكون بحفظه من النظر إليه كما جاء في الحديث: «احفظ عورتك إلا من زوجتك أو ما ملكت يمينك»^(٤) ﴿ذلك أزكى لهم﴾ أي أطهر لقلوبهم وأتقى لدينهم، كما قيل: من حفظ بصره أورثه الله نوراً في بصيرته. وروى الإمام أحمد عن أبي أمامة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «ما من مسلم ينظر إلى محاسن امرأة ثم يغض بصره إلا أخلف الله له عبادة يجدها حلاوتها». وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «إن النظر سهم من سهام إبليس مسموم من تركه مخافتي أبدلته إيماناً يجد حلاوته في قلبه»^(٥). وقوله تعالى: ﴿إن الله خبير بما يصنعون﴾، كما قال تعالى: ﴿يعلم خائنة الأعين

(١) في الباب: أخرج ابن أبي حاتم: لما نزلت آية الاستئذان قال أبو بكر: يا رسول الله، فكيف بتجار قريش الذين يختلفون بين مكة والمدينة والشام، ولم يبيوت معلومة على الطريق، وليس فيها سلطان، فنزلت: ﴿ليس عليكم﴾ الآية .

(٢) أخرجه مسلم ورواه أبو داود والترمذي والنسائي أيضاً .

(٣) أخرجه أبو داود والترمذي .

(٤) أخرجه الطبراني عن ابن مسعود مرفوعاً .

(٥) أخرجه أحمد وأصحاب السنن .

وما تخفي الصلور ﴿٣٠﴾. وفي الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال، قال رسول الله ﷺ: « كتب على ابن آدم حظه من الزنا أدرك ذلك لا محالة، فزنا العينين النظر، وزنا اللسان النطق، وزنا الأذنين الاستماع، وزنا اليدين البطش، وزنا الرجلين الخطى، والنفس تمتى وتشتهي، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه»، وقد قال كثير من السلف: إنهم كانوا يهون أن يحد الرجل نظره إلى الأمد، وقد شدد كثير من أئمة الصوفية في ذلك، وحرمه طائفة من أهل العلم، لما فيه من الافتتان، وشدد آخرون في ذلك كثيراً جداً. وفي الحديث: « كل عين باكية يوم القيامة إلا عيناً غضت عن محارم الله، وعيناً سهرت في سبيل الله، وعيناً يخرج منها مثل رأس الذباب من خشية الله » عز وجل ﴿٣١﴾.

* وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءَ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءَ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَاءِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهُ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾

هذا أمر من الله تعالى للنساء المؤمنات وغيره منه لأزواجهن المؤمنين، وتميزهن عن صفة نساء الجاهلية وفعال المشركات؛ وكان سبب نزول هذه الآية ما ذكره (مقاتل بن حيان) قال: بلغنا أن أسماء بنت مرثد كانت في محل لها في بني حارثة، فجعل النساء يدخلن عليها غير متررات، فيبدو ما في أرجلهن من الخلاخل، وتبدو صلورهن وذوائبهن، فقالت أسماء: ما أقبح هذا، فأنزل الله تعالى: ﴿وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن﴾ الآية، فقوله تعالى: ﴿وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن﴾ أي عما حرم الله عليهن من النظر إلى غير أزواجهن؛ ولهذا ذهب كثير من العلماء إلى أنه لا يجوز للمرأة النظر إلى الرجال الأجانب بشهوة ولا بغير شهوة أصلاً، واحتج كثير منهم بما روي عن أم سلمة أنها كانت عند رسول الله ﷺ وميمونة، قالت: فبينما نحن عنده أقبل ابن أم مكتوم فدخل عليه وذلك بعدما أمرنا بالحجاب، فقال رسول الله ﷺ: «احتجبا منه» فقلت: يا رسول الله أليس هو أعمى لا يبصرنا ولا يعرفنا؟ فقال رسول الله ﷺ: «أو عمياوان أتما؟ ألسما تبصرانه» ﴿٣١﴾. وذهب آخرون من العلماء إلى جواز نظرهن إلى الأجانب بغير شهوة، كما ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ جعل ينظر إلى الحبشة وهم يلعبون بحراهم يوم العيد في المسجد، وعائشة أم المؤمنين تنظر إليهم من ورائه وهو يسترها منهم حتى ملكت ورجعت، وقوله: ﴿ويحفظن فروجهن﴾ قال سعيد بن جبير: عن الفواحش؛ وقال قتادة: عما لا يحل لهن؛ وقال مقاتل: عن الزنا؛ وقال أبو العالية: كل آية نزلت في القرآن يذكر فيها حفظ الفروج فهو من الزنا،

(١) أخرجه ابن الدنيا عن أبي هريرة مرفوعاً.

(٢) أخرجه أبو داود والترمذي وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

إلا هذه الآية: ﴿ ويحفظن فروجهن ﴾ أن لا يراها أحد، وقوله تعالى: ﴿ ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها ﴾ أي لا يظهرن شيئاً من الزينة للأجانب إلا ما لا يمكن إخفاؤه، قال ابن مسعود: كالرداء والثياب، يعني على ما كان يتعاطاه نساء العرب من المقنعة التي تجلل ثيابها وما يبدو من أسافل الثياب، فلا حرج عليها فيه، لأن هذا لا يمكنها إخفاؤه، وقال ابن عباس: وجهها وكفيها والخاتم، وهذا يحتمل أن يكون تفسيراً للزينة التي نهين عن إبدائها، كما قال عبد الله بن مسعود: الزينة زينتان، فزينة لا يراها إلا الزوج: الخاتم والسوار، وزينة يراها الأجانب، وهي الظاهر من الثياب، وقال مالك: ﴿ إلا ما ظهر منها ﴾: الخاتم والخلخال، ويحتمل أن ابن عباس ومن تابعه أرادوا تفسير ما ظهر منها بالوجه والكفين، وهذا هو المشهور، ويستأنس له بالحديث الذي رواه أبو داود عن عائشة رضي الله عنها أن (أسماء بنت أبي بكر) دخلت على النبي ﷺ وعليها ثياب رقاق، فأعرض عنها وقال: « يا أسماء إن المرأة إذا بلغت المحيض لم يصلح أن يرى منها إلا هذا، وأشار إلى وجهه وكفيه »^(١).

وقوله تعالى: ﴿ وليضربن بخمرهن على جيوبهن ﴾ يعني المقانع يعمل لها صفات ضاربات على صدورهن لتواري ما تحتها من صدرها وتراثبها، ليخالفن شعار نساء أهل الجاهلية، فإنهن لم يكن يفعلن ذلك، بل كانت المرأة منهن تمر بين الرجال مسفحة بصدرها لا يواريه شيء وربما أظهرت عنقها وذوائب شعرها وأقرطة آذانها، فأمر الله المؤمنات أن يستترن في هياتهن وأحوالهن، كما قال تعالى: ﴿ يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين ﴾، وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿ وليضربن بخمرهن على جيوبهن ﴾ والخمر جمع خمار: وهو ما يخمر به أي يغطي به الرأس، وهي التي تسميها الناس المقانع، قال سعيد بن جبير: ﴿ وليضربن ﴾ وليشددن ﴿ بخمرهن على جيوبهن ﴾ يعني على النحر والصدر فلا يرى منه شيء، وروى البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت: يرحم الله نساء المهاجرات الأول لما أنزل الله ﴿ وليضربن بخمرهن على جيوبهن ﴾ شققن مروطن فاختمرن بها. وروى ابن أبي حاتم عن صفية بنت شيبة قالت: بينا نحن عند عائشة قالت: فذكرنا نساء قريش وفضلهن، فقالت عائشة رضي الله عنها: إن لنساء قريش لفضلاً وإني والله ما رأيت أفضل من نساء الأنصار أشد تصديقاً لكتاب الله ولا إيماناً بال تنزيل، لقد أنزلت سورة النور: ﴿ وليضربن بخمرهن على جيوبهن ﴾ انقلب رجالهن إليهن يتلون عليهن ما أنزل الله إليهم فيها، ويتلو الرجل على امرأته وابنته وأخته وعلى كل ذي قرابته، فما منهن امرأة إلا قامت إلى مرطها المرحل، فاعتجرت به تصديقاً وإيماناً بما أنزل الله من كتابه، فأصبحن وراء رسول الله ﷺ معتجرات كأن على رؤوسهن الغربان^(٢). وقال ابن جرير عن عائشة قالت: يرحم الله النساء المهاجرات الأول، لما أنزل الله: ﴿ وليضربن بخمرهن على جيوبهن ﴾ شققن أكتف مروطن فاختمرن بها، وقوله تعالى: ﴿ ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن ﴾ أي أزواجهن ﴿ أو آبائهن أو أبناء بعولتهن أو أبناءهن أو إخوانهن أو بني إخوانهن أو بني أخواتهن ﴾ كل هؤلاء محارم للمرأة يجوز لها أن تظهر عليهم بزيتها، ولكن من غير تبرج. فأما الزوج فإما ذلك كله من أجله، فتتصنع له بما لا يكون بحضرة غيره، وقوله: ﴿ أو نسائهن ﴾ يعني تظهر بزيتها أيضاً للنساء المسلمات، دون نساء أهل الذمة، لثلاث تصفهن لرجالهن، فإنهن لا يمنعهن من ذلك مانع؛ فأما

(١) رواه أبو داود وهو حديث مرسل لأن خالد بن دريك لم يسمع من عائشة.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم وأبو داود.

المسلمة فإنها تعلم أن ذلك حرام فترجر عنه، وقد قال رسول الله ﷺ: « لا تبأشر المرأة المرأة تنعتهأ لزوجهأ كآنه ينظر إليها»^(١).

وروي أن عمر بن الخطاب كتب إلى أبي عبيدة: أما بعد، فإنه بلغني أن نساء من نساء المسلمين يدخلن الحمامات مع نساء أهل الشرك، فانه من قبلك فلا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن ينظر إلى عورتها إلا أهل ملتها، وقال مجاهد في قوله: ﴿أو نسائهن﴾ قال: نساؤهن المسلمات، ليس المشركات من نسائهن، وليس للمرأة المسلمة أن تنكشف بين يدي مشركة، وروي عن ابن عباس ﴿أو نسائهن﴾ قال: هن المسلمات لا تبديه ليهودية ولا نصرانية، وهو النحر والقرط والوشاح وما لا يحل أن يراه إلا محرم، وروي سعيد عن مجاهد قال: لا تضع المسلمة خمارها عند مشركة لأن الله تعالى يقول: ﴿أو نسائهن﴾ فليست من نسائهن، وعن مكحول وعبادة ابن نسي: أنهما كرها أن تقبل النصرانية واليهودية والمجوسية المسلمة. وقوله تعالى: ﴿أو ما ملكت أيمانهن﴾ قال ابن جرير: يعني من نساء المشركين، فيجوز لها أن تظهر زينتها لها وإن كانت مشركة لأنها أمتها؛ وإليه ذهب سعيد بن المسيب. وقال الأكرثون: بل يجوز أن تظهر على رقيقها من الرجال والنساء، واستدلوا بالحديث الذي رواه أبو داود عن أنس أن النبي ﷺ أتى فاطمة بعبد قد وهبه لها، قال: وعلى فاطمة ثوب إذا قنعت به رأسها لم يبلغ رجلها، وإذا غطت به رجلها لم يبلغ رأسها، فلما رأى النبي ﷺ ما تلقى قال: «إنه ليس عليك بأس إنما هو أبوك وغلأمك». وروي الإمام أحمد عن أم سلمة ذكرت أن رسول الله ﷺ قال: «إذا كان لإحدآكن مكاتب وكان له ما يؤدي فلتحتجب منه»، وقوله تعالى: ﴿أو التابعين غير أولي الإربة من الرجال﴾ يعني كالأجراء والأتباع الذين ليسوا بكفاء، وهم مع ذلك في عقولهم وله ولا همة لهم إلى النساء ولا يشتهونهن، قال ابن عباس: هو المغفل الذي لا شهوة له. وقال مجاهد: هو الأبله، وقال عكرمة: هو المخنث الذي لا يقوم ذكره، وكذلك قال غير واحد من السلف، وفي الصحيح عن عائشة أن مخنثاً كان يدخل على أهل رسول الله ﷺ، وكانوا يعلنونه من غير أولي الأربة، فدخل النبي ﷺ وهو ينعت امرأة يقول: إنها إذا أقبلت أقبلت بأربع، وإذا أدبرت أدبرت بثان، فقال رسول الله ﷺ: «ألا أرى هذا يعلم ما ههنا لا يدخلن عليكم» فأخرجه، وروي الإمام أحمد عن أم سلمة أنها قالت: دخل عليها رسول الله ﷺ، وعندها مخنث، وعندها (عبد الله بن أبي أمية) يعني أخاها والمخنث يقول: يا عبد الله إن فتح الله عليكم الطائف غداً فعليك بابنة غيلان، فإنها تقبل بأربع وتدبر بثمان، قال: فسمعه رسول الله ﷺ، فقال لأم سلمة: «لا يدخلن هذا عليك»^(٢).

وقوله تعالى: ﴿أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء﴾ يعني لصغرهم لا يفهمون أحوال النساء وعوراتهن من كلامهن الرخيم، وتعطفهن في المشية وحركاتهن وسكناتهن، فإذا كان الطفل صغيراً لا يفهم ذلك فلا بأس بدخوله على النساء، فأما إن كان مراهقاً أو قريباً منه بحيث يعرف ذلك ويدريه ويفرق بين الشوهاء والحسنة، فلا يمكن من الدخول على النساء، وقد ثبت في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إياكم والدخول على

(١) أخرجاه في الصحيحين عن ابن مسعود مرفوعاً.

(٢) وأخرجاه في الصحيحين من حديث هشام بن عروة.

النساء» قيل: يا رسول الله أفرايت الحمو؟ قال: «الحمو الموت». وقوله تعالى: ﴿ولا يضرين بأرجلهن﴾ الآية، كانت المرأة في الجاهلية إذا كانت تمشي في الطريق وفي رجلها خلخال صامت لا يعلم صوتها ضربت برجلها الأرض، فيسمع الرجال طنينه، فهي الله المؤمنات عن مثل ذلك، وكذلك إذا كان شيء من زينتها مستوراً فتحركت بحركة لتظهر ما هو خفي دخل في هذا النهي، لقوله تعالى: ﴿ولا يضرين بأرجلهن﴾ إلى آخره، ومن ذلك أنها تهى عن التعطر والتطيب عند خروجها من بيتها، فيشم الرجال طيبها، فقد قال النبي ﷺ: «كل عين زانية، والمرأة إذا استعطرت فمرت بالمجلس فهي كذا وكذا» يعني زانية^(١). وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه لقي امرأة شم منها ريح الطيب ولذيلها إصصار، فقال: يا أمة الجبار جئت من المسجد؟ قالت: نعم، قال لها: تطيبت؟ قالت: نعم، قال: إني سمعت حبي أبا القاسم ﷺ يقول: «لا يقبل الله صلاة امرأة طيبت لهذا المسجد حتى ترجع فتغسل غسلها من الجنابة»^(٢)، وفي الحديث: «الرافلة في الزينة في غير أهلها كمثل ظلمة يوم القيامة لا نور لها»^(٣)، ومن ذلك أيضاً أنهم ينهين عن المشي في وسط الطريق لما فيه من التبرج، فقد روى عن حمزة بن أبي أسيد الأنصاري عن أبيه أنه سمع النبي ﷺ وهو خارج من المسجد، وقد اختلط الرجال مع النساء في الطريق، فقال رسول الله ﷺ للنساء: «استأخرن فإنه ليس لكن أن تحتضن الطريق، عليكم بحافات الطريق»، فكانت المرأة تلصق بالجدار حتى إن ثوبها ليتعلق بالجدار من لصوقها به^(٤)، وقوله تعالى: ﴿وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون﴾ أي افعلوا ما أمركم به من هذه الصفات الجميلة والأخلاق الجليلة، واتركوا ما كان عليه أهل الجاهلية من الأخلاق والصفات الرذيلة، فإن الفلاح كل الفلاح في فعل ما أمر الله به ورسوله، وترك ما نهى عنه والله تعالى المستعان.

وَأَنْكِحُوا الْأَيْمَىٰ مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ ۖ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾ وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ۗ وَالَّذِينَ يَدْتَنُونَ الْأَكْتَبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۚ وَءَاتُوهُمْ مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي ءَاتَاكُمْ وَلَا تُكْرَهُوا فَتَيَّنِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ ۖ إِنْ أُرِدْنَ مُحْصَنًا لَّنَبْتُغُوا عَرَضَ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهِنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِن بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبِينَاتٍ وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾ *

اشتملت هذه الآيات الكريمات، على جمل من الأحكام المحكمة، فقوله تعالى: ﴿وأنكحوا الأيما منكم﴾ أمر بالترويح، وقد ذهب طائفة من العلماء إلى وجوبه على كل من قدر عليه، واحتجوا بظاهر قوله عليه السلام: «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم

(١) أخرجه الترمذي وقال: حسن صحيح، ورواه أيضاً أبو داود والنسائي.

(٢) أخرجه أبو داود وابن ماجه.

(٣) أخرجه الترمذي عن ميمونة بنت سعد مرفوعاً.

(٤) أخرجه الترمذي في السنن.

فإنه له وجاء»^(١) ، وقد جاء في السنن: « تزوجوا الولود، تناسلوا فإني مباه بكم الأمم يوم القيامة »، الأيامى جمع أيم، ويقال ذلك للمرأة التي لا زوج لها، وللرجل الذي لا زوجة له، يقال: رجل أيم وأمراة أيم، وقوله تعالى: ﴿إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يَغْنَمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ الآية، قال ابن عباس: رغبتهم الله في التزويج وأمر به الأحرار والعبيد، ووعدهم عليه الغنى، فقال: ﴿إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يَغْنَمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾، وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: أطيعوا الله فيما أمركم به من النكاح، ينجز لكم ما وعدكم من الغنى، قال تعالى: ﴿إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يَغْنَمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾، وعن ابن مسعود: التمسوا الغنى في النكاح، يقول الله تعالى: ﴿إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يَغْنَمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: « ثلاثة حق على الله عونهم: الناكح يريد العفاف، والمكاتب يريد الأداء، والغازي في سبيل الله »^(٢)، وقد زوج النبي ﷺ ذلك الرجل الذي لا يجد عليه إلا إزاره ولم يقدر على خاتم من حديد، ومع هذا فزوجته بتلك المرأة، وجعل صداقها عليه أن يعلمها ما معه من القرآن، والمعهود من كرم الله تعالى ولطفه أن يرزقه ما فيه كفاية لها وله، وقوله تعالى: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يَغْنَمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ هذا أمر من الله تعالى لمن لا يجد تزويجاً بالتعفف عن الحرام، كما قال ﷺ: « ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء » وهذه الآية مطلقة والتي في سورة النساء أخص منها وهي قوله: ﴿ومن لم يستطع منكم طويلاً أن ينكح المحصنات﴾، إلى قوله: ﴿وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرَ لَكُمْ﴾ أي صبركم عن تزوج الإماء خير لكم لأن الولد يجيء رقيقاً ﴿والله غفور رحيم﴾، قال عكرمة في قوله: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا﴾ قال: هو الرجل يرى المرأة فكأنه يشتهي، فإن كانت له امرأة فليذهب إليها وليقض حاجته منها، وإن لم يكن له امرأة فلينظر في ملكوت السماوات والأرض حتى يغنيه الله .

وقوله تعالى: ﴿والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيراً﴾^(٣) هذا أمر من الله تعالى للسادة إذا طلب عبيدهم منهم الكتابة أن يكاتبوهم، بشرط أن يكون للعبد حيلة وكسب، يؤدي إلى سيده المال الذي شارطه على أدائه، وقد ذهب كثير من العلماء إلى أن هذا الأمر أمر إرشاد واستحباب، لا أمر تحتم وإيجاب، قال الشعبي: إن شاء كاتبه وإن شاء لم يكاتبه^(٤)، وذهب آخرون إلى أنه يجب على السيد إذا طلب منه عبده ذلك أن يجيبه إلى ما طلب أخذاً بظاهر هذا الأمر، وقال البخاري عن ابن جريج قلت لعطاء: أوجب علي إذا علمت له مالاً أن أكاتبه؟ قال: ما أراه إلا واجباً، وقال عمرو بن دينار، قلت لعطاء: أتأثره عن أحد؟ قال: لا، ثم أخبرني أن سيرين سأل أنساً المكاتب، وكان كثير المال، فأبى، فانطلق إلى عمر رضي الله عنه، فقال: كاتبه، فأبى، فضربه بالدرة وبتلو عمر رضي الله عنه: ﴿فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيراً﴾ فكاتبه^(٥)،

(١) أخرجه في الصحيحين من حديث ابن مسعود .

(٢) رواه أحمد والترمذي والنسائي .

(٣) في اللباب: أخرجه ابن السكن: عن عبد الله بن صبيح عن أبيه قال: كنت مملوكاً لحويطب بن عبد العزى فسألته الكتابة، فنزلت ﴿والذين يبتغون...﴾ الآية .

(٤) وكذا قال عطاء ومقاتل والحسن البصري .

(٥) ذكره البخاري معلقاً .

وذهب الشافعي في الجديد إلى أنه لا يجب لقوله عليه السلام: « لا يحل مال امرئ مسلم إلا بطيب نفس »، وقال مالك: الأمر عندنا أنه ليس على سيد العبد أن يكتابه إذا سأله ذلك، ولم أسمع أحداً من الأئمة أكره أحداً على أن يكتاب عبده، وكذا قال الثوري وأبو حنيفة، وقوله تعالى: ﴿ إن علمتم فيهم خيراً ﴾ قال بعضهم: أمانة، وقال بعضهم: صدقا، وقال بعضهم: مالا، وقال بعضهم: حيلة وكسباً، وقوله تعالى: ﴿ وآتوهم من مال الله الذي آتاكم ﴾ اختلف المفسرون فيه، فقال بعضهم: معناه اطرحوا لهم من الكتابة بعضها، وقال آخرون: بل المراد هو النصيب الذي فرض الله لهم من أموال الزكاة^(١)، وقال ابن عباس: أمر الله المؤمنين أن يعينوا في الرقاب، وقد تقدم الحديث: « ثلاثة حق على الله عونهم » فذكر منهم المكاتب يريد الأداة، والقول الأول أشهر. وعن ابن عباس في الآية ﴿ وآتوهم من مال الله الذي آتاكم ﴾ قال: ضعوا عنهم من مكاتبتهم، وقال محمد بن سيرين في الآية: كان يعجبهم أن يدع الرجل لمكاتبه طائفة من مكاتبته، وقوله تعالى: ﴿ ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء ﴾ الآية، كان أهل الجاهلية إذا كان لأحدهم أمة أرسلها تزني وجعل عليها ضريبة يأخذها منها كل وقت، فلما جاء الإسلام نهى الله المؤمنين عن ذلك، وكان سبب نزول هذه الآية الكريمة في شأن (عبد الله بن أبي بن سلول) فإنه كان له إماء فكان يكرههن على البغاء طلباً لخراجهن، ورغبة في أولادهن، ورياسة منه فيما يزعم.

(ذكر الآثار الواردة في ذلك)

قال الحافظ البزار في مسنده: كانت جارية لعبد الله بن أبي بن سلول يقال لها (معاذة) يكرهها على الزنا فلما جاء الإسلام نزلت: ﴿ ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء ﴾ الآية، وقال الأعمش: نزلت في أمة لعبد الله بن أبي بن سلول يقال لها (مسيكة) كان يكرهها على الفجور وكانت لا بأس بها فتأبى، فأنزل الله هذه الآية: ﴿ ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء ﴾ الآية، وروى النسائي عن جابر نحوه. وعن الزهري أن رجلاً من قريش أسر يوم بدر، وكان عند (عبد الله بن أبي) أسيراً وكانت لعبد الله بن أبي جارية يقال لها (معاذة) وكان القرشي الأسير يريد بها على نفسها، وكانت مسلمة، وكانت تمتنع منه لإسلامها، وكان عبد الله بن أبي يكرهها على ذلك ويضربها رجاء أن تحمل من القرشي فيطلب فداء ولده، فقال تبارك وتعالى: ﴿ ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصناً ﴾، وقال السدي: أنزلت هذه الآية الكريمة في (عبد الله بن أبي بن سلول) رأس المنافقين، وكانت له جارية تدعى (معاذة) وكان إذا نزل به ضيف أرسلها إليه ليوافعها إرادة الثواب منه والكرامة له، فأقبلت الجارية إلى أبي بكر رضي الله عنه فشكت إليه ذلك، فذكره أبو بكر للنبي ﷺ، فأمره بقبضها، فصاح عبد الله بن أبي من يعذرننا من محمد يغلبنا على مملوكتنا فأنزل الله فيهم هذا، وقوله تعالى: ﴿ إن أردن تحصناً ﴾ هذا خرج مخرج الغالب فلا مفهوم له، وقوله تعالى: ﴿ لتبتغوا عرض الحياة الدنيا ﴾ أي من خراجهن ومهورهن وأولادهن، وقد نهي رسول الله ﷺ عن كسب الحجام، ومهر البغي، وحلوان الكاهن، وفي رواية: « مهر البغي خبيث وكسب الحجام خبيث، وثمن الكلب خبيث »، وقوله تعالى: ﴿ ومن يكرههن فإن الله من بعد إكراههن

(١) وهذا قول الحسن ومقاتل وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم واختاره ابن جرير .

غفور رحيم ﴿ أي لمن ، كما تقدم في الحديث عن جابر . وقال ابن عباس : فإن فعلتم فإن الله لمن غفور رحيم ، وإثمهم على من أكرههم ؛ وقال أبو عبيد عن الحسن في هذه الآية ﴿ فإن الله من بعد إكراههم غفور رحيم ﴾ قال : لمن والله ، لمن والله ، وفي الحديث المرفوع عن رسول الله ﷺ أنه قال : « رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه » . ولما فصل تبارك وتعالى هذه الأحكام وبينها قال تعالى : ﴿ ولقد أنزلنا إليكم آيات مبينات ﴾ يعني القرآن فيه آيات واضحة مفسرات ﴿ ومثلاً من الذين خلوا من قبلكم ﴾ أي خبراً عن الأمم الماضية وما حل بهم في مخالفتهم أوامر الله تعالى كما قال تعالى : ﴿ فجعلناهم سلفاً ومثلاً للآخرين ﴾ أي زاجراً عن ارتكاب المآثم والمحارم ﴿ وموعظة للمتقين ﴾ أي لمن اتقى الله وخافه ، قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه في صفة القرآن : فيه حكم ما بينكم ، وخبر ما قبلكم ، ونبا ما بعدكم ، وهو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى من غيره أضله الله .

ع
 اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبْرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَلَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾

قال ابن عباس ﴿ الله نور السموات والأرض ﴾ يقول : هادي أهل السماوات والأرض ، يدبر الأمر فيهما نجومهما وشمسهما وقمرهما . وقال ابن جرير عن أنس بن مالك قال : إن الله يقول نوري هدى ، واختار هذا القول ابن جرير ، وقال أبي بن كعب : هو المؤمن الذي جعل الله الإيمان والقرآن في صدره فضرب الله مثله فقال : ﴿ الله نور السموات والأرض ﴾ فبدأ بنور نفسه ، ثم ذكر نور المؤمن ، فقال : مثل نور من آمن به ، فهو المؤمن جعل الإيمان والقرآن في صدره ، وعن ابن عباس أنه قرأها ﴿ مثل نور من آمن بالله ﴾ وقرأ بعضهم ﴿ الله منور السموات والأرض ﴾ وقال السدي في قوله ﴿ الله نور السموات والأرض ﴾ فبنوره أضاءت السماوات والأرض ، وفي الحديث : « أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات »^(١) . وفي الصحيحين عن ابن عباس رضي الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ إذا قام من الليل يقول : « اللهم لك الحمد ، أنت نور السماوات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد أنت قيوم السماوات والأرض ومن فيهن » الحديث . وعن ابن مسعود قال : إن ربكم ليس عنده ليل ولا نهار ، نور العرش من نور وجهه ، وقوله تعالى ﴿ مثل نوره ﴾ في هذا الضمير قولان : (أحدهما) أنه عائد إلى الله عز وجل أي مثل هداه في قلب المؤمن ، قاله ابن عباس ﴿ كمشكاة ﴾ . (والثاني) : أن الضمير عائد إلى المؤمن الذي دل عليه سياق الكلام ، تقديره : مثل نور المؤمن الذي في قلبه كمشكاة ، فشبّه قلب المؤمن وما هو مفطور عليه من الهدى وما يتلقاه من القرآن المطابق لما هو مفطور عليه ، كما قال تعالى : ﴿ أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه ﴾ فشبّه قلب المؤمن في صفاته في نفسه بالقمنديل من الزجاج الشفاف الجوهري ، وما يستهديه من القرآن والشرع بالزيت الجيد الصافي المشرق المعتدل الذي لا كدر فيه ولا انحراف ؛ فقوله ﴿ كمشكاة ﴾ قال ابن عباس

(١) ذكره ابن إسحاق في السيرة من دعائه ﷺ يوم آذاه أهل الطائف .

ومجاهد: هو موضع الفتيلة من القنديل، هذا هو المشهور؛ ولهذا قال بعده ﴿فيها مصباح﴾ وهو الزبالة^(١) التي تضيء وقال مجاهد: هي الكوة بلغة الحبشة، وزاد بعضهم فقال: المشكاة الكوة التي لا منفذ لها، وعن مجاهد: المشكاة الحداث التي يعلق بها القنديل؛ والقول الأول أولى، وهو أن المشكاة هو موضع الفتيلة من القنديل؛ ولهذا قال: ﴿فيها مصباح﴾ وهو النور الذي في الزبالة، قال أبي بن كعب: المصباح النور وهو القرآن والإيمان الذي في صدره، وقال السدي هو السراج ﴿المصباح في زجاجة﴾ أي هذا الضوء مشرق في زجاجة صافية، وهي نظير قلب المؤمن ﴿الزجاجة كأنها كوكب دري﴾ أي كأنها كوكب من در، قال أبي بن كعب: كوكب مضيء، وقال قتادة: مضيء مبين ضخم ﴿يوقد من شجرة مباركة﴾ أي يستمد من زيت زيتون شجرة مباركة ﴿زيتونة﴾ بدل أو عطف بيان ﴿لا شرقية ولا غربية﴾ أي ليست في شرقي بقعتها فلا تصل إليها الشمس من أول النهار، ولا في غربيها فيقلص عنها النور قبل الغروب، بل هي في مكان وسط تعصرها الشمس من أول النهار إلى آخره، فيجيء زيتها صافياً معتدلاً مشرقاً، عن ابن عباس في قوله ﴿زيتونة لا شرقية ولا غربية﴾ قال: هي شجرة بالصحراء لا يظلمها شجر ولا جبل ولا كهف، ولا يوارئها شيء، وهو أجود لزيتها، وقال عكرمة: تلك زيتونة بأرض فلاة إذا أشرقت الشمس أشرقت عليها، فإذا غربت غربت عليها فذلك أصفى ما يكون من الزيت، وعن سعيد بن جبير في قوله ﴿زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء﴾ قال: هو أجود الزيت، قال إذا طلعت الشمس أصابتها من صوب المشرق، فإذا أخذت في الغروب أصابتها الشمس، فالشمس تصيبها بالغداء والعشي فتلك لا تعد شرقية ولا غربية .

وقال الحسن البصري: لو كانت هذه الشجرة في الأرض لكانت شرقية أو غربية، ولكنه مثل ضربه الله تعالى لنوره، وقال الضحاك عن ابن عباس ﴿توقد من شجرة مباركة﴾ قال: رجل صالح ﴿زيتونة لا شرقية ولا غربية﴾ قال: لا يهودي ولا نصراني، وأولى هذه الأقوال: أنها في مستوى من الأرض في مكان فسيح باد ظاهر ضاح للشمس، تفرعه من أول النهار إلى آخره، ليكون ذلك أصفى لزيتها وألطف، ولهذا قال تعالى: ﴿يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار﴾ يعني لضوء إشراق الزيت، وقوله تعالى: ﴿نور على نور﴾ قال ابن عباس: يعني بذلك إيمان العبد وعمله، وقال أبي بن كعب ﴿نور على نور﴾ المؤمن يتقلب في خمسة من النور، فكلامه نور، وعمله نور، ومدخله نور، ومخرجه نور، ومصيره إلى نور يوم القيامة إلى الجنة. وقال شمر بن عطية: جاء ابن عباس إلى كعب الأحبار فقال: حدثني عن قول الله تعالى ﴿يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار﴾ قال: يكاد محمد ﷺ يبين للناس ولو لم يتكلم أنه نبي، كما يكاد ذلك الزيت أن يضيء، وقال السدي في قوله تعالى ﴿نور على نور﴾ قال: نور النار ونور الزيت حين اجتماعاً أضاء ولا يضيء واحد بغير صاحبه، كذلك نور القرآن ونور الإيمان حين اجتماعاً فلا يكون واحد منهما إلا بصاحبه، وقوله تعالى: ﴿يهدى الله لنوره من يشاء﴾ أي يرشد الله إلى هدايته من يختاره، كما جاء في الحديث: «إن الله تعالى خلق خلقه في ظلمة ثم ألقى عليهم من نوره يومئذ، فمن أصاب من نوره يومئذ اهتدى ومن أخطأ ضل، فلذلك أقول: جفَّ القلم على علم الله عزَّ وجلَّ^(٢)». وقوله

(١) الزبالة: يقال للفتيلة التي يُصَبَّحُ بها السراج زبالة وزبالة، وجمعها زبال وزبَّال .

(٢) أخرجه الإمام أحمد والبخاري عن عبد الله بن عمرو بن العاص .

تعالى: ﴿ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ لما ذكر تعالى هذا مثلاً لنور هداه في قلب المؤمن ختم الآية بقوله: ﴿ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ أي هو أعلم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الإضلال، عن أبي سعيد الخدري قال، قال رسول الله ﷺ: «القلوب أربعة: قلب أجرد فيه مثل السراج يزهر، وقلب أغلف مربوط على غلافه، وقلب منكوس، وقلب مصفح. فأما القلب الأجرد فقلب المؤمن سراج فيه نوره، وأما القلب الأغلف فقلب الكافر، وأما القلب المنكوس فقلب المنافق عرف ثم أنكر، وأما القلب المصفح فقلب فيه إيمان ونفاق، ومثل الإيمان فيه كمثل البقلة يمدّها الماء الطيب، ومثل النفاق فيه كمثل القرحة يمدّها الدم والقيح، فأَيُّ المديتين غلبت على الأخرى غلبت عليه»^(١).

فِي بُيُوتٍ أُذِنَ لِلَّهِ أَنْ تَرْفَعَ وَيُذَكَّرَ فِيهَا أَسْمُهُ يُسَبَّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيََهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ ۗ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾

لما ضرب الله تعالى مثل قلب المؤمن وما فيه من الهدى والعلم، بالمصباح في الزجاج الصافية المتوقد من زيت طيب وذلك كالقنديل مثلاً، ذكر محلها وهي المساجد التي هي أحب البقاع إلى الله تعالى من الأرض، وهي بيوت التي يعبد فيها ويوحد، فقال تعالى: ﴿ فِي بُيُوتٍ أُذِنَ لِلَّهِ أَنْ تَرْفَعَ ﴾ أي أمر الله تعالى بتعاهدتها وتطهيرها من الدنس واللغو، والأقوال والأفعال التي لا تليق فيها، كما قال ابن عباس: نهى الله سبحانه عن اللغو فيها، وقال قتادة: هي هذه المساجد أمر الله سبحانه وتعالى ببنائها وعمارتها ورفعها وتطهيرها، وقد ذكر لنا أن كعباً كان يقول: مكبوب في التوراة إن بيوتي في الأرض المساجد، وإنه من توضع فأحسن وضوءه، ثم زارني في بيتي أكرمه، وحق على المزور كرامة الزائر^(٢). وقد وردت أحاديث كثيرة في بناء المساجد واحترامها وتوقيرها وتطهيرها وتبخيرها، فعن أمير المؤمنين (عثمان بن عفان) رضي الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من بنى مسجداً يتبغى به وجه الله بنى الله له مثله في الجنة»^(٣)، وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «من بنى مسجداً يذكر فيه اسم الله بنى الله له بيتاً في الجنة»^(٤)، وعن عائشة رضي الله عنها: أمرنا رسول الله ﷺ ببناء المساجد في الدور، وأن تنظف وتطيب^(٥). وعن أنس رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى يتباهى الناس في المساجد». وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إذا رأيتم من يبيع أو يبتاع في المسجد فقولوا: لا أربح الله تجارتك؛ وإذا رأيتم من ينشد ضالة في المسجد فقولوا: لا ردّها الله عليك».

(١) أخرجه أحمد قال ابن كثير: إسناده جيد ولم يخرجوه.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم.

(٣) أخرجه في الصحيحين.

(٤) رواه أحمد وأصحاب السنن إلا النسائي.

(٥) رواه ابن ماجه.

وقد روى ابن ماجه وغيره من حديث ابن عمر مرفوعاً قال: خصال لا تنبغي في المسجد: لا يتخذ طريقاً، ولا يشهر فيه سلاح، ولا ينبض فيه بقوس، ولا يثر فيه نبل، ولا يمر فيه بلحم فيء، ولا يضرب فيه حد، ولا يقتص فيه أحد، ولا يتخذ سوقاً. وعن وائلة بن الأسقع عن رسول الله ﷺ: «جنبوا المساجد صبيانكم ومجانينكم وشراءكم وبيعكم، وخصوماتكم، ورفع أصواتكم، وإقامة حدودكم وسل سيوفكم، واتخذوا على أبوابها المطاهر، وجمروها في الجمع»^(١). أما أنه لا يتخذ طريقاً فقد كره بعض العلماء المرور فيه إلا لحاجة إذا وجد مندوحة عنه؛ وفي الأثر: إن الملائكة لتتعجب من الرجل يمر بالمسجد لا يصلي فيه؛ وأما أنه لا يشهر فيه السلاح ولا ينبض فيه بقوس ولا يثر فيه نبل، فلما يخشى من إصابة بعض الناس به، وأما النهي عن المرور باللحم التيء فيه فلما يخشى من تقاطر الدم منه، وأما أنه لا يضرب فيه حد ولا يقتص منه فلما يخشى من إيجاد النجاسة فيه من المضروب أو المقطوع؛ وأما أنه لا يتخذ سوقاً فلما تقدم من النهي عن البيع والشراء فيه، فإنه إنما بني لذكر الله والصلاة فيه، كما قال النبي ﷺ لذلك الأعرابي الذي بال في طائفة المسجد: «إن المساجد لم تبن لهذا إنما بنيت لذكر الله والصلاة فيها»، وفي الحديث الثاني: «جنبوا مساجدكم صبيانكم» وذلك لأنهم يلعبون فيه ولا يناسبهم؛ وقد كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذا رأى صبيانا يلعبون في المسجد ضربهم بالمخفقة وهي الدرة، وكان يفتش المسجد بعد العشاء فلا يترك فيه أحداً، «ومجانينكم» يعني لأجل ضعف عقولهم، وسخر الناس بهم، فيؤدي إلى اللعب فيها ولما يخشى من تقديرهم المسجد ونحو ذلك «وبيعكم وشراءكم» كما تقدم، «وخصوماتكم» يعني التحاكم والحكم فيه؛ ولهذا نص كثير من العلماء على أن الحاكم لا ينتصب لفصل الأفضية في المسجد، بل يكون في موضع غيره لما فيه من كثرة الحكومات والتشاجر والألفاظ التي لا تناسبه؛ ولهذا قال بعده: «ورفع أصواتكم».

وروى البخاري عن السائب بن يزيد الكندي قال: كنت قائماً في المسجد فحصبني رجل، فنظرت فإذا عمر ابن الخطاب فقال: اذهب فائتني بهذين، فجنته بهما فقال: من أتما؟ أو من أين أتما؟ قال: من أهل الطائف، قال: لو كتتما من أهل البلد لأوجعتكما، ترفعان أصواتكما في مسجد رسول الله ﷺ، وقال النسائي: سمع عمر صوت رجل في المسجد فقال: أتدري أين أنت؟ وقوله: «واتخذوا على أبوابها المطاهر» يعني المراحيض التي يستعان بها على الوضوء وقضاء الحاجة، وقد كانت قريباً من مسجد رسول الله ﷺ آبار يستقون منها فيشربون ويتطهرون ويتوضؤون وغير ذلك، وقوله: «وجمروها في الجمع» يعني بخروها في أيام الجمع لكثرة اجتماع الناس يومئذ، وقد روى الحافظ أبو يعلى الموصلي عن ابن عمر: أن عمر كان يحمر مسجد رسول الله ﷺ كل جمعة، وقد ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «صلاة الرجل في الجماعة تضعف على صلواته في بيته وفي سوقه خمساً وعشرين ضعفاً، وذلك أنه إذا توضأ فأحسن الوضوء، ثم خرج إلى المسجد لا يخرجه إلا الصلاة لم يحط خطوة إلا رفع له بها درجة وحط عنه بها خطيئة، فإذا صلى لم تزل الملائكة تصلي عليه ما دام في مصلاته: اللهم صل عليه، اللهم ارحمه، ولا يزال في صلاة ما انتظر الصلاة» وعند الدارقطني مرفوعاً: «لا صلاة لجار المسجد إلا في المسجد»، وفي السنن: «بشر المشائين إلى المساجد في الظلم بالنور التام يوم القيامة».

ويستحب لمن دخل المسجد أن يبدأ برجله اليمنى، وأن يقول كما ثبت في صحيح البخاري^(٢) عن عبد الله بن

(١) أخرجه ابن ماجه وفي إسناده ضعف .

(٢) هو في أبي داود .

عمر رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ أنه كان إذا دخل المسجد يقول: «أعوذ بالله العظيم، وبوجهه الكريم وسلطانه القديم، من الشيطان الرجيم» قال: فإذا قال ذلك قال الشيطان حفظ مني سائر اليوم، وقال رسول الله ﷺ: «إذا دخل أحدكم المسجد فليقل: اللهم افتح لي أبواب رحمتك، وإذا خرج فليقل: اللهم إني أسألك من فضلك»^(١)، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «إذا دخل أحدكم المسجد فليسلم على النبي ﷺ وليقل: اللهم افتح لي أبواب رحمتك، وإذا خرج فليسلم على النبي ﷺ وليقل: اللهم اعصمني من الشيطان الرجيم»^(٢)، وعن فاطمة بنت الحسين عن جدتها فاطمة بنت رسول الله ﷺ قالت: كان رسول الله ﷺ إذا دخل المسجد صلى على محمد وسلم، ثم قال: «اللهم اغفر لي ذنوبي وافتح لي أبواب رحمتك»، وإذا خرج صلى على محمد وسلم، ثم قال: «اللهم اغفر لي ذنوبي وافتح لي أبواب فضلك»^(٣)، فهذا الذي ذكرناه داخل في قوله تعالى: ﴿ فِي بَيْتِ أَذْنِ اللَّهِ أَنْ تَرْفَعَ ﴾ وقوله: ﴿ وَيَذَكَرُ فِيهَا اسْمَهُ ﴾ أي اسم الله، كقوله: ﴿ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾، وقوله: ﴿ وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ ﴾ الآية، وقوله تعالى: ﴿ وَيَذَكَرُ فِيهَا اسْمَهُ ﴾ قال ابن عباس: يعني يتلى كتابه، وقوله تعالى: ﴿ يَسْبَحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴾ أي في البكرات والعشيات، والآصال جمع أصيل وهو آخر النهار، وقال ابن عباس: كل تسبيح في القرآن هو الصلاة، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: يعني بالغدو صلاة الغداة، ويعني بالآصال صلاة العصر، وهما أول ما افترض الله من الصلاة، فأحب أن يذكرهما وأن يذكر بهما عباده، وعن الحسن والضحاك ﴿ يَسْبَحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴾: يعني الصلاة.

وقوله تعالى: ﴿ رِجَالٌ ﴾ فيه إشعار بهمهم السامية، ونياتهم وعزائمهم العالية، التي بها صاروا عماراً للمساجد، التي هي بيوت الله في أرضه، ومواطن عبادته وشكره، وتوحيده وتزجيده، كما قال تعالى: ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ﴾ الآية. وأما النساء فصلاتهن في بيوتهن أفضل هن، لما رواه أبو داود عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «صلاة المرأة في بيتها أفضل من صلاتها في حجرتها، وصلاتها في مخدعها أفضل من صلاتها في بيتها»، وعن أم سلمة رضي الله عنها عن رسول الله ﷺ قال: «خير مساجد النساء قعر بيوتهن»^(٤). وروى أحمد عن أم حميد امرأة أبي حميد الساعدي أنها جاءت النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله إني أحب الصلاة معك، قال: «قد علمت أنك تحبين الصلاة معي، وصلاتك في بيتك خير من صلاتك في حجرتك، وصلاتك في حجرتك خير من صلاتك في دارك، وصلاتك في دارك خير من صلاتك في مسجد قومك، وصلاتك في مسجد قومك خير من صلاتك في مسجدي» قال: فأمرت فبني لها مسجد في أقصى بيت من بيوتها، فكانت والله تصلي فيه حتى لقيت الله تعالى. ويجوز للمرأة شهود جماعة الرجال بشرط أن لا تؤذي أحداً من الرجال بظهور زينة ولا ريح طيب، كما ثبت في الصحيح: «لا تمنعوا إماء الله مساجد الله»^(٥)، وفي رواية: «وليخرجن وهن

(١) أخرجه مسلم والنسائي .

(٢) أخرجه ابن ماجه وابن حبان .

(٣) أخرجه الإمام أحمد والترمذي وابن ماجه وقال الترمذي: حديث حسن وإسناده ليس بمتصل لأن فاطمة الصغرى لم تدرك فاطمة الكبرى .

(٤) أخرجه البخاري ومسلم عن عبد الله بن عمر مرفوعاً .

(٥) أخرجه الإمام أحمد .

تفلات» أي لا ربح لهم، وقد ثبت في صحيح مسلم عن زينب امرأة عبد الله بن مسعود قالت: قال لنا رسول الله ﷺ: «إذا شهدت إحداكن المسجد فلا تمس طيباً». وفي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: كان نساء المؤمنین يشهدن الفجر مع رسول الله ﷺ، ثم يرجعن متلفعات بمروطهن ما يعرفن من الغلس، وفي الصحيحين عنها أيضاً أنها قالت: لو أدرك رسول الله ﷺ ما أحدث النساء لمنعهن من المساجد كما منعت نساء بني إسرائيل.

وقوله تعالى: ﴿رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله﴾، كقوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تلهيكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله﴾ الآية، يقول تعالى: لا تشغلهم الدنيا وزخرفها وزينتها وملاذ بيعها وربحها عن ذكر ربهم، لأن الذي عنده خير لهم وأنفع مما بأيديهم، ولهذا قال تعالى: ﴿لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة﴾ أي يقدمون طاعته ومراده ومحبته على مرادهم ومحبتهم، روى عمرو بن دينار: أن ابن عمر رضي الله عنهما كان في السوق فأقيمت الصلاة، فأغلقوا حوانيتهم ودخلوا المسجد، فقال ابن عمر: فيهم نزلت: ﴿رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله﴾، وقال ابن أبي حاتم قال أبو الدرداء رضي الله عنه: إني قمت على هذا الدرج أبايع عليه، أربح كل يوم ثلثمائة دينار، أشهد الصلاة في كل يوم في المسجد، أما إني لا أقول إن ذلك ليس بحلال، ولكني أحب أن أكون من الذين قال الله فيهم: ﴿رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله﴾. وقال عمرو بن دينار الأعور: كنت مع سالم بن عبد الله ونحن نريد المسجد ففرنا بسوق المدينة، وقد قاموا إلى الصلاة وخمروا متاعهم، فنظر سالم إلى أمتعتهم ليس فيها أحد، فتلا سالم هذه الآية: ﴿رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله﴾ ثم قال: هم هؤلاء؛ وقال الضحاك: لا تلهيهم التجارة والبيع أن يأتوا الصلاة في وقتها، وقال مطر الوراق: كانوا يبيعون ويشترون ولكن كان أحدهم إذا سمع النداء وميزانه في يده خفضه وأقبل إلى الصلاة، وقال ابن عباس ﴿لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله﴾ يقول: عن الصلاة المكتوبة؛ وقال السدي: عن الصلاة في جماعة، وقال مقاتل بن حيان: لا يلهيهم ذلك عن حضور الصلاة وأن يقيموها كما أمرهم الله، وأن يحافظوا على مواقيتها وما استحفظهم الله فيها.

وقوله تعالى: ﴿يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار﴾ أي يوم القيامة الذي تتقلب فيه القلوب والأبصار: أي من شدة الفزع وعظمة الأهوال، كقوله: ﴿إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار﴾، وقال تعالى: ﴿إنا نخاف من ربنا يوماً عبوساً قمطريراً﴾، وقوله تعالى ههنا: ﴿ليجزئهم الله أحسن ما عملوا﴾ أي هؤلاء من الذين يتقبل حسناتهم ويتجاوز عن سيئاتهم. وقوله: ﴿ويزيدهم من فضله﴾ أي يتقبل منهم الحسن ويضاعفه لهم كما قال تعالى: ﴿من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها﴾ الآية، وقال: ﴿من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً﴾ الآية، وقال: ﴿والله يضاعف لمن يشاء﴾، وقال ههنا: ﴿والله يرزق من يشاء بغير حساب﴾، وعن ابن مسعود أنه جيء بلبن فعرضه على جلسائه واحداً واحداً فكلهم لم يشربه لأنه كان صامئاً، فتناوله ابن مسعود فشربه لأنه كان مفطراً، ثم تلا قوله: ﴿يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار﴾، وفي الحديث: «إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة، جاء مناد فنادى بصوت يسمع الخلائق: سيعلم أهل الجمع من أولى بالكرم، ليقيم الذين لا تلهيهم

تجارة ولا بيع عن ذكر الله، فيقومون وهم قليل، ثم يحاسب سائر الخلائق»^(١). وروى الطبراني عن ابن مسعود عن النبي ﷺ في قوله ﴿ليوفهم أجورهم ويزيدهم من فضله﴾ قال: أجورهم يدخلهم الجنة، ويزيدهم من فضله الشفاعة لمن وجبت له الشفاعة لمن صنع لهم المعروف في الدنيا.

وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُوهُمْ كَسْرَابٍ بِقِيَعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدُهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾

هذان مثلان ضربهما الله تعالى لنوعي الكفار، فأما الأول من هذين المثلين فهو للكفار الدعاة إلى كفرهم الذين يحسبون أنهم على شيء من الأعمال والاعتقادات، وليسوا في نفس الأمر على شيء، فمثلهم في ذلك كالسراب الذي يرى في القيعان من الأرض من بعد كأنه بحر طام، والقيعة جمع قاع كجار وجيرة، وهي الأرض المستوية المتسعة المنبسطة وفيه يكون السراب، يرى كأنه ماء بين السماء والأرض، فإذا رأى السراب من هو محتاج إلى الماء يحسبه ماء قصدته ليشرب منه، فلما انتهى إليه ﴿لم يجده شيئاً﴾، فكذلك الكافر، يحسب أنه قد عمل عملاً وأنه قد حصل شيئاً، فإذا وافى الله يوم القيامة وحاسبه عليها ونوقش على أفعاله لم يجد له شيئاً بالكلية، كما قال تعالى: ﴿وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءً منثوراً﴾، وقال ههنا: ﴿ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب﴾، وفي الصحيحين: «أنه يقال يوم القيامة لليهود ما كنتم تعبدون؟ فيقولون: كنا نعبد عزير ابن الله، فيقال: كذبتم ما اتخذ الله من ولد ماذا تبغون؟ فيقولون: يا رب عطشنا فاسقنا، فيقال: ألا ترون؟ فتمثل لهم النار كأنها سراب يحطم بعضها بعضاً فينطلقون فيتهاوتون فيها»^(٢) وهذا المثل مثال لذوي الجهل المركب. فأما أصحاب الجهل البسيط، وهم الأغشام المقلدون لأئمة الكفر الصم البكم الذين لا يعقلون فمثلهم كما قال تعالى: ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ﴾ قال قتادة: ﴿لجِّي﴾ هو العميق، ﴿يغشاه موج من فوقه موج، من فوقه سحاب، ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها﴾ أي لم يقارب رؤيتها من شدة الظلام، فهذا مثل قلب الكافر الجاهل البسيط المقلد الذي لا يعرف حال من يقوده، ولا يدري أين يذهب، بل كما يقال في المثل للجاهل: أين تذهب؟ قال: معهم، قيل: فيلأي أين يذهبون؟ قال: لا أدري. وقال ابن عباس رضي الله عنهما ﴿يغشاه موج﴾ يعني بذلك الغشاوة التي على القلب والسمع والبصر، وهي كقوله: ﴿ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم، وعلى أبصارهم غشاوة﴾ الآية. وكقوله: ﴿وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة﴾ الآية. فالكافر يتقلب في خمسة من الظلم: فكلامه ظلمة، وعمله ظلمة، ومدخله ظلمة، ومخرجه ظلمة، ومصيره يوم القيامة إلى الظلمات إلى النار، وقوله تعالى: ﴿ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور﴾ أي من لم يهده الله فهو هالك جاهل باثر كافر، كقوله: ﴿من يضل الله فلا هادي له﴾ وهذا في مقابلة ما قال في مثل المؤمنين ﴿يهدى الله لنوره من يشاء﴾، فنسأل الله العظيم أن يجعل في قلوبنا نوراً، وعن أيماننا نوراً، وعن شمائلنا نوراً، وأن يعظم لنا نوراً.

(٢) أخرجه الشيخان .

(١) أخرجه ابن أبي حاتم عن أسماء بنت يزيد بن السكن مرفوعاً .

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْبِغُ لَكُمْ مِنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَفَاتٍ كُلِّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ
عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ وَاللَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾

يخبر تعالى أنه يسبح له من في السماوات والأرض أي من الملائكة والأناسي والجان والحيوان حتى الجماد، كما قال تعالى: ﴿تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن﴾ الآية. وقوله تعالى: ﴿والطير صافات﴾ أي في حال طيرانها، تسبح ربها وتعبده بتسبيح أهمها وأرشدتها إليه وهو يعلم ما هي فاعلة، ولهذا قال تعالى: ﴿كل قد علم صلاته وتسبيحه﴾ أي كل قد أرشده إلى طريقته ومسلكه في عبادة الله عز وجل، ثم أخبر أنه عالم بجميع ذلك لا يخفى عليه من ذلك شيء، ولهذا قال تعالى: ﴿والله عليم بما يفعلون﴾، ثم أخبر تعالى أن له ملك السماوات والأرض فهو الحاكم المتصرف الإله المعبود الذي لا تنبغي العبادة إلا له ولا معقب لحكمه، ﴿وإلى الله المصير﴾: أي يوم القيامة فيحكم فيه بما يشاء ﴿ليجزى الذين أساءوا بما عملوا﴾ الآية، فهو الخالق المالك، له الحمد في الأولى والآخرة .

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزِيحُ سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خَلَلِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ
جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنِ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ ﴿٤٣﴾ يُقَلِّبُ
اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لَأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿٤٤﴾

يذكر تعالى أنه يسوق السحاب بقدرته أول ما ينشئها وهي ضعيفة وهو الإزجاع، ﴿ثم يؤلف بينه﴾ أي يجمعه بعد تفرقه، ﴿ثم يجعله ركاماً﴾ أي متراكماً أي يركب بعضه بعضاً، ﴿فترى الودق﴾ أي المطر، ﴿يخرج من خللاله﴾ أي من خلله، وقوله: ﴿وينزل من السماء من جبال فيها من برد﴾ قال بعض النحاة: ﴿من الأولى لابتداء الغاية، والثانية للتبعيض، والثالثة لبيان الجنس، ومعناه أن في السماء جبال برد ينزل الله منها البرد، وأما من جعل الجبال ههنا كناية عن السحاب فإن «من» الثانية عنده لابتداء الغاية لكنها بدل من الأولى والله أعلم، وقوله تعالى: ﴿فيصيب به من يشاء ويصرفه عن من يشاء﴾ يحتمل أن يكون المراد بقوله ﴿فيصيب به﴾: أي بما ينزل من السماء من نوعي المطر والبرد، فيكون قوله: ﴿فيصيب به من يشاء﴾ رحمة لهم ﴿ويصرفه عن من يشاء﴾ أي يؤخر عنهم الغيث؛ ويحتمل أن يكون المراد بقوله ﴿فيصيب به﴾ أي بالبرد نعمة على من يشاء لما فيه من إتلاف زروعهم وأشجارهم، ﴿ويصرفه عن من يشاء﴾ رحمة بهم، وقوله: ﴿يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار﴾ أي يكاد ضوء برقه من شدته يحطف الأبصار إذا اتبعته وتراءته، وقوله تعالى: ﴿يقلب الله الليل والنهار﴾ أي يتصرف فيهما فيأخذ من طول هذا في قصر هذا، حتى يعتدلا، فهو المتصرف في ذلك بأمره وقهره وعزته وعلمه، ﴿إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار﴾ أي للدليل على عظمته تعالى .

وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى

أَرْبَعٌ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٥﴾

يذكر تعالى قدرته التامة وسلطانه العظيم في خلقه أنواع المخلوقات، على اختلاف أشكالها وألوانها وحرركاتها وسكناتها من ماء واحد، ﴿فمنهم من يمشي على بطنه﴾ كالحية وما شاكلها، ﴿ومنهم من يمشي على رجلين﴾ كالإنسان والطيور، ﴿ومنهم من يمشي على أربع﴾ كالأنعام وسائر الحيوانات، ولهذا قال: ﴿يخلق الله ما يشاء﴾ أي بقدرته، لأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، ولهذا قال: ﴿إن الله على كل شيء قدير﴾.

* لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُّبِينَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾

يقرر تعالى أنه أنزل في هذا القرآن من الحكم والأمثال البينة المحكمة كثيراً جداً، وأنه يرشد إلى تفهمها وتعقلها أولي الأبواب والبصائر والنهي، ولهذا قال: ﴿والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم﴾.

* وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾

وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٥٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٥٩﴾ أَفِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ أَمْ آرْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولَهُ بَلْ أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٦٠﴾ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا

وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٦١﴾ وَمَن يُطِغِ اللَّهُ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٦٢﴾

يخبر تعالى عن صفات المنافقين الذين يظهرون خلاف ما يبطنون، يقولون قولاً بألسنتهم ﴿آمنا بالله وبالرسول وأطعنا ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك﴾ أي يخالفون أقوالهم بأعمالهم فيقولون ما لا يفعلون، ولهذا قال تعالى: ﴿وما أولئك بالمؤمنين﴾، وقوله تعالى: ﴿وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم﴾ الآية، أي إذا طلبوا إلى اتباع الهدى فيما أنزل الله على رسوله أعرضوا عنه واستكبروا في أنفسهم عن اتباعه، وهذه كقوله تعالى: ﴿رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً﴾، وفي الطبراني عن سمرة مرفوعاً: «من دعي إلى سلطان فلم يجب فهو ظالم لا حق له». وقوله تعالى: ﴿وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين﴾ أي وإذا كانت الحكومة لهم لا عليهم جاءوا سامعين مطيعين وهو معنى قوله ﴿مذعنين﴾، وإذا كانت الحكومة عليه أعرض ودعا إلى غير الحق، وأحب أن يتحاكم إلى غير النبي ﷺ ليروج باطله، فإذعانه أولاً لم يكن عن اعتقاد منه أن ذلك هو الحق، بل لأنه موافق لهواه، ولهذا لما خالف الحق قصده عدل عنه إلى غيره، ولهذا قال تعالى: ﴿أفي قلوبهم مرض﴾ الآية، يعني لا يخرج أمرهم عن أن يكون في القلوب مرض لازم لها، أو قد عرض لها شك في الدين، أو يخافون أن يجور الله ورسوله عليهم في الحكم، وأياً ما كان فهو كفر محض والله عليم بكل منهم، وما هو منطوق عليه من هذه الصفات، وقوله تعالى: ﴿بل أولئك هم الظالمون﴾ أي بل هم الظالمون الفاجرون، والله ورسوله مبرآن مما يظنون ويتوهمون من الحيف والجور، تعالى الله ورسوله عن ذلك.

قال الحسن: كان الرجل إذا كان بينه وبين الرجل منازعة، فدعي إلى النبي ﷺ وهو محق أذعن، وعلم أن النبي ﷺ سيفضي له بالحق، وإذا أراد أن يظلم فدعي إلى النبي ﷺ أعرض، وقال: أنطلق إلى فلان، فأنزل الله هذه الآية، ثم أخبر تعالى عن صفة المؤمنين المستجيبين لله ولرسوله الذين لا يبغون ديناً سوى كتاب الله وسنة رسوله، فقال: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ أي سمعاً وطاعة، ولهذا وصفهم تعالى بالفلاح وهو نبيل المطلوب والسلامة من المرهوب، فقال تعالى: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾، وقال قتادة: ذكر لنا أن أبا الدرداء قال: لا لإسلام إلا بطاعة الله، ولا خير إلا في جماعة، والنصيحة لله ولرسوله وللخليفة وللمؤمنين عامة، قال: وقد ذكر لنا أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يقول: عروة الإسلام شهادة أن لا إله إلا الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والطاعة لمن ولاه الله أمر المسلمين^(١). والأحاديث والآثار في وجوب الطاعة لكتاب الله وسنة رسوله وللخلفاء الراشدين والأئمة إذا أمروا بطاعة الله أكثر من أن تحصر في هذا المكان. وقوله: ﴿وَمَنْ يَطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ قال قتادة: فيما أمراه به وترك ما نهياه عنه ﴿وَيَخْشِ اللَّهَ﴾ فيما مضى من ذنوبه ﴿وَيَتَّقَهُ﴾ فيما يستقبل، وقوله ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ يعني الذين فازوا بكل خير وأمنوا من كل شر في الدنيا والآخرة.

* وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُلْ لَا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حَمَلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٥٤﴾

يقول تعالى مخبراً عن أهل النفاق الذين كانوا يحلفون للرسول ﷺ لئن أمرتهم بالخروج في الغزو ليخرجن، قال الله تعالى: ﴿قُلْ لَا تُقْسِمُوا﴾ أي لا تحلفوا، وقوله: ﴿طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ﴾ قيل: معناه طاعتكم طاعة معروفة، أي قد علم طاعتكم إنما هي قول لا فعل معه، وكلما حلفتكم كذبتهم، كما قال تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ﴾ الآية. وقال تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً﴾ الآية، فهم من سجيبتهم الكذب حتى فيما يختارونه، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِن أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نَطِيعَ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾، وقيل المعنى ﴿طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ﴾ أي ليكن أمركم طاعة معروفة، أي بالمعروف من غير حلف ولا أقسام، كما يطيع الله ورسوله المؤمنون بغير حلف، فكونوا أنتم مثلهم ﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي هو خبير بكم ويمن يطيع ممن يعصي، فالحلف وإظهار الطاعة وإن راج على المخلوق فالخالق تعالى يعلم السر وأخفى، لا يروج عليه شيء من التدليس، بل هو خبير بضائر عباده وإن أظهرها خلافها. ثم قال تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ أي اتبعوا كتاب الله وسنة رسوله، وقوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ أي تولوا عنه وتركوا ما جاءكم به ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ﴾ أي إبلاغ الرسالة وأداء الأمانة، ﴿وَعَلَيْكُمْ مَا حَمَلْتُمْ﴾ أي بقبول ذلك وتعظيمه والقيام بمقتضاه، ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾ وذلك لأنه يدعو إلى صراط مستقيم

﴿ صراط الله الذي له ما في السموات وما في الأرض ﴾ الآية، وقوله تعالى: ﴿ وما على الرسول إلا البلاغ المبين ﴾، كقوله تعالى: ﴿ فإتما عليك البلاغ وعلينا الحساب ﴾ .

وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٥﴾

هذا وعد من الله تعالى لرسوله صلوات الله وسلامه عليه بأنه سيجعل أمته خلفاء الأرض، أي أئمة الناس والولاية عليهم، وبهم تصلح البلاد، وتخضع لهم العباد، وليبدلهم من بعد خوفهم من الناس أمناً وحكماً فيهم، وقد فعله تبارك وتعالى وله الحمد والمنة، فإنه ﷺ لم يمت حتى فتح الله عليه مكة وخيبر والبحرين وسائر جزيرة العرب وأرض اليمن بكاملها، وأخذ الجزيرة من مجوس هجر، ومن بعض أطراف الشام، وهاداه هرقل ملك الروم وصاحب مصر المقوقس، وملوك عمان، والنجاشي ملك الحبشة، ثم قام بالأمر بعده خليفته أبو بكر الصديق، فبعث جيوش الإسلام إلى بلاد فارس صحبة (خالد بن الوليد) رضي الله عنه، ففتحوا طرفاً منها، وقتلوا خلقاً من أهلها، وجيشاً آخر صحبة (أبي عبيدة) رضي الله عنه إلى أرض الشام، وثالثاً صحبة (عمرو بن العاص) رضي الله عنه إلى بلاد مصر، ففتح الله للجيش الشامي في أيامه بصرى ودمشق، وتوفاه الله عز وجل واختار له ما عنده من الكرامة، ومن على أهل الإسلام بأن أهدم الصديق أن يستخلف عمر الفاروق، فقام بالأمر بعده قياماً تاماً لم يدر الفلك بعد الأنبياء على مثله في قوة سيرته وكمال عدله؛ وتم في أيامه فتح البلاد الشامية بكاملها وديار مصر إلى آخرها وأكثر إقليم فارس، وكسر كسرى، وأهانته غاية الهوان، وكسر قيصر وانتزع يده عن بلاد الشام وانحدر إلى القسطنطينية، وأنفق أموالهما في سبيل الله، كما أخبر بذلك ووعد به رسول الله عليه من ربه أتم سلام وأزكى صلاة. ثم لما كانت الدولة العثمانية امتدت الممالك الإسلامية إلى أقصى مشارق الأرض ومغاربها، ففتحت بلاد المغرب إلى أقصى ما هنالك الأندلس وقبرص، وبلاد القيروان وبلاد سبته مما يلي البحر المحيط، ومن ناحية المشرق إلى أقصى بلاد الصين، وقتل كسرى وباد ملكه بالكلية، وفتحت مدائن العراق وخراسان والأهواز، وقتل المسلمون من الترك مقتلة عظيمة جداً، وخذل الله ملكهم الأعظم خاقان، وجبي الخراج من المشارق والمغارب إلى حضرة أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه، وذلك ببركة تلاوته ودراسته وجمعه الأمة على حفظ القرآن؛ ولهذا ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: « إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقتها ومغاربها، وسيلغ ملك أمتي ما زوي لي منها »
فها نحن نتقلب فيما وعدنا الله ورسوله، وصدق الله ورسوله، فنسأل الله الإيمان به وبرسوله، والقيام بشكره على الوجه الذي يرضيه عنا .

روى الإمام مسلم في صحيحه عن جابر بن سمرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « لا يزال أمر الناس ما مضياً ما وليهم اثنا عشر رجلاً » ثم تكلم النبي ﷺ بكلمة خفيت عني، فسألت أبي ماذا قال رسول الله ﷺ؟ فقال، قال: « كلهم من قريش »، وفي هذا الحديث دلالة على أنه لا بد من وجود اثني عشر خليفة عادلاً،

وليسوا هم بأئمة الشيعة الاثني عشر، فإن كثيراً من أولئك لم يكن لهم من الأمر شيء؛ فأما هؤلاء فإنهم يكونون من قريش يلون فيعدلون، وقد وقعت البشارة بهم في الكتب المتقدمة، ثم لا يشترط أن يكونوا متتابعين، بل يكون وجودهم في الأمة متتابعاً ومتفرقاً؛ وقد وجد منهم أربعة على الولاء وهم أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي رضي الله عنهم، ثم كانت بعدهم فترة؛ ثم وجد منهم من شاء الله، ثم قد يوجد منهم من بقي في الوقت الذي يعلمه الله تعالى؛ ومنهم المهدي الذي اسمه يطابق اسم رسول الله ﷺ، وكنيته كنيته، يملأ الأرض عدلاً وقسطاً، كما ملئت جوراً وظلماً، وقد روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «الخلافة بعدي ثلاثون سنة، ثم تكون ملكاً عضوضاً»^(١). وقال أبو العالية في قوله: ﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض﴾ الآية، قال: كان النبي ﷺ وأصحابه بمكة نحواً من عشر سنين يدعون إلى الله وحده وإلى عبادته وحده لا شريك له سراً، وهم خائفون لا يؤمرون بالقتال، حتى أمروا بالهجرة إلى المدينة فقدموها، فأمرهم الله بالقتال، فكانوا بها خائفين يمسون في السلاح ويصبحون في السلاح، فصبروا على ذلك ما شاء الله، ثم إن رجلاً من الصحابة قال: يا رسول الله أبدأ الدهر نحن خائفون هكذا؟ أما يأتي علينا يوم نأمن فيه ونضع عنا السلاح؟ فقال رسول الله ﷺ: «لن تصبروا إلا يسيراً حتى يجلس الرجل منكم في الملأ العظيم محتبياً ليست فيه حديدة» وأتزل الله هذه الآية، فأظهر الله نبيه على جزيرة العرب فأمنوا ووضعوا السلاح، ثم إن الله تعالى قبض نبيه ﷺ فكانوا كذلك آمنين في إمارة أبي بكر وعمر وعثمان، حتى وقعوا فيما وقعوا فيه، فأدخل عليهم الخوف، فاتخذوا الحجة والشرط وغيروا فغير بهم، وقال البراء بن عازب: نزلت هذه الآية ونحن في خوف شديد، وهذه الآية الكريمة، كقوله تعالى: ﴿واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض﴾ الآية، وقوله تعالى: ﴿كما استخلف الذين من قبلهم﴾ كما قال تعالى عن موسى عليه السلام أنه قال لقومه: ﴿عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض﴾ الآيتين .

وقوله تعالى: ﴿وليمكن لهم دينهم الذي ارتضى لهم﴾ الآية، كما قال رسول الله ﷺ لعدي بن حاتم حين وفد عليه: «أتعرف الحيرة؟» قال: لم أعرفها، ولكن قد سمعت بها، قال: «فوالذي نفسي بيده ليتمن الله هذا الأمر حتى تخرج الظعينة من الحيرة، حتى تطوف بالبيت في غير جوار أحد، ولتفتحن كنوز كسرى بن هرمز» قلت: كسرى بن هرمز؟ قال: «نعم كسرى بن هرمز، وليبدلنّ المال حتى لا يقبله أحد» قال عدي بن حاتم: فهذه الظعينة تخرج من الحيرة، فتطوف بالبيت في غير جوار أحد، ولقد كنت فيمن فتح كنوز كسرى بن هرمز، والذي نفسي بيده لتكونن الثالثة لأن رسول الله ﷺ قد قالها، وقال الإمام أحمد عن أبي بن كعب قال، قال رسول الله ﷺ: «بشّر هذه الأمة بالسنا والرفعة والدين والنصر والتمكين في الأرض، فمن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا لم يكن له في الآخرة نصيب»، وقوله تعالى: ﴿يعبدوني لا يشركون بي شيئاً﴾، وفي الحديث: «يا معاذ ابن جبل» قلت: لبيك يا رسول الله وسعديك، قال: «هل تدري ما حق الله على العباد؟» قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً»^(٢)، وقوله تعالى: ﴿ومن كفر بعد ذلك فأولئك

(١) أخرجه أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي . (٢) الحديث من رواية الشيخين عن معاذ بن جبل .

هم الفاسقون ﴿٥٦﴾ أي فن خرج عن طاعتي بعد ذلك، فقد خرج عن أمر ربه وكفى بذلك ذنباً عظيماً، فالصحابا رضي الله عنهم لما كانوا أقوم الناس بأوامر الله عز وجل، وأطوعهم لله كان نصرهم بحسبهم، أظهروا كلمة الله في المشارق والمغارب، وأيدهم تأييداً عظيماً، وحكموا سائر العباد والبلاد، ولما قصر الناس بعدهم في بعض الأوامر نقص ظهورهم بحسبهم، ولكن قد ثبت في الصحيحين من غير وجه عن رسول الله ﷺ أنه قال: « لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم إلى يوم القيامة - وفي رواية حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك ^(١) .

وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاطِيعُوا الرُّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٧﴾ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ مِنَ النَّارِ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٥٨﴾

يقول تعالى أمراً عباده المؤمنين بإقامة الصلاة، وهي عبادة الله وحده لا شريك له، وإيتاء الزكاة وهي الإحسان إلى المخلوقين ضعفاتهم وفقراتهم، وأن يكونوا في ذلك مطيعين لرسول الله ﷺ فيما به أمرهم، وترك ما عنه زجرهم، لعل الله يرحمهم بذلك، كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿ أولئك سيرحمهم الله ﴾، وقوله تعالى: ﴿ لا تحسبن ﴾ أي لا تظن يا محمد أن ﴿ الذين كفروا ﴾ أي خالفوك وكذبوك ﴿ معجزين في الأرض ﴾ أي لا يعجزون الله بل الله قادر عليهم، وسيعذبهم على ذلك أشد العذاب ولهذا قال تعالى ﴿ وماؤهم ﴾ أي في الدار الآخرة ﴿ النار ولبئس المصير ﴾ أي بئس المال مال الكافرين، وبئس القرار وبئس المهاد .

يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِيَسْتَعِذْنَكَ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُم لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ بَعْضٌ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾ وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمْ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَعِذُوا كَمَا أَسْتَعِذْنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾ وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ الَّتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦١﴾

هذه الآيات الكريمة اشتملت على استئذان الأقارب بعضهم على بعض، وما تقدم في أول السورة فهو استئذان الأجانب بعضهم على بعض، فأمر الله تعالى المؤمنين أن يستأذنهم خدمهم مما ملكت أيانهم وأطفالهم الذين لم يبلغوا الحلم منهم في ثلاثة أحوال: (الأول) من قبل صلاة الغداة لأن الناس إذ ذاك يكونون نياماً في فرشهم، ﴿ وحين

(١) وفي رواية « حتى يقاتلوا الدجال » وفي رواية « حتى يتزل عيس بن مريم وهم ظاهرون » وكلها صحيحة ولا تعارض بينها .

تضعون ثيابكم من الظهيرة ﴿٥٦﴾ أي في وقت القبولة، لأن الإنسان قد يضع ثيابه في تلك الحال مع أهله، ﴿٥٧﴾ ومن بعد صلاة العشاء ﴿٥٨﴾، لأنه وقت النوم فيؤمر الخدم والأطفال أن لا يهجموا على أهل البيت في هذه الأحوال، لما يخشى من أن يكون الرجل على أهله أو نحو ذلك من الأعمال؛ ولهذا قال: ﴿٥٩﴾ ثلاث عورات لكم ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن ﴿٦٠﴾ أي إذا دخلوا في حال غير هذه الأحوال، فلا جناح عليكم في تمكينكم إياهم، ولا عليهم إن رأوا شيئاً في غير تلك الأحوال، ولأنهم طوافون عليكم أي في الخدمة وغير ذلك، ولهذا روى أهل السنن أن النبي ﷺ قال في الهرة: «إنها ليست بنجسة إنها من الطوافين عليكم - أو الطوافات -». عن ابن عباس أن رجلين سألاه عن الاستئذان في ثلاث عورات التي أمر الله بها في القرآن؟ فقال ابن عباس: إن الله ستر يحب الستر، كان الناس ليس لهم ستور على أبوابهم، ولا حجال في بيوتهم، فربما فاجأ الرجل خادمه أو ولده أو يتيمة في حجره وهو على أهله، فأمرهم الله أن يستأذنوا في تلك العورات التي سمي الله؛ ثم جاء الله بعد بالستور، فبسط الله عليهم الرزق فاتخذوا الستور واتخذوا الحجال، فرأى الناس أن ذلك قد كفاهم من الاستئذان الذي أمروا به^(١)

وقال السدي: كان أناس من الصحابة رضي الله عنهم يحبون أن يواقعوا نساءهم في هذه الساعات ليغتسلوا ثم يخرجوا إلى الصلاة، فأمرهم الله أن يأمرؤا المملوكين والغلمان أن لا يدخلوا عليهم في تلك الساعات إلا بإذن، وقال مقاتل بن حيان: بلغنا والله أعلم أن رجلاً من الأنصار وامرأته أسماء بنت مرثد صنعا للنبي ﷺ طعاماً، فجعل الناس يدخلون بغير إذن، فقالت أسماء: يا رسول الله ما أقبح هذا، إنه ليدخل على المرأة وزوجها وهما في ثوب واحد غلامهما بغير إذن، فأنزل الله في ذلك: ﴿٦١﴾ يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم ﴿٦٢﴾ إلى آخرها؛ ومما يدل على أنها محكمة لم تسخ قوله: ﴿٦٣﴾ كذلك يبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم ﴿٦٤﴾، ثم قال تعالى: ﴿٦٥﴾ وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم فليستأذنوا كما استأذن الذين من قبلهم ﴿٦٦﴾ يعني إذا بلغ الأطفال الذين إنما كانوا يستأذنون في العورات الثلاث إذا بلغوا الحلم، وجب عليهم أن يستأذنوا على كل حال، وإن لم يكن في الأحوال الثلاث.

قال الأوزاعي: إذا كان الغلام رباعياً فإنه يستأذن في العورات الثلاث على أبيه، فإذا بلغ الحلم فليستأذن على كل حال، وقال في قوله: ﴿٦٧﴾ كما استأذن الذين من قبلهم ﴿٦٨﴾ يعني كما استأذن الكبار من ولد الرجل وأقاربه، وقوله: ﴿٦٩﴾ والقواعد من النساء ﴿٧٠﴾ هن اللواتي انقطع عنهن الحيض ويشن من الولد ﴿٧١﴾ اللاتي لا يرجون نكاحاً ﴿٧٢﴾ أي لم يبق لهن تشوف إلى التزوج، ﴿٧٣﴾ فليس عليهن جناح أن يضعن ثيابهن غير متبرجات بزينة ﴿٧٤﴾ أي ليس عليهن من الحجر في التستر كما على غيرهن من النساء، قال ابن مسعود في قوله: ﴿٧٥﴾ فليس عليهن جناح أن يضعن ثيابهن ﴿٧٦﴾ قال: الجلباب أو الرداء، وقال أبو صالح: تضع الجلباب وتقوم بين يدي الرجل في الدرع والخمار، وقال سعيد ابن جبير في الآية ﴿٧٧﴾ غير متبرجات بزينة ﴿٧٨﴾ يقول: لا يتبرجن بوضع الجلباب ليرى ما عليهن من الزينة. عن أم الضياء أنها قالت: دخلت على عائشة رضي الله عنها فقلت: يا أم المؤمنين ما تقولين في الخضاب والنفاس والصباغ والقرطين والخلخال وخاتم الذهب وثياب الرقاق؟ فقالت: يا معشر النساء قصتن كلها واحدة، أحل الله لكنّ الزينة غير متبرجات^(٢)، أي لا يحل لكن أن يروا منكن محرماً. وقوله: ﴿٧٩﴾ وأن يستعففن خير لهن ﴿٨٠﴾ أي وترك وضعهن لثيابهن وإن كان جائزاً، خير وأفضل لهن، والله سميع عليم.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم .

(١) أخرجه بن أبي حاتم وإسناده صحيح إلى ابن عباس كما قال ابن كثير .

لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكَتُمْ مَفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبْرَكَةٌ طَيِّبَةٌ كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ

الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾

اختلف المفسرون رحمهم الله في المعنى الذي رفع لأجله الحرج عن الأعمى والأعرج والمريض ههنا، فقال عطاء ابن أسلم: يقال إنها نزلت في الجهاد، وجعلوا هذه الآية ههنا كالتي في سورة الفتح وتلك في الجهاد لا محالة، أي أنهم لا إثم عليهم في ترك الجهاد لضعفهم وعجزهم، وكما قال تعالى في سورة براءة: ﴿ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج إذا نصحوا لله ورسوله ما على المحسنين من سبيل والله غفور رحيم﴾ وقيل: المراد ههنا أنهم كانوا يتخرجون من الأكل مع الأعمى لأنه لا يرى الطعام وما فيه من الطيبات، وربما سبقه غيره إلى ذلك، ولا مع الأعرج لأنه لا يتمكن من الجلوس فيفتات عليه جلسه، والمريض لا يستوفي من الطعام كغيره، فكرهوا أن يؤاكلوهم لثلاث يظلموهم، فأنزل الله هذه الآية رخصة في ذلك^(١)، وقال الضحاك: كانوا قبل البعثة يتخرجون من الأكل مع هؤلاء تقذراً وتعزراً ولثلاث يتفضلوا عليهم فأنزل الله هذه الآية. وقال السدي: كان الرجل يدخل بيت أبيه أو أخيه أو ابنه فتتحفه المرأة بشيء من الطعام، فلا يأكل من أجل أن رب البيت ليس ثم، فقال الله تعالى: ﴿ليس على الأعمى حرج﴾ الآية. وقوله تعالى: ﴿ولا على أنفسكم أن تأكلوا من بيوتكم﴾ إنما ذكر هذا وهذا معلوم ليعطف عليه غيره في اللفظ، وليساوي به ما بعده في الحكم، وتضمن هذا بيوت الأبناء لأنه لم ينص عليهم، ولهذا استدل بهذا من ذهب إلى أن مال الولد بمنزلة مال أبيه، وقد جاء في المسند والسنن من غير وجه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أنت ومالك لأبيك»^(٢).

وقوله تعالى: ﴿أو بيوت آبائكم أو بيوت أمهاتكم﴾ - إلى قوله - أو ما ملكتم مفاتيحه ﴿ هذا ظاهر، وقد يستدل به من يوجب نفقة الأقارب بعضهم على بعض، كما هو مذهب أبي حنيفة والإمام أحمد بن حنبل في المشهور عنهما، وأما قوله: ﴿أو ما ملكتم مفاتيحه﴾ فقال سعيد بن جبير والسدي: هو خادم الرجل من عبد وقهرمان، فلا بأس أن يأكل مما استودعه من الطعام بالمعروف. وقال الزهري عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان المسلمون يذهبون مع النضير مع رسول الله ﷺ فيدفعون مفاتيحهم إلى ضمانهم، ويقولون: قد أحللتنا لكم أن تأكلوا ما احتجتم إليه، فكانوا يقولون: إنه لا يحل لنا أن نأكل، إنهم أذنوا لنا عن غير طيب أنفسهم، وإنما نحن أمناء، فأنزل الله: ﴿أو ما ملكتم مفاتيحه﴾، وقوله: ﴿أو صديقكم﴾ أي بيوت أصدقائكم وأصحابكم فلا جناح عليكم في الأكل منها إذا علمتم أن ذلك لا يشق عليهم ولا يكرهون ذلك، وقال قتادة: إذا دخلت بيت صديقك فلا بأس

(١) وهذا قول سعيد بن جبير وغيره. (٢) هذا جزء من حديث أخرجه أحمد وأصحاب السنن.

أن تأكل بغير إذنه، وقوله: ﴿ ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعاً أو أشتاتاً ﴾، قال ابن عباس: وذلك لما أنزل الله: ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل ﴾، قال المسلمون: إن الله قد نهانا أن نأكل أموالنا بيننا بالباطل والطعام هو أفضل من الأموال، فلا يحل لأحد منا أن يأكل عند أحد، فكف الناس عن ذلك، فأنزل الله: ﴿ ليس على الأعمى حرج - إلى قوله - أو صديقكم ﴾، وكانوا أيضاً يأنفون ويتحرجون أن يأكل الرجل الطعام وحده حتى يكون معه غيره فرخص الله لهم في ذلك، فقال: ﴿ ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعاً أو أشتاتاً ﴾، وقال قتادة: كان هذا الحي من (بني كنانة) يرى أحدهم أن مخزاة عليه أن يأكل وحده في الجاهلية، حتى إن كان الرجل ليسوق اللود الحفل وهو جائع حتى يجد من يؤاكله ويشاربه، فأنزل الله: ﴿ ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعاً أو أشتاتاً ﴾ فهذه رخصة من الله تعالى في أن يأكل الرجل وحده ومع الجماعة، وإن كان الأكل مع الجماعة أبرك وأفضل، كما روي أن رجلاً قال للنبي ﷺ: إنا نأكل ولا نشبع، قال: « لعلكم تأكلون متفرقين، اجتمعوا على طعامكم واذكروا اسم الله بيارك لكم فيه »^(١). وعن رسول الله ﷺ أنه قال: « كلوا جميعاً ولا تفرقوا، فإن البركة مع الجماعة »^(٢).

وقوله تعالى: ﴿ فإذا دخلتم بيوتاً فسلموا على أنفسكم ﴾ يعني فليسلم بعضهم على بعض، وقال جابر بن عبد الله إذا دخلت على أهلك فسلم عليهم تحية من عند الله طيبة مباركة، قال ابن جريج: قلت لعطاء: أوجب إذا خرجت ثم دخلت أن أسلم عليهم؟ قال: لا، ولا أوثر وجوبه عن أحد، ولكن هو أحب إلي، وقال قتادة: إذا دخلت على أهلك فسلم عليهم، وإذا دخلت بيتاً ليس فيه أحد فقل: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، فإنه كان يؤمر بذلك، وحدثنا أن الملائكة ترد عليه، وقال أنس بن مالك: أوصاني النبي ﷺ بخمس خصال، قال: « يا أنس أسبغ الوضوء يزد في عمرك، وسلم على من لقيك من أمتي تكثر حسناتك، وإذا دخلت - يعني بيتك - فسلم على أهلك يكثر خير بيتك، وصل صلاة الضحى فإنها صلاة الأوابين قبلك، يا أنس ارحم الصغير، ووقر الكبير تكن من رفقائي يوم القيامة »^(٣). وقوله: ﴿ تحية من عند الله مباركة طيبة ﴾. عن ابن عباس أنه كان يقول: ما أخذت التشهد إلا من كتاب الله، سمعت الله يقول: ﴿ فإذا دخلتم بيوتاً فسلموا على أنفسكم تحية من عند الله مباركة طيبة ﴾ فالتشهد في الصلاة: التحيات المباركات الصلوات الطيبات لله، وقوله: ﴿ كذلك بين الله لكم الآيات لعلكم تعقلون ﴾ لما ذكر تعالى ما في هذه السور الكريمة من الأحكام المحكمة والشرائع المتقنة المبرمة، به تعالى عباده على أنه يبين لعباده الآيات بياناً شافياً ليتدبروها ويتعقلوها لعلهم يعقلون.

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ۚ فَإِذَا أَسْتَأْذِنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأَذِّنْ لِمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾

(١) أخرجه أحمد وأبو داود وابن ماجه .

(٢) أخرجه ابن ماجه عن عمر مرفوعاً .

(٣) أخرجه الحافظ البزار عن أنس مرفوعاً .

وهذا أيضاً أدب أرشده الله عباده المؤمنين، فكما أمرهم بالاستئذان عند الدخول، كذلك أمرهم بالاستئذان عند الانصراف، لا سيما إذا كانوا في أمر جامع مع الرسول صلوات الله وسلامه عليه، من صلاة جمعة أو عيد أو جماعة أو اجتماع في مشورة ونحو ذلك، أمرهم الله تعالى أن لا يتفروقا عنه والحالة هذه إلا بعد استئذانه ومشاورته، ثم أمر رسوله صلوات الله وسلامه عليه إذا استأذنه أحد منهم في ذلك أن يأذن له إن شاء الله، ولهذا قال: ﴿فَأَذِنَ لِمَن شِئْتُمْ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ﴾ الآية، وقد قال ﷺ: «إذا انتهى أحدكم إلى المجلس فليسلم، فإذا أراد أن يقوم فليسلم، فليست الأولى بأحق من الآخرة»^(١).

﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

قال ابن عباس: كانوا يقولون: يا محمد، يا أبا القاسم، فهاهم الله عز وجل عن ذلك إعظاماً لنبية ﷺ، قال: فقولوا يا نبي الله، يا رسول الله، وقال قتادة: أمر الله أن يهاب نبيه ﷺ وأن يبجل وأن يعظم وأن يسود، وقال مقاتل في قوله: ﴿لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً﴾ يقول: لا تسموه إذا دعوتوه يا محمد، ولا تقولوا: يا ابن عبد الله، ولكن شرفوه فقولوا: يا نبي الله، يا رسول الله؛ وهذا كقوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي، ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون﴾، فهذا كله من باب الأدب في مخاطبة النبي ﷺ والكلام معه وعنده، كما أمروا بتقديم الصدقة قبل مناجاته، والقول الثاني في ذلك أن المعنى في: ﴿لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً﴾ أي لا تعتقدوا أن دعاءه على غيره كدعاء غيره، فإن دعاءه مستجاب، فاحذروا أن يدعو عليكم قهلكوا، حكاة ابن أبي حاتم عن ابن عباس والحسن البصري، والأول أظهر، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لوأذا﴾ قال مقاتل: هم المنافقون كان يثقل عليهم الحديث في يوم الجمعة، فيلوذون ببعض أصحاب محمد ﷺ، حتى يخرجوا من المسجد، وكان إذا أراد أحدهم الخروج أشار بأصبعه إلى النبي ﷺ، فيأذن له من غير أن يتكلم الرجل، وقال السدي: كانوا إذا كانوا معه في جماعة لاذ بعضهم ببعض حتى يتغيبوا عنه فلا يراهم، وقال قتادة في قوله ﴿قد يعلم الله الذين يتسللون لوأذا﴾ يعني لوأذا عن نبي الله وعن كتابه، وقال سفيان ﴿قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لوأذا﴾ قال: من الصف، وقال مجاهد في الآية: ﴿لوأذا﴾ خلافاً، وقوله: ﴿فليحذر الذين يخالفون عن أمره﴾ أي أمر رسول الله ﷺ وهو سبيله ومنهجه وطريقته وسنته وشريعته، كما ثبت في الصحيحين وغيرهما عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد»، أي فليحذر وليخش من خالف شريعة الرسول باطناً وظاهراً ﴿أن تصيبهم فتنة﴾ أي في قلوبهم من كفر أو نفاق أو بدعة ﴿أو يصيبهم عذاب أليم﴾ أي في الدنيا بقتل أو حد أو حبس أو نحو ذلك؛ كما روى الإمام أحمد عن أبي هريرة قال، قال رسول الله ﷺ: «مثلي ومثلكم كمثل رجل استوقد ناراً فلما

(١) أخرجه أبو داود والترمذي والنسائي وقال الترمذي: حديث حسن.

أضاءت ما حولها جعل الفراش وهذه الدواب اللأئي يقعن في النار يقعن فيها، وجعل يحجزهن ويغلبنه فيقتحمن فيها، قال: فذلك مثلي ومثلكم، أنا آخذ بحجزكم عن النار، هلم عن النار، فتغلبوني وتتحمون فيها» (١).

الْإِنِّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٤﴾

يخبر تعالى أنه مالك السماوات والأرض، وأنه عالم الغيب والشهادة وهو عالم بما العباد عاملون في سرهم وجهرهم فقال: ﴿قد يعلم ما أنتم عليه﴾، وقد للتحقيق، كما قال قبلها ﴿قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لوأذا﴾، وقال تعالى: ﴿قد يعلم الله المعوقين منكم﴾ الآية، فكل هذه الآيات فيها تحقيق الفعل بقدر، فقوله تعالى: ﴿قد يعلم ما أنتم عليه﴾ أي هو عالم به مشاهد له لا يعزب عنه مثقال ذرة، كما قال تعالى: ﴿وما تكون في شأن وما تتلو منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهوداً إذ تفيضون فيه وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين﴾، وقال تعالى: ﴿أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت﴾ أي هو شهيد على عباده بما هم فاعلون من خير وشر، وقال تعالى: ﴿سواء منكم من أسر القول ومن جهر به﴾ الآية. والآيات والأحاديث في هذا كثيرة جداً. وقوله: ﴿ويوم يرجعون إليه﴾ أي ويوم يرجع الخلائق إلى الله وهو يوم القيامة ﴿فينبئهم بما عملوا﴾ أي يخبرهم بما فعلوا في الدنيا من جليل وحقير وصغير وكبير، كما قال تعالى: ﴿ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر﴾، وقال: ﴿ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضراً لا يظلم ربك أحداً﴾، ولهذا قال ههنا: ﴿ويوم يرجعون إليه فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ والحمد لله رب العالمين.

[آخر تفسير سورة النور ، والله الحمد والمنة]

(١) أخرجه في الصحيحين من حديث عبد الرزاق .

(٢٥) سُورَةُ الْفُرْقَانِ مَكِّيَّةٌ
وَأَيُّهَا تَسْبَعُ وَتَسْبَعُونَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ الَّذِي لَهُ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمَلِكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾

يقول تعالى حامداً لنفسه الكريمة على ما نزله على رسوله الكريم من القرآن العظيم، كما قال تعالى: ﴿الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب﴾، وقال ههنا: ﴿تبارك﴾ وهو تفاعل من البركة المستقرة الثابتة الدائمة، ﴿الذي نزل الفرقان﴾ نزل فعل من التكرار والتكثير، كقوله: ﴿والكتاب الذي نزل على رسوله والكتاب الذي أنزل من قبل﴾ لأن الكتب المتقدمة كانت تنزل جملة واحدة، والقرآن نزل منجماً مفرقاً مفصلاً آيات بعد آيات، وأحكاماً بعد أحكام، وسوراً بعد سور، وهذا أشد وأبلغ وأشد اعتناء بمن أنزل عليه، كما قال في هذه السورة: ﴿وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لثبت به قؤادك ورتلتناه ترتيلاً﴾ ولهذا سماه ههنا الفرقان لأنه يفرق بين الحق والباطل، والهدى والضلال، والغي والرشاد، والحلال والحرام، وقوله: ﴿على عبده﴾ هذه صفة مدح وثناء، لأنه أضافه إلى عبوديته، كما وصفه بها في أشرف أحواله وهي ليلة الإسراء فقال: ﴿سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً﴾، وكما وصفه بذلك في مقام الدعوة إليه ﴿وأنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبداً﴾، وقوله: ﴿ليكون للعالمين نذيراً﴾ أي إنما خصه بهذا الكتاب المفصل العظيم المبين المحكم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ﴿الذي جعله فرقاناً عظيماً ليخصه بالرسالة إلى من يستظل بالخضراء ويستقل على الغبراء﴾، كما قال ﷺ: «بعثت إلى الأحمر والأسود»، وقال: «وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة»، كما قال تعالى: ﴿قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً﴾ الآية، وهكذا قال ههنا: ﴿الذي له ملك السموات والأرض ولم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك﴾ ونزه نفسه عن الولد وعن الشريك، ثم أخبر أنه ﴿خلق كل شيء فقدره تقديراً﴾ أي كل شيء مما سواه مخلوق مريبوب، وهو خالق كل شيء وربّه، ومليكه وإلهه، وكل شيء تحت قهره وتدييره وتسخيره وتقديره .

وَأَتَّخِذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يُخْلِقُونَ شَيْعًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا

حَيَوةٌ وَلَا نُشُوراً ﴿٣﴾

يخبر تعالى عن جهل المشركين في اتخاذهم آلهة من دون الله، الخالق لكل شيء المالك لأزمة الأمور الذي ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، ومع هذا عبدوا معه من الأصنام ما لا يقدر على خلق جناح بعوضة، بل هم مخلوقون لا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً فكيف يملكون لعبادتهم؟ ﴿ولا يملكون موتاً ولا حياة ولا نشوراً﴾ أي ليس لهم من ذلك شيء بل ذلك كله مرجعه إلى الله عز وجل الذي هو يحيي ويميت، وهو الذي يعيد الخلاق يوم القيامة أولهم وآخرهم، ﴿ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة﴾، كقوله: ﴿وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر﴾، وقوله: ﴿فإنما هي زجرة واحدة فإذا هم بالساهرة﴾، ﴿إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم جميع لدينا محضرون﴾ فهو الله الذي لا إله غيره ولا رب سواه ولا تنبغي العبادة إلا له، وهو الذي لا ولد له ولا والد، ولا عديل ولا بديل ولا وزير ولا نظير بل هو الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد .

* وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرْتَهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءَ ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوا
أَسْطِيرُ الْأُولِينَ أَكْتَبَهَا فَهِيَ تَمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٦﴾

يقول تعالى مخبراً عن سخافة عقول الجهلة من الكفار في قولهم عن القرآن ﴿إن هذا إلا إفك﴾ أي كذب ﴿افتراه﴾ يعنون النبي ﷺ ﴿وأعانه عليه قوم آخرون﴾ أي واستعان على جمعه بقوم آخرين^(١)، فقال الله تعالى: ﴿فقد جاءوا ظلماً وزوراً﴾ أي فقد افتروا هم قولاً باطلاً وهم يعلمون أنه باطل، ويعرفون كذب أنفسهم فيما زعموه، وقالوا أساطير الأولين اكتبتها﴾ يعنون كتب الأوائل أي استنسخها﴾ فهي تملى عليه﴾ أي تقرأ عليه﴾ بكرة وأصيلاً﴾ أي أول النهار وآخره، وهذا الكلام لسخافته وكذبه كل أحد يعلم بطلانه، فإنه قد علم بالتواتر أن محمداً ﷺ لم يكن يعاني شيئاً من الكتابة، لا في أول عمره ولا في آخره، وقد نشأ بين أظهرهم من أول مولده إلى أن بعثه الله نحواً من أربعين سنة، وهم يعرفون مدخله، ومخرجه، وصدقه ونزاهته وبره وأمانته، حتى إنهم كانوا يسمونه في صغره، وإلى أن بعث: (الأمين) لما يعلمون من صدقه وبره، فلما أكرمه الله بما أكرمه به، نصبوا له العداوة، ورموه بهذه الأقوال التي يعلم كل عاقل براءته منها، وثاروا فيما يقذفونه به، فتارة من إفكهم يقولون ساحر، وتارة يقولون شاعر، وتارة يقولون مجنون، وتارة يقولون كذاب، وقال الله تعالى: ﴿انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلاً﴾. وقال تعالى في جواب ما عاندوا ههنا وافتروا: ﴿قل أنزله الذي يعلم السر في السموات والأرض﴾ الآية: أي أنزل القرآن المشتمل على أخبار الأولين والآخريين ﴿الذي يعلم السر﴾، أي الله الذي يعلم غيب السماوات والأرض، ويعلم السرائر كعلمه بالظواهر، وقوله تعالى: ﴿إنه كان غفوراً رحيماً﴾، دعاء لهم إلى التوبة والإنابة، وإخبار لهم بأن رحمته واسعة وأن حلمه عظيم، مع أن من تاب إليه تاب عليه، فهؤلاء مع كذبهم وافتراءهم وفجورهم وبهتانهم، يدعوهم إلى التوبة والإقلاع عما هم فيه إلى الإسلام والهدى، كما قال

(١) يعنون: جبراً مولى الحضرمي، وعداساً غلام عتبة، والقائل: أبو جهل لعنه الله .

تعالى: ﴿أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم﴾، وقال تعالى: ﴿إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق﴾. قال الحسن البصري: انظروا إلى هذا الكرم والجود، قتلوا أوليائه وهو يدعوهم إلى التوبة والرحمة .

* وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ﴿٨﴾ أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾ تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلُ لَكَ قُصُورًا ﴿١٠﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغِيظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَا أَلْقَاوْا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّبِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾

يخبر تعالى عن تعنت الكفار وعنادهم، وتكذيبهم للحق بلا حجة ولا دليل منهم، وإنما تعللوا بقولهم: ﴿ما لهذا الرسول يأكل الطعام﴾ يعنون كما نأكله، ويحتاج إليه كما نحتاج إليه ﴿ويمشي في الأسواق﴾ أي يتردد فيها وإليها طلباً للتكسب والتجارة ﴿لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيراً﴾ يقولون: هلا أنزل إليه ملك من عند الله فيكون له شاهداً على صدق ما يدعيه؟ وهذا كما قال فرعون: ﴿فلولا التي عليهِ أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين﴾ وكذلك قال هؤلاء على السواء تشابهت قلوبهم، ولهذا قالوا ﴿أو يلقى إليه كَنْزٌ﴾ أي علم كثر ينفق منه ﴿أو تكون له جنة يأكل منها﴾ أي تسير معه حيث سار، وهذا كله سهل يسير على الله ولكن له الحكمة في ترك ذلك، وله الحجة البالغة، ﴿وقال الظالمون إن تتبعون إلا رجلاً مسحوراً﴾، قال الله تعالى: ﴿انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا﴾ أي جاءوا بما يقذفونك به ويكذبون به عليك، من قولهم ساحر، مجنون، كذاب، شاعر؛ وكلها أقوال باطلة، كل أحد ممن له أدنى فهم وعقل يعرف كذبهم واقتراءهم في ذلك، ولهذا قال: ﴿فضلوا﴾ عن طريق الهدى ﴿فلا يستطيعون سبيلاً﴾، وذلك أن كل من خرج عن الحق وطريق الهدى فإنه ضال حيثما توجه، لأن الحق واحد ومنهجه متحد يصدق بعضه بعضاً؛ ثم قال تعالى مخبراً نبيه أنه إن شاء لآتاه خيراً مما يقولون في الدنيا وأفضل وأحسن، فقال: ﴿تبارك الذي إن شاء جعل لك خيراً من ذلك﴾ الآية. قال مجاهد: يعني في الدنيا، قال: وقريش يسمون كل بيت من حجارة قصرًا، كبيراً كان أو صغيراً. قال سفيان الثوري عن خيشمة قيل للنبي ﷺ: إن شئت أن نعطيك خزائن الأرض ومفاتيحها ما لم نعطه نبياً قبلك، ولا نعطي أحداً من بعدك، ولا ينقص ذلك مما لك عند الله. فقال: «اجمعوها لي في الآخرة»، فأنزل الله عز وجل في ذلك: ﴿تبارك الذي إن شاء جعل لك خيراً من ذلك﴾ الآية .

وقوله تعالى: ﴿بل كذبوا بالساعة﴾ أي إنما يقول هؤلاء هكذا تكذيباً وعناداً، لا أنهم يطلبون ذلك تبصراً

واسترشاداً، بل تكذيبهم بيوم القيامة يحملهم على قول ما يقولونه من هذه الأقوال، ﴿وأعتدنا﴾ أي أُرصدنا ﴿لمن كذب بالساعة سعيراً﴾ أي عذاباً أليماً حاراً لا يطاق في نار جهنم، وقوله: ﴿إذا رأتهم﴾ أي جهنم ﴿من مكان بعيد﴾ يعني في مقام المحشر، قال السدي: من مسيرة مائة عام ﴿سمعوا لها تغيظاً وزفيراً﴾ أي حنقاً عليهم، كما قال تعالى: ﴿إذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقاً وهي تفور﴾ تكاد تميز من الغيظ ﴿أي يكاد ينفصل بعضها من بعض من شدة غيظها على من كفر بالله. عن أبي وائل قال: خرجنا مع عبد الله بن مسعود ومعنا الربيع بن خيثم، فرؤا على حداد، فقام عبد الله ينظر إلى حديدة في النار، وينظر الربيع بن خيثم إليها، فتأيل الربيع ليسقط، فر عبد الله على أتون على شاطئ الفرات، فلما رآه عبد الله والنار تلتهب في جوفه قرأ هذه الآية: ﴿إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظاً وزفيراً﴾ فصعق، يعني الربيع، وحملوه إلى أهل بيته، فرابطه عبد الله إلى الظهر، فلم يفق رضي الله عنه. وعن مجاهد بإسناده إلى ابن عباس قال: إن الرجل ليجر إلى النار فتتروى وتنقبض بعضها إلى بعض فيقول لها الرحمن: مالك؟ قالت: إنه يستجير مني، فيقول: أرسلوا عبدي؛ وإن الرجل ليجر إلى النار فيقول: يا رب ما كان هذا الظن بك، فيقول: فما كان ظنك؟ فيقول: أن تسعني رحمتك، فيقول: أرسلوا عبدي؛ وإن الرجل ليجر إلى النار فتشوق إليه النار شهقة البغلة إلى الشعير، وتزفر زفرة لا يبقى أحد إلا خاف^(١). وقال عبيد بن عمير في قوله: ﴿سمعوا لها تغيظاً وزفيراً﴾ قال: إن جهنم لتزفر زفرة لا يبقى ملك مقرب ولا نبي مرسل إلا خرَّ لوجهه، ترتعد فرائضه، حتى إن إبراهيم عليه السلام ليجثو على ركبتيه، ويقول: رب لا أسألك اليوم إلا نفسي^(٢)، وقوله: ﴿وإذا ألقوا منها مكاناً ضيقاً مقرنين﴾ قال قتادة: مثل الزوج في الرمح أي من ضيقه، وسئل رسول الله ﷺ عن قول الله: ﴿وإذا ألقوا منها مكاناً ضيقاً مقرنين﴾ قال: «والذي نفسي بيده إنهم ليستكروهن في النار كما يستكروهن التود في الحائط». وقوله: ﴿مقرنين﴾ يعني مكتفين ﴿دعوا هنالك ثبوراً﴾ أي بالويل والحسرة والخيبة، ﴿لا تدعوا اليوم ثبوراً واحداً﴾ الآية. روى الإمام أحمد عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «أول من يكسى حلة من النار إبليس، فيضعها على حاجبيه ويسحبها من خلفه، وذريته من بعده، وهو ينادي: يا ثوراه، وينادون: يا ثورهم، حتى يقفوا على النار، فيقول: يا ثوراه، ويقولون: يا ثورهم، فيقال لهم: ﴿لا تدعوا اليوم ثبوراً واحداً وادعوا ثبوراً كثيراً﴾. عن ابن عباس: أي لا تدعوا اليوم ويلاً واحداً وادعوا ويلاً كثيراً، وقال الضحاك: الثبور الهلاك، والأظهر أن الثبور يجمع الهلاك والويل والخسار والدمار، كما قال موسى لفرعون: ﴿وإني لأظنك يا فرعون مشبوراً﴾ أي هالِكاً.

قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ هَلُمَّ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَسْعُورًا ﴿١٦﴾

يقول تعالى: يا محمد هذا الذي وصفناه لك من حال الأشقياء، الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم، فتلقاهم بوجه عبوس وتغيظ وزفير، ويلقون في أماكنها الضيقة مقرنين، لا يستطيعون حراكاً ولا استنصاراً ولا فكاكاً

(١) ذكره ابن جرير رحمه الله في تفسيره وقال ابن كثير: إسناده صحيح.

(٢) أخرجه عبد الرزاق عن مجاهد عن عبيد بن عمير.

بما هم فيه، أهذا خير أم جنة الخلد التي وعدها الله المتقين من عباده، التي أعدها لهم جزاء ومصيراً على ما أطاعوه في الدنيا وجعل مآلهم إليها؟! ﴿لهم فيها ما يشاءون﴾ من الملاذ من مآكل ومشارب، وملابس ومساكن، ومراكب ومناظر وغير ذلك مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب أحد، وهم في ذلك خالدون أبداً دائماً سرمداً، بلا انقطاع ولا زوال ولا انقضاء، ولا يبغون عنها حولاً، وهذا من وعد الله الذي تفضل به عليهم وأحسن به إليهم، ولهذا قال: ﴿كان على ربك وعداً مستولاً﴾ أي لا بد أن يقع وأن يكون، أي وعداً واجباً، وقال محمد بن كعب القرظي: إن الملائكة تسأل لهم ذلك ﴿ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم﴾، وقال أبو حازم: إذا كان يوم القيامة قال المؤمنون: ربنا عملنا لك بالذي أمرتنا فأجز لنا ما وعدتنا، فذلك قوله: ﴿وعداً مستولاً﴾ وهذا المقام في هذه السورة كما ذكر تعالى في سورة الصافات حال أهل الجنة وما فيها من النضرة والحبور؛ ثم قال: ﴿أذلك خير نزل أم شجرة الزقوم﴾ إنا جعلناها فتنه للظالمين ﴿الآيات﴾.

﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ﴾ ﴿١٧﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا اللَّهَ كَرِهَ كَانُوتِهِمْ فَتُوبُوا ﴿١٨﴾ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا وَمَنْ يَظْلِمِ مَنكُرًا نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾

يقول تعالى مخبراً عما يقع يوم القيامة من تفرغ الكفار في عبادتهم من عبدوا من دون الله من الملائكة وغيرهم فقال: ﴿ويوم يحشرهم وما يعبدون من دون الله﴾، قال مجاهد: هو عيسى والعزير والملائكة، ﴿فيقول أنتم أضللتهم عبادي هؤلاء﴾ الآية، أي فيقول تبارك وتعالى للمعبودين: أنتم دعوتهم هؤلاء إلى عبادتكم من دوني، أم هم عبدوكم من تلقاء أنفسهم من غير دعوة منكم لهم؟ كما قال الله تعالى: ﴿وإذ قال الله يا عيسى بن مريم أنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله؟ قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق﴾ الآية. ولهذا قال تعالى مخبراً عما يجب به المعبودون يوم القيامة: ﴿قالوا سبحانك ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء﴾، أي ليس للخلائق كلهم أن يعبدوا أحداً سواك لا نحن ولا هم، فنحن ما دعوناهم إلى ذلك بل هم فعلوا ذلك من تلقاء أنفسهم من غير أمرنا ولا رضانا، ونحن برآء منهم ومن عبادتهم، ﴿ولكن متعتهم وآباءهم﴾ أي طال عليهم العمر حتى نسوا الذكر، أي نسوا ما أنزلته إليهم على السنة رسلك من الدعوة إلى عبادتك وحدك لا شريك لك، ﴿وكانوا قوماً بوراً﴾ قال ابن عباس: أي هلكتي، وقال الحسن البصري: أي لا خير فيهم. قال الله تعالى: ﴿فقد كذبوكم بما تقولون﴾ أي فقد كذبكم الذين عبدتم من دون الله، فيما زعمتم أنهم لكم أولياء وأنهم يقرّبونكم إلى الله زلفى كقوله تعالى: ﴿وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين﴾. وقوله: ﴿فما تستطيعون صرفاً ولا نصراً﴾ أي لا يقدرّون على صرف العذاب عنهم ولا الانتصار لأنفسهم، ﴿ومن يظلم منكم﴾ أي يشرك بالله ﴿نذقه عذاباً كبيراً﴾.

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَبَاءٌ كَلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴾ ﴿٢٠﴾

يقول تعالى مخبراً عن جميع من بعثه من الرسل المتقدمين أنهم كانوا يأكلون الطعام، ويمشون في الأسواق للتكسب والتجارة، وليس ذلك بمناف لحالمهم ومنصبهم، فإن الله تعالى جعل لهم من السمات الحسنة، والصفات الجميلة، والأقوال الفاضلة، والأعمال الكاملة، والخوارق الباهرة، ما يستدل به كل ذي لب سليم على صدق ما جاءوا به من الله، ونظير هذه الآية الكريمة قوله تعالى: ﴿وما جعلناهم جسداً لا يأكلون الطعام﴾ الآية، وقوله تعالى: ﴿وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون﴾؟ أي اختبرنا بعضكم ببعض، وبلونا بعضكم ببعض لنعلم من يطيع ممن يعصي، ولهذا قال ﴿أتصبرون وكان ربك بصيراً﴾ أي بمن يستحق أن يوحى إليه، كما قال تعالى: ﴿الله أعلم حيث يجعل رسالته﴾ ومن يستحق أن يهديه الله ومن لا يستحق ذلك، وقال محمد بن إسحاق في قوله: ﴿وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون﴾؟ قال: يقول الله: لو شئت أن أجعل الدنيا مع رسلي فلا يخالفون لفعلت، ولكني قد أردت أن أتبلي العباد بهم وأبتليكم بهم، وفي صحيح مسلم: «يقول الله تعالى إني مبتليكم ومبتل بك»^(١)، وفي الصحيح أنه عليه أفضل الصلاة والسلام خير بين أن يكون نبياً ملكاً أو عبداً رسولاً، فاختر أن يكون عبداً رسولاً.

* وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حَجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِن عَمَلٍ جَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ﴿٢٣﴾ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقْرَأً وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾

يقول تعالى مخبراً عن تعنت الكفار في كفرهم وعنادهم في قولهم: ﴿لولا أنزل علينا الملائكة﴾ أي بالرسالة كما تنزل على الأنبياء، كما أخبر الله عنهم في الآية الأخرى ﴿قالوا لن تؤمن حتى توفى مثل ما أوتي رسل الله﴾، ويحتمل أن يكون مرادهم ههنا ﴿لولا أنزل علينا الملائكة﴾ فتراهم عياناً فيخبرونا أن محمداً رسول الله، كقولهم: ﴿أو تأتي بالله والملائكة قبيلاً﴾، ولهذا قالوا ﴿أو نرى ربنا﴾، ولهذا قال الله تعالى ﴿لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتواً كبيراً﴾، وقوله تعالى: ﴿يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين ويقولون حجراً محجوراً﴾ أي هم يوم يرونهم لا بشرى يومئذ لهم، وذلك يصدق على وقت الاحتضار، حين تبشرهم الملائكة بالنار، فتقول الملائكة للكافر عند خروج روحه: أخرجي أيتها النفس الخبيثة في الجسد الخبيث، أخرجي إلى سموم وحميم وظل من يحموم، فتأبى الخروج وتتفرق في البدن فيضربونه، كما قال الله تعالى: ﴿ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم﴾ الآية. وقال تعالى: ﴿ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطو أيديهم﴾ أي بالضرب، ولهذا قال في هذه الآية الكريمة: ﴿يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين﴾ وهذا بخلاف حال المؤمنين حال احتضارهم فإنهم يبشرون بالخيرات، وحصول المسرات، قال الله تعالى: ﴿إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة أن لا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون﴾، وفي الصحيح عن البراء بن عازب: إن الملائكة تقول لروح المؤمن: أخرجي أيتها النفس الطيبة في الجسد الطيب إن كنت تعمريته،

(١) أخرجه مسلم عن عياض بن حماد مرفوعاً.

أخرجني إلى روح وريحان ورب غير غضبان^(١)، وقال آخرون: بل المراد بقوله ﴿يوم يرون الملائكة لا بشرى﴾ يعني يوم القيامة، قاله مجاهد والضحاك وغيرهما؛ ولا منافاة بين هذا وما تقدم، فإن الملائكة في هذين اليومين - يوم المات ويوم المعاد - تنجلي للمؤمنين وللكافرين، فتبشر المؤمنين بالرحمة والرضوان، وتخبّر الكافرين بالخيبة والخسران، فلا بشرى يومئذ للمجرمين ﴿ويقولون حجراً محجوراً﴾ أي وتقول الملائكة للكافرين: حرام محرم عليكم الفلاح اليوم، وأصل الحجر المتع، ومنه يقال: حجر القاضي على فلان إذا منعه التصرف، إما لفسه أو صغر أو نحو ذلك؛ ومنه يقال للعقل (حِجْر) لأنه يمنع صاحبه عن تعاطي ما لا يليق، والغرض أن الضمير في قوله: ﴿ويقولون﴾ عائد على الملائكة، هذا قول مجاهد وعكرمة والضحاك واختاره ابن جرير .

وقوله تعالى: ﴿وقدمنا إلى ما عملوا من عمل﴾ الآية، هذا يوم القيامة حين يحاسب الله العباد على ما عملوه من الخير والشر، فأخبر أنه لا يحصل لهؤلاء المشركين من الأعمال التي ظنوا أنها منجاة لهم شيء، وذلك لأنها فقدت الشرط الشرعي إما الإخلاص فيها، وإما المتابعة لشرع الله، فكل عمل لا يكون خالصاً وعلى الشريعة المرضية فهو باطل، ولهذا قال تعالى: ﴿وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءً منثوراً﴾، عن علي رضي الله عنه في قوله ﴿هباءً منثوراً﴾ قال: شعاع الشمس إذا دخل الكوة. وكذا قال الحسن البصري: هو الشعاع في كوة أحدكم ولو ذهب يقبض عليه لم يستطع، وقال ابن عباس ﴿هباءً منثوراً﴾ قال: هو الماء المهرق، وقال قتادة: أما رأيت يبس الشجر إذا ذرته الريح؟ فهو ذلك الورك. وروى عبد الله بن وهب عن عبيد بن يعلى قال: إن الهباء الرماد إذا ذرته الريح، وحاصل هذه الأقوال التنبيه على مضمون الآية، وذلك أنهم عملوا أعمالاً اعتقدوا أنها على شيء، فلما عرضت على الملك الحكم العدل الذي لا يجوز ولا يظلم أحداً إذا بها لا شيء بالكلية، وشبهت في ذلك بالشيء التافه الحقير المتفرق، الذي لا يقدر صاحبه منه على شيء بالكلية، كما قال تعالى: ﴿مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً﴾ .

وقوله تعالى: ﴿أصحاب الجنة يومئذ خير مستقراً وأحسن مقيلاً﴾ أي يوم القيامة ﴿لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون﴾ وذلك أن أهل الجنة يصيرون إلى الدرجات العاليات، والغرفات الآمات، فهم في مقام أمين حسن المنظر طيب المقام ﴿خالدين فيها حسنت مستقراً ومقاماً﴾ وأهل النار يصيرون إلى الدركات السافلات، وأنواع العذاب والعقوبات ﴿إنها ساءت مستقراً ومقاماً﴾ أي ببس المنزل منظرًا وبس المقيلاً مقاماً، ولهذا قال تعالى: ﴿أصحاب الجنة يومئذ خير مستقراً وأحسن مقيلاً﴾ أي بما عملوه من الأعمال المتقبلة نالوا ما نالوا وصاروا إلى ما صاروا إليه بخلاف أهل النار، فإنهم ليس لهم عمل واحد يقتضي دخول الجنة لهم والنجاة من النار، فنبه تعالى بحال السعداء على حال الأشقياء وأنه لا خير عندهم بالكلية، فقال تعالى: ﴿أصحاب الجنة يومئذ خير مستقراً وأحسن مقيلاً﴾، قال ابن عباس: إنما هي ساعة فيقيل أولياء الله على الأسرة مع الحور العين، ويقيل أعداء الله مع الشياطين مقرنين، وقال سعيد بن جبير: يفرغ الله من الحساب نصف النهار فيقيل

(١) تقدم الحديث في سورة إبراهيم عند قوله تعالى ﴿يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت﴾ الآية .

أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار، قال الله تعالى: ﴿ أصحاب الجنة يومئذ خير مستقراً وأحسن مقيلاً ﴾، قال قتادة: أي مأوى ومترلاً. وقال ابن جرير عن سعيد الصواف: أنه بلغه أن يوم القيامة يقصر على المؤمن حتى يكون كما بين العصر إلى غروب الشمس، وانهم يتقلبون في رياض الجنة، حتى يفرغ من الناس، وذلك قوله تعالى: ﴿ أصحاب الجنة يومئذ خير مستقراً وأحسن مقيلاً ﴾ .

وَيَوْمَ تَشْقُقُ السَّمَاءُ بِالْغَمِّمِ وَنَزَلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلاً ﴿٢٥﴾ الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ ۗ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيراً ﴿٢٦﴾ وَيَوْمَ يَعْضُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَلْبِئَنِي أَنْتَحَدْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً ﴿٢٧﴾ يَتَوَلَّى لِيَنِّي لَرَأَيْتُ فُلَانًا خَلِيلاً ﴿٢٨﴾ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي ۗ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَدُولًا ﴿٢٩﴾

يخبر تعالى عن هول يوم القيامة وما يكون فيه من الأمور العظيمة، فمنها انشقاق السماء وتفطرها، وانفراجها بالغمام وهو ظلل النور العظيم الذي يبهر الأبصار، ونزول ملائكة السماوات يومئذ، فيحيطون بالخلائق في مقام المحشر، ثم يجيء الرب تبارك وتعالى لفصل القضاء، قال مجاهد: وهذا كما قال تعالى: ﴿ هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام والملائكة ﴾ الآية. قال شهر بن حوشب: حملة العرش ثمانية، أربعة منهم يقولون: سبحانك اللهم وبحمدك، لك الحمد على حلمك بعد علمك، وأربعة منهم يقولون: سبحانك اللهم وبحمدك، لك الحمد على عفوك بعد قدرتك .

وقوله تعالى: ﴿ الملك يومئذ الحق للرحمن ﴾ الآية، كما قال تعالى: ﴿ لمن الملك اليوم. لله الواحد القهار ﴾ وفي الصحيح: أن الله تعالى يطوي السماوات يمينه، ويأخذ الأرضين بيده الأخرى ثم يقول: أنا الملك، أنا الديان، أين ملوك الأرض؟ أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟. وقوله: ﴿ وكان يوماً على الكافرين عسيراً ﴾ أي شديداً صعباً لأنه يوم عدل وقضاء فصل، كما قال تعالى: ﴿ فذلك يومئذ يوم عسير * على الكافرين غير يسير ﴾ فهذا حال الكافرين في هذا اليوم، وأما المؤمنون فكما قال تعالى: ﴿ لا يحزنهم الفزع الأكبر ﴾ الآية، وروى الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري قال، قيل: يا رسول الله ﴿ يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ﴾ ما أطول هذا اليوم! فقال رسول الله ﷺ: « والذي نفسي بيده إنه ليخفف على المؤمن حتى يكون أخف عليه من صلاة مكتوبة يصلها في الدنيا ». وقوله تعالى: ﴿ ويوم يعض الظالم على يديه ﴾ الآية، يخبر تعالى عن ندم الظالم الذي فارق طريق الرسول ﷺ، وما جاء به من عند الله من الحق المبين الذي لا مرية فيه، وسلك طريقاً أخرى غير سبيل الرسول، فإذا كان يوم القيامة ندم حيث لا ينفعه الندم، وعض على يديه حسرة وأسفاً، وسواء كان سبب نزولها في عقبة بن معيط^(١)، أو غيره من الأشقياء، فإنها عامة في كل ظالم كما قال تعالى: ﴿ يوم تقلب وجوههم في النار ﴾ الآيتين، فكل ظالم يندم يوم القيامة غاية الندم، ويعض على يديه قائلاً ﴿ يا ليتني اتخدت مع الرسول سبيلاً * يا ويلتنا ليتني لم أتخذ فلاناً خليلاً ﴾ يعني من صرفه عن الهدى وعدل به إلى طريق الضلال من دعاة الضلالة، وسواء في ذلك (أمية بن خلف) أو أخوه (أبي بن خلف) أو غيرهما ﴿ لقد أضلني عن الذكر ﴾ وهو القرآن ﴿ بعد إذ جاءني ﴾

(١) أخرج ابن جرير: كان أبي بن خلف يحضر النبي ﷺ، فبذره عقبة بن أبي معيط، فنزلت هذه الآية، كما في اللباب .

أي بعد بلوغه إليّ، قال الله تعالى: ﴿وكان الشيطان للإنسان خذولاً﴾ أي يخذله عن الحق ويصرفه عنه ويستعمله في الباطل ويدعوه إليه .

وَقَالَ الرَّسُولُ يَرْبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ﴿٣١﴾ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣٢﴾

يقول تعالى مخبراً عن رسوله ونبيه محمد ﷺ أنه قال: ﴿يا رب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجوراً﴾، وذلك أن المشركين كانوا لا يصغون للقرآن ولا يسمعونه، كما قال تعالى: ﴿وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه﴾ الآية، فكانوا إذا تلى عليهم القرآن، أكثروا اللغظ والكلام حتى لا يسمعون؛ فهذا من هجرانه، وترك الإيمان به من هجرانه، وترك تدبره وتفهمه من هجرانه، وترك العمل به من هجرانه، والعدول عنه إلى غيره من شعر أو قول، أو غناء أو هجو من هجرانه. وقوله تعالى: ﴿وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً من المجرمين﴾ أي كما حصل لك يا محمد في قومك من الذين هجروا القرآن، كذلك كان في الأمم الماضين، لأن الله جعل لكل نبي عدواً من المجرمين، يدعون الناس إلى ضلالهم وكفرهم، كما قال تعالى: ﴿وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الإنس والجن﴾ الآية، ولهذا قال تعالى ههنا: ﴿وكفى بربك هادياً ونصيراً﴾ أي لمن اتبع رسوله وآمن بكتابه وصدقته واتبعه، فإن الله هاديه وناصره في الدنيا والآخرة .

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً ﴿٣٣﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٤﴾ الَّذِينَ يُحْشِرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ سُوءَ مَكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٣٥﴾

يقول تعالى مخبراً عن كثرة اعتراض الكفار وتعنتهم وكلامهم فيما لا يعنيه حيث قالوا: ﴿لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة﴾ أي هلا أنزل عليه هذا الكتاب الذي أوحى إليه جملة واحدة، كما نزلت الكتب قبله جملة واحدة كالتوراة والإنجيل والزيور وغيرها من الكتب الإلهية؟ فأجابهم الله تعالى عن ذلك بأنه إنما نزل منجماً في ثلاث وعشرين سنة بحسب الوقائع والحوادث وما يحتاج إليه من الأحكام ليثبت قلوب المؤمنين به كقوله: ﴿وقرآناً فرقناه﴾ الآية، ولهذا قال: ﴿لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلاً﴾، قال قتادة: بيناه تبييناً، وقال ابن زيد: وفسرناه تفسيراً ﴿ولا يأتونك بمثل﴾ أي بحجة وشبهة ﴿إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً﴾ أي: ولا يقولون قولاً يعارضون به الحق إلا أجبناهم بما هو الحق في نفس الأمر وأبين وأوضح وأفصح من مقالهم، قال ابن عباس: ﴿ولا يأتونك بمثل﴾ أي بما يلتمسون به عيب القرآن والرسول ﴿إلا جئناك بالحق﴾ أي: إلا نزل جبريل من الله تعالى بجوابهم، وما هذا إلا اعتناء وكبير شرف للرسول ﷺ، حيث كان يأتيه الوحي من الله عز وجل بالقرآن صباحاً ومساءً، سفيراً وحضراً، لا كإنزال ما قبله من الكتب المتقدمة؛ فهذا المقام أعلى وأجل وأعظم مكانة من سائر إخوانه الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين؛ فالقرآن أشرف كتاب أنزله الله، ومحمد ﷺ أعظم نبي أرسله الله تعالى،

وقد جمع الله للقرآن الصفتين معاً: ففي الملاً الأعلى أنزل جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة في السماء الدنيا؛ ثم أنزل بعد ذلك إلى الأرض منجماً بحسب الوقائع والحوادث. روي عن ابن عباس أنه قال: أنزل القرآن جملة واحدة إلى سماء الدنيا في ليلة القدر، ثم نزل بعد ذلك في عشرين سنة، قال الله تعالى: ﴿ولا يأتونك بمثل إلا جنتك بالحق وأحسن تفسيراً﴾، وقال تعالى: ﴿وقرآنًا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلاً﴾^(١)

ثم قال تعالى مخبراً عن سوء حال الكفار في معادهم يوم القيامة، وحشرهم إلى جهنم في أسوأ الحالات وأقبح الصفات، ﴿الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم أولئك شر مكاناً وأضل سبيلاً﴾، وفي الصحيح عن أنس، أن رجلاً قال: يا رسول الله! كيف يحشر الكافر على وجهه يوم القيامة؟ فقال: «إن الذي أمشاه على رجله قادر أن يمشيه على وجهه يوم القيامة».

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيْرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا أَذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً ﴿٣٧﴾ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٨﴾ وَعَادًا وَثَمُودًا وَأَصْحَابَ الرِّسِّ وَقُرُونَابِينَ ذَلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٩﴾ وَكَلَّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَكَلَّا تَبَرْنَا تَبِيرًا ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ آتَوْنَا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أَمْطَرْنَا مَطَرًا سَوِيًّا أَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَتْرُجُونَ نُسُورًا ﴿٤١﴾

يقول تعالى متوعداً من كذب رسوله محمداً ﷺ من مشركي قومه ومحذرهم من عقابه وألم عذابه، مما أحله بالأمم الماضية المكذبين لرسوله؛ فبدأ بذكر موسى وأنه بعثه وجعل معه أخاه هارون وزيراً أي نبياً موازراً ومؤيداً وناصرًا، فكذبهما فرعون وجنوده فدمر الله عليهم وللكافرين أمثالها، وكذلك فعل بقوم نوح حين كذبوا رسوله نوحاً عليه السلام، ولهذا قال تعالى: ﴿وقوم نوح لما كذبوا الرسل﴾ ولم يبعث إليهم إلا نوح فقط، وقد لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعوهم إلى الله عز وجل ويحذرهم نومه ﴿فما آمن معه إلا قليل﴾، ولهذا أغرقهم الله جميعاً ولم يبق منهم أحداً، ولم يترك من بني آدم على وجه الأرض سوى أصحاب السفينة فقط، ﴿وجعلناهم للناس آية﴾ أي عبرة يعتبرون بها، كما قال تعالى: ﴿إننا لما طغى الماء حملناكم في الجارية * لنجعلها لكم تذكراً وتعيها أذن واعية﴾ أي وأبقينا لكم من السفن ما تركبون في لجاج البحار، لتذكروا نعمة الله عليكم من إنجائكم من الغرق، وقوله تعالى: ﴿وعاداً وثمود وأصحاب الرس﴾ قد تقدم الكلام على قصتهما في غير ما سورة كسرة الأعراف بما أغنى عن الإعادة. وأما أصحاب الرس فقال ابن عباس: هم أهل قرية من قرى ثمود، وقال عكرمة: أصحاب الرس بفلج وهم أصحاب يس، وقال قتادة: فلج من قرى اليمامة، وعن عكرمة: الرس بئر رسوا فيها نبيهم، أي دفنوه فيها.

(١) أخرجه النسائي بإسناده عن ابن عباس.

وقوله تعالى: ﴿وقرونًا بين ذلك كثيراً﴾ أي وأماً - أضعاف من ذكر أهلكتناهم - كثيرة، ولهذا قال: ﴿وكلًا﴾ ضربنا له الأمثال ﴿أي بينا لهم الحجج، ووضحنا لهم الأدلة، وأزحنا الأعدار عنهم،﴾ و﴿كلًا﴾ تبرنا تبيراً ﴿أي أهلكتنا إهلاكاً، كقوله تعالى: ﴿وكم أهلكتنا من القرون من بعد نوح﴾، والقرن هو الأمة من الناس، كقوله: ﴿ثم أنشأنا من بعدهم قرونًا آخرين﴾، وحدّه بعضهم بمائة، وقيل بثمانين، والأظهر أن القرن هو الأمة المتعاصرون في الزمن الواحد، وإذا ذهبوا وخلفهم جيل فهو قرن آخر، كما ثبت في الصحيحين: «خير القرون قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم» الحديث. ﴿ولقد أتوا على القرية التي أمطرت مطر السوء﴾ يعني قرية قوم لوط وهي (سدوم) التي أهلكتها الله بالقلب وبالمر من الحجارة التي من سجيل، كما قال تعالى: ﴿وأمطرنا عليهم مطراً فساء مطر المنذرين﴾، وقال: ﴿وإنكم لتمرون عليهم مصبحين * وبالليل أفلا تعقلون﴾، وقال تعالى: ﴿وإنها لبسيل مقم﴾، وقال: ﴿وإنهما ليأمام مبين﴾، ولهذا قال: ﴿أفلم يكونوا يرونها﴾؟ أي فيعتبروا بما حل بأهلها من العذاب والنكال بسبب تكذيبهم بالرسول وبمخالفتهم أوامر الله، ﴿بل كانوا لا يرجون نشوراً﴾ يعني المارين بها من الكفار لا يعتبرون، لأنهم ﴿لا يرجون نشوراً﴾ أي معاداً يوم القيامة

وَإِذَا رَأَوْكَ إِذْ يَتَخَدُّونَكَ إِلَّا هُزْواً أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِنْ كَادَ لِيُضِلَّنَا عَنْ ءَاهْتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرُونَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلَّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ لِلْهِ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾

يخبر تعالى عن استهزاء المشركين بالرسول ﷺ إذا رآه، كما قال تعالى: ﴿وإذا رآك الذين كفروا إن يتخذونك إلا هزواً﴾ الآية، يعنونه بالعب والنقص، وقال ههنا: ﴿وإذا رآوك إن يتخذونك إلا هزواً أهذا الذي بعث الله رسولاً﴾؟ أي على سبيل التنقص والازدراء، وقوله تعالى: ﴿إن كاد ليضلنا عن آهتنا﴾ يعنون أنه كاد ينثبهم عن عبادة الأصنام، لولا أن صبروا وتجلدوا واستمروا عليها، قال الله تعالى متوعداً لهم ومتهدداً: ﴿وسوف يعلمون حين يرون العذاب﴾ الآية، ثم قال تعالى لنبه منبهاً: أن من كتب الله عليه الشقاوة والضلال فإنه لا يهديه أحد إلا الله عز وجل، ﴿أرأيت من اتخذ إلهه هواه﴾ أي مهما استحسنت من شيء ورآه حسناً في هوى نفسه كان دينه ومذهبه، كما قال تعالى: ﴿أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً فإن الله يضل من يشاء﴾ الآية، ولهذا قال ههنا: ﴿أفأنت تكون عليه وكيلاً﴾؟ قال ابن عباس: كان الرجل في الجاهلية يعبد الحجر الأبيض زماناً فإذا رأى غيره أحسن منه عبد الثاني وترك الأول، ثم قال تعالى: ﴿أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون﴾؟ الآية، أي هم أسوأ حالاً من الأنعام السارحة، فإن تلك تفعل ما خلقت له، وهؤلاء خلقوا لعبادة الله وحده، وهم يعبدون غيره ويشركون به، مع قيام الحجة عليهم وإرسال الرسل إليهم .

* أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُسُورًا ﴿٤٧﴾

شرح سبحانه وتعالى في بيانه الأدلة الدالة على وجوده، وقدرته التامة على خلق الأشياء المختلفة والمتضادة، فقال تعالى: ﴿ ألم تر إلى ربك كيف مد الظل ﴿٤٨﴾ ؟ قال ابن عباس ومجاهد: هو ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس ﴿ ولو شاء لجعله ساكناً ﴾ أي دائماً لا يزول، وقوله تعالى: ﴿ ثم جعلنا الشمس عليه دليلاً ﴾ أي لولا أن الشمس تطلع عليه لما عرف، وقال قتادة والسدي: دليلاً تتلوه وتتبعه حتى تأتي عليه كله، وقوله تعالى: ﴿ ثم قبضناه إلينا قبضاً يسيراً ﴾ أي الظل، وقيل الشمس، ﴿ يسيراً ﴾ أي سهلاً، قال ابن عباس: سريعاً، وقال مجاهد خفياً حتى لا يبقى في الأرض ظل إلا تحت سقف أو تحت شجرة. وقال أيوب بن موسى ﴿ قبضاً يسيراً ﴾: قليلاً قليلاً. وقوله: ﴿ وهو الذي جعل لكم الليل لباساً ﴾ أي يلبس الوجود ويغشاه، كما قال تعالى: ﴿ والليل إذا يغشى ﴾، ﴿ والنوم سباتاً ﴾ أي قاطعاً للحركة لراحة الأبدان، فإن الأعضاء والجوارح تكلم من كثرة الحركة، فإذا جاء الليل وسكن سكنت الحركات فاستراحت، فحصل النوم الذي فيه راحة البدن والروح معاً، ﴿ وجعل النهار نشوراً ﴾ أي ينتشر الناس فيه لمعايشهم ومكاسبهم وأسبابهم .

وهو الذي أرسل الريح بشراً بين يدي رحمته وأزلنا من السماء ماءً طهوراً ﴿٤٩﴾ لنحیی به بلدة ميتاً ونسقيه مما خلقنا أنعاماً وأناسی كثيراً ﴿٥٠﴾ ولقد صرفناه بينهم ليدكروا فآبى أكثر الناس إلا كفوراً ﴿٥١﴾

وهذا أيضاً من قدرته التامة وسلطانه العظيم، وهو أنه تعالى يرسل الرياح مبشرات، أي بمجيء السحاب بعدها. والرياح أنواع، فمنها ما يثير السحاب، ومنها ما يحمله، ومنها ما يسوقه، ومنها ما يكون بين يدي السحاب مبشراً، ومنها ما يلحق السحاب ليمطر، ولهذا قال تعالى: ﴿ وأنزلنا من السماء ماء طهوراً ﴾ أي آلة يتطهر بها كالسحور. فهذا أصح ما يقال في ذلك، وروى ابن أبي حاتم بإسناده عن خالد بن يزيد قال: كنا عند عبد الملك بن مروان، فذكروا الماء، فقال خالد بن يزيد: منه من السماء، ومنه ما يسوقه الغيم من البحر فيذب الرعد والبرق؛ فأما ما كان من البحر فلا يكون منه نبات، فأما النبات فما كان من السماء؛ وروي عن عكرمة قال: ما أنزل الله من السماء قطرة إلا أنبت بها في الأرض عشبة أو في البحر لؤلؤة. وقال غيره: في البرُّ، وفي البحر دُرُّ. وقوله تعالى: ﴿ لنحيي به بلدة ميتاً ﴾ أي أرضاً قد طال انتظارها للغيث فهي هامة لا نبات فيها ولا شيء، فلما جاءها الحياء عاشت واكتست رباها أنواع الأزاهير والألوان، كما قال تعالى: ﴿ فإذا أنزلنا عليها الماء اهترت وربت ﴾ الآية، ﴿ ونسقيه مما خلقنا أنعاماً وأناسی كثيراً ﴾ أي وليشرب منه الحيوان من أنعام وأناسي محتاجين إليه غاية الحاجة لشربهم وزروعهم وثمارهم، كما قال تعالى: ﴿ فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيي الأرض بعد موتها ﴾ الآية .

وقوله تعالى: ﴿ ولقد صرفناه بينهم ليدكروا ﴾ أي أمطرنا هذه الأرض دون هذه، وسقنا السحاب يمر على الأرض ويتعدها ويتجاوزها إلى الأرض الأخرى، فيمطرها ويكفيها ويجعلها غداً والتي وراءها لم يتزل فيها قطرة من ماء، وله في ذلك الحجة البالغة والحكمة القاطعة. قال ابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهما: ليس عام بأكثر مطراً من عام، ولكن الله يصرفه كيف يشاء، ثم قرأ هذه الآية ﴿ ولقد صرفناه بينهم ليدكروا فآبى أكثر الناس إلا كفوراً ﴾: أي ليدكروا بإحياء الله الأرض الميتة أنه قادر على إحياء الأموات والعظام الرفات، أو ليدكر من منع المطر إنما أصابه ذلك بذنب أصابه فيقلع عما هو فيه. وقوله: ﴿ فآبى أكثر الناس إلا كفوراً ﴾ قال

عكرمة: يعني الذين يقولون: مطرنا بنوء كذا وكذا، وفي صحيح مسلم عن رسول الله ﷺ أنه قال لأصحابه يوماً على أثر سماء أصابتهم من الليل: «أتدرون ماذا قال ربكم؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «قال أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته فذاك مؤمن بي كافر بالكوكب، وأما من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا فذاك كافر بي مؤمن بالكوكب».

﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تَطْعُمُ الْكٰفِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾ * وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٥﴾ ﴾

يقول تعالى: ﴿ ولو شئنا لبعثنا في كل قرية نذيراً ﴾ يدعوهم إلى الله عز وجل، ولكننا خصصناك يا محمد بالبعثة إلى جميع أهل الأرض، وأمرناك أن تبلغهم هذا القرآن ﴿ لأنذرهم به ومن بلغ ﴾، ﴿ قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً ﴾، وفي الصحيحين: «بعثت إلى الأحمر والأسود»، وفيهما «وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة»، ولهذا قال تعالى: ﴿ فلا تطع الكافرين وجاهدهم به ﴾ يعني بالقرآن، قاله ابن عباس ﴿ جهاداً كبيراً ﴾، كما قال تعالى: ﴿ يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين ﴾ الآية، وقوله تعالى: ﴿ وهو الذي مرج البحرين هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج ﴾ أي خلق المائين الحلو والملح، فالحلو كالأنهار والعيون والآبار. قاله ابن جرير واختاره ابن جرير، وهذا المعنى لا شك فيه، فإنه ليس في الوجود بحر ساكن وهو عذاب فرات، والله سبحانه وتعالى إنما أخبر بالواقع لبنه العباد على نعمه عليهم ليذكروهم، فالبحر العذب فرقه الله تعالى بين خلقه لاحتياجهم إليه أنهاراً أو عيوناً في كل أرض، بحسب حاجتهم وكفايتهم لأنفسهم وأراضيهم، وقوله تعالى: ﴿ وهذا ملح أجاج ﴾ أي مالح، مرٌّ، زعاق لا يستساغ، وذلك كالبهار المعروفة في المشارق والمغرب، البحر المحيط وبحر فارس وبحر الصين والهند وبحر الروم وبحر الخزر، وما شاكلها وشابهها من البحار الساكنة التي لا تجري، ولكن تموج وتضطرب وتلتطم في زمن الشتاء وشدة الرياح، ومنها ما فيه مد وجزر، ففي أول كل شهر يحصل منها مد وفيض، فإذا شرع الشهر في النقصان جزرت حتى ترجع إلى غايتها الأولى، فأجرى الله سبحانه وتعالى - وهو ذو القدرة التامة - العادة بذلك؛ فكل هذه البحار الساكنة خلقها الله سبحانه وتعالى مالحة، لثلا يحصل بسببها تنن الهواء، فيفسد الوجود بذلك، ولثلا تجوى الأرض بما يموت فيها من الحيوان، ولما كان ماؤها ملحاً كان هواؤها صحيحاً وميتها طيبة؛ ولهذا قال رسول الله ﷺ وقد سئل عن ماء البحر: أنتوضأ به؟ فقال: « هو الظهور ماؤه، الحل ميتته »^(١). وقوله تعالى: ﴿ وجعل بينهما برزخاً وحجراً ﴾ أي بين العذب والمالح ﴿ برزخاً ﴾ أي حاجزاً وهو اليبس من الأرض ﴿ وحجراً محجوراً ﴾ أي مانعاً من أن يصل أحدهما إلى الآخر، كقوله تعالى: ﴿ مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان ﴾، وقوله تعالى: ﴿ وجعل بين البحرين حاجزاً أإله مع الله؟ بل أكثرهم لا يعلمون ﴾، وقوله تعالى: ﴿ وهو الذي خلق من الماء بشراً ﴾ الآية، أي خلق الإنسان من نطفة ضعيفة

(١) رواه الأئمة مالك والشافعي وأحمد وأهل السنن بإسناد جيد.

فسوّاه وعدّله، وجعله كامل الخلقة ذكراً وأنثى كما يشاء، ﴿فجعل له نسباً وصهراً﴾ فهو في ابتداء أمره ولد نسيب، ثم يتزوج فيصير صهراً، ثم يصير له أصهار وأختان وقربات، وكل ذلك من ماء مهين، ولهذا قال تعالى: ﴿وكان ربك قديراً﴾ .

وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَا شَاءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَىٰ الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ ۗ وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَسَأَلْ بِهِ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ﴿٦٠﴾

يخبر تعالى عن جهل المشركين في عبادتهم غير الله من الأصنام، التي لا تملك لهم ضرراً ولا نفعاً بلا دليل قادم إلى ذلك ولا حجة أدتهم إليه بل بمجرد الآراء والأهواء، فهم يوالونهم ويقاتلون في سبيلهم ويعادون الله ورسوله والمؤمنين فيهم، ولهذا قال تعالى: ﴿وكان الكافر على ربه ظهيراً﴾ أي عوناً في سبيل الشيطان على حزب الله، وحزب الله هم الغالبون، قال مجاهد ﴿وكان الكافر على ربه ظهيراً﴾ قال: يظاهر الشيطان على معصية الله ويعينه، وقال سعيد بن جبير: عوناً للشيطان على ربه بالعداوة والشرك، وقال زيد بن أسلم: موالياً، ثم قال تعالى لرسوله صلوات الله وسلامه عليه: ﴿وما أرسلناك إلا مبشراً ونذيراً﴾ أي بشيراً للمؤمنين ونذيراً للكافرين، مبشراً بالجنة لمن أطاع الله، ونذيراً بين يدي عذاب شديد لمن خالف أمر الله، ﴿قل ما أسألكم عليه من أجر﴾ أي على هذا البلاغ وهذا الإنذار من أجره أطلبها من أموالكم، وإنما أفعال ذلك ابتغاء وجه الله تعالى، ﴿إلا من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلاً﴾ أي طريقاً ومسلكاً ومنهجاً يقتدي فيها بما جئت به، ثم قال تعالى: ﴿وتوكل على الحي الذي لا يموت﴾^(١) أي في أمورك كلها، كن متوكلاً على الله الحي الذي لا يموت أبداً، الدائم الباقي السرمدي، الأبدي الحي القيوم، رب كل شيء ومليكه، اجعله ذخرك وملجأك، فإنه كافيك وناصرك ومؤيدك ومظهرك، كما قال تعالى: ﴿والله يعصمك من الناس﴾ .

وقوله تعالى: ﴿وسبح بحمده﴾ أي اقرن بين حمده وتسيحه؛ ولهذا كان رسول الله ﷺ يقول: «سبحانك اللهم ربنا وبحمدك»، أي أخلص له العبادة والتوكل، كما قال تعالى: ﴿رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلاً﴾، وقال تعالى: ﴿فاعبده وتوكل عليه﴾، وقال تعالى: ﴿قل هو الرحمن آمنا به وعليه توكلنا﴾، وقوله تعالى: ﴿وكفى به بذنوب عباده خبيراً﴾ أي بعلمه التام لا يخفى عليه خافية ولا يعزب عنه مثقال ذرة، وقوله تعالى: ﴿الذي خلق السموات والأرض﴾ الآية، أي هو خالق كل شيء وربّه ومليكه، الذي خلق بقدرته

(١) روى ابن أبي حاتم عن شهر بن حوشب قال: لقي سلمان النبي ﷺ في بعض فجاج المدينة فسجد له، فقال: «لا تسجد لي يا سلمان واسجد للحي الذي لا يموت» قال ابن كثير: وهو مرسل حسن .

وسلطانه السماوات السبع في ارتفاعها واتساعها، والأرضين السبع في سفولها وكثافتها ﴿ في ستة أيام ثم استوى على العرش ﴾، يدبر الأمر ويقضي الحق وهو خير الفاصلين، وقوله: ﴿ فاسأل به خبيراً ﴾ أي استعلم عنه من هو خير به عالم به، فاتبعه واقتد به، وقد علم أنه لا أحد أعلم بالله ولا أخبر به، من عبده ورسوله محمد صلوات الله وسلامه عليه سيد ولد آدم على الإطلاق، الذي لا ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى، فما قاله فهو الحق، وما أخبره به فهو الصدق، ولهذا قال تعالى: ﴿ فاسأل به خبيراً ﴾، قال مجاهد: ما أخبرتك من شيء فهو كما أخبرتك، وقال شمر بن عطية: هذا القرآن خير به، ثم قال تعالى منكرأ على المشركين الذين يسجدون لغير الله من الأصنام والأنداد: ﴿ وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن ﴾ ؟ أي لا نعرف الرحمن، وكانوا ينكرون أن يسمى الله باسمه الرحمن، كما أنكروا ذلك يوم الحديبية حين قال النبي ﷺ للكاتب: « اكتب بسم الله الرحمن الرحيم »، فقالوا: لا نعرف الرحمن ولا الرحيم، ولكن اكتب كما كنت تكتب: باسمك اللهم؛ ولهذا أنزل الله تعالى: ﴿ قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أياً ما تدعوا فله الأسماء الحسنی ﴾ أي هو الله وهو الرحمن، وقال في هذه الآية: ﴿ وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن ﴾ أي لا نعرفه ولا نقرُّ به، ﴿ أنسجد لما تأمرنا ﴾ ؟ أي لمجرد قولك، ﴿ وزادهم نفوراً ﴾ فأما المؤمنون فإنهم يعبدون الله الذي هو الرحمن الرحيم ويفردونه بالآلهية ويسجدون له .

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا ﴾ ﴿ ٦١ ﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خُلْفَةً لِّمَن أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿ ٦٢ ﴾

يقول تعالى مجداً نفسه ومعظماً على جميل ما خلق في السماوات من البروج، وهي الكواكب العظام^(١)، وقيل: هي قصور في السماء للحرس^(٢)، والقول الأول أظهر، اللهم إلا أن يكون الكواكب العظام هي قصور للحرس فيجتمع القولان، كما قال تعالى: ﴿ ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح ﴾ الآية، ولهذا قال تعالى: ﴿ تبارك الذي جعل في السماء بروجاً وجعل فيها سراجاً ﴾ وهي الشمس المنيرة التي هي كالسراج في الوجود، كما قال تعالى: ﴿ وجعلنا سراجاً وهاجاً ﴾، ﴿ وقمرأ منيراً ﴾ أي مشرقاً مضيئاً بنور آخر من غير نور الشمس، كما قال تعالى: ﴿ وهو الذي جعل الشمس ضياءً والقمر نوراً ﴾، وقال: ﴿ وجعل القمر فيهن نوراً وجعل الشمس سراجاً ﴾، ثم قال تعالى: ﴿ وهو الذي جعل الليل والنهار خلفة ﴾ أي يخلف كل واحد منهما الآخر يتعاقبان لا يفتران، إذا ذهب هذا جاء هذا، وإذا جاء هذا ذهب ذلك، كما قال تعالى: ﴿ وسخر لكم الشمس والقمر دائنين ﴾ الآية، وقال: ﴿ يغشي الليل النهار يطلبه حثيثاً ﴾ الآية، وقال: ﴿ لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ﴾ الآية. وقوله تعالى: ﴿ لمن أراد أن يذكر أو أراد شكوراً ﴾ أي جعلهما يتعاقبان توقيتاً لعبادة عباده، فمن فاته عمل في الليل استدركه في النهار، ومن فاته عمل في النهار استدركه في الليل، وقد جاء في الحديث الصحيح: « إن الله عز وجل ييسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار وييسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل ». قال ابن عباس في الآية: من فاته شيء من الليل

(١) وهو قول مجاهد والحسن وقتادة وسعيد بن جبير .

(٢) وهو مروى عن علي وابن عباس وإبراهيم النخعي .

أن يعمله أدركه بالنهار، أو من النهار أدركه بالليل، وقال مجاهد وقتادة: خلفه أي مختلفين، أي هذا بسواده وهذا بضياؤه .

وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴿٦٣﴾ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴿٦٤﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾

هذه صفات عباد الله المؤمنين ﴿ الذين يمشون على الأرض هوناً ﴾ أي بسكينة ووقار من غير تجبر ولا استكبار، كقوله تعالى: ﴿ ولا تمش في الأرض مرحاً ﴾ الآية. وليس المراد أنهم يمشون كالمرضى تصنعاً ورياء، فقد كان سيد ولد آدم ﷺ إذا مشى كأنما ينحط من صَبَبٍ وكأنما الأرض تطوى له، وقد كره بعض السلف المشي بتضعف وتصنع، حتى روي عن عمر أنه رأى شاباً يمشي رويداً فقال: ما بالك ! أنت مريض ؟ قال: لا يا أمير المؤمنين، فعلاه بالدره، وأمره أن يمشي بقوة، وإنما المراد بالهون هنا السكينة والوقار، كما قال رسول الله ﷺ: « إذا أتيتم الصلاة فلا تأتوها وأنتم تسعون وأتوها وعليكم السكينة فما أدركتم منها فصلوا وما فاتكم فأتموا »، وقوله تعالى: ﴿ وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً ﴾ أي إذا سفه عليهم الجهال بالقول السيء لم يقابلوهم عليه بمثله، بل يعفون ويصفحون ولا يقولون إلا خيراً، كما كان رسول الله ﷺ، لا تزيده شدة الجاهل عليه إلا حِلماً، وكما قال تعالى: ﴿ وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه ﴾ الآية، وقال مجاهد ﴿ قالوا سلاماً ﴾: يعني قالوا سداداً، وقال سعيد بن جبیر: ردوا معروفاً من القول، وقال الحسن البصري: قالوا سلام عليكم، إن جهل عليهم حلموا، يصاحبون عباد الله نهارهم بما يسمعون، ثم ذكر أن ليلهم خير ليل؛ فقال تعالى: ﴿ والذين يبيتون لربهم سجداً وقياماً ﴾ أي في طاعته وعبادته، كما قال تعالى: ﴿ كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون وبالأسحار هم يستغفرون ﴾، وقوله: ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع ﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿ أمن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه ﴾ الآية، ولهذا قال تعالى: ﴿ والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراماً ﴾ أي ملازماً دائماً كما قال الشاعر:

إن يُعَذَّبَ يَكُنْ غَرَامًا وَإِنْ يَعْـ طِـرْ جَزِيلاً فَإِنَّهُ لَا يَبَالِي

ولهذا قال الحسن في قوله ﴿ إن عذابها كان غراماً ﴾: كل شيء يصيب ابن آدم ويزول عنه فليس بغرام، وإنما الغرام اللازم ما دامت الأرض والسموات. ﴿ إنها ساءت مستقراً ومقاماً ﴾ أي بئس المنزل منزلاً وبئس المقيلاً مقاماً، وروى ابن أبي حاتم عن مجاهد عن عبيد بن عمير قال: إن في النار لجباباً فيها حيات أمثال البُحْتِ، وعقارب أمثال البغال الدُّهُمِ، فإذا قذف بهم في النار خرجت إليهم من أوطانها، فأخذت بشفاههم وأبشارهم وأشعارهم، فكشطت لحومهم إلى أقدامهم، فإذا وجدت حر النار رجعت. وروى الإمام أحمد عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: « إن عبداً في جهنم لينادي ألف سنة: يا حنان يا منان، فيقول الله عز وجل لجبريل: اذهب فأتني بعبدى هذا، فينطلق جبريل، فيجد أهل النار مكبين بيبكون، فيرجع إلى ربه عز وجل فيخبره، فيقول

الله عزَّ وجلَّ: اثني به فإنه في مكان كذا وكذا، فيجىء به، فيوقفه على ربه عزَّ وجلَّ، فيقول له: يا عبدي كيف وجدت مكانك ومقيلك؟ فيقول: يا رب شر مكان وشر مقيل، فيقول الله عزَّ وجلَّ: ردوا عبدي، فيقول: يا رب ما كنت أرجو إذ أخرجتني منها أن تردني فيها، فيقول الله عزَّ وجلَّ: دعوا عبدي^(١). وقوله تعالى: ﴿والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا﴾ الآية، أي ليسوا بمبذرين في إنفاقهم فيصرفون فوق الحاجة، ولا بخلاء على أهلهم، فيقتصرون في حقهم فلا يكفونهم، بل عدلاً خياراً، وخير الأمور أوسطها لا هذا ولا هذا ﴿وكان بين ذلك قواماً﴾، كما قال تعالى: ﴿ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط﴾ الآية. وفي الحديث: «من فقه الرجل قصده في معيشته»^(٢)، وعن عبد الله بن مسعود قال، قال رسول الله ﷺ: «ما عال من اقتصد»، وقال الحسن البصري: ليس في النفقة في سبيل الله سرف، وقال إياس بن معاوية: ما جاوزت به أمر الله تعالى فهو سرف، وقال غيره: السرف النفقة في معصية الله عزَّ وجلَّ.

﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضْعَفُ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدُ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ﴿٧٠﴾ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٧١﴾ وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ﴿٧٢﴾﴾

عن عبد الله بن مسعود قال: سئل رسول الله ﷺ أي الذنب أكبر؟ قال: «أن تجعل لله أنداداً وهو خلقك»، قال: ثم أي؟ قال: «أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك»، قال: ثم أي؟ قال: «أن تزاني حليلة جارك»، قال عبد الله: وأنزل الله تصديق ذلك ﴿والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر﴾ الآية^(٣) وعن سلمة بن قيس قال، قال رسول الله ﷺ في حجة الوداع: «ألا إنما هي أربع» فما أنا بأشح عليهن منذ سمعتن من رسول الله ﷺ: «لا تشركوا بالله شيئاً، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق، ولا تزنوا، ولا تسرقوا». وروى الإمام أحمد عن المقداد بن الأسود رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «ما تقولون في الزنا؟» قالوا: حرمه الله ورسوله فهو حرام إلى يوم القيامة، فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: «لأن يزني الرجل بعشر نسوة أيسر عليه من أن يزني بامرأة جاره» قال: «فما تقولون في السرقة؟» قالوا: حرمها الله ورسوله فهي حرام، قال: «لأن يسرق الرجل من عشرة أبيات أيسر عليه من أن يسرق من بيت جاره». وعن الهيثم بن مالك الطائي عن النبي ﷺ قال: «ما من ذنب بعد الشرك أعظم عند الله من نطفة وضعها رجل في رحم لا يحل له»^(٤)، وقال ابن عباس: إن ناساً من أهل الشرك قتلوا فأكثروا، وزنوا فأكثروا، ثم أتوا محمداً ﷺ فقالوا: إن الذي تقول وتدعو إليه لحسن، لو تخبرنا أن لما عملنا كفارة، فتزلت: ﴿والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر﴾ الآية، ونزلت: ﴿قل

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند. (٢) أخرجه الإمام أحمد أيضاً.

(٣) أخرجه النسائي والإمام أحمد ورواه البخاري ومسلم ولفظهما عن ابن مسعود قال: قلت يا رسول الله أي الذنب أعظم عند

(٤) أخرجه أبو بكر بن أبي الدنيا عن الهيثم بن مالك مرفوعاً.

الله؟ الحديث.

يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم ﴿ الآية. وقوله تعالى: ﴿ ومن يفعل ذلك يلق أثاماً ﴾، روي عن عبد الله بن عمرو أنه قال: أثاماً: واد في جهنم، وقال عكرمة ﴿ يلق أثاماً ﴾ أودية في جهنم يعذب فيها الزناة، وقال قتادة ﴿ يلق أثاماً ﴾: نكالا، كنا نحدث أنه واد في جهنم، وقال السدي ﴿ يلق أثاماً ﴾ جزاء، وهذا أشبه بظاهر الآية وبهذا فسره بما بعده مبدلاً منه، وهو قوله تعالى: ﴿ يضاعف له العذاب يوم القيامة ﴾ أي يقرر عليه ويغلف ﴿ ويخلد فيه مهاناً ﴾ أي حقيراً ذليلاً، وقوله تعالى: ﴿ إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً ﴾ أي جزاؤه على ما فعل من هذه الصفات القيحة ما ذكر ﴿ إلا من تاب ﴾ أي في الدنيا إلى الله عزَّ وجلَّ من جميع ذلك فإن الله يتوب عليه، وفي ذلك دلالة على صحة توبة القاتل، ولا تعارض بين هذه وبين آية النساء ﴿ ومن يقتل مؤمناً متعمداً ﴾ الآية، فإن هذه وإن كانت مدنية، إلا أنها مطلقة، فتحمل على من لم يتب .

وقوله تعالى: ﴿ فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفوراً رحيماً ﴾. في معنى قوله: ﴿ يبدل الله سيئاتهم حسنات ﴾ قولان: أحدهما أنهم بدلوا مكان عمل السيئات بعمل الحسنات، قال ابن عباس: هم المؤمنون كانوا من قبل إيمانهم على السيئات فرغب الله بهم عن السيئات فحولهم إلى الحسنات فأبدلهم مكان السيئات الحسنات. وقال سعيد بن جبير: أبدلهم الله بعبادة الأوثان عبادة الرحمن، وأبدلهم بقتال المسلمين قتال المشركين، وأبدلهم بنكاح المشركات نكاح المؤمنات، وقال الحسن البصري: أبدلهم الله بالعمل السوء بالعمل الصالح، وأبدلهم بالشرك إخلاصاً، وأبدلهم بالفجور إحصاناً، وبالكفر إسلاماً، (والقول الثاني): أن تلك السيئات الماضية تنقلب بنفس التوبة النصوح حسنات، كما ثبتت السنة بذلك وصحت به الآثار المروية عن السلف رضي الله عنهم. فعن أبي ذر رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: « إني لأعرف آخر أهل النار خروجاً من النار، وآخر أهل الجنة دخولاً إلى الجنة، يؤتى برجل فيقول: نحواً عنه كبار ذنوبه وسلوه عن صغارها، قال فيقال له: عملت يوم كذا، كذا وكذا، وعملت يوم كذا، كذا وكذا، فيقول: نعم، لا يستطيع أن ينكر من ذلك شيئاً، فيقال: فإن لك بكل سيئة حسنة، فيقول: يا رب عملت أشياء لا أراها ههنا » قال: فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه ^(١). وعن أبي هريرة قال: ليأتين الله عزَّ وجلَّ بأناس يوم القيامة رأوا أنهم قد استكثروا من السيئات، قيل: من هم يا أبا هريرة؟ قال: الذين يبدل الله سيئاتهم حسنات ^(٢)، وقال علي بن الحسين زين العابدين ﴿ يبدل الله سيئاتهم حسنات ﴾ قال: في الآخرة. وقال مكحول: يغفرها لهم فيجعلها حسنات، قال ابن أبي حاتم حدثنا أبو جابر أنه سمع مكحولاً يحدث قال: جاء شيخ كبير هرم قد سقط حاجباه على عينيه فقال: يا رسول الله رجل غدر وفجر ولم يدع حاجة ولا داجة إلا اقتطفها بيمينه، لو قسمت خطيئته بين أهل الأرض لأوبقتهم فهل له من توبة؟ فقال النبي ﷺ: « أسلمت؟ » قال: أما أنا فأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله فقال النبي ﷺ: « فإن الله غافر لك ما كنت كذلك ومبدل سيئاتك حسنات »، فقال: يا رسول الله وغدراتي وفجراتي؟ فقال: « وغدراتك وفجراتك »، فولى الرجل يكبر ويهمل ^(٣). ثم قال تعالى مخبراً عن عموم رحمته بعباده وأنه من تاب إليه منهم تاب عليه من أي ذنب كان جليلاً أو حقيراً كبيراً أو صغيراً، فقال تعالى: ﴿ ومن تاب

(١) أخرجه مسلم في صحيحه .

(٢) رواه ابن أبي حاتم وأخرجه الطبراني بنحوه .

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم عن أبي هريرة موقوفاً .

وعمل صالحاً فإنه يتوب إلى الله متاباً ﴿٧٢﴾ أي فإن الله يقبل توبته، كما قال تعالى: ﴿ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله﴾ الآية: أي لمن تاب إليه .

وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴿٧٣﴾ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٤﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٥﴾

وهذه أيضاً من صفات عباد الرحمن أنهم لا يشهدون الزور، قيل: هو الشرك وعبادة الأصنام، وقيل: الكذب والفسق واللغو والباطل، وقال محمد بن الحنفية: هو اللغو والغناء، وقال عمرو بن قيس: هي المجالس السوء والخنا، وقيل: المراد بقوله تعالى: ﴿لا يشهدون الزور﴾ أي شهادة الزور، وهي الكذب متعمداً على غيره كما في الصحيحين: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ ثلاثاً، قلنا: بلى يا رسول الله، قال: «الشرك بالله وعقوق الوالدين»، وكان متكئاً فجلس، فقال: «ألا وقول الزور ألا وشهادة الزور» فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت^(١)، والأظهر من السياق أن المراد لا يشهدون الزور أي لا يحضرونه، ولهذا قال تعالى: ﴿وإذا مروا باللغو مروا كراماً﴾ أي لا يحضرون الزور، وإذا اتفق مرورهم به مروا ولم يتدنسوا منه بشيء، ولهذا قال: ﴿مروا كراماً﴾، وروى ابن أبي حاتم عن ميسرة قال: بلغني أن ابن مسعود مرّ بلهو معرضاً فلم يقف، فقال رسول الله ﷺ: «لقد أصبح ابن مسعود وأمسي كريماً» ثم تلا إبراهيم بن ميسرة: ﴿وإذا مروا باللغو مروا كراماً﴾، وقوله تعالى: ﴿والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صمًّا وعمياناً﴾ وهذه أيضاً من صفات المؤمنين ﴿الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون﴾ بخلاف الكافر، فإنه إذا سمع كلام الله لا يؤثر فيه، ولا يتغير عما كان عليه، بل يبقى مستمراً على كفره وطغيانه، وجهله وضلاله، كما قال تعالى: ﴿وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم﴾، فقله: ﴿لم يخروا عليها صمًّا وعمياناً﴾ أي بخلاف الكافر الذي إذا سمع آيات الله فلا تؤثر فيه فيستمر على حاله كأن لم يسمعها أصم أعمى، قال مجاهد قوله: ﴿لم يخروا عليها صمًّا وعمياناً﴾ قال: لم يسمعوا ولم يبصروا ولم يفقهوا شيئاً، وقال الحسن البصري: كم من رجل يقرؤها ويخر عليها أصم أعمى، وقال قتادة: لم يصموا عن الحق ولم يعموا فيه، فهم والله قوم عقلوا عن الحق وانتفعوا بما سمعوا من كتابه .

وقوله تعالى: ﴿والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين﴾ يعني الذين يسألون الله أن يخرج من أصلابهم من ذرياتهم من يطيعه ويعبده وحده لا شريك له، قال ابن عباس: يعنون من يعمل بطاعة الله ففقر به أعينهم في الدنيا والآخرة، قال عكرمة: لم يريدوا بذلك صباحة ولا جمالا، ولكن أرادوا أن يكونوا مطيعين. وسئل الحسن البصري عن هذه الآية فقال: أن يرى الله العبد المسلم من زوجته ومن أخيه ومن حميمه طاعة الله، لا والله لا شيء أقر لعين المسلم من أن يرى ولدًا، أو ولد ولد، أو أخًا، أو حمياً مطيعاً لله عز وجل. وقال ابن

(١) أخرجه الشيخان عن أبي بكر رضي الله عنه مرفوعاً .

أسلم: يعني يسألون الله تعالى لأزواجهم وذرياتهم أن يهديهم للإسلام. وقوله تعالى: ﴿واجعلنا للمتقين إماماً﴾ قال ابن عباس والحسن والسدي: أئمة يقتدى بنا في الخير، وقال غيرهم: هداة مهتدين دعاة إلى الخير، ولهذا ثبت في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: ولد صالح يدعو له، أو علم ينتفع به من بعده، أو صدقة جارية».

أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَوْنَ فِيهَا نَجِيَّةً وَسَلَامًا ﴿٧٥﴾ خَالِدِينَ فِيهَا حَسَنَتٌ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾ قُلْ مَا يَعْبُؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴿٧٧﴾

لما ذكر تعالى من أوصاف عباده المؤمنين ما ذكر من الصفات الجميلة، والأقوال والأفعال الجليلة، قال بعد ذلك كله: ﴿أولئك﴾ أي المتصفون بهذه ﴿يجزون﴾ يوم القيامة ﴿الغرفة﴾ وهي الجنة سميت بذلك لارتفاعها، ﴿بما صبروا﴾ أي على القيام بذلك، ﴿ويلقون فيها﴾ أي في الجنة ﴿نجية وسلاماً﴾ أي يتدرون فيها بالتحية والإكرام، ويلقون التوقير والاحترام، فلهم السلام وعليهم السلام، فإن الملائكة يدخلون عليهم من كل باب ﴿سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار﴾، وقوله تعالى: ﴿خالدين فيها﴾ أي مقيمين لا يظعنون ولا يحولون ولا يموتون، ولا يزولون عنها ولا يبعثون عنها حولاً، كما قال تعالى: ﴿وأما الذين سعدوا في الجنة خالدين فيها ما دامت السموات والأرض﴾ الآية. وقوله تعالى: ﴿حسنت مستقراً ومقاماً﴾ أي حسنت منظرًا وطابت مقبلاً ومنزلاً، ثم قال تعالى: ﴿قل ما يعبأ بكم ربي﴾ أي لا يبالي ولا يكثر بكم إذا لم تعبدوه، فإنه إنما خلق الخلق ليعبدوه ويوحده ويَسبِّحوه بكرة وأصيلاً.

قال ابن عباس: لولا دعاؤكم: أي لولا إيمانكم، وأخبر تعالى الكفار أنه لا حاجة لهم إذ لم يخلقهم مؤمنين، ولو كان لهم حاجة لحب إليهم الإيمان كما حبه إلى المؤمنين. وقوله تعالى: ﴿فقد كذبتم﴾ أيها الكافرون ﴿فسوف يكون لزاماً﴾ أي فسوف يكون تكذيبكم لزاماً لكم، يعني مقتضياً لعذابكم وهلاككم ودماركم في الدنيا والآخرة.

[آخر تفسير سورة الفرقان ، والله الحمد والمنة]

* * *

(٢٦) سُورَةُ الشَّجَرَةِ مَكِّيَّةٌ
وَآيَاتُهَا سِتْعٌ وَعَشْرُونَ وَمِائَتَانِ

(ووقع في تفسير مالك المروى عنه تسميتها سورة الجامعة)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

طَسَمَ ﴿١﴾ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ لَعَلَّكَ بَخِيعٌ نَفْسِكَ إِلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ إِنْ نَشَأْ نُزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةٌ فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴿٤﴾ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحَدِّثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴿٥﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءٌ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦﴾ أُولَئِكَ يَرَوْنَ إِلَى الْأَرْضِ كَرَاهًا يُضَاهَى مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿٧﴾ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ وَمَا كَانَتْ أَكْثَرُهمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٩﴾

أما الكلام على الحروف المقطعة في أوائل السور فقد تكلمنا عليه في أول تفسير سورة البقرة، وقوله تعالى: ﴿ تلك آيات الكتاب المبين ﴾ أي هذه آيات القرآن المبين، أي البين الواضح الجلي، الذي يفصل بين الحق والباطل والغي والرشاد، وقوله تعالى: ﴿ لعلك باخع ﴾ أي مهلك ﴿ نفسك ﴾ أي مما تحرص وتحزن عليهم ﴿ ألا يكونوا مؤمنين ﴾، وهذه تسلية من الله لرسوله ﷺ في عدم إيمان من لم يؤمن به من الكفار، كما قال تعالى: ﴿ فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ﴾، كقوله: ﴿ فلعلك باخع نفسك على آثارك ﴾ الآية. قال مجاهد وعكرمة ﴿ لعلك باخع نفسك ﴾: أي قاتل نفسك، ثم قال تعالى: ﴿ إن نشأ نزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين ﴾ أي لو نشاء لأنزلنا آية تضطرهم إلى الإيمان قهراً، ولكن لا نفع ذلك لأننا لا نريد من أحد إلا الإيمان الاختياري، وقال تعالى: ﴿ ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً ﴾، وقال تعالى: ﴿ ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ﴾ الآية، فنفذ قدره ومضت حكمته، وقامت حجته البالغة على خلقه بإرسال الرسل إليهم وإنزال الكتب عليهم، ثم قال تعالى: ﴿ وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث إلا كانوا عنه معرضين ﴾ أي كلما جاءهم كتاب من السماء أعرض عنه أكثر الناس كما قال تعالى: ﴿ وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين ﴾، وقال تعالى: ﴿ يا حسرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون ﴾، وقال تعالى: ﴿ كلما جاء أمة رسولا كذبوه ﴾ الآية. ولهذا قال تعالى ههنا: ﴿ فقد كذبوا فسيأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون ﴾ أي فقد كذبوا بما جاءهم من الحق، فسيعلمون نبأ هذا التكذيب بعد حين، ثم نبه تعالى على عظمة سلطانه وجلالة قدره، وهو القاهر العظيم القادر

الذي خلق الأرض وأنت فيها من كل زوج كريم، من زروع وثمار وحيوان، قال الشعبي: الناس من نبات الأرض، فمن دخل الجنة فهو كريم، ومن دخل النار فهو لئيم، ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ﴾ أي دلالة على قدرة الخالق للأشياء، الذي بسط الأرض، ورفع بناء السماء ومع هذا ما آمن أكثر الناس، بل كذبوا به وبرزلوه، وقوله: ﴿وَإِنْ رَبُّكَ لَهوَ الْعَزِيزُ﴾ أي الذي عز كل شيء وقهره وغلبه، ﴿الرَّحِيمُ﴾ أي بخلقه فلا يعجل على من عصاه بل يؤجله وينظره ثم يأخذه أخذ عزيز مقتدر، قال أبو العالية: العزيز في نعمته وانتصاره ممن خالف أمره وعبد غيره الرحيم بمن تاب إليه وأتاب.

وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنْ أَنْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُمْ عَلَىٰ ذَنْبٍ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَآتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَلَمْ نَرْبِكْ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعَلْتِكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتَهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٢٢﴾

يخبر تعالى عما أمر به عبده ورسوله وكليمه (موسى بن عمران) عليه السلام حين ناداه من جانب الطور الأيمن، وكلمه ونجاه، وأرسله واصطفاه، وأمره بالذهاب إلى فرعون وملئه، ولهذا قال تعالى: ﴿أَنْ أَنْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ قوم فرعون ألا يتقون * قال رب إني أخاف أن يكذبون * ويضيق صدري ولا ينطق لساني فأرسل إلى هارون * وهم علي ذنب فأخاف أن يقتلون * هذه أعداء سأل من الله إزاحتها عنه، كما قال في سورة طه ﴿قال رب اشرح لي صدري ويسر لي أمري - إلى قوله - قد أوتيت سؤالك يا موسى﴾، وقوله تعالى: ﴿وهم علي ذنب فأخاف أن يقتلون﴾ أي بسبب قتل القبطي الذي كان سبب خروجه من بلاد مصر، ﴿قال كلا﴾ أي قال الله له: لا تخف من شيء من ذلك، كقوله: ﴿سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطاناً﴾، ﴿فاذهبا بآياتنا إنا معكم مستمعون﴾، كقوله: ﴿إنتي معكما أسمع وأرى﴾ أي إنتي معكما بحفظي وكلاءتي ونصري وتأييدي، ﴿فآتيا فرعون فقولا إنا رسول رب العالمين﴾، كقوله في الآية الأخرى: ﴿إنا رسولا ربك﴾ أي كل منا أرسل إليك، ﴿أن أرسل معنا بني إسرائيل﴾ أي أطلقهم من إسارك وقبضتك وقهرك وتعذيبك، فإنهم عباد الله المؤمنون وحزبه المخلصون، فلما قال له موسى ذلك أعرض فرعون هنالك بالكلية، ونظر إليه بعين الازدراء والغمص فقال: ﴿ألم نربك فينا وليداً﴾ الآية، أي أما أنت الذي ربنا فينا وفي بيتنا وعلى فراشنا، وأنعمنا عليه مدة من السنين، ثم بعد هذا قابلت ذلك الإحسان بتلك الفعلة أن قتلت منا رجلاً وجحدت نعمتنا عليك، ولهذا قال: ﴿وأنت من الكافرين﴾ أي الجاحدين

﴿ قال فعلتها إذا ﴾ أي في تلك الحال ﴿ وأنا من الضالين ﴾ أي قبل أن يوحى إليّ وينعم الله عليّ بالرسالة والنبوة، قال ابن عباس ﴿ وأنا من الضالين ﴾ أي الجاهلين، ﴿ ففررت منكم لما خفتكم ﴾ الآية، أي انفصل الحال الأول وجاء أمر آخر، فقد أرسلني الله إليك فإن أطعته سلمت، وإن خالفته عطبت، ثم قال موسى: ﴿ وتلك نعمة تمنها عليّ أن عبّدت بني إسرائيل ﴾ أي وما أحسنت إليّ وربيتني مقابل ما أسأت إلى بني إسرائيل، فجعلتهم عبيداً وخداماً، تصرفهم في أعمالك ومشاق رعيتك، أفيني إحسانك إلى رجل واحد منهم بما أسأت إلى مجموعهم؟ أي ليس ما ذكرته شيئاً بالنسبة إلى ما فعلت بهم .

قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمْعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنْ رَسُولُكُمْ أَلَدِي أَرْسِلْ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾

يقول تعالى مخبراً عن كفر فرعون وتمرده وطغيانه وجحوده في قوله: ﴿ وما رب العالمين ﴾، وذلك أنه كان يقول لقومه: ﴿ ما علمت لكم من إله غيري ﴾ ﴿ فاستخف قومه فأطاعوه ﴾ وكانوا يمجحدون الصانع جلّ وعلا، ويعتقدون أنه لا رب لهم سوى فرعون، فلما قال له موسى: إني رسول رب العالمين، قال له فرعون: ومن هذا الذي تزعم أنه رب العالمين غيري؟ هكذا فسره علماء السلف وأئمة الخلف، حتى قال السدي: هذه الآية كقوله تعالى: ﴿ قال فن ربكما يا موسى ﴾ فعند ذلك قال موسى لما سأله عن رب العالمين: ﴿ قال رب السموات والأرض وما بينهما ﴾ أي خالق جميع ذلك ومالكه، والمتصرف فيه، وإلهه لا شريك له، هو الذي خلق الأشياء كلها من بحار وقفار، وجبال وأشجار، ونبات وثمار، وما بين ذلك من الهواء والطير، وما يحتوي عليه الجو، الجميع عبيد له خاضعون ذليلون ﴿ إن كنتم موقنين ﴾ أي إن كانت لكم قلوب موقنة وأبصار نافذة، فعند ذلك التفت فرعون إلى من حوله من ملئه ورؤساء دولته قائلاً على سبيل التهكم والاستهزاء والتكذيب لموسى فيما قاله: ﴿ ألا تستمعون ﴾؟ أي ألا تعجبون من هذا في زعمه أن لكم إلهاً غيري؟ فقال لهم موسى: ﴿ ربكم ورب آبائكم الأولين ﴾ أي خالقكم وخالق آبائكم الأولين الذين كانوا قبل فرعون وزمانه، ﴿ قال ﴾ أي فرعون لقومه ﴿ إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون ﴾ أي ليس له عقل في دعواه أن تم رباً غيري، ﴿ قال ﴾ أي موسى لأولئك الذين أوعز إليهم فرعون ما أوعز من الشبهة، فأجاب موسى بقوله: ﴿ رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون ﴾ أي هو الذي جعل المشرق مشرقاً وتطلع منه الكواكب، والمغرب مغرباً تغرب فيه الكواكب، فإن كان هذا الذي يزعم أنه ربكم وإلهكم صادقاً فليعكس الأمر، وليجعل المشرق مغرباً والمغرب مشرقاً، كما قال تعالى: ﴿ قال إبراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فانت بها من المغرب ﴾ الآية، ولهذا لما غلب فرعون وانقطعت حجته عدل إلى استعمال جاهه وقوته وسلطانه، واعتقد أن ذلك نافع له ونافذ في موسى عليه السلام، فقال ما أخبر الله تعالى عنه:

* قَالَ لِنِ اتَّخَذَتِ إِلَهًا غَيْرِي لِأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوْلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ

فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَبْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَا تَوَكُّبُ كُلِّ سِحَارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾

لما قامت الحجة على فرعون بالبيان والعقل، عدل إلى أن يقهر موسى بيده وسلطانه، فظن أنه ليس وراء هذا المقام مقال فقال: ﴿لئن اتخذت إلهاً غيري لأجعلنك من المسجونين﴾، فعند ذلك قال موسى: ﴿أولو جنتك بشيء مبين﴾؟ أي يبرهان قاطع واضح، ﴿قال فأتت به إن كنت من الصادقين﴾ * فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين ﴿أي ظاهر واضح في غاية الجلاء والوضوح، ذات قوائم وفم كبير وشكل هائل مزعج، ﴿ونزع يده﴾ أي من جيبه ﴿فإذا هي بيضاء للناظرين﴾ أي تتلأأ كقطعة من القمر، فبادر فرعون بشقاوته إلى التكذيب والعناد، فقال للملأ حوله: ﴿إن هذا لساحر عليم﴾ أي بارع في السحر، فروج عليهم أن هذا من قبيل السحر لا من قبيل المعجزة، ثم هيجهم وحرضهم على مخالفته والكفر به، فقال: ﴿يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره﴾ الآية، أي أراد أن يذهب بقلوب الناس معه بسبب هذا، فيكثر أعوانه وأنصاره وأتباعه ويغلبكم على دولتكم، فيأخذ البلاد منكم، فأشيروا عليّ فيه ماذا أصنع به؟ ﴿قالوا أرجه وأخاه وابعث في المدائن حاشرين﴾ * يأتوك بكل سحار عليم ﴿أي أخره وأخاه حتى تجمع له من مدائن مملكتك، وأقاليم دولتك كل سحار عليم يقابلونه، ويأتون بنظير ما جاء به، فتغلبه أنت وتكون لك النصره والتأييد فأجابهم إلى ذلك، وكان هذا من تسخير الله تعالى، ليجتمع الناس في صعيد واحد، وتظهر آيات الله وحججه وبراهينه على الناس في النهار جهرة .

جُمِعَ السَّحَرَةُ لِمَبْقَتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلْنَا نَتَّبِعَ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةَ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَيْنَ لَنَا أَجْرٌ إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذَا لَمِنَ الْمُقْرَبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُمْ مُوسَى الْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سَجِيدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴿٤٨﴾

لما جاء السحرة وقد جمعهم من أقاليم بلاد مصر، وكانوا إذ ذاك أسحر الناس وأصنعهم، وكان السحرة جمعاً كثيراً وجملاً غفيراً، قيل: كانوا اثني عشر ألفاً، وقيل: خمسة عشر ألفاً، وقيل: غير ذلك، والله أعلم بعدتهم. واجتهد الناس في الاجتماع ذلك اليوم، وقال قائلهم: ﴿لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين﴾، ولم يقولوا نتبع الحق سواء كان من السحرة أو من موسى، بل الرعية على دين ملكهم ﴿فلما جاء السحرة﴾ أي إلى مجلس فرعون، وقد جمع خدمه وحشمه، ووزراءه ورؤساء دولته، وجنود مملكته، فقام السحرة بين يدي فرعون يطلبون منه الإحسان إليهم إن غلبوا فقالوا: ﴿أئن لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين﴾ * قال نعم وإنكم إذا لمن المقربين ﴿أي وأخص مما

تطلبون أجعلكم من المقربين عندي وجلسائي، فعادوا إلى مقام المناظرة ﴿ قالوا يا موسى إما أن تلقي وإما أن نكون أول من ألقى ﴾ قال بل ألقوا ﴿ وقد اختصر هذا ههنا فقال لهم موسى: ﴿ ألقوا ما أنتم ملقون ﴾ فألقوا حبالهم وعصيهم وقالوا بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون ﴿ وهذا كما تقول الجهلة من العوام إذا فعلوا شيئاً هذا بثواب فلان، ﴿ فألقى موسى عصاه فإذا هي تلقف ما يأفكون ﴾ أي تحطفه وتجمعه من كل بقعة وتبتلعه فلم تدع منه شيئاً. قال الله تعالى: ﴿ فوق الحق وبطل ما كانوا يعملون ﴾ فكان هذا أمراً عظيماً، وبرهاناً قاطعاً للعدر، وحجة دامغة، وذلك أن الذين استنصر بهم وطلب منهم أن يغلبوا غلبوا، وخضعوا وآمنوا بموسى في الساعة الراهنة، وسجدوا لله رب العالمين الذي أرسل موسى وهارون بالحق وبالمعجزة الباهرة، فغلب فرعون غلباً لم يشاهد العالم مثله، وكان وقحاً جريئاً عليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، فعدل إلى المكابرة والعداوة ودعوى الباطل، فشرع يتهدهم ويتوعددهم، ويقول: ﴿ إنه لكبيركم الذي علمكم السحر ﴾، وقال: ﴿ إن هذا لمكر مكرتموه في المدينة ﴾ الآية .

﴿ قَالَ ءَأَمْنَمَّ لَهُ قَبْلَ أَنْ ءَأْذَنَ لَكَ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ؕ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِمَّنْ خَلْفٍ وَلَا صَلْبَكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٦﴾ قَالُوا لَا ضَيْرَ ؕ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴿٥٧﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطِيئَتَنَا أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٨﴾

تهدهم فلم ينفع ذلك فيهم، وتوعددهم فما زادهم إلا إيماناً وتسليماً، وذلك أنه قد كشف عن قلوبهم حجاب الكفر، وظهر لهم الحق من أن هذا الذي جاء به موسى لا يصدر عن بشر، إلا أن يكون الله قد أيد به وجعله له حجة، ودلالة على صدق ما جاء به من ربه، ولهذا لما قال لهم فرعون ﴿ آمنتم له قبل أن آذن لكم ﴾ ؟ أي كان ينبغي أن تستأذوني فيما فعلتم ولا تفتاتوا عليّ في ذلك، فإن أذنت لكم فعلتم وإن منعتكم امتنعتم، فإني أنا الحاكم المطاع ﴿ إنه لكبيركم الذي علمكم السحر ﴾ . وهذه مكابرة يعلم كل أحد بطلانها، فإنهم لم يجتمعوا بموسى قبل ذلك اليوم، فكيف يكون كبيرهم الذي أفادهم صناعة السحر ؟ هذا لا يقوله عاقل، ثم توعددهم فرعون بقطع الأيدي والأرجل والصلب، فقالوا ﴿ لا ضير ﴾ أي لا حرج ولا يضرنا ذلك ولا نبالي به، ﴿ إنا إلى ربنا منقلبون ﴾ أي المرجع إلى الله عز وجل، وهو لا يضيع أجر من أحسن عملاً، ولا يخفى عليه ما فعلت بنا وسيجزينا على ذلك أتم الجزاء، ولهذا قالوا: ﴿ إنا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا ﴾ أي ما فارقنا من الذنوب وما أكرهتنا عليه من السحر، ﴿ أن كنا أول المؤمنين ﴾ أي بسبب أننا بادرنا قومنا من القبط إلى الإيمان، فقتلهم كلهم .

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِيٰ إِنَّكُمْ مُّتَّبِعُونَ ﴿٥٩﴾ فَأَرْسَلْنَا فِرْعَوْنَ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٦٠﴾ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٦١﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ ﴿٦٢﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حٰذِرُونَ ﴿٦٣﴾ فَأَنجَرَجْنَهُمْ مِّنْ جَنَّتٍ وَعَيْونَ ﴿٦٤﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٦٥﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٦٦﴾

لما طال مقام موسى عليه السلام ببلاد مصر، وأقام بها حجج الله وبراهينه على فرعون وملئه، وهم مع ذلك

يكابرون ويعاندون، لم يبق لهم إلا العذاب والنكال، فأمر الله تعالى موسى عليه السلام أن يخرج بني إسرائيل ليلاً من مصر، وأن يمضي بهم حيث يؤمر، ففعل موسى عليه السلام ما أمره به ربه عز وجل. خرج بهم بعدما استعاروا من قوم فرعون حلياً كثيراً، وكان خروجه بهم فيما ذكره غير واحد من المفسرين وقت طلوع القمر، وأن موسى عليه السلام سأل عن قبر يوسف عليه السلام، فدلته امرأة عجوز من بني إسرائيل عليه، فاحتمل تابوته معهم، وكان يوسف عليه السلام قد أوصى بذلك إذا خرج بنو إسرائيل أن يحتملوه معهم، فلما أصبحوا وليس في نادهم داع ولا مجيب، غاظ ذلك فرعون، واشتد غضبه على بني إسرائيل لما يريد الله به من الدمار، فأرسل سريعاً في بلاده حاشرين، أي من يحشر الجند ويجمعه كالنقباء والحجاب ونادى فيهم: ﴿إِنْ هؤُلاءِ﴾ يعني بني إسرائيل ﴿لشردمة قليلون﴾ أي لطائفة قليلة، ﴿وإنهم لنا لغائظون﴾ أي كل وقت يصل منهم إلينا ما يغضنا، ﴿وإنا لجميع حاذرون﴾ أي نحن كل وقت نحذر من غائلتهم، وإني أريد أن أستأصل شأقتهم وأبيد خضراءهم، فجوزي في نفسه وجنده بما أراد لهم، قال الله تعالى: ﴿فأخرجناهم من جنات وعيون * وكنوز ومقام كريم﴾ أي فخرجوا من هذا النعيم إلى الجحيم، وتركوا تلك المنازل العالية والبساتين والأنهار والأموال والأرزاق والملك والجاه الوافر في الدنيا، ﴿كذلك وأورثناها بني إسرائيل﴾، كما قال تعالى: ﴿وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها﴾ الآية .

فَاتَّبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَأَى الْجَمْعَانَ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرِكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزَلْفْنَا ثَمَّ الْآخِرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخِرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾

ذكر غير واحد من المفسرين: أن فرعون خرج في محفل عظيم وجمع كبير، من الأمراء والوزراء والكبراء والرؤساء والجنود، ﴿فأتبعوهم مشرقين﴾ أي وصلوا إليهم عند شروق الشمس وهو طلوعها، ﴿فلما تراءى الجمعان﴾ أي رأى كل من الفريقين صاحبه فعند ذلك ﴿قال أصحاب موسى إنا لمدركون﴾، وذلك أنهم انتهوا بهم السير إلى سيف البحر، وهو بحر القلزم فصار أمامهم البحر، وقد أدركهم فرعون بجنوده، فلهدأ قالوا: ﴿إنا لمدركون * قال كلا إن معي ربي سيهدين﴾ أي لا يصل إليكم شيء مما تحذرون، فإن الله سبحانه هو الذي أمرني أن أسير ههنا بكم، وهو سبحانه وتعالى لا يخلف الميعاد، وكان هارون عليه السلام في المقدمة، ومعه (يوشع بن نون) ومؤمن آل فرعون، وموسى عليه السلام في الساقة، فعند ذلك أمر الله نبيه موسى عليه السلام أن يضرب بعصاه البحر فضربه، وقال: انفلق ياذن الله. وروى ابن أبي حاتم عن عبد الله بن سلام: أن موسى عليه السلام لما انتهى إلى البحر قال: يا من كان قبل كل شيء، والمكون لكل شيء، والكائن بعد كل شيء، اجعل لنا مخرجاً، فأوحى الله إليه: ﴿أن اضرب بعصاك البحر﴾. وقال محمد بن إسحاق: أوحى الله - فيما ذكر لي - إلى البحر أن إذا ضربك موسى بعصاه فانفلق له، قال: فبات البحر يضطرب ويضرب بعضه بعضاً فرقاً من الله تعالى وانتظراً

لما أمره الله، وأوحى الله إلى موسى ﴿ أن اضرب بعصاك البحر ﴾ فضربه بها، ففيها سلطان الله الذي أعطاه فانفلق، قال الله تعالى: ﴿ فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم ﴾ أي كالجبل الكبير^(١)، قاله ابن عباس، وقال عطاء الخراساني: هو الفج بين الجبلين. وقال ابن عباس: صار البحر اثني عشر طريقاً لكل سبط طريق؛ وزاد السدي: وصار فيه طاقات ينظر بعضهم إلى بعض، وقام الماء على حيله كالحيطان، وبعث الله الريح إلى قعر البحر فلفتحته فصار ييساً كوجه الأرض، قال الله تعالى: ﴿ فاضرب لهم طريقاً في البحر ييساً * لا تخاف دركاً ولا تخشى ﴾، وقال في هذه القصة ﴿ وأزلفنا ثم الآخريين ﴾ أي هنالك. قال ابن عباس ﴿ وأزلفنا ﴾ أي قربنا من البحر فرعون وجنوده وأدنيناهم إليه، ﴿ وأنجيناهم موسى ومن معه أجمعين * ثم أغرقنا الآخريين ﴾ أي أنجيناهم موسى وبني إسرائيل ومن اتبعهم على دينهم فلم يهلك منهم أحد، وأغرق فرعون وجنوده فلم يبق منهم رجل إلا هلك. عن عبد الله ابن مسعود قال: فلما خرج آخر أصحاب موسى وتكامل أصحاب فرعون انطم عليهم البحر، فإرئي سواد أكثر من يومئذ، وغرق فرعون لعنه الله، ثم قال تعالى: ﴿ إن في ذلك لآية ﴾ أي في هذه القصة وما فيها من العجائب والنصر والتأييد لعباد الله المؤمنين لدلالة وحجة قاطعة وحكمة بالغة ﴿ وما كان أكثرهم مؤمنين * وإن ربك لهو العزيز الرحيم ﴾ تقدم تفسيره .

﴿ وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ ﴾ (٦٩) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظُلُّ لَهَا عَاكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنْتُمْ وَعِبَادُكُمْ الَّذِينَ قَدْ مَرَّوْنَ بِكُمْ لَمْ يَأْمُرُوا بِالْعَدْوِيِّ إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٦﴾

هذا إخبار من الله تعالى عن عبده ورسوله وخليته إبراهيم عليه السلام إمام الحنفاء، أمر الله تعالى رسوله محمداً ﷺ أن يتلوه على أمته ليقتدوا به في الإخلاص والتوكل، وعبادة الله وحده لا شريك له والتبري من الشرك وأهله، فإن الله تعالى أتى إبراهيم رشده من صغره، فإنه من وقت نشأ وشب أنكر على قومه عبادة الأصنام مع الله عز وجل، ﴿ فقال لأبيه وقومه ماذا تعبدون ﴾؟ أي ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون؟ ﴿ قالوا نعبد أصناماً فنظل لها عاكفين ﴾ أي مقيمين على عبادتها ودعائها، ﴿ قال هل يسمعونكم إذ تدعون أو ينفعونكم أو يضرون * قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون ﴾ فهم على آثارهم يهرعون، فعند ذلك قال لهم إبراهيم: ﴿ أفأرايتم ما كنتم تعبدون * أنتم وآباؤكم الأقدمون * فإنهم عدو لي إلا رب العالمين ﴾ أي إن كانت هذه الأصنام شيئاً ولها تأثير، فلتخلص إلي بالمساءة، فإنني عدو لها لا أبالي بها ولا أفكر فيها، وهذا كما قال تعالى مخبراً عن نوح عليه السلام ﴿ فأجمعوا أمرهم وشركائهم ﴾ الآية. وقال هود عليه السلام ﴿ فكيدوني جميعاً ثم لا تنظرون ﴾، وهكذا تبرا إبراهيم من آلهتهم، قال تعالى: ﴿ وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إنني براء مما تعبدون * إلا الذي فطرني فإنه سيهدين ﴾ .

(١) قاله ابن عباس وابن مسعود والضحاك وقادة وغيرهم .

الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴿٨٢﴾

يعني لا أعبد إلا الذي يفعل هذه الأشياء ﴿الذي خلقني فهو يهدين﴾: أي هو الخالق الذي قدر قدرأ، وهدى الخلائق إليه فكل يجري على ما قدر له، وهو الذي يهدي من يشاء ويضل من يشاء، ﴿والذي هو يطعمني ويسقيني﴾ أي هو خالقي ورازقي بما سخر ويسر من الأسباب السماوية والأرضية، ﴿وإذا مرضت فهو يشفين﴾ أسند المرض إلى نفسه وإن كان عن قدر الله وقضائه وخلقه، ولكن أضافه إلى نفسه أدباً، كما قال الجن: ﴿وأنا لا ندري أشر أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشداً﴾، وكذا قال إبراهيم: ﴿وإذا مرضت فهو يشفين﴾ إي إذا وقعت في مرض فإنه لا يقدر على شفائي أحد غيره بما يقدر من الأسباب الموصلة إليه، ﴿والذي يميتني ثم يحيين﴾ أي هو الذي يحيي ويميت لا يقدر على ذلك أحد سواه، فإنه هو الذي يبدئ ويعيد ﴿والذي أطعم أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين﴾ أي لا يقدر على غفران الذنوب في الدنيا والآخرة إلا هو، ومن يغفر الذنوب إلا الله؟ وهو الفعال لما يشاء .

رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً وَالْحَقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَاعْفُرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ آتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾

وهذا سؤال من إبراهيم عليه السلام أن يؤتبه ربه حكماً، قال ابن عباس: وهو العلم، وقال عكرمة: هو اللب، وقال مجاهد: هو القرآن، وقال السدي: هو النبوة، وقوله: ﴿والحقني بال صالحين﴾ أي اجعلني مع الصالحين في الدنيا والآخرة كما قال النبي ﷺ عند الاحتضار: «اللهم في الرفيق الأعلى»، قالها ثلاثاً. وفي الحديث: «اللهم أحينا مسلمين، وأماتنا مسلمين، وألحقنا بال صالحين، غير خزايا ولا مبدلين»، وقوله: ﴿واجعل لي لسان صدق في الآخريين﴾ أي واجعل لي ذكراً جميلاً بعدي أذكر به ويقندي بي في الخير، كما قال تعالى: ﴿وتركنا عليه في الآخريين﴾ * سلام على إبراهيم * كذلك نجزي المحسنين. قال مجاهد وقتادة: يعني الثناء الحسن، قال ليث ابن أبي سليم: كل ملة تحبه وتتولاه، وقوله تعالى: ﴿واجعلني من ورثة جنة النعيم﴾ أي أنعم علي في الدنيا ببقاء الذكر الجميل بعدي، وفي الآخرة بأن يجعلني من ورثة جنة النعيم، وقوله: ﴿واعفّر لأبي﴾ الآية، كقوله: ﴿ربنا اغفر لي ولوالدي﴾ وهذا مما رجع عنه إبراهيم عليه السلام، كما قال تعالى: ﴿وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه - إلى قوله - إن إبراهيم لأواه حليم﴾، وقوله: ﴿ولا تخزني يوم يبعثون﴾ أي أجرني من الخزي يوم القيامة، ويوم يبعث الخلائق أولهم وآخرهم، عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «يلقى إبراهيم يوم القيامة أباه عليه الغبرة والقترة» .

وفي رواية أخرى: «يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة، وعلى وجه آزر قرة وغبرة فيقول له إبراهيم: ألم أقل

لك لا تعصني، فيقول أبوه فاليوم لا أعصيك، فيقول إبراهيم: يا رب إنك وعدتني أن لا تخزني يوم يبعثون فأني خزي أخزى من أبي الأبعد؟ فيقول الله تعالى: إني حرمت الجنة على الكافرين؛ ثم يقول: يا إبراهيم انظر تحت رجلك فينظر فإذا هو بذيخ متلطح فيؤخذ بقوامه فيلقى في النار^(١). وقوله: ﴿يوم لا ينفع مال ولا بنون﴾ أي لا يقي المرء من عذاب الله ماله ولو افتدى بملء الأرض ذهباً ﴿ولا بنون﴾ أي ولو افتدى بمن على الأرض جميعاً ولا ينفع يومئذ إلا الإيمان بالله، وإخلاص الدين له، ولهذا قال: ﴿إلا من أتى الله بقلب سليم﴾ أي سالم من الدنس والشرك، قال ابن سيرين: القلب السليم أن يعلم أن الله حق، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور، وقال ابن عباس: القلب السليم أن يشهد أن لا إله إلا الله، وقال مجاهد والحسن: ﴿بقلب سليم﴾ يعني من الشرك، وقال سعيد بن المسيب: القلب السليم هو القلب الصحيح، وهو قلب المؤمن لأن قلب الكافر والمناق مريض، قال الله تعالى: ﴿في قلوبهم مرض﴾ قال أبو عثمان النيسابوري: هو القلب السالم من البدعة المطمئن إلى السنة.

وَأَزَلَّتْ الْجَنَّةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرُزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُفُّوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَاللَّهِ إِنَّ كُنَّا لَنِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نَسُوكُمْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً ﴿١٠٣﴾ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٥﴾

﴿وأزلت الجنة﴾ أي قربت وأدريت من أهلها مزخرقة مزينة لناظرها، وهم المتقون الذين رغبوا فيها وعملوا لها في الدنيا، ﴿وبرزت الجحيم للغاوين﴾ أي أظهرت وكشف عنها، وبدت منها عتق فزفرت زفرة بلغت منها القلوب الحناجر، وقيل لأهلها تقريباً وتوبيخاً: ﴿أين ما كنتم تعبدون من دون الله هل ينصرونكم أو ينتصرون﴾؟ أي ليست الآلهة التي عبدتموها من دون الله من تلك الأصنام والأنداد تغني عنكم اليوم شيئاً، ولا تدفع عن أنفسها، فإنكم وإياها اليوم حسب جهنم أنتم لها واردون، وقوله: ﴿فكفبوا فيها هم والغاوين﴾ قال مجاهد: يعني فدهوروا فيها، والمراد أنه ألقى بعضهم على بعض من الكفار وقادتهم الذين دعوهم إلى الشرك، ﴿وجنود إبليس أجمعون﴾ أي ألقوا فيها عن آخرهم، ﴿قالوا وهم فيها يختصمون﴾ تالله إن كنا لني ضلال مبين * إذ نسويكم برب العالمين ﴿أي يقول الضعفاء للذين استكبروا وقد عادوا على أنفسهم بالملامة: ﴿تالله إن كنا لني ضلال مبين﴾ إذ نسويكم برب العالمين﴾ أي نجعل أمرهم مطاعاً كما يطاع أمر رب العالمين وعبدناكم مع رب العالمين، ﴿وما أضلنا إلا المجرمون﴾ أي ما دعانا إلى ذلك إلا المجرمون، ﴿فما لنا من شافعين﴾ قال بعضهم يعني من الملائكة، كما يقولون ﴿فهل لنا من شفاعين فيشفعوا لنا﴾؟ وكذا قالوا: ﴿فما لنا من شافعين﴾ ولا صديق حميم﴾ أي قريب، قال قتادة:

(١) أخرجه البخاري عن أبي هريرة مرفوعاً ورواه النسائي في التفسير، قال ابن كثير: والذبيخ هو الذكر من الضباع.

يعلمون والله أن الصديق إذا كان صالحاً نفع، وأن الحميم إذا كان صالحاً شفع ﴿ لو أن لنا كرة فنكون من المؤمنين ﴾، وذلك أنهم يتمنون أنهم يردون إلى دار الدنيا ليعملوا بطاعة ربهم فيما يزعمون، والله تعالى يعلم أنهم لو ردوا إلى دار الدنيا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون، وقد أخبر الله تعالى عن نخاصم أهل النار، ثم قال تعالى: ﴿ إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين ﴾ أي إن في محاجة إبراهيم لقومه وإقامة الحجج عليهم في التوحيد ﴿ لآية ﴾ أي لدلالة واضحة جلية على أن لا إله إلا الله، ﴿ وما كان أكثرهم مؤمنين ﴾ وإن ربك هو العزيز الرحيم .

كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٠٨﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١١٠﴾
 هذا إخبار من الله عز وجل عن عبده ورسوله نوح عليه السلام، وهو أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض بعدما عبدت الأصنام والأنداد، فبعثه الله ناهياً عن ذلك ومحذراً من وبيل عقابه، فكذبه قومه فاستمروا على ما هم عليه من الفعال الخبيثة في عبادتهم أصنامهم مع الله تعالى، ونزل الله تعالى تكذيبهم له منزلة تكذيبهم جميع الرسل، فلهذا قال تعالى: ﴿ كذبت قوم نوح المرسلين ﴾ إذ قال لهم أخوهم نوح ألا تتقون ﴿ أي ألا تحافون الله في عبادتكم غيره ﴾ ﴿ إني لكم رسول أمين ﴾ أي إني رسول من الله إليكم، أمين فيما بعثني الله به، أبلغكم رسالات ربي ولا أزيد فيها ولا أنقص منها ﴿ فاتقوا الله وأطيعوا وما أسألكم عليه من أجر ﴾ الآية، أي لا أطلب منكم جزاء على نصحي لكم بل أذخر ثواب ذلك عند الله، ﴿ فاتقوا الله وأطيعوا ﴾ فقد وضع لكم وبان صدقي ونصحي وأمانتي فما بعثني الله به واثممني عليه .

* قَالُوا أَنْتُمْ مِنْ لَكُمْ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْدَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عَلِمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حَسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿١١٥﴾

يقولون: لا تؤمن لك ولا تتبعك وتأسى في ذلك بهؤلاء الأردلين، الذين اتبعوك وصدقوك وهم أراذلنا، ولهذا ﴿ قالوا أنؤمن لك واتبعك الأردلون ﴾ قال وما علمي بما كانوا يعملون ﴿ أي وأي شيء يلزمني من اتباع هؤلاء لي ولو كانوا على أي شيء كانوا عليه، لا يلزمني التنقيب عنهم والبحث والفحص، إنما علي أن أقبل منهم تصديقهم إياي، وأكل سرائرهم إلى الله عز وجل، ﴿ إن حسابهم إلا على ربي لو تشعرون ﴾ وما أنا بطارد المؤمنين ﴿ كأنهم سألوا منه أن يبعدهم عنه ويتابعوه فأبى عليهم ذلك، وقال ﴿ وما أنا بطارد المؤمنين ﴾ إن أنا إلا نذير مبين ﴿ أي إنما بعثت نذيراً، فمن أطاعني واتبعني وصدقني كان مني وأنا منه، سواء كان شريفاً أو وضيعاً، أو جليلاً أو حقيراً .

قَالُوا لَيْنَ لَمْ تَنْهَ يَنْوُحْ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَجَنِّبْنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَجِيبْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلِكِ الْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾
 إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيةٌ ﴿ وما كان أكثرهم مؤمنين ﴾ ﴿ وإن ربك هو العزيز الرحيم ﴾ ﴿

لما طال مقام نبي الله بين أظهرهم يدعوهم إلى الله تعالى ليلاً ونهاراً، وسراً وجهاراً، وكلما كرر عليهم الدعوة صمموا على الكفر الغليظ والامتناع الشديد، وقالوا في الآخر: ﴿لئن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين﴾ أي لئن لم تنته عن دعوتك إيانا إلى دينك ﴿لتكونن من المرجومين﴾ أي لترجمنك، فعند ذلك دعا عليهم دعوة استجاب الله منه فقال: ﴿رب إن قومي كذبون * فافتح بيني وبينهم فتحاً﴾ الآية، كما قال في الآية الأخرى ﴿فدعا ربه أني مغلوب فانتصر﴾ إلى آخر الآية، وقال ههنا ﴿فأنجيناه ومن معه في الفلك المشحون * ثم أغرقنا بعد الباقي﴾ والمشحون هو المملوء بالأمعة والأزواج التي حمل فيها من كل زوجين اثنين، أي أنجيننا نوحاً ومن اتبعه كلهم وأغرقنا من كفر به وخالف أمره كلهم أجمعين ﴿إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين * وإن ربك هو العزيز الرحيم﴾ .

كَذَّبَتْ عَادَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا رِيعَ ﴿١٢٦﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطِشْتُمْ بَطِشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا رِيعَ ﴿١٣١﴾ وَأَتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَمٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾

وهذا إخبار من الله تعالى عن عبده ورسوله (هود) عليه السلام أنه دعا قومه عاداً، وكان قومه يسكنون الأحقاف، وهي جبال الرمل قريباً من حضرموت متاخمة بلاد اليمن، وكان زمانهم بعد قوم نوح، كما قال في سورة الأعراف: ﴿واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم في الخلق بسطة﴾، وذلك أنهم كانوا في غاية من قوة التركيب والقوة والبطش الشديد، والأموال والجنات والأنهار، والأبناء والزروع والثمار، وكانوا مع ذلك يعبدون غير الله معه، فبعث الله هوداً إليهم رجلاً منهم رسولاً وبشيراً ونذيراً فدعاهم إلى الله وحده وحذرهم نعمته وعذابه، فقال لهم ﴿أتبنون بكل ريع آية تعبثون﴾؟ الريع: المكان المرتفع عند جواد الطرق المشهورة، يبنون هناك بناياتاً محكمات هائلت باهراً، ولهذا قال: ﴿أتبنون بكل ريع آية﴾ أي معلماً بناء مشهوراً، ﴿تعبثون﴾ أي وإنما تفعلون ذلك عبثاً لا للاحتياج إليه، بل لمجرد اللعب واللهو وإظهار القوة، ولهذا أنكر عليهم نبيهم عليه السلام، لأنه تضييع للزمان وإتاع للأبدان في غير فائدة، واشتغال بما لا يجدي في الدنيا ولا في الآخرة، ولهذا قال: ﴿وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون﴾. قال مجاهد: والمصانع البروج المشيدة والبنيان المخلد، وفي رواية عنه: بروج الحمام. وقال قتادة: هي مأخذ الماء لعلكم تخلدون﴾ أي لكي تقيموا فيها أبداً، وذلك ليس بحاصل لكم بل زائل عنكم، كما زال عنم كان قبلكم، روي أن أبا الدرداء رضي الله عنه لما رأى ما أحدث المسلمون في القوطة من البنيان ونصب الشجر، قام في مسجدهم فنأدى يا أهل دمشق، فاجتمعوا إليه، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: ألا تستحيون، ألا تستحيون، تجمعون ما لا تأكلون، وتبنون ما لا تسكنون، وتأمّلون ما لا تدركون، إنه قد كانت قبلكم قرون يجمعون فيوعون، ويبنون

فيوثقون، ويأملون فيطيلون، فأصبح أملمهم غروراً، وأصبح جمعهم بوراً، وأصبحت مساكنهم قبوراً، ألا إن عاداً ملكت ما بين عدن وعمان خيلاً، وركاباً فمن يشتري مني ميراث عاد بدرهمين^(١)؟ وقوله: ﴿وإذا بطشتم ببطشتم جبارين﴾ أي يصفهم بالقوة والغلظة والجبروت، ﴿فاتقوا الله وأطيعون﴾ أي اعبدوا ربكم وأطيعوا رسولكم، ثم شرع يذكرهم نعم الله عليهم فقال: ﴿واتقوا الذي أمركم بما تعلمون * أمركم بأنعام وبنين وجنات وعيون * إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم﴾ أي إن كذبتم وخالفتم، فدعاهم إلى الله بالترغيب والترهيب فما نفع فيهم .

قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَضْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنَّ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ ﴿١٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾

يقول تعالى مخبراً عن جواب قوم هود له، بعدما حذرهم وأنذرهم وبين لهم الحق ووضحه ﴿قالوا سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين﴾ أي لا نرجع عما نحن عليه، ﴿وما نحن بتاركي آهتنا عن قولك، وما نحن لك بمؤمنين﴾ وهكذا الأمر، فإن الله تعالى قال: ﴿إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون﴾ الآية، وقولهم ﴿إن هذا إلا خلق الأولين﴾، كما قال المشركون، ﴿وقالوا أساطير الأولين اكتسبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلاً﴾، وقال: ﴿وقيل للذين كفروا ماذا أنزل ربكم قالوا أساطير الأولين﴾ ﴿خلق الأولين﴾ بضم الخاء واللام، يعنون دينهم وما هم عليه من الأمر هو دين الأولين من الآباء والأجداد، ونحن تابعون لهم سالكون وراءهم نعيش كما عاشوا ونموت كما ماتوا ولا بعث ولا معاد، ولهذا قالوا ﴿وما نحن بمعذبين﴾، قال ابن عباس: ﴿إن هذا إلا خلق الأولين﴾ يقول: دين الأولين^(٢)، وقوله تعالى: ﴿فكذبوه فأهلكناهم﴾ أي استمروا على تكذيب نبي الله هود ومخالفته وعناده فأهلكهم الله، وقد بين سبب إهلاكه إياهم في غير موضع من القرآن، بأنه أرسل عليهم ريحاً صرصراً عاتية، أي ريحاً شديدة الهبوب ذات برد شديد جداً، فكان سبب إهلاكهم من جنسهم، فإنهم كانوا أعتى شيء وأجبره، فسلط الله عليهم ما هو أعتى منهم وأشد قوة، كما قال تعالى: ﴿ألم تر كيف فعل ربك بعاد * إرم ذات العماد﴾، وقال تعالى: ﴿فأما عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة؟﴾ فسلكت الريح فحصبت بلادهم، فحصبت كل شيء لهم كما قال تعالى: ﴿تدمر كل شيء بأمر ربها﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية﴾ إلى قوله: ﴿فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية﴾ أي بقوا أبداناً بلا رؤوس، وذلك أن الريح كانت تأتي الرجل منهم فتقلعه وترفعه في الهواء، ثم تنكسه على أم رأسه فتشدخ دماغه، وتكسر رأسه، وتلقيه، كأنهم أعجاز نخل منقعر، وقد كانوا تحصنوا في الجبال والكهوف والمغارات، وحفروا لهم في الأرض إلى أنصافهم، فلم يغن عنهم ذلك من أمر الله شيئاً، ﴿إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر﴾، ولهذا قال تعالى: ﴿فكذبوه فأهلكناهم﴾ الآية .

كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ

(١) أخرجه ابن أبي حاتم .

(٢) وهو قول عكرمة وعطاء وقتادة وعبد الرحمن بن أسلم واختاره ابن جرير .

وَأَطِيعُونَ ﴿١٤٤﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٤٥﴾

وهذا إخبار من الله عز وجل عن عبده ورسوله (صالح) عليه السلام أنه بعثه إلى قومه ثمود، وكانوا عرباً يسكنون مدينة الحجر التي بين وادي القرى وبلاد الشام، ومساكنهم معروفة مشهورة، وكانوا بعد عاد وقبل الخليل عليه السلام، فدعاهم نبيهم صالح إلى الله عز وجل أن يعبدوه وحده لا شريك له، وأن يطيعوه فيما بلغهم من الرسالة، فأبوا عليه وكذبوه وخالفوه، وأخبرهم أنه لا يتغي بدعوتهم أجراً منهم، وإنما يطلب ثواب ذلك من الله عز وجل، ثم ذكروهم آلاء الله عليهم فقال :

أَتَرَكُونَ فِي مَاهُتَنَاءَ أَمِينٍ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَحْلٍ طَلَعَهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَخْتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٥٠﴾ وَلَا تَطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ الَّذِينَ يَفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾

يقول لهم واعظاً لهم ومحذراً نعم الله أن تحل بهم، ومذكراً بأنعم الله عليهم فيما رزقهم من الأرزاق الدارة، وأنت لهم من الجنات، وفجر لهم من العيون الجاريات، وأخرج لهم من الزروع والثمرات، ولهذا قال: ﴿ ونخل طلوعها هضيم ﴾ قال ابن عباس: أئبع وبلغ فهو هضيم، وعنه يقول: معشبة، وقال مجاهد: هو الذي إذا يبس تهشم وتفتت وتناثر، وقال ابن جريج عن مجاهد ﴿ ونخل طلوعها هضيم ﴾ قال: حين يطلع تقبض عليه قهضمه، فهو من الرطب الهضيم، ومن اليباس الهشيم، تقبض عليه قهشمه، وقال عكرمة وقتادة: الهضيم الرطب اللين، وقال الضحاك: إذا كثر حمل الثمرة وركب بعضها بعضاً فهو هضيم، وقال الحسن البصري: هو الذي لا نوى له، وقال أبو صخر: ما رأيت الطلع حين ينشق عنه الكم فترى الطلع قد لصق بعضه ببعض فهو الهضيم. وقوله: ﴿ وتختون من الجبال بيوتاً فارهين ﴾ قال ابن عباس وغير واحد: يعني حاذقين، وفي رواية عنه: شرهين أشرين، وهو اختيار مجاهد وجماعة، ولا منافاة بينهما، فإنهم كانوا يتخذون تلك البيوت المنحوتة في الجبال أشراً وبطراً وعبثاً من غير حاجة إلى سكنها، وكانوا حاذقين متقنين لنحتها ونقشها، كما هو المشاهد من حالهم لمن رأى منازلهم، ولهذا قال: ﴿ واتقوا الله وأطيعوا ﴾ أي أقبلوا على ما يعود نفعه عليكم في الدنيا والآخرة، من عبادة ربكم الذي خلقكم ورزقكم، لتعبده وتوحدوه وتسبحوه بكرة وأصيلاً ﴿ ولا تطيعوا أمر المسرفين الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون ﴾ يعني رؤساءهم وكبراءهم الدعاة لهم إلى الشرك والكفر ومخالفة الحق .

قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بَآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَاصْبَحُوا نَدِيمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ

الرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾

يقول تعالى مخبراً عن ثمود في جوابهم لنبيهم (صالح) عليه السلام، حين دعاهم إلى عبادة ربهم عز وجل أنهم ﴿قالوا إنما أنت من المسحرين﴾ قال مجاهد وقتادة: يعنون من المسحورين، يقولون: إنما أنت في قولك هذا مسحور لا عقل لك، ثم قالوا ﴿ما أنت إلا بشر مثلنا﴾ يعني فكيف أوحى إليك دوننا، كما قالوا في الآية الأخرى ﴿أنزل عليه الذكر من بيننا؟ بل هو كذاب أشرك﴾ ثم إنهم اقترحوا عليه آية يأتيهم بها ليعلموا صدقه بما جاءهم به من ربهم، وقد اجتمع ملوهم وطلبوا منه أن يخرج لهم الآن من هذه الصخرة ناقة عشاء، وأشاروا إلى صخرة عندهم، من صفتها كذا وكذا، فعند ذلك أخذ عليهم نبي الله صالح العهود والمواثيق لئن أجابهم إلى ما سألوا ليؤمنن به وليتبعنه، فأعطوه ذلك، فقام نبي الله صالح عليه السلام فصلى ثم دعا الله عز وجل أن يجيبهم إلى سؤالهم، فانفطرت تلك الصخرة التي أشاروا إليها عن ناقة عشاء على الصفة التي وصفوها، فأمن بعضهم وكفر أكثرهم ﴿قال هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم﴾ يعني ترد ماءكم يوماً ويوماً تردونه أنتم، ﴿ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب يوم عظيم﴾ فحذرهم نعمة الله إن أصابوها بسوء، فمكثت الناقة بين أظهرهم حيناً من الدهر ترد الماء، وتأكل الورق والمرعى ويتنفعون بلبنها يحلبون منها ما يكفيهم شرباً ورياً، فلما طال عليهم الأمد وحضر أشقاهم تمالأوا على قتلها وعقرها ﴿ففقروها فأصبحوا نادمين فأخذهم العذاب﴾ وهو أن أرضهم زلزلت زلزلاً شديداً، وجاءتهم صيحة عظيمة اقتلعت القلوب من محالها، وأتاهم من الأمر ما لم يكونوا يحتسبون، وأصبحوا في ديارهم جاثمين ﴿إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين * وإن ربك لهو العزيز الرحيم﴾ .

كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ
وَأَطِيعُوا ﴿١٦٣﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٤﴾

يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله لوط عليه السلام، وهو ابن أخي إبراهيم الخليل عليه السلام، وكان الله تعالى قد بعثه إلى أمة عظيمة في حياة إبراهيم عليهما السلام، وكانوا يسكنون (سدوم) وأعمالها التي أهلكتهم الله بها، وجعل مكانها بحيرة متنته خبيثة، وهي مشهورة ببلاد الغور متاخمة لجبال البيت المقدس، فدعاهم إلى الله عز وجل أن يعبدوه وحده لا شريك له، وأن يطيعوا رسوله الذي بعثه الله إليهم، ونهاهم عن معصية الله، وارتكاب ما كانوا قد ابتدعوه مما لم يسبقهم أحد من الخلائق إلى فعله من إتيان الذكور دون الإناث، ولهذا قال تعالى:

أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ قَالُوا لَيْنَ لَمْ تَنْتَه يَلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَجَجِنَهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَرْنَا الْأَخْرِبَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا ﴿١٧٣﴾ فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ ﴿١٧٤﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾

لما نهاهم نبي الله عن ارتكاب الفواحش وغشيانهم الذكور، وأرشدهم إلى إتيان نسائهم اللاتي خلقهن الله

لهم ما كان جوابهم له إلا أن قالوا ﴿لئن لم تنته يا لوط﴾ أي عما جئتنا به ﴿لتكونن من المخرجين﴾ أي نفيك من بين أظهرنا، كما قال تعالى: ﴿فما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريبتكم إنهم أناس يتطهرون﴾، فلما رأى أنهم لا يرتدعون عما هم فيه وأنهم مستمرين على ضلالتهم تبرأ منهم، وقال: ﴿إني لعملكم من القالين﴾ أي المبغضين لا أحبه ولا أرضى به وإني بريء منكم، ثم دعا الله عليهم، فقال: ﴿رب نجني وأهلي مما يعملون﴾، قال الله تعالى: ﴿فنجيناها وأهلها أجمعين﴾ أي كلهم ﴿إلا عجوزاً في الغابرين﴾ وهي امرأته، وكانت عجوز سوء، بقيت فهلكت مع من بقي من قومها، حين أمره الله أن يسري بأهله إلا امرأته، وأنهم لا يلتفتون إذا سمعوا الصيحة حين تنزل على قومه، فصبروا لأمر الله واستمروا، وأنزل الله على أولئك العذاب الذي عم جميعهم وأمطر عليهم حجارة من سجيل منضود، ولهذا قال تعالى: ﴿ثم دمرنا الآخرين * وأمطرنا عليهم مطراً﴾ - إلى قوله - وإن ربك هو العزيز الرحيم .

﴿ كَذَّبَ أَصْحَابُ لَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنْ لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرَهُ ﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٠﴾

هؤلاء - يعني أصحاب الأيكة - هم «أهل مدين» على الصحيح، وكان نبي الله شعيب من أنفسهم، وإنما لم يقل ههنا أخوهم شعيب، لأنهم نسبوا إلى عبادة الأيكة، وهي شجرة، وقيل: شجر ملتف كالغيضة كانوا يعبدونها، فلهذا لما قال: كذب أصحاب الأيكة المرسلين لم يقل: إذ قال لهم أخوهم شعيب وإنما قال: ﴿إذ قال لهم شعيب﴾ فقطع نسب الأخوة بينهم للمعنى الذي نسبوا إليه وإن كان أخاهم نسباً، ومن الناس من لم يفظن لهذه النكته، فظن أن أصحاب الأيكة غير أهل مدين، والصحيح أنهم أمة واحدة وصفوا في كل مقام بشيء، ولهذا وعظ هؤلاء، وأمرهم بوفاء المكيال والميزان كما في قصة مدين سواء بسواء، فدل ذلك على أنها أمة واحدة .

﴿ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا بِالْقِسْطِ الْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْنُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأُولِينَ ﴿١٨٤﴾

يأمرهم عليه السلام بإيفاء المكيال والميزان وبنهاهم عن التطفيف فيهما فقال: ﴿أوفوا الكيل ولا تكونوا من المخسرين﴾ أي إذا دفعتم للناس فكمّلوا الكيل لهم، ولا تبخسوا الكيل فتعطوه ناقصاً وتأخذوه إذا كان لكم تاماً وافية، ولكن خذوا كما تعطون، وأعطوا كما تأخذون ﴿وزنوا بالقسط المستقيم﴾ والقسطاس هو الميزان، قال مجاهد: ﴿القسطاس المستقيم﴾ هو العدل بالرومية، وقال قتادة: القسطاس العدل، وقوله: ﴿ولا تبخسوا الناس أشياءهم﴾ أي لا تنقصوهم أموالهم ﴿ولا تعنوا في الأرض مفسدين﴾ يعني قطع الطريق كما قال في الآية الأخرى ﴿ولا تقعدوا بكل صراط توعدون﴾، وقوله: ﴿واتقوا الذي خلقكم والجبلة الأولين﴾ يخوفهم بأس الله الذي خلقهم وخلق آباءهم الأوائل، كما قال موسى عليه السلام ﴿ربكم ورب آبائكم الأولين﴾ قال ابن عباس ومجاهد: ﴿والجبلة الأولين﴾ يقول: خلق الأولين، وقرأ ابن زيد ﴿ولقد أضل منكم جبلا كثيراً﴾ .

قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِنْ نُنْظِقُكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَاسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّيَ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةًٌ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾

يخبر تعالى عن جواب قومه له بمثل ما أجابت به ثمود لرسولها تشابهت قلوبهم حيث قالوا: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ يعنون من المسحورين كما تقدم، ﴿وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِنْ نُنْظِقُكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ أي تتعمد الكذب فيما تقوله لا أن الله أرسلك إلينا، ﴿فَاسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾ قال قتادة: قطعاً من السماء، وقال السدي: عذاباً من السماء، وهذا شبيه بما قالت قريش فيما أخبر الله عنهم في قوله تعالى: ﴿أَوْ تَسْقُطُ السَّمَاءُ كَمَا زَعَمَتْ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِي بَالِغًا وَالْمَلَائِكَةُ قَبِيلاً﴾. وقوله: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ﴾ الآية. وهكذا قال هؤلاء الكفار الجهلة ﴿فَاسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾ الآية، ﴿قَالَ رَبِّيَ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ يقول: الله أعلم بكم، فإن كنتم تستحقون ذلك جزاكم به وهو غير ظالم لكم، وهكذا وقع بهم كما سألوهم جزاء وفاقاً، ولهذا قال تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ وهذا من جنس ما سألوهم من إسقاط الكسف عليهم، فإن الله سبحانه وتعالى جعل عقوبتهم أن أصابهم حر عظيم مدة سبعة أيام لا يمكنهم منه شيء، ثم أقبلت إليهم سحابة أظلمتهم فجعلوا ينطلقون إليها يستظلون بظلمتها من الحر، فلما اجتمعوا كلهم تحتها أرسل الله تعالى عليهم منها شرراً من نار ولهباً ووهجاً عظيماً، ورجفت بهم الأرض، وجاءتهم صيحة عظيمة أزهدت أرواحهم، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾. قال قتادة: قال عبد الله بن عمر رضي الله عنه: إن الله سلط عليهم الحر سبعة أيام حتى ما يظلمهم منه شيء، ثم إن الله تعالى أنشأ لهم سحابة، فانطلق إليها أحدهم فاستظل بها، فأصاب تحتها برداً وراحة، فأعلم بذلك قومه، فأتوها جميعاً، فاستظلوا تحتها، فأججت عليهم ناراً، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: بعث الله إليهم الظلة، حتى إذا اجتمعوا كلهم كشف الله عنهم الظلة وأحمى عليهم الشمس، فاحترقوا كما يحترق الجراد في المقل، وقال محمد بن جرير عن يزيد الباهلي سألت ابن عباس عن هذه الآية ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ﴾ الآية، قال: بعث الله عليهم رعدة وحرّاً شديداً، فأخذ بأنفاسهم، فخرجوا من البيوت هرباً إلى البرية، فبعث الله عليهم سحابة فأظلمتهم من الشمس، فوجدوا لها برداً ولذة، فنادى بعضهم بعضاً، حتى إذا اجتمعوا تحتها أرسل الله عليهم ناراً. قال ابن عباس: فذلك عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ وإن ربك هو العزيز الرحيم ﴿أي العزيز في انتقامه من الكافرين، الرحيم بعباده المؤمنين﴾.

وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ

عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾

يقول تعالى مخبراً عن الكتاب الذي أنزله على عبده ورسوله محمد ﷺ: ﴿وَإِنَّهُ﴾ أي القرآن الذي تقدم ذكره في أول السورة في قوله: ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحَدَّثٌ﴾ الآية. ﴿لِتُنزِلَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ أي أنزله الله عليك وأوحاه إليك ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ وهو جبريل^(١) عليه السلام، قال الزهري: وهذه كقوله: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ ﴿عَلَى قَلْبِكَ لَتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ أي نزل به ملك كريم أمين ذو مكانة عند الله مطاع في الملأ الأعلى ﴿عَلَى قَلْبِكَ﴾ يا محمد سالماً من الدنس والزيادة والنقص، ﴿لَتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ أي لتنذر به بأس الله ونقمته على من خالفه وكذبه، وتبشر به المؤمنين المتبعين له، وقوله تعالى: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ أي هذا القرآن الذي أنزلناه إليك أنزلناه باللسان العربي الفصيح الكامل الشامل، ليكون بيناً واضحاً ظاهراً، قاطعاً للعذر، مقبلاً للحجة، دليلاً إلى المحجة. وقال سفيان الثوري: لم ينزل وحي إلا بالعربية، ثم ترجم كل نبي لقومه، واللسان يوم القيامة بالسريانية، فن دخل الجنة تكلم بالعربية.

وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٩٧﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾

يقول تعالى: وإن ذكر هذا القرآن والتنويه به لموجود في كتب الأولين المأثورة عن أنبيائهم، الذين بشروا به في قديم الدهر وحديثه، كما أخذ الله عليهم الميثاق بذلك حتى قام آخرهم خطيباً في ملته بالبشارة بأحمد ﴿ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد﴾ والزبر ههنا هي الكتب، وهي جمع زبور، وكذلك الزبور وهو كتاب داود، قال الله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ﴾ أي مكتوب عليهم في صحف الملائكة، ثم قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أي أوليس يكفيم من الشاهد الصادق على ذلك أن العلماء من بني إسرائيل، يجدون ذكر هذا القرآن في كتبهم التي يدرسونها، والمراد العدول منهم الذين يعترفون بما في أيديهم من صفة محمد ﷺ ومبعثه وأمته، كما أخبر بذلك من آمن منهم كـ (عبد الله بن سلام) و (سلمان الفارسي) ومن شاكلهم، قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأَمِّيَّ﴾ الآية؛ ثم قال تعالى مخبراً عن شدة كفر قريش وعنادهم لهذا القرآن: إنه لو نزل على رجل من الأعاجم ممن لا يدري من العربية كلمة وأنزل عليه هذا الكتاب بيانه وفصاحته لا يؤمنون به، ولهذا قال: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ كما أخبر عنهم في الآية الأخرى، ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَاباً مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرَجُونَ﴾ لقالوا إنما سكرت أبصارنا ﴿الآية﴾؛ وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ الآية.

كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ ۖ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيهِمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَسْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ أَفِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾ أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾

(١) تفسير الروح الأمين بجبريل قاله غير واحد من السلف: ابن عباس وقتادة والسدي والضحاك وغيرهم.

ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمْتَعُونَ ﴿٢٠٧﴾ وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٠٩﴾

يقول تعالى: كذلك سلكننا التكذيب والكفر والجحود والعناد، أي أدخلناه في قلوب المجرمين ﴿ لا يؤمنون به ﴾ أي بالحق ﴿ حتى يروا العذاب الأليم ﴾ أي حيث لا ينفع الظالمين معذرتهم، ﴿ فيأتيهم بغتة ﴾ أي عذاب الله فجأة ﴿ وهم لا يشعرون ﴾ فيقولوا هل نحن منظرون ﴿ أي يتمنون حين يشاهدون العذاب أن لو أنظروا قليلاً ليعملوا في زعمهم بطاعة الله، فكل ظالم وفاجر وكافر إذا شاهد عقوبته ندم ندماً شديداً؛ هذا فرعون لما دعا عليه الكلم بقوله: ﴿ ربنا إنك آتيت فرعون وملاًه زينة وأموراً في الحياة الدنيا ﴾ فأثرت هذه الدعوة في فرعون فما آمن حتى رأى العذاب الأليم ﴿ حتى إذا أدركه الغرق قال آمنت أنه لا إله إلا الله الذي آمنت به بنو إسرائيل ﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿ فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده ﴾ الآية، وقوله تعالى: ﴿ أفبعذابنا يستعجلون ﴾ إنكار عليهم وتهديد لهم، فإنهم كانوا يقولون للرسول تكديباً واستبعاداً: ائتنا بعذاب الله، كما قال تعالى: ﴿ ويستعجلونك بالعذاب ﴾ الآيات، ثم قال: ﴿ أفرايت إن متعناهم سنين ثم جاءهم ما كانوا يوعدون ﴾ ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون ﴿ أي لو أخرناهم وأنظرناهم وأمليناهم برهة من الدهر وحيناً من الزمان وإن طال، ثم جاءهم أمر الله، أي شيء يجدي عنهم ما كانوا فيه من النعيم ﴾ كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها ﴾، وقال تعالى: ﴿ يود أحدهم لو يعمر ألف سنة وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر ﴾، وقال تعالى: ﴿ وما يغني عنه ماله إذا تردى ﴾، ولهذا قال تعالى: ﴿ ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون ﴾. وفي الحديث الصحيح: « يوتى بالكافر فيغمس في النار غمسة ثم يقال له هل رأيت خيراً قط؟ هل رأيت نعيماً قط؟ فيقول: لا والله يا رب، ويوتى بأشد الناس بؤساً كان في الدنيا، فيصبغ في الجنة صبغة، ثم يقال له: هل رأيت بؤساً قط؟ فيقول: لا والله يا رب ». ثم قال تعالى مخبراً عن عدله في خلقه أنه ما أهلك أمة من الأمم إلا بعد الإعذار إليهم والإنذار لهم وبعثة الرسل إليهم، وقيام الحجة عليهم، ولهذا قال تعالى: ﴿ وما أهلكنا من قرية إلا لها منذرون ﴾ ذكرى وما كنا ظالمين ﴿ كما قال تعالى: ﴿ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ﴾، وقال تعالى: ﴿ وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها رسولا يتلو عليهم آياتنا - إلى قوله - وأهلها ظالمون ﴾ .

وَمَا تَنْزَلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعَزُولُونَ ﴿٢١٢﴾

يقول تعالى مخبراً عن كتابه العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد: أنه نزل به الروح الأمين المؤيد من الله ﴿ وما تنزلت به الشياطين ﴾، ثم ذكر أنه يمتنع عليهم ذلك من ثلاثة أوجه: أحدها أنه ما ينبغي لهم لأن سجايام الفساد، وإضلال العباد، وهذا فيه نور وهدى وبرهان عظيم، فبينه وبين الشياطين منافاة عظيمة، ولهذا قال تعالى: ﴿ وما ينبغي لهم ﴾، وقوله تعالى: ﴿ وما يستطيعون ﴾ أي ولو انبغى لهم لما استطاعوا ذلك، ثم بين أنه لو انبغى لهم واستطاعوا حمله وتأديته لما وصلوا إلى ذلك، لأنهم بمغزل عن استماع القرآن حال نزوله، لأن السماء ملئت حرساً شديداً وشهباً في مدة إنزال القرآن على رسول الله، فلم يخلص أحد من الشياطين إلى استماع حرف واحد منه لثلاثين يوماً، وهذا من رحمة الله بعباده، وحفظه لشرعه، وتأييده لكتابه

ولرسوله، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمْعَزُولُونَ﴾ كما قال تعالى مخبراً عن الجن ﴿وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شَهَابًا رَصَدًا﴾ .

فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنَّي بِرِيءٍ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ الَّذِي يَرَبُّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقْلُبُكَ فِي السَّجْدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾

يقول تعالى آمراً بعبادته وحده لا شريك له ومخبراً أن من أشرك به عذبه. ثم قال تعالى آمراً لرسوله ﷺ أن ينذر عشيرته الأقربين أي الأذنين إليه، وأنه لا يخلص أحدهم منهم إلا إيمانه بربه عز وجل، وأمره أن يلين جانبه لمن اتبعه من عباد الله المؤمنين، ومن عصاه من خلق الله كائناً من كان فليتبرأ منه، ولهذا قال تعالى: ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنَّي بِرِيءٍ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾، وهذه النذارة الخاصة لا تنافي العامة بل هي فرد من أجزائها، كما قال تعالى: ﴿لَتَنْذِرُ قَوْمًا مَّا أَنْذَرْتَهُمْ مِنْ قَبْلِهِمْ لَمْ يَكْفُرُوا مِنْهُ لَمَّا جَاءَهُمْ قُلْ لِيَظَنُّوا أَنَّهُمْ يُحِبُّونَ اللَّهَ فَاسْرِفُوا عَلَيْكُمْ﴾، وقال تعالى: ﴿لَتَنْذِرُ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا﴾، وقال تعالى: ﴿لَأَنْذِرْكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾، وفي صحيح مسلم: «والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني، ثم لا يؤمن بي إلا دخل النار». وقد وردت أحاديث كثيرة في نزول هذه الآية الكريمة، فلنذكرها، الحديث الأول: عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما أنزل الله عز وجل ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ أتى النبي ﷺ الصفا فصعد عليه ثم نادى: «يا صباحاه»، فاجتمع الناس إليه بين رجل يجيء إليه، وبين رجل يبعث رسوله، فقال رسول الله ﷺ: «يا بني عبد المطلب، يا بني فهر، يا بني لؤي، أرايتم لو أخبرتكم أن خيلاً بسفح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم صدقتموني؟» قالوا: نعم، قال: «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد» فقال أبو لهب: تباً لك سائر اليوم أما دعوتنا إلا لهذا؟ وأنزل الله: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ (١)، الحديث الثاني: روى الإمام أحمد عن عائشة قالت: لما نزلت: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ قام رسول الله ﷺ فقال: «يا فاطمة ابنة محمد، يا صفية ابنة عبد المطلب، يا بني عبد المطلب لا أملك لكم من الله شيئاً سلوني من مالي ما شئتم» (٢). الحديث الثالث: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ دعا رسول الله ﷺ قريشاً فعمَّ وخصَّ، فقال: «يا معشر قريش أنقذوا أنفسكم من النار، يا معشر بني كعب أنقذوا أنفسكم من النار، يا معشر بني هاشم أنقذوا أنفسكم من النار، يا معشر بني عبد المطلب أنقذوا أنفسكم من النار، يا فاطمة بنت محمد أنقذي نفسك من النار، فإني والله لا أملك لكم من الله شيئاً إلا أن لكم رحماً سألها بيلها» (٣). وقال الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «يا بني عبد المطلب اشترى أنفسكم من الله، يا صفية عمة رسول الله ويا فاطمة بنت رسول الله اشترى أنفسكما

(١) أخرجه الإمام أحمد ورواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي من طرق بمثله .

(٢) أخرجه أحمد ومسلم عن عائشة رضي الله عنها .

(٣) رواه مسلم وأحمد والترمذي .

من الله، فإني لا أغني عنكما من الله شيئاً، سلاني من مالي ما شئتما»^(١) وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ: «يا بني قصي، يا بني هاشم، يا بني عبد مناف، أنا النذير، والموت المغير، والساعة الموعد»^(٢)، الحديث الرابع: قال الإمام أحمد عن قبيصة بن مخارق وزهير بن عمرو قالوا: لما نزلت: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ صعد رسول الله ﷺ رضمة من جبل على أعلاها حجر فجعل ينادي: «يا بني عبد مناف إنما أنا نذير، إنما مثلي ومثلكم كرجل رأى العدو فذهب يربأ أهله رجاء أن يسبقوه فجعل ينادي ويهتف يا صباحاه»^(٣) ؟

وقوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ أي في جميع أمورك فإنه مؤيدك وحافظك وناصرك ومظفرك ومعلي كلمتك، وقوله تعالى: ﴿الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ﴾ أي هو معتن بك، كما قال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾، قال ابن عباس ﴿الذي يراك حين تقوم﴾: يعني إلى الصلاة. وقال عكرمة: يرى قيامه وركوعه وسجوده، وقال الحسن: إذا صليت وحدك، وقال الضحاك: أي من فراشك أو مجلسك، وقال قتادة ﴿الذي يراك﴾ قائماً وجالساً وعلى حالاتك، وقوله تعالى: ﴿وَتَقَلِّبْكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾، قال قتادة: ﴿الذي يراك حين تقوم وتقلبك في الساجدين﴾ قال: في الصلاة يراك وحدك ويراك في الجمع. وعن ابن عباس أنه قال في هذه الآية: يعني قلبه من صلب نبي إلى صلب نبي، حتى أخرجه نبياً، وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ أي السميع لأقوال عباده، العلم بحركاتهم وسكناتهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ الآية .

هَلْ أَنْبَيْتُمْ عَلَىٰ مَن تَنْزَلُ الشَّيَاطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنْزَلُ عَلَىٰ كُلِّ آفَاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثُرُهُمْ كَاذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَأَهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَبْتَغُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا ۗ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾

يقول تعالى مخاطباً لمن زعم من المشركين أن ما جاء به الرسول ﷺ ليس بحق، وأنه شيء افتعله من تلقاء نفسه، أو أنه أتاه به ربي الجنان، فتره الله سبحانه وتعالى جناب رسوله عن قولهم واقترائهم، ونبه أن ما جاء به إنما هو من عند الله، وأنه تنزيله ووحيه نزل به ملك كريم أمين عظيم، وأنه ليس من قبل الشياطين، فإنهم ليس لهم رغبة في مثل هذا القرآن العظيم وإنما يتزولون على من يشاكلهم ويشابههم من الكهان الكذبة. ولهذا قال الله تعالى: ﴿هل أنبئكم﴾ أي أخبركم ﴿على من تنزل الشياطين﴾ تنزل على كل آفاك أثيم ﴿أي كذوب في قوله وهو الأفاك أثيم﴾ وهو الفاجر في أفعاله، فهذا هو الذي تنزل عليه الشياطين من الكهان وما جرى مجراهم من الكذبة الفسقة، فإن الشياطين أيضاً كذبة فسقة ﴿يلقون السمع﴾ أي يسترقون السمع من السماء فيسمعون الكلمة من علم الغيب، فيزيدون معها مائة كذبة ثم يلقونها إلى أوليائهم من الإنس، فيحدثون بها فيصدقهم الناس في كل ما قالوه بسبب

(١) تفرد به من هذا الوجه الإمام أحمد . (٢) أخرجه الحافظ أبو يعلى . (٣) أخرجه مسلم والنسائي والإمام أحمد .

صدقهم في تلك الكلمة التي سمعت من السماء، كما روى البخاري عن عروة بن الزبير قال، قالت عائشة رضي الله عنها: سألت ناس النبي ﷺ عن الكهان فقال: «إنهم ليسوا بشيء»، قالوا: يا رسول الله فإنهم يحدثون بالشيء يكون، فقال النبي ﷺ: «تلك الكلمة من الحق يخطفها الجني فيقرقها في أذن وليه كقرقرة الدجاج فيخلطون معها أكثر من مائة كذبة». وروى البخاري أيضاً عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله، كأنها سلسلة على صفوان، فإذا فرغ عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا: الحق وهو العلي الكبير، فيسمعها مسترقو السمع، ومسترقو السمع هكذا بعضهم فوق بعض - وصفه سفيان بيده فحرفها وبدد بين أصابعه - فيسمع الكلمة فيلقيها إلى من تحته، ثم يلقيا الآخر إلى من تحته، حتى يلقيا على لسان الساحر أو الكاهن، فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيا، وربما ألقاها قبل أن يدركه فيكذب معها مائة كذبة، فيقال: أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا: كذا وكذا؟ فيصدق بتلك الكلمة التي سمعت من السماء»^(١).

وقوله تعالى: ﴿والشعراء يتبعهم الغاؤون﴾ قال ابن عباس: يعني الكفار يتبعهم ضلال الإنس والجن؛ وكذا قال مجاهد رحمه الله، وقال عكرمة: كان الشعراء يتهاجيان فيتنصر لهذا فثام من الناس، ولهذا فثام من الناس، فأنزل الله تعالى: ﴿والشعراء يتبعهم الغاؤون﴾. وقال الإمام أحمد عن أبي سعيد قال: بينا نحن نسير مع رسول الله ﷺ بالعرج إذ عرض شاعر ينشد، فقال النبي ﷺ: «خذوا الشيطان - أو أمسكوا الشيطان -، لأن يمتليء جوف أحدكم قيحاً خير له من أن يمتليء شعراً»^(٢). وقوله تعالى: ﴿ألم تر أنهم في كل واد يهيمون﴾ قال ابن عباس: في كل لغو يخوضون، وقال الضحاک عن ابن عباس: في كل فن من الكلام، وكذا قال مجاهد وغيره. وقال الحسن البصري: قد والله رأينا أوديتهم التي يخوضون فيها مرة في شتية فلان ومرة في مديحة فلان، وقال قتادة: الشاعر يمدح قوماً يباطل ويذم قوماً يباطل، وقوله تعالى: ﴿وأنتهم يقولون ما لا يفعلون﴾ قال ابن عباس: كان رجلاً على عهد رسول الله ﷺ أحدهما من الأنصار والآخر من قوم آخرين، وإنهما تهاجيا فكان مع كل واحد منهما غواة من قومه وهم السفهاء، فقال الله تعالى: ﴿والشعراء يتبعهم الغاؤون﴾ ألم تر أنهم في كل واد يهيمون * وأنتهم يقولون ما لا يفعلون﴾، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: أكثر قولهم يكذبون فيه، وهذا الذي قاله ابن عباس رضي الله عنه هو الواقع في نفس الأمر، فإن الشعراء يتبجحون بأقوال وأفعال لم تصدر منهم ولا عنهم فيتكثرون بما ليس لهم، ولهذا جاء في الحديث: «لأن يمتليء جوف أحدكم قيحاً يريه خير له من أن يمتليء شعراً»، والمراد من هذا أن الرسول ﷺ الذي أنزل عليه هذا القرآن ليس بكاهن ولا شاعر، لأن حاله مناف لحالهم من وجوه ظاهرة، كما قال تعالى: ﴿وما علمناه الشعر وما ينبغي له إن هو إلا ذكر وقرآن مبين﴾، وقال تعالى: ﴿إنه لقول رسول كريم * وما هو بقول شاعر قليلاً ما تؤمنون * ولا بقول كاهن قليلاً ما تذكرون * تنزيل من رب العالمين﴾ وهكذا قال ههنا ﴿وإنه لنتزيل رب العالمين * نزل به الروح الأمين * على قلبك لتكون من المنذرين * بلسان عربي مبين﴾، إلى أن قال: ﴿وما تنزلت به الشياطين وما ينبغي لهم وما يستطيعون إنهم عن السمع لمعزولون﴾، إلى أن قال: ﴿هل أنبئكم على من تنزل الشياطين؟ تنزل على كل أفك أثيم * يلقون السمع وأكثرهم كاذبون *

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند .

(١) تفرد به البخاري ورواه مسلم قريباً منه .

والشعراء يتبعهم الغاؤون * ألم تر أنهم في كل واد يهيمون؟ وأنهم يقولون ما لا يفعلون ﴿٢٢١﴾. وقوله: ﴿إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً﴾ الآية .

قال محمد بن إسحاق: لما نزلت ﴿والشعراء يتبعهم الغاؤون﴾ جاء حسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة وكعب بن مالك إلى رسول الله ﷺ وهم يبكون قالوا: قد علم الله حين أنزل هذه الآية أنا شعراء، فتلا النبي ﷺ: ﴿إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ قال: «أتم» ﴿وذكروا الله كثيراً﴾ قال: «أتم»، ﴿وانتصروا من بعد ما ظلموا﴾ قال: «أتم»^(١). وروى أيضاً عن عروة قال: لما نزلت ﴿والشعراء يتبعهم الغاؤون﴾، إلى قوله: ﴿وأنهم يقولون ما لا يفعلون﴾ قال عبد الله بن رواحة: يا رسول الله قد علم الله أي منهم، فأنزل الله تعالى: ﴿إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ الآية، وهكذا قال ابن عباس وعكرمة ومجاهد وغير واحد أن هذا استثناء مما تقدم. ولهذا قال تعالى: ﴿إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً﴾ قيل: معناه ذكروا الله كثيراً في كلامهم، وقيل: في شعرهم، وكلاهما صحيح مكفر لما سبق، وقوله تعالى: ﴿وانتصروا من بعد ما ظلموا﴾ قال ابن عباس: يردون على الكفار الذين كانوا يهجون به المؤمنين؛ وهذا كما ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال لحسان: «اهجهم - أو قال - هاجهم وجبريل معك». وقال الإمام أحمد عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك عن أبيه أنه قال للنبي ﷺ إن الله عز وجل قد أنزل في الشعراء ما أنزل، فقال رسول الله ﷺ: «إن المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه، والذي نفسي بيده لكان ما ترمونهم به نضح النبل»^(٢)، وقوله تعالى: ﴿وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون﴾، كقوله تعالى: ﴿يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم﴾ الآية، وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «إياكم والظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة»، قال قتادة: يعني من الشعراء وغيرهم وقيل: المراد بهم أهل مكة، وقيل الذين ظلموا من المشركين، والصحيح أن هذه الآية عامة في كل ظالم، كما قال ابن أبي حاتم عن عائشة رضي الله عنها قالت: كتب أبي في وصيته سطرين: بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما وصى به أبو بكر بن أبي قحافة عند خروجه من الدنيا حين يؤمن الكافر، وينتهي الفاجر، ويصدق الكاذب، إني استخلفت عليكم عمر بن الخطاب، فإن يعدل فذاك ظني به ورجائي فيه، وإن يجر ويبدل فلا أعلم الغيب ﴿وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون﴾ .

[آخر تفسير سورة الشعراء ، والحمد لله رب العالمين]

* * *

(١) رواه ابن أبي حاتم وابن جرير من رواية ابن إسحاق .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند .



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

طَسَّ تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ ﴿١﴾ هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ
الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيْنًا لهُمْ أَعْمَلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿٤﴾
أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْآخِسُونَ ﴿٥﴾ وَإِنَّكَ لَتَلْقَى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنِّ حَكِيمٍ
عَلِيمٍ ﴿٦﴾

قد تقدم الكلام في سورة البقرة على الحروف المقطعة في أوائل السور، وقوله تعالى: ﴿ تلك آيات ﴾ أي هذه آيات ﴿ القرآن وكتاب مبين ﴾ أي بين واضح، ﴿ هدى وبشرى للمؤمنين ﴾ أي إنما تحصل الهداية والبشارة من القرآن، لمن آمن به واتبعه وصدقه وعمل بما فيه، وأقام الصلاة المكتوبة، وآتى الزكاة المفروضة، وأيقن بالدار الآخرة، والبعث بعد الموت، والجزاء على الأعمال خيرا وشرها، والجنة والنار، كما قال تعالى: ﴿ قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر ﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿ لتبشر به المتقين وتنذر به قوما لدا ﴾، ولهذا قال تعالى ههنا: ﴿ إن الذين لا يؤمنون بالآخرة ﴾ أي يكذبون بها ويستبعدون وقوعها، ﴿ زينا لهم أعمالهم فهم يعمهون ﴾ أي حسنا لهم ما هم فيه، ومددنا لهم في غيهم، فهم يتيهون في ضلالهم، كما قال تعالى: ﴿ ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ﴾ الآية، ﴿ أولئك الذين لهم سوء العذاب ﴾ أي في الدنيا والآخرة ﴿ وهم في الآخرة هم الآخسرون ﴾ أي ليس يحسر سواهم من أهل المحشر، وقوله تعالى: ﴿ وإنك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم ﴾ أي ﴿ وإنك ﴾ يا محمد ﴿ لتلقى ﴾ أي لتأخذ ﴿ القرآن من لدن حكيم عليم ﴾ أي من عند حكيم عليم أي حكيم في أمره ونهيه، عليم بالأمور جليلها وحقيرها، فخره هو الصدق المحض، وحكمه هو العدل التام، كما قال تعالى: ﴿ وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا ﴾ .

* إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنستُ نارا ساعتيكم منها يجبر أوءاتيكم بشهاب قبيس لعلكم

تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾ فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مِنْ فِي النَّارِ وَمِنْ حَوْلِهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨﴾ يَمْوَسِيٰ
 إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٩﴾ وَاللَّي عَصَاكَ ﴿١٠﴾ فَلَمَّا رَأَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَرَّ يُعَقِّبُ يَمْوَسِيٰ
 لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَى الْمَرْسُولِ ﴿١١﴾ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلْ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٢﴾ وَأَدْخِلْ
 بَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿١٣﴾
 فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٤﴾ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ
 كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٥﴾

يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ مذكراً له ما كان من أمر موسى عليه السلام، كيف اصطفاه الله وكلمه وناجاه، وأعطاه من الآيات العظيمة الباهرة والأدلة القاهرة، وابتعثه إلى فرعون وملكه فجحداوا بها وكفروا، فقال تعالى: ﴿إذ قال موسى لأهله﴾ أي اذكر حين سار موسى بأهله فأضل الطريق وذلك في ليل وظلام، فأنس من جانب الطور ناراً، أي رأى ناراً تاجح وتضطرم، فقال: ﴿لأهله إني آنست ناراً سأتيكم منها بخبر﴾ أي عن الطريق، ﴿أو آتيكم منها بشهاب قبس لعلكم تصطلون﴾ أي تستدفنون به وكان كما قال، فإنه رجع منها بخبر عظيم، واقبس منها نوراً عظيماً، ولهذا قال تعالى: ﴿فلما جاءها نودي أن بورك من في النار ومن حولها﴾ أي فلما أتاها ورأى منظراً هائلاً عظيماً، حيث انتهى إليها والنار تضطرم في شجرة خضراء، لا تزداد النار إلا توقداً، ولا تزداد الشجرة إلا خضرة ونضرة، ثم رفع رأسه فإذا نورها متصل بعنان السماء، قال ابن عباس وغيره: لم تكن ناراً وإنما كانت نوراً يتوهج، وفي رواية عنه نور رب العالمين، فوقف موسى متعجباً مما رأى ﴿فنودي أن بورك من في النار﴾ قال ابن عباس: تقدس ﴿ومن حولها﴾ أي من الملائكة، روى ابن أبي حاتم عن أبي موسى رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يرفع إليه عمل الليل قبل النهار وعمل النهار قبل الليل»، زاد المسعودي: «وحجابه النور أو النار لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه كل شيء أدركه بصره» ثم قرأ أبو عبيدة ﴿أن بورك من في النار ومن حولها﴾^(١)، وقوله تعالى: ﴿وسبحان الله رب العالمين﴾ أي الذي يفعل ما يشاء ولا يشبهه شيء من مخلوقاته، ولا يحيط به شيء من مصنوعاته، وهو العلي العظيم المبين لجميع المخلوقات، ولا يكتفه الأرض والسموات، بل هو الأحد الصمد المتزه عن مماثلة المحدثات.

وقوله تعالى: ﴿يا موسى إنه أنا الله العزيز الحكيم﴾ أعلمه أن الذي يخاطبه ويناجيه هو ربه، العزيز الذي عز كل شيء وقهره وغلبه، الحكيم في أقواله وأفعاله، ثم أمره أن يلقي عصاه من يده، ليظهر له دليلاً واضحاً على أنه الفاعل المختار القادر على كل شيء، فلما ألقى موسى تلك العصا من يده انقلبت في الحال حية عظيمة هائلة، في غاية الكبر وسرعة الحركة مع ذلك، ولهذا قال تعالى: ﴿فلما رآها تهتز كأنها جان﴾ والجان ضرب

(١) أخرجه ابن أبي حاتم عن أبي موسى الأشعري وأصل الحديث في صحيح مسلم .

من الحيات أسرع حركة وأكثره اضطراباً، فلما عاين موسى ذلك ﴿ولى مدبراً ولم يعقب﴾ أي لم يلتفت من شدة فرقه ﴿يا موسى لا تخف إني لا يخاف لدي المرسلون﴾ أي لا تخف مما ترى فإني أريد أن أصطفيك رسولا، وأجعلك نبياً وجيهاً، وقوله تعالى: ﴿إلا من ظلم ثم بدل حسناً بعد سوء فإني غفور رحيم﴾ هذا استثناء منقطع وفيه بشارة عظيمة للبشر، وذلك أن من كان على عمل سيء، ثم أفلح عنه ورجع وتاب وأناب فإن الله يتوب عليه، كما قال تعالى: ﴿وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى﴾، وقوله تعالى: ﴿وأدخل يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء﴾ هذه آية أخرى ودليل باهر على قدرة الله الفاعل المختار وصدق من جعل له معجزة، وذلك أن الله تعالى أمره أن يدخل يده في جيب درعه، فإذا أدخلها وأخرجها خرجت بيضاء ساطعة كأنها قطعة قمر، لها لمعان تتلأأ كالبرق الخاطف، وقوله تعالى: ﴿في تسع آيات﴾ أي هاتان تثنان من تسع آيات، أؤيدك بهن وأجعلهن برهاناً لك إلى فرعون وقومه ﴿إنهم كانوا قوماً فاسقين﴾ وهذه هي الآيات التسع التي قال الله تعالى: ﴿ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات﴾ كما تقدم تقرير ذلك هنالك، وقوله تعالى: ﴿فلما جاءتهم آياتنا مبصرة﴾ أي بينة واضحة ظاهرة ﴿قالوا هذا سحر مبين﴾ أي علموا في أنفسهم أنها حق من عند الله ولكن جحدوها وعاندوها وكابروها ﴿ظلماً وعلواً﴾، أي ظلماً من أنفسهم ﴿وعلواً﴾ أي استكباراً عن اتباع الحق، ولهذا قال تعالى: ﴿فانظر كيف كان عاقبة المفسدين﴾ أي انظر يا محمد كيف كان عاقبة أمرهم في إهلاك الله إياهم، وفحوى الخطاب، يقول: احذروا أيها المكذبون لمحمد الجاحدون لما جاء به من ربه، أن يصيبكم ما أصابهم بطريق الأولى والأخرى، فإن محمداً ﷺ أشرف وأعظم من موسى، وبرهانه أدل وأقوى من برهان موسى، عليه من ربه أفضل الصلاة والسلام.

وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عَلِمْنَا مِنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَحِشْرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودَهُ مِنْ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسْكِنَكُمُ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَسْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدِي وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴿١٩﴾

يخبر تعالى عما أنعم به على عبديه ونبيه (داود) وابنه (سليمان) عليهما السلام، من النعم الجزيلة والمواهب الجليلة، والصفات الجميلة، وما جمع لهما بين سعادة الدنيا والآخرة، والملك والنبوة، ولهذا قال تعالى: ﴿ولقد آتينا داود وسليمان علماً وقالوا الحمد لله الذي فضلنا على كثير من عباده المؤمنين﴾، وقوله تعالى: ﴿وورث سليمان داود﴾ أي في الملك والنبوة، وليس المراد وراثته المال إذ لو كان كذلك لم يخص سليمان وحده من بين سائر أولاد داود، ولكن المراد بذلك وراثته الملك والنبوة، فإن الأنبياء لا تورث أموالهم، كما أخبر بذلك رسول الله ﷺ

في قوله: « نحن معاشر الأنبياء لا نورث، ما تركناه فهو صدقة »، ﴿ وقال يا أيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شيء ﴾ أي أخبر سليمان بنعم الله عليه فيما وهبه له من الملك التام والتمكين العظيم، حتى إنه سخر له الإنس والجن والطير؛ وكان يعرف لغة الطير والحيوان أيضاً على اختلاف أصنافها، ولهذا قال تعالى: ﴿ علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شيء ﴾ أي ما يحتاج إليه الملك، ﴿ إن هذا هو الفضل المبين ﴾ أي الظاهر البين لله علينا، وقوله تعالى: ﴿ وحشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير فهم يوزعون ﴾ أي وجمع لسليمان جنوده من الجن، والإنس والطير، يعني ركب فيهم في أبهة وعظمة كبيرة، في الإنس وكانوا هم الذين يلونه، والجن وهم بعدهم في المترلة، والطير ومترلتها فوق رأسه، فإن كان حر أظلمته منه بأجنحتها، وقوله ﴿ فهم يوزعون ﴾ أي يكف أولهم على آخرهم لثلاث يتقدم أحد عن مترلته، قال مجاهد: جعل على كل صنف وزعة لثلاث يتقدموا في السير كما يفعل الملوك اليوم .

وقوله تعالى: ﴿ حتى إذا أتوا على وادي النمل ﴾ أي حتى إذا مر سليمان عليه السلام بمن معه من الجيوش والجنود على وادي النمل ﴿ قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون ﴾ أي خافت على النمل أن تحطمها الخيول بحوافرها فأمرتهم بالدخول إلى مساكنهم، ففهم ذلك سليمان عليه السلام منها، ﴿ فتبسم ضاحكاً من قولها وقال رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ وعلى والديّ وأن أعمل صالحاً ترضاه ﴾، أي ألهمني أن أشكر نعمتك التي مننت بها عليّ من تعليمي منطق الطير والحيوان، وعلى والديّ بالإسلام لك، والإيمان بك ﴿ وأن أعمل صالحاً ترضاه ﴾ أي عملاً تحبه وترضاه، ﴿ وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين ﴾ أي إذا توفيتني فألحقني بالصالحين من عبادك، والرفيق الأعلى من أوليائك. والغرض أن سليمان عليه السلام فهم قولها وتبسم ضاحكاً من ذلك وهذا أمر عظيم جداً، وقد روى ابن أبي حاتم عن أبي الصديق الناجي قال: خرج سليمان بن داود عليهما السلام يستسقي، فإذا هو بنملة مستلقية على ظهرها رافعة قوائمها إلى السماء وهي تقول: اللهم إنا خلق من خلقك، ولا غنى بنا عن سقيك، وإلا تسقنا تهلكتنا، فقال سليمان: ارجعوا فقد سقيتم بدعوة غيركم. وقد ثبت في الصحيح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: « قرصت نبياً من الأنبياء نملة فأمر بقرية النمل فأحرقت، فأوحى الله إليه، أي أن قرصتك نملة أهلكت أمة من الأمم تسبح؟ فهلا نملة واحدة؟ »^(١)

وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهَدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأَعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَأَذِّبَنَّهٗ
أَوْلِيَائِي نَبِيٍّ بِسُلْطٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾

قال ابن عباس وغيره: كان الهدهد مهندساً يدل سليمان عليه السلام على الماء، إذا كان بأرض فلاة طلبه فنظر له الماء في تخوم الأرض، فإذا دلم عليه أمر سليمان عليه السلام الجان فحفروا له ذلك المكان، حتى يستنبط الماء من قراره، فنزل سليمان عليه السلام يوماً بفلاة من الأرض فتفقده الطير ليرى الهدهد فلم يره ﴿ فقال ما لي لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين ﴾ حدث يوماً ابن عباس بنحو هذا وفي القوم رجل من الخوارج يقال له (نافع

(١) أخرجه مسلم عن أبي هريرة مرفوعاً .

ابن الأزرق) وكان كثير الاعتراض على ابن عباس فقال له: قف يا ابن عباس غلبت اليوم، قال: ولم؟ قال: إنك تخبر أن الهدهد يرى الماء في تخوم الأرض، وإن الصبي ليضع له الحبة في الفخ، ويحثو على الفخ تراباً فيجيء الهدهد ليأخذها فيقع في الفخ فيصيده الصبي، فقال ابن عباس: لولا أن يذهب هذا فيقول رددت على ابن عباس لما أجبته، ثم قال له: ويحك إنه إذا نزل القدر عمي البصر وذهب الحذر، فقال له نافع: والله لا أجادلك في شيء من القرآن أبداً، وقال محمد بن إسحاق: كان سليمان عليه السلام إذا غدا إلى مجلسه الذي كان يجلس فيه تفقد الطير، وكان فيما يزعمون يأتيه نوب من كل صنف من الطير كل يوم طائر، فنظر فرأى من أصناف الطير كلها من حضره إلا الهدهد ﴿فقال مالي لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين﴾ أخطأه بصري من الطير أم غاب فلم يحضر؟ وقوله: ﴿لأعذبه عذاباً شديداً﴾ قال ابن عباس يعني نتف ريشه، وكذا قال غير واحد من السلف إنه نتف ريشه وتركه ملقى يأكله الذر والنمل، وقوله: ﴿أو لأذبحنه﴾ يعني قتله ﴿أو ليأتيني بسلطان مبين﴾ بعذر بين واضح، وقال سفيان بن عيينة: لما أقدم الهدهد قالت له الطير: ما خلفك فقد نذر سليمان دمك، فقال: هل استثنى؟ قالوا: نعم، قال: ﴿لأعذبه عذاباً شديداً أو لأذبحنه أو ليأتيني بسلطان مبين﴾ قال: نجوت إذا.

فَكَتَّ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ نَحِطُ بِهِ ۗ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدْتَهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلُهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَا يَسْجُدُونَ لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُحْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٢٦﴾

يقول تعالى: ﴿فكث﴾ الهدهد ﴿غير بعيد﴾ أي غاب زماناً سيراً ثم جاء فقال لسليمان ﴿أحطت بما لم تحط به﴾ أي اطلعت على ما لم تطلع عليه أنت ولا جنودك ﴿وجئتك من سبأ نبأ يقين﴾ أي بنجر صدق حق يقين، وسبأ هم ملوك اليمن، ثم قال: ﴿إني وجدت امرأة تملكهم﴾ قال الحسن البصري: وهي بلقيس بنت شراحيل ملكة سبأ، وعن قتادة في قوله تعالى: ﴿إني وجدت امرأة تملكهم﴾ كانت من بيت مملكة وكان أولو مشورتها ثلثمائة واثني عشر رجلاً، كل رجل منهم على عشرة آلاف رجل، وكانت بأرض يقال لها (مأرب) على ثلاثة أميال من صنعاء، وقوله: ﴿وأوتيت من كل شيء﴾ أي من متاع الدنيا مما يحتاج إليه الملك المتمكن ﴿ولها عرش عظيم﴾ يعني سرير مجلس عليه عظيم هائل، مزخرف بالذهب وأنواع الجواهر والآلي، قال علماء التاريخ: وكان هذا السرير في قصر عظيم مشيد رفيع البناء محكم، وكان فيه ثلثمائة وستون طاقة من مشرقه، ومثلها من مغربه، وقد وضع بناؤه على أن تدخل الشمس كل يوم من طاقة وتغرب من مقابلتها فيسجدون لها صباحاً ومساءً، ولهذا قال: ﴿وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل﴾ أي عن طريق الحق ﴿فهم لا يهتدون﴾، وقوله: ﴿ألا يسجدوا لله﴾ أي لا يعرفون سبيل الحق التي هي إخلاص السجود لله وحده دون ما خلق من الكواكب وغيرها، كما قال تعالى: ﴿ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لا تسجدوا للشمس ولا للقمر، واسجدوا لله الذي خلقهن إن كنتم إياه تعبدون﴾.

وقوله تعالى: ﴿الذي يخرج الخبء في السموات والأرض﴾ قال ابن عباس: يعلم كل خبيثة في السماء والأرض، وقال سعيد بن المسيب: الخبء الماء، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: خبء السماوات والأرض ما جعل فيهما من الأرزاق، المطر من السماء والنبات من الأرض، وهذا مناسب من كلام الهدهد الذي جعل الله فيه من الخاصية ما ذكره ابن عباس وغيره أنه يرى الماء يجري في تخوم الأرض وداخلها، وقوله: ﴿ويعلم ما تخفون وما تعلنون﴾ أي يعلم ما يخفيه العباد وما يعلنونه من الأقوال والأفعال، وهذا كقوله تعالى: ﴿سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار﴾، وقوله: ﴿الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم﴾ الذي ليس في المخلوقات أعظم منه. ولما كان الهدهد داعياً إلى الخير، وعبادة الله وحده، نهي عن قتله، كما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: نهي النبي ﷺ عن قتل أربع من الدواب: النملة والنحلة والهدهد والصرد^(١).

* قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٧﴾ أَذْهَبَ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقَهُ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوْا إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيْ كِتَابٍ كَرِيمٍ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلَمُونَ عَلِيٍّ وَأَتُونِي مَسْلُومِينَ ﴿٣١﴾

يقول تعالى مخبراً عن قيل سليمان للهدهد، حين أخبره عن أهل سبا وملكهم ﴿قال سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين﴾ أي أصدقت في إخبارك هذا ﴿أم كنت من الكاذبين﴾ في مقالتي لتتخلص من الوعيد الذي أوعدتك؟ ﴿أذهب بكتابي هذا فألقه إليهم ثم تول عنهم فانظر ماذا يرجعون﴾، وذلك أن سليمان عليه السلام كتب كتاباً إلى بلقيس وقومها، وأعطاه ذلك الهدهد فحملة وذهب إلى بلادهم، فجاء إلى قصر بلقيس فألقاه إليها من كوة هنالك بين يديها، ثم تولى ناحية أدياً ورياسة فتحيرت مما رأت وهالها ذلك ثم عمدت إلى الكتاب فأخذته ففتحت ختمه وقرأته، فإذا فيه: ﴿إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم * ألا تعلمون عليٍّ وأتوني مسلمين﴾ فجمعت عند ذلك أمراءها ووزراءها وكبراء دولتها ومملكها ثم قالت لهم: ﴿يا أيها الملأ إني ألقى إلي كتاب كريم﴾ تعني بكرمه ما رأته من عجيب أمره، كون طائر ذهب به فألقاه إليها ثم تولى عنها أدياً وهذا أمر لا يقدر عليه أحد من الملوك ولا سبيل لهم إلى ذلك ثم قرأته عليهم ﴿إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم * ألا تعلمون عليٍّ وأتوني مسلمين﴾ فعرفوا أنه من نبي الله سليمان عليه السلام، وأنه لا قبل لهم به وهذا الكتاب في غاية البلاغة والوجازة والفصاحة فإنه حصل المعنى بأيسر عبارة وأحسنها. قال العلماء: لم يكتب أحد بسم الله الرحمن الرحيم قبل سليمان عليه السلام. وقوله: ﴿أن لا تعلموا عليٍّ﴾ قال قتادة يقول: لا تتجبروا عليٍّ ﴿وأتوني مسلمين﴾، وقال ابن أسلم: لا تمتنعوا ولا تتكبروا عليٍّ وأتوني مسلمين، قال ابن عباس: موحدين، وقال غيره: مخلصين، وقال سفيان بن عيينة: طائعين.

قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوْا أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا نَحْنُ أَوْلُوْا قُوَّةً وَأَوْلُوْا بِأَسْرِ

(١) أخرجه أحمد وأبو داود وابن ماجه قال ابن كثير: وإسناده صحيح.

شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعْرَءَ أَهْلِهَا
أَذَلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّي مُرْسَلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَظِرَةٌ بِمِ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾

لما قرأت عليهم كتاب سليمان استشارتهم في أمرها وما قد نزل بها، ولهذا قالت: ﴿يا أيها الملائة أفنوني في أمري ما كنت قاطعة أمراً حتى تشهدون﴾ أي حتى تحضرون وتشيرون ﴿قالوا نحن أولوا قوة وأولوا بأس شديد﴾ أي منوا عليها بعددهم وعددهم وقوتهم، ثم فوضوا إليها بعد ذلك الأمر فقالوا: ﴿والأمر إليك فانظري ماذا تأمرين﴾؟ أي نحن أشداء إن شئت أن تقصديه وتحاربه فما لنا عاقبة عنه، وبعد هذا فالأمر إليك، مري فينا رأيك نمثله ونطيعه، قال الحسن البصري: فوضوا أمرهم إلى علة تضرب ثديها، فلما قالوا لها ما قالوا كانت هي أحزم رأياً منهم وأعلم بأمر سليمان، وأنه لا قبل لها بجنوده وجيوشه وما سخر له من الجن والإنس والطير، وقد شاهدت من قضية الكتاب مع الهدهد أمراً عجيباً بديعاً فقالت لهم: إني أخشى أن نحاربه ونمنع عليه، فيقصدا بجنوده ويهلكنا بمن معه، ويخلص إليّ وإليكم الهلاك والدمار دون غيرنا، ولهذا قالت: ﴿إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها﴾، قال ابن عباس: أي إذا دخلوا بلداً عنوة أفسدوه أي خربوه، ﴿وجعلوا أعزة أهلها أذلة﴾ أي وقصدوا من فيها من الولاة والجنود فأهانوهم غاية الهوان إما بالقتل أو بالأسر، قال ابن عباس، قالت بلقيس: ﴿إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة﴾، قال الرب عز وجل: ﴿وكذلك يفعلون﴾، ثم عدلت إلى المصالحة والمهادنة والمسألة فقالت: ﴿وإني مرسلَةٌ إليهم بهدية فناظرة بمِ يرجع المرسلون﴾ أي سأبعث إليه بهدية تليق بمثله، وأنظر ماذا يكون جوابه بعد ذلك، فلعله يقبل ذلك منا ويكف عنا، أو يضرب علينا خراجاً نحمله إليه في كل عام، ولنترم له بذلك ويترك قتالنا ومحاربتنا، قال قتادة: ما كان أعقلها في إسلامها وشركها، علمت أن الهدية تقع موقعاً من الناس، وقال ابن عباس: قالت لقومها: إن قبل الهدية فهو ملك فقاتلوه، وإن لم يقبلها فهو نبي فاتبعوه.

فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَ بِمَالٍ فَمَا آتَيْنَاهُ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ أَرْجِعْ
إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٣٧﴾

ذكر غير واحد من المفسرين أنها بعثت إليه بهدية عظيمة، من ذهب وجواهر ولآلىء وغير ذلك، والصحيح أنها أرسلت إليه بآنية من ذهب، فلم ينظر سليمان إلى ما جاءوا به بالكلية ولا اعتنى به بل أعرض عنه، وقال منكراً عليهم ﴿أتمدون بمال؟﴾ أي أنصاعونني بمال لأترككم على شركم وملكمم؟ ﴿فما آتاني الله خير مما آتاكم﴾ أي الذي أعطاني الله من الملك والمال والجنود، خير مما أنتم فيه ﴿بل أنتم بهديتكم تفرحون﴾ أي أنتم الذين تنقادون للهدايا والتحف، وأما أنا فلا أقبل منكم إلا الإسلام أو السيف، قال ابن عباس رضي الله عنه: أمر سليمان الشياطين فوهوا له ألف قصر من ذهب وفضة، فلما رأت رسلها ذلك قالوا: ما يصنع هذا بهديتنا؟ وفي هذا جواز تهبؤ الملوك وإظهارهم الزينة للرسل والقصاد ﴿ارجع إليهم﴾ أي بهديتهم، ﴿فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها﴾ أي لا طاقة لهم بقاتلهم ﴿ولنخرجهم منها أذلة﴾ أي ولنخرجهم من بلدتهم أذلة، ﴿وهم صاغرون﴾ أي مهانون مدحورون، فلما رجعت إليها رسلها بهديتها وبما قال سليمان سمعت وأطاعت هي وقومها، وأقبلت تسير إليه في جنودها خاضعة

ذيلة معظمة لسليمان ناوية متابعتها في الإسلام، ولما تحقق سليمان عليه السلام قدمهم عليه ووفودهم إليه فرح بذلك وسره .

قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيْتُ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾

قال محمد بن إسحاق: فلما رجعت إليها الرسل بما قال سليمان قالت: قد والله عرفت ما هذا بملك وما لنا به من طاقة، وما نصنع بمكابرتة شيئاً، وبعثت إليه إني قادمة عليك بملك قومي لأنظر ما أمرك وما تدعوننا إليه من دينك، ثم أمرت بسرير ملكها الذي كانت تجلس عليه، وكان من ذهب مفصص بالياقوت والزربرد واللؤلؤ فجعل في سبعة أبيات، ثم أقفلت عليه الأبواب، ثم قالت: لمن خلفت على سلطانها احتفظ بما قبلك وسرير ملكي، فلا يخلص إليه أحد من عباد الله، ولا يرينه أحد حتى آتيك، ثم شخصت إلى سليمان في اثني عشر ألف فجعل سليمان يبعث الجن يأتونه بمسيرها ومنهاها كل يوم وليلة، حتى إذا دنت جمع من عنده من الجن والإنس ممن تحت يده، فقال: ﴿يا أيها الملأ أيكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين﴾. وقال قتادة: لما بلغ سليمان أنها جائية وكان قد ذكر له عرشها فأعجبه، وكان من ذهب وقوائمه لؤلؤ وجوهر، وكان مستراً بالديباج والحرير، وكانت عليه تسعة مغاليق فكره أن يأخذه بعد إسلامهم، وقد علم نبي الله أنهم متى أسلموا تحرم أموالهم ودمائهم، فقال: ﴿يا أيها الملأ أيكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين﴾، وهكذا قال عطاء الخراساني والسدي ﴿قبل أن يأتوني مسلمين﴾ فتحرم علي أموالهم بإسلامهم، ﴿قال عفریت من الجن﴾ أي مارد من الجن، ﴿أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك﴾ قال ابن عباس: يعني قبل أن تقوم من مجلسك، وقال مجاهد: مقعدك، وقال السدي وغيره: كان يجلس للناس للقضاء والحكومات من أول النهار إلى أن تزول الشمس، ﴿وإني عليه لقوي أمين﴾ قال ابن عباس: أي قوي على حمله ﴿أمين﴾ على ما فيه من الجوهر، فقال سليمان عليه السلام: أريد أعجل من ذلك، ومن ههنا يظهر أن سليمان أراد بإحضار هذا السرير إظهار عظمة ما وهب الله له من الملك، وما سخر له من الجنود الذي لم يعطه أحد قبله، ولا يكون لأحد من بعده، وليتخذ ذلك حجة على نبوته عند بلقيس وقومها، لأن هذا خارق عظيم، أن يأتي بعرشها كما هو من بلادها قبل أن يقدموا عليه، هذا وقد حجبتة بالأغلاق والأقفال والحفظة، فلما قال سليمان أريد أعجل من ذلك، ﴿قال الذي عنده علم من الكتاب﴾ قال ابن عباس: وهو (آصف) كاتب سليمان عليه السلام.

وكذا روي عن يزيد بن رومان أنه (آصف بن برخياء) وكان صديقاً يعلم الاسم الأعظم، وقال قتادة: كان مؤمناً من الإنس واسمه آصف^(١) من بني إسرائيل، وقوله: ﴿أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك﴾ أي ارفع

(١) وكذا قال أبو صالح والضحاك وزاد قتادة: كان مؤمناً من بني إسرائيل.

بصرك وانظر فإنه لا يكل بصرك إلا وهو حاضر عندك، وقال وهب بن منبه: أمدد بصرك فلا يبلغ مداه حتى أتيتك به، ثم قام فتوضأ ودعا الله تعالى، قال مجاهد: قال ياذا الجلال والإكرام. وقال الزهري قال: يا إلهنا وإله كل شيء إلهاً واحداً لا إله إلا أنت اثنتي عشرها، قال: فمثل بين يديه، فلما عين سليمان وملؤه ذلك ورآه مستقراً عنده ﴿ قال هذا من فضل ربي ﴾ أي هذا من نعم الله علي ﴿ ليلوني ﴾ أي ليختبرني ﴿ أشكر أم أكفر ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ﴾، كقوله: ﴿ من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها ﴾، وكقوله: ﴿ ومن عمل صالحاً فلا لنفسهم يمهدون ﴾، وقوله: ﴿ ومن كفر فإن ربي غني كريم ﴾ أي هو غني عن العباد وعبادتهم، كريم: أي كريم في نفسه وإن لم يعبد أحد، فإن عظمته ليست مفتقرة إلى أحد، وهذا كما قال موسى: ﴿ إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعاً فإن الله لغني حميد ﴾، وفي صحيح مسلم: « يقول الله تعالى: يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئاً، يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيتكم إياها فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه . »

قَالَ نَكِرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكَ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأَوْتَيْنَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمِ كَافِرِينَ ﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِهَا قَالَتْ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٤﴾

لما جاء سليمان عليه السلام بعرض بلقيس قبل قدموها، أمر به أن يغير بعض صفاته ليختبر معرفتها وثباتها عند رؤيته، هل تقدم على أنه عرشها أو أنه ليس بعرشها، فقال: ﴿ نكروا لها عرشها نمنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴾ قال مجاهد: أمر به فغير ما كان فيه أحمر جعل أصفر، وما كان أصفر جعل أحمر، وما كان أخضر جعل أحمر، وغير كل شيء عن حاله، وقال عكرمة: زادوا فيه ونقصوا ﴿ فلما جاءت قيل أهكذا عرشك ﴾ أي عرض عليها عرشها وقد غير ونكر وزيد فيه ونقص منه فكان فيها ثبات وعقل، ولها لب ودهاء وحزم، فلم تقدم على أنه هو لبعده مسافته عنها ولا أنه غيره لما رأت من آثاره وصفاته وإن غير وبدل ونكر، فقالت ﴿ كأنه هو ﴾ أي يشبهه ويقاربه، وهذا غاية في الذكاء والحزم. وقوله: ﴿ وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين ﴾ قال مجاهد: يقوله سليمان، وقوله تعالى: ﴿ وصدها ما كانت تعبد من دون الله إنها كانت من قوم كافرين ﴾، هذا من تمام كلام سليمان عليه السلام في قول مجاهد أي قال سليمان ﴿ أوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين ﴾، وهي كانت قد صددها أي منعها من عبادة الله وحده ﴿ ما كانت تعبد من دون الله إنها كانت من قوم كافرين ﴾ (١).

قلت: ويؤيد قول مجاهد أنها إنما أظهرت الإسلام بعد دخولها إلى الصرح كما سيأتي، وقوله: ﴿ قيل لها ادخلي

(١) هذا الذي قاله مجاهد هو قول سعيد بن جبير وقد اختاره ابن جرير وابن كثير .

الصرح فلما رآته حسبته لجة وكشفت عن ساقها ﴿٤٥﴾ ، وذلك أن سليمان عليه السلام أمر الشياطين فبنوا لها قصرًا عظيمًا من قوارير أي من زجاج، وأجرى تحته الماء، فالذي لا يعرف أمره يحسب أنه ماء، ولكن الزجاج يحول بين الماشي وبينه، قال محمد بن إسحاق عن يزيد بن رومان: ثم قال لها ادخلي الصرح ليربها ملكاً هو أعز من ملكها، وسلطاناً هو أعظم من سلطانها، فلما رآته حسبته لجة، وكشفت عن ساقها لا تشك أنه ماء تخوضه، فقيل لها ﴿٤٦﴾ إنه صرح مرمد من قوارير ﴿٤٧﴾ فلما وقفت على سليمان، دعاها إلى عبادة الله وحده وعاتبها في عبادة الشمس من دون الله، قالت: ﴿٤٨﴾ رب إني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين ﴿٤٩﴾ فأسلمت وحسن إسلامها ﴿٥٠﴾ . وأصل الصرح في كلام العرب هو القصر وكل بناء مرتفع، قال الله سبحانه وتعالى إخباراً عن فرعون لعنه الله ﴿٥١﴾ ابن لي صرحاً لعلني أبلغ الأسباب ﴿٥٢﴾ الآية، والصرح قصر في اليمن عالي البناء، والمرد المني بناء محكماً أملس ﴿٥٣﴾ من قوارير ﴿٥٤﴾ أي زجاج، والغرض أن سليمان عليه السلام اتخذ قصرًا عظيمًا منيفاً من زجاج، لهذه الملكة ليربها عظمة سلطانه وتمكنه، فلما رأت ما آتاه الله وجلالة ما هو فيه، وتبصرت في أمره انقادت لأمر الله تعالى وعرفت أنه نبي كريم، وملك عظيم، وأسلمت لله عز وجل، وقالت: ﴿٥٥﴾ رب إني ظلمت نفسي ﴿٥٦﴾ أي بما سلف من كفرها وشركها وعبادتها وقومها للشمس من دون الله ﴿٥٧﴾ وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين ﴿٥٨﴾ أي متابعة لدين سليمان في عبادة الله وحده لا شريك له، الذي خلق كل شيء فقدره تقديراً .

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَاقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا أَطِيرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾

يخبر تعالى عن ثمود وما كان من أمرها مع نبيها (صالح) عليه السلام، حين بعثه الله إليهم فدعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له ﴿٤٥﴾ فإذا هم فريقان يختصمون ﴿٤٦﴾ قال مجاهد: مؤمن وكافر. ﴿٤٧﴾ قال يا قوم لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة ﴿٤٨﴾ أي لم تدعون بحضور العذاب ولا تطلبون من الله رحمته، ولهذا قال: ﴿٤٩﴾ لولا تستغفرون الله لعلكم ترحمون قالوا اطيرنا بك وبمن معك ﴿٥٠﴾ أي ما رأينا على وجهك ووجوه من اتبعك خيراً، وذلك أنهم لشقائهم كان لا يصيب أحداً منهم سوء إلا قال هذا من قبل صالح وأصحابه، قال مجاهد: تشاءموا بهم، وهذا كما قال الله تعالى إخباراً عن قوم فرعون ﴿٥١﴾ وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه ﴿٥٢﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿٥٣﴾ وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك * قل كل من عند الله ﴿٥٤﴾ أي بقضائه وقدره، وقال تعالى: ﴿٥٥﴾ قالوا إنا تطيرنا بكم لئن لم تنتهوا لنرجمنكم ولنمسنكم منا عذاب أليم * قالوا طائركم معكم ﴿٥٦﴾ الآية، وقال هؤلاء ﴿٥٧﴾ اطيرنا بك وبمن معك قال طائركم عند الله ﴿٥٨﴾ أي الله يجازيكم على ذلك ﴿٥٩﴾ بل أنتم قوم تفتنون ﴿٦٠﴾ قال قتادة: تبتلون بالطاعة والمعصية، والظاهر أن المراد بقوله ﴿٦١﴾ تفتنون ﴿٦٢﴾ أي: تستدرجون فيما أنتم فيه من الضلال .

(١) روى ابن أبي شيبة أثراً غريباً عن ابن عباس ثم قال: ما أحسنه من حديث، وقد ضربنا صفحاً عنه لغرابته ونكارته ولأنه من الإسرائيليات، وهو كما قال ابن كثير: منكر جداً من أوهام عطاء بن السائب عن ابن عباس .

وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكْرُؤًا مَكَرًا وَمَكْرَنَا مَكَرًا وَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٠﴾ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مُكْرِهِمْ أَنَا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأُنَجِّيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾

يخبر تعالى عن طغاة ثمود ورؤوسهم، الذين كانوا دعاة قومهم إلى الضلال والكفر، وعقروا الناقة وهووا بقتل صالح أيضاً، بأن بيئته في أهله ليلاً فيقتلوه غيلة، ثم يقولوا لأوليائه من أقربيه إنهم ما علموا بشيء من أمره، وإنهم لصادقون فيما أخبروهم به من أنهم لم يشاهدوا ذلك. فقال تعالى: ﴿وكان في المدينة﴾ أي مدينة ثمود ﴿تسعة رهط﴾ أي تسعة نفر ﴿يفسدون في الأرض ولا يصلحون﴾ وإنما غلب هؤلاء على أمر ثمود لأنهم كانوا كبارهم ورؤساءهم، قال ابن عباس: هؤلاء هم الذين عقروا الناقة أي الذين صدر ذلك عن رأيهم ومشورتهم قبحهم الله ولعنهم^(١)، والغرض أن هؤلاء الكفرة الفسقة كان من صفاتهم الإفساد في الأرض بكل طريق يقدرون عليها.

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ﴾ أي تحالفوا وتبايعوا على قتل نبي الله (صالح) عليه السلام من لقيه ليلاً غيلة، فكادهم الله وجعل الدائرة عليهم، قال مجاهد: تقاسموا وتحالفوا على هلاكه فلم يصلوا إليه حتى هلكوا وقومهم أجمعين، وقال محمد بن إسحاق: قال هؤلاء التسعة، بعدما عقروا الناقة هلم فلنقتل صالحاً، فإن كان صادقاً عجلناه قبلنا، وإن كان كاذباً كنا قد ألقناه بناقته، فأتوه ليلاً لبيئته في أهله فدمغتهم الملائكة بالحجارة، فلما أبطأوا على أصحابهم أتوا منزل صالح فوجدوهم منشدين قد رضخوا بالحجارة، فقالوا لصالح أنت قتلتهم ثم هموا به، فقامت عشرته دونه ولبسوا السلاح، وقالوا لهم: والله لا تقتلونه أبداً وقد وعدكم أن العذاب نازل بكم في ثلاث، فإن كان صادقاً فلا تزيدوا ربكم عليكم غضباً، وإن كان كاذباً فأنتم من وراء ما تريدون، فانصرفوا عنهم ليلتهم تلك. وقال ابن أبي حاتم: لما عقروا الناقة قال لهم صالح: ﴿تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب﴾ قالوا: زعم صالح أنه يفرغ منا إلى ثلاثة أيام فنحن نفرغ منه وأهله قبل ثلاث، وكان لصالح مسجد في الحجر عند شعب هناك يصلي فيه، فخرجوا إلى كهف أي غار هناك ليلاً فقالوا: إذا جاء يصلي قتلناه ثم رجعنا إذا فرغنا منه إلى أهله، ففرغنا منهم، فبعث الله عليهم صخرة من الهضب حيالهم، فخشوا أن تشدخهم فتبادروا فانطبقت عليهم الصخرة وهم في ذلك الغار، فلا يدري قومهم أين هم، ولا يدرون ما فعل بقومهم: فعذب الله هؤلاء ههنا وهؤلاء ههنا وأنجى الله صالحاً ومن معه، ثم قرأ: ﴿ومكروا مكراً ومكرنا مكراً وهم لا يشعرون﴾ فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين * فتلك بيوتهم خاوية ﴿أي فارغة ليس فيها أحد﴾ بما ظلموا إن في ذلك لآية لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون.

(١) قال السهيلي: ذكر النقاش التسعة الذين كانوا يفسدون في الأرض ولا يصلحون، وسماهم بأسمائهم، وذلك لا ينضبط برواية، ولا فيه كبير فائدة، غير أني أذكرهم على وجه الاجتهاد والتخمين، وهم: مصدع بن دهر، ويقال دهم، وقدار ابن سالف، وهريم، وصواب، ورياب، وراب، ودعيمي، وهي، ورعين بن عمرو.

وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَيْنَكُمُ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾ * فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوآءَالَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنْأَسُ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرَأَتَهُ قَدَرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذِرِينَ ﴿٥٨﴾

يخبر تعالى عن عبده ورسوله (لوط) عليه السلام أنه أنذر قومه نقمة الله بهم في فعلهم الفاحشة، التي لم يسبقهم إليها أحد من بني آدم، وهي (إتيان الذكور) دون الإناث، وذلك فاحشة عظيمة استغنى الرجال بالرجال والنساء بالنساء، فقال ﴿أتأتون الفاحشة وأنتم تبصرون﴾ أي يرى بعضكم بعضاً وتأتون في ناديتكم المنكر ﴿أئنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم تجهلون﴾ أي لا تعرفون شيئاً لا طبعاً ولا شرعاً كما قال في الآية الأخرى: ﴿أتأتون الذكور من العالمين وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم بل أنتم قول عادون﴾ ﴿فما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريبتكم إنهم أناس يتطهرون﴾ أي يتخرجون من فعل ما فعلونه ومن إقراركم على صنيعكم، فأخرجوهم من بين أظهركم فإنهم لا يصلحون لمجاورتكم في بلادكم، فغزموا على ذلك فدمر الله عليهم وللكافرين أمثالها، قال الله تعالى: ﴿فأنجيناه وأهله إلا امرأته قدرناها من الغابرين﴾ أي من الهالكين مع قومها، لأنها كانت ردة لهم على دينهم، وعلى طريقهم في رضاها بأفعالهم القبيحة، فكانت تدل قومها على ضيقان لوط ليأتوا إليهم، وقوله تعالى: ﴿وأمطرنا عليهم مطراً﴾ أي حجارة من سجيل منضود، ولهذا قال: ﴿فساء مطر المنذرين﴾ أي الذين قامت عليهم الحجة، ووصل إليهم الإنذار، فخالفوا الرسول وكذبوه وهما بإخراجه من بينهم.

قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ ؕ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا يَشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ دَاتٍ بَهْجَةً مَّا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا ؕ أَوَلَمْ مَعَ اللَّهُ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾

يقول تعالى آمراً رسوله ﷺ أن يقول: ﴿الحمد لله﴾ أي على نعمه على عباده من النعم التي لا تعد ولا تحصى وعلى ما اتصف به من الصفات العلى والأسماء الحسنى، وأن يسلم على عباد الله الذين اصطفاهم واختارهم وهم رسله وأنبيأؤه الكرام، عليهم من الله أفضل الصلاة والسلام، هكذا قال عبد الرحمن بن أسلم هم الأنبياء، قال: وهو كقوله ﴿سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين﴾، وقال الثوري والسدي: هم أصحاب محمد ﷺ ورضي عنهم أجمعين^(١)، ولا منافاة فإنهم إذا كانوا من عباد الله الذين اصطفى فالأنبياء بطريق الأولى والأخرى، والقصد أن الله تعالى أمر رسوله ومن اتبعه أن يحمده على جميع أفعاله، وأن يسلموا

(١) وروي نحو هذا عن ابن عباس رضي الله عنهما.

على عباده المصطفين الأخيار، وقد روى أبو بكر البزار عن ابن عباس ﴿وسلام على عباده الذين اصطفى﴾ قال: هم أصحاب محمد ﷺ اصطفاهم الله لنبيه رضي الله عنهم. وقوله تعالى: ﴿الله خير أم ما يشركون﴾؟ استفهام إنكار على المشركين في عبادتهم مع الله آلهة أخرى. ثم شرع تعالى يبين أنه المنفرد بالخلق والرزق والتدبير دون غيره، فقال تعالى: ﴿أمن خلق السموات﴾ أي خلق تلك السماوات في ارتفاعها وصفاتها، وما جعل فيها من الكواكب النيرة، والنجوم الزاهرة، والأفلاك الدائرة، وخلق الأرض وما فيها من الجبال والأطواد والسهول والأوعار، والفيافي والقفار، والزرور والأشجار، والثمار والبحار، والحيوان على اختلاف الأصناف والأشكال والألوان وغير ذلك، وقوله تعالى: ﴿وأنزّل لكم من السماء ماء﴾ أي جعله رزقاً للعباد ﴿فأنبتنا به حدائق﴾ أي بساتين ﴿ذات بهجة﴾ أي منظر حسن وشكل جيبي ﴿ما كان لكم أن تنبتوا شجرها﴾ أي لم تكونوا تقدرّون على إنبات أشجارها، وإنما يقدر على ذلك الخالق الرازق دون ما سواه من الأصنام والأنداد، كما يعترف به المشركون ﴿ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله﴾ ﴿ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها ليقولن الله﴾ أي هم معترفون بأنه الفاعل لجميع ذلك وحده لا شريك له، ثم هم يعبدون معه غيره مما يعترفون أنه لا يخلق ولا يرزق، ولهذا قال تعالى: ﴿أإله مع الله؟﴾ أي إله مع الله يعبد، وقد تبين لكم ولكل ذي لب مما يعترفون به أيضاً أنه الخالق الرازق، ومن المفسرين من يقول: معنى قوله ﴿أإله مع الله﴾ فعل هذا؟ وهو يرجع إلى معنى الأول، لأن تقدير الجواب أنهم يقولون: ليس ثم أحد فعل هذا معه بل هو المنفرد به فيقال: فكيف تعبدون معه غيره وهو المستقل المنفرد بالخلق والرزق والتدبير؟ كما قال تعالى: ﴿أفمن يخلق كمن لا يخلق﴾ الآية، وقوله تعالى ههنا: ﴿أمن خلق السموات والأرض﴾ ﴿أمن﴾ في هذه الآيات كلها تقديره أمن يفعل هذه الأشياء كمن لا يقدر على شيء منها؟ هذا معنى السياق وإن لم يذكر الآخر، ثم قال: ﴿بل هم قوم يعدلون﴾ أي يجعلون لله عدلاً ونظيراً، وهكذا قال تعالى: ﴿أمن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه﴾ أي أمن هو هكذا كمن ليس كذلك؟ ولهذا قال تعالى: ﴿قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولو الألباب﴾ .

أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خَلْقَهَا أَنْهْرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوِاسِيَّ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَوَّلَهُ مَعَ اللَّهِ
بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾

يقول تعالى: ﴿أمن جعل الأرض قراراً﴾ أي قارة ساكنة ثابتة لا تميد ولا تتحرك بأهلها ولا ترجف بهم، فإنها لو كانت كذلك لما طاب عليها العيش والحياة، بل جعلها من فضله ورحمته مهاداً، ثابتة لا تتزلزل ولا تتحرك، كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿الله الذي جعل لكم الأرض قراراً والسماء بناء﴾، ﴿وجعل خلالها أنهاراً﴾ أي جعل فيها الأنهار العذبة الطيبة، شقها في خلالها وصرفها فيها ما بين أنهار كبار وصغار وبين ذلك، وسيرها شرقاً وغرباً وجنوباً وشمالاً، بحسب مصالح عباده في أقاليمهم وأقطارهم، حيث ذرأهم في أرجاء الأرض، وسير لهم أرزاقهم بحسب ما يحتاجون إليه ﴿وجعل لها رواسي﴾ أي جبلاً شامخة ترسي الأرض وتثبتها لئلا تميد بكم ﴿وجعل بين البحرين حاجزاً﴾ أي جعل بين المياه العذبة والمالحة ﴿حاجزاً﴾ أي مانعاً يمنعها من الاختلاط،

لثلا يفسد هذا بهذا وهذا بهذا، فإن الحكمة الإلهية تقتضي بقاء كل منهما على صفته المقصودة منه، فإن البحر الحلو هو هذه الأنهار السارحة الجارية بين الناس، والمقصود منها أن تكون عذبة زلالا يسقي منها الحيوان والنبات والثمار، والبحار المالحة هي المحيطة بالأرجاء والأقطار من كل جانب، والمقصود منها أن يكون ماؤها ملحاً أجاباً لثلا يفسد الهواء بريحتها، كما قال تعالى: ﴿ وهو الذي مرج البحرين هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج وجعل بينهما برزخاً وحجراً محجوراً ﴾، ولهذا قال تعالى: ﴿ أَلَيْهَ مَعِ اللَّهُ ﴾؟ أي فعل هذا أو يعبد على القول الأول والآخر؟ وكلاهما متلازم صحيح ﴿ بل أكثرهم لا يعلمون ﴾ أي في عبادتهم غيره .

أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُ لَكُمُ خَلْفَاءَ الْأَرْضِ أَلَيْهَ مَعِ اللَّهُ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾

ينبه تعالى أنه هو المدعو عند الشدائد، المرجو عند النوازل، كما قال تعالى: ﴿ وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه ﴾، وقال تعالى: ﴿ ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون ﴾، وهكذا قال ههنا: ﴿ أمن يجب المضطر إذا دعاه ﴾ أي من هو الذي لا يلجأ المضطر إلا إليه، والذي لا يكشف ضر المضورين سواه؟ قال الإمام أحمد عن أبي تيمية الهجيمي عن رجل من هجيم^(١) قال: قلت يا رسول الله إلام تدعو؟ قال: « أدعوا إلى الله وحده، الذي إن مسك ضر فدعوته كشف عنك، والذي إن أضللت بأرض قفر فدعوته رد عليك، والذي إن أصابك سنة فدعوته أنبت لك » قال: قلت أوصني، قال: « لا تسبن أحداً ولا تزهدن في المعروف، ولو أن تلقى أخاك وأنت منبسط إليه وجهك، ولو أن تفرغ من دلوك في إناء المستقي، واتزر إلى نصف الساق فإن أبيت فألي الكعيبين، وإياك وإسبال الإزار فإن إسبال الإزار من المخيلة وإن الله لا يحب المخيلة »، وفي رواية أخرى لأحمد عن جابر بن سليم الهجيمي قال: أتيت رسول الله ﷺ وهو محتب بشملة وقد وقع هديها على قدميه، فقلت: أيكم محمد رسول الله؟ فأوماً بيده إلى نفسه، فقلت: يا رسول الله أنا من أهل البادية وفي جفاؤهم فأوصني، قال: « لا تحقرن من المعروف شيئاً، ولو أن تلقى أخاك ووجهك منبسط، ولو أن تفرغ من دلوك في إناء المستقي، وإن امرؤ شتمك بما يعلم فيك فلا تشتمه بما تعلم فيه فإنه يكون لك أجره وعليه وزره، وإياك وإسبال الإزار فإن إسبال الإزار من المخيلة وإن الله لا يحب المخيلة، ولا تسبن أحداً » قال: فما سببت بعده أحداً ولا شاة ولا بعيراً. وقال وهب بن منبه: قرأت في الكتاب الأول: إن الله تعالى يقول: بعزتي إنه من اعتصم بي فإن كادته السماوات بمن فيهن، والأرض بمن فيها، فإني أجعل له من بين ذلك مخرجاً، ومن لم يعتصم بي، فإني أخسف به من تحت قدميه الأرض، فأجعله في الهواء فأكله إلى نفسه .

وذكر الحافظ ابن عساكر في ترجمة رجل حكى عنه أبو بكر (محمد بن داود الدينوري) المعروف بالدقي الصوفي، قال هذا الرجل: كنت أكاربي على بغل لي من دمشق إلى بلد الزبداني، فركب معي ذات مرة رجل، فمرنا على بعض الطريق على طريق غير مسلوكة، فقال لي: خذ في هذه فإنها أقرب، فقلت: لا خبرة لي فيها، فقال: بل هي أقرب فسلكنها فانتهينا إلى مكان وعرواد عميق وفيه قتلى كثيرة، فقال لي: أمسك رأس البغل حتى أنزل، فنزل وتشمروجمع عليه ثيابه وسل سكيناً معه وقصدني ففررت من بين يديه وتبعني، فناشدته الله

(١) قوله عن رجل من هجيم ورد اسم الرجل في رواية أخرى ذكرها الإمام أحمد وهو جابر بن سليم الهجيمي .

وقلت: خذ البغل بما عليه، فقال: هو لي، وإنما أريد قتلك، فخوفته الله والعقوبة فلم يقبل، فاستسلمت بين يديه، وقلت إن رأيت أن تركني حتى أصلي ركعتين فقال: عجل فقمتم أصلي، فأرتج عليّ القرآن، فلم يحضرني منه حرف واحد فبقيت واقفاً متحيراً، وهو يقول: هيه افرغ، فأجرى الله على لساني قوله تعالى: ﴿أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء﴾ فإذا أنا بفارس قد أقبل من فم الوادي ويده حربة، فرمى بها الرجل، فما أخطأت فؤاده فخر صريعاً، فتعلقت بالفارس، وقلت: بالله من أنت؟ فقال: أنا رسول الذي يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء، قال: فأخذت البغل والحمل ورجعت سالماً^(١).

وقوله تعالى: ﴿ويجعلكم خلفاء الأرض﴾ أي يخلف قرناً لقرن قبلهم وخلفاً لسلف، كما قال تعالى: ﴿إن يشأ يذهبكم ويستخلف من بعدكم ما يشاء كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين﴾، وقال تعالى: ﴿وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات﴾، وهكذا هذه الآية: ﴿ويجعلكم خلفاء الأرض﴾ أي أمة بعد أمة، وجيلاً بعد جيل، وقوماً بعد قوم، ولو شاء لأوجدكم كلهم في وقت واحد، ولم يجعل بعضهم من ذرية بعض، بل لو شاء لخلقهم كلهم أجمعين، كما خلق آدم من تراب، ولو شاء أن يجعلهم بعضهم من ذرية بعض، ولكن لا يمت أحداً حتى تكون وفاة الجميع في وقت واحد لكانت تضيق عنهم الأرض وتضيق عليهم معاشهم وأكسابهم ويتضرر بعضهم ببعض، ولكن اقتضت حكمته وقدرته أن يخلقهم من نفس واحدة، ثم يكثرهم غاية الكثرة ويجعلهم أمماً بعد أم، حتى ينقضي الأجل وتفريغ البرية كما قدر ذلك تبارك وتعالى، وكما أحصاهم وعدم عدأ، ثم يقيم القيامة ويوفي كل عامل عمله إذا بلغ الكتاب أجله، ولهذا قال تعالى: ﴿أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض أإله مع الله﴾ أي يقدر على ذلك، أو أإله مع الله بعد هذا! وقد علم أن الله هو المتفرد بفعل ذلك وحده لا شريك له؟ ﴿قليلاً ما تذكرون﴾ أي ما أقل تذكرهم فيما يرشدكم إلى الحق ويهديهم إلى الصراط المستقيم.

﴿أمن يهديكم في ظلمات البر والبحر ومن يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته﴾ أإله مع الله تعالى عما يشركون ﴿٦٣﴾

يقول تعالى: ﴿أمن يهديكم في ظلمات البر والبحر﴾ أي بما خلق من الدلائل السماوية والأرضية، كما قال تعالى: ﴿وعلامات وبالنجم هم يهتدون﴾، وقال تعالى: ﴿وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر﴾ الآية، ﴿ومن يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته﴾ أي بين يدي السحاب الذي فيه مطر يغيث الله به عباده المجدين القطين ﴿أإله مع الله؟ تعالى الله عما يشركون﴾.

﴿أمن يبدؤا الخلق ثم يعيدهم ومن يرزقكم من السماء والأرض﴾ أإله مع الله قل هاتوا برهنكم إن كنتم صادقين ﴿٦٤﴾

(١) أخرج القصة ابن عساكر وذكر قصة أخرى مشابهة تدل على إكرام الله لأولياته وعباده الصالحين قال صاحب الجوهرية:

واثبتن للأولياء الكرامة : ومن نفاها فانبذن كلامه

أي هو الذي بقدرته وسلطانه يبدأ الخلق ثم يعيده، كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿إِنَّهُ هُوَ بِيَدِيَّ وَيُعِيدُ﴾، وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾، ﴿وَمَنْ يَرْزُقْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ أي بما ينزل من مطر السماء وينبت من بركات الأرض، كما قال تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلْجَأُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يُخْرِجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرَجُ فِيهَا﴾، فهو تبارك وتعالى ينزل من السماء ماء مباركاً، فيسلكه ينابيع في الأرض، ثم يخرج به أنواع الزروع والثمار والأزاهير، وغير ذلك من ألوان شتى ﴿كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النَّهْيِ﴾، ولهذا قال تعالى: ﴿إِلَهٌ مَعَ اللَّهِ﴾ أي فعل هذا وعلى القول الآخر بعد هذا ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ على صحة ما تدعون من عبادة آلهة أخرى ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في ذلك، وقد علم أنه لا حجة لهم ولا برهان كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ .

قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾ بَلْ أَدْرَكَ عَلَيْهِمْ فِي الْآخِرَةِ بَلٌّ هُمْ فِي شَكِّ مَنَّا بَلٌّ هُمْ مَنَّا عَمُونَ ﴿٦٦﴾

يقول تعالى آمراً رسوله ﷺ أن يقول معلماً لجميع الخلق أنه لا يعلم أحد من أهل السماوات والأرض الغيب إلا الله. وقوله تعالى: ﴿إِلَّا اللَّهُ﴾ استثناء منقطع أي لا يعلم أحد ذلك إلا الله عز وجل، كما قال تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنزِلُ الْغَيْثَ﴾ إلى آخر السورة، والآيات في هذا كثيرة. وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ أي وما يشعر الخلاق الساكنون في السماوات والأرض بوقت الساعة، كما قال تعالى: ﴿ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْتَةً﴾ أي ثقل علمها على أهل السماوات والأرض، وقالت عائشة رضي الله عنها: من زعم أنه يعلم - يعني النبي ﷺ - ما يكون في غد فقد أعظم على الله الفرية، لأن الله تعالى يقول: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾^(١)، وقال قتادة: إنما جعل الله هذه النجوم لثلاث خصال: جعلها زينة للسماء، وجعلها يهتدى بها، وجعلها رجوماً للشياطين، فمن تعاطى فيها غير ذلك فقد قال برأيه وأخطأ حظه وأضاع نصيبه، وتكلف ما لا علم له به، وإن أناساً جهلة بأمر الله قد أحدثوا من هذه النجوم كهانة: من أعرس بنجم كذا وكذا كان كذا وكذا، ومن سافر بنجم كذا وكذا كان كذا وكذا، ومن ولد بنجم كذا وكذا كان كذا وكذا. ولعمري ما من نجم إلا يولد به الأحمر والأسود والقصير والطويل والحسن والدميم، وما علم هذا النجم وهذه الدابة وهذا الطير بشيء من الغيب، وقضى الله تعالى أنه لا يعلم من في السماوات والأرض الغيب إلا الله وما يشعرون أيان يبعثون^(٢) .

وقوله تعالى: ﴿بَلْ أَدْرَكَ عَلَيْهِمْ فِي الْآخِرَةِ بَلٌّ هُمْ فِي شَكِّ مَنَّا بَلٌّ هُمْ مَنَّا عَمُونَ﴾ أي انتهى علمهم وعجز عن معرفة وقتها. قال ابن عباس ﴿بَلْ أَدْرَكَ عَلَيْهِمْ﴾ أي غاب، وقال قتادة ﴿بَلْ أَدْرَكَ عَلَيْهِمْ فِي الْآخِرَةِ﴾ يعني بجهلهم برهيم، يقول: لم ينفذ لهم علم في الآخرة، هذا قول، وقال ابن جريج عن ابن عباس ﴿بَلْ أَدْرَكَ عَلَيْهِمْ فِي الْآخِرَةِ﴾ حين

(١) أخرجه ابن أبي حاتم .

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم أيضاً قال ابن كثير: وهو كلام جليل متين صحيح

لم ينفع العلم، وبه قال عطاء والسدي: أن علمهم إنما يدرك ويكمل يوم القيامة حيث لا ينفعهم ذلك، كما قال تعالى: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصُرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مَبِينٍ﴾، وكان الحسن يقرأ ﴿بل أدرك علمهم﴾ قال: اضمحل علمهم في الدنيا حين عاينوا الآخرة، وقوله تعالى: ﴿بل هم في شك منها﴾ عائد على الجنس والمراد الكافرون، كما قال تعالى: ﴿بل زعمتم أن لن نجعل لكم موعداً﴾ أي الكافرون منكم، وهكذا قال ههنا: ﴿بل هم في شك منها﴾ أي شاكون في وجودها ووقوعها، ﴿بل هم منها عمون﴾ أي في عماية وجهل كبير في أمرها وشأنها.

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا وَّآبَاءُنَا أَيْنَا لِمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وَعَدْنَا هَذَا نَحْنُ وَّآبَاءُنَا مِن قَبْلُ إِن هَذَا إِلَّا آسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ قُل سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾

يقول تعالى مخبراً عن منكري البعث من المشركين، أنهم استبعدوا إعادة الأجساد بعد صيرورتها عظاماً ورفاتاً وتراباً، ثم قال: ﴿لقد وعدنا هذا نحن وآبائنا من قبل﴾ أي ما زلنا نسمع بهذا نحن وآبائنا ولا نرى له حقيقة ولا وقوعاً، وقولهم: ﴿إن هذا إلا أساطير الأولين﴾ يعنون ما هذا الوعد بإعادة الأبدان ﴿إلا أساطير الأولين﴾ أي أخذه قوم عن قبلهم من كتب، يتلقاه بعض عن بعض وليس له حقيقة، قال الله تعالى مجيباً لهم عما ظنوه من الكفر وعدم المعاد ﴿قل﴾ يا محمد هؤلاء ﴿سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المجرمين﴾ أي المكذبين بالرسول وبما جاءهم به من أمر المعاد وغيره، كيف حلت بهم نقمة الله وعذابه ونكاله، ونجى الله من بينهم رسله الكرام ومن اتبعهم من المؤمنين؟ فدل ذلك على صدق ما جاءت به الرسل وصحته، ثم قال تعالى مسلماً لنبيه ﷺ: ﴿ولا تحزن عليهم﴾ أي المكذبين بما جئت به ولا تأسف عليهم وتذهب نفسك عليهم حسرات، ﴿ولا تكن في ضيق مما يمكرون﴾ أي في كيدك ورد ما جئت به، فإن الله مؤيدك وناصرك، ومظهر دينك على من خالفه وعانده في المشارق والمغارب.

وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٧١﴾ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ ﴿٧٤﴾ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا مِنْ غَآيِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٧٦﴾

يقول تعالى مخبراً عن المشركين في سؤالهم عن يوم القيامة واستبعادهم وقوع ذلك، ﴿ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين﴾؟ قال الله تعالى مجيباً لهم: ﴿قل﴾ يا محمد ﴿عسى أن يكون ردف لكم بعض الذي تستعجلون﴾ قال ابن عباس: أن يكون قرب أو أن يقرب لكم بعض الذي تستعجلون، كقوله تعالى: ﴿ويقولون متى هو؟ قل عسى أن يكون قريباً﴾، وقال تعالى: ﴿ويستعجلونك بالعذاب وإن جهنم لمحيطة بالكافرين﴾، وإنما دخلت اللام في قوله: ﴿ردف لكم﴾ لأنه ضمن معنى عجل لكم، كما قال مجاهد في رواية عنه ﴿عسى أن يكون ردف

لكم ﴿عُجِّلْ لَكُمْ﴾. ثم قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ رَبُّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ أي في إسباغه نعمه عليهم مع ظلمهم لأنفسهم وهم مع ذلك لا يشكرونه على ذلك إلا القليل منهم، ﴿وَإِنْ رَبُّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ أي يعلم الضمائر والسرائر كما يعلم الظواهر، ﴿سِوَاءَ مَنْكُم مِّنْ أَسْرِ الْقَوْلِ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ﴾، ﴿يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾، ثم أخبر تعالى بأنه عالم غيب السماوات والأرض وأنه عالم الغيب والشهادة، وهو ما غاب عن العباد وما شاهدوه، فقال تعالى: ﴿وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ﴾ قال ابن عباس: يعني وما من شيء ﴿فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مَّبِينٍ﴾، وهذه كقوله: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾.

* **إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ أَنْ يَقُصَّ عَلَىٰ نَبِيِّ إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُ لَهْدَىٰ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تَسْمَعُ الصَّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمَىٰ عَنِ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تَسْمَعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾**

يقول تعالى مخبراً عن كتابه العزيز وما اشتمل عليه من الهدى والبيان والفرقان، أنه يقص على بني إسرائيل وهم حملة التوراة والإنجيل ﴿أكثر الذي هم فيه يختلفون﴾ كاختلافهم في عيسى وتباينهم فيه، فاليهود اقتصروا والنصارى غلوا، فجاء القرآن بالقول الوسط الحق العدل أنه عبد من عباد الله وأنبيائه ورسوله الكرام، عليه أفضل الصلاة والسلام، كما قال تعالى: ﴿ذلك عيسى بن مريم قول الحق الذي فيه يمترون﴾، وقوله: ﴿وإنه لهدى ورحمة للمؤمنين﴾ أي هدى لقلوب المؤمنين به ورحمة لهم، ثم قال تعالى: ﴿إن ربك يقضي بينهم﴾ أي يوم القيامة ﴿بحكمه وهو العزيز﴾ أي في انتقامه ﴿العليم﴾ بأفعال عباده وأقوالهم ﴿فتوكل على الله﴾ أي في جميع أمورك وبلغ رسالة ربك، ﴿إنك على الحق المبين﴾ أي أنت على الحق المبين وإن خالفك من خالفك ممن كتبت عليه الشقاوة، وحققت عليهم كلمة ربك أنهم لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية، ولهذا قال تعالى: ﴿إنك لا تسمع الموتى﴾ أي لا تسمعهم شيئاً ينفعهم، فكذلك هؤلاء على قلوبهم غشاوة وفي آذانهم وقر الكفر، ولهذا قال تعالى: ﴿ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين﴾ وما أنت بهادي العمى عن ضلالتهم * إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون ﴿أي إنما يستجيب لك من هو سميع بصير، السمع والبصر النافع في القلب، الخاضع لله ولما جاء عنه على السنة الرسل عليهم السلام﴾.

* **وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾**

هذه الدابة تخرج في آخر الزمان عند فساد الناس وتركهم أوامر الله وتبديلهم الدين الحق، يخرج الله لهم دابة من الأرض. قيل: من مكة، وقيل من غيرها كما سيأتي تفصيله إن شاء الله تعالى، فتكلم الناس على ذلك، قال ابن عباس والحسن وقتادة: تكلمهم كلاماً أي تخاطبهم مخاطبة، وقال عطاء الخراساني: تكلمهم فتقول لهم: إن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون، ويروى هذا عن علي واختاره ابن جرير، وقد ورد في ذكر الدابة أحاديث

وآثار كثيرة، فلنذكر منها ما تيسر والله المستعان، روى الإمام أحمد: عن حذيفة بن أسيد الغفاري قال: أشرف علينا رسول الله ﷺ من غرفة ونحن نتذاكر أمر الساعة فقال: « لا تقوم الساعة حتى تروا عشر آيات: طلوع الشمس من مغربها، والدخان، والدابة، وخروج يأجوج ومأجوج، وخروج عيسى بن مريم عليه السلام، والدجال، وثلاثة خسوف: خسف بالمغرب، وخسف بالشرق، وخسف بجزيرة العرب، ونار تخرج من قعر عدن تسوق أو تحشر الناس تبيت معهم حيث باتوا وتقيل معهم حيث قالوا»^(١). حديث آخر: قال مسلم بن الحجاج عن عبد الله ابن عمرو قال: حفظت من رسول الله ﷺ حديثاً لم أنسه بعد، سمعت رسول الله ﷺ يقول: « إن أول الآيات خروجاً طلوع الشمس من مغربها، وخروج الدابة على الناس ضحى، وأيتهما كانت قبل صاحبها فالأخرى على أثرها قريباً ». حديث آخر: وروى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: « بادروا بالأعمال ستاً: طلوع الشمس من مغربها، والدخان، والدجال، والدابة، وخاصة أحدكم، وأمر العامة»، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: « تخرج دابة الأرض ومعها عصا موسى وخاتم سليمان عليهما السلام، فتخطم أنف الكافر بالعصا، وتجلي وجه المؤمن بالخاتم حتى يجتمع الناس على الخوان يعرف المؤمن من الكافر»^(٢). وعن وهب بن منبه أنه حكى من كلام عزيز عليه السلام أنه قال: وتخرج من تحت سدوم دابة تكلم الناس كل يسمعها، وتضع الحبال قبل التمام، ويعود الماء العذب أجاجاً ويتعادى الأخلاء وتحرق الحكمة ويرفع العلم وتكلم الأرض التي تليها، وفي ذلك الزمان يرجو الناس ما لا يبلغون، ويتعبون فيما لا ينالون، ويعملون فيما لا يأكلون^(٣).

وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ وَقَالَ أَكْذَبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِطُوا بِهَا عَلِيمًا مَاذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ ﴿٨٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا آلِيلَ لَيْسِكُنَا فِيهِ وَالنَّهَارُ مُبْصِرًا ۗ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾

يقول تعالى مخبراً عن يوم القيامة، وحشر الظالمين من المكذبين بآيات الله ورسله، ليسألم عما فعلوه في الدار الدنيا، تقریباً وتصغيراً وتحقيراً، فقال تعالى: ﴿ ويوم نحشر من كل أمة فوجاً ﴾ أي من كل قوم وقرن فوجاً أي جماعة ﴿ ممن يكذب بآياتنا ﴾، كما قال تعالى: ﴿ احشروا الذين ظلموا وأزواجهم ﴾، وقوله تعالى: ﴿ فهم يوزعون ﴾ قال ابن عباس: يدفعون، وقال قتادة: يرد أولهم على آخرهم، وقال عبد الرحمن بن زيد: يساقون ﴿ حتى إذا جاءوا ﴾ ووقفوا بين يدي الله عز وجل في مقام المسألة ﴿ قال أكذبتهم بآياتي ولم تحيطوا بها علماً أم

(١) أخرجه الإمام أحمد ورواه كذلك مسلم وأهل السنن وقال الترمذي: حسن صحيح.

(٢) أخرجه أبو داود الطيالسي بهذا اللفظ وأخرجه الإمام أحمد بمثله إلا أنه قال: فتخطم أنف الكافر بالخاتم، وتجلو وجه المؤمن بالعصا حتى ان أهل الخوان الواحد ليجمعون فيقول هذا يا مؤمن، ويقول هذا يا كافر.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم وقد ورد في بعض الآثار أن الدابة تخرج من موضع بالبادية قريباً من مكة، ويروى عن ابن عباس أنها تخرج من بعض أودية تهامة، وعن ابن مسعود: أنها تخرج من صدع بالصفاء.

ماذا كنتم تعملون ﴿٨٧﴾ أي فيسألون عن اعتقادهم وأعمالهم، فلما لم يكونوا من أهل السعادة وكانوا كما قال الله عنهم، ﴿فلا صدق ولا صلى﴾ ولكن كذب وتولى ﴿٨٨﴾ فحينئذ قامت عليهم الحجة ولم يكن لهم عذر يعتذرون به، كما قال الله تعالى: ﴿هذا يوم لا ينطقون﴾ ولا يؤذن لهم فيعتذرون ﴿٨٩﴾ الآية، وهكذا قال ههنا ﴿ووقع القول عليهم بما ظلموا فهم لا ينطقون﴾ أي بهتوا فلم يكن لهم جواب، لأنهم كانوا في الدار الدنيا ظلمة لأنفسهم، وقد ردوا إلى عالم الغيب والشهادة الذي لا تخفى عليه خافية، ثم قال تعالى منبهاً على قدرته التامة وسلطانه العظيم وشأنه الرفيع: ﴿ألم يروا أنا جعلنا الليل ليسكنوا فيه﴾ أي في ظلام الليل لتسكن حركاتهم بسببه وتهدأ أنفاسهم، ويستريحون من نصب التعب في نهارهم ﴿والنهار مبصراً﴾ أي منيراً مشرقاً، فبسبب ذلك يتصرفون في المعاش والمكاسب والأسفار والتجارات، وغير ذلك من شئونهم التي يحتاجون إليها ﴿إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون﴾.

وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَنُزِعَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ وَكُلُّ أَتَوَهُ دَاخِرِينَ
 ﴿٨٧﴾ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَيْرُ مِمَّا
 تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾ مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُمْ مِّنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ
 وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾

يخبر تعالى عن هول يوم نفخة الفزع في الصور، وفي حديث الصور: إن إسرافيل هو الذي ينفخ فيه بأمر الله تعالى، فينفخ فيه أولاً نفخة الفزع ويطولها، وذلك في آخر عمر الدنيا حين تقوم الساعة على شرار الناس من الأحياء، فيفزع من في السماوات ومن في الأرض ﴿إلا من شاء الله﴾ وهم الشهداء فإنهم أحياء عند ربهم يرزقون، وفي حديث مسلم الطويل قال: «فيبقى شرار الناس في خفة الطير وأحلام السباع لا يعرفون معروفاً ولا ينكرون منكراً، فيتمثل لهم الشيطان فيقول: ألا تستجيبيون؟ فيقولون: فما تأمرنا؟ فيأمرهم بعبادة الأوثان وهم في ذلك دار رزقهم حسن عيشهم، ثم ينفخ في الصور فلا يسمعه أحد إلا أصغى لينا ورفع لينا. قال - وأول من يسمعه رجل يلوط حوض إبله قال: فيصعق ويصعق الناس، ثم يرسل الله - أو قال ينزل الله - مطراً كأنه الطل - أو قال الظل، فتنبت منه أجساد الناس، ثم ينفخ فيه أخرى فاذا هم قيام ينظرون، ثم يقال: يا أيها الناس هلموا إلى ربكم ﴿وقفوهم إنهم مسؤولون﴾ ثم يقال: أخرجوا بعث النار. فيقال: من كم؟ فيقال: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون قال: فذلك يوم يجعل الولدان شيباً وذلك يوم يكشف عن ساق ﴿٩٠﴾. وقوله: ثم ينفخ في الصور فلا يسمعه أحد إلا أصغى لينا ورفع لينا. اللبت هو صفحة العنق أي آمال عنقه ليستمعه من السماء جيداً، فهذه (نفخة الفزع) ثم بعد ذلك (نفخة الصعق) وهو الموت، ثم بعد ذلك (نفخة القيام لرب العالمين) وهو النشور من القبور لجميع الخلائق، ولهذا قال تعالى: ﴿وكل أتوه داخرين﴾ أي صاغرين مطيعين لا يتخلف أحد عن أمره كما قال تعالى: ﴿يوم يدعوكم فتستجيبيون بحمده﴾.

(١) أخرجه مسلم عن عبد الله بن عمرو بطوله، وهذا جزء من الحديث الصحيح.

وقال تعالى: ﴿ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أتمم تخرجون﴾ وفي حديث الصور: أنه في النفخة الثالثة يأمر الله الأرواح فتوضع في ثقب في الصور، ثم ينفخ إسرافيل فيه بعدما تنبت الأجساد في قبورها وأماكنها، فإذا نفخ في الصور طارت الأرواح تتوهج، أرواح المؤمنين نوراً، وأرواح الكافرين ظلمة، فيقول الله عز وجل: وعزتي وجلالي لترجعن كل روح إلى جسدها، فتجيء الأرواح إلى أجسادها فتدب فيها كما يدب السم في اللدبغ، ثم يقومون ينفضون التراب من قبورهم، قال الله تعالى: ﴿يوم يخرجون من الأجداث سراغاً كأنهم إلى نصب يوفضون﴾، وقوله تعالى: ﴿وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب﴾ أي تراها كأنها ثابتة باقية على ما كانت عليه، وهي تمر مر السحاب أي تزول عن أماكنها، كما قال تعالى: ﴿يوم تمر السماء موراً * وتسير الجبال سيراً﴾، وقال تعالى: ﴿ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفاً * فيذرها قاعاً صفصفاً لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً﴾، وقال تعالى: ﴿ويوم نسير الجبال وترى الأرض بارزة﴾، وقوله تعالى: ﴿صنع الله الذي أتقن كل شيء﴾ أي يفعل ذلك بقدرته العظيمة ﴿الذي أتقن كل شيء﴾ أي أتقن كل ما خلق وأودع فيه من الحكمة ما أودع، ﴿إنه خير بما يفعلون﴾ أي هو عليم بما يفعل عباده من خير وشر وسيجازيهم عليه أتم الجزاء. ثم بين تعالى حال السعداء والأشقياء يومئذ فقال: ﴿من جاء بالحسنة فله خير منها﴾، قال قتادة: بالإخلاص، وقال زين العابدين: هي لا إله إلا الله. وقد بين تعالى في الموضع الآخر أن له عشر أمثاله ﴿وهم من فرع يومئذ آمنون﴾، كما قال في الآية الأخرى: ﴿لا يحزنهم الفرع الأكبر﴾، وقال تعالى: ﴿أفمن يلقي في النار خير أم من يأتي آمناً يوم القيامة﴾، وقال تعالى: ﴿وهم في الغرفات آمنون﴾، وقوله تعالى: ﴿ومن جاء بالسيئة فكبت وجوههم في النار﴾ أي من لقي الله مسيئاً لا حسنة له أو قد رجحت سيئاته على حسناته كل بحسبه، ولهذا قال تعالى: ﴿هل تجزون إلا ما كنتم تعملون﴾. وقال ابن مسعود وابن عباس والضحاك والحسن وقاتدة في قوله ﴿ومن جاء بالسيئة﴾: يعني بالشرك.

إِنَّمَا أَمْرُهُ أَنْ أُعْبَدَ رَبُّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾
وَأَنْ أَتْلُوا الْقُرْآنَ أَنْ قَدْ أَهْتَدَىٰ فَأِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلِ
الْحَمْدُ لِلَّهِ سِيرُ بَيْتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾

يقول تعالى مخبراً رسوله وأمرأه أن يقول: ﴿إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذي حرّمها وله كل شيء﴾ وإضافة الربوبية إلى البلدة على سبيل التشريف لها والاعتناء بها، كما قال تعالى: ﴿فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف﴾، وقوله تعالى: ﴿الذي حرّمها﴾ أي الذي إنما صارت حراماً شرعاً وقدرأً بتحريمه لها كما ثبت في الصحيحين عن ابن عباس، قال، قال رسول الله ﷺ يوم فتح مكة: «إن هذا البلد حرّمه الله يوم خلق السماوات والأرض، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، لا يعضد شوكة ولا ينفر صيده، ولا يلتقط لقطته إلا من عرفها، ولا يختلى خلاه» الحديث بتامه. وقوله تعالى: ﴿وله كل شيء﴾ من باب عطف العام على الخاص أي هو رب هذه البلدة ورب كل شيء ومليكه لا إله إلا هو، ﴿وأمرت أن أكون من المسلمين﴾

أي الموحدين المخلصين المنقادين لأمره المطيعين له، وقوله: ﴿وَأَنْ تُلُوْا الْقُرْآنَ﴾ أي على الناس أبلغهم إياه، كقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ﴾، وكقوله تعالى: ﴿نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ﴾ الآية، أي أنا مبلغ ومنذر، ﴿فَمَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ أي لي أسوة بالرسل الذين أنذروا قومهم وقاموا بما عليهم من أداء الرسالة، كقوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾، وقال: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾، ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سِيرِكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا﴾ أي لله الحمد الذي لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه، والإنذار إليه، ولهذا قال تعالى: ﴿سِيرِكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا﴾، كما قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ أي بل هو شهيد على كل شيء .

عن عمر بن عبد العزيز قال: لو كان الله مُغْفِلاً شيئاً لأغفل ما تعني الرياح من أثر قدمي ابن آدم، وقد ذكر عن الإمام أحمد رحمه الله تعالى أنه كان ينشد هذين البيتين:

إذا ما خلوت الدهر يوماً فلا تقل خلوت ولكن قل عليّ رقيب
ولا تحسبن الله يغفل ساعة ولا أن ما يخفى عليه يغيب

[آخر تفسير سورة النمل ، والله الحمد والمنة]

[تم بعون الله وفضله المجلد الثاني ويليهِ المجلد الثالث مبدؤاً بسورة القصص]

محتويات المجلد الثاني

الصفحة

٥

٨٢

١٢٣

١٨٢

٢١٠

٢٣٩

٢٦٨

٢٨٩

٣٠٧

٣٢٢

٣٥٤

٤٠٧

٤٤٢

٤٦٩

٥٠١

٥٢٧

٥٥٨

٥٨٠

٦٢٣

٦٤٣

٦٦٥

٦٨٧

الموضوع

تفسير سورة الأعراف

تفسير سورة الأنفال

تفسير سورة التوبة

تفسير سورة يونس

تفسير سورة هود

تفسير سورة يوسف

تفسير سورة الرعد

تفسير سورة إبراهيم

تفسير سورة الحجر

تفسير سورة النحل

تفسير سورة الإسراء

تفسير سورة الكهف

تفسير سورة مريم

تفسير سورة طه

تفسير سورة الأنبياء

تفسير سورة الحج

تفسير سورة المؤمنون

تفسير سورة النور

تفسير سورة الفرقان

تفسير سورة الشعراء

تفسير سورة النمل

محتويات المجلد الثاني

وَقَفُّهُ لِلَّهِ تَعَالَى

طَبَّعَ عَلَى نَفَقَتِهِ

الْمُحْسِنِ الْكَبِيرِ

مَعَالِي السَّيِّدِ حَسَنِ عِبَّاسٍ الشَّرِيفِيِّ

فَجَزَاهُ اللَّهُ كُلَّ خَيْرٍ

يُوزَعُ مَجَانًّا وَلَا يُبَاعُ